اختيارات من كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

العصر الجاهلي

مؤسسة الرسالة

اختيارات

من

كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

القسم الأول

العصر الجاهلي

صنعة

الدكتور إحسان النص

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

اختيارات

من

كتاب الأغاني

الطبعة الثالثة

ومضاف إليها إستدراكات مناسبة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

أبو الفرج الأصفهاني

٢٨٤ – ٣٥٦ هـ

لئن كان من دواعي اعتزاز البيت الأموي أنه أنجب نخبة من رجال السياسة قلّ نديدهم في قبائل العرب ، إنّ من دواعي اعتزازه كذلك أنه أنجب أعظم مؤلفي كتب التراجم الأدبية في تاريخ أمتنا العربية وهو أبو الفرج الأصفهاني .

ولقبه « الأصفهاني [1] » لا يشير إلى أصل فارسي – كما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى – وإنما يشير إلى مكان ولادته . أما أصله فهو عربي معرق في عروبته ، تتصل أسبابه بأسباب الأسرة الأموية الحاكمة ، فهو من سلالة مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية وسليل رأس البيت المرواني الحاكم مروان بن الحكم .

وولد علي بن الحسين ، المكنى بأبي الفرج ، سنة أربع وثمانين ومائتين بمدينة أصبهان ، سرّة بلاد فارس ، وليس لدينا من أخبار أسرته ما يتيح انا التعرّف إلى سبب استقرارها بأصبهان ، وهي العربية النجار ، الأموية الأصل . ولعلّ ما نزل بالأسرة الأموية من ألوان التنكيل والاضطهاد لدى

---

(١) في النطق الفارسي الأصلي « أصبهان » وقد جرى العرب على نطق الباء الفارسية المفخمة « فاء » .

تسنّم الأسرة العباسية الحكم كان من دواعي تشتت أبنائها وتفرّقهم في شتّى أرجاء الدولة ، ولا سيما أن أبا الفرج ينحدر من أرومة مروان بن محمد ، وكان العباسيون بعد قتله حراصاً على استئصال كل من يمتّ إليه بسبب خوفاً من عودة الأمر إلى بني أمية .

والتاريخ يضنّ علينا بأخبار نشأة أبي الفرج الأولى . وغاية ما يستخلص منها أنه غادر مسقط رأسه أصبهان إلى بغداد ، حاضرة الدولة العباسية ، وهي يومئذ موئل العلماء والأدباء ، إليها تزجى المطيّ طلباً للمعرفة وسعياً وراء الشهرة .

وفي مدينة السلام اتصل أبو الفرج بطائفة كبيرة من العلماء كان لهم الفضل في تزويده بشتّى ألوان المعرفة والثقافة . ومن يرجع إلى أسانيده في الأغاني يجده قد روى عن خلق كثير من أئمة الأدباء واللغويين والإخباريين منهم أبو بكر بن دريد ، وأبو بكر بن الأنباري ، وعلي بن سليمان الأخفش ، ومحمد بن خلف بن المرزبان ، وأبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي ، وابراهيم بن محمد المهلبي الملقب بنفطويه .

وكانت لأبي الفرج جولات في شتّى جوانب المعرفة وتعددت مناحي ثقافته . ويشهد له التنوخي في نشوار المحاضرة باتساع آفاقه الثقافية فيقول : « ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهاني ، كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر ، منها اللغة والنحو والخرافات والمغازي والسير ، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك . وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الشعراء » (١)

وقد أعانته ثقافته الواسعة المتنوعة هذه على التأليف في شتّى الموضوعات .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٣٤/١ .

ومن المحقق أن كتاب الأغاني هو أجلّ مؤلفاته شأناً . ومن مؤلفاته المطبوعة كذلك كتاب « مقاتل الطالبيين » [1] الذي ألفه بوحي من عقيدته الشيعية . وما نسب اليه من المصنفات يجاوز الثلاثين جلّها في الأنساب وأيام العرب وأخبارها ، ومنها كتاب « جمهرة أنساب العرب » وكتاب « أيام العرب » ، وقد ذكروا أنه جمع فيه أخبار ألف وسبعمائة يوم من أيام العرب ، ومن المؤسف أن هذين الكتابين لم يصلا الينا .

ويتصل جانب آخر من مؤلفاته بفن الغناء وما يلحق به ، مما يدلّ على تمرّسه بهذا الفن ، ومنها : كتاب القيان ، الإماء الشواعر ، أدب السماع ، الحانات ، كتاب الخمّارين والخمّارات ، كتاب النغم .

ومن المؤشرات البارزة في حياة أبي الفرج ما عرف به من تشيع لآل البيت ، وهو أمر أثار عجب المؤرخين لأنه لا يتفق مع أمويته . ونحن لا نرى في تشيعه ما يدعو إلى العجب ، فقد كان من بني أمية من مال إلى آل البيت حتى في ظل الحكم الأموي ، ومن هؤلاء على سبيل المثال العبلي الشاعر الذي كان يتشيع لآل البيت ويذمّ قومه بني أمية . وإلى ذلك ، لا يدهشنا تشيع أبي الفرج وقد عاش في القرن الرابع وفي ظل سلطان بني بويه ووزرائهم ، وكلهم من المتشيعين لآل البيت ، فضلاً عن ان نشأته الأولى بإصبهان ، وهي من مواطن الشيعة ، كان تهيئه لاعتناق هذا المذهب .

ونستخلص ، في ضوء ما وصلنا من أخباره ، أنه أنفق جل سني حياته ببغداد ، يختلف إلى دكاكين الوراقين طلباً للمعرفة ، ويجالس الأدباء والعلماء ، ويصنف الكتب ، ويمارس هواياته في البيطرة ومعالجة أمور الحيوان ، ويغشى مجالس الغناء والشراب ، وكان تلاميذه يفدون عليه يأخذون عنه العلم ويقرأون عليه كتبه .

---

(١) نشره البابي في القاهرة عام ١٩٤٩ بتحقيق السيد أحمد صقر .

وبسبب من تشيعه واختلافه إلى مجالس الغناء والشراب نفر منه طائفة من العلماء ومؤرخي أهل السنة ، كابن الجوزي ، وقد طعن في صحة روايته في كتابه « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » [1] ، ونسب ابن شاكر في كتابه « عيون التواريخ » كلاماً إلى شمس الدين الذهبي منقول عن شيخه ابن تيمية ينال فيه من أبي الفرج ويتهمه في نقله [2] .

والحدث البارز في حياة أبي الفرج ببغداد هو اتصاله بالحسن بن محمد المهلبي وزير معز الدولة البويهي . وقد اتصل به أبو الفرج قبل أن يستوزره المعز ، وكان المهلبي يومئذ يعاني من ضنك العيش ما حبب اليه الموت ، ثم اتصل به بعد تبوئه سدة الوزارة وإقبال الدنيا عليه ، وظل يلازمه زهاء ثلاث عشرة سنة حتى فرّق الموت بينهما (توفي المهلبي سنة ٣٥٢ هـ) ، وكان الوزير يوالي أبا الفرج بصلاته ، وجعله من ندمائه المقربين ، يلازمه في مجالس شرابه ويؤاكله على موائده ، على رغم ما عرف به أبو الفرج من قذارة في الملبس والمأكل — وقد ذكروا أنه ما كان يغسل الثوب إذا لبسه ولا ينضوه عنه حتى يبلى — وعلى رغم ما عرف به المهلبي من تأنق مسرف في مأكله ، وقد بلغ من تأنقه أنه كان اذا قدمت اليه ألوان الطعام يأكل كل لون منها بملعقة ثم يؤتى بغيرها ، على رغم هذا التناقض في طبيعة الرجلين ، وعلى رغم ما عرف به أبو الفرج من سلاطة لسان لم يسلم من أذاتها المهلبي نفسه ، ظلت أسباب المودة بينهما متينة العرى حتى فرق بينهما الموت .

ولم يكن المهلبي ليحتمل من أبي الفرج ما احتمله لولا تقديره لأدبه وظرفه وسعة محفوظه ، ولم يكن أبو الفرج ينكر فضل المهلبي عليه ، وقد وقف على مديحه جلّ شعره .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٧/٤٠ .
(٢) مقدمة الجزء الأول من الأغاني ص ١٩ .

وعلى رغم صلة أبي الفرج القوية بوزراء الدولة البويهية والعباسية ، كان – فيما تذكر بعض الأخبار – متصلاً بملوك بني أمية بالأندلس ، يؤلف لهم الكتب ويرسلها إليهم فيصلونه ويحسنون جائزته .

والمصادر التي أوردت ترجمة أبي الفرج تتحدث عن صلته برجل آخر هو ركن الدولة البويهي ، وتذكر أنه كان كاتباً له ، حظيّاً عنده ، وأن منزلته الرفيعة لديه جعلته يتوقع من الرئيس أبي الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة ، أن يكرمه ويجله ، فلمّا لم يلق منه ما كان يؤمّل وجّه اليه أبياتاً يعاتبه فيها (١) .

وفي سياق الخبر ما يدعو إلى الشك في صحته ، فمتى كان اتصال أبي الفرج بركن الدولة ووزيره ابن العميد ؟ ونحن نعلم أنه منذ فارق أصبهان ألقى عصا الترحال في بغداد ، وربما كانت له رحلات إلى طائفة من البلدان ولكن لم تذكر الأخبار أنه أقام بالري ، حاضرة ركن الدولة . وفي الأبيات التي يقال ان أبا الفرج وجهها إلى ابن العميد ما يقطع بأن قائلها رجل آخر غير الأصفهاني ، وهو قوله :

وقــد وَلِينــا وعُزِلنــا كما أنت فلم نَصغُر ولم تَعظُم

وأبو الفرج لم يعرف لا الولاية ولا العزل . ولهذا الخبر رواية أدنى إلى الصحة نجدها في كتاب أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي (٢) ، فقد كان لركن الدولة كاتب يعرف بأبي الفرج ، ولكنه غير أبي الفرج الأصفهاني ، واسمه حَمْد بن محمد ، وقد وقع بينه وبين ابن العميد ما حمله على أن يوجّه إليه هذه الأبيات ، ومردّ الخطأ فيما يبدو – إلى تشابه الرجلين في الكنية .

---

(١) انظر الخبر والأبيات في معجم ياقوت ١٣/١١١ .
(٢) انظر الكتاب ص ٤٢١ (تحقيق الطنجي) وانظر أيضاً الصداقة والصديق للتوحيدي ص ٣٤ .

أما صلته بسيف الدولة فليس في أخباره ما يلقي الضوء عليها أو يعيّن زمنها غير ما ذكروا من أنه أهداه كتاب الأغاني فأعطاه ألف دينار. وأغلب الظن أنه كان يختلف إليه من حين إلى آخر ولكنه لم يستقر في بلاطه. وكانت تجمع بينهما رابطة التشيع لآل البيت فضلاً عما عرف به سيف الدولة من الحرص على تقريب الشعراء والأدباء، ولأبي الفرج كتاب في نسب بني تغلب لعله ألّفه تلبية لطلب سيف الدولة.

وقد اجتمعت في شخصية أبي الفرج – كما صورتها أخباره – خلال لا تخلو من تناقض. كان على غاية من القذارة في المأكل والملبس، أكولاً نهماً، وهو مع ذلك يحسن المنادمة، ظريف المجلس، حلو الحديث. وكان سليط اللسان، لاذع السخرية، هجّاءً لمن يضنّون عليه بصلاتهم أو يسيئون إليه، وكان إلى ذلك رفيقاً بما كان يألف من صنوف الحيوان، يأنس بصحبتها، ويعالجها إذا أصابتها العلة، ويأسى لها اذا ماتت. وقد أثرت عنه أبيات رقيقة ناضحة بالأسى قالها في رثاء ديك له مات لعلها من أجود ما قيل في رثاء الحيوان، يقول منها:

أبكي اذا أبصرتُ ربعكَ مُوحشاً بتحنّنٍ وتأسُّفٍ وشهيقِ
ويَزيدني جزعاً لفقدك صادحٌ في منزلٍ دانٍ إليّ لصيق
فتأسّفي أبداً عليك مُواصَلٌ بسواد ليلٍ أو بياض شُروق

أما موهبته الأدبية الفذّة فقد شهد له بها جلّ من ترجموا له، كما يشهد له بها مصنفاته الجمّة، وعبارته الأنيقة وأسلوبه الرشيق في كتاب الأغاني، وكذلك ما أثر عنه من شعر – على قلته –. وكان بصيراً بنقد الشعر ومواضع الصنعة والإجادة فيه، وكتابه الأغاني خير شاهد ناطق بموهبته الأدبية والنقدية.

وقد عرف أبو الفرج بقوة الحافظة، وحضور البديهة، وتوقّد الذهن،

ثم أصيب بالفالج في أواخر أيامه فوهنت قدرته على الحفظ ، وكان ربّما خلّط في حديثه .

وفي عام ست وخمسين وثلاثمائة انطفأت شعلة حياته ، مخلّفاً وراءه ما يربى على الثلاثين مؤلفاً أتت يد الدهر على أكثرها ولم يسلم منها الا كتاب « الأغاني » وكتاب « مقاتل الطالبيين » . وثمة رسالة مخطوطة منسوبة إليه عنوانها : كشف الكربة في وصف الغربة .

على أن في الأخبار التي ساقها ياقوت في ترجمته ما يثير الشك في صحة تاريخ وفاته الذي ذكرناه ، فهو يذكر من مصنفاته كتاب « أدباء الغرباء » ، ويورد نتفاً منه ، وفي بعض ما أورده اشارة إلى وفاة معز الدولة البويهي ، وكانت وفاته في السنة التي مات فيها أبو الفرج أي ٣٥٦ هـ ، ونص الخبر هو : « وكنت أيام الشبيبة والصبا آلف فتى من أولاد الجند في السنة التي توفي فيها معز الدولة وولي بختيار » . وهذا الخبر لا يصح لأنه يجعل وفاة معز الدولة في أيام شباب أبي الفرج ، في حين أن سنه يومئذ كانت تجاوز السبعين . ولهذا نرجح أن كتاب « أدباء الغرباء » انما نسب خطأ إلى أبي الفرج وليس هو من مصنفاته ، وما عليه جمهرة من ترجموا له أنه توفي سنة ٣٥٦ هـ ، الا صاحب الفهرست فهو يذكر أن وفاته كانت سنة نيف وستين وثلاثمائة .

* * *

كتاب الأغاني

ليس بوسعنا تعيين السنة التي ألّف فيها كتاب الأغاني ، وغاية ما نعرفه أنه أنفق في تأليفه خمسين سنة ، وأنه كتبه مرة واحدة في حياته ، وهذه النسخة الوحيدة قدّمها إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار .

ويوضح لنا أبو الفرج الباعث على تأليفه كتابه في مقدمته فيقول : « والذي بعثني على تأليفه أن رئيساً من رؤسائنا كلفني جمعه له وعرّفني أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى إسحاق — يريد إسحاق بن إبراهيم الموصلي — مدفوع أن يكون من تأليفه ، وهو مع ذلك قليل الفائدة ، وأنه شاكّ في نسبته ، لأن أكثر أصحاب إسحاق ينكرونه ، ولأن ابنه حمّاداً أعظم النّاس إنكاراً لذلك . وقد لعمري صدق فيما ذكره وأصاب فيما أنكره » .

وعبارة « جمعه له » في الخبر السابق توحي بأن سيف الدولة هو الرئيس الذي كلف أبا الفرج جمع هذا الكتاب ، لأنه قدم الكتاب اليه بعد فراغه منه . ولكن هذا يتعارض مع الخبر المرويّ عن الوزير المهلبي ، في معجم ياقوت ، فهو يذكر أنه سأل أبا الفرج : في كم جمعت هذا الكتاب ؟ فقال : في خمسين سنة . وسيف الدولة ولد عام واحد وثلاثمائة أو بُعيد ذلك ، وتوفي في السنة التي توفي فيها أبو الفرج أي سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، فمدة حياته كلها لا تزيد الا سنوات قلائل على خمسين سنة ، ولا يعقل

أن يكون هو الذي كلف أبا الفرج جمع هذا الكتاب . والمرجح ، على هذا ، أن يكون من كلفه جمعه رجلاً غير سيف الدولة لم يشأ ذكر اسمه . الا أن يكون أبو الفرج قد جنح إلى المبالغة – وما نراه – حين ذكر أنه أنفق في تأليف الكتاب خمسين سنة .

وبعدُ ، ما الذي حمل أبا الفرج على تقديم الكتاب إلى سيف الدولة ، في حين أنه كان يعيش في كنف الوزير المهلبي ، وولي نعمته الذي اتخذه نديماً له طوال ثلاث عشرة سنة ، وكان خليقاً به أن يقدمه إليه ، أو يقدمه – إن شاء – إلى من له السلطان ببغداد ، معز الدولة البويهي ؟ هذا الجانب لا سبيل إلى جلائه ولا نملك أن نقطع بسبب تقديم الكتاب إلى سيف الدولة دون سواه . ومن المحقق أن أبا الفرج لو قدّم كتابه الضخم هذا إلى أي من الأمراء أو الوزراء الذين كان لهم الأمر يومئذ لعاد عليه بأكثر مما ناله من سيف الدولة . وقد ذكروا أن الصاحب بن عبّاد لما بلغه الخبر علّق عليه بقوله : « لقد قصّر سيف الدولة ، وإنه يستأهل أضعافها [1] » .

وعنوان الكتاب ينبيء بأن أبا الفرج انما ألفه ليتحدث عن الغناء والأغاني ، وهو ينص على غرضه هذا في مقدمته حين يذكر أنه ألّفه ليكون بديلاً من الكتاب المنسوب إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي في الأغاني .

ومع ذلك نرى أن الأغاني ليست إلا إطاراً خارجياً للكتاب ، وأن المؤلف كان يتوخى من تأليفه تحقيق غرضين : أولهما جمع أخبار الشعراء المشهورين والمغنّين المعروفين ، والثاني : إحصاء الأصوات المشهورة وبيان لحنها وطريقتها الغنائية . ولكي يحقق التوافق بين الأمرين جعل الصوت مدخلاً للحديث عن الشاعر ، فهو يتحدث أولاً عن الصوت ثم عن قائل الشعر المغنّى به . وجانب الترجمة الأدبية هو الغالب على الكتاب ، أما الأغاني فقد أفرد لها كتاباً مستقلاً فرغ منه قبل كتاب الأغاني وسمّاه : مجرّد الأغاني .

---

(١) معجم ياقوت ١٣/٩٧ .

وقد بين أبو الفرج في المقدمة ما اشتمل عليه كتابه وطريقته في تأليفه فقال :

« هذا الكتاب ألّفه عليّ بن الحسين بن محمد القرشي ، الكاتب المعروف بالأصبهاني ، وجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية ، قديمها وحديثها ، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره ، وصانع لحنه ، وطريقته من إيقاعه ، وإصبعه التي ينسب اليها من طريقته ، واشتراكٍ إن كان بين المغنّين فيه ، على شرح لذلك ، وتلخيص وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى عن علمه من علل إعرابه وأعاريض شعره التي تُوصل إلى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه .

ولم يستوعب كلّ ما غُنّي به في هذا الكتاب ، ولا أتى بجميعه ، اذ كان قد أفرد لذلك كتاباً مجرّداً من الأخبار ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر ، واعتمد في هذا الباب على ما وجد لشاعره أو مغنّيه أو السبب الذي من أجله قيل الشعر أو صُنع اللحن خبراً يُستفاد ويحسن بذلك ذكر الصوت معه ، على أقصر ما أمكنه ، وأبعده من الحشو والتكثير بما تقُلُّ الفائدة فيه ، وأتى في كل فصل من ذلك بنُتف تشاكله ، ولُمَع تليق به ، وفقر اذا تأمّلها قارئها لم يزل متنقّلاً بها من فائدة إلى مثلها ، ومتصرّفاً فيها بين جِدٍّ وهزل ، وآثارٍ وأخبار ، وسيرٍ وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية ، والخلفاء في الإسلام تجملُ بالمتأدبين معرفتها ، وتحتاج الأحداث إلى دراستها ، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها . اذ كانت منتخلة من غُرر الأخبار ، ومنتقاة من عيونها ، ومأخوذة من مظانّها ، ومنقولة عن أهل الخبرة بها .

فصدّر كتابه هذا وبدأ فيه بذكر المائة الصوت المختارة لأمير المؤمنين الرشيد – رحمه الله تعالى – وهي التي كان أمر إبراهيم الموصلي وإسماعيل ابن جامع وفُليح بن العوراء باختيارها له من الغناء كله . ثم رفعت إلى الواثق بالله – رحمة الله عليه – فأمر إسحاق بن إبراهيم بأن يختار له منها ما رأى

أنه أفضل ممّا كان اختير متقدّماً ، ويُبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أعلى منه وأولى بالاختيار . ففعل ذلك ، وأتبع هذه القطعة بما اختاره غيرُ هؤلاء من متقدّمي المغنّين وأهل العلم بهذه الصناعة من الأغاني ، وبالأصوات التي تجمع النَغَم العشر المشتملة على سائر نغم الأغاني والملاهي ، وبالأرمال الثلاثة المختارة ، وما أشبه ذلك من الأصوات التي تتقدم غيرها في الشهرة ، كمدن معبد — وهي سبعة أصوات — والسبعة التي جعلت بإزائها من صنعة ابن سُريج ، وخيّر بينهما فيها . وكأصوات معبد المعروفة بألقابها ، وزيانب يونس الكاتب ، فان هذه الأصوات من صدور الغناء وأوائله وما لا يحسن تقديم غيره أمامه ، واتبع ذلك بأغاني الخلفاء وأولادهم ، ثم بسائر الغناء الذي عرف له قصة تستفاد ، وحديثاً يُستحسن ؛ إذ ليس لكل الأغاني خبر نعرفه ، ولا في كل ما له خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهي السامع .

ووقّع على أول كل شعر فيه غناء صوتاً ليكون علامة ودلالة عليه يتبيّن بها ما فيه صنعة من غيره . وربما أتى في خلال هذه الأصوات وأخبارها أشعار قيلت في تلك المعاني وغُنّي بها وليست من الأغاني المختارة ، ولا من هذه الأجناس المرتبة ، فلا يوجد من ذكرها معها بُدٌّ ، لأنها اذا أفردت عنها كانت امّا منقطعة الأخبار غيرَ مشاكلة لنظائرها أو معادةً أخبارها ، وفي كلتا الحالتين خلافٌ لما يجيء به هذا الكتاب . وقد يأتي أيضاً منها الشيء الذي تطول أخباره ، وتكثر قصص شاعره مع غيره من الأصوات والأخبار ، فلا يمكن شرحها جمعاء في ذلك الموضع ، لئلاّ تنقطع الأخبار المذكورة بدخوله بينها ، فيؤخر ذكره إلى مواضع يحسن فيها ، ونظائر له يُضاف اليها ، غير قاطع اتّساق غيره منها ولا مُفردٍ للقرائن بتوسطه لها ، ويكون ذكره على هذه الحال أشكل وأليق » .

والنهج الذي اتبعه في ترتيب الكتاب مستوحى من المبدأ الذي بنى عليه كتابه . وهو الأصوات المختارة . فهو لم يرتب الشعراء ترتيباً زمنياً وانما

رتبهم أولاً بحسب الأصوات المائة التي اختارها المغنون الثلاثة للرشيد ثم بحسب الأصوات الأخرى التي اختارها آخرون . ومن الأصوات المائة اختاروا عشرة أصوات ، ثم اختاروا من العشرة ثلاثة وهي : لحن معبد في شعر أبي قطيفة، ولحن ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة. ولحن ابن محرز في شعر نصيب . وعلى هذا النحو جرى أبو الفرج في ترتيب كتابه . فقد بدأ بالصوت الأول وهذا جرّه إلى أن يتحدث أولاً عن أبي قطيفة ويستوفي أخباره . ثم انتقل إلى المغني معبد فأورد ترجمته وأخباره . والصوت الثاني هو من شعر عمر بن أبي ربيعة وغناء ابن سريج ، ومن هنا نراه يترجم لعمر ثم لابن سريج . وتلك هي الطريقة التي سار عليها في سائر كتابه .

وقف الباحثون والعارفون بأصول الغناء العربي طويلاً عند هذه المصطلحات التي استخدمها أبو الفرج في بيان ألحان الأصوات المذكورة في كتابه يحاولون حلّ ألغازها ، ولكنهم لم يهتدوا إلى تبين أصول التلحين والغناء التي ذكرها أبو الفرج على نحو دقيق واضح يأذن بمحاكاة المغنّين القدامى في طرائقهم واستعادة ألحانهم . وغاية ما انتهوا إليه أن المصطلحات التي أوردها أبو الفرج تتصل كلها بآلة موسيقية واحدة هي العود الذي كان عصرئذ عماد التلحين وآلة الطرب الأولى . وللعود العربي أربعة أوتار أغلظها البمّ ويليه المثلّث فالمثنّى فالزير . وللغناء طرائق وقواعد يرجع الفضل في تمييزها وتأصيلها إلى اسحاق بن إبراهيم الموصلي ، حسبما يستخلص من كلام أبي الفرج في ترجمته ، فهو يقول فيه : « وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه وميّزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلّق به أحد بعده ، ولم يكن قديماً مميّزاً على هذا الجنس [1] » .

وينسب أبو الفرج إلى إسحاق فضل الإبداع في هذا المضمار ويجعله عبقرياً فذّاً استطاع أن يهتدي بتمييزه وفطرته إلى ما وضعه الأوائل من

(١) الأغاني ٥/٢٦٩ .

أصول الغناء دون أن يقرأ لهم كتاباً . فيقول : « وهذا كله فعله اسحاق واستخرجه بتمييزه حتى أتى على كل ما رسمته الأوائل . مثل اقليدس ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى . ووافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور . من غير أن يقرأ لهم كتاباً أو يعرفه [1] » .

ويذكر أبو الفرج أن الأصول التي وضعها اسحاق لم يفلح في فهمها جلّ من جاء بعده من أهل الغناء . ومنهم يحيى المكي . وكان حجّة في غناء أهل الحجاز . ومع ذلك خلّط تخليطاً شديداً في كتابه الذي ألفه في الغناء القديم . ويبدو أن أبا الفرج كان من القلائل الذين استطاعوا معرفة أصول الغناء التي وضعها اسحاق ؛ وهو يذكر أنه ألّف في ذلك رسالة مفصّلة استقصى فيها هذه الأصول ، ولو أن هذه الرسالة انتهت الينا لألقت الضوء على قواعد الغناء التي وضعها اسحاق ولأعانتنا في التعرف الى أصول الغناء القديم .

ومن هنا فإن المصطلحات التي استخدمها أبو الفرج في كتابه مأخوذة كلها عن إسحاق بن إبراهيم . وقد جعل طرائق الغناء ثمانياً تستوعب كل ألوان الغناء المعروفة لعصره . وهي تتمايز في إيقاعاتها وطريقة الضرب على العود . وفي موضع الاصبع من الوتر وهي عنده : الثقيل الأول ، وخفيف الثقيل الأول . والثقيل الثاني . وخفيف الثقيل الثاني . والرمل ، وخفيف الرمل ، وخفيف الخفيف ، والهزج . وحين نعود إلى كتاب الأغاني نجده يذكر في كل صوت لحنه . كما يذكر الإصبع التي تستخدم في الضرب ومجراها ، أي مواقع الأصابع من الدساتين .

وكتاب الأغاني يحوي تراجم لزهاء ثلاثمائة شاعر وقرابة ستين من المغنّين والمغنّيات . وجلّ من ترجم لهم من الشعراء هم من الجاهليين والاسلاميين . والنهج الذي التزمه جعله يغفل ترجمة طائفة من الشعراء كابن الرومي مثلاً .

---

(١) الأغاني ٢٧٠/٥ .

وفي ترجمته للشعراء لا نراه يرتب أخبارهم ترتيباً تاريخياً وانما ينثر ما انتهى إليه من أخبار الشاعر كيفما اتفق . ملتزماً طريقة المحدّثين في إسناد كل خبر إلى رواته ، ولهذا ربما نجد للخبر الواحد عنده روايات متعددة تتباين في رواتها وسياقها . على أنه يبدأ دائماً بسياقة نسب الشاعر — ولأبي الفرج عناية خاصة بالأنساب وقد ألّف فيها طائفة من الكتب — ثم يتحدث عن أسرته وزمان ولادته — إذا كان معروفاً — ويسوق بعد ذلك أقوال النقاد في شعره ومنزلته . أما أخباره فهو لا يراعي في روايتها ترتيباً معيناً ، وربما تكرر الخبر الواحد في أكثر من موضع بروايات مختلفة . وفي الغالب يختم الحديث عن الشاعر بذكر وفاته وزمانها .

* * *

حظي كتاب الأغاني في عصره وفي العصور التالية بمنزلة بارزة لم يتأتّ نظيرها لأي من كتب التراجم الأدبية الأخرى ، وتنافس القوم في استنساخه — اذا قدروا على ذلك — او في قراءته إن لم يجدوا إلى اقتنائه سبيلاً . وممن أعلنوا إعجابهم المسرف به الصاحب بن عباد ، وقد نقل عنه استقلاله لما أجاز به سيف الدولة مؤلفه وعقّب على ذلك بقوله : « لقد قصّر سيف الدولة ، وإنه يستأهل أضعافها ، ولقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلّد ما منها ما هو سميري غيره ، ولا راقني منها سواه »[1] . وذكر ابن خلّكان أن الصاحب كان يستصحب في أسفاره حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها ، فلمّا وصل إليه كتاب الأغاني لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناءً به عنها[2] .

وروى ياقوت عن أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف ، كاتب عضد الدولة ، قوله : « لم يكن كتاب الأغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا

---

(١) معجم ياقوت ١٣/٩٧ .

(٢) وفيات الأعيان ١/٣٢٤ .

حضره ، وانه كان جليسه الذي يأنس اليه ، وخدينه الذي يرتاح نحوه [1] » .

وقال فيه ياقوت : « لعمري إن هذا الكتاب جليل القدر ، شائع الذكر ، جم الفوائد ، عظيم العلم ، جامع بين الجد البحت ، والهزل النحت » . ويذكر ياقوت أنه طالعه مراراً وأنه كتب منه نسخة بخطه في عشر مجلدات ، وأنه نقل عنه كثيراً في كتابه الموسوم بأخبار الشعراء .

وفي الحق أن الكتاب أصبح منذ ذلك الحين المرجع الأول لجميع من ألفوا في تراجم الشعراء ، ومنه استقى ياقوت في معجمه ، وابن خلكان في وفياته ، والبغدادي في خزانته . وكثير غيرهم . ولا مشاحة في أنه أوفى مصدر انتهى الينا في تراجم الشعراء منذ الجاهلية حتّى أواخر القرن الثالث الهجري ، كما أنه خير مرجع بين أيدينا في تراجم المغنّين وإحصاء الأصوات المشهورة . ولو أن هذا الكتاب فقد ، فيما فقد من كنوز تراثنا الأدبي ، لكانت خسارتنا فيه لا تعوّض ولما استطعنا أن نجلو ملامح تاريخنا الأدبي القديم .

وطابع الكتاب الإخباري لم يحل دون بروز شخصية المؤلف فيه . فهو من ذوي الخبرة الواسعة بالفن الغنائي ، ذوّاقة للألحان الحسنة والمستجاد من الأصوات . وهو — إلى ذلك — شاعر مجيد يتذوق الشعر ويميّز غثّه من سمينه . وهو كذلك أخباري واعٍ يجيد نقد الأخبار ورواياتها . وكثيراً ما نجده يعلن شكه في صحة طائفة من المرويّات . كما كان كثير الاتّهام للكلبي وابنه في مروياتهما .

على أن هذا كله لم يحل دون تورط أبي الفرج أحياناً في رواية أخبار غير موثوق بصحتها أو في رواية أخبار متناقضة للشاعر الواحد ، وعذره في ذلك انه يأخذ عن رواة شتّى ، وربما تضاربت رواياتهم وتناقضت أخبارهم .

---

(١) معجم ياقوت ١٣/٩٧ .

ولما حظي به الكتاب من مكانة في تاريخنا الأدبي عني كثيرون باختصاره ، ومن هؤلاء الوزير ابن المغربي الحسين بن علي (توفي عام ٤١٨ هـ) ، وابن باقيا الحلبي (ت ٤٨٥ هـ) ، وابن منظور مؤلف لسان العرب (ت ٧١١ هـ) ، وقد سمّاه « مختار الأغاني في الأخبار والتهاني » . وهو مرتب على حروف الهجاء . ومن المحدثين الشيخ محمد الخضري الذي حذف منه الأسانيد وما فيه فحش من الأشعار والأخبار وجعله في قسمين : الأول للشعراء والثاني للمغنّين ، ثم رتب الشعراء بحسب العصور ، وسمّاه مهذّب الأغاني ، وهو مطبوع في ثمانية مجلّدات .

ومن المؤلفين من جرّد الكتاب من الأسانيد والأصوات وكل ما يتصل بفن الغناء واقتصر على الأخبار والتراجم الأدبية ، وقد جرى على هذه الخطة ابن واصل الحموي (ت ٦٩٧ هـ) وسمّى كتابه : تجريد الأغاني من المثالث والمثاني ، ومنه نسخ في المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية وأيا صوفيا .

وقد نشر الكتاب للمرة الأولى في القاهرة بمطبعة بولاق عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) في ٢٠ جزءاً ، ثم نشر مرة أخرى سنة ١٩٢٣ وأضيف إلى الأجزاء العشرين السابقة الجزء الذي نشره برونو Brünnow في ليدن عام ١٨٨٣ م والفهرس الذي صنعه غويدي Guidi عام ١٨٩٥ . ثم بدأت دار الكتب المصرية بنشره نشرة محققة وافية الفهارس منذ عام ١٩٢٧ ولم تفرغ من نشره إلاّ في عام ١٩٧٤ ، وجاء في أربعة وعشرين مجلداً ، وكذلك نشرته دار الثقافة في بيروت نشرة يعوزها التحقيق .

مختارات من الكتاب

- ١ -

اختيارات من العصر الجاهلي

نهجنا في هذه الاختيارات

جرينا في هذه الاختيارات من كتاب الأغاني على النهج التالي :

١ ـ صنّفنا المختارات وفاق العصور التي تناولها الكتاب وهي :

أ ـ العصر الجاهلي

ب ـ بين الجاهلية والإسلام (الشعراء المخضرمون) .

ج ـ العصر الإسلامي (صدر الإسلام والعصر الأموي)

د ـ العصر العباسي .

ثم أفردنا القيان والمغنين الذين تناولهم الكتاب بفصل مستقل .

وفي كل عصر صنفنا كذلك الشعراء ـ ما أمكن ذلك ـ وفق اتجاهاتهم ومنازعهم . ولم نقتصر في اختيارنا على الشعراء بل تناولنا كذلك الأحداث والأيام المشهورة والأخبار المتفرقة التي ذكرها أبو الفرج .

ولم نلتزم اثبات النص برواياته المختلفة التي أوردها الأصبهاني وانما اقتصرنا على الرواية التي بدا لنا أنها أدنى إلى الصحة ، وحذفنا أسانيد الكتاب المطوّلة ، وربما أشرنا أحياناً إلى راوية الخبر ، وقد نحذف من الخبر ما لا غناء فيه ، واذا طالت النصوص الشعرية المختارة حذفنا جانباً منها . إذ الغاية من

هذا الكتيّب تعريف جمهور القرّاء بكتاب الأغاني ، وأبرز موضوعاته ، وتشويقهم إلى مطالعته بإيراد طائفة من النصوص والأخبار والأشعار المختارة . أما القارىء المتخصص فلا غنى له عن الرجوع إلى أصل الكتاب .

وقد التزمنا إيراد النصوص المختارة بلفظها حرصاً على تعريف القرّاء بأساليب القدماء وطرائقهم في التعبير . وإتماماً للفائدة عنينا بشرح ما وجدناه في هذه النصوص من الألفاظ الغريبة .

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية من كتاب « اختيارات من كتاب الأغاني » . وقد أعدت النظر في الطبعة الأولى فأضفت طائفة من الأخبار والأشعار إلى تراجم الشعراء رأيت من المفيد إضافتها ، كما أضفت تراجم خمسة من الشعراء لتكون الفائدة من الكتاب أوفى ، وبذلك بلغ عدد الشعراء الجاهليين المترجم لهم ثمانية وثلاثين شاعراً ولم أغفل من الشعراء الذين ترجم لهم أبو الفرج إلا طائفة يسيرة ليس فيما رواه من أشعارهم وأخبارهم ما هو جدير بالذكر .

إحسان النص

الشعراء الفحول

- ١ -

امرُؤ القَيس

(الأغاني ج ٩ : ٧٧ وما بعدها)

الشّاعِر

قال الأصمعيّ : هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث بن عَمرو بن حُجْر آكل المُرار [١] بن معاوية بن ثور وهو كِندة ... وأمِ امرىء القيس فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، أخت كليب ومهلهِل ابنَي ربيعة التغلبيّين ...

وكان يقال له الملك الضِلّيل ، وقيل له أيضاً ذو القُروح .

خبر جدّه الحارث بن عمرو مع قباذ وابنه أنو شروان

قالوا : كان عمرو بن حُجر ، وهو المقصور ، ملكاً بعد أبيه ، وكان أخوه معاوية ، وهو الجَون ، على اليمامة . وأمّهما شُعبة بنت أبي مُعاهر بن

(١) المرار : شجر مر من أفضل العشب وأضخمه إذا أكلته الإبل تقلصت مشافرها وبدت أسنانها ، وقيل لجد امرىء القيس آكل المرار لكشر كان به .

حسّان بن عمرو بن تُبّع . ولما مات ملك بعده ابنه الحارث ، وكان شديد الملك ، بعيد الصيت .

ولمّا ملك قُباذ بن فيروز خرج في أيام ملكه رجل يقال له مَزدك ، فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحُرَم ، وألاّ يمنع أحدٌ منهم أخاه ما يريده من ذلك . وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملاً على الحِيرة ونواحيها . فدعاه قباذ إلى الدخول معه في ذلك فأبى ، فدعا الحارث بن عمرو فأجابه . فشدّد له ملكه وأطرد المنذر عن مملكته وغلب على ملكه .

وكانت أم أنو شِروان بين يدي قُباذ يوماً ، فدخل عليه مزدك ، فلما رأى أم أنو شروان قال لقباذ : ادفعها لي لأقضي حاجتي منها . فقال : دونكها . فوثب اليه أنو شِروان فلم يزل يسأله ويضرع اليه أن يهب له أمّه حتى قبّل رِجلَه ، فتركها له . فكانت تلك في نفسه .

فهلك قُباذ على تلك الحال ، وملك أنو شروان فجلس في مجلس المُلك . وبلغ المنذر هلاك قباذ فأقبل إلى أنو شروان — وقد علم خِلافه على أبيه فيما كانوا دخلوا فيه — فاذن أنو شروان للناس ، فدخل مزدك ثم دخل عليه المنذر . فقال أنو شروان : إني كنت تمنّيت أمنيتين أرجو أن يكون الله قد جمعهما لي . فقال مزدك : وما هما أيها الملك ؟ قال : تمنّيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف (يعني المنذر) وأن أقتل هؤلاء الزنادقة . فقال له مزدك : أوَ تستطيع أن تقتل الناس كلّهم ؟ قال : إنك لها هنا يا بن الزانية ؟ والله ما ذهب نتن ريح جَوربك من أنفي منذ قبّلتُ رجلك إلى يومي هذا . وأمر به فقُتل وصلب ، وأمر بقتل الزنادقة فقتل منهم ما بين جازر إلى النهروان إلى المدائن في ضحوة واحدة مائة ألف زنديق وصلبهم ، وسمّي يومئذ أنو شِروان .

وطلب أنو شروان الحارث بن عمرو ، فبلغه ذلك وهو بالأنبار ، وكان

بها منزله – وانما سُميت الأنبار لأنه كان يكون بها أهراء [1] الطعام ، وهي الأنابير – فخرج هارباً في هجائنه وماله وولده ، فمرّ بالثَّوِيّة [2] ، وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وبهراء وإياد ، فلحق بأرض كلب فنجا ، وانتهبوا ماله وهجائنه . وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار فقُدم بهم على المنذر فضرب رقابهم بجَفْر الأملاك [3] في ديار بني مرينا العباديين ، بين دير هِند والكوفة . فذلك قول عمرو بن كلثوم :

فآبــوا بالنِهــاب وبالسبايــا وأبْنا بالملــوك مُصفّدِينــا

وفيهم يقول امرؤ القيس :

ملوكٌ من بني حُجْر بن عَمــروٍ يُساقُون العشيّــةَ يُقتَلونــا
فلو في يــوم معركةٍ أُصيبــوا ولكن في ديار بني مرينــا
ولم تغسَل جماجِمهــم بغِسـلٍ ولكــن في الدمــاءِ مُرمَّلينا
تظلُّ الطــيرُ عاكفــةً عليهــم وتنتزع الحــواجبَ والعيُونا [4]

تمليك الحارث بن عمرو أولاده على قبائل العرب

عن شعبة بن عَرِيض ، من يهود تَيماء قال :

لمّا قتل الحارثُ بن أبي شمِر الغسّاني عمروَ بن حجر مَلّك بعده ابنَه الحارثَ بن عمرو ، وأمّه بنت عوف بن مُحلِّم بن ذُهل بن شيبان ، ونزل الحيرة . فلمّا تفاسدت القبائل من نزار أتاه أشرافهم فقالوا : إنّا في دِينك [5] ،

---

(١) الأهراء ج هري ، وهو بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان .
(٢) الثوية : موضع قريب من الكوفة .
(٣) في المطبوعة : حفر الأملاك ، وهو تحريف ، والجفر : البئر المطوية ، وجفر الأملاك : موضع قرب الحيرة .
(٤) مرملين : ملطخين .
(٥) في دينك : أي في طاعتك .

ونحن نخاف أن نتفانى فيما يحدث بيننا ، فوجِّه معنا بَنيك ينزلون فينا فيكفّون بعضَنا عن بعض . ففرّق ولده في قبائل العرب ، فملّك ابنه حُجراً على بني أسد وغطفان ، وملك ابنه شُرحبيل – قتيل يوم الكُلاب – على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم والرِّباب . وملّك ابنه معديكرب ، وهو غلفاء ... على بني تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بني دارم بن مالك بن حنظلة والصنائع ، وهم بنو رُقَيّة ، قوم كانوا يكونون مع الملوك ، من شُذّاذ العرب . وملّك ابنه عبد الله على عبد القيس ، وملك ابنه سَلمة على قيس .

مقتل حُجر أبي امرىء القيس (*)

قال ابن الكلبي : حدثني أبي أن حُجراً كان في بني أسد ، وكانت له عليهم إتاوة في كل سنة مؤقّتة . فغبر ذلك دهراً ، ثم بعث اليهم جابيه الذي كان يجبيهم ، فمنعوه ذلك – وحجر يومئذ بتهامة – وضربوا رُسله ، وضَرجوهم [1] ضرجاً شديداً قبيحاً . فبلغ ذلك حُجراً ، فسار إليهم بجند من ربيعة وجند من جند أخيه من قيس وكنانة . فأتاهم وأخذ سَراتهم ، فجعل يقتّلهم بالعصا ، فسُمّوا عبيد العصا ، وأباح الأموال ، وصيّرهم إلى تِهامة ، وآلى [2] بالله ألا يساكنوهم في بلدٍ أبداً ، وحبس منهم عمرو بن مسعود بن كندة بن فزارة الأسدي ، وكانَ سيداً ، وعبيد بن الأبرص الشاعر . فسارت بنو أسد ثلاثاً .

ثم إنّ عبيد بن الأبرص قام فقال : أيّها الملك اسمع مقالتي :

(*) في مقتل حجر أبي امرىء القيس روايات متباينة ولكنها تتفق كلها في أن سببه سوء سيرته في بني أسد واشتطاطه في فرض الإتاوة عليهم ، وقد اقتصرنا هنا على رواية الكلبي .

(١) ضرجه : أدماه .

(٢) آلى : أقسم .

يا عـــينُ فابكي ما بـــني أسَدٍ فهم أهلُ الندامه
أهلِ القِبــاب الحُمــر والنَعَــم المؤبّل والمُدامه
وذوي الجِيــاد الجُــرد والأسلِ المثقّفــةِ المُقامه
حِلاً أبيت اللعــن حِـــلاً إنّ فيما قلتَ آمــه
في كــلّ وادٍ بــين يـــثربَ فالقصور إلى اليمامه
تطريبُ عــانٍ أو صيا حُ مُحرَّقٍ أو صوتُ هامه
ومنعتَهــم نجــداً فقد حلّوا على وَجَلٍ تِهامه
بَرمت بنــو أسدٍ كما بَرِمت ببيضتِها الحمامه
جعلتْ لها عُودَين مــن نَشَمٍ وآخرَ من ثُمامه
إمّا تركتَ تركتَ عَفــــواً أو قتلتَ فلا مَلامه
أنت المليــكُ عليهــمُ وهمُ العَبيدُ إلى القيامه
ذلّــوا لسوطك مثلمــا ذلّ الأشيقرُ ذوالخِزامه(١)

قال : فرقّ لهم حُجرٌ حين سمع قوله ، فبعث في أثرهم فأقبلوا ، حتى اذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهنُهم وهو عوفُ بن ربيعة ... فقال لبني أسد : يا عِبادي : قالوا : لبّيك ربّنا . قال : مَن الملكُ الأصهب ، الغَلاّب غير المُغَلّب ، في الإبل كأنها الرَّبْرَب (٢) ، لا يعلق رأسَه الصَخَب ، هذا دمُه ينثعب (٣) ، وهذا غداً أول من يُسلَب . قالوا : من هو يا ربنا ؟

---

(١) المؤبل : المقتنى . الأسل : الرماح . حلا : أي تحلل من يمينك . الآمة : العيب . النشم : شجر تتخذ منه القسي . الثمام : نبت بالبادية . العاني : الأسير . الهامة : طائر ليلي يقال له الصدى أيضاً ، ومن أساطير العرب أن القتيل إذا لم يؤخذ بثأره جاءت الهامة فصاحت على قبره : اسقوني – اسقوني ، فلا تزال تصيح حتى يؤخذ بثأره . الأشيقر : تصغير الأشقر وهو الأحمر من الدواب . الخزامة : حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام .
(٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش .
(٣) انثعب الدم : جرى .

قال : لولا أن تجيش نفسٌ جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجرٌ ضاحية .

فركبوا كلّ صعب وذَلُول ، فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قُبّته ، وكان حجّابه من بني الحارث بن سعد ... وكان حُجر قد أعتق أباهم من القتل ، فلما نظروا إلى القوم يريدون قتله خيّموا عليه ليمنعوه ويجيروه . فأقبل عليهم عِلباءُ بن الحارث الكاهلي ، وكان حجر قد قتل أباه ، فطعنه من خللهم فأصاب نَساه فقتله .

فلما قتلوه قالت بنو أسد : يا معشر كنانة وقيس ، أنتم اخواننا وبنو عمنا ، والرجل بعيد النسب منا ومنكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم هو وقومه . فانتهبوهم فشدّوا على هجائنه فمزّقوها ولفّوه في رَيْطة بيضاء وطرحوه على ظهر الطريق ، فلما رأته قيس وكنانة انتهبوا أسلابه ، ووثب عمرو بن مسعود فضمّ عياله وقال : أنا لهم جار .

ثأر امرىء القيس بأبيه

قال ابن الكلبي : حدثني أبي عن ابن الكاهن الأسدي : أن حُجراً كان طرد امرأ القيس وآلى ألا يقيم معه أنفةً من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذّاذ العرب من طيّ ، وكلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضةً أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيّد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنّته قِيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفَد ماءُ ذلك الغدير ثم ينتقل عنه إلى غيره .

فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمُّون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بني عِجل يقال له عامر الأعور ، أخو الوصّاف . فلمّا أتاه بذلك قال :

تطاول الليلُ عليّ دَمُّونْ دمّونُ إنا معشرٌ يمانونْ
وإنّنا لأهلها مُحبُّون

ثم قال : ضيّعني صغيراً وحمّلني دمه كبيراً ؛ لا صحوَ اليومَ ولا سُكرَ غداً ؛ اليومَ خمرٌ وغداً أمرٌ ، فذهبت مثلاً ، ثم قال :

خليليَّ لا في اليوم مَصحىً لشاربٍ ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشرَبُ

ثم شرب سبعاً ، فلمّا صحا آلى ألاّ يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدّهن بدُهنْ ، ولا يصيب امرأةً ، ولا يغسل رأسه من جَنابةٍ ، حتى يُدرك بثأره . فلمّا جنّه الليل رأى برقاً فقال :

أرِقتُ لِبرقٍ بليلٍ أهَلّ يُضيءُ سَناه بأعلى الجبَلْ
أتاني حديثٌ فكذّبتهُ بأمرٍ تزعزعُ منه القُلَل
بقتل بني أسدٍ ربَّهم ألا كلُّ شيءٍ سِواه جَلَلْ
فأين ربيعةُ عن ربِّها وأين تميمٌ وأينَ الخوَل
ألا يحضرُون لدى بابه كما يحضرُون اذا ما أكل (١)

وروى الهيثم بن عديّ عن أصحابه أن امرأ القيس لمّا قُتل أبوه كان غلاماً قد ترعرع ، وكان في بني حنظلة مقيماً لأنّ ظِئرَه (٢) كانت امرأة منهم ، فلمّا بلغه ذلك قال :

يا لهفَ هندٍ إذ خَطِئن كاهلا القاتلين الملكَ الحُلاحِلا
تالله لا يذهبُ شيخي باطلا يا خيرَ شيخٍ حسَباً ونائلا
وخيرَهم ـ قد علموا ـ فواضلا يَحملننا والأسلَ النواهلا
وحيَّ صَعب والوشيجَ الذابلا مُستثفِراتٍ بالحصى جوافلا(٣)

---

(١) القلل ج قلة : أعلى الجبل والرأس . جلل : جلل هنا بمعنى هين وصغير واللفظ من الأضداد . الخول : الخدم والأتباع .

(٢) الظئر : المرضع .

(٣) خطئن : أخطأن . والضمير يعود على الخيل . كاهل : بطن من بني أسد وهم بنو كاهل بن =

يعني صعب بن عليّ بن بكر بن وائل ....

قال ابن الكلبي عن أبيه ويعقوب بن السِكّيت عن خالد الكِلابي : ان امرأ القيس ارتحل حتى نزل بكراً وتغلب ، فسألهم النصر على بني أسد . فبعث العيون على بني أسد فنَذِروا[1] بالعيون ولجأوا إلى بني كنانة ، وكان الذي أنذرهم بهم عِلباء بن الحارث .

فلمّا كان الليل قال لهم علباء : يا معشر بني أسد ! تعلمون — والله — أن عيون امرىء القيس قد أتتكم ورجعت إليه بخبركم ، فارحَلوا بليلٍ ولا تُعلموا بني كنانة ، ففعلوا . وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة ، وهو يحسبهم بني أسد ، فوضع السلاح فيهم وقال : يا لِثارات الملِك ، يا لثارات الهُمام . فخرجت إليه عجوز من بني كنانة فقالت : أبيتَ اللعن ، لسنا لك بثأر ، نحن من كنانة ، فدونَك ثأرك فاطلُبهم فإن القوم قد ساروا بالأمس . فتبع بني أسد ففاتوه ليلَتهم تلك ، فقال في ذلك :

ألا يا لهف هِندٍ إثرَ قومٍ ... هم كانوا الشفاءَ فلم يُصابوا
وقاهم جَدُّهم ببني أبيهم ... وبالأشقَين ما كان العِقابُ
وأفلتهنّ عِلباءٌ جريضاً ... ولو أدركنَه صَفِر الوِطابُ[2]

يعني ببني أبيهم بني كنانة ، لأن أسداً وكنانة ابني خُزيمة أخَوان ...

= دودان بن أسد . الجلاحل : السيد الكريم . الوشيج : شجر الرماح ويراد به الرماح نفسها . مستثفرات : يريد أنها تثير الحصى بحوافرها لشدة جريها حتى يرتفع إلى أثفارها ، والثفر هو السير يكون في مؤخرة السرج . جوافل : مسرعات .

(١) نذر به . علم به فحذره .

(٢) جدهم : حظهم . أفلتهن : الضمير يعود إلى الخيل . جريضاً : جرض بريقه ابتلعه على جهد ومشقة . يقال : صفرت وطابه : أي قتل ، والوطاب ج وطب وهو سقاء اللبن وصفر : فرغ .

وأدركهم ظهراً ، وقد تقطعت خيله وقطع أعناقهم العطش ، وبنو أسد جامّون [1] على الماء ، فنهد إليهم فقاتلهم حتّى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، وحجز الليل بينهم ، وهربت بنو أسد .

فلمّا أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك . قال : والله ما فعلت.ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحداً . قالوا : بلى ، ولكنك رجل مشؤوم ، وكرهوا قتالهم بني أسد [2] ، وانصرفوا عنه ، ومضى هارباً لوجهه حتّى لحق بحِمير ...

فلمّا امتنعت بكر بن وائل وتغلب من اتّباع بني أسد خرج من فوره ذلك إلى اليمن فاستنصر أزد شَنُوءة ، فأبوا أن ينصروه وقالوا : اخواننا وجيراننا . فنزل بقَيل يدعى مرثَد الخير بن ذي جَدَنٍ الحِميريّ ، وكانت بينهما قرابة ، فاستنصره واستمدّه على بني أسد ، فأمدّه بخمسمائة رجل من حِمير ، ومات مرثد قبل رحيل امرىء القيس بهم ، وقام بالمملكة بعده رجل من حمير يقال له : قرمل بن الحميم ، وكانت أمه سوداء ، فردّد امرأ القيس وطوّل عليه حتّى همّ بالانصراف وقال :

وإذ نحن ندعو مرثدَ الخير ربّنا وإذ نحن لا نُدعى عَبيداً لقَرملِ

فأنفذ له ذلك الجيش ، وتبعه شُذّاذ من العرب ، واستأجر من قبائل العرب رجالاً فسار بهم إلى بني أسد . ومرّ بتَبالة ، وبها صنم للعرب تعظمه يقال له ذو الخلَصة [3] ، فاستقسم عنده بقِداحه [4] وهي ثلاثة : الآمر

---

(١) جامون : مستريحون .

(٢) في الأصل : بني كنانة ، وهو خطأ من الناسخ .

(٣) ذو الخلصة : مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج ، وكان لبني خثعم وبجيلة وأزد السراة ، وقد هدمه بعد الإسلام جرير بن عبد الله البجلي .

(٤) القداح ج قدح : السهام يستقسم بها الرجل حين يريد الاقدام على أمر ذي شأن ، وهي كذلك سهام الميسر .

والناهي والمتربّص . فأجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها فخرج الناهي ، فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال : ... لو أبوك قُتل ما عقتَني . ثم خرج فظفر ببني أسد ...

تنقله في القبائل ثم لجوءه إلى قيصر

قالوا : وألحّ المنذر [1] في طلب امرىء القيس ووجّه الجيوش في طلبه من إياد وبهراء وتنوخ ، ولم تكن لهم طاقة . وأمدّه أنو شروان بجيش من الأساورة فسرّحهم في طلبه ، وتفرّقت حمير ومن كان معه عنه ، فنجا في عصبة من بني آكل المُرار حتى نزل بالحارث بن شهاب ، من بني يربوع ابن حنظلة ، ومع امرىء القيس أدراع خمسة : الفضفاضة والضافية والمحصّنة والخَربَق [2] وأمّ الذيول ، كنّ لبني آكل المرار يتوارثونها ملِكاً عن ملك . فقلّما لبثوا عند الحارث بن شهاب حتى بعث اليه المنذر مائة من أصحابه يُوعده بالحرب ان لم يسلم اليه بني آكل المرار ، فأسلمهم ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وبنته هند (بنت امرىء القيس) والأدرع والسلاح ومال كان بقي معه ، فخرج على وجهه حتى وقع في أرض طيّء . وقيل : بل نزل قبلهم على سعد بن الضِباب الإياديّ سيّد قومه فأجاره ...

ثم تحوّل عنه فوقع في أرض طيء فنزل برجل من بني جَديلة يقال له المعلّى بن تَيم ففي ذلك يقول :

كأنيّ إذ نزلتُ على المعلّى نزلت على البواذخِ من شَمامِ

---

(١) المنذر : أراد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة .

(٢) الخربق : في الأصل ، نبت كالسم ، ولا ندري ما وجه تسمية الدرع به ولعل في اللفظ تحريفاً .

فما ملِك العراقِ على المعلّى بمقتدرٍ ولا ملِـــكُ الشآم
أقرّ حشى امرىء القيس بن حُجر بنو تيمٍ مصابيحُ الظلام [1]

قالوا : فلبث عنده واتّخذ إبلاً هناك ، فغدا قوم من بني جَديلة يقال لهم بنو زيد فطردوا الإبل ، وكانت لامرىء القيس رواحل مقيّدة عند البيوت خوفاً من أن يدهمه أمر ليسبق عليهنّ . فخرج حينئذ فنزل ببني نبهان من طيّء ... فكان عندهم ما شاء الله . ثم خرج فنزل بعامر بن جُوين واتّخذ عنده إبلاً ، وعامر يومئذ أحد الخلعاء الفُتّاك قد تبرّأ قومه من جرائره ، فكان عنده ما شاء الله ، ثم همّ أن يغلبه على أهله وماله ... فلمّا عرف امرؤ القيس ذلك منه وخافه على أهله وماله تغفّله وانتقل إلى رجل من بني ثُعل يقال له حارثة بن مَرّ فاستجار به ، فوقعت الحرب بين عامر وبين الثُعَلي ، فكانت في ذلك أمور كثيرة .

قال دارم بن عقال في خبره : فلما وقعت الحرب بين طيء من أجله خرج من عندهم فنزل برجل من بني فزارة يقال له عمرو بن جابر بن مازن ، فطلب منه الجوار حتّى يرى ذات عيبه [2] . فقال له الفزاري : يا بن حُجر ، اني أراك في خَلل من قومك ، وأنا أنفَسُ [3] بمثلك من أهل الشرف ، وقد كدت بالأمس تُؤكل في دار طيّء ، وأهل البادية أهل بَرّ لا أهل حصون تمنعهم ، وبينك وبين أهل اليمن ذُؤبان من قيس . أفلا أدلُّك على بلد ؟ فقد جئتُ قيصر وجئت النعمان فلم أر لضيفٍ نازلٍ ولا لمجتدٍ مثله ولا مثل صاحبه . قال : من هو وأين منزله ؟ قال : السَمَوءل بتيماءَ ، وسوف أضرِب لك مَثَله ، هو يمنع ضعفَك حتّى ترى ذات عيبك ، وهو في حِصن حصين وحسب كبير . فقال له امرؤ القيس : وكيف لي به ؟ قال : أوصلك الى

(١) شمام : اسم جبل .
(٢) يريد : حتّى ينظر في أمره ويصلح من شأنه .
(٣) أنفس به : أضن به .

من يُوصلك إليه ، فصحبه إلى رجل من بني فزارة يقال له الربيع بن ضَبُع الفزاري ، ممّن يأتي السموءل فيحمله ويعطيه ...

قال : فوفد الفزاري بامرىء القيس اليه .... فأنشده الشعر وعرف لهم حقّهم ، فأنزل المرأة في قبة أدم ، وأنزل القوم في مجلس له بَراح ، فكان عنده ما شاء الله .

ثم إنه طلب اليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمِر الغسّاني بالشام ليوصله إلى قيصر ، فاستنجد له رجلاً ، واستودع عنده المرأة والأدراع والمال ، وأقام معها يزيد بن معاوية بن الحارث ، ابن عمه . فمضى حتى انتهى إلى قيصر ، فقبله وأكرمه ، وكانت له عنده منزلة . فاندسّ رجلٌ من بني أسد يقال له الطمّاح ، وكان امرؤ القيس قد قتل أخاً له من بني أسد ، حتّى أتى بلاد الروم فأقام مستخفياً .

ثم إن قيصر ضمّ إليه [1] جيشاً كثيفاً ، وفيهم جماعة من أبناء الملوك . فلمّا فصل قال لقيصر قوم من أصحابه : إنّ العرب قوم غدر ولا تأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثت معه . وقال ابن الكلبي : بل قال له الطمّاح : انّ امرأ القيس غويٌّ عاهر ، وانه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهّرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك . فبعث اليه حينئذ بحُلّة وَشي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له : إنيّ أرسلت اليك بحُلّتي التي كنت ألبَسها تكرمةً لك ، فإذا وصلت إليك فالبَسها باليُمن والبركة ، واكتب إليّ بخبرك من منزل منزل . فلمّا وصلت اليه لبسها واشتدّ سروره بها ، فأسرع فيه السم وسقط جلده ، فلذلك سُمّي ذا القروح ، وقال في ذلك :

لقد طمَح الطمّاح من بُعد أرضه ليُلبسَني ممّا يُلبِّس أبؤُسا
فلو أنّها نفسٌ تموتُ سويّةً ولكنّها نفسٌ تَساقطُ أنفُسا

---

(١) أي إلى امرىء القيس .

قال : فلمّا صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقِرة احتُضر بها فقال :

رُبّ خُطبةٍ مُسحنفِرهْ ... وطعنــةٍ مُثعنجِــرهْ
وجَفنــةٍ متحيّـــره ... حلّت بأرضِ أنقِره [1]

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت في سفح جبل يقال له عَسيب ، فسأل عنها فأخبر بقصّتها فقال :

أجارتَنا إنّ المزارَ قريبُ ... وإنّي مُقيمٌ ما أقامَ عسيبُ
أجارتنا انّا غريبان ها هنا ... وكلٌّ غريبٍ للغريب نسيبُ

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة ، فقبرهُ هناك .

---

(١) اسحنفر في خطبته : أي مضى واتسع في كلامه . المثعنجرة : السائلة . المتحيرة : الممتلئة .

- ٢ -

النابغة الذبياني

(الأغاني ج ١١ ص ٣ وما بعدها)

الشاعر

النابغة اسمه زياد بن معاوية ... بن ذُبيان . ويُكنى أبا أمامة . وذكر أهلُ الرواية أنه انما لُقّب النابغة لقوله :

فقد نَبَغت لنا منهم شؤونُ

وهو أحد الأشراف الذين غضّ الشعر منهم . وهو من الطبقة الأولى المقدّمين على سائر الشعراء . وكان يُضرب للنابغة قُبّة من أدَم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراءُ فتعرِض عليه أشعارها .

عن الشعبيّ قال :

قال عمر : مَن أشعرُ الناس ؟ قالوا : أنت أعلمُ يا أمير المؤمنين. قال : مَن الذي يقول :

إلّا سُليمانَ إذ قال الإلَهُ له
قُم في البَرِيَة فاحدُدْها عن الفَنَدِ

وخَبِّر الجِنَّ أنّي أذنتُ لهـــــم
يَبنُون تَـدمُرَ بالصُفّـاح والعَمَـــــد[1]

قالوا : النابغة . قال : فمن الذي يقول :

أتيتُك عاريـاً خَلَقاً ثيـــــــابي على خَوفٍ تُظَنّ بي الظُّنـــونُ

قالوا : النابغة . قال : فمن الذي يقول :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفســك ريبـــةً
وليس وراءَ الله للمـــرءِ مَـذهـــبُ
لَئن كنتَ قد بُلِغّتَ عنّي خيانـــةً
لَمُبلِغُكَ الواشي أَغشُّ وأكـــذب
ولســت بمُستَبقٍ أخــاً لا تَلُمُّـــه
على شَعَثٍ أيُّ الرجّـــال المهـــذَّبُ

قالوا : النابغة . قال : فهو أشعرُ العرب .

عمر بن شَبّة قال :

قال معاوية بن بكر الباهليّ : قلت لحمّاد الراوية : بمَ تُقدّم النابغة ؟ قال : باكتفائكَ بالبيت الواحد من شعره ، لا بل بنصف بيت ، لا بل برُبع بيت ، مثل قوله :

حلفتُ فلم أترك لنفســك رِيبـــةً
وليس وراء الله للمـــرء مَذهـــبُ

كل نصف يغنيك عن صاحبه . وقوله : « أيُّ الرجال المهذَّبُ » ربع بيت يُغنيك عن غيره .

قال أبو عبيدة :

---

(١) الفند : الخطأ في الرأي والقول ، والكذب . الصفاح : حجارة عراض .

كان فحلان من الشعراء يُقويان : النابغةُ وبِشْرُ بن أبي خازم . فأمّا النابغةُ فدخل يثربَ ، فهابُوه أن يقولوا له لحنتَ وأَكْفَأتَ[1] ، فدعَوا قَينة وأمروها أن تُغنّي في شعره ، ففعلتْ . فلمّا سمع الغِناء : « وغير مُزوّدِ » و« الغرابُ الأسودُ » ، وبان له ذلك في اللحن فطِن لموضع الخطأ فلم يعد . وأما بشر بن أبي خازم فقال له أخوه سَوادة : إنك تُقوي . قال : وما ذاك ؟ قال قولك :

وينسِي مثلمـا نُسِيت جُذامُ

ثم قلت بعده : « الى البلد الشآمِ » . ففطن فلم يَعُد .

غضب النعمان بن المنذر عليه وفراره إلى الشام

عن أبي عبيدة وغيره : أن النابغة كان أثيراً عند النعمان ، خاصّاً به ، وكان من ندمائه وأهل أنسه ؛ فرأى زوجته المتجرّدة يوماً وغَشيها شبيهاً بالفُجاءة ، فسقط نَصيفُها واستترت بيدها وذراعها ، فكادت ذراعها تستر وجهها لعبالتها وغِلظها . فقال قصيدته التي أولها :

أمن آلِ ميّةَ رائحٌ أو مغتدي ... عجلانَ ذا زادٍ وغـيرَ مزوَّد
زعم البوارحُ أنّ رحلتنـا غداً ... وبذاك تَنعابُ الغُراب الأسود
لا مرحباً بغد ولا أهـلاً بــه ... إن كان تفريقُ الأحبّة في غدِ
أزف الترحُّلُ غيرَ أن ركابَنا ... لمّا تزل برحالِنا وكأن قدِ
في إثر غانيةٍ رمتك بسهمهـا ... فأصاب قلبك غيرَ أن لم تُقصدِ
بالدُرّ والياقوت زُيِّن نحرُهـا ... ومُفَصَّلٍ من لؤلؤٍ وزَبَرْجَدِ[2]

• • •

(١) الإكفاء : الاختلال في قوافي الشعر باختلاف الحركات أو الحروف القريبة المخارج .

(٢) البوارح : ما ولاك مياسرة من الظباء وغيرها ، وكانت العرب تتشاءم من ذلك . تقصد : تقتـل .

قال : وقال في قصيدته هذه يذكر ما نظر إليه من المتجرّدة وستّرها وجهَها بذراعِها :

سقط النصيفُ ولم تُردْ إسقاطه ... فتناولتــه واتّقتنــا باليدِ
بمخضّبٍ رَخصٍ كأنّ بَنانَه ... عَنَمٌ على أغصانه لم يُعقَدِ
وبفاحم رَجْلٍ أثيثٍ نبتُــــه ... كالكرم مال على الدِعامِ المُسنَدِ
نظرت إليك بحاجة لم تقضِهــا ... نظرَ السقيم إلى وجوه العُوَّدِ(١)

قال : فأنشدها النابغة مُرّة بن سعد القُريعي ، فأنشدها مُرّة النعمان ، فامتلأ غضباً فأوعد النابغة وتهدّده ، فهرب منه فأتى قومه ، ثم شخص إلى ملوك غسّان بالشام فامتدحهم .

وقيل إن عصام بن شَهبرَ الجرميّ ، حاجب النعمان ، أنذره وعرّفه ما يُريده النعمان . وكان صديقه ، فهرب . وعصام الذي يقول فيه الراجز :

نفسُ عِصامٍ سَوّدت عصاما ... وعلّمته الكــرَّ والإقـــداما
وجعلته مَلكاً هُماما

وقال من رويتُ عنه خبر النابغة : ان السبب في هربه من النعمان أن عبد القيس بن خُفاف التميميّ ومُرّة بن سعد بن قُريع السَعدي عمِلا هجاءً في النعمان على لسانه وأنشدا النعمان منه أبياتاً .... ومنه :

قبّح اللهُ ثم ثنّــى بلَعــــنٍ ... وارثَ الصائغ الجبانَ الجَهـُولا
من يضرّ الأدنى ويعجز عن ضرّ الأقاصي ومن يخونُ الخليلا

(١) النصيف : الخمار . العنم : شجر يحمر تشبه به الأصابع . الرجل : غير الجعد . الأثيث : المتكاثف .

يجمع الجيشَ ذا الألوف ويغزُو ثم لا يَرزَأُ العدوَّ فتيــلا

يعني بوارث الصائغ النعمان ، وكان جدّه لأمه صائغاً بفَدَك يقال له عطيّة ، وأم النعمان سَلمى بنت عطيّة .

عن المفضّل : أن مُرّة بن سعد القُريعي الذي وشى بالنابغة كان له سيفٌ قاطعٌ يقال له ذو الرِيقة ، من كثرة فِرنده [1] وجوهره ، فذكره النابغة للنعمان فأخذه ، فاضطغن ذلك القُريعيّ حتى وشى به إلى النعمان وحرّضه عليه .

عن أبي عمرو بن العلاء وابن قتيبة وعمر بن شبة ، قالوا جميعاً :

إن الذي من أجله هرب النابغة من النعمان أنه كان والمنخّل بن عُبيد ابن عامر اليشكري جالسين عنده ، وكان النعمان دميماً أبرش قبيح المنظر ، وكان المنخّل بن عبيد من أجمل العرب ، وكان يرمى بالمتجرّدة زوجة النعمان ويتحدّث العرب أنّ ابني النعمان منها كانا من المنخّل . فقال النعمان للنابغة : يا أبا أمامة ، صِف المتجرّدة في شعرك . فقال قصيدته التي وصفها فيها ووصف بطنها وروادفها ... فلحقت المنخّل من ذلك غَيرة فقال للنعمان : ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلاّ من جَرّبه . فوقر ذلك في نفس النعمان ، وبلغ النابغة فخافه فهرب فصار في غسّان ...

فلمّا صار النابغة إلى غسّان نزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن أبي شمِر ، وأمّ الحارث الأعرج مارية بنت ظالم بن وهب ... الكِندية ، وهي ذات القِرطين اللذين يُضرب بهما المثل فيقال لما يُغلى به الثمن : خُذه ولو بقُرطي مارية ، وأختها هند الهنود

(١) فرند السيف : جوهره ووشيه .

امرأة حُجر آكل المُرار ، وإيّاها عنى حسّان بقوله في جبلة بن الأيهم :

أولادُ جَفنةَ حولَ قبرِ أبيهم قبرِ ابنِ ماريةَ الجَواد المُفضِلِ

فمدحه النابغة ومدح أخاه النعمان . ولم يزل مقيماً مع عمرو حتّى مات ، وملك أخوه النعمان ، فصار معه إلى أن استطلعه النعمان [1] فعاد إليه .

فممّا مدح به عمراً قولُه :

كِليني لِهمّ يا أميمةَ ناصبِ وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكبِ
وصدرٍ أراح الليلُ عازبَ همّه تضاعف فيه الحزنُ من كل جانب
تقاعس حتّى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذي يهدي النجومَ بآئبِ
عليّ لِعمرو نعمةٌ بعدَ نعمةٍ لوالده ليست بذاتِ عقاربِ [2]

رجوعه إلى النعمان والتقاؤه بحسّان

عن أبي بكر الهُذَليّ قال :

قال حسّان بن ثابت : قدِمت على النعمان بن المنذر ، وقد امتدحتُه ، فأتيت حاجبه عصام بن شَهبر فجلست اليه فقال : إني لأرى عربياً ، أفمن الحجاز أنت ؟ قلت : نعم . قال : فكن قحطانياً . فقلت : فأنا قحطاني . قال : فكن يثربيّاً . قلت : فأنا يثربي . قال : فكن خزرجياً . قلت : فأنا خزرجي . قال : فكن حسّان بن ثابت . قلت : فأنا هو . قال : أجئت بمدحة الملك ؟ قلت : نعم . قال : فإني أُرشدك ، اذا دخلتَ اليه فإنه يسألُك

(١) استطلعه : طلب طلوعه إليه . والنعمان هنا هو ابن المنذر ملك الحيرة .

(٢) كليني : دعيني . أراح : أعاد . العازب : النائي . تقاعس : تأخر وتباطأ . الذي يهدي النجوم : قيل إنه أراد به أول النجوم طلوعاً ، وفي رواية أخرى : يرعى النجوم ، أي يرقب مغيبها . ليست بذات عقارب : أي لا يكدرها المن وطلب الجزاء .

عن جَبَلة بن الأيهم ويسُبُّه ، فإيّاك أن تساعدَه على ذلك ، ولكن أمِرَّ ذكره إمراراً لا توافق فيه ولا تخالف وقُل : ما دخولُ مثلي ، أيها الملكُ ، بينك وبين جَبلة ، وهو منك وأنت منه . وان دعاك إلى الطعام فلا تؤاكلْه ، فإن أقسَم عليك فأصِبْ منه اليسير إصابةَ بارٍّ قسمَه ، متشرّف بمؤاكلته ، لا أكلَ جائعٍ سَغِبٍ ، ولا تُطل محادثته ، ولا تبدأه بإخبار عن شيءٍ حتى يكون هو السائل لك ، ولا تطل الاقامة في مجلسه . فقلتُ : أحسن الله رِفدَك ، قد أوصيت واعياً .

ودخل ثم خرج إليّ فقال لي : ادخل . فدخلت فسلّمت وحيّيت تحيةَ الملوك . فجاراني من أمر جَبلة ما قاله عصام كأنّه كان حاضراً ، وأجبتُ بما أمرني . ثم استأذنته في الإنشاد فأذن لي فأنشدته . ثم دعا بالطعام ، ففعلت ما أمرني عصام به ، وبالشراب ففعلت مثل ذلك ، فأمر لي بجائزةٍ سنيّة وخرجت .

فقال لي عصام : بقيت عليَّ واحدةٌ لم أُوصِك بها . قد بلغني أن النابغة الذبياني قدِم عليه ، واذا قدم فليس لأحد منه حظٌّ سواه ، فاستأذن حينئذ وانصرف مكرَّماً خيرٌ من أن تنصرف مَجفُوّاً .

فأقمت ببابه شهراً ، ثم قدم عليه الفزاريّان ، وكان بينهما وبين النعمان دُخْلُل (أي خاصة) ، وكان معهما النابغة قد استجار بهما وسألهما مسألة النعمان أن يرضى عنه . فضرب عليهما قُبّةً من أدم ، ولم يشعر بأن النابغة معهما . ودسّ النابغة قَيْنةً تغنّيه بشعره :

يا دارَ ميّةَ بالعلياء فالسَنَد

فلما سمع الشعر قال : أقسم بالله إنه لشعر النابغة ، وسأل عنه فأخبر أنه

مع الفزاريين ، فكلّماه فيه فأمّنه ...

قال حسّان بن ثابت : فحسدتُه على ثلاثٍ لا أدري على أيّتهنّ كنتُ له أشدّ حسداً : على إدناء النُعمانِ له بعدَ المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة بعير من عصافيره [1] أمر له بها .

قال أبو عبيدة : قيل لأبي عمرو : أفمِن مخافته امتدحه وأتاه بعد هرَبه منه أم لغير ذلك ؟ فقال : لا لعمرُ الله ، ما لمخافته فعل ، إنْ كان لآمناً من أن يُوجّه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرتُه لتُسلمَه لأول وهلة ، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره . وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجدّه : لا يستعمل غير ذلك .

وقيل : انّ السبب في رجوعه إلى النعمان بعد هربه منه أنه بلغه أنه عليلٌ لا يُرجى ، فأقلقه ذلك ولم يملك الصبر على البعد عنه ، مع علّته وما خافه عليه وأشفق من حدوثه به ، فصار إليه وألفاه محمولاً على سريره يُنقَل ما بين الغَمر وقصور الحيرة ، فقال لعصام بن شهبر حاجبه :

ألم أقسِم عليك لتُخبرنّي ... أمحمولٌ على النعش الهُمامُ
فإني لا ألومك في دخولي ... ولكن ما وراءَك يا عصامُ
فإن يهلِكْ أبو قابوسَ يهلِكْ ... ربيعُ الناس والشهرُ الحرَامُ
ونُمسِكْ بعدَه بذِنابِ عيشٍ ... أجبِّ الظهر ليس له سَنامُ [2]

(١) العصافير : إبل نجائب كانت للملوك .

(٢) لا ألومك في دخول : أي لا ألومك في منعي من الدخول عليه . الأجب : المقطوع السنام .

- ٣ -

زهير بن أبي سُلمى[1] المزني

(الأغاني ج ١٠ ص ٢٨٨ وما بعدها)

الشاعر

هو زهير بن أبي سُلمى ، واسمُ أبي سُلمى ربيعة بن رياح .... بن عمرو بن أُدّ ... ومُزينة أم عمرو بن أدّ هي بنت كلب بن وبَرة .

وهو أحد الثلاثة المقدَّمين على سائر الشعراء ، وإنما اختلف في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه . فأما الثلاثة فلا اختلاف فيهم وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذُبياني .

قال ابن عبّاس : خرجت مع عمر في أوّل غَزَاة غزاها ، فقال لي ذات ليلة : يا بن عبّاس ، أنشدني لشاعر الشعراء . قلت : ومَن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : ابن أبي سُلمى . قلت : وبمَ صارَ كذلك ؟ قال : لأنه لا يتّبع حُوشيّ الكلام ، ولا يعاظل في المنطق ، ولا يقول الاّ ما يعرف ، ولا يمتدح الرجلَ إلاّ بما يكون فيه . أليس الذي يقول :

اذا ابتدرت قيسُ بن عيلانَ غايةً   من المجد مَن يسبقْ اليها يُسَوَّدِ

سبقت اليها كـــلُّ طَلَقٍ مُبَـــرِّزٍ سَبُوقٍ إلى الغايات غيرِ مُزَنَّدِ
كفِعل جوادٍ يسبقُ الخيلَ عفوهُ الـ سِراعَ وإن يجهَدْ ويجهَدْنَ يُبْعِدِ
ولوكان حمدٌ يُخْلِدُ الناسَ لم تمُت ولكنَّ حمدَ الناس ليس بمُخلِدِ[1]

أنشِدني له ، فأنشدته حتى برق الفجر فقال : حسبُك الآن ، اقرأ القرآن ....

قال الأصمعي : قال عمر لبعض ولد هرِم : أنشدني بعض مدح زهير أباك ، فأنشده . فقال عمر : إنْ كان ليُحْسن فيكم القول . قال : ونحن والله إن كنّا لنُحسن له العَطاء . فقال : قد ذهبَ ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

عن محمّد بن سلاّم قال : من قدّم زهيراً احتج بأنه كان أحسنهم شعراً ، وأبعدَهم من سُخف ، وأجمعَهم لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ ، وأشدّهم مبالغةً في المدح ، وأكثرهم أمثالاً في شعره .

عن عِكرمة بن جرير عن أبيه قال : شاعرُ أهل الجاهلية زهير .

عن عيسى بن يزيد قال :

سأل معاويةُ الأحنفَ بن قيس عن أشعر الشعراء فقال : زهير . قال : وكيف ؟ قال : ألقى عن المادحين فضول الكلام . قال : مثل ماذا ؟ قال : مثل

(١) الطلق : الكريم المعطاء . المزند : البخيل اللئيم . وفي رواية أخرى : غير مجلد ، أي أن هذ الجواد ينتهي إلى غاية من غير أن يضرب . يسبق الخيل السراع عفوه : أي أن هذا الجواد يسبق في سيره عفواً من غير أن يجهد سراع الخيل .

قوله :

فما يكُ من خيرٍ أتَوه فإنمـــــا توارثه آبــاء آبائهـــم قبــلُ

نزوله في غطفان

قال ابن الأعرابي : وحدّثني أبو زياد الكلابيّ :

أن زهيراً وأباه وولَده كانوا في بني عبدالله بن غَطفَان ، ومنزلهم اليوم بالحاجر ، وكانوا فيه في الجاهلية . وكان أبو سُلمى تزوّج إلى رجل من بني فهر بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذُبيان يقال له الغَدير ـ والغديرُ هو أبو بَشامة الشاعر ـ فولدت له زهيراً وأَوساً ، ووُلد لزهير من امرأة من بني سُحَيم . وكان زهيرٌ يذكر في شعره بني مُرّة وغطَفان ويمدحهم . وكان زهير في الجاهلية سيّداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع .

تطليقه زوجته أم أوفى

قال ابن الأعرابي :

أم أوفى التي ذكرها زهيرٌ في شعره كانت امرأته ، فولدت منه أولاداً ماتوا ، ثم تزوّج بعد ذلك امرأةً أخرى ، وهي أم ابنيه كعب وبُجَير ، فغارت من ذلك وآذتْه ، فطلّقها ثم ندم فقال فيها :

لَعَمْرُكَ والخطوبُ مُغَيِّـــراتٌ وفي طُول المعاشرة التَقـــالي
لقد باليتُ مَظْعَنَ أُمّ أوفـــى ولكن أمُّ أوفى لا تُبـــالي
أصبتُ بَنِيَّ منكِ تقولـــي لِذي صهرٍ أُذِلْتُ ولم تُـــذالي
فأمّــا إذ نأيتِ فلا ونِلتِ منّـــي من اللذّاتِ والحُلَل الغــوالي[1]

رثاؤه ولده سالم

قال ابن الأعرابي :

---

(1) التقالي : التباغض . ظعن : ارتحل . أذال المرأة : أهانها وأذلّها .

كان لزهير ابنٌ يقال له سالم ، جميل الوجه ، حسن الشَعر . فأَهدى رجلٌ إلى زهير بُردَين ، فلبسهما الفتى وركب فرساً له ، فمرّ بامرأة من العرب بماء يقال له النُتاءة ، فقالت : مارأيت كاليوم قطُّ رجلاً ولا بُردَين ولا فرساً . فعثَر به الفرس ، فاندقّت عنقُه وعُنق الفرس وانشقّ البُردان . فقال زهير يرثيه :

رأت رَجلاً لاقى من العيش غِبطةً
وأخطأه فيها الأمورَ العظائمُ
وشَبّ له فيها بَنُونَ وتُوبعت
سلامةُ أعوام له وغنائمُ
فأصبح محبوراً[1] ينظّرُ حوله
بغِبطته لو أنّ ذلك دائمُ
وعندي من الأيام ما ليس عنده
فقلت تعلّم إنما أنت حالمُ
لعلّكِ يوماً أن تُراعي بفاجعٍ
كما راعني يومَ النُّتاءة سالمُ [1]

مناسبة معلقته

أبو عُبيدة قال : كان وَرد بن حابس العبسيّ قتل هرِم بن ضَمضم المُرّي ، فتشاجر عبس وذُبيان قبل الصلح ، وحلف حُصين بن ضمضم ألاّ يغسِل رأسه حتى يقتل وَرد بن حابس أو رجلاً من بني عبس ثم من بني غالب ، ولم يُطلع على ذلك أحداً . وقد حَمَل الحَمَالة [2] الحارث بن

---

(١) المحبور : المنعم المسرور . ينظّر حوله : ينظر حوله يميناً ويساراً . النتاءة : موضع بحمى ضريّة ، وقيل ماء لغنيّ .

(٢) الحمالة : الدية .

عوف بن أبي حارثة و (هرِم بن سنان بن أبي حارثة) [1] ،قيل بل أخوه حارثة بن سنان . فأقبل رجلٌ من بني عبس ثم أحد بني مخزوم ، حتى نزل بحُصين بن ضمضم . فقال له حصين : من أنت أيها الرجل ؟ قال عبسيّ . قال : من أي عبس ؟ فلم يزل ينتسب حتّى انتسب إلى بني غالب ، فقتله حُصين .

وبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرِم بن سنان فاشتدّ عليهما ، وبلغ بني عبس فركبوا نحو الحارث فلمّا بلغه ركوبهم اليه وما قد اشتدّ عليهم من قتل صاحبهم وأنهم يريدون قتل الحارث بعث اليهم بمائة من الابل معها ابنه وقال للرسول : قل لهم : الإبل أحبُّ اليكم أم أنفسكم ؟ فأقبل الرسول حتّى قال لهم ذلك . فقال لهم الربيع بن زياد : يا قوم انّ أخاكم قد أرسل اليكم : الإبل أحبّ اليكم أم ابني تقتلونه مكان قتيلكم ؟ فقالوا : نأخذ الابل ونصالح قومنا ، ونُتِمّ الصلح . فذلك حين يقول زهير يمدح الحارث وهرماً :

أمِن أمّ أوفى دِمنةٌ لم تكلّم

وهي أول قصيدة مدح بها هرماً ، ثم تابع ذلك بعدُ .

قصة في سبب احتمال الحارث بن عوف الديات

إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال : قال الحارث بن عوف بن أبي حارثة : أتُراني أخطب إلى أحد فيردَّني ؟ قال : نعم . قال : ومن ذاك ؟ قال : أوس بن حارثة بن لأم الطائي . فقال الحارث لغلامه : ارحَل بنا ، ففعل ، فركبا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده ،

---

(١) ما بين القوسين : إضافة استوجبها السياق لأن حارثة بن سنان هو أخو هرم بن سنان والحارث هو ابن عمهما . وبهذا تستقيم العبارة ، وفي تتمة الخبر ما يدل على ان القائمين بأمر الصلح هما الحارث وهرم .

فوجداه في منزله . فلما رأى الحارث بن عوف قال : مرحباً بك يا حار . قال : وبك . قال : ما جاء بك يا حار ؟ قال : جئتك خاطباً . قال : لستَ هناك ، فانصرف ولم يُكلّمه .

ودخل أوس على امرأته مغضباً ، وكانت من عبس ، فقالت : مَن رجلٌ وقف عليك فلم يُطل ولم تكلّمه ؟ قال : ذاك سيّدُ العرب الحارثُ ابن عوف بن أبي حارثة المُرّي . قالت : فما لك لم تستنزِلْه ؟ قال : إنه استحمق . قالت : وكيف ؟ قال : جاءني خاطباً . قالت : أفتريد أن تزوّجَ بناتك ؟ قال : نعم . قالت : فإذا لم تزوّج سيّد العرب فمن ؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتداركْ ما كان منك . قال : بماذا ؟ قالت : تلحقه فتردّه . قال : وكيف وقد فرط مني ما فرط اليه ؟ قالت : تقول له : انك لقيتني مُغضَباً بأمر لم تقدّم فيه قولاً ، فلم يكن عندي من الجواب إلاّ ما سمعت . فانصرف ولك عندي كل ما أحببت ؛ فإنه سيفعل .

فركب في أثرهما . قال : خارجة بن سنان : فوالله إني لأسيرُ إذ حانت مني التفاتة فرأيته ، فأقبلت على الحارث ، وما يكلّمني غَمّاً ، فقلت له : هذا أوس بن حارثة في أثرنا . قال : وما نصنع به ؟ امضِ . فلمّا رآنا لا نقف عليه صاح : يا حار اربَع عليّ ساعةً . فوقفنا له ، فكلّمه بذلك الكلام ، فرجع مسروراً .

فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : ادعي لي فلانة — لأكبر بناته — فأتته ، فقال : يا بُنيّة ، هذا الحارث بن عوف ، سيّد من سادات العرب ، قد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردتُ أن أزوّجك منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولمَ ؟ قالت : لأني امرأة في وجهي رَدَّة ، وفي خُلقي بعض العُهدة [1] ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلد فيستحيَ منك ، ولا آمن أن يرى مني ما كره فيطلّقني فيكون عليّ في

---

(١) الردة : القبح اليسير . العهدة : الضعف .

ذلك ما فيه . قال : قومي باركِ الله عليك ، ادعي لي فلانة – لأوسط بناته – .

فَدعتْها ، ثم قال لها مثلَ قوله لأختِها ، فأجابته بمثل جوابها وقالت : إني خرقاء وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلّقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمي فيرعى حقّي ، ولا جارك في بلدك فيستحييك . قال : قومي ، باركِ الله عليك ، ادعي لي بُهيسَةَ (يعني الصغرى) .

فأتي بها فقال لها كما قال لهما فقالت : أنت وذاك . فقال لها : اني قد عرضتُ ذلك على أُختَيك فأبتاه ، فقالت – ولم يذكر لها مقالتيهما – : لكني والله الجميلةُ وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خُلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلّقني فلا أخلف اللهَ عليه بخير . فقال : بارك الله عليك .

ثم خرج الينا فقال : قد زوجتُك يا حارث بهُيسةَ بنت أوس . قال : قد قبلت . فأمر أمّها أن تَهيئَها وتصلحَ من شأنها ، ثم أمر ببيتٍ فضُرب له وأنزله إيّاه. فلمّا هُيِّئت بعث بها اليه . فلما أدخلت اليه لبث هنيهةً ثم خرج إليّ . فقلت : أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله . قلت : وكيف ذاك ؟ قال : لمّا مددت يدي اليها قالت : مَهْ ! أعند أبي واخوتي ؟ هذا والله ما لا يكون .

قال : فأمر بالرحلة ، فارتحلنا ورحلنا بها معنا ، فسرنا ما شاء الله . ثم قال لي : تقدّم . فتقدمتُ ، وعدل بها عن الطريق ، فما لبث أن لحق بي . فقلت : أفرغت ؟ قال : لا والله . قلت : ولمَ ؟ قال : قالت لي : أكما يُفعَل بالأمة الجليبة أو السبيّة الأخيذة ! لا والله حتى تُنحرَ الجُزُر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلي . قلت : والله اني لأرى همةً وعقلاً ، وأرجو أن تكون المرأة مُنجبة ان شاء الله .

فرحلنا حتى جئنا بلادنا ، فأحضر الإبل والغنم ، ثم دخل عليها وخرج إلي . فقلت : أفرغت ؟ قال : لا . قلت : ولمَ ؟ قال : دخلت عليها أريدها

وقلت لها : قد أحضرنا من المال ما قد تَرين . فقالت : والله لقد ذكرتَ لي من الشرف ما لا أراه فيك . قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضُها بعضاً ! وذلك في ايام حرب عبس وذبيان . قلت : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك . فقلت : والله اني لأرى همةً وعقلاً ، ولقد قالت قولاً . قال : فاخرُج بنا ، فخرجنا فأتينا القومَ فمشَينا فيما بينَهم بالصلح . فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى ، فيؤخذ الفضلُ ممّن هو عليه ، فحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجمل الذِكر .

قال محمد بن عبد العزيز : فمُدحوا بذلك ، وقال فيه زهير بن أبي سُلمى قصيدته :

أمِن أمّ أوفى دِمنةٌ لم تَكلّم

فذكرهما فيها فقال :

تداركتُما عبساً وذُبيانَ بعدَما ... تفانَوا ودقّوا بينَهم عِطرَ مَنْشمِ
فأصبحَ يجري فيهمُ من تِلادكُم ... مَغانمُ شتّى من إفالِ المُزَنّمِ
ينجمُها قومٌ لقومٍ غَرامةً ... ولم يُهَريقوا بينَهم مِلءَ مِحجَمِ (١)

زهير وهرم بن سنان

عن الأصمعي :

أنّ هرماً كان قد حلف ألا يمدحَه زهيرٌ الا أعطاه ، ولا يسألَه إلا أعطاه ، ولا يسلّم عليه الا أعطاه ، عبداً أو وليدةً أو فرساً . فاستحيا زهيرٌ مما كان يقبل منه . فكان اذا رآه في ملأ قال : عِمُوا صباحاً غيرَ هرِمٍ ، وخيرَكم استثنيت .

---

(١) منشم : امرأة عطارة فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا . أراد : بعدما أفنى بعضهم بعضاً . الإفال ج أفيل ، وهو الصغير من الإبل . المزنم : اسم فحل معروف . يهريقوا : يريقوا . ينجمها : يؤديها منجمة أي مفرقة شيئاً بعد شيء .

خاله بشامة بن الغدير يورّثه شعره

قال ابن الأعرابي : حدثني أبو زياد ... قال : كان **بشامةُ** بن الغدير خال أبي **سُلمى** ، وكان زهير منقطعاً إليه وكان معجبَاً بشعره . وكان بشامةُ رجلاً مُقعداً ولم يكن له ولد ، وكان مكثِراً من المال . ومن أجل ذلك نزل إلى هذا البيت في غطفان لخؤولتهم . وكان بشامة من أحزم الناس رأياً ، وكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزوا أتوه فاستشاروه وصدَرُوا عن رأيه ، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسِمون لأفضلهم ، فمن أجل ذلك كثُر ماله ، وكان أسعد غطفان في زمانه .

فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته . فأتاه زهير فقال : يا خالاه ، لو قسمت لي من مالك . فقال : والله يا بن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله . قال : وما هو ؟ قال : شعري ورثتنيه . وقد كان زهير قبل ذلك قال الشعر ، وقد كان أول ما قال . فقال له زهير : الشعر شيء ما قلتَه فكيف تعتدّ به عليّ ؟ . فقال له بشامة : ومن أين جئت بهذا الشعر ؟ لعلك ترى أنك جئت به من مزينة ، وقد علمت العرب أن حصاتَها وعين مائها في الشعر لهذا الحي من غطفان ، ثم لي منهم ، وقد رويتَه عني ، وأحذاه [1] نصيباً من ماله ومات .

الأصالة الشعرية في أسرته

قال ابن الأعرابيّ : كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ، وكان أبوه شاعراً ، وخاله شاعراً ، وأخته سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبُجير شاعرين ، وأخته الخنساء شاعرة ... وابن ابنه المضرّب بن كعب بن زهير شاعرٌ ، وهو القائل :

---

(١) أحذاه : أعطاه .

إني لأحبس نفسي وهي صاديــةٌ
عن مُصعَبٍ ولقد بانت ليَ الطرقُ
رُعوى عليــه كما أرعى على هرمٍ
جَدّيَ زُهيرٌ وفينا ذلــك الخُلُقُ
مدحُ الملوك وسعيٌ في مَسرّتهــم
ثم الغِنى ويــدُ الممدوح تنطلــقُ

خبره مع الحارث بن ورقاء

قال ابن الأعرابيّ :

كان الحارث بن وَرقاء الصَّيداويّ من بني أسد أغار على بني عبدالله بن غطَفَان فغنيم فاستاق إبل زهير وراعيه يساراً ، فقال زهير :

بأن الخليطُ ولم يَأوُوا لمن تركــوا وزَوّدُوك اشتياقــاً أيّــةً سَلَكُوا

وهي طويلة يقول فيها :

لئِن حللتَ بجَوٍّ في بني أســـدٍ في دِين عَمرو وحالت بيننا فَدَكُ
لَيأتينَّك مني مَنطِقٌ قَــــذَعٌ باقٍ كما دَنَّس القُبْطِيّــةَ الوَدَكُ
فارْدُدْ يساراً ولا تعنُفْ عليـــه ولا تَمْعَكْ بعرضِك إنّ الغادرَ المَعِكُ
ولا تكونَنْ كأقــوامٍ علمتُهــمُ يَلْوُون ما عندهم حتى إذا نُهِكوا
طابت نفوسُهم عن حقّ خَصمِهــمُ مَخافةَ الشرّ وارتدّوا لِمَا تَركو (١)

... قال : فلمّا أُنشد الحارثُ هذا الشعر بعث بالغلام إلى زهير ...

---

(١) الخليط : الأصحاب والأخلّاء المخالطون في الديار . لم يأووا : لم يرقوا . الجو : ما اتسع من الأودية وهو ينسب إلى طائفة من القبائل . دين عمر : طاعته وعمرو المقصود هنا هو عمرو بن هند ملك الحيرة . القبطية : ثياب كتان رقيق بيض تصنع في مصر . الودك : الدسم . المعك : المطل . يلوون : يمطلون . نهكوا : شتموا وبولغ في هجائهم .

هجاؤه بني عُليم وندمه على ذلك

عن سعيد بن عمرو بن سعيد :

أنه بلغه أن زهيراً هجا آل بيت من كَلْبٍ من بني عُلَيم بن جَناب ، وكان بلغه عنهم شيءٌ من وراءِ وراءٍ ، وكان رجلٌ من بني عبدالله بن غطفان أتى بني عُليم ، وأكرموه لّما نزَل بهم وأحسنوا جِواره ، وكان رجلاً مولعاً بالقِمار ، فَنَهوه عنه ، فأبى إلّا المقامرة . قَمِر مَرّةً فردّوا عليه ، ثم قُمر أخرى فردُّوا عليه ، ثم قُمر الثالثة فلم يردّوا عليه ، فترحّل عنهم وشكا ما صُنع به إلى زهير ـ والعربُ حينئذٍ يَتّقون الشعراء اتّقاءً شديداً ـ فقال : ما خرجت في ليلةٍ ظلماً إلّا خِفتُ أن يُصيبني اللهُ بعقوبة لهجائي قوماً ظلمتُهم . قال : والذي هجاهم به قولُه :

عفا من آل فاطمةَ الجِواءُ … فيَمْنٌ فالقوادِمُ فالحِساءُ
فذُو هاشٍ فمِيثُ عُرَيْتِناتٍ … عفَتها الرّيحُ بعدَكَ والسَّماءُ
جرتْ سُخاً فقُلتُ لها أَجيزي … نوىً مشمولةً فمتى اللِقاءُ
كأنّ أوابِدَ الثِيران فيها … هَجائنُ في مَغابِنِها الطِّلاءُ
لقد طالبتُها ولكلِّ شيءٍ … وإن طالت لَجاجتُه انتهاءُ
وقد أَغدو على شَرْب كرامٍ … نَشاوى واجدِين لِما نَشاءُ
لهم طاسٌ وراووقٌ ومِسكٌ … تُعَلُّ به جُلودُهم وماءُ (١)

(١) الجواء : واد في ديار بني عبس وكذلك وادٍ في ديار بني أسد . يمن ، بفتح الياء وقد تضم : ماء لغطفان . القوادم : موضع في بلاد غطفان . الحساء وذو هاش : موصفان في بلاد غطفان . ميث ج ميثاء : الأرض السهلة . عِريتنات : اسم واد . السانح : ما أقبل من شمالك . أجيزي : اقطعي وجوزي شمولة : سريعة الإِنكشاف . الأوابد : المتوحشة . ابل هجائن: بيض كرام . المغابن ج مغبن : الإبط والرفغ . الطلاء : القطران . الراووق : ناجود الخمر الذي تروّق به والكأس .

- ٤ -

الأعشى [1]

(الأغاني ج ٩ ص ١٠٨ وما بعدها)

الشاعر

الأعشى هو ميمون بن قيس ... بن بكر بن وائل ... ويكنى أبا بَصير ، وكان يقال لأبيه قيس بن جندل قتيل الجوع ، سمي بذلك لأنه دخل غاراً يستظلّ فيه من الحرّ ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدّت فم الغار فمات فيه جوعاً .

وهو أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم وتقدم على سائرهم ، وليس ذلك بمجمَع عليه لا فيه ولا في غيره . عن محمد بن سلاّم قال : سألت يونس النحوي : مَن أشعرُ الناس ؟ قال : لا أُومىء إلى رجلٍ بعينه ولكني أقول : امرؤ القيس اذا غضب ، والنابغة اذا رَهِب . وزهيرٌ اذا رغِب ، والأعشى اذا طرب .

قال أبو عبيدة : من قدّم الأعشى يحتجّ بكثرة طِواله الجِياد ، وتصرّفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر ، وليس ذلك لغيره . ويقال : هو أول من سأل بشعره ، وانتجع به أقاصي البلاد . وكان يُغني في شعره ، فكانت

العرب تسمّيه صنّاجة العرب .

قال الشعبيّ : الأعشى أغزلُ الناس في بيت ، وأخنث الناس في بيت ، وأشجعُ الناس في بيت . فأمّا أغزلُ بيت فقوله :

غرّاء فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها
تمشي الهُوَيْنى كما يمشي الوجِي الوَحِلُ [1]

وأمّا أخنث بيت فقوله :

قالت هُرَيرةُ لمّا جئتُ زائرَها :
ويلي عليكَ وويلي منكَ يا رجلُ

وأما أشجع بيت فقوله :

قالوا الطِرادَ فقُلنا تلك عادتُنا
أو تنزِلون فإنّا معشرٌ نُزُلُ

عمر بن شبّة قال : سمعت أبا عُبيدة يقول : سمعت أبا عَمرو بن العَلاء يقول : عليكم بشعر الأعشى ، فإنّي شبّهتُه بالبازي يصيد ما بينَ العَندليب إلى الكُرْكيّ .

قال يحيى بن الجوَن العَبديّ راوية بشّار :

نحن حاكة الشعر في الجاهلية والإسلام ونحن أعلم الناس به : أعشى بني قيس بن ثعلبة أستاذُ الشعراء في الجاهلية ، وجرير بن الخَطَفي أستاذُهم في الإسلام .

يحيى بن متّى راوية الأعشى ، وكان نصرانياً عِباديّاً وكان مُعَمَّراً قال :

---

(١) الوجي : الذي يجد ألماً في رجليه . الوحل : الماشي في الوحل .

كان الأعشى قَدَرياً وكان لَبيدٌ مُثبتاً[1] . قال لبيد :

من هداه سُبُلَ الخـــــير اهتـــــــدى
ناعمَ البـــال ومَـــن شـــاء أَضَـــــلْ

وقال الأعشى :

استأثر اللهُ بالوفاء وبالعَدْل وولّى الملاَمةَ الرجُلا قلت : فمن أين أخذ الأعشى مَذهبه ؟ قال : من قِبل العِبادِيّين نصارى الحِيرة ، كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقّنوه ذلك .

خبره مع المحلّق الكلابي

كان الأعشى يوافي سوقَ عُكاظ في كل سنة ، وكان المحلّق الكلابي مِئناثاً[2] مملقاً . فقالت له امرأته : يا أبا كِلاب . ما يمنعك من التعرّض لهذا الشاعر ؟ فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلاّ وأكسبه خيراً . قال : ويحك ، ما عندي إلا ناقتي وعليها الحِمل . قالت : الله يُخلِفُها عليك . قال : فهل له بُدّ من الشراب والمُسوح . قالت : إنّ عندي ذخيرة لي ولعلّي أن أجمعها . فتلقّاه قبل أن يسبق اليه أحد وابنه يقوده فأخذ الخِطام .

فقال الأعشى : من هذا الذي غلبنا على خطامنا ؟ قال : المحلّق . قال : شريفٌ كريم .

ثم سلّمه اليه فأناخه ، فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ، ثم سقاه . وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه . فقال : ما هذه الجواري حولي ؟ قال : بنات أخيك وهنّ ثمان شريدتهنّ قليلة .

---

(١) القدري هنا : الذي ينكر القدر والمثبت هو المؤمن به .

(٢) المئناث : من كان جل ولده إناثاً .

وخرج من عنده ولم يقل فيه شيئاً . فلمّا وافى (أي المحلق) سوق عكاظ اذا هو بسَرحة قد اجتمع الناس عليها ، واذا الأعشى ينشدهم :

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ إلى ضَوء نارٍ باليَفاعِ تَحرّقُ
تُشَبُّ لمقرورَين يصطليانها وبات على النارِ الندى والمحلَّق
رضيعَي لِبانِ ثدي أمٍّ تحالفا بأسحمَ داجٍ عوضُ لا نتفرّقُ(١)

فسلّم عليه المحلّق فقال له : مرحباً بسيّد قومه ونادى : يا معاشر العرب . هل فيكم مذكارٌ يزوّج ابنه إلى الشريف الكريم ؟ فما قام من مقعده وفيهنّ مخطوبة إلا وقد زوّجها .

وفي أول القصيدة غناءٌ وهو :

أرقتُ وما هذا السُهادُ المؤرّقُ وما بيَ من سُقمٍ وما بي مَعشَقُ
ولكن أراني لا أزال بحادثٍ أُغادى بما لم يُمسِ عندي وأُطرَقُ

قال المفضَّل أنشد الأعشى قصيدته هذه كسرى ، ففُسّرت له ، فلمّا سمعها قال : ان كان هذا سهِر لغير سُقم ولا عِشق فما هو إلا لص .

الأعشى يمدح عامر بن الطفيل ويهجو علقمة بن عُلاثة

عن محمد بن السائب (٢) قال : أتى الأعشى الأسود العنسيّ ، وقد امتدحه ، فاستبطأ جائزته . فقال الأسود : ليس عندنا عَين ولكن نعطيك

---

(١) أسحم داج : أراد الليل . عوض : أبداً .

(٢) محمد بن السائب هو الراوية الكلبي .

عَرَضاً . فأعطاه بخمسمائة مثقال دُهناً وبخمسمائة حُللاً وعنبراً . فلمّا مرّ ببلاد بني عامر خافهم على ما معه . فأتى علقمة بن عُلاثة فقال له : أجِرني . فقال : قد أجرتُك . قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت ؟ قال : لا . فأتى عامر بن الطُفَيل فقال : أجِرني . قال : قد أجرتك . قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت ؟ قال : نعم . قال : وكيف تُجيرني من الموت ؟ قال : ان مُتّ وأنت في جواري بعثتُ إلى أهلك الدية . فقال : الآن علمت أنك قد أجرتني من الموت . فمدح عامراً وهَجا علقمة . فقال علقمة : لو علمتُ الذي أراد كنت أعطيته اياه .

قال الكلبي : ولم يُهجَ علقمة بشيء أشدّ عليه من قوله :

تبيتون في المَشتى مِلاءً بطونُكم وجاراتُكم غَرثَى يَبِتنَ خمائصا (١)

فرفع علقمة يديه وقال : لعنَهُ اللهُ ، إن كان كاذباً ، أنحن نفعل هذا بجاراتنا ؟!

عن محمد بن السائب الكلبيّ قال :

هجا الأعشى رجلاً من كلب فقال :

بنو الشهر الحرَام فلستَ منهم ولست من الكرام بني عُبيدِ
ولا من رَهْط جبّار بن قُرطٍ ولا من رهط حارثة بن زيد

قال : وهؤلاء كُلّهم من كلب . فقال الكلبيّ : لا أبالك ، أنا أشرفُ من هؤلاء . قال : فسبّه الناسُ بعدُ بهجاء الأعشى إيّاه ، وكان متغيّظاً عليه . فأغار على قوم قد بات فيهم الأعشى ، فأسرَ منهم نفَراً وأسر الأعشى وهو لا يعرفه ، ثم جاء حتى نزل بشُريح بن السَمَوْءَل بن عادياء الغَسّاني صاحب

---

(١) غرثى : جائعات .

تَيْماءَ بحِصنه الذي يقال له الأبلق . فمرّ شُريحٌ بالأعشى ، فناداه الأعشى :

شُريحُ لا تَترُكَنّي بعـدما علِقـتْ
حِبالَكِ اليـومَ بعد القِـدّ أظفـاري
قد جُلتُ ما بين بانِقيـا إلى عَـدَنٍ
وطال في العُجْم تَردادي وتَسيـاري
فكان أكرمَهم عَهـداً وأوثَقَهـم
مجداً أبوك بعُرفٍ غـيرِ إنكـارِ
كالغيث ما استمطَـرُوه جـاد وابِلُـه
وفي الشّدائد كالمُسْتأسِـد الضـاري
كُن كالسَّمَوءل إذ طـاف الهُمـام بـه
في جَحْفَـلٍ كهزيـع الليـل جَـرّارِ
إذ سامه خُطَّـتي خَسْفٍ فقـال لـه
قل ما تشاءُ فإنّي سامـعٌ حـارِ

فقال غَدْرٌ وثُكْلٌ أنت بينهمـا — فاختَرْ وما فيهما حَظٌّ لمختـارِ
فشَكَ غيرَ طويلٍ ثم قال لـه — أُقتُل أسيرَك إنّي مانعٌ جـاري
وسوف يُعقِبُنيه إن ظفرتَ بـه — ربٌّ كريم وبِيضٌ ذاتُ أَطهـار
لا يسرُّهـنّ لدينـا ذاهـبٌ هَدَراً — وحافظاتٌ إذا استُودِعن أسراري
فاختار أدراعَه كي لا يُسَبَّ بهـا — ولم يكن وعدُه فيها بختّـارِ [1]

قال : وكان امرؤ القيس بن حُجر أودع السموءل بن عادياء أدراعاً مائةً ، فأتاه الحارث بن ظالم ـ ويقال الحارث بن أبي شمِر الغسّاني ـ ليأخُذَها منه ،

---

(١) القد : القيد . بانقيا : من نواحي الكوفة . حارِ : أي يا حارث ، على الترخيم . ختار : غدّار ، والختر : الغدر .

فتحصَن منه السموءل ، فأخذ الحارث ابناً له غلاماً وكان في الصيد ، فقال : إمّا أن سَلّمتَ الأدراع إليّ وإمّا أن قتلت ابنَك ، فأبى السموءل أن يُسلم إليه الأدراع ، فضرب الحارث وسطَ الغلام بالسيف فقطعه قطعتين... قال : فجاء شريحٌ إلى الكلبيّ فقال له : هَبْ لي هذا الأسيرَ المضرور . فقال : هو لك . فأطلقه ، قال : أقم عندي حتى أكرمك وأحْبُوَك . فقال له الأعشى : إن من تمام صنيعَك أن تعطيني ناقةً نجيبةً وَتخلّيني الساعة . قال : فأعطاه ناقةً فركبها ومضى من ساعته . وبلغ الكلبيَّ أن الذي وهب لشريح هو الأعشى ، فأرسل إلى شريح : ابعَثْ إليَّ الأسيرَ الذي وهبتُ لك حتى أَحْبُوَه وأُعطِيه . فقال : قد مضى . فأرسل الكلبيُّ في أثره فلم يَلحَقْه .

أراد الوفود على النبي فردّته قريش

قال هشام بن القاسم الغنويّ ، وكان علاّمة بأمر الأعشى : إنه وفد إلى النبي ﷺ وقد مدحه بقصيدته التي أولها :

ألم تغتمضْ عيناكَ ليلةَ أرمدا ... وعادك ما عاد السليمَ المسهّدا
وما ذاك من عِشق النساءِ وانما ... تناسيتَ قبل اليوم خُلّة مَهْدَدا

وفيها يقول لناقته :

فآليتُ لا أرثي لها من كلالةٍ ... ولا من حفىً حتى تزور محمّدا
نبيٌّ يرى ما لا تَرون وذِكرُه ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
متى ما تُناخِي عند باب ابن هاشمٍ ... تُراحِي وتلقَي من فواضِله يَدا [1]

---

(١) السليم : هنا ، الملدوغ . مهدد : اسم امرأة . الخلة : الصداقة .

فبلغ خبره قريشاً فرصدوه على طريقه وقالوا : هذا صنّاجة العرب ، ما مدح أحداً قط إلاّ رفع في قدره . فلما ورد عليهم قالوا : أين أردت أبا بصير ؟ قال : أردت صاحبكم هذا لأسلم . قالوا : إنه ينهاك عن خِلال ويحرّمها عليك ، وكلّها بك رافق ولك موافق . قال : وما هنّ ؟ فقال أبو سفيان بن حرب : الزنا . قال : لقد تركني الزنا وما تركته ، ثم ماذا ؟ قال : القمار . قال : لعلّي ان لقيته أن أصيب منه عِوضاً من القمار ، ثم ماذا ؟ قالوا : الرِبا . قال : ما دنت ولا ادّنتُ ، ثم ماذا ؟ قالوا : الخمر . قال : أوّه ، أرجع إلى صُبابةٍ قد بقيت لي في المِهراس فأشربُها . فقال له أبو سفيان : هل لك في خير ممّا هممت به ؟ قال : وما هو ؟ قال : نحن وهو الآن في هدنة ، فتأخذ مائةً من الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه وتنظر ما يصير اليه أمرُنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خَلَفاً ، وان ظهر علينا أتيتَه . فقال : ما أكره ذلك . فقال أبو سفيان : يا معشر قريش ، هذا الأعشى ، والله لئن أتى محمداً واتّبعه ليُضرمنَّ عليكم نيرانَ العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل ، ففعلوا ، فأخذها وانطلق إلى بلده ، فلما كان بقاع منفوحة [1] رمى به بعيرُه فقتله .

عشيقته هريرة

قالوا : كانت هُريرة التي يشبّب بها الأعشى أمةً سوداءَ لحسّان ابن عمرو بن مرثَد . وعن فِراس بن الخندف قال : كانت هريرة وخُليدة أختين قَينتين كانتا لبشر بن عمرو بن مرثد ، وكانتا تغنّيانه النَصب [2] ، وقدم بهما اليمامة لمّا هرب من النعمان .

---

(١) منفوحة : من قرى اليمامة .

(٢) النصب : ضرب من أغاني العرب شبيه بالحداء .

قبره بمنفوحة

علي بن سليمان النوفلي قال : حدّثنا أبي قال : أتيت اليمامة والياً عليها ، فمررت بمنفوحة ، وهي منزل الأعشى التي يقول فيها :

بِشطّ منفوحةَ فالحاجرِ

فقلت : أهذه قرية الأعشى ؟ قالوا : نعم . فقلت : أين منزله ؟ قالوا : ذاك ، وأشاروا اليه . قلت : فأين قبره ؟ قالوا : بفِناء بيته . فعدلت اليه بالجيش فانتهيت إلى قبره ، فإذا هو رطب . فقلت : ما لي أراه رطباً ؟ فقالوا : إن الفتيان ينادمونه فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار اليه القدح صبّوه عليه لقوله : « أرجع إلى اليمامة فأشبع من الأطيبَين الزنا والخمر » .

الشعراء الصّعاليك

- ٥ -

عُروة بن الورد العبسي

(الأغاني ج ٣ ص ٧٣ وما بعدها)

الشاعر

عُروة بن الوَرْد ... بن عبس ... بن غطَفان ... شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدّمين الأجواد . وكان يلقّب عروة الصعاليك لجمعه اياهم وقيامه بأمرهم اذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاشٌ ولا مَغزى . وقيل : بل لُقب عروة الصعاليك لقوله :

لحى الله صُعلوكاً اذا جَنّ ليلُه ... مُصافي المُشاشِ[1] آلفاً كلَّ مَجزَرِ
يَعُدُّ الغِنى من دهرِه كلَّ ليلةٍ ... أصاب قِراها من صديقٍ مُيسّر
ولله صُعلوكٌ صفيحةُ وجهِه ... كضوءِ شِهاب القابسِ المتنور

(١) المشاش : العظم الهش الدسم .

عمر بن شبّة قال : بلغني أن معاوية قال : لو كان لعروة بن الورد ولدٌ لأحببت أن أتزوج اليهم ...

قال عبد الملك بن مروان : ما يسرّني أن أحداً من العرب ولدني مِمّن لم يَلدني إلا عروةَ بن الورد لقوله :

اني امرؤٌ عافي إنـائي شِركـــةٌ   وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحـدُ
أتهزأ مني أنْ سَمِنـتَ وأن تَرى   بجسميَ مَسّ الحق والحقُّ جاهدُ
أُفرّقُ جسمي في جُسوم ٍ كثيرة ٍ   وأحسُو قَراح الماءِ والماءُ باردُ (١)

ويقال : إن عبد الملك قال : من زعم أن حاتماً أسمحُ الناس فقد ظلم عروةَ بن الورد .

طائفة من أخباره :

عن ابن الأعرابي قال : حدثني أبو فَقعس قال :

* كان عروةُ بن الورد اذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدّة ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنُفُ عليهم الكنُف ويكسِبهم (٢) . ومن قوي منهم – امّا مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوّته – خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً . حتى اذا أخصب الناس وألبَنُوا (٣) وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها . فربما أتى الإنسان منهم أهله

(١) العافي : طالب المعروف .
(٢) الكنيف : الحظيرة يأوون إليها . يكسبهم : يطلب لهم ما يعيشون به .
(٣) ألبن الرجل : كثُر اللبن عنده .

وقد استغنى . فلذلك سُمّي عروة الصعاليك ...

• عن أبي عمرو الشيباني : أصاب عروةُ امرأة من بني كنانة بِكراً يقال لها سَلمى وتكنى أم وهب . فأعتقها واتّخذها لنفسه . فمكثت عنده بضع عشرة سنة وولدت له أولاداً وهو لا يشكّ في أنها أرغب الناس فيه ، وهي تقول له : لو حججت بي فأمرّ على أهلي وأراهم .

فحجّ بها ، فأتى مكة ثم أتى المدينة . وكان يخالط من أهل يثرب بني النَضير فيقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم ، وكان قومها يخالطون بني النَضير ، فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى : إنه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام ، فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيُون أن تكون امرأةٌ منكم معروفةُ النسب صحيحتُه سبيّةً ، وافتدوني منه ، فإنّه لا يرى أني أفارقه ولا أختار عليه أحداً .

فأتوه فسقوه الشراب ، فلمّا ثمل قالوا له : فادِنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا ، معروفة ، وان علينا سُبّة أن تكون سبيّة ، فإذا صارت الينا وأردت معاودتها فاخطبها الينا فإننا نُنكحك . فقال لهم : ذاك لكم ، ولكن لي الشرط فيها أن تخيّروها ، فان اختارتني انطلقت معي إلى ولدها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها . قالوا : ذاك لك . قال : دعوني ألْهُ بها الليلة وأفادِها غداً .

فلمّا كان الغد جاؤوه فامتنع من فِدائها ، فقالوا له : قد فاديتَنا بها منذُ البارحةِ ، وشهد عليه بذلك جماعةٌ ممّن حضر ، فلم يقدر على الامتناع وفاداها . فلمّا فادَوه بها خيّروها فاختارت أهلها ، ثم أقبلت عليه فقالت : يا عروةُ ، أما إني أقول فيك — وإن فارقتُك — الحقَ . والله ما أعلم امرأةً من العرب ألقت سترَها على بَعلٍ خيرٍ منك وأغضّ طرفاً وأقلّ فُحشاً وأجود يداً وأحمى لحَقيقةٍ (١) ، وما مرّ عليّ يوم منذ كنت عندك الا والموت

(١) حقيقة الرجل : ما يجب عليه أن يحميه وما يلزمه الدفاع عنه .

فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك ، لأني لم أكن أشاء أن أسمعَ امرأةً من قومك تقول : قالت أمَة عروة كذا وكذا إلاّ سمعتهُ . ووالله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم . فقال عروة في ذلك : سقَوني الخمر ثم تكنّفوني .

* عن حُرّ بن قطن أن ثمامة بن الوليد دخل على المنصور فقال : يا ثمامة ، أتحفظ حديث ابن عمّك عروة الصعاليك ابن الورد العبسي ؟ فقال : أي حديث يا أمير المؤمنين ؟ فقد كان كثير الحديث ، حَسَنَه . قال : حديثه مع الهذلي الذي أخذ فرسه . قال : ما يحضرني ذلك فأرويَه يا أمير المؤمنين . فقال المنصور : خرج عروة حتى دنا من منازل هذيل فكان منها على نحو ميلين ، وقد جاع . فإذا هو بأرنب فرماها ثم أورى ناراً فشواها وأكلها ودفن النار على مقدار ثلاث أذرع ، وقد ذهب الليل وغارت النجوم ، ثم أتى سَرحةً (١) فصعدها وتخوّف الطلب .

فلمّا تغيّب فيها اذ الخيل قد جاءت وتخوّفوا البيَات (٢) . وجاءت جماعة منهم ومعهم رجل على فرس فجاء حتى ركز رمحه في موضع النار وقال : لقد رأيت النار ها هنا . فنزل رجل فحفر قدر ذراع فلم يجد شيئاً . فأكب القوم على الرجل يعذلونه ويعيبون أمره ويقولون : عنّيتنا في مثل هذه الليلة القرّة وزعمت لنا شيئاً كذبت فيه . فقال : ما كذبت ، ولقد رأيت النار في موضع رمحي . فقالوا : ما رأيت شيئاً ، ولكنّ تحذلقَك وتدهّيَك (٣) هو الذي حملك على هذا . وما نعجب إلا لأنفسنا حين أطعنا أمرك واتّبعناك . ولم يزالوا بالرجل حتى رجع عن قوله لهم .

واتّبعهم عروة ، حتى اذا وردوا منازلهم جاء فكمن في كِسر بيت ،

---

(١) السرحة : شجرة ضخمة طويلة يستظل بها .
(٢) البيات : الإغارة على القوم ليلا على حين غرة .
(٣) التحذلق : اظهار الحذق . والتدهي : إظهار الدهاء .

وجاء الرجل الى امرأته وقد خالفه إليها عبد أسود ، وعروة ينظر. فأتاها العبد بعلبة فيها لبن فقال : اشربي . فقالت : لا أو تبدأ ، فبدأ الأسود فشرب . فقالت للرجل حين جاء : لعن الله صلفك ، عنّيت قومك منذ الليلة . قال : لقد رأيت ناراً . ثم دعا بالعلبة ليشرب فقال حين ذهب ليكرع : ريح رجلٍ وربِ الكعبة . فقالت امرأته : وهذه أخرى ، أي ريح رجل تجده في إنائك غير ريحك ؟ ثم صاحت فجاء قومها فأخبرتهم خبره ، وقالت : يتّهمني ويظنّ بي الظنون . فأقبلوا عليه باللوم حتّى رجع عن قوله . فقال عروة : هذه ثانية .

ثم أوى الرجل إلى فراشه ، فوثب عروة إلى الفرس وهو يريد أن يذهب به ، فضرب الفرس بيده وتحرّك ، فرجع عروة إلى موضعه ، ووثب الرجل فقال : ما كنت لتكذبني فمالك ؟ فأقبلت عليه امرأته لوماً وعذلاً ، فصنع عروة ذلك ثلاثاً وصنعه الرجل ، ثم أوى الرجل إلى فراشه وضجر من كثرة ما يقوم فقال : لا أقوم اليك الليلة . وأتاه عروة فحال في متنه [1] وخرج ركضاً . وركب الرجل فرساً عنده أنثى . قال عروة : فجعلت اسمعه خلفي يقول : الحقي فإنك من نسله .

فلما انقطع عن البيوت قال له عروة بن الورد : أيها الرجل قف ، فإنك لو عرفتني لم تُقدم عليّ ، أنا عروة بن الورد ، وقد رأيت الليلة منك عجباً ، فأخبرني به وأردّ اليك فرسك . قال : وما هو ؟ قال : جئت مع قومك حتّى ركزت رمحك في موضع نار قد كنت أوقدتُها ، وبينك وبين النار ميلان فأبصرتَها منهما ، فثنوك عن ذلك فانثنيت وقد صدقت . ثم اتبعتك حتّى أتيت منزلك ، ثم شممت رائحة رجل في انائك ، وقد رأيتُ الرجل حين آثرته زوجتك بالإناء ، وهو عبدكُ الأسود ، وأظن أن بينهما ما لا تحب ، فقلت : ريح رجل ، فلم تزل تثنيك عن ذلك حتّى انثنيت . ثم خرجتُ إلى فرسك فأردته فاضطرب وتحرّك ، فخرجت اليه ، ثم خرجت وخرجت ،

---

(١) حال في متن فرسه : وثب وركب .

ثم أضربت عنه ، فرأيتك في هذه الخصال أكمل الناس ولكنك تنثني وترجع . فضحك وقال : ذلك لأخوال السَّوء ، والذي رأيت من صرامتي فمن قِبَل أعمامي هُذيل ، وما رأيت من كعاعتي[1] فمن قبل أخوالي ، وهم بطن من خزاعة ، والمرأة التي رأيت عندي امرأة منهم ، وأنا نازلٌ فيهم ، فذلك الذي يثنيني عن أشياء كثيرة ، وأنا لاحقٌ بقومي وخارج عن أخوالي هؤلاء ومُخَلٍّ سبيل المرأة ، ولولا ما رأيت من كعاعتي لم يقو على مناوأة قومي أحد من العرب :

فقال عروة : خذ فرسك راشداً . قال : ما كنت لآخذه منك وعندي من نسله جماعة مثله ، فخذه مباركاً لك فيه .

* قال ابن الأعرابي : أجدب ناسٌ من بني عبس في سَنَة[2] أصابتهم فأهلكت أموالهم وأصابهم جوعٌ شديدٌ وبؤسٌ ، فأتوا عُروةَ بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصُروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أَغثنا . فرقّ لهم وخرج ليغزوَ بهم ويُصيب معاشاً ، فنهته امرأته عن ذلك لما تخوّفت عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غازياً ، فمرّ بمالك بن حِمار الفزاري ثم الشَمْخيّ ، فسأله : أين يريد ؟ فأخبره ، فأمر له بجزُور فنحرها فأكلوا منها ، وأشار عليه مالك أن يرجع ، فعصاه ومضى حتى انتهى إلى بلاد بني القَين ، فأغار عليهم فأصاب هَجمةً[3] عاد بها على نفسه وأصحابه ، وقال في ذلك :

أرى أمَّ حسّانَ الغَداةَ تلومُني ... تُخوّفني الأعداءَ والنفسُ أخوفُ
تقول سُليمى : لو أقمتَ لسرّنا ... ولم تدرِ أني للمُقام أُطوِّفُ
لعلّ الذي خوّفتِنا من أمامِنا ... يُصادفُه في أهلِه المتخلِّفُ

وهي طويلة .

---

(1) الكعاعة : الجبن والضعف .
(2) السنة هنا : القحط .
(3) الهجمة : القطيع من الإبل .

وقال في ذلك أيضاً :

أليس ورائي أن أدِبَّ على العصــا … فيشمَتَ أعدائي ويسأمَــني أهلي
رهينةَ قعرِ البيتِ كــلَّ عشيّــةٍ … يُطيفُ بي الوِلدانُ أهدجَ كالرَّألِ
أقيموا بني لبُــنى صُدورَ ركابكم … فكلُّ منايا النَفس خيرٌ من الهُزْلِ
فإنّكم لن تبلغــوا كــلَّ هِمّتي … ولا أَرَبي حتى تَروا مَنْبِتَ الأثْلِ
لعلَّ ارتيادي في البــلاد وحيلــتي … وشدّي حيازيمَ المطيّة بالرَحْــلِ
سيدفعُني يومــاً إلى رَبّ هَجمــةٍ … يُدافع عنها بالعُقوق وبالبُخلِ [1]

* * *

---

(١) الهدج : اضطراب المشي من الكبر . الرأل : ولد النعام . الهزل : الهزال والضعف . منبت الأثل : يريد بلاد بني القين ، والأثل : ضرب من الشجر .

- ٦ -

السُّليك بن السُّلكة

(الأغاني ج ٢٠ ص ٣٧٤ وما بعدها)

الشاعر

هو السُليك بن عمرو ، وقيل بن عُمير بن يثربي ، أحد بني مُقاعس ... ابن تميم .

والسُلَكَة أمه ، وهي أمة سوداء ، وهو أحد صعاليك العرب العَدّائين الذين كانوا لا يُلحَقون ولا تعلق بهم الخيل اذا عدَوا وهم : السليك بن السلكة ، والشَنفرى ، وتأبّط شرّاً ، وعمرو بن برّاق ، ونفيل بن براقة ...

صفاته وبعض أخباره

قال أبو عبيدة : حدثني المنتجع بن نبهان قال :

كان السُليك بن عُمير السعدي اذا كان الشتاء استودَع ببَيض النعام ماء السماء ثم دفنه ، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار . وكان أدلّ من قطاة ، يجيء حتى يقف على البيضة . وكان لا يُغير على مضر ،

وانما يُغير على اليمن ، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة .

وقال المفضّل: وكان السليك من أشدّ رجال العرب وأنكرهم وأشعرهم. وكانت العرب تدعوه سُليك المقانب [1] ، وكان أدلّ الناس بالأرض ، وأعلمهم بمسالكها ، وأشدّهم عدواً على رِجليه لا تعلق به الخيل ...

فذكروا أنه أملق حتى لم يبق له شيء ، فخرج على رجليه رجاء أن يُصيب غِرّة من بعض من يمرّ به فيذهب بإبله . حتى أمسى في ليلة من ليالي الشتاء باردةٍ مقمرة ، فاشتمل الصمّاء ثم نام — واشتمال الصماء : أن يردّ فضلة ثوبه على عضده اليمنى ثم ينام عليها — .

فبينا هو نائم إذ جثم عليه رجل فقعد على جنبه فقال : استأسر ، فرفع السليك إليه رأسه وقال : الليل طويل وأنت مقمر ، فأرسلها مثلاً . فجعل الرجل يلهزه ويقول : يا خبيث استأسر . فلمّا آذاه بذلك أخرج السليك يده فضمّ الرجل اليه ضمّة ضرِط منها وهو فوقه . فقال السليك : أضرَطاً وأنت الأعلى ؟ فأرسلها مثلاً . ثم قال : من أنت ؟ فقال : أنا رجل افتقرت فقلت لأخرجنّ فلا أرجع إلى أهلي حتى أستغني ، فآتيهم وأنا غني . قال : انطلق معي ، فانطلقا ، فوجدا رجلاً قصته مثل قصتهما ، فاصطحبوا جميعاً حتى أتوا الجوف ، جوف مُراد .

فلمّا أشرفوا عليه اذا فيه نَعَم قد ملأ كل شيء من كثرته ، فهابوا أن يُغيروا فيُطردوا بعضها ، فيلحقهم الطلب . فقال لهما سليك : كونا قريباً مني حتى آتي الرعاء فأعلم لكما علم الحي ، أقريب أم بعيد ، فإن كانوا قريباً رجعت إليكما ، وان كانوا بعيداً قلت لكما قولاً أومىء إليكما به فأغيرا .

فانطلق حتى أتى الرِّعاء فلم يزل يستنطِقهم حتى أخبروه بمكانِ الحيّ

---

(١) المقانب ج مقنب : وهو من الخيل من الثلاثين إلى الأربعين .

فإذا هم بعيدون ، ان طُلبوا لم يُدرَكوا . فقال السليكُ للرعاء : ألا أغنّيكم ؟ فقالوا : بلى غنّنا ، فرفع صوته وغنّى :

يا صاحبيَّ ألا لاحيَّ بالوادي سوى عَبيدٍ وآمٍ بينَ أذوادِ
أتنظران قريباً رَيثَ غَفلتِهم أم تغدُوان فإنّ الرِيحَ للغادي [1]

فلمّا سمعا ذلك أتيا السليك فأطردُوا الابل فذهبوا بها ولم يبلغ الصريخُ الحيَّ حتى فاتُوهم بالإبل .

عن أبي عبيدة :

* خرج سُلَيك في الشهر الحرام حتى أتى عكاظ ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه ثم خرج متفضّلاً [2] مترجّلاً ، فجعل يطوف الناس ويقول : من يصف لي منازل قومه وأصف له منازل قومي ؟ فلقيه قيس بن مكشوح المراديّ فقال : أنا أصف لك منازل قومي وصِفْ لي منازل قومك ، فتوافقا ، وتعاهدا ألاّ يتكاذبا .

فقال قيسُ بن المكشوح : خُذ بين مهبّ الجنوب والصَبا ، ثم سِر حتى لا تدري أين ظلّ الشجرة ، فإذا انقطعت المياه فسِر أربعاً حتى تبدو لك رملة وقفّ [3] بينهما الطريق ، فإنك ترد على قومي مراد وخثعم .

فقال السليك : خذ بين مطلعِ سُهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من أفق السماء ، فثَمّ منازل قومي بني سعد بن زيد مناة .

فانطلق قيس إلى قومه فأخبرهم الخبر فقال أبوه المكشوح : ثَكِلَتْكَ

---

(١) الآم : ج أمة ، الأذواد ج ذود وهو من البعير : ما بين الثلاثة إلى العشرة . الريح : الغلبة والظفر .
(٢) التفضل : أن يخالف بين أطراف ثوبيه على عاتقيه ، ورجل فضل : متفضل في ثوب واحد .
(٣) القف : ما ارتفع من الأرض .

أمُّك ، هل تدري من لقيت؟ قال : لقيت رجلاً فضُلاً كأنّما خرج من أهله . فقال : هو الله سُليك بن سعد . فاستعلق واستعوى[1] السليك قومه فخرج أحماس[2] من بني سعد وبني عبد شمس — وكان في الربيع يعمد إلى بيض النعام فيملؤه من الماء ويدفنُه في طريق اليمن ، في المفاوز ، فإذا غزا في الصيف مرّ به فاستثاره[3] — فمرّ بأصحابه ، حتّى اذا انقطعت عنهم المياه قالوا : يا سليك ، أهلكتنا ويحك ! قال : قد بلغتم الماء ، ما أقربكم منه .

حتّى اذا انتهى إلى قريب من المكان الذي خبأ الماء فيه طلبه فلم يجده ، وجعل يتردّد في طلبه . فقال بعض أصحابه لبعض : أين يقودُكم هذا العبد ؟ قد واللهِ هلكتم . وسمع ذلك ، ثم أصاب الماء بعدما ساء ظنهم ، فهمّ السليك بقتل بعضهم ، ثم أمسك .

فانصرفت عنه بنو عبد شمس في طوائف من بني سعد ، ومضى السليك في بني مقاعس ومعه رجل من بني حَرام يقال له صُرَد . فلمّا رأى أصحابه قد انصرفوا بكى ، ومضى به السليك ، حتّى اذا دنوا من بلاد خثعم ضلّت ناقة صُرد في جوفِ الليل فخرج في طلبها فأصابه أناسٌ حين أصبح ، فإذا هم مُراد وخثعم ، فأسروه . ولحقه السليك فاقتتلوا قتالاً شديداً . وكان أول من لقيه قيس بن مكشوح ، فأسره السليك بعد أن ضربه ضربة أشرفت على نفسه ، وأصاب من نعمهم ما عجز عنه هو وأصحابه ، وأصاب أم الحارث بنت عوف بن يربوع الخثعمية يومئذ ، واستنقذ صرد من أيدي خثعم ، ثم انصرف مسرعاً ، فلحق بأصحابه الذين انصرفوا عنه قبل أن يصلوا إلى الحيّ ، وهم أكثر من الذين شهدوا معه ، فقسمها بينهم على سهام الذين شهدوا .

---

(١) استعواهم : استنجد بهم .
(٢) الأحماس : الشجعان .
(٣) استثاره : استخرجه .

وقال السُليك في ذلك :

بكى صُرَدٌ لما رأى الحيَّ أعرضت ... مَهامهُ رملٍ دونَهم وسُهوبُ
وخوّفه ريبَ الزمان وفقرَه ... بلادُ عدوٍّ حاضرٍ وجَدُوبُ
ونأيٌ بعيدٌ عن بلاد مُقاعسٍ ... وأنّ مخاريق الأمور تُريبُ
فقلت له : لا تبكِ عينُك إنّها ... قضيّةُ ما يُقضى لها فتؤوبُ
سيكفيك فقدَ الحيّ لحمٌ مُغَرَّضٌ ... وماءُ قدورٍ في الجِفان مَشُوبُ
ألم ترَ أن الدهرَ لونان لونُه ... وطوران بِشرٌ مرّةً وكذوب [1]

(إلى آخر الأبيات ...)

* عن الأصمعي أن السليك أخذ رجلاً من بني كنانة ... بن تغلب يقال له النعمان بن عُقفان ثم أطلقه وقال :

سمعتُ بجمعهم فرضختُ فيهم ... بنعمانَ بن عُقفانَ بن عمرو
فإن تكفُر فإني لا أُبالي ... وإن تشكر فإني لست أدري [2]

— قال : ثم قدم بعد ذلك على بني كنانة ، وهو شيخ كبير ، وهم بماءلهم يقال له قُباقب ، خلف البشر . فأتاه نعمان بابنيه الحكم وعثمان ، وهما سيّدا بني كنانة ، ونائلة ابنته فقال : هذان وهذه لك ، وما أملِك غيرَهم . فقالوا : صدق . فقال : قد شكرت لك وقد رددتهم عليك . — فجمعت له بنو كنانة إبلاً عظيمة فدفعوها اليه ثم قالوا : إن رأيت أن تُرينا بعض ما بقي من إحضارك [3] . قال : نعم ، أبغوني أربعين شاباً ، وابغوني دِرعاً ثقيلة . فأتوه بذلك ، فلبس الدِرع ، وقال للشبّان : الحقوا بي إن شئتم .

---

(١) أرض جدوب : مجدبة . مغرض : طري .
(٢) رضخت به : أراد أطلقته لهم .
(٣) الإحضار : العدو .

وعدا فلاث العدو لَوثاً ، وعَدَوا جَنَبته فلم يلحقوه الا قليلاً ، ثم غاب عنهم وكرّ حتى عاد إلى الحي هو وحده يُحضِر ، والدرع في عنقه تضرب كأنها خرقة ، من شدة إحضاره .

قال أبو عبيدة :

* أغار السُليك على بني عوار ، بطن من بني مالك بن ضُبيعة ، فلم يظفر منهم بفائدة ، وأرادوا مساورته ، فقال شيخٌ منهم : انه اذا عدا لم يُتعلّق به ، فدعوه حتى يرد الماء ، فإذا شرب وثقل لم يستطع العدو ، وظفرتم به . فأمهلوه حتى ورد الماء وشرب ثم بادروه ، فلمّا علم أنه مأخوذ خاتلهم وقصد لأدنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم يقال لها فُكَيهة ، فاستجار بها ، فمنعته وجعلتْه تحت دِرعها واخترطت السيف ، وقامت دونه ، فكاثروها فكشفت خِمارها عن شعرها وصاحت بإخوتها فجاءوها ودفعوا عنه حتى نجا من القتل . فقال السُليك في ذلك :

لعمرُ أبيك والأنباءُ تَنمي ... لنعمَ الجارُ أختُ بني عُوارا
من الخفِرات لم تفضَحْ أباها ... ولم ترفع لإخوتها شَنارا
كأنَّ مَجامع الأرداف منها ... نقاً درجت عليه الريح هارا
يعاف وصالَ ذات البذلِ قلبي ... ويتّبع الممنّعةَ النَوارا
وما عجزت فُكيهة يومَ قامت ... بنصل السيف واستلبوا الخِمارا (١)

خبر مقتله

قال أبو عبيدة : حدّثني المنتجع بن نبهان قال : كان السُليك يعطي عبد الملك بن مُويلك الخثعمي إتاوة من غنائمه على أن يجيره فيتجاوز بلاد

---

(١) الشنار : العار والعيب . النقا : الكثيب من الرمل .

خثعم إلى مَن وراءهم من أهل اليمن ، فيُغير عليهم . فمرّ قافلاً من غزوة فإذا بيت من خثعم أهلُه خُلوف (1) ، وفيه امرأة شابة بضّة ، فسألها عن الحي فأخبرته ، فتسنّمها ، أي علاها ، ثم جلس حَجْرةً (2) ، ثم التقم المحجّة (3) . فبادرت إلى الماء فأخبرت القوم ، فركب أنَس بن مُدرِك الخثعمي في طلبه ، فلحقه ، فقتله . فقال عبد الملك : والله لأقتلنّ قاتله أو ليَديَنّه (4) . فقال أنس : والله لا أدِيه ، ولا كرامة ، ولو طلب في ديته عِقالاً لما أعطيتُه ، وقال في ذلك :

اني وقتلي سُليكاً ثم أعقلَه ... كالثور يُضرَب لمّا عافت البقرُ

(الأبيات ...)

* * *

(1) خلوف : غائبون عنه .
(2) حجرة : بناحية .
(3) التقم المحجة : استقبل الطريق وراح يطويه مسرعاً .
(4) أي يؤدي ديته .

- ٧ -

الشّنفرى[١]

(الأغاني ج ٢١ ص ١٧٩ وما بعدها)

الشاعر وخبر مقتله

عن أبي هشام محمد بن هشام النُميري :

أن الشنفرى كان من الأواس بن الحَجْر بن الهِنو بن الأزْد (١) ، أسرته بنو شَبابة بن فَهم بن عمرو بن قيس عيلان ، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مُفْرِج (٢) بن عوف بن ميدعان بن مالك بن الأزد رجلاً من فهم ، أحد بني شَبابة ، ففدته بنو شبابة بالشنفرى .

قال : فكان الشنفرى في بني سَلامان بن مُفْرِج لا تحسبه إلاّ أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حِجره ، وكان السُلاميّ اتخذه ولداً وأحسن إليه وأعطاه ، فقال لها الشنفرى : اغسِلي رأسي يا أُخيّةُ ، وهو لا

(١) جعله ابن حزم من بني سلامان بن مفرج . وفي الأغاني خبر آخر يستخلص منه أنه كان من بني ربيعة بن الحجر بن عمران ... بن الأزد (أنظر ص ١٩٢) .

(٢) ضبط في المطبوعة بتشديد الراء وفتح الفاء والصواب تخفيفها مع إسكان للفاء كما في اللسان وجمهرة ابن حزم .

يشكّ في أنها أخته . فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته . فذهب مغضَباً حتى أتى الذي اشتراه من فهم ، فقال له الشنفرى : اصدقني من أنا ؟ قال : أنت من الأواس بن الحَجر . فقال : أما إني لن أدعكم حتى أقتل منكم مائةً بما استعبدتموني .

ثم إنه ما زال يقتلهم حتى قتل تسعةً وتسعين رجلاً ، وقال الشنفرى للجارية السُلامية التي لطمته وقالت : لست بأخي :

ألا ليت شِعري ، والتلهّفُ ضِلّةٌ
بما ضربت كفُّ الفتاة هَجِينَها
ولو علمت قُعسوسُ أنسابَ والدي
ووالدها ظلّت تقاصَرُ دونَها
أنا ابنُ خيار الحَجر بيتاً ومنصباً
وأمي ابنةُ الأحرار لو تعرفينها (١)

قال : ثم لزم الشنفرى ديار فَهم فكان يُغير على الأزد على رجليه فيمن تبعه من فهم ، وكان يغير وحده أكثر من ذلك ... فكان يقتل بني سلامان ابن مُفرج ، حتى قعد له رهط من الغامديين من بني الرمداء ، فأعجزهم ، فأشلوا (٢) عليه كلباً لهم يقال له حبيش ولم يضعوا له شيئاً ...

قال : ثم قعد له بعد ذلك أُسَيد بن جابر السلاماني وخازم الفهمي بالناصف من أَبيدة ، ومع أسيد ابن أخيه . فمرّ عليهم الشنفرى فأبصر السواد بالليل فرماه — وكان لا يرى سواداً إلا رماه كائناً ما كان — فشكّ ذراع ابن أخي أسيد إلى عَضُده ، فلم يتكلم . فقال الشنفرى : إن كنت شيئاً فقد أصبتُه ، وإن لم تكن شيئاً فقد أمِنتك . وكان خازم باطحاً ، يعني منبطحاً ، بالطريق

(١) الهجين : من أبوه عربي وأمه أمة . قعسوس : لقب للفتاة الذميمة.
(٢) أشاوا عليه كلباً : أغروه به .

يرصده ، فنادى أسيد : يا خازم أصلِت ، يعني أسلل سيفك ، فقال الشنفرى : لكُلٍّ أصلَيت (١) . فأصلت الشنفرى فقطع اصبعين من أصابع خازم ، وضبطه خازم حتّى لحقه أسيد وابن أخيه نجدةٌ ، فأخذ أسيد سلاح الشنفرى وقد صرع الشنفرى خازماً وابن أخي أسيد ، فضبطاه وهما تحتَه ، وأخذ أسيد برجل ابن أخيه فقال أسيد : رجل مَن هذه ؟ فقال الشنفرى : رجلي . فقال ابن أخي أسيد : بل هي رجلي يا عم . فأسروا الشنفرى وأدَّوه إلى أهلهم وقالوا له : أنشِدنا ، فقال : انّما النشيدُ على المَسَرّة ، فذهبت مثلاً ، ثم ضربوا يده فتعرّضت ، أي اضطربت ، فقال في ذلك :

لا تَبْعَدي إمّا ذهبتِ ، شامَـــهْ فرُبّ وادٍ نَفَــرَتْ حَمامَـــه
ورُبّ قِـــرنٍ فصلَـــت عِظـامَــــه (٢)

ثم قال له السلامي : أأَطرِفُك ؟ (٣) ثم رماه في عينه . فقال الشنفرى له : كأنّ كنّا نفعل ، أي كذلك كنّا نفعل ، وكان الشنفرى إذا رمى رجلاً منهم قال له : أأطرفك ؟ ثم يرمي عينه . ثم قالوا له حين أرادوا قتله : أين نقبرك ؟ فقال :

لا تقبرُوني إنّ قــبري مُحَـــرَّمٌ
عليكم ولكــن أبشري أمَّ عامــر
اذا احتملت رأسي ، وفي الرأس أكثري
وغُودر عند الملتقــى ثَــمّ سائري
هنالــك لا أرجــو حيــاةً تَسُرّني
سميرَ الليالي مُبسَلاً بــالجرائــرِ (٤)

---

(١) لكل أصات : أي أنني سأصلت أيضاً كما تصلتون .

(٢) شامة : يخاطب يده ، وكان بها شامة . القرن : المنازل .

(٣) أطرفه : أدخل في عينه ما جعلها تدمع .

(٤) أم عامر : كنية الضبع . احتملت الضمير ليعود على الضبع أو القبيلة . سمير الليالي : طوال الليالي . مبسلا بالجرائر : مرهوناً بجرائمي وآثامي .

وقال تأبّط شرّاً يرثي الشنفرى :

على الشنفـَرى ساري الغـَمام ورائحٌ غزيرُ الكـُلى وصـَيـِّبُ الماء باكر
عليك جـَزاءٌ مثلُ يومـِـــك بالجـَبا وقد أُرعفتْ منك السيوفُ البواتـِرُ[1]

(الأبيات ...) ...

قال : وذُرع خطوُ الشنفري ليلة قـُتل فوُجد أوّل نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة ، ثم الثانية سبعَ عشرةَ خطوةَ ...

قال : ولمّا قتل الشنفرى وطـُرح رأسه مرّ به رجلٌ منهم فضرب جـُمجمة الشنفرى بقدمه ، فعـُقرت قدمه فمات منها ، فتمـّت به المائة .

* * *

(١) الكلى ج كلوة : أسفل السحاب . الجبا : اسم موضع . أرعفت : قطرت دماً . يدعو له بالسقيا وأن يكون جزاؤه من الغيث بقدر ما أسالت سيوفه من الدماء .

- ٨ -

تأبّط شرًّا

(الأغاني ج ٢١ ص ١٢٦ وما بعدها)

الشاعر

هو ثابت بن جابر ... بن فَهم بن عمرو بن قيس عيلان ...

وتأبّط شرّاً لقب لُقّب به . ذكر الرواة أنه كان رأى كبشاً في الصحراء ، فاحتمله تحت إبطه ، فجعل يبول عليه طولَ طريقه . فلمّا قرُب من الحيّ ثقل عليه الكبش فلم يُقلّه فرمى به فإذا هو الغُول . فقال له قومه : ما تأبطت يا ثابت ؟ قال : الغول . قالوا : لقد تأبطت شرّاً ، فسُمّي بذلك .

وقيل : بل قالت له أمه : كلّ إخوتك يأتيني بشيء اذا راح غيرَك . فقال لها : سآتيك الليلةَ بشيء . ومضى فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما قدر عليه . فلمّا راح أتى بهنّ في جِراب متأبّطاً له ، فألقاه بين يديها ، ففتحته فتَساعَين في بيتها ، فوثبت وخرجت . فقال لها نساءُ الحيّ : ماذا أتاك به ثابت ؟ فقالت : أتاني بأفاعٍ في جِراب . قلن : وكيف حملها ؟ قالت : تأبّطها . قلن : لقد تأبّط شرّاً ، فلزمه تأبّط شرّاً ...

عن عَمرو بن أبي عمرو الشيباني قال : نزلت على حيّ من فهم ، إخوة بني عَدْوان من قيس ، فسألتهم عن خبر تأبّط شرّاً ، فقال لي بعضهم : وما سؤالك عنه ، أتريد أن تكون لصّاً ؟ قلت : لا ، ولكن أريد أن أعرف أخبار هؤلاء العدّائين فأتحدّث بها . فقالوا : نحدّثك بخبره . إنّ تأبّط شرّاً كان أعدَى ذي رِجلين ، وذي ساقين ، وذي عينَين . وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظِباء فينتقي على نظره أسمنَها ، ثم يجري خلفَه فلا يَفُوته حتى يأخذه ، فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله . وإنما سُمّي تأبّط شرّاً لأنه — فيما حُكي لنا — لقي الغولَ في ليلة ظلماء في موضع يقال له رحى بطان [1] ، في بلاد هُذيل ، فأخذت عليه الطريق ، فلم يزل بها حتّى قتلها وبات عليها ، فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه ، فقالوا له : لقد تأبّطت شرّاً ، فقال في ذلك :

تأبّط شرّاً ثم راح أو اغتــدى يُوائم غُنْماً أو يَشيفُ على ذَحْلِ [2]

طائفة من أخباره

* قال حمزةُ : لقي تأبط شراً ذاتَ يوم رجلاً من ثَقيف يقال له أبو وَهب ، كان جباناً أهوجَ ، وعليه حُلّة جيدة . فقال أبو وهب لتأبّط شراً : بمَ تغلِب الرجال يا ثابت وأنت — كما أرى — دميمٌ ضئيل ؟ قال : باسمي ، إنّما أقول ساعةَ ما ألقى الرجل : أنا تأبّط شراً ، فينخلع قلبُه حتّى أنالَ منه ما أردتُ . فقال له الثقفيّ : فهل لك أن تبيعَني اسمَك ؟ قال : نعم ، فبمَ تبتاعُه ؟ قال : بهذه الحُلّة وبكُنيتي [3] . قال له : أفعلُ . ففعل وقال له تأبّط شراً : لك اسمي ولي كنيتُك ، وأخذ حُلته

---

(١) في المطبوعة : رحى بطحان ، وهو خطأ . (أنظر المادة في معجم البلدان) .
(٢) يوائم : يوافق . يشيف : يقتدر . الذحل : العداوة والثأر .
(٣) في المطبوعة : وبكنيتك ، وهو تحريف .

وأعطاه طِمْرَيه [1] ، ثم انصرف ، وقال في ذلك يخاطب زوجة الثقفي :

ألا هل أتى الحسناء أنّ حليلها ... تأبّط شرّاً واكتنيتُ أبا وهب
فهبْه تسمّى اسمي وسُمّيتُ باسمه ... فأين له صبري على مُعظَم الخطْب
وأين له بأسٌ كبأسي وسَورتي ... وأين له في كل فادحةٍ قلبي ؟

* عن أبي بَركة الأشجعي قال :

أغار تأبّط شرّاً ... ومعه ابن برّاق الفَهمي على بَجيلة فأطردا لهم نَعَماً ، ونَذِرت بهما بجيلةُ ، فخرجت في آثارهما ، ومضيا هاربين في جبال السرَاة ، وركبا الحَزْن ، وعارضتهما بجيلة في السهل فسبقوهما إلى الوهط — وهو ماء لعمرو بن العاص بالطائف — فدخلوا لهما في قصبة العَين .

وجاءا ، وقد بلغ العطش منهما ، إلى العين . فلما وقفا عليها قال تأبط شراً لابن برّاق : أقلّ من الشراب فإنها ليلة طرد . قال : وما يدريك ؟ قال : والذي أعدو بطيره إني لأسمعُ وجيبَ قلوبِ الرجال تحت قدميّ — وكان من أسمع العرب وأكيدهم — . فقال له ابن برّاق : ذلك وجيبُ قلبك . فقال له تأبط شراً : والله ما وَجب قط ولا كان وَجّاباً . وضرب بيده عليه وأصاخ نحو الأرض يستمع فقال : والذي أعدو بطيره ، اني لأسمع وجيب قلوب الرجال . فقال له ابن براق : فأنا أنزل قبلك . فنزل فبرك وشرب ، وكان أكلّ القوم عند بجيلة شوكة ، فتركوه وهم في الظلمة .

ونزل ثابت ، فلمّا توسّط الماء وثبوا عليه فأخذوه وأخرجوه من العين مكتوفاً ، وابن برّاق قريبٌ منهم لا يطمعون فيه لما يعلمون من عَدْوِه . فقال لهم ثابت : انه من أصلف الناس وأشدّهم عُجْباً بعَدْوه ، وسأقول له : استأسِر معي ، فسيدعوه عُجْبه بِعَدْوه إلى أن يعدوَ من بين أيديكم ، وله ثلاثة أطلاق : أولها كالريح الهابّة ، والثاني كالفرسِ الجواد ، والثالث

---

(١) الطمر : الثوب الخلق البالي . وفي المطبوعة : طمرية وهو تصحيف .

يكبو فيه ويعثُر . فإذا رأيتُم منه ذلك فخذوه فإني أحبّ أن يصيرَ في أيديكم كما صرتُ اذ خالفني ولم يقبل رأيي ونصحي له . قالوا : فافعل . فصاح به تأبط شراً : أنت أخي في الشدة والرخاء وقد وعدني القوم أن يمنّوا عليك وعليّ . فاستأسِر وواسِني بنفسك في الشدّة كما كنتَ أخي في الرّخاء .

فضحك ابن برّاق وعلم أنه قد كادهم وقال : مهلاً يا ثابت ، أيستأسر مَن عنده هذا العَدْوُ ؟ ثم عدا فعدا أول طلَق مثل الريح الهابّة ، كما وصف لهم ، والثاني كالفرس الجواد ، والثالث جعل يكبو ويعثُر ويقع على وجهه . فقال ثابت : خذوه . فعدَوا بأجمعهم . فلما أن نفّسهم عنه شيئاً عدا تأبط شراً في كِتافه . وعارضه ابن برّاق فقطع كتافه وأفلتا جميعاً . فقال تأبّط شراً قصيدته القافية في ذلك :

يا عِيدُ مالَك من شوقٍ وإيراقِ	ومَرِّ طيف على الأهوال طرّاقَ
يسري على الأيْن والحيّات مُحتفياً	نفسي فداؤك من سارٍ على ساقِ

* * *

إني إذا خُلّة ضنّت بنائلها	وأمسكتْ بضعيف الحبل أحذاق
نجوت منها نجائي من بجيلة إذ	ألقيت للقوم يوم الروع أرواقي (١)

* وقال (أبو عمرو) أيضاً في حديث تأبط شراً إنه خرج في عِدّة من فهم ، فيهم عامر بن الأخنس ، والشنفرى ، والمسيّب ، وعمرو بن برّاق . ومُرّة بن خُليف ، حتى بيّتوا العوص ، وهم حيٌّ من بجيلة ، فقتلوا منهم نفراً ، وأخذوا لهم إبلاً فساقوها حتى كانوا من بلادهم على يوم وليلة ، فاعترضت لهم خثعم ، وفيهم ابن حاجز . وهو رئيس القوم ، وهم يومئذ نحوٌ من أربعين رجلاً . فلما نظرت اليهم صعاليك فَهم قالوا لعامر بن

---

(١) العيد : ما اعتاد من شوق وحزن . مالك : ما أشدك . الايراق : مصدر آرقه يوارقه من الأرق . يسري : الضمير يعود على الطيف . الأين : ضرب من الحيات ، وهو كذلك التعب والإعياء . محتفياً : حافياً . الخلة : الخليلة . الأحذاق : المتقطع . ألقيت أرواقي : استفرغت مجهودي في العدو .

الأخنس : ماذا ترى ؟ قال : لا أرى لكم إلا صِدقَ الضِراب . فإن ظفرتم فذاك ، وإن قُتلتم كنتم قد أخذتم ثأركم . قال تأبط شراً : بأبي أنت وأمي ؛ فنعم رئيسُ القوم أنت إذا جدّ الجِدّ ؛ واذا كان قد أجمع رأيكم على هذا فإني أرى لكم أن تحملوا على القوم حملةً واحدة فإنكم قليلٌ ؛ والقوم كثير ، ومتى افترقتم كثركم القوم . فحملوا عليهم فقتلوا منهم في حملتهم ، فحملوا ثانيةً فانهزمت خثعم وتفرّقت ، وأقبل ابن حاجز فأسند في الجبل فأعجز .

فقال تأبّط شراً في ذلك :

جزى اللهُ فتياناً على العَوص أمطرت
سماؤهم تحتَ العجاجةِ بالدَّمِ

وقد لاح ضوءُ الفجر عَرضاً كأنه
بلَمحته إقرابُ أبلقَ أدهمِ

فإنّ شفاءَ الداء إدراكُ ذَحلة
صباحاً على آثار حَومٍ عَرمرمِ

وضاربتُهم بالسَفح إذ عارضَتْهمُ
قبائلُ من أبناء قَسرٍ وخَثعم

ضِراباً عدا منه ابنُ حاجز هارباً
ذُرا الصَخر في جَوف الوَجينِ المُدَيّم (١)

* عن ابن دأب قال : سُئل تأبط شراً : أيُّ يومٍ مرّ بك خَير ؟ قال : خرجتُ حتى كنت في بلاد بجيلة . فأضاءت لي النارُ رجلاً جالساً إلى امرأة ، فعمدت إلى سيفي فدفنته قريباً ثم أقبلت حتى استأنست ؛ فنبحني الكلبُ فقال : ما هذا ؟ فقلت : بائسٌ . فقال : ادنُهْ . فدنوت فإذا رجلٌ جِلحاب

---

(١) الاقراب : الدنو ، من أقربت الحامل إذا دنا وضعها . أبلق : صفة للفرس الذي يجمع بين السواد والبياض ، والأدهم : الأسود . الذحلة : الثأر . الحوم : الجماعة . الوجين : شط الوادي . المديم : الممطور .

آدم (١) ، وإذا أضوأ الناس إلى جانبه . فشكوتُ اليه الجوع والحاجة فقال : اكشف تلك القَصْعة . فأتيت قصعة إلى جانب إبله . فإذا فيها تمرٌ ولبن . فأكلتُ منه حتى شبعت . ثم خررتُ متناوماً . فوالله ما شئت أن اضطجع حتى اضطجع هو ورفع رجله على رجله ثم اندفع يغني ... ثم انحرف فنام . ومالت فنامت .

فقلت : ما رأيت كالليلة في الغِرّة ، فإذا عشر عُشراوات (٢) بين أثلات (٣) ، فيها عبد واحد وأمة . فوثبت فانتضيتُ سيفي وانتحيت للعبد فقتلته ، وهو نائم . ثم انحرفت إلى الرجل فوضعت سيفي على كبده حتى أخرجتُه من صُلبه ، ثم ضربت فخِذ المرأة فجلست ، فلمّا رأته مقتولاً جزِعت ، فقلت : لا تخافي ، أنا خيرٌ لك منه ... وقمت إلى جُلّ متاعها فرحلته على بعض الإبل أنا والأمة ، فما حللت عقده حتى نزلت بصَعدة بني عوف بن فِهر وأعرستُ بالمرأة هناك ... فهذا خيرُ يومٍ لقيتُه .

وشرّ يوم لقيتُ أني خرجت ، حتى اذا كنت في بلاد ثُمالة أطوف ، حتى اذا كنت من القفير (٤) عشيّاً إذا أنا بسبع خَلِفات (٥) فيهنّ عبدٌ ، فأقبلت نحوه ، وكأني لا أريدُه . وحذِرني فجعل يلوذُ بناقةٍ فيها حمراءَ ، فقلت في نفسي : واللهِ انه ليثق بها . فأفوّق له (٦) . ووضع رجله في أرجلها وجعل يدور معها فاذا هو على عَجزُها وأرميه حين أشرف ، فوضعتْ سهمي في قلبه فخرّ . وندّت الناقة شيئاً وأتبعتُها فرجَعَتْ فسقتُهنّ شيئاً ثم قلت : والله لو ركبتُ الناقة وطردتهُنّ . وأخذت بعُثنون (٧) الحمراء

---

(١) جلحاب : ضخم . آدم : أسمر .
(٢) عشراوات ج عشراء : وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر .
(٣) الأثل : ضرب من الشجر .
(٤) القفير : اسم ماء بطريق الشام .
(٥) الخلفة : الناقة الحامل .
(٦) فوق السهم : جعل له فوقاً ، وأراد هنا : أعده للرمي .
(٧) العثنون : شعيرات طوال تحت حنك الناقة .

فوثبت ، فساعة استويتُ عليها كرّت نحو الحي تربّع وتبعتْها الخلفات ، وجعلت أسكنها . وذهبت . فلمّا خشيت أن تطرحني في أيدي القوم رميتُ بنفسي عنها . فانكسرت رجلي . وانطلقتْ والذَوْدُ معها . فخرجت أعرج حتى انخنستُ في طرف كثيب ، وجازني الطلب .

فمكثتُ مكاني حتى أظلمت . وشُبّت لي ثلاثةُ أنوار . فإذا نارٌ عظيمة ظننت أن لها أهلاً كثيراً . ونار دونها . ونُويرةٌ صغيرة . فهويت للصغرى . وأنا أجمز (١) . فلما نبحني الكلبُ نادى رجلٌ فقال : من هذا ؟ فقلت : بائسٌ . فقال : أدنُهْ . فدنوت وجلست وجعل يُسائلني ، إلى أن قال : والله اني لأجدُ منك ريحَ دم . فقلت : لا والله . ما بي دمٌ . فوثب إلي فنفضني ثم نظر في جَعبتي فإذا السهمُ فقلت : رميتُ العشيّةَ أرنباً . فقال : كذبت ، هذا ريحُ دم إنسان . ثم وثب إليّ . ولا أدفعُ الشرّ عن نفسي ، فأوثقني كِتافاً ، ثم علّق جَعبتي وقوسي وطرحني في كِسر البيت ونام .

فلمّا أسحرتُ حرّكت رجلي ، فإذا هي صالحةٌ . وانفتل الرِّباط فحللتُه . ثم وثبت إلى قوسي وجعبتي فأخذتهما . ثم هممت بقتله فقلت : أنا ضَمِنُ الرِجْل (٢) . وأنا أخشى أن أُطلبَ فأدرك ولم أقتل أحداً أحبّ إليّ . فولّيت ومضيت .

فوالله ِ اني لفي الصحراءِ أحدّثُ نفسي إذا أنا به على ناقةٍ يتبعُني . فلمّا رأيته قد دنا مني جلستُ على قوسي وجَعبتي وأمنته ، وأقبل فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم أقبل إليّ — وعهدُه بي عهدُه — فقلت له : ويلك ، ما تريدُ منيّ ؟ فأقبل يشتمني . حتى اذا أمكنني وثبتُ عليه فما ألبثتُه أن ضربت به الأرض وبركت عليه أربطه . فجعل يصيح : يالشمالة . لم أرَ كاليوم ، فجنبتُه إلى ناقته وركبتُها . فما نزعت حتى أحللتُه في الحيّ . وقلت :

---

(١) جمر : وثب كالجواد في القيد ، لأنه كان مصاباً في رجله .

(٢) ضمن الرجل : معتل الرجل .

أغرَّك مني يابنَ فَعلـةَ علّتي عشيّةَ أن رابت عليَّ روائبي
وموقدِ نيرانٍ ثلاثٍ فشرُّها وألأمُها أوْ قَدْتَها غيرَ عازبِ
سلبتَ سلاحي بائساً وشتمتني فيا خيرَ مسلوبٍ ويا شرَّ سالبِ
فإن أكُ لم أخضِبْكَ فيها فإنّها نيوبُ أساويدٍ وشَول ُعقاربِ
ويا رَكْبةَ الحمراء شرّةُ ركبةٍ وكادت تكون شرَّ رَكبة راكبِ [1]

خبر مقتله

قال أبو عمرو الشيباني : كان من شأن تأبط شرّاً — وهو ثابت بن جابر ابن سفيان . وكان جريئاً شاعراً فاتكاً — أنه خرج من أهله بغارةٍ من قومه يُريدون بني صاهلة ... بن هُذيل ، وذلك في عقب شهر حرام ممّا كان يُحرّم أهلُ الجاهلية ، حتى هبط صدر أدَم [2] ، وخفض عن جماعة بني صاهلة فاستقبل التّلاعة ، فوجد بها داراً من بني نُفاثة بن عدي ، ليس فيها الا النساء ، غير رجلٍ واحد . فبصُر الرجل بتأبّط شراً وخشيه ، وذلك في الضُحى ، فقام الرجل إلى النساء ، فأمرهنّ فجعلن رؤوسهن جُمماً [3] ، وجعلن دُروعهنّ أرديةً ، وأخذن من بيوتهنّ عُمُداً كهيئة السيوف فجعلنَ لها حمائل ، ثم تأبّطنها . ثم نهض ونهضن معه يُغريهنّ [4] كما يغري القوم . وأمرهنّ أن لا يُبرزن خدّاً ، وجعل هو يبرزُ للقوم ليروه . وطفق يُغري ويصيح على القوم ، حتى أفزع تأبّط شراً وأصحابَه ، وهو — على ذلك — يُغري ، في بقية ليلة أو ليلتين من الشهر الحرام .

---

(١) رابت علي روائبي : أي تعرضت للمهالك . غير عازب : غير منصرف عنها ، وفي المطبوعة : إذ قدتها وهو تحريف يفسد المعنى . الأساويد : الحيات . شالت العقرب بذنبها : رفعته .
(٢) صدر أدم : اسم موضع .
(٣) الجمم ج جمة : مجتمع شعر الرأس .
(٤) يغريهن : يحضهن على القتال .

فنهضوا في شِعب يقال له شعب وَشَل ، وتأبّط ينهض في الشِعب مع أصحابه ، ثم يقف في آخرهم ، ثم يقول : يا قوم . لكأنما يطرد كم النساء . فيصيح عليه أصحابه فيقولون : انجُ ، أدركك القوم . وتأبى نفسُه . فلم يزل به أصحابه حتّى مضى معهم ...

ثم طلعوا للصدر حين أصبحوا فوجدوا أهل بيت شاذّ من بني قُريم ، ذنبَ نِمار [1] . فظلّ يراقبهم حتّى أمسوا . وذلك البيت لساعدة بن سفيان ، أحد بني حارثة بن قُريم . فحصرهم تأبط وأصحابه حتى أمسَوا . قال : وقد كانت قالت وليدةٌ لساعدة : إني قد رأيت اليوم القوم أو النفر بهذا الجبل . فبات الشيخ حذراً ، قائماً بسيفه بساحة أهله . وانتظر تأبط وأصحابه أن يغفل الشيخ — وذلك آخرَ ليلةٍ من الشهر الحرام — فلما خشُوا أن يفضحهم الصبح ولم يقدروا على غِرّة ، مشَوا اليه وغرّوه ببقيّة الشهر الحرام ، وأعطَوه من مواثيقهم ما أقنعه ، وشكوا إليه الجوع . فلمّا اطمأنّ إليهم وثبوا عليه فقتَلوه . وابناً له صغيراً حين مشى . ومضى تأبط شراً إلى ابن له ذي ذُؤابة كان أبوه قد أمره فارتبأ [2] من وراء ماله ، يقال له سُفيان بن ساعدة . فأقبل اليه تأبط شراً مستتراً بِمَجَنّة ، فلما خشي الغلام أن يناله تأبّط بسيفه ، وليس مع الغلام سيف . وهو مُفوّق سهماً . رمى مجنّ تأبط بحجر . فظنّ تأبط أنه قد أرسل سهمه . فرمى مِجنّه عن يده ومشى إليه . فأرسل الغلام سهمه فلم يُخطىء لبَتّه حتى خرج منه السهم ، ووقع في البطحاء حَذْوَ القوم . وأبوه مُمسك . فقال أبو الغلام حين وقع السهم : أخاطئُه سفيانُ ؟ فحردَ القوم [3] ، فذلك حين قتلوا الشيخ وابنه الصغير ، ومات تأبط .

---

(١) نمار : بضم أوله : اسم واد وبكسره : اسم جبل ، وذنب نمار : أسفل نمار .

(٢) ارتبأ : استتر واختبأ وراء ربيئة .

(٣) حرد القوم : غضبوا .

- ٩ -

حَاجز بن عَوف

(الأغاني الجزء ١٣ ص ٢٠٩ وما بعدها)

الشاعر

هو حاجِزُ بنِ عوف بن الحارث ... بنِ سَلامان بن مُفَرّج بن مالك بن زهران ... بن نَصر بن الأزد ، وهو حليفُ لبني مخزوم بن يقظة بن مُرّةبن كعب بن لُؤَيّ ...

وهو شاعرٌ جاهليّ مُقِلّ ، ليس من مشهوري الشعراء ، وهو أحد الصَّعاليك المُغِيرين على قبائل العرب ، وممّن كان يَعدُو على رِجلَيه عَدْواً يسبِق به الخيل .

طائفة من أخباره

عن عوف بن الحارث الأزديّ أنه قال لإبنه حاجز بن عوف : أخبرني يا بُنّي بأشَدّ عَدْوِك . قال : نعم ، أفزَعتْني خَثعمُ فنزوتُ نزَواتٍ ، ثم استفزّتْني

الخيلُ واصطّف لي ظَبْيانِ ، فجعلتُ أُنهنهما[1] بيديَّ عن الطريق ، ومَنَعاني أن أتجاوزَهما في العَدْو لِضيق الطريق ، حتى اتّسع واتّسعت بنا ، فسبقتُهما . فقال له : فهل جاراك أحدٌ في العَدْو ؟ قال : ما رأيت أحداً جاراني إلّا أُطَيْلِس أُغَيْبِر من النُّقوم[2] ، فإنّا عَدَونا معاً فلم أَقدِر على سَبْقه .

عن أبي عمرو الشيبانيّ

أغار عوفُ بن الحارث بن الأختم على بني هِلال بن عامر بن صعصعة في يومٍ داجٍ مُظلم فقال لأصحابه : انزِلوا حتى أعتبر لكم . فانطلق حتى أتى صِرْماً[3] من بني هلال ، وقد عصَب على يد فرسه عِصاباً لِيَظْلَع[4] فيطمعوا فيه . فلمّا أشرف عليهم استرابوا به ، فركبوا في طَلَبه ، وانهزم من بين أيديهم . وطمِعوا فيه ، فهجم بهم على أصحابه من بني سَلامان ، فأصيب يومئذٍ بنو هلال ، وملأ القومُ أيديَهم من الغنائم . ففي ذلك يقول حاجزُ بن عوف :

صباحكِ واسلمي عنّا أُماما ... تحيّةَ وامقٍ وعِمي ظلاما
بَرَهْرَهةٌ يَحار الطّرفُ فيها ... كحُقّةِ تاجرٍ شُدّت خِتاما
فإن تُمسِ ابنةُ السَّهميّ منّا ... بعيداً لا تُكلِّمُنا كلاما
فإنّكِ لا مَحالةَ أن تَرَيني ... ولو أمستْ حبالِكُم رِماما
بناحية القوائم عَيْسَجُورٍ ... تَدارك نَيُّها عاماً فعاما
سَليَ عني إذا اغبرّتْ جُمادى ... وكان طعامُ ضيفهم الثُّماما
ألسنا عِصمةَ الأضياف حتى ... يُضَحّي مالُهم نَفَلاً تَواما
أبي رَبَعَ الفوارس يومَ داجٍ ... وعمّي مالكٌ وضع السِّهاما

---

(1) نهنه : ردّه وكفّه .
(2) النقوم : بطن من الأزد .
(3) الصرم : الجماعة .
(4) ظلع : عرج عرجاً خفيفاً .

فلو صاحبتِنا لرضيتِ منّا ... إذا لم تغبق المائةَ الغُلاما[1]

يعني بقوله : وضع السهام ، أن الحارث بن عبدالله ... بن نصر بن زهران كان يأخذ من جميع الأزد إذا غنموا الرُّبعَ لأن الرياشة في الأزد كانت لقومه ، وكان يقال لهم « الغطاريف » ، وهم أسكنوا الأَسْد السَّراة ، وكانوا يأخذون للمقتول منهم ديتين ويعطون غيرهم ديةً واحدة إذا وجبت عليهم . ففزتهم بنو فُقيم بن عديّ بن الدّيل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فظفِرت بهم ، فاستفاتوا ببني سلامان فأغاثوهم حتى هزموا بني فُقِم وأخذوا منهم الغنائم وسلبوهم ، فأراد الحارث أن يأخذ الرُّبع كما كان يفعل ، فمنعه مالكُ بن ذُهل ابن مالك بن سلامان ـ وهو عمّ أبي حاجز ـ وقال : هيهاتَ ، ترك الرُّبع غُدوةً ، فأرسلها مثلاً ...

وقال أبو عمرو :

جمع حاجزٌ ناساً من فَهم وعَدْوان ، فدلّهم على خَثْعَم ، فأصابوا منهم غِرّةً وغنِموا ما شاؤوا ، فبلغ حاجزاً أنهم يتوعّدونه ويرصُدونه ، فقال :

وانّي من إرعادكم وبُروقِكم ... وإيعادِكم بالقتل صُمٌّ مَسامعي
وإني دليلٌ غيرُ مُخْفٍ دَلالتي ... على ألفِ بيتٍ جَدُّهم غيرُ خاشعِ
ترى البِيضَ يَركُضنَ المَجاسدَ بالضُّحى ... كذا كلُّ مَشبوحِ الذّراعين نازعِ
على أيّ شيءٍ لا أبا لأبيكم ... تُشيرون نحوي نحوَكم بالأصابعِ[2]

وقال أبو عمرو :

أغارت خَثعم على بني سَلامان وفيهم عَمرو بن مَعد يكرب ـ وقد استنجدت

---

(١) وامق : محبَ . برهرهة : بضة ناعمة . الحقة : وعاء من خشب أو عاج . الناجية : الناقة السريعة . العيسجور : الناقة الصلبة السريعة . تدارك : تلاحق . النيّ : الشحم . أغبرت جمادى : قلّ الخير في شهر جمادى أي في الشتاء . التمام : نبت ضعيف . النفل : العطية والهبة . توام : مخفف تؤام وهو المزدوج . ربع الفوارس : أخذ ربع غنيمتهم ،وهو المرباع . الغبوق : الشرب بالعشى .
(٢) المجاسد ج مجسد : ثوب يصبغ بالزعفران .

به خثعم على بني سلامان ـ فالتقوا واقتتلوا ، فطعن عمرُو بن معد يكرب حاجزاً فأنفذ فخِذه ، فصاح حاجز : يا آلَ الأَزْد . فندم عمروٌ وقال : خرجتُ غازياً وفجعتُ أهلي . وانصرف . فقال عُزَيّل الخثعميّ يذكر طعنة عمرو حاجزاً :

أَعجز حاجــزٌ منّــا وفيــــه   مُشَلْشِلــةٌ كحاشيــــة الإزارِ
فعزّ عليّ ما أعجــزتَ منّـــي   وقد أقسمت لا يضرِبْك ضــارِ(١)

فأجابه حاجزٌ فقال :

إن تذكُروا يومَ القَـرِيِّ فإنــــه   بَـواءٌ بأيامٍ كثيرٍ عديدُهــا
فنحن أَبحنــا بالشخيصــة واهنــاً   هِجاراً فجِئنــا بالنساء نَقُودُهــا
ويوم كِـراءٍ قدتدارك ركضُنــا   بني مالك والخيلُ صُعرٌ خُدودُها
ويومَ الأراكات اللــواتي تأخّــرت   سَراةُ بني لهبان يدعو شَريدهـا
ونحن صَبَحنا الحيَّ يومَ تَنُومــةٍ   بملمومةٍ يُهوي الشجاعَ وئيـدُها
ويومَ شَروم قد تركنا عصابــةً   لدى جانب الطَّرفاء حُمراً جلودُها
فارغمتِ حلفاً لأمرٍ يُصيبهــا   من الذُلّ إلّا نحن رَغْماً نَزيدُها(٢)

وقال أبو عمرو :

بينما حاجزٌ في بعض غزواته إذ أحاطت به خثعم ، وكان معه بشير ابنُ أخيه ، فقال له : يا بشير ما تُشير ؟ قال : دَعْهم حتى يشربوا ويقفُلوا ويمضوا ونمضي معهم فيظنّونا بعضَهم . ففعلا ، وكانت في ساق حاجز شامةٌ ، فنظرت إليهم امرأةٌ من خثعم فصاحت : يا آلَ خثعم ، هذا حاجزٌ . فطاروا يتبعونه ، فقالت لهم عجوز كانت ساحرة : أَكفيكم سلاحَه أو عَدْوَه . فقالوا : لا نريد أن تكفينا عَدْوَه فإنّ معنا عوفاً وهو يعدو مثلَه ولكن اكفِينا سلاحَه . فسحرت لهم

(١) المشلشلة : الضربة التي تفيض دماً .

(٢) القريّ : اسم موضع أو واد . بواء : معادل . الشخصية : اسم موضع . كراء : ثنية بالطائف . الأركان : أودية قرب مكة . الململومة : الكتيبة المجتمعة . شروم : قرية كبيرة باليمن . الطرفاء : ضرب من الشجر .

سلاحَه ، وتبعه عوفُ بن الأغرّ ... الخثعميّ ، حتى قاربه ، فصاحت بن خثعم : يا عوفُ ارمِ حاجزاً . فلم يُقدِم عليه وجَبُن ، فغضبوا وصاحوا : يا حاجزُ ، لك الذِّمامُ ، فاقتلْ عوفاً فإنه قد فضحنا . فنَزَع في قوسه لِيرميَه ، فانقطع وترُه ، لأن المرأة الخثعميّة كانت قد سحرت سلاحَه ، فأخذ قوس بشيرا بن أخيه فنَزع فيها فانكسرت ، وهربا من القوم ففاتهم ، ووجد بعيراً في طريقه فركبه ، فلم يسِر في الطريق الذي يريده ونحا به نحو خثعم ، فنزل حاجزٌ عنه ، فمرّ فنجا ، وقال في ذلك :

فِدىً لكما رِجليَّ أُمّي وخالتي ... بسعيكما بين الصَّفا والآثائب

أو أنَ سمعت القومَ خلفِي كأنهم ... حريق أَباءٍ في الرّياح الثواقب

سيوفُهم تغشى الجبانَ ونَبْلُهم ... يُضيءُ لدى الأقوام نارَ الحُباحب

فغيرُ قتالي في المَضِيق أغاثني ... ولكن صريحُ العَدْو غيرُ الأكاذب

نجوتُ نجاءً لا أبيك تبثُّه ... وينجو بشيرٌ نَجْوَ أزعرَ خاضِب

وجدتُ بعيراً هاملاً فركبتُه ... فكادت تكون شرَّ رِكبةِ راكبِ(1)

(1) الأثائب ج أثأب : شجر ينبت في بطون الأودية . الأباء : القصب . الحباحب : ذباب يطير ليلاً له شعاع كالسراج . لا أبيك : لعله أراد : لا وأبيك . الأزعر : صفة للظليم القليل الشعر . الخاضب : صفة للظليم الذي احمرّت قوادمه لأكله الكلأ .

- ١٠ -

عَمْرو بن بَرّاق

[الأغاني الجزء ٢١ ص ١٧٥ وما بعدها)

طائفة من أخباره

عن ابن حبيب وعن المفضَّل قالا :

أغار رجلٌ من هَمْدان يقال له حُريم على إبلٍ لعَمرو بن بَرّاق وخيلٍ ، فذهب بها . فأتى عمرو امرأةً كان يتحدّث إليها ويزورُها ، فأخبرها أنّ حُريماً أغار على إبله وخَيله فذهب بها وأنه يريد الغارةَ عليه ، فقالت له المرأة : ويحَك ، لا تَعرِضْ لتَلَفات حُريم فإنّي أخافه عليك . قال : فخالَفها وأغار عليه فاستاق كلَّ شيءٍ كان له . فأتاه حُريمٌ بعد ذلك يطلب إليه أن يَرُدّ عليه ما أخذه منه ، فقال : لا أَفعل . وأبَى عليه ، فانصرف . فقال عمروٌ في ذلك :

تقولُ سُليمى لا تَعرَّضْ لتَلْفةٍ ... ولَيْلُك عن ليل الصَّعاليك نائمُ

(*) لم يذكر أبو الفرج نسب الشاعر ولم يورد إلا خبراً واحداً من أخباره وقد أثبتناه في الطبعة الثانية من المختارات لجودة قصيدته التي أوردها أبو الفرج هنا .

وكيف ينامُ الليلَ مَن جُلُّ مالــــه   حُسامٌ كلون الملح أبيضُ صارم

صَمُوتٌ إذا عضّ الكَريهــةَ لم يَدَعْ   لها طمعــاً طَوعُ اليمين مُــلازمُ

نَقَدتُ به ألفاً وسامحتُ دونَــــه   عـلى النَّقد إذ لا تُستطاع الـدّراهمُ

ألم تعلمي أنّ الصَّعاليـكَ نومُهم   قليلٌ إذا نام الدَّثورُ المُسالــمُ

إذا الليل أدجى واكفهرّتْ نجومُه   وصاح من الإفراط هامٌ جَواثــمُ

ومال بأصحاب الكَرى غالباً لهم   فإنّي على أمر الغَـوايـة حـازمُ

كذبتُم وبيتِ الله لا تَـأخُذونهــا   مُراغَمةً ما دام للسيف قائــمُ

تحالف أقوامٌ عــليَّ ليسمَنُـوا   وجَرُّوا عليَّ الحربَ إذ أنا سالــمُ

أفالآنَ أُدعَـى للهوَادة بعدَمــا   أُجيل على الحيّ المَذاكي الصَّلادمُ

كأنّ حُريماً إذ رجا أن يَضمُّها   ويَذهبَ مالي يا ابنةَ القوم حالــمُ

متى تجمعِ القلبَ الذكيَّ وصارمــاً   وأنفاً حَميّاً تَـجْتَـنِبْك المظـالمُ

ومن يطلبِ المالَ المُمنَّعَ بالقَنــا   يَعشِقْ ذا غِنىً أو تَختَرِمْــه المخارمُ

وكنتُ إذا قومٌ غَزَوني غزوتُهم   فهل أنا في ذا يا لَهَمْدانَ ظالــمُ

فلا صُلحَ حتى تعثُرَ الخيلُ بالقَنا   وتُضرَبَ بالبِيض الرّقاقِ الجَماجمُ(١)

---

(١) وليلك الخ .. : أي نم ودع الصعاليك ساهرين . صحوت : صفة للسيف ، كثير الصمت . إذا عضّ الكريهة : إذا خاض القتال . نقدت به ألفاً : يريد أنه أدى ثمنه ألف درهم . الدثور : الخامل النؤوم . أدجت : غابت . هام ج هامة : ضرب من الطير . المذاكي ج المذكّي : الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان يريد أنها قوية . الصلادم : الشديدة . تخترمه المنية : تأخذه المخارم : المهالك .

\- ١١ -

قيْس بن الحُدادّية

(الأغاني الجزء ١٤ ص ١٤٤ وما بعدها)

الشّاعِر

هو قيس بن مُنقِذ بن عمرو بن عبيد بن ضاطر بن صالح بن حَبَشيّة[١] ابن سَلُول بن كعب بن عمرو بن ربيعة بن حارثة وهو خُزاعة ... بن مازن بن الأزد ... والحُداديّةُ أُمّه ، وهي امرأة من مُحارِب بن خَصَفة بن قيس بن عَيلان بن مُضر ، ثم من قبيلة منهم يقال لهم بنو حُداد . شاعرٌ من شعراء الجاهلية ، وكان فاتكاً شُجاعاً صُعلوكاً خليعاً ، خلعتْه خُزاعةَ بسوق عَكاظ وأشهدت على أنفسها بخَلْعها إياه ، فلا تحتمل جريرةً له ، ولا تطالِب بجريرةٍ بجرّها أحدٌ عليه .

---

(١) حبشية : ضبطث في بعض المراجع بضم الأول وإسكان الثاني وضبطها ابن حبيب في مختلف القبائل بفتح الأول والثاني

طائفة من أخباره

من كتاب أبي عمرو الشيباني :

لمّا خلعت خزاعةُ بن عمرو ... قيسَ بن الحُداديّة كان أكثرهم قولاً في ذلك وسعياً قومٌ منهم يقال لهم بنو قُمير بن حَبَشيّة بن سَلُول ، فجمع لهم قيسٌ شُذّاذاً من العرب وفُتّاكاً من قومه وأغار عليهم بهم وقتل منهم رجلاً يقال له ابن عُشّ ، واستاق أموالهم . فلحقه رجلٌ من قومه كان سيّداً ـ وكان ضَلْعَه مع قيس(١) فيما جرى عليه من الخُلْع ـ يقال له ابن مُحرِّق ، فأقسم عليه أن يردّ ما استاقه ، فقال : أمّا ما كان لي ولقومي فقد أبررتُ قَسَمك فيه ، وأمّا ما اعتورته(٢) أيدي هذه الصّعاليك فلا حيلةَ لي فيه . فردّ سهمَه وسهم وعشيرته ، وقال في ذلك :

فأُقسم لولا أَسْهَمَ ابنُ مُحرِّقٍ … مع الله ما أكثرتُ عدَّ الأقاربِ
تركتُ ابن عُشٍّ يرفعون برأسه … يَنُوء بساقٍ كَعبُها غيرُ راتب
وأنهاهم خَلعي على غير مِيرةٍ … من اللحم حتى غُيبوا في الغوائب(٣)

وقال أبو عمرو :

أغار أبو بُردة بن هلال بن عُويمر ، أخو بني مالك بن أفصى بن حارثة ابن عمرو بن عامر بن أمريء القيس على هوازن في بلادها ، فلقي عمرو بن عامر بن عامر بن صعصعة وبني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت بنو عامر وبنو نصر ، وقتل أبو بُردة قيس بن زهير أخا خِداش بن زهير الشاعر ، وسبى نِسوةً من بني عامر منهنّ صخرةُ بنت

---

(١) كان ضلعه معه : أي كان هواه معه .

(٢) اعتورته : تداولته .

(٣) لولا أسهم ابن محرق : يريد لولا أن ابن محرق أسهم ، أي جعل لله سهماً في هؤلاء القوم . ما أكثرت عد الأقارب : أي لقتلت منهم حتى أصبحوا قلة . أنهاهم : اسبقهم .

اسماء بن الصريبه النصري وامراتين منهم يقال لهم بيقروديا ، ثم انصرفوا راجعين. فلمّا انتهوا إلى هَرْشَى(١) خنقت صخرة نفسَها فماتت ، وقسمَ أبو بُردة السَّبي والنَّعَم والأموال في كل من كان معه ، وجعل فيه نصيباً لمن غاب عنها من قومه وفرّقه فيهم .

ثم أغارت هوازنُ على بني ليث ، فأصابوا حيّاً منهم يقال لهم بنو الملوَّح ابن يَعْمَر بن عوف ، ورعاء لبني ضاطر بن حَبَشيّة ، فقتلوا منهم رجلاً وسبَوا منهم سَبياً كثيراً واستاقوا أموالهم .

فلمّا صنعت هوازن بني ضاطر ما صنعت جمع قيسُ بن الحدادية قومَه ، فأغار على جموع هوازن ، فأصاب سَبياً ومالاً ، وقتل يومئذٍ من بني قُشير أبا زيد وعُروة وعامراً ومروّحاً ، وأصاب أبياتاً من كِلاب خُلوفاً(٢) ، واستاق أموالهم وسَبْياً ، ثم انصرف وهو يقول :

نحن جَلبنا الخيـلَ قُبّاً بطونُهـا ... تراها إلى الداعي المُثوِّب جُنّحـا
بكلّ خُزاعيّ إذا الحربُ شَمّرت ... تسربلَ فيها بُردَه وتوشّحـا
قرعنا قشيراً في المحلّ عشيّـةً ... فلم يجدوا في واسع الأرض مَسرحا
قتلنا أبا زيدٍ وزيداً وعامـراً ... وعُروةَ أقصدنا بهـا ومُرَوَّحا
وأُبْنا بإبل القوم تُحدَى ونِسـوةٍ ... يُبكّين شِلْواً أو أسيراً مُجرَّهـا
غَداةَ سَقينا أرضَهم من دمائهـم ... وأُبْنا بأُدْمٍ كُنّ بالأمس وُضَّحا
ورُعنا كِلاباً قبل ذاك بغـارةٍ ... فسقنا جِلاداً في المبارك قُرَّحـا
لقد علمت أفناءُ بكر بن عـامرٍ ... بأنّا نَذُود الكاشحَ المُتَزحزحـا
وأنّا بلا مَهرٍ سوى البِيض والقَنا ... نُصيب بأفناء القبائل مَنْكَحا(٣)

---

(١) هرش : ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة .
(٢) الحي الخلوف : الذي خرج رجالهم من الحي وبقي نساؤهم .
(٣) القب : الضامرة ، وأحدها أقب . التثويب : الدعاء مرة ثانية . جنّح : مائلة . أقصده : طعنه فلم =

وقال أبو عمرو :

غزا الضَّريس القُشَيْريّ بني ضاطر في جماعة من قومه ، فثبتوا له وقاتلوه حتى هزموه ، وانصرف ولم يغزُ بشيء من أموالهم ، فقال قيس بن الحدادية في ذلك :

فِدىً لبني قيس وأفنــاء مالــك ... لَدى الشّسْع من رِجْلي إلى الفَرْق صاعدا
غداةَ أتى قومُ الضَّريس كأنهـم ... قَطا الكُدْر من وَدّانَ أصبح واردا
فلم أرَ جمعاً كان أكرمَ غالبـاً ... وأحمى غلاماً يومَ ذاك وأطردا
رميناهمُ بالحُوّ والكُمْتِ والقنـا ... وبيضٍ خِفافٍ يَختلين السّواعدا(١)

قال أبو عمرو :

ولمّا خلعت خُزاعةُ قيساً تحوّل عن قومه ونزل عن بطنٍ من خزاعة يقال لهم بنو عديّ بن عمرو بن خالد ، فآوَوه وأحسنوا إليه ، وقال يمدحهم :

جزى الله خيراً عن خَليعٍ مُطَرَّدٍ ... رجالاً حَمَوه آلَ عمرو بن خالـدِ
فليس كَمن يغزو الصّديق بنَوكه ... وهمّتُه في الغزو كسبُ المَزاودِ
عليكم بعَرصات الدّيـار فإنني ... سِواكم عديدٌ حين تُبلى مشاهـدي
ألاوَدُّتمُ حتى إذا مـا أمنتـمُ ... تعاورتمُ سَجعاً كسَجع الهُداهِد
تجنّى عليّ المازنان كلاهمـا ... فلا أنا بالمغضي ولا بالمُسـاعد
وقد حَدِبت عمروٌ عليَّ بعزّهـا ... وأبنائها من كلّ أروعَ ماجـدِ
مَصاليتُ يومَ الرَّوع كَسْبُهم العُلا ... عِظامُ مَقيلِ الهام شُعْرُ السّـواعد

= يخطئه . الأدم هنا : صفعة للنساء، والأدمة : السمرة . الجلادق الإبل : الغزيرات اللبن . القرح ج قارح : الناقة أول ما تحمل . المتزحزح : المتباعد .

(١) الشسع : سير النعل . الفرق : وسط الرأس الذي يفرق فيه الشعر ، أراد أنه يفتديهم بنفسه . الكدر : موضع قرب المدينة . ودّان : قرية بين مكة والمدينة . الحو ج أحوى ، والحوّة حمرة مائلة إلى السواد . الكمت ج كميت : صفة للجواد لونه بين السواد والحمرة . يختلين : يقطعن وينتزعن .

أولئك إخواني وجَلُّ عشيرتـــي وثروتُهم والنصرُ غيرُ المُحـــاردِ[1]

الزبير بن بَكّار قال : أخبرني عمّي أن خُزاعة أغارت على اليمامة ، بلم يظفروا منها بشيء ، فهَزموا وأسر منهم أسرى . فلمّا كان أوانُ الحج أخرجهم مَن أسَرهم إلى مكة في الأشهر الحُرُم ليبتاعَهم قومُهم ، فغَدوا جميعاً إلى الخَلْصاء[2] ، وفيهم قيسُ بن الحداديّة ، فأخرجوهم وحملوهم وجعلوهم في حظيرة ليحرقوهم ، فمرّ بهم عديٌّ بن نوفل[3] ، فاستجاروا به ، فابتاعهم وأعتقهم . فقال قيس يمدحه :

دعوتُ عدّياً والكُبولُ تَكُبُّـني ألا يا عديٌّ يا عديّ بن نَوفـــلِ
دعوت عدياً والمنايـــا شوارعٌ ألا يا عديّ لِلأسير المُكَبَّـــلِ
فما البحرُ يجري بالسَّفين إذا غدا بأجودَ سيباً منه في كلّ مَحْفِلِ
تداركت أصحاب الحظيرةَ بعدما أصابهمُ منّـــا حريـقَ المُحَلِّـــلِ
وأتبعت بين المَشْعَرينَ سِقايـــةً لحُجّاج بيتِ الله أكرمِ مَنْهَلِ[4]

قال أبو عمرو :

وكان قيس بن الحداديّة يهوى أمَّ مالك بنت ذُؤيب الخُزاعيّ ، وكانت بطون من خزاعة خرجوا جالين إلى مصر والشامَ لأنهم أجدبوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق رأوا البوارقَ خلفَهم ، وأدركهم مَن ذكَر لهم كثرةَ

---

(١) النوك : الحمق . المزاود ج مزود : وعاء الزاد . عديد : معدود . تبلي : تختبر . لاوذ : استتر . المداهد : طائر وهو المدهد أيضاً . المازنان : يقصد قومه بني مازن بن الأزد ، وبني مازن بن كعب ابن عمرو ، وهم من خزاعة . مصاليت ج مصلات ، الماضي في الأمور . مقيل الهام : مستقر الرؤوس أي العنق ، كناية عن قوة بأسهم . الشعر ج أشعر : الكثير الشعر . الثروة : كثرة العدد . المحارد : المنقطع .

(٢) الخلصاء : أرض ببادية الحجاز .

(٣) عدي : هو عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي .

(٤) الكبول : القيود ، جمع كبل . تكبني : ترميني وتقلبني . شوارع : مسددة . المحلل : أرادق حلل إحراقهم في الأشهر الحرم .

الغيث والمطر وغزارته ، فرجَع عمرو بن عبد مناة في ناسٍ كثير إلى أوطانهم ، وتقدّم قَبيصةُ بن ذُؤيب ومعه أختُه أمّ مالك ، وأسمُها نُعْم بنت ذؤيب ، فمضى . فقال قيس بن الحدادية هذه القصيدة :

أجِدَّك إن نُعْمٌ نأتْ أنت جازعُ ... قد اقتربَتْ لو أنّ ذلك نافـــعُ
قد اقتربتْ لو أنّ في قُرب دارها ... نَوالاً ولكنْ كلُّ مَن ضَنّ مانعُ
وقد جاورتْنا في شهور كثـــيرةٍ ... فما نَوَّلتْ واللهُ راءٍ وسامــــعُ
كإن تلقَيَنْ نُعمى هُدِيتَ فحَيِّها ... وسَل كيف تُرعى بالمَغِيب الودائـعُ
وظنّي بها حِفْظٌ لِغيبي ورِعْيَـــةٌ ... لما استُرعيتْ والظنُّ بالغيب واسع
وقلت لها في السّرّ بيني وبينهـــا ... على عجَلٍ أيّانَ مَن سار راجـــعُ
فقالت : لقاءٌ بعد حَولٍ وحِجّـــةٍ ... وشَحطُ النوى إلّا لذي العهد قاطعُ
وقد يلتقي بعد الشّتات أُولو النَوى ... ويسترجع الحيَّ السَّحــابُ اللّوامع
وما إن خَذُولٌ نازعتْ حبـلَ حابلٍ ... لِتنجُوَ إلا استسلمتْ وهي ظالعُ
بأحسنَ منها ذاتَ يوم لَقِيتُهـــا ... لها نظرٌ نحوي كذي البثِّ خاشع
رأيتُ لها ناراً تُشَبُّ ودُونَهـــا ... طويلُ القَرا من رأس ذروةِ فارعُ
فقلت لأصحابي : اصطَلُوا النّارَ إنها ... قريبٌ فقالوا : بل مكانَك نَافع
فيا لك من حادٍ حبَوتَ مقيّـــداً ... وأنحى على عِرنين أنفِك جــادع
أغيظاً أرادت أن تَخُــبَّ جمالُها ... لتفجعَ بالإظعانِ من أنت فاجــعُ
فما نُطفةٌ بالطَّود أو بضَرِيّـــةٍ ... بقيةُ سيلٍ أحرزتْـها الوقائـــع
يُطيف بها حَرّانُ صادٍ ولا يرى ... إليها سبيلاً غيرَ أن سيُطالـــع
بأطيبَ مِن فيها إذا جئت طارقاً ... من الليل واخضلّت عليك المَضاجعُ

* * *

[إلى أن يقول :]

كأنّ فؤادي بين شِقَّين من عَصاً ... حِذارَ وقوع البَين والبينُ واقع
يحُثُّ بهم حادٍ سريعٌ نَجاؤه ... ومُعْرىً عن الساقَين والثوبُ واسع
فقلت لها : يا نُعمُ حُلّي مَحلَّنا ... فإنّ الهوى يا نعمُ والعيشُ جامع
فقالت وعيناها تفيضان عَبرةً : ... بأهليَ بَيّنْ لي متى أنت راجعُ
فقلت لها : تاللهِ يدري مسافرٌ ... إذا أضمرتْه الأرضُ ما اللهُ صانع
فشدّت على فيما اللِّثامَ وأَعرضتْ ... وأمعن بالكُحل السَّحيق المَدامعُ
وإنّي لِعهد الوُدّ راعٍ وإنّني ... بوصلكِ ما لم يَطوِني الموتُ طامع (١)

قال أبو عمرُ : فأُنشدت عائشةُ بنت طلحة بن عبيدِالله هذه القصيدة ، فاستحسنتها وبحضرتها جماعة من الشعراء فقالت : من قدَر منكم أن يزيد فيها بيتاً واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حُلّتي هذه . فلم يقدر أحد منهم على ذلك .

مقتله :

قال أبو عمرو :

وكان من خبر مقتل قيس بن الحدادّية أنه لقي جمعاً من مزينة يريدون الغارة على بعض من يجدون منه غِرّةً ، فقالوا له : استأسِرْ . فقال : وما يَنفعكم مني إذا استأسرت وأنا خليعٌ ؟ والله لو أسرتموني ثم طلبتم بي من قومي عَنْزاً جَرباءَ جَذماء ما أَعطيتموها . فقالوا له : استأسِرْ لا أُمَّ لك . فقال : نفسي

---

(١) أجدّك : أبجدٌّ منك . الشحط : البعد . الخذول ق انطباء وبقر الوحش : التي تتخلف عن القطيع وتنفرد مع ولدها . ظلع : غمز في مشيته . البت : الحزن الشديد القرا : الظهر. ذروة اسم جبل . فيالك من حاد : معنى البيت : إنك تسير سيراً بطيئاً كحبو الصبي مقيداً . النطفة : الماء الصافي . الطود : الجبل واسم الجبل المشرف على عرفة . ضرية : بئر ، وموضع بعينه . الوقائع ج وقيعة : النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . الصادي : الظمآن . طالعه : أشرف عليه . النجاء : السير السريع . أمعن الماء والدمع : سال .

عليّ أكرمُ من ذلك . وقاتلهم حتى قُتل ، وهو يَرتجز ويقول :

أنا الذي تخلَعُه مَوالِيه ... وكُلُّهم بعد الصَّفاء قالِيه
وكُلُّهم يُقسم لا يُباليه ... أنا إذا الموتُ ينوبُ غاليه
مختلطٌ أسفلُه بعالِيه ... قد يعلم الفِتيانُ أنّي صالِيه
إذا الحديدُ رُفعتْ عَواليه

وقيل : إنه كان يتحدّث إلى امرأة من بني سُليم ، فأغاروا عليه وفيهم زوجُها ، فأَفلت فنام في ظِلٍّ وهو لا يخشى الطلب ، فاتَّبعوه فوجدوه ، فقاتلهم ، فلم يزل يرتجز وهو يقاتلهم حتى قُتل .

الشعراء الفرسان

- ١٢ -

عَنترة بن شدّاد

(الأغاني ج ٨ ص ٢٣٧ وما بعدها)

الشاعر

هو عَنترة بن شَدّاد وقيل : بن عمرو بن شَدّاد ... بن عَبْس .. وله لقبٌ يقال له عنترةُ الفَلْحاء ، وذلك لتشقُّق شفتَيه ، وأُمُّه أمَةٌ حبشية يقال لها زَبيبة ، وكان لها وَلدٌ عبيدٌ من غير شدّاد ، وكانوا إخوته لأمّه . وقد كان شدّاد نفاه مرة ثم اعترف به فألحقه بنسبه ، وكانت العرب تفعل ذلك ، تستعبد بني الإماء . فإن أنجب اعترفت به وإلاّ بقي عبداً . قال ابن الكلبيّ : وعنترةُ أحد أغرِبة [1] العرب ، وهم ثلاثة : عنترةُ وأُمُّه زَبيبة ، وخُفاف بن عُمير الشَريدي وأمّه نُدبة ، والسُليك بن عُمير السَعدي وأمّه السُلَكة . وإليهنّ ينسبون وفي ذلك يقول عنترة :

(١) أغربة ج غراب وذلك لسوادهم.

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصِباً شَطري وأحمي سائري بالمُنصل
وإذا الكتيبةُ أحجمتوتلاحظت ألفيت خيراً من مُعَمّ مخول

سبب ادّعاء أبيه إيّاه

قال ابن الكلبي : ... كان سبب ادّعاء أبي عنترةَ إيّاه أن بعض أحياء العرب أغارُوا على بني عبس ، فأصابوا منهم واستاقُوا إبلاً ، فتبعهم العبسيُّون فلحقُوهم فقاتلوهم عمّا معهم ، وعنترةُ يومئذٍ فيهم ؛ فقال له أبوه : كُرَّ يا عنترةُ . فقال عنترة : العبد لا يُحسن الكرّ ، إنما يُحسن الحِلابَ والصَرّ (١) . فقال : كرَّ وأنت حرّ . فكرّ وهو يقول :

أنا الهجينُ عنترهْ كلُّ امرىءٍ يحمي حِرَه
أسودَه وأحمَره والشَعَرات المُشْعَره
الواردات مِشفرَه

وقاتل يومئذ قتالاً حسناً فادّعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبَه .

طائفة من أخباره

* قال أبو سعيد وذكر ذلك أبو عمرو الشيباني قالا : كان عنترةُ قبل أن يدّعيه أبوه حرّشت عليه امرأةُ أبيه وقالت : إنه يراودني عن نفسي . فغضب من ذلك شدّاد غضباً شديداً وضربه ضرباً مُبرِّحاً وضربه بالسيف ، فوقعت عليه امرأةُ أبيه وكفّته عنه . فلمّا رأت ما به من الجراحِ بكت — وكان اسمها سُميّة وقيل سُهَيّة — فقال عنترة :

أمن سُمَيّةَ دمعُ العين مَذروفُ لو أنّ ذا منكِ قبلَ اليوم معروفُ

(١) صر الناقة : شد ضرعها .

كـأنّها يـومَ صدّت ما تكلّمني ظبيٌ بعُسفان ساجي الطرف مطروفُ
تجلّلتنيَ إذ أهوى العصا قِبَلي كأنّها صنَمٌ يُعتادُ معكوفُ
العبدُ عبدُكمُ والمالُ مالُكم فهل عذابُك عني اليومَ مصروفُ
تنسى بلائي إذا ما غارةٌ لحقت تخرج منها الطُوالاتُ السراعيف
يخرجن منها وقد بُلّت رحائلها بالماء تركُضها الشُمُّ الغطاريف
قد أطعنُ الطعنة النجلاءَ عن عُرُضٍ تصفرُّ كف أخيها وهو منزوف (١)

* قال أبو عمرو الشيباني : غزت بنو عبس بني تميم ، وعليهم قيس بن زهير . فانهزمت بنو عبس ، وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنترةُ ، ولحقتهم كبكبةٌ من الخيل ، فحامى عنترةُ عن الناس فلم يُصَب مُدبِرٌ . وكان قيس بن زهير سيِّدَهم ، فساءه ما صنع عنترة يومئذ فقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا ابنُ السوداء . وكان قيس أكولاً . فبلغ عنترة ما قال ، فقال يعرّض به قصيدته التي يقول فيها :

بكرتْ تُخوّفني الحتُوفَ كأنني أصبحت عن عَرَض الحتُوفِ بمعزِلِ
فأجبتُها : إنّ المنيةَ منهلٌ لا بُدَّ أن أسقى بكأسِ المنهلِ
فاقْني حياءَك لا أبالكِ واعلمي أنّي امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقتل
إنّ المنيةَ لو تمثّلُ مُثِّلت مثلي اذا نزلوا بضَنْك المنزِل
ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُّه حتّى أنالَ به كريمَ المأكل (٢)

طريقته في القتال

عن الهيثم بن عديّ قال : قيل لعنترة : أنت أشجعُ العرب وأشدُّها ؟

(١) ساجي الطرف : ساكن العين. السراعيف ج سرعوف : الفرس الطويلة . نظر اليه عن عرض : من جانب .
(٢) الحتوف : المنية . عرض الحتوف : ما يعرض منها . اقني حياءك : احفظيه ولا تضيعيه . الطوى : الجوع .

قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنتُ أُقدِم إذا رأيت الإقدامَ عزماً ، وأُحجِم اذا رأيت الإحجام حزما . ولا أدخلُ إلاَ موضعاً أرى لي منه مَخرجاً . وكنت أعتمد الضعيفَ الجبان فأضربه الضربةَ الهائلة يَطيرُ لها قلبُ الشجاع فأثَنّي عليه فأقتلُه .

أقوال فيه

ابن عائشة قال : أنشِد النبيُّ ﷺ قولَ عنترة :

ولقد أَبيتُ على الطوى وأظلُّه   حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فقال : « ما وصُف لي أعرابيٌّ قطُّ فأحببتُ أن أراه الا عنترةَ » .

عمر بن شبّة قال : قال عمر بن الخطاب للحطيئة : كيف كنتُم في حربكم ؟ قال : كنّا ألفَ فارسٍ حازمٍ . قال : وكيف يكونُ ذلك ؟ قال : كان قيسُ بن زهيرٍ فينا ، وكان حازماً ، فكنّا لا نعصيه . وكان فارسُنا عنترةَ ، فكنا نحمِل إذا حمل ، ونحجم إذا أحجم . وكان فينا الربيعُ بن زياد ، وكان ذا رأي ، فكنّا نستشيره ولا نُخالفه . وكان فينا عُروةُ بنُ الوَرد فكنّا نأتمُّ بشِعره ، فكنّا كما وصفتُ لك . فقال عمر : صدقت .

عن محمد بن سلام قال : كان عمرو بن مَعدِ يكرِب يقولُ : ما أُبالي من لقيتُ من فُرسان العرب ما لم يَلقني حُرّاها وهَجيناها . يعني بالحُريّن : عامر بن الطفيل وعُتيبة بن الحارث بن شِهاب . وبالعَبديَن : عنترة والسُليك ابن السُلكة .

موته واختلاف الروايات فيه

عن أبي عبيدة وابن الكلبيّ قالا : أغار عنترةُ على بني نَبْهان من طيّء

فطَرد لهم طريدةً ، وهو شيخٌ كبيرٌ ، وكان زرٌّ بن جابر النَبهاني في فتُوّه ، فرماه وقال : خُذها وأنا ابن سَلمى . فقطع مَطاه [1] ، فتحامل بالرمية حتى أتى أهلَه ، فقال وهو مجروح :

وانَّ ابن سَلمى عندَه – فاعلَمُوا – دمي
وهيهاتَ لا يُرجى ابن سَلمى ولا دَمي

يَحُلُّ بأكنافِ الشِعابِ وينتحي
مكانَ الثريّا ليس بالمُتَهَضّمِ

رماني ولم يَدهَشْ بأزرقَ لهَذَم
عشيّة حلُّوا بين نَعفٍ ومَخرَم [2]

قال ابن الكلبي : وكان الذي قتله يُلقّب بالأسد الرهِيص . وأما أبو عمرو الشيباني فذكر أنه غزا طيّئاً مع قومه ، فانهزمت عبسٌ ، فخرَّ عن فرسه ولم يَقدر من الكِبَر أن يعود فيركب ، فدخل دَغَلاً وأبصره ربيئةُ [3] طيّء فنزل اليه وهاب أن يأخذه أسيراً فرماه وقتله .

وذكر أبو عبيدة أنه كان قد أسنَّ واحتاج وعجز بِكبَر سنّه عن الغارات ، وكان له على رجلٍ من غطفان بَكرٌ ، فخرج يتقاضاه إيّاه ، فهاجت عليه ريحٌ من صيف ، وهو بين شرج وناظرة ، فأصابتْه فقتلته .

* * *

---

(١) المطا : الظهر .
(٢) اللهذم : السنان القاطع . النعف : ما انحدر عن السفح وغلظ . المخرم : منقطع أنف الجبل .
(٣) الربيئة : المكلف بمراقبة العدو والحراسة .

- ١٣ -
عمرو بن كلثوم

(الأغاني ج ١١ ص ٥٢ وما بعدها)

الشاعر

هو عمرو بن كُلثوم بن مالك ... بن تَغلب بن وائل بن ربيعة : وأم عمرو ابن كُلثوم ليلى بنت مُهلهِل ، أخي كليب ... وكان لعمرو أخ يقال له مُرَّة ابن كلثوم ، فقتل المنذرَ بن النعمان وأخاه ، وايّاه عنى الأخطل بقوله لجرير :

أبني كُليبٍ إنّ عمّيَّ اللـذا   قتلا المُلوك وفَكّكا الأغلالا

وكان لعمرو بن كلثوم ابن يقال له عَبّاد ، وهو قاتل بشر بن عمرو بن عُدَس . ولعمرو بن كلثوم عَقِبٌ باقٍ ، ومنهم كُلثوم بن عمرو العتّابي الشاعر صاحب الرسائل .

طائفة من أخباره

• عن ابنَ الأعرابي قال : أغار عَمرو بن كلثوم التغلبي على بني تميم ،

ثم مرَّ من غزوه ذلك على حيٍّ من بني قيس بن ثعلبة ، فملأ يَديه منهم وأصاب أسارى وسَبايا ، وكان فيمن أصاب أحمد بن جَندل السعديّ ، ثم انتهى إلى بني حنيفة باليمامة ، وفيهم أناسٌ من عِجلٍ ، فسمع به أهل حَجْر [1] ، فكان أوّلَ من أتاه من بني حَنيفة بنو سُحَيم عليهم يزيدُ بن عمرو بن شِمر . فلما رآهم عمرو بن كلثوم ارتجز فقال :

مَن عاذ مني بعدَها فلا اجتَبَرْ ولا سَقى الماءَ ولا أرعى الشجرْ
بنو لُجَيمٍ وجَعاسيسُ مُضَر بجانب الدوِّ يُدَهْدُون العَكَرَ [2]

فانتهى اليه يزيد بن عمرو فطعنه فصرعه عن فرسِه وأسره ؛ وكان يزيد شديداً جسيماً ، فشدّه في القِدّ [3] وقال له : أنت الذي تقول :

متى تُعقَدْ قَرينتُنا بحَبلٍ تَجُذَّ الحبلَ أو تَقِصِ القَرينا [4]

أما إني سأقرِنك إلى ناقتي هذه فأطرُدكما [5] جميعاً .

فنادى عمرو بن كلثوم : يا لربيعة ! أمُثْلة [6] ؟! فاجتمعت بنو لُجيم فنَهوه ، ولم يكن يريد ذلك به . فسار به حتى أتى قصراً بحَجْر من قصورهم ، وضرب عليه قُبّةً ونحر له وكساه وحمله على نجيبةٍ وسقاه الخمر ...

* قال ابن الأعرابي : بلغ عمرَو بن كلثوم أن النُعمان بن المنذر يتوعّده ،

---

(١) حجر : حاضرة اليمامة .

(٢) بنو لجيم : القبيلة التي ينتمي إليها بنو حنيفة ، فهم بنو حنيفة بن لجيم بن صعب . الجعاسيس ج جعسوس : اللئام الخلق . الدو : الفلاة . يدهدون : يدحرجون . العكر : القطعة من الابل .

(٣) القد : السير من الجلد

(٤) القرينة : الناقة تقرن إلى غيرها . تجز : تقطع . وقص عنقه : دقها .

(٥) طرد الابل : ساقها .

(٦) المثلة : التنكيل والتعذيب .

فدعا كاتباً من العرب فكتب اليه :

ألا أبلغ النعمانَ عـني رسالـــةً فمدحُك حَولِيٌّ وذمُّك قارِحُ
متى تلقَني في تغلــبَ ابنةِ وائـلٍ وأشياعِها تَرقى اليك المَسالحُ (١)

وهجا النعمان بن المنذر هجاء كثيراً ، منه قوله يعيّره بأمّه سُليمى :

حلّت سُليمى بخَبْتٍ بعدَ فِرتــاجِ
وقد تكون قديمــاً في بني نــــاجِ
اذ لا تُرجّى سُليمى أن يــكونَ لهــا
مَن بالخَوَرنقِ من قَيْــنٍ ونَسّاج
ولا يكــون على أبوابهــا حَــرَسٌ
كمــا تلفّــف قِبْطــيٌّ بديبـــاجِ
تمشي بعِدْلَين من لُؤمٍ ومَنقصــة
مشيَ المقيّدِ في اليَنْبوتِ والحــاجِ (٢)

قال : وقال في النعمان :

لحا اللهُ أدنانــا إلى اللؤم زُلْفــةً وألأمنــا خالاً وأعجَزَنا أبـــا
وأجدرَنـــا أن ينفُخَ الكيرَ خالُــه يصُوغ القُروط والشُنوفَ بيثْربا (٣)

خبر قتله عمرو بن هند

الكلبيُّ وشَرْقي بن القَطاميّ وغيرهما قالوا : إنّ عمرو بن هند قال ذات

(١) الحولي : ما أتى عليه حول أي سنة ، والقارح من ذي الحافر : الذي شق نابه ، وهو في السنة الأولى حولي ثم ثنى ثم رباع ثم قارح . المسالح ج مسلحة : القوم في سلاحهم .
(٢) خبت وفرتاج : موضعان . بنوناج : بطن من عدوان . الينبوت : نبات له شوك . الحاج : ضرب من الشوك .
(٣) الزلفة : القرابة والمنزلة . الشنوف ج شنف : القرط الأعلى .

يوم لنُدَمائه : هل تعلمُون أحداً من العرب تأنَفُ أمـّه من خِدمة أمـّي ؟ فقالوا : نعم ، أمُّ عمرو بن كلثوم . قال : ولمَ ؟ قالوا : لأن أباها مُهلهِل بن ربيعة ، وعمـّها كليبُ وائلٍ أعزُّ العرب . وبَعلَـها كُلثوم بن مالك أفرسُ العرب ، وابنَـها عمروٌ ، وهو سيـّدُ قومه .

فأرسل عمرُو بن هند إلى عمرِو بن كلثوم يَستزيره ويسأله أن يُزير أمـّه أمـّه . فأقبل عمروٌ من الجزيرة إلى الحِيرة فيجماعة بني تغلب ،وأقبلت ليلى بنتُ مهلهل في ظُعُن من بني تغلب . وأمر عمرو بن هند برِواقه فضُرب فيما بين الحِيرة والفُرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضَرُوا في وجوه بني تغلب .

فدخل عمرُو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ، ودخلت ليلى وهند في قُبـّةٍ من جانب الرّواق . وكانت هند عمـّةَ امرىء القيس بن حُجر الشاعر ، وكانت أمُ ليلى بنت مهلهل بنتَ أخي فاطمة بنت ربيعة التي هي أمُّ أمرىء القيس ، وبينهما هذا النسب . وقد كان عمرو بن هند أمر أمـّه أن تُنحـّيَ الخدمَ اذا دعا بالطُرف وتستخدم ليلى . فدعا عمروٌ بمائدة ثم دعا بالطُرَف . فقالت هند : ناوليني يا ليلى ذلك الطَبقَ . فقالت ليلى : لِتَقُمْ صاحبةُ الحاجة إلى حاجتها . فأعادت عليها وألحـّت . فصاحت ليلى : واذُلاّه ! يا لتغلِب ! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدمُ في وجهه ، ونظر اليه عمرو بن هند فعرف الشرَّ في وجهه . فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيفٍ لعمرو بن هند معلـّق بالرواق ليس هناك سيفٌ غيره . فضرب به رأس عمرو بن هند ، ونادى في بني تغلب فانتهبوا ما في الرِواق وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة . ففي ذلك يقول عمرُو بن كلثوم :

ألا هُبـّي بصَحنِك فاصبَحينا

وكان قام بها خطيباً في سوق عُكاظ وقام بها في مَوسم مكة . وبنو تغلب تعظـّمها جِداً ويَرويها صغارُهم وكِبارهم ، حتى هُجوا بذلك .

قال بعض شعراء بكر بن وائل :

ألهَى بني تغلبٍ عن كـل مَكرُمةٍ   قصيدةٌ قالها عمرُو بن كلثومِ
يروُونها أبَداً مذ كــانَ أوّلهُـــم   يا للرِّجال لِشعرٍ غيرِ مَســؤوم

وقال الفرزدق يردّ على جرير في هجائه الأخطل :

ما ضرّ تغلبَ وائــلٍ أهجوتَهــا   أم بُلتَ حيث تناطح البحرانِ
قومٌ هــم قتلوا ابنَ هِنـدٍ عَنْوةً   عَمراً وهم قسطُوا على النعمان (١)

وقال أفنون صُريم التغلبي يفخَر بفعل عمرو بن كلثوم في قصيدة له :

لَعمرُك ما عمروُ بن هنــد وقد دعا   لتخدمَ ليــلى أمّــه بموفّـــق
فقام ابنُ كلثوم إلى السيفِ مُصلَتاً   فأمسك من نَدْمانِه بـالمُخنّق
وجلّله عمرٌو على الرأس ضربــةً   بذي شُطَبٍ صافي الحديدَةِ رونقِ (٢)

وصيته لبنيه ووفاته

لمّا حضرت عمرَو بن كلثوم الوفاةُ ، وقد أتت عليه خمسون ومائةُ سنة ، جمع بَنيه فقال :

يا بَنيَّ ، قد بلغتُ من العمر ما لم يَبلغْه أحدٌ من آبائي ، ولا بدّ أن يَنزِل بي ما نزل بهم من الموت . وإني ، والله ، ما عَيّرتُ أحداً بشيءٍ إلاّ عُيّرتُ بمثله ، إن كان حقاً فحقّاً ، وإن كان باطلاً فباطلاً . ومن سَبّ سُبّ ، فكُفّوا عن الشتم فإنه أسلمُ لكم ، وأحسِنوا جِواركم يحسُنِ ثناؤكم ، وامنعوا من ضَيم الغريب ، فربّ رجلٍ خيرٌ من ألفٍ ، ورَدّ

(١) قسطوا : جاروا .
(٢) الندمان : من ينادم على الشراب . شطب السيف : طرائقه في متنه .

خيرٌ من خُلْف . وإذا حُدِّثتم فعُوا ، وإذا حَدَّثتم فأوجِزوا ، فإنّ مع الإكثار تكون الأهذار . وأشجعُ القوم العَطوفُ بعد الكرّ ، كما أن أكرم المنايا القتلُ ، ولا خيرَ فيمن لا رويّةَ له عند الغضب ، ولا مَن إذا عُوتب لم يُعتِب [1] . ومن الناس من لا يُرجى خيرُه ، ولا يُخاف شرُّه ، فبَكْؤُه خيرٌ من دَرّه [2] ، وعُقوقه خيرٌ من بِرّه . ولا تتزوّجوا في حيِّكم فإنه يُؤدّي إلى قبيحِ البُغض .

(١) الاعتاب : رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب .
(٢) البكء : قلة اللبن وانقطاعه ، يريد أن منعه خير من عطائه .

- ١٤ -

خفاف بن ندبة

(الأغاني ج ١٨ ص ٧٤ وما بعدها)

الشاعر

هو خُفاف بن عُمير بن الحارث بن الشَّريد ... بن سُلَيم ... ، ونُدبة أمُّه ، وهي أمَة سوداء ، وكان خفاف أسود أيضاً ، وهو شاعر من شعراء الجاهلية وفارسٌ من فرسانهم ، وجعله ابن سلاّم في الطبقة الخامسة من الفرسان ، مع مالك بن نُويرة ، ومع ابنيَ عمّه صخر ومعاوية ابنيَ عمرو ابن الشَّريد ، ومالك بن حِمار الشمخيّ .

طائفة من أخباره

عن محمّد بن سلاّم قال : كان خفاف بن ندبة – وهي أمُّه – فارساً شجاعاً شاعراً ، وهو أحد أغربة العرب ، وكان هو ومعاوية بن الحارث ابن الشريد [١] أغار على بني ذَبيان يوم حَوزة ، فلمّا قتلوا معاوية بن عمرو

(١) سقط من سياق نسب معاوية اسم أبيه عمرو ، ومعاوية وصخر هما أخوا الخنساء الشاعرة .

قال خفاف : والله لا أريمُ (١) اليومَ أو أُقيدَ به (٢) سيّدَهم ، فحمل على مالك بن حمار ، وهو يومئذ فارس بني فَزَارة وسيّدُهم ، فطعنه فقتله وقال :

فإن تكُ خيلي قد أُصيب صَميمُها فعَمداً على عَيني تيمّمتُ مالكا
رفعت له ما جرَّ اذ جرّ موتُه لأبنيَ مجداً أو لأثأرَ هالِكا
أقولُ له والرمحُ يأطِرُ متْنَه تأمّلْ خُفافاً ، إنّني أنا ذَلكا (٣)

نزاعه مع العبّاس بن مرداس

عن يحيى بن عبد الله بن الفضل الفزاري — وكان علاّمة بأمر قيس — قال :

كان خُفاف في جماعة من قومه فقال : إنّ عبّاس بن مِرداس ليُريد أن يبلغ فينا مَبلغَ عبّاس بن أنَس ، وتأبى عليه خِصالٌ قعدن به عن ذلك . فقال فتى من رهط عباس : ما تلك الخِصالُ يا خُفاف ؟ فقال : اتّقاؤه بِخَيله عند الموت ، ومكالبته الصعاليك على الأسلاب ، وقتلُه الأسرى ، واستهانتُه بسبايا العرب . وايمُ الله ، لقد طالت حياتُه حتى تمنّينا موته .

فانطلق الفتى إلى العبّاس فحدّثه الحديث . فقال العبّاس : يا بنَ أخي ، إلاّ أكنْ كالأصمّ في فَضله فلستُ كخُفافٍ في جهله ، وقد مضى الأصم بما في أمس ، وخلّفني لما في غدٍ . فلمّا أمسى تغنّى فقال :

خُفافُ أما تزالُ تجرُّ ذَيلاً إلى الأمرِ المُقرّبِ للفسادِ

---

(١) لا أريم : لا أفارق مكاني .
(٢) أقيد به : أقتل لقاءه .
(٣) يأطر : يثني ويعطف . ولصدر البيت الثاني رواية أفضل وهي : وقفت له جلوى وقد خام صحبتي (الأغاني ١٥/٩٠) وجلوى : اسم فرسه ، وخام : جبن .

وقد علـــم المعاشرُ من سُليمٍ بأني فيهمُ حسنُ الأيــادي

(إلى أخر الأبيات) ...

فلمّا أصبح أتى خفافاً ، وهو في ملأ من قومه ، فقال : قد بلغني مقالُك يا خفاف ، وأيم الله ، انك لتعلمَ أني أحمي المصافّ [1] ، وأكره السَلَب ؛ وأطلِق الأسير ، وأصُون السَبِيّة .

فأما زَعْمُك أني أتّقي بخَيلي عند الموت فهاتِ له من قومك رجلا اتّقيت به ؛ وأمّا قتلي الأسرى فإني قتلتُ الزُبيديَّ بخالك ؛ وأما سَلبي الأسير فوالله ما أتيت على مسلوبٍ قطّ إلاّ لمت سالبه ، وأمّا استهانتي بالسبايا فإني أحذُو القوم في سباياهم فِعالَهم في سبايانا ، وأمّا تمنّيك موتي فإن مُتُّ قبلك فَأغنِ غَنائي . ثم انصرف ، فقال خفاف مجيباً للعبّاس عن قوله :

لعَمرُ أبيــك يــا عبّاسُ إني لمنقطعُ الرِشاءِ عن الأعــادِي
واني قد تعاتبــني سُلــيمٌ على جرّ الذُيول إلى الفسادِ
أكلَّ الدهر لا تنفــكُّ تجري إلى الأمر المُفارقِ للسَــداد
إذا ما عاينتْــك بنو سُلــيمٍ تَبيتُ لهم بداهيــةٍ نَــآدِ
فزَندك في سُليمٍ شَرّ زَنــدٍ وزادُك في المعاشر شرُّ زادِ
ألا لله دَرُّك مــــن رئيس اذا عاديتَ فانظُرْ مَن تُعادي
جَرَيتُ مُبرِّزاً وجريتَ تكبُو على تعبٍ فهل لك من مَعادِ
ولم تقتُلْ أسيرَك مِــن زُبَيدٍ بخالي بل غدرتَ بمُستَقَادِ [2]

* * * *

وإنّ رهط خفاف لاموه وقالوا : اكفُف عن الرجل . فقال : كيف

---

(١) المصاف : مواقف القتال .

(٢) الرشاء : حبل الدلو . داهية نآد : شديدة . المستقاد : أراد الزبيدي .

أكفُّ عن رجلٍ يريد أن يبزّنا أمرنا بغير فضل . وقال رهط العبّاس له : أيُّها الرجلُ اكفُف ، فقال قولاً جميلاً ...

وكان خفاف قد كفّ عن العبّاس حتى أتاه غلام من قومه فقال : أبى العبّاسُ الاّ جُرأةً عليك وعيباً لك . فغضب خفاف ثم قال : ما يدعُوه إلى ذلك ؟ فوالله إنّ أباه لرابطُ السهم ، وإن أمّه لخفيّة الشخص ، ولئن طلب مَسعاي ليعلمنّ أنه قصير الحعلوة ، أجذمُ الكفّ ، وما ذنبُنا اليه إلاّ أنّا استنقذنا أباه من عِصِيّ بني حِزام ، وكافحنا دونه يومَ بني فِراس ، ونصرنا أباه على حرب بن أُميّة . وقال خُفاف في ذلك :

لن يترُكَ الدهــرَ عبّاسٌ تقحُّمَه ... حتى يَذُوقَ وَبال البغي عبّاسُ
أمسكتُ عن رَميه حَولاً ومَقتلُــه ... بادٍ لتعذُرَني في حربه النـــاس
عَمــداً أجرُّ لــه ثوبي لأخدعَــه ... عن رأيه ورجائي عنده يـــاس
فالآنَ اذ صَرّحت منه حقيقتُــــه ... ظُلماً فليس بشتمي شاتمي بـــاس
أجُدُّ يومـــاً بقولي كلَّ مبتــدىء ... كما يَجُدّ بكفّ الجازر الفاس
تأبى سُليمٌ اذا عَدّت مَساعيَهـــا ... أن يُحرِزَ السبقَ عبّاسٌ ومِرداسُ
أودى أبو عامرٍ عبّاسُ معترِفـــاً ... أنّا إذا ما سُليمٌ حَصّلتْ راس (١)

فبلغ العباس أمر خفاف فأتاه فالتقيا عند أسماءَ بن عُروة بن الصلت بن حِزام ... وكان مأموناً في بني سُليم ، فقال العبّاس : قد بلغني قولك يا خفاف ، ولعمري لا أشتم أباك ولا أمُّك ، ولكني رامٍ سَوادَك بما فيك . والله مـــا كنت إلى ذمّك بالهيمان ، ولا إلى لحمك بالقَرِم (٢) ، وانّ سُليماً لتعلم أني أبحتُ حمى بني زُبيد ، وأطفــأت جمرة خثعم ، وكسرت قرني بني الحارث بن كعب ، وقلّدت بني كنانة قلائد العار ،

---

(١) أجد : أقطع . أودى : هلك . حصلت : تجمعت .
(٢) القرم : الذي يشتهي اللحم .

وإنيّ يا خفـــاف لأخفُّ منك على بني سُليم مؤونةً ، وأثقل منك على عدوّهم وَطأةً ، وقال مجيباً له :

إني رأيتُ خفافــاً ليس يُهنئـــه ... شيءٌ سوى شتم عبّاس بن مرداسِ
مهلاً خفافُ فـإنّ الحقّ معَضَبَةٌ ... والحمقُ ليس له في الناس من آسي
سائل سُليماً إذا ما غـارةٌ لحقـت ... منها فوارسُ حُشدٌ غيرُ أنكاس
مِن خثعمٍ وزُبيدٍ أو بـني قَطنَ ... أو رهط فَروةَ دهراً أو شَحا الناس
يُنبوا من الفارسُ الحامي حقيقتَـه ... اذا أتوك بحامٍ غيرِ عبّـاسِ (١)

(إلى آخر الأبيات ... وتتمة الخبر) عن الحجاج السُلمي قال :

قال العبّاس : قد آذنتَ خُفافاً بحرب . ثم أصبحا فالتقيا بقومهما ، فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى الليل ، وكان الفضل للعباس على خفاف . فركب إليه مالك بن عوف ودريد بن الصِمّة الجشمي في وجوه هوازن . فقام دريد خطيباً فقال : يا معشر بني سُليم : إنه أعجلني اليكم صدرٌ وادٌ ورأيٌ جامعٌ ، وقد ركب صاحباكم شرمطيّة ، وأوضعا (٢) إلى أصعب غاية ، فالآن قبل أن يندم الغالب ويذلّ المغلوب . ثم جلس فقام مالك بن عوف فقال : يا معشر بني سُليم ! إنكم نزلتم منزلاً بَعُدت فيه هوازن ، وشبعت منكم فيه بنو تميم ، وصالت عليكم فيه بكر بن وائل ، ونالت فيه منكم بنو كنانة . فانزعوا وفيكم بقيّة قبل أن تلقوا عدوّكم بقرنٍ أعضب وكف جذماء (٣) . قال : فلما أمسينا تغنّى دريد بن الصِمّة فقال :

سُليمُ بنَ منصـورٍ ألمّا تُخبَّروا ... بما كان من حَربَي كُليبٍ وداحسِ
وما كان في حرب اليَحابرِ من دمٍ ... مباحٍ وجَدعٍ مؤلمٍ للمعـاطس

(١) معضبة : من عضبه أي قطعه . الآسي : المداوي . شحا الناس : جميع الناس .
(٢) أوضعا : أسرعا .
(٣) أعضب : مكسور . جذماء : مقطوعة .

وما كان في حربَي سُليم وقَبْلَهم ... بحرب بُعاثٍ من هلاك الفوارس
تسافهت الأحلام فيهـا جهالـةً ... وأضرم فيها كلُّ رطبٍ ويابس
فكُفُّوا خُفافاً عن سفاهة رأيـه ... وصاحبَه العبّاسَ قبل الدهارس
والاّ فأنتم مثلُ مَن كـان قبلَكم ... ومَن يعقِلِ الأمثالَ غيرُ الأكايس[1]

... قال : ثم أصبحنا فاجتمعت بنو سُليم وجـاء العبّاس وخُفاف فقال لهما دريد بن الصمة ولمن حضر من قومهما : يا هؤلاء ، انّ أوّلكم كان خيرَ أوّل ، وكلُّ حي سَلف خيرٌ من الخلف ، فكُفُّوا صاحبيكم عن لَجاج الحرب وتهاجي الشعر . فاستحيا العباس فقال : أنا نكفّ عن الحرب ، ونتهادى الشِعر . فقال دُريد : فإن كنتُما لا بد فاعلين فاذكرا ما شئتما ودعا الشتم ، فإن الشتم طريق الحرب . فانصرفا على ذلك ...

* * *

(١) الدهارس : الدواهي واحدتها دهرس . الأكايس ج كيس : العاقل الفطن .

- ١٥ -

دُرَيد بن الصِّمَّة

(الأغاني ج ١٠ ص ٣ وما بعدها)

الشاعر

هو دُرَيد بن الصمّة [(١)] ... بن غَزِيّة بن جُشم بن معاوية بن بكر بن هوازن ... ودريد بن الصِمّة فارس شجاعٌ شاعر فحل ، وجعله محمد بن سلام أولَ شعراء الفرسان . وقد كان أطولُ الفرسان الشعراء غزواً ، وأبعدهُم أثراً ، وأكثرهم ظفراً ، وأيمنُهم نقيبةً عند العرب ، وأشعرُهم دريدَ بن الصِمّة .

وقال أبو عبيدة : كان دريد بن الصمة سيّد بني جُشم وفارسَهم وقائدهم ، وكان مظفّراً ، ميمون النقيبة ، وغزا نحو مائة غَزاةٍ ما أخفق في واحدة منها ، وأدرك الإسلام فلم يُسلم ، وخرج مع قومه في يوم حنين

(١) أدرجنا دريد بن الصمة في عداد الشعراء الجاهليين مع أنه قتل في غزوة حنين في السنة الثامنة لأنه قضى جل أيامه في الجاهلية ، وجل شعره مقول قبل الإسلام ، ولما ظهر الإسلام كان شيخاً فانياً لا خير فيه .

مُظاهراً للمشركين ، ولا فضل فيه لحرب ، وإنما أخرجوه تيمّناً به ، وليقتبسوا من رأيه ، فمنعهم مالكُ بن عوف من قبول مشورته وخالفه لئلاّ يكون له ذِكرٌ ، فقُتل دريد يومئذ على شِركه .

أسرته والأصالة الشعرية فيها

كان لدريد إخوة وهم : عبد الله الذي قتلته غطفان ، وعبدُ يغوث قتله بنو مُرّة ، وقيس قتله بنو أبي بكر بن كِلاب ، وخالد قتله بنو الحارث بن كعب ، أمُّهم جميعاً ريحانة بنت مَعد يكَرب الزُبيدي ، أخت عَمرو بن معد يكرب ، كان الصمّة سباها ثم تزوجها فأولدها بنيه ...

وكان لدريد ابن يقال له سلَمة ، وكان شاعراً ، وهو الذي رمى أبا عامر الأشعري بسهم فأصاب ركبته فقتله ... وكانت لدريد أيضاً بنت يقال لها عمرة ، وكانت شاعرة ، ولها فيه مَراثٍ كثيرة .

قال أبو عبيدة : وكان الصِّمة أبو دريد شاعراً ، وهو الذي يقول في حرب الفجار التي كانت بينهم وبين قريش :

لاقت قريشٌ غــداة العقيـــــــق أمراً لها وَجَدْته وبيلا
وجئنا اليهم كموجِ الأتــــــيّ يعلو النِجادَ ويملا المَسيلا
وأعددتُ للحربِ خَيَفانةً ورمحاً طويلاً وسيفاً صقيلا
ومُحكَمةً من دروع القيو ن تسمع للسيف فيها صليلا[1]

قال : وكان أخوه مالك بن الصمّة شاعراً وهو القائل يرثي أخاه خالداً :

أبي غَزيّــــة إنّ شِلــواً ماجــداً وسطَ البيوت السُودِ مَدْفَعَ كركر

---

(١) الآتي : السيل ، الخيفانة : الفرس . القيون ج قين : الحداد .

لا تسقِني بيديك ان لم ألتمِس   بالخيل بين هَبُولةٍ فالقرقر [1]

خبره مع الخنساء

(عن طائفة من الرواة قالوا) : إنّ دريد بن الصمة مرّ بالخنساء بنت عَمرو بن الشَريد ، وهي تهنأ [2] بعيراً لها وقد تبذّلت ، حتى فرغت منه ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت ، ودريد بن الصِمّة يراها وهي لا تشعر به ، فأعجبته ، فانصرف إلى رحله وأنشأ يقول :

حيُّوا تُماضِرَ واربَعوا صَحبي   وقِفوا فإنّ وقوفكم حَسبي
أخُناسُ قد هام الفؤادُ بكم   وأصابه تَبَلٌ من الحُبِّ
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به   كاليوم طالي أينُقٍ جُرْبِ
متبذّلاً تبدو محاسنُه   يضع الهِناءَ مواضعَ النُقْبِ
متحسّراً نضح الهِناء به   نضح البعير برَيطة العَصْبِ
فسَليهم عنّيَ خُناسُ إذا   عضّ الجميعَ الخطبُ ما خَطبي [3]

— قالوا : وتماضر اسمها ، والخنساء لقب غلب عليها . — فلمّا أصبح غدا على أبيها فخطبها اليه ، فقال له أبوها : مرحباً بك أبا قرّة ! إنك لَكريم يُطعن في حسبه ، والسيّد لا يُردّ عن حاجته ، والفحل لا يُقرع أنفُه ... لكنّ لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها ، وأنا ذاكرك لها وهي فاعلة .

ثم دخل اليها وقال لها : يا خنساء ، أتاك فارس هوازن وسيّد بني جُشم دريد بن الصمّة يخطُبك ، وهو مَن تعلمين — ودريد يسمع قولهما — فقالت :

---

(١) الشلو (هنا) : الجسد . كركر : اسم موضع .
(٢) هنأ البعير : طلاه بالقطران .
(٣) الهناء : القطران . النقب : القطع المتفرقة من الجرب وأول ما يبدو منه . الريطة : الملاءة . العصب : ضرب من البرود .

يا أبتِ ، أتُراني تاركةً بني عمّي مثل عوالي الرماح وناكحةً شيخَ بني جُشم ، هامةَ [1] اليوم او غد ؟

فخرج اليه أبوها فقال : يا أبا قُرّة ، قد امتنعت ، ولعلّها أن تجيب فيما بعد . فقال : قد سمعت قولكما ، وانصرف ... وقال ابن الكلبي : قالت لأبيها : أنظرني [2] حتى أشاورَ نفسي . ثم بعثت خلف دريد وليدةً فقالت لها : انظري دريداً إذا بال ، فإن وجدتِ بوله قد خرق الأرض ففيه بقيّة ، وان وجدتِه قد ساح على وجهها فلا فضلَ فيه . فاتّبعته وليدتُها ثم عادت إليها فقالت : وجدت بوله قد ساح على وجه الأرض ، فأمسكتْ . وعاود دريد أباها فعاودها فقالت له هذه المقالة المذكورة ، ثم أنشأت تقول :

أتخطبُني ، هُبلتَ ، على دُريـدٍ ... وقد أطردتُ سيّدَ آل بَـدرِ
مَعـاذ الله يَنكِحـني حَبركى ... يقال أبوه من جُشم بن بكر
ولو أمسيتُ في جُشمٍ هَدِيّـاً ... لقد أمسيتُ في دنَسٍ وفقْرِ [3]

فغضب دريد من قولها وقال يهجوها :

وقاكِ اللهُ يابنـةَ آلِ عمـروٍ ... من الفِتيـان أمثـالي ونفسي
فلا تلدي ولا ينكحْـك مثـلي ... اذا ما ليلةٌ طرقـت بنحـسِ
لقد علم المراضعُ في جُمـادى ... إذا استعجلنَ عن حَـزٍّ بنَهْس
بـأني لا أبيـتُ بغـير لحـمٍ ... وأبدأ بالأرامـل حـين أمسي

---

١) يقال : فلان هامة اليوم أوغد : أي شاخ ودنت منيته .
(٢) أنظرني : أمهلني .
(٣) في الديوان أنها خاطبت أخاها معاوية بهذه الأبيات لا أباها ، وهو الأدنى إلى الصواب ، وكان بين الرجلين مودة قوية ... يقال : هبلته أمه أي ثكلته . أطردت : طردت . الحبركى : الغليظ الطويل الظهر القصير الرجلين . الهدي : العروس .

وأني لا ينـال الحـيُّ ضيفـي ولا جاري يَبيتُ خبيثَ نَفس

* * * *

وتزعمُ أنـني شيـخٌ كبـيرٌ وهل خبّرتُها أني ابنُ أمسِ
تُريد شَرنبث القدمَـين شَثْنـاً يُبادر بالجدائر كـلَّ كِرسِ
وما قَصُرت يدي عن عظـم أمرٍ أهمُّ به ولا سهمي بنـكِس
وما أنـا بالمزَجّـى حين يسمُـو عظيمٌ في الأمور ولا بوَهْسِ [1]

قال : فقيل للخنساء : ألا تُجيبينه ؟ فقالت : لا أجمع عليه أن أردّه وأهجوَه .

مقتل أخيه عبد الله وثأره له

قال أبو عبيدة : فأما عبد الله بن الصمة فإن السبب في مقتله أنه كان غزا غطفان ومعه بنو جُشم وبنو نصر أبناء معاوية ، فظفر بهم وساق أموالهم في يوم يقال له يوم اللِوى ، ومضى بها . ولما كان منهم غيرَ بعيد قال : انزلوا بنا . فقال له أخوه دريد : يا أبا فُرعان ... نشدتُك الله ألاّ تنزل ، فإن غطفان ليست بغافلةٍ عن أموالها . فأقسم لا يريم حتّى يأخذ مِرباعه وينقع نَقيعته [2] ، فيأكل ويطعم ويقسم البقية بين أصحابه .

فبينا هم في ذلك ، وقد سطعت الدواخن ، اذا بغبار قد ارتفع أشدّ من

---

(١) الحز : القطع . النهس : تعرق ما على العظم بمقدم الأسنان . الشرنبث والشثن : الغليظ . الجدائر ج جديرة : الحظيرة والكنيف يتخذ للدواب . الكرس : أبوال الإبل والغنم وأبعارها يتلبد بعضها على بعض . المزجى من القوم : الرجل الناقص المروءة والبخيل . الدهس : الذليل الموطوء .

(٢) المرباع : ربع الغنيمة ، وهو نصيب سيد القبيلة في الغزو أيام الجاهلية . النقيعة : الناقة يختارها الرئيس من بين الابل فيذبحها لأصحابه . وفي المطبوعة : نقيعه ، وهو تحريف .

دخانهم ، واذا عَبْس وفزارة وأشجَع قد أقبلت . فقالوا لربيئتهم : انظر ماذا ترى ؟ فقال : أرى قوماً جِعاداً كأنّ سرابيلهم قد غُمِست في الجاديّ[1] . قال : تلك أشجع ، ليست بشيء . ثم نظر فقال : أرى قوماً كأنهم الصبيان ، أسنّتهم عند آذان خيلهم . قال : تلك فزارة . ثم نظر فقال : أرى قوماً أُدْماناً[2] كأنّما يحملون الجبل بسوادهم ، يخُدّون[3] الأرض بأقدامهم خدّاً ، ويجرّون رماحهم جرّاً . قال : تلك عبس ، والموت معهم .

فتلاحقوا بالمنعرَج من رُميلة اللوى فاقتتلوا ، فقَتَل رجل من بني قارب ، وهم من بني عبس ، عبدَ الله بن الصِمّة ، فتنادوا : قُتل أبو ذُفافة . فعطف دريد فذبّ عنه فلم يُغن شيئاً ، وجُرح دريد فسقط ، فكفّوا عنه وهم يرون أنه قُتل ، واستنقذوا المال ونجا مَن هرب . فمرّ الزهدمان ، وهما من بني عبس ، وهما زهدَم وقيس ابنا حزْن بن وهب بن رواحة ، وإنما قيل لهما الزهدمان تغليباً لأشهر الاسمين عليهما ، كما قيل العمران لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، والقمران للشمس والقمر . قال دريد : فسمعت زَهدماً العبسيّ يقول لكردم الفزاري : انيّ لأحسَب دريداً حياً ، فانزل فأجهز عليه . قال : قد مات ... ومال بالزُجّ في شرج دريد فطعنه فيه فسال دمٌ كان قد احتُقن في جوفه . قال دريد : فعرفت الخِفّة حينئذ ، فأمهلتُ ، حتى اذا كان الليلُ مشيت ، وأنا ضعيف قد نزفني الدمُ حتى ما أكاد أبصر ، فجزت بجماعة تسير فدخلت فيهم ، فوقعت بين عرقوبي بعير ظعينة ، فنفر البعير فنادت : نعوذ بالله منك . فانتسبت لها فأعلمت الحيّ بمكاني ، فغُسل عني الدم وزُوّدت زاداً وسِقاءً فنجوت .

وزعم بعض الغطفانيين أن المرأة كانت فزارية ، وأنّ الحيّ كانوا علموا بمكانه فتركوه ، فداوته المرأة حتى برأ ولحق بقومه .

---

(١) الجعد : القليل اللحم . الجادي : الزعفران .

(٢) الأدمان ج آدم : الأسمر .

(٣) يخدون : يشقون .

ثم حجّ كردمُ بعد ذلك في نفرٍ من بني عبس ، فلمّا قاربوا ديار دُرَيد تنكّروا خوفاً ، ومرّ بهم فأنكرهم ، فجعل يمشي فيهم ويسألهم مَن هم ؟ فقال له كردم : عمّن تسأل ؟ فدفعه دريد وقال : أمّا عنك وعمّن معك فلا أسأل أبداً ، وعانقه وأهدى اليه فرساً وسلاحاً وقال له : هذا بما فعلتَ بي يوم اللِوى .

وقال دريد يرثي أخاه عبد الله من قصيدة طويلة :

أعاذلتي كلُّ امرىءٍ وابنُ أمّه
متاعٌ كزاد الراكب المتزوِّد
أعاذلَ إنّ الرُزءَ أمثالُ خالد
ولا رزءَ مما أهلك المرءُ عن يد
نصحتُ لعارضٍ وأصحاب عارضٍ
ورهطِ بني السوداء ، والقومُ شُهّدي
فقلت لهم ظُنّوا بألفي مدجّجٍ
سَراتُهم في الفارسيّ المُسَرَّد
أمرتُهم أمري بمنعرَج اللِوى
فلم يستبينوا الرُشدَ إلاّ ضُحى الغد
فلما عصَوني كنتُ منهم وقد أرى
غوَايتَهم وأنني غيرُ مهتدي
وهل أنا الاّ من غَزيّةَ إن غوَتْ
غوَيتُ ، وإن ترشدُ غزيةُ أرشُدِ
دعاني أخي ، والخيلُ بيني وبينَه
فلمّا دعاني لم يجدني بقُعدُدِ
تنادَوا فقالوا : أردتِ الخيلُ فارساً
فقلت : أعبدُ الله ذلكم الردي

فإن يــكُ عبدُ الله خــلّى مكانَــه
فلم يكُ وقّافاً ولا طــائشَ اليــدِ

ولا بَرِمــاً إذا الريــاحُ تناوحــت
برَطبِ العِضــاه والهشيم المُعَضّـــد

نظــرتُ اليــه والرمـــاحُ تنــوشُهُ
كوقع الصّياصي في النسيج الممــــدَّدِ

فطــاعنت عنه الخيــل حتى تبــدّدت
وحتى علاني أشقرُ اللــونِ مُزبِــد

فما رِمتُ حتى خرّقتــني رماحُهــم
وغُودرت أكبو في القنـــا المتقصّـــد

قتــالَ امــرىءٍ واسى أخـــاه بنفسه
وأيقن أن المـــرءَ غــيرُ مخلّـــدِ

صبورٍ على وقع المصائــب حــافظٍ
من اليوم أعقاب الأحاديث في غدِ [1]

عن أبي عبيدة قال : أغار دريد بن الصمة بعد مقتل أخيه عبد الله على غَطفان يطالبهم بدمه ، فاستقراهم حيّاً حيّاً ، وقتل من بني عبس ساعدة ابن مُرّ وأسر ذُؤابَ بن أسماء بن زيد بن قارب أسره مُرّة بن عوف الجشميّ .

(١) ذكروا أن خالداً وعارضاً وعبد الله ثلاثة أسماء لأخي دريد ، وقالوا إنه كانت له ثلاث كنى : أبو أوفى وأبو ذفافة وأبو فرغان – أو فرعان . الفارسي المسرد : الدرع . القمدد : الجبان اللئيم . العضاه : شجر شائك . المعضد : المقطع . الصياصي ج صيصية : شوكة الحائك . ويحتمل أنه يخاطب رجلا غير أخيه يسمى بعارض وكان من بني جشم من يعرف بهذا الاسم وله خبر في الأغاني (أنظر ج ١٠ ص ٢٩) . وكذلك يحتمل أنه يعني بخالد أخاً له غير عبد الله ، وقد قتل أيضاً ، فليس من المألوف أن يكون للرجل ثلا ثة أسماء .

فقالت بنو جشم : لو فاديناه[1] . فأبى ذلك دريد عليهم ، وقتله بأخيه عبدالله ، وقتل من بني فزارة رجلاً يقال له حزام وإخوةً له ، وأصاب جماعةً من بني مُرّة ومن بني ثعلبة بن سعد ومن أحياء غطفان ، وذلك في يوم الغدير ... وفي هذا اليوم وفي مَن قُتل فيه منهم يقول :

تأبّد من أهله مَعْشَـــــــرُ … فجَوٌّ سُويقةَ فالأَصفـــــــرُ
فجِزعُ الحُلَيف الى واســـطٍ … فذلك تبدى وذا مَحْضَـــرُ
فأَبلِغْ سُليمى وألفـــــافَهــا … وقد يعطِفُ النَسَبُ الأكـــبرُ
بأنّي ثأرتُ بإخوانكـــــــم … وكنتُ كأنّي بهم مَخْفِـــرُ
صبَحَنا فَزارةَ سُمرَ القَنَـــا … فمَهــلاً فزارةُ لا تَضجـروا
وأبلِغْ لديـك بني مـــــازنٍ … فكيف الوعيـدُ ولم تَقْـــرِروا
فإن تَقتلوا فِـنيـــةً أُفــــردوا … أصابهم الحَيْنُ أو تَظفَـرُوا
فإنّ حِزاماً لدى مَعْـــرَكٍ … وإخوتَـه حولَهـم أنسُـــر
ويومَ يزيدِ بني نــــاشبٍ … وقبلُ يَـزيدُكـــم الأكـــبرُ
أثرنا صَريــخ بني نـــاشبٍ … ورَهْـط لقيطٍ فلا تفخَــروا
تَـجُرُّ الضِّباعُ بأوصالهـــم … ويَلْقَـحن منهم وعم يُقْبَـــروا[2]

ويقول في ذلك أيضاً دُريد بن الصمّة في قصيدة له أخرى :

جَزينا بني عبس جــزاءً مُوفَّـراً … بمقتل عبدالله يومَ الذَّنائـــبِ
ولولا سوادُ الليل أدرك ركضُـــنا … بذي الرِّمث والأرطى عياض بن ناشب
قتلنا بعبدالله خــيرَ لِداتِـــــه … ذُؤابَ بنَ أَسماءَ بن يزيد بن قارِب[3]

---

(١) فاداه : أطلقه لقاء فداء يؤدى إليه .

(٢) تأبد : أقفر . معشر وجو سويقة والأصفر : أسماء مواضع ، وكذلك الحليف وواسط . ألفافها : قومها المجتمعون حولها . أخفره : نقض عهده وغدر به . الحين : الهلاك .

(٣) ذو الرمث : واد لبني أسد . الأرطى : شجر الرمل ، وأراد هنا موضعاً بعينه .

قال ابن الكلبي : قالت ريحانة بنت معد يكرب لدريد بن الصمة بعد حول من مقتل أخيه : يا بُنَي ، إن كنت عجزت عن طلب الثأر بأخيك فاستعِنْ بخالك وعشيرته من زُبيد . فأنِف من ذلك وحلف لا يكتحل ولا يَدَّهن ولا يمسّ طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يُدركَ ثأره . فغزا هذه الغزاة وجاءها بذؤاب بن أسماء فقتله بفِنائها وقال : هل بلغتُ ما في نفسك ؟ قالت : نعم ، مُتِّعتُ بك ...

رثاؤه إخوته

قال أبو عبيدة : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : أحسنُ شِعر قيل في الصبر على النوائب قول دريد بن الصمة حيث يقول :

تقولُ : ألا تبكي أخاك ، وقد أرى
مكانَ البكا لكن بُنيتُ على الصبرِ
لمقتل عبدِ الله والهالك الذي
على الشرَف الأعلى قتيلِ أبي بكر
وعبدِ يغوثٍ أو خليليَ خالد
وعزّ مُصاباً حَثْوُ قبرٍ على قَبْر
أبى القتلَ إلا آلُ صِمّةَ إنهم
أبَوا غيرَه والقَدرُ يجري إلى القَدْر

فإمّا تَرينا ما تزال دماؤنا
لدى واترٍ يَشقى بها آخرَ الدهر
فإنّا للحمُ السيف غيرَ نَكيرة
ونَلحمُهُ حيناً وليس بذي نُكْر

يُغـــار علينـــا واتريـــن فيُشتَفـــى
بنا إن أُصِبنا أو نُغـــير على وِتـــر
بذاك قسمنـــا الدهـــر شطرين قسمـــةً
فما ينقضي الا ونحن على شَطر [1]

خروجه في يوم حنين ومقتله

عن عُبيد الله بن عبد الله قال : لمّا فتح رسول الله ﷺ مكة أقام بها خمس عشرة ليلة يَقصُر [2] ، وكان فتحها في عشر ليالٍ بقينَ من شهر رمضان . قال ابن اسحاق : وحدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : لمّا سمعت به هوازن جمعها مالك بن عوف النصري ، فاجتمعت اليه ثقيف مع هوازن ، ولم يجتمع اليه من قيس الاّ هوازن وناسٌ قليلٌ من بني هلال ، وغابت عنها كعبٌ وكلاب .

فجمعت نصر وجُشم وسعد وبنو بكر وثقيف واحتشدت ، وفي بني جُشم دريد بن الصّمة شيخٌ كبير فانٍ ليس فيه شيء الا التيمّن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً مجرّباً ... فلمّا أجمع مالك المسير حطّ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم . فلمّا نزلوا بأوطاس اجتمع اليه الناس ، وفيهم دريد بن الصِمّة في شِجارٍ [3] له يُقاد به . فقال لهم دريد : بأيّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نِعمَ مجالُ الخيل ، ليس بالحَزْن الضرِس ، ولا السّهل الدّهِس [4] . ما لي أسمع رُغاء الإبل ونهيق الحمير وبكاء الصغير

---

(١) حثوث عليه التراب أحثوه وحثتيه أحثيه : هلته عليه . الواتر : الطالب بالثأر . لحم السيف : أي مصيرهم القتل بالسيف دائماً . نلحمه : نطعمه اللحم .

(٢) قصر الصلاة : أن يترك من ذوات الأربع ركعتين ويصلي ركعتين .

(٣) الشجار : مركب أصغر من الهودج .

(٤) الضرس : الصعب . الدهس : اللين السهل .

وثُغاء الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. فقال : أين مالك ؟ فدُعي له به . فقال له : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإنّ هذا اليوم كائنٌ له ما بعدَه من الأيام . ما لي أسمع رُغاء البعير ونهيق الحمير وبكاء الصبيان وثغاء الشاء ؟ قال : سقتُ مع الناس نساءهم وأبناءهم وأموالهم . قال : ولمَ ؟ قال : أردت أن أجعل مع كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . قال : فانقضَ به ووبّخه ولامه ، ثم قال : راعي ضأن والله (أي أحمق) ، وهل يردّ المنهزم شيء ؟ إنّها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فُضحتَ في أهلك ومالك . ثم قال : ما فعلتْ كعبٌ وكلاب ؟ قال : لم يشهدها أحدٌ منهم . قال : غابَ الحدّ والجدّ ، لو كان يومَ علاء ورفعة لم تغب عنه كعبٌ وكلاب ، ولوَددت أنكم فعلتم مثل ما فعلوا ، فمن شهدها منهم ؟ قالوا : بنو عمرو ابن عامر وبنو عوف بن عامر . قال : ذانك الجذَعان(١) من عامر لا ينفعان ولا يضرّان . ثم قال : يا مالك ، انك لم تصنع بتقديم البَيضة (٢) ، بيضة هوازن ، إلى نحور الخيل شيئاً . ارفعهم إلى أعلى بلادهم وعلياء قومهم ثم الق القوم بالرجال على متون الخيل . فإن كانت لك لحق بك مَن وراءك ، وان كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك ولم تُفضح في حريمك . قال : لا والله ما أفعلُ ذلك أبداً . إنك قد خرفت وخرف رأيك وعلمك . والله لتطيعُنّني يا معشرَ هوازن أو لأتكئنّ على هذا السيف حتى يخرج من وراء ظهري ، فنفس على دريد أن يكون له في ذلك اليوم ذكرٌ ورأي . فقالوا له : أطعناك وخالفنا دريداً . فقال دريد : هذا يومٌ لم أشهَدْه ولم أغِب عنه . ثم قال :

يا ليتني فيهـا جذَعْ   أخُبُّ فيها وأضَعْ

---

(١) الجذع : الشاب الحدث .

(٢) بيضة القوم : أصلهم ومجتمعهم .

أقُود وطفـــاءَ الزمَع   كأنّها شاةٌ صَدَع (١)

قال : فلمّا لقيهم رسولُ الله ﷺ انهزم المشركون فأتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجّه بعضهم نحو نخلة . وتبعتْ خيل رسول الله من سلك نخلة ، فأدرك ربيعةُ بن رُفيع السُلمي ... دريد بن الصمّة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة ، وذلك أنه كان في شجار له ، فأناخ به فإذا هو برجل شيخ كبير ولم يعرفه الغلام . فقال له دريد : ماذا تريد ؟ قال : أقتلك . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعةُ بن رفيع السلمي .

فأنشأ دريد يقول :

ويحَ ابنَ أكمـةَ ماذا يُريـدِ   من المُرْعَشِ الذاهبِ الأدردِ
فأقسمُ لـو أنّ بي قـوّةً   لولّت فرائصُه تُرعَـدُ
ويـا لهف نفسيَ ألاّ تكـونَ   معي قوّة الشارخِ الأمردِ (٢)

ثم ضربه السُلمي بسيفه فلم يُغن شيئاً . فقال له : بئس ما سلّحتك أمُّك ، خذ سيفي هذا من مؤخّر رحلي في القِراب ، فاضرب به وارفَع عن العظام واخفِض عن الدماغ ، فإني كذلك كنت أفعل بالرجال . ثم إذا أتيت أمّك فأخبرها أنك قتلتَ دريد بن الصمة ، فربّ يوم قد منعت فيه نساءك . فزعمت بنو سُليم أن ربيعة قال : لما ضربته بالسيف سقط فانكشف ، فإذا عِجانُه (٣) مثل القراطيس ، من ركوب الخيل أعراء (٤) . فلمّا رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه فقالت له : لقد أعتق قتيلُك ثلاثاً من أمهاتك ...

---

(١) أخب وأضع : اسرع ، اي أشارك فيها مشاركة جادة . بعير أوطف : كثير الوبر . الزمع : في الأصل ، الشعرات خلف ظلف الشاة ، وأراد هنا الوبر . الصدع : الفتي القوي .
(٢) الأدرد : من تساقطت أسنانه .
(٣) العجان : الدبر أو ما بين القبل والدبر .
(٤) أعراء : غير مسرجة .

الشعراء العشاق

- ١٦ -

المرقّش الأكبر

(الأغاني ج ٦ ص ١٢٧ وما بعدها)

الشاعر

المرقّش لقب غلب عليه بقوله :

الدارُ وَحشٌ والرسومُ كما ... رقّش في ظهر الأديم قَلَمْ

وهو أحد من قال شعراً فلُقّب به . واسمه – فيما ذكر أبو عمرو الشيباني – عمرو . وقال غيره : عوف بن سعد ... بن بكر بن وائل . وهو أحد المتيّمين ، كان يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف ... وكان المرقّش الأصغر ابن أخي المرقش الأكبر ... وكان للمرقشين جميعاً موقعٌ في بكر بن وائل وحروبها مع بني تغلب وبأس وشجاعة ونجدة وتقدُّم في المشاهد ونكايةٌ في العدوّ وحسن أثر .

أخبار عشقه أسماء وموته

قال أبو عمرو .. : كان من خبر المرقِّش الأكبر أنه عشق ابنة عمه أسماء بنت عوف بن مالك – وهو البُرَك – عشقها وهو غلام ، فخطبها إلى أبيها فقال : لا أزوجك حتى تعرف بالبأس – وهذا قبل أن تخرج ربيعة من أرض اليمن – وكان يعده فيها المواعيد .

ثم انطلق مرقش إلى ملك من الملوك فكان عنده زماناً ومدحه فأجازه . وأصاب عوفاً زمانٌ شديد ، فأتاه رجل من مُراد أحد بني غُطَيْف ، فأرغبه في المال فزوّجه أسماء على مائة من الإبل . ثم تنحّى عن بني سعد بن مالك . ورجع مرقش فقال اخوته : لا تخبروه الا أنها ماتت . فذبحوا كبشاً وأكلوا لحمه ودفنوا عظامه ولفّوها في مِلحفة ثم قبروها . فلما قدم مرقش عليهم أخبروه أنها ماتت وأتوا به موضع القبر ، فنظر اليه وصار بعد ذلك يعتاده ويزوره .

فبينا هو ذات يوم مضطجع ، وقد تغطى بثوبه ، وابنا أخيه يلعبان بكعبين لهما إذ اختصما في كعب ، فقال أحدهما : هذا كعبي ، أعطانيه أبي من الكبش الذي دفنوه وقالوا اذا جاء مرقش أخبرناه أنه قبر أسماء . فكشف مرقش عن رأسه ودعا الغلام – وكان قد ضَنِي ضنًى شديداً – فسأله عن الحديث فأخبره به وبتزويج المرادي أسماء ، فدعا مرقش وليدة له – ولها زوج من غُفيلة كان عسيفاً [1] لمرقش – فأمرها بأن تدعو له زوجها فدعته وكانت له رواحل فأمره بإحضارها ليطلب المراديّ عليها ، فأحضره اياها ، فركبها ومضى في طلبه ، فمرض في الطريق حتى ما يحمل الا معروضاً . وإنهما نزلا كهفاً بأسفل نجران ، وهي أرض مراد ، ومع الغفليّ امرأته وليدة مرقش ، فسمع مرقش زوج الوليدة يقول لها : اتركيه ، فقد هلك

---

(١) العسيف : الأجير والعبد المستعان به .

سقماً ، وهلكنا معه ضُرّاً وجوعاً . فجعلت الوليدة تبكي من ذلك ، فقال لها زوجها : أطيعيني وإلا فاني تاركك وذاهب . وكان مرقش يكتب – وكان أبوه دفعه وأخاه حرملة إلى نصراني من أهل الحيرة فعلّمهما الخط – فلما سمع مرقش قول الغفليّ للوليدة كتب على مؤخرة الرحل هذه الأبيات :

يا صاحبيّ تلبّثا لا تعجَلا ... انّ الرَّواح رهينُ ألاّ تفعلا
فلعلّ لبثكما يفرّط سيّئاً ... أو يسبِق الإسراعُ سَيباً مُقبلا
يا راكباً إما عرضت فبلّغن ... أنسَ بنَ سعدٍ ان لقيتَ وحرملا
لله درّكما ودرُّ أبيكما ... إن أفلت العبدان حتّى يُقتلا
من مُبلغ الأقوام أن مُرقّشاً ... أضحى على الأصحاب عبئاً مُثقلا
وكأنما ترد السِباعُ بشِلوه ... اذ غاب جمعُ بني ضُبيعةَ منهلا [(1)]

فانطلق الغُفلي وامرأته حتّى رجعا إلى أهلهما فقالا : مات المرقش . ونظر حرملة إلى الرحل وجعل يقلبه فقرأ الأبيات ، فدعاهما وخوّفهما وأمرهما أن يصدقاه ففعلا ، فقتلهما . وقد كانا وصفا له الموضع ، فركب في طلب المرقش حتّى أتى المكان ، فسأل عن خبره فعرف أن مرقشاً كان في الكهف ولم يزل فيه حتّى اذا هو بغنم تنزو على الغار الذي هو فيه وأقبل راعيها اليها فلما بصر به قال له : من أنت ، وما شأنك ؟ فقال له مرقش : أنا رجل من مراد . وقال للراعي : من أنت ؟ قال : راعي فلان ، واذا هو راعي زوج أسماء . فقال له مرقش : أتستطيع أن تكلم أسماء ، امرأة صاحبك ؟ قال : لا ، ولا أدنو منها . ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة فأحلب لها عنزاً فتأتيها بلبنها . فقال له : خذ خاتمي هذا ، فإذا حلبت فألقه في اللبن ، فإنها ستعرفه ، وإنك مصيب به خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك .

---

(1) يفرط : يقدم ويعجل ، يريد أن الإبطاء قد يدفع عنهما شراً محتملا والإسراع قد يفوت عليهما خيراً مقبلا . أنس بن سعد وحرملة : هما أخو مرقش . الشلو : العضو وكل مسلوخ بقيت منه بقية .

فأخذ الراعي الخاتم . ولمّا راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه . فانطلقت الجارية به وتركته بين يديها . فلمّا سكنت الرغوة أخذته فشربته – وكذلك كانت تصنع – فقرع الخاتم ثنيّتها ، فاخذته واستضاءت بالنار فعرفته . فقالت للجارية : ما هذا الخاتم ؟ قالت : ما لي به علم . فأرسلتها إلى مولاها – وهو في شَرب [1] بنجران – فأقبل فزعاً فقال لها : لِمَ دعوتني ؟ قالت له : ادعُ عبدك ، راعي غنمك . فدعاه فقالت : سَله أين وجد هذا الخاتم . قال : وجدته مع رجل في كهف خُبّان قال : ويقال كهف جبار . فقال : اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء فإنك مصيب به خيراً ، وما أخبرني من هو . ولقد تركته بآخر رمق . فقال لها زوجها : وما هذا الخاتم ؟ قالت : خاتم مرقش ، فأعجل الساعةَ في طلبه . فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طرقاه من ليلتهما ، فاحتملاه إلى أهلهما ، فمات عند أسماء . وقال قبل أن يموت :

سرى ليلاً خيالٌ من سُلَيمى ... فأرّقني وأصحابي هُجودُ
فبِتُّ أُدير أمري كلَّ حالٍ ... وأذكر أهلَها وهمُ بَعيد
على أن قد سما طرفي لنارٍ ... يُشَبُّ لها بذي الأرطى وَقود
حواليها مَهاً بيض التراقي ... وآرامٌ وغِزلانٌ رُقود
نواعمُ لا تعالج بُؤسَ عيشٍ ... أوانس لا تَرُوحُ ولا تَرُود
يَرُحن معاً بِطاءَ المشي بُدّاً ... عليهنّ المجاسد والبُرودُ
سكنّ ببلدةٍ وسكنت أخرى ... وقُطّعت المواثقُ والعُهود
فما بالي أفي ويُخان عهدي ... وما بالي أُصادُ ولا أَصيد
ورُبّ أسيلةِ الخدّين بكرٍ ... مُنَعّمةٍ لها فرعٌ وجيد
وذو أُشُرٍ شتيتُ النبت عذبٌ ... نقيُّ اللون برّاقٌ بَرُود

---

(١) في المطبوعة : وهو في شرف ، والتصويب عن المفضليات .

لهوتُ بها زمانـاً في شبـابـي ... وزارتها النجائبُ والقَصيد
أناسٌ كلّما أخلقت وصلاً ... عناني منهمُ وصلٌ جديدُ (١)

ثم مات عند أسماء فدفن في أرض مراد .

وقال في أسماء أيضاً :

أغالبُك القلبُ اللجُوجُ صَبابةً ... وشوقاً إلى أسماءَ أم أنت غالبُه
يَهيمُ ولا يعينا بأسماءَ قلبُه ... كذاك الهوى إمرارُه وعواقبه
أيُلحى امرؤ في حب أسماء قد نأى ... بغمزٍ من الواشين وازورّ جانبه
وأسماء همُّ النفس إن كنت عالماً ... وبادي أحاديث الفؤاد وغائبه
اذا ذكرتها النفس ظَلّتُ كأنني ... يزعزعني قَفقافُ وِردٍ وصالبه (٢)

* * *

(١) الأرطى: شجر ينبت بالرمل . التراقي ج ترقوة : مقدم الحلق في أعلى الصدر . بدج أبد والأنثى بداء : من كثر لحم فخذيه . المجاسد ج مجسد : ثوب يلي الجسد وبضم الجيم : الثوب المصبوغ بالزعفران . الأشر : التحزيز يكون في الأسنان خلقة .

(٢) الورد : الحمى . القفقاف: اضطراب الحنكين واصطكاك الأسنان وما يعتري المحموم من الرعدة . الصالب : شدة الحرارة مع الرعدة .

- ١٧ -
المرقّش الأصغر

(الأغاني ج ٦ ص ١٣٦)

الشاعر

هو – على ما ذكر أبو عمرو – ربيعة بن سُفيان بن سعد بن مالك بن ضُبَيعة . والمرقّش الأكبر عمّ الأصغر ، والأصغر عم طرفة بن العبد . قال أبو عمرو : والمرقّش الأصغر أشعر المرقّشين وأطولهما عمراً ، وهو الذي عشق فاطمة بنت المنذر .

اتصاله بفاطمة بنت المنذر وشعره فيها

كانت لها وليدةٌ يقال لها بنت عجلان ، وكان لها قصر بكاظمة وعليه حرس ، وكان الحرس يجرّون كلّ ليلة حوله الثياب فلا يطؤه إلاّ بنتِ عجلان . وكان ابنت عجلان في كل ليلةٍ رجلٌ من أهل الماء يبيتُ عندَها . فقال عمرو بن جنّاب بن مالك لمرقّش : انّ بنت عجلان تأخذ كلّ عشيّة رجلاً ممّن يعجبها فيَبيتُ معها وكان مرقش ترعيّةً [١] لا يفارق إبله . فأقام بالماء

---

(١) رجل ترعية : يلازم رعي الماشية .

وترك إبله ظمأى ، وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم شَعراً ، وكانت فاطمة بنت المنذر تقعد فوق القصر فتنظر إلى الناس .

فجاء مرقّش فبات عند ابنة عجلان ، حتى اذا كان من الغد قالت لها فاطمة : لقد رأيت رجلاً جميلاً راح نحوّنا بالعشيّة لم أره قبل ذلك . قالت : فإنه فتى قعد عن إبله ، وكان يرعاها ، وهو الفتى الجميل الذي رأيته ... قالت لها فاطمة . فإذا كان غدٌ وأتاك فقدّمي له مِجمراً ومُريه أن يجلس عليه وأعطيه سِواكاً ، فإن استاك به أو ردّه فلا خيرَ فيه ، وان قعد على المجمر أو ردّه فلا خير فيه . فأتته بالمجمر فقالت له : اقعد عليه فأبى وقال : ادنيه مني ، فدخّن لحيته وجُمّته وأبى أن يقعد عليه . وأخذ السِواك فقطع رأسه واستاك به .

فأتت ابنة عجلان فاطمةَ فأخبرتها بما صنع ، فازدادت به عَجباً وقالت : ائتيني به . فتعلّقت به كما كانت تتعلّق ، فمضى معها وانصرف أصحابه . فقال القوم حين انصرفوا : لشَدَّ ما علِقت بنتُ عجلان المرقِش .

وكان الحرس ينثرون التراب حول قبة فاطمة بنت المنذر ويَجُرّون عليه ثوباً حين تُمسي ويحرُسونها فلا يدخل عليها الا ابنةُ عجلان . فإذا كان الغد بعث الملكُ بالقافة فينظرون أثرَ من دخل اليها ويعودون فيقولون له : لم نر الا أثر بنت عجلان . فلما كانت تلك الليلة حملت بنتُ عجلان مرقشاً على ظهرها وحزمته إلى بطنها بثوب ، وأدخلته إليها فبات معها .

فلما أصبح بعث الملك بالقافة فنظروا وعادوا إليه فقالوا : نظرنا أثر بنت عجلان وهي مُثْقَلة . فلبِث بذلك حيناً يدخل اليها ، فكان عمرو بن جناب .. يرى ما يفعل ولا يعرف مذهبه . فقال له : ألم تكن عاهدتني عهداً لا تكتمني شيئاً ولا أكتمك ولا نتكاذب ؟ فأخبره مرقِش الخبر ، فقال له : لا أرضى عنك ولا أكلمك أبداً أو تدخلَني عليها ، وحلف على ذلك .

فانطلق المرقش إلى المكان الذي كان يواعد فيه بنت عجلان فأجلسه فيه

وانصرف وأخبره كيف يصنع ، وكانا متشابهين غير أن عمرو بن جناب كان أشعر . فأتته بنتُ عجلان فاحتملته وأدخلته إليها وصنع ما أمره به مرقش . فلما أراد مباشرتها وجدت شعر فخذيه فاستنكرته ، واذا هو يُرعَد ، فدفعته بقدمها في صدره وقالت : قبّح الله سِرّاً عند المُعَيديّ [1] . ودعت بنت عجلان فذهبت به .

وانطلق إلى موضع صاحبه ، فلمّا رآه قد أسرع الكرّة ولم يلبث إلا قليلاً علم أنه قد افتضح ، فعضّ على إصبعه فقطعها . ثم انطلق إلى أهله وترك المال الذي كان فيه – يعني الإبل – حياءً مما صنع [2] .

وقال مرقش في ذلك :

الا يا اسلمي لاصُرْمَ لي اليوم فاطما
ولا أبداً ما دام وصلُك دائما
رمتك ابنةُ البَكريّ عن فرعِ ضالةٍ
وهنَّ بنا خُوصٌ يُخَلْن نعائما
تراءت لنا يومَ الرّحيل بواردٍ
وعذب الثنايا لم يكن متراكما
سقاه حَبابُ المُزْنِ في متكلّلٍ
من الشمس روّاه رَباباً سَواجما
أرتك بذات الضالِ منها مَعاصماً
وخدّاً أسيلاً كالوذيلة ناعما

(١) المعيدي : تصغير المعدي ، نسبة إلى معد بن عدنان .
(٢) ظاهر ما في القصة من الافتعال وشعر المرقش في فاطمة ينبىء بصدق عاطفته وأنه لم يكن يلهو بحبها . وهو في قصيدته هذه يدعوها : ابنة البكري ، وهذا يدل على أنها كانت من قبيلة بكر ابن وائل وليست ابنة المنذر اللخمي .

صحا قلبُه عنهـا خـلا أن ذِكـرةً
إذا خطرت دارت به الأرضُ قائما

* * *

أفاطـمُ لـو أن النساء ببـلدةٍ
وأنتِ بأخرى لاتبّعتـك هائمـا
متى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يصرِمْ خليلـه
ويغضَبْ عليه لا محالـةَ ظالمـا (١)

* * *

(١) فرع ضالة : أراد القوس . هذ : أسرع السير . الحوص : صفة للنوق والحوص : ضيق العينين . وفي المطبوعة : وهن بنا وهو تحريف. الوارد من الشعر : المسترسل . الفم المتراكب : الذي ركبت أسنانه بعضها بعضاً . المتكلل : صفة للسحاب يلمع فيه البرق . الوذيلة : سبيكة الفضة والمرآة .

- ١٨ -

المنَخّل اليَشكُري

(الأغاني ج ٢١ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

هو المنخَّل بن عمرو ... بن يشكر بن بكر بن وائل . وهو شاعر مقلّ من شعراء الجاهلية .

قصته مع النعمان والمتجرّدة وقتله

قال أبو عمرو الشيباني : كان سبب قتل المنخّل أن المتجرّدة – واسمها ماويّة وقيل هند بنت المنذر بن الأسود – كانت عند ابن عم لها يقال له حُلْم ، وهو الأسود بن المنذر بن حارثة الكلبي ، وكانت أجمل أهل زمانها . فرآها المنذر بن المنذر الملك اللخمي فعشقها . فجلس ذات يوم على شرابه ومعه حُلم وامرأتُه المتجردة ، فقال المنذر لحلم : إنه لقبيح بالرجل أن يُقيم على المرأة زماناً طويلاً حتى لا يبقى في رأسه ولا لحيته شعرةٌ بيضاء إلا عرفتْها ، فهل لك أن تطلق امرأتك المتجردة وأطلق امرأتي سلمى ؟ قال : نعم . فأخذ كل واحد على صاحبه عهداً . فطلّق المنذر امرأته سلمى وطلّق حلم امرأته

المتجردة ، فتزوّجها المنذر ولم يُطلِق لسلمى أن تتزوج حُلماً وحجبها — وهي أم ابنه النعمان بن المنذر ...

ثم مات المنذر بن المنذر فتزوّجها بعده النعمان بن المنذر ابنه ، وكان صيراً دميماً أبرش ، وكان ممن يجالسه ويشرب معه النابغة الذبياني ، وكان جميلاً عفيفاً ، والمنخل اليشكري ، وكان جميلاً ، وكان يتّهم بالمتجردة .

فأما النابغة فإن النعمان أمره بوصفها فقال قصيدته التي أولها :

من آل ميةَ رائحٌ أو مغتــدي   عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزوَّد

ووصفها فأفحش ... فغار المنخّل من ذلك وقال : هذه صفة مُعاين . فهمّ النعمان بقتل النابغة حتى هرب منه ، وخلا المنخل بمجالسته ، وكان يهوى المتجرّدة وتهواه ، وقد ولدت للنعمان غلامين جميلين يشبهان المنخّل ، وكانت العرب تقول إنهما منه .

فخرج النعمان لبعض غزواته فبعثت المتجردة إلى المنخّل فأدخلته قُبّتها ، وجعلا يشربان . فأخذت خلخالها وجعلته في رِجله ، وأسدلت شعرها فشدت خَلخالها إلى خلخاله الذي في رجله من شدة اعجابها به . ودخل النعمان بعقِب ذلك فرآها على تلك الحال . فأخذه فدفعه إلى رجل من حرسه من تغلب يقال له عِكَبّ ، وأمره بقتله ، فعذبه في سجنه حتى قتله .. وقال المنخل قبل أن يموت هذه الأبيات وبعث بها إلى ابنيه :

ألا من مُبلــغ الحُرّين عني   بأن القومَ قد قتلــوا أبيّا
وإن لم تثأروا لي من عِكَبٍّ   فلا أرويتمـــا أبداً صَديّا
يُطوّف بي عكبٌّ في مَعّدٍ   ويطعن بالصُمُلّة في قَفيّا (١)

وقال في المتجرّدة :

---

(١) الصدي : الظمآن . الصملة : أراد الحربة أو العصا ، وصمله بالعصا : ضربه .

ولقد دخلــتُ على الفتـــا ة الخِدرَ في اليوم المطيرِ
الكــاعبِ الحسنــاءِ تــرفُـــل في الدِمَقس وفي الحرير
دافعتُهـــا فتدافعـــت مشيَ القَطاة إلى الغديـرِ
ولثمتُهـــا فتنفّســت كتنفّس الظـبي البَهـير
ورنــت وقالت : يــا منخّـــل هل بجسمك من فتورِ
ما شفّ جسمي غــيرُ حبّـــك فاهدئي عــني وسيري

* * * *

ولقــد شربت مــن المُدامـــة بالصغــير وبالكبــير
فــإذا سكــرتُ فإنــني ربُّ الخــورنق والسَديــر
واذا صحــوت فإنــني رب الشُوَيهــة والبعــير
يــا ربَّ يـــوم للمنخّــل قد لها فيه ، قصــيرِ (١)

* * * *

(١) البهير : المتتابع الأنفاس . الخورنق : قصر للنعمان اللخمي جد النعمان بن المنذر . السدير : نهر بناحية الحيرة .

سائر الشعراء الأعلام

- ١٩ -

أوْسُ بنْ حجَر

(الأغاني ج ١١ ص ٧٠ وما بعدها)

الشاعر

قد اختُلف في نسبه فقال الأصمعي .. : هو أوس بن حَجَر بن مالك ... بن خلَف بن نُمَير [1] . وقال ابن حبيب ... : هو أوس بن حجر ، من شعراء الجاهلية وفحولها . وذكر أبو عبيدة أنه من الطبقة الثالثة وقرنه بالحطيئة ونابغة بني جعدة ... وعن أبي عمرو قال : كان أوس شاعر مضَر حتى أسقطه النابغةُ وزهير ، فهو شاعر تميم في الجاهلية غير مدافَع .

خبره مع فضالة بن كَلَدة

عن الأصمعي وأبي عبيدة : كان أوس بن حجَر غزلاً مُغرَماً بالنساء ،

---

(١) نمير هذه ليست قبيلة نمير القيسية وانما هي بطن من بني عمرو بن تميم ، وسياق نسبه في جمهرة ابن حزم يخالف ما في الأغاني (أنظر الجمهرة ص ٢١٠) .

فخرج في سفر ، حتى اذا كان بأرض بني أسد بين شَرجٍ وناظرة ، فبينا هو يسير ظلاماً اذ جالت به ناقته فصرعته ، فاندقّت فخذاه فبات مكانه . حتى اذا أصبح غدا جواري الحي يجتنين الكمأة وغيرها من نبات الأرض ، والناس في ربيع . فبينا هنّ كذلك إذ بَصُرن بناقته تجول وقد علق زِمامُها في شجرة ، وأبصرنه ملقىً ، ففزعن فهربن . فدعا بجارية منهنّ فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا حَليمة بنت فَضالة بن كلدة ، وكانت أصغرهن . فأعطاها حجراً وقال لها : اذهبي إلى أبيك فقولي له : ابنُ هذا يُقرئك السلام . فأخبرته فقال : يا بُنيّة ، لقد أتيت أباك بمدح طويل أو هجاء طويل .

ثم احتمل هو وأهله حتى بنى عليه بيتَه ، حيثُ صُرِع وقال : والله لا أتحوّل أبداً حتى تبرأ ، وكانت حليمة تقوم عليه حتى استقلّ ... فقال أوس بن حجر في حليمة :

لعمرُكَ ما ملّت ثَـواءَ ثَوِيّهـا حَليمةُ إذ ألقـى مَراسيَ مُقعَـدِ
ولكـن تلقّت باليدين ضَمـانـتي وحـلّ بشَرْجٍ م القبائـل عُـوّدي
ولم تُلهِهـا تلك التكاليـفُ إنهـا كما شئتَ من أكرومـةٍ وتَخرّد
سأجزيكِ أو يجزيـك عنّي مُثوِّبٌ وقصرُكِ أن يُثنَى عليك وتُحمدي[1]

ثم مات فَضالة بن كلدة ، وكان يكنى أبا دُليجة ، فقال فيه أوس بن حجر يرثيه :

أبا دُليجـةَ منَ تُوصي لأرملـةٍ أم مَنّ لأشعثَ ذي طِمريـن مِمحالِ

---

(١) الثوي : الضيف . المقعد : من أصابه مرض فأقعده عن السير . الضمانة : الداء يصيب الجسد . التخرد : الحياء والخفر . قصدك : غايتك وكفايتك .

أبـا دُليجـة من يكفـي العشيرة اذ
أمسَوا من الأمـر في لَبس وبَلبـالِ
لا زال مِسكٌ ورَيحـانٌ لـه أَرَجٌ
على صَداك بصافي اللون سَلسالِ (١)

* * *

ومن فاضل مراثيه إياه ونادرها قوله :

أيتهـا النفسُ أجمـلي جَزَعـا إن الذي تحـذَرين قد وقعـا
انَّ الذي جمَّـع السماحةَ والنجـدةَ والحزم والقوى جُمَعـا
المُخلـفَ المُتلف المُـرَزَّأ لـم يُمْتَع بضَعفٍ ولم يَمُت طَبَعَا
أودى وهل تنفع الإشاحـةُ مـن شيءٍ لمن قد يحاول البِدَعا (٢)

* * *

(١) الأشعث : من انتشر شعره وتلبد . الطمر : الثوب البالي . المحال : المجدب ، أراد الرجل الفقير . الصدى : جثمان الميت في قبره ، يدعو لقبره ان يسقى بالماء الصافي العذب .
(٢) المرزأ : الذي يرزأ بماله لكثرة انفاقه اياه . الطبع : الدنس . أودى : هلك . الإشاحة : الحـذر .

- ٢٠ -

الحارث بن حِلّزة

(الأغاني ج ١١ ص ٤٢ وما بعدها)

الشاعر

هو الحارث بن حِلّزة ... بن يشكر بن بكر بن وائل ... بن ربيعة بن نزار .

خبره مع عمرو بن هند وسبب قوله قصيدته المعلّقة

قال أبو عمرو الشيباني : كان من خبر هذه القصيدة والسبب الذي دعا الحارث إلى قولها ان عمرو بن هند الملك – وكان جباراً عظيم الشأن والملك – لما جمع بكراً وتغلب ابني وائل وأصلح بينهم أخذ من الحيّين رُهناً من كل حيّ مائة غلام ليكفّ بعضهم عن بعض ، فكان أولئك الرهن يكونون معه في مسيره ويغزون معه ، فأصابتهم سَمومٌ في بعض مَسيرهم فهلَك عامّة التغلبيين وسلِم البكريون . فقالت تغلب لبكر : أعطونا ديات أبنائنا ، فإنّ ذلك لكم لازمٌ . فأبت بكر بن وائل . فاجتمعت تغلب إلى عَمرو بن كُلثوم

وأخبروه بالقصّة ، فقال عمرو بن كلثوم لتغلب : بمَن ترون بكراً تعصِب أمرها اليوم ؟ قالوا : بمن عسى الا ّ برجل من أولاد ثعلبة . قال عمرو : أرى — والله — الأمر سينجلي عن أحمرَ أصلح [1] أصمّ من بني يشكُر .

فجاءت بكر بالنُعمان بن هَرِم ، أحد بني ثعلبة بن غَنْم بن يشكر ، وجاءت تغلب بعمرو بن كلثوم .

فلما اجتمعوا عند الملك قال عمرو بن كلثوم للنعمان بن هرم : يا أصم جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم وهم يفخرون عليك . فقال النعمان : وعلى مَن أظلّت السماءُ كلّها يفخرون ، ثم لا يُنكَر ذلك . فقال عمرو بن كلثوم له : أما والله لو لطمتُك لطمةً ما أخذُوا لك بها . فقال له النعمان : والله لو فعلتَ ما أفلتَّ بها ... فغضب عمرُو بن هند — وكان يؤثر بني تغلب على بكر — فقال : يا جاريةُ ، أعطِيه لَحياً بلسان أنثى (أي سُبّيه بلسانك) ، فقال : أيها الملكُ ، أعطِ ذلك أحبَّ أهلك إليك . فقال : يا نعمانُ ، أيسرُّك أني أبوك ؟ قال : لا ، ولكن ودِدت أنّك أمي . فغضب عمرو بن هند غضباً شديداً حتى همّ بالنعمان وقام الحارث بن حِلِزّة فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً ، توكّأ على قوسه وأنشدها ، وانتظم كفّه [2] وهو لا يشعر من الغضب حتى فرَغ منها .

قال ابن الكلبيّ : أنشد الحارث عمرَو بن هند هذه القصيدة ، وكان به وَضَح [3] ، فقيل لعمرو بن هند : إنّ به وضحاً ، فأمر أن يُجعل بينَه وبينه سِترٌ . فلمّا تكلّم أُعجب بمنطقه ، فلم يزل عمرو يقول : أدنوه أدنوه ، حتى أمر بطرح السِتر وأقعده قريباً منه لإعجابه به ...

وذكر ابنُ الكلبيّ عن أبيه أن الصلح كان بين بكر وتغلب عند المنذر بن

---

(١) الأصلج : الأصم وفي بعض اللغات : الأصلع .

(٢) انتظم كفه : أراد طعنها .

(٣) الوضح : البرص .

مـاء السماء ، وكـان قد شَرط أيٌّ رجلٍ وُجد قتيلاً في دار قـوم ضامنـون لدمه ، وإن وُجد بين مَحَلَّتَين قِيس ما بينهما فيُنظَر أقربُهما إليه ، فتَضْمَن ذلك القتيل . وكان الذي وَلي ذلك واحتمى لبني تغلب قيس بن شَراحيل بن مُرّة بن هَمّام . ثم إن المنذر أخذ من الحيَّين أشرافَهم وأعلامَهم فبعث بهم إلى مكة ، فشَرط بعضهُم على بعض وتواثَقُوا عليٍ ألّا يُبقي واحدٌ منهم لصاحبه غائلةً ولا يطلُبه بشيء ممّا كان من الآخر من الدماء ، وبعث المنذرُ معهم رجلاً من بني تميم يُقال له الغَلّاق ، وفي ذلك يقول الحارث بن حِلِزة :

فهَلّا سعيتَ لصُلح الصـــديق كصُلح ابن ماريـةَ الأَقصـمِ
وقيسٌ تدارك بكـرَ العـراق وتَغلبَ مث شرِّها الأعظـم
وبيتُ شراحيلَ في وائـلٍ مكانَ الثُريّا من الأَنجـمُ
فأصلح ما أفسدوا بينهـم كذلك فِعلُ الفتى الأكـرمِ

-إبن مارية هو قيس بن شراحيل ، وماريةُ أُمّة بيت الصَبّاح بن شيبان من بني هند- .

فلبثوا كذلك ما شاء الله ، وقد أخذ المنذرُ من الفريقين رُهُناً بأحداثهم ، فمتى التوى أحدٌ منهم بحق صاحبه أقاد من الرُّهُنِ . فسَرّح النُعمان بن المنذر رَكْباً من بني تغلب إلى جبل طَيّء في أمرٍ من أمره ، فنزلوا بالطرفة ، وهي لبني شيبان وتَيم اللات ، فذكروا أنهم أجلَوهم عن الماء وحملوهم على المَفازة ، فمات القومُ عطشاً . فلمّا بلغ ذلك بني تغلب غضبوا وأتَوا عمرو بن هند فاستعدَوه على بكر وقالوا : غَدرتم ونقضتم العهد وانتهكتُم الحُرمة وسفكتُم الدماء . وقالت بكر : أنتم الذين فعلتم ذلك ، قذفتمونا بالعَضيهة[1] وسَمَّعتم الناسَ بها ، وهتكتُم الحجابَ والسِّتر بادّعائكم الباطل عَلينا ، قد سقَيناهم إذ وَردوا ، وحملناهم على الطريق إذ خرجوا ، فهل علينا إذ حار القوم وضَلُّوا !

---

(١) العضيهة : الإفك والبهتان .

ويُصدّق ذلك قولُ الحارث بن حِلِّزة :

لم يَغُرّوكم غُروراً ولكـ ـن يَرفعُ الآلُ جِرمَهم والضَّحاء[(1)]

قال يعقوب بن السكِّيت : كان أبو عمرو الشيباني يعجب لارتجال الحارث هذه القصيدة في موقف واحد ويقول : لو قالها في حَولٍ لم يُلَمْ . قال : وقد جمع فيها ذكر عِدّة من أيام العرب عيّر ببعضها بني تغلب تصريحاً ، وعرّض ببعضها لعمرو بن هند . فمن ذلك قوله :

أعلينا جُناحُ كِندةَ أن يَغـ ـنَمَ غازِيهمُ ومنّا الجزاءُ

قال : وكانت كندة قد كسرت الخراج على الملك ، فبعث إليهم رجالاً من بني تغلب يطالبونهم بذلك ، فقتلوا ولم يُدرَك بثأرهم ، فعيّرهم بذلك . هكذا ذكر الأصمعي ، وذكر غيره أنّ كندة غزتهم فقتلت وسبت واستاقت ، فلم يكن في ذلك منهم شيء ولا أدركوا ثأراً . قال : وهكذا البيت الذي يليه وهو :

أم علينا جرّى قُضاعة أم ليـ ـس علينا فيما جنَوا أنداءُ[(2)]

فإنه عيّره بأنّ قضاعة كانت غزت بني تغلب ففعلت بهم فِعل كِندة ، ولم يكن منهم في ذلك شيء ولا أدركوا منهم ثأراً . قال : وقوله :

أم علينا جرّى حَنيفةَ أم مـا جمّعت من مُحاربٍ غبراءُ[(3)]

---

(1) لآل : السراب . الضحاء : ارتفاع النهار . يقول : ما أتوكم على غرّة دائماً أتوكم نهاراً ظاهرين .

(2) الجرى : الجناية . الأنداء ج ندى : أراد : ما يلحق الانسان من ذنب ، يقال : ما نديت كفي له بشر .

(3) الغبراء : الأرض ، ويقال للفقراء بنو غبراء ، وقد يكون المقصود جماعة غبراء أي الصعاليك والفقراء .

قال : وكانت حنيفة محالفة لتغلب على بكر ، فأذكر الحارث عمرو بن هند بهذا البيت قتل شِمْر بن عمرو الحنفي ، أحد بني سُحيم ، المنذر بن ماء السماء غِيلةً لمّا حارب الحارثَ بن جبلة الغسّاني ، وبعث الحارث إلى المنذر بمائة غلام تحت لواء شمر هذا يسأله الأمان على أن يخرج له عن مُلكه ويكون من قبله ، فركن المنذر إلى ذلك وأقام الغلمان معه ، فاغتاله شمر ابن عمرو الحنفي فقتله غِيلةً ، وتفرّق من كان مع المنذر وانتهبوا عسكره ، فحرّضه بذلك على حلفاء بني تغلب بني حنيفة . قال : وقوله :

وثمانون من تميم بأيديـ ـهم رماحٌ صُدورُهنّ القضاءُ [1]

يعني عَمراً أحد بني سعد بن زيد مناة ، خرج في ثمانين رجلاً من تميم فأغار على قومٍ من بني قطن من تغلب يقال لهم بنو رزاح كانوا يسكنون أرضاً تعرف بنِطاعٍ ، قريبة من البحرين ، فقتل فيهم وأخذ أموالاً كثيرةً فلم يُدرَك منه بثأر . قال : وقوله :

ثمّ خيلٌ مِن بعدِ ذاك مع الغَـلاّق لا رأفةٌ ولا إبقاءُ

قال : الغلاّق صاحب هَجائن النعمان بن المنذر ، وكان من بني حنظلة بن زيد مناة ، تميمياً .

وكان عمرو بن هند دعا بني تغلب بعد قتل المنذر إلى الطلب بثأره من غسّان ، فامتنعوا وقالوا : لا نطيع أحداً من بني المنذر أبداً ، أيظنّ ابن هند أنّا له رِعاء ! فغضب عمرو بن هند وجمع جموعاً كثيرة من العرب . فلمّا اجتمعت آلى ألاّ يغزو قبل تغلب أحداً ، فغزاهم فقتل منهم قوماً ، ثم استعطفه من معه لهم واستوهبوه جريرتهم فأمسك عن بقيّتهم . وطُلّت [2] دماء القتلى ، فذلك قول الحارث :

---

(١) القضاء هنا : الموت .

(٢) طلت : أهدرت فلم يثأر لها .

مَن أصابوا من تغلبيّ فمطلو ل عليه اذا تولّى العفاءُ

ثم اعتدّ على عمرو بحسن بلاء بكر عنده فقال :

مَن لنا عنده من الخير آيا تٌ ثلاثٌ في كُلّهن القضاءُ
آيةٌ شارقُ الشقيقة إذ جا ؤوا جميعاً لكلّ حيٍّ لواء
حولَ قيسٍ مستلئمين بكَبْشٍ قَرَظِيٍّ كأنّه عبلاء
فرددناهمُ بضربٍ كما يخـ ـرُجُ من خُربة المَزاد الماءُ
ثم حُجراً أعني ابنَ أمّ قَطامٍ وله فارسيّةٌ خضراءُ
أسدٌ في اللقاء ذو أشبال وربيع إن شنّعت غبراءُ
فرددناهمُ بطَعنٍ كما تُنـ ـهزُ في جُمّةِ الطَوِيِّ الدِلاءُ
وفككنا غُلَّ امرىء القيس عنه بعدما طال حبسُه والعناء
وأقدناه ربَّ غسّانَ بالمُنـ ـذرِ كَرْهاً وما تُكال الدماءُ
وفديناهمُ بتسعةِ أملا كٍ كرامٍ أسلابُهم أغلاء
ومع الجَون جونِ آل بني الأو سِ عَنُودٌ كأنّها دَفواءُ (١)

يعني بهذه الأيام أياماً كانت كلها لبكر مع (آل) المنذر ، فمنها يوم الشقيقة ، وهم قوم من شيبان جاؤوا مع قيس بن مَعد يكرب ، ومعه جمعٌ عظيم من أهل اليمن ، يغيرون على إبل لعمرو بن هند ، فردّتهم بنو يشكر وقتلوا فيهم ، ولم يوصل إلى شيء من إبل عمرو بن هند . ومنها يوم غزا

---

(١) الآيات : الدلائل والعلامات . في كلهن القضاء : في كلها يقضي لنا بالولاء للملك . شارق : قادم من جهة المشرق . المستلئم : لابس اللأمة ، وهي الدرع . الكبش : رئيس القوم . قرظي : نسبة إلى البلاد التي تنبت القرظ وهي اليمن . العبلاء : الصخرة البيضاء . الفارسية : كتيبة من جهات بلاد فارس . شنعت : جاءت بأمر شنيع . الغبراء : السنة المجدبة التي لا مطر فيها . نهز الدلو : تحريكه ليمتلىء . الجمة : الماء الكثير . الطوي : البئر المطوية ، أي المبنية بالحجارة . ما تكال الدماء : التكايل بالدم ، أن يقتل الرجل ثأره فقط . أغلاء : غالية ؛ العنود : صفة للكتيبة الشديدة الوطأة . الدفواء : العقاب .

حجر الكندي — وهو حجر بن أم قطام — امرأ القيس ، وهو ماء السماء ابن المنذر ، لقيه ومع حجر جمع كثير من كندة ، وكانت بكر مع امرىء القيس ، فخرجت إلى حجر فردّته وقتلت جنوده . وقوله :

ففككنا غُلّ امرىء القيس عنه

وكانت غسّان أسرته يوم قَتل المنذر أبيه . فأغارت بكر بن وائل على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكاً من ملوك غسان واستنقذوا امرأ القيس بن المنذر ، وأخذ عمرو بن هند بنتاً لذلك الملك يقال لها ميسون .

وقوله : وفديناهم بتسعة أملاك ، يعني بني حُجر أكل المُرار . وكان المنذر وجّه خيلاً من بكر في طلب بني حجر ، فظفرت بهم بكر بن وائل فأتوا المنذر بهم ، وهم تسعة ، فأمر بذبحهم في ظاهر الحيرة ، فذبحوا في مكان يقال له جفر الأملاك .

قال : والجون ، جون آل بني الأوس ، ملكٌ من ملوك كندة ، وهو ابن عم قيس بن معد يكرب ، وكان الجون جاء ليمنع بني آكل المرار ، ومعه كتيبة خشناء ، فحاربته بكر فهزموه ، وأخذوا بني الجون فجاؤوا بهم إلى المنذر فقتلهم .

قال : فلمّا فرغ الحارث من هذه القصيدة حكم عمرو بن هند أنه لا يلزم بكر بن وائل ما حدث على رهائن تغلب ، فتفرقوا على هذه الحال . ثم لم يزل في نفسه من ذلك شيء حتى همّ باستخدام أم عمرو بن كلثوم تعرّضاً لهم وإذلالاً ، فقتله عمرو بن كلثوم .

- ٢١ -

لبيد بن ربيعة

(الأغاني ج ١٥ ص ٣٦١ وما بعدها)
(الأغاني ج ١٧ ص ٥٥ وما بعدها)

الشاعر

هو لبَيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب ... بن قيس عيلان ... وكان يقال لأبيه « ربيع المُقْتِرين » لجوده وسخائه ، وقتلته بنو أسد في الحرب التي كانت بينهم وبين قومه .

وعمّه أبو بَراء عامر بن مالك ملاعب الأسنّة ...

وأمُّ لَبيد تامرة بنت زِنباع العبسية ، إحدى بنات جذيمة بن رواحة .

ولبيد أحد شعراء الجاهلية المعدودين فيها والمخضرَمين ممّن أدرك الإسلام ، وهو من أشراف الشعراء المجيدين الفرسان المعمّرين ، يقال إنه عُمِّر مائة وخمساً وأربعين سنة .

عن عبد الله بن محمد بن حكيم أن لبيداً قال حين بلغ سبعاً وسبعين سنة :

قامت تشكّى إليَّ النفسُ مُجهِشةً ... وقد حَملتُك سَبعاً بعد سبعينا
فإن تَزادي ثلاثاً تبلُغي أمَلاً ... وفي الثلاثِ وفاءٌ للثمانينا

(*) أدخلنا لبيداً في عداد الجاهليين ولم ندرجه في عداد المخضرمين لأن جل شعره مقول في الجاهلية قبل إسلامه ولأنه أنفق في الجاهلية أكثر أيام حياته .

فلمّا بلغ التسعين قال :

كأني وقد جاوزت تسعين حِجّةً خلعتُ بها عن مَنكبيَّ ردائيا

فلمّا بلغ مائة وعشراً قال :

أليس في مائةٍ قد عاشها رجلٌ وفي تكاملِ عَشرٍ بعدَها عُمُرُ

فلما جاوزها قال :

ولقد سئمتُ من الحياة وطُولها وسُؤالِ هذا الناسِ كيف لبيدُ
غلب الرجالَ وكان غيرُ مُغلّب دهرٌ طويلٌ دائمٌ مَمدودُ
يومٌ أرى يأتي عليّ وليلةٌ وكلاهما بعد المضاء يعودُ
وأراه يأتي مثل يوم لقيتُه لم يُنتَقَصْ وضعُفت وهو يزيدُ

طائفة من أخباره في الجاهلية

عن الأصمعي : وفد عامر بن مالك ملاعبُ الأسنّة ، وكان يُكنى أبا البَراء ، في رهط من بني جعفر ، ومعه لبيد بن ربيعة ، ومالك بن جعفر ، على النعمان ، فوجدوا عنده الرَّبيع بن زياد العبسي وأمُّه فاطمة بنت الخرشُب ، وكان الربيع نديماً للنعمان ، مع رجلٍ من تجار الشام يقال له زرجون بن توفيل ، وكان حريفاً [1] للنعمان يُبايعه ، وكان أديباً حسن الحديث والنِدام . فاستخفّه النعمانُ ، وكان إذا أراد أن يخلُو على شَرابه بعث اليه والى النطاسيّ ، متطبّبٍ كان له ، والى الربيع بن زياد ، فخلا بهم .

فلمّا قدم الجعفريّون كانوا يحضرُون النعمان لحاجتهم ، فإذا خرجوا من عنده خلا به الربيع فطعن فيهم وذكر معايبهم — وكانت بنو جعفرٍ له

(١) الحريف : العميل وحريفك : معاملك في حرفتك .

أعداءٌ – فلم يزل بالنعمان حتى صدّه عنهم .

فدخلوا عليه يوماً فرأوا منه جَفاءً ، وقد كان يُكرمهم ويقرّبهم ، فخرجوا غِضاباً ، ولبيدٌ متخلفٌ في رِحالهم يحفظ متاعهم ويغدو بإبلهم كلَّ صباح يرعاها . فأتاهم ذاتَ ليلةٍ وهم يتذاكرون أمر الربيع ، فسألهم عنه فكتموه ، فقال : والله لا حفِظت لكم متاعاً ولا سرّحتُ لكم بعيراً أو تخبروني فيم أنتم . وكانت أم لبيد يتيمة في حِجر الربيع ، فقالوا : خالُك قد غلبنا على الملك وصدّ عنا وجهَه . فقال لبيد: هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه فأزجُرَه عنكم بقولٍ ممضٍ لا يلتفت إليه النعمان أبداً ؟ فقالوا : وهل عندك شيءٌ ؟ قال : نعم . قالوا : فإنّا نَبلُوك . قال : وما ذاك ؟ قالوا : تشتُمُ هذه البَقلة – وقدّامُهم بقلةٌ دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لاصقة بالأرض تدعى التربة . فقال : « هذه التَربة التي لا تذكي ناراً ، ولا تُؤهِل داراً ، ولا تَسرّ جاراً . عودُها ضئيل ، وفرعُها كليل ، وخيرُها قليل . أقبح البقول مرعى ، وأقصرها فرعا ، وأشدُّها قلعا . بلدها شاسع ، وآكلُها جائع ، والمقيمُ عليها قانع . فالقَوا بي أخا عَبْس ، أردُّه عنكم بتَعس ، وأتركه من أمره في لَبْس . » قالوا : نُصبح ونرى فيك رأيناً .

فقال عامر : انظروا إلى غُلامكم هذا – يعني لبيداً – فإن رأيتموه نائماً فليس أمرُه بشيء ، إنما هو يتكلّم بما جاء على لسانه ، وان رأيتموه ساهراً فهو صاحبه . فرمقوه فوجدوه قد ركب رَحْلاً وهو يكدِمُ (١) وسطه حتى أصبح . فقالوا : أنت ، واللهِ ، صاحبُه .

فعمدوا اليه فحلقوا رأسه وتركوا ذُؤابته ، وألبسوه حُلّةً ، ثم غدا معهم وأدخلوه على النعمان فوجدوه يتغدّى ومعه الربيع بن زياد وهما يأكلان

---

(١) يكدم : يعض .

لا ثالثَ لهما ، والدار والمجالس مملوءة من الوفود . فلمّا فرغ من الغَداء أذِن للجعفريّين فدخلوا عليه ، وقد كان أمرُهم تقارب فذكروا الذي قدموا له من حاجتهم، فاعترض الربيع بن زياد في كلامهم ، فقال لبيد في ذلك :

أكلَّ يومٍ هامتي مُقزَّعه ✽ يا ربّ هَيجا هي خيرٌ من دَعَه
نحن بني أم البنين الأربعه ✽ سيوفُ حَزٍّ وجِفانٌ مُترعَه
نحن خيارُ عامر بن صعصعه ✽ الضاربون الهامَ تحت الخيضعه
والمطعمون الجَفنةَ المدعدعه ✽ مهلاً أبيت اللعنَ لا تأكلْ معه
إنّ استَه من بَرَصٍ مُلمّعه ✽ وانه يُدخل فيها إصبعَه
يُدخلها حتى يواري أشجَعه ✽ كأنّه يطلبُ شيئاً ضيّعه [1]

فرفع النعمان يدَه من الطعام وقال : خبّثتَ – واللهِ – عليّ طعامي يا غلامُ ، وما رأيت كاليوم . فأقبل الربيع على النعمان فقال : كذَب والله ابنُ الفاعلة ، ولقد فعلت بأمّه كذا وكذا . فقال له لبيد : مثلُك فعل ذلك بربيبة أهله والقريبة من أهله ، وان أمي من نساءٍ لم يكن فواعلَ ما ذكرت!. وقضى النعمان حوائج الجعفريين ومضى من وقته وصرفهم. ومضى الربيع بن زياد إلى منزله من وقته ، فبعث اليه النعمان بضِعف ما كان يحبُوه ، وأمره بالانصراف إلى أهله . فكتب اليه الربيع : اني قد عَرفت أنه قد وقع في صدرك ما قال لبيد ، وإني لستُ بارحاً حتى تبعث إليّ من يجرُّدني فيعلمَ مَن حَضَرَك من الناس أني لست كما قال لبيد . فأرسل اليه : انّك لست صانعاً بانتفائك ممّا قال لبيدٌ شيئاً ، ولا قادراً على ردّ ما زلّت به الألسنُ ، فالحق بأهلك ...

* عن حمّاد الراوية قال : نظر النابغةُ الذبياني إلى لَبيد بن ربيعةَ

(١) الهامة : الرأس . والقزع : حلق رأس الصبي وترك ذؤابة منه غير محلوقة . الهيجاء : الحرب . الدعة : الخفض واللين والجفنة : قصعة الطعام . الخيضعة : المعركة وجلبة الحرب وأصواتها . المدعدعة : المملوءة . الأشجع : مغرز الاصبع .

وهو صبي ، مع أعمامه على باب النعمان بن المنذر ، فسأل عنه فنُسب له . فقال له : يا غلام ، انّ عينيك لعينا شاعر ، أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا عمّ . قال : فأنشدني شيئاً مما قلتَه فأنشده قوله :

ألم تربَعْ على الدِمَن الحوالي

فقال له : يا غلامُ ، أنت أشعرُ بني عامر . زدني يا بني . فأنشده :

طللٌ لخولةَ بالرُسيس قديمُ

فضرب بيديه إلى جنبيه وقال : اذهب فأنت أشعر من قيس كلّها ، أو قال : هوازن كلها .

طائفة من أخباره في الإسلام

عن طائفة من الرواة أن لبيد بن ربيعة قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني كلاب ، بعد وفاة أخيه أربَد وعامر بن الطفيل ، فأسلم وهاجر وحسن إسلامه ، ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب فأقام بها ، ومات بها هناك في آخر خلافة معاوية . فكان عمره مائة وخمساً وأربعين سنة ، منها تسعون سنة في الجاهلية ، وبقيتها في الإسلام .

* عن ابن دأب قال : كان أبو براء عامر بن مالك قد أصابته دُبَيلةٌ [1] ، فبعث لبيد بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ وأهدى له رواحل . فقدم لبيد ، وأمره أن يستشفيه من وجعه . فقال له رسولُ الله ﷺ : لو قبلتُ من مُشرك لقبلت منه . وتناول من الأرض مدَرَة [2] فتفل عليها ، ثم أعطاها لبيداً وقال : دُفْها [3] له بماءٍ ثم اسقِه إياها .

---

(١) الدبيلة : داء يصيب الجوف .

(٢) المدر : الطين اليابس . دفها : اخلطها .

(٣) البرقة : أرض غليظة فيها حجارة ورمل .

وأقام عندهم لبيد يقرأُ القرآن وكتب منهم : « الرحمن . علّم القرآن » ، فخرج بها . ولقيه أخوه أربَد على ليلة من الحيّ فقال له : انزل . فنزل ، فقال : يا أخي ، أخبرني عن هذا الرجل ، فإنه لم يأته رجلٌ أوثق عندي فيه قولاً منك . فقال : يا أخي ، ما رأيت مثله . وجعل يذكر صدقه وبِرّه وحسن حديثه . فقال له : هل معك من قوله شيء ؟ قال : نعم ، فأخرجها له فقرأها عليه ، فلما فرغ منها قال له أربد : لوددت أني ألقى الرحمن بتلك البُرْقة [1] ، فإن لم أضرِبْه بسيفي فعليّ وعليّ ...

قال : ونشأت سحابةٌ ، وقد خلّيا عن بعيريهما ، فخرج أربد يريد البعيرين حتى إذا كان عند تلك البُرقة غشيته صاعقةٌ فمات .

ومما رثي به لبيد أخاه قوله :

بَلِينا وما تبلى النجومُ الطوالعُ — وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانع
وقد كنت في أكناف جارِ مَضَنّةٍ — ففارقني جارٌ بأربدَ نافع
فلا جَزِعٌ إن فرّق الدهرُ بيننا — فكل فتى يوماً به الدهرُ فاجعُ
أليس ورائي إن تراخت منيّتي — لُزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ
أخبّر أخبار القُرون التي مضت — أدِبُّ كأني كلّما قُمت راكع
فأصبحت مثلُ السيف أخلقَ جفنهُ — تقادمُ عهد القين والنصلُ قاطع
وما المرء إلا كالشهابِ وضوئه — يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
فلا تبعَدَنْ إنّ المنيةَ موعدٌ — علينا فدانٍ للطلوع وطالع
أعاذلُ ما يدريك إلاّ تظنّياً — اذا رحل السُفّارُ من هو راجعُ
أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى — وأيُّ كريم لم تُصبه القوارع

(١) البرقة : ارض غليظة فيها حجارة ورمل .

• عن الشعبيّ : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المغيرة بن شعبة ، وهو على الكوفة ، أن استنشد مَن قِبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الإسلام . فأرسل إلى الأغلب الراجز العجلي فقال له : أنشدني ، فقال :

أرجزاً تريــد أم قصيدا لقد طلبتَ هيّناً موجودا

ثم أرسل إلى لبيد فقال : أنشدني . فقال : إن شئتَ ما عُفي عنه – يعني الجاهلية – فقال : لا ، أنشدني ما قلتَ في الإسلام . فانطلق فكتب سُورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال : أبدلني اللهُ هذه في الإسلام مكانَ الشعر . فكتب بذلك المغيرة إلى عمر ، فنقص من عَطاء الأغلب خمسمائة وجعلها في عطاء لبيد فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة . فكتب الأغلب : يا أمير المؤمنين ، أتنقص عطائي أن أطعتُك ؟ فردّ عليه خمسمائة وأقرّ عطاء لبيد على ألفين وخمسمائة .

قال أبو زيد : وأراد معاوية أن ينقصه من عطائه لما وُلي الخلافة وقال : هذان الفَودان [1] – يعني الألفين – فما بال العِلاوة ؟ يعني الخمسمائة . فقال له لبيد : انما أنا هامةُ اليوم أو غد ، فأعِرْني اسمَها ، فلعلي لا أقبضها أبداً فتبقى لك العِلاوة والفودان . فرقّ له وترك عطاءه على حاله ، فمات ولم يقبضه .

• عن عبد الله بن محمد بن حكيم وعبد الله بن مسلم قالا : كان لبيد من جُوداء العرب [2] ، وكان قد آلى في الجاهلية أن لا تَهبّ صَبا إلاّ أطعم . وكان له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم ، فهبت الصّبا يوماً ، والوليدُ بن عُقبة على الكوفة ، فصعِد الوليد المنبر فخطب

---

(١) الفود في الأصل : العدل ، والعلاوة : ما يكون بين العدلين من خشبة ونحوها . وهي الزيادة كذلك .

(٢) الجوداء : ج جواد .

الناس ثم قال : إن أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذَر في الجاهلية ألاّ تهبّ صبَا الا أطعم ، وهذا يوم من أيامه . وقد هبّت صبا فأعينوه . وأنا أول مَن فعل . ثم نزل عن المنبر فأرسل إليه بمائة بكرة ، وكتب إليه بأبيات قالها :

أرى الجزّار يشحَذُ شَفرتَيه إذا هبّت رياحُ أبي عَقيل
أشمُّ الأنف أصيدُ عامريٌّ طويلُ الباعَ كالسيف الصقيلِ
وفى ابنُ الجَعفريّ بحلْفتَيه على العِلاّت والمال القليل
بنَحرِ الكُوم إذ سُحبت عليه ذُيولُ صَبا تجاوبُ بالأصيلِ (١)

فلمّا بلغت أبياته لبيداً قال لابنته : أجيبيه ، فلَعمري لقد عِشتُ بُرْهَةً وما أعيا بجواب شاعرٍ . فقالت ابنتُه :

إذا هبّت رياحُ أبي عَقيل دَعونا عند هَبّتها الوليدا
أشمَّ الأنف أروعَ عبشميّاً أعان على مُروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأنّ رَكباً عليها من بني حام قُعودا
أبا وهب جزاك اللهُ خيراً نحرناها فأطعمنا الثَّريدا
فعُدْ إنّ الكريمَ له مَعادٌ وظَنّي يا بن أروى أن تعودا

فقال لها لبيد : أحسنتِ لولا أنك استطعمته . فقالت : إنّ الملوك لا يُستحيا من مسألتهم . فقال : وأنت يا بُنيّةُ في هذه أشعر .

* عن المفضَّل الضبيّ قال : قدم الفرزدق فمرّ بمسجد بني أُقيصِر ، وعليه رجل ينشد قول لبيد :

وجلا السيولُ عن الطُلول كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

---

(١) أبو عقيل : كنية لبيد . على العلات : على حالتي العسر واليسر . الكوم ج كوماء : الناقة العظيمة السنام .

فسجد الفرزدق . فقيل له : ما هذا يا أبا فِراس ؟ فقال : أنتم تعرفون سَجدة القرآن ، وأنا أعرف سَجدة الشِعر .

احتضاره ووفاته

عن خالد بن سعيد أن لبيداً لمّا حضرته الوفاة قال لابن أخيه ، ولم يكن له ولدٌ ذكرٌ : يا بُنيَّ ، ان أباك لم يمت ولكنه فَنِي . فإذا قُبِض أبوك فأقبله القِبلة ، وسجّه بثوبه ، ولا تَصرُخنّ عليه صارخةٌ . وانظر جَفنتيّ اللتين كنتَ أصنعهما فاصنعهما ثم احملهما إلى المسجد ، فإذا سَلّم الإمام فقدّمهما إليهم ، فإذا طعِموا فقل لهم فليحضرُوا جِنازة أخيهم . ثم أنشد قوله :

واذا دفنت أبـاك فاجعَـل فوقَه خشباً وطينا
وسقائفاً صُمّاً رواسيهـا يُسدّدن الغصـونا
ليقين حُرَّ الوجـه سَفسافَ التراب ولن يَقينا

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة [1] ...

قال : وقال لبيد لابنَتيه حين حضرتْه الوفاة :

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهمـا وهل أنا الاّ من ربيعةَ أو مُضَرْ
فإن حان يومـاً أن يموت أبوكمـا فلا تخمِشا وجهاً ولا تحلِقا شَعَر
وقولا هو المرءُ الـذي لا حَليفَـه أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثم اسمُ السَلام عليكمـا ومن يَبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

قال : فكانت ابنتاه تلبسان ثيابهما في كلّ يوم ، ثم تأتيان مجلس بني جعفر بن كلاب فترثيانه ولا تَعولان ، فأقامتا على ذلك حولاً ثم انصرفتا .

---

(١) من هذه الأخبار يتضح أن للبيد شعراً مقولا في الإسلام وعليه لا يصح الخبر الذي رواه أبو عبيدة – الأغاني ص ٣٦٩ – والذي يذكر فيه أن لبيداً لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً .

- ٢٢ -

عَبـيدبن الأبـرَص

(الأغاني ج ٢٢ ص ٨١ وما بعدها)

الشاعر

قال أبو عمرو الشيباني : هو عَبِيد بن الأبرص ... بن أسد ... شاعر فحل فصيح من شعراء الجاهلية ، وجعله ابن سلاّم في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية وقرَن به طرَفة وعلْقمة بن عبَدة وعديّ بن زيد .

عن محمد بن سلاّم قال : عبيد بن الأبرص قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله في كلمته : أقفر مِن أهله ملحوبُ ، ولا أدري ما بعد ذلك .

طائفة من أخباره

يقول (عبيد) يخاطب حُجَر بن الحارث أبا امرىء القيس وكان حجر يتوعّده في شيء بلغه عنه ثم استصلحه فقال يخاطبه :

أبلـغ أبـا كرِبٍ عني وإخوتَـه   قولاً سيذهب غوراً بعد إنجاد

لا أعرفنّك بعد المـوت تندُبـني وفي حياتي ما زوّدتـني زادي
إن أمامك يوماً أنـت مُدركـه لا حاضرٌ مُفلتٌ منه ولا بادي
فانظر إلى ظِلّ مُلكٍ أنت تاركـه هل تُرسِيَنّ أواخيـه بأوتـادِ
الخيرُ يبقى وإن طـال الزمـانُ به والشرّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ (١)

• عن أبي عُبيدة قال : اجتمعت بنو أسد بعد قتلهم حُجر بن الحارث والد امرىء القيس إلى امرىء القيس ابنه على أن يعطوه ألف بعير دية أبيه أو يُقيدوه من أي رجل شاء من بني أسد ، أو يمهلهم حولاً . فقال : أما الدية فما ظننت أنكم تعرضونها على مثلي . وأما القود فلو قيد إليّ ألف من بني أسد ما رضيتهم ولا رأيتهم كفؤاً لحُجر . وأما النَظِرة (٢) فلكم ، ثم ستعرفونني في فرسان قحطان أُحكّم فيكم ظُبا السيوف وَشبا الأسنّة حتى أشفي نفسي وأنال ثأري . فقال عبيد بن الأبرص في ذلك :

يـاذا المخوّفُنا بقتـل أبيهِ إذلالاً وحَيْنا
أزعمت أنك قـد قتلـت سَراتنا كذِباً ومَينا
هلاّ على حُجر ابنِ أمّ قطـام تبكي لا علينـا
إنّـا إذا عـضّ الثِقا فُ برأس صَعدتنا لوَينا
نحمي حقيقتَنا وبعضُ الناسِ يَسقُطُ بينَ بَينـا
هلاّ سألتَ جُموع كِنـدةَ يومَ ولّوا أين أينا (٣)

(الخ القصيدة ...)

---

(١) الأواخي ج أخية : العروة تربط إلى الوتد .
(٢) النظرة : المهلة وأنظره : أمهله .
(٣) الحين : الهلاك . المين : الكذب . الثقاف : آلة تعدل بها الرماح المعوجة . الصعدة : الرمح . الحقيقة : ما ينبغي حمايته من حريم وجيران وغيرهما . يسقط بين بين : أي يتساقط ضعيفاً غير معتد به .

خبر مقتله

عن الشَرْقيّ بن القطاميّ قال :

كان المنذرُ بن ماء السماء قد نادمه رجلان من بني أسد . أحدهما خالد بن المضلّل . والآخر عمرو بن مسعود بن كلَدة . فأغضباه في بعض المنطق ، فأمر بأن يحفر لكل واحد حفَيرة بظاهر الحيرة ، ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا في الحفرتين . ففُعل ذلك بهما ، حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما ، فندم على ذلك وغمّه ... ثم ركب المنذر حتى نظر إليهما فأمر ببناء الغَريّين عليهما ، فبُنيا عليهما ، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغَريّين . يسمي أحدهما يوم نعيم ، والآخر يوم بؤس . فأول من يطلع عليه يوم نَعيمه يعطيه مائة من الإبل سوداً ، وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظَربان [١] أسود ، ثم يأمر به فيُذبح ويُغرّى بدمه الغريّان ، فلبث بذلك برهةً من دهره .

ثم ان عبيد بن الأبرص كان أول من أشرف عليه في يوم بؤسه فقال : هلاّ كان الذبح لغيرك يا عبيد ؟ فقال : أتتك بحائن رِجلاه [٢] ، فأرسلها مثلاً . فقال له المنذر أو أجلٌ بلغ إناه [٣] (ثم) قال له المنذر : أنشدني ، فقد كان شعرك يعجبني . فقال عبيد : حال الجريض دون القريض [٤] ، وبلغ الحِزام الطبُيَيْن [٥] ، فأرسلها مثلاً . فقال له المنذر : أسمعني . فقال : المنايا على الحوايا [٦] ، فأرسلها مثلاً . فقال له : ما أشدَّ جزعَك

---

(١) الظربان : حيوان منتن الرائحة .

(٢) الحائن : من دنا هلاكه .

(٣) إناه : وقته .

(٤) الجريض : الغصة ، واختلاف الفكين عند الموت .

(٥) الطبي : ضرع الدابة ، وهو مثل يضرب للأمر تجاوز حده .

(٦) الحوايا : ما احتوى عليه بطن الانسان أو الحيوان وهو مثل لمن يسعى إلى هلاكه بيده .

من الموت . فقال : لا يرحل رحلَك من ليس معك [١] ، فأرسلها مثلاً . فقال له المنذر : قد أمللتَني ، فأرحني قبل أن آمُر بك . فقال عبيد : من عزّ بزّ [٢] ، فأرسلها مثلاً . فقال المنذر : أنشدني قولك :

أقفر من أهلِه ملحوبُ

فقال عبيد :

أقفر من أهلــه عَبيدُ فليس يُبدي ولا يُعيد
عنّت له عَنّةٌ نَكودُ وحان منها له وُرودُ

فقال له المنذر : يا عبيد ، ويحك أنشدني قبل أن أذبحك ، فقال عبيد :

واللهِ ان مـــتّ لمـــا ضرّنـــي وإن أعِشْ ما عشتُ في واحدة [٣]

فقال المنذر : انه لا بد من الموت ، ولو أن النعمان عرض لي في يوم بؤس لذبحته . فاختر إن شئت الأكحل[٤] ، وإن شئت الأبجل [٥] ، وإن شئت الوريد . فقال عبيد : ثلاث خصال كسحابات عاد ، واردها شرّ ورّاد ، وحاديها شرّ حاد ، ومَعادها شرُّ مَعاد ، ولا خيرَ فيه لمُرتاد . وإن كنتَ لا محالةَ قاتلي فاسقني الخمر ، حتى اذا ماتت مفاصلي وذُهلت لها ذواهلي فشأنَك وما تريد .

فأمر المنذر بحاجته من الخمر ، حتى اذا أخذت منه وطابت نفسه دعا به المنذر ليقتلَه ، فلما مَثَل بين يديه أنشأ يقول :

---

(١) أراد أنه لا يعاني مشقة رحلتك من لم يسافر معك .
(٢) بز : غلب .
(٣) لهذا البيت رواية أخرى – أصح وهي :
لا غـــرو مـــن عيشـــة نافـــدة وهل غير ما ميتـــة واحدة
(٤) الأكحل : وريد في الذراع .
(٥) الأبجل : عرق في الرجل .

وخيّرني ذو البؤس في يــوم بــؤسه
خصالاً أرى في كلّها الموت قد بَرَق
كما خُيّرت عــادٌ من الدهــر مــرّةً
سحائبَ ما فيها لذي خــيرةٍ أنَــق
سحائبُ ريحٍ لم تُوكَّــلْ ببلــدة
فتتركها الاّ كمــا ليلــةِ الطَلَق [1] .

فأمر به المنذر ففُصد فلمّا مات غُرّي بدمه الغريّان .

فلم يزل كذلك حتى مرّ به رجل من طيء يقال له حنظلة بن أبي عَفراء، فقال له : أبيت اللعن ، والله ما أتيتك إلا زائراً ، ولأهلي من خيرك مائراً فلا تكن مِيرتُهم قتلي . فقال : لا بُدَّ من ذلك فاسأل حاجة أقضينّها لك . فقال : تؤجّلني سنةً أرجع فيها إلى أهلي ، وأحكم من أمرهم ما أريد ، ثم أصير إليك . فأنفِذ فيّ حُكمَك . فقال : ومن يكفُل بك حتى تعود ؟ فنظر في وجوه جُلسائه ، فعرف منهم شَرِيك بن عمرو فأنشد يقول :

يا شريكٌ يا بنَ عمروٍ   ما من الموت مَحاله
يا شريكٌ يا بن عمــرو   يا أخا من لا أخا له
يا أخا شيبان فُــكّ اليــــوم رهناً قد أنالــه

(الخ الأبيات ...)

فوثب شريك وقال : أبيت اللعن ، يدي بيده ، ودمي بدمه إن لم يَعُد

(١) الأنق : الفرح والسرور والحسن الزائد . ليلة الطلق : سير الليل لورود الغب ، وهو أن يكون بين الابل والماء ليلتان أولاهما ليلة الطلق يخلي الراعي إبله إلى الماء ويتركها ترعى الليل كله فلا تغادر شيئاً إلا وتأتي عليه ، ويريد الشاعر أن هذه السحب أتت على كل شيء .

إلى أجله . فأطلقه المنذر . فلمّا كان من القابل جلس في مجلسه ينتظر حنظلة أن يأتيه ، فأبطأ عليه ، فأمر بشريك فقُرّب ليقتله .

فلم يشعروا إلا براكب قد طلع عليهم ، فتأملوه فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفّناً متحنطاً معه نادبته تندُبه ، وقامت نادبة شريك تندبه ، فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك السُّنّة .

• • •

- ٢٣ -
عَلقَمَة بن عَبَدَة

(الأغاني ج ٢١ ص ٢٠٠ وما بعدها)

الشاعر

هو عَلقَمة بن عَبَدة ... بن زيد مناة بن تميم ... عن أبي عبيدة : ويقال لعلقمة بن عَبدَة علقمة الفَحل ، سُمّي بذلك لأنه خلَف على امرأة امرىء القيس لمّا حكمت له على امرىء القيس بأنه أشعر منه في صِفة فرسه ، فطلّقها . فخالفه عليها ، وما زالت العرب تسميه بدلك ، وقال الفرزدق :

والفحلُ علقمةُ الذي كانت لـــــه   حُللُ الملوك كلامُـــه يُتَنحّلُ

مباراته امرأ القيس في وصف الفرس

عن أبي عبيدة : كانت تحت امرىء القيس امرأةٌ من طيّء تزوّجها حين جاور فيهم ، فنزل به علقمة الفحل بن عبدة التميمي ، فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك . فتحاكما اليها ، فأنشد امرؤ القيس قوله :

خليليَّ مُرّا بي على أمّ جُندُب ...

حتّى مرّ بقوله :

فللسَوط ألهـوبٌ وللسّـاق دِرّةٌ ... وللزّجر منه وقعُ أهوجَ مِنْعَبِ [1]

فأنشدها علقمة قوله :

ذهبتَ من الهجران في كلّ مذهب ...

حتّى انتهى إلى قوله :

فأدركه حتّى ثـنى مـن عِنانه ... يمُـرُّ كغيثٍ رائحٍ متحلّبِ [2]

فقالت له : علقمة أشعر منك . قال : وكيف ؟ قالت : لأنك زجرت فرسك وحرّكته بساقك وضربتَه بسَوطك . وأنه جاء هذا الصيد ثم أدركه ثانياً من عنانه . فغضب امرؤ القيس وقال : ليس كما قلت ، ولكنك هويته . فطلّقها فتزوّجها علقمة بعد ذلك ، وبهذا لُقّب علقمة الفحل .

أقوال في بعض قصائده

عن حمّاد الراوية قال : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولاً وما ردُّوه منها كان مردوداً .

فقدم عليهم علقمة بن عبدة ، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها :

هل ما علمتَ وما استُودعت مكتومُ ... أم حبلُها أن نأتكَ اليومَ مصرومُ

فقالوا : هذه سمط الدهر . ثم عاد اليهم العامَ المقبل فأنشدهم :

طحابك قلبٌ في الحِسان طَروبُ ... بُعيدَ الشباب عصرَ حانَ مَشيبُ

(۱) الألهوب : اجتهاد الفرس في عدوه حتى يثير الغبار . الدرة : حث الفرس على العدو .
(۲) المتحلب : المتدفق . وللبيت رواية أخرى أشهر هي :

فأدركهن ثانياً من عنانه ... يمر كر الرائح المتحلب

فقالوا : هاتان سِمطا الدهر .

تفضيله على شعراء تميم

عن لقيط قال : تحاكم علقمة بن عبدة التميمي والزِبرقان بن بدر السَعدي ، والمخبّل ، وعمرو بن الأهتم إلى ربيعة بن حُذار الأسدي . فقال : أما أنت يا زبرقان فإنّ شعرك كلحم لا أنضج فيؤكل ، ولا تُرك نيّئاً فينتفعَ به . وأما أنت يا عَمرو فإن شعرك كبرُد حبرَة يتلألأ في البصر ، فكلما أعدته فيه نقص . وأما أنت يا مخبّل فإنك قصّرت عن الجاهلية ولم تُدرك الإسلام . وأما أنت يا علقمة فإن شعرك كمزادة [1] قد أحكم خرَزْزُها فليس يقطُر منها شيء [2] .

---

(١) المزادة : القربة الصغيرة من الجلد .

(٢) هذا الخبر يبعد أن يكون صحيحاً لأنه يجمع بين علقمة بن عبدة ، وهو شاعر جاهلي قديم عاصر امرأ القيس ، وبين شعراء مخضرمين أدركوا الإسلام .

- ٢٤ -
عَـــديّ بن زيْـــد

(الأغاني ج ٢ ص ٩٧)

الشاعر

هو عديُّ بن زيد ... بن زيد مناة بن تميم ... شاعرٌ فصيحٌ من شعراء الجاهلية ، وكان نصرانياً وكذلك كان أبوه وأمّه وأهله ، وليس ممّن يُعَدّ في الفحول ، وهو قرويّ . وكانوا قد أخذوا عليه أشياءَ عِيب بها ، وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عديّ بن زيد في الشعراء بمنزلة سُهيل في النجوم : يُعارضها ولا يجري معها مَجراها ...

نزول آل عدي الحيرة

عن ابن الأعرابي والكلبي : سببُ نزول آل عديّ بن زيد الحِيرة أن جدّه أيّوب بن محروف كان منزله اليمامة في بني امرىء القيس بن زيد مناة ، فأصاب دماً في قومه فهرب فلحِق بأوس بن قَلاّم ، أحد بني الحارث بن كعب ، بالحيرة . وكان بين أيّوب بن محروف وبين أوس بن قلاّم هذا نسب من قِبل النساء . فلمّا قدم عليه أيوب بن محروف أكرمه وأنزله في

داره ، فمكث معه ما شاء الله أن يمكث .

ثم إن أوساً قال له : يا بنَ خالٍ ، أتريد المُقام عندي وفي داري ؟ فقال له أيّوب : نعم ، فقد علمت أني إن أتيت قومي ، وقد أصبت فيهم دماً ، لم أسلَمْ ، وما لي دارٌ الاّ دارُك آخرَ الدهر . قال أوس : إني قد كبرت ، وأنا خائف أن أموت فلا يَعرف ولدي لك من الحق مثلَ ما أعرف ، وأخشى أن يقع بينَك وبينهم أمرٌ يقطعون فيه الرَحِم ، فانظر أحبّ مكان في الحِيرة إليك ، فأعلمني به لأقْطِعَكه أو أبتاعه لك . وكان لأيّوب صديق في الجانب الشرقي من الحيرة ، وكان منزل أوسٍ في الجانب الغربي ، فقال له : قد أحببت أن يكون المنزل الذي تُسكِنُنيه عند منزلِ عصام بن عَبدة ، أحدِ بني الحارث بن كعب . فابتاع له موضعَ داره بثلاثمائة أوقية من ذهب ، وأنفق عليها مائتي أوقيةٍ ذهباً ، وأعطاه مائتين من الإبل برعائها وفرساً وقينة .

فمكث في منزل أوس حتى هلَك ، ثم تحول إلى داره التي في شرقيّ الحيرة فهلك بها .

وقد كان أيّوب اتصل قبل مَهلَكه بالملوك الذين كانوا بالحيرة وعرفوا حقه وحقَ ابنه زيد بن أيوب ، وثبت أيوب فلم يكن منهم ملكٌ يملِكُ إلا ولِولدِ أيّوبَ منه جوائزُ وحُملان[1] .

ثم إن زيدَ بن أيوب (تزوّج) امرأةً من آل قَلاّم فولدت له حمّاداً ، فخرج زيد بن أيّوب يوماً من الأيام يريد الصيد في ناسٍ من أهل الحيرة وهم مُنتَدُون بحَفير — المكان الذي يذكره عديّ بن زيد في شعره — فانفرد في الصيد وتباعد من أصحابه ، فلقيه رجلٌ من بني امرىء القيس الذين كان لهم الثأر قِبل أبيه ، فقال له : — وقد عرف فيه شَبَه أيّوب — مِمّن

---

(١) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب .

الرجل ؟ قال : من بني تميم . قال : من أيّهِم ؟ قال : مَرَئِيّ[1] . قال له الأعرابيّ : وأين منزلك ؟ قال : الحيرةُ . قال : أمن بني أيّوب أنت ؟ قال : نعم . ومن أين تعرف بني أيّوب ؟ واستوحش من الأعرابيّ ، وذكر الثأر الذي هرب أبوه منه . فقال له : سمعتُ بهم ، ولم يُعلمه أنه قد عرفه . فقال له زيد بن أيوب : فمن أيّ العرب أنت ؟ قال : أنا امرُؤٌ من طيّء . فأمِنه زيدٌ وسكت عنه . ثم إن الأعرابيّ اغتفل زيد بن أيوب فرماه بسهم فوضعه بين كتفيه ففلق قلبه ، فلم يَرِم حافرُ دابّته حتى مات .

فلبث أصحاب زيد حتى اذا كان الليل طلبوه ، وقد افتقدوه وظنوا أنه قد أمعن في طلب الصيد ، فباتوا يطلبونه حتى يئسوا منه ، ثم غدوا في طلبه فاقتفَوا أثره حتى وقفوا عليه ورأوا معه أثر راكب يسايره فاتّبعوا الأثر حتى وجدوه قتيلاً ، فعرفوا أن صاحب الراحلة قتله ، فاتّبعوه وأغذّوا السير فأدركوه مساء الليلة الثانية ، فصاحوا به — وكان من أرمى الناس — فامتنع منهم بالنبل حتى حال الليل بينهم وبينه ، وقد أصاب رجلاً منهم في مَرجِع[2] كتفيه بسهم ، فلما أجنّه الليلُ مات وأفلت الرامي ، فرجعوا وقد قتل زيد بن أيوب ورجلاً آخر معه من بني الحارث بن كعب .

فمكث حمّاد في أخواله حتى أيفع ولحق بالوُصَفاء فخرج يوماً من الأيام يلعب مع غلمان بني لِحيان ، فلطم اللحياني عين حماد فشجّه حمّاد ، فخرج أبو اللحياني فضرب حمّاداً ، فأتى حمّاد أمه يبكي ، فقالت له : ما شأنك ؟ فقال : ضربني فلان لأن ابنه لطمني فشججتُه . فجزعت من ذلك وحوّلته إلى دار زيد بن أيوب وعلّمته الكتابة في دار أبيه ، فكان حمّاد أول من كتب من بني أيّوب ، فخرج من أكتب الناس وطُلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر . فلبث كاتباً له حتى وُلد له ابنٌ من امرأة

(١) مرئي : نسبة إلى امرىء القيس .
(٢) مرجع كتفيه : أسفلهما .

تزوّجها من طيّء فسمّاه زيد باسم أبيه.

وكان لحمّاد صديق من الدّهاقين [1] العظماء يقال له فَروخ ماهان، وكان محسناً إلى حمّاد. فلما حضرت حماداً الوفاة أوصى بابنه زيد إلى الدهْقان، وكان من المَرَازبة [2] فأخذه الدهقان اليه فكان عنده مع ولده، وكان زيدٌ قد حذَق الكتابة والعربية قبل أن يأخذَه الدهقان، فعلّمه — لمّا أخذه — الفارسية فلَقِنَها، وكان لبيباً. فأشار الدهقان على كسرى أن يجعلَه على البريد في حوائجه، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلاّ بأولاد المرازبة، فمكث يتولى ذلك لكسرى زماناً.

ثم ان النُعمانَ النصريَّ اللخميّ هَلَك، فاختلف أهل الحيرة فيمن يُملّكونه إلى أن يعقِد كسرى الأمرَ لرجل يُنصّبه، فأشار عليهم المَرْزُبان بزَيد بن حَمّاد، فكان على الحيرة إلى أن ملَّك كسرى المُنذَر بن ماء السماء، و (تزوّج) زيدُ بن حمّاد نعمةَ بنت ثعلبة العَدَوِيّة فولدت له عَدِيّاً، وملَك المنذر، وكان لا يَعصِيه في شيء، ووُلد للمَرْزُبان ابنٌ فسمّاه شاهان مَرْد.

فلمّا تحرّك عديٌّ بن زيد وأيفع طرحه أبوه في الكُتّاب، حتى اذا حَذَق أرسله المرزبان مع ابنه إلى كُتّاب الفارسيّة، فكان يختلف مع ابنه ويتعلّم الكتابة والكلامَ بالفارسيّة حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحِهم بالعربية وقال الشعر، وتعلّم الرّمي بالنُشّاب، فخرج من الأساورة [3] الرُماة، وتعلّم لَعِب العجم على الخيل بالصّوالجة [4] وغيرها.

(١) الدهاقين ج دهقان: فارسية معربة ومعناها التاجر والرئيس.
(٢) المرازبة ج مرزبان: الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك.
(٣) الأساورة ج أسوار: الفارس الشجاع الجيد الرمي من أولاد الفرس.
(٤) الصوالجة ج صولجان: عصا معقوفة الرأس تضرب بها الكرة على الخيل، فارسية معربة.

اتصال عدي بن زيد بكسرى

ثم إن المَرْزُبان وفد على كسرى ومعه ابنُه شاهان مرد ، فبينما هما واقفان بين يديه إذ سقط طائران على السُور فتطاعما كما يتطاعم الذكر والأنثى ، فجعل كل واحدٍ منقاره في منقار الآخر ، فغضب كسرى من ذلك ولَحِقته غَيرةٌ فقال للمرزبان وابنه : لِيرمِ كلٌ واحدٍ منكما واحداً من هذين الطائرين ، فإن قتلتماهما أدخلتكما بيت المال وملأت أفواهكما بالجوهر ، ومن أخطأ منكما عاقبتهُ . فاعتمد كلٌ واحدٍ منهما طائراً منهما ورَميا فقتلاهما جميعاً ، فبعثهما إلى بيت المال فملئت أفواهُهُما جوهراً ، وأثبت شاهان مرد وسائر أولاد المرازبة في صَحابته . فقال فرُّوخ ماهان عند ذلك للملك : إن عندي غُلاماً من العرب مات أبوه وخلّفه في حِجري فربّيتُه ، فهو أفصحُ الناس وأكتبُهم بالعربية والفارسيّة ، والملِك محتاجٌ إلى مثله ، فإن رأى أن يثبتهَ في وَلدي فعل . فقال : ادعهُ . فأرسل إلى عديّ بن زيد ، وكان جميلَ الوجه فائق الحسن ، وكانت الفُرس تتبرّك بالوجه الجميل . فلمّا كلّمه وجده أظرفَ الناس وأحضرَهم جواباً ، فرغب فيه وأثبته مع ولد المرزبان ، فكان عديّ أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى .

فرغب أهل الحِيرة إلى عديّ ورَهِبوه ، فلم يزل بالمدائن في ديوان كِسرى يُؤذَن له عليه في الخاصّة ، وهو معجَبٌ به قريبٌ منه ، وأبوه زيد بن حمّاد يومئذٍ حيٌّ ، إلاّ أن ذكر عديّ قد ارتفع وخَمَل ذِكر أبيه . فكان عديّ اذا دخل على المنذر قام جميع مَن عنده حتى يقعدَ عدي . فعلا له بذلك صيتٌ عظيم ، فكان اذا أراد المُقام بالحيرة في منزله ومع أبيه وأهله استأذن كسرى ، فأقام فيهم الشهر والشهرين وأكثر وأقل .

ثم ان كسرى أرسل عديّ بن زيد إلى ملك الروم بهديةٍ من طُرَف ما عندَه فلمّا أتاه عديٌّ بها أكرمه وحمله إلى عُمّاله على البريد ليُريَه سَعة

أرضه وعظيم مُلكه ــ وكذلك كانوا يصنعون ــ فمن ثَمَّ وقع عديّ بدمشق وقال فيها الشعر ... وفسد أمر الحيرة وعديٌّ بدمشق حتى أصلح أبوه بينهم ، لأن أهل الحِيرة حين كان عليهم المنذر أرادوا قتله لأنه كان لا يعدِل فيهم ، وكان يأخذُ من أموالهم ما يُعجبه . فلمّا تيقن أن أهل الحيرة قد أجمعوا على قتلِه بعث إلى زيد بن حمّاد ... وكان قبلَه على الحيرة فقال له : يا زيدُ ، أنتَ خليفةُ أبي ، وقد بلغني ما أجمع عليه أهلُ الحيرة فلا حاجةَ لي في مُلككم ، دونَكموه ملِّكوه مَن شئتم . فقال له زيد : انَّ الأمر ليس إليّ ، ولكني أسبرُ لك هذا الأمر ولا آلُوك نصحاً [1] . فلما أصبح غدا اليه الناسُ فحيُّوه تحية الملك ، وقالوا له : ألا تبعث إلى عبدك الظالم ــ يَعنُون المنذر ــ فتريحَ منه رعيّتَك ؟ فقال لهم : أوَ لا خيرٌ من ذلك ؟ قالوا : أشِر علينا . قال : تَدَعونه على حاله ، فإنه من أهل بيت مُلك . وأنا آتيه فأخبرُه أنّ أهل الحيرة قد اختاروا رجلاً يكون أمرُ الحيرة إليه ، إلاّ أن يكون غَزوٌ أو قتال ، فلك اسم الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور . قالوا : رأيك أفضل .

فأتى المنذر فأخبره بما قالوا : فقبِل ذلك وفرح وقال : إن لك يا زيدُ علي نعمةً لا أكفرها ما عرفتُ حق سَبَد ــ وسبد صنم كان لأهل الحيرة ــ فولّى أهل الحيرة زيداً على كل شيء سوى اسم المَلِك فإنهم أقرّوه للمنذر . وفي ذلك يقول عديّ :

نحن كنّا قد علمتمُ قبلكـــــم عَمَدَ البيت وأوتادَ الإصارِ [2]

عديّ وآل المنذر

قال : ثم هَلك زيدٌ وابنُه عدي يومئذ بالشام ، وكانت لزيدٍ ألف

(١) لا آلوك نصحاً : لا أقصر في نصحك .
(٢) الإصار : الطنب وهو حبل الخباء .

ناقة للحمّالات [1] كان أهل الحيرة أعطوه إيّاها حين ولّوه ما ولّوه ، فلمّا هلك أرادوا أخذها ، فبلغ ذلك المنذر فقال : لا ، واللاّتِ والعُزّى لا يُؤخذ ممّا كان في يد زيدٍ ثُفْروقٌ [2] وأنا أسمعُ الصوت .

ففي ذلك يقول عديٌّ بن زيد لابنه النعمان بن المنذر :

وأبوكَ المرءُ لم يُشْنَــأْ بــه يومَ سِيمَ الخسْفَ منّا ذو الخَسار

قال : ثم إنّ عديّاً قدِم المدائن على كسرى بهديّة قيصر ، فصادف أباه والمرزُبان الذي ربّاه قد هلكا جميعاً ، فاستأذن كسرى في الإلمام بالحيرة فأذِن له فتوجّه إليها ، وبلغ المنذرَ خبرُه فخرج فتلقّاه في الناس ورجع معه . وعدي أنبل أهل الحيرة في أنفسهم ، ولو أراد أن يُملّكوه لملّكوه ، ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو واللعبَ على المُلك . فمكث سنين يبدو [3] في فصلَيْ السنة فيقيم في جفير [4] ويشتو بالحيرة ، ويأتي المدائن في خلال ذلك فيخدمُ كسرى . فمكث كذلك سِنين ، وكان لا يُؤثر على بلاد بني يربوع مَبْدىً من مَبادي العرب ، ولا ينزلُ في حيٍّ من أحياء بني تميم غيرِهم ، وكان أخلاّؤه من العرب كلّهم بني جعفر ، وكانت إبله في بلاد بني ضبّة وبلاد بني سعد ، وكذلك كان أبوه يفعل ، لا يجاوز هذين الحيّين بإبله . ولم يزل على حاله تلك حتى تزوّج هندَ بنت النعمان بن المنذر ، وهي يومئذٍ جاريةٌ حين بلغت أو كادت .

---

(١) الحمالة : الدية .

(٢) الثفروق : قمع التمرة ويكنى به عن القلة .

(٣) يبدو : يخرج إلى البادية .

(٤) جفير : ذكر ياقوت أنه موضع في شعر حجر الملك آكل المرار وذكر البكري أنه ماء في ضرية . وسياق الخبر يرجح أنه موضع في بلاد بني يربوع .

زواجه من هند بنت النعمان بن المنذر

عن الكلبي : كان عديٌّ بن زيد بن حمّاد بن زيد بن أيّوب الشاعر العباديّ يهوى هندَ بنتَ النُعمان بن المنذر ...

وكان سبب عشقه إيّاها أنّ هنداً كانت من أجمل نساءِ أهلها وزمانها ، وأمُّها مارِية الكنديّة ، فخرجت في خميس الفصحِ ، وهو بعد السعانين [1] بثلاثة أيام ، تتقرب في البيعة [2] ، ولها حينئذٍ احدى عشرةَ سنة ، وذلك في مُلك المُنذِر ، وقد قدِم عديٌّ حينئذٍ بهديّةٍ مِن كسرى إلى المنذر ، والنعمان يومئذ فتىً شابّ . فاتّفق دخولهُا البِيعة وقدْ دخلها عدي ليتقرّب ، وكانت مديدةَ القامة ، عَبلة الجسم ، فرآها عديّ وهي غافلةٌ فلم تنتبه له حتّى تأمّلها ، فوقعت هندٌ في نفس عديّ ... فصنع عديّ طعاماً واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان بعد الفِصح بثلاثة أيام ، وذلك في يوم الاثنين ، فسأله أن يتغدّى عنده هو وأصحابه ، ففعل . فلمّا أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان فأجابه وزوّجه وضَمّها إليه بعد ثلاثة أيام .

قال خالد بن كلثوم : فكانت معه حتى قتله النعمانُ فترهّبت وحبست نفسَها في الدير المعروف بدير هند ، في ظاهر الحيرة . وقال ابن الكلبي : بل ترهّبت بعد ثلاث سنين ومنعته نفسَها واحتبست في الدير حتّى ماتت ، وكانت وفاتها بعد الإسلام بزمن طويل ، في ولاية المغيرة بن شُعبة الكوفة ، وخطبها المُغيرة فردّته .

عن ابن الأعرابي : أن النعمان لمّا حبس عديّاً أكرهه في أمرها على طلاقها ولم يزل به حتّى طلّقها . قال ابن حبيب : وذكر عديّ بن زيد صِهره

---

(١) السعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بسبعة أيام (والمشهور : الشعانين) وقد يكون المقصود بخميس الفصح هنا خميس العهد ، وهو يقع قبل الفصح بثلاثة أيام .

(٢) البيعة : متعبد النصارى .

هذا للنعمان في قصائده ، وكان زوج أخته – هكذا ذكر العلماء من أهل الحيرة – وقالت رواة العرب : إنه كان زوج ابنته هند ...

سعي عديّ بن زيد في ولاية النعمان بن المنذر

كان لعديّ بن زيد أخَوان : أحدهما اسمه عمّار ولقبه أبَيّ ، والآخر اسمه عمرو ولقبه سُمَيّ ، وكان لهم أخٌ من أمّهم يقال له عديّ بن حنظلة من طيّء ، وكان أبيٌّ يكون عند كسرى ، وكانوا أهل بيت نصارى يكونون مع الأكاسرة ، ولهم معهم أُكلٌ[1] وناحية ، يقطعونهم القطائع ويجزلون صِلاتِهم . وكان المنذر لمّا ملَك جعل ابنه النعمان بن المنذر في حِجر عديّ ابن زيد ، فهم الذين أرضعوه وربّوه ، وكان للمنذر ابنٌ آخر يقال له الأسودُ ، أمه مارية بنت الحارث بن جُلْهُم ، من تَيْم الرِّباب ، فأرضعه وربّاه قومٌ من أهل الحيرة يقال لهم بنو مَرِينا ، ينتسبون إلى لَخْم ، وكانوا أشرافاً . وكان للمنذر سوى هذين من الولد عشرةٌ ، وكان ولده يقال لهم « الأشاهب » من جمالهم ، فذلك قول أعشى بني قيس بن ثعلبة :

وبنو المنذر الأشاهبُ في الحـــيرة يمشُون غُدوةً كالسيوفِ

وكان النعمان من بينهم أحمرَ أبرشَ قصيراً ، وأمُّه سَلمى بنت وائل ابن عطيّة الصائغ من أهل فَدَك .

فلمّا احتُضِر المنذر وخلّف أولاده العشرة ، وقيل بل كانوا ثلاثةَ عشر ، أوصى بهم إلى إياس بن قَبيصَة الطائيّ ، وملّكه على الحِيرة إلى أن يرى كِسرى رأيَه . فمكث مملّكاً عليها أشهراً وكسرى في طلب رجلٍ يُملّكه عليهم ، وهو كسرى بن هُرمُز ، فلم يجد أحداً يرضاه ، فضجر فقال : لأبعثنّ إلى الحيرة اثني عشرَ ألفاً من الأساورة ولأملكنّ عليهم رجلاً من

---

(١) الأكل : الرزق .

الفرس ، ولآمرنّهم أن ينزلوا على العرب في دُورهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم . وكان عديّ بن زيد واقفاً بين يديه ، فأقبل عليه وقال : ويحَك يا عديُّ ، مَن بقيَ من آل المنذر ؟ وهل فيهم أحدٌ فيه خيرٌ ؟ فقال : نعم أيها الملكُ السعيد ، إنّ في وَلد المنذر لبقيّةً ، وفيهم كلّهم خيرٌ . فقال : ابعث اليهم فأحضِرْهم .

فبعث عديّ إليهم فأحضرهم وأنزلهم جميعاً عندَه ... وأرسل إلى النعمان : لست أملّك غيرَك ، فلا يُوحِشنّك ما أُفضّلُ به إخوتَك عليك من الكرامة ، فإني إنما أغرُّهم بذلك .

ثم كان يُفضّل إخوتَه جميعاً عليه في النُزُل والإكرام والملازمة . ويُريهم تنقصاً للنعمان ، وأنه غيرُ طامع في تمام أمرٍ على يده ، وجعل يخلُو بهم رجلاً رجلاً فيقول : إذا أدخلتُكم على المَلِك فالبَسوا أفخرَ ثيابكم وأجملَها ، وإذا دعا لكم بالطعام لتأكلوا فتباطأوا في الأكل وصغّروا اللُقَم ونزّروا ما تأكلُون ، فإذا قال لكم : أتكفُوني العرب ؟ فقولوا : نعم . فإذا قال لكم : فإن شذَّ أحدُكم عن الطاعة وأفسد أتكفُونيه ؟ فقولوا : لا ، انّ بعضنا لا يقدِر على بعض ، ليهابَكم ولا يطمعَ في تفرقكم ويعلمَ أنّ للعربِ منَعةً وبأساً . فقبِلوا منه .

وخلا بالنعمان فقال له : البسَ ثيابَ السَفر وادخل متقلّداً بسيفك . واذا جلست للأكل فعظّم اللُقَم وأسرع المضغَ والبلعَ وزِد في الأكل وتجوَّعْ قبلَ ذلك ، فإنّ كسرى يُعجبه كثرةُ الأكل من العرب خاصةً ، ويرى أنه لا خيرَ في العربيّ اذا لم يكن أكُولاً شَرِهاً ، ولا سيّما اذا رأى غيرَ طعامه وما لا عهدَ له بمثلِه . واذا سألك : هل تكفِيني العربَ ؟ فقل : نعم . فإذا قال لك : فمَن لي بإخوتِك ؟ فقل له : إن عجزتُ عنهم فإني عن غيرِهم لأعْجَزُ .

وخلا ابن مَرينا بالأسودِ فسأله عمّا أوصاه به عدي فأخبره فقال :

غشّك والصليبِ والمَعْمُوديّة وما نصحك ، ولئن أطعتَني لتُخالفَنّ كلّ ما أمرك به ، ولتُملّكَنّ ، ولئن عصيتَني ليُملّكنّ النُعمانُ . ولا يَغُرّنّك ما أراكه من الإكرام والتفضيل على النعمان ، فإنّ ذلك دهاءٌ منه ومَكرٌ ، وإنّ هذه المَعَدِيّة [1] لا تخلو من مكر وحيلة . فقال له : انّ عدياً لم يألُني نُصحاً وهو أعلمُ بكسرى منك ، وإن خالفتُه أوحشته وأفسد عليّ ، وهو جاء بنا ووصفنا وإلى قولِه يَرجع كسرى . فلمّا أَيِس ابنُ مرينا من قبوله منه قال : ستَعلمُ .

ودعا بهم كسرى ، فلمّا دخلوا عليه أعجبه جمالُهم وكَمالهم ورأى رجالاً قلّما رأى مثلَهم . فدعا لهم بالطعام ففعلوا ما أمرهم به عديٌّ ، فجعل ينظر إلى النعمان من بينهم ويتأمّل أكلَه ، فقال لعديٍّ بالفارسيّة : إن يكن في أحد منهم خيرٌ ففي هذا . فلمّا غسلوا أيديَهم جعل يدعو بهم رجلاً رجلاً فيقول له : أتكفيني العرب ؟ فيقول : نعم أكفيكها كلّها إلاّ إخوتي ، حتى انتهى إلى النعمان آخرهم فقال له : أتكفيني العربَ ؟ قال : نعم . قال : كلّها ؟ قال : نعم . قال : فكيف لي بإخوتك ؟ قال : ان عجزتُ عنهم فأنا عن غيرهم أعجزُ . فملّكه وخلع عليه وألبسه تاجاً قيمتُه ستون ألف درهم فيه اللؤلؤُ والذهب . فلما خرج وقد مُلّك قال ابن مَرينا للأسود : دونَك عُقبى خلافِك لي ....

ابن مَرينا يكيد لعديّ بن زيد

ثم قال عديُّ بن مَرينا للأسود : أما إذ لم تظفَر فلا تعجِزَنّ أن تطلبَ بثأرك من هذا المَعَدّي الذي فعل بك ما فعل ، فقد كنت أخبرك أن مَعدّاً لا ينام كيدها ومكرُها وأمرتك أن تعصيَه فخالفتَني . قال : فما تريد ؟ قال : أريد ألاّ تأتيَك فائدةٌ من مالك وأرضِك الاّ عرضتها عليّ ، ففعل .

---

(١) المعدية : نسبة إلى معد بن عدنان .

وكان ابن مَرينا كثيرَ المال والضيعة ، فلم يكن في الدهر يومٌ يأتي إلاّ على باب النعمان هديّةٌ من ابنِ مَرينا . فصار من أكرمِ الناسِ عليه ، حتى كان لا يقضي في مُلكه شيئاً إلا بأمر ابنِ مرينا . وكان اذا ذُكر عديّ ابن زيد عند النعمان أحسن الثناء عليه وشيّع ذلك بأن يقول : انّ عديّ بن زيد فيه مكرٌ وخَديعة . والمعدّيُّ لا يصلحُ الا هكذا .

فلمّا رأى من يُطيف بالنعمان منزلةَ ابن مرينا عندَه لزموه وتابعوه ، فجعل يقول لمن يثق به من أصحابه : اذا رأيتُموني أذكرُ عَديّاً عند الملك بخير فقولوا : إنه لكذلك ، ولكنه لا يسلَمُ عليه أحدٌ . وإنه ليقول : انّ المَلِك – يعني النعمان – عاملُه ، وانه هو ولاّه ما ولاّه . فلم يزالوا بذلك حتى أضغنوه عليه ، فكتبوا كتاباً على لسانه إلى قَهْرَمان [1] له ثم دَسُّوا اليه حتى أخذوا الكتاب منه وأتَوا به النعمان . فقرأه فاشتدّ غضبُه ، فأرسل إلى عديّ بن زيد : عزمتُ عليك إلاّ زُرتَني ، فإني قد اشتقتُ إلى رؤيتك ، وعديٌّ يومئذٍ عند كسرى . فاستأذن كسرى فأذن له . فلمّا أتاه لم ينظر اليه حتى حبسه في محبِسٍ لا يدخلُ عليه فيه أحدٌ ، فجعل عديّ يقول الشعر وهو في الحبس ... (ومما قاله) :

سعى الأعداءُ لا يألون شرّاً ... علي وربِّ مكة والصليبِ
أرادوا كي تُمهَّل عن عديٍّ ... ليسجن أو يدَهْدَه في القَليب
وكنتُ لِزازَ خصمك لم أعرِّدْ ... وقد سلكوك في يومٍ عصيبِ
أعالِنُهم وأُبطِنُ كلَّ سِرٍّ ... كما بين اللِحاء إلى العَسيب
ففُزتُ عليهمُ لمّا التقينا ... بتاجك فوزةَ القِدح الأريب
ألا مَن مُبلغُ النعمانَ عني ... وقد تُهدَى النصيحةُ بالمغيب
أحظّي كان سلسلةً وقيداً ... وغُلاًّ والبيانُ لدى الطبيبِ
أتاك بأنني قد طال حبسي ... ولم تَسأمْ بمَسجونٍ حَريب

(١) القهرمان : أمين الملك وخاصته ، فارسية معربة .

وبيــتي مُقفِـــرٌ إلا نســـاءً	أراملَ قد هلكن من النحيـب

(إلى أن يقول) :

فهل لك أن تــداركَ ما لدينـــا	ولا تُغلَبْ عــلى الرأي المصيبِ
فإني قد وكلت اليــومَ أمـــري	إلى ربٍّ قريبٍ مستجيبِ [1]

وقال له أيضاً – وهي قصيدة طويلة – :

أبلــغِ النعمـــانَ عني مَألكاً [1]	أنه قد طال حبسي وانتظـاري
لو بغــير المـــاء حلقــي شَــرِقٌ	كنتُ كالغَصّانِ بالماء اعتصاري
ليت شعري عن دخيــلٍ يَفــتري	حيثما أدرك ليــلي ونهـــاري
قاعــداً يكــرُب نفسي بثُّهـــا	وحراماً كان سجــني واحتصاري
أجْــلَ نُعمى ربّهـــا أوّلـكــم	ودُنوّي كان منهم واصطهاري [2]

في قصائد كثيرة كان يقولها فيه ويكتب بها إليه فلا تُغني عنده شيئاً .

مقتل عديّ بن زيد

فلمّا طال سجن عديّ بن زيد كتب إلى أخيه أبيّ ، وهو مع كسرى ، بهذا الشعر :

---

(١) لا يألون : لا يقصرون . يدهده : يرمي من عل . القليب : في الأصل البئر ، وأراد به القبر . يقال : فلان لزاز لفلان أي لا يدعه يخاصمه ويعانده . لم أعرد : لم أحجم ولم أنكل . اللحاء : قشر العود . العسيب : جريد النخل إذا جرد عنه خوصه ، يريد إني أخفي عنهم قصدي كما يختفي ما بين اللحاء والعسيب . القدح : سهم الميسر . الحريب : من سلب ماله .

(٢) المألك : الرسالة . الاعتصار : انه يغص الانسان بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو ان يشربه قليلا قليلا لتزول الغصة ، يريد أنه غص الماء فلا فائدة من الاعتصار أي أنه يشكو ممن كان ينبغي أن يكون ملاذاً له . يكرب نفسي بثها : يغمها حزنها . أجل : أي من أجل . ربها : نماها وتعهدهـــا .

أبلــغْ أُبَيّاً على نَأيِــه وهل ينفعُ المرءُ ما قد عَلِمْ
بأنّ أخاك شقيــقَ الفــؤا د كنتَ به واثقاً ما سَلِم
لدى مَلِــكٍ مُوثَقٍ في الحديـــدِ إمّا بحقٍّ وإما ظُلِم
فلا أعرِفنْكَ كذات الغُلا م ما لم تجدْ عارماً تَعترِمْ
فأرضَكَ أرضَكَ إن تأتِنــا تَنَمْ نومةً ليس فيها حُلُمْ [1]

... فلمّا قرأ أُبيّ كتاب عديّ قام إلى كسرى فكلّمه في أمره وعرّفه خبره ، فكتب إلى النعمان يأمُرُه بإطلاقه وبعث معه رجلاً . وكتب خليفة النعمان إليه : إنه قد كُتب اليك في أمره .

فأتى النعمانَ أعداءُ عديٍّ من بني بُقَيلة ، وهم من غسّان ، فقالوا له : اقتُلْه الساعةَ . فأبى عليهم ، وجاء الرسول ، وقد كان أخو عديٍّ تقدّم اليه ورشاه وأمره أن يبدأ بعديّ فيدخلَ اليه وهو محبوسٌ بالصِنّين [2] ، فقال له : ادخُل عليه فانظر ما يأمرُك به فامتَثِلْه . فدخل الرسولُ على عديّ فقال له : اني قد جئت بإرسالك ، فما عندَك ؟ قال : عندي الذي تُحبّ . ووعده بعدةٍ سَنيّة ، وقال له : لا تخرُجَنّ من عندي وأعطِني الكتابَ حتى أُرسلَه اليه ، فإنّك والله ان خرجتَ من عندي لأُقْتَلَنّ . فقال : لا أستطيع إلاّ أن آتي المَلِك بالكِتاب فأوصِلَه اليه .

فانطلق بعضُ مَن كان هناك من أعدائه فأخبر النعمان أنّ رسولَ كسرى دخل على عديّ ، وهو ذاهبٌ به ، وإن فعل والله لم يستبقِ منّا أحداً ، أنت ولا غيرك . فبعث إليه النعمان أعداءَه فغَمُّوه [3] حتى مات ثم دفنوه .

ودخل الرسول إلى النعمان فأوصل الكتاب اليه ، فقال : نعمْ وكرامةٌ ،

---

(١) العارم : الراضع ، تعترم : ترضع ثديها .
(٢) الصنين : بلد بظاهر الكوفة من منازل المنذر .
(٣) غموه : غطوا وجهه بشيء .

وأمر له بأربعة آلاف مثقالٍ ذهباً وجاريةٍ حسناءَ ، وقال له : اذا أصبحتَ فادخل أنت بنفسك فأخرجه .

فلمّا أصبح ركب فدخل السجنَ ، فأعلمه الحرسُ أنه قد مات منذُ أيامٍ ولم نَجترىء على إخبار الملك خوفاً منه ، وقد عرفنا كراهته لموته فرجع إلى النعمان وقال له : اني كنت أمسِ دخلت على عديٍّ وهو حيٌّ ، وجئتُ اليوم فجحدني السَجّان وبَهتني [1] ، وذكر أنه قد مات منذ أيام . فقال له النعمان : أيبعثُ بك الملكُ إليّ فتدخلَ إليه قَبلي ! كذبتَ ، ولكنّك أردت الرِشوة والخُبث . فتهدّده ثم زاده جائزةً وأكرمه ، وتوثّق منه ألاّ يُخبر كسرى الاّ أنه قد مات قبل أن يَقدمَ عليه .

فرجع الرسولُ إلى كسرى وقال : اني وجدتُ عديّاً قد مات قبل أن أدخلَ عليه . وندم النعمان على قتل عديّ وعرفَ أنه قد احتِيل عليه في أمره ، واجترأ أعداؤُه عليه وهابهم هيبةً شديدة .

النعمان يسعى في تولية زيد بن عدي مكان أبيه

ثم إنه خرج إلى صيده ذات يوم فلقي ابناً لعديّ يقال له زيد ، فلمّا رآه عرف شبهه فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا زيدُ بن عديّ بن زيد ، فكلّمه فإذا غلامٌ ظريف . ففرح به فرحاً شديداً وقرّبه وأعطاه ووصله واعتذر اليه من أمر أبيه وجهّزه ، ثم كتب إلى كسرى : إنّ عديّاً كان ممّن أعين به الملكُ في نُصحه ولُبّه ، فأصابه ما لا بدّ منه وانقطعت مُدّتُه وانقضى أجلُه ، ولم يُصَب به أحدٌ أشدّ من مُصيبتي . وأما المَلِك فلم يكن لِيَفقِدَ رجلاً إلاّ جعل الله له منه خَلَفاً لِما عظّم الله من مُلكه وشأنه . وقد بلغ ابنٌ له ليس بدونه ، رأيتُه يصلحُ لخدمة الملك فسرّحتُه إليه ، فإن رأى الملك أن يجعلَه مكان أبيه فلْيَفْعلْ وليصرِف عمّه عن ذلك إلى عملٍ آخر .

---

(١) بهته : كذبه .

وكان هو الذي يلي المكاتبة عن الملك إلى مُلوك العرب في أمورها وفي خواص أمور الملك . وكانت له من العرب وظيفةٌ موظّفة في كلّ سنةٍ : مُهران أشقران يُجعلان له هلاماً [1] . والكمأةُ الرطبة في حينها . واليابسةَ والأقِط [2] والأدْم وسائرُ تجارات العرب . فكان زيدُ بن عدي يلي ذلك له وكان هذا عملَ عديّ . فلمّا وقع زيدُ بن عديّ عند الملك هذا الموقع سأله كسرى عن النعمان فأحسن الثناءَ عليه . ومكث على ذلك سنوات على الأمر الذي كان أبوه عليه . وأُعجب به كسرى . فكان يكثِر الدّخول عليه والخِدمةَ له .

زيد بن عديّ يكيد للنعمان عند كسرى

وكانت للملوك العجم صفةٌ من النساء مكتوبةٌ عندَهم . فكانوا يَبعثون في تلك الأرَضين بتلك الصفة . فإذا وُجدت حُملت إلى الملك . غير أنهم لم يكونوا يطلبونها في أرض العرب ولا يظنّونها عندَهم .

ثم إنه بدا للملك في طَلب تلك الصفة . وأمر فكُتب بها إلى النواحي . ودخل اليه زيد بن عدي وهو في ذلك القول . فخاطبه فيما دخل اليه فيه . ثم قال : إني رأيت المَلِكَ قد كتب في نِسوةٍ يُطلَبن له وقرأت الصِفةَ . وقد كنت بآل المنذر عارفاً . وعند عبدك النعمانِ من بناته وأخَواته وبناتِ عمّه وأهله أكثرُ من عشرين امرأةً على هذه الصفة . قال : فاكتبْ فيهنّ . قال : أيُّها الملكُ . إنّ شرّ شيءٍ في العرب وفي النعمان خاصة أنّهم يتكرّمون — زعموا في أنفسهم — عن العَجم . فأنا أكره أن يُغيّبهنّ عمّن تبعثُ إليه أو يَعرِضَ عليه غيرهُنّ . وإن قَدِمت أنا عليه لم يَقدِر على ذلك . فابعثني وابعثْ معي رجلاً من ثِقاتك يفهم العربيةَ حتى أبلغَ ما تُحبّه .

---

(١) الهلام : ضبط في القاموس بضم أوله وفي اللسان والمحكم والتهذيب بفتحه : طعام يتخذ من لحم الدابة بجلدها .

(٢) الأقط : شيء يتخذ من المخيض الغنمي .

فبعث معه رجلاً جَلداً فهِماً ، فخرج به زيدٌ ، فجعل يُكرم الرجلَ ويُلْطِفه حتى بلغ الحِيرة ، فلمّا دخل عليه أعظمه الملك وقال : إنه قد احتاج إلى نساءٍ لنفسه ووَلَدِه وأهل بيته ، وأراد كرامتَك بصِهره ، فبعث إليك . فقال : ما هؤلاء النسوةُ ؟ فقال : هذه صفتُهن قد جئنا بها . وكانت الصفةُ أنّ المنذر الأكبر أهدى إلى أنو شروان جاريةً كان أصابها إذ أغار على الحارثِ الأكبر بن أبي شمر الغسّاني ، فكتب إلى أنو شروان بصفتها ... فقبِلها أنو شروان وأمر بإثبات هذه الصِفة في دواوينه ، فلم يزالوا يتوارثُونها حتى أفضى ذلك إلى كسرى بن هُرْمُز .

فقرأ زيدٌ هذه الصفةَ على النعمان ، فشَقّت عليه ، وقال لزيد — والرسولُ يسمع — : أما في مَها السَوادِ وعِينِ[1] فارسَ ما يبلغُ به كسرى حاجتَه . فقال الرسول لزيدٍ بالفارسية : ما المَها والعِين ؟ فقال له بالفارسية : كاوان ، أي البقر ، فأمسكَ الرسول . وقال زيد للنعمان : انما أراد الملك كرامتَك ، ولو علم أن هذا يَشُقُّ عليك لم يكتبُ اليك به . فأنزلهما يومين عنده ثم كتب إلى كسرى : إنّ الذي طلب الملكُ ليس عندي . وقال لزيد : اعذِرْني عند الملك .

فلما رجعا إلى كسرى قال زيدٌ للرسول الذي قدِم معه : اصدُق الملك عمّا سمعت ، فإني سأحدّثُه بمثلِ حديثك ولا أخالفُك فيه .

فلما دخلا على كسرى قال زيد : هذا كتابهُ اليك ، فقرأه عليه . فقال له كسرى : وأين الذي كنت خبّرتَني به ؟ قال : قد كنتُ خبّرتك بضِنّتهم بنسائهم على غيرهم ، وأن ذلك من شقائهم واختيارهم الجوعَ والعُري على الشبَع والرِياش ، وإيثارهم السَموم والرياحَ على طِيب أرضك هذه ، حتى إنهم لَيسمُّونها السِجن ، فسل هذا الرسولَ الذي كان معي عمّا قال ، فإني أكرم الملكَ عن مُشافهته بما قال وأجاب به . فقال للرسول : وما قال ؟

---

(١) المها : البقر الوحشي ومثلها العين ، بكسر العين .

فقال له الرسول : أيُّها الملك ، إنه قال : أما كان في بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلبَ ما عندنَا ؟ فعرُف الغضبُ في وجهه ، ووقع في قلبه منه ما وقع ، لكنه لم يزِد على أن قال : رُبَّ عبدٍ قد أراد ما هو أشدُّ من هذا ثم صار أمرُه إلى التّباب [1] .

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان . وسكت كسرى أشهراً على ذلك . وجعل النعمان يستعدُّ ويتوقّع حتى أتاه كتابهُ : أن أقبل ، فإن للملك حاجةً إليك ، فانطلق حين أتاه كتابه فحمل سلاحه وما قويَ عليه ثم لحق بجبلَيْ طيّء ، وكانت فرعةُ بنت سعد بن حارثةَ بن لأم عندَه ، وقد ولدت له رجلاً وامرأةً ، وكانت أيضاً عنده زينبُ بنت أوس بن حارثة . فأراد النعمان طيّئاً على أن يُدخلوه الجبلَين ويمنعوه فأبَوْا ذلك عليه وقالوا له : لولا صهرك [2] لقتلناك ، فإنه لا حاجة بنا إلى معاداة كسرى ولا طـاقة لنا به . وأقبل يطوفُ على قبائل العرب ليس أحدٌ منهم يَقبلُه ، غير أن بني رَواحة بن قُطَيعة بن عبس قالوا : ان شئتَ قاتلنا معك ، لمِنّةٍ كانت له عندهم في أمر مروان القَرَظ . قال : ما أُحبّ أن أهلِككم ، فإنه لا طاقة لكم بكسرى . فأقبل حتى نزل بذي قار [3] في بني شيبان سِرّاً ، فلقيَ هانىء ابن قَبيصة ، وقيل بل هانىء بن مسعود ... وكان سيّداً منيعاً والبيتُ يومئذٍ من ربيعةَ في آلِ ذي الجدّين لقيس بن مسعود ... وكان كسرى قد أطعم قيس بن مسعود الأبُلّة [4] ، فكره النعمان أن يدفع اليه أهله لذلك ، وعلم أن هانئاً يمنعه مما يمنع منه نفسَه . وقال حمّاد الراوية في خبره : انه استجار بهانىء كما استجار بغيره ، فأجاره وقال له : قد لَزِمني ذمامك

---

(١) التباب : الهلاك .

(٢) الصهر : المساهرة .

(٣) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة ، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بني شيبان وكسرى .

(٤) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة .

وأنا مانعُك ممّا أمنع نفسي وأهلي وولدي منه ما بقي من عشيرتي الأدْنَين رجلٌ ، وإن ذلك غيرُ نافعك لأنّه مُهلكي ومُهلكك . وعندي رأيٌ لك ، لست أشير به عليك لأدفعَك عمّا تريده من مُجاورتي ولكنه الصواب . فقال : هاته . فقال : انّ كلّ أمرٍ يَجملُ بالرجلِ أن يكون عليه إلاّ أن يكون بعد المُلكِ سُوقةً ، والموتُ نازلٌ بكلّ أحدٍ ، ولأن تموتَ كريماً خيرٌ من أن تتجرّعَ الذُلّ أو تبقى سُوقةً بعد المُلك ، هذا إن بَقيت . فامضِ إلى صاحبِك واحمِل إليه هدايا ومالاً وألقِ نفسَك بين يديه . فإمّا أن صَفح عنك فعُدتَ ملكاً عزيزاً ، وإمّا أن أصابك فالموت خيرٌ من أن يتلعّب بك صعاليكُ العرب ويتخطّفَك ذئابها وتأكلَ مالك وتعيشَ فقيراً مجاوراً أو تقتلَ مقهوراً . فقال : كيف بحُرَمي ؟ قال : هنّ في ذِمّتي ، لا يُخلَص اليهنّ حتى يُخلَص إلى بناتي . فقال : هذا — وأبيكَ — الرأيُ الصحيح ، ولن أجاوزَه .

ثم اختار خيلاً وحُللاً من عَصْبِ اليمن (١) وجوهراً وطُرَفاً كانت عنده ، ووجّه بها إلى كسرى وكتب إليه يعتذِر ويُعلمه أنه صائرٌ إليه ، ووجّه بها مع رسوله . فقبلِها كسرى وأمره بالقُدوم عليه . فعاد إليه الرسولُ فأخبره بذلك وأنّه لم ير له عند كسرى سوءاً . فمضى اليه حتى اذا وصل إلى المدائن لقيه زيدُ بن عديّ على قنطرة ساباط فقال له : انجُ نُعيمُ إن استطعتَ النَجاء . فقال له : أفعلتَها يا زيدُ ! أما واللهِ لئن عِشت لك لأقتلنّك قِتلةً لم يُقْتَلها عربيٌّ قط ولألحقنّك بأبيك . فقال له زيد : امض لشأنك نُعيمُ ، فقد — واللهِ — أخيّتُ لك أخيّةً لا يَقطعها المُهْر الأرِن (٢) . فلمّا بلغ كسرى أنه بالباب بعث اليه فقيّده وبعث به إلى سجنٍ كان له بخانِقين ، فلم يزل فيه حتى وقع الطاعون هناك فمات فيه . وقال حمّاد الراوية والكوفيّون :

(١) العصب : ضرب من برود اليمن يعصب غزله أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج .

(٢) الأخية : أن يدفن طرفا الحبل في الأرض ويظهر منه مثل العروة تشد اليها الدابة . الأرن : النشيط .

بل مات بساباطَ في حبسه . وقال ابن الكلبي : ألقاه تحت أرجل الفيَلَة فوطئته حتّى مات واحتجّوا بقول الأعشى :

فذاك وما أنجى مـــن الموت ربّـــه بساباط حتّى مات وهو مُحَرْزَقُ

قال : والمحرزق : المضيّق عليه . وأنكر هذا من زعم أنه مات بخانقين وقالوا : لم يزل محبوساً مدةً طويلة ، وإنه انّما مات بعد ذلك بحينٍ قُبَيل الإسلام ، وغضبت له العرب حينئذٍ ، وكان قتله سببَ وقعة ذي قار .

• • •

- ٢٥ -

الطُفَيل الغَنَويّ

(الأغاني ج ١٥ ص ٣٤٩ وما بعدها)

الشاعر

هو طُفيل بن عوف ... بن غَنيّ ... بن قيس عيلان .

وطُفَيل شاعر جاهلي من الفحول المعدودين ، ويُكنى أبا قُرّان ، يقال إنه من أقدم شعراء قيس ، وهو من أوصف العرب للخيل .

عن محمد بن حَبيب قال : كان طفيل الغنويّ يسمّى «طُفَيل الخيل» لكثرة وصفه إيّاها .

قال أبو عبيدة : طفيلٌ الغَنَويّ ، والنابغة الجعديّ ، وأبو دُواد الإياديّ ، أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها .

عن لَقيط قال : قال قُتيبة بن مُسلم لأعرابيّ من غَنيّ قدِم عليه من خُراسان : أيُّ بيتٍ قالته العربُ أعفُّ ؟ قال : قول طفيل الغنوي :

ولا أكونُ وِكاءَ الزادِ أحبِسُـــه　　　لقد علمتُ بأنّ الزادَ مأكولُ [1]

---

(١) الوكاء : رباط القربة وغيرها .

قال : فأيُّ بيتٍ قالته العربُ في الحرب أجودَ ؟ قال : قول طفيل :

بحيٍّ إذا قِيل اركَبُوا لم يقُلْ لهم عَواويرُ يخشَون الرّدى أين نَركبُ[1]

طائفة من أخباره :

عن الأصمعي وأبي عبيدة : أن رجلاً من غنيّ يقال له قيس النّدامى وفد على بعض الملوك ، وكان قيس سيّداً جواداً . فلمّا حفلَ المجلس أقبل الملكُ على من حضرَه من وفود العرب فقال : لأضَعنّ تاجي على أكرم رجلٍ من العرب ، فوضعه على رأس قيس وأعطاه ما شاء ونادمه مُدّةً ، ثم أذِن له في الانصراف إلى بلده . فلمّا قَرُب من بلاد طيّىء خرجوا إليه وهم لا يعرفونه فلَقُوه برمّان فقتلوه . فلمّا علموا أنه قيس ندِموا لأيادٍ له كانت فيهم ، فدفنوه وبنَوا عليه بيتاً .

ثم إنّ طُفيلاً جمع جموعاً من قيس فأغار على طَيّىء فاستاق من مواشيهم ما شاء وقتل منهم قتلى كثيرة ، وكانت هذه الوقعة بين القَنان وشرقيّ سَلمى [2] . فذلك قول طُفيل :

فذُوقوا كما ذُقنا غَداةَ مُحَجَّرٍ من الغَيظ في أكبادنا والتحوُّبِ
فبالقتل قتلٌ والسَّوامُ بمثلِه وبالشلّ شلُّ الغائط المتصوّبِ [3]

وقال أبو عمرو الشيباني : كانت فَزارة لقيت بني أبي بكر بن كِلاب وجيرانهم من محارب فأوقعت بهم وقعةً عظيمة ، ثم أدركتهم غنيٌّ فاستنقذتهم . فلمّا قتلت طيّئُ قيس الندامى ، وقتلت بنو عبس هُريم بن سِنان ... بن غنيّ ،

---

(١) العواوير ج عوار : الجبان السريع الفرار .
(٢) القنان : جبل لبني أسد . سلمى : جبل لطيىء .
(٣) التحوب : التوجع : الشل : الطرد . الغائط : من غاط في الوادي يغوط : إذا ذهب فيه . التصوب : الانحدار .

وكان فارساً حسيباً قد ساد ورأس ، قتله ابنُ هِدْم العبسيّ طريد الملك ، فقال له الملك : كيف قتلته ؟ قال : حملت عليه في الكَبّة ، وطعنتُه في السَّبَّة حتّى خرج الرمح من اللبّة (١) . وقتل أسماءُ بن واقد ... بن جِلاّن ، وهو من النجوم ، وحِصن بن يربوع بن طريف ... فاستغاثت غنيٌّ ببني أبي بكر وبني محارب ، فقعدوا عنهم ، فقال طفيل في ذلك يَمُنّ عليهم بما كان منهم في نُصرتهم ، ويرثي القتلى ، قال :

تأوّبني همٌّ من الليل مُنصِب ... وجاء من الأخبار ما لا أُكذِّبُ
تتابعن حتّى لم تكن ليَ ريبةٌ ... ولم يكُ عمّا خبّروا مُتَعَقّبُ
وكان هُريمٌ من سِنانٍ خليفةً ... وحِصنٍ ومن أسماءَ لمّا تغيّبوا
ومن قيس الثاوي برَمّانَ بيتُه ... ويومَ حَقيلٍ فاد آخَرُ مُعجِبُ
أشمُّ طويل الساعدين كأنّه ... فَنيقُ هِجانٍ في يديه مُركّبُ
وبالسَّهبِ ميمونُ النقيبة قولُه ... لملتمس المعروفِ أهلٌ ومَرحَبُ
كواكبُ دَجنٍ كلّما انقضَّ كوكبٌ ... بدا وانجلت عنه الدُجُنّةُ كوكبُ(٢)

* * *

(١) الكبة : الدفعة في القتال . السبة : الاست . اللبة : صفحة العنق .

(٢) تأوبني : أتاني ليلا . حقيل : موضع في بلاد بني أسد . فاد : مات . الفنيق : الفحل من الإبل . الهجان : البيض من الإبل . السهب : الفلاة . الدجنة : الظلمة .

- ٢٦ -

الأفْــوَه الأوْدِيّ

(الأغاني ج ١٢ ص ١٦٩ وما بعدها)

الشّــاعِر

الأفوه لقبه واسمه صَلاءة بن عمرو ... بن أَوْد بن الصَعب بن سعد العشيرة ... وكان يُقال لأبيه عمرِو بن مالك فارسُ الشوهاء .

وفي ذلك يقول الأفوه :

أبي فارسُ الشوهــاءِ عمرُو بن مــالكٍ
غداةَ الوغى إذ مال بالجـِدِّ عاثــرُ

عن الكلبيّ قال : كان الأفوهُ من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية . وكان سيّد قومه وقائدهم في حروبهم . وكانوا يَصدُرون عن رأيه ، والعرب تَعدُّه من حُكمائها ، وتعدُّ داليّتَه :

معاشرٌ ما بنَوا مَجداً لقومِهـــم وإن بنى غيرُهم ما أفسدوا عــادُوا

من حكمة العرب وآدابها .

طائفة من أخباره :

قال أبو عمرو : أغارت بنو أود – وقد جمعها الأفوَه – على بني عامر فمرِض الأفوهُ مرضاً شديداً . فخرج بَدله زيدُ بن الحارث الأودي ، وأقام الأفوهُ حتّى أفاق من وَجعه .

ومضى زيد بن الحارث حتّى لَقِي بني عامر بتُضارِع [1] وعليهم عَوفُ ابن الأحوص بن جعفرِ بن كِلاب . فلمّا التقَوا عرفَ بعضُهم بعضاً فقال لهم بنو عامر : سانِدُونا ، فما أَصبنا كان بينَنا وبينَكم . فقالت بنو أود – وقد أصابوا منهم رجلين : – لا واللهِ حتّى نأخذَ بطائلتنا [2] . فقام أخو المقتول ، وهو رجلٌ من بني كعب بن أودَ فقال : يا بني أَود ، واللهِ لتأخُذُنَّ بطائلتي أو لأنتَحينّ على سيفي . فاقتتلت أود وبنو عامر ، فظفرت أود وأصابت مَغنماً كبيراً . فقال الأفوه في ذلك :

ألا يــا لهفَ لو شَهِدت قَنــاتي ... قبائلَ عامرٍ يومَ الصَبيــبِ
غـــداةَ تجمّعــت كعبٌ إلينـــا ... حلائبَ بينَ أفناء الحـــروبِ
فلمّـــا أن رأونـــا في وغَاهــا ... كآسادِ الغَريفةِ والحَجيــب
تداعَوا ثم مالُــوا عن ذُراهـــا ... كفِعلِ الخامعات من الوَجيــب
وطارُوا كالنعام ببطنِ قَـــوٍّ ... مُواءَلةً على حذرِ الرقيبِ [3]

* * *

---

(١) تضارع : موضع بالحجاز.

(٢) الطائلة : الثأر .

(٣) الحلائب : الجماعات . الأفناء : الأخلاط . وفي رواية أخرى : بين أبناء الحريب . الغريفة : الأجمة : الحجيب : اسم موضع. الخامعات : الضباع ، لأنها تخمع في مشيتها أي تعرج . الوجيب : الخوف . بطن قو : موضع . المواءلة : طلب النجاة .

- ٢٧ -

الحُصَين بن الحُمَام

(الأغاني ج ١٤ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

هو الحُصين بن الحُمام ... بن سَهم بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذُبيان .. عن أبي عبيدة قال : كان الحصينُ ميِّدَ بني سهم بن مُرّة ، وكان خُصيلة بن مرة وصِرمة بن مرة وسهم بن مُرّة أمهم جميعاً حَرقَفَة بنتَ مغنم ... ، فكانوا يداً واحدة على مَن سواهم ، وكان حصين ذا رأيهم وقائدَهم ورائدهم ، وكان يُقال له مانعُ الضَيم .

وعن أبي عبيدة : أن الحصين بن الحمام أدرك الإسلام ، ويدلّ على ذلك قوله : (من قصيدة)

فلم يبق مــن ذاكَ إلاّ التُقَـــــى ونفسٌ تُعالجُ آجالَهـــــا
أمــورٌ من الله فـــوق السمــاءِ مقاديــرُ تنزِلُ أنزالَهـــا
أعوذُ بربّي من المخزيـــا تِ يوم ترى النفسُ أعمالهــا
وخــفّ المـــوازينُ بالكافـرين وزلزلت الأرضُ زلزالهـــا

ونـــادى مُنـــادٍ بأهـل القبـــور فهبّوا لِتُبرز أثقالهـــــــــا
وسُعّرت النارُ فيهـــا العـــذابُ وكان السلاسلُ أغلالَهـــا [1]

وقوع الحرب بين قومه بني سهم بن مرة وبني عمهم بني صِرمة بن مُرَة

عن أبي عبيدة قال : كان ناسٌ من بطنٍ من قُضاعة يقال لهم بنو سَلامان ابن سعد بن زيد بن الحاف بن قضاعة ، وبنو سَلامان بن سعد إخوة عُذرة بن سعد ، وكانوا حلفاء لبني صِرمة بن مُرّة ونزولاً فيهم . وكان الحُرَقة ، وهم بنو حُمَيس بن عامر بن جُهينة ، حلفاءَ لبني سهم بن مرة ، وكانوا قوماً يرمُون بالنبل رمياً سديداً ، فسُمّوا الحُرقة لشِدّة قتالهم ، وكانوا نزولاً في بني سهم بن مُرة .

وكان في بني صرمة يهوديٌّ من أهل تيْماء يقال له جُهَينة بن أبي حمَل ، وكان في بني سهم يهوديّ من أهل وادي القُرى يقال له غُصَين بن حَيّ ، وكانا تاجرين في الخمر . وكان بنو جَوشن — أهلُ بيت من عبد الله بن غطَفان — جيراناً لبني صِرمة ، وكان يُتشاءَم بهم . ففقدوا منهم رجلاً يقال له حُصَين [2] كان يقطع الطريقَ وحده . وكانت أخته واخوته يسألون الناس عنه ، ويَنشُدونه في كل مجلس وموسم .

فجلس ذات يوم أخٌ لذلك المفقود الجوشني في بيت غُصين بن حَي ، جار بني سهم ، يبتاع خمراً ، فبينما هو يشتري إذ مرّت أختُ المفقود تسأل عن أخيها حُصين ، فقال غُصَين :

تُسائِل عن أخيها كلَّ ركـــــبٍ وعندَ جُهينةَ الخبرُ اليقينُ

(١) تنزل أنزالها : أي تقع مواقعها .

(٢) في المطبوعة : خصيلة ، وضبط في نسخ أخرى من مخطوطات الكتاب بلفظ حصين وهو الصواب أما خصيلة فهو اسم بطن من بني مرة سيرد ذكره في شعر حصين بن الحمام .

فأرسلها مثلاً . يعني : بجهينة نفسَه . فحفظ الجوشنيُّ هذا البيت ، ثم أتاه من الغد فقال له : نشدتُك اللهَ ودينَك هل تعلم لأخي علماً ؟ فقال : لا ، وديني . لا أعلمُ . فلمّا مضى أخو المفقود تمثّل :

لعمرُك ما ضَلّت ضلالَ ابنِ جَوشَنٍ
حَصاةٌ بليلٍ أُلقيتْ وسطَ جَنـدلِ

أراد أن تلك الحصاةَ يجوز أن تُوجَد ، وأن هذا لا يوجد أبداً .

فلما سمع الجوشنيُ ذلك تركه ، حتى إذا أمسى أتاه فقتله . وقال الجوشنيُّ :

طعنتُ ، وقد كـاد الظلام يُجنُّـني
غُصينَ بن حَيٍّ في جِوار بني سهـم

فأتي حُصين بن الحمام فقيل له : إنّ جارك غصيناً اليهودي قد قتله ابن جَوشن ، جارُ بني صِرمة . فقال حصين : فاقتلوا اليهودي الذي في جوار بني صِرمة . فأتوا جُهينة بن أبي حَمَل فقتلوه . فشدّ بنو صِرمة على ثلاثة من حُميس بن عامر ، جيران بني سهم . فقتلوهم ، فقال حصين : اقتلوا من جيرانهم بني سلامان ثلاثةَ نفر ، ففعلوا . فاستعر الشرُّ بينهم .

وكانت بنو صِرمة أكثر من بني سهم رهطِ الحصين بكثير . فقال لهم الحصين : يا بني صِرمة ، قتلتم جارَنا اليهودي فقتلنا به جاركم اليهودي ، فقتلتم من جيراننا من قُضاعة ثلاثةَ نفر ، وقتلنا من جيرانكم بني سَلامان ثلاثةَ نفر ، وبينَنا وبينكم رحمٌ ماسّةٌ قريبة ، فمُرُوا جيرانكم من بني سلامان فيرتحلون عنكم ، ونأمر جيرانَنا من قضاعة فيرتحلون عنا جميعاً ، ثم هم أعلم .

فأبى ذلك بنو صِرمة وقالوا : قد قتلتم جارنا ابنَ جوشن ، فلا نفعلُ حتى نقتلَ مكانَه رجلاً من جيرانكم ، فإنّك تعلم أنّكم أقلُّ منّا عدداً وأذلُّ ،

وانما بنا تَعِزّون وتَمنَعون . فناشدهم اللهَ والرّحِم فأبَوا .

وأقبلت الخُضْر من مُحارب ، وكانوا في بني ثعلبة بن سعد ، فقالوا : نَشهدُ نهبَ بني سهم إذا انتُهبوا فنُصيبُ منهم . وخذلت غطفانُ كلُّها حُصيناً ، وكرِهوا ما كان من منعِه جيرانَه من قُضاعة . وصافّهم حصينٌ الحربَ وقاتلهم ومعه جيرانُه ، وأمرهم ألا يَزيدوهم على النَبْل ، وهزمهم الحصين ، وكفَّ يدَه بعد ما أكثر فيهم القتل . وأبى ذلك البطنُ من قضاعة أن يكفُّوا عن القوم حتى أثخنوا فيهم . وكان سِنان بن أبي حارثة خذّل الناس عنه لعداوته قضاعة ، وكان عُيَيْنة بن حِصن وزَبّان بن سَيّار .. ممّن خذّل عنه أيضاً . فأجلبت [1] بنو ذُبيان على بني سهم مع بني صِرمة ، وأجلبت محارب بن خَصَفة معهم . فقال الحصين بن الحمام في ذلك من أبيات :

ألا تقبلون النِصْفَ منّا وأنتمُ ... بنو عمّنا ، لا بلَّ هامَكم القَطْرُ
سنأبى كما تأبَون حتى تُلينَكم ... صَفائحُ بُصرى والأسنّةُ والأُصْرُ
أيؤكَلُ مولانا ومولى ابن عَمّنا ... مُقيمٌ ومنصورٌ كما نُصِرت جَسْرُ
فتلك التي لم يعلم الناسُ أنّني ... خنعتُ لها حتى يغيّبني القبرُ
أجِدَّيَ لا ألقاكُم الدهرَ مَرّةً ... على موطِنٍ إلاّ خدودُكم صُعْرُ
إذا ما دعُوا للبَغي قاموا وأشرقت ... وجوههم والرُشدُ وِردٌ له نَفْرُ
فوا عجبا حتى خُصَيلةُ أصبحت ... مواليَ عِزٍّ لا تَحِلُّ لها الخَمرُ [2]

(الخ الأبيات ..)

---

(١) أجلب : جمع الجموع للقتال .

(٢) النصف : الانصاف . لا بل هامكم القطر : يدعو عليهم بألا يمطروا ، والقطر : المطر . الصفائح : السيوف العراض . الأصر : الكسر . جسر : هم جسر بن محارب بن خصفة وكانوا مع بني صرمة . ، أجدى وأجدك : بفتح الجيم وكسرها ، وعلى الكسر تؤدي معنى : أبجد منك كان هذا الأمر وعلى الفتح يراد بها الاستحلاف بالجد وهو الحظ ، صعر ج أصعر : =

فأقاموا على الحرب ... ونكصت عن حصين قبيلتان من بني سهم وخانتاه ، وهما عَدْوان وعبدُ عمرو ابنا سهم . فسار حصين . وليس معه من بني سهم إلا بنو وائلة بن سهم وحلفاؤهم وهم الحُرقة ، وكان فيهم العدد ، فالتقوا بدارة موضوع ، فظفر بهم الحصين وهزمهم وقتل منهم فأكثر . وقال الحصين ابن الحمام في ذلك :

جزى الله أفناءَ العشيرة كلَّها ... بدارة موضوع عقوقاً ومأثَما
بني عمّنا الأدنَين منهم ورهطَنا ... فزارةَ إذ رامت بنا الحربُ مُعظما
ولمّا رأيت الوُدَّ ليس بنافعي ... وإن كان يوماً ذا كواكبَ مُظلما
صَبرنا وكان الصبرُ منا سجيّةً ... بأسيافنا يَقْطَعن كَفّاً ومِعْصما
نُفلّق هاماً من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلَما

* * *

فلست بمبتاع الحياة بسُبّةٍ ... ولا مُرتقٍ من خَشيةِ الموت سُلّما[1]

* * *

ثم أن بني حُميس كرهوا مجاورة بني سَهم ففارقوهم ومضَوا ، فلحق بهم الحُصَين بن الحمام فردّهم ولامهم على كُفرهم نِعمتَه وقتالِه عشيرتَه عنهم ، وقال في ذلك :

إنّ امرءاً بعدي تبدّل نصرَكم ... بنصرِ بني ذُبيان حقّاً لخاسرُ
أولئك قومٌ لا يُهان ثَوِيُّهم ... إذا صَرّحت كَحْلٌ وهبَّ الصَنابرُ[2]

* * *

= مائل ، وتصعير الخد كناية عن التكبر . النفر : الجماعة ينفرون للأمر . لا تحل لها الخمر : يتهكم بهم فيقول إنهم يحرمون الخمر على أنفسهم كما يفعل الرجل العزيز حين يعتزم طلب الثأر .

(١) الأفناء : الأخلاط . يوم ذو كواكب : يوم شديد مظلم لشدة القتال فيه .

(٢) الثوي : الضيف . كحل : السنة المجدبة . الصنابر : الرياح الباردة واحدها : صنبور .

- ٢٨ -

الأسود بن يَعْفُر

(الأغاني ج ١٣ ص ١٥ وما بعدها)

الشاعر

الأسودُ بن يَعْفُر ... بن نَهشل بن دارم ... بن تميم .. وأم الأسود بن يعفر رُهْم بنت العَبّاب ، من بني سهم بن عِجل . شاعرٌ متقدم فصيح من شعراء الجاهلية ليس بالمُكثِر . وجعله محمد بن سلاّم في الطبقة الثامنة [١] مع خِداش بن زهير والمخبّل السَعدي والنِمر بن تولَب العُكْلي . وهو من العُشْي المعدودين في الشعراء ، وقصيدته الداليّة المشهورة :

نام الخليُّ وما أُحِسُّ رُقادي ... والهمُّ مُحتَضِرٌ لَدَيَّ وِسادي

معدودة من مختار أشعار العرب وحِكمها ، مُفضَّلية مأثورة .

---

(١) هذا ما جاء في الأغاني ولكن ما نجده في طبقات ابن سلام أنه أدرجه في شعراء الطبقة الخامسة مع خداش بن زهير والمخبل وتميم بن أبي بن مقبل . (أنظر الطبقات ج ١ ص ١٤٣) .

أخبار تتصل بمنزلة شعره

عن الأصمعيّ قال : تقدّم رجلٌ من أهل البَصرة من بني دارم إلى سَوّار ابن عبد الله ليُقيمَ عنده شهادةً ، فصادفه يتمثّلُ قولَ الأسود بن يَعفر :

ولقد علمتُ ، لو انّ عِلميَ نافعي ... أنّ السبيلَ سبيلُ ذي الأعوادِ
إن المنيّةَ والحُتوفَ كلاهما ... يُوفي المخارمَ يرميان سَوادي
ماذا أؤمّل بعدَ آلِ مُحرّقٍ ... تركُوا منازلَهم وبعدَ إياد
أهلِ الخَوَرْنَق والسَدِير وبارقٍ ... والقصر ذي الشرُفات من سِنداد
نزلوا بأنقرةٍ يفيضُ عليهم ... ماءُ الفراتِ يَجيءُ من أطوادِ
جرت الرياحُ على محلِّ دِيارهم ... فكأنّما كانوا على مِيعاد (١)

ثم أقبل على الدارميّ فقال له : أترْوي هذا الشعر ؟ قال : لا . قال : أفتعرفُ من يقوله ؟ قال : لا . قال : رجلٌ من قومك له هذه النباهة وقد قال مثل هذه الحكمة لا ترويها ولا تعرفه ؟! يا مزاحم أثبتْ شهادته عندك فإني متوقّفٌ عن قبوله حتى أسألَ عنه ، فإنّي أظنُّه ضعيفاً .

عن موسى السَلُولي قال : بينما نحن بالرافقة (٢) على باب الرشيد وقوفٌ ، وما أفقِدُ أحداً من وُجوه العرب من أهل الشام والجزيرة والعراق ،

---

(١) ذو الأعواد : من حكماء تميم القدامى ، قيل له ذو الأعواد لأنهم كانوا يحملونه على سرير لما أسن ، يريد أن مصيره الموت كذي الأعواد . يوفي : يعلو . المخارم ج مخرم : أفواه الطرق والفجاج في الجبل . سوادي : شخصي . آل محرق : أراد بهم ملوك الحيرة من لخم . الخورنق : قصر من قصور الحيرة بناه سنمار الرومي للنعمان بن امرىء القيس . السدير : قصر من قصور ملوك الحيرة . بارق : اسم نهر بالعراق. سنداد : منزل لقبيلة اياد في العراق. أنقرة : ذكرها الشاعر هنا لأن إياد كانت قد نزلتها لما نفاها كسرى عن بلاده . أطواد ج طود : الجبل العظيم .

(٢) الرافقة : بلد على ضفة الفرات متصل بالرقة .

إذ خرج رصيفٌ كأنّه دُرّةٌ فقال : يا معشرَ الصّحابة ، إنّ أميرَ المؤمنين يقرأُ عليكم السلامَ ويقول لكم : من كان منكم يروي قصيدةَ الأسودِ بن يَعفر :

نام الخليُّ وما أُحسّ رُقادي ... والهمّ محتضِر لديَّ وسادي

فليدخُل فليُنْشِدْها أميرَ المؤمنين وله عشرةُ آلاف درهم ...

طائفة من أخباره

قال ابن الأعرابيّ : قَتَل رجلان من بني سَعد بن عِجل يُقال لهما وائلٌ وسَليطٌ ابنا عبد الله عمّاً لخالد بن مالك بن ربْعيّ النَهْشليّ يقال له عامرُ ابن رِبعي ، وكان خالد بن مالك عند النعمان حينئذ ومعه الأسودُ بنَ يعفر النَهشلي . فالتفت النعمان يوماً إلى خالد بن مالك فقال له : أيَّ فارسَين في العرب تعرفُ هما أثقلُ على الأقران وأخفُّ على مُتون الخيل ؟ فقال له : أبيت اللعنَ ، أنت أعْلَمُ . فقال : خالا ابن عمّك الأسود بن يعفُر ، وقاتلا عمّك عامرِ بن رِبْعيّ – يعني العِجليّين وائلاً وسليطاً – . فتغيّر لونُ خالد ابن مالك . وإنّما أراد النعمان أن يَحثّه على الطلب بثأرِ عمّه . فوثَب الأسودُ فقال : أبيتَ اللعن، عضّ... أُمّه مَن رأى حقَّ أخواله فوقَ حقِّ أعمامه . ثم التفت إلى خالد بن مالك فقال : يا بنَ عمٍّ ، الخمرُ عليَّ حَرامٌ حتى أثأرَ لك بعمّك . قال : وعليَّ مِثلُ ذلك .

ونهضا يطلبان القومَ ، فجمعا جمعاً من بني نَهشَل بن دارِم فأغارا بهم على كاظمة [1] ، وأرسلا رجلاً من بني زيد بن نَهشل يتجسّس لهم الخبر ، فرجعَ إليهم فقال : جوفُ كاظمة ملآن من حُجّاج وتِجار ، وفيهم وائلٌ وسَليط متساندان [2] في جيش . فركبت بنو نَهشَل حتى أتوهم ، فنادَوا :

---

(١) كاظمة : موضع بسيف البحر في طريق البحرين قرب البصرة .

(٢) التساند في القتال : التعاون مع ابقاء كل قوم تحت راية رئيسهم .

من كان حاجاً فليمض لِحجّه ومن كان تاجراً فليمض لتجارته . فلمّا خلّص لهم وائلٌ وسليطٌ في جيشهما اقتتلوا ، فقُتل وائلٌ وسليط ، قتلهما هِزّان بن زهير بن جندل بن نهشَل ، عادى بينهما [1] . وادّعى الأسود بن يعفرُ أنه قتل وائلاً . ثم عاد إلى النعمان ، فلمّا رآه تبسّم وقال : وَفَى نذرُك يا أسودُ ؟ قال : نعم ، أبيتَ اللعن . ثم أقام عنده مُدّةً يُنادمه ويُؤاكله ، ثم مرض مرضاً شديداً ، فبعث النعمان إليه رسولاً يسألُه عن خبره وهَول ما به فقال :

نفعٌ قليلٌ إذا نادى الصَدى أُصُلاً وحان منه لِبردِ الماء تغريدُ
وودّعوني فقالوا ساعة انطلقوا أودى فأودى الندى والحزم والجودُ
فما أُبالي إذا ما مُتُّ ما صَنَعوا كل أمرىءٍ بسبيل الموت مَرصود [2]

كَفّ بصره في أواخر عمره

قال أبو عمرو : لمّا أسنّ الأسودُ بن يعفر كُفّ بصَرُه ، فكان يُقاد إذا أراد مَذهباً . وقال في ذلك :

قد كنتُ أَهدي ولا أُهدى فعلّمني حُسنُ المَقادةِ أني أفقد البصرا
أمشي وأتبع جُنّاباً لِيهديَني إنّ الجَنيبة مِمّا تَجشَمُ الغَدَرا [3]

* * *

(١) عادى بينهما : طعن الأول ثم طعن الثاني .
(٢) الصدى هنا : طائر كان قدماء العرب يزعمون أنه يخرج من هامة الميت إذا بلي ، وأنه لا يزال يصيح على قبر الميت الذي لم يؤخذ بثأره : اسقوني ، اسقوني ، حتى يؤخذ بثأره . لبرد الماء : كذا في المطبوعة . ولعل صوابها : لورد الماء . أودى : هلك .
(٣) الجناب : الرجل الذي يقوده . الجنيبة : الدابة التي تقاد . الجشم : المشي البطيء . الغدر : ما واراك وسد بصرك .

- ٢٩ -

حاتم الطّائي

(الأغاني ج ١٧ ص ٣٦٢ وما بعدها)

الشاعر

هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحَشْرَجَ ... بن طيّيء ... ويكنى حاتم أبا سَفّانة ، وأبا عَدِيّ . كُنّي بذلك بابنته سَفّانة ، وهي أكبر ولده ، وبابنه عديّ بن حاتم . وقد أدركت سفّانة وعديّ الإسلام فأسلما ، وأُتي بسفَانة النبي ﷺ في أسرى طيّيء ، فمَنّ عليها .

وأم حاتم عُتبة [1] بنت عَفيف ... وكانت في الجود بمنزلة حاتم ، لا تدّخر شيئاً ولا يسألها أحد شيئاً فتمنعه .

جود امرأته وابنته

عن العبّاسيّ بن هشام عن أبيه قال :

كانت عُتبة بنت عفيف ، وهي أمُّ حاتم ، ذاتَ يسار ، وكانت من أسخى الناس وأقراهم للضيف ، وكانت لا تليقُ [2] شيئاً تملكه . فلما رأى إخوتها

(١) كذا في المطبوعة ، وفي الشعر والشعراء : عنبة .

(٢) لا تليق : لا تمسك .

إتلافَها حَجَروا عليها ومنعوها مالَها .

فمكثت دهراً لا يُدفَع إليها شيء منه ، حتى إذا ظنّوا أنها قد وجدت ألمَ ذلك أعطَوها صِرمة [1] من إبلها ، فجاءتها امرأةٌ من هوازن كانت تأتيها في كلّ سنةٍ تسألُها ، فقالت لها : دُونَكِ هذه الصِرمة فخُذيها ، فوالله لقد عضّني من الجوع ما لا أمنع معه سائلاً أبداً ، ثم أنشأت تقول :

لعَمري لقد ماً عضّني الجوعُ عَضّةً ... فآليتُ ألاّ أمنعَ الدهرَ جائعا
فقُولا لهذا اللائمي اليومَ أعفِني ... فإن أنت لم تفعلَ فعَضْ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختِكم ... سوى عَزلِكم أو عَزْل مَن كانمانعا
وماذا ترَوْن اليومَ إلاّ طبيعة ... فكيف بترَكي ، يابنَ أُمٍّ ، الطبائعا

قال ابن الكلبي : وحدّثني أبو مسكين قال :

كانت سَفّانة بنت حاتم من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يُعطيها الصرمة بعد الصرمة من إباله ، فتُنهبها وتُعطيها الناس . فقال لها حاتم : يا بُنيّة ، إن القرينَين إذا اجتمعا في المال أتلفاه ، فإمّا أن أُعطيَ وتُمسكي ، أو أُمسِكَ وتعطي ، فإنه لا يبقى على هذا شيءٌ .

من أخبار جوده

قال ابن الأعرابي :

كان حاتمٌ من شعراء العرب ، وكان جواداً يشبه شعره جُودَه ، ويَصدِق قولُه فِعلَه . وكان حيثما نزل عُرِف منزلُه ، وكان مظفّراً ، إذا قاتل غلَبَ ، وإذا غنِم أنهب ، وإذا سُئل وَهَب ، وإذا ضرب بالقِداح فاز ، وإذا سابق سَبَق ، وإذا أسر أطلق ، وكان يُقسم بالله ألاّ يقتلَ واحدَ أُمّه .

وكان إذا أهلّ الشهرُ الأصمّ [2] ، الذي كانت مُضر تُعظّمه في الجاهليّة

---

(١) الصرمة : القطعة من الإبل .

(٢) الأصم هو شهر رجب وقيل له الأصم لأنه لا ينادى فيه : يا لفلان ، ويا صباحاه .

ينحر في كلّ يوم عَشراً من الإبل ، فأطعمَ الناس واجتمعوا إليه ، فكان ممن يأتيه من الشعراء الحطيئة وبِشر بن أبي خازم ...

فلما تَرعرع جعَل يُخرج طعامَه ، فإن وَجد مَن يأكله معه أكل وإن لم يجد طرحه . فلما رأى أبوه أنه يُهلك طعامه قال له : الحَق بالإبل . فخرج إليها ، ووهب له جاريةً وفرساً وفِلوَها [1] . فلما أتى الإبل طفِق يبغي الناس فلا يَجِدهم ، ويأتي الطريق فلا يجد عليه أحداً .

فبينا هو كذلك إذ أبصر برَكْبٍ على الطريق ، فأتاهم فقالوا : يا فتى ، هل من قِرىً ؟ فقال : تسألونني عن القِرى وقد تَرون الإبل ؟ وكان الذين بَصُر بهم عَبيد بن الأبرص وبِشر بن أبي خازم والنابغة الذبياني [2] ، وكانوا يُريدون النعمان . فنحر لهم ثلاثةً من الإبل . فقال عبيد : إنّما أردنا بالقِرى اللبَن ، وكانت تكفينا بَكْرة إذا كنت لا بدّ متكلّفاً لنا شيئاً . فقال حاتم : قد عرفتُ ، ولكني رأيت وجوهاً مختلفة ، وألواناً متفرّقة ، فظننت أن البُلدان غيرُ واحدة . فأردت أن يذكرَ كلُّ واحدٍ منكم ما رأى إذا أتى قومَه . فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله فقال حاتم : أردتُ أن أُحسن إليكم فكان لكم الفضلُ عليَّ ، وأنا أعاهدُ الله أن أضرِب عراقيبَ إبلي عن آخرها أو تقومُوا إليها فتقتسِمُوها ، ففعلوا ، فأصاب الرجلُ تسعةً وثلاثين بعيراً ، ومضَوا على سفرهم إلى النعمان . وإن أبا حاتم سمع بما فعل فأتاه فقال له : أين الإبل ؟ فقال : يا أبتِ ، طوّقتُك بها طَوقَ الحمامة مجدَ الدهر وكرماً ، لا يزال الرجل يحمل بيتَ شِعر أُثني به علينا عِوضاً من إبلك .

فلما سمع أبوه ذلك قال : أبإبلي فعلتَ ذلك ؟ قال : نعم . قال : واللهِ لا أُساكِنُك أبداً . فخرج أبوه بأهله وترك حاتِماً ومعه جاريته وفرسه وفِلُوها ،

---

(١) الفلو : المهر إذا فطم .

(٢) مما يثير الشك في صحة هذا الخبر ، وورود اسم عبيد بن الأبرص وقد كان مقتله أيام المنذر بن ماء السماء فهو لم يكن معاصراً للنعمان بن المنذر .

فقال يذكر تحوّل أبيه عنه :

وإنّي لعَفُّ الفَقر مُشترَك الغنى ... وتاركُ شَكلٍ لا يُوافقه شكلي
وشَكلي شكلٌ لا يقوم لمثله ... من الناس إلاّ كلُّ ذي نيقةٍ مثلي
وأجعلُ مالي دون عِرضي جُنَّةً ... لنفسي وأستغني بما كان من فضلي
وما ضرَّني أن سار سَعدٌ بأهلِه ... وأفرَدني في الدار ليس معي أهلي
سيكفي ابتنائي المجدَ سعدَ بنَ حَشْرَجٍ ... وأحمِلُ عنكم كلَّ ما ضاع من نفل
ولي معَ بَذل المال في المجدِ صَولةٌ ... إذا الحربُ أبدت عن نواجذِها العُصل[1]

وهذا الشعر يدل على أن جَدَّه صاحب هذه القصة معه لا أنها قصة أبيه ، وهكذا ذكر يعقوب بن السّكيت ، ووصف أن أبا حاتم هلك وحاتمٌ صغير ، فكان في حِجْر جدّه سعد بن الحشرج ، فلما فتح يدَه بالعطاء وأنهب ماله ضيّق عليه جدُّه ورحل عنه بأهله وخلّفه في داره ...

عن مِلحان ابن أخي ماوية امرأة حاتم قال : قلتُ لماوية : يا عمّةُ حدّثيني ببعضِ عجائب حاتم . فقالت : كلُّ أمره عَجَبٌ فعن أيّة تسألُ ، قال : حدّثيني ما شئتِ . قالت : أصابت الناس سَنة[2] ، فأذهبت الخُفّ والظلف . فإني وإيّاه ليلةً قد أسهرنا الجوعُ قالت : فأخذ عدِيّاً وأخذتُ سَفّانة ، وجعلنا نُعلّلهما حتى ناما . ثم أقبل عليّ يُحدّثني ويعلّلني بالحديث كي أنام ، فرققتُ لِما به من الجَهد ، فأمسكت عن كلامه لينام ، فقال لي : أنِمتِ ؟ مِراراً ، فلم أُجب فسكت . فنظر في فَتْق الخِباء فإذا شيءٌ قد أقبل ، فرفع رأسه فإذا امرأةٌ ، فقال : ما هذا ؟ قالت : يا أبا سَفّانة ،

---

(١) النيقة : التأنق ، وفي الديوان : إلا كل ذي خلق مثلي . جنة : وقاية . النفل : الغنيمة والهبة . ورواية المطبوعة : من ثقل . النواجذ : أقصى الأضراس . العصل ج أعصل : المعوج ، أراد إذا اشتدت الحرب .

(٢) السنة : المجاعة .

أتيتُك من عند صبية يتعاوَون كالذئاب جُوعاً . فقال : أحضريني صبيانك ، فوالله لأشبعنّهم . قالت : فقمتُ سريعاً فقلت : بماذا يا حاتِمُ ؟ فوالله ما نام صِبيانُك من الجوع إلاّ بالتعليل (١) . فقال : والله لأشبعنّ صبيانَك مع صبيانها .

فلمّا جاءت قام إلى فرَسه فذبحها ، ثم قدح ناراً ثم أجّجها ، ثم دفع إليها شَفرةً فقال : اشتوي وكُلي . ثم قال : أيقظي صبيانك . قالت : فأيقظتهم . ثم قال : والله إنّ هذا للؤمٌ ، تأكلون وأهلُ الصِرم (٢) حالُهم مثلُ حالكم . فجعل يأتي الصِرمَ بيتاً بيتاً فيقول : انهضوا ، عليكم بالنار . فاجتمعوا حول تلك الفَرس ، وتقنّع بكِسائه فجلس ناحيةً ، فما أصبحوا ومن الفرس على الأرضِ قليلٌ ولا كثير ، إلاّ عظمٌ وحافر ، وإنه لأشدُّ جوعاً منهم ، وما ذاقه .

حاتم وبنو لأمْ

قال ابن الأعرابي : خرج الحكَم بن أبي العاصي بن أُميّة ومعه عِطرٌ يُريد الحِيرة . وكان بالحيرة سوقٌ يجتمع إليه الناس كلَّ سنة . وكان النعمان ابن المنذر قد جعل لبني لأمْ بن عمرو .. بن طيّىء رُبعَ الطريق طُعمةً لهم ، وذلك لأنّ بنت سعد بن حارثةَ بن لأم كانت عندَ النعمان ، وكانوا أصهارَه ، فمرّ الحَكَم بن أبي العاصي بحاتم بن عبد الله فسأله الجِوار في أرض طيّىء حتى يصير إلى الحيرة ، فأجاره . ثم أمر حاتم بجَزورٍ فنُحرت وطُبخت أعضاءً ، فأكلوا ، ومع حاتم مِلحان بن حارثة بن سعد بن الحشرج وهو ابن عمه . فلمّا فرغوا من الطعام طيّبهم الحكم من طِيبه ذلك .

فمرّ حاتم بسَعد بن حارثةَ بن لأم ، وليس مع حاتم من بني أبيه غير مِلحان ، وحاتمٌ على راحلته ، وفرسه تُقاد ، فأتاه بنو لأم فوضع حاتم سُفرته

---

(١) التعليل : شغل المرء عن الطعام بشيء .
(٢) الصرم : الأبيات المجتمعة المنقطعة عن الناس .

وقال : اطْعَموا ، حيّاكم اللهُ . فقالوا : مَن هؤلاءِ معك يا حاتم ؟ قال : هؤلاء جيراني . قال له سعد : فأنت تُجير علينا في بلادِنا ؟ قال له : أنا ابنُ عمّكم ، وأحقُّ مَن لم تخفِروا ذِمّته . فقالوا : لستَ هناك . وأرادوا أن يفضَحُوه كما فُضح عامر بن جُوَين قبلَه ، فوثبوا إليه ، فتناول سعد بن حارثة ابن لأم حاتماً ، فأهوى له حاتم بالسيف فأطار أرنبةَ أنفه ، ووقع الشرُّ حتى تحاجزوا ...

فقالوا لحاتم : بيننا وبينك سُوق الحِيرة فنُماجِدُك [1] ونضع الرُّهُن ، ففعلوا ، ووضعوا تسعةَ أفراس هنا على يدَيْ رجلٍ من كلب يقال له : امرؤ القيس بن عديّ ... ، ووضع حاتم فرسَه . ثم خرجوا حتى انتهَوْا إلى الحيرة .

وسمع بذلك إياسُ بن قَبيصة الطائيُّ فخاف أن يُعينَهم النعمان بن المنذر ويُقوِّيهم بمالِه وسلطانه ، للصِّهر الذي بينَهم وبينه. فجمع إياسٌ رهطه من بني حيّة وقال : يا بني حيّة ، إن هؤلاء القومَ قد أرادوا أن يفضَحُوا ابنَ عمكم في مِجاده — أي مماجدته — فقال رجل من بني حيّة : عندي مائةُ ناقةٍ سوداءَ ومائة ناقة أدماءَ . وقام آخرُ فقال : عندي عَشرة حُصُنٍ ، على كل حِصانٍ منها فارسٌ مدَجَّجٌ لا يُرى منه إلاّ عيناه . وقال حَسّانُ بن جَبَلة الخير : قد علمتم أن أبي قد مات وترك كَلأً كثيراً ، فعليَّ كلُّ خمرٍ أو لحمٍ أو طعامٍ ما أقاموا في سُوق الحيرة ، ثم قام إياس فقال : عليَّ مثلُ جميعِ ما أعطيتم كلِّكم .

وحاتم لا يعلمُ بشيءٍ مما فعلوا ، وذهب حاتم إلى مالك بن جُبار ، ابن عم له بالحيرة كان كثير المال فقال : يا بنَ عمٍ ، أَعنّي على مُخايلتي — والمُخايلة المفاخرة — ... فقال له مالك : ما كنتُ لأحرب [2] نفسي ولا عِيالي وأُعطيَك مالي ، فانصرف عنه ...

---

(١) المماجدة : المفاخرة بالمجد .

(٢) حربه : سلبه ماله .

ثم أتى حاتم ابنَ عمّ له يقال له وَهْمُ بن عمرو ، وكان حاتمٌ يومئذٍ مُصارماً له لا يُكلّمه . فقالت له امرأتُه : أيْ وَهْمُ ، هذا ، واللهِ ، أبو سَفّانة حاتم قد طلَع . فقال : ما لَنا ولِحاتم ، أَثْبتي النظر . فقالت : ها هو . قال : وَيْحَكِ هو لا يكلّمني ، فما جاء به إليّ ؟ فنزل حتى سلّم عليه وردّ سلامَه وحيّاه ، ثم قال له : ما جاء بك يا حاتمُ ؟ قال : خاطرتُ[1] على حَسَبك وحَسَبي . قال : في الرُحب والسّعة ، هذا مالي — وعِدّتُه يومئذ تسعمائةِ بعيرٍ — فخُذْها مائةً مائة حتى تذهب الإبل أو تصيبَ ما تريد . فقالت امرأته : يا حاتمُ ، أنت تُخرجنا من مالِنا ، وتفضحُ صاحبنا — تعني زوجها . فقال : اذهبي ، عنكِ ، فواللهِ ما كان الذي غمّكِ لِيَرُدَّني عمّا قِبَلي . وقال حاتم :

ألا أبلغا وَهْمَ بنَ عمرو رسالةً ... فإنك أنتَ المرءُ بالخير أَجْدَرُ
رأيتُك أدنى الناسِ منّاً قرابةً ... وغيرَك منهم كنتُ أحبُو وأنصرُ
إذا ما أتى يومٌ يُفرّقُ بينَنَا ... بموتٍ فكُنْ يا وَهْمُ ذو يتأخّر

ذو في لغة طيء : الذي .

ثم قال إياس بن قَبيصة : احمِلوني إلى الملك ، وكان به نِقْرِسٌ . فحُمل حتى أُدخل عليه فقال : أنْعِم صباحاً أبيتَ اللعن . فقال النعمان : وحيّاك إلَهُك . فقال إياسٌ : أَتَمُدُّ أختانَك بالمالِ والخيل، وجعلتَ بني ثُعَلَ في قَعْر الكنانة ! أظَنّ أختانُك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامرِ بن جُوين ، ولم يشعُروا أنّ بني حيّةَ بالبلد ! فإن شئتَ والله ناجزناك حتى يَسفحَ الوادي دماً ، فليُحضِروا مِجادهم غداً بمجمع العرب .

فعرف النعمانُ الغضبَ في وجهه وكلامه، فقال له النعمان : يا أحلَمَنَا لا تغضبْ فإنّي سأكفيك .

---

(١) خاطرت : راهنت .

وأرسل النعمان إلى سعد بن حارثة وإلى أصحابه : انظروا ابنَ عمّكم حاتماً فأرضُوه ، فوالله ما أنا بالذي أعطيكم مالي تُبَذِّرونه ، وما أُطيقُ بني حيّـــة .

فخرج بنو لأم إلى حاتم فقالوا له : أَعْرِضْ عن هذا المجاد نَدَعْ أَرْشَ [1] أنفِ ابن عمنا . قال : لا والله لا أفعلُ حتى تتركوا أفراسكم ويُغلَب مِجادكم . فتركوا أرش أنف صاحبهم وأفراسهم وقالوا : قبّحها الله وأبعدَها ، فإنما هي مَقارف [2] . فعمد إليها حاتم وأطعمها الناس وسقاهم الخمر ...

حاتم وامرأته ماويّة

(تزوج حاتم ماويّة بنت عَفْزَر) فولدت عَديّاً ... فكانت ماوية عنده زماناً . وإنّ ابن عم لحاتم كان يقال له مالك قال لها : ما تصنعين بحاتم ؟ فوالله لئن وجد شيئاً لَيُتْلِفَنّه ، وإن لم يَجِد لَيتكلفَنّ ، وإن مات لَيتركَنّ ولَدَه عِيالاً على قومِك . فقالت ماوية : صدقت ، إنه كذلك .

وكان النساء ، أو بعضُهن ، يُطلقْن الرجالَ في الجاهليّة . وكان طلاقهُنّ أنهنّ إن كُنّ في بيتٍ من شَعَر حوّلن الخِباء ، فإن كان بابُه قِبَل المَشرِق حوّلنَه قِبل المغرب ، وإن كان بابُه قبل اليَمَن حوّلنه قبل الشام . فإذا رأى ذلك الرجلُ علم أنها قد طلّقته فلم يأتِها . وإنّ ابن عم حاتم قال لماوية — وكانت أحسنَ نساءِ الناس — : طلّقي حاتماً ، وأنا (أتزوّجك) ، وأنا خيرٌ لكِ منه وأكثرُ مالاً ، وأنا أُمسِك عليك وعلى ولدك .

فلم يزل بها حتى طَلّقت حاتماً . فأتاها حاتمٌ وقد حوّلت بابَ الخِباء

(١) الأرش : دية تؤدى لقاء ما يصيب أعضاء الجسم من أذى .

(٢) المقارف ج مقرف : من الخيل ، غير الأصيل .

فقال : يا عَديّ ، ما ترى أمّك عُديَّ عليها ؟ قال : لا أدري ، غير أنها قد غيّرت بابَ الخِباء ، وكأنه لم يلحَن [1] لما قال ، فدعاه فهبَط به بطن وادٍ .

وجاء قومٌ فنزلوا على باب الخِباء كما كانوا ينزِلون . فتوافَوا خمسين رجلاً ، فضاقت بهم ماويّة ذَرعاً وقالت لجاريتها : اذهبي إلى مالك فقولي له : إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا خمسين رجلاً فأرسِلْ بنابٍ [2] نَقرِهم ولبنٍ نَغبُقْهم [3] . وقالت لجاريتها : أنظُري إلى جَبينه وفمه ، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه ، وإن ضرب بلحيته على زَوْره وأدخل يدَه في رأسه فاقْفُلي ودَعيه . وإنّها لمّا أتت مالكاً وجدته مُتوسّداً وَطْباً [4] من لبن وتحت بطنِه آخر . فأيقظته فأدخل يدَه في رأسه وضرب بلِحيته على زَوره ، فأبلغته ما أرسلتْها به ماويّةُ وقالت : إنّما هي الليلة حتى يعلمَ الناسُ مكانَه . فقال لها : اقرئي عليها السلامَ وقولي لها : هذا الذي أمرتُك أن تُطلّقي حاتماً فيه . فما عندي من كبيرة قد تركت العمل ، وما كنتُ لأنحرَ صَفِيّة [5] غزيرةً بشَحم كُلاها . وما عندي لبنٌ يكفي أضيافَ حاتم .

فرجعت الجاريةُ فأخبرتها بما رأت منه وما قال ، فقالت : ائتِ حاتماً فقولي : إن أضيافَك قد نزلوا الليلةَ بنا ، ولم يعلَموا بمكانك ، فأرسِلْ إلينا بنابٍ ننحرها ونَقرِهم وبلبن نَسْقِهم ، فإنما هي الليلةُ حتى يعرِفوا مكانك . فأتتِ الجارية حاتماً فصرخت به ، فقال حاتم : لبيكِ ، قريباً دعوتِ . فقالت : إن ماويةَ تقرأ عليك السلام وتقول لك : إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلةَ ، فأرسل إليهم بنابٍ ننحرها ولبنٍ نَسقهم . فقال : نعم وأبي . ثم قام إلى الإبل

---

(١) لم يلحن : لم يفطن .
(٢) الناب : الناقة المسنة .
(٣) الغبوق : ما يشرب بالعشي .
(٤) الوطب : إناء اللبن .
(٥) صفية : الناقة الصغيرة .

فأطلق ثَنيتَيْن من عِقالِهما ثم صاح بهما حتى أتى الخِباء فضرب عراقيبهما ، فطفِقت ماوية تصيح وتقول : هذا الذي طلّقتك فيه ، تترك ولدَك وليس لهم شيءٌ . فقال حاتم :

هل الدهرُ إلا اليومَ أو أمسِ أو غدُ ... كذاك الزمانُ بيننَا يــتردَّدُ
يَرُدُّ علينـا ليلـةً بعد يومهـا ... فلا نحن ما نبقى ولا الدهرُ يَنفَد

(ومنها) :

فأقسمتُ لا أمشي إلى سِرِّ جارتي ... يدَ الدهر ما دام الحمَامُ يُغرِّدُ
ولا أشتري مالاً بغدرٍ علمتُـه ... ألا كلُّ مالٍ خالط الغدرَ أنكد
إذا كان بعض المالَ رَبّاً لأهلـه ... فإني بحَمد الله مـا لي مُعَبَّـدُ
يفُكّ به العاني ويُؤكَـل طيّبـاً ... ويُعطَى إذا ضنّ البخيلُ المُصَرِّد(1)

الخ الأبيات ...

منّ الرسول عليه السلام على ابنة حاتم

عن عليّ عليه السلام قال : يا سُبحانَ الله ! ما أزهدَ كثيراً من الناس في الخير ؛ عجبتُ لرجلٍ يَجيئهُ أخوهُ في حاجةٍ فلا يرى نفسه للخير أهلاً . فلو كُنّا لا نرجو جَنّةً ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظرُ ثواباً ، ولا نخشى عِقاباً ، لكان ينبغي لنا أن نطلُب مكارِم الأخلاق ، فإنّها تدلّ على سبيل النجــاة .

فقام رجلٌ فقال : فِداك أبي وأُمّي يا أميرَ المؤمنين ، أسمعتَه من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، وما هو خيرٌ منه . لَمّا أتينا بسَبايا طيّىءٍ كانت في

---

(1) السر : الزنا والفاحشة . المصرد : المقلل الضان بماله . العاني : الأسير

النساء جاريةٌ حَمّاءُ حَوراءُ العينين ، لَعساءُ لَمياءُ عَيطاءُ ، شمّاءُ الأنف ، معتدلة القامة . دَرماء الكعبين ، خَدَلَجَةّ الساقين ، لَفّاءُ الفَخذين ، خَميصة الخَصْر ، ضامرة الكَشْحَين ، مَصقولة المَتْنَين (١) .

فلمّا رأيتُها أُعجبتَ بها فقلت : لأطلُبَنّهَا إلى رسولِ الله ﷺ ليَجْعَلَها من فَيْئي . فلمّا تكلّمتْ أُنسيت جمالَها لما سمعتُ من فصاحتها . قالت : « يا محمدُ هلك الوالدُ ، وغاب الوافدُ ، فإن رأيتَ أن تُخلّي عنّي ، فلا تُشمِت بي أحياءَ العرب ، فإني بنتُ سيّد قومي . كان أبي يَفُكُّ العاني ، ويَحمي الذمار ، ويَقري الضيف ، ويُشبع الجائع ، ويُفَرِّج عن المكروب ، ويُطعم الطعام ، ويُفشي السلام ، ولم يَرُدَّ طالبَ حاجةٍ قطُ ، أنا بنتُ حاتم طيّىء » .

فقال لها رسول الله ﷺ : يا جاريةُ ، هذه صفةُ المؤمنِ . لو كان أبوك إسلامياً لترحّمنا عليه ، خلّوا عنها ، فإن أباها كان يُحبّ مكارم الأخلاق ، والله يُحبّ مكارم الأخلاق .

* * *

---

(١) الحماء : البيضاء . اللعس : سواد مستحسن في الشفة . العيطاء : الطويلة العنق . الدرماء : التي لا تستبين كعوبها ومرافقها . خدلجة : ممتلئة .

- ٣٠ -

أبو دُوَادالإيـادي

(الأغاني ج ١٦ ص ٣٧٣ وما بعدها)

الشاعر

هو جارية بن الحجّاج ... بن إياد بن نزار بن مَعَدّ . شاعر قديم من شعراء الجاهلية . وكان وَصّافاً للخيل ، وأكثرُ أشعاره في وصفها ، وله في غير وصفها تصرّف بينَ مدح وفخر وغير ذلك ، إلاّ أن شعره في وصف الفرس أكـثر .

عن الأصمعيّ قال : ثلاثةٌ كانوا يَصفون الخيل ، لا يُقاربهم أحدٌ : طُفيلٌ ، وأبو دُواد ، والجَعديُّ . فأمّا أبو دواد فإنه كان على خيل المنذر بن النعمان بن المنذر [1] . وأما طفيل فإنه كان يركبها وهو أَغْرَل [2] إلى أن كَبِر . وأما الجعديّ فإنه سمع ذكرَها من أشعار الشعراء فأخذ عنهم .

---

(١) كذا ورد نسبه في الأصل ، على أنه يستخلص من أخبار أبي دواد أنه كان على خيل المنذر بن ماء السماء . ونسبه عند اليعقوبي يوافق ما جاء في هذه الرواية . فهو عنده المنذر بن النعمان بن المنذر ابن امرىء القيس وعند غيره هو المنذر بن المنذر بن امرىء القيس .

(٢) الاغرل : الصبي الذي لم يختن .

وعن أبي عبيدة قال : أبو دُواد أوصفُ الناس للفرس في الجاهلية والإسلام ، وبعده طُفيل الغنوي والنابغة الجعدي .

وعن الأصمعي قال : كانت الرواة لا تروي شعر أبي دُواد ولا عديّ بن زيد ، لمخالفتها مذاهب الشعراء . وكان أبو دواد على خيل المنذر بن ماء السماء ، فأكثر وصفه للخيل .

وعن ابن الأعرابيّ قال : لم يصف أحدٌ الخيلَ إلا احتاج إلى أبي دواد ، ولا وصف الخمر إلاّ احتاج إلى أوس بن حجر ، ولا وصف أحدٌ نعامة إلا احتاج إلى علقمة بن عَبدَة ، ولا اعتذر أحدٌ في شعره إلاّ احتاج إلى النابغة الذبياني .

جار أبي دواد

عن الكلبيّ : أن أبا دواد الإياديّ مدح الحارث بن هَمّام بن مُرَّة بن ذُهل ابن شيبان ، فأعطاه عطايا كثيرة ، ثم مات ابن لأبي دواد وهو في جواره فوَدَاه ، فمدحه أبو دُواد ، فحلف له الحارث أنّه لا يموت له ولدٌ إلاّ وداه ، ولا يذهب له مالٌ إلا أخلفه . فضربت العرب المثل بجار أبي دواد ، وفيه يقول قيسُ بن زهير :

أُطوِّفُ ما أطوِّفُ ثم آوِي ... إلى جارٍ كجار أبي دُوادِ

وعن أبي عَبيدة قال : جاور أبو دُواد الإياديّ كعبَ بن مامة الإيادي ، فكان إذا هَلَك له بعيرٌ أو شاةٌ أخلفها .

طائفة من أخبار

أبو المنذر عن أبيه قال : تزوّج أبو دُواد امرأةً من قومه فولدَت له دُواداً

ثم ماتت، ثم تزوّج أخرى ، فأولعت بدُواد ، فأمرت أباه أن يَجفوَه ويُبعدَه، وكان يُحبّها . فلما أكثرت عليه قالت : أخرِجْه عنّي . فخرج به وقد أردفه خلفه ، إلى أن انتهى إلى أرضٍ جرداءَ ليس فيها شيءٌ ، فألقى سوطَه متعمّداً ، وقال : أَيْ دُوادُ ، انزِل فناولني سَوطي . فنزل ، فدفع بعيرَه وناداه :

أدوادُ إنّ الأمرَ أصبح ما ترى فانظُرْ دُوادُ لأيِّ أرضٍ تعمِدُ

فقال له دواد : على رسلك . فوقف له ، فناداه :

وبأيّ ظنّك أن أُقيمَ ببلدةٍ جرداءَ ليس بغيرها مُتَلَدَّدُ [1]

فرجعَ إليه وقال له : أنت والله ابني حقاً ، ثم ردّه إلى منزله وطلّق امرأته .

* عن أبي عمرو الشيبانيّ قال : كان لأبي دواد امرأةٌ يُقال لها أم حَبْتَر ، وفيها يقولُ :

في ثلاثين ذَعذعتها حقوقٌ أصبحت أمُّ حَبْتَرٍ تشكوني
زعمت لي بأنني أُفسد الما لَ وأَزويه عن قضاء ديوني
أمّلتْ أن أكون عبداً لمالي وتهنّا بنافع المال دوني [2]

وهي طويلة .

قال : ولها يقول وقد عاتبته علىسماحتِه بماله فلم يُعْتِبْها [3] ، فصَرَمته :

حاولتُ حين صَرَمْتني والمرءُ يَعجزُ لا محالَهْ
والدهرُ يلعبُ بالفتى والدهرُ أروغُ من ثُعالَه
والمرءُ يكسِبُ مالَه والشحُّ يُورِثه الكَلالَه

---

(١) تلدد في المكان : تلبث .
(٢) ذعذعتها : بددتها وفرقتها . أزويه : أبعده وأنحيه .
(٣) لم يعتبها : لم يرضها .

والعبـــدُ يُقـرَع بالعصـا   والحرُّ تكفيـه المقالــه
والسَكْـتُ خـيرٌ للفـتى   فالحَيْن من بعض المقـاله [1]

افتراق إياد

عن أبي الهيذام قال : كانت لأبي دواد ناقة يقال لها الزَبّاء [2] ، فكانت بنو إياد يتبرّكون بها . فلمّا أصابتهم السَنة [3] تفرّقوا ثلاثَ فرق : فِرقةٌ سَلكت في البحر فهلَكت ، وفرقةٌ قصدت اليمن فسَلِمت ، وفرقة قصدت أرضَ بكر بن وائل فنزلوا على الحارث بن همّام .

وكان السبب في ذلك أنهم أرسلوا الزَبّاء ، وقالوا إنها ناقةٌ ميمونة ، فخلّوها ، فحيث توجّهَت فاتبعُوها ، وكذلك كانوا يفعلون إذا أرادوا نُجعةً . فخرجت تخوض العربَ حتى برَكت بفِناء الحارثِ بن همّام ، وكان أكرمَ الناس جِواراً ، وهو جارُ أبي دواد المضروبُ به المثَل ، فقال أبو دواد يمدح الحارث ويذكر ناقته الزَبّاء :

فإلى ابن همّام بن مُرّة أصعـدَت   ظُعُنُ الخليط بهم فقَلَّ زيالُهـا
أنعمتَ نعمةَ ماجدٍ ذي مِنّـة   نُصِبت عليه من الكلا أظلالُهـا
وجعلتنـا دونَ الوليّ فأصبحـت   زبّـاءُ مُنقطعاً إليك عِقالها [4]

مقتل أولاده

عن العباس بن هشام عن أبيه قال : كان أبو دُواد الإيادي جاراً للمُنذر

---

(١) ثعالة : الثعلب . الحين : الهلاك .

(٢) الزباء : الكثيرة الوبر .

(٣) السنة : أي الجدب .

(٤) الظعن ج ظعينة : المرأة في هودجها . الخليط : القوم الذين أمرهم واحد .

ابن ماء السماء. وأن أبا دواد نازع رجلاً بالحيرة من بَهراء يقال له رَقَبة بن عامر ... فقال له رَقبة : صالِحْني وحالفني. فقال أبو دواد : فمن أين تعيشُ إياد إذاً؟ فوَاللهِ لولا ما تُصيبُ من بَهراءَ لهلَكَت. وانصرفا على تلك الحـــال.

ثم انَّ أبا دواد أخرج بنينَ له ثلاثةً في تجارةٍ إلى الشام، فبلغ ذلك رَقَبة البَهرانيَّ، فبعث إلى قومه فأخبرهم بما قال أبو دواد عندَ المنذر، وأخبرهم أن القومَ ولدُ أبي دُواد. فخرجوا إلى الشام فلَقُوهم فقتلوهم، وبعثوا برؤوسهم إلى رقبة.

فلما أتته الرؤوسُ صنع طعاماً كثيراً، ثم أتى المنذر فقال له : قد اصطنعت لك طعاماً كثيراً، فأنا أُحبُّ أن تتغدّى عندي.

فأتاه المنذر، وأبو دُواد معه، فبينا الجفانُ تُرفَع وتُوضَع، إذ جاءته جَفنةٌ عليها بعضُ رؤوس بني أبي دُواد، فوثب وقال : أبيتَ اللعن، إنّي جارك، وقد ترى ما صُنع بي. وكان رقبة ايضاً جاراً للمنذر، فوقع المنذر منهما في سَوْءَة وأمر برقبة فحُبس، وقال لأبي دواد : أما يُرضيك توجيهي بكتيبتيَّ الشَهباء والدَوْسَر إليهم؟ قال : بلى. قال : قد فعلتُ. فوجّه إليهم بالكتيبتين.

فلما بلغ ذلك رَقبة قال لامرأته : ويحَك، الحَقي بقومِك فأنذريهم. فعمدت إلى بعض ابلِ زوجها فركبته، ثم خرجت حتى أتت قومَها. فلمّا قَرُبت منهم تعرّت من ثيابها وصاحت وقالت : أنا النذيرُ العُريانُ. فأرسلتْها مثلاً. فعرف القوم ما تُريد، فصَعِدوا إلى أعالي الشام، وأقبلت الكتيبتان فلم تُصيبا منهم أحداً. فقال المنذر لأبي دواد : قد رأيت ما كان منهم، وأنا أدِي كلَّ ابنٍ لك بِمائتي بعير، فأمر له بستمائةِ بعيرٍ، فرضي بذلك.

* * *

- ٣١ -

لَقِيط بن يَعْمُر الإيادي

(الأغاني ج ١٢ ص ٣٥٥ وما بعدها)

الشاعر

هو لقيط بن يَعمُر ، شاعر جاهلي قديم مُقِلّ ، ليس يُعرف له شعر غير هذه القصيدة :

(يا دار عَمرَة من مُحتلّها الجَرَعا   هاجت ليَ الهمَّ والأحزان والوجَعا)

وقطعٌ من الشعر لطافٌ متفرقة .

غزو كسرى قبيلة إياد وإنذار لقيط قومه

عن الشَرْقيّ بن القُطاميّ قال : كان سببُ غزو كسرى إياداً أن بلادَهم أجدبت ، فارتحلوا حتّى نزلوا بسنداد ونواحيها ، فأقاموا بها دهراً حتّى أخصبوا وكثُروا . وكانوا يَعبُدون صَنماً يقال له ذو الكَعْبين ، وعبدته بكرُ بن وائل من بعدِهم . فانتشروا ما بين سِنداد إلى كاظمة وإلى بارق [1] والخوَرنق ،

(١) بارق : ماء بالعراق هو الحد بين القادسية والبصرة .

واستطالوا على الفرات حتّى خالطوا أرض الجزيرة ، ولم يزالوا يُغيرون على ما يَليهم من أرض السَواد ويغزُون ملوك آل نَصر ، حتّى أصابوا امرأةً من أشراف العجم كانت عروساً قد هُديت [1] إلى زوجها ، فولِيَ ذلك منها سُفهاؤهم وأحداثهم .

فسار إليهم من كان يَليهم من الأعاجم ، فانحازت إياد إلى العراق وجعلوا يعبرُون إبلَهم في القراقير [2] ويقطعون بها الفرات ... وعبروا الفرات ، وتبعهم الأعاجم ... ولقيتهم إياد في آخر النهار فهزمت الأعاجم .

قال : وحدّثني بعض أهل العلم أنّ إياداً بيّتت ذلك الجمع حين عبروا شط الفرات الغربيّ ، فلم يُفلِت منهم إلا القليلُ ، وجمعوا به جماجمَهم وأجسادَهم فكانت كالتلّ العظيم ، وكان إلى جانبهم ديرٌ فسُمّي ديرَ الجماجم .

وبلغ كِسرى الخبر فبعث مالكَ بن حارثة ــ أحد بني كعب بن زهير بن جُشَم ــ في آثارِهم ، ووجّه معه أربعةَ آلافٍ من الأساورة ، فكتب إليهم لقيط :

يا دارَ عَمْرةَ من مُحتَلّها الجرَعا ... هاجت ليَ الهمَّ والأحزان والوَجَعا

وفيها يقول ... :

يا قوم لا تأمَنُوا إن كنتمُ غُيُراً ... على نسائِكمُ كِسرى وما جَمَعا
هو الجَلاء الذي تبقى مَذلّتُه ... إن طار طائرُكم يوماً وإن وقعا
هو الفَناءُ الذي يَجتثُّ أصلَكُم ... فمن رأى مثلَ ذا رأياً ومن سَمِعا
فقلِّدُوا أمرَكم ، لله دَرُّكمُ ... رَحْبَ الذِراعِ بأمرِ الحربِ مضطلعا
لا مُترَفاً إن رُخاءُ العيش ساعدَه ... ولا إذا حلّ مَكروهٌ به خَشَعا
لا يَطْعَمُ النومَ إلاّ رَيْثَ يَبْعَثُه ... هَمٌّ يَكاد حَشاه يَقطع الضِلَعا

---

(١) هديت : زفت .
(٢) القراقير ج قرقور : السفينة الطويلة .

مُسَهَّدُ النوم تَعنيه ثُغورُكم يَرومُ منها إلى الأعداءِ مُطّلعا
ما انفكّ يَحلُبُ هذا الدهرَ أشْطُرَه يكون مُتَبِعاً طوراً ومُتَّبَعا
فليس يَشغَلُهُ مالٌ يُثمِّرُه عنكم ولا ولدٌ يَبغي له الرَّفَعا
حتّى استمرَّت على شَزْرٍ مَريرتَه مُستَحكِمَ السِنِّ لاقحماً ولا ضَرَعا

(إلى أن يقول) :

هذا كتابي إليكم والنَذيرُ لكم
لِمَن رأى الرأيَ بالإبرامِ قد نَصَعا

وقد بذلتُ لكم نُصحي بلا دَخَلٍ
فاستيقِظُوا إنَّ خيرَ العلمِ ما نفعا (١)

وجعل عنوان الكتاب :

سَلامٌ في الصحيفةِ من لَقيطٍ إلى مَن بالجزيرةِ من إيادِ
بأن الليثَ كسرى قد أتاكم فلا يَحبِسْكمُ سَوقُ النِّقادِ (٢)

قال : وسار مالك بن حارثة التغلبيُّ بالأعاجم حتّى لقي إياداً ، وهم غارُّون لم يلتفتوا إلى قول لَقيط وتحذيرِه إيّاهم ، ثقةً بأن كسرى لا يَقدُم عليهم . فلقيهم بالجزيرة في موضع يقال له مرج الأكَم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فظفر بهم وهزمَهم ، وأنقذ ما كانوا أصابوا من الأعاجم يومَ الفرات . ولحِقت إيادُ بأطراف الشام ولم تتوسّطْها خوفاً من غسّان ، يوم الحارثين ، ولاجتماع

(١) طار طائره : غضب . خشع : خضع . استمرت : استحكمت وقويت . المريرة : طاقة الحبل . واستمرت مريرته : أي أصبح قوياً محنكاً . الشزر : ما يفتل على غير وجهه . القحم : الشيخ الفاني العجوز . الضرع : الصغير السن الضعيف . الدخل : الخديعة والمكر وفساد الرأي .
(٢) النقاد : جنس من الغنم .

قُضاعة وغسّان في بلدٍ ، خوفاً من أن يصيروا يداً واحدة عليهم . فأقاموا حتّى أمِنوا ، ثم إنهم تطرّفوهم إلى أن لحِقوا بقومهم ببلد الروم بناحية أنقرة ، ففي ذلك يقول الشاعر :

حلّوا بأنقِرةٍ يَسيلُ عليهم ماءُ الفراتِ يَجيءُ من أطواد

• • •

- ٣٢ -

الحَادِرَة

(الأغاني ج ٣ ص ٢٧٠ وما بعدها)

الشاعر

الحادرةُ لقبٌ غَلب عليه ، والحُويدرة أيضاً ، واسمُه قُطْبة بن أوس ... ابن ثعلبة بن سعد (بن ذبيان) ... بن قيس عيلان ، بن مُضر بن نزار ، شاعرٌ جاهليّ مُقِلٌ ... وإنما سُمّي الحادرة بقول زَبّان بن سيّار الفَزاري له :

كأنّك حـــادرةُ المَنكِبَيْـ ... ـنِ رَصعاءُ تُنْقِضُ في حائرِ
عجوزُ ضِفادعَ محجوبـــةٌ ... يُطيفُ بها وِلدَةُ الحاضرِ [1]

والحادرة : الضخم .

وذكر أبو عمرو الشيباني أن الحـــادرةَ خرج وهو وزَبّان الفَزاريّ يصطادان ، فاصطادا جميعاً فخرج زبّانٌ يشتوي ويأكلُ في الليل وحدَه ، فقال الحادرة :

---

(١) حادرة المنكبين : ممتلئتهما . الرصعاء : الرسحاء وهي التي خف لحم فخذيها وعجيزتها . تنقض : تنق . الحائر : مجتمع الماء . الحاضر : المقيم على الماء . شبهه بالضفدعة .

تركتَ رفيق رحلِك قــــد تــراه وأنت لِفيك في الظّلماء هــادي

فحقدَها عليه زبّان ، فأتيا غديراً فتجرّد الحادرة ، وكان ضخمَ المنكبين أرسحَ ، فقال زبّان :

كأنّك حــــادرة المنكبيــــن رصعاء تنقض في حائر

فقال له الحادرة :

لحا اللهُ زبّــانَ من شــاعرٍ أخي خَنْعةٍ فاجرٍ غــادرِ
كأنك فُقّــاحــةٌ نَــوَّرت مع الصُبح في طَرَف الحائر [1]

فغلب هذا اللقب على الحادرة .

عن الأصمعي قال : سمعت شيخاً من بني كنانة من أهل المدينة يقول :

كان حسّان بن ثابت إذا قيل له تُنُوشدت الأشعار في موضع كذا وكذا يقول : فهل أُنشِدت كلمةُ الحُويدرة :

بَكَرتْ سُمَيّة غُدْوة فتَمتّعي ؟

قال أبو عبيدة : وهي من مختار الشعر ، أصمعيّة مُفَضّليّة .

سبب تهاجيه مع زَبّان بن سيّار

المفضّل قال : كان الحادرةُ جاراً لرجلٍ من بني سُلَيم ، فأغار زَبّان بن سيّار على إبله فأخذها ، فدفعها إلى رجلٍ من أهلِ وادي القُرى يهوديٍّ ، وكان له عليه دَين فأعطاه إياها بدَينه ، وكان أهلُ وادي القرى حلفاءَ لبني

---

(١) الخنعة : الريبة والفجور . الفقاحة : الزهرة من زهر البقل على أي لون كانت . نورت: ظهر نورها . الحائر : مكان يرتفع ما حوله ويطمئن وسطه فيتحير فيه الماء .

ثعلبة (رهط الحادرةُ) ، فلمّا سمع اليهوديُّ بذلك قال : سيجعلُ الحادرةُ هذا سبباً لنقضِ العهد الذي بيننَا وبينه ، ونحن نقرأُ الكتاب ولا ينبغي لنا أن نَغدُر ، فردّ الإبلَ على الحادرة فردّها على جاره .. ورجَع إلى زبّان فقال له : أعطِني مالي الذي عليك ، فأعطاه إياه زَبّان ووقع الهجاء بينه وبين الحـــادرة .

فقال الحادرةُ فيه :

لِعَمرةَ بين الأخرمَيَن طلُـــولُ ... تقادم منها مُشْهِرٌ ومُحِيـلُ
وقفت بها حتّى تعـالى لي الضُحَـى ... لأخبِرَ عنها إنّني لسَـؤُولُ

يقول فيهـا :

فإن تحسَبوهـا بالحِجابِ ذليلـةً ... فما أنا يومـاً إن ركبتُ ذليـلُ
سأمنَعُهـا في عُصبةٍ ثعلبيــة ... لهم عَددٌ وافٍ وعزٌّ أصيـلُ
فإن شئتمُ عدُنا صديقاً وعُدتــمُ ... وإمّا أَبَيتُم فالمُقامُ زَحُـولُ

قال : ولجّ الهجاء بينهما بعد ذلك فكان هذا سببَه .

ما قاله من الشعر في وقائع بين قومه وبين أعدائهم

عن أبي عمرو الشيباني أن جيشاً لبني عامر بن صَعصعة أقبل وعليهم ثلاثةُ رؤساء : ذُؤاب بن غالب من عُقَيل ثم من بني كعب بن ربيعة ، وعبدُ اللهَ ابن عَمرو من بني الصَمُوت ، وعُقَيل بن مالك من بني نُمير ، وهم يريدون غزوَ بني ثعلبة بن سعد ، رهطِ الحادرة ، ومَن معهم من مُحارب ، وكانوا يومئذ معهم . فنَذِرت بهم بنو ثعلبة فركب قيسُ بن مالك المحاربيُّ الخَصَفيُّ وجُؤَيّة بن نصر ، أحد بني ثعلبة ، للنظر إلى القوم . فلمّا دنَوا منهم عرَف عُقيل بن مالك النُمَيري جُؤيّةَ بن نصر فناداه : إليّ يا جُؤيّة

ابنَ نصر ، فإنّ لي خبراً أُسِرُّه إليك . فقال : إليكَ أقبلتُ ، لكن لغير ما ظننتَ . فقال له : ما فَعَلَت قَلُوص ؟ – يعني امرأته – فقال : هي في الظُعُن أسرَّ ما كانت قطُّ وأجملَه . ثم حمل كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه واختلفا طعنتين ، فطعنه جُؤَيّة طعنةً دقّت صُلْبَه . وانطلق قيسُ بن مالك المحاربيُّ إلى بني ثعلبة فأنذرهم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهُزِمت بنو نمير وسائر بني عامر ومات عُقَيلٌ النُميري ، وقُتل ذؤاب بن غالب وعبد الله بن عمرو ، أحد بني الصَمُوت .

فقال الحادرة في ذلك :

كانَ عُقَيلاً في الضحى حلّقت به ... وطارت به في الجوِّ عَنقاءُ مُغرِبُ
وذي كرمٍ يدعوكمُ آلَ عامرٍ ... لَدى مَعرَك سِرْبالُه يَتَصبّبُ
رأت عامرٌ وقعَ السيوفِ فأسلموا ... أخاهم ولم يَعطِفْ من الخيل مُرهِبُ
وسلّم لمّا أن رأى الموتَ عامرٌ ... له مَركَبٌ فوقَ الأسنَّةِ أحدَبُ
إذا ما أظلّته عوالي رماحِنا ... تدلّى به نَهدُ الجُزارةِ مِنْهَبُ
على صَلَوَيه مرهفاتٌ كأنّها ... قوادمُ نسرٍ بُزّ عنهنّ مَنكِبُ (١)

قال : وفي هذه الوقعة يقول خِداش بن زهير :

أيا أخوينا من أبينا وأمّنا ... إليكم إليكم لا سبيلَ إلى جَسْرِ

جَسر : قبيلة من محارب . قال : وهذا اليوم يعرف بيوم شُواحط ، قبيلة من محارب .

* * *

(١) العنقاء : طائر خرافي والعرب يقولون : حلقت به عنقاء مغرب ، كناية عن هلاكه . وأغرب الفرس في جريه : أكثر وأمعن . السربال : القميص . نهد : ضخم . الجزارة : أراد أطراف الفرس . منهب : صفة للفرس السريع العدو . الصلا : وسط الظهر .

- ٣٢ -
قَيسُ بن الخَطِيم

(الأغاني ج ٣ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

هو قيس بن الخَطيم ... وكان أبوه الخَطيم قُتل وهو صغير ، قتله رجل من بني حارثة بن الحارث بن الخزرج ، فلمّا بلغ قتلَ قاتلَ أبيه ونشِبت لذلك حروب بين قومه وبين الخزرج ؛ وكان سببَها .

قال سليمان بن داود المجمّعي : كان قيسُ بن الخطيم مقرونَ الحاجبين ، أدعجَ العينين ، أحمر الشفتين ، برّاقَ الثنايا كأنّ بها برقاً ، ما رأته حليلةُ رجلٍ قطّ إلا ذهب عقلها .

قال حسّان بن ثابت للخنساء : اهجي قيسَ بن الخطيم . فقالت : لا أهجو أحداً أبداً حتى أراه . فجاءته يوماً فوجدته في مَشْرَقةٍ [1] ملتفاً في كِساء له ، فنخسته برجلها وقالت : قم ، فقام . فقالت : أدبِرْ ، فأدبر ، ثم قالت : أقبِل ، فأقبل ، قال : والله لكأنّها تعترِض عبداً تشتريه ، ثم عاد إلى حاله نائماً ، فقالت : والله لا أهجو هذا أبداً .

---

(١) المشرقة ، مثلثة الراء : موضع القعود في الشمس بالشتاء .

ثأره بأبيه وجدّه

عن المفضَّل قال : كان سببُ قتل الحطيم أن رجلاً من بني حارثةَ بن الحارث بن الخزرج يقال له مالك اغتاله فقتله ، وقيسٌ يومئذ صغيرٌ ، وكان عديٌّ أبو الحطيم أيضاً قُتل قبلَه ، قتله رجل من عبد القيس .

فلمّا بلغ قيسُ بن الحطيم وعرّف أخبار قومه وموضعَ ثأره لم يزل يلتمس غِرّةً من قاتل أبيه وجدّه في المواسم حتّى ظفِر بقاتل أبيه بيثربَ فقتله ، وظفر بقاتل جدّه بذي المَجاز [1] ، فلمّا أصابه وجده في ركبٍ عظيمٍ من قومه ، ولم يكن معه إلاّ رهطٌ من الأوس . فخرج حتّى أتى حُذَيفةَ بن بدر الفَزاري فاستنجده فلم يُنجده ، فأتى خِداشَ بن زهير فنهض معه ببني عامر حتّى أتَوا قاتل عديّ ، فإذا هو واقفٌ على راحلته في السوق ، فطعنه قيسٌ بحربة فقتله ، ثم استمرّ ، فأراده رهطُ الرجل فحالت بنو عامر دونه [2] ، فقال في ذلك قيس بن الحطيم :

ثأرتُ عَديّاً والحَطيمَ فلم أُضِعْ
ولايةَ أشياخٍ جُعلتُ إزاءَها

ضربت بذي الزُرّين ربقةَ مالكٍ
فأبتُ بنفسٍ قد أصبتُ شفاءَها

وسامحني فيها ابنُ عمرو بن عامرٍ
خِداشٌ فأدّى نعمةً وأفاءَها

طعنت ابنَ عبد القيس طعنةَ ثائرٍ
لها نَفَذٌ لولا الشّعاعُ أضاءها

---

(١) ذو المجاز : موضع بعرفة كانت تقام فيه سوق من أسواق العرب في الجاهلية .
(٢) ثمة رواية أخرى في الأغاني في مقتل أبي قيس وجده تختلف عن هذه الرواية بعض الاختلاف .

ملكت بهـا كفّي فأنهرتُ فتْقَهـا
يرى قائمٌ من دونـِها ما وراءَها [1]

إعجاب الرسول بشعره

عن أنس بن مالك قال :

جلس رسولُ الله ﷺ في مجلسٍ ليس فيه إلا خزرجيٌّ ، ثم استنشدهم قصيدةَ قيس بن الخطيم ، يعني قوله :

أتعرفُ رسماً كاطّرادِ المذاهـب　　لِعَمرةَ وَحْشاً غيرَ موقفِ راكبِ

فأنشده بعضُهم إيّاها حتى بلغ إلى قوله :

أجـالِدُهم يومَ الحديقةِ حـاسراً　　كأنّ يدي بالسيفِ مِخراقُ لاعب [2] .

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ فقال : هل كان كما ذكَر ؟ فشهد له ثابتُ ابنُ قيس بن شمّاس وقال له : والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج إلينا يومَ سابع عُرسه عليه غِلالةٌ ومِلحفة مُوَرَّسة [3] فجالدنا كما ذكر .

النابغة يشهد بجودة شعره

قال حسان بن ثابت :

قدِم النابغةُ المدينةَ فدخل السُوق فنزل عن راحلته ، ثم جثا على رُكبتيه ،

---

(١) جعلت إزاءها : جعلت القائم بأمرها . الزر : حد السيف . وفي المطبوعة : بذي الزجين ، والزج أسفل الرمح والضرب لا يكون إلا بالسيف . الربقة : العروة ، وأراد موضعها . النفذ : المنفذ . الشعاع (بفتح الشين) : انتشار الدم . أي ان الطعنة نفذت إلى الجانب الآخر حتى يضيء نفذها خرقها لولا انتشار الدم . انهرت : أوسعت .

(٢) المخراق : لعبة يلهو بها الصبيان .

(٣) المورسة : المصبوغة بالورس وهو الزعفران .

ثم اعتمد على عصاه ثم أنشأ يقول :

عرَفتُ مُنَـــازلاً بعُرَيْتِنَـــاتٍ   فأعلى الجِزعِ للحَيِّ المُبِـنِّ (١)

فقلت : هلك الشيخ ، ورأيته قد تبع قافيةً منكرة .

قال : ويقال إنه قالها في موضعه ، فما زال يُنشِد حتى أتى على آخرها . ثم قال : ألا رجلٌ يُنشد ؟ فتقدم قيسُ بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشد :

أتعرفُ رسماً كاطّراد المذاهب

حتى فرَغ منها . فقال : أنت أشعرُ الناس يا بنَ أخي . قال حسّان . فدخلني منه ، وإني في ذلك لأجدُ القوّةَ في نفسي عليهما ، ثم تقدمتُ فجلست بين يديه فقال : أنشِد ، فوالله إنك لشاعرٌ قبل أن تتكلّم . قال : وكان يعرِفني قبلَ ذلك ، فأنشدتُه ، فقال : أنت أشعر الناس ...

مهاجاته حسّان بن ثابت

عن مصعب قال :

مرّ حسّانُ بن ثابت بليلى بنت الخطيم ــ وقيسُ بن الخطيم أخوها بمكة حين خرجوا يطلبون الحِلفَ في قريش ــ فقال لها حسّان : اظعنّي فالحقي بالحيِّ فقد ظعنوا ، وليت شعري ما خلّفكِ وما شأنُك ؟ أقلَّ ناصرُك أم راث (٢) رافدُك ؟ فلم تُكلّمْه وشتمه نِساؤها ، فذكرها في شعره في يوم الربيع الذي يقول فيه :

لقــد هاج نفسَك أشجانُهـــا   وعاودها اليوم أديانُهـــا

(١) عريتنات : اسم واد . المبن : المقيم .
(٢) راث : أبطأ والريث : الإبطاء .

تذكرتَ ليلى وأنّى بهـا   إذا قُطّعتْ منك أقرانُها [1]

(الخ الأبيات ...)

وهي طويلة فأجابه قيس بن الحطيم بهذه القصيدة التي أوّلُها :

أَجَدَّ بعَمْرةَ غُنْيانُها

وفخر فيها بيوم الرّبيع — وكان لهم — فقال :

ونحـن الفوارسُ يومَ الرّبيـ   ـع قد علِموا كيف فُرسانُها
حِسانُ الوجوه حِدادُ السيو   فِ يبتدر المجدَ شُبّانُهـا

وهي أيضاً طويلة .

وهذا الشعر أعني : أجدّ بعمرة غنيانُها ، فيما قيل يقوله قيس في عمرة بنت رواحة ، وقيل بل قاله في عمرة امرأة كانت لحسان بن ثابت ، وهي عَمرة بنت صامت بن خالد . وكان حسّان ذكر ليلى بنت الحطيم في شعره ، فكافأه قيس بذلك ، وكان هذا في حربهم التي يقال لها يوم الربيع .

مقتلـه

عن المفضَّل أنّ حرب الأوس والخزرج لمّا هدأت ، تذكرت الخزرج قيس بن الحطيم ونكايتَه فيهم ، فتذامروا وتواعدوا قتلَه . فخرج عَشيةً من منزله في مُلاءتين يريد مالاً له بالشَّوط [2] ، حتى مرّ بأطُم [3] بني حارثة ، فرُمي من الأطم بثلاثة أسهم ، فوقع أحدُها في صَدره ، فصاح صيحةً سمعها رهطُه ، فجاءوا فحملوه إلى مَنزله ، فلم يَروا له كُفْئاً إلا أبا صعصعةَ يزيدَ بن عوف بن مُدرك النّجّاري ، فاندسّ إليه رجلٌ حتى اغتاله في منزله ،

---

(١) الأديان ج دين : الداء ، يريد داء حبه القديم .

(٢) الشوط : بستان بالمدينة .

(٣) الأطم : الحصن .

فضرَب عُنُقَه واشتمل على رأسه ، فأتى به قيساً وهو بآخرِ رمقٍ ، فألقاه بين يديه وقال : يا قيس قد أدركت بثأرك ، فقال : عضضت ... إن كانَ غيرَ أبي صعصعة ، فقال : هو أبو صعصعة ، وأراه الرأس . فلم يلبث قيس بعد ذلك أن مـــات .

* * *

- ٣٤ -

أبو قيس بن الأسلت

(الأغاني ج ١٧ ص ١١٧ وما بعدها)

الشاعر

أبو قيس لم يقع إليّ اسمُه (١) غير ابن الأسْلَت ، والأسلت لقبُ أبيه ، واسمُه عامر بن جُشم .... بن الأوْس ...

وهو شاعرٌ من شعراء الجاهلية ، وكانت الأوس قد أسندت إليه حربَها ، وجعلته رئيساً عليها ، فكفى وساد . وأسلم ابنُه عُقبة بن أبي قيس واستُشهِد يومَ القادسيّة .

مشاركته في يوم بُعاث

قال هشامُ بن الكلبيّ : كانت الأوسُ قد أسندُوا أمرهم في يوم بُعاث إلى أبي قيس بن الأسلت الوائليّ ، فقام في حربهم وآثرها على كلّ أمرٍ حتى شحَب وتغيّر ، ولبث أشهراً لا يقرَب امرأةً . ثم إنّه جاء ليلةً فدقّ على امرأته ،

---

(١) في جمهرة الأنساب أن اسم الشاعر صيفي بن عامر ، وقد خفي اسمه على أبي الفرج .

وهي كَبْشَةُ بنتُ ضَمْرة ... ففتحت له ، فأهوى إليها بيده ، فدفعته وأنكرتْه ، فقال : أنا أبو قيس . فقالت : والله ما عرفتُك حتّى تكلّمت . فقال في ذلك أبو قيس هذه القصيدة (أي القصيدة التي منها الصوت المذكور قبل الترجمة) وأوّلها :

قالتْ ولم تَقصِدْ لقِيلِ الخَنا مهلاً فقد أبلغتَ أسماعي
استنكرتْ لوناً له شاحِباً والحربُ غُولٌ ذاتُ أوجاعِ
من يَذُقِ الحربَ يَجِدْ طعمَها مُرّاً وتتركْه بِجَعجاعِ (1)

يوم بُعاث

(عن طائفة من الرواة)

أنّ الأوس كانت استعانت ببني قُريظة والنَضير في حروبهم التي كانت بينهم وبين الخزرج ، وبلغ ذلك الخزرج فبعثت إليهم : إنّ الأوسَ - فيما بلغنا - قد استعانت بكم علينا ، ولن يُعجزَنا أن نستعينَ بأعدادكم وأكثرَ منكم من العرب . فإن ظفِرنا بكم فذاك ما تكرَهُون ، وإن ظفرتم لم نَنَم عن الطلب أبداً ، فتصيروا إلى ما تكرهون ، ويَشغلكم من شأننا ما أنتم الآنَ منه خالُون ، وأسلَمُ لكم من ذلك أن تَدَعونا وتُخلّوا بيننَا وبين إخواننا .

فلمّا سمعوا ذلك علموا أنه الحقُّ ، فأرسلوا إلى الخزرج : إنّه قد كان الذي بَلغكم ، والتمست الأوسُ نصرَنا ، وما كنّا لِنَنْصُرَهم عليكم أبداً . فقالت لهم الخزرج : فإن كان ذلك كذلك فابعثُوا إلينا برهائن تكون في أيدينا . فبعثوا إليهم أربعين غلاماً منهم ، ففرّقهم الخزرج في دُورهم فمكثوا بذلك مـدّةً .

ثم إنّ عمرو بن النعمان البيَاضيّ قال لقومه بَياضَة : إنّ عامراً أنزلكم

(1) الخنا : الفحش . الجعجاع : الموضع الضيق الخشن .

منزلَ سَوْءٍ بينَ سَبخة ومَفازة ، وإنّه واللهِ لا يَمَسُّ رأسي غُسْلٌ حتى أُنزِلَكم منازِلَ بني قُريظةَ والنضير ، على عَذْب الماء وكريم النخل ، ثمّ راسلهم : إمّا أن تُخلوا بيننا وبين دياركم نَسكُنُها ، وإمّا أن نقتل رُهُنَكم .

فهمُّوا أن يخرجوا من ديارهم ، فقال لهم كعب بن أسد القُرَظيّ : يا قومُ ، امنعوا ديارَكم وخلّوه يقتل الرُهنَ ، واللهِ ما هي إلاّ ليلةٌ يُصيبُ فيها أحدُكم امرأتَه حتى يُولَد له غُلامٌ مثلُ أحد الرُهن . فاجتمع رأيُهم على ذلك فأرسلوا إلى عمرو : بألاّ نُسلّم لك دُورنا ، وانظُروا الذي عاهدتمونا عليه في رُهننا فقُوموا لنا به .

فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم ، هو ومن أطاعه من الخزرج ، فقتلوهم . وأبى عبدُ الله بن أُبَيّ ، وكان سيّداً حليماً ، وقال : هذا عُقوقٌ ومأثَمٌ وبَغيٌ ، فلستُ مُعيناً عليه ، ولا أحدٌ من قومي أطاعني . وكان عنده في الرُهن سُليم بن أسد القُرظيّ ، وهو جَدّ محمد بن كعب القرظي ، فخلّى عنه . وأطلق ناسٌ من الخزرج نفراً فلحِقوا بأهليهم ، فناوشت الأوس الخزرج يومَ قتل الرهن شيئاً من قتالٍ غير كبير .

واجتمعت قُريظة والنضير إلى كعب بن أسد ، أخي بني عمرو بن قُريظة ، ثم توامروا أن يُعينوا الأوس على الخزرج ، فبعث إلى الأوس بذلك ، ثم أجمعوا عليه ، على أن ينزِل كلٌّ أهل بيتٍ من النَبيت [1] على بيت من قريظة والنضير ، فنزلوا معهم في دُورهم ، وأرسلوا إلى النَبيت يأمرونهم بإتيانهم ، وتعاهدوا ألاّ يُسلِموهم أبداً وأن يقاتلوا معهم حتى لا يبقى منهم أحدٌ .

فجاءتهم النبيت فنزلوا مع قريظة والنضير في بيوتهم ، ثم أرسلوا إلى سائر الأوس في الحرب والقيام معهم على الخزرج فأجابوهم إلى ذلك . فاجتمع الملأ منهم واستحكم أمرهم وجَدّوا في حربهم ، ودخلت معهم قبائل من أهل

---

(١) النبيت : حي من الأوس .

المدينة ، منهم بنو ثعلبة — وهم من غسّان — وبنو زَعُوراء ، وهم من غسّـــان .

فلمّا سمعت بذلك الخزرج اجتمعوا ثم خرجوا وفيهم عمرو بن النعمان البياضيّ ، وعمرو بن الجَمُوح السَلَمِيّ [1] ، حتى جاؤوا عبد الله بن أُبَيّ وقالوا له : قد كان الذي بلغك من أمر الأوس وأمر قريظة والنضير واجتماعهم على حربنا ، وإنّا نرى أن نُقاتلهم ، فإن هزمناهم لم يُحرِزْ أحدٌ منهم مَعقلِه ولا مَلجأه حتى لا يبقى منهم أحد .

فلمّا فرغوا من مقَالتهم قام عبد الله بن أبيّ خطيباً وقال : إنّ هذا بَغيٌ منكم على قومكم وعُقوقٌ ، ووالله ما أُحِبّ أنْ رِجْلاً [2] من جَرادٍ لقيناهم . وقد بلغني أنّهم يقولون : هؤلاء قومُنا منعونا الحياة أفيمنعوننـــا الموت ! والله إنِي أرى قوماً لا ينتهُون أو يُهلكوا عامّتكم ، وإنّي لأخاف إن قاتلوكم أن يُنصَروا عليكم لبغيكم عليهم ، فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم ، فإذا ولّوا فخلوا عنهم ، فإذا هزموكم فدخلتُم أدنى البيوت خلّوا عنكم .

فقال له عمرو بن النعمان : انتفخ واللهِ سَحرُك [3] يا أبا الحارث حين بلغك حِلف الأوس قُريظة والنضير . فقال عبد الله : واللهِ لأحضَرتكم أبداً ، ولا أحدٌ أطاعني أبداً ، ولكأنّي أنظر إليك قتيلاً تحملك أربعةٌ في عَبـــاءة .

وتابع عبدَ الله بن أُبَيّ رجالٌ من الخزرج ، منهم عمرو بن الجموح الحَرامِيّ . واجتمع كلام الخزرج على أن رأّسوا عليهم عمرو بن النعمان البياضيّ وولّوه أمر حربهم ، ولبثت الأوس والخزرج أربعين ليلةً يتصنّعون

(١) السلمي : نسبة إلى سلمة بن سعد ، بطن من الخزرج .
(٢) الرجل من الجراد : القطعة العظيمة منه .
(٣) انتفخ سحره : جبن وخاف . والسحر : الرئة .

للحرب ويجمع بعضُهم لبعض ويُرسلون إلى حلفائهم من قبائل العرب . فأرسلت الخزرج إلى جُهَينة وأشجع ، فكان الذي ذهب إلى أشجع ثابت بن قيس بن شَمّاس ، فأجابوه وأقبلوا إليهم ، وأقبلت جُهينة إليهم أيضاً . وأرسلت الأوس إلى مُزينة ، وذهب حُضَير الكتائب الأشهليّ إلى أبي قيس بن الأسلت فأمره أن يجمع له أوس الله فجمعهم له أبو قيس فقام حُضَير ، فاعتمد على قوسه ، وعليه نَمِرة [١] ، تَشِفُّ [٢] عن عورته ، فحرّضهم وأمرهم بالجِدّ في حربهم ، وذكر ما صنعت بهم الخزرج من إخراج النَّبيت وإذلال من تخلّف من سائر الأوس ، في كلام كثير .

فجعل كلّما ذكر ما صنعت بهم الخزرج وما ركبوه منهم يَستشيط ويَحمى ... فأجابته أوس الله بالذي يحبّ من النُّصرة والمؤازرة والجِدّ في الحرب .

عن خير ، عن أشياخ من قومه : أنّ الأوس اجتمعت يومئذ إلى حضير بموضع يقال له الجباة ، فأجالوا الرأي ، فقالت الأوس : إن ظفرنا بالخزرج لم نُبق منهم أحداً ولم نُقاتلهم كما كنّا نقاتلهم . فقال حضير : يا معشر الأوس ، ما سُمّيتم الأوس إلاّ لأنكم تَؤُوسون [٣] الأمور الواسعة . ثم قال :

يا قومِ قد أصبحتمُ دَوارا لِمعشرٍ قد قَتلوا الخِيارا
يُوشك أن يستأصِلوا الدِيارا [٤]

قال : ولما اجتمعوا بالجباة طرحوا بين أيديهم تمراً وجعلوا يأكلون ،

---

(١) النمرة : بردة من صوف .
(٢) كذا في المطبوعة ولعلها : تكشف .
(٣) آسى يؤوس أوساً : أعطاه وعوضه .
(٤) دوار ، بفتح الدال وضمها بتخفيف الواو وقد تشدد : اسم صنم كانت العرب تطوف حوله .
والدوار أيضاً : مستدار رمل تدور حوله الوحش .

وحُضير الكتائب جالسٌ وعليه بُردة له قد اشتمل بها الصَمّاء [1] ، وما يأكلُ معهم ولا يدنو إلى التمر غضباً وحَنَقاً . فقال : يا قوم ، اعقدوا لأبي قيس بن الأسلت . فقال لهم أبو قيس : لا أقبل ذلك ، فإنّي لم أُرَأَّسْ على قومٍ في حربٍ قطُّ إلاّ هُزموا وتشاءموا برِياستي . وجعلوا ينظرون إلى حُضير واعتزاله أكلهم واشتغاله بما هم فيه من أمر الحرب ...

وأجابت إلى ذلك أوسُ مَناة وجَدُّوا في الموازرة والمظاهرة . وقدِمت مُزينة على الأوس ، فانطلق حضير وأبو عامر الراهب بن صيفيّ إلى أبي قيس بن الأسلت فقالا : قد جاءتنا مُزينة واجتمع إلينا من أهل يثرب ما لا قِبَل للخزرج به ، فما الرأيُ إن نحن ظهرنا عليهم : الإنجازُ أم البَقيّة [2] ؟ فقال أبو قيس : بل البقيّة . فقال أبو عامر : والله لوَدِدتُ أنّ مكانَهم ثعلباً ضَبّاحاً [3] . فقال أبو قيس : اقتلُوهم حتّى يقولوا : بزا بزا – كلمة كانوا يقولونها إذا غُلبوا – فتشاجروا في ذلك ، وأقسم حُضير ألاّ يشرب الخمر أو يظهرَ ويهدِم مُزاحِماً ، أُطُم [4] عبد الله بن أُبَي .

فلبثوا شهرين يُعدّون ويَستعدّون ، ثم التقَوا ببُعاثٍ ، وتخلّف عن الأوس بنو حارثة بن الحارث ، فأرسلوا إلى الخزرج : إنّا واللهِ ما نريدُ قتالكم . فبعثوا إليهم أن ابعثوا إلينا برُهُن منكم يكونون في أيدينا ، فبعثوا إليهم اثني عشر رجلاً ، منهم خَديج ، أبو رافع بن خديج .

وبُعاث من أموال بني قُريظة ، فيها مزرعة يُقال لها قَوْرى ، فلذلك تُدعى بُعاث الحرب .

وحشد الحيّان فلم يتخلّف عنهم إلاّ مَن لا ذِكْر له . ولم يكونوا حشَدوا

---

(١) اشتمال الصماء : أن تجلل جسدك بثوبك .
(٢) أراد : هل نجهز عليهم أم نكف عنهم بعد أن ننتصر عليهم .
(٣) الضباح : صوت الثعلب .
(٤) الأطم : الحصن .

قبل ذلك في يوم التقوا فيه ، فلما رأت الأوسُ الخزرج أعظموهم وقالوا لحُضَير : يا أبا أُسَيْد ، لو حـاجزتَ القوم ، وبعثت إلى سَن تخلّف من حُلفائك من مُزينة ؟ فطرح قوساً كانت في يده ثم قال : أنتظر مُزينة ، وقد نظر إليَّ القومُ ونظرتُ إليهم ! الموتُ قبلَ ذلك .

ثم حملَ وحملوا ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت الأوسُ حينَ وجدوا مَسَّ السِلاح ، فولّوا مُصْعِدين في حَرّة قَورى نحوَ العُرَيض [1] ، وذلك في طريق نجد ، فنزل حُضير ، وصاحت بهم الخزرج : أين الفِرار ؟ ألا إنَّ نجداً سَنة – أي مُجدِب – يُعيّرونهم .

فلمّا سمع حُضير طعن بسِنان رُمحه فَخِذَه ونزل وصاح : واعَقْراه ، والله لا أَرِيمُ حتى أُقتلَ ، فإن شئتم يا معشرَ الأوس أن تُسْلموني فافعلوا .

فتعطّفت عليه الأوس ، وقام على رأسه غلامان من بني عبد الأشهل ... فقاتلا حتى قُتِلا ، وأقبل سهمٌ حتى أصاب عمرَو بن النعمان ، رأس الخزرج ، لا يُدرى من رمَى به ، إلاّ أنّ بني قُريظة تزعمُ أنه سهم رجلٍ يُقال له أبو لُبابة ، فقتله ...

وانهزمت الخزرج ووضعت الأوس فيهم السلاح ، وصاح صائح : يا معشر الأوس ، أَسْجِحوا [2] ، ولا تُهلِكوا إخوتكم ، فجِوارهم خيرٌ من جوار الثعالب .

فتناهت الأوس وكفّت عن سَلبهم ، بعد إثخانٍ فيهم ، وسلبتهم قُريظة والنَضير ، وحملت الأوس حضيراً من الجِراح الّتي به ، وهم يرتجزون حولَه ويقولون :

كَتيبةٌ زيّنها مَولاها — لا كَهلُها هِدٌّ ولا فتاها [3]

(١) قورى : موضع بظاهر المدينة . العريض : واد بالمدينة .

(٢) أسجحوا : أحسنوا العفو .

(٣) الهد : الضعيف .

وجعلت الأوس تُحرّق على الخزرج نخلها ودُورها ، فخرج سعد بن مُعاذ الأشهليّ حتى وقف على باب بني سَلِمة وأجارهم وأموالَهم جزاءً لهم بيوم الرَّعْل ، وكان للخزرج على الأوس يومٌ يقال له يوم مُغلس ومُضَرِّس ، وكان سعد بن معاذ حُمل يومئذٍ جريحاً إلى عمرو بن الجَموح الحَراميّ ، فمَنّ عليه وأجاره وأخاه يومَ رَعل ، وهو على الأوس ، من القَطعِ والحَرْق ، فكافأه سعدٌ بمثل ذلكٍ في يوم بُعاث .

وأقسم كعب بن أسد القرظيّ لَيُذِلَّنّ عبد الله بن أُبَيّ ولَيحلِقَنّ رأسَه تحت مُزاحم ، (أطم عبد الله بن أبي) ، فناداه كعب : انزِل يا عدوَّ الله . فقال له عبد الله : أَنْشُدُكَ اللهَ وما خَذّلتُ عنكم . فسأل عمّا قال فوجده حَقّاً فرجع عنه ...

وخرج حُضير الكتائب وأبو عامر الراهب حتى أتيا أبا قيس بن الأسلت ، بعد الهزيمة ، فقال له حضير : يا أبا قيس ، إن رأيتَ أن تأتي الخزرج قصراً قصراً وداراً داراً ، نَقتلُ ونَهدِم ، حتى لا يبقى منهم أحد . فقال أبو قيس : والله لا نَفعل ذلك . فغضب حضير وقال : ما سُمِّيتُم الأوس إلاّ لأنّكم تَؤُوسون الأمر أوساً (١) ، ولو ظفرت منّا الخزرج بمثلها ما أقالوناها ، ثم انصرف إلى الأوس فأمرهم بالرجوع إلى ديارهم .

وكان حضير جُرح يومئذٍ جراحةً شديدة ، فذهب به كليب بن صَيفيّ ابن عبد الأشهل إلى منزله في بنِي أمية بن زيد ، فلبث عنده أياماً ثم مات، من الجراحة التي كانت به ...

وأسر أبو قيس بن الأسات يومئذٍ مُخلّد بن الصامت الساعدي ، أبا

---

(١) في كتب اللغة : آس يؤوس : أعطى وعوض ، ولكن عبارة حضير هنا لا تدل على هذا المعنى وانما تنصرف إلى معنى الرفق والمؤاساة .

مَسْلَمة بن مُخَلَّد ، فاجتمع إليه ناسٌ من قومه ومن مُزينة ومن يهود فقالوا : اقتلْه ، فأبى وخلّى سبيله ، وأنشأ يقول :

أسرتُ مُخَلَّداً فعفوتُ عنه ... وعند اللهِ صالحُ ما أتيتُ
مُزينةُ عندَه ويهودُ قورى ... وقومي كلَّ ذلكمُ كفيتُ

* * *

- ٣٥ -

أُحَيحَة بن الجُلاح

(الأغاني ج ١٥ ص ٣٧ وما بعدها)

الشاعر :

هو أُحَيحة بن الجُلاح بن الحَريش بن جَحْجَبي ... بن الأوس . ويكنى أحيحة أبا عمرو .

أحيحة وتُبّع الحميريّ

عن الشرْقي بن القَطامي وغيره :

أقبل تُبّعٌ الأخير ، وهو أبو كَرِب بن حسّان بن أسعد الحميريّ ، من اليمن سائراً يريد المشرق ، كما كانت التبابعة تفعل . فمرّ بالمدينة فخلّف بها ابناً له ، ومضى حتّى قدِم الشام ، ثم سار من الشام حتّى قدم العراق ، فنزل بالمُشَقَّر [١] . فقُتل ابنه غِيلةً بالمدينة ، فبلغه ، وهو بالمشقّر ، مقتل ابنه فكرّ راجعاً إلى المدينة ...

(١) المشقر : حصن عظيم بالبحرين لقبيلة عبد القيس .

ثم أقبل حتى دخل المدينة ، وهو مُجمعٌ على إخرابها وقطع نخلها واستئصال أهلها وسبي الذُرِّيّة ، فنزل بسفح أُحُد فاحتفر بها بئراً فهي البئر التي يقال لها إلى اليوم بئر الملك — ثم أرسل إلى أشراف أهل المدينة ليأتوه ، فكان فيمن أرسل إليه زيد بن ضُبَيعة بن زيد بن عمرو بن عوف ، وابن عمّه زيد بن أميّة بن زيد ، وابن عمه زيد بن عبيد بن زيد ، وكانوا يُسمّون الأزياد ، وأحيحة بن الجُلاح .

فلما جاء رسوله قال الأزياد : إنّما أرسل إلينا ليُملّكنا على أهل يثرب . فقال أحيحة : واللهِ ما دعاكم لخير وقال :

ليت حَظّي من أبي كَرِبٍ   أن يَرُدَّ خَيرُه خَبَلَهْ

فذهبت مثلاً . وكان يقال إنّ مع أحيحة تابعاً من الجنّ يُعلمه الخبر ، لكثرة صوابه . لأنّه كان لا يظنّ شيئاً فيخبر به قومه إلاّ كان كما يقول .

فخرجوا إليه . وخرج أحيحة ومعه قَينةٌ له وخِباءٌ ، فضرب الخباء وجُعل فيه القينة والخمر . ثم خرج حتى استأذن على تُبّع ، فأذِن له ، وأجلسه معه على زِرْبيّة [1] تحته ، وتحدّث معه ، وسأله عن أمواله بالمدينة ، فجعل يُخبره عنها ، وجعل تُبّع كلّما أخبره عن شيء منها يقول : كلّ ذلك على هذه الزربيّة ، يريد بذلك تُبّع قتل أحيحة . ففطن أحيحة أنه يريد قتله ، فخرج من عنده فدخل خباءه ، فشرب الخمر وقرض أبياتاً وأمر القينة أن تُغنّيه بها ، وجعل تُبّع عليه حرَساً ، وكانت قَينته تدعى مُليكة فقال :

يَشتاقُ قلبي إلى مُليكة لو   أمست قريباً ممّن يُطالبُها

الأبيات [2] . وزاد فيها :

---

(١) الزربية : البساط .

(٢) قوله : الأبيات ، إشارة إلى أبيات الصوت السابقة على الترجمة وهي من شعر أحيحة وغناه ابن سريج .

لِتَبْكِني قَينـةٌ ومِزهرُهــا ولتبكِني قَهوةٌ وشاربُهــا
ولْتَبكِني ناقــةٌ إذا رُحِلــت وغاب في سَرْدَحٍ مَناكبُهــا
ولتبكني عُصبةٌ إذا جُمعــت لم يعلم الناسُ ما عواقبهــا [1]

فلم تزل القينة تغنّيه بذلك يومَه وعامّةَ ليلته . فلمّا نام الحُرّاس قال لها : إنّي ذاهبٌ إلى أهلي فشُدّي عليك الخباء ، فإذا جاء رسول الملك فقولي : هو نائم ، فإذا أبَوا إلاّ أن يُوقظوني فقولي : قد رجع إلى أهله وأرسلني إلى الملك برسالة . فإن ذهبوا بك إليه فقولي له : يقول لك أحيحة : اغدِر بقَينةٍ أو دَعْ .

ثم انطلق فتحصّن في أُطمِه الضحيان ، وأرسل تُبّع من جوف الليل إلى الأزياد فقتلهم على فَقارة [2] من فَقار تلك الحرَّة . وأرسل إلى أحيحة ليقتله فخرجت إليهم القينة فقالت : هو راقدٌ . فانصرفوا وتردّدوا عليها مراراً . كلَّ ذلك تقول : هو راقد . ثم عادوا فقالوا : لَتُوقِظِنّه أو لَنَدْخُلَنَّ عليك . قالت : فإنه قد رجَع إلى أهله وأرسلني إلى الملك برسالة . فذهبوا بها إلى الملك ، فلمّا دخلت عليه سألها عنه فأخبرته خبره وقالت : يقول لك : اغدِر بقَينةٍ أو دَعْ . فذهبت كلمة أحيحة هذه مثلاً . فجرّد له كتيبةً من خيله ، ثم أرسلهم في طلبه ، فوجدوه قد تحصّن في أُطمه ، فحاصروه ثلاثاً ، يقاتلهم بالنهار ويرميهم بالنَبل والحجارة ، ويرمي إليهم بالليل بالتمر .

فلمّا مضت الثلاث رجعوا إلى تُبّع فقالوا : بعثتَنا إلى رجلٍ يقاتلُنا بالنهار ويَضيفُنا بالليل . فتركه وأمرهم أن يُحرّقوا نَخله .

وشَبّت الحرب بين أهل المدينة : أوسها وخزرجها ويهودها ، وبين تُبّع ، وتحصّنوا في الآطام . فخرج رجلٌ من أصحاب تُبّع حتى جاء بني

---

(١) السردح : الأرض المستوية اللينة .
(٢) الفقارة : بفتح الفاء ، والفقرة : بكسر الفاء وفتحها : ما انتضد من عظام الصلب ، شبه بها ما ارتفع من الحرة .

عَديّ بن النجّار ، وهم متَحصّنون في أُطمهم – الذي كان في قِبلـــة مسجدهم – فدخل حديقةً من حدائقهم ، فرَقِيَ عَذْقاً منها يَجُدُّها (١) ، فاطّلع إليه رجلٌ من بني عديّ بن النجّار من الأطم يقال له أحمر أو صخر بن سليمان من بني سَلِمَة ، فنزل إليه فضربه بمِنجل حتى قتله ، ثم ألقاه في بئر . وقال : جاء يجدّ نخلنا ، وإنّما النخل لِمَن أبَره (٢) . فأرسلها مثلاً . فلما انتهى ذلك إلى تُبّع زاده حَنَقاً وجرّد إلى بني النجّار جريدةً من خيله ، فقاتلهم بنو النجّار ، ورئيسهم عمرو بن طَلّة ، أخو بني معاوية بن مالك بن النجّار . وجاء بعض تلك الخيول إلى بني عديّ ، وهم متحصّنون في أطمهم الذي في قِبلة مسجدهم ، فرامَوا بني عديّ بالنَبل ، فجعلت نبلهم تقع في جدار الأطم ، فكان على أطمهم مثل الشَعر من النبل ، فسُمّي ذلك الأطم : الأشعر ، ولم تزل بقايا النبل فيه حتى جاء الله عزّ وجلّ بالإسلام . وجاء بعض جنوده إلى بني الحارث بن الخزرج فجذموا نخلهم من أنصافها ، فسُمّيت تلك النخل جُذمـان . وجدعوا هم فرساً لتُبّع ، فكان تُبّع يقول : لقد صنع بي أهل يثرب شيئاً ما صنعه بي أحدٌ : قتلوا ابني وصاحبي ، وجدعوا فرسي .

قالوا : فبينا تُبّعٌ يريد إخراب المدينة وقتل المقاتلة وسَبي الذُريّة وقطع الأموال ، أتاه حَبْران من اليهود فقالا : أيها الملك ، انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة ، وإنّا نجد اسمها كثيراً في كتابنا ، وأنّها مُهاجَر نبيّ من بني إسماعيل اسمه أحمد ، يخرج من هذا الحرم من نحو البيت الذي بمكة ، تكون داره وقراره ، ويتبعه أكثر أهلها . فأعجبه ما سمع منهما ، وكفّ عن الذي أراد بالمدينة وأهلها ، وصدّق الحَبْرَين بما حدّثاه ، وانصرف تبّع عما كان أراد بها ، وكفّ عن حربهم ...

---

(١) العذق : بفتح العين ، النخلة بحملها ، وبكسرها : القنو منها . يجدها : يقطع ثمرها .
(٢) أبر النخل : إصلاحه ، وتشذيبه .

نزاعه مع بني النجّار

عن أيوب بن عبد الرحمن : أنّ رجلاً من بني مازن بن النجّار يقال له كعب بن عمرو ، تزوّج امرأة من بني سالم بن عوف ، فكان يختلف إليها ، فقعد له رهطٌ من بني جحجبى بمرصَد ، فضربوه حتى قتلوه أو كادوا ، فأدركه القواقل [١] ، فاستنقذوه . فلمّا بلغ ذلك أخاه عاصم بن عَمرو خرج وخرج معه بنو النجّار ، وخرج أحيحة بن الجلاح ببني عمرو بن عوف ، فالتقوا بالرُحابة [٢] ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل أخا عاصم يومئذ أحيحةُ بن الجلاح ، وكان يكنى أبا وحوحة ، فأصابه في أصحابه حين انهزموا . وطلب عاصمٌ أحيحة حتى انتهى إلى البيوت ، فأدركه عاصم عند باب داره فزجّه بالرمح ، ودخل أحيحةُ الباب ، ووقع الرمحُ في الباب ، ورجع عاصمٌ وأصحابه فمكثوا أيّاماً . ثم إنّ عاصماً طلب أحيحة ليلاً ليقتله في داره ، فبلغ ذلك أحيحةَ ، وقيل له إنّ عاصماً قد رُئي البارحةَ عند الضَّحيان والغابة — وهي أرض لأحيحة . والضَّحيان أطُم له — وكان أُحيحة إذ ذاك سيّدَ قومه من الأوس ، وكان رجلاً صَنَعاً للمال [٣] ، شحيحاً عليه ، يَبيع بيعَ الربا بالمدينة ، حتى كاد يُحيط بأموالهم ، وكان له تسع وتسعون بعيراً ، كلها يُنضَح عليها [٤] ، وكان له بالجُرُف أصوارٌ [٥] من نخلٍ قلّ يومٌ يمرُّ به إلاّ يطّلع فيه [٦] . وكان له أطمان : أطمٌ في قومه يقال له : المُستَظَلّ ، وهو الذي تحصّن فيه حين قاتل تُبّعاً أسعد أبا كرِب الحميري [٧] . وأطمه الضحيان

---

(١) القواقل : بطن من الخزرج ، وهم بنو عنز بن عوف بن عمرو .
(٢) الرحابة : موضع بالمدينة .
(٣) صنع للمال : حاذق في جمعه .
(٤) ينضح عليها : يستقى عليها ومنه يقال : بعير ناضح أي يستقى عليه .
(٥) أصوار ج صور : صغار النخل .
(٦) اطلع النخل وأطلع : خرج طلعه .
(٧) ورد هنا اسم تبع : أبو كرب أسعد ، وذكر في الخبر السابق اسمه : على النحو التالي : أبو=

بالعُصبة (١) ، في أرضه التي يقال لها الغابة . بناه بحجارة سُودٍ وبنى عليه نَبْرةً (٢) بيضاءَ مثل الفِضّة ، ثم جعل عليها مِثلها ، يراها الراكبُ من مَسيرة يوم أو نحوه . وكانت الآطام هي عِزّهم ومَنَعتهم وحصونهم التي يتحرّزون فيها من عدوّهم ...

وكان أُحيحةُ إذا أمسى جلس بحِذاء حِصنه الضحيان ، ثم أرسل كلاباً له تنبحَ دُونَه على من يأتيه ممّن لا يعرف ، حَذراً أن يأتيه عدوٌّ يُصيب منه غِرّةً . فأقبل عاصم بن عَمرو يريده في مجلسه ذلك ليقتلَه بأخيه ، وقد أخذ معه تمراً . فلمّا نبحته الكلابُ حين دنا منه ألقى لها التمر فوقفتْ ، فلمّا رآها أُحيحة قد سكنَت حذِر فقام فدخل حِصنه ، ورماه عاصمٌ بسهمٍ فأحرزه منه الباب ، فوقع السهمُ بالباب . فلمّا سمع أحيحة وقع السهم صرخ في قومه ، فخرج عاصم بن عمرو فأعجزهم حتى أتى قومه .

ثم إنّ أحيحة جمع لبني النجّار ، فأراد أن يغترّهم . فواعده قومُه لذلك . وكانت عند أحيحة سَلمى بنت عمرو ... ، إحدى نساء بني عديّ بن النجّار ، له منها عمرو بن أحيحة ، وهي أمُّ عبد المطّلب بن هاشم ، خَلَف عليها هاشمٌ بعدَ أحيحة ، وكانت امرأة شريفةً لا تنكح الرجال إلاّ وأمرُها بيدها ، إذا كرهت من رجلٍ شيئاً تركته .

فزعم ابن إسحاق أنه حدثّه أيوب بن عبد الرحمن ، وهو أحدُ رهطها ، قال : حدّثني شيخٌ منّا أن أحيحة لمّا أجمع بالغارة على قومها ، ومعها ابنُها عمرو بن أحيحة ، وهو يومئذٍ فطيمٌ أو دون الفطيم ، وهو مع أحيحة في حِصنه ، عمدت إلى ابنها فربطتّه بخيطٍ ، حتى إذا أوجعت الصبيَّ تركته فبات

= كرب بن حسان بن أسعد ، وليس في ثبت تبابعة حمير من عرف بهذا الاسم وانما نجد من سمي حسان بن أسعد (٤٢٠ – ٤٢٥ م) .

(١) العصبة : الموضع الذي فيه منازل بني جحجبى بالمدينة .

(٢) النبرة : كل شيء يقع فوق شيء .

يبكي ، وهي تحمله ، وبات أحيحة معها ساهراً ويقول : ويحكِ ما لا بني ؟ فتقول : والله ما أدري ما له . حتّى إذا ذهب الليلُ أطلقت الخيط عن الصبيّ فنام... فلما هدأ الصبيُّ قالت : وارأساه . فقال أحيحة : هذا واللهِ ما لقيتِ من سهر هذه الليلة . فبات يعصب لها رأسها ويقول : ليس بك بأسٌ . حتى إذا لم يبق من الليل إلاّ أقله قالت له : قُم فنَمْ ، فإنّي أَجِدني صالحة قد ذهب عنّي ما كنت أَجِده . وإنّما فعلتْ به ذلك ليثقُلَ رأسُه ، وليشتدَّ نومُه على طول السهَر .

فلمّا نام قامت وأخذت حبلاً شديداً وأوثقته برأس الحِصن ثم تدلّت منه وانطلقت إلى قومها فأنذرتْهم وأخبرتْهم بالذي أجمع هو وقومه من ذلك . فحذِر القوم وأعدّوا واجتمعوا . فأقبل أُحيحة في قومه فوجد القوم على حذرٍ قد استعدّوا ، فلم يكن بينهم كبيرُ قتال ، ثم رجَع أحيحة فرجعوا عنه ، وقد فقدَها أحيحة حين أصبح . فلمّا رأى القوم على حذر قال : هذا عملُ سلمى ، خدعَتْني حتى بلغت ما أرادت . وسَمّاها قومُها المُتَدلِيّة ، لِتَدلّيها من رأس الحِصن ، فقال في ذلك أحيحة وذكر ما صنعت به سَلمى :

تفهّمْ أيّها الرجلُ الجَهُولُ ... ولا يذهبْ بك الرأيُ الوَبيلُ
فإنّ الجهلَ مَحمله خفيفٌ ... وإنّ الحِلمَ مَحْمَلُه ثقيلُ

* * *

إذا باتت أُعَصِّبُها فنامت ... عليَّ مكانها الحُمّى الشَمُول
لعلَّ عِصابَها يَبغيك حَرباً ... ويأتيهم بعَوْرتك الدليلُ
وقد أعددتُ للحدَثان عَقلاً ... لو انّ المرء تنفعه العقُولُ [1]

* * *

(١) الحمى الشمول : الحمى الباردة التي تصيب صاحبها بالقشعريرة . العقل : الحصن والمعقل .

- ٣٦ -

زهير بن جَناب الكلبيّ

(الأغاني ج ١٩ ص ١٥ وما بعدها)

الشّاعر

زهير بن جَناب ... بن كَلب بن وَبَرة ... بن قضاعة . شاعرٌ جاهليٌّ ، وهو أحد المعمّرين ، وكان سيّد بني كلب وقائدهم في حروبهم ، وكان شُجاعاً مُظفّراً ميمون النَقيبة في غزَواته ، وهو أحدُ مَن ملّ عُمره فشرب الخمر صِرفاً حتّى قتلته .

ولم يُوجَد شاعرٌ في الجاهليّة والإسلام وَلد من الشعراء أكثَرَ ممّن ولد زهيرٌ .

عن مشيخة من الكلبيّين قالوا : عاش زهير بن جَناب بن هُبَل بن عبد الله خمسين ومائتي سنة أوقع فيها مائتي وقعةٍ في العرب ، ولم تجتمع قُضاعة إلاّ عليه وعلى حُنّ بن زيد العُذريّ . ولم يكُن في اليمن أشجع ولا أخطب ولا أوجه عند الملوك من زهير ، وكان يُدعى الكاهن لصحّة رأيه .

الشعراء من ولده

فمنهم مصاد بن أسعد بن جُنادة بن صَهبان بن امرئ القيس بن زهير بن جَناب ، وهو القائل :

تمنيّتَ أن تَلقى لِقاحَ ابن مُحرزٍ ... وقبلَك شامَتها العيونُ النواظرُ
مُمنّحةٌ في الأقربين مُناخَةٌ ... وللضيفِ فيها والصديق مَعاقر
فهلاّ بني عَيناءَ عاينتَ جَمعَهم ... بحالةَ إذ سُدَّت عليك المصَادر (١)

ومنهم حُريث بن عامر بن الحارث بن امرئ القيس بن زهير بن جناب ، وهو القائل :

أرى قومي بني قَطَنٍ أرادوا ... بألاّ يتركُوا بيديَّ مالا
فإن لم أجْزِهم غَيظاً بغيظٍ ... وأُوردْهم على عجَلٍ شِلالا
فليت التغلبيّةَ لم تَلِدْني ... ولا أغنت بما وَلَدت قِبالا (٢)

ومنهم الحَزَنْبَل بن سَلامة بن زهير بن أسعد بن صَهبان بن امرئ القيس ابن زهير بن جناب وهو القائل :

عبثتْ بمنخرِقِ القميص كأنّه ... وَضَحُ الهِلالِ على الخمور مُعذَّل
يا سَلمَ ويحَك والخليلُ مُعاتَبٌ ... أزمعتِ أن تصلِي سِواي وتبخلي
لمّا رأيتِ بعارضيَّ ولِمّتي ... غيرَ المَشيب على الشباب المُبدَل
صَرَمتِ حبلَ فتىً يَهَشُّ إلى الندى ... لو تطلبين نداه لم يَتعلّلِ
إنّا لنصبِرُ عند معتَرَك الوغى ... ونَبُذُّ مَكرُمةَ الكريم المُفْضِلِ (٣)

---

(١) اللقاح ج لقحة : الناقة الحلوب . شامتها : أبصرتها . حالة : اسم موضع .
(٢) شلالا : متفرقين .
(٣) وضح الشمس والقمر : ضوءهما وبياضهما . ولم يتضح لنا المراد في عجز البيت الأول ، ولعل فيه تحريفاً .

ومنهم غَرَيْر بن أبي جابر بن زهير بن جناب ، وهو القائل :

أَبلغْ أبا عمرو وأنتَ عليّ ذو النّعَم الجزيلهْ
أنّا منَعنا أن تَذِلّ بلادُكم وبنو جَديله
وطرقتُهم ليلاً أخبّرهم بهم ومعي وَصيله
فصدقتُهم خبري فطاروا في بلادهم الطويلة (١)

ومنهم عَرفَجَة بن جُنادة بن أُبَيّ بن النعمان بن زهير بن جناب ، وهو القائل :

عفا أبرَقُ العزّاف من أمّ جابر ... فمنُعْرَجُ الوادي عفا فحفيرُ
فروَض ثُوَيرٍ عن يمينِ رَوِيّة ... كأنْ لم تَرَبَّعْه أوانسُ حُور
رِقاقُ الثنايا والوجوهِ كأنّها ... ظِباءُ الفلا في لَحْظِهنّ فُتور

ومنهم المُسَيّب بن رِفْل بن حارثة بن جناب بن قيس بن امرىء القيس بن أبي جابر بن زهير بن جناب ، وهو القائل :

قتلنا يزيدَ بن المهلّب بعدَما ... تمنّيتم أن يَغلِبَ الحقّ باطلُهْ
وما كان منكم في العراق منافقٌ ... عن الدين إلاّ من قُضاعةَ قاتلُه
تجلّله قَحْلٌ بأبيضَ صارمٍ ... حُسامٍ جلا عن شَفرتَيه صياقلُه

يعني بالقحل ابنَ عَيّاش بن شَمِر بن أبي شَراحيل بن غُرير بن أبي جابر ابن زهير بن جناب وهو الذي قتل يزيدَ بن المهلّب .

ومن بني زهير شعراء كثير ذكرت منهم الفُحول دون غيرهم .

---

(١) الوصيلة : الرفقة .

غزوه غـَطـَفان

قال ابن الأعرابي :

كان سبب غزوة زهير بن جناب غـَطفان أنّ بني بـَغيض حين خرجوا من تـِهامة ساروا بأجمَعِـهم ، فتعرّضت لهم صُداء ، وهي قبيلة من مَذْحِـج ، فقاتلوهم ، وبنو بغيض سائرون بأهليهم ونسائهم وأموالهم ، فقاتلوا عن حـَريمهم ، فظهروا على صُداء ، فأوجعوا فيهم ونـَكأوا [1] ، وعـَزّت بنو بغيض بذلك وأثرت وأصابت غنائم ، فلمـّا رأوا ذلك قالوا : أما والله لنـَتـَّخذنّ حـَرَماً مثلَ حرم مكـّةَ لا يـُقتلَ صيدُه ، ولا يـُعضَدُ شجرُه ، ولا يـُهاج عائذُه [2] . فولَـيت ذلك بنو مُرّة بن عوف .

ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه رياحُ بن ظالم ففعلوا ذلك ، وهم على ماءٍ لهم يقال له بُسّ . وبلغ فعلهم وما أجمعوا عليه زهير بن جناب ، وهو يومئذ سيـّد بني كلب ، فقال : واللهِ لا يكون ذلك أبداً وأنا حيٌّ ، ولا أُخلـّي غطفان تتـّخذ حـَرَماً أبداً .

فنادى في قومه ، فاجتمعوا إليه ، فقام فيهم فذكر حال غـَطفان وما بلغه عنها ، وأنّ أكرم مأثرة يعتقدها هو وقومـُه أن يمنعوهم من ذلك ، ويحولوا بينهم وبينه ، فأجابوه ، واستمدّ بني القين من جُشـَم فأبوا أن يغزوا معه ، فسار في قومه حتّى غزا غطفان ، فقاتلهم ، فظفـِر بهم زهيرٌ وأصاب حاجته فيهم ، وأخذ فارساً منهم أسيراً في حـَرَمهم الذي بنوه ، فقال لبعضِ أصحابه : اضرب رقبته . فقال : إنه بـَسْلٌ [3] . فقال زهير : وأبيك ما بـَسْلٌ عليَّ بحـَـــرام .

---

(١) نكأه : جرحه وأثخن فيه .
(٢) لا يهاج عائذه . لا يعتدى على من يلوذ به ويلجأ إليه .
(٣) البسل : الحرام .

ثم قام إليه فضرب عُنقه وعَطّل ذلك الحرمَ ، ثمّ مَنَّ على غطفان وردّ النساء واستاق الأموال ، وقال زهيرٌ في ذلك :

ولم تصبِرْ لنا غَطفانُ لمّا ... تلاقَينا وأُحرِزت النساءُ
فلولا الفضلُ منّا ما رجعتُم ... إلى عَذراءَ شيمتُها الحَياءُ
وكم غادرتمُ بطلاً كَميّاً ... لدى الهَيجاء كان له غَناءُ
فدونَكم ديوناً فاطلبُوها ... وأوتاراً ودونَكم اللِقاءُ
فإنّا حيث لا نَخفى عليكم ... ليُوثٌ حين يَحتَضِر اللِواءُ
فخلّى بعدَها غطفانُ بُسّاً ... وما غطفانُ والأرضُ الفَضاءُ
فقد أضحى لِحَيّ بني جَناب ... فَضاءُ الأرض والماءُ الرَّواءُ (١)

(الأبيات ...)

إيقاع زهير ببكر وتغلب

قال أبو عمرو الشيباني :

كان أبرهة حين طلع نجداً أتاه زهير بن جناب ، فأكرمه أبرهة وفضّله على من أتاه من العرب ، ثم أمّره على ابني وائل : تغلب وبكر . فوَليَهم حتى أصابتهم سنَةٌ شديدة ، فاشتدّ عليهم ما يطلُب منهم زهيرٌ ، فأقام بهم زهير في الجَدْب ومَنعهم من النُجْعة حتى يُؤدّوا ما عليهم ، فكادت مواشيهم تَهلك . فلمّا رأى ذلك ابنُ زَيّابة ــ أحدُ بني تَيم الله بن ثعلبة ، وكان رجلاً فاتكاً ــ بيّت (٢) زهيراً ، وكان نائماً في قُبّة من أَدَم ، فدخل فألفى زهيراً نائماً ، وكان رجلاً عظيم البطن ، فاعتمد التَيْميُّ بالسيف على بطن زهير حتى

(١) الماء الرواء : العذب الكثير .
(٢) بيته : أغار عليه ليلا على غرة .

أخرجه من ظهره ، مارقاً بين الصِّفاق [١] ، وسَلِمت أعفاجُ [٢] بطنه ، وظنّ التيميُّ أنه قد قتله ، وعلم زهيرٌ أنه قد سَلِم ، فتخوّف أن يتحرّك فيُجهزَ عليه ، فسكت .

وانصرف ابن زيّابة إلى قومه فقال لهم : قد والله قتلتُ زهيراً وكَفيتكُموه فسرّهم ذلك . ولمّا علم زهير أنه لم يُقدِم عليه إلاّ عن مَلأٍ من [٣] قومه بكرٍ وتغلبَ ، وإنما مع زهير نفرٌ من قومه بمنزلة الشُرَط ، أمر زهيرٌ قومه فغيّبوه بين عمودين في ثيابٍ ثم أتَوا القوم فقالوا لهم : إنكم قد فعلتم بصاحبنا ما فعلتم ، فأذنوا لنا في دفنه ، ففعلوا . فحملوا زهيراً ملفوفاً في عَمُودين ، والثياب عليه، حتى إذا بَعُدوا عن القوم أخرجوه فلفّفوه في ثيابه ، ثم حفَروا حفيرةً وعمّقوا ودفنوا فيها العمودين ، ثم ساروا ومعهم زهيرٌ . فلمّا بلغ زهير أرض قومه جمع لبكر وتغلب الجُموع ، وبلغهم أنّ زهيراً حيٌّ ، فقال ابن زيّابة :

طَعنةً ما طَعنتُ في غَبَش الليـ ... ـلِ زهيراً وقد توافَى الخُصومَ
حين تَجبي له المواسمَ بكرٌ ... أين بكرٌ وأين منها الحُلـوم
خانني السيفُ ، إذ طعنتُ زهيراً ... وهو سيفٌ مُضَلّلٌ مَشؤومُ

قال : وجمع زهير بني كَلب ومن تجمّع حوله من شُذّاذ العرب والقبائل ومَن أطاعه من أهل اليمن ، فغزا بكراً وتغلب ابنَي وائل ، وهم على ماء يُقال له الحُبَيّ ، وقد كانوا نَذِروا به ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، ثم انهزمت بكر وأسلمت بني تغلب ، فقاتلت شيئاً من قتالٍ ثم انهزمت ، وأسر كليبٌ ومُهَلهل ابنا رَبيعة ، واستيقت الأموال ، وقتلت كلبٌ في تغلب قتلى كثيرةً ، وأسروا جماعةً من فُرسانهم ووجوههم ، وقال زهير بن جناب في ذلك :

---

(١) الصفاق : الجلد الباطن تحت الجلد الظاهر .
(٢) الأعفاج : الأمعاء .
(٣) عن ملأ من قومه : عن رأيهم ورضى منهم .

تبّاً لتغلب أن تُساقَ نساؤُهم سوقَ الإماءِ إلى المواسم عُطّلا
لحقت أوائلُ خيلنا سَرَعانَهم حتى أسرن على الحُبَيّ مُهلهلا [1]

(الأبيات ...)

وقال أيضاً يعيّر بني تغلب بهذه الوقعة في قصيدة أوّلها :

حَيِّ داراً تغيّرت بالجَنابِ أقفرت من كواعبٍ أترابِ

يقول فيها :

أين أين الفِرارُ من حَذَرَ المو تِ وإذ يتّقون بالأسلاب
إذ أسرنا مهلهلاً وأخاه وابنَ عمروٍ في القِدِّ وابنَ شِهابِ
وسبيّنا من تغلبٍ كلَّ بيضا ءَ رقودِ الضُحى برُودِ الرُضاب
يومَ يدعو مُهلهلٌ يا لَبَكرٍ ها أهذي حَفيظةُ الأحسابِ
ويْحَكم ويَحكم أُبيح حِماكم يا بني تغلب أما من ضِرابِ
وهمُ هاربون في كلِّ فَجٍّ كشَريد النّعام فوقَ الروابي
واستدارت رحَى المنايا عليهم بلُيوثٍ من عامرٍ وجَنابِ
طحَنتهم أرحاؤُها بطَحُونٍ ذات ظُفُرٍ حَديدةِ الأنياب
فهمُ بين هاربٍ ليس يَألُو وقتيلٍ مُعَفّرٍ في التُرابِ
فضَلَ العِزُّ عِزّنا حين نسمُو مثلَ فضلِ السّماءِ فوقَ السحاب

بعض ما قاله من الشعر حين طال عمره

أبَنيَّ إن أهلِكْ فقد أورثتكُم مَجداً بَنيّهْ
وتركتكم أبناءُ سا داتٍ زنادُكم وَرِيّه

(١) العطل ج عاطل : المرأة التي لا حلي لها . سرعان الخيل : أوائلها .

ولِكُلِّ ما نال الفتى قد نِلتُه إلاّ التَحيّه
والموتُ خيرٌ للفتى فَلْيَهْلِكَنْ وبه بَقِيّه
من أن يُرى الشيخَ البَجَا لَ وقد تَهادى بالعَشِيّه
ولقد شهدتُ النارَ للأ سلاف تُوقَد في طَمِيّه
ولقد رحلتُ البازلَ الـ كَوْماءَ ليس لها وَلِيّه
وخطبتُ خُطبةَ ماجدٍ غيرِ الضعيف ولا العَيِيّه
ولقد غدوتُ بِمُشْرِفِ الـ قُطْرين لم يَغْمِزْ شَظِيّه
فأصبتُ من بَقَر الجنا بِ ضُحىً ومن حُمُرِ القَفِيّه (١)

وقال ابن الكلبي : وقال زهير في كبره أيضاً :

ألا يا لَقومي لا أرى النجمَ طالعاً ولا الشمسَ إلاّ حاجبي بيَميني
مُعَزِّبَتي عندَ القَفا بعَمُودِها فأقصى نَكِيري أن أقولَ ذَرِيني
أمينٌ على أسرارِهنّ وقد أرى أكونُ على الأسرارِ غيرَ أمين
فَلَلْمَوتُ خيرٌ من حِداجٍ مُوَطَّأٍ مع الظُّعْنِ لا يأتي المحَلَّ لِحِين (٢)

* * *

(١) يقال : فلان واري الزند أي يصاحبه اليمن والخير . يريد بالتحية البقاء أو الملك . البجال : الشيخ الكبير المبجل . طميه : جبل بالبادية ، في طريق مكة . البازل : الناقة التي ظهر نابها في السنة التاسعة . الكوماء : الضخمة السنام . الولية : كل ما ولي ظهر البعير من كساء وغيره . مشرف القطرين : مرتفع الجانبين ، أراد الفرس . غمزت الدابة : ظلعت . الشظية : عظم الساق . القفية : الناحية .

(٢) المعزبة : امرأة تكون مع الشيخ الخرف تكلؤه وتقوم على رعايته . أمين على أسرارهن : أراد أن النساء يتحدثن بين يدي بأسرارهن ويفعلن ما كن قبل ذلك يرهبنني فيه . الحداج والحدج : مركب من مراكب النساء .

- ٣٧ -

ذو الإِصْبع العُدوَاني

(الأغاني الجزء الثالث ، ص ٨٩ وما بعدها)

الشاعر

هو حُرْثَان بن الحارث ... بن عَدْوانَ بن عَمرو بن سَعد بن قيس بن عيلان .... شاعرٌ فارس من قُدماء الشعراء في الجاهليّة ، وله غاراتٌ كثيرة في العرب ووقائعُ مشهورة .

وقوع الشرّ بين بطون عَدْوان وتفانيها

عن الأصمعيّ قال :

نزلتْ عدوانُ على ماءٍ فأحصَوا فيهم سبعين ألف غلامٍ أَغْرلَ[١] سوى من كان مختوناً ، لكثرة عددهم ، ثم وقع بأسُهم بينهم فتفانَوا ، فقال ذو الإصبع :

عَذيرَ الحيّ من عَـــــدْوا ـ نَ كانوا حَيّـــــةَ الأرضِ

(١) الأغرل : الذي لم يختتن .

بغى بعضُهم بعضاً … فلم يُبقوا على بعض
فقد صاروا أحاديثَ … برَفع القَول والخَفْضِ
ومنهم كانت السّادا … ـتُ والمُوفُون بالقَرضِ
ومنهم من يُجيز النا … سَ بالسُّنة والفَرض
ومنهم حَكَمٌ يقضي … فلا يُنْقَض ما يَقضي[1]

قال أبو عمرو :

وكان السبب في تفرّق عَدْوان وقتال بعضهم بعضاً حتى تفانوا أنّ بني ناج بن يَشْكُرَ بن عَدْوانَ أغاروا على بني عَوف بن سعد بن ظَرِب بن عمرو ابن عبّاد[2] بن يشكر بن عَدوان ، ونَذِرت بهم بنو عوف فاقتتلوا ، فقَتل بنو ناجٍ ثمانيةَ نَفَرٍ ، فيهم عُمَير بن مالك سيّد بني عوف ، وقتلت بنو عوف رجلاً منهم يُقال له سِنانُ بن جابر ، وتفرّقوا على حرب . وكان الذي أصابُوه من بني واثلةَ بن عمرو بن عباد ، وكان سيّداً . فاصطلح سائرُ الناس على الدِيات أن يتعاطُوها ورضُوا بذلك . وأبى مَرِير بن جابر أن يقبل بسِنان بن جابر دِيةً واعتزل هو وبنو أبيه ومَن أطاعهم ومَن والاهم ، وتَبِعه على ذلك كَرِب بن خالد ، أحد بني عَبْس بن ناج ، فمشى إليهما ذو الإصبع وسألهما قَبولَ الدية وقال : قد قُتل منّا ثمانيةُ نفرٍ فقَبِلنا الدِّية وقُتل منكم رجلٌ فاقبَلوا دِيَتَه . فأَبَيا ذلك وأقاما على الحرب ، فكان ذلك مبدأَ حرب بعضهم بعضاً حتى تفانَوا وتقطَّعوا . فقال ذو الأصبع في ذلك :

---

(١) العذير : العاذر والحال التي تحاولها تعذر عليها ، يريد ما عذر عدوان في بغي بعضها على بعض . حية الأرض : يقال للرجل حية الأرض يريدون أنه قوي منيع الجانب . برفع القول والخفض : أراد أنهم صاروا أحاديث للناس يرفعون بها أصواتهم تارة ويخفضونها تارة أخرى . ومنهم حكم يغضي : أراد به عامر بن الظرب العدواني الذي كانت العرب تحتكم إليه .

(٢) في جمهرة أنساب العرب : عياذ .

ويا بُؤْسَ للأيّام والدَّهـر هالكـاً		وصَرْف الليالي يختلِفْن كذالكا
أبعدَ بني نـاجٍ وسَعيك فيهـم		فلا تُتْبِعَنْ عَينيك ما كان هالكـا
إذا قلتُ معروفاً لِأُصلحَ بينهـم		يقول مَريرٌ : لا أحاولُ ذلكـا
فأضحَوا كظهـر العَوْد جُبَّ سَنامُه		تَحومُ عليه الطيرُ أحدبَ باركا
فإن تكُ عَدوانُ بن عمروٍ تفرقـتْ		فقد غَنِيتْ دهراً مُلوكاً هُنالكا[1]

قال أبو عمرو : وقال ذو الإصبع يرثي قومه :

وليس المرءُ في شـيءٍ		من الإبرام والنَّـقض
إذا يفعـلُ شيئـاً خـا		ـلـه يَقضي وما يَـقضي
جديدُ العيش ملبـوسٌ		وقد يُوشِك أن يُنضَى[2].

وقد مضى بعضُ هذه القصيدة ... وتَمامُها :

وأَمـرُ اليـوم أُصْلِحْـهُ		ولا تَعرِضْ لِما يمـضي
فبينـا المـرءُ في عيـشٍ		لـه من عِيشـةٍ خَفْـضِ
أتـاه طَبَـقٌ يومـاً		على مَزْلَقـةٍ دَحْـضِ
وهم كانوا فـلا تُكـذَبْ		ذوي القـوّة والنَّهْـض
وهم إن وَلَـدوا أَشْبَـوا		بِسرِّ الحَسبَ المَحْـضِ
لهـم كانت أعـالي الأرض فالِسّرّانِ فالِعـرْضِ
إلى ما حـازه الحَـزْنُ		فمـا أَسْهَـلَ للحَمْـضِ
إلى الكَـفْـرَيـن مـن نَخْلـةَ فالـدَّاءة فالمَـرْضِ
لهم كان جِمامُ المـا		ـء لا المُزْجَـى ولا البَـرْضِ

(١) العود : الجمل المسنّ . جبّ : قطع .
(٢) أن ينضى : أن يبلى ، وعلى هذه الرواية في البيت إقواء ، وهو في الأصل اختلاف حركة الروي بين ضم وكسر ، وفي أحوال قليلة يجتمع النصب مع واحد منها .

فكان النـــاس إذ هَمُّـــــــوا بيُسرٍ خاشـــــعٍ مُغضي
تنــــــــادَوا ثم ســـــــاروا برئيس لهـــــمُ مُــــرضي
فمـــن ساجَلَهـــمْ حَرْبـــاً فــفي الخَيبـــــة والخَفْضِ
وهم نالوا على الشَّنْــــــــآ ـ ن والشَّحنـــــاء والبُغْـض
مَعاليَ لم ينلْهــــــا النـــــا ـ سُ في بَسْطٍ ولا قَبضِ (١)

معاداته ابن عمه

قال أبو عمرو :

وكان لذي الإصبع ابنُ عمّ يُعاديه ، فكان يتدسّس إلى مَكارهه ويمشي به إلى أعدائه ويُؤلِّب عليه ويسعى بينه وبين بني عمه ويَبغيه عندهم شرّاً ، فقال فيه :

يا صاحـــبيَّ قِفـــا قليـــلاً وتَـخَبَّـــرا عـــنّي لَـمِيــــا
عمّـــن أصـــابتْ قلبَــــه في مَرّها فغَـــدا نَـكِيســـا
وليَ ابنُ عـــمٍّ لا يـــــزا ل إليَّ مُـنكَرُه دَسيســـــا
دَبَّـــــتْ لـــــه فأَحـــسّ بَعْـــدَ البُـرءِ من سَقَـمٍ رَسيسـا
إمّا عَــلانيــــــــةً وإمّــــا مُخْـمَراً أَكْـلاً وَهِيـــا

(١) الطبق : الشدة . مكان دَحض : زلق ، والمدحضة : المزلّة . أشبى الرجل : ولد له ولد كيّس . السر : وادٍ بين هجَر وذات العُشَر ، وهو أيضاً واد في بطن الحلّة من الشُريف . العرض : وادي اليمامة . الحزن : ديار بني يربوع بنجد ، الحمض : واد قرب اليمامة . الكفر : ما بعد عن الناس من الأرض ، والأرض المستوية . نخلة : هناك نخلتان في بلاد العرب أحداهما نخلة الشامية وهي ذات عرق وواديان لهذيل والثانية نخلة اليمانية وهي واد بالحجاز على مسيرة ليلتين من مكة . الداءة : اسم للجبل الذي يحجز بين نخلة الشامية ونخلة اليمانية . المرض : ليس ثمة موضع بهذا الاسم في كتب البلدان وإنما فيها المرضان ، وهما واديان اديان ملتقاهما واحد أو موضعان أحدهما لسليم والثاني لهذيل . الجمام جمع جم : الكثير من كل شيء . المزجي : القليل . البرض : القليل . الشنآق : الحقد والعداوة .

إني رأيت بني أبيك يتحَمِجُون إليَّ شُوسا
حَنَقاً عليّ ولن تَرى لي فيهم أثراً بَئيسا
أنحَوا على حُرّ الوجُو ه بحَدّ مِنشارٍ ضَرُوسا
لو كنتَ ماءً لم تكن عَذْبَ المذَاقِ ولا قسُوسا
مِلحاً بعيدَ القَعر قد فَلّت حِجارتُه الفُؤُوسا
مَنّاعُ ما ملكتْ يدا ك وسائلٌ لهمُ نُحوسا[1]

وقال أبو عمرو : وفي قرير بن جابر يقول ذو الاصبع ...[2] :

يا مَن لِقلبٍ شديد الهمّ مَحزونِ أمسى تَذكَّر رَيّا أمَّ هارونِ
أمسى تذكَّرَها من بعدما شَحَطت والدّهرُ ذو غِلَظٍ حِينا وذو لِينِ
فإن يكن حبُّها أمسى لنا شَجَناً وأصبح الوَلْيُ منها لا يواتيني
فقد غَنِينا وشملُ الدار يَجمعُنا أُطيعُ رَيّا ورَيّا لا تُعاصيني
نرمي الوُشاةَ فلا نُخطي مَقاتلَهم بخالصٍ من صفاء الودّ مَكنون
ولي ابنُ عمٍّ على ما كان من خُلُقٍ مُختلفان فأَقلِيه ويَقليني
أزرى بنا أنّنا شالت نَعامَتُنا فخالني دُونَه بل خِلتُه دوني
لاهِ ابنُ عمّك لا أفضلتَ في حَسَبٍ شيئاً ولا أنت دَيّاني فتَخزُني
ولا تَقُوتُ عِيالي يومَ مَسْغَبَةٍ ولا بنفسك في العَزّاء تَكْفِيني
فإن تُرِدْ عَرَضَ الدنيا بمَنْقَصتي فإنّ ذلك ممّا ليس يُشجيني
ولاترى فيَّ غيرَ الصَّبرَ مَنْقَصةً وما سِواه فإنّ اللهَ يَكْفيني

---

(١) النكيس : المريض . دبت له : أراد الحمّى . الرسيس : أول الحمّى . المخمر : المستور . الأكل الوهيس : الشديد . يحمّجون : يديمون النظر . الشوس ، بالتحريك : النظر بمؤخر عين من الغيظ أو التكبر . البئيس : الشديد المكروه . المئشار : المنشار . المسوس : الماء بين العذب والملح .

(٢) وهم أبو عمرو فجعل هذه القصيدة في مرير بن جابر والصحيح أنها في ابن عمه عمرو الذي كان يعاديه والدليل على ذلك أنه يذكر في أحد أبياتها اسم ابن عمه عمرو .

لولا أواصرُ قُربَى لستَ تحفظُها ... ورَهبةُ اللهِ في مَولىً يُعاديني
إذاً بَرَيْتُكَ بَرْياً لا انجبارَ له ... إنّي رأيتُكَ لا تنفكُّ تَبْريني
إنّ الذي يَقبِضُ الدنيا ويَبْسُطُها ... إن كان أغناك عنّي سوف يُغْنيني
اللهُ يَعلمكم واللهُ يَعلمُني ... واللهُ يَجزيكمُ عنّي ويَجزيني
ماذا عليّ وإن كنتم ذوي رَحِمِي ... ألّا أُحبَّكم إن لم تُحبّوني
لو تَشربون دمي لم يَرْوَ شاربُكم ... ولا دماؤُكم جَمعاً تُروّيني
ولي ابنُ عمٍّ لو انّ الناس في كَبدي ... لظلّ مُحْتَجِزاً بالنَّبْلِ يَرميني
يا عمرُو إن لا تَدَعْ شَتمي ومَنْقَصي ... أَضرِبْك حتى تقولَ الهامةُ اسقُوني
كلُّ امرىءٍ صائرٌ يوماً لِشِيمته ... وإن تَخَلَّق أخلاقاً إلى حِينِ
إنّي لَعَمْرُك ما بابي بذي غَلَقٍ ... عن الصَّديق ولا خيري بِمَمنونِ
ولا لساني على الأدنى بمُنطَلِقٍ ... بالمنكَرات ولا فَتْكي بمأمونِ
لا يُخرِجِ القَسْرُ منّي غيرَ مَعْضَبَةٍ ... ولا أَلِينُ لِمن لا يبتغي لِينيْ
وأنتمُ معشرٌ زَيْدٌ على مائةٍ ... فأَجمِعُوا أمرَكم شتّى فكيدُوني
فإن علمتم سبيلَ الرُّشدِ فانطلقوا ... وإن جَهِلتم طريق الرُّشد فأتوني

يا رُبَّ ثوبٍ حواشيه كأوسطه ... لا عيبَ في الثوب من حُسنٍ ومن لِينِ
يوماً شددتُ على فَرغاءَ فاهقةٍ ... يوماً من الدَّهر تاراتٍ تُماريني
ماذا عليّ إذا تدعُونني فَزعاً ... ألّا أُجيبَكم إذ لا تُجيبوني
وكنتُ أُعطيكمُ مالي وأَمنحُكم ... وُدّي على مُثبَتٍ في الصَّدر مَكنون
يا رُبَّ حيٍّ شديد الشَّغْب ذي لَجَبٍ ... دَعَرتُ من راهنٍ منهم ومَرهُون
رَدَدتُ باطِلَهم في رأس قائلهم ... حتى يَظَلُّوا خصوماً ذا أَفانين
يا عَمرو لو كنتَ لي أَلفيتَني يَسَراً ... سَمحاً كريماً أُجازي من يُجازيني[1]

(١) شحطت : بعدت . الولي : القرب . غنينا : نزلنا . أقليه : أبغضه . شالت نعامتهم : تفرقت كلمتهم =

خبره مع بناته

محمد بن داود الهشاميّ قال :

كان لذي الإصبع أربعُ بنات ، وكُنّ يُخطَبن إليه فيعرِض ذلك عليهنّ فَيَسْتحِين ولا يُزوّجهنّ ، وكانت أُمّهنّ تقول : لو زوّجتَهنّ . فلا يفعل . قال : فخرج ليلةً إلى مُتَحَدَّثٍ لهنّ ، فاستمع عليهنّ وهنّ لا يعلمن فقُلنَ : تعالَيْنَ نتمنّ ولْنَصْدُقْ . فقالت الكبرى :

ألا ليت زَوجي من أُناسٍ ذوي غِنىً حديثُ الشباب طيّبُ الرِّيح والعِطرِ
طبيبٌ بأدواء النساء كأنه خليفةُ جانٍ لا ينام على وِتْرِ

فقُلن لها : أنت تُحبّين رجلاً ليس من قومك . فقالت الثانية :

ألا أهل أَراها ليلةً وضَجيعُها أشمُّ كنَصل السيف غيرُ مُبَلَّدِ
لَصُوقٌ بأكباد النّساء وأصلُه إذا ما انتمى من سِرّ أهلي ومَحْتِدي[1]

فقلن لها : أنت تُحبّين رجلاً من قومك . فقالت الثالثة :

ألا ليته يَملا الجِفانَ لِضَيفه له جَفنةٌ يشقى بها النِّيبُ والجُزْرُ
له حَكَماتُ الدّهر من غير كَبْرةٍ تَشِينُ ولا الفاني ولا الضَّرِعُ الغَمْرُ[2]

= وذهب عزهم ، والنعامة هنا : جماعة القوم . لاه : أصله : لله ، فحذفت اللام الجارة ، وهي صيغة تعجب . الديان : القائم بالأمر . تخزوني : تسوسني وتقهرني . العزاء : الشدة والضرّاء . المحتجز : من يشد مئزره على وسطه ، ويراد به المتهيء للأمر المسمّر له . تقول الهامة اسقوني : الهامة طائر يغشى المقابر ، وكانت العرب تزعم أن القتيل إذا لم يؤخذ بثأره تظل الهامة تصيح على قبره : اسقوني . اسقوني . حتى يؤخذ بثأره . ممنون : مقطوع . الفرغاء : الواسعة ، صفة للطعنة . فاهقة : يتصبب منها الدم . اللجب : ارتفاع الأصوات واختلافها . الراهن : المعدّ والمهزول . اليسر : السهل الانقياد .

(١) سر أهلي : صحيحهم .

(٢) النيب ج ناب : الناقة المسنّة . الجزر ج جزور : الناقة المذبوحة . الحكمات ج حكمة : حديدة اللجام . أراد بها التجربة والحكمة . الضرع : الضعيف . الغمر : الغر الذي لم يجرب الأمور .

فقلن لها : أنت تحبّين رجلاً شريفاً . وقلن للصُّغرى : تمنّيْ . فقالت : ما أُريد شيئاً . قلن : واللهِ لا تَبْرَحِين حتى نعلمَ ما في نفسك . قالت : زوجٌ من عُود خيرٌ من قُعود . فلمّا سمع ذلك أبوهنّ زوّجهنّ أَربعتَهنَّ .

فمكثن بُرهةً ثم اجتمعن إليه ، فقال للكُبرى : يا بُنيّةُ ما مالكُم ؟ قالت : الإبل . قال : فكيف تجدونها ؟ قالت : خير مال ، نأكل لُحومَها مُزَعاً(1) ، ونشرب ألبانَها جُزَعاً ، وتَحملُنا وضعيفنَا معاً . قال : فكيف تجدين زوجك ؟ قالت : خيرُ زوج يُكرم الخليلة ، ويُعطي الوسيلة(2) . قال : مالٌ عميم ، وزوج كريم . ثم قال للثانية : يا بُنيّةُ ما لكُم ؟ قالت : البقر . فكيف تجدونها ؟ قالت : خير مالٍ ، تَألفُ الفِناءَ ، وتُودِّكُ السِّقاء(3) ، وتملأُ الإناء ، ونساءٌ في نساء . قال : فكيف تجدين زوجَك ؟ قالت : خير زوج ، يُكرم أهلَه ، ويَنسى فضلَه . قال : حَظِيتِ ورَضِيتِ . ثم قال للثالثة : ما مالكُم ؟ قالت : المِعْزَى . قال : فكيف تجدونها ؟ قالت : لا بأسَ بها ، نُولِدُها فُطُماً(4) ، ونَسلخُها أُدُماً(5) . قال : فكيف تجدين زوجَك ؟ قالت : لا بأس به ، ليس بالبخيل الحكر(6) ، ولا بالسَّمْح البَذِر . قال : جَدْوى(7) مُغْنِية . ثم قال للرابعة : يا بُنَيّةُ ما مالكُم ؟ قالت الضَّأن . قال : وكيف تجدونها ؟ قالت : شرّ مال ، جُوفٌ(8) لا يَشْبَعن ، وهِيمٌ لا يَنْقَعن(9) .

---

(1) المزع ج مزعة : القطعة من اللحم .
(2) الوسيلة : ما يتقرب به إلى الناس .
(3) تودّك السقاء : تجعل فيه الودك وهو الدسم .
(4) فطم ج فطيم : ما يفصل عن الرضاع .
(5) الأدم ج أديم : الجلد الأحمر أو المدبوغ .
(6) الحكر : المستبد بالشيء .
(7) الجدوى : النفع والغناء .
(8) الجوف ج أجوف : العظيم الجوف .
(9) الهيم : ج أهيم : الشديد العطش . لا ينقعن : لا يرتوين .

وصُمٌّ لا يَسْمَعنَ ، وأمرَ مغُويتهنّ يَتْبَعن (١) . قال : فكيف تجدين زوجك ؟ قالت : شرّ زوج ، يُكرم نفسَه ، ويُهين عِرسَه . قال : « أشبه امرءاً بعضُ بَزِّه » (٢) .

وصيّته لابنه

قال أبو عمرو :

ولمّا احتُضِر ذو الإصبَع دعا ابنه أسيداً (٣) فقال له : يا بُنيّ ، إنّ أباك قد فَنِي وهو حَيٌّ ، وعاش حتى سئم العيش ؛ وإنّي مُوصِيك بما إن حفظتَه بلغتَ في قومك ما بلغتُه ، فاحفَظ عنّي : أَلِن جانبَك لِقومك . يُحبّوك ، وتواضَعْ لهم يرفعوك ، وابسُط لهم وجهَك يُطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيءٍ يُسَوِّدوك ، وأَكرِم صغارَهم كما تكرم كبارَهم يُكرِمْك كبارُهم ويَكْبَرْ على مودّتك صِغارُهم . واسمَحْ بمالك واحمِ حَريمَك ، وأَعزِزْ جارَك ، وأَعِن من استعان بك ، وأكرِم ضيفَك ، وأَسرِع النَّهضةَ في الصَّريخ ، فإنّ لك أجَلاً لا يَعْدُوك ، وصُنْ وجهَك عن مسألةِ أحدٍ شيئاً ، فبذلك يتِمّ سُؤْدُدُك . ثم أنشأ يقول :

أأسيدُ إن مـالاً مَلكْـتَ فسِرْ به سَيراً جميـلا
أَخِ الكِـرام إن استطعـتَ إلى إخائهمُ سَبيـلا
واشـرَبْ بكأسِـهمُ وإن شرِبـوا السّـمَّ الثَّمِيـلا
أهِنِ اللئـامَ ولا تكـن لإخائهـم جَمـلاً ذَلُـولا
إنّ الكـرام إذا تُـ ـؤا ـ خيهـم وجدتَ لهم فُضـولا

---

(١) أرادت بذلك أن الواحدة إذا سقطت في ماء أو وحل تبعتها الأخريات .

(٢) البزّ : متاع البيت من الثياب . وهذه العبارة أرسلها ذو الأصبع مثلاً .

(٣) لم نتحقق من ضبط أسمه ففي العرب أسيد كزهير . وكذلك سموا بأسيد كأمير .

ودعِ الـــذي يَعِـــــدُ العشــــيرةَ أن يَسيل ولن يَسيـــلا
أبُنّي إنّ المــــــالَ لا يَبكـي إذا فقَـــد البخيـــلا
أأسيـــد إن أزمعـــتَ مـــن بلدٍ إلى بلدٍ رَحيـــــــلا
فاحفَظْ وان شَحَط المَـــزا ـ رُ أخا أخيك أو الـــــزّميلا
واركَبْ بنفســـك إن هَمَمـــت بها الحُزونـةَ السُّهـولا
وصِلِ الكـــرام وكُـــن لِمن ترجُـو مودّتَـــه وَصُولا
ودعِ التواني في الأمـــو ـ ر وكُـن لها سَلِساً ذَلُـــولا
وابسُـطْ يمينَـــك بالندى وامدُدْ لها باعـــاً طويـــلا
وابسُط يَديك بمـــا ملكـتَ وشيّدِ الحـــبَ الأَثيـــلا
واعـــزِمْ إذا حاولـت أمـــراً يَفرِجُ الهمَّ الدَّخيـــلا
وابذُلْ لِضيفـك ذاتَ رَحْلِـــك مُكرِماً حتـــى يـزولا
واحلُلْ عـــلى الأَيْفـاع للعافِـــين واجتنِـــب المَسِيـلا
وإذا القُرومُ تخـــاطرتْ يـوماً وأَرعَدَت الخَصِيـــلا
فاهصِرْ كهَصْرِ الليـــث خَضَّـــب عن فريسته التَّليـــلا
وانزِل إلى الهَيْجـــا إذا أبطالُهـــا كرِهـوا النُّـزولا
وإذا دُعِيـــتَ إلى المُهِـــمّ فكُن لِفادحِـه حَمُولا[1]

(١) السم الثميل والمثمل : المنقع الثابت . فضول (هنا) : جمع فضل ، وفي بعض الأصول : قبول . الزميل : الرفيق في السفر . الحزونة : الارتفاع . الايفاع ج يفع : المكان المرتفع . العافي : طالب المعروف . الخصيل ج خصيلة : كل لحمة فيها عصب . التليل : العنق .

- ٣٨ -

عَبدِيَغُوث الحَارِثي

(الأغاني الجزء ١٦ ص ٣٢٨ وما بعدها)

الشاعر

هو عبد يَغُوث بن صَلاءة ـ وقيل هو عبد يغوث بن الحارث بن وَقّاص ابن صَلاءة ـ ... بن الحارث بن كعب ... بن مالك بن أُدَد [1] بن كَهْلان ابن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحطان ....

وكان عبد يغوث بن صَلاءة شاعراً من شعراء الجاهلية ، فارساً سيّداً لقومه من بني الحارث بن كعب ، وهو كان قائدهم في يوم الكُلاب الثاني إلى بني تميم ، وفي ذلك اليوم أُسر فقُتل . وعبد يغوث من أهل بيت شعرٍ مُعرِق لهم في الجاهلية والإسلام ...

---

(١) مالك بن أدد هو مذحج عند النسابين ، وإلى مذحج تنتمي قبائل كثيرة من كهلان منها : سعد العشيرة ، وجنب ، وصُداء ، والحارث بن كعب قبيلة عبد يغوث الشاعر ، والنَخَع ، ومراد .

خبر يوم الكُلاب ومقتل عبد يغوث

(عن طائفة من الرواة ، قالوا :)

لمّا أوقع كسرى ببني تميم يوم الصَّفا بالمُشَقَّر ، فقَتل المقاتلة وبقيت الأموال والذراري ، بلغ ذلك مَذْحِجاً ، فمشى بعضُهم إلى بعض وقالوا : اغتنموا بني تميم . ثم بعثوا الرُّسُل في قبائل اليمن وأعلافها من قُضاعة ، فقالت مَذحج للمأمور الحارثي ـ وهو كاهن ـ : ما ترى ؟ فقال لهم : لا تَغزوا بني تميم ، فإنّهم يسيرون أَغْباباً[1] ، ويردون مياهَهم جِباباً[2] ، فتكون غنيمتكُم تراباً . قال أبو عبيدة : فذُكر أنه اجتمع من مَذْحِج ، ولَفّها اثنا عشر ألفاً ، وكان رئيس مذحج عبد يغوث بن صَلاءة ، ورئيس هَمْدان يقال له مُسَرِّح ، ورئيس كِندة البَراء بن قيس بن الحارث . فأقبلوا إلى تميم ، فبلغ ذلك سَعداً والرِّباب ، فانطلق ناسٌ من أشرافهم إلى أكثم بن صَيفيّ ـ وهو قاضي العرب يومئذٍ ـ فاستشاروه ، فقال لهم : أَقِلُّوا الخِلافَ على أُمرائكم ، واعلموا أنّ كثرةَ الصِّياح من الفَشَل ، والمرءُ يَعجزُ لا مَحالةَ ؛ يا قوم تَثَبَّتوا ، فإنّ أحزمَ الفريقَين الرَّكِينُ ، ورُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً ، واتَّزِرُوا للحربِ ، وادَّرِعُوا الليل ، فإنّه أَخفَى للوَيل ، ولا جماعةَ لمن اختلف .

فلمّا انصرفوا من عند أكثَم تَهيّئوا واستعدّوا للحرب ، وأقبل أهلُ اليمن من بني الحارث ، أن أشرافهم يزيدُ بن عبد المَدان ، ويزيد بن مُخَرّم ويزيد بن الطَيْثَم بن المأمور ، ويزيد بن هَوبر ، حتى إذا كانوا بتَيْمَن[3] نزلوا قريباً من الكُلاب[4] ، ورجلٌ من بني زيد بن رِياح بن يربوع يُقال له

---

(١) أغباباً : أي أنهم يسيرون منقلتين في منقلة واحدة .

(٢) الجباب ج جب : البئر الغزيرة الماء .

(٣) تيمن : موضع بين بلاد بني تميم ونجران ، أو بين تبالة وجرش .

(٤) الكلاب : ماء بين جبلة وشمام .

مُشَمِّت بن زِنباع في إبلٍ له ، عند خالٍ له من بني سعد يقال له زهير بن بَوّ ، فلمّا أبصرهم المشمّت قال لزهير : دُونَك الإبلَ ، وتَنَحَّ عن طريقهم ، حتى آتيَ الحيَّ فأُنذرَهم . قال : فركب المشمِّت ناقةً ثم سار حتى أتى سَعداً والرّباب ، وهم على الكُلاب ، فأَنذرهم ، فأعدّوا للقوم وصَبَّحوهم ، فأغاروا على النَّعَم فطردوها ...

قال : فأقبلت سَعد والرّباب ، ورئيس الرّباب النعمان بن حساس ، ورئيس بني سعد قيس بن عاصم المِنقريّ . قال أبو عبيدة : اجتمع العلماء على أن الرئيس كان يومئذٍ قيسَ بن عاصم . فقال ضبيٌّ حين دنا من القوم :

في كلّ عامٍ نَعَمٌ تَحووُنَـــهْ ... يُلْقِحهُ قومٌ وتَنْتِجُونَـــهْ
أربابُــه نَوكى فـلا يَحْمُونـه ... ولا يُلاقون طِعانــاً دُونَـهْ
أَنعَمَ الأبنـــاء تحسِبُـونه ... هيهاتَ هيهاتَ لما ترجُـونه[1]

فقال ضَمْرةُ بن لبيد الحِماسيّ : انظُروا إذا سُقتم النَعَم ، فإنه أَتتكم الخيلُ عُصَباً عصباً ، وثبتت الأولى للأخرى حتى تَلْحَقَ ، فإن أمر القوم هَيِّنٌ . وإن لحِق بكم القوم ، فلم ينظروا إليكم حتى يَرُدّوا وجوه النَّعم ، ولا ينتظر بعضُهم بعضاً ، فإن أمر القوم شديد .

وتقدّمت سعدٌ والرّباب فالتقَوا في أوائل الناس ، فلم يلتفتوا إليهم ، واستقبلوا النّعمَ من قِبَل وجوهها ، فجعلوا يصرِفونها بأرماحهم . واختلط القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً يومَهم ، حتى إذا كان من آخر النهار قَتل النعمان ابن جِساس قتله رجلٌ من أهل اليمن كانت أمُّه من بني حنظلة يقال له عبدالله ابن كعب ، وهو الذي رماه فقال للنعمان حين رماه : خُذها وأنا ابنُ الحَنْظليّة . فقال النعمان : ثَكِلتْك أمُّك ، ربّ حَنظليّة قد غاظَتني . فذهبتْ مثلاً ، وظنّ

(١) نوكى : حمقى . الأنباء : قوم من العجم كانوا ينزلون بلاد اليمن .

أهلُ اليمن أن بني تميم سيَهُدُّهم قتلُ النعمان ، فلم يزِدهم ذلك إلّا جَراءةً عليهم . فاقتتلوا حتى حَجَز بينهم الليل ، فباتوا يحرُس بعضُهم بعضاً . فلمّا أصبحوا غَدَوا على القتال فنادى قيسُ بن عاصم : يالَ سعد . ونادى عبدُ يغوث : يالَ سعد . قيس بن عاصم يدعو سعد بن زيد مناة بن تميم ، وعبد يغوث يدعو سعد العشيرة . فلمّا سمع ذلك قيس نادى : يالَ كعب . فنادى عبد يغوث : يالَ كعب . قيسٌ يدعو كعب بن سعد ، وعبد يغوث يدعو كعب ابن عمرو . فلمّا رأى ذلك قيسٌ من صنيع عبد يغوث قال : مالَهم ، أخزاهم الله ! ما نَدعُو بشعار إلا دعَوا بمثله . فنادى قيس : يالَ مُقاعِس ، يعني بني الحارث بن عمرو بن كعب ، وكان يُلقَّب مُقاعساً . فلمّا سمع وَعْلةُ بن عبدالله الجَرْميُّ الصوتَ ، وكان صاحبَ اللواء يومئذٍ ، طَرَحه ، وكان أولَ من انهزم من اليمن ، وحملت عليهم بنو سعد والرِّباب فهزموهم أفظعَ هزيمة وجعل رجلٌ منهم يقول :

يا قومُ لا يَفْلِتْكُمُ اليَزيدانْ مُخَرِّماً أعني به والدَّيّانْ

وجعل قيسُ بن عاصم يُنادي : يالَ تميم ، لا تقتُلوا إلّا فارساً ، فإنَّ الرجّالةَ لكم . وجعل يرتجز ويقول :

لمّا توَلّوا عُصَباً شَوازبا أقسمتُ لا أَطعنُ إلّا راكبا
إنّي وجدتُ الطَّعنَ فيهم صائباً[1]

وجعل يأخذ الأُسارى ، فإذا أَخَذ أسيراً قال له : مَن أنت ؟ فيقول : من بني زَعْبَل وهو زعبل بن كعب ، أخو الحارث بن كعب ، وهم أنذال ، فكأن الأسارى يريدون بذلك رُخْصَ الفِداء . فجعل قيس إذا أخذ أسيراً منهم دفعه إلى مَن يليه من بني تميم ويقول : أَمْسِكْ حتى اصطادَ لك زَعْبلةً أخرى . فذهبتْ مثلاً . فما زالوا في آثارهم يقتلون ويأسُرون ، حتى أُسر

---

(١) شوازب ج شازب : الضامر المهزول .

عبدُ يغوث ، أسرَه فتى بني عُمير بن عبد شمس ، وقُتل يومئذٍ علقمة بن سَبّاع القُريعي ، وهو بارس هَبُّود ، وهبُّود فرس عمرو بن الجُعيد المرادي ، وكان علقمة قتل عَمراً وأخذ فرسه من تحته ، وأَسَر الأَهتمُ ـ واسمُه سِنان بن سُميّ بن خالد بن مِنْقَر ، ويومئذ سُمّي الأهتم ـ رئيسَ كِندة البَراء بن قيس . وقَتلت التيمُ الأَوبر الحارثيّ وآخرَ من بني الحارث يقال له معاوية ، قتلهما النعمان بن جِساس ، وقَتل يومئذ من أشرافهم خمسةً ، وقتلت بنو ضَبّة ضَمْرة ابن لَبيد الحِماسيّ الكاهن ، قتله قَبيصةُ بن ضِرار بن عمرو الضبّيّ .

وأما عبد يغوث فانطلق به العبشميُّ إلى أهله ، وكان العبشميّ أهوجَ ، فقالت له أمُّه ـ ورأتْ عبدَ يغوث عظيماً جميلاً جَسيماً : ـ من أنت ؟ قال : أنا سيّد القوم . فضحكت وقالت : قَبَحك الله مِن سيّد قوم حين أَسَرك هذا الأهوج . فقال عبد يغوث :

وتضحك منّي شَيخةٌ عَبشميّةٌ كأن لم ترا قبلي أسيراً يمانيا

ثم قال لها : أيتها الحرّة ، هل لكِ إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : أُعطي ابنَك مائةً من الإبل وينطلق بي إلى الأهتم ، فإني أتخوّف أن تنتزعَني سعدٌ والرِّبابُ منه . فضمن له مائة من الإبل ، وأرسل إلى بني الحارث فوجَّهوا بها إليه ، فقَبَضها العَبشميُّ ، فانطلق به إلى الأهتم ، وأنشأ عبدُ يغوثَ يقول :

أأهتمُ يا خيرَ البَرِيّة والداً ورَهْطاً إذا ما الناسُ عَدُّوا المَساعيا
تدارَكْ أسيراً عانياً في بلادكم ولا تَثْقَفنّي التَيْمُ ألقى الدواهيا[1]

فمشت سعد والربابُ فيه ، فقالت الرباب : يا بني سعدٍ ، قُتل فارسُنا ولم يُقتلَ لك فارسٌ مذكور . فدَفَعه الأهتمُ إليهم ، فأخذه عِصْمَةُ بن أُبَير التَيْميُّ فانطلق به إلى منزله ، فقال عبد يغوث : يا بَني تَيم ، اقتلوني

(١) ثقِفَهُ : وجده وظفر به .

قِتلةً كريمة . فقال له عِصمة : وما تلك القِتلة ؟ قال أسقوني الخمر ، ودَعُوني أَنُحْ على نفسي . فقال لهُ عصمةُ : نَعَم . فسقاه الخمر ، ثم قطع له عِرقاً يقال له الأكحل ، وتركه يَنْزِف ، ومضى عنه عصمة وترك معه إبنَين له فقالا : جمعتَ أهل اليمن وجئت لِتَصْطَلِمنَا ، فكيف رأيت اللهَ صنع بك ؟ فقال عبد يغوث في ذلك :

ألا تَلُوماني كفى اللومَ مابيا ... فما لكما في اللَّوم نفعٌ ولا ليا
ألم تعلما أنّ المَلامة نَفْعُها ... قليلٌ وما لومي أخي من شِماليا
فيا راكباً إمّا عَرَضت فبَلِّغَنْ ... نداماي من نَجْرانَ أن لا تَلاقيا
أبا كَرِبٍ والأَيْهَمَين كليهما ... وقيساً بأعلى حَضْرَموتَ اليمانيا
جزى الله قومي بالكُلاب مَلامةً ... صَريحَهم والآخرين المَواليا
ولو شئتُ نَجَّتْني من الخيل نَهْدةٌ ... تَرى خلفَها الحُوَّ الجِيادَ تَواليا
ولكنّني أحمي ذِمارَ أبيكم ... وكان الرّماحُ يختطفنَ المُحاميا
وتضحك مني شيخةٌ عَبْشَمِيّةٌ ... كأن لم ترا قبلي أسيراً يمانيا
وقد علمت عِرسِ مُليكةُ أنني ... أنا الليثُ مَعْدُوّاً عليه وعاديا
أقول وقد شدُّوا لساني بِنِسْعةٍ ... أمعشرَ تيمٍ أطلِقُوا لي لسانيا
أمعشرَ تيمٍ قد ملكتُمْ فأَسجِحُوا ... فإنّ أخاكم لم يكن من بَوائيا
فإن تقتلُوني تقتلوا بيَ سيّداً ... وإن تُطلِقوني تَحرُبوني بماليا
أحقّاً عبادَ الله أن لست سامعاً ... نشيدَ الرِّعاءِ المُعزِبين المَتاليا
وقد كنت نحّارَ الجزور ومَعْمِلَ المطيّ وأمضي حيث لا حيَّ ماضيا
وأَنْحَرُ للشَّرب الكرام مَطِيَّتي ... وأصدَعُ بين القَيْنَتَين ردائيا
وعاديةٍ سَومَ الجَراد وَزَعتُها ... بكفيّ وقد أنحوا إليّ العواليا
كأنّي لم أركَبْ جَواداً ولم أَقُلْ ... لخِيلي كُرّي نَفِّسي عن رجاليا

ولم أَسْبَأْ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أقــــلْ لأَيسار صِدقٍ أَعظِموا ضوءَ ناريا[1]

قال : فضحكت العبشميّـةُ وهم أَسِروه . وذلك أنهم لمّـا أسروه شَـدّوا لسانَـه بنسقه لئلا يهجوهم ، وأبَوا إلا قتله ، فقتلوه بالنعمان بن جساس .

(١) الشمال : الخلق . عرضت : أتيت العروض ، وهي بلاد اليمامة والبحرين وما والاها . النهدة : المرتفعة ، صفة للفرس . الحومن الخيل : التي تضرب إلى السواد ، وهي أصبر الخيل . لم ترا : خرّج النجاة : إلحاق الألف بالفعل هنا مع كومة مجزوماً بأنه على لغة من قال (راء) مقلوب (رأى) فجزم فصار (ترأ) ثم خفف الهمزة فقلبها ألفاً . وثمة رواية أجود : كأن لم تَرَيْ ، والخطاب للمرأة العبشمية . النسعة : سير منسوج . الاسجاح : اللين والتسهيل . لم يكن من بوائياً : لم يكن نظيراً لي في المنزلة . حربه : سلبه ماله . المعزب : المتنحّي بإبله . المتالي ج مُتْلية : الناقة التي يتبعها أولادها . أصدع : أشق . القينة : الأمة المغنيّة . العادية : القوم يركضون . سوم الجراد : انتشاره في المرعى . وزعتها : كففتها ومنعتها العوالي ج عالية : أعلى الرمح . أسبأ : أشترى . الزق : إناء الخمر . الأيسار ج ياسر : الذي يضرب قداح الميسر ، وقد روي عن أبي عبيدة ما يحمل على الشك عن صحة نسبة هذه القصيدة إلى عبد يغوث .

- ٣٩ -
قُسّ بن سَاعِدَة الإيَـاديّ

(الأغاني ج ١٥ ص ٢٤٦ وما بعدها)

الخطيب

هو قُسّ بن ساعدة .... بن إياد خطيب العرب وشاعرُهـا ، وحَليمها وحكيمُها في عصره . يقال إنه أول من علا على شَرَف وخطَب عليه . وأوّل من قال في كلامه : أمّا بَعْدُ ، وأوّلُ من اتّكأ عند خُطْبته على سيفٍ أو عصا.

وأدركه رسولُ الله ﷺ قبلَ النُبوّة ، ورآه بعُكاظَ ، فكان يأثُر عنه كلاماً سَمعه منه ، وسُئل عنه فقال : يُحشَر أُمّةً وحدَه .

قدوم وفود إياد على الرسول وسؤاله عن قسّ

عن ابن عبّاس قال : لمّا قَدِم وفدُ إياد على النبيّ ﷺ قال : ما فعل قُسُّ بن ساعدة ؟ قالوا : مات يا رسولَ الله ، قال : كأنّي أنظُر إليه بسُوق

عُكاظَ ، على جمَلٍ له أوْرق [١] ، وهو يتكلّم بكلام عليه حَلاوة ما أجِدني أحفَظُه . فقال رجلٌ من القوم : أنا أحفظه يا رسولَ الله . قال : كيف سمعتَه يقول ؟ قال : سمعته يقول :

« أيّها الناسُ ، اسمَعُوا وعُوا . مَن عاش مات ، ومن مات فات ، وكلُّ ما هو آت آت . ليلٌ داجٍ ، وسماءٌ ذاتُ أبراج ، بحارٌ تزخَر ، ونجومٌ تزهَر [٢] ، وضوءٌ وظلام ، وبرٌّ وأثام ، ومَطعمٌ ومَشرب ، ومَلْبس ومَركب . ما لي أرى الناسَ يذهبون ولا يرجعون ؟ أرَضُوا بالمُقام فأقاموا ، أم تُركوا فناموا ؟ وإلَهِ قُس بن ساعدة ما على وجه الأرض دينٌ أفضلُ من دينٍ قد أظلّكم زمانُه ، وأدرككم أوانُه ، فطُوبى [٣] لمن أدركه فاتّبعه ، وويلٌ لِمن خالفه . ثم أنشأ يقول :

في الذاهبــــين الأوّليــــن من القُرُونِ لنا بصائرْ
لمّــا رأيتُ مَــوارداً للموت ليس لها مصَــادر
ورأيتُ قــومي نحوَهــا يمضي الأصاغرُ والأكابــرْ
أيقنتُ أنّــي لا مَحــالةَ حيث صار القومُ صائرْ

فقال النبيُّ ﷺ : يَرحم الله قُساً ، إني لأرجو أن يُبعثَ يومَ القيامة أمةً وحدَه .

* * *

(١) الأورق : ما في لونه بياض إلى سواد .
(٢) تزهر : تتلألأ وتضيء .
(٣) طوبى : شجرة في الجنة أو هي الجنة نفسها والحسنى والخير .

مِنْ أخبَارِ العَرَب وَأيّامِهَا فِي الجَاهِليّة

منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن عُلاثة

(الأغاني ج ١٦ ص ٢٨٣ وما بعدها)

عن جماعة من الرواة :

أوّلُ ما هاج النِفار بين عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر وبين عَلْقمة بن عُلاثة بن عوف بن الأحوص ... أن علقمة كان قاعداً ذاتَ يوم يَبُولُ ، فبَصُر به عامرٌ فقال : لم أرَ كاليوم عورةَ رجلٍ أقبحَ . فقال علقمةُ : أما والله ، ما تَثِبُ على جاراتها ، ولا تُنازلُ كَنّاتِها ، يُعرِّض بعامر . فقال عامر : ما أنت والقُرومُ ! والله لَفَرسُ أبي «حَنْوَةَ» أذكَرُ من أبيك ، ولَفَحلُ أبي غَيْهَبُ أعظم ذِكْراً منك في نجد — وكان فرسُه فرساً جواداً . وكان فَحلُه فحلاً لبني حَرملة بن الأشقر ... فاستعاره منهم يستطرقه [1] فغلبهم عليه . فقال علقمة : أما فَرسُكم فعارة [2] ،

---

(١) يستطرقه : يتخذه فحلا لنوقه .
(٢) عارة : مستعار .

وأما فَحلُكم فغَدْرَةٌ . ولكن إن شئتَ نافرتُك . فقال : قد شئتُ .

فقال عامر : والله لأنا أكرمُ منك حَسَباً . وأثبتُ منك نَسَباً . وأطولُ منك قَصَباً .

فقال علقمةُ : لأنا خيرٌ منك ليلاً ونهاراً .

فقال عامر : لأنَا أحَبُّ إلى نسائِك أن أُصبح فيهنّ منك .

فقال علقمة : على ماذا تُنافرني يا عامر ؟

فقال عامر : أُنافرك على أنّي أَنحَر منك لِلّقاح . وخيرٌ منك في الصَّباح . وأطعمُ منك في السَنَة الشِّياح (1) .

فقال علقمة : أنت رجلٌ تقاتل ، والناس يزعمُون أني جَبان ، ولأن تَلقى العَدُوَّ وأنا أمامَك أعزُّ لك من أن تَلقاهم وأنا خلفَك . وأنتَ جَوادٌ ، والناس يزعمُون أني بَخيلٌ — ولستُ كذلك . ولكنْ أنافرك أنّي خيرٌ منك أثَراً ، وأَحَدُّ منك بصَراً ، وأعزُّ منك نَفَراً ، وأَسْرَحُ منك ذِكراً (2) .

فقال عامر : ليس لبني الأحوص فضلٌ على بني مالِك في العدد ، وبصَري ناقصٌ ، وبصَرُك صحيحٌ . ولكنّي أُنافرك على أنّي أَنْشَر منك أُمّةً ، وأطولُ منك قِمّةً ، وأحسنُ منك لِمّةً ، وأجعدُ منك جُمّةً ، وأبعدُ منك هِمّةً (3) .

قال علقمة : أنت رجلٌ جسيمٌ . وأنا رجل قَضيفٌ (4) ، وأنت جميلٌ ،

---

(1) اللقاح ج لقحة : الناقة الحلوب . خير منك في الصباح : أي عند الغارات . السنة الشياح : المجدبة .

(2) أسرح : أبعد .

(3) أنشر أمة : أي أكثر قوماً . اللمة : ما جاوز شحمة الأذن من الشعر . الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(4) القضيف : المهزول .

وأنا قبيحٌ . ولكني أنافرك بآبائي وأعمامي .

فقال عامر : آباؤك أعمامي ، ولم أكن لأنافِرَك بهم ، ولكنّي أنافرك أنّي خيرٌ منك عَقِباً ، وأَطعَمُ منك جَدْباً .

قال علقمة : قد علمتُ أن لك عَقِباً في العَشيرة ، وقد أطعمتَ طيِّباً إذ سارت (١) ولكني أنافرك أنّي خيرٌ منك وأَوْلى بالخَيرات منك ، وقد أكثرنا المُراجعةَ منذُ اليوم .

قال : فخرجت أمُ عامر ، وكانت تسمع كلامهما ، فقالت : يا عامر ، نافرة أيّكما أولى بالخيرات . قال أبو مسكين : قال عامر في مراجعته : واللهِ لأنا أَركبُ منك في الحُماة ، وأقتلُ منك للكُماة ، وخيرٌ منك للمولى والمــولاة .

فقال له علقمة : والله إني أعزُّ منك . إني لَبَرٌّ وإنّكَ لَفاجرٌ ، وإني لَوفِيٌّ وإنك لَغادر ، ففيم تُفاخرني يا عامر ؟ فقال عامر : : واللهِ إنّي لأنْزَلَ منك للقَفْرة ، وأَنحَرَ منك للبَكْرة ، وأَطعَم منك للهَبْرة (٢) ، وأطعن منك للثُغْرة (٣) .

فقال علقمة : واللهِ إنّك لكَليل البصر ، نَكِد النظر ، وثّابٌ على جاراتك بالسَحَر .

فقال بنو خالد بن جعفر – وكانوا يداً مع بني الأحوص على بني مالك بن جعفر – : لن تُطيق عامراً ، ولكن قُل له : أنافرك بخيرِنا وأقربنا إلى الخيرات . وخُذ عليه بالكِبَر . فقال له علقمةُ هذا القولَ ، فقال عامرٌ : عَنْزٌ وتيسٌ ،

---

(١) كذا في الأصل ولعل صوابها : أسنت أي أجدبت ، فهذا يتفق مع ما سبق .
(٢) الهبرة : القطعة المجتمعة من اللحم .
(٣) الثغرة : نقرة النحر بين الترقوتين .

وتيس وعنز (١) – فذهبت مثلاً – نعمْ على مئةٍ من الإبل ، إلى مئةٍ من الإبل يُعطاها الحكم ، أيّنا نُفِرَّ على صاحبه أخرجها .

ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رُهُناً من أبنائهم على يَدَيْ رجلٍ من بني الوحيد ، فسُمِّيَ الضَمِين إلى الساعة ، وهو الكَفيل .

قال : وخرج علقمة ومَن معه من بني خالد ، وخرج عامرٌ فيمن معه من بني مالك ، وقد أتى عامرُ بن الطفيل عمَّه عامر بن مالك ، وهو أبو بَراء ، فقال : يا عمّاه ، أعِنّي . فقال : يا بنَ أخي ، سُبَّني . فقال : لا أسبُّك وأنت عمّي . فقال : فسُبَّ الأحوص . فقال عامرٌ : ولا أسبُّ واللهِ الأحوص وهو عمّي . فقال : فكيف إذن أُعينك ، ولكن دونَك نَعلي ، فإني قد رَبَعْتُ فيها أربعين مِرباعاً (٢) ، فاستعِنْ بها في نِفارك .

وجعلا منافرتَهما إلى أبي سُفيانَ بن حَرب بن أُميّة ، فلم يَقُل بينهما شيئاً ، وكرِه ذلك لحالِهما وحال عشيرتِهما ، وقال : أنتما كرُكبتَي البعير الأدرم (٣) ، تقعان بالأرض . قالا : فأيّنا اليمينُ ؟ فقال : كلاكما اليمينُ ؟ وأبى أن يَقضيَ بينهما .

فانطلقا إلى أبي جَهل بن هشام ، فأبى أن يَحكُم بينهما . فوثب مروان بن سُراقة بن قَتادة بن عمرو بن الأحوص فقال :

يالَ قُريشٍ بيّنوا الكَلامـا ... إنّا رَضينا منكم الأحكاما
فبيّنوا إن كنتُم حُكّامـاً ... كان أبونا لهمُ إمامـا
وعبدُ عمروٍ منع الفِئامـا ... في يوم فخرٍ مُعْلَمٌ إعلاما

(١) يريد : مثلي ومثلك كمثل العنز والتيس ، إذ التيس أقوى على النطاح من العنز .
(٢) المرباع : ربع الغنيمة ، وهو حصة رئيس القبيلة في الغزو .
(٣) الأدرم : الذي تراكب لحمه وشحمه حتى غطى عظامه .

ودَعْلَجٌ أقدمـــه إقدامـــا لولا الذي أجشمهم إجشاما
لاتّخذتهم مَذْحِجٌ نَعامـــا [1]

قال : فأبوا أن يقولوا بينهما شيئاً .

وقد كانت العرب تَحاكَمُ إلى قريش . فأتيا عُيَيْنة بن حِصن بن حُذيفة . فأبى أن يقولَ بينهما شيئاً . فأتيا غَيْلان بن سَلَمة بن مُعتِب الثقفيّ ، فردّهما إلى حرملةَ بن الأشعر المُرّي ، فردّهما إلى هَرِم بن قُطْبَة بن سِنان بن عَمرو الفَزاري ، فانطلقا حتى نزلا به .

وقال بشر بن عبد الله بن حيّان بن سلمى : إنهما ساقا الإبل معهما حتى أشتت وأربعت ، لا يأتيان أحداً إلاّ هاب أن يقضي بينهما .

فقال هرم : لَعَمري لأحْكُمن بينكما ، ثم لأفصِلنْ . ثم لستُ أثقُ منكما ، فأعطِياني مَوْثقاً أطمئنُّ إليه أن تَرضيا بما أقول . وتُسَلّما بما قَضيتُ بينكما . وأمرهما بالانصراف . ووعدَهما ذلك اليومَ من قابِلٍ .

فانصرفا ، حتى إذا بلغ الأجلُ من قابلٍ خرجا إليه ، فخرج علقمةُ ببني الأحوص فلم يتخلفْ منهم أحدٌ ، معهم القِبابُ والجُزُر [2] والقُدور ، ينحَرُون في كلّ منزِلٍ ويُطعِمون . وجمع عامرٌ بني مالك فقال : إنّما تُخاطِرون عن أحسابكم . فأجابوه وساروا معَه . ولم يَنهضْ أبو بَراء معهم وقال لعامر : واللهِ لا تَطلعُ ثَنيّةً إلا وجدت الأحوصَ مُنيخاً بها ، وكره أبو بَراء ما كان من أمرهما ....

قال : فسار عامرٌ وبنو عامر على الخيل مُجْنبِي [3] الإبل ، وعليهم

(١) الفئام : الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه . أجشمه : كلفه .
(٢) الجزر ج جزور : الناقة المعدة للذبح .
(٣) جنب الفرس أو البعير : قاده إلى جنبه .

السلاح . فقال رجل من غنيّ : يا عامرُ ، ما صنعتَ ؟ أخرجتَ بني مالك تُنافر بني الأحوص ومعهم القِباب والجُزُر ، وليس معك شيءٌ تُطعمه الناسَ ، ما أسوأَ ما صنعت ! فقال عامر لرجلين من بني عمّه : أَحْصِيا كلَّ شيءٍ مع علقمة ، من قُبّة أو قدرٍ أو لَقْحة . ففعلا . فقال عامر : يا بني مالك ، إنها المُقارعةُ عن أحسابكم ، فاشخَصُوا بمثل ما شخَصُوا به ، ففعلوا . وثار مع عامر لَبيد بن ربيعة والأعشى ، ومع علقمة الحُطيئة وفِتيانٌ من بني الأحوص ... وهم يَرتَجزُون. فقال لبيد :

يا هِرماً وأنت أهلُ عــدلِ إن نُفّرَ الأحوصُ يوماً قبلي
لَيذهَبنَّ أهلُــه بأهــلي لا تَجمعنّ شَكلَهم وشَكلي
ونسلَ آبائهمُ ونَسلي

وقال أيضاً :

إنّي امرؤٌ من مالك بن جعفــرْ علقَمَ قد نافرتَ غيرُ مُنْفَر
نافرتَ سَقْباً من سِقاب العرعر [1]

فقال قُحافة بن عَوف بن الأحوص :

نَهْنِهْ اليك الشعرَ يا لَبيــد واصدُدْ فقد يَنفعُك الصُدودُ
ساد أبونا قبل أن تسُــودوا سُؤدُدُكم مُطَرَّفٌ زَهيدُ [2]

ووثب الحطيئة فقال :

ما يحبِس الحُكّامَ بالفَصْل بعدما بدا سابقٌ ذو غُرّةٍ وحُجُولُ

---

(١) السقب – هنا – الغصن الريان الطويل . والسقب أيضاً . ولد الناقة . العرعر : نبت جبلي عظيم لا يزال أخضر .

(٢) نهنهه عن الأمر : كفه وزجره . المطرف : الحديث .

وقال أيضاً :

يا عام قد كنتَ ذا باعٍ ومكرمةٍ لوانّ مَسعاة مَن جاريتَه أَمَم
جاريت قَرْماً أجاد الأحوصان بـه سمحَ اليدين وفي عِرنِينه شَمَمُ (١)

(الخ الأبيات) ...

قــال :

وأقام القومُ عندَه أياماً ، وأرسل إلى عامر فأتاه سِرّاً ، لا يَعْلَمُ به عَلقمة ، فقال : يا عامرُ ، قد كنت أرى لك رأياً ، وأنّ فيك خيراً ، وما حبستُك هذه الأيام إلاّ لتنصرفَ عن صاحبِك . أتُنافر رجلاً لا تفخَرُ أنت وقومُك إلاّ بآبائه ! فما الذي أنت به خيرٌ منه ؟

قال عامر : أَنْشُدُك اللهَ والرَحِمَ أن لا تُفضِّل عليّ علقمةَ ، فوالله لئِن فعلتَ لا أفلحُ بعدَها أبداً . هذه ناصيتي فاجزُزْها واحتكِمْ في مالي ، فإن كنتَ لا بدَّ فاعلاً فسَوِّ بيني وبينَه . قال : انصرِف ، فسوف أرى رأيي . فخرج عامرٌ وهو لا يشكُّ أنه يُنفِّره عليه .

ثم أرسل إلى علقمة سِرّاً ، لا يعلمُ به عامرٌ ، فأتاه فقال : يا علقمةُ ، واللهِ إن كنت لأحسَبُ فيك خيراً ، وأنّ لك رأياً ، وما حبستُك هذه الأيام إلاّ لتنصرفَ عن صاحبك . أتُفاخر رجلاً هو ابنُ عمّك في النسب ، وأبوه أبوك ! وهو مع هذا أعظمُ قومك غَناءً ، وأَحْمَدُهُم لقاءً ، فما الذي أنت به خيرٌ منه ؟ فقال له علقمةُ : أَنْشُدُك اللهَ والرحمَ ألاّ تنفرّ عَليّ عامراً . اجزُز ناصيتي ، واحتكِمْ في مالي ، وإن كنت لا بدَّ أن تفعلَ فسوِّ بيني وبينه . فقال : انصرف ، فسوف أرى رأيي . فخرج وهو لا يشكُّ أنه سيفضّل عليه عــامراً ...

قال : ثمّ إنّ هَرِماً أرسل إلى بنيه وبني بنيه : إنّي قائلٌ غداً بين هذين

(١) الأمم : القريب . القرم : السيد .

الرجلين مقالةً ، فإذا فعلتُ فليُطْرِدْ بعضكم عشرَ جزائرَ فلينْحرها عن علقمة ويُطْرِدْ بعضُكم عشرَ جزائرَ ، فلينحرها عن عامر ، وفرِّقوا بين الناسِ لا تكونُ لهم جماعةٌ .

وأصبح هرِمٌ فجلَس مَجلسَه ، وأقبل الناسُ وأقبل علقمةُ وعامرٌ حتى جلسا ، فقام لبيدٌ فقال :

يا هَرِمَ ابنَ الأكرمينَ مَنصِبا إنّكَ قد وُلِّيتَ حُكْماً مُعجِبا
فاحكُم وصوِّب رأسَ من تصوّبا إنّ الذي يعلُو علينا تُرتُبا
لَخيرُنا عمّاً وأمّاً وأبا وعامرٌ خيرُهما مُرَكّبا
وعامرٌ أدنى لقيسٍ نسَبا (١)

فقام هرم فقال : يا بنَيْ جعفرٍ ، قد تحاكمتُما عندي ، وأنتما كرُكبتَي البعيرِ الأدرم ، تقعان إلى الأرضِ معاً ، وليس فيكما أحدٌ إلاّ وفيه ما ليس في صاحبه ، وكلاكما سيِّدٌ كريم .

وعَمد بنو هرمٍ وبنو أخيه إلى تلك الجُزُر فنحروها حيث أمرهم هرِم : عن علقمةُ عشراً ، وعن عامرٍ عشراً ، وفرّقوا الناس . فلم يُفضّل هرمٌ واحداً منهما على صاحبه ، وكرِه أن يفعل وهما ابنا عم ، فيجلبَ بذلك عداوة ويُوقعَ بين الحيَين شرّاً ...

قال الكلبيّ : فعاش هَرِم حتى أدرك سُلطان عُمرَ بن الخطاب رضي الله عنه ، فسأله عمر : يا هرمُ ، أيَّ الرجلين كنتَ مفضّلاً لو فضّلت ؟ فقال : لو قلتُ ذاك يا أمير المؤمنين لعادت جَذَعةً (٢) ، ولبلغت شِعاف هَجَر . فقال عمر : نِعْمَ مُستودَعُ السرِّ ومُسنَدُ الأمر إليه أنت يا هرم ، مثلُ هذا فليسُد العشيرة . وقال : إلى مثلك فليستبضع القومَ أحكامَهم .

---

(١) ترتباً : جميعاً أو أبداً .
(٢) الجذع : الشاب الحدث ، يريد أنها تعود كما كانت ويثور الشر بين العشيرتين .

مقتَل شَأس بن زهَيْر بن جَذيمَة وَزهَيْر بن جَذِيمة العَبْسِيَّيْن

وخالد بن جعفر الكلابيّ

الأغاني ج ١١ ص ٧٥ وما بعدها)

قال أبو عبيدة : وحدّثني رجلٌ يُخيّل إليّ أنه أبو يحيى الغَنَويّ قال :

ورَدشَأس ، وقد حباه الملِك بحُبوة فيها قَطيفةٌ حمراءُ ذات هُدْب وطِيبٌ ، فورَد مَنْعِجاً (١) ، وعليه خِباءٌ مُلقىً لرِياح بن الأسَكّ (الغنويّ) (٢) فيه أهلُه ، في الظهيرة . فألقى ثيابه بفِنائه ثم قعد يُهَريق عليه الماء ، والمرأةُ قريبةٌ منه (يعنى امرأة رياح) ، فإذا هو مثل الثور الأبيض . فقال لامرأته : أَنطيني (٣) قوسي . فمدّت إليه قوسه وسهماً ، وانتزعت المرأة نصلَه لئلاّ يقتله ، فأهوى عَجلان إليه ، فوضع السهم في مُستدَقّ الصُلب

---

(١) منعج : اسم واد قرب بطن عاقل .

(٢) كذا في المطبوعة ، وفي جمهرة الأنساب لابن حزم : رياح بن الأشل .

(٣) أنطيني : لغة في اعطيني .

بين فَقارتين ففصَلهما ، وخرّ ساقطاً ، وحفر له حَفَراً فهدمه عليه ، ونحر جمله وأكله .

وقال عبد الحميد : وفُقد شَأس وقُص أثره ونُشِد ، وركبوا إلى الملك فسألوه عن حاله ، فقال لهم الملك : حَبَوته وسَرَّحته . فقالوا : وما مَتّعته به ؟ قال : مِسكٌ وكُساً ونُطُوعٌ [1] وقُطُفٌ . فأقبلوا يَقُصّون أثره فلم تتّضح لهم سبيلُه .

فمكثوا كذلك ما شاء اللهُ ، لا أدري كم ، حتى رأوا امرأة رياحٍ باعت بعكاظ قطيفةً حمراء أو بعض ما كان من حِباء الملك ، فعُرفت وتيقّنوا أنّ رياحاً ثأرُهم ...

فأتى زهيرٌ غنيّاً فقالوا : نعم ، قتله رياح بن الأسكّ ، ونحن بُرءاءُ منه ، وقد لحق بخاله من بني الطمّاحِ وبني أسد بن خُزَيمة . فكان يكون الليلَ عندَه ويظهر في أبان [2] إذا أحسّ الصبح ، يَرمي الأرْوَى [3] .

إلى أن أصبح ذاتَ يومٍ وهو عندَه وعبسٌ تُريغه [4] . فركب خاله جملاً وجعله على كِفْلٍ [5] وراءه . فبينا هو كذلك إذ دَنَتْ . فقالوا : هذه خيلُ عبسٍ تطلبك ، فَطَمر [6] في قاع شجر فحفر في أصل سُوقه . ولقيت الخيل خاله فقالوا : هل كان معك أحد ؟ قال : لا . فقالوا ما هذا المَرْكَب وراءَك ؟ لتُخبِرنّا أو لَنَقتُلنّك . قال : لا كَذِبَ ، هو رياحٌ في ذلك القاع . فلمّا دنَوا منه قال الحُصَينان [7] : يا بَني عَبْس ، دَعُونا وثأرَنا .

---

(1) النطوع ج نطع : بساط من أديم .
(2) أبان : اسم جبل لبني أسد .
(3) الأروى : أنثى الوعول ، وهو اسم جمع .
(4) تريغه : تطلبه .
(5) الكفل : خرق توضع على سنام البعير .
(6) طمر ، هنا به بمعنى اختبأ .
(7) الحصينان : أراد حصين بن زهير بن جذيمة وحصين بن أسعد بن جزيمة .

فَخَنَسُوا عنهما (١) . فأخذ رياحٌ نعلَين من سِبْتٍ (٢) فصيّرهما على صدره ، حِيالَ كَبِدِه . ونادى : هذا غزالكُما الذي تبغيان . فحمل عليه أحدُهما فطعنه فأزال النعل الرُمح إلى حيث شاكِلَتُه (٣) ، ورماه رياحٌ مُوَلّياً فجذَمَ صُلبَه . قال : ثم جاء الآخر فطعنه فلم يُغنِ شيئاً . ورماه مُولّياً فصرعه . فقالت عبسٌ : أين تذهبون إلى هذا ! والله ليقتلَنَّ منكم عددَ مَراميه ، وقد جَرحاه فسيموتُ .

قال : وأخذ رياحٌ رُمحيهما وسَلَبَيْهما وخرج حتى سَنَدَ إلى أبان . فأتته عجوزٌ وهو يستدمي (٤) على الحوض ليشرب منه وقالت : استأسِر تَحْيَ . فقال : جَنِّبيني حتى أشرب . قال : فأبَتْ ولم تنتهِ . فلمّا غلبته أخذ مِشْقَصاً وكَنَعَ به كُرْسُوعي يَدَيها (٥) ...

قال : ثم انصرف (زهيرٌ) إلى قومه فكان لا يقدر على غَنَوِيٍّ إلاّ قتله .

مقتل زهير بن جذيمة العبسيّ

قتله خالد بن جعفر بن كِلاب . قال أبو عبيدة : قال أبو حَيّة النُميريّ : كان بين انصراف حديث شأس وحديث قتل خالدِ بن جعفر زهيرَ بن جَذيمة ما بين العشرين سنةً إلى الثلاثين سنة . .

قال أبو عبيدة : وهوازنُ بن منصور لا ترى زهيرَ بن جَذيمة إلا ربّاً ، (٦) وهوازنُ يومئذٍ لا خيرَ فيها ، ولم تكثُر عامرُ بن صعصعة بعدُ ، فهم أذلُّ

---

(١) خنس عنه : تأخر .
(٢) السبت : الجلد المدبوغ .
(٣) الشاكلة : الخاصرة .
(٤) يستدمي : يطأطىء رأسه يقطر منه الدم .
(٥) المشقص : نصل عريض . كنع : قطع . الكرسوع : طرف الزند .
(٦) الرب : بمعنى الملك أو السيد العظيم .

من يد في رَحم (١) ، وإنّما هم رِعاءُ الشاءِ في الجبالِ . قال : وكان زهيرٌ يَعْشُرُهم (٢) ، وكان إذا كان أيامُ عُكاظَ أتاها زهيرٌ ، ويأتيها الناسُ من كل وجه ، فتأتيه هوازنُ بالإتاوةِ التي كانت له في أعناقهم ، فيأتونه بالسَمن والأقِط والغنم ... ، ثم إذا تفرّقَ الناسُ عن عُكاظ نزل زهيرٌ بالنَقِرات (٣) ..

فأتته عجوزٌ رهيشٌ (٤) من هوازن بسَمن في نحْي (٥) ، واعتذرت إليه وشكَت السِنين التي تتابعنَ على الناس . فذاقه فلم يَرضَ طعمَه ، فدَعّها (٦) بقَوس في يدِه عُطُل في صدرها ، فاستلقت لحلاوة القفا (٧) فبدت عَورتُها ، فغضبت من ذلك هوازن وحقَدت عليه ، إلى ما كان في صدرها من الغَيظ . والدِمَن وأوحرَها من الحَسَك (٨) . وقد أَمِرت (٩) عمر بن صعصعة يومئذ ، فآلى خالد بن جعفر فقال : والله لأجعلنَّ ذراعي وراء عنقه حتى أُقتل أو يُقتل ....

قال أبو عبيدة : حدّثني أبو سرّار الغنوي قال : كان زهيرٌ رجلاً عَدُوساً (١٠) ، فانتقل من قومه ببنيه وبني أَخَويه زنباعٍ وأَسِيدٍ برَكْبة يُريغُ الغيث في عُشَروات له وشَوْلٍ (١١) ، وبنو عامر قريبٌ منهم ولا

---

(١) هذا مثل يضرب في الذلة والهوان .
(٢) يعشرهم : يأخذ عشر أموالهم .
(٣) النقرات : اسم موضع ، والنقرة : أرض في منخفض متصوب فيها الماء . وفي المطبوعة : النفرات ، وهو تصحيف .
(٤) الرهيش : الضعيفة المهزولة .
(٥) النحي : زق السمن .
(٦) دعها : دفعها بعنف . قوس عطل : لا وتر فيها .
(٧) حلاوة القفا : وسطه .
(٨) الدمن : الأحقاد . أو حرها : غاظها . الحسك : العداوة والحقد .
(٩) أمرت : كثرت .
(١٠) رجل عدوس : قوي على السير ليلا .
(١١) عشروات : ج عشراء : وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر . الشول ج شائلة : الناقة التي أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر فقل لبنها وشال ضرعها ، أي ارتفع .

يُشعَر بهم ... ، وكانت تماضِرُ بنت عمرو بن الشَريد ... امرأةَ زهير بن جذيمةِ وهي أمٌّ وَلَده . فمرَّ بها أخوها الحارث بنُ عَمرو ، فقال زهيرٌ لبَنيه : إنَّ هذا الحمار لَطليعةٌ عليكم فأوثقوه . فقالت أختُه لبنيها : أيزوركُم خالُكم فتُوثِقوه وتحرموه ! فخَلّوه ... ثم حلبوا له وَطْباً وأخذوا منه يميناً ألاّ يُخبرَ عنهم ولا يُنذرَ بهم أحداً ... ، فخرج يَطير حتى أتى عامراً عند ناديِهم ، فأتى حاذةً [1] أو شجرة فألقى الوطبَ تحتها ، والقومُ ينظرون ، ثم قال : أيتها الشجرةُ الذليلة ، اشربي من هذا اللبن فانظُري ما طَعمُه . فقال أهل المجلس : هذا رجلٌ مأخوذٌ عليه عهدٌ ، وهو يُخبرُكم خَبَراً . فأتَوه فإذا هو الحارثُ بن عمرو ، وذاقوا اللبنَ فإذا هو حُلْوٌ لم يَقرُص بعدُ . فقالوا : إنه لَيُخبرنا أنّ طلَبَنا قريبٌ .

فركب معه ستةُ فوارسَ لينظروا ما الخبرُ ، وهم خالدُ بن جعفر بن كِلاب ، وحُندجُ بن البَكّاء ، ومعاوية ابن عُبادة بن عُقيل فارس الهرّار وهو الأَخْيل ، جدّ ليلى الأخْيَليّة ... وثلاثة فوارس من سائر بني عامر ، فاقتصُّوا أثر السيَر حتى إذا رأوا إبلَ بني جَذيمة نزلوا عن الخيل . فقالت النساءُ : إنّا لَنرى حَرَجةً من عِضاهٍ [2] أو غابةَ رماح بمكانٍ لم نكن نرى به شيئاً . ثم راحت الرِعاءَ فأخبروا بمثل ما للنساء .

قال : وأخبرت راعيةُ أَسيد بن جَذيمة أسيداً بمثل ذلك . فأتى أَسيدٌ أخاه زهيراً فأخبره بما أخبرته به الراعية . وقال : إنّما رأتْ خيل بني عامر ورماحَها . فقال زهيرٌ : كلُّ أَزَبَّ نَفُورٌ [3] — فذهبتْ مثلاً ، وكان أسيدٌ كثيرَ الشّعر ... — وأين بنو عامر ! أما بنو كلاب فكالحيّة إذا تركتَها

(١) الحاذة : واحدة الحاذ : ضرب من الشجر .
(٢) الحرجة : الشجر الكثير الملتف . العضاه : كل ما له شوك من الشجر ، وضرب من الشجر بعينه .
(٣) الأزب : الذي يكثر شعر حاجبه ، والبعير الأزب يكون نفوراً .

تركتُك . وإن وَطِئتها عضّتك . وأما بنو كَعب فإنهم يَصيدون اللأى (يريد الثور الوحشي) ، وأما بنو نُمير فإنهم يَرعَون إبلهم في رؤوس الجبال ، وأما بنو هلال فيبيعون العِطر .

قال : فتحمّل [1] عامّةُ بني رَواحة ، وآلى زهيرٌ لا يَبرحُ مكانَه حتى يُصبح ، وتحمّل من كان معه غيرَ ابنَيه ورقاءَ والحارثِ ... وكانت له مظلّة دَوْحٍ يَربِطُ فيها أفراسَه لا تَريمه [2] حذَراً من الحوادث . فلمّا أصبح صَهلت فرسٌ منها حين أحسّت بالخيل ، وهي القَعْساء ... فلم تُؤذِنْهم بهم إلاّ والخيلُ دوائسُ محاضير [3] بالقوم غُدَيّةً . فقال زهيرٌ ، وظن أنّهم أهل اليمن : يا أَسِيد ما هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين تُعمّي حديثَهم منذُ الليلة . قال : وركب أَسِيدٌ فمضى ناجياً ، ووثب زهيرٌ ، وكان شيخاً نبيلاً فتدثّر [4] القَعساء فرسه ، وهو يومئذٍ شيخٌ قد بَدُن ... واعرَورى [5] ورقاءُ والحارث ابناه فرسَيهما ، ثم خالفُوا جِهة مالِهم ليُعمّوا على بني عامر مكانَ مالهم فلا يأخذُوه . فهتف هاتفٌ من بني عامر : يا لَيحامر – يريد يحامِر ، وهو شعارٌ لأهل اليمن – لأن يُعمّي على الجذَيميّين [6] من القوم . فقال زهير : هذه اليمنُ ، قد علمتُ أنّها أهلُ اليمن . وقال لابنه ورقاء : انظر يا ورقاءُ ما ترى ؟ قال ورقاءُ : أرى فارساً على شقراءَ يَجْهَدُها ويَكُدُّها بالسَوط قد ألحّ عليها (يعني خالداً) . فقال زهير : شيئاً ما يُريد السَوطُ إلى الشَقراء ، فذهبتْ مثلاً ، وهي حذَفَةَ ، فرسُ خالد بن جعفر والفارس خالد بن جعفر . قال : وكانت الشقراء من خيل

(١) تحمل : ارتحل .
(٢) لا تريمه : لا تفارقه .
(٣) خيل دوائس : يتبع بعضها بعضاً . محاضر ج محضار : الشديد الحضر ، أي العدو .
(٤) تدثر فرسه : وثب عليها فركبها .
(٥) اعروى فرسه : ركبها بلا سرج .
(٦) الجذيميون : آل جذيمة .

غَنيّ . قال : وتمرّدت (١) القَعساء بزهير ، وجعل خالدٌ يقول : لا نَجوتُ إن نجا مُجَدَّع (يعني زهيراً) . فلمّا تمعّطت (٢) القعساء بزهير ولم تتعلّق بها حَذْفة قال خالد لمعاوية الأخيَل بن عُبادة . وكان على الهرّار (حصان أعوج) : أدرك مُعاويَ . فأدرك معاويةُ زهيراً ، وجعل ابناه ورقاءُ والحارث يُوَطِّشان عنه (٣) ... فقال خالد : اطعَن يا معاويةُ في نَساها (٤) . فطعَن في إحدى رِجْليها ، فانخذلت القَعساءُ بعضَ الانخزال ، وهي في ذلك تَمَعَّط . فقال زهيرٌ : اطعَن الأخرى ، يَكيدُه بذلك لكي تستوي رجلاها فتتحامَل . فناداه خالدٌ : يا معاوية أفِذَّ طعنتَك (أي اطعُنْ مكاناً واحداً) . فشَعْشع الرُّمح في رجلِها فانخذلتْ .

قال : ولَحِقه خالدٌ على حَذفةَ فجعل يدَه وراءَ عُنق زهير ، فاستخفَّ به عن الفرس حتى قَلَبه ، وخرَّ خالدٌ فوقع فوقَه ، ورفع المِغفَر عن رأس زهير وقال : يا لَعامرٍ اقتلُونا معاً . تَعَرفوا أنّهم بنو عامر ، فقال ورقاءُ : وانقطاعَ ظَهْراه ، إنّها لبنو عامرٍ سائرَ اليوم ... ولحق حُنْدُج بن البَكّاء وقد حَسَر خالدٌ المغفر عن رأس زهير فقال : نَحِّ رأسَك يا أبا جَزْءٍ ، لم يَحُن يومُك . قال : فنَحّى خالدٌ رأسه وضرب حُنْدُجٌ رأسَ زهير ، وضرب ورقاءُ بن زهير رأس خالد بالسيف وعليه دِرْعان — وكان أسجر العينين (٥) ، أزبَّ ، أقمر ، مثل الفالج — فلم يُغْنِ شيئاً . قال : وأَجْهَض ابنا زهيرٍ القومَ عن زهير فانتزعاه مُرتَثّاً (٦) ... ونظر بنو زهير فإذا الضربةُ قد بلغت الدِماغَ . ونُهي بنو زهيراً أن يَسقُوا أباهم الماء ، فاستسقاهم فمنعُوه

---

(١) تمرد : جاوز الحد ، ولعلها : عرد : أي هرب .
(٢) التمعط : العدو الشديد .
(٣) يوطشان : يدفعان .
(٤) النسا : عرق من الورك إلى الكعب .
(٥) سجرة العين : أن يخالط بياضها حمرة .
(٦) المرتث : الجريح المشرف على الموت .

حتى نُهلك عَطشاً — وذلك أن المأمومَ [1] يخافُ عليه الماءُ — فجعل يهتِف : أَميِّتٌ أنا عطشاً ، وينادي : يا ورقاء ، فلما رأوا ذلك سقَوه ، فمات لثالثةٍ ، فقال ورقاءُ بن زهير :

رأيتُ زهيراً تحت كَلْكَلِ خالـدٍ فأقبلتُ أسعى كالعَجُول أُبادرُ
إلى بطلَين يَنهضان كِلاهمـا يُريغان نصلَ السّيفِ ، والسيفُ نادر
فشَلّت يميني إذ ضربتُ ابنَ جعفـرٍ وأحرزه مني الحديدُ المُظاهَرُ

قال أبو عبيدة : وأنشدني أبو سرّار فيها أيضاً :

فيا ليتني من قبل أيّـام خالـدٍ ويوم زهير لم تَلِدني تُماضِرُ
لعمري لقد بُشّرت بي إذ ولدتِني فماذا الذي رَدّت عليك البشائر [2]

وقال خالد بن جعفر يمنّ على هوازن بقتله زهيراً ويصدق الحديث .. :

بل كيف تكفرُني هوازنُ بعدمـا أعتقتُهم فتوالـدُوا أحـرارا
وقتلت ربّهـم زهـيراً بعدمـا جدّعَ الأنوف وأكثر الأوتـارا
وجعلتُ حَزْنَ بلادِهم وجِبالهم أرضاً فضاءً سهلةً وعِشـارا
وجعلت مَهْرَ بناتِهـم ودمائهـم عَقْلَ المُلوكِ هجائنا أبكارا [3]

* * *

(١) المأموم : من أمه أي شجه .
(٢) الكلكل : الصدر . العجول من النساء والإبل : الواله التي فقدت ولدها . نادر : ساقط ، تماضر : تماضر بنت عمرو بن الشريد امرأة زهير بن جذيمة .
(٣) الأوتار ج وتر : الثأر . وفي بعض الأصول : الأوزار ، أي الذنوب . العشار : النوق . العقل : الدية .

مقتل خالد بن جعفر الكِلابي

وخبر قاتله الحارث بن ظالم المُرّي

قتله الحارث بن ظالم المُرّي . قال أبو عبيدة : كان الذي هاج من الأمر بين الحارث بن ظالم وخالد بن جعفر أنّ خالد بن جعفر أغار على رهط الحارث ابن ظالم من بني يربوع بن غيظ بن مُرّة ، وهم في وادٍ يُقال له حُراض ، فقتل الرجالَ حتى أسرف ، والحارثُ يومئذٍ غلامٌ ، وبقّيت النساء . وزعموا أن ظالماً هلَك في تلك الوقعة من جِراحة أصابته يومئذٍ .

وكان نساء بني ذُبيان لا يحلُبن النَعَم ، فلمّا بقِين بغير رجالٍ طَفِقن يدعون الحارث فيشُدُّ عِصاب (١) الناقة ثم يحلُبنها ويبكين رجالَهنّ ويبكي الحارث معهن . فنشأ على بُغض خالد ، وأردف ذلك قتلُ خالدٍ زهيرَ بن جَذيمة ، فاستحقّ العداوة في غطفَان (٢) . فقال خالد بن جعفر في تلك الوقعة :

تركتُ نساءَ يربوع من غيظٍ أراملَ يَشتكين إلى وليدِ

(١) عصاب الناقة : ما تشد به لتدر .

(٢) قبيلة غطفان تضم قبيلتي عبس – ومنها زهير بن جذيمة – وذبيان ، ومنها بنو مرة رهط الحارث بن ظالم . أما بنو كلاب فهم بطن من بني عامر بن صعصعة ، وهي من قبائل هوازن . وتنحدر كلتا القبيلتين : غطفان وهوازن من قيس عيلان .

يَقلُنَ لحارثٍ جزَعاً عليه ... لك الخيرات مالك لا تَسُود
تركت بني جذيمة في مَكَرٍّ ... ونصراً قد تركت لدى الشهود
ومنّي سوف تأتي قارعاتٌ ... تَبيد المُخزياتُ ولا تَبيدُ

(الخ الأبيات ...)

قال أبو عبيدة : فمكث خالد بن جعفر بُرهةً من دهره ، حتّى كان من أمره وأمر زهير بن جَذيمة ما كان ، وخالدٌ يومئذ رأسُ هوازنَ . فلمّا استحقّ عداوة عبسٍ وذبيان أتى النعمان بن المنذر [1] (أو الأسودَ) ملكَ الحيرة لينظر ما قدرُه عندَه ، وأتاه بفرس ، فألقى عنده الحارث بن ظالم قد أهدى له فرساً فقال : أبيتَ اللعنَ ، نَعِم صَباحُك ، وأهلي فِداؤُك ، هذا فرسٌ من خيل بني مُرّة ، فلن تُؤتَى بفرس يَشقّ غُبارَه ، إن لم تنسبهُ انتسب ، كنت ارتبطتُه لغزو بني عامر بن صعصعة ، فلمّا أكرمت خالداً أهديتُه إليك . وقام الربيع بن زياد العبْسيّ [2] فقال : أبيتَ اللعن ، نَعِم صباحُك ، وأهلي فداؤك . هذا فرسٌ من خيل بني عامر ارتبطت أباه عشرين سنةً لم يُخفِقْ في غزوة ، ولم يعتلك [3] في سفر ، وفضله على هذين الفرسين كفضل بني عامر على غيرهم .

قال : فغضب النعمانُ عند ذلك وقال : يا معشرَ قيسٍ ، أرى خيلكم أشباهاً . أين اللواتي كأنّ أذنابَها شِقاقُ أعلام [4] ، وكأنّ مَناخِرَها وِجار

(١) ثمة خلاف بين روايات هذا الخبر في اسم الملك الذي اجتمع عنده خالد بن جعفر والحارث بن ظالم ، بعضها يجعله النعمان بن امرىء القيس ، وبعضها يذكر أنه النعمان بن المنذر ، والأرجح أنه المنذر بن المنذر المعروف بالأسود .

(٢) هكذا جاء في الأصل ، والخبر لا يصح على هذا الوجه لأن الربيع هنا يفخر ببني عامر وهو من أعدائهم والسياق يقتضي أن يكون المتحدث خالد بن جعفر الكلابي .

(٣) في المطبوعة : يعتلك ، ولا معنى لها ، واعتنك البعير : ارتطم بالرمل فلم يقدر على السير .

(٤) الشقاق ج شقة : ضرب من الثياب .

الضِباع [1] ، وكأنّ عيونَها بغايا النساء ، رِقاقُ المُستطْعَم [2] ، تُعالِكُ اللُجُمَ في أشداقها ، تدور على مَذاودها كأنّما يَقْضَمن حصىً . قال خالدٌ : زعم الحارث – أبيتَ اللعنَ – أنّ تلك الخيلَ خيلُه وخيلُ آبائه . فغضب النعمان عند ذلك على الحارث بن ظالم .

فلمّا أمسَوا اجتمعوا عند قَينةٍ من أهلِ الحيرة يُقال لها بنتُ عَفْزَر يشربون . فقال خالدٌ : تَغَنّيْ :

دارٌ لِهندٍ والرَّباب وفَرْتَنَى ولِميسَ قبلَ حوادثِ الأيّامِ

وهنّ خالاتُ الحارث بن ظالم . فغضب الحارث بن ظالم حتى امتلأ غيظاً وغضباً وقال : ما تزال تُتبِع أولى بآخرةٍ .

قال أبو عبيدة : ثم إنّ النعمان بن المنذر دعاهم بعد ذلك وقدّم لهم تمراً . فطفِق خالد بن جعفر يأكل ويُلقي نَوى ما يأكل من التمر بين يدَي الحارث . فلمّا فرَغ القوم قال خالد بن جعفر : أبيتَ اللعن ، انظُر إلى ما بين يدَي الحارث بن ظالم من النوى ! ما ترك لنا تمراً إلاّ أكله . فقال الحارث : أمّا أنا فأكلتُ التمر وألقيتُ النوى ، وأمّا أنتَ فأكلتَه بنواه . فغضب خالدٌ وكان لا يُنازَع . فقال : أتنازعني يا حارثُ وقد قتلتُ حاضرتَك وتركتك يتيماً في حُجور النساء ! فقال الحارث : ذلك يومٌ لم أشهده ، وأنا مُغنٍ اليومَ بمكاني . قال خالد : فهلاّ تشكرُ لي إذ قتلت زهيرَ بن جَذيمة وجعلتك سيّد غطفان ! قال : بلى ، أشكرُك على ذلك .

فخرج الحارث بن ظالم إلى بنت عَفْزَر ، فشرب عندها وقال لها : تغنّي :

---

(1) وجار الضبع : جحرها .

(2) مستطعم الفرس : جحفلته وما حولها .

تعلّمْ أبيتَ اللعن أنّي فـــاتكٌ | من اليوم أو من بَعده بابن جَعفرِ
أخالدُ قد نبّهتَني غـيرَ نــائمٍ | فلا تأمنَنْ فتكي يدَ الدهر واحذَرِ
أعيّرتَني أنْ نِلتَ مِنّا فوارســاً | غَداة حُراضٍ مثلَ جِنّان عبقَرِ
أصابهم الدهرُ الخَتُور بخَتْـــره | ومن لا يَقِ اللهُ الحوادثَ يَعثُرِ
فعلّك يوماً أن تَنُوءَ بضَربــةٍ | بكفّ فتىً من قومه غيرِ جَيْـدر
يُغِصُّ بها عُليــا هوازنَ والمُــنى | لِقاءُ أبي جَزْءٍ بأبيض مِبْتَرِ (١)

فبلغ خالدَ بن جعفر قولُه فلم يَحفِل به . فقال عبد الله بن جَعْدة — وهو ابن أخت خالد ، وكان رجلَ قيس رأياً — لابنه : يا بُنيَّ ، ائتِ أبا جَزْء فأخبره أن الحارث بن ظالم سفيهٌ موتور ، فأخْف بَيتَك الليلةَ ، فإنه قد غلبَ عليه الشرابُ . فإن أبيت فاجعل بينَك وبينه رجلاً لِيَحْرُسَك .

فوضعوا رجلاً بإزائه ، ونام ابنُ جَعدةَ دُونَ الرجل ، وخالدٌ من خلف الرجل . وعُرف أنّ ابن عُتبة وابن جَعدة يحرُسان خالِداً ، فأقبل الحارث فانتهى إلى ابن جَعدة فتعدّاه ، ومضى إلى الرجل ، وهو يحسَبُه خالداً ، فعجنه بكَلْكَله حتى كسَره وجعل يكدِمه (٢) لا يَعقِل ، فخلّى عنه والرجلُ تحته ومضى إلى خالد وهو نائمٌ فضربه بالسيف حتى قتله . فقال لعُروة : أخبِر الناس أنّي قتلتُ خالداً ، وقال في ذلك :

ألا سائل النُعمانَ إن كنتَ سـائلاً | وحيَّ كِلابٍ هل فتكتُ بخالدِ
عَشَوتُ إليه وابنُ جَعدةَ دونَــه | وعُروة يَكلا عمّه غيرَ راقد
وقد نصَبا رَجْلاً فباشرتُ جَـوزه | بكلكلٍ مَخشيِّ العَداوة حـارد
فأضرِبه بالسيف يافوخَ رأســـه | فصمّم حتى نال نُوطَ القلائد (٣)

---

(١) الجنان : الجن . الختر : الخديعة والغدر . الجيدر : القصير .
(٢) يكدمه : يعضه .
(٣) العشا : سوء البصر ليلا . يكلا ، مخففة من يكلأ : يحفظ ويحرس . الرجل : لغة في الرجل . جوز كل شيء : وسطه . حارد : غاضب . نوط ج نياط : معلق .

وأفلتَ عبدُ الله مني بذُعْرِه   وعُروةُ من بعد ابن جَعدة شاهدِي

* * *

قال أبو عبيدة : حدثني أبو محمد عصام العجلي قال : فلمّا قتلَ الحارثُ بن ظالم خالِدَ بن جعفر في جِوار الملك خرج هارباً حتى أتى صديقاً له من كِندة يحلّ شُعَبَى ... فلما ألحّ الأسود [1] في طلب الحارث قال له الكندي : ما أرى لك نَجاةً إلاّ أن أُلحقك بحضرَموتَ ببلاد اليمن فلا يُوصَل إليك . فسار معه يوماً وليلةً ، فلمّا غرّبه قال : إني أنقطع ببلاد اليمن فاغترِبُ بها ، وقد بَرِئتَ منك خِفَارتي . فرجعَ حتى أتى أرض بكر بن وائل ، فلجأ إلى بني عجل بن لُجيم ، فنزل على زَبّان فأجاره وضرب عليه قُبةً ، وفي ذلك يقول العِجليُّ :

ونحن منعنا بالرِماح ابنَ ظالم   فظلّ يُغني آمناً في خِبائِنا

قال أبو عبيدة :

فجاءته بنو ذُهل بن ثعلبة وبنو عَمرو بن شَيبان فقالوا : أخرِجْ هذا المشؤومَ من بين أظهرِنا ، لا يَعرُّنا [2] بِشَرٍّ . فإنّا لا طاقةَ لنا بالمَلحاء (والمَلحاء كتيبةُ الأسود) ، فأبت عِجلٌ أن تُخفِره فقاتلوه ، فامتنعت بنو عِجل ....

قال أبو عبيدة :

ثم قال لهم الحارث : إني قد اشتهَر أمري فيكم ومكاني ، وأنا راحلٌ عنكم ، فارتحل فلحق بطيء ...

قال أبو عبيدة : وحدّثني أبو حيّة أن الأسود حين قتل الحارث خالداً سأل

---

(١) هذه الرواية تجعل ملك الحيرة الذي طارد الحارث بن ظالم الأسود وهو المنذر بن المنذر ، وهو المرجح .

(٢) يعرنا : يصيبنا .

عن أمرٍ يَبلُغ منه ، فقال له عُروة بن عُتبة : إن له جارات من بَلِيّ بن عمرو ، ولا أراك تنالُ منه شيئاً أغيظَ له من أخذِ هنّ وأخذ أموالهنّ . فبعث الأسودُ فأخذهنّ واستاق أموالهنّ . فبلغ ذلك الحارثَ فخرج من الحين فانساب في غُمار الناس حتى عرَف موضع جاراته ومَرعى إبلهنّ ، فأتى الإبل فوجد حالبَين يحلُبان ناقةً لهنّ يُقال لها اللِفاع ... فصاح بهما الحارث ورجزَ فقال :

إذا سمعتِ حَنّةَ اللِفاع فادعي أبا ليلى ولا تُراعي
ذلك راعيك فنِعمَ الراعي يُجبِكِ رحبَ الباع والذراع
مُنْطَقاً بصارمٍ قطّاعٍ

خلّيا عنها . فعرفاه فضرط البائن (1) ، فقال الحارث : « است الضارط أعلَمُ » ، فذهبت مثلاً ... ثم عمدَ إلى أموال جاراته وإلى جاراته . فجمعهنّ وردّ أموالهنّ وسار معهن حتى اشتلاهنّ (2) .

قال أبو عبيدة : ولحق الحارثُ ببلاد قومه مختفياً ، وكانت أختُه سلمى (3) بنت ظالم عندَ سنان بن أبي حارثةَ المُرّي ، وكان الأسود بن المنذر قد تبنّى سنان بن أبي حارثة المُرّي ابنه شُرَحْبيل ، فكانت سلمى بنت كثير (الأسديّة) امرأة سنان بن أبي حارثة المُرّي ، تُرضِعهُ ، وهي أمُّ هرمٍ . وكان هرمٌ غنيّاً يقدِر على ما يُعطي سائليه . فجاء الحارث — وكان قد اندسّ في بلاد غطفان — فاستعار سَرْجَ سنانٍ ، ولا يعلم سنانٌ ، وهم نُزولٌ بالشَربّة (4)

(1) البائن : الحالب الأيمن ، والحالب الأيسر يقال له : المستعلي .
(2) اشتلاهن : أنقذهن .
(3) لاحظ التناقض في هذا الخبر ، فقد ذكر أبو عبيدة أولا أن سلمى هي سلمى بنت ظالم المرية ، أخت الحارث ، ثم ذكر بعد سطرين أنها سلمى بنت كثير الأسدية ، وهو الراجح لأن الأسود يغزو بني أسد بسببها .
(4) الشربة : موضع في بلاد غطفان .

فأتى به سَلمى ابنة ظالم فقال : يقولُ لك بَعلُك : ابعَثي بابن الملك مع الحارث حتى أستأمنَ له ويَتخفَّر به ، وهذا سَرْجُه آيةٌ [1] إليك . فزيّنته ثم دفعته إلى الحارث ، فأتى بالغلام ناحية من الشَّرَبَّة فقتله ، ثم أنشأ يقول :

قفا فاسمَعا أخبِرْكما إذ سألتُمـا ... مُحاربُ مَولاه وثَكْلانُ نادمُ

ــ ثكلان نادم : يعني الأسودَ لانه قتل ابنه شرحبيل . محارب مولاه : يعني الحارث نفسه ، ومولاه : سَنان ــ

أخُصْيَي حمارٍ بات يكدُم نجمـةً ... أتُؤكَلُ جاراتي وجارُك سالمُ

حسبتَ ، أبيتَ اللعنَ ، أنّك فائتٌ ... ولمّا تَذُقْ ثُكلاً ، وأنفُك راغمُ

فإن تَكُ أذواداً أصبتَ ونِسوةً ... فهذا ابنُ سَلمى رأسُه مُتفاقِمُ

علوتُ بذي الحيّات مَفْرِقَ رأسِه ... وكان سِلاحي تجتويه الجماجمُ

بدأت بتلك وانثنيتُ بهذه ... وثالثةٍ تبيضُ منها المقادمُ [2]

قال أبو عبيدة : وهرب الحارث ، فغزا الأسود بني ذُبيان إذ نقضوا العهد ، وبني أسدٍ بشطّ أَريك .... قال أبو عبيدة : إنّ سلمى امرأة سنان التي أخذ الحارثُ شرحبيل من عندها ، من بني أسد . قال : فإنّما غزا الأسودُ

---

(١) الآية : العلامة .

(٢) أخصيي حمار : يخاطب سناناً ، وشبهه بخصية الحمار لتغضن وجهه . يكدم : يعض . النجم : ما لا ساق له من النبات . الذود : من الإبل من الثلاث إلى التسع . ذو الحيات : أراد سيفه . تجتويه : تكرهه .

بني أسدٍ لدَفع الأسديّة سَلمى ابنَه إلى الحارث ، فقتل فيهم قتلا ذريعا وسبى ، واستاق أموالهم ...

قال : ووُجد نعلُ شُرَحبيل عند أَضاخٍ ، وهو من الشَرَبّة ، في بني مُحارب بن خَصَفة بن قيس عيلان . قال : فأحمى لهم الأسودَ الصَفا التي بصحراء أَضاخ وقال لهم : إنّي أحذِيكم نِعالاً ، فأمشاهم على الصَفا المُحْمَى فتساقط لحمُ أقدامهم ...

قال أبو عبيدة : وأخذ الأسودُ سِنانَ بن أبي حارثة ، فأتاه الحارث بن سُفيان ، أحد بني الصارد ... فاعتذر إلى الأسود أن يكون سنان بن أبي حارثة علم أو اطّلع ، ولقد كان أَطرد الحارث من بلاد غطَفان ، وقال : عليّ ديةُ ابنك ألفُ بعيرٍ ، ديةُ الملوك . فحمّلها إيّاه وخلّى عن سنان ....

قال أبو عبيدة : فلمّا قتل الحارث شَرحبيل لحِق ببني دارم ، فلجأ إلى بني ضَمرة . قال : وبنو عبد الله بن دارم يقولون : بل جاور مَعبَد بن زُرارة فأجاره ، فجرّ جوارُه يوم رَحْرَحان ، وجرّ يوم رحرحان يومَ جَبَلة .

وطلبه الأسود بخُفرته [1] ، فلمّا بلغه نزوله ببني دارم أرسل فيه إليهم أن يُسلِموه فأبَوا ...

قال : وبلغ ذلك بني عامر ، فخرج الأحوص غازياً لبني دارم طالباً بدم أخيه خالد بن جعفر حين انطووا على الحارث وقاموا دُونَه ، فغزاهم فالتقوا برَحْرَحان ، فهُزمت بنو دارم ، وأُسر مَعبَد بن زُرارة ، فانطلقوا به حتى مات في أيديهم .

ثم أسر بنو هِزّان الحارث بن ظالم . قال أبو عبيدة : خرج الحارث من عندهم ، فجعل يطوف في البلاد حتى سقط في ناحية من بلاد ربيعة ، ووضع سلاحَه ، وهو في فلاة ليس فيها أثر ، ونام ، فمرّ به نفرٌ من بني قيس بن

(١) الخفرة : الذمة .

ثعلبة ، ومعهم قومٌ من بني هِزّان من عنزة ، وهو نائم ، فأخذوا فرسَه وسلاحه ثم أوثقوه ، فانتبه وقد شدُّوه فلا يملِك من نفسه شيئاً . فسألوه : من أنت ؟ فلم يُخبرهم ، وطوى عنهم الخبر ، فضربوه لِيقتلوه على أن يُخبرَهم مَن هو ، فلم يفعل . فاشتراه القيسيّون من الهِزّانيّين بزِقّ خمرٍ وشاةٍ ... ثم انطلقوا إلى بلادهم فقالوا له : من أنت ؟ وما حالُك ؟ فلم يُخبرهم ، فضربوه ليموت فأبى ، قال : وهو قريبٌ من اليمامة ...، حتى ملّوه ، فتركوه في قَيده حتى انفلت ليلاً فتوجّه نحو اليمامة ، وهي قريبٌ منه ، فلقي غِلمةً يلعبون ، فنظر إلى غُلام منهم ، أَخلقهم للخير عنده ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا بُجَير بن أَبْجَر العِجْلي ، وله ذَؤابةٌ يومئذ ، وأمّه امرأةُ قَتادة بن مَسلمة الحنفيّ [1] . فأتاه وأَخذ يحقْويه والتزمه وقال : أنا لك جارٌ . فيقال : إنّ عِجْلاً أجارته في هذا اليوم لا في اليوم الأول الذي ذكرناه في أول الحديث . فأتى الغلام أباه فأخبره وأجاره وقال : ائت عمّك قتادة بن مَسلمة الحَنَفيّ فأخبِره ، فأتى قتادة فأخبره فأجاره .

قال أبو عبيدة : وأمّا فِراسٌ [2] فزعم أنه أفلت من بني قيس فأقبل شدّاً حتى أتى اليمامة ، واتبعوه حتى انتهى إلى نادي بني حَنيفة ، وفيه قَتادة بن مَسلمة ، فلمّا رأوه يَهوي نحوهم قال : إنّ هذا لخائف ، وبصُر بالقوم خلفَه فصاح به : الحِصنَ ، الحصن . فأقبل حتى ولج الحصن . وجاءت بنو قيس فحال دونَه وقال : لو أخذتمُوه قبل دخولِه الحِصن لأسلمتُه إليكم ، فأمّا إذ تحرّم بي فلا سبيلَ إليه . فقالوا : أسيرُنا اشتريناه بأموالِنا ، وما هو لك بجارٍ ولا تعرِفه ، وإنما أتاك هارباً من أيدينا ، ونحن قومُك وجيرتُك . قال : أمّا أن أُسلِمَه فلا يكونُ ذلك أبداً ، ولكن اختاروا منّي : إن شئتم فانظرُوا ما اشتريتموه به فخُذوه مني ، وإن شئتم أعطيتُه سلاحاً كاملاً وحملتُه على فرَس

(١) ذكر سابقاً أنه ابن أبجر العجلي، فقوله إن أمه امرأة قتادة بن مسلمة يناقض ما سبق ، وينبغي ليستقيم الخبر أن تكون أمه قد تزوجت أبجر ثم قتادة .

(٢) فراس هو من يروي عنه أبو عبيدة الخبر ، وهو فراس بن خندق القيسي .

ودَعُوه حتى يقطعَ الوادي بيني وبينه ثم دُونكُموه . فقالوا : رَضينا . فقال ذلك للحارث فقال : نعم . فألبسه سلاحاً كاملاً وحمله على فرسِه وقال له : إن أفلتّهم فرُدَّ إليّ الفرسَ ، والسلاحُ لك .

قال : فخرج ، وتركوه حتى جاز الوادي ، ثم اتّبعوه ليأخذُوه ، فلم يزل يُقاتلُهم ويُطاردهم حتى ورد بلادَ قُشير ، وهو قريبٌ من اليمامة أيضاً ، بينهما أقلُّ من يوم . فلما صار إلى بلاد قشير يئِسُوا منه فرجَعوا عنه ، وعرفه بنو قشير فانطَووا عليه وأكرموه ، وردّ إلى قتادة بن مسلمة فرسه وأرسل إليه بمائةٍ من الإبل ...

ولحق الحارث بمكّة وانتمى إلى قريش وذلك قوله :

وما قَومي بثعلبةَ بن سَعــد ولا بِفزَارة الشُعرِ الرّقابا
وقومي إن سألتَ بنــو لُــؤَيٍّ بمكةَ علّموا مُضَرَ الضِرابا

قال : فزوّده وحمله رَواحة الجُمَحيّ على ناقة ... فلحِق الحارث بالشام ، بملك من ملوك غسّان ، يقال هو النُعمان ، ويقال بل هو يزيد بن عمرو الغسّاني ، فأجاره .

وكانت للملك ناقةٌ مُحماةٌ في عُنقها مُديّة وزِنادٌ وصُرّةُ مِلحٍ ، وإنّما يختبر بذلك رعيّته هل يجترىءُ عليه أحدٌ منهم . ومع الحارث امرأتان ، فوَحِمت إحدى امرأتيه – قال أبو عبيدة : وأصابت الناسَ سنةٌ شديدةٌ – فطلبتِ الشحمَ إليه . قال : ويحَك ، وأنّى لي بالشحم والوَدَك . فألحّت عليه ، فعمدَ إلى الناقة ، فأدخلها بطنَ وادٍ فلَبَّ في سَبَلتها (١) – أي طعن – فأكلت امرأته ورُفع ما بقي من الشحم في عُكّتها (٢) .

قال : وفُقدت الناقةُ فوُجدت نَحيراً لم يؤخَذ منها إلاّ السَنام ، فأعلموا

---

(١) سبلة الناقة : ثغرة نحرها .
(٢) العكة : آنية السمن .

ذلك الملك ، وخفِي عليهم مَن فعله . فأرسل إلى الخِمْس التغلبيّ ، وكان كاهناً ، فقال : مَن نحر الناقة ؟ فذكر أنّ الحارث نحرها . فتذمّم الملك وكذّب عنه . فقال : إن أردت أن تعلم عِلمَ ذلك فدُسّ امرأةً تطلب إلى امرأته شَحماً ، ففعل . فدخل الحارث وقد أخرجت امرأته إليها شحماً ، فعرف الداءَ فقتلها ودفنها في بيته . فلمّا فُقدت المرأة قال الخمس : غالها[1] ما غال الناقة ، فإن كرِه الملك أن يُفتِّشه عن ذلك فليأمُر بالرحيل ، فإذا ارتحل بُحث بيتُه . واستثار الخِمس مكان بيته ، فوثب عليه الحارث فقتله ، فأخذ الحارث فحُبس ...

قال : فأمر الملك بقتله فقال : إنّك قد أجَرْتني فلا تَغدِرني . فقال : لاضَيْرَ ، إن غدرتُ بك مرّةً فقد غدرت بي مراراً . فأمر مالك بن الخِمس التغلبيّ أن يقتله بأبيه فقال : يا بنَ شَرِّ الأظماء[2] ، أنت تقتلني ! فقتله . وقال ابن الكلبيّ : لمّا قام ابن الخِمس إلى الحارث ليقتله قال : من أنت ؟ قال : ابنُ الخِمس . قال : أنتَ ابنُ شرّ الأظماء . قال : وأنت ابن شرّ الأسماء ، فقتله ....

وأخذ ابن الخمس سيف الحارث بن ظالم المعلوب ، فأتى به سوق عُكاظ في الحرَم ، فجعل يعرضه على البيع ويقول : هذا سيف الحارث بن ظالم . فاستراه إيّاه[3] قيسُ بن زهير بن جذيمة فأراه إيّاه فعَلاَه به حتى قتله في الحَرَم ...

هذه رواية أبي عبيدة والبصريّين . أما الكوفيّون فإنهم يذكرون أن النعمان ابن المنذر هو الذي قتله .

---

(١) غالها : أهلكها .

(٢) شر الأظماء : يريد أنه ابن الخمس ، والخمس هو أن ترعى الناقة ثلاثة أيام ثم ترد الماء في اليوم الرابع .

(٣) استراه : طلب رؤيته .

عن المفضّل قال :

لمّا هرب الحارث إلى مكّة أسِف النعمان بن المنذر على فَوته إيّاه ، فلَطُف له وراسله وأعطاه الأمان ، وأشهد على نفسه وجوه العرب من ربيعة ومُضر واليمن أنه لا يطلبه بذَحْل [1] ولا يسُوءُه في حال ، وأرسل به مع جماعة ليسكن الحارث إليهم ، وأمرهم أن يتكفّلوا له بالوفاء ويضمَنوا له عنه أنّه لا يَهيجه ، ففعلوا ذلك . وسكن إليه الحارث ، فأتى النعمان ، وهو في قصر بني مُقاتل ، فقال للحاجب : استاذِن لي ، والناسُ يومئذٍ عند النعمان مُتوافرون ، فاستأذن له . فقال النعمان : ائذَنْ له وخُذ سيفه . فقال له : ضَع سيفَك وادخُل . فقال الحارث : ولِمَ أضَعُه ؟ قال : ضَعْه . فلا بأسَ عليك . فلما ألحّ عليه وضعه ودخل ومعه الأمانُ . فلمّا دخل قال : انعَمْ صَباحاً أبيتَ اللعن . قال : لا أنعمَ اللهُ صباحَك . فقال الحارث : هذا كتابُك . قال النعمان : كتابي واللهِ ما أُنكِرُه ، أنا كتبتُه لك ، وقد غدرتَ وفتكت مراراً ، فلا ضَيْرَ إن غَدَرت بك مرّةً . ثم نادى : من يقتل هذا ؟ فقام ابن الخِمس التغلبيّ — وكان الحارث فتك بأبيه — فقال : أنا أقتله . وذكر باقي الخبر في قصته مع ابن الخمس مثل ما ذكر أبو عُبيدة [2] .

* * *

---

(١) الذحل : الحقد والثأر .

(٢) الرواية الثانية لهذا الخبر أدنى إلى الصحة لما في الخبر الأول من التكلف ، ونلاحظ هنا أن الخلاف بين أهل الكوفة والبصرة تناول حتى رواية الأخبار .

مِن أيّام العَرَب في الجاهليّة

* * *

حَرب داحِس والغَبْراء

(الأغاني ج ١٧ ص ١٨٧ وما بعدها)

قال بعض الرواة : إنّ الذي هاجَ الرِهانَ (بين حُذيفة بن بدر الفزاري الذبياني وقيس بن زهير العَبْسيّ) أن رجلاً من بني عبد الله بن غطَفان ثم أحد بني جَوْشن — وهم أهلُ بيت شؤم — أتى حُذيفة زائراً ، ويُقال إنّ الذي أتاه الوَرْد العبسيّ ، أبو عُروةَ بن الورد ، قال : فعرَض عليه حُذيفةُ خيلَه فقال : ما أرى فيها جَواداً مُبِرّاً ، والمبرّ ، الغالب ... فقال له حُذيفةُ : فعندَ مَن الجوادُ المُبِرّ ؟ فقال : عند قيسِ بن زُهير . فقال له : هل لك أن تُراهنَني عنه ؟ قال : نعم ، قد فعلتُ . فراهنه على ذكَرٍ من خيله وأنثى .

ثم إن العبديَّ أتى قيسَ بن زُهير وقال : انّي قد راهنتُ عنك على فرسَين من خيلك ذكرٍ وأنثى وأوجبتُ الرِهان . فقال قيس : ما أُبالي مَن راهنتَ غيرَ حُذيفة . فقال : ما راهنتُ غيرَه . فقال له قيس : انّك ، ما علِمتُ ، لأنكَـــدُ .

ثم ركب قيسٌ حتى أتى حُذيفة فوقف عليه فقال له : ما غَدا بك ؟ قال : غدوتُ لأواضِعَك[1] الرِهان . قال : بل غدوت لتُغْلِقَه[1] . قال : ما أردتُ ذلك . فأبى حُذيفةُ إلا الرِهانَ . فقال قيسٌ : أُخيِّرُك ثلاثَ خِلالٍ ، فإن بدأتَ فاخترتَ قبلي فلي خَلّتان ، ولك الأولى . وإن بدأتُ فاخترتُ قبلَك فلك خَلّتان ولي الأولى .

قال حذيفة : فابدَأ . قال قيسٌ : الغايةُ[2] من مائة غَلْوة . والغلوة : الرمية بالنُشّابة . قال حذيفة : فالمِضمار أربعون ليلة ، والمُجرى من ذات الإصاد .

ففعلا ووضعا السَبَق[3] على يدي غَلاّق — أو ابن غَلاّق — أحد بني ثعلبة بن سَعد بن ثعلبة فأمّا بنو عبس فزعموا أنه (أي حذيفة) أجرى الخَطّار والحَنْفاء . وزعمت بنو فزارة أنه أجرى قُرزُلاً والحنفاء ، وأجرى قيسٌ داحساً والغبراء .

ويزعم بعضهم أن الذي هاج الرهان أنّ رجلاً من بني المعتمِر بن قُطيعة ابن عبس يقال له سُراقة راهن شاباً من بني بدر ، وقيسٌ غائبٌ ، على أربع جزائر من خمسين غَلوة . فلمّا جاء قيسٌ كرِه ذلك وقال له : لم ينته رهانٌ قطّ إلاّ إلى شرٍّ . ثم أتى بني بدر فسألهم المُواضعة فقالوا : لا ، حتّى نعرف سبقَنا ، فإن أَخَذْنا فحقّنا ، وإن تركنا فحقّنا .

فغضب قيسٌ ومَحَك وقال : أما إذ فعلتم فأعظموا الخَطَر[4] ، وأبعدوا الغاية . قالوا : فذلك لك .

---

(١) واضعه الرهان : أحله منه . أغلق الرهان : أثبته ووكده ، وغلق الرهن . استحقه المرتهن وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط .
(٢) الغاية هنا : مسافة السباق .
(٣) السبق هنا : ما يناله الفائز في السباق .
(٤) الخطر : الرهان .

فجعلوا الغاية من واردات إلى ذاتِ الإصاد ، وذلك مائةُ غَلوة ، والثنيّةُ فيما بينهما ، وجعلوا القصَبةَ (١) في يدي رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له حُصين ... ، وملؤوا البركة ماءً ، وجعلوا السابق أوّلَ الخيل يكرَعُ فيها .

ثم إن حذيفةَ بن بدر وقيسَ بن زهير أتيا المَدى الذي أُرسلن منه ينظران إلى الخيل كيف خروجُها منه . فلمّا أُرسلت عارضاها فقال حُذيفة : خدعتُك يا قيس . فقال قيس : تركَ الخِداعَ من أجرى من مائةٍ ، فأرسلها مثلاً .

ثم ركضا ساعةً فجعلت خيلُ حُذيفة تبُرّ وخيل قيس تُقصِّر ، فقال حذيفة : سبقتُك يا قيس . فقال : جَرْيٌ المُذكّيات غِلابٌ (٢) ، فأرسلها مثلاً . ثم ركضا ساعة فقال حذيفة : إنك لا تركُضُ مَرْكَضاً ، فأرسلها مثلاً . وقال : سُبقت خيلُك يا قيس . فقال قيس : رُوَيداً يَعلُون الجَدَد (٣) فأرسلَها مثلاً .

قال : وقد جعل بنو فَزارةَ كميناً بالثنيّة ، فاستقبلوا داحساً فعرَفوه فأمسكوه ، وهو السابقُ ، ولم يعرفوا الغَبراء وهي خلفَه مُصَلِّيّة (٤) حتى مضت الخيلُ واستَهلّت من الثنيّة ، ثم أرسلوه فتمطّر في آثارها ، أي أسرع ، فجعل يَبْدُرها فرساً فرساً حتى سبقها إلى الغايةِ مُصَلِّياً ، وقد طرح الخيلَ غيرَ الغبراء ، ولو تباعدت الغاية لسبقها . فاستقبلها بنو فَزارة فلَطموها ثم حَلّؤوها (٥) عن البِركة ، ثم لَطَموا داحساً ، وقد جاءا متواليَين ...

فجاء قيسٌ وحُذيفة في آخرِ الناس ، وقد دفعتهم بنو فَزارة عن سَبَقهم

---

(١) قيل للسابق : أحرز قصب السابق لأن الغاية التي يسبق إليها تذرع بالقصب ، وتركز عند منتهى الغاية فمن سبق إليها حازها واستحق الرهان .

(٢) المذكي من الخيل : الذي أتى عليه سنة أو سنتان بعد قروحه والغلاب المغالبة أي أن المذكي يغالب مجاريه فيغلبه .

(٣) الجدد : الأرض الغليظة المستوية .

(٤) المصلي : الذي يأتي ثانياً في السباق أما الأول فهو المجلي .

(٥) حلأه عن الماء : منعه من وروده .

ولطموا أفراسَهم ، ولم تُطِقْهم بنو عبس ليقاتلوُهم ، وإنّما كان من شهِد ذلك من بني عبسٍ أبياتاً غيرَ كثيرة . فقال قيسُ بن زهير : يا قومُ ، إنه لا يأتي قومٌ إلى قومهم شرّاً من الظُلم ، فأعطُونا حقّنا ! فأبت بنو فزارة أن يُعطوهم شيئاً ، وكان الخَطَر عشرين من الإبل . فقالت بنو عبس : أعطُونا بعضَ سبَقنا ، فأبوا ؛ فقالوا : أعطُونا جَزُوراً نَنْحَرْها نُطعِمها أهل الماء ، فإنّا نَكْرَهُ القَالةَ في العرب . فقال رجلٌ من بني فزارة : مائة جَزُورٍ وجزورٌ واحدٌ سَواءٍ ، واللهِ ما كُنّا لِنُقِرّ لكم بالسَبْق علينا ولم نُسبَق .

فقام رجل من بني مازن بن فزارة فقال : يا قومِ ، إن قيساً كان كارهاً لأوّل هذا الرِهان ، وقد أحسن في آخرِه ، وإنّ الظُلم لا ينتهي إلاّ إلى الشرّ . فأعطُوه جَزوراً من نَعَمكم ، فأبوَا . فقام إلى جَزُور من إبله فعقَلها ليُعطيَها قيساً ويُرضيَه ، فقام ابنُه فقال : إنّك لكثيرُ الخطأ ، أتريد أن تُخالفَ قومَك وتُلحق بهم خَزايةً بما ليس عليهم . فأطلق الغلامُ عِقالها فلحقت بالنَعم . فلما رأى ذلك قيس بن زهير احتمل عنهم هو ومَن معه من بني عبس ، فأتى على ذلك ما شاءَ اللهُ .

ثم إنّ قيساً أغار عليهم فالتقى عَوف بن بدر فقتله وأخذ إبلَه ، فبلغ ذلك بني فزارة فهمّوا بالقتال وغضبوا ، فحمل الربيعُ بن زياد أحد بني عَوْذ ابن غالب بن قُطيعة بن عبس — ديةَ عوف بن بدر مائة عُشَراء مُتلِية [1] ...

واصطلح الناسُ فمكثوا ما شاء اللهُ .

ثم إنّ مالك بن زهير أتى امرأةً يُقال لها مُليكة بنت حارثة من بني عَوْذ ابن فَزارة ، فابتنى بها باللُقاطة ، قريباً من الحاجر . فبلغ ذلك حُذيفة بن بدر فدسّ له فُرساناً على أفراسٍ من مَسَانّ خيله [2] وقال : لا تُنظِروا [3] مالكاً

(١) العشراء : التي أتى عليها من حملها عشرة أشهر . المتالي : التي تنتج بعضها إثر بعض .
(٢) مسان الخيل : كبارها .
(٣) لا تنظروا مالكاً : لا تنتظروه ولا تريثوه .

تقتلوه ، والربيعُ بن زياد ... العبسيُّ مجاورٌ حُذيفةَ بن بدر ، وكانت تحت الربيع بن زياد مُعاذةُ ابنة بدر . فانطلق القومُ فلقُوا مالكاً فقتلوه ثم انصرفوا عنه فجاؤوا عشيّةً وقد جهَدوا أفراسَهم ، فوقفوا على حُذيفة ، ومعه الربيعُ ابن زياد ، فقال حُذيفة : أقَدَرتم على حماركم ؟ قالوا : نعم ، وعقرناه . فقال الربيع : ما رأيتُ كاليوم قطُّ ، أهلكت فُرسانَك من أجل حمارٍ ! فقال حذيفة لمّا أكثر عليه من المَلامة ، وهو يحسَب أنّ الذي أصابوا حمارٌ : إنّا لم نقتل حِماراً ، ولكنّا قتلنا مالكَ بن زهير بعَوْف بن بدر . فقال الربيع : بئس لَعَمْرُ الله القتيلُ قتلتَ ! أما والله إنّي لأظنُّهُ سيَبلغُ ما نكْرهُ .

فتراجعا شيئاً من كلام ثم تفرّقا ، فقام الربيع يطأ الأرض وطئاً شديداً : وأخذ يومئذ حَمَل بن بدر ذا النُون ، سيفَ مالك بن زهير ....

وقال الربيع لحذيفة ، وهو يومئذ جارُه : سَيّرْني ، فإنّي جارُكم . فسيّره ثلاثَ ليالٍ ، ومع الربيع فَضلةٌ من خمرٍ . فلمّا سار الربيع دسّ حذيفة في أثره فوارسَ فقال : اتّبعوه ، فإذا مضت ثلاثُ ليالٍ فإنّ معه فضلةً من خمرٍ ، فإن وجدتموه قد أهرَاقها فهو جادٌّ وقد مضى ، فانصرفوا ، وإن لم تجدوه قد أراقها فاتّبعوه ، فإنكم تجدونه قد مال لأدنى مَنزلٍ فرتَع وشرِب فاقتلُوه . فتَبعُوه فوجدوه قد شقّ الزِقّ ومضى ، فانصرَفوا .

فلمّا أتى الربيع قومَه – وقد كان بينه وبين قيس بن زهير شَحناءُ ... – فكان قيس يخاف خِذلانهم إيّاه . فزعموا أنّ قيساً دسّ غلاماً له مولَّداً فقال انطلِقْ كأنّكَ تطلُب إبلاً ، فإنّهم سيسألُونك ، فاذكُرْ مقتل مالك ، ثم احفظ ما يقولون . فأتاهم العبد فسمع الربيع يتغنّى بقوله :

أفبعدَ مقتل مالكٍ بن زُهـــيرٍ ترجو النساءُ عواقبَ الأطهارِ

فلمّا رجع العبدُ إلى قيس فأخبره بما سمع من الربيع بن زياد عرف قيس أنه قد غضب ، فاجتمعت بنو عبس على قتال بني فَزارة ، فأرسلوا إليهم أن

رُدُّوا علينا إبلنا التي وَدَيْنا بها عوفاً – أخا حذيفة بن بدر لأمّه – فقال : لا أُعطيكم ديةَ ابنِ أُمّي ، وإنّما قتل صاحبَكم حَمَلُ بن بدر ، وهو ابن الأسديّة ، وأنتم وهو أعلم .

فزعَم بعض الناس أنّهم كانوا وَدَوْا عوف بن بدر بمائةٍ من الإبل مُتْلِية ، أي قد دنا نِتاجُها ، وأنه أتى على تلك الإبل أربعُ سنين ، وأنّ حُذيفة بن بدر أراد أن يَرُدَّها بأعيانها ، فقال له سنان بن خارجة المرّيّ : أتريد أن تُلحق بنا خَزايةً فنُعطيهم أكثرَ ممّا أعطَونا ، فتَسُبَّنا العربُ بذلك ؟ فأمسكها حُذيفةُ : وأبى بنو عبسٍ أن يقبلوا إلاّ إبلهم بعَينها ، فمكث القومُ ما شاء الله أن يمكثوا .

ثم إن مالكَ بن بدر خرج يطلب إبلاً له ، فمرّ على بني رواحة بن عبس ، فرماه جُنيدِب – أحد بني رواحة – بسهم فقتله ...

ثم إنّ الأسْلَع بن عبد الله بن عبس مشى في الصلح ، ورهنَ بني ذبيان ثلاثةً من بنيه وأربعةً من بني أخيه حتّى يصطلحوا ، جعلهم على يدَي سُبيع ابن عمرو ، من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، فمات سُبيعٌ وهم عندَه .

فلمّا حضرتْه الوفاةُ قال لابنه مالك بن سُبيع : إنّ عندَك مَكرُمةً لا تَبيد ، إن أنت احتفظتَ بهؤلاء الأغَيلمة ، وكأنّي بك لو قد متُّ قد أتاك حُذيفةُ خالك – وكانت أُمّ مالكٍ هذا ابنةَ بدر – فعصرَ عينيه وقال : هلكَ سيدنا . ثم خدعَك عنهم حتّى تدفَعهم إليه فيقتلَهم ، فلا شرفَ بعدها ، فإن خِفت ذلك فاذهبْ بهم إلى قومهم .

فلمّا ثَقُل جعل حذيفة يبكي ويقول : هلكَ سيّدُنا . فوقع ذلك له في قلب مالك . فلمّا هلك سُبيعٌ أطاف بابنه مالك فأعظمه . ثم قال له : يا مالكُ ، إنّي خالُك ، وإنّي أَسَنّ منك ، فادفَع إليّ هؤلاءِ الصبيانَ ليكونوا عندي إلى أن ننظرَ في أمرنا . ولم يزل به حتّى دفعهم إلى حُذيفة باليَعْمُريّة (١) ...

---

(١) اليعمرية : ماء بواد من بطن نخلة من الشربة .

فلما دفع مالكٌ إلى حُذيفة الرُهُن جعل كلَّ يوم ٍ يُبرز غلاماً فينصبُه غَرَضاً ويرمي بالنَبل ثم يقول : نادِ أباك ، فينادي أباه حتّى يُمَزّقَه النَبْلُ ..

ثم إن بني فزارة اجتمعوا هم وبنو ثعلبة وبنو مُرّة فالتقَوا هم وبنو عبس فقتلوا منهم مالكَ بن سُبيع بن عمرو الثعلبيّ ، قتله مَروان بن زِنباع العبسيّ ، وعبدَ العزّى بن حُذار الثعلبيّ ، والحارث بن بدر الفَزاري ، وهَرِم بن ضمضم المُرّي ، قتله وَرْد بن حابس العبسيّ . ولم يشهَدْ ذلك اليومَ حُذيفةُ ابن بدر ...

ثم إن حُذيفة بن بدر جمع وتأهّب واجتمع معه بنو ذُبيان بن بغيض ، فبلغ بني عبس أنّهم قد ساروا إليهم ، فقال قيسٌ : أطيعوني ، فوالله لئن لم تفعلوا لأتّكئَنَّ على سيفي حتى يَخرجَ من ظهري . قالوا : فإنّا نُطيعُك . فأمرهم فسرّحوا السَوامَ والضعاف بلَيل ، وهم يُريدون أن يَظْعَنوا من منزِلهم ذلك . ثم ارتحلوا في الصُبح وأصبحوا على ظهر العَقَبة . وقد مضى سوامهمُ وضُعَفاؤهم .

فلمّا أصبحوا طلعت عليهم الخيلُ من الثَنايا . فقال قيسٌ : خذوا غيرَ طريق المال ، فإنّه لا حاجةَ للقوم أن يقعوا في شَوكتكم . ولا يُريدون بكم في أنفُسكم شراً من ذهابِ أموالكم . فأخذوا غيرَ طريق المال . فلما أدرك حُذيفةُ الأثرَ ورآه قال : أبعدهم اللهُ ، وما خيرُهم بعدَ ذهاب أموالهم ! فاتّبع المال .

وسارت ظُعُن بني عبس والمُقاتلةُ من ورائهم ، وتبِع حُذيفة وبنو ذبيان المال . فلمّا أدركوه ردّوا أوّلَه على آخرِه ولم يُفلِتْ منهم شيء ، وجعل الرجل يطرُدُ ما قَدَر عليه من الإبل فيذهبُ بها . وتفرّقوا . واشتدّ الحرُّ . فقال قيس بن زهير : يا قومِ . إنّ القوم قد فرّق بينهم المَغنمُ . فاعطِفوا الخيلَ في آثارهم . فلم تشعر بنو ذبيان إلاّ والخيلُ دوائسُ ، فلم يُقاتلْهم

كبيرُ أحدٍ ، وجعل بنو ذبيان إنما هِمّة الرجل في غنيمته أن يحوزها ويمضي بها .

فوضعت بنو عَبْس فيهم السلاحَ حتى ناشدتْهم بنو ذبيان البَقِيّة ، ولم يكن لهم همٌّ غيرُ حُذيفة ، فأرسلوا خيلَهم مجتهدين في أثَره ، وأرسلوا خيلاً تَقُصُّ الناس ويسألونهم ، حتى سقط خبرُ حُذيفة من الجانبِ الأيسر على شدّادِ بن معاوية العبْسيّ (أبي عنترة) ، وعمروِ بن ذُهل ...، وعمروِ بن الأسلَع ، والحارث بن زهير ، وقِرواش بن هُنَيّ ...، وجُنيدِب .

وكان حذيفة قد استرخى حِزامُ فرسه فنزلَ عنه فوضع رِجلَه على حجرٍ ، مَخافةَ أن يُقتَصّ أثرُه ، ثم شدّ الحِزام فوقع صدرُ قَدَمه على الأرض فعرَفُوه وعرفوا حَنَفَ فرسِه [1] ... فاتّبعوه ومضى حتى استغاث بجَفْر الهَباءة ، وقد اشتدّ الحر ، فرمى بنفسه ، ومعه حمَل بن بدر ، وحَنَش بن عمرو ، وورقاءُ بن بلال ، وأخوه ...، وقد نزَعوا سُروجَهم وطرحوا سلاحَهم ووقعوا في الماء ، وتَمعّكت [2] دوابهم . وقد بعثوا رَبيئةً فجعل يطّلع فينظر ، فإذا لم ير شيئاً رجَع . فنظر نظرة فقال : إنّي قد رأيت شخصاً كالنعامة أو كالطائر فوق القَتادة [3] من قبل مجيئنا . فقال حُذيفة : هَنّا وهَنّا ، هذا شَدّادٌ على جِروة — وجروة : فرس شدّاد — والمعنى : دع ذكر شدّاد عن يمينك وعن شمالك ، واذكر غيرَه ، لما كان يخاف من شَدّاد .

فبينا هم يتكلّمون إذا هم بشَدّاد بن معاوية واقفاً عليهم ، فجال بينَهم وبين الخَيل . ثم جاء عَمرو بن الأسلَع ، ثم جاء قِرواش ، حتى تتامّوا خمسةً . فحمل جُنيدِب على خيلهم فاطّردها ، وحمل عَمرو بن الأسلع

(١) الحنف : أن تقبل إحدى اليدين على الأخرى ولهذا قيل لفرس حذيفة الحنفاء .

(٢) تمعكت : تمرغت في التراب .

(٣) القتادة : شجر صلب له شوك كالإبر .

فاقتحم هو وشداد عليهم في الجَفْر . فقال حذيفة : يا بني عبس ، فأين العقولُ والأحلام ؟ فضربه أخوه حَمَل بن بدر بين كتفَيه وقال : اتّقِ مأثورَ القولِ بعدَ اليوم . فأرسلها مثلاً .

وقتَل قِرواش بن هُنَيّ حَذيفة ، وقتل الحارثُ بن زهير حَمَل بن بدر وأخذ منه ذا النون ، سيفَ مالك بن زهير ، وكان حَمَلٌ أخذه من مالك بن زهير يوم قتلَه ...

وقال قيس بن زهير :

تعلّم أنّ خيرَ الناس ميْــــت ... على جَفرِ الهَباءةِ ما يَريـمُ
ولولا ظلمُه ما زلتُ أبكــي ... عليه الدهرَ ما طلعَ النجومُ
ولكنّ الفتى حملَ بن بــدر ... بغى ، والبغيُ مرتعُه وخيمُ

(الخ الأبيات ...)

وكان ذلك اليوم يوم ذي حُساً ...

* * *

يَوْمُ شِعبِ جَبَلة

(الأغاني ج ١١ ص ١٣١ وما بعدها)

قال أبو عُبيدة :

وأمّا يومُ جَبَلةَ فكان من عِظام أيّام العرب ، وكان عظامُ أيام العرب ثلاثةً : يوم كُلابِ ربيعة ، ويومَ جَبَلة ، ويومَ ذي قار ...

وذكر بشرُ بنُ عبدِ الله بن حيّان الكِلابيّ ، أن عَبْساً لمّا حاربت قومَها أتَوا بني عامر وأرادوا عبدَ الله بن جَعدة وابنَ الحرَيش ليصيروا حُلَفاءهم دونَ كلاب .. فأتى قيسُ بن زهير وأقبل نحوَ بني جعفر (بن كلاب) هو والربيعُ بن زياد حتى انتهيا إلى الأحوص جالساً قُدّامَ بيته ، فقال قيسٌ للربيع : إنه لا حلفَ ولا ثِقةَ دون أن أنتهيَ إلى هذا الشيخ . فتقدّم إليه قيسٌ وأخذ بمَجامع ثوبه من وراء فقال : هذا مقامُ العائذ بك . قتلتم أبي [1] فما أخذتُ له عَقْلاً [2] ولا قتلتُ به أحداً ، وقد أتيتُكَ لِتُجيرَنا . فقال الأحوص :

---

(١) أبوه هو زهير بن جذيمة الذي قتله خالد بن جعفر الكلابي .

(٢) العقل : الدية .

نعم ، أنا لك جارٌ مِمّا أُجيرُ منه نفسي ، وعوفُ بن الأحوص عن ذلك غائبٌ .

فلمّا سمع عوفٌ بذلك أتى الأحوص ، وعندَه بنو جعفر ، فقال : يا معشرَ بني جعفر ، أطيعوني اليومَ واعصُوني أبداً ، وإن كنتُ واللهِ فيكم مَعصيّاً . إنّهم واللهِ لو لَقُوا بني ذُبيان لَوَلّوْكم أطرافَ الأسنّة إذا نَكَهوا في أفواههم بكلام ، فابدؤُوا بهم فاقتلُوهم واجعلوهم مثلَ البُرغوثِ دماغُه في دَمِه . فأبوَا عليه وحالفُوهم ، فقال : والله لا أدخلُ في هذا الحِلفِ .

قال : وسَمِعتْ بهم ، حيث قَرّ قرارُهم ، بنو ذُبيانَ ، فحَشدوا واستعدُّوا وخرجوا وعليهم حِصنُ بن حُذيفة بن بدر ومعه الحليفان : أسدٌ وذُبيان ، يطلبون بدم حُذيفة . وأقبل معهم شُرَحبيلُ بن أخضرَ بن الجَوْن بن آكل المُرار الكنديُّ في جَمْعٍ من كِندةَ . وأقبلت بنو حنظلة بن مالك والرِّبابُ عليهم لَقيطُ بن زُرارة يطلبون بدم مَعْبدِ بن زُرارة [1] ، ويثربيٌّ ابن عُدُسٍ . وأقبل معهم حَسّانُ بن عمرو بن الجَون في جمعٍ عظيم من كِندة وغيرهم ، فأقبلوا إليهم بوضائعَ [2] كانت تكون بالحِيرة مع الملوك : وهم الرابطةُ . وكان في الربابِ رجلٌ من أشرافهم يقال له النُعمان بن قهوَسٍ التَيْميُّ ، وكان معه لواءُ مَن سار إلى جبلَة ، وكان من فرسان العرب ... وكان معهم رؤساء بني تميم : حاجبُ بن زُرارة ، ولقيط بن زرارة ، وعَمرُو ابن عمرو ، وعُتَيبة بن الحارث بن شِهابٍ . وتبعهم غُثاء [3] من غُثاء الناس يريدون الغنيمة ، فجمعوا جَمعاً لم يكن في الجاهلية قطُّ مثلُه أكثر كثرةً ، فلم تَشُكَّ العربُ في هَلاك بني عامر ...

فلمّا سمعت بنو عامرٍ بمسيرهم اجتمعوا إلى الأحوص بن جعفر — وهو يومئذٍ شيخٌ كبير قد وقع حاجباه على عَينيه وقد ترك الغزو غيرَ أنه يُدبّر

(١) كان بنو عامر قتلوا معبد بن زرارة في يوم رحرحان .
(٢) الوضائع : الجند توضع في كورة لا يغزون منها .
(٣) غثاء الناس : أخلاطهم .

أمور الناس ، وكان مجرِّباً حازماً ميمونَ النقيبة — فأخبروه الخبر . فقال لهم : قد كبرت ، فما أستطيع أن أجيءَ بالحزم ، وقد ذهب الرأيُ منّي ، ولكني إذا سمعت عرفتُ ، فأجمِعُوا آراءكم ثم بيتُوا ليلتَكم هذه ثم اغدُوا عليَّ فاعرِضوا عليَّ آراءَكم . ففعلوا .

فلمّا أصبحوا غدَوا عليه . فوُضعت له عَباءَةٌ بِفنائه فجلس عليها ، ورفع حاجبَيه عن عينيه بعِصابةٍ ثم قال : هاتُوا ما عندَكم .

فقال قيسُ بن زهير العبسيُّ : بات في كِنانتي الليلةَ مائةُ رأيٍ . فقال له الأحوصُ : يكفينا منها رأيٌ واحدٌ حازمٌ صَليبٌ مُصِيب ، هات فانثرْ كِنانتك . فجعل يَعرض كل رأيٍ رآه حتى أنفَد . فقال له الأحوص : ما أرى بات في كِنانتك الليلة رأيٌ واحدٌ . وعَرَض الناس آراءَهم حتى أنْفَدوا ، فقال : ما أَسمعُ شيئاً ، وقد صرتم إليَّ . احمِلوا أثقالَكم وضُعَفاءَكم . ففَعلوا ، ثم قال : احمِلوا ظُعُنَكم [1] ، فحملوها . ثم قال : اركَبُوا ، فركبوا وجعلوه في مِحَفّة ، وقال : انطلقوا حتى تُعلُوا في اليَمن ، فإن أدرككم أحدٌ كررتمُ عليه ، وإن أعجزتمُوهم مَضَيتُم .

فسار الناسُ حتى أتَوا وادي بِحارٍ [2] ضَحوةً ، فإذا الناس يرجع بعضُهم على بعضٍ . فقال الأحوص : ما هذا ؟ قيل : هذا عمرُو بنُ عبد الله ابن جَعدة في فِتيانٍ من بني عامر يَعقِرون بمَن أجاز بهم ، ويَقطعون بالنِّساءِ حَواياهنّ [3] . فقال الأحوص : قَدموني ، فقدّمُوه حتى وقف عليهم فقال : ما هذا الذي تصنعون ؟ قال عمروٌ : أردتَ أن تفضحَنا وتُخرجَنا هاربين من بلادنا ، ونحن أعزُّ العرب وأكثرُهم عَدداً وجَلَداً . وأحدُّهم شَوكةً [4] ! تُريد أن تجعلَنا مواليَ في العرب إذ خرجتَ بنا هارباً ! قال :

---

(١) الظعن ج ظعينة : المرأة في هودجها .

(٢) وادي بحار وذي بحار : واد ينحدر من النير ، أعلى وادي التسرير .

(٣) الحوايا ج حوية : مركب من مراكب النساء .

(٤) الشوكة : السلاح .

فكيف أفعلُ وقد جاءنا ما لا طاقةَ لنا به ؟ فما الرأيُ ؟ قال : نرجِعُ إلى شِعبِ جَبَلَة فنُحرِزُ النِّساءَ والضعَفَةَ والذَّراريَ والأموال في رأسه ونكونُ في وسَطه ، ففيه ثَمَلٌ (أي خِصبٌ وماءٌ) فإن أقام مَن جاءك أسفلَ أقامُوا على غيرِ ماءٍ ولا مُقامَ لهم ، وإن صَعِدوا إليك قاتلتَهم من فوق رُؤوسهم بالحِجارة ، فكنتَ في حِرزٍ وكانوا في غير حِرْزٍ ، وكنتَ على قتالهم أقوى منهم على قِتالك . قال : هذا والله الرأيُ ، فأين كان هذا عنك حين استشرت الناس ؟ قال : إنّما جاءني الآنَ . فقال الأحوص للناس : ارجعوا ، فرجعوا . ففي ذلك يقولُ نابغة بني جَعدة :

ونحن حَبَسنا الحيَّ عَبساً وعامراً لِحَسّانَ وابنِ الجَون إذ قيل أقبلا
وقد صَعِدت وادي بِحارٍ نساؤُهم كإصعادِ نَسْرٍ لا يَرُومون مَنزلا
عطَفْنا لهم عطف الضَرُوسِ فصادفوا من الهَضْبَةِ الحمراء عِزّاً ومَعقِلا [1]

فدخلوا شِعب جَبَلة ، وجبلةُ هضبةٌ حمراءُ بين الشُرَيفِ والشَرَف . والشُريف : ماءٌ لبني نُمير ، والشرَف : ماءٌ لبني كلاب . وجبلة جبلٌ عظيم له شِعبٌ عظيمٌ واسع ، لا يُؤتى الجبلُ إلا من قِبَلِ الشِعب ، والشِعب مُتقارب المدخل ، وداخلُه مُتّسعٌ ... فدخلت بنو عامر شِعباً منه يقال له مُسَلّحٌ ، فحصّنوا النساءَ والذَراري والأموالَ في رأس الجبل ، وحَلّؤُوا [2] الإبلَ عن الماء ، واقتسموا الشِعب بالقِداح فأقرع بين القبائل في شظاياه [3] ...

فشهِدتْ بنو عامر كلُّها جَبَلَةَ إلا هلالَ بن عامر وعامرَ بن ربيعةَ بن عامر ، وشهِدها مع بني عامر من العرب بنو عبسٍ ... بن سُلَيم ، وكان لهم بأس وحَزم ، وعليهم مِرداسُ بن أبي عامر ، وهو أبو العباس بن مرداس .

---

(١) الضروس : الناقة العضوض .
(٢) حلأه : منعه من ورود الماء .
(٣) الشظايا : القطع من رؤوس الجبال .

وكانت بنو عبس بن رفاعة حلفاء بني عمرو بن كلاب ... وشهدتها غَنيٌّ وباهلةُ وناسٌ من بني سعد بن بكر وقبائلُ بجيلةَ كلها إلاّ قَسْراً . لحربٍ كانت بين قَسْرٍ وقومها ، فارتحلت بجبلة فتفرّقت في بُطون بني عامر ... ، فبلغ جَمعهُم ثلاثين ألفاً .

وعَمي على بني عامرٍ الخبرُ فجعلُوا لا يَدرُون ما قُربُ القومِ مِن بُعدِهم . وأقبلت تميمٌ وأسدٌ وذُبيان ولِفُّهم نحو جَبَلة . فلقُوا كرِبَ بن صَفوان بن شجنة ... فقالوا له : أين تذهبُ ، أتريد أن تُنذر بنا بني عامر ؟ قال : لا . قالوا : فأعطِنا عهداً ومَوْثِقاً ألاّ تفعلَ ، فأعطاهم فخلّوا سبيلَه . فمضى مُسرعاً على فرسٍ له عُرْيٍ [1] حتى إذا نظر إلى مجلس بني عامر . وفيهم الأحوصُ ، نزلت تحت شجرة حيث يَرونه ، فأرسلُوا إليه يَدعُونه ، قال : لستُ فاعلاً ولكن إذا رحلتُ فأْتُوا منزلي فإن الخبَرَ فيه . فلمّا جاؤوا مَنزله إذا فيه تُرابٌ في صُرّةٍ ، وشوك قد كسرَ رؤوسَه وفرّقَ جهتَه ، وإذا حنظلةٌ موضوعة ، وإذا وَطْبٌ مُعلّقٌ فيه لَبَنٌ . فقال الأحوص : هذا رجل قد أُخذَ عليه المواثيقُ ألاّ يتكلّمَ ، وهو يُخبركم أن القومَ مثل التُرابِ كَثرةً ، وأن شَوكتهم كليلةً ، وهم مُتفرقون ، وجاءتكم بنو حَنظلةَ ، انظُروا ما في الوَطْبِ ، فاصطَبُّوه فإذا فيه لَبَنٌ حَزَرٌ (قَرَص) [2] فقال : القومُ منكم على قَدر حِلاب اللبن إلى أن يَحزُر ...

فلمّا استيقنت بنو عامرٍ بإقبالهم صَعدوا الشعبَ ، وأمر الأحوصُ بالإبل التي ظُمِّئت قبلَ ذلك فقال : اعقِلوها كلَّ بعيرٍ بعِقالَين في يديه جميعاً .

وأصبح لَقيطٌ والناس نُزولٌ به ، وكانت مشورتُهم إلى لقيط . فاستقبلهم جمل عَوْدٌ أجربُ أحذّ أعْصَلُ [3] كاشرٌ عن أنيابه . فقال الحُزاةُ [4]

---

(١) فرس عري : لا سرج عليه .

(٢) لبن حزر : قارص .

(٣) العود : الجمل المسن . الأحذ : خفيف شعر الذنب . الأعصل : الملتوي الذنب .

(٤) الحزاة ج الحازي : العائف الذي يزجر الطير .

من بني أسد : اعقِروه . فقال لقيطٌ : والله لا يُعقَرُ حتّى يكونَ فحلَ إبلي غداً .

وكان البعيرُ من عصافير المنذر التي أخذها قُرّة بن هُبَيرة بن عامر بن سلَمة بن قُشَير . والعصافير : إبل كانت للملوك نجائبُ . ثم استقبلهم معاوية ابن عُبادة بن عُقَيل ، وكان أعسَر ، فقال :

أنــا الغـــلامُ الأعسَرْ الخـيرُ فيَّ والشَرّ
والشرُّ فيَّ أكثَرْ

فتشاءمت بنو أسَد وقالوا : ارجعوا عنهم وأطيعونا ، فرجعَت بنو أسَد فلم تشهد جَبَلة مع لَقيط ، إلاّ نُفيراً يسيراً ، منهم شأس بن أبي بُلَيّ ، أبو عمرو بن شأس الشاعر ، ومعقل بن عامر بن موءلة المالكي ، وقال الناس للقيط : ما ترى ؟ فقال : أرى أن تَصعَدوا إليهم . فقال شأسٌ : لا تدخلُوا على بني عامر ، فإني أعلمُ الناس بهم ، قد قاتلتُهم وقاتلوني . وهزمتُهم وهزموني ، فما رأيت قوياً قطُّ أقلقَ بمنزِل من بني عامر ، والله ما وجدتُ لهم مثلاً إلاّ الشُّجاع (١) ، فإنه لا يَقِرّ في حُجْره قلَقاً ، وسيخرجون إليكم . والله لَئِن بِتُّم هذه الليلةَ لا تشعرُون بهم إلا وهم مُنحدرون عليكم . فقال لقيطٌ : والله لَنَدْخُلَنّ عليهم . فأتَوهم وقد أخَذوا حِذْرهم ، وجعل الأحوص ابنه شُرَيحاً على تَعبئةِ الناس . فأقبل لقيطٌ وأصحابه مُدِلّين فأسنَدُوا إلى الجبل حتى ذَرَّت الشمسُ ، فصَعِد لقيطٌ في الناس وأخذ بحافتَيِ الشعب . فقالت بنو عامر للأحوص : قد أتَوك . فقال : دعُوهم . حتى إذا نَصَفُوا الجبل وانتشروا فيه قال الأحوصُ : حُلُّوا عُقُلَ الإبل ثم احدِرُوها واتبعُوا آثارها ، وليُتبِعِ كلُّ رجلٍ منكم بعيرَه حجرين أو ثلاثة . ففعلوا ثم صاحوا بها ، فلم يَفْجَأ الناسَ إلا الإبلُ تُريد الماءَ والمرعى ، وجعلوا يرمُونهم

(١) الشجاع : الحية .

بالحجارة والنَّبل ، وأقبلت الإبل تحطِمُ كلَّ شيء مرّت به ، وجعل البعير يُدَهْدي بيديه كذا وكذا حَجراً . .

وقد كان لقيطٌ وأصحابُه سخِروا منهم حين صنعوا بالإبل ما صنعوا . فقال رجلٌ من بني أَسد :

زعمتَ أن العيرَ لا تُقاتــلُ   بلَى إذا تقعقع الرحائــلُ
واختلف الهِنديُّ والذوابــلُ   وقالت الأبطالُ مَن يُنازلُ
بلى وفيها حَسَبٌ ونائلُ (١)

فانحطَّ الناسُ مُنهزِمين من الجبل حتى السهل . فلمّا بلغ الناسُ السهلَ لم يكن لأحدٍ منهم هِمّةٌ إلا أن يذهبَ على وجهه . فجعلت بنو عامر يقتلُونهم ويَصرعونهم بالسيوف في آثارهم ، فانهزموا شرَّ هزيمةٍ ...

وخرجت بنو تميم من الخليف (٢) على الخيل فكَرْكَروا الناس (يعني رَدُّوهم) ، وانقطع شُريح بن الأحوص في فُرسانٍ حتى أخذ الجُرْف ، فقاتل الناسَ قتالاً شديداً هناك ، وجعل لَقيطٌ يومئذٍ ، وهو على بِرذَوْنٍ له مُجَفّفٍ (٣) بديباجٍ أعطاه إيّاه كسرى – وكان أوّلَ عربيٍّ جَفّف – يقــول :

عرفتُكم والدمعُ مِ العينِ يكِفْ   لفارسٍ أتلفتمُوه ما خُلِفْ
إنّ النشيلَ والشِواء والرُغُــف   والقينةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُف
وصَفوةَ القِدر وتعجيلَ اللَقَــف   للطاعنين الخيلَ والخيلُ قُطُفْ (٤)

---

(١) تقعقع : اضطرب وتحرك . الرحائل ج رحالة : السرج من جلود . الزوابل : الرماح الصلبة .
(٢) الخليف : الطريق بين الجبلين .
(٣) البرذون : الدابة . مجفف : عليه تجفاف ، وهو شيء يتخذ من حديد أو غيره يجعل على ظهر الفرس ليقيه الأذى .
(٤) النشيل : اللحم المطبوخ . الكأس الأنف : التي لم يشرب بها قبل ذلك . اللقف : ما يلقف من الطعام . قطف ج قطوف : المتقارب الخطو والبطيء السير .

وجعل يقول أيضاً :

أشقـــرُ إن لم تتقـــدَّمْ تُنْحَرْ   وإن تأخّرْ عن هياجٍ تُعْقَرْ (1)

فأجابه شُريح بن الأحوص :

إن كنت ذا صِدقٍ فأقْحِمْه الجُرُفْ

وقَــرِّب الأشقر حــتى تَعتَرِفْ

وجوهَنا إنّا بنو البِيض العُطُفْ (2)

وبينه وبينه جُرُفٌ منكرٌ ، فضرب لقيطٌ فرسه وأقحمه عليه الجُرف ، فطعنه شريح فسقط ... وارتُثّ وبه طَعَنات ، والارتثاث أن يُحمَل وهو مجروحٌ ، فإن حُمل ميتاً فليس بمرتّثٍ – فبقي يوماً ثم مات ...

وقُتل يومئذ قُرَيط بن مَعبَد بن زُرارة ، وزيد بن عمرو بن عُدُس ، قتله الحارث بن الأبرص ... ونزل حسّان بن عمرو بن الجَون وصاح : يا آل كِندة . فحمل عليه شُريح بن الأحوص . فاعترض دون ابن الجون رجلٌ من كِندة يقال له حَوشَب ، فضربه شُريح بن الأحوص في رأسه فانكسر السيفُ فيه ، فخرج يعدُو بنصف السيف ، وكان ممّا رعب الناسَ مكانُه . وشدّ طفيلُ بن مالك بن جعفر فأسر حَسّان بن الجَون ، وشدّ عوف بن الأحوص على معاوية بن الجون فأسره وجزّ ناصيته على الثواب (3) . فلَقِيته بنو عبس فأخذه قيس بن زهير فقتله ، فأتاهم عوف فقال : قتلتم طليقي فأحيُوه أو ائتوني بمليكٍ مثلِه . فتخوّفت بنو عبسٍ شرَّه ، وكان مَهيباً ، فقالوا : أَمهِلنا . فانطلقوا حتى أتَوا أبا بَراء عامر بن مالك بن جعفر يَستغيثونه على عوف ،

---

(1) الأشقر : يريد فرسه .

(2) العطف : أي الذي يكرون في القتال .

(3) على الثواب . أي على انتظار المكافأة على ذلك فيما بعد .

فقال : دونكم سَلمى بن مالك ، فإنه نديمه وصديقه ... فأتوه فقال : سأكلّم طُفيلاً حتى يأخذ أخاه فإنه لا يُنجيكم من عوف إلاّ ذلك ، وايمُ الله ليأتينّ شحيحاً . فانطلقوا إليه ، فقال طُفيل : قد أتوني بك ، ما أعرفَني بما جئتم له ! أتيتمُوني تُريدون منّي ابن الجَون تُقيدون به من عوف ، خذُوه . فأعطاهم إيّاه ، فأتوا به عوفاً ، فجزّ ناصيته وأعتقه ، فسُمّي الجزّاز ...

قال : وشهِدها لَبيد بن ربيعةَ بن مالكِ بن جعفر وهو ابن تسع سِنين ... وقتلت بنو عامر يومئذٍ من تميم ثلاثين غلاماً أغرل [١] .

وخرج حاجبُ بن زُرارة منهزماً ، وتبعه الزَهْدمان : زَهْدَم وقيسٌ ابنا حَزْن بن وهب ... العبسيّان ، فجعلا يطرُدان حاجباً ويقولان له : استأسِرْ ، وقد قدرَا عليه ، فيقول : من أنتما ؟ فيقولان : الزهدمان ، فيقول : لا أستأسِرُ اليومَ لِمَوْلَيين . فبينما هم كذلك إذ أدركهم مالكٌ ذو الرُقَيبة بن سَلَمة بن قُشَير ، فقال لحاجب : استأسِر . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا مالكٌ ذو الرُقَيبة . فقال : أفعَلُ ، فلَعَمري ما أدركتَني حتى كِدتُ أن أكون عبداً ...

وأمّا عُتَيبة بن الحارث بن شهاب فإنه أُسر يومئذ فقُيّد في القِدّ ، وكان يَبُول على قده حتى عفِن . فلمّا دخل الشهرُ الحرامُ هرب فأفلت منهم بغير فِداء ...

وانصرف يومئذٍ سنانُ بن أبي حارثة المُرّي في بني ذبيان على حاميته ، فلحق بهم معاوية بن الصَمُوت بن الكامل الكلابيُّ ، وكان يُسمّى الأسد المجدّع ، ومعه حَرملة العُكْليّ ونفرٌ من الناس ، فلحق بسنان بن أبي حارثة ومالك بن حِمار الفزاريّ في سبعين فارساً من بني ذُبيان ، فقال سنان : يا مالك كُرَّ واحمِنا ولك خَولةُ بنت سنان ابنتي أُزوّجكُها . فكرّ مالك فقتل

---

(١) أغرل : أقلف لم يختتن بعد .

معاوية ، ثم اتّبعه حَرملةُ العكليُّ ... فكرّ عليه مالكٌ فقتله . ثم اتّبعه رجلٌ من بني كلاب فكرّ عليه مالكٌ فقتله ، ثم اتّبعه رجلان من قيس كُبَّةَ من بَجيلة ، فكرّ عليهما فقتلهما ، ومضى مالكٌ وأصحابه ...

وأمّا بنو جعفر فيزعمُون أنّ عُروة الرحّال بن عُتبة بن جعفر وجد سِنان بن أبي حارثة وابنيه هَرِماً ويزيدَ على غديرٍ قد كان العطش أن يُهلكهم ، فجزّ نواصيَهم وأعتقهم ...

قال : وكان جَبَلة قبل الإسلام بتسعٍ وخمسين سنة ، قبلَ مولد النبيّ ﷺ بتسع عشرة سنة ...

* * *

وَقعَــةذي قَـار

(الأغاني ج ٢٤ ص ٣ وما بعدها)

عن خِراش بن إسماعيل والكلبيّ وأبي عبيدة :

قالوا : كان من حديث ذي قار أنّ كِسرَى أبْرَوِيز بن هُرْمُز لمّا غضِب على النُعمان بن المنذر أتى النعمانُ هانىءَ بنُ مسعود بن ذُهل بن شيبان . فاستودعَه مالَه وأهلَه ووَلَده وألفَ شِكّة (١) ، ويقال أربعة آلاف شكّة ... ووضع وَضائع (٢) عند أحياء من العرب ، ثمّ هرَب وأتى طَيِّئاً اصِهْره فيهم ، وكانت عنده فَرَعة بنت سعيد بن حارثة بن لأم ، وزينب بنت أوس بن حارثة ، فأبوا أن يُدخلوه جبلَهم . وأتته بنو رواحة بن قطيعة بن عبس فقالوا له : أبيتَ اللعن ، أَقِمْ عندَنا ، فإنّا مانِعُوك ممّا نمنعُ منه أنفُسَنَا . فقال : ما أحبُّ أن تَهلِكوا بسببي ، فجُزيتم خيراً .

ثم خرج حتى وضع يدَه في يد كِسرى ، فحبسه بساباط ، ويقال بخانِقين ... فلمّا هلَك النُعمان جعلت بكرُ بن وائل تُغير على السّواد ، فوفد

---

(١) الشكة : السلاح الكامل .

(٢) الوضائع : أثقال القوم .

قيسُ بن مسعود .. بن ذي الجدَّين إلى كسرى فسأله أن يجعلَ له أُكُلاً وطُعْمةً على أن يضمَن له على بكر بن وائل ألاّ يدخلُوا السَواد ولا يُفسِدوا فيه ، فأقطعه الأبُلّة [١] وما والاها ...

فكان يأتيه من أتاه من قومه فيعطيه جُلّة تمر وكِرباسة [٢] . حتى قدِم الحارث بن وَعْلة بن شيبان والمكسر بن حنظلة ... بن عجل بن لُجيم ، فأعطاهما جُلَّتي تمر وكِرباستين ، فغضبا وأبيا أن يقبلا ذلك منه ، فخرجا فاستَغويا ناساً من بكر بن وائل ثم أغارا على السّواد ... ، فلما بلغ ذلك كِسرى اشتدّ حَنَقُه على بكرِ بن وائل ، وبلغه أن حَلْقةَ [٣] النعمانُ وولدَه وأهلَه عندَهم ، فأرسل كسرى إلى قيس بن مسعود ، وهو بالأبُلّة ، فقال : غَرَرْتني من قومك وزعمتَ أنّك تَكْفِينيهم ، وأَمَر به فحُبس بسَاباط ، وأخذ كسرى في تعبئة الجيوش إليهم .

قال : فلما وَضَح لِكِسرى واستبان أنّ مال النعمان وحَلْقته وولدَه عند ابن مسعود بعث إليه كِسرى رجلاً يخبره أنه قال له : إنّ النعمان إنّما كان عاملي ، وقد استوْدَعَك مالَه وأهله والحَلْقة ، فابعث بها إليّ ولا تُكَلِّفْني أن أبعثَ إليك وإلى قومك بالجنود ، تقتُلُ المُقاتلةَ وتَسبي الذُرِّيّة . فبعثَ إليه هانيء : إنّ الذي بلغَك باطلٌ ، وما عِندي قليلٌ ولا كثير . وإن يكن الأمرُ كما قِيل فإنّما أنا أحدُ رجلَين : إمّا رجلٌ استُودع أَمانةً ، فهو حَقيقٌ أن يَرُدَّها على من استَودعه إيّاها ، ولن يُسْلِم الحُرُّ أمانتَه . أو رجلٌ مكذوبٌ عليه ، فليس ينبغي للملكِ أن يأخُذَه بقولِ عَدُوٍّ أو حاسدٍ .

قال : وكانت الأعاجمُ قوماً لهم حِلْمٌ ، وقد سمِعُوا ببعض عِلم العرب ، وعرفُوا أنّ هذا الأمر كائنٌ فيهم .

---

(١) الأبلة : بلد على دجلة ، قرب البصرة .
(٢) الجلة : القفة الكبيرة . الكرباسة : ضرب من الثياب الخشنة .
(٣) الحلقة : الدروع .

فلمّا وَرَد عليه كتاب هانىءٍ بهذا حَملته الشَفَقة أن يكون ذلك قد اقتَرَب ، فأقبل حتى قطع الفُراتَ ، فنزلَ غَمْر بني مُقاتل ، وقد أحنَقَه ما صنعت بكر بن وائل في السَواد ومنعُ هانىءٍ إيّاه ما منعه .

قال : ودعا كِسرى إياسَ بن قَبيصة الطائي ، وكان عاملَه على عين التَمْر وما والاها إلى الحِيرة ، وكان كسرى قد أطعمَه ثلاثين قريةً على شاطىء الفرات . فأتاه في صَنائعه من العرب الذين كانوا بالحِيرة ، فاستشاره في الغارة على بكر بن وائل وقال : ماذا ترى؟ وكم ترى أن نُغْزِيَهم من الناس ؟ فقال له إياسٌ : إن الملك لا يصلُحْ أن يَعصيه أحدٌ من رَعيّته ، وإن تُطِعْني لم تُعاِلم أحداً لأيِّ شيء عبرت وقطعتَ الفُرات ، فيَروا أنّ شيئاً من أمرِ العرب قد كَرَبك . ولكنْ تَرجِعُ وتُضرِب عنهم . وتبعثُ عليهم العُيونَ حتى تَرى غِرّةً منهم ، ثم تُرسل حَلبةً [1] من العَجَم فيها بعضُ القبائل التي تليهم ، فيوقعون بهم وَقعةَ الدهر ويأتُونك بطِلْبَتك . فقال له كسرى : أنت رجلٌ من العرب ، وبكرُ بن وائل أخوالُك — وكانت أمُّ إياسٍ أمامةَ بنتَ مسعود ، أختَ هانىء بن مسعود ، فأنت تَتعصَّبُ لهم ، ولا تَألُوهم نُصحاً [2] . فقال إياس : رأيُ الملك أفضل . فقام إليه عمرُو بن عَديّ بن زيد العِباديُّ — وكان كاتبَه وتَرْجُمانه بالعربيّة — فقال له : أقِمْ أيها الملكُ ، وابعَثْ إليهم بالجنُودِ يَكْفُوك . فقام إليه النُعمان بن زُرعة ... التغلبيُّ فقال : أيها المَلكُ ، إنّ هذا الحيَّ من بكرِ بن وائل إذا قاظُوا [3] بذي قار تَهافَتُوا تَهافُت الجَرادِ في النار .

فعقد للنُعمان بن زُرعة على تغلبَ والنَمِر ، وعقد لخالدِ بن يَزيد البَهْراني على قُضاعةَ وإياد ، وعقَد لإياسِ بن قَبيصة على جميع العرب ،

---

(١) الحلبة : الخيل تجتمع من كل أوب للنصرة .
(٢) لا تألوهم نصحاً : لا تقصر في نصحهم .
(٣) قاظوا : أقاموا صيفاً .

ومعه كَتيبتاه الشَهْباءُ والدَوْسَرْ ، فكانت العرب ثلاثةَ آلاف . وعقد للهامُرزِ على ألفٍ من الأساورة [1] ، وعقد لخُنابِرِين على ألف ، وبعث معهم باللَطيمة ، وهي عِيرٌ كانت تخرجُ من العراق ، فيها البَزّ والعِطرُ والألطافُ تُوصَل إلى باذامَ عامِله باليمن وقال : إذا فرَغتم من عدوّكم فسيروا بها إلى اليَمَن . وأمر عمرَو بن عديٍّ أن يَسير بها ، وكانت العرب تَخفِرهم وتُجيرهم حتى تبلغَ اللطيمةُ اليمَن . وعهِد كِسرى إليهم إذا شارفوا بلادَ بكر بن وائل ودنَوا منها أن يبعثُوا إليهم النُعمانَ بن زُرعة ، فإن أتَوكم بالحَلْقة ومائةِ غلامٍ منهم يكونون رُهُناً بما أحدث سفهاؤهم فاقبلوا منهم ، وإلاّ فقاتِلُوهم .

وكان كسرى قد أوقع قبلَ ذلك ببني تَميم يومَ الصَفْقةِ ، فالعربُ وَجِلةٌ خائفةٌ منه .. وكانت حُرَقةُ بنتُ حسّان بن النعمان بن المنذر يومئذ في بني سنان ... ، وقال ابن الكلبي : حُرقةَ بنت النعمان ، وهي هند ، والحُرقَة لقب ـ وهذا هو الصحيح ، فقالت تُنذِرهُم :

ألا أبلغْ بني بكرٍ رَسُولاً فقد جَدَّ النَفيرُ بعَنْقَفيرِ
فليت الجيشَ كُلّهم فِداكم ونفسيَ والسَريرَ وذا السّرير
كأنّي حين جَدَّ بهم إليكم مُعَلّقةُ الذوائبِ بالعَبُورِ
فلو أنّي أطقتُ لذاك دَفْعاً إذن لَدفعتُه بدَمي وزِيري [2]

فلمّا بلغ بكرَ بن وائل الخبرُ سار هانىء بن مَسعود حتّى انتهى إلى ذي قار فنزل به ، وأقبل النعمان بن زُرعة حتّى نزل على ابن أخته مُرّة بن عمرو ... بن عجل ، فحمد الله النعمان وأثنى عليه ثم قال : إنّكم أخوالي وأحدُ

(١) الأساورة ج إسوار : الفارس من جنود الفرس .
(٢) العنقفير : الداهية . السرير : أرادت الملك . العبور : هي الشعرى العبور ، كوكب يكون في الجوزاء وسميت عبوراً لأنها عبرت نهر المجرة . الزير : الوتر ، وأرادت القلب .

طرفيّ. وإنّ الرائدَ لا يكذِب أهلَه، وقد أتاكم ما لا قِبَلَ لكم به من أحرار فارس وفُرسان العرب والكتيبتان الشَهباء والدَوسر، وإنّ في هذا الشرّ خِياراً، ولأن يَفتدي بعضُكم بعضاً خيرٌ من أن تُصْطَلَمُوا [1]. فانظروا هذه الحَلقة فادفَعُوها وادفعوا رُهُناً من أبنائكم إليه بما أحدث سُفَهاؤكم.
فقال له القوم: نَنْظُر في أمرنا. وبَعثوا إلى مَن يَليهم من بكرِ بن وائل، وبرَزوا ببطحاءِ ذي قارٍ، بين الجَلْهتَين [2] ...

قال: وجعلتْ بكرُ بن وائل حين بَعثوا إلى مَن حَولَهم من قبائلِ بكرٍ لا تُرفَع لهم جماعة إلاّ قالوا: سيّدُنا في هذه. فرُفعت لهم جماعةٌ فقالوا: سيّدُنا في هذه. فلمّا دنَوا إذا هم بعبدِ عمرو بن بِشر بن مَرْثَد. فقالوا: لا. ثم رُفعت لهم أخرى فقالوا: في هذه سيّدُنا، فإذا هو جَبَلَةُ بن باعث بن صَريم اليشكريّ، فقالوا: لا. فرُفعت أخرى فقالوا: في هذه سيّدُنا، فإذا هو الحارثُ بن وَعْلة بن مجالد الذُهلي، فقالوا: لا. ثم رُفعت لهم أخرى فقالوا: في هذه سيّدُنا، فإذا فيها الحارثُ بن ربيعة بن عثمان التَيْميّ، من تَيم الله، فقالوا: لا. ثم رُفعت لهم أخرى أكبر ممّا كان يَجيءُ فقالوا: لقد جاء سيّدنا، فإذا رجلٌ أصلَعُ الشَعر، عظيمُ البطن، مُشرَبٌ حُمرة، فإذا هو حَنظلةُ بن ثعلبةَ بن سَيّار ... بن عِجْل، فقالوا: يا أبا مَعْدان، قد طال انتظارُنا، وقد كَرِهنا أن نقطعَ أمراً دُونَك، وهذا ابنُ أختك النُعمان ابن زُرعةَ قد جاءنا، والرائدُ لا يكذِبُ أهلَه، قال: فما الذي أجمع عليه رأيُكم، واتّفق عليه مَلَؤُكم. قالوا: قال: إنّ اللّخْيَ أهونُ من الوَهْي [3]، وإنّ في الشرّ خِياراً، ولأن يَفتدي بعضكم بعضاً خيرٌ من أن تُصطلَموا جميعاً.

---

(1) اصطلمه: استأصله.
(2) جلهة الوادي: ما استقبلك منه واتسع لك.
(3) ألخيته مالا: أعطيته. والوهي: الضعف والهلاك، والمراد: إعطاء المال خير من الهلاك.

قال حنظلة : فقبّح اللهُ هذا رأياً ، لا تَجرّ أحرارُ فارسَ أرْجُلَها ببطحاءِ ذي قار وأنا أسمعُ الصوت .

ثم أمر بقُبّته فضُربت بوادي ذي قار ، ثم نَزل ونزل الناس فأطافوا به . ثم قال لهانىء بن مسعود : يا أبا أمامة ، إنّ ذِمّتكم ذمّتُنا عامةٌ ، وإنّه لن يُوصَل إليك حتى تَفنى أرواحُنا . فأخرجْ هذه الحلقةَ ففرِّقْها بين قومك ، فإن تظفَرْ فستُردُّ عليك ، وإن تَهلِك فأهْوَنُ مَفقود .

فأمر بها فأخرجت ، فَفرّقها بينَهم ، ثم قال حنظلةُ للنعمان : لولا أنّك رسولٌ لما أُبتَ إلى قومِك سالماً . فرجعَ النعمان إلى أصحابه فأخبرهم بما رَدّ عليه القومُ ، فباتوا ليلَتهم مستعِدّين للقتال ، وباتت بكرُ بن وائل يتأهّبون للحرب .

فلمّا أصبحوا أقبلت الأعاجمَ نحوَهم ، وأمر حنظلةُ بالظُعُن جميعاً فوقفها خلفَ الناس ثم قال : يا معشرَ بكر بن وائل ، قاتلوا عن ظُعُنكم أو دَعُوا . فأقبلت الأعاجم يسيرون على تَعبئةٍ ، فلمّا رأتهم بنو قيس بن ثعلبة انصرفوا فلَحِقُوا بالحَبِيّ [1] فاستخفَوا فيه ، فسُمّي حَبِيّ بني قيس بن ثعلبة . قال : وهو على موضع خفيّ ، فلم يشهدوا ذلك اليوم .

وكان ربيعةُ بن غَزالة السَّكُونيّ ... يومئذٍ هو وقومَه نُزولاً في بني شيبان فقال : يا بني شَيبان ، أما لو أنّي كنتُ منكم لأشرتُ عليكم برأيٍ مثلِ عُرْوة العِكْم [2] ، قالوا : فأنت واللهِ من أوسطنا ، فأشِرْ علينا . فقال : لا تَستَهدفوا لهذه الأعاجم فتُهلِكَكم بنُشّابها ، ولكن تَكَرْدسوا كراديسَ ، فيَشُدّ عليهم كُردوسٌ ، فإذا أقبلوا عليه شدَّ الآخرُ . فقالوا فإنّك قد رأيت رأياً ، ففعلوا .

---

(١) الحبي : موضع قرب ذي قار ، وفي المطبوعة : بالحي ، وهو تحريف .

(٢) العكم : أحد العدلين على جانبي الهودج ، يريد برأي وثيق .

فلما التقى الزَحْفان وتقارب القومُ قام حنظلةُ بن ثعلبة فقال : يا معشرَ بكر بن وائل ، إن النُشّابَ الذي مع الأعاجم يعرِفكم ، فإذا أرسلوه لم يُخطِئكم ، فعاجلوهم باللِقاء ، وابدؤوهم بالشدّة .

ثم قام هانىء بنَ مسعود فقال : يا قومِ ، مَهلِكٌ مَعذورٌ خيرٌ من نَجاءِ مَغرورٍ ، وإنّ الحذرَ لا يَدفع القَدَر ، وإنّ الصبرَ من أسباب الظفَر ، المنيّةُ ولا الدنيّةُ ، واستقبالُ الموت خيرٌ من استدباره ، والطعنُ في الثغْرِ خيرٌ وأكرمُ من الطعن في الدُبُر . يا قوم ، جدُّوا فما من الموت بُدٌّ ، فتحٌ لو كان له رجالٌ ، أسمع صَوتاً ولا أرى قَوماً . يا آلَ بكر ، شُدُّوا واستعدُّوا وإلاّ تَشُدّوا تُرَدُّوا .

ثم قام شَريكُ بن عمرو ... فقال : يا قوم ، إنّما تَهابونهم أنّكم ترَونهم عند الحفاظ أكثرَ منكم ، وكذلك أنتم في أعيُنهم . فعليكم بالصَبر ، فإنّ الأسنّة تُردِي الأعنّة ، يا آلَ بكر ، قدُماً قدُماً .

ثم قام عمرُو بن جبَلة ... اليشكريُّ فقال :

يا قومُ لا تَغرُرْكمُ هذي الخِرَقْ ولا وَميضُ البَيضِ في الشمس بَرَقْ
من لم يقاتل منكم هذا العُنُق فَجَنِّبُوه الراحَ واسقُوه المَرَقْ (١)

ثم قام حنظلةُ بن ثعلبة إلى وَضين (٢) راحلة امرأته فقطعه ، ثم تتبع الظُعُنَ يقطع وُضُنَهنّ لئلاّ يفرَّ عنهنّ الرجالُ ، فسُمّي يومئذٍ « مُقَطِّع الوَضين » ...

قالوا : وكانت بنو عِجل في الميمنة بإزاء خُنابِرين ، وكانت بنو شيبان في الميسرة بإزاء كتيبة الهامُرز ، وكانت أفناء بكر بن وائل في القلب . فخرج

---

(١) البيض ج بيضة : الخوذة . العنق بضمتين : الجماعة من الناس .
(٢) الوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر .

أسوارٌ من الأعاجم مُسَوَّرٌ، في أذنَيه دُرَّتان، من كتيبة الهامرز يتحدّى الناس للبِراز. فنادى في بني شَيبان فلم يَبْرُزْ له أحدٌ. حتّى إذا دنا من بني يَشْكُر برز له يزيدُ بن حارثة، أخو بني ثعلبة بن عمرو، فشدّ عليه بالرُّمح فطعنه فدقّ صُلْبَه، وأخذ حِلْيَتَه وسِلاحَه ...

ثم إن القومَ اقتتلوا صدرَ نهارهم أشدَّ قِتالٍ رآه الناسُ إلى أن زالت الشمس. فشدّ الحَوْفَزانُ — واسمه الحارثُ بن شَريك — على الهامرز فقتله وقتلت بنو عِجل خُنابزين. وضرب الله وجوهَ الفُرس فانهزموا، وتبعتهم بكرُ بن وائل.

فلَحِق مَرثَد بن الحارث ... النعمانَ بن زرعة. فأهوى له طَعناً، فسبقه النعمان بصدر فرسه فأفلته ...

ولحق أسودُ بن بُجير بن عائذ بن شريك العجليُّ النعمان بن زُرعة فقال له: يا نُعمانُ، هَلُمَّ إليَّ، فأنا خيرُ آسِرٍ لك، وخيرٌ لك من العطش. قال: ومن أنت؟ قال: الأسودُ بن بُجير. فوضع يدَه في يده، فجزَّ ناصيتَه وخلّى سبيله. وحمله الأسودُ على فرسٍ له وقال له: انجُ على هذه، فإنها أجودُ من فرسك ... وقُتل خالد بن يزيد البهراني، قتله الأسودُ بن شَريك بن عمرو، وقُتل يومئذ عمرو بن عديّ بن زيد العِباديّ ... وأفلت إياسُ ابن قبيصة على فرسٍ له ...

قال: واتّبعتهم بكرُ بن وائل يقتلونهم بقيةَ يومهم وليلتِهم حتى أصبَحُوا من الغد، وقد شارفوا السّوادَ ودخلُوه، فذكروا أن مائةً من بكر بن وائل، وسبعين من عِجل، وثلاثين من أفناء بكر بن وائل، أصبحوا وقد دخلوا السوادَ في طلب القوم، فلم يُفلِت منهم كبيرُ أحد، وأقبلت بكر بن وائل على الغنائم فقَسموها بينهم، وقَسموا تلك اللطائمَ بين نسائهم ...

قال: فكان أوّلَ من انصرف إلى كسرى بالهزيمة إياسُ بن قبيصة، وكان لا يأتيه أحدٌ بهزيمة جيشٍ إلاّ نَزَع كَتِفَيه، فلمّا أتاه إياسٌ سأله عن الخبر

فقال : هزَمْنا بكرَ بن وائل ، فأتيناك بنسائهم . فأعجَب ذلك كسرى وأمر له بكُسْوة ، وإن إياساً استأذنه عند ذلك فقال : إن أخي مريضٌ بعين التمْر فأردتُ أنْ آتيَه . وإنّما أراد أن يتنحّى عنه ، فأذِن له كسرى ... فلحق بأخيه . ثم أتى كسرى رجلٌ من أهل الحيرة ، وهو بالخَوَرنق ، فسأل : هل دخل على الملكِ أحدٌ ؟ فقالوا : نعم ، إياسٌ . فقال : ثَكِلَت إياساً أمه . وظنّ أنه قد حدّثه بالخبر ، فدخل عليه فحدّثه بهزيمة القومِ وقتلِهم ، فأمر به فنُزِعت كتِفاه .

قال : وكانت وقعة ذي قار بعد وقعةِ بدر بأشهر ، ورسول الله ﷺ بالمدينة ، فلمّا بلغه ذلك قال : « هذا يومٌ انتصفت فيه العربُ من العَجَم ، وبي نُصِروا » .....

وقال الأعشى في ذلك :

لو أنّ كلَّ مَعَدٍّ كان شارَكَنا ... في يومِ ذي قارَ ما أخطاهمُ الشَرَف
لمّا أتونا ، كأنّ الليلَ يَقدُمُهم ... مُطبّقَ الأرض ، يغشاها لهم سَدَفُ
جَحاجحٌ وبنو ملك مَرازبةٌ ... من الأعاجم في آذانها النُطَفُ
من كل مرْجانةٍ في البحر أحرزها ... تيّارُها ووقاها طينَها الصَدَفُ
وظُعْننا خلفَنا تَجري مدامعُها ... أكبادُها وَجَلاً ممّا ترى تَجِف
يحسِرن عن أوجُهٍ قد عاينت عِبَراً ... ولاحها غُبْرةٌ ألوانُها كِسَفُ
ما في الخدود صُدودٌ عن وجوههم ... ولا عن الطَعن في الكبّاتِ مُنحَرَفُ
عَوداً على بَدْئهم ما إن يُلبثُهم ... كرّ الصُقور بناتِ الماءِ تَختطِفُ
لمّا أمالُوا إلى النُشّاب أيديَهم ... ما ا ببيضٍ فظلّ الهامُ يُقتطَف
وخيلُ بكر فما تَنفكُّ تَطحنُهم ... حتى تَولّوا وكاد اليوم يَنتصِف (١)

* * *

(١) السدف : الظلمة . الجحاجح : السادة . ورواية المطبوعة : بطارق ، ورواية الديوان : جحاجح ، وهي أفضل . النطف ج نطفة : القرط . لاحها : غير لونها . الكسف ج كسفة : القطعة من الشيء . اللبات ج لبة : صفحة العنق .

فهرست الكتاب

الصفحة		رقم الترجمة
	سائر الشعراء الأعلام	
١٥٤	أوس بن حجر	١٩
١٥٧	الحارث بن حِلِّزة	٢٠
١٦٤	لبيد بن ربيعة	٢١
١٧٣	عَبيد بن الأبرص	٢٢
١٧٩	علقمة بن عَبدة	٢٣
١٨٢	عديّ بن زيد	٢٤
٢٠٢	الطُفَيل الغنويّ	٢٥
٢٠٥	الأفوه الأوديّ	٢٦
٢٠٧	الحصين بن الحُمام	٢٧
٢١٢	الأسود بن يعفر	٢٨
٢١٦	حاتم الطائيّ	٢٩
٢٢٧	أبو دواد الإياديّ	٣٠
٢٣٢	لقيط بن يعمر الإياديّ	٣١
٢٣٦	الحــادرة	٣٢
٢٤٠	قيس بن الخطيم	٣٣
٢٤٦	أبو قيس بن الأسلت	٣٤
٢٥٥	أحيحة بن الجُلاح	٣٥
٢٦٢	زهير بن جَناب	٣٦
٢٧٠	ذو الاصبع العدواني	٣٧
٢٨٠	عبد يغوث الحارثي	٣٨
	من الخطباء في العصر الجاهلي	
٢٨٧	قُسّ بن ساعدة الإياديّ	٣٩

الصفحة

من أخبار العرب وأيامها في الجاهلية

من أيام العرب في الجاهلية

اختيارات

من

كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

القسم الثاني

العصر الجاهلي - الإسلامي

الشعراء المخضرمون بين الجاهلية والإسلام

صنعة

الدكتور إحسان النص

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

اختيارات
من
كتاب الأغاني
لأبي الفرج الأصفهاني

الطبعة الثانية

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

أبو خِرَاش الهُذَليّ *

(الأغاني ج ٢١ ص ٢٠٤ وما بعدها)

الشاعر

أبو خِراش اسمه خُوَيلد بن مُرّة ، أحد بني قِرد . واسم قرد عمرو بن معاوية بن سعد بن هُذَيل ...

شاعر فحلٌ من شعراء هذيل المذكورين الفصحاء ، مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم وعاش بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم مُدّةً ، ومات في خلافة عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه ، نهشته أفعى فمات . وكان ممّن يعدو فيسبق الخيل في غارات قومه وحروبهم .

طائفة من أخباره

* حدّثنا الأصمعيّ قال : حدّثني رجلٌ من هُذيل قال : دخل أبو

* جرينا في ترتيب الشعراء في هذا الجزء وفق ما اشتهروا به من أسماء أو كنى أو ألقاب .

خِراشٍ الهُذليُّ مكّة ، وللوليد بن المغيرة المخزوميّ فرسان يريد أن يرسلهما في الحَلْبة ، فقال للوليد : ما تجعل لي إن سبقتهما ؟ قال : إن فعلتَ فهما لك . فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما فأخذهما .

* خرج أبو خراش الهذليّ من أرض هذيل يريد مكّة ، فقال لزوجته أمّ خراش : ويحَك، إني أريد مكّة لبعض الحاجة، وإنك من أَفَكِّ النساء[1] ، وإن بني الديل يطلبونني بتِرات ، فإيّاك أن تذكريني لأحدٍ من أهل مكّة حتى نَصدر منها . قالت : معاذَ الله أن أذكُركَ لأهل مكّة وأنا أعرف السبب .

فخرج بأُمّ خراش وكَمَن لحاجته ، وخرجت إلى السوق لتشتري عطراً أو بعض ما تشتريه النساء من حوائجهنّ ، فجلست إلى عطّار ، فمرّ بها فتَيان من بني الدّيل فقال أحدهما لصاحبه : أمُّ خراش وربِّ الكعبة ، وإنها لمن أفكّ النساء ، وإن كان أبو خراش معها فستدلنا عليه . قال : فوقفا عليها فسلّما وأحفيا[2] المسألة والسلام . فقالت : مَن أنتما ، بأبي أنتما ؟ فقالا : رجلان من أهلِك من هُذيل . قالت : بأبي أنتما ، فإن أبا خراش معي ولا تذكراه لأحد ، ونحن رائحون العشيّة .

فخرج الرجلان فجمعا جماعةً من فتيانهم وأخذوا مولىً لهم يُقال له مَخْلَد – وكان من أجود الرجال عَدْواً – فكَمنوا في عَقَبَةٍ على طريقه. فلمّا رآهم قد لاقوه في عين الشمس قال لها قتلتِني وربّ الكعبة ، لمن ذكرتني ؟ فقالت : والله ما ذكرتُك لأحدٍ الاّ لفتيَيْن من هذيل . فقال لها : والله ما هما من هذيل ولكنهما من بني الدِيلِ، وقد جلسا لي وجمعا عليّ جماعةً من قومهم ، فاذهبي أنت ، فإذا جُزتِ عليهم فإنّهم لن يعرِضوا لك لئلا أستوحش فأفُوتَهم، فاركُضي بعيرك وضعي عليه العصا ، والنجاءَ النَجاء .

---

(١) الأفك : من الفكاك والفكة وهما الحمق. وليست من الإفك بمعنى الكذب – كما جاء في المطبوعة .

(٢) أحفيا : أظهرا الحفاوة والتلطف .

قال : وهي على قَعُودٍ عُقَيلي يسابق الريح .

فلمّا دنا منهم وقد تلثموا ووضعوا تمراً على طريقه على كِساءٍ ، فوقف قليلاً كأنه يصلح شيئاً ، وجازت بهم أمّ خراش فلم يَعرضوا لها لئلا ينفِرَ منهم ، ووضعت العصا على قعودها ، وتواثبوا إليه ووثب يَعدو. فزاحمه على المَحَجّة التي يسلك فيها على العقبة ظبيٌ ، فسبقه أبو خراش ، وتصايح القوم : يا مَخلدُ أخْذاً أخذاً . ففات الأخذ . فقالوا : ضرباً ضرباً ، فسبق الضرب . فصاحوا : رَمياً رمياً ، فسبق الرمي .

وسبقت أمُّ خراش إلى الحيّ فنادت : ألا إن أبا خراش قد قُتل . فقام أهل الحيّ إليها وقام أبوه وقال : ويحَكِ ما كانت قصته ؟ فقالت : إن بني الدِيل عرضوا له الساعةَ في العقبة . قال : فما رأيتِ أو ما سمعت ؟ قالت : سمعتهم يقولون : يا مخلد أخذاً أخذاً . قال : ثم سمعتِ ماذا ؟ قالت : ثم سمعتهم يقولون : ضرباً ضرباً . قال : ثم سمعت ماذا ؟ قالت : سمعتهم يقولون : رمياً رمياً . قال : فإن كنت سمعت رمياً رمياً فقد أفلتَ ، وهو منّا قريب . ثم صاح يا أبا خراش ! فقال أبو خراش : يا لَبّيك ، وإذا هو قد وافاهم على أثرها ...

* قال السكّري ، فيما رواه عن ابن حبيبَ عن أبي عمرو قال :

نزل أبو خراش الهُذَليّ على دُبَيّة السُلَميّ وكان صاحب العُزّى التي في غطفان ، وكان يَسدُنُها ، وهي التي هدمها خالد بن الوليد لمّا بعثه رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم إليها فهدمها وكسرها وقتل دُبَيّة السُلمي – قال : فلمّا نزل عليه أبو خراش أحسن ضيافته ، ورأى في رجليه نعلين قد أخلقتا فأعطاه نَعلَين من حذاء السِّبْت [1] ، فقال أبو خراش يمدحه :

حَذاني بعدما خَذِمت نِعالي دُبَيّةُ إنّه نِعمَ الخليلُ
مُقابَلتين من صَلَوَيْ مُشَبٍّ من الثيران وصلُهما جميلُ

---

(١) السبت : الجلد المدبوغ .

بمِثلهما يرُوح المرء لهواً ويقضي الهمَّ ذو الأرَب الرَّجيلُ
فنعمَ مُعَرَّس الأضياف تُذحي رحالهَم شآميــةٌ بَليــلُ
يُقاتل جُوعهم بمُكلَّلاتٍ من الفُرْنيِّ يرعَبُها الجميلُ (١)

قال أبو عمرو : الجميل : الإهالة ، ولا يقال لهـا جميلٌ حتى تُذاب إهالةً كانت أو شحماً .

وقال أبو عمرو : لمّا بعث رسول الله صلىالله عليه وسلم خالد بن الوليد فهدم عُزّى غطفان ــ وكانت ببطن نَخلة ، نصبها ظالم بن أسعد بن عامر بن مُرّة ــ وقتل دُبَيّة فقال أبو خراش يرثيه :

ما لدُبَيّةَ منذُ اليوم لم أرَهُ
وسطَ الشُروب ولم يُلمِمْ ولم يَطُفِ
لو كان حيّاً لفاداهم بمُترَعةٍ
فيها الرَواويق من شِيزى بني الهَطِفِ

بنو الهطف : قوم من بني أسد يعملون الجِفان .

كابي الرَماد عظيمُ القِدْر جَفْنَتهُ
حينَ الشتاء كحوض المُنهِل اللَقِفِ

المُنهِل : الذي إبله عطاش . اللقِف : الذي يضرب الماء أسفله فيتساقط وهو ملآن .

---

(١) خذم الحذاء : انقطع . صلوي : مثنى صلا ، وهو الظهر ، يقول : انه أعطاه نعلين من جلد ظهر فتي من الثيران . الرجيل : الراجل . المعرس : مكان النزول ليلا . تذحي : تسوق وتطرد . المكللات : الجفان المملوءة . الفرني : ضرب من الخبز . يرعبها : يملؤها . الجميل : الإهالة المذابة ، والإهالة : الشحم وكل ما ائتدم به .

أمسى سَقامٌ خَلاءً لا أنيسَ بـه

إلاّ السِّباعُ ومـرُّ الريح بالغُرَف (١)

* ... الأصمعيّ قال: أقفر أبو خراش الهذليّ من الزاد أيّاماً، ثم مرّ بامرأة من هُذيل جزلةٍ شريفةٍ، فأمرت له بشاةٍ فذُبحت وشويت. فلمّا وجد بطنُهُ ريحَ الطعام قرقرَ، فضربَ بيده على بطنه وقال: إنّك لتُقرقر لرائحة الطعام، والله لا طعِمتَ منه شيئاً. ثم قال: يا ربّةَ البيت، هل عندك شيءٌ من صَبِرٍ أو مُرٍّ؟ قالت: تصنع به ماذا؟ قال: أريده. فأتته منه بشيءٍ فاقتمحه (٢)، ثم أهوى إلى بعيره فركبه. فناشدته المرأةُ فأبى، فقالت له: ياهذا، هل رأيتَ بأساً أو أنكرت شيئاً؟ قال: لا واللهِ. ثم مضى وأنشأ يقول:

وإنّي لأُثوي الجُوعَ حتى يَملَّني

فأحيا ولم تَدْنَس ثيابي ولا جِرمي

وأصطبحُ الماءَ القَراحَ فأكتفي

إذا الزادُ أضحى للمُزَلَّـج ذا طعـم

أَرُدُّ شُجاعَ البطن، قد تَعلمينه

وأوثِرُ غبري من عِيالك بـالطُّـعم

مَخافةَ أن أحيا برَغمٍ وذِلّـةٍ

فلَلموتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْم (٣)

---

(١) الشروب والشرب: القوم يشربون. مترعة: مملوءة. الرواويق ج راووق: الخمر. الشيزى: ضرب من الخشب تصنع منه آنية الخمر والجفان. كابي الرماد: كثيره وهو كناية عن شدة الكرم. سقام: اسم واد بالحجاز.

(٢) اقتمحه: سفه.

(٣) أثوي الجوع: أسكنه بطني. الجرم: الجسد. القراح: الخالص. المزلج: الرجل الذي لا قوة له على احتمال المكروه. ذا طعم: أي ذا مذاق طيب. الشجاع: الحية. الطعم: الطعام.

مقتل أخيه عُروة

قال الأصمعي وأبو عبيدة وأبو عمرو وابن الأعرابيّ :

كان بنو مُرّة عشرَة : أبو خراش وأبو جُندَب ، وعُروة ، والأبَحّ ، والأسود ، وأبو الأسود ، وعمرو ، وزهيرٌ ، وجُنّادَة ، وسفيان . وكانوا جميعاً شعراءَ دهاةً سِراعاً لا يُدرَكُون عَدواً ...

وأمّا عُروة بن مرّة وخِراش بن أبي خراش فأخذهما بطنان من ثُمالةَ يقال لهما بنو رزام وبنو بِلال ، وكانوا متجاورين . فخرج عروة بن مرّة وابنُ أبي خراش أخيه مُغيرَين عليهما طمعاً في أن يظفرا من أموا لهما بشيء ، فظفر بهما الثُماليّون . فأمّا بنو رزام فنهوا عن قتلهما ، وأبت بنو بلال إلاّ قتلهما ، حتّى كاد يكون بينهم شرٌّ . فألقى رجلٌ من القوم ثوبه على خِراش حين شغل القوم بقتل عُروة ، ثم قال له : انجُ .

وانحرف القومُ بعد قتلهم عروةَ إلى الرجل — وكانوا أسلموه إليه — فقالوا : أين خراش ؟ فقال : أفلت منّي فذهب . فسعى القوم في أثره فأعجزهم . فقال أبو خراش في ذلك يرثي عروة ويذكر خَلاص ابنه :

حَمِدتُ إلهي بعدَ عُروةَ إذ نجا
خِراشٌ وبعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ
فوالله لا أنسى قتيلاً رُزِئتُه
بجانب قَوسَى ما حييتُ على الأرضِ
بلى إنّها تعفو الكُلومُ وإنّما
نُوَكّلُ بالأدنى وإن جَلّ ما يمضي
ولم أدرِ مَن ألقى عليه رداءَه
سوى أنه قد سُلّ عن ماجدٍ مَحْضِ

ولم يلك مثلوجَ الفؤاد مُهَبَّلاً
أضاع الشباب في الربيلة والخَفْض
ولكنه قد نازعته مَخامِصٌ
على أنه ذو مِرّةٍ صادقُ النهض (١)

استعطافه عمر ليرد ابنه من الغزو

عن الأصمعي قال : هاجر خِراش بن أبي خراش الهُذليّ في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وغزا مع المسلمين فأوغل في أرض العدوّ . فقدم أبو خراش المدينة فجلس بين يدَي عمر ، وشكا إليه شوقه إلى ابنه وأنه رجلٌ قد انقرض أهلُه ، وقُتل إخوته ، ولم يبقَ له ناصرٌ ولا معينٌ غير ابنه خراش ، وقد غزا وتركه ، وأنشأ يقول :

ألا مَن مُبلغٌ عنيّ خِراشاً وقد يأتيك بالنَبأ البعيدُ
وقد يأتيك بالأخبار مَن لا تُجهِّز بالحِذاءِ ولا تُزيد
يُناديه لِيغبِقَه كَليبٌ ولا يأتي ، لقد سفه الوليدُ
فردّ إناءَه لا شيءَ فيه كأن دموعَ عينيه الفَريد
وأصبح دون غابقه وأمسى جبالٌ من حِرار الشام سُودُ
ألا فاعلم خِراشُ بأنّ خيرَ الـ ـمُهاجر بعد هجرته زهيدُ
رأيتك وابتغاءَ البِرِّ دُوني كمحصور اللَبان ولا يَصيد (٢)

(١) قوسى موضع ببلاد السراة من الحجاز. مثلوج الفؤاد : ضعيف خائر . مهبلا : من يقال له : هبلتك أمك ، أي ثكلتك ، أي لم يكن ممن يشتم . وفي رواية الديوان : مهبجاً أي مثقلا . الربيلة: الخفض والدعة ، والربيلة أيضاً : كثرة اللحم . مخامص: أي الجوع . المرة : القوة . صادق النهض : مقدام إذا نهض إلى أمر .

(٢) تزيد : أي تزوّد ، من الزاد . يغبقه : يسقيه اللبن مساء . كليب : ظمآن ، يريد نفسه . الفريد : اللؤلؤ . اللبان : الصدر ، يقول : إنك حين تبتغي الأجر مع تركي وحيداً كمن يبتغي الصيد وهو مكتوف .

قال : فكتب عمر رضي الله عنه بأن يُقبل خراش إلى أبيه ، وألاّ يغزو مَن كان له أبٌ شيخٌ إلاّ بعد أن يأذَنَ له .

موته

(عن طائفة من الرواة) قالوا : أسلم أبو خراش فحسُن إسلامه ، ثم أتاه نفرٌ من أهل اليمن قدِموا حُجّاجاً ، فنزلوا بأبي خراش ، والماءَ منهم غير بعيد ، فقال : يا بَنِي عمّي ، ما أمسى عندنا ماءٌ ، ولكن هذه شاةٌ وبُرمةٌ (١) وقِرْبةٌ ، فرِدُوا الماء ، وكُلُوا شاتكم ، ثم دَعُوا بُرمتنا وقِربتنا على الماء حتى نأخذهما . قالوا : والله ما نحن بسائرين في ليلتنا هذه ، وما نحن ببارحين حيث أمسَينا . فلمّا رأى ذلك أبو خراش أخذ قربته وسعى نحو الماء تحت الليل حتى استقى ، ثم أقبل صادراً فنهشته حيّةٌ قبل أن يصل إليهم ، فأقبل مُسرعاً حتى أعطاهم الماء وقال : اطبُخوا شاتكم وكُلُوا ، ولم يُعلِمهم بما أصابه . فباتوا على شاتهم يأكلون حتى أصبحوا ، وأصبح أبوخراش في الموت ، فلم يبرحوا حتى دفنوه .

وقال وهو يُعالج الموت :

لعمرُك والمنايا غالباتٌ على الإنسان تَطلع كُلَّ نَجْدِ
لقد أهلكتِ حيّةَ بطنِ أنْفٍ
على الأصحاب ساقاً ذات فَقْدِ (٢)

وقال أيضاً :

لقد أهلكت حيّة بطن أنفٍ
على الأصحاب ساقاً ذات فَضلِ

(١) البرمة : القدر (تتخذ من الحجارة) .
(٢) بطن أنف : موضع . ذات فقد : يريد أن هذه الساق يترك فقدها أثراً في القوم .

فما تَرَكت عدواً بين َ بُصرى

إلى صنعاءَ يَطالبُه بــذَحْـلِ [1]

قال: فبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبره فغضب غضباً شديداً وقال: لولا أن تكون سُبّة لأمرت ألاّ يُضافَ يمانٍ أبداً ، ولكتبت بذلك إلى الآفاق . إنّ الرجل ليُضيفُ أحدهم فيبذل مجهوده فيَسْخَطُه [2] ولا يَقبله منه ، ويطالبه بما لا يقدِر عليه ، كأنه يطالبه بدَينٍ ، أو يتعنّتُه ليفضحَه ، فهو يُكلّفه التكاليف ،حتى أهلك ذلك من فعِلهم رجلاً مسلماً وقتله . ثم كتب إلى عامله باليمن بأن يأخُذَ النفرَ الذين نزلوا بأبي خراش فيغرّمهم ديتَــه ، ويؤدّبَهم بعدَ ذلك بعقوبةٍ تَمَسُّهم جزاءً لأعمالهم .

* * *

(١) الذحل : الثأر .

(٢) سخطه وتسخط عطاءه : استقله ولم يقع منه موقعاً .

٢

أبو ذُؤَيب الهذَلي

(الأغاني ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها)

الشاعر

هو خُوَيلد بن خالد ... بن سعد بن هُذَيل ... وهو أحد المخضرَمين ممّن أدرك الجاهلية والإسلام ، وأسلم فحسُن إسلامه ، ومات في غَزاة إفريقية .

محمد بن سلاّم قال : كان أبو ذُؤيب شاعراً فحلاً لا غَميزة [1] فيه ولا وَهْن .

قال أبو عمرو بن العلاء : سُئل حسّان بن ثابت : من أشعرُ الناس ؟ قال : أحيّاً أم رجلاً ؟ قالوا : حيّاً . قال : أشعر الناس حيّاً هُذَيل ، وأشعرُ هُذيل غير مدافَع أبو ذُؤيب .

قال أبو زيد عمر بن شَبَّة : تقدّم أبو ذؤيب جميع شعراء هذيل بقصيدته

(١) الغميزة : المطعن والعيب .

العينيّة التي يرثي فيها بنيه . يعني قوله :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيبه تتوجَّعُ
والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ من يَجزَعُ (١)

وهذه يقولها في بنين له خمسةٍ أُصيبوا في عامٍ واحدٍ بالطاعون ورثاهم فيها .

قصيدته العينية

فأمّا قصيدته العينيّة التي فُضّل بها ، فممّا يُغنّى به منها :

أمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تَتوجّعُ
والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَن يَجْزَعُ

قالت أُمامةُ : ما لجسمكَ شاحباً
مُنذُ ابتُذِلتَ ومِثلُ مالِكَ يَنفع

أم ما لجَنْبكَ لا يُلائم مَضجعاً
إلاّ أَقَضَّ عليكَ ذاك المَضْجَعُ

فأجبتُها أنْ ما لِجِسمي أنّه
أودى بَنِيَّ من البلادِ فودّعوا

قال الأصمعيُّ : سُميت المنون مَنوناً لأنها تذهب بمُنّة كل شيء ، وهي قوته، وروى الأصمعي : « وريبه » فذكر المنون . والشاحب : المُغيَّر المهزول يقال : شَحُب . يشحُب . ابتُذلت : امتهنتَ نفسك وكرهت الدّعة والزينة

---

(١) المنون : فسرها بعضهم بالدهر وعلى هذا جاء الضمير العائد عليها مذكراً ، وفسرها آخرون بالمنية فجاء الضمير مؤنثاً : وريبها .

ولزمت العمل والسفر ومثل مالك يُغنيك عن هذا ، فاشترِ لنفسك من يكفيك ذلك ويقوم لك به . ويلائم : يوافق . أقضّ عليك : أي خشن فلم تستطع أن تضطجع عليه . والقضَض : الرمل والحصى ... ودّعوا : ذهبوا .

المنصور يسأل عمّن يحفظ عينيّة أبي ذؤيب

عن ابن عيّاش : لمّا مات جعفرُ بن المنصور الأكبر مشى المنصور في جنازته من المدينة [1] إلى مقابر قريش ، ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه ، ثم انصرف إلى قصره . ثم أقبل على الربيع [2] فقال : يا ربيعُ ، انظر من في أهلي ينشدني :

أمِنَ المنون وريبها تتوجّع

حتى أتسلّى بها عن مصيبتي . قال ربيع : فخرجت إلى بني هاشم ، وهم بأجمعهم حُضورٌ ، فسألتهم عنها ، فلم يكن فيهم أحدٌ يحفظها ، فرجعت فأخبرته ، فقال : والله لمصيبتي بأهل بيتي ألاّ يكون فيهم أحدٌ يحفظ هذا لقلّة رغبتهم في الأدب أعظم وأشدّ من مصيبتي بابني ...

خانه قريبه في امرأة يهواها فهجاه

الأصمعي قال :

كان أبو ذؤيب يهوى امرأة يقال لها أمّ عمرو ، وكان يرسل إليها خالد ابن زهير [3] . فخانه فيها ، وكذلك كان أبو ذُؤيب فعل برجل يقال له عُويم

---

(١) يريد بالمدينة هنا مدينة بغداد .
(٢) هو الربيع بن يونس مولى المنصور .
(٣) هو خالد بن زهير الهذلي ، ابن أخت أبي ذؤيب ، أو ابن أخيه .

ابن مالك بن عُويمر ، وكان رسولَه إليها . فلمّا علم أبو ذؤيب بما فعل خالد صرمها فأرسلت تترضاه ، فلم يفعل وقال فيها :

تُريدين كيما تجمعيني وخالداً
وهل يُجمعُ السَيفانِ وَيحَكِ في غِمدِ
أخالدُ ما راعيتَ منّي قرابةً
فتحفظَني بالغَيب أو بعض ما تُبدي
دعاك إليها مقلتاها وجيدُها
فملتَ كما مال المُحبُّ على عَمْدِ
وكنتَ كرقراقِ السَراب اذا بدا
لِقومٍ وقد بات المطيُّ بهم يَخدي
فآليتُ لا أنفكّ أحدُو قصيدةً
تكون وإيّاها بها مثلاً بعدي (١)

جهاده في سبيل الله وموته

خرج أبو ذؤيب مع ابنه وابن أخٍ له يقال له أبو عُبيد حتى قدموا على عمر ابن الخطّاب ، رضي الله عنه ، فقال له : أيُّ العمل أفضل يا أمير المؤمنين ؟ قال : الإيمان بالله ورسوله . قال : قد فعلتُ ، فأيّة أفضلُ بعدَه ؟ قال : الجهادُ في سبيل الله . قال : ذلك كان عليّ وإنّي لأرجو جنّةً ولا أخاف ناراً .

ثمّ خرج فغزا أرض الروم مع المسلمين ، فلمّا قفلوا أخذه الموت . فأراد ابنه وابن أخيه أن يتخلّفا عليه جميعاً ، فمنعهما صاحبُ الساقة(٢) وقال : ليتخلّف

(١) يخدي : يسرع .
(٢) صاحب الساقة : المكلف بمن يتخلف من الجند ، وساقة الجيش : مؤخرته .

عليه أحدكُما وليعلم أنّه مقتول . فقال لهما أبو ذؤيب : اقترعا ، فطارت القُرعة لأبي عُبيد ، فتخلّف عليه ومضى ابنه مع الناس .

فكان أبو عُبيد يُحدّث قال : قال لي أبو ذؤيب : يا أبا عُبيد ، احفر لي ذلك الجُرُف برمحك ثم اعضِدْ [1] من الشجر بسيفك ثم اجرُرني إلى هذا النهر فإنّك لا تفرُغ حتى أفرُغ ، فاغسِلني وكفّنّي ثم اجعلني في حَفيري ، وانثِلْ [2] عليّ الجُرُف برمحك ، وألقِ عليّ الغصون والشجر ، ثم اتبع الناس فإن لهم رَهْجةً [3] تراها في الأفق كأنها جَهامة [4] . قال : فما أخطأ ممّا قال شيئاً ، ولولا نعتُه لم أهتد لأثر الجيش . وقال وهو يجود بنفسه :

أبا عُبيدٍ رُفع الكتابُ واقترب الموعدُ والحسابُ
وعند رحلي جَملٌ نُجابُ أحمرُ في حاركه انصبابُ [5]

ثم مضيت حتى لحقتُ بالناس ، فكان يقال : انّ أهل الاسلام أبعدوا الأثر في بلد الروم ، فما كان وراء قبر أبي ذؤيب قبرٌ يعرف لأحد من المسلمين .

عن الزبير بن بكّار قال : حدّثني عمّي قال :

كان أبو ذؤيب الهُذليّ خرج في جُند عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، أحد بني عامر بن لؤي إلى إفريقية سنة ست وعشرين غازياً إفرنجة في زمن عثمان . فلمّا فتح عبد الله بن سعد افريقية وما والاها بعث عبد الله بن الزبير ، وكان في

---

(١) اعضد : اقطع .
(٢) نثل الركية : استخرج ترابها . ولعل انثل محرفة عن : أهل ، لأنه يطلب اليه ردم الجرف بعد أن حفره .
(٣) الرهجة : ما أثير من الغبار .
(٤) الجهامة : السحابة لا ماء فيها .
(٥) جمل نجاب : ليس في كتب اللغة نجاب وانما ورد فيها : جمل نجيب أي كريم قوي على السير . الحارك : أعلى الكاهل .

جُنده ، بشيراً إلى عثمان بن عفان ، وبعث معه نفراً فيهم أبو ذؤيب . ففي عبد الله يقول أبو ذؤيب :

فصاحبَ صدقٍ كسِيد الضَّرا ء ينهض في الغَزو نهضاً نجيحاً[1]

في قصيدة له . فلمّا قدموا مصرَ مات أبو ذؤيب بها .[2]

* * *

---

(١) السيد : الذئب . الضراء : ما واراك من الشجر .

(٢) لاحظ اختلاف الرواية في خبر موت أبي ذؤيب . وأكثر المصادر على أن أبا ذؤيب توفي بإفريقية فقام بأمره ابن الزبير حتى واراه في لحده . (أنظر فتوح البلدان للبلاذري القسم الأول ص ٢٦٧ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، وحسب هذه الرواية تكون وفاة أبي ذؤيب بعد سنة ٢٧ هـ) .

٣

أبو زبيد الطائي

(الأغاني ج ١٢ ص ١٢٧ وما بعدها)

الشاعر

هو حَرْمَلة بن المنذر ، وقيل المنذر بن حرملة ، والصحيح حرملة بن المنذر ... بن طيّىء .. وكان أبو زبيد نصرانياً وعلى دينه مات . وهو ممّن أدرك الجاهلية والإسلام فعُدّ من المخضرمين. وألحقه ابن سلاّم بالطبقة الخامسة من الإسلاميين ...

وأبو زبيد أحد المُعمَّرين ، ذكر ابن الكلبي أنه عُمِّر مائة وخمسين سنة . عن ابن الكلبي عن أبيه قال : كان طول أبي زبيد ثلاثة عشر شبراً .

عن ابن الكلبيّ قال : كان أبو زبيد الطائي ممّن اذا دخل مكّة دخلها متنكراً لجماله .

اشتهاره بوصف الأسد

محمد بن سلاّم الجمحيّ قال : حدّثني أبو الغرّاف قال :

كان أبو زبيد الطائي من زُوّار الملوك ، وخاصةً ملوك العجم ، وكان عالماً بسيَرهم . وكان عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه ، يُقرّبه على ذلك ويُدني مجلسه ، وكان نصرانياً .

فحضر ذاتَ يوم عثمان ، وعنده المهاجرون والأنصار ، فتذاكروا مآثر العرب وأشعارها . قال : فالتفت عثمان إلى أبي زبيد وقال : يا أخا تبَع المسيح ، أسمعنا بعض قولك ، فقد أنبئت أنّك تُجيد . فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

مَن مُبلغٌ قومنا النائين إذ شَحَطُوا
أنّ الفؤادَ إليهم شَيّقٌ وَلِعُ [1]

ووصف فيها الأسد . فقال عثمان ، رضي الله تعالى عنه : تالله تفتأ تذكر الأسد ما حَييتَ . والله إني لأحسبُك جَباناً هِداناً [2] . قال : كلاّ يا أمير المؤمنين ، ولكنّي رأيت منه منظراً وشهدت منه مشهداً لا يَبرح ذكره يتجدّد ويتردّد في قلبي ، ومعذورٌ أنا يا أمير المؤمنين غيرُ مَلُوم . فقال له عثمان ، رضي الله عنه : وأنّى كان ذلك ؟ قال :

خرجتُ في صُيّابة [3] أشراف من أفناء قبائل العرب ، ذوي هيئة وشارة حسنة ، ترتمي بنا المهارَى بأكسائها [4] ، ونحن نريد الحارث بن أبي شمر

---

(١) شحطوا : بعدوا . شيق : مشتاق .
(٢) الهدان : البليد الثقيل في الحرب . وفي بعض الأصول : هرّابا .
(٣) صياب القوم : خيارهم وسادتهم .
(٤) المهارى ج مهرية وهي الإبل المنسوبة إلى مهرة وهم حي من اليمن . وأكساء جمع كسي وهو مؤخر العجز .

الغسّاني ملك الشام ، فاخروّط [1] بنا السير في حَمارّة القيظ [2] ، حتى إذا عَصبت الأفواه [3] ، وذَبَلت الشفاه ، وشالت المياه [4] ، وأذكت الجوزاءُ المَعْزاءَ [5] ، وذاب الصَيْهَد [6] ، وصرَّ الجُنْدَب [7] ، وضاف العُصفورُ الضَبَّ وجاوره في حُجْره ، قال قائل : أيّها الرَكبُ ، غوِّروا [8] بنا في ضوج [9] هذا الوادي . وإذا واد قد بدا لنا كثيرُ الدَّغَل [10] ، دائم الغَلَل [11] شَجْراؤه مُغنّة [12] ، وأطياره مُرنّة [13] . فحططنا رحالنا بأصول دَوحاتٍ كنَهْبَلاتٍ [14] ، فأصبنا من فضَلات الزاد ، وأتبعناها الماءَ البارد .

فإنّا لَنَصف حرَّ يومنا ومماطلته إذ صرّ أقصى الخيل أذنيه ، وفحص الأرض بيديه . فوالله ما لبث أن جالَ ، ثم حَمحم فبال ، ثم فعل فِعله الفرسُ

---

(١) اخروط : طال .

(٢) حمارة القيظ : شدته .

(٣) عصبت الأفواه : جفت .

(٤) شالت المياه : قلت وجفت .

(٥) المعزاء : الأرض الصلبة الكثيرة الحصى .
الجوزاء : نجم معروف ، وهو من بروج الشمس ، وهو من زمن القيظ .

(٦) الصيهد : شدة الحر ، كأنما ذابت الشمس لشدة الحر .

(٧) صر الجندب : صوّت ، وهو اذا اشتد عليه الحر حرّك رجليه وجناحيه فيسمع لذلك صريره .

(٨) غوّر القوم : نزلوا للقيلولة نصف النهار .

(٩) ضوج الوادي : منعطفه .

(١٠) الدغل : الشجر الكثير الملتف .

(١١) الغلل : الماء الذي يتغلل الأشجار .

(١٢) الشجراء : الأشجار المتكاثفة . أغن الوادي فهو مغن : إذا أخصب وأعشب فكثر ذبابه فسمعت لطيرانه بين العشب والشجر غنــة .

(١٣) أرنت الطير : غنت .

(١٤) كنهبلات : واحدته كنهبلة : شجر عظام من العضاه .

الذي يليه واحداً فواحداً، فتضعضعت الخيلُ ، وتكعكعت[1] الإبل ، وتقهقرت البِغال ، فمِن نافرٍ بشِكاله [2] وناهض بعِقاله . فعلمنا أن قد أُتينا ، وأنــه السَّبُعُ ، ففزع كل رجلٍ منّا إلى سيفه فاستلّه من جُرُبّانه [3] ثم وقفنا له رَزْدقاً (أي صفاً) .

وأقبل أبو الحارث من أجَمته ، يتظالع [4] في مشيته ، من نَعته كأنّه مَجنوب[5] ، أو في هِجارٍ مَعصوب[6] ، لِصدره نَحيطٌ ، ولبلاعمه غَطيطٌ ، ولطرفه وميضٌ ، ولأرساغه نقيضٌ[7] ، كأنّما يخبط هَشيماً ، أو يطأ صَريماً[8] ، وإذا هامةٌ كالمِجَنّ ، وخدٌّ كالمِسَنّ ، وعينان سَجراوان [9] ، كأنهما سراجان يَقِدان ، وقَصَرةٌ رَبِلة[10] ، ولِهزِمةٌ رَهِلة[11] ، وكَتَدٌ مُغْبَط[12] وزَوْرٌ مُفرَط[13] ، وساعدٌ مجدولٌ ، وعَضُدٌ مفتولٌ ، وكف شَثْنَةُ [14] البراثن ، إلى مَخالبَ كالمَحاجن . فضرب بيده فأرهج [15] ، وكشر فأفرج ، عن

---

(١) تكعكعت : تأخرت إلى وراء .

(٢) الشكال : حبل تشد به قوائم الدابة .

(٣) جربان السيف : غمده .

(٤) يتظالع : يميل كأنه يعرج عرجاً خفيفاً .

(٥) المجنوب : المصاب بذات الجنب .

(٦) الهجار : حبل يشد في رسغ رجل البعير ثم يشد إلى حقوه . من نعته : في طبقات ابن سلام من بغيه ، أي اختياله .

(٧) النقيض : صوت مفاصل الانسان والحيوان إذا ثقل حمله .

(٨) الصريم : هنا ، الحب المقطوع من الزرع . وفي طبقات الشعراء : وإنما يطأ صريماً ، والصريم في هذه الرواية هو الرمل المنقطع .

(٩) عين سجراء ، فيها سجرة : وهي أن يخالط بياضها أو سوادها حمرة يسيرة .

(١٠) القصرة : العنق . ربلة : كثيرة اللحم .

(١١) اللهزمة : اللحمة الناتئة تحت الأذن . رهلة : منتفخة .

(١٢) الكتد : ما بين الكاهل إلى الظهر . مغبط : مرتفع ممتلىء .

(١٣) الزور : الصدر . مفرط : ممتلىء باللحم .

(١٤) شثن : خشن .

(١٥) أرهج : أثار الغبار .

أنياب كالمعاول مَصقولة ، غير مَفلولة ، وفم أشدق ، كالغار الأخرق . ثم تمطّى فأسرع بيدَيه ، وحفزَ [1] وَركيه برجليه ، حتى صار ظلُّه مثلَيه ، ثم أقعى فاقشعرّ [2] ، ثم مثَل فاكفهرّ [3] ، ثمّ تَجهّم فازبأرّ [4] ، فلا — وذُو [5] بيتُه في السماء — ما اتّقيناه الاّ بأول أخٍ لنا من فَزارة ، كان ضخمَ الجُزارة [6] ، فوقصه [7] ثم نفضه نفضة فقضقض مَتْنَيه ، فجعل يَلَغ في دمه .

فذَمرتُ أصحابي ، فبعد لأيٍ ما استقدموا . فهجهجنا به [8] ، فكرّ مُقشعرّا بزُبرَته [9] ، كأن به شَيْهماً حوليّاً [10] ، فاختلج رجلاً أعجَرَ ذا حَوايا [11] ، فنفضه نفضة تزايلت منها مَفاصله ، ثم نَهَم ففَرفَر [12] ، ثمّ زفر فبَرْبر [13] ، ثم زأر فجَرْجر [14] ، ثم لحظ ، فوالله لخِلْتُ البرقَ يتطاير من تحت جفُونه ، من عن شِماله ويمينه ، فأرعشت الأيدي ، واصطكّت الأرجلُ ، وأطّت [15] الأضلاع ، وارتجّت الأسماعُ ، وشَخَصت العيُونُ ، وتحقّقت الظُنونُ ، وانخزلت المُتونُ . فقال له عثمان : اسكُت ، قطَ الله

---

(١) حفز : دفع .
(٢) أقعى : جلس على مؤخرته . اقشعر : تقلص جلده ووقف شعره .
(٣) مثل : انتصب . اكفهر : كشر وتجهم وجهه .
(٤) ازبأر : تنفش حتى ظهرت أصول وبر شعره .
(٥) ذو : هنا بمعنى الذي، وهي لغة طيء .
(٦) ضخم الجزارة : كبير الرأس والأطراف .
(٧) وقصه : دق عنقه .
(٨) هجهجنا به : صحنا به وأثرناه .
(٩) الزبرة : الشعر المجتمع بين كتفي الأسد .
(١٠) الشيهم : ما عظم شوكه من ذكور القنافذ . الحولي : ما أتى عليه حول .
(١١) اختلجه : انتزعه . الأعجر : الممتلىء الجسم . الحوايا : الأمعاء .
(١٢) نهم : أخرج صوتاً كالأنين . فرفر : صاح .
(١٣) بربر : صاح .
(١٤) جرجر : ردد صوته في حنجرته .
(١٥) أطت الأضلاع : أصدرت صوتاً .

لسانكَ ، فقد أرعبتَ قلوب المسلمين .

عن شُعبة قال : قلت للطِرمّاح بن حكيم : ما شأنُ أبي زُبَيدٍ وشأنُ الأسد؟ فقال : إنّه لَقِيَهَ بالنَجَف [1] فلمّا رآه سَلَح من فَرَقِهِ ... فكان بعد ذلك يصفهُ كما رأيت .

منادمته الوليد بن عقبة ووفاته

عن محمّد بن عبد الله بن مُسلم قال :

لمّا صار الوليد بن عُقبة إلى الرَقّة واعتزل عليّاً عليه السلام ومعاوية ، صار أبو زبيد إليه ، فكان ينادمه ، وكان يُحمل في كلّ أحدٍ إلى البِيعة [2] مع النصارى .

فبينا هو يومَ أحدٍ يشرب ، والنصارى حولَه ، رفع بصره إلى السماء فنظر ثمّ رمى بالكأس من يده وقال :

إذا جعل المرءُ الذي كان حازماً
يُحَلُّ به حَلَّ الحُوار ويُحْمَلُ
فليس له في العيش خيرٌ يُريده
وتكفينُه مَيتاً أعفُّ وأجملُ [3]

ومات فدُفن هناك على البَليخ [4] . فلمّا حضرت الوليد بن عقبة الوفاة أوصى

---

(١) النجف : قال السهيلي : بالفرع عينان يقال لإحداهما الربض وللأخرى النجف.
(٢) البيعة : الكنيسة .
(٣) الحوار : ولد الناقة قبل أن يفصل عنها . أحله المكان وأحله به وحل به : جعله يحل .
(٤) البليخ : نهر بالرقة .

أن يدفن إلى جنب أبي زبيد . وقد قيل : إنّ أبا زبيد مات بعد الوليد فأوصى أن يدفن إلى جنب الوليد .

عن يونس وأبي الخطّاب النحوي : أنّ الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط أوصى لمّا احتُضر لأبي زبيد بما يُصلحه في فِصحه وأعياده، من الخمر ولحومِ الخنازير وما أشبه ذلك . فقال أهله وبنوه لأبي زبيد : قد علمتَ أنّه لا يحِلّ لنا هذا في ديننا ، وإنّما فعله إكراماً لك ، وتعظيماً لحقّك ، فقدّر لنفسك ما شئت أن تعيش ، وقوِّم ما أوصى به لك حتّى نُعطيَك قيمته ، ولا تفضحنا وتفضح آباءنا بهذا ، واحفظْه واحفظنا فيه ، ففعل أبو زبيد ذلك، وقبِله منهم.

* * *

٤

أبو الطَمَحَان القَينيّ

(الأغاني ج ١٣ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

أبو الطَمَحان اسمه حَنظلة بن الشَرْقيّ ، أحد بني القَين بن جَسْر بن شَيع الله ، من قُضاعة ...

وكان أبو الطَمحان شاعراً فارساً خارباً [1] صُعلوكاً . وهو من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام ، فكان خبيث الدين فيهما – فيما يذكر – وكان تِرْباً للزبير بن عبد المطّلب في الجاهلية ونديماً له ...

طائفة من أخباره

* عبد الله بن مسلم قال : بلغني أنّ أبا الطمحان القينيّ قيل له – وكان

(١) الخارب : سارق الإبل خاصة ثم أطلق على اللص عامة .

فاسقاً خارباً — ما أدنى ذنوبك ؟ قال : ليلة الدَّيْر . قيل له : وما ليلةُ الدير ؟ قال : نزلت بدَيرانيّةٍ ، فأكلت عندها طَفَيْشلا [1] بلحم خِنزير ، وشربتُ من خمرها ، وزَنيت بها ، وسرقت كِساءها ، ثم انصرفت عنها .

* عن عمرو بن أبي عمرو الشيباني ، عن أبيه قال :

جنى أبو الطمحان القيني جنايةً وطلبه السلطان ، فهرب من بلاده ولجأ إلى بني فَزارةَ ، فنزل على رجلٍ منهم يقال له : مالك بن سعد ، أحد بني شَمْخ ، فآواه وأجاره وضرب عليه بيتاً وخلطه بنفسه ، فأقام مدّةً ، ثم تشوّق يوماً إلى أهله ، وقد شرب شراباً ثمِل منه . فقال لمالك : لولا أنّ يدي تَقصُر عن دية جِنايتي لعُدت إلى أهلي . فقال له : هذه إبلي فخُذ منها ديةَ جنايتك واردُد ما شئت . فلمّا أصبح ندم على ما قاله وكره مفارقة موضعه ولم يأمن على نفسه ، فأتى مالكاً فأنشده :

سأمدحُ مالكاً في كلّ رَكبٍ لَقيتُهم وأتركُ كلَّ رَذْلِ
فما أنا والبكارةُ أو مَخاضٌ عِظامٌ جِلّةٌ سُدُسٌ وبُزْلُ
وقد عرفت كلابُكم ثيابي، كأني منكم ونسيتُ أهلي
نَمَتْ بك من بني شَمْخٍ زِنادٌ لها ما شئتَ من فرعٍ وأصلِ [2]

قال : فقال له مالك : مرحباً ، فإنك حبيبٌ ازداد حبّاً . إنما اشتقت إلى أهلك وذكرت أنه يحبسك عنهم ما تُطالَب به من عَقْلٍ [3] أو دية ، فبذلت

(١) الطفيشل : ضرب من المرق .
(٢) البكارة ج بكر : الفتي من الإبل . المخاض : الحوامل من النوق ، ولا مفرد لها . جلة الإبل : مسانها ، ج جليل . السدس ج سديس : من الإبل ما دخل في السنة الثامنة . البزل ج بازل : من النوق ما أتم السنة الثامنة وفطر نابه . وفي قافية البيت الثاني إقواء . نمت : لعل صوابها : ورت ، يقال : فلان واري الزند : أي يرجى منه الفضل والخير .
(٣) العقل : الدية .

لك ما بذلت ، وهو لك على كل حالٍ ، فاقم في الرُّحب السَّعة ، فلم يزل مقيماً عندَهم حتى هلَك في دارهم .

* عن ابن الأعرابي قال :

عاتبت أبا الطمحان القينيّ امرأتـه في غاراته ومخاطرّته بنفسه ، وكان لصاً خارباً خبيثاً ، وأكثرت لومه على ركوب الأهوال ومخاطرته بنفسه في مذاهبه ، فقال لها :

لو كنتُ في رَيْمانَ تحرُسُ بابَه
أراجيلُ أحبُوشٍ وأغْضَفُ آلِـفُ
إذاً لأتتني حيث كنت مَنيّتي
يَخُبُّ بها هادٍ بأمـريَ قائفُ
فمِن رَهبةٍ آتي المتالفَ سادراً
وأيّةُ أرضٍ ليس فيها مَتالفُ (١)

أسره وافتداؤه

عن ابن الأعرابيّ قال :

كان أبو الطمحان القَينيّ مجاوراً في جَديلةَ من طيّىء، وكانت قد اقتتلت بينها وتحاربت الحرب التي يقال لها « حرب الفَساد » ، وتحزّبت حزبين : حزبَ جديلة وحزب الغَوث ، وكانت هذه الحرب بينهم أربعة أيام ، ثلاثة

---

(١) ريمان : حصن باليمن . أراجيل ج أرجال وأرجال ج راجل ، وهو خلاف الفارس . أحبوش : جماعة الحبش . الأغضف : المسترخي الأذن من الكلاب. الآلف : المستأنس. يخب بها : يسرع بها . القائف : متتبع الآثار . السادر : من لا يعبأ بشيء . المتالف : المهالك . يريد أنه ليس بناج من الموت ولو اعتصم بحصن حصين ولذا فهو يقحم نفسه في المهالك .

منها للغوث ويوم لجديلة . فأما اليوم الذي كان لجديلة فهو يوم « ناصفة » . وأما الثلاثة الأيام التي كانت للغوث فإنها يوم « قارات حُوق » ويوم « البيضة » و يوم « عِرنان » ، وهو آخرها وأشدُّها ، وكان للغوث . فانهزمت جديلةُ هزيمةً قبيحة ، وهربت فلحقت بكلب وحالفتهم وأقامت فيهم عشرين سنةً . وأسر أبو الطمحان في هذه الحرب ، أسره رجلان من طيّىء واشتركا فيه ، فاشتراه منهما بُجير بن أوس بن حارثة لمّا بلغه قوله :

أرقتُ وآبتني الهمومُ الطوارقْ
ولم يلق ما لاقيتُ قبليَ عـاشـقُ
اليكم بني لأمٍ تَخُبُّ هِجانُها
بكلّ طريقٍ صادفتـه شبّارق
لكم نائلٌ غَمرٌ وأحلامُ سادة
وألسنةٌ يومَ الخِطاب مَسا لـقُ
ولم يدعُ داعٍ مثلكُم لِعظيمـةٍ
اذا وَزَمت بالساعـدين السوارق (١)

قال : فابتاعه بجير من الطائيين بحكمهما ، فجزّ ناصيته وأعتقه .

(وممّا مدح به بجير بن أوس قوله :)

اذا قيل أيُّ الناس خيرٌ قبيلةً
وأصبر يوماً لا تَوارى كواكبُه
فإنّ بني لأم بن عمرٍو أرومـةٌ
علت فوق صَعبٍ لا تُنال مراقبه

(١) الهجان : كرام الإبل . شبارق ج شبرق ، بكسر الشين والراء : شجر شائك . مسالق : حادة ذربة . وزمت : عضت : السوارق : الجوامع والقيود التي تشد بها السواعد .

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم
دُجى الليلِ حتى نَظَّم الجَزْعَ ثاقبُه

لهم مجلسٌ لا يحصَرون عن الندى
اذا مَطلبُ المعروف أجدبَ راكبُهُ (١)

* * *

(١) الأرومة : الأصل . المراقب ج مرقبة : المنظرة في رأس الجبل . الجزع : الخرز . لا يحصرون عن الندى : لا يبخلون .

٥

أبو محجن الثقفي

(الأغاني ج ١٩ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

أبو مِحجَن عبد الله بن حبيب ... بن قَسِيّ ، وهو ثقيف ...

وأبو محجن من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، وهو شاعرٌ فارس شجاعٌ معدود في أُولي البأس والنجدة ، وكان من المعاقرين للخمر المحدُودين في شربها .

نفي عمر أبا محجن لشربه الخمر

عن المفضّل قال : لمّا كثر شرْبُ أبي محجن الخمر وأقام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، الحدّ عليه مراراً وهو لا ينتهي ، نفاه إلى جزيرة في البحر يقال لها حَضَوضَى ، وبعث معه حَرَسيّاً يقال له ابنَ جهراء ، فهرب منه على ساحل

البحر ولحق بسعد بن أبي وقّاص وقال في ذلك يذكر هربه من ابن جَهراء :

الحمدُ لله نجّاني وخلّصني
من ابن جهراءَ والبُوصِيُّ قد حُبسا
من يجشَمِ البحرَ والبوُصيُّ مركبهُ
إلى حضوضى فبئس المركب التمسا
أبلغ لديك أبا حفصٍ مُغَلغلةً
عبدَ الإلّه إذا ما غار أو جلسا
أنّي أكُرُّ على الأُولى إذا فزِعوا
يوماً وأحبِسُ تحت الراية الفرَسَا
أغشى الهياجَ وتَغشاني مُضاعَفَةٌ
من الحديد إذا ما بعضُهم خنَسا (١)

مشاركته في القتال يوم القادسيّة

عن رجل من طيّىء قال :

لما كان يومُ الكتائب اقتتل المسلمون والفُرس منذ أن أصبحوا إلى أن انتصف النهار . فلمّا غابت الشمس تزاحف الناس فاقتتلوا حتّى انتصف الليل ، وهذه الليلة التي كان في صَبيحتها يومُ أرماث . وقد كان المسلمون يومَ أغواث أشرفوا على الظفر وقتلوا عامّة أعلام الفُرس ، وجالت خيلهم في القلب ، فلولا أنّ رَجْلَهم (١) ثبتوا حتّى كرّت الخيل لكان رئيسهم قد أُخذ ، لأنّه

(١) البوصي : ضرب من السفن . المغلغلة : الرسالة تنتقل من مكان الى مكان . المضاعفة : صفة للدرع المضاعفة النسج . خنس : تأخر وجبن .
(٢) الرجل ج راجل : الماشي على رجليه .

كان ينزل عن فرسه ويجلس على سريره ويأمر الناس بالقتال . قالوا : فلمّا انتصف الليل تحاجز الناسُ ، وبات المسلمون ينتمُون منذ لَدن أمسَوا .

وسمع ذلك سعدٌ فاستلقى لينام ، وقال لبعض مَن عندَه : إن تمّ الناسُ على الانتماء فلا تُوقظني ، فإنهم أقوياء على عَدُوّهم ، وإن سكتوا وسكت العدو فلا تُنْبِهْني فإنهم على السَواء ، وإن سمعت العدوّ ينتَمون وهؤلاء سُكوتٌ فأنْبِهني فإن انتماء العدوّ من السُوء .

قالوا : ولمّا اشتدّ القتالُ في تلك الليلة — وكان أبو محجن قد حبسه سعدٌ بكتاب عمر وقيّده ، فهو في القصر — صعد أبو محجن إلى سعد يستعفيه ويَستَقيله ، فزبره [1] وردّه ، فنزل فأتى سَلمى بنت أبي حَفصة فقال : يا بنت آل أبي حَفصةَ ، هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تُخلّين عني وتُعيرينَني البَلقاء [2] ، فللّه عليّ إن سلّمني الله أن أرجِعَ إلى حَضرتك حتى تضعي رجليّ في قَيدي . فقالت : وما أنا وذاك ؟ فرجع يرسِفُ [3] في قُيوده ويقول :

كفى حزَناً أن تَرْديَ الخيلُ بالقنا
وأُترَكَ مَشدوداً عليّ وثاقيا
اذا قُمتُ عَنّاني الحديدُ وغُلِّقت
مَصاريعُ مِن دُوني تُصِمّ المُناديا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ
فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
وقد شفّ جِسمي أنّني كلّ شارقٍ
أُعالجُ كَبْلاً مُصْمَتاً قد بَرانيا

(١) زبره : منعه ورده .
(٢) اسم فرس لسعد بن أبي وقاص .
(٣) رسف يرسف : مشى مشي المقيد .

فلّله دَرّي يومَ أُترَكُ مُوثقاً
وتَذهل عنّي أسرتي ورجاليا
حَبيساً عن الحرب العَوان وقد بَدت
وإعمالُ غيري يومَ ذاك العواليا
ولله عَهدٌ لا أَخيسُ بعَهده
لِئن فُرجَت ألاّ أزورَ الحوانيا (١)

فقالت له سلمى : انّي قد استخرت الله ورضيتُ بعهدك . فأطلقته وقالت : أمّا الفرس فلا أعيرها . ورجعت إلى بيتها ، فاقتادها أبو محجن وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق ، فركبها ثم دبَّ عليها ، حتى اذا كان بحِيال الميمنة وأضاء النهار وتصافّ الناس كبّر ثم حمل على مَيسَرة القوم فلعب برُمحه وسِلاحه بين الصفّين ، ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب فبَدَر أمامَ الناس ، فحمل على القوم فلعب بين الصفّين برمحه وسلاحه . وكان يقصِفُ الناس ليلتئذٍ قصفاً منكراً . فعجب الناس منه ، وهم لا يعرفونه ولم يروه بالأمس . فقالَ بعض القوم : هذا من أوائل أصحاب هشام بن عتبة أو هشامٌ بنفسه . وقال قومٌ : إن كان الخِضْرُ يشهد الحروب فهو صاحب البلقاء . وقال آخرون : لولا أنّ الملائكة لا تُباشر القتال ظاهراً لقلنا هذا ملاكٌ بيننا . وجعل سعدٌ يقول – وهو مُشرفٌ ينظر اليه – : الطَعنُ طَعنُ أبي محجن ، والضَبْر (٢) ضبر البلقاء ، ولولا محبَس أبي محجن لقلت : هذا أبو محجن وهذه البلقاء .

فلم يزل يقاتل حتى انتصف الليل فتحاجز أهلُ العسكرين وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ، ووضع عن نفسه ودابّته ، وأعاد رجليه في القيد ، وأنشأ يقول :

---

(١) ردى الفرس : رجم الأرض بحوافره في عدوه . الكبل : القيد . المصمت : الذي لا جوف له والمبهم . الحواني : حانات الخمر .
(٢) الضبر : الوثب مع جمع القوائم .

لقدَ عَلمتْ ثقيفٌ غيرَ فخرٍ
بأنّا نحن أكرمُهم سيُوفا

وأكثرُهُم دروعاً سابغاتٍ
وأصبرُهم إذا كرهوا الوقُوفا

وأنّا رِفدُهم في كلّ يومٍ
فإن جَحَدُوا فَسَلْ بهمُ عَريفا

وليلةَ قادسٍ لم يشعُروا بي
ولم أكرَه بمَخْرجي الزُحوفا

فإن أُحبَسْ فقد عَرفوا بلائي
وإن أُطلَقْ أُجرّعْهم حُتوفا (١)

فقالت له سلمى: يا أبا محجن، في أيّ شيءٍ حبسك هذا الرجل؟ فقال: أما والله ما حبسني بحرامٍ أكلتُه ولا شربته، ولكنّي كنت صاحب شَرابٍ في الجاهليّة، وأنا امرؤٌ شاعرٌ يدِبُّ الشعر على لساني فينفثُه أحياناً، فحبسني لأني قلت:

اذا مُتُّ فادفِنّي إلى أصل كَرْمةٍ
تُرَوّي عظامي بعدَ موتي عُروقُها

ولا تدفِنَنّي في الفَلاة فإنّني
أخاف اذا ما متُّ ألاّ أذوقُها

ليُروَى بخمر الحُصّ لَحمي فإنني
أسيرٌ لها من بعد ما قد أسُوقها (٢)

---

(١) العريف: العارف الخبير. الحتوف: المنية.

(٢) ألا أذوقها: كان ينبغي نصب الفعل بعد أن الناصبة ولكن القافية جاءت مرفوعة فتأول النحاة أن يكونها المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن أو ضمير متكلم محذوف. الحص: موضع من نواحي حمص تنسب اليه الخمر. في الطبري ومعجم ياقوت روي «لحدي» مكان «لحمي» في البيت الثالث.

قال : وكانت سلمى قد رأت في المسلمين جولةً ، وسعدُ بن أبي وقّاص في القصر لعلّةٍ كانت به لم يقدر معها على حضور الحرب . وكانت قبلَه عند المثنى بن حارثة الشيباني ، فلمّا قتل خلَّف عليها سعدٌ . فلمّا رأت شدّة البأس صاحت : وامثنّياه، ولا مثنّى لي اليوم، فلطمها سعد فقالت: أفٍّ لكَ، أجُبناً وغَيرةً.وكانت مغاضبةً لسعد عشيّةَ أرماثٍ وليلة الهدأة وليلة السَّواد ، حتّى اذا أصبحت أتته وصالحته وأخبرته خبر أبي محجن، فدعا به وأطلقه وقال : اذهَبْ فلستُ مؤاخذك بشيء تقوله حتّى تفعله . قال : لا جَرَمَ ، والله إني لا أجبتُ لساني إلى صفة قبيح أبداً .

ما قاله بعد امتناعه عن شرب الخمر

عن المفضّل : قال أبو محجن في تركه الخمر :

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها مناقبُ تُهلِك الرجلَ الحليما
فلا والله أَشرُبها حياتي ولا أسقي بها أبداً نديما

ابن أبي محجن ومعاوية

عن الأصمعي وابن قتيبة : دخل ابن أبي محجن على معاوية فقال له : أليس أبوك الذي قال يقول :

إذا مِتُّ فادفِنّي إلى أصل كَرمةٍ
تُروّي عظامي بعدَ موتي عروقُها
ولا تدفنَنّي بالفلاة فإنّني
أخاف اذا ما مِتُّ ألاّ أذوقها

فقال ابن أبي محجن : لو شئتَ لذكرتُ ما هو أحسن من هذا من شعره .
قال : وما ذاك ؟ قال : قوله :

لا تسألي الناسَ عن مالي وكثرته
وسائلي الناسَ ما فِعلي وما خُلُقي
أُعطي السِنانَ غَداة الروع حِصَّته
وعاملُ الرُمحِ أرويه من العَلَقِ
وأطعَنُ الطَعنةَ النَجلاءَ عن عُرُضٍ
وأحفظُ السِرَّ فيه ضَربةُ العُنُقِ
عَفٌّ المَطالبِ عمّا لستُ نائله
وإن ظُلمتُ شديدُ الحِقدِ والحَنَقِ
وقد أجودُ وما مالي بذي فَنَعٍ
وقد أَكُرُّ وراءَ المُحجَرَ البَرِقِ
والقومُ أعلم أني من سَراتِهم
إذا سما بصرُ الرِعديدةِ الشَفِقِ
قد يُعسِرُ المرءُ حيناً وهو ذو كرَمٍ
وقد يَثُوب سَوامُ العاجزِ الحَمِقِ
سيكثُر المالُ يوماً بعد قِلّته
ويكتسي العُودُ بعدَ اليُبْس بالورَق (١)

فقال معاوية : لئن كنّا أسأنا لك القولَ لَنُحْسِنَنَّ لك الصَفَد (٢) . ثم أجزل جائزته وقال : اذا ولدت النساءُ فَلْتَلِدْ مِثلك .

(١) عامل الرمح : ما يلي السنان . العلق : الدم . عن عرض : من جانب . الفنع : الكثرة . المحجر : المغطى المستور . البرق : الدهش المتحير . الرعديدة : الجبان . يثوب : يجتمع .
(٢) الصفد : العطاء .

قبره في أذربيجان

عن الهيثم بن عَدِيّ قال : أخبرني مَن مرّ بقبر أبي محجن الثقفيّ في نواحي أذربيجان – أو قال في نواحي جُرجان – فرأيت قبره وقد نَبَتت عليه ثلاثةُ أصول كَرْمٍ قد طالت وأثمرت ، وهي مَعروشة ، وعلى قبره مكتوبٌ : هذا قبرُ أبي محجن الثقفيّ . فوقفت طويلاً أتعجّب ممّا اتّفق له حتى صار كأُمْنيَة بلفظها حيث يقول :

اذا متّ فادفِنّي الى أصل كَرمةٍ
تُروّي عظامي بعدَ موتي عُروقها

* * *

٦

أميَّة بن أبي الصَّلت

[الأغاني ج ٤ ص ١٢٠ وما بعدها
وج ١٧ ص ٣٠١ وما بعدها]

الشاعر

هو أمية بن أبي الصَّلت الثقفيّ ، واسم أبي الصلت عبد الله بن ربيعة . وكان أبو الصلت شاعراً وهو الذي يقول في مدح سيف بن ذي يزن لما هزم الأحباش :

لا يطلب الثأر الا كابن ذي يزَنٍ
في البحر ريَّم للأعداء أحوالا
فاشرب هنيئاً عليك التاجُ مرتفقاً
في رأس غُمدان داراً منك محلالا (١)

---

(١) ريم في المكان : أقام أو زاد في السرعة . غمدان : من قصور اليمن المشهورة . المحلال : التي يكثر النزول فيها . وهذه الأبيات ينسبها بعضهم إلى أمية نفسه .

وكان لأمية أربعة بنين : عمرو وربيعة ووهب والقاسم . وكان القاسم وربيعة شاعرين .

عن أبي عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت .

قال الحجّاج على المنبر : ذهب قومٌ يعرفون شعر أمية ، وكذلك اندراس الكلام .

عن الأصمعي : ذهب أمية في شعره بعامّة ذكر الآخرة ، وذهب عنترة بعامّة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب .

كان أمية بن أبي الصلت قد قرأ كتاب الله عزّ وجل الأول ، فكان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب ، فمنها قوله :

قمرٌ وساهورٌ يُسَلّ ويُغمَدُ (١)

وكان يسمّي الله عزّ وجلّ في شعره « السِلْطيط » فقال :

والسلطيطُ فوق الأرض مقتدر (٢)

وسمّاه في موضع آخر التغرور فقال : وأيّده التغرور . وقال ابن قتيبة : وعلماؤنا لا يحتجّون بشيء من شعره لهذه العلة (٣)

---

(١) صدر هذا البيت هو : لا نقص فيه غير أن خبيئه . والساهور فسروه بأنه كالغلاف للقمر يدخل فيه عند الكسوف .

(٢) لا يستقيم وزن البيت بهذه الصيغة ورواية البيت في اللسان :

إن الأنام رعايا الله كلهم   هو السليطط فوق الأرض مستطر

(٣) عبارة ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، ج ٤٦١/١ : « وأبدت الثغرورا ، يريد الثغر ، وهذه أشياء منكرة ، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة في اللغة .

موقفه من الاسلام

كان أمية بن أبي الصلت قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبّداً ، وكان ممّن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية وحرّم الخمر وشك في الأوثان ، وكان محققاً والتمس الدين وطمع في النبوة ، لأنه قرأ في الكتب أن نبيّاً يبعث من العرب ، فكان يرجو أن يكون هو . فلمّا بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قيل له : هذا الذي كنت تستريث [1] وتقول فيه . فحسده عدوّ الله وقال : انما كنت أرجو أن أكونه ، فأنزل الله فيه عزّ وجلّ : « واتلُ عليهم نبأَ الذي آتيناه آياتِنا فانسلخ منها . » وهو الذي يقول :

كل دين يومَ القيامة عند اللـــــه الاّ دينَ الحَنيفةِ زُورُ

* كان أمية يحرّض قريشاً بعد وقعة بدر ، وكان يرثي من قُتل من قريش في وقعة بدر ، فمن ذلك قوله :

ماذا ببَــدرٍ والعقنقَلِ من مَرازبةٍ جَحاجِحْ [2]

وهي قصيدة نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن روايتها .

ما قاله عندما دنت منيته

لمّا مرض أمية مرضه الذي مات فيه جعل يقول : قد دنا أجلي ، وهذه المرضة منيّتي ، وأنا أعلم أن الحنيفية حق ، ولكنّ الشكّ يداخلني في محمد .

ولمّا دنت وفاته أُغمي عليه قليلاً ثم أفاق وهو يقول :

---

(١) تستريث : تستبطىء .

(٢) العقنقل : الكثيب . المرازبة ج مرزبان : الفارس الشجاع والكلمة من أصل فارسي . الجحاجح جحجح وجحجاح : السيد .

لبَّيكما لبَّيكما هأنذا لديكما

لا مالٌ يَفديني . ولا عشيرة تنجيني . ثم أُغمي عليه أيضاً بعد ساعة حتى ظنَّ من حضره من أهله أنه قد قضى ، ثم أفاق وهو يقول :

لبّيكما لبّيكما هأنذا لديكما

لا بريءٌ فأعتذر ، ولا قويّ فأنتصر . ثم إنه بقي يحدّث من حضره ساعة ثم أغمي عليه مثلِ المرّتين الأُولبين حتى يئسوا من حياته ، وأفاق وهو يقول :

لبّيكما لبيكما هأنذا لديكما

محفوف بالنعم ؛

إن تغفر اللهمّ تَغفِرْ جَمّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا

ثم أقبل على القوم فقال : قد جاء وقتي ، فكونوا في أُهبتي . وحدّثهم قليلاً حتى يئس القوم من مرضه ، وأنشأ يقول :

كلُّ عيشٍ وإن تطاول دهراً مُنتهى أمره إلى أن يَزولا
ليتني كنتُ قبلَ ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوعُولا
اجعلِ الموتَ نُصبَ عينيك واحذَرْ
غَولة الدهر إنّ للدهر غُولا (١)

ثم قضى نحبه ولم يؤمن بالنبي صلّى الله عليه وسلم ، وقد قيل في وفاة أمية غير هذا .

* * *

(١) الغول : الهلكة ، وغالته غول : أهلكته هلكة .

٧

الحارِثُ بنُ الطُّفَيْل الدَّوْسِيّ

[الأغاني ج ١٣ ص ٢١٨ وما بعدها]

الشاعر

هو الحارثُ بن الطُّفيل... بن دَوْس ... بن نصر بن الأزد، شاعرٌ فارسٌ، من مخضرمي الجاهلية والإسلام ، وأبوه الطُّفيل بن عَمرو شاعرٌ أيضاً ، وهو أوّل من وفَد من دَوس على النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، فأسلم وعاد إلى قومه فدعاهم إلى الاسلام .

الحروب بين دوس وبني الحارث

وكان سبب ذلك — فيما ذُكر عن أبي عمرو الشيباني — أنّ ضِماد بن مُسَرَّح ... سيّد آل حارث ، كان يقول لقومه : أحذّركم جرائر أحمقَين

من آل الحارث يُبطلان رياستكم . وكان ضماد يتعيّفُ [١] ، وكان آل الحارث يسودون العشيرة كلها ، فكانت دوسٌ أتباعاً لهم ، وكان القتيل من آل الحارث تُؤخَذ له دِيتان ، ويُعطُون ، إذا لَزمهم عَقلٌ [٢] قتيل من دوسٍ ديةً واحدةً . فقال غلامان من بني الحارث يوماً : ائتوا شيخ بني دَوس وزعيمهم الذي ينتهون إلى أمره فلَنَقْتلُه . فأتياه فقالا : يا عمٌ ، إنّ لنا أمراً نريد أن تحكُم بيننا فيه . فأخرجاه من منزله ، فلمّا تنحيّا به قال له أحدهما : يا عمّ ، إنّ رجلي قد دخلت فيها شَوكةٌ ، فأخرِجها لي . فنكس الشيخ رأسه لينتزعَها ، وضربه الآخر فقتله . فعمدت دوسٌ إلى سيّد بني الحارث ، وكان نازلاً بقَنَوْنَى [٣] ، فأقاموا له في غَيضةٍ في الوادي ، وسَرحت إبله فأخذوا منها ناقةً فأدخلوها الغَيضة وعَقلوها ، فجعلت الناقة ترغُو وتحِنُّ إلى الإبل ، فنزل الشيخ إلى الغيضة ليعرفَ شأن الناقة ، فوثبوا عليه فقتلوه . ثم أتوا أهله ، وعرفت بنو الحارث الخبر فجمعوا للدوس وغَزوهم فنَذِروا بهم فقاتلوهم فتناصفوا ، وظفرت بنو الحارث بغِلمةٍ من دوسٍ فقتلوهم .

ثمّ إنّ دوساً اجتمع منهم تسعةٌ وسبعون رجلاً فقالوا : مَن يكلّمنا ، من يُمانينا [٤] ، حتى نغزو أهل ضِماد ؟ فكان ضماد قد أتى عُكاظ ، فأرادوا أن يخالفوه إلى أهله ، فمرّوا برجلٍ من دوس وهو يتغنّى :

فإنّ السِلمَ زائدةٌ نَواها وانْ نوى المُحارب لا تَرُوبُ [٥]

فقالوا : هذا لا يتبعكم ، ولا ينفعكم إن تبعكم ، أما تسمعون غناءه في السلم ؟ فأتوا حُمَمة بن عمرو فقالوا : أرسل الينا بعض ولدك . فقال : وأنا

---

(١) يتعيف : يتكهن .

(٢) العقل : الدية .

(٣) قنونى : من أودية السراة ، في أوائل بلاد اليمن .

(٤) ماناه : لزمه .

(٥) النوى : البعد والنأي . لا تروب : لا تفتر .

ان شئتم ، وهو عاصبٌ حاجبيه من الكِبَر ، فأخرج معهم ولدَه جميعاً ، وخرج معهم وقال لهم : تفرقوا فرقتين ، فإذا عرف بعضُكم وجوه بعض فأغيروا ، وايّاكم والغارة حتى تتعارفوا [1] ، لا يقتلُ بعضُكُم بعضاً ، ففعلوا . فلم يلتفتوا حتى قتلوا ذلك الحيَّ من آل الحارث ، وقتلوا ابناً لضِماد ، فلمّا قدِم قطع أذنَي ناقته وذنبها وصرخ في آل الحارث ، فلم يزل يجمعهم سبعَ سنين ، ودوسٌ تجتمع بإزائه ، وهم مع ذلك يتغاورون ويتطرّف [2] بعضهم بعضاً . وكان ضماد قد قال لابن أخٍ له يكنى أبا سفيان لمّا أراد أن يأتي عكاظ : إن كنت تحرِز أهلي ، والاّ أقمتُ عليهم . فقال له : أنا أُحرزهم من مائة ، فإن زادوا فلا . وكانت تحت ضماد امرأةٌ من دوس ، وهي أخت مربان بن سعد الدوسي الشاعر ، فلما أغارت دوسٌ على بني الحارث قصدها أخوها ، فلاذت به ، وضمّت فخذها على ابنها من ضماد وقالت: يا أخي، اصرِف عني القومَ، فإنّي حائضٌ لا يكشِفوني . فنكز سِيةَ [3] القوس في دِرعها وقال : لستِ بحائض ، ولكنّ في درعك سَخْلةً [4] بكذا من آل الحارث ، ثم أخرج الصبي فقتله .

قال : فلم يزالوا يتغاورون حتى كان يومُ حضرة الوادي، فتحاشد الحيّان، ثم انتهم بنو الحارث ونزلوا لقتالهم ، ووقف ضِماد بن مُسَرَّح في رأس الجبل ، وأتتهم دوسٌ ، وأنزل خالدُ بنُ ذي السَّبلة بناته هنداً وجَندلة وفطيمة ونضرة فبنين بيتاً ، وجعلن يستقين الماء ويُحضِّضن . وكان الرجل اذا رجع فارّاً أعطينه مُكْحُلةً ومِجْمراً وقلن : معنا فانزل ، أي إنك من النساء ، وجعلت هندٌ بنت خالدٍ تحرّضهم وترتجز وتقول :

---

(١) في الأصل : تتفارقوا ، وما أثبتناه أليق بالمعنى .

(٢) يتطرفه ويتطرف عليه : يغير .

(٣) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

(٤) السخلة : ولد الشاة .

مَن رجلٌ يُنازلُ الكتيبهْ　　فذلكم تَزني به الحبيبه

فلمّا التقوا رمى رجلٌ من دوس رجلاً من آل الحارث فقال : خُذها وأنا أبو الزَبْن (١) ، فقال ضماد ، وهو في رأس الجبل وبنو الحارث بحضرة الوادي : يا قوم، زُبنتم فارجعوا، ثم رمى رجلٌ آخر من دوس فقال: خُذها وأنا أبو ذِكر ، فقال ضماد : ذهب القوم بذكرها فاقبلوا رأيي وانصرِفوا . قالوا : قد جَبُنت يا ضماد ، ثم التقوا فأبيدت بنو الحارث ...

وقال الحارث بن الطفيل بن عمرو الدوسي في هذا اليوم ، عن أبي عمرو :

يا دارُ مِن ماويَّ بالسَّهْبِ　　بُنيت على خَطْبٍ من الخَطْبِ
اذ لا ترى الاّ مقاتلةً　　وعجانساً يُرقِلن بالرَّكبِ
ومدجَّجاً يسعى بشِكّته　　محمرَّةً عيناه كالكلب
ومعاشراً صَدَأُ الحديد بهم　　عَبَقُ الهِناءِ مَخاطِمَ الجُرْبِ
لمّا سمعتُ نزَالِ قد دُعيت　　أيقنتُ أنهمُ بنو كعبِ

* * *

يارُبَّ موضوعٍ رفعتُ ومر　　فوعٍ وضعتُ بمنزل اللِصْبِ
وحليلِ غانيةٍ هتكتُ قرارَها
تحت الوغى بشديدة العَضْبِ
كانت على حُبّ الحياة فقد　　أحللتُها في مَنزلٍ غَرْبِ (٢)

(١) الزبن : الدفع .
(٢) السهب ، بفتح أوله : الفلاة وبضمه : المستوى من الأرض في سهولة . العجانس ج عجنس ، بتشديد النون ؛ البعير الضخم الشديد الوطأة . يرقلن : يسرعن . الشكة : السلاح الكامل . الهناء : القطران . المخاطم ج مخطم : ما يقاد منه البعير . اللصب : مضيق الوادي. هتكت قرارها: جاءت التفعيلة الأخيرة في صدر هذا البيت تامة وهي في سائر القصيدة على (فعلن) ، وأحسب أن في البيت تحريفاً والمعنى لا يستقيم على هذه الرواية لأن الضمير في قرارها يعود على الحليلة والصحيح أن يعود على الحليل كأن يقول : فتكت به . العضب : القطع . الغرب : البعيد .

٨

حسّان بن ثابت

[ج ٤ ص ١٣٤ وما بعدها]
[« ج ١/٣ «]
[« ج ١٥٧/١ «]

الشاعر

هو حسّان بن ثابت بن المُنذر بن حَرام ... بن النَجّار، واسمه تَيْم الله، ابن ثَعلبة بن عمرو بن الخَزرج بن حارثةَ بن ثَعلبة، وهو العَنْقاء، بن عمرو – وإنّما سُمّي العنقاء لطُول عُنُقه – وعمرو هو مُزَيْقِياء، بن عامر بن ماء السماء [١] بن حارثةَ الغِطريف، بن امرِىء القيس البِطريق بن ثعلبةَ البُهلولِ ابن مازن بن الأزد ... بن الغَوث بن نبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان ...

---

(١) في الأغاني : عامر بن ماء السماء ، والصحيح : عامر ماء السماء (أنظر جمهرة ابن حزم ص ٣٣١) .

وأم حسّان بن ثابت بن المنذر الفُريعة ابنة خالد بن قيس ...

وقيل إن اسم النّجار تيم اللات ... وانما سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم تَيم الله لأن الأنصار كانت تنسب إليه ، فكَرِه أن يكون في أنسابها ذكر اللات .

ويكنى حسّان بن ثابت أبا الوليد ، وهو فَحلٌ من فحول الشعراء ، وقد قيل : انّه أشعرُ أهلِ المَدَرِ [1] ، وكان أحد المعمّرين من المخضرمين ، عُمِّر مائة وعشرين سنةً : ستّين في الجاهلية ، وستّين في الإسلام .

عن حسّان بن ثابت قال : انّي لغلام يَفَعة ابن سبع سنين او ثمان اذا بيهوديٍ بيثربَ يصرُخ ذات غَداة : يا معشرَ يَهُودَ . فلمّا اجتمعوا إليه قالوا : ويلك ، ما لك ؟ قال : طَلَع نجمُ أحمد الذي يُولد به في هذه الليلة .

قال : ثم أدركه اليهوديُّ ولم يُؤمنْ به .

فهذا يدلّ على مُدّة عمره في الجاهلية ، لأنّه ذكر أنه أدرك ليلة وُلد النبي صلىالله عليه وسلم وله يومئذ ثمان سنين ،والنبيّ صلى الله عليه وسلم بُعث وله أربعون سنةً ، وأقام بمكةَ ثلاثَ عشرة سنةً ، فقدِم المدينة ولحسّان يومئذٍ — على ما ذكره — ستّون سنة أو إحدى وستون سنةً ، وحينئذٍ أسلم .

صفته

عن سليمان بن يسار قال : رأيت حسّان بن ثابت وله ناصيةٌ قد سَدَلها بين عينيه .

عليٌّ بن محمّد النوفَلي عن أبيه قال : كان حسّان بن ثابت يخضِب شاربه

---

(١) أهل المدر : أهل المدن والحضر ، والمدر في الأصل هو الطين اليابس .

وعَنْفَقَته [1] بالحِنّاء ، ولا يخضب سائر لحيته . فقال له ابنه عبد الرحمن : يا أبتِ ، لِمَ تفعل هذا ؟ قال : لأكون كأني أسدٌ والغٌ في دمٍ .

منزلته

عن أبي عبيدة قال : فضّل حسّان الشعراءَ بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم في النبوّة ، وشاعر اليمن كلّها في الإسلام .

قال أبو عُبيدة : وأجمعت العرب على أنّ حسّان أشعر أهل المَدَر .

عن أبي عبيدة قال : اتّفقت العرب على أنّ أشعر أهل المدر أهل يَثْرِب ، ثم عبد القَيس ، ثم ثَقيف ، وعلى أنّ أشعر أهل يثرب حسّان بن ثابت .

طائفة من أخباره مع الشعراء

قال الزبير : وحدّثني محمد بن الحسن ، قال :

قال حسان بن ثابت : جئت نابغةَ بني ذُبيان فوجدت الخنساء بنت عمرو حين قامت من عنده ، فأنشدته فقال : انّك لشاعرٌ ، وإن أخت بني سُلَيم لبكّاءة .

قال الزُبير وحدثني يحي بن محمد بن طلحة ... قال : أخبرني غيرُ واحدٍ من مشايخه : أنّ الحطيئة وقف على حسّان بن ثابت وحسّان يُنشد من شعره ، فقال له حسّان — وهو لا يعرفه — : كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابيُّ ؟ قال الحطيئة : لا أرى به بأساً . فغضب حسّان وقال : اسمعوا إلى كلام هـذا

---

(1) المنفقة : شعرات بين الشفة السفلى والذقن .

الأعرابي . ما كُنيتك ؟ قال : أبو مُليكة . قال : ما كنتَ قطُّ أهونَ عليّ منك حين كُنيت بامرأة . فما اسمُك ؟ قال : الحُطيئة . فقال حسّان : امضِ بسَلام .

عن الزبير قال : حدّثني بعض القرشيين قال :

دخل حسّان بن ثابت في الجاهلية بيت خمّار بالشام ، ومعه أعشى بكر ابن وائل ، فاشتريا خمراً وشربا ، فنام حسّان ثم انتبه فسمع الأعشى يقول للخمّار : كرِه الشيخ الغُرم . فتركه حسّان حتى نام ثم اشترى خمر الخمّار كلّها ، ثم سكبها في البيت حتى سالت تحت الأعشى ، فعلم أنه سمع كلامه ، فاعتذر إليه ، فقال حسّان :

ولسنا بشَربٍ فوقَهم ظِلُّ بُردةٍ
يَعدّون للخمّار تَيساً ومِفْصدا
ولكنّنا شَربٌ كِرامٌ إذا انتشَوا
أهانوا الصَّريح والسّديف المُسرْهدا (١)

(إلى آخر الأبيات)

مناقضاته مع قيس بن الخَطيم

(انظر الجزء الأول — العصر الجاهلي — ص ٢١٨) .

---

(١) المفصد : آلة الفصد ، يريد أنهم لا يفصدون التيس ويأكلون دمه ، اذ كانوا في الجاهلية يفصدون البعير ثم يطبخون دمه ويأكلونه . الصريح : الخمر الخالصة . السديف : لحم السنام . المسرهد : السمين .

طلّق زوجه عمرة لأنها عيّرته بأخواله

.. حدثنا الزُبير قال : حدّثني عمّي مصعبٌ قال :

تزوّج حسّان بن ثابت عَمرةَ بنت الصامت بن خالد بن عطيّة الأوسيّة ، ثم إحدى بني عمرو بن عَوف ، فكان كلٌّ واحدٍ منهما معجَباً بصاحبه . وإن الأوس أجاروا مُخلّد بن الصامت الساعديّ فقال في ذلك أبو قيس بن الأسلت :

أجرتُ مُخَلّداً ودفعت عنه وعند الله صالح ما أتيتُ

فتكلم حسّان في أمره بكلامٍ أغضب عمرةَ ، فعيّرته بأخواله وفخَرت عليه بالأوس ، فغضب لهم فطلّقها ، فأصابها من ذلك ندمٌ وشدّة ، وندِم هو بعدُ فقال :

أزمعتْ عَمرةُ صَرماً فابتكِرْ
إنمّا يُدهِن للقلبِ الحَصِرْ
لا يكُنْ حبُّكِ حُبّاً ظاهراً
ليس هذا منكِ يا عمرُ بسرّْ
سألتْ حسّانَ مَن أخوالُه
إنمّا يُسأل بالشيءِ الغُمُرْ
قلت أخوالي بنو كعبٍ اذا
أسلم الأبطالُ عوراتِ الدُبُرْ (١)

يريد : يُدهِن القلبُ ، فأدخل اللام زائدةً للضرورة . عمر : ترخيم عمرة . والسرّ : الخالص الحَسَن ...

---

(١) الإدهان : المصانعة واللين . الحصر : الضيق الصدر والمراد : إن من يصانع قلبه انما هو الضيق الصدر ، العاجز عن الحيلة وفي المطبوعة : يدهن ، بفتح الهاء والصواب بكسرها .

منافحته عن رسول الله ومهاجاته شعراء قريش

عن محمد بن سيرين قال :

كان يهجو رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم ثلاثةُ رَهْطٍ من قريش : عبدُ الله بن الزِبَعْرَى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب ، وعمرو بن العاص ، فقال قائل لعليُ بن أبي طالب ، رضوانُ الله عليه : اهجُ عنّا القومَ الذين قد هَجَونا . فقال عليٌ رضي الله عنه : إن أذِن لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فعلتُ . فقال رجلٌ : يا رسول الله ، ائذن لعليٍ كي يهجو عنّا هؤلاء القومَ الذين قد هَجونا . قال : « ليس هناك » ، أو « ليس عنده ذلك » . ثم قال للأنصار : ما يمنع القومَ الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ .. فقال حسّان بن ثابت : أنا لها ، وأخذ بطَرف لسانه وقال : والله ما يسرّني به مقْولٌ بين بُصرى وصَنعاء . فقال : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : انّي أَسلُّك منهم كما تُسَلّ الشَعرة من العجين .

قال : فكان يهجوهم ثلاثةٌ من الأنصار : حسّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَواحة . فكان حسّان وكعبٌ يُعارضانهم بمثل قولهم : بالوقائع والأيام والمآثر ويُعيّرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رَواحة يُعيّرهم بالكفر . قال : فكان في ذلك الزمان أشدُّ القول عليهم قول حسّان وكعب ، وأهونُ القول عليهم قول ابن رواحة . فلمّا أسلموا وفقِهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قولَ ابن رواحة .

عن سِماك بن حَرب قال :

قام حسّان أبو الحُسام فقال : يا رسول الله ، ائذَنْ لي فيه ، وأخرج لساناً له أسودَ ، فقال : يا رسول الله ، لو شئت لفَريتُ به المَزاد [1] ، ائذن لي فيه

---

(١) فريت : قطعت . المزادة : القربة من الجلد .

فقال : « اذهب إلى أبي بكر ، فليحدّثْك حديثَ القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهُم وجِبريل معك » . ... فأتى أبا بكر فأعلمه ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كُفَّ عن فُلانة واذكر فلانة فقال :

هجوتَ محمّداً فأجبتُ عنه | وعند َالله في ذاك الجزاءُ
فإن أبي ووالده وعِرضي | لِعِرض محمّدٍ منكم وِقاءُ
أتهجوه ولستَ له بكُفءٍ | فشرُّكما لخيركما الفِداءُ

عن عبد الرحمن بن أبي الزِناد قال :

لمّا أنشدت قريش شعر حسّان قالت : إنّ هذا الشتم ما غاب عنه ابنُ أبي قُحافه (١) .

عن رجلٍ من بني العجلانقال : لمّا بلغ أهل مكة شعر حسّان ، ولم يكونوا علموا أنه قوله ، جعلوا يقولون : لقد قال أبو بكر الشعر بعدَنا .

عن جُويرية بن أسماء قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أمرتُ عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ،وأمرتُ كعب بن مالك فقال وأحسن وأمرت حسّان بن ثابت فشفى واشتفى» .

عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسّان ابن ثابت الشاعر : « إنّ رُوح القُدس لا يزال يؤيّدك ما كافحت عن الله عزّ وجلّ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلّم » .

عن عوف بن محمّد قال :

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلةً وهو في سفرٍ : أين حسّان بن ثابت ؟ فقال حسّان : لبّيك يا رسول الله وسَعْدَيك . قال : احْدُ . فجعل يُنشد

---

(١) ابن أبي قحافة : هو أبو بكر الصديق .

ويُصغي اليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ويستمع . فما زال يستمع اليه وهو سائقٌ راحلته حتّى كان رأسُ الراحلة يَمَسّ الوَرِك حتى فرغ من نشيده . فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لهذا أَشَدُّ عليهم من وَقْع النَبْلِ » .

وقع شعره في النفوس

عن الأصمعي قال :

جاء الحارث بن عوف بن أبي حارثةَ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : أَجِرْني من شعر حسّان ، فلو مُزِج البحر بشعره لمَزَجه . قال : وكان السبب في ذلك ... أنّ الحارث بن عوف أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ابعَث معي مَن يدعو إلى دِينك وأنا له جارٌ . فأرسل معه رجلاً من الأنصار ، فغدرت بالحارث عشيرته فقتلوا الأنصاريّ . فقدم الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يُؤَنّب أحداً في وجهه ، فقال : ادعُوا لي حسّان . فدُعي له فلمّا رأى الحارث أنشده :

يا حارِ مَن يَغْدُرْ بذمّةِ جاره
منكم فإنّ محمّداً لم يَغْدُرِ
إن تغدُروا فالغدرُ منكم شيمةٌ
والغَدر ينبتُ في أصول السَخْبَرِ[1]

فقال الحارث : اكفُفه عني يا محمّد ، وأُؤدّي إليك ديةَ الخُفارة . . فأدّى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم سبعين عُشَراء[2] وكذلك ديةُ الخُفارة ، وقال : يا محمّد ، أنا عائذٌ بك من شرّه ، فلو مُزِج البحر بشعره مَزَجه .

---

(١) السخبر : ضرب من شجر الثمام . ومن أمثالهم : ركب فلان السخبر ، أي غدر .
(٢) العشراء من النوق : التي مضى على حملها عشرة أشهر .

حسّان يناقض شعراء تميم

عن هشام بن عُروة عن أبيه عن عائشةَ قالت :

لمّا قدم وفدُ بني تَميم وضع النبي صلى الله عليه وسلم لحسّانَ مِنبراً وأجلسه عليه وقال : « إنّ اللهَ ليؤيّدُ حسّان برُوح القُدُس ما نافح عن نبيّه » صلى الله عليه وسلّم ...

عن محمّد بن الضَحّاك عن أبيه قال :

قدِم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وفدُ بني تميم ، وهم سبعون أو ثمانون رجلاً ، فيهم الأقرعُ بن حابس ، والزبرقان بنُ بَدْر ، وعُطارد بن حاجب ، وقيس بن عاصم ، وعَمرو بن الأهتم . وانطلق معهم عُيَينَة بن حِصن ، فقدموا المدينة ، فدخلوا المسجدَ ، فوقفوا عندَ الحُجُرات فنادَوا بصوتٍ عالٍ جافٍ ، اخرُج إلينا يا محمّدُ ، فقد جئنا لنُفاخرك ، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا .

فخرج إليهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فجلس ، فقام الأقرعُ بنُ حابس فقال : والله انّ مَدحي لَزَيْن ، وإنّ ذمّيَ لشَين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ذلك اللهُ » فقالوا : إنّا أكرمُ العرب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أكرمُ منكم يوسُفُ بن يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليه السلام . » فقالوا : ائذَنْ لِشاعرنا وخطيبنا . فقام رسول الله صلى الله فجلس وجلس معه الناسُ . فقام عُطارد بن حاجب فقال :

الحمدُ للهِ الذي له الفَضلُ علينا وهو أهلُه ، الذي جَعلنا مُلوكاً وجعلنا أعزَّ أهل المَشرق ، وآتانا أموالاً عِظاماً نفعل فيها المعروفَ . ليس في الناس مِثلُنا ، ألسنا برؤوس الناس وذوي فَضلهم ؟ فمن فاخَرنا فليُعدِّد مثل ما عدّدنا ، ولو نشاء لأكثرنا ، ولكنّا نستحي من الإكثار فيما خوّلنا اللهُ وأعطانا أقول هذا فَأتُوا بقولٍ أفضلَ من قولنا أو أمرٍ أبينَ من أمرنا . ثم جلس .

فقام ثابت بن قيس بن شمّاس فقال : الحمدُ لله الذي السّماوات والأرض خَلقُه، قضى فيهنّ أَمره ووسِع كُرسيُّه وعلمه ، ولم يَقض شيئاً الاّ من فضله وقُدرته ، فكان من قدرته أن اصطفى من خَلْقه لنا رسولاً أكرمَهم حسَباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأحسنهم رأياً ، فأنزل عليه كتاباً وائتمنه على خلقه ، وكان خيِرَة الله من العالمين . ثمّ دعا رسول الله الى الإيمان،فأجابه من قومه وذوي رَحِمه المهاجرون أكرمُ الناس أنساباً ، وأصبَحُ الناس وجوهاً ، وأفضل الناس فعالاً . ثمّ كان أوّل من اتّبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب واستجاب له نحن معشرَ الأنصار . فنحن أنصارُ الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يُؤمنوا ويقولوا : لا إلهَ إلاّ اللهُ ، فمَن آمن بالله ورسوله مَنع منّا مالَه ودمَه ، ومن كفَر بالله ورسوله جاهدناه في الله ، وكان جهادُه علينا يسيراً . أقول قَولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

فقام الزِبرقان فقال :

نحنُ الملُوكُ فلا حَيٌّ يُقاربُنا
مِنّا الملُوكُ وفينا يُؤخَذ الرُبُعُ
تلك المكارمُ حُزناها مُقارعةً اذا الكرام على أمثالها اقترعوا
كم قد نُشدنا من الأحياء كلِّهم
عندَ النِهاب وفَضلُ العِزّ يُتَّبَع
وننحَر الكُومَ عُبْطاً في منازلنا
للنازلين إذا ما استَطْعَمُوا شَبِعوا
ونحن نُطعِمُ عندَ المَحْلِ ما أكلوا
من العَبيط إذا لم يظهَر القَزَعُ
ونَنصُر الناس تأتينا سَراتُهم من كلّ أَوبٍ فنَمضي ثم نُتَّبَع (١)

---

(١) الربع والمرباع : حصة رئيس القبيلة من الغنيمة. الكوم ج كوماء: الناقة الضخمة السنام . =

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حسّان بن ثابت فجاء ، فأمره أن يُجيبه فقال حسّان :

إنّ الذوائبَ من فِهرٍ وإخوتَهم
قد بيّنُوا سُنّةً للنّاس تُتّبَعُ
يرضى بها كلُّ مَن كانت سَريرتُه
تقوى الإلَهِ وبالأمر الذي شرَعُوا
قومٌ اذا حاربوا ضَرُّوا عَدُوَّهم
أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نَفَعُوا
سَجيّةٌ تلك منهم غيرُ مُحدثَةٍ
إنّ الخلائقَ – فاعلمْ – شرُّها البِدَعُ
لا يَرقَعُ الناسُ ما أوهت أكفُّهمُ
عند الدفاع ولا يُوهُون ما رَقَعُوا
إن كان في الناس سبّاقون بَعدَهمُ
فكلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبقهم تبَع
أَعِفّةٌ ذُكرت في الوَحي عِفّتُهم
لا يَطْبَعُون ولا يُرديهم الطمع
ولا يَضُنّون عن جارٍ بفَضلهم
ولا يَمَسُّهم من مَطمعٍ طَبَعُ
يَسمُون للحرب تبدو وهي كالحةٌ
إذا الزَعانِفُ من أظفارها خَشَعُوا

= عبط الناقة : نحرها من غير داء وذاك أدل على الكرم . القزع : السحاب . سراة القوم : أشرافهم وسادتهم .

لا يفرحون إذا نالوا عدوّهم
وإن أصيبوا فلا خورٌ ولا جُزُعُ
كأنهُم في الوغى والموتُ مُكتَنعٌ
أسودُ بيشةَ في أرساغها فَدَع
خُذ منهم ما آتى عَفواً وإن مَنعوا
فلا يكن همُّك الأمرَ الذي مَنعوا
فإنّ في حَربهم ، فاترُكْ عداوتَهم ،
سُمّاً يُخاضُ عليه الصّابُ والسَلَعُ
أكرِمْ بقومٍ رسولُ الله قائدُهم
اذا تفرّقت الأهواءُ والشِيَع
أهدَى لهم مِدَحي قابٌ يُؤازره
فيما أراد لسانٌ حائكٌ صَنَعُ
فإنهُم أفضلُ الأحياءِ كُلِّهم
إنْ جَدّ بالناس جِدُّ القول أو شمعوا (١)

فقام عُطارد بن حاجب فقال :

أتيناك كيما يعلمَ الناسُ فضلَنا
إذا اجتمعوا وقتَ احتضار المواسم

---

(١) الذوائب ج ذؤابة : من كل شيء أعلاه ، أراد رؤوس القوم وأشرافهم . فهر : الأصل الذي تنتمي اليه قريش كلها ، وهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . يرقع : يصلح . الطبع ، بفتح الباء : العيب والدنس . الزعانف : أرذال الناس . المكتنع : الداني القريب . بيشة : واد في الطريق من مكة إلى اليمن تكثر فيه الأسود . الفدع : اعوجاج الرسغ . يخاض : يخلط . الصاب والسلع : ضربان من الشجر المر الطعم . الصنع : الماهر الحاذق . شمعوا : مزحوا وهزلوا .

بأنّا فروعُ الناس في كلّ موطنٍ
وأنْ ليس في أرض الحِجاز كدارمِ [1]

فقام حسّان بن ثابت فقال :

منعنا رسولَ الله من غضَبٍ لـه
على رَغْم أنفٍ من مَعَدٍّ وراغمِ
هل المجدُ إلاّ السُؤدُدُ العَوْدُ والندى
وجاهُ الملوك واحتمال العظائم [2]

قال : فقال الأقرع بن حابس : والله إنّ هـذا الرجل لَمُؤتّىً له . والله لَشاعرُه أشعر من شاعرنا ، ولَخطيبُه أخطب من خَطيبنا ، ولأصواتُهم أرفع من أصواتنا . أعطِني يا محمّد ، فأعطاه . فقال : زِدْني ، فزاده ، فقال : اللّهمَّ إنّه سيّد العرب .

فنزلت فيهم : « إنّ الّذين يُنادُونك من وراء الحُجُرات أكثرُهم لا يَعقِلون . » ثمَّ إنَّ القوم أسلموا ، ثم أرادوا الخروج إلى قومهم ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكَساهم ...

حسّان وابن المُعَطّل

العَطّاف بن خالد قال :

كان حسّان بن ثابت يجلس إلى أُطُمه [3] فارع ، ويجلس معه أصحابٌ له ويضع لهم بِساطاً يجلسون عليه . فقال يوماً ، وهو يرى كثرة من يأتي إلى

---

(١) دارم : بطن عظيم من قبيلة تميم .
(٢) معد : قبائل عدنان . السؤدد العود : السيادة القديمة .
(٣) الأطم : الحصن .

النبيّ صلى الله عليه وسلم من العرب فيُسْلِمون :

أرى الجَلابيب قد عَزُّوا وقد كَثرُوا
وابنُ الفُريعة أمسى بيضةَ البلدِ [1]

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مَن لي بأصحاب البِساط بفارع ؟ فقال صفوان بن المعطّل : أنا لك يا رسول الله منهم . فخرج اليهم فاخترط سيفه . فلمّا رأوه عرفوا الشرّ في وجهه ، ففرّوا وتبدّدوا ، وأدرك حسّانَ داخلاً بيته ، فضربه وفلق أَلْيته . قال : فبلغنا أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عوّضه وأعطاه حائطاً [2] ، فباعه من معاوية بعد ذلك بمالٍ كثير ، فبناه معاوية قصراً وهو الذي يقال له : قصر الدارين . وقد قيل إنّ صفوان بن المعطّل إنمّا ضرب حسّان لما قاله فيه وفي عائشة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم من الإفك [3] ، لأن صفوان هو الذي رمى أهلُ الإفك عائشة به .

عن يعقوب بن عُتبة قال :

اعترض صفوان بن المعطّل حسّان بن ثابت بالسيف لِما قذفه به من الإفك حين بلغه ما قاله . وقد كان حسّان قال شعراً يعرّض بابن المعطّل وبمن أسلم من العرب من مضر فقال :

أمسى الجلابيبُ قد عَزُّوا وقد كَثُروا
وابنُ الفُرَيعة أمسى بيضةَ البلدِ

---

(١) الجلابيب : كان المنافقون يطلقون على المهاجرين لفظ الجلابيب . وفي رواية أخرى : الخلابيس ، وهم الأخلاط من كل وجه. بيضة البلد : مثل يراد به الذم أو المدح ، وعلى الذم يراد به أنه أصبح كالبيضة المنبوذة بالعراء ، وهي تريكة الظليم . وعلى المديح يراد بها البيضة التي يحضنها الظليم ويحرص عليها لأن فيها فرخه .

(٢) الحائط : البستان .

(٣) الإفك : الكذب . وأراد بالإفك الحديث الذي دار على ألسن جماعة من المتخرصين بشأن عائشة وصفوان بن المعطل .

قد ثكلت أمُّه مَن كنت صاحبَه
أو كان مُنتشباً في بُرثُن الأسدِ
ما للقتيلِ الذي أعدُو فآخذُه
من ديةٍ فيه أُعطيها ولا قَوَدِ
ما البحرُ حين تهبُّ الريحُ شاميةً
فيَغْطئلُّ ويرمي العِبْرَ بالزَبَد
يوماً بأغلبَ مني حين تُبصِرني
بالسيف أفري كفَرْيِ العارضِ البَرِدِ [1]

فاعترضه صفوان بن المعطّل بالسيف فضربه وقال :

تلقَّ ذُبابَ السيف عني فإنّني
غُلامٌ إذا هُوجيتُ لستُ بشاعرِ [2]

عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَيْميّ :

أنّ ثابت بن قيس بن الشمّاس ، أخا بَلْحارث بن الخزرج ، وثب على صَفوان بن المعطّل في ضربه حسّان ، فجمع يديه على عُنقه ، فانطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج . فلقيه عبدُ الله بن رواحة فقال : ما هذا ؟ فقال : ألا أُعَجّبك [3] ؟ ضرب حسّان بالسيف ! والله ما أُراه إلاّ قد قتله . فقال له عبد الله بن رواحة : هل علم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بشيء من هذا ؟ قال : لا والله . قال : لقد اجترأت ، أَطلِق الرجل . فأطلقه ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فذُكر ذلك له . فدعا حسّان وصفوان بن المعطّل ،

---

(١) القود : القصاص . يغطئل : يركب بعضه بعضاً . العبر : شاطىء النهر وجانبه . أفري : أقطع . العارض : السحاب المعترض . وسحاب برد : فيه قر وبرد .
(٢) ذباب السيف : حده .
(٣) عجبه : ذكر له ما يدعو إلى التعجب .

فقال ابن المعطّل : يا رسول الله ، آذاني وهجاني فضربته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسّان : « يا حَسّانُ ، أتعيب على قومي أن هداهم اللهُ عزّ وجلّ للإسلام ؟ ! » ثم قال : « أحسِنْ يا حسّان في الذي أصابك » فقال : هي لك يا رسولَ الله .

وعن محمد بن إبراهيم بن الحارث : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه عِوَضاً منها بِيرَحاء [1] ، وهي قصر بني حُدَيلة اليوم بالمدينة ، كانت مالاً لأبي طَلحة بن سَهل ، تصدّق بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاه حسّان في ضَربته ، وأعطاه سِيرينَ ، أمَة قِبطيّة ، فولدت له عبد الرحمن بن حسّان .

قال : وكانت عائشة تقول : لقد سُئل عن صَفوان بن المعطّل ، فإذا هو حَصورٌ (لا يأتي النساء) ، قُتل بعد ذلك شهيداً .

قال ابنُ إسحاقَ في روايته عن يعقوب بن عُتْبة : فقال حسّان يعتذر من الذي قال في عائشة :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبةٍ
وتُصبِحُ غَرثى من لُحوم الغوافلِ

فإن كنتُ قد قلت الذي قد زَعمتم
فلا رفعتْ سَوطي إليّ أناملي

وكيف ووُدّي مِن قَديمٍ ونُصرتي
لِآل رسول الله زَينِ المحافل

فإن الذي قد قيل ليس بلائط
ولكنّه قولُ امرِىءٍ بيَ ماحلِ [2]

(١) بيرحاء : اسم مال وموضع بالمدينة، وبين المحدثين خلاف في ضبط هذا اللفظ . (راجع اللسان: مادة برح) .

(٢) الحصان : العفيفة . الرزان : الوقور . زنه، بخير أو شر : ظنه به وأزننته بكذا اتهمته .=

عن هشام بن عُروة عن أبيه قال :

كنت قاعداً عند عائشةَ ، فمُرّ بجِنازة حسّان بن ثابت فنلت منه. فقالت: [illegible] ألس[illegible] الذي يقول ! قالت : فكيف بقوله :

فإنّ أبي ووالدَه وعِرضي لِعرض محمّدٍ منكم وِقاءُ

أخبار جُبْنه

عن يحي بن عَبّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال :

كانت صفيّةُ بنت عبد المطلب في فارعٍ (حِصن حسّان بن ثابت) ، يعني يوم الخَندق . قال : وكان حسّان معنا فيه والنساء والصبيان . قالت : فمرّ بنا رجلٌ من يَهُودَ فجعل يُطيف بالحِصن — وقد حاربت بنو قُريظةَ وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بينَنا وبينهم أحدٌ يدفع عنّا ورسولُ الله والمسلمون في نُحور أعدائهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إذا [1] أتانا آتٍ — قالت : فقلت : يا حسّانُ ، انّ هذا اليهوديَّ ، كما ترى ، يُطيف بالحصنِ ، واني والله ما آمنُه أن يَدُلّ على عَوراتنا مَن وراءَنا مِن يهودَ ، وقد شُغل عنّا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه ، فانزِل إليه فاقتُلْه . فقال : يَغفِر الله لك يا ابنةَ عبد المطّلب ، لقد عرَفت ما أنا بصاحب هذا .

قالت : فلمّا قال ذلك ولم أرَ عندَه شيئاً احتجزتُ [2] ثم أخذت عموداً ثم نزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتّى قتلته . فلمّا فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت : يا حسّان ، انزِل إليه فاسلُبه ، فإنه لم يمنعني من سَلْبه الاّ أنّه

= غرثى : جائعة ، أراد أنها لا تذكر الغائب بشر . لائط : لاصق . الماحل : الساعي والواشي .

(١) في الأصول (اذ) وما أثبتناه أليق بما يقتضيه السياق .

(٢) احتجز بردائه : شده على وسطه .

رجلٌ . قال : ما لي بسَلْبه حاجةٌ يا بنت عبد المطّلب .

عن عبد الله بن مصعب عن أبيه قال :

كان ابن الزُبيرِ يـُحدّث أنّه كان في فارعٍ ، أُطُم حسّان بن ثابت ، مع النساء يومَ الخندق ، ومعهم عمر بن أبي سَلمَةَ . قال ابن الزبير : ومعنا حسّان ابن ثابت ضارباً وَتِداً في آخر الأطُم ، فإذا حمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين حمل على الوتد فضربه بالسيف ، وإذا أقبل المشركون انحاز عن الوتد ، حتى كأنه يقاتل قِرناً (١) ، يتشبّه بهم كأنه يـُري أنه مجاهدٌ حين جبُن ...

قال الزبير : وحدّثني عمّي عن الواقدي قال : كان أَكْحَلُ (٢) حسّان قد قُطع فلم يكن يضرب بيده .

قال الزبير : وحدّثني عليّ بن صالح عن جدّي أنه سمع حسّان بن ثابت أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلّم :

لقد غَدوتُ أمامَ القوم مُنتطقاً
بصارمٍ مثل لون المِلح قَطّاعِ
يحفِزُ عنّي نجادَ السيف سابغةٌ
فَضفاضةٌ مثلُ لون النِّهْي بالقاع (٣)

قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فظَنّ حسّان أنه ضحك من صِفته نفسَه مع جُبنه .

---

(١) القرن : الخصم في القتال .
(٢) الأكحل : عرق في اليد .
(٣) انتطق به : شده إلى وسطه . يحفز : يدفع . السابغة : صفة للدرع الطويلة التامة . النهي : الغدير .

ابن عبّاس ينهى عن شتم حسّان

عن سعيد بن جُبير قال :

كنّا عند ابن عبّاس فجاء حسّان فقالوا : قد جاء اللّعينُ (١) فقال ابن عبّاس : ما هو بلعينٍ ، لقد نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه ويده .

الزبير يحضّ القوم على الاستماع إليه

عن أسماء بنت أبي بكر قالت :

مرّ الزبيرُ بن العوّام بمجلسٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسّان بن ثابت يُنشدهم من شعره ، وهم غير نشاط لما يسمعون منه . فجلس معهم الزبير فقال : ما لي أراكم غيرَ آذنين (٢) لمَاَّ تسمعون من شعر ابن الفُريعة ، فلقد كان يَعرِض لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيُحسن استماعه ويُجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه بشيء ...

نهي عمر حسّان عن إنشاد الناس شعره

عن مُسلم بن يسار : أنّ عمر مرّ بحسّان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بأُذنه وقال : أَرُغاءٌ كرغاء البعير ! فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ، فوالله لتَعلمُ أني كنت أنشد في هذا المسجد مَن هو خيرٌ منك فلا يُغيّر عليّ (٣) ، فصدّقه عمر .

---

(١) وقف بعضهم هذا الموقف من حسان بسبب حديث الإفك وما اتهم به حسان من تعريضه بالسيدة عائشة .

(٢) أذن له وإليه : استمع .

(٣) لا يغير علي : لا ينكر صنيعي .

تحرّش شعراء قريش به أيام عمر

عن خالد بن محمّد بن ثابت بن قيس بن شمّاس قال :

نهى عمرُ بن الخطّاب الناس أن يُنشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش وقال : في ذلك شتمُ الحيّ بالميّت وتجديد الضغائن ، وقد هدَم الله أمر الجاهلية بما جاء في الإسلام .

فقدِم المدينة عبد الله بن الزِبَعْرَى السهميُّ وضِرار بن الخطّاب الفِهْريّ ثم المحاربيُّ ، فنزلا على أبي أحمد بن جَحش وقالا له : نُحبّ أن تُرسل إلى حسان بن ثابت حتّى يأتيك ، فننشدَه ويُنشدنا ممّا قلنا له وقال لنا . فأرسل اليه فجاءه فقال له: يا أبا الوليد ، هذان أخواك ابنُ الزبعرى وضِرارٌ قد جاءا أن يُسمعاك وتُسمعَهما ما قالا لك وقلت لهما . فقال ابن الزبعرى وضرار : نعم يا أبا الوليد ، انّ شعرك كان يُحتمَل في الإسلام ولا يُحتمل شعرنا ، وقد أحببنا أن نسمعك وتُسمعنا . فقال حسّان : أفتبدآن أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن . قال : ابتدئا .

فأنشداه حتى فار فصار كالمِرجَل غضباً . ثم استويا على راحلتيهما يُريدان مكّة . فخرج حسّان حتى دخل على عمر بن الخطّاب فقصّ عليه قصّتهما وقصته . فقال له عمر : لن يذهبا عنك بشيءٍ ان شاء الله . وأرسل من يردّهما وقال له عمر : لو لم تدركهما إلا بمكّة فارددُهما عليّ . وخرجا فلمّا كانا بالروحاء [1] رجَع ضرار إلى صاحبه بكُرْه ، فقال له : يا بن الزِبعَرى ، أنا أعرف عمر وذَبّه عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسّان وقلّة صبره على ما فعلنا به ، وكأني به قد جاء وشكا اليه ما فعلنا ، فأرسلَ في آثارنا وقال لرسوله : إن لم تَلحقهما إلاّ بمكّة فارددْهما عليّ ، فاربَحْ بنا تركَ العَناء وأقم بنا مكانَنا ، فإن كان الذي ظننتُ فالرجوع من الروحاء أسهلُ منه من أبعدَ منها ،

---

(١) الروحاء : موضع بين مكة والمدينة .

وإن أخطأ ظنّي فذلك الذي نُحبّ ونحن من وراء المُضِيّ . فقال ابن الزبعرى : نِعْمَ ما رأيت .

قال : فأقاما بالروحاء ، فما كان إلاّ كَمَرّ الطائر حتّى وافاهما رسول عمر فردّهما إليه . فدعا لهما بحسّان ، وعمر في جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لحسّان : أنشدهما ممّا قلت لهما . فأنشدهما حتّى فرَغ ممّا قال لهما فوقف . فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم . فقال له : أنشداك في الخلاء وأنشدتهما في الملأ . وقال لهما عمر : ان شئتما فأقيما ، وإن شئتما فانصرفا . وقال لمن حضره : اني قد كنت نهيتكم أن تذكروا ممّا كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذ أبوا فاكتبوه واحتفظوا به . فدوّنوا ذلك عندهم . قال خلاّد بن محمّد : فأدركته والله وإنّ الأنصار لتجدّده عندها إذا خافت بلاه .

حسّان وجبلة بن الأيهم

قال أبو عمرو الشيباني : لمّا أسلم جبلة بن الأيهم الغسّاني ، وكان من ملوك آل جفنة ، كتب إلى عمر يستأذنه في القدوم عليه ، فأذن له عمر ، فخرج اليه في خمسمائة من أهل بيته ، من عكّ وغسّان ، حتّى اذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يُعلمه بقدومه ، فسُرّ عمر — رضوان الله عليه — وأمر الناس باستقباله ، وبعث إليه بأنزال [1] ، وأمر جبلة مائتي رجل من أصحابه فلبسوا الدّيباج والحرير وركبوا الخيول معقودةً أذنابها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضّة ، ولبس جبلة تاجه وفيه قرطا مارية — وهي جدّته — ودخل المدينة ،

(١) الأنزال ج نزل : ما يهيأ للضيف القادم .

فلم يبق بها بِكرٌ ولا عانسٌ الا تبرّجت وخرجت تنظر إليه وإلى زِيّه . فلمّا انتهى إلى عُمر رحّب به وألطفه وأدنى مجلسَه .

ثم أراد عمر الحجَّ فخرج معه جبَلة ، فبينا هو يطوف بالبيت ، وكان مشهوراً بالموسم ، إذ وَطِيء إزاره رجلٌ من فَزارة فانحلّ ، فرفع جبلةُ يده فهشَم أنف الفَزاريّ ، فاستعدى عليه عُمر ، رضوان الله عليه . فبعث إلى جبَلة فأتاه فقال : ما هذا ؟ ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنّه تعمّد حلّ إزاري ، ولولا حُرمةُ الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف . فقال له عمر : قد أقررتَ فإمّا أن رَضِي الرجل وإمّا أن أُقِيده منك [1] . قال جبلة : ماذا تصنع بي ؟ قال : آمُر بهَشْم أنفك كما فعلت . قال : وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ، وهو سُوقةٌ وأنا مَلك ؟ قال : إنّ الإسلام جمعك وإياه ، فلستَ تفضُله بشيء الا بالتُقى والعافية . قال جبلة : قد ظننتُ ، يا أمير المؤمنين ، أنّي أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية ، . قال عمر : دَعْ عنك هذا ، فإنّك ان لم تُرض الرجل أقدته منك . قال : إذاً أتنصّرُ . قال : إذا تنصّرت ضربت عُنقك لأنّك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتُك . فلمّا رأى جبلة الصدق من عمر قال : أنا ناظرٌ في هذا ليلتي هذه . وقد اجتمع بباب عمر من حيّ هذا وحيّ هذا خلقٌ كثيرٌ ، حتى كادت تكون بينهم فِتنةٌ .

فلمّا أمسَوا أذن له عمر في الانصراف ، حتى إذا نام الناس وهدؤوا تحمّل [2] جبلة بخيله ورواحله إلى الشأم ، فأصبحت مكّةُ وهي منهم بلاقع [3] . فلما انتهى إلى الشأم تحمّل في خمسمائة رجلٍ من قومه حتى أتى القسطنطينية ، فدخل إلى هرقل فتنصّر هو وقومه ، فسُرّ هرقل بذلك جداً وظنّ أنه فتحٌ من الفتوح عظيمٌ ، وأقطعه حيث شاء وأجرى عليه من النزُل ما شاء ، وجعله من محدّثيه وسُمّاره .

---

(١) أقيده منك : أقتص له منك .

(٢) تحمل : ارتحل .

(٣) بلاقع : خالية من أهلها .

وعن محمّد بن الضّحاك عن أبيه :

أنّ معاويةَ لمّا وُلّي بعث إليه فدعاه إلى الرجوع إلى الإسلام ، ووعده إقطاع الغُوطة بأسرها ، فأبى ولم يقبل .

ثم إنّ عمر رضي الله عنه بدا له أن يكتب إلى هرقل يدعوه إلى الله جلّ وعزّ وإلى الإسلام ، ووجّه اليه رجلاً من أصحابه وهو جثّامة بن مُساحِق الكنانيّ . فلمّا انتهى إليه الرجل بكتاب عمر أجاب إلى كلّ شيءٍ سوى الإسلام . فلمّا أراد الرسول الانصراف قال له هرقل : هل رأيت ابنَ عمّك هذا الذي جاءنا راغباً في ديننا ؟ قال : لا . قال : فالْقَه .

قال الرجل : فتوجّهت اليه فلمّا انتهيت إلى بابه رأيت من البهجة والحسن والسُّرور ما لم أر بباب هرقلَ مثله . فلمّا أُدخلت عليه إذا هو في بهوٍ عظيم ، وفيه من التصاوير ما لا أُحسِن وصفه، وإذا هو جالسٌ على سريرٍ من قواريرَ، قوائمُه أربعةُ أُسْدٍ من ذهبٍ ، وإذا هو رجلٌ أصهبُ سِبالٍ وعُثْنون [1] ، وقد أمر بمجلسه فاستُقبل به وجهُ الشمس ، فما بين يديه من آنيةِ الذهب والفِضّة يلُوح ، فما رأيت أحسنَ منه .

فلمّا سلّمتُ ردّ السلام ورحّب بي وألطفني ولا مني على تركي النزولَ عندَه ، ثم أقعدني على شيءٍ لم أُثْبته ، فإذا هو كُرسيٌّ من ذهب ، فانحدرت عنه فقال : ما لك ؟ فقلت : انّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا . فقال جبَلة أيضاً مثل قولي في النبيّ صلى الله عليه وسلم حين ذكرته وصلى عليه. ثم قال : يا هذا إنّك إذا طهّرتَ قلبك لم يَضرْك ما لبستَه ولا ما جلست عليه . ثم سألني عن الناس وألحف في السؤال عن عمر ، ثم جعل يفكّر حتى رأيت الحزن في وجهه فقلت : ما يمنعك من الرجوع إلى قومك والإسلام ؟ قال : أَبعدَ الذي قد كان ؟ قلت : قد ارتدّ الأشعث بن قيس ومنَعهم الزكاةَ وضربهم

(١) السبال ج سبلة : مجتمع الشاربين . العثنون : ما نبت على الذقن من الشعر وما دونها .

بالسيف ثم رجَع إلى الإسلام . فتحدثنا مليّاً ثم أومأ إلى غُلامٍ على رأسه فولّى يُحضِر (١) ، فما كان الا هُنَيهةٌ حتى أقبلت الأخْونةُ (٢) يحملها الرجالُ فوُضِعت ، وجيءَ بخُوانٍ من ذهبٍ فوُضع أمامي فاستعفيت منه ، فوضع أمامي خوانُ خَلَنْج (٣) وجَاماتُ قواريرَ (٤) ، وأُديرت الخمر فاستعفيت منها فلمّا فرغنا دعا بكأس من ذهبٍ فشرب به خَمساً عدداً . ثم أومأ إلى غلام فولّى يُحضر ، فما شعرت إلاّ بعشر جَوارٍ يتكسّرن (٥) في الحَلْي ، فقعد خمس عن يمينه وخَمسٌ عن شماله ، ثم سمعت وَسوسةً (٦) من ورائي فإذا أنا بعَشرٍ أفضلَ من الأُوَل عليهنّ الوَشْيُ والحَلْي ، فقعد خمسٌ عن يمينه وخمسٌ عن شماله ، وأقبلت جاريةٌ على رأسها طائرٌ أبيضُ كأنّه لؤلؤةٌ ، مُؤَدَّبٌ ، وفي يدها اليمنى جامٌ فيه مِسكٌ وعَنبرٌ قد خُلطا وأُنعم سَحقُهما ، وفي اليسرى جامٌ فيه ماءُ وَردٍ ، فألقت الطائر في ماء الورد فتمعّك بين جَناحيه وظهره وبطنه، ثم أخرجَته فألقته في جام المِسك والعنبر. فتمعّك فيها حتى لم يدع فيها شيئاً ، ثم نفّرته فطار فسقط على تاج جبَلة ، ثم رفرف ونفض ريشَه فما بقي عليه شيء الا سقط على رأس جبَلة . ثم قال للجواري : أطربنني فخَفَقن بعيدانهنّ يُغنّين :

لله درُّ عِصابةٍ نادمتهُم يوماً بجِلّقَ في الزمــان الأوّلِ
بيضِ الوجوه كريمةٍ أحسابُهم شُمِّ الأنوف من الطِراز الأول
يُغشَون حتى ما تهرُّ كِلابُهم لا يسألون عن السّواد المُقبِل (٧)

---

(١) يحضر : يسرع .
(٢) الأخونة : ج خوان : مائدة الطعام .
(٣) الخلنج : ضرب من الشجر تتخذ منه الأواني والأخونة ، فارسي معرب .
(٤) الجام : إناء من الفضة أو غيرها . القوارير : الزجاج .
(٥) يتكسرن : يتثنين ويتمايلن .
(٦) الوسوسة : صوت الحلي .
(٧) الأبيات لحسان بن ثابت. جلق: اختلف في موضعها فقيل هي قرية من قرى الغوطة واستظهر=

فاستهلّ واستبشر وطرب ثم قال : زِدْني ، فاندفع يُغنّين :

لِمن الدارُ أقفرت بمَعَانِ بين شاطي اليَرمُوك فالخَمّان
فحِمى جاسمٍ فأوديةِ الصُفّرِ مَغنى قنابلٍ وهِجانِ
فالقُرَيّاتِ من بَلاسَ فداريّا فسَكّاءَ فالقُصورِ الدَواني
ذاك مَغنىً لآل جفنةَ في الدَهْرِ وحَقٌ تعاقُبُ الأزمان
قد دنا الفِصْحُ فالولائدُ يَنظِمْن سِراعاً أكِلّةَ المَرجانِ
لم يُعلّلْن بالمغافير والصَمْغ ولا نَقْفِ حَنْظلِ الشِريانِ
قد أراني هناك حَقّاً مَكيناً عندَ ذي التاج مَقعدي ومَكاني (١)

فقال : أتعرف هذه المنازل ؟ قلت : لا . قال : هذه منازلنا في مُلكنا بأكناف دمشق ، وهذا شعر ابن الفُرَيعة حسّان بن ثابت ، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : أما إنّه مَضْرورُ البصر كبير السِنّ . قال : يا جاريةُ هاتي . فأتته بخمسمائة دينار وخمسةِ أثوابٍ من الدِيباج . فقال : ادفع هذا إلى حسّان وأقْرِئه منّي السَلام . ثم أرادني على مِثلها فأبيتُ ، فبكى ، ثم قال لجواريه : أبكِينني ، فوضعن عِيدانَهنّ وأنشأن يَقُلن :

= بعض الباحثين المحدثين أنها قرية الكسوة المعروفة اليوم بظاهر دمشق . ما تهر كلابهم : ما تنبح ، وهذا دليل على كرمهم لأن كلابهم اعتادت رؤية الضيفان فهي لا تنبحهم .

(١) في الأصل : بمعان مكان : بمغان ، والصمان مكان : الخمان ، وكلاهما تحريف ، لأن معان في جنوبي الأردن وهي بعيدة عن مواضع الغساسنة بالشام ، والخمان : من نواحي البثنية في حوران من أرض الشام ، وكانت مواضع الغساسنة في حوران والبلقاء وغوطة دمشق . جاسم : من قرى حوران . القنابل ج قنبلة : جماعة الخيل . الهجان : ج هجين : الأبيض الكريم من الخيل . بلاس وداريا وسكاء : من قرى غوطة دمشق . الولائد : الإماء . المغافير : صمغ الثمام واحده مغفور . نقف الحنظل : استخراج حبه . والشريان : نوع من الشجر . وقال العلوي : انما هو الخطبان ، وهو ما صار فيه طرائق عند نضجه . أراد أنهن لسن بدويات .

تنصّرت الأشرافُ من عار لَطمةٍ
وما كان فيها لو صَبرتُ لها ضَرَرْ
تَكَنّفني فيها لَجاجٌ ونَخْوةٌ
وبِعت بها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فيا ليت أمّي لم تلِدْني وليتني
رجَعت إلى القول الذي قال لي عُمر
ويا ليتني أرعى المَخاض بقَفرةٍ
وكنت أسيراً في ربيعةَ أو مُضَر
ويا ليت لي بالشأم أدنى مَعيشةٍ
أُجالسُ قومي ذاهبَ السَمع والبصر(١)

ثم بكى وبكيتُ معه حتى رأيت دموعه تجول على لحيته كأنها اللؤلؤ . ثم سلّمت عليه وانصرفت .

فلمّا قدمت على عُمر سألني عن هِرقل وجبَلَة ، فقصصت عليه القصّة من أوّلها إلى آخرها . فقال : أوَ رأيت جبلةَ يشرب الخمر ؟ قلت : نعم . قال أَبْعَده الله (٢) ، تعجّل فانيةً اشتراها بباقيةٍ فما ربِحت تجارتُه ، فهل سرّح معك شيئاً ؟ قلت : سرّح إلى حسّان خمسَمائة دينارٍ وخمسةَ أثوابِ ديباجٍ . فقال : هاتِها . وبعثَ إلى حسّان فأقبل يَقودُه قائدُه حتى دنا فسلّم وقال : يا أمير المؤمنين ، إني لأجدُ أرواح آلِ جَفنة . فقال عمر ، رضي الله عنه : قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رَغم أنفه وأتاك بمَعونةٍ . فانصرف وهو يقول :

إنّ ابن جَفنةَ من بقيّة مَعشرٍ
لم يَغْذُهم آباؤهم باللُّومِ

---

(١) المخاض : النوق الحوامل .
(٢) أبعده الله : أهلكه .

لم يَنسَني بالشأم إذ هو ربُّها   كلاّ ولا متنصّراً بالرُوم
يعطي الجزيل ولا يراه عندَه   إلاّ كبعض عَطيّة المذمُوم
وأتيتُه يوماً فقرّب مَجلسي   وسقى فروّاني من الخُرطوم [1]

فقال له رجلٌ في مجلس عمر : أتذكر قوماً كانوا ملوكاً فأبادهم الله وأفناهم ؟ فقال : ممّن الرجل ؟ قال : مُزَنيّ . قال : أما والله لولا سوابقُ قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لَطوّقتُك طوق الحمامة [2] . وقال : ما كان خليلي ليُخِلَّ بي فما قال لك ؟ قال : إن وجدته حيّاً فادفعها إليه ، وإن وجدته ميّتاً فاطرح الثياب على قبره وابتَعْ بهذه الدنانير بُدُناً [3] فانحرها على قبره . فقال حسّان : ليتك وجدتني ميّتاً ففعلت ذلك بي .

* * *

(١) الخرطوم : الخمر .
(٢) طوقتك طوق الحمامة : أراد لهجوتك هجاء يأخذ بمخنقك كطوق الحمامة .
(٣) البدن ج بدنة ، بالتحريك : من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم .

٩

الحُطَيئَة

[الأغاني ج ٢ ص ١٥٧ وما بعدها]
و [ج ١٧ ص ٢٢٤ وما بعدها]

الشّاعر

الحُطَيئة لقبٌ لُقِّب به ، واسمه جرول بن أوس ... بن عبس ... وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم ، متصرّفٌ في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مُجيدٌ في ذلك أجمع .

وكان ذا شَرٍّ وسَفَهٍ ، ونسبُه متدافَعٌ بين قبائل العرب ، وكان ينتمي إلى كلٍّ واحدةٍ منها إذا غضب على الآخرين . وهو مخضرَمٌ أدرك الجاهليّة والإسلام فأسلم ثُمّ ارتدّ وقال في ذلك :

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننَا
فيا لَعبادِ الله ما لأبي بَكْرِ

أيُورِثُها بكراً – إذا مات – بعدَه
وتلك لَعَمْرُ الله قــاصمةُ الظَهر

ويُكنى الحطيئة أبا مُليكة ، وقيل إن الحُطيئة غلب عليه ولُقّب به لقِصره وقُربه من الأرض ...

أقوال فيه وفي منزلته

ابن أخي الأصمعي عن عمّه قال :

كان الحُطيئة جَشِعاً سَؤولاً مُلحِفاً ، دنيء النفس ، كثيرَ الشرّ ، قليل الخير ، بخيلاً ، قبيح المَنظر ، رثّ الهيئة ، مغموزَ النسب ، فاسد الدين . وما تشاء ان تقول في شعر شاعرٍ من عيبٍ إلاّ وجدته ، وقلّما تجد ذلك في شعره .

ووصف أبو عُبيدة ومحمد بن سُلاّم شعر الحُطيئة ... قالا :

كان الحطيئة متين الشعر ، شَرُود القافية [1] ، وكان دنيء النفس ، وما تشاء أن تطعن في شعر شاعرٍ إلاّ وجدت فيه مَطعناً ، وما أقلّ ما تجد ذلك في شعره .

قال حمّاد : قال أبي : وقال لي الأصمعي وقد أنشدني شيئاً من شعــر الحطيئة : أفسد مثلَ هذا الشعر الحسَن بهجاء الناس وكثرة الطمع . عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرة : لقيت الحطيئةَ بذات عِرْقٍ فقلت له : يا أبا مُليكة ، مَن أشعَرُ الناس ؟ فأخرج لسانه كأنه الحيّة ثم قال : هذا إذا طمع .

قال أبو عمرو بن العَلاء : لم تقل العرب بيتاً أصدق من بيت الحُطيئة :

---

(١) يقال : قافية شرود : أي تسير وتنتشر في البلاد كالبعير الشارد .

من يَفعلِ الخيرَ لا يَعدَمْ جَوازيَه
لا يذهب العُرف بـين الله والنـاسِ (١)

اشتهاره بالبُخل

عن المدائنيّ قال :

مرّ ابن الحمَامة بالحُطيئة وهو جالسٌ بفِناء بيته فقال : السلامُ عليكم . فقال : قلتَ ما لا يُنكَر . قال : إنّي خرجت من عند أهلي بغير زادٍ . فقال : ما ضَمِنتُ لأهلك قِراك . قال : أفتأذن لي أن آتيَ ظِلَّ بيتك فأتفيّأَ به ؟ قال : دونك الجبل يَفيءُ عليك . قال : أنا ابنُ الحمامة . قال : انصرِفْ وكن ابنَ أيّ طائرٍ شئت .

عن أبي عُبيدة والمدائنيّ قالا :

أتى رجلٌ الحُطيئة وهو في غنَمٍ له فقال له : يا صاحبَ الغنم . فرفع الحطيئةُ العصا وقال : إنّها عَجْراءُ من سَلَم (٢) . فقال الرجلُ : إنّي ضيفٌ فقال : للضِيفان أعددتُها . فانصرف عنه .

قال الأصمعي : لم ينزِل ضيفٌ قطُ بالحطيئة إلاّ هجاه ، فنزل به رجلٌ من بني أسدٍ ... فسقاه شَربةً من لبنٍ ، فلمّا شربها قال :

لمّا رأيت أنّ من يبتغي القِرى
وأنّ ابن أعيي لا مَحالة فاضحي

---

(١) الجوازي : الجزاء والمكافأة . العرف : المعروف .
(٢) العجراء : العصا التي فيها عقد . السلم : ضرب من الشجر .

شددتُ حَيازيمَ ابن أعيى بشربةٍ

على ظَمأٍ سدّت أصول الجوانح (١)

الخ ...

قال : فأجابه صخرُ بن أعيى فقال :

ألا قَبَحَ اللهُ الحطيئةَ إنّـــه

على كلّ ضيفٍ ضافــه هو سالحُ

دُفعت اليه وهو يخنُق كلبــه

ألا كلُّ كلبٍ لا أبا لك نـابــحُ

بكيتَ على مَذْقٍ خبيثٍ قَرَيْته

ألا كلُّ عَبْسيٍ على الزاد شائحُ (٢)

قال أبو عبيدة : وهجا الحطيئةُ أيضاً رجلاً من أضيافه فقال :

وسلّم مرّتين فقلت : مـهلاً كفتك المرّةُ الأولى السّلاما

ونَقنق بطنُه ودعــا رُؤاساً لما قد نال من شِبَعٍ وناما (٣)

هجاؤه نفسه

قال أبو عبيدة : كان الحطيئة بَذيّاً هَجّاءً فالتمس ذات يوم إنساناً يهجوه فلم يجده ، وضاق عليه ذلك فأنشأ يقول :

أبت شفتايَ اليومَ إلاّ تكلُّماً

بشَرٍّ فما أدري لِمن أنا قـائلُــهْ

(١) الحيازيم ج حيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر . الجوانح : الضلوع .

(٢) سلح عليه : بال . لبن مذق : مخلوط بالماء . شائح : ضنين حذر .

(٣) نقنق : قرقر لامتلائه بالطعام . رؤاس : اسم قبيلة الضيف .

وجعل يُدَهور هذا البيت في أشداقه ولا يرى إنساناً ، إذ اطّلع في رَكِيٍ [1] أو حوضٍ فرأى وجهه فقال :

أرى لي وجهاً شوّه اللهُ خَلْقَه
فقُبّح من وجهٍ وقُبّح حاملُه

تلوّنه في نسبه وتنكر قومه له

عن خراش بن إسماعيل وخالد بن سعيد :

كان الحطيئة اذا غضب على بني عبس يقول : أنا من بني ذُهل ، وإذا غضب على بني ذهل قال : أنا من بني عبس .

عن ابن الكلبي : كان الحطيئةُ مغموز النسب ، وكان من أولاد الزنا الذين شَرُفوا .

وكان أوسُ بن مالك العبسي تزوّج بنتَ رياح بن عمرو الذُهلية ، وكان له أمَةٌ يقال لها الضرّاء . فأعلقها بالحطيئة ورحل عنها . وكان لبنت رياح أخٌ يقال له الأفقم وكان طويلاً أفقمَ [2] ، صغيرَ العينين ، مضغوطَ اللّحيين . فولدت الضرّاء الحطيئة فجاءت به شبيهاً بالأفقم ، فقالت لها مولاتُها : من أين هذا الصبي ؟ فقالت لها : من أخيك ، وهابت أن تقول لها : من زوجك ، فشبّهته بأخيها ، فقالت لها : صدقت . ثم مات أوسٌ وترك ابنين من الحُرّة . وتزوّج الضرّاء رجلٌ من بني عبس فولدت له رجلين فكانا أخوي الحطيئة من أمّه . فأعتقت بنتُ رياح الحطيئة وربّته فكان كأنه أحدهما . وترك الأفقم نخلاً باليمامة ، فأتى الحطيئةُ أخويه من أوس بن مالك ، وقد كانت أمّه لما أعتقتها

---

(١) الركي : البئر .
(٢) الفقم : دخول الأسنان العليا في الفم .

بنت رياح اعترفت أنها اعتلقت من أوس بن مالك ، فقال لهم : أفردوا لي من مالكم قِطعةً . فقالا : لا ، ولكن أقم معنا فنحن نُواسيك ...

قال : وسأل الحطيئةُ أمّه : من أبوه ؟ فخلّطت عليه فقال :

تقول لي الضَرَّاءُ لستَ لواحدٍ
ولا اثنين فانظُر كيف شِرْكُ أولئكا
وأنت امرؤٌ تبغي أباً قد ضَلَلته
هَبِلتَ ألمّا تستفِقْ من ضَلالكا

قال : وغضب عليها فلحق بإخوته من الأفقم ، فقال :

سيري أُمامَ فإنّ المال يجمعه سَيبُ الإلّه وإقبالي وإدباري

فلم يدفعوه ولم يقبلوه فقال :

إنّ اليمامةَ خيرُ ساكنها أهلُ القُرَيّة من بني ذُهلِ

وسألهم ميراثه من الأفقم فأعطوه نَخلات من نخل أبيهم تدعى نخلات أم مُليكة ، وأم مليكة امرأة الحطيئة ...

قال : ثم لم تقنعه تلك النخلات ، وقد أقام فيهم زماناً ، فسألهم ميراثه كاملاً من الأفقم ، فلم يعطوه شيئاً وضربوه ... فعاد إلى بني عبس وانتسب إلى أوس ابن مالك .

وقال الأصمعيُّ في خبره : لمّا أتى أهل القُرَيّة ، وهم بنو ذُهل ، يطلب ميراثه من الأفقم مدحهم فقال :

إنّ اليمامةَ خيرُ ساكنها أهلُ القُرَيّة من بني ذُهلِ
الضامنون لمالِ جارهم حتى يتمّ نواهضُ البَقْلِ

قومٌ إذا انتسبوا ففرعُهم فرعي وأثبتُ أصلهم أصلي (١)

قال : فلم يعطوه شيئاً ، فقال يهجوهم :

إنّ اليمامةَ شرُّ ساكنها أهلُ القُرَيّةِ من بني ذُهلِ

وقال أبو اليقظان في خبره : كان الرجل الذي تزوّج أم الحطيئة أيضاً ولد زنا اسمُه الكَلْب بن كُنَيس ... فهجاه الحطيئة وهجا أمّه فقال :

ولقد رأيتك في النساءِ فسؤْتِني
وأبا بَنيك فساءني في المجلس

(الأبيات ...)

وقال الحطيئة يهجو أمه :

جزَاكِ الله شرّاً من عَجُوزٍ ولقّاك العُقوقَ من البَنينِ
فقد مُلِّكت أمرَ بنيك حتى تركتِهم أدقَّ من الطحينِ
فإن تُخلَي وأمرَكِ لا تصُولي بمُشتدّ قواه ولا متينِ
لسانك مِبْرَدٌ لا خيرَ فيهِ ودَرُّك درُّ جاذبةٍ دَهينِ (٢)

وقال يهجو أمّه أيضاً :

تنحّي فاجلِسي منّي بعيداً أراح اللهُ منكِ العالَمينا
أغِربالاً إذا استُودعتِ سرًّا وكانوناً على المتحدّثينا
حياتُك – ما علمتُ – حياةُ سُوءٍ
وموتُك قد يَسُرُّ الصالحينا (٣)

---

(١) نواهض البقل : ما استوى منه .

(٢) الدر : اللبن . الجاذبة : الناقة التي جذبت لبنها من ضرعها . والدهين : الناقة القليلة اللبن . يريد أن أمه لا خير فيها .

(٣) الغربال : النمام ، تشبيهاً بالغربال الذي لا يمسك الماء . الكانون : الرجل الثقيل البارد ، تشبيهاً بشهر كانون المعروف بشدة برده .

توقي الناس أذاة لسانه

قال أبو عُبيدة والمدائنيُّ ومصعب :

كان الحطيئةُ سؤُولاً جَشِعاً ، فقدِم المدينة ، وقد أرصدت له قريشٌ العطايا ، والناس في سنةٍ مُجدبةٍ وسَخْطةٍ من خليفةٍ . فمشى أشراف أهل المدينة بعضُهم إلى بعضٍ فقالوا : قد قدِم علينا هذا الرَّجلُ ، وهو شاعرٌ ، والشاعرُ يظُنّ فيُحقِّق ، وهو يأتي الرجل من أشرافكم يسألهُ ، فإن أعطاه جَهَدَ نفسه بَهْرَها [1] ، وإن حرَمه هجاه . فأجمع رأيهُم على أن يجعلوا له شيئاً مُعَدّاً يجمعونه بينهم له . فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون له العشرَة والعشرين والثلاثين ديناراً، حتّى جمعوا له أربعمائةِ دينارٍ ، وظنّوا أنّهم قد أغنَوه ، فأتَوه فقالوا له : هذه صِلةُ آل فلانٍ وهذه صلةُ آل فلان وهذه صلة آل فلان ، فأخذها ، فظنّوا أنهم قد كَفَوْه عن المسألة ، فإذا هو يومَ الجُمعة قد استقبل الإمام ماثلاً يُنادي : من يحملني على بغلَين وقاه الله كَبَّةَ [2] جهنّم .

عن المفضّل :

أن الحطيئة أقحمته السَنةُ [3] فنزل ببني مُقلَّد بن يربوع ، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : إنّ هذا الرجل لا يسلم أحدٌ من لسانه ، فتعالَوا حتّى نسأله عمّا يحبّ فنفعله ، وعمّا يكره فنجتنبَه . فأتَوه فقالوا : يا أبا مُليكة ، إنّك اخترتنا على سائر العرب ووجب حقُّك علينا ، فمُرنا بما تحبّ أن نفعله وبما تحبُّ أن ننتهي عنه ، فقال : لا تُكثروا زيارتي فتُملّوني ، ولا تقطعوها فتُوحشوني ، ولا تجعلوا فِناء بيتي مجلساً لكم ، ولا تسمعوا بناتي غِناء

(١) جهد نفسه بهرها : كلفها ما لا تطيق .
(٢) كبة النار : صدمتها وشدتها .
(٣) أقحمته : أوقعته في شدة ومشقة . السنة : المحل والجدب .

شُبّانكم ، فإنّ الغناء رُقيةُ الزنا .

قال : فأقام عندهم ، وجمع كلّ رجلٍ منهم ولده وقال : أمُّكم الطّلاق ، لَئن تغنّى أحد منكم والحطيئةُ مقيمٌ بين أَظهُرِنا لأضربنّه ضربةً بسيفي أخذتْ منه ما أخذت .

فلم يزل مُقيماً فيما يَرضى حتى انجلت عنه السنَةُ ، فارتحل وهو يقول :

جاورتُ آلَ مُقلّدٍ فحَمِدتُهم
إذ ليس كلُّ أخي جِوارٍ يُحمَدُ
أيّامَ من يُرِد الصَنيعةَ يصطنعْ
فينا ومن يُردِ الزَهادة يزهَدِ

تعلّقه بذويه

عن أبي عُبيدة أنّ الحطيئة أراد سفراً فأتته امرأتُه ، وقد قُدّمت راحلته ليركب ، فقالت :

أذكر تحنّننا إليك وشوقَنا   واذكر بناتِك إنّهنّ صِغارُ

فقال : حُطّوا ، لا رحلتُ لِسفرٍ أبداً .

خبره مع الزبرقان بن بدر

عن محمّد بن سَلاّم ويونُس وأبي عُبَيدة وابن الأعرابيّ :

أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان ولّى الزبرقان بن بدر... بن تميم عملاً ، وذكر مثل ذلك الأصمعيُّ وقال الزبرقان: القمر ، والزبرقان : الرجل الخفيف اللحية . قال : وأقرّه أبو بكر رضي الله عنه بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم على

عمله ، ثم قدم على عمر في سنة مُجدبة ليؤدي صدَقات قومه ، فلقيه الحطيئة بقَرقرى [1] ومعه ابناه أوس وسَوادة وبناتُه وامرأتُه . فقال له الزبرقان — وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة — : أين تريد ؟ قال : العراق ، فقد حطَمتنا هذه السَنة . قال : وتصنع ماذا ؟ قال : ودِدتُ أن أصادف بها رجلاً يكفيني مؤُونةَ عِيالي وأُصْفِيه مَدحي [2] أبداً . فقال له الزبرقان: قد أصبتَه ، فهل لك فيه يُوسعك لبناً وتمراً ويجاوِرُك أحسنَ جِوارٍ وأكرمَه ؟ فقال له الحطيئة : هذا ، وأبيكَ ، العيشُ ، وما كنت أرجو هذا كلّه . قال : فقد أصبتَه . قال : عندَ من ؟ قال : عندي . قال : ومن أنت ؟ قال : الزِبرقان بن بدر . قال : وأين مَحلُّك ؟ قال : اركَب هذه الإبل واستقبل مَطلع الشمس وسَل عن القمر حتى تأتي منزلي . قال يونس : وكان اسم الزبرقان الحُصَين بن بدر . وانما سُمّي الزبرقان لِحُسنه ، شُبّه بالقمر ... وقال أبو عبيدة في خبره : فقال له : سِر إلى أمّ شَذْرة ، وهي أم الزبرقان وهي أيضاً عمّة الفرزدق ، وكتب اليها أن أحسِني إليه وأكثري له من التمر واللبن ، وقال آخرون : بل وَكَله إلى زوجته .

فلحِق الحطيئة بزوجته ... وذلك في عامٍ صَعبٍ مُجدب ، فأكرمته المرأة وأحسنت إليه . فبلغ ذلك بَغيض بن عامر بن شَمّاس بن لأْي بن جعفر ، وهو أنف الناقة ... وبلغ إخوته وبني عمّه فاغتنموها...وكانوا يغضبون من أنف الناقة ... وكان ذلك كاللقب لهم ، حتى مدحهم الحطيئة فقال :

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهم
ومن يُسوّي بأنف الناقة الذَنَبا

فصار بعد ذلك فخراً لهم ومدحاً . وكانوا ينازعون الزبرقان الشرف — .

---

(١) قرقرى : أرض باليمامة كثيرة الزرع والنخل .
(٢) أصفيه مدحي : أجعل مدحي خالصاً له .

يعني بَغيضاً وإخوته وأهله – وكانوا أشرف من الزبرقان ، الا ّ أنه قد استعلاهم بنفسه .

وقال أبو عبيدة في خبره : كان الحطيئة دميماً سيّء الخلق لا تأخذه العين ، ومعه عِيالٌ كذلك . فلمّا رأت أمُّ شَذْرة حاله هان عليها وقصّرت به . ونظر بغيضٌ وبنو أنف الناقة إلى ما تصنع به أمّ شذرة فأرسلوا إليه أن ائتِنا . فأبى عليهم وقال : إنّ من شأن النساء التقصيرَ والغَفْلة ، ولست بالذي أحمِل على صاحبها ذنبهَا . فلمّا ألحّ عليه بنو أنف الناقة – وكان رسولُهم إليه شَمّاس ابن لأْي وعَلْقمةَ بن هَوْذَة وبغيض بن شمّاس والمخبّل الشاعر – قال لهم : لستُ بحاملٍ على الرجل ذنبَ غيره ، فإن تُركت وجُفيت تحوّلتُ إليكم ، فأطمعوه ووعدوه وَعداً عظيماً .

وقال ابن سلاّم في خبره : فلمّا لم يُجِبهم دَسُّوا إلى هُنيدةَ ، زوجة الزبرقان ، أنّ الزبرقان إنّما يريد أن يتزوج ابنته مُليكة ، وكانت جميلةً كاملة ، فظهرت من المرأة للحطيئة جَفوةٌ ، وهي في ذلك تُداريه .

ثم أرادوا النُجْعةَ (١) ، ... فقالت له هُنيدة : قد حضَرت النُجعة فاركَب أنت وأهلُك هذا الظَهر (٢) إلى مكان كذا وكذا ، ثم اردُده إلينا حتّى نلحَقك فإنّه لا يَسَعُنا جميعاً . فأرسل إليها : بل تقدّمي أنت ، فأنتِ أحقُّ بذلك . ففعلت وتثاقلت عن ردّه إليه وتركته يومين أو ثلاثةً ، وألحّ بنو أنف الناقة عليه وقالوا له : قد تُركتَ بمَضْيَعة ... فلمّا ألحّوا على الحطيئة أجابهم وقال : أمّا الآن فنعم ، أنا صائرٌ معكم . فتحمّل معهم ، فضربوا له قُبّةً ، وربطوا

---

(١) النجعة : الارتحال في طلب الكلأ .

(٢) الظهر : الركاب .

بكلّ طُنُب (١) من أطنابها جُلّةً هَجَرِيّةً (٢) ، وأراحُوا (٣) عليه إبلهم ، وأكثروا له من التمر واللبن ، وأعطَوه لِقاحاً (٤) وكُسوةً .

قال : فلمّا قدم الزبرقان سأل عنه فأُخبر بقِصته ، فنادى في بني بَهْدَلة ابن عوف ، وهم لأْمٌ دون قُريع ، ... فركب الزبرقان فرسه ، وأخذ رمحه ، وسار حتى وقف على نادي بني شمّاس القُرَيعيّين فقال : رُدّوا عليّ جاري .

فقالوا : ما هو لك بجارٍ وقد اطّرحته وضيّعتَه . فألمّ أن يكون بين الحيّين حربٌ ، فحضرهم أهلُ الحِجا (٥) من قومهم فلاموا بَغيضاً وقالوا : ارْدُدْ على الرجل جاره . فقال : : لست مُخرجَه وقد آويتُه ، وهو رجلٌ حُرٌّ مالكٌ لِأمره ، فخيِّروه فإن اختارني لم أُخرِجه ، وإن اختاره لم أُكْرِهه . فخيَّروا الحطيئة فاختار بَغيضاً ورهطَه . فجاء الزبرقان ووقف عليه وقال له : أبا مُليكةَ ، أفارقتَ جِواري عن سُخطٍ وذمّ ؟ قال : لا . فانصرف وتركه .

قال : وجعل الحطيئة يمدحهم من غير أن يهجو الزبرقان ، وهم يحضّونه على ذلك ويحرّضونه فيأبى ويقول : لا ذنبَ للرجل عندي . حتى أرسل الزبرقان إلى رجلٍ من النمِر بن قاسط يقال له دِثار بن شَيبان فهجا بغيضاً ... فحينئذٍ قال الحطيئة يهجو الزبرقان ويناضل عن بغيضٍ قصيدته التي يقول فيها :

والله ما معشرٌ لاموا امرءاً جُنُباً
في آل لأْيِ بن شمّاسٍ بأكياسِ

---

(١) الطنب : حبل الخباء .
(٢) الجلة : وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر . هجرية : منسوبة إلى هجر وهي مشهورة بتمرها .
(٣) أراحوا الابل : ردوها عشية .
(٤) اللقاح ج لقوح : الناقة الحلوب .
(٥) الحجا : العقل .

ما كان ذنبُ بغيضٍ ، لا أبا لكمُ
في بائسٍ جاء يَحدُو آخرَ الناسِ
لقد مَريتُكُم لو أنّ دِرّتَكم
يوماً يَجيءُ بها مَسْحي وإبساسي
وقد مدحتُكم عَمداً لأُرشدَكم
كيما يكونَ لكم مَتْحي وإمراسي
لمّا بدا ليَ منكم غيبُ أنفُسكم
ولم يكن لجِراحي فيكم آسي
أزمعتُ يأساً مُبيناً من نوالِكم
ولن ترى طارداً للحُرّ كالياسِ
جارٌ لِقومٍ أطالوا هُون منزله
وغادَرُوه مُقيماً بين أرماسِ
ملُّوا قِراه وهَرَّتْه كِلابُهم
وجَرّحوه بأنيابٍ وأضراسِ
دع المكارمَ لا ترحَلْ لبُغيتها
واقعُدْ فإنّك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخيرَ لا يعدَمْ جَوازيَه
لا يذهبُ العُرفُ بين الله والناسِ
ما كان ذنبيَ أنْ فَلّتْ مَعاولَكم
من آلِ لأْيٍ صَفاةٌ أصلُها راسي
قد ناضَلُوك فسلُّوا من كنائنهم
مجداً تَليداً ونَبْلاً غيرَ أنكاسِ (١)

---

(١) الجنب : الغريب . أكياس ج كيس : اللبيب الفطن . مري الناقة : مسح ضرعها لتدر . الدرة : اللبن ، أراد أنه مدحهم طلباً لنوالهم . الإبساس : الدعاء للناقة وتسكينها عند الحلب . المتح : =

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطّاب ، فرفعه عمر اليه واستنشده فأنشده فقال عمر لحسّان : أتُراه هجاه ؟ قال : نعم وسَلَح عليه ، فحبسه عمر .

عن الشعبيّ قال :

شهدتُ زياداً وأتاه عامر بن مسعود بأبي عُلاثة التَيمي فقال : انه هجاني . قال : وما قال لك ؟ قال : قال :

وكيف أرجّي ثَروها ونَماءَها
وقد سار فيها خُصيةُ الكلبِ عامرُ

فقال أبو عُلاثة : ليس هكذا قلت . قال : فكيف قُلتَ ؟ قال : قلتُ :

وإنّي لأرجو ثروَها ونماءها
وقد سار فيها ناجذُ الحقّ عامرُ

قال زيادٌ : قاتل الله الشاعرَ ، ينقّل لسانه كيف شاء ، والله لولا أن تكون سُنّةً لقطعت لسانك . فقام قيس بن فهد الأنصاريّ فقال : أصلح الله الأمير ، ما أدري مَن الرجل ، فإن شئت حدّثتك عن عمر بما سمعت منه — قال : وكان زيادٌ يُعجبه الحديث عن عمر رضي الله عنه — قال : هاتِه . قال : شهدتُه وأتاه الزبرقان بن بدر بالحطيئة فقال : إنه هجاني . قال : وما قال لك ؟ قال : قال لي :

= الاستقاء من البئر . الأمراس : أن يقع الحبل بين البكرة وبين القعو فتخلصه حتى ترده إلى البكرة . يريد : مدحتكم ليكون مدحي خالصاً لكم . الآسي : المداوي. الهون : الهوان . الأرماس : القبور . هرته : نبحته ، والكلاب تنبح الضيف إذا لم تعتد رؤيته وهذا تعريض ببخل القوم . جرحوه بأنياب وأضراس : اغتابوه ونالوه بألسنتهم . الطاعم : الآكل . الكاسي : اللابس ثيابه . فلت : ثلمت . الصفاة : الصخرة . الراسي : الثابت ، أراد أنهم غلبوه بمجدهم وشرفهم . مجداً تليداً : أراد نواصي الفرسان الذين كانوا يأسرونهم ثم يمنون عليهم ويجزون نواصيهم . أنكاس ج نكس : الرخو الضعيف من السهام .

دعِ المكارم لا تَـرحَـلْ لبُغيتها
واقعـُد فإنك أنت الـطاعمُ الكاسي

فقال عمر : ما أسمع هجاءً ولكنّها معاتبةٌ . فقال الزبرقان : أوَ ما تبلغ مـُروءتي الاّ أن آكُل وألبَس ! فقال عمر : عليَّ بحسّان ، فجيء به ، فسأله فقال : لم يَهْجُهُ ولكن سلَح عليه . قال : ويقال إنّه سأل لَبيداً عن ذلك فقال ما يَسرُّني انّه لَحِقَني من هذا الشعر ما لَحِقه وأنّ لي حُمُرَ النعَم . فأمر به عمر فجُعل في نَقيرٍ[1] في بئر ثم ألقيَ عليه شيءٌ ، فقال :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ
زُغْبِ الحَواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجرٌ
ألقيت كاسبَهم في قَعرِ مُظلِمةٍ
فاغفِر ، عليك سَلامُ الله يا عُمَر
أنت الإمامُ الذي من بَعد صاحبه
ألقى إليك مَقاليد النُهى البَشَر
لم يُؤثِروك بها اذ قدّموك لهـا
لكن لأنفُسهم كانت بك الأُثَر[2]

فأخرجه وقال له : إيّاك وهجاءَ الناس . قال : إذاً يموت عِيالي جُوعاً ، هذا مكسبي ومنه معاشي . قال : فإيّاك والمُقذِع من القول . قال : وما المُقذع ؟ قال : أن تُخاير بين الناس فتقول : فلانٌ خيرٌ من فُلان ، وآل فلان خيرٌ من آل فلان . قال : فأنت ، واللهِ ، أهجى منّي . ثم قال : والله لولا أن تكون سنّة

---

(١) النقير : ما نقر من حجر أو خشب أو نحوهما .
(٢) لأفراخ : أراد أطفاله الصغار . ذو مرخ : اسم واد بالحجاز ، وفي رواية أخرى : بذي أمر ، وهو موضع بنجد من ديار غطفان . الأزغب : القصير الشعر . الحواصل ج حوصلة : معدة الطائر . الأثر ج أثرة : المكرمة .

لقطعت لسانك، ولكن اذهب فأنت له ، خُذه يا زِبْرقانُ . فألقى الزبرقان في عُنقه عِمامةً فاقتاده بها . وعارضته غطفانُ فقالوا له : يا أبا شَذْرة ، إخوتُك وبنو عمِّك ، هَبْه لنا ، فوهبه لهم ...

ورُوي عن عبد الله بن المبارك أنّ عمر رضي الله عنه لمّا أطلق الحطيئة أراد أن يُؤكد عليه الحُجّة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم ، فقال الحطيئة في ذلك :

وأخذتَ أطرافَ الكلام فلم تَدَعْ
شتماً يَضُرُّ ولا مديحاً يَنفعُ
وحَميتني عِرضَ اللئيم فلم يَخَفْ
ذَمّي وأصبح آمناً لا يَفْزَعَ

عن أبي عُبَيدة قال :

لم يزل الحطيئةُ في بني قُريع يمدحُهم حتى إذا أَحيَوا [1] قال لِبغيضٍ : فِ لي بما كنت تضمّنتَ . فأتى بغيضٌ عَلقمة بن هَوذة فقال له : قد جاء اللهُ بالحيا، ففِ لي بما قلتَ — وكا؛ قد ضمِن له مائةً من البعير — وأَبْرِئني مما تضَّمنتْه عُهدتي . فقال : نعمْ ، سَلْ في بني قُريع فمهما فضَل بعد عَطائهم أن يُتمّ مائةً أتممتُه . ففعل ، فجمعوا له أربعين أو خمسين بعيراً ، كان الرجل يعطيه على قَدر ماله البعيرَ والبعيرَين . قال : فأتمّها عَلقمةُ له مائة وراعيَين ، فدُفعت إليه ؛ فلم يزل يمدحهم ، وهو مُقيمٌ بينهم ، حتى قال كلمتَه السينية واستعدى الزبرقان عليه عمرَ رضي الله عنه .

عن عبد الله بن عيّاش المنتُوف قال :

بينا ابنُ عبّاسٍ جالسٌ في مجلس رسول الله[2] صلى الله عليه وسلم ، بعدما

---

(١) أحيوا : أصابهم الحيا وهو المطر .
(٢) أراد في المكان الذي كان يجلس فيه رسول الله .

كُفَّ بصرُه ، وحولَه ناسٌ مِن قريش إذ أقبل أعرابيٌّ يَخطِرُ وعليه مِطرَفٌ[1] وجُبّةٌ وعِمامةُ خزٍّ ، حتى سلّم على القوم فردّوا عليه السلامَ ، فقال : يابنَ عمّ رسولِ الله ، أَفْتِني . قال : في ماذا ؟ قال : أتخاف عليّ جُناحاً[2] إن ظلَمني رجلٌ فظلمتُه وشتمني فشتمتُه وقصّر بي فقصّرتُ به ؟ فقال : العفو خيرٌ ، ومن انتصر[3] فلا جُناحَ عليه . فقال : يا بنَ عمّ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أرأيتَ امرأً أتاني فوعدني وغرّني ومنّاني ثم أخلفني واستخفّ بحُرمتي ، أيَسَعُني أن أهجُوَه ؟ قال : لا يَصلُح الهجاءُ ، لأنّه لا بُدَّ لك من أن تهجوَ غيره من عشيرته فتظلِمَ مَن لم يَظلِمك وتشتمَ مَن لم يشتُمك وتَبغي على من لم يبغ عليك ، والبَغي مَرتَعٌ وخيمٌ ، وفي العفو ما قد علمت من الفَضل . قال : صدقتَ وبَرِرْتَ . فلم ينشَب أن أقبل عبد الرحمن بنُ سَيْحان المُحاربيُّ ، حليفُ قريش ، فلمّا رأى الأعرابيَّ أجلّه وأعظَمه وألطفَ في مَسألته وقال : قرّب الله دارَك يا أبا مُليكةَ . فقال ابن عبّاس : أجَرْولُ ؟ قال : جرول . فإذا هو الحطيئة ، فقال ابن عبّاس : لله أنتَ ، أيُّ مِردى[4] قِذافٍ ، وذائد عن عَشيرة ، ومُثْنٍ بعارفة[5] ، تؤتاها أنت يا أبا مُلكية ! والله لوَ كنت عرَكْتَ بجَنْبك[6] بعضَ ما كرِهت من أمر الزبرقان كان خيراً لك ، ولقد ظلمتَ من قومه مَن لم يَظلمك وشتمتَ مَن لم يشتُمْك . قال : إنّي ، والله ، بهم يا أبا العبّاس لَعالمٌ . قال : ما أنت بأعلمَ بهم مِن غيرك . قال : بلَى والله يَرحَمُك اللهُ . ثم أنشأ يقول :

---

(١) المطرف : رداء من خز .

(٢) الجناح : الإثم .

(٣) انتصر : أخذ بحقه .

(٤) المردى : حجر يقذف به ويشبه به الرجل القوي الشجاع .

(٥) العارفة : المعروف والصنيعة .

(٦) عرك بجنبه ما كان من صاحبه : احتمله وصبر عليه .

أنا ابنُ بَجْدَتِهم عِلماً وتجرِبة
فسَلْ بسَعدٍ تجِدْني أعلمَ الناسِ
سعدُ بن زيدٍ كثيرٌ إن عددتَهم
ورأسُ سعدِ بن زيدٍ آلُ شَمّاس
والزِبرقان ذُناباهم وشَرُّهم
ليس الذُنابى أبا العبّاسِ كالراس

فقال ابن عبّاس : أقسمت عليك ألاّ تقول الاّ خيراً . قال: أفعَلُ . ثم قال ابن عبّاس : يا أبا مُليكة ، من أشعر الناس ؟ قال : أمن الماضين أم من الباقين ؟ قال : من الماضين . قال الذي يقول :

ومن يجعل المعروفَ مِن دون عِرضه
يَفِرْه ومن لا يتّقِ الشتم يُشْتَمِ [2]

وما بدونه الذي يقول :

ولستَ بمستَبقٍ أخاً لا تَلُمّهُ
على شَعَثٍ ، أيُّ الرجال المُهَذّب [3]

ولكنّ الضَراعة أفسدتْه كما أفسدت جَرولاً — يعني نفسه — والله يا بن عم رسول الله لولا الطمعُ والجَشع لكنت أشعر الماضِين ، فأمّا الباقُون فلا تَشُكّنّ أنّي أشعرهُم وأَصْرَدُهم [4] سَهماً إذا رمَيتُ .

---

(١) ابن بجدتهم : أي عالم بأمورهم ، والبجدة : دخلة الأمر وباطنه . الذنابى : الذنب .
(٢) يفره : يجعله وافراً سالماً . والبيت لزهير بن أبي سلمى .
(٣) الشعث : اختلال الأمر واضطرابه ، والبيت للنابغة الذبياني .
(٤) أصردهم : أنفذهم .

الحطيئة وسعيد بن العاص

عن خالد بن سعيد عن أبيه قال :

بيَنا سعيد بن العاص يُعَشّي الناس بالمدينة ، والناس يخرجون أوّلاً أوّلاً ، إذ نَظر على بِساطه إلى رجل قبيح المنظر ، رَثّ الهَيئة ، جالس مع أصحاب سمره . فذهب الشُرَطُ يُقيمونه فأبى أن يَقُوم ، وحانت من سعيد التفاتة فقال : دَعُوا الرجلَ . فتركوه وخاضوا في أحاديث العرب وأشعارها مَلِيّاً ، فقال لهم الحطيئةُ : واللهِ ما أصبتُم جَيّد الشعر ولا شاعرَ العرب . فقال له سعيدٌ : أتعرِف من ذلك شيئاً ؟ قال : نعمْ . قال : فمن أشعرُ العربِ ؟ قال : الذي يقول :

لا أَعُدُّ الإقتارَ عُدْماً ولكنْ   فَقْدُ مَن قد رُزِئْتُه الإعدامُ [1]

وأنشدها حتى أتى عليها . فقال له : مَن يقولهُا ؟ قال: أبو دُواد الإياديّ. قال : ثمّ مَن ؟ قال : الذي يقول :

أَفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالـ   جَهْلِ وقـد يُخدَّعُ الأَرِيبُ

ثم أنشدها حتى فرغ منها . قال : ومن يقُولها ؟ قال : عَبيد بن الأبرص . قال : ثم من ؟ قال : واللهِ لَحَسْبُكَ بي عند رَغبةٍ أو رَهبةٍ إذا رفعتُ إحدى رجليَّ على الأُخرى ثم عَوَيت في أثر القوافي عُواءَ الفَصيلِ الصادي[2] . قال : ومَن أنت ؟ قال : الحطيئة . قال : فرحّب به سعيدٌ ثم قال : أسأت بكِتمانِنا نفسَك منذُ الليلة ، ووصَله وكساه .

عن أبي عُبيدة :

لَقِيني إياسُ بن الحُطيئة فقال لي : يا أبا عثمانَ ، مات أبي وفي كِسْر

---

(١) أقتر الرجل : ضيق في النفقة . العدم : فقدان الزاد والفقر عامة .

(٢) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه . الصادي : الظمآن .

بيته [1] عشرون ألفاً أعطاه إيّاها أبوك ، وقال فيه خمسَ قصائد ، فذهب واللهِ ما أعطيتُمونا وبقي ما أعطيناكم . فقلت : صدقتَ والله .

قال أبو زيد : فممّا قال فيه قولُه :

أمِن رَسْمِ دارٍ مَربَعٌ ومصيفُ لِعَينكَ من ماءِ الشؤون وَكيفُ
إليك سعيدَ الخيرِ جُبت مَهامِهاً يقابِلُني آلٌ بها وتُنُوف
ولولا أصيلُ اللُبِّ غَضٌّ شبابُه كريمٌ لأيّامِ المَنُون عَرُوف
اذا هَمَّ بالأعداء لم يَثْنِ هَمَّه كَعابٌ عليها لُؤلؤٌ وشُنوف
حَصانٌ لها في البيت زِيٌّ وبَهجةٌ ومَشيٌ كما تمشي القَطاةُ قَطوفُ
ولو شاء وارى الشمسَ مِن دون وَجهِه
حِجابٌ ومَطْويُّ السَّراةِ مُنيفُ [2]

وصيّته عند موته

عن الأصمعيّ وعمر بن شبّة وأبي عُبَيدة قالوا :

لمّا حضرت الحطيئةَ الوفاةُ اجتمع اليه قومُه فقالوا : يا أبا مُليكة ، أوْصِ فقال : ويلٌ للشعر من راوية السوء . قالوا : أوص رحِمك اللهُ يا حُطَيءُ . قال : من الذي يقول :

---

(١) الكسر : جانب البيت .

(٢) الشؤون ج شأن : مجرى الدمع إلى العين . وكف الماء والدمع : سال . المهامه ج مهمه : الأرض القفر المستوية . الآل : السراب . التنوف ج تنوفة : الفلاة . المنون ، هنا : الدهر لأنه يذهب بمنة الأشياء أي بقوتها . الكعاب : الفتاة أول ما ينهد ثدياها . الشنوف ج شنف : القرط . الحصان : المرأة العفيفة . القطوف : المتقاربة الخطو في سيرها . مطوي سراته : أي محكم أعلاه ، وسراة كل شيء أعلاه ، وأراد به القصر .

إذا أنبض الرامُون عنها ترنّمت تـرَنُّمَ ثَكْلى أوجَعَتْها الجَنائزُ (١)

قالوا : الشمّاخ . قال: أبلغوا غطفان أنّه أشعر العرب . قالوا ويحك! أهذه وصيّة ؟ أوص بما ينفعُك . قال : أبلغُوا أهلَ ضابئٍ (٢) أنّه شاعـرٌ حيث يقول :

لكلٍّ جديدٍ لَذّةٌ غيرَ أنّني وجدتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذِ

قالوا : أَوص ويحَك بما يَنفعك . قال : أبلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعرُ العرب حيث يقول :

فيا لَكَ مِن ليلٍ كأنَّ نجومَه بكُلِّ مُغارالفتْلِ شُدَّت بيَذْبُلِ (٣)

قالوا : اتّقِ اللهَ ودَعْ عنك هذا . قال : أَبلغوا الأنصار أنّ صاحبَهم أشعر العرب حيث يقول :

يُغشَون حتى ما تهرُّ كِلابهُم لا يَسألُون عن السّواد المُقبِلِ (٤)

قالوا : هذا لا يُغني عنك شيئاً ، فقُل غيرَ ما أنت فيه ، فقال :

الشِعر صَعبٌ وطويلٌ سُلّمُهْ إذا ارتقى فيه الـذي لا يَعلمُهُ
زَلّت به إلى الحضيض قَدَمُه يُريد أن يُعرِبَه فيُعْجِمُهْ

قالوا : هذا مثلُ الذي كنت فيه ، فقال :

قد كنتُ أحياناً شديدَ المعتمَدْ وكنتُ ذا غَرْبٍ على الخَصم أَلَدّ
فورَدتْ نفسي وما كادت تَرِدْ (٥)

---

(١) أنبض القوس : جذب وترها لتصوت .
(٢) هو ضابىء بن الحارث البرجمي ، من شعراء بني يربوع .
(٣) مغار الفتل : محكمه . يذبل : اسم جبل لباهلة .
(٤) تهر : تنبح ، والكلاب إذا اعتادت رؤية الضيفان لم تنبحهم ، وهذا كناية عن كرمهم . السواد : أراد كثرة الضيفان . والبيت لحسان .
(٥) الغرب : من كل شيء حده ومنه غرب السيف أي حده .

قالوا : يا أبا مُليكة ، ألَكَ حاجةٌ ؟ قال : لا واللهِ ، ولكن أَجزَعُ على المديح الجيّد يُمدَح به مَن ليس له أهلاً . قالوا : فمَن أشعر الناس ؟ فأومأ بيده إلى فِيه وقال: هذا الجُحَيْر إذا طمِع في خيرٍ (يعني فمَه) واستعبر باكياً ، فقالوا له : قُل لا إلَهَ إلاّ اللهُ فقال :

قالت وفيها حَيْدةٌ وذُعرُ عَوْذٌ بربيّ منكمُ وحُجْرُ [1]

فقالوا له : ما تقول في عَبيدك وإمائك ؟ هم عَبيدٌ قِنٌّ ما عاقب الليلُ النهارَ . قالوا : فأَوصِ للفقراء بشيء ، فقال : أُوصِيهم بالإلحاح في المسألة فإنّها تجارةٌ لا تَبُورُ ...

قالوا : فما تقول في مالك ؟ قال : للأنثى من ولدي مثلُ حظّ الذكَر . قالوا : ليس هكذا قضى الله جلّ وعزّ لهنّ . قال: لكنّي هكذا قضيتُ. قالوا: فما تُوصي لليتامى ؟ قال : كُلُوا أموالهم ... قالوا : فهل شيءٌ تعهَد فيه غيرُ هذا ؟ قال نعم ، تَحملوني على أتانٍ وتترُكوني راكبَها حتى أموتَ ، فإنّ الكريم لا يموتُ على فِراشه ، والأَتانُ مَركَبٌ لم يَمُتْ عليه كريمٌ قطُّ . فحملُوه على أتانٍ وجعلوا يذهبُون به ويجيئُون عليها حتى مات وهو يقول :

لا أحَدٌ ألأَمُ من حُطَيّهْ هجا بَنِيه وهجا المُرَيّه
مِن لُؤمه مات على فُرَيّهْ

والفريّة : الأتان .

* * *

(١) الحيدة : النفرة والصد . الحجر : الدفع والمنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له – بالضم – أي دفعاً .

١٠

حُمَيد بن ثَوْر

(الأغاني ج ٤ ص ٣٥٦ وما بعدها)

الشاعر

هو حُمَيد بن ثور .. بن عامر بن صعصعة ... وهو من شعراء الإسلام ، وقرَنه ابن سَلاّم بنهشَل بن حَرِّي وأَوس بن مَغْراء [١] . وقد أدرك حُميد بن ثور عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه ، وقال الشعر في أيامه ، وقد أدرك الجاهلية أيضاً .

طائفة من أخباره

● عن محمّد بن فَضالة النحويّ قال :

تقدّم عمرُ بن الخطّاب ، رضي الله عنه ، إلى الشعراء ألاّ يُشبِّب أحدٌ

(١) في النسخة التي انتهت إلينا من طبقات الشعراء جعل ابن سلام أوس بن مغراء في الطبقة الثالثة من شعراء الإسلام وجعل حميد بن ثور ونهشل بن حري في الطبقة الرابعة . (انظر طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٥٧٦ وما بعدها) .

بامرأة إلاّ جلده ، فقال حميد بن ثور :

أبى الله إلاّ أنّ سَرْحَةَ مالك
على كُل أفنان العِضاهِ تَـرُوقُ
فقد ذهبت عَرضاً وما فوقَ طُولها
من السَّرح إلاّ عَشَّةٌ وسَحُوق
فلا الظِلُ من بَرد الضُحى تستطيعُه
ولا الفَيءَ من بَرد العشيّ تذوق
فهل أنا إن علّلت نفسي بسَرحة
من السرح موجودٌ عليَّ طريقُ (١)

وهي قصيدة طويلة أوّلها :

نأت أمُ عَمرو فالفؤادُ مَشُوقُ ... يحنُ إليها والهاً ويتُوقُ

● عن الزبير عن عمّه قال :

وفَد حميد بن ثور على بعض خلفاء بني أميّة فقال له : ما جاء بك ؟ فقال :

أتاك بي اللهُ الذي فوقَ مَن ترى ... وخيرٌ ومعروفٌ عليك دليلُ
ومَطويّةُ الأقرابِ أمّا نهارُها ... فنَصٌ وأما ليلُها فذَميلُ
ويطوي عليّ الليلُ حِضنَيه إنّني ... لِذاك إذا هاب الرجال فعولُ (٢)

فوصله وصرفه شاكراً .

* * *

(١) السرحة : الشجرة الطويلة . العضاه ج عضاهة : ضرب من الشجر عظيم ذو شوك . العشة : القليلة الأغصان والورق . السحوق : الطويلة المفرطة .
(٢) الأقراب ج قرب : الخاصرة . النص : أقصى السير . الذميل : السير اللين .

١١

الخنســاء

(الأغاني ج ١٥ ص ٧٦ وما بعدها)

الشّاعرة

هي الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشَريد ... بن سُليم .. بن قيس عيلان بن مُضَر ، واسمُها تُماضِر ، والخنساء لقبٌ غلب عليها .

طائفة من أخبارها

وفيها يقول دريد بن الصِمّة ، وكان خطبها فردّته [١] ، وكان رآها تهنأ بعيراً :

حيُّوا تُماضرَ واربَعوا صَحبي وقِفوا فإنّ وقوفكم حَسبي

(١) أنظر تفصيل الخبر في الجزء الأول من الاختيارات في أخبار دريد بن الصمة ص ١٠٧ .

أخُناسُ قد هـام الفؤادُ بكـم ... وأصابه تَبْلٌ من الحبّ
ما إن رأيت ولا سمعت بـه ... كاليوم طالي أينُقٍ جُربِ
متبـذّلاً تبدو محاسنُـه ... يضع الهِناءَ مواضعَ النَقْبِ [1]

قال أبو عبيدة ومحمّد بن سلاّم :

لمّا خطبها دريدٌ بعثت خادماً لها وقالت : انظُري إليه إذا بال ، فإن كان بولُه يَخرِق الأرض ويخُدُّ فيها ففيه بقيّةٌ ، وإن كان بوله يسيح على وجهها فلا بقيّةَ فيه . فرجعت إليها وأخبرتْها فقالت : لا بقيّة في هذا . فأرسلت إليه : ما كنت لأدعَ بني عمّي وهم مثلُ عوالي الرماح وأتزوّج شيخاً ...

مقتل أخيها معاوية

قال أبو عُبيدة : حدّثني أبو بِلال بن سَهم بن عبّاس بن مرداس ... قـال :

غزا معاوية بن عمرو ، أخو خنساء ، بني مُرّة بن سعد بن ذُبيان وبني فَزارة ، ومعه خُفاف بن عُمير بن الحارث ، وأمه « نُدبة » سوداءُ وإليها يُنسَب ، فاعتوره [2] هاشمٌ ودُريدٌ ابنا حَرملةَ المُرّيان ... فاستطرد له أحدهُما ثم وقف ، وشدّ عليه الآخَرُ فقتله ، فلمّا تنادَوا : قُتل معاويةُ ، قال خُفاف : قتلني اللهُ إن رِمتُ حتى أثأر به . فشدّ على مالك بن حِمار الشَمْخيّ ، وكان سيّد بني شَمْخ بن فَزارة ، فقتله ... فقال خُفافَ في ذلك :

فإن تكُ خيلي قد أُصيب صَميمُها ... فعَمداً على عينٍ تيمّمتُ مالِكا

---

(١) الهناء : القطران . النقب ، بفتح النون وضمها : الجرب .
(٢) اعتوره : تداوله .

يعني مالك بن حمار الشَمْخي .

قال أبو عبيدة : فأجمل أبو بِلال الحديث . وأمّا غيره فذكر أن معاويةَ وافى عُكاظَ في موسمٍ من مواسم العرب ، فبينا هو يمشي بسوق عُكاظَ إذ لقي أسماءَ المُرّيّة ، وكانت جميلةً ، وزعم أنّها كانت بَغيّاً ، فدعاها إلى نفسه ، فامتنعت عليه وقالت : أما علمت أنّي عند سيّد العرب هاشمِ بن حَرملةَ ! فقال : أما واللهِ لأقارعنّه عنك . قالت : شأنَك وشأنَه .

فرجعت إلى هاشمٍ فأخبرته بما قال مُعاوية وما قالت له فقال هاشم : فلَعَمري لا يَرِيمُ[1] أبياتَنا حتى ننظر ما يكون من جَهده .

قال : فلمّا خرج الشهرُ الحرَامُ وتراجع الناسُ عن عكاظ خرج معاويةُ ابن عمروٍ غازياً يريدُ بني مُرّة وبني فَزارة ، في فرسانِ أصحابه من بني سُليم ، حتّى إذا كان بمكانٍ يُدعَى الحَوزة أو الجَوزة — والشكُّ من أبي عُبَيدة — دَوّمت[2] عليه طَيرٌ وسَنَح له ظَبْيٌ ، فتطيّر منهما ورجَع في أصحابه . وبلغ ذلك هاشمَ بن حَرملة فقال : ما منعه من الإقدام إلاّ الجُبْـن .

قال : فلمّا كانت السنةُ المقبلة غزاهم ، حتّى إذا كان في ذلك المكان سنح له ظَبْيٌ وغُرابٌ فتطيّر فرجَع ، ومضى أصحابه وتخلّف في تسعةَ عشرَ فارساً منهم لا يُريدون قِتالاً ، إنّما تخلّف عن عُظْم الجيش راجعاً إلى بلاده ، فوردوا ماءً وإذا عليه بيت شَعر ، فصاحوا بأهله ، فخرجت إليهم امرأةٌ فقالوا : ممّن أنت ؟ قالت : امرأةٌ من جُهَينة ، أحلافٌ لبني سَهم بن مُرّة بن غَطَفان . فوردُوا الماء يَسْقُون ، فانسلّت فأتت هاشم بن حرملة فأخبرته أنهم غيرُ بَعيد ، وعرّفته عدّتَهم وقالت : لا أرى إلاّ معاويةَ في القوم . فقال : يا لَكاعِ ، أمعاويةُ في تسعةَ عشرَ رجلاً ، شَبّهتِ[3]

---

(١) لا يريم : لا يفارق .

(٢) دومت : حلقت .

(٣) شبهت : اشتبه الأمر عليك والتبس .

أو أبطلت . قالت : بل قلت الحقّ ، ولئن شئتَ لأصفنّهم لك رجُلاً رجلاً .
قال : هاتي .

قالت : رأيت فيهم شاباً عظيم الجُمّة [١] ، جبهتُه قد خرجت من تحت مِغْفَره [٢] ، صبيحَ الوجه ، عظيم البطن ، على فرسٍ غـرّاء . قال : نعم ، هذه صِفته ، يعني معاوية وفرسه الشَمّاء .

قالت : ورأيت رجلاً شديدَ الأُدْمة ، شاعراً ينشدهم . قال : ذلك خُفاف بن عُمير .

قالت : ورأيت رجلاً ليس يبرَحُ وسطَهم ، إذا نادَوه رفعوا أصواتهم .
قال : ذاك عبّاس الأصمّ .

قالت : ورأيت رجلاً طويلاً يكنّونه أبا حبيب ، ورأيتهم أشدّ شيءٍ له توقيراً . قال : ذاك نُبَيشة بن حبيب .

قالت : ورأيت شاباً جميلاً له وَفْرة [٣] حسنة . قال : ذاك العبّاس بن مِرداس السُلَميّ .

قالت : ورأيت شيخاً له ضَفيرتان ، فسمعتُه يقول لمعاوية : بأبي أنت أطلتَ الوقوف ! قال : ذاكِ عبد العُزّى ، زوج الخنساء أخت معاوية .

قال : فنادى هاشمٌ في قومه وخرج ، وزعم المُرّي أنه لم يخرج إليهم إلاّ في مثل عِدّتهم من بني مُرّة . قال : فلم يشعر السُلَميّون حتّى طلَعوا عليهم ، فثاروا إليهم فلقُوهم ، فقال لهم خفافٌ : لا تُنازلوهم رجُلاً رجلاً ، فإنّ خيلهم تثبُت للطِّراد وتحمِل ثِقل السِلاح ، وخيلُكم قد

---

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس .
(٢) المغفر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .
(٣) الوفرة : ما اجتمع من الشعر على الرأس وسال حتى الأذنين .

أَمَنَّها [1] الغزوُ وأصابها الحَفا [2] .

قال : فاقتتلوا ساعةً ، وانفرد هاشمٌ ودُريدٌ ابنا حرملةَ المُرّيّان لمعاوية ، فاستطرد له أحدُهما فشدّ عليه معاويةُ وشغله ، واغترّه الآخر فطعنه فقتله . واختلفوا أيُّهما استطرد له وأيّهما قتله ، وكانت بالذي استطرد له طعنةٌ طعنه إيّاها معاوية ...

قال : وشدّ خُفاف بن عمير بن الحارث بن الشَّريد على مالك بن حِمار ، سيّد بني شَمْخ بن فَزارة ، فقتله . وقال خفاف في ذلك ، وهو ابن نُدبة ، وهي أمَةٌ سوداءُ كانت سباها الحارث بن الشريد حين أغار على بني الحارث بن كعب ، فوهبها لابنه عُمير فولدت له خُفافاً ، ويقال في نُدَبة أنها ابنة الشَّيطان بن بنان ، من بني الحارث بن كعب :

أقول له والرُمحُ يأطرُ متنه تأمّل خُفافاً إنّني أنا ذلكا
وقفت له جَلْوى ، وقد خام صُحبتي لأبنيَ مجداً أو لأثأر هالكا
لَدُنْ ذَرّ قرنُ الشمس حين رأيتُهم سِراعاً على خيلٍ تؤُمُّ المسالكا
فلمّا رأيت القومَ لا وُدّ بينهم شريجينِ شتّى طالباً ومُواشكا
تيمّمت كبش القوم حتى عرفتُه وجانبتُ شُبّان الرجال الصعالكا
فجادت له يمنى يَديَّ بطعنةٍ كست متنه من أسود اللونِ حالكا

---

(١) أمنها : أضعفها وأعياها .
(٢) الحفا : رقة الحافر من طول السير .

أنا الفارسُ الحامي الحقيقة والذي
به أُدرِكَ الأبطالُ قِدْماً كذلكا
فإن ينجُ منها هاشمٌ فبطعنـــــة
كسته نَجيعاً من دم الجوف صائكا (١)

فحقّق في شعره أن الذي طعن معاويةُ هو هاشم بن حَرملة .

وقالت الخنساء ترثي أخاها معاوية :

ألا لا أرى في الناس مثلَ معاويــــهْ
إذا طرقت إحدى الليالي بداهيهْ
بداهيةٍ يُصغي الكلابَ حَسيسُهـــا
وتَخرج من سِرِّ النَجِيِّ عَلانيَهْ
ألا لا أرى كفارس الوَرْد فارســـاً
إذا ما عَلَتْه جُرأةٌ وغَلابيــه
وكان لِزازَ الحرب عند شُبوبهـــا
إذا شَمّرت عن ساقها وهي ذاكيه
وقوّادَ خيلٍ نحو أخرى كأنّهـــا
سَعالٍ وعِقبانٌ عليها زَبانيه
بَلِينا وما تبلى تِعارُ وما تُــــرى
على حَدَث الأيّام إلاّ كما هيه
فأقسمت لا يَنفكُّ دمعي وعَولتي
عليك بحُزنٍ ما دعا اللهَ داعيه (٢)

---

(١) ورد الخبر في ترجمة خفاف بن ندبة (ج ١ ص ٩٩) مع اختلاف في رواية بعض الأبيات . يأطر : يعطف . جلوى : اسم فرسه . خام : نكص وجبن . الشريج : الضرب . المواشك : السريع . كبش القوم : سيدهم . الصائك : الملتصق الملطخ .
(٢) يصغي الكلاب : يجعلها تميل برأسها وأذنيها لتسمع ، وفي ديوان الخنساء (تحقيق شيخو) : يضغي ، أي تصيح من شدتها ، ورواية الديوان أجود . الحسيس : الحس .. النجي : الذين يفضى اليهم بالسر ، أي أن هذه الداهية لم يقو الذين عرفوا بكتمان السر على اخفائها وكتمانها لهولها . الورد : جاءت هنا صفة للفرس وفي رواية أخرى : كالفارس الورد . الغلابية : القهر والغلبة ،وفي الديوان : غلانية ، أي سورة الغضب . لزاز الحرب : ملازم لها وقائم بأمرها . ذاكية : موقدة . السعالي ج سعلاة وهي الغول . الزبانية : المردة من الجن والإنس . تعار : جبل ببلاد بني سليم .

غزو صخر بني مرّة ثأراً بأخيه

قال أبو الحسن الأثرم :

فلمّا دخل الشهرُ الحرامُ من السنة المُقبلة خرج صخرُ بن عَمرو حتّى أتى بني مُرّة بن عَوف بن ذُبيان ، فوقف على ابنَي حَرملة ، فإذا أحدُهما به طعنةٌ في عَضُده – قال : ولم يُسمّه أبو بلال بن سَهم ، فأمّا خُفاف بن عُمير فزعم في كلمته تلك أنّ المطعونَ هاشمٌ – فقال : أيُّكما قتل أخي معاوية ؟ فسكتا فلم يُحيرا [1] إليه شيئاً . فقال الصحيح للجريح : مالَك لا تُجيبُه ؟ فقال : وقفتُ له فطعنني هذه الطعنةَ في عَضُدي وشدّ أخي عليه فقتله ، فأيّنا قتلتَ أدركت ثأرك ، إلاّ أنّا لم نَسلُب أخاك . قال : فما فعلتْ فرسُه الشَمّاء ؟ قال : ها هي تلك خُذها . فردَّها عليه فأخذها ورجع .

فلمّا أتى صخرٌ قومه قالوا له : اهجُهم ، قال : إنّ ما بيننا أجَلُّ من القَذَع ، ولو لم أكفُف نفسي إلاّ رغبةً عن الخَنا [2] لفعلت .

وقال صخرٌ في ذلك :

وعاذلةٍ هبّت بليلٍ تَلُومُني ألا لا تَلُوميني كفى اللوم ما بيا

– قال : أراد تُباكره باللَوم ، ولم يُرد الليل نفسَه ، إنّما أراد عَجَلَتها عليه باللّوم ، كما قال النَمِر بن تَوْلَب العُكْليّ :

بَكَرتْ باللَّوم تَلْحانا

وقال غيرُه : تَلُومه بالليل لشُغله بالنهار عنها بفِعل المكارم ، والأضياف ،

---

(١) لم يحيرا : لم يردا .

(٢) الخنا : الفحش في القول .

والنظر في الحَمالات [1] وأمور قومه ، لأنه قِوامُهم [2] —

تقولُ ألا تَهجو فوارس هاشمٍ
ومالِيَ إذ أهجُوهمُ ثمّ ماليا
أبى الشَتْمَ أنّي قد أصابوا كريمتي
وأنْ ليس إهداءُ الخَنا من شِماليا
إذا ذُكر الإخوانُ رقرقتُ عَبْرةً
وحيّيتُ رَمْساً عندَ لِيّةَ ثاويا
إذا ما امرُؤٌ أهدى لِميْتٍ تحيّةً
فحيّاك رَبُّ الناس عنّي مُعاويا
وهوَّن وَجْدي أنّني لم أقُلْ له
كذَبتَ ولم أبخَلْ عليه بِماليا
فنِعْمَ الفتى أدّى ابنُ صِرْمةَ بزَّه
إذا الفَحْل أضحى أحدبَ الظَهْر عاريا [3]

قال أبو عبيدة : ثم زاد فيها بيتاً بعد أن أوقع بهم فقال :

وذي إخوةٌ قطّعتُ أقرانَ بَيْنِهم كما تركوني واحداً لا أخاليا

قال أبو عبيدة : فلمّا كان في العام المُقبل غزاهم وهو على فرسه الشَمّاء فقال : إنّي أخاف أن يعرفوني ويعرفوا غُرّة الشمّاء فيتأهّبوا . قال : فحَمَّم غُرّتَها . قال : فلمّا أشرفَت على أدنى الحيّ رأوها ، فقالت فتاةٌ

---

(١) الحمالة : الدية .

(٢) قوامهم : أي هو الذي يقوم بأمرهم .

(٣) الشمال : الخليقة والطبيعة والجمع شمائل . لية : جبل بالطائف أو واد لثقيف . ابن صرمة : أراد ابن حرملة، وهومن بني صرمة بن مرة . البز : السلب . إذا الفحل إلى آخر البيت : أي وقت المحل والجدب .

منهم : هذه والله الشمّاء . فنظروا فقالوا : الشمّاء غرّاء وهذه بَهيم [1] . فلم يشعرُوا إلاّ والخيلُ دَوائسُ [2] ، فاقتتلوا فقتل صخرٌ دُرَيداً وأصاب بني مُرّة فقال :

ولقد قتلتُكمُ ثُناءَ ومَوْحَداً
وتركت مُرَّةَ مثلَ أمسِ المُدبرِ
ولقد دَفعتُ إلى دُرَيدَ بطَعنة
نَجلاءَ تُزْغِلُ مثل عَطّ المَنْحَرِ [3]

قال أبو عُبيدة : ثمّ إنّ هاشم بن حرملة خرج غازياً ، فلمّا كان ببلاد جُشَم بن بكر بن هوازن نزل منزلاً وأخذ صُفْناً [4] وخلا لحاجته بين الشجر ، ورأى غَفلته قيسُ بن الأصْور الجُشَميُّ فتبعه وقال : هذا قاتل معاويةَ ، لا وَأَلت نفسي إن وَأَل [5] . فلمّا قعد على حاجته تقتّر [6] له بين الشجر ، حتّى إذا كان خلفَه أرسل إليه مِعْبَلةً [7] فقتله .

فقالت الخنساء في ذلك :

فِدىً للفارس الجُشَميّ نفسي وأفديه بِمن لي من حَميمِ
أُفَدّيه بجُلّ بني سُليمٍ بظاعنهم وبالأنَس المُقيّم

(١) البهيم : السوداء لا غرة فيها .
(٢) يقال : أتتهم الخيل دوائس : أي يتبع بعضها بعضاً .
(٣) ثناء ومثنى : لا ينونان لأنهما مما عدل به عن أصله ، ومثلهما ثلاث ورباع . تزغل : تخرج الدم قطعاً قطعاً ، والزغلة : الدفعة الواحدة من الدم والبول . العط : الشق . المنحر موضع النحر من الدابة . وفي البيت الثاني ضرورة شعرية وهي منع تنوين دريد وليس فيها ما يمنع صرفها .
(٤) الصفن : وعاء كالدلو .
(٥) وأل : نجا وخلص .
(٦) تقتر له : تهيأ له وحاول ختله .
(٧) المعبلة : نصل عريض .

كما من هاشمٍ أقررتَ عيـــني وكانت لا تَنام ولا تُنيمُ [1]

قال أبو عبيدة : وكان هاشم بن حَرملة بن صِرمة بن مُرّة أسود [2] العرب وأشدَّهم ...

مقتل أخيها صخر

عن أبي عبيدة قال :

غزا صَخرُ بن عمرو وأَنَس بن عبّاس الرِّعْليّ في بني سُليم بني أسَد بن خُزيمة ، في بني عَوف وبني خُفاف ، وكانا متساندَين [3] ، وعلى بني خُفاف صخر بن عَمرو الشَريديّ ، وعلى بني عوف أنس بن عبّاس . قال : فأصابوا في بني أسد بن خُزيمـــة غنائمَ وسَبْياً ، وأخـــذ صخرٌ يومئذٍ بُدَيلةَ امرأةً . قال : وأصابت صخراً يومئذ طعنةٌ ، طعنه رجلٌ يقال له ربيعةُ بن ثَورٍ ويكنى أبا ثور ، فأدخل جوفَه حَلَقاً من الدِرْع فاندمل عليه حتى شُقّ عنه بعد سِنين ، وكان سببَ موته ...

قال أبو عبيدة : وأمّا أبو بِلال بن سهم فإنه قال : اكتسح صخرٌ أموال بني أسدٍ وسَبى نساءَهم ، فأتاهم الصَرِيخُ فتبعوه فتلاحَقُوا بذات الأثْل ، فاقتتلُوا قِتالاً شديداً ، فطعن ربيعةُ بن ثور الأسديُّ صخراً في جَنبه ، وفات القومَ فلم يُقْعَصْ [4] ، وجَوِيَ [5] منها.. ومَرِض قريباً من حَولٍ حتى مَلّه أهلُه .

---

(١) الأنس : جماعة الحي المقيمون .

(٢) أسودهم : أعظمهم سيادة .

(٣) التساند في القتال : أن يشترك أكثر من قبيلة في القتال وعلى كل قوم رئيس منهم .

(٤) قعصه بالرمح : طعنه فمات مكانه .

(٥) جوي : طال مرضه .

قال : فسمع صخرٌ امرأةً وهي تسأل سَلمى ، امرأةَ صخرٍ ، : كيف بَعلُك ؟ فقالت سلمى : لا حَيٌّ فيُرجى ، ولا مَيتٌ فيُنعَى ، لَقِينا منه الأمرَّين .

قال : وزعم آخرُ أنّ التي قالت هذه المَقالة بُديلةُ الأسديّةُ التي كان سباها من بني أسدٍ فاتّخذها لِنفسه ، فأنشد هذا البيت :

ألا تِلكمُ عِرسي بُديلَةَ أوجست فِراقي وملّت مَضجعي ومكاني

وأمّا أبو بلال بن سهم فزعم أنّ صخراً حين سمع مقالةَ سَلمى امرأته قـــال :

أرى أمّ صَخرٍ لا تَمَلُّ عيادتي ومَلّت سُليمى مَضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جِنازةً عليك ومن يَغترُّ بالحَدَثان
أهُمُّ بأمر الحَزم لو أستطيعُه وقد حِيل بين العَير والنزَوان
لَعمري لقد نبّهتِ من كان نائماً وأسمعتِ مَن كانت له أُذُنان
ولَلمَوتُ خيرٌ من حياة كأنّها مَحَلّةُ يَعسُوبٍ برأس سِنانِ
وأيُّ امرىءٍ ساوى بأُمٍّ حَليلةً فلا عاش إلاّ في شقاً وهَوانِ (١)

فلمّا طال عليه البَلاءُ – وقد نتأت قِطعةٌ مثل اللبْد (٢) في جَنْبه ، في موضع الطعنة – قالوا له : لو قطعتَها لرجَونا أن تبرَأ . فقال : شأنكم . فأشفق عليه بعضُهم فنهاهم ، فأبى وقال : الموتُ أهونُ عليّ ممّا أنا فيه . فأحمَوا له شَفرةً ثم قطعوها فيئس من نفسه .

---

(١) الجنازة (بالكسر) : كل ما ثقل على قوم واغتموا به . حدثان الدهر : حوادثه ونوائبه . أمر الحزم : أراد قتل زوجته . العير : حمار الوحش . اليعسوب : ذكر النحل ، شبه حياته بعد مرضه وعجزه وما يعانيه من عناء وقلق بنزول اليعسوب على رأس الرمح .

(٢) اللبد : الشعر والصوف المتلبد . وفي بعض الروايات : الكبد .

قال : وسمع صخرٌ أختَه الخنساء تقول : كيف كان صبرُه ؟ فقال صخرٌ في ذلك :

أجارتَنـا أنّ الخُطوب تَنُـوبُ ... على الناس ، كلّ المُخْطئين تُصيبُ
فإن تسأليني هل صبرتُ فإنّـني ... صَبُورٌ على رَيْب الزمان صَليبُ
كأنّي وقد أدنَوا إليّ شِفارَهـم ... من الصَبر دامي الصَفحتَين رَكُوب
أجارتنَا لستُ الغَداةَ بظاعـنٍ ... ولكنْ مقيمٌ ما أقام عَسيبُ (١)

عن أبي عبيدة : عسِيبٌ : جبلٌ بأرض بني سُلَيم ، إلى جنب المدينة ، فقبرُه هناك مَعْلَمٌ ...

فقالت الخنساء ترثيه :

قَذىً بعَينكِ أم بالعين عُـوّارُ ... أم ذَرّفت إذ خلَت من أهلها الدارُ
تبكي لصخرٍ هي العَبْرى وقد وَلِهت ... ودونَه من جديد التُرب أَستارُ
لا بُدَّ من مِيتةٍ في صَرفها غِيَـرٌ ... والدهرُ في صَرفه حَولٌ وأطوارُ
يا صخرُ وَرّادَ ماءٍ قد تَنـاذَرَه ... أهلُ الموارد ما في وِرْده عارُ
مشَى السَبَنْتَى إلى هيجاءَ مُعضِلةٍ ... له سِلاحان أنيابٌ وأظفـارُ
فما عَجُولٌ على بَوٍّ تُطِيفُ بـه ... لها حَنينان إصغارٌ وإكبـار
ترتَع ما رتَعت حتى إذا ادّكَرت ... فإنّما هي إقبالٌ وإدبـارُ
لا تسمَنُ الدهرَ في أرضٍ وإن رتعت ... فإنّما هي تَحنانٌ وتَسْجار
يوماً بأوجدَ منّي يومَ فارقَـني ... صخرٌ ولِلدهر إحلاءٌ وإمرار
فإنّ صخراً لَوالينا وسيّدُنـا ... وإنْ صخراً إذا نَشتُو لَنَحّار
وانّ صخراً لتأتَمُّ الهُداةُ بـه ... كأنّه عَلَمٌ في رأسه نـارُ (٢)

(الأبيات ...)

---

(١) الصفحة : الجانب .

(٢) القذى : ما يصيب العين فيؤذيها والعوار : مرض كالرمد . ذرفت : قطرت ، وفي المطبوعة :=

ومما رثت به الخنساءُ صخراً وغُنّي فيه :

أعينيّ جُودا ولا تَجمُـــــدا ألا تبكيان لِصَخرِ النـــدَى
ألا تبكيـــان الجريء الجميـــلَ ألا تبكيـــان الفتى السيّـــدا
طويلُ النِجاد ، رفيـــعُ العِمـــا دِ ، ساد عشيرتَه أمـــردَا
إذا القومُ مَدُّوا بأيديهـــــم إلى المجدِ مَدَّ اليه يـــدا
فنال الذي فـــوقَ أيديهـــم من المجد ثم مضى مُصعِدا
يُحمِّلُه القـــومُ ما عالهـــم وإن كان أصغرَهم مَولِدا
ترى المجـــد يهوي إلى بيتـــه يرى أفضلَ المجد أن يُحمدَا
وان ذُكـــر المجـــدُ ألفيتَـــه تأزّر بالمجد ثم ارتدى (١)

* * *

= أقفرت ، ولا يستقيم بها المعنى والرواية الصحيحة ذرفت . العبرى : الدائمة البكاء . ولهت : اشتد جزعها ، وفي المطبوعة : ثكلت ، والرواية التي اخترناها أجود والشرح المثبت في الكتاب بعد القصيدة يدل عليها . حول وأطوار : تحول وتقلب وتصرف . تناذره : أنذر بعضهم بعضاً شدته وبأسه . ما في ورده عار : قال الشراح : أرادت ما في ترك ورده عار ، أي لا يعير أحد إن عجز عنه لصعوبة ورده . السبنتى : النمر . الهيجاء : الحرب . العجول : الناقة الثكلى . البو : ولد الناقة ينحر ويؤخذ جلده فيحشى ويدنى من أمه فترأمه وتدر . الحنين : بكاء الناقة . الاصغار والاكبار : أي يعلو صوت صراخها تارة وينخفض تارة أخرى. ترتع : ترعى . وإن رتعت : في رواية أخرى : وإن ربعت أي أصابها مطر الربيع ، وهي أجود . التسجار : مد الصوت بالحنين والبكاء . الوجد : شدة الحزن . الهداة : الأدلاء الذين يتقدمون القوم في مسيرهم . علم : جبل ، شبهت أخاها بعلم في رأسه نار لشهرته .

(١) النجاد : حمائل السيف وطول النجاد كناية عن طول القامة . العماد : عمود البيت ، رفيع العماد : كناية عن شرفه . أصعد : ارتقى . تأزر به : اتخذه إزاراً .

١٢

رَبيعَة بن مَقروم الضبّيّ

(الأغاني ج ٢٢ ص ٩٧ وما بعدها)

الشاعر

هو رَبيعةُ بن مَقروم الضبّيّ ... شاعرٌ إسلاميٌّ مخضرَم أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان ممّن أصفق عليه [1] كِسرى ، ثم عاش في الإسلام زمناً .

طائفة من أخباره

قال أبو عمرو : أُسر ربيعة بن مقروم واستِيق مالُه ، فتخلّصه مسعودُ بن سالم بن أبي سَلمى بن السِيد ... فقال ربيعة بن مقروم فيه :

كفـاني أبو الأشوَس المنكراتِ ... كفاه الإلهُ الذي يَحذَرُ

أعزُّ من السيِّـد في مَنْصِـبٍ ... إليه العَزازةُ والمَفْخَـرُ

(١) أصفق عليه : أغلق عليه وحبسه ، وكان كسرى سجنه في حصن المشقر .

وقال يمدحه أيضاً :

بانَ الخَليطُ فأمسى القلبُ مَعمُودا ... وأخلفتَتْك ابنةُ الحُرِّ المَواعيدا
كأنّها ظَبيةٌ بكرٌ أطاع لهـا ... من حَوْمَلٍ تَلَعاتُ الحيِّ أو أُودا
قامت تُريك غَداةَ البَينِ مُنسَدِلاً ... تَجلّلت فوق مَتنَيها العَناقيدا (١)
وبارداً طيّباً عَذْبـاً مَذاقتُه ... شربتُه مَزِجاً بالظَّلْم مَشْهُودا
وجَسْرةٍ أُجُدٍ تدمَى مَناسِمُها ... أعملتُها بيَ حتّى تقطعَ البيدا
كلّفتُها فرأت حقّاً تَكلُّفَها ... ظَهيرةً كأجيج النار صيخودا (٢)
في مَهْمَهٍ قُذُفٍ يُخشى الهَلاكُ به ... أصداؤه لا تَنِي بالليل تغريدا
لمّا تَشكّت إليَّ الأَينَ قلتُ لها : ... لا تَستَريحنَّ ما لم ألقَ مسعُودا
ما لم أُلاقِ امرَءاً جَزْلاً مواهبُه ... رَحْبَ الفِناء كريمَ الفعل محمودا
وقد سمعتُ بقوم يُحمَدُون فلم ... أسمَعْ بمثلك لا حِلماً ولا جُودا
ولا عَفافاً ولا صَبراً بنائبةٍ ... ولا أُخبرُّ عنك الباطلَ السيِّدا
لا حِلمُك الحلمُ موجودٌ عليه ولا ... يُلفَى عَطاؤك في الأقوام مَنكودا
وقد سبقتَ لغايات الجواد وقـد ... أشبهتَ آباءَك الشُّمَّ الصَّناديدا
هذا ثنائي بما أوليتَ من حَسَنٍ ... لا زلتَ بَرّاً قريرَ العين مَحسُودا (٣)

---

(١) تجللت : هذه رواية المطبوعة ورواية المفضليات : تخاله ، وهي أليق بالمعنى .

(٢) في المطبوعة روي الشطر الأول من هذا البيت على النحو التالي : كلفتها فأت حتماً تكلفها ، وبهذه الرواية يختل الوزن ولا يستقيم المعنى ، والتصويب من المفضليات (ص ٢١٤) .

(٣) الخليط : الحي المخالط ، المعمود والعميد القلب : من أضناه الحب وأنصبه . أطاع لها : اتسع لها . تلعات ج تلعة : ما ارتفع من الأرض . حومل وأود : موضعان . منسدلا : أراد شعرها وشبهه بالعناقيد . الظلم : ماء الأسنان وبريقها . مشهوداً : طعمه طعم الشهد . الجسرة : الناقة القوية على السير . الأجد : القوية المتينة الأضلاع . المنسم : طرف خف البعير . أعملتها : حملتها على السير . الصيخود : الشديدة الحر . المهمه : القفر لا ماء فيه ولا أعلام . القذف : البعيد المترامي الأطراف . الأصداء ج صدى : ذكر البوم . الأين : التعب والإعياء . السيد : =

* قال أبو عمرو الشيباني :

كان ربيعةُ بن مقروم باع عَجْرد بن عبد عمرو ... لِقحةً [1] إلى أجل ، فلمّا بايعه وجد ابن مقروم ضابىء بن الحارث عند عجرد ، وقد نَهاه عن إنظاره بالثمن ، فقال ابن مقروم يعرّض بابن ضابىء أنّه أعان عليه وكان ضلعه معه :

أعَجْرُ ابنَ المَليحة إنّ هَمّي ... إذا ما لجَّ عُذّالي لَعانِ
يَرى ما لا أرى ويقولُ قولاً ... وليس على الأمور بمستَعانِ
ويحلِفُ عندَ صاحبِه : لَشاةٌ ... أحبُّ إليَّ من تلك الثمانِ
وحامل ضَبّ ضِغْنٍ لم يَضِرْني ... بعيدٍ قلبهُ حُلو اللسانِ
ولو أنّي أشاءُ نقَمتُ منه ... بشَغْبٍ من لسانٍ تَيِّحانِ
ولكنّي وصلتُ الحبلَ منه ... مواصلةً بحبل أبي بَيانِ
ترفّع في بني قَطَنٍ وحلّت ... بيوتَ المجد يَبنيهنّ باني
وضمرة انّ ضَمْرةَ خيرُ جارٍ ... إلى قطَن بأسبابٍ مِتانِ
هِجانُ الحيّ كالذّهب المصفّى ... صَبيحةَ دِيمةٍ يجنيه جانِ [2]

= جد الممدوح ، يقول : إنه لا يخبر قومه عنه بالباطل . موجود عليه : من الوجد وهو الحقد والغضب . عطاء منكود : قليل نزر .

(١) اللقحة واللقوح : الناقة الحلوب .

(٢) العاني : من العناء ، عناه الأمر يعنيه : شق عليه . ويحلف ... : يريد أنه يحلف أيماناً كاذبة . الضغن : الحقد . الشغب : الشر والخصام . التيحان : الذي يقع في البلايا . بنو قطن : هم بنو قطن بن نهشل بن دارم بن تميم ، الهجان : الكريم . كالذهب المصفى : قال أبو عمرو : الذهب في معدنه إذا جاءه المطر ليلا لاح من غد عند طلوع الشمس فيتتبع ويؤخذ . الديمة : السحابة الممطرة .

إعجاب الوليد بن يزيد بأبيات له

عن حمّاد الراوية قال :

دخلت على الوليد بن يزيدَ ، وهو مصطبحٌ ، وبين يديه مَعبدَ ومالك وابن عائشةَ وأبو كامل وحكَم الوادي وعمر الوادى يُغنّونه ، وعلى رأسه وصيفةٌ تسقيه ، لم أرَ مثلَها تماماً وكمالاً وجمالاً . فقال لي : يا حمّادُ ، أمرت هؤلاء أن يُغنّوا صَوتاً يوافق صفةَ هذه الوصيفة ، وجعلتُها لمن وافق صِفتَها نِحلةً [1] ، فما أتى أحدٌ منهم بشيء ، فأنشدْني أنت ما يوافق صِفتها ، وهي لك . فأنشدته قول ربيعةَ بن مقرومٍ الضبّيّ :

دارٌ لسُعدى إذ سُعادُ كأنّها
رَشَأ غَريرُ الطَرْف رَخْصُ المفْصَلِ
شَمّاءُ واضحةُ العوارض طَفْلةٌ
كالبدر من خلَل السَحاب المنجلي
وكأنّما ريحُ القَرَنفُل نَشْرُها
أو حَنْوةٌ خُلِطت خُزامى حَومَلِ
وكأنّ فاها بعدما طَرَق الكَرى
كأسٌ تُصَفّقُ بالرَّحيقِ السَلسلِ
لو أنّها عرضتْ لأشْمطَ راهب
في رأس مَشْرِفةِ الذُرا مُتَبتّلِ
جَآر ساعات النيام لِربّه
حتّى تَخدّد لحمُه مُستعمِلِ

(١) النحلة : العطية .

لصَّبا لبَهجتها وحُسن حَديثهـــا

ولَـهمَّ من نامُوسه بتَنَزُّلِ [1]

فقال الوليد : أصبتَ وصفَها ، فاختَرها أو ألفَ دينارٍ ، فاختَرت الألف الدينار ، فأمرها فدخلت إلى حرمِـه وأخذتُ المال .

وهذه القصيدة من فاخر الشعر وجيِّده وحسنه ، فمن مختارها ونادرها قولــه :

بل إن تَرَيْ شَمَطاً تفرّع لِمَّــتي

وحَنا قَناتي وارتقى في مِسْحَــلي

ودَلَفتُ من كِبَرٍ كأنّي خاتــلٌ

قَنَصاً ومن يَدِبِبْ لِصَيدٍ يَخْتِلِ

فلقد أرَى حَسَن القَناةِ قَوِيمَهـــا

كالنَّصْل أخلَصه جِــلاءُ الصَيْقلِ

أزمانَ إذ أنا – والحَديدُ إلى بِلىً –

تُصبي الغواني مَيْعَتي وتَنَقُّـــلي [2]

* * *

---

(١) الرشأ : الظبي إذا قوي ومشى مع أمه . العوارض ج عارضة : صفحة الخد ومن الوجه ما يبدو عند الضحك . طفلة : ناعمة لينة . النشر : الرائحة الطيبة . الحنوة : الريحانة . الخزامى : نبات عطري الرائحة. تصفق : تمزج وتخلط . الرحيق : الخمر . الأشمط : من اختلط سواد شعره ببياضه . متبتل : متعبد ، جآر : من جأر أي رفع صوته بالدعاء والتسبيح . تخدد : تشقق . الناموس : صومعة الراهب .

(٢) تفرع لمتي : انتشر فيها وتفشى ، واللمة : ما جاور شحمة الأذن من الشعر . المسحل : جانب اللحية . ختل القنص: مخادعته ليمكن اصطياده . الصيقل : من يجلو السيف ويصقله . ميعة كل شيء : أوله .

١٣

زيد الخيل الطائي

(الأغاني ج ١٧ ص ٢٤٥ وما بعدها)

الشاعر

هو زيد بن مُهَلْهِل ... بن جَلْهَمة، وهو طَيِّىء ، سُمّي بذلك لأنه كان يطوي المناهل في غزواته ... بن يَعرُب بن قحطان ...

وكان زيد الخيل فارساً مِغواراً مظفّراً شجاعاً بعيد الصيت في الجاهلية ، وأدرك الإسلام ووفد إلى النبيّ ﷺ ولَقِيه وسُرَّ به وقرَّظه وسمّاه زيد الخير .

وهو شاعرٌ مُقِلٌّ مخضرَم معدودٌ في الشعراء الفرسان ، وإنما كان يقول الشعر في غاراته ومُفاخراته ومَغازيه ، وأياديه عند مَن مَنَّ [1] عليه وأحسن في قراه إليه . وإنّما سُمّي زيد الخيل لِكثرة خيله ، وأنه لم يكن لأحدٍ من قومه

---

(١) في المطبوعة : من مر عليه ، وما أثبتناه رواية المختار وهي أجود .

ولا لكثيرٍ من العرب إلاّ الفَرَس والفرَسان ، وكانت له خيلٌ كثيرةٌ ، منها المُسمّاةُ المعروفة التي ذكَرها في شعره ، وهي ستّةٌ ، وهي : الهَطّالُ ، والكُمَيت ، والوَرْدُ ، وكامِل ، ودَؤُول [1] ، ولاحق .

وفي الهَطّال يقول :

أُقرِّب مَرْبِطَ الهَطّال إنّي ... أرى حرباً ستَلْقَحُ عن حِيالِ [2]

وفي الوَرد يقول :

أبت عادةٌ للوَرد أن يكره القَنا ... وحاجةُ نفسي في نُمَيرٍ وعامرِ

وفي دَؤُولٍ يقول :

فأقسم لا يُفارقني دَؤُولٌ ... أجُول به إذا كَثُر الضِراب

هذا ما حضَرني من تسمية خيله في شعره ، وقد ذكرها .

وكان لزيد الخيل ثلاثة بنين كلُّهم يقول الشعر ، وهم عُروة ، وحُرَيث ، ومُهَلهل [3] . ومن الناس من يُنكر أن يكون له من الولد إلاّ عروةُ وحُريث .

طائفة من أخبار غاراته في الجاهلية

* عن أبي عمرو الشيباني :

أنّ زيد الخيل بن مُهلهِل جمع طَيِّئاً وأخلاطاً لهم [4] وجموعاً من شُذّاذ

---

(١) دؤول : مأخوذة من الدألَ وهو مشي نشيط .

(٢) لقحت الناقة : حملت ، وشبهت بها الحرب لما تلده من الشرور . عن حيال : عن قريب .

(٣) في الشعر والشعراء : وكان له ابنان يقال لهما : مكنف وحريث . (٢٨٦/١) .

(٤) وأخلاطاً لهم : كذا في المطبوعة ولعلها : وأحلافاً لهم .

العرب فغزا بهم بني عامر ومَن جاورهم من قبائل العرب من قيس ، وسار إليهم فصبّحهم من طلوع الشمس ، فنَذِروا [1] به وفزِعوا إلى الخيل وركبوها . وكان أوّلَ من نذِر بهم فلقي جمعهم غنيٌّ بن أعصُر وإخوتهم : الحارث ، وهو الطُفاوة ، واسمه مالك بن سعد بن قيس عيلان ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم انهزمت بنو عامر فاستحرّ القتلُ بغنيّ ، وفيهم يومئذٍ فرسانٌ وشعراءُ ، فملأت طيّىء أيديها من غنائمهم ، وأسر زيدُ الخيلَ يومئذٍ الحُطيئةَ الشاعر فجزّ ناصيته وأطلقه .

ثمّ إنّ غنيّاً تجمّعت بعد ذلك ، مع لِفٍّ [2] من بني عامر ، فغزَوا طيّئاً في أرضهم ، فغنِموا وقتلوا وأدركوا ثأرهم منهم .

وقد كان زيد الخيل قال في وقعته لبني عامر قصيدته التي يقول فيها :

وخَيْبَةُ من يُغير [3] على غَـــنيٍّ ... وباهلةَ بنِ أَعصُرَ والكِلابِ

فلمّا أدركوا ثأرهم أجابه طُفيل الغَنَويّ فقال :

سَمَوْنــا بالجيــاد إلى أعـــادٍ ... مغاورةً بجِـــدٍ واعتصابِ

نؤُمُّهم على وَعْثٍ وشَحْــطٍ ... بقُودٍ يَطّلعن من النِقاب [4]

* قال أبو عَمرو :

أغار زيد على بني فَزارة وبني عبد الله بن غَطَفان ، ورئيسُهم يومئذ أبو ضَبّ ، ومع زيد الخيل من بني نَبْهان بطنان يقال لهما : بنو نَصر وبنو مالك ،

---

(١) نذروا به : علموه فحذروه واستعدوا له .

(٢) اللف واللفيف : القوم المجتمعون .

(٣) رواية الأغاني : من يخيب ، وما أثبتناه من الشعر والشعراء وهو أجود .

(٤) الطريق الوعث : العسر . الشحط : البعد . القودج أقود : البعير السهل القياد .

فأصاب وغنِم ، وساقوا الغَنيمة وانتهى إلى العَلَم (١) فاقتسموا النِّهاب ، فقال لهم زيدٌ : أعطوني حقَّ الرياسة . فأعطاه بنو نصر وأبى بنو مالك ، فغضب زيدٌ وانحدر إلى بني نَصر .

فبينما بنو مالك يقتسِمُون إذ غَشِيَتهم فزارةُ وغطفان ، وهم حُلَفاءُ ، فاستنقَذُوا ما بأيديهم . فلمّا رأى زيدٌ ذلك شدَّ على القوم فقتل رئيسَهم أبا ضَبّ وأخذ ما في أيديهم فدفعه إلى بني مالك ، وكانوا نادَوه يومئذٍ : يا زيداه ، أَغِثْنا . فكرَّ على القوم حتّى استنقذ ما في أيديهم ورَدَّه ، وقال يذكر ذلك :

كررتُ على أبطــال سَعدٍ ومالكٍ
ومن يَدْعُ الداعي إذا هو نَــدَّدا
فَلأياً كررتُ الوَرْدَ حتّى رأيتُهم
يُكَبُّون في الصحراء مَثْنى ومَوحَدا
وحتّى نَبذتم بالصَّعيــد رماحَكم
وقد ظهرت دَعوى زُنَيمٍ وأسعَدا
فما زلتُ أَرميهم بغُرّة وجهـــه
وبالسيف حتّى كَلَّ تَحتي وبَلّدا
إذا شكَّ أطرافُ العَوالي لَبانَــه
أُقدِّمُه حتّى يرى الموتَ أسوَدا
عُلالَتُها بالأمس ما قد علمتُم
وعَلُّ الجواري بيننــا أن تُسهَّــدا
لقد علمت نَبْهانُ أنّي حَمَيتُهــا
وأنّي منعت السَبْيَ أن يتبــدَّدا

---

(١) العلم : أراد جبل طيء .

عَشيَّةَ غادرتُ ابن ضَبٍّ كأنّما
هوى عن عِقابٍ من شماريخِ صِنْدِدا
بذي شُطَبٍ أُغشي الكتيبةَ سَلْهباً
أقبَّ كسِرْحانِ الظلام مُقَوَّدا (١)

* قال أبو عمرو : وخرج زَيد الخيل يطلب نَعَماً له من بني بدر ، وأغار عامر بن الطُفيل على بني فَزارة ، فأخذ امرأةً يُقال لها هِند واستاق نَعَماً لهم ، فقالت بنو بدر لزيد : ما كنّا قطُّ إلى نَعمك أحوجَ منّا اليومَ . فتبِعه زيد الخيل ، وقد مضى ، وعامرٌ يقول : يا هندُ ، ما ظَنُّك بالقوم ؟ فقالت : ظَنّي بهم أنّهم سيطلبونك وليسُوا نِياماً عنك ...

فأدركه زيدُ الخيل فنظر إلى عامر فأنكره لِعِظَمه وجَماله ، وغَشيه زيدٌ فبرز له عامر ، فقال : يا عامرُ ، خَلِّ سَبيلَ الظَعينة والنَعَم . فقال عامر : مَن أنتَ ؟ قال : فَزاريٌّ أنا . قال عامر : والله ما أنت من القُلْح أفواهاً (٢) . فقال زيدٌ : خَلِّ عنها . قال : لا ، أو تُخبِرَني من أنتَ ؟ قال : أسَديٌّ . قال : لا واللهِ ، ما أنت من المتكوِّرين على ظُهور الخيل . قال : خَلّ سبيلَها . قال : لا واللهِ أو تُخبرَني ، فاصدُقني . قال : أنا زيدُ الخيل . قال : صدقتَ ؛ فما تريد من قِتالي ، فوالله لَئن قتلتَني لَتطلُبَنّك بنو عامر ، ولتذهبن بنو فزارة بالذِكْر . فقال له زيد : خلّ عنها . قال : تُخَلّي عنّي وأَدَعُك والظَعينةَ والنعمَ ؟ قال : فاستأسِرْ . قال : أفعَلُ . فجزّ ناصيته وأخذ رُمحه وأخذ هنداً والنَعَم فردّها إلى بني بدر ، وقال في ذلك :

---

(١) التنديد : رفع الصوت . اللأي : الإبطاء . يكبون : يدفعون ويقذفون . لبان الفرس : صدره . العلالة : البقية وما يتعلل به . العقاب ج عقبة : المرقى الصعب في الجبل . الشماريخ ج شمراخ : رأس الجبل . صندد : اسم جبل بتهامة . شطب السيف : طرائقه . السلهب : من الخيل ما عظم وطال عظامه . أقب : ضامر البطن . السرحان : الذئب .

(٢) القلح ج أقلح : من في أسنانه صفرة . وفي المختار : الفلج ، والفلج تباعد ما بين الأسنان .

إنّا لنُكثر في قيسٍ وقائعَنـــا وفي تميمٍ وهذا الحيّ من أسَدِ
وعامرُ بن طُفيل قد نَحوْتُ لـه صَدرَ القَناة بماضي الحدّ مُطّرِدِ
لمّا أحسّ بأنّ الورد مُدرِكُـــه وصارماً ورَبيط الجَأش ذا لِبَدِ[1]
نادى إليّ بِسَلْمٍ بعدما أخـذت منه المنيّةُ بالحيزوم واللُغُدِ
ولو تصبّر لي حتّى أُخالطَـــه أسعرته طَعنةٌ تكتار بالزَبَدِ [2]

قال : فانطلق عامر إلى قومه مجزوزاً وأخبرهم الخبر ، فغضبوا لذلك وقالوا : لا ترأسنا أبداً، وتجهّزوا ليُغيروا على طيّىء، ورأسُوا عليهم عَلقمة ابن عُلاثة ، فخرجوا ومعهم الحطيئة وكعب بن زهير .

فبعث عامر إلى زيد الخيل دَسيساً يُنذره ، فجمع زيدٌ قومه ، فلَقيَهم بالمَضيق فقاتلهم ، فأسَر الحطيئةَ وكعب بن زهير وقوماً منهم ، فحبسهم . فلمّا طال عليهم الأسر قالوا : يا زيدُ ، فادِنا [3] . قال : الأمر إلى عامر بن الطفيل . فأبوا ذلك عليه فوهبهم لعامر ، إلاّ الحطيئة وكعباً ، فأعطاه كعبٌ فرسه الكُميت ، وشكا الحطيئة الحاجة فمنّ عليه . فقال زيدٌ :

أقول لِعَبدِي جرْولٍ إذ أسرتُه
أَثِبْني ولا يَغرُرْكَ أنّك شاعـرُ
أنا الفارسُ الحامي الحقيقة والـذي
له المَكرُمات واللُهـى والمآثـر

(١) في المطبوعة : لبد ، بضم اللام ، وهو خطأ من المحقق .
(٢) نحا الشيء : أزاله . مطرد : طويل ، صفة للسيف . ذا لبد : صفة للأسد وأراد به نفسه . واللبدة ، بكسر أوله : شعر زبرة الأسد . اللغد ، بتسكين وسطه : ما أطاف بأقصى الفم إلى الحلق من اللحم . تكتار : تجيش وترمي بالزبد . أسعر : أوقد ، وأسعرهم بالنبل : حرقهم وأمضهم .
(٣) فادنا : خذ فداءنا وأطلقنا .

وقومي رؤوسُ الناس والرأسُ قائدٌ
إذا الحرب شبَّتْها الأكفُّ المَساعِرُ
فلستُ إذا ما الموتُ حُوذر وِردُه
وأُترِع حَوضاه وحَمَّج ناظرُ
بوَقّافةٍ يخشى الحُتوفَ تَهيُّباً
يُباعدني عنها من القُبِّ ضامرُ
ولكنّني أغشى الحُتوفَ بصَعْدتي
مُجاهَرَةً ، إنّ الكريمُ يُجاهِرُ
وأروي سِناني من دماءٍ غزيزةٍ
على أهلِها إذ لا تُرجّى الأياصِرُ (١)

فقال الحطيئة لزيد :

إن لم يكن مالي بآتٍ فإنّني
سيأتي ثنائي زيداً بنَ مُهلهِلِ
فأعْطَتْك منّا الوُدَّ يومَ لَقيتَنا
ومن آل بَدرٍ وقعةٌ لم تُهلّلِ
فما نلتَنا غَدراً ولكن صَبَحتَنا
غداة التقينا في المَضيقِ بأخْيَلِ
تفادى كُماة الخيل من وقع رُمحه
تَفاديَ خَشاش الطير من وقع أجدَلِ (٢)

(١) جرول : هو اسم الحطيئة . اللهى : العطايا . المساعر ج مسعر : من يشعل الحرب ويوقد نارها . التحميج : إدارة الحدقة فزعاً . الحتوف : المنايا . القب ج أقب : الضامر الدقيق الخصر من الخيل . الصعدة : القناة المستوية . الأياصر والأواصر ج آصرة : صلات القربى . وفي ديوان الحطيئة رواية أخرى في أسر كعب والحطيئة لعلها أدنى إلى الصواب (ص : ٨٢ ، تحقيق نعمان أمين طه) .

(٢) لم تهلل : أراد لم يهلل أصحابها أي لم يجبنوا . وقوله : أعطتك منا الود ، أراد : أحسنت فيها لأنه خلى عنه حين أسره . الأخيل : طائر يتشاءم به العرب ويسمونه الشقراق ، يريد أن لقاءنا بك كان شؤماً علينا . الخشاش من الطير : العاجز عن الصيد . الأجدل : الصقر .

وقال فيه الحطيئة أيضاً :

وقعت بعَبْسٍ ثم أنعمتَ فيهـم
ومن آل بدرٍ قد أصبت الأخايـرا

فإن يشكُروا فالشُكر أدنى إلى التُقى
وإن يكفُروا لا أُلْفَ يا زيدُ كافرا

تركت الميـاه من تميمٍ بَلاقعـاً
بما قد ترى منهم حُلولاً كَراكرا

وحيٌّ سُليمٍ قـد أبرت شريدَهـم
وبالأمس ما قَتَّلت يا زيدُ عامرا [1]

فرضي عنه زيد ومنّ عليه لمّا قال هذا فيه ، وعدّ ذلك ثواباً من الحطيئة وقَبِلـه .

فلمّا رجع الحطيئة إلى قومه قام فيهم حامداً لزيد ، شاكراً لنعمته ، حتى أسرَت طيّىء بني بدر ، فطلبت فزارة وأفناء قيس إلى شعراء العرب أن يَهجوا بني لأم وزيداً ، فتحامتهم شعراء العرب وامتنعت من هجائهم ، فصاروا إلى الحطيئة ، فأبى عليهم وقال : اطلبوا غيري ، فقد حقنَ دمي وأطلقني بغير فِداء فلست بكافرٍ نِعمته أبداً . قالوا : فإنّا نُعطيك مائةَ ناقةٍ . قال : واللهِ لو جعلتموها ألفاً ما فعلتُ ذلك . وقال الحطيئةُ :

كيف الهجاءُ ومـا تنفكُّ صالحـةٌ
من آل لأمٍ بظَهْر الغَيب تأتينـا

المنعِمين أقام العزُّ وسطَهـم
بيضِ الوجوه وفي الهَيْجا مطاعينـا

---

(١) كراكر : جماعات ، واحدتها كركرة . أبرت : أبدت ، وفي المطبوعة : أثرت ، والرواية التي اخترناها أجود .

وقد أخبرنا أبو خَليفة عن محمّد بن سَلاّم قال :

خرج بُجَيْر بن زهير والحطيئة ورجل من فزارة يتقنّصون الوحش ، فلقيهم زيد الخيل فأسرهم . فافتدى بجيرٌ نفسَه بفَرس كان لكعب أخيه — وكعبٌ يومئذٍ مجاورٌ في بني مِلقَط ، من طيّىء — وشكا إليه الحطيئة الفاقة فأطلقــه .

* قال أبو عمرو :

غزت بنو نَبْهان [1] فَزارة وهم متساندون ، ومعهم زيد الخيل ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم انهزمت فزارة وساقت بنو نبهان الغنائم من النساء والصبيان . ثم إن فزارة حشدت واستعانت بأحياء من قيس ، وفيهم رجلٌ من سُليم شديد البَأس يُقال له عبّاس بن أنَس الرِّعْلي كانت بنو سُليم قد أرادوا عقد التاج على رأسه في الجاهليّة ، فحسَده ابنُ عمٍّ له فلطم عينه ، فخرج عبّاس من أعمال بني سُليم في عدّة من أهل بيته وقومه فنزل في بني فزارة ، وكان معهم يومئذٍ ، ولم يكن لزيدٍ المِرباعُ [2] حينئذٍ .

وأدركت فزارة بني نبهان فاقتتلوا قتالاً شديداً . فلمّا رأى زيد ما لقيت بنو نَبْهان نادى : يا بني نبهان ، أأحمِلُ ولي المِرباعُ ؟ قالوا : نعم . فشد على بني سُليم فهزمهم ، وأخذ أم الأسوَد — امرأة عبّاس بن أنس — ثم شدّ على فزارة والأخلاط فهزمهم ، وقال في ذلك :

ألا وَدَّعت جيرانَها أمُّ أَسْوَدا
وضَنَّت على ذي حاجةٍ أن يُزَوَّدا
وأَبْغَضُ أخلاق النساءِ أَشــدُّه
إليَّ ، فلا تُولِنَّ أهلي تَشَدُّدا

(١) بنو نبهان : هم بنو نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيىء ، وهم عشيرة زيد الخيل .
(٢) المرباع : ربع الغنيمة ، وهي حصة رئيس القبيلة في الجاهلية .

وسائلْ بني نَبْهانَ عنّا وعنهمُ
بلاءً كحدِّ السيف إذ قطع اليَـــدا

(الأبيات ...)

* قال أبو عمرو :

وقعت حربٌ بين أخلاط طَيّىء ، فنهاهم زيدٌ عن ذلك وكرهـِه ، فلم ينتهُوا ، فاعتزل وجاور بني تميم ، فنزل على قيس بن عاصم . فغزت بنو تميم بكر بن وائل وعليهم قيسٌ وزيدٌ معه ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وزيدٌ كافٌ[1] . فلمّا رأى ما لقيت تميم ركب فرسه وحمل على القوم وجعل يدعو : يا لتميم ، ويتكنّى بكنية قيس إذا قتل رجلاً أو أذراه عن فرسه[2] ، أو هزم ناحيةً ، حتى هـُزمت بكر ، وظفرت تميم ، فصارت فخراً لهم في العرب وافتخر بها قيسٌ .

فلمّا قدِموا قال له زيدٌ : اقسِم لي يا قيسُ نصيبي . فقال : وأيّ نصيبٍ ؟ فوالله ما وَلِي القتال غيري وغيرُ أصحابي . فقال زيد :

ألا هل أتاها ، والأحاديثُ جَمّـــةٌ
مُغَلغلةٌ أنباءُ جيش اللّهـــازمِ

فلستُ بوقّافٍ إذا الخيلُ أحجمت
ولستُ بكذّابٍ كقيس بن عاصم

تُخبِّرُ مَن لاقيتَ أنْ قد هزَمتَهم
ولم تدرِ ما سِيماهمُ والعمائـــمُ

بل الفارسُ الطائيُّ فضَّ جمُوعَهم
ومكّةَ والبيت الذي عندَ هاشـــم

(١) كاف : أي لم يشارك في القتال .
(٢) أذراه عن فرسه : ألقاه عنه .

إذا ما دعَوا عِجْلاً عجِلنا عليهم
بمأثورةٍ تَشفي صُداعَ الجماجمِ [1]

فبلغ المكشّرَ بن حنظلة العجليَّ ، أحدَ بني سِنان ، قولُ زيدٍ ، فخرج في ناسٍ من عِجل حتى أغار على بني نَبْهان ، فأخذ من نَعَمهم ما شاء . وبلغ ذلك زيد الخيل فخرج على فرسه في فوارس من نبهان حتى اعترض القوم فقال : ما لي ولك يا مكشّر ؟ فقال : قولك : إذا ما دعوا عجلاً عجلنا عليهـــم .

فقاتلهم زيدٌ حتى استنقذ بعض ما كان في أيديهم ،ورجع المكشّر ببقيّة ما أصاب . فأغار زيد على بني تيم الله بن ثعلبة فغنم وسبى وقال في ذلك :

إذا عَرَكت عِجلٌ بنا ذنبَ غيرِنـــا
عَرَكنا بتيم اللات ذنبَ بني عِجْلِ [2]

وفوده على رسول الله ﷺ وإسلامه

عن عبّاد بن عبد الله النَبهاني عن أبيه عن جدّه ، وعن أبي عمرو الشيباني ، قالا :

وفد زيد الخيل بن مُهلهِل على رسول الله ﷺ ومعه وِزْر بن سُدُوس النبهاني ، وقَبيصة بن الأسود بن عامر بن جُوين الجَرْمي ، ومالك بن جُبير

(١) اللهازم : لقب بني تيم الله بن ثعلبة ، من قبيلة بكر بن وائل . والعمائم : في البيت إقواء ، وهو اختلاف حركة الروي بين الكسر والضم ، وفي رواية أخرى : لا ، وعائم ، وهو اسم صنم لهم ، وعلى هذه الرواية لا إقواء في البيت . عجل : من بطون بكر بن وائل . سيف مأثور : حديد الشفرة .
(٢) عركت ، هنا : بمعنى ألصقت .

المعنيّ [1] ، وقُعَين بن خالد [2] الطريفي ، في عدّة من طيّىء . فأناخوا رِكابَهم بباب المسجد ودخلوا ورسولُ الله ﷺ يخطُبُ الناسَ . فلمّا رآهم قال : إنّي خيرٌ لكم من العُزّى ، وممّا حازت مَناع [3] ، من كلّ ضارٍ غير يَفاع [4] ، ومن الجبل الأسود الذي تعبُدونه من دون الله عزّ وجلّ .

فقام زيدٌ — وكان من أجمل الرجال وأتَمّهم ، وكان يركب الفرس المُشرِف ورِجلاه تخطّان الأرض كأنّه على حمار — فقال : أَشهَدُ أن لا إلَه إلاّ اللهُ وأنّك محمدٌ رسولُ الله . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا زيدُ الخيل بن مُهَلهِل . فقال رسول الله : بل أنت زيدُ الخَير ، وقال : الحمدُ لله الذي جاء بك من سَهْلك وجَبلك ، ورقّق قلبك على الإسلام . يا زيدُ ، ما وُصف لي رجلٌ قطُّ فرأيتُه إلاّ كان دون ما وُصف به ، إلاّ أنت ، فإنّك فوق ما قيل فيك .

قال أبو عمرو الشيباني :

لمّا وفد زيد الخيل على رسول الله ﷺ وآله فدخل إليه طرح له مُتّكئاً ، فأعظم أن يتّكىء بين يدي رسول الله ، ﷺ وآله ، فردّ المُتّكأ ، فأعاده عليه ثلاثاً ، وعلّمه دعَواتٍ كان يدعو بها فيعرِف الإجابة ، ويستسقي فيُسقَى ، وقال : يا رسول الله ، أعطني ثلاثمائة فارسٍ أُغير بهم على قُصور الروم . فقال له : أيُّ رجلٍ أنت يا زيدُ ! ولكنّ أمّ الكلبة

---

(١) في المطبوعة : المغني ، وهو تصحيف والصواب معني نسبة إلى معن ، وهم بنو معن بن سلامان ابن ثعل .. بن طيء (راجع جمهرة ابن حزم ص ٤٠٠) .

(٢) في المطبوعة خليل وما أثبتناه رواية المختار .

(٣) مناع كعظام : هضبة في بلاد بني طيء .

(٤) كذا في المطبوعة ، واليفاع : التل والمكان المرتفع ، ولا تناسب السياق هنا ، والأرجح عندي أنها محرفة عن : نفاع .

نقتلك – يعني الحُمّى – فلم يلبث زيد بعد انصرافه إلاّ قليلاً حتى حُمّ ومـات .

قال أبو عمرو : فأسلموا جميعاً إلاّ وزر ، فإنّه قال لمّا رأى النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّي لأرى رجلاً ليملِكَنّ رقاب العرب ، ووالله لا يملك رقبتي أبداً . فلحِق بالشام فتنصّر وحلق رأسه ، فمات على ذلك .

حديثه مع عمر

عن ابن الكلبيّ قال :

دخل زيدٌ على رسول الله ﷺ وعنده عمرُ رضي الله عنه ، فقال عمر لزيد : أخبرنا يا أبا مُكْنِف عن طيّىء ومُلوكها نَجَدَتِها وأصحاب مرابعها. فقال زيد : في كُلٍّ يا عُمرُ نَجدةٌ وبأسٌ وسيادةٌ ، ولكلّ رجلٍ من حيّه مِرباعٌ .

أما بنو حيّة فملوكُنا وملوكُ غيرنا ،وهم القَداميسُ [1] القادة ،والحُماة الذادة ، والأنجاد السادة ، أعظمنا خَميساً [2] ، وأكرمنا رئيساً ، وأجملُنا مجالس ، وأنجدنا فوارس .

فقال له عمر رضي الله عنه : ما تركت لِمن بقي من طيّىء شيئاً . فقال : بلَى والله ، أمّا بنو ثُعَل وبنو نَبْهان وجَرْم ففوارسُ العُدْوة [3] : وطَلاّعُو كلّ نَجوة [4] ، ولا تُحَلّ لهم حَبْوة [5] ، ولا تُراع لهم

(١) القدموس : السيد .
(٢) الخميس : الجيش .
(٣) العدوة : المكان المرتفع والمتباعد .
(٤) النجوة : المكان المرتفع .
(٥) الحبوة من احتبى الرجل : جمع بين ساقيه وظهره بعمامة .

نَدوة ، ولا تُدرك لهم نَبْوة . عمودُ البلاد ، وحيّةُ كلّ وادٍ ، وأهلُ الأسَل (١) الحِداد ، والخيل الجِياد ، والطارف والتِّلاد (٢) .

وأمّا بنو جَديلة فأسهلُنا قَراراً ، وأعظمنا أخطاراً ، وأطلبُنا للأوتار ، وأحمانا للذِّمار ، وأطعمُنا للجار .

فقال له عمر : سمِّ لنا هؤلاء الملوك . قال : نعم ، منهم عُفَير المُجير على الملوك ، وعمرو المفاخر ، ويزيد شارب الدماء ، والغَمْر ذو الجود ، ومُجِير الجَراد (٣) ، وسِراجُ كلّ ظلامٍ ولامةٍ (٤) ، ومَلحم بن حنظلة ، هؤلاء كلّهم من بني حيّة .

وأما حاتم بن عبد الله الثُعَليّ الجواد فلا يجارى ، والسَمح فلا يُبارى ، والليث الضِرغامةُ ، قَرّاعُ كلِّ هامة ، جُودُه في الناس علامة ، لا يَقَرُّ على ظُلامة .

فاعترض رجلٌ من بني ثُعَل لمّا مدح زيدٌ حاتماً فقال : ومنّا زيدُ بنُ مُهلهِل النَبْهانيُّ ، رئيس قومه ، وسيّد الشِيب والشُبّان ، وسُمّ الفرسان ، وآفة الأقران ، والمَهيبُ بكلِّ مكانٍ . أسرع إلى الإيمان ، وآمَن بالفُرقان ، رئيس قومه ، وقائدهم إلى أعدائهم ، على شَحْط المَزار (٥) ، وطُموس الآثار ، وفي الإسلام رائدُنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومُجيبُه من غير تلعثُم ولا تَلَبُّث .

ومنّا زيد بن سَدُوس (٦) النَبْهاني ، عِصمة الجيران ، والغيثّ بكلّ

---

(١) الأسل : الرماح .
(٢) الطارف والطريف : الحديث من المال والتلاد والتالد والتليد : ما ولد عندك من مالك .
(٣) مجير الجراد : لقب مدلج بن سويد الطائي ، وكان الجراد نزل بأرضه فحماه .
(٤) اللامة : الهول .
(٥) على شحط المزار : على بعد الديار .
(٦) كل سدوس في العرب بفتح السين إلا في بني نبهان من طيء فهي بضمها (راجع : جمهرة ابن حزم ص ٤٠٤) .

أوان ، ومُضرِم النيران ، ومُطعم النُدمان ، وفخر كلّ يمانٍ .

ومنّا الأسد الرهيص [1] ، سيّدُ بني جَديلة ، وممدّوح كل قبيلة ، قاتل عنترة فارس بني عبس ، وكاشف كلّ لَبْس .

فقال عمر لزيد الخيل : لله درُّك يا أبا مُكنِف ، فلو لم يكن لطيّىء غيرُك وغير عديّ بن حاتم لقهرت بكما العرب .

وفاته

فلمّا ولّى قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم : أيُّ رجلٍ إن سَلِم من آطام المدينة . فأخذته الحُمّى ، فأنشأ يقول :

أنختُ بآطامِ المدينـــــة أربعـــاً
وخمساً يُغنّيّ فوقَها الليلَ طائرُ
شددتُ عليها رحْلها وشَليلَهـــا
من الدَرْسِ والشَعْراء والبطنُ ضامرُ [2]

فمكث سبعاً ، ثم اشتدّت به الحُمّى فخرج فقال لأصحابه : جَنّبوني بلادَ قيس ، فقد كانت بيننا حَماساتٌ في الجاهليّة ، ولا واللهِ لا أُقاتلُ مُسلِماً حتى ألقى الله .

فنزل بماءٍ لحيٍّ من طيّىءٍ يقال له فَردة ، واشتدّت به الحُمّى ، فأنشأ يقـــول :

أمُـرتحلٌ صَحبي المَشارقَ غُدوةً
وأُتْرَكُ في بيتٍ بفَردةَ مُنْجِـــدِ

---

(١) الأسد الرهيص : لقب حيان بن عمرو الطائي قاتل عنترة بن شداد .
(٢) الآطام : الحصون ، ج أطم . الشليل : مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز البعير . الدرس : الثوب البالي . الشعراء : ما فيه شعر ، والفروة .

سقى الله ما بين القَفيل فطابـةٍ

فما دون أرمامٍ فما فوق مُنْشِدِ

هنالك لو أنّي مرضتُ لَعـادني

عوائدُ مَن لم يَشْفِ مِنهن يَجْهَدِ

فليت اللواتي عُدْنَني لم يَعُدْنَني

وليت اللواتي غِبْنَ عنّي عُوَّدي (١)

قال : وكتب معه رسول الله ﷺ لبني نَبْهان بفَيْدَك كتاباً مفرداً وقال له : أنت زيد الخير . فمكث بالفردة سبعة أيام ثم مات . فأقام عليه قَبيصة بن الأسود المَناحة سبعاً ، ثم بعث راحِلتَه ورَحْله ، وفيه كتاب رسول الله ﷺ ، فلمّا نظرت امرأتُه — وكانت على الشِرك — إلى الراحلة ليس عليها زيدٌ ضربتها بالنار وقالت :

ألا إنّمـا زيدٌ لكلّ عظيمـةٍ

إذا أقبلَت أَوْبَ الجَرادِ رِعالُهـا

لَقاهم فما طاشت يداه بضَربهـم

ولا طَعنِهم حتى تولّى سِجالُها (٢)

قال : فبلغني أن رسول الله ﷺ وآله لمّا بلغه ضرب امرأة زيد الراحلة بالنار واحتراق الكتاب قال : بُؤساً لبني نَبْهان .

* * *

(١) منجد : في ديار نجد . القفيل وطابة وأرمام ومنشد : مواضع في بلاد طيء .

(٢) الرعال ج رعلة : القطعة من الخيل . لقاهم : لقيهم ، وهي لغة طيء . السجال ج سجل : الدلو العظيمة ، ويقال : الحرب سجال ، أي سجل على هؤلاء وسجل على أولئك .

١٤

سُوَيد بن أبي كاهِل

(الأغاني ج ١٣ ص ١٠٢ وما بعدها)

الشاعر

سُويد بن أبي كاهل ... بن كنافة بن يَشكُر . وذكر خالد بن كُلثوم أنّ اسم أبي كاهل شَبيب ، ويكنى سُويد أبا سعد ... وجعله محمّد بن سَلاّم في الطبقة السادسة ، وقرنه بعنترة العَبْسيّ وطبقته .

وسُويدٌ شاعرٌ متقدّمٌ من مخضرمي الجاهلية والإسلام ، كذلك ذكر ابن حبيبَ .

عن أبي نَصر صاحب الأصمعيّ أنه قرأ شعر سُويد بن أبي كاهل على الأصمعيّ ، فلمّا قرأ قصيدتَه :

بسَطت رابعةُ الحَبْـلَ لنـا   فوصَلنا الحَبْلَ منها ما اتّسعْ

فَضّلها الأصمعيُّ وقال : كانت العرب تُفَضِّلها وتُقدِّمُها وتَعدُّها من

حِكمَها . ثم قال الأصمعيّ : حدّثني عيسى بن عُمر أنّها كانت في الجاهليّة تُسمّى « اليتيمة » [1] .

طائفة من أخباره

* عن عبد الله بن عبّاس ، قال :

قال زياد الأعجم يهجُو بني يَشكُر :

إذا يَشكُريٌّ مسّ ثوبكَ ثوبُه فلا تذكُرنّ اللهَ حتى تَطهّرا
فلو أنّ من لُؤمٍ تموتُ قبيلةٌ إذاً لأماتَ اللُّؤمُ - لاشكّ - يَشكُرا

قال : فأتت بنو يشكُر سُويد بن أبي كاهِلٍ ليهجُوَ زياداً ، فأبى عليهم . فقال زياد :

وأُنبِئتهُم يَستصرخُون ابنَ كاهلٍ
وللؤمِ فيهم كاهلٌ وسَنامُ
فإن يأتِنا يَرجِعْ سُويدٌ ووجهُه
عليه الخَزايا غُبْرةٌ وقَتامُ
دَعِيٌّ إلى ذُبيانَ طَوراً وتارةً
إلى يَشكُرٍ ما في الجميع كِرامُ [2]

فقال لهم سُويدٌ : هذا ما طلبتُم لي . وكان سُويدٌ مُغلّباً [3] .

وأما قوله :

---

(1) هذه القصيدة هي القصيدة الأخيرة في المفضليات .
(2) الكاهل : ما بين الكتفين . القتام : الغبار .
(3) المغلب : الضعيف المغلوب أبداً .

دعيٌّ إلى ذبيـــان طوراً وتـــــارة إلى يشكر ....

فإنّ أمّ سُويد بن أبي كاهل كانت امرأة من بني غُبَر ، وكانت قبل أبي كاهل عند رجلٍ من بني ذُبيان بن قيس بن عَيلان ، فمات عنها ، فتزوّجها أبو كاهل ، وكانت – فيما يُقال – حاملاً ، فاستلاط [1] أبو كاهل ابنها لمّا ولدته وسَمّاه سُويداً واستلحقه . فكان إذا غضب على بني يشكر ادّعى إلى بني ذبيان ، وإذا رضي عنهم أقام على نسبه فيهم .

وذكر علاّن الشُعوبيُّ أنّه وُلد في بني ذُبيان وتزوّجت أمّه أبا كاهل – وهو غلام يفَعَة [2] – فاستلحقه أبو كاهل وادّعاه ، فلحق به .

ولسُويد بن أبي كاهل قصيدةٌ ينتمي فيها إلى قيس ويفتخر بذلك ، وهي الّتي أوّلُها :

أبى قلبُه إلاّ عُمَيرةَ إن دَنَتْ وإن حَضَرت دارَ العِدافهوحاضِرُ
شَمُوسٌ حَصانُ السِرِّ ريّا كأنّها مُرَبَّبةٌ مِمّا تَضمَّن حائِرُ [3]

ويقول فيها أيضاً :

أنا الغَطَفانِي زَينُ ذُبْيانَ فابعدُوا
فَلَلزّنْجُ أدنى منكـــم ويُحابِــرُ
أبت ليَ عبسٌ أن أُسامَ دَنِيّـــةً
وسَعدٌ وذُبيانُ الهِجانُ وعـــامِرُ

(١) استلاطه : ادعاه ولداً له .
(٢) اليفعة : المناهز للبلوغ .
(٣) الشموس : الأبية النافرة . حصان السر : عفيفته . ريا : ممتلئة . المربية : الدرة التي يربيها الصدف في قعر الماء . الحائر : مجتمع الماء .

وحيٌّ كِرامٌ سـادةٌ من هَوازنٍ
لهم في المُلمّاتِ الأنوفُ الفواخِرُ (١)

* عن الحِرمازيّ : أنّ سُوَيد بن أبي كاهل جاور في بني شيبان ، فأساؤوا جِواره وأخذوا شيئاً من ماله غصباً ، فانتقل عنهم وهجاهم فأكثرَ ، وكان الذي ظلَمه وأخذ ماله أحدَ بني مُحلِّم ، فقال يهجوهم وإخوتَهم بني أبي ربيعة :

حَشَرَ الإلهُ مع القرُود مُحلِّـمـاً
وأبـا ربيعــةَ ألأمَ الأقــوامِ
فلأهْدِيَنّ مـع الرِيـاح قصيدةً
منّي مُغَلغَلَــةً إلى هَمّــام
الظاعِنين عـلى العمَى قُدّامَهم
والنـازِلين بشَرِّ دارِ مُقـام
والواردين إذا الميـاهُ تُقُسِّمـت
نُزُحَ الرَّكِيِّ وعاتمَ الأسْدام (٢)

... قال : فاستعدت بنو شيبان عليه عامر بن مَسعود الجُمَحيّ — وكان والي الكوفة — فدعا به فتوعّده وأمره بالكفّ عنهم بعد أن كان قد أمر بحبسه . فتعصّبت له قيس وقامت بأمره حتّى تخلّصته . فقال في ذلك :

يَكُفُّ لسـاني عامِرٌ وكأنّمـا
يكُفُّ لساناً فيه صابٌ وعَلْقَـمُ

(١) يحابر : هي قبيلة مراد اليمانية ، وهو يحابر بن مذحج . الهجان : الكريم الحسب . الأنوف الفواخر : من فخر الرجل — بكسر الخاء — أي أنف . أراد أنهم ذوو أنفة وإباء .
(٢) المغلغلة : التي تحمل من مكان إلى مكان . همام : هو همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، وبنو محلم وبنو أبي ربيعة ورهط همام كلهم ينتمون إلى ذهل بن شيبان . الظاعن : المرتحل . الركية النزوح : البئر القليلة الماء . العاتم : المحتبس . الأسدام ج سدم : الماء المندفن .

أتترُكُ أولادَ البغَايا وغِيبَتي
وتحبِسُني عنهم ولا أتكلّمُ
ألم تعلَمُوا أنّي سُويدٌ وأنّني
إذا لم أجِد مُستأخَراً أتقدَّمُ
حسِبتم هجائي إذ بَطِنْتُم غَنيمةً
عليَّ دِماءُ البُدْن إن لم تَندَّمُوا (١)

قال الحِرمازيُّ في خبره هذا : وهاجى سُويد بن أبي كاهل حاضر بن سَلمة الغُبَريّ ، فطلبهما عبدُ الله بن عامر بن كُريزٍ ، فهربا من البصرة . ثم هاجى الأعرج ، أخا بني حمّال بن يَشْكُر ، فأخذهما صاحب الصدَقة ، وذلك في أيام ولاية عامر بن مسعود الجُمَحيّ الكوفة ، فحبسهما وأمر أن لا يُخرجا من السجن حتى يؤدّيا مائةً من الإبل . فخاف بنو حمّال على صاحبهم ففكُّوه ، وبقي سُويدٌ فخذله بنو عبد سعد ، وهم قومه ، فسأل بني غُبَر — وكان قد هجاهم لمّا ناقض شاعرهم — ... فقالوا له : يا سُويد ، ضيّعت البِكار بطِحال (٢) ، فأرسلوها مثلاً ، أي أنك عممت جماعتنا بالهجاء في هذه الأرجوزة ، فضاع منك ما قدّرت أنّا نفديك به من الإبل . فلم يزل محبوساً حتى استوهبته عبسٌ وذبيان لمديحه لهم وانتمائه إليهم ، فأطلقوه بغير فداء .

* * *

(١) الصاب : ضرب من الشجر مر . العلقم : الحنظل : الغيبة : الاغتياب. بطنتم: امتلأ بطنكم طعاماً . البدن ج بدنة : وهي من الابل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة .
(٢) كان سويد قد هجا نساء بني غبر وذكر أنهن يتعرضن للرجال بموضع اسمه طحال . والبكار ج بكرة وهي الفتية من النوق .

١٥

الشمّاخ بن ضِرار الذّبياني

(الأغاني ج ٩ ص ١٥٨ وما بعدها)

الشاعر

... الشمّاخ بن ضِرار ... بن سعد بن ذُبيان . وأمّ الشمّاخ أنمارية من بنات الخُرشُب ، ويقال إنّهن أنجب نساء العرب ، واسمها مُعاذة بنت بُجير بن خالد بن إياس . والشمّاخ مخضرَم ممّن أدرك الجاهليّة والإسلام . وقد قال للنبيّ ﷺ :

تعلَّمْ رسولَ الله أنّا كأنّنا
أفأنا بأنْمارٍ ثعالبَ ذي غِسْلِ (١)

يعني أنمار بن بَغيض ، وهم قومه .

---

(١) ذو غسل : موضع .

وهو أحد من هجا عشيرته وهجا أضيافه ومَنَّ عليهم بالقِرى .

والشمّاخ لقبٌ ، واسمه مَعْقِل ... وللشمّاخ أَخَوان من أمّه وأبيه ، شاعران ، أحدهما مُزَرِّد ، وهو مشهورٌ ، واسمه يزيد ، وإنّما سُمّي مزرّداً لقوله :

فقلت تَزَرَّدْها عُبَيدُ فإنّني
لِدُرْدِ الشيوخِ في السنينَ مُزَرِّدُ [1]

والآخَر : جَزْء بن ضِرار ، وهو الذي يقول يرثي عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه :

عليك سلامٌ من أميرٍ وباركت
يدُ اللهِ في ذاك الأديم الممزَّقِ
فمن يسعَ أو يركَبْ جَناحَيْ نَعامة
لِيُدْرِكَ ما حاولتَ بالأمسِ يُسْبَقِ

وجعل محمد بن سلاّم في الطبقة الثالثة الشمّاخ ، وقرنه بالنابغة ولبيد وأبي ذُؤيب الهذليّ ، ووصفه فقال : كان شديدَ مُتون الشعر ، أشدّ أَسر كلامٍ [2] من لَبيد ، وفيه كَزازةٌ [3] ، ولبيدٌ أسهلُ منه منطقاً ...

وقد قال الحطيئة في وصيّته : « أبلغوا الشمّاخ أنه أشعر غطَفان » ...

عبد الله بن مُسلم قال : كان الشمّاخ يهجو قومه ويهجو ضيفه ويمنّ عليه بقِراه ، وهو أوصف الناس للقوس والحمار وأرجز الناس على البديهة .

---

(١) تزردها : ابتلعها . الدرد ج أدرد : من لا أسنان له .
(٢) في المطبوعة : أشد كلاماً ، والتصويب من طبقات فحول الشعراء ١٣٢/١ .
(٣) الكزازة : الصلابة والتقبض .

عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمّه قال :

قال مُزَرّد لأمّه : كان كعبُ بن زهير لا يهابني ، وهو اليومَ يهابني . فقالت : يا بُنَيَّ نعم ! إنه يرى جَرو الهِراش مُوثَقاً ببابك ، تعني أخاه الشمّـــاخ .

طائفة من أخباره

* عن الزُبير بن بكّار :

قدِم ناسٌ من بَهزٍ المدينةَ يَستَعْدُون على الشَمّاخ ، وزعموا أنه هجاهم ونفاهم ، فجحد ذلك الشمّاخُ . فأمر عثمانُ كَثيرَ بن الصلْت أن يستحلفَه على منبر النبي ﷺ : ما هجاهم .

فانطلق به كثيرٌ إلى المسجد ثمّ انتحاه دونَ بني بَهز — وبهز اسمه : تَيم بن سُليم بن منصور [1] — فقال له : ويلك يا شَمّاخُ : إنّك لتحلف على منبر رسول الله ﷺ ، ومن حلَف به آثماً يَتبوّأ مقعده من النار . قال : فكيف أفعل ، فِداؤُك أبي وأمّي ؟ قال : إنّي سوف أُحلِّفُك ما هجوتَهم ، فاقلِب الكلام عليَّ وعلى ناحيتي فقل : واللهِ ما هجوتُكم ، فأرِدْني وأَرِد ناحيتي بذلك ، وإني سأدفع عنك .

فلمّا وقف حلف كما قال له وأقبل على كَثيرٍ فقال : ما هجوتكُم . فقالت بَهْزٌ : ما عنَى غيرَكم ، فأعِد اليمينَ عليه . فقال : ما لي أتأوّلُه ! هل استحلفتُه إلاّ لكم ؟ وما اليمينُ إلا مرّة واحدة . انصرف يا شمّاخ . فانصرف وهو يقول :

---

(١) هذا ما جاء في الأغاني ، وفي جمهرة ابن حزم . بهز بن امرىء القيس بن بهثة بن سليم بن منصور .

أَتَتْني سُلَيمٌ قَضَّهـا وقَضِيضُهـا
تُمسِّحُ حَولي بالبَقِيـع سِبالَهـا
يقولون لي : يا احلِفْ ولستُ بحـالف
أُخادعُهم عنها لكَيْما أنالَهـا
فلولا كُثَيرٌ ، نَعَّم اللهُ بالَـه ،
أَزَلَّت بأعلى حِجَّتَيك نِعالهـا
ففرّجتُ همَّ النفس عنّي بحَلْفـة
كما شقّت الشقراءُ عنها جِلالها [1]

* قال القاسم بن معن :

كان الشمّاخ تزوّج امرأةً من بني سُليم ، فأساء إليها وضربها وكسرَ يدها ، فعرَضت امرأةٌ من قومها ، يقال لها أسماءُ ، ذاتَ يومٍ للطريق تسأل عن صاحبتها . فاجتاز الشمّاخُ ، وهي لا تعرفُه ، فقالت له : ما فعل الخبيثُ شمّاخٌ ؟ فقال لها : وما تُريدين منه ؟ قالت : إنّه فعل بصاحبةٍ لنا كَيْتَ كيت . فتجاهل عليها وقال : لا أَعلَمُ له خبراً ، ومضى وتركها وهو يقـول :

تُعارضُ أسماءُ الرِفـاقَ عَشيّـةً
تسائلُ عن ضِغْن النِساء النواكحِ
وماذا عليها أن قَلُوصٌ تمرَّغـت
بعِدِ لَيْن أو ألقتهما بالصَحـاصحِ

(١) قضها وقضيضها : أي جميعهم. البقيع : موضع بالمدينة . أزلت : أزلقت. الحجة ، بالكسر : شحمة الأذن ، أراد : ضربتك بنعالها . الشقراء : صفة للفرس أو اسم فرس بعينها . الجلال ج جل ، بالفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به .

فإنّكِ لو أُنكِحْتِ دارت بك الرَّحا
وألقيتِ رحلي سَمْحةً غيرَ طامح (١)

[الأبيات]

ثم دخل المدينة في بعض حوائجه ، فتعلّقت به بنو سُليم يطلبونه بظُلامة صاحبتهم ، فأنكر ، فقالوا : احلِفْ ، فجعل يطلب إليهم ويُغلّظ عليهم أمرِ اليمين وشدّتَها عليه ليرضَوا بها منه حتى رضُوا ، فحلف لهم وقال :

ألا أصبحت عِرْسي من البيتِ جامحاً
بغير بَلاءٍ أيُّ أمرٍ بدَا لها
على خَيْرةٍ كانت أم العِرسُ جامحٌ
فكيف وقد سُقنا إلى الحيّ مالَها
سترجِعُ غضبى رثّةَ الحال عندَنا
كما قطعت منّا بِليْلٍ وصالَها (٢)

* قال ابن الكلبيّ :

كان الشمّاخ يهوى امرأةً من قومه يقال لها كَلْبةُ بنت جوّال ، أختُ جبَل بن جوّال الشاعر ... وكان يتحدّث إليها ويقول فيها الشعر . فخطَبها فأجابَتْه وهمّت أن تتزوّجه . ثمّ خرج إلى سَفرٍ له فتزوّجَها أخوه جزْء ابن ضِرار ، فآلى الشمّاخ ألاّ يُكلّمه أبداً ، وهجاه بقصيدته التي يقول فيها :

---

(١) الضغن : الحقد . القلوص : الناقة الشابة القوية على السير : الصحاصح ، ج صحصح : الأرض الجرداء المستوية . لو أنكحت : يريد : لو تزوجتك لا نقلب أمرك وأنزلتني عندك وأكرمت مثواي. سمحة : منقادة . الطامح : المرأة الجامحة الناشز .
(٢) على خيرة : على حال مرضية خيرة .

لنا صاحبٌ قد خان من أجْل نَظْرة
سَقيمُ الفؤاد حُبُّ كَلْبَةَ شاغِلُه

فماتا متهاجِرَين .

* عن عبد الله بن مُسلم أنّ الشمّاخ خرج يُريد المدينة فلقيَه عَرابة بن أوس ، فسأله عمّا أقدمه المدينة فقال : أردتُ أن أمتار [1] لأهلي . وكان معه بعيران فأوقرهما له بُرّاً وتَمراً وكساه وبرَّه وأكرمه . فخرج عن المدينة وامتدحه بهذه القصيدة الّتي يقول فيها :

رأيت عَرابة الأوسيّ يسمو إلى الخيرات مُنقطِعَ القَرينِ

عن المدائنيّ قال :

أُنشد عبد الملك قولَ الشمّاخ في عَرابة بن أوس :

إذا بَلّغْتِني وحملتِ رَحْلي عَرابةَ فاشْرَقي بدم الوتينِ [2]

فقال : بِئْست المكافأةُ كافأها ! حملت رحلَه وبَلَّغَتْه بُغْيته فجعل مكافأتَها نَحْرَها .

* * *

(١) امتار لأهله ومار لهم : جلب لهم الطعام ، والميرة : جلب الطعام .
(٢) الوتين : عرق في القلب .

١٦

العبّاس بن مِرداس السُّلَمي

(الأغاني ج ١٤ ص ٣٠٢ وما بعدها)

الشاعر

العبّاس بن مرداس ... بن سُليم بن منصور بن عِكرمة بن خَصفة بن قيس بن عيلان بن مُضَر بن نزار ، ويكنى أبا الهيثم ... وأمه الخَنساء الشاعرة بنت عمرو بن الشَّريد [1] .

(١) فيما ذكره أبو الفرج من أن أم العباس بن مرداس هي الخنساء الشاعرة نظر ، وقد تابعه في ذلك جل من ترجموا للعباس بن مرداس ، وثمة رواية عن ابن الكلبي (سمط اللآلي ٣٢/١) تنص على أن الخنساء أم ولد مرداس جميعاً إلا العباس ، وفي المحبر لابن حبيب (ص ٤٥٥) أن أم العباس هند بنت سنة بن سنان السلمية ، وهي من المنجبات ، وقد ولدت غير العباس إخوته يزيد وهريماً وسراقة وأنساً وهبيرة ،وابن حزم يعدد أبناء الخنساء من مرداس ولا يذكر العباس معهم ، وهذا ما نرجحه ولا سيما أننا لا نجد في شعر العباس ولا في أخباره ما يدل على أن الخنساء أمه. (أنظر لمزيد من التفصيل ديوان العباس بن مرداس تحقيق يحيى الجبوري).

وكان العبّاس فارساً شاعراً شديدَ العارضة والبيان ، سيّداً في قومه من كلا طرفَيه . وهو مخضرمٌ أدرك الجاهليّة والإسلام .

من أخباره في الجاهليّة :

* قال أبو عبيدة :

كان هُرَيم بن مِرداس مجاوراً في خُزاعة ، في جِوار رجلٍ منهم يقال له عامر ، فقتله رجلٌ من خُزاعة يُقال له خُوَيلِد . وبلغ ذلكَ أخاه العبّاس ابن مرداس فقال يحضّ عامراً على الطلَب بثأر جاره :

إذا كان باغٍ منك نـال ظُلامـــةً
فإنّ شِفاء البَغْيِ سَيْفُكَ فافْصِـــلِ
ونُبِّئْتُ أنْ قد عوّضوكَ أبا عـراً ... وذلك للجيران غَزْلٌ بمِغْزَلِ
فخُذْها فليستْ للعزيزِ بنُصْـرةٍ ... وفيها مَتاعٌ لامرِىءٍ مُتَذَلِّلِ (١)

فلمّا بلغته هذه الأبيات آلى لا يصيبُ رأسه ولا جسدَه ماءٌ بغُسْلٍ حتى يثأرَ بهُرَيم . ثم إنّ أبا حُلَيسٍ النَّصْريّ (٢) لقِيَ خُويلداً ، قاتل هُرَيم ، فقتله . فقال بنو نَصر : بُؤْ (٣) بدم فُلان النصريّ – رجلٌ كانت خُزاعةُ قتلته – فقال أبو الحُلَيس : لا ، بل هو بُؤْ بدم هُرَيم بن مِرداس ، وبلغ العبّاسَ فقال يمدحُه بقوله :

أتاني من الأنباء أنّ ابنَ مالكٍ ... كفى ثائراً من قومه مَن تغيّبا

---

(١) أباعر : جمع قلة للبعير . غزل بمغزل : كانوا يعيرون الرجل العاجز عن الطلب بثأره بأنه امرأة يحسن به أن يغزل شأن النساء .

(٢) بنو نصر : هم بنو نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، من قيس عيلان

(٣) باء دمه بدمه : عدله ، وباء بفلان ، قتل به .

ويلقاك ما بين الخَميس خُويلِدٌ   أرى عجباً بل قتلُه كان أعجبا
فدىً لك أمّي إذ ظَفِرت بقتله   وأقسم أبغي عنك أمّاً ولا أبا
فمثلُك أدّى نُصرةَ القوم عَنوةً   ومثلُك أعيا ذا السِلاح المُجرَّبا(١)

* قال أبو عبيدة :

أغارت بنو نصر بن معاوية على ناحية من أرض بني سُلَيم ، فبلغ ذلك العبّاس بن مِرداس ، فخرج إليهم في جمع من قومه فقاتلهم حتى أكثر فيهم القتل ، وظهرت عليهم بنو سُلَيم وأسروا ثلاثين رجلاً منهم ، وأخذت بنو نصرٍ فرساً للعبّاس عائرة (٢) يقال لها زِرّة ، فانطلق بها عَطيّة بن سفيان النصريّ – وهو يومئذٍ رئيس التوم – فقال في ذلك العبّاس :

أبى قومُنا إلاّ الفِرارَ ومن تكُن   هوازنُ مَولاه من الناس يُظْلَمِ
أغار علينا جَمعهُم بين ظالمٍ   وبين ابن عمٍّ كاذب الوُدِّ أيْهَمِ
كِلابٌ وما تَفعلْ كلابٌ فإنّها   وكعبٌ سَراةُ البيت ما لم تَهدَّمِ
فإن كان هذا صُنعُكم فتجرّدُوا   لألْفينَ منا حاسرٍ ومُلأّمِ
وحربٍ إذا المرءُ السَمينُ تمرّست   بأعطافه بالسيف لم يَترمرمِ
ولم أحتسب سُفيانَ حتّى لقيتُه   على مَأقَطٍ إذ بيننا عِطرُ مَنْشَمِ
فقلت وقد صاح النساءُ خِلالَهم   لخيليَ شُدّي إنّهم قومُ لَهْذَمِ
فما كان تَهليلٌ لَدُنْ أن رَميتُهم   بزِرّة ركضاً حاسراً غيرَ مُلجَمِ
إذا هي صَدّت نحرَها عن رماحهم   أقدّمُها حتّى تنعَّلَ بالدمِ
وما زال منهم رائغٌ عن سبيلها   وآخرُ يهوي لليدَين وللفَمِ
لَدُنْ غُدوةً حتّى استبيحوا عَشيّةً   وذَلّوا فكانوا لُحمةَ المُتلَحِّمِ

---

(١) الثائر : الطالب بالثأر . وأقسم أبغي : أي أقسم لا أبغي .
(٢) عائرة : شاردة .

فأبوا بها عُرْفاً وألقيتُ كَلْكَلي على بطلٍ شاكي السِلاحِ مُكَلَّم
ولن يمنع الأقوامَ إلاّ مُشايِحٌ يُطارِد في الأرض الفَضاء ويرتمي (١)

قال : ثم إنّ العبّاس بن مرداس جمع الأسارى من بني نصر ، وكانوا ثلاثين رجلا ، فأطلقهم وظنّ أنهم سيُثيبونه بفعله وأنّ سفيان سيردّ عليه فرسه زِرّة ، فلم يفعلوا ، فقال في ذلك :

أزِرّةُ خيرٌ أم ثلاثون منكم طليقاً رَدَدْناه إليكم مُسلَّما

قال : وجعل العبّاس يهجو بني نصر ، فبلغه أنّ سفيان بن عبد يَغُوثَ يتوعّده في ذلك ، فلقيه عبّاس في المواسم فقال له سفيان : واللهِ لَتَنْتَهِيَنّ أو لأصْرِمَنّك ، فقال عبّاس :

أتُوعِدُني بالصَرْمِ أن قلتُ أوْفِني
فأوْفِ وزِدْ في الصَرْم لِهِزْمَةَ النَتْنِ (٢)

وقال العبّاس أيضاً فيه :

ألا مَن مُبلِغٌ سُفيانَ عنّي وظنّي أن سيُبلِغُه الرسولُ
ومولاه عطيّةَ أنّ قِيلاً خلا منّي وأن قد بات قِيلُ

---

(١) أبى قومنا : أراد بني نصر لأنهم أبناء عم بني سليم . الأيهم : من لا عقل له ولا فهم . السراة : من كل شيء أعلاه . كلاب وكعب : قبيلان من بني عامر بن صعصعة . الحاسر : من لا درع عليه ولا بيضة على رأسه والملأم : لابس اللأمة وهي الدرع . لم يترمرم : لم يتحرك . المأقط : المكان الضيق . منشم : امرأة كان العرب يتشاءمون بها لأن قوماً تطيبوا بطيبها فقتلوا . اللهذم : السنان القاطع . المتلحم : آكل اللحم ، أرادوا أنهم قتلوا بلا عناء . عرفاً : معترفين بالهزيمة . الكلكل : الصدر . شاكي السلاح : سلاحه ذو شوكة . المشايح : الجاد في القتال . ويلاحظ أن الأبيات ليس فيها ما يشير إلا استيلاء بني نصر على زرة ، فرس العباس ، وهو يذكر في أبياته سفيان لا عطية الذي ورد اسمه في سياق الخبر .
(٢) اللهز متان : عظمان ناتئان تحت الأذنين .

سئمتم ربَّكم وكفرتُمـوه ... وذلكمُ بأرضِكم جميل
ألا تُوفي كما أوفى شَبَيبٌ ... فحلَّ له الوِلايةُ والشَّمُولُ
أبوه كان خيرَكم وفاءً ... وخيرَكم إذا حُمِد الجميلُ
ألامُ على الهجاء وكلَّ يوم ... تُلاقيني من الجيران غُولُ
سأجعلُها لأجمعكم شِعاراً ... وقد يَمضي اللسانُ بما يقول (١)

* قال أبو عمرو أبو عبيدة :

جمع العبّاس بن مرداس بن أبي عامر – وكان يقال للعبّاس : مقطّع الأوتاد – جمعاً من بني سُليم فيه من جميع بطونها ، ثم خرج بهم حتى صبّح بني زُبَيد بتثليثَ من أرض اليمن ، بعد تسع وعشرين ليلة ، فقتل فيها عدداً كثيراً وغنِم حتى ملأ يديه ، فقال في ذلك :

لأسماءَ رسمٌ أصبح اليومَ دارسا ... وقفتُ به يوماً إلى الليل حابِسا

يقول فيها :

فدع ذا ولكن هل أتاكَ مَقادُنا ... لأعدائنا نُزجي الثِقال الكوادِسا
سَمَوْنا لهم تِسعاً وعشرين ليلةً ... نُجيزُ من الأعراض وَحْشاً بَسابِسا
فلم أرَ مثلَ الحيّ حيّاً مُصَبَّحاً ... ولا مِثلَنا يوم التقينا فوارسا
إذا ما شدَدْنا شَدّةً نَصَبُوا لنا ... صُدورَ المَذاكي والرِماحَ المَداعسا
وأحصَنَنا منهم فما يَبْلُغُوننا ... فوارسُ مِنّا يَحبِسُون المحابسا
وجُردٌ كأنَّ الأُسْدَ فوقَ مُتونِها ... من القوم مَرؤوساً كَمِيّاً ورائسا
وكنتُ أمامَ القَوم أوّلَ ضاربٍ ... وطاعنتُ إذ كان الطِعان تَخالسا

---

(١) القيل : القول . خلا : مضى . الشمول : ضبطت في المطبوعة بضم الشين وهي مصدر شمله إذا ألبسه المشملة ، وبالفتح : الخمرة . الغول : الداهية .

ولو مات منهم مَن جرحنا لأصبحت ضِباعٌ بأكناف الأراك عرائسا [1]

فأجابه عمرو بن معديكربَ عن هذه القصيدة بقصيدةٍ أولها :

لِمَن طللٌ بالخيفِ أصبح دارسـا تبدّل آراماً وعِيناً كوانسا [2]

شعره في جلاء بني النَّضير :

عن فُليح بن سليمان قال : قال العبّاس يذكر جلاء بني النّضير ويبكيهم بقولـه :

لو انّ قطينَ الدار لم يتحمّلـوا وجدت خِلال الدار مَلهىً ومَلعبـا
فإنك عَمْري هل رأيتَ ظَعائنـاً سلكن على رُكن الشَّظاة فميثَبـا
عليهنّ عِينٌ من ظباء تَبالـةٍ أوانسُ يُصْبين الحليمَ المجرَّبـا
إذا جاء باغي الخيرِ قُلنَ بشاشـةً له بوجوهٍ كالدنانير : مَرحبـا
وأهلاً فلا ممنوعُ خيرٍ طلبتَـه ولا أنت تخشى عندنا أن تُؤنَّبـا

---

(١) هذه القصيدة من المنصفات ، وهي القصائد التي أنصف قائلوها فيها أعداءهم ، وقد رويت بتمامها في الأصمعيات (ص ٢٣٦) ، وبين رواية الأغاني ورواية الأصمعيات بعض الاختلاف وعجز البيت الأول في الأصمعيات : واقفر منها رحرحان فراكسا . نزجي : نقود . الثقال الكوادس : الخيل المثقلة بما عليها ، يقال : كدس الفرس : إذا مشى كأنه مثقل . نجيز : نجوز وأجاز الموضع خلفه وراءه . الأعراض : النواحي . المذاكي ج المذكي : الفرس إذا جاوز القروح بسنة ، والفرس يكون قارحاً إذا دخل في السادسة . المدعس من الرماح : الشديد القوي. الجرد : صفة للخيل السريعة. الأراك : شجر ينبت في البادية حمض يستاك به. وقوله : ضباع الخ البيت فسره بعضهم أن الضبع إذا مات القتيل فانتفخ ذكره قعدت عليه. وفي المطبوعة : ضياع ، ولا يستقيم بها المعنى .

(٢) آرام ج رئم : الظبي الخالص البياض . العين : بقر الوحش . كنس الظبي : دخل في كناسه ، وهو ما يواريه من الشجر .

فلا تحسَبنّي كنت مولى ابن مِشْكَمٍ سلامٍ ولا مولى حُيَيّ بن أخطَبا [1]

فقال خَوّات بن جُبَير يُجيب العبّاس :

أتبكي على قتلي يَهُودَ وقد تَرى من الشَجْو لو تبكي أحقَّ وأقربا

فهلاّ على قتلى ببطن أُوارةٍ بكيتَ وما تبكي من الشجو مُغضَبا

[الأبيات ...]

قال الزبير : فحدّثني محمد بن الحسن عن مُحرِز بن جعفر قال :

التقى عبّاس بن مرداس وخوّات بن جُبير يوماً عند عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فقال خوّات : يا عبّاسُ ، أأنت الذي رثيت اليهود ، وقد كان منهم في عداوة رسول الله ﷺ ما كان ! فقال عبّاس : إنّهم كانوا أخلاّئي في الجاهلية، وكانوا أقواماً أنزل بهم فيكرمونني ، ومثلي يشكر ما صُنع إليه من الجميل . وكان بينهما قولٌ حتى تجاذبا . فقال له خوّات : أما واللهِ ، لئن استقبلت غَرْب [2] شبابي ، وشبا [3] أنيابي ، وخشِن جوابي ، لتكرهنَّ عتابي . فقال عبّاس : الله يا خوّات ، لئن استقبلت عَنّي وفَنّي وذَكاء سنّي [4] ، لَتَفِرَّنَّ منّي . إيّاي تتوعّد يا خَوّات، يا عانيَ السَوْءات [5] ، والله لقد استقبلك اللؤمُ فردَعك [6] ، واستدبرك فكَسَعك [7]

---

(١) القطين : ساكنو الدار . تحملوا : ارتحلوا عن ديارهم . الشظاة : موضع دون خيبر . ميثب : موضع في خيبر . حيي بن أخطب : سيد بني النضير .

(٢) الغرب : الحدة .

(٣) الشباج شباة : من كل شيء حده .

(٤) العن : الاعتراض . الفن : الأمر العجب ، يقال : رجل معن مفن ، المعن : الذي يعرض في كل أمر ، والمفن : الذي يأتي بكل أمر عجيب .

(٥) العاني : الأسير .

(٦) ردعه بالشيء : لطخه به .

(٧) كسعه : ضربه من خلف .

وعلاك فوضعك ، فما أنت بمهجوم عليه من ناحية إلا عن فضل لؤم ، إيّاي — ثكلتك أمّك — تروم ، وعليّ تقوم ! والله ما نُصبت سوقُك ، ولأظهرنّ عليك بعدُ .

فقال عمر لهما : إمّا أن تسكتا ، وإمّا أن أوجعكما ضرباً ، فصمتا وكفّا .

قدومه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وإسلامه

قال أبو عبيدة :

كانت تحت العبّاس بن مرداس حبيبة بنت الضحّاك بن سفيان السُلَميّ ، أحد بني رِعْل بن مالك . فخرج عبّاس حتى انتهى إلى إبله ، وهو يريد النبيّ ﷺ ، فبات بها . فلمّا أصبح دعا براعيه فأوصاه بإبله وقال له : من سألك عنّي فحدّثه أنّي لحقتُ بيثرب ، ولا أحسبني — إن شاء الله تعالى — إلاّ آتياً محمّداً وكائناً معه ، فإنّي أرجو أن نكون برحمة من الله ونور ، فإن كان خيراً لم أُسبق إليه ، وإن كان شرّاً نصرته لخؤولته ، على أنّي قد رأيت الفضل البيّن وكرامة الدنيا والآخرة في طاعته ومؤازرته واتّباعه ومبايعته وإيثار أمره على جميع الأمور ، فإنّ مناهج سبيله واضحة ، وأعلام ما يجيءُ به من الحقّ نيّرة ، ولا أرى أحداً من العرب ينصب له (١) إلاّ أُعطي عليه الظفر والعلوّ ، وأراني قد أُلقيتْ عليّ محبّةٌ له ، وأنا باذلٌ نفسي دون نفسه ، أريد بذلك رضى إله السماء والأرض .

قال : ثمّ سار نحو النبيّ ﷺ ، وانتهى الراعي نحو إبله ، فأتى امرأته

---

(١) نصب له : عاداه .

فأخبرها بالذي كان من أمره ومسيره إلى النبيّ ﷺ ، فقامت فقوّضت بيتها ولحقت بأهلها . فذلك حيث يقول عبّاس بن مرداس ، حين أحرق ضِماراً (١) ولحق بالنبيّ ﷺ :

لَعَمْريَ إنّي يوم أجعل جاهداً ضِماراً لربّ العالمين مُشاركا
وتَركي رسولَ الله والأوسُ حولَه أولئك أنصارٌ له ، ما أولئكا
كتاركِ سهلِ الأرضِ والحَزْنِ يبتغي ليَسلُكَ في غيبِ الأمور المسَالكا
فآمنتُ بالله الذي أنا عَبدُه وخالفتُ من أمسَى يُريد المَمالكا
ووجّهتُ وجهي نحوَ مكّةَ قاصداً وتابعتُ بين الأخشَبَيْن المبَاركا
نبيٌّ أتانا بعد عيسى بناطقٍ من الحقّ فيه الفصلُ منه كذالكا
أميناً على الفُرقانِ أوّلَ شافعٍ وآخرَ مبعوثٍ يُجيب المَلائكا
تَلافى عُرا الإسلام بعد انفصامِها فأحكمَها حتّى أَقام المناسكا
رأيتُكَ يا خيرَ البريّة كلِّها توسّطتَ في القُربى من المجد مالِكا
سبقتَهم بالمجد والجُود والعُلا وبالغايةِ القُصوى تَفُوت السَنابكا
فأنت المُصَفّى من قُريش إذا سَمَت غَلاصِمُها تَبغي القُرومَ الفَوارِكا (٢)

قال : فقدم عبّاس على رسول الله ﷺ المدينة حيث أراد المسير إلى مكّةَ عامَ الفتح ، فواعده رسول الله ﷺ قُدَيداً (٣) وقال : القَني أنت وقومك

(١) ضمار : صنم كان يعبده مرداس بن أبي عامر السلمي ورهطه .
(٢) الأخشبان : جبلان حول مكة وهما « أبو قبيس » و « الأحمر » . مالك : أراد مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ، وإليه تنسب قريش . السنابك ج سنبك : طرف الحافر . الغلاصم ج غلصمة : السادة ، وأصلها من الغلصمة وهي أعلى الحلق . القروم ج قرم : السيد . الفوارك ج فارك ، وهو المبغض لامرأته ، أراد أنهم لا تلهيهم النساء عن عظائم الأمور .
(٣) قديد : موضع قرب مكة .

بقديد . فلمّا نزل رسول الله ﷺ قُديداً وهو ذاهبٌ لقيه عبّاسٌ في ألفٍ من بني سُلَيم . ففي ذلك يقول عبّاس بن مرداس :

بَلِّغْ عِبادَ الله أنّ محمّداً ... رسولَ الإلهِ راشدٌ أينَ يَمّما
دعا قومَه واستنصر اللهَ ربَّه ... فأصبح قد وافى الإلَهَ وأنعما
عشيّةَ واعدْنا قُدَيداً محمّداً ... يَؤُمُّ بنا أمراً من الله مُحْكَما
حلفتُ يَميناً بَرَّةً لِمُحمّدٍ ... فأوفيتُه ألفاً من الخيلِ مُعْلَما
سرايا يراها اللهُ وهو أميرُها ... يَؤُمُّ بها في الدين مَن كان أظلما
على الخيلِ مشدُوداً علينا درُوعُنا ... وخيلاً كدُفّاع الأتيِّ عرَمْرَما
أطعناكَ حتّى أسلمَ الناسُ كلُّهم ... وحتّى صبّحنا الخيلَ أهلَ يَلَمْلَما(١)

قال : ولمّا عرّف راعي العبّاس بن مِرداس زوجتَه بنت الضحّاك بن سفيان خبره وإسلامه قوّضت بيتها وارتحلت إلى قومها وقالت تؤنّبُه :

ألم يَنْهَ عبّاسَ بن مِرداسَ أنّني ... رأيتُ الورَى مخصوصة بالفَجائع
أتاهم من الأنصار كلُّ سَمَيْذَعٍ ... من القومِ يَحمي قومَه في الوقائع
بكلِّ شديدِ الوَقع عَضْبٍ يقُودُه ... إلى الموتِ هامُ المُقْرَبات البَرائع
لَعَمْري لَئن تابعتَ دينَ مُحمّدٍ ... وفارقتَ إخوانَ الصَّفا والصَّنائع
لَبدلْتَ تلك النفسَ ذُلاً بعِزّةٍ ... غداةَ اختلافِ المُرهَفات القَواطع
وقومٍ همُ الراسُ المُقَدَّم في الوغى ... وأهلُ الحِجا فينا وأهلُ الدَسائع
سيوفُهم عِزُّ الذليل وخيلُهم ... سِهامُ الأعادي في الأمور الفظائع(٢)

(١) يمم : قصد وتوجه . الدفاع : كثرة الماء وتدافعه . الأتي : السيل . العرمرم : الكثير العدد . يلملم : جبل على مرحلتين من مكة .
(٢) السميذع : السيد الكريم الشجاع . العضب : صفة للسيف القاطع . الهام ج هامة : الرأس . المقربات : الخيل التي تقرب للركوب والغارة . البرائع ج بريعة : المرأة الفائقة العقل والجمال ، جعلها هنا وصفاً للفرس . الحجا : العقل . الدسائع ج دسيعة : العطية .

من أخباره في الإسلام

* عن ابن إسحاق :

أن رسول الله ﷺ قسّم غنائم هوازن فأكثر العطايا لأهل مكّة وأجزل القَسْم لهم ولغيرهم ممّن خرج إلى حُنين ، حتّى إنه كان يعطي الرجل الواحد مائة ناقةٍ ، والآخر ألفَ شاةٍ ، وزوى كثيراً من القَسم عن أصحابه ، فأعطى الأقرع بن حابس ، وعُيينة بن حِصن ، والعبّاس بن مرداس عطايا فضّل فيها عُيينة والأقرع على العبّاس . فجاءه العبّاس فأنشده ·

وكانت نهاباً تلافيْتُهـــا ... بكَرّي على المُهْر في الأجْرَعِ
وإيقاظي الحيَّ أن يرقُدوا ... إذا هجع القومُ لم أهْجَعِ
فأصبح نَهبي ونَهبُ العُبَيـ ... ـدِ بين عُيينةَ والأقرعِ
وقد كنت في الحرب ذا تُدْرَأ ... فلم أُعْطَ شيئاً ولم أُمْنَعِ
وما كان حِصنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مِرداسَ في مَجْمَعِ
وما كنت دون امرىءٍ منهما ... ومن تَضَعِ اليومَ لا يُرفَعِ (١)

فبلغ قوله رسول الله ﷺ فدعاه فقال له : أنت القائل : أصبح نهبي ونهب العُبيد بين الأقرع وعيينة ؟ فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لم يقل كذلك ، ولا الله ما أنت بشاعر ، ولا ينبغي لك الشعر ، وما أنت براوية . قال : فكيف قال ؟ فأنشده أبو بكر رضي الله عنه ، فقال : هما سَواءٌ ، لا يضرُّك بأيّهما بدأت : بالأقرع أم بعُيَينة . فقال رسول الله ﷺ : اقطعوا عنّي لسانَه . وأمر بأن يُعطوه من الشاء والنَعَم ما يُرضيه ليُمسِكَ ، فأعطي .

---

(١) النهاب : الغنائم . الأجرع : المكان السهل . العبيد : اسم فرس للعباس . ذا تدرأ : ذا مدافعة وذا عزة ومنعة .

قال : فوجَدت الأنصار في أنفسها وقالوا : نحن أصحاب موطن [1] وشِدّة ، فآثر قومه علينا وقسم قَسْماً لم يقسِمه لنا ، وما نُراه فعل هذا إلا وهو يريد الإقامة بين أظهُرهم .

فلما بلغ قولهم رسولَ الله ﷺ أتاهم في منزلهم فجمعهم وقال : من كان هاهنا من غير الأنصار فليرْجع إلى أهله . فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر الأنصار ، قد بلغَتْني مَقَالةٌ قلتمُوها ، وموجِدةٌ [2] وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله ؟ قالوا : بلى . قال : ألم آتِكم قليلاً فكثّركم الله ؟ قالوا : بلى . قال : ألم آتكم أعداءً فألّف اللهُ بين قلوبكم . قالوا : بلى .

قال محمد بن إسحاق : وحدّثني يعقوب بن عُيينة أنه قال : ألم آتِكم وأنتم لا تركبون الخيل فركبتموها ؟ قالوا : بلى . قال : أفلا تجيبون يا معشر الأنصار ؟

قالوا : للهِ ولرسوله المَنّ والفضل ، جئتَنَا يا رسول الله ونحن في الظُلُمات فأخرَجَنا الله بك إلى النُور ، وجئتنا يا رسول الله ونحن على شَفا حُفرةٍ من النار فأنقذَنا الله ، وجئتنَا يا رسول الله ونحن أَذِلّةٌ قليلون فأعزّنا الله بكَ ، فرضِينا بالله ربّاً ، وبالإسلام دِيناً ، وبمحمدٍ رسولاً .

فقال ﷺ : أما واللهِ لو شئتم لأجبتموني بغير هذا فقُلتم : جئتنا طريداً فآويناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وعائلاً [3] فأغنيناك ، ومكذَّباً فصدّقناك ، وقبِلنا منك ما ردّه عليك الناسُ ، لقد صَدقتُم . فقال الأنصار : للهِ ولِرسوله علينا المَنُّ والفضلُ . ثمّ بكَوا حتى كَثُر بكاؤُهم ، وبكى رسولُ الله ﷺ

---

(١) الموطن : الموقف في الحرب .
(٢) الموجدة : الغضب .
(٣) عائلا : فقيراً وعال يعيل : افتقر .

وقال : يا معشرَ الأنصار وجَدتُم في أَنفُسكم في الغنائم أن آثرتُ بها ناساً أَتألفُّهم على الإسلام لِيُسلِموا ، ووَكلتُكم إلى الإسلام . أوَ لا ترضَون أن يذهبَ الناس بالشاء والإبل وترجِعُوا برسول الله إلى رِحالكم ! والذي نفسُ محمدٍ بيده لو سَلَكَ الناس شِعباً (١) ، وسلك الأنصار شعباً ، لسلكتُ شعبَ الأنصار . ولولا الهِجرةُ لكنتَ امرءاً من الأنصار . ثمّ بكى القومُ ثانيةً حتّى أخضَلُوا (٢) لِحاهم ، وقالوا : رضِينا يا رسولَ الله بالله وبرسوله حظاً وقَسْماً . وتفرّق القومُ راضين ، وكانوا بما قال لهم رسول الله ﷺ أشدَّ اغتباطاً من المال .

وفــاته

قال أبو عبيدة : وكان العبّاس وسُراقة وحَزن وعمرو بنو مرداس كلُّهم من الخنساء بنت عمرو بن الشَريد ، وكلُّهم كان شاعراً ، وعبّاسٌ أشعرُهم وأشهرُهم وأفرسُهم وأسودُهم ، ومات في الإسلام فقال أخوه سُراقة يرثيه :

أعينِ ألا ابكي أبـــا الهيـثم ... وأَذري الدموع ولا تسأمـي
وأثني عليــه بآلائِـــــه ... بقولِ امرىءٍ مُوجَعٍ مُؤْلَمِ
فما كنت بائعَـــه بامـرىءٍ ... أراه ببَدْوٍ ولا مَوْسِـمِ
أشدّ على رجـــلٍ ظـــالمٍ ... وأدهى لداهيــةٍ ميثَم (٣)

وقالت أخته عَمْرة ترثيه :

---

(١) الشعب : الطريق في الجبل .
(٢) أخضلوا : بلوا .
(٣) ميثم : شديد الوطء .

لتَبْكِ ابنَ مِرداسٍ على ما عَراهمُ عشيرتُه إذ حُمّ أمسِ زوالهُــا
لدى الخَصْم إذ عند الأمير كفاهــمُ فكان إليه فَصْلُها وجِدالُهــا
ومُعضلةٍ للحامِلــين كفَيتَهــا إذا أنهلت هُوجَ الرياحِ طِلالُها[1]

* * *

(١) حم : حان . أنهلت : روت . طلال ج طلل : أضعف المطر ، أي هو غياث لقومه زمن الشدة.

١٧

عَبْدبَني الحَسْحَاس

(الأغاني ج ٢٢ ص ٣٠٣ وما بعدها)

الشاعر

اسمه سُحَيم ، وكان عبداً أسودَ نوبيّاً أعجمياً مطبوعاً في الشعْر ، فاشتراه بنو الحَسْحاس ، وهم بطنٌ من بني أسد ...

قال أبو عُبيدة : كان عبدُ بني الحسحاس عبداً أسودَ أعجمياً ، فكان إذا أنشد الشعر – استحسنَه أم استحسنه غيرُه منه – يقول : أهشَنت واللهِ – يريد أحسنت والله . وأدرك النبيَّ ﷺ ويقال إنه تمثل بكلمات من شعره غير موزونـــة .

عن الحسن : أنّ النبيّ ﷺ تمثل :

كفى بالإسلام والشَيب ناهيا

فقال أبو بكر : يا رسولَ الله :

كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

فجعل لا يُطيقه ، فقال أبو بكر : أَشهد أنك رسولُ الله « وما علّمناه الشعرَ وما ينبغي له » .

عن محمد بن سلاّم قال : كان عبدُ بني الحسحاس حُلو الشِعر ، رقيق الحواشي ، وفي سواده يقول :

وما ضرّ أثوابي سَوادي وإنني
لَكَالمِسْكِ لا يسلُو عن المِسك ذائقُهْ
كُسيت قميصاً ذا سَوادٍ وتحتَه
قميصٌ من القُوهِيِّ بِيضٌ بنائقُه (١)

عن أحمد بن أبي خَيْثمةَ قال : أنشدني مُصعَب بن عبد الله الزُبَيريّ لعبد بني الحَسْحاس – وكان يَستحسن هذا الشعر ويُعجَب به – قال :

أشعارُ عبدِ بني الحَسْحاس قُمْنَ له
عندَ الفَخار مَقام الأصل والوَرَقِ
إن كنتُ عبداً فنفسي حُرّةٌ كَرَماً
أو أسودَ اللونِ إني أبيضُ الخُلُقِ (٢)

---

(١) القوهي : ضرب من الثياب البيض ينسب إلى قوهستان ، وأراد به الشاعر كرم خلقه وفعاله .
البنائق ج بنيقة : ما يحيط بالثوب من العنق .
(٢) الورق : الدراهم المضروبة .

إعجاب عمر بقصيدة له

عن محمد بن سَلاّم قال : أنشَد سُحيمٌ عمرَ بن الخطاب قوله :

عُميرةَ وَدِّعْ إن تَجهّزتَ غاديـا   كفى الشَيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

فقال عمر : لو قُلتَ شعرَك كُلَّه مثل هذا لأعطيتُك عليه .

بدء قوله الشعر

قال الأثرم : حدّثني السَّرِيُّ بن صالح بن أبي مُسْهِرٍ قال : أخبرني بعض الأعراب أنّ أوّل ما تكلّم به عبدُ بني الحَسْحاس من الشعر أنهم أرسلوه رائداً فجاء وهو يقول :

أنعتُ غيثاً حسنـاً نباتُـه   كالحَبَشِيِّ حولَـه بناتُه

فقالوا : شاعرٌ واللهِ . ثم انطلق بالشعر بعد ذلك .

هجـاؤه نفسه :

ابن أخي الأصمعي عن عمه قال :

كان عبد بني الحسحاس قبيح الوجه ، وفي قُبحه يقول :

أتَيتُ نِساءَ الحارثيّين غُـدوةً   بوجهٍ يراه اللهُ غيرَ جميلِ
فشبّهنَني كَلباً ولستُ بفَوقـه   ولا دونه إن كان غيرَ قليل

خبر قتله :

عن محمد بن سَلاّم قال :

أتِي عُثمانُ بن عَفّان بعبد بني الحسحاس ليشتريَه فأعجب به ، فقالوا : إنه شاعرٌ ، وأرادوا أن يُرَغِّبُوه فيه ، فقال : لا حاجةَ لي به ، إذ الشاعرُ لا حريمَ له : إن شَبع تشبَّب بنساء أهله ، وإن جاع هجاهم . فاشتراه غيرُه ، فلمّا رحل قال في طريقه :

أشوقاً ولمّا تَمض لي غيرُ ليلةٍ فكيف إذا سار المطيُّ بنا شَهرا
وما كنت أخشى مالكاً أن يبيعَني بشيءٍ ولو أمست أناملُه صِفرا
أخُوكم ومَولى مالِكم وحليفُكم ومَن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا (١)

فلما بلغهم شعره هذا رثوا له فاستردّوه . فكان يُشبّب بنسائهم ... فقتلوه .

قال أبو عبيدة :

الذي تناهى إلينا من حديث سُحيم ، عبد بني الحسحاس ، أنه جالس نِسوةً من بني صُبير بن يربوع ، وكان من شأنهم إذا جلسوا للتغزّل أن يتعابثوا بشَقّ الثياب وشدّة المغالبة على إبداء المحاسن . فقال سُحيم :

كأنّ الصُبَيريّات يومَ لَقِيننا ظِباءٌ حنَت أعناقها في المَكانِس
فكم قد شَقَقْنا من رِداءٍ مُنَيَّرٍ ومن بُرقُعٍ عن طَفْلةٍ غيرِ ناعسَ
إذا شُقّ بُرْدٌ شُقّ بالبُردِ بُرقعٌ على ذاك حتى كلُّنا غيرُ لابسِ (٢)

---

(١) المطي : النوق . صفر : فارغة ، أراد حتى لو افتقر فلم يبق معه شيء من المال.
(٢) المكانس ج مكنس : ما يواري الظبي من الشجر وهو كناسه أيضاً . منير : له نير ، وهو علم الثوب .

فيقال إنه لمّا قال هذا الشعر اتهمه مولاه فجلس له في مكانٍ كان إذا رعى نام فيه ، فلما اضطجع تنفس الصُعَداء ثم قال :

يا رُبَّ شجوٍ لكَ في الحـاضر تذكُرُها وأنت في الصادر
من كلّ بيضاءَ لهـا كَعْثَـبٌ مثلُ سَنامِ البَكْرة المائرِ (١)

قال : فظهر سيده من الموضع الذي كان فيه كامناً وقال له : مالَكَ ؟ فلجلج في منطقه ، فاستراب به ، فأجمع على قتله .

فلمّا ورد الماءَ خرجت إليه صاحبتُه ، فحادثته وأخبرته بما يُراد به ، فقام ينفُض ثوبه ويعفّي أثره ويلقُط رَضّاً من مَسَكِها (٢) كان كسرها في لَعبه معها ، وأنشأ يقول :

أتُكتَمُ حُيِّيتم على النأي تُكْتَمَا تحيةَ من أمسى يُحِبُّك مُغرَما
وما تُكْتَمين إن أتيتِ دَنِيَّةً ولاإن رَكِبْنا ، يابنةَ القوم ، مَحرَما
ومِثْلَكِ قد أبرزتُ من خِدْرِ أمِّها إلى مَجلسٍ تَجرُّ بُرْداً مُسَهَّما
وماشيةٍ مَشْيَ القَطاةِ اتَّبعتُها من السِتْر تَخشى أهلَهاأن تَكَلَّما
فقالت : صَهٍ يا وَيْحَ غيرِك إنني سمعتُ حديثاً بينَهم يَقْطُرُ الدما
فنفَّضتُ ثوبَيها ونظّرتُ حولَها ولم أخشَ هذا الليلَ أن يَتصرَّما
أعِفّي بآثارِ الثِيابِ مَبيتَها وألْقُطُ رضّاً من وُقُوفٍ تحطّما (٣)

قال : وغَدَوا به ليقتلُوه ، فلما رأتْه امرأةٌ كانت بينَها وبينه مودّةٌ ثم فسَدت ، ضحكت به شَماتةً ، فنظر إليها وقال :

---

(١) روي صدر البيت الأول روايتين في المطبوعة، والرواية التي أثبتناها أجود. الكعثب : قبل المرأة ، وهذه رواية الديوان ، وفي المطبوعة : كفل ، ولا يستقيم وزن البيت بها. البكرة المائر : الخفيفة السريعة .

(٢) الرض : الكسر . المسك : السوار أو الخلخال.

(٣) برد مسهم : مخطط . وقوف ج وقف : سوار من عاج .

فإن تضحكي مني فيا رُبَّ ليلةٍ تركتُكِ فيها كالقَبَاءِ المُفَرَّجِ [1]

فلما قُدّم ليقتل قال :

شُدّوا وَثاقَ العَبْدِ لا يُفْلِتْكُمُ إنّ الحياةَ من المَمات قريبُ
فلقد تحدَّر من جَبين فتاتِكم عرَقٌ على مَتْنِ الفِراش وَطِيبُ [2]

قال : وقدّم فقتل . وذكر ابن دأبٍ أنه حُفر له أخدودٌ وألقي فيه وألقي عليه الحطب فأحرق .

* * *

(١) القباء : ضرب من الثياب .
(٢) الوثاق : القيد .

١٨

عَبْدَة بن الطبيب

(الأغاني ج ٢١ ص ٢٥ وما بعدها)

الشاعر

هو ... عَبْدة بن الطَبيب ... بن سَعد بن زَيد مَناة بن تميم . وقال ابن حبيب خاصةً ، وقد أخبرني أبو عُبيدة قال :

تميمٌ كلُّها كانت في الجاهليّة يقال لها : عبدُ تَيْمٍ ، وتيمٌ صنمٌ كان لهم يعبُدونه .

وعَبْدة شاعرٌ مُجيدٌ ليس بالمُكثر . وهو مخضرمٌ ، أدرك الإسلام فأسلم ، وكان في جيش النعمان بن المُقَرِّن الذين حاربوا معه الفُرس بالمدائن . وقد ذكر ذلك في قصيدته التي أوّلها :

هل حبلُ خَولةَ بعدَ الهَجْر موصولُ ... أم أنت عنها بَعيد الدار مَشغولُ
حلّت خُويلةُ في دارٍ مجـــاورةً ... أهل المدائن فيها الديك والفيـــلُ

يُقارعون رُؤوس العُجْم ضاحيةً منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ (١)

ترفّعه عن الهجاء

عن يونس قال :

قال رجلٌ لخالد بن صفوان : كان عَبدة بن الطبيب لا يحسن أن يهجو . فقال : لا تقل ذاك ، فوالله ما أبى من عيٍّ ، ولكنه كان يترفّع عن الهجاء ويراه ضعةً ، كما يرى تركه مُروءةً وشرفاً ، قال :

وأجْرأُ مَن رأيتُ بظَهْر غَيْبٍ على عَيْبِ الرجالِ أُولو العُيوبِ

إجادته الرثاء

ابن أخي الأصمعي عن عمّه قال :

أرثى بيت قالته العرب قول عَبْدة بن الطبيب :

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلكُ واحدٍ ولكنّه بُنيانُ قَومٍ تَهدّما

وتمام هذه الأبيات ... لعبدة يرثي قيساً :

عليكَ سلامُ الله قيسَ بنَ عاصمٍ ورحمتُه ما شاء أن يَترحّما
تحيّةَ مَن أَوْليتَه منك نعمةً إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سلّما
وما كان قيسٌ هُلكه هُلكَ واحدٍ ولكنّه بُنيانُ قومٍ تَهدّما (٢)

---

(١) أهل المدائن : في المطبوعة : أهل المدينة ، وما أثبتناه رواية المفضليات وهي أفضل . الميل ج أميل : من لا سلاح معه والجبان .
(٢) الشحط : البعد .

أشرف المناديل

عن ابن الأعرابيّ :

أنّ عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أيُّ المناديل أشرف ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر ، كأنّها غِرْقِيء البيض [1] . وقال آخرون : مناديل اليمن ، كأنّها نَوْر [2] الربيع . فقال عبد الملك : مناديل أخي بني سعد عبدة بن الطبيب ، قال :

لمّا نزلنا نَصَبنا ظِلّ أخْبِيةٍ ... وفار للقومِ باللحمِ المَراجيلُ
وَرْدٌ وأَشْقَرُ ما يُؤْنِيه طابخُهُ ... ما غَيَّر الغَلْيُ منه فهو مأكولُ
ثُمَّتَ قُمنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمةٍ ... أعرافهُنَّ لأيدينا مَناديلُ [3]

يعني بالمراجيل : المراجل ، فزاد فيها الياء ضرورة .

* * *

---

(١) الغرقيء : القشرة الرقيقة الملتصقة ببياض البيض.

(٢) النور : الزهر الأبيض .

(٣) الورد : ما لونه كالورد من اللحم وهو ما نضج والأشقر ما لم ينضج بعد . ما يؤنيه : ما يمهله . وفي المفضليات : لم ينهنه ، أي لم ينضجه . المسومة : صفة للخيل المعلمة، والسمة : العلامة . أعراف ج عرف : شعر عنق الفرس .

١٩

عَمْرو بن شَأس الأَسَدِي

(الأغاني ج ١١ ص ١٩٦ وما بعدها)

الشاعر

هو عَمرو بن شَأس بن عَبَيد.... بن سَعد بن ثَعلبة بن دودان بن أسد ابن خُزيمة ...

خبره مع امرأته أم حسّان

قال ابن الأعرابي :

كانت امرأة عَمرو بن شَأس من رَهطه ، ويقال لها أُمُّ حَسّان ، واسمُها حَيّة بنت الحارث بن سعد، وكان له ابنٌ يُقال له عِرارٌ ، من أَمَة

له سوداءَ ، وكانت تُعيّره وتُؤذي عِراراً وتشتمُه ويشتمها . فلمّا أعيت عَمراً قال فيها :

ديارُ ابنة السَعديّ هِيه تَكلّمي ... بدافقة الحَوْمان فالسَفح من رَمَمْ
لَعمْرُ ابنةِ السَعديّ إنّي لأتّقي ... خَلائقَ تُؤبَى في الثَراء وفي العَدَمْ

* * *

ألم يأتِها أنّي صَحَوْتُ وأنّني ... تحالمت حتى ما أُعارمُ مَن عَرَمْ
وأطرقت إطراقَ الشُجاع ولو يرى ... مَساغاً لِنابَيْه الشجاعُ لقد أزَمْ
وقد علمتْ سعدٌ بأنّي عَميدُها ... قديماً وأنّي لستُ أهضِمُ من هَضَمْ
خُزَيمةُ رَدّاني الفَعَالَ ومَعشَرٌ ... قديماً بنوا لي سُورةَ المجدِ والكرمْ
إذا ما وردنا الماءَ كانت حُماتَه ... بنو أسَدٍ يوماً على رَغْم من رَغَمْ
أرادت عِراراً بالهَوانِ ومن يُرِدْ ... عِراراً لَعَمري بالهَوانِ فقد ظَلَمْ
فإن كُنتِ منّي أو تُريدين صُحبتي ... فكُوني له كالسَّمنِ رُبَّتْ له الأدَمْ
وإلاّ فبِيني مثلَ ما بان راكبٌ ... تَيمّمَ خِمْسأليس في وِرْدِه يَتَمْ
فإنّ عِراراً إن يكن ذا شكيمةٍ ... تَعافينها منه فما أمْلِكُ الشِيَمْ
وإنّ عِراراً إن يكن غيرَ واضحٍ ... فإني أُحبُّ الجَوْنَ ذا المَنْكِبِ العَمَمْ
وإنّي لأُعطي غَثّها وسَمينَها ... وأَسري إذا ما الليلُ ذو الظُلَمِ ادلَهَمْ
حِذاراً على ما كان قَدّم والدي ... إذا رَوَّحَتْهم حَرْجفٌ تَطرُدُ الصِرَمْ(١)

* * *

(١) رويت هذه الأبيات في موضعين ، بعضها قبل الترجمة والبعض الآخر بعدها ، وقد جمعناها كلها في موضع واحد . الحومان ورمم : موضعان . أعارم : من العرام وهو الشراسة والأذى. الشجاع : الحية الذكر . أزم : عض . رداني : ألبسني . السورة : المنزلة. ربت : طليت بالرب لكيلا يتسرب منها السمن أو يفسد . الأدم : أوعية السمن . بيني : فارقي . يمم: قصد . الخمس : ضرب من إظماء الإبل، وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد في اليوم الرابع . اليتم : الإبطاء . تعافينها : تكرهينها . الواضح : الأبيض . الجون : الأسود. العمم : الطويل . السرى : السير ليلا . ادلهم : اشتد سواده . الحرجف : الريح الشديدة الباردة . الصرم ج صرمة : القطعة من الإبل .

قال ابن الأعرابي وأبو بكر الشيباني : فجهد عمرو بن شأس أن يصلح بين ابنه وامرأته أم حسان فلم يمكنه ذلك ، وجعل الشر يزيد بينهما . فلما رأى ذلك طلقها ، ثم ندم ولام نفسه ، فقال في ذلك :

تَذَكَّر ذِكرى أمّ حسّانَ فاقشعَرّ
على دُبُرٍ لمّا تبيَّن ما ائتمَر
فكِدتُ أذوقُ الموتَ لو أنّ عاشقاً
أمَرّ بموساه الشوارب فانتحر
تذكّرتُها وَهْناً وقد حال دُونَها
رِعانٌ وقِيعانٌ بها الزَّهْرُ والشَّجَرْ
فكنتُ كذات البَوِّ لمّا تذكَّرتْ
لها رُبَعاً حَنّت لِمَعْهدِهِ سَحَرْ
حِفاظاً ولم تنزِعْ هوايَ أثيمةٌ
كذلك شأوُ المرءِ يَخلِجُه القَدَر (١)

عمرو وجاره العامري

قال الأصمعي : جاور رجلٌ من بني عامر بن صَعصعة عمرَو بن شأس ، ومعه بنتٌ له من أجملِ الناس وأظرفهم ، فخطبها عمروٌ إلى أبيها ، فقال أبوها : أمّا ما دمتُ جاراً لكم فلا ، لأنّي أكره أن يقول الناسُ غصبَه أمرَه ، ولكن إذا أتيت قومي فأخطبُها إليّ أُزَوِّجْكها . فوجد عمرو من ذلك في نفسه واعتقد ألاّ يتزوّجها أبداً إلاّ أن يُصيبَها مَسْبِيّةً .

---

(١) دبر كل شيء : آخره . أمر بموساه الشوارب : في العبارة قلب أراد : أمر موساه بالشوارب. والشوارب : عروق في الحلق . الوهن : بعد انتصاف الليل . رعان ج رعن : أنف الجبل . القيعان ج قاع : الأرض السهلة المطمئنة بين الجبال . البو : جلد ولد الناقة يحشى تبناً ثم يدنى من أمه فتعطف عليه وتدر . الربع : الفصيل ينتج في أول الربيع . يخلجه : يصرفه .

فلمّا ارتحل أبوها همّ عمرٌو بغزو قومها فسار في أثر أبيها . فلمّا وقعت عينُه عليه وظفِر به استحيا من جِواره وما كان بينهما من العهد والميثاق ، فنظر إلى الجارية أمامَهم ، وقد أخرجت رأسَها من الهودَج تنظُر إليه. فلمّا رآها رجَع مُستحيياً مُتذمّماً منها . وكان عمرو مع شجاعته ونجدته من أهل الخير ، فقال في ذلك :

إذا نحن أدلجْنا وأنتِ أمامَنا ... كفَى لمطايانا بوَجْهِك هاديا
أليس يزيد العيسَ خِفّةً أذرُعٍ ... وإن كُنّ حَسْرى أن تكوني أماميا
ولولا اتّقاءُ اللهِ والعهدُ قد رأى ... مَنِيَّته منّي أبوكِ اللياليا
ونحن بنو خيرِ السِباعِ أكيلةً ... وأحْرَبِه إذا تنفّس عاديا
بنو أسد وَرْدٍ يَشُقُّ بنابِه ... عِظام الرجالِ لا يُجيب الرّواقيا
متى تَدْعُ قيساً أدعُ خِنْدِفَ إنّهم ... إذا ما دُعُوا أَسمعتَ ثَمّ الدّواعيا
لنا حاضرٌ لم يَحضُرِ الناسُ مثلَه ... وبادٍ إذا عَدّوا علينا البواديا (١)

* * *

(١) الإدلاج : السير ليلا . العيس ج عيساء : الناقة البيضاء . الحسرى ج حسيرة : المجهدة المتعبة . أحربها : أشدها في الحرب والقتال . العادي من السباع : المفترس . الرواقي : اللاتي يرقين المصاب ليشفى .

٢٠

عَمرُو بن مَعْدِيكَرِب الزّبَيْدي

(الأغاني ج ١٥ ص ٢٠٨ وما بعدها)

الشّاعر

هو عَمرو بن مَعديكرِب بن عبد الله بن عمرو بن عُصْم بن عمرو بن زُبيد ، وهو مُنبِّه ... ويكنى أبا ثَور ، وأُمُّه وأمّ أخيه عبد الله امرأةٌ من جَرم فيما ذُكر ، وهي معدودة من المُنجِبات .

قوته وضخامة جسمه

عن أبي عبيدة قال : عَمرو بن معد يكرب فارس اليمن ، وهو مُقدّم على زيد الخيل في الشِدّة والبأس .

وقال أبو هارون السّكْسَكيّ البصريُّ : حدثني أبو عَمرٍو المدينيُّ أنّ

عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان إذا نظر إلى عَمرو قال : « الحمدُ لله الذي خلَقنا وخلق عَمراً ! » تعجباً من عِظَم خَلْقه .

وقال أبو المِنهال عُيينة بن المنهال : سمعت أبي يحدّث قال :

جاء رجلٌ وعمرُو بن معد يكرب واقفٌ بالكُناسة[1] على فرسٍ له، فقال : لأنظرنّ ما بقي من قوة أبي ثور ؛ فأدخل يده بين ساقَيه وبين السَرج ، وفطن عَمرو فضمَّها عليه وحرَّك فرسَه ، فجعل الرجلُ يعدُو مع الفرَس لا يقدِر أن ينزِع يدَه ، حتى إذا بلغ منه قال : يابنَ أخي ، مالَك ؟ قال : يدي تحتَ ساقك ! فخلّى عنه ، وقال : يابنَ أخي ، إنّ في عمّك لبقيةً !

عن جُوَيرية الهُذَليّ في حديث طويل قال :

رأيت عمرَو بن معد يكرب ، وأنا في مسجِد الكوفة في خِلافة عثمان، حين وجّهه إلى الرَيّ ، كأنه بعيرٌ مَهنُوءٌ[2] .

رُمَيح عن أبيه قال: رأيت عمرو بن مَعد يكربَ في خلافة معاوية شيخاً أعظم ما يكون من الرجال، أجشّ الصوت، إذا التفت التفت بجميع جَسده .

وهذا خطأ في الرواية ، والصحيح أنه مات في آخر خلافة عمر ، رضي الله عنه .

من أخباره في الجاهلية

عن زيد بن قُحيف الكِلابي قال : سمعت أشياخَنا يزعمُون أن عَمرو بن معد يكرب كان يقال له « مائق بني زُبيد » [3] ، فبلغهم أن خَثْعم تُريدُهم ، فتأهّبوا لهم ، وجمع معد يكرب بني زُبيد ، فدخل عمروٌ على أخته فقال:

---

(١) الكناسة : محلة بالكوفة .
(٢) مهنوء : مطلي بالهناء وهو القطران .
(٣) المائق : الأحمق الغبي .

أشبعيني إنّي غداً لِكَتيبةٍ . قال : فجاء معد يكرب فأخبرته ابنتُه فقال : هذا المائق يقول ذاك ؟ قالت : نعم . قال : فسَلِيه ما يُشبعه . فسألتْه فقال : فَرْقٌ من ذُرة ، وعَنْزٌ رَبَاعيّة (١) . قال : وكان الفَرق يومئذٍ ثلاثةَ أَصْوُعٍ (٢) . فصنَعَ له ذلك ،وذَبح العَنْز وهيّأ له الطَعام . قال : فجلس عليه فسَلَتَه (٣) جميعاً . وأتتهم خَثْعمُ الصباحَ فلقُوهم ، وجاء عمروٌ فرمى بنفسه ، ثم رفع رأسَه فإذا لواءُ أبيه قائمٌ ، فوضع رأسَه فإذا لواءُ أبيه قد زال ، فقام كأنه سَرْحةٌ مُحرَقةٌ (٤) ، فتلقّى أباه وقد انهزموا فقال : انزل عنها ، فاليومُ ظَلَم (٥) . فقال له : إليكَ يا مائقُ ! فقال له بنو زُبيد : خَلّه أيها الرجلُ وما يريدُ ، فإن قُتل كُفيتَ مُؤْنَتَه ، وإن ظهَر فهو لك . فألقى إليه سلاحه فركب ، ثم رمى خَثعم بنفسه حتى خرج من بين أظهُرهم ، ثم كرّ عليهم وفعل ذلك مِراراً ، وحملت عليهم بنو زُبيد فانهزمت خَثْعم وقُهروا ، فقيل له يومئذٍ : فارسُ زُبَيد .

إسلامه ثم ارتداده

عن جُوَيرية بن أسماءَ قال : أقبل النبيُّ ﷺ من غَزاة تَبُوكَ يُريد المدينةَ ، فأدركه عمرُو بن معد يكرب الزُبيدي في رجالٍ من زُبيد ، فتقدّم عمروٌ ليلحقَ برسولِ الله ﷺ ، فأمسك حتى أُوذِنَ به ، فلمّا تقدّم رسولُ الله ﷺ يَسيرُ قال : حيّاكَ اللهُ إلَهُك ، أبيتَ اللعن ! فقال رسول الله ﷺ : « إنّ لعنةَ الله وملائكته والناسِ أجمعين على الّذين لا يُؤمنون بالله ولا باليوم الآخِر . فآمِنْ باللهِ يُؤمِنْك يومَ الفزَع الأكبر » . فقال عمرُو بن معد يكرب

(١) رباعية : من الغنم ما بلغ أربعة أعوام .
(٢) الأصوع ج صاع : مكيال لأهل المدينة يعدل أربعة أمداد .
(٣) سلت الطعام : استوفاه .
(٤) السرح : ضرب من الشجر طويل شائك .
(٥) اليوم ظلم : مثل يستعمله العرب بمعنى : حقاً يقيناً .

وما الفزَعُ الأكبر ؟ قال رسول الله ﷺ : « إنّه فزَعٌ ليس كما تحسَب وتَظن ، إنّه يُصاح بالناس صيحةٌ لا يبقى حيٌّ إلاّ مات ، إلاّ ما شاء اللهُ من ذلك ، ثم يُصاح بالناسِ صيحة لا يبقى ميّتٌ إلا نُشِر ، ثم تلجُّ تلك الأرضُ بدَوِيٍّ تَنهدُّ منه الأرضُ ، وتخِرُّ منه الجِبالُ ، وتَنشقُّ السماءُ انشقاقَ القُبْطيّة الجديد[1] ما شاء اللهُ في ذلك ، ثم تبرزُ النارُ فيُنظَر إليها حمراءَ مُظلمةً قد صار لها لسانٌ في السماء ، ترمي بمثلِ رُؤوس الجبال من شَرَر النار ، فلا يبقى ذو رُوحٍ إلا انخلع قلبُه ، وذكَر ذنبَه . أين أنت يا عمرُو ؟ » . قال : إني أسمع أمراً عظيماً ! فقال رسولُ الله ﷺ : « يا عمرُو أسلِمْ تَسلَمْ » . فأسلَم وبايع لِقومه على الإسلام ، وذلك مُنصرفَ رسولِ الله ﷺ من غَزاةِ تَبُوكَ ، وكانت في رجبٍ من سنة تِسعٍ .

قال أبو عبيدةَ : فلم يلبثْ عَمرٌو أن ارتدّ عن الإسلام ، فقال حين ارتــدّ :

وَجَدنا مُلك فَــروةَ شَرَّ مُلكٍ ⁂ حِمارٌ سافَ مَنْخَرَه بقَــذْرِ
وإنّك لو رأيــتَ أبــا عُمَــيرٍ ⁂ مَلأتَ يدَيْك من غَدْرٍ وخَتْرِ[2]

قال أبو عبيدة : فلمّا ارتدّ عمروٌ مع من ارتدّ عن الإسلام من مَذْحِجَ ، استجاش[3] فَروةُ النبيَّ ﷺ ، فوجّه إليهم خالدَ بن سعيد بن العاص وخالد ابن الوليد ، وقال لهما : إذا اجتمعتُمْ فعليٌّ بن أبي طالب أميرُكم وهو على الناس . ووجّه علياً عليه السلام فاجتمعوا بكَسْرٍ[4] ، من أرض اليمن ،

---

(١) القبطية : ثياب مصرية رقيقة بيضاء . الجديد : المجدودة أي المقطوعة .
(٢) فروة : هو فروة بن مسيك المرادي ، وكان قدم على الرسول في وفد مذحج وأسلم فاستعمله على مراد وزبيد ومذحج . ساف : شم . المنخر : الأنف . الختر : الخديعة والغش .
(٣) استجاشه : استغاث به وطلب معونته .
(٤) الكسر : قرى كثيرة بحضرموت .

فاقتتلُوا وقُتل بعضُهم ونجا بعضٌ ، فلم يزل جُعْفيّ[1] وزُبَيد وأَوْد بنو سَعد العشيرة بعدها قليلة . وفي هذا الوجه وقعت الصَمصامة[2] إلى آل سعيد ، وكان سببَ وقوعها إليهم أنَ ريحانةَ بنتَ مَعدِ يكرب سُبيت يومئذٍ ، ففداها خالدٌ ، وأثابه عمرٌو الصَمصامة ، فصار إلى أخيه سعيد ، فوُجد سعيدٌ جريحاً يومَ عثمانَ بن عفان رضي الله عنه حين حُصر وقد ذهب السيفُ والغِمْدُ ، ثم وُجد الغِمدُ ، فلما قام معاويةُ جاءه أعرابيٌّ بالسيف بغير غِمْدٍ ، وسعيدٌ حاضر ، فقال سعيدٌ : هذا سيفي ! فجحَد[3] الأعرابيُّ مقالتَه ، فقال سعيد : الدّليلُ على أنه سَيفي أن تبعثَ إلى غِمده فتُغمِدَه فيكون كفافَه . فبعث معاويةُ إلى الغِمد فأُتِي به من منزل سعيدٍ فإذا هو عليه ، فأقرّ الأَعرابيُّ أنه أصابه يومَ الدار ، فأخذه سعيدٌ منه وأثابه ، فلم يزل عندَه حتى أَصعد المهديُّ من البصرةِ ، فلمّا كان بواسط بعث إلى سعيدٍ فيه ، فقال : إنّه للسبيل . فقال : خمسون سيفاً قاطعاً أغنى من سيفٍ واحدٍ . فأعطاهم خمسين ألفَ دِرهمَ وأخــذه .

من أخباره في الإسلام

عن الشَعبيّ : أنّ عُمرَ بن الخطاب رضي الله عنه فرَض لعمرو بن مَعدِيكرِب في ألفين ، فقال له : يا أميرَ المؤمنين ألفٌ هَهنا وأومأ إلى شِقّ بطنه الأيمن ، وألفٌ هَهنا وأومأ إلى شِقّ بطنه الأيسر — فما يكون هاهنا؟ وأومأ إلى وسَط بطنه. فضحك عُمر رضوانُ الله عليه وزاده خَمسمائة .

---

(١) جعفي : في المطبوعة : جعفر ، وهو تصحيف ، وأبناء سعد العشيرة هم : الحكم ، وصعب ، ونمرة ، وجعفي ، وعائذ الله ، وأوس الله ، وزبيد وأود هما من ولد صعب بن سعد العشيرة (أنظر جمهرة ابن حزم ص ٤٠٧ وما بعدها) .

(٢) الصمصامة : اسم سيف لعمرو بن معد يكرب .

(٣) جحد : أنكر .

قال أبو اليَقْظان : قال عمرُو بن مَعديكرب : لو سِرتُ بظَعينة [1] وَحدي على مياه مَعدٍّ كلّها ما خِفتُ أن أُغلَب عليها، ما لم يَلْقَني حُرّاها أو عَبداها . فأمّا الحُرّان فعامر بن الطُفَيل وعُتيبةُ بن الحارث بن شِهاب ، وأما العَبدان فأسْوَدُ بني عَبْس ، يعني عنترةَ والسُلَيك بن السُلَكة ، وكلّهم قد لقيت . فأمّا عامر بن الطفيل فسريع الطَعن على الصوت ، وأما عُتيبة فأوّلُ الخيل إذا غارت ، وآخرُها إذا آبت ، وأما عنترةُ فقليل الكَبْوَة ، شديدُ الكَلَب [2] . وأما السُلَيك فبعيدُ الغارة ، كالليثِ الضاري . قالوا : فما تقول في العبّاس بن مرداس ؟ قال : أقول فيه ما قال فيَّ :

إذا ماتَ عَمرٌو قلتُ للخيل أَوطِئُوا زُبَيداً فقد أودَى بنجدتها عَمرُو

وقام مغضَباً وعلم أنّهم أرادوا توبيخَه بالعبّاس .

* عن قيسٍ [3] : أن عمر رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص :

إنّي قد أمددتُك بألفَي رجلٍ : عمرِو بن معدِيكرب ، وطليحةَ بنِ خويلد — وهو طليحةُ الأسدي — فشاوِرْهما في الحرب ولا تُولّهما شيئاً .

* عن قيسٍ قال : شهدتُ القادسيّةَ وكان سعدٌ على الناسِ ، فجاء رُستم فجعل يمرُّ بنا وعَمرو بن معدِيكرب الزُبَيدي يمرُّ على الصُفوف يحضُّ الناس ويقول : يا معشرَ المهاجرين ، كونوا أَسَداً أغنى شأنَه [4] ، فإنّما الفارسيُّ تيسٌ بعد أن يُلقيَ نَيْزَكه [5] . .

قال : وكان مع رُستم أُسوارٌ [6] لا تَسقط له نُشّابةٌ فقال له : يا أبا

---

(١) الظعينة : المرأة في هودجها .
(٢) الكلب : الشدة والغضب .
(٣) هو قيس بن أبي حازم الأحمسي .
(٤) أغنى شأنه : كفى نفسه ولم يستعن بشيء .
(٥) النيزك : الرمح القصير .
(٦) الأسوار : المقاتل من الفرس الذي يجيد تسديد السهام .

ثَورٍ ، اتَّقِ ذاك . فإنّا لَنقُول له ذلك إذ رمـاه رَمية ٌ فأصاب فرسَه ، وحمل عليه عمرٌو فاعتنقه ثم ذَبَحه ، وسلبه سِوارَي ذهبٍ كانا عليه وقَباءَ دِيباج .

قال أبو زيد : فذكر أبو عبيدةَ أنّ عَمراً حمل يومئذٍ على رجلٍ فقتله ثم صاح : يا معشرَ بني زُبيد ، دونَكم ، فإن القومَ يموتون .

* عن قيس بن أبي حازم قال : حضر عمرُو الناس وهم يُقاتِلون ، فرماه رجلٌ من العجَم بنُشّابةٍ فوقعت في كَتِفه ، وكانت عليه دِرعٌ حَصينةٌ فلم تَنفُذْ ، وحمل على العِلج فعانقه فسقطا إلى الأرض ، فقتله عمروٌ وسلبَه ، ورجع بسَلَبِه وهو يقول :

أنا أبو ثَورٍ وسَيفي ذُو النُّون ْ　　أضرِبُهم ضربَ غُلامٍ مَجنونْ

* يالَ زُبيد إنّهم يموتون *

قال أبو عبيدة : وقال في ذلك عمرُو بن معديكرب :

صوت

أَلِمْ بسَلمى قبلَ أن تظعنا　　إنَّ لنا من حُبّها دَيْدَنا
قد علمتْ سَلمى وجاراتُها　　ما قطَّرَ الفارسَ إلاّ أنا
شككتُ بالرُمح حَيازِيمَه　　والخيلُ تعدُو زِيماً بيننا (١)

* قال أبو عبيدة في رواية أبي زيد عُمر بن شَبّة :

شهد عمرُو بن معديكرب القادسيّةَ وهو ابن مائة وستِ سِنين . وقال

---

(١) الديدن : العادة . قطره : ألقاه من فوق فرسه . زيم : متفرقة .

بعضهم : بل ابنُ مئةٍ وعشرٍ . قال : ولمّا قتل العِلجَ عبرَ نهر القادسيّةِ هو وقيسُ بن مكشوحٍ المراديُّ ، ومالكُ بن الحارث الأشتَر .

قال : فحدثني يونسُ أن عمرَو بن معديكرب كان آخرَهم ، وكانت فرسُه ضعيفةً فطلب غيرَها ، فأُتي بفرسٍ فأخذ بعكْوة ذنبه [1] وأخلَد به إلى الأرض ، فأقعى الفرسُ فردّه ، وأُتِي بآخرَ ففعل به مثلَ ذلك فتحلحل ولم يُقْعِ فقال : هذا على كلِّ حال أقوى من تلك ، وقال لأصحابه : إنّي حاملٌ وعابرٌ الجسر ، فإن أسرعتم بمقدار جزْر الجزُور [2] وجدتموني وسيفي بيدي أقاتلُ به تِلقاءَ وجهي ، وقد عقَر بي [3] القومُ وأنا قائمٌ بينهم وقد قَتلتُ وجرّدت . وإن أبطأتم وجدتموني قتيلا بينهم وقد قُتلت وجُرِّدت . ثم انغمس فحمل في القوم فقال بعضُهم : يابنَي زُبيد ، تَدَعُون صاحبَكم والله ما نرى أن تُدرِكوه حيّاً . فحملوا فانتهَوا إليه وقد صُرِع عن فرسه وقد أخذ برِجل فرسِ رجُلٍ من العَجم فأمسكها، وإن الفارسيَ ليَضربُ الفرس فما تَقدِر أن تتحرّك من يده . فلمّا غَشِيناه رمى الأعجميُّ بنفسه وخلّى فرسَه ، فركبه عمرو وقال : أنا أبو ثَور ، كِدتم والله تَفقِدوني ! قالوا : أينَ فرسُك ؟ قال رُمي بنُشّابة فشبَّ فصرعني وعارَ [4] .

* عن أبانِ بن صالح قال :

قال عَمرو بن معد يكرب يومَ القادسيّة : ألزِموا خراطيمَ الفِيلة السيوفَ، فإنّه ليس لها مقتلٌ إلاّ خراطيمها . ثم شدّ على رستم وهو على الفيل فضرب فيلَه فجذَم عُرقوبيه فسقط ، وحَمل رستم على فَرس وسَقط من

---

(١) العكوة : أصل الذنب .
(٢) الجزور : الناقة المجزورة .
(٣) عقر بي القوم : عقروا فرسي وعقر بالصيد : وقع به .
(٤) عار الفرس يعير : انفلت ومضى لوجهه .

تحته خُرجٌ فيه أربعون ألف دينار ، فحازه المسلمون ، وسقط رستم بعد ذلك عن فرسه فقتلَه .

عن ابن اسحاق قال: لمّا ضرب عمروٌ الفيل وسقط رستم، سقط على، رستم خُرج كان على ظهر الفيل فيه أربعون ألف دينار ، فمات رستم من ذلك وانهزم المشركون .

حدثنا نيّار بن مُكرم الأسلمي ، قال :

شهدت القادسيّة فرأيت يوماً اشتد فيه القتال بيننا وبين الفرس . ورأيت رجلاً يفعل يومئذ بالعدوّ أفاعيلَ ، يقاتل فارساً ثم يقتحم عن فرسه ويربط مقوده في حَقوِه[1] فيقاتل ، فقلت: من هذا، جزاه الله خيراً ؟ قالوا: هذا عمرُو بن معَد يكرب .

* عن أبي محمد المرهبيّ قال : كان شيخٌ يجالس عبد الملك بن عُمير ، فسمعته يحدّث قال :

قدِم عُيينةُ بن حصن الكوفة فأقام بها أياماً ثم قال : والله ما لي بأبي ثَور عهدٌ منذ قدِمنا هذا الغائط[2] — يعني عمرو بن معديكرب — أسرِج لي يا غُلام . فأسرَج له فرساً أنثى من خيله ، فلما قرّبها إليه قال له: ويحَك أرأيتَني ركبتُ أنثى في الجاهلية فأركبَها في الإسلام ؟ فأسرج له حِصاناً فركبه، وأقبل إلى محلة بني زُبيد فسأل عن محلة عمرو فأرشد إليها ، فوقف ببابه ونادى: أي أبا ثَور ، اخرُج إلينا . فخرج إليه مؤتزراً كأنما كُسر وجُبر ، فقال: انعِمْ صباحاً أبا مالك . فقال : أوَليس قد أبدلنا اللهُ تعالى بهذا : السلامُ عليكم ؟

---

(١) الحقو : الكشح ومعقد الإزار .

(٢) الغائط : المطمئن الواسع من الأرض .

قال : دَعْنا ممّا لا نعرِفُ ، انزِل فإنّ عندي كَبشاً ساحاً [١] . فنزل فعَمد إلى الكبش فذبحه ثم كشط عنه وعَضّاه [٢] ، وألقاه في قِدْرٍ جِماعٍ ، وطبخه حتى إذا أدرك جاء بجَفنة عظيمة فثردَ فيها فأكفأ القِدرَ عليها ، فقعدا فأكلاه ، ثم قال له : أيُّ الشراب أحبُّ إليك : آللبنُ أم ما كنّا نتنادم عليه في الجاهلية ؟ قال : أوليس قد حرّمها اللهُ جَلّ وعزّ علينا في الإسلام ؟ قال : أنت أكبرُ سِنّاً أم أنا ؟ قال : أنت . قال : فأنت أقدمُ إسلاماً أم أنا ؟ قال : أنت . قال : فإنّي قد قرأت ما بين دَفّتَيْ المُصحف فوالله ما وجدتُ لها تحريماً إلا أنّه قال : « فهل أنتم منتهُون » فقلنا : لا . فسكتَ وسكتْنا ! فقال له : أنت أكبرُ سِناً وأقدم إسلاماً . فجاءا فجلسا يتناشدان ويشربان ، ويذكران أيام الجاهلية ، حتى أمسيا ، فلما أراد عُيينةُ الانصراف قال عَمرو : لئن انصرَفَ أبو مالك بغير حِباءٍ [٣] إنه لَوصمةٌ عليّ . فأمر بناقة له أرحَبيّة [٤] كأنها جَبيرة لُجَين [٥] ، فارتحلها وحمله عليها ، ثم قال : يا غلامُ هات المِزْوَد [٦] . فجاء بمزود فيه أربعةُ آلاف درهم ، فوضعها بين يديه ، فقال : أما المال فوالله لا قَبلتُه . قال : والله إنه لمن حِباء عُمر بن الخطاب رضي الله عنه . فلم يقبله عُيينة وانصرف وهو يقول :

جُزِيتَ أبا ثورٍ جَـزاءَ كَرَامَـةٍ ... فنِعمَ الفتى المُزدَارُ والمتضيَّـفُ
قريتَ فأكرمتَ القِرى وأفدتنـا ... نَخيلةَ عِلمٍ لم يكن قَطُّ يُعرَفُ
وقلت : حَلالٌ أن تُديرَ مُدامـةً ... كلونِ انعقاق البرقِ والليلُ مُسدِفُ

---

(١) كبش ساح : بالغ غاية السمن .
(٢) عضاه : قطعه عضواً عضواً .
(٣) الحباء : العطاء .
(٤) أرحبية ، منسوبة إلى أرحب وهو بطن من همدان وقيل : أرحب ، فحل تنسب اليه الإبل النجائب .
(٥) الجبيرة : السوار يكون من الذهب أو الفضة .
(٦) المزود : وعاء يوضع فيه الزاد .

وقَدّمتَ فيها حُجّــةً عَربيّــةً تَرُدُّ إلى الإنصافِ من ليس يُنصِفُ
وأنت لنا واللهِ ذي العَرشِ قُــدوةٌ إذا صَدّنا عن شُربهــا المتكلّــف
نقُول : أبو ثَورٍ أَحلّ حَرامَهــا وقَولُ أبي ثورٍ أَسَدُّ وأَعْرَفُ (١)

* جاءت زيادةٌ من عند عمرَ بعد القادسية فقال عَمرو بن معدِيكرب لطُلَيحة : أما ترى أن هذه الزعانف تُزاد ولا نُزاد، انطلق بنا إلى هذا الرجل حتى نكلّمه. فقال: هيهاتِ ، كلا والله لا ألقاه في هذا أبداً ، فلقد لقيني في بعض فِجاج مكّةَ فقال : يا طليحةُ ، أقتلت عُكاشة (٢) ؟! فتوعّدني وعيداً ظننت أنه قاتلي ، ولا آمَنُه . قال عمرو : لكنّي ألقاه . قال : أنت وذاك . فخرج إلى المدينة فقدِم على عُمر رضي الله عنه وهو يُغدّي الناس وقد جَفَّن (٣) لعشرةٍ عشرةٍ ، فأقعده عمرُ مع عشرةٍ فأكلوا ونهضوا ، ولم يقم عمرو ، فأقعد معه تكملةَ عشرة ، فأكلوا ونهضوا ولم يقم عمرو، فأقعده مع عَشرة، حتى أكل مع ثلاثين ثم قام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين إنه كانت لي مآكلُ في الجاهلية منعني منها الإسلامُ ، وقد صَررتَ في بطني صُرّتَين وتركت بينهما هواءً فسُدّه . قال : عليك حجارةً من حجارةِ الحَرّة فسُدّه به يا عَمرو، إنّه بلغني أنّك تقول إنّ لي سيفاً يقال له الصَمصامة، وعندي سيفٌ أسمّيه المُصَمّم (٤) ، وإني إن وضعتُه بين أُذُنَيك لم أَرفَعْه حتى يُخالطَ أضراسَك .

---

(١) مسدف : مظلم .
(٢) عكاشة : هو عكاشة بن محصن ، وكان طليقاً لخالد فلقيه طليحة فقتله .
(٣) جفن : وضع جفنة ، وهي قصعة الطعام .
(٤) المصمم : القاطع .

اشتهاره بالكذب

* عن المبرد وابن سلام :

كانت الأشراف بالكوفة يخرجُون إلى ظاهرها يتناشدون الأشعار، ويتحدّثون ويتذاكرون أيامَ الناس، فوقف عمرٌو إلى جانب خالد بن الصَّقْعَب النَهْديّ، فأقبل عليه يُحدّثه ويقول : أغرتُ على بني نَهد فخرجوا إلي مسترعِفين [1] بخالد بن الصقعب يَقدُمهم، فطعنته طعنةً فوقع، وضربته بالصَّمصامة حتّى فاضت نفسه ! فقال له الرجل : يا أبا ثَور، إنّ مقتولَكَ الذي تُحدّثه . فقال : اللهمّ غَفْراً إنما أنت مُحَدَّثٌ فاسمع، إنما نتحدّث بمثل هذا وأشباهِه لِنُرهبَ هذه المَعدّية [2] .

قال محمد بن سلام : وقال يونس : أبت العربُ إلاّ أن عَمراً كان يكذِب . قال : وقلت لخلفٍ الأحمرِ، وكان مولى الأشعريين، وكان يتعصَّبُ لليمانية : أكان عمروٌ يكذِب ؟ قال : كان يكذب باللسان، ويصدُق بالفعــال .

هو وسعد يتقارضان الثناء

عن ابن قتيبة : أنّ سعداً كتب إلى عُمرَ رضي الله عنه يُثني على عَمرو بن معدِيكرب، فسأله عمرُ عن سعدٍ فقال : « هو لنا كالأب، أعرابيٌّ في نَمْرته [3] ، أسدٌ في تامُورته [4] ، يقسِم بالسَويّة، ويعدل في القضيّة، وينفِر في السَريَّة، وينقُل إلينا حقَّنا كما تنقُل الذَرَّةُ »[5] . فقال عمر ،

---

(١) مسترعفين : متقدمين معجلين .
(٢) المعدية : نسبة إلى معد بن عدنان .
(٣) النمرة : بردة من صوف كانت الأعراب تلبسها .
(٤) تامورة الأسد : عرينه .
(٥) الذرة : النملة .

رضوانُ الله عليه : لَشدّما تقارضتُما الثّناء .

عن زياد مولى سعدٍ قال :

سمعت سعداً يقول ، وبلغه أن عمرَو بن مَعدِيكرب وقَع في الخمر ، وأنه قد دُلِّهَ (١) . فقال : لقد كان له موطنٌ صالحٌ يومَ القادسية ، عظيم الغَناء ، شديدَ النكاية للعدوّ . فقيل له : فقيس بن مَكْشوح ؟ فقال : هذا أبذَلُ لِنفسه من قَيس ، وإنّ قيساً لشجاعٌ .

شعره في أخته ريحانة

الأبياتُ العَينيّةُ... يقولُها في أخته ريحَانةَ بنتِ مَعدِيكرب لما سَباها الصِمّةُ بن بكر . وكان أغار على بني زُبيد في قيس ، فاستاق أموالهم وسَبى رَيحانة ، وانهزمت زُبَيد بين يديه ، وتبِعه عمرٌو وأخوه عبد الله ، ابنا معدِيكرب ، ثم رجَع عبدُ الله واتبعه عمرو .

عن محمد بن سلاّم : أن عَمْراً اتبعه يُناشِده أن يُخَلِّي عنها ، فلم يَفعل، فلمّا يَئِس منها ولّى وهي تُناديه بأعلى صوتها : يا عَمرُو ، فلم يقدر على انتزاعها ، وقال :

أمن رَيْحانةَ الداعي السَميعُ ... يُؤرِّقني وأصحابي هُجوعُ
سَباها الصِمّةُ الجُشَمِيّ غَصْباً ... كأنّ بياضَ غُرّتها صَديعُ
وحالت دونَها فُرسانُ قيسٍ ... تكشّفُ عن سَواعدها الدُروع
إذا لم تستطِعْ شيئاً فدَعْهُ ... وجاوِزْه إلى ما تَستطيعُ (٢)

---

(١) الدله : ذهاب العقل .
(٢) الصديع : الفجر .

موته

* عن عمر بن شَبَّةَ وابنِ قُتيبة ، قالا :

كانت مغازي العربِ إذْ ذاك الرَّيّ ودَسْتبي ، فخرج عمروٌ مع شَبابٍ من مَذحِجَ حتى نزل الخان الذي دونَ رُوذَةَ ، فتغدّى القومُ ثم ناموا ، وقام كلٌّ رجلٍ منهم لقضاء حاجته ، وكان عمروٌ إذا أراد الحاجةَ لم يَجترِىءْ أحدٌ أن يَدعُوَه وإن أبطأ ، فقام الناس للرَّحيلِ وترحَّلُوا إلاّ مَن كان في الخان الذي فيه عمروٌ ، فلمّا أبطأ صحنا به : يا أبا ثَور . فلم يُجِبنا وسمعنا عَلزاً[1] شديداً ، ومِراساً في الموضع الذي دخله ، وقصدناه فإذا به مُحمرَّةً عيناه ، مائلاً شِدقُه مفلُوجاً ، فحملناه على فرسٍ وأمرنا غلاماً شديد الذِراع فارتدفه ليِعدِلَ مَيله ، فمات بِرُوذةَ ودُفن على قارعة الطريق .

فقالت امرأته الجُعفيَّة ترثيه :

لقد غادرَ الركبُ الذين تحمّلُوا ... برُوذَةَ شَخصاً لا ضعيفاً ولا غُمْراً
فقُلْ لزُبيدٍ بل لِمذحِجَ كُلِّها ... فَقَدتُم أبا ثَور سِنانَكم عَمْرا
فإن تجزَعوا لا يُغنِ ذلك عنكم ... ولكن سَلُوا الرحمن يُعقِبْكُم صَبرا[2]

* * *

(۱) العلز : الهلع والقلق الذي يصيب المرء عند احتضاره .
(۲) الغمر : الغر الذي لم يجرب الأمور .

٢١

فَضَالَة بن شريك

(الأغاني ج ١٢ ص ٧١ وما بعدها)

الشاعر

هو فَضَالة بن شَرِيك بن سَلْمان ... بن أسد ...

وكان شاعراً فاتكاً صُعلوكاً مخضرماً أدرك الجاهليّة والإسلام . وكان له ابنان شاعران : أحدهُما عبد الله بن فَضالة ، الوافد على عبد الله بن الزُبير والقائل له : إنّ ناقتي قد نَقِبتْ ودَبِرت [1] ، فقال له : ارقَعْها بجلد واخصِفْها بهُلْبٍ وسِرْ بها البَرْدَين [2] . فقال له : إنّي قد جِئتك مُستحمِلاً [3]

(١) نقبت الدابة : حفيت ورقت أخفافها . دبرت الناقة : أصابها الدبر وهي القرحة .

(٢) خصف النعل : خرزها وخصفها بشيء . ألصقه بها وأطبقه عايها . الهلب : الشعر . البردان والأبردان : الغداة والعشي .

(٣) استحمله : طلب حمله على مطية واستحمله نفسه : حمله حوائجه . وفي رواية مستمنحاً .

لا مُستشيراً ، فلعنَ اللهُ ناقةً حمَلَتْني إليك . فقال له ابن الزبير : إنّ وراكبَها [1] . فانصرف من عنده وهو يقول :

أقُول لغِلْمَتي شُدُّوا رِكــابي ... أُجاوزُ بَطنَ مكّةَ في سَــــوادِ
فما لي حين أقطعُ ذاتَ عِــرْقٍ ... إلى ابن الكاهليّةِ من مَعــادِ
سيُبعِـــدُ بيننا نَصٌّ المَطايــا ... وتعليقُ الأداوَى والمَــــزاد
وكلُّ مُعبّــدٍ قــد أعلمتْــه ... مَناسِمُهُنّ طَــلاّعِ النِّجادِ
أرى الحاجاتِ عندَ أبي خُبَيْــــبٍ ... نَكِدْنَ ولا أُميّـــةَ في البِــلادِ
من الأعياصِ أو من آلِ حــربٍ ... أغرُّ كغُرّةِ الفَرس الجَواد [2]

فأما فاتكُ بن فضالةَ فكان سيّداً جَواداً ...

وذكر ابن حبيب.. أن القصيــدة التي ذكرتها في خبر عبد الله بن فضالة بن شَريك مع ابن الزبير كانت مع فَضالة وابن الزبير لا مع ابنه ، وذكر الأبيات وزاد فيها :

---

(١) إن : هنا ، بمعنى نعم .

(٢) في سواد : أي تحت جنح الليل . ذات عرق : اسم موضع وهو الحد بين نجد وتهامة . ابن الكاهلية : أراد ابن الزبير والكاهلية هي زهرة بنت خنثر ، من بني كاهل بن أسد ، وهي أم خويلد بن أسد بن عبد العزى، جد الزبير بن العوام ، أما عبد الله بن الزبير فأمه أسماء بنت أبي بكر . نص المطايا : سيرها السريع . الأداوى ج إداوة : إناء صغير من جلد يتخذ للماء . المزاد ج مزادة : السقاء والقربة. المعبد : الطريق الممهد. مناسم ج منسم : طرف خف البعير . النجاد ج نجد : ما ارتفع من الأرض . أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير . نكدن : لم يفلحن . لا أمية : هذا البيت يستشهد به النحويون على دخول (لا) النافية للجنس على المعرفة والأصل أن يكون اسمها نكرة ، وهم يتأولون المعرفة هنا بأن المراد بأمية الأجواد الذين يشبهون بني أمية . الأعياص وآل حرب : بنو أمية ينقسمون إلى بطون ومنهم الأعياص أي المنتمون إلى العاص والعيص وآل حرب وهم ينتمون إلى حرب بن أمية .

شكوتُ إليه أن نَقِبت قَلُوصي فردّ جوابَ مَشدُودِ الصِّفادِ
يَضِنُّ بناقـــةٍ ويَرُوم مُلكــاً مُحالٌ ذالكم غيرُ السّـــداد
وَلِيتَ إمـــارةً فَبُخلتَ لمّـــا وَلِيتَهم بمُلْكٍ مُستفـــادِ
فإن وَلِيتْ أُميـــةُ أبدلوكـــم بكلِّ سَمَيْدَعٍ واري الزِّناد
من الأعياصِ أو من آل حـــربٍ أغرَّ كغُرّةِ الفَرَس الجَـــواد (١)

(الأبيات)

قال : فلمّا وَلِي عبدُ الملك بعث إلى فَضالة يطلبه ، فوجده قد مات ، فأمر لورثته بمائةِ ناقةٍ تحمل وِقْرَها (٢) بُرّاً وتَمْراً .

طائفة من أخباره

*** هجاؤه عاصم بن عمر**

قال ابن حَبيبَ : مرّ فَضالة بن شَريك بعاصم بن عمرَ بن الخطّاب — رضي الله تعالى عنهما — وهو مُتَبَدٍّ (٣) بناحية المدينة ، فنزل به فلم يَقْرِه شيئاً ولم يبعث إليه ولا إلى أصحابه بشيءٍ ، وقد عرّفوه مكانهم ، فارتحلوا عنه . والتفت فَضالة إلى مولىً لعاصم فقال له : قل له : أما واللهِ لأطَوِّقَنَّك طَوقاً لا يَبلى . وقال يهجوه :

ألا أيّها الباغي القِرى لستَ واجـداً قِراك إذا ما بِتَّ في دار عاصم

---

(١) القلوص : الناقة الفتية القوية على السير . الصفاد : القيد . السميدع : السيد الكريم الشريف . واري الزناد : إذا سئل في أمر أجاب إليه ، وإذا رام أمراً أنجح فيه وأدرك سؤله ، والزناد ، في الأصل : الحجر يقتدح به ، وورى الزند والزناد : خرجت ناره .
(٢) الوقر ، بكسر الواو : الحمل .
(٣) متبد : مقيم بالبادية ، وفي بعض الأصول : منتبذ .

إذا جئتَه تبغي القِرى بات نائماً بَطيناً وأمسى ضيفُه غيرَ نائم
فدَعْ عاصماً ، أفٍّ لأفعال عاصمٍ إذا حُصِّل الأقوامُ أهلُ المكارم
فتىً من قريشٍ لا يجُودُ بنائلٍ ويحسبُ أنّ البُخلَ ضَربةُ لازم
ولولا يدُ الفاروقِ قلّدتُ عاصماً مُطَوَّقةً يُحدَى بها في المواسم
فليتَكَ من جرْمِ بنِ زبّانَ أو بني فُقَيمٍ أو النَوْكَى أبانِ بنِ دارم
أناسٌ إذا ما الضيفُ حلَّ بيُوتَهم غدا جائعاً عَيْمانَ ليس بغانمِ (١)

قال : فلمّا بلغت أبياته عاصماً استعدى عليه عَمْرَو بنَ سعيد بن العاص ، وهو يومئذٍ بالمدينة أميرٌ ، فهرَب فَضالةُ بن شريك فلَحِق بالشام ، وعاذ بيزيدَ بن معاوية وعرَّفه ذنبَه وما تخوَّف من عاصمٍ ، فأعاذه وكتب إلى عاصمٍ يُخبره أنّ فضالة أتاه مُستجيراً به ، وأنّه يُحبّ أن يَهَبه له ولا يذكرَ لمعاويةَ شيئاً من أمره ، ويضمنُ له ألاّ يعودَ لهجائه . فقبِل ذلك عاصم وشفّع يزيدَ بن معاوية . فقال فَضالةُ يمدح يزيد بن معاوية :

إذا ما قريشٌ فاخرتْ بقديمها فخرتَ بمجدٍ يا يزيدُ تَليدِ
بمجدِ أمير المؤمنين ولم يزل أبوك أمينُ اللهِ غيرَ بَليدِ
به عصَم اللهُ الأنامَ من الرَدَى وأدرك تَبْلاً من معاشرَ صِيدِ
ومجدِ أبي سفيان ذي الباع والنَدى وحربٍ وما حَربُ العُلا بزَهيدِ
فمَن ذا الذي إن عدّد الناسُ مجدَهم يجيءُ بمجدٍ مثلِ مجدِ يزيدِ (٢)

---

(١) النائل : العطاء . مطوقة : أراد قصيدة هجاء تطوق عنقه . يحدى بها : يقال فيها حداء . النوكى: الحمقى . عيمان : عطشان .
(٢) التبل : الثأر . الصيد ج أصيد : المزهو المعتز بنفسه والملك .

* **هجاؤه ابن مطيع**

عن ابن حبيبَ قال :

كان عبد الله بن الزبير قد ولّى عبد الله بن مطيع ... الكوفة ، فطرده عنها المختار بن أبي عُبيد حين ظهر ، فقال فضالة بن شريك يهجو ابن مطيع :

دعا ابنُ مُطيعٍ للبياعِ فجئتُه ... إلى بَيْعةٍ قلبي بها غيرُ عارف
فقرَّب لي خَشْناءَ لمّا لمستُها ... بكفّي لم تُشبِهْ أكُفَّ الخلائف
مُعَوَّدَةً حملَ الهَرَاوى لقومها ... فَرُوراً إذا ما كان يومُ التَّسايف
مِن الشَّثِنات الكُزْمِ أنكرتُ مَسَّها ... وليست من البِيض السِّباطِ اللطائف
ولم يُسْمِ إذ بايعتُه مَن خليفتي ... ولم يَشترِطْ إلاّ اشتراطَ المُجازِف
متى تلقَ أهلَ الشأمِ في الخيل تَلْقَني ... على مُقَرَّبٍ لا يُزْدَهَى بالمَجاذف
مُمَرٍّ كبُنْيان العِبادِيِّ مُخْطَفٍ ... من الضّاريات بالدماءِ الخواطف (١)

* **هجاؤه عامر بن مسعود :**

قال ابن حبيب ... : تزوّج عامرُ بن مسعود بن أميّة بن خلف الجُمَحي امرأةً من بني نصر بن معاوية ، وسأل في صَداقها بالكوفة ، فكان يأخذ من

---

(١) البياع : المبايعة . خشناء : صفة لليد الخشنة . الخلائف : الخلفاء . الهراوى ج هراوة: العصا. التسايف : التضارب بالسيوف . الشثنة : الغليظة الخشنة . الكزم ج أكزم وكزماء : القصيرة الأصابع الغايظة . مسها : في المطبوعة لمسها ، ومسها رواية أخرى وهي أجود . السباط : في المطبوعة ، سياط ، ولا معنى لها هنا ، والسباط ج سبط : وهو المنبسط ، ورجل سبط اليدين : سخي . المقرب من الخيل : الذي يقرب مربطه لكونه كريماً أصيلا . لا يزدهى : لا يستخف به . المجاذف : ما يرمى به . ممر : موثق الخلق ، قوي. العباد : نصارى الحيرة . مخطف : ضامر الخصر . ضري بالشيء : أولع به .

كلّ رجلٍ سأله درهمين درهمين . فقال فضالة بن شريك يهجوه بقولـــه :

أنكحتُم يا بني نصرٍ فتاتَكـــــم وجهاً يَشينُ وجوه الرَّبْرَبِ العِينِ
أنكحتُمُ لا فتى دُنيا يُعاش بـــــه ولا شُجاعاً إذا انشقّت عصا الدِين
قد كنتُ أرجو أبا حَفْصٍ وسُنَّتَه حتّى نكحتَ بأرزاق المساكينِ[1]

• • •

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش . العين ج عيناء : بقر الوحش .

٢٢

كَعْبُ بْن زهَيْر

(الأغاني ج ١٧ ص ٨٢ وما بعدها)

الشاعر

كعب بن زهير بن أبي سُلمى المُزَنيّ ، وأُمّ كَعب امرأةٌ من بني عبد الله ابن عبد الله بن غطفان يقال لها كَبْشة بنت عَمّار بن عديّ بن سُحيم ، وهي أمُّ سائر أولاد زهير . وهو من المخضرمين ، ومن فحول الشعراء .

بدء قوله الشعر

عن إسحاق بن الجَصّاص ، قال :

قال زهير بيتاً ونصفاً ثم أكدى [1] ، فمرّ به النابغةُ ، فقال له : أبا أُمامة ،

(١) أكدى : امتنع عليه القول .

أجزْ ، فقال : وما قلتَ ؟ قال قلتُ :

تزِيد الأرضُ إمّا مِتَّ خفّاً ... وتحيا إن حَيِيتَ بها ثقيلا
نزلتَ بمُسْتَقرِّ العَرض منها ... .

أَجِز ، قال : فأكدى والله النابغةُ ، وأقبل كعبُ بن زهير ، وإنّه لغُلامٌ ، فقال أبوه : أَجز يا بُنَيّ ، فقال : وما أُجِيزُ ؟ فأنشده ، فأجاز النصف بيت ، فقال :

وتمنعُ جانبِيها أن يَزُولا

فضمّه زُهيرٌ إليه ، وقال : أشهدُ أنك ابني .

وقال ابن الأعرابيّ : قال حمّاد الراويةُ :

تحرّك كعبُ بن زُهَير وهو يتكلّم بالشعر ، فكان زهيرٌ ينهاه مَخافةَ أن يكونَ لم يستحكمْ شعرُه ، فيُروَى له ما لا خير فيه ، فكان يضرِبُه في ذلك ، فكلّما ضرَبه يزيدُ فيه،فغلبه ، فطال عليه ذلك ، فأخذه فحبسَه ، فقال : والذي أحلِفُ به لا تتكلّمُ ببيتِ شعرٍ إلا ضربتُك ضرباً ينَكُلُك عن ذلك [1] . فمكث محبوساً عدّة أيّامٍ ، ثم أُخبر أنّه يتكلّم به ، فدعاه فضربه ضرباً شديداً ، ثم أطلقه وسرّحه في بَهْمه [2] وهو غُلَيِّمٌ صغيرٌ ، فانطلق فرعى ثم راح عشيّةً ، وهو يرتجز :

كأنّما أحدُو ببَهْمي عِيرا ... من القُرَى مُوقَرةً شعيرا

فخرج إليه زهيرُ وهو غضبان ، فدعا بناقته فكَفَلها [3] بكِسائه، ثم

---

(١) نكله عن الأمر : ينكله : نحاه عنه وصرفه .
(٢) البهم : صغار الضأن .
(٣) كفل الناقة : وضع عليها الكفل ، وهو أن يؤخذ كساء فيعقد طرفاه ويلقى مقدمه على كاهل الناقل ومؤخره مما يلي العجز .

قعد عليها حتّى انتهى إلى ابنه كعب فأخذ بيده فأردفه خلْفَه ، ثم خرج فضرب ناقته وهو يريد أن يبعثَ ابنَه كعباً ويعلمَ ما عندَه من الشعر ، فقال زهيرٌ حين برز إلى الحيِّ :

إنّي لَتُعدِيني على الحيّ جَسْرةٌ   تَخُبُّ بوَصَّالٍ صَرُومٍ وتُعنقُ (١)

ثم ضرب كعباً ، وقال له : أَجِزِ يا لُكَع ، فقال كعب :

كبُنيانة القَرْئيِّ مَوضعُ رَحْلها   وآثارُ نِسعَيها من الدَّفِّ أبلقُ (٢)

فقال زهير :

على لاحبٍ مثلِ المجرَّةِ خِلتَه   إذا ما علا نَشْزاً من الأرضِ مُهْرَقُ (٣)

أجِز يا لُكَع ، فقال كعب :

منيرٌ هُداه ليلُه كنهارِه   جميعٌ ، إذا يعلو الحُزونةَ أفْرَقُ (٤)

قال : فتبدّى زهيرٌ في نعت النَعام ، وترك الإبل ، يتعسّفُه (٥) عمداً ليعلمَ ما عنده ، قال :

---

(١) تعديني : تعينني . على الحي : في ديوان زهير (ص ٢٥٧) : على الهم ، وهو أجود . الجسرة : الناقة الضخمة الطويلة . وصال صروم : رجل يصل في موضع الوصل ويصرم في موضع الصرم . تعنق : تشتد في سيرها .

(٢) القرئي : نسبة إلى القرية ، شبه الناقة ببنيان القرى. النسع : سير عريض تشد به الرحال . الدف : الجنب . الأبلق : ما اجتمع فيه البياض والسواد .

(٣) اللاحب : الطريق الواضح . النشز : المرتفع . المهرق : الصحيفة ، ومهرق هنا خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة مفعول ثان لخلته .

(٤) الحزن : ما غلظ من الأرض . أفرق : مستوواضح ، والأفرق أيضاً : المفترق الذي تتشعب منه الطرق يمنة ويسرة .

(٥) يتعسفه : يشتد عليه ويقسو ، وفي ديوان زهير : يعتسف به أي يأخذ في غير جهته.

وظلَّ بوَعْساء الكثيبِ كأنَّــــه خِباءٌ على صَقْبَي بِـوانٍ مُرَوَّقُ (١)

صَقبي : عمودي ، بوان : عمود من أعمدة البيت ، فقال كعب :

تراخى به حُبُّ الضّحاءِ وقــد رأى
سَمــاوةَ قَشْراءِ الوظيفَين عَوْهَقِ (٢)

فقال زهير :

تحِنُّ إلى مثل الحَبابير جُثَّـــمٍ لَدَى مَنْتِجٍ من قَيْضِها المُتَفَلِّقِ (٣)

الحبابير : جمع حُبارى ، وتجمع أيضاً حُباريات ، فقال كعب :

تحطَّم عنها قَيْضُها عن خَراطـــم وعن حَدَقٍ كالنَّبْخِ لم يتفتَّقِ (٤)

الخراطم هاهنا : المناقير ، والنّبخ : الجُدَريّ ، شبه أعين ولــد النعامة به .

قال : فأخذ زهيرٌ بيد ابنه كعب ، ثم قال له : قد أذنتُ لك في الشِّعر يا بُــنيّ .

فلمّا نزل كعب وانتهى إلى أهله — وهو صغيرٌ يومئذٍ — قال :

أَبيتُ فلا أهجُو الصديقَ ومن يَبِـعْ بعِرْض أبيه في المعاشر يُنْفِقِ (٥)

---

(١) الوعساء : الرملة اللينة تغيب فيها أخفاف الإبل . مروق : له رواق .

(٢) الضحاء : للإبل كالغداء للناس . السماوة : الشخص . القشراء : الشديدة الحمرة . الوظيفين : الساقين . عوهق : طويلة العنق ، يريد بها النعامة .

(٣) تحن : أي النعامة . الحبارى : طائر يضرب به المثل في الحمق . جثم : مقيمة . منتج : الموضع الذي نتجت فيه ووضعت بيضها : قشر البيض .

(٤) لم يتفتق : لم يتفقأ .

(٥) من يبع : من يشتر . ينفق : يجد من يشتمه .

قال : وهي أول قصيدة قالها .

إهدار رسول الله دمه وإسلامه

الحجّاجُ بن ذي الرُقَيبة بن عبد الرحمن بن مُضَرَّب بن كعب بن زهير بن أبي سُلمى عن أبيه ، عن جدّه ، قال :

خرج كعبٌ وبُجَيرٌ ابنا زهير بن أبي سُلمى إلى رسول الله ﷺ حتى بلغا أَبْرَق العزّاف (١) ، فقال كعب لبجير : إلحَق الرجل ، وأنا مقيمٌ هاهنا ، فانظُرْ ما يقولُ لك . فقدِم بُجير على رسول الله ﷺ ، فسمع منه وأسلم ، وبلغ ذلك كعباً ، فقال :

ألا أبلِغا عنّي بُجيراً رسالةً ... على أيِّ شيءٍ ويبَ غيرِك دلّكا
على خُلُقٍ لم تُلفِ أُمّاً ولا أباً ... عليه ولم تُدْرِكَ عليه أخاً لكا
سقاك أبو بكرٍ بكأسٍ رَويّة ... فأنْهلك المأمونُ منها وعلّكا (٢)

ويروى « المأمور » . قال : فبلغت أبياتُه هذه رسول الله ﷺ فأهدر دمه ، وقال : من لَقِي منكم كعبَ بن زهير فَلْيَقْتُلْه .

فكتب إليه أخوه بجير يخبره ، وقال له : انْجُهْ ، وما أراك بمُفْلتٍ .

وكتب إليه بعد ذلك يأمره أن يُسلم ويُقبل إلى رسول الله ﷺ ويقول له : إنّ من شهد أن لا إله إلا اللهُ وأنّ محمداً رسوله قبِل ﷺ منه ، وأسقط ما كان قبلَ ذلك . فأسلم كعبٌ ، وقال القصيدة التي اعتذر فيها إلى رسول الله ﷺ :

---

(١) أبرق العزاف : ماء لبني أسد .

(٢) لهذه الأبيات روايات أخرى في الديوان وفي مصادر أخرى . ويب : بمعنى ويل وويح .

بانت سُعادُ فقلبي اليومَ متبــولُ   مُتيَّمٌ عِـندها لم يُجزَ مَكْبُولُ [1]

قال : ثم أقبل حتى أناخ راحلتَه بباب مسجد رسول الله ﷺ ، وكان مجلسُه من أصحابه مكانَ المائدة من القوم : حَلْقةٌ ثمّ حلقة ثمّ حلقة ، وهو وسطهم ، فيقبل على هؤلاء يحدّثهم ، ثم على هؤلاء ، ثم على هؤلاء . فأقبل كعب حتّى دخل المسجد فتخطّى حتّى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسولَ الله ، الأمانَ . قال : ومَن أنت ؟ قال كعب بن زهير . قال : أنت الذي يقول ... كيف قال يا أبا بكر ؟ فأنشده حتّى بلغ إلى قوله :

سقاك أبو بكرٍ بكأسٍ رَويّــةٍ   وأنهلك المأمون منهــا وعلّكا

فقال رسول الله ﷺ : مأمونٌ والله . ثم أنشده — يعني كعباً — :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

... عن موسى بن عُقبة ، قال : أنشدها رسولَ الله ﷺ في مسجده ، فلما بلغ إلى قوله :

إنّ الرسولَ لسيفٌ يستضاءُ بــه   مُهنّدٌ من سيُوف اللهِ مَسْلُول
في فتيةٍ من قُريش قال قائلُهــم   ببطن مَكّةَ لمّا أسلموا : زُولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ   عند اللقاءِ ولا خُورٌ مَعازيلُ [2]

أشار رسول الله ﷺ إلى الحَلَق أن يسمعوا شِعر كعب بن زهير .

قال الحزاميّ : قال عليّ بن المدِينيّ : لم أسمع قطُّ في خبر كعب بن زهير

---

(١) بانت : فارقت . متبول : من التبل وهو ذهاب العقل . مكبول : مقيد.

(٢) زولوا : هاجروا ، يريد الهجرة من مكة إلى المدينة . انكاس ج نكس : الضعيف. كشف ج أكشف : من لا ترس معه . الخور ج خائر : الضعيف . وفي رواية الديوان : ولا ميل معازيل . والميل ج أميل : من لا يثبت على السرج ، وهو أيضاً الجبان ومن لا سلاح معه. معازيل : عزل من السلاح .

حديثاً قطّ أتمّ ولا أحسنَ من هذا ، ولا أُبالي ألاّ أسمعَ من خبره غير هذا .

قال أبو زيد عمرُ بن شَبَّة : ومما يروَى من خبره أن زهيراً كان نَظّاراً مُتوقّياً ، وأنه رأى في منامه آتياً أتاه ، فحمله إلى السماء حتّى كاد يمسّها بيده ، ثم تركه فهوى إلى الأرض ، فلما احتُضِر قَصّ رؤياه على وَلَده ، وقال : إنّي لا أشُكّ أنه كائنٌ من خبر السّماء بعدي شيءٌ ، فإن كان فتمسّكوا به وسارعوا إليه .

فلمّا بُعث النبيّ عليه السلام خرج إليه بُجير بن زهير فأسلم ، ثم رجع إلى بلاد قومه ، فلما هاجر رسول الله ﷺ أتاه بجير بالمدينة — وكان من خيار المسلمين . وشهد يومَ الفتح مع رسول الله ﷺ ، ويومَ خيبر ويوم حُنين وقال في ذلك :

صبَحناهم بألفٍ من سُليمٍ ... وألفٍ من بني عُثمانَ وافِ
فرُحْنا والجيادُ تجولُ فيهم ... بأرماحٍ مُثَقّفةٍ خِفافِ
وفي أكتافهم طعنٌ وضَربٌ ... ورَشْقٌ بالمُرَيَّشةِ اللِّطافِ (١)

ثم ذكر خبرَه وخبر أخيه كعب مثل ما ذكر الحزاميّ ، وزاد في الأبيات التي كتب بها كعبٌ إليه :

فخالفتَ أسباب الهُدى وتبعتَه ... فهل لك فيما قلتُ بالخَيفِ هل لكا ؟

ثم قال في خبره أيضاً : إن كعباً نزل برجلٍ من جُهَينة ، فلما أصبح أتى النبي عليه السلام ، فقال : يا رسول الله ، أرأيتَ إن أتيتُك بكعب بن زهير مسلماً أتؤمّنُه ؟ قال : نعم ، قال : فأنا كعب بن زهير . فتواثبت الأنصار تقول : يا رسولَ الله ، ائذنْ لنا فيه . فقال : وكيف ، وقد أتاني مُسلماً !

---

(١) بنو عثمان : بطن ضخم من مزينة قبيلة زهير بن أبي سلمى . مثقفة : مقومة . المريشة : السهام ذات الريش .

وكفَّ عنه المهاجرون ولم يقولوا شيئاً ، فأنشد رسول الله ﷺ قصيدته :

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبول

حتى انتهى إلى قوله :

لا يقع الطّعنُ إلاّ في نُحورهم ... وما بِهم عن حِياض الموت تَهليلُ(1)

هكذا في رواية عمر بن شَبَّه ، ورواية غيره « تعليل » .

فعند ذلك أومأ رسول الله ﷺ إلى الحِلَق حولَه أن تسمع منه .

تعريضه بالأنصار ثم مدحه إياهم

قال : وعرَّض بالأنصار في قصيدته في عدّةِ مواضعَ ، منها قوله :

كانت مواعيدُ عُرقوبٍ لها مَثَلاً ... وما مواعيدُها إلاّ الأباطيلُ

وعُرقوب : رجل من الأوس . فلما سمع المهاجرون بذلك قالوا : ما مدحنَا من هجا الأنصار ، فأنكروا قوله ، وعُوتب على ذلك فقال :

من سَرَّه كرمُ الحياة فلا يزلْ ... في مِقْنَبٍ من صالحي الأنصارِ
الباذِلين نفُوسَهم لِنبيِّهم ... عند الهِياج وسَطوة الجَبّار
والناظرين بأعيُنٍ مُحمرّةٍ ... كالجَمْر غيرِ كَليلةِ الإبصار
والضاربين الناسَ عن أديانهم ... بالمَشْرَفِيّ وبالقَنا الخَطّار
يَتطهَّرون يرَوْنه نُسكاً لهم ... بدماءِ من عَلِقوا من الكُفّار
صَدموا الكتيبةَ يومَ بدرٍ صَدمةً ... ذَلَّت لوَقْعتِها رِقابُ نِزارِ(2)

(1) التهليل : النكوص والفرار .

(2) المقنب : الجماعة من الفرسان . المشرفي : السيف المنسوب إلى مشارف اليمن . النسك : كل ما ذبح في الحرم .

٢٣

كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِي

(الأغاني ج ١٦ ص ٢٢٦ وما بعدها)

الشاعر

هو كَعْبُ بن مالك بن أبي كعب . واسم أبي كعب عَمرو بن القَيْن ... ابن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة ... بن مازن بن الأزد .

وكان كعبُ بن مالك من شعراءِ أصحاب رسول الله ﷺ المعدودين ، وهو بَدْريٌّ عَقَبِيٌّ (١) . وأبوه مالكُ بن أبي كعب بن القَين شاعرٌ ، وله في حروب الأوس والخزرج ، التي كانت بينهم قبلَ الإسلام آثارٌ وذِكر . وعمُّه قيسُ بن أبي كعب شهِد بدراً ، وهو شاعرٌ أيضاً ، وهو الذي حالف جُهينة على الأوس ...

ولكعبِ بن مالكٍ أصلٌ عريقٌ ، وفرعٌ طويل في الشعر : ابنُه عبد

---

(١) عقبي : أي هو ممن بايع رسول الله يوم العقبة .

الرحمن شاعرٌ ، وابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعرٌ ، والزُّبير بن خارجةَ بن عبد الله بن كعب شاعرٌ ، ومَعن بن عمرو بن عبد الله بن كعب شاعر ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب أبو الخَطّاب شاعرٌ ، ومَعن بن وهْب بن كعب شاعرٌ ، وكُلُّهم مجيدٌ مُقَدَّم .

وعُمِّر كعبُ بن مالك ، وروَى عن النبي ﷺ حديثاً كثيراً ، وكلُّ بني كعب بن مالك قد روى عنه الحديث .

مساندته رسول الله بشعره

عن محمد بن سِيرين ، في حديثٍ طويل قال : كان يهجوهم —يعني قريشاً— ثلاثةُ نفرٍ من الأنصار يُجيبونهم : حسّان بن ثابت ، وكعبُ بن مالك ، وعبد الله بن روَاحة . وكان حَسان وكعبٌ يُعارِضانهم بمثل قولهم : بالوقائع والأيّام والمآثر ، ويُعيّرانهم بالمثالِب ، وكان عبد الله بن رواحة يُعَيِّرهُمْ بالكُفر ، وينسُبهم إليه ، ويُعلم أن ليس فيهم شيءٌ شرّ من الكفر ، فكانوا في ذلك الزمان أشدُّ شيءٍ عليهم قولُ حَسّان وكعب ، وأهونُ شيء عليهم قول ابن روَاحة ، فلما أسلموا وفقِهوا الإسلام ، كان أشدَّ القول عليهم قول ابن روَاحة .

سِماك بن حرب قال : أُتِي رسول الله ﷺ فقيل : إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك ، فقام ابن رواحة ، فقال : يا رسولَ الله ائذنْ لي فيه . فقال له : أنت الذي تقول : فثَبَّت الله ؟ قال : نعم يا رسول الله ، أنا الذي أقول :

فثبّت اللهُ ما أعطاك من حَسَنٍ ... تثبيتَ موسَى ، ونَصْراً كالذي نَصَرا

فقال : وأنت فعل اللهُ بك مثلَ ذلك . قال : فوثب كعب بن مالك فقال : يا رسولَ الله ، ائذنْ لي فيه . فقال : أنت الذي تقول : هَمّت ؟ قال : نعم يا

رسول الله ، أنا الذي أقول :

هَمّت سَخينةُ أَنْ تُغالبَ ربَّها ... ولَيُغْلَبَنّ مُغالِبُ الغَلاّب[1]

فقال : أما إن الله لم ينس لك ذلك .

عن الشّعبيّ قال : لما انهزم المشركون يومَ الأحزاب ، قال رسول الله ﷺ : إن المشركين لن يغزُوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزُونهم ، وتسمعون منهم أذىً ويهجونكم ، فمن يحمي أعراضَ المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رواحة فقال : أنا . فقال : إنك لحسَن الشعر . ثم قام كعب فقال : أنا . فقال : وإنّك لحسن الشعر .

عن ابن سيرين قال : وقف رسول الله ﷺ بباب كعب بن مالك ، فخرج فقال له رسول الله ﷺ : إيهِ ، فأنشده ، ثم قال : إيهِ ،فأنشده ،ثم قال : إيهِ ، فأنشده (ثلاث مرات) . فقال رسول الله ﷺ : لَهذا أشدُّ عليهم من مَواقع النَّبْــل .

عثمانيتــه

ويقال : كان كعب بن مالك عثمانياً ، وهو أحد من قَعَد عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فلم يشهد معه حروبه ، وخاطبه في أمر عثمــان وَقَتَلته ، ثمّ اعتزله. وله مَراثٍ في عثمانَ بن عفان ، رحمه الله ، وتحريضٌ للأنصار على نُصْرته قبل قتله ، وتأنيبٌ لهم على خِذلانه بعد ذلك ، منها قولــه :

فلو حُلْتُمُ من دُونه لم يزَلْ لكم ... يَدَ الدهر عِزٌّ لا يَبُوخُ ولا يَسْري
ولم تَفْقدوا والدارُ كابٍ دُخانُهــا ... يُحرَّقُ فيها بالسّعير وبالجَمْــرِ

(١) سخينة : لقب كانت قريش تعير به لإكثارها من صنع السخينة ، وهو طعام يتخذ من الدقيق .

فلم أر يوماً كان أكثرَ ضَيْعَـــةً　　وأقربَ منه للغَوايةِ والنُّكْرِ (١)

عن أبي عبيدةَ قال : كان كعبُ بن مالكٍ الأنصاريُّ أحدَ من عاون عثمانَ على المصريين ، وشهَر سلاحه ، فلما ناشدَ عثمانُ الناس أن يُغْمدوا سيوفَهم انصرف ، ولم ير أن الأمر يخلُص إليه ، ولا يَجْرِي القوم إلى قتله ؛ فلما قُتل وقف كعب بن مالك على مجلس الأنصار ، في مسجد رسول الله ﷺ فأنشدهـــم :

مَنْ مُبلغُ الأنصارِ عنّي آيـــةً　　رُسُلاً تَقُصُّ عليهمُ التِّبيانـــا
أن قد فَعَلْتم فَعْلةً مذكـــورةً　　كَستِ الفُضُوحَ وأبدَتِ الشَنْآنـــا
بقُعودكم في دُورِكـــم وأميرُكم　　تُحْشَى ضَواحي دارِه النيرانـــا
بينا يُرجِّي دفعَكم عـــن دارِه　　مُلِئت حَريقاً كابياً ودُخـــانا
حتى إذا خلَصُوا إلى أبوابــــه　　دخلُوا عليه صائمـــاً عَطشانا
يُعلُون قُلّتَـــه السُيوفَ وأنـــتمُ　　مُتَلَبِّثون مَكانَكم رِضوانـــا
اللهُ يَعلم أنّـــني لم أرضَـــــه　　لكُمُ صَنيعاً يومَ ذاك وشانـــا
يا لَهْفَ نفسي إذ يقول : ألا أرَى　　نَفَراً من الأنصـــار لي أعوانـــا
واللهِ لو شهد ابنُ قيسٍ ثـــابتٌ　　ومَعاشرٌ كانوا له إخوانـــا (٢)

يعني ثابتَ بن قيس بن شمّاس .

وأبو دُجانةَ وابنُ أرقمَ ثـــابتٌ　　وأخو المَشاهد من بني عَجْلانا

---

(١) يد الدهر : طول الدهر . لا يبوخ : لا يسكن وأصله من باخت النار أي سكنت وانطفأت . لا يسريّ : لا يزول .

(٢) قلته : رأسه ، والقلة من كل شيء : أعلاه . رضوانا : مصدر رضي في موضع الحال أي راضين .

أبو دُجانةَ : سِماك بن خَرَشة وابن أرقم : ثابت البَلَويّ . وأخو المَشاهد من بني عَجْلان : مَعْن بن عَدِيّ ، عَقَبيٌّ .

ورِفاعةُ العُمَريُّ وابنُ مُعاذِهم وأخو مُعَاويَ لم يَخَفْ خِذلانا

رفاعة : ابن عبد المنذر العُمَريّ . وابن معاذ : سعد بن معاذ . وأخو معاوية : المنذر بن عَمرو الساعديّ ، عَقبى بَدْريّ .

قومٌ يَرَوْن الحقَّ نصرَ أميرِهم ويرون طاعةَ أمره إيمانا
إن يُتْرَكوا فَوْضَى يَرَوْا في دينهم أمْراً يُضَيِّق عنهمُ البُلْدانا
فلَيُعْلِينّ اللهُ كعبَ وَليّه ولَيَجْعلَنّ عَدُوَّه الذُّلاّنا
إنّي رأيت محمّداً إختاره صِهراً وكان يَعُدُّه خُلْصانا
مَحْضَ الضرائبِ ماجداً أعراقُهُ من خير خِندِفَ مَنصِباً ومَكانا
عَرَفَتْ له عُلْيَا مَعَدٍّ كلُّها بعدَ النبيِّ المُلك والسلطانا
من مَعْشَرٍ لا يَغدِرُون بجارهم كانوا بمكةَ يَرْتَعون زمانا
يُعْطون سائلَهم ويأمنُ جارُهم فيهم ويُرْدُون الكُماةَ طِعانا
فلَو انّكم مع نَصركم لِنبيّكم يومَ اللقاء نصرتُمُ عثمانا
أنَسِيتُمُ عهدَ النبيِّ إليكُمُ ولقد ألَظَّ ووكّد الأيمانا (١)

قال : فجعل القوم يبكون ، ويستغفرون الله عزَّ وجلَّ .

عن أبي جعفر محمد بن منصور الرَّبَعيّ : لما بُويع لعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، بلغه عن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنُعمان بن بشير ــ وكانوا عثمانيّةً ــ أنّهم يُقدّمون بني أمية على بني هاشم ، ويقولون : الشأم خيرٌ

(١) الذلان : جمع ذليل . اختاره : قطع الهمزة في أول الفعل هنا لضرورة الشعر . الخلصان : الصديق الخالص ، يستوي فيه المفرد والجمع . الضريبة : الطبيعة . أعراقه : أصوله . ألظ : ألح وأكد .

من المدينة . واتصل بهم أن ذلك قد بلغه ، فدخلوا عليه ، فقال له كعب بن مالك : يا أميرَ المؤمنين ، أخبِرنا عن عثمان : أقُتِل ظالماً ، فنقولَ بقولك ؟ أم قُتل مظلوماً ، فتقولَ بقولنا ، ونَكِلَك إلى الشُبهة فيه ، فالعجبُ من تيقُّننا وشكِّك، وقد زعمت العرب أنّ عندك عِلْمَ ما اختلفنا فيه ، فهاتِه نَعرِفْه ، ثم قال :

كَفَّ يديهِ ثم أغلقَ بابَه ... وأيقن أن الله ليس بغافلِ
وقال لمن في داره : لا تُقاتلوا ... عفا اللهُ عن كل امرىءٍ لم يُقاتلِ
فكيف رأيتَ الله صَبَّ عليهم الـ ... ـعداوةَ والبغضاءَ بعد التواصُلِ
وكيف رأيتَ الخيرَ أدبر عنهُم ... وولّى كإدبار النّعام الجوافِلِ

فقال لهم عليٌّ عليه السلام : لكم عندي ثلاثةُ أشياءَ : استأثر عثمانُ فأساء الأثَرة ، وجَزعتم فأسأتُم الجَزَع ، وعندَ الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى بهذا العربُ ، ولا تعذرُنا به . فقال عليّ عليه السلام : أتردُّون عليَّ بين ظَهْرانَي المسلمين ، بلا بيِّنةٍ صادقةٍ ، ولا حُجّةٍ واضحةٍ ؟ اخرُجوا عني ، ولا تُجاوروني في بلدٍ أنا فيه أبداً . فخرجوا من يومهم ، فساروا حتى أتوا معاوية ، فقال لهم : لكم الوِلاية والكِفاية . فأعطى حسّان بن ثابت ألف دينار ، وكعبَ بن مالك ألف دينار ، وولّى النعمان بن بشيرٍ حِمص ، ثم نقله إلى الكوفة بعد .

إعجاب معاوية بشعر له

عن عبد الأعلى القُرشيّ قال :

قال معاوية يوماً لجلسائه : أخبروني بأشجع بيتٍ وصف به رجلٌ قومه . فقال له رَوح بن زِنباع : قول كعب بن مالك :

نصِل السيوفَ إذا قَصُرن بخَطْونا ... قِدْماً ونُلحِقُها إذا لم تَلحقِ

فقال له معاوية : صدقت .

* * *

٢٤

المخبّل السّعديّ

(الأغاني ج ١٣ ص ١٨٩ وما بعدها)

الشاعر

قال ابن الكلبيّ : اسمه الرَّبيع بن ربيعة ، وقال ابن دأب : اسمه كعب بن ربيعة . وقال ابن حبيب وأبو عمرو : اسمه رَبيعة بن مالك بن ربيعة .. بن سَعد بن زيد مناة بن تميم . شاعرٌ فحلٌ ، من مخضرَمي الجاهلية والإسلام ، ويكنى أبا يزيد . وإيّاه عنى الفرزدق بقوله :

وهبَ القصائدَ لي النوابغُ إذ مَضَوا وأبو يزيدَ وذوالقُروحِ وجَرولُ

ذو القروح : امرؤُ القيس . وجَرول : الحطيئة. وأبو يَزيد : المخبَّل. وذكره ابن سلامٌ فجعله في الطبقة الخامسة من فحول الشعراء ، وقرنه بخداش ابن زهير ، والأسود بن يَعْفُر ، وتَميم بن مُقْبِل . وهو من المُقِلِّين ، وعُمِّرَ في الجاهليّة والإسلام عُمراً كثيراً ، وأحسبه مات في خلافة عمر أو

عثمان (رضي الله عنهما) وهو شيخٌ كبير . وكان له ابنٌ ، فهاجر إلى الكوفة في أيام عمر فجزع عليه جزعاً شديداً ، حتى بلغ خبرُه عمر ، فردَّه عليه .

طائفة من أخباره

* عن ابن الأعرابي قال :

هاجر شيبان بن المخبل السَعدي ، وخرج مع سعد بن أبي وقَّاص لحرب الفُرس ، فجزِع عليه المخبَّل جزعاً شديداً ، وكان قد أسنَّ وضَعُف ، فافتقر إلى ابنه فافتقده ، فلم يَملكِ الصبرَ عنه ، فكاد أن يُغلَب على عقله ، فعمَد إلى إبله وسائر ماله فعرضه ليبيعَه ويلحَقَ بابنه ، وكان به ضَنيناً ، فمنعه عَلقمة بن هَوذةَ بن مالك ، وأعطاه مالاً وفرساً ، وقال : أنا أُكلِّمُ أمير المؤمنين عمر في ردّ ابنك ، فإن فعل غنمتَ مالكَ ، وأقمتَ في قومك ، وإن أبى استنفقتَ ما أعطيتُك ولحقتَ به ، وخلّفت إبلَك لِعيالك . ثم مضى إلى عُمر – رِضوان الله عليه – فأخبره خبر المخبَّل ، وجزَعه على ابنه ، وأنشده قولَـــه :

أيُهلِكني شَيبان في كلِّ ليلـــةٍ ... لِقلبي من خوفِ الفِراقِ وَجيبُ
أشيبانُ ما أدراك أن كلُّ ليلــةٍ ... غَبقتُك فيها والغَبُوق حَبيــبُ
غبقتُك عُظماها سَناماً أو انبرى ... برزقك بَرّاقُ المتونِ أريــبُ
أشيبان إن تأبى الجيوشُ بِحدّهم ... يقاسُون أيّاماً لهــنَّ خُطوبُ
ولا همَّ إلا البزُّ أو كلُّ سابحٍ ... عليه فتىً شاكي السلاح نجيــبُ
يَذُودون جُند الهُرمزان كأنّمـا ... يَذُودون أوراد الكِلاب تَلُوب
فإن يك غُصني أصبح اليومَ ذاوياً ... وغُصنُك من ماء الشباب رَطيبُ
فإنّي حنت ظَهري خُطوبٌ فتتابعت ... فمَشي ضعيفٌ في الرجال دبيبُ

إذا قال صحبي : يا ربيعُ ألا ترى أرى الشخص كالشّخصين وهو قريبُ
ويُخبرني شَيبانُ أن لن يَعُقّني تَعُقُّ إذا فارقتَني وتَحُوب
فلا تُدخِلنَّ الدهرَ قبرك حَوبةً يقوم بها يوماً عليك حَسيبُ (١)

– يعني بقوله « حسيب » الله عز ذكره – .

قال : فلما أنشد عمرَ بن الخطاب هذه الأبيات بكى ورقَّ له ، فكتب إلى سَعد يأمره أن يُقفِل شيبان بن المخبّل ويردَّه على أبيه ، فلما ورد الكتاب عليه أعلم شيبانَ وردّه فسأله الإغضاءَ عنه ، وقال : لا تَحرِمَنّي الجِهاد . فقال له : إنها عَزْمةٌ من عمر ، ولا خيرَ لك في عِصيانه وعُقوق شيخك . فانصرَفَ إليه ، ولم يزل عندَه حتى مات .

* عن ابن حبيبَ قال : خطب المخبّل السّعدي إلى الزِبرقان بن بدر أختَهُ خُليدَةَ ، فمنعه إيّاها ، وردّه لشيء كان في عقله ، وزوّجها رجلاً من بني جُشم بن عوف ، يقال له : مالك بن أُميّة بن عبد القيس ، من بني محارب ، فقتلَ رجلاً من بني نَهشلٍ يقال له الجُلاس بن مُخَرِّبة بن جَندل بن جابر بن نهشل اغتيالاً ، ولم يَعلم به أحدٌ ، ففُقد ولم يُعلَم له خبرٌ ، فبينما جار الزِبرقان الذي من عبد القيس قاتل الجُلاس ليلةً يتحدث إذ غَلط ، فحدّث هَزّالاً بقتله الرجلَ ، وذلك قبل أن يتزوّجَ هزّالٌ إلى الزِبرقان ، فأتى هزّالٌ عبدَ عمرو بن صَخْرة ابن جابر بن نهشل فأخبره ، فدعا هزالٌ قاتلَ الجُلاس فأخرجه من البيوت ، ثم اعتوره هو وعبدُ عمرو فضرباه حتى قتلاه ، ورجع هَزالٌ إلى الحيّ

(١) الوجيب : الخفقان . الغبوق : الشرب في العشي . براق المتون : أراد به السيف . البز : السلاح . السابح : صفة للجواد السريع العدو . شاكي السلاح وشائك السلاح : حاد السلاح . الهرمزان : الكبير من ملوك العجم ورؤسائهم . أوراد ج ورد : ما كان لونه بين الأحمر والأشقر . تلوب : تحوم . تحوب : تأثم ، والحوب والحوبة : الإثم والذنب .

وهرب عبد عمرو حتّى لجأ إلى أخواله بني عُطارد بن عوفٍ ، فقالت امرأة مالكٍ بن أمية المقتولِ :

أجيرانَ ابنِ ميّةَ خبّروني أعينٌ لابن ميّةَ أم ضِمارُ
تجلّل خِزيُها عوفَ بن كعب فليس لِنسلهم منها اعتذارُ [1]

قال : فلما زَوّج الزِبرقان أختَه خُليدةَ هزّالاً بعد قتله جارَه عِيب عليه ، وعُيِّر به ، وهجاه المخبّل فقال :

لَعَمرُك إنّ الزِبرقان لَدائمٌ على الناسِ تعدُو نُوكُه ومَجاهله
أأنكحت هزّالاً خُليدة بعدما زعمتَ بظهر الغيب أنّك قاتله [2]

(الأبيات ...)

قال : ولجّ الهِجاء بين المخبّل والزِبرقان حتى تواقفا للمهاجاة واجتمع الناس عليهما ، فاجتمعا لذلك ذاتَ يوم ، وكان الزبرقان أسودَهما [3] ، فابتدأ المخبّل فأنشده قصيدته :

أُنبِئت أنّ الزِبرقان يَسبُّني سَفَهاً ويكره ذُو الحِرَين خِصالي

قال : وإنّما سماه ذا الحُرين لأنه كان مبدَّناً ، فكان له ثديان عظيمان ، فسبّه بهما وشبههما بالحِرين ، ويقال : إنه إنّما عيّره بأخته وابنته ، ولم يكن للمخبّل ابنٌ في الجاهلية ، قال :

أفلا يُفاخرني ليعلمَ أيُّنا أدنى لأكرمِ سُودَدٍ وفَعالِ

---

(١) العين : المال العتيد الحاضر والنقد وهو ضد الدين ، يقال اشتريت الشيء بالدين أو بالعين . الضمار : خلاف العين ومن الدين : ما كان بلا أجل ولا يرجى رجوعه . تجلله : علاه .
(٢) النوك : الحمق . المجاهل : الجهل .
(٣) أسودهما : أعظمهما سيادة .

فلما بلغ إلى قوله :

وأبوك بَدرٌ كان مُشترطِ الحُصَى ... وأبي الجوادُ ربيعةُ بن قِتالِ [1]

فلما أنشده هذا البيت ، قال :

وأبوك بدرٌ كان مشترط الحصى ، وأبي ....

ثم انقطع عليه كلامه ، إما بشَرَقٍ أو انقطاع نَفَسٍ ، فما علم الناسُ ما يريد أن يقولَه بعد قوله : « وأبي » ، فسبقه الزبرقان قبل أن يُتمّ ويُبين ، فقال : صدقتَ ، وما في ذاك إن كان شيخانا قد اشتركا في صَنعةٍ . فغلبه الزِبرقان ، وضحكوا من قواه وتفرّقوا ، وقد انقطع بالمخبّل قولُه .

* عن عُبيد الله بنِ حبيب ، قال : كان زُرارةُ بن المخبّل يَليط [2] حوضه ، فأتاه رجلٌ من بني عِلباءِ بن عوف ، فقال له : صارِعْني . فقال له زُرارة : إنّي عن صِراعك لمَشغولٌ . فجذب بحُجزَته وهو غافلٌ فسقط ، فصاح به فِتيان الحيِّ : صُرِعُ زُرارة وغُلب . فأخذ زُرارة حجراً ، فأخذ به رأسَ العِلْباويّ . فسأل المخبّلُ بغيضَ بنَ عامر بن شَمّاس أن يتحمّل عن ابنه الديَة ، فتحمّلها وتَخلّصه ، وكسا المُخَبّل حُلّةً حَسنةً ، وأعطاه ناقةً نجيبة ، فقال المخبّلُ يمدحه :

لَعَمْرُ أبيكَ لا ألقى ابنَ عمٍّ ... على الحِدْثانِ خيراً من بَغيضِ
أقلّ مَلامةً وأعزّ نصراً ... إذا ما جئتُ بالأمر المريضِ
كساني حُلّةً وحبا بعَنْسٍ ... أبُسٌّ بها إذا اضطربت غُروضي
غداةَ جنى بُنَيَّ عليّ جُرماً ... وكيف يداي بالحرب العَضُوضِ

---

(١) الشرط : بزغ الحجام يعيره بأنه يمتهن الحصاء .
(٢) لاط حوضه يلوطه ويليطه : طينه .

فقد سدَّ السبيلَ أبو حُميدٍ كما سَدَّ المُخاطبةَ ابنُ بَيضٍ (١)

أبو حُميد : بغيض بن عامر . وأما قوله : « كما سدَّ المخاطبة ابنُ بيض » ، فإن ابن بيض : رجلٌ من بقايا قومِ عاد ، كان تاجراً ، وكان لُقمان بنُ عاد يُجيز له تجارته في كلِّ سَنَةٍ بأجرٍ معلوم ، فأجازه سنةً وسنتين ، وعاد التاجرُ ولقمانُ غائبٌ ، فأتى قومَه فنزل فيهم ، ولُقمان في سفرِه ، ثم حضرت التاجرَ الوفاةُ فخاف لُقمانَ على بَنيه ومالِه فقال لهم : إنَّ لُقمانَ صائرٌ إليكم ، وإني أخشاه إذا علم بموتي على مالي ، فاجعلوا مالَه قِبَلي في ثوبه ، وضَعُوه في طريقه إليكم ، فإن أخذه واقتصر عليه فهو حَقُّه ، فادفعوه إليه واتَّقُوه ، وإن تعدّاه رجوتُ أن يكفيَكم اللهُ إيّاه . ومات الرجلُ ، وأتاهم لُقمان وقد وَضَعُوا حقّه على طريقه ، فقال : « سدَّ ابنُ بيضٍ الطريقَ » فأرسلها مثلاً ، وانصرف وأخذ حقّه . وقد ذكرت ذلك الشعراء ، فقال بَشامة بنُ عَمرو :

كثوبِ ابن بَيْضٍ وقاهم بــه فسَدَّ على السالِكين السّبيلا

قال ابن حبيب : ولما حَشدتْ بنو عِلباءِ للمطالبة بدم صاحبهم ، حَشَدت بنو قُريع مع بَغيضٍ لنصر المخبّل ، ومشت المَشْيَخَةُ في الأمر ، وقالوا : هذا قَتل خطأ ، فلا تُواقعوا الفتنة ، واقبَلُوا الديَةَ ، فقبِلوُها وانصرفوا ، فقال زُرارة بن المخبّل يفخَر بذلك :

فاز المُخالِسُ لمّا أن جرى طَلَقاً أما حُطيمُ بنُ عِلْباءٍ فقد غُلبا
إنّي رميتُ بجُلمودٍ على حَنَقٍ منّي إليه فكانت رَميةٌ غرَبا

---

(١) حدثان الدهر ، بكسر أوله : نوبه وأحداثه . العنس : الناقة الصلبة . بس الابل : ساقها سوقاً ليناً وزجرها . الغروض ج غرض ، بإسكان وسطه : للرحل كالحزام للسرج ، واضطربت غروضي أي ارتحلت مسافراً . سد الطريق ابن بيض : مثل يضرب لمن يفي بعهده فلا يجعل سبيلا لمساءلة أو طلب .

لَيثا إليَّ يَشُقُّ الناسَ مُنفرِجــاً لَحياهَ عنّانةٌ لا يتّقي الحَشبا
فأورَثتَني قتيلاً إن بقيــتُ وإن أفلتُّ كانت سَماعَ السَّوءِ والحرَبَا[1]

ثم أخذ بنو حازم جاراً لبني قُشير ، فأغار عليه المنتشِر بن وَهب الباهليُّ ، فأخذ إبله ، فسأل في بني تميم حتّى انتهى إلى المخبّل ، فلمّا سأله قال له : إن شئتَ فاعترِضْ إبلي فخذ خيرَها ناقةً ، وإن شئتَ سعيتُ لك في إبلك . فقال : بل إبِلي ، فقال المخبّل :

إنّ قُشيراً من لِقاحِ ابنِ حــازمٍ
كراحضةٍ حَيْضاً وليست بطــاهرِ
فلا يأكُلَنْها الباهــليُّ وتقعُدوا
لَدى غرَضٍ أرميكم بالنواقر[2]

(الأبيات ...)

فلمّا بلغهم قولُ المخبّل سعَوا بإبله، فردّها عليهم حَزْنُ بن معاوية بن خَفاجة بن عُقيل ، فقال المخبّل في ذلك :

تدارك حَزْنٌ بالقنا آلَ عــامرٍ
قَفَا حَضَنٍ والكرُّ بالخَيل أعْسَرُ
فإني بذا الجار الخَفاجيِّ واثـــقٌ
وقَلبي من الجار العُباديّ أوجَــرُ
إذا ما عُقَيليّان قامَـــا بذمّة
شَريكَين فيها فالعُبــاديُّ أوجــر

(١) المخالس : اسم جواد أو صفة له . طلقاً : شوطاً . الجلمود : الحجر . رمية غرب : لا يعرف من رماها . لحياه ، مثنى لحي : منبت اللحية . عنانة : مبالغة من العَن وهو الاعتراض . بقيت : في المطبوعة : لقيت ، وما أثبتناه أدنى إلى ما يقتضيه السياق . الحرب : هلاك المال .
(٢) رحضت الحيض : غسلته . النواقر : الدواهي ، أراد بأنه يرميهم بقصائد الهجاء .

لَعَمري لقد خارت خَفاجةُ عامراً
كما خيرَ بيتٌ بالعِراق المُشَقَّرُ
وإنّك لو تُعطي العُباديَّ مِشقَصاً
لراشى كما راشى على الطبع أبْخَرُ (١)

— راشى من الرشوة —

* الأصمعيّ ، قال : مرّ المخبّلُ السّعديُّ بخُلَيدةَ بنت بدر ، أختِ الزبرقان بن بدر ، بعد ما أسنّ وضَعُفَ بصره ، فأنزلتْه وقرَّبته وأكرمته ووهبت له وَليدةً ، وقالت له : إني آثرتُك بها يا أبا يزيد فاحتفظ بها . فقال : ومن أنتِ حتى أعرفَكِ وأشكرَكِ ؟ قالت : لا عليك ، قال : بلى واللهِ أسألك ، قالت : أنا بعض من هتكتَ بشعرك ظالماً ، أنا خُليدة بنت بدر . فقال : واسَوْأتاه منك ، فإنّي أستغفرُ اللهَ عزّ وجلّ ، وأَستقيلك وأعتذرِ إليك . ثم قال :

لقد ضلّ حِلمي في خُليدةَ إنّني
سأُعتِبُ نفسي بعدها وأموتُ
فأُقسِمُ بالرحمن إنّي ظلمتُها
وجُرت عليها والهجاءُ كَذُوبُ (٢)

---

(١) حضن : جبل بأعلى نجد . الجار الخفاجي : أراد حزن بن معاوية بن خفاجة الذي سعى في رد الإبل ، وخفاجة بطن ضخم من بني عقيل . الجار العبادي : يشير إلى رجل منسوب إلى بني عبادة بن عقيل ، وهو كذلك بطن من هذه القبيلة ، ولكن لم يرد في الخبر شيء يتصل بالرجل المنسوب إلى عبادة . إذا ما عقيليان : في المطبوعة : إذا ما عقيلي أقام بذمة ، ولا يستقيم الكلام على هذه الرواية ، وقد صححنا رواية البيت وفق ما يقتضيه السياق ، لأن ثمة موازنة بين رجلين ينتميان إلى بطين مختلفين من عقيل . خارت : فضلت . خير : اختير . المشقر : اسم موضع . المشقص : نصل عريض . البخر : النتن في رائحة الفم .
(٢) أعتبه : أزال عتبه وأرضاه .

* عن لقيطٍ قال :

اجتمع الزِبرقان بن بدر والمخبّل السّعدي وعَبْدة بن الطبيب وعَمرو بن الأهتم قبل أن يُسلموا ، وبعد مبعث النبيّ ﷺ ، فنحروا جَزُوراً ، واشتَروا خمراً ببعيرٍ ، وجعلوا يشوون ويأكلون فقال بعضُهم : لو أنّ قوماً طاروا من جَودة أشعارهم لطِرنا . فتحاكموا إلى أول من يطلعُ عليهم ، فطلعَ عليهم ربيعةُ بن حُذارِ الأسديّ ، وقال اليزيديّ : فجاءهم رجلٌ من بني يَربوع يسأل عنهم ، فدُلّ عليهم وقد نزلوا بطن وادٍ وهم جُلوس يشربون، فلما رأوه سَرّهم ، وقالوا له : أخبرنا أيُّنا أشعرُ ؟ قال : أخاف أن تغضبوا ، فآمنُوه من ذلك ، فقال : أما عمروٌ فشعره بُرودٌ يمنيّةٌ تُنْشَر وتطوَى ، وأما أنت يا زِبرقان فكأنّك رجلٌ أتى جَزوراً قد نُحرت ، فأخذ من أطايبها وخلطه بغير ذلك . وقال لقيطٌ في خبره : قال له ربيعة بن حُذار : وأما أنت يا زِبرقان فشعرك كلَحمٍ لم يُنضَجْ فيُؤكَلَ ، ولم يُترَك نيّئاً فيُنْتفَع به ، وأما أنت يا مخبّلُ فشعرك شُهُبٌ من نار الله يُلقيها على من يشاء ، وأما أنت يا عَبْدةُ فشِعرك كمَزادةٍ (٢) أُحكمَ خَرْزُها فليس يَقطُر منها شيءٌ .

* عن ابن حبيبَ ، قال : كان رجلٌ من بني امرِىء القيس يقال له رَوْقٌ ، مجاوراً في بكر بن وائل باليمامة ، فأغارُوا على إبله وغدرُوا به ، فأتى المخبّل يستمنحه ، فقال له : إن شئتَ فاختَرْ خير ناقةٍ في إبلي فخُذْها ، وإن شئت سعيتُ لك . فقال : أَن تسعى بي أحبُّ إليّ . فخرج المخبّل فوقف على نادي قومه ، ثم قال :

أدُّوا إلى رَوح بن حَسّان بن حارِثة بن مُنذرْ
كَوماءَ مُدفأةً كأنّ ضُروعَها حَمّاء أَجْفَرْ (٣)

---

(١) المزادة : قربة الماء .

(٢) يلاحظ أن اسم الرجل ورد في البيت الأول بلفظ : روح ،وفي الخبر : روق . الكوماء : =

(الأبيات ...)

فقالوا : نَعم ونُعمة . فجمعوا له بينهم الناقة والناقتين من رجلين حتى أعطَوه بعدة إبله . وقال ابن حبيب في هذه الرواية : « كان رجلٌ من بني ضبّــــة » .

* * *

= الناقة العظيمة السنام . المدفأة : الكثيرة الشحم والوبر . الحماء : سافلة الانسان . الأجفر : العظيم الضخم .

٢٥

مُتَمِّم بن نُوَيْرَة

(الأغاني ج ١٥ ص ٢٩٨ وما بعدها)

الشاعر

هو مُتَمِّم بن نُوَيرة ... بن يَربوع بن حَنظلة بن مالك بن زيد مَناة بن تَميم ... ويكنى مُتمّم بن نويرة أبا نهشل .

ويكنى أخوه مالك أبا المِغوار . وكان مالكٌ يقال له فارسُ ذي الخِمار ، قيل له ذلك بفرسٍ كان عنده يقال له « ذو الخِمار » ....

مقتل مالك بن نويرة واختلاف الأقوال فيه :

عن محمّد بن سلاّم قال :

كان مالك بن نُويرة شريفاً فارساً ، وكان فيه خُيَلاءُ وتقدُّم [1] ،

(١) التقدم : الإقدام والجرأة .

وكان ذا لِمَّةٍ كبيرة (١) ، وكان يقال له : الجَفُول (٢) .

وكان مالكٌ قتل في الرِدَّة ، قتله خالد بن الوليد بالبُطاح (٣) في خلافة أبي بكر ، وكان مقيماً بالبُطاح . فلمّا تنبّأت سَجاح اتّبعها ثم أظهر أنه مُسلمٌ فضرب خالدٌ عُنقه صَبراً ، فطعن عليه في ذلك جماعة من الصَحابة ، منهم عمرُ بن الخطّاب ، وأبو قَتادةَ الأنصاريُّ ، لأنه تزوّج امرأة مالك بعدَه ، وقد كان يُقال إنه يهواها في الجاهليّة واتُّهم لذلك أنّه قتله مُسلِماً ليتزوّجَ امرأتَه بعـدَه .

راجع المصادر الصحيحة والأوثق للتاريخ الإسلامي

عن سيف بن عمر عن الصَقْعب بن عَطيّةَ عن أبيه :

أنّ رسول الله ﷺ استعمل عُمّاله على بني تَميم ، فكان مالك بن نُوَيرة عاملَه على بني يربوع . قال : ولمّا تنبّأت سَجاحِ بنت الحارث بن سُوَيد بن عُقفانَ وسارت من الجزيرة ، راسلت مالك بن نُوَيرة ودعتْه إلى الموادعة ، فأجابها وقَنّاها (٤) عن غزوها ، وحملها على أحياءٍ من بني تميم فأجابته وقالت : نعمْ فشأنَك بمن رأيت ، وإنّما أنا امرأةٌ من بني يربوع ، وإن كان مُلكٌ فهو مُلكُكم .

فلمّا تزوّجها مُسَيلِمةُ الكذّاب ودخل بها انصرفت إلى الجزيرة وصالحته أن يحمِل عليها النِصف من غَلاّت اليمامة ، فارعوى حينئذٍ مالكبن نُويرة

---

(١) اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن .

(٢) سمي الجفول لأنه جفل ابل الصدقة ، أيذهب بها ، وقيل انه لقب بذلك لكثرة شعره ، ورجح الأستاذ محمود شاكر أنه لقب بذلك لجرأته واقدامه تشبيهاً له بالريح الجفول ، وهي التي تجفل السحاب وتسوقه (أنظر طبقات فحول الشعراء ٢٠٥/١ في الحاشية) . إلى هنا ينتهي الكلام المروي عن ابن سلام وما بعده كلام أبي الفرج .

(٣) البطاح : بضم الباء – وقد ضبطت في المطبوعة بكسرها وهو خطأ – منزل لبني يربوع أو ماء في ديار بني أسد وفيه كانت الوقعة بين المسلمين وأميرهم خالد بن الوليد وأهل الردة .

(٤) قناها : نهاها وكفها .

وندم وتحيّر في أمره فلحق بالبُطاح ، ولم يبق في بلاد بني حَنظلة شيءٌ يُكْرَه إلاّ ما بقي من أمر مالك بن نُويرة ومن تأشّب[1] إليه بالبُطاح فهو على حاله متحيّر ما يدري ما يَصنع .

وقال سيف : فحدّثني سَهل بن يوسُف عن القاسم بن محمّد وعمرو بن شُعيب قالا : لمّا أراد خالد بن الوليد المسير خرج من ظَفَر[2] ، وقد استبرأ أسداً وغطَفان وطيّئاً ، فسار يريد البُطاح دون الحَزْن[3] ، وعليها مالك بن نُويرة وقد تردّد عليه أمرُه ، وقد تردّدت الأنصار على خالد وتخلّفت عنه وقالوا : ما هذا بعَهد الخليفة إلينا ، فقد عهِد إلينا ان نحن فرَغنا من البُزاخة[4] واستبرأنا بلادَ القوم ، أن يكتب إلينا بما نعمل . فقال خالد : إن يكُن عهِد إليكم هذا فقد عهِد إليّ أن أمضي ، وأنا الأميرُ وإليّ تَنتهي الأخبارُ ، ولو أنّه لم يأتِني له كتابٌ ولا أمرٌ ثمّ رأيت فُرصةً إن أعلمتُه بها فاتَتْني لم أُعلِمْه حتّى أنتهزَها . وكذلك لو ابتُلينا بأمرٍ ليس منه عهدٌ إلينا فيه لم نَدَع أن نرى أفضل ما بحَضْرتنا ونعملَ به . وهذا مالك بن نُويرة بحِيالنا ، وأنا قاصدٌ له بمَن معي من المهاجرين والتابعين لهم بإحسان ، ولست أُكْرِهُكم[5] .

ومضى خالدٌ وبَرِمت الأنصار وتذامَرُوا[6] وقالوا : لئن أصاب القومُ خيراً إنّه لَخَيرٌ حُرِمتموه ، ولئن أصابَتْهم مُصيبةٌ لَيَجْتَنِبنكم الناسُ . فأجمعوا على اللحاق بخالد وجرّدوا إليه رسولاً ، فأقام عليهم حتّى لحِقوا به ، ثمّ سار حتّى لحق البُطاح فلم يجد به أحداً .

---

(١) تأشب إليه : تجمع .
(٢) ظفر : موضع في طريق البصرة إلى المدينة .
(٣) الحزن : من بلاد بني يربوع .
(٤) البزاخة : ماء لبني أسد كانت به وقعة طليحة .
(٥) أكرهكم : أحملكم على ما لا ترضونه .
(٦) التذامر : أن يحض القوم بعضهم بعضاً على القتال .

عن سُويد بن المنعبة الرياحيّ قال :

قدم خالد بن الوليد البُطاحَ فلم يجد عليه أحداً ، ووجد مالك بن نويرة قد فرّقهم في أموالهم ونهاهم عن الاجتماع ، فبعث السّرايا وأمرهم بداعية الإسلام ، فمن أجاب فسالِمُوه ، ومن لم يُجب وامتنع فاقتلُوه . وكان فيما أوصاهم أبو بكر : إذا نزلتم منزلاً فأذِّنوا وأَقيموا [1] ، فإن أذَّن القوم وأقامُوا فكُفُّوا عنهم ، وإن لم يفعلوا فلا شيءَ إلاّ الغارةُ ، ثم اقتُلوهم كلَّ قِتْلةٍ : الحرق فما سواه ، فإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم ، فإن هم أقرّوا بالزّكاة قبلتُم منهم ، وإلاّ فلا شيءَ إلاّ الغارةُ ولا كلمة .

فجاءته الخيلُ بمالك بن نُوَيرة في نفرٍ معه من بني ثَعلبةَ بن يربوعٍ ، من بني عاصم وعُبيد وعَرين وجعفر [2] ، واختلفت السَرِيّة فيهم ، وفيهم أبو قَتادة . وكان ممّن شهد أنّهم قد أذّنوا وأقاموا وصلّوا . فلمّا اختلفوا فيهم أمر بحبسهم ، في ليلةٍ باردةٍ لا يقومُ لها شيءٌ ، وجعلت تزداد بَرداً ، فأمر خالدٌ منادياً فنادى : دافئوا أَسْراكم . وكان في لغة كِنانة إذا قالوا : دافَأنا الرجــل وأدفئُوه ، فذلك معنى اقتلوه ، من الدِفء . فظنّ القوم أنّه يريد القتل فقتلوهم . فقتل ضِرار بن الأزور مالكاً ، فسمع خالدٌ الواعية[3] ، فخرج وقد فَرغُوا منهم فقال : إذا أراد اللهُ أمراً أصابه .

وقد اختلف القوم فيهم فقال أبو قَتادة : هذا عملُك . فزَبَره [4] خالدٌ فغضب ومضى حتّى أتى أبا بكر ، فغضب عليه أبو بكر حتّى كلّمه عمر بن الخَطّاب فيه ، فلم يرض إلاّ بأن يرجع اليه ، فرجَع اليه فلم يزل معه حتّى قدِم المدينةَ .

---

(١) وأقيموا : أي أقيموا الصلاة .

(٢) هذه كلها بطون من بني يربوع ولذلك لا يصح العطف بالواو في أولها ، كما جاء في المطبوعة . والصحيح رواية الطبري بدون الواو .

(٣) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه والجلبة .

(٤) زبره : انتهره .

وقد كان تزوّج خالدٌ أمَّ تميم بنت المِنْهال وتركها لينقضيَ طُهْرُها ، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتَعايَرُه ، فقال عمر لأبي بكر : إنّ في سيف خالد رَهَقاً [1] ، وحقٍّ عليه أن تُقَيِدَه [2] . وأكثر عليه في ذلك ، وكان أبو بكر لا يُقِيد من عُمّاله ولا من وَزَعته [3] ، فقال : هِيه يا عمر ، تأوّل فأخطأ ، فارفَع لسانك عن خالد . ووَدَى [4] مالكاً وكتب إلى خالد أن يقدَم عليه ففعل وأخبره خبره فعذَره ، وقَبِل منه ، وعَنّفه بالتزويج الذي كانت العرب تعيب عليه من ذلك .

فذكر سيفٌ عن هشام بن عُروة عن أبيه قال : شهد قومٌ من السرِيّة أنّهم أذّنوا وأقاموا وصَلّوا ، وشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيءٌ فقُتلوا . وقدم أخوه مُتمّم يَنْشُد أبا بكر دمَه ويطلب إليه في سَبْيهم ، فكتب له بردّ السَبْي . وألحّ عليه عمر في خالد أن يعزِله وقال : انّ في سيفه رهَقاً . فقال له : لا يا عمر ، لم أكن لأشِيمَ [5] سيفاً سلّه اللهُ على الكافرين .

عن عثمان بن سويد قال : كان مالكٌ من أكثر الناس شَعَراً ، وإنّ أهل العسكر أثّفُوا [6] القدور برؤوسهم ، فما منها رأسٌ إلاّ وصلت النار إلى بَشَرته ، ما خلا مالكاً فإنّ القِدر نضِجت وما نضِج رأسه من كثرة شعره ، ووقى الشعر البَشرة من حرّ النار أن تبلغ ذلك .

عن طلحةَ بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصِدّيق ، رضي الله عنه :

---

(١) الرهق : ركوب الشر والظلم .
(٢) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .
(٣) الوزعة : الولاة والقائمون بأمر الجيوش .
(٥) وداه : أدى ديته .
(٥) شام سيفه يشيمه : غمده .
(٦) أثفوا القدور برؤوسهم : جعلوا رؤوسهم أثافي للقدور .

أنّ أبا بكر كان من عَهده إلى جيوشه : أن إذا غَشِيتم داراً من دُور الناس فسمعتم فيها أذاناً للصلاة فأمسِكوا عن أهلها حتى تسألوهم ماذا نقِموا ، وإذا لم تسمعوا أذاناً فشُنُّوا الغارة واقتُلوا وحرّقوا . فكان ممّن شهِد لمالك بالإسلام أبو قَتادةَ الأنصاريُّ ، واسمه الحارث بن رِبْعيّ ، أخو بني سَلِمة ، وقد كان عاهد الله أنّه لا يشهد حرباً بعدَها أبداً . وكان يُحدِّث أنّهم لمّا غَشُوا القوم راعُوهم تحت الليل ، فأخذ القوم السِّلاحَ . قال : فقلنا لهم : إنّا المُسلمون . فقالوا : ونحن المسلِمون . قلنا : فما بالُ السلاح معكم ؟ فإن كنتم كما تقولوا فضَعَوا السلاح . ففعلوا ثم صلّينا وصلّوا . وكان خالدٌ يعتذر في قتله أنّه قال له وهو يُراجعه : ما إخال صاحبكم – يعني النبيّ ﷺ – إلاّ وقد كان يقول كذا وكذا . فقال خالدٌ : أوَ ما تعدُّه صاحباً ؟! ثم قدّمه فضرب عنقَه وأعناق أصحابه .

فلمّا بلغ قتلُهم عمر بن الخطّاب تكلّم فيه عند أبي بكر ، رضي الله عنه ، وقال : عدوُّ الله عَدا على امرىءٍ مسلم فقتله ثم نزا على امرأته .

وأقبل خالد بن الوليد قافلاً حتى دخل المسجد ، وعليه قَباءٌ له ، وعليه صَدأُ الحديد ، معتجراً بِعِمامة وقد غرز فيها أسهُماً . فلمّا أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطّمها ثم قال : أقتلتَ امرءاً مسلماً ثمّ نزوت على امرأته ؟! والله لأرجُمنّك بأحجارك ، ولا يكلّمه خالد بن الوليد ولا يظنّ إلاّ أنّ رأي أبي بكر على مثل رأي عُمَر فيه ، حتّى دخل على أبي بكر فأخبره الخبر واعتذر إليه ، فعذَره أبو بكر وتجاوز له عمّا كان في حربه تلك . فخرج خالدٌ حين رضي عنه أبو بكر ، وعمرُ جالسٌ في المسجد الحرام ، فقال : هَلُمّ إليّ يابن أمّ شَمْلة . فعرف عمر أنّ أبا بكر قد رضي عنه ، فلم يكلّمه ودخل بيته .

رثاء مُتَمِّم لأخيه مالك

عن الأنصاريّ قال :

صلّى مُتَمّم بن نويرة مع أبي بكر الصبح ثم أنشد قوله :

نِعمَ القتيلُ إذا الرياح تناوحتْ
تحتَ الإزارِ قتلتَ يابن الأزورِ
أدعوتَه بالله ثمّ قتلتَه
لو هُوْ دَعاكَ بذِمّةٍ لم يَغْدُرِ

فقال أبو بكر : والله ما دعوتُه ولا قتلته . فقال :

لا يُضمِر الفَحشاءَ تحتَ ردائه
حُلوٌ شمائلُه عفيفُ المِئْزرِ
ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِرْعِ أنتَ وحاسراً
ولنعمَ مأوى الطارقِ المُتَنوّرِ (١)

قال : ثم بكى حتى سالت عينه ، ثم انخرط على سِيَةِ قوسه (٢) متّكئاً ، يعني مغشياً عليه .

... محمّد بن صخر بن خَلخلة قال : ذكَر متمّم بن نويرة أخاه في المدينة فقيل له : إنّك لتذكر أخاك ، فما كانت صفتُه — أو صِفْه لنا — فقال : « كان يركب الجمل الثَفَال في الليلة الباردة ، يرتوي لأهله بين المزَادتيْن المضرّجتَين ،

(١) إذا الرياح تناوحت : أي هو كريم في وقت هبوب الرياح والقحط . عفيف المئزر : كناية عن العفة . الطارق المتنور : الذي يستضيء بلهب النار ليلا فيقدم طالباً القرى.
(٢) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

عليه الشَّملةُ الفَلُوت ، يقود الفرَس الجَرُور ، ثم يُصبح ضاحكاً » [1] .

عن الزبير بن حبيب بن بدر الطائيّ وغيره : أنّ المِنهال – رجلاً من بني يربوع – مرّ على أشلاء مالك بن نويرة لمّا قتله خالد ، فأخذ ثوباً وكفّنه فيه ودفنه ، ففيه يقول متمّم :

لَعَمري وما دَهري بتأبينِ مـالك
ولا جَزَعٍ ممّا أصاب فأوجعا
لقد كَفَّن المِنهالُ تحتَ ردائه
فتىً غيرَ مِبْطان العَشيّات أروعا [2]

... أحمد بن عمّار العبدي – وكان من العلم بموضع – قال : حدّثني أبي عن جَدّي قال :

صلّيت مع عمر بن الخطّاب الصبح ، فلمّا انفتل من صلاته إذا هو برجلٍ قصير أعور متنكّباً قوساً ، وبيده هِراوة . فقال : مَن هذا ؟ فقال : متمّم بن نويرة . فاستنشده قوله في أخيه فأنشده :

لعمري وما دَهري بتأبين مالك ولا جَزَعٍ ممّا أصاب فأوجعا
لقد كفّن المنهال تحت ثيابه فتىً غيرَ مبطان العشيّات أروعا

حتّى بلغ إلى قوله :

وكنّا كنَدْمانَيْ جَذِيمة َحِقبةً من الدهر حتّى قِيل لن يتصدّعا

---

(1) الجمل الثفال : البطيء الثقيل . المزادة : قربة الماء . المفرجة : المشقوقة . الشملة : كساء يشتمل به . الفلوت : التي لا ينضم طرفاها من صغرها . الجرور : الذي لا يكاد ينقاد ، وإنما يجر حبل الذي يقوده إلى جنبه .

(2) ما دهري بكذا : أي ما هو همي وإرادتي . ولا جزع : الخفض على تقدير العطف على تأبين ويروى : ولا جزعاً ، على تقدير زيادة الباء . المبطان : من همه بطنه .

فلمّا تفرّقنا كأنّي ومالكـــاً لطُول اجتماع ٍ لم نَبِتْ ليلةً مَعاً[1]

فقال عمر : هذا — والله — التأبينُ ، ولَوددِت أنّي أُحسن الشعر فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك . فقال متمّم : لو أنّ أخي مات على ما مات عليه أخوك ما رثيتُه — وكان قُتل باليمامة شهيداً ، وأمير الجيش خالد بن الوليد — فقال عمر : ما عزّاني أحدٌ عن أخي بمثل ما عزّاني به متمّم .

قال : وقيل لمتمّم : ما بلغ من وَجدك على أخيك ؟ فقال : أُصِبْتُ بإحدى عينيّ فما قطرت منها دمعةٌ عشرين سنةً ، فلمّا قُتل أخي استهلّت فما ترقــأ[2] .

إنقاذ مالك لأخيه متمم من الأسر

النوفلي عن أبيه وأهله قالوا :

لمّا أنشد متمّم بن نويرة عمر بن الخطاب قوله يرثي أخاه مالكاً :

وكنّا كندمانيَ جَذيمـــة حِقبــةً
من الدهر حتّى قيل لـــن يتصدّعـــا
فلمّـــا تفرّقنـــا كأنّي ومالكـــاً
لطول اجتماع ٍ لم نبت ليلةً معـــاً

قال له عُمر: هل كان مالكٌ يحبّك مثل محبّتك إيّاه ؟ أم هل كان مثلك ؟ فقال : وأين أنا من مالك ، وهل أبلغ مالكاً ؟! والله يا أمير المؤمنين

(١) ندمانا جذيمة : هما رجلان يقال لأحدهما عقيل وللثاني مالك كانا أتيا جذيمة الأبرش بعمرو بن عدي ، وكان أثيراً لديه ثم فقد أثره ، فكافأهما بأن جعلهما نديميه ما عاش ، فضرب بهما المثل في التلازم . لن يتصدعا : لن يتفرقا .
(٢) رقأ الدمع : جف وسكن .

لقد أسرني حيٌّ من العرب فشدُّوني وَثاقاً بالقِـدّ (١) ، وألقَـوني بفِنائهم . فبلغه خبري فأقبل على راحلته حتّى انتهى إلى القوم وهم جلوسٌ في ناديهم ، فلمّا نظر إليّ أعرض عنّي ، ونظر القومُ إليه فعدَل إليهم ، وعرفت ما أراد ، فسلّم عليهم وحادثهم وضاحكهم وأنشدهم ، فواللهِ إنْ زال كذلك حتّى ملأهم سروراً ، وحضر غداؤهم فسألوه ليتغدّى معهم فنزل وأكل ، ثم نظر إليّ وقال : إنّه لقبيحٌ بنا أن نأكل ورجلٌ مُلقى بين أيدينا لا يأكل معنا ، وأمسك يده عن الطعام . فلمّا رأى ذلك القوم نهضوا وصَبّوا الماء على قِـدّي حتّى لان وخلّوني . ثم جاؤوا فأجلسوني معهم على الغداء . فلمّا أكلنا قال لهم : أما ترَون تَـحَرُّمَ هذا بنا وأكله معنا ، إنّه لقبيحٌ بكم أن تردُّوه إلى القِـدّ . فخلّوا سبيلي ، فكان كما وصفتُ ، وما كذبت في شيءٍ من صفته ، إلاّ أنّي وصفته خميصَ البطن ، وكان ذا بَطن .

خصام متمم مع زوجته

عن عليّ بن محمد النوفليّ عن أبيه :

أنّ عمر بن الخطّاب قال لمتمّم بن نويرة : إنّكم أهل بيتٍ قد تفانيتم ، فلو تزوّجت عسى أن تُرزَق ولداً يكون فيه بقيّةٌ منكم . فتزوّج امرأةً بالمدينة فلم ترضَ أخلاقه لشدة حزنه على أخيه ، وقلّة حَفْله بها ، فكانت تُماظُّه (٢) وتُؤذيه فطلّقها وقال :

أقول لهندٍ حين لم أَرضَ فعلَهـا ... أهذا دلالُ الحُبّ أم فعلُ فاركِ
أم الصَرمُ ما تبغي وكلٌّ مُفارقٍ ... يسيرٌ علينا فَقدُه بعدَ مالكِ (٣)

---

(١) القد : سير من جلد .
(٢) تماظه : تخاصمه وتشاتمه .
(٣) الفارك : المرأة الكارهة لزوجها .

عن نعيم بن أبي عمرو الرازيّ قال :

بينا طَلحة والزُبير يسيران بين مكّة والمدينة إذ عرضَ لهما أعرابي فوقفا ليمضيَ فوقف ، فتعجّلا ليسبِقاه فتعجّل ، فقالا : ما أثقلكَ يا أعرابيُّ ، تعجّلنا لنسبِقكَ فتعجّلت ، فوقفنا لتمضيَ فوقفت ! فقال : لا إلَهَ إلاّ اللهُ مفني أغدر الناس ، أغدْرٌ بأصحاب محمّد ﷺ ؟ هَباني خفتُ الضَلال فأحببت أن أستدلّ بكما ، أو خِفتُ الوَحشة فأحببت أن أستأنس بكما . فقال طلحة : من أنت ؟ قال : أنا متمّم بن نويرة . فقال طلحة : واسَوءتاه ، لقد مَلِلنا غير مَملول ، هاتِ بعض ما ذكرتَ في أخيك من البكاء .

فزوّجوه أمّ خالدِ ، فبينا هو واضعٌ رأسه على فخذها إذ بكى فقالت : لا إلَه إلاّ الله ، أما تنسىّ أخاك ، فأنشأ يقول :

أقول لها لمّا نهتْني عن البُكـا ... أفي مالكٍ تَلحَيْنَني أمَّ خالدِ
فإن كان إخواني أصِيبوا وأخطأت ... بني أمِّكَ اليومَ الحُتوفُ الرواصدُ
فكلٌّ بني أمٍّ سيُمْسُون ليلــةً ... ولم يبق من أعيانهم غيرُ واحــدِ

* * *

٢٦

مَعْنُ بنُ أوْس المُزني

(الأغاني ج ١٢ ، ص ٥٤ وما بعدها)

الشاعر

هو مَعن بن أوس ... بن عثمان بن مُزينة ... ونسبوا إلى مزينة وهي امرأة ... ومَعنٌ شاعرٌ مجيدٌ فحل ، من مخضرمي الجاهلية والإسلام . وله مدائحُ في جماعةٍ من أصحاب النبيّ ﷺ ورَحمهم ، منهم عبد الله بن جحش ، وعمرو بن أبي سَلَمة المخزومي . ووفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مستعيناً به على بعض أمره ، وخاطبه بقصيدته التي أولها :

تأوَّبه طيفٌ بذات الجَراثمِ ... فنام رفيقاه وليس بنائمِ

وعُمِّر بعد ذلك إلى أيام الفتنة بين عبد الله بن الزبير ومَروان بن الحكم .

عن عَلقمة بن مِحجن الخُزاعي عن أبيه قال : كان معاوية يفضّل مُزينةَ

في الشعر ، ويقول : كان أشعر أهل الجاهلية منهم وهو زهيرٌ ، وكان أشعرُ أهل الإسلام منهم وهو ابنُه كعب ، ومَعن بن أَوس .

عن عبد الملك بن هشام قال : قال عبد الملك بن مَروان يوماً وعندَه عِدّةٌ من أهل بيته وولده : لِيقُل كلٌّ واحد منكم أحسنَ شعر سمع به ؛ فذكروا لامرِئ القيس والأعشى وطَرَفة فأكثَروا حتى أتَوا على محاسن ما قالوا .

فقال عبد الملك : أشعرُهم واللهِ الذي يقول :

وذي رَحِمٍ قلّمتُ أظفار ضِغْنِه
بحِلْمي عنه وهو ليس حِلمُ
إذا سُمتُه وصلَ القَرابة سامَني
قطيعتَها ، تلك السفاهةُ والظُّلم
فأسعى لكي أَبني ويَهدِمُ صالحي
وليس الذي يَبني كمن شأنُه الهَدْمُ
يحاول رَغْمي لا يحاولُ غيرَه
وكالموتِ عندي أن يَحُلَّ به رَغْم
فما زلت في لينٍ له وتَعطُّف
عليه كما تحنُو على الولد الأمُّ
لِأَستلَّ منه الضِغنَ حتى سللتُه
وإن كان ذا ضِغنٍ يضيق به الحِلم (١)

قالوا : ومن قائلُها يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : مَعن بن أوس المُزَنيّ .

---

(١) الرحم : القرابة . أن يحل به رغم ، في المطبوعة : أن ينال له رغم ، وما أثبتناه رواية أمالي القالي وخزانة الأدب . الضغن : الحقد والعداوة .

أخباره مع نسائه وبناته

عن سعيد بن عَمرو الزُبَيري قال : كان لمعن بن أوس امرأةٌ يُقال لها ثَور وكان لها مُحبّاً ، وكانت حضريّةً نشأت بالشام ، وكانت في معن أَعرابيةٌ ولُوثةٌ (١) ، فكانت تضحك من عَجْرَفيّته (٢) . فسافر إلى الشام في بعض أعوامه ، فضلّت الرُّفقة عن الطريق وعدلُوا عن الماء ، فطَووا منزلهم وساروا يومَهم وليلتَهم ، فسقط فرس مَعنٍ في وجار ضَبٍّ (٣) دخلت يده فيه ، فلم يستطع الفرس أن يقوم من شدّة العطش حتّى حمله أهل الرُّفقة حَملاً فأنهضوه ، وجعل معنٌ يقودُه ويقول :

لــو شهدتني وجــوادي ثَـورُ والرأسُ فيه مَيَــلٌ ومَوْرُ
لضحكت حتّى يميلَ الكَوْرُ (٤)

* سليمان بن عَيّاش السَعدي عن أبيه قال : خرج مَعنُ بن أوس المزني إلى البصرة ليمتارَ (٥) منها ويبيع إبلاً له ، فلمّا قَدِمها نزل بقومٍ من عشيرته ، فتولّت ضيافتَه امرأةٌ منهم يقال لها ليلى ، وكانت ذاتَ جمالٍ ويَسارٍ ، فخطبها فأجابته فتزوّجها ، وأقام عندَها حولاً في أنعم عيشٍ . فقال لها بعد حولٍ : يا بنةَ عمٍّ ، إنّي قد تركت ضَيعةً لي ضائعةً ، فاو أذنت لي فاطّلَعتُ طِلْعِ (٦) أهلي ورَممت (٧) من مالي ! فقالت : كم تقيم ؟ قال : سنةً ، فأذنت له . فأتى أهلَه فأقام فيهم وأَزمن عنها (أي طال مُقامُه) . فلمّا أبطأ عليها رحلت إلى المدينة فسألتْ عنه ، فقيل لها : إنه بعَمْقٍ (وهو ماء

---

(١) اللوثة : الحمق .
(٢) العجرفية : الجفوة في الكلام والخرق في العمل .
(٣) وجار الضب : جحره .
(٤) المور : الاضطراب وشدة الحركة . الكور : لوث العمامة وإدارتها .
(٥) يمتار : يجلب الميرة .
(٦) اطلع طلع الأمر : وقف عليه .
(٧) رممت من ما لي : أصلحته .

لمُزَينة) . فخرجت ، حتى إذا كانت قريبةً من عَمق نزلت منزلاً كريماً . وأقبل معنٌ في طلب ذَود (١) له قد أضلّها وعليه مدرعةٌ من صوف وبَتٌّ من صوف أخضر – قال : والبتُّ : الطَيلسان – وعِمامة غليظةٌ . فلما رُفع له القومُ مالَ إليهم لِيستسقي ، ومع ليلى ابنُ أخٍ لها ومولىً من مواليها جالسٌ أمام خِباءٍ له . فقال له معنٌ : هل من ماءٍ ؟ قال : نعم ، وإن شئتَ سَويقاً ، وإن شئت لبناً ؛ فأناخ . وصاحَ مولى ليلى : يا مُنهلةُ – وكانت منهلةُ الوصيفة التي تقوم على معنٍ عندَهم بالبصرة – فلمّا أتته بالقدح وعرَفها وحسَر عن وجهه ليشرب عرفَته وأثبتته ، فتركت القدح في يده وأقبلت مسرعةً إلى مَولاتها ، فقالت : يا مولاتي ، هذا والله معنٌ إلا أنّه في جُبّة صوف وبتّ صوف . فقالت هو والله عَيشُهم ، الحقيَ مولاي فقولي له : هذا مَعنٌ ، فاحبِسه . فخرجت الوصيفة مسرعةً فأخبرته . فوضع مَعنٌ القدحَ وقال له : دَعني حتى ألقاها في غير هذا الزيّ . فقال : لستَ بارحاً حتى تدخلَ عليها. فلمّا رأته قالت : أهذا العيش الذي نزعتَ إليه يا معن ؟! قال : إي والله يا ابنةَ عمٍّ ! أما إنّك لو أقمت إلى أيام الربيع حتى يُنبت البلد الخُزامى والرُخامى (٢) والسَخبر والكمأة ، لأصبت عيشاً طيباً .

فغسلت رأسَه وجسده ، وألبسته ثياباً ليّنةً ، وطيّبته ، وأقام معها ليلتَه أجمعَ يَهْرجُها (٣) ، ثم غدا متقدّماً إلى عَمق حتى أعدّ لها طعاماً ونحر ناقة وغنماً . وقدمت على الحيّ ، فلم تبق فيهم امرأةٌ إلا أتتها وسلّمت عليها ، فلم تدع منهنّ امرأةً حتى وصلتها . وكانت لمعنٍ امرأةٌ بعَمق يُقال لها أمّ حِقّـةَ ، فقالت لمعـن : هـذه والله خَـيرٌ لك مني ، فطلّقْني ،

---

(١) الذود : من الإبل ما بين الثلاثة والعشرة .

(٢) الخزامى : عشبة طيبة الريح حمراء الزهرة ، نورها كالبنفسج . الرخامى : نبتة ذات زهرة بيضاء . السخبر : من نبات البادية ، يشبه الثمام .

(٣) يهرجها : يجامعها .

وكانت قد حملت فدخله من ذلك (١) وقام. ثم إنّ ليلى رحلت إلى مكّةَ حاجّــةً ومعنٌ معهــا . فلما فرَغا من حجّهما انصرفا ، فلمّا حاذيا مُنعرَج الطريق إلى عمقٍ قال معن : يا ليلى ، كأنّ فؤادي ينعرج إلى ما ها هنا . فلو أقمت سنتَنا هذه حتى نَحُجَّ من قابلٍ ثم نرحلَ إلى البصرة ! فقالت : ما أنا ببارحةٍ مكاني حتى ترحلَ معي إلى البصرة أو تُطلّقَني . فقال : أمّا إذ ذكرت الطّلاقَ فأنت طالقٌ . فمضت إلى البصرة ، ومضى إلى عَمق . فلما فارقته ندم وتَبعتْها نفسُه ؛ فقال في ذلك :

توهّمتُ رَبْعاً بالمُعَبَّر واضحـــاً أبت قَرَّتاه اليومَ إلاّ تَرَاوُحـــا
أَربّت عليه رادةٌ حَضَرميّــةٌ ومُرتجِزٌ كأنّ فيه المَصابحـــا
إذا هي حلّت كربلاءَ فلَعْلَعـــاً فَجوْزَ العُذَيب دونَها فالنوابحا
وبانت نَواها من نَواك وطاوعت مع الشانئين الشامتات الكواشحا
فقُولا لليلى هل تُعوّض نادمـــاً له رَجعةٌ قال الطلاقَ مُمازحا
فإن هي قالت لا فقُولا لهـــا بلى ألا تَتّقين الجاريات الذَوابحا (٢)

وهي قصيدةٌ طويلة . فلما انصرف وليست ليلى معه قالت له امرأتُه أمّ حِقّة : ما فعلت ليلى ؟ قال : طلقتُها . قالت : والله لو كان فيك خيرٌ ما فعلتَ ذلك ، فطلّقني أنا أيضاً . فقال لها معنٌ :

أعاذلُ أَقصري ودعي بيَـــاتي فإنّك ذاتُ لَوْماتٍ حُماتِ

---

(١) دخله من ذلك : أي ساوره شيء من ذلك .
(٢) المعبر : قال ياقوت : جبل من جبال الدهناء ، واستشهد بأبيات معن . قرتاه : الغداة والعشي ، أو من القر وهو البرد . أربت : أقامت . الرادة : سحابة طوافة ترود . المرتجز : سحاب يتتابع صوت رعده . المصابح : المصابيح ، يريد لمعان البرق فيه . لعلع : منزل بين البصرة والكوفة . العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة ، وفي معجم ياقوت : فجوز العليب دونها فالنوائحا ، ورواية الأغاني أجود ، فالعليب من مواضع تهامة وليس في الطريق إلى البصرة . النوابح : موضع بظاهر الكوفة . بانت : فارقت .

فإنّ الصُبحَ منتظَرٌ قريبٌ وإنّكِ بالمَلامة لن تُفاتي
نَأتْ ليلى فليلى لا تُواتي وضنّت بالمودّةِ والبتَاتِ
وحلّت دارُها سَفَوان بَعدي فذا قارٍ فمُنْخَرَق الفُراتِ
تُراعي الريفَ دائبةً عليها ظِلالُ أَلَفَّ مختلطِ النَبات
فدَعْها أو تناولْها بعَنْسٍ من العِيديّ في قُلُصٍ شَخاتِ (١)

وهي قصيدةٌ طويلة . قال : وقال لأمّ حِقّة في مطالبتها إيّاه بالطلاق :

كأنْ لم يكن يا أُمَّ حِقّةَ قبلَ ذا بِمَيْطانَ مُصطافٌ لنا ومَرابعُ
وإذ نحن في غُصن الشباب وقد عسا بنا الآن إلاّ أن يُعَوَّضَ جازعُ
فقد أنكرْته أمُّ حِقّةَ حادثاً وأنكرها ما شئتَ والوُدُّ خادعُ
ولو آذَنَتْنا أمُّ حِقّةَ إذ بنا شبابٌ وإذ لمّا تَرُعْنا الرَوائعُ
لقُلنا لها بِيني بِلَيلٍ حَميدةً كذاك بلا ذمٍّ تُؤَدّى الودائعُ (٢)

* عن الحرمازيّ قال :

سافر معن بن أَوس إلى الشام وخلّف ابنتَه ليلى في جِوار عُمر بن أبي سَلَمة — وأمّه أمُّ سَلَمة أمُّ المؤمنين رضي اللهُ تعالى عنها — وفي جوار عاصم ابن عُمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . فقال له بعضُ عَشيرته : على من خلّفت ابنتك ليلى بالحجاز وهي صبيّةٌ ليس لها من يَكْفُلُها ؟ فقال معنٌ رحمه الله تعالى :

---

(١) العاذلة : اللائمة . البيات : أراد لومه ليلا ، وأصله : الغارة على القوم ليلا . حمات ج حمة : سم كل شيء يلدغ كالعقرب والحية . البتات : الزاد . سفوان : ماء على مقربة من البصرة . الألف من الشجر : ما تكاثف وكثر . العنس : الناقة القوية . العيدي : البعير المنسوب إلى عيد وهو فحل معروف أو هو رجل تنسب اليه النجائب . القلص ج قلوص : الناقة الفتية . الشخات ج شختة وشخت : الدقيق الضامر .

(٢) ميطان : من جبال المدينة وهو لمزينة . عسا النبات : غلظ ويبس . بيني : فارقي .

لَعَمْرُكَ ما ليلى بدارِ مَضيعةٍ
وما شَيْخُها أن غاب عنها بخائفِ
وإنّ لها جارَيْن ان يَغدُرا بها
رَبيبَ النبيِّ وابنَ خير الخلائفِ

* العُتْبيّ قال : كان معنُ بن أوسٍ مِئْناثاً [1] ، وكان يُحسن صُحبة بناته وتربيتَهنّ ؛ فولد لبعض عشيرته بنتٌ فكرهها وأظهر جزعاً من ذلك ؛ فقال معنٌ :

رأيتُ رجالاً يكرهون بناتِهم
وفيهنّ – لا تُكْذَبْ – نِساءٌ صوالحُ
وفيهنّ – والأيّامُ تَعْثُر بالفتى –
نَوادبُ لا يَمْلَلْنه ونَوائحُ

معن والفرزدق

عن أبي عبد الله محمّد بن مُعاوية الأسديِّ قال : قدم معنُ بن أوسٍ المزنيُّ البصرةَ ، فقعد يُنشد في المِرْبَد ، فوقف عليه الفرزدق فقال : يا معنُ مَن الذي يقول :

لَعمرُك ما مُزينةُ رَهْطُ مَعنٍ بأخفافٍ يَطَأْنَ ولا سَنامِ

فقال معنٌ : أتعرف يا فرزدق الذي يقول :

لَعمرُك ما تميمٌ أهلُ فَلْجٍ بأرداف الملُوك ولا كرامِ [2]

---

(١) مئناث : يولد له الإناث .
(٢) فلج : من منازل بني تميم ، وهو واد بين البصرة وحمى ضرية .

فقال الفرزدق : حسبُك ! إنّما جرَّبتُك . قال : قد جرّبتَ وأنت أعلم . فانصرف وتركه .

طائفة من أخباره في الإسلام

عن العُتبيّ قال : قَدم معنُ بن أوس مكّةَ على ابن الزبير فأنزله دار الضيفان ، وكان يَنزلُها الغُرباء وأبناءُ السبيل والضيفانُ ، فأقام يومَه لم يُطعَم شيئاً ؛ حتى إذا كان الليلُ جاءهم ابن الزبير بتيسٍ هَرمٍ هزيلٍ فقال : كلُوا من هذا ، وهم نَيِّفٌ وسبعون رجلاً ؛ فغضب مَعنٌ وخرج من عِنده ، فأتى عُبيدَالله بن العبّاس، فقراه وحمله وكساه ، ثم أتى عبدَ الله بن جَعفر وحدّثه حديثَه فأعطاه حتى أرضاه ، وأقام عنده ثلاثاً ثم رحل . فقال يهجو ابن الزُبير ويمدح ابنَ جعفر وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أجمعين :

ظَلِلنا بمُستَنّ الرياح غُدَيّةً
إلى أن تعالى اليومُ في شرّ مَحضَر

لدى ابن الزبير حابسين بمنزل
من الخير والمعروفِ والرِّفد مُقْفِرِ

رمانا أبو بكرٍ وقد طال يومُنا
بتَيسٍ من الشاء الحجازيّ أعْفَرِ

وقال اطعَمُوا منه ونحن ثلاثةٌ
وسبعون إنساناً فيا لُؤْمَ مَخْبَرِ

فقلتُ له : لا تَقْرِنا فأمامَنا
جِفانُ ابنِ عبّاس العُلا وابنِ جعفر

(١) الأرداف ج ردف : وهو من يخلف الملك إذا غزا .

وكن آمِنــاً وانعَقْ بتيسك إنّــــه
له أَعْنُزٌ ينزُو عليها وأَبْشرِ (1)

* أحمد بن عبد الله بن عليّ بن سُويد بن مَنجوف عن أبيه قال :

مرَّ عُبيد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب بمعن بن أوس المُزَني وقد كُفَّ بصره فقال له : يا معنُ ، كيف حالُك ؟ فقال له : ضَعُف بصري وكَثُر عيالي وغلبني الدَّين . قال : وكم دَيْنك ؟ قال عشرةُ آلافِ درهمٍ . فبعث بها إليه . ثم مرّ به من الغد فقال له : كيف أصبحتَ يا معنُ ؟ فقال :

أخذتُ بعَين المــال حتى نَهِكْتُــه
وبالدَّيْن حتّى ما أكــادُ أُدانُ
وحتى سألت القَرْضَ عندَ ذوي الغنى
وردَّ فلانٌ حاجتي وفُلانُ (2)

فقال له عبيد الله : اللهُ المستعانُ ، إنّا بعثنا إليك بالأمس لُقمةً فما لُكْتَها حتى انتُزِعَت من يَدِك ، فأيُّ شيءٍ للأهل والقَرابة والجِيران ؟ وبعث إليه بعشرةِ آلافِ درهمٍ أخرى . فقال معنٌ يمدحه :

إنلك فَرْعٌ من قُريش وإنّمــا
تَمُجُّ النَّدى منها البحورُ الفَوارعُ
ثَوَوا قادة للناس بَطحاءُ مكّةَ
لهم وسِقاياتُ الحَجيجِ الدوافــعُ
فلما دُعُــوا للموت لم تَبكِ منهــم
على حادث الدَّهر العُيونُ الدوامــعُ

(1) مستن الرياح : موضع هبوبها . حابسين : مقيمين . الرفد : العطاء . أبو بكر : كنية عبد الله ابن الزبير . أعفر : لونه لون العفر وهو التراب . النعيق ، هنا : دعاء الراعي الشاء ، وفي بعض الأصول : وارفق .
(2) نهكته : بددته .

٢٧

النّابغة الجعْدِيّ

(الأغاني ج ٥ ص ١ وما بعدها)

الشّاعر

هو — على ما ذكَر أبو عمرو الشّيبانيُّ والقَحْذَميّ ، وهو الصحيح ، — حِبّان بن قيس بن عبد الله ... بن جَعدةَ بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة ابن معاوية بن بكر بن هَوَازن بن منصور بن عِكرمة بن خَصَفَة بن قيس بن عَيْلان بن مُضَر .

... ويكنى النابغة أبا ليلى .

وإنّما سمي النابغة لأنّه أقام مُدةً لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله .

قال حمّاد : قرأتُ على القَحذميّ :

قال الجَعديُّ الشعر في الجاهلية ، ثم أجبل [١] دهراً ، ثم نبغ بعدُ في الشعر في الإسلام .

---

(١) أجبل الشاعر : امتنع عليه القول .

قال ابن سَلاّم في رواية أبي خليفةَ عنه : كان الجَعْديّ النابغةُ قديماً شاعراً طويلا [1] مُفلِقاً طويلَ البقاء في الجاهليّة والإسلام ، وكان أكبرَ من الذُبيانيّ ؛ ويَدُلُّ على ذلك قولَه :

ومن يكُ سائلاً عنّي فإنّي ... من الفِتيان أيامَ الخُنَانِ
أتت مائةٌ لِعامٍ وُلدتُ فيه ... وعشرٌ بعد ذاك وحِجّتانِ
فقد أبقتْ خطوبُ الدّهر منّي ... كما أبقتْ من السيفِ اليماني [2]

قال : وعُمِّر بعد ذلك عُمراً طويلا . سُئل محمد بن حبيبَ عن أيام الخُنان ما هي ؟ فقال : وقعةٌ لهم ؛ فقال قائلٌ منهم وقد لقُوا عدوَّهم : خُنُّوهم [3] بالرماح ، فسُمِّي ذلك العام الخُنان . ويَدلُّ على أنه أقدم من النابغة الذُبيانيّ أنه عُمِّر مع المنذر بن المُحرِّق قبل النعمان بن المنذر ، وكان النابغةُ الذبياني مع النعمان بن المنذر وفي عصره ، ولم يكن له قِدَمٌ إلا أنّه مات قبل الجَعديّ ، ولم يُدرك الإسلام . والجَعدي الذي يقول :

تذكرتُ شيئاً قد مضى لسبيله
ومن عادة المحزون أن يتذكّرا
نَدَامايَ عند المُنذر بن مُحرِّق
أرى اليَوم منهم ظاهرَ الأرض مُقفِرا
كُهولٌ وفِتيانٌ كأنّ وجوهَهم
دنانيرُ ممّا شِيفَ في أرض قيصرا [4]

---

(١) جاء هذا الوصف (طويلا) عند أبي الفرج نقلا عن كتاب ابن سلام ولا مناسبة له في هذا الموضع ، وهذا النعت لم يرد في كتاب الطبقات (أنظر ج ١ ص ١٢٣) .

(٢) أيام الخنان : شرحها ابن حبيب بأنها وقعة لهم ، كما أثبته أبو الفرج ، أما الأصمعي فقد فسرها بقوله : كان الخنان داء يأخذ الإبل في مناخرها وتموت منه، فصار ذلك تاريخاً لهم . (اللسان : مادة : خنن) .

(٣) خنوهم : قطعوهم .

(٤) شاف الدينار والسيف : جلاه .

أخبرني أحمد بن عبد العزيز وحبيب بن نَصر قالا حدثنا عُمر بن شبّة قال حدّثني عبد الله بن محمد بن حكيم عمّن كان يأخذُ العلمَ عنه ولم يُسمّ إليّ أحداً في هذا : أن النابغة عُمِّر مئةً وثمانين سنة ، وهو القائل :

لبِستُ أناساً فأفنيتُهم وأفنيتُ بعدَ أُناسٍ أناسا
ثلاثةُ أهلِين أَفنيتُهم وكان الإلَه هو المُستآسا [1]

وهي قصيدةٌ طويلة ، يقول فيها ، وفيه غناء :

صوت

وكنتُ غُلاماً أقاسي الحرُو — بَ يلقى المُقاسون منّي مِراسا
فلما دَنَونا لِجَرْس النُّبا — ح لم نعرف الحي إلاّ التماسا
أضاءت لنا النّارُ وَجهاً أغرّ — مُلتبساً بالفؤاد التباسا [2]

وأمّا ابنُ قُتيبةَ فإنه ذكَر ما رواه لنا عنه إبراهيمُ بن محمد أنه عُمِّر مائتين وعشرين سنة ، ومات بأصبهان . وما ذاك بمُنكَر ؛ لأنه قال لعُمر رضي الله تعالى عنه : إنه أفنى ثلاثةَ قُرونٍ كُلُّ قَرنٍ ستون سنةً ، فهذه مئة وثمانون ، ثم عُمِّر بعده فمكث بعد قتل عمر خلافةَ عثمانَ وعليٍّ ومُعاويةَ ويزيدَ ، وقدم على عبد الله بن الزُبير بمكةَ وقد دعا لنفسه ، فاستماحه ومَدحه ، وبين عبد الله بن الزبير وبين عمر نحوٌ مما ذكر ابن قتيبة ، بل لا أشكُّ أنه قد بلغ هذه السِنّ وهاجى أوْس بن مَغْراء بحضرة الأخطل والعَجّاج وكعب بن جُعَيل فغلبه أوسٌ ، وكان مُغلّباً .

قال أبو عبيدة : كان النابغةُ الجَعدي ممن فكّر في الجاهلية وأنكر الخمر

---

(١) المستآس : المستعان والمستعاض .
(٢) جرس النباح : صوت نباح الكلاب .

والسُكْر وما يفعل بالعقل ، وهجر الأزلام والأوثان ، وقال في الجاهلية كلمته التي أوّلُها :

الحمدُ لله لا شريكَ لـــــه من لم يَقُلْها فنفسَه ظَلَمـا

وكان يذكر دينَ إبراهيمَ والحَنيفيّة ، ويصوم ويَستغفر ، ويتوقّى أشياء لعواقبها . ووفد على النبيّ ﷺ فقال :

أتيتُ رسولَ الله إذ جاء بالهُــدى ويتلُو كتاباً كالمَجرَّة نيِّرا
وجاهدت حتى ما أُحِس ّومن معي سُهيلاً إذا ما لاح ثُمّتَ غوّرا
أُقيمُ على التقوى وأرضى بفعلهــا وكنتُ من النار المَخُوفة أوْجَرا[1]

وحَسُن إسلامه ، وأنشد النبي ﷺ ؛ فقال له : « لا يَفْضُضِ اللهُ فاك » ؛ وشهد مع عليٍّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه صفّينَ .

أخبرني عليُّ بن سليمان الأخفشُ قال : أوّلُ من سبقَ إلى الكناية عن اسم من يَعْنِي بغيره في الشِعر الجعديُّ ، فإنه قال :

أَكْني بغير اسْمِها وقد علمَ اللهُ خَفِيّاتِ كُلّ مُكْتَتَمِ

فسبق الناسَ جميعاً إليه واتّبعوه فيه .

الأصمعيُّ قال : ذكر الفرزدق نابغة بني جَعدةَ فقال : كان صاحبَ خُلْقان [2] عنده مِطْرَفٌ بألفٍ ، وخِمارٌ بوافٍ ، (يعني درهماً) .

---

(١) المجرة : نجوم متقاربة كثيرة العدد تبدو وكأنها خط أبيض معترض في السماء . أوجر : خائف .

(٢) خلقان ج خلق : البالي . المطرف : رداء من خز ذو أعلام . الخمار : ما تغطي به المرأة رأسها وهو النصيف أيضاً .

مهاجاته ليلى الأخيلية

قال أبو عَمرو الشَّيباني : كان سببُ المهاجاة بين ليلى الأخيليّة وبين الجَعْديّ أنّ رجلا من قُشير – يقال له ابن الحَيَا (وهي أمّه) واسمه سوّار بن أوفى بن سَبْرة – هجاه وسبَّ أخوالَه من أزد في أمرٍ كان بين قُشير وبين بني جَعدة وهم بأصبهان متجاورون ، فأجابه النابغةُ بقصيدته التي يُقال لها الفاضحة – سُمّيت بذلك لأنّه ذكر فيها مساوىء قُشير وعُقيل وكلَّ ما كانوا يُسَبُّون به ، وفخر بمآثر قومه وبما كان لسائر بطون بني عامرٍ سوى هذين الحيّين من قُشير وعُقيل – :

جَهِلتَ عليّ ابنَ الحَيا وظلمتَني
وجمّعتَ قولا جاء بَيتاً مُضلّلا

وقال في هذه القصة أيضاً قصيدتَه التي أوّلُها :

إمّا تَرى ظُلَلَ الأيام قد حَسَرت
عنّي وشَمّرتُ ذَيلاً كان ذَيّالا

وهي طويلة ، يقول فيها :

ويومَ مكّةَ إذا ماجدتمُ نَفَراً
حامَوا على عُقَد الأحساب أزوالا
عند النّجاشِيّ إذ تُعطون أيديَكم
مُقرَّنِين ولا تَرجُون إرسالا
إذ تستحبُّون عند الحَذْل أنّ لكم
من آل جَعدةَ أعماماً وأخوالا
لو تَستطيعون أن تُلْقُوا جُلودَكُم
وتجعلُوا جِلدَ عبد الله سِربالا

– يعني عبدَ الله بن جَعدة بن كعب –

إذاً تسربلتُم فيه لِيُنجيكم
ممّا يقول ابنُ ذي الجدَّين إذ قالا
حتى وَهبتم لعبد الله صاحبَه
والقَولُ فيكم بإذن الله ما قالا
تلك المكارم لا قَعْبَان من لَبنٍ
شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا [1]

يعني بهذا البيت أن ابنَ الحيا فخرَ عليه بأنّهم سقَوا رجلا من جَعدة أدركوه في سفر وقد جُهِد عَطشاً لبناً وماءً فعاش.

وقال في هذه القصة أيضاً قصيدته التي أولها :

أبلغ قُشيراً والحَريشَ فما — ذا رَدّ في أيديكم شَتْمي

وفخر عليهم بقتل علقمةَ الجُعفيّ يومَ وادي نِسَاح وقتل شراحيلَ بن الأصهب الجُعفيّ، وبيوم رَحْرَحانَ أيضاً، فقال فيه :

هلاّ سألت بيومَي رحرحانَ وقد ظنّت هَوازنُ أن العزّ قد زالا

فلما ذكر ذلك النابغةُ قال :

تلك المكارم لا قَعبان من لَبنٍ شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

ففخرَ بما له وغضّ مما لهم. ودخلت ليلى الأخيلية بينهما فقالت :

وما كنتُ لو قاذفتُ جُلَّ عشيرتي
لأذكُرَ قَعْبَيْ حازرٍ قد تَثَمّلا [1]

وهي كلمة.

(١) الظلل ج ظلة، بضم أوله : كل ما أطبق عليك من فوق وما أظلك. ذيال : طويل. أزوال : ج زول : الفتى الخفيف الظريف. تعطون أيديكم : تنقادون وتخضعون. ما قالا : في رواية أخرى : ما فالا، وفال : أخطأ. شيبا : خلطا.
(٢) الحازر : اللبن الحامض. تثمل : صار حامضاً أو تكتل لكثرة رغوته.

مفاخرته بأيام قومه

قال أبو عمرو : فأمّا ما فخر به النابغةُ من الأيّام ، فمنها يومُ عَلْقمةَ الجُعْفي ، فإنه غدا في مَذْحِجَ [١] ومعه زُهير الجَعفيُّ ، فأتى بني عُقَيل بن كعب [٢] فأغار عليهم ، وفي بني عُقيل بطونٌ من سُلَيم يقال لهم بنو بَجْلة ، فأصاب سبياً وإبلاً كثيرة ، ثم انصرف راجعاً بما أصاب ، فاتبعه بنو كعب ، ولم يلحق به من بني عُقيل إلا عِقَالُ بن خُوَيلد بن عامر بن عُقيل ، فجعل يأخذ أبعار إبل الجُعفيِّين فيبولُ عليها حتى يُندّيها [٣] ، ثم يلحق ببني كعب فيقول : إيه فِدىً لكم أبواي ، قد لحقتم القومَ . حتى وردوا عليهم النخيلَ في يومٍ قائظ ، ورأسُ زهيرٍ في حِجر جاريةٍ من سُليم من بني بَجْلة سَباها يومئذ وهي تَفْلِيه ، وهو متوسّدٌ قطيفة حمراءَ وهي تَضفِر سَعَفَاته — أي أعلى رأسِه — بهُدْب القَطِيفة ؛ فلم يشعروا إلاّ بالخيل ؛ فكان أوّلُ من لحق زهيراً ابنَ النَهّاضة ، فضرب وجهَ زهير بقوسه حتى كسر أنفَه ، ثم لحقه عِقالُ بن خويلد ، فبعج بطنه ، فسال من بطنه بَريرٌ وحَلَبٌ — والبَرير : ثمر الأراك . والحلَب : لبن كان قد اصطبحه — فذلك يومَ يقول أبو حربٍ أخو عِقال بن خويلد: والله لا أصطبح لبناً حتى آمَنَ من الصَّباح [٤] . قال : وهذا اليوم هو يوم وادي نِساح وهو باليمامة .

قال : وأما يوم شَرَاحيلَ بن الأصهب الجُعْفيّ فإنه يومٌ مذكورٌ تفتخر به مُضرُ كلُّها . وكان شراحيل خرج مُغيراً في جمعٍ عظيم من اليمن ، وكان

---

(١) مذحج : قبيلة يمانية ضخمة ومن بطونها المشهورة : جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج .

(٢) عقيل : من بطون بني كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ومن بطون بني كعب أيضاً : جعدة رهط النابغة ، وقشير والحريش .

(٣) انما يصنع هذا ليوهم القوم أن عدوهم لم يبتعد عنهم كثيراً ، فأبعار جمالهم ما زالت ندية ، وذلك حضاً لهم على اللحاق بهم .

(٤) الصباح ، هنا : الغارة صباحاً .

قد طال عمره وكثر تَبَعَه وبَعُد صيتُه واتّصل ظَفَره ، وكان قد صالح بني عامر على أن يغزوَ العرب ماراً بهم في بَدأته وعودته لا يعرض أحدٌ منهم لصاحبه ، فخرج غازياً في بعض غَزَواته فأبعد ، ثم رجَع إليهم فمرّ على بني جَعْدةَ فقَرَتْه ونحرت له ؛ فعمد ناسٌ من أصحابه سُفَهاءُ فتناولوا إبلاً لبني جَعدة فنحروها ؛ فشكت ذلك بنو جَعدة إلى شَراحيل ، فقالوا : قَرَيناك وأحسنّا ضيافتك ثمّ لم تمنع أصحابك ممّا يصنعون ! فقال : إنّهم قومٌ مُغِيرون ، وقد أساؤوا لَعَمري ، وإنّما يُقيمون عندكم يوماً أو يومين ثم يرتحلون عنكم . فقال الرُّقاد بن عمرو بن ربيعة بن جَعْدة لأخيه وَرْد بن عمرو — وقيل : بل قال ذلك لابن أخيه الجَعْد بن ورد : — دعني أذهبْ إلى بني قُشَير — قال : وجَعدة وقُشير أخوان لأمٍّ وأب ، أمّهما رَيْطة بنت قُنْفُذ ابن مالك بن عوف بن امرىء القيس بن بُهثَة بن سُلَيم بن منصور — فأدْعُوهم ، واصنع أنت يا هذا لشراحيلَ طعاماً حسناً كثيراً ، وادعُه وأَدخله إليك فاقتُلْه ، فإن احتجتَ إلينا فَدخِّن ، فإنّي إذا رأيت الدُخان أتيتك بهم فوضعنا سيوفنا على القوم . فعمد وردٌ هذا إلى طعام فأصلحه ، ودعا شراحيل وناساً من أصحابه وأهلِه وبني عمّه ، فجعلوا كلّما دخل البيتَ رجلٌ قتله وردٌ ، حتى انتصف النهار ، فجاء أصحاب شراحيلَ يَتْبعُونه (١) ، فقال لهم وردٌ : تَروَّحوا فإنّ صاحبكم قد شرب وثَمِل وسيروح ، فرجعوا ؛ ودخّن وردٌ ، وجاءت قُشيرٌ ، فقتلوا مَن أدركوا من أصحابه ، وسار سائرُهم ؛ وبلغهم قتلُ شَراحيلَ ، فمرّوا على بني عُقَيل ، وهم إخوتُهم ، فقالوا : لَنَقْتُلَنّ مالكَ بن المُنْتفِق ؛ فقال لهم مالك : أنا آتيكم بوَرد ؛ فركب ببني عُقَيل إلى بني جَعدةَ وقُشير ليعطوهم ورداً ؛ فامتنعوا من ذلك وساروا بأجمعهم فذبّوا عن عُقَيل ، حتّى تفرّق من كان مع شراحيل . فقال في ذلك بَحيرُ بن عبد الله بن سَلَمة :

---

(١) كذا في المطبوعة ، ومن المحتمل أن تكون مصحفة عن « يبتغونه » .

أحيٌّ يَتبعــون العِيرَ نَحْـــراً   أحبُّ إليكَ أم حيّاً هِــلالِ
لعلّكَ قاتــــلٌ وَرداً ولمّـــا   تَسَاقَ الخيلُ بالأسَلِ النِّهالِ
ألا يا مالُ وَيْحَ سِواكَ أقصِـرْ   أما ينهاك حِلمُكَ عن ضَلالِ[1]

وأما يوما رَحْرحان ، فأحدُهما مشهور ... ، وهذا اليومُ الثاني ، فكان الطَمّاح الحَنفي أغار في بني حَنيفة ، وبني قَيس بن ثعلبةَ على بني الحَريش بن كعب وبني عُبادة بن عُقيل وطوائفَ من بني عَبْس يقال لهم بنو حُذيفة ؛ فركبت بنو جَعدة وبنو أبي بكر بن كِلاب ، ولم يَشهدْ ذلك من بني كلاب غيرُ بني أبي بكر ، فأدركوا الطَمّاح مِن يومِهم ، فاستنقذوا ما أخذه وأصابوا ما كان معه ، وقتلوا عدداً من أصحابه وهزموهم ...

قال : وأما يوم الفَلَج[2] ، فإن بكر بن وائل بعثت عَيناً[3] على بني كعب بن ربيعة حتى جاء الفَلَج – وهو ماء – فوجد النَّعَمَ بعضه قريباً من بعض ، ووجد الناس قد احتملُوا ، فليس في النَّعم إلا من لا طَبَاخَ به[4] من راعٍ أو ضعيف ؛ فجاءهم عينُهم بذلك ، فركبت بكر بن وائــل يريدونهم ، حتى إذا كانوا منهم بحيث يسمعون أصواتهم ، سمعوا الصَّهيلَ وأصواتَ الرجال ؛ فقالوا لعَيْنهم : ما هذا ويلَكَ ؟! قال : والله ما أدري ، وإنّ هذا لممّا لم أعهَدْ ، فأرسَلُوا من يَعلَم عِلْمهم ؛ فرجَع فأخبرهم أن الرجال قد رجعوا ، ورأى جمعاً عظيماً وخيولاً كثيرة ؛ فكرُّوا راجِعينَ

---

(٢) حيا هلال : بطون بني جعدة وعقيل وقشير تنتمي كلها إلى كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، أما بنو هلال فهم بطن مستقل من بني عامر بن صعصعة وليسوا من بني كعب ، ولهذه الأبيات قصة مغايرة في كتاب أشعار النساء للمرزباني ، ورواية البيت الأول هناك هي :

أقـــوم يقتنـــون الإبـــل تجراً   أحب اليك أم قــوم حــلال

(٢) الفلج ؛ بالتحريك : الماء الجاري من العين ، وكان لبني جعدة وقشير أفلاج كثيرة .
(١) عيناً : رجلا يتسقط الأخبار ويتجسس على العدو .
(٢) الطباخ : القوة والسمن والاحكام .

من ليلتهم ؛ وأصبحت بنو كعب فرأوا الأثَر فاتّبعوهم ، فأصابوا من أخرياتهم رجالاً وخيلاً ، فرجَعوا بها .

قال : وأمّا قوله :

لو تَستطيعون أن تُلقوا جُلودَكم
وتَجعلُوا جِلدَ عبد الله سِرْبالا

فإنّ السبب في ذلك أن هُبَيرةَ بن عامر بن سَلمة بن قُشير ، لقي خِداش بن زهير البَكّائيّ ، فتنافرا على مائةٍ من الإبل ، وقال كلٌّ منهما لصاحبه : أنا أكرمُ وأعزّ منك ؛ فحكّما في ذلك رجلاً من بني ذي الجَدّين[1] ، فقضى بينهما أن أعزّهما وأكرمهما أقربهُما من عبد الله بن جَعدة نسباً ؛ فقال خِداش بن زهير : أنا أقرب إليه ، أمُّ عبد الله بن جَعدة عمّتي — وهي أُميمةُ بنتُ عِمرو بن عامِر — وإنما أنتَ أدنى إليه منّي منزلة بأبٍ ؛ فلم يزالا يختصمان في القَرابة لعبد الله دون المُكاثرة بآبائهما إقراراً له بذلك ، حتى فَلَج[2] هُبيرة القُشَيريُّ وظفِر .

قال أبو عمرو : وكان عبدُ الله بن جَعدة سيّداً مُطاعاً ، وكانت له إتاوة بعُكاظ يؤتى بها ، يأتيه بها هذا الحيُّ من الأزد وغيرهم ؛ فجاء سُمَيرُ ابن سَلَمة القشَيري وعبدُ الله جالسٌ على ثياب قد جُمعت له من إتاوته ، فأنزله عنها وجلس مكانَه ؛ فجاء رِياحُ بن عُمرو بن ربيعة بن عُقَيل — وهو الخَليع ، سُمّي بذلك لتخلّعه عن الملوك لا يُعطيهم الطاعة — فقال للقُشيريِّ : مالكَ ولشَيخنا تُنزله عن إتاوته ونحنٍ ها هنا حولَه ! فقال القُشيريُّ : كذبتَ ، ما هي له ! ثم مدَّ القُشيريُّ رِجله فقال : هذه رجلي فاضرِبها إن كنتَ عزيزاً ؛ قال : لا ! لَعَمْري لا أضرب رجلَك ؛ فقال له القُشيريُّ :

---

(١) آل ذي الجدين : أسرة مشهورة تنتمي إلى بني شيبان .
(٢) فلج : ظفر وغلب .

فامدُدْ لي رجلَك حتى تعلمَ أأضرِبها أم لا ؛ فقال : ولا أمدُّ لك رجلي ، ولكن أفعلُ ما لا تُنكره العَشيرةُ وما هو أعزُّ لي وأذلُّ لك ؛ ثم أهوى إلى رِجل القُشيريّ فسحبه على قفاه ونَحّاه ، وأقعد عبدَ الله بن جَعدة مكانَه .

قال : وعبدُ الله أوّلُ من صنع الدَّبابة ؛ وكان السبب في ذلك أنّهم انتجعوا ناحيةَ البحرين ، فهجموا على عبدٍ لرجلٍ يُقال له كَوْدَن في قصرٍ حَصينٍ ، فدخّن العبدُ ودعا النساء والصِبيان ، فظنّوا أنّه يُطعمهم ثريداً ، حتى إذا امتلأ القصر منهم أغلقه عليهم ، فصاح النساء والصبيانُ ، وقام العبد ومن معه على شُرَفِ القصر [1] ، فجعل لا يدنو منه أحدٌ إلا رماه ؛ فلمّا رأى ذلك عبدُ الله بن جَعدة صنعَ دَبّابة على جذُوع النخل وألبسها جُلودَ الإبل ، ثم جاء بها والقومُ يحملونها حتى أسندوها إلى القصر ، ثم حفروا حتى خرقوه ؛ فقَتل العبدَ ومَن كان معه واستنقذ صِبيانَهم ونساءهم . فذلك قولُ النابغة :

ويومَ دعا ولدانَكم عبدُ كَوْدَنٍ
فخالُوا لدى الداعي ثَريداً مُفَلْفَلاً
وقى ابنَ زيادٍ وهو عُقبةُ خيرِكم
هبيرةُ ينزُو في الحديد مُكَبَّلا

يعني هُبيرة بنَ عامر بن سَلمة بن قُشير ، وكان عبدُ الله بن مالك بن عُدَس بن ربيعة بن جَعدة خرج ومعه مالكُ بن عبد الله بن جَعدة ، حتى مرّوا على بني زياد العبسيين والرجالُ غُيّبٌ ، فأخذوا ابناً لأنَس بن زياد وانطلقوا به يرجُون الفِداء ؛ وانطلق عمُّه عُمارةُ بن زياد حتى أتى بني كعب ، فلقي هُبيرةَ بن عامر بن سَلمة بن قُشير ، فقال له : يا هبيرةُ إنّ الناس يقولون : إنّك بخيلٌ ؛ قال : مَعاذَ اللهِ ! قال : فهَبْ لي جُبّتَك هذه ؛ فأهوى

---

(1) الشرف ج شرفة : ما يوضع على أعالي القصور والمدن .

ليخلعَهَا ، فلمّا وقعت في رأسه وثب عليه فأسرَه ، ثم بعث إلى بني قُشير : عليَّ وعليّ إن قبلتُ من هُبيرةَ أقلَّ من فِدية حاجب[1] إلاّ أن يأتوني بابن أخي الذي في أيدي بني جَعدة ؛ فمشت بنو قُشير إلى بني جَعدة، فاستوهبوه منهم فوهبوه لهم ، فافتدَوا به هُبيرة .

وأمّا خبر وَحْوَح أخي النابغةَ ، فإنّ أبا عمروٍ ذكَر أن بني كعب أغارت على بني أسَد فأصابوا سَبياً وأَسرى ، فركبت بنو أسدٍ في آثارهم حتّى لحقُوهم بالشُّرَيْف[2] ، فعطفت بنو عُدَس بن ربيعة بن جَعدة، فذادُوا بني أسَدٍ حتى قتلوا منهم ثلاثين رجلا وردُّوهم ، ولم يظفَروا منهم بشيء . وتعلّقت امرأةٌ من بني أسد بالحَكَم بن عَمرو بن عبد الله بن جعدةَ وقد أردفها خلفَه ، فأخذت بضَفِيرته ومالت به فصرعتْه ، فعطَف عليه عبدُ الله بن مالك بن عُدَس وهو أبو صَفوان ، فضرب يَدها بالسيف فقطعها وتَخلّصه . وطُعن يومئذٍ وَحوحُ بنُ قيس أخو النابغةِ الجَعديّ ، فارتُثَّ[3] في معركةِ القوم ، فأخذه خالد بن نَضْلةَ الأسديّ ؛ وعطف عليه يومئذٍ أخوه النابغة ، فقال له خالدُ بن نَضلةَ : هلمَّ إليَّ وأنت آمنٌ ؟ فقال له النابغةَ : لا حاجةَ لي في أمانك ، أنا على فرسي ومعي سلاحي وأصحابي قريبٌ ، ولكنّي أُوصيك بما في العَوْسجة[4] (يعني أخاه وحوحَ بن قيس) ؛ فعدَل إليه خالدٌ فأخذه وضمّه إليه ومنع من قَتْلِه وداواه حتّى فُدِي بعد ذلك . قال : ففي ذلك يقول مُدْرِكٌ الفقعسيُّ[5] :

---

(١) حاجب : هو حاجب بن زرارة بن عدس الدارمي ، أسره ذو الرقيبة القشيري يوم شعب جبلة فافتدى نفسه بألف بعير ، وأطلق له مائة من الأسرى فصار فداؤه مضرب المثل .

(٢) الشريف : ماء لبني نمير .

(٣) ارتث : جرح في القتال جرحاً بليغاً حتى أشرف على الموت .

(٤) العوسجة ، واحدة العوسج : شجر شائك مر ينبت في نجد له ثمر أحمر مدور .

(٥) في المطبوعة : العبسي ، وجاء في هامشها : « في ج : الفقعسي »، والمحقق اختار ما جاء في النسخ الأخرى، وهو تحريف ، لأن الشاعر أسدي، وفقعس بطن من بني أسد .

أقمتُ على الحِفاظ وغاب فَرْجٌ وفي فَرْجٍ عن الحسب انفراجُ
كذلك فِعلُنا وحِبال عمّي وَرَدْنَ بوحوحٍ فَلَجَ الفِلاجِ (١)

ومما قاله النابغة في هذه المفاخرة وغُنّي فيه قولُه :

صوت

هل بالدّيارِ الغَداة من صَمَمِ أم هل بربعْ الأنيس من قِدَمِ
أم ما تُنادي من ماثلٍ دَرَجَ السَيْـ ـلُ عليه كالحوضِ مُنهدمِ
غرّاء كالليلةِ المباركة القمـرا ء تَهدي أوائلَ الظُّلَمِ
أكني بغيرِ اسمِها وقد علم الـ ـلّهُ خَفيّاتِ كلِّ مُكتَتَمِ
كأنّ فاها إذا تبسّم مـن طيبِ مَشَمٍّ وطيبِ مُبْتَسَمِ
يُسَنّ بالضِروْ مِن براقِشَ أو هَيْلانَ أو ناضرٍ من العُتُمِ (٢)

لومه عقال بن خويلد لإجارته باهلة

قال أبو عمرو الشّيبانيّ : إن المُنتشِرَ الباهليَّ خرَج فأغار على اليمن ثم رجع مظَفّراً . فوجد بني جَعدة قد قتلوا ابناً له يقال له سِيدان ، وكانت باهلة في بني كعب بن ربيعةَ بن عامر بن صعصعة ثمّ في بني جَعدة ، فلمّا أن علم ذلك المُنتشر وأتاه الخبر أغار على بني جَعدة ثم على بني سُبيعٍ في وَجهه ذلك ، فقتل منهم ثلاثةَ نفرٍ ؛ فلمّا فعل ذلك تصدّعت باهلة ، فلحِقت فِرقةٌ منهم يقال لهم بنو وائل بعِقال بن خُوَيلد العُقيليّ ، ولحِقت فرقةٌ

(١) فلج الفلاج وفلج الأفلاج : نخل لبني جعدة وسيوح تجري مثل الأودية .
(٢) الماثل : الأثر القائم . يسن : يستاك . الضرو : شجر يستاك به . حراقش وهيلان : موضعان . العتم : شجر الزيتون . في المطبوعة : أو ضامر من العتم والتصويب من لسان العرب .

أخرى يقال لهم بنو قتيبة وعليهم حَجْلٌ الباهليُّ بيزيدَ بن عمرو بن الصَّعِق الكِلابيّ فأجارهم يزيدُ، وأجار عِقالٌ وائلاً. فلمّا رأت ذلك بنو جَعدةأرادوا قِتالَهم، فقال لهم عِقالٌ: لا تُقاتلوهم فقد أَجرتُهم؛ فأمّا أحد الثلاثة القتلى منكم فهو بالمقتول [1]، وأما الآخرانِ فعليّ عَقْلُهُما [2]؛ فقالوا: لا نَقبل إلاّ القتالَ ولا نُريد من وائلٍ غِيَراً (يعني الدِية)؛ فقال: لا تفعلوا فقد أجرتُ القوم؛ فلم يزل بهم حتى قَبِلوا الدية. وانتقلت وائل إلى قومهم. فقال النابغة في ذلك قصيدته التي ذكر فيها عِقالاً:

فأبْلِغْ عِقالاً أن غايةَ داحسٍ
بِكفّيْكَ فاستأخِرْ لها أو تقدّمِ
تُجيرُ علينا وائلاً في دمائنا
كأنّكَ عمّا ناب أشياعَنا عَمِ
كُليبٌ لعَمري كان أكثرَ ناصراً
وأيسرَ جُرماً منك ضُرِّجَ بالدمِ
رمى ضَرْعَ نابٍ فاستمرَّ بطَعنةٍ
كحاشيةِ البُردِ اليَماني المُسَهَّمِ
وما يَشعُرُ الرُمحُ الأصمُّ كعُوبُهُ
بثْروةِ رَهطِ الأبلخ المُتظلِّمَ
وقال لجَسّاسٍ أَغِثْني بشَربةٍ
تَفضَّلْ بها طَوْلا عليَّ وأنعِمِ
فقال تجاوزتَ الأحصَّ وماءَهُ
وبطنَ شُبَيثٍ وهو ذو مُترسَّمِ [3]

---

(1) فهو بالمقتول: أي هو لقاء من قتل منهم.

(2) العقل: الدية.

(3) غاية داحس: أي أنك بعملك ستثير حرباً مثل حرب داحس والغبراء المشهورة بين عبس =

إعجاب الرسول عليه السلام بشعره

يَعْلَى بن الأشدَق العُقَيليّ قال : حدّثني نابغةُ بني جَعْدةَ قال :

أنشدت النبيَّ ﷺ هذا الشِعرَ فأعجِب به :

بلغنا السماء مَجد نا وجُدودُنا وإنا لَنَبْغِي فوقَ ذلك مَظْهَرا [1]

فقال النبيُّ ﷺ : « فأين المَظْهرُ يا أبا ليلى » ؟ فقلت : الجنّة ، فقال : « قل إن شاء الله » ؛ فقلتُ : إن شاءَ اللهُ .

ولا خَيْرَ في حِلْمٍ إذا لم يكن لـه
بوادرُ تَحْمي صَفْوَهُ أن يُكَدّرَا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن لـه
حَليمٌ إذا مـا أورد الأمرَ أَصْدَرا

فقال النبيُّ ﷺ : « أجَدْتَ لا يَفْضُض اللهُ فاك » ؛ قال : فلقد رأيتُه وقد أتت عليه مائةُ سنةٍ أو نحوُها وما انفضّ من فيه سِنٌّ .

= وذبيان . كليب : هو كليب بن ربيعة الذي ثارت بسببه حرب البسوس بين بكر وتغلب ، وكان رمى ناقة البسوس لأنها وردت بغير إذنه ، فثار لصنيعه جساس بن مرة فقتله . وكانت المرأة في جواره فقتله . الناب : الناقة المسنة . المسهم : المخطط بخطوط في شكل السهام . الثروة ، هنا : الكثرة . الأبلخ : العظيم في نفسه ، الجريء على العداوة ، المتظلم : الذي يظلم الناس حقوقهم . الطول : الفضل . الأحوص وشبيث : موضعان أو ماءان . وكان كليب حين طعنه جساس سأله شربة ماء فقال له جساس : تجاوزت شبيثاً والأحص ، يريد : ليس هذا وقت طلب الماء ، وقد ذهبت كلمته هذه مذهب المثل يضرب لمن يطلب الأمر بعد فوات وقته . المترسم : موضع الماء لمن طلبه .

(١) المظهر : المصعد .

استأذن عثمان في سكنى البادية

قال مسلمة بن محارب :

دخل النابغةُ الجَعديُّ على عثمانَ رضي اللهُ تعالى عنه فقال : أَستودعُكَ اللهَ يا أميرَ المؤمنين ؛ فقال : وأين تُريدُ يا أبا ليلى ؟ قال : أَلْحَقُ بإبلي فأشرَبُ من ألبانها فإني مُنكِرٌ لنفسي . فقال : أَتعرُّباً بعد الهجرة يا أبا ليلى ! أما علمتَ أنَّ ذلك مكروهٌ ؟! قال : ما علمتُه ، وما كنتُ لأخرجَ حتى أُعلمَكَ . قال : فأذن له ، وأجّل له في ذلك أجَلا ؛ فدخل على الحسن والحسين ابنَي عليٍّ فودَّعهما ؛ فقالا له : أنشِدنا من شعرك يا أبا ليلى ؛ فأنشدهمـــا :

الحمــــدُ لله لا شريكَ لـــه   من لم يَقُلْها فنفسَه ظَلمـــا

فقالا : يا أبا ليلى ، ما كنّا نَروي هذا الشعر إلا لأميةَ بن أبي الصَّلت ؛ فقال : يا بْنَيْ رسول اللهِّ ﷺ إنّي لَصاحبُ هذا الشعر وأوّلُ من قاله ، وإن السّرُوقَ لَمَن سَرق شعرَ أميّة .

خبره مع أبي موسى الأشعري

عن الهيثَم بن عديّ قال :

رعت بنو عامر بالبَصرة في الزَرع ، فبعث أبو موسى الأشعريُّ في طَلبهم ، فتصارخوا : يا آلَ عامر ، يا آل عامر ! فخرج النابغةُ الجعديُّ ومعه عُصبةٌ له ؛ فأُتي به إلى أبي موسى الأشعريّ ، فقال له : ما أخرجَك ؟ قال : سمعتُ داعيةَ قومي ؛ قال : فضربه أسواطاً ؛ فقال النابغة :

رأيتُ البَكْرَ بَكْرَ بني ثَمُـــودٍ   وأنت أراكَ بَكر الأشعَرينـــا

فإن يكن ابنُ عفّانٍ أميناً	فلم يَبعثْ بلك البَرَّ الأمينا
فيا قبرَ النبيِّ وصاحبَيه	ألا يا غَوْثَنا لو تسمعُونا
ألا صَلّى إلهُكم عليكم	ولا صلّى على الأمراء فينا (١)

خبره مع علي ومعاوية

عن ابن دَأب قال :

لمّا خرج عليٌّ رضي الله تعالى عنه إلى صفّين خرج معه نابغةُ بني جَعدة ؛ فساق به يوماً فقال :

قد علِم المِصْران والعراقُ	أنّ علياً فَحلُها العُتَاقُ
أبيضُ جَحْجَاحٌ له رُواقُ	وأمُّه غالَى بها الصَّداقُ
أكرمُ من شُدَّ به نِطاقُ	إن الألى جارَوْكَ لا أفاقوا
لهم سِياقٌ ولكم سِياق	قد علمتْ ذلكم الرفاقُ
سُقتم إلى نَهْج الهُدَى وساقوا	إلى التي ليس لها عِراقُ
في مِلّةٍ عادتُها النِّفاقُ (٢)

فلما قدم معاوية بن أبي سفيان الكوفة ، قام النابغةُ بين يديه فقال :

ألم تأت أهل المشرقَين رسالتي
وأيُّ نَصيحٍ لا يَبِيتُ على عَتْبِ
ملكتُم فكان الشرُّ آخرَ عهدكم
لئن لم تداركْكم حُلُومُ بني حَرْبِ

(١) بكر بني ثمود : أراد ناقة ثمود التي كانت سبب هلاكهم .
(٢) العتاق : الكريم (لم تنص معاجم اللغة على هذا المعنى ولكنه يستخلص من السياق) . الجحجاح : السيد . الصداق : المهر . العراق : الشاطىء ، أراد إلى مضلة لا غاية لها .

وقد كان معاوية كتب إلى مَروانَ فأخذ أهلَ النابغة وماله ، فدخل النابغة على معاويةَ ، وعنده عبدُ الله بن عامر ومروان ، فأنشده :

مَن راكبٌ يأتي ابنَ هندٍ بحــاجتي
على النّأي والأنباءُ تُنمَى وتُجلَبُ

ويُخبر عنّي ما أقول ابنَ عــامر ... ونعِمَ الفتى يأوي إليه المُعصَّبُ

فإن تأخذُوا أهلي ومالي بظِنَّــةٍ ... فإنّي لَحرّابُ الرِجالِ مُحرَّبُ

صَبُورٌ على ما يَكرهُ المرءُ كلِّــه ... سوى الظُلمِ إنّي إن ظُلمت سأغضبُ[1]

فالتفت معاوية إلى مروان فقال : ما ترى ؟ قال : أرى ألا تردّ عليه شيئاً ؛ فقال : ما أهونَ واللهِ عليك أن يَنجَحِرَ هذا في غارٍ ثم يُقطّع عِرضي عليَّ ثم تأخذُه العرب فترويه ، أما واللهِ إن كنتَ لِمَن يَرويه ! اردُدْ عليه كلَّ شيءٍ أخذتَه منه .

مهاجاته أوس بن مغراء

وقال أبو عمرو الشيباني : كان بَدء حديثِ النابغة وأوس بن مَغراء أن معاويةَ لمّا وجه بُسْرَ بنَ أرطاة الفِهْريَّ لِقتلِ شيعة عليٍّ بن أبي طالب رضي اللهُ تعالى عنه ، قام إليه معن بن يزيد بن الأخْنس السُّلَميّ وزيادُ بن الأشهب بن وَرد بن عَمرو بن ربيعة بن جَعدة ، فقالا : يا أميرَ المؤمنين ، نَسألك بالله وبالرَحِم ألاّ تجعلَ لبُسْرٍ على قيسٍ سُلطاناً ، فيقتلَ قيساً بمن قتلت بنو سُليم من بني فِهْر وبني كِنانة يومَ دخلَ رسول الله ﷺ مكّةَ ؛ فقال معاوية : يا بُسْرُ لا أمرَ لك على قيسٍ ؛ وسار بُسرٌ حتى أتى المدينة ،

(١) المعصب : من عصبته السنون وذهبت بماله ، والجائع الذي يعصب بطنه لشدة جوعه . حراب : من حربه أي سلبه ماله . المحرب : الأسد ، وفي بعض الأصول : مجرب .

فقتل ابنَيْ عُبيد الله بن العبّاس ، وفرّ أهلُ المدينة ودخلوا الحَرَّة (حرّة بني سُليم) . ثم سار بُسرٌ حتى أتى الطائفَ ؛ فقالت له ثقيفُ : مالك علينا سُلطانٌ ، نحن من قيس ، فسار حتى أتى هَمْدانَ وهم في جبل لهم يُقال له : شِبام ، فتحصّنت فيه هَمْدان ثم نادَوا : يا بُسرُ نحن هَمْدان وهذا شِبَام ، فلم يلتفِتْ إليهم ؛ حتى إذا اغترّوا ونزَلوا إلى قُراهم ، أغار عليهم فقتل وسبَى نساءَهم ؛ فكُنَّ أولَ مُسلماتٍ سُبِينَ في الإسلام . ومرّ بحيٍّ من بني سَعْد نُزُولٍ بين ظَهْرَي بني جَعدةَ بالفَلَج ، فأغار بُسرٌ على الحي فقتل منهم وأسَرَ ؛ فقال أوسُ بن مَغراء في ذلك :

مُشِرِّين ترعَون النَّجيل وقد غدت
بأوصال قَتلاكم كِلابُ مُزاحِمِ

– المُشِرّ : الذي قد بسط ثوبه في الشمس . والنجيل : جنس من الحَمْض – فقال النابغة يجيبه :

متى أكلتْ لُحومَكُم كِلابي
أكلتَ يديكَ من جَرَبٍ تَهَامِ (١)

عن ابن الغَرَّاف :

أن النابغة هاجى أوسَ بن مَغْراء ؛ قال : ولم يكن أوسٌ مِثلَه ولا قريباً منه في الشعر ؛ فقال النابغةُ : إني وإيّاه لَنبتدرُ بيتاً ، أيُّنا سبق إليه غلَب صاحبَه ؛ فلمّا بلغه قولُ أوس :

لَعمرك ما تَبْلى سَرابيلُ عامرٍ من اللؤم ما دامت عليها جُلودُها

قال النابغة : هذا البيت الذي كنا نبتدر إليه . فغُلِّب أوسٌ عليه .

قال أبو زيد : فحدّثني المدائنيُّ أنّهما اجتمعا في المِربَد فتنافرا وتهاجيا ،

---

(١) تهام : المنسوب إلى تهامة .

وحضرَهما العَجّاجُ والأخطلُ وكعبُ بن جُعيل ، فقال أوس :

لمّـــا رأت جَعدةُ منّـا وِرْدَا ولَّـوا نَعَامَاً في البِلاد رُبْدَا
إنّ لنـــا عليكـــم مَعَدّاً كاهلهَا ورُكْنَهَا الأشَدّا (١)

فقال العجّاج :

كلُّ امرىءٍ يعدُو بما استعـــدّا

وقال الأخطل يعين أوس بن مَغراء ويحكُم له :

وإني لقـــاضٍ بين جَعدة عـــامرٍ
وسَعْدٍ قضاءً بيّنَ الحقِّ فَيْصَلا
أبو جَعدةَ الذئبُ الخبيثُ طعامُـــــه
وعوفُ بن كعبٍ أكرمُ الناس أوّلا (٢)

* * *

(١) الورد : الإشراف على الماء والقوم يردون الماء . وأراد هنا ورود القتال ، والورد أيضاً : الجيش . الربداء : من النعام ما كان لونها إلى السواد ، ويضرب المثل بالنعام في سرعة الفـــرار .
(٢) أبو جعدة : كنية الذئب .

٢٨

النّمر بْن تولب

(الأغاني ج ٢٢ ص ٢٧٣ وما بعدها)

الشاعر

هو النِـمر بن تـوْلَـب بن أُقَـيش ... بن عُـكْـل – واسم عُـكل عوف بن عبد مناف – بن أُدّ بن طابخة بن اليأس بن مضر بن نزار .

شاعرٌ مُقلٌّ مُخضرَم أدرك الجاهلية ، وأسلم فحسُن إسلامه ، ووفد إلى النبيّ ﷺ ، وكتب له كتاباً فكان في أيدي أهله ، وروى عنه ﷺ حديثاً ... وكان النمر أحد أجواد العرب المذكورين وفُرسانهم .

عن محمد بن سَلاّم قال : كان النمر بن تولب جَـواداً لا يُـليق شيئاً [1] ، وكان شاعراً فصيحاً جريئاً على المنطق ، وكان أبو عَـمرو بن العَلاء يُسمّيه « الكَـيّس » لحُسن شعره .

---

(١) لا يليق شيئاً : لا يمسك شيئاً ولا يبقيه لجوده .

عن محمّد بن حبيب قال : كان أبو عَمرو يُشبّه شعر النَمِر بشعر حاتم الطائيّ .

مُصْعَب بن عبد الله الزُبيري قال :

بلغني أنّ صالحَ بن حسّان قال يوماً لجُلَسائه : أيُّ الشعراء أفتى ؟ قالوا : عمر بن أبي ربيعة ، وقالوا : جميل ، وأكثروا القول ، فقال : أفتاهم النِمر بن تولب حين يقول :

أَهِيمُ بدَعْدٍ ما حَيِيتُ فإن أَمُتْ
فواحَزَنا مَن ذا يَهِيمُ بها بَعدي

أخباره مع جَمْرة الأسديّة

* ... محمّد بن سلاّم قال :

كان للنمر بن تولب أخٌ يقال له الحارث بن تولب ، وكان سيّداً معظّماً . فأغار الحارث على بني أسد فسبى امرأة منهم يقال لها جَمْرة بنت نوفل ، فوهَبها لأخيه النمر بن تولب ، ففَركَتْه (١) فحبسها حتى استقرّت وولدت له أولاداً . ثمّ قالت له في بعض أيّامها : أَزرني أهلي، فإنّي قد اشتَقت إليهم ، فقال لها : إنّي أخاف إن صِرت إلى أهلك أن تغلبيني على نفسك . فواثقَتْه لَتَرْجِعَنّ إليه .

فخرج بها في الشهر الحَرام حتّى أقدمها بلاد بني أسد ، فلمّا أطلّ على الحيّ تركته واقفاً وانصرفت إلى منزل بَعلها الأوّل فمكثت طويلا فلم ترجع إليه ، فعرف ما صنعت وأنّها اختدَعتْه فانصرف وقال :

جزى اللهُ عنّا جَمْرةَ ابنةَ نوفلٍ
جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ

(١) فركته : كرهته .

لهان عليهــا أمس ِ موقفُ راكــبِ
إلى جانب السَرْحات أخيب خــائبِ
وقد سألتْ عنّي الوُشــاةَ ليكذبــوا
عليَّ وقد أَبليتُها في النــــوائبِ
وصدَّت كأنّ الشمسَ تحت قِناعها
بدا حاجبٌ منها وضنّت بحــاجب (١)

وقال فيها أيضاً :

كـــلُّ خليل ٍ عليه الرعــــا ـ ثُ والحُبُلاتُ كَذُوبٌ مَلِقْ

ـ الحُبُلات : واحدتها حبَلة ، وهي جنس من الحَلي قدر ثمر الطَلْح ـ

وقــامت إليَّ فأحلفتُهـــــا بهَدْي قَلائدُه تَختفِقْ
بأنْ لا أخونَك فيمــا علمت فإنّ الخيانةَ شرُّ الخُلُقْ (٢)

وقال فيها أشعاراً كثيرة يطول ذكرها .

عن محمد بن سلاّم قال :

حجّ النمر بن تولب ، بعد هرب جمرةَ منه ، فنزل بمنى ، ونزلت جَمرة مع زوجها قريباً منه ، فعرفته ، فبعثت إليه بالسلام وسألته عن خبره ووصّته خيراً بولده منها فقال :

فحُيّيتِ عن شَحْطٍ بخَير حَديثنـا
ولا يأمنُ الأيّــامَ إلاّ المُضَلَّــلُ

---

(١) أغل بالأمانة : خان . أبليتها : أحسنت إليها .
(٢) الرعاث ج رعثة : القرط. الهدي والهديّ : ما أهدي إلى مكة. تختفق: تضطرب ويضرب بعضها بعضــاً .

يَوَدُّ الفتى طُول السلامة والبقـا
فكيف يرى طُولَ السّلامة يَفعل [1]

عن ابن عبّاس قال :

لمّا فارق النمر بن تولب امرأته الأسدية جزع عليها حتّى خِيف على عقنه ، ومكَثَ أياماً لا يَطعَم [2] ، ولا ينام . فلمّا رأت عشيرته منه ذلك أقبلوا عليه يلومونه ويُعيّرونه وقالوا : إنّ في نِساء العرب مَنْدُوحةً ومُتّسعاً . وذكَرُوا له امرأة من فَخذه يُقال لها دَعْد ، ووصفوها له بالجمال والصّلاح ، فتزوّجها ووقعت من قلبه وشغلتْه عن ذكر جَمرة وفيها يقول :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمُـتْ
أُوكّلْ بدَعدٍ من يَهيم بها بعـدي

والناس يروون هذا البيت لنُصَيب وهو خطأ .

محمّد بن سَلاّم قال :

لمّا بلغ النمرَ بن تولب أن امرأته جمرةَ تُوفّيت ، نعاها له رجلٌ من قومه يُقال له حِزام أو حَرام ، فقال :

ألم تَـرَ أنّ جَمرةَ جاء منهـا
بيانُ الحقّ إن صَدَق الكَـلامُ
نعاها بالنَديّ لنـا حـزامٌ
حديثٌ ما تَحدّثُ يا حِـزامُ

---

(١) الشحط : النأي. في المطبوعة : طول السلامة والغنى ، وما أثبتناه رواية الكامل .
(٢) لا يطعم : لا يأكل .

فلا تَبْعَدْ ، وقد بَعِدتْ ، وأجرى
على جَدَثٍ تَضمّنها الغَمامُ (١)

وفوده على الرسول عليه السلام

عن الأصمعيّ قال :

لمّا وفدَ النمر بن تولب على النبيّ ﷺ أنشده :

يا قومُ إنّي رجلٌ عِندي خَبَرْ
لله من آياتِه هذا القَمَرْ
والشمسُ والشِعْرَى وآياتٌ أُخَرْ
من يتسامَ بالهُدَى فالخُبثُ شرّ
إنّا آتيناك وقد طال السَفَر
نَقُودُ خيلا رُجُعاً فيها ضَرَرَ
نُطْعِمها اللّحمَ إذا عزّ الشَجَرْ (٢)

يحمل كتاب الرسول عليه السلام إلى قومه ويحدّث عنه

عن يزيد بن عبد الله بن الشِخِّير ، أخي مُطَرِّف(٣) :

بينما نحن بهذا المِربَد جُلوسٌ — يعني مِربَد البَصرة — إذ أتى علينا أعرابي أشعث الرأس فوقف علينا ، فقلنا : والله لكأنّ هذا الرجلَ ليس من

(١) الندي : نادي القوم . لا تبعد : لا تهلك ، وكانوا يدعون للميت بهذا القول . الجدث : القبر .
(٢) الشعرى : نجم في السماء ، وهما شعريان يقال لأولاهما العبور وللثانية الغميصاء ، ويقال لهما أختا سهيل . رجع : كليلة مهزولة .
(٣) مطرف بن عبد الله بن الشخير : من رجال الزهد المعروفين في العصر الأموي.

أهل هذا البلد. قال : أجَل. وإذا معه قطعة من جِراب أو أديم [1] ، فقال : هذا كتابٌ كتبه لي رسولُ الله ﷺ . فقرأناه فإذاً فيه مكتوبٌ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتابٌ من محمّد رسول الله لبني زهير ... ابن أُقَيش - حيٌّ من عُكل - إنّكم إن شَهِدتم أنْ لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله ، وأقمتمُ الصّلاة ، وآتيتُم الزّكاةَ ، وفارقتم المُشركين ، وأعطيتم الخُمُس من الغنائم وسهمَ النبيّ والصَّفِيَّ [2] فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله » ...

فقال له القوم : حدِّثنا - رحمكَ اللهُ - ما سمعتَ من رسول الله ﷺ . فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « صَوم شهر الصَّبْر ، وصَوم ثلاثة أيّامٍ من كل شَهر ، يُذهبن كثيراً من وَحَر الصّدر » [3] . فقال له القومُ : أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فقال : أراكم تخافون أن أكذبَ على رسول الله ﷺ ، لاحَدِّثُكم حديثاً . ثم أهوى إلى الصحيفة وانصاع [4] مُدبراً . قال يزيد بن عبد الله : فقيل لي بعدَما مضى : هذا النِمر بن تولَب العُكَليُّ الشاعر .

أريحيتــه

قال محمّد بن حبيبَ :

كان للنِمر بن تولب صديقٌ ، فأتاه النَمِر في ناسٍ من قومه يسألونه في ديةٍ احتملوها ، فلمّا رآهم وسألوه تبسّم ، فقال النمر :

تبسّـــم ضاحكاً لمّـــا رآني وأصحابي لَدَيَّ عن التَمـــام

(١) الجراب : المزود الوعاء . الأديم : الجلد .
(٢) الصفي : من الغنيمة ، ما يختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة ، وهنا : ما كان يصطفيه الرسول لنفسه من الغنائم .
(٣) وحر الصدر : غيظه وحقده .
(٤) انصاع : انفتل راجعاً .

فقال له الرجل : إنّ لي نفساً تأمرني أن أعطيكم ، ونفساً تأمرني ألاّ أفعلَ . فقال النمر :

أمّـــا خـَليلي فإنّي غيرُ مُعْجِلـــــه
حتّى يُؤامرَ نَفْسَيه كما زعمـــا
نفسٌ له من نُفوس الناس صالحـــةٌ
تُعطي الجَزيل ونفسٌ ترضَع الغَنَما

ثم قال النمر لأصحابه : لا تسألوا أحداً ، فالدية كُلُّها عليّ .

كبر حتى ضعف جسمه وخرف

عن أبي عُبيدةَ قال : قيل للنمر بن تولب : كيف أصبحتَ يا أبا ربيعة ؟ فأنشأ يقول :

أصبحتُ لا يحمِلُ بعضي بَعضـــاً
أشكو العُروقَ الآبِضات أبْضـــا
كما تَشكّى الأرحَبِـــيُّ الغَرْضــا
كأنّمـــا كان شَبابِي قَرْضا [1]

عن أبي عمرو قال :

أدرك النمر بن تولب النبيّ ﷺ فأسلم وحسُن إسلامه ، وعُمّر فطال عُمره . وكان جَواداً واسعَ القِرى ، كثير الأضياف ، وَهّاباً لِماله . فلمّا

---

(١) أبض العرق : تقبض . الأرحبي : الفحل المنسوب إلى قبيلة أرحب . الغرض : حزام الرحل .

كبر خَرَف وأُهْتِر [1] ، فكان هِجِّيراه [2] : اصبَحُوا الراكب ، اغبِقُوا [3] الراكب ، اقروا ، انحَرُوا للضَيف ، تحمّلوا لهذا في حِمالته [4] كذا وكذا — لعادته بذلك — . فلم يزل يهذي بهذا وشِبهه مُدَّةَ خرفه حتى مــات .

* * *

(١) أهتر : ذهب عقله من الكبر .
(٢) هجيراه : عادته وديدنه .
(٣) غبقه : سقاه مــاء .
(٤) الحمالة : الدية .

مِنْ أخبار الوقائع في الإسلام

غزاة بدر

(الأغاني ج ٤ ص ١٧٠ وما بعدها)

... محمد بن إسحاق قال : حدّثني محمد بن مسلم الزُهريّ ، وعاصم بن عُمر وقَتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رُومان ، عن غزوةِ بدر ، وغيرُهم من علمائنا عن عبدِ الله بن عبّاس ... قالوا :

لمّا سمع رسولُ الله ﷺ بأبي سُفيانَ مُقبلاً من الشام ندَب المسلمين إليهم وقال : « هذه عِيرُ قُريش فيها أموالُهم ، فاخرُجوا إليها فلعلّ اللهَ يِنَفِّلُكُموها [1] » . فانتدَب الناسُ ، فخَفَّ بعضُهم وثَقُل بعضُهم ، وذلك أنّهم لم يَظُنّوا أنّ رسولَ الله ﷺ يلقى حَرباً . وكان أبو سفيان استقدم حين دنا من الحِجاز وجعل يتحسّس [2] الأخبار ويسألُ من لَقِي من الرُكبانِ ، تَخَوّفاً على أموالِ الناس ، حتى أصاب خَبَراً من بعض

(١) نفله ، بالتشديد ، ونفله وأنفله : أعطاه النفل أي الغنيمة والهبة .

(٢) يتحسس : يتجسس .

الرُكبان أنّ محمّداً استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك فاستأجر ضَمْضَم بن عَمرو الغفاريّ ، فبعثه إلى مكّةَ وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أنّ محمداً قد عرَض لها في أصحابه ، فخرج ضَمضمُ بن عمرو سريعاً إلى مكّة .

قال ابن اسحاق : وحدّثني مَن لا أتّهم عن عِكرمة عن ابن عبّاسٍ ويزيدُ بن رُومان عن عروةَ بن الزُبَير قالا : وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضَمضم مكة بثلاثٍ ليالٍ رُؤيا أفزَعتْها ، فبعثتْ إلى أخيها العبّاس بن عبد المطّلب ، فقالت : يا أخي ، والله لقد رأيت الليلةَ رُؤيا أفزعتني وتخوّفتُ أن يدخلَ على قومك منها شرٌّ أو مُصيبةٌ ، فاكتُمْ عنّي ما أحدّثك . قال لها: وما رأيتِ ؟ قالت : رأيتُ راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبْطَح ، ثم صرخ بأعلى صوته : أنْ انفرُوا يا آلَ غُدَرَ[1] لِمَصَارعكم في ثلاثٍ فأرى الناسَ قد اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجدَ ، والناسُ يتبعونه ، فبينما هم حولَه مَثَل[2] به بعيرُه على ظهر الكَعبة ، ثم صرخ بأعلى صوته : انفرُوا يا آلَ غُدَرَ لمصارعكم في ثلاث ، ثم مَثَل به بعيرُه على رأس أبي قُبَيس[3] فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرةً فأرسلها فأقبلت تَهوِي ، حتى إذا كانت بأسفلِ الجبل ارفضّت[4] ، فما بقيَ بيتٌ من بُيوتِ مكّةَ ولا دارٌ من دُورها إلا دخلتها منها فلْقَةٌ . قال العبّاس : إنّ هذه لَرُؤيا ، وأنتِ فاكتُميها ولا تذكُريها لأحدٍ . ثم خرج العبّاس فلَقي الوليدَ بن عُتبةَ بن ربيعة ، وكان له صديقاً ، فذكرها له واستكتمه إيّاها ، فذكرها الوليدُ لأبيه عُتبةَ ، ففشا الحديثُ بمكّةَ حتى تحدّثت به قريشٌ . قال العباس : فغدوتُ أطوفُ بالبيت، وأبو جَهلِ بن هِشام ورهطٌ

(١) غدر : معدول عن اسم الفاعل غادر للمبالغة ، وأكثر ما يستعمل في النداء قصد الشتم .
(٢) قام منتصباً .
(٣) أبو قبيس : اسم جبل بمكة .
(٤) ارفضت : تفرقت .

من قُريش قُعودٌ يتحدّثون برُؤيا عاتكةَ . فلمّا رآني أبو جَهلٍ قال : يا أبا الفَضل ، إذا فَرَغتَ من طَوافك فأقْبِلْ إلينا ، فلما فرغتُ أقبلت إليه حتّى جلست معهم ؛ فقال لي أبو جهل : يا بَنِي عبدِ المطّلب ، متى حدثت فيكم هذه النبيّةُ ؟ قال : قلت : وما ذاك ؟ قال : الرُؤيا التي رأت عاتكةُ ؛ قلت : وما رأت ؟ قال : يا بني عبد المطلب، أما رضيتمُ أن تتنبّأ رِجالُكم حتى تتنبّأ نساؤُكم ! قد زعمت عاتكةُ في رُؤياها أنّها قالت : انفِروا في ثلاثٍ ؛ فستربّصُ بكم هذه الثلاثَ ، فإن يكنْ ما قالت حقّاً فسيكون ، وإن تمضِ الثّلاثُ ولم يكن من ذلك شيءٌ نكتبْ كتاباً عليكم أنّكم أكذبُ أهلِ بيتٍ في العرب . قال العبّاس : فواللهِ ما كان إليه منّي كبيرٌ إلاّ أن جَحدتُ ذلك وأنكرت أن تكونَ رأت شيئاً ؛ قال : ثمّ تفرّقنا فلمّا أمسيتُ لم تبق امرأةٌ من بني عبد المطلب إلاّ أتتني ، فقالت : أقررتم لهذا الفاسقِ الخبيث أن يقعَ في رجالكم ، ويتناولَ النساءَ وأنت تسمعُ، ولم يكن عندك غَيْرٌ [1] لشيءٍ ممّا سمعت ؟! قلت : قد والله فعلتُ ، ما كان منّي إليه من كبيرٍ ، وايمُ اللهِ لأتعرضنّ له ، فإن عاد لأَكفينّكُنّه . قال : فغدوتُ في اليوم الثالث من رُؤيا عاتكةَ وأنا حَديدٌ مُغْضَبٌ أرى أني قد فاتني منه أمرٌ أُحبُّ أنْ أُدركَه منه . قال : فدخلت المسجد فرأيتُه ، فوالله إني لأمشي نحوَه أتعرّضه [2] ليعودَ لبعضِ ما كان ؛ فأوقعَ به ، وكان رجلاً خفيفاً حديدَ الوجهِ حديدَ اللسان حديد النظر ، إذ خرج نحو باب المسجد يشتدّ ؛ قال : قلت في نفسي : ما لَه لَعَنَه اللهُ ! أكلّ هذا فَرَقاً أن أُشاتمه ! فإذا هو قد سمع ما لم أسمعْ ، صوتَ ضَمضم بن عَمرو الغِفاريّ وهو يصرُخ ببطن الوادي واقفاً على بَعيره قد جدّع بَعيره وحوّل رَحْلَه وشَقّ قميصه وهو يقول : يا معشرَ قُريش اللّطيمةَ اللّطيمة [3] ! أموالُكم مع أبي سفيان بن

---

(١) الغير : الغيرة .

(٢) في المطبوعة : العرضنة ، وهي مشية فيها بغي من شدة النشاط ، وما أثبتناه رواية السيرة .

(٣) اللطيمة : الإبل تحمل الطيب وما يتجر به القوم من بز وثياب .

حَرب قد عرَض لها محمدٌ في أصحابه ، لا أُرى أن تُدركوها ! الغوثَ الغوث ! قال : فشغَلني عنه وشغلَه عنّي ما جاء من الأمرِ . قال : فتجهزّ الناسُ سِراعاً ، وقالوا : لا يَظُنَّ محمدٌ وأصحابُه أن تكونَ كعيرِ ابن الحَضرميّ [1] ! كلاّ واللهِ ليعلُمنَّ غيرَ ذلك ! فكانوا بين رجلَين : إمّا خارجٌ وإما باعثٌ مكانَه رجلاً . وأَوعبت [2] قريشٌ فلم يتخلّف من أشرافها أحدٌ إلا أبو لَهَب بن عبد المطّلب تخلّف فبعث مكانَه العاصيَ بن هشامِ بن المُغيرة ، وكان لَطَّ له [3] بأربعةِ آلافِ درهمٍ كانت له عليه ، أفلس بها فاستأجره بها على أن يُجزِيء عنه بَعثَه ، فخرج عنه وتخلّف أبو لهب. هكذا في الحديث . فذكر أبو عُبيدةَ وابن الكلبي : أن أبا لهب قامر العاصي ابن هشام في مائةٍ من الإبل ، فقمره أبو لهب ثم عاد فقمَره أيضاً، ثم عاد فقمره أيضاً الثالثةَ ، فذهب بكلّ ما كان يملِكُه ؛ فقال له العاصي : أرى القِداحَ [4] قد حالفتك يا بن عبد المطلب ، هلم نَجعلْها على أيِّنا يكون عَبْداً لصاحبه ؛ قال : ذلك لك ، فدحاها [5] فقمره أبو لهب ، فأسلَمه قَيْناً [6] ، وكان يأخذ منه ضريبةً ، فلما كان يومُ بدرٍ وأخذت قريشٌ كلَّ من لم يخرج بإخراج رجلٍ مكانه أخرجه أبو لَهب عنه وشرطَ له العِتْق [7] ، فخرج فقتله عَلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال محمّد بن إسحاق : وحدّثني عبدُ الله بن أبي نَجيح :

إن أُميّة بن خَلف كان قد أجمع القُعود ، وكان شيخاً جليلاً جسيماً

---

(١) ابن الحضرمي عبد الله بن عباد ، كان عبد الله بن جحش ظفر به في سريته فقتله وأخذ عيره . (أنظر تفصيل الخبر في سيرة ابن هشام ٦٠٢/١) .

(٢) أوعبت : جمعت وحشدت .

(٣) لط له بها : ماطله .

(٤) القداح ج قدح : سهام الميسر .

(٥) دحا القداح : رماها .

(٦) القين : العبد .

(٧) العتق : الحرية .

ثقيلاً ، فجاءه عُقبةُ بن أبي مُعَيط وهو جالسٌ في المسجد بين ظَهْرانَي قومه بمِجمرةٍ يحملها ، فيها نارٌ ومِجْمَرٌ[1] ، حتى وضعها بين يديه ، ثم قال : يا أبا عليٍّ ، استجمِرْ فإنّما أنت من النِساء ! قال : قَبحك الله وقبح ما جئتَ به ! ثم تجهّز وخرج مع الناس . فلما فَرغوا من جِهَازهم وأجمعوا السير ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مَناةَ بن كنانة من الحرب ، فقالوا : إنّا نخشى أن يأتوا من خلَفنا .

قال محمد بن إسحاق : فحدثني يزيد بن رُومان عن عُروة بن الزبير قال : لما أجمعت قريشٌ المسيرَ ذكرت الذي بينَها وبين بني بكر بن عبد مناة ، فكاد ذلك أن يُثَبِّطهم ، فتبدّى لهم إبليسُ في صورة سُراقةَ بن جُعْشُم المُدْلِجِيّ ، وكان من أشراف بني كِنانة، فقال : إنّي جارٌ لكم من أن تأتيَكم كِنانةُ مِن خلَفكم بشيءٍ تكرهُونه ، فخرجوا سِراعاً .

وخرج رسولُ الله ﷺ ... لِثلاثِ ليالٍ خلَوْن من شهر رمضانَ المعظّم في ثلثمائةٍ وبضعةَ عشرَ رجلاً من أصحابه ، فاختُلف في مبلغ الزيادة على العَشرة ، فقال بعضُهم : كانوا ثلثمائةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلاً ، وكان المهاجرون يومَ بدرٍ سبعةً وسبعين رجلاً ، وكانَ الأنصار مائتين وستةً وثلاثين رجلاً ، وكان صاحبُ راية رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان صاحبُ راية الأنصار سعدَ بن عبادة ...

قال ابن اسحاقَ في حديثه عمّن روى عنه : وخرج رسولُ الله ﷺ في أصحابه وجعل على الساقة [2] قيسَ بن أبي صعصعة أخا بني مازن بن النجّار ، في ليالٍ مضت من رمضانَ؛ فسار حتى إذا كان قريباً من الصّفراء بعث بَسْبَسَ بنَ عَمرو الجُهَنِيّ ، حليفَ بني ساعدةَ ، وعديَّ بن أبي الزَغْباء ، حليفَ بني النّجار ، إلى بدرٍ يتجسّسان له الخبرَ عن أبي سُفيان بن حرب

---

(١) المجمر : العود يتبخر به .

(٢) ساقة الجيش : مؤخرته .

وغيره ، ثم ارتحل رسولُ الله ﷺ وقَدَّمهما ، فلما استقبل الصَّفراءَ ، وهي قريةٌ بين جبلَين ، سأل عن جبليْها ما اسماهما ؟ فقيل : يقال لأحدهما هذا مُسْلِح ، وللآخر هذا مُخْرِىء ؛ وسأل عن أهلها فقالوا : بنو النار ، وبنو حُراق (بطنان من غِفار) ؛ فكرههما رسولُ الله ﷺ والمرورَ بينهما ، وتفاءل [1] باسميهما وأسماء أهاليهما ، فتركهما والصفراءَ يساراً وسلك ذاتَ اليمين على وادٍ يقال له ذَفِران فخرج منه ، حتى إذا كان ببعضه نزَلَ وأتاه الخبرُ عن قريشٍ بمَسيرهم ليمنعوا عيرَهم ، فاستشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمرُ فقال فأحسن ، ثم قام المِقدادُ بن عمرو فقال : يا رسولَ الله ، امضِ لما أمرك اللهُ فنحن معك ، واللهِ لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيلَ لموسى : اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدُون ، ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا معكما مُقاتلون مُعْلَمون [2] ، فوالذي بَعثَك بالحق لو سِرتَ بنا إلى بَرْك الغِماد [3] — يعني مدينة الحبشة — لجالَدنا معك حتى تبلغَه ؛ فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ...

ثم قال رسول الله ﷺ : « أشيروا علي أيّها الناسُ » وإنّما يريد الأنصار ، وذلك أنّهم كانوا عددَ الناسِ وأنّهم حين بايعوا بالعقبةِ قالوا : يا رسولَ الله ، إنا بُرَاءٌ من ذِمامك حتى تصيرَ إلى دارنا ، فإذا وصلت فأنت في ذمامنا ، نَمنعُك مما نَمنع منه أنفُسَنا وأبناءَنا ونساءنا ؛ فكان رسول الله ﷺ يتخوفُ ألا تكون الأنصارُ ترى عليها نُصرتَه إلاّ مِمّن دَهِمه بالمدينةِ من

---

(١) تفاءل هنا بمعنى تطير .

(٢) أعلم الفارس نفسه : وسمها بسيما الحرب ، وأعلم فرسه : علق عليه صوفاً ملوناً في الحرب .

(٣) برك الغماد ، بكسر الباء وفتحها ، وكسر الغين وضمها : موضع اختلف فيه ، وهنا ذكر أنه بلد الحبشة ، وفي معجم ياقوت : هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر ، وقيل : بلد باليمن ، وقيل موضع في أقاصي أرض هجر .

عَدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ في غير بلادهم ، فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سَعد بن مُعاذ : واللهِ لكأنّك تريدُنا يا رسولَ الله ؛ قال : أجَلْ ؛ قال : فقد آمنّا يا رسولَ اللهَ وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئتَ به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السَمْع والطاعة ، فامضِ بنا يا رسولَ الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضتَ بنا هذا البحر وخُضتَه لَخُضْناه معك ما يَتخلّفُ منّا رجلٌ واحد ، وما نَكْرَه أن تلقى بنا عدوّاً غداً ، إنّا لَصُبُرٌ عند الحرب ، صُدْقٌ عند اللقاءِ ، لعلّ الله تعالى أن يُريَك منّا ما تَقَرُّ به عينُك ، فسِرْ بنا على بَركة الله . فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سَعدٍ ونَشّطه ذلك ؛ ثم قال : سِيروا على بَركة الله وأبشِرُوا فإنّ اللهَ قد وَعدني إحدى الطائفتين [1] ، والله لكأنّي أنظرُ إلى مَصارعِ القوم .

ثم ارتحل رسولُ الله ﷺ من ذَفِران ، وسلك على ثنايا يقال لها الأصافِر [2] ، ثم انحطّ منها على بلدٍ يُقال له الدَّبّة ، ثم ترك الحَنّان بيَمينٍ ، وهو كَثيبٌ عظيم كالجبل ، ثم نزل قريباً من بَدر فركب هو ورجلٌ من أصحابه ... حتى وقف على شَيخٍ من العرب ، فسأله عن قُريش وعن محمّد وأصحابه وما بَلَغه عنهم ؛ فقال الشيخ : لا أُخبرِكُما حتى تُخبراني ممّن أنتما ؛ فقال له رسولُ الله ﷺ : « إذا أخبرتَنا أَخبرناك » ؛ فقال : أوَ ذاك بذاك ؟ فقال : نعم؟ قال الشيخ : فإنّه بلغني أن مُحمّداً وأصحابه خَرَجوا يومَ كذا وكذا ، فإن كان صدَقني الذي أخبرني ، فهم اليومَ بمكان

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة الأنفال : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » والطائفتان هما العير – وهم ركب أبي سفيان ، والنفير ، وهم أهل مكة الذين نفروا لنجدتــه .

(٢) الأصافر : جبال قريبة من الجحفة ، عن يمين الطريق من المدينة إلى مكة ، سميت بذلك لأنها هضبات صفر .

كذا وكذا (للمكان الذي به رسول الله ﷺ) ، وبلغني أنّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي حدّثي صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا (للمكان الذي به قُريش). فلمّا فرَغ من خبره قال : ممّن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : «نحن من ماء» ثم انصرف الشيخُ عنه، قال يقول الشيخ : ما من ماء ! أمن ماء العراق ؟ . ثم رجَع رسولُ الله ﷺ إلى أصحابه . فلما أمسى بعث عليّ ابن أبي طالب ، رضي الله عنه ، والزُبير بن العوّام ، وسَعد بن أبي وقّاص في نفرٍ من أصحابه إلى بدر يلتمسون له الخبرَ عليه ... فأصابوا راويةً [1] لقُريش فيها أسْلَمُ ، غُلام بني الحَجّاج ، وعَرِيضٌ أبو يَسار ، غلام بني العاصي بن سعيد ، فأتَوا بهما رسولَ الله ﷺ وهو يُصليّ ؛ فسألوهما ، فقالا : نحن سُقاةٌ لقريش بعَثُونا نَسقيهم من الماء ، فكَرِه القومُ خبرَهما ورَجَوْا أن يكونا لأبي سُفيان فضربوهما، فلمّا أذْلَقُوهما [2] قال : نحن لأبي سفيان ، فتركُوهما وركَع رسول الله ﷺ وسجد سَجْدتَين ثم سَلّم ، ثم قال : « إذا صدقاكم ضربتُموهما فإذا كَذَباكم تركتُموهما . صدَقا والله إنّهما لِقريش ، أخبِراني أين قريش » ؟ قالا : هم وراء هذا الكَثيب الذي ترى بالعُدْوة القُصوى [3] ، ... فقال لهما رسول الله ﷺ : كم القوم؟ قالا : لا نَدري ؛ قال : كم يَنْحَرُون كلّ يوم ؟ قالا : يوماً تِسعاً ويوماً عَشراً ؛ فقال رسولُ الله ﷺ : « القومُ ما بين التسعمائة والألف » ثمّ قال لهما رسولُ الله ﷺ : فمَن فيهم من أشرافِ قُريش ؟ قالا : عُتبةُ بن ربيعة ، وشَيْبة بن ربيعة ، وأبو البَخْتَريّ بن هِشام ، وحَكيم بن حِزام ، ونَوفل بن خُوَيلد ، والحارث بن عامر بن نَوفل ، وطُعَيمة بن عَدِيّ ، والنّضْر بن الحارث ، وزَمعة بن الأسود ، وأبو جَهل

(١) الراوية : هي في الأصل المزادة والدابة يستقى عليها وأريد بها هنا : القوم يستقون الماء على الدواب .
(٢) أذلقه : أجهده وأضعفه .
(٣) العدوة : المكان المتباعد المرتفع وشاطىء الوادي.

ابن هشام ، وأُميّةُ بن خلَف، ونُبيه ومُنبّه ابنا الحجّاج ، وسُهيل بن عمرو ، وعمرو بن وُدّ ؛ فأقبل رسولُ الله ﷺ على الناس فقال : « هذه مكّةُ قد رمَت إليكم أفلاذَ كبدها » .

قال ابن اسحاق : وقد كان بَسْبَس بن عمرو وعديٌّ بن أبي الزَّغْباء مَضيا حتى نزلا بدراً فأناخا إلى تلٍّ قريب من الماء ، ثم أخذا شَنّاً [1] يستقيان فيه ، ومَجدي بن عمرو الجُهَنيّ على الماء ، فسمع عديٌّ وبَسبسٌ جاريتين من جَواري الحاضر. وهما تتلازمان [2] على الماء ، والملزومة تقول لصاحبتها : إنّما تأتي العير غداً أو بعد غدٍ فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك ؛ قال مجديٌّ : صدقت ، ثم خلّص بينهما . وسمع ذلك عديٌّ وبَسبس فجلسا على بعيريْهما ثم انطلقا حتى أتيا رسولَ الله ﷺ فأخبراه بما سمعا . وأقبل أبو سفيان قد تقدّم العير حذَراً حتى ورد الماءَ ،فقال لمَجديّ بن عمرو : هل أحسستَ أحداً ؟ قال : ما رأيتُ أحداً أنكره ، إلا أنّي رأيت راكبَين أناخا إلى هذا التلّ ثم استقيا في شَنٍّ لهما ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مُناخهما فأخذ من أبعارِ بعيريهما ففتّه فإذا فيه النّوى ، فقال : هذه واللهِ علائفُ يثربَ ! فرجَع إلى أصحابه سريعاً فصرف وجه عيره عن الطريق فساحل بها [3] وترك بدراً يساراً ، ثم انطلق حتى أسرع ...

ولمّا رأى أبو سفيانَ أنّه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش : إنّكم إنّما خرجتم لِتمنعُوا عيركم ورِحالكم وأموالكم ، فقد نجّاها الله فارجعُوا فقال أبو جهل : واللهِ لا نرجعُ حتى نَرِدَ بدراً — وكان بدرٌ موسماً من مواسم العرب تجتمع به ، لهم بها سوقٌ كلَّ عام — فنُقيمَ عليها ثلاثاً ، ونَنْحرَ الجُزُرَ ونُطعمَ الطعامَ ونَسقي الخُمور ، وتَعزِفَ علينا القِيانُ ،

---

(١) الشن : القربة الصغيرة .

(٢) تتلازمان : لزمه : تعلق به والالتزام : الاعتناق ، والمراد هنا الاختصام مع تعلق احداهما بالأخرى.

(٣) ساحل بها : اتجه بها صوب الساحل .

وتسمعَ بنا العرب بمَسيرنا وجَمعنا ، فلا يزالون يهَابُوننا أبداً ، فامضُوا . فقال الأخْنَسَ بن شَرِيق بن عمرو بن وهب الثّقَفي ، وكانَ حليفاً لبني زُهرة ، وهم بالجُحْفَة [1] : يا بني زُهرة قد نَجّى اللهُ لكم عيركم وخلّص لكم صاحبكم مَخْرَمة بنُ نوفل ، وإنّما نَفَرتم لِتمنعوه ومالَه ، فاجعلُوا بي جُبْنَهَا وارجِعوا ، فإنّه لا حاجة بكم في أن تخرُجوا من غير ضَيْعة لما يقول هذا (يَعني أبا جهل) ؛ فلم يَشهدْها زُهريٌّ ، وكان فيهم مُطاعاً . ولم يكن بقي من قريش بطنٌ إلا نفر منهم ناسٌ ، إلاّ بني عديٍّ بن كعب لم يخرُج منهم رجلٌ واحد ؛ فرجعت بنو زُهرة مع الأخنس بن شَريق ، فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحدٌ ؛ ومضى القوم . وقد كان بين طالبِ ابن أبي طالب — وكان في القوم — وبين بعض قريش محاورةٌ ؛ فقالوا : واللهِ لقد عرَفنا يا بني هاشم وإن خرجتم معنا أنّ هواكم لمَع محمّد ، فرجع طالبٌ إلى مكّةَ فيمن رجَع ...

قال : ومضت قريشٌ حتى نزلوا بالعُدْوة القُصوى من الوادي خلف العَقَنْقَل [2] . وبطن الوادي ، وهو يَلْيَل [3] ، بين بَدر وبين العَقَنْقَل : الكثيب الذي خلّفه قريشٌ . والقَليب [4] ببدر من العُدوة الدُنيا من بَطن يليل إلى المدينة . وبعث الله عزّ وجلّ السَماءَ [5] ، وكان الوادي دَهْساً [6] ، فأصاب رسولَ الله ﷺ وأصحابَه منها ما لَبّد لهم الأرضَ ولم يَمنعهم المَسيرَ ، وأصاب قُريشاً منها ما لم يَقدِروا على أن يَرتحلوا معه ؛ فخرج رسول الله ﷺ يُبادرهم إلى الماء حتى حاذى ماءً من مِياهَ بَدرٍ فنزل به .

---

(١) الجحفة : قرية على اثنين وثمانين ميلا من مكة ، وكانت ميقات أهل الشام .
(٢) العقنقل : الكثيب .
(٣) يليل : اسم واد يصب في بدر .
(٤) القليب : البئر .
(٥) السماء ، هنا : المطر .
(٦) الدهس : الأرض اللينة يثقل فيها المشي .

قال ابن اسحاق : فحُدِّثتُ عن رجالٍ من بني سَلِمة أنّهم ذكَروا أنّ الحُباب بن المنذر بن الجَمُوح قال : يا رسول الله ، أرأيتَ هذا المنزلَ ، أمنزل أنزلكه اللهُ ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه ، أم هو الرأيُ والحرب والمَكيدة ؟ قال : « بل هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ » ؛ فقال : يا رسولَ الله ، إنّ هذا ليس لك بِمنزلٍ ، فانهَضْ بالناس حتى تأتيَ أدنى ماءٍ من مِياه القوم فتنزِلَه ، ثم تُعوّرّ (١) ما سواه من القُلُب ثم تبني عليه حَوضاً فتملأه ماءً ، ثم نُقاتل القومَ فنشربَ ولا يشربُوا . فقال رسولُ الله ﷺ : « لقد أشرتَ بالرأي » . فنهض رسولُ الله ﷺ ومَن معه من الناس حتى أتى أدنى ماءٍ من القومِ فنزل عليه ، ثم أمر بالقُلُب فعُوِّرت وبَنوا حَوضاً على القَليب الذي نزل عليه فمُلِيء ماءً ثم قذَفوا فيه الآنيةَ .

قال محمد بن إسحاق : فحدّثني مُحمد بن أبي بكر أن سَعد بن مُعاذ قال : يا رسولَ الله ، نَبني لك عَريشاً من جَريد فتكونُ فيه ونُعدُّ عِندك ركائبَك ، ثم نَلقى عَدُوَّنا ، فإن نحن أعزّنا اللهُ وأظهَرنا على عَدُوِّنا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلحقتَ بمَن وراءَنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوامٌ يا نَبيَّ الله ما نحن بأشدَّ حُباً لكَ منهم ، ولو ظَنّوا أنّك تَلقى حَرباً ما تخلّفوا عنكَ ، يَمنعُكَ اللهُ بهم ، يُناصِحونك ويُجاهدون معك . فأثنى عليه رسولُ الله ﷺ خيراً ، ودعا له بِخير . ثم بُني لِرسول الله ﷺ عَريشٌ فكان فيه . وقد ارتحلت قُريشٌ حين أصبحتْ وأقبلت . فلما رآها رسولُ الله ﷺ تَصوَّبُ (٢) من العَقَنْقَل – وهو الكثيبُ الذي منه جاؤوا – إلى الوادي قال : « اللهمّ هذي قُريش قد أقبلت بِخُيلائها وفخرها تُحادُّك (٣) وتُكذِّبُ رسولَك . اللهمَّ فنَصْرَكَ الذي وعدتَني . اللهمَّ فأحِنْهم (٤) الغَداةَ » . وقد قال رسول الله ﷺ ، ورأى عُتبةَ بن

(١) عور البئر : طمها وردمها .
(٢) تصوب : تنحدر .
(٣) تحادك : تعاديك وتخالفك .
(٤) أحنهم : أهلكهم ، والحين ، بفتح أوله : الهلاك .

ربيعةَ في القوم على جملٍ له أحمرَ : « إن يَكُن عند أحدٍ من القومِ خيرٌ فعندَ صاحبِ الجمل الأحمر إن يُطيعوه يَرْشُدوا » .

وقد كان خُفاف بن أَيْماء بن رَحَضَةَ الغِفاريُّ ، أو أبوه أَيْماءُ بن رحَضَةَ بعث إلى قريش حين مَرُّوا به ابناً له بجزائرَ أَهداها لهم وقال لهم : إن أَحببتُم أن نُمِدَّكم بسلاحٍ ورجالٍ فَعَلْنا ؛ فأرسَلُوا إليه مع ابنه : أنْ وَصَلَتْك رَحِمٌ ! فقد قَضيتَ الذي عليك ، فلَعمري لئِن كُنّا إنّما نُقاتل الناسَ فما بنا ضَعفٌ عنهم ، ولَئن كُنّا نقاتل اللهَ كما يزعم محمدٌ فما لأحدٍ بالله من طاقةٍ .

فلمّا نزل الناس أقبل نفرٌ من قريش حتى وَردوا الحوضَ حوضَ رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « دَعُوهم ». فما شرب منهم رجلٌ إلا قُتل يومئذٍ ، إلاّ ما كان من حكيم بن حِزام فإنه لم يُقتَل ، نجا على فرسٍ له يقال له الوَجيه ، وأسلم بعدَ ذلك فحسُن إسلامه ، فكان إذا اجتهد في يَمينه قال : والذي نَجّاني من يوم بدرٍ .

قال محمد بن إسحاق : وحدَّثني أبي إسحاق بن يَسار وغيره من أهل العلم عن أشياخٍ من الأنصار قالوا : لما اطمأنّ القوم بعثُوا عُمَير بن وَهْب الجُمَحيّ فقالوا : احزُرْ لنا (١) أصحابَ محمدٍ ؛ فاستجال بفرَسه حولَ العسكر ثم رجع إليهم فقال : ثلثمائة رجلٍ يَزيدون قليلاً أو ينقُصونه ، ولكن أَمهِلوني حتى أنظرَ : أَللقوم كَمينٌ أو مَدَدٌ . قال : فضرب في الوادي حتى أَمعنَ ، فلم يرَ شيئاً ، فرجَع فقال : لم أرَ شيئاً ، ولكن قد رأيت يا معشرَ قُريش الوَلايا (٢) تحمل المَنايا ! نواضح (٣) يَثْربَ تحمِلُ الموتَ الناقع ! قومٌ ليس لهم مَنَعةٌ ولا مَلجأ إلا سيوفُهم ، واللهِ ما أُرى أن

---

(١) الحزر : التخمين والتقدير .

(٢) الولايا ج ولية : البرذعة أو ما تحتها .

(٣) النواضح ج ناضح : البعير يستقى عليه .

يُقتَلَ رجلٌ منهم حتّى يقتلَ منكم ! فإذا أصابوا منكم أعدادَهم ، فما خيرُ العيش بعدَ ذلك ! فرَوْا رأيَكم . فلمّا سمعَ حكيمُ بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبةَ بن ربيعة وقال: يا أبا الوليد ، إنّك كبير قريشٍ الليلةَ وسيّدها والمُطاعُ فيها ، هل لك إلى أمرٍ لا تزال تُذكَر منه بخيرٍ إلى آخرِ الدهر؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل دمَ حليفِك عمرِو بن الحضرميّ ؛ قال : قد فعلتُ ، أنت على ذلك شهيدٌ ، إنّما هو حليفي فعليَّ عقلُه وما أُصيب من ماله ، فأْتِ ابنَ الحنظليّةِ ، فإني لا أخشى أن يسحرَ الناس غيرُه (يعني أبا جهل بن هشام) .

ثم قام عتبة بن ربيعةَ خطيباً ، فقال : يا معشرَ قريشٍ ، والله ما تصنعون بأن تلقَوا محمّداً وأصحابَه شيئاً ! والله لئنْ أصبتموه ، لا يزال الرجل منكم ينظر في وجهِ رجلٍ يكره النظرَ إليه ، رجلٍ قتلَ ابنَ عمّه أو ابنَ خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلّوا بين محمّدٍ وبين سائرِ العرب ، فإن أصابوه فذلك الذي أردتُم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعدَموا منه ما تُريدون . قال حكيمٌ : فانطلقت حتّى جئت أبا جهلٍ فوجدتُه قد نثَل دِرعاً له من جرابها وهو يُهيِّئها ؛ فقلت له : يا أبا الحكَم ، إن عُتبةَ أرسلني إليك بكذا وكذا (الذي قال) ؛ فقال : انتفخ والله سَحْرُه [٢] حين رأى محمّداً وأصحابَه ، كلا واللهِ ! لا مرجِعَ حتى يحكمَ الله بيننا وبينَ محمد وأصحابه ؛ وما بعتبةَ ما قال ، ولكنّه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكَلَةَ جزورٍ [٣] ، وفيهم ابنُه قد تخوّفكم عليه ! ثم بعث إلى عامرِ بن الحضرميّ فقال له : هذا حليفُك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيتَ ثأرَك بعينك ، فقُم فانشُد خُفرتَك ومقتَلَ

---

(١) فتل : أخرج .

(٢) انتفخ سحره : مثل لشدة الخوف وتمكن الفزع والسحر : الرئة .

(٣) أكلة جزور : أي أنهم من القلة بحيث تكفيهم جزور واحدة لطعامهم .

أخيك . فقام عامر بن الحَضرمِي فاكتشفَ [1] ثم صرَخ : واعمْراه ! واعمراه ! فحَميت الحرب ، وحَقِب [2] أمر الناسِ ، واستوسَقُوا [3] على ما هم عليه من الشرِّ ، وأُفسِد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عُتبةُ ابن رَبيعة . ولما بلغ عتبةَ قول أبي جَهل : « انتفخ سَحره » قال : سَيعلمُ مُصْفرُ الاستِ مَن انتفخ سَحره : أنا أم هو ! ثم التمس عتبة بَيضة ليُدخلَها في رَأسه فلم يَجد في الجيشِ بَيضة تَسعُه من عظَم هامتِه ، فلمّا رأى ذلك اعتجر [4] على رأسه ببُرْد له . وقد خرج الأسود بن عبد الأسَد المخزوميُّ ، وكان رجلاً شَرِساً سَيِّءَ الخُلُق ، فقال : أُعاهدُ اللهَ لأشربنَّ من حَوضهم أو لأهْدِمَنَّه أو لأمُوتَنَّ دونَه ؛ فلمّا خرج خرَج له حمزة بن عبد المطلب ، فلمّا التقيا ضربه حمزة فأبان قَدَمَه بنصف ساقِه وهو دونَ الحَوض ، فوقع على ظَهره تَشخُب رِجلُه دماً نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحَوض حتى اقتحم فيه يُريد أن يَبَرَّ بيمينه ، وأتبعه حمزةُ فضربه حتى قتلَه في الحوضِ . ثم خرج بعدَه عُتبة بن ربيعةَ بين أخيه شَيْبةَ ابنِ ربيعة وابنِه الوليد بن عُتبةَ ، حتى إذا نصل [5] من الصفّ دعا إلى المُبارزة ، فخرج إليه فِتيةٌ من الأنصار ثلاثة نَفَرٍ ، وهم عَوفٌ ومُعوِّذ ابنا الحارث ، وأُمُّهما عَفراءُ ، ورجلٌ آخر يقال : هو عبد الله بن رَواحة ؛ فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهطٌ من الأنصار ؛ قالوا : ما لنا بكم حاجةٌ . ثم نادى مُناديِهم : يا محمدُ ، أَخرِج إلينا أكفاءَنا مِن قَومنا ؛ فقال : رسولَ الله ﷺ : « قم يا حمزة بنَ عبد المطلب ، قم يا عبيدة بن الحارث ،

---

(١) اكتشف : ليس في معاني اكتشف التي نصت عليها كتب اللغة ما يناسب موضعها هنا ولعل المراد بها أنه كشف نفسه للقوم .
(٢) حقب : اشتد .
(٣) استوسقوا : اجتمعوا .
(٤) الاعتجار : وضع العمامة على الرأس وحده فلا يجعل الرجل تحت لحيه منها شيئاً .
(٥) نصل من الصف : خرج وبرز .

قم يا عليُّ بن أبي طالب » . فلمّا قاموا ودَنَوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ فقال عبيدة : عبيدة ، وقال حَمزة : حمزة ، وقال عليٌّ : علي ؛ قالوا : نعم أكفاءٌ كرامٌ ، فبارز عُبيدة بن الحارث ، وكان أسنَّ القوم ، عُتبةَ بن ربيعة ؛ وبارز حمزة شَيبة بن ربيعة ؛ وبارز عليٌّ الوليدَ بن عُتبة . فأما حمزة فلم يُمهِل شَيبة أن قتله . وأما عليٌّ فلم يُمهِل الوليد بن عُتبةَ أن قتله . واختلفَ عبيدة وعُتبة بينهما بضَربتين كلاهما أثبت [1] صاحبَه ، فكر حمزةُ وعليٌّ على عُتبةَ بأسيافهما فذفّفا عليه [2] فقتلاه ، واحتملا صاحبهما عُبيدةَ ، فجاءا به إلى أصحابه وقد قُطعت رِجلُه ومُخّه يَسيل . فلما أتَوا بعُبيدةَ إلى رسول الله ﷺ قال : ألست شهيداً يا رسول الله ؟ قال : « بلى » ؛ فقال عبيدة : لو كان أبو طالبٍ حيّاً لعلم أنّي بما قال أحقُّ منه حيث يقول :

ونُسلِمهُ حتّى نُصَرَّعَ حولَــه
ونَذْهَلَ عن أبنائِنا والحلائــلِ [3]

قال محمّد بن إسحاق : وحدثني عاصم بن عُمر بن قَتادة : أن عُتبة بن ربيعة قال للفِتية من الأنصار حين انتسبوا له : أكفاءٌ كرامٌ ، إنّما نُريد قومَنا . ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعضٍ . وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابَه ألا يحمِلوا حتى يَأمُرَهم ، وقال : « إن اكتنفكم [4] القوم فانضَحُوهم بالنَبْل » [5] ورسول الله ﷺ في العريش معه أبو بكر .

---

(١) أثبته : أصابه وجرحه .
(٢) ذفف على الجريح : أجهز عليه .
(٣) ونسلمه : أراد لا نسلمه . وهذا البيت من قصيدة أبي طالب التي أولها :
خليلي ما أذني لأول عاذل بصغواء في حق ولا عند باطل
(٤) اكتنفوهم : أحاطوا بهم .
(٥) نضحه بالنبل : رماه به .

وكانت وقعة بدرٍ يومَ الجُمعة صبيحةَ سبعَ عشرةَ من شهر رَمَضان ...

قال محمّد بن جرير وحدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سَلمة قال قال لي محمد بن إسحاق حدثني حبّان بن واسع بن حبّان عن أشياخٍ من قومه :

أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يومَ بَدر ، وفي يده قِدْحٌ يُعدّل به القَوم ، فمرّ بسَوادِ بن غَزيّة حليفِ بني عَدي بن النجّار وهو مُسْتَنْتِلٌ (١) من الصف ، فطعن رسول الله ﷺ في بطنه بالقِدح ؛ ثم قال : « استوِ يا سَواد بن غَزيّة » ؛ فقال : يا رسولَ الله ، أَوْجَعْتَني ، وقد بَعثك الله بالحقّ ، فأقِدْني . قال : فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : « استَقِدْ » ؛ فاعتنقه وقَبّل بطنَه ؛ فقال : « ما حَمَلك على هذا يا سَواد » ؟ فقال : يا رسولَ الله ، حَضَر ما ترى ، فلم آمَن الموتَ ، فأردت أن يكونَ آخر العَهد بك أن يَمَسّ جِلدي جِلدَك ؛ فدعا له رسول الله ﷺ بخيرٍ وقال له خيراً . ثم عدّل رسول الله ﷺ الصفوفَ ، ورجع إلى العَريش ودخله ومعه أبو بكر ليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يُناشدُ ربّه ما وعدَه من النّصر ، ويقول فيما يقول : « اللّهمّ إن تهلِكْ هذه العِصابةَ اليومَ — يعني المسلمين — لا تُعْبَدْ بعدَ اليوم » ، وأبو بكرٍ يقول: يا نبيَّ اللهِ خلِّ بعضَ مُناشدتِك ربّك ، فإن الله مُنجِزٌ لك ما وعدَكَ .

حدّثنا محمدُ بن جرير قال حدثنا محمدُ بن عُبَيد المُحاربي قال حدّثنا عبدُ الله بن المبارك عن عِكرمة بن عمّار قال حدّثني سِماكٌ الحنفيُّ قال سمعت ابنَ عباس يقول : حدّثني عُمر بن الخطاب قال :

لمّا كان يومُ بَدر ونظر رسول الله ﷺ إلى المُشرِكين وعِدّتهم وإلى أصحابه وهم نَيِّفٌ على ثلثمائة ، استقبل الكعبةَ وجعل يدعُو ويقول :

(١) استنتل ونتل من بين الصف : تقدم .

« اللّهمّ أنجِزْ لي ما وعدتَني . أللهم إن تَهلِكْ هذه العِصابةُ من أهل الإسلام لا تُعْبَدْ في الأرض » . فلم يزل كذلك حتى سقط رِداؤه ، فأخذ أبو بكر فوضع رداءَه عليه ، ثم التزمه مِن ورائه فقال : كفاك يا نبيَّ الله ، بأبي أنت وأمي ، مُناشدتَك لربِّك ، سيُنجِزُ لك ما وعدك . فأنزل اللهُ تعالى : « إذ تَستغيثون ربّكم فاستجاب لكم انّي مُمِدُّكُم بألفٍ من الملائكةِ مُرْدِفين » [1] ...

قال ابن إسحاق :

وقد خَفَق [2] رسولُ الله ﷺ خَفقة وهو في العَريش ، ثم انتبه فقال : « يا أبا بكر أتاك نصرُ الله هذا جِبريلُ آخذٌ بعِنان فرسه يَقُوده على ثناياه النَقْعُ » [3] . قال : وقد رُمي مِهْجَعٌ ، مولى عُمر بن الخطاب بسَهم فقُتل ، فكان أولَ قتيلٍ من المسلمين ، ثم رُمي حارثة بن سُراقة أحدُ بني عدي بن النَجّار وهو يَشرب من الحوض بسهمٍ فأصاب نَحره فقُتل . ثم خرج رسولُ الله ﷺ إلى الناس فحرَّضهم ونفّل [4] كلَّ امرىءٍ ما أصاب ، وقال : « والذي نفسي بيده لا يُقاتلُهم اليومَ رجلٌ فيُقتلُ صابراً محتسِباً مقبِلاً غيرَ مُدبِرٍ إلا أدخله اللهُ الجنّةَ » . فقال عُمير بن الحُمام أخو بني سَلِمة وفي يده تَمَراتٌ يأكلُها : بخٍ بخٍ ! أما بيني وبينَ أن أدخلَ الجنّةَ إلاّ أن يَقتُلَني هؤلاء ! قال : ثم قذف التمراتِ من يده وأخذ سيفَه فقاتل القومَ حتى قُتل ، وهو يقول :

رَكْضاً إلى اللهِ بغيرِ زاد
إلا التُقى وعَمَلَ المعَادِ

---

(1) مردفين : متتابعين .
(2) خفق الرجل : نام نوماً خفيفاً .
(3) النقع : الغبار .
(4) نفل : أعطى .

والصبرَ في اللهِ على الجهـاد
وكلُّ زادٍ عُرضةُ النَّفـادِ
غيرَ التقى والبرِّ والرَّشادِ

عن عبد اللهِ بن ثعلبةَ بن صُعَيرٍ العُذْريِّ حليفِ بني زُهرة قال :

لمّا التقى الناسُ ودنا بعضُهم من بعضٍ ، قال أبو جَهل : اللّهمَّ أقْطَعُنا للرَّحِم وآتانا بما لا يُعْرَفُ فأحِنْه الغَداةَ ؛ فكان هو المُسْتَفْتِحَ [1] على نفسه . ثمّ إنّ رسول الله ﷺ أخذ حَفنةً من الحَصباء واستقبلَ بها قريشاً ، ثم قال : « شاهَت الوُجوه » ، ثم نَفَحهم بها ؛ وقال لأصحابه : « شُدُّوا » فكانت الهزيمةُ . فقتلَ اللهُ مَن قتل من صَناديد قُريش ، وأسر من أسر منهم . فلمّا وضع القومُ أيديَهم يأسُرون ـ ورسولُ الله ﷺ في العريش ، وسَعدُ ابن مُعاذٍ قائمٌ على باب العريش الذي فيه رسولُ الله ﷺ مُتَوَشِّحاً بالسيف في نفرٍ من الأنصار ، يَحرُسون رسولَ الله ﷺ ، يخافون عليه كَرَّةَ العدوّ ـ رأى رسولُ الله ﷺ ـ فيما ذُكر لي ـ في وجه سعد بن مُعاذ الكراهة فيما يصنع الناس ؛ فقال له : « كأنّك كَرِهت ما يصنعُ الناسُ » ! قال : أجَلْ والله يا رسولَ الله ! كانت أوّلَ وقعةٍ أوقعها الله عزَّ وجلَّ بأهل الشِركِ فكان الإثخانُ في القَتل أعجبَ إليَّ من استبقاء الرجالِ .

عن ابن عبّاس :

أنّ رسولَ الله ﷺ قال لأصحابه يومئذ : « إنّي قد عَرَفتُ أنّ رجالاً من بني هاشمٍ وغيرهم قد أُخرِجوا كَرْهاً لا حاجةَ لهم بقتالنا ، فمن لَقِي منكم أحداً من بني هاشمٍ فلا يَقتُلْه ، ومن لقي أبا البَخْتَرِيّ بنَ هشام بن الحارث فلا يَقتلْه ، ومن لقي العبّاسَ بنَ عبد المطلب ـ عمّ رسول الله

(١) المستفتح : البادىء بنفسه والحاكم عليها بهذا الدعاء.

ﷺ – فلا يقتله ، فإنما خرج مستكرهاً » (١) . قال : فقال أبو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة : أيقتل آباؤنا وأبناؤنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ! والله لئن لقيته لألجمنه السيف (٢) ! فبلغت رسول الله ﷺ فجعل يقول لعمر بن الخطاب : « يا أبا حفص ، أما تسمع إلى قول أبي حذيفة ؟ يقول : أضرب وجه عم رسول الله ، ﷺ ، بالسيف ! » فقال عمر : يا رسول الله ، دعني ، فلأضربن عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق . قال عمر : والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص . قال : فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيداً .

قال : وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة ، كان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه بمكة شيء يكرهه ، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب . فلقيه المجذر بن ذياد البلوي ، حليف الأنصار من بني عدي ، فقال المجذر بن ذياد لأبي البختري : إن رسول الله ﷺ قد نهى عن قتلك . ومع أبي البختري زميل له خرج معه من مكة ، وهو جنادة ابن مليحة بن زهير بن الحارث بن أسد – وجنادة رجل من بني ليث ، واسم أبي البختري العاصي بن هشام بن الحارث بن أسد – وقال : وزميلي ؟ فقال المجذر : لا والله ، ما نحن بتاركي زميلك ، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك . قال : والله اذن لأموتن أنا وهو جميعاً ، لا تتحدث عني نساء قريش بين أهل مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة . فقال أبو البختري حين نازله المجذر وأبى إلا القتال :

(١) خرج مستكرهاً : أكره على الخروج.
(٢) ألجمه السيف : جعله له بمثابة اللجام على الوجه . وفي رواية السيرة : لألحمنه السيف ، أي لأجعلن لحمه طعاماً للسيف .

لن يُسلِم ابن حُـرّةٍ أكيلَـهْ   حتّى يموتَ أو يرى سَبيلَهْ [1]

فاقتتَلاَ ، فقتله المجذَّر بن ذياد . ثم أتى المجذَّر بن ذياد رسولَ الله ﷺ فقال : والذي بعثك بالحق ، لقد جَهِدت عليه أن يستأسِرَ فآتيك به ، فأبى إلا القتال ، فقاتلتُه فقتلته .

قال محمد بن إسحاق : وحدّثني يحيى بن عَبّاد عن عبد الله بن الزبير عن أبيه ، قال : وحَدَّثنيه أيضاً عبد الله بن أبي بكر وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف قال :

كان أمية بن خلَف لي صَديقاً بمكة ؛ قال : وكان اسمي عبدَ عمرو ، فسُمّيت حين أسلمت عبدَ الرحمن ونحن بمكةَ ؛ قال : وكانَ يلقاني بمكّةَ فيقول : يا عبدَ عمرو ، أرغبتَ عن اسمٍ سَمّاك به أبواك ؟ فأقول : نعم ؛ فيقول : فإنّي لا أَعرفُ الرحمن ، فاجعَل بيني وبينَك شيئاً أدعوك به ، أمّا أنت فلا تُجيبُني باسمِك الأول ، وأما أنا فلا أَدعُوك بما لا أعرِف . قال : فكان إذا دعاني : يا عبدَ عمرو ، لم أُجِبْه ، فقلت : اجعَلْ بيني وبينك يا أبا عليٍّ ما شئتَ ؛ قال : فأنت عبد الإله ؛ فقلت : نعم . قال : فكنت إذا مررت به قال : يا عبد الإلَه فأجيبُه فأتحدَّث معه ؛ حتّى إذا كان يوم بدرٍ ، مررت به وهو واقفٌ مع عليٍّ ابنه آخذاً بيدِه ، ومعي أدراعٌ قد سلبتُها وأنا أَحمِلُها ؛ فلمّا رآني قال : يا عبدَ عَمروٍ ، فلم أُجِبْه ! فقال : يا عبدَ الإله ، قلت : نعم ؛ قال : هل لك فيَّ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراعِ ؟ قال : قلت : نعم ، هلُمَّ إذاً ؛ فطرحتُ الأدراعَ من يدي وأخذت بيدِه وبيد ابنه عليٍّ ، وهو يقول : ما رأيت كاليومِ قَطُّ ، أما لكم حاجة في اللبن [2] ؟ ثم خرجتُ أمشي بينهما .

---

(١) الأكيل : المؤاكل . وفي سيرة ابن هشام : زميله .

(٢) اللبن : أي افتداء الرجل بالإبل .

قال ابنَ اسحاق : وحدَّثني عبد الواحد بن أبي عَوْن عن سَعدِ بن إبراهيمَ عن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف قال :

قال لي أميّة بنَ خلَف ، وأنا بينَه وبين ابنه آخذٌ بأيديهما : يا عبدَ الإآه ، مَن الرجل المُعْلَم منكم بريشِ نَعامةٍ في صدره ؟ قال : قلت : ذلك حمزة بن عبد المطّلب ؛ قال : ذلك الذي فعل بنا الأفاعيلَ . قال عبد الرحمن : فوالله إنّي لأقودهما إذ رآه بِلالٌ معي — وكان هو الذي يُعذِّب بِلالاً بمكّةَ على أن يترك الإسلام ، فيُخرجُه إلى رَمضاء [1] مكّة إذا حَميت فيُضجِعُه على ظَهره ، ثم يأمر بالصَخرة العظيمة فتُوضَع على صَدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تفارقَ دينَ محمّد ؛ فيقول بِلالٌ : أحدٌ أحدٌ — فقال بِلالٌ حين رآه : رأس الكُفر أُميّةُ بن خلَف ، لا نَجوتُ إن نَجَوا ! قال قلت : أيْ بِلال ، أَبأسيرَيَّ ؟ قال : لا نجوت إن نجوا ! قلت : أيْ بِلال ، أبأسيريّ تُسمِّع [2] يابنَ السوداء ؟ قال : لا نجوتُ إن نجوا ! ثم صرخَ بأعلى صوته : يا أنصارَ الله ، رأس الكُفر أميةُ بن خلف ، لا نجوتُ إن نَجَوا . قال : فأحاطُوا بنا حتى جعَلُونا في مثل المَسكة [3] . وأنا أَذُبُّ عنه . قال : فأخلف رجلٌ السيفَ فضرب رِجْل ابنِه فوقَع ، وصاح أميةُ صَيحةً ما سمعتُ بمثلها قطُّ ؛ قال قلت : انجُ بنفسك ولا نَجاءَ ! فوالله ما أُغني عنك شيئاً . قال : فهبرُوهما [4] بأسيافهم حتى فرَغُوا منهما . قال : فكان عبد الرحمن يقول : رحم الله بِلالاً ، ذهب بأدراعي وفجَعني بأسيريّ .

عن عبد الله بن عبّاس قال :

كانت سِيما الملائكة يومَ بدرٍ عمائم بيضاً قد أرسلُوها على ظُهورهم ، ويومَ حُنين عمائمَ حُمراً ، ولم تُقَاتل الملائكةُ في يومٍ من الأيام سِوى يومِ

---

(١) الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة .

(٢) تسمع : تشهر .

(٣) المسكة : السوار .

(٤) هبره بالسيف : قطعه .

بَدر ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام مَدَداً وعَدَداً ولا يَضْرِبُون .

حدّثنا محمدُ قال حَدثنا ابن حُمَيد قال حدّثنا سلمةُ قال : قال محمد وحدّثني ثَور بن زيد مولى بني الدِيل عن عِكرمةَ مولى ابنِ عبّاسٍ عن ابن عبّاسٍ ، قال وحَدّثني عبدُ الله بن أبي بكر ، قالا : كان مُعاذ بن عَمرو بن الجَمُوح أخو بني سَلِمة يقول :

لمّا فَرَغ رسولُ الله ﷺ من غزوة بدرٍ أمر بأبي جَهل أن يُلْتَمَسَ في القَتلى ، وقال : « اللّهمَّ لا يُعْجِزنَّك » ؛ وكان أوّلُ من لَقِي أبا جهل مُعاذَ بن عمروِ بن الجَمُوح ، قال: سمعت القومُ ، وأبو جَهل في مثل الحَرَجَةِ [١] ، وهم يقولون : أبو الحَكَم لا يُخْلَصُ إليه ؛ فلمّا سمعتُها جَعلتُها من شأني ، فعمدتُ نحوَه ، فلمّا أمكنني حملتُ عليه فضربته ضربة أطنّت [٢] قدمَه بنصف ساقه ، فوالله ما شبّهتُها حين طاحت إلاّ كالنَواة تَطيح من تحتِ مرضَخَة [٣] النَوى حين يُضرَبُ بها . قال : وضربني ابنُه عِكرمةُ على عاتقي فطرَح يدِي ، فتعلّقَتْ بجلدة من جَنبي ، وأجهضني القِتال عنها [٤] ، فلقد قاتلتُ عامّةَ يومي وإنّي لأسحبُها خلفي ، فلمّا آذتْني جعلتُ عليها رِجلي ثم تمطّيت بها حتى طَرحتُها . قال : ثم عاش مُعاذٌ بعد ذلك حتى كان في زمن عثمان بن عفّان . قال: ثم مرّ بأبي جَهل ، وهو عَقِيرٌ [٥] ، مُعوِّذُ بن عَفْراء ، فضَربَه حتى أثْبتَه [٦] ، فتركه وبه رَمَقٌ ، وقاتل مُعوِّذٌ حتى قُتل . فمرّ عبدُ الله بن مسعود بأبي جَهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمَس في القَتلى ، وقال لهم رسول الله

---

(١) الحرجة : شجر ملتف كالغيضة والجمع : حراج .
(٢) أطنت : قطعت .
(٣) المرضخة والمرضاخ : حجر يضرب به النوى، ورضخ : ضرب .
(٤) أجهضه عنه : نحاه وغلبه .
(٥) عقير : مطعون.
(٦) أثبته : أثخنه .

ﷺ ، فيما بلغني ، : « انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح بركبته ، فإني ازدحمتُ أنا وهو يوماً على مأدُبة لعبد الله بن جُدعانَ ، ونحن غُلامان ، وكنت أشبَّ — أو أشفَّ — منه بيسير ، فدفعتُه فوقع على رُكبتيه فخُدِش في إحداهما خدْشاً لم يزَلْ أثرُه فيما بعدُ » .

فقال عبدُ الله بن مسعود : فوجدتُه بآخر رمَق فعرفتُه، فوضعت رجلي على عُنقه ؛ قال : وقد كان ضبثَ (١) بي مرّة بمكّة فآذاني ولكزني ، ثم قلت : هل أخزاك اللهُ يا عدوّ الله . قال : وبماذا أخزاني ؟ أعْمَدُ (٢) من رجلٍ قتلتموه ! لِمَن الدَّبْرةُ اليومَ (٣) ؟ قال : قلت : لله ولرسوله ﷺ .

حدّثنا محمّد بن جرير قال حدّثنا ابن حُميد قال حدّثنا سلمةُ عن محمد قال :

زعَمَ رجالٌ من بني مخزوم أن ابنَ مسعود كان يقول : قال لي أبو جهل : لقد ارتقيتَ يا رُويعيَ الغنم مُرتقَى صعباً؛ ثم احتززتُ رأسَه ، ثم جئتُ به رسولَ الله ﷺ ، فقلتُ يا رسولَ الله ، هذا رأسُ عدوِّ الله أبي جهل ؛ فقال رسولُ الله ﷺ : « آلله (٤) الذي لا إله غيرُه » ؟ » ! — وكانت يمينَ رسول الله ﷺ — قلتَ : نعم والله الذي لا إله غيره ، ثم ألقيتُ رأسَه بين يدَي رسول الله ﷺ ؛ قال : فحمِد اللهَ .

---

(١) ضبث بالشيء : قبض عليه بكفه .

(٢) أعمد : أي أعجب . ونقل صاحب اللسان عن أبي عبيدة في شرح هذه العبارة : « معناه : هل زاد على سيد قتله قومه ، هل كان الا هذا ؟ أي أن هذا ليس بعار ، ومراده بذلك أن يهون على نفسه ما حل به من الهلاك » .

(٣) الدبرة : الدائرة .

(٤) آلله : همزة الاستفهام حلت هنا محل حرف القسم فجر لفظ الجلالة على اضمار حرف الجر بعد حرف الاستفهام .

قال محمّد بن إسحاق وحدّثني يزيد بن رُومان عن عـُروة بن الزبير عن عائشة قالت :

لمّا أمر رسولُ الله ﷺ بالقتلى أن يُطرَحوا في القَليب طـُرِحوا فيها إلا ما كان من أُمية بن خلَف ، فإنه انتفخ في درعه فملأها ؛ فذهبوا به ليخرُجوه ، فتزايل (لحمُه) (١) فأقرُّوه وألقَوا عليه ما غيّبه من التراب والحجارة . فلما ألقَوهم في القليب ، وقف رسول الله ﷺ ، فقال : «يا أهلَ القليب هل وجدتُم ما وعدَكم ربُّكم حقاً فإني وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً » ؛ فقال له أصحابه : يا رسولَ الله ، أتكلِّمُ قوماً موتى ؟ قال : « لقد علِموا أنّ ما وعدَهم ربُّهم حَقٌّ » . قالت عائشةُ : والناسُ يقولون : لقد سمعوا ما قلتُ لهم ، وإنما قال رسول الله ﷺ : « لقد علِموا » ...

قال محمد بن إسحاق وحدّثني أهل العلم : أن رسول الله ﷺ يوم قال هذه المقالة قال : « يا أهلَ القَليب بئس عشيرةُ النبيِّ كنتُم لنبيّكم ، كذّبتمُوني وصدّقني الناسُ ، وأخرجتُموني وآواني الناسُ ، وقاتلتموني ونصَرني الناسُ » ؛ ثم قال : « هل وجدتُم ما وعدَكم ربُّكم حقاً » للمقالة الّتي قالها .

ولما أمر بهم رسولُ الله ﷺ أن يُلقَوا في القليب ، أُخذ عُتبةُ فسُحب إلى القليب ، فنظر رسول الله ﷺ – فيما بلغني – إلى وجه أبي حُذيفةَ ابن عُتبة، فإذا هو كئيبٌ قد تغيّر؛ فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا حُذيفةَ لعلّك قد دَخلَك من شأنِ أبيك شيءٌ » . أو كما قال ؛ قال فقال : لا والله يا رسولَ اللهِ ما شككتُ في أبي ولا في مَصرعه ، ولكنّني كنتُ أعرفُ من أبي رأياً وفضلاً وحِلماً ، فكنت أرجو أن يَهديَه اللهُ إلى الإسلام ، فلمّا

---

(١) في المطبوعة : فتزايل ، والزيادة من السيرة وتزايل لحمه أي تفرق .

رأيتُ ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنتُ أرجو له ، أحزنني ذلك : قال : فدعا رسولُ الله ﷺ له بخيرٍ وقال له خيراً .

ثم إنّ رسولَ الله ﷺ أمَرَ بما في العسكر مما جمَعَ الناسُ فجُمِعَ ، واختلف المسلمون فيه : فقال من جمَعه : هو لنا ، وقد كان رسول الله ﷺ نفّل كلّ امرىءٍ ما أصاب . فقال الذين كانوا يقاتلون العدوّ ويطلبونهم : لولا نحن ما أصبتموه ، لنحنُ شغلنا القومَ عنكم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرُسُون رسول الله ﷺ مخافةَ أن يُخالفَ إليه [1] العدوُّ : والله ما أنتُم بأحقَّ به منا ، ولقد رأينا أن نقتلَ العدوَّ إذ ولاّنا اللهُ ومَنَحنا أكتافَهم [2] ، ولقد رأينا أن نأخُذَ المَتاعَ حين لم يكن دُونَه من يَمنعُه ، ولكن خِفْنا على رسولِ الله ﷺ كَرَّةَ العدوّ ، فقُمنا دُونَه ، فما أنتم بأحقَّ به منا .

قال ابن اسحاق وحدّثني عاصم بن عمرو بن قتادة ويزيد بن رُومان : أنّ رسول الله ﷺ جمع الأسارى من المُشركين ، وكانوا أربعةً وأربعين أسيراً ، وكان من القتلى مثلُ ذلك ، وفي الأسارى عُقبةُ بن أبي مُعَيط ، والنَضْر بن الحارث بن كَلَدة . حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قُتل النضر بن الحارث ، قتله عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال محمد بن إسحاق حدّثني حُسين بن عبد الله بن عُبيد الله بن عبّاس عن عِكرِمةَ مولى ابن عبّاسٍ قال : قال أبو رافعٍ مولى رسولِ الله ﷺ : كنتُ غلاماً للعبّاس بن عبد المطّلب ، وكان الإسلامُ قد دخَلَنا أهلَ البيت ، فأسلم العبّاسُ وأسلمَتْ أمُّ الفضْلِ ، وأسلمتُ ، وكان العبّاسُ يَهاب قومَه ، ويكرَهُ خِلافَهم ، وكان يكتمُ إسلامَه ، وكان ذا مالٍ كثيرٍ

---

(١) يخالف إليه : يأتيه في غيبة أصحابه .

(٢) منحنا أكتافهم : مكننا من الإيقاع بهم حين انهزموا .

مُتفرِّق في قومه ، وكان أبو لَهَب عدوُّ الله قد تخلّف عن بَدر ، وبعث مكانَه العاصي بن هِشام بن المُغيرة ، وكذلك صَنَعوا ، لم يَتخلّفْ رجلٌ إلاّ بعث مكانَه رجلاً ؛ فلمّا جاء الخبرُ عن مُصابِ أهلِ بدرٍ من قُريش ، كَبَتَه اللهُ وأخزاه ، ووَجَدْنا في أنفُسِنا قُوةً وعِزّاً ؛ وكنتُ رجلاً ضعيفاً ، وكنتُ أعمل القِداح أنحتُها في حُجْرةِ زَمْزَم ، فواللهِ إنّي لجالسٌ فيها أنحتُ القِداحَ ، وعندي أمُّ الفَضل جالسةً ، وقد سَرّنا ما جاء من الخبرِ ، إذ أقبل الفاسقُ أبو لَهَبٍ يَجُرُّ رِجْليه يسير حتّى جلس على طُنُبِ (١) الحجرة ، فكان ظهرُه إلى ظهري ، فبينا هو جالسٌ إذ قال الناسُ : هذا أبو سفيانَ بن الحارث بن عبد المطّلب قد قَدِم ؛ فقال أبو لَهب : هَلُمَّ إلي يابنَ أخي ، فعندكَ لعمْري الخبرُ . فجلس إليه والناسُ قيامٌ عليه ؛ فقال يا بنَ أخي أخبِرْني كيف كان أمر الناس ؟ قال : لا شيءَ واللهِ ، إن كان إلاّ أن لَقِيناهم فأبحناهم أكتافنا يقتلُون ويأسرُون كيف شاؤوا ، وايم اللهِ مع ذلك ما لمتُ الناس ، لَقِينا رجالاً بِيضاً على خيلٍ بُلْقٍ بين السماءِ والأرض ما تُليق (٢) شيئاً ولا يَقُوم لها شيءٌ : قال أبو رافع : فرفعت طُنُبَ الحُجرة بيدي ، ثم قلتُ : تلك واللهِ الملائكةُ ، فرفع أبو لَهَبٍ يَدَه فضرَب وَجهي ضَربةً شديدةً ؛ قال : فساورتُه فاحتملَني فضرب بي الأرضَ ، ثم بَرَك عليّ يضرِبُني ، وكنت رجلاً ضعيفاً ؛ فقامت أمُّ الفَضل إلى عَمود من عُمُد الحُجرةِ فأخذتْه فضربتْه به ضربةً ، فشجّت في رأسه شَجّةً مُنكرَةً وقالت : أتستضعفه أَن غاب عنه سيّده ! فقام مُوَلّياً ذليلاً ، فواللهِ ما عاش فيها إلاّ سبعَ ليالٍ حتى رماه الله جلّ جلاله بالعَدَسةِ (٣) فقتلَتْه ، فلقد تركه ابناه ليلَتين أو ثلاثاً لا يدفِنانه حتى أنتن في بَيته — وكانت قريشٌ تَتّقي العَدَسة كما يُتّقى

---

(١) الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت .
(٢) ما تليق شيئاً : ما تبقي على شيء .
(٣) العدسة : بثرة قاتلة تخرج بالبدن كالطاعون .

الطاعونُ – حتى قال لهما رجلٌ من قريش : ويحكُما ! لا تستحييان أنّ أباكما قد أنتن في بيته لا تُغيِّبانه ! فقالا : نخشى هذه القرحة ! قال : فانطلقا فأنا معكما ، فما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ما يمسّونه ؛ فاحتملوه فدفنوه بأعلى مكّة على جدارٍ ، وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه .

قال ابن اسحاق وحدّثني الحسن بن عُمارة عن الحكم بن عُيينة عن ابن عبّاس قال :

كان الذي أسر العبّاس أبو اليَسَر كعبُ بن عمرو ، أخو بني سلِمة ، وكان رجلاً مجموعاً (١) ، وكان العبّاس رجلاً جسيماً ، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليَسَر : كيف أسرت العبّاس يا أبا اليَسَر ؟ فقال : يا رسول الله أعانني عليه رجلٌ ما رأيتُه قبلَ ذلك ولا بعدَه ، هيئته كذا وكذا . فقال رسول الله ﷺ : « لقد أعانك عليه ملَكٌ كريمٌ » .

قال ابن اسحاق عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس :

أن رسول الله ﷺ قال للعبّاس بن عبد المطّلب حين انتهى به الى المدينة :

« يا عبّاس افدِ نفسَك وابنَ أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفَك عُتبةَ بن عمرو بن جحْدَم ، أخا بني الحارث بن فِهرْ ، فإنك ذو مالٍ » فقال : يا رسولَ الله ؛ إنّي كنت مُسلماً ولكنّ القومَ استكرهوني . فقال : « الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقّاً فالله يجزيك به ، فأمّا ظاهرُ أمرِك فقد كان علينا فافْدِ نفسَك » . وكان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أُوقيّةً من ذهبٍ ، فقال العبّاسُ : يا رسولَ الله ، احسُبْها لي في فِدائي ؛ قال : « لا ، ذلك شيءٌ أعطاناه اللهُ منك » . قال : فإنّه ليس لي مالٌ . قال : « فأين المالُ الذي وضعتَه بمكّة حين خرجتَ من عند أمّ الفضلِ بنت الحارث ليس معكما أحدٌ ثمّ قلتَ لها :

---

(١) مجموع : ضئيل الجسم .

إن أُصبتُ في سَفرتي هذه فلِلفضل كذا ولعبدِ الله كذا ولقُثَم كذا ولعُبيد الله كذا » ؟ قال : والذي بعثك بالحقّ ما علِم هذا أحدٌ غيري وغيرُها ، وإنّي لأعلمُ أنّك رسولُ الله . ففدى العباسُ نفسَه وابن أخيه وحليفَه ...

وممّا قيل في بدرٍ من الشعِر وغُنّي به قولُ هند بنت عُتبة ترثي أباها :

من حَسّ لي الأخـــوَين كالـ
غُصْنينِ أو مَـــن راهمـــا
قَـــرْمان لا يتظالمـــــان
ولا يُـــرامُ حِماهمـــا
ويـــلي على أبَـــويَّ والـ
ـقبرِ الـــذي واراهمـــا
لا مثـــلُ كهلي في الكهـــو
ل ولا فتىً كفتاهمـــا (١)

* * *

(١) راهما : مخففة من رآهما . القرم : السيد .

غَــزوَة أحُــدْ

(الأغاني ج ١٥ ص ١٧٩ وما بعدها)

عن محمّد بن إسحاق قال : حدّثني محمّد بن مسلم بن عبد الله بن شِهاب الزُهريّ ، ومحمّد بن يَحيى بن حَبّان ، وعاصم بن عمرو بن قَتادة ، والحُصين بن عبد الرحمن بن عَمرو بن سعد بن مُعاذ ... قالوا :

لَمّا أُصيبت قريشٌ [(١)] يومَ بَدرٍ من كُفّار قُريشٍ ، من أصحاب القَليب ، فرجع فَلّهم [(٢)] إلى مكّة ، ورجَع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبدُ الله بن أبي ربيعةَ ، وعِكرمةُ بن أبي جَهلٍ ، وصَفوانُ بن أُميّة ، في رجالٍ من قريش ، مِمّن أُصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانُهم ببَدْرٍ ، فكلّموا أَبا سُفيانَ بن حرب ومَن كان له في تلك العِير من قريش تجارةٌ . فقال أبو سفيان : يا معشرَ قُريش ، إنّ محمداً قد وتَرَكم وقتل خِيارَكم ، فأعِينُونا بهذا المالِ على حَربه ، لعلّنا أن نُدرِكَ ثأراً بمن أُصيب منا . ففعلوا ، فاجتمعت قريشٌ لحربِ رسولِ الله ﷺ ، حين فعل ذلك أبو سُفيان

(١) جاء في المطبوعة بعد هذه العبارة : « أو من قاله منهم » ، ولا معنى لها هنا وانما هي تتمة كلام الإسناد على نحو ما نجد في سيرة ابن هشام (٦٠/٢) .

(٢) الفل : القوم المنهزمون .

وأصحابُ العير بأحابيشِها [1] ومَن أطاعها من قبائل كِنانةَ وأهلِ تِهامة ، وكلٌّ أولئك قد استَغْوَوْا [2] على حرب رسول الله ﷺ . وكان أبو عزّةَ عمرُو بنُ عبد الله الجُمَحيّ قد مَنّ عليه رسولُ الله ﷺ يومَ بَدْرٍ ، وكان في الأسارى فقال : يا رسولَ الله ، إنّي فقيرٌ ذو عِيال وحاجة قد عرفْتَها ، فامنُنْ عليّ صلّى الله عليك . فمنّ عليه رسولُ الله ﷺ ، فقال صَفوانُ بن أميّة : يا أبا عزّةَ ، إنّك امرؤٌ شاعرٌ فاخرُجْ معنا فأعِنّا بنفسك . فقال : إنّ محمداً قد منّ عليّ ، فلا أُريدُ أن أظاهِرَ عليه . فقال : بلى فأعِنّا بنفسك ، ولك اللهُ إن رَجَعتَ أن أُعينَك ، وإن أُصبتَ أن أجعلَ بناتِك مع بناتي ، يُصيبهنّ ما أصابَهنّ من عُسْرٍ أو يُسْرٍ . فخرج أبو عزّة يسير في تِهامةَ ويدعو بني كِنانة ، وخرج مُسافعُ بن عَبْدة بن وَهْب بن حُذافةَ بن جُمَحَ إلى بني مالك بن كنانة يُحرّضُهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، ودعا جُبيرُ بن مُطعِم غلاماً يقال له وَحْشيّ ، وكان حَبَشيّاً يَقذِف بحَرْبة له قَذْفَ الحبشة ، قلّما يُخطىء بها ، فقال : اخرُجْ مع الناس ، فإن أنتَ قَتلتَ عَمَّ محمّدٍ بعَمّي طُعيمةَ بن عديّ فأنت عَتيقٌ . وخرجت قريشٌ بحدّها وأحابيشها ومَن معها من بني كِنانة وأهلِ تِهامة ، وخرجوا بالظُعُن [3] التماسَ الحفيظة ، ولئلاّ يَفِرّوا . وخرج أبو سفيانَ بن حرب وهو قائدُ الناس ، ومعه هِندٌ بنت عُتبةَ بن ربيعةَ ، وخرج عِكرمة بن أبي جَهل بن هشام بن المُغيرة ، وخرج صَفوانُ بن أُميّة بن خَلَف ... وكانت هند بنتُ عُتبة بن ربيعة إذا مرّت بوَحْشيّ أو مرّ بها قالت : إيه أبا دَسْمةَ اشتَفِ . فنزلوا ببطن السَّبخة [4] من قَناةٍ [5] ، على شَفير الوادي ممّا يلي المدينة ، فلمّا

(1) أحابيش قريش : يراد بهم حلفاء قريش من بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة ، وكانوا تحالفوا عند جبل اسمه حبشي فنسبوا إليه ، وقيل إنه سموا بذلك لسواد ألوانهم .
(2) استغوى الرجل واستعواه : استغاث به .
(3) الظعن ج ظعينة : المرأة في هودجها .
(4) السبخة : أرض ذات نز وملح .
(5) قناة : اسم واد بالمدينة .

سمع بهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون قد نَزَلوا حيث نزلوا ، قال رسولُ الله ﷺ للمسلمين : « إنّي قد رأيت بَقَراً تُذبَح فأوّلْتُها خيراً ، ورأيت في ذُبابِ سَيفي[1] ثَلْماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في دِرعٍ حَصينةٍ ، وهي المدينة ، فإن رأيتُم أن تُقيموا بالمدينة وتَدَعُوهم حيث نَزَلُوا ، فإن أقامُوا أقاموا بِشَرِّ مُقامٍ ، وإن هم دخلُوا علينا فيها قاتلناهم » .

ونزلت قريشٌ مَنزلَها من أُحُدٍ يومَ الأربعاء ، فأقاموا به ذلك اليومَ ويوم الخميس ويومَ الجُمعة ، وراحَ رسول الله ﷺ حين صلّى الجمعةَ فأصبح بالشِّعب من أُحُد ، فالتَقوا يومَ السبت للنصف من شوال . وكان رأي عبد الله بن أُبَي بن سَلُول مع رأي رسول الله ﷺ ، يرى رأيَه في ذلك : أن لا يَخرج إليهم ، وكان رسول الله ﷺ يَكرَه الخُروج من المدينة ، فقال رجالٌ من المسلمين ، ممّن أكرم الله جَلَّ ثناؤه بالشَهادة يومَ أُحُد وغيرهم ممّن فاته بَدر وحُضوره : يا رسولَ الله صلى الله عليك وسلم اخرُجْ بنا إلى أعدائنا لا يَرَون أنّا جُبُنّا عنهم وضَعُفنا . فقال عبد الله بن أُبَي ابن سَلُول : يا رسولَ الله أَقِمْ بالمدينة ، ولا تَخرج إليهم ، فوالله ما خرَجنا منها إلى عَدُوٍّ قطُّ إلا أصاب منا ، ولا يدخلُها علينا إلا أصبنا منهم ، فدَعْهم يا رسولَ الله ، فإن أقاموا أقاموا بشَرِّ مجلسٍ ، وإن دخلوا قاتلَهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النِساء والصِبيان بالحجارةِ من فوقِ رؤوسهم ، وإن رَجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا . فلم يزل برسول الله ﷺ الذين كان من أمرِهم حُبُّ لِقاء العدو ، حتّى دخل رسول الله ﷺ فلبِس لأمتَه[2] ، وذلك يومَ الجُمعة ، حين فَرَغ رسول الله ﷺ من الصلاة . وقد مات في ذلك اليوم رجلٌ من الأنصار يقال له مالك بن عمرو ، أحد بني النَجّار ، فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم خرج عليهم ، وقد نَدِم الناس ، وقالوا

(١) ذباب السيف : حده وطرفه .
(٢) اللأمة : الدرع .

استكرهنا رسولَ الله ﷺ ولم يكن ذلك لنا ! فخرج رسول الله عليهم فقالوا : يا رسولَ الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئتَ فاقعُدْ صلّى الله عليك. فقال عليه السلام: « ما يَنبغي لنبيّ إذا لَبِس لأمتَه أن يَضَعَها حتّى يقاتل » قال : فخرج رسولُ الله ﷺ في ألفِ رجلٍ من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشَوط ، بين أُحد والمدينة ، انخزل عنه عبدُ الله بن أُبيّ بن سَلول بثلُثِ الناس ، وقال : أطاعَهم فخرَج وعصَاني ، واللهِ ما نَدري عَلامَ نَقتلُ أنفُسَنا هاهنا أيّها الناسُ . فرجَع بمن اتّبعه من الناس من قومه ، من أهل النفاق والرِّيب ،واتّبعهم عبدُ الله بن عمرو بن حَرام ،أحدُ بني سَلِمة يقول : يا قومُ أُذكّرُكم اللهَ أن تَخذُلوا نبيّكم وقومَكم عند ما حضرَ من عدوِّهم. فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكنّا لا نَرى أنه يكون قتالٌ . فلمّا استعصَوا عليه وأبَوا إلاّ الانصرافَ قال : أبعدَكم (١) اللهُ أعداءَ الله ، فسيغني الله عزّ وجلّ عنكم .

وقال محمد بن عمر الواقدي : انخزل عبدُ الله بن أُبي عن رسول الله ﷺ من الشَيخين (٢) بثلثمائة ، فبقي رسولُ الله ﷺ في سبعمائة ، وكان المشركون في ثلاثة آلاف ، والخيلُ مائتا فارسٍ ، والظُّعنُ خمسَ عشرةَ امرأةً . قال : وكان في المشركين سبعمائةِ دارعٍ ، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرَسان : فرسٌ لرسول الله ﷺ ، وفرسٌ لأبي بُردةَ بن نِيارٍ الحارثيّ . فادّلج(٣) رسول الله ﷺ من الشيخين حتى طلع الحمراء، وهما أطمان (٤) كان يهوديٌّ ويهوديّة أعميان يقومان عليهما فيتحدّثان ، فلذلك سمّيا الشَيخين ، وهما في طرف المدينة .

---

(١) أبعدكم : أهلككم .
(٢) الشيخين : موضع بالمدينة كان فيه معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٣) ادلج : سار في أواخر الليل .
(٤) الأطم : الحصن .

قال : وعرَض رسولُ الله ﷺ المقاتلةَ بعد المَغرب ، فأجاز من أجاز ، وردَّ من ردّ . قال : وكان فيمن ردّ زيدُ بن ثابت ، وأبو عمرو أسيد بن ظَهير ، والبَراء بن عازب ، وعَرابة بن أوس قال : وهو عَرابةُ الذي قال فيه الشَمّاخ :

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لِمجدٍ تَلَقّاها عَرابةُ باليمينِ

قال : وردّ أبا سعيدٍ الخُدْريَّ ، وأجاز سَمُرةَ بن جُنْدب ، ورافعَ ابن خَدِيج .

وكان رسول الله ﷺ قد استصْغَر رافعاً ، فقام على خُفّين له فيهما رِقاعُ ، وتطاول على أطراف أصابعه ، فلمّا رآه رسول الله ﷺ أجازه ...

ومضى رسولُ الله ﷺ حتى سلك في حَرّةِ بني حارثة ، فذَبَّ فرسٌ بذَنَبِه فأصاب كُلاّبَ سيفٍ فاستلّه ، فقال رسولُ الله ﷺ — وكان يحبّ الفَأل ولا يَعتافُ [1] — لصاحب السيف : « شِمْ [2] سيفك فإني أرى السيوفَ ستُستَلُّ اليوم » ! ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « مَن رجلٌ يخرُجُ بنا على القَوم من كَثَبٍ من طريقٍ لا يَمرُّ بنا عليهم ؟ » ، فقال أبو خَيْثَمةَ ، أخو بني حارثةَ بن الحارث : أنا يا رسولَ الله . فقدّمه فنَفَذَ به في حَرّةِ بني حارثة وبين أموالهم ، حتى سَلَكَ به في مال المِرْبَع بن قَيْظِيّ ، وكان رجلاً منافقاً ضريرَ البصر ، فلمّا سمع حِسَّ رسولِ الله ﷺ ومَن معه من المسلمين قام يَحثي [3] التراب في وُجوهِهِم ويقول : إن كنتَ رسولَ الله فلا أُحِلُّ لك أن تدخلَ حائطي [4] . قال : وقد ذُكِر لي أنّه أخذ حَفنةً

(١) الاعتياف : زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها تشاؤماً أو تفاؤلا .
(٢) شام سيفه : أغمده ، وهي من الأضداد تستعمل بمعنى إغماد السيف واستلاله .
(٣) حثا التراب عليه يحثوه ويحثيه : رماه عليه .
(٤) الحائط : البستان .

من تُراب في يده ثم قال : لو أنّي أعلمُ أنّي لا أُصيب بها غيرَك لضربتُ بها وَجهك ! فابتدره القومُ ليقتلوه ، فقال رسولُ الله ﷺ : « لا تفعلوا فهذا الأعمى البَصَرِ الأعمى القلب ! »

وقد بَدَرَ إليه سعدُ بن زَيد أخو بني عبد الأشهَل حين نهى رسولُ الله ﷺ عنه فضربه بالقوس في رأسه فشجّه ، ومضى رسول الله ﷺ على وجهه حتى نزل الشِعب في أُحد في عُدوة الوادي إلى الجبل ، فجعل ظهرَه وعسكرَه إلى أُحد ، وقال : لا يقاتلن أَحدٌ أحداً حتى نأمرَه بالقتال . وقد سرّحت قريشٌ الظّهرَ والكُراع [1] في زُروع كانت بالصَّمْغة [2] في قناة للمسلمين ، فقال رجلٌ من المسلمين حين نهى رسولُ الله ﷺ عن القتالَ : أتُرعى زُروعُ بني قيلةَ ولمّا تَضاربْ ! وتعبّى رسولُ الله ﷺ وهو في سبعمائة رجلٍ ، وتعبّأت قريشٌ وهم ثلاثةُ آلافٍ ، ومعهم مائتا فارس قد جَنبوا [3] خيولهم ، فجعلوا على مَيمنة الخيلِ خالدَ بن الوليد وعلى مَيسرتها عكرمةَ بن أبي جهل، وأمّر رسول الله ﷺ على الرُماةِ عبدَ الله بن جُبير ، أخا بني عمرو ابن عَوف ، وهو يومئذٍ معلمٌ بثياب بيضٍ ، والرماةُ خمسون رجلاً ، وقال : انضحْ عنا الخيلَ بالنّبلْ [4] لا يأتونا من خلفِنا إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت بمكانك لا نُؤْتينَّ من قِبلك . وظاهر رسولُ الله ﷺ بين دِرعين ...

عن ابن عبّاس قال :

أقبل أبو سفيانَ في ثلاثِ ليالٍ خلونَ من شوّال حتى نزل أُحداً ، وخرج رسولُ الله ﷺ فأذّنَ في الناسِ فاجتمعوا ، وأمّر الزُبير على الخيل ،

---

(١) الظهر : الإبل . الكراع : الخيل .
(٢) اختلف في ضبط هذا اللفظ فروي بالعين المهملة وبالغين المعجمة ، وهي أرض قرب أحد .
(٣) جنبوا خيولهم : قادوها إلى جنبهم .
(٤) نضح بالنبل : رمى بها .

ومعه يومئذ المقدادُ الكِنديُّ ، وأعطى رسول الله ﷺ الرايةَ رجلاً من قريش يقال له مصعبُ بنَ عُمير ، وخرج حَمزةُ بن عبد المطّلب رضي الله عنه بالجيش ، وبُعِث حمزةُ بين يديه . وأقبل خالدُ بن الوليدِ على خيل المشرِكين ، ومعه عِكرِمةُ بن أبي جهل ، فبعث رسول الله ﷺ الزُبير ، وقال : استقبلْ خالدَ بن الوليد فكن بإزائه حتّى أوذِنك . وأمر بخيلٍ أخرى فكانوا من جانبٍ آخرَ ، فقال : لا تَبرحنّ حتّى أوذِنكَم . وأقبل أبو سفيانَ يحمل اللاتَ والعُزّى ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى الزُبير أن يَحمِل ، فحمل على خالد بن الوليد فهزمه اللهُ تعالى ومَن معه ، فقال جلّ وعزّ : « ولقد صَدَقكم الله وعدَه إذ تَحسّونَهم بإذنِه » إلى قوله تبارك اسمه وتعالى : « مِنْ بَعدِ ما أرَاكمْ ما تحبّون » وإنّ الله تعالى وعد المؤمنين النصرَ وأنّه معهم . وإنّ رسول الله ﷺ بعث ناساً من الناس فكانوا من وَرائهم ، فقال رسولُ الله ﷺ : كونوا ها هنا ، فرُدّوا وجهَ من فرَّ مِنّا وكونوا حَرَساً من قِبَلِ ظهورنا . وإنّه عليه السلام لما هزَم القومَ هو وأصحابه قال الذين كانوا جُعِلوا من ورائهم بعضهم لبعضٍ — ورأوا النساء مصْعِدات في الجبل ، ورأوا الغنائم — : انطلِقوا إلى رسول الله ﷺ وأدرِكوا الغنائم قبل أن تُسبَقوا إليها . وقالت طائفةٌ أخرى : بل نطيعُ رسول الله ﷺ فنثبتُ مكانَنا . فقال ابن مَسعود : ما شعرتُ أنّ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يريدُ الدنيا وعرَضَها حتى كان يومَئذٍ ...

رجع إلى حديث ابن إسحاق :

فقال رسول الله ﷺ : من يأخذ هذا السيفَ بحقّه ؟ فقام إليه رجالٌ ، فأمسكه بينَهم ، حتى قام إليه أبو دجانةَ سِماكُ بن خرَشةَ أخو بني ساعدةَ فقال : وما حقّه يا رسولَ الله ؟ قال : أن تضرِب به في العدوّ حتى ينحنيَ . فقال : أنا آخذُهُ بحقّه يا رسول الله . فأعطاه إيّاه . وكان أبو دُجانَة رجلاً

شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت ، وكان إذا أعلَم على رأسه بِعصابة له حمراءَ علم الناس أنّه سيقاتل ، فلمّا أخذ السيفَ من يد رسول الله ﷺ وآله أخذ عِصابتَه تلك فعصَب بها رأسَه ، ثم جعل يتبختر بين الصَّفّين .

قال محمد بن إسحاق : حدثني جعفرُ بن عبد الله بن أسلم مولى عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه ، عن رجلٍ من الأنصار من بني سَلِمة قال : قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دُجانةَ يتبختر : إنها مِشيةٌ يبغِضها اللهُ إلاّ في هذا الموطنِ .

وقد أرسل أبو سفيانَ رسولاً فقال : يا معشرَ الأوس والخزرج ، خلّوا بيننا وبين ابن عمّنا ننصرفْ عنكم ، فإنّه لا حاجةَ بنا إلى قِتالكم . فرَدّوه بما يكْرَه ...

وقد قال أبو سفيانَ لأصحابِ اللّواء من بني عبدِ الدّار يحرّضهم بذلك على القتال : يا بني عبد الدار ، إنكم ولِيتم لواءَنا يومَ بدرٍ فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنّما يؤتَى الناس من قِبَل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإمّا أن تكفونا لِواءَنا، وإمّا أن تُخلّوا بيننا وبينه فسنكفيكموه . فهمّوا به وتوعّدُوه وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ؟! ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنعُ ! وذلك الذي أراد أبو سفيان . فلما التقى الناسُ ودنا بعضُهم من بعضٍ قامت هِند بنتُ عتبةَ في النِسوة اللواتي معها ، وأخذن الدفوف يَضرِبن خلفَ الرِجالِ ، ويحرّضْنَهم ، فقالت هندٌ فيما تقول :

إن تقبلوا نُعانقْ ونَفرشِ النّمارقْ
أو تُدبِروا نُفارِقْ فِراقَ غيرِ وامقْ

وتقول :

إيهاً بني عبد الدارْ إيهاً حُماةَ الأدبار
ضرباً بكل بتّارْ [1]

واقتتل الناس حتى حَمِيت الحرب ، وقاتل أبو دجانةَ حتى أمعن في الناس ، وحمزةُ بن عبد المطلب وعليٌّ بن أبي طالب عليهما السلامُ في رجالٍ من المسلمين ، فأنزل الله نَصره ، وصَدَقهم وعده ، فحَسُّوهم [2] بالسيف حتى كَشَفوهم ، وكانت الهزيمةُ .

وعن محمد بن اسحاق عن يحيى بن عباد عن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جَدّه قال قال الزُبير : واللهِ لقد رأيتني أنظرُ إلى هِند بنتِ عتبةَ وصواحبها مشمّرَات هواربَ ، ما دونَ أخذِهن قليلٌ ولا كثيرٌ ، إذ مالت الرُماةُ ألى الكرِّ حتى كشفنا القومَ عنه يريدون النَهب، وخلّوا ظهورَنا للخيل ، فأُتينا من أدبارنا وصَرخ صارخٌ : ألا إنّ محمداً قد قُتل ! فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أَصَبنا أصحابَ اللِواء ، حتى ما يدنوَ إليه أحدٌ من القَوم .

وعن محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم أنّ اللِواءَ لم يزَلْ صَريعاً حتى أخذته عَمرة بنت علقمةَ الحارثيّةُ فرفعتْه لِقريش فلاذُوا بها ، وكان اللواءُ مع صُؤابٍ ، غلامٍ لبني أبي طَلحة حَبَشيٌّ ، فكان آخرَ من أخذه منهم ، فقاتل حتى قطعت يداه ، فبرَك عليه وأخذ اللواءَ بصدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول : اللّهم قد أعْذَرتُ ! ...

... عن محمّد بن عبيدِ الله بن أبي رافع ، عن أبيه عن جدّه :

... لمّا أُتي المسلمون من خلفِهم انكشفوا ، وأصاب منهم المشركون ، وكان المسلمون لمّا أصابهم ما أصابهم من البلاءِ أثلاثاً : ثلثٌ قتيلٌ ، وثلثٌ

---

(١) النمارق ج نمرقة : الوسادة الصغيرة والطنفسة . الوامق : المحب .
(٢) حسوهم : استأصلوهم قتلا .

جريحٌ ، وثلثٌ منهزمٌ وقد جـهـَدتـْه الحرب حتى ما يدري ما يصنع . وأُصيبت رَباعيةُ [1] رسول الله ﷺ السُّفلى ، وشقـّت شفَته ، وكُلِم في وَجنته وجَبهته في أصول شعَره ، وعلاه ابن قـَمِئة بالسيف على شِقـّه الأيمن ، وكان الذي أصابه عتبَة بن أبي وقـّاص .

عن أنس بن مالك قــال :

لمـّا كان يومُ أُحد كُسِرت رَباعية رسولِ الله ﷺ وشُجَّ ، فجعل الدمُ يَسيلُ على وَجهه ، وجعل يمسحُ الدمَ عن وجهه ويقول : « كيف يُفلحُ قومٌ خَضَبوا وجهَ نَبيـّهم بالدمِ ، وهو يدعوهم إلى اللهِ تعالى ! » . فأنزل اللهُ عزّ وجلَّ : « ليس لك من الأمرِ شيءٌ أو يَتوبَ عليهم » . الآية . وقد قال رسولُ الله ﷺ حين غَشيـَه القومُ : « مَن رجلٌ يَشرِي لي نفسَه ؟ » .

... عن محمود بن عَمرو بن يزيد بن السَّكَن قال : فقام زياد بن السَّكَن في نَفَرٍ خمسةٍ من الأنصار — وبعض الناس يقول : إنما هو عمارة بن زياد ابن السَّكن — فقاتلوا دونَ رسول الله ﷺ رجلاً ثمّ رجلاً ، يُقتَلون دونَه حتى كان آخرهم زيادَ بن عمارة بن زياد بن السكن ، فقاتل حتى أثبتته الجِراحة ، ثم فاءت من المسلمين فئةٌ حتى أَجهضُوهم عنه ، فقال رسولُ الله ﷺ : أدنوه منّي . فأدنَوه منه فوسّدَه قَدَمَه ، فمات وخَدُّه على قَدَمِ رسول الله ﷺ . وتَرَّسَ مِن دون النبيّ ﷺ أبو دُجانةَ بنفسه ، يقع النَّبْلُ في ظَهره وهو منْحَنٍ عليه حتى كَثرت فيه النّبلُ . ورمى سعدُ بن أبي وقـّاص دونَ رسول اللهِ ﷺ . قال سعدٌ : فلقد رأيته يناولني ويقول : فِداك أبي وأمي ، حتـّى إنّه ليَناولني السهمَ ما فيه نَصْلٌ فيقول : ارمِ به !

---

(١) الرباعية : السن التي بين الثنية والناب .

وعن محمد بن إسحاق قال حدّثني عاصم بن عمرو بن قَتادة أنّ رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سِيَتها [1] ، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عينُ قَتادة حتى وقعت على وَجنته .

وعن محمّد بن إسحاق قال : حدّثني عاصم بن عمرو بن قَتادة أنّ رسول الله ﷺ رَدَّها بيده فكانت أحسنَ عينيه وأحَدَّهما . وقاتل مصعب بن عميرٍ دونَ رسول الله ﷺ ومعه لِواؤه حتى قُتل ، وكان الذي أصابه ابن قَمِئة اللَيْثيّ وهو يظن أنّه رسول الله ﷺ ، فرجَع إلى قريش فقال : قد قتلت محمّداً ! فلمّا قُتل مُصعبُ بن عمير أعطى رسول الله ﷺ اللواءَ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام . وقاتل حمزةُ بن عبد المطّلب رضي الله عنه حتى قَتل أرطاةَ بن شُرَحبيلَ بن هاشم بن عبد مَناف بن عبد الدار بن قُصيّ ، وكان أحد النَفَر الذين يحملون اللِواء ، ثم مرّ به سِبَاع بن عبد العزّى الغُبْشانيّ ، وكان يكنى أبا نِيار ، فقال له حمزةُ : هَلُمَّ إليَّ يا بن مقَطّعة البظور — وكانت أُمُّه ختّانة بمكّةَ مولاةَ شَريق بن عمرو بن وَهب الثَقَفيّ — فلمّا التقيا ضربه حَمزة عليه السلامُ فقتله ، فقال وَحشيٌّ غُلام جُبير بن مُطعِم : إني لأنظر إلى حمزةَ يَهُذّ [2] الناس بسيفه ما يُلِيق [3] شيئاً يَمُرُّ به ، مثلَ الجمل الأورق ، إذ تقدَّمني إليه سِباع بن عبد العزّى فقال له حمزة : هَلُمَّ إلي يا ابن مقطّعة البُظور . فضربه فما أخطأ رأسَه ، وهززت حَرْبَتي حتى إذا ما رضيت دَفعتُها عليه فوقعت عليه في لَبّته [4] حتى خرجت من بين رجليه ، وأقبل نحوي فغُلب فوقع فأمهلته حتى إذا مات جئتُ فأخذت حَربتي ثم تَنحيّتُ إلى العَسْكَر ولم يكن لي بشيءٍ حاجةٌ غيرِه . وقد قُتل عاصم بن ثابت بن أبي الأقْلَح ،

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .
(٢) يهذ : يقطع .
(٣) ما يليق شيئاً : ما يبقي على شيء .
(٤) اللبة : صفحة العنق .

أحدُ بني عمرو بن عوف ، مُسافِعَ بن طلحةَ وأخاه كلابَ بن طلحة ، كلاهما يُشعرُه سَهماً (١) فيأتي أمَّه فيضعُ رأسَه في حِجْرِها فتقول : يا بُنَيَّ مَن أصابك ؟ فيقول : سمعت رجلاً يقول حينَ رماني : خُذْها إليكَ وأنا ابن أبي الأقْلح ! فتقول : أقْلَحيٌّ ؟! فنَذَرَتْ لله إن اللهُ أمكَنَها من رأسِ عاصمٍ أن تشرَبَ فيه الخمرَ . وكان عاصمٌ قد عاهد اللهَ عزَّ وجلّ أن لا يَمَسّ مُشرِكاً ولا يَمَسَّه .

عن ابن إسحاقَ قال حدّثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع ، أخو بني عَدِيٍّ بن النجار قال : انتهى أنَسُ بن النضْرِ ، عمُّ أنَس بن مالك ، إلى عُمرَ بن الخطاب وطلحةَ بن عبيد الله ، في رجالٍ من المُهاجرين والأنصار ، وقد ألقَوا بأيديهم ، فقال : ما يُجلِسُكم هَهنا ؟ فقالوا : قُتل رسول الله ﷺ ! قال : فما تصنَعُون بالحياة بعدَه ؟ قُوموا فموتوا كِراماً على ما مات عليه . ثم استقبل القومَ فقاتل حتى قُتل ، وبه سُمّيَ أنَس ابن مالك .

عن ابن إسحاق قال : حدثني حُميد الطويل عن أنَس بن مالك قال :

لقد وَجَدنا بأنسِ بن النضْرِ يومئذٍ سبعين ضربةً وطعنةً ، فما عرفته إلاّ أختُه ، عرفته بحُسْن بَنانِه .

عن ابن إسحاق قال : كان أوّلَ من عرَف رسولَ الله ﷺ بعد الهزيمة وقولِ الناس : قُتل رسول الله ﷺ – كما حدّثني ابن شِهاب الزُّهريُّ – كعبُ بن مالك أخو بني سَلِمة . قال : عرفتُ عَينَيه تَزْهَران تحت المِغفَر ، فناديت بأعلى صوتي : يا معشرَ المسلمين ، أبْشِروا ، هذا رسولُ الله ﷺ ! فأشار إليّ عليه السلام : أنْ أنصِتْ . فلمّا عرَف المسلمون رسول الله ﷺ نَهَضوا به ، ونهض نحو الشِعْب معه أبو بكر بن أبي قُحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعليُّ بن أبي طالب ، وطلحةُ بن عبيد الله ، والزبير بن

---

(١) أشعره السهم : خالطه به

العَوّام ، والحارثُ بن الصِّمّة ، في رَهْطٍ من المسلمين رضي الله عنهم أجمعين . فلما أَسْنَد [١] رسول الله ﷺ في الشِّعب ، أدركه أُبَيُّ بن خلَف وهو يقول : يا محمّد لا نجوتُ إن نجوتَ ! فقال القوم : يا رسولَ الله أيعطِفُ عليه رجلٌ منا ؟ فقال : دَعوه . فلمّا دنا تناول رسولُ الله ﷺ الحَرْبةَ من الحارث بن الصِّمّة . قال : يقول بعضُ الناس فيما ذُكِر لي : فلمّا أخذها رسولُ الله ﷺ انتفض بها انتفاضةً تَطايَرْنا عنه تَطايرَ الشَّعْراءِ [٢] عن ظهر البَعير إذا انتفض ، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنةً تَدَأْدأ [٣] بها عن فَرَسه مِراراً . وكان أُبَيُّ بن خلَف — كما حدّثنا ابن حميد قال حدّثنا سَلَمة عن ابن إسحاق عن صالح عن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف — يَلقى رسولَ الله ﷺ بمكّة فيقول : يا محمّد ، إنّ عندي العَوْدَ [٤] أعْلِفه كلَّ يومٍ فَرْقاً من ذُرةٍ [٥] أقتلك عليه ! فيقولُ رسولُ الله ﷺ : بل أنا أَقتلك إن شاء اللهُ تعالى . فلمّا رجَع إلى قريش وقد خَدَشه في حَلْقِه خَدْشاً غيرَ كبيرٍ ، فاحتقَن الدَمُ قال : قَتلني واللهِ محمدٌ ! قالوا : ذَهب واللهِ فؤادك ، واللهِ ما بكَ بأسٌ . قال : إنّه كان بمكّة قال لي : أنا أَقتلك ، فواللهِ لو بَصَق عليَّ لَقَتلني . فمات عدوُّ الله بسَرِف [٦] وهم قافلون به إلى مكّة ، فلمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ دَرَقَته [٧] من المِهْراس [٨] ثم جاء به

---

(١) أسند في الشعب : ارتقى فيه .
(٢) الشعراء : ذباب يقع على الإبل ويؤذيها أذى شديداً .
(٣) تدأدأ : تدحرج .
(٤) العود : الجمل المسن .
(٥) الفرق : مكيال لأهل المدينة يسع ثلاثة أصوع .
(٦) سرف : موضع على مقربة من مكة .
(٧) الدرقة : الترس يتخذ من الجلد .
(٨) المهراس : ماء بجبل أحد .

إلى رسول الله ﷺ فشرب منه وغَسَل عن وجهه الدمَ ، وصَبَّ على رأسه وهو يقول : « اشتدَّ غضب اللهِ عزّ وجلّ على من دَمَّى وجهَ نَبيِّه » .

حَدّثنا محمد بن إسحاقَ قال : حدّثني صالح بن كَيْسانَ قال :

خرجت هِندٌ والنِسوة اللواتي معها يُمَثِّلْنَ بالقَتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يَجْدَعْنَ الآذانَ والآنُفَ ، حتى اتخذت هِندٌ من آذان الرجالِ وآنفِهم خَدَماً [1] وقلائدَ ، وأعطت خَدَمها وقلائدها وقُرطَها وَحشياً ، غُلامَ جبير بن مطعِم ، وبَقَرت عن كَبِد حَمزةَ عليه السلام ، فأخرجت كَبِدَه فلاكَتْها ، فلم تستطعْ أن تُسيغَها فلفظتها ، ثم علت على صَخرة مُشرِفةٍ فصاحت بأعلى صَوتها بما قالت من الشِعر حين ظَفِروا بما أصابوا من رسول الله ﷺ .

قال محمد بن جَرير : ثمّ إن أبا سفيان بن حَرب أشرف على القوم فيما حَدّثنا هارون بن إسحاق قال : حدّثنا مُصعب بن المِقدام قال حدّثنا إسرائيل ، وحَدّثنا ابن وَكيع قال : حَدّثنا أبي عن إسرائيل قال حَدّثنا ابن إسحاقَ عن البَراء قال :

ثم إنّ أبا سفيان أشرف علينا فقال : أفي القومِ محمدٌ ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا تجيبوه ! مَرّتَين ، ثم قال : أفي القوم ابنُ أبي قُحافةَ ؟ ثلاثاً . فقال رسول الله ﷺ : لا تجيبوه ! . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمّا هؤلاء فقد قُتلوا ، لو كانوا في الأحياء لأجابوا ! فلم يَملِك عمر بن الخطّاب رَضي الله عنه نَفسَه أن قال : كَذبتَ يا عَدوَّ الله ، قد أبقى الله لك ما يُخزيك فقال : أعلِ هُبَلُ [2] ، أعلِ هُبَل ! فقال رسول الله ﷺ : أجيبوه . قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا « الله أعلى وأجلّ » قال أبو

---

(١) الخدم جمع خدمة : الخلخال .

(٢) هبل : كبير أصنام الكعبة . وأعل هبل : أي أظهر دينك .

سفيان : لنا العُزّى ولا عُزّى لكم . فقال رسول الله ﷺ : أجيبوه . قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يومٌ بيوم بدر ، والحرب سِجالٌ ، أما إنكم ستجدون في القوم مُثلاً [1] لم آمُرْ بها ولم تسؤني .

قال ابن إسحاق في حديثه :

لمّا أجاب عمر رضي الله عنه أبا سفيان قال له أبو سفيان : هلمَّ يا عمر . فقال رسول الله ﷺ : إيتِهِ فانظرْ ما شأنه ؟ فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشُدك اللهَ يا عمرَ أقتلنا محمداً ؟ فقال عمر : اللهمّ لا ، وإنه ليسمع كلامَكَ الآنَ . قال : أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرُّ ؛ لِقول ابن قمئة لهم : إنّي قتلت محمّداً . ثم نادى أبو سفيان فقال : إنّه قد كان مُثَلٌ ، والله ما رضيت ولا سخطت ، ولا أمرتُ ولا نهيت . وقد كان الحُلَيس بن زبّان ، أخو بني الحارث بن عبد مَناةَ ، وهو يومئذ سيّد الأحابيش ، قد مرّ بأبي سفيان بن حرب وهو يضرب في شدق حمزةَ عليه السلام وهو يقول : ذُقْ عُقَقُ [2] ! فقال الحليسُ : يا بني كنانةَ ، هذا سيّد قريش يصنع بابن عمّه كما ترون لحماً ! [3] فقال : اكتُمْها عليَّ فإنّها كانت زلّةً قال : فلمّا انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : أنْ موعدكم بدرٌ ، العامَ المقبلَ . فقال رسولُ الله ﷺ وآله لرجلٍ من أصحابه : « قل : نعم ، هي بيننا وبينك موعدٌ » . ثم بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام فقال : « اخرجْ في آثارِ القوم فانظرْ ماذا يصنعون ، فإن كانوا قد جنّبوا [4] وامتطوا الإبل فإنّهم يريدون مكّةَ ،

(١) المثل ج مثلة (بضم الثاء وإسكانها) : التنكيل .

(٢) ذق عقق : أراد : ذق جزاء فعلك يا عاق ، وعقق معدوله عن عاق .

(٣) لحماً : أي ميتاً

(٤) جنبوا : أي ساقوا خيولهم إلى جنبهم وذلك دليل على أنهم ينتوون سيراً طويلا ، فهم يمتطون الإبل ويجنبون الخيل .

وإن ركبوا الخيلَ وساقوا الإبل فهم يُريدون المدينةَ ، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم ثم لأناجزنّهم » .

قال عليٌّ : فخرجت في آثارهم أنظر ما يصنعون ، فلمّا جنّبوا الخيل وامتطَوا الإبل توجّهوا إلى مكة ، وكان رسول الله ﷺ قال لي : « أيَّ ذلك كان فأخْفِه حتى يأتيَني » .

قال عليٌّ : فلمّا رأيتهم قد توجّهوا إلى مكّة أقبلت أصيح ، ما أستطيعُ أن أكتمَ الذي أمرني به رسول الله ﷺ ، لِما بي من الفرَح ، إذ رأيتهم انصرفوا إلى مكّةَ عن المدينة ، وفرّغ الناس لقتلاهم . فقال رسول الله ﷺ : « مَن رَجلٌ ينظر لي ما فعَل سعد بن الرَّبيع — وسعدٌ أخو بني الحارث بن الخزرَج — أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ » . فقال رجلٌ من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعَل . فنظر فوجَده جريحاً في القتلى به رَمَقٌ . قال : فقلت له : إنّ رسولَ الله ﷺ أمرني أن أنظرَ له أفي الأحياءِ أنت أم في الأموات ؟ قال : فأنا في الأموات . أبلِغْ رسولَ الله ﷺ وقل له : إنّ سَعد بن الرَبيع يقول لك : جزاكَ الله خيرَ ما جزى نبيّاً عن أمّته ، وأبلغ قومك عنّي السلامَ وقل لهم : إن سَعد بن الربيع يقول : لا عذْرَ لكم عندَ الله جلّ وعزّ إن خُلِصَ إلى نَبيِّكم وفيكم عينٌ تَطرِف . ثم لم أبرَحْ حتى مات رَحِمه الله ، فجئت رسول الله ﷺ وأخبرته .

وخرج رسول الله ﷺ ، فيما بلَغني ، يلتمس حَمزةَ بن عبد المطلب عليه السلام ، فوجده ببطن الوادي قد بُقِر بطنه عن كَبِده ، ومُثِّل به فجُدِع أنفه وأذناه ..

* * *

فهرست الكتاب

اختيارات
من
كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

القسم الثالث

العصر الأموي

- أ -

صنعة

الدكتور إحسان النص

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

اختيارات
من
كتاب الأغاني
لأبي الفرج الأصفهاني

الطبعة الثانية

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقدّمة

الجزء الثالث من الاختيارات

إنّ كثرة التراجم التي أوردها أبو الفرج في الأغاني هي لشعراء العصر الأمويّ ، ولذلك أفردت لهذه التراجم جزأين من الاختيارات . وقد صنّفت شعراء العصر الأموي وفق الأغراض التي اشتهروا بها ، واتجاهاتهم الشعرية البارزة . فتناولت أولاً شعراء الأحزاب السياسية والفرق الدينية ، وألحقت بهم الشعراء الذين اشتهروا بالمديح والهجاء عامة ، لأن الشعر السياسي لا يخرج ، في جُلّه ، عن المديح والهجاء . وكذلك ألحقت بهم شعراء الفتوح ، ومن ذكرهم صاحب الأغاني منهم قِلّة .

ثم أوردت أخبار الشعراء الغزلين ، ثم أخبار الشعراء الذين لم يكن لهم اختصاص واضح بواحدٍ من الاتجاهات السابقة الذكر وإنما قالوا الشعر في أغراض شتى ، وأخيراً تناولت تراجم الرجّاز وجعلتهم زمرةً قائمة بذاتها . وقد رتبت شعراء كل من هذه الاتجاهات على الأحرف ، دون اعتبارٍ لحظهم من الشهرة والفحولة .

وقد بلغت تراجم شعراء هذا الجزء نيّفاً وعشرين ترجمةً ، وتراجم شعراء العصر الأموي عامة زهاء خمس وخمسين .

وجريت على الخطة التي انتهجتها في الجزأين الأول والثاني من حذف

الأسانيد والاقتصار على راوي الخبر الذي ينتهي إليه الإسناد ، وتصنيف الأخبار وترتيبها ، وحذف المكرّر منها والاقتصار على رواية واحدة إذا تعدّدت الروايات ، وتفضيل الرواية التي تبدو لي أدنى إلى الصحّة ، وكذلك حذف ما فيه فحش وبذاءة سواء في الأخبار أم في الأشعار ، والاجتزاء بأبيات من القصيدة إذا طالت ، والاجتهاد في تصويب بعض ما وقع من تحريف أو تصحيف في رواية الشعر ، مع العناية بضبط الأشعار بالشكل حرصاً على سلامة روايتها ، وأخيراً عنيت بشرح الغامض من الألفاظ والمعاني في الحاشية اتماماً للفائدة .

والله وليّ التوفيق

دمشق في ١/٩/٨٠

إحسان النص

أولاً — شعراء السياسة والمديح والهجاء .

١

ابن ميّادة

(الأغاني ج ٢ ص ٢٦١ وما بعدها)

الشاعر

اسمه الرمّاح بن أبْرَد ... بن مُرّة بن عوف بن سَعد بن ذُبيان .. وأمّه ميّادةُ أمّ وَلد بَربرية ، ورُوي أنّها كانت صَقلبيّة . ويُكنى أبا شُرَحبيل ، وقيل بل يَكنى أبا شَراحيل . وكان ابن ميّادة يزعم أنّ أمّه فارسيّة ، وذكر ذلك في شعره فقال :

أنا ابنُ أبي سَلمى وجَدّي ظالمٌ
وأمّي حَصانٌ أخلصتْها الأعاجمُ

أليس غُلامٌ بين كِسرى وظالمٍ
بأكرمَ مَن نيطت عليه التّمائمُ

* عاش ابن ميادة مخضرماً بين العصرين الأموي والعباسي ولكنه قال أكثر شعره في العصر الأموي وفي مديح الوليد بن يزيد ولذلك أدرجناه في عداد شعراء العصر الأموي .

موسى بن سيّار بن نَجيح المُزنيّ قال : أنشدني ابن ميّادة أبياته التي يقول فيها :

أليس غلام بين كسرى وظالم
بأكرم من نيطت عليه التمائم

فقلت له : لقد أشحطت بدار العجوز ، وأبعدت بها النُجعة ، فهلاّ غرّبت . (يريد أنها صقلبيّة ومحلّها بناحية المغرب) . فقال : إي ، بأبي أنت ، إنّه من جاع انتجع ، فدعْها تَسِر في الناس فإنّه من يَسمعْ يَخلْ (١) .

وابنُ ميّادة شاعرٌ فصيحٌ مُقدَّم مُخضرَم من شعراء الدولتين . وجعله ابن سلاّم في الطبقة السابعة ، وقرن به عُمر بن لَجأ ، والعُجَيف العُقَيليّ ، والعُجَير السَلُوليّ (٢) .

عن ابن الأعرابيّ قال : كان ابن ميّادة عِرّيضاً للشرّ ، طالباً مُهاجاة الشعراء ومُسابة الناس ، وكان يضرب بيده على جَنْب أمه ويقول :

إعْرَنْزِمي مَيادَ للقوافي (٣)

أي أني سأهجو الناس فيهجونك .

وأخبرنا يحيى بن عليّ عن أبي هفّان بهذه الحكاية مثله ، وزاد فيهـا :

اعْرنزمي ميادَ للقـوافـي   واستَسمْعيهنّ ولا تخـافي

(١) هذا مثل معناه أن من يسمع أخبار الناس ومعايبها يقع في نفسه عليهم المكروه .
(٢) هذا ما ذكره أبو الفرج نقلا عن ابن سلام في طبقات، في حين ان كتاب الطبقات لم يذكر ابن ميادة وقد جعل بن سلام عمر بن لجأ في الطبقة الرابعة ، والعجير السلولي في الطبقة الخامسة والقحيف العقيلي في العاشرة ، وقد ورد اسم القحيف مصحفاً في الاغاني : (العجيف) .
(٣) اعرنزمي : اشتدى

ستجد بن ابنكِ ذا قِذافٍ [1]

عن عَجرمة قال :

كان ابن مَيادة أحمرَ سَبْطاً [2] ، عظيم الخَلْق ، طويلَ اللِحية ، وكان لَبّاساً عَطِراً ما دنوتُ من رجلٍ كان أطيب عَرْفاً منه .

أبو داود قال : سمعتُ شيخاً عالماً من غطفان يقول : كان الرّمّاح أشعر غطَفان في الجاهلية والإسلام ، وكان خيراً لقومه من النابغة ، لم يمدح غير قريش وقيس ، وكان النابغةُ إنما يَهذي باليمن مُضَلَّلاً حتى مات [3] .

قال اسحاق : وحدّثني أبو داود أنّ بني ذُبيان تزعمُ أنّ الرماح بن ميّادة كان آخر الشعراء . قال إسحاق : وحدّثني أبو صالح الفَزاريّ أنّ القاسم بن جُنْدَب الفزاريَّ ، وكان عالماً ، قال لابن ميادة : واللهِ لو أصلحت في شعرك لذُكرت به ، فإني لأراه كثير السَقَط . فقال له ابن ميادة : يابن جُنْدَب ، إنما الشعر كنَبْلٍ في جَفيرك [4] ترمي به الغَرَض ، فطالعٌ وواقعٌ وعاصدٌ [5] وقاصد .

عمر بن شَبة قال : كان ابن مَيّادة حديث العهد لم يُدرك زمانَ قُتيبة بن مُسلم ولا دخل فيمن عَناه حين قال: « أشعر قيس الملقبُون من بني عامر والمنسوبون إلى أمّهاتهم من غطفَان » ، ولكنّه شاعرٌ مُجيد كان في أيّام هشام بن عبد الملك وبقي إلى زمن المنصور .

أخبرنا يَحيى بن عليّ قال : كان ابن مَيّادة فصيحاً يُحتجّ بشعره ،

---

(١) استسمي : اسمي . القذاف : المراماة والمناضلة .

(٢) السبط : الطويل الجسم المستوي القامة .

(٣) يشير إلى مدائح النابغة للنعمان بن المنذر والغساسنة وكلاهما من اليمن .

(٤) الجفير : جعبة السهام . العاصد : الذي لا يصيب الهدف .

وقد مدح بني أمية وبني هاشم : مدح من بني أميّة الوليد بن يزيد وعبد الواحد بن سليمان ، ومدح من بني هاشم المنصور وجعفر بن سُليمان .

صلته بآل زهير بن أبي سلمى

عن أبي داود قال :

أُمّ بني ثَوْبان ، وهم أَبْرَد ، أبو ابن ميّادة ، والعَوْثَبان وقريض وناعضة — وكان العوثبان وقريض شاعرين — أُمّهم جميعاً سَلمى بنت كعب بن زهير بن أبي سُلمى . ويقال إنّ الشعر أتى ابن ميّادة عن أعمامه من قِبَل جدّهم زهير .

قال إسحاق في خبره هذا : وحدّثني حُميد بن الحارث أنّ عُقْبَة ابن كعب بن زهير نزل المُلَيْحة على بني سَلْمى بن ظالم فأكلوا له بعيراً . وبلغ ابن ميّادة أن عُقبة قال في ذلك شعراً ، فقال ابن ميّادة يردّ عليه :

ولقد حلفتُ بربّ مكّةَ صادقاً
لولا قرابةُ نِسوةٍ بالحاجرِ
لكسوتُ عُقبةَ كُسوةً مشهورةً
تَرِد المناهلَ من كلامٍ عائرِ (١)

وهي قصيدة . فقال له عُقبة :

لَوْ ما أنّني أصبحتُ خالاً
وذكرُ الخالِ ينقُص أو يزيدُ
لقد قلّدت من سَلمى رجالاً
عليهم مَسْحةٌ وهمُ العبيدُ

---

(١) الحاجر : موضع بنجد كان آل زهير ينزلونه . العائر : السائر من الكلام .

فقال ابن ميّادة :

ان تكُ خالُنا فقبُحتَ خالاً
فأنتَ الخالُ تنقصُ لا تزيدُ
فيوماً في مُزينةَ أنت حرٌّ
ويوماً أنت مَحتدكَ العبيدُ
أحقُّ الناس أن يلقى هَواناً
ويؤكلُ مالُه العبدُ الطريدُ

مفاخرته بنسبه

قال يحيى بن عليّ : قال ابن ميّادة يفتخر بأُمّه :

أنا ابنُ ميّادة تهوي نُجُبي
صَلْتُ الجبين حَسَنٌ مُركّبي
ترفعني أُمّي وينميني أبي
فوق السحابِ ودُونَ الكوكبِ (١)

عن أبي داود الفزاريّ أنّ ابن ميّادة قال يفخر بنسب أبيه في العرب ونسب أُمّه في العجم :

أليس غُلامٌ بين كِسرى وظالمٍ
بأكرمَ مَن نيطت عليه التمائمُ
لو انّ جميع الناس كانوا بتَلْعةٍ
وجئتُ بجَدّي ظالمٍ وابن ظالمٍ
لظلّت رقابُ الناس خاضعةً لنا
سجُوداً على أقدامنا بالجماجم (٢)

---

(١) صلت الجبين : واضح الجبين ، أبلج . المركب : الأصل والمنبت . ينميني : يرفعني .
(٢) التلعة : ما ارتفع من مسايل الماء .

عن أبي عبيدة قال :

كان ابن ميّادة واقفاً في المَوْسم ينشد :

لو انّ جميع الناس كانوا بتَلْعــة

وذكر تمام البيت والذي بعده . قال : والفرزدق واقفٌ عليه ، في جماعةٍ ، وهو ملثّمٌ . فلمّا سمع هذين البيتين أقبل عليه ثم قال : أنت يابنَ أبْرد صاحبُ هذه الصفة ! كذبت والله وكذب مَن سمع ذلك منك فلم يُكذّبك . فأقبل عليه فقال : فمَهْ يا أبا فِراس . فقال : أنا والله أولى بهما منك . ثم أقبل على راويته فقال : اضمُمْهما إليك :

لو ان جميع الناس كانوا بتَلعةٍ وجئت بجدّي دارمٍ وابن دارم
لظلّت رقاب الناس خاضعةً لنا سجُوداً على أقدامنا بالجماجم

قال : فأطرق ابن ميّادة فما أجابه بحرف ، ومضى الفرزدق فانتحلهمــا .

مُهاجاته الحكَم الخُضْريّ

عن عبد الرحمن بن الأحول التغلبيّ ثم الخولانيّ قال :

كان أوّل ما بدأ الهجاءُ بين ابن ميّادة وحكَم بن مَعْمَر الخُضْريّ أنّ ابن ميّادة مرّ بالحكَم بن مَعْمَر وهو يُنشد في مُصلّى النبيّ ﷺ في جماعة من الناس قوله :

لمِن الديار كأنّهــا لم تُعمَرِ
بين الكِناس وبين بُرْقِ مُحَجّرِ [٢]

(١) الكناس : موضع في بلاد غني أو في بلاد عبد الله بن كلاب . البرق ج برقة : وهي الأرض الغليظة التي يختلط فيها الرمل بالحجارة . محجر : اسم موضع في بلاد قيس عيلان أو ماء لهم .

حتّى انتهى إلى قوله :

يا صاحبيَّ ألم تَشيما بارقـاً
نُضِحَ الصُّرادُ به فهَضْبُ المَنْحَرِ
قد بتّ أرقُبُهُ وبات مُصعِّداً
نَهضَ المُقيَّد في الدَّهاس المُوقَر (١)

فقال ابن ميّادة : ارفع إليّ رأسك أيّها المُنشد . فرفع حكمٌ اليه رأسه ، فقال له : مَن أنت ؟ قال : أنا حكم بن معْمَر الخُضْريّ . قال : فواللهِ ما أنت في بيت حسبٍ ، ولا في أرُومة شعر . فقال له حكم : وماذا عِبت من شعري ؟ قال : عِبت أنك أدهَسْت وأوقرت . قال له حكم : ومن أنت ؟ قال : أنا ابنُ ميّادة . قال : ويحَك ! فلمَ رغبتَ عن أبيك وانتسبت إلى أمّك ؟ قبح الله والدَيْن خيرُهما ميّادة ، أما والله لو وجدتَ في أبيك خيراً ما انتسبت إلى أمّك راعيـةِ الضأن . وأمّا إدهاسي وإيقاري فإنّي لم آتِ خيبَرَ إلاّ ممتاراً لا مُتحاملاً (٢) ، وما عَدَوتَ أن حكيتَ حالكَ وحال قومك ، فلو كنت سكتَّ عن هذا لكان خيراً لك وأبقى عليك . فلم يفترقا إلاّ عن هجاء .

... عُمير بن ضَمْرة الخُضْريّ قال :

أوّل ما هاج الهجاء بين ابن ميّادة وبين حكَم بن معْمَر ... بن مالك ابن طريف بن مُحارب — قال : والخُضْر ولَد مالك بن طريف ، سُمّوا بذلك لأن مالكاً كان شديد الأُدْمة ، وكذلك خرج ولده فسُمّوا

(١) الصراد : موضع تلقاء يأجج أو موضع من ديار بني أسد . هضب المنحر : هضاب حمر في أرض بني ثعلبة . الدهاس : المكان السهل اللين تغيب فيه قوائم الإبل ويعسر فيه المشي . الموقر : المحمل ، صفة المقيد ، وفي معجم البكري مكان المقيد : المعبد وهي صفة البعير المذلل .
(٢) الممتار : جالب الميرة ، والمتحامل : الذي يتكلف الحمل بالأجرة ليكسب مالا .

الخُضْر ـ أنّ حكماً نزل بسُمَير بن سَلمة ... فأقبل ابن ميّادة إلى حكم ليعرضَ عليه شعره وليسمعَ من شعره ، وكان حكمٌ أسَنّهما . فأنشدا جميعاً جماعةَ القوم ، ثم قال ابن ميّادة : والله لقد أعجبني بيتان قُلتَهما يا حكم . قال : أوَ ما أعجبك من شعري إلاّ بيتان ! فقال : والله لقد أعجباني ، يُردّد ذلك مراراً لا يَزيده عليه . فقال له حكم : فأيُّ بيتَين هما ؟ قال : حين تُساهم بين ثوبيها وتقول :

فوالله ما أدري أَزِيدت مَلاحةً
وحُسناً على النِسْوان أم ليس لي عَقْلُ

تَساهَمَ ثَوباها ففي الدِرْع غادةٌ
وفي المِرْط لَفّاوان رِدْفُهُما عَبْلُ (١)

فقال له حكم : أوَ ما أعجبك غير هذين البيتَين ؟ فقال له ابن ميّادة : قد أعجباني فقال : أوَ ما في شعري ما أعجبك غيرُهما ؟ فقال : لقد أعجباني . فقال له حكم : فإنّي سوف أَعيب عليك قولك :

ولا بَرِح المدْور رَيّانَ مُخصِباً
وجِيدَ أَعالي شِعْبِه وأسافِلُهْ (٢)

فاستسقيت لأعلاه وأسفله وتركت وسطه ، وهو خيرِ موضعٍ فيه . فقال : وأيّ شيءٍ تريد ! تركته لا يزال ريّان مُخصباً . وتَهاترا ، فغضب حكم فارتحل ناقته وهدَر ثم قال :

فإنّه يومُ قَريضٍ ورَجَزْ

فقال رجلٌ من بني مُرّة لابن ميّادة : اهدِرْ كما هدَر يا رَمّاح .

---

(١) تساهم ثوباها : تقارعا وتقاسما كل منهما أخذ نصيباً منها . الدرع : القميص . المرط : كساء صوف أو خز ويبدو من الوصف أنه يلبس مع الدرع ، الدرع لأعلى الجسم والمرط لما دونه . فخذ لفاء : ممتلئة مكتنزة اللحم . عبل : ضخم .
(٢) المدور : موضع في بلاد غطفان . جيد : سقي مطراً غزيراً .

فقال : إنّما يَغيطُ البَكْر [1] . ثم قال الرمّاح :

فإنّـــه يوم قريضٍ ورجَزْ مَن كان منكم ناكزاً فقد نَكَزْ
وبيّنَ الطّرفُ النجيبُ فبرَزْ [2]

... قال عُمير بن ضمرة : فهذا أوّل ما هاج التهاجي بينهما .

ولحكم الخُضريّ وابن ميّادة مناقضاتٌ كثيرة وأراجيز طِوال ... فممّا قاله حكم في ابن ميّادة قوله :

فيا مُرُّ قد أخزاكِ في كُلّ موطنٍ من اللؤم خَلاّتٌ يزِدنَ على العَشْرِ
فمنهنّ ان العبدَ حامي ذِماركم وبئس المُحامي العبدُ عن حَوزة الثّغْر
ومنهنّ أن لم تَمسَحُوا وجهَ سابقٍ جَوادٍ ولم تأتُوا حَصاناً على طُهر
ومنهنّ أنّ الميْت يُدفَن منكم فيفسو على دُفّانه وهو في القبر
ومنهنّ أنّ الجار يسكن وَسْطَكم بريئاً فيُلقَى بالخيانة والغَــدْر
ومنهنّ أن الشيخ يُوجَد منكم يَدِبّ إلى الجارات مُحدَوْدِبَ الظهر
تَبيتُ ضِبابُ الضِّغْن تَخشى احتراشها
وإن هي أمست دونَها ساحلُ البحر [3]

فأجابه ابن ميّادة بقصيدة طويلة منها قوله مُجيباً له عن هذه الخصال التي سبّهم بها :

لقد سبقتْ بالمُخزيات مُحارِبٌ
وفازت بخَلاّتٍ على قومهـــا عَشْرِ

---

(١) يغط : يهدر في شقشقته . البكر : الفتيّ من الابل .
(٢) نكزت الحية : لسعت بأنفها ونكز فلان : نكص ودفع . الطرف : الكريم من الخيل .
(٣) مر : مرخم مرة ، قبيلة ابن ميادة . الحصان : المرأة العفيفة . احترش الضب : أتى حجره وقعقع له بالعصا ثم أدخل طرفها في الحجر لحمله على الخروج فيأخذه. شبه اثارة الأحقاد باحتراش الضباب .

فمنهنّ أن لم تعقِروا ذات ذِروةٍ
لِحقّ إذا ما احتِيج يوماً إلى العَقْـــر
ومنهـــنّ أن لم تمسَحوا عربيّـــةً
من الخيل يوماً تحتَ جُلٍّ على مُهرِ
ومنهنّ أن كانت شيوخ مُحاربِ
كما قدْ علمتم لا تَرِيشُ ولا تَبْـــري
ومنهنّ أخزى سَوءةٍ لو ذكرتُها
لكنتم عَبيداً تخدُمون بني وَبْــــرِ
ومنهنّ أنّ الضّأن كانت نساءَكم
إذا اخضرّ أطرافُ الشُمام من القَطـــر
ومنهنّ أن كانت عجوزُ محاربِ
تُريغ الصِّبا تحت الصَّفيح من القبر
ومنهنّ أنْ لو كان في البحر بعضُكم
لخبّثَ ضاحي جلده حَوْمَةَ البحرِ (٢)

عن ريّحان بن سُويد الحُضْريّ ، وكان راوية حكَم بن مَعمر الخضريّ ، قال :

---

(١) ذات ذروة : أي الناقة وذروتها سنامها ، الجل : بفتح الجيم وضمها ، ما تلبسه الدابة لتصان . لا تريش ولا تبري : أي ليس لها شأن فهي لا تضر ولا تنفع ، والمثل مأخوذ من برى السهم وراشه اذا جعل فيه الريش ، وفي هذا البيت يعرّض ابن ميادة ببني محارب حين هجاهم الأخطل بقوله :

تنق بلا شيء شيوخ محـــارب   وما خلتها كانت تريش ولا تبري

الوبر : دويبة غبراء على قدر السنور من دواب الصحراء ، ولا يتضح المقصود بقوله : بنو وبر ، ولعلها محرفة ، وقد فسرها في المطبوعة على أنها اسم بطن من بطون القبائل ولم نجد فيما رجعنا اليه من كتب الأنساب قبيلة بهذا الاسم إنما هناك وبرة .
الشمام : نبت لا يطول ترعاه الماشية . القطر : المطر ، يعيرهم بأنهم رعاة ضأن . تريغ : تطلب . ضاحي الجلد : ظاهره .

تواعد حكمٌ وابنُ ميّادة عَرَبجاء – وهي ماءةٌ – يتواقفان عليها . فخرج كلٌّ واحدٍ منهما في نفرٍ من قومه ، وأقبل صَخر بن الجَعْد الخُضريّ يَؤُمّ حَكَماً ، وهو يومئذ عدوٌّ لحكم لما كان فرَط بينهما من الهجاء ، في أركوب [1] من بني مازنَ بن مالك بن طريف بن خلف بن محارب . فلمّا لقيه قال له : يا حكم ، أهؤلاء الذين عَرّضتَ للموت ! وهم وُجوهُ قومك ! فوالله ما دماؤهم على بني مُرّة إلاّ كدماء جَداية [2] . فعرف حكمٌ أنّ قول صخر هو الحقّ فردّ قومَه وقال لصخر : قد واعدني ابن ميّادة أن يُواقفني غداً بعرَبجاء لأن أناشده . فقال له صخر : أنا كثير الإبـل – وكان حكم مُقِلاً – فإذا وردتْ إبلي فارتجِزْ ، فإنّ القوم لا يَشجعُون عليك وأنتَ وحدَك . فإن لقيتَ الرجل نَحر وأطعَم فانحَرْ وأطْعِمْ وإن أتيتَ على مالي كُلّه . قال رَيحان راويتُه : فورد يومئذ عَرَبجاء ، وأنا معه، فظلّ على عريجاء ولم يلقَ رَمّاحاً ولم يُوافِ لِموعده ، وظلّ يُنشد يومَئذٍ حتّى أمسى ، ثم صرف وجوه إبل صخرٍ وردّها .

وبلغ الخبرُ ابنَ ميّادة وموافاة حكمٍ لموعدِه ، فأصبح على الماء وهو يرتجز ويقول :

أنا ابنُ مَيّادةَ عَقّارُ الجُزُرْ
كلَّ صَفِيٍّ ذات نابٍ مُنفَطِرْ [3]

وظلّ على الماء فنحر وأطعم . فلمّا بلغ حكماً ما صنع ابن ميّادة من نحره وإطعامه شقّ عليه مَشقّةً شديدة .

---

(١) الأركوب : الركب .
(٢) الجداية : الغزال .
(٣) الصفي : الغزيرة اللبن . منفطر : مشقوق .

ثم إنهما توافيا بحِمَى ضَرِيَّة [1] . قال : فسبقْنا ابنَ ميّادة يومئذٍ فنزلنا على مَولاة لعُكَّاشة بن مُصعب بن الزُبير ذات مال ومنزلة من السلطان . قال : وكان حكم كريماً على الوُلاة هناك يُتّقى لسانهُ . قال رَيحان : فبينا نحن عند المولاة ، وقد حَططنا بَراذع دوابّنا ، إذا راكبان قد أقبلا ، وإذا نحن برمّاح وأخيه ثَوبان — ولم يكن لثوبان ضريبٌ في الشجاعة والجمال — فأقبلا يتسايران . فلمّا رآهما حكم عرفهما فقال : يا رَيحانُ ، هذان ابنا أبْرَد ، فما رأيُك ؟ أتَكْفيني ثوبانَ أم لا ؟ قال : فأقبلا نحونا ورمّاحٌ يتضاحك حتى قبض على يد حكم وقال : مَرْحَباً برجلٍ سَكتُّ عنه ولم يسكت عنّي ، وأصبحت الغَداةَ أطلب سَلْمَه يَسُوقني الذئبُ والسَنةُ [2] ، وأرجو أن أرعى الحِمى بجاهه وبَركته . ثمّ جلس إلى جنْب حكم ، وجاء ثوبان فقعد إلى جَنبي ، فقال له حكم : أما وربِّ المُرْسَلين يا رمّاحُ ، لولا أبياتٌ جعلت تعتصِم بهنّ وترجِع إليهنّ — يعني أبيات ابن ظالم — لاستوسقت [3] كما استوسق مَن كان قَبلك . قال ريحان : وأخذا في حديث أسمع بعضه ويخفى عليَّ بعضُه، فظَلِلنا عند المرأة ، وذُبح لنا ، وهما في ذلك يتحادثان ، مقبلٌ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه لا ينظران شَدَّنا ، حتى كان العِشاء ، فشدَدْنا للرَّواح نَوُمّ أهلنا ، فقال رمّاح لحكم : يا أبا مَنيع — وكانت كنية حكم — قد قضيتَ حاجتك وحاجةَ من طلبتَ له من هذا العامل ، وإنّ لنا إليه حاجةً في أن يُرْعِينَا . فقال له حكم : قد والله قضيتُ حاجتي منه ، وإنّي لأَكْرَهُ الرجوع إليه ، وما من حاجتك بُدّ . ثم رجع معه إلى العامل فقال له ، بعد الحديث معه : إنّ هذا الرجل مَن قد

---

(١) ضرية : من أشهر مياه بني كلاب في نجد واليه ينسب حمى ضرية وكان أول من أحماه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) الذئب والسنة : المجاعة والقحط .

(٣) استوسق : انقاد .

عرفتَ ما بيني وبينه ، وقد سأل الصُلح وأناب إليه ، فأحببت أن يكون ذلك على يدك وبمَحضَرِك . قال : فدعا به عامل ضَريَّة وقال : هل لك حاجةٌ غيرُ ذلك ؟ قال : لا واللهِ ؛ ونسي حاجة رمّاح ، فأذكرتُه إيّاها ، فرجع فطلبها واعتذر بالنسيان . فقال العامل لابن ميّادة : ما حاجتك ؟ فقال : تُرعِيني عُرَيجاءَ لا يَعرِضُ لي فيها أحدٌ . فأرعاه إيّاها . فأقبل رمّاح على حكم فقال : جزاك الله خيراً يا أبا مَنيع ، فواللهِ لقد كان ورائي من قومي مَن يتمنّى أن يرعى عُرَيجاء بنصف ماله . قال : فلمّا عزَما على الانصراف ودّع كل واحد منهما صاحبه وانصرفا راضيَين .

وانصرف ابن ميّادة إلى قومه فوجد بعضهم قد ركب إلى ابنِ هشام (١) فاستغضبه على حكم في قوله :

فما حملت مُرّيةٌ قطُّ ليلةً
من الدهر إلاّ زاد لُؤماً جَنينُها (٢)

فأطرده (٣) وأقسم لئن ظفر به ليُسَرجِنَنّه وليَحمِلنّ عليه أحدَهم . فقال رمّاح — وساءه ما صنعُوا — : عَمَدتم إلى رجلٍ قد صلح ما بيني وبينه وأُرعيتُ بوجهه فاستعدَيتُم عليه وجئتم بإطراده ! وبلغ الحكم الخبرُ فطار إلى الشام فلم يبرحها حتّى مات .

---

(١) ابن هشام : هو إبراهيم بن هشام المخزومي الذي ولي المدينة ومكة والطائف من قبل ابن أخته الخليفة هشام بن عبد الملك بين عامي ١٠٦ و ١١٣ هـ
(٢) في المطبوعة روايتان للشطر الأول من هذا البيت وقد آثرنا الرواية التي أثبتناها لمناسبتها ما في الشطر الثاني .
(٣) أطرده : أمر بطرده ونفيه .

أخباره مع سائر الشعراء

• أبو عليّ الكلبيّ قال :

اجتمع ابن ميّادة وشُقران مولى بني سَلامان عند الوليد بن يزيد ، فقال ابن ميّادة : يا أمير المؤمنين ، أتجمع بيني وبين هذا العبد ، وليس بمثلي في حسَبي ولا نسَبي ولا لِساني ولا مَنْصِبي ! فقال شُقران :

لَعَمْري لئن كنتُ ابنَ شيخيَ عشيرتي
هِرَقْلٍ وكِسرى ما أُراني مُقَصِّراً
وما أتمنّى أن أكون ابن نَزْوة
نَزاهاً ابنُ أرضٍ لم تجِد مُتَمَهَّرا
على حائلٍ تَلْوي الصِّرارَ بكفِّها
فجاءت بخَوّارٍ إذا عَضَّ جَرجرا (١)

قال يحيى بن خَلاّد عن أبي أيّوب بن عبد العزيز قال :

استأذن ابنُ ميّادة على الوليد بن يزيد ، وعنده شُقران مولى قُضاعة ، فأدخله في صُندوق وأذِن لابن ميّادة . فلمّا دخل أجلسه على الصُّندوق واستنشده هجاء شُقرانَ ، فجعل يُنشده ، ثم أمر بفتح الصُندوق ، فخرج عليه شُقران وجعل يَهدِر كما يهدر الفحل ويقول :

سأكعَمُ عن قُضاعةَ كلبَ قيسٍ على حَجَرٍ فيُنصِت للكِعامِ
أسير أمامَ قيسٍ كلَّ يومٍ وما قيسٌ بسائرةٍ أمامي (٢)

---

(١) ابن الأرض : كناية عن الغريب والضعيف . متمهراً من التمهر وهو طلب المهر واتخاذه . الحائل : غير الحامل . الصرار : ما يشد به ، وهو أيضاً خيط يشد فوق خلف الناقة لئلا يرضعها ولدها . الخوار : الضعيف . جرجر : صوت .

(٢) الكعم : شد فم البعير لمنعه من العض وشد فم الكلب لمنعه من العض والنباح . على حجر : أراد أنه سيلقمه الحجر ويمنعه من الكلام .

وقال أيضاً وهو يسمع :

إنّي إذا الشُعراءُ لاقى بعضُهم
بعضاً ببَلْقَعَةٍ يُريد نِضالَهـــا
وقفوا لمُرْتَجِزِ الهدير إذا دنـت
منه البِكارةُ قطّعتْ أبوالهَـــا
فتركتُهـــا زُمَراً تَرَمّز باللُّحَـى
منها عَنافِقُ قد حلَقتُ سِبالَها (١)

فقال له ابن ميّادة : يا أمير المؤمنين ، اكفُف عنّي هذا الذي ليس له أصلٌ فأحفِرَه ، ولا فرعٌ فأهصِرَه . فقال الوليد : أشهد أنك جرجرت كما قال شُقران :

فجاءت بخوّارٍ إذا عُضّ جرجرا

* قال يحيى في خبره :

واجتمع ابن ميّادة وعِقال بن هاشم بباب الوليد بن يزيد ، وكان عِقالٌ شديد الرأي في اليمن ، فغمز (٢) عِقالٌ ابن ميّادة واعتلاه ، فقال ابن ميّادة :

فجَرَنا ينابيع الكلام وبحـــرَه
فأصبح فيه ذو الرِّوايـــة يسبحُ
وما الشعرُ إلاّ شعرُ قيسٍ وخِنْدِف
وقولٌ سِواهم كُلفَةٌ وتَملُّح (٣)

(١) المرتجز : المتتابع . الهدير : صوت الناقة . البكارة ج بكرة وهي الفتية من الابل . شبه شعره بهدير البعير يخيف النوق الفتية . ترمز : اضطرب وتحرك . عنافق ج عنفقة : الشعرات بين الذقن وطرف الشفة السفلى . سبال ج سبلة : مجتمع الشاربين .
(٢) غمزه : عابه ونال منه .
(٣) الكلفة : التكلف . التملح : تكلف الملاحة والتظرف .

فقال عِقالٌ يُجيبه :

ألا أبلغ الرمّاحَ نَقْضَ مَقالـةٍ
بها خَطِلَ الرَمّاحُ أو كان يَمزحُ
لَئن كان في قيسٍ وخِنْدِفَ أَلْسُنٌ
طِوالٌ وشعرٌ سائرٌ ليس يُقدَحُ
لقد خرّق الحيُّ اليمانونُ قبلَهم
بُحورَ الكلام تُستقَى وهي تَطفَحُ
وهم علّموا مَن بعدَهم فتعلّمُوا
وهم أعربوا هذا الكلامَ وأوضحوا
فللسّابقين الفضلُ لا يُجحَدُونَه
وليس لمخلوقٍ عليهم تبجُّحُ (١)

* ... عبد الرحمن بن ضَبْعان المحاربيّ قال :

كان ابن ميّادة وحكمٌ الخُضْريّ وعَمَلّسُ بن عَقيل بن عُلّفة متجاورين مُتَحالّين ، وكانوا جميعاً يتحدّثون إلى أمّ جَحْدَر بنت حَسان المُرّيّة ، وكانت أمُّها مَولاةً ، ففضّلت ابنَ ميّادة على الحكم وعملّس ، فغضِبا . وكان ابن ميّادة قال في أمّ جَحْدَر :

ألا ليت شِعري هل إلى أُمّ جَحْدَرٍ
سبيلٌ فأمّا الصَبر عنها فـلا صَبْرا
ويا ليت شعري هل يَحُلّنّ أهلُها
وأهلكَ رَوْضاتٍ ببطن اللّوى خُضْرا

وقال فيها أيضاً :

---

(١) يشير في البيت الرابع إلى أن العدنانية أخذوا لغتهم عن القحطانية . تبجح : افتخار وتطاول .

إذا ركَدت شمسُ النّهار ووضّعت
طَنافسَها ولَيّنتَها الأعينَ الخزْرا (١)

الأبيات . فقال عَملّس بن عَقيل وحكم الحُضري يهجوانها — وهي تُنسب إلى حكم — :

لا عُوفيت في قبرها أمُّ جَحْدرٍ
ولا لَقِيت إلاّ الكلاليبَ والجَمْرا

كما حادثتْ عبداً لئيماً وخِلْتُه
من الزّاد إلاّ حَشْوَ رَيْطاته صِفْرا

فيا ليت شعري هل رأت أمُّ جحدر
أكُشّك أو ذاقت مَغابِنك القُشْرا

وهل أبصرت أرساغ أبْرَدَ أو رأت
قَفا أمّ رَمّاحٍ إذا ما استقت دَفْرا

وبالغَمْر قد صَرّتْ لِقاحاً وحادثت
عبيداً فسَلْ عن ذاك نَيّانَ فالغَمْرا (٢)

وقال عملّس بن عقيل بن عُلّفة — ويقال : بل قالها علّفة بن عقيل — :

فلا تضَعا عنها الطّنافس إنّما
يُقصّر بالمِرماةِ من لم يكن صَقْرا (٣)

(١) وضعت طنافسها : نضدتها ونظمتها . الخزر : ضيق العينين .
(٢) الكلاليب ج كلاب : الحديدة المعقوفة كالخطاف ، يتمنى لها أن تلقى العذاب وحر النار . كما حادثت : أراها محرفة عن : لما حادثت ، أي لمحادثتها . الريطة : الثوب اللين الرقيق ، وهي الملاءة أيضاً . صفر : خال . الكشة ، بضم الكاف : الخصلة في الشعر . المغبن : بطن الفخذ والإبط . الأقشر : الشديد الحمرة ، يعرضان به لكونه من أم صقلبية . الدف : الدفع في الصدر . صرت الناقة : شدت عليها الصرار ، وهو خيط يشد فوق الخلف لئلا يرضعها ولدها . الغمر ونيان : موضعان ببادية الشام قرب تيماء .
(٣) الطنفسة : البساط والحصير . المرماة : سهم يتعلم به الرامي .

وزاد يحيى بن عليّ مع هذا البيت : عن حمّاد عن أبيه عن جرير بن رباط وأبي داود قال : يُعرّض بقوله : « ولم يكن صقراً » بابن ميّادة ، أي أنه هجينٌ ليس من أبوين متشابهين كما الصقر ...

قالوا جميعاً : فقال ابن ميّادة يهجو عُلّفة :

أعُلّفُ إنّ الصَّقر ليس بمُدْلِجٍ
ولكنّـه بالليل مُتّخـذٌ وَكْرا
ومفترشٌ بين الجَنَاحَيْن سَلْحه
إذا الليل ألقى فوق خُرطومه كِسْرا
فإن يك صقراً بعد ليلة أمّـه
وليلةِ جَحّافٍ فأفٍّ له صَقْرا (١)

يريد أن أمّ علّفة من بني أنمار ، وكان أبوه عقيل بن عُلّفة ضربها ، فأرسلت إلى رجلٍ من أنمار يقال له جَحّاف ، فأتاها ليلاً فاحتملها على جملٍ فذهب بها ...

قال : ولجّ الهجاءُ بينهما ، وقال فيه ابن ميّادة وفي حكم الخضري ، وقد عاون عُلفّة :

يابنَ عَقيـل لا تكن كَذُوبـا
أأن شربتَ الحَزْرَ والحليبـا
مِن شَوْل زيدٍ وشممتَ الطِّيبـا
جَهلاً تجنّيت لي الذُنوبـا (٢)

قال : ثم لم يُلبثه ابن ميّادة أن غلبه ، وهاج التهاجي بينه وبين حكم

---

(١) واضح من الأبيات أن قائل البيت السابق هو علفة بن عقيل . اذا الليل ... : أراد إذا غطاه الليل وأخفاه . يعرّض في البيت الثالث بأم المهجو .
(٢) الحزر : الشديد الحموضة من اللبن .

الحُضريّ ، وانقطع عنه عُلّفةُ مفضوحاً .

قال : وماتت أم جحدر التي كان ينسب بها ابن ميّادة على تَفْيِئة[1] ما كان بينه وبين علّفة من المهاجاة ، ونُعيت له فلم يصدّق حتّى أتاه رجلٌ من بني رَحْل يقال له عَمّار ـ فنعاها له ، فقال :

ما كنت أحسَبُ أن القوم قــد صدقوا
حتّى نعاها ليَ الرَحْليُّ عَمّارُ

• عن أبي الحارث قال : قال جعفر بن سليمان لابن ميّادة : أأنت الذي تقول :

بني أسَدٍ ان تغضَبُوا ثم تغضبوا
وتغضَبْ قريشٌ تحمِ قيساً غِضابُها

قال : لا واللهِ ، ما هكذا قلت . قال : فكيف قلت ؟ قال : قلتُ :

بني أسد إن تغضبوا ثمّ تغضبوا
وتَعدِلْ قريشٌ تحم قيساً غضابها

قال : صدقتَ ، هكذا قلت . وهذه القصيدة يهجو بها ابن ميّادة بني أسد وبني تميم ، وفيها يقول بعد هذا البيت الذي ذكره له جعفر بن سُليمان :

وأحقَرُ محقُورٍ تميمٌ أخوكم … وإن غضبت يَربوعُها وربِابُها
ألا ما أُبالي أن تُخَنْدف خِندفٌ … ولست أُبالي أن يَطِنَّ ذبابهـا
ولو أنّ قيساً قيسَ عيلان أقسمت … على الشمس لم يطلعُ عليكم حِجابها
ولو حاربتْنا الجِنُّ لم نَرفع القَنا … عن الجِنّ حتى لا تهرَّ كلابُهـا

---

(١) على تفيئة الأمر : على أثره .

لنا المُلكُ إلاّ أنّ شيئاً تَعُدُّه قُريشٌ ولو شئنا لَذلّت رقابُها
وإن غضبتْ من ذا قُريش فقُل لها مَعاذَ الإله أن أكونَ أهابُها
وإني لقوّالُ الجواب وإنّني لَمُفْتجِرٌ أشياءَ يُعيي جوابها
إذا غضبت قيسٌ عليك تقاصرت يداك وفات الرجْل منك ركابُها[1]

فقال سماعة بن أَشْوَل النعاميّ يعارض ابن ميّادة :

لعلّ ابن أشبانيّة عارضتْ به رِعاءَ الشّوِيّ من مُرِيحٍ وعازب
يُسامي فُروعاً من خُزَيمة أحرزتْ عليه ثنايا المجد من كل جانب [2]

فقال ابن ميّادة : من هذا ؟ لقد أغلق عليّ أغلق الله عليه ! قالوا : سَماعة بن أشول . فقال : سماعة يُسمّع بي ، وأشولُ يَشُول بي [3] ، والله لا أهاجيه أبداً . وسكت عنه .

وقال عبد الرحمن بن جُهَيم الأسديُّ ... يردُّ على ابن ميّادة ، وهي قصيدة طويلة .. :

لقد كذب العبدُ ابنُ ميّادة الذي
ربا وهي وسط الشّوْل تدمَى كِعابُها
شَرَنْبَثة الأطراف لم يقنَ كفَّها
خِضابٌ ولم تشرَق بعِطْرٍ ثيابُها
أرمّاحُ إن تغضَبْ صناديدُ خندف
يَهِجْ لك حَرباً قَضبُها واعتيابُها

(١) ركابها : مجموعة من القبائل الصغيرة يتصل نسبها بنسب تميم تحالفت وأطلقت على نفسها هذا الاسم لأنهم غمسوا أيديهم في رب وتحالفوا عليه وهذه القبائل هي : تيم وعدي وعكل وثور بنو عبد مناة بن أد . تخندف : تسرع والخندفة مشية فيها تبختر . افتجر الكلام : أتى به من قصد نفسه ولم يتعلمه من أحد .
(٢) ابن اشبانية : يريد أن أمه كانت اسبانية صقلبية . الشوي : اسم جمع للشاة .
(٣) يشول بي : شالت الناقة بذنبها اذا رفعته ، ويريد أنه يشهر به ويذيع سوءاته .

ولو أغضبت قيسٌ قريشاً لجدَّعت
مَسامعَ قيسٍ وهي خُضعٌ رقابُها [1]

(الأبيات ...) .

صلته بالوليد بن يزيد ومدائحه فيه

... جلال بن عبد العزيز المُرّي ثم الصارديّ عن أبيه — قال جلالٌ : وقد رأيت ابن ميّادة في بيت أبي — قال :

قال لي ابنُ ميّادة : وصلت أنا والشعراءُ إلى الوليد بن يزيد ، وهو خليفةٌ ، وكان مولى من موالي خرَشة يُقال له شُقران يَعيب ابن ميّادة ويحسُده على مكانه من الوليد . فلمّا اجتمعت الشعراء قال الوليد بن يزيد لشُقران : يا شُقران ، ما عِلمُك في ابن ميّادة ؟ قال : عِلمي فيه يا أمير المؤمنين أنّه :

لئيمٌ يُباري فيه أبْرَدُ نَهبَلاً
لئيمٌ أتاه اللؤم من كلّ جانبٍ [2]

فقال الوليد : يابنَ ميّادةٍ ، ما عِلمُك في شُقران ؟ قال : علمي يا أمير المؤمنين أنّه عبدٌ لعجوزٍ من خرَشة كاتبتْه على أربعين درهماً ووعدها — أو قال : وعدتْه — أن تُجيزه بعشرين درهماً ، فنَقَصته إيّاها ، فأغنِه عنّي يا أمير المؤمنين ، فليس له أصلٌ فأحتفرَه ، ولا فَرع فأهتصِرَه . فقال له الوليد : اجتنبِهْ يا شُقرانُ ، فقد أبلغ إليك في

---

(١) ربا : نما وكبر . الشول ج شائلة : وهي الناقة التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها . شرنبثة الأطراف : غليظتها . لم يقن : لم يصبغ . تشرق : تمتلىء . القصب : العيب .

(٢) نهبل : عبد لبني مرة كانت ميادة تزوجته بعد سيدها .

الشَتيمة ، فقصر شقران صاغراً . ثم أنشدتُه ، فأقيمت الشعراء جميعاً غيري ، وأمر لي بمائة لِقْحةٍ وفَحلها وراعيها وجاريةٍ بِكْرٍ وفرس عتيقٍ ، فاختلتَ في ذلك اليوم وقلت :

أعطيتَني مائةً صُفراً مَدامعُهـــا
كالنَخْلِ زيّن أعلى نَبْته الشرَبُ
يَسُوقُها يافعٌ جَعْدٌ ، مَفارقهُ
مثلُ الغُراب ، غذاه الصَرُّ والحَلَبُ
وذا سَبِيبٍ صُهَيبياً له عُرُفٌ
وهامةٌ ذاتُ فَرْقٍ نابُها صَخِبُ [1]

(... ويقول فيها) :

لمـــا أتيتك من نجدٍ وساكنـــه
نفحتَ لي نفحةً طارت بها العربُ
إنّي امرؤٌ أعتفي الحاجاتِ أطلبُها
كما اعتفى سَنِقٌ يُلقى له العُشُبُ

السنق : الذي قد شبع حتّى بشم . يقول : أطلب الحاجة بغير حرصٍ ولا كَلَبٍ ، كما يعتفي هذا البعير البِشم من غير شَرَهٍ ولا شِدّة طلَـــب .

ولا ألحّ على الخُلاّن أسألهُـــم
كما يُلِحُّ بعظم الغارب القَتَبُ

---

(١) صفر المدامع : في اللسان : ان الماشية تصفر اذا رعت الأخضر من النبات . الشربة : كثرة الشرب والحويض حول النخلة تشرب منه . جعد : صفة للعبد الكثير الوبر . الصر : شد ضرع الناقة . السبيب : من الفرس شعر الذنب والعرف . والعرف : شعر عنق الفرس . الفرق : الطريق في شعر الرأس .

ولا أُخادِعُ نَدْماني لأخدعَـــه
عن ماله حين يَسْترخي به اللَّبَب

وانت وابناك لم يُوجَد لكم مَثَلٌ
ثلاثةٌ كلُّهم بالتاج مُعْتَصِب

الطيّبــون إذا طــابت نفوسُهــم
شوُسُ الحواجب والأبصار إن غضِبوا

قِسْني إلى شُعراء الناس كُلِّهــم
وادعُ الرُّواة إذا ما غَبَّ ما اجتلَبُوا

إنّي وإن قال أقوامٌ مَديحَهــم
فأحسَنُوه وما حابَوْا وما كذَبُوا

أجري أمامَهم جَرْيَ امرىءٍ فَلَجٍ
عِنانُه حين يجري ليس يضطربُ (١)

مَوهوب بن رشيد الكلابيّ قال :

أعطى الوليد بن يزيد ابنَ ميّادة جاريةً طَبَريّة (٢) أعجميّة لا تُفصِح ، حسناء جميلة ، كاملة لولا العُجْمة ، فعشقها وقال فيها :

جزاكَ الله خيراً من أميرٍ فقد أعطيت مِبراداً سَخُونا
بأهلي ما ألذَّكِ عند نفسي لو انّكِ بالكلام تُعَرِّبينـا
كأنّكِ ظَبيةٌ مَضغت أراكاً بوادي الجِزْع حين تُبَغِّمينا (٣)

(١) الغارب : من الناقة ما بين السنام والعنق . القتب : خشب الرحل . الندمان : المنادم على الشراب والمصاحب . اللبب : ما يشد على صدر الدابة ليمسك بالرحل ، ويقال : فلان في لبب رخي : أي في سعة من العيش . شوس ج أشوس : من ينظر بمؤخر عينه تكبراً أو غضباً . غب : فسد . اجتلاب الشعر : استمداده من غيرهم . الفلج : الظفر والفوز والظافر أيضاً وحركت اللام للضرورة .
(٢) طبرية : منسوبة طبرستان :
(٣) مبراد سخون : باردة في الصيف ساخنة في الشتاء . بغمت الظبية وتبغمت : صاحت تنادي ولدها بأرخم ما يكون من صوتها .

جلال بن عبد العزيز عن أبيه قال : حدّثني ابن ميّادة قال :

قلت وأنا عند الوليد بن يزيد بأباين ، وهو موضعٌ كان الوليد ينزله في الربيع :

لَعَمْرُك إنّي نازلٌ بأبـــاين
لِصَوْءَرَ مُشتاقٌ وإن كنتُ مُكرَما
أبيتُ كأنّي أرمَدُ العين ساهرٌ
إذا بات أصحابي من الليل نُوَّما [1]

قال : فقـــال لي الوليد : يابنَ ميّادة ، كأنّك غرِضت [2] من قُربنا . فقلت : ما مثلُك ، يا أمير المؤمنين ، يُغرَض من قُربه ، ولكن :

ألا ليـــت شِعري هل أبيتَنّ ليلـــةً
بحَرّةِ ليلى حيث ربّتني أهْـــلي
وهــل أسمعنّ الدهرَ أصواتَ هَجْمَة
تَطالعُ من هَجْلٍ خَصيبٍ إلى هجلِ
بلادٌ بها نِيطتْ عــليّ تمائمــي
وقُطّعن عنّي حين أدركني عقلي
فإن كنتَ عن تلك المواطن حـابسي
فأيْسِرْ عليَّ الرِّزقَ واجمعْ إذن شَمْلي [3]

فقال : كم الهجمـــة ؟ قلت : مائة ناقةٍ . فقال : قد صَدَرْتَ بهـا ،

---

(١) صوءر : ماء لكلب على مقربة من الكوفة .
(٢) غرضت : ضجرت وملت .
(٣) حرة ليلى : هي حرة في ديار بني مرة ، قوم ابن ميادة ، في طريق الحاج الى المدينة ، على مقربة من فدك . ربته : رباه . الهجمة : القطعة الضخمة من الإبل . الهجل : المطمئن من الأرض .

كُلُّها عُشَراء [1] . قال ابن ميّادة : فذكرت وِلداناً لي بنجد إذا استطعَموا الله عزّ وجلّ أطعمهم وأنا ، وإذا استسقوا سقاهم اللهُ وأنا ، وإذا استكسَوه كساهم اللهُ وأنا . فقال : يابن مَيّادة ، وكم وِلدانُك؟ فقلت : سبعةَ عشرَ ، منهم عشرةُ نفَرٍ وسبعُ نِسوة ، فذكرتُ ذلك منهم فأخذ بقلبي . فقال : يابنَ ميّادة ، قد أطعمهم اللهُ وأميرُ المؤمنين ، وسقاهم اللهُ وأميرُ المؤمنين ، وكساهم الله وأميرُ المؤمنين ؛ أمّا النساءُ فأربعُ حُلَلٍ مختلفاتُ الألوان ، وأمّا الرّجالُ فثلاثُ حُلَلٍ مختلفاتُ الألوان ، وأمّا السَّقْيُ [2] فلا أرى مائة لِقحةٍ [3] إلاّ ستَرويهم ، فإن لم تَروِهم زدتُهم عينَين من الحجاز . قلت : يا أمير المؤمنين ، لسنا بأصحاب عُيونٍ يأكُلنا بها البَعُوض ، وتأخُذنا بها الحُمّيات . قال : فقد أخلفها الله عليك ، كلّ عامٍ لك فيه مثلُ ما أعطيتك العامَ : مائة لِقْحة وفحلُها وجاريةٌ بِكْر وفرسٌ عتيق .

الزبير بن بكّار قال :

لمّا قال ابن ميّادة :

فَضَلْنا قريشاً غيرَ رَهْطِ محمّد
وغيرَ بني مَروان أهل الفضائـــل

قال له الوليد بن يزيد : قدّمتَ آلَ محمّد قبلَنا ! فقال : ما كنت يا أميرَ المؤمنين أظنّه يمكن غير ذلك . قال : فلمّا أفضت الخلافة إلى بني هاشم وفد ابن ميادة إلى المنصور ومدحه ، فقال له أبو جعفر لمّا دخل اليه : كيف قال لك الوليد ؟ فأخبره بما قال ، فجعل المنصور يتعجّب .

---

(1) العشراء : الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر .
(2) السقي : كل ما يسقى .
(3) اللقحة : الناقة الحلوب .

عن أبي عليّ الكلبيّ :

لما قتل الوليد بن يزيد قال ابن ميّادة يرثيه :

ألا يا لَهْفَتَيَّ على وليدٍ غَداةَ أصابه القَدَرُ المُتاحُ
ألا أبكي الوليد فتى قريشٍ إذا ضنّت بدرّتها اللِّقاحُ
وأجبرَها لذي عَظم مَهيضٍ وأسمحَها إذا عُدّ السِّماحُ
لقد فعلت بنو مَروان فعلاً وأمراً ما يسوغُ به القَراحُ (١)

صلته بالمنصور ورجال بني العبّاس

عن الزُبَير ومُصعَب : أن ابن ميّادة مدح أبا جعفر المنصور بقصيدته التي يقول فيها :

طَلَعتْ علينا العيسُ بالرَمّاحِ

ثم خرج من عند أهله يُريده ، فمرّ على إبله فحُلبت له ناقةٌ من إبله ، وراح عليه راعيه بلبنها فشَربه ثم مسح على بطنه ثم قال : سُبحان الله ! إنّ هذا لهو الشَرَه ! يكفيني لبن بَكْرة (٢) وأنا شيخٌ كبير ثم أخرُج وأغترب في طلب المال ! ثم رجع فلم يخْرُج . وهذه القصيدة من جيّد شعر ابن ميّادة ... يقول فيها في مدح المنصور وبني هاشم :

فلئن بَقيتُ لألْحقَنّ بأبْحُرٍ يَنْمين لا قُطْع ولا أنزاحِ
ولآتِينَّ بني عليٍّ إنّهم من يَأتِهم يُتَلَقّ بالإفلاح
قومٌ إذا جُلب الثناءُ إليهم بيع الثناءُ هناك بالأرباحِ

---

(١) هاض العظم : كسره ، والدرة : اللبن ، اراد أنه لمبسط يده بالعطاء لمن أصابته السنة والقحط

(٢) البكرة : الناقة الفتية .

ولأجلسنّ إلى الخليفة إنّــــه	رحبُ الفِناءِ بواسعٍ بَحْباح[1]

وهي قصيدة طويلة .

* عن محمّد بن سلاّم قال :

مدح ابن ميّادة جعفر بن سليمان ، وهو على المدينة . فأخبرني مِسْمَع ابن عبد الملك أنّه قام له بحاجته عند جعفر وأوصلها إليه . قال : فقال له : جزّاك الله خيراً ، مِمّن أنت ، رحمك الله ؟ قلت : أحد بني مِسمع . قال : مِمّن ؟ قلت : من قيس بن ثعلبة . قال : مِمّن ، عافاك الله ؟ قلت : من بكر بن وائل . قال : واللهِ لو كنت سمعت ببكر بن وائل قطّ أو عرفتُهم لمدحتك ، ولكنّي ما سمعت ببكرٍ قطُّ ولا عرفتُهم . ثم مدح جعفراً فقال :

لَعَمْرُك ما سُيوفُ بني عليٍّ	بِنابيةِ الظُّبات ولا كِلالِ
همُ القومُ الألى وَرِثوا أباهــم	تُراثَ محمّد غيرَ انتحــالِ
وهمْ تركوا المقال لهم رفيعاً	وما تركوا عليهم من مَقالِ
حَذوتُمْ قومَكم ما قد حَذَوكمُ	كما يُحذى المِثال على المثالِ
فرُدّوا في جِراحِكم أساكم	فقد أبلغتمُ مُرَّ النَّكالِ[2]

يشير عليه بالعفو عن بني أميّة ويذكّره بأرحامهم .

* ... مُصعبٌ قال :

قدم ابن مَيّادة على رِياح بن عثمان ، وهو جادٌّ في طلب محمد بن

(١) القطع ج أقطع : الذي انقطع ماؤه . انزاح ج نزح : ما نزح أكثر مائه . بنو علي : المراد هنا بنو علي بن عبد الله بن العباس .

(٢) الظبات ج ظبة : حد السيف : وقد كتبت في المطبوعة بالتاء المربوطة وهو خطأ . حذوتم قومكم ما قد حذوكم : أي صنعتم بقومكم – بني أمية – مثلما صنعوا بكم وفي المطبوعة : ما قد حذوتم ، والمعنى لا يستقيم على هذه الرواية . أسا الجرح أسوا وأساً : داواه وعالجه .

عبد الله بن حسن وإبراهيم أخيه ، فقال له : اتـّخِذْ حـَرَساً وجُنداً من غطـَفان واترُك هؤلاء العبيد الذين تـُعطيهم دراهمك ، وحـَذار من قريش ، فاستخفّ بقوله ولم يقبـَلْ رأيه . فلمـّا قـُتل رياح قال ابن ميـّادة :

أمرتُك يا رِياحُ بأمرِ حَزْمٍ فقلتَ هَشيمةٌ من أهل نَجْدِ
وقلتُ له : تحفـَّظْ من قريشٍ ووَقـّعْ كلَّ حاشيةٍ وبُرْدِ
فوجداً ما وجدتُ على رياحٍ وما أغنيتُ شيئاً غيرَ وَجْدي [1]

تشبيبه بأمّ جحدر وبغيرها من النساء

موسى بن زهير بن مُضَرّس قال :

كان الرمّاح بن أبرد المعروف بابن ميـّادة ينسُب بأمّ جـَحْدَر بنت حـَسّان المُرّيّة، إحدى نساء بني جـَذيمة . فحلف أبوها ليُخرجـَنـّها إلى رجلٍ من غير عشيرته ولا يزوّجها بنجد . فقـَدم عليه رجلٌ من الشأم فزوّجه إيـّاها . فلقـِيَ عليها ابن ميـّادة شدّةً ، فرأيتـُه وما لقـِيَ عليها . فأتاها نساؤُها ينظـُرن إليها عند خـُروج الشاميّ بها . قال : فوالله ما ذكرنَ منها جمالاً بارعاً ولا حـُسناً مشهوراً ، ولكنـّها كانت أكسبَ الناس لِعَجَب . فلمـّا خرج بها زوجـُها إلى بلاده اندفع ابن ميـّادة يقــول :

ألا ليت شِعري هل إلى أمّ جـَحْدَرٍ سبيلٌ فأمـّا الصبر عنها فلا صَبرا
إذا نزلت بـُصرى تـَراخى مـَزارُهـــا وأغلق بـَوّابان مـِن دونـِها قـَصرا

(١) الهشيمة : الأرض التي يبس شجرها وأراد هنا ضعف الجسم وكبر السن .

فهل تأتيني الرِّيح تدرُج مَوْهِنــاً
بريَّاكِ تَعْرَوري بها جَرَعاً عُفْرا[1]

قال الزبير : وزادني عمّي مُصعَبٌ فيها :

فلو كان نَذْرٌ مُدنِياً أمَّ جَحْدرٍ
إليَّ لقد أوجبتُ في عُنُقي عُذْرا
ألا لا تُلُطّي السِّتر يا أمَّ جَحدرٍ
كفى بذُرا الأعلام من دُوننا سِتْرا
لَعَمْري لئن أمسيتِ يا أُمَّ جحْدرٍ
نأيتِ لقد أبلَيتُ في طلَبِ عُذْرا
فبَهْراً لِقومي إذ يَبيعُون مُهجَتي
بغانيةٍ بَهْراً لهم بعدَها بَهْرا [2]

قال الزبير : بَهْراً ، ها هنا : يدعو عليهم أن ينزل بهم من الأمور ما يبهرهم ، كما تقول : جَدْعاً وعَقْراً . وفي أول هذه القصيدة ... يقــول :

ألا لا تَعُدْ لي لَوعةٌ مثلُ لــوعَتي
عليكِ بأدْمَى والهوى يَرجِعُ الذِّكْرا
عشيّةَ ألْوِي بالرِّداء على الحَشا
كأنّ ردائي مُشْعَلٌ دونَه جَمْرا

زياد بن عثمان الغطَفانيّ ، من بني عبد الله بن غطفان قال :

---

(١) تراخى : بعد . موهناً : بعد انقضاء منتصف الليل أو ساعة منه . الريا : الرائحة . تعروري : تركب . الجرع جمع جرعة (بالتحريك) : الرملة ذات الحزونة . العفر : التي يعلوها التراب .

(٢) لا تلطي : لا ترخي وتسدلي . الأعلام : الجبال .

كنّا بباب بعض وُلاة المدينة فغَرِضْنا [1] من طول الثّواء ، فإذا أعرابيٌّ يقول : يا معشرَ العرب ، أما منكم رجلٌ يأتيني أعلّلُه إذ غَرِضنا من هذا المكان فأخبرَه عن أمّ جحدر وعنّي ؟ فجئت إليه فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا الرّمّاح بن أبْرَد قلت : فأخبرني ببَدْء أمركما . قال : كانت أمّ جحدر من عَشيرتي فأعجبتني ، وكانت بيني وبينها خُلّة [2] ، ثم إنّي عتَبت عليها في شيء بلغني عنها ، فأتيتُها فقلت : يا أمّ جَحدر ، إنّ الوصل عليك مردودٌ . فقالت : ما قضى اللهُ فهو خيرٌ . فلبثت على تلك الحال سنةً ، وذهبتْ بهم نُجعةٌ فتباعدوا ، واشتَقتُ إليها شوقاً شديداً ، فقلت لامرأة أخٍ لي : والله ، لَئن دنت دارُنا من أمّ جَحدر لآتينّها ولأطلُبنَّ إليها أن تردّ الوصل بيني وبينها ، ولئن ردّتْه لانقَضْتهُ أبداً . ولم يكن يومان حتى رجَعُوا ، فلمّا أصبحتُ غدوتُ عليهم ، فإذا أنا ببيتَين نازلَين إلى سَنَدِ أبْرَقَ [3] طويلٍ ، وإذا امرأتان جالستان في كِساءٍ واحدٍ بين البيتَين ، فجئت فسلّمتُ ، فردّت إحداهما ولم تردّ الأخرى فقالت : ما جاء بك يا يا رمّاحُ إلينا ! ما كنّا حَسِبنا إلاّ أنّه قد انقطع ما بيننا وبينَك . فقلت : إنّي جعلتُ عليَّ نَذْراً لئن دنتْ بأمّ جحدرٍ دارٌ لآتينّها ولأطلُبنّ منها أن تردّ الوَصل بيني وبينَها ، ولَئن هي فَعلتْ لانقَضتُه أبداً . وإذا المرأة التي تُكلّمني امرأةُ أخيها ، وإذا الساكتة أمُّ جحدر . فقالت امرأة أخيها : فادخُلْ مُقدَّم البيت ، فدخلتُ . وجاءت فدخلتْ من مؤَخّره فدنت قليلاً ، ثم إذا هي قد بَرَزتْ ، فساعةَ برزَتْ جاء غُرابٌ فنعَب على رأس الأبرَق ، فنظرتْ إليّ وشَهَقت وتغيّر وجهها ، فقلت : ما شأنُك ؟ قالت : لا شيء . قلت : بالله إلاّ أخْبرتني ، قالت : أرى

---

(١) غرضنا : ضجرنا .

(٢) الخلة : الصداقة والمودة .

(٣) السند : ما ارتفع من الأرض من قبل الجبل . الابرق : ما اختلط فيه الحجارة بالرمل .

هذا الغراب يُخبرني أنّا لا نجتمع بعد هذا اليوم إلاّ ببلد غير هذا البلد . فتقبّضتْ نفسي ، ثم قلت : جاريةٌ واللهِ ما هي في بيت عِيافة ولا قِيافة [1] . ثم تروّحت إلى أهلي فمكثتُ عندهم يومين ثم أصبحت غادياً إليها ، فقالت لي امرأةُ أخيها : ويحك يا رمّاح ! أين تذهب ؟ فقلت : إليكم . فقالت : وما تُريد ؟ قد والله زُوّجت أمّ جحدر البارحة . فقلت : بمَن ، ويحَك ؟ قالت : برجل من أهل الشأم من أهل بيتها ، جاءهم من الشأم فخطَبها فزُوّجها ، وقد حُملت إليه . فمضيتُ إليهم فإذا هو قد ضرب سُرادقات ، فجلست إليه فأنشدته وحدّثته وعُدت إليه أيّاماً ، ثم إنّه احتملها فذهب بها ، فقلتُ :

أجارتَنا إنّ الخُطوب تَنُوبُ ... علينا وبعضَ الآمِنين تُصيبُ
أجارتنَا لستُ الغَداةَ ببارحٍ ... ولكنْ مُقيمٌ ما أقام عسِيبُ
فإن تسألِيني هل صبرتُ فإنّني ... صَبُورٌ على رَيب الزمان صَليبُ
جرى بانبتات الحَبل من أمّ جَحْدرٍ ... ظِباءٌ وطيرٌ بالفراق نَعُوبُ
نظرتُ فلم أعْتَفْ وعافت فبيّنت ... لها الطيرُ قَبلي واللبيبُ لَبيبُ
فقالت حَرامٌ أن نُرى بعد هذه ... جميعَين إلاّ أن يُلِمّ غَريبُ
أجارتَنا صَبراً فيا رُبَّ هالكٍ ... تقطّعُ من وَجْدٍ عليه قُلوبُ [2]

قال : ثم انحدرتُ في طلبها وطمعت في كلماتها : «إلاّ أن نجتمع في بلد غير هذا البلد» . قال : فجئت فدُرت الشأم زماناً ، فتلقّاني زوجُها فقال : مالكَ لا تغسِل ثيابك هذه ! أرسل بها إلى الدار تُغسَل . فأرسلتُ بها ، ثم إني وقفت أنتظر خروج الجارية بالثياب ، فقالت أم جحدر لجاريتها : إذا جاء فأعلميني . فلمّا جئت إذا أم جحدر وراء الباب ،

(١) العيافة : زجر الطير والاعتبار بمساقطها وأسمائها للتشاؤم أو التفاؤل بذلك . القيافة : تتبع الآثار ومعرفتها .
(٢) عسيب : اسم جبل بنجد .

فقالت : ويحَك يا رمّاح ! قد كنت أحسب أنّ لك عقلاً ! أما ترى أمراً قد حيل دونَه وطابت أنفُسنا عنه ! انصرف إلى عشيرتك فإني أستحيي لك من هذا المُقام . فانصرفت وأنا أقول :

عسى إن حَجَجنَا أن نرى أمّ جَحدرٍ
ويجمَعَنا مــن نخلتَيْن طريــقُ
وتصطكّ أعضادُ المطيّ وبيننــــا
حديثٌ مُسَرٌ دون كلّ رفيــقِ (1)

أخبرني سيّار بن نَجيح المُزَنيّ قال :

لقَيتُ ابن ميّادة وهو يبكي ، فقلت له : ويحَك ! ما لك ؟ قال : أخرجتْني أمُّ جَحدرٍ وآلت يميناً ألاّ تكلّمني . فانطلِقْ فاشفَع لي عندها . فخرجت حتى غشيتُ رواقَ بيتها ، فوجدتها وهي تَدْمُكُ جريراً لها بين الصّلاية (2) والمِدَقّ تريد أن تخطِم به بعيراً تحجُّ عليه ، فقالت : إن كنت جئت شفيعاً لابن ميّادة فبيتي حَرامٌ عليك أن تُلقي فيه قَدمَك . قال : فحجّتْ ولا واللهِ ما كلّمته ولا رآها ولا رأتْه .

حَكم بن طَلْحة الفَزاريّ ثم المنظُوريّ قال :

قال ابن ميّادة : إنّي لأعلم أقصرَ يومٍ مرَّ بي من الدهر . قيل له : وأيُّ يومٍ هو يا أبا الشُرَحْبيل ؟ قال : يومٌ جئتُ فيه أمّ جَحدر باكراً ، فجلست بفِناء بيتها ، فدعت لي بعُسٍّ (3) من لبن ، فأُتيتُ به ، وهي تحدّثني ، فوضعتهُ على يدي ، وكرهت أن أقطع حديثها إن

(1) النخلتان : واديان قرب مكة أو هما النخلة اليمانية والثاني النخلة الشامية . وفي البيتين إقواء وهو اختلاف حركة الروي بين كسر وضم .
(2) تدمك : ترقق وتلين . الجرير : حبل من أدم يخطم به البعير . الصلاية : حجر عريض يدق عليه .
(3) العس : القدح الضخم .

شربتُ ، فما زال القدح على راحتي ، وأنا أنظرُ إليها ، حتى فاتتني صلاةُ الظُهر وما شربت .

* أكثم بن صَيفيّ المُرّي ثم الصارديّ عن أبيه قال [1] :

كان ابن ميّادة رأى امرأة من بني جشم بن معاوية ثم من بني حَرام يُقال لها أم الوليد ، وكانوا سارُوا عليهم [2] ، فأعجب بها وقال فيها :

ألا حبّذا أمُّ الوليد ومَرْبَعٌ ... لنا ولها نشْتُو به ونَصيفُ
حَراميّةٌ أمّا مَلاثُ إزارها ... فوَعْثٌ وأمّا خصرُها فلطيفُ
كأن القرون السُودَ فوق مَقَدّها ... إذا زال عنها بُرقُعٌ ونَصيف
بها زَرَجُوناتٌ بقَفْرٍ تنسّمتْ ... لها الرّيحُ حتّى بينهنّ رَفيفُ [3]

قال : فلمّا سمع زوجها هذه الأبيات أتاها فحلف بطلاقها : لئن وجد ابن ميّادة عندها لَيدقّنّ فخذَها . ثم أعرض عنها واغترّها [4] ، حتى وجده يوماً عند بيتها فدقّ فخذَها واحتمل فرحل ورحل بها معه ؛ فقال ابن ميّادة :

أتانا عامَ سار بنو كلابٍ ... حَراميّون ليس لهم حَرامُ
كأنّ بيوتَهم شجرٌ صِغارٌ ... بقِيعان تَقيل بها النّعامُ
حَراميّون لا يَقْرُون ضيفاً ... ولا يدرُون ما خُلُقُ الكرامِ

قال : ثم سارت عليهم بعد ذلك بنو جعفر بن كلاب ، فأعجب

---

(١) كذا ورد اسمه في المطبوعة ، وأراه محرفاً ، وفي بعض النسخ : أكثم بن الغيض .
(٢) ساروا عليهم : أي مروا بهم .
(٣) ملاث الإزار : موضع ربطه ولوثه ، وهو ما دون الخصر من الجسم . الوعث : السمين الممتلىء . القرون ج القرن : الخصلة وشعر المرأة والذؤابة. المقد: ما بين الأذنين من خلف . النصيف : الخمار . الزرجونة : شجرة العنب . رف النبات : اهتز نضارة وحسناً وتندى .
(٤) اغترها : طلب غرتها وراقبها .

بامرأةٍ منهم يقال لها : أمّ البَخْتَريّ ، وكان يتحدّث إليها مُدّة مُقامهم ، ثم ارتحلوا فقال فيها :

أرِقتُ لِبرقٍ لا يُفتّــرُ لامعُــــهْ
بشُهْب الرُّبا والليلُ قد نام هاجعُــهْ
أرقت له من بعد ما نــام صُحبتي
وأعجبــــني إيمــاضُه وتتابعُـــــه
يُضيءُ صَبيراً من سَحابٍ كأنّه
هِجانٌ أرنّتْ للحَنينِ نوازعــه
هنيئاً لأمّ البَختريّ الرِّوَى بــــه
وإن أنهج الحبلُ الّذي النأْي قاطعُــه
لقد جعل المُستبضِعُ الغِشّ بيننــا
لِيَصرمَ حَبلينــا تجوز بضائعـــه
فما سَرْحةٌ تجري الجداولُ تحتَهــا
بمُطّرِدِ القيعــان عَذْبٍ ينابعُــه
بأحسنَ منها يومَ قالت بذي الغَضا
أترعَى جديد الحَبل أم أنت قاطعه (١)

وفاته

قال أحمد بن إبراهيم :

مات ابن ميّادة في صدر خلافة المنصور ، وقد كان مدحَه ثم لم يَفِد إليه ولا مدحه ، لِما بلغه من قلة رغبته في مدائح الشعراء وقلة ثوابه لهم .

---

(١) الصبير من السحاب : القطعة الواقفة منها أو السحابة البيضاء . الهجان : البيض من الابل . أرن : رن وصوت . الروى : الارتواء . أنهج : بلي ورث . المطرد : المتتابع .

٢

أبو جِلْدة اليَشْكُرِيّ

(الأغاني ج ١١ ص ٣١٠ وما بعدها)

الشاعر

أبو جِلْدة بن عُبَيد بن مُنْقِذ ... بن يَشْكُر بن بَكْر بن وائل ، شاعرٌ إسلاميّ من شعراء الدولة الأمويّة ، ومن ساكني الكوفة . وكان ممّن خرج مع ابن الأشعث فقتله الحَجّاج .

أخباره مع مِسْمَع بن مالك

قال ابن حَبِيبَ :

وَلِيَ مِسمَع بن مالك سِجِسْتان ، وكان مكْثُ أبي جِلدة بها ، فخرج إليه فتلقّاه ومدحه بقصيدته التي أوّلها :

بانت سُعادُ وأمسى حبلُها انقطعا وليت وَصْلاً لها من حبلها رَجَعا

شطّت بها غُربةٌ زوراءُ نازحةٌ فطارت النفس من وَجْدٍ بها قِطَعا
ما قرّت العينُ إذ زالتْ فينفَعَها طعمُ الرُّقاد إذا ما هاجعٌ هجعَا
منعتُ نفسي من رَوحٍ تعيش به وقد أكون صحيحَ الصَّدر فانصدَعا
غدتْ تَلُومُ على ما فات عاذلتي وقبلَ لَومك ما أغنيتِ مَن مَنَعا
مَهْلاً ذَريني فإنّي غالني خُلُقي وقد أرى في بلاد الله مُتَّسَعا
فخري تليدٌ وما أنفقتُ أخْلَفَهُ سَيبُ الإلَه وخيرُ المال ما نفعا
ما عضّني الدهرُ إلاّ زادني كرَماً ولا استكنت له إن خان أو خَدَعا
ولا تَلِينُ على العِلاّت مَعْجَمَتي في النائبات إذا ما مَسّني طَبَعا
ولا تُلَيِّن من عُودي غمائزهُ إذا المغمزُ منها لان أو خَضَعا
ولا أُخاتِلُ ربَّ البيت غَفْلَتَه ولا أقول لشيء فات ما صَنَعا
إنّي لأمدحُ أقواماً ذَوِي حَسَبٍ لم يَجعل اللهُ في أقوالهم قَذَعا
الطَيِّبين على العِلاّت مَعْجَمَةً لو يُعصَرُ المِسكُ من أطرافهم نَبعا
بني شِهابٍ بها أَعْني وإنّهم لأكرمُ الناس أخلاقاً ومُصْطَنَعا(١)

قال : فوصله مسمع بن مالك وحمله وكساه وولاّه ناشيتكين ، وكان بها مكثه .

قال : ثم توفّي مِسمع بن مالك بسجستان فقال أبو جلدة يرثيه :

أقول للنّفس تَأساءً وتَعزيةً
قد كان في مِسمَعٍ من مالكٍ خَلَفُ
يا مِسمَعَ الخير مَن ندعُو إذا نزلتْ
إحدى النوائب بالأقوام واختلفُوا

---

(١) شطت : بعدت . زوراء نازحة : بعيدة . غالني : أهلكني . على العلات : في حال العسر واليسر. المعجمة : القوة والصلابة ، من عجم العود اذا عضه ليختبر صلابته ، ويقال فلان صلب المعجم أي عزيز النفس. الضمير في « مسني » يرجع إلى النائبات ، والطبع : الضعف والخور ، ونصبها على المفعول له أي بسبب الضعف. القذع : الفاحش من القول .

يا مِسمعاً لِعراقٍ لا زعيمَ لهـــا
بمَن تُرى يُؤْمَنُ المُستشرِفُ النّطِفُ (١)

(الأبيات ..)

قال ابن حبيب عن ابن الأعرابيّ :

فرّق مسمع بن مالك في عشيرته بني قيس بن ثَعلبة عطايا كثيرة وقرّبهم وجفا سائر بطون بكر بن وائل ، فقال أبو جلدة :

إذا نِلتَ مالاً قُلتَ : قيسٌ عشيرتي
تَجُور علينا عامداً في قَضائكـــا
وإن كانت الأخرى فبَكر بن وائلٍ
بزَعْمِكَ يُخشى داؤُها بدَوائكَـــا
هنالك لا نَمشي الضَّراءَ إليكـــم
بني مِسْمعٍ إنّا هناك أُولئِكَـــا
عسى دَولةُ الذُهْلَين يوماً ويَشكُرٍ
تكُرُّ علينا سَبْغةً من عَطائكا (٢)

قال : فبعث إليه مِسمعٌ فترضّاه ووصله وفرّق في سائر بطون بكر ابن وائل على جِذْمَين : جذم يُقال له الذُهْلان ، وجذم يقال له اللهازم . فالذهلان : بنو شيبان بن ثعلبة بن بكر بن وائل ، وبنو ضُبيعة بن ربيعة (٣) . واللهازم : قيس بن ثعلبة ، وتَيْم اللاّت بن ثعلبة ، وعِجْل بن لُجَيم ، وعَنَزة بن أسد بن رَبيعة .

---

(١) استشرفه حقه : ظلمه . النطف. المريب الفاسد .
(٢) الضراء : الشجر الملتف . يقال : فلان يمشي الضراء : اذا مشى فيما يواريه عمن يختله ويتربص به . السبغة : السعة .
(٣) في المطبوعة : بنو شيبان بن ثعلبة بن يشكر بن وائل ، وهذا خطأ أو تحريف لأن بني شيبان ليسوا من يشكر وانما من بكر .

وقال أبو عمرو الشيبانيّ : كان مِسْمَع بن مالك يُعطي أبا جِلدة ، فقال فيه :

يَسعى أُناسٌ لكيما يُدركوك ولــو
خاضُوا بحارك أو ضَحْضَاحَها غرِقُوا
وأنت في الحرب لا رثٌّ القِوَى بَرِمٌ
عند اللقاء ولا رِعْديدةٌ فَرِقُ
كلُّ الخِلال التي يسعى الكرامُ لهـا
ان يمدحوك بها يوماً فقد صَدَقُوا
ساد العراقَ فحالُ النّاس صالحـةٌ
وسادهم وزَمان النّاس مُنْخَرِقُ
لا خارجـيٌّ ولا مُستحدث شرفاً
بل مجدُ آل شِهابٍ كان مُذ خُلقوا (١)

قال : ثم مدح مُقاتل بن مِسمع طمعاً في مثل ما كان مسمعٌ يُعطيه، فلم يلتفِتْ إليه ، وأمر أن يُحجَب عنه . فقيل له : تعرّضت للسان أبي جلدة وخبثه . فقال : ومن هو الكلب ؟ وما عسى أن يقول ؟ قبحَه الله وقَبح مَن كان منه ! فَلْيَجْهَدْ جَهْدَه . فبلغ ذلك من قوله أبا جلدة فقال يهجوه :

قرى ضيفه الماءَ القُراح ابنُ مِسمَعٍ
وكان اثيما جارهُ يتذلّــلُ
فلمّا رأى الضيفُ القِرى غيرَ راهنٍ
لديه تولّـى هارباً يتعلّــلُ

---

(١) الضحضاح : الماء القريب القعر . رث القوى : ضعيفها . برم : ضجر . رعديدة : جبان . فرق : شديد الفزع .

يُنادي بأعلى الصوت : بكرَ بنَ وائــل
ألا كلّ من يرجو قِراكم مُضَلّــلُ
عَميدُكم هرَّ الضُيوفَ فما لكم
ربيعةُ أمسى ضَيفُكم يتحــوّلُ
وخِفتم بأن تَقرُوا الضُيوفَ وكنتمُ
زماناً بكم يحيا الضّريكُ المُعَبّــلُ
فما بالُكم باللهِ أنــتم بَخِلتُــمُ
وقصّرتمُ والضيفُ يُقرَى ويُنْزَلُ (١)

(الأبيات ...)

طائفة من أخباره

* قال ابن حبيبَ :

وكان أبو جلدةَ قد استعمله القَعقاع بن سُويد ، حين تولّى سجستان ، على بُسْت والرُّجّج (٢) ، فأرجف الناسُ بالقعقاع (٣) وأَرجف به أبو جلدة معهم ، وكتب القعقاع إليه يتهدّده ، فكتب إليه أبو جِلــدة :

يُهدّدني القَعقاعُ في غير كُنْهِه
فقلتُ له : بَكرٌ إذا رُمْتَني تُرْسي

(١) القراح : الخالص . غير راهن : غير حاضر . هر الضيوف : كرههم . الضريك : الفقير السيء الحال . المعيل : الكثير العيال .
(٢) بست : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، من نواحي كابل . الرجج : مدينة من نواحي كابل .
(٣) أرجف الناس به . خاضوا في ذمه وأثاروا الفتنة .

كأنّا وإيّاكم إذا الحربُ بيننـــا
أُسودٌ عليها الزّعفرانُ مع الوَرْسِ

تُرى كمصابيح الدّياجي وجوهنا
إذا ما لُقينا والهِرَقْلِيّة المُلْسِ

هناك السعودُ السانحاتُ جرت لنـــا
وتجري لكم طيرُ البوارح بالنحْس

وما أنت يا قعقاعُ الاّ كمَن مضى
كأنّك يوماً قد نُقلتَ إلى الرَّمْسِ (١)

(الأبيات ...)

قال : فلمّا انتهت هذه القصيدة إلى القعقاع وجّه برسول إلى أبي جلدة وقال : أنظُرْ ، فإن كان كتب هذا الكتاب بالغداة فاعزِلْهُ ، وإن كان كتبه بالليل فأقْرِرْهُ على عمله ولا تعزِله ولا تَضرِبْه . وكان أبو جلدة صاحب شراب ؛ فقال للرسول : والله ما كتبتُه إلاّ بالعَشِيّ ، فسأله البَيِّنة على ذلك ، فأتاه بأقوام شهدوا له بما قال ، فأقرّه على عمله وانصرف عنـــه .

* قال ابن حبيب :

ولحق أبا جلدة ضَيمٌ من بعض الوُلاة ، فهتف بقومه فلم يقدِروا على منعه منه ولا مَعُونته ، رهبةً للسُلطان . فهتف بأعلى صوته : يا مِسمعَ بن مالك ، يا أميرَ بن أحمر ، ثم أنشأ يقول :

ولمّا أن رأيتُ سَراةَ قومي
سُكوتاً لا يثوبُ لهم زعيمُ

---

(١) في غير كنهه . في غير وجهه ووقته . الورس : نبت أصفر تصبغ به الثياب . الهرقلية : الدنانير ، منسوبة إلى هرقل ملك الروم ، شبه وجوه قومه بالدنانير .

هتفتُ بمِسمَعِ وصَدى أميرِ وقبرِ مُعَمّرِ ، تلك القرومُ [1]

قال : فأبكى جميع مَن حضر ، وقاموا جميعاً إلى الوالي فسألوه في أمره حتى كفّ عنه . وأمير بن أحمر رجلٌ من بني يشكُر ، وكان سيّداً جواداً ،.. قال ابن الأعرابيّ : كان أمير بن أحمر والياً على خراسان في أيام معاوية . ومُعمّر الذي عناه أبو جلدة مُعمّر بن شُمير ... وكان أمير سجستان ، وكان سيّداً شريفاً .

* وقال : خطب أبو جلدة امرأةً من بني عِجْل يقال لها خَليعة بنت صَعب ، فأبت أن تتروّجه وقالت : أنت صُعلوكٌ فقيرٌ لا تحفظُ مالك ولا تُلفي شيئاً إلاّ أنفقتَه في الخمر ، وتزوّجت غيره . فقال أبو جلدة في ذلك :

لمّا خطبتُ إلى خَليعةَ نفسَها
قالت خَليعةُ ما أرى لك مالا
أودى بمالي يا خَليعُ تكرُّمي
وتَخَرُّقي وتَحَمُّلي الأثقالا
إنّي وَجَدِّك لو شهدتِ مَواقفي
بالسّفح يومَ أُجلّلُ الأبطالا
سيفي ، لَسَرّكِ أن تكوني خادماً
عندي إذا كَرِه الكُماة نِزالا [2]

* وقال ابن حبيب :

سأل أبو جلدة الحُضَين بن المنذر الرَّقاشيَّ شيئاً فلم يُعطه إيّاه وقال :

---

(١) الصدى ، هنا : جسد الانسان بعد موته . والشاعر في هذا البيت يهتف بثلاثة من أشراف قومه بعد موتهم .

(٢) التخرق : المبالغة في السخاء .

لا أعطيه ما يشرب به الخمر . فقال أبو جلدة يهجوه :

يا يومَ بُؤسٍ طلعتْ شمســهُ
بالنحسِ لا فارقتَ رأسَ الحُضَيْنْ
إنّ حُضَيناً لم يــزلْ باخــلاً
مُذ كان ، بالمعروف كزَّ اليَدَيْنْ (١)

• عن عمرو بن أبي عمرو الشيبانيّ عن أبيه قال :

عشق أبو جلدة اليشكريُّ دِهْقانةً (٢) بيَسْت ، وكان يختلف إليها ويكون عندها دائماً ، وقال فيها :

وكأسٍ كأنّ المِسكَ فيها حَسَوْتُها
ونازَعَنِيهــا صاحبٌ لي مُلَــوَّمُ
أغرُّ كأنّ البَدْرَ سُنّةُ وَجهه
له كَفَلٌ وافٍ وفَرْعٌ ومَبْسِمُ
يُضيء دُجى الظَلماء رَونقُ خَدّه
وينجابُ عنه اللّيلُ والليلُ مُظلم

* * *

وعَهدي بها ، واللهُ يُصلِحُ بالَها ،
تَجُود على مَن يشتهيها وتُنعِــمُ
فما بالُها ضَنّت عليَّ بوُدّهــــا
وقلبي لها يا قومِ عانٍ مُتَيّمُ (٣)

قال : فلمّا بلغها الشعر سألت عن تفسيره ففُسّر لها . فلمّا انتهى

---

(١) كز اليدين : شديد البخل .
(٢) الدهقان : الرئيس من العجم والتاجر .
(٣) ملوم : يلومه الناس كثيراً . سنة الوجه : صورته واستدارته . الفرع : الشعر .

المفسّر إلى هذين البيتين الأخيرين غضبت... فصَرمتّه فلم يقدِر عليها، وعُذّب بها زماناً، ثم قال فيها لمّا يئس منها :

صحا قلبي وأقصرَ بعدَ غَيٍّ — طويلٍ كان فيه من الغواني
بأن قَصَدَ السَّبيلَ فباع جهلاً — برُشدٍ وارتجى عُقْبَى الزّمانِ
وخاف الموتَ واعتصم ابن حُجْرٍ — من الحُبّ المُبرّحِ بالجَنَانِ
وقِدْماً كان مُعتَرِماً جَمُوحاً — إلى لذّاته سَلِسَ العِنَانِ
وأقلع بعد صَبْوته وأضحى — طويلَ الليلِ يَهْرِفُ بالقُرانِ
ويدعو الله مجتهداً لكيما — ينالَ الفوزَ من غُرَفِ الجِنانِ (١)

* * *

* قال ابن حبيب :

كان أبو جِلدة يشرب مع ابن عمٍّ له من بكر بن وائل، فسكر نديمُه فعَربد عليه وشتمه، فاحتمله أبو جلدة وسقاه حتى نام، وقال في ذلك :

أبى ليَ أن أَلْحَى نَديمي إذا انتشى
وقال كلاماً سيّئاً لي على السُكْرِ
وَقاري وعِلمي بالشّراب وأهلِه
وما نادم القومَ الكِرام كذي الحِجْرِ
فلستُ بِلاحٍ لي نديماً بزَلّةٍ
ولا هَفوةٍ كانت ونحن على الخمرِ
عَرَكتُ بجَنْبي قول خدْني وصاحبي
ونحن على صَهْباءَ طَيّبةِ النّشْرِ

(١) حجر : جد الشاعر. الجنان : العقل. الاعترام : المرح والجموح والشراسة.

فلمّا تمادى قلتُ خُذها عرَيقــةً
فإنّك من قومٍ جَحاجِحةٍ زُهْرِ
فما زلتُ أَسقيه وأشربُ مثلَ ما
سَقَيتُ أخي حتّى بدا وَضَحُ الفجــر
وأيقنتُ أن السُّكْر طار بلُبّــه
فأغرق في شتمي وقال وما يَــدري
ولاك لِساناً كان إذ كان صاحياً
يُقلِّبُه في كلّ فنٍّ من الشِعر (١)

خروجه مع ابن الأشعث ومقتله

عن ابن الأعرابيّ قال :

كان أبو جلدة اليشكريّ من أخصّ الناس بالحجّاج ، حتى إنه بعثَه وبعث معه عبد الله بن شَدّاد بن الهادي اللَيْثيّ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عليه السلام ، فخطب الحجّاج منه ابنته أمّ كُلثوم .

ثم خرج بعد ذلك مع ابن الأشعث ، وكان من أشدّ الناس تحريضاً على الحجّاج. فلما أُتي الحجّاج برأسه ووُضع بين يديه مكث ينظر إليه طويلاً ثم قال : كم من سِرٍّ أودعتُه في هذا الرأس فلم يخرج حتى أُتيت بــه مقطوعــاً .

فلمّا كان يومُ الزّاوية (٢) خرج أبو جلدة بين الصّفّين ، ثم أقبل على

---

(١) وقاري : فاعل أبى في البيت الأول . الحجر : العقل . عركت قوله بجنبي : أغضيت عنه واحتملته . الخدن : الصديق . النشر : الرائحة . خمر عريقة : فيها عرق من الماء . الجحجح : السيد .

(٢) يوم الزاوية: يوم مشهور كانت به وقعة بين ابن الأشعث وبين الحجاج ، وذلك سنة ٨٣ هـ والزاوية : موضع قريب من البصرة .

أهل الكوفة فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها :

فقُلْ للحَواريّات يبكين غيرَنــــا
ولا تَبْكِنا إلاّ الكلابُ النوابحُ
بَكَيْنَ إلينا خشيةً أن تُبيحَهــا
رِماحُ النَصارى والسيوفُ الجوارح
بكَيَن لكيما يَمْنَعُوهنّ منهــــمُ
وتأبى قُلوبٌ أضمرتْها الجوانح
ونادينَنا : أين الفِرارُ وكنــتمُ
تَغارُون أن تَبْدُو البُرى والوشائح
أأسلمتمونا للعَدُوِّ على القنَــــا
إذا انتُزِعت منها القُرونُ النواطــح
فما غــار منكم غائرٌ لِحَليلـــة
ولا عَزَبٌ عَزّت عليه المَناكحُ [1]

قال : فلمّا أنشدهم هذه الأبيات أَنِفوا وثاروا فشَدُّوا شَدّةً تضعضع لها عسكرُ الحجّاج ، وثبت لهم الحجّاج وصاح بأهل الشأم فتراجعوا وثبتوا ، فكانت الدائرة له [2] ، فجعل يقتِّل الناس بَقيّةَ يومه ، حتى صاح به رجلٌ : واللهِ يا حجّاجُ لئن كنّا قد أسأنا في الذّنب لما أحسنتَ في العفو ، ولقد خالفت الله فينا وما أطعتَه . فقال له : وكيف ، ويلك ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : « فإذا لَقِيتُم الذين كفروا فضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أثخنتمُوهم فشدُّوا الوَثاق فإمّا منّــاً

(١) الحواريات : نساء الأمصار ، سمين بذلك لبياضهن . النصارى: أراد أهل الشام لانتشار النصرانية في قبائلها قبل الاسلام . البرى ج برة : الخلخال . الوشائح ج وشاح : ما تتوشح به المرأة من صنوف الحلي .
(٢) كانت الدائرة له : كان النصر له .

بعدُ وإمّا فِداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارَها » [١] . وقد قتلت حتى تجاوزت الحدّ ، فَأسِرْ ولا تَقتُلْ ، ثم قال : أو امنُنْ . فقال : أَولَى لك [٢] ! ألا كان هذا الكلام منك قبل هذا الوقت . ثم نادى برفع السيف وأمّن الناس جميعاً .

قال ابن الأعرابيّ : فبلغني أنّ الحجاج قال يوماً لجلسائه : ما حَرَّض عليّ أحدٌ كما حرّض أبو جلدة ، فإنه نزل على سَرْحةٍ [٣] في وسط عسكرٍ لابن الأشعث ثم نزع سَراويله فوضعه وسَلَح فوقه ، والناس ينظُرون إليه ، فقالوا له : مالَك ، ويلَك ! أجُننت ! ما هذا الفِعل ! قال : كُلُّكم قد فعلتم مثل هذا إلاّ أنكم سترتموه وأظهرتُه . فشتموه وحمَلوا عليّ ، فما أنساهم ، وهو يَقدُمهم ويرتجز :

نحن جلَبنا الخيل من زَرَنجا مالَك يا حَجّاج منّا مَنْجَى
لَتُبْعَجَنّ بالسُيوفِ بَعجا أو لَتَفِرَّنَّ فذاك أَحْجَى [٤]

فوالله لقد كاد أهل الشأم يومئذٍ يتضعضعون لولا أنّ الله تعالى أيّد بنَصره . قال : وقال أبو جِلدة يومئذٍ :

أيا لَهَفي ويا حَزَني جميعاً ويا غَمّ الفؤادِ لما لَقِينا
تركْنا الدِّين والدُّنيا جميعاً وخلّينا الحلائلَ والبَنِينا
فما كُنّا أُناساً أهلَ دِينٍ فنَصبِرَ للبَلاء إذا بُلِينا
ولا كُنّا أُناساً أهلَ دُنيا فنَمْنَعَها وإن لم نَرْجُ دِينا
تركْنا دُورَنا لطَغامِ عَكٍّ وأنباط القُرى والأشْعَرِينا [٥]

* * *

(١) أثختموهم : أكثرتم فيهم الجراح .
(٢) أولى لك : صيغة تهديد ووعيد . وهنا صيغة دعائية بمعنى : ويلك .
(٣) السرح : ضرب من الشجر ضخم .
(٤) زرنج : قصبة سجستان . أحجى : أعقل .
(٥) عك والأشعر : قبيلتان من اليمن .

٣

أبو صخر الهذليّ

(الأغاني ج ٢٤ ص ١١٠ وما بعدها)

الشاعر

هو عبد الله بن سَلْم السَّهْميّ ، أحد بني مُرْمِض ...

وهو شاعرٌ إسلاميّ من شعراء الدولة الأمويّة ، وكان مُوالياً لبني مَروان ، مُتعصّباً لهم . وله في عبد الملك بن مَروان مدائحُ ، وفي أخيه عبد العزيز ، وعبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أَسيد .

خبره مع عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان

عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال :

لمّا ظهر عبدُ الله بن الزُبير بالحجاز وغلَب عليها ، بعد مَوت يَزيد بن

معاوية ، وتشاغل بنو أُميّة بالحرب بينهم في مَرج راهط [١] وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهُذَليُّ في هُذَيل – وقد جاؤوا ليَقبضُوا عَطاءَهم – وكان عارفاً بهوَاه في بني أُميّة ، فمنعَه عَطاءه، فقال : عَلامَ تَمْنَعُني حَقّاً لي ، وأنا امرُؤٌ مُسلِم ما أحدثتُ في الإسلام حَدَثاً ، ولا أخرجتُ من طاعة يداً ! قال : عليك بني أُميّة فاطلُبْ عندَهم عَطاءَك . قال : إذنْ أَجِدَهم سِباطاً أكفُّهم [٢] ، سَمْحةً أنفسُهُم ، بُذَلاءَ لأموالهم ، وهّابين لمُجتَدِيهم [٣] ، كريمةً أعراقُهم ، شريفةً أُصولُهم ، زاكيةً فُروعهم ، قريباً من رسول الله ﷺ ، نَسَبُهم وسَبَبُهم ، ليسوا إذا نُسِبوا بأذنابٍ ولا وشائظَ [٤] ولا أتباع ، ولا هم في قُريش كفقْعة القاع [٥] ، لهم السُؤْدُد في الجاهليّة ، والمُلكِ في الإسلام ، لا كَمَن لا يُعَدُّ في عِيرها ولا نَفيرها [٦] ، ولا حُكّمَ آباؤه في نَقيرها ولا قِطْميرِها [٧] ، ليس من أحلافها المُطَيّبين [٨] ولا من سادَتها المُطْعِمين ، ولا من جُوَدائها [٩] الوهّابين ، ولا من هاشمِها المُنْتَخَبين ، ولا عَبَد شَمْسها المُسَوَّدين . وكيف تُقابَل الرؤوسُ

(١) مرج راهط : موضع قريب من دمشق ، بعد مرج عذراء في الطريق إلى حمص .
(٢) فلان سبط الكف : كريم جواد .
(٣) المجتدي : طالب المعروف .
(٤) الوشائظ : الدخلاء في القوم ليسوا من صحيحهم .
(٥) فقعة القاع ، ضرب من الكمأة ، ويضرب بها المثل في الذلة وهوان الشأن وخمول الذكر .
(٦) لا في العير ولا في النفير : مثل يضرب لمن لا شأن له والعير : الإبل والنفير : القوم ينفرون للقتال .
(٧) النقير : النقرة في ظهر النواة . القطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة، ويراد بهما الشيء اليسير القليل القيمة .
(٨) حلف المطيبين : هم بنو هاشم وبنو زهرة وتيم من قريش ، اجتمعوا في دار ابن جدعان في الجاهلية وجعلوا طيباً في جفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التناصر .
(٩) الجوداء : الأجواد ، ج جواد .

بالأذناب ! وأين النّصْل من الجَفْن [1] ، والسِّنان من الزُّجّ [2] ، والذُّنابى من القُدامى ، وكيف يُفَضَّل الشّحيحُ على الجَواد ، والسُّوقةُ على المَلِك ، والمُجيعُ بُخلاً على المُطعِم فَضْلاً !

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصُه ، وعَرِق جبينُه ، واهتزّ من قَرنه إلى قَدمه ، وامتُقِع لونُه ، ثم قال له : يابنَ البَوّالة على عَقبيها ، يا جِلْفُ ، يا جاهلُ . أما واللهِ لولا الحُرُماتُ الثلاثُ : حُرمةُ الإسلام ، وحُرمة الحَرَم ، وحُرمة الشهر الحَرام ، لأخذت الذي فيه عَيناك [3] .

ثم أمر به إلى سِجن عارِمٍ ، فحُبس به مُدّةً ، ثم استوهبته هُذيلٌ ، ومَن له بين قريش خُؤولةٌ في هُذيل ، فأطلقه بعدَ سنةٍ ، وأقسم ألاّ يُعطيَه عَطاءً مع المسلمين أبداً .

فلمّا كان عامُ الجَماعة ووُلّي عبد الملك وحَجّ ، لَقِيه أبو صَخر ، فلمّا رآه عبد الملك قَرّبه وأدناه وقال له : إنّه لم يَخْفَ عليَّ خَبَرُك مع المُلْحِد ، ولا ضاع لكَ عندي هَواك ومُوالاتُك ، فقال : أما إذ شفَى اللهُ منه نفسي ، ورأيتُه قتيلَ سيفك ، وصَريعَ أوليائك ، مَصلوباً مَهتوكَ السِّتر ، مُفَرَّق الجَمْع ، فما أبالي ما فاتني من الدنيا .

ثم استأذنه أبو صخر في الإنشاد ، فأذِن له ، فمثلَ بين يديه قائماً ، وأنشأ يقول :

عفَتْ ذاتُ عِرْقٍ عُصْلُها فرِدامُها
فَدَهْناؤها وَحْشٌ وأَجْلى سَوامُهـا

(1) النصل : حد السيف والجفن : غمده .
(2) السنان : حديدة الرمح . الزج : أسفل الرمح الذي لا يطعن به .
(3) أراد : لقطعت رأسك .

على أنّ مَرسى خيمةٍ خَفَّ أهلُهــا
بأبطحَ مِحْلالٍ وهَيْهاتَ عامُهـــا
إذا اعتلجت فيها الرّياحُ فأدرجتْ
عَشياً جرى في جانبَيها قُمامُهـا
وانّ مَعاجي في الدّيار ومَوقفي
بدارسةِ الرّبْعَيْن بالٍ ثُمامُهـــا
لَجَهلٌ ولكنّي أُسلّي ضَمانــةً
يُضعّفُ أسرار الفؤاد سَقامُهـــا
فأقْصِر فلا ما قد مضى لك راجعٌ
ولا لذّةُ الدنيا يَدُومُ دَوامهـا
وفَدَّ أمير المؤمنين الذي رمــى
بجَأواءَ جُمْهـــورٍ تَسيل إكامُها
من ارض قُرى الزيتونِ مكّةَ بعدمـا
غُلبنا عليها واستُحلّ حَرامُهـــا
وإذ عاث فيها الناكثون وأفْسَدُوا
فخِيفت أقاصيها وطار حَمامُهـا
فشَجّ بهم عرضَ الفلاةَ تعسُّفاً
إذا الأرضُ أخفَى مُستواها عِلامُها
فصبّحهم بالخَيل تزحَفُ بالقنـا
وبيضاءَ مثل الشمس يَبْرُق لامُهـا
لهم عسكرٌ ضافي الصفُوفِ عَرمرمٌ
وجُمهورةٌ يَثْني العدوّ انتقامُهـا

فطهّر منهم بطنَ مكّةَ ماجـــدٌ
أبى الضَيْمَ والمَيْلاءَ حين يُسامُها (١)

(الأبيات ...)

قال : فأمر له عبد الملك بما فاته من العطاء ، ومثلِه صِلةً من ماله ، وكساه وحملَه .

من مختار شعره

* قال أبو عَمرو :

كان أبو صخرٍ الهُذليُّ يهوى امرأةً من قُضاعةَ ، مجاورةً فيهم ، يُقال لها ليلى بنت سعد ، وتُكنى أمَّ حكيم ، وكانا يتواصلان بُرهةً من دهرهما ، ثمّ تزوّجت ورحل بها زوجُها إلى قومه . فقال في ذلك أبو صخـــر :

ألَمَّ خيالٌ طارقٌ متأوِّبُ
لأمِّ حكيمٍ بعدما نِمتُ مُوصِبُ

---

(١) ذات عرق : الحد بين نجد وتهامة . العصل : ذكر ياقوت : العصلاوان بفتح العين وقال انهما شعبتان تصبان على ذات عرق . رئامها : لم يرد في كتب البلدان اسم موضع بهذا الاسم في شمالي بلاد العرب ولعله : رجام أو ثمام . الدهناء : من ديار بني تميم ، وهي بعيدة عن ذات عرق ومواطن هذيل ، وفي بعض الروايات : فضحياؤها . وحش : مقفرة من الناس . الأبطح : مسيل الوادي . المحلال : التي يكثر حلول الناس به . اعتلجت : اضطربت . درجت الريح وأدرجت : مرت وتركت آثارها على الرمل . القمام : ما يكنس . الثمام : ضرب من الشجر . الضمانة : الداء في الجسد . الجأواء : الجيش العظيم . الجمهور والجمهورة : الرمل المتراكم المشرف على ما حوله ، والمراد : جيش كثير العدد . أرض قرى الزيتون : أراد بلاد الشأم . علامها ، بكسر العين : جمع علم ، وهو الجبل ، وذهب ابن جني إلى أنــه أراد علمها فأشبع الفتحة . البيضاء : وصف للكتيبة . لامها ، مخففة عن لأم : وهي عدة القتال .

وقد دنت الجوزاءُ وهي كأنّها
ومِرْزَمُها بالغَور ثورٌ ورَبْرَبُ

فبات شرابي في المَنام مع المُنى
غَريضُ اللّمَى يَشفي جوى الحزُن أشْنَبُ

قُضاعيّةٌ أدنى دِيارٍ تَحلُّها
قَناةُ وأنّى من قَناةَ المُحَصَّبُ

سِراجُ الدُجى تغتلّ بالمِسك طَفْلةٌ
فلا هي مِتْفالٌ ولا اللونُ أكهَبُ

دَميثةُ ما تحتَ الثياب عَميمةٌ
هَضيمُ الحشا بِكرُ المَجَسّة ثيِّبُ

تعلّقتُها خَوداً لذيذاً حديثُها
لياليَ لا تُمحَى ولا هي تُحجَبُ

فكان لها ودّي ومَحض عَلاقتي
وليداً إلى أن رأسيَ اليومَ أشيبُ

فلم أرَ مِثلي أيأستْ بعد عِلْمِها
بودّي ولا مثلي على اليأس يَطلُبُ

ولو تلتقي أصداؤنا بعد مَوتنا
ومن دون رَمْسَينا من الأرض سبْسَبُ

لظلّ صدى رَمْسي ولو كنت رِمّةً
لصوت صَدى ليلى يَهَشُّ ويَطرَبُ (١)

---

(١) متأوب : طارق في الليل . موصب ، من الوصب : الوجع والمرض . الجوزاء : برج في السماء . المرزم : نجم من نجوم المطر . الربرب : القطيع من بقر الوحش . اللمى : السواد في الشفة . الشنب : برد الأسنان وعذوبتها . قناة : واد من أودية المدينة . تغتل : تتعطر . الطفلة : الفتاة الناعمة اللينة . المتفال : المنتنة الريح . أكهب : أغبر . دميثة : لينة . عميمة : طويلة . بكر المجسة . ثيب : حين تجسها تظنها بكراً وهي ثيب . الخود : الفتاة الشابة . الصدى : طائر يكون في المقابر ، وهو الهامة أيضاً . السبسب : الأرض البعيدة المستوية.

وقصيدة أبي صَخْر التي فيها الغِناء ... من مُختار شعر هُذَيل وأوّلُهـا :

لِلَيْلَى بذات الجيش دارٌ عرفتُهـا
وأخرى بذات البَين آياتُهـا سَطْر
وقفت برسمَيْها فلمّـا تنكّرا
صَدَفت وعيني دمعُها سَرِبٌ هَمْر
وفي الدمع إن كذّبتُ بالحُبّ شاهـدٌ
يُبَيِّن ما أخفي كما بَيّن البَدْر
ضبرت فلمّا غال نفسي وشَفّهـا
عجاريف نَأْيٍ دونَها غُلب الصَبْر
إذا لم يكن بين الخليلَين رِدّةٌ
سِوى ذِكر شيءٍ قد مضى دَرَس الذُكْر
إذا قلتُ هذا حينَ أسْلُو يَهيجني
نسيمُ الصَّبا من حيث يَطّلع الفَجـر
وإنّي لَتعرُوني لِذكراك رِعْدةٌ
كما انتفض العُصفور بلّله القَطْرُ
هجرتُك حتى قيل لا يَعرِف الهوى
وزُرْتُك حتّى قيل ليس له صَبر
صدقتِ أنا الصَبُّ المُصابُ الذي به
تباريحُ حُبٌّ خامر القلبَ أو سِحْرُ
أما والذي أبكى وأضحك والذي
أمات وأحيا والذي أمْرُه أمْـرُ
لقد تركتْني أحسُد الوَحش أن أرى
أليفَين منها لم يرُوّعْهمـا الزَّجـرْ

فيا هجرَ ليلى قد بلغتَ بيَ المدَى
وزِدتَ على ما لم يكن بلغ الهَجْــرُ
ويا حُبّها زِدْني جوىً كلَّ ليلة
ويا سَلْوةَ الأيّام مَوعِدُكِ الحَشْرُ
عجبت لِسعي الدهر بيني وبينهـا
فلمّا انقضى ما بيننا سَكَن الدّهر
فليستْ عَشيّات الحِمى برواجع
لنا أبداً ما أورقَ السّلَمُ النّضْرُ
وإنّي لآتيهــا لكيما تُثِيبَــني
وأُوذِنَها بالصُّرم ما وضَح الفَجْرُ
فما هو إلاّ أن أراهــا فُجاءةً
فأبْهَت لا عُرْفٌ لديَّ ولا نُكْرُ
تكاد يدِي تندَى إذا ما لمستُها
وينبُتُ في أطرافها الورقُ الخُضْرُ (١)

* قال أبو عمرو الشيبانيّ : كان لأبي صخر ابنٌ يُقال له داود ، لم يكن له ولدٌ غيرُه ، فمات فجزِع عليه جزَعاً شديداً حتى خُولِط . فقال يرثيه :

لقد هاجني طَيفٌ لداودَ بعدَما دنَت فاستقلّتْ تالياتُ الكواكبِ
وما في ذُهول النفس عن غير سَلْوةٍ رَواحٌ من السُّقْم الذي هو غالبي
وعندكَ لو يحيا صَداك فنَلْتقي شِفاءٌ لِمن غادرتَ يومَ التَناضِبِ
فهل لك طِبٌّ نافعي من عَلاقةٍ تُهيِّمُني بين الحَشا والتّرائــبِ

(١) ذات الجيش : موضع قرب المدينة . ذات البين : موضع . آياتها سطر : آثارها كالخط والكتابة . صدفت : أعرضت . همر : منهمرة غزيرة . غالها : أهلكها . عجاريف الدهر : حوادثه وصروفه . ردة : بقية القطر : المطر . الجوى : شدة الوجد من العشق . السلم : ضرب من الشجر الشائك .

تشكّيتُها إذ صدّع الدهرُ شعبنا فأمست وأعيت بالرُّقى والطبائب
ولولا يقيني أنّما الموتُ عزْمةٌ من الله حتى يبعثوا للمحاسِبِ
لقلت له فيما ألمَّ برمسه : هل انت غداً غادٍ معي فمصاحبي
وماذا ترى في غائبٍ لا يغبُّني فلست بناسيه وليس بآئبِ
سألتُ مليكي إذ بلاني بفقده وفاةً بأيدي الرُّوم بين المقانبِ
ثنوني وقد قدّمت ثأري بطعنة تجيش بموّارٍ من الجوف ثاعبِ
فقد خفتُ أن ألقى المنايا ، وإنّني لتابعُ من وافى حمامَ الجوالب
ولمّا أطاعِنْ في العدوّ تنفُّلاً إلى الله أبغي فضله وأضاربِ
وأعطِفْ وراءَ المسلمين بطعنةٍ على دبرٍ مُجْلٍ من العيش ذاهب(١)

* * *

(١) استقلت : غابت وارتحلت . الصدى : جسد المرء بعد موته . التناضب : بكسر الضاد ، وضبط بضمها ايضاً وبضم أوله : موضع قرب المدينة . الترائب ج تريبة : أعلى الصدر . المحاسب : للحساب . يغبني : يزورني يوماً ويدعني يوماً ، يريد : لا تفارقني ذكراه . آئب : عائد . المقانب ج مقنب : جماعة الخيل والفرسان . ثاعب : جار ، من ثعب الماء اذا جرى في المثعب ، وهو مسيل الماء . حمام الجوالب : الموت الذي تجلبه الأقدار . التنفل والنفل : ما يؤديه المرء مما لم يفرض عليه ولم يجب . على دبر مجل من العيش : على عيش ذاهب مدبر .

٤

أبو العبّاس الأعمى

(الأغاني ج ١٦ ص ٢٩٨ وما بعدها)

الشاعر

هو السائب بن فَرُّوخ ، مولى بني ليث . وقيل إنه مولى بني الديل ، وهذا القول هو الصحيح .

عن المدائنيّ والواقديّ : أنّ أبا العبّاس الأعمى الذي يروي عنه حَبيب بن أبي ثابت ، مولى جَذيمة بن عليّ بن الدُّيل بن بكر بن عبد مَنـــاة .

وكان من شعراء بني أميّة المعدودين ، المقدَّمين في مدحهم والتشيُّع لهم ، وانصباب الهوى إليهم . وهو الذي يقول في أبي الطُفيل عامر بن واثلة ، صاحب عليّ بن أبي طالب عليه السلام :

لَعَمْرك إنّني وأبا طُفَيلٍ   لَمُختلِفان ، والله الشهيدُ

أرى عثمان مُهتدياً ويأبى مُتابعتي وآبى ما يُريد

وقد روى أبو العبّاس الأعمى عن صَدرٍ من الصحابة الحديثَ ، وروَى عنه عَطاءٌ ، وعَمرو بن دينار ، وحَبيب بن أبي ثابت .

وفاؤه لبني أمية وهجاؤه آل الزبير

أيّوب بن عمر أبو سَلمة قال :

قال أبو العبّاس الأعمى ، مولى بني الدِّيل بن بكر ، يحُضّ بني أميّة على عبد الله بن الزبَير :

أبني أُميّةَ لا أَرى لكم شِبْهاً إذا ما التفّت الشيَع
سَعةً وأحلاماً إذا نَزَعت أهل الحلُوم فضَرّها النَزَع
وحَفيظةً في كلّ نائبة شَهباءَ لا يُنهَى لها الرُّبَع
الله أعطاكم وإن رَغِمتْ من ذاك أنف معاشرٍ رَتَعوا
أبني أُميّةَ غيرَ أنّكم والناس فيما أُطمِعُوا طمِعُوا
أطمعتُم فيكم عَدوّكم فسَما بهم في ذاكم الطمَع
فلو آنكّم كنتم لِقَولكم مثلَ الذي كانوا لكم رَجَعُوا
عَمّا كرهتُم أو لَرَدّهُم حَذَرُ العُقوبة إنّها تَزَعُ (١)

وله أشعارٌ كثيرة في مدائح بني أميّة ، وهجاء آل الزُبير ، وأكثرها في هجاء عَمرو بن الزُبير .

* عن المنصور :

خرجت أُريد الشأم أيّام مَروان بن محمّد ، فصَحِبني في الطريق رجلٌ ضرير ، فسألته عن مَقصَده ، فأخبرني أنّه يريد مروان بشعرٍ امتدحه

---

(١) الحفيظة : الغضب والحمية والذب عن المحارم . الربع : الفصيل ينتج في الربيع .

به ، فاستنشدتُه إيّاه فأنشدَني :

ليت شِعري أفاح رائحةُ المِسْـ ـك وما إن إخالُ بالخَيْف إنْسي
حين غابت بنو أميّةَ عنه والبَهاليلُ من بني عبد شَمس
خُطَباءٌ على المنابر فُرسـ ـانٌ عليها وقالةٌ غيرُ خُرْس
لا يُعابون صامتِين وإن قالوا – أصابوا ولم يقُولوا بلَبْس
بحُلومٍ إذا الحُلومُ تقضَّت ووُجوهٍ مثلِ الدنانير مُلْسِ (١)

قال : فوالله ما فرَغ من إنشاده حتّى توهّمت أنّ العمى قد أدركني ، وافترقنـــا .

فلمّا أفضت الخلافة إليّ خرجت حاجّاً ، فنزلت أمشي بجَبَلَيْ زَرُود ، فبَصُرت بالضّرير ، ففرّقتُ من كان معي ثمّ دنوت منه فقلت : أتعرفني ؟ قال : لا . قلت : أنا رفيقُك وأنت تريد الشأم ، أيّام مَروان . فقال : أوّه :

آمَت نساءُ بني أميّة منهمُ
وبَناتُهم بمَضيعةٍ أيتامُ
نامت جُدودُهم وأسقط نجمُهم
والنّجم يسقُط والجُدودُ تَنامُ
خلَت المنابرُ والأسِرّةُ منهم
فعليهم حتّى المَمات سَلامُ (٢)

فقلت : وكم كان مروان أعطاك ، بأبي أنت ؟ قال : أغناني أن أسأل أحداً بعدَه . فهممت بقتله ، ثم ذكرت حقّ الاستِرسال والصُحبة

---

(١) الخيف : موضع بمنى ، الانس : جماعة الناس ، البهلول : السيد الجامع لكل خير .
(٢) آمت المرأة : فقدت زوجها فهي أيم . جدودهم : حظوظهم .

فأمسكت عنه ، وغاب عن عيني ، فَبدا لي فيه [1] ، فأمرت بطلبه ، فكأنّما البيداء بادت به .

عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ قال : حدّثني أبي وأهلي :

أنّ عبد الله بن الزبير لمّا غلب على الحجاز ، جعل يتتبّع شيعة بني مَروان ، فيَنفيهم عن المدينة ومكّة ، حتّى لم يبق بهما أحدٌ منهم . ثم بلغه عن أبي العبّاس الأعمى الشاعر نَبْذٌ من كلام ، وأنّه يكاتب بني مروان بعوراته ، ويمدح عبد الملك ، وتَجيئه جوائزُه وصلاته . فدعا به ثم أغلظ له وهَمَّ به ، ثم كُلّم فيه وقيل له : رجلٌ مضرورٌ ، فعفا عنه ، ونفاه إلى الطائف . فأنشأ يقول يهجوه ويهجو آل الزبير :

بني أسَدٍ لا تَذكرُوا الفخرَ إنّكم
متى تذكروه تُكَذّبوا وتُحَمّقُوا
بُعَيداتِ بَيْنٍ خيرُكم لِصديقكم
وشرُّكم يغدُو عليه ويَطرُقُ
متى تُسألوا فَضلاً تضنُّوا وتبخَلُوا
ونيرانكُم بالشرّ فيهـا تحرَّقُ
إذا استبقت يوماً قريشٌ خرجتمُ
بني أسَدٍ سُكْتاً وذو المجد يَسبقُ
تجيئون خلفَ القوم سُوداً وجوهُكم
إذا ما قريشٌ للأضاميم أصفقُـــوا
وما ذاك إلاّ أنّ لِلُؤم طابَعـاً
يَلُوحُ عليكم وَسْمُه ليس يَخلُقُ [2]

---

(١) بدا لي فيه : عن لي رأي آخر فيه .

(٢) يقال : رأيته بعيدات بين ، أي بعد فراق ، وهو يلازم الظرفية ، ويراد به هنا أن فضلهم على الصديق يأتي متأخراً . سكت ج سكيت : وهو آخر الخيل في السباق . الاضاميم ج اضمامة : الجماعة . أصفقوا القوم : جازوهم من الطعام بما يشبعهم . يخلق : يبلى .

* إسحاق بن محمّد الأموي قال :

لمّا حجّ عبد الملك بن مَروان جلس للناس بمكّة ، فدخلوا إليه على مراتبهم ، وقامت الشعراء والخطباء فتكلّموا . ودخل أبو العبّاس الأعمى ، فلمّا رآه عبد الملك قال : مَرحباً ، مرحباً بك يا أبا العبّاس ، أخبرني بخبر المُلحِد المُحِلّ حيث كسا أشياعه ولم يكسُك ، وأنشدني ما قلت في ذلك .

فأخبره بخبر ابن الزبير ، وأنّه كسا بني أسد وأحلافها ولم يكسُه ، وأنشده الأبيات . فقال عبد الملك : أُقسِم على كل من حضَرني من بني أميّة وأحلافهم ومواليهم ، ثم على كل من حضرني من أوليائي وشيعتي على دَعوتهم ، إلاّ كسا أبا العبّاس .

فخُلِعت والله حُلَل الوَشي والخَزّ والقُوهيّ [1] ، وجُعلت تُرمَى عليه ، حتّى إذا غَطّته نهض فجلس فوق ما اجتمع منها وطُرِح عليه . قال : حتّى رأيت في الدار من الثياب ما ستَر عنّي عبدَ الملك وجُلَساءه ، وأمر له عبد الملك بمائة ألفِ درهم .

من أخباره مع الشعراء

قال المدائنيّ :

قدِم البعيث المجاشعي مكّة ، وكان العبّاس الأعمى الشاعر لا يكاد يُفارقها ، وكانت جوائز بني أميّة تأتيه من الشام ، وكانت قريش كلّها تَبَرّه للسانه وتقرُّباً إلى بني أُميّة ببِرّه . قال : فصلّى البعيث مع الناس وسأل في حَمالة كانت عليه ، وكان سَؤُولاً مُلحّاً شديد الطمع ، وكان الرجل من قريش يأتيه بالشيء يتحمّله عنه فيقول : لا أَقبَلُه إلاّ أن

---

(١) القوهي : ضرب من الثياب بيض الالوان .

تجيء معي إلى الصَّرّاف حتّى ينقُدَه ويَزِنه ، فإن لم يفعل ذمّه وهجاه . فشكوه إلى أبي العبّاس الأعمى فقال : قودُوني إليه . ففعلوا . فلمّا عرَف مجلسه رفع عصاه فضرب بها رأسه ثم قال له :

فهل أنت إلاّ مُلْصَقٌ في مُجاشِعٍ
نَفاكَ جريرٌ بالهجاء إلى نَجد
تظلّ إذا أعطيتَ شيئاً سألتَه
تُطالب مَن أعطاك بالوزن والنَقْد
فلا تَطْمَعَنْ من بعدِ ذا في عَطيّة
وثِقْ بقَبيح المَنع والدَفع والرّد
فلستَ بمُبقٍ في قريشٍ خَزايةً
تُذَمُّ ولو أبعدتَ فيه مَدى الجُهدِ

قال : فتضاحك به مَن حضر ، واستحيا ولم يُحِرْ جواباً. فلمّا جَنّ الليل عليه هرب من مكّة ..

* عن المكّيّين :

أن عمر بن أبي ربيعة كان يُرامي جاريةً لأبي العبّاس الأعمى ببنادق الغالية (١) . فبلغ ذلك أبا العبّاس فقال لقائده : قِفْني على باب بني مخزوم ، فإذا مرّ عمر بن أبي ربيعة فضع يدي عليه . فلمّا مرّ عمر وضع يده عليه فأخذ بحُجْزَته (٢) وقال :

ألا مَن يشتري جاراً نؤوماً
بجارٍ لا ينَام ولا يُنيم

(١) بنادق الغالية : البندق : ما يرمى به والغالية : العطر .
(٢) الحجزة : معقد الازار .

ويلبس بالنهــار ثيابَ نــاسٍ
وشَطْرَ الليل شيطــانٌ رجيم

فنهضت إليه بنو مخزوم فأمسكوا فمه ، وضمِنوا له عن عمر أن لا يُعاود ما يكرهه .

• • •

٥

أبو وجزة السعدي

(الأغاني ج ١٢ ص ٢٣٩ وما بعدها)

الشاعر

اسمُه يزيد بن عُبيد ... وانتسب إلى بني سَعد بن بكر بن هوازن لولائه فيهم . وأصله من سُليم ... ولكنه لحق أباه سِباءٌ في الجاهليّة ، فبيع بسوق ذي المَجاز ، فابتاعه رجلٌ من بني سَعد واستعبده . فلمّا كبر استعدى عمر رضي الله عنه وأعلمه قصّته ، فقال له : إنه لا سِباءَ على عربيّ ، وهذا الرجل قد امتنّ عليك ، فإن شئتَ فأقِمْ عنده ، وإن شئت فالحَقْ بقومك . فأقام في بني سعد وانتسب إليهم هو ووَلَده .

عن يونس : كان عُبَيد أبو أبي وَجْزة السَعْديّ عبداً بيع بسوق ذي المجاز في الجاهلية ، فابتاعه وهَيب بن خالد ... بن سَعد بن بكر بن هَوازن ، فأقام عنده زماناً يرعى إبله . ثم إنّ عُبيداً ضرب ضَرْع ناقة لمولاه فأدماه ، فلطم وجهه . فخرج عبيدٌ إلى عمر بن الخطّاب ،

رضي الله عنه ، مستعدياً . فلمّا قدم عليه قال : يا أمير المؤمنين ، أنا رجلٌ من بني سُلَيم ، ثم من بني ظَفَر ، أصابني سِباءٌ في الجاهليّة كما يُصيب العرب بعضها من بعض ، وأنا معروف النسب . وقد كان رجلٌ من بني سعد ابتاعني ، فأساء إليّ وضرب وجهي ، وقد بلغني أنّه لا سِباءَ في الإسلام ، ولا رِقّ على عربيٍّ في الإسلام . فما فرَغ من كلامه حتى أتى مولاه عمرَ بن الخطّاب ، رضي الله تعالى عنه ، على أثره ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا غُلامٌ ابتعتُه بذي المَجاز ، وقد كان يقوم في مالي فأساء فضربته ضربةً والله ما أعلمني ضربتُه غيرَها قطُّ ، وإنّ الرجل لَيضرِب ابنه أشدّ منها فكيف بعَبده ، وأنا أُشهِدك أنّه حرٌّ لوجه الله تعالى . فقال عمر لعبيد : قد امتنّ عليك هذا الرجل وقطع عنك مؤْنةُ البيّنة ، فإن أحببتَ فأقم معه ، فله عليك مِنّةٌ ، وإن أحببت فالحَقْ بقومك . فأقام مع السّعْديّ وانتسب إلى بني سعد بن بكر بن هوازن ، وتزوّج زينب بنت عُرْفُطة المُزَنيّة فولدت له أبا وَجْزةَ وأخـاه ...

فلمّا بلغ ابناه طالباه بأن يلحق بأصله وينتمي إلى قومه من بني سُلَيم ، فقال : لا أفعلُ ولا ألحَقُ بهم فيعيّروني كلّ يومٍ ويدفعُوني ، وأترك قوماً يكرمونني ويُشرّفونني . فوالله لَئن ذهبت إلى بني ظَفَر لا أرعى طُمّةً ، ولا أرِدُ جَمّةً (١) ، إلاّ قالوا لي : يا عبدَ بني سعد . قال : وطمّة : جبل لهم .

وكان أبو وَجزة من التابعين ، وقد روى عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ورأى عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه ، ولم يُسند إليه حديثاً ، ولكنّه حدّث عن أبيه عنه بحديث الاستسقاء ، ونقل عنه جماعةٌ من الرُواة .

---

(١) الطمة أيضاً : القطعة من العشب اليابس والجمة ، بفتح الجيم : الماء الكثير .

عن أبي وجزة السَعديّ عن أبيه قال :

شهدت عمر بن الخطّاب ، رضي الله تعالى عنه ، وقد خرج بالناس ليستسقيَ عامَ الرَّمادة [1] ، فقام وقام الناس خلفَه ، فجعل يستغفر الله رافعاً صوته لا يزيد على ذلك . فقلت في نفسي : ما لَه لا يأخذ فيما جاء له ! ولم أعلم أنّ الاستغفار هو الاستسقاء ، فما برحنا حتى نشأت سحابةٌ وأظلّتْنا ، فسُقي الناس ، وقَلّدتنا السماءُ قَلْداً [2] كلّ خمس عشرةَ ليلةً ، حتى رأيت الأرِينة [3] تأكلها صِغار الإبل من وراء حِقاق العُرفُط [4] ...

وزاد ابن قتيبة في خبره قال : ومات أبو وَجْزة سنة ثلاثين ومائة .

وهو أحد من شبّب بعجوزٍ حيث يقول :

يأيّها الرَّجلُ المُوكّلُ بالصِّبا
فيمَ ابنُ سبعين المُعَمّرُ من دَدِ
حتّامَ أنتَ موكّلٌ بقديمةٍ
أمستْ تَجدَّدُ كاليماني الجيِّد
زان الجَلالُ كمَالها ورسا بها
عقلٌ وفاضلةٌ وشِيمة سيّد
ضَنّت بنائلها عليك وأنتما
غِرّان في طلب الشباب الأغيد

---

(١) عام الرمادة : عام هلكت فيه الناس والماشية أيام عمر بن الخطاب مأخوذ من أرمد القوم أي أمحلوا .

(٢) قلدتنا : مطرتنا ، والقلد : النصيب من الماء .

(٣) الأرينة : نبت عريض الورق .

(٤) العرفط : شجر من العضاه ، وهو شجر عظيم شائك .

فالآنَ ترجو أن تُثيبكَ نائلاً
هيهاتِ ، نائلُها مكانَ الفرقدِ [1]

طائفة من أخباره

* ... الزُبير بن بكّار قال : حدّثني عمّي عن جدّي قال :

خرج أبو وجزة السَعديّ وأبو زيد الأسلميّ يريدان المدينة ، وقد امتدح أبو وجزة آل الزبير ، وامتدح أبو زيد إبراهيم بن هشام المخزوميّ . فقال له أبوَ وجزة : هل لك في أن أشاركك فيما أُصيب من آل الزبير ، وتُشاركني فيما تُصيب من إبراهيم ؟ فقال : كلاّ ، واللهِ لرَجائي في الأمير أعظم من رَجائك في آل الزبير .

فقدما المدينة ، فأتى أبو زيدٍ دار إبراهيم ، فدخلها وأنشد الشعر وصاح وجلَب ، فقال إبراهيم لبعض أصحابه : أخرُج إلى هذا الأعرابيّ الجِلف فاضربْه وأخرجه ، فأُخرج وضُرب . وأتى أبو وجزة أصحابه فمدحهم وأنشدهم ، فكتبوا له إلى مالٍ لهم بالفُرع [2] أن يُعطَى منه ستّين وَسْقاً [3] من التمر . فقال أبو وجزة يمدحهم :

راحت قَلُوصي رَواحاً وهي حامدةٌ
آلَ الزُبيرَ ولم تعدِلْ بهم أحَداً
راحت بستّين وَسْقاً في حَقيبتها
ما حُمّلت حِمْلها الأدنى ولا السَدَدا

---

(١) الدد : اللهو واللعب .
(٢) الفرع : قرية من نواحي الربذة على طريق مكة .
(٣) الوسق : ستون صاعاً .

ذاك القِرى لا كأقوامٍ عَهِدتَهمُ
يَقْرُون ضَيفَهم الملْويّة الجُدُدا [1]

يعني السياط .

قال أبو الفرج الأصفهاني : قول أبي وجزةَ :

راحت بستين وَسْقاً في حقيبتها

أنها حملت ستّين وَسْقاً ، ولا تحمل ناقةٌ ذلك ولا تُطيقه ولا نصفه ، وإنما عنى أنه انصرف عنهم وقد كتبوا له بستّين وسقاً ، فركب ناقته والكتاب معه بذلك قد حملته في حَقيبتها ، فكأنّها حاملة بالكتاب ستّين وسقاً ، لأنها أطاقت حمل ذلك . وهذا بيت معنى يُسأل عنه .

* عن يعقوب بن سَلام بن عبد الله بن أبي مَسروج قال :

تزوّج أبو وَجْزة السعديّ زينب بنت عُرْفُطة بن سهيل بن مكدّم المُزَنيّة [2] فولدت له عُبَيداً ، وكانت قد عَنّست ، وكان أبو وجزة يُبغضها ، وإنّما أقام عليها لشرفها ، فقال لها ذات يوم :

أعطى عُبيداً ، وعُبيدٌ مَقْنَعُ
مِن عِرْمِسٍ مَحْزِمُها جلَنْفَعُ
ذاتِ عِساسٍ ما تكاد تَشبعُ
تَجتلد الصَحنَ وما إن تبْضَعَ
تَمُرّ في الدار ولا تَوَرَّعُ
كأنّها فيهم شُجاعٌ أقرعُ [3]

(١) السدد : الوفق .

(٢) تقدم في خبر سابق أن أبا أبي وجزة هو الذي تزوج زينب بنت عرفطة وأنها ولدت له أبا وجزة وأخاه ، وما في الرجز المقول من أبي وجزة يرجح صحة الخبر الثاني .

(٣) أعطى : أي أنجب . العرمس : في الأصل الناقة الصلبة أراد بها هنا المرأة المسنة. المحزم:=

فقالت زينب أم وَجزة تُجيبه :

أعطى عُبيداً من شُيَيخٍ ذي عَجَرْ
لاحسنِ الوجه ولا سَمْحٍ يَسَرْ
يَشرب عُسّ المَذْقِ في اليوْم الخَصِرْ
كأنّما يقذِف في ذات السُعُرْ
تقاذفَ السَيل من الشِعْب المُضِرّ (١)

* عن مسعود بن المفضَّل مولى آل حسن بن حسن قال :

قدم أبو وجزة السعديّ على عبد الله بن الحسن وإخوته سُوَيقة (٢) ، وقد أصابت قومه سنةٌ مُجدبة ، فأنشده قوله يمدحه :

أثني على ابنَيْ رسول الله أفضلَ ما
أثنى به أحدٌ يوماً على أحَدِ
السيّدَين الكريمَيْ كلٍّ مُنصَرَفٍ
مِن والدَين ومن صِهْرٍ ومن وَلَدِ
ذُرّيّةٌ بعضُها من بعضها عَمِرت
في أصلِ مَجْدٍ رفيعِ السَمْك والعَمَدِ
ماذا بَنى لهمُ من صالحٍ حَسَنٌ
وحَسَنٌ وعليٌّ وابتنَوا لِغَدِ

— موضع الحزام من الناقة ، أراد البطن . جلنفع : واسع . العساس ج عس : القدح الضخم . اجتلد الإناء : شرب كل ما فيه . الصحن : العس العظيم . تبضع : ترتوي . الشجاع : الحية . وشجاع أقرع : قد تمعط جلد رأسه لطول عمره .

(١) العجر : عظم البطن . اليسر : السهل السمح الخليقة . المذق : اللبن الممزوج بالماء . الخصر : البارد . ذات السعر : النار المشتعلة . والسعر : الحر . المضر : القريب الداني . الشعب : مسيل الماء في بطن الأرض .

(٢) سويقة : موضع قرب المدينة كان ينزله آل علي بن أبي طالب .

فكرّم اللهُ ذاك البيتَ تكرمـــةً
تبقى وتخلُد فيه آخرَ الأبـــدِ
همُ السّدَى والنّدى ما في قَنَاتهم
إذا تَعوّجت العِيدانُ من أوَدِ
مُهذَّبون هِجانٌ ، أمّهاتُهُـــم
إذا نُسِبن زُلالُ البارق البَرِدِ
بين الفواطم ماذا ثَمَّ من كرمٍ
إلى العَواتك مجدٌ غير مُنْتَقَدِ
ما ينتهي المجدُ إلاّ في بني حَسَنٍ
وما لهم دُونَه من دار مُلْتَحَدِ (١)

قال : فأمر له عبد الله بن الحسن وحسن وإبراهيمُ بمائة وخمسين ديناراً وأوقروا له رواحله بُرّاً وتمراً ، وكَسَوه ثوبين ثوبين .

* عن أبي غسّان والمدائنيّ :

أنّ عبد الملك بن يزيد بن محمد بن عَطيّة السّعديَّ كان قد نُدب لقتال أبي حمزةَ الأزديّ الشاري لمّا جاء إلى المدينة فغلب عليها ، قال : وبعث إليه مروانُ بن محمد بمالٍ ففرّقه فيمن خَفّ معه من قومه، فكان فيمن فُرِض له منهم أبو وجزةَ وابناه ، فخرج معترضاً للعسكر على فرس ، وهو يرتجز ويقول :

---

(١) السمك : السقف . السدى : المعروف . الأود : الاعوجاج . هجان : كرام . البارق : السحاب ذو البرق . الفواطم والعواتك : يقال للحسن والحسين رضي الله عنهما ابنا الفواطم فأمهما فاطمة بنت رسول الله عليه السلام وجدتهما فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. والعواتك : جدات النبي عليه السلام وهنّ من بني سليم : عاتكة بنت هلال أم عبد مناف ، وعاتكة بنت مرة أم هاشم بن عبد مناف ، وعاتكة بنت الأوقص أم وهب بن عبد مناف . ملتحد : ملجأ ومثوى .

قُلْ لأبي حمزةَ هِيدِ هِيدِ جئناك بالعاديةِ الصِّنْديدِ
بالبطلِ القَرمِ أبي الوليدِ فارس قيسٍ نَجدِها المعدودِ
في خيل قيس والكُماة الصِّيد كالسّيف قد سُلَّ من الغمُود
مَحضٍ هجانٍ ماجدِ الجُدود في الفرع من قيسٍ وفي العَمُود
فِدىً لعبد المَلك الحميد ما لي من الطارف والتّليد
يوم تنادى الخيلُ بالصَّعيدِ كأنّه في جُنَن الحديد
سيدٌ يُذِلُّ عزَّ كلِّ سيدِ (١)

قال : وسار ابن عطيّة في قومه ، ولحقت به جيوش أهل الشأم ، فلقي أبا حمزة في اثني عشر ألفاً ، فقاتله يوماً إلى الليل حتّى أصاب صناديد عسكره ، فنادوه : يابن عطيّة ، إنّ الله جلّ وعزّ قد جعل الليل سكَنا ، فاسكُنوا حتّى نسكن . فأبى وقاتلهم حتّى قتلهم جميعاً .

قال : وكان أبو وجزة منقطعاً إلى ابن عطيّة ، يقوم بقُوت عِياله وكسوته ويعطيه ويُفضِل عليه ، وكان أبو وجزة مدّاحاً له ، وفيه يقول :

حنَّ الفؤادُ إلى سُعدى ولم تَشِبِ
فيمَ الكثيرُ من التَحنان والطَرَبِ
قالت سُعاد : أرى من شيبه عَجَباً
مهلاً سُعادُ فما في الشيب من عَجَب
إمّا تَرَيني كَساني الدهرُ شَيْبَتَه
فإنّ ما مرَّ منه عنكِ لم يَغِب

(١) هيد هيد : زجر للإبل لحثها على الاسراع في السير استعارها الشاعر في مخاطبة أبي حمزة يدعوه إلى النجاة والفرار . القرم : السيد . النجد : الشجاع ذو النجدة والبأس . الصيد ج أصيد : الملك ومن يرفع رأسه كبراً وأصله من الصيد : وهو ميل في العنق . فرع كل شيء : أعلاه . الجنن ج جنة : الترس وكل ما يتقى به . السيد : الأسد . عز : غلب .

سَقياً لسُعدى على شيبٍ ألمَّ بنا
وقبلَ ذلك حين الرأسُ لم يشِب
كأنَّ ريقَتَها بعد الكَرى اغتبقتْ
صَوبَ الثُريّا بماء الكَرم من حلَب[1]

وهي قصيدة طويلة يقول فيها :

أهْدي قِلاصاً عناجيجاً أضرَّ بهـــا
نصُّ الوَجيفِ وتَقحيمٌ من العُقَبِ
يقصِدْن سيّد قيسٍ وابنَ سيّدِها
والفارسَ العِدَّ منها غيرَ ذي الكذِب
محمّـــدٌ وأبـــوه وابنه صنعوا
له صَنائعَ من مجدٍ ومن حسَبِ
إني مدحتُهم لمّا رأيتُ لهـــم
فَضلاً على غيرهم من سائر العرب
إلاَّ تُثِبْني به لا يَجزِني أحـــدٌ
ومَن يُثيبُ إذا ما أنت لم تُثِبِ[2]

• عن الهيثم بن عديٍّ قال :

كان أبو وجزة السعديّ منقطعاً إلى آل الزبير ، وكان عبد الله بن عُروة ابن الزبير خاصّةً يُفْضِل عليه ويقوم بأمره . فبلغه أن أبا وجزة أتى عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، عليهم السلام ، فمدحه

(١) لم تثب : لم تجزه بالوصل . اغتبق : شرب الغبوق وهو ما يشرب بالعشي . الصوب : المطر .

(٢) أهدي : أقود . العناجيج : جياد الخيل والابل ، وهنا يريد الابل . نص ناقته : حملها على أقصى ما عندها من السير . الوجيف : ضرب من سير الابل . التقحيم : اقتحام الابل المراحل واحدة بعد الاخرى . العقب ج عقبة : قدر فرسخين . العد : القوي لا تنفد شجاعته.

فوصله ، فاطّرحه ابن عروة وأمسك يده عنه . فسأل عن سبب غضبه فأخبره به الأصمّ بن أرطاة ، فلم يزل أبو وجزة يمدح آل الزبير ، ولا يرّجع له عبد الله بن عروة إلى ما كان عليه ولا يرضى عنه حتى قال فيه :

آلُ الزبير بنو حُرّة ... مَرَوْا بالسُيوف صُدوراً خِنافا
سَلِ الجُردَ عنهم وأيّامها ... إذا امتعطوا المُرهَفات الخِفافا
يموتون والقتلُ داءٌ لهم ... ويَصْلَوْن يومَ السِّياف السِّيافا
إذا فرجِ القتلُ عن عِيصهم ... أبى ذلك العِيصُ إلاّ التفافا
مَطاعيمُ تُحمَدُ أبياتُهم ... إذا قُنِّعَ الشاهقاتُ الطّخافا
وأجبنُ من صافرٍ كَلبُهُم ... إذا قرعتْه حَصاةٌ أضافا (١)

فلما أنشد ابن عروة هذه الأبيات رضي عنه وعاد إلى ما كان عليه .

* * *

(١) مرى الدم : أساله . خناف : من خنف بأنفه أي شمخ . الجرد : الخيل السريعة . امتعطوا : سلوا. سايفه: جالده بالسيف. العيص: الشجر الكثير الملتف، والمراد به هنا العدد الكثير. الطخاف : السحاب المرتفع ، يريد اذا علا السحاب رؤوس الجبال. الصافر : طائر يتعلق بالشجر برجليه ويصفر منكوساً طول ليله ، أضاف : خاف . يصف كلبهم بالجبن لأنه اعتاد رؤية الناس والأضياف فلا ينبحهم وهذا كناية عن كرمهم .

٦

الأخطل

(الأغاني : ٨ ص : ٢٨٠ وما بعدها
١١ ص : ٦١ وما بعدها
١٢ ص : ١٩٨ وما بعدها)

الشاعر

هو غِياث بن غَوْث بن مالك بن جُشَم بن بكر بن حبيب بن عمرو ابن غَنْم بن تغلب ... والأخطل لقبٌ غلب عليه ... عن أبي عُبيدةَ أنَّ السبب فيه أنه هجا رجلاً من قومه فقال له : يا غُلام ، إنك لأخطلُ ، فغلبت عليه ... وقال غير أبي عُبيدة : انّ كعب بن جُعيل كان شاعر تَغلِب ، وكان لا يأتي منهم قوماً إلاّ أكرموه وضربوا له قُبّةً ، حتى إنه كانت تُمَدُّ له حِبالٌ بين وَتدِين فتُملأ له غنَماً . فأتى في مالك بن جُشَم ففعلوا ذلك به ، فجاء الأخطل ، وهو غُلامٌ ، فأخرج الغنم وطردها ، فسبّه عُتْبة (بن الزَعَل) وردّ الغنم إلى مواضعها ، فعاد

وأخرجها ، وكعبٌ ينظر إليه ، فقال : إنّ غلامكم هذا لأخطلُ – والأخطل : السَّفيه – فغلَّب عليه . ولجّ بينهما الهجاء ، فقال الأخطل فيـــه :

سُمّيت كَعباً بشرّ العِظام وكان أبوك يُسمّى الجُعَلْ
وإنّ مَحلّك من وائـــلٍ محلُّ القُراد من است الجَمَلْ

فقال كعب : قد كنت أقول لايقهرُني إلاّ رجلٌ له ذِكرٌ ونَبأٌ ، ولقد أعددت هذين البيتين لأن أُهجَى بهما منذ كذا وكذا ، فغلب عليهما هذا الغلام .

وكان نصرانياً من أهل الجزيرة (١) ، ومَحلُّه في الشعر أكبر من أن يحتاج إلى وصف . وهو وجرير والفرزدق طبقةٌ واحدة ، فجعلها ابن سَلاّم أوّل طبقات الإسلام . ولم يقع إجماعٌ على أحدهم أنه أفضل ، ولكل واحدٍ منهم طبقةٌ تفضّله على الجماعة .

عن أبي عُبيدة قال : جاء رجلٌ إلى يونُس فقال له : مَن أشعرُ الثلاثة ؟ قال : الأخطل . قلنا : مَن الثلاثة ؟ قال : أيُّ ثلاثةٍ ذُكروا فهو أشعرهم ، قلنا : عمّن تروي هذا ؟ قال : عن عيسى بن عُمر وابن أبي إسحاقَ الحَضْرميّ وأبي عَمرو بن العَلاء وعَنْبسةَ الفيل وميمون الأقرن الذين ماشُوا الكلام وطَرقُوه (٢) .... فقلت للرجل : سَلْه وبأيِّ شيء فَضَّلُوه ؟ قال : بأنّه كان أكثَرهم عددَ طِوالٍ جِيادٍ ليس فيها سَقَطٌ ولا فُحشٌ ، وأشدَّهم تهذيباً للشعر .

عن الأصمعيّ : أن الأخطل كان يقول تسعين بيتاً ثم يختار منها ثلاثين فيطيّرها (٣) .

---

(١) الجزيرة : يراد بها الجزيرة الشامية أو جزيرة أقور بين الفرات ودجلة .
(٢) ماشى الكلام : خلطه . طرق الصوف : ضربه بالمتدفة ، أراد أنهم خبروا الكلام وتمييز جيده من رديئه .
(٣) يطيرها : يذيعها .

عن رجلٍ من بني سَعدٍ قال :

كنت مع نُوح بن جرير في ظلّ شجرة ، فقلت له : قبحَكَ الله وقبح أباك ! أمّا أبوك فأفنى عمره في مديح عبد ثقيف (يعني الحجّاج) . وأمّا أنت فامتدحت قُثَم بن العبّاس فلم تهتدِ لمناقبه ومناقب آبائه حتى امتدحتَه بقصرِ بناه . فقال : والله لَئن سُؤتَني في هذا الموضع لقد سُؤتُ فيه أبي . بينا أنا آكلُ معه يوماً ، وفي فيه لُقمةٌ وفي يده أخرى ، فقلتُ له : يا أبتِ ، أنت أشعر أم الأخطل ؟ فجَرِض [1] باللُقمة التي في فيه ورمى بالتي في يده وقال : يا بُنَيَّ ، لقد سررتَني وسُؤتني . فأمّا سرورُك إيّاي فلتَعَهّدُك لي مثلَ هذا وسؤالك عنه . وأمّا ما سُؤتني به فلذكرك رجلاً قد مات . يا بُنيّ أدركتُ الأخطلَ وله نابٌ واحد ، ولو أدركتُه وله نابٌ آخرُ لأكلني به . ولكنّي أعانَتني عليه خَصلتان : كِبَرُ سِنٍّ ، وخُبثُ دِينٍ .

الحسين بن يحيى عن حمّادٍ قال : سُئل حمّادٌ الراوية عن الأخطل فقال : ما تسألوني عن رجلٍ قد حَبّب شعرهُ إليَّ النصرانيّة !

قال إسحاق : وحدّثني أبو عُبيدةَ قال : قال أبو عَمرو : لو أدرك الأخطلُ يوماً واحداً من الجاهليّة ما قدّمت عليه أحداً .

قال الأصمعيّ : قيل لجريرٍ : ما تقول في الأخطل ؟ قال : كان أشدّنا اجتراءً بالقليل ، وأنعتنا للحُمُر والخَمر .

عن سِماك بن حَرب : أنّ الفرزدق دخل الكوفة فلقيه ضَوء بن اللَجْلاج فقال له : مَن أمدح أهل الإسلام ؟ فقال له : وما تُريد إلى ذلك ؟ قال : تمارينا فيه . قال : الأخطل أمدح العرب .

قال أبو عبيدة : وكان أبو عَمرو يشبّه الأخطل بالنابغة لصِحّة شعره .

---

(١) جرض : غص .

وقال ابن النطّاح : حَدّثني عبد الرحمن بن بَرزَخ قال : كان حمّادٌ يُفضّل الأخطل على جرير والفرزدق . فقال له الفرزدق : إنّما تفضّله لأنّه فاسقٌ مثلُك ، فقال : لو فضّلته بالفِسق لفَضّلتُك .

عن المدائنيّ قال :

قال الأخطل : أشعر الناس قبيلةً بنو قيس بن ثَعلبة ، وأشعر الناس بيتاً آلُ أبي سُلمى ، وأشعر الناس رجلٌ في قميصي .

عن شيخٍ من قريشٍ قال :

رأيتُ الأخطل خارجاً من عند عبد الملك بن مروان ، فلمّا انحدر دنوتُ منه فقلت : يا أبا مالك ، من أشعر العرب ؟ قال : هذان الكلبان المتعاقران من بني تميم . فقلت : فأين أنت منهما ؟ قال : أنا – واللاّتِ – أشعرُ منهما . قال : فحلف باللات هزؤاً واستخفافاً بدينه .

عن أبي عُبيدة قال :

قال رجلٌ لأبي عَمرو : يا عجباً للأخطل ! نصرانيٌّ كافرٌ يهجو المسلمين ! فقال أبو عمرو : يا لُكَعُ . لقد كان الأخطل يجيءُ وعليه جُبّةُ خزٍّ وحِرزُ خزٍّ ، في عُنقه سِلسلةُ ذهبٍ فيها صَليبُ ذهب تنفُض لِحيتُه خَمْراً حتى يدخل على عبد الملك بن مَروان بغير إذنٍ .

عن عُمر بن شَبّة قال :

كان ممّا يُقدّم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاءً في عَفافٍ عن الفحش . وقال الأخطل : ما هجوتُ أحداً قطُّ بما تستحي العذراءُ أن تُنشِده أباها .

عن أبي عبيدة قال :

كان يُونس بن حَبيب وعيسى بن عُمر وأبو عمرو يفضّلون الأخطل على الثلاثة .

عن العُتْبيّ عن أبيه :

أنّ سليمان بن عبد الملك سأل عمر بن عبد العزيز : أجريرٌ أشعرُ أم الأخطل ؟ فقال له : أعفِني . قال : لا واللهِ لا أُعفيك . قال : إنّ الأخطل ضيّق عليه كُفرُه القول ، وإنّ جريراً وسّع عليه إسلامُه قولَه ، وقد بلغ الأخطلُ منه حيث رأيت . فقال له سليمان : فضّلتَ والله الأخطــل .

عن خالد بن كلثوم قال : قال عبد الملك للفرزدق : مَن أشعر الناس في الإسلام ؟ قال : كفاك بابن النصرانيّة إذا مدح .

صلته بالأمويين وولاتهم

عن عليّ بن مجاهد قال :

قال الأخطل لعبد الملك : يا أمير المؤمنين ، زعم ابنُ المَراغة أنّه يبلغ مِدْحتك في ثلاثة أيّامٍ ، وقد أقمت في مِدحتك :

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكَرُوا

سنةً فما بلغتُ كلَّ ما أردتُ . فقال عبد الملك : فأسمِعْناها يا أخطلُ ، فأنشده إيّاها ، فجعلت أرى عبد الملك يتطاول لها ، ثم قال : ويحَك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنّك أشعر العرب ؟ قال : أكتفي بقول أمير المؤمنين . وأمر له بجَفنةٍ كانت بين يدَيه فمُلئت دراهمَ وألقى عليه خِلَعاً ، وخرج به مولىً لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعرُ أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب .

* عن هشام بن سليمان المخزوميّ :

أنّ الأخطل قدم على عبد الملك ، فنزل على ابن سَرحون [1] كاتبه ، فقال عبد الملك : على من نزلت ؟ قال : على فلان . قال : قاتلكُ اللهُ ! ما أعلمَكَ بصالح المنازل ! فما تُريد أن يُنزِلك [2] ؟ قال : دَرْمَكٌ [3] من دَرمككم هذا ولحمٌ وخمرٌ من بيت رأسٍ [4] . فضحك عبد الملك ثم قال لــه : ويلَك ! وعلى أيّ شيءٍ اقتتلنا إلاّ على هذا ! ثم قال : ألا تُسلمُ فنَفرِضَ لك في الفَيء [5] ونُعطيك عشرةَ آلاف ؟ قال : فكيف بالخمر ؟ قال : وما تَصنعُ بها وإنّ أوّلها لَمُرٌّ وإنّ آخرها لَسُكْرٌ . فقال : أمّا إذ قلت ذلك فإنّ فيما بين هاتين لمنزلةً ما مُلكُك فيها إلاّ كعُلْقةٍ [6] ماءٍ من الفُرات بالإصبع . فضحك ثم قال : ألا تزور الحجّاج ؟ فإنه كتب يستَزيرُك . فقال : أطائعٌ أم كارهٌ ؟ قال : بل طائعٌ . قال : ما كنت لأختارَ نَوالَه على نَوالك ولا قُربَه على قُربك ، إنّني إذاً كما قال الشاعر :

كمُبتــاعٍ ليركَبَه حِمــاراً تخيّره عن الفَرس الكبيرِ

فأمر له بعشرة آلاف درهمٍ وأمره بمدح الحجّاج ، فمدحــه بقولــه :

صَرَمَتْ حِبالَك زينبٌ ورَعُومُ
وبدا المُجَمْجَمُ منهما المكتَرِمُ [7]

---

(١) ضبط اسمه في الطبري : سرجون .
(٢) ينزلك : يقدم لك النزل وهو ما يهيأ للضيف من الطعام وغيره .
(٣) الدرمك : لباب الدقيق الأبيض .
(٤) بيت رأس : قرية في الأردن مشهورة بخمرها .
(٥) في بعض النسخ : في ألفين وأراها أجود لأنه أراد أنه سيفرض له عطاء سنوياً قدره الفان .
(٦) العلقة : ما يتبلغ به من طعام وهي اللمجة .
(٧) المجمجم : المخفي المخبأ .

• عن أبي قُحافة المُرّيّ عن أبيه قال :

دخل الأخطلُ على بشر بن مَروان وعندَه الراعي ، فقال له بشرٌ : أنت أشعرُ أم هذا ؟ قال : أنا أشعر منه وأكرم . فقال للراعي : ما تقول ؟ قال : أمّا أشعر منّي فعسى ، وأمّا أكرم فإن كان في أمّهاته من ولَدت مثل الأمير فنَعَم . فلمّا خرج الأخطل قال له رجلٌ : أتقول لخال الأمير أنا أكرم منك ! قال : وَيْلَك ! إنّ أبا نسطوس وضع في رأسي أكؤساً ثلاثاً ، فواللهِ ما أعقِل معها .

قال : ودخل الأخطل على عبدِ الملك بن مروان ، فاستنشده فقال : قد يَبِس حلقي فمُرْ من يَسقيني . فقال : اسقُوه ماءً . فقال : شَراب الحِمار ، وهو عندنا كثيرٌ . قال : فاسقُوه لبَناً . قال: عن اللبَن فُطِمتُ . قال : فاسقُوه عسَلاً . قال : شرابُ المريض . قال : فتُريد ماذا ؟ قال : خمراً يا أميرَ المؤمنين . قال : أوَ عهدتَني أسقي الخمر ، لا أمَّ لك ! لولا حُرمتُك بنا لفعلتُ بك وفعلتُ .

فخرج فلقِيَ فرّاشاً لعبد الملك فقال : ويلَك ، إنّ أمير المؤمنين استنشدني وقد صَحِل (1) صوتي ، فاسقِني شَربة خَمرٍ . فسقاه . فقال : اعدِلْه بآخرَ ، فسقاه آخر ، فقال : تركتَهما يعترِكان في بطني ، اسقِني ثالثاً ، فسقاه ثالثاً . فقال : تركتني أمشي على واحدةٍ ، اعدِلْ مَيلي برابعٍ ، فسقاه رابعاً ، فدخل على عبد الملك فأنشده :

خَفَّ القطينُ فراحُوا منك أو بكَرُوا
وأزعجتهم نَوىً في صَرفِها غِيَرُ (2)

فقال عبد الملك : خُذ بيده يا غُلامُ فأخرِجْه ، ثم ألقِ عليه من

---

(1) صحل صوتي : بح .
(2) خف : ارتحل . القطين . القوم القاطنون . النوى : البعد . غير الدهر : أحداثه وصروفه .

الخليع ما يغمُرُه ، وأحسنَ جائزته ، وقال : إنّ لكلّ قومٍ شاعراً ، وإنّ شاعر بني أميّة الأخطلُ .

* عن مَعنِ بن خلّادٍ عن أبيه قال :

لمّا استنزل عبدُ الملك زُفَر بن الحارث الكِلابيّ من قِرقيسيا [1] ، أقعده معه على سريره ، فدخل عليه ابن ذي الكَلاع [2] ، فلمّا نظر إليه مع عبد الملك على السرير بكى ، فقال له : ما يُبكيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، كيف لا أبكي وسيفُ هذا يقطُر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافه عليك ، ثم هو معك على السرير وأنا على الأرض ! قال : إنّي لم أُجلِسه معي أن يكون أكرمَ عليّ منك ، ولكنّ لسانه لساني وحديثه يعجبني . فبلغتْ الأخطل وهو يشرب فقال : أما والله لأقُومنّ في ذلك مَقاماً لم يَقُمه ابن ذي الكَلاع . ثم خرج حتّى دخل على عبد الملك ، فلمّا ملأ عينه منه قال :

وكأسٍ مثلِ عين الدّيكِ صِرفٍ
تنسّي الشاربين لها العقُولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثاً
بغير الماء حاول أن يَطُولا
مشَى قُرَشيّةً لا عيبَ فيها
وأرخى من مآزِره الفُضولا

فقال له عبد الملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالكٍ إلاّ خُطّةٌ في رأسك . قال : أجل والله يا أمير المؤمنين حين تُجلس عَدُوّ الله هذا معك على السّرير وهو القائل بالأمس :

---

(١) قرقيسيا : بلدة في الجزيرة على الفرات .

(٢) ابن ذي الكلاع : من رجال قبيلة حمير البارزين وشهد صفين مع معاوية .

وقد ينبُتُ المَرعى على دِمَنِ الثرَى
وتبقى حَزازاتُ النُفُوسِ كما هيا[1]

قال : فقبض عبد الملك رِجْله ثم ضرب بها صدر زُفَر فقلبه عن السَرير وقال : أذهبَ الله حزازات تلك الصدور . فقال : أنشُدك اللهَ يا أمير المؤمنين والعهدَ الذي أعطيتَني . فكان زفرُ يقول : ما أيقنت بالموت قطُّ إلاَّ تلك الساعةَ حين قال الأخطلُ ما قال .

* عن المدائنيّ قال :

امتدح الأخطلُ هشاماً فأعطاه خمسَمائة درهمٍ ، فلم يرضَها وخرج فاشترى بها تُفّاحاً وفرّقه على الصِبيان . فبلغ ذلكَ هشاماً فقال : قبَحه اللهُ ! ما ضرَّ إلاَّ نفسَه[2] .

الأخطل والجَحّاف السُلَميّ

(عن جماعة من الرواة)

... لمّا أن كانت سنة ثلاثٍ وسبعين وقُتل عبد الله بن الزبير هَدأت الفتنةُ واجتمع الناس على عبد المَلك بن مروان ، وتكافَت قيس وتغلبُ عن المغازي بالشام والجزيرة ، وظنَّ كلٌّ واحدٍ من الفريقين أنَّ عنده فضلاً لصاحبه ، وتكلّم عبد الملك في ذلك ولَم يُحكِم الصُلح فيه . فبينا هم على تلك الحال إذ أنشد الأخطلُ عبد الملك بن مَروان ، وعندَه وجوهُ قيسٍ ، قولَه :

---

(١) الدمنة : آثار الديار والناس . الحزازات : الأحقاد .
(٢) اذا صح هذا الخبر فينبغي أن يكون الأخطل قد مدح هشاماً قبل أن يتولى الخلافة لأن الأخطل توفي في زمن الوليد بن عبد الملك .

ألا سائل الجحّافَ هل هو ثائرٌ
بقَتلى أُصِيبتْ من سُلَيمٍ وعامرِ
أجحّاف إن نَهبطْ عليك فتلتقي
عليك بحورٌ طامياتُ الزواخر
تَكُنْ مثلَ أقذاءِ الحَباب الذي جرى
به البحرُ تزهاه رياحُ الصَراصرِ (١)

فوثب الجحّاف يجرّ مُطْرَفَه وما يَعلم من الغضب . فقال عبد الملك للأخطل : ما أحسبُك إلاّ قد كَسبتَ قومك شرّاً .

فافتعل الجحّاف عهداً من عبد الملك على صدَقات بكرٍ وتغلبَ ، وصحِبَه من قومه نحوٌ من ألف فارسٍ ، فثار بهم حتّى بلغ الرُّصافة — قال : وبينَها وبين شطّ الفُرات ليلةٌ ، وهي في قِبلة الفرات — ثم كشف لهم أمره وأنشدهم شعر الأخطل وقال لهم : إنّما هي النار أو العار ، فمن صبر فليُقْدِمْ ومن كرِه فليَرْجِعْ . قالوا : ما بأنفُسنا عن نفسك رغبةٌ . فأخبرهم بما يُريد فقالوا : نحن معك فيما كنتَ فيه من خيرٍ وشرٍّ. فارتحلوا فطرقوا صُهَينَ بعد رُؤبة (٢) من الليل — وهي في قِبلة الرُصافة وبينهما ميلٌ — ثم صبّحوا عاجنة الرَّحوب في قِبلة صُهين ، والبِشرَ — وهو وادٍ لبني تغلب — فأغاروا على بني تغلبَ ليلاً فقتلوهم وبَقَرُوا من النساء من كانت حاملاً ، ومن كانت غير حاملٍ قتلوها ... وقَتل في تلك الليلة ابناً للأخطل يُقال له أبو غِياث . ففي ذلك يقول جريرٌ له :

---

(١) أقذاء ج قذى : الكدر والتراب . حباب الماء : فقاقيعه ومعظمه . تزهاه : تحركه . الصراصر ج صرصر : الريح القوية .
(٢) بعد رؤبة في الليل . بعد قطعة منه .

شربت الخمرَ بعد أبي غياثٍ
فلا نعِمت لك النَّشَواتُ بالا (١)

ووقع الأخطل في أيديهم ، وعليه عَباءةٌ دَنِسةٌ ، فسألوه فذكر أنه عبدٌ من عبيدهم فأطلقوه .

مهاجاته جريراً

عن أبي عُبيدَة وابن الأعرابيّ وأبي عَمرو الشيباني :

كان الذي هاج التهاجي بين جريرٍ والأخطل أنّه لمّا بلغ الأخطلَ تهَاجي جريرٍ والفرزدق قال لابنه مالك ، وهو أكبر وَلده وبه كان يُكنَى ، : انحدِرْ إلى العراق حتّى تسمعَ منهما وتأتيني بخبرهما .

فانحدر مالك حتّى لقيهما وسمع منهما ثم أتى أباه ، فقال له : كيف وجدتَهما ؟ قال : وجدتُ جريراً يغرِف من بحرٍ ووجدت الفرزدق ينحت من صَخرٍ . فقال الأخطل : الذي يغرِف من بحرٍ أشعرُهما . وقال يفضّل جريراً على الفرزدق :

إنّي قضيتُ قَضاءً غيرَ ذي جَنَفٍ
لمّا سَمِعتُ ولمّا جاءني الخَبَرُ
أنّ الفرزدق قد شالت نعامتُه
وعضّه حيّةٌ من قومه ذكَرُ (١)

ثم انّ بشر بن مَروان دخل الكوفة ، فقدم عليه الأخطل ، فبعث إليه محمد بن عُمير بن عُطارِدِ بن حاجب بن زُرارةَ بألف درهمٍ وكِسوةٍ

---

(١) في المطبوعة : السوءات مكان النشوات ، والتصويب من الديوان .
(٢) شالت نعامته : يقال : شالت نعامة القوم : أي تفرقت كلمتهم وذهب عزهم .

وبغلةٍ وخَمرٍ وقال له : لا تُعِنْ على شاعرنا . واهجُ هذا الكلب الذي يهجو بني دارم فإنك قد قضيتَ على صاحبنا فقُلْ أبياتاً واقضِ لصاحبنا عليه . فقال الأخطل :

أجريرُ إنّك والذي تسمُو له كأسيفة فَخَرَتْ بحِدجِ حَصانِ
حملت لِرَبّتها فلمّا عُوليت نسَلَت تُعارضُها مع الرُكبانِ
أتعدُّ مأثُرةً لغَيرِك فخرُها وثناؤها في سالف الأزمانِ
تاجُ الملوك وفخرهم في دارمٍ أيّامَ يربوعٌ مع الرُعيان (١)

وهي طويلة يقول فيها :

فاخسأْ إليك كليبُ إنّ مُجاشعاً
وأبا الفوارس نهشَلاً أخَوانِ
سبقوا أباك بكلِّ مجمع تَلعة
في المجد عند مواقف الرُكبان
قومٌ إذا خطرتْ عليك قُرومُهم
طرحُوك بينَ كلاكلٍ وجِرانِ
وإذا وضعت أباك في ميزانهم
رجَحُوا وشال أبوك في الميزانِ (٢)

وقال جريرٌ يردّ حكومة الأخطل :

لِمن الديارُ ببُرقة الرَوحان إذ لا نَبيعُ زمانَنا بزمَانِ

---

(١) الأسيفة : الأمة . الحدج : مركب للنساء كالمحفة . الحصان : المرأة العفيفة . عوليت : حملت على الهودج . نسلت : أسرعت . يربوع : القبيلة التي ينتمي اليها جرير وهي من قبائل تميم الضخمة .

(٢) القرم : السيد العظيم ، وهو أيضاً الفحل من الابل . الكلكل : صدر الناقة . الجران : مقدم عنق البعير . شال أبوك في الميزان : غلب في المفاخرة ، شبه بارتفاع احدى كفّتي الميزان ورجحان الأخرى .

وهي طويلة يقول فيها :

يا ذا الغباوة إنّ بِشْراً قد قضى ألاّ تجوزَ حُكومة النَشوانِ
فدعُوا الحُكومةَ لستُمُ من أهلها إنّ الحكومة في بني شَيبـان
قتلوا كُلَيبكم بلِقْحة جارهمْ يا خُزَرَ تَغْلبَ لستُمُ بهِجانِ [1]

* ذكر الحِرمازيّ أنّ رجلاً من بني شَيبان جاء إلى الأخطل فقال له : يا أبا مالك ، انّا وإن كنّا بحيث تعلم من افتراق العشيرة واتصال الحرب والعداوة ، يجمعنا رَبيعةُ ، وإنّ لك عندي نُصحاً . فقال : هاته ، فما كذبتَ . فقال : انّك قد هجوتَ جريراً ودخلت بينَه وبين الفرزدق ، وأنت غَنيٌّ عن ذلك ، ولا سيّما أنّه يبسُط لسانه بما ينقبض عنه لسانك ويسبّ ربيعةَ سبّاً لا تقدِر على سبّ مُضَرَ بمِثله ، والملكُ فيهم والنبوّةُ قبلَه ، فلو شئتَ أمسكتَ عن مُشارّته ومُهارّته [2] . فقال : صدقتَ في نصُحك وعرَفت مُرادَك ، وَصلَتْك رَحِمٌ ! فوالصَّليبِ والقُربان لأتخلّصنّ إلى كُليبٍ خاصّةً دون مُضَر بما يَلْبَسُهم خِزيُه ويَشملَهُم عارُه . ثم اعلم أنّ العالم بالشعر لا يُبالي ، وحَقّ الصّليب — إذا مرّ به البيت العائر [3] السائر الجيّد أمُسلمٌ قاله أم نَصرانيّ .

* عُمر بن شَبّة قال :

حُدِّثت أنّ الحجّاج بن يوسف أوفد وفداً إلى عبد الملك ، وفيهم جريرٌ . فجلس لهم ، ثم أمر بالأخطل فدُعي له فلمّا دخل عليه قال له : يا أخطلُ ، هذا سبّك [4] — يعني جريراً — وجريرٌ جالسٌ . فأقبل عليه

---

(١) قتلوا كليبكم : اشارة إلى قتل جساس بن مرة الشيباني كليب وائل التغلبي بسبب ناقة البسوس . اللقحة : الناقة الحلوب . الخزرج أخزر : الضيق العينين . الهجان : الكرام .
(٢) شاره : أوقع فيه الشر وهاره : نبحه ، والمراد قارضه الهجاء .
(٣) العائر : السائر بين الناس لجودته .
(٤) كذا ضبطت في المطبوعة ولعل الأجود ضبطها بكسر السين وضم الباء ، وسبك من يسابك ويشاتمك .

جريرٌ فقال : أين تركتَ خنازيرَ أُمّك ؟ قال : راعيةً مع أعيار أُمك ، وإن أتيتَنا قَريناك منها . فأقبل جريرٌ على عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ رائحة الخمر لتَفُوح منه ! قال : صَدق يا أمير المؤمنين ، وما اعتذاري من ذلك !

تَعيب الخمرَ وهي شَرابُ كِسرى
ويشرَبُ قومُك العجَبَ العَجيبا

مَنِيُّ العبدِ عبدِ أبي سُوَاجٍ
أحَقُّ من المُدامةِ أن تَعيبا [1]

فقال عبد الملك : دعُوا هذا ، وأنشِدني يا جريرُ . فأنشده ثلاثَ قصائدَ كلُّها في الحجّاج يمدحه بها ، فأحفظ [2] عبد الملك وقال له : يا جريرُ ، إنّ الله لم ينصُر الحجّاج وإنما نصر خليفته ودِينه . ثم أقبل على الأخطل فقال :

شُمس العَداوة حتى يُستقادَ لهم
وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدَرُوا

فقال عبد الملك : هذه المزمّرة ، والله لو وُضعت على زُبَر الحديد لأذابتها . ثم أمر له بخلع فخُلعت عليه حتى غاب فيها ، وجعل يقول : إنّ لكل قومٍ شاعراً ، وانّ الأخطل شاعرُ بني أُميّة .

* عن أبي يحيى الضَبّي قال :

اجتمع الفرزدق وجريرٌ والأخطل [3] عند بشر بن مَروان ، وكان

---

(١) كان قوم جرير يعيرون بشرب مني أبي سواج في خبر طويل أورده أبو الفرج في التعليق على هذين البيتين .
(٢) أحفظه : أغضبه .
(٣) لم يثبت اجتماع هؤلاء الشعراء الثلاثة معاً عند بشر بن مروان ، وخبر تهاجي جرير والأخطل =

بشرٌ يُغري بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكُم بين الفرزدق وجرير ، فقال : أعفِني أيها الأميرُ . قال : احكُم بينهما ، فاستعفاه بجُهده ، فأبى إلاّ أن يقول ، فقال : هذا حُكْمٌ مشؤوم . ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر ، وجريرٌ يغرِف من بحر . فلم يرضَ بذلك جرير ، وكان سببَ الهجاء بينهما .

أخباره مع القسوس

* قال أبو عبد الملك :

كانت بكر بن وائل إذا تشاجرت في شيءٍ رَضيت بالأخطل . وكان يدخل المسجد فيقدِّمُون إليه . قال : فرأيتُه بالجزيرة ، وقد شُكي إلى القَسّ وقد أخذ بلحيته وضربه بعَصاه وهو يَصِيء [1] كما يصيء الفرْخ . فقلت له : أين هذا ممّا كنتَ فيه بالكوفة ؟ فقال : يابن أخي ، إذا جاء الدين ذَلَلنا .

* عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفَل بن الحارث بن عبد المطلب قال :

قدِمتُ الشام وأنا شابٌّ مع أبي ، فكنت أطُوف في كنائسها ومَساجدها . فدخلت كنيسةَ دمشق وإذا الأخطلُ فيها محبوسٌ ، فجعلت أنظر إليه . فسأل عنّي فأخبر بنسبي ، فقال : يا فتى ، إنّك لرجلٌ شريف ، وإنّي أسألك حاجةً . فقلت : حاجتُك مُقضيّةٌ . قال : إنّ

= السابق أصح من هذا الخبر ، ولا يعقل أن يكون سبب التهاجي بينهما قول الأخطل انجريراً يغرف من بحر ،فهذا الحكم في جانب جرير لا عليه ، وقد وجدنا في خبر سابق ان قائله مالك بن الأخطل لا الأخطل .

(١) يصيء : يصوت ويصيح .

القَسّ حبَسني ها هنا فتكلّمه ليُخلّي عنّي . فأتيت القَسّ فانتسبت له ، فرحّب وعظّم . قلت : إنّ لي إليك حاجةً . قال : ما حاجتُك ؟ قلت : الأخطل ، تُخلّي عنه . قال : أُعيذك بالله من هذا ؟ مثلُك لا يتكلّم فيه : فاسقٌ يشتمُ أعراض الناس ويهجوهم . فلم أزل أطلب اليه حتّى مضى معي متكئاً على عصاه ، فوقف عليه ورفع عصاه وقال : يا عدوّ الله ، أتعُود فتشتُم الناس وتَهجُوهم وتقذِف المُحصَنات ؟ وهو يقول : لست بعائد ولا أفعل ، ويَستخذي له . قال : فقلت له : يا أبا مالك ، الناسُ يهابونَك والخليفةُ يُكرمك وقَدرُك في الناس قَدرُك ، وأنت تخضع لهذا هذا الخُضوعَ وتَستخذي له ! قال : فجعل يقول لي : إنّه الدِين ، إنّه الدين .

• عن الهيثم بن عديّ قال :

كانت امرأة الأخطل حاملاً ، وكان متمسّكاً بدينه . فمرّ به الأسقُفُّ يوماً ، فقال لها : إلحقيه فتمسّحي به ، فعدتَ فلم تَلْحق إلاّ ذنبَ حماره فتمسّحت به ورجعَت . فقال لها : هو وذَنَبُ حماره سَواءٌ .

لقاؤه الفرزدق

عن أبي محمّد اليزيديّ قال :

خرج الفرزدق يؤمّ بعض الملوك من بني أمية ، فرفع له في طريقه بيتٌ أحمرُ من أدَم ، فدنا منه وسأل فقيل له : الأخطل ، فأتاه فقال : انْزِل . فلمّا نزل قام إليه الأخطل — وهو لا يعرِفُه إلاّ أنّه ضيفٌ — فقعدا يتحدّثان . فقال له الأخطل : مِمّن الرجل ؟ قال : من بني تميم . قال : فإنّك إذاً من رَهط أخي الفرزدق . فقال : تحفَظُ من شعره شيئاً ؟

قال : نعم ، كثيراً . فما زالا يتناشدان ويتعجّب الأخطل من حفظه شعر الفرزدق إلى أن عمِل فيه الشراب ، وقد كان الأخطل قال له قبل ذلك : أنتم مَعشرَ الحنيفيّة لا ترَون أن تشربوا من شرابنا . فقال له الفرزدق : خَفّض قليلاً وهاتِ من شرابك فاسقِنا . فلمّا عمِلت الراح في أبي فِراس قال : أنا واللهِ الذي أقول في جريرٍ ، فأنشدَه . فقام إليه الأخطل فقبّل رأسه وقال : لا جزاك اللهُ عنّي خيراً ! لِمَ كتمتَني نفسَك منذُ اليوم ! وأخذا في شرابهما وتناشدهما ، إلى أن قال له الأخطل : والله إنّك وإيّاي لأشعَرمنه ، ولكنّه أُوتي من سيَر الشعر ما لم نُؤْتَه . قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه ، قلت :

قومٌ إذا استنبح الأضياف كلبَهم
قالوا لأمِّهـم بُولي على النـارِ

فلم يَروه إلاّ حكماءُ أهل الشعر . وقال هو :

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِـرى حكّ استَه وتمثّل الأمثالا

فلم تبق سُقاةٌ ولا أمثالُها إلاّ رَوَوه . فقضيا له أنه أسير شعراً منهمـا .

الأخطل وعكرمة الفيّاض

قال المدائنيّ :

كان للأخطل الشاعر دار ضيافة ، فمرّ به عِكرمة الفيّاض ، وهو لا يعرفهُ ، فقيل له : هذا رجلٌ شريف قد نزل بنا . فلمّا أمسى بعث إليه فتعشّى معه ، ثم قال له : أتـُصيب من الشراب شيئاً ؟ قال : نعم . قال : أيّه ؟ قال : كلّه إلاّ شرابَك . فدعا له بشرابٍ يُوافقه ، وإذا عنده

قَيْنَتَان هما خلفه،وبينَه وبينَهما سِترٌ ، وإذا الأخطل أشهبُ اللِحية له ضَفيرتان فغمز السِّتر بقَضيبٍ في يده وقال : غَنِّياني بأردية الشّعر ، فغنّتاه بقول عَمرو بن شَأس :

وبِيضٍ تَطَلّى بالعَبيرِ كأنّما
يَطَأنَ وإن أعنَقْن في جَدَدٍ وَحْلا
لَهَوْنا بها يوماً ويوماً بشارب
إذا قلتَ مَغلوباً وجدتَ له عَقْلا [1]

فأما السبب في مدح الأخطل عِكرمةَ بن رِبْعِيٍّ الفياضَ فأخبرنا به أبو خليفة عن محمّد بن سَلاّم قال :

قدم الأخطل الكوفة فأتى حَوشبَ بن رُوَيم الشيبانيَّ فقال : إنّي تحمّلت حَمالتَين [2] لأحقِن بهما دماء قومي ، فنَهَره ، فأتى سيّار بن البَزِيعة ، فسأله ، فاعتذر إليه . فأتى عِكرمة الفيّاض — وكان كاتباً لبِشر بن مروان — فسأله وأخبره بما ردّ عليه الرجُلان فقال : أما إنّي لا أنْهَرُك ولا أعتذر إليك ، ولكنّي أُعطيك إحداهما عَيْناً والأخرى عرَضاً [3] . قال : وحدث أمرٌ بالكوفة فاجتمع له الناس في المسجد ، فقيل له : إن أردت أن تُكافِىء عِكرمة يوماً فاليوم . فلبس جُبّةَ خزٍّ وركب فرساً وتقلّد صليباً من ذهبٍ وأتى باب المسجد ونزل عن فرسه . فلمّا رآه حوشَبُ وسيّارٌ نفِسا عليه ذلك ، وقال له عكرمة : يا أبا مالك ، فجاء فوقف وابتدأ يُنشد قصيدته :

لِمن الديارُ بحائلٍ فوُعالِ

(١) أعنقن : أسرعن . الجدد : الأرض الغليظة المستوية . يريد أنهن يمشين مشية رفيقة لينة كأنما يطأن في وحل .

(٢) الحمالة : الدية .

(٣) العين : المال من ذهب أو فضة . والعرض : كل شيء سوى الذهب والفضة .

حتى انتهى إلى قوله :

إن ابنَ رِبْعيٍّ كفاني سَيْبُــهُ ضِغْنَ العَدُوِّ وغَدْرةَ المُحتالِ
أغليتَ حين تواكَلَتْني وائلٌ إنَّ المكارمَ عندَ ذاكَ غَــوالِ
ولقد مَنَنْتَ على ربيعةَ كُلِّها وكفَيْتَ كلَّ مُواكلٍ خَذّالِ
كابن البَزِيعة أو كــآخرَ مثلِه أولى لك ابنَ مُسيمةِ الأجمالِ
إنَّ اللئيمَ إذا سألتَ بَهَرْتَه وترى الكريم يَراحُ كالمُختالِ
وإذا عدلتَ به رجالاً لم تجِدْ فيضَ الفُراتِ كراشحِ الأوشالِ (١)

قال : فجعل عكرمةُ يبتهج ويقول : هذه واللهِ أحبُّ إليَّ من حُمرِ النَعَم (٢) .

بعض ما أخذ عليه

قال محمّد بن سلاّم :

كان الأخطل مع مهارته يسقُط أحياناً : كان مَدح سِماكاً الأسديَّ ... فقال :

نِعمَ المُجيرُ سِماكٌ من بني أسدٍ
بالقاعِ إذ قتلت جيرانَها مُضَرُ
قد كنتُ أحسَبُهُ قَيْناً وأُخْبَرُه
فاليومُ طُيِّر عن أثوابِه الشَرَرُ

---

(١) السيب : العطاء . الضغن : الحقد والعداوة . أولى لك . كلمة تقال في موضع الوعيد . أسام الجمال : رعاها . راح يراح : اهتز للعطاء ونشط له ومنه : الأريحية . الأوشال ج وشل : الماء القليل .
(٢) النعم : الإبل .

إنّ سماكاً بنى مجداً لأسرته
حتّى المماتِ وفِعلُ الخير يُبْتَدَرُ

فقال سماك : يا أخطلُ ، أردت مدحي فهجوتني ، كان الناس يقولون قولاً فحقّقته . فلمّا هجا سُوَيداً قال له سُويد : والله يا أبا مالك ما تُحسِن تهجو ولا تمدح : لقد أردت مدح الأسديّ فهجوته ... وأردت هجائي فمدحتَني : جعلتَ وائلاً حمّلتني أمورَها [1] ، وما طمعتُ في بني تغلِب ، فضلاً عن بكر .

وفاته

عن محمد بن سلاّم قال :

لمّا حضرت الأخطلَ الوفاةُ قيل له : يا أبا مالك ، ألا تُوصي ؟ فقـال :

أوصّي الفرزدق عندَ الوفـاة بأمّ جريرٍ وأعيارهـا
وزار القُبور أبو مـالك برَغم العُداةِ وأوتارها [2]

* * *

(١) يشير بهذا إلى قول الأخطل فيه يهجوه :
وما جذع سوء خرّب السوس أصله لما حملته وائل بمطيق
(٢) الأعيار ج عير : الحمار .

٧

إسماعيل بن يسار

(الأغاني ج ٤ ص ٤٠٨ وما بعدها)

الشاعر

... مُصعَب بن عبد الله الزُّبَيريّ قال :

كان إسماعيلُ بن يَسَار النَّسَائيُّ مولى بني تَيْم بن مُرَّة : تَيْم قريش ، وكان منقطعاً إلى آل الزُّبير . فلمّا أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مَروان وفَد إليه مع عُروة بن الزبير ومَدحه ومدَح الخُلفاء من ولده بعدَه، وعاش عُمراً طويلاً إلى أن أدرك آخر سُلطان بني أُميّة، ولم يدرك الدولة العبّاسيّة . وكان طَيّباً ، مَليحاً ، مُنْدِراً ، بَطّالاً [1] ، مَليح الشِعر . وكان كالمُنقطِع إلى عُروة بن الزُّبير .

وإنّما سُمّي إسماعيلُ بن يَسارٍ « النَّسائيّ » لأنّ أباه كان يصنع

---

(١) المندر : من يأتي بالنوادر . البطال : الكثير الهزل والمزاح .

طعام العُرس ويَبيعه، فيشتريه منه من أراد التَعريس من المُتَجمّلين [1] وممّن لم تبلُغْ حالُه اصطناعَ ذلك .

عصبيّته للعجم

عن مُصعَب قال :

إسماعيل بن يسار يُكنَى أبا فائد ، وكان أخواه محمد وإبراهيم شاعرين أيضاً ، وهم من سَبْي فارس . وكان إسماعيل شُعوبيّاً شديد التعصّب للعَجَم ، وله شعرٌ كثيرٌ يفخر فيه بالأعاجم . قال : فأنشد يوماً في مجلس فيه أشْعَبُ قولَه :

إذ نُربّي بناتِنا وتَدُسُّو ... ن سَفاهاً بَنَاتِكم في التُراب

فقال له أشعب : صدقتَ واللهِ يا أبا فائد ، أراد القوم بَناتِهم لغير ما أردتمُوهنّ له . قال : وما ذاك ؟ قال : دفَنَ القوم بناتِهم خوفاً من العار ، وربّيتمُوهن لِتَنْكِحُوهنّ . قال : فضحك القوم حتّى استغربوا [2] ، وخجل إسماعيل حتّى لو قَدَر أن يَسيخ في الأرض لَفَعل .

... مُصعَبٌ قال :

قال إسماعيل بن يَسار النّسائيُّ قصيدتَه التي أوّلها :

ما على رسم منزلٍ بالجنَاب
لو أبانَ الغَداةَ رَجْعَ الجَواب [3]

---

(١) المتجمل : المقل من المال والذي يحاول أن يخفي على الناس قلة ما عنده ويصبر على ما نزل به .
(٢) استغربوا : استغرقوا في الضحك .
(٣) الجناب بالفتح : اسم موضع في بلاد كلب وبالكسر : موضع قريب من خيبر ووادي القرى وقيل هو في ديار بني فزارة بين المدينة وفيد .

وقال فيها يفخر على العرب بالعجم :

رُبَّ خالٍ مُتَوَّجٍ لي وعَمٍّ ماجدٍ مُجْتَدَىً كريمِ النِّصابِ
إنّما سُمّيَ الفوارسُ بالفُرْ سِ مُضاهاةَ رِفْعَةَ الأنسابِ
فاتركي الفخرَ يا أُمامَ علينا واتركي الجَورَ وانطِقي بالصَّوابِ
واسألي–إن جَهلتِ – عنّا وعنكم كيف كُنّا في سالفي الأحقاب
إذ نُربّي بناتِنا وتدُسُّـــو نَ سَفاهاً بناتِكم في التُّراب (١)

فقال رجل من آل كَثير بن الصَّلْت : إنَّ حاجتنا إلى بناتنا غير حاجتكم ، فأفحمه . يريد : أنَّ العجم يربّون بناتِهم لِيَنْكِحوهنّ ، والعرب لا تفعل ذلك .

عن أبي اليقْظان :

أنّ إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته ، وهو بالرُّصافة جالسٌ على بركة له في قصره ، فاستنشده وهو يرى أنّه يُنشده مديحاً له ، فأنشده قصيدته الّتي يفتخر فيها بالعجم :

يا رَبْــعَ رامةَ بالعَلْياء من رِيمِ
هل تَرْجِعَنَّ إذا حَيَّيتُ تسليمي
ما بالُ حيٍّ غَدتْ بُزْلُ المَطيِّ بهم
تَخدي لِغُربتهم سَيراً بتقحيـــم
كأنّني يوم ساروا شاربٌ سَلبتْ
فؤادَه قَهوةٌ من خمر داروم (٢)

---

(١) مجتدى : يطلب منه الجدا أي المعروف والعطاء . النصاب : الأصل .
(٢) رامة : جاء في المطبوعة أنه منزل في طريق البصرة ، ولكن السياق يقتضي أن يكون اسم الفتاة الّتي يتغزل بها الشاعر . ريم : واد المزينة قرب المدينة . بزل ج بزول : الناقة في =

حتّى انتهى إلى قوله :

انّي وجَدِّكَ ماعُودي بذي خَوَرٍ عند الحِفاظ ولا حوضي بمَهدوم
أصلي كريمٌ ومَجدي لا يُقاس به ولي لسانٌ كحدِّ السيف مسموم
أحمي به مجدَ أقوام ذَوي حَسَبٍ من كلّ قَرمٍ بتاج المُلك مَعْموم
جَحاجِحٍ سادةٍ بُلْجٍ مَرازبةٍ جُرْدٍ عِتاقٍ مَساميحٍ مَطاعيم
مَن مثلُ كِسرى وسابورِالجنود معاً والهُرْمُزان لَفخرٍ أو لِتعظيم
أسْدُ الكتائبِ يومَ الرَّوع إن زحَفُوا وهم أَذلُّوا مُلوكَ التُرك والرُوم
يمشُون في حَلَقِ الماذيِّ سابغةً مشيَ الضَراغمة الأُسْد اللّهاميم
هناك إن تسألي تُنْبَي بأنّ لنا جُرثومةً قهرت عِزَّ الجراثيم (١)

قال : فغضب هشام وقال له : ... أعليَّ تفخر وإيّاي تُنشد قصيدةً تمدح بها نفسك وأعلاجَ قومك ! غُطُّوه في الماء . فغَطّوه في البركة حتّى كادت نفسُه تخرج ، ثم أمر بإخراجه وهو بِشَرٍّ ، ونفاه من وقته ، فأُخرج عن الرُصافة مَنفيّاً إلى الحجاز . قال : وكان مبتلىً بالعصبيّة للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً .

منافقته بني أمية

عن نُمير العُذريّ قال :

استأذن إسماعيل بن يَسار النَّسائيُّ على الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك يوماً ، فحَجبه ساعةً ثم أذِن له ، فدخل يبكي ، فقال له الغمر : مالَكَ يا

= تاسع سنها . تخدي : تسرع . التقحيم : طي المنازل وعدم النزول بها . قهوة : خمر . داروم : مدينة بفلسطين أو هي قلعة بعد غزة في الطريق إلى مصر .

(١) القرم : السيد . الجحجح : السيد الكريم . الأبلج : الأبيض الوجه . المرزبان : رئيس الفرس . الهرمزان : الكبير من ملوك العجم . الماذي : الدروع . اللهاميم ج لهميم : السابق من الخيل والناس . الجرثومة : الأصل .

أبا فائد تبكي ؟ قال : وكيف لا أبكي وأنا على مَروانيّتي ومَروانيّة أبي أُحجَبُ عنك ! فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكي ، فما سكت حتى وصله الغَمر بجُملة لها قَدْر .

وخرج من عنده ، فلحِقه رجلٌ فقال له : أخبرني ، ويلَك ، يا إسماعيلُ : أيُّ مَروانيّة كانت لك أو لأبيك ؟! قال : بُغضُنا إيّاهم ، امرأتُه طالقٌ إن لم يكن يلعن مروان وآلَه كلَّ يومٍ مكان التَسبيح ، وإن لم يكن أبوه حضرَه الموتُ فقيل له : قل لا إله إلاّ الله ، فقال : لعن الله مَروانَ ، تقرُّباً بذلك إلى الله تعالى ، وإبدالاً له من التوحيد ، وإقامةً له مُقامَه .

إعجاب الوليد بن يزيد بقصيدة له

... إسحاق الموصليّ قال :

غنَّني الوليد بن يزيد في شعرٍ لإسماعيل بن يسار وهو :

حتى إذا الصُبحُ بدا ضَوءُه
وغارت الجَوزاءُ والمِرْزَمُ
خرجتُ والوَطْءُ خَفيٌّ كما
ينساب من مَكْمَنه الأرقمُ (١)

فقال : من يقول هذا ؟ قالوا : رجلٌ من أهل الحجاز يقال له إسماعيل بن يسار النسائيّ . فكتب في إشخاصه إليه ، فلمّا دخل عليه استنشده القصيدة التي هذان البيتان منها ، فأنشده :

---

(١) المرزم : من نجوم المطر ، وأكثر ما يذكر بصيغة المثنى ، فيقال : المرزمان . الأرقم : أخبث الحيات والأنثى : رقشاء .

كَلْثَمُ أنتِ الهَمُّ يا كَلْثَمُ وأنتِمُ دائي الذي أكتُـــمُ
أكاتِمُ الناسَ هوىً شَفَّنِي وبعضُ كِتمانِ الهوى أحزَمُ
قد لُمتِنِي ظُلماً بلا ظِنّة وأنتِ فيما بينَنَـــا ألـــوَمُ
أبدي الذي تُخفِينه ظاهـــراً أرتدُّ عنه فيك أو أقـــدِمُ
إمّا بيأسٍ منكِ أو مَطمَعٍ يُسدَى بحُسن الودّ أو يُلْحَمُ
لا تَتركيني هكذا ميتـــاً لا أمنَحُ الودّ ولا أصْرَمُ (١)

(الأبيات ...)

قال : فطرب الوليد حتّى نزل عن فَرشه وسريره ، وأمر المغنّين فغنّوه الصوت وشرب عليه أقداحاً ، وأمر لإسماعيل بكُسوةٍ وجائزة سنيّة ، وسرّحه إلى المدينة .

مدائحه في بني أميّة

.. مصعَب بن عبد الله عن أبيه :

أنّ إسماعيل بن يَسار دخل على عبد الملك بن مروان لمّا أفضى إليه الأمر ، بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، فسلّم ووقف موقف المُنشِد واستأذن في الإنشاد . فقال له عبد الملك : الآنَ يا بنَ يَسار ! إنّما أنت امرؤٌ زبيريّ ، فبأيّ لسانٍ تُنشد ! فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنا أصغر شأناً من ذلك ، وقد صفَحتَ عن أعظمَ جُرماً وأكثرَ غَناءً لأعدائك منّي ؛ وإنّما أنا شاعرٌ مُضحِك . فتبسّم عبد الملك ، وأومأ إليه الوليد بأن يُنشد ، فابتدأ ، فأنشد قوله :

ألا يا لَقَومي للرُّقاد المُسَهَّـــدِ وللماءِ ممنوعاً من الحائم الصَّدي

(١) يسدي ويلحم : من السدى واللحمة في حياكة الثوب .

وللحال بعد الحال يركبُهـــا الفتى وللحبُّ بعد السلْوة المتمرِّدِ
وللمرء يُلحَى في التَصابي وقبلَه صَبا بالغواني كلُّ قَرْمٍ مُمَجّد
وكيف تناسي القلب سَلمى وحبُّها كجَمرِ غضى بين الشَراسيف مُوقَد (١)

حتّى انتهى إلى قوله :

إليك إمامَ الناس من بطن يَثْرب ونعمَ أخو ذي الحاجة المتعمَّـــد
رَحلنا لأنّ الجُود منك خليقَـــةٌ وأنّك لم يذمُمْ جَنابك مُجتدي
مَلكت فزِدت الناس ما لم يَزِدْهم إمامٌ من المعروف غير المُصَرَّد
وقُمتَ فلم تَنقُضْ قَضاءَ خليفة ولكن بما ساروا من الفِعل تَقتدي
ولمّا وَليت المُلكَ ضاربتَ دُونَه وأسندتَه لا تَأتلي خيرَ مُسْنَد
جعلتَ هشاماً والوليد ذخيرةً وَلِيّين للعهد الوَثيق المؤكّدِ (٢)

قال : فنظر إليهما عبد الملك متبسّماً ، والتفت إلى سليمان فقال : أخرجك إسماعيل من هذا الأمر . فقطّب سليمان ونظر إلى اسماعيل نظرَ مُغْضَب ، فقال إسماعيل : يا أمير المؤمنين ، إنّما وزن الشعر أخرجه من البيت الأول ، وقد قلتُ بعده :

وأمضيتَ عزْماً في سليمانَ راشداً
ومن يعتصِمْ بالله مثلكَ يرشُدِ

فأمر له بألفي درهم صِلةً ، وزاد في عَطائه ، وفَرَض له ، وقال لولده : أعطُوه ، فأعطَوه ثلاثةَ آلافِ دِرهمٍ .

... أبو اليقظان :

أن إسماعيل بن يَسار وفد إلى الوليد بن يزيد ، وقد أسنّ وضَعُف ،

---

(١) الشراسيف : ج شرسوف أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن .
(٢) تصريد العطاء : تقليله . لا تأتلي : لا تقصر ولا تبطىء .

فتوسّل إليه بأخيه الغَمر ومدحه بقوله :

نأتكَ سُليمى فالهوى مُتشاجِرُ
وفي نَأيهـا للقلب داءٌ مُخامِرُ
نأتك وهام القلبُ نأياً بذِكرهـا
ولجّ كما لَجّ الخَليعُ المُقامِـرُ
بواضحة الأقرابِ خَفّاقة الحَشَى
بَرَهْرَهةٍ لا يَجتويها المُعاشِرُ [1]

يقول فيها يمدح الغمر بن يزيد :

إذا عَدّد الناسُ المكارم والعُلا
فلا يَفخرنْ يوماً على الغَمْر فاخرُ
فما مرّ من يومٍ على الدهر واحد
على الغمر إلاّ وهو للناس غامر
تراهم خُشوعاً حين يَبدو مَهابةً
كما خَشَعتْ يوماً لكسرى الأساورُ
أغرُّ بِطاحِيٌّ كأنّ جَبينَـه
إذا ما بدا بدرٌ إذا لاح بـاهرُ
وقى عِرضَه بالمال فالمالُ جُنّةٌ
له وأهان المالَ والعِرضُ وافرُ
وفي سَيْبه للمُجتَدِين عِمارةٌ
وفي سيفه للدين عِزٌّ وناصرُ
نَماه إلى فرعَي لُؤَيٍّ بن غالبٍ
أبوه أبو العاصي وحَربٌ وعامرُ
وخَمسةُ آباء له قـد تتابعـوا
خَلائفُ عَدْل مُلكهم مُتواتر
بهاليلُ سَبّاقون في كلّ غاية
إذا استبقت في المَكْرُمات المعاشرُ
همُ خيرُ مَن بين الحَجُون إلى الصَّفا
إلى حيث أفضت بالبِطاح الحَزاوِرُ
وهم جمعوا هذا الأنامَ على الهُدى
وقد فرّقت بين الأنام البصائرُ [2]

---

(١) الخليع : المقمور . الأقراب ج قرب : الخاصرة . البرهرهة : المرأة البيضاء الشابة الناعمة . اجتواه : كرهه .

(٢) البطاحي : نسبة إلى البطاح التي كانت تنزلها قريش البطاح ، وهم أشرف قريش . جنة : وقاية . سيبه : عطاؤه. الحجون : جبل بأعلى مكة قريب من البيت الحرام . الحزاور ج الحزورة : وهي سوق مكة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه .

قال : فأعطاه الغمر ثلاثة آلاف درهم وأخذ له من أخيه الوليد ثلاثة آلاف درهم .

طائفة من أخباره

• قال مصعَب بن عثمان :

لمّا خرج عـُروة بن الزبير إلى الشأم يريد الوليد بن عبد الملك أخرج معه إسماعيل بن يسار النسائيّ ، وكان منقطعاً إلى آل الزبير ، فعادله [1] . فقال عروة ليلةً من الليالي لبعض غلمانه : انظُرْ كيف ترى المَحْمِل ؟ قال : أراه معتدلاً . قال إسماعيل : الله أكبر ، ما اعتدل الحقُّ والباطل قبلَ الليلة قطُّ . فضحك عروة ، وكان يستخفّ إسماعيل ويستطيبه .

• عن أيّوب بن عَباية المخزوميّ :

أن اسماعيل بن يسار كان ينزل في موضع يـُقال له حُديلة [2] ، وكان له جُلَساء يتحدّثون عنده ، ففقدهم أياماً ، وسأل عنهم فقيل : هم عند رجلٍ يتحدّثون إليه طيّب الحديث ، حُلوٍ ، ظريفٍ ، قدم عليهم يُسمّى محمداً ويكنى أبا قيس . فجاء إسماعيل فوقف عليهم ، فسمع الرجل القوم يقولون : قد جاء صديقـُنا إسماعيل بن يسار ، فأقبل عليه فقال له : أنت إسماعيل ؟ قال : نعم . قال : رَحم اللهُ أبويـَك ، فإنّهما سَمّياك باسم صادقِ الوعد وأنت أكذَبُ الناس . فقال له إسماعيل : ما اسمُك ؟ قال : محمّد . قال : أبو مَن ؟ قال : أبو قيس . قال : ولكن لا رحم الله أبويك ، فإنّهما سمّياك باسم نبيٍّ وكنّياك

---

(١) عادله : ركب معه في المحمل مقابلا له .

(٢) حديلة : محلة بالمدينة كان بها دار عبد الملك بن مروان .

بكُنية قِرد . فأفحم الرجلُ وضحك القوم ، ولم يَعُد إلى مجالستهم فعادوا إلى مجالسة إسماعيل .

• .. أبو عاصم الأسْلميُّ قال :

بينا ابنُ يسار النّسائي مع الوليد بن يزيد جالسٌ على بِركة ، إذ أشار الوليد إلى مولىً له يُقال له عبد الصمد ، فدفع ابنَ يسار النسائي في البركة بثيابه ، فأمر به الوليد فأخرج . فقال ابن يسار :

قل لوالي العَهْد إن لاقيتَه ... ووليُّ العَهد أولَى بالرَّشَدْ
إنّه والله ِ لولا أنت لم ... ينجُ منّي سالماً عبدُ الصَّمَدْ
إنّه قد رام مني خُطّةً ... لم يَرُمْها قبلَه منّي أحدْ
فهو ممّا رام منّي كالذي ... يقنُصُ الدُّرّاجَ من خِيس الأسدْ(١)

فبعث إليه الوليد بخلْعة سَنيّة وصِلةٍ وترضّاه .

• ... مصعب بن عبد الله قال :

وفد عُروة بن الزبير إلى الوليد بن عبد الملك ، وأخرج معه إسماعيل بن يسار النسائيّ ، فمات في تلك الوفادة محمد بن عُروة بن الزبير ، وكان مُطّلعاً على دوابّ الوليد بن عبد الملك ، فسقط من فوق السطح بينها ، فجعلت تَرمحه حتّى قطّعته ، وكان جميل الوجه جَواداً ، فقال إسماعيل بن يسار يرثيه :

صلّى الإلَهُ على فتىً فارقتُه
بالشأمِ في جَدَثِ الطَوِيّ المُلْحَدِ

(١) الدراج : طائر أسود يشبه القطا . خيس الأسد : غابته . وفي المثل : « يطلب الدراج من خيس الأسد » يضرب لمن يروم أمراً صعب المنال .

بوّأتُــه بيــديَّ دارَ إقامــة
نائي المَحلّةِ عن مَزار العُوَّدِ

وغبَرتُ أعوِلُه وقــد أسلمتُــه
لصَفا الأماعز والصَّفيح المُسْنَدِ

متخشّعاً للدهــر ألبس حُلّــةً
في النائبات بحَسْرةٍ وتجلُّــدِ

أعني ابنَ عُروةَ إنّه قد هَــدّني
فَقْدُ ابنِ عُروةَ هَدّةً لم تَقْصِدِ

فإذا ذهبتُ إلى العزاء أرُومــهُ
ليرى المُكاشح بالعزاء تجلُّــدي

منع التعزّي أنّني لِفراقــه
لبس العدوُّ عليَّ جِلدَ الأربَدِ

ونأى الصديقُ فلا صديقَ أعِدُّه
لِدفاعِ نائبــةِ الزمان المُفسِدِ

فلئن تركتُك يا محمّد ثاويــاً
لَبِما تَرُوح مع الكرام وتغتدي

كان الذي يَزَعُ العدوَّ بدَفعــه
ويردّ نَخوة ذي المِراحَ الأصيَدِ

فمضى لوُجهتــه وكلُّ مُعمَّرٍ
يوماً سيدركهُ حِمامُ المَوعد (١)

* * *

(١) الطوي : أراد القبر وفي الأصل ، البئر المطوية بالحجارة . ألحد القبر : حفره . أعول الرجل : رفع صوته بالبكاء. الصفا جمع صفاة : الحجر الصلد الضخم. الأماعز ج أمعز : المكان الصلب الكثير الحصى. الصفيح : العريض من الحجارة . الأربد: ضرب خبيث من الحيات ، أراد أنه كاشفه بالعداوة ومثله : لبس له جلد النمر . يزعه : يردعه . المراح : النشاط . الأصيد : المتكبر الذي يرفع رأسه كبراً .

٨

أعشى همدان

(الأغاني ج ٦ ص ٣٣ وما بعدها)

الشاعر

اسمُه عبد الرحمن بن عبد الله ... بن هَمْدان بن مالك ... بن كَهْلان بن سَبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحطان ، ويكنى أبا أبا المُصَبَّح . شاعرٌ فصيحٌ كُوفيٌّ من شعراء الدولة الأموية . وكان زوج أُخت الشَعْبيّ الفقيه ، والشعبيّ زوج أخته . وكان أحد الفقهاء القُرّاء ، ثم ترك ذلك وقال الشعر . وآخَى أحمد النَّصْبيّ بالعَشِيريّة [(١)] والبَلديّة ، فكان إذا قال شعراً غنّى فيه أحمدُ . وخرج مع ابن الأشعَث ، فأُتي به الحَجّاج أسيراً في الأسرى ، فقتله صَبراً .

أبو حاتم قال : سألت الأصمعيّ عن أعشى هَمْدان فقال : هو من

---

(١) أحمد النصبي : من مغنّي العصر الأموي ، وكان من قبيلة همدان أيضاً .

الفحول ، وهو إسلاميّ كثير الشعر .

عن عبد الله بن عَيّاش الهمداني قال :

كان الشَعْبيُّ عامرُ بن شَراحيل زوج أخت أعشى هَمْدان ، وكان أعشى هَمْدان زوج أخت الشعبيّ . فأتاه أعشى همدان يوماً ، وكان أحدَ القُرّاء للقرآن ، فقال له : إنّي رأيت كأنّي أُدخِلت بيتاً فيه حِنطةٌ وشَعير ، وقيل لي : خُذ أيّهما شئت؛ فأخذت الشعير . فقال : إنَ صدقتْ رُؤياك تركتَ القرآن وقراءته وقُلت الشعر ، فكان كما قال .

مشاركته في الفتوح

عن أبي عبيدة والأصمعي وحمّاد الراوية قالوا :

كان أعشى همدان ، أبو المصبّح ، ممّن أغزاه الحجّاج بلد الدَّيْلم ونواحي دَسْتَبى ، فأسر ، فلم يزل أسيراً في أيدي الديلم مُدّة . ثمّ إنّ بنتاً للعلْج (١) الذي أسرَه هَوِيته ... فلمّا كان الليلُ حلّت قُيوده وأخذتْ به طُرُقاً تعرِفُها حتّى خلّصته وهربت معه .

وقال الأعشى يذكرُ ما لحقه من أسر الديلم :

لِمن الظّعائنُ سَيْرُهنّ تَرَجُّفُ
عَومَ السّفِين إذا تقاعس مِجْذَفُ (٢)

(الأبيات .... ومنها) :

فلَئِن أصابتْني الحروبُ فرُبّما أُدعَى إذا مُنع الرِّدافُ فأردِفُ

---

(١) العلج : الرجل من كفار العجم .

(٢) الترجف : الاضطراب والتأرجح . شبه سير الظعائن بسفينة تقاعس مجذافها فغدت تتأرجح وتبطىء في مسيرها .

ولربّما يـَرْوَى بكـَفـّي لـَهـْذَمٌ ماضٍ ومُطّرِدُ الكُعوبِ مُثقّف
وأغير غاراتٍ وأشهَدُ مَشهداً قلبُ الجبان به يَطير ويَرْجُف
وأرى مَغانِم لو أشاءُ حَوَيتُها فيصدُّني عنها غِنيً وتَعَفُّف (١)

ثم ضُرب البعث على جيش أهل الكوفة إلى مُكران (٢) ، فأخرجه الحجّاج معهم ، فخرج إليها وطال مُقامه بها ومرض ، فاجتواها (٣) وقال في ذلك :

طلبتَ الصِّبا إذ علا المَكْبَرُ وشاب القَذالُ وما تُقْصِرُ (٤)

(الأبيات ... ومنها :)

وأنت تسير إلى مُكرّانَ فقد شحَط الوِردُ والمَصدَرُ
ولم تكُ من حاجتي مُكرّان ولا الغزوُ فيها ولا المَتْجَــرُ
وخُبّرتُ عنها ولم آتِهـــا فما زِلت من ذِكرها أذْعَر
بأنّ الكثير بهـــا جائعٌ وأنّ القليـــل بها مُقْتِرُ
وأنّ لِحَى النّاس من حرّها تطول فتُجْلَمُ أو تُضْفَرُ
ويزعمُ من جاءها قبلَنـــا بأنّا سنَسْهَمُ أو نُنحـــر
أعُوذ بربّي من المُخزِيـــا ت فيما أُسِرُّ وما أَجْهَـــر
وحُدِّثت أنْ ما لنا رَجْعَةٌ سِنين ومن بَعدها أشهُرُ
إلى ذاك ما شاب أبناؤُنـــا وباد الأخِلاّء والمَعشَرُ

---

(١) الرداف : موضع ركوب الردف أراد أنه يسرع إلى معونة من يطلب منه المعونة . اللهذم : القاطع من الأسنة . المطرد : الطويل، الكعوب ج كعب : ما بين الأنبوبين من القصب .. المثقف : المقوم ، صفة الرمح .
(٢) مكران : ولاية واسعة بين كرمان وسجستان والهند وقد تشدد كافها .
(٣) اجتولها : كرهها .
(٤) القذال : جماع مؤخر الرأس .

وما كان بي من نَشاطٍ لها وإنّي لَذُو عِدّةٍ مُوسِر
ولكنْ بُعِثت لها كارهــاً وقيل انطلِقْ كالذي يُؤْمَرُ

* * *

وقد قيل إنّكم عابــــرو ن بحراً لها لم يكن يُعبَرُ
إلى السِّند والهِند في أرضهم همُ الجِنُّ لكنّهم أنكَرُ
وما رام غَزواً لها قَبلَنــــا أكابر عـــادٍ ولا حِميَر
ولا رام سابورُ غزواً لهـــا ولا الشيخ كِسرى ولا قيصر
ومن دُونها مَعبَرٌ واســـعٌ وأجرٌ عظيمٌ لِمن يُؤْجَرُ (١)

وفوده على النعمان بن بشير

(عن جماعة من الرواة)

خرج أعشى همدان إلى الشأم في ولاية مَروان بن الحكم ، فلم ينل فيها حقاً . فجاء إلى النُعمان بن بشير ، وهو عامل على حِمص ، فشكا إليه حاله . فكلّم له النعمان بن بشير اليمانية وقال لهم : هذا شاعر اليمن ولسانُها ، واستماحهم له ، فقالوا : نعم ، يعطيه كل رجلٍ منا دينارين من عَطائه . فقال : لا ، بل أعطُوه ديناراً ديناراً واجعلوا ذلك مُعجّلاً . فقالوا : أعطِه إيّاه من بيت المال واحتسِبْها على كلّ رجلٍ من عطائه . ففعل النعمان ــ وكانوا عشرين ألفاً ــ فأعطاه عشرين ألف دينارٍ وارتجعها منهم عند العطاء ، فقال الأعشى يمدح النعمان :

ولم أرَ للحاجات عند التماسها كنُعْمانَ نعمانِ الندى ابن بشيرِ

---

(١) شحط : بعد . تجلم : تقص . سهم الرجل : تغير لونه وبدنه وهزل .

إذا قال أوفى ما يقول ولم يكـن كمدلٍ إلى الأقوام حبلَ غَرور
متى أكفرُ النعمان لم أُلف شاكراً وما خيرُ من لا يَقتدي بشكُور
فلولا أخُو الأنصار كنت كنازلٍ ثوى ما ثوى لم ينقلبْ بنَقِير [1]

أخباره مع خالد بن عتّاب

عن الكلبيّ : أنّ أعشى همدان كان مع خالد بن عتّاب بن وَرْقاء الرِّياحيّ [2] بالرَّي ودَسْتَبَى [3] ، وكان الأعشى شاعر أهل اليمن بالكوفة وفارسهم . فلمّا قدم خالدٌ من مَغزاه خرج جَواريه يتلقّينه ، وفيهنّ أمُّ ولدٍ له كانت رفيعة القدَر عنده ، فجعل الناس يمرُّون عليها ، إلى أن جاز بها الأعشى ، وهو على فرسه ، يميل يميناً ويساراً من النُّعاس . فقالت أمّ ولَد خالد بن عتّاب لجواريها : إنّ امرأة خالدٍ لتُفاخرني بأبيها وعمّها وأخيها ، وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المرتعِش . وسمعها الأعشى فقال : مَن هذه ؟ فقال له بعض الناس : هذه جارية خالد . فضحك وقال لها : إليكِ عنّي يا لَكْعاءُ ، ثم أنشأ يقول :

وما يُدريكِ ما فَرَسٌ جَرُورٌ وما يُدريك ما حَمل السّلاحِ
وما يُدريكِ ما شيخٌ كبير عَداه الدَّهر عن سَنَن المِراحِ
فأقسمُ لو رَكبتِ الوَرْدَ يوماً وليلتَه إلى وضَح الصَّباح
إذاً لنظرتُ منكِ إلى مكانٍ كسَحْق البُرْد أو أثر الجِراح [4]

قـال : فأصبحت الجارية فدخلت إلى خالدٍ فشكت إليه الأعشى

---

(١) النقير : النكتة في ظهر النواة ، ويضرب بها المثل للقلة .
(٢) الرياحي : نسبة إلى بني رياح وهم من بطون بني يربوع بن تميم المشهورة .
(٣) دستبى : كورة ضخمة ملحقة بقزوين .
(٤) الفرس الجرور : الصعب القياد . السحق : البالي من الثياب .

فقالت : والله ما تُكْرَمُ ، ولقد اجترِيء عليك ! فقال لها : وما ذاك ؟ فأخبرته أنها مرّت برجلٍ في وجه الصبح ، ووصفته له ، وأنه سبّها . فقال : ذلك أعشى همدان ، فأيّ شيءٍ قال لك ؟ فأنشدته الأبيات . فبعث إلى الأعشى ، فلمّا دخل عليه قال له : ما تقول ؟ هذه زعمت أنك هجوتَها . فقال : أساءت سَمعاً ، إنّما قلت :

مررت بنِســـوةٍ متعطّراتٍ كضَوء الصُبحِ أو بَيض الأداحي
على شُقْر البِغال فصِدنَ قلبي بحُسن الدّلِّ والحَدَق المِلاح
فقلت: مَن الظِباءُ؟ فقلن :سِربٌ بدا لك من ظِباء بني رياحِ (١)

فقـــالت : لا واللهِ ، ما هكذا قال ؟ وأعادت الأبيات . فقال له خالد : أما إنّها لولا أنها قد ولَدت منّي لوهبتُها لك ، ولكنّي أفتدي جنايتها بمثل ثمنها ، فدفعه إليه وقال له : أقسمتُ عليك يا أبا المصبّح ألاّ تُعيد في هذا المعنى شيئاً بعدما فَرط منك .

* وكان خالدٌ يقول للأعشى ، في بعض ما يُمنّيه إيّاه ويَعده به : إن وُلّيت عملاً كان لك ما دون الناس جميعاً ، فمتى استُعملتُ فخـــذ خاتَمي واقضِ في أمور الناس كيف شئت .

قال : فاستُعمل خالدٌ على أصبهان ، وصار معه الأعشى . فلمّا وصل إلى عمله جفاه وتناساه ، ففارقه الأعشى ورجعَ إلى الكوفة وقال فيـــه :

تُمنّيني إمارتَهـــا تميمٌ وما أُمّي بأمّ بني تميـمِ
وكان أبو سليمـــان أخاً لي ولكنّ الشِّراكَ من الأديمِ
أتينا أصبهـــانَ فهزّلَتْنـــا وكُنّا قبـــل ذلك في نعيم

---

(١) الأداحي ج أدحية وأدحوة : مبيض النعام في الرمل .

أتذكُرنا ومُرّةَ إذ غزَوْنا وأنت على بُغَيلِك ذي الوُشوم
ويركب رأسَه في كلِّ وَحلٍ ويعثُرُ في الطريــق المستقيم
وليس عليك إلاّ طيلَسانٌ نَصيبيٌّ وإلاّ سَحْق نيمِ
فقد أصبحت في خزٍّ وقزٍّ تَبختَرُ ما ترى لك من حَميم
وتحسبُ أن تُلقّاها زمانــاً كذبت وربِّ مكّةَ والحَطيمِ [1]

(الأبيات ..)

فبعث إليه خالدٌ : مَن مُرّةُ هذا الذي ادعيتَ أنّي وأنت غزَونا معه على بغلٍ ذي وُشوم ؟ ومتى كان ذلك ؟ ومتى رأيت عليّ الطيلسان والنّيم اللذين وصفتهما ؟ فأرسل إليه : هذا كلامٌ أردت وصفَك بظاهره ، فأمّا تفسيره : فإنّ مُرّة مَرارةُ ثمرة ما غرستَ عندي من القبيح ، والبغل : المركَب الذي ارتكبتَه منّي لا يزال يعثُرُ بك في كلّ وَعْث وجَدَدٍ [2] ، ووَعرٍ وسَهل ؛ وأما الطَيلسان فما أُلبسك إيّاه من العارَ والذمّ ؛ وإن شئتَ راجعتَ الجميل فراجعته لك . فقال : لا ، بل أُراجع الجميل وتراجعه ، فوصله بمالٍ عظيم وترضّاه .

* الأصمعيّ قال :

لمّا وَلي خالد بن عتّاب بن ورقاء أصبهانَ خرج إليه أعشى هَمْدان ، وكان صديقه وجاره بالكوفة ، فلم يجد عنده ما يحبّ ، وأعطى خالدٌ الناس عطايا فجعله في أقلّها ، وفضّل عليه آلَ عُطارِد . فبلغه عنه أنه ذمّه فحبسه مُدّةً ثم أطلقه ، فقال يهجوه :

وما كنتُ ممّن ألجأته خَصاصةٌ إليك ولا مِمّن تَغرُّهُ المواعــدُ

(١) الشراك : سير النعل . ويريد بهذا المثل أن أصل المرء ينم عنه . النيم : الثوب أو الفرو الخلق . الحطيم : جدار الكعبة أو ما بين الركن وزمزم والمقام .
(٢) الوعث : الطريق العسر والجدد : الطريق المستوي .

ولكنّها الأطماع وهي مُذِلّةٌ
دنت بي وأنت النازحُ المتباعدُ
أتحبِسُني في غير شيءٍ وتارةً
تُلاحِظُني شَزْراً وأنفُك عاقِدُ
فإنّك لا كابنَيْ فَزارةَ فاعلَمَنْ
خُلِقت ولم يُشْبِهْهما لك والد
ولا مُدرِكٌ ما قد خلا من نَداهما
أبوك ولا حوضَيْهما أنت واردُ
وإنّك لو ساميتَ آلَ عُطارِدٍ
لبَذّتك أعناقٌ لهم وسواعدُ
ومأثُرةٌ عاديّةٌ لن تنالهـــا
وبيتٌ رفيعٌ لم تَخُنه القواعد
وهل أنت إلاّ ثعلبٌ في ديارهم
تُشَلُّ، فتَعْساً، أو يَقودُك قائد
أرى خالداً يختال مَشياً كأنّــه
من الكبرياء نَهشَلٌ أو عُطـــاردُ
وما كان يربوعٌ شبيهاً لِدارمٍ
وما عدلتْ شمسَ النّهارِ الفَراقِدُ(1)

• عن الهيثم بن عَديّ قال:

أملق أعشى همْدان فأتى خالد بن عتّاب بن وَرقاء فأنشده:

رأيت ثَناء النّاس بالقَول طَيّباً
عليك وقالوا ماجدٌ وابن ماجدِ
بني الحارث السّامين للمجد إنّكم
بنيتُم بناءً ذكرُه غير بائد
هَنيئاً لما أعطاكم اللهُ واعلموا
بأنّي سأطري خالداً في القصائد
فإن يكُ عتّابٌ مضى لِسبيله
فما مات مَن يبقى له مثلُ خالدِ

فأمر له بخمسة آلاف درهمٍ.

---

(1) الخصاصة: الفقر. أنفك عاقد: يريد أنه ينظر اليه بغضب وتعال. لم يتضح لي من المقصود بابني فزارة فخالد بن عتاب كان من تميم، وفزارة من قيس عيلان، والمفاضلة تكون في العادة بين رجال من أصل واحد، وفي الأبيات التالية ذكر لنهشل وعطارد وهما من بطون بني دارم بن تميم، وعطارد هو عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم، فلعل (فزارة) محرفة عن (زرارة). عادية: قديمة متوارثة منسوبة إلى عاد. تشل: تطرد.

الأعشى وزوجتاه

ذكر العَنَزيّ أنّها كانت عند الأعشى امرأةٌ من قومه يقال لها أمُّ الحَلال ، فطالت مُدّتُه معها وأبغضها . ثم خطب امرأةً من قومه يُقال لها جَزْلة — وقال الأصمعي : خَوْلة — فقالت له : لا ، حتّى تطلّق أمَّ الحلال ، فطلّقها وقال في ذلك :

تَقادمَ وُدُّك أمَّ الحَـــلال فطاشت نِبالُك عند النِّضالِ
وطال لُزومُك لي حِقبةً فرثّت قُوى الحَبْلِ بعد الوصالِ
وكان الفؤاد بها مُعْجَبـــاً فقد أصبح اليومَ عن ذاك سالي
صحا لا مُسيئاً ولا ظالمـــاً ولكن سلا سَلْوةً في جَمالِ
ورُضتِ خَلائقَنا كُلّهـــا ورُضنا خَلائقكم كلَّ حال
فأعييتِنا في الذي بينَنـــا تَسُومينني كلَّ أمرٍ عُضالِ
وقد تأمُرين بقطع الصّديق وكان الصديقُ لنا غيرَ قالي
وإتيانِ ما قد تجنّبتُـــه وليداً ولُمتُ عليه رجـــالي
أفاليَومَ أركبُـــهُ بعدمـــا علا الشيبُ منّي صَميم القَذال

(إلى أن يقول) :

فلمّا بدا ليَ منها البَـــذا ءُ صَبّحتُها بثَلاثٍ عِجالِ
ثلاثاً خرجن جميعـــاً بها فخلّيْنها ذاتَ بيتٍ ومالِ
إلى أهلهـــا غيرَ مخلوعـــةٍ وما مَسّها عندنَا من نَكال
فأمست تحِنُّ حنينَ اللِقـــا ح من جَزَعٍ إثْرَ مَن لا يُبالي
فحِنّي حَنينَك واستيقِـــني بأنّا اطّرحناك ذاتَ الشمال
وأنْ لا رجوعَ فلا تُكـــذَ بين ما حنّت النيبُ إثْر الفِصال

ولا تحسَبيني بأنّـــي نَـدِ   متُ كلاّ وخالِقنا ذي الجـَلال[1]

فقالت له أمّ الجلال : بِئس والله بَعلُ الحـُرّة وقرِين الزوجة المُسلمةِ أنت ! ويحَك ! أعـَدَدْتَ طـُول الصُحبة والحـُرمة ذَنْباً تسبُّني وتهجوني به ! ثم دعـَت عليه أن يُبغـِّضه الله إلى زوجته التي اختارها ، وفارقته . فلمّا انتقلت إلى أهلها ، وصارت جـَزلة إليه ودخل بها لم يحظَ عندها ، ففـَرِكتْه[2] وتنكـّرت له ، واشتدّ شـَغـَفُه بها ، ثم خرج مع ابن الأشعث فقال فيها :

حـَيّيا جـَزلةَ منّي بالسّلامِ   دُرّةَ البحر ومِصباحَ الظـّلام
لا تـَصُدّي بعد وُدٍّ ثــابتٍ   واسمـَعي يا أُمَّ عيسى من كلامي
إن تـَدُومي لي فوَصلي دائمٌ   أو تـَهـُمّي لي بهـَجْرٍ أو صِرام
أو تكوني مثلَ برقٍ خُلـّـبٍ   خادعٍ يلمع في عـُرض الغمـَام
أو كتخييل سَرابٍ مُعرِضٍ   بفلاَةٍ أو طروقٍ في المـَنام
فا علمي إن كنت لمـّا تعلـَمي   ومتى ما تفعلي ذاك تـُلامـــي
بعدما كان الذي كان فلا   تُتْبعي الإحسانَ إلاّ بالتـَمام

(الأبيات ...)

خروجه مع ابن الأشعث وقتل الحجـّاج إيـّاه

لمـّا خرج ابن الأشعث على الحجـّاج بن يوسف حشـَد معه أهلُ

(١) قوى الحبل : طاقاته . القالي : المبغض . القذال : جماع مؤخر الرأس . بثلاث عجال : أي بثلاث طلقات . الحنين : البكاء والتحزن والتشوق . اللقاح ج لقوح : الناقة ذات اللبن . النيب ج ناب : المسنة من النوق . الفصال ج فصيل : ولد الناقة .
(٢) فركت المرأة زوجها : أبغضته ونفرت منه .

الكوفة ، فلم يبقَ من وجوههم وقُرّائهم أحدٌ له نباهةٌ إلاّ خرج معه لثقل وطأة الحجّاج عليهم . فكان عامرٌ الشعبيُّ وأعشى همْدان ممّن خرج معه ، وخرج أحد النّصْيّ أبو أسامة الهمدانيّ المغنّيّ مع الأعشى لألفته إياه ، وجعل الأعشى يقول الشعر في ابن الأشعث يمدحه ، ولا يزال يحرّض أهل الكوفة بأشعاره على القتال ، وكان ممّا قاله في ابن الأشعث يمدحـــه :

يأبى الإلَهُ وعِزّةُ ابن محمّدٍ ... وجُدود مَلْك قبل آلِ ثَمُودِ
أن تأنسوا بمُذَمّمين عُروقُهم ... في النّاس إن نُسِبوا عُروقُ عَبيد
كم من أبٍ لك كان يعقِد تاجَه ... بجَبين أبلجَ مِقولٍ صِنْديـــدِ
وإذا سألتَ : المجدُ أين مَحلّه ... فالمجد بين محمّدٍ وسعيـــدِ
بين الأشجّ وبين قيسٍ باذخٌ ... بَخْ بَخ لِوالدِه وللمَوْلُـــودِ
ما قَصّرت بك أن تنال مَدى العُلا ... أخلاقُ مَكرُمةٍ وإرثُ جُدود
قَرْمٌ إذا سامى القُروم ترى له ... أعراقَ مجدٍ طارفٍ وتَليـــدِ
وإذا دعا لِعظيمةٍ حَشَدت له ... هَمْدانُ تحت لوائه المعقود
يمشُون في حَلَق الحديدِ كأنّهم ... أُسْد الإباء سَمعنَ زَأر أُسودِ
وإذا دعوتَ بآلِ كِنْدَةَ أجفلُوا ... بكُهول صِدقٍ سيّدٍ ومَسُودِ
وشبابِ مأسَدةٍ كأنّ سيوفهم ... في كلّ مَلحمةٍ بُروق رُعودِ
ما إن تَرى قيساً يُقارب قيسَكم ... في المكرُمات ولا ترى كسعيد (١)

وقال حمّاد الراوية في خبره : كانت لأعشى همدان مع ابن الأشعث

(١) الأبلج : المشرق المضيء . محمد وسعيد : محمد هو أبو الممدوح فهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ، وسعيد هو سعيد بن قيس الهمداني وأم عبد الرحمن هي أم عمرو بنت سعيد بن قيس . الأشج : لقب الأشعث بن قيس الكندي جد الممدوح . بخ بخ : كلمة تقال عند الثناء والاعجاب ، وهي اسم فعل . القرم : السيد . حشد القوم : اجتمعوا لأمر واحد ودعوا فأجابوا مسرعين . حلق الحديد : الدروع .

مواقفُ محمودة وبَلاءٌ حسن وآثارٌ مشهورة . وكان الأعشى من أخواله ، لأن أمَّ عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أمُّ عمرو بنت سعيد بن قيس الهَمْدانيّ . قال : فلمّا صار ابن الأشعث إلى سِجستان جَبَى مالاً كثيراً ، فسأله أعشى همدان أن يُعطيه منه زيادةً على عَطائه فمنعه ، فقال الأعشى في ذلك :

هل تعرف الدارَ عفا رَسمُها　　بالحَضْر فالروضة من آمِدِ

* * *

والفاعلُ الفِعل الشريف الذي　　يبطِشُ بطشَ الأسد اللابِدِ
يا أيُّها القرَمُ الهِجانُ الذي　　يُنمىَ إلى الغائب والشاهِدِ
كم قد أُسدِي لك من مِدْحةٍ　　تُروَى مع الصّادر والوارد
وكم أجبنا لك من دَعوةٍ　　فاعرِفْ فما العارفُ كالجاحدِ

(إلى أن يقول :)

فأعطِ ما أعطيتَه طَيِّباً　　لا خيرَ في المنكود والناكدِ
نحن ولَدْناك فلا تَجفُنا　　والله قد وَصّاك بالوالدِ
إن تكُ من كِندةَ في بَيتها　　فإنّ أخوالَك من حاشِدِ [1]

(الأبيات ...)

عن جماعة :

لمّا أُتي الحجّاج بن يوسف الثقفيّ بأعشى همدان أسيراً قال : الحمد لله الذي أمكن منك ، ألستَ القائل :

---

(١) الحضر : مدينة بإزاء تكريت . آمد : مدينة ديار بكر يحيط دجلة بأكثرها . الهجان : الكريم الخالص . المنكود : الذي يلح عليه في المسألة والناكد : الملح . حاشد : قبيل ضخم من همدان ينتمي اليه أخوال ابن الأشعث .

لمّا سَفَوْنا للكَفُور الفَتّــانْ بالسيّد الغِطْريف عبد الرحمنْ
سار بجَمع ٍ كالدبَى من قحطان ومن مَعَدٍّ قد أتى ابنُ عدنان
أمكن ربّي من ثقيفٍ همدان يوماً إلى الليل يُسَلّى ما كان
إنّ ثقيفاً منهــم الكذّابــان كَذّابُها الماضي وكذّابٌثانْ (١)

أو لست القائل :

يابنَ الأشجِّ قَريع ِ كِنــدةَ لا أُبالي فيك عَتْبــا
أنت الرئيسُ ابن الرئيس وأنت أعــلى الناس كَعبــا
نُبِّئْت حجّاجَ بن يــــو سف خرّ من زَلَقٍ فتَبّا
فــانهضْ فُديتَ لعلّــــه يجلُو بك الرحمنُ كَرْبا
وابعث عطيّةَ في الخيـــو ل يكبُّهن عليه كَبّا (٢)

كلاّ ، يا عدوّ الله ، بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذي خرّ من زَلَقٍ فتبّ ، وحار وانكبّ ، وما لقي ما أحبّ ؛ ورفع بها صوتَه واربَدّ وجهُه (٣) ، واهتزّ مَنكِباه ، فلم يبقَ أحدٌ في المجلس إلاّ أَهمّته نفسُه وارتعدت فرائصُه . فقال له الأعشى : بل أنا القائل أيّها الأمير :

أبى اللهُ إلاّ أن يتمّم نُوره ويُطفىء نارَ الفاسقين فتَخمُدا
ويُنزل ذُلاّ بالعراق وأهله بما نقضُوا العهدَ الوثيق المؤكّدا
وما لبث الحجّاجُ أن سَلّ سيفَه علينا فولّى جمعُنا وتبــدّدا

---

(١) سفونا : أسرعنا ، وفي رواية أخرى : سمونا ، وهي أجود . الدبى : الجراد والنمل ، وفي المطبوعة : القطا، وما اثبتناه رواية الطبري. كذابها الماضي: أراد به المختار الثقفي الذي دعا لابن الحنفية ، وكان يتكهن بأمور فاذا لم تحدث قال : قد بدا لربكم .
(٢) قريع كندة : سيدها . تب : هلك . عطية : هو عطية بن عمرو العنبري وكان على مقدمة جيش ابن الأشعث حين قدم إلى العراق لقتال الحجاج .
(٣) اربد وجهه : تغير لونه والربدة : الغبرة .

وما زاحف الحجّاج إلاّ رأيتَه حُساماً مُلَقّى للحروب مُعَوَّدا
فكيف رأيت الله فرّق جمعهم ومزّقهم عُرض البلاد وشرّدا
بما نكثوا من بَيعةٍ بعد بيعةٍ إذا ضَمِنوها اليومَ خاسُوا بها غدا
وما أحدثوا من بِدْعةٍ وعظيمةٍ من القول لم تصعَدْ إلى الله مَصْعَدا
ولمّا دَلَفنا لابن يوسفَ ضِلّةً وأبرق منّا العارضان وأرعدا
قطعنا إليه الخندقين وإنّما قطعنا وأفضينا إلى الموت مُرصِدا
فصادمنا الحجاجُ دون صفوفنا كِفاحاً ولم يضرِبْ لذلك مَوعِدا
بجُند أمير المؤمنين وخيله وسُلطانِه أمسى مُعاناً مُؤيّدا
ليَهنِئْ أميرَ المؤمنين ظهورُهُ على أمّةٍ كانوا بُغاةً وحُسّدا
وجدنا بني مَروان خيرَ أئمة وأعظمَ هذا الخلق حِلماً وسُؤْدُدا
وخيرَ قُريشٍ في قريشٍ أرُومةً وأكرمَهم إلاّ النبيَّ محمّدا (١)

(الأبيات ...)

فقال من حضر من أهل الشام: قد أحسن أيّها الأمير، فخَلِّ سبيله. فقال: أتظنّون أنه أراد المدح؟ لا واللهِ، ولكنّه قال هذا أسَفاً لغلبتكم إيّاه وأراد به أن يحرّض أصحابه. ثمّ أقبل عليه فقال له: أظننت يا عدوّ الله، أنك تخدعني بهذا الشعر وتنفلت من يدي حتى تنجو! ألست القائل، ويحك:

وإذا سألتَ: المجدُ أين محلُّه فالمجدُ بين محمّدٍ وسعيدِ
بين الأشجّ وبين قيس باذخٌ بَخْ بخ لوالده وللمولود

والله لا تبخبخُ بعدها أبداً! أولست القائل:

---

(١) ملقى للحروب: اعتاد خوض الحروب. خاسوا: نكثوا. دلفنا: أسرعنا. العارض: السحاب المعترض. مرصد: مترقب. الأرومة: الأصل.

وأصابني قومٌ وكنتُ أُصيبهـــم فاليومَ أصبرُ للزمان وأعرفُ

كذبتَ والله ، ما كنت صَبُوراً ولا عَرُوفاً . ثم قلت بعده :

وإذا تُصِبْك من الحوادث نَكبةٌ فاصبِر فكلُّ غَيابةٍ ستكشّفُ

أما والله لتَكُونَنَّ نكبةً لا تتكشّف غيابتُها عنك أبداً ! يا حَرَسيّ ، اضرِب عُنُقَه ، فضَرب عنقه .

وذكر مُؤَرِّج السَدُوسيُّ أن الأعشى كان شديد التحريض على الحجّاج في تلك الحروب ، فجال أهل العراق جولةً ثم عادوا ، فنزل عن سَرْجه ونزعه عن فرَسه ، ونزع دِرعه فوضعها فوق السّرج ثم جلس عليها فأحدث ، والناس يرونه ، ثم أقبل عليهم فقال لهم : لعلّكم أنكرتم ما صنعتُ ! قالوا : أوَليس هذا موضعَ نَكيرٍ ؟! قال : لا ، كُلُّكم قد سَلَح [1] في سَرجه ودرعه خوفاً وفَرَقاً ، ولكنكم سترتموه وأظهرتُه ، فحمي القوم وقاتلوا أشدَّ قتالٍ يومَهم إلى الليل ، وشاعت فيهم الجِراح والقتلى ، وانهزم أهل الشأم يومئذ . ثم عاودوهم من غدٍ وقد نَكأتهم الحرب [2] ، وجاء مددٌ من أهل الشأم ، فباكَرُوهم القتال وهم مستريحون ، فكانت الهزيمةُ وقُتل ابن الأشعث ...

* * *

(١) أحدث وسلح : بال . (٢) نكأتهم : أكثرت فيهم الجراح والقتلى ونهكتهم .

٩

أيمن بن خُرَيم

(الأغاني ج ٢٠ ص ٣٠٧ وما بعدها)

الشاعر

أيْمَن بن خُرَيم بن فاتك الأسدي . لأبيه صُحبة برسول الله ﷺ ، ورواية عنه ، وينسب إلى فاتك ، وهو جد أبيه . وهو أيمن ابن خُرَيم بن الأخرم بن عَمرو بن فاتك ... بن أسد بن خزيمة بن مدركة ابن الياس بن مضر بن نزار . وكان أيمن يتشيّع ، وكان أبوه أحد من اعتزل حرب الجَمل وصِفّين وما بعدهما من الأحداث ، فلم يحضرها .

إعجاب عبد الملك بشعره

مصعب الزبيري عن أشياخه :

أنّ عبد الملك بن مروان قال : يا معشر الشعراء ، تشبّهوننا مرّة

بالأسد الأبخر ، ومرّة بالجبل الأوعر ، ومرّة بالبحر الأُجاج[1] . ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم :

نهارُكم مُكابدة وصَومٌ ... ولَيلكم صَلاةٌ واقتراءُ
وَليتُم بالقُران وبالتزكّي ... فأسرع فيكم ذاك البَلاءُ
بكى نجدٌ غَداةَ غدٍ عليكم ... ومكةُ والمدينة والجِواءُ
وحُقّ لكلِّ أرضٍ فارقوها ... عليكم لا أبالكم البُكاء
أأَجعلكُم وأقواماً سواءً ... وبينكم وبينَهم الهَواءُ
وهم أرضٌ لأرجُلكم وأنتم ... لأرؤُسهم وأَعيُنِهم سَماء[2]

أخباره مع بني أمية

* عن مجالد قال :

كان عبد الملك شديد الشغف بالنساء ، فلمّا أسنّ ضعفَ عن الجِماع وازداد غرامُه بهنّ . فدخل اليه يوماً أيمن بن خُريم فقال له : كيف أنت ؟ قال بخير يا أمير المؤمنين . قال : فكيف قُوّتُك ؟ قال : كما أحبّ ، ولله الحمد ، إني لآكُلُ الجَذَعة[3] من الضأن بالصّاع من البرّ ، وأشرب العُسّ[4] المملوء ، وأرتحل البعير الصَّعب فأُنْصِبه ، وأركب المهرَ الأَرِن[5] فأُذلله ، وأفترع العذراء ولا يقعدني عنها الكِبَرُ ، ولا يمنعني منها الحَصَرُ[6] ، ولا يُرويني منها الغُمَرُ[7] ، ولا ينقضي

---

(١) الأجاج : الشديد الملوحة .
(٢) الجواء : واد في ديار عبس ، وماء بحمى ضرية .
(٣) الجذعة : الصغيرة الفتية .
(٤) العس : القدح الكبير .
(٥) الأرن : النشيط .
(٦) الحصر : عدم اشتهاء النساء .
(٧) الغمر : القدح الصغير .

منيّ الوَطَر ، فغاظ عبد الملك قوله وحسَده ، فمنعه العطاء وحَجَبه ، وقصده بما كرِه حتّى أثر ذلك في حاله . فقالت له امرأته : ويحَك ، اصدقني عن حالك ؟ هل لك جُرِم ؟ قال : لا والله . قالت : فأيّ شيء دار بينك وبين أمير المؤمنين آخرَ ما لقيتَه ؟ فأخبرها ، فقالت : إنّا لله ! من ها هنا أُتيتَ ؛ أنا أحتال لك في ذلك حتى أُزيل ما جرى عليك ، فقد حَسدَك الرجل على ما وصفتَ به نفسك .

فتهيأت ، ولبست ثيابها ، ودخلت على عاتكة زوجته فقالت : أسألك أن تَستَعْدِي لي أمير المؤمنين على زوجي . قالت : وما لَه ؟ قالت : والله ما أدري أنا مع رجلٍ أو حائطٍ ! وإن له لَسِنين ما يعرف فراشي ، فسَليه أن يُفَرِّق بيني وبينه . فخرجت عاتكة إلى عبد الملك ، فذكرت ذلك له وسألته في أمرها . فوجَّه إلى أيمن بن خريم فحضر ، فسأله عما شكت منه ، فاعترف به . فقال : أوَ لم أسألْك عاماً أولَ عن حالك فوصفت كَيت وكَيت ! فقال : يا أمير المؤمنين ، ان الرجل لَيتجمَّل عند سُلطانه ، ويتجلد عند أعدائه بأكثر مما وصفتُ نفسي به ، وأنا القائل :

لقِيت من الغانياتِ العُجابا
لو ادرك مني الغواني الشَّبابا

ولكنّ جمعَ النساءِ الحِسان
عَناءٌ شديدٌ إذا المرءُ شابا

ولو كِلْتَ بالمُدّ للغانيات
وضاعفتَ فوق الثياب الثيابا

إذا لم تُنِلْهُنّ من ذاك ذاك
بَغَيْنك عند الأمير الكذابا

يَذُدن بكل عصا ذائد
ويُصبحن كلّ غداة صِعابا

إذا لم يخـالطْـن كـلّ الخِـلا
ط أصبحـن مُخْرَنْطماتٍ غضابا
عَلامَ يُكَحِلـن حُورَ العيون
ويحُدِثن بعد الخِضاب الخضـابا
ويعرُكن بالمِسك أجيـادهـنّ
ويُدنين عند الحِجـال العيـابـا
ويُبرِقـن إلاّ لمـا تعلمــون
فلا تحرموا الغـانيات الضِـرابا [1]

قال : فجعل عبد الملك يضحك من قوله ، ثم قال : أَوْلى لك [2] يا بن خُرَيم ! لقد لقيتَ منهنَّ ترحاً ، فما ترى أن نصنع فيما بينك وبين زوجتك ؟ قال : تستأجلُها إلى أجل العِنّين ، وأداريها لعلي أستطيع إمساكها . قال : إفعل ذلك . وردّها إليه ، وأمر له بما فات من عطائه ، وعاد إلى بره وتقريبه .

* عن الهيثم بن عديّ قال :

أصاب يحيى بن الحكم جاريةً في غَزاة الصائفة [3] ، بها وَضَحٌ [4] ، فقال : أعطُوها أيمنَ بن خريم ، وكان موضّحاً . فغضب وأنشأ يقول :

تركتُ بني مروان تندى أكفُّهم
وصاحبت يحيى ضَلّةً من ضَلاليا

(١) مخرنطمات : متكبرات غاضبات واخرنطم : رفع أنفه وغضب . الحجال ج حجلة : ستر يضرب للعروس في جوف البيت . العياب ج عيبة : ما تجعل فيه الثياب كالصندوق .
(٢) أولى لك : دعاء له أن يناله مكروه ، وهي صيغة تفيد التعجب وتفيد التحذير .
(٣) غزاة الصائفة : غزوة الصيف .
(٤) وضح : برص .

فإنك لو أشبهت مروان لم تقـــل
لقوميَ هُجْراً أن أتَوك ولا ليا

وانصرف عنه فأتى عبد العزيز بن مروان . وكان يحيى مُحمّقاً .

* ذكر العُتبيّ أن منازعةً وقعت بين عَمرو بن سعيد[1] وعبد العزيز بن مروان ، فتعصّب لكل واحدٍ منهما أخوالُه ، وتداعَوا بالسلاح واقتتلوا . وكان أيمن بن خريم حاضراً للمّنازعة فاعتزلهم هو ورجلٌ من قومه يـُقال له ابن كُوز ، فعاتبه عبدُ العزيز وعَمرو جميعاً على ذلك ، فقال :

أأقتلُ بين حَجّاج بن عَمْـــروٍ ... وبين خَصِيمه عبدِ العزيز
أنُقتَل ضِلّةً في غير شيءٍ ... ويبقى بعدَنا أهلُ الكنوز
لعَمْرُ أبيك ما أُتّيت رُشْدي ... ولا وُفِّقت للحِرْز الحَرِيــز
فإنّي تاركٌ لهما جميعــاً ... ومعتزلٌ كما اعتزل ابنُ كُوز

* عن أبي بكر الهُذَليّ قال :

دخل نُصَيبٌ يوماً إلى عبد العزيز بن مَروان ، فأنشده قصيدةً له امتدحه بها فأعجبته ، وأقبل على أيمن بن خُريم فقال : كيف ترى شعرَ مَولاي هذا ؟ قال : هو أشعَرُ أهل جِلْدته . فقال : هو أشعَرُ واللهِ منك . قال : أَمنّي أيّها الأميرُ ! فقال : إي والله . قال : لا واللهِ ، ولكنّك طَرِفٌ[2] مَلُولٌ . فقال له : لو كنتُ كذلك ما صبَرتُ على مُؤاكلتك منذ سنةٍ وبك من البَرَص ما بك ! ـــ فقال : ائذن لي أيُّها الأمير في الانصرافً . قال : ذلك إليك . فمضى لوجهه حتّى لحق ببِشر بن مروان ، وقال فيه :

---

(١) يستدل من سياق الأبيات أن المنازعة كانت بين حجاج بن عمرو بن سعيد وبين عبد العزيز ابن مروان وهو الأقرب للصواب لأن عمرو بن سعيد قتل في صدر خلافة عبد الملك .

(٢) الطرف : من لا يثبت على صاحب .

ركبتُ من المقطّم في جُمادَى | إلى بشرِ بن مروان البَريدا
ولو أعطاك بشرٌ ألفَ ألفٍ | رأى حقّاً عليه أن يزيدا
أميرَ المؤمنين أَقِم ببشرٍ | عَمُود الدِّين إنّ له عمودا
ودَعْ بشراً يُقَوِّمْهم ويُحدِثْ | لأهل الزَيْغ إسلاماً جديدا
وإنّا قد وجدنا أمَّ بشرٍ | كأمّ الأسد مِذكاراً وَلُودا
كأنّ التاجَ تاج أبي هِرَقْلٍ | جَلَوْه لأعظمِ الأيّامِ عِيدا
يُحالِفُ لونهُ ديباجَ بِشرٍ | إذا الألوانُ خالفت الخدُودا (١)

– يُعرّض بنمش كان بوجه عبد العزيز – فقبله بشر بن مروان ووصله ، ولم يزل أثيراً عندَه .

* عن العتْبيّ قال :

لمّا أتى أيمن بن خريم بشر بن مروان نظر إلى الناس يدخلون عليه أفواجاً ، فقال : مَن يُؤذِن بنا الأمير أو يَستأذن لنا عليه ؟ فقيل له : ليس على الأمير حِجابٌ ولا سِترٌ . فدخل وهو يقول :

يُرى بارزاً للناس بِشرٌ كأنّه | اذا لاح في أثوابه قمرٌ بَدْرُ
ولو شاء بشرٌ أغلق البابَ دُونَه | طماطمُ سُودٌ أو صقالبةٌ شُقْرُ
أبى ذا ولكن سَهّل الإذنَ للّتي | يكون له في غِبّها الحمدُ والشُكرُ (٢)

---

(١) المقطم : إشارة إلى أنه قدم من مصر ، وكان عبد العزيز والياً عليها . يحالف : يوافق .
(٢) الطماطم جمع طمطم: وهو من كان في لسانه عجمة، يريد حجابه من الموالي الأعاجم. في غبها : في إثرها .

فضحك إليه بشرٌ وقال : إنّا قومٌ نحجُب الحُرَمَ ، وأما الأموال والطعام فلا ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

تعييره أهل العراق في قتال الخوارج

عن المعتمد بن سليمان قال :

لمّا طالت الحرب بين غزالةَ وبين أهل العراق ، وهم لا يُغنون شيئاً ، قال أيمن بن خُرَيم :

أتينا بهم مائتا فارسٍ ... من السّافكين الحَرامَ العَبيطا
وخمسون من مارقات النسا ... ء يسحَبْنَ للمُنْديات المُروطا
وهم مائتا ألفِ ذي قونَسٍ ... يَئطّ العراقان منهم أطيطا
رأيت غَزالةَ إن طَرَّحت ... بمكّةَ هَودجَها والغَبيطا
سمت للعراقين في جَمعها ... فلاقى العراقان منها بَطيطا
ألا يَستحي اللهَ أهلُ العرا ... ق أن قلّدوا الغانياتِ السمُوطا
وخيل غزالة تَسبي النساءَ ... وتحوي النِهابَ وتحوي النَبيطا
ولو أنّ لوطاً أميرٌ لكم ... لأسلمتمُ في المُلمّات لُوطا [1]

* * *

(١) العبيط : الدم الطري الخالص . المنديات : المخزيات التي يندى لها الجبين . المروط ج مرط : كساء من صوف يؤتزر به . القونس : أعلى بيضة الحديد . يئط : يصوت . الغبيط : الرحل يشد عليه الهودج . البطيط : من بط الجرح أي شقه ، ويقال أيضاً : جاء بأمر بطيط أي عجيب . النهاب : الغنائم . النبيط والنبط : قوم كانوا ينزلون بالعراق .

١٠

ثابت قُطْنَة

(الأغاني ج ١٤ ص ٢٦٣ وما بعدها)

الشاعر

هو ثابت بن كعب ، وقيل بن عبد الرحمن بن كَعب ، ويُكنَى أبا العَلاء ، أخو بني أسد بن الحارث بن العَتيك ، وقيل بل هو مَولىً لهم . ولُقِّب قُطْنَة لأنَّ سهماً أصابه في إحدى عينيه فذهب بها ، في بعض حروب التُرك ، فكان يجعل عليها قطنةً .

وهو شاعرٌ فارسٌ شجاع من شعراء الدولة الأموية ، وكان في صحابة يزيد بن المهلَّب ، وكان يُولِّيه أعمالاً من أعمال الثغور ، فيُحمَد فيها مكانه لكفايته وشجاعته .

... محمد بن يزيد قال : كان ثابت قطنة قد وَلي عملاً من أعمال خراسان ، فلمَّا صعِد المنبر يوم الجمعة رام الكلام ، فتعذَّر عليه وحَصِر ، فقال : سيجعلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْراً ، وبعد عِيٍّ بَياناً ،

وأنتم إلى أمير فَعّالٍ أحوجُ منكم إلى أميرٍ قَوّالٍ :

وإلاّ أكُنْ فيكم خطيباً فإنّني
بسيفي إذا جَدّ الوغى لَخَطيبُ

فبلغت كلماته خالدَ بن صَفوان – ويقال الأحنف بن قيس – فقال : والله ، ما علا ذلك المنبر أخطبُ منه في كلماته هذه ، ولو أنّ كلاماً استخفّني فأخرجني من بلادي إلى قائله ، استحساناً له ، لأخرجتني هذه الكلمات إلى قائلها . وهذا الكلام بخالد بن صَفوان أشبهُ منه بالأحنف .

قصيدته في الإرجاء

عن أبي عبيدة قال :

كان ثابت قطنة قد جالس قوماً من الشُراة ، وقوماً من المُرجئة [1] كانوا يجتمعون فيتجادلون بخُراسان ، فمال إلى قول المُرجِئة وأحبّه . فلمّا اجتمعوا بعد ذلك أنشدهم قصيدةً قالها في الإرجاء :

يا هندُ إنّي أظنُّ العيش قد نفِدا
ولَا أرى الأمرَ إلاّ مُدبِراً نكِدا

انّي رَهينةُ يوم لستُ سابقَه
إلاّ يكن يومَنا هذا فقد أفِدا

بايعت ربّي بَيعاً إن وفيتُ به
جاورتُ قَتلَى كِراماً جاوَرُوا أُحُدا

---

(١) المرجئة : فرقة من الفرق الاسلامية كانوا يقولون انه لا تضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة . وكانوا يؤخرون العمل على الايمان ، وسموا المرجئة لأنهم في أول أمرهم أرجؤوا أمر علي وعثمان إلى الله ثم أرجؤوا ما يعضل حله من الأمور إلى الله .

يا هندُ فاستمعي لي انّ سيرتَنــــا
أن نعبُدَ الله لم نُشرِكْ به أحَــدا

نُرجي الأمورَ إذا كانت مُشَبَّهةً
ونَصدُقَ القولَ فيمن جار أو عَنَدا

المسلمون عــلى الإسلام كلُّهـــم
والمُشرِكون أشتُّوا دينَهم قِدَدا

ولا أرى أنّ ذَنباً بالغٌ أحــــداً
مِ الناس شِركاً إذا ما وَحّدُوا الصَمَدا

لا نسفِكُ الدمَ إلاّ أن يُراد بنــا
سَفكُ الدماء طريقاً واحداً جَدَدا

من يَتّقِ الله في الدنيا فإنّ لــــه
أجرَ التقيِّ إذا وَفّى الحسابَ غدا

وما قضى اللهُ من أمرٍ فليس لـــه
ردٌّ وما يَقْضِ من شيءٍ يكنْ رَشَدا

كلُّ الخوارج مُخْطٍ في مَقالتــه
ولو تعبَّـــد فيما قال واجتهدا

أمّـــا عليٌّ وعثمـــانٌ فإنّهمـــا
عَبْدان لم يُشرِكا بالله مُذ عَبَدا

وكان بينهما شَغْبٌ وقد شهِدا
شَقَّ العصا وبعين الله ما شهِدا

يُجزَى عليٌّ وعثمانٌ بسَعيهمـــا
ولستُ أدري بحقٍّ أيّـــةً وَرَدا

اللهُ يعلمُ ماذا يَحضُران بـــــه
وكلُّ عَبْدٍ سيلقى اللهَ مُنفردا [1]

مهاجاته حاجب الفيل

.. عليّ بن الصّباح قال :

كان سبب هجاء حاجب بن ذبيان المازني – وهو حاجب الفِيل ، والفيل لقبٌ لقّبه به ثابت قُطنة وكعبٌ الأشقريّ – أنّ حاجباً دخل على يزيد بن المهلّب ، فلمّا مثل بين يديه أنشده :

إليك امتطيت العيسَ تسعين ليلـــةً
أرجّي ندى كفّيك يابنَ المهلّبِ
وأنت امرؤٌ جادت سماءُ يَمينـــه
على كلّ حيٍّ بين شرقٍ ومَغْرِبِ

(الأبيات ...)

قال : فأمر له يزيدُ بدِرعٍ وسيف ورُمح وفَرَس ، وقال له : قد عرفتَ ما شرطتَ لنا على نفسك [2] . فقال : أصلح الله الأمير ، حُجّتي بَيّنة ، وهي قول الله عزّ وجلّ : « والشعراء يَتّبعهم الغاوون ، ألم تر أنّهم في كلّ واد يَهيمون . وأنّهم يقولون ما لا يَفعلون . » . فقال له ثابت قُطنة : ما أعجبَ ما وفدتَ به من بلدك في تسعين ليلةً ! مدحتَ الأمير ببيتين ، وسألته حوائجك في عشرة أبيات ، وختمت شعرك

(١) نفد : فني . أفد : اقترب ودنا . عند الرجل : خالف الحق وحاد عن القصد . أشتوا : فرقوا . قدداً : قطعاً وفرقاً مختلفة . طريق جدد : مستو . الشغب : تهييج الشر . شق العصا : الاختلاف والفرقة .
(٢) يريد أنه طلب منه في قصيدته أن يهب له هذه الأشياء .

ببيت تفخر عليه فيه ، حتى إذا أعطاك ما أردتَ حِدْتَ عمّا شرطت له على نفسك فأكذبتَها كأنّك كنت تخدعه ! فقال له يزيد : مَهْ يا ثابت ، فإنّا لا نُخدَع ، ولكنّا نتخادع . وسَوَّغه (١) ما أعطاه ، وأمر له بألفَي درهم . ولجّ حاجبٌ يهجو ثابتاً فقال فيه :

لا يعرف الناس منه غير قُطنتـه
وما سِواها من الأنساب مجهولُ

قال : ودخل حاجبٌ يوماً على يزيد بن المهلّب ، وعنده ثابت قطنة وكعب الأشقريّ — وكانا لا يفارقان مجلسه — فوقف بين يديه فقال له : تكلّم يا حاجب . فقال : يأذن لي الأمير أن أُنشده أبياتاً . قال : لا ، حتى تبدأ فتسأل حاجتك . قال : أيّها الأمير ، إنّه ليس أحدٌ ، ولو أطنب في وصفك ، مُوفّيك حقّك ، ولكنّ المجتهد مُحسن ، فلا تَهجني بمنعي الإنشاد ، وتأذنُ لي فيه ، فإذا سمعت فجودُك أوسع من مسألتي . فقال له يزيد : هاتِ ، فما زلتَ مُجيداً مُحسناً مُجمِلاً . فأنشده :

كم من كَمِيٍّ في الهِياج تركتَـه ... يهوي لِفيه مُجَدَّلاً مقتولا
جَلّلت مَفرِقَ رأسه ذا رَونـقٍ ... عضبَ المَهزّةِ صارماً مصقولا
قُدتَ الجِيادَ وأنت غِرٌّ يافـعٌ ... حتى اكتهلتَ ولم تَزلْ مأمولا
كم قد حَرَبْتَ وقد جَبَرْتَ مُعاشراً
وكم امتننتَ وكم شفيتَ غَليلا (٢)

فقال له يزيد : سَلْ حاجتَك . فقال : ما على الأمير بها خَفاء .

---

(١) سوغه : جعله له خالصاً سائغاً .

(٢) الكمي : البطل الشجاع التام السلاح . جدله : صرعه . جللت : علوت . ذا رونق : سيفاً ذا رونق . حربه : أخذ ماله .

فقال : قُلْ . قال : إذاً لا أُقصر ولا أستعظم عظيماً أسأله الأميرَ ، أعزّه الله ، مع عِظم قدره . قال : أجل ، فقُلْ يُفعَل ، فلستَ بما تصير إليه أغبطَ منّا . قال - تحمِلني وتُخْدِمُني [1] وتُجزل جائزتي . فأمر له بخمسة تُخوتٍ [2] ثيابٍ وغُلامين وجاريتين وفرس وبغلٍ وبِرذَونٍ [3] وخمسة آلاف درهمٍ . فقال حاجب :

شِمِ الغيثَ وانظُرْ وَيْلَكَ أين تبعّجت
كُلاه تَجِدْها في يد ابن المُهلّبِ
يداه يدٌ يُخزي بها اللهُ من عصى
وفي يده الأخرى حَياةُ المُعَصَّبِ [4]

قال : فحسده ثابت قطنة وقال : واللهِ لو على قدر شِعرك أعطاك لما خرجت بملء كفّك نوىً ، ولكنّه أعطاك على قدره . وقام مُغضَباً وقال لحاجب يزيد بن المهلّب : إنّما فعل الأميرُ هذا ليضع منّا بإجزاله العطيّة لمثل هذا ، وإلاّ فلو أنّا اجتهدنا في مديحه ما زادنا على هذا .

وقال ثابت قطنة يهجو حاجباً حينئذٍ :

أحاجبُ لولا أنّ أصلك زَيّفٌ
وأنّك مطبوعٌ على اللؤم والكُفرِ
وأنّي لو أكثرتُ فيك مُقَصِّرٌ
رميتك رَمياً لا يَبيدُ يدَ الدَّهْر

(١) تحملني وتخدمني : أي تهب لي من المطايا ما يحملني وتهب لي من الموالي والعبيد من يخدمني .
(٢) تخوت ج تخت : وعاء تصان فيه الثياب .
(٣) برذون : دابة يحمل عليها . والبراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العرب .
(٤) شام البرق : نظر اليه ليعلم أين يمطر . تبعج السحاب : تدفق مطره . كلية السحاب : أسفله . المعصب : الذي عصبته السنون أي ذهبت بماله ، وهو أيضاً من يتعصب بالخرق من الجوع .

فقل لي ولا تكذبْ فإنّيَ عــالمٌ
بِمِثلك هل في مازنٍ لك من ظَهرِ
فإنّك منهم غيرَ شكٍ ولم يكــن
أبوك من الغُرّ الجحاجحة الزُهــر

* * *

فلستُ بهاجٍ ابنَ ذُبْيانَ إنّــني
سأكرم نفسي عن سِباب ذوي الهُجْر (١)

فقال حاجب : والله لا أرضى بهجاء ثابت وحده ، ولا بهجاء الأزد كلّها ، ولا أرضى حتى أهجو اليمن طُرّاً . فقال يهجوهم :

دعُوني وقحطاناً وَقولوا لثــابت
تَنحَّ ولا تَقْرَبْ مُصاولةَ البُزْلِ
فلَلزّنْج خيرٌ حين تُنسَب والداً
من ابناءِ قحطانَ العفاشلة الغُرْلِ
أناسٌ إذا الهيجاءُ شبّت رأيتَهــم
أذلَّ على وَطْءِ الهَوان من النّعــلِ
نساؤهمُ فَوضى لمن كان عاهــراً
وجيرانُهم نَهبُ الفوارس والرَّجْلِ (٢)

عن دِعبِل بن عليّ قال :

كان يزيد بن المهلب تقدّم إلى ثابت قطنة في أن يُصلّي بالناس يومَ الجمعة ، فلمّا صعِد المنبر ولم يُطِق الكلام ، قال حاجب الفيل يهجوه :

---

(١) يد الدهر : طول الدهر . من ظهر : من أنصار . الجحاجحة : السادة . الهجر : الفاحش من القول .

(٢) البزل ج بازل : الرجل الخبير المجرب ، وأصله من بزل البعير اذا انفطر نابه في السنة التاسعة . العفاشلة ج عفشل : الثقيل الوخم . الأغرل : الذي لم يختتن .

أبا العَلاء لقد لُقِّيتَ مُعضِلةً
يومَ العَرُوبة من كربٍ وتَخنيقِ
أما القُران فلم تُخلَقْ لِمُحْكَمِه
ولم تُسدَّدْ من الدنيا لتوفيقِ
لمّا رمتْك عيونُ الناسِ هبتَهم
فكِدتَ تَشرَقُ لمّا قُمتَ بالرّيقِ
تَلوي اللسانَ وقد رُمتَ الكلامَ به
كما هوى زَلِقٌ من شاهق النِيق (١)

طائفة من أخباره

* قال أبو الفرج : ونسخت من كتاب بخطّ المُرهبي الكوفيّ في شعر ثابت قطنة قال : لمّا ولي سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة خراسان ، بعد عزل عبد الرحمن بن نُعيم ، جعل يعرِض الناس ، وعنده حُميد الرؤاسيّ وعُبادة المحاربيّ . فلمّا دُعي بثابت قطنة تقدّم ، وكان تامّ السِلاح ، جَواد الفرس ، فارساً من الفرسان ، فسأل عنه فقيل : هذا ثابت قطنة ، وهو أحد فرسان الثغور . فأمضاه وأجاز على اسمه . فلمّا انصرف قال له حميد وعبادة : هذا ، أصلحك اللهُ ، الذي يقول :

إنّا لَضَرّابون في حَمَس الوغى ... رأس الخليفة إن أراد صُدودا (٢)

فقال سعيد : عليّ به ، فردّوه ، وهو يريد قتلَه . فلمّا أتاه قال له : أنت القائل :

---

(١) يوم العروبة : يوم الجمعة . النيق : أعلى موضع في الجبل .
(٢) في حمس الوغى : في شدة الحرب .

إنّا لضرّابون في حمسِ الوغى

قال : نعم ، أنا القائلُ :

إنّا لضَرّابون في حمَس الوغـى رأس المتوّج إن أراد صدودا
عن طاعة الرحمن أو خُلفائــه إن رام إفساداً وكرَّ عُنُــودا

فقال له سعيد : أَولى لك ، لولا أنّك خرجت منها لضربتُ عُنقك .

* قال : واجتاز ثابت قطنة في بعض أسفاره بمدينة كان أميرُها محمد بن مالك بن بَدر الهَمْداني ثم الخَيْوانيّ ، وكان يُغمَزُ في نسبه ، وخطب إلى قوم من كندة فردُّوه ، فعرف خبر ثابت في نُزوله فلم يُكرمه ولا أمر له بقرىً ولا تفقّده بنُزْل (١) ولا غيره ، فلمّا رحل عنه قال يهجوه ويعيّره بردّ من خَطب إليه :

لو ان بَكيــلاً هم قومُــه وكان أبوه أبـا العاقـبِ
لأكْرَمَنــا إذ مَررْنــا بـه كرامةَ ذي الحسَب الثاقب
ولكنّ خَيْوانَ هـمْ قومُــه فبئس هم القومُ للصاحب
وأنت سَنيدٌ بهم مُلْصَــقٌ كما أُلصِقت رُقعةُ الشاعبِ
وحَسبُك حسبك عند النّثــا بأفعالِ كِندةَ من عائــب
خطبت فجازَوك لمّا خطبــتَ جزاءَ يَسارٍ من الكاعبِ
كذبت فزيّفتَ عَقد النِكــاح لِمتّك بالنسب الكـــاذب
فلا تخطُبَنْ بعدَهــــا حُرّةً فتُثْنَى بوَسْمٍ على الشاربِ (٢)

---

(١) النزل : ما يهيأ للضيف من قرى .
(٢) بكيل : حي من همدان . العاقب : من يخلف السيد بعده ، والسيد والعاقب من مراتب نصارى نجران القدامى . السنيد : الدعي الملصق . الشاعب : الذي يصلح الإناء ويرقعه . النثا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء . جزاء يسار : هذا مثل يضرب لمن =

وقـــال :

كان لثابت قطنة راويةٌ يقال له النَضر ، فهجا ثابت قطنة قتيبةَ بن مُسلم وقومه ، وعيّرهم بهزيمة انهزموها عن التُرك ، فقال :

توافت تميمٌ في الطِعـــان وعَرَّدت
بُهَيلــةُ لمّا عاينت معشراً غُلْبـــا
كُماة كُفاة يرهَب الناس حَدَّهــم
إذا ما مشَوا في الحرب تحسَبُهم نُكْبا
تُسامون كعباً في العُلا وكِلابهـــا
وهيهاتَ أن تلقَوا كِلاباً ولا كَعبـــا (١)

قال : فأفشى عليه راويته ما قاله ، فقال ثابت فيه — وقد كان استكتمه — هذه الأبيات :

يا ليت لي بأخي نَضْرٍ أخا ثِقةٍ
لا أرهَب الشرَّ منه غـــاب أم شهِدا
أصبحت منك على أسبـــاب مَهْلَكةٍ
وزَلّةٍ خائفـــاً منك الردَى أبدا
ما كنتَ إلاّ كذئب السُوء عارضَه
أخوه يَدمَى ففَرّى جلدَه قِدَدا

= يتطاول إلى ما هو فوقه منزلة ، وكان يسار عبداً أراد مراودة امرأة مولاه عن نفسها فقطعت أنفه وطردته . مت : انتسب .

(١) عردت : فرت . بهيلة : تصغير باهلة وهم قبيلة قتيبة بن مسلم . غلب ج أغلب : غليظ الرقبة ، والسادة يوصفون بغلظ الرقبة وطولها وكذلك يقال أسد أغلب أي قصير الرقبة . النكب ج نكباء : الريح التي تنحرف عن مسارها ، وهي تهلك المال وتحبس المطر . كعب وكلاب : من قبائل قيس عيلان وكذلك باهلة .

أو كابن آدمَ خلّى عن أخيه وقــد
أدمى حَشاه ولم يَبسِط إليه يدا
أهُمّ بالصَرفِ أحيانـــاً فيمنعني
حَيّاً ربيعةَ والعَقدُ الذي عَقَدا (١)

* * *

• ونسخت منه أيضاً قال : لمّا قُتل المفضّل بن المهلّب دخل ثابت قطنة على هند بنت المهلّب ، والناس حولها جُلوسٌ يُعزّونهـــا ، فأنشدهــا :

يا هِندُ كيف بنُصْبٍ بات يُبكيــني
وعـــائرٍ في سَواد الليـــل يُؤذِيني
كأنّ ليليَ والأصداء هــاجدةٌ
ليلُ السّليم وأعيا مَن يُداويني
لمّا حنَى الدهرُ من قَوسي وعَذّرني
شَيبي وقاسيت أمر الغِلْظ واللين
إذا ذكرت أبـــا غَسّان أرّقـــني
همٌ إذا عرّس السّارُون يُشجِيني
كان المفضّل عِزّاً في ذَوي يَمَـــن
وعِصمـــةً وثِمـــالاً للمساكين
مـــا زلت بعدك في هـــمٍّ تجيش به
نفسي وفي نَصَبٍ قد كـــاد يُبليني
إنّي تذكرتُ قتلَى لو شهدتُهمُ
في حَومة الموت لم يَصلَوا بهـــا دُوني

---

(١) فرى : قطع . قدداً : قطعاً . كابن آدم : يشير إلى قتل قابيل أخاه هابيل .

لا خيرَ في العيش إن لم أجن بعدَهم
حرباً تُبيءُ بهم قتلَى فيَشفوني [1]

فقالت له هند : اجلس يا ثابت ، فقد قضيت الحقّ ، وما من المرزِئة [2] بُدٌ ، وكم من مِيتة ميّتٍ أشرف من حياة حيٍّ ، وليست المصيبة في قتل من استشهد ذاباً عن دِينه ، مُطيعاً لربّه ، وإنّما المصيبة فيمن قلّت بَصيرته ، وخمَلَ ذكره بعد موته ، وأرجو ألاّ يكون المفضّل عند الله خاملاً . يقال : إنه ما عُزّي يومئذٍ بأحسنَ من كلامها .

ونسخت من كتابه أيضاً قال : كان ابن الكوّاء اليشكُريّ مع الشُراة ، والمهلّب يحاربهم ، وكان بعض بني أخيه شاعراً ، فهجا المهلّب وعمّ الأزد بالهجاء ، فقال لثابت : أجبْه ، فقال له ثابت :

كلُّ القبائل من بكرٍ نَعدّهــم
واليَشكُريّون منهم ألأم العربِ
ثرى لُجيمٌ وأثرى الحصن إذ قعدت
بيشكُرٍ أمُّه المَعرُورةُ النسب
نحّاكم عن حِياض المجد والدُكم
فما لكم في بني البَرْشاء من نسب
أنتم تَحلّون من بكرٍ إذا نُسبوا
مثلَ القُراد حوالَيْ عُكْوة الذَّنَبِ
نُبّئت أنّ بني الكوّاء قد نَبحوا
فِعلَ الكلاب تَتلّى الليثَ في الأشَب

(١) النصب ، بفتح النون وضمها : الداء والبلاء . العائر : كل ما وقع بالعين وآذاها . السليم : الملدوغ . عذرني شيبي : نزل الشيب بعذاري . ثمال : ملجأ وغياث . صلي بالنار : قاسى حرها . باء بالقتيل : قتل به .
(٢) المرزئة : المصيبة الجليلة .

يَكْوي الأبَيْجرُ عبدُ الله شيخُكم
ونحن نُبري الذي يَكوي من الكَلَبِ[1]

ونسخت من كتابه أيضاً قال :

كتب ثابت قطنة إلى يزيد بن المهلّب يُحرّضه[2] :

إنّ امرءاً حدِبت ربيعةُ حولَه
والحيُّ من يمنٍ وهاب كَؤُودا
لَضَعيفُ ما ضمَّت جوانحُ صَدره
إن لم يَلُفَّ إلى الجنود جُنودا
أيزيدُ كن في الحرب إذ هيّجْتها
كأبيك لا رَعِشاً ولا رِعْديدا
شاورتَ أكرم من تناول ماجدٌ
فرأيت همّك في الهموم بعيدا
ما كان في أبويك قادحُ هُجْنة
فيكونَ زَنْدُك في الزّناد صَلُودا
إنّا لَضَرّابون في حَمَس الوغى
رأس المتوّج إن أراد صُدودا
وقُرٌ إذا كفر العَجاجُ تُرى لنا
في كلّ مَعركةٍ فوارسَ صِيدا

(١) لجيم : هو لجيم بن صعب بن علي بن بكر والحصن هو ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر . البرشاء : لقب أم ذهل وشيبان وقيس بني ثعلبة بن عكابة من صعب . عكوة الذنب : أصله . الأشب : الشجر الملتف حتى لا مجاز فيه . الأبيجر : تصغير الأبجر ، وهو العظيم البطن . وعبد الله هو اسم ابن الكواء اليشكري .

(٢) قال ثابت هذه الأبيات يحرض ابن المهلب على الثورة وخلع طاعة بني أمية حين ولي الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وهي الثورة التي انتهت بمصرعه ومصرع أخيه المفضل .

يا ليت أُسرتك الذين تغيّبـــوا
كانوا لِيومك بالعراق شهُـــودا
وترى مَـواطنهم إذا اختلف القنـا
والمَشْرَفيـّةُ يَلْتَظِين وُقودا [1]

فقال يزيد لمّا قرأ كتابه : إنّ ثابتاً لغافلٌ عمّا نحن فيه ، ولَعَمري لأُطيعنّه ، وسَيرى ما يكون ، فاكتبوا إليه بذلك .

* ... حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

كان ثابت قطنة مع يزيد بن المهلّب في يوم العَقْر [2] ، فلمّا خذله أهل العراق وفرّوا عنه فقُتل قال ثابت قطنة يرثيه :

كلّ القبائل بايعُوك على الـذي ... تدعُو إليه وتابعوك وساروا
حتّى إذا حمِس الوغَى وجعلتَهم ... نُصْبَ الأسنّة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإنّ قَتلك لم يكـن ... عاراً عليك وبعضُ قتلٍ عارُ

* عن سليمان بن ناصح الأسديّ قال :

خطب ثابت قطنة امرأةً كان يميل إليها ، فجعل السّفيرَ بينه وبينها جُوَيبر بن سعيد المُحدِّث ، فاندسّ فخطبها لنفسه ، فتزوّجَها ودفع عنها ثابتاً ، فقال ثابت حين بان له الأمر :

---

(١) الكؤود : المرتقى الصعب ، أراد به صعاب الأمور . الرعش والرعديد : الجبان . الهجنة : أن يكون أحد الزندين غير وار ، أراد ليس في أبويك مطعن . صلود : غير وار . العجاج : الغبار . كفره : ستره وغطاه . صيد ج أصيد : من يميل بعنقه كبراً وتيهاً . التظت : توقدت واشتعلت .

(٢) العقر : موضع قرب كربلاء كانت فيه الوقعة بين مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن المهلب وفيه قتل يزيد عام ١٠٢ هـ .

أفشَى عليّ مَقالةً ما قلتُهـــا وسعى بأمرٍ كان غير سديد
إنّي دعوتُ اللهَ حين ظلمتَـــني ربّي وليس لمن دعا ببعيـــد
أن لا تزالَ مُتيّمـــاً بخَريدة تَسبي الرجالَ بمُقلتَين وجيد
حتّى إذا وجَبَ الصِداق تلبّستْ لك جِلدَ أغضَفَ بارزٍ بصَعيد
تدعو عليك الحاريات مُبِـــرّةً فترى الطلاقَ وأنت غيرُ حَميد(١)

قال : فلقي جُوَيبر كلّ ما دعا عليه ثابت به ، ولحقه من المرأة كلّ شرّ وضُرّ حتى طلّقها بعد أن قبضت صِداقها منه .

* قال القحذميّ :

دخل ثابت قطنة على بعض أمراء خراسان — أظنّه قتيبة بن مسلم — فمدحه وسأله حاجةً ، فلم يَقضها له ، فخرج من بين يديه وقال لأصحابه : لكن يزيد بن المهلّب لو سألته هذا أو أكثر منه لم يردّني عنه ، وأنشأ يقول :

أبا خالدٍ لم يَبقَ بعدكَ سُوقَـــةٌ
ولا مَلِكٌ مِمّن يُعين على الرفْدِ
ولا فاعلٌ يرجو المُقلّون فضلَـــه
ولا قائلٌ يَنْكا العدوّ على حِقْـــدِ
لو ان المنايا سامحت ذا حَفيظـــة
لأكرَمْنَه أو عُجْن منه على عَمْدِ(٢)

---

(١) الخريدة : الفتاة البكر . الأغضف : صفة للكلب المسترخي الأذن ، والأغضف كذلك من أسماء الأسد . وأراد بقوله لبست لك جلد أغضف : أن تتنكر له وتظهر له العداوة . الحاريات ج الحارية : الأفعى . مبرة : غالبة قاهرة .

(٢) أبو خالد : كنية يزيد بن المهلب . الرفد : العطاء . ينكا مخففة من ينكأ العدو : يوقع فيه الجرح والقتل . الحفيظة : الغضب . عاج عنه : حاد عنه ومال .

* عن أبي عبيدة قال :

عتَب ثابت قطنة على قومه من الأزد في حالٍ استنصَر عليها بعضَهم فلم يَنصُرْه فقال في ذلك :

تعفّفتُ عن شتم العشيرة إنّني
وجدتُ أبي قد عفّ عن شتْمها قبلي

حليماً إذا ما الحِلم كان مُروءةً
وأجهلُ أحياناً إذا التمسوا جَهلي

* * *

١١

جـــريـر

(الأغاني ج ٨ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

جَرير بن عَطيّة بن الخَطَفَى . والخطفى لقبٌ ، واسمُه حُذيفة ابن بدر بن عَوف بن كُلَيب بن يَربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مَناة ابن تَميم ... بن مُضر بن نزار . ويُكنى أبا حَزْرة ...

وأمّ جرير أمّ قيس بنت مُعَيد ... بن كليب بن يربوع .

عن أبي عبيدةَ قال :

رأت أمُّ جريرٍ ، وهي حاملٌ به ، كأنها ولدت حبلاً من شَعَر أسودَ ، فلمّا سقط منها جعل ينزُو فيقع في عُنق هذا فيخنقُه حتّى فعل ذلك برجالٍ كثيرٍ ، فانتبهت فزعةً ، فأوّلت الرُؤيا فقيل لها : تلِدين غُلاماً شاعراً ذا شرّ وشِدّةٍ وشَكيمة وبَلاءٍ على الناس . فلمّا ولدته

سَمّته جريراً باسم الحبل الذي رأت أنّه خرج منها . قال : والجرير : الحبـــل .

عن المُغيرة بن حَجناءَ عن أبيه قال :

وُلد جريرٌ لسبعة أشهُرٍ ، فكان الفرزدق يُعيّره ذلك ، وفيــه يقول :

وأنت ابن صُغرى لم تَتمَّ شهورُهــــا

قال : وولَد عطيّةُ جريراً .. وعَمراً وأبا الوَرْد . فأمّا أبو الوَرد فكان يحسُد جريراً ، فذهبت لجرير إبلٌ فشمت به أبو الورد فقال جرير :

أبا الوَرد أبقى الله منها بقيّـــــةً كفت كلَّ لَوّامٍ خَذُولٍ وحاسدِ

وأمّا عمرو فكان أكبر من جرير وكان يُقارضه الشعر .

وهو والفرزدق والأخطل المقدَّمون على شعراء الإسلام الذين لم يُدركوا الجاهلية جميعاً . ومختلَف في أيّهم المتقدّم ، ولم يبقَ أحدٌ من شعراء عصرهم إلاّ تعرّض لهم فافتَضح وسقط وبقُوا يتصاولون ...

قال أبو عبيدة ومحمّد بن سلاّم ووافقهما الأصمعي ... :

اتّفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثةٌ : جريرٌ والفرزدق والأخطل ، واختلفوا في تقديم بعضهم على بعض .

وقال أبو عبيدة : كان أبو عمرو يُشبّه جريراً بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابغة . قال أبو عبيدة : يحتجّ من قدّم جريراً بأنه كان أكثرهم فنونَ شعر ، وأسهلَهم لفظاً ، وأقلَّهم تكلّفاً ، وأرقَّهم نسيباً ، وكان دَيِّناً عفيفاً .

قال الأصمعيُّ ، وذكر جريراً ، فقال :

كان ينهشُه ثلاثةٌ وأربعون شاعراً فينبذُهم وراء ظهره ويرمي بهم

واحداً واحداً ، ومنهم من كان ينفَحُه (١) فيرمي به ، وثبتَ له الفرزدق والأخطل .

قال ابن سلاّم : وحدّثني أبو البيداء قال : مرّ راكبٌ بالراعي وهو يغنّي ببيتين لجرير وهما :

وعاوٍ عوى من غير شيءٍ رميتُه
بقارعة أنفاذُها تقطُر الدما
خرُوجٍ بأفواه الرواة كأنّها
قَرا هِندوانيٌّ اذا هُزّ صَمَّما (٢)

فأتبعه الراعي رسولاً يسأله : لمن البيتان ؟ قال : لجرير . قال : لو اجتمع على هذا جميع الجِنّ والإنس ما أغنَوا فيه شيئاً . ثم قال لمن حضر : ويحكم أألام على أن يغلبني مثلُ هذا ؟!

عن عِكرمة بن جرير قال : قلت لأبي : يا أبتِ ، من أشعرُ الناس ؟ فقال : ألجاهلية تريد أم الإسلام ؟ قلت : أخبرني عن الجاهلية . قال : شاعرُ الجاهلية زهيرٌ . قلت : فالإسلام ؟ قال : نَبعةُ الشعر الفرزدق . قلت : فالأخطل ؟ قال : يجيد صفة الملوك ويُصيب نعت الخمر . قال : فما تركت لنفسك ؟ قال : دَعني ، فإنّي نحرت الشعر نَحراً .

* ... زَبرك بن هُبَيرة المنانيّ قال :

كان جريرٌ ميدانَ الشعر ، من لم يَجر فيه لم يَروِ شيئاً . وكان من هاجى جريراً فغلَبه أرجحَ عندهم ممّن هاجى شاعراً آخر غير جريرَ فغلَب .

---

(١) نفحه بالسيف : ضربه به ضربة خفيفة ، وفي روايات أخرى : ينفخه .
(٢) القارعة : الكلمة النافذة الشديدة الوقع . القرا : الظهر ، وأراد متن السيف . الهندواني : السيف المنسوب إلى الهند . صمم : قطع .

عن بِلال بن جرير أنّ رجلاً قال لجرير : مَن أشعرُ الناس ؟ قال له : قم حتّى أُعرِّفك الجواب . فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطيّة ، وقد أخذ عَنْزاً له فاعتقلها وجعل يَمُصّ ضَرعها . فصاح به : اخرُج يا أبتِ ، فخرج شيخٌ دميمٌ رثُّ الهيئة وقد سال لبن العنز على لِحيته ، فقال : أترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أوَ تعرفه ؟ قال : لا . قال : هذا أبي ، أفتدري لِمَ كان يشرب من ضرع العنز ؟ قلت : لا . قال : مَخافةَ أن يُسمَع صوت الحَلَب فيُطلب منه لبنٌ . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلبهم جميعاً .

المفاضلة بينه وبين الفرزدق والاخطل

عن حَمّادٍ الراوية قال :

أتيتُ الفرزدق فأنشدني ثم قال لي : هل أتيت الكلبَ جريراً ؟ قلت : نعم . قال : فأنا أشعرُ أو هو ؟ فقلت : أنت في بعض الأمر وهو في بعضٍ . فقال : لم تُناصِحني . فقلت : هو أشعر إذا أرخى من خِناقه [1] ، وأنت أشعر منه إذا خِفت أو رجوت . فقال : وهل الشعر إلاّ في الخوف والرَّجاء وعند الخير والشرّ !

أخبرني أبو خليفةَ قال : حدّثنا محمّد بن سلاّم قال :

سألت بَشّاراً العُقيليّ عن الثلاثة فقال : لم يكن الأخطلُ مثلَهما ولكنّ ربيعةَ تعصّبت له وأفرطت فيه . قلت : فجريرٌ والفرزدق ؟ قال : كان جريرٌ يُحسن ضروباً من الشعر لا يُحسنها الفرزدق ، وفَضّل جريراً عليه .

---

(١) الخناق : الحبل يخنق به .

وقال ابن سلاّم : قال العلاء بن جرير ، وكان قد أدرك الناس وسمع :

كان يقال : الأخطل إذا لم يجيء سابقاً فهو سُكَّيتٌ ، والفرزدق لا يجيءُ سابقاً ولا سُكّيتاً ، فهو بمنزلة المُصلّي أبداً ، وجريرٌ يجيء سابقاً ومُصَلّياً وسُكّيتاً . قال ابن سلاّم : وتأويل قوله : إنّ للأخطل خمساً أو ستّاً أو سبعاً طِوالاً روائعَ غُرراً جِياداً هو بهنّ سابقٌ ، وسائر شعره دون أشعارهما ، فهو فيما بقي بمنزلة السُكّيت — والسكّيت : آخر الخيل في الرهـان ، والفرزدق دونه في هذهِ الروائع وفوقه في بقيّة شعره ، فهو كالمصلّي أبـداً ، وهو الذي يجيءُ بعد السابق وقبل السُكّيت . وجريرٌ له روائعُ هو بهنّ سابقٌ ، وأوساطٌ وهو بهنّ مُصَلٍّ ، وسَفسافات هو بهنّ سُكّيت .

عن عَطاء بن مُصعب قال : قلت لأبي مَهديٍّ الباهليّ ، وكان من علماء العرب : أيّما أشعر أجريرٌ أم الفرزدق ؟ فغضب ثم قال : جريرٌ أشعر العرب كُلّها . ثمّ قال : لا يزال الشعراء موقوفين يومَ القيامة حتّى يجيء جرير فيحكمَ بينهم .

... أبو اليَقظان قال :

قال جريرٌ لرجلٍ من بني طُهَيّة : أيُّما أشعرُ أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند العامّة والفرزدق عند العلماء ؛ فصاح جرير : أنا أبو حَزرةَ . غلبتُه وربِّ الكعبة ! واللهِ ما في كلّ مائة رجلٍ عالمٌ واحدٌ .

قال محمد بن سلاّم : ورأيت أعرابياً من بني أسدٍ أعجبني ظرفه وروايته . فقلت له :

أيهما عندكم أشعر ؟ قال : بيوت الشعر أربعة : فخرٌ ومديحٌ وهجاءٌ ونسيبٌ ، وفي كلّها غلب جريرٌ ، قال في الفخر :

إذا غضِبت عليك بنــو تمــيمٍ　　حسبتَ الناسَ كُلّهم غِضابا

والمديــح :

ألستُم خيرَ مَن ركب المطايــا　　وأندى العالَمين بُطونَ راحِ

والهجــاء :

فغُضَّ الطَرْف إنّك من نُمَيرٍ　　فلا كَعبــاً بلغتَ ولا كِلابــا

والنسيــب :

إنَّ العيون التي في طَرفِها حَوَرٌ　　قَتَلْننا ثمّ لم يُحيِــين قتْلانــا

قال أبو عبد الله محمد بن سلاّم : وبيت النسيب عندي :

فلمّا التقى الحيّان أُلقِيت العصــا　　ومات الهوى لمّــا أُصِيبت مَقاتِلُهْ

عن العُتْبيّ قال :

قال هشام بن عبد الملك لشَبّة بن عِقالٍ ، وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذٍ أميرٌ : ألا تُخبرني عن هؤلاء الذين قد مزّقوا أعراضهم وهتكُوا أستارهم ، وأغرَوا بين عشائرهم في غير خير ولا برٍّ ولا نفع أيُّهم أشعر ؟ فقال شبّة : أما جريرٌ فيغرِف من بحرٍ ، وأما الفرزدق فينحت من صَخرٍ ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر . فقــال هشام : ما فَسّرت لنا شيئاً نُحصّله . فقال : ما عندي غيرُ ما قلتُ . فقال لخالد بن صَفْوان : صِفْهم لنا يابنَ الأهتم ، فقال :

أمّا أعظَمُهم فخراً ، وأبعدُهم ذِكراً ، وأحسنُهم عُذراً ،

وأسيَرُهم مثلاً ، وأقلهم غزَلاً ، وأحلاهم عِللاً ، الطامي إذا زَخَر ، والحامي إذا زَأَر ، والسامي إذا خَطر ؛ الذي إن هدَر قال ، وإن خطَر صال ، الفَصيحُ اللسان ، الطويلُ العِنان ، فالفرزدق .

وأمّا أحسَنهم نَعتاً ، وأمدَحُهم بيتاً ، وأقلُّهم فَوتاً . الذي إن هَجا وضَع ، وإن مَدح رفع ، فالأخطل .

وأمّا أغزرهم بحراً ، وأرقُّهم شِعراً ، وأهتَكُهم لعَدُوِّه سِتراً ، الأغرُّ الأبلقُ ، الذي إن طَلب لم يُسبَق ، وإن طُلب لم يُلحَقْ ، فجريرٌ .

وَكُلُّهم ذكيُّ الفؤاد ، رفيع العِماد ، واري الزِناد ...

عن محمّد بن سلاّم قال : تذاكروا جريراً والفرزدق في حلْقة يونس... فسمعتِ عامراً ، وهو شيخ بكر بن وائل ، يقول : كان جريرٌ واللهِ أنسبهما وأسبّهما وأشبههما .

... عن مولىً لبني هاشمٍ قال :

امترى [1] أهل المجلس في جرير والفرزدق أيّهما أشعر ، فدخلت على الفرزدق فما سألني عن شيءٍ حتى قال : يا نَوارُ ، أدركتْ بَرْنيتُكِ [2] ؟ قالت : قد فعلتْ أو كادتْ . قال : فابعثي بدرهم فاشتري لحماً . ففعلتْ وجعلت تُشرّحه وتُلقيه على النار ويأكل . ثم قال : هاتي بَرنيّتك . فشرب قدحاً ثم ناولني ، وشرب آخر ثمّ ناولني ثمّ قال : هات حاجتَك يابنَ أخي . فأخبرته . قال : أعن ابن الخطفَى تسألني ! ثمّ تنفّس حتى قلتُ : انشقّت حيازيمُه [3] . ثم قال : قاتله اللهُ ! فما أخشنَ ناحيتَه ، وأشردَ قافيته ! والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها ، والشابّة على

---

(١) امتروا : تجادلوا .

(٢) البرنية : شراب يصنع من البرني ، وهو ضرب من التمر وأدرك : طاب وبلغ وقته .

(٣) الحيزوم : الصدر .

أحبابها ، ولكنّهم هَرّوه [1] فوجدوه عند الهراش نابحاً وعند الجِراء قارحاً [2] ، وقد قال بيتاً لأن أكونَ قلتُه أحبُّ إليَّ ممّا طلعت عليه الشمس :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبتَ الناسَ كُلّهم غِضابا

عن الشعبيّ : أنّ الفرزدق خرج حاجّاً ، فلمّا قضى حَجّه عدَل إلى المدينة فدخل إلى سُكينة بنت الحسين ، عليهما السلام ، فسلّم ، فقالت له : يا فرزدقُ ، مَن أشعرُ الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبتَ ، أشعرُ منك الذي يقول :

بنفسي من تَجَنّبُهُ عزيزٌ عليَّ ومَن زيارتُه لِمامُ
ومَن أمسي وأصبح لا أراه ويطرُقني إذا هجَع النِيامُ

فقال : واللهِ لو أذنتِ لي لأسمعتُكِ أحسنَ منه . قالت : أقيموهُ . فأُخرِج ، ثم عاد اليها من الغد فدخل عليها . فقالت : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبتَ ، صاحبُك جريرٌ أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ
ولَزُرتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ
كانت إذا هجر الضَجيعُ فِراشَها
كُتِم الحديثُ وعَفّت الأسرار
لا يُلبِثُ القُرَناءَ أن يتفرّقوا
ليلٌ يكُرُّ عليهم ونهار

---

(١) هره : حمله على النباح ، أراد أنهم تحرشوا به .
(٢) الجراء : الجري ، والقارح من الخيل ومن كل ذي حافر كالبازل من الإبل ، وهو الذي بلغ سن النشاط والقدرة على الجري .

فقال : والله لو أذِنت لي لأسمعتك أحسنَ منه ، فأمرت به فأُخرج . ثم عاد إليها في اليوم الثالث ، وحولَها مُوَلّدات لها كأنهنّ التماثيل ، فنظر الفرزدق إلى واحدة منهنّ فأعجب بها وبُهت ينظر إليها . فقالت له سُكينة : يا فرزدقُ ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبتَ ، صاحبك أشعر منك حيث يقول :

إنّ العيون التي في طَرفها حَوَرٌ
قتلننا ثم لم يُحيين قتلانـــــا
يَصرعن ذا اللُّبّ حتى لا حَراك به
وهنّ أضعفُ خلق الله أركانـــا
أتبعتُهم مُقلــةً إنسانُها غَرِقٌ
هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا [1]

الخ ...

* * *

أخباره مع الفرزدق

* .. أبو الغَرّاف قال :

قال الحجّاجُ لجرير والفرزدق ، وهو في قصره بحَزيز البصرة [2] : ائتياني في لباس آبائكما في الجاهليّة . فلبس الفرزدق الديباج والخزّ وقعد في قُبّة . وشاور جرير دُهاةَ بني يربوع فقالوا له : ما لباس آبائنا إلاّ الحديدُ . فلبس جريرٌ دِرعاً وتقلّد سيفاً وأخذ رُمحاً وركب فرساً لعبّاد ابن الحُصَين يقال له المِنحاز ، وأقبل في أربعين فارساً من بني يربوع ،

---

(١) الحور : شدة سواد السواد في العين مع شدة بياض البياض . انسان العين : سوادها .
(٢) حزيز : موضع بالبصرة بين العقيق وأعلى المربد .

وجاء الفرزدق في هيئته ، فقال جرير :

لبستُ سِلاحي والفرزدقُ لُعبـــةٌ
عليه وشاحا كُرَّجٍ وجَلاجِلُـهْ
أعِدّوا مع الحَلْيِ المَلابَ فإنّمـا
جريرٌ لكم بَعلٌ وأنتم حَلائلُهْ (١)

ثم رجعا فوقف جرير في مقبُرة بني حِصن ووقف الفرزدق في المِربَد .

* عن جُويرية بن أسماء قال :

قدِم الفرزدق اليمامةَ وعليها المهاجِرُ بن عبد الله الكِلابيّ فقال : لو دخلتُ على هذا فأصبت منه شيئاً ولم يعلم بي جرير . فلم تستقرّ به الدار حتى قال جرير :

رأيتك إذ لم يُغنِك اللهُ بالغِنَى
رجعتَ إلى قيسٍ وخَدُّك ضارعُ
وما ذاك إن أعطى الفرزدق باستِه
بأوّلَ ثَغرٍ ضيَّعته مُجاشـع

فلمّا بلغ ذلك الفرزدق قال : لا جرمَ والله لا أدخل عليه ولا أَرزؤهُ شيئاً ولا أقيم باليمامة ، ثم رحل .

* عن حاجب بن زيد وأبي الغَرّاف قالا :

تزوّج الفرزدق حَدْراء بنت زيق بن بسطام بن قيس على حُكم أبيها ، فاحتكم مائةً من الإبل . فدخل على الحَجّاج يسأله ذلك فعذله

---

(١) الكرج : شيء يتخذ بهيئة المهر يلعب عليه . الجلاجل ج جلجل : الجرس . الملاب : ضرب من الطيب .

وقال له : أتتروّج امرأةً على حكمها . فقال عَنْبَسة بن سعيد ، وأراد نَفعه : إنّما هي من حواشي إبل الصدَقة ، فأمر له الحجّاج بها ، فوثب جريرٌ فقال :

يا زيقُ قد كنتَ من شَيبان في حَسَبٍ
يا زيقُ ويحَكَ من أنكحتَ يا زيقُ
أنكحت ويحَك قَيناً باسته حَمَمٌ
يا زيق ويحَكَ هل بارت بك السُوق [1]

(الأبيات ...)

قال : فلم يُحجبه الفرزدق عنها ، فقال جرير أيضاً :

فلا أنا معطي الحُكم عن شِفٍّ مَنصبٍ
ولا عن بناتِ الحَنظليّين راغبُ
وهنّ كماء المُزْن يُشفَى به الصَّدَى
وكانت مِلاحاً غيرَهنّ المَشاربُ
فلو كنتَ حُرّاً كان عَشْراً سِياقُكم
إلى آلِ زِيقٍ والوَصيفُ المُقاربُ [2]

فقال الفرزدق :

فنَلْ مِثلهَا من مِثْلِهم ثم لُمْهُمُ
على دارميٍّ بينَ ليلَى وغالبِ
همُ زَوّجوا قبلي لَقيطاً وأنكحُوا
ضِراراً وهم أكفاؤنا في المَناسِبِ

(١) القين : الحداد . الحمم : سواد الدخان .

(٢) الشف : النقصان . الصدى : الظمأ . ملاحاً : من الملوحة . السياق : المهر . الوصيف : الخادم . المقارب : بين الجيد والرديء .

ولو قَبِلوا منّي عَطِيّةً سُقتُه
إلى آلِ زيقٍ من وَصيفٍ مُقاربِ

ولو تُنكِحُ الشمسُ النجومَ بَناتها
إذاً لَنكَحناهنّ قبلَ الكواكبِ [1]

... قال : فكرهت بنو شيبان أن يهتِك جريرٌ أعراضهم ، فلمّا أراد الفرزدق نقل حَدْراء اعتلُّوا عليه وقالوا له إنّها ماتت فقال جرير :

فأُقسِمُ ما ماتت ولكنّما التَوى
بحَدراءَ قومٌ لم يَروك لها أهلا

رأوا أنّ صِهر القَين عارٌ عليهم
وأنّ لبِسطامٍ على غالبٍ فَضلا [2]

* ... عن ابن الكلبي قال :

كانت لجرير أَمَةٌ ، وكان بها مُعجَباً ، فاستخفّت المَطعمَ والمَلبس والغِشيان واستقلّت ما عنده ، وكانت قبلَه عند قوم يُقال لهم بنو زيدٍ ، أهل خِصبٍ ونَعمةٍ ، فسامَته أن يَبيعها وألحّت في ذلك فقال فيها :

تُكلّفني مَعيشةَ آلِ زيدٍ ومَن لي بالمُرَقّق والصِّنابِ
تقول ألا تضمُّ كضَمّ زيدٍ وما ضَمّي وليس معي شبابي [3]

فقال الفرزدق يعيّره بذلك :

فإن تَفرِكْك عِلجةُ آل زيدٍ ويُعْجِزْكَ المُرَقّقُ والصِناب

---

(١) ليل : أم الفرزدق وغالب أبوه . لقيط : هو لقيط بن زرارة من سادة بني تميم في الجاهلية . عطية : أبو جرير .

(٢) بسطام : سيد بني شيبان الذي ينتمي اليه آل زيق .

(٣) المرقق : رقاق الخبز . الصناب : أدم يتخذ من الخردل والزبيب .

فقِدْماً كان عيش أبيك مُــرّاً   يَعيش بما تَعيش به الكلاب [1]

* .. إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال : حدّثني أبو عبيدة قال :

التقى جريرٌ والفرزدق بمِنىً ، وهما حاجّان ، فقال الفرزدق لجرير :

فإنّك لاقٍ بالمنازل من مِــنىً   فَخاراً فخَبِّرني بمن أنت فاخرُ

فقال له جرير : بلَبّيْكَ اللهمّ لَبّيك . قال اسحاق : فكان أصحابُنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويَعجبون منه .

* ... أبو جَناح ، أحد بني كعب بن عمرو بن تميم قال :

نُعي الفرزدق إلى المهاجرِ بن عبد الله وجريرٌ عندَه فقال :

مات الفرزدق بعدَ ما جَدَّعتُــه
ليت الفرزدقَ كان عاش طويلا [2]

فقال له المهاجر : بئس لعمرُ الله ما قلتَ في ابن عمّك ! أتهجو ميّتاً ! أما والله لو رثيته لكنت أكرم العرب وأشعرها . فقال : إن رأى الأمير أن يكتُمَها علي فإنّها سَوءةٌ . ثم قال من وقته :

فلا وضَعتْ بعد الفرزدق حــاملٌ
ولا ذاتُ بَعلٍ من نِفاسٍ تَعَلَّتِ
هو الوافدُ الميمون والراتق الثّأى
إذا النعلُ يوماً بالعَشيرة زَلّت [3]

---

(١) فركت المرأة زوجها : كرهته وأبغضته .
(٢) في المطبوعة : عاش قليلا ، والرواية التي أثبتناها أجود .
(٣) تعلت المرأة من نفاسها : برئت منه . الثأى : الفساد والفتق .

قال : ثم بكى ثم قال : أما والله إنّي لأعلم أنّي قليل البقاء بعدَه . ولقد كان نجمُنا واحداً ، وكلّ واحد منّا مشغولٌ بصاحبه ، وقلّما مات ضدٌّ أو صديقٌ إلاّ تبعه صاحبُه . فكان كذلك ، مات بعد سنةٍ .

أخباره مع الأخطل *

عن عُمارة بن عقيل عن أبيه قال :

وقف جريرٌ على باب عبد الملك بن مروان ، والأخطلُ داخلٌ عندَه ، وقد كانا تهاجيا ولم يلق أحدُهما صاحبَه . فلمّا استأذنوا لجريرٍ أذِن له فسلّم وجلس ، وقد عرّفه الأخطل ، فطمحَ بصرُ جرير إليه ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا الذي منعتُ نَومك وتهضمت قَومك . فقال له جرير : ذاك أشقى لك كائناً من كنتَ . ثم أقبل على عبد الملك بن مروان فقال : مَن هذا يا أمير المؤمنين ؟ فضحك وقال : هذا الأخطل يا أبا حَزْرة . فردّ بصره إليه وقال : فلا حَيّاك اللهُ يابن النصرانية . أمّا مَنعُك نومي فلو نِمتُ عنك لكان خيراً لك ، وأمّا تهضّمك قومي فكيف تهضمُهم وأنتَ مِمّن ضُربت عليهم الذّلّة والمَسْكنة وباؤوا بغضبٍ من الله ! إئذن لي – يا أمير المؤمنين – في ابن النّصرانيّة . فقال : لا يكون ذلك بين يديّ ، فوثب جريرٌ مُغضَباً . فقال عبد الملك : قُم يا أخطلُ واتبّع صاحبَك ، فإنّما قام غضَباً علينا فيك .

فنهض الأخطلُ ، فقال عبد الملك لخادمٍ له : انظُرْ ما يَصنعان إذا برز له الأخطل . فخرج جرير فدعا بغُلامٍ له فقدّم إليه حِصاناً له أدهمَ ، فركبه وهدَر والفرس يهتزّ من تحته . وخرج الأخطل فلاذ بالباب

(*) أوردنا هنا ما ورد من أخبارهما في ترجمة جرير فقط ، وسائر أخبارهما نذكرها في ترجمة الأخطل .

وتوارى خلفَه ، ولم يزل واقفاً حتّى مضى جرير . فدخل الخادم إلى عبد الملك فأخبره ، فضحك وقال : قاتل الله جريراً ما أفحلَه ! أما والله لو كان النصرانيُّ برز إليه لأكله .

أخباره مع الراعي النميري

عن الأصمعي قال :

كان راعي الإبل يقضي للفرزدق على جرير ويفضّله ، وكان راعي الإبل قد ضَخُم أمرُه وكان من شعراء الناس . فلمّا أكثر من ذلك خرج جريرٌ إلى رجالٍ من قومه فقال : هلاّ تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق عليّ وهو يهجو قومَه وأنا أمدحهم ! قال جرير : فضربت رأيي فيه .

ثم خرج جرير ذاتَ يومٍ يمشي ولم يركب دابّته وقال : والله ما يَسُرّني أن يعلم أحدٌ . وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حَلْقَةٌ بأعلى المِربد بالبصرة يجلسون فيها . قال : فخرجت أتعرّض له لألقاه من حِيال [1] حيث كنت أراه يمرُّ إذا انصرف من مجلسه ، وما يَسُرّني أن يَعلم أحدٌ ، حتى إذا هو قد مرّ على بَغلةٍ له ، وابنُه جَندلٌ يسير وراءَه على مُهرٍ له أَحْوى محذوف الذنَب [2] ، وإنسانٌ يمشي معه يسأله عن بعض السبب . فلمّا استقبلتُه قلت : مَرحباً بك أبا جَندل . وضربت بشمالي على مَعْرَفة [3] بغلته ثمّ قلت : يا أبا جَندل ! إنّ قولك يُستمَع وإنّك تفضّل الفرزدق عليّ تفضيلاً قبيحاً ، وأنا أمدح قومَك وهو

---

(١) الحيال : قبالة الشيء ، وقعد حياله أي بإزائه .
(٢) الأحوى : ما كان لونه إلى سواد . المحذوف : المقطوع من طرفه .
(٣) المعرفة والعرف : الشعر على عنق الدابة .

يَهجوهم وهو ابنُ عمّي ، ويَكفيك من ذاك هَيِّن : إذا ذَكرنا أن تقول : كلاهما شاعرٌ كريم ، ولا تحتملُ منّي ولا منه لائمةً . قال : فبينا أنا وهو كذاك واقفاً عليّ ، وما ردّ عليّ بذلك شيئاً ، حتّى لحق ابنه جندلٌ فرفع كَرْمانيّةً [1] معه فضرب بها عَجُزَ بغلته ثم قال : لا أراك واقفاً على كلْب من بني كُلَيب كأنّك تخشى منه شرّاً أو ترجو منه خيراً ! وضرب البَغلة ضربةً ، فرَمَحتني [2] رَمْحةً وقعتْ منها قَلَنْسوتي ، فوالله لو يُعرِّج عليّ الراعي لقلت سَفيهٌ غَوى — يعني جندلاً ابنه — ولكن والله ما عاج عليّ . فأخذت قلنسوتي فمسحتُها ثم أعدتها على رأسي ثم قلت :

أجندلُ ما تقول بنو نُمير .....

فسمعت الراعي قال لابنه : أما والله لقد طرحتَ قلنسوته طَرحةً مشؤومة .

قال جرير : ولا والله ما القلنسُوة بأغيظ أمره إليّ لو كان عاج عـلـيّ .

فانصرف جريرٌ غضبانَ ، حتى إذا صلّى العِشاءَ بمنزله في عِلِّية [3] له قال : ارفَعوا إليّ باطِيةً [4] من نَبيذٍ وأَسرِجوا لي . فأسرَجُوا له وأتَوه بباطيةٍ من نَبيذ . قال : فجعل يُهَمهِم ، فسمعتْ صوتَه عجوزٌ في الدار فاطّلعت في الدَرَجة حتّى نظرت إليه ، فإذا هو يَحبُو على الفِراش عُرْياناً لما هو فيه ، فانحدرت فقالت : ضيفُكم مجنونٌ ! رأيت

(١) الكرمانية : ضرب من السياط .

(٢) رمحتني : رفستني .

(٣) العلية ، بضم العين وكسرها : الغرفة في أعلى البيت .

(٤) الباطية : إناء الخمر .

منه كذا وكذا . فقالوا لها : اذهبي لِطِيَّتك[1] ، نحن أعلم به وبما يُمارس . فما زال كذلك حتى كان السَّحَر ، ثم إذا هو يُكبِّر ، قد قالها ثمانين بيتاً في بني نُمير ، فلمّا ختمها بقوله :

فغُضَّ الطَّرفَ إنّك من نُميرٍ فلا كَعباً بلغتَ ولا كِلابا

كبّر ثم قال : أخزيتُه وربِّ الكعبة .

ثمّ أصبح ، حتى إذا عرف أنّ الناس قد جلسوا في مَجالسهم بالمِرْبَد ، وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق ، دعا بدُهْنٍ فادّهن وكَفَّ رأسه ، وكان حسن الشَّعر ، ثمّ قال : يا غُلام ، أسرِج لي . فأسرج له حِصاناً ، ثم قصد مجلسهم ، حتى إذا كان بمَوضع السلام قال : يا غُلامُ — ولم يُسلِّم — قُل لعُبَيدٍ : أبعَثَك نِسوتُك تَكسِبُهُنَّ المال بالعراق ! أما والذي نفسُ جريرٍ بيده لتَرجِعَنَّ إليهم بمَيْرٍ[2] يَسُوءُهنّ ولا يَسُرُّهنّ . ثم اندفع فيها فأنشدها .

قال : فنكس الفرزدق وراعي الإبل وأَرَمَّ[3] القومُ ، حتى إذا فرَغ منها سار ، وثبت راعي الإبل ساعةً ثمّ ركب بغلته بِشَرٍّ وعُرٍّ وخَلّى المجلس حتى ترقّى إلى منزله الذي ينزِله ، ثمّ قال لأصحابه : ركابَكم ، ركابكم ، فليس لكم هاهنا مُقامٌ ، فضحكم واللهِ جريرٌ . فقال له بعض القوم : ذاك شُؤمُك وشؤم ابنك . قال : فما كان إلاّ ترحُّلُهم . قال : فسِرنا إلى أهلنا سيراً ما ساره أحدٌ ، وهم بالشُّرَيف ، وهو أعلى دار بني نُمير ، فيحلِف بالله راعي الإبل إنّا وجدنا في أهلنـــا :

---

(١) الطية : النية والقصد .
(٢) المير : مصدر مار عياله يميرهم أي جلب لهم الطعام والاسم : الميرة .
(٣) أرم : سكت .

فغُضِّ الطرْفَ إنّك من نُمَير

وأقسم بالله مــا بلّغه إنسيٌّ قطُّ ، وإن لجرير أشياعاً من الجِنّ . فتشاءمت به بنو نُميرٍ وسَبُّوه وابنَه ، فهم يتشاءمون به إلى الآن .

* * *

مهاجاته عُمر بن لَجأ

أبو يحيى الضَّبّيّ قال :

كان الذي هاج الهجاء بين جرير وعمر بن لَجأ أنّ عمر كان يُنشد أرجوزةً له يصف فيها إبله ، وجريرٌ حاضرٌ ، فقال فيها :

قد وردتْ قبل إنا ضَحائهـــا
تُفَرِّسُ الحَيّاتِ في خِرْشائهـــا
جَرَّ العجوزِ الثِنْيَ من رِدائهـــا (١)

فقال له جرير : أخفقتَ . فقال : كيف أقول ؟ قال تقول :

جَرَّ العَرُوس الثِنْيَ من رِدائهـــا

فقال له التيمي : أنت أسوأ قولاً منّي حيث تقول :

وأوثَقُ عند المُرْدَفات عَشِيّــةً
لَحاقاً إذا ما جَرّد السيفَ لامعُ (٢)

فجعلتَهن مُردَفاتٍ غُدوةً ثم تداركْتَهن عَشِيّة . فقال : كيف

(١) الإنا : بفتح الهمزة وكسرها : الوقت . الضحاء : الضحى . تفرس : تقتل . الخرشاء : جلد الحية . ثني الثوب : ما تثنى منه .

(٢) المردفات : النساء اللاتي يردفن أي يركبن خلف راكب الناقة أو الفرس عند الغارة .

أقول ؟ قال : تقول :

وأوثقُ عند المُرْهَفات عَشِيّــةً

فقال جرير : والله لهذا البيتُ أحبُّ إليَّ من بِكْري حَزْرةَ ، ولكنّك مُجلِبٌ (١) للفرزدق .

وقال فيه جريرٌ :

هَلاَّ سِوانا ادّرأتمّ يا بني لَجَأ
شيئاً يُقارَبُ أو وَحْشاً لهــا غِرَرُ
أحينَ كنتُ سَماماً يا بني لَجأ
وخاطرتْ بيَ عن أحسابها مُضَر
خَلِّ الطريق لِمن يَبني المَنارَ به
وابرُزْ ببَرْزَةَ حيث اضطرّك القَدَرُ
أنت ابنُ بَرزةَ منسوباً إلى لَجأ
عندَ العُصارةِ والعِيدان تُعتَصَرُ (٢)

فقال ابن لجأ يردّ عليه :

لقد كذبتَ وشرُّ القول أكْذَبــهُ
ما خاطرتْ بك عن أحسابها مُضَرُ
بل أنت نَزْوةُ خَوّارٍ على أمَــةٍ
لا يَسبِقُ الحَلَباتِ اللؤمُ والخَوَر

---

(١) مجلب : معين وناصر .

(٢) أدرأتم : ختلتم وأصله من الدريئة، وهي الحلقة التي يتعلم الرمي عليها . الغرر ج غرة : الغفلة ، والغرر بفتح الغين : تعريض المرء نفسه للهلكة . السمام : السم . برزة : هي أم عمر بن لجأ .

ما قلتَ من هذه الا ّ سأنقُضُهــا
يابنَ الأتان بمثلي تُنْقَضُ المِرَرُ [1]

قال : ثم اجتمع جرير وابن لجأ بالمدينة . وقد وَردها الوليد بن عبد الملك ، وكان يتألّه [2] في نفسه ، فقال : أتقذفان المُحْصَنات وتُغضبانهن ؟ [3] . ثم أمر أبا بكر محمد بن حَزْم الأنصاريّ ، وكان والياً له بالمدينة ، بضربهما . فضربهما وأقامهما على البُلُس [4] مقرونين ، والتَيميّ يومئذٍ أشَبُّ من جرير ، فجعل يَشُول [5] بجرير ، وجريرٌ يقول وهو المَشُولُ به :

فلستُ مُفارقــاً قَرَنَيَّ حتّى
يطولُ تَصَعُّدي بك وانحداري [6]

فقال ابن لجأ :

ولَمّــا أن قُرنتُ إلى جريــر
أبى ذُو بَطْنِهِ إلا ّ انحدارا [7]

فقــال له قُدامة بن إبراهيم الجُمحيّ : وبئسما قلتَ ! جعلت نفسك المقرون إليه ، فقال : فكيف أقول ؟ قال : تقول :

ولمّا لُزَّ في قَرَني جريــرٌ

---

(١) الخوار : الضعيف . المررج مرة : طاقة الحبل ، شبه نقض القصيدة القوية بنقض طاقات الحبل المتين .
(٢) يتأله : يتعبد ويتنسك .
(٣) كذا في المطبوعة ولعلها : تعضهانهن ، من عضه فلاناً أي بهته وقال فيه ما لم يكن والعضه والعضيهة : الكذب والبهتان .
(٤) البلس : غرائر كبار من مسوح يجعل فيها التبن ويقام عليها من يراد التشهير به .
(٥) يشول به : يرتفع به .
(٦) القرن : حبل يجمع به البعيران والبعير المقرون بآخر .
(٧) ذو البطن : الرجيع .

فقال : جُزيت خيراً ، لا أقوله والله أبداً إلاّ هكذا .

... عن إبراهيم بن عبد الله ، مولى بني زُهرة ، قال :

حضرت عمر بن لجأ وجرير بن الخَطَفى موقوفين للناس بسوق المدينة لمّا تهاجيا وتقاذفا ، وقد أمر بهما عمر بن عبد العزيز فقُرنا وأُقيما . قال : وعمر بن لَجَأ شابٌّ كأنه حِصانٌ ، وجريرٌ شيخٌ قد أسنّ وضَعُف . قال : فيقول عمر بن لجأ :

رأوا قَمَراً بساحتهم مُنيرا وكيف يُقارِن القمرُ الحمارا

قال : ثم ينزو به وهما مقرونان في حبلٍ فيسقُطان إلى الأرض . فأمّا ابن لجأ فيقع قائماً ، وأمّا جرير فيخرُّ لركبتيه ووجهه ، فإذا قام نفض الغُبار عنه ثم قال بغُنّته قولاً يُخرج الكلام به من أنفه ، وكان كلامُه كأنّ فيه نوناً :

فلست مُفارقاً قَرَنَيَّ حتّى يطُول تصعُّدي بك وانحداري

قال : فقال رجلٌ من جلساء عمر له حين حضرَ غداؤه : لو دعا الأمير بأسيريه فغدّاهما معه . ففعل ذلك عمر ، وانما فعله بهما لأنّهما تقاذفا ...

قال أبو البَيداء :

لقي الفرزدق عَمْرو بن عَطيّة[1] ، أخا جرير ، وهو حينئذ يُهاجي ابن لجأ ، فقال له : وَيلَك ، قل لأخيك : ثَكِلتك أُمُّك ! إيتِ التَيْميَّ من عَلٍ كما أصنعُ أنا بك . وكان الفرزدق قد أَنِف لجرير

---

(١) في المطبوعة : عمر بن عطية ، والصواب عمرو ، وقد ذكر جريراً أخاه في شعره فقال :

وعمرو قد كرهت عتاب عمرو

وحَمِي من أن يتعلّقَ به التَيْمي . قال ابن سَلاّم : فأنشدني له خَلَفٌ الأحمرُ يقوله للتَيْميّ :

ومـــا أنت إن قَرما تميمٍ تساميــا
أخا التَيْم إلاّ كالوَشيِظة في العَظْمِ
فلو كنت مولى العِزّ أو في ظِلاله
ظُلِمتَ ولكن لا يَدَيْ لك بالظُلم (١)

فقال له التيميّ :

كذبتَ أنا القَرْم الذي دقّ مالكاً
وأفناءَ يربوعٍ وما أنت بالقَرمِ

قال ابن سَلاّم : فحدّثني أبو الغَرّاف أنّ رجالَ تميم مشت بين جرير والتيْميّ وقالوا : والله ما شعراؤُنا إلاّ بَلاءٌ علينا ينشُرون مساوِينا ويهجُون أحياءَنا ومَوتانا . فلم يزالوا بهما حتّى أصلحوا بينهما بالعُهود والمواثيق المُغلّظَة ألاّ يعُودا في هجاء . فكفّ التيميُّ ، وكان جريرٌ لا يزال يَسُلّ الواحدة بعد الواحدة فيه ، فيقول التيميُّ : واللهِ ما نقضتُ هذه ولا سمعتُها ! فيقول جرير : هذه كانت قبل الصلح .

عن حَجْناءَ بن جرير قال : قلت لأبي : يا أبتِ ، ما هجوتَ قوماً قطُّ إلاّ فضحتَهم إلاّ التَيْم ! فقال : يا بُنَيَّ ، لم أجد بناءً أهدِمُه ولا شرَفاً أضعه . وكانت تيمٌ رِعاءَ غَنَم يَغدُون في غنمهم ثم يَرُوحون وقد جاء كل رجلٍ منهم بأبياتٍ فينتحلها ابنُ لجأ . فقيل لجرير : ما صنعت في التَيم شيئاً ، فقال : انهم شُعراءُ لِئامٌ .

* * *

---

(١) القرم : السيد . الوشيظة : قطعة عظم تكون زيادة في أصل العظم .

أخباره مع سائر الشعراء

عن أبي عُبَيدة قال :

بذل محمّد بن عُمَير بن عُطارِد بن حاجب بن زُرارةَ أربعةَ آلاف دِرهمٍ وفرساً لِمن فضّل من الشعراء الفرزدقَ على جرير ، فلم يُقدِمْ عليه أحدٌ منهم إلاّ سُراقةُ البارقيّ فإنّه قال يفضّل الفرزدق :

أَبلِغْ تَميماً غَثّهــا وسَمِينها … والحُكْمُ يَقصِد مَرّةً ويَجُورُ
إنّ الفرزدق بَرّزتْ أعراقُــه … سَبْقاً وخُلّف في الغُبار جرير
ذهب الفرزدق بالفضائل والعُلا … وابنُ المَراغة مُخْلَفٌ مَحسُور
هذا قَضاء البارقيّ وإنّــــــني … بالمَيل في ميزانهم لَبَصــيرُ

قال أبو عبيدة : فحدّثني أيّوب بن كُسيب قال : حدّثني أبي قال : كنت مع جرير ، فأتاه رسول بشر بن مَروان فدفع إليه كتابه وقال له : إنه قد أمرني أن أُوصله إليك ولا أَبرَحَ حتى تُجيبَ عن الشعر في يومك إن لَقِيتُك نهاراً أو ليلتِك إن لَقِيتُك ليلاً . وأَخرج إليه كتاب بِشر وقد نسخ له القصيدة وأمره بأن يُجيب عنها . فأخذها وسكت ليلتَه يجتهد أن يقول شيئاً فلا يُمكنه ، فهتف به صاحبُه من الجنّ من زاوية البيت فقال له : أزعمت أنك تقول الشعر ! ما هو إلاّ أن غِبت عنك ليلةً حتى لم تُحسِن أن تقول شيئاً ، فهلاّ قُلت :

يا بشرُ حقّ لِوَجهك التبشــيرُ … هلاّ قضيتَ لنا وأنت أميرُ

فقال له جرير : حَسْبُك ، كُفِيتُك . قال : وسمع قائلاً يقول لآخرَ : قد أنار الصبحُ ، فقال جرير :

يا صاحبيّ هل الصَباح مُنــيرُ … أم هل للِوم عواذلي تفتــيرُ

إلى أن فرغ منها . وفيها يقول :

قد كان حَقُّكَ أن تقولَ لِبارق
يا آلَ بارقَ فيمَ سُبَّ جريرُ

يُعطَى النِّســاءُ مُهورهنّ كرامةً
ونساءُ بارقَ ما لهنَّ مُهور

فأخذها الرسول ومضى بها إلى بِشر ، فقُرئت بالعراق وأُفحم سُراقةُ فلم ينطِق بعدَها بشيءٍ من مُناقضته .

* عن المُخارق بن الأخضر القيسيّ قال :

إنّي كنت واللهِ الذي لا إلَهَ إلاّ هو أخَصَّ الناس بجرير ، وكان ينزل إذا قدِم على الوليد بن عبد الملك عند سعيد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وكان عَديٌّ بن الرِقاع خاصّاً بالوليد مَدّاحاً له ، فكان جرير يجيء إلى باب الوليد فلا يُجالس أحداً من النِزارية ولا يجلس إلاّ إلى رجلٍ من اليمن بحيث يقرُب من مجلس ابن الرِّقاع إلى أن يأذَن الوليد للنّاس فيدخل . فقلت له : يا أبا حَزْرةَ ، اختَصصتَ عدوّك بمَجلسِك ! فقال : إنّي واللهِ ما أجلِس إليه إلاّ لأنشدَه أشعاراً تُخزيه وتُخزي قومَه . قال : ولم يكن يُنشِده شيئاً من شعره ، وإنّما كان يُنشده شعر غيره ليُذِلّه ويخوّفه نفسَه .

فأذِن الوليد للناس ذاتَ عَشيّة فدخلوا ودخلنا ، فأخذ النــاس مَجالسَهم وتخلّف جريرٌ فلم يدخلْ حتّى دخل الناسُ وأخذوا مجالسهم واطمأنّوا فيها . فبينما هم كذلك إذا بجرير قد مثلَ بين السِّماطَيْن يقول : السلام عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله ، إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذنَ لي في ابن الرِقاع المتفرِّقة أؤلّف بعضَها إلى بعضٍ ! قال : وأنا جالسٌ أسمعُ . فقال الوليد : واللهِ لَهَمَمْتُ أن أُخرجَه على ظَهرك إلى

الناس . فقال جرير وهو قائمٌ كما هو :

فإن تَنْهَني عنه فسمعاً وطاعةً
وإلاّ فإنّي عُرضَةٌ للمَرَاجِمِ [1]

قال : فقال له الوليد : لا كَثّرَ اللهُ في الناس أمثالَك . فقال له جرير : يا أمير المؤمنين ، إنما أنا واحدٌ قد سَعرتُ [2] الأمّة ، فلو كثر أمثالي لأكلُوا الناس أكلاً . قال : فنظرت والله إلى الوليد تبسّم حتى بدت ثناياه تعجّباً من جرير وجَلَده . قال : ثم أمره فجلس .

عن أبي عُبيدة قال :

كان جريرٌ عند الوليد وعَدي بن الرِقاع يُنشده . فقال الوليد لجرير : كيف تسمع ؟ قال : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : عديٌّ بن الرِقاع ، قال : فإنّ شرّ الثياب الرقاعُ . ثم قال جرير : « عاملةٌ ناصبةٌ تَصلَى ناراً حاميةً » [3] ، فغضب الوليد وقال : يابنَ اللَخناء ! ما بَقِي لك إلاّ أن تتناول كتابَ الله ! والله لَيَرْكَبَنّك ! يا غُلامُ أَوكِفْه [4] حتى يركبَه . فغمز عُمر بن الوليد الغلام الذي أمره الوليد فأبطأ بالإكاف . فلمّا سكنَ غضبُ الوليد قام إليه عمر فكلّمه وطلب إليه وقال : هذا شاعرُ مُضَر ولسانُها ، فإن رأى أميرُ المؤمنين ألاّ يَغُضّ منه . ولم يزل به حتى أعفاه وقال له : والله لَئِن هجوتَه أو عرّضت به لأفعلنّ بك ولأفعلنّ . فقال فيه تلك القصيدة التي يقول فيها :

أقصِر فإنّ نِزاراً لن يُفاخرَها
فرعٌ لئيمٌ وأصلٌ غيرُ مَغروسِ

(١) المراجم : فاحش القول وقبيحه ، أراد أنه يتعرض لهجاء الناس وكلامهم القبيح .
(٢) سعرت : أوقدت ، يريد أنه أثار فيها الشر .
(٣) ذكر جرير هذه الآية تعريضاً بابن الرقاع لأنه من قبيلة عاملة .
(٤) أوكف الدابة : وضع عليها الإكاف وهو البرذعة .

وذكر وقائع نزارٍ في اليمن فعلم أنّه عناه ، ولم يُجِبْه الآخر بشيء .

صلاته بالأمويين وولاتهم

* عن المُغيرة بن حَجْناءَ عن أبيه قال :

وأوّل شعرٍ قاله جرير في زمن معاوية ، قاله لأبيه (١) :

فرُدّي جِمالَ البَيْن ثم تَحَمّلي
فما لكِ فيهم من مُقامٍ ولا ليا
لقد قادني الجيرانُ يوماً وقُدْتُهم
وفارقت حتى ما تغبّ جِماليا
وإنّي لمغرورٌ أعلّل بالمُنى
لياليَ أرجُو أن مالَك ماليا
بأيِّ سِنانٍ تَطعَنُ القَرْمَ بعدَما
نزعتَ سِناناً من قَناتِكَ ماضيا
بأيِّ نِجادٍ تحمِلُ السيفَ بعدما
قطعتَ القُوَى من مِحْمَلٍ كان باقيا(٢)

قال : وكان يزيد بن معاوية عاتب أباه بهذه الأبيات ونسَبها إلى نفسه ، لأنّ جريراً لم يكن شعره شُهر يومئذ . فقدِم جريرٌ على يزيد في خلافته فاستُؤذِن له مع الشعراء ، فأمر يزيدُ ألّا يدخل عليه شاعرٌ إلاّ من عرف شِعره ، فقال جرير : قولوا له : أنا القائل :

---

(١) في المطبوعة : لابنه ، وهو تصحيف ، فجرير يخاطب أباه في هذه الأبيات .
(٢) تحملي : ارتحلي . النجاد : حمائل السيف . القوى ج قوة : طاقة الحبل .

فرُدّي جمال البَين ثمّ تَحمّلي
فما لك فيهم من مُقامٍ ولا ليا

فأمر بإدخاله . فلمّا أنشده قال يزيد : لقد فارق أبي الدنيا وما يحسب إلاّ أنّي قائلُها ، وأمر له بجائزةٍ وكُسْوةٍ .

قال عُمارة بن عقيل حدّثني أبي عن أبيه : أنّ الحَجّاج أوفد ابنَه محمّد بن الحجّاج إلى عبد الملك وأوفد إليه جريراً معه ووصّاه به وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه ومعاونته عليه .

فلمّا وردوا استأذَن له محمّد على عبد الملك فلم يأذَن له ، وكان لا يسمع من شعراء مُضرَ ولا يأذنَ لهم لأنّهم كانوا زُبَيريّةً . فلمّا استأذن له محمّد على عبد الملك ولم يأذن له أعلمه أنّ أباه الحَجّاج يسأله في أمره ويقول : إنّه لم يكن مِمّن والَى ابن الزبير ولا نَصَره بيده ولا لِسانه ، وقال له محمد : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ العرب تتحدّث أنّ عَبدك وسيفَك الحجّاج شفّع في شاعرٍ قد لاذ به وجعله وَسيلته ثم رَددتَه . فأذِن له فدخل فاستأذن في الإنشاد ، فقال له : وما عَساك أن تقول فينا بعدَ قولك في الحجّاج ! ألست القائل :

من سَدّ مُطّلَعَ النِفاقِ عليكم
أم من يصُول كصَولة الحجّاجِ

إنّ الله لم ينصُرْني بالحجّاج وإنّما نصر دِينه وخليفته . أولست القائل :

أم من يَغار على النساء حَفيظةً
إذ لا يَثِقن بغَيْرة الأزواجِ

يا عاضّ كذا وكذا من أُمّه ! والله لهممتُ أن أَطير بك طَيْرة بطيئاً سقُوطُها ، اخرُجْ عنّي ، فأُخرِج بشَرٍّ .

فلمّا كان بعد ثلاث شفعَ إليه محمّد لجرير وقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّي أدَّيت رسالة عبدك الحجّاج وشفاعته في جرير . فلمّا أذنتَ له خاطبتَه بما أطار لُبّه منه وأشمتَ به عدوَّه ، ولو لم تأذنْ له لكان خيراً له ممّا سمع . فإن رأيت أن تَهَب كلَّ ذنبٍ له لِعبدك الحجّاج وَلي فافعَلْ . فأذِن له ، فاستأذنه في الإنشاد فقال : لا تُنشِدْني إلاّ في الحجّاج ، فإنّما أنت للحجّاج خاصّةً . فسأله أن يُنشِده مديحه فيه فأبى وأقسم ألاّ يُنشده إلاّ من قوله في الحجّاج . فأنشده وخرج بغير جائزة .

فلمّا أزف الرحيلُ قال جريرٌ لمحمّد : إن رحلتُ عن أمير المؤمنين ولم يسمع منّي ولم آخُذْ له جائزةً سقطتُ آخرَ الدهر ، ولستُ بارحاً بابَه أو يأذَنَ لي في الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الإذن له ، فقال جرير : ارحل أنت وأقيم أنا . فدخل محمّد على عبد الملك فأخبره بقول جريرٍ واستأذنه له وسأله أن يسمع منه وقبّل يده ورِجْلَه ، فأذِن له . فدخل فاستأذن في الإنشاد ، فأمسك عبد الملك ، فقال له محمّد : أنشِد ، ويحَك ! فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

ألستمُ خيرَ مَن ركِب المَطايا وأندى العالَمِين بُطونَ راحِ

فتبسّم عبد الملك وقال : كذلك نحن وما زِلنا كذلك . ثمّ اعتمد على ابن الزُبير فقال :

دعوتَ المُلحِدين أبا خُبَيبٍ
جِماحاً ، هل شُفيت من الجِماحِ
وقد وجدُوا الخليفة هِبْرِزيّاً
ألَفَّ العِيصِ ليس من النَواحي

وما شجرَاتُ عِيصك في قُريشٍ
بعَشّاتِ الفُروع ولا ضواحي (١)

قال : ثم أنشده إيّاها حتى أتى على ذكر زوجته فقال (٢) :

تَعزّت أمُّ حَزْرةَ ثمّ قالت رأيت المُورِدين ذوي لِقاح
تُعلِّلُ وهي ساغبةٌ بَنيها بأنفاسٍ من الشَبِمِ القَراحِ (٣)

فقال عبد الملك : هل تُرويها مائة لِقْحة ؟ فقال : إن لم يُروها ذلك فلا أرواها الله ، فهل اليها ، جعلني الله فِداءَك يا أمير المؤمنين ، من سبيل ؟ فأمر له بمائة لِقحة وثمانية من الرِّعاء . وكانت بين يديه جاماتٌ من ذهب فقال له جرير : يا أمير المؤمنين ، تأمرُ لي بواحدة منهنّ تكون مِحْلَباً ؟ فضحك ونَدَس (٤) إليه واحدةً منهنّ بالقضيب وقال : خُذها ، لا نفعتْك . فأخذها وقال : بلى والله يا أميرَ المؤمنين لَيَنفعنّي كلُّ ما مَنَحْتَنيه ، وخرج من عنده .

قال : وذكر ذلك جريرٌ في شعره فقال يمدح يزيد بن عبد الملك :

أعطَوا هُنيدةَ يحدُوها ثمانيةٌ
ما في عطائهم مَنٌّ ولا سَرَفُ (٥)

---

(١) أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير ، وخبيب ابنه . جمح الفرس : اعتز راكبه وغلبه . الهبرزي : الأسد . الألف : الملتف . العيص : الشجر الكثير الملتف . العشة : الشجرة الدقيقة الفروع اللئيمة المنبت . الضواحي : البارزة للشمس فهي بعيدة عن أصل الشجرة ، يريد أن الممدوح من أصل عريق في قريش .

(٢) يفهم من هذه العبارة أن ذكر زوجته مكانه في القصيدة بعد مديح عبد الملك والصحيح أنه ذكرها في مستهل القصيدة قبل المديح .

(٣) أم حزرة : هي زوج جرير اللقاح. جمع لقحة: الناقة الحلوب . ساغبة : جائعة . أنفاس : جرعات . الشبم : البارد ، القراح : الصافي ، أي أنها كانت تعلل بنيها بجرعات من الماء البارد لأنها لا تجد طعاماً تقدمه لهم .

(٤) ندس : دفع .

(٥) هنيدة : اسم للمائة من الابل .

• عن أبي عَمرو قال :

لمّا بلغ عبدَ الملك قولُ جرير :

هذا ابنُ عمّي في دمشق خليفـــةٌ
لو شئتُ ساقكم إليّ قَطِينا [1]

قال : ما زاد ابنُ المَراغة على أن جعلني شُرطيّاً ! أما إنه لو قال :

لو شاء ساقكم إليّ قَطِينـــا

لسُقتهُم إليه كما قال .

• عُمارة بن عقيل يُحدّث عن أبيه عن جدّه قال :

قال عبد الملك أو الوليد ابنه لجرير : مَن أشعرُ الناس ؟ قال : فقال : ابنُ العِشرين [2] . قال : فما رأيُك في ابنَي أبي سُلمى ؟ قال : كان شعرهما نَيِّراً يا أمير المؤمنين . قال : فما تقول في امرىء القيس ؟ قال : اتّخذ الخَبيث الشعر نَعْلَين ، وأقسم بالله لو أدركتهُ لرفعتُ ذَلاذله [3] . قال : فما تقول في ذي الرُمّة ؟ قال : قَدَرَ من ظريف الشعر وغريبه وحَسَنه على ما لم يقدر عليه أحدٌ . قال : فما تقول في الأخطل ؟ قال : ما أخرج لسانُ ابن النَصرانيّة ما في صدره من الشعر حتّى مات . قال : فما تقول في الفرزدق ؟ قال : في يده والله ، يا أمير المؤمنين ، نَبْعَةٌ [4] من الشعر قد قبض عليها . قال : فما أراك أبقيت لنفسك شيئاً ! قال : بلى والله يا أمير المؤمنين . إنّي لمَدينةَ الشعر التي منها يخرج وإليها يعود :

---

(١) القطين : الخدم والأتباع والعبيد .

(٢) يعني بابن العشرين طرفة بن العبد .

(٣) ذلاذل الثوب : أطرافه التي تتصل بالأرض ، أراد أنه كان يلزمه ويخدمه .

(٤) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسي والسهام .

نَسَبتُ فأطربت ، وهجوتُ فأردَيت ، ومدحتُ فأسنيتُ [1] ، وارملت فأغزرتُ ، ورجَزت فأبحرتُ [2] ، فأنا قلتُ ضروب الشعر كلّها ، وكلٌ واحدٍ منهم قال نوعاً منها . قال : صدقت .

• عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال :

لمّا استُخْلِف عُمرُ بن عبد العزيز جاءه الشعراء فجعلوا لا يصلون إليه ، فجاء عَون بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود وعليه عِمامةٌ قد أرخى طرفيها فدخل ، فصاح به جرير :

يا أيُّهـــا القارىءُ المُرخي عِمامَتَه
هذا زمانُك إنّي قد مضى زَمَني
أَبلِغْ خَليفتَنا إن كنتَ لاقيَـــــه
أنّي لدى الباب كالمَصْفود في قَرَن [3]

قال : فدخل على عمر فاستأذن له فأدخله عليه ، وقد كان هَيّأ له شعراً ، فلمّا دخل عليه غَيّره وقال :

إنّا لِنَرجُو إذا ما الغَيثُ أخلَفَنـا
من الخليفةِ ما نَرجُو من المطرِ
نال الخِلافةَ إذ كانت له قَدَراً
كما أتى ربَّه موسى على قَـــدَر
أأذكرُ الجَهْدَ والبَلوى التي نزَلتْ
أم تكتفي بالّذي بُلِّغتَ من خَبَري

---

(١) أسناه : رفع منزلته ، وفي المطبوعة : فسنيت .
(٢) أرملت : قلت رملا . ورجزت : قلت رجزاً .
(٣) صفده : أوثق . القرن : حبل يجمع به البعيران .

ما زِلتُ بَعْدَكَ في دارٍ تَعَرَّقُـــني
قد طال بعدَكَ إصعادي ومُنْحَدَري

لا يَنفع الحاضِرُ المَجْهودُ بادينَـــا
ولا يَجُود لنـــا بادٍ عـــلى حَضَرِ

كم بالمواسمِ من شَعْثاءَ أرملـــةٍ
ومن يتيمٍ ضعيفِ الصَوتِ والبَصَرِ

يدعُوك دعوةَ مَلْهوفٍ كأنَّ به
خَبْلاً من الجنِّ أو مَسّاً من البَشَر

مِمَّن يَعُدُّك تكفي فَقْدَ والدِهِ
كالفَرْخِ في العُشِّ لم ينهَضْ ولم يَطِرِ[1]

قال : فبكى عمر ثم قال : يابنَ الخطَفَى ، أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرفَ لك حقَّهم ، أم من أبناء الأنصار فيجبَ لك ما يجب لهم ، أم من فقراء المسلمين فنأمرَ صاحب صدَقات قومك فيصلكَ بمثل ما يصلُ به قومك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا بواحدٍ من هؤلاء ؛ وإنّي لمن أكثر قومي مالاً ، وأحسنهم حالاً . ولكنّي أسألك ما عَوَّدَتْنيه الخلفاءُ : أربعةَ آلاف درهمٍ وما يَتبعها من كُسوةٍ وحُمْلان[2] . فقال له عمر : كلُّ امرِىءٍ يَلقى فِعْله . وأمّا أنا فما أرى لك في مال الله حقّاً ، ولكن انتظِرْ ، يَخْرُج عطائي فأنظُرُ ما يكفي عِيالي سنةً منه فأدَّخِرُه لهم ، ثمَّ إن فَضَلَ فَضْلٌ صَرفناه إليك . فقال جرير : لا ، بل يُوَفّر أمير المؤمنين ويُحْمَد وأخرُجُ راضياً . قال : فذلك أَحَبُّ إليَّ . فخرج .

---

(١) الجهد : المشقة . التعرق : أخذ ما على العظم من اللحم . الحاضر : النازل في الحضر . من البشر : كذا في الأصول ، وفي الديوان والمطبوعة : من النشر ، والنشرة هي الرقية يعالج بها المجنون والمريض .

(٢) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة .

فلمّا وَلّى قال عمر : إنّ شرَّ هذا لَيُتَّقى ، رُدُّوه إليَّ ، فرَدُّوه . فقال : إنّ عندي أربعين ديناراً وخِلْعَتَيْن إذا غُسِلت إحداهما لبستُ الأخرى ، وأنا مُقاسِمُك ذلك ، على أنّ الله جَلّ وعَزَّ يعلم أنّ عمر أحْوَجُ إلى ذلك منك . فقال له : قد وَفّرك اللهُ يا أميرَ المؤمنين ، وأنا والله راضٍ . قال : أمّا وقد حَلفتَ فإنّ ما وَفّرته عليَّ ولم تُضيِّقْ به مَعيشَتَنا آثَرُ في نفسي من المدح ، فامضِ مُصاحَباً ، فخرج . فقال له أصحابه ، وفيهم الفرزدق : ما صنع بك أمير المؤمنين يا أبا حَزْرة ؟ قال : خرجت من عند رجلٍ يُقرّب الفقراء ويُباعد الشعراء وأنا مع ذلك عنه راضٍ . ثمّ وضع رِجْله في غَرْز راحلته وأتى قومه ، فقالوا له : ما صنع بك أميرُ المؤمنين يا أبا حَزْرة ؟ فقال :

تركتُ لكم بالشأم حَبلَ جماعةٍ
أمينَ القُوَى مُستحصِدِ العَقْد باقيا
وجدتُ رُقى الشيطان لا تستفِزّهُ
وقد كان شيطاني من الجِنّ راقيا

هذه رواية عمر بن شَبّة .

وأما اليزيديُّ فإنّه قال في خبره : فقال له جريرٌ : يا أمير المؤمنين ، فإنّي ابنُ سبيل . قال : لك ما لأبناء السَّبيل : زادُك ونَفَقةٌ تُبلِغُكَ وتُبَدّلُ راحلتك إن لم تَحمِلْك . فألحّ عليه ، فقالت له بنو أميّة : يا أبا حَزْرة ، مَهلاً عن أمير المؤمنين ونحن نُرضيك من أموالنا عنه ، فخرج ، وجمعت له بنو أميّة مالاً عظيماً ، فما خرج من عند خليفةٍ بأكثر ممّا خرج من عند عمر .

* عن عامر بن شِبْل الجَرْميّ قال :

قدِم جريرٌ على عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، وهو نازلٌ بدَيْر

مُرّان[1] ، فكُنّا نغدُو إليه بَكراً فيخرج إلينا ويجلس في بُرنُس خزٍّ له لا يُكلّمنا كلمةً حتّى يَجيءَ طبّاخ عبد العزيز إليه بقَدَح من طِلاء[2] مُسَخّنٍ يَفُور وبكُتلةٍ من سَمن كأنّها هامةُ رجلٍ فيَخُوضُها فيه ، ثم يدفعه إليه فيأتي عليه ، ويُقبل علينا ويحدّثنا في كلّ فنٍّ ويُنشدنا لنفسه ولغيره ، حتى يحضر غَداء عبد العزيز فنقومَ إليه جميعاً . وكان يختم مجلسه بالتسبيح فيطيل . فقال له رجلٌ : ما يُغني عنك هذا التّسبيحُ مع قَذْفك للمُحْصَنات ! فتبسّم وقال : يا ابن أخي ، « خلَطُوا عملاً صالحاً وآخرَ سيّئاً عسى الله أن يتُوبَ عليهم » ، إنهم والله يابن أخي يَبدأونني ثم لا أحلُم .

« عن مِسحَل بن كُسَيب بن عِمران بن عَطاء بن الخَطَفى ... أنّ جريراً قدِم على الحكم بن أيّوب بن الحكَم بن أبي عَقيل ، وهو خليفةٌ للحجّاج يومئذٍ ، فمدحه جرير ... فلمّا قدم عليه استنطقه فأعجبه ظَرفه وشعره فكتب إلى الحجّاج : إنّه قدِم عليّ أعرابيٌّ شيطانٌ من الشياطين . فكتب إليه أن ابعثَ به إليّ ، ففعل .

فقدم عليه فأكرمه الحجّاج وكساه جُبّةً صبَريّةً[3] وأنزله فمكث أياماً . ثم أرسل إليه بعد نومه فقالوا : أجِب الأمير . فقال : ألبس ثيابي . فقالوا : لا . والله لقد أمرنا أن نأتيَه بك على الحال التي نجدك عليها . ففزع جريرٌ وعليه قميصٌ غليظٌ ومُلاءة صفراءُ . فلمّا رأى ما به رجلٌ من الرُسُل دنا منه وقال : لا بأس عليك ، إنّما دعاك للحديث .

قال جرير : فلمّا دخلت عليه قال : إيهِ يا عدوّ الله ، عَلامَ تشتم الناس وتَظْلِمهم ؟ فقلت : جعلني الله فِداء الأمير ، واللهِ إنّي ما

(١) ديرمران : دير قرب دمشق يشرف على حدائق ومزارع .
(٢) الطلاء : شراب يختر حتى يذهب نصفه .
(٣) صبرية : نسبة إلى جبل صبر (بفتح فكسر) في اليمن .

أظلِمهم ولكنهم يظلِمونني فأنتَصِر .

ما لي ولابن أمّ غَسّانَ ! ومالي وللبَعيث ! ومالي وللفرزدق ! وما لي وللأخطل ! وما لي وللتيْميّ ! حتّى عدّدهم واحداً واحداً [1] . فقال الحجّاج : ما أدري ما لك ولهم ، قال : أُخبِرُ الأمير أعزّه الله .

أمّا غَسّان بن ذُهَيل فإنه رجلٌ من قومي هجاني وهجا عشيرتي وكان شاعراً . قال : فقال لك ماذا ؟ قال قال لي :

لَعَمري لئِن كانت بَجِيلةُ زانهـا
جريرٌ لقد أخزى كُليباً جريرُهـا
رميتَ نِضالاً عن كليبٍ فقَصّرت
مَراميك حتّى عاد صِفْراً جَفيرُهـا
ولا يذبحون الشـاة إلاّ بمَيْسِرٍ
طويلٌ تَناجيها صِغارٌ قدورُها [2]

قال : فما قلتَ له ؟ قال قُلت :

ألا ليت شِعري عن سَليطٍ ألم تَجِـد
سَلِيطٌ سوى غَسّان جاراً يُجيرهـا
فقد ضَمّنوا الأحسابَ صاحبَ سَوءةٍ
يُناجي بها نفساً خبيثاً ضميرهـا

---

(١) في هذا الخبر المطوّل ما يثير الشك في صحته أو في صحة بعضه على الأقل ، ويحتمل أن يكون الأخباريون قد تزيدوا فيه ، وضمنوه أسماء جميع الشعراء الذين هاجاهم جرير . فجرير يتحدث في هذا الخبر عن شعراء كثر منهم من وقع الهجاء بينه وبينهم قبل اتصال جرير بالحجاج ومنهم من لم يهاجه الا في وقت متأخر ، كجفنة الهزاني الذي هاجاه جرير في زمن الوليد بن عبد الملك ، حسبما يستدل من الخبر عينه ، وقدوم جرير على الحجاج كان في أول عهد الملك بن مروان ، وقبل اتصال جرير بعبد الملك .

(٢) الجفير : جعبة السهام . الا بميسر : أي عند المقامرة .

كأنّ سليطاً في جَواشنها الحُصى
إذا حلّ بين الأملحَين وَقيرهـــا
أضِجّوا الرّوايا بالمَزاد فإنّكـــم
ستُكْفَون ركضَ الخيل تَدمى نُحورُها
كأنّ السّليطيّات مَجْناة كَمْأةٍ
لأوّلِ جـــانٍ بالعصا يَستثيرهـــا
عَضاريط يشوون الفَراسِنَ بالضُحى
إذا ما السّرايا حَثّ رَكضاً مُغيرها
فما في سَليطٍ فارسٌ ذو حَفيظةٍ
ومَعْقِلُها يومَ الهياجِ جُعورُهـــا
عجبتُ مِن الداعي جُحَيشاً وصائداً
وعَيْساءُ يَسعى بالعِلابِ نَفيرُها (١)

قال : ثمّ من ؟ قال : البعيث . قال : مالك وله ؟ قال : اعترض

---

(١) سليط : قبيلة الشاعر غسان وهي بطن من يربوع . الجواشن : الصدور . يصفهم بضخامة الصدور ونتوئها تشبيهاً لهم بالعبيد . الأملحان : ماءان . الوقير : الغنم فيه حماران أو أكثر . الروايا : الابل يستقى عليها واحدته راوية . المزاد ج مزادة : القربة . يقول : انصرفوا إلى الرعي والاستقاء من الآبار حتى تضج الروايا لثقل المزاد ولا تلتفتوا إلى الحرب لأنكم لستم أهلا لها وسيتولاها غيركم . يصف في البيت الخامس السليطيات بالهوان فهن لا يمتنعن كما أن الكمأة لا تمتنع على جانيها . العضاريط : اللئام والخدم . الفراسن : أخفاف الإبل ، جمع فرسن . يقول : انهم يقنمون بحقير المأكل لأنهم ليسوا أصحاب قتال . الجعور ج جعر : ما يبس من العذرة في الدبر . جحيش وصائد : من بطون يربوع . عيساء : جدة غسان . العلاب ج علبة : الإناء يحلب فيه اللبن .

دون ابن أمّ غسّان يفضّله عليّ ويُعينه . قال : فما قال لك ؟ قال قال لي :

كليبٌ لئامُ الناس قد تعلمونه
وأنتَ إذا عُدّت كُليبٌ لئيمُها
أترجُو كليبٌ أن يجيء حديثُها
بخيرٍ وقد أعيا كُليبا قديمُها

قال : فما قلت له ؟ قال : قلت :

ألم ترَ أنّي قد رميتُ ابنَ فرْتَنَى
بصمّاءَ لا يرجُو الحياةَ أميمُها
له أمُّ سوءٍ بئس ما قدّمتْ له
إذا فرَطُ الأحسابِ عُدَّ قديمُها (١)

قال : ثم من ؟ قلت : الفرزدق . قال : ما لك وله ؟ قلت : أعان البعيث عليّ . قال : فما قلت له ؟ قال : قلت :

تمنّى رجالٌ من تميمٍ لي الرّدَى
وما ذاد عن أحسابهم ذائدٌ مثلي
كأنّهمُ لا يعلمون مواطني
وقد جرّبوا أنّي أنا السابقُ المُبْلي
فلو شاء قومي كان حِلمي فيهم
وكان على جُهّال أعدائهم جهلي

---

(١) فرتنى : الأمة والزانية . الصماء : الطعنة القوية النافذة ، شبه هجاءه بالطعن القوي . الأميم : المشجوج الرأس . فرط الأحساب : ما تقدم منها .

وقد زعموا أنّ الفرزدق حيّــةٌ
وما قتَل الحيّاتِ من أحدٍ قبلي

قال : ثم من ؟ قلت : الأخطل . قال : ما لك وله ؟ قلت : رشاه محمد بن عُمير بن عُطارِد زِقّاً من خمر وكَساه حُلّةً على أن يُفضّل عليَّ الفرزدقَ ويَهجُوني . قال : فما قال لك ؟ قال ، قال :

إخسَأْ إليك كُلَيبُ إنّ مُجاشعاً وأبا الفَوارس نَهْشَلاً أخَوانِ
وإذا وردتَ الماءَ كان لِدارمٍ جُمّاتُه وسُهولةُ الأعطــانِ
وإذا قذفت أباك في مِيزانِهــم رَجَحوا وشالَ أبوك في المِيزان (١)

قال : فما قلتَ له ؟ قال قلت :

يا ذا العَباءةِ إنّ بِشْراً قد قضى ألاّ تَجُوزَ حُكومةُ النَشْوانِ
فَدَعُوا الحكومة لستمُ مِن أهلها إنّ الحكومةَ في بني شَيبــانِ
قتلوا كُلَيبكم بلَقْحةِ جارهم يا خُزْزَ تغلبَ لستمُ بهِجانِ (٢)

قال : ثمّ من ؟ قلت : عمر بن لجأ التَيْميّ . قال : ما لك وله ؟ قال : قلت بيتاً من شعر فقبّحه وقاله على غير ما قلته . قلت :

لقومي أحمى للحقيقة منكــم وأضربُ للجبّار والنَقْعُ ساطعُ
وأوثق عند المُرْهَفات عَشيّــةً لَحاقاً إذا ما جرّد السيفَ لامعُ (٣)

---

(١) الجمة : مجتمع الماء ومعظمه . الأعطان ج عطن : مناخ الابل حول مكان ورودها . شال : ارتفع .

(٢) بشر : هو بشر بن مروان ، أخو عبد الملك بن مروان ، وهو الذي جرت المفاضلة بين الشاعرين في مجلسه . الحكومة : التحكيم . قتلوا كليبكم : يشير إلى مقتل كليب سيد بني تغلب على يد جساس البكري بسبب ناقة جارتهم البسوس التي رماها كليب . الهجان : الكرام أولو الحسب .

(٣) حقيقة المرء : ما ينبغي عليه الحفاظ عليه وحمايته . المرهفات : السيوف . اللامع : المشير بالسيف منذراً .

فزعم أنّي قلت :

وأوثق عند المُرْدفَات عشيّةً لَحاقاً إذا ما جرَّد السيفَ لامع (١)

فقال : لَحِقتهن عند العَشيِّ وقد أُخِذن غُدوةً ! والله ما يُمسين حتى يُفضَحن . قال : فما قلت له ؟ قال قلت :

يا تَيْمُ تيمَ عَدِيٍّ لا أبالكم
لا يُوقِعنّكم في سَوءَةٍ عُمَرُ
خَلِّ الطريقَ لمن يبني المَنار به
وابرُزْ ببَرْزةَ حيث اضطرَّك القَدَرُ (٢)

حتى أتى على الشعر . قال : ثمّ من ؟ قلت : سُراقةُ بن مرداس البارقيُّ . قال : ما لك وما لَه ؟ قال قلت : لا شيءَ ، حمله بِشر بن مَروان وأكرهه على هجائي ، ثم بعث إليَّ رسولاً وأمرني أن أُجيبه . قال : فما قال لك ؟ قال ، قال :

إنّ الفرزدق برّزت أعراقُه عَفْواً وغُودر في الغُبار جريرُ
ما كنت أوّلَ مِحْمَرٍ قعَدت به مَسعاتُه إنّ اللئيمَ عثُور
هذا قضاء البارقيّ وإنّه بالمَيل في مِيزانكم لبَصيرُ (٣)

قال : فما قلت له ؟ قال قلت :

يا بِشرُ حَقّ لِوَجْهك التَبْشيرُ
هَلاّ غَضبتَ لنا وأنت أميرُ

---

(١) يلاحظ أن هذا الخبر يخالف الخبر الذي سبق أن ساقه أبو الفرج في حديثه عن وقوع الهجاء بين جرير وابن لجأ ، وما في الديوان : وأوثق عند المردفات ، والمعنى على هذه الرواية أجود ، وهذا الاختلاف يقوي الظن بافتعال الخبر .

(٢) برزة : هي أم عمر بن لجأ .

(٣) أعراقه : أصوله . المحمر : اللئيم .

بِشرٌ أبو مَروانَ ان عاسَرتَه
عَسِرٌ وعنـد يَساره مَيسور
انَّ الكريمةَ ينصرُ الكرمَ ابنُها
وابنُ اللئيمة للئـام نَصُـور
قد كان حَقُّكَ أن تقول لِبارقٍ
يا آلَ بارقَ فيمَ سُبَّ جريرُ

قال : ثم من؟ قلت : البَلْتَعَ وهو المُستنير بن سَبْرةَ العَنْبريّ . قال : ما لك وله ؟ قلت : أعان عليّ ابنَ لَجأ . قال : فما قال لك ؟ قلت قال :

انَّ التي رَبَّتك لمّـا طُلِّقـت
قَعدت على جَحش المَرَاغةِ تَمرَغُ
أتَعيبُ مَن رضيت قُريشٌ صِهرَه
وأبوك عبدٌ بالخَوَرْنَقِ أذْلـغُ (١)

قال : فما قلت له ؟ قال قلت :

فما مُستَنير الخبث إلاّ فَراشَـةٌ
هوت بين مُؤتَجَ الحريقَين ساطعِ
نُهيتُ بنات المستنير عن الرُقـى
وعن مَشيهنَّ الليلَ بين المزارع (٢)

قال : ثم من ؟ قلت : راعي الإبل . قال : ما لَكَ ولَه ؟ قلت : قدِمت

---

(١) المراغة : الأتان يتمرغ عليها الفحول ، وقد لقب جرير بابن المراغة . الخورنق : اسم موضع ، وهو كذلك اسم قصر النعمان . الأذلغ : المنقلب الشفتين .

(٢) المؤتج : المتقد الملتهب . يشير في البيت الثاني إلى تميمة ابنة البلتع وكانت تزعم معرفتها بالرقى فتعرض لها شاب بدعوى حاجته إلى من يرقيه وخلا بها فعيره جرير بذلك .

البصرة وكان بلغني أنه قال لي :

يا صاحبيَّ دنـا الرَّواحُ فسِيرا
غلبَ الفرزدق في الهجـاء جريرا

وقال أيضاً :

رأيت الجحشَ جحش بني كُليـبٍ
تيَمَّمَ حوضَ دِجْلةَ ثمَّ هابـا

فقلت : يا أبا جنّدل ، انّك شيخ مُضر وشاعرها ، وقد بلغني أنّك تفضّل عليَّ الفرزدق ، وأنت يُسمَعُ قولُك ، وهو ابن عمّي دُونَك ، فإن كان لا بُدَّ من تفضيل فأنا أحقٌّ به لِمدحي قومَك وذكري إيّاهم . قال : وابنُه جندلٌ على فرسٍ له ، فأقبل يسير بفرسه حتّى ضرب عَجُزَ دابّتي ، وأنا قائمٌ ، فكاد يقطع أصبع رِجْلي وقال : لا أراك واقفاً على هذا الكلب من بني كُليب . فمضى ، وناديتُه : أنا ابنُ يربوعَ ، إنَّ أهلَك بعثُوك مائراً من هَبُّود (٣) ، وبِئس المائرُ ، وإنّما بعثني أهلي لأقعُدَ على قارعة هذا المِرْبَد فلا يَسُبُّهم أحدٌ إلاّ سببتُه ، وإنّ عليَّ نُذراً إن جعلت في عيني غُمْضاً حتّى أُخزيكَ . قال : فما أصبحتُ حتى هجوته فقلت :

فغُضَّ الطَرف إنّك من نُميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كِلابـا

قال : فغدوتُ عليه من الغد فأخذتُ بعِنانه ، فما فارقته حتّى أنشدتُه إياهـا ...

قال : ثمّ من ؟ قلت : العبّاس بن يزيد الكِنديّ . قال : ما لك وله ؟ قال : لمّا قلتُ :

---

(١) الميرة : جلب الطعام . هبود : اسم موضع ببلاد بني نمير .

إذا غضبت عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناسَ كلّهم غِضابا

قال :

ألا رغِمت أنوفُ بني تميمٍ فُساةِ التَمْرِ إن كانوا غِضابا
لقد غضبت عليك بنو تميم فما نَكأت بغَضبتها ذُبابا
لو اطّلع الغُرابُ على تميمٍ وما فيها من السَوْءات شابا

قال : فتركته خمسَ سنين لا أهجُوه ، ثم قدِمت الكوفةَ فأتيت مَجلس كِندة ، فطلبت إليهم أن يكفُّوه عنّي ، فقالوا : ما نَكفُّه وإنّه لَشاعرٌ ، وأوعدوني ؛ فقلت :

ألا أَبلِغْ بني حُجْرِ بنِ وَهْبٍ بأنّ التمرَ حُلوٌ في الشتاءِ
فعُودوا للنخيل فأبِّرُوها وعيشُوا بالمُشَقَّر فالصَفاءِ (١)

...

قال : ثمّ من ؟ قلت : جَفْنة الهِزّانيّ .. قال : ما لك وله ؟ قال : أقبل سائلاً حتى أتاني وأنا أمدُر (٢) حوضاً لي فقال : يا جريرُ ، قُم إليّ هاهنا . قلت : نعم . ثم أتيته فقلت : ما حاجتُك ؟ قال : مدحتُك فاستمِعْ منّي . قلت : أنشِدني . فأنشد ، فقلت : قد ، والله ، أحسنت وأجملت ، فما حاجتك ؟ قال : تكسُوني الحُلّة التي كساها الوليد بن عبد الملك العامَ . فقلت : إنّي لم أقف فيها بالموسم ، ولا بُدّ من أن أقف فيها العامَ ، ولكنّي أكسُوك حُلّةً خيراً منها كان كسانيها الوليدُ عاماً أوّلَ . فقال : ما أقبلَ غيرَها بعينها . فقلت : بلى ، فاقبَلْ وأزيدُك معها دنانيرَ نفقةً . فقال : ما أفعل . ومضى فأتى المرّار بن مُنقِذ ، أحد بني العَدَويّة ، فحمله على ناقةٍ له يُقال لها القَصْواء . فقال جَفنة :

(١) تأبير النحل : إصلاحه . المشقر والصفاء : حصنان لعبد القيس بالبحرين .
(٢) مدر الحوض : سد خصاص حجارته بالمدر أي بالطين .

لَعَمْرُكَ لَلْمَرّار يوم لَقِيتُــه
على الشَحْط خيرٌ من جريرٍ وأكرمَ (١)

قال ، فما قلت له ؟ قال قلت :

لقد بعثتْ هزّانُ جَفنة مائــراً
فآب وأحذى قومَه شرَّ مَغْنَمِ
فيا راكبَ القَصواء ما أنتَ قائــلٌ
لِهزّانَ إذ أسلمتَها شرَّ مُسْلَمِ (٢)

الأبيات ...

قال : ثمّ من ؟ قلت : المَرّار بن مُنقِذ . قال : ما لك وله ؟ قلت : أعان عليّ الفرزدق . قال : فما قلت له ؟ قال قلتُ :

بني مُنقِذٍ لا صُلْحَ حتّى تَضُمّكم
من الحرب صَمّاءُ القَناةِ زَبُونُ
وحتّى تذُوقوا كأسَ مَن كان قبلَكم
ويَسْلَحَ منكم في الحِبال قَريــنُ
فإن كنتُم كَلْبَى فعندي شِفاؤُكــم
ولِلجِنّ إن كان اعترَاك جُنونُ (٣)

قال : ثم من ؟ قلت : حَكيم بن مُعَيّة ... قال : ما لك وله ؟ قلت : بلغني إنه أعان عليّ غَسّان السّليطيّ . قال : فما قلت له ؟ قال : قلت :

---

(١) الشحط : البعد .
(٢) أحذاه : أعطاه مما أصاب .
(٣) قناة صماء : صلبة . حرب زبون : يدفع بعضها بعضاً كثرة . يسلح : يبول . كلبى : أصابهم مرض الكلب .

إذا طلع الرُكبانُ نَجداً وغَوَّرُوا
بها فارجُزا يابْنَي مُعَيَّةَ أو دعَـــا

أتسمن أستاهُ المَجَرّ وقــد رأوا
مَجَرّاً بوَعْساوَيْ رُماحَ مُصَرَّعــا

ألا إنّما كانت غَضُوبٌ مُحاميــاً
غَداةَ اللِوى لم تَدفَع الضَيم مَدْفَعا (١)

قال : ثم من ؟ قلت : ثَور بن الأشهب بن رُمَيلة النهشَلي ّ . قال : وما لك وله ؟ قلت : أعان علي الفرزدق . قال : فما قلت له ؟ قال قلتُ :

سيخزى إذا ضَنّت حَلائبُ مــالك
ثُوَيرٌ ويَخزَى عاصمٌ وجَميــــعُ

وقبلَك ما أعيا الرُماةَ إذا رَمَوا
صَفاً ليس في قاراتهن صُدوعُ (٢)

قال : ثم من ؟ قلتُ : الدَّلَهْمَس ، أحد بني ربيعة بن مالك بن زيد مَناة . قال : ما لك وله ؟ قلت : أعان عليّ الفرزدق . قال : فما قلتَ له ؟ قال قلتُ :

---

(١) ابنا معية : أراد حكيم بن معية والمرّار بن حكيم ابنه وكلاهما كان راجزاً . بنو المجر : بطن من بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، رهط حكيم بن معية . الوعساء : الأرض اللينة في الرمل . رماح : اسم موضع بالدهناء . غضوب : امرأة من بني المجر وكانت شاعرة هجاءة وقد قتلها بنو طهية لهجائها إياهم .

(٢) الحلائب ج حلوبة : الإبل والغنم الغزيرة اللبن . الصفاح صفاة : الحجر الصلد الضخم . القارة : الصخرة السوداء العظيمة أو الصغير من الجبال .

لقد نَفَختْ منك الوريدَيْن عِلْجَةٌ
خَبيثةُ ريحِ المَنْكِبَين قَبُوعُ
ولو أنجبتْ أمُّ الدَّلَهْمَس لم يَعِبْ
فوارسَنا لا عاش وهو جميعُ
فلا تُدنيا رَحْلَ الدَلهمسِ إنّـــه
بَصيرٌ بما يأتي اللئامُ سَميـعُ
هو النَخْبَةُ الخَوّارُ ما دونَ قلبِه
حِجابٌ ولا حَول الحِجابِ ضُلوعُ (١)

قال : ثم من ؟ قلت : هُبَيرة بن الصَلت الربَعي ، من ربيعةَ بن مالك أيضاً ، كان يروي شعر الفرزدق . قال : فما قلت له ؟ قال قلت :

يمشي هُبيرةُ بعد مقتلِ شَيخه
مَشيَ المُراسِلِ أوذِنت بطلاقِ
ماذا أردت إليّ حين تحرّقــتْ
ناري وشُمّر مِئْزَري عن ساقي
إنّ القِرافَ بمَنْخِرَيك لَبَيّـــنٌ
وسَواد وجهك يابنَ أمّ عِفــاقِ
سِيروا فرُبّ مُسَبَّحين وقــائلٍ
هذا شقاً لبني ربيعةَ بـــاقِ
أبني ربيعة قد أخسّ بحظّكـــم
لُؤمُ الجُدودِ ودِقّةُ الأخلاق (٢)

(١) العلجة : غير العربية . القبوع : التي تقبع رأس السقاء إلى داخله ثم تشده ليحفظ ما فيه ، يصفها بأنها راعية . النخبة الخوار : الجبان .

(٢) المراسلة : المرأة التي تراسل الخطاب وتتصدى لهم لاحساسها أن زوجها يريد طلاقها . القراف : المخاط اليابس . دقة الأخلاق : خستها ودناءتها .

قال : ثم من ؟ قلت : عِلْقة والسَّرَنْدى ، من بني الرِباب ، كانا يُعينان ابنَ لَجأ ....

قال : ثم من ؟ قلت : الطُهَويّ ، كان يروي شعر الفرزدق ....

قال : ثم من ؟ قلت : عُقبة بن السُنَيع الطُهَويّ ، وكان نذَر دمي .
قال : فما قلت له ؟ قال قلت :

يا عُقبَ يابنَ سُنَيـعٍ ليس عندكمُ
مأوى الرِّفاق ولا ذو الرايةِ الغـادي
يا عقبَ يابن سُنيعٍ بعضَ قَولِكم
إنَّ الوِثاب لكم عندي بمِرصاد
مَا ظَنُّكم ببني مَيثاءَ إن فزِعوا
ليلاً وشَدَّ عليهم حَيّةُ الوادي
يغدو عليَّ أبو ليـلى ليقتُلَنـي
جَهلاً عليَّ ولم يثأر بشَـدّادِ
اروُوا عليَّ وأرضُوا بي صديقكم
واستسمِعُوا يا بني مَيثاء إنشادي(١)

ميثاء هي بنت زهير بن شدّاد الطُهَويّ ....

قال : ثمّ من ؟ قلت : سُحْمة الأعور النَبْهانيّ ، كانت له امرأة من طيّء وُلدت في بني سَليط فأعطوه وحملوه عليَّ ، فسألني فاشتطَّ ، ولم يكن عندي فحرمته ، فقال :

---

(١) حية الوادي : وصف للرجل القوي الشجاع . شداد : رجل من بني ميثاء تعرض لامرأة من بني ربيعة فألقاه قومها في بئر .

أقول لأصحابي النَّجاءَ فإنه
كفى الذَّمُ أن يأتي الضيوفَ جرير

....

وهل يُكرم الأضيافَ كلبٌ لِكلبةٍ
لها عَند أطناب البيوت هَرير
فلو عند غَسَّان السَّليطيّ عَرَّستْ
رغا قَرَنٌ منها وكاس عَقِيرُ
فتىً هو خيرٌ منك نفساً ووالداً
عليك إذا كان الجِوارُ يُجير (١)

فقال جرير :

وجدنا بني نَبْهانَ أذنابَ طيِّىءٍ
وللناسَ أذنابٌ تُرى وصُدورُ

....

وأعورُ من نَبْهانَ أمّا نهارُه
فأعمى وأمّا ليلُه فبَصيرُ
ستأتي بني نبهانَ منّي قصائدٌ
تُطالعُ من سَلْمى وهنَّ وُعورُ
ترى قَزَمَ المِعزَى مُهورَ نسائهم
وفي قزَمِ المِعزى لهنَّ مُهورُ (٢)

(١) في الشطر الثاني من البيت الأول : كان ينبغي أن يقول ليستقيم المعنى : كفى الذم أن يأتي الضيوف جريراً . عرست : نزلت ليلا ، أراد ناقته . القرن : البعير المقرون بآخر . كاس البعير : مشى على ثلاث قوائم . العقير : البعير المعقور .
(٢) وأعور : أراد بهذا البيت أنه ينكل عما يصنع بالنهار من المكرمات ويأتي ما يقع ليلا من الفجور والسرقة . سلمى : جبل طيء . القزم : الصغار العليلة .

قال : وطلع الصُّبح فنهض ونهضتُ. قال: فأخبرني من كان معه أنه قال: قاتله الله أعرابياً ! إنه لِجرْو هِراشٍ .

أخبار متفرّقة

* قال شُعيب بن صخر : حدثني هارون بن إبراهيم قال :

رأيت جريراً والفرزدق في مسجد دمشق ، وقد قدِماها على الوليد بن الوليد بن عبد الملك ، والناس عُنُقٌ [1] واحدٌ على جرير : قيس وموالي بني أمية يسلّمون عليه ويسألونه كيف كنت يا أبا حَزرة في مَسيرك ، وكيف أهلك وأسبابك . وما يُطيف بالفرزدق إلاّ نفرٌ من خِندفَ جُلوسٌ معه . قال شعيبٌ : فقلت لهارونَ : ولم ذلك ؟ قال : لمدحه قيساً وقوله في العجم :

فيجمعُنا والغُرَّ أولادَ سـارة
أبٌ لاَ نُبالي بعدَه من تَعذّرا [2]

قال شعيب : بلغني أنه أُهديت إليه يومئذٍ مائة حُلّة ، أهداها اليه الموالي سوى غيرهم ....

* عن أبي عَمرو بن العَلاء قال :

جلس جريرٌ يُملي على رجلٍ قوله :

وَدِّعْ أمامةَ حان منك رحيلُ
إنّ الوَداعَ لمن تُحبُّ قليـــلُ

---

(١) العنق : الجماعة الكثيرة .
(٢) أولاد سارة : أراد الفرس ، لأن نفراً من النسابين في عصر بني أمية ذهبوا إلى أن الفرس هم من ولد اسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام .

فمرّوا عليه بجِنازة ، فقطع الإنشاد وجعل يبكي ، ثم قال : شيّبتني هذه الجنائز . قال أبو عمرو : فقلت له : فعلامَ تقذِف المُحصَنات منذ كذا وكذا ؟ فقال : انهم يبدؤونني ثم لا أعفو .

• عن المدائنيّ قال :

كان جريرٌ من أعقّ الناس بأبيه ، وكان بلالٌ ابنه أعقّ الناس به ...

• • •

١٢

الرّاعي النُّمَيْريّ

(الأغاني ج ٢٤ ص ٢٠٥ وما بعدها)

الشّاعر

هو عُبَيْد بن حُصَين ... بن نُمَير بن عامر بن صَعصعة ... ويكنى أبا جَنْدَل . والراعي لقبٌ غلب عليه لكثرة وصفه الإبل وجَودة نَعته ايّاهـا .

وهو شاعرٌ فحلٌ من شعراء الإسلام ، وكان مقدّماً مفضّلاً ، حتى اعترض بين جرير والفرزدق ، فاستكفّه جريرٌ ، فأبى أن يكُفّ ، فهجاه ففضحه .

... محمد بن سَلاّم قال :

كان الراعي من رجال العرب ووجوه قومه ، وكان يقال في شعره :

كأنه يعتسِفُ[1] الفَلاة بغير دليلٍ ، أي أنه لا يَحتذي شعرَ شاعرٍ ولا يُعارضه ، وكان مع ذلك بَذِيّاً هَجّاءً لِعشيرته ، فقال فيه جرير :

وقَرضُك في هوازنَ شرُّ قَرْضٍ
تُهجِّنُهُم وتمتدِحُ الوِطابا [2]

أخباره مع جرير*

عن أبي عبيدة و (غيره) ، قالوا جميعاً :

مرّ راكبٌ بالرّاعي وهو يتغنّى :

وعاوٍ عوى مِن غير شيءٍ رميتُه
بقافيةٍ أنْفاذهـا تقطرُ الدَّمـا
خَرُوجٍ بأفواه الرُّواة كأنّهـا
قَرا هُندوانيٍّ إذا هُزّ صَمَّما [3]

فسمعها الراعي فأتبعه رسولاً وقال له : من يقول هذين البيتين ؟ قال : جرير .

فقال الراعي : أَأُلامُ أن يَغلِبني هذا ! واللہ لو اجتمع الجِنّ والإنسُ على صاحب هذين البيتين ما أغنَوا فيه شيئاً .

---

(١) يعتسف الطريق : يسير فيه على غير جادة ولا دليل .

(٢) هجنهم : رماهم بالهجنة ، والهجين : من كانت أمه غير عربية . الوطاب ج وطب : سقاء اللبن ، أراد أنه وقف شعره على ذم قومه ووصف الإبل عوضاً عن أن يمدح قومه .

* ورد خبر هجاء جرير إياه في ترجمة جرير فرأينا الاستغناء عن ذكره هنا تجنباً للتكرار .

(٣) أنفاذها ج نفذ : منفذ الجراحة . خروج : كثيرة الخروج ، شائعة متداولة . القرا : المتن . الهندواني : السيف المنسوب إلى الهند . صمم السيف : كان ماضياً قاطعاً .

عن يـُونس قال :

قدم جـَنْدَلُ بن الراعي على بِلال بن أبي بـُردَة ، وقد مـَدَحه ، وكان يـُكثِر ذكر أبيه ووصفه ، فقال له بلالٌ : أليس أبوك الذي يقول في بنت عمـّه ، وأمـّها امرأةٌ من قومه :

فلمـّا قضت من ذي الأراكِ لُبانــةً
أرادت إلينا حاجةً لا نـُريدُها [1]

وقد كان بعد هجاء جرير إيـّاه مـُغـَلـَّباً ؟ فقال له جندل : لئن كان جريرٌ غلبه لمـّا أمسك عنه عجزاً ، ولكنـّه أقسم غضبَاً عليّ ألاّ يـُجيبه سنةً . فأين أنت عن قوله في عديٍّ بن الرّقاع العامليّ :

لو كنتَ من أحدٍ يـُهجـَى هجوتـُكم
يا بنَ الرِّقاع ولكنْ لستَ من أحَدِ
تأبى قـُضاعةُ لم تعرِفْ لكم نسبـاً
وابنا نزارٍ فأنتم بـَيضة البلدِ [2]

قال : فضحك بلالٌ وقال له : أمـّا في هذا فقد صدقت .

... أبو الغـَرّاف قال :

الذي هاج التهاجي بين جرير والراعي أن الراعي كان يـُسأل عن جرير والفرزدق ، فيقول : الفرزدق أكرمهما وأشعرهما ، فلقيه جرير فاستعذره من نفسه [3] .

---

(١) اللبانة : الحاجة .

(٢) قضاعة : قبيلة يمانية ضخمة تنتمي إلى حمير بن سبأ ، أما عاملة قبيلة ابن الرقاع فهي من كهلان بن سبأ . بيضة البلد : تريكة النعام ، تكون للذم فيراد بها قلة الشأن والهوان وخمول الذكر ، وتكون للمدح فيراد بها السيادة .

(٣) استعذر من فلان : طلب من الناس أن يعذروه ان هو عاقبه .

ثم ذكر باقي الخبر ... وزاد فيه : أن الراعي قال لابنه جندل لمّا ضرب بغلتـــه :

ألم تـــر أن كلب بني كُليـــب
أراد حِياضَ دِجلةَ ثمّ هابـــا

ونفرت البغلة فزحمته حتى سقطت قلنسُوة جرير ، فقال الراعي لابنه : أما والله لتكونُنَّ فَعلةً مشؤومةً ، ولَيهجونيّ وإيّاك ، فليته لا يجاوزنا ولا يذكر نِسوتنا . وعلِم الراعي أنه قد أساء وندم ، فتزعمُ بنو نمير أنه حلف ألاّ يجيب جريراً سنةً غضباً على ابنه ، وأنه مات قبل أن تمضي سنةٌ . ويقول غير بني نمير : إنّه كَمِد لمّا سمعها فمات كَمَداً .

طائفة من أخباره

* عن ابن عائشة قال :

لمّا أنشد عُبَيد بن حُصَين الراعي عبد الملك بن مروان قولَه :

فإن رفعتَ بهم رأساً نعشتَهـــم
وإن لَقُوا مِثلَها من قابلٍ فَسَدُوا

قال له عبد الملك : فتريد ماذا ؟ قال : تَرُدّ عليهم صدقاتهم فتنعشهم . فقال عبد الملك : هذا كثيرٌ . قال : أنت أكثر منه . قال : قد فعلتُ ، فسَلني حاجةً تَخصُّك . قال : قد قضيتَ حاجتي . قال : سَلْ حاجتَك لِنفسك . قال : ما كنت لأفسِدَ هذه المَكرُمة .

* عن عبد القاهر بن السَري قال :

وفَد الراعي إلى عبد الملك بن مروان فقال لأهل بيته : تزوّجوا إلى هذا الشيخ ، فإنّي أراه مُنجِباً .

• قال أبو الغَرّاف :

جاور راعي الإبل بني سَعد بن زَيد مَناة بن تميم ، فنسب بامرأةٍ منهم من بني عبد شمس ، ثم أحد بني وابشيّ ، فقال :

بني وابشيٍّ قد هَوِينا جِواركم
وما جَمعتْنا نيّةٌ قبلَها معا
خَلِيطَين من حَيَّين شتّى تجاوروا
جميعاً وكانا بالتفرّقِ أضْيَعا
أرى أهل ليلى لا يُبالي أميرُهم
على حالة المحزون أن يتصدّعا

وقال فيها أيضاً :

تذكّر هذا القلب هِندَ بني سَعْد
سَفاهاً وجَهلاً ما تذكّر من هِنْدِ
تذكّر عَهْداً كان بيني وبينَها
قديماً وهل أبقت لك الحرب من عهدِ

قال ابن سلاّم : فلمّا بلغهم شعره أزعجوه وأصابوه بأذىً ، فخرج عنهم وقال فيهم :

أرى إبلي تَكَالأ راعِياها مَخافةَ جارِها الدَّنِس الذَّميمِ
وقد جاورتُهم فرأيت سَعداً شَعاع الأمر عازبةَ الحُلوم
مَغانِم القرى سَرَقاً إذا ما أجنّت ظُلمةُ الليلِ البَهيمِ
فأمّي أرضَ قومك إنّ سَعْداً تحمّلت المخازيَ عن تميمِ (١)

• • •

(١) تكالآ : تعاونا في الحراسة والسهر . شعاع الأمر : متفرقين . أمي : اقصدي والخطاب لإبلـه .

١٣

زياد الأعجم

(الأغاني ج ١٥ ص ٣٨٠ وما بعدها)

الشاعر

زياد بن سليمان ، مولى عبد القيس ، أحد بني عامر بن الحارث ، ثم أحد بني مالك بن عامر الخارجيّة .

عن ابن حبيب قال : هو زياد بن جابر بن عَمرو ، مولى عبد القيس . وكان ينزل إصطَخْر ، فغلبت العُجمة على لسانه ، فقيل له الأعجم .

وذكر ابن النطّاح مثل ذلك في نسبه ، وخالف في بلده ، وذكر أن أصله ومولده ومنشأه بأصبهان ، ثم انتقل إلى خُراسان ، فلم يزل بها حتى مات .

وكان شاعراً جَزْل الشعر ، فصيح الألفاظ ، على لُكنة لسانه ، وجريه على لفظ أهل بلده .

لُكنته

عن المدائنيّ أن زياداً الأعجم دعا غلاماً له ليرسلَه في حاجةٍ ، فأبطأ ، فلمّا جاءه قال له : منذ لَدُن دأوتُك إلى أن قلت لَبّيْ ما كنت تسنأ ؟ يريد : منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لَبّيك ماذا كنت تصنع ؟

فهذه ألفاظه كما ترى في نهاية القُبح واللُكنة .

ابن عائشة عن أبيه قال :

رثى زياد الأعجم المغيرة بن المهلّب فقال :

إنّ الشجاعةَ والسّماحة ضُمّنا
قبراً بمروَ على الطريق الواضحِ
فإذا مررتَ بقبره فاعقِرْ بـه
كُومَ الهِجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابحِ [1]

فقال له يزيد بن المهلّب : يا أبا أمامة ، أفعقرت أنت عندَه ؟ قال : كنت على بنت الهِمار ، يريد الحمار .

زياد وآل المهلّب

عن رجل من جُعْفِيّ قال :

كنت جالساً عند المهلّب ، إذ أقبل رجلٌ طويل مضطرب ، فلمّا رآه المهلّب قال : اللهمّ إنّي أعُوذ بك من شرّه . فجاء فقال : أصلح الله الأمير ، إنّي قد مدحتك ببيت صَفَده [2] مائةُ ألفِ درهم . فسكت

(١) الكوم ج كوماء : الناقة العظيمة السنام . الهجان : البيض من الإبل . الطرف : الكريم من الخيل .

(٢) الصفد : العطاء .

المهلّب ، فأعاد القول فقال له : أنشِده . فأنشدَه :

فتىً زاده السُلطانُ في الخير رَغبةً
إذا غيّر السُلطانُ كلَّ خليل

فقال له المهلّب : يا أبا أُمامة ، مائة ألف ؟! فوالله ما هي عندنا ، ولكن ثلاثون ألفاً فيها عُروضٌ . وأمر له بها ، فإذا هو زيادٌ الأعجم .

• وهو الذي يقول يرثي المُغيرة بن المهلّب بقوله :

قُل للقوافل والغُزيّ إذا غزَوا — والباكرين وللمُجِدّ الرائحِ
إنّ المُروءة والسّماحة ضُمّنا — قبراً بمَرْوَ على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقِرْ به — كُوم الهِجان وكلّ طِرْفٍ سابح
وانضَحْ جوانبَ قبره بدمائها — فلقد يكون أخا دمٍ وذبائح
يا مَن بمَهوى الشمس من حَيٍّ إلى — ما بين مَطلَعِ قَرنها المتنازح
مات المُغيرةُ بعد طول تعرُّضٍ — للموت بين أَسِنّةٍ وصفائح
والقتلُ ليس إلى القِتال ولا أرى — حيّاً يُؤَخّر للشّفيق الناصح [1]

وهي طويلة . وهـذا من نادر الكلام ونقيّ المعاني ومختار القصيد . وهي معدودة من مراثي الشعراء في عصر زياد ومقدّمها .

• عن ابن عائشة عن أبيه قال :

كان المهلّب بن أبي صفرة بخُراسان ، فخرج إليه زيادٌ الأعجمُ فمدحه ، فأمر له بجائزةٍ ، فأقام عنده أياماً . قال : فإنّا لَبعشيّةٍ نشرب مع حبيب بن المهلّب في دارٍ له ، وفيها حمامةٌ ، إذ سجَعت الحمامة فقال زياد :

---

(١) الغزي : ج غاز . الصفائح ج صفيحة : العريض من السيوف .

تَغَنَّيْ أنتِ في ذِمي وعهدي وذِمّة والدي إن لم تُطـاري
وبيتُك فاصلِحيه ولا تخافي على صُغرٍ مزَغّبةٍ صِغـار
فإنّك كلّما غنّيت صوتاً ذكرت أحبّتي وذكرت داري
فإمّا يقتُلوك طلبتُ ثاراً له نَبأ لأنّك في جِواري

فقال حبيبُ : يا غُلام ، هات القوس . فقال له زياد : وما تصنع بها ؟ قال : أرمي جارتك هذه . قال : واللهِ لئن رميتَها لأستعدِينّ عليك الأمير . فأتى بالقوس فنزع لها سهماً ، فقتلها . فوثب زيادٌ فدخل على المهلّب فحدّثه الحديث وأنشده الشعر . فقال المهلّب : عليّ بأبي بِسطام . فأتي بحبيب ، فقال له : أعطِ أبا أمامة ديةَ جارته ألف دينار . فقال : أطال الله بقاء الأمير ، إنّما كنت ألعب . قال : أعطه كما آمرك . فأنشأ زياد يقول :

فللّهِ عَينا مَن رأى كقضيّـةٍ
قضى لي بها قَرْمُ العراق المهلّبُ
رماها حبيبُ بن المهلّب رميـةً
فأثبتهـا بالسَهم والسهمُ يُغرِبُ
فألزمه عَقْلَ القتيل ابنُ حُرّةٍ
وقال حبيبٌ : إنّما كنت ألعب
فقال : زيادٌ لا يُرَوَّعُ جـارُه
وجارة جاري مثلُ جلدي وأقربُ (١)

قال : فحمل حبيبٌ إليه ألف دينارٍ على كَرهٍ منه .

---

(١) أغرب السهم : أمعن في البعد . ويقال : سهم غرب أي لا يدري من رمى به . العقل : الدية .

فإنه ليشرب مع حبيب يوماً إذ عربد عليه حبيب ، وقد كان حبيب ضَغِن عليه ممّا جرى ، فأمر بشقّ قَباءِ [1] دِيباجٍ كان عليه ، فقام فقـال :

لَعَمْرُك ما الديباجُ خرّقتَ وحدَه
ولكنّما خرّقت جلد المهلّبِ

فبعث المهلّب إلى حبيب فأحضره وقال له : صدق زياد ، ما خرّقت إلاّ جلدي . تبعث هذا على أن يهجوني ! ثم بعث إليه فأحضره ، فاستلّ سَخِيمته [2] من صدره ، وأمر له بمالٍ وصرفه .

عن الهيثم بن عديٍّ قال :

تهاجى قَتادة بن مُغرِب اليَشكريّ وزيادٌ الأعجم بخراسان ، وكان زياد يخرج وعليه قَباءُ دِيباجٍ ، تشبُّهاً بالأعاجم . فمرّ به يزيدُ بن المهلّب ، وهو على حاله تلك ، فأمر به فقُنّع أسواطاً ، ومُزّقت ثيابُه ، وقال له : أبِأهل الكُفر والشِرك تتشبّه ، لا أمَّ لك ! فقال زياد :

لَعَمْرُك ما الدِيباجَ خرّقتَ وحدَه
ولكنّما خرّقت جِلدَ المُهَلّب

وذكر باقي الخبر مثله وقال فيه : فدعا به المهلّب فقال له : يا أبا أُمامةَ ، قلتَ شيئاً آخر ؟ قال : لا ، واللهِ ، أيُّها الأميرُ . قال : فلا تَقُلْ . وأعتبه [3] وكساه وحمله وأمر له بعشرة آلاف درهم وقال له : اعذِرْ ابن أخيك يا أبا أمامةَ ، فإنّه لم يعرِفك .

---

(١) القباء : ضرب من الثياب .
(٢) السخيمة : الحقد .
(٣) أعتبه : أرضاه وأزال عقبه .

زياد وعمر بن عُبيد الله

عن ابن عائشة :

كان زيادٌ الأعجم صديقاً لِعمر بن عبيد الله بن مَعْمَر قبل أن يلِيَ ، فقال له عمر : يا أبا أمامة ، لو قد ولِيتُ لتركتك لا تحتاج إلى أحدٍ أبداً . فلمّا ولي فارسَ قصدَه ، فلمّا لَقِيه أنشأ يقول :

أبلغْ أبا حَفصٍ رسالةَ ناصحٍ
أتت من زيادٍ مُستبيناً كلامُها

فإنّك مثل الشمس لا سِتْرَ دُونَها
فكيف أبا حَفصٍ عليّ ظَلامُها

فقال له عمر : لا يكون عليك ظلامها أبداً . فقال زياد :

لقد كنت أدعُو الله في السّرّ أن أرى
أمور مَعَدٍّ في يديك نِظامُها

فقال له : قد رأيتَ ذلك . فقال :

فلمّا أتاني ما أردتُ تباشَرتْ
بَناتي وقُلن العامَ لا شكّ عامُها

قال : فهو عامُهنّ إن شاء الله تعالى . فقال :

فإنّي وأرضاً أنتَ فيها ابنَ مَعْمَرٍ
كمكّةَ لم يطرَبْ لأرضٍ حَمامُها (١)

قال : فهي كذلك يا زياد . فقال :

---

(١) أراد أنني لا أرضى بأرض غير التي أنت فيها كما أن حمام مكة لا يتشوق إلى بلد غيرها .

إذا اخترتَ أرضاً للمُقام رَضيتُها
لنفسي ولم يثقُلْ عليّ مقامُها

وكنت أمنّي النفس منك ابنَ مَعمر
أمانيَّ أرجو أن يتمَّ تمامُها

قال : قد أتمّها اللهُ عليك . فقال :

فلا أكُ كالمُجرِي إلى رأس غايةٍ
يُرجّيَ سَماءً لم يُصِبْه غمامُها

قال : لستَ كذلك ، فسَلْ حاجتك . قال : نَجيبةٌ ورِحالتُها[1] ، وفرسٌ رائعٌ وسائسُه ، وبَدْرةٌ وحاملُها[2] ، وجارية وخادمُها ، وتَخت ثيابٍ[3] ووصيفٌ يحمله . فقال : أمرنا لك بجميع ما سألت ، وهو لك علينا في كلّ عام . فخرج من عنده حتّى قدِم على عبدِ الله بن الحَشْرَج ، وهو بسابور ، فأنزله وألطفه ، فقال في ذلك :

إنّ السّماحةَ والمُروءة والندى
في قُبّةٍ ضُرِبت على ابن الحَشرجِ

ملكٌ أغرُّ مُتَوّجٌ ذو نائلٍ
للمُعتَفِين يَمينُه لم تَشْنَج

يا خيرَ من صَعِد المنابر بالتُقى
بعد النبيّ المصطفى المُتَحرّج

لمّا أتيتُك راجياً لِنَوالكم
ألفيت باب نَوالكم لم يُرْتَجِ[4]

---

(١) النجيبة : الناقة الكريمة . الرحالة : الرحل والسرج .
(٢) البدرة : كيس فيه مال .
(٣) التخت : وعاء للثياب .
(٤) المعتفون : طالبو العطاء . لم يرتج : لم يغلق .

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

* ابن عائشة قال :

استبطأ زيادٌ الأعجم عمر بن عبيد الله بن مَعمر في زيارته إيّاه فقال :

أصابت علينا جُودَكَ العَينُ يا عُمَرْ
فنحن لها نَبغي التَمائم والنُشَرْ
أصابتك عينٌ في سَماحك صُلبةٌ
ويا رُبَّ عينٍ صُلبةٍ تفلِق الحَجَرْ
سَنَرقيك بالأشعار حتى تَمَلَّهـــا
فإن لم تُفِقْ يوماً رقيناك بالسُوَر [1]

فبلغته الأبيات فأرضاه وسَرّحه .

مهاجاته الشعراء

* عن عاصم بن الحدَثان قال :

مرّ يزيد بن حَبْناء الضبيّ بزياد الأعجم ، وهو يُنشد شعراً قد هجا به قَتادة بن مُغرِب ، فأفحش فيه ، فقال له يزيد بن حَبناء : ألم يأنِ لك أن تَرعويَ وتترك تمزيقَ أعراض قومك ، ويحَك ؟ حتّى متى تتمادى في الضّلال ، كأنّك بالموت قد صبّحك أو مَسّاك ! فقال زيادٌ فيه :

يُحَذّرني الموتَ ابنُ حَبْناء والفتى
إلى الموت يغدُو جاهداً ويَرُوحُ
وكلُّ امرىءٍ لا بُدَّ للموت صائرٌ
وإن عاش دهراً في البِلاد يَسيح

---

(١) النشر ج نشرة : الرقية يعالج بها المريض والمجنون وغيرهما .

فقُل ليزيدٍ يابنَ حَبْناء لا تَعِظْ
أخاك وعِظْ نفساً فأنت جَنُــوح
تركت التُّقى والدِّينُ دينُ محمّدٍ
لأهل التُقى والمُسلمين يَلُــوح
وتابعت مُرّاق العِراقَين ســادراً
وأنت غَليظُ القُصْرَ يَين صَحيح (١)

فقال له يزيد بن عاصم الشنّي : قبحك الله ، أتهجو رجلاً وعظك وأمرك بمعروف بمثل هذا الهجاء ! هلاّ كففت إذ لم تقبل . أراه والله سيأتي على نفسك ثم لا تَحْبِقُ فيك عَنزان (٢) ، اذهب ، ويحك ، فأتِه واعتذِر إليه لعلّه يقبل عُذرك . فمشى إليه بجماعة من عبد القيس ، فشفَعوا إليه فيه ، فقال : لا تثريبَ ، لستُ واجداً عليه بعد يومي هــذا .

* عن القحذميّ قال :

لقي الفرزدق زياداً الأعجم فقال له الفرزدق : لقد هممتُ أن أهجو عبد القيس وأصف من فَسْوهم شيئاً . قال له زياد : كما أنت ، حتى أُسمعك شيئاً ، ثم قُل إن شئتَ أو أمسِك (٣) . قال : هاتِ . قال :

وما ترك الهاجُون لي إن هجوتُه
مَصَحّاً أراه في أديم الفرزدقِ

---

(١) مراق العراقين : أراد بهم الخوارج ، وكان ابن حبناء منهم . سادراً : متحيراً . القصريان : مثنى القصرى وهما ضلعان يليان الترقوتين .
(٢) لا تحبق فيك عنزان : أي لا يبالي بك أحد .
(٣) في المطبوعة : ثم قال : قل إن شئت أو أمسك ، والسياق يقتضي ما أثبتناه .

فإنّا وما تُهدي لنا إن هجوتَنا
لكالبحر مهما يُلقَ في البحر يَغرقِ [1]

فقال له الفرزدق : حَسْبُك ، هلُمّ نتتارك [2] . قال : ذاك إليك . وما عاوده بشيء .

* قال أبو المنذر :

زيادٌ أهجى من كعب الأشقريّ ، وقد أوثر عليه في عدّة قصائد . منها الّتي يقول فيها :

قُبيّلةٌ خيَرُها شَرُّها   وأصدقُها الكاذبُ الآثمُ
وضيفُهم وسطَ أبياتهم   وإن لم يكن صائماً صائمُ

وفيه يقول :

إذا عذّب الله الرِّجال بشعرِهم   أَمِنت لكعبٍ أن يُعذّب بالشعِر

وفيه يقول :

أتتك الأزْدُ مُصْفَرّاً لِحاها   تساقطُ من مَناخِرِها الجُوافُ [3]

* الهيثم بن عيّاش قال :

دخل أبو قِلابة الجَرْميّ مسجد البصرة ، وإذا زيادٌ الأعجم ، فقال زياد : مَن هذا ؟ قال : أبو قلابة الجرميّ . فقام على رأسه فقال :

---

(١) مصحاً : موضعاً صحيحاً .
(٢) المتاركة : المهادنة .
(٣) الجواف : نوع من السمك ، وأزد عمان — ومنهم كعب الأشقري — كانوا يعيرون بمزاولة الملاحة وصيد السمك .

قُمْ صاغراً يا كَهلَ جَرْمٍ فإنّما
يُقال لِكَهل الصدق قُم غيرَ صاغرِ

فإنّك شيخٌ مَيّتٌ ومُورّثٌ
قُضاعةَ مِيراثَ البَسُوس وقاشرِ

قَضى اللهُ خَلْق الناس ثمّ خُلِقتمُ
بقيّةَ خَلق الله آخِرَ آخرِ

فلم تَسمعوا إلاّ بما كان قبلَكم
ولم تُدرِكوا إلاّ بدَقّ الحوافرِ

فلو ردّ أهلُ الحقّ من مات منكم
إلى حقّه لم تُدفَنُوا في المقابر [1]

فقيل له : فأين كانوا يُدفَنون يا أبا أُمامة ؟ قال : في النّواويس [2] .

* * *

(١) البسوس : امرأة كانت ناقتها سبباً في وقوع الحرب بين تغلب وبكر أيام الجاهلية فتشاءم الناس بها . قاشر : فحل مشؤوم كان لبني عوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم . بدق الحوافر : أي بتتبع آثار الحوافر .

(٢) الناووس : مقابر النصارى .

١٤

شَبيب بن البَرْصاء

(الأغاني ج ١٢ ص ٢٧١ وما بعدها)

الشاعر

هو شَبيب بن يَزيد بن جَمْرة ، وقيل جَبْرة ، بن عوف بن أبي حارثةَ بن مُرَّة بن نُشْبة بن غَيظ بن مُرَّة بن سَعد بن ذُبيان . والبَرصاء أمّه ، واسمُها قِرْصافة بنت الحارث بن عوف بن أبي حارثة ، وهو ابن خالة عَقيل بن عُلَّفة . وأمّ عقيل عَمْرة بنت الحارث بن عوف ، ولُقّبت قِرصافة البَرصاء لبياضها ، لا لأنّها كان بها بَرَص .

وشبيبٌ شاعرٌ فصيح إسلاميٌّ من شعراء الدولة الأمويّة ، بدويٌّ لم يَحضُر إلاّ وافداً أو منتجعاً . وكان يُهاجي عقيل بن عُلَّفة ويُعاديه لشراسة كانت في عقيلٍ وشرٍّ عظيم . وكلاهما كان شريفاً سيّداً في قومه ، في بيت شرفهم وسُؤدُدهم . وكان شبيب أعورَ ، أصاب عينه رجلٌ من

طيءٍ في حرب كانت بينهم .

قال أبو عمرو : استاق دُعَيج بن سيف بن جَذيمة بن وهب الطائيّ ثم الجَرْمي إبل شبيب بن البرصاء فذهب بها ، وخرج بنو البرصاء في الطلب ، فلمّا واجهوا بني جَرْم قال شبيب : اغتنِموا بني جَرم . فقال أصحابه : لسنا طالبين إلاّ أهل القَرْحة [1] . فمضَوا حتى أتوا دُعيجاً ، وهو برأس الجبل ، فناداه شبيب : يا دعيج ، إن كانت الطِّرافُ حيّةً فلك سائر الإبل . فقال : يا شبيب ، تبصّر رأسها من بين الإبل . فنظر فأبصرها ، فقال شبيب : شدُّوا عليه واصعَدوا وراءه ، فأبَوا عليه ، فحمل شبيب عليه وحدَه ، ورماه دعيج فأصاب عينه فذهب بها — وكان أعور ثم عَمي بعد ما أسنّ — فانصرف وانصرف معه بنو عمّه ، وفاز دعيج بالإبل ، فقال شبيب :

أمرتُ بني البَرصاء يومَ حُزابةٍ
بأمرٍ جميعٍ لم تَشَتَّتْ مَصادرُهْ

بشَول ابن معروفٍ وحَسّانَ بعدما
جرى ليَ يُمنٌ قد بدا ليَ طائرهُ

أيرجِعُ حُرٌّ دونَ جَرْمٍ ولم يكن
طِعانٌ ولا ضربٌ يُذَغْذَغ عاسرُه

فأذهبَ عيني يومَ سَفح سَفيرةٍ
دُعَيجٌ بن سَيفٍ أعوزتْه مَعاذِرُه [2]

(الأبيات ...)

---

(١) القرحة ، في الأصل : الجراحة ، وأرادوا هنا من أصابهم واستاق إبلهم .

(٢) الشول : النوق أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فشال ضرعها وقل لبنها . يذغذغ : يبلد . العاسر : الناقة ترفع ذنبها في علوها . عيني : في المطبوعة : عني ، وهو تحريف . سفيرة : ناحية من بلاد طيء .

مهاجاته عقيل بن عُلفة

قال خالد بن كلثوم :

كان الذي هاج الهجاءَ بين شبيب بن البرصاء ، وعقيل بن علّفة أنه كان لبني نُشْبة جارٌ من بني سَلامان بن سعد ، فبلغ عقيلاً أنه يطوف في بني مُرّة يتحدّث إلى النساء ، فامتلأ عليه غيظاً . فبينا هو جالسٌ ، وعنده غِلمانٌ له ، وهو يَجُزُّ إبلاً له على الماء ويَسِمُها [1] ، إذ طلع عليه السَلاماني على راحلته ، فوثب عليه هو وغِلمانه فضربوه ضرباً مُبَرِّحاً ، وعقر راحلته ، وانصرف من عنده بِشَرّ ، فلم يعد إلى ذلك الموضع ، ولَجّ الهجاء بينهما . وكان عقيلٌ شَرِساً سيّء الخُلق غَيُوراً .

عن عمرو بن أبي عمرو عن أبيه قال :

فاخر عقيل بن عُلّفة شبيب بن البرصاء ، فقال شبيب يهجوه ، ويهجو غيظ بن مُرّة [2] :

ألسنـــا بفَرْعٍ قد علمتم دعامةً
ورابيةً تنشقُّ عنهـــا سُيولُهـــا

وقد علمت سعدُ بن ذُبيانِ أنّنـــا
رَحاها الذي تأوي إليه وجُولُها

إذا لم نَسُسْكم في الأمور ولم نَكُن
لحربٍ عَوانٍ لاقحٍ مَن يَؤُولُها

---

(١) يسمها : يعلمها .

(٢) في قوله : يهجو غيظ بن مرة نظر لأن شبيباً ينتمي كذلك إلى غيظ بن مرة وليس في الأبيات هجاء لغيظ بن مرة وإنما يهجو بني جابر ، عشيرة عقيل ، وهم بنو جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة .

فلستَ بأهدى في البلاد من التي
تَرَدَّدُ حيرى حين غاب دليلُها

دعتْ جُلٌ يَربوعٍ عقيلاً لحادث
من الأمر فاستخفى وأعيا عَقيلُها

فقلت له : هَلاَّ أجبتَ عشيرةً
لِطارقِ ليلٍ حين جاء رسولها

وكائنْ لنا من رَبوةٍ لا تنالُهـا
مَراقيك أو جُرثومةٍ لا تَطُولها

فخرتَ بأيّامٍ لغيرِك فخرُهـا
وغُرَّتُهـا معروفةٌ وحجُولهـا

إذا الناسُ هابُوا سَوءةً عمدت لهـا
بنو جابرٍ شُبَّانُها وكهولهـا

فهَلاَّ بني سَعدٍ صبحتَ بغـارةٍ
مُسَوَّمةٍ قد طار عنها نَسِيلُهـا

فتدركَ وِتراً عند ألأم واتـرٍ
وتُدركَ قتلى لم تُتَمَّمْ عُقولُهـا (١)

وقال أبو عمرو : اجتمع عقيل بن عُلَّفة وشبيب بن البرصاء عند يحيى بن الحكم فتكلّما في بعض الأمر ، فاستطال عقيلٌ على شبيب

(١) فرع ، بضم الفاء : عدة قرى على مقربة من المدينة . رحى القوم : سيدهم الذي يصدرون عن رأيه . الجول : الصخرة تكون في أسفل الماء والجول أيضاً : العقل والعزم ، أراد به هنا أنهم ملاذ القبيلة . حرب عوان : قوتل فيها مرة بعد مرة . حرب لاقح : على المثل ، تشبه بالناقة التي تقبل اللقاح وتحمل ولا يدري ما تلد . يؤولها : يسوسها ، و (من) هنا خبر (فكن) . الجرثومة : الأصل . مسومة : معلمة . النسيل : ما تساقط من شعر وصوف . عقولها : ج عقل وهو الدية .

بالصَّهر الذي بينه وبين بني مروان ، – وكان زوّج ثلاثاً من بناته فيهم – فقال شبيب يهجوه :

ألا أبلِـغْ أبا الجَرْباء عنّي ... بآيات التباغُض والتَقــالي
فلا تذكرْ أباك العبدَ وافخَرْ ... بأمٍّ لستَ مُكرمَها وخالِ
وهَبْنها مُهْرةً لقِحت ببَغلٍ ... فكان جَنينُها شرَّ البِغال
إذا طارت نفوسُهم شَعاعاً ... حَمَينا المُحْصَنَاتِ لدى الحِجالِ
بطعنٍ تعثُرُ الأبطالُ منــه ... وضربٍ حيث تَقْتَنِصُ العوالي
أبى لي أنّ آبائي كِرامٌ ... بنَوا لي فوق أشرافٍ طِوالِ
بيوتَ المجد ثم نَمَوتُ منها ... إلى علياءَ مُشرِفة القَذالِ [1]

(الأبيات ...)

مهاجاته أَرْطاة بن سُهَيّة

عن أبي عُبيدة قال :

دخل أرطاةُ بن سُهَيّة على عبد الملك بن مروان – وكان قد هاجى شبيب بن البرصاء – فأنشده قوله فيه [2] :

أبي كان خيراً من أبيك ولم يزل ... جَنيباً لآبائي وأنت جَنيبُ [3]

---

(١) شعاعاً : متفرقة من الخوف . في المطبوعة : حمين المحصنات وما أثبتناه أليق بالمعنى . الحجال ج حجلة ، بالتحريك : موضع يزين بالثياب والستور للعروس ، وهي القبة أيضاً . العوالي : أعالي الرماح . أشراف ج شرف : المكان العالي . القذال : جماع مؤخر الرأس ، أراد أنها شامخة .

(٢) فيه : أي في شبيب .

(٣) الجنيب : المنقاد التابع .

فقال له عبد الملك : كذبتَ . ثم أنشده البيت الآخر فقال :

وما زِلتُ خيراً منك إذ عضّ كارهاً
برأسِك عاديُّ النِّجاد رَكُوبُ (١)

فقال له عبد الملك : صدقتَ . وكان أرطاة أفضل من شبيب نفساً ، وكان شبيب أفضل من أرطاة بيتاً .

قال أبو عمرو :

هاجى شبيب بن البرصاء رجلاً من غَنِيّ — أو قال من باهلة — فأعانه أرطاة بن سُهيّة على شبيب ، فقال شبيب :

لَعَمْري لئن كانت سُهيّةُ أوضعت
بأرطاةَ في رَكْب الخيانة والغَدْرِ
فما كان بالطِّرف العَتيق فيُشتَرَى
لفِحْلته ولا الجَوادِ إذا يجري
أتنصرُ منّي معشراً لستَ منهمُ
وغيرُك أولى بالحِياطة والنَّصر (٢)

ويُروى : « وقد كنتُ أولى بالحياطة » ، وهو أجود .

وقال أبو عمرو :

استعدى رَهْطُ أرطاةَ بن سُهيّة على شبيب بن البرصاء إلى عثمان بن حيّان المُرّيّ وقالوا له : يَعُمُّنا بالهجاء ويشتُم أعراضنا . فأمر بإشخاصه إليه فأشخِص ، ودخل إلى عثمان وقد أُتي بثلاثة نفرٍ لصوصٍ

---

(١) مذ عض الخ .. : أي منذ ولدت . العادي : القديم . النجاد ج نجد : الطريق المرتفع . ركوب : موطوء .

(٢) أوضعت : أسرعت . الطرف : الفرس الكريم . العتيق : الكريم الأصيل .

قد أفسدُوا في الأرض يُقال لهم : بَهْدَل ومَثْغُور وهَيْصم ، فقتل بَهدلاً وصلبه وقطع مثغوراً والهيصم ، ثم أقبل على شبيب فقال : كم تَسُبُّ أعراضَ قومك وتستطيل عليهم ! أُقسم قسماً حقّاً لئن عاودت هجاءهم لأقطعنّ لسانك . فقال شبيب :

سجنتَ لساني يابنَ حيّان بعدما
تولّى شبابي ، إنّ عقدَك مُحكَمُ
وَعِيدُك أبقى من لساني قُذاذةً
هَيُوباً وصَمْتاً بعدُ لا يتكلّمُ
رأيتك تَحْلَولي إذا شئتَ لامرىء
ومُرّاً مُراراً فيه صابٌ وعلقمُ
وكل طَريدٍ هالكٌ مُتحيّرٌ
كما هلَك الحيرانُ والليلُ مظلمُ
أصبت رجالاً بالذنوب فأصبحوا
كما كان مَثغورٌ عليك وهَيْصم
خطاطيفك اللاتي تخطّفن بَهدلاً
فأوفى به الأشرافَ جِذعٌ مُقوَّم
يداك يدا خيرٍ وشرٍّ فمنهما
تَضُرُّ وللأخرى نوالٌ وأنعُم (١)

عن عاصم بن الحدَثان قال :

هجا أرطاة بن سهيّة شبيب بن البرصاء ونفاه عن بني عوف فقال :

---

(١) القذاذة من كل شيء : ما قطع منه . المرار : شجر مر تأكله الإبل . الأشراف ج شرف : المكان العالي .

فلو كنتَ عَوْفياً عَمِيتَ وأسهلتْ
كُداكَ ولكنّ المُريب مُريبُ [1]

قال : فعمي شبيب بن البرصاء بعد موت أرطاة بن سهيّة ، فكان يقول : ليت ابن سُهيّة حيّ حتى يعلم أنّي عوفيّ . قال : والعمى شائع في بني عوف ، إذا أسنّ الرجل منهم عَمي ، وقلّ من يُفلت من ذلك منهم .

فخره بنفسه حين خطب فتاة فردّه أبوها

قال أبو عمرو :

خطب شبيب بن البرصاء إلى يزيد بن هاشم بن حَرْمَلة المُرّيّ ثم الصِّرْميّ ابنته ، فقال : هي صغيرة . فقال شبيب : لا ، ولكنّك تبغي أن تردّني . فقال له يزيد : ما أردتُ ذاك ، ولكن أنْظِرني هذا العام ، فإذا انصرم فعليّ أن أزوّجك .

فرحل شبيب من عنده مُغْضَباً . فلمّا مضى قال ليزيد بعضُ أهله : والله ما أفلحت ! خطب إليك شبيبٌ سيّد قومك فرددتَه ! قال : هي صغيرة . قال : إن كانت صغيرةً فستكبر عندَه . فبعث إليه يزيد : ارجعْ ، فقد زوّجتُك ، فإنّي أكره أن ترجع إلى أهلك وقد رَددتُك . فأبى شبيبٌ أن يرجع وقال :

لَعَمْري لقد أشرفتُ يومَ عُنَيزةٍ
على رَغْبةٍ لو شدّ نفسي مَريرُها
ولكنّ ضَعف الأمر ألاّ تُمِرّه
ولا خيرَ في ذي مِرّةٍ لا يُغيرها

(١) الكدى ج كدية : الأرض الغليظة .

تَبيّنُ أدبارُ الأمــور إذا مضت
وتُقبل أشباهاً عليك صَدورُهــا
تُرجّي النفوس الشيءَ لا تستطيعُه
وتخشى من الأشياء ما لا يَضيرهــا
ألا إنّما يكفي النفوس إذا اتّقت
تُقى الله ممّا حاذرتْ فيُجيرُهــا
ولا خيرَ في العِيدان إلاّ صِلابُها
ولا ناهضات الطير إلاّ صقورُهــا
ومستنبحٍ يدعو وقد حال دونــه
من الليل سجفا ظُلمةٍ وسُتورها
رفعتُ له ناري فلمّا اهتدى لهــا
زجرتُ كلابي أن يَهِرَّ عقُورها
فبات وقد أسرى من الليل عُقْبةً
بليلة صِدقٍ غاب عنها شرورها
وقد علم الأضياف أنّ قِراهمُ
شِواءُ المَتالي عندنا وقَديرهــا
إذا افتخرت سعدُ بن ذبيان لم يجــد
سوى ما بَنَيْنا ما يَعُدُّ فَخورها
وإنّي لَتَرّاك الضَغِينة قد بــدا
ثَراها من المولى فلا أستثيرُهــا
مخافةَ أن تجني عليَّ وإنّمــا
يَهيجُ كبيراتِ الأمور صغيرُها (١)

(الأبيات ...)

---

(١) المرير والمريرة : العزيمة ، وأصلها : الحبل المفتول القوي وأمر الحبل : أحكم فتله . =

إعجاب عبد الملك بشعره

عن ابن الكلبيّ قال : أنشد الأخطل عبد الملك قوله :

بكر العواذلُ يبتدرن مَلامــتي
والعاذلــون فكُلُّهــم يَلحاني
في أن سبقتُ بشَربةٍ مَقَديّةٍ
صِرفٍ مُشعْشَعةٍ بماءِ شُنان (١)

فقال له عبد الملك : شبيب بن البرصاء أكرم منك وصفاً لنفسه حيث يقــول :

وإنّي لسَهل الوجه يُعرَف مَجلسي
إذا أحزنَ القاذُورةُ المتقبِّسُ
يُضيء سنا جُودي لِمن يبتغي القِرى
وليلُ بخيل القوم ظلماءُ حِندِسُ
أَلِينُ لِذي القُربى مِراراً وتلتوي
بأعناق أعدائي حبالٌ تَمَرَّسُ (٢)

قال : وكان عبد الملك يتمثّل بقول شبيب في بذل النفس عند اللقاء ويُعجَب به :

= المرة : القوة من قوى الحبل . أغار الحبل : أحكم فتله . السجف : السّتر . يهر : ينبح . العقبة : قدر فرسخين . ناقة متلية : يتلوها ولدها ، وهي الّتي تنتج في آخر النتاج . القدير : اللحم المطبوخ في القدر . ثراها : أثرها .

(١) العواذل : اللائمات . يلحاه : يلومه . مقدية : نسبة إلى مقد ، وهي قرية بالأردن . مشعشعة : ممزوجة . الشنان : الماء البارد .

(٢) أحزن : دخل في الحزن ، وهو المكان الغليظ الوعر ، والمراد : إذا بدا منه العبوس والتشدد . القاذورة : السيء الخلق . الحندس : الظلمة الشديدة . تمرس به : احتك . تمرس الحبل : اشتد التواؤه .

دعانيَ حِصنٌ للفرار فســاءني
مواطنُ أن يُثنَى عليّ فأشتَمَــا
فقلت لحِصنٍ : نحِّ نفسَك إنّمــا
يَذود الفتى عن حوضه أن يُهَدَّما
تأخَّرت أستبقي الحياة فلم أجِد
لنفسي حياةً مثــلَ أن أتقدَّمــا
سيكفيك أطرافَ الأسنّةِ فارسٌ
إذا ريع نادى بالجَواد وبالحِمى
إذا المرءُ لم يغشَ المكاره أوشكت
حِبالُ الهُوَيْنى بالفتى أن تَجَذَّما (١)

* * *

(١) ريع : فزع . تجذم : تقطع .

١٥

الطِّرِمّاح

(الأغاني ج ١٢ ص ٣٥ وما بعدها)

الشاعر

هو الطِّرِمّاح بن حكيم ... بن طَيِّىء . ويُكنى أبا نَفْر ، وأبا ضَبِينة . والطرمّاح : الطويل القامة ...

والطرمّاح من فحول الشعراء الإسلاميين وفُصَحائهم . ومَنشؤه بالشأم ، وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وَرَدها من جيوش أهل الشأم ، واعتقد مذهب الشُراة الأزارقة .

عن أبي بكرٍ الهُذَلِيّ قال :

قدِم الطرمّاح بن حكيم الكوفة ، فنزل في تَيْم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخٌ من الشُراة له سَمْتٌ وهَيئة ، وكان الطرمّاح يُجالسه ويسمع

منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه فقبله واعتقده أشدَّ اعتقادٍ وأصحّه ، حتى مات عليه .

قال خَلَف : كان الطرمّاح يرى رأي الشُراة ، ثم أنشد له :

لله درُّ الشُراة إنّهـــم إذا الكرى مالَ بالطُلَى أَرِقُوا
يُرجِّعُون الحنين آونـــةً وإن علا ساعةً بهم شَهِقوا
خوفاً تَبيتُ القُلوبُ واجفةً تكاد عنها الصُدورُ تَنفلقُ
كيف أرجّي الحياةَ بعدهُم وقد مضى مُؤْنِسِيَّ فانطلقــوا
قومٌ شِحاحٌ على اعتقادهــمُ بالفوز ممّا يُخاف قد وَثِقوا [1]

قال المفضَّل : إذا ركب الطرمّاح الهجاء فكأنّما يُوحَى إليه . ثم أنشد له قوله :

لو حان وِرْدُ تميمٍ ثمَّ قيل لهــا
حوضُ الرسول عليه الأزدُ لم تَرِدِ
أو أنزل الله وَحياً أن يُعذّبهــا
إن لم تَعُدْ لقتال الأزْد لم تَعُدِ
لا عزَّ نصرُ امرىءٍ أضحى له فَرَسٌ
على تميم يُريد النّصر من أحدِ
لو كان يخفى على الرحمنِ خافيةٌ
من خَلْقه خَفِيت عنه بنو أَسَدِ

قال رُؤْبة : كان الطرمّاح والكميتُ يَصيران إليَّ فيسألاني عن الغريب فأخبرهما به فأراه بعدُ في أشعارهما .

... محمد بن حبيبَ يقول : سألت ابن الأعرابيّ عن ثماني عَشْرَة

---

(١) الكرى : النعاس . الطلى ج طلية : العنق . الحنين : البكاء بصوت خافت .

مسألةً ، كُلُّها من غريب شعر الطِّرماح ، فلم يعرف منها واحدة ، يقول في جميعها : لا أدري ، لا أدري .

... أبو غسّان دَماذ قال :

كان أبو عبيدةَ والأصمعيّ يفضّلان الطرمّاح في هذين البيتين ، ويزعُمان أنه فيهما أشعر الخَلق :

مُجتابُ حُلّةِ بُرْجُدٍ لسَراته
قِدَداً وأخلف ما سواه البُرْجُدُ

يبدُو وتُضمِره البلادُ كأنّه
سيفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ (١)

صداقته للكميت

عن عمر بن شبّة وابن قُتيبة قالا :

كان الكميت بن زيد صديقاً للطِّرمّاح ، لا يكادان يفترقان في حالٍ من أحوالهما . فقيل للكميت : لا شيء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرمّاح ، على تباعُد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلد : هو شآمي قحطانيٌّ شارٍ ، وأنت كُوفيٌّ نِزاريّ شِيعيّ ، فكيف اتّفقتُما مع تباين المذهب وشدّة العصبيّة ؟ فقال : اتّفقنا على بُغض العامّة .

قال : وأُنشد الكميتُ قولَ الطرمّاح :

إذا قُبِضت نفسُ الطرمّاح أخلقت
عُرى المجدِ واسترخَى عِنانُ القصائدِ

---

(١) يصف الشاعر الثور الوحشي في هذين البيتين . اجتاب الحلة : لبسها . البرجد : كساء من صوف أحمر . السراة : الظهر . القدد : القطع . جمع قدة . الشرف : المكان المرتفع .

فقال : إي والله ، وعِنان الخَطابة والرِّواية والفَصاحة والشجاعة .

عن ابن الأعرابيّ قال :

وفَد الطرمّاح بن حكيم والكُميت بن زيد على مَخْلَد بن يزيد المُهَلّبيّ ، فجلس لهما ودعاهما . فتقدّم الطرمّاح ليُنشد فقِيل له : أنشِد قائماً . فقال : كلاّ والله ! ما قَدْر الشعر أن أقوم له فيَحُطّ منّي بقيامي وأَحُطّ منه بضَراعتي ، وهو عمود الفخر وبيت الذِكر لمآثر العرب . قيل له : فتَنَحَّ . ودُعي الكميت فأنشد قائماً ، فأمر له بخمسين ألفَ درهم . فلمّا خرج الكميت شاطرها الطّرمّاح وقال له : أنت ، أبا ضَبِينةَ ، أبعدُ هِمّةً ، وأنا ألطفُ حِيلةً .

خبرهما مع ذي الرمّة

عن خالد بن كُلثوم قال :

بينا أنا في مسجد الكوفة أُريد الطرمّاح والكميت ، وهما جالسان بقُرب باب الفِيل ، إذ رأيت أعرابيّاً قد جاء يسحب أهداماً [1] له ، حتّى إذا توسّط المسجد خرّ ساجداً ، ثم رمى ببصره فرأى الكميت والطرمّاح فقصدهما . فقلتَ : مَن هذا الحائنُ [2] الذي وقع بين هذين الأسدين ؟! وعجبت من سَجْدته في غير موضع سُجود وغير وقت صَلاة ، فقصدتُه ، ثم سلّمت عليهم ثم جلست أمامهم . فالتفت إلى الكميت فقال : أسمِعني شيئاً يا أبا المُستَهِلّ ، فأنشده قوله :

أبتْ هذه النّفسُ إلاّ ادّكارا

حتى أتى على آخرها . فقال له : أحسنتَ والله يا أبا المستهلّ في

(١) الأهدام ج هدم : الثوب البالي .
(٢) الحائن : الهالك .

ترقيص هذه القوافي ونظم عِقْدها ! ثم التفت إلى الطرمّاح فقال : أسمعْني شيئاً يا أبا ضبّينة . فأنشده كلمته التي يقول فيها :

أساءكَ تقويضُ الخليطِ المُباينِ
نعم والنَوى قطّاعةٌ للقرائنِ [1]

فقال : لله درُّ هذا الكلام ! ما أحسنَ إجابتَه لِروِيَّتك ! إن كِدتُ لأطيلُ لك حسَداً . ثم قال الأعرابيّ : واللهِ لقد قُلتُ بعدكما ثلاثة أشعارٍ : أمّا أحدُها فكِدتُ أطير به فرحاً ، وأمّا الثاني فكدت أدّعي به الخلافة ، وأمّا الثالثُ فرأيت رَقَصاناً استفزّني به الجزَل حتى أتيتُ عليه . قالوا : فهاتِ ؛ فأنشدهم قوله :

أأن تَوهّمتَ من خرقاءَ منزلةً
ماءُ الصَّبابة من عينيك مَسجومُ [2]

حتى إذا بلغ قوله :

تنجو إذا جعلتْ تدمى أخِشّتُها
وابتلَّ بالزَّبَدِ الجَعْدِ الخراطيمُ [3]

قال : أعلمتم أنّي في طلب هذا البيت منذ سنة ، فما ظفِرت به إلاّ آنفاً ، وأحسِبكم قد رأيتم السّجدة له . ثم أسمعهم قوله :

ما بالُ عينِك منها الماءُ يَنْسَكِبُ

---

(١) التقويض : تقويض الخيام واقتلاع أوتادها استعداداً للرحيل . الخليط : القوم يقيمون في مكان واحد ويخالط بعضهم بعضاً ، ويراد بها أيضاً الواحد . النوى : البعد والفراق .

(٢) الصبابة : الشوق . مسجوم : منسكب .

(٣) تنجو : تسرع ، والوصف هنا للناقة . الأخشة ج خشاش : الحلقة التي توضع في أنف البعير ليقاد بها . الجعد من الزبد : الغليظ . الخرطوم : ما انضم عليه الحنكان ، ومقدم الأنف .

ثم أنشدهم كلمته الأخرى التي يقول فيها :

إذا الليلُ عن نَشْزٍ تَجلّى رمينَهُ
بأمثال أبصار النّساء الفَوارِكِ [1]

قال : فضرب الكميت بيده على صدر الطرمّاح ثم قال : هذه والله الدّيباجُ ، لا نَسْجي ونسجُكَ الكَرابيس [2] . فقال الطرمّاح : لن أقول ذلك ، وإن أقررت بجَودته . فقطّب ذو الرُّمّــة وقال : يا طرمّاح ، أأنت تُحسِن أن تقول :

وكائِنْ تخطّتْ ناقتي من مَفازةٍ
إليك ومن أحواض مــاءٍ مُسَدَّمِ
بأعقاره القِرْدانُ هزلَى كأنّهــا
نوادرُ صِيصاءِ الهَبيد المُحطّمِ [3]

فأصغى الطرمّاح إلى الكميت وقال له : فانظُر ما أخذ من ثواب هذا الشعر ! — قال : وهذه قصيدة مدح بها ذو الرمّة عبد الملك، فلم يمدحه فيها ولا ذكره إلاّ بهذين البيتين ، وسائرها في ناقته . فلمّا قدم على عبد الملك بها أنشدهُ إيّاها ، فقال له : ما مدحتَ بهذه القصيدة إلاّ ناقتَك ، فخذْ منها الثّواب . وكان ذو الرُّمّة غير محظوظ من المديح . — قال : فلم يفهم ذو الرمّة قول الطرمّاح للكميت . فقال له الكميت : إنّه ذو الرُّمّة ،

(١) النشز ، بسكون الشين وفتحها : المكان المرتفع . فركت المرأة زوجها : أبغضته .
(٢) الكرابيس ج كرباس : ثوب غليظ من القطن .
(٣) الماء المسدم : المتغير لطول العهد . عقر الحوض : مؤخره حيث تقف الإبل . القردان ج قراد : دويبة تلحق أجساد الإبل . صيصاء الهبيد : حب الحنظل الذي ما فيه لب . والمعنى أن القردان ليس لديها ما تأكله فهي هزلى تشبه ما يشذ من حب الحنظل الضاوي .

وله فَضلُه ، فأعْتبهُ (١) . فقال له الطرمّاح : معذرةٌ إليك ! إنّ عِنان الشعر لَفي كَفِّك ، فارجِعْ مُعْتَباً ، وأقول فيك كما قال أبو المستهلّ .

طائفة من أخباره

* ... أبو تمّام الطائيُّ قال :

مرّ الطرِمّاح بن حكيم في مسجد البصرة ، وهو يخطِر في مِشْيته . فقال رجلٌ : مَن هذا الخَطّار ؟ فسمعه فقال : أنا الذي أقول :

لقد زادني حبّـاً لِنفسيَ أنّني
بغيضٌ إلى كلّ امرىءٍ غير طائلِ
وأنّي شَقيٌّ باللئام ولا تَـرى
شقيّاً بهم إلاّ كريمَ الشمائل
إذا مـا رآني قطّع اللّحْظَ بينه
وبينيَ فِعلَ العارف المتجاهـل
ملأتُ عليه الأرض حتّى كأنّهـا
من الضيق في عينيه كِفّةُ حابلِ (٢)

* .. ابن أبي العَمَرَّطة الكنديّ قال :

مدح الطرمّاح خالد بن عبد الله القَسْريّ ، فأقبل على العُريان بن الهيثم فقال : إنّي قد مدحت الأمير فأحبّ أن تُدخلني عليه . قال : فدخل اليه فقال له : إنّ الطرمّاح قد مدحك وقال فيك قولاً حَسناً .

---

(١) أعتبه : أرضاه وأزال عتبه .

(٢) رجل غير طائل : خسيس القدر . الحابل : الصائد بالحبالة والكفة : الحبالة أي المصيدة .

فقال : ما لي في الشعر من حاجة . فقال العُريان للطرمّاح : تَراءَ له . فخرج معه ، فلمّا جاوز دار زيادٍ وصَعِد المُسنّاة [1] ، إذا شيءٌ قد ارتفع له ، فقال : يا عُريان ، انظُر ما هذا ؟ فنظر ثم رجع فقال : أصلح الله الأمير ! هذا شيءٌ بعث به إليك عبد الله بن أبي موسى من سِجستان ، فإذا حُمُرٌ وبِغالٌ ورجالٌ وصِبيان ونساءٌ . فقال : يا عُريان ، أين طرمّاحك هذا ؟ قال : هاهنا . قال : أعطه كلَّ ما قَدم به . فرجع إلى الكوفة بما شاء ولم يُنشِده .

* ... الحَجّاجيّ قال :

بلغني أن الطرمّاح جلس في حَلْقةٍ فيها رجلٌ من بني عَبْس ، فأنشد العَبْسيُّ قول كُثيّر في عبد الملك :

فكُنتُ المُعلّى إذ أُجيلت قِداحهُم
وجال المَنيحُ وَسْطَها يتقلقلُ [2]

فقال الطرماح : أما إنّه ما أراد به أنه أعلاهم كعباً ، ولكنّه موّه عليه في الظاهر وعنَى في الباطن أنه السابع من الخلفاء الذين كان كُثيّر لا يقول بإمامتهم ، لأنه أخرج علياً عليه السلام منهم ، فإذا أخرجه كان عبد الملك السابع ، وكذلك المعلّى السابع من القِداح ، فلذلك قال ما قاله . وقد ذكر ذلك في موضع آخر فقال :

وكان الخلائفُ بعد الرسو ل لله كلُّهم تابعا
شَهيدان من بعد صِدّيقهم وكان ابنُ حربٍ لهم رابعا
وكان ابنُه بعدَه خامساً مُطيعاً لِمن قبلَه سامعا

---

(١) المسناة : السدود التي تبنى في طريق السيل .
(٢) المعلى : سابع سهام الميسر . المنيح : قدح من قداح الميسر لا نصيب له .

ومَروانُ سادسُ مَن قد مضى وكان ابنُه بعدَه سابعـــا

قال : فعجبنا من تنبّه الطرماح لمعنى قول كثيّر ، وقد ذهب على عبد الملك فظنّه مدحاً .

• عن أبي عُبيدة قال :

فضّل الطرمّاح بني شَمْخ في شعره على بني يَشْكُر ، فقال حُميد اليشكُريّ :

أتجعلُنــا إلى شَمْخِ بن جَرْمٍ
ونَبْهانٍ فأفٍّ لِـذا زَمانـــا
ويومَ الطّالقــانِ حَمَاك قومي
ولم تخضِبْ بها طيٌّ سِنانا (١)

فقال الطرمّاح يجيبه :

لقد علــم المُعَذّل يوم يدعُــو
برِمْثَةَ يومَ رِمْثَةَ إذ دعانـــا
فــوارسُ طيّىءٍ منعوه لمّـــا
بكى جَزَعاً ولولاهم لَحانا (٢)

فقال رجل من بني يشكر :

لأقضِينَّ قضاءً غيرَ ذي جَنَفٍ
بالحقّ بين حُمَيدٍ والطِرمّـــاحِ

---

(١) شمخ ونبهان : من بطون طيء . الطالقان : بلدة بخراسان كان بها وقعة مشهورة .
(٢) رمثة : ماء ونخل لربيعة باليمامة . حان : هلك .

جرى الطرمّاحُ حتى دقّ مِسْحَلَه
وغُودر العبدُ مقروناً بوَضّاحِ [1]

يعني رجلاً من بني تميم كان يُهاجي اليشكُريّ .

• عن يونس قال :

دخل الطرمّاح على خالد بن عبد الله القَسْريّ فأنشده قوله :

وشَيَّبني ما لا أزال مُناهضاً
بغير غِنىً أسمُو به وأبُوعُ

وأنّ رجال المال أضحَوا ومالهُم
لَهم عند أبواب الملُوك شَفيعُ

أمُختَرِمي ريبُ المَنُون ولم أنَلْ
من المال ما أعصي به وأطيعُ [2]

فأمر له بعشرين ألف درهم وقال : امضِ الآن فاعْصِ بها وأطِعْ .

وفاته

عن ابن شُبْرُمةَ قال :

كان الطرمّاح لنا جليساً ، ففقَدْناه أيّاماً كثيرةً ، فقُمنا بأجمعنا لننظرَ ما فعل وما دهاه . فلمّا كنّا قريباً من منزله إذا نحن بنَعشٍ عليه مُطْرَفٌ أخضرُ ، فقلنا : لِمن هذا النعش ؟ فقيل : هذا نَعش الطِرمّاح. فقُلنا : والله ما استجاب الله له حيث يقول :

---

(١) الجنف : الميل . المسحل : اللسان واللجام والمبرد .
(٢) أبوع : أمد باعي ، أي أبسط يدي بالإنفاق . اخترمته المنية : أخذته .

وإنّي لمُقتادٌ جوادي وقــاذفٌ

به وبنَفسي العامَ إحدى المقَاذفِ

لأكسِبَ مالاً أو أؤولَ إلى غنىً

من الله يَكفيني عِدات الخلائف

فيا ربِّ إن حانت وفاتي فلا تكن

على شَرْجَعٍ يعلَى بخُضْر المطارفِ

ولكنّ قبري بطنُ نَسرٍ مَقيلُه

بجوّ السماء في نُسورٍ عواكــف

وأمسي شهيداً ثاوياً في عصابةٍ

يُصابون في فجٍّ من الأرض خــائف

فوارسُ من شَيبان ألّف بينهــم

تُقى الله نَزّالون عنــد التزاحُف

إذا فارقوا دنياهمُ فارقــوا الأذى

وصاروا إلى مِيعاد ما في المصاحف (١)

* * *

(١) عدات ج عدة : ما يوعد به من صلة . الخلائف : جمع خليفة . الشرجع : النعش ، المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام . الفج : الطريق الواسع بين جبلين . خائف : مخوف ، استعمل اسم الفاعل مكان اسم المفعول . فوارس من شيبان : في رواية أخرى : « فوارس من شتّى يؤلف بينهم » وهي أجود . إلى ميعاد : في الديوان « إلى موعود » .

١٦

عبد الله بن الزَّبِير

(الأغاني ج ١٤ ص ٢١٧ وما بعدها)

الشاعر

عبد الله بن الزَّبِير ... بن دُودان بن أسد بن خُزَيمة ...

وهو شاعر كُوفيّ المنشأ والمنزل ، من شعراء الدولة الأموية ، وكان من شيعة بني أميّة وذوي الهوى فيهم ، والتعصُّب والنُّصرة على عدوّهم . فلمّا غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أُتي به أسيراً ، فمَنَّ عليه ووصله وأحسن إليه ، فمدحه وأكثر وانقطع إليه ، فلم يزل معه حتى قُتل مُصعب . ثم عَمِي عبد الله بن الزَبير بعد ذلك ، ومات في خلافة عبد الملك بن مروان . ويُكنى عبد الله أبا كَثير ، وهو القائل يعني نفسه :

فقالت : ما فعلتَ أبـــا كثـيرٍ أصحّ الوُدُّ أم أخلفتَ بعدي

وهو أحد الهجّائين للناس ، المرهوب شرُّهم .

أخباره مع ولاة العراق

خبره مع عبد الرحمن بن أمّ الحكم

قال ابن الأعرابيّ :

كان عبد الرحمن بن أمّ الحكَم على الكوفة من قِبَل خاله معاوية بن أبي سفيان ، وكان ناسٌ من بني عَلقمة بن قيس ... بن مُنقِذ قتلوا رجلاً من بني الأشيمَ ، من رهط عبد الله بن الزَبير دِنْيَةً [1] ، فخرج عبد الرحمن بن أم الحكم وافداً إلى معاوية ومعه ابن الزَبير ورفيقان له من بني أسد ... فقال عبد الرحمن بن أمّ الحكم لابن الزبير : خذ من بني عمّك دِيَتَين لِقتيلك ، فأبى ابن الزبير ، وكان ابن أمّ الحكم يميل إلى أهل القاتل ، فغضب عليه عبد الرحمن وردّه عن الوفد من منزل يقال له فيّاض ، فخالف ابن الزبير الطريق إلى يزيد بن معاوية ، فعاذ به ، فأعاذه وقام بأمره ، وأمَرَه يزيد بأن يهجو ابن أمّ الحكم — وكان يزيد يُبغضه وينتقصُه ويَعيبه ، فقال فيه ابن الزبير قصيدةً أوّلها قوله :

أبى الليل بالمَرّان أن يَتصرّمـــا
كأنّي أَسُوم العَين نوماً مُحَرَّما

ستعلم إن زَلّت بك النّعلُ زَلّــةً
وكل امرىءٍ لاقي الذي كان قدّمـــا

---

(١) دنية : لحاً لاصق النسب .

بأنك قد ماطلتَ أنيابَ حيَّـةٍ
تُزَجّي بعيّنيها شُجاعاً وأرقما
وكم مـن عدوٍّ قد أراد مَساءتي
بغَيبٍ ولو لاقَيتَه لَتندّما
وأنتم بني حامِ بن نُوحٍ أرى لكم
شِفاهاً كأذناب المَشاجر وُرَّما
فإن قلتَ خالي من قريشٍ فلم أجِد
من الناس شرّاً من أبيك وألأما [1]

(الأبيات ...)

وقال النَّضر : لمّا هرب ابن الزبير من عبد الرحمن بن أمّ الحكم إلى معاوية أحرق عبد الرحمن داره ، فتظلّم منه وقال : أحرق لي داراً قد قامت عليّ بمائة ألفِ درهمٍ ، فقال معاوية : ما أعلم بالكوفة داراً أُنفق عليها هذا القدر ، فمَن يعرف صِحّة ما ادّعيت ؟ قال : هذا المُنذر ابن الجارود حاضر ويعلم ذلك . فقال معاوية للمنذر : ما عندك في هذا ؟ قال : إنّي لم آبَهْ لنفقته على داره ومبلغها ، ولكنّي لمّا دخلت الكوفة وأردت الخروج عنها أعطاني عشرين ألف درهمٍ وسألني أن أبتاع له ساجاً من البصرة ، ففعلت . فقال معاوية : إنّ داراً اشتُري لها ساجٌ بعشرين ألف درهم لحقيقٌ أن يكون سائر نفقتها مائة ألف درهم . وأمر له بها ، فلمّا خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم : أيّ

(١) المران : موضع على مقربة من مكة في الطريق إلى البصرة . الحية : أراد بها نفسه . تزجي : تسوق . الشجاع : الحية الذكر . الأرقم : أخبث الحيات . أراد أن له أنصاراً أقوياء مثله . بنو حام بن نوح : عبد الرحمن بن أم الحكم ينتمي إلى ثقيف ، وبعضهم يجعل هذه القبيلة من سلالة حام بن نوح . المشاجر ج مشجر : مركب أصغر من الهودج ، وهو أيضاً عود الهودج .

الشّيخين عندكم أكذب ؟ والله إنّي لأعرف داره ، وما هي إلاّ خِصاص قصب ، ولكنهم يقولون فنسمع ، ويخادعوننا فننخدع . فجعلوا يتعجبون منه .

وقال النّضْر في كتابه :

لمّا منع عبد الرحمن بن أمّ الحكم عبد الله بن الزّبير الخروج إلى الشأم ، وأراد حبسه ، لجأ إلى سُويد بن منجوف واستجار به ، فأخرجه مع بني شيبان من بلادهم ، وأجازه (١) عمل ابن أمّ الحكم ، فقال يمدحه :

أليس ورائي إن بلادٌ تجهّمت
سُويدُ بن مَنْجُوفٍ وبكرُ بن وائلِ
حُصونٌ براها اللهُ لم يُرَ مِثلُها
طِوالٌ أعاليها شِداد الأسافلِ
همُ أصبحوا كنزي الذي لستُ تاركاً
ونَبْلي التي أعددتُها للمُناضلِ

... الزُبَيْر بن بكّار قال : حدّثني عمّي قال :

لمّا وَلي عبد الرحمن بن أم الحكم الكوفة مدحه عبد الله بن الزّبير ، فلم يُثِبه ، وكان قدِم في هيئة رَثّةٍ (٢) . فلمّا اكتسب وأثرى بالكوفة تاه وتجبّر ، فقال ابن الزّبير فيه :

تبقّلتَ لمّا أن أتيتَ بلادكم
وفي مِصرنا أنت الهُمامُ القَلَمّسُ

---

(١) أجازه : يسرَ له اجتياز ما كان في ولاية ابن أم الحكم من البلاد .
(٢) المقصود هنا عبد الرحمن بن أم الحكم لا ابن الزبير .

ألستَ ببَغلٍ أمُّــه عربيّـــةٌ
أبوك حِمارٌ أدبَرُ الظهر يُنْخَسُ (١)

قال : وكان بنو أميّة إذا رأوا عبد الرحمن يلقّبونه البَغل ، وغلبت عليه حتّى كان يشتم مَن ذكرَ بغلاً ، يظنّه يُعرّض به .

وقال ابن الأعرابيّ :

استجار ابن الزّبير بمروان بن الحكم وعبد الله بن عامر لمّا هجا عبد الرحمن بن أم الحكم ، فأجاراه وقاما بأمره ، ودخل مع مروان إلى المدينة ، وقال في ذلك :

أجِدّي إلى مروانَ عدواً فقَلّصي
وإلاّ فرُوحي واغتدي لابنِ عامرِ
إلى نفرٍ حــولَ النبيّ بيوتُهــم
مَكــاريم للِعافي رِقــاقُ المآزر
لهم سُورةٌ في المجد قد عُلمت لهم
تُذَبذِب باعَ المُتعَب المتقاصر
لهم عامرُ البَطْحاء من بَطن مكّةٍ
ورُومة تُسقى بالجِمال القياسِرِ (٢)

---

(١) تبقل : أكل البقل وطلبه . القلمس : السيد العظيم . أدبر الظهر : مصاب بالدبرة وهي قرحة في الظهر من أثر الرحل .

(٢) أجدي : أسرعي ، والخطاب لناقته . قلصت الناقة : استمرت في سيرها . العافي : طالب المعروف . رقاق المآزر : كناية عن النعيم والترف . سورة : منزلة . تذبذب : اضطرب . المتقاصر : المقصر العاجز . رومة : أرض بالمدينة فيها بئر تعرف ببئر رومة . القيسري من الإبل : الضخم القوي .

عن ابن الأعرابيّ قال :

حبس ابن أمّ الحكم عبد الله بن الزّبير ، وهو أميرٌ ، في جِناية وضعها عليه ، وضربه ضرباً مبرّحاً لمجائه إيّاه ، فاستغاث بأسماء بن خارجةَ ، فلم يزل يلطُف في أمره ويُرضي خُصومه ويشفع إلى ابن أم الحكَم في أمره حتى يُخلّصه ، فأطلق شفاعته [1] ، وكساه أسماءُ ووصَله وجعل له ولِعياله جِرايةً [2] دائمةً من ماله ، فقال فيه .. :

ألم تر أنّ الجُود أرسل فانتقى
حَليفَ صَفاءٍ وَأتَلَى لا يُزايلُه
تخيّر أسماءَ بن حِصنٍ فبُطِّنت
بفعل العُلا أيمانُه وشمائلُه
ولا مجدَ إلاّ مجدُ أسماءَ فوقَه
ولا جَرْيَ إلاّ جَرْيُ أسماءُ فاضلُه

• • •

فتىً لا يزال الدهرَ ما عاشَ مُخصِباً
ولو كان بالمَوْماةِ تَخْدِي رواحلُه
فأصبح ما في الأرض خَلقٌ علمتُه
من الناس إلاّ باعُ أسماءَ طائلُه
تراه إذا ما جئتَه مُتهلّلاً
كأنّك تُعطيه الذي أنت سائله

---

(١) أطلق شفاعته : قبلها .

(٢) جراية : مال جار يعطى في وقت معلوم .

ترى الجُند والأعرابَ يغشَون بابه
كما وردت ماءَ الكُلاب نَواهلُه
إذا ما أتوا أبوابه قال : مَرحباً
لِجُوا الباب حتّى يقتلَ الجُوع قاتلُه
ترى البازل البُختيَّ فوقَ خِوانه
مُقطّعـةً أعضـاؤه ومَفاصِلُه
إذا ما أتَوا أسماء كان هو الـذي
تَحلَّبُ كفّاه الندى وأناملُـه
تراهـم كثيراً حين يغشَون بابه
فتستُرهـم جُدرانُه ومنازلـه [1]

قال : فأعطاه أسماء حين أنشده هذه القصيدة ألفي درهم .

مديحه لعُبيد الله بن زياد

قال ابن الأعرابيّ :

دخل عبد الله بن الزّبير على عبيد الله بن زياد بالكوفة ، وعنده أسماءُ ابن خارجةَ حين قدم ابن الزّبير من الشأم ، فلمّا مثل بين يديه أنشأ يقول :

حنّت قَلُوصيَ وَهْناً بعد هَدْأتها
فهيّجت مُغرَماً صبّاً على الطَرَبِ

---

(١) ائتلى : أقسم . أيمانه وشمائله : يده اليمنى ويده اليسرى . الموماة : المفازة . تخدي : تسرع . تراه إذا ما جئته : هذا البيت ينسب إلى زهير بن أبي سلمى فلعل ابن الزبير أخذه عنه . الكلاب : ماء بين الكوفة والبصرة . البختي : الطويل العنق من الإبل .

حنّت إلى خير من حُثّ المَطِيُّ له
كالبدر بن أبي سُفيان والعَتَب
تذكّرت بقُرى البلقـــاء نائلــه
لقد تذكّرتُه من نازحٍ عَزَب
والله ما كان بي لولا زيارتُـــــه
وأن ألاقي أبا حسّان من أرَب
حَنّت لِتَرجِعني خَلفي فقلت لها :
هذا أمامَك فالقَيه فـتى العرب
لا يحسب الشرَّ جاراً لا يُفارقــه
ولا يُعاقب عند الحِلم بالغضب
من خيرِ بيتٍ علمنـــاه وأكرمِــه
كانت دماؤهم تَشفي من الكَلَبِ (١)

قال ابن الأعرابي : كانت العرب تقول : من أصابه الكَلَب والجنون لا يبرأ منه إلاّ أنه يُسقَى من دَم مَلِك ، فيقول : إنه مـــن أولاد الملوك .

وقال ابن الأعرابيّ : لمّا قدم ابنُ الزّبير من الشأم إلى الكوفة دخل على عبيد الله بن زياد بكتاب من يزيد بن معاوية إليه يأمره بصيانته وإكرامه وقضاء دينه وحوائجه وإدرار عطائه ، فأوصله إليه ، ثم استأذنه في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قصيدته التي أوّلها :

(١) وهناً : بعد انقضاء ساعة من الليل أو بعد منتصفه . بين أبي سفيان والعتب : كان يقال لزياد : زياد بن أبي سفيان ، والعتب : أراد المسمين بعتبة من آل أبي سفيان ومنهم عتبة بن أبي سفيان ، وعتبة بن يزيد بن معاوية ، وعتبة بن خالد بن يزيد . عزب : بعيـــد .

أصَرمٌ بليلى حادثٌ أم تجنُّبُ
أم الحبل منها واهــن متقضب
أم الوُدُّ من ليلى كعهدي مكانهُ
ولكنَّ ليلى تَستزيد وتَعْتَــبُ

ألم تعلمي يا ليلُ أنيَ ليّــنٌ
هَضُومٌ وأنّي عَنْبَسٌ حين أغضب
وأنّي متى أُنفِقْ من المال طارفاً
فإنّي أرجُو أن يشُوب المُثَوَّبُ
أأن تَلِفَ المالُ التِّلادُ بحقِّـه
تشمّسُ ليلى عن كلامي وتَقْطِبُ

عشيّةَ قالت والرِّكاب مُناخـةٌ
بأكوارها مَشدودة : أين تذهبُ
أفي كلَّ مِصرٍ نازحٍ لك حاجةٌ
كذلك مــا أمر الفتى المتشعِّبُ
فوالله ما زالت تَلِبّثُ نــاقتي
وتُقسم حتى كادت الشمس تَغربُ

دَعيني ما للموتِ عنّيَ دافــعٌ
ولا للّذي وَلّى من العيش مَطلبُ
إليك عُبيدَ الله تهوي ركابُنـــا
تَعَسّفُ مجهولَ الفلاة وتَدأب
وقد ضَمَرتْ حتى كأنّ عيونَها
نِطافُ فَلاةٍ ماؤها مُتَصبِّــبُ

فقلت لها : لا تشتكي الأين إنّه
أمامك قَرمٌ من أميّة مُصعَب
إذا ذكروا فضلَ امرىءٍ كان قبله
ففَضلُ عُبيد الله أثرى وأطيب
وأنكَ لو يُشفَى بك القَرْحُ لم يَعُدْ
وأنتَ على الأعداء نابٌ ومِخْلبُ
تصافى عُبيد الله والمجدُ صَفوة الحَلِيـ
ـفَين ما أرسَى ثَبيرٌ ويثرب
وأنت إلى الخيرات أوّلُ سابقٍ
فأبْشِر فقد أدركت ما كنتَ تطلب
أَعِنّي بسَجْلٍ من سِجالك نافعٍ
ففي كلّ يومٍ قد سَرى لك مِحلبُ
فإنّك لو إيّايَ تطلبُ حاجةً
جرى لك أهلٌ في المَقال ومَرحَبُ (١)

قال : فقال له عبيد الله وقد ضحك من هذا البيت الأخير : فإنّي لا أطلب إليك حاجةً ، كم السّجل الذي يرويك ؟ قال : نَوالُك ، أيها الأمير ، يكفيني . فأمر له بعشرة آلاف درهم .

(١) عنبس : أسد . الطارف : المستحدث من المال . ثاب : رجع . التلاد : المال الموروث . تتشمس : تنفر وتعرض ، وحذفت التاء الأولى للشعر . الركاب : اسم جمع للابل . الكور : الرحل بأداته . المتشعب : المتفرق ، و (ما) زائدة . تهوي : تسرع . نطاف ج نطفة : الماء الصافي . الأين : التعب والإعياء . القرح : أثر الجرح . أرسى : ثبت . ثبير : جبل بظاهر مكة . السجل : الدلو العظيمة المملوءة .

أخباره مع بشر بن مروان ومدائحه فيه

قال ابن الأعرابيّ :

لمّا ولي بشر بن مروان الكوفة أدنى عبد الله بن الزَّبير الأسديّ وبَرّه وخَصّه بأنسه ، لعلمه بهواه في بني أميّة ، فقال يمدحه :

ألم ترني ، والحمدُ لله ، أنّني
بَرِئت وداواني بمعروفه بِشرُ

رعى ما رعى مروانُ منّيَ قبلَه
فصَحّت له منّي النصيحةُ والشكرُ

ففي كلّ عامٍ عاشه الدهرَ صالحاً
عليّ لِربّ العالمين له نُذْرُ

إذا ما أبو مروانَ خلّى مكانَه
فلا تَهنأ الدنيا ولا يُرسَلِ القَطْرُ

ولا يَهْنِىءِ الناسَ الولادةُ بينهم
ولا يَبْقَ فوق الأرض من أهلها شَفْرُ

فليس البحور بالّتي تُخبرونني
ولكنْ أبو مروانَ بِشرٌ هوالبَحرُ (١)

... النَضْر بن حديد قال :

دخل عبد الله بن الزبير على بشر بن مروان ، وعليه ثيابٌ كان بشرٌ خلعها عليه ، وكان قد بلغ بشراً عنه شيءٌ يكرهه فجفاه ؛ فلما وصل إليه وقف بين يديه وجعل يتأمّل مَن حوالَيه من بني أميّة ، ويُجيل بصره فيهم كالمتعجّب من جمالهم وهَيئتهم ، فقال له بشر : إنّ نظرك يابن الزَّبير ليدلّ أنّ وراءه قولاً . فقال : نعم . قال : قُلْ . فقال :

---

(١) القطر : المطر . شفر : أحد ، يقال : ما بالدار شفر أي أحد .

كأنّ بني أميّة حول بشرٍ نجومٌ وسطَها قمرٌ مُنيرُ
هو الفرع المقدَّم من قريشٍ إذا أخذت مآخذها الأمور
لقد عمّت نوافلُه فأضحى غنيّاً من نوافله الفقيرُ
جَبَرتَ مَهيضَنا وعدلتَ فينا فعاش البائس الكَلُّ الكَسيِر
فأنت الغيث قد علمت قريشٌ لنا والواكفُ الجَوْنُ المَطِيرُ (١)

قال : فأمر له بخمسة آلاف درهم ورضي عنه .

قال النضر بن حديد في كتابه :

ودخل عبد الله بن الزَبير إلى بشر بن مروان مُتعرّضاً له أن يُسمعَه شيئاً من شعره فيه ، فقال له بشر : أراك متعرّضاً لأن أسمع منك ، وهل أبقى أسماء بن خارجة منك أو من شعرك أو من وُدّك شيئاً ؟ لقد نزحتَ فيه بحرك يابنَ الزَبير . فقال : أصلح اللهُ الأمير ، إنّ أسماءَ بن خارجة كان للمدح أهلاً ، وكانت له عندي أياد كثيرة ، وكنت لِمعروفه شاكراً ، وأيادي الأمير عندي أجلُّ ، وأملي فيه أعظم ، وإن كان قولي لا يُحيط بها ففي فضل الأمير على أوليائه ما قَبِل به ميسورهم ، وإن أذِن لي في الإنشاد رجوتُ أن أُوفّقَ للصواب . فقال : هات ، فقال :

تداركَني بِشرُ بن مَروان بعدَما
تعاوَتْ إلى شِلْوي الذِئابُ العَواسِلُ
غِياثُ الضِعاف المُرمِلِين وعِصمةُ الـ
يتامى ومَن تأوي إليه العَباهِلُ
قَرِيعُ قريشٍ والهُمام الذي لـه
أقرّتْ بنو قَحطان طُرّاً ووائلُ

(١) هاض العظم : كسره ، والمراد هنا الفقير المحتاج . الكل : من كان عيالا على غيره . الواكف : المنهمر . الجون : الأسود ، صفة للسحاب .

وقيسُ بن عيلانٍ وخِنْدَفُ كلُّهـا
أقرّت وجِنُّ الأرض طُرّاً وخابلُ
يداك ابنَ مَروانٍ يدٌ تقتلُ العِدا
وفي يدك الأخرى غِياثٌ ونائلُ (١)

(الأبيات ...)

فأمر له بجائزة وكساه خِلعةً ، وقال له : إنّي أريد أن أوفدك على أمـير المؤمنين ، فتهيأ لذلك يابن الزّبير . قال : أنا فاعلٌ أيّها الأمير . قال : فماذا تقول له إذا وفدت عليه ولقيتَه ، إن شاء الله ؟ فارتجل من وقته هذه القصيدة ثم قال :

أقول : أميرَ المؤمنين عَصَمْتَنـا
ببِشرٍ من الدّهر الكثير الزّلازلِ
وأطفأت عنّا نارَ كلِّ مُنافـقٍ
بأبيضَ بُهلولٍ طويل الحمائلِ
نمتْه قُرومٌ من أميّـة للعُـلا
إذا افتخر الأقوامُ وسط المحافل
هو القائد الميمونُ والعِصمة التي
أتى حقُّها فينا على كلّ باطـلِ
أقام لنا الدّين القويمَ بحِلمـه
ورأيٍ له فضلٌ على كلّ قائـل

(١) الشلو : كل مسلوخ أكل منه شيء وبقيت منه بقية . العواسل ج عاسل : صفة خاصة بالذئب تصور طريقته في المشي ، عسل الذئب : أسرع واضطرب في مشيته وهز رأسه . العباهل ، في الأصل : صفة للابل المهملة التي لا راعي لها ولا مأوى ، وأراد بها هنا : من لا مأوى لهم . القريع : السيد . الخابل : الجن .

أخوكَ ، أميرَ المؤمنين ، ومَن به
نُجادُ ونُسقَى صَوبَ أسحمَ هاطلِ
إذا مـا سألنا رِفدَه هَطلت لنـا
سحابةُ كَفَيّه بجَوْدٍ ووابـلِ
حليمٌ على الجُهّال منّا ورحمةٌ
على كلّ حافٍ من مَعَدٍّ وناعلِ (١)

فقال بشر لجلسائه : كيف تسمعون ؟ هذا والله الشعر ، وهذه القُدرة عليه ! فقال له حَجّار بن أبجرَ العِجْليّ ، وكان من أشراف أهل الكوفة ، وكان عظيم المنزلة عند بشر : هذا ، أصلح الله الأميرَ ، أشعرُ الناس وأحضَرُهُم قولاً ، إذا أراد . فقال محمد بن عمير بن عُطارد ، وكان عدوّاً لحَجّار : أيّها الأمير ، إنّه لَشاعر ، وأشعرُ منه الذي يقول :

لِبشْرِ بن مروانٍ على كلّ حالةٍ
من الدهر فَضلٌ في الرَّخاء وفي الجَهْدِ
قريع قريش والذي باع مالـه
ليكسِبَ حَمداً حين لا أحدٌ يُجدي
ينافس بشرٌ في السَماحة والندى
ليُحرزَ غاياتِ المكـارم بالحَمد
فكم جَبَرتْ كفّاك يا بِشرُ من فتىً
ضَريكٍ وكم عَيّلتَ قوماً على عَمْد

---

(١) الزلازل : الشدائد . أبيض : كريم الأصل نقي العرض من الدنس . البهلول : السيد الجامع لكل خير . الحمائل ج حمالة : ما يعلق به السيف ، وطويل الحمائل : كناية عن طول القامة والقوة . الصوب : المطر الغزير . أسحم : أسود .

وصيَّرتَ ذا فَقرٍ غنيّاً ، ومُثْرياً
فقيراً ، وكُلاًّ قد حَذَوت بلا وَعدِ [1]

فقال بشر : من يقول هذا ؟ قال : الفرزدق ، وكان بشرٌ مغضبَاً عليه . فقال : ابعثْ إليه فأحضِره . فقال له : هو غائبٌ بالبصرة ، وإنّما قال هذه الأبيات وبعث بها لأنشدِكها ولِترضى عنه . فقال بشر : هيهات ، لست راضياً عنه حتّى يأتيني — فكتب محمد بن عمير إلى الفرزدق ، فتهيّأ للقدوم على بشر ، ثم بلغه أنّ البصرة قد جُمعت له مع الكوفة ، فأقام وانتظر قدومه — فقال عبد الله بن الزبير لمحمد بن عمير في مجلسه ذلك بحضرة بشر :

بني دارمٍ هــل تعرفــون محمّداً
بدِعْوَته فيكم إذا الأمرُ حُقّقّا
وساميتُم قومــاً كرامــاً بمجدكم
وجاء سُكَيتاً آخر القوم مُخفّقا
فأصلُك دُهمانُ بن نصرٍ فردَّهم
ولا تكُ وَغْداً في تميمٍ مُعلّقــا
فإن تميمــاً لستَ منهم ولا لهــم
أخاً يابنَ دُهمانٍ فلا تكُ أحمقا
ولولا أبــو مروان لاقيتَ وابلاً
من السوط يُنسيك الرَّحيق المُعتّقا
أحينَ عَلاك الشيبُ أصبحتَ عاهراً
وقلتَ : اسقِني الصَّهْباء صِرْفاً مُرَوَّقا

(١) يجدي : يجود بالعطاء . الضريك : الفقير السيء الحال . عيلت : أهملت . حذوت : أعطيت .

تركتَ شرابَ المسلمين ودينَهم
وصاحبتَ وَغْداً من فَزارةَ أزرقا
تَبيّتان من شُربِ المُدامة كالذي
أُتيح له حَبلٌ فأمسى مُخَنَّقا (1)

فقال بشر : أقسمتُ عليك إلاّ كففتَ . فقال : أفعلُ ، أصلحك اللهُ . واللهِ لولا مكانُك لأنفَذْت حِضْنَيه (2) بالحقّ . وكفّ ابن الزّبير وأحسن بِشرٌ جائزته وكِسوته ، وشمت حجّار بن أبجر بمحمّد بن عُمير ، وكان عدوّه ، وأقبلت بنو أسدٍ على ابن الزّبير فقالوا : عليك غضبُ الله ، أشْمَتَّ حَجّاراً بمحمّد ! والله لا نرضَى عنك حتّى تَهجوَه هجاءً يرضى به محمد بن عمير عنك . أوَلستَ تعلم أن الفرزدق أشعر العرب ؟ قال : بلَى ، ولكنّ محمّداً ظلمني وتعرّض لي ، ولم أكن لأحلُمَ عنه إذ فعل . فلم تزل به بنو أسد حتّى هجا حَجّاراً فقال :

سَليلَ النصارى سُدتَ عِجْلاً ولم تكن
لذلك أهلاً أن تَسُودَ بني عِجْلِ
ولكنّهم كانوا لِئاماً فسُدْتَهم
ومِثلُك من ساد اللئام بلا عَقلِ
وكيف بعجلٍ إن دنا الفِصحُ واغتدت
عليك بنو عِجلٍ ومِرْجَلُكم يَغلي
وعندك قِسّيسُ النصارى وصلبُها
وعانيّةٌ صَهباءُ مثلُ جَنَى النّحلِ (3)

---

(1) الدعوة ، بكسر الدال : الانتساب إلى غير العشيرة . السكيت : الجواد الذي يأتي في آخر الخيل عند السباق . دهمان بن نصر : بطن من قبيلة الأزد ، والشاعر هنا ينفي المهجو عن بني تميم وينسبه إلى الأزد . الصهباء : الخمرة . أزرق : يشبهه بالروم .
(2) الحضن : الجنب .
(3) كانت النصرانية منتشرة في بني عجل ولذلك يعير الشاعر حجاراً بأنه سليل النصارى . العانية : الخمرة المنسوبة إلى عانة وهي بلدة بين الرقة وهيت .

قال : فلمّا بلغ حجّاراً قولُه شكاه إلى بشر بن مروان ، فقال له بشر : هجوت حجّاراً ؟! فقال : لا والله ، أعزّ الله الأمير ، ما هجوتُه ، لكنّه كذب عليّ . فأتاه ناسٌ من بني عِجل وتهدّدوه بالقتل ، فقال فيهـم :

تُهدّدني عِجلٌ وما خِلتُ أنّني
خَلاةٌ لِعجلٍ والصليبُ لها بَعْلُ
وما خِلتُني ، والدهـرُ فيه عجائبٌ
أُعَمَّرُ حتى قد تَهَدّدني عِجلُ
وتُوعدني بالقتل منهم عصابـةٌ
وليس لهم في العزّ فرعٌ ولا أصـل
وعجلٌ أسودٌ في الرّخاء ثعالبٌ
إذا التقت الأبطالُ واختلف النَبْلُ
فإن تلقَنا عِجلٌ هناك فما لنـا
ولهمُ مِ الموتِ منجىً ولا وَعْلُ (١)

أخباره مع الحجّاج

... محمد بن معاوية الأسديّ قال :

لمّا قدم الحجّاج الكوفة والياً عليها صَعِد المِنبر ، فخطبهم فقال : يا أهل العراق ، يا أهل الشِقاق والنِفاق ، ومساوىء الأخلاق . إنّ الشيطان قد باض وفرّخ في صُدوركم ، ودبّ ودرَج في حُجوركم ، فأنتم له خدين ، وهو لكم قرين، ومن يكن الشيطانُ له قريناً فساء قَرِيناً .

---

(١) الخلاة : البقلة الرطبة . وعل : ملجأ .

ثم حثّهم على اللّحاق بالمهلّب بن أبي صُفرة ، وأقسم لا يجدُ منهم أحداً اسمُه في جريدة المهلّب بعد ثالثة بالكوفة إلاّ قتلَه . فجاء عُمير بن ضابىء البُرجُميّ فقال : أيّها الأمير ، إنّي شيخٌ لا فضلَ فيَّ ، ولي ابنٌ شابٌّ جَلْدٌ ، فاقبَلْه بدلاً منّي . فقال له عَنْبسة بن سعيد بن العاص : أيّها الأمير ، هذا جاء إلى عثمان وهو مقتولٌ فرفَسه وكسر ضِلْعين من أضلاعه وهو يقول :

أين تركت ضابئاً يا نَعْثَـــلُ [(١)]

فقال له الحجّاج : فهلاّ يومئذ بعثتَ بديلاً ! يا حَرَسيُّ ، اضرِب عنُقَه . وسمع الحجاج ضَوضاء فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذه البراجم جاءت لتنصرَ عميراً ، فيما ذَكرتْ ، فقال : أتحفُوهم برأسه ، فرموهم برأسه ، فولّوا هاربين ، فازدحم الناس على الجسر للعبور إلى المهلّب حتّى غرق بعضهم . فقال عبد الله بن الزّبير الأسديّ :

أقول لإبراهيمَ لمّـــا لَقِيتُـــه
أرى الأمر أمسى واهيـــاً متشعّبا

تخيّرْ فإمّا أن تزور ابن ضابىءٍ
عُميراً وإمّـــا أن تزور المهلّبـــا

هما خُطّتا خَسفٍ نجاؤك منهمـــا
رُكوبُك حَوْليّاً من الثلج أشهبَـــا

فأضحى ولو كانت خراسانُ دونَه
رآها مكانَ السُوق أو هي أقرَبا [(٢)]

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر طويل اللحية وكان أعداء عثمان يشبهونه به . وكان عثمان سجن ضابئاً لهجائه الأنصار فمات في سجنه ، وهو القائل من أبيات :

همــمت ولم أفعل وكدت وليتـــني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

(٢) ابراهيم : هو ابراهيم بن عامر الأسدي ، وكان لقي ابن الزبير بالسوق فسأله عن الخبر =

عن مشيخة من بني أسد :

أنّ ابن الزّبيرِ الأسديَّ لمّا قفل من قتال الأزارقة صُوّب [1] بَعْث إلى الرّيّ . قال : فكنت فيه ، وخروج الحجّاج إلى القنطرة – يعني قنطرة الكوفة التي بزُبارةَ – ليعرض الجيش ، فعرضهم ، وجعل يسأل عن رجلٍ رجلٍ مَن هو ؟ فمرّ به ابن الزّبيرِ ، فسأله من هو ؟ فأخبره ، فقال أنت الذي تقول :

تخيّرْ فإمّا أن تزور ابن ضابىءٍ
عُميراً وإمّا أن تزور المهلّبـا

قال : بلى ، أنا الذي أقول :

ألم ترَ أنّي قد أخذتُ جَعيلـةً
وكنت كمن قاد الجَنيبَ فأسمحا [2]

فقال له الحجّاج : ذلك خيرٌ لك ، فقال :

وأوقدت الأعداءُ يا ميُّ فاعلمي
بكلّ شرىً ناراً فلم أر مَجْمَحا [3]

= فأنشده هذه الأبيات . الخسف : الذل . الحولي : أراد مهراً مضى لولادته حول . أشهب : أشد شهبة ، واستعمال اسم التفضيل من اللون يجيزه الكوفيون ، والشهبة : بياض يصدعه سواد في خلاله . دونه : أي دون المهلب ، يريد أن الناس وجدوا مكان المهلب قريباً رغم بعده .

(١) صوب : أرسل .

(٢) الجعيلة : الجعل ، ما يجعل لقاء عمل . الجنيب : الفرس الذي يقوده الرجل إلى جنبه . أسمح : انقاد . يريد أنه انصاع لأمر الحجاج ولحق بجيش المهلب .

(٣) الشرى : الناحية . مجمحا : مفراً .

فقال له الحجّاج : قد كان بعض ذلك ، فقال :

ولا يعدم الداعي إلى الخير تابعاً
ولا يعدم الداعي إلى الشر مِجْلَحا[1]

فقال له الحجّاج : إنّ ذلك كذلك ، فامضِ إلى بعثك . فمضى إلى بعثه فمات بالرّيّ .

أخباره مع آل الزبير

عن عبد الرحمن بن عبيدِ بن أبي الكَنود والواقديّ ، والمفضّل :

أنّ المختار بن أبي عُبيد خطب الناس يوماً على المِنبر فقال : « لَتَنزِلَنّ نارٌ من السماء ، تسُوقها ريحٌ حالكة دَهماء ، حتى تحرق دار أسماء وآل أسماء » . وكان لأسماء بن خارجة بالكوفة ذِكرٌ قبيح عند الشيعة ، يعدُّونه في قَتَلة الحسين عليه السلام ، لِما كان من معاونته عبيدَ الله بن زياد على هانيء بن عُروة المُراديّ حتّى قُتل ، وحركتِه في نُصرته على مُسلِم بن عقيل بن أبي طالب ، وقد ذكر ذلك شاعرُهم فقــال :

أيركب أسمـــاءُ الهَماليجَ آمنـــاً
وقد طلبتْه مَذْحِجٌ بقَتيلِ [2]

يعني بالقتيل هـــانيءَ بن عُروة المُراديّ ، وكان المختار يحتال ويدبّر في قتله من غير أن يغضب قيساً فتنصُرَه . فبلغ أسماء قول المختار فيه

---

(١) المجلح : من جلح السويق . أي حركه بالماء حتى يستوي ، والمجلح خشبة يجلح بها ، يريد : محركاً ومثيراً .

(٢) الهملاج : البرذون الحسن السير .

فقال : أوَ قد سجع بي أبو إسحاق ؟ لا قَرارَ على زَأْرٍ من الأسد [1] . وهرب إلى الشأم ، فأمر المختار بطلبه ففاته ، فأمر بهَدْم داره ، فما تقدّم عليها مُضَريٌّ بَتَّةً ، لموضع أسماء وجلالة قدره في قيس ، فتولّت ربيعةُ واليمن هدمَها ، وكانت بنو تيم الله وعبد القيس مع رجلٍ من بني عِجلٍ كان على شرطة المختار . فقال في ذلك عبد الله بن الزَّبير :

تأوّبَ عينَ ابن الزَّبيرِ سُهودُهـا
ووليّ على ما قد عراها هُجودُها

* * *

أتاني وعُرضُ الشأم بيني وبينها
أحاديثُ والأنباءُ يَنمي بعيدُهـا
بأنّ أبا حسّـان تَهدِم دارَه
لُكَيزٌ سعتْ فُسّاقُها وعَبيدُهـا
جزت مُضراً عنّي الجوازي بفِعلها
ولاَ أصبحت إلاّ بِشَرٍّ جُدودُها
فما خيرُكم ، لا سيّداً تنصُرونه
ولا خائفاً إن جاء يوماً طَريدُها

(ومنها :)

فلو كان من قحطانَ أسماءُ شمّرت
كتائبُ من قحطان صُعرٌ خُدودُها

---

(١) هذا القول مأخوذ من بيت النابغة الذبياني :

أنبـئت أن أبا قابوس أوعـدني ولا قرار على زأر من الأسد

يريد أن وعيده مخيف يمنعه من الاستقرار والطمأنينة .

ففي رجبٍ أو غُرّة الشهر بعدَه
تزورُكم حُمرُ المنايا وسُودُها
ثمانون ألفاً دِينُ عثمانَ دينُهم
كتائبُ فيها جِبرئيلُ يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يَمُتْ
ففي النار سُقياه هناك صَدِيدُها [1]

الزبير بن بكّار قال : حدّثني مصعب قال : لمّا ولي مصعب بن الزبير العراقَ دخل إليه عبد الله بن الزبير الأسديّ فقال له : إيه يابنَ الزبير ، أنت القائل :

إلى رجبِ السّبعين أو ذاك قبلَه
تصبّحكم حمرُ المنايا وسُودها
ثمانون ألفاً نصرُ مروانَ دينهم
كتائب فيها جبرئيل يقودُها

فقال : أنا القائل ذلك ، وإنّ الحَقِينَ لَيأبَى العِذْرة [2] ، ولو قدرت على جَحْده لَجَحدْتُه ، فاصنَعْ ما أنت صانعٌ . فقال : أما إنّي ما أصنع بك إلاّ خيراً ، أحسن إليك قومٌ فأحببتَهم وواليتَهم ومدحتَهم . ثم أمر له بجائزة وكِسوةٍ ، وردّه إلى منزله مكرّماً . فكان ابن الزبير بعد ذلك يمدحه ويُشيد بذكره .

---

(١) تأوبها : عاودها . الهجود : النوم . ينمي : ينتشر . لكيز : قبيلة من عبد القيس ، من ربيعة . جلودها : حظوظها . صعر خده : أماله كبراً وتيهاً .

(٢) هذا القول من أمثال العرب ، والحقين : اللبن المحقون في الإناء ، والعذرة : العذر . وأصله أن رجلا نزل بقوم واستسقاهم لبناً ، وعندهم لبن قد حقنوه في وطب، فاعتلوا عليه واعتذروا ، فقال هذا القول، وهذا المثل يضرب لمن يعتذر ولا عذر له .

فلمّا قُتل مصعب بن الزبير اجتمع ابن الزّبير وعبد الله بن زياد بن ظَبْيان في مجلس ، فعرف ابن الزّبير خبره – وكان عبد الله هو الذي قتل مصعب بن الزُبير – فاستقبله بوجهه وقال له :

أبا مَطَرٍ شَلّتْ يَمِينٌ تفرّعتْ
بسَيفك رأسَ ابن الحَواريّ مُصعَبِ[1]

فقال له ابن ظبيان : فكيف النّجاةُ من ذلك ؟ قال : لا نجاةَ ، هيهاتَ ، سبق السيفُ العَذل[2] . قال : فكان ابن ظَبيان بعد قتله مصعباً لا ينتفع بنفسه في نوم ولا يقظة ، وكان يُهَوَّل[3] عليه في منامه فلا ينام ، حتى كَلّ جسمُه ونُهِك ، فلم يزل كذلك حتى مات .

.. عليّ بن عثّام الكلابيّ قال :

دخل عبد الله بن الزبير الأسديّ على مصعب بن الزُبير بالكوفة لمّا وَلِيها ، وقد مدَحه ، فاستأذنه الإنشاد ، فلم يأذن له وقال له : ألم تُسقِط السماء علينا وتمنعْنا قَطْرَها في مديحك لأسماء بن خارجة . ثم قال لبعض من حضر : أنشِدْها ، فأنشدَه :

إذا مات ابنُ خارجةَ بنِ حِصْنٍ ... فلا مَطَرت على الأرض السماءُ
ولا رجع الوُفود بغُنْمِ جيشٍ ... ولا حَمَلت على الطُهْر النِساءُ
لَيَومٌ منك خيرٌ من أُناسٍ ... كثيرٍ حولَهم نَعَمٌ وشاءُ

(١) تفرعت : علت . الحواري : هو الزبير بن العوام ، ومعنى الحواري : ناصر النبي وصاحبه المختص به .

(٢) العذل : اللوم ، وهذا المثل يضرب عند تعذر تلافي الأمر .

(٣) هول عليه : رأى ما يهوله ويفزعه .

فبُورك في بَنيك وفي أبيهـم   إذا ذُكروا ونحن لك الفِداءُ [1]

فالتفت إليه مُصعبٌ وقال له : اذهَبْ إلى أسماءَ ، فما لك عندنا شيء . فانصرف . وبلغ ذلك أسماء فعوّضه حتى أرضاه ، ثم عوّضه مصعبٌ بعد ذلك ، وخصّ به ، وسمع مديحَه وأحسن عليه ثوابه .

عن مُجالدٍ قال : قتل ابن الزُبير من شيعة بني أميّة قوماً بلغه أنهم يتجسّسون لعبد الملك ، فقال فيه عبد الله بن الزَبير في ذلك يهجوه ويُعيّره بفعلـه :

أيّها العائذُ في مكّـةَ كم   من دمٍ أهرقتَه في غيرِ دَمْ
أيَدٌ عائذةٌ مُعصِمـةٌ   ويدٌ تقتل مَن حَلّ الحَرَمْ ! [2]

عن خالد بن سعيد عن أبيه قال :

كان عبد الله بن الزَبير صديقاً لعَمرو بن الزُبير بن العوّام ، فلمّا أقامه أخوه [3] لِيُقتَصّ منه بالغ كل ذي حِقدٍ عليه في ذلك، وتدسّس فيه من يتقرّب إلى أخيه . وكان أخوه لا يسأل من ادّعى عليه شيئاً بَيّنَةً ، ولا يطالبه بحُجّةٍ ، وإنما يقبل قوله ثم يُدخله إلى السجن ليقتصّ منه ، فكانوا يضربونه والقَيحُ ينتضح من ظهره وأكتافه على الأرض ، لشدة ما يمرّ به ، ثم يُضرَب وهو على تلك الحال . ثم أمر بأن يُرسَل عليه الجِعلان [4] ، فكانت تدِبّ عليه فتثقُب لحمه ، وهو مُقيّدٌ مَغلول ، يَستغيث فلا يُغاث ، حتى مات على تلك الحال .

---

(١) النعم : الإبل .
(٢) عصم إلى الرجل : عاذ به والتجأ اليه .
(٣) أخوه : أي عبد الله بن الزبير ، وكان بين عبد الله وأخيه عمرو عداوة شديدة لما كان من وقوف عمرو إلى جانب بني أمية وضربه أنصار أخيه عبد الله .
(٤) الجعلان ج جعل : دويبة سوداء تشبه الخنفساء .

فدخل المُوَكّل به على أخيه عبد الله بن الزبير ، وفي يده قدحُ لبنٍ يريد أن يتسحّر به ، وهو يبكي . فقال له : ما لَكَ ؟ أمات عمرٌو ؟ قال : نعم . قال : أبعدَه الله [1] ، وشرب اللبن ، ثم قال : لا تُغسّلوه ولا تُكَفّنوه ، وادفِنُوه في مقابر المشركين ، فدُفن فيها . فقال ابن الزّبير الأسدي يرثيه ويؤنّب أخاه بفِعله ، وكان له صديقاً وخِلاً ونديماً :

أيا راكباً إمّا عَرَضتَ فبَلّغَنْ
كبيرَ بني العوّام إن قيل مَن تَعْنِي
ستعلم إن جالت بك الحربُ جَوْلةً
إذا فَوّق الرامُون أسهمَ مَن تُغْني
فأصبحت الأرحامُ حينَ وَليتَها
بكفّيك أكراشاً تُجَرُّ على دِمْنِ
عقدتم لِعَمرٍو عُقدةً وغدرتمُ
بأبيضَ كالمصباح في ليلة الدَّجْن
وكبّلْتَه حَولاً يجود بنفسه
تَنُوءُ به في ساقه حِلَقُ اللبْن
فما قال عمرٌو إذ يجود بنفسه
لِضاربه حتى قضى نَحْبَه : دَعْني
تُحدّث مَن لاقيت أنك عائذٌ
وصرّعتَ قتلى بين زَمزم والرُّكنِ
جعلتم لضَرب الظهر منه عِصيّكم
تُراوحه والأصبحيّةَ للبَطْن

* * *

(١) أبعده الله : دعاء عليه بالهلاك .

وإني لأرجو أن أرى فيك ما ترى
به من عِقاب الله ما دُونه يُغني
قطعت من الأرحام ما كان واشجاً
على الشَّيب وابتعت المخافة بالأمن
وأصبحتَ تسعى قاسطاً بكتيبة
تُهدِّمُ ما حول الحَطيم ولا تَبني
فلا تَجزَعَنْ من سُنَّةٍ قد سننتَها
فما للدِماء الدهرَ تُهرَق من حَقْنِ (١)

عن العُتْبيّ قال :

لمّا قُتل عبد الله بن الزُبير صَلب الحجّاجُ جَسدَه وبعث برأسه إلى عبد الملك ، فجلس على سريره ، وأذِن للناس فدخلوا عليه ، فقام عبد الله بن الزَبير الأسديّ فاستأذنه في الكلام فقال له : تكلّمْ ولا تَقُلْ إلاّ خيراً ، وتوخَّ الحقَّ فيما تقوله . فأنشأ يقول :

مشى ابنُ الزُبير القَهقَرى فتقدّمتْ
أميّةُ حتى أحرزُوا القَصَباتِ
وجئتَ المُجلّي يابنَ مَروان سابقاً
أمامَ قُريشٍ تنفُضُ العُذُراتِ

---

(١) فوق السهم : جعل له فوقاً ، والفوق : الشعبة في أعلى السهم حيث يكون الوتر . أكراش ج كرش ، كحمل وكتف : لذي الحافر بمثابة المعدة للانسان . الدمن : الزبل . حلق اللبن : يريد القيود التي وضعت في ساقه ولكن لفظ « اللبن » لا يؤدي هذا المعنى فلعله محرف عن « اللطن » وهو ضرب من الصفر والنحاس . الأصبحية : السياط ، نسبة إلى ذي أصبح ملك حمير . ما دونه يغني : أي أقله يكفي في الانتقام منك . قاسطاً : ظالماً . الحطيم : ما بين الركن وزمزم والمقام .

فلا زِلتَ سبّاقاً إلى كلّ غايــةٍ
من المجد نَجّاءً من الغَمَرات (١)

قال : فقال له : أحسنتَ ، فسَلْ حاجتَك . فقال له : أنت أعلى عيناً بها وأرحبُ صَدراً يا أميرَ المؤمنين . فأمر له بعشرين ألف درهم وكسوة . ثم قال له : كيف قلت ؟ فذهب يعيد هذه الأبيات ، فقال : لا ، ولكنْ أبياتك في المُحِلّ (٢) وفيّ وفي الحجّاج التي قُلتَها . فأنشده :

كأنّي بعبد الله يركبُ رَدْعَــه
وفيه سِنانٌ زاعــبيٌّ مُحَرَّبُ
وقد فرّ عنــه المُلحِدون وحلّقت
به وبمن آساه عَنقاءُ مُغرِبُ
تولّوا فخلّوه فشال بشِلْــــوه
طويلٌ من الأجذاع عارٍ مُشَذَّب
بكفّيْ غُلامٍ من ثقيفٍ نَمتْ به
قريشٌ وذو المجد التليدِ مُعتَّبُ (٣)

فقال له عبد الملك : لا تقل غلام ولكن هُمام ، وكتب له إلى الحجّاج بعشرة آلاف درهم أخرى .

---

(١) القصبات : أي قصبات السبق . المجلي : السابق من الخيل . العذرة : الناصية والخصلة من الشعر . الغمرات : الشدائد .
(٢) كان عبد الله بن الزبير يقال له « المحل » لإحلاله القتال في الحرم .
(٣) ركب ردعه : خر لوجهه قتيلا . زاعبي : صفة للرمح المنسوب إلى زاعب وهو اسم بلد أو رجل . حرب السنان : حدده . عنقاء مغرب : العنقاء طائر خرافي تحدثت عنه أساطير العرب ، ومغرب : أغربت في طيرانها ، وهذا مثل يضرب في الهلاك وبطلان الأمر . شال : ارتفع ، يشير إلى صلب الحجاج ابن الزبير . معتب : مشمر .

أبياته في عمرو بن عثمان

... أبو غسّان قال :

بلغني أنّ أوّل من أخذ بعِينة [١] في الإسلام عمرو بن عثمان بن عفّان : أتاه عبد الله بن الزّبير الأسديّ ، فرأى عمروٌ تحت ثيابه ثوباً رثّاً ، فدعا وكيله وقال : اقترض لنا مالاً . فقال : هيهاتَ ، ما يُعطينا التجّار شيئاً . قال : فأرِبْحهم ما شاؤوا . فاقترض له ثمانية آلاف درهم ، وثانياً عشرة آلاف ، فوجّه بها إليه مع تخت ثياب . فقال عبد الله بن الزبير في ذلك :

سأشكر عَمراً إن تراخت مَنيّتي
أياديَ لم تُمنَن وإن هي جَلّتِ

فتىً غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مُظهر الشكوى إذا النّعلُ زَلّت

رأى خُلّتي من حيث يخفى مكانُها
فكانت قذى عينيه حتى تجلّتِ [٢]

* * *

(١) العينة في الأصل : أن يبيع الرجل من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به ، وهنا يراد بها الربا .

(٢) لم تمنن : لم تقطع . الخلة : الحاجة والفقر .

١٧

عُبَيْدُ اللّٰه بن قيس الرُّقَيَّات •

(الأغاني ج ٥ ص ٧٣ وما بعدها)
(و ج ١٧ ص ٢٧٠ وما بعد ها)

الشاعر

هو عُبيد الله بن قيس .. بن عامر بن لُؤَيّ بن غالب ...

وإنّما لُقّب عبيد الله بن قيس الرُقَيّات لأنّه شبّب بثلاث نِسوةٍ سُمِّين جميعاً رُقَيَّة . منهنّ رُقَيّة بنت عبد الواحد ...، وابنة عمّ لهاَ يُقال لها رُقيّة ، وامرأة من بني أميّة يُقال لها رقيّة . وكان هواه في رقيّة بنت عبد الواحد . وكان عبد الواحد — فيما أخبرني الحَرَميُّ بن أبي العَلاء عن الزبير — ينزِل الرَّقَّة ، وإيّاه عنى ابن قيس بقوله :

• أدرجنا ابن قيس الرقيات في شعراء السياسة لأنه كان شاعر الحزب الزبيري الأول ، وهو إلى ذلك من شعراء الغزل المبرزين .

ما خيرُ عيشٍ بالجزيرة بعدما
عثَرَ الزمانُ ومات عبدُ الواحدِ

عن الزُبير قال : سألت عمّي مُصْعَباً ومحمّد بن الضَحّاك ومحمد بن حسن عن شاعر قريش في الإسلام ، فكلُّهم قالوا : ابنُ قيس الرُقَيَّات.

عن محمد بن عبد العزيز : أنّ ابن قيس الرقيّات أتى إلى طَلحةَ بن عبد الله بن عوف الزُهْريّ فقال له : يا عمّي ، اني قد قلت شعراً فاسمعْه، فإنّك ناصحٌ لقومك ، فإن كان جيّداً قلت ، وإن كان رديئاً كففتُ . فقال له : أَنشِد . فأنشدَه قصيدته الّتي يقول فيها :

مَنَع اللهو والهوى وسُرى الليل مُصعَبُ
وسِياطٌ على أكُفٍّ رجالٍ تَقَلَّبُ

فقال : قل يابنَ أخي فإنّك شاعر .

وكان عبيد الله بن قيس الرقيّات زُبَيريّ الهوى ، وخرج مع مصعَب ابن الزبير على عبد الملك . فلمّا قُتل مصعب وقُتل عبد الله هرب فلجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فسأل عبد الملك في أمره فأمّنه .

خروجه مع مصعب بن الزبير وخبره مع ابن جعفر وعبد الملك :

عبد الله بن البَصير البربريّ ، مولى قيس بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه قال :

قال عُبيد الله بن قيس الرقيّات : خرجت مع مُصعَب بن الزبير حين بلغه شخوصُ عبد الملك بن مروان إليه . فلمّا نزل مصعب بن الزبير بمَسكِن (١) ، ورأى مَعالم الغَدر ممّن معه ، دعاني ودعا بمالٍ ومناطق ،

(١) مسكن : موضع على نهر دجيل عند دير الجاثليق كانت به الوقعة بين عبد الملك ومصعب .

فملأ المناطق من ذلك المال وألبسني منها وقال لي : انطلقْ حيث شئت فإنّي مقتول . فقلت له : لا والله لا أَرِيمُ [1] حتى أرى سبيلك . فأقمت معه حتى قُتل . ثم مضيت إلى الكوفة ، فأوّل بيت صِرتُ إليه دخلتُه ، فإذا فيه امرأةٌ لها ابنتان كأنّهما ظَبيتان ، فرَقِيتُ في درجةٍ لها إلى مَشْرَبةٍ [2] فقعدت فيها ، فأمرت لي المرأة بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفَرش والماء للوضوء . فأقمت كذلك عندها أكثرَ من حَولٍ ، تُقيم لي ما يُصلحني وتغدو عليّ في كلّ صباحٍ فتسألني بالصَّباح والحاجة [3] ، ولا تسألني مَن أنا ولا أسألُها من هي ، وأنا – في ذلك – أسمع الصِّياح فيَّ والجُعْل [4] .

فلمّا طال بي المُقام وفقدت الصِّياح فيَّ وغَرِضتُ [5] بمكاني غدت عليّ تسألني بالصَّباح والحاجة ، فعرّفتُها أنّي قد غرِضت وأحببت الشخوص إلى أهلي ، فقالت : نأتيك بما تحتاج إليه إن شاء اللهُ تعالى . فلمّا أمسيتُ وضرب الليل بأرواقه رَقيتْ إليّ وقالت : إذا شئتَ . فنزلت وقد أعدّتْ راحلتين عليهما ما أحتاج إليه ومعهما عبدٌ ، وأعطت العَبد نفقة الطريق وقالت : العبدُ والراحلتان لك .

فركبتُ وركب العبدُ معي حتّى طرقتُ أهل مكّة ، فدققتُ منزلي فقالوا لي : مَن هذا ؟ فقلت : عُبيد الله بن قيس الرقيّات ، فوَلْوَلُوا وبكَوا وقالوا : ما فارقَنا طلبُك إلاّ في هذا الوقت . فأقمت عندهم حتى أسحرتُ ، ثم نهضت ومعي العبدُ حتّى قدمت المدينة ، فجئت عبد الله بن

---

(1) لا أريم : لا أبرح .
(2) المشربة : العلية .
(3) أي تلقي علي تحية الصباح وتسألني عن حاجتي .
(4) الجعل : أراد ما يجعل من المال مكافأة لمن يرشد إلى مكاني .
(5) غرضت : ضجرت .

جعفر بن أبي طالب عند المساء وهو يُعشّي أصحابه ، فجلست معهم وجعلتُ أتعاجم وأقول : يار يار [1] ابنَ طيّار [1] .

فلمّا خرج أصحابه كشفت عن وجهي فقال : ابنُ قيس ؟ فقلت ؛ ابن قيس ، جئتك عائذاً بك . قال : ويحَك ! ما أجدَّهم في طلبك وأحرصهم على الظّفر بك! ولكنّي سأكتب إلى أمّ البنين بنت عبد العزيز ابن مروان ، فهي زوجة الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرقُّ شيء عليها . فكتب إليها يسألها أن تشفع له إلى عمّها ، وكتب إلى أبيها يسألهُ أن يكتب إليها كتاباً يسألها الشفاعةَ . فدخل عليها عبد الملك ، كما كان يفعل ، وسألها : هل من حاجة ؟ فقالت : نعم ، لي حاجةٌ . فقال : قد قضيتُ كلَّ حاجة لك إلاّ ابنَ قيس الرقيّات . فقالت : لا تَستثنِ عليَّ شيئاً . فنفحَ بيده فأصاب خدّها ، فوضعت يدها على خدّها ، فقال لها : يابنْتي ، ارفَعي يدك ، فقد قضَيت كلّ حاجة لك وإن كانت ابن قيس الرقيات . فقالت : إنّ حاجتي ابنُ قيس الرقيّات تُؤَمّنُه ، فقد كتب إليَّ أبي يسألني أن أسألكَ ذلك . قال : فهو آمنٌ ، فمُرِيه يحضُر مَجلسي العَشِيّةَ .

فحضر ابن قيسٍ وحضر الناسُ حين بلغهم مجلسُ عبد الملك . فأخّر الإذن ثم أذِن للناس ، وأخّر إذن ابن قيس الرُقيّات حتى أخذوا مجالسهم ، ثم أذِن له . فلمّا دخل عليه قال عبد الملك : يا أهل الشأم ، أتعرِفون هذا؟ قالوا : لا . فقال : هذا عبيد الله بن قيس الرقيّات الذي يقول :

كيف نَومي على الفِراش ولمّـــا
تَشمَلِ الشأمَ غـــارةٌ شَعواءُ

---

(١) يار : كلمة فارسية بمعنى الصديق والمعين والطيار لقب جعفر بن أبي طالب وكانت قطعت يداه في غزوة مؤتة فعوضه الله عنهما جناحين يطير بهما في الجنة وقيل له الطيار ، وابن طيار هنا في موضع المنادى ، يريد : أنا صديق يابن جعفر بن أبي طالب .

تُذهل الشيخَ عن بَنيه وتُبدي
عن خِدامِ العَقيلةُ العذراء [1]

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، اسقِنا دمَ هذا المنافق . قال : آلآنَ وقد أمّنتُه وصار في منزلي وعلى بِساطي ! قد أخّرت الإذن له لِتقتُلوه فلم تفعلوا . فاستأذنه ابن قيس الرقيّات أن يُنشده مديحه ، فأذِن له ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

عاد له من كَثيرةَ الطَرَبُ ... فعَينُه بالدُموع تنسكِبُ
كُوفيّةٌ نَازحٌ مَحلّتُها ... لا أَمَمٌ دارُها ولا صَقَبُ
والله ما إن صَبّت إليَّ ولا ... إن كان بيني وبينَها سَبَبُ
إلاّ الذي أورثتْ كثيرةُ في الـ ... ـقَلب وللحُبّ سَورةٌ عَجَبُ [2]

حتى قال فيها :

إنّ الأغرَّ الذي أبوه أبو العا ... صي عليه الوقارُ والحُجُبُ
يعتدِلُ التاجُ فوق مَفْرِقه ... على جَبينٍ كأنّه الذهب

فقال له عبد الملك : يابنَ قيس ، تمدَحُني بالتّاج كأنّني من العجَم ، وتقول في مُصعَب :

إنّما مُصعبٌ شهابٌ من اللـ ... ـه تجلّتْ عن وَجهه الظَلْماءُ
مُلكُه مُلك عِزّةٍ ليس فيـه ... جَبَرُوتٌ منه ولا كِبْرِياءُ

---

(١) شعواء : متفرقة . الخدام ج خدمة : الخلخال ، وخدام هنا في نية الاضافة إلى ضمير والتقدير : عن خدامها ، وثمة رواية أخرى لا تحوجنا إلى التقدير وهي : عن براها ، والبرى : الخلاخيل .

(٢) كثيرة : يقال انها المرأة التي استخفى عندها حين فر من عبد الملك . أمم : قريب ومثلها : صقب ، والصقب أيضاً : المجاورة والملاصقة . السورة : السطوة .

أمّا الأمانُ فقد سبق لك ، ولكن واللهِ لا تأخذُ مع المسلمين عطاءً أبداً .

قال : وقال ابن قيس الرقيّات لعبد الله بن جعفر : ما نفعني أماني ، تُركت حيّاً كميّتٍ لا آخُذ مع الناس عطاءً أبداً . فقال له عبد الله بن جعفر : كم بلغتَ من السنّ ؟ قال : ستّين سنةً . قال : فعمّر نفسك . قال : عشرين سنة من ذي قِبَل[1] ، فذلك ثمانون سنةً . قال : كم عطاؤك ؟ قال : ألفا درهمٍ . فأمر له بأربعين ألفِ درهمٍ ، وقال : ذلك لك عليّ إلى أن تموت على تعميرك نفسك . فعند ذلك قال عبيد الله بن قيس الرقيّات يمدح عبد الله بن جعفر :

تقدّتْ بي الشّهباءُ نحو ابن جعفرٍ
سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها
تزور امرءاً قد يعلم اللهُ أنّه
تجودُ له كفٌّ قليلٌ غِرارها
أتيناك نُثني بالذي أنت أهلُه
عليك كما يُثني على الرّوض جارُها
فوالله لولا أن تزور ابنَ جعفرٍ
لكان قليلاً في دمشقَ قرارها
إذا متَّ لم يُوصَلْ صديقٌ ولم تُقَم
طريقٌ من المعروف أنت منارها
ذكرتُك أن فاض الفُراتُ بأرضنا
وفاض بأعلى الرّقّتَيْن بحارها

---

(١) من ذي قبل : في المقبل من الأيام .

وعندي مِمّا خَوّلَ اللهُ هَجْمَـةٌ
عطاؤك منهـا شَوْلُها وعِشارهـا
مباركـةٌ كانت عطاءَ مُبارَكٍ
تُمانح كُبراها ، وتَنمي صِغارها (١)

الزبير قال : حدّثنا مصعب بن عبد الملك قال : قال عبد الملك بن مروان لعبيد الله بن قيس الرقيات : ويحَكَ يابنَ قيس ! أما اتّقيت الله حين تقول لابن جعفر :

تَزُور امرءاً قد يَعلم اللهُ أنّـه
تَجُود له كفٌّ قليلٌ غِرارُهـا

ألا قلت : قد يعلم الناس ولم تقل : قد يعلم الله ! فقال ابن قيس : قد واللهِ علَّمه الله ، وعلمتَه أنت ، وعلمتُه أنا ، وعلمه الناسُ .

... الزُبير بن بَكّار قال : حدّثني عمّي قال :

كان ابن قيس الرُقيّات منقطعاً إلى ابن جعفر ، وكان يَصِله ويقضي عنه دَينه ، ثم استأمن له عبد الملك فأمّنه ، وحرَمه عطاءه . فأمره عبد الله أن يُقدّر لنفسه ما يَكفيه أيّامَ حياته ، ففعل ذلك ، فأعطاه عبد الله ما سأل ، وعوّضه من عطائه أكثرَ منه . ثمّ جاءت عبدَ الله صِلةٌ من عبد الملك ، وابنُ قيسٍ غائبٌ ، فأمر عبد الله خازنَه فخبّأ له صِلته ، فلمّا قدِم دفعها إليه ، وأعطاه جاريةً حسناء ، فقال ابن قيس :

(١) تقدت : سارت سيراً بين العجل والمبطىء . غرارها : نظيرها . وأصله : المثال الذي تضرب عليه النصال لتصلح . الرقتان : يراد بهما الرقة والرافقة ، والرقة مدينة على الفرات بالجزيرة ، والرافقة : بلد مصاقب للرقة على الفرات أيضاً . الهجمة : الجماعة من الإبل . الشول ج شائلة : من الإبل ما أتى عليها سبعة أشهر من يوم نتاجها فارتفع ضرعها وقل لبنها . العشار ج عشراء : الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر . ما تحت الناقة : درت في الشتاء بعدما ذهبت ألبان الابل . تنمي : تزيد .

إذا زُرتُ عبدَ الله ، نفسي فِداؤه
رجعتُ بفَضلٍ من نَداه ونائلِ
وإن غبتُ عنه كان للوُدِّ حافظاً
ولم يكُ عنّي في المَغيب بغافلِ
تداركني عبدُ الإله وقد بدت
لِذي الحِقْد والشّنْآن منّي مَقاتلي
فأنقذني من غَمرة الموت بعدما
رأيت حِياضَ الموت جَمّاً المَناهل
حَباني لمّا جئتُه بعَطيّةٍ
وجاريةٍ حسناءَ ذاتِ خَلاخلِ

مظاهرته لعبد العزيز بن مروان على عبد الملك

... سليمان بن نوفَل بن مُساحِق عن أبيه عن جَدّه قال :

أراد عبد الملك بن مَروان البَيعة لابنه الوليد بعد عبد العزيز بن مروان، وكتب إلى عبد العزيز يسأله ذلك ، فامتنع عليه ، وكتب إليه يقول له : لي ابنٌ ليس ابنك أحبَّ إليك منه إليَّ ، فإن استطعت ألاّ يُفرّقَ بيننا الموتُ وأنت لي قاطعٌ فافعل . فرقّ له عبد الملك وكفّ عن ذلك ، فقال عبيد الله بن قيس في ذلك ، وكان عند عبد العزيز :

تَخلُفك البيضُ من بَنيك كما يَخلُفُ عُودُ النُّضار في شُعَبِهْ
ليسوا من الخِرْوع الضِّعاف ولا أشباه عِيدانه ولا غَرَبِه
نحن على بَيعة الرّسول التي أُعطي من عُجْمه ومن عَرَبه
نأتي إذا ما دعوتَ في الزغَف المَسْرودِ أبدانه وفي جُببه

تَهدي رَعِيلاً أمامَ أرعــنَ لا يُعرَف وجهُ البَلْقاء في جَلَبه (١)

فقال عبد الملك : لقد دخل ابن قيس مدخلاً ضيّقاً ، وتهدّده وشتمه وقال : أليس هو القائل :

كيف نَومي على الفِراش ولمّـا تشمل الشأمَ غارةٌ شَعواءُ
تُذهل الشيخَ عن بَنيه وتُبــدي عن خِدامِ العَقيلةُ العَذراء

أو ليس القائل :

على بَيعة الإسلام بايعن مُصعَباً كراديسَ من خيلٍ وجَمعاً مُباركا
تَدارك أخرانا ويمضي أمامَنا ويَتبع ميمونَ النقيبةِ ناسِكا
إذا فرغَت أظفارُه من كَتيبــةٍ أمال على أُخرى السُيوفَ البَواتكا (٢)

قال : فلمّا بلغ عبيدَ الله قولُ عبد الملك وشتمه إيّاه قال :

بَشَّر الظَبيُ والغُرابُ بسُعدى مَرحباً بالذي يقول الغُرابُ
قال لي إنّ خير سُعدى قريبٌ قد أنَى أن يكونَ منــه اقتراب

(.. إلى أن يقول :)

اذهبي فاقرَئي السّلامَ عليهــا ثم رُدّي جَوابَنا يا رَبــابُ
حدّثيها ما قد لقيتُ وقُولي حُقّ للعاشق الكريم ثوابُ
رجلٌ أنتِ هَمّه حين يُمسِي خامرتْه من أجلك الأوصابُ

---

(١) بين رواية الأغاني ورواية الديوان اختلاف يسير في رواية هذه الأبيات ، وقد اخترنا رواية الديوان في بعضها . النضار : ضرب من خشب الأثل . الخروع : نبات ضعيف رخو والخرع : الرخاوة ولين المفاصل . الغرب : نوع من الشجر . الزغفة : الدرع الواسعة المحكمة . الجبة : الدرع . الرعيل : مقدمة الخيل . الأرعن : صفة للجيش الكثير العدد . البلقاء : صفة للفرس في لونها بياض وسواد .

(٢) الكردوسة : القطعة العظيمة من الخيل . بواتك : قواطع .

لا أشمُّ الرَّيْحان إلاّ بعيني ... كرماً إنما يَشَمُّ الكِلابُ
رُبَّ زارٍ عليَّ لم يرَ منّي ... عَثْرةً وهو مِمّاسٌ كذّابُ
خادع اللهَ حين جَلّله الشيـ ... ـبُ فأضحى قد بان منه الشّبابُ
يأمُر الناسَ أن يَبَرُّوا ويُمسي ... وعليه من عَيْبه جِلْبابُ
لا تَعِبْني فليس عندك عِلمٌ ... لا تنامَنَّ أيُّها المُغتابُ
تخْتِل الناسَ بالكِتاب فهلاّ ... حين تغتابني نَهاك الكتاب
لست بالمُخبِتِ التَقيِّ ولا المَحْـ ... ـض الذي لا تَذمُّه الأنسابُ
إنني والتي رمت بك كَرْهاً ... ساقطاً مُلصقاً عليك التُرابُ
لتَذُوقنَّ غِبَّ رأيك فينا ... حين تبدو بعِرضك الأنداب[1]

قال الزبير : معنى قوله :

لا أشمُّ الرّيحان إلاّ بعَيْني ... كرماً إنّما يشمَّ الكلابُ

يعرّض بعبد الملك لأنه كان متغيّر الفم ، يؤذيه رائحته ، فكان في يده أبداً ريحان أو تفّاحة أو طِيب يشمّه .

---

(١) ذكر راوي هذا الخبر أن ابن قيس قال هذه القصيدة رداً على شتم عبد الملك إياه ، وهو أمر مستبعد فلم يكن الشاعر ليجرؤ على مخاطبة عبد الملك بهذه اللهجة والتعريض به وهجائه ، فضلا عن أن سياق القصيدة يدل على أنه يخاطب بها رجلا اغتابه وهو رجل يظهر التقى والنسك وهو ممن يطعن في نسبهم ، وهذه الصفات لا تنطبق على عبد الملك ، ولم يذكر شارح الديوان أن المخاطب بها عبد الملك وانما قال إنه يذكر فيها المغتاب والمرائي . وإلى ذلك نرى أن الزبير قد تعسف في شرح قوله : لا أشم الريحان وجعله تعريضاً بعبد الملك الذي كان أبخر الفم .
أنى : حان. لا أشم الريحان ... : أراد : لا أضعه على أنفي ولكن أضعه على عيني من غير أن أشمه ، يفتخر بذلك ، ويريد بالريحان النساء . مماس : نمام ، وهذه رواية الديوان ، وهي أنسب من رواية المطبوعة . تختل : تخدع . المخبت : الخاشع . الذي لا تذمه الأنساب : هذه رواية الديوان وهي أجود من رواية المطبوعة . غب رأيك : عاقبة رأيك الأنداب ج ندبة : أثر الجرح الباقي على الجلد ، والمراد هنا المطاعن والمثالب .

الزبير عن عمه : أن ابن قيس قال في عبد العزيز بن مروان .

يلتفِتُ الناسُ عند مِنبره إذا عَمُودُ البَرِيّة انهدَما

يعني : إذا مات عبد الملك ، لأن العهد كان إليه بعده .

قال الزبير : فأخبرني مُصعب بن عثمان قال : لمّا بلغ عبدَ الملك هذا البيت أحفظه [1] وقال : بِفِيه الحَجَر ، وحينئذٍ قال : لقد دخل ابن قيس مَدخلاً ضيّقاً .

منزلته عند آل الزُبير

محمّد بن الضَحّاك عن أبيه :

استأذن عُبيد الله بن قيس الرُقيّات على حمزةَ بن عبد الله بن الزُبير فقالت له الجارية : ليس عليه إذْنٌ الآنَ . فقال : أما إنّه لو علم بمكاني ما احتجب عنّي ! قال : فدخلت الجارية على حَمزة فأخبرتْه ، فقال : ينبغي أن يكون هذا ابن قيس الرقيّات ، ائذَني له ، فأذِنت له ، فقال : مَرحباً بك يابنَ قيس ، هل من حاجةٍ نَزَعتْ بك ؟ قال : نعم ؛ زَوّجتُ بَنين لي ثلاثةً ببناتِ أخٍ لي ثلاثٍ ، وزوّجت ثلاثة من بني أخٍ لي بثلاثِ بناتٍ لي . قال : فلِبَنيك الثلاثةِ أربعُمائةِ دينارٍ أربعمائة دينارٍ ، ولبني أخيك الثلاثة أربعمائة دينارٍ أربعمائة دينارٍ ، ولبناتك الثلاث ثلاثُمائةِ دينارٍ ثلاثمائة دينارٍ ، ولبنات أخيك الثلاثِ ثلاثمائة دينارٍ ثلاثمائة دينارٍ . هل بَقِيتْ لك من حاجةً يابنَ قيس ؟ قال : لا واللهِ ، إلاّ مَؤُونةُ السفر . فأمر له بما يُصلِحُه لسفره حتى رِقاع أخفاف الإبل .

---

(١) أحفظه : أغضبه .

تغزّله برُقَيّة بنت عبد الواحد

فِنْد مولى عائشة بنت سعد بن أبي وَقّاص قال :

حَجّت رُقيّةُ بنت عبد الواحد بن أبي سعد العامريّةُ ، فكنت آتيها وأُحدّثها فتستظرِف حديثي وتضحك منّي . فطافت ليلةً بالبيت ثم أهوت لِتَستلمَ الرُكن الأسودَ وقَبّلتْه ، وقد طُفت مع عُبيد الله بن قيس الرقيّات ، فصادف فَراغُنا فراغَها ولم أشعُر بها ، فأهوى ابن قيس يستلم الركنَ الأسود ويُقبّلُه ، فصادفها قد سبَقت إليه ، فنَفَحتْه بِرُدْنها (١) فارتدع ، وقال لي : مَن هذه ؟ فقلت : أوَ لا تعرِفها ! هذه رُقيّة بنت عبد الواحد بن أبي سَعد . فعند ذلك قال :

مَن عَذيري مِمّن يَضِنُّ بِمَبْذُو ... لٍ لغيري عليَّ عندَ الطّوافِ

يريد أنها تقبّل الحجر الأسود وتضِنّ عليه بقبلتها . وقال في ذلك :

حَدّثوني هل عـلى رجـلٍ ... عاشقٍ في قُبلةٍ حَرَجُ

قال : ولمّا نفحته بِردُنها فاحت منه رائحة المسك حتى عجِب مَن في المسجد ، وكأنّها فُتحت بين أهل المسجد لَطيمةُ (٢) عطّار ، فسبّحَ مَن حول المسجد .

قال : وقال فِنْدٌ : فقلت بعد انصرافها لابن قيس : هل وجدتَ رائحةَ رُدْنها لِشيءٍ طِيباً ؟ فعند ذلك قال أبياته التي يقول فيها :

سائِلا فِنْداً خَليـلي ... كيف أَردانُ رُقَيّـه

إنني عُلّقتُ خَـوْداً ... ذاتَ دَلٍّ بَخْتَريّـه (٣)

---

(١) نفحته بردنها : ضربته ضرباً خفيفاً بكمها .

(٢) اللطيمة : وعاء المسك .

(٣) الخود : الفتاة الشابة الحسناء . البختَرية : المتبخترة في مشيتها .

ابن المسيّب يفضّله على عمر وابن أبي عتيق يفضله على كثيّر :

عن سعيد بن مُسلِم بن وَهب ، مولى بني عامر بن لُؤَيّ ، عن أبيه قـال :

دخلت مسجد رسول الله ﷺ مع نوفَلِ بن مُساحِق ، وإنّه لـمُعتمِدٌ على يدي ، إذ مررنا بسعيد بن المُسَيّب في مجلسه، فسلّمنا عليه فردّ سلامَنا ، ثم قال لنوفلٍ : يا أبا سعيد ، مَن أشعَرُ أصاحِبُنا أم صاحِبُكم ؟ يعني : عبيد الله بن قيس الرقيّات أو عمر بن أبي ربيعة . فقال نوفل : حيث يقولان ماذا ؟ فقال : حين يقول صاحبُنا :

خليليّ ما بالُ المَطِيّ كأنّما
نَراها على الأدبار بالقوم تَنْكُصُ
وقد أبعدَ الحادي سُراهنّ وانتحى
بهنّ فما يألُو عَجُولٌ مُقَلِّصُ
وقد قُطِّعت أعناقُهنّ صَبابةً
فأنفُسُنا ممّا تُكَلَّفُ شُخّصُ
يزِدن بنا قُرباً فيزداد شوقُنا
إذا زاد طولُ العهد والبُعدُ يَنقُصُ (١)

ويقول : صاحبُكم ما شئت . فقال له نوفل : صاحبكم أشهر بالقول في الغزل ، أمتع اللهُ بك ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر . قال : صدقت . فلمّا انقضى ما بينهما من ذكر الشعر جعل سعيدٌ يستغفر الله ويعقِد بيده ويعدُّه بالخَمْس كلّها حتى وفّى مائةً .

فقال مسلم بن وهب : فلمّا فارقناه قلت لنوفل : أتُراه استغفر الله من

---

(١) السرى : السير ليلا . ما يألو : ما يقصر . قلص : استمر .

إنشاده الشعر في مسجد رسول الله ، ﷺ ؟ قال : كلاّ ، هو كثير الإنشاد والاستنشاد للشعر ، ولكنّي أحسَبُه للفخر بصاحبه .

إبراهيم بن عبد الله قال :

أنشد كُثيِّرٌ ابنَ أبي عَتيق كلمته الّتي يقول فيها :

ولستُ براضٍ من خَليلٍ بنائلٍ
قليلٍ ولا أرضى له بقَليلِ

فقال له : هـذا كلام مكافىءٍ ليس بعاشقٍ ، القُرَشيّان أقنع وأصدق منك : ابن أبي ربيعة حيث يقول :

ليت حظّي كلـَحْظة العين منها وكثيرٌ منها القليلُ المُهنّا

وقوله أيضاً :

فعِدي نائلاً وإن لم تُنيلي إنّه يُقنِع المُحِبَّ الرَّجاءُ

وابنُ قيس الرُقيّات حيث يقول :

رُقَيَّ بِعَيشكم لا تَهجُرِينا ومَنّينا المُنى ثمّ امطُلِينا
عِدِينا في غَدٍ ما شِئتِ إنّا نُحبّ وإن مَطلتِ الواعدِينا
فإمّا تُنجِزي عِدَتي وإمّا نعيش بما نُؤَمِّلُ منكِ حِينا

قال : فذكرت ذلك لأبي السائِب المخزُوميّ ، ومعه ابنُ المَولى ، فقال : صدق ابن أبي عَتيق ، وفقّه الله . ألا قال المَدْيُون كُثَيّر كما قال هذا حيث يقول :

وأبكي فلا ليلَى بكت من صَبابةٍ
لِباكٍ ولا ليلَى لِذي الوُدّ تَبذُلُ

وأخنعُ بالعُتبَى إذا كنت مُذنِباً
وإن أذنبتْ كنتُ الذي أتنصَّلُ (١)

بعض ما أخذ عليه

أحمد بن الحارث الخرّاز قال : سمعتُ ابن الأعرابيّ يقول : سُئل يونُس عن قول ابن الرُقيّات :

ما مرّ يومٌ إلاّ وعِندَهما   لحمُ رجالٍ أو يَوْلَغان دما

فقال يونس : يجوز يالَغان ولا يجوز يَوْلغان (٢) ، فقيل له : فقد قال ذلك ابن قيس الرقيّات ، وهو حجازيٌّ فصيح . فقال : ليس بفصيحٍ ولا ثقةٍ ، شغَل نفسه بالشُرب بتكْرِيت (٣) .

عن هشام بن سليمان المخزوميّ قال : قال ابن أبي عتيق لعُبيد الله بن قيس ، وقد مرّ به فسلّم عليه ، فقال : وعليك السلامُ يا فارسَ العَمياءِ . فقال له : ما هذا الاسم يا أبا محمّد ؟ بأبي أنت ! قال : أنت سمّيت نفسك حيث تقول :

سواءٌ عليها ليلُها ونَهارُها

فما يستوي الليل والنهارُ إلاّ على عَمياء . قال : إنّما عنَيت التعب . قال : فبيتُك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه .

* * *

(١) أخنع : أذل ، وأراها محرفة عن : أقنع . العتبى : الرضى وإزالة العتب .
(٢) في المطبوعة : يجوز : يولغان ولا يجوز يالغان ، والسياق يقتضي ما أثبتناه لأن ابن قيس قال : يولغان وهذا هو موضع اعتراض يونس عليه لأن صوابه : يالغان .
(٣) تكريت : بلدة بالعراق بين بغداد والموصل .

١٨

عَديّ بن الرِّقاع

(الأغاني جـ ٩ ص ٣٠٧ وما بعدها)

الشاعر

هو عَدِيّ بن زَيْد بن مالك .... بن معاويةَ بن الحارث – وهو عاملة – ابن عديّ بن الحارث بن مُرّة بن أدَد . وأم معاوية بن الحارث عاملةُ بنت وَديعة ، من قُضاعة ، وبها سُمّوا عاملة . ونسبه الناس إلى الرِّقاع ، وهو جَدّ جَدّه ، لشُهرته ، أخبرني بذلك أبو خليفةَ عن محمّد بن سَلاّم .

وكان شاعراً مُقدّماً عند بني أُميّة ، مَدّاحاً لهم ، خاصّاً بالوليد بن عبد الملك .. وجعله محمّد بن سلاّم في الطبقة الثالثة من شعراء الإسلام ، وكان منزله بدمشق ، وهو من حاضرة الشعراء لا مِن باديتهم . وقد تعرّض لجرير وناقضه في مجلس الوليد بن عبد الملك ، ثم لم تتمّ بينهما مُهاجاةٌ .

قال عبد الله بن مُسلم :

وممّا ينفرد به ويُقَدَّم فيه وصف المطيّة ، فإنه كان من أوصف الشعراء لها .

عن عليّ بن المُغيرة قال :

كان أبو عُبيدةَ يستحسن بيت عديّ بن الرقاع :

وسَنْانُ أقصَده النعاسُ فرَنّقتْ ... في عَينهِ سِنةٌ وليس بنائمِ [1]

جدّاً ، ويقــول : ما قال أحدٌ في مثل هذا المعنى أحسنَ منه في هذا الشعر .

وفي هذا الشعر غِناءٌ نسبته :

لولا الحَياءُ وأنّ رأسيَ قد عَسَا ... فيه المَشيبُ لزُرتُ أمَّ القاسمِ
وكأنّها وسطَ النِساء أعارهـــا ... عَينيه أحورُ من جآذرِ جاسمِ
وَسْنانُ أقصَده النُعاس فرنّقــتْ ... في عَينه سِنةٌ وليس بنائم
ألْـمِـمْ على طَـلَـلٍ عفا مُتقــادِمِ ... بينَالذُّويبِوبين غَيْبِالنّاعم [2]

عن أحمد بن يحيى ثعلبَ قال :

قال نُوحُ بن جريرٍ لأبيه : يا أبَتِ ، مَن أنسَبُ الشُعراء ؟ قال له : أتَعني ما قُلتُ ؟ قال : إنّي لست أُريد من شعرك إنّما أريد من شعر غيرك . قال : ابنُ الرِّقاع في قوله :

---

(١) أقصده : أصابه . رنق النوم في عينيه : خالطهما . السنة : أول النوم .

(٢) عسا : اشتد . الجاذر ج جؤذر : ولد البقرة الوحشية . جاسم : بلد بحوران . الذويب : ماء بنجد . غيب الناعم : موضع .

لولا الحياءُ وأنّ رأسيَ قد عسا
فيه المَشيب لزرتُ أمّ القاسم

الثلاثة الأبيات . ثم قال لي : ما كان يُبالي أن لم يقل بعدَها شيئاً .

عن المدائنيّ قال :

قال جريرٌ : سمعتُ عديَّ بن الرّقاع يُنشد :

تُزجي أغَنّ كأنّ إبرةَ رَوْقِه

فرحِمْتُه من هذا التشبيه فقلت : بأيّ شيءٍ يُشبّهه ترى ؟ فلمّا قال :

قلمٌ أصاب من الدّواةِ مِدادَها [1]

رحمت نفسي منه .

تأرجحه في نسبه

عن أبي عُبيدةَ قال :

مال رَوح بن زِنْباعٍ الجُذاميُّ إلى يزيدَ بن معاويةَ لمّا فصلَ بين الخُطْبتَين فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ألْحِقْنا بإخوتنا من مَعَدٍّ ، فإنّا مَعَدّيّون ، والله ما نحن من قَصَب الشأم ولا من زَعانف[2] اليمن . فقال يزيد : إن أجمعَ قومُك على ذلك جَعلناك حيث شئتَ . فبلغ ذلك عديَّ بن الرّقاع فقال :

إنّا رَضينا وإن غابت جماعتُنا
ما قال سيّدُنا رَوحُ بن زِنباعِ

(١) تزجي : تسوق . الأغن : صفة للظبي في صوته غنة . الروق : القرن .
(٢) القصبة : القرية . الزعانف ج زعنفة : القبيلة القليلة تنضم إلى غيرها .

يَرعى ثمانين ألفاً كان مِثلُهم
مِمّا يُخالف أحياناً على الراعي

قال : فبلغ ذلك ناتلَ [1] بن قيس الجُذاميَّ ، فجاء يَركُض فرسَه حتّى دخل المقصورة في الجمعة الثانية . فلما قام يزيد على المِنبر وثب فقال : أين الغادر الكاذبُ رَوح بن زِنباع ؟ فأشاروا إلى مجلسه ، فأقبل عليه وعلى يزيد ثم قال : يا أمير المؤمنين ، قد بَلغني ما قال لك هذا ، وما نعرِف شيئاً منه ولا نُقِرُّ به ، ولكنّا قومٌ من قحطانَ يسعُنا ما يسَعُهم ويعجِزُ عنّا ما يعجِزُ عنهم . فأمسك رَوح ورجَع عن رأيه . فقال عديُّ بن الرِقاع في ذلك :

أضَلالُ ليلٍ ساقطٍ أكنافُه
في الناس أَعْذَرُ أم ضَلالُ نَهارِ
قحطانُ والدنا الذي نُدعَى له
وأبو خُزَيمةَ خِندِفُ بنُ نِزارِ
أنبيعُ والدَنا الذي نُدعَى له
بأبي معاشرَ غائبٍ مُتَواري
تلك التِجارةُ لا زَكاءَ لمِثْلِها
ذهبٌ يُباع بآنُكٍ وإبارِ [2]

فقال له يزيد : غيَّرت يابنَ الرِّقاع ! قال : إنَّ ناتلاً واللهِ عليَّ أعزُّهما سُخطاً ، وأنصحهما لي ولعشيرتي .

---

(١) في المطبوعة : نائل وهو تصحيف .
(٢) الزكاء : النماء . الآنك : الرصاص . الإبار : ج إبرة .

مهاجاته جريراً

قال أبو عُبَيدة :

دخل جريرٌ على الوليد بن عبد الملك ، وعندَه عديُّ بن الرّقاع العامليُّ . فقال له الوليد : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، فمن هو ؟ قال : هذا ابنُ الرّقاع . قال : فشَرُّ الثياب الرّقاعُ ، فممّن هو ؟ قال : من عاملةَ . قال : أمِن التي قال الله تعالى فيها : « عاملةٌ ناصبةٌ تَصلَى ناراً حاميةً » ؟ فقال الوليد : والله لَيَرْكَبَنّك ، لِشاعرنا ومادِحنا والراثي لأمواتنا تقول هــذه المقالة ! يا غُلامُ ، عليَّ بإكافٍ [1] ولِجامٍ . فقام إليــه عمر بن الوليد فسأله أن يُعفيه فأعفاه . فقال : والله لَئن هجوتَه لأفعلنَّ وأفعلنَّ . فلم يُصرّح بهجائه وعرّض ، فقال قصيدته التي أوّلها :

حَيِّ المِدَمْنَةَ من ذات المَواعِيسِ

وقال فيها يعرّض به :

قد جَرَّبتْ عَرْكَتي في كلِّ مُعْتَرَكٍ
غُلْبُ الأسودِ فما بالُ الضغابيسِ [2]

وفاؤه لممدوحه

عن محمّد بن سَلاّم قال :

عزل الوليد بن عبد الملك عُبيدةَ بن عبد الرحمن عن الأردنّ وضربه وحلقه وأقامه للناس وقال للمتوكّلين به : مَن أتاه مُتوجّعاً وأثنى عليه

---

(١) الإكاف : برذعة الحمار .

(٢) المدمنة : الرملة الكثيرة الشجر . ذات المواعيس : موضع . الضغابيس ج ضغبوس : الرجل الضعيف .

فأنتُوني به . فأتى عديٌّ بن الرّقاع ، وكان عُبيدة إليه محسِناً ، فوقف عليه وأنشأ يقول :

فما عَزلُوك مَسْبوقاً ولكن إلى الخَيرات سَبّاقاً جَوادا
وكنتَ أخي ، وما وَلدتْك أمّي وَصُولاً باذلاً لي مُستَرادا
وقد هِيضَتْ لِنَكْبتك القُدامى كذاك اللهُ يفعلُ ما أرادا (١)

فوثب المتوكّلون إليـه ، فأدخلوه إلى الوليد وأخبروه بما جرى . فتغيّظ عليه الوليد وقال له : أتمدح رجلاً قد فعلت به ما فعلت ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّه كان إليّ مُحسناً ، ولي مُؤثراً ، وبي برّاً ، ففي أي وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم ! فقال : صدقت وكَرُمتَ ، فقد عفوتُ عنك وعنه لك ، فخُذه وانصرِفْ . فانصرَف به إلى منزله .

كُثيِّر ينقد شعره

عن الهيثم بن عَدِيّ قال :

أنشد عديٌّ بن الرّقاع الوليد بن عبد الملك قصيدته التي أوّلها :

عَرَف الديارَ تَوَهُّماً فاعتادها

وعنده كُثَيِّر ، وقد كان يبلُغه عن عديّ أنه يطعن على شعره ويقول: هذا شعرٌ حجازيٌّ مَقرورٌ إذا أصابه قُرُّ الشأم جمَدَ وهلَك . فأنشده إيّاها حتّى أتى على قوله :

وقصيدةٍ قد بِتُّ أجمع بَينَها
حتّى أُقَوِّمَ مَيْلَها وسِنادَها (٢)

(١) مستراد : مقصود . هاض العظم : كسره . القدامى : كذا وردت في المطبوعة ولا معنى لها هنا ولعلها : التدامي .
(٢) السناد : من عيوب القافية في الشعر .

فقال له كثيّر : لو كنت مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً لم تأتِ فيها بمَيلٍ ولا سِنادٍ فتحتاج إلى أن تقوّمها . ثم أنشد :

نظرَ المُثقّفِ في كُعوب قَناته
حتّى يُقيمَ ثِقافهُ مُنآدَها [1]

فقال له كثيّر : لا جرَمَ أنّ الأيام إذا تطاولت عليها عادت عَوجاء ، ولأن تكون مستقيمةً لا تحتاج إلى ثِقافٍ أجودُ لها . ثم أنشد :

وعلمتُ حتّى ما أُسائل واحداً
عن علم واحدةٍ لكي أزدادَها

فقال كثيّر : كذبتَ ، وربِّ البيت الحرام . فلْيَمتَحِنْك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صِغار الأمور دونَ كبارها حتى يتبيّن جَهلُك ، وما كنتَ قطُّ أحمقَ منك الآن حيث تظنّ هذا بنفسك . فضحك الوليد ومَن حضر ، وقُطع بعديّ بن الرّقاع حتى ما نطق .

خبره مع ابن سُريج

عن حَمّاد بن إسحاق عن أبيه عن جدّه إبراهيم :

أنّ الأحوص وابن سُرَيجٍ قدما المدينة [2] ، فنزلا في بعض الخانات ليُصلحا من شأنهما ، وقد قدِم عديّ بن الرّقاع ، وكانت هذه حاله ، فنزل عليهما . فلمّا كان في بعض الليل أفاضوا في الأحاديث ، فقال عديّ بن الرقّاع لابن سُريج : والله لَخُروجُنا كان إلى أمير المؤمنين أجدى علينا من المُقام معك يا مولى بني نوفَل . قال : وكيف

---

(١) ثقف القناة : قوّمها بالثقاف . المنآد : المعوج .

(٢) لاحظ محقق المطبوعة ، وهو على حق ، أن الحادثة ينبغي أن تكون جرت في دمشق ، حيث مقر الوليد ، لا في المدينة .

ذلك ؟ قال : لأنّك تُوشك أن تُلهِينا فتشغلَنا عمّا قصدنا له . فقال له ابن سريج : أوَ قلّةَ شُكرٍ أيضاً ؟ فغضب عديٌّ وقال : إنّك لتَمُنّ علينا أن نزلنا عليك ، وإنّي أعاهد اللهَ ألاّ يُظلّني وإيّاك سقفٌ إلاّ أن يكون بحضرة أمير المؤمنين ، وخرج من عندهما .

وقدِم الوليد من باديته فأذِن لهما فدخلا . وبلغه خبرُ ابن الرّقاع وما جرى بينه وبين ابن سُريج ، فأمر بابن سُريج فأخفي في بيتٍ ، ودعا بعَديٍّ فأدخله ، فأنشده قصيدةً امتدحه بها . فلمّا فرغ أومأ إلى بعض الخدَم فأمر ابن سريجٍ فغنّى في شعر عديّ بن الرّقاع يمدح الوليد :

عَرَف الديار توهّماً فاعتادها من بعد ما شَمِل البلى أبلادَها (١)

فطرب عديّ وقال : لا واللهِ ما سمعتُ يا أمير المؤمنين بمثل هذا قطُّ ولا ظننت أن يكون مثلُه طِيباً وحُسناً ، ولولا أنّه في مجلس أمير المؤمنين لقلت طائفاً من الجِنّ . أيأذن لي أمير المؤمنين أن أقول ؟ قال : قُلْ . قال : مثلُ هذا عند أمير المؤمنين . وهو يبعث إلى ابن سريجٍ يتخطّى به قبائل العرب فيُقال ابن سريج المغنّي مولى بني نوفل بعث أمير المؤمنين إليه ! فضحك ثم قال للخادم : أخرِجْه . فخرج ، فلمّا رآه عديّ أطرق خجلاً ثم قال : المعذرةَ إلى الله وإليك يا أخي ، فما ظننتُ أنك بهذه المنزلة ، وإنك لحقيقٌ أن تُحتملَ على كل هفوة وخطيئة . فأمر لهم الوليد بمالٍ سوّى بينهم فيه ، ونادمهم يومئذٍ إلى الليل .

* * *

(١) الأبلاد : الآثار .

١٩

العُدَيل بن الفَرْخ

(الأغاني ج ٢٢ ص ٣٢٧ وما بعدها)

الشاعر

العُدَيل بن الفَرْخ ... بن عِجْل ... بن بكر بن وائل ...

والعُديل شاعرٌ مُقلٌّ من شعراء الدولة الأموية . وكان له ثمانيةُ إخوة ، وأمُّهم جميعاً امرأة من بني شيبان ، ومنهم من كان شاعراً فارساً : أسود ، وسَوادة ، وشملة – وقيل سَلمة – والحارث ، وكان يقال لأُمّهم دَرماء .

.. فِراس بن خِندِف ، عن أبيه ، عن جدّه عليّ بن شَفيع قال :

لقيت الفرزدق مُنصرفه عن بكر بن وائل فقلت له : يا أبا فِراس ،

مَن شاعر بكر بن وائل مِمَّن خلَّفْتَه خلفَك ؟ قال : أُمَيم [1] بني عِجل – يَعني العُديل بن الفرَخ – على أنّه ضائع الشعر ، سَرُوقٌ للبُيوت .

قتله دابغاً

كان للعُديل وإخوته ابن عمّ يُسمّى عَمراً ، فتزوّج بنت عمّ لهم بغير أمرهم ، فغضبوا ورصدوه ليضربوه . وخرج عمرو ومعه عبدٌ له يُسمّى دابغاً ، فوثب العُديل وإخوته ، فأخذوا سيوفهم ، فقالت أمّهم : إنّي أعُوذ بالله من شرّكم . فقال لها ابنها الأسود : وأيّ شيء تخافين علينا ؟ فوالله لو حَملنا بأسيافنا على هذا الحِنْو ، حنو قُراقر [2] لما قام لنا . فانطلقوا حتّى لقُوا عَمْراً ، فلمّا رآهم ذُعر منهم وناشدهم ، فأبَوا ، فحمل عليه سَوادة فضرب عَمراً ضربةً بالسيف ، وضربه عمرو فقطع رجله ... وقال عمرو لدابغ : اضرِب وأنت حُرّ . فحمل دابغٌ فقتل منهم رجلاً ، وحمل عمروٌ فقتل آخرَ ، وتداولاهم فقتلا منهم أربعةً ، وضُرب العُديل على رأسه ، ثم تفرّقوا ، وهرب دابغٌ حتى أتى الشأم . فداوى ربضةُ بن النعمان الشيبانيّ للعُديل ضربته ، ومكث مُدّة .

ثم خرج العُديل بعد ذلك حاجّاً ، فقيل له إنّ دابغاً قد جاء حاجّاً ، وهو يرتحل فيأخذ طريق الشأم ، وقد اكترى . فجعل العُديل عليه الرصَد ، حتى إذا خرج دابغٌ ركب العديل راحلته وهو متلثّمٌ ، وانطلق يتبعه حتى لقيه خلف الرّكاب يَحدُو بشعر العديل ويقول :

(١) أمه : شجه .

(٢) الحنو : منعرج الوادي ، وحنو قراقر : موضع قرب ذي قار ، في بلاد بكر .

يا دارَ سلمى أقفرتْ من ذي قـارْ
وهـل بإقفار الدِّيار من عارْ
وقد كُسين عرَقاً مثلَ القـارْ
يخرُجن من تحت خِلالِ الأوبار [1]

فلحقه العديل ، فحبس عليه بعيره — وهو لا يعرفه — ويسير رويداً ، ودابغٌ يمشي رويداً ، وتقدّمت إبله فذهبت ، وإنّما يريد أن يُباعده عنها بوادي حُنين . ثم قال له العديل : والله لقد استرخى حَقَبُ رَحْلي [2] ، أنزِل فأغيّر الرحلَ وتُعينُني ؟ فنزل فغيّر الرّحل ، وجعل دابغٌ يُعينه ، حتى إذا شدّ الرّحل أخرج العُديل السيف فضربه حتى بَرَد ، ثم ركب راحلته فنجا ، وأنشأ يقول :

ألم ترَني جلّلت بالسيف دابغـاً
وإن كان ثأراً لم يُصِبه غَليلي
بوادي حُنين ليلةَ البدر رُعتُـه
بأبيضَ من ماءِ الحديد صَقيـلِ
وقلتُ لهم : هذا الطريقُ أمامكم
ولم أكُ إذا ساروا لهم بدَليلِ

ظفر الحجّاج به بعد فراره وعفوه عنه

قالوا : واستعدى مولى دابغ على العديل الحجّاج بن يوسف ، وطالبه

---

(١) القار : القطران . يخرجن : كذا وردت في المطبوعة وهو تحريف ، والصواب : يخرج ، يريد العرق الذي يتصبب من أجساد الإبل ، والتصويب من الشعر والشعراء ١/٤١٤ .
(٢) الحقب : الحزام الذي يلي حقو البعير .
(٣) القود : قتل القاتل بالقتيل .

بالقَـوَد [1] فيه ، فهرب العديل من الحجاج إلى بلد الروم ، فلما صار إلى بلد الروم لجأ إلى قيصر فأمّنه ، فقال في الحجّاج :

أخَـوّفُ بالحجّاج حتّى كأنّمـا
يُحَرَّك عَـظمٌ في الفؤاد مَهِيضُ
ودُون يد الحَجّاج من أن تنالَني
بِساطٌ لأيدي الناعجات عريضُ
مَهامُه أشبـاهٌ كأنّ سَرابَهـا
مُلاءٌ بأيدي الراحضات رَحِيضُ [2]

فبلغ شعره الحجاج ، فكتب إلى قيصر : لتَبعثَنّ به أو لأُغزِينّك جيشاً يكون أوّله عندك وآخره عندي . فبعث به قيصر إلى الحجّاج ، فقال له الحجّاج لمّا أُدخل عليه : أأنت القائل :

ودون يد الحجّاج من أن تنالني ....

فكيف رأيت اللهَ أمكَنَ منك ؟! قال : بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

فلو كنتُ في سَلمى أجاً وشِعابهـا
لكان لِحجّاجٍ عليّ سبيـلُ
خليلُ أمـير المؤمنين وسيفُـه
لكلّ إمـامٍ مصطفىً وخليـلُ
بنى قُبّـة الإسلام حتى كأنّمـا
هدى الناس من بعد الضلال رسولُ [3]

---

(١) القود : قتل القاتل بالقتيل .

(٢) هاض العظم : كسره . بساط : أرض منبسطة . الناعجة من الإبل : السريعة التي يصاد عليها نعاج الوحش وهي أيضاً البيضاء الكريمة . المهمه : المفازة البعيدة . الراحضات : الغاسلات ، والرحيض : المغسول .

(٣) سلمى وأجأ : جبلان في بلاد طيء .

فخلّى سبيله وتحمّل دية دابغٍ في ماله .

عن أبي عثمان البُقْطُريّ قال :

خرج العديل بن الفرخ يريد الحجّاج ، فلمّا صار ببابه حجبه الحاجب ، فوثب عليه العديل وقال : إنه لن يدخل على الأمير بعد رجالات قريش أكبر منّي ولا أولى بهذا الباب . فنازعه الحاجب الكلام فأحفظه ، وانصرف العديل عن باب الحجّاج إلى يزيد بن المهلّب ، فلمّا دخل إليه أنشأ يقول :

لئن أرتج الحجّاجُ بالبخل مالَه
فباب الفتى الأزديّ بالعرف يُفتَحُ
فتىً لا يُبالي الدهرَ ما قلّ مالُه
إذا جعلتْ أيدي المكارم تَسْنَح
يداه يدٌ بالعُرف تُنهِب ما حوتْ
وأخرى على الأعداء تسطو وتجرح
إذا ما أتاه المُرمِلُون تيقّنوا
بأنّ الغِنَى فيهم وشيكاً سيَسرح
أقام على العافين حُرّاسَ بابه
يُنادُونهم والحُرّ بالحرّ يَفرح
هلمُّوا إلى سَيب الأمير وعُرفه
فإنّ عطاياه على الناس تَنْفَحُ
وليس كعِلجٍ من ثَمودَ بكفّه
من الجود والمعروف حَزمٌ مُطرّحُ (١)

---

(١) العرف : المعروف . المزمل : الفقير فاقد الزاد . نفح الطيب : انتشرت رائحته . علج من ثمود : أراد به الحجاج .

فقال له يزيد : عرّضت بنا وخاطرت بدمك ، وباللهِ لا يصل إليك وأنت في حيِّزي [1] . فأمر له بخمسين ألف درهم ، وحملَه على أفراسٍ ، وقال له : الحقْ بعلياء نَجد ، واحذر أن تعلقَك حبائلُ الحجّاج أو تحتجنَك محاجنُه ، وابعث إليّ في كلّ عام ، فلك عليّ مثلُ هذا . فارتحل. وبلغ الحجّاجَ خبرُه فأحفَظه ذلك على يزيد، وطلب العُديل ففاته، وقال لمّا نجا :

ودون يد الحجّاج من أن تنالَني
بِساطٌ لأيدي الناعجات عريضُ

قال ثم ظفِر به الحجّاج بعد ذلك فقال : إيه ، أنشِدني قولَك :

ودون يد الحجّاج من أن تنالني

فقال : لم أقل هذا أيها الأمير ، ولكنّي قلت :

إذا ذُكر الحجّاج أضمرتُ خِيفةً
لهــا بين أحنــاء الضُلوع نَقيضُ

فتبسّم الحجّاج وقال : أولَى لك ! وعفا عنه ، وفرَض له .

وقال أبو عمرو الشيبانيّ :

لما لجّ الحجّاج في طلب العُديل لفظتْه الأرض ، ونبا به كلّ مكانٍ هرب إليه . فأتى بكر بن وائل ، وهم يومئذ بادُون جميعٌ [2] ، منهم بنو شيبان وبنو عِجل وبنو يَشكُر ، فشكا إليهم أمره وقال لهم : أنا مقتولٌ ، أفتُسلموني هكذا وأنتم أعزُّ العرب ! قالوا : لا واللهِ ، ولكنّ الحجّاج

---

(1) الحيز : المكان .
(2) جميع : مجتمعون .

لا يُراغَم (١) ، ونحن نستوهبك منه ، فإن أجابنا فقد كُفِيت ، وإن حادَّنا (٢) في أمرنا مَنعناك وسألنا أميرَ المؤمنين أن يهبَك لنا . فأقام فيهم ، واجتمعت وجوه بكر بن وائل إلى الحجّاج فقالوا له : أيّها الأمير ، إنّا قد جَنَينا جميعاً عليك جِنايةً لا يُغفَر مثلُها ، وها نحن قد استسلمنا وألقَينا بأيدينا إليك ، فإمّا وهبتَ فأهلُ ذلك أنتَ ، وإمّا عاقبت فكنت المسلّط الملك العادل . فتبسّم وقال : قد عفوتُ عن كلّ جُرم إلاّ جُرمَ الفاسق العُديل . فقاموا على أرجُلهم فقالوا : مثلُك ، أيّها الأمير ، لا يَستثني على أهل طاعته وأوليائه في شيء ، فإن رأيت ألاّ تكدّر مِنّتك باستثناء ، وأن تهبَ لنا العُديل في أوّل من تهَب . قال : قد فعلتُ ، فهاتُوه ، قبحَهُ الله ، فأتَوا به ، فلما مَثَل بين يديه أنشأ يقول :

فلو كنتُ في سلمى أجاً وشِعابها
لكان لِحجّاجٍ عليّ دليلُ

بنى قُبّة الإسلام حتى كأنّما
هدى الناس من بعد الضّلال رسولُ

إذا جار حُكمُ الناس ألجأ حُكمَه
إلى الله قاضٍ بالكتاب عَقُول

خليلُ أمير المؤمنين وسيفُه
لكلّ إمامٍ صاحبٌ وخليلُ

به نصر الله الخليفةَ منهمُ
وثبّت مُلكاً كاد عنه يزول

فأنتَ كسَيف الله في الأرض خالد
تصُولُ بعَون الله حين تَصُول

(١) راغمه : نابذه وعاداه .
(٢) حاده : عاداه وغاضبه .

وجازيت أصحاب البلاء بلاءَهم
فما منهم عمّا تُحبّ نُكولُ

وصُلْتَ بمَرّان العراق فأصبحت
مناكبُها للوَطْء وهي ذَلُولُ

أذقت الحِمامَ ابنَي عُبادٍ فأصبحا
بمنزلِ مَوْهون الجَناح ثَكُولِ

ومن قَطَريٍّ نِلتَ ذاك وحولَه
كتائبُ من رَجّالةٍ وخيولِ

إذا ما أتت باب ابن يوسُفَ ناقتي
أتت خيرَ مَنزولٍ به ونزيلِ

وما خفتُ شيئاً غيرَ ربّيَ وحدَه
إذا ما انتحيتُ النفسَ كيف أقولُ

ترى الثَقَلَين الجِنَّ والإنسَ أصبحا
على طاعة الحجّاج حين يقول (١)

فقال له الحجّاج : أولَى لك ، فقد نجوتَ ! وفرض له وأعطاه عَطاءه . فقال يمدح سائر قبائل وائل ، ويذكر دفعَها عنه ، ويفتخر بها :

صَرَمَ الغواني واستراح عَواذلي
وصحوتُ بعدَ صَبابةٍ وتمايُلِ

وذكرت يومَ لِوى عَتيقٍ نِسْوةً
يَخطِرنَ بين أكِلّةٍ ومَراحلِ

لعب النعيم بهنّ في أظلالـه
حتّى لبِسن زمان عيشٍ غافلِ

(١) مران ، بفتح الميم : قرية على طريق البصرة كثيرة العيون والنخيل . : في الأبيات التاسع والعاشر والحادي عشر من القصيدة إقواء ، وهو اختلاف حركة الروي بين كسر وضم .

يأخذن زينتهنّ أحسنَ ما تــرى
وإذا عَطِلن فهنّ غيرُ عواطلِ
وإذا خبأن خُدودَهــنّ أرَيْنَنــا
حَدَق المَها وأجْدنَ سَهم القاتل

* * *

حَدِبت بنو بكرٍ عليّ وفيهمُ
كلُّ المكارم والعديدِ الكامــلِ
خطَروا ورائي بالقنــا وتجمّعت
منهم قبائلُ أُردِفُوا بقبائل (١)

(الأبيات ...)

مدحه مالك بن مسمع

عن العُتْبيّ قال :

حمل زيادٌ إلى معاوية مالاً من البصرة ، ففزعت تميم والأزد وربيعة إلى مالك بن مِسمَع – وكانت ربيعةُ مجتمعةً عليه كاجتماعها على كُليب في حياته – واستغاثوا به ، وقالوا : يُحمل المال ، ونبقَى بلا عَطاء . فركب مالكٌ في ربيعة ، واجتمع الناس إليه ، فلحق بالمال فرَدَّه ، وضرب فُسطاطاً بالمِربَد ، وأنفق المال في الناس حتّى وفّاهم عَطاءَهم ، ثم قال : إن شئتم الآن أن تحمِلوا فاحمِلوا . فما راجعه زيادٌ في ذلك بحرف .

فلمّا وَلي حمزةُ بن عبد الله بن الزُبير البصرة جمع مالاً ليحمله إلى

---

(١) الأكلة : ج إكليل . مراحل : ثياب عليها صور الرحال . عطلن : لم يكن يلبسن الحلي .

أبيه ، فاجتمع الناس إلى مالك واستغاثوا به ، ففعل مثل فِعله بزياد . فقال العُديل بن الفرخ في ذلك :

إذا ما خشينا من أميرٍ ظُلامةً
دعونا أبا غسّان يوماً فعسكرا

ترى الناس أفواجاً إلى باب داره
إذا شاء جاؤوا دارِعين وحُسّرا (٢)

(الأبيات ..) ..

وفاته ورثاء الفرزدق إياه

عن محمد بن سلاّم قال :

قدِم العُديل بن الفرخ البصرة ومدح مالك بن مِسمع الجَحْدريّ ، فوصله ، فأقام بالبصرة واستطابها ، وكان مُقيماً عند مالك ، فلم يزل بها إلى أن مات ، وكان يُنادم الفرزدق ويصطحبان ، فقال الفرزدق يرثيه :

وما وَلدت مثل العُديل حَليلةٌ
قديماً ولا مُستحدَثات الحلائلِ

وما زال مُذ شَدّت يداه إزاره
به تفتح الأبوابَ بكرُ بن وائل

* * *

(٢) الدارع : لابس الدرع والحاسر : من لا درع معه .

٢٠

عَقِيل بن عُلَّفَة

(الأغاني ح ١٢ ص ٢٥٤ وما بعدها)

الشاعر

عـَقيل بن عـُلـّفة ... بن جابر بن يربوع بن غـَيظ بن مـُرّة بن سـَعد بن ذ ُبيان ... ويـُكنّى أبا العـَمـَلـّس وأبا الجـَرْباء .

وعقيل ٌ شاعر ٌ مـُجيد ٌ مـُقل ّ ، من شعراء الدولة الأموية . وكان أعرج جافياً شديد الهـَوَج والعـَجـْرَفيّة والبـَذ َخ (١) بنسبه في بني مـُرّة ، لا يرى أن ّ له كـُفـُؤاً . وهو في بيت شرف في قومه من كـلا طرفيه ، وكانت قـُريش ٌ ترغب في مصاهرته . تزوّج إليه خـُلفاؤها وأشرافـُها منهم : يزيد بن عبد الملك ، تزوّج ابنته الجـَرْباء ، وكانت قبله عند ابن عم ّ لعقيل يـُقال له

---

(١) العجرفية والعجرفة : جفوة في الكلام وخرق في العمل والإقدام في هوج . البذخ بنسبه : التطاول والافتخار بنسبه .

مُطيع بن قُطْعة بن الحارث بن معاوية . وولدت ليزيد بُنَيّاً دَرَج [1] . وتزوج بنته عَمْرَة سَلَمةُ بن عبد الله بن المُغيرة ، فولدت له يعقوب بن سَلمة ، وكان من أشراف قريشٍ وجُوَدائها[2] . وتزوّج أمَّ عمرٍو بنته ثلاثةُ نفرٍ من بني الحَكَم بن أبي العاص : يحيى والحارث وخالد .

أخباره مع الراغبين في الإصهار إليه

عن المفضَّل قال :

دخل عقيل بن عُلّفة على عثمان بن حيّان ، وهو يومئذٍ على المدينة ، فقال له عثمان : زوّجْني ابنتك . فقال : أبَكْرةً [3] من إبلي تَعني ؟ فقال له عثمان : ويلك ! أمجنونٌ أنت ! قال : أيُّ شيء قلتَ لي ؟ قال : قلتُ لك زوّجني ابنتك . قال : أفعلُ إن كنت عنيتَ بَكْرةً من إبلي . فأمر به فوُجِئت عنُقُه [4] . فخرج وهو يقول :

كُنّا بني غَيظ الرِّجال فأصبحت
بنو مالكٍ غيظاً وصِرنا كمالكِ

لحى الله دهراً ذَعذع المالَ كُلّه
وسَوَّد أشباهَ الإماء العوارك [5]

عن أبي عبيدة قال :

كان لعقيل بن عُلّفة جارٌ من بني سَلامان بن سعد ، فخطب إليه

(١) درج : مات .
(٢) جوداء : جمع جواد .
(٣) البكرة : الناقة الفتية .
(٤) وجأه : ضربه .
(٥) ذعذعه : بدده وفرقه . العوارك ج عارك : المرأة الحائض .

ابنته ، فغضب عقيلٌ وأخذ السّلامانيّ فكتّفه ، ودهن استه بشحم ، وألقاه في قرية النمل ، فأكلن خُصيتيه حتى ورم جسدُه ، ثم حلّه وقال : يخطب إليّ عبد الملك فأردُّه ، وتجترىء أنت عليّ !

قال : ثم أجدبت مَراعي بني مُرّة ، فانتجع عقيلٌ أرضَ جُذام ، وقُربهم عُذرة . قال عقيل : فجاءني هُنَيٌّ [1] مثلُ البَعْرة ، فخطب إليّ ابنتي أمّ جعفر ، فخرجت إلى أكَمةٍ قريبة من الحيّ ، فجعلت أنبَحُ كما ينبَحُ الكلب ، ثم تحمّلت وخرجتُ ، فاتّبعني جمعٌ من حُنّ (بطن من عذرة) فقالوا : اختَرْ ، إن شئتَ حبسناك ، وإن شئت حَدرناك وبُعيرةً من رأس الجبل ، فإن سبقتَها خلّينا عنك . فأرسلوا بُعيرةً فسبقتُها ، فخلّوا سبيلي ، فقلت لهم : ما طمعتم بهذا من أحدٍ ! قالوا : أردنا أن نضعَ منك حيث رغبت عنّا . فقلت فيهم :

لقد هَزِئت حُنٌّ بنا وتلاعبتْ
وما لعبتْ حُنٌّ بذي حَسبٍ قَبلي
رُويداً بني حُنٍّ تَسيحوا وتأمنوا
وتنتشر الأنعامُ في بلدٍ سهلِ

والله لأمُوتنّ قبل أن أضع كرائمي إلاّ في الأكفاء .

عن عبد الله بن مُصعب قاضي المدينة قال :

دخل عقيل بن عُلّفة على يحيى بن الحكم ، وهو يومئذٍ أمير المدينة ، فقال له يحيى : أنكِح ابن خالي – يعني ابن أوفَى – فلانة ابنتك . فقال : إنّ ابن خالك لَيَرضى مني بدون ذلك . قال ، وما هو ؟ قال : أن أكُفَّ عنه سَنَن الخيل [2] إذا غَشيتْ سَوامَه [3] . فقال يحيى لحرسيّين بين

(١) هني : تصغير هن ؛ وهو الشيء اليسير لا شأن له .

(٢) سنن الخيل : عدوها . (٣) السوام : ما رعى من الماشية في الفلاة .

يديه : أَخرِجاه . فأخرَجاه ، فلمّا ولى قال : أَعيداه إليّ ، فأعاداه . فقال عقيل له : مالَك تُكرِّرني إكرارَ الناضح [1] ! قال : أما واللهِ إنّي لأُكرِّك أعرجَ جافياً . فقال عقيل : كذلك قلت :

تعجّبتْ إذ رأت رأسي تجلّله
من الروائع شيبٌ ليس من كِبَرِ
ومن أديمٍ تولّى بعد جِدّته
والجفنُ يخلُقُ فيه الصّارِمُ الذّكَرُ [2]

فقال له يحيى : أنشِدني قصيدتك هذه كلّها . قال : ما انتهيت إلاّ إلى ما سمعت . فقال : أما واللهِ إنّك لتقول فتُقصّر . فقال : إنّما يكفي من القِلادة ما أحاط بالرقَبة . قال : فأنكِحني أنا إحدى بناتك . قال : أمّا أنت فنعمْ . قال : أما والله لأملأنّك مالاً وشرفاً . قال : أمّا الشرف فقد حمّلت ركائبي منه ما أطاقت ، وكلّفتُها تجشّم ما لم تُطِق ، عليك بهذا المال فإنّ فيه صلاحَ الأيّم [3] ورضا الأبيّ . فزوّجه ثم خرج فهداها إليه . فلمّا قدمت عليه بعث إليها يحيى مولاةً له لتنظر إليها ، فجاءتها فجعلت تغمِز عَضُدَها . فرفعت يدها فدقّت أنفها . فرجعت إلى يحي وقالت : بعثتَني إلى أعرابيّة مجنونةٍ صنعت بي ما ترى . فنهض إليها يحيى فقال لها : مالَك ؟ قالت : ما أردتَ أن بعثتَ إليّ أَمةً تنظر إليّ ! ما أردتُ بما فعلت إلاّ أن يكون نظرك إليّ قبل كلّ ناظرٍ ، فإن رأيت حَسَناً كنت قد سبقت إلى بهجته ، وإن رأيت قبيحاً كنتَ أحقّ مَن ستَره . فسُرّ بقولها وحَظِيت عنده .

---

(١) الناضح : الدابة يستقى عليها .

(٢) الجفن : غمد السيف . يخلق : يبلى .

(٣) الأيم : من لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً ، وآمت المرأة : فقدت زوجها .

عبد الرحمن عن عمّه قال :

خطب يزيد بن عبد الملك إلى عقيل بن عـُلـّفة ابنته الجـَرْباء [1] ، فقال له عقيل : قد زَوّجتـُكها ، على أن لا يـَزُفـّها إليك أعلاجـُك [2] ، أكون أنا الذي أجيء بها إليك . قال : ذلك إليك. فتزوّجها [3] ، ومكثوا ما شاء الله ، ثم دخل الحاجب على يزيد فقال : بالباب أعرابيٌّ على بعير ، معه امرأةٌ في هودج . قال : أراه والله ِ عقيلاً . قال : فجاء بها حتّى أناخ بعيرها على بابه ، ثم أخذ بيدها فأذعنت ، فدخل بها على الخليفة فقال له : إن أنتما وُد ِن [4] بينكما ، فبارك الله لكما ، وإن كرهت شيئاً فضع يدها في يدي كما وضعت يدها في يدك ثم بـَرِئت ذ ِمـّتـُك . فحملت الجرباء بغلام ففرح به يزيد ونـَحـَله وأعطاه . ثم مات الصبيّ ، فورثت أمـّه عنه الثـُلث ، ثم ماتت فورثها زوجها وأبوها ، فكتب إليه : إنّ ابنك وابنتك هلكا ، وقد حسبت ميراثك منهما فوجدته عشرة آلاف دينار ، فهلـُمّ فاقبـَضْه . فقال : إنّ مصيبتي بابني وابنتي تشغـَلني عن المال وطلبه ، فلا حاجةَ لي في ميراثهما ، وقد رأيت عندك فرساً سبقتَ عليه الناس ، فأعطِنيه أجعلـْه فحلاً لخيلي ، وأبى أن يأخذ المال ، فبعث إليه يزيد بالفرس .

قال الرُّمَيح : خطب إلى عقيل رجلٌ من بني مـُرّة كثير المال ، يـُغمـَز في نسبه ، فقال :

لـَعـَمـْري لـَئن زَوّجتُ من أجل ماله
هـَجيناً لقد حـُبـّت إليّ الدراهمُ

(١) الجرباء من معانيها : الجارية المليحة ، ولعل هذا المقصود من تسميتها بهذا الاسم .
(٢) الأعلاج ج علج : الرجل من كفار العجم ، والرجل الشديد الغلظة .
(٣) تزوجها : أراد أنه عقد عليها ولكن لم تزف إليه بعد كما يستدل من سياق الخبر .
(٤) ودن العروس : أحسن القيام عليها .

أأنكِح عبداً بعد يحيى وخـالدٍ
أولئكَ أكفـائي الرِّجالُ الأكارم

أبى ليَ أن أرضى الدَّنِيّة أنّني
أمُدُّ عِناناً لم تَخُنْه الشكائمُ (١)

عن خالد بن كلثوم :

أنّ رجلاً من بني مُرّة يُقال له داود أقبل على ناقةٍ له ، فخطب إلى عَقيل بن عُلّفة بعضَ بناته ، فنظر إليه عَقيل – وإنّ السيف لا ينالُه – فطعن ناقته بالرُمح فسقطتْ وصَرعَتْه ، وشدّ عليه عقيلٌ فهرب ، وثار عقيلٌ إلى ناقته فنحرها وأطعمها قومَه وقال :

ألم تَقُلْ يا صاحبَ القَلُوصِ
داودَ ذا السّاجِ وذا القميصِ

كانت عليه الأرضُ حيصِ بيصِ
حتى يلُفَّ عِيصَه بعِيصي

وكنتُ بالشُبّان ذا تَقميصِ (٢)

فقال داود فيه من أبيات :

أراه فتىً جعل الحَلال ببيتـه
حَراماً ويَقرى الضيفَ عَضْباً مهنّدا

(١) الهجين : من لم يكن صريح النسب وابن الأمة . يحيى وخالد : هما ابنا الحكم بن أبي العاص وكانا من أصهار عقيل . الشكيمة : حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس .

(٢) الساج : الطيلسان الضخم الغليظ . حيص بيص : تركيب بمعنى الضيق ، أي كانت عليه الأرض ضيقة ، وفيه لغات عدة : بفتح الحاء والباء وبكسرهما وببناء الجزأين على الفتح أو على الكسر . العيص : الشجر الملتف ، وهنا يراد به الأصل والنسب . التقميص : من قمص الفرس وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معاً ويعجن برجليه .

من أخبار عجرفيّته وجفائه

... ابنُ جُعْدُبة قال :

عاتب عمرُ بن عبد العزيز رجلاً من قريش ، أمّه أختُ عقيل بن علّفة ، فقال له : قبحك اللهُ ! لقد أشبهت خالَك في الجَفاء . فبلغت عقيلاً ، فجاء حتى دخل على عمر فقال له : ما وجدتَ لابن عمك شيئاً تعيّره به إلاّ خُؤولتي ! فقبح اللهُ شرَّكما خالاً . فقال له صُخَير بن أبي الجَهْم العَدَويّ (وأمّه قُرشيّة) : آمين يا أمير المؤمنين ، فقبح الله شرّكما خالاً ، وأنا معكما أيضاً . فقال له عمر : إنّك لأعرابيٌّ جِلفٌ جافٍ ، أما لو كنت تقدّمتُ إليك لأدَّبتُك ، والله لا أُراك تقرأُ من كتابَ الله شيئاً ! قال : بلى ، إنّي لأقرأ . قال : فاقْرَأْ . فقَرَأَ : « إذا زُلزِلت الأرضُ زِلزالَها » حتى بلغ إلى آخرها فقرأ : فمن يعمَلْ مِثقالَ ذرّةٍ شرّاً يرَهْ ومن يعمل مِثقال ذرّةٍ خيراً يرَه . فقال له عمر : ألَم أقُلْ لكَ إنّك لا تُحسِن أن تقرأ ؟ قالَ : أوَ لم أقرأ ؟ قال : لا ، لأنّ الله جلّ وعزّ قدّم الخير وأنّك قدّمت الشرّ . فقال عقيل :

خُذا بَطْنَ هَرْشَى أو قَفاها فإنّه
كلا جانبَيْ هَرْشَى لهنَّ طريقُ (١)

فجعل القوم يضحكون من عجرفيّته .

عن عبد الله بن أسلَم القُرشيّ قال :

قدِم عقيل بن عُلّفة المدينة ، فدخل المسجد وعليه خُفّان غليظان ، فجعل يضرِب برجليه ، فضحكوا منه فقال : ما يُضحِككم ؟ فقال له يحيى بن الحكم — وكانت ابنة عقيل تحتَه — : يضحكون من خُفَّيك

(١) هرشى : ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة ، يريد أن التقديم والتأخير في الآية غير ضائر .

وضربك برجليك وشِدّة جَفَائك . قال : لا ، ولكن يضحكون من إمارتك ، فإنّها أعجب من خُفّيّ . فجعل يحيى يضحك .

أخباره مع أسرته

... الضحّاك قال :

خرج عقيل بن عُلّفة وابناه عُلّفة وجَثّامة وابنته الجَرباء حتّى أتَوا بيتاً له ناكحاً في بني مَروان بالشام فآمت [1] . ثم إنّهم قفلوا بها حتّى كانوا ببعض الطريق ، فقال عقيل بن عُلّفة :

قضت وطَراً من دَير سَعْدٍ وطالما
على عُرُضٍ ناطحنَه بالجماجمِ
إذا هبطت أرضاً يموت غُرابُهـا
بها عطشاً أعطينَهم بالخَزائم [2]

ثم قال : أنفِذْ يا علّفة ، فقال علّفة :

فأصبحن بالمَوماة يحملـن فِتيـةً
نشاوى من الإدلاج مِيلَ العمائم
إذا عَلَمٌ غادرنَـه بتَنُوفـةٍ
تذارعنَ بالأيدي لآخرَ طاسِمِ [3]

---

(١) آمت المرأة : فقدت زوجها .

(٢) دير سعد : بين الشام وبلاد غطفان . العرض : الجانب . الخزائم ج خزامة : حلقة تجعل في أحد جانبي منخري البعير يقاد بها ، والمراد أن الإبل تنقاد لهم .

(٣) الموماة : المفازة الواسعة . الادلاج : السير من أول الليل . العلم : الجبل . التنوفة : المفازة . تذارعن : سرن وقد حركن أيديهن . طاسم : دارس .

ثم قال : أنفِذي يا جَرباءُ . فقالت : وأنا آمنــة ؟ قال : نعم . فقالت :

كأنّ الكرى سَقّاهم صَرْخَديّة
عُقاراً تَمَشّى في المطَا والقوائم (١)

فقال عقيل : شربتِها وربّ الكعبة ، لولا الأمانُ لضربت بالسيف تحت قُرطك ، أما وجدت من الكلام غير هذا ! فقال جَثّامة : وهل أساءت ؟ إنّما أجازت ، وليس غيري وغيرُك . فرماه عقيل بسهم فأصاب ساقه ، وأنفذ السهمُ ساقه والرَّحْل . ثم شدّ على الجَرباء فعقر ناقتها ثم حملها على ناقة جَثّامة وتركه عَقيراً مع ناقة الجرباء ، ثم قال : لولا أن تسبُّني بنو مُرّة ما ذُقتَ الحياة . ثم خرج متوجّهاً إلى أهله وقال : لئن أخبرت أهلك بشأن جَثّامة أو قلتِ لهم إنّه أصابه غير الطاعون لأقتلنّك . فلمّا قدِموا على أهل أُبَيْر (وهم بنو القَين) ندم عقيل على فعله بجثّامة ، فقال لهم : هل لكم في جَزُور انكسرت ؟ قالوا : نعم . قال : فالزَمُوا أثر هذه الراحلة حتى تجدوا الجَزُور . فخرج القوم حتى انتهَوا إلى جَثّامة فوجدوه قد أنزفه الدم ، فاحتملوه وتقسّموا الجَزور ، وأنزلوه عليهم وعالجوه حتى برَأ ، وألحقوه بقومه .

... زَيد بن عيّاش التغلبيّ والربيع بن ثُميل قالا :

غدا عقيل بن علّفة على أفراسٍ له عند بيوته فأطلقها ثم رجع ، فإذا بَنُوه مع بناته وأمّهم مجتمعون ، فشدّ على عَمَلّس فحاد عنه ، وتغنّى عُلّفة فقال :

قفي يابنةَ المُرّيّ أسألك ما الذي
تُريدين فيما كنتِ مَنّيْتِنا قبلُ

(١) صرخدية : خمر منسوبة إلى صرخد ، وهي بلد في حوران . العقار : الخمر . المطا : الظهـر .

نُخَبِّرْكَ إن لم تُنجِزي الوعدَ أنّنا
ذَوا خُلّةٍ لم يبقَ بينهما وصلُ
فإن شئتِ كان الصّرم ما هبّت الصَّبا
وإن شئت لا يفنى التكارم والبَذْلُ [(١)]

فقال عقيل : يابنَ اللّخْناء [(٢)] ، متى منّتك نفسُك هذا ! وشدّ عليه بالسيف ، وكان عملّس أخاه لأمّه ، فحال بينه وبينه ، فشدّ على عملّس بالسيف وترك علّفة لا يلتفت إليه ، فرماه بسهم فأصاب رُكبته ، فسقط عقيل وجعل يتمعّك [(٣)] في دمه ويقول :

إنّ بَنِيَّ سَربلُوني بالدمِ
مَن يَلْقَ أبطال الرّجال يُكْلَمِ
ومن يكنْ ذا أَوَدٍ يُقَوَّمِ
شِنْشِنةٌ أعرِفُها من أَخْزَمِ [(٤)]

قال المدائنيّ : « شِنشنة أعرفها من أخزم » مثلٌ ضربه . وأخزم : فحلٌ كان لرجل من العرب ، وكان مُنجِباً ، فضرب في إبل رجلٍ آخر ، ولم يعلم صاحبُه ، فرأى بعد ذلك من نسله جملاً فقال : « شِنشنة أعرِفُها من أخزَم » [(٥)] .

قال خالد بن كلثوم : لمّا رمى عملّس بن عقيل أباه فأصاب ركبته

(١) الخلة : الصداقة .
(٢) اللخن : النتن .
(٣) يتمعك في دمه : يتمرغ .
(٤) الأود : الاعوجاج . الشنشنة : الخليقة والعادة .
(٥) ما ذهب اليه المدائني في تفسير هذا المثل يخالف ما جاء في اللسان ، فقد جاء فيه : « قال ابن بري : كان أخزم عاقاً لأبيه فمات وترك بنين عقوا جدهم وضربوه وأدموه ، فقال ذلك » . وهذا التفسير يناسب ما قصده عقيل من عقوق ولديه .

غضب وأقسم ألاّ يُساكن بنيه ، فاحتمل وخرج إلى الشأم ، فلمّا استوى على ناقته المسمّاة بأطلال بكت ابنته جَرباء وحنّت ناقته فقال :

ألم تريا أطلالَ حنّت وشاقَها
تَفرّقُنا يومَ الحَبيب على ظَهْرِ

وأسبل من جَرباءَ دمعٌ كأنّه
جُمانٌ أضاع السِلْكَ أجْرَتْه في سَطْرِ

لعمرُك إنّي يوم أغدُو عَمَلّساً
لكالمُتَربّي حَتْفَه وهو لا يدري

وإنّي لأسقيه غَبُوقي وإنّني
لَغَرْثانُ مَنْهوكُ الذّراعين والنّحْرِ (١)

قال : ومضى عُلّفة أيضاً ، فافترض (٢) بالشأم وكتب إلى أبيه :

ألا أبلغا عنّي عَقيلاً رسالةً
فإنّك من حربٍ عليَّ كريمُ

أما تذكرُ الأيامَ إذ أنت واحدٌ
وإذ كلُّ ذي قُربى إليك ذميمُ

وإذ لا يَقيك الناسُ شيئاً تَخافُه
بأنفُسهم إلاّ الذين تَضيمُ

تناول شأو الأبعَدين ولم يقُم
لشأوك بين الأقربين أديمُ

---

(١) الحبيب : بلد بالشام . يقال : هو على ظهر أي مزمع للسفر . الجمان : صغار اللؤلؤ . السلك ج سلكة : الخيط . الغبوق : ما يشرب بالعشي . غرثان : جائع .
(٢) افترض الجند : أخذوا عطاياهم ، والمراد هنا أنه انتمى إلى جند الشام .

فأمّا إذا عضّت بك الحربُ عَضّةً
فإنّك معطوفٌ عليك رحيم
وأمّا إذا آنستَ أمْناً ورِخْوةً
فإنّك للقُربى ألَدٌّ ظَلومُ (١)

فلمّا سمع عقيل هذه الأبيات رضي عنه وبعث إليه فقدم عليه .

... جَوشَن بن يزيد قال :

لمّا تزوّج عقيل بن عُلّفة زوجته الأنمارية ، وقد كَبِر ، فرّت منه . فلَقيها جَحّافٌ ، أحد بني قِتال بن يَربوع ، فحملها إلى عامل فَدَك ، وأصبح عقيلٌ معها ، فقال الأمير لعقيل : ما لهذه تستعدي عليك يا أبا الجَرباء ؟ فقال عقيل : ... وذهب ذَفَري (٢) ، وتغايب نَفَري . فقال : خُذ بيدها . فأخذها وانصرف ، فولدت له بعد ذلك عُلّفة الأصغر .

عن عبد الحميد بن أيّوب بن محمد بن عُمَيلة قال :

مات عُلّفة بن عقيل الأكبر بالشأم ، فنعاه مُضرّس بن سَوادة لعقيل بأرض الجَناب ، فلم يُصدّقه وقال :

قبحُ الإلهُ ، ولا أُقبّح غيره
ثَفَرَ الحمار مُضرّسَ بنَ سَوادِ
تنعى امرءاً لم يعلُ أمّك مثلُه
كالسّيف بين خَضارمٍ أنجاد (٣)

(١) رحيم هنا : بمعنى مرحوم . ألد : شديد العداوة .
(٢) الذفر : شدة ذكاء الريح وأراد هنا القوة على الجماع .
(٣) الثفر : السير في مؤخر السرج . الخضارم ج خضرم : الجواد المعطاء .

ثم تحقق الخبر بعد ذلك فقال يرثيه :

لَعَمري لقد جـاءت قوافلُ خَبّرتْ
بأمرٍ من الدّنيـا عليّ ثقيـلِ

وقالوا : ألا تبكي لِمَصْرَع فارسٍ
نَعتْه جنودُ الشام غيرِ ضئيـل

فأقسمت لا أبكي على هُلْك هالكٍ
أصابَ سبيلَ الله خيرَ سَبيـلِ

كأنّ المنايـا تبتغي في خِيارنـا
لها نسبـاً أو تَهتدي بدَليـلِ

تحلُّ المنايا حيث شاءت فإنّهـا
مُحَلَّلةٌ بعد الفتى ابن عقيـل

فتىً كان مولاه يَحُلُّ برَبْـوةٍ
فحـلَّ المَوالي بعدَه بمَسِيـل

عن أبي عُبيدة قال :

كان عقيل بن عُلّفة قد أطردَ بنيه ، فتفرّقوا في البلاد ، وبقي وحدَه . ثم انّ رجلاً من بني صِرْمَة يُقال له بَجِيل ، وكان كثير المال والماشية ، حطَمَ بيوت عقيل بماشيته ، ولم يكن قبل ذلك أحدٌ يقرُب من بيوت عقيل إلاّ لَقِي شرّاً . فطردت صافنةُ ــ أَمَةٌ له ــ الماشية ، فضربها بَجيلٌ بعصا كانت معه فشجّها . فخرج إليه عقيل وحدَه ، وقد هرِم يومئذٍ وكبرت سنُّه ، فزجره، فضربه بَجيلٌ بعصاه ، واحتقره . فجعل عقيل يصيح : يا عُلّفة ، يا عملّس ، يا فلان ، يا فلان ، بأسماء أولاده ، مستغيثاً بهم ، وهو يحسبهم لهَرمه أنهم معه . فقال له أرطاة بن سُهَيّـة :

أكلتَ بَنيك أكلَ الضَّبِّ حتى
وجدتَ مرارةَ الكلأ الوَبيلِ
ولو كان الأُلى غابُوا شُهوداً
منعتَ فِناءَ بيتك من بَجيلِ

وبلغ خبر عقيل ابنه العملّس ، وهو بالشأم ، فأقبل إلى أبيه حتى نزل إليه ، ثم عمَد إلى بَجيلٍ فضربه ضرباً مُبرِّحاً ، وعقر عدّةً من إبله وأوثقه بحبلٍ وجاء به يَقُوده حتى ألقاه بين يدَي أبيه . ثم ركب راحلتَه وعاد من وقته إلى الشأم ، لم يطعَم لأبيه طعاماً ولم يشرب شراباً .

... مصعب بن عبد الله قال :

قال عمر بن عبد العزيز لعقيل بن علّفة ، إنّك تخرُج إلى أقاصي البلاد وتترك بناتك في الصحراء لا كالىء لهنّ ، والناس ينسبونك إلى الغَيرة ، وتأبى أن تزوّجهنّ إلاّ الأكفاء . قال : إنّي أستعين عليهنّ بخَلّتَين تَكلآنهنّ ، وأستغني عن سواهما . قال : وما هما ؟ قال : العُرْي والجوع .

تحريضه على قتال بني جوشن

عن أبي عبيدة قال :

لمّا نشبت الحرب بين بني جوشَن وبين بني سهم بن مُرّة ، رهط عقيل بن عُلّفة المُرّيّ — وهو من بني غيظ ومرّة وسهم بن مُرّة إخوتهم[1] — ، فاقتتلوا في أمر يهوديٍّ خمّار كان جاراً لهم فقتلته بنو

(١) بنو جوشن : هم بنو جوشن بن عبد الله بن غطفان ، والنسب الغطفاني يجمعهم ببني مرة . وهو من بني غيظ بن مرة بن سهم بن مرة ، وهو تحريف .

جوشَن من غطفان ، وكانوا متقاربي المنازل ، وكان عقيل بن عُلّفة بالشأم غائباً عنهم ، فكتب إلى بني سهم يحرّضهم :

فإمّا هلكتُ ولم آتِكـم فأبلِغْ أماثل سَهمٍ رَسُولا
بأنّ التي سامكم قومُكـم لقد جعلوها عليكم عُدولا
هَوانُ الحياة وضَيْم المَمات وكُلاّ أراه طعاماً وَبيـلا
فإن لم يكـن غير إحداهما فسِيروا إلى الموت سيراً جميلا
ولا تقعُدوا وبكـم مُنّةٌ كفى بالحوادث للمرءِ غُولا [1]

قال : فلمّا وردت الأبيات عليهم تكفّل بالحرب الحُصَين بن الحُمام المُرّي ، أحد بني سهم ، وقال : إليَّ كتب وبي نَوّه ، خاطب أماثل سهم وأنا من أماثلهم . فأبلى في تلك الحروب بلاءً شديداً [2] .

* * *

(١) الوبيل : الوخيم . المنة ، بضم الميم : القوة . الغول : الهلكة .

(٢) في هذا الخبر ما يثير الشك في صحته ، فالحصين بن الحمام كان في العصر الجاهلي وربما أدرك أول الاسلام ولكنه لم يدرك العصر الأموي وعقيل متأخر عنه ، والحرب المذكورة كانت بين بني سهم بن مرة وعليهم الحصين بن الحمام وبين أبناء عمهم بني صرمة بن مرة ، وكانت أيام الجاهلية ، وخبرها مفصل في الجزء الرابع عشر من الأغاني في ترجمة الحصين بن الحمام ، وأحسب أن أبا عبيدة قد وهم في جعله عقيلا يشهد هذه الحرب ، ومما يقوي هذا الظن أن الأبيات التي ذكر أنه قالها في تحريض بني سهم قد وردت في المفضليات (ص ٨٨ ط . أوربا) منسوبة إلى بشامة بن عمرو .

٢١

عِمْران بن حِطّان

(الأغاني ج ١٨ ص ١٠٨ وما بعدها)

الشّاعر

هو عِمران بن حِطّان بن ظَبيان ... بن سَدُوس بن شَيبان بن ذُهل ... بن بكر بن وائل . ويُكنى أبا شِهاب . شاعر فصيحٌ من شعراء الشُراة [١] ودُعاتهم والمقدّمين في مذهبهم . وكان من القَعَد [٢] ، لأنّ عُمره طال فضَعُف عن الحرب وحضورها ، فاقتصر على الدّعوة والتحريض بلسانه .

وكان قبل أن يُفتَتن بالشُراة مشتهراً بطلب العلم والحديث ، ثم بُلي

---

(١) الشراة : الخوارج ، وأطلقوا على أنفسهم هذا الاسم أخذاً من قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » .

(٢) القعد ج قاعد : وهم الخوارج القاعدون عن القتال .

بذلك المذهب فضَلّ وهَلَكَ ... وقد أدرك صدراً من الصحابة ، وروى عنهم ، وروى عنه أصحاب الحديث ...

وكان أصله من البَصرة ، فلمّا اشتَهَر بهذا المذهب طلبه الحجّاج فهرب إلى الشأم ، فطلبه عبد الملك فهرب إلى عُمان ، وكان يتنقّل إلى أن مات في تَواريه .

.. جرير بن حازم قال : كان عمران بن حطّان أشدّ الناس خُصومةً للحَرُوريّة ، حتى لقيه حَرُوريٌّ فخاصمه فخَصَمه فصار عمرانُ حروريّاً ورجع عن رأيه .

.. مَنيع بن أحمد بن مُؤرّج السَدُوسيّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، قـال :

تزوّج عِمران بن حِطان حمزة بنت عمّه ليردّها عن مذهب الشِراية [1] ، فذهبت به إلى رأيهم ، فجعل يقول فيها الشعر . فممّـا قال فيها :

يا حمزَ إنّي على ما كان من خُلُقي
مُثْنٍ بخَلاّت صِدقٍ كُلُّها فيكِ
الله يعلم أنّي لم أَقُل كذِبـاً
فيما علمتُ وأنّي لا أُزَكّيكِ

... أبو شَرْوان الخارجيُّ قال : سمعت أشياخ الحيّ يقولون :

اجتمعت الشعراء عند عبد الملك بن مروان فقال لهم : أبقيَ أحدٌ أشعرُ منكم ؟ قالوا : لا . فقال الأخطل : كَذَبُوا يا أمير المؤمنين ، قد بقي من هو أشعر منهم . قال : ومَن هو ؟ قال : عِمران بن حِطّان .

---

(١) مذهب الشراية : مذهب الشراة الخوارج .

قال : وكيف صار أشعرَ منهم ؟ قال : لأنه قال وهو صادقٌ ففاقهم ، فكيف لو كذب كما كذبوا .

قال جرير بن حازم : كان الفرزدق يقول : لقد أحسن بنا ابنُ حِطّان حيث لم يأخذ فيما أخذنا فيه ، ولو أخذ فيما أخذْنا فيه لأسقطَنا ، يعني لجودة شعره .

عَمرو بن مُرّة قال :

مرّ عِمران بن حِطّان على الفرزدق وهو يُنشد ، والناس حوله ؛ فوقف عليه ثم قال :

أيـُّها المادحُ العبادَ لـِيُعطَى ... إنّ للهِ ما بأيدي العِبادِ
فاسألِ اللهَ ما طابتَ إليهم ... وارجُ فضل المُقسِّم العوّادِ
لا تقُل في الجَواد ما ليس فيه ... وتُسمّي البخيل باسم الجَواد

فقال الفرزدق : لولا أنّ الله عزّ وجلّ شغل عنّا هذا برأيه للقِينا منه شرّاً .

... أبو العَوّام السَدوسيّ قال :

كان مالكٌ المذموم رجلاً من بني عامر بن ذُهْل ، وكان من الخوارج ، وكان الحجّاج يطلُبه . قال أبو العوّام : فدخلت عليه يوماً ، وهو في تواريه ، فأنشدني يقول :

ألم يأنِ لي يا قلبُ أن أترُكَ الصِّبا
وأن أزجُرَ النفس اللَجُوج عن الهوَى
وما عُذرُ من يَعمَى وقد شاب رأسُه
ويُبصِرُ أبوابَ الضلالة والهُدى

ولو قُسم الذَّنْب الذي قد أصبتُه
على الناس خاف الناسُ كُلُّهم الرَّدَى
فإن جَنّ ليلٌ كنتُ بالليل قائماً
وأصبحُ بَطّال العَشيّات والضحى (١)

قال : فلمّا فرغ من إنشادها قال : سيغلِبُني عليها صاحبُكم ، يعني عِمران بن حطّان . فكان كذلك : لما شاعت رواها الناس لِعمران . وكان لا يقول أحدٌ من الشعراء شِعراً إلاّ نُسب إليه لشهرته ، إلاّ من كان مثلَه في الشُهرة مثل قطريّ وعَمْرو القنا وذَويهما .

عن عيسى بن يزيد بن بكر المَدنيّ قال :

اجتمع عند مَسْلَمة بن عبد الملك ناسٌ من سُمّاره ، فيهم عبدُ الله بن عبد الأعلى الشاعر ، فقال مسلمة : أيُّ بيتٍ قالته العرب أوعظ وأحكم ؟ فقال له عبدُ الله قوله :

صَبا ما صَبا حتى عَلا الشيبُ رأسَه
فلمّا علاه قال للباطل ابعَدِ

فقال مسلمة : إنّه والله ما وعَظني شعرٌ قطُّ كما وعظني شعر ابن حِطّان حيث يقول :

فيُوشِك يومٌ أن يُقارنَ ليلةً
يَسُوقان حَتْفاً راح نحوَك أو غدا

فقال بعضُ مَن حضر : والله لقد سمعتُه أَجّل (٢) الموتَ ثم أفناه ، وما صنع هذا غيرُه . فقال مَسلمة : وكيف ذاك ؟ قال : قال :

---

(١) ألم يأن : ألم يحن .
(٢) أجله ، هنا : جعل له أجلا ينتهي إليه .

لا يُعجِزُ الموتَ شيءٌ دون خالقِهِ
والموتُ فانٍ إذا ما ناله الأجَـــلُ
وكلُّ كَربٍ أمامَ الموت مُتَّضِعٌ
للموتِ ، والموتُ فيما بعدَه جَلَلُ

فبكى مَسلمة حتى اخضلّت لِحيتُه ، ثم قال : رَدِّدهما عليّ ، فردَّدهما عليه حتى حفظهما .

فراره من الحجّاج وتطوافه في البلدان

... الهيثمُ بن عَديّ قال :

طلب الحجّاج عِمران بن حِطّان السَدُوسيّ ، وكان من قَعَد الخوارج ، فكتب فيه إلى عُمّاله وإلى عبد الملك .

.. أبو عبيدة مَعمرَ بن المثنّى عن أخيه يزيد بن المثنّى : أنّ عمران ابن حطّان خرج هارباً من الحجّاج ، فطلبه وكتب فيه إلى عمّاله وإلى عبد الملك ، فهرب ولم يزل يتنقّل في أحياء العرب ، وقال في ذلك :

حَلَلنا في بني كعب بن عمــروٍ
وفي رِعْلٍ وعامر عَوْثَبـــانِ
وفي جَرْمٍ وفي عمرو بن مُرٍّ
وفي زيدٍ وحيّ بــني الغُدانِ

ثم لحق بالشأم فنزل برَوْح بن زِنْباع الجُذاميّ ، فقــال له روح : ممّن أنت ؟ قال : من الأزد ، أزد السّراة . قال : وكان روح يسمرُ عند عبد الملك ، فقال له ليلةً : يا أمير المؤمنين ، إنّ في أضيافنا رجلاً ما سمعت منك حديثاً قطّ إلاّ حدّثني به وزاد فيه ما ليس عندي . قال : ممّن

هو ؟ قال : من الأزد . قال : إنّي لأسمعك تصف صفة عِمران بن حطّان ، لأنّني سمعتُك تذكرُ لغةً نزاريّةً وصلاةً وزُهداً وروايةً وحِفظاً ، وهذه صفتُه . فقال روح : وما أنا وعِمران ! ثم دعا بكتاب الحجّاج فإذا فيه : « أمّا بعدُ ، فإن رجلاً من أهل الشقاق والنفاق ، قد كان أفسد عليّ أهلَ العراق ، وحَبّبهم بالشِراية ، ثم إنّي طلبتُه ، فلمّا ضاق عليه عملي تحوّل إلى الشأم ، فهو ينتقل في مدائنها ، وهو رجلٌ ضَرْبٌ طُوالٌ أفوَه أَرْوقُ (١) . قال : قال روح : هذه والله صفةُ الرجلِ الذي عندي . ثم أنشد عبدُ الملك يوماً قول عمران يمدح عبد الرحمن ابن مُلجَم – لعنه الله – بقتله عليّ بن أبي طالب ، صلــواتُ الله عليه :

يا ضربةً من كريمٍ ما أراد بهــا
إلاّ لِيبلُغَ من ذي العرش رِضوانــا
إنّي لأُفكِرُ فيه ثم أحسَبُـــــه
أوفى البريّة عند الله مِيزانــــا

ثم قال عبــد الملك : مَن يعرف منكم قائلَها ؟ فسكت القومُ جميعاً ، فقال لروح : سَلْ ضيفَك عن قائلها . قال : نعم ، أنا سائلُه ، وما أُراه يخفى على ضيفي ولا سألته عن شيءٍ قطّ فلم أَجِده إلاّ عالماً به . وراح روحٌ إلى أضيافه فقال : إنّ أمير المؤمنين سألَنا عن الذي يقول :

يا ضربةً من كريمٍ ما أراد بها

ثم ذكر الشعر ، وسألهم عن قائلـــه ، فلم يكن عند أحدٍ منهم عِلمٌ . فقال له عمران : هذا قول عمران بن حطّان في ابن مُلجَمٍ قاتل عليّ بن أبي طالب . قال : فهل فيها غيرُ هذين البيتين تُفِيدنيه ؟ قال : نعم :

(١) رجل ضرب : خفيف اللحم . أفوه ، من الفوه : سعة الفم وخروج الأسنان من الشفتين . أروق : طويل الأسنان العليا .

لله دَرُّ المُرادِيِّ الذي سفكَتْ
كَفّاه مُهْجةَ شرِّ الخَلْق إنسانا

أمسى عشيّـــةَ غَشّاه بضربتِــه
ممّـــا جناه من الآثام عُريانـــا

– صلواتُ الله على أمير المؤمنين ، ولعَن الله عِمران بن حِطّان وابن مُلجَم – فغدا روحٌ فأخبر عبد الملك ، فقال : من أخبرك بذلك ؟ فقال : ضيفي . قال : أظنّه عمران بن حِطّان . فأعلِمْه أنّي قد أمرتُك أن تأتيَنِي به . قال : أفعل . فراح روحٌ إلى أضيافه ، فأقبل على عمران فقال له : إنّي ذكرتك لعبد الملك فأمرني أن آتيه َبك . قال : كنت أحبّ ذلك منك ، وما منعني من ذِكره إلاّ الحياءُ منك ، وأنا مُتّبعك ، فانطلِق . فدخل روحٌ على عبد الملك فقال له : أين صاحبُك ؟ فقال : قال لي إنّي متّبعك . قال : أظُنّك والله سترجِع فلا تجده . فلمّا رجع رَوح إلى منزله إذا عِمران قد مضى ، وإذا هو قد خلّف رُقعةً في كُوّةٍ عند فِراشه ، وإذا فيها يقول :

يا رَوحُ كم من أخي مثوىً نزلت به
قد ظنّ ظنّك من لَخمٍ وغَسّانِ

حتى إذا خِفتُه فارقت مَنزلــه
من بعدِ ما قِيل عِمران بن حِطّان

قد كنت ضَيفَك حَوْلاً لا تُرَوِّعُني
فيه الطوارقُ من إنسٍ ولا جــانِ

حتّى أردتَ بِيَ العُظمَى فأوحَشَني
ما أوحَشَ الناس من خوف ابن مَروان

فاعْذِرْ أخاك ، ابنَ زِنباعٍ ، فإنّ له
في الحادثات هَنَاتٍ ذاتَ ألْـوانِ

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ
وإن لقيتُ مَعَدِيّاً فعَدنـاني

لو كنت مستغفراً يومـاً لطاغيةٍ
كنتَ المقدَّمَ في سِرّي وإعـلاني

لكن أبت ذاك آيـاتٌ مُطهّرةٌ
عند التِّلاوة في طَهَ وعِمران [1]

قال : ثم أتى عمران بن حطّان الجزيرة ، فنزل بزُفَر بن الحارث الكِلابيّ بقَرْقيسيا [2] ، فجعل شباب بني عامر يتعجّبون من صَلاته وطُولها ، وانتسب لِزفر أوزاعياً . فقدم على زفرَ رجلٌ من أهل الشأم قد كان رأى عِمران بن حِطّان بالشأم عند روح بن زِنباع ، فصافحه وسلّم عليه ، فقال زُفَر للشاميّ : أتعرِفُه ؟ قال : نعم ، هذا شيخٌ من الأزد فقال له زفر : أزْديٌّ مرّةَ وأوزاعيٌّ أخرى ! إن كنتَ خائفاً آمنّاك ، وإن كنت عائلاً [3] أغنيناك . فقال : إنّ الله هو المُغني ، وخرج من عنده وهو يقول :

إنّ التي أصبحت يعيا بها زُفَـرٌ
أعيت عَياءً على روح بن زِنبـاعِ

أمسى يُسائلني حَـولاً لأخبرَه
والناس من بين مخدوعٍ وخَدّاعِ

---

(١) الطوارق : الدواهي والنوائب . أردت بي العظمى : أردت قتلي .
(٢) قرقيسيا : بلد بالجزيرة عند مصب نهر الخابور بالفرات .
(٣) عائلا : فقيراً .

حتّى إذا انجذَمَتْ منّي حبائلُه
كفّ السُؤالَ ولم يُولَعْ بإهلاعي

فاكفُفْ كما كفّ روحٌ إنّني رجلٌ
إمّا صريحٌ وإما فَقْعَةُ القاعِ

أمّا الصّلاةُ فإنّي غيرُ تاركها
كلُّ امرىءٍ للّذي يُعنَى به ساعي

فاكفُفْ لسانك عن همّزي ومَسألتي
ماذا تُريد إلى شيخٍ لأوزاعِ

أكرِمْ بروح بن زِنباعٍ وأسرته
قوماً دعا أوّليهم للعُلا داعي

جاورتُهم سنةً فيما دعوتُ به
عِرضي صحيحٌ ونومي غيرُ تَهجاعِ

فاعمَلْ فإنّك مَنْعِيٌّ بحادثة
حسبُ اللبيب بهذا الشيب من ناعي [1]

ثم خرج فنزل بعُمان بقومٍ يُكثرون ذكرَ أبي بِلال مِرداس بن أُدَيّة [2] ، ويُثْنُون عليه ، ويذكرون فضلَه ، فأظهر فضله ويَسّر أمرَه [3] عندهم . وبلغ الحجّاجَ مكانُه فطلبه، فهرب فنزل في رُوذَمَيسان —

---

(١) أعياه الأمر : أعجزه . انجذمت : انقطعت . إهلاعي : ترويعي وإفزاعي . فقعة القاع : يقال لمن لا أصل له : هو فقعة بقاع ، والفقعة : الكمأة البيضاء ، وهي لا عروق لها . التهجاع : النوم الخفيف .

(٢) أبو بلال : من رجال الخوارج البارزين ، خرج في زمن عبيد الله بن زياد في قلة من أصحابه فقتل .

(٣) فأظهر فضله ويسر أمره عندهم : في الكامل مكان هذه العبارة : فأظهر أمره فيهم ، وهي أدل على المقصود .

ـ طَسُّوج [1] من طساسيج السَّواد إلى جانب الكوفة ـ فلم يزل به حتى مات ، وقد كان نازلاً هناك على رجلٍ من الأزد ، فقال في ذلك :

نزلت بحَمد الله في خير أسرةٍ
أُسَرُّ بما فيهم من الإنس والخَفَرْ
نزلت بقومٍ يجمعُ الله شَمْلَهم
وما لهمُ عُودٌ سِوى المجد يُعْتَصَرْ
من الأزد إنّ الأزد أكرمُ أسرةٍ
يمانيةٍ قَرْبُوا إذا نُسِب البَشَرْ

قال اليزيديُّ : الإنس ، بالكسر : الاستئناس . وقال الرِّياشيُّ : أراد قَرُبوا فخفّف . قال :

وأصبحت فيهم آمناً لا كمعشرٍ
بَدَوني فقالوا : من ربيعةَ أو مُضَرْ
أو الحيّ قحطانٍ وتِلك سَفاهةٌ
كما قال لي رَوحٌ وصاحبُه زُفَر
وما منهمُ إلاّ يُسَرُّ بنسبةٍ
تُقَرِّبُني منهم وإن كان ذا نَفَر
فنحن بنو الإسلام واللهُ واحدٌ
وأولى عِباد الله بالله مَن شَكَرْ [2]

---

(1) الطسوج : الناحية .
(2) الخفر : شدة الحياء . قربوا : رواية الكامل : طابوا وهي أجود . بدوني : مخفف بدؤوني ، ورواية الكامل : أتوني .

عن الزُهْري ، عن أبيه :

أنّ غزالة الحَرُورِيّة لمّا دخلت على الحجّاج ، هي وشبيب ، الكُوفةَ ، تحصّن منها وأغلق عليه قصره . فكتب إليه عمران بن حطان ، وقد كان الحجّاج لجّ في طلبه ، قال :

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نَعامةٌ
رَبْداءُ تَجفُلُ من صَفير الصّافرِ
هلاّ برزت إلى غزالةَ في الوغى
بل كان قلبُك في جناحَي طائرِ
صدعت غزالةُ قلبه بفوارسٍ
تركت منابرَه كأمس الدابرِ [1]

ثم لحق بالشأم فنزل على رَوح بن زنباع .

خارجيّ يتمثّل بشعره

عن جُويرية قال :

كتب عيسى الحَبَطيّ إلى رجلٍ منهم [2] يقال له أبو خالد كان تخلّف عن الخروج مع قَطَريٍّ أو غيره منهم :

أبا خالدٍ أنفِرْ فلستَ بخالدٍ
وما ترك الفُرقانُ عُذْراً لقاعدِ

---

(١) ربداء : الربدة لون بين السواد والغبرة ، وهو لون النعام . تجفل : تهرب وتنفر . في جناحي طائر : أي كان لشدة فزعه يخفق خفقاناً شديداً وكأنه في جناحي طائر . الدابر : الذاهب . وفي المطبوعة : تركت مدابره ، والرواية التي اخترناها أليق بالمعنى .

(٢) منهم : أي من الخوارج .

أتزعُمُ أنّ الخارجين على الهُدى
وأنت مُقيمٌ بين لِصٍ وجاحدِ

فكتب إليه : ما منعني عن الخروج إلاّ بناتي والحَدَب عليهنّ حين سمعت عمران بن حطّان يقول :

لقــد زاد الحياةَ إليّ حُبّــاً بناتي إنّهن من الضّعافِ
ولولا ذاك قد سَوَّمتُ مُهــري وفي الرحمن للضعفاءِ كافي [1]

قال : فجلس عيسى يقرأ الأبيات ويبكي ويقول : صدَق أخي ، إنّ في ذلك لَعُذراً له ، وإنّ في الرحمن الضعفاء كافياً .

* * *

---

(١) سومت : علمت بعلامة .

٢٢

الفرزدق

(الأغاني الأجزاء ٩ ص ٣٢٤ وما بعدها
١٥ ص ٣٤١ وما بعدها
٢١ ص ٢٧٥ وما بعدها)

الشاعر

الفرزدق لقبٌ غلَب عليه ، وتفسيره الرغيف الضخم الذي يجفّفه النساء للفتُوت [1] . وقيل : بل هو القِطعة من العَجين التي تُبسَط فيُخْبَز منها الرغيف ، شُبِّه وجهه بذلك لأنّه كان غليظاً جَهْماً . واسمُه هَمّام بن غالب بن صَعصعة ... بن مُجاشِع بن دارم بن مالك بن حَنظلة بن زيد مَناة بن تَميم .

---

(١) الفتوت والفتيت : المفتوت .

وهو وجريرٌ والأخطلُ أشعر طبقات الإسلاميّين والمقدّم في الطبقة الأولى منهم .

قال أبو الفرج : والفرزدق مقدّمٌ على الشعراء الإسلاميين هو وجريرٌ والأخطل، ومحلّه في الشعر أكبر من أن يُنبّه عليه بقول أو يُدلّ على مكانه بوصف ، لأنّ الخاصّ والعامّ يعرفانه بالاسم . ويعلمان تقدُّمه بالخبر الشائع علماً يُستغنى به عن الإطالة في الوصف. وقد تكلّم الناس في هذا قديماً وحديثاً ، وتعصّبوا ، واحتجّوا بما لا مَزيد فيه ، واختلفوا بعد اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة ، في أيّهم أحقّ بالتقدّم على سائرها . فأمّا قدماء أهل العلم والرواة فلم يُسَوّوا بينهما وبين الأخطل ، لأنّه لم يلحق شأوَهما في الشعر ، ولا له مثل ما لهما من فنونه ، ولا تصرّفٌ كتصرّفهما في سائره . وزعموا أن ربيعة أفرطت فيه حتّى ألحقته بهما . وهم في ذلك طبقتان : أمّا من كان يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشِدّة أسره فيقدّم الفرزدق . وأمّا من كان يميل إلى أشعار المطبوعين ، وإلى الكلام السّمح السهل الغَزِل فيقدّم جريراً .

محمد بن سلاّم قال : سمعت يونس بن حبيب يقول : ما شهدت مشهداً قطّ ذُكر فيه الفرزدق وجرير ، فاجتمع أهل ذلك المجلس على أحدهمـــا .

عن خالد بن كلثوم قال :

قيل للفرزدق : ما لك وللشعر ؟ فوالله ما كان أبوك غالب شاعراً ، ولا كان صَعصعة شاعراً ، فمن أين لك هذا ؟ قال : من قِبَل خالي . قيل : أيّ أخوالك ؟ قال : خالي العَلاء بن قَرَظة الذي يقول :

إذا ما الدهرُ جرّ على أُنـــاسٍ كلاكلَه أناخ بآخرينـــا
فقـــل للشامتين بنـــا أفيقُـــوا سيلقى الشامتون كما لَقينا

عن أبي عبيدة قال : سمعت يونس يقول : لولا شعرُ الفرزدق لذهب ثُلث لغة العرب .

قال ابن سَلاّم : وكان الفرزدق أكثَرَهم بيتاً مُقَلّداً – والمقلّد : المُغْنِي المشهور الذي يُضرَب به المثل – من ذلك قولُه :

فيا عجَبا حتّى كُلَيبٌ تَسُبُّني
كأنّ أباها نَهشَلٌ أو مُجاشِعَ [(١)]

وقولـه :

ليس الكِرامُ بناحِليك أباهم حتّى يُرَدَّ إلى عَطيّةَ نَهشَلُ [(٢)]

وقولـه :

وكنّا إذا الجبّار صَعّر خدّه ضَربناه حتى تستقيم الأخادعُ [(٣)]

وقولـه :

وكنتَ كذئب السوء لمّا رأى دماً
بصاحبه يوماً أحال على الدمِ [(٤)]

(الأبيات ...)

وكان يُداخل الكلام ، وكان ذلك يعجب أصحاب النحو . من ذلك قوله يمدح هشام بن إسماعيل المخزوميّ ، خال هشام بن عبد الملك :

---

(١) كليب : قبيلة جرير . نهشل ومجاشع : بطون مشهورة من قبيلة الفرزدق .
(٢) عطية : أبو جرير . يريد : لن تنتسب إلى الكرام إلا إذا نسب نهشل إلى أبيك عطية ، وهذا مستحيل . وفي رواية : تعتل بدلا من نهشل ، أي حتى تجر إلى نسب أبيك جراً .
(٣) صعر خده : أماله كبراً وتيهاً . الأخدعان : عرقان في جانبي العنق .
(٤) أحال على الدم : أقبل عليه . يضرب هذا المثل لمن اذا نزلت بصاحبه مصيبة استفاد منها واستغلها بدلا من أن يمد له يد العون .

وأصبح ما في الناس إلاّ مُمَلّكاً
أبو أمه حيٌّ أبوه يُقاربهُ (١)

وقولـــه :

تاللهِ قد سَفِهت أُميّة رأيَهـــــا
فاستجهلت سفهاؤُها حُلماءَها (٢)

وقولـــه :

ألسـتم عائجــين بنا لَعنّـــــا
نرى العَرَصات أو أثرَ الخيام (٣)

(الأبيات ...)

آباؤه وأسرته

قال أبو عبيدة : وأمّ غالب : ليلى بنت حابس بن عِقال بن محمد بن سُفيان بن مجاشع .

وكان للفرزدق أخٌ يقال له هُمَيم ، ويلقّب بالأخطل ، ليست له نباهةٌ ، فأعقب ابناً يقال له محمّد ، فمات ، والفرزدق حيٌّ ، فرثاه ... وكان للفرزدق من الولد : خَبَطة ولَبَطة وسَبطة ، هؤلاء المعروفون ، وكان له غيرهم فماتوا ولم يُعرَفوا . وكان له بناتٌ خمسٌ أو ستٌّ .

---

(١) في البيت تقديم وتأخير ، وهو ما عرف بالتعقيد اللفظي ، والأصل أن يقول : وأصبح ما في الناس حي يقاربه الا مملكاً أبو أمه أبوه ، أي ليس في الناس إنسان يقاربه إلا هشام بن عبد الملك ، وهو ابن أخت الممدوح ، وعبارة (أبو أمه أبوه) تحل محل كلمة (ابن أخته) . وفي رواية : وما مثله في الناس الا مملكاً ...

(٢) استجهلت : دعتها للجهل ، وهو ضد الحلم .

(٣) لعنا : أصلها لعلنا ، وهذا هو موضع الشذوذ في البيت .

وأمّ الفرزدق – فيما ذكر أبو عُبيدة – لِينة بنت قَرَظة الضَّبيّة .

وكان يُقال لصَعصعة مُحيي المَوْءُودات ؛ وذلك أنه مرّ برجلٍ من قومه وهو يحفِر بئراً ، وامرأتُه تبكي . فقال لها صعصعة : ما يُبكيكِ ؟ قالت : يريد أن يَئد ابنتي هذه . فقال له : ما حَملك على هذا ؟ قال : الفَقر . قال : فإنّي أشتريها منك بناقتَين يتبعهما أولادُهما ، تعيشون بألبانهما ، ولا تئد الصَبيّة . قال : قد فعلتُ . فأعطاه الناقتين وجملاً كان تحته ، فَحلاً ، وقال في نفسه : إنّ هذه لَمَكْرُمَةٌ ما سبقني إليها أحدٌ من العرب . فجعل على نفسه ألاّ يسمع بموءُودة إلاّ فداها . فجاء الإسلام وقد فدى ثلثمائة موءودة . وقيل أربعمائة ...

ووفَد غالب بن صعصعة إلى النبيّ ﷺ فأسلم . وقد كان وَفَدَ أبوه صعصعة إلى النبيّ ﷺ ، فأخبره بفعله في الموءودات فاستحسنه وسأله : هل له في ذلك من أجرٍ ؟ قال : نعم . فأسلم . وعُمّر غالبٌ حتى لحق أمير المؤمنين عليّاً ، صلوات الله عليه ، بالبصرة ، وأدخل إليه الفرزدق ، وأظنّه مات في إمارة زياد ومُلك معاوية .

عن ابن عائشة عن أبيه قال : قال الفرزدق : كنت أُجيد الهجاء في أيام عثمان . قال : ومات غالب أبو الفرزدق ، في أول أيام معاوية ، ودُفن بكاظمةَ ، فقال الفرزدق يرثيه :

لقد ضَمّت الأكفانُ من آل دارمٍ
فتىً فائضَ الكفّين ، محضَ الضرائبِ[1]

عن جَهْم السَليطيّ ... عن عِقال بن صعصعة قال :

أجدبت بلاد تميم وأصابت بني حَنظلة سَنةٌ[2] في خلافة عثمان ،

(١) الضرائب ج ضريبة : السجية والطبيعة .
(٢) السنة : الجدب .

فبلغهم خِصبٌ عن بلاد كلْب بن وَبرة ، فانتجعها بنو حنظلة فنزلوا أقصى الوادي . وتسرّع غالبُ بن صعصعة فيهم وحدَه ، دون بني مالك بن حنظلة ، ولم يكن مع بني يربوع من بني مالك غير غالب ، فنحر ناقته فأطعمهم إيّاها . فلمّا وردت إبل سُحيم بن وَثيل الرِياحيّ حبس منها ناقةً فنحرها من غدٍ . فقيل لغالب : إنّما نحر سحيم مُواءمةً لك — أي مساواةً لك — فضحك غالب وقال : كلا ، ولكنه امرؤٌ كريم ، وسوف أنظر في ذلك . فلمّا وردت إبل غالب حبس منها ناقتين فنحرهما ، فأطعمهما بني يربوع . فعقر سُحيمٌ ناقتين . فقال غالب : الآن علمت أنه يوائمني . فعقر غالب عشراً فأطعمها بني يربوع ، فعقر سُحيم عشراً . فلمّا بلغ غالباً فعلُه ضحك ، وكانت إبله ترد لِخِمْس [1] ، فلمّا وردت عقرها كلّها عن آخرها . فالمُكثِر يقول : كانت أربعمائة ، والمُقِلّ يقول : كانت مائة . فأمسك سُحيم حينئذٍ .

ثم إنّه عقر في خلافة علي بن أبي طالب ، صلوات الله عليه ، بكُناسة الكوفة مائتي ناقةٍ وبعير ، فخرج الناس بالزنابيل والأطباق والحبال لأخذ اللحم ، ورآهم علي عليه السلام فقال : أيُّها الناس ، لا يحِلّ لكم ، إنّما أُهِلّ بها [2] لغير الله عزّ وجلّ . قال : فحدّثني من حضر ذلك قال : كان الفرزدق يومئذٍ مع أبيه ، وهو غلامٌ ، فجعل غالب يقول : يا بُنيّ ، اردُدْ عليَّ ، والفرزدق يردّها عليه ويقول له : يا أبتِ ، اعقِرْ . قال جهم : فلم يُغن عن سُحيم فعلُه ، ولم يُجعَل كغالب إذ لم يُطِقْ فعلَه .

---

(١) الخمس : ضرب من إظماء الإبل ، وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الماء في اليوم الرابع .
(٢) أهل الملبي : رفع صوته بالتلبية وأهل الذابح : رفع صوته عند الذبح بذكر الله .

قدومه على عليّ مع أبيه

عن أبي عمرو قال :

جاء غالبٌ ، أبو الفرزدق ، إلى عليّ بن أبي طالب ، صلواتُ الله عليه ، بالفرزدق بعد الجمل بالبصرة فقال : إنّ ابني هذا من شعراء مُضر ، فاسمَعْ منه . قال : عَلِّمه القرآن . فكان ذلك في نفس الفرزدق ، فقيّد نفسه في وقتٍ وآلى [1] : لا يَحُلّ قَيْدَه حتّى يحفظ القرآن .

قوة حفظه

عن الأصمعي قال : أنشد الراعي الفرزدق أربع قَصائد ، فقال له الفرزدق : أُعيدها عليك ؟ لقد أتى عليّ زمانٌ ولو سمعت ببيت شعرٍ وأنا أهوِي في بئرٍ ما ذهب عنّي .

الاحتجاج بشعره

أبو بكر الهُذَليّ قال :

إنّا لجُلوسٌ عند الحسن [2] إذ جاء الفرزدق يتخطّى حتّى جلس إلى جَنبه . فجاء رجلٌ فقال : يا أبا سَعيد ، الرجلُ يقول : لا واللهِ ، وبلى واللهِ ، في كلامه . قال : لا يُريد اليمين . فقال الفرزدق : أوَ ما سمعتَ ما قلتُ في ذلك ؟ قال الحسن : ما كلّ ما قلتَ سمعُوا ، فما قلتَ ؟ قال : قلتُ :

---

(١) آلى : أقسم .

(٢) المقصود هنا هو الحسن البصري .

ولست بمأخوذٍ بلَغْوٍ تَقُولـه
إذا لم تعمّد عاقداتِ العَزائم [1]

قال : فلم ينشَب أن جاءه رجلٌ آخرُ فقال : يا أبا سعيد ، نكون في هذه المَغازي فنُصيب المرأة لها زَوجٌ ، أفيحِل غِشيانُها ، وإن لم يُطلِّقها زوجُها ؟ فقال الفرزدق : أوَ ما سمعتَ ما قلت في ذلك ؟ قال الحسن : ما كلّ ما قلت سمعوا ، فما قلت ؟ قال : قُلت :

وذات حَليلٍ أنكحتَنْا رِماحُنـا
حَلالاً لِمن يَبني بها لم تُطلّقِ [2]

معاناته في نظم شعره

عن هشام بن القاسم قال : قال الفرزدق : قد علم الناسُ أنّي فحلِ الشعراء ، وربّما أتت عليّ الساعةُ لَقَلعُ ضِرسٍ من أضراسي أهونُ عليّ من قول بيت شعر .

الفرزدق وزوجاته

(عن جماعة من الرواة :)

أنّ رجلاً من بني أُميّة خطَب النَوار بنت أعْيَن المجاشعيّة ، فرضِيتَهْ وجعلت أمرها إلى الفرزدق . فقال لها : أَشهِدي لي بذلك على نفسك شُهوداً ، ففعلت ، واجتمع الناس لذلك ، فتكلّم الفرزدق ثم قال : اشهَدوا أنّي قد تزوّجتُها وأَصدقتها كذا وكذا ، فأنا ابن عمّها وأحقّ

---

(١) أراد أنه لا يحاسب على لغو يقوله اذا لم يكن قاصداً له ، وهو ينظر إلى قوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » .
(٢) يريد : أن المرأة التي تسبى في الحرب يحل الاستمتاع بها لأنها بحكم الأمة .

بها . فبلغ ذلك النوّارَ فأبَتْه واستترت من الفرزدق وجَزِعت ولجأت إلى بني قيس بن عاصم المِنْقَريّ ، فقال فيها :

بني عاصمٍ لا تُلجِئُوها فإنّكم
مَلاجئُ للسَوْءات دُسْمُ العمائمِ
بني عاصمٍ لو كان حَيّاً أبوكم
لَلامَ بَنيه اليومَ قيسُ بن عاصم[1]

فقالوا : واللهِ لئن زِدت على هذين البيتين لَنَقْتُلَنّك غِيلةً .

فنافرته إلى عبد الله بن الزُبير وأرادت الخُروج إليه ، فتحامى الناسُ كِراءها . ثم إن رجلاً من بني عَدِيّ يُقال له زهير بن ثَعْلبة وقوماً يُعرَفون ببني أُمّ النُسَير أكْرَوها ، فقال الفرزدق :

ولولا أن تَقُول بنو عَدِيٍّ أليست أُمُّ حَنظلةَ النّوارُ
أتتكم يا بني مِلْكانَ منّي قَوافٍ لا تَقَسّمُها التّجار

يعني بالنوار ها هنا : بنت جُلّ بن عَدِيّ بن عبد مَناة ، وهي أم حنظلة بن مالك بن زيد مَناة ، وهي إحدى جَدّاته ....

وقال لبني أُمّ النُسَير :

لَعَمري لقد أردى النَوار وساقَها
إلى الغَور أحلامٌ خِفافٌ عُقولُها
أطاعت بني أُمّ النُسَير فأصبحت
على قَتَبٍ يَعلو الفلاَةَ دليلُها

---

(١) دسم العمائم : قذرة العمائم .

وقد سخطت مني النوارُ الذي ارتضى
به قبلَها الأزواجُ خاب رحيلها
وإن امرءاً أمسى يُخبِّب زوجتي
كماشٍ إلى أسد الشَرى يَستبيلُها
ومن دون أبوال الأسود بَسالةٌ
وبَسطةُ أيدٍ يمنع الضَيْمَ طُولها
وإنّ أمير المؤمنين لعالمٌ
بتأويل ما أوصى العِبادَ رسولُها
فدُونَكها يابن الزُبير فإنّها
مُوَلّعةٌ يُوهي الحِجارةَ قِيلها [1]

فلمّا قدِمت مكّةَ نزلت على بنت مَنظور بن زَبّان ، واستشفعت بها إلى زوجها عبد الله ، وانضمّ الفرزدق إلى حمزة بن عبد الله بن الزبير — وأمّه بنت منظور هذه — ومدحه فقال :

أصبحت قد نزلتْ بحمزةَ حاجتي
انّ المنوّه باسمه الموثوقُ

الأبيات ....

وقال في النوّار :

هَلُمّي لابن عمّك لا تكُوني كمُختارٍ على الفَرَس الحِمارا

(١) الغور : بلاد تِهامة وفيها مكة مقر ابن الزبير . القتب : خشبة الرحل تكون على قدر السنام . يخبب : يخدع ، وفي المطبوعة ج ٩ : تحبب ، وهو تصحيف . يستبيلها : يطلب بولها ويأخذه في يده ، يشبه صعوبة الوصول إلى زوجه والتغرير بها بصعوبة الحصول على بول الأسود . دونكها : خذها ، يعني القصيدة . مولعة : بلقاء مشهورة .

... وقال الفرزدق :

أمّا بنُوه فلم تُقبلَ شفاعتُهم
وشُفِّعت بنتُ منظور بن زبّانا

ليس الشَفيعُ الذي يأتيك مؤتزِراً
مثلَ الشفيع الذي يأتيك عُريانا

فبلغ ابن الزبير هذا فدعا النوار فقال : إن شئت فرّقت بينكما وقتلته فلا يهجونا أبداً ، وإن شئت سيّرتُه إلى بلاد العدوّ . فقالت : ما أريد واحدةً منهما . قال : فإنّه ابن عمّك ، وهو فيك راغبٌ ، أفأزوّجه إيّاك ؟ قالت : نعم . فزوّجه إيّاها . فكان الفرزدق يقول : خرجنا متباغضَين ، ورجعنا متحابّين .

قال عثمان بن سليمان :

شهِدت الفرزدق يومَ نازع النَوار فتوجّه القضاءُ عليه ، فأشفق من ذلك وتعرّض لابن الزبير بكلام أغضبه ، وكان ابن الزبير حَديداً ، فقال له ابن الزبير : أيا ألأمَ الناس ، وهل أنت وقومُك إلاّ جاليةُ العرب ! وأمر به فأقيم . وأقبل علينا فقال : إنّ بني تميم كانوا وثَبوا على البيت قبل الإسلام بمائةٍ وخمسين سنةً فاستلبوه ؛ وأجمعت العرب عليها لمّا انتهكتْ ما لم ينتَهِكْه قطٌّ فأجلَتها من أرض تِهامة .

فلمّا كان في طائفةٍ من ذلك اليوم لَقيني الفرزدق فقال : هِيهِ ! أيُعَيِّرنا ابنُ الزبير جلاءَنا عن البيت ! اسمعْ . ثم قال :

فإن تغضَبْ قُريشٌ ثُم تغضَبْ ... فإنّ الأرض ترعاها تميمُ
همُ عَدد النُجوم وكُلُّ حَيٍّ ... سِواهم لا تعُدّ لهم نُجومُ
فلولا بنتُ مُرٍّ من نِزارٍ ... لما صَحّ المَنابتُ والأديمُ

بها كَثُرَ العَديدُ وطاب منكم | وغيرُكم أحذّ الريش هيم
فمهلاً عن تذلُّل مَن عَزَزْتُم | بخُولَته وعزّ بـه الحميمُ
أعبدَ الله مَهلاً عـن أذاتي | فإنّي لا الضعيفُ ولا السؤوم
ولكنّي صَفاةٌ لم تُؤَبَّسْ | تزِلُ الطيرُ عنها والعُصومُ
أنا ابنُ العاقرِ الخُورِ الصفايـا | بصَوْءَرَ حيث فُتِّحت العكومُ(١)

وذكر الزُبير بن العوّام عن عمه أنّ عبد الله بن الزبير لما حكم على الفرزدق قال : انما حكمتَ عليّ بهذا لأفارقها فتثب عليها ، وأمر به فأقيم وقال له ما قال في بني تميم . قال : ثم خرج عبد الله بن الزبير إلى المسجد فرأى الفرزدق في بعض طرق مكة ، وقد بلغته أبياته التي قالها ، فقبض ابن الزبير على عنقه فكاد يدقّها ...

فلمّا أذنت النَوار لعبد الله في تزويجها بالفرزدق حكم لها عليه بمَهر مثلها عشرة آلاف درهم . فسأل هل بمكة أحدٌ يُعينه ؟ فدُلّ على سَلْم بن زياد ، وكان ابن الزبير حبسه ، فقال فيه :

دعي مُغلقي الأبــوابِ دون فَعالهــم
ومُرّي تَمَشّي لعُلِتِ إلى سَلْــمِ
إلى من يرى المعــروف سهلاً سبيله
وبفعل أفعال الكــرام التي تَنمــي

(١) بنت مر : أراد قبيلة تميم فهي : تميم بن مر بن أد ، وهي وقريش تلتقيان في الانتساب إلى مضر بن نزار بن عدنان . أحذ الريش : مقصوصه . هيم : المتحيرون أو العطاش يريد أنهم لا عدد لهم يعتزون به . الخولة : مخففة عن خؤولة . الصفاة : الصخرة الصلبة . لم تؤبس : لم تكسر . العصوم : الوعول . الخور ج خوارة : الغزيرة اللبن من النوق . صوءر : الموضع الذي تعاقر فيه غالب أبو الفرزدق وسحيم بن وثيل . العكوم ج عكم : العدل الذي توضع فيه الثياب.

ثم دخل على سَلْم فأنشده ، فقال له : هي لك ومثلها نفقتُك ، ثم أمر له بعشرين ألفاً فقبضها ثم اصطلحا ورضيت به وساق إليها مَهرها ودخل بها وأحبلها قبل أن تخرج من مكة ، ثم خرج بها ، وهما عديلان في مَحمِل. فكانت لا تزال تُشارّه [1] وتخالفه ، لأنها كانت صالحة حسنة الدين ، وكانت تكره كثيراً من أمره .

فتزوّج عليها حَدْراءَ بنت زِيق بن بِسْطام ... بن مُرّة بن ذُهْل بن شيبان ، فتزوّجها على مائةٍ من الإبل . فقالت له النّوار : ويلَك ! تزوّجت أعرابيّة دقيقة الساقَين ، بَوّالةً على عَقِبَيها ، على مائة بعيرٍ ! فقال الفرزدق يُفضّلها عليها ويُعيّرها أنها كانت تُربّيها أَمَةٌ :

لَجاريةٌ بين السّليل عُروقُهــا
وبين أبي الصَهْباء من آلِ خالدِ
أحقُّ بإغلاء المُهور مــن التي
رَبَت وهي تنزو في حُجور الولائد [2]

... وقال أيضاً يمدحها ويعرّض بالنّوار :

لَعَمْري لأعرابيــةٌ في مِظَلّــةٍ
تظلُّ برَوْقَي بيتها الريحُ تَخفُقُ
كأمٍّ غَزالٍ أو كدُرّةِ غائصٍ
إذا ما أتت مثلَ الغَمامة تُشرق

---

(١) تشاره : تخاصمه وتوقع به الشر .

(٢) السليل : هو السليل بن قيس ، أخو بسطام ، وأبو الصهباء كنية بسطام بن قيس . ربت : نمت . الولائد : الإماء .

أحبُّ إلينا من ضِناكٍ ضِفِنَّـــةٍ
إذا وُضعت عنها المَراوح تَعرَق [1]

... وأغضب الفرزدق النوار بمدحه إيّاها فقالت : والله لأُخزينّك يا فاسق . وبعثت إلى جرير فجاءها ، فقالت : ألا ترى ما قال لي الفاسق ! وشكت إليه ، فقال :

فلا أنا مُعطي الحُكم عن شِفّ مَنْصبٍ
ولا عن بنات الحَنْظليّين راغبُ
وهنّ كماء المُزن يُشفَى به الصَدَى
وكانت مِلاحاً غيرَهنّ المشَارب
لقد كنت أهلاً أن تسوق دياتِكم
إلى آل زِيقٍ أن يَعيبَك عائبُ
وما عدلت ذاتُ الصليب ظَعينةٌ
عُتَيبةُ والرِدْفان منها وحاجبُ
ألا رُبّما لم نُعطِ زِيقاً بحُكْمـــه
وأدّى إلينا الحُكمَ والغُلُّ لازب
حَوينا أبا زيقٍ وزِيقاً وعمّـــــه
وجَدّةُ زيقٍ قد حوَتْها المقَانبُ [2]

---

(١) المظلة : الخباء الواسع . روق البيت : رواقه ، أي شقته التي دون الشقة العليا . الضناك : الضخمة من النساء . الضفنة : الحمقاء مع ضخامة الجسم وكثرة اللحم .

(٢) الشف : النقصان . الحنظليون : نسبة إلى حنظلة بن مالك بن تميم . الديات : هنا ، المراد بها المهر الذي ساقه إلى آل حدراء . ذات الصليب : أراد حدراء ، إذ كان قومها على النصرانية . الظعينة : المرأة في هودجها ، أراد بها النوار . عتيبة : هو عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي وهو من فرسان تميم اللامعين. الردفان : هما عتاب بن هرمي وعوف ابنه، =

فأجابه الفرزدق بقصيدة منها :

[تقول كليبٌ حين مَثّت سِبالَها
وأخصب من مَرُّوتها كلَّ جانبِ

لِسَوّاقِ أغنامٍ رعتهنَّ أُمُّه
إلى أن علاها الشيب فوق الذوائب]

ألست إذا القعساء أنسلَ ظهرُها
إلى آلِ بسطام بن قيسٍ بخاطبِ

فنَلْ مِثلَها من مِثْلهم ثمَّ لُمْهمُ
بملكك من مالٍ مُراحٍ وعازبِ

فلو كنت من أكفاءِ حَدراءَ لم تَلُم
على دارميٍّ بين ليلى وغالب

وإنّي لأخشى إن خطبتَ إليهمُ
عليك التي لاقى يَسار الكواعب

ولو قبِلوا منّي عطيّة سُقتُه
إلى آل زيقٍ من وَصيفٍ مُقارب

همُ زَوّجوا قبلي ضِراراً وأنكحوا
لقيطاً وهم أكفاؤنا في المناسبِ

ولو تُنكح الشمسُ النجومَ بناتِها
إذاً لنكَحناهنَّ قبل الكواكب (١)

= وكانا من ردفاء ملوك الحيرة ، والردافة كانت منصباً رفيعاً لدى ملوك الحيرة وكان لبني يربوع . حاجب : هو حاجب بن زرارة الدارمي من سادة بني تميم في الجاهلية . الغل : القيد . لازب : لازم . المقانب ج مقنب : الجماعة من الخيل تجتمع للغارة .

(١) مث الشارب : أطعمه دسماً . السبال ج سبلة : مجتمع الشاربين أو ما على الذقن من الشعر =

حاجب بن زيد وأبو الغَرّاف قالا :

تزوّج الفرزدق حَدراء بنت زِيق ... على حُكم أبيها ، فاحتكم مائةً من الإبل . فدخل على الحجّاج فعذَله فقال : أتزوّجتَها على حُكمها وحُكم أبيها مائةَ بعيرٍ ، وهي نصرانيةٌ ، وجئتَنا متعرِّضاً أن نَسُوقَها عنك ! اخرُج ، مالَكَ عندنا شيءٌ . فقال عنبسة بن سعيد بن العاصي ، وأراد نفعَه : أيّها الأمير ، إنّها من حواشي إبل الصدَقة ، فأمر له بها . فوثب عليه جريرٌ فقال :

يا زيقُ قد كنتَ من شيبانَ في حسبٍ
يا زيقِ ويحَكَ مَن أنكحتَ يا زيقُ
أنكحت ويحك قَيْناً باستِه حَمَمٌ
يا زيقُ ويحَكَ هل بارت بك السُوق

قال ابن سلاّم : وأراد الفرزدق أن تُحمَل إليه ، فاعتلُّوا عليه وقالوا : ماتت ، كراهةَ أن يهتِكَ جريرٌ أعراضَهم . فقال جرير :

وأقسم مـا ماتت ولكنّه التـوى
بحَدراءَ قومٌ لم يـرَوك لها أهلا

= إلى طرف اللحية . المروت : البادية التي كان ينزلها بنو كليب باليمامة . القعساء : أراد الأتان . يقول : ان بني كليب قالوا لجرير : هلا خطبت إلى آل بسطام بن قيس وقد أخصبت أرضك وكثرت أعيارك . المال المراح : المقيم والعازب : النائي ، أي حاول أن تنال مثل حدراء من مثل قومها بكل ما تملكه من مال . ليلى : أم الفرزدق . يسار : كان عبداً لبني غدانة فأراد مولاته على نفسها فأدبته وآذته فضرب به المثل . عطية : أبو جرير . المقارب : الدون . ضرار : هو ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة التيمي ، وهو من أشراف بني تميم . لقيط : هو لقيط بن زرارة التيمي ، من أشراف بني تميم وسادتهم في الجاهليـة .

رأوا أنّ صِهر القين عارٌ عليهـــم
وأنّ لبِسطامٍ على غالبٍ فضلا
إذا هي حلّت مُسْحُلانَ وحاربت
بشيبان لاقى القومُ مِن دونها شُغلا [1]

• • •

قال دَماذ : وتزوّج الفرزدق على النوّار امرأة من اليرابيع ، وهم بطنٌ من النِمر بن قاسط ، حلفاءُ لبني الحارث بن عُباد الضُبَعيّ [2] ، وقد انتسبوا فيهم . فقالت له النوار : وما عسى أن تكون الضُبَعيّة ؟ فقـــال :

أرتك نجومَ الليل والشمسُ حَيّةٌ
زحامُ بنات الحارث بن عُبادِ
نساءٌ أبوهنّ الأغرُّ ولم تكـــن
من الحُتّ في أجبالهـــا وهَدادِ
ولم يكن الجَوفُ الغَمُوض محلَّهـــا
ولا في المجاريّين رَهط زيادِ
أبوها الذي أدنى النعامة بعدمـــا
أبت وائلٌ في الحرب غيرَ تمادِ

— يعني بأبيها الذي أدنى النَعامة . الحارث بن عُباد ، وأراد قوله :

قرّبا مَربط النعامة مني —

(١) مسحلان : موضع في بلاد بني يربوع .
(٢) في المطبوعة : القيني ، وأراه محرفاً لأن الحارث بن عباد ليس من بني القين وانما هو من ضبيعة بن ذهل بن بكر .

عَدَلَتْ بها مَيل النَوار فأصبحت
مُقاربةً لي بعد طُول بِعادِ
وليست وإن أنبأتُ أنِّي أحبّها
إلى دارميّات النِّجار جياد (١)

وقال أبو عبيدة : حدّثني أعْيَن بن لبَطة قال : تزوّج الفرزدق ، مُضارّةً (٢) للنوار ، امرأةً يقال لها رُهَيمة بنت غُنيم بن دِرهم ، من اليرابيع ، قوم من النمر بن قاسط ، في بني الحارث بن عُبَاد ، وأمُها الحُمَيضة (٣) ، من بني الحارث ، فنافرته الحُميضة فاستعدت عليه . فأنكرها الفرزدق وقال : أنا منها بريءٌ ، وطلّق ابنتها وقال :

إنّ الحُمَيضة كانت في ولايتها
مثلَ الهرَاسة بين النّعل والقدَمِ
إذا أتت أهلَها مني مُطلّقةً
فلن أردّ عليها زَفرة الندم (٤)

قال الحِرمازيّ : ومكثت النوار عنده زماناً ؛ ترضى عنه أحياناً ، وتُخاصمه أحياناً . وكانت النَوار امرأةً صالحةً ، فلم تزل تشمئزّ منه

---

(١) بين المصادر خلاف في رواية هذه الأبيات . زحام : أي مزاحمة . الحت : بطن من كندة . هداد : قبيل من الأزد . الجوف : موضع ببلاد مراد أو جوف عمان . الغموض : أراد الغامض وهو المطمئن من الأرض . المجاريون : من أزد عمان ، وزياد : هو زياد بن عمرو العتكي . النعامة : اسم فرس الحارث بن عباد .

(٢) مضارة للنوار : إغاظة لها .

(٣) في رواية أخرى : الخميصة .

(٤) الهراسة : واحدة الهراس وهو نوع من الشوك .

وتقول له : ويحَك ! أنت تعلم أنّك إنّما تزوّجت بي ضُغطةً [1] وعلى خُدعة . ثم لا تزال في كلّ ذلك حتى حلفت بيمين مُوثقةٍ ، ثم حَنِثت .

... قال : فلم تزل النوار ترققه وتستعطفه حتى أجابها إلى طلاقها ، وأخذ عليها أن لا تفارقه ولا تبرَحَ منزله ولا تتزوّج رجلاً بعده ، ولا تمنعه من مالها ما كانت تبذُله له ، وأخذت عليه أن يُشهِد الحسن البصريّ على طلاقها ، ففعل ذلك .

عن أبي شَفقَل راوية الفرزدق قال :

ما استصحب الفرزدق غيري وغيرَ راويةٍ له آخرَ ، ولقد صحب النَوار رجالٌ كثيرة ، إلا أنّهم كانوا يلُوذون بالسَواري [2] ، فرَقاً من أن يراهم الفرزدق . فأتيا الحسَن ، فقال له الفرزدق : يا أبا سعيدٍ ، قال له الحسن : ما تشاء ؟ قال : اشهَدْ أن النوار طالقٌ ثلاثاً . فقال الحسن : قد شهدنا . فلمّا انصرفنا قال : يا أبا شقفل . قد ندمتُ . فقلت له : والله إنّي لأظنّ أن دمك يترقرق . أتدري من أشهدتَ ؟ والله ، لئن رجعت لتُرجَمنّ بأحجارك . فمضى وهو يقول :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعيّ لمّا غدت منّي مُطلّقةً نَوارُ
ولو أنّي ملكت يدي وقلبي لكان عليّ للقدَر الخيارُ
وكانت جنّتي فخرجت منها كآدمَ حين أخرجه الضِرار
وكنت كفاقىءٍ عينيه عَمداً فأصبح ما يُضيء له النَهارُ [3]

(١) ضغطة : كرهاً وقسراً .
(٢) السواري ج سارية : عمود أسطواني الشكل .
(٣) الكسعي : هو غامد بن الحارث الكسعي ، وكان اتخذ قوساً وخمسة أسهم فمر به قطيع فرمى عيراً فظن أنه أخطأ فرمى أسهمه كلها وهو يظن أنه لا يصيب ، فعمد إلى قوسه فكسرها ، فلما أصبح نظر فرأى الحمر مصرّعة فندم على كسره قوسه فقطع ابهامه فضرب به المثل .

أخبرني وكيع عن ... عن سفيان بن الحسن ومحمّد بن سلاّم :

أنّ النوّار لمّا حضرّها الموت أوصت الفرزدق ، وهو ابن عمّها ، أن يُصلّي عليها الحسنُ البصريّ . فأخبره الفرزدق فقال : إذا فرغتم منها فأعلِمني . وأُخرجت وجاءها الحسن ، وسبقهما الناس فانتظروهما . فأقبلا ، والناس ينتظرون ، فقال الحسن : ما للناس ؟ فقال : ينتظرون خيرَ الناس وشرّ الناس . فقال : إنّي لستُ بخيرهم ، ولستَ بشرّهم .

وقال له الحسن على قبرها : ما أعددت لهذا المَضجَعِ ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلاّ الله منذ سبعين سنةً .

هذا لفظ محمّد بن سلاّم . وقال وكيعٌ في خبره : فتشاغل الفرزدق بدفنها ، وجلس الحسن يعظ الناس . فلمّا فرغ الفرزدق وقف على حلْقة الحسن وقال :

لقد خاب من أولاد آدمَ من مشى ... إلى النار مَغلُولَ القِلادَة أزرقا
أخاف وراء القبرِ إن لم يُعافِني ... أشدَّ من القبر التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائدٌ ... عنيفٌ وسَوّاقٌ يسوق الفرزدقا (١)

اتقاء الناس لسانه

.. عبد القاهر بن السَريّ السُلميّ قال : كان فتىً من بني حَرام شُويعرٌ هجا الفرزدق . قال : فأخذناه ، فأتينا به الفرزدق وقلنا : هذا بين يديك ، فإن شئت فاضرِب ، وإن شئت فاحلِقْ ، فلا عَدوَى عليك ولا قِصاصٌ ، قد بَرئنا إليك منه . قال : فخَلّى سبيله وقال :

فمَن يكُ خائفاً لأذاة شعري ... فقد أمِن الهجاءَ بنو حَرامِ

(١) أزرق : يشير إلى ما جاء في القرآن الكريم من أن المجرمين يحشرون إلى جهنم زرقاً .

هم قادوا سفيهَهم وخافوا   قلائدَ مثلَ أطواق الحَمام [1]

* قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقّاص :

قدم الفرزدق المدينة في إمارة أبان بن عثمان ، فأتى الفرزدق وكُثيّر عزّة . فبينا هما يتناشدان الأشعار إذ طلع عليهما غلامٌ شَخْتٌ [2] رقيق الأدمة [3] ، في ثوبين ممصّرين [4] ، فقصد نحوَنا ، فلم يسلّم وقال : أيّكم الفرزدق ؟ فقلت ، مخافة أن يكون من قريش : أهكذا تقول لسيّد العرب وشاعرها ؟ فقال : لو كان كذلك لم أقل هذا . فقال له الفرزدق : مَن أنت ، لا أمَّ لك ؟ قال : رجلٌ من الأنصار ، ثم من بني النَّجّار ، ثم أنا ابن أبي بكر بن حزم . بلغني أنك تزعُم أنك أشعرُ العرب ؛ وتزعمه مُضر ، وقد قال شاعرنا حسان بن ثابت شعراً ، فأردت أن أعرِضه عليك وأؤجّلَك سنةً ، فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب — كما قيل — وإلاّ فأنت منتحلٌ كذّابٌ ، ثم أنشده :

ألم تسأل الربْعَ الجديدَ التكلُّما

... فأنشده القصيدة ، وهي نَيّفٌ وثلاثون بيتاً ، وقال له : قد أجّلتك في جوابها حَولاً .

فانصرف الفرزدق مُغضَباً ، يسحَب رداءَه ، وما يدري أية طُرقه ، حتى خرج من المسجد ، فأقبل عليَّ كُثَيّر فقال لي [5] : قاتل له الأنصار ، ما أفصحَ لهجتَهم ، وأوضح حُجتَهم ، وأجودَ شِعرَهم ! فلم نزل في

(1) القلائد : أراد قصائد الهجاء التي يطوق بها أعناقهم كالقلائد .

(2) الشخت : الهزيل الضامر .

(3) الأدمة : ما ظهر من جلدة الرأس ، وظاهر الجلدة التي تلي اللحم .

(4) الممصر : المصبوغ بالطين الأحمر .

(5) في المطبوعة : (فأقبل على كثير فقال له) والسياق يقتضي ما أثبتناه .

حديث الأنصار والفرزدق بقيّةَ يومنا . حتّى إذا كان من الغد خرجت من منزلي إلى المسجد الذي كنتُ فيه بالأمس ، فأتى كُثيّر فجلس معي . وإنّا لنتذاكر الفرزدق ونقول : ليت شِعري ما صنع ؟ إذ طلَع علينا في حُلّة أفواف [١] ، قد أرخى غَديرته ، حتّى جلس في مجلسه بالأمس ، ثم قال: ما فعل الأنصاريّ؟ فنلنا منه وشتمناه . فقال: قاتله اللهُ، ما مُنيتُ بمثاه ، ولا سمعت بمثل شعره . فارقته وأتيت منزلي ، فأقبلت أُصَعّدُ وأُصوّب في كلّ فنٍّ من الشعر ، فكأنّي مُفحَم لم أَقُل شعراً قطّ ، حتّى إذا نادى المنادي بالفجر رحلت ناقتي وأخذت بزِمامها حتّى أتيت ذُبابا [٢] ، وهو جبل بالمدينة ، ثمّ ناديت بأعلى صوتي : أخاكم ، أخاكم - يعني شيطانه - فجاش صدري كما يجيش المِرجل ، فعقلت ناقتي وتوسّدت ذراعها ، فما عَتمتُ حتّى قلت مائة بيت من الشعر وثلاثة عشر بيتاً .

فبينا هو يُنشد اذ طلع الأنصاريّ ، حتّى إذا انتهى إلينا سلّم علينا ثم قال : إنّي لم آتك لأُعجلَك عن الأجل الذي وقّته لك ، ولكني أحببت ألاّ أراك إلاّ سألتُك : إيش [٣] صنعت ؟ فقال : إجلِس . وأنشده قولــه :

عزَفتَ بأعشاشٍ وما كنت تعــزِفُ
وأنكرت من حَدْراءَ ما كنتَ تعرفُ [٤]
ولجّ بك الهِجرانُ حتّى كأنّمــــا
ترى الموت في البيت الذي كنت تألف

(١) أفواف : ثياب رقاق موشاة مخططة .
(٢) في المطبوعة « ريان » وليس في المدينة جبل بهذا الاسم وانما ذاك جبل في بلاد طيء .
(٣) إيش : تحريف عامي لعبارة : أي شيء .
(٤) أعشاش : موضع ببلاد بني سعد .

... حتّى بلغ إلى قوله :

ترى الناسَ ما سِرنا يسيرون خلفَنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفُوا

وأنشدها الفرزدق حتّى بلغ إلى آخرها . فقام الأنصاريُّ كئيباً ، فلمّا توارى طلع أبوه أبو بكر بن حَزم في مَشيخةٍ من الأنصار ، فسلّموا عليه وقالوا : يا أبا فِراس ، قد عرفتَ حالنا ومكانَتنا من رسول الله ﷺ ، وقد بلَغنا أنّ سفيهاً من سُفهائنا ربّما تعرّض لك ، فنسألك بحقّ الله وحقّ رسوله لما حفِظت فينا وَصيّة رسول الله ﷺ ، ووهبتَنا له ، ولم تَفضحنا .

قال محمد بن إبراهيم : فأقبلت عليـــه أكلّمه ، فلمّا أكثرنا عليه قال : اذهبُوا ، فقد وهبتُكم لهذا القُرشيّ .

* عن خالد بن كُلثوم الكلبيّ قال :

مررت بالفرزدق ، وقد كنت دوّنت شيئاً من شعره وشعر جرير ، وبلغه ذلك فاستجلسَني ، فجلست إليه ، وعـُذت بالله من شرّه ، وجعلت أحدّثه حديث أبيه وأذكر له ما يُعجبه ، ثم قلت له : إنّي لأذكر يوم لقّبك بالفرزدق . قال : وأيَّ يوم ؟ قلت : مررت به ، وأنت صبيٌّ ، فقال له بعض من كان يُجالسه : كأنّ ابنك هـــذا الفرزدق دِهقانُ الحِيرة ، في تِيهه وأُبّهته ، فسَمّاك بذلك . فأعجبه هذا القول وجعل يستعيده ، ثم قال : أنشدني بعض أشعار ابن المرَاغة فيّ . فجعلت أنشده حتى انتهيت ، ثم قال : فأنشِد نقائضَها التي أجبتُه بها . فقلت : ما أَحفظها ، فقال : يا خالدُ ، أتحفظ ما قاله فيّ ولا تحفـَظ نقائضَه ! والله لأهجونّ كلباً هجاءً يتّصل عارُه بأعقابها إلى يوم القيامة إن لم تقُم حتى تكتب نقائضها أو تحفظَها وتنشدنيها . فقلت : أَفعل . فلزمتُه شهراً حتى حفظت

نقائضها وأنشدته إيّاها ، خوفاً من شرّه .

انتحاله شعر غيره

أبو مَسلمة موهوبٌ بن رشيد الكِلابيّ قال : وقف الفرزدق على جميلٍ ، والناس مجتمعون عليه ، وهو يُنشِد :

ترى الناسَ ما سِرنا يسيرون خلفَنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس وقَفُوا

فأشرع إليه رأسه من وراء الناس وقال : أنا أحقُّ بهذا البيت منك . قال : أنشُدُك الله يا أبا فِراس . فمضى الفرزدق وانتحله .

• عن أبي عثمان المازنيّ قال :

مرّ الفرزدق بابن مَيّادةَ الرَمّاحِ ، والناسُ حولَه ، وهو يُنشد :

لو انّ جميعَ الناس كانوا برَبوةٍ
وجئتُ بجَدّي ظالمٍ وابن ظالمِ
لظلّت رقابُ الناس خاضعةً لنا
سُجُوداً على أقدامنا بالجماجم

فسمعه الفرزدق ، فقال : أما واللهِ ، يابنَ الفارسية ، لتَدعَنّه لي أو لأنبِشَنّ أمّك من قبرها . فقال له ابنُ مَيّادة : خُذه ، لا بارك اللهُ لك فيه . فقال الفرزدق :

لو انّ جميع الناس كانوا بربوةٍ
وجئتُ بجدّي دارمٍ وابن دارم

لظلّت رقابُ الناس خاضعةً لنــا
سجُوداً على أقدامنا بالجماجــم

• الرياشيُّ قال :

كان الفرزدق مَهيباً تخافه الشعراء ، فمرّ يوماً بالشَّمَرْدَل ، وهو ينشد قصيدته حتّى بلغ إلى قوله :

وما بينَ من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً
وبين تميمٍ غيرُ حَزّ الغلاصم [1]

قال : والله لتتركنَّ هذا البيت أو لتتركنّ عِرضك . قال : خُذه ، على كَرْهٍ منّي [2] . فهو في قصيدة الفرزدق الّتي أوّلها قوله :

تحنّ بزوراء المدينة ناقتي

قال : وكان الفرزدق يقول : خير السرقة ما لا يجب فيه القطعُ ، يعني سرقة الشعر .

• عن الضَحّاك بن بُهلول الفُقَيْميّ قال :

بينما أنا بكاظمة ، وذو الرُمّة ينشد قصيدته الّتي يقول فيها :

أحين أعاذت بي تميمٌ نساءَهــا
وجُرِّدت تجريدَ اليماني من الغِمْدِ

إذا راكبان قد تدلّيا من نَعف كاظمــة متقنّعان ، فوقفا . فلمّا فرغ ذو الرُمّة حسر الفرزدق عن وجهه وقال : يا عُبَيد ، اضمُمها إليك —

(١) الحز : القطع . الغلاصم ج غلصمة : رأس الحلقوم .
(٢) الكره ، بفتح الكاف : ما أكرهك غيرك عليه .

يعني راويته – وهو عُبيد ، أخو بني ربيعة بن حنظلة . فقال ذو الرمّة : نشدتك الله يا أبا فراس إن فعلت . قال : دَعْ ذا عنك . فانتحلهما في قصيدتــه .

استعاذة الناس بقبر أبيه :

الحكم بن محمد المازنيّ قال :

كان تميم بن زيد القُضاعي ، ثم أحد بني القَين بن جَسر ، غزا الهند في جيش ، فجمّرهم (١) ؛ وفي جيشه رجلٌ يقال له حُبيش . فلمّا طالت غَيبتهُ على أمّه اشتاقته ، فسألت عمّن يكلّم لها تميم بن زيد أن يُقفِل ابنَها ، فقيل لها : عليك بالفرزدق ، فاستجيري بقبر أبيه . فأتت قبر غالب بكاظمة ، حتى علم الفرزدق مكانها . ثم أتته وطلبت إليه حاجتها ، فكتب إلى تميم بن زيد هذه الأبيات :

هَبْ لي حُبيشاً واتّخذ فيه مِنّةً
لِغُصّةِ أمٍّ ما يَسُوغُ شرابُهــا
أتتني فعاذت يــا تميمُ بغـــالبٍ
وبالحُفرة السافي عليهــا تُرابهــا
تميمَ بنَ زيدٍ لا تكونَنَّ حاجتي
بظَهرٍ فلا يَخفى عليَّ جوابُهــا

فلمّا أتاه كتابه لم يدر ما اسمه : حُبيش أو حنيش ، فأخرج ديوانه وأقفل كل حُبيش وحُنيش في جيشه ، وهم عِدّة ، وأنفذهــم إلى الفرزدق .

---

(١) التجمير : حبس الجيش في أرض العدو .

* أبو يحيى الضَّبيّ قال :

ضرب مكاتَب[1] لبني مِنْقَر بِساطاً على قبر غالبٍ ، أبي الفرزدق . فقدم الناس على الفرزدق فأخبروه بمكانه عند قبر أبيه ، ثم قدم عليه فقال :

بقبر ابن ليلى غالبٍ عُذتُ بعدما
خشِيت الرَّدَى أو أن أُرَدَّ على قَسْرِ

فأخبرني قبر ابن ليلى فقال لي :
فِكاكُك أن تأتي الفرزدقَ بالمِصْر

فقال الفرزدق : صدق أبي ، أَنِخْ . ثم طاف له في الناس حتى جمع له مكاتبته وفضلاً .

وكان نُفَيع ذو الأهدام ، أحدُ بني جعفر بن كِلاب ، يتعصّب لجرير بمدحه قيساً . فهجاه الفرزدق ، فاستجارت أمّه بقبر غالب ، وعاذت من هجاء الفرزدق ، فقال :

ونُبِّئْت ذا الأهدام يَعوي ودُونَه
من الشام ذَرّاعاتها وقُصورُها

على حينَ لم أترِكْ على الأرض حَيّةً
ولا نابحاً إلاّ استقرّ عَقُورها

كلابٌ نبحن الحيَّ من كلّ جانبٍ
فعاد عَواءً بعد نَبحٍ هَريرُها

عجوزٌ تُصلّي الخَمس عاذت بغالبٍ
فلا والذي عاذت به لا أَضيرُها

(١) المكاتب : العبد يكاتب سيده على ثمن فإذا أداه أعتقه .

لئن نافعٌ لم يرعَ أرحامَ أمِّـــه
وكانت كدلْوٍ لا يزال يَعيرهـا
لبئس دمُ المولود بلَّ ثيابَهـــا
عشيّة نادى بالغلام بَشيرهـا
وإني على إشفاقهـا من مَخافتي
وإن عَقّهـا بي نافعٌ لَمُجيرُهـا
ولو أنّ أمَّ الناس حوّاءَ حاربت
تميمَ بن مُر لم تَجد من يُجيرُها [1]

هجاؤه إبليس

عن أبي زيدٍ الأنصاريّ قال :

أتى الفرزدق الحسن البصريَّ فقال : إنّي قد هجوتُ إبليس . فقال : كيف تَهجوه وعن لسانه تنطِق !

أخباره مع بني أمية وولاتهم : الفرزدق ومعاوية

• المدائنيُّ قال :

وفَد الحُتات ، عمُّ الفرزدق ، على معاويةَ ، فخرجت جوائزهم [2] ،

---

(١) لا أضيرها : لا أضرها . يعيرها : يعيبها ويتلفها . وفي المطبوعة (جاورت تميم بن مر) في البيت الأخير ، والمعنى لا يستقيم على هذه الرواية ، والتصويب من النقائض والديوان .
(٢) في سياقة الخبر نقص ، فالضمير في (جوائزهم) يعود هنا على الحتات ، وهذا لا يستقيم ، والخبر روايات أخرى وفيها أن الحتات قدم على معاوية مع طائفة من رجال تميم . (انظر الديوان) .

فانصرفوا . ومرض الحُتات ، فأقام عند معاوية حتى مات ، فأمر معاوية بماله ، فأُدخل بيت المال . فخرج الفرزدق إلى معاوية ، وهو غلامٌ ، فلمّا أذِن للناس دخل بين السِماطين ، ومثَل بين يدَي معاوية فقال :

أبوك وعمّي يا مُعاويَ وَرّثـا
تُراثاً فيحتاز التُراثَ أقاربُـه
فما بالُ مِيراث الحُتات أكلتَـه
وميراث حَربٍ جامدٌ ليَ ذائبه
فلو كان هذا الأمر في جاهليّـة
علمتَ مَن المَولى القليلُ حَلائبـه
ولو كان هذا الأمرُ في مُلك غيركم
لأدّاه لي أو غصّ بالماء شاربه (١)

فقال له معاوية : من أنت ؟ قال : أنا الفرزدق . قال : ادفعوا إليه ميراث عمّه الحُتات ، وكان ألف دينار ، فدفع إليه .

فراره من زياد وتطوافه في البلاد

عن القحذميّ قال :

كان سبب هرب الفرزدق من زياد ، وهو على العراق ، أنه كان هجا بني فُقَيم ، فقال فيهم أبياتاً منها :

وآب الوفدُ وفد بني فُقَيـمٍ ... بأخبثَ ما تؤوب به الوفودُ
أتونا بالقُرود مُعادِليهـا ... فصار الجَد للجَدّ السَعيدُ (٢)

(١) فما بال ميراث : يقول في هذا البيت إنك أكلت ميراث الحتات ، وهو عمي ، فلم لا آكل أنا ميراث حرب أبيك ؟ المولى : القريب . حلائبه : هنا ، بمعنى أنصاره .

(٢) الجد الأولى بمعنى الحظ والثانية بمعنى المحظوظ أراد : جاؤوا بالقرود ، وهي نظائر لهم ، ورجع صاحب الحظ بالحظ السعيد .

وقال يهجو يزيد بن مسعود الفُقيمي والأشهب بن رميلة بأبياتٍ منها قوله :

تمنّى ابن مسعودٍ لقائي سَفاهةً
لقد قال مَيناً يومَ ذاك ومُنْكَرا
غَناءٌ قليلٌ عن فُقيمٍ ونهشل
مقامُ هجينٍ ساعةً ثم أدبرا (١)

يعني الأشهب بن رميلة . وكان الأشهب خطب إلى بني فقيم فردّوه وقالوا له : اهجُ الفرزدق حتى نزوّجك ، فرجز به الأشهب فقال :

يا عجباً ، هل يركب القينُ الفرس
وعَرَقُ القين على الخيل بَخَسْ
وإنما سِلاحُه إذا جلس
الكَلبتان والعَلاة والقَبَس (٢)

فلما بلغ الفرزدق قولُه هجاه فأرفث له ، وألحّ الفرزدق على النهشليين بالهجاء ، فشكوه إلى زياد ، وكان يزيد بن مسعود ذا منزلة عند زياد ، فطلبه زياد ، فهرب ، فأتى بكر بن وائل ، فأجاروه ، فقال الفرزدق يمدحهم بأبيات :

إني وإن كانت تميمٌ عِمارتي
وكنت إلى القُدموس منها القماقم

---

(١) المين : الكذب . الهجين : من كان غير صريح النسب .

(٢) القين : الحداد . الكلبتان : من أدوات الحداد . العلاة : السندان . القبس : ما يتخذه الحداد من النيران ليستعين به في صنع أدواته .

لمثنٍ على أبنـــاء بكر بن وائـــل
ثناءً يوافي ركبهـــم في المواسمِ

همُ يومَ ذي قارٍ اناخـــوا فجالـدوا
برأس به تدمى رؤوس الصـــلادم (١)

قال ابن حبيب :

وكان الفرزدق يهاجي الأشهب بن رُميلة النَهشلي وبني فُقيم ، فأرفث بهم (٢) ، فاستعدَوا عليه زياداً . فحدّثني جابر بن جَندل قال : فأتى عيسى بن حُصيلة بن مغيث بن نصر بن خالد السُلمي ، ثم من بني بَهْز ، فقال : يا أبا حُصيلة ، إنّ هذا الرجل قد أخافني ، وقد لَفظني جميع من كنت أرجو . قال : فمرحباً بك يا أبا فِراس . فكان عندَه ليالي ، ثم قال : إنّي أريد أن ألحق بالشأم . قال : إن أقمت ففي الرَّحْب والسّعة ، وإن شخصت فهذه ناقة أرحبيّة (٣) أُمتّعك بها ، وألف درهم . فركب الناقة ، وخرج من عِنده ليلاً . فأرسل عيسى معه من أجازه من البيوت ، فأصبح وقد جاوز مسيرة ثلاثٍ . فقال يمدحه :

كفاني بها البَهْزيُّ حُملانَ من أبى
من الناس والجاني تُخاف جرائمُـــه

فتى الجود عيسى والمكارم والعلا
إذا المالُ لم ينفع بخيلاً كرائمه

ومَن كان يا عيسى يؤنّب ضيفَه
فضيفُك يا عيسى هنيءٌ مَطاعمه

---

(١) ناقة أرحبية : منسوبة إلى أرحب ، وهو فحل تنسب إليه الابل الجياد ، وقيل بل هو اسم قبيلة .

(٢) العمارة : القبيلة . القدموس : الملك الضخم والسيد العظيم . القماقم : الجواد المفضل . الصلادم ج صلدم : الأسد ، والصلب القوي .

(٣) أرفث بهم : أفحش في القول .

(الأبيات ...)

فلمّا بلغ زياداً شُخوصه أتبعه عليَّ بن زَهْدَم الفُقيميّ ، أحد بني مؤلة ، فلم يلحقه ، فقال الفرزدق :

فإنّك لو لاقيتَني يابنَ زَهْدَمٍ
لأُبتَ شَعاعياً على غير تمثالِ [1]

فأتى بكر بن وائل فجاورهم ، فأمن ...

عن محمد بن سلاّم قال :

دخل الفرزدق المدينة ، هارباً من زياد ، وعليها سعيدُ بن العاص بن أمية بن عبد شمس أميراً من قِبل معاوية . فدخل على سعيد ، ومَثَل بين يديه وهو مُعتمٌّ ، وفي مجلس سعيد الحطيئة وكعب بن جُعيل التغلبيّ ، وصاح الفرزدق : أصلح الله الأمير ، أنا عائذٌ بالله وبك ؛ أنا رجلٌ من تميم ، ثم أحد بني دارم . أنا الفرزدق بن غالب . قال : فأطرق سعيد مليّاً ، فلم يُجبْه . فقال الفرزدق : رجلٌ لم يُصِب دماً حراماً ، ولا مالاً حَراماً . فقال سعيد : إن كنت كذلك فقد أمِنت . فأنشده :

إليك فررتُ منك ومن زيادٍ ولم أحسب دمي لكما حَلالا
ولكنّي هجوتُ وقد هجانيَ معاشرُ قد رضختُ لهم سِجالا
فإن يكن الهجاءُ أحلّ قتــلي فقد قُلنا لشاعرهم وقــالا
أرقت فلم أنم ليلاً طويلاً أُراقب هل أرى النّسرين زالا
عليك بني أميّةَ فاستجِرْهم وخُذ منهم لِما تخشى حِبالا
فإنّ بني أمية في قريش بنَوا لبُيوتهم عَمَداً طِوالا
ترى الغُرَّ الجَحاجح من قريشٍ إذا ما الأمرُ في الحِدْثان غالا
قياماً ينظُرون إلى سعيــدٍ كأنّهمُ يَرون به هِلالا [2]

---

(١) شعاعاً : متفرقاً ، أي لتفرق جسمك فلم يكن لك تمثال .

(٢) رضخ فلاناً : راماه بالحجارة . ساجله : باراه وفاخره،والسجل هنا المباراة أو =

قال : فلمّا قال هذا البيت ، قال الحطيئة لسعيد : هذا والله الشعر ، لا ما كنتَ تُعلّل به منذ اليوم . فقال كعب بن جعيل : فضَّلْتَه على نفسك ، فلا تفضلْه على غيرك . قال : بلى والله ، إنه ليفضلُني وغيري. يا غلام ، أدركتَ مَن قبلك ، وسبقت من بَعدك ، ولئن طال عُمرك لتبرُزَنّ .

ثم عبث الحطيئة بالفرزدق فقال : يا غُلامُ ، أأنجدتْ أمُّك ؟ قال : لا ، بل أبي . أراد الحطيئة : إن كانت أمك أنجدت فقد أصبتُها فولدتك إذ شابهتَني في الشعر . فقال الفرزدق : لا بل أبي ، فوجده لَقِناً .

فبلغ الفرزدق أن زياداً قال : لو أتاني لأمّنتهُ وأعطيته ، فقال في كلمة له :

دعاني زيادٌ للعَطاء ولم أكُن ... لآتيه ما ساق ذو حَسَبٍ وَفْرا
وعند زيادٍ لو أراد عطاءهم ... رجالٌ كثيرٌ قد يرى بهم فَقَرا
قعودٌ لدى الأبواب طُلاّب حاجةٍ ... عوانٍ من الحاجات أو حاجةً بكرا
فلمّا خشيت أن يكون عطاؤه ... أداهمَ سُوداً أو مُحَدْرَجةً سُمرا
نميت إلى حَرفٍ أضرَّ بنَيِّها ... سُرى الليل واستعراضُها البلد القَفرا[1]

فلمّا اطمأنّ عند سعيد بن العاصي بالمدينة قال :

= المعادلة ، يقال : الحرب بينهم سجال أي يوم لهؤلاء ويوم لأولئك ، وأصلها من السجل وهو الدلو والجمع سجال . النسران : كوكبان في السماء يختفيان اذا طلع النهار . الحبال ، هنا : المواثيق والعهود . الجحاجح : السادة ، واحدها جحجح . حدثان الدهر : نوائبه وصروفه .

(١) الوقر : الحمل . العوان من النساء : من سبق لها أن تزوجت ، واستعارها هنا للحاجة ، أراد الحاجة التي تكرر طلبها والحاجة البكر : الجديدة . أداهم ج أدهم : أراد القيد . المحدرجة : السياط ، وأصل المحدرج : المفتول . الحرف : الناقة الضامرة . النِّي : الشحم .

ألا مَن مُبلغٌ عنّي زيـاداً مُغَلغلةً يخُب بها البريـدُ
بأني قد فررت إلى سعيدٍ ولا يُسطاع ما يَحمي سعيدُ
فررت إليه من ليثٍ هِزَبرٍ تفادى عن فريسته الأسودُ
فإن شئتُ انتسبت إلى النصارى وناسبني ونـاسبتِ اليهـود
وإن شئت انتسبت إلى فُقَيمٍ وناسبني وناسبت القـرود
وأبغَضُهم إليّ بنو فُقَيمٍ ولكن سوفَ آتي ما أُريدُ (١)

فأقام الفرزدق بالمدينة ، فكان يدخل بها على القيان ، فقال :

إذا شئت غنّاني من العاج قـاصفٌ
على معصمٍ رَيّـان لم يتخدّدِ
لبيضاءَ من أهل المدينة لم تعِش
ببؤُس ولم تتبع حَمولة مُجْحَدِ
وقـامت تُخشّيني زيـاداً وأجفلت
حواليَّ في بُردَي يَمانٍ ومُجْسَدِ
فقلت : دعيني من زيـادٍ فإنني
أرى الموت وقّافاً على كلّ مَرْصَدِ (٢)

(القحذمي :) فبلغ شعره مروان ، فدعاه وتوعّده ، وأجّله ثلاثاً وقال : اخرُج عنّي ، فأنشأ يقول الفرزدق :

دعانـا ثمّ أجّلنـا ثلاثـاً كما وُعدت لِمَهْلكها ثَمُودُ

قال مروان : قولوا له عني : إني أجبته فقلت :

---

(١) المغلغلة : الرسالة تحمل من مكان إلى آخر .
(٢) قاصف من العاج : أراد المزهر أو نحوه من آلات العزف . الريان : الممتلىء البض . لم يتخدد : لم يتشقق . المجحد : القليل الخير . المجسد : الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران . وقافاً : في الرواية الأولى في المطبوعة : وقاعاً ، والرواية الثانية أمثل .

قل للفرزدق ، والسفاهةُ كاسمِها
إن كنتَ تاركَ ما أمرتُك فاجلِسِ
ودع المدينــــةَ إنهــا محظـورةٌ
والحَقْ بمكّةَ أو ببيت المَقدِسِ

قال : وعزم على الشخوص إلى مكة ، فكتب له مروان إلى بعض عُمّاله ما بين مكّة والمدينة بمائتي دينارٍ ، فارتاب بكتاب مَروان ، فجاء به إليه وقال :

مــروانُ إنّ مَطيّتي مَعقولــةٌ
ترجو الحِباءَ وربُّها لم ييأسِ
آتيتَـني بصحيفـةٍ مختومـــةٍ
يُخشى عليَّ بها حِباءُ النِقْرِسِ
ألقِ الصحيفةَ يا فرزدقُ لا تكــن
نَكراءَ مثلَ صحيفة المتلمّس (١)

قال : ورمى بها إلى مَروان ، فضحك وقال : ويحك ! إنّك أميٌّ لا تقرأ ، فاذهب بها إلى من يقرؤها ، ثم رُدّها حتّى أختمها . فذهب بها ، فلمّا قُرِئت إذا فيها جائزة . قال : فردّها إلى مروان ، فختَمها . وأمر له الحسين بن عليّ ، عليهما السلام ، بمائتي دينارٍ .

(ابن حبيب :) فلمّا هلك زيادٌ رثاه مِسكين بن عامر بن شُريح ... ابن دارم فقال :

رأيت زيادة الإسلام ولّــت جِهاراً حين فارقها زيادُ

(١) معقولة : مربوطة . الحباء : العطاء . النقرس ، هنا : الهلاك . صحيفة المتلمس : الصحيفة التي دفعها عمرو بن هند إلى طرفة والمتلمس وأوهمهما أنه أمر لهما فيها بعطاء ، وكان فيها الأمر بقتلهما ، فضرب بها المثل .

فبلغ ذلك الفرزدق فقال :

أمسكينُ أبكى الله عينيك إنّمـــا
جرى في ضَلالٍ دمعُها فتحدّرا
أتبكي امرءاً من آل مَيسانَ كافراً
ككسرى على عِدّانه أو كقيصرا
أقول لـــه لمّـــا أتاني نَعيُّـــه :
به لا بظَبْيٍ بالصَّريمة أعفَرا (١)

فقال مسكين :

ألا أيّها المرء الذي لستُ قائمـــاً
ولا قاعداً في القوم إلاّ انبرى ليا
فجئني بعمٍّ مثل عمّي أو أبٍ
كمثل أبي أو خالِ صِدقٍ كخاليا
بعمرِو بن عَمْرٍو أو زُرارةَ ذي الندى
سموتُ به حتّى فرعتُ الروابيا (٢)

فأمسك الفرزدق عنه ، وكان يقول : نجوت من أن يهجوني مسكينٌ ، فإن أجبتُه ذهبتُ بشطر فخري ، وإن أمسكت عنه كانت وصمةً عليَّ مدى الدهر .

---

(١) على عدانه : في زمانه ووقته ، وفي المطبوعة : على عداته ، وهو تصحيف . الصريمة : القطعة المنعزلة من الرمل . الأعفر : ما لونه لون العفرة أي التراب . يتمنى أن يقع الهلاك بزياد لا بالظبي ، وهو دعاء لهم يقولونه عند الشماتة بمهلك عدو لهم .

(٢) عمرو بن عمرو وزرارة من رجال بني تميم المشهورين وهما من أجداد مسكين وكذلك هما من قوم الفرزدق ولذلك آثر أن لا يهاجي مسكيناً .

الفرزدق وخالد القسريّ

قال ابن سلاّم :

قال الفرزدق لخالدٍ القَسْريّ حين قدم العراق أميراً لهشام :

ألا قطع الرحمنُ ظهرَ مَطيّـةٍ أتتنا تَمَطّى من دمشق بخالدِ
وكيف يَؤمُّ المسلمين وأمُّـه تدين بأنّ الله ليس بواحدِ
بني بَيعةً فيها الصليبُ لأُمّـه وهدّم من كُفرٍ مَنارَ المساجد[1]

... وقال أيضاً :

لَعَمري لئن كانت بَجيلة زانَها
جريرٌ لقد أخزى بَجيلةَ خالدُ[2]

فلمّا قدم العراق خالدٌ أميراً أمّر على شُرطة البصرة مالك بن المنذر بن الجارود . وكان عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر يدّعي على مالكٍ قَريةً ، فأبطلها خالدٌ ، وحفر النهر الذي سمّاه المبارك ، فاعترض عليه الفرزدق فقال :

أهلكتَ مال الله في غير حقّه
على النَّهَر المشؤوم غيرِ المُبارَكِ
وتضرِب أقواماً صِحاحاً ظهورُهم
وتترك حقَّ الله في ظهر مالك
أإنفاقَ مالِ الله في غير كُنْهِه
ومَنعاً لحقّ المُرمِلات الضرائك[3]

---

(١) البيعة : متعبد النصارى . و كانت أم خالد نصرانية .

(٢) جرير المذكور هنا هو جرير بن عبد الله البجلي ، وهو من أشراف قبيلة بجيلة .

(٣) تترك حق الله : يشير إلى إبطال خالد ما على مالك بن المنذر من حقوق الناس . المرملة : الفقيرة ومثلها الضريكة .

عن أبي عُبيدة قال : هجا الفرزدق خالداً القسريّ وذكر المبارك : النهر الذي حفره بواسط ، فبلغه ذلك . وكتب خالدٌ إلى مالك بن المنذر أن احبِس الفرزدق ، فإنه هجا نَهر أمير المؤمنين بقوله :

وأهلكت مال الله في غير حقّـــه على نَهرك المشؤوم غير المبارك

الأبيات .

فأرسل مالك إلى أيوب بن عيسى الضَبّي فقـــال : ائتني بالفرزدق . فلم يزل يعمل فيه حتى أخذه . فطلب إليهم أن يمرّوا به على بني حنيفةَ . فقال الفرزدق : ما زلت أرجو أن أنجو حتى جاوزت بني حَنيفة [1] ، فلمّا قيل لمالك : هذا الفرزدق ، انتفخ وريد مالك غضباً ، فلما أُدخل عليه قال :

أقول لنفسي حين غَصّت بِرِيقها
ألا ليت شِعري مالَها عند مالكِ
لها عندَه أن يرجِع اللهُ رُوحَهـــا
إليها وتنجو من جميع المَهالك
وأنت ابن جَبّارَيْ ربيعة أدركت
بك الشمسَ والخضراءَ ذاتَ الحَبائكِ [2]

فسكن مالك ، وأمر به إلى السجن . فقـــال يهجو أيوب بن عيسى الضَبّي :

---

(١) في الخبر ما يدعو إلى التساؤل فكيف يرجو الفرزدق أن ينجو إذا مروا به على بني حنيفة ، وهم ليسوا قومه ، وفي رواية أخرى للخبر أنهم مروا به على بني مجاشع قومه .
(٢) الخضراء : السماء . الحبائك ج حبيكة : طرائق النجوم .

فلو كنت قَيسياً إذا مـا حبستَني
ولكنّ زَنْجياً غليظاً مشافِرُهُ
مَتَتْ له بالرّحْم بيني وبينَـــه
فألفيتُه منّي بعيــداً أواصِره (١)

(الأبيات ...)

ثم مدح خالد بن عبد الله ومالك بن المنذر ، وهو محبوسٌ ، مديحاً كثيراً ...

فلمّا لم تنفعه مديحة مالك قال يمدح هشام بن عبد الملك ويعتذر إليه:

ألِكْني إلى راعي البريّة والـذي
له العَدلُ في الأرض العريضة نَوّرا
فإن تُنكروا شعري إذاً خرجت لــه
بَوادرُ لو يُرمَى بها لَتفَقّرا
ثَبيرٌ ، ولو مَسّت حِراءٌ لَتحرّكت
به الراسياتِ الصُمّ حتّى تكوّرا
إذا قال غاوٍ من مَعَدٍّ قصيدةً
بها جَرَبٌ كانت وَبالاً مُدمّرا
أيَنطِقُها غيري وأرمَى بجُرمِهــا
فكيف أَلُوم الدهـــرَ أن يتغيّرا
لئن صَبرتْ نفسي لقد أُمِرت به
وخيرُ عباد الله مَن كان أصبرَا

---

(١) مت إليه : انتسب . الرحم : القرابة ، وكل من تميم وضبة تنتميان إلى أصل واحد .

وكنتُ ابن أحذارٍ ولو كُنتُ خائفاً
لكنت من العَصماء في الطَود احذَرا
ولكن أتَوني آمنــاً لا أخافُهــم
نهاراً وكان اللهُ ما شاء قَدّرا (١)

أبو يحيى قال :

قال الفرزدق لابنه لَبَطة ، وهو محبوسٌ : اشخَص إلى هشام ، وامدحه بقصيدة . وقال : استعن بالقيسيّة ، ولا يمنعك قولي فيهم فإنهم سيغضبون لك ، وقال :

بكت عينُ محزونٍ ففاض سِجامُها
وطالت ليالي ساهرٍ لا ينامُهــا
فإن تَبكِ لا تَبكِ المُصيباتِ إذ أتى
بها الدهرُ والأيّامُ جمٌّ خِصامها
ولكنّمــا تبكي تَهتُّكَ خــالد
محــارمَ منّا لا يَحِلُّ حَرامُها
فقل لبني مَروان : ما بالُ ذِمّةٍ
وحُرمةِ حقٍّ ليس يُرعَى ذِمامُها
أنُقتَلُ فيكم أن قَتلنا عَدُوّكــم
على دِينكم والحربُ باقٍ قَتامها

---

(١) ألكني : احمل عني ألوكة ، أي رسالة . تفقر : تقسم فقراً وتقطع . ثبير : اسم جبل بظاهر مكة . وهو هنا في موضع نائب فاعل (يرمى) في البيت السابق . حراء : جبل بمكة . تكور : تهدم . الحرب : الهلاك . كانت وبالا : أي على الفرزدق . ابن أحذار : ابن حزم وتيقظ وحذر . العصماء ، أنثى الأعصم : وهو من الوعول ما في ذراعيه بياض وسائره أسود .

أتاك بقتل ابن المهلّبِ خالدٌ
وفينا بَقيّاتُ الهدى وإمامُها

فغيّرْ – أميرَ المؤمنين – فإنّها
يمانيةٌ حَمقاءُ أنت هشامُها

أرى مُضرَ المِصْرَين قد ذلّ نَصرُها
ولكن عسى أن لا يَذِلَّ شآمها [1]

(الأبيات ...)

فأعانته القيسيّة وقالوا : كلّما كان نابٌ [2] من مُضر أو شاعرٌ أو سيّد وثب عليه خالدٌ !

وقال الفرزدق أبياتاً كتب بها إلى سعيد بن الوليد الأبرش ، وكلّم له هشاماً :

إلى الأبرش الكَلبيّ أسندتُ حاجتي
تَواكَلَها حيّا تميمٍ ووائلِ

على حين أن زَلّت بي النعلُ زَلّةً
فأخلف ظنّي كلُّ حافٍ وناعل

فدُونكَها يا بنَ الوليد فإنّها
مُفَضّلةٌ أصحابَها في المحافل

ودُونكها يا بن الوليد فقُم بها
قيامَ امرىءٍ في قومه غيرِ خامل

فكلّم هشاماً فأمر بتخليته ، فقال يمدح الأبرش :

(١) سجم الدمع : فاض وسال بغزارة . القتام : الغبار . المصران : الكوفة والبصرة .
(٢) الناب : سيد القوم .

لقد وثب الكلبيُّ وثبةَ حازمٍ
إلى خير خَلق الله نفساً وعُنصُرا
إلى خير أبناء الخليفة لم يجِدْ
لحاجته مِن دونها مُتأخَّرا
أبي حِلف كلبٍ في تميم وعقدُها
كما سَنّت الآباءُ أن يتغيّرا

وكان هذا الحلف قديماً بين تميم وكلبٍ في الجاهليّة ...

محمد بن موسى قال :

كتب خالدَ القسريُّ إلى مالك بن المنذر يأمره بطلب الفرزدق ، ويذكر أنّه بلغه أنّه هجاه وهجا نهره المبارك ، وهو النهر الذي بواسط الذي كان خالدٌ حفره . فاشتد مالك في طلبه حتى ظفِر به في البراجم [1] ، فأخذه وحبسه ومرّوا به على بني مُجاشع ...

ثم إن مالكاً وجّه الفرزدق إلى خالد . فلمّا قدِم به عليه وجده قد حجّ ، واستخلف أخاه أسد بن عبد الله على العراق ، فحبسه أسد ، ووافق عنده جريراً ، فوثب يشفع له ، وقال : إن رأى الأمير أن يَهَبه لي . فقال أسد : أتَشفع له يا جرير ! فقال : انّ ذلك أذَلُّ له ، أصلحك الله . وكلّم أسداً ابنُه المنذر ، فخلّى سبيله . فقال الفرزدق في ذلك :

لا فضلَ إلاّ فضلُ أمٍّ على ابنها
كفضل أبي الأشبال عند الفرزدق

---

(١) البراجم : بطون من بني تميم تحالفت وأطلقت على نفسها هذا الاسم ، وهم عمرو والظليم وغالب وكلفة وقيس أبناء حنظلة بن مالك .

تَداركَني من هُــوّةٍ دون قَعرها
ثمانون باعاً للطُوال العَشَنَّــق (١)

الفرزدق وآل المهلّب

العَلاء بن أسلم قال :

لمّا أراد ، المهلّب الخروج إلى الأزارقة لقي الفرزدق جريراً فقال له : يا أبا فراس ، هل لك أن تُكلّم المهلّب حتى يضع البحث عنّي ، وأعطيك ألف درهم ؟ فكلّم المهلّب فأجابه ، فلامه جُذَيْع – رجلٌ من عشيرته – وشكا ذلك إلى خَيْرة امرأة المهلّب وقال لها : لا يزال الآن الرجل يجيء فيسأل في عشيرته وصديقه . فلامته خيرة بنت ضَمرة القُشَيْريّة ، فقال المهلّب : انّما اشتريت عِرضي منه . فبلغ ذلك الفرزدق فقال يهجو جُذيعاً :

إن تَبنِ دارك يا جُذيعُ فمـا بنى
لك يـا جُذيع أبـوك من بنيان

(الأبيات ...)

وقال يهجو خيرة :

ألا قَشَـر الآله بني قُشَـيرٍ
كقَشْر عصا المُنَقّح من مُعـالِ
أرى رهطـاً لخيرة لم يَؤوبـوا
بسَهمٍ في اليمـين ولا الشمال (٢)

---

(١) الطوال : الطويل ، العشنق : المفرط الطول .
(٢) المنقح : من نقح العود أي قشره وشذبه . من معال : من أعلى .

(الأبيات ...)

فغضب بنو المهلّب لمّا هجا جُذيعاً وخيَرة ، فنالوا منه ، فهجاهم ...

فلمّا ولّي يزيد بن المهلّب خراسان والعراق بعد أبيه — ولّاه سليمان ابن عبد الملك — خاف الفرزدق من بني المهلّب ، فقال يمدحهم :

فلأمدحــنَّ بني المهلّب مِدحــةً
غرّاءَ ظاهــرةً على الأشعــار
مثلَ النجــوم أمامَهــا قَمْراؤها
تَجلُو العمى وتُضيىء ليلَ السّاري
ورِثوا الطِّعانَ عن المهلّب والقِرى
وخلائقاً كتدفّــق الأنهــار
كان المهلّب للعــراق وقايــةً
وحَيا الرَّبيع ومَعْقِــلَ الفُــرّار
واذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتَهــم
خُضُعَ الرِّقاب نواكس الأبصــار
ما زال مُذ شدَّ الإزار بكفّــه
ودنا فأدرك خمســةَ الأشبــار
أيزيــدُ إنّــك للمهلّب أدركت
كفّاك خيرَ خلائق الأخيــار (١)

(١) غراء : واضحة . ظاهرة ، هذه رواية الديوان ، وفي المطبوعة : قاهرة ، ورواية الديوان أجود . القمراء : ضوء القمر . ما زال : خبرها يأتي في البيت الذي يلي هذا البيت في الديوان ولم يذكر هنا وهو قوله :

يدني خوافق من خوافــق تلتقــي في كل معتبط الغبار مثــار

الأصمعي قال :

لمّا قدم يزيد بن المهلّب واسطاً قال لأمية بن الجَعد ، وكان صديق الفرزدق : إنّي لأحبّ أن تأتيني بالفرزدق . فقال للفرزدق : ماذا فاتك من يزيد ، أعظم الناس عفواً ، وأسخى الناس كَفّاً . قال : صدقتَ ، ولكن أخشى أن آتيَه فأجد العُمانيّة ببابه فيقدم إليّ رجلٌ منهم يقول : هذا الفرزدق الذي هجانا ، فيضرِب عنقي ، فيبعث إليه يزيد ، فيضرب عُنقه ، ويبعث إلى أهلي دِيَتي ، فإذا يزيدُ قد صار أوفى العرب ، واذا الفرزدق فيما بين ذلك قد ذهب . قال: لا والله ، لا أفعلُ . فأخبر يزيد بما قال، فقال أمّا اذ وقع هذا بنفسه فدَعْه ، لعنه اللهُ .

الفرزدق وعمر بن عبد العزيز

عن إسحاق بن مروان :

أنّ الفرزدق قدم المدينة في سنةٍ مُجدِبة حَصّاءَ [1] ، فمشى أهلُ المدينة إلى عمر بن عبد العزيز فقالوا له : أيّها الأمير ، انّ الفرزدق قدِم مدينتنا هذه في هذه السنة المُجدبة التي أهلكت عامة الأموال التي لأهل المدينة ، وليس عند أحدٍ منهم ما يعطيه شاعراً ، فلو أن الأمير بعث إليه ، فأرضاه ، وتقدّم اليه ألاّ يعرِض لأحدٍ بمدحٍ ولا هجاء. فبعث اليه عمر : إنّك يا فرزدقُ قدمتَ مدينتنا هذه في هذه السنة المجدبة ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعراً ، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهمٍ ، فخُذها ولا تعرِضْ لأحدٍ بمدحٍ ولا هجاء . فأخذها الفرزدق ، ومرّ بعبد الله بن عمرو ابن عثمان ، وهو جالسٌ في سَقيفة داره ، وعليه مُطرَف [2] خزٍّ أحمر وجُبّةُ خزٍّ أحمر ، فوقف عليه وقال :

---

(١) الحصاء : السنة المجدبة الجرداء لا خير فيها .

(٢) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

أعبدَ الله أنــت أحقُّ مــاشٍ
وساعٍ بالجماهــير الكبــارِ

نما الفاروقُ أمّــك وابنُ أروى
أباك فأنت مُنْصَدِعُ النهــارِ

همــا قمرا السمــاء وأنت نجمٌ
به في الليل يُدلِجُ كلُّ ساري[1]

فخلع عليه الجُبّة والعِمامة والمُطرَفَ ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج رجلٌ كان حضر عبد الله ، والفرزدقُ عنده ، ورأى ما أعطاه إيّاه ، وسمع ما أمره عمر به أن لا يعرِض لأحدٍ ، فدخل إلى عمر بن العزيز فأخبره . فبعث اليه عمر : ألم أتقدم إليك يا فرزدق ألاّ تعرِض لأحدٍ بمدحٍ ولا هجاء ؟ اخرُجْ ، فقد أجّلتُك ثلاثاً ، فإن وجدتك بعد ثلاثٍ نكلتُ بك. فخرج وهو يقول :

فأجّلني وواعدني ثلاثــاً كما وُعِدت لِمَهْلَكِها ثمودُ

قال : وقال جرير فيه :

نفــاك الأغرُّ بن عبــد العــزيــز
ومِثلُكَ يُنفَــى مــن المسجــدِ

وشبّهت نفسَــك أشقى ثمــودَ
فقالوا : ضَلَلتَ ولم تَهتَــــدِ

---

(١) أروى : أم عثمان بن عفان وأم عبد الله من ولد عمر بن الخطاب . في المطبوعة : وابن أروى أبوك ، وقد أثبتنا رواية الديوان لأن المراد أن عثمان ، وهو ابن أروى ، نما أباه عبد الله . منصدع النهار : واضح منبلج النسب كالنهار .

الفرزدق والأسير الرُّوميّ

قال أبو عُبيدة في كتاب النقائض : قال رُؤْبة بن العَجّاج :

حَجَّ سليمان بن عبد الملك ، وحجّت معه الشعراء ، فمرّ بالمدينة منصرفاً فأُتي بأسرى من الروم نحو أربعمائة ، فقعد سليمان ، وعنده عبد الله بن حسن بن حسن ، عليهم السلام ، وعليه ثوبان مُمصّران ، وهو أقربهم منه مجلساً . فأدنوا إليه بِطْرِيقَهم ، وهو في جامعة [1] ، فقال لعبد الله بن حسن : قُم ، فاضرِبْ عُنُقَه . فقام ، فما أعطاه أحدٌ سيفاً ، حتى دَفع اليه حَرَسِيٌّ سيفاً كَليلاً ، فضربه فأبان عنقه وذِراعه وأطنّ [2] ساعده وبعض الغُلّ . فقال له سليمان : والله ما ضربتَه بسيفك ولكن بحسَبك .

وجعل يدفع الأسرى إلى الوجوه ، فيقتلونهم حتى دَفع إلى جرير رجلاً منهم ، فدَسّت إليه بنو عبس سيفاً قاطعاً في قِراب أبيضَ ، فضربه فأبان رأسه . ودُفع إلى الفرزدق أسيرٌ ، فلسّت إليه القَيسيّةُ سيفاً كَليلاً ، فضرب به الأسير ضَرباتٍ ، فلم يصنع شيئاً . فضحك سليمان وضحك الناس معه . وقيل إنّ سليمان لمّا دفع إليه الأسير دفع إليه سيفاً وقال : اقتلْه به . فقال : لا ، بل أقتله بسيف مُجاشع . واخترط سيفه فضربه فلم يُغنِ شيئاً . فقال سليمان : أما والله لقد بقي عليك عارُها وشَنارها . فقال جرير قصيدته التي يهجوه فيها وأوّلها :

ألا حـيِّ رَبْعَ المنـزل المُتَقـادمِ
وما حلَّ مُذ حلّتْ به أمُّ سـالمِ

منها :

ألم تشهَدِ الجَوْنَين والشِعبَ ذا الغَضَى
وكَرّات قيسٍ يومَ دَيرِ الجمـاجـمِ

(1) الجامعة : قيد يجمع اليدين إلى الرجلين .

(2) أطن : قطع .

تُحرّض يابن القين قيساً ليجعلوا
لقومك يوماً مثلَ يوم الأراقمِ
بسيف أبي رَغوان سيف مُجاشعٍ
ضربت ولم تضربْ بسيف ابن ظالم
ضربت به عند الإمام فأرعشت
يداك وقالوا : مُحدَثٌ غير صارم(۱)

فقال الفرزدق يُجيبه :

فهل ضربةُ الرُوميّ جاعلةٌ لكم
أباً عن كُليبٍ أو أباً مثلَ دارمِ
كذاك سيوف الهند تنبو ظُباتها
وتقطع أحياناً مَناطِ التمائم
ولا نقتل الأسرى ولكن نَفُكُّهم
إذا أثقل الأعناقَ حَملُ المَغارم (۲)

وقال يُعرّض بسليمان ، ويعيّره نبوَّ سيف ورقاء بن زهير العبسيّ عن خالد بن جعفر ، وبنو عبس هم أخوال سليمان :

فإن يكُ سيفٌ خان أو قَدَرٌ أبى
بتعجيل نفسٍ حتفُها غيرُ شاهدِ
فسيفُ بني عبسٍ وقد ضربوا به
نبا بيدَي ورقاءَ عن رأس خالد

(۱) الجونين : رجلان من أشراف كندة شهدا يوم شعب جبلة . يوم دير الجماجم : وقعة دير الجماجم بين عبد الرحمن بن الأشعث وجيش الحجاج . يوم الأراقم : يوم كان بين قيس وبين تغلب . أبو رغوان : كنية مجاشع جد الفرزدق . ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم ، أحد فرسان قيس المشهورين في الجاهلية وكان له سيف ماض يقال له ذو الحيات .
(۲) ظبات ج ظبة : حد السيف . مناط التمائم : كناية عن الاعناق لأن التمائم تعلق بها .

كذاك سُيوف الهند تنبو ظباتهـــا
وتقطع أحياناً مَنـــاط القلائـــدِ [1]

وقيل : ان الفرزدق قال لسليمان: يا أمير المؤمنين ، هبْ لي هذا الأسير ، فوهبه له ، فأعتقه ...

أخباره مع آل البيت

القحذميّ قال :

لقي الفرزدق الحسين بن عليّ ، عليهما السلام ، متوجّهاً إلى الكوفة ، خارجاً من مكة ، في اليوم السادس من ذي الحِجّة ، فقال له الحسين ، صلوات الله عليه وآله : ما وراءك ؟ قال : يا بنَ رسول الله ، أَنفُس الناس معك ، وأيديهم عليك . قال : ويحك، معي وِقْرُ بعير [2] من كتبهم يدعونني ويناشدونني الله . قال : فلمّا قُتل الحسين ، صلوات الله عليه ، قال الفرزدق: انظُروا ، فإن غضبت العرب لابن سيّدها وخيرها فاعلموا أنه سيدوم عِزُّها وتبقى هَيبتُها ؛ وإن صبرت عليه ولم تتغيّر ، لم يزِدها الله إلاّ ذُلاّ إلى آخر الدهر . وأنشد في ذلك :

فإن أنتمُ لم تثـــأروا لابن خيركـــم
فألقوا السلاح واغزلوا بالمغازل

عن الشّعبيّ قال :

حجّ الفرزدق بعدما كبر ، وقد أتت له سبعون سنة . وكان هشام بن عبد الملك قد حجّ في ذلك العام ، فرأى عليّ بن الحسين في غِمار الناس في الطواف ، فقال : من هذا الشاب الذي تَبرق أَسِرّةُ وجهه كأنه مرآة

(١) حتفها غير شاهد : لم يحن ميعاد أجلها بعد .
(٢) وقر بعير : حمل بعير .

صِينيّة تَراءى فيها عَذارى الحيّ وجوهها ؟ فقالوا : هذا علي بن الحسين ابن عليّ بن أبي طالب ، صلوات الله عليهم . فقال الفرزدق :

هذا الذي تعرِف البطحــاءُ وطأتَه
والبيتُ يعرِفه والحِــلُّ والحَــرَمُ
هذا ابنُ خير عبــاد الله كُلِّهــم
هذا التقيُّ النقيُّ الطاهــر العَلَــمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَــه
بجَدّه أنبياءُ الله قــد خُتِمــوا
وليس قولكَ مَن هــذا بضائره
العُربُ تعرف من أنكرتَ والعَجَمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلُهــــا :
إلى مكارم هذا ينتهــي الكــرمُ

(الأبيات ...)

وقد حدّثني بهذا الخبر أحمد بن الجَعد ، قال : حدثنا أحمد بن القاسم البرتيّ ، قال : حدّثنا اسحاق بن محمد النَخَعيّ ، فذكر أنّ هشاماً حجّ في حياة أبيه ، فرأى عليّ بن الحسين ، رضي الله تعالى عنهما ، يطوف بالبيت ، والناس يُفرجون له ، فقال : مَن هذا ؟ فقال الأبرش الكلبيّ : ما أعرفه . فقال الفرزدق : ولكنّي أعرفه . فقال : من هو ؟ فقال : هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأته

وذكر الأبيات ...

قال : فغضب هشامٌ ، فحبسه بين مكة والمدينة ، فقال :

أتحبســني بين المدينــة والــتي
إليها قُلوب الناس يَهــوي مُنيبُها

يُقلّب رأساً لم يكـــن رأس سيّدٍ
وعَيناً له حَولاءَ بـــادٍ عيوبُهـــا

فبلغ شعره هشاماً ، فوجّه فأطلقه .

وفاته

قال أبو عِكرمة : وحُكي لنا عن لَبَطة بن الفرزدق أن أباه أصابته ذاتُ الجَنْب ، فكانت سبب وفاته .

وقال : ووُصف له أن يشرب النفْط الأبيض ، فجعلناه له في قدحٍ وسقيناه إيّاه ، فقال : يا بُنيَّ ، عجّلت لأبيك شرابَ أهل النار . فقلت له : يا أبتِ ، قل : لا إله إلاّ الله . فجعلت أكرّرها عليه مراراً ، فنظر إليّ وجعل يقول :

فظلّت تعالى باليفاع كأنّهـــا
رِماحٌ نحاها وِجْهةَ الريح راكزُ [1]

فكان ذا هِجّيراه [2] ، حتى مات .

عن محمد بن سلاّم قال : حدّثني شُعيب بن صخر قال :

دخل بِلال بن أبي بُردةَ على الفرزدق في مرضه الذي مات فيه ، وهو يقول :

---

(١) اليفاع : المكان المرتفع . وركز الرمح : غرزه . كأنه أراد بذلك روحه التي تتصاعد شيئاً فشيئاً .

(٢) هجيراه : دأبه وديدنه .

أَرُوني من يقــوم لكــم مَقــامي

اذا ما الأمرُ جَلّ عن الخِطــابِ[1]

البيتين . فقال بلال : إلى الله ، إلى الله .

عن الأصمعيّ قال :

كان الفرزدق قد دَبّر عبيداً له ، وأوصى بعتْقهم بعد موته ويُدفَع شيءٌ من ماله إليهم . فلمّا احتُضر جمع سائر أهل بيته ، وأنشأ يقول :

أرُوني من َيقــوم لكــم مَقــامي

اذا ما الأمرُ جَــلّ عن الخِطــاب

إلى مَن تَفْزَعــون اذا حَثَــوتُم

بأيديكم عليّ مــن التُــراب

فقال له بعض عَبيده الذين أمر بعتقهم : إلى الله . فأمر ببيعه قبل وفــاته ، وأبطل وصيّته فيه ، والله أعلم .

عن لَبَطة بن الفرزدق قال :

لمّا احتُضر أبو فِراس قال : أيْ لَبَطةُ ، ابغِني كتاباً أكتبْ فيــه وصيّتي . فأتيتُه بكتاب فكتب وصيّتَه :

أروني من يقوم لكم مقامي . . . . .

البيتين . فقــالت مَولاةٌ له قد كان أوصى لها بوصيّة : إلى الله عزّ وجلّ فقال : يا لبطةُ ، امحُها من الوصيّة .

وقال عَوانة :

وتُوفيّ للفرزدق ابن صغير قبل وفاته بأيام ، وصلى عليه ، ثم التفت إلى الناس فقال :

---

(١) إذا ما الأمر جل عن الخطاب : أي إذا مت فكان الخطب أعظم من الخطاب والكلام .

وما نحـــن الا مثلُهـــم غيرَ أنّنـــا
أقمنـــا قليلاً بعدهم وتقدَّمُـــوا

قال : فلم يلبث إلا أياماً حتى مات .

وقال المدائني : قال لَبَطة : أغمي على أبي ، فبكينا ، ففتح عينيه وقال : أعليّ تبكون ؟ قلنا : نعم ، أفعلى ابن المراغة [1] نبكي ؟ فقال : ويحكم ! أهذا موضع ذكره ! وقال :

اذا ما دبّـــت الأنْقـــاء فوقـــي
وصاح صدى عليَّ مـــع الظـــلامِ
فقد شمِتت أعادِيكـــم وقالـــت
أدانِيكم : من اين لنا المُحامي ؟[2]

قال أبو زيد :

مات الحسن وابن سيرين والفرزدق وجرير في سنة عشر ومائة ، فقبر الفرزدق بالبصرة ، وقبر جرير وأيّوب السّختياني ومالك بن دينار باليمامة في موضع واحد .

وهذا غلط من أبي زيـــد عُمر بن شبّة ، لأن الفرزدق مات بعد يوم كاظمةِ ، وكان ذلك في سنة اثنتي عشرة ومائة . وقد قال فيه الفرزدق شعراً ، وذكره في مواضع من قصائده ، ويقوّي ذلك ما أخبرنا به وكيعٌ قال : حدّثنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيّات ، قال : حدّثني ابن النطّاح ، عن المدائنيّ ، عن ابي اليقظان وأبي همّام المجاشعي : أنّ الفرزدق مات سنة أربعَ عشرةَ ومائةٍ .

(١) ابن المراغة : لقب أطلقه الفرزدق على جرير .
(٢) الأنقاء ج نقا : الكثيب من الرمل . الصدى : طائر كالبوم يكون في المقابر .

فهرست الكتاب

اختيارات من

كتاب الأغاني

منقحة

لأبي الفرج الأصفهاني

القسم الخامس

العصر العباسي

صنعة
الدكتور إحسان النص

بسم الله الرحمن الرحيم

اختيارات
من
كتاب الأغاني
لأبي الفرج الأصفهاني
(٥)

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقدمة المجلدة الخامسة من الاختيارات

هذا هو الجزء الخامس من كتاب « اختيارات من كتاب الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني ، وقد وقفته على شعراء العصر العبّاسي الذين بلغ تعدادهم ثمانية وثلاثين شاعراً .

والتزمت في هذا الجزء ما جريت عليه في الأجزاء السابقة ، من حيث حذف أسانيد الأخبار والاجتزاء بالراوية الأخير ، وتنسيق أخبار الشاعر وتصنيف كل طائفة منها تحت عنوان يؤلّف بينها كلما أمكن ذلك ، وعند تعدد روايات الخبر الواحد الاقتصار على الرواية التي تبدو لي أدنى إلى الصحة ، وعدم الإطالة في رواية الأشعار إلا حين تكون القصيدة من عيون الشعر ، وحذف الأخبار والأشعار إذا وقع فيها ما لا يليق ذكرُه ، لأن الغاية من هذه الاختيارات إبراز الوجه الناصع من تراثنا الأدبي وتحبيب الرجوع إليه الى الناشئة .

وقد حاولت ـ جهدي ـ تحقيق ما في المطبوعة حين يبدو لي أن فيه شيئاً من التصحيف أو التحريف ، مع شرح مايغمض من الألفاظ والمعاني .

ولم أصنف شعراء العصر العباسي زمراً وطوائف ، لأنهم ـ في جلّهم ـ من الشعراء الذين احترفوا المديح وجعلوه فنّهم الأول ، ولهذا رتّبتهم على أحرف الهجاء مراعياً ما اشتهروا به من اسم أو لقب أو كنية ، دون مراعاة لمنزلتهم الشعرية واتجاههم الفنّي .

وبهذا الجزء أستوفي الحديث عن أبرز الشعراء الذين ترجم لهم أبو الفرج ، والجزء السادس الأخير سيكون ـ بعون الله ـ وقفاً على تراجم المغنّين والقيان .

دمشق في ٢٣/٨/٨٢

إحسان النصّ

١

أبان بن عبد الحميد

[الأغاني ج ٢٣ ص ١٥٥ وما بعدها]

الشاعر

أَبان بن عبد الحميد بن لاحِق بن عـَفير ، مولى بني رقَاش ...

عيسى بن إسماعيل تِينة قال : كنّا في مجلس أبي زيد الأنصاري ، فذكروا أبان بن عبد الحميد ، فقالوا : كان كافراً . فغضب أبو زيد وقال : كان جاري ، فما فقَدتُ قُرآنه في ليلةٍ قطّ .

أحمد بن مَهران مولى البرامكة قال :

شكا مَروانُ بن أبي حَفْصة إلى بعض إخوانه تغيّر الرشيد عليه وإمساك يده عنه ، فقال له : ويحَك ، أتشكو الرشيدَ بعد ما أعطاك ! قال : أوَ تعجبُ من ذلك ؟ هذا أبان اللاحقي ، قد أخذ من البرامكة بقصيدة قالها واحدةٍ مثلَ ما أخذتهُ من الرشيد في دهري كُلّه ، سوى ما أخذه منهم ومن أشباههم بعدها . وكان أبانٌ نقل للبرامكة كتاب كليلة ودِمنة ، فجعله شعراً ليسهل حفظُه عليهم ، وهو معروفٌ أوّله :

هذا كتابُ أدبٍ ومِحنَـــــــهْ   وهو الذي يُدعَى كَليلَة دِمْنَهْ
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشْـــــــدُ   وهو كتابٌ وضعتْه الهنـــدُ [1]

فأعطاه يحيى بن خالد عشرةَ آلاف دينار ، وأعطاهُ الفضل خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفرٌ شيئاً ، وقال : ألا يكفيك أن أحفظه فأكونَ راويتك ؟ وعمل أيضاً القصيدة التي ذكر فيها مبدأَ الخَلق وأمر الدنيا وشيئاً من المنطق ، وسمّاها « ذاتَ الحُلَل » ، ومن الناس من ينسبُها إلى أبي العتاهية ، والصحيح أنّها لابان .

عن عيسى بن إسماعيل قال :

جلس أبانُ بن عبد الحميد ليلةً في قوم ، فثلب أبا عبيدة فقال : يقدح في الأنساب ولا نَسَبَ له . فبلغ ذلك أبا عبيدة فقال في مجلسه : لقد أغفل السّلطان كُلَّ شيء حتى أغفل أخذ الجِزية من أبانِ اللاحقيّ ، وهو وأهله يهود ، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة ، وليس فيها مصحف ، وأوضح الدّلالة على يهوديّتهم أنّ أكثرهم يدّعي حفظ التوراة ، ولا يحفظ من القرآن ما يُصلّى به . فبلغ ذلك أباناً فقال :

لا تَنِمَّنَّ عن صديقٍ حديثـــاً   واستعِذْ مـــن تسرُّر النَمّـــــامِ
واخفِضِ الصوت إن نطقتَ بليلٍ   والتفِتْ بالنّهار قبل الكـــــلام

طائفة من أخباره

● أبو قُلابةَ عبدُ الملك بن محمّد قال :

كان أبان اللاحقيُّ صديقاً للمعذَّل بن غَيلان ، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء ، فيهجوه المعذَّلُ بالكُفر وينسبُه إلى الشُؤم ، ويهجوه أبان وينسبه إلى

(١)الشطر الثاني من البيت الأول غير مستقيم الوزن وينبغي حذف التاء من الشطرالثاني او اسكانها ليستقيم الوزن

الفُساء الذي تُهجَى به عبد القيس ، وبالقِصرَ ، وكان المعذَّل قصيراً . فسعى في الإصلاح بينهما أبو عُيَينة المهلَّبيُّ ، فقال له أخوه عبدالله — وهو أسَنُّ منه — : يا أخي إنَ في هذين شرّاً كثيراً ، ولا بُدَّ من أن يُخرجاه ، فدَعْهما ليكونَ شرُّهما بينهما وإلّا فرَّقاه على الناس . فقال أبانٌ يهجو المعذّل :

أُحاجيكمُ ما قوسُ لحمٍ سِهامُها ... من الرِّيح لم تُوصَلْ بقِدٍّ ولا عَقَبْ
وليست بشَرْيانٍ وليست بشَوْحَطٍ ... وليست بنَبْعٍ لا وليست من الغَرَبْ
ألا تلك قوسُ الدَحْدحيِّ مُعَذَّل ... بها صار عَبْدِيّاً وتَمّ له النَسَبْ
تَصُكّ خياشيم الأنوف تعمُّداً ... وإن كان راميها يُريد بها العُقَبْ
فإن تفتخرْ يوماً تميمٌ بحاجبٍ ... وبالقَوس مضمونا لكسرى بها العَرَبْ
فحيٌّ ابن عَمروٍ فاخرون بقوسه ... وأسهُمه حتى يُغلَّب من غَلَبْ[1]

فقال المعذَّل في جواب ذلك :

رأيت أباناً يومَ فِطرٍ مُصَلِّياً ... فقُسّم فكري واستفزَّني الطَرَبْ
وكيف يُصلّي مظلمُ القلب دينُه ... على دين ماني انّ ذاك من العَجب

● (عن طائفة من الرواة) :

كان المعذَّل بن غَيلان المَهْريّ يجالس عيسى بن جعفر بن المنصور — وهو يلي حينئذٍ إمارة البصرة من قِبَل الرشيد — فوهب للمعذَّل بن غيلان بَيضةَ عنبرٍ وزنها أربعةُ أرطالٍ ، فقال أبان بن عبد الحميد :

أصلحك الله وقد أَصلحا ... إنّي لا آلوك أن أنصحا
عَلامَ تُعطي مَنوَيْ عنبرٍ ... وأحسِبُ الخازن قد أرجحا

(١) القدّ : سير من جلد . العقب : عصب تعمل منه الاوتار . الشريان والشوحط والنبع أشجار تتخذ منها القسيّ . الغرب : ضرب من الشجر الدحدحي والدحداح : القصير . عبدياً : منسوباً الى عبد القيس وكانت هذه القبيلة تعير بالفساء . حاجب : هو حاجب بن زرارة التميمي .

من ليس من قِـردٍ ولا كَـلبـــةٍ أبهى ولا أحلـى ولا أَملَحـــا
ما بـين رجليــه إلى رأســـه شِبرٌ فلا شبَّ ولا أفلحـــا[1]

● الجِرمازيّ قال :

خرج أبان بن عبد الحميد من البصرة طالباً للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائباً ، فقصده ، فأقام ببابه مدّةً طويلة لا يصل إليه ، فتوسّل بمن أوصل له شعراً إليه ، وقيل إنه توسّل إلى بعض بني هاشم ممّن شخص مع الفضل ، وقال له :

يا غزيرَ الندى ويا جـوهـرَ الجـو هر من آل هاشـمٍ بالبطـاحِ
إنّ ظنّي وليس يُخلِف ظنّـي بك في حاجتي سبيـلُ النجـاحِ
إنّ من دونهـا لَمُصْمَتَ بـابٍ أنت من دُونِ قِفلـه مِفتـاحي
تاقت النّفس يا خليـلَ السَّماح نحو بحر النَّدى مُجاري الرِّياح
ثم فكّـرت كيـف لي واستَخَـرْت الله عنـد الإمســاء والإصبـاح
وامتدحـت الأمـيرَ أصلَـحه اللـ ـهُ بشعرٍ مُشَهَّـرِ الأوضـاح

فقال : هاتِ مديحَك . فأعطاه شعراً في الفضل في هذا الوزن وقافيته :

أنا مَن بُغْيـةُ الأمير وكَنـزٌ من كُنوز الأمـير ذو أَربـاحِ
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديـب ناصحٌ زائـدٌ على النُّصّـاح
شاعرٌ مُفْلِقٌ أخـفُّ من الرِّيشـة ممّـا يكون تحـت الجنَـاحِ

وهي طويلة جداً يقول فيها :

إن دعاني الأمـيرُ عـاين منّي شَمَّريّاً كالبُلبـل الصَيّـاحِ[2]

---

(١) لا آلو : لا أقصر. المَنَا والمناة : كيل او ميزان ويثنى منوان ومَنيَان .
(٢) شَمّرياً : ماضياً مجرّباً .

قال : فدعا به ووصله ، ثم خُصّ بالفَضل ، وقُدّم معه ، فقرب من قلب يحيى بن خالد وصار صاحب الجماعة وزمام أمرهم .

● عليّ بن محمد النّوفليّ :

أن أبانَ بن عبد الحميد عاتب البرامكة على تركهم إيصاله إلى الرّشيد وإيصال مديحه إليه ، فقالوا له : وما تُريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروانُ بن أبي حَفصة . فقالوا له : أنّ لِمروان مذهباً في هجاء آل أبي طالب وذَمّهم به يَحظى وعليه يُعطَى ، فاسلُكْهُ حتى نفعلٍ . قال : لا أستحلُّ ذلك . قالوا : فما تصنع ؟ لا يجيء طلب الدنيا إلا بما لا يَحِلّ . فقال أبان :

نَشَدتُ بحقِّ الله مَن كان مُسلِماً ... أَعُمٌّ بما قد قُلتُه العُجْمَ والعَرَبْ
أَعمٌّ رسولِ الله أقربُ زُلفةً ... لَدَيه أم ابنُ العَمّ في رُتْبة النَسَبْ
وأيُّهما أَولى بهِ وبعَهْده ... ومَن ذا له حَقُّ التُّراث بما وَجَبْ
فإن كان عَبّاسٌ أحقَّ بِتلكمُ ... وكان عليٌّ بعدَ ذاك على سَبَب
فأبناءُ عبّاسٍ هُمُ يَرِثُونه ... كما العَمُّ لابن العمّ في الإرث قد حَجَب

وهي طويلة ، وقد تركت ذِكرها لما فيها . فقال له الفضل : ما يَرِدُ على أمير المؤمنين اليومَ شيءٌ أَعْجَبُ إليه من أبياتك . فركب ، فأنشدها الرَّشيد ، فأمر لأبان بعشرين ألف درهم ، ثم اتّصل مدحُه الرَّشيدَ بعد ذلك وخُصّ به .

● قال أبو الفَيّاض سَوّار بن أبي شُراعة :

كان في جوار أبان بن عبد الحميد رجلٌ من ثقيف يقال له محمد بن خالد ، وكان عدوّاً لِأبان . فتزوّج بعَمّارةَ بنت عبد الوهاب الثقفيّ ، وهي أخت عبد المجيد الذي كان ابن مُناذر يهواه ، ورثاه ، وهي مَولاةُ جِنان التي يُشبّب بها أبو نُواس ...

قال : وكانت مُوسِرة ، فقال أبان بن عبد الحميد يهجوه ويُحذّرها منه :

لَمّا رأيتُ البَزَّ والشـــارهْ   والفَرشَ قد ضاقت به الحـارهْ
واللّوز والسُكّـرَ يُـرمَـى به   من فوق ذي الدّار وذي الدّاره
وأحضروا المُلْهِين لـم يتركُـوا   طبلاً ولا صاحبَ زَمّـــاره
قلـت : لمـاذا ؟ قيل أُعجوبةٌ   مُحمّـدٌ زُوِّج عَـمّـــاره
لا عَـمّر اللهُ بهـــا بيتـــه   ولا رأتْـه مُدرِكاً ثـــارَه
ماذا رأت فيه وماذا رجتْ   وهي من النِّسوان مختـــاره
أسودُ كالسَّفُّـود يُنسَى لدى التَّنُّـور بل مِحراكُ قَيّـــاره
يُـجري على أولاده خمســـةً   أرغفـةً كالـرِّيش طيّـــاره
وأهلُه في الأرض من خَـوفه   إن أفرطوا في الأكل سَيّـاره
ويحَكِ فِرّي واعصِي ذاك بي   فهذه أختُـك فَـــــرّاره
إذا غَفـا بالليـل فاستيقظي   ثم اطفِري إنّك طَـفّــاره
فَصَعّدت نائلـــةٌ سُلّمـاً   تخاف أن تصعَدَه الفـــارَه
سُرورُ غَرّتْهـا فلا أفلحتْ   فإنّهـا اللَّخْنــاءُ غَـــرّاره
لو نلت ما أبعدتَ من ريقهـا   إنّ لهـا نَفثـةَ سَحّـــاره(١)

قال : فلمّا بلغت قصيدته هذه عَمّارة هربت ، فحُرم الثقفيّ من جهتها مالاً عظيماً . قال : والثلاثة الأبيات التي أوّلها :

فصعّدت نائلة سلّماً

زادها في القصيدة بعد أن هربت .

* * *

(١) السفود : حديدة يشوى بها اللحم . القِير : بالكسر ، وهو القار أيضاً : الزفت ومادة تطلى بها السفن ، والقيار : صاحب القِير . سيارة : الجماعة يسيرون . أعصبي ذاك بي : ألقي الذنب علي .

٢

إبراهيم بن العبّاس

[الأغاني ج ١٠ ص ٤٣ وما بعدها]

الشاعر

إبراهيم بن العبّاس بن محمد بن صُول . وكان صُول رجلاً من الأتراك ، ففتح يزيد بن المهلّب بلدَه وأسلم على يديه ، فهم موالي يزيد . ولمّا دعا يزيد إلى نفسه لحِق به صول لينصُرَه ، فصادفه قد قُتل . وكان يقاتل كلٌّ من بينه وبين يزيد من جيش بني أميّة ويكتب على سهامه : صُولٌ يدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه . فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك فاغتاظ وجعل يقول : وَيْلي على ابن الغَلْفاء ! وماله وللدُّعاء إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ! ولعلّه لا يَفْقَه صَلاتَه .

وكان ابنه محمد بن صُول من رجال الدولة العبّاسيّة ودُعاتها . وقد كان بعض أهلِيهم ادَّعَوا أنّهم عربٌ وأنّ العبّاس بن الأحنف خالُهم ...

وأمّا إبراهيم بن العبّاس وأخوه عبدالله فإنّهما كانا من وجوه الكُتّاب ، وكان عبدالله أسنَّهما وأشدّهما تقدُّماً ، وكان إبراهيم آدبَهما وأحسنَهما شعراً . وكان يقول الشعر ثم يختاره ويُسقط رَذْله ، ثم يُسقِط الوسط ، ثم

يُسقِط ما يُسبَق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلّا اليسير ، وربّما لم يدعْ منها إلّا بيتاً أو بيتَين ...

ابن إبراهيم قال : سمعتُ دعبلاً يقول : لو تكسّب إبراهيم بن العبّاس بالشعر لتركَنا في غير شيء . قال : ثم أنشدَنا له ، وكان يستحسن ذلك من قوله :

إن امرءاً ضَنّ بمعروفه   عنّي لَمبذولٌ له عُذري
ما أنا بالرّاغب في عُرفه   إن كان لا يرغبُ في شُكري

أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العبّاس ، وكان يفضّلها ويستجيدها :

أمِيل مع الذِّمام على ابن أُمّي   وآخذُ للصّديق من الشّقيقِ
وإن ألفيتَني حُرّاً مُطاعاً   فإنّك واجدي عبدَ الصّديق
أُفرّق بين مَعروفي ومَنّي   وأجمع بين مالي والحقوق

أنشدتُ عمّي ـ رحمه الله ـ أبياتاً لابن دُريد يمدح رجلاً من أهل البصرة :

يا مَن يُقبّل كفَّ كلّ مُخرّق   هذا ابنُ يحيى ليس بالمِخراقِ
قَبّلْ أناملَه فلسنَ أناملاً   لكنّهنّ مفاتحُ الأرزاقِ (١)

فقال : يا بنيّ ، هذا سرقَه هو وابنُ الرومي جميعاً من إبراهيم بن العبّاس ، قال إبراهيم بن العبّاس يمدح الفضل بن سَهل :

لِفضل بن سهلٍ يدٌ   تقاصَر عنها الأمَلْ
فباطنُها للنَّدى   وظاهرُها للقُبَل
وبَسطتُها للغِنى   وسطوتُها للأجلْ

وسرقه ابن الروميّ فقال :

أصبحتُ بين خَصاصة ومَذلّةٍ   والحُرّ بينهما يموت هزيلا

(١) التخريق : التمزيق وكثرة الكَذب . المخراق : في الأصل : الرجل الحسن الجسم ، والمتصرف في الأمور والسخي ولكنه أراد به الذمّ هنا وجعله بمعنى المخرّق .

فامدُدْ إليَّ يداً تعـوَّد بطنُها   بَـذْلَ الندى وظهورُها التقبيلا[1]

أخبرني الصُّوليّ قال : سمعت أحمد بن يحيى ثعلباً يقول :

كان إبراهيم بن العبّـاس أشعرَ المحدَثين. قال : وما روى ثعلبٌ شعرَ كاتبٍ قطُّ . قال : وكان يستحسن كثيراً قولَـه :

لنا إبِلٌ كُـومٌ يضيقُ بها الفَـضا   ويفترُّ عنها أرضُها وسماؤها
فمـن دُونهـا أن تُستبـاحَ دماؤنا   ومن دُوننا أن تستباحَ دماؤهـا
حِمىً وقِرىً فالموتُ دون مَرامها   وأيسر خَـطبٍ يوم حَقّ فَناؤها[2]

ثم قال : والله لو كان هذا لبعض الأوائل لاستُجيد له .

أخبرني عمّي قال : اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن عبد الملك وابن بَرْد الخِيار في مجلس عبيدالله بن سليمان قبل وزارته ، فجعل هارون يُـنشد من أشعار أبيهِ محاسنها ويفضّلها ويقدّمها ، فقال له ابنُ بَرْد الخِيار : إن كان لأبيك مثلُ قول إبراهيم بن العبّـاس :

أسدٌ ضارٍ إذا هَـيّجتَـه   وأبٌ بَـرٌّ إذا ما قَـدَرا
يعرف الأَبعَـدَ إن أثـرى ولا   يعرف الأدنى إذا ما افتقـرا

أو مثلُ قوله :

تَلِجُ السّنون بيوتَـهم وتَرى لهم   عن جار بيتِـهم ازورارَ مَناكبِ
وتراهمُ بسيوفهم وشِفارهـم   مُستشرِفينَ لراغـبٍ أو راهب
حامِين أو قارِين حيث لقيتَـهم   نَـهْبَ العُفاة ونُـهزَةً للرّاغب

فاذكُرْه وافخرَ به ، وإلاّ فأَقْلِل من الافتخار والتطاول بما لا طائل فيه . فخجل هارون .

---

(١) الخصاصة : الفقر.

(٢) الكوم ج كوماء : الناقة العظيمة السنام .

العداوة بينه وبين ابن الزيّات

كان إبراهيم بن العبّاس صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيّات ، ثم آذاه وقصَده وصارت بينهما شحناءُ عظيمة لم يمكن تلافيها ، فكان إبراهيم يهجوه ، فمن قوله فيه :

أبا جعفرٍ خَفْ خَفضةً بعد رِفعةٍ ... وقصِّر قليلاً عن مَدى غُلَوائكا
لئن كان هذا اليومُ يوماً حويتَه ... فإنّ رجائي في غدٍ كرجائكا

وله فيه أيضاً :

دعوتُك في بلوى أَلَمّت صُروفُها ... فأوقدتَ من ضِغنٍ عليَّ سَعيرَها
فإني إذا أدعوك عند مُلمّةٍ ... كداعيةٍ عند القبور نَصيرَها

وقال فيه لمّا مات :

لما أتاني خبرُ الزيّات ... وأنّه قد صار في الأموات
أيقنتُ أنّ موته حياتي

عليّ بن الحسين بن عبد الأعلى قال :

وجّه محمد بن عبد الملك بأبي الجَهم أحمد بن سيف إلى الأهواز ليكشِف إبراهيم بن العبّاس ، فتحامل عليه تحاملاً شديداً . فكتب إبراهيم إلى محمد ابن عبد الملك يُعرّفه ذلك ويشكوه إليه ويقول له : أبو الجهم كافرٌ لا يُبالي ما عمِل ، وهو القائل لمّا مات غلامُه يخاطب ملَك الموت :

وأقبلتَ تسعى إلى واحدي ... ضِراراً كأنّي قتلتُ الرّسولا
تركتَ عَبيد بني طاهرٍ ... وقد مَلؤوا الأرض عرضاً وطُولا
فسوف أدين بترك الصَّلاة ... وأصطبح الخمر صِرفاً شَمُولا

فكان محمد لعصبيته على إبراهيم وقصده له يقول : ليس هذا الشعر لأبي الجهم ، إنما إبراهيم قاله ونسَبه إليه .

ميمون بن هارون قال :

كتب إبراهيم بن العبّاس إلى محمّد بن عبد الملك يستعطفه : « كتبتُ إليك وقد بلغت المُدية المَحَزَّ ، وعَدَت الأيام بك عليّ بعد عَدْوي بك عليها ، وكان أسوأ ظنّي وأكثر خوفي أن تسكُن في وقت حركتها ، وتكفَّ عند أذاها ، فصرتَ عليَّ أضرَّ منها ، وكفّ الصّديق عن نُصرتي خوفاً منك ، وبادر إليّ العدوّ تقرُّباً إليك » . وكتب تحت ذلك :

أخٌ بيني وبين الدّهْـــــر صاحبَ أيَّـنا غَـلَـــبا
صديقي ما استقام فإن نبا دهـرٌ عـليَّ نَبـــا
وثبتُ على الزّمــان بـه فعاد به وقـد وثبـــا
ولو عـاد الزمـانُ لنا لعاد به أخـــاً حَـدِبا

قال : وكتب إليه :

« أما والله لو أمِنت وُدّك لقلت ، ولكنّي أخاف منك عَتْباً لا تُنصفني فيه ، وأخشى من نفسي لائمةً لا تحتملها لي . وما قد قُدّر فهو كائن ، وعن كل حادثةٍ أُحدوثة ، وما استبدلت بحالةٍ كنتُ فيها مغتبطاً حالةً أنا في مكروهها وألمها أشدَّ عليَّ من أنّي فزِعت إلى ناصري عند ظُلم لَحِقني ، فوجدتُ من يظلِمُني أخفَّ نيّةً في ظُلمي منه ، وأحمَدُ الله كثيراً . » ثم كتب في أسفلها :

وكنتَ أخي بإخاء الزمّـــانِ فلمّا نبا صرتَ حَرباً عَــوانا
وكنت أذمُّ إليك الزّمـــــان فأصبحتُ فيك أذمُّ الزّمانـا
وكنت أُعِدُّك للنائبـــــات فأصبحتُ أطلب منك الأمانا

أحمد بن بِشر المَرْثَديّ قال :

كان إبراهيم بن العبّاس يوماً عند أحمد بن أبي دُواد ، فلمّا خرج من عنده لقِيه محمد بن عبد الملك الزيّات وهو خارجٌ من داره ، فتبيّن إبراهيمُ

في وجه محمّدٍ الغضبَ فلم يخاطبه في العاجل بشيءٍ . فلمّا انصرف إلى منزله كتب إليه :

دَعْني أُواصِلْ مَن قَطَعْتَ يراك بي إذ لا يَراكا
إنّي متى أَهجُرْ لهجرك لا أَضرّ به سِواكا
وإذا قطعتُك في أخيك قطعتُ فيك غداً أخاكا
حتى أُرى مُتَقسَّماً يومي لذا وغَدي لِذاكا

وقرأت في بعض الكتب :

لمّا عُزل إبراهيم بن العبّاس عن الأهواز في أيام محمد بن عبد الملك الزيّات اعتُقل بها وأُوذي ، وكان محمد قبل الوزارة صديقَه ، وكان يُؤمّل منه أن يسامحه ويُطلقَه ، فكتب إليه :

فلو إذ نبا دهرٌ وأُنكر صاحبٌ وسُلّط أعداءٌ وغاب نصيرُ
تكون عن الأهواز داري بنَجوةٍ ولكن مقاديرٌ جرتْ وأمورُ
وإنّي لأرجو بعد هذا محمّداً لِأفضلَ ما يُرجى أخٌ ووزيرُ

فأقام محمد على قصده وتكشُّفه والإساءة إليه حتى بلغ منه كلّ مكروه ؛ وانفرجت الحال بينهما على ذلك ، وهجاه إبراهيم هجاءً كثيراً .

الحسين بن فَهم قال :

كان محمّد بن عبد الملك قد أَغرى الواثق بإبراهيم بن العبّاس ، وكان إبراهيم يُعاتبه على ذلك ويُداريه . ثم وقف الواثق على تَحامُله عليه فرفع يَده عنه وأمر أن يُقبَل منه ما رفعه ، وردّه إلى الحَضْرة مَصوناً . فلمّا أحسّ إبراهيم بذلك بَسَط لسانه في محمّد ، وحسُن ما بينه وبين ابن أبي دُواد[1] . وهجا محمّد بن عبد الملك هجاءً كثيراً ، منه قولُه :

---

(١) هو القاضي أحمد بن أبي دواد ، وكانت بينه وبين ابن الزيات عداوة شديدة .

قَدرتَ فلم تَضْرُر عدوّاً بقُدرةٍ وسُمتَ بها إخوانك الذُّلَّ والرَّغْما

وكنت مَليئاً بالتي قد يَعافُها من النّاس مَن يأبى الدنيئةَ والذَمّا

أبو محمّد الحسن بن مَخْلَد قال :

أودع محمد بن عبد الملك الزيّات مالاً عظيماً وجوهراً نفيساً ، وقد رأى تغيّراً من الواثق فخافه وفرّق ذلك في ثقاته من أهل الكَرْخ ومُعامليه من التُجّار . وكان إبراهيم بن العبّاس يُعاديه ويَرْصُد له بالمكاره لإساءته إليه ، فقال أبياتاً وأشاعها حتى بلغت الواثق يُغريه به :

نصيحةٌ شانَها وزيرُ مُستحفَظٌ سارقٌ مُغيرُ

ودائعٌ جَمّةٌ عِظامٌ قد أُسبِلت دُونَها السُّتور

تسعةُ آلافِ ألفِ ألفٍ خِلالَها جوهرٌ خطيرُ

بجانب الكَرْخ عند قومٍ أنت بما عندهم خبير

والمَلِكُ اليومَ في أُمورٍ تحدُثُ من بَعدها أُمورُ

قد شغلتْه مُحقَّراتٌ وصاحبُ الكارةِ الوزيرُ (١)

تعشقه لسامر

ابن بَرْد الخِيار عن أبيه قال :

كان إبراهيم بن العبّاس يهوى جاريةً لبعض المغنّين بسُرّمن رأى يقال لها سامِر ، وشُهر بها ، فكان منزله لا يخلو منها . ثم دُعيت في وليمة لبعض أهلها ، فغابت عنه أياماً ، ثم جاءته ومعها جاريتان لمولاتها وقالت له : قد أهديتُ صاحبتيَّ إليك عِوضاً من مَغيبي عنك . فأنشأ يقول :

أقبلن يحفُفن مثل الشمس طالعةً قد حسّن الله أُولاها وأخراها

ما كنت فيهنّ إلّا كنت واسطةً وكنّ دُونك يُمناها ويُسراها

---

(١) الكارة : أراد الصُرة التي فيها المال ، وهي في الاصل للطعام .

محمد بن القاسم بن مَهْروية قال :

كان إبراهيم بن العبّاس يهوى قَينةً بسُرَّ من رأى ، فكان لا يكاد يُفارقها . فجلس يوماً للشرب ومعه إخوانٌ له ، ودعا جماعةً من جواري القِيان ، ودعاها فأبطأتْ ، فتنغّص عليهم يومُهم لِما رأَوا من شُغل قلبه بتأخّرها ، ثم وافت ، فسُرّي عنه وطابت نفسه وشرب وطرِب . ثم دعا بدَواةٍ فكتب :

ألم تَرَنا يومَنا إذ نأتْ ... فلم تأتِ من بين أترابها
وقد غمرتْنا دواعي السُّرور ... بإشعالها وإلهابها
ومدّت علينا سَماءَ النعيم ... وكلُّ المُنى تحت أطنابها
ونحن فُتورٌ إلى أن بدتْ ... وبدرُ الدُّجى بين أثوابها
فلمّا نأتْ كيف كُنّا لها ... ولمّا دنتْ كيف صِرنا بها

وأمر مَن حضر فقرأ عليها الأبيات ، فتجنّت وقالت : ما القصّة كما وصفتَ ، وقد كنتم في قَصْفكم مع من حضَر ، وإنّما تجمّلتُم لي لمّا حضرتُ . فأنشأ يقول :

يا مَن حنيني إليهِ ... ومن فؤادي لَدَيه
ومَن إذا غاب من بَيْنهم أسفتُ عليه
إذا حضرتِ فما منهمُ - مَنَ اصبُو إليه
مَن غاب غيرُك منهم ... فأمرُه في يَديَه

قال : فرضيت عنه ، وأتممنا يومَنا على أحسن حال .

عبدالله بن أبي سَعد قال :

أنشدني إبراهيم بن العبّاس لنفسه في قَينة اسمُها سامِر كان يهواها فغضبت عليه :

وعَلّمِتني كيف الهوى وجَهِلتِه ... وعَلّمكم صبري على ظُلمكم ظُلمي
وأعلم مالي عندكم فيردُّني ... هَواي إلى جَهل فأُقصِر عن عِلمي

سائر أخباره

● محمد بن عيسى بن عبد الرحمن قال :

خرج إبراهيم بن العباس ودِعبل بن عليّ وأخوه رَزِين في نُظرائهم من أهل الأدب رَجّالةً إلى بعض البساتين في خلافة المأمون ، فلَقيهم قومٌ من أهل السّواد من أصحاب الشّوك[1] ، فأعطَوهم شيئاً وركبوا تلك الحمير . فأنشأ إبراهيم يقول :

أُعِيضت بعد حَمل الشَّو ... ك أحمالاً من الحَرْفِ
نَشاوى لا من الصَّهبا ... ء بل من شدّة الضَّعْفِ[2]

فقال رزين :

فلو كنتم على ذاك ... تَؤولون إلى قَصْفِ
تساوت حالُكم فيه ... ولم تبقَوا على خَسْفِ[3]

فقال دعبل :

وإذ فات الذي فات ... فكونوا من بني الظَّرْفِ
ومُرّوا نقصِف اليومَ ... فإنّي بائعٌ خُفّي

فانصرفوا معه فباع خُفّه وأنفقه عليهم .

● محمد بن صالح بن النطّاح قال :

لمّا عزم المأمون على الفتك بالفَضل بن سهل وندَب له العزيز بن عِمران الطائيّ ومُؤنِساً البصريّ وخَلَفاً المصريّ وعليّ بن أبي سعد ذا القلمَين وسِراجاً

(١) أصحاب الشوك : أراد الذين يجمعون الشوك ويحملونه على الحمير .
(٢) الحرف : كذا في الأصول ولا يتضح المقصود بها هنا ولعله أرد أن راكبيها من أهل الحرف أي الكتابة والشعر .
(٣) القصف : اللهو.

الخادم ، نُـمي الخبرُ إلى الفضل ، فأظهره للمأمون وعاتبه عليه . فلمّـا قُتل الفضل وقتل المأمونُ قَـتَـلَـتَـه سأل من أين سقط الخبر إلى الفضل ، فعُـرّف أنه من جهة إبراهيم بن العبّـاس ، فطلبه ، فاستَـتر . وكان إبراهيم عرف هذا الخبر من جهة عبد العزيز بن عِـمران ، وكان الفضل استكتب إبراهيمَ لعبد العزيز بن مروان ، فأخبر به الفضل . قال : وتحمّـل إبراهيم بالناس على المأمون وجرّد في أمره هشاماً الخطيب المعروف بالعبّـاسيّ ، وكان جريئاً على المأمون لأنّـه ربّـاه ، وشخص إليه إلى خراسان في فِـتنة إبراهيم بن المهديّ ، فلم يُـجبه المأمون إلى ما سأل . فلقيه إبراهيم مستتراً وسأله عمّـا عمل في حاجته ، فقال له هشام : قد وعدَني في أمرك بما تُـحـبّ . فقال له إبراهيم : أظنّ أنّ الأمر على غير هذا . قال : وما تظنّ ؟ قال : محلُّـك عند أمير المؤمنين أجلّ من أن يَـعِـدَك شيئاً فترضى بتأخيره ، وهو أكرم من أن يعدَ مثلك شيئاً فيؤخّـرَه ، ولكنّـك سمعت ما لا تُـحبّ فيَّ فكرهت أن تَـغُـمَّـني به ، فقلتَ لي هذا القول ؛ وأحسَـن اللهُ على كل الأحوال جَـزاءك . فمضى هشام إلى المأمون فعرّفه خبر إبراهيم ، فعجب من فِطنته وعفا عنه .

وفي هشام يقول إبراهيم بن العبّـاس :

مَـن كانت الأموالُ ذُخـراً له ... فإنّ ذُخرِي أَمَـلي في هشـــامْ
فتىً يقي اللامـةَ عن عِـرضـــه ... وأنهبَ المالَ قضـــاءَ الذِّمام(١)

● محمد بن يونس الأنباريّ قال : حدّثني أبي :

أنّ إبراهيم بن العبّـاس الصُّولي دخل على الرِّضا لمّـا عقد له المأمونُ وولّاه العهد ، فأنشده قوله :

أزالت عَـزاءَ القلب بعد التجلُّـدِ ... مَـصارعُ أولادِ النبيّ محمّـــدِ

---

(١) اللامة : اللوم .

ﷺ ، فوهب له عشرة آلاف درهم من الدراهم التي ضُربت باسمه ، فلم تزل عند إبراهيم ، وجعل منها مُهورَ نسائه ، وخَلّف بعضها لكَفنه وجَهازه إلى قبره .

● محمد بن يزيد قال : سمعت الحسن بن رَجاء يقول :

كنّا بفَم الصُّلح[1] أيامَ بنى المأمون ببُوران بنت الحسن بن سهل ، فقدِم إبراهيم بن العبّاس علينا ودخل إلى الحسن بن سهل فأنشده :

لِيَهْنِئْكَ أصهارٌ أذلّت بعِزّها ... خُدوداً وجَدّعت الأنوفَ الرَّواغما
جمعت بها الشَّملَين من آل هاشمٍ ... وحُزت بها للأكرمِين الأكارما
بَنُوك غدَوا آلَ النبي ووارثو الخلافةِ والحاوُون كِسرى وهاشما

فقال له الحسن : « شِنْشِنةٌ أعرِفُها من أَخْزَم »[2] ، أي أنك لم تزل تمدحُنا . ثم قال له : أحسن اللهُ عنّا جَزاءك يا أبا إسحاق ، فما الكثير من فِعلنا بك بجزاءٍ لليسير من حقّك .

● ميمون بن هارون قال :

لمّا عقد المتوكّل لولاة العهود من وَلده ركب بسُرّ من رأى رَكْبةً لم يُرَ أحسنُ منها ، وركب وُلاة العهود بين يديه ، والأتراك بين أيديهم أولادُهم يمشون بين يدَي المتوكّل بمَناطق الذهب ، في أيديهم الطَّبْرَزِيناتُ[3] المُحلّاةُ بالذهب . ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجَوانحيّات[4] وسائر السُّفن . وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العَروس ، وأذِن للناس فدخلوا

(١) فم الصلح : نهر قرب واسط عليه قرى كثيرة وفيه كانت دار الحسن بن سهل .
(٢) هذا مثل يضرب للامر المألوف المتوقع ، قاله أبو أخزم الطائي حين لقي العقوق من أحفاده وكان أبوهم أخزم عاقاً لأبيه قبلهم .
(٣) الطبرزين : آلة من السلاح عل هيئة الفأس .
(٤) الجوانحيات : ضرب من السفن .

إليه . فلمّا تكاملوا بين يديه مثلَ إبراهيم بن العبّاس بين الصفَّين فاستأذن في الإنشاد فأَذن له ، فقال :

ولمّا بدا جعفرٌ في الخميـــس بين المُطِـــلّ وبـين العَـروسِ
بـدا لابسـاً بِهمـا حُلّــةً أُزيلت بها طالعاتُ النُّحـوسِ
ولمّا بـدا بين أحبـابـه وُلاةِ العُهود وعـزّ النفوس
غـدا قمـراً بـين أقمـاره وشمساً مُكَلَّلةً بالشمُّـوس
لإيقـاد نـارٍ وإطفائهـا ويومٍ أنيقٍ ويومٍ عَبُـوسِ

ثم أقبل على وُلاة العهود فقال :

أضحت عُـرى الإسلام وهي مَنُوطةٌ بالنّصر والإعـزاز والتـأييـدِ
بخليفـةٍ من هاشـمٍ وثلاثـةٍ كَنَفُوا الخلافةَ من وُلاة عُـهود
قمرٌ توافت حولَـه أقمـارُه فحفَفْنَ مطلَـع سَعـده بسُعود
رفعتهم الأيّـامُ وارتفعـوا به فسعَوا بأكرمِ أنفُسٍ وجُـدودِ

قال : فأمر له المتوكّل بمائة ألف درهم ، وأمر له وُلاةُ العهود بمثلها .

● القاسم بن إسماعيل قال :

انصرف إبراهيم بن العبّاس يوماً من دار المتوكّل فقال لنا : أنا والله مسرور بشيء مغمومٌ منه . فقلنا له : وما ذاك ، أعزّكَ الله ؟ قال : كان أحمد بن المُدبّر رفع إلى أمير المؤمنين أنّ بعض عُمّالي اقتطع مالاً ، وصدق في الذي قاله ، وكنت قد رأيت هلال الشهر ونحن مع أمير المؤمنين على وجهه ، فدعوتُ له وضحك إليّ فقال لي : إن أحمد قد رفع على عاملك كذا وكذا فاصدُقْني عنه . فضاقت عليّ الحُجّة ، وخِفت أن أُحقّقَ قوله إن اعترفتُ ، ثم لا أرجعَ منه إلى شيء فيعودَ عليّ الغُرم ، فعدَلت عن الحُجّة إلى الحِيلة فقلت : أنا في هذا يا أمير المؤمنين كما قلتُ فيك :

رَدّ قولي وصَدّق الأقـــوالا   وأطـاع الوُشـاةَ والعُـــذّالا
أتُـراه يكون شهرَ صُـــدودٍ   وعلى وجهه رأيت الهـــلالا

قال : لا يكونُ واللهِ ذلك بحياتي يا إبراهيم ؛ رَوِّ هذا الشعر بَناناً حتى يُغَنِّيَني فيه . فقلت : نعم يا سيّدي ، على ألّا يُطالب صاحبي بقول أحمد . فقالَ للوزير : تَقَبَّلْ قول صاحبه في المال . فسُررت بالظَّفَر ، واغتممتُ لبُطلان هذا المال وذَهابه بمثل هذه الحِيلة ، ولعلّه قد جُمع في زمن طويلٍ وتعب شديد .

● عن أبي العَيناء قال :

كان عُبيد الله بن يحيى يقول للمتوكّل : يا أمير المؤمنين ، إنّ إبراهيم ابن العبّاس فضيلةٌ خَبَأها الله لك ، وذخيرةٌ ذَخَرها لدولتك .

● أبو العبّاس بن الفُرات والباقطانيّ قالا :

كان إسحاق بن إبراهيم ابن أخي زيدان صديقاً لإبراهيم بن العبّاس ، فأنسخه شعره في مدح الرِّضا . ثم وَلي إبراهيم بن العبّاس في أيّام المتوكّل ديوان الضِّياع ، فعزله عن ضياعٍ كانت بيده بحُلوان ، وطالبه بمالٍ وجَب عليه ، وتباعدَ بينهما . فقال إسحاق لبعض من يثق به : قل لإبراهيم بن العبّاس : والله لئن لم يَكفُف عمّا يفعله فيَّ لأُخرجنّ قصيدته في الرّضا بخطّه إلى المتوكّل . فأحجم عنه إبراهيم وتلافاه ، ووجَّه من ارتجع القصيدة منه وجعله على ثقةٍ من أنّه لا يُظهرها ، ثم أفرج عنه وأزال ما كان يُطالبه به .

● قال عليّ بن الحسين الإسكافيّ :

كان لإبراهيم ابنٌ قد يَفَع وترعرع ، وكان مُعجَباً به ، فاعتلّ عِلّةً لم تَطُل ومات . فرثاه بمراثٍ كثيرة ، وجزع عليه جزَعاً شديداً . فممّا رثاه به قولُه :

كنتَ السَّوادَ لِمُقلتي   فبكى عليك الناظـــرُ
من شاء بعدَك فَليمُتْ   فعليك كنت أُحـــاذرُ

ومن مراثيه إيّاه قولُه :

وما زلتُ مُذْ لَدُ أُعْطِيتُه / أُدافعُ عنه حِمامَ الأَجَلْ
أُعَوِّذُه دائباً بالقُران / وأَرمي بطَرْفي إلى حيث حلّ
فأضحت يدي قَصدُها واحدٌ / إلى حيث حَلّ فلم يَرتَحلْ

● ابن السَّخيّ قال :

وهب عبدالله بن العبّاس لأخيه إبراهيم ثُلثَ ماله ، ووهَب لأُخته الثُلثَ الآخرَ ، فصار مساوياً لهما في الحال . فقال إبراهيم :

ولكنّ عبدالله لمّا حَوى الغِنى / وصار له من بين إخوته مالُ
رأى خَلَّةً منهم تُسَدّ بماله / فساهمهم حتى استوتْ بهمُ الحالُ(١)

وهذا ممّا عِيب على إبراهيم قولُه ابتداءً : ولكنّ عبدالله . وقد كررّه في شعره فقال :

ولكنّ الجوادَ أبا هشام / وفيٌّ العهد مأمونُ المَغيبِ
بطيءٌ عنكَ ما استغنيت عنه / وطلّاعٌ عليك مع الخطوب

والسبب في ذلك اختيارُه شعره واسقاطُه ما لم يرضَه منه .

● أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العبّاس يقولها لأحمد بن المُدَبِّر ، وقد جاءه بعد خلاصه من النكبة مهنّئاً ، وكان استعان به في أمر نكبته فقعد عنه ، وبلغه أنّه كان يُحرّض عليه ابن الزيّات :

وكنتَ أخي بالدّهر حتى إذا نبا / نَبوتَ فلمّا عاد عُدت مع الدّهرِ
فلا يومَ إقبالٍ عددتُك طائلاً / ولا يومَ إدبارٍ عددتُك في وِتْر
وما كنتَ إلّا مثلَ أحلامِ نائمٍ / كلا حالتَيك من وفاءٍ ومن غَدْر

* * *

(١) الخلة : الفقر.

٣

إبراهيم بن المدبّر

[الأغاني ج ٢٢ ص ١٥٧ وما بعدها]

الشاعر

أبو إسحاق إبراهيم بن المدبِّر شاعرٌ كاتبٌ متقدّم من وجوه كتّاب أهل العراق ومتقدّميهم وذوي الجاه والمتصرِّفين في كبار الأعمال ومذكورِ الولايات . وكان المتوكّل يقدّمه ويُؤثِره ويُفضّله ، وكانت بينه وبين عَريبَ حالٌ مشهورة ، كان يهواها وتَهواه ، ولهما في ذلك أخبارٌ كثيرة ....

أخباره مع المتوكّل

إبراهيم بن المدبّر قال :

مرض المتوكّل مَرضةً خِيف عليه منها ، ثم عُوفي ، وأذن للناس في الوصول إليه ، فدخلوا على طبقاتهم كافّةً ودخلتُ معهم ، فلمّا رآني استدناني حتى قُمت وراء الفتح[1] ، ونظر إليّ مُستنطقاً ، فأنشدتُه :

---

(١) أراد الفتح بن خاقان نديم المتوكل .

يـومٌ أتـانـا بالسُّرورِ فالحمـدُ لله الكبـيرِ
أخلصتُ فيـه شُكـرَه ووفيت فيـه بالنُّـذور
لمّا اعتللـتَ تصدّعـتْ شُعبُ القلوب من الصّدورِ
من بين مُلتهِـبِ الفـؤا د وبين مُكتئب الضَّمـير
يا عُـدَّتي للـدِّين والـدُّنيـا وللخَطب الخطـير
كانت جُـفوني ثَـرّةَ الآمـاق بالدّمـع الغزيـرِ
لو لم أمُت جزَعـاً لَعَمْـرُك إنّني عـينُ الصَّبُـور

[الأبيات ...]

فقال المتوكّل للفتح : إنّ إبراهيم لَينطِقُ عن نيّةٍ خالصة ووُدّ مَحْض ، وما قَضَينا حقَّه ، فتقدَّمْ بأن يُحمَلَ إليه الساعة خمسون ألف درهم ، وتقدّم إلى عبيدِ الله بن يحيى[1] بأن يُولّيَه عملاً سَرِيًّا[2] ينتفعُ به .

محمد بن داود بن الجَرّاح قال :

كان أحمد بن المُدبِّر وَلِي لعُبيدِالله بن يحيى بن خاقان عملاً فلم يَحْمَدْ أثرَه فيه ، وعمل على أن ينكبَه . وبلغ أحمدَ ذلك فهرب ، وكان عبيدالله منحرفاً عن إبراهيم ، شديد النَّفاسة عليه[3] لرأي المتوكل فيه . فأغراه به وعَرّفه خبر أخيه ، وادّعى عليه مالاً جليلاً ، وذكر أنه عند إبراهيم أخيه ، وأوغر صدره عليه حتى أُذِن له في حبسه . فقال وهو محبوس :

تسلَّي ليس طـولُ الحَبس عـاراً وفيه لنا من الله اختيـارُ
فلولا الحَبس مـا بُلـيَ اصطبـارُ ولولا الليلُ ما عُـرف النهـارُ
ومـا الأيـام إلا مُعقِبـاتٌ ولا السُّلطـان إلّا مُستعـارُ

(١) عبيد الله بن يحيى بن خاقان : وزير المتوكل .
(٢) سرياً : شريفاً .
(٣) النفاسة عليه : أراد الحسد له .

ومن قَدَرٍ حُبِستُ فلا نَقيضٌ وفيما قَدّر اللهُ الخيارُ
سَيُفرَج ما تَرَين إلى قليلٍ مقدّره وإن طال الإسارُ[1]

ولإبراهيم في حبسه أشعارٌ كثيرة حِسانٌ مختارة ، منها قولُه في قصيدة أوّلها :

أدموعُها أم لؤلؤٌ مُتناثرُ يندَى به وردٌ جَنيٌّ ناضرُ

يقول فيها :

لا تُؤْيِسَنَّك من كريمٍ نَبْوةٌ فالسيفُ ينبُو وهو عَضْبٌ باترُ
هذا الزمان تسُومني ايّامُه خَسْفاً وهأنذا عليه صابرُ
إن طال ليلي في الإسار فطالما أفنيتُ دهراً ليلُه مُتقاصر
والحبسُ يَحْجُبُني وفي أكنافه منّي على الضرّاء ليثٌ خادرُ
عجباً له كيف التقت أبوابُه والجودُ فيه والغَمامُ الباكر
هلّا تقطّع أو تصدّع أو وهى فعَذَرتهُ لكنّه بي فاخرُ[2]

عن محمد بن داود :

أنّ حبسه طال فلم يكن لأحدٍ في خلاصه منه حيلةٌ مع عَضْل[3] عبيدالله وقصده إيّاه ، حتى تَخلّصه محمد بن عبدالله بن طاهر وجَوّد المسألة في أمره[4] ، ولم يلتفت إلى عبيدالله ، وبَذل أن يَحتملَ في ماله كلَّ ما يُطالب به ، فأعفاه المتوكّل من ذلك ، ووَهبه له . وكان إبراهيم استغاث به ومدحه ...

---

(١) معقبات : يعقب بعضها بعضاً .
(٢) الضرّاء : الشدة . الخادر : الذي يلازم خدره أي عرينه .
(٣) عضل عليه : ضيّق ، والعضل : التضييق .
(٤) جوّد المسألة في أمره : أحسن الشفاعة فيه .

أخباره مع عَريب

جعفر بن قُدامة قال :

كتبت عَريبُ من سُرّ مَن رأى الى إبراهيم بن المدبّر كتاباً تتشوّقه فيه ، وتُخبره باستيحاشها له واهتمامها بأمره ، وأنّها قد سألت الخليفة في أمره ، فوعدها بما تُحبّ . فأجابها عن كتابها وكتب في آخر الكتاب :

لَعَمركَ ما صوتٌ بديعٌ لِمَعْبَدٍ بأحسنَ عندي من كتاب عَريبِ
تأمّلتُ في أثنائه خطَّ كاتبٍ ورِقّةَ مُشتاقٍ ولفظَ خطيبِ
وراجعني من وصلها ما استرقّني وزهّدني في وَصل كلّ حَبيب
فصِرتُ لها عبداً مُقرّاً بِملِكها ومستمسكاً من وُدّها بنصيبِ

جعفر قال :

زارت عَريبُ إبراهيم بن المدبّر وهو في داره على الشاطىء في المَطَيرة[1] ، واقترحت عليه حضور أبي العُبَيس[2] فكتب إليه إبراهيم :

قل لأبي حمدونَ ذاك الأريبِ وذاك الظّريف وذاك الحَسيبِ
كتابي إليك بشكوى عريبٍ لِوجدٍ شديدٍ وشوقٍ عجيبِ
وشوقي إليك كشوق الغريب إلى أرضه بعد طول المَغيب
ويَومي إن أنت تَمّمتَه بقُربك ذو كلّ حُسنٍ وطِيب
حباني الزمان كما أشتهي بقُرب الحبيب وبُعد الرقيب
فما زلت أشرب من كفّه وأَسقيه سقيَ اللّطيف الأديبِ
ويشكو إليّ وأشكو إليه بقولٍ عفيفٍ وقول مُريب
إلى أن بدا لي وجهُ الصباحِ كوجهك ذاك العجيب الغريب

---

(١) المطيرة :قرية من متنزهات بغداد وسامرّا .

(٢) أبو العبيس بن حمدون : مغن وكان من أصدقاء ابن المدبر المقربين .

فلا تُخْلِنا يا نظــــام السرو ر منك فأنت شفــــاءُ الكئيــب
وغَــنِّ لنــا هَزَجــاً مُمسِــكاً تخِفّ له حركاتُ اللّبيـــبِ
فإنّــك قد حُــزت حُسن الغِنــاء وقد فُزت منه بأوفى نصيــب
وكُن بأبي أنت رَجْعَ الجــوابِ فِداؤُك أنفُسُنا مِن مُجيــبِ

الفضل بن العبّاس بن المأمون قال :

زارتني عريبُ يوماً ومعها عِدّةٌ من جواريها ، فوافَتْنا ونحن على شَرابنا ، فتحدَّثتْ معنا ساعةً ، وسألتُها أن تُقيم عندنا ، فأبتْ وقالت : قد وعدتُ جماعةً من أهل الأدب والظَّرف أن أصير إليهم ، وهي في جزيرة المِربّد ، منهم إبراهيم بن المدبّر ،، وسعيد بن حُميد ، ويحيى بن عيسى بن مَنارة . فحلفتُ عليها ،فأقامت ، ودعت بدواةٍ وقِرطاس وكتبت إليهم سطراً واحداً : بسم الله الرحمن الرحيم ، أردتُ ، ولولا ، ولعلّي .

ووجّهت الرُقعة إليهم ، فلما وصلت قرؤوها ، وعَيُوا بجوابها . فأخذها إبراهيم بن المدبّر فكتب تحت « أردت » : « ليت » ، وتحت « لولا » : « ماذا » وتحت « لعلي » : « أرجو » ؛ ووجّه بالرقعة إليها ، فلمّا قرأتها طَرِبتْ ونعَرَت[1] ، وقالت : أنا أتركهؤلاء وأقعُد عندكم ! تركني الله إذاً من يديه . وقامت فمضت وقالت : لكم فيمن أتخلّفه عندكم من جواريَّ كفاية .

عبدالله بن المعتزّ قال :

قرأت في مكاتبات لعريب فصلاً من جواب أجابت به إبراهيم بن المدبِّر مكاتبةً بديعة بعيادة : « قد استبطأتُ عيادتَك ، قُدّمتُ قبلَك ، وعَذرتُك ، فما ذكرتُ عذراً ضعيفاً لا ينبغي أن يُفرح به . فأستديم الله نِعمَه عندك ... » .

---

(١) نعرت : صوتت بخيشومها .

جعفر بن قدامة قال :

اتّصلت لعريبَ أشغالٌ دائمة ... فلم يرها إبراهيم بن المدبّر مدّةً ، فكتب إليها :

إلى الله أشكو وحشتي وتَفَجُّعي ... وبُعدَ المَدى بيني وبين عَريبِ
مضى دُونها شهران لم أحلَ فيهما ... بعيشٍ ولا من قُربها بنَصيب
فكنت غريباً بين أهلي وجِيرتي ... ولستُ إذا أبصرتُها بغريبِ
وإنّ حَبيباً لم يَر الناسُ مِثله ... حَقيقٌ بأن يُفدَى بكلّ حبيبِ

ميمون بن هارون قال :

اجتمعتُ مع عريبَ في مجلس أُنس بسُرَّ منَ رأى عند أبي عيسى بن المتوكّل ــ وإبراهيم بن المدبّر يومئذٍ ببَغدادَ ــ فمرّ لنا أحسنُ يوم ، وذكرتْه عريبُ فتشوّقتْه وأحسنتْ الثناء عليه والذّكر له ، فكتبتُ إليه بذلك من غدٍ ، وشَرَحْتُه له ، فأجابني عن كتابي وكتب في آخره :

أتعلمُ يا ميمونُ ماذا تُهيجُه ... بذكركَ أحبابي وحِفْظِهم العَهدا
ووصفِ عريبٍ في كريم وفائها ... وإجمالِها ذكري وإخلاصِها الوُدّا
عليها سلامي إن تكن دارُها نَأتْ ... فقد قَرّب اللهُ الذي بيننا جِدّاً
سقى الله داراً بعدَنا جَمعتكُمُ ... وسَكّن ربُّ العرش ساكنَها الخُلدا
وخصّ أبا عيسى الأميرَ بنعمةٍ ... وأسعد فيما أرتجيه له الجَدّا
فما ثَمَّ من مجدٍ وطَولٍ وسُودَدٍ ... ورأيٍ أصيل يَصدَعُ الحَجَرَ الصَّلْدا

عبدالله بن حَمدون قال :

اجتمعت أنا وإبراهيم بن المدبّر وابن منارة والقاسم وابن زُرزور في

بستان بالَمطِيرة[1] وفي يوم غَيم يُهَريق[2] رذاذَه ويقطُر أحسن قَطْر ، ونحن في أطيب عيش وأحسن يوم ، فلم نشعر إلّا بعَريب قد أقبلت من بعيد ، فوثب إبراهيم بن المدبّر من بيننا ، فخرج حافياً حتى تلقّاها وأخذ بركابها حتى نزلت ، وقَبّل الأرضَ بين يديها . وكانت قد هجرته مُدّة لشيءٍ أنكرتْه عليه ، فجلستْ وأقبلت عليه مبتسمةً وقالت : إنما جئت إلى مَن ها هنا لا إليك . فاعتذر وشَيَّعْنا[3] قولَه ، وشَفعنا له . فرضيتْ وأقامت عندنا يومئذٍ وباتت . واصطبحنا[4] من غدٍ ، وأقامت عندنا ، فقال إبراهيم :

أبي مَن حَقَّق الظَّنَّ به … فأتانا زائراً مُبتديا
كان كالغيث تَراخى مُدّةً … وأتى بعدَ قُنوطٍ مُرْويا
طاب يومان لنا في قُربه … بعد شهرين لِهجرٍ مَضَيا
فأقرّ الله عَيني وشفَى … سَقَماً كان لِجسمي مُبْلِيا

عليُّ بن العبّاس قال : حدّثني أبي قال :

كنت عند إبراهيم بن المُدبّر ، فزارتْه بِدعةُ وتُحفةُ[5] ، وأخرجتا إليه رقعةً من عريبَ ، فقرأناها فإذا فيها : « بنفسي أنت وسَمعي وبصري ، وقلّ ذاك لك . أُصبح يومُنا هذا طيّباً ، طَيّب الله عيشَك ، قد احتجبتْ سماؤه ، ورقّ هواؤه ، وتكامل صَفاؤه ، فكأنه أنت في رقة شَمائلك ، وطيب مَحضرك ومَخبرك ، لا فَقدتُ ذلك أبداً منك ، ولم يصادفْ حُسنُه وطِيبُه منّي نشاطاً ولا طرباً لأمورٍ صَدَّتْني عن ذلك أكرهُ تنغيصَ ما أشتهيه لك من السّرور

(١) المطيرة ، بالفتح ثم الكسر (وقد ضبطها محقق المطبوعة بالضم وهو خطأ) : قرية من متنزهات سامرّا بنيت في آخر خلافة المأمون .

(٢) يهريق : يريق .

(٣) شيعنا : قوينا وأيدنا .

(٤) اصطبح : شرب شراب الصباح .

(٥) بدعة وتحفة : جاريتان لعريب .

بنشرها. وقد بعثتُ إليك بِبدعةَ وتُحفة ليؤنساك وتُسرَّ بهما. سَرّك اللهُ وسرّني بك».

فكتب إليها يقول:

كيف السُّرورُ وأنتِ نازحةٌ ... عنّي وكيف يَسُوغَ لي الطربُ
إن غِبتِ غاب العيشُ وانقطعتْ ... أسبابُه وألحّت الكُرَبُ

وأنفذ الجواب إليها، فلم يلبث أن جاءت، فبادر إليها وتلقّاها حافياً حتى جاء بها على حمارٍ مِصريٍّ كان تحتها إلى صَدر مجلسه، يطأ الحمارُ على بِساطه وما عليه، حتى أخذ برِكابها[1]، وأنزلها في صَدر مجلسه، وجلس بين يديها، ثم قال:

ألا رُبَّ يومٍ قَصّر الله طُولَه ... بقُرب عَريبٍ حَبّذا هو من قُربِ
بها تَحسُن الدنيا وينعَمُ عيشُها ... وتجتمع السَّراءُ للعَين والقلب

وحدّثني عن أبيه قال:

كنت عند إبراهيم بن المدّبر فزارته بِدعةُ وتُحفة وأقامتا عنده، فأنشدَنا يومئذٍ:

أيّها الزائرانِ حيّاكما اللهُ ومن أنتما له بالسَّلامِ
ما رأينا في الدهرِ بدراً وشمساً ... طَرَقا ثمّ رَجَّعا بالكلامِ
كيف خَلَّفتُما عَريباً سقاها اللهُ ربُّ العباد صوبَ الغَمام
هي كالشمس والحسانُ نجومٌ ... ليس ضوءُ النهار مثل الظَّلامِ
جمعتْ كلَّ ما تفرّق في النـاس وصارت فريدةً في الأنامِ

(١) الركاب: حديدة معلقة في السرج يستعان بها عل الركوب.

سائر أخباره

● أبو الفيّاض سوّار بن أبي شُراعة القيسيّ البصريّ قال :

كان إبراهيم بن المدبّر يتولّى البصرة ، وكان مُحسناً إلى أهل البلد إحساناً يَعُمُّهم ، ويشتمل على جماعتهم نفعُه ، ويخصُّنا من ذلك بأوفر حظّ وأجزل نصيب . فلمّا صُرف عن البصرة شيّعه أهلُها ، وتفجّعوا لِفراقه ، وساءهم صَرفُه ، فجعل يردّ الناسَ من تشييعهم على قدر مراتبهم في الأُنس به ، حتى لم يبق معه إلّا أبي ، فقال له : يا أبا شُراعة ، إنّ المُشَيِّعَ مودِّعٌ لا مَحالةَ ، وقد بلغتَ أقصى الغايات ، فبحقّي عليك إلّا انصرفتَ . ثم قال : يا غُلام ، احمل إلى أبي شُراعةَ ما أمرتك له به .فأَحضَر ثياباً وطِيباً ومالاً ، فودّعه أبي ثم قال :

يا أبا إسحاق سرْ في دَعَـــــةٍ　　　وامض مصحوباً فما منكَ خَلَفْ
ليتَ شعري أيُّ أرضٍ أجدبت　　　فأُغِيثت بك من جَهد العَجَفْ
نزل الرُّحْمُ من الله بهـــــم　　　وحُرمناك لذنبٍ قد سَلَــف
إنّمـــا أنت ربيـعٌ باكـــرٌ　　　حيثما صَرّفه اللهُ انصرفْ (١)

● عن محمد بن داود قال :

كان إبراهيم بن المدبِّر صديق أبي الصقر إسماعيل بن بُلبُل ، فلم يُرضِه فِعلُه لمّا نُـكب ولا نيابتهُ عنه ، فقال فيه :

لا تُطِلْ عَذْلي عَنـــاءا　　　إنّ في العَذل بـــلاءا
لست أبكي بطـنَ مَـرٍّ　　　فكُدَيّـــاً فكَـــدَاءا
إنَـما أبكـــي خليـــلاً　　　خان في الوُدّ الصَّفاءا
يا أبا الصَّقر سقاك اللــــــــه تَهتـــانــاً رواءا

---

(١) العجف : الهزال الشديد . الرحم : الرحمة .

وأدام اللهُ نُعمـــــــــا ـ ك ومَـــلّاك البقــاءا

لِـمْ تجاهلـــــتَ ودادي وتناسيـــت الإخـــاءا

كنت بَــرّاً فعــلى رأســـي تعلَمــــتَ الجَفــاءا

لا تَـميلَـنَّ مــع الرّيـــــح إذا هبّــت رُخاءا

رُبّمـــا هَبَّــتْ عَـقيمـــاً تترك الدنيا هَـبــاءا [1]

* * *

(١) بطن مر وكديّ وكداء : مواضع بمكة . التهتان : الغزير المتتابع . رواء : غزيراً مروياً . ملاّك : متّعك . عقيماً : لا خير فيها .

٤

ابن مُناذر

[الأغاني الجزء ١٨ ص ١٦٩ وما بعدها]

الشاعر

هو محمّد بن مُناذر مَولى بني صُبَير بن يَربوع ، ويُكنى أبا جعفر ، وقيل إنه كان يُكنَى أبا عبدالله ...

وقال الجاحظ : كان محمد بن مُناذر مولى سليمان القَهرمان ، وكان سليمان مولى عُبيدِالله بن أبي بَكْرة مولى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بَكرة عبداً لثقيف ، ثم ادّعى عبيدالله بن أبي بكرة أنه ثَقَفيّ ، وادّعى سليمان القَهرمان انه تميميٌّ ، وادّعى ابن مناذر أنه صَلِيبةٌ[1] من بني صُبيرِ بن يربوع ، فابن مُناذر مَولى مولى مولىً ، وهو دَعيٌّ مولى دعِيّ ، وهذا ما لا يجتمع في غيره قطّ ممّن عرفناه وبَلغَنا خبرُه .

ومحمد بن مُناذر شاعرٌ فصيح مُقدَّم في العلم باللغة وإمامٌ فيها ، وقد أخذ عنه أكابِرُ علمائها ، وكان في أول أمره يتألّـهُ ، ثم عدَل عن ذلك فهجا

(١) صليبة من القوم : خالص النسب فيهم .

الناسَ وتَهتَّك وخَلع وقذَف أعراضَ أهل البصرة حتى نُفي عنها إلى الحجاز فمات هناك .

محمد بن يزيد النحويّ قال :

كان ابن مُناذر مولى صُبيرِ بن يربوع ، وكان إماماً في علم اللغة وكلام العرب ، وكان في أول أمره ناسكاً مُلازماً للمسجد ، كثيرَ النَّوافل ، جميل الأمر ، إلى أن فُتِن بعبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفيّ ، فتَهتّك بعد ستره ، وفتَك بعد نُسكه ، ثم ترامى به الأمرُ بعد موت عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفيّ إلى أن شَتم الأعراض وأظهر البذَاء وقذَف المُحصَنات ، ووَجَبت عليه حُدودٌ فهرب إلى مكّة وبقي بها حتى مات .

وكان يجالس سفيان بن عُيَينة ، فيسأُله سفيانُ عن معاني حديث النبيّ ﷺ فيُخبرُه بها ، ويقول له : كذا وكذا مأخوذٌ من كذا ، فيقول سُفيانُ : كلامُ العرب بعضُه يأخذ برِقاب بعضٍ . قال : وأدرك المهديَّ ومدَحه ، ومات في أيام المأمون .

العبّاسُ بن ميمون طائع قال :

سمعت الأصمعيَّ يقول : حضرْنا مأدبة ومعنا أبو محرِز خلَفٌ الأحمر ، وحضرَها ابنُ مناذر ، فقال لخلف الأحمر : يا أبا مُحرز ، إن يكن النابغةُ وامرؤُ القيس وزهيرٌ قد ماتوا فهذه أشعارُهم مُخلَّدةٌ ، فقِسْ شعري إلى شعرهم ، واحكُم فيها بالحقّ . فغضب خلفٌ ، ثم أخذ صَحفةً مملوءةً مَرَقاً فرمى بها عليه فَمَلأه ، فقام ابنُ مناذر مُغضَباً ، وأظنّه هجاه بعد ذلك .

خلّادُ الأرقط قال :

لقِيني ابنُ مناذر بمكة فأنشدني قصيدتَه :

كلُّ حيٍّ لاقِي الحِمامِ فمُودي

ثم قال لي : أَقرِئْ أبا عُبيدة السلام وقُل له : يقول لك ابنُ مناذر : اتّقِ

اللهَ واحكمْ بين شعري وشعر عَـدِيّ بن زيد ، ولا تقُـل ذلك جاهليٌّ وهذا إسلاميّ ، وذاك قديمٌ وهذا مُـحدَث فتحكمَ بين العصرين ، ولكن احكُـم بين الشِعرين ودَع العصبيّة . قال : وكان ابن مناذر ينحو نحوَ عديّ بن زيد في شعره ويميل إليه ويُقدّمه .

بِشر بن دِحية الزِيادي أبو معاوية قال :

سمعت ابن مناذر يقول : إنّ الشعر لَيسهلُ عليّ حتى لو شئت ألّا أتكلّم إلّا بشعرٍ لفعلتُ .

أخباره مع عبد المجيد بن عبد الوهاب

أبو عثمان المازنيّ قال :

كان ابن مناذر من أهل عَدن ، وإنما صار إلى البصرة في طلب الأدب لتوافر العلماء فيها ، فأقام فيها مدّةً ، ثم شُغل بعبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفيّ ، فتطاول أمرُه إلى أن خرج عنها ، وكان مقيماً بمكةَ ، فلمّـا مات عبد المجيد نَسَك ؛ وقومٌ يقولون إنه كان دَهريّـاً[1] ...

وكان عبد المجيد هذا ـ فيما يقال ـ من أحسن الناس وجهاً وأدباً ولباساً وأكملهم في كلّ حالٍ ، وكان على غاية من المحبّـة لابن مناذر والمساعدة له والشغَف به . وكان يبلغ خبرُه أباه ـ على جلالته وسِنّه ومَوضعه من العلم ـ فلا يُنكِـر ذلك ، لأنه لم تكن تبلغُـه عنه رِيبةٌ . وكان ابن مناذر حينئذٍ حَميد الأمر حسنَ المروءة عفيفاً .

قُدامة بن نوح قال : قيل لعبد الوهاب بن عبد المجيد الثَقفيّ : إنّ ابن مناذر قد أفسد ابنَك ، وذكَره في شعره ، وشبّب به . فقال عبد الوهاب : أوَلا يرضى ابني أن يَـصحبَـه مثلُ ابن مُناذر ويذكره في شعره !

---

(١) الدهريون : قوم من أهل الجاهلية كانوا يقولون : ما يهلكنا الا الدهر .

عُمر بن شَبّةَ قال : حدّثني أبي قال :

خرج ابنُ مناذر يوماً من صلاة التراويح وهو في المسجد بالبصرة ، وخرج عبد المجيد بن عبد الوهاب خلفَه ، فلم يزل يُحدّثه إلى الصُّبح ، وهما قائمان ، إذا انصرف عبد المجيد شيّعه ابنُ مناذر إلى منزله ، فإذا بلغه وانصرف ابنُ مناذر شيّعه عبد المجيد ، لا يَطيب أحدٌ نَفْساً بفِراق صاحبه ، حتى أصبحا ...

وفي عبد المجيد يقول ابنُ مناذر يمدحه ، وهو من مختار ما قاله فيه ... ، من قصيدة أولها :

شَيَّب ريبُ الزَّمان رأسي ... لَهفي على ريب ذا الزَّمانِ
يَقدَحُ في الصُّمّ مِن شَرَورى ... ويحدُر الصّمَّ من أبانِ [1]

يقول فيها يمدح عبد المجيد :

منّي إلى الماجدِ المُرَجَّى ... عبد المجيد الفتى الهِجانِ
خيرِ ثقيفٍ أباً ونفساً ... إذا التقت حَلْقتا البِطانِ
نفسي فداءٌ له وأهلي ... وكلُّ ما تملِكُ اليدان
كأنّ شَمسَ الضُّحى وبدرَ الدُّجى عليه مُعَلَّقان
نِيطا معاً فوق حاجبَيه ... والبدرُ والشمس يَضحكان
مُشمِّرٌ هَمُّه المعالي ... ليس بِرَثٌ ولا بِواني
بَنى له عِزّةً ومجداً ... في أوّل الدهر بانِيان
بانٍ تلقّاه من ثقيفٍ ... ومن ذُرا الأزد خيرُ باني
فاسألْه ممّا حَوَت يداه ... يهتزّ كالصارم اليماني [2]

(١) أبان وشرورى : جبلان .

(٢) الهجان : الكريم الاصل . اذا التقت حلقتا البطان : أي اذا اشتد الامر وهو مثل ، والبطان : حزام الرّحل .

أبو تَوبة صالح بن محمد قال :

مرض عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفيَ مرضاً شديداً بالبصرة ، وكان ابنُ مناذر ملازماً له يُـمرّضه ويخدمه ويتولّى أمره بنفسه ، لا يَكِـله إلى أحد . فحدّثني بعضُ أهلهم قال : حضرتُ يوماً عنده ، وقد أُسخِن له ماءٌ حارٌ ليشربَـه ، واشتد به الأمر فجعل يقول : آهِ . بصوتٍ ضعيف . فغمس ابنُ مناذر يدَه في الماء الحارّ وجعل يتأوّه مع عبد المجيد ، ويدُه تحترق حتى كادت يدُه تسقُط ، فجذبناها وأخرجناها من الماء ، وقلنا له : أمجنونٌ أنت ! أيُّ شيء هذا ! أينتفع به ذاك ! فقال : أساعدُه وهذا جُهدٌ من مُقِـلّ . ثم استقـلّ من علّته تلك وعُوفي مدّةً طويلة ، ثم تردّى من سطح فمات ، فجزع عليه جزعاً شديداً حتى كاد يفضُل أهلَه وإخوتَـه في البكاء والعَويل ، وظهر منه من الجزَع ما عجب الناسُ له ، ورثاه بعد ذلك بقصيدته المشهورة ، فرواها أهلُ البصرة ، ونِـيح بها على عبد المجيد ، وكان الناس يُعجَبون بها ويستحسنونها .

قال الجَـمّـاز :

تزوّج عبد المجيد امرأةً من أهله ، فأَولم عليها شهراً يجتمع عنده في كل يوم وجوهُ أهل البصرة وأدباؤها وشعراؤها . فصعِـد ذاتَ يوم إلى السطح فرأى طُنباً[1] من أطناب السّـتارة قد انحلّ ، فأكبّ عليه ليشدَّه ، فتردّى على رأسه ومات من سَـقطته . فما رأيتِ مُصيبةً قطّ كانت أعظمَ منها ولا أنكأَ للقلوب .

محمد بن عمر الخَـرّاز قال :

قال لي ابنُ مناذر : ويحَـك ! لستُ أرى نساء ثَـقيفَ يَـنُحن على عبد المجيد نياحةً على استواء . قلت : فما تحبّ ؟ قال : تخرجُ معي حتى أُطارحَك . فطارحني القصيدة التي يقول فيها :

---

(١) الطنب : حبل يشد به الخباء والستارة .

إنّ عبد المجيد يومَ تولّـــــــى هدَّ رُكناً ما كان بالمَهْـــدودِ
هدّ عبدُ المجيد رُكـني وقد كنـــت برُكنٍ أبوءُ منه شديـــــدِ

قال : فما زلت حتى حفظتُها ووعيتها ، ووضعْنا فيها لحناً . فلمّا كان في الليلة التي يُناح بها على عبد المجيد فيها صلّينا العِشاء الآخرة في المسجد الجامع ، ثم خرجنا إلى دارهم ، وقد صعِد النساءُ على السَّطح ينُحن عليه ، فسكَتْن سَكتةً لهنّ ، فاندفعنا أنا وهو ننوح عليه ، فلمّا سَمِعْننا أقبلن يلطُمن ويصحن حتى كِدن يَنقلبن من السطح إلى أسفل من شدّة تشرّفهنّ علينا وإعجابهنّ بما سمعنه منّا ، وأصبح أهلُ المسجد ليس لهم حديثٌ غيرَنا ، وشاع الخبرُ بالبصرة وتحدّث به الناسُ حتى نُقل من مجلس إلى مجلس .

محمد بن النعمان بن جَبَلة الباهليّ قال :

لمّا قال ابن مناذر :

لَأُقيمنّ مأتماً كنجوم الليـــل زُهْراً يلطُمن حُرَّ الخُدودِ
مُوجَعاتٍ يبكين للكبِد الحَـــرَّى عليه وللفؤاد العَميـــد

قالت أم عبد المجيد : والله لأُبِرَّنَّ قسَمَه . فأقامت مع أخوات عبد المجيد وجَواريه مأتماً عليه ، وقامت تصيح عليه : واي ، وَيْـه ، واي ، وَيه .
فيُقال إنها أول من فعل ذلك وقاله في الإسلام .

عن محمد بن عامر الحنفي قال :

لمّا مات عبد المجيد بن عبد الوهاب خرج ابنُ مناذر إلى مكّة ، وترك النُّسْك وعاد للمجُون والخَلْع ، وقال في هذا المعنى شعراً كثيراً ، حتى كان إذا مدح أو فخر لم يجعل افتتاح شعره ومَباديَه إلا المجون ، وحتى قال في مدحه للرشيد :

هل عندكم رُخصةٌ عن الحسن البصْريّ في العشق وابن سِيرينـــا
إنّ سَفاهاً بذي الجَلالـــة والشَّيْبـــة ألّا يزال مَفتونـــاً

سائر أخباره

● **قال محمد بن يزيد**

لمّا عدل محمد بن مناذر عما كان عليه من النُّسك والتألُّه وعظَتْه المعتزلة، فلم يتَّعظ، وأوعدتْه بالمكروه فلم يزدجِر، ومنعوه دخول المسجد، فنابذهم وطعن عليهم وهجاهم، وكان يأخذ المِداد بالليل فيطرحُه في مَطاهرهم، فإذا تَوضَّؤوا به سَوّد وجوهَهم وثيابهم. وقال في توعّد المعتزلة إيّاه:

أَبلغْ لديك بني تميم مَأْلُكاً ... عنّي وعَرِّجْ في بني يربوعِ
أنّي أخٌ لكمُ بدار مَضيعةٍ ... بُومٌ وغِربانٌ عليه وُقوع
يا للقبائلِ من تميم ما لَكم ... رَوْبى ولحمُ أخيكم بمَضيع
هُبّوا له فلقد أراد بنصركم ... يأوي إلى جبلٍ أشمَّ مَنيعِ
وإذا تحزّبت القبائلُ كنتمُ ... ثقتي لكلّ مُلمّةٍ وفظيع
إن أنتمُ لم تثأروا لأخيكم ... حتى يُباءَ بوتره المتبوع
فخذُوا المغازل بالأكفّ وأيقنوا ... ما عِشتمُ بمَذَلّةٍ وخُضوع
إن كنتمُ حُدُباً على أحسابكم ... سُمُعاً فقد أسمعتُ كلَّ سَميع
أين الصُّبَيريّون لم أر مثلَهم ... في النائبات وأين رهطُ وكيع[1]

قال: ثم استحيا من قوله: أين الصُّبيريّون، لقلة عددهم فقال: أين الرياحيّون.

● **مسعود بن بشر قال:**

قال لي ابن مناذر: ولع بي قومٌ من المعتزلة ففَرِقتُ منهم، قال: وكان مَولى صُبَيَر بن يربوع، فقلت: بنو صُبير نَفْسان ونَصف، فمن أدعو منهم؟

(١) المألك: الرسالة. روى ج رائب: الفاتر النفس، الخاثر البدن. يباء بوتره: يؤخذ بثأره.

فقلت : ليس إلا إخوتُهم بنو رياح . فقلتِ أبياتاً حرّضتُهم فيها وحَضضتُ بني رياح فقلت :

أين الرياحيّون لم أرَ مثلَهم   في النائبات وأين رهطُ وكيع

قال : فجاء خَمسون شيخاً من بني رياح فَطردوهم عني .

● عن عَطاء المِلْط قال :

كان ابن مناذر يَؤُمّ الناس في المسجد الذي في قبيلته ، فلمّا أظهر ما أظهره من الخلاعة والمجون كرهوا أن يُصلّي بهم وأن يأتمّوا به ، فقالوا شعراً وذكروا ذلك فيه وهجَوه ، وألقوا الرُّقعة في المِحراب ؛ فلمّا قضى صلاتَه قرأها ، ثم قلبها وكتب فيها يقول :

نُبِّئتُ قافيةً قيلت تَناشَدها   قومٌ سأتْرك في أعراضهم نَدَبا

الخ ...

ثم رمى بها إليهم ولم يَعُد الى الصلاة بهم .

● عليّ بن المبارك الأحمر قال :

لقي أبوالعتاهية ابنَ مناذر بمكة ، فجعل يُمازحه ويُضاحكه ، ثم دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا ابنُ مناذر شاعرُ البصرة يقول قصيدة في سنة ، وأنا أقول في سنة مائتي قصيدة . فقال الرشيد : أَدخِلْه إليّ . فأدخلَه إليه وقَدّر أنه يَضَعُه عنده ، فدخل فسلّم ودعا ، فقال : ما هذا الذي يحكيه عنك أبو العتاهية؟ فقال ابن مناذر : وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال : زعم أنك تقول قصيدةً في سنة وأنه يقول كذا وكذا قصيدةً في السنة . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو كنت أقول كما يقول :

ألا يا عُتبةَ السّاعة   أموت الساعةَ الساعهْ

لقلت منه كثيراً ، ولكنّي الذي أقول :

إنّ عبد المجيد يومَ تولّـــى · هَدَّ ركناً ما كان بالمهـدودِ
ما دَرى نعشُه ولا حامِلُـــوه ما على النَّعْش من عفافٍ وجود

فقـال لـه الرشيـد : هاتِـها فأنشِدْنيها . فأنشده . فقال الرشيد : ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلّا في خليفة أو وليّ عهد ، ما لها عيبٌ إلّا أنك قلتَها في سُوقةٍ . وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكاد أبو العتاهية يموت غمّاً وأسفاً .

● عن دَماذ قال :

دار بين الخليل بن أحمد وبين ابن مُناذر كلامٌ ، فقال له الخليل ، إنّما أنتم معشرَ الشعراء تَبَعٌ لي ، وأنا سُكّان السَّفينة ، إن قَرّظْتُكم ورضِيتُ قولكَم نَفَقْتُم وإلّا كَسَدتُم . فقال ابن مناذر : والله لَأَقُولنَّ في الخليفة قصيدةً أمتدحُه بها ولا أحتاجُ إليك فيها عنده ولا إلى غيرك . فقال في الرَّشيد قصيدته التي أوّلها :

ما هَيَّج الشوقَ من مُطوَّقـــةٍ أوفت على بانـــةٍ تُغَنّينا

يقول فيها :

ولو سألْنا بحُسنِ وجهك يـــا هارونُ صَوبَ الغَمام أُسقِينا

قال : وأراد أن يفِد بها إلى الرشيد ، فلم يلبثْ أن قدِم الرشيدُ البصرةَ حاجّاً ليأخُذَ على طريق النِّباج ـ وكان الطريقَ قديماً ـ فدخلها وعَديله إبراهيم الحَرّاني ، فتحمّل عليه ابن مناذر بعثمان بن الحكَم الثقفيّ وأبي بكر السُّلَميّ حتى أوصلاه إلى الرشيد ، فأنشده إيّاها ، فلمّا بلغ آخرَها كان فيها بيتٌ يفتخر فيه وهو :

قومي تميمٌ عند السِّماك لهـــم مجدٌ وعِزٌّ فما يُنالونـــا

فلمّا أنشده هذا البيت تعصَّب عليه قومٌ من الجُلُساء فقال لـه بعضُهـم : يا جاهلُ ، أتفخر في قصيدة مدحتَ بها أميرَ المؤمنين ! وقال آخر : هذه حماقةٌ بَصْريّة . فكَفَّهم عنه الرشيد ووهب له عشرين ألف درهم .

● ابن مناذر قال :

حجّ الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة وحجّ معه الفضلُ بن الربيع ، وكنت مُضَيَّقاً مُملِقاً ، فهيّأت فيه قولاً أجدتُ تنميقه وتنوّقتُ فيه ، فدخلت إليه في يوم التَروية[1] ، وإذا هو يسأل عني ويطلُبني ، فبدَرَني الفضلُ بن الربيع قبل أن أتكلّم فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا شاعرُ البرامكة ومادحُهم . وقد كان البِشرُ ظهر لي في وجهه لمّا دخلتُ ، فتنكّر وعبَس في وجهي ، فقال له الفضل : مُرْه يا أمير المؤمنين أن يُنشِدَك قولَه فيهم :

أتانا بنو الأملاك من آلِ برمكٍ

فقال لي : أَنشِد . فأبيتُ ، فتوعّدني وأكرهني ، فأنشدتُه :

أتانا بنو الأملاك من آلِ بَرْمـكٍ ... فيا طِيبَ أخبارٍ ويا حُسنَ مَنظرِ
إذا وَرَدُوا بطحاءَ مكّةَ أشرقـت ... بيحيى وبالفَضل بن يحيى وجَعفر
فتُظلِمُ بغدادٌ ويجلُو لنا الدُّجـى ... بمكّةَ ما حَجُّوا ثلاثةُ أَقمُـر
فما صَلَحت إلّا لِجودٍ أَكُفُّهـم ... وأَرجُلُهم إلّا لأعواد مِنْبَـر
إذا راض يحيى الأمرَ ذلّتْ صِعابُه ... وحَسْبُك من راعٍ له ومُدَبِّرِ
ترى الناسَ إجلالاً له وكأنّهـم ... غَرانيقُ ماءٍ تحت بازٍ مُصَرصِرِ[2]

ثم أتبعت ذلك بأن قلت : كانوا أولياءَك يا أمير المؤمنين أيامَ مدحتُهم

---

(١) يوم التروية : يوم قبل يوم عرفة ، وهو الثامن من ذي الحجة ، سمى به لأن الحَجاج يتروون فيه من الماء وينهضون الى منى ولا ماء بها فيتزودون ريّهم من الماء أي يسقون ويستقون .

(٢) الغرانيق ج غرنوق وغرنيق : الكركي . المصرصر : المصوت .

وفي طاعتك ، لم يَلحقْهم سُخطُك ولم تَحلُلْ بهم نِقمتُك ، ولم أكن في ذلك مُبتدعاً ولا خَلا أحدٌ من نُظَرائي من مَدحهم ، وكانوا قوماً قد أظلّني فضلُهم وأغناني رِفدُهم ، فأثنيتُ بما أَوْلَوا . فقال : يا غُلامُ ، الطُمْ وجهَه . فلُطمت والله حتى سَدِرت[١] ، وأظلمَ ما كان بيني وبين أهل المجلس . ثم قال : اسحَبُوه على وجهه . ثم قال : والله لَأَحرِمَنَّك ولا تركتُ أحداً يُعطيك شيئاً في هذا العام . فسُحبت حتى خرجتُ ، وانصرفت وأنا أسوأُ الناس حالاً في نفسي وحالي وما جرى عليّ ، ولا والله ما عندي ما يُقيمُ يومئذٍ قُوتَ عِيالي لِعيدهم ، فإذا بشابٍّ قد وقف عليّ ، ثم قال : أَعززْ عليّ والله يا كبيرَنا بما جرى عليك . ودفَع إليّ صُرَّةً وقال : تَبلَّغْ بما في هذه . فظننتُها دراهمَ فإذا هي مائةُ دينار .. فقلت له : من أنت ، جعلني اللهُ فِداءك ؟ قال : أنا أخوك أبو نُواس ، فاستعِنْ بهذه الدنانير واعذِرْني . فقبلتُها وقلت : وصَلَكَ اللهُ يا أخي وأَحْسَنَ جزاءك .

● أبو حاتم قال :

كان الرشيد قد وصل ابن مناذر مرّاتٍ صِلاتٍ سَنيّةً ، فلّما مات الرشيد رثاه ابن مناذر فقال :

مَن كان يبكي للعُـــــلا ... مَلِكاً وللهِمـــم الشَّريفه
فَلْيَبكِ هــــارونَ الخليــــفةَ للخِليفــة والخليفـه

● عن ابن عائشة قال :

وَلي خالدَ بن طَليق القضاء بالبصرة ، وعيسى بن سليمان الإمارة بها ، فقال محمد بن مناذر يهجوهما بقوله :

الحمدُ لله على مــــا أرى ... خالدٌ القاضي وعيــسى أميرْ
لكن عيسى نَوْكُه ســـاعةً ... ونَوْكُ هذا مَنْجَنُونٌ يَدُور[٢]

(١) سدر : أصابه ما يشبه الدوار.

(٢) النوك : الحمق . المنجنون : الدولاب يتخذ للساقية .

وقال في شِيرويه الزِيادِيّ ـ وشيرويه لقب واسمه أحمد ـ وسأله حاجةً فأبى أن يَقضيها إلّا على أن يمدحَه :

يا سميَّ النبيِّ بالعربيّـــــــهْ وسميَّ اللُّيوث بالفارسيّـــهْ
إن غضِبْنا فأنت عبــدُ ثَقيفٍ أو رضِينا فأنت عبدُ أُميّـــه

فغضب شيرويه وجعل يشتمه ، وشاع الشعر بالبصرة ...

● عن أبي معبد قال :

مرّ بنا أبو حية النُميريّ ونحن عند ابن مناذر ، فقال لنا : علامَ اجتمعتم ؟ فقلنا : هذا شاعرُ المِصر . فقال له : أنشِدني . فأنشده ابن مناذر ، فلمّا فَرَغ قال له أبو حية : ألم أقل لك : أنشدني ؟ فقالوا له : أنشِدنا أنت يا أبا حيّة . فأنشدهم قوله :

ألا حيّ من أجل الحبيب المَغانيـــا لبِســن البِلى ممّا لَبِسنَ اللياليا
إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلـــــة تقاضاه شيءٌ لا يَمَلُّ التقاضِيا

فلمّا فرغ قال له ابنُ مناذر: ما أرى في شعرك شيئاً يُستحسن . فقال له : ما في شعري شيءٌ يُعاب إلّا استماعَك إيّاه . فكادا أن يتواثبا ثم افترقا .

● التَوَّزيُّ قال :

سألت أبا عبيدةَ عن اليوم الثاني من النَّحر : ما كانت العرب تُسميّه ؟ قال : ليس عندي من ذلك عِلمٌ . فلَقيتُ ابنَ مناذر بمكة فأخبرتُه بذلك ، فعَجب وقال : أيسقُط هذا عن مِثل أبي عبيدة ! هي أربعة أيامٍ مُتواليات كلُّها على الراء : أوّلها يومُ النَّحرْ ، والثاني يوم القَرّ ، والثالث يوم النَّفرْ ، والرابع يوم الصَّدْر . فحدّثتُه ـ يعني أبا عبيدة ـ فكتبه عن ابن مناذر ...

● خلّاد الأرقَط قال :

تذاكرنا ابنَ مناذر في حَلْقة يونس فقَدح فيه أكثرُ أهل الحلقة حتى نسبوه إلى الزَّندقة . فلمّا صِرت في السَّقيفة التي في مقدَّم المسجد سمعت قراءةً

قريبة من حائط القِبلة ، فدنوتُ فإذا ابنُ مناذر قائمٌ يُصلّي ، فرجعت إلى الحلقة فقلتُ لأهلها : قُلتم في الرجل ما قُلتم ، وها هوذا قائمٌ يُصلّي حيث لا يراه إلا اللهُ عزّ وجلّ .

وفاته

عليّ بن محمد النّوفليّ قال :

رأيتُ ابنَ مناذر في الحجّ سنةَ ثمانٍ وتسعين ومائة ، قد كُفَّ بصرُه ، تقودُه جُوَيريةٌ حُرّة ، وهو واقفٌ يشتري ماءَ قِربةٍ ، فرأيتُه وَسِخَ الثوب والبَدَن . فلمّا صِرنا إلى البصرة أتتنا وفاتُه في تلك الأيام .

* * *

٥

ابن هَـرْمَة

[الأغاني الجزء ٤ ص ٣٦٧ وما بعدها]

الشاعر

عن الزبير بن بَكّار عن عمّه مصعب ، وذكر ذلك العبّاس بن هشام الكَلْبيّ عن أبيه هشام بن محمّد بن السائب ، قالوا جميعاً :

هو إبراهيم بن عليّ بن سلمة بن عامر بن هَـرْمة ... بن قيس بن الحارث ابن -فِهْر- وفهرٌ أصلُ قريش ، فمن لم يكن من ولده لم يُعدّ من قريش ، وقد قيل ذلك في النّضْر بن كِنانة- وفهر بن مالك بن النَّضر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدرِكة بن الياسِ بن مُضر .

قال مَن ذَكَرنا من النسّابين :

قيس بن الحارث هو الخُلُج ، وكانوا في عَدْوان ، ثم انتقلوا إلى بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن . فلمّا استُخلف عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه ، أتَوه ليفرِضَ لهم ، فأنكر نَسَبهم . فلمّا استُخلف عثمان أتَوه فأثبتهم في بني الحارث بن فهر وجعلهم معهم ديواناً . وسُمّوا الخُلُج لأنّهم اختلجوا ممّن كانوا معهم من عَدْوان ومن بني نصر بن معاوية ، وأهل المدينة يقولون :

إنّما سُمّوا الخُلج لأنهم نزلوا بالمدينة على خُلُج (وواحدها خَليج) فسُمّوا بذلك، ولهم بالمدينة عددٌ...

عن أبي سَلمة الغِفاريّ قال: نفى بنو الحارث بن فهر ابنَ هَرْمة فقال:

أحارِ بنَ فِهْرٍ كيف تَطَّرحونني ... وجاء العِدا من غيركم تبتغي نَصري

قال: فصار من وَلد فِهرٍ في ساعته.

العبّاس بن هشام الكلبيّ عن أبيه قال: كان ابنُ هَرمة يقول: أنا ألأَم العرب، دَعِيّ أدعياء: هَرْمة دَعِيّ في الخُلُج، والخُلُج أدعياء في قريش.

زكريّا بن يحيى بن خلّاد قال:

كان الأصمعيّ يقول: خُتم الشعراء بابن هَرْمة، والحكم الخُضْريّ، وابن مَيّادة، وطُفَيل الكِنانيّ، ومَكين العُذْريّ.

عبد الملك بن عبد العزيز قال:

قدِم جريرٌ المدينة، فأتاه ابن هَرمة وابن أُذَينة فأنشداه، فقال جرير: القُرَشيّ أشعرُهما، والعربيُّ أفصحهُما.

عن ابن الأعرابيّ أنه كان يقول: خُتم الشعراء بابن هَرْمة.

قال يحيى بن عليّ ـ أُراه عن البَلاذُريّ ـ: وُلد ابن هَرمة سنة تسعين، وأنشد أبا جعفر المنصور في سنة أربعين ومائة قصيدته التي يقول فيها:

إنّ الغَوانيَ قد أعْرَضْن مَقْلِيةً ... لمّا رمى هَدَفَ الخمسين ميلادي[1]

قال: ثم عُمّر بعدها مدّةً طويلة.

---

(١) مقلية، مصدر قلاه يقليه: أبغضه.

ولعه بالنبيذ

إسحاق بن نِسطاس قال :

كان ابن هرمة مشتهراً بالنَّبيذ ، فأتى عبدَالله بن حَسَن وهو بالسَّيالة[1] ، فأنشده مديحاً له . فقام عبدالله إلى غنمٍ كانت له ، فرمَى بساجةٍ[2] عليها ، فافترقت فِرقتين فقال : اختَرْ أيَّهما شئت . قال : فإمّا أن تكون زادت بواحدة أو نقصت بواحدة على الأخرى . قال : وكانت ثلاثمائة ، وكتب له إلى المدينة بدنانير . فقال له : يا بن هرمة ، انقُلْ عيالَك إلينا يكونوا مع عِيالنا . فقال : أفعل يا بنَ رسول الله ﷺ .

ثم قدِم ابن هرمة المدينة وجهّز عياله لينقلهم إلى عبدالله بن حسن ، واكترى من رجلٍ من مُزَينة . فبينا هو قد شدّ متاعه وحَمله والكَرِيُّ[3] ينتظره أن يتحمّل ، إذ أتاه صديقٌ له فقال : أي أبا إسحاق ، عندي والله نبيذٌ يُسقط لحمَ الوجه . فقال : ويحَك ! أما تَرانا على مثل هذه الحال ، أعليها يُمكن الشّراب ! فقال : إنّما هي ثلاثةٌ لا تَزِدْ عليهنّ شيئاً . فمضى معه وهم وقوفٌ ينتظرون . فلم يزل يشرب حتى مضى من الليل صَدرٌ صالح ، ثم أُتي به وهو سكرانُ ، فطُرح في شِقّ المَحْمِلِ وعادلتْه[4] امرأته ومضَوا . فلمّا أَسحروا رفع رأسه فقال : أين أنا ؟ فأقبلت عليه امرأتُه تَلُومه وتعذُله ، وقالت : قد أفسد عليك هذا النّبيذُ دِينك ودنياك ، فلو تعلّلت عنه بهذه الألبان ! فرفع رأسه إليها وقال :

لا تَبتغي لبنَ البعير وعندنـــا ماءُ الزَّبيب وناطفُ المِعصـارِ

---

(١) السَّيالة : موضع على مرحلة من المدينة .

(٢) الساجة : واحدة الساج : وهو خشب يجلب من الهند .

(٣) الكري : المكاري .

(٤) عادلته : أي ركبت في الشق الثاني من المحمل .

أبو حُذافة السَّهميّ أحمد بن إسماعيل قال :

كان ابنُ هَرمة مُدمناً للشّراب مُغرَماً به . فأتى أبا عمرو بن أبي راشد مَولى عدْوان ، فأكرمه وسقاه أياماً ثلاثة . فدعا ابنُ هرمة بالنَّبيذ ، فقال له غلامٌ لأبي عمرو بن أبي راشد : قد نفِد نبيذُنا . فنزع ابن هرمة رداءه عن ظهره فقال للغلام : اذهَبْ به إلى ابن حَونك ـ نبّاذٌ كان بالمدينة ـ فارهَنْه وَأْتِنا بنبيذٍ . ففعل . وجاء ابن أبي راشد فجعل يشرب معه من ذلك النبيذ ، فقال له : أين رداؤك يا أبا سحاق ؟ فقال : نصفٌ في القَدَح ونصف في بَطنك .

عن عبدالله بن عمر بن القاسم قال :

جاء أبي تَمرٌ من صَدَقة عُمر ، فجاءه ابنُ هرمة فقال : أَمتع اللهُ بك ، أَعطني من هذا التمر . قال : يا أبا إسحاق ، لولا أنّي أخاف أن تعمل منه نبيذاً لأعطيتُك . قال : فإذا علمتَ أنّي أعمل منه نبيذاً لا تُعطيني . قال : فخافه فأعطاه . فلقِيه بعد ذلك فقال له : ما في الدنيا أجودُ من نبيذٍ يجيء من صَدَقة عمر . فأخجله .

أحمد بن يحيى البَلاذُريّ :

أنّ ابن هرمة كان مُغرماً بالنّبيذ ، فمرّ علىجيرانه وهو شديد السُّكر حتى دخل منزله . فلمّا كان من الغد دخلوا عليه فعاتبوه على الحال التي رأوه عليها ، فقال لهم : أنا في طلب مثلها منذ دهرٍ ، أما سمعتم قولي :

أسألُ اللهَ سَكرةً قبل موتـي وصِياحَ الصِّبيـان يا سكرانُ

قال : فنفضوا ثيابَهم وخرجوا وقالوا : ليس يُفلح واللهِ أبداً .

عن أبي حسن المدائنيّ قال :

امتدح ابن هرمة أبا جعفر فوصله بعشرة آلاف درهم ، فقال : لا تَقع منيّ هذه . قال : ويحَك ! إنها كثيرة . قال : إن أردتَ أن تَهْنِئْني فأَبِحْ لي الشّراب ، فإنّي مُغرَمٌ به . فقال : ويحَك ! هذا حَدٌّ من حدود الله . قال :

احتَلْ لي يا أمير المؤمنين. قال: نعم. فكتب إلى والي المدينة: مَن أتاك بابن هرمة سكرانَ فاضربه مائةً واضرِب ابنَ هرمة ثمانين. قال: فجعل الجِلْوازُ[1] إذا مرّ بابن هرمة سكرانَ قال: مَن يشتري الثمانين بالمائة!

طائفة من أخباره

● عبدالله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمّار بن ياسر قال:

زُرت عبدالله بن حَسَن بباديته وزاره ابنُ هَرمة، فجاءه رجلٌ من أَسلمَ، فقال ابن هرمة لعبدالله بن حسن: أصلحك الله، سَلْ الأَسْلَميّ أن يأذن لي أن أُخبرَكَ خَبَري وخَبَرَه. فقال له عبدالله بن حسن: ائذنْ له. فأذن له الأسلميّ، فقال له إبراهيم بن هَرمة: إنّي خرجت ـ أصلحك اللهُ ـ أَبغي ذَوْداً لي[2]، فأوَحشتُ[3] وضفت[4] هذا الأسلميّ، فذَبح لي شاةً وخَبز لي خُبزاً وأكرمني. ثم غدوتُ من عنده، فأقمت ما شاء اللهُ، ثم خرجت أيضاً في بُغاء ذَودٍ لي، فأوحشتُ، فضِفته، فقَراني بلَبَنٍ وتَمر. ثم غدوتُ من عنده، فأقمت ما شاء الله، ثم خرجت في بُغاء ذَودٍ لي، فأوحشت، فقلت: لو ضِفتُ الأسلميّ، فاللَّبَن والتّمْر خيرٌ من الطَّوى. فضِفتُه، فجاءني بلبنٍ حامِض. فقال: قد أَجبتُه ـ أصلحك اللهُ ـ إلى ما سأل، فسَلْه أن يأذَن لي أن أُخبرَك لمَ فعلتُ. فقال: إئذَنْ له. فأذِن له، فقال الأسلميّ: ضافني، فسألتُه مَن هو؟ فقال: رجلٌ من قريش، فذبحتُ له الشاةَ التي ذَكَر، ووالله لو كان غيرُها عندي لذبحتُه له حين ذكر أنه من قريش. ثم غدا من عندي وغَدا عليّ الحيُّ فقالوا: مَن كان ضيفَك البارحةَ؟ قلت: رجلٌ من قريش. فقالوا: لا والله ما هو من قريش ولكنّه دعيٌّ فيها. ثم ضافني الثانيةَ على أنّه دعيٌّ في قريش، فجئته

(١) الجلواز: الشرطي.

(٢) الذود من الابل: من الثلاث الى التسع، ولا يكون الامن الاناث.

(٣) أوحش الرجل: جاع ونفد زاده.

(٤) ضافه: طلب ضيافته.

بلبنٍ وتَمر وقلت : دَعِيٌّ قريش خيرٌ من غيره . ثم غدا من عندي وغدا عليّ الحيُّ فقالوا : من كان ضيفَكَ البارحةَ ؟ قلت : الرجْل الذي زعمتم أنّه دعيٌّ في قريش . فقالوا : لا والله ما هو بدَعِيٍّ في قريش ، ولكنّه دعيّ أدعياء قريش . ثم جاءني الثالثةَ ، فقريتُه لبناً حامضاً ، ووالله لو كان عندي شرٌّ منه لقريتُه إيّاه . قال : فانخذل ابنُ هرمة وضحِك عبدُالله وضحكنا معه .

● نوفَل بن ميمون قال :

لقي ابنُ مَيّادة ابنَ هرمةَ فقال ابنُ ميّادة : واللهِلقد كنتُ أُحبّ أن ألقاك ، لا بُدّ من أن نَتَهاجى ، وقد فعل الناسُ ذلك قبلَنا . فقال ابن هرمة : بئس واللهِ ما دعوتَ إليه وأحببتَه ـ وهو يظنّه جادّاً ـ ثم قال ابن هرمة : أما والله إنّني لَلّذي أقول :

إنّي لَميْمونٌ جِواراً وإنّني ... إذا زَجَرَ الطيرَ العِدا لَمَشُومُ
وإنّي لَمَلْآنُ العِنان مُناقِلٌ ... إذا ما وَنَى يوماً ألفٌّ سَؤُومُ
فوَدَّ رجالٌ أنّ أمّي تقنّعت ... بشَيبٍ يُغشّي الرأسَ وهي عَقيمُ(١)

فقال ابنُ ميّادة : وهل عندك جَراءٌ(٢) ؟ ثكلتكَ أمُّك ! أنت ألأم من ذلك ! ما قلتُ إلّا مازحاً .

● عن عمر بن أيّوب اللّيثيّ قال :

شرب ابن هرمة عندنا يوماً ، فسَكِر فنام . فلمّا حضرت الصّلاةُ تحرّك أو حرّكته ، فقال لي وهو يتوضّأ : ما كان حديثكم اليومَ ؟ قلت : يزعُمون أنّ الوليد قُتل . فرفع رأسه إليّ وقال :

وكانت أمورُ الناس مُنْبَتّةَ القُوى ... فشدّ الوليدُ حين قام نِظامَها

---

(١) يقال : ملأ فلان عنان جواده ، أي أعداه وحمله على الاسراع . المناقل : السريع نقل القوائم . الألفّ : الثقيل البطيء .

(٢) الجراء بفتح الجيم وكسرها : الفتوة .

خليفةُ حقٌّ لا خليفـــة باطـــلٍ رمى عن قناة الدِّين حتى أقامها[1]

ثم قال : إيّاك أن تذكر من هذا شيئاً ، فإنّي لا أدري ما يكون .

● ابن رُبَيح راوية ابن هرمة قال :

أصابت ابنَ هَرمة أزْمةٌ ، فقال لي في يومٍ حارّ : اذهَبْ فَتَكَارَ حِمارين إلى ستّةِ أميالٍ ، ولم يُسَمِّ موضعاً . فركب واحداً وركبتُ واحداً ، ثم سِرنا حتى صِرنا إلى قصور الحسن بن زيد[2] ببطحاء ابن أزْهَر[3] ، فدخلنا مسجدَه . فلمّا مالت الشمسُ خرج علينا مُشتملاً على قميصه ، فقال لمولىً له : أَذِّنْ . فأذّن ، ولم يُكلّمْنا كلمةً . ثم قال له : أَقِمْ . فأقام ، فصَلّى بنا . ثم أقبل على ابنِ هَرمة فقال : مَرحباً بك يا أبا إسحاق ، حاجتَك ؟ قال : نعم ، بأبي أنت وأمّي ، أبياتٌ قُلتُها ـ وقد كان عبدالله وحسنٌ وإبراهيم بنو حسن بن حسن[4] وَعَدُوه شيئاً فأخلفوه ـ فقال : هاتها . فقال :

أمّا بنو هاشمٍ حولي فقد قَرعـــوا نَبْلَ الضِّباب التي جَمَّعتُ في قَرَنِ
فما بيثرب منهـــم مَن أُعاتبـــهُ إلّا عوائدَ أرجوهنّ من حَسَنِ
اللهُ أعطاك فَضلاًمن عَطِيّتـــه على هَنٍ وهَنٍ فيما مضى وَهَنِ[5]

قـال : حاجتَك ؟ قال : لابنِ أبي مُضَرِّس عليّ خمســون ومائـةُ دينار. قال : فقال لمولىً لـه : يا هيثمُ ، اركَب هذه البغلة فَأْتني بابن أبي مُضرِّس

(١) منبتة : منقطعة . القوى ج قوة : طاقات الحبل .

(٢) الحسن بن زيد : هو الحسن بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين .

(٣) بطحاء ابن أزهر : قريب من المدينة ، فيها مسجد للنبي ﷺ .

(٤) عبدالله : هو عبدالله المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب واخواه الحسن وابراهيم وابنه محمد النفس الزكيّة .

(٥) الضباب ، هنا ، الأحقاد ، أراد أنهم أظهروا عداوتهم لي . القرن : حبل يجمع به البعيران ، هن : كلمة يكنى بها عن اسم الانسان ، وقد كررها ثلاث مرات لأنه كنّى عن ثلاثة أشخاص هم بنو حسن بن حسن .

وذِكْر حقّه[1] . قال : فما صَلَّينا العصر حتى جاء به ، فقال له : مَرحباً بك يا بن أبي مُضرّس ، أمعك ذِكْرُ حَقّك على ابن هرمة ؟ قال : نعم . قال :فامحُه . فمحاه ، ثم قال : يا هيثم ، بِع ابن أبي مَضرّس من تمر الخانِقَين بمائة وخمسين ديناراً وزِدْه على كلّ دينار رُبْعَ دينار ، وكِلِ ابنَ هَرمة بخمسين ومائة دينار تَمْراً ، وكِل ابنَ رُبَيح بثلاثين ديناراً تَمراً . قال : فانصرفنا من عنده ، فلقيه محمد بن عبدالله بن حسن بالسَّيالة[2] ـ وقد بلغه الشعر ـ فغضب لأبيه وعُمومته فقال : .... أنتَ القائل :

على هَنٍ وهن فيما مضى وهنٍ

فقال : لا واللهِ ، ولكنّي الذي أقول لك :

لا والذي أنت منه نِعمةٌ سَلَفتْ ... نرجُو عواقبَها في آخر الزَّمنِ
لقد أتيتَ بأمرٍ ما عَمَدتُ له ... ولا تعمّده قولي ولا سَنَني
فكيف أمشي مع الأقوام معتدلاً ... وقد رَميتُ بريء العُود بالأُبَن
ما غيّرت وجهَه أمٌّ مُهَجَّنةٌ ... إذا القَتامُ تغشّى أوجُهَ الهُجُنِ[3]

قال : وأم الحسن أمٌّ ولد .

● عن أيوب بن عَباية قال :

لمّا قال ابنُ هرمة هذا الشعر في حسن بن زيد قال عبدالله بن حسن : واللهِ ما أراد الفاسقُ غيري وغير أخويّ : حسن وإبراهيم . وكان عبدالله يُجري على ابن هرمة رِزقاً فقطعه عنه وغضب عليه . فأتاه يعتذر ، فنُحّي وطُرد ، فسأل رجالاً أن يكلّموه ، فردّهم ، فيئس من رضاه واجتنبه وخافه . فمكث ما شاء

---

(١) ذكر الحق : الصك يكتب فيه الدين .
(٢) السَّيالة : أرض يطؤها طريق الحاج أول مرحلة لأهل المدينة اذا أرادوا مكة .
(٣) الأبن ج أُبنة : العقدة تكون في العود تفسده ويعاب بها . مهجنة : غير حرة ، والهجن : من كان أبوه عربياً وأمه غير عربية .

الله ، ثم مرّ عَشيّةً وعبدُ الله على زَرْبيّة[1] في ممّر المِنبر ، ولم تكن تُبسَط لأحدٍ غيرِه في ذلك المكان. فلمّا رأى عبدَالله تضاءل وتقنفذ[2] وأسرع المشيَ. فكأنّ عبدالله رقّ له ، فأمر به فردّ عليه ، فقال : يا فاسقُ يا شاربَ الخمر ، على هَنٍ وهن ! أتُفضّل الحسن عليّ وعلى أخويّ ! فقال : بأبي أنت وأميّ ! وربِّ هذا القبر ما عَنيتُ إلّا فِرعون وهامانَ وقارونَ ، أفتغضب لهم ! فضحك وقال : واللهِ ما أحسَبُك إلّا كاذباً. قال : واللهِ ما كَذَبتُك. فأمر بأن تُرَدّ عليه جِرايتُه.

عن مصعب قال : إنما اعتذر ابنُ هرمة بهذا إلى محمد بن عبدالله بن حسن.

- أبو مالك محمد بن عليّ بن هرمة قال :

قال ابنُ هرمة :

ومهما أُلامُ على حُبّهم … فإنّي أُحبّ بني فاطمهْ
بني بِنت من جاء بالمُحكَما … ت والدِّين والسُّنّة القائمه

فلَقِيه بعد ذلك رجلٌ فسأله : من قائلُها ؟ فقال : مَن عَضّ … فقال له ابنُه : يا أبتِ ، ألستَ قائلَهَا ؟ قال : بلى. قال : فلمَ شتمتَ نفسك ؟ قال. أليس أن يعضّ المرء … خيراً من أن يأخُذَه ابنُ قحطبة[3] !

- قال يحيى (بن علي) : وأخبرني أبو أيوب عن عليّ بن صالح قال :

أنشدني عامر بن صالح قصيدةً لابن هرمة نحواً من أربعين بيتاً ليس فيها حرفٌ يُعجَم ، وذكر هذه الأبيات منها. ولم أجد هذه القصيدة في شعر ابن

(١) الزربية : البساط.

(٢) تقنفذ : حاكى القنفذ في مشيته.

(٣) ابن قحطبة : هو حميد بن قحطبة الطائي ، من أبرز قادة العباسيين وولاتهم. وإنما خاف ابن هرمة من نسبة الشعر الى نفسه لأن المنصور كان ينكل انئذ بالعلويين واتباعهم بعدما ثار عليه محمد بن عبدالله واخوه ابراهيم سنة ١٤٥ هـ وقد انتهى الامر بمقتلهما.

هزمة ، ولا كنت أظنّ أنّ أحداً تقدّم رُزيناً العَروضيّ إلى هذا الباب ، وأوّلها :

أرسمُ سَودة أمسى دارسَ الطَّلَلِ مُعَطَّلاً رَدّه الأحوالُ كالحُلَلِ

هكذا ذكر يحيى بن عليّ في خبره أن القصيدة نحوٌ من أربعين بيتاً ، ووجدتها في رواية الأصمعيّ ويعقوب بن السِّكيت اثني عشر بيتاً ، فنسختُها ها هنا للحاجة إلى ذلك . وليس فيها حرفٌ يُعجَم إلّا ما اصطَلح عليه الكُتّاب من تصييرهم مكانَ ألفٍ ياءً مثل « أعلى » ، فإنها في اللفظ بالألف وهي تكتب بالياء ، ومثل « رأى » ونحو هذا ، وهو في التحقيق في اللفظ بالألف ، وإنما اصطلح الكُتّابَ على كتابته بالياء كما ذكرناه . والقصيدة :

أرسم سَودةَ مَحْلٌ دارسُ الطَّلَلِ مُعَطَّلٌ ردّه الأحوالُ كالحُلَلِ
لمّا رأى أهلَها سَدُّوا مَطالعَها رام الصُّدورَ وعاد الوُدُّ كالمُهُلِ
وعاد وُدّك داءً لا دواء له ولو دعاك طوالَ الدّهر للرِّحَلِ
ما وصلُ سودةَ إلا وصلُ صارمةٍ أحلّها الدّهرُ داراً مأكلَ الوَعِلِ
وعاد أمواهُها سُدْماً وطار لها سهمٌ دعا أهلَها للصُّرم والعِلَلِ
صدُّوا وصدّ وساء المرءَ صَدُّهُم وحام للوِرْد رَدْهاً حَومةَ العَلَلِ
وحَلَّؤُوه رِداهاً ماؤُها عسلٌ ما ماءُ رَدْهٍ لَعَمرُ الله كالعَسَلِ
دعا الحَمامُ حماماً سدّ مَسمعَه لمّا دعاه رآه طامحَ الأَملِ
طموحَ سارحةٍ حَومٍ مُلَمَّعةٍ ومُمْرِعُ السرِّ سهلٌ ماكِدُ السَّهَلِ
وحاولوا ردَّ أمرٍ لا مَردَّ له والصُّرم داءٌ لأهل اللَّوعة الوُصُلِ
أَحلّك اللهُ أعلى كلِّ مكرمةٍ واللهُ أعطاك أعلى صالح العملِ
سهلٌ مَواردُه سمحٌ مَواعدُه مُسَوَّدٌ لكرامٍ سادةٍ حُمُلِ (١)

(١) يلاحظ أن في القصيدة تاء مربوطة وهي عندهم في الأصل هاء . المهُل : ما ذاب من الصفر والحديد ، وحرك ثانيه للضرورة . مأكل الوعل : أي مكاناً منيعاً كمعقل =

● عن مصعب بن عبدالله عن أبيهِ قال :

لَقِيَني ابنُ هرمة فقال لي : يابنَ مُصعبَ ، أتفضِّل عليَّ ابنَ أُذَينة ! أما شكرت قولي :

فمالك مُختلاً عليــك خَصاصــةٌ كأنّـك لم تنبُت ببعض المنابتِ
كأنّـك لم تصحَـبْ شُعيبَ بن جعفـرٍ ولا مُصعَباً ذا المكرَمات ابن ثابتِ[1]

ـ يعني مُصعــب بن عبدالله ـ قال : فقلت : يا أبا إسحاق ، أقِلْني ورَوِّني من شعرك ما شئت ، فإنّي لم أروِ لك شيئاً . فروّاني عبّاسيّاته تلك .

● عن مصعب بن عثمان قال :

قال ابن هرمة : ما رأيت أحداً قطّ أسخى ولا أكرم من رجلين : إبراهيم ابن عبدالله بن مطيع وإبراهيم بن طلحة بن عمرو بن عبدالله بن مَعْمَر . أما إبراهيم بن طلحة فأتيتُه فقال : أحسِنوا ضيافة أبي إسحاق . فأُتيت بكلّ شيء من الطعام ، فأردت أن أُنشده فقال : ليس هذا وقتَ الشعر . ثم أخرج الغلامُ إليَّ رُقعةً فقال : ائتِ بها الوكيلَ . فأتيتُـه بها فقال : إن شئتَ أخذتَ لك جميعَ ما كَتب به ، وإن شئت أعطيتُـك القيمة . قلت : وما أَمر لي به ؟ فقال : مائتا شاةٍ برِعائها وأربعةُ أجمالٍ وغلامٌ جَمّالٌ ومِظلّةٌ وما تحتاج إليه وقُوتُك وقُوت عيالك سنةً . قلت : فأَعطني القيمة ، فأعطاني مائتي دينار . وأمّا إبراهيم بن عبدالله فأتيتُـه في منزله بمُشاش[2] على بئر الوليد بن عثمان

= الوعل . سدم : متغيرة الطعم . الحومة : كثرة الماء وغمرته . العلل : الشرب الثاني . الردة : مستنقع الماء . حلّأهم عن الماء : منعهم من وروده . السارحة : الماشية . الحوم : القطيع الكثير العدد . الململع : الذي في جسده بقع تخالف سائر لونه . الممرع : المخصب . السر هنا : بطن الوادي . الماكد : الدائم الذي لا ينقطع . حمل جمع حمول : الكثير الاحتمال لما ينهض به من أمور .

(١) المختل : الفقير السيء الحال . الخصاصة : الفقر .

(٢) مشاش : موضع بين ديار بني سليم وبين مكة .

ابن عفّان ، فدخل إلى منزله ثم خرج إليَّ برُزمةٍ من ثياب وصُرّة من دراهم ودنانير وحُليّ ، ثم قال : لا والله ما بَقّينا في منزلنا ثوباً إلّا ثوباً نُواري به امرأةً ، ولا حَلْياً ولا ديناراً ولا دِرهماً . وقال يمدح إبراهيم :

أَرَّقَتْني تلومُ أمُّ بكـــرِ بعد هَدْءٍ واللَّومُ قد يُـؤذيني
حَذَّرَتْني الزّمانَ ثُمَّتَ قالـت ليس هذا الزّمان بالمأمـونِ
قلـتُ لمّا هَبَّتْ تُـحذّرني الدّهـــرَ دَعي اللومَ عنـك واستَبْقِيني
إنّ ذا الجُود والمكارم إبـــرا هيـمَ يَعنيه كـلُّ ما يَعنيني
قـد خَبَرنـاه في القديـم فألفينـا مواعيدَه كعَـين اليَقـين
قلتُ ما قلتُ للّذي هو حَـقٌّ مُستَبينٌ لا للّـذي يُعطيني
نَضَحتْ أرضَنا سماؤُك بعد الجَدْب منها وبعد سُوء الظُّنـون
فرعَينـا آثـارَ غيثٍ هَراقَتْـه يدا مُحكَم القُوى ميمـونِ

● عن ابن زُريق ، وكان منقطعاً إلى أبي العبّاس بن محمد[1] ، وكان من أروى الناس ، قال :

كنت مع السَّريّ بن عبدالله باليمامةَ ، وكان يتشوّق إلى إبراهيم بن عليّ ابن هَرْمة ويُحبّ أن يفِدَ عليه ، فأقول : ما يمنعك أن تكتب إليه ، فيقول : أخاف أن يُكلّفَني من المَؤُونة ما لا أُطيق . فكنت أكتب بذلك إلى ابن هرمة ، فكَره أن يَقْدَمَ عليه إلّا بكتاب منه ، ثم غُلب فشخص إليه ، فنزل عليّ ومعه راويتُه ابنُ رُبيح . فقلت له : ما منعك من القُدوم على الأمير وهو من الحِرص على قدومك على ما كتبتُ به إليك ؟ قال : الذي منعه من الكتاب إليّ . فدخلت على السَّريّ فأخبرتُه بقُدومه ، فسُرّ بذلك وجلس للنّاس مجلساً عامّاً ، ثم أذِن لابن هرمة ، فدخل عليه ومعه راويتُه ابن رُبيح ـ وكان ابن هرمة قصيراً

(١) هو أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس .

دميماً أُرَيمِص[١] ، وكان ابن رُبيح طويلاً جسيماً نقيّ الثياب ـ فسلّم على السّري ثم قال له : أصلحك اللهُ ، إنّي قد قلت شعراً أثنيتُ فيه عليك . فقال : أَنشِدْ . فقال : هذا يُنشِد . فجلس ، فأنشده ابن رُبيح قصيدته التي أوّلها :

عُوجا على رَبـع ليلى أمّ محمـودِ ... كيما نُسائلَـه من دون عَبُّـود
عن أمّ محمود إذ شطّ المَزارُ بهـا ... لعلّ ذلك يشفي داء مَعمـودِ
فعَرَّجا بعد تغويـرٍ وقد وقفـتْ ... شمسُ النهار ولاذ الظِلُّ بالعُـودِ
شيئاً فما رَجَعت أطـلالُ منزلةٍ ... قَفْرٍ جواباً لمحزون الجَوى مُودي[٢]

ثم قال فيها يمدح السَّريّ :

ذاك السَّريُّ الذي لـولا تدفُّقُـه ... بالعُرف مُتْنا ، حليفُ المجد والجُودِ
من يَعتمدْكَ ابنَ عبدالله مُجتديـاً ... لسَيب عُرفك يَعمِدْ خير مَعمود
يا بنَ الأُساةِ الشُّفاة المستغاثِ بهم ... والمُطعِمين ذُرى الكُوم المَقاحيدِ
والسّابقين إلى الخيراتِ قومَهـم ... سَبْقَ الجِياد إلى غاياتها القُـودِ
أنت ابنُ مُسْلَنْطح البَطْحاء مَنْبَتكُم ... بَطْحاءُ مكّةَ لا رُوسُ القَراديدِ
لكم سِقايتُهـا قِدْماً ونَـدوتُهـا ... قد حازها والدٌ منكم لِمولـودِ
لولا رجاؤك لم تَعسِفْ بنا قُلُصٌ ... أجواز مهمهـةٍ قَفْر الصُّوى بِيد
لكن دعاني وميضٌ لاح معترضاً ... من نحو أرضك في دُهْمٍ مَناضِيد[٣]

---

(١) أريمص : تصغير أرمص والرمص وسخ أبيض يجتمع في الموق .

(٢) عبود وصغر : جبلان ما بين المدينة والسيالة ينظر احدهما الى الآخر وبينهما طريق المدينة . المعمود : من هدّه العشق . التغوير : النزول وقت القائلة . المودي : الهالك .

(٣) العرف : المعروف. مجتدياً : طالباً العطاء . معمود : مقصود . الذرى ج ذروة : اعلى السنام . الكوم ج كوماء : الناقة العظيمة السنام . المقاحيد ج مقحاد : الناقة العظيمة السنام . القود ج أقود : الطويل العنق من الخيل . اسلنطح الوادي : اتسع وانبسط . القراديد ج قردود : ما ارتفع وغلظ من الارض . السقاية : سقاية الحجيج =

وأنشده أيضاً قصيدة يمدحه فيها أوّلها :

أفـي طلـلٍ قَفْـرٍ تحمّـل أهلُـه   وقفتَ وماءُ العين يَنهلُّ هاملُـهْ

[الأبيات ...]

قال : فلمّا فَرَغ ابن رُبَيح قال السّريّ لابن هرمة : مرحباً بك يـا أبـا إسحاق ، ما حاجتُك ؟ قال : جئتُك عبداً مملوكاً . قال ! لا ، بل حُرّاً كريماً وابنَ عمّ ، فما ذاك ؟ قال : ما تركتُ لي مالاً إلّا رهنتُه ، ولا صديقاً إلا كَلَّفته ... فقال له السّريّ : وما دَيْنُك ؟ قال : سبعمائة دينار : قال : قد قضاها الله عزّ وجلّ عنك . قال : فأقام أيّاماً ، ثم قال لي : قدْ اشتَقتُ . فقلت له : قل شعراً تتشوّق فيه . فقال قصيدته التي يقول فيها :

أألحمامـةُ في نَخـلِ ابن هَـدّاجِ   هاجت صَبابةَ عاني القلب مُهتاجِ

أم المُخَبِّرُ أنّ الغيثَ قد وضعـتْ   منه العِشارُ تَماماً غيرَ إخـداجِ

شقّت سَوائقُها بالفَرش من مَلَـلٍ   إلى الأَعارفِ من حَزْنٍ وأولاج

حتّى كأنّ وجوهَ الأرض مُلْبَسـةٌ   طرائقاً من سَدَى عَصْبٍ ودِيباج

وهي طويلة مختارة من شعره ، يقول فيها يمدح السَّريّ :

أمّا السَّريُّ فإنّي سوف أَمدحُـه   ما المادحُ الذاكرُ الإحسانِ كالهاجي

ذاك الـذي هوبعدَ الله أنقـذني   فلست أنساه إنقاذي وإخراجي

لَيثٌ بحَجْرٍ إذا ما هاجَـه فَـزَعٌ   هاج إليه بالجامٍ وإسـراج

= أيام الجاهلية من النبيذ ، وكان يليها العباس بن عبد المطلب . الندوة : دار الندوة بمكة التي كانت تجتمع فيها قريش . العسف : السير في المفازة على غير هدى . القلوص : الناقة السريعة . أجواز ج جوز : وسط الشيء ومعظمه . المهمهة : الفلاة الواسعة . الصوى ج صُوّة : أحجار توضع على جانبي الطريق يهتدي بها المسافر . وهي أيضاً ما غلظ وارتفع من الارض . دهم : سود . مناضيد : متراكبة بعضها فوق بعض ، ويريد بالدهم المناضيد السحب السود المتراكبة .

لَأَحْبُوَنّك ممّا أَصطفي مِدَحاً مُصاحِباتٍ لعُمّار وحُجّاجِ
أسدى الصَّنيعة من برٍّ ومن لَطَفٍ إلى قَرُوعٍ لِبابِ المُلك وَلاّج
كم من يدٍ لك في الأقوام قد سَلَفت عند امرىءٍ ذي غنىً أو عند محتاج[1]

فأمر له بسبعمائة دينار في قضاء دَينه، ومائةِ دينار يتجهّز بها، ومائة دينار يُعرِّض بها أهله، ومائة دينار إذا قدِم على أهله.

قوله: «يعرّض بها أهله» أي يُهدي لهم بها هديّة، والعُراضة: الهَديّة...

● جعفر بن مُدرِك الجَعْفيّ قال:

جاء ابنُ هرمة إلى رجلٍ كان بسوق النَّبط، معه زوجةٌ له وابنتان كأنّهما ظَبيتان يقود عليهما، بمالٍ فدفعه إليه، فكان يشتري لهم طعاماً وشراباً. فأقام ابنُ هرمة مع ابنتيه حتى خَفّ ذلك المال، وجاء قومٌ آخرون معهم مالٌ، فأخبرهم بمكان ابن هرمة، فاستثقلوه وكرهوا أن يعلم بهم، فأمر ابنتيه، فقالتا له: يا أبا إسحاق، أما دَرَيتَ ما الناسُ فيه؟ قال: وماهم فيه؟ قالتا: زُلزِل بالرَّوضة. فتغافلهما. ثم جاء أبوهما مُتفازعاً فقال: أي أبا إسحاق، ألا تَفزَعُ لِماالناسُ فيه! قال: وما هم فيه؟ قال: زُلزل بالرَّوضة. قال: قد جاءكم الآن إنسانٌ معه مالٌ، وقد أنفضتَ[2] ما جئتُكم به وثقُلت عليكم، فأردتَ إدخالَه وإخراجي، أيُزلزل بروضة من رياض الجنّة ويُترك منزلُك وأنت تجمع فيه الرجالَ على ابنتيك! واللهِ لا عُدتُ إليه. وخرج من عنده...

(١) العشار ج عشراء (بضم أوله وفتح ثانيه): الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر. أخدجت الناقة: ألقت ولدها قبل أوانه فهي مخدج. شقت الارض: انفطرت عن النبات. السوائف ج سائفة: أرض بين الرمل والجلد. الفرش: واد بين غميس الحمام وملل بالحجاز. ملل: موضع بين الحرمين، نزله رسول الله ﷺ حين مسيره الى بدر. الاعارف: جبال باليمامة. الحزن: ما غلظ من الارض. الاولاج: ما غمض من الارض. العصب: ضرب من البرود. حجر: مدينة اليمامة.

(٢) أنفض القوم زادهم: أنفدوه.

● إبراهيم بن سكّرة جار أبي ضَمْرة قال :

جلس ابنُ هرمة مع قوم على شراب ، فذكر الحكَمَ بن المطَّلب فأطنب في مدحه ، فقالوا له : إنك لَتكثِر ذكر رجلٍ لو طرقتَه السّاعةَ في شاةٍ يقال لها « غَرّاء » تسأله إيّاها لردّك عنها . فقال : أهو يفعل هذا ؟ قالوا : إِي والله . وكانوا قد عرفوا أنّ الحكَم بها مُعجَب ، وكانت في داره سبعون شاةً تُحلَب . فخرج وفي رأسه ما فيه ، فدقّ الباب ، فخرج إليه غلامُه ، فقال له : أَعلم أبا مَروان بمكاني ـ وكان قد أمر ألّا يُحجَب إبراهيم بن هرمةَ عنه ـ فأعلمه به ، فخرج إليه مُتّشحاً فقال : أفي مثل هذه الساعة يا أبا إسحاق ! فقال : نعم ، جُعلتُ فِداك ، وُلد لأخٍ لي مولودٌ فلم تَدرّ عليه أمُّه ، فطلبوا له شاةً حَلُوبة فلم يجدوها ، فذكَروا له شاةً عندك يقال لها « غرّاء » ، فسألني أن أَسألكَهَا . فقال : أتجيء في هذه الساعة ثم تنصرف بشاةٍ واحدة ! لا واللهِ لا تبقَى في الدّار شاةٌ إلّا انصرفتَ بها ، سُقْهنّ معه يا غلامُ . فساقهنّ ، فخرج بهنّ إلى القوم ، فقالوا : ويحَك ! أيَّ شيء صنعت ! فقصّ عليهم القصّة . قال : وكان فيهنّ والله ما ثمنه عشرةُ دنانير وأكثر من عشرة .

● عن نوفَل بن ميمون قال :

أرسل ابنُ هرمة إلى عبد العزيز بن المطّلب بكتابٍ يشكو فيه بعضَ حاله ، فبعث إليه بخمسةَ عشر ديناراً . فمكث شهراً ثم بعث يطلب منه شيئاً آخر بعد ذلك ، فقال : إنّا والله ما نَقوَى على ما كان يقوى عليه الحكَم بن المطّلب . وكان عبد العزيز قد خطب إلى امرأة من ولد عمر فردّتْه ، فخطب إلى امرأة من بني عامر بن لُؤيّ فزوّجوه . فقال ابن هرمة :

خطبتَ إلى كعبٍ فردّوك صاغراً ... فحوّلتَ من كَعبٍ إلى جذم عامرِ
وفي عامرٍ عزٌّ قديمٌ وإنّما ... أجازك فيهم هزلُ أهل المقابر

وقال فيه أيضاً :

أبالبُخلِ تطلبُ ما قَدَّمتْ عَرانينُ جادت بأموالها

فهيهاتَ خالفت فِعلَ الكرام خِلافَ الجِمال بأبوالها[1]

وفاته

عبد العزيز بن إسماعيل قال :

مدح ابنُ هرمة محمد بن عِمران الطَّلْحيّ ، وبعث إليه بالمديح مع ابن رُبَيح ، فاحتَجب عنه ، فمدح محمد بن عبد العزيز ، وكان ابن هرمة مريضاً ، فقال قصيدته التي يقول فيها :

إنّي دعوتُك إذ جُفيتُ وشَفَّني مرضٌ تضاعَفَني شديدُ المُشتَكى

وحُبستُ عن طلب المعيشة وارتقتْ دُوني الحوائج في وُعور المُرتَقى

فأجِبْ أخاك فقد أناف بصَوته يا ذا الإخاء ويا كريمَ المُرتَجى

ولقد حُفِيتَ صَبيبَ عَكّةِ بَيتنا ذَوباً ومِزتُ بصَفوْه عنك القَذى

فخُذ الغَنيمةَ واغتَنِمْني إنّني غُنْمٌ لِمثلك والمكارمُ تُشترى

لا ترمينَّ بحاجتي وقَضائها ضَرْحَ الحِجابِ كما رمى بي مَن رمى[2]

فركب إلى جعفر بن سليمان نصفَ النّهار ، فقال : ما نَزَعك يا أبا عبدالله في هذا الوقت ؟ قال : حاجةٌ لم أر فيها أحداً أكفى منّي . قال : وما هي ؟ قال : قد مَدَحني ابنُ هرمة بهذه الأبيات فأردتُ من أرزاقي مائةَ دينارٍ . قال : ومِن عندي مِثلُها . قال : ومن الأمير أيضاً ! قال : فجاءت المائتا الدينارِ إلى ابن هرمة ، فما أنفق منها إلّا ديناراً واحداً حتى مات ، وورِث الباقيَ أهلُه .

---

(١) العرانين ، هنا : السادة .

(٢) أنافَ : ارتفع واشرف . حفيت : أعطيت ولا يبعد أن تكون محرفة عن« حبيت » والمعنى واحد . العكة : زق السمن والعسل ، يريد انه منحه خالص مديحه . الضرح : أن يؤخذ شيء فيرمى به في ناحية .

الزبير بن بَكّار قال :

أنشدني عمّي لابن هرمة :

ما أَظنّ الزمانَ يا أمَّ عَمْــــرٍو تاركـــاً إن هلكــتُ مَن يَبكيني

قال : فكان والله كذلك ، لقد مات ، فأخبرني من رأى جنازتَـه ما يحملها إلّا أربعةُ نفرٍ ، حتى دُفن بالبَقِيع[1] .

* * *

(١) البقيع : مقبرة اهل المدينة.

٦

أبو تمّام

[الأغاني الجزء ١٦ ص ٣٨٣ وما بعدها]

الشاعر

أبو تمّام حَبيب بن أَوس الطائيّ ، من نفس طَيِّء صليبةٌ . مولده ومنشأه مَنْبِج[١] ، بقرية منها يقال لها جاسِم . شاعرٌ مطبوع . لطيف الفِطنة ، دقيق المعاني ، غوّاص على ما يستصعب منها ويَعسُر مُتَناولُه على غيره . وله مذهبٌ في المطابَق هو كالسابق إليه جميعَ الشعراء ، وإن كانوا قد فَتحوه قبلَه ، وقالوا القليل منه ، فإنّ له فضلَ الإكثار فيه ، والسُّلوكِ في جميع طُرقه . والسليمُ من شعره النادرُ شيءٌ لا يتعلّق به أحدٌ . وله أشياءُ متوسّطة ورديئةٌ رَذْلة جدّاً .

وفي عصرنا هذا من يتعصّب له فيُفرِط حتى يُفضّلَه على كلّ سالفٍ وخالف ، وأقوامٌ يتعمّدون الرديء من شعره فينشرونه ، ويطوون محاسنه ، ويستعملون القِحة والمكابرة في ذلك ليقولَ الجاهلُ بهم : إنّهم لم يبلُغوا علمَ هذا وتمييزَه

(١) يلاحظ أن أبا الفرج خلط هنا بين البحتري وابي تمام ، فالبحتري كانت ولادته في منبج ، وهي من أعمال حلب ، شمالي بلاد الشام ، أما جاسم فهي من حوران ، جنوبي بلاد الشام ،

إلّا بأدبٍ فاضل وعلمٍ ثاقب ، وهذا ممّا يتكسّب به كثيرٌ من أهلِ هذا الدّهر ، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلبِ الناس ، وطلب معايبهم سبباً للترفّع وطلباً للرّياسة . وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مُسقِطةً إحسانه ، ولو كثُرت إساءتُه أيضاً ثم أحسن لم يُقَل له عند الإحسان أسأتَ ، ولا عند الصّواب أخطأت ، والتوسُّط في كلّ شيء أجملُ ، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع .

وقد رُوي عن بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدةً له أحسنَ في جميعها ، إلّا في بيتٍ واحد ، فقال له : يا أبا تمّام ، لو ألقيتَ هذا البيتَ ما كان في قصيدتك عيبٌ . فقال له : أنا واللهِ أعلَمُ منه مثلَ ما تَعلم ، ولكنّ مثل شعر الرجل عنده مَثَلُ أولاده ، فيهم الجميل والقبيح ، والرّشيد والساقط ، وكلُّهم حلوٌ في نفسه ، فهو وإن أحبّ الفاضل لم يُبغِض الناقص ، وإن هوِي بقاءَ المتقدّم لم يهوَ موتَ المتأخّر .

واعتذاره بهذا ضِدٌّ لما وصَف به نفسه في مَدحه الواثقَ ، حيث يقول :

جاءتْك من نظْم اللسان قِلادةٌ ... سِمطان فيها اللؤلؤُ المكنـونُ
أحذاكها صَنَعُ اللســانِ يَمُـدُّه ... جَفْرٌ إذا نضَب الكلامُ مَعِينُ
ويُسيءُ بالإحسان ظنّـاً لا كَمَن ... هو بابنه وبشِعره مَفتونُ (١)

فلو كان يسيء بالإساءة ظَنّـاً ولا يُفتَتن بشعره كنّا في غنىً عن الاعتذار له .

وقد فضّل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يَشُقُّ الطاعنون عليه غُبارَه ، ولا يُدركون ـ وإن جَدّوا ـ آثاره ، وما رأى الناسُ بعده إلى حيث انتَهوا له في جيِّده نظيراً ولا شكلاً ؛ ولولا أنّ الرّواةَ قد أكثروا في الاحتجاج له وعليه ، وأكثرَ متعصّبوه الشرحَ لجيّد شعره ، وأفرط مُعادُوه في التسطير لِرديئه ، والتنبيه على رَذْله ودَنيئه ، لذكرتُ منه طَرَفاً ، ولكن قد اتى من ذلك ما لا مَزيدَ عليه .

---

(١) صَنَع : حاذق بارع . الجفر : البئر الواسعة .

أخبرني عمّي قال : سمعت أبي قال : سمعت محمد بن عبد الملك الزيّات يقول : أشعَرُ الناس طُرّاً الذي يقول :

وما أُبالي وخيرُ القــول أَصدَقُــــه ... حقنتَ لي ماءَ وجهي أو حَقنتَ دمي

فأحببت أن استثبتَ إبراهيمَ بن العبّاس[1] ـ وكان في نفسي أعلمَ من محمّد وآدَب ـ فجلستُ إليه ، وكنت أُجري عنده مَجْرى الولــد ، فقلت له : مَن أشعرُ أهل زماننا هذا ؟ فقال : الذي يقول :

مطــرٌ أبوك أبو أَهِلّــــة وائــــلٍ ... مــلأ البسيطــةَ عُــدّةً وعَـديـدا
نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضُّحى ... نُوراً ومن فَلَق الصبــاح عَـمُـودا
ورثوا الأُبوّةَ والحظوظ فأصبحــوا ... جمعوا جُدوداً في العلا وجدودا

فاتفقا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه .

محمد بن يزيد النحويّ قال :

قدِم عُمارة بن عَقيل[2] بغداد ، فاجتمع الناسُ إليه ، فكتبوا شعرَه وشعر أبيه ، وعَرَضوا عليه الأشعار ، فقال بعضُهم : ها هنا شاعرٌ يزعُمُ قومٌ أنه أشعرُ الناس طُـرّاً ، ويزعُم غيرُهم ضدَّ ذلك . فقال : أنشِدوني قولَه . فأنشَدوه :

غدتْ تستجير الدمعَ خوفَ نَـوَى غدِ ... وعاد قَـتاداً عندَها كلُّ مَرقَـدِ
وأنقذها من غَـمرة المـــوت أنّــه ... صُدودُ فراقٍ لا صُدود تَـعَـمُّـدِ
فأجرى لها الإشفاقُ دمعاً مُـوَرَّداً ... من الدَّم يجري فوق خدٍّ مُـوَرَّدِ
هي البدرُ يُغنيها تودُّدُ وجهِهــــا ... إلى كلّ مَن لاقتْ وإن لم تَـوَدَّدِ

ثم قطع المنشِدُ ، فقال له عُمارة : زِدنا من هذا . فوصَل نشيدَه وقال :

(١) ابراهيم بن العباس الصولي : أحد أعلام الكتابة والشعر في العصر العباسي .
(٢) هو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية ، الشاعر الاموي المشهور

ولكنّني لم أَحوِ وَفراً مُجمَّعاً ... ففُزت به إلاّ بشَمْلٍ مُبَدَّدِ
ولم تُعطِني الأيامُ نوماً مُسَكَّناً ... أَلَذُّ به إلّا بنومٍ مُشَرَّدِ

فقال عُمارة : لله درُّه ! لقد تقدّم في هذا المعنى مَن سبقه إليه ، على كثرة القول فيه ، حتى لقد حَبَّب إليّ الاغتراب ، هِيهِ . فأنشده :

وطُولُ مُقام المرء في الحيّ مُخْلِقٌ ... لديباجتَيه فاغترِبْ تتجدّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زِيدتْ محبَّةً ... إلى الناس أنْ ليست عليهم بسَرْمَد[1]

فقال عمارة : كمَل واللهِ ، لئن كان الشعرُ بجَودة اللفظ وحُسن المعاني واطّراد المُراد واتّساق الكلام فإنّ صاحبَكم هذا أشعرُ النّاس .

محمد بن موسى بن حَمّاد قال :

سمعتُ عليّ بن الجَهمْ يصف أبا تمّام ويُفضّله ، فقال له رجلٌ والله لو كان أبو تمام أخاك ما زِدت على مَدحك هذا . فقال : إن لم يكن أخاً بالنسب فإنه أخٌ بالأدب والمودّة ، أما سمعتَ ما خاطَبني به حيث يقول :

إن يُكدِ مُطَّرِف الإخاء فإنّنا ... نَغْدُو ونَسري في إخاءٍ تالدِ
أو يختلفْ ماءُ الوِصال فماؤنا ... عَذْبٌ تحدَّر من غَمامٍ واحدِ
أو يفترقْ نسبٌ يُؤلِّفْ بيننا ... أدبٌ أقمناه مَقام الوالدِ[2]

عبدالله بن محمد بن جرير قال :

سمعت محمد بن حازم البّاهليّ يقدّم أبا تمام ويفضّله ويقول : لو لم يقل إلّا مَرثيته التي أوّلها :

أصَمّ بك الناعي وإن كان أسمَعا

---

(١) القتاد : الشوك . أخلقه : أبلاه .

(٢) أكدى : خاب ولم ينفع . المطرف : المستحدث . التالد : القديم .

وقوله :

لو يقدِرون مشَوا على وَجناتهم وجِباههم فضلاً عن الأقدام

لكَفَتاه .

الحسين بن عبدالله قال :

سمعت عمّي إبراهيم بن العبّاس يقول لأبي تمّام وقد أنشد شعراً له في المعتصم : يا أبا تمام ، أمراءُ الكلام رعيّةٌ لإحسانك .

هارون بن عبدالله قال : قال لي محمد بن جابر الأزْديّ ، وكان يتعصّب لأبي تمام :

أنشدتُ دِعبلَ بنَ عليّ شعراً لأبي تمام ، ولم أُعلِمْه أنه له ، ثم قلت له : كيف تراه ؟ قال : أحسَنُ من عافيةٍ بعد يأسٍ . فقلت : إنه لأبي تمام . فقال : لعلّه سَرَقه .

أحمد بن يزيد المهلّبيّ عن أبيه قال :

ما كان أحدٌ من الشعَراء يقدِر على أن يأخُذَ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام ، فلمّا مات اقتسم الشعراء ما كان يأخُذه .

وهَبْ بن سعيد قال :

جاء دِعبل إلى الحسن بن وهب في حاجةٍ بعد موت أبي تمام ، فقال له رجلٌ في المجلس : يا أبا عليّ ، أنت الذي تطعن على من يقول :

شهِدتُ لقد أقوتْ مغانيكمُ بعدي ومَحَّتْ كما محّت وشائعُ من بُرْدِ
وأنجدتمُ من بعد إتهام داركم فيا دمعُ أَنجِدني على ساكني نَجد[1]

فصاح دعبل : أحسَنَ والله ! وجعل يردّد : « فيا دمعُ أنجدني على ساكني

---

(١) محت : درست وانمحت . الوشائع ج وشيعة : الطريقة في البرد ، وهي تخطيط يخالف لونه لون سائر البرد .

نجد » . ثم قال : رحمه اللهُ ! لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت إنه أشعر الناس .

طائفة من أخباره

● عبيد الله بن عبدالله بن طاهر قال :

لمّـا قدِم أبو تَمام إلى خُراسان اجتمع الشعراء إليه وسألوه أن يُنشدهم ، فقال : قد وعدني الأميرُ أن أُنشِدَه غداً وستسمعونني . فلمّـا دخل على عبدالله أنشده :

هُـنَّ عَـوادي يوسفٍ وصواحبـه ... فعَزمـاً فقِـدْمـاً أدرك السُؤلَ طالُبهْ

فلما بلغ إلى قوله :

وقلقلِ نَـأْيٌ من خراسان جَـأْشَهـا ... فقلت اطمئنّي أنضرُ الرَّوض عاذبُـهْ
وركبٍ كأطرافِ الأسنّة عـرّسـوا ... على مثلها والليلُ تسطو غياهِبُـه
لأمرٍ عليهم أن تتمّ صُـدورُهُ ... وليس عليهم أن تتمَّ عواقِبُـه (١)

فصاح الشعراءُ بالأمير أبي العباس : ما يستحقّ مثلَ هذا الشعر غيرُ الأمير ، أعزّه الله ! وقال شاعرٌ منهم يُعرف بالرِياحيّ :لي عند الأمير ، أعزّه اللهُ ، جائزةٌ وَعَدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاءً عن قوله للأمير . فقال له : بل نُضعفها لك ، ونقوم له بما يجب علينا . فلمّـا فرغ من القصيدة نثر عليه ألف دينارٍ ، فلقَطها الغِلمانُ ولم يَمَسّ منها شيئاً ، فوجَد عليه عبدُ الله وقال : يترفّع عن بِـرّي ، ويتهاون بما أكرمته به ! فلم يبلُغ ما أراده منه بعد ذلك .

● عن سعيد بن جابر الكَـرْخيّ ، عن أبيه :

---

(١) قلقله : حركه وجعله يضطرب . عرسوا : نزلوا ليلاً . عل مثلهـا : أي على نوق تشبه أطراف الاسنة .

أنه حضر أبا دُلَف القاسم بن عيسى وعنده أبو تمام الطائيّ وقد أنشده قصيدته :

على مِثلها من أربُعٍ ومَلاعبِ أُذِيلت مَصُوناتُ الدُّموع السّواكبِ

فلما بلغ إلى قوله :

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقَوسها وزادت على ما وطّدتْ من مناقب
فأنتم بذي قارٍ أمالت سيوفكُم عُروش الذين استَرْهَنوا قوسَ حاجب
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنُوا بها محاسنَ أقوام تكن كالمَعايب [1]

فقال أبو دلف : يا معشرَ ربيعةَ ، ما مُدحتم بمثل هذا الشعر قطّ ، فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمَطارفهم يرمون بها إليه ، فقال أبو دلف : قد قَبِلها وأعاركم لُبسَها ، وسأنوب عنكم في ثوابه ، تَمِّم القصيدة يا أبا تمام . فتمّمها ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، وقال : والله ما هي بإزاء استحقاقك وقدرك ، فاعذِرْنا . فشكره وقام ليقبّلَ يده ، فحلف ألّا يفعل ، ثم قال له : أنشدني قولَك في محمد بن حُميد :

وما مات حتى مات مضرِبُ سيفه من الضَّرب واعتلَّتْ عليه القنا السُّمْرُ
وقد كان فَوت الموت سهلاً فردَّه إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُق الوَعْر
فأثبت في مُستَنقع الموت رجلَه وقال لها من تحت أَخْمَصِك الحَشر
غدا غَدوةً والحمدُ نسجُ ردائه فلم ينصرفْ إلّا وأكفانُه الأَجرُ
كأنّ بني نَبْهانَ يومَ وفاته نجومُ سماءٍ خرّ من بينها البَدر
يُعَزَّون عن ثاوٍ تُعَزّى به العُلى ويبكي عليه البَأس والجود والشعر [2]

---

(١) أذيلت : أهينت . قوس حاجب : كان حاجب بن زرارة سيد بني تميم قد رهن قوسه لدى كسرى ثم وفى بوعده له فضرب المثل بها . وابو دلف الممدوح هو من بني عجل وكانوا مع بني شيبان في قتال الفرس يوم ذي قار .
(٢) الأخمص من القدم : ما لا يصيب الارض من باطنها .

فأنشده إياها ، فقال : والله لَوَدِدْتُ أنّها فيّ . فقال : بل أُفَدّي الأمير بنفسي وأهلي وأكونُ المقدَّم . فقال : إنّه لم يمت مَن رُثي بهذا الشعر أو مثله .

● محمد بن سعد أبو عبدالله الرَّقيّ ـ وكان يكتب للحسن بن رَجاء ـ قال :

قدِم أبو تمام مادحاً للحسن بن رجاء ، فرأيت منه رجلاً عقلُه وعلمه فوق شعره ، فاستنشده الحسن ، ونحن على نبيذٍ ، قصيدته اللامية التي امتدحه بها ، فلما انتهى إلى قوله :

أنا من عرفتِ فإن عَرَتْكِ جَهالةٌ ... فأنا المُقيم قيامةَ العُذّالِ
عادت لـه أيامُه مُسودَّةً ... حتى توهّم أنهنّ ليالي

فقال الحسن : واللهِ تَسْوَدُّ عليك بعد اليوم . فلمّا قال :

لا تُنكري عَطَلَ الكريم من الغنى ... فالسَّيل حربٌ للمكان العالي
وتَنَظَّري خَبَبَ الرِّكاب يَنُصُّها ... مُحيي القريض إلى مُميت المالِ

فقام الحسن بن رجاء على رجليه وقال : والله لا أتممتَها إلا وأنا قائم . فقام أبو تمام لقيامه ، وقال :

لمّا بلَغْنا ساحةَ الحَسَنِ انقضى ... عنّا تَمَلُّكُ دولة الإمحالِ
بَسَط الرَّجاءَ لنا برَغْم نوائبٍ ... كَثُرتْ بهنّ مَصارعُ الآمالِ
أَغلى عَذارى الشعر إنّ مُهورَها ... عند الكرام وإن رَخُصْن غَوالي
تَرِد الظُّنونُ به على تصديقها ... ويُحكِّمُ الآمالَ في الأموالِ
أضحى سَمِيُّ أبيك فيك مُصَدَّقاً ... بأجلّ فائدةٍ وأَيْمَنِ فالِ
ورأيتَني فسألتَ نفسَك سَيْبَها ... لي ثم جُدتَ وما انتظرتَ سؤالي
كالغيث ليس له أُريد غَمامُه ... أم لم يُرَدْ بُدٌّ من التَّهطالِ (١)

(١) الخبب : ضرب من السير السريع ، وفي المطبوعة : حيث وما أثبتناه رواية الديوان وهي أجود . السيب : العطاء .

فتعانقا وجَلسا . وقال له الحسن : ما أحسنَ ما جَلَوتَ هذه العروس . فقال : والله لو كانت من الحُور العِينِ لكان قيامُك لها أوفى مُهورها .

قال محمد بن سعد : وأقام شهرين ، فأخذ على يدي عشرةَ آلاف درهم ، وأخذ غير ذلك ممّا لم أعلم به ، على بُخل كان في الحسن بن رجاء .

● الحسن بن وَداع كاتب الحسن بن رجاء قال :

حضرتُ أبا الحسين محمد بن الهيثم بالجبل وأبو تمام يُنشده :

أَسْقى ديارَهم أَجَشٌّ هَزِيمُ ... وغَدتْ عليهم نَضرةٌ ونعيمُ[1]

قال : فلمّا فَرَغ أمر له بألف دينارٍ وخَلع عليه خِلعةً حسنة ، وأقمنا عندَه يومَنا . فلمّا كان من غدٍ كتب إليه أبو تمام :

قد كَسانا من كُسوة الصيف خِرْقٌ ... مُكتسٍ من مَكارمٍ ومَساعِ
حُلّةً سابريّةً ورِداءً ... كسَحا القَيض أو رداء الشُجَاعِ
كالسَّراب الرَّقراقِ في الحُسن إلّا ... أنّه ليس مثلَه في الخِداع
قَصَبيّاً تَسترجِفُ الرّيحُ مَتْنَيه ... بأمرٍ من الهَبُوبِ مُطاعِ
رَجَفاناً كأنّه الدّهرَ منه ... كبِدُ الضَّبّ أو حَشا المُرتاع
لازماً ما يليه تحسِبهُ جُزْ ... ءاً من المَتنين والأضلاع
يطرُد اليومَ ذا الهَجِير ولو شُبّه ... في حَرّه بيوم الوَداعِ
خِلعةً من أغرَّ أروعَ رَحْبِ الصَّدْر رَحبِ الفؤاد رحب الذِّراع
سوف أكسُوك ما يُعفّي عليها ... من ثناءٍ كالبُرد بُردِ الصَّناع
حُسنُ هاتيك في العيون وهذا ... حُسنُه في القلوبِ والأَسماع[2]

---

(١) الأجش : الصوت الخشن الغليظ ، واراد به هنا الرعد . الهزيم : صوت الرعد.

(٢) الخرق : الكريم السخي . السابري من الثياب : الرقيق النسج . سحا القيض . قشر البيض الذي يكون تحت القشرة الصلبة . الشجاع : الحية . القصبي من الثياب : الرقيق الناعم . تسترجف : تحرك . الهبوب من الرياح : الشديدة المثيرة للغبار يعفي عليها : يفوقها قيمة . الصناع : المرأة الحاذقة في العمل بيديها .

فقال محمد بن الهيثم : ومَن لا يُعطي على هـذا مُلكَه ! والله لا بقـــي في داري ثوبٌ إلا دفعتُه إلى أبي تمام . فأمر له بكل ثوب كان يملكه في ذلك الوقت .

● الفضلُ قال :

لمّا شَخص أبو تمام إلى عبدالله بن طاهر وهو بخراسان أُقيل الشتاء وهو هناك ، فاستثقل البلدَ ، وقد كان عبدالله وجَد عليه وأبطأ بجائزته لأنه نثر عليه ألف دينار فلم يمسَسْها بيده ترفُّعاً عنها ، فأغضبه وقال : يحتقر صِلتي ويترفَّع عليّ . فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء ، كالقُوت ، فقال أبو تمام :

لم يبقَ للصّيفِ لا رسـمٌ ولا طَلَـلُ ... ولا قشيبٌ فيُستَكْسى ولا سَمَلُ
عَدلٌ من الدمع أن يُبكَى المَصِيفُ كما ... يُبكى الشبابُ ويُبكى اللهوُ والغَزَلُ
يُمنى الزّمانِ انقضى معروفُها وغَدَت ... يُسراه وهي لنا من بَعدها بَدَلُ [1]

فبلغت الأبيـاتُ أبا العَمَيْثَلِ شاعرَ آل عبدالله بن طاهر ، فأتى أبا تمـام واعتذر إليه لعبدالله بن طاهر ، وعاتَبه على ما عَتَب عليه من أجله ، وتَضمّن له . ما يُحبّه . ثم دخل إلى عبدالله فقال : أيها الأمير ، أَتتهاون بمثل أبي تمام وتَجْفُوه ! فوالله لو لم يكن له مالَه من النّباهة في قَدره ، والإحسان في شعره ، والشائع من ذِكره ، لكان الخوفُ من شرّه ، والتوقّي لذَمّه ، يُوجب على مثلك رعايته ومُراقبتَه ، فكيف وله بنُزوعه إليك من الوطن ، وفِراقه السَّكَن ، وقد قصَدَك عاقداً بك أَملَه ، مُعمِلاً إليك رِكابه ، مُتعباً فيك فِكره وجسمه ، وفي ذلك ما يُلزِمُك قضاءَ حقّه ، حتى ينصرفَ راضياً ولو لم يأت بفائدة ، ولا سُمع فيك منه ما سُمع إلّا قولَه :

تقول في قُومَسٍ صَحبي وقد أَخذتْ ... منّا السُّرى وخُطا المَهْريّة القُودِ

---

(١) القشيب : الجديد من الثياب . السمل : البالي .

أمطِلعَ الشمس تَبغي أن تَؤُمَّ بنا فقلت كلّا ولكن مَطلِعَ الجُودِ[1]

فقال لـه عبدُالله : لقـد نَبهتَ فأحسنتَ ، وشفَعت فلَطُفت ، وعاتبتَ فأوجعت ، ولك ولأبي تمام العُتبىَ[2] ؛ إدعُه يا غلامُ . فدعاه ، فنادمَه يومَه ، وأمر له بألفي دينار وما يحمله من الظَّهْر[3] ، وخلع عليه خِلعةً تامّة من ثيابه ، وأمر بِبَذْرَقته[4] إلى آخر عمله .

● محمد بن يزيد قال :

مات لعبدالله بن طاهر ابنان صغيران في يوم واحد ، فدخل عليه أبو تمام فأنشده :

ما زالت الأيامُ تُخبرسائلاً أن سوف تفجعُ مُسهِلاً أو عاقلا
مجدٌ تأوّب طارقاً حتى إذا قلنا أقام الدهرَ أصبح راحلا
نجمان شاء اللهُ ألّا يَطلُعا الا ارتدادَ الطَّرف حتى يأفِلا
إنّ الفجيعةَ بالرّياض نواضراً لأجلُّ منها بالرّياض ذوابلا
لو يُنسبان لكان هذا غارباً للمَكْرُمات وكان هذا كاهلا
لهفي على تلك المخايلِ منهما لو أُمهِلت حتى تكون شَمائلا
لغدا سكونُهما حِجىً وصِباهما حِلماً وتلك الأريحيّةُ نائلا
إنّ الهلال إذا رأيتَ نموّه أيقنتَ أن سيكونُ بدراً كاملا[5]

* * *

(١) قومس : صقع كبير من خراسان وبلاد الجبل . المهرية : الابل المنسوبة الى مهرة .

(٢) العُتبى : الرضى وازالة العتب .

(٣) الظهر : الأبل التي تحمل الأثقال .

(٤) بذرقته : حراسته .

(٥) المسهل : النازل في السهل . العاقل : الممتنع في الجبل العالي . تأوب . ورد ليلاً . ينسبان : كذا في المطبوعة ، ورواية الديوان : ينسآن ، أي يؤخر في أجلهما . الحجى : العقل والفطنة .

٧

أبو حَيَّة النُّمَيْرِيّ

[الأغاني الجزء ١٦ ص ٣٠٧ وما بعدها]

الشَّاعر

أبو حَيّةَ الهيثم بن الربيع بن زُرارة ... بن نُـمَير بن عامر بن صَعصعة ...

وأبو حيّة شاعرٌ مجيد مقدَّمٌ من مُخَضرمي الدولتين الأموية والعبّاسية ، وقد مدح الخلفاء فيهما جميعاً ، وكان فصيحاً مُقَصِّداً راجزاً ، من ساكني البصرة ، وكان أهوجَ جَباناً بخيلاً كَذّاباً ، معروفاً بذلك أجمعَ . وكان أبو عمرو ابن العَلاء يُقدّمه . وقيل إنه كان يُصرَع .

أبو عثمان قال : كان أبو حيّة النميري مجنوناً يُصرَع ، وقد أدرك هشام ابن عبد الملك .

عبد الرحمن بن أخي الأصمعيّ قال : سمعت عمّي يقول : أبو حية في الشعراء كالرجل الرَّبْعة لا يُعَدّ طويلاً ولا قصيراً .

قال : وسمعت أبا عمرو يقول : هو أشَعرُ في عُظم الشِعر من الراعي .

طائفة من أخباره

● [عن طائفة من الرواة :]

كان لأبي حيّة سيفٌ يُسمّيه لُعابَ المنيّة ، ليس بينه وبين الخَشَبة فرقٌ ، وكان من أجبنَ الناس .

قال : فحدّثني جارٌ له قال : دخل ليلةً إلى بيته كلبٌ ، فظَنّه لِصاً ، فأشرفتُ عليه وقد انتضى سيفَه لعابَ المنيّة ، وهو واقفٌ في وسط الدار وهو يقول : أيّها المغترُّ بنا ، والمجترىءُ علينا ، بئس واللهِ ما اخترتَ لنفسك ، خيرٌ قليل ، وسيفٌ صَقيل ، لعابُ المنيّة الذي سمعتَ به ، مشهورةٌ ضربتُه ، لا تُخاف نَبْوتُه ، أُخرُجْ بالعفو عنك قبل أن أدخُلَ بالعُقوبة عليك . إنّي واللهِ إن أدعُ قيساً إليك لا تَقُمْ لها . وما قيس ؟ تملأ واللهِ الفضاءَ خيلاً ورَجْلاً ، سبحانَ الله ! ما أكثرَها وأطيبَها ! فبينا هو كذلك إذ خرج الكلبُ ، فقال : الحمدُ لله الذي مسَخك كلباً ، وكفاني حَرباً .

● قالوا :

كان أبو حيّة النُّمَيريّ من أكذب النّاس ، فحدّث يوماً أنه يخرُج إلى الصحراء ، فيدعو الغِربان فتقعُ حولَه ، فيأخذ منها ما شاء . فقيل له : يا أبا حيّة ، أرأيتَ إن أخرجناك إلى الصحراء ، فدعوتَها فلم تأتِكَ ، فما نصنع بك ؟ قال : أبعَدَها اللهُ إذن .

قال : وحدّثنا يوماً قال : عنَّ لي ظَبْيٌ يوماً ، فرميتُه ، فراغ عن سهمي ، فعارضه السهمُ ، ثم راغ ، فعارضه السهم ، فما زال والله يروغ ويعارضه حتى صرعه ببعض الجبّانات .

قال : وقال يوماً : رميتُ والله ظَبيةً ، فلمّا نفَذ سهمي عن القوس ذكرت بالظبية حبيبةً لي ، فعدوتُ خلفَ السّهم حتى قبضتُ على قُذَذه[1] قبل أن يُدركَها .

---

(١) القذة : ريشة السهم .

● عن الأصمعيّ قال :

وفد أبو حيّة النميريّ على المنصور ، وقد امتدحه وهجا بني حسن بقصيدته التي أولها :

عُوجا نُحيِّ ديارَ الحيِّ بالسَّنَدِ — وهل بتلك الدّيارِ اليومَ من أحدِ

يقول فيها :

أحينَ شِيمَ فلم يترُكْ لهم تِرةً — سيفٌ تقلّده الرِّئبالُ ذو اللِّبَدِ

سَللتموه عليكم يا بني حَسَنٍ — ما إن لكم من فَلاحٍ آخرَ الأَبَد

قد أصبحتْ لبني العبّاس صافيةً — لِجَدْعِ آنافِ أهل البَغْي والحسَد

وأصبحت كلهَاة الليث في فمه — ومن يحاولُ شيئاً في فم الأسدِ

فوصله أبو جعفر بشيء دون ما كان يُؤمِّلُ ، فاحتجن لِعيالـه أكثره ، وصار إلى الحِيرة ، فشرب عند خَمّارة بها ، فأعجبه الشُّربُ ، فكرِه إنفادَ ما معه ، وأحب أن يدومَ له ما كان فيه ، فسأل الخَمارة أن تبيعَه بنسيئةٍ ، وأعلمها أنه مدح الخليفةَ ، وجماعةً من القُوّاد . ففعلت ....

● عن عبدالله بن مُسلم قال :

لقِي ابنُ مناذر أبا حيّة فقال له : أنشِدني بعضَ شعرك . فأنشده :

« ألا حيِّ من أجل الحبيب المَغانيا »

فقال له ابن مناذر : وهذا شعرٌ ! فقال أبو حيّة : ما في شعري عيبٌ هو شرٌّ من أنك تسمعه . ثم أنشده ابنُ مناذر شيئاً من شعره ، فقال أبو حيّة : قد عرفتك ما قصتك[1] ؟

* * *

---

(١) روي هذا الخبر في ترجمة ابن مناذر عل نحو مختلف عما ها هنا بعض الاختلاف .

٨

أبو دُلامة

[الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٥ وما بعدها]

الشاعر

أبو دُلامة زَنْد بن الجَون ، وأكثر الناس يُصحِّف اسمه فيقول « زيد » بالياء ، وذلك خطأ ، وهو زندٌ بالنون . وهو كُوفيٌّ أسودُ ، مولًى لبني أسد . وكان أبوه عبداً لرجلٍ منهم يُقال له فُضافِض ، فأعتقه . وأدرك آخر أيام بني أميّة ، ولم يكن له في أيّامهم نَباهةٌ . ونبَغ في أيام بني العبّاس ، وانقطع إلى أبي عبّاس وأبي جعفر المنصور والمَهديّ ، فكانوا يُقدّمونه ويَصِلونه ويستطيبون مُجالسته ونوادره . وقد كان انقطع إلى رَوح بن حاتم المُهَلَّبيّ أيضاً في بعض أيامه ؛ ولم يصل إلى أحدٍ من الشعراء ما وصل إلى أبي دُلامة من المنصور خاصّةً .

وكان فاسدَ الدِّين ، رَديء المذهب ، مرتكباً للمَحارم ، مُضيّعاً للفُروض ، مُجاهراً بذلك . وكان يُعلَم هذا منه ويُعرَف به ، فيُتَجافى عنه لِلُطف محلّه .

عن محمّد بن حَبيبَ قال :

اسم أبي دلامة زَنْد ، بالنون ، ومن الناس من يَرويه بالياء . وكُنّي أبا دُلامة باسم جبلٍ بمكّة يقال له أبو دُلامة ، كانت قريش تئد فيه البناتِ في الجاهليّة ، وهو بأعلى مكّة .

أخباره مع المنصور

كان أوّل ما حُفظ من شعره وأسنيت الجوائز له به قصيدةً مدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قتلَه أبا مُسلم .

عن أحمد بن حبيبٍ قال : لمّا قال أبو دُلامة قصيدته في قتل أبي مُسلم التي يقول فيها :

أبا مُسلِمٍ خوفتَني القتلَ فانتحى ... عليك بما خوّفتَني الأسدُ الوَرْدُ
أبا مسلمٍ ما غيّر اللهُ نِعمةً ... على عَبده حتى يُغَيِّرَها العبدُ

أنشدها المنصورَ في مَحفِلٍ من الناس فقال له : احتكِمْ . قال : عشرة آلاف درهم . فأمر له بها . فلمّا خلا به قال له : إيهِ ! أما والله لو تعدَّيتَها لقتلتُك .

أبو مالك عبدالله بن محمّد قال : حدّثني أبي قال :

لمّا تُوفيّ أبو العبّاس السفّاح دخل أبو دلامة على المنصور ، والناسُ عنده يُعزّونه ، فأنشأ أبو دُلامة يقول :

أمسيتَ بالأنبار يا بنَ محمّدٍ ... لم تستطع عن عُقْرها تحويلا
وَيلي عليك وويلُ أهلي كُلّهم ... وَيلاً وعَولاً في الحياة طويلا
فَلتبكينّ لك النساءُ بعَبرةٍ ... وَليبكينّ لك الرجالُ عَويلا
مات النّدى إذ مُتَّ يا بنَ محمّدٍ ... فجعلتَه لك في الثَّراء عَدِيلا
إنّي سألتُ الناس بعدَكَ كلَّهم ... فوجدت أسمحَ من سألتُ بخيلا
ألشِقْوتي أُخّرتُ بعدك للتي ... تدع العزيزَ من الرّجال ذليلا
فَلأحلِفنّ يميـنَ حقٍّ بَرّةً ... بالله ما أُعطِيتُ بعدك سُولا(١)

---

(١) الثراء : لغة في الثرى وهو التراب . السول والسؤل : ما يسأله المرء من مطالب .

قال : فأبكى الناسَ قولُه ، فغضب المنصور غضباً شديداً وقال : لَئن سمعتُك تُنشد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانك . فقال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين ، إنّ أبا العبّاس أميرَ المؤمنين كان لي مُكرِماً ، وهو الذي جاء بي من البَدو كما جاء الله بإخوة يوسُف إليه ، فقل كما قال يوسف لإخوته : « لا تَثريبَ عليكم اليومَ يَغفِرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين » . فسُرّي عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دلامة ، فسَلْ حاجتَك . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العبّاس أمرَ لي بعشرةِ آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريضٌ ، ولم أقبَضْها . فقال المنصور : ومَن يعرف هذا؟ فقال : هؤلاء . وأشار إلى جماعة ممن حضَر . فوثب سليمان بن مُجالِد وأبو الجَهْم فقالا : صدقَ أبو دلامة ، نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبي أيّوب الخازن وهو مَغيظٌ : يا سليمانُ ، ادفَعْها إليه وسيِّرْه إلى هذا الطاغية (يعني عبدَالله بن عليّ[1] ، وقد كان خرج بناحية الشأم وأظهر الخِلاف) ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي أُعيذُك بالله أن أخرجَ معهم ، فواللهِ إنّي لَمشؤوم . فقال المنصور : امضِ ، فإنّ يُمْني يغلِبُ شؤمَك ، فاخرُجْ . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أُحبّ لك أن تُجرّب ذلك منّي على مثل هذا العسكر ، فإنّي لا أدري أيُّهما يغلِب : أيُمْنك أم شؤمي ، إلّا أنّي بنفسي أوثَق وأعرَف وأطوَل تجربةً . قال : دَعْني من هذا فمالك من الخروج بُدّ . فقال : إنّي أَصْدُقُك الآنَ ، شهدتُ واللهِ تسعةَ عشرَ عسكراً كُلُّها هزمت ، وكنتُ سببَها ، فإن شئت الآن على بَصيرةٍ أن يكون عسكرُك العشرين فافعَلْ . فاستغرب أبو جعفر ضَحِكاً[2] وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى[3] بالكوفة .

(١) هو عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس عم الخليفة المنصور وقد خرج على المنصور عام ستة وثلاثين ومائة وانتهى الأمر بهزيمته عل يد أبي مسلم الخراساني ثم قتل .

(٢) استغرب ضحكاً : ضحك ضحكاً كثيراً .

(٣) عيسى بن موسى بن محمد الهاشمي : أمير الكوفة وكان وليّ عهد المنصور بعهد من السفاح ثم جعل المنصور المهدي مكانه .

عن الهيثم بن عَديّ قال :

لمّـا مات أبو العبّاس السفّاح ووَلي المنصورُ دخل عليه أبو دلامةَ ، فقال له أبو جعفر : ألست القائلُ لأبي العبّاس :

وكُنّا بالخليفة قد عَقَـدْنــــا لِـواءَ الأمر فانتقض اللـــواءُ
فنحن رعيّـةٌ هَلَكت ضَياعـــاً تَـسُوق بنا إلى الفِـتَـن الرِّعـــاءُ

قال : ما قلت هذا يا أمير المؤمنين . قال : كذبتَ والله ، أفلست القائل :

هلَك النَّـدى إذ بِـنتَ يا بنَ محمّدٍ فجعلتَـه لك في التُراب عَـديلا
ولقد سألت الناس بعدَك كلَّـهم فوجدتُ أكرمَ من سألـتُ بخيلا
وَلقد حلفتُ على يمينٍ بَـــــرَّةٍ بالله ما أُعطيت بعدك سُــولا

فقال أبو دلامة : إنّ أخاك صلّى الله عليه غَـلَبني على صَبْري ، وسَلَبني عَزيمتي وعزّني بإحسانه إليّ وجَزَعي عليه ، فقلتُ ما لم أتأمّـلْه ، وإنّي أرغب في الثمن فاستَفْرَهَ[1] السِّلعة حيّاً وميّتاً . فإن أعطيتَ ما أعطى أخذتَ ما أخَذ . فأمر به فحُبس ثلاثاً ، ثم خَلّى سبيله ودعاه إليه فوصله ، ثم عاد له إلى ما كان عليه .

الجاحظ قال :

كان أبو دُلامة بين يدي المنصور قائماً ـ وأخبرني إبراهيم بن أيّـوب عن ابن قتيبة أنه كان واقفاً بين يدَي السَفّاح ـ فقال له : سَلْني حاجتَك . قال أبو دلامة : كلبٌ أتصيّد به . قال : أعطُوه إيّاه . قال : ودابّـةٌ أتصيّد عليها . قال : أعطُوه . قال : وغلامٌ يصيد بالكلب ويقُوده . قال : أعطوه غلاماً . قال : وجاريةٌ تُصلح لنا الصَّيد وتُطعمنا منه . قال : أعطوه جاريةً . قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عَبيدُك فلا بُـدّ لهم من دارٍ يسكُنونها : قال : أعطوه

(١) استفره الشيء : اختار فارهه أي كريمه .

داراً تجمعُهم . قال : فإن لم تكن لهم ضَيْعةٌ فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أعطيتُك مائةَ جَريبٍ[1] عامرة ومائة جَريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : ما لا نباتَ فيه . فقال : قد أقطعتُك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فَيافي بني أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلَّها عامرة . قال : فَأْذَنْ لي أن أُقبِّلَ يدك . قال : أمّا هذه فدَعْها . قال : واللهِ ما منعتَ عيالي شيئاً أقلَّ ضرراً عليهم منها .

قال الجاحظ : فانظُر إلى حِذقه بالمسألة ولطفه فيها : ابتدأ بكلب فسَهّل القصّة به ، وجعل يأتي بما يَليه على ترتيبٍ وفُكاهة ، حتى نال ما لو سأله بَديهةً لمَا وصَل إليه .

جعفر بن الحسين اللِّهبيّ[2] قال :

كان أبو جعفر المنصور قد أمر أصحابَه بلُبس السَّواد وقلانسَ طِوالٍ تُدْعَم بعيدان من داخلها ، وأن يُعلّقوا السُّيوف في المَناطق ، ويكتبُوا على ظهُورهم : « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهو السَّميعُ العَليم » . فدخل عليه أبو دلامة في هذا الزيِّ . فقال له أبو جعفر : ما حالُك ؟ قال : شرُّ حالٍ : وجهي في نِصفي ، وسَيفي في ... ، وكتابُ الله وراءَ ظَهري ، وقد صبغتُ بالسَّواد ثيابي . فضحك منه وأعفاه وحدَه من ذلك ، وقال له : إيّاك أن يسمعَ هذا منك أحدٌ .

ونسخت من كتابٍ لابن النَطّاح فذكر مثل هذه القصّة سواءً وزاد فيها :

وكنّا نُرجيّ من إمامٍ زيادةً ... فجاد بطُول زاده في القَلانس
تَراها على هام الرّجال كأنّها ... دِنانُ يهودٍ جُلّلت بالبَرانسِ

(١) الجريب من الأرض : ما يوازي مساحة ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، وقيل أكثر من ذلك .

(٢) اللهبي : نسبة الى بني لهب بكسر أوله وسكون ثانية وهم بطن من الازد وقد ورد في المطبوعة اسم هذا الراوية منسوباً الى (لهب) تارة والى (المهلّب) تارة أخرى .

فضحك منه وأعفاه .

عن جعفر بن الحسين اللّهبيّ .. والهيثم بن عديّ قالا :

قال أبو أيوّب المُورياني لأبي جعفر ـ وكان يَشنأ[1] أبا دُلامة ـ : إنّ أبا دلامةَ معتكفٌ على الخمر فما يحضُر صلاةً ولا مسجداً ، وقد أفسد فِتيان العسكر ، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأجِرتَ فيه وفي غيره من فتيان عَسكرك بقَطْعه عنهم . فلمّا دخل عليه أبو دلامة قال له : يا بنَ اللَّخْناء ، ما هذا المُجونُ الذي يبلُغني عنك ! قال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين ، ما أنا والمُجونُ وقد شارفتُ بابَ قبري ! قال : دَعْني من استكانتك وتضرُّعِك ، وإيّاك أن تَفُوتَك صلاةُ الظُّهر والعصر في مَسجدي ، فلئن فاتتاك لأُحسننَّ أدبكَ ولأُطيلنّ حَبسَك . فوقع في شرٍّ ولزِم المسجد أياماً ، ثم كتب قصّته ودفعها إلى المهديّ فأوصَلَها إلى أبيه ، وكان فيها :

ألم تعلَما أنّ الخليفةَ لَــزّني ... بمسجدِه والقَصر مالي وللقصرِ
أُصلّي به الأُولى جميعاً وعَصرَها ... فوَيلي من الأُولى ووَيلي من العَصر
أُصلّيهما بالكرْه في غير مَسجدي ... فما ليَ في الأولى ولا العصر من أَجر
لقد كان في قومي مساجدُ جَمّةٌ ... سِواه ولكنْ كان قَدْراً من القَدرِ
يُكلّفني من بعد ما شِبتُ خُطّةً ... يَحُطُّ بها عنّي الثّقيلَ من الوِزْر
وما ضرّه واللهُ يغفِرُ ذنبَه ... لو انّ ذُنوبَ العالمين على ظَهري[2]

قال : فلمّا قرأ المنصور قصّته ضحك وأعفاه من الحضور معه ، وأَحلفه أن يُصلّي الصّلاة في مسجد قبيلته .

نسخت من كتاب ابن النطّاح قال :

---

(١) يشنأ : يبغض ، والضمير يعود على أبي أيوب .

(٢) لزّني : ألزمني .

دخل أبو دلامة على المنصور فأنشده :

رأيتُك في المنام كسوتَ جِلْدي ثياباً جَمّةً وقضيتَ دَيني

فكان بَنفسجيُّ الخَزِّ فيها وساجٌ ناعمٌ فأتمّ زَيْني

فصَدِّقْ يا فدتْك النفسُ رُؤيا رأتْها في المنام كذاك عَيني[1]

فأمر له بذلك وقال له : لا تَعُدْ أن تتحلّمَ[2] عليَّ ثانيةً فاجعلَ حُلمَك أضغاثاً[4] ولا أُحقّقه .

ثم خرج من عنده ومضى فشرب في بعض الحانات ، فسَكر وانصرف وهو يميل . فلَقِيه العَسَسُ فأخذوه ، وقيل له : مَن أنت وما دِينُك ؟ فقال :

دِيني على دين بني العبّاسِ ما خُتم الطِّين على القِرطاس

إنّي اصطحبتُ أربعاً بالكاس فقد أدار شُربُها براسي

فهل بما قلت لكم من باسِ

فأخذوه ومضوا . وخَرّقوا ثيابه وساجَه . وأُتي به أبو جعفر ـ وكان يُؤتَى بكلّ من أخذه العَسس ـ فحبَسه مع الدّجاج في بيت . فلمّا أفاق جعل يُنادي غُلامه مَرّةً وجاريته أخرى فلا يُجيبه أحدٌ ، وهو في ذلك يسمع صوتَ الدّجاج وزُقاءَ الدُّيوك . فلمّا أكثر قال له السجّان : ما شأنك ؟ قال : ويلَك من أنت وأين أنا ؟ قال : في الحبس ، وأنا فلان السَجّان . قال : ومن حبسَني ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ومَن خرق طَيلساني قال : الحرَس . فطلب منه أن يأتيه بدوَاةٍ وقِرطاس ، ففعل ، فكتب إلى أبي جعفر :

---

(١) الساج : الطيلسان المدوّر الواسع .

(٢) تحلّم : ادّعى أنه حلم وهو كاذب .

(٣) اضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها .

أميرَ المؤمنين فَدَتْك نفسي ... عَلامَ حبستَني وخَرقتَ ساجي
أمن صفراءَ صافيةِ المزاج ... كأنّ شعاعَها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبخت بنار الله حتى ... لقد صارت من النُّطَف النِّضاج
تَهَشّ لها القلوبُ وتشتهيها ... إذا بَرزت تَرقرقُ في الزُّجاج
أُقاد إلى السُّجون بغير جُرمٍ ... كأنّي بعضُ عُمّال الخَراج
ولو معهم حُبست لكان سهلاً ... ولكنّي حُبست مع الدَّجاج
وقد كانت تخبِّرُني ذنوبي ... بأنّي من عِقابك غيرُ ناجي
على أنّي وإن لاقيتُ شرّاً ... لِخيرك بعد ذاك الشرّ راجي[1]

فدَعا به وقال : أين حُبست يا أبا دُلامة ؟ قال : مع الدّجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أُقَوقي معهنّ حتى أصبحتُ . فضحك وخَلّى سبيله وأمر له بجائزة . فلمّا خرج قال له الرّبيع : إنّه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طبخت بنار الله (يعني الشمس) ؟ فأمر بردّه ثم قال : يا خبيثُ شربت الخمر ؟ قال ؟ لا . قال : أفلم تقل : « طُبخت بنار الله » تعني الشمس ؟ قال : لا واللهِ ما عنَيت إلّا نارَ الله المُوقدة التي تَطَّلع على فؤاد الرّبيع . فضحك وقال : خُذها يا ربيعُ ولا تُعاودْ التعرُّض .

ونسخت أنا من كتاب ابن النَطّاح قال :

دخل أبو دلامة على المنصور فأنشده :

أما وربِّ العاديات ضَبْحاً ... حقّاً وربّ المُوريات قَدْحا
إنّ المُغيراتِ عليَّ صُبحا ... والناكثاتِ من فؤادي قَرْحا
عَشرُ ليالٍ بينهنّ ضبحا ... يَجلُفن مالي كلَّ عام صُبحا[2]

---

(١) النطف ج نطفة : الماء الصافي .

(٢) العاديات : الخيل تعدو . الضبح : صوت أنفاس الخيل اذا عدت . أورى : أشعل . =

فقال له أبو جعفر : وكم تذبح يا أبا دلامة ؟ قال : أربعاً وعشرين شاةً . ففرض له على كل هاشميٍّ أربعةً وعشرين ديناراً ، فكان يأخذها منهم . فأتى العباسَ بن محمد في عَشْرِ الأضحى يتنجزُّها ، فقال : يا أبا دلامة ، أليس قد مات ابنُك ؟ قال : بلى .قال : انقُصُوه دينارين . قال : أصلح الله الأمير لا تفعلْ ، فإنه ترك عليَّ وَلَدين . فأبى الّا أن ينقُصَه . فخرج وهو يقول :

أخطاك ما كنت ترجُوه وتأمُلُه فاغسِلْ يديك من العبّاس باليأسِ
واغسِل يديك بأُشْنان فأَنْقِهما ممّا تؤمِّل من معروف عبّاس
جزاك ربُّك يا عبّاسُ عنّ فَرجٍ جَنّاتِ عَدْنٍ وعنّي جُرْزَتَي آسٍ[1]

فبلغ ذلك أبا جعفر فضحك ، واغتاظ على العبّاس وأمره أن يبعث إليه بأربعة وعشرين ديناراً أخرى ...

قال ابن النطّاح :

وأنشد ابو دلامة المنصورَ يوماً :

هاتيك والدتي عجوزٌ هِمّةٌ مثلُ البليّة دِرْعُها في المِشجَبِ
مهزولة اللَّحْيَين من يَرها يَقُلْ أبصرتُ غُولاً أو خيالَ القُطْرُب
ما إن تركتُ لها ولا لابنٍ لها مالاً يُؤَمِّلُ غيرَ بَكرٍ أجربِ
ودَجائجاً خمساً يَرُحن إليهم لمّا يَبِضْن وغيرَ عَيْرٍ مُغْرِب
كتبوا إليَّ صحيفةً مطبوعةً جعلوا عليها طِينةً كالعَقْرب
فعلمتُ أنّ الشرَّ عند فَكاكها ففككتُها عن مثل رِيح الجَوْرَب

= نكأ القرح : قشره قبل أن يبرأ . ضبح الثانية : لا معنى لها في هذا الموضع وارى أن فيها تحريفاً . ويحتمل كذلك أن يكون في الشطر الثاني تحريف ولعل صوابه : يجلحن مالي كل عامٍ جلحاً ، وجلح : قشر والمجاليح : السنون التي تذهب بالمال .

(١) الأشنان : نبات كانوا يغسلون به أيديهم وآنيتهم .

وإذا شبيهٌ بالأفاعي رُقِّشَتِ   يُوعِدْنَني بتلمُّظٍ وتَثَــؤُّبِ
يشكون أنّ الجوعَ أهلك بعضَهم   لَزَباً فهل لك في عِيالٍ لُزَّب
لا يسألونك غيرَ طَـلٍّ سَحابةٍ   تغشاهم من سَيلك المتحلِّـب
يا باذلَ الخَيرات يا بنَ بَذُولها   وابن الكرام وكلِّ قَرْمٍ مُنجِب
أنتم بنو العبّاس يُعلَم أنّكم   قِدْماً فوارسُ كلِّ يومٍ أشهَب
أحلاسُ خيل الله وهي مُغِيرةٌ   يخرُجْنَ من خَلَل الغُبار الأكهب[1]

قال : فأمر له بدارٍ يسكُنها وكُسوةٍ ودراهم . وكانت الدار قريبةً من قصره ، فأمر بأن تزاد في قصره بعد ذلك لحاجةٍ دعتْه إليها . فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قوله :

يا بنَ عمّ النبيِّ دَعوة شيخٍ   قد دنا هَدمُ داره ودمـارُهْ
فهو كالماخِضِ التي اعتـادها الطَّلْقُ فقَرّتْ وما يَقِـرُّ قَـرارُه
إن تَحُزْ عُسرَهَ بكَفَّيك يوماً   فبكَفَّيك عُسرُه ويَســارُه
أو تَدَعْـه فللبَـوار وأنّى   ولماذا وأنت حيٌّ بَـوارُه
هل يخاف الهَلاك شاعرُ قومٍ   قَدُمتْ في مديحهم أشعـارُه
لكمُ الأرضُ كُلُّها فأَعـيروا   شَيْخَكُم ما احتوى عليه جِدارُه
فكأنْ قد مضى وخَلّف فيكم   ما أعرتُم واقفرتْ منه دارُه[2]

فاستعبر المنصور وأمر بتعويضه داراً خيراً منها ووصله .

(١) الهمة : العجوز الفانية . المشجب : خشبات منصوبة تنشر عليها الثياب ، يريد أنها هزلت حتي باتت كخشبات المشجب . اللحي : عظم الحنك . القطرب : ذكر الغيلان . العير : الحمار . المغرب : الشديد البياض . اللزب : ضيق العيش . تحلب السيل : تدفق ماؤه . يقال : هو حلس خيل : أي يلازم ركوبها . الأكهب : الأغبر الى سواد .

(٢) الماخض : المرأة التي أتاها المخاض . البوار : الهلاك .

عن جعفر بن الحسين اللّهبيّ عن عمّه مصعَب :

أنّ حمّادة بنت عيسى تُوفيّت وحضر المنصورُ جنازتَها . فلمّا وقف على حُفرتها قال لأبي دُلامة : ما أعددتَ لهذه الحُفرة ؟ قال : بنتَ عمّك يا أمير المؤمنين حمّادةَ بنتَ عيسى يُجاء بها الساعةَ فتُدفَن فيها . فضحك المنصور حتى غُلب فستَر وجهَه .

أخباره مع المَهديّ

قال ابن النَطّاح :

لمّا قدِم المهديُّ من الرَّيّ دخل عليه أبو دلامة فأنشأ يقول :

إنّي نذرتُ لئن رأيتك سالماً ... بقُرى العراق وأنت ذو وَفْرِ

لَتُصَلِّيَنَّ على النبيّ محمدٍ ... ولَتملأنَّ دراهماً حِجْري

فقال : صلى الله عليه وسلّم ، وأمّا الدراهم فلا . فقال له : أنت أكرم من أن تُفرّق بينهما ثم تختار أسهلهما . فأمر بأن يُملأ حِجرهُ دراهم .

قال ابن النطّاح :

وصام الناس في سنة شديدة الحرّ على عهد المهديّ ، وكان أبو دلامة يَتنجّز جائزةً أمر له المهديُّ بها . فكتب إليه أبو دلامة رقعةً يشكو فيها أذى الحرّ والصوم وهي :

أدعُوك بالرَّحِم التي هي جَمَّعت ... في القُرب بين قَريبنا والأبعَدِ

إلّا سمعت وأنت أكرمُ مَن مَشى ... من مُنشِدٍ يرجو جزاءَ المنشِد

جاء الصّيام فصُمتُه متعبّداً ... أرجو رجاءَ الصائم المتعبّدِ

ولقِيتُ من أمر الصِّيام وحَرِّه ... أمرين قِيسا بالعَذاب المُوْصَدِ

وسجدتُ حتى جَبْهتي مشجوجةٌ ... ممّا يُناطِحُني الحصى في المسجدِ
فامنُنْ بتسريحي بمَطْلك بالذي ... أَسْلَفْتِنيه من البلاء المُرصَدِ[1]

فلمّا قرأ المهديّ رُقعته غضب وقال : يا عاضّ كذا من أُمّه ، أيُّ قرابةٍ بيني وبينك ؟ قال : رَحِم آدَم وحوّاء ، أنَسيتَهما يا أمير المؤمنين ! فضحك وقال : لا والله ما نسيتُهما . وأمر بتعجيل ما أجازه به وزاد فيه .

عبدالله بن الضَحّاك قال :

دخل أبو دلامة على المهديّ وهو يبكي ، فقال له : مالك ؟ قال : ماتت أمُّ دلامة ، وأنشده لنفسه فيها :

وكُنّا كزَوجٍ من قطاً في مَفازةٍ ... لَدى خَفض عيشٍ ناعمٍ مُؤْنِقٍ رَغْدِ
فأفردني ريبُ الزمان بصَرفــــه ... ولم أرَشيئاً قطُّ أوحشَ من فَرْدِ

فأمر له بثياب وطِيب ودنانير ، وخرج . فدخلت أمّ دلامة على الخيزُران فأعلمتها أنّ أبا دلامة قد مات ، فأعطتها مثل ذلكَ ، وخرجتْ . فلمّا التقى المهديّ والخَيْزُران عَرفا حيلتَهما فجعلا يضحكان لذلك ويَعجبان منه .

عن المدائنيّ قال :

دخل أبو دلامة على المهديّ وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعبّاس بن محمد ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعةٌ من بني هاشم ، فقال له : أنا أُعطي الله عهداً لَئن لم تهجُ واحداً ممّن في البيت لأقطعنّ لسانك ... فنظر إليه القوم ، فكُلّما نظر إلى واحدٍ منهم غَمزه بأنّ عليه رِضاه . قال أبو دلامة : فعلمت أنّي قد وقعتُ وأنّها عَزْمة من عَزَماته لا بُدَّ منها ، فلم أرَ أحداً أحقّ بالهجاء منّي ، ولا أَدعى للسَّلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

---

(١) المؤصد : المطبق .

ألا أبلِغْ لديك أبا دُلامَـــهْ فليس من الكِرام ولا كَـرامهْ
إذا لبِس العِمامةَ كان قــرداً وخِنزيراً إذا نزَع العِمامـه
جمعتَ دمامةً وجمعت لؤمـاً كذاك اللُّؤم تتبعه الدَّمامـه
فإن تك قد أصبت نعيمَ دنيـا فلا تَفرحْ فقد دنت القِيامـه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحدٌ إلّا أجازه .

الزُّبير عن عمّه قال :

خرج المهديُّ وعليّ بن سليمان إلى الصّيد ، فسَنح لهما قطيعٌ من ظِباء ، فأُرسلت الكلاب وأُجريت الخيل ، فرمى المهديُّ ظَبياً بسهم فصرعه ، ورمى عليّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله . فقال أبو دلامة .

قد رمى المهـديّ ظَبيـاً شـكّ بالسَّهـم فـؤادَهْ
وعليّ بـن سليمـا ن رمى كلبـاً فصـادَه
فهنيئـاً لهمـا كُـلُّ امـرىءٍ يـأكلُ زادَه

فضحك المهديّ حتى كاد أن يسقُطَ عن سَرجه ، وقال : صدَق والله أبو دلامة ، وأمر له بجائزة سَنيّة ...

قال ابن النّطّاح :

ودخل أبو دلامة على المهديّ وعنده مُحرِز ومُقاتل ابنا ذُؤال يعاتبانه على تقريبه أبا دلامة ويَعيبانه عنده ، فقال أبو دلامة :

ألا أيّها المهديُّ هل أنت مُخبِـري وإن أنت لم تفعل فهل أنت سائلي
ألم تَـرْحَـم اللَّحْيَين من لِحيتَيهمـا وكلتاهما في طولهـا غيرُ طائل
وإن أنت لم تفعل فهل أنت مُكرِمي بحَلْقِهما من مُحرزٍ ومُقاتِلِ
فـإن يأذَنِ المهـديُّ لي فيهما أَقُـلْ مقالاً كوقع السيف بين المَفاصل
وإلّا تَـدَعْـني والهمـومُ تَنُـوبني وقلبي من العِلْجَين جَمٌّ البلابلِ

فقال : أو آخذُ لك منهما عشرةَ آلاف درهم يفديان بها أعراضهما منك ؟ قال : ذلك إلى أمير المؤمنين . فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

قال : وأُهدي للمهديّ فيلٌ ، فرآه أبو دلامة فولّى هارباً وقال :

يا قوم إنّي رأيت الفيل بعدَكم لابارك اللهُ لي في رؤية الفيلِ
أبصرتُ قصراً له عينٌ يُقَلِّبُها فكدتُ أرمي بسَلْحي في سراويلي

قال ابن النَطّاح :

ودخل أبو دلامة على المهديّ فأنشده قصيدته في بغلته المشهورة :

أتاني بَغلةً يُستامُ منها عَريقٌ في الخَسارة والضَّلالِ
فقال تبيعُها قلتُ ارتبِطْها بحُكْمك إنّ بيعي غير غالي
فأقبل ضاحكاً نحوي سروراً وقال أراك سَمحاً ذا جَمال
هَلُمّ إليّ يخلو بي خِداعاً وما يَدري الشقيُّ بمن يُخالي
فقلت بأربعين فقال أَحسِنْ إليَّ فإنّ مِثْلَك ذو سِجال
فأَترُك خمسةً منها لعلمي بما فيه يصير من الخَبالِ[1]

فقال المهديّ : لقد أفلتَّ من بَلاءٍ عظيم . قال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهراً أتوقّع صاحبَها أن يردَّها . قال : ثم أنشده :

فأَبْدِلْني بها يا ربِّ طِرْفاً يكون جمالُ مَرْكَبه جمالي[2]

فقالِ لصاحب دوابّه : خَيِّره من الإصطَبل مَركبين . قال : يا أمير المؤمنين ، إن كان الاختيارُ لي وقعت في شرٍّ من البغلة ، ولكن مُرْه أن يختار لي . فقال : اختَرْ له .

---

(١) يستام : يسأل عن الثمن ويساوم . ذو سجال : أي كريم والسجل : الدلو العظيمة والرجل الجواد .

(٢) الطرف : الكريم من الخيل .

عن الهيثم بن عديّ قال :

دخل أبو دلامة على المهديّ ، فحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له : هل بقي أحدٌ من أهلي لم يَصِلك ؟ قال : إن أمَّنْتَني أخبرتُك ، وإن أعفيتَني فهو أَحبُّ إليّ . قال : بل تُخبرني وأنت آمِنٌ . قال : كلُّهم قد وصَلني إلّا حاتمَ بني العبّاس . قال : ومن هو ؟ قال : عمُّك العبّاس بن محمد . فالتفت إلى خادم على رأسه وقال : جأْ[1] عُنُقَ ... فلمّا دنا منه صاح به أبو دلامة : تنحَّ يا عبدَ السَّوء لا تُحنِثْ مولاك وتنكثْ عهدَه وأمانه . فضحك المهديّ وأمر الخادم فتنحّى عنه . ثم قال لأبي دلامة : ويلَك ! واللهِ عمّي أَبخل الناس . فقال أبو دلامة : بل هو أسخى الناس . فقال له المهديّ : واللهِ لو مُتَّ ما أعطاك شيئاً . قال : فإن أنا أتيتُه فأجازني ؟ قال : لك بكلّ درهم تأخذُه منه ثلاثةُ دراهم . فانصرف أبو دلامة فحبّر للعبّاس قصيدةً ثم غدا بها عليه وأنشده :

قِفْ بالدّيار وأيَّ الدّهر لم تَقِف ... على المنازل بين الظَّهر والنَّجَفِ
وما وقوفُك في أطلال مَنزلةٍ ... لولا الذي استدرجتْ من قلبك الكَلِفِ
إن كنت أصبحتَ مشغوفاً بساكنها ... فلا وربِّك لا تَشفيك من شغَف
دع ذا وقُل في الذي قد فاز من مُضرٍ ... بالمكرُمات وعِزٍّ غير مُقْتَرَفِ
هذي رسالةُ شيخٍ من بني أسدٍ ... يُهدي السّلام إلى العبّاس في الصُحُف
تخُطّها من جواري المِصر كاتبةٌ ... قد طالما ضَربت في اللام والألفِ
وطالما اختلفت صيفاً وشاتيةً ... إلى مُعلّمها باللّوح والكَتِفِ
حتى إذا نَهَد الثديان وامتلآ ... منها وخِيفت على الاسراف والقَرَفِ
صِينت ثلاثَ سِنينٍ ما ترى أحداً ... كما يصون تجارٌ دُرّةَ الصَّدَف
فينما الشيخُ يهوي نحو مجلسه ... مبادراً لصلاة الصُّبح بالسَّدَفِ

(١) وجأ عنقه : ضربها .

حانت له لمحةٌ منها فأبصرهـــــا مُطلّـةً بينَ سِجْفَيها من الغُـرَف
فخرّ واللهِ ما يَدري غدا تئـذٍ أخرَّ مُنكشفاً أم غير مُنكشـف
وجاءه الناسُ أفواجـاً بمائهـم ليغسِلوا الرّجلَ المَغْشِيّ بالنُطَف
ووسوسوا بقُرانٍ في مَسامعـه مخافـةَ الجِنّ والإنسانُ لم يَخَف
شيئاً ولكنّه من حُبّ جاريـةٍ أمسى وأصبح موقوفاً على التّلَف
قالوا : لك الويلُ ما أبصرتَ؟ قلت لهم : تطّلعتْ من أعالي القصر ذي الشُّرَف
فقلت : أيُّكم واللهُ يَأجُـره يُعين قُوّته فيها على ضَعَـف
فقام شيخٌ بهيٌّ من رجالهـمُ قد طالما خدع الأقوام بالحَلِفِ
فابتاعها لي بألفيَ درهمٍ فأتـى بها إليّ فألقاهـا على كتفـي
فبتُّ ألثِمُها طَوراً وألزَمُهـا طوراً وأصنع بعض الشيء في اللُّحُف
فبين ذاك كذا إذ جاء صاحبُهـا يبغي الدراهمَ بالميزان ذي الكِفَف
وذِكْرِ حقٍّ على زَنْدٍ وصاحبـه والحقّ في طَرفٍ والطّينُ في طَرَف
وبين ذاك شهودٌ لا يضرُّهـم أكنتُ معترفاً أم غير معترِفِ
فإن يكن منك شيءٌ فهو حقُّهـم أو لا فإنّيَ مدفوعٌ إلى التَلَفِ (١)

قال : فضحك العبّاس وقال : ويَحك ! أصادقٌ أنت ؟ قال : نعم والله . قال : يا غلام ادفَع إليه ألفَي درهم ثمنها . قال : فأخذها ثم دخل على المهديّ فأخبره القصّة وما احتال له به ، فأمر له المهديّ بستة آلاف درهم ...

---

(١) الظهر اسم موضع . النجف : موضع بظهر الكوفة ، وهو دومة الجندل بعينها ، وبالقرب منه قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . مقترف : متهم . السدف : الظلمة . النطفة : الماء الصافي . ألزمها : أعانقها . ذكر الحق : صكّ الدَين .

أبو الشِّبل عاصم بن وهب البُرجُميّ قال :

دخل أبو دلامة على المهديّ وبين يديه سَلمةُ الوصيف واقفاً ، فقال : إنّي أهديت إليك يا أمير المؤمنين مُهراً ليس لأحدٍ مثلُه ، فإن رأيت أن تُشرِّفَني بقَبوله . فأمره بإدخاله إليه ، فخرج وأدخل إليه دابّته التي كانت تحته ، فإذا به بِرْذَونٌ[1] مُحطَّم أعجفُ هرِمٌ . فقال له المهدي : أيُّ شيءٍ هذا وَيلك ! ألم تزعُم أنه مُهر ! فقال له : أو ليس هذا سَلمةَ الوصيفَ بين يديك قائماً تُسمّيه الوصيفَ وله ثمانون سنة ، وهو عندك وصيفٌ ! فإن كان سلمة وصيفاً فهذا مُهر . فجعل سلمة يشتُمه والمهديُّ يضحك . ثم قال لسلمة : ويلَك ، إنّ لهذه منه أخواتٍ ، وإن أتى بها في مَحفِلٍ فَضَحَك . فقال ، أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين ، فليس من مواليك أحدٌ إلّا وقد وصَلني غيرَه ، فإنّي ما شربت له الماء قطُّ . قال : فقد حكمت عليه أن يشتريَ نفسه منك بألف درهم حتى يتخلّص من يدك . قال : قد فعلتُ على أن لا يُعاوِد . فقال له : ما ترى ؟ قال : أَفعل ، فلولا أنّي ما أخذت منه شيئاً قطّ ما فعلت معه مثلَ هذه . فمضى سلمةُ فحملها إليه .

عن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه :

كان عند المهديّ رجلٌ من بني مروان ، فدخل إليه وسلّم عليه . فأُتي المهديّ بعِلْجٍ[2] فأمر المروانّي بضرب عُنقه . فأخذ السيف وقام فضربه ، فنبا السيفُ عنه ، فرمى المروانّي به وقال : لو كان من سيوفنا ما نبا . فسمع المهديُّ الكلام فغاظه حتى تغيّرَ لونُه وبان فيه . فقام يَقطينٌ[3] ، فأخذ السيف وحسَر عن

---

(١) البرذون : الدابّة .

(٢) العِلْج : الرجل من كفار العجم .

(٣) هو يقطين بن موسى البغدادي . كان أحدَ دعـاة بني العباس . ولاه المهدي بناء الزيادة في المسجد الحرام . توفي سنة ١٨٦ هـ

ذِراعيه ثم ضرب العلجَ فرمى برأسه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذه سيوفُ الطاعة لا تَعمل إلّا في أيدي الأولياء ولا تعمل في أيدي أهل المَعصية . ثم قام أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين ، قد حَضَرني بيتان أفأقولُهما ؟ قال : قُلْ . فأنشد :

أيُّهذا الإمامُ سيفُك ماضٍ وبكفِّ الوَليّ غيرُ كَهامِ[1]
فإذا ما نبا بكفٍّ علِمنا أنّها كفُّ مُبغِضٍ للإمام

قال : فسُرّي عن المهديّ وقام من مجلسه ، وأمر حُجّابه بقتل الرجل المروانيّ ، فقُتل .

الهيثم قال :

حجّت الخيزُران[2] ، فلمّا خرجتْ صاح بها أبو دلامة . قالت : سَلُوه ما أمرُه . فقالوا له : ما أمرُك ؟ فقال : أَدنوني من مَحمِلها . قالت : أَدنُوه . فأُدنيَ ، فقال : أيتها السيّدة ، إنّي شيخ كبير وأَجرُك فيَّ عظيم . قالت : فَمَهْ ؟ قال : تَهَبين لي جاريةً من جواريكِ تُؤنسني وترفُق بي وتُريحني من عجوزٍ عندي ، قد أَكلتْ رِفْدي[3] ، وأطالت كدّي ، وقد عاف جلدَها جِلدي ، وتمنّيت بُعدَها ، وتشوّقتُ فَقْدَها . فضحكت الخيزران وقالت : سوف آمرُ لك بما سألت .

فلمّا رجعتْ تلقّاها وذكّرها وخرج معها إلى بغداد ، فأقام حتى غَرِض[4] . ثم دخل على أمّ عُبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رُقعةً قد كتبها إلى الخيزُران فيها :

---

(1) كهام : غير قاطع .

(2) الخيزران : زوج المهدي وأم الخليفتين الهادي والرشيد ، وكانت أم ولد .

(3) الرفد : العطاء .

(4) غرض : ضجر وملّ .

أَبلِغي سيّدتي باللـه يا أمَّ عُبَيدَهْ
أنّها أرشدَها اللـهُ وإن كانت رشيدَه
وعدتْني قبل أن تَخْرُجَ للحجّ وَليدَه
فتأنّيتُ وأرسلتُ بعشرين قصيده
كلّما أَخْلَقْنَ أخلفتُ لها أخرى جديده
ليس في بيتيَ لتمهيد فِراشي من قعيده
غيرَ عَجفاءَ عجوزٍ ساقُها مثلُ القَديده
وجهُها أقبحُ من حُوتٍ طَريٍّ في عَصِيده
ما حياةٌ مع أنثى مثلِ عِرْسي بسعيده

فلمّا قُرئت عليها الأبيات ضحكت واستعادتْها منه لقوله : « حُوت طريّ في عصيده » وجعلت تضحك ، ودعت بجارية من جواريها فائقة فقالت لها : خُذي كلَّ مالَكِ في قصري . ففعلتْ ، ثم دعت ببعض الخدم وقالت له : سَلِّمها إلى أبي دلامة . فانطلق الخادمُ بها ، فلم يصادِفْه في منزله ، فقال لامرأته : إذا رجع فادفعيها إليه وقولي له : تقول لك السيّدة : أَحسِنْ صُحبةَ هذه الجارية فقد آثرتُك بها . فقالت له : نعم . فلمّا خرج دخل ابنُها دلامة فوجد أمّه تبكي ، فسألها عن خبرها فأخبرتْه وقالت : إن أردتَ أن تبرَّني يوماً من الدّهر فاليوم . فقال : قولي ما شئت فإنّي أَفعله . قالت : تدخُل عليها فتُعلِمُها أنّك مالكُها وتطؤها فتَحرُمُ عليه ، وإلّا ذهبتْ بعقله وجفاني وجَفاك . ففعل ودخل إلى الجارية فوطِئها ، ووافقها ذلك منه ، وخرج . ثم دخل أبو دلامة فقال لامرأته : أين الجارية ؟ قالت : في ذلك البيت . فدخل إليها شيخٌ محطّم ذاهب ، فمدّ يده إليها وذهب ليقبّلَها . فقالت له : مالك ويلك ! تَنَحَّ وإلّا لطمتُك لطمةً دققتُ منها أنفَك . فقال لها : أبهذا أوصَتْك السيّدة ؟ فقالت : إنّها قد بعثتْ بي إلى فتىً من حاله وهيئته كيت وكيت ، وقد كان عندي آنِفاً ،

ونال منّي حاجته . فعلم أنّه قد دُهي من أمّ دلامة وابنها . فخرج إليه أبو دلامة فلطمه ولَبَّبه[1] وحلف ألّا يفارقه إلّا عند المهديّ . فمضى به مُلَبَّباً حتى وقف على باب المهديّ ، فعُرّف خبرَه وأنه قد جاء بابنه على تلك الحالة ، فأمر بإدخاله . فلمّا دخل قال له : مالك ويلَك ؟ قال : عمِل بي هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعمل ولدٌ بأبيه ، ولا تُرضيني إلّا أن تقتلَه . فقال له : ويلَك ! فما فعل ؟ فأخبره الخبر . فضحك حتى استلقى ، ثم جلس . فقال له أبو دلامة : أعجبك فِعلُه فتضحكَ منه ! فقال : عليّ بالسّيف والنِّطع . فقال له دلامة : قد سمعتَ حُجّته يا أمير المؤمنين فاسمعَ حُجَّتي . قال : هاتِ . قال : هذا الشيخ أصفَقُ الناس وجهاً : (يطأ) أميّ منذ أربعين سنةً ما غضبتُ و (وطأت) جاريته مرّةً واحدة فغضب وصنع بي ما ترى ! فضحك المهديّ أكثر من ضحكه الأول ، ثم قال : دَعْها له يا أبا دُلامة وأنا أُعطيك خيراً منها . قال : على أن تَخْبَأْها لي بين السماء والأرض ... فتقدّم إلى دلامة ألّا يُعاود بمثل فِعله ، وحلَف أنه إن عاود قتله ، ووهب له جاريةً أخرى كما وعده .

سائر أخباره

- قال ابن النطّاح :

دخل (أبو دلامة) على أمّ سَلمة[2] بنت يعقوب بن سَلمة بعد وفاة أبي العبّاس فعزّاها به ، وبكى وبكت معه ، ثم أنشدها :

مَن مُجملٌ في الصبر عنكَ فلم يكن ... صبري عليك غَداةَ بِنْتَ جميلا
يجدون أبـــدالاً به وأنـــا امـرؤٌ ... لو متُّ وجداً ما وجدتُ بديلا
إنّي سألت الناس بعــدك كلّهـــم ... فوجدت أجودَ من سألت بخيلا

---

(١) لببه : جمع ثيابه عند نحره ثم جرّه .

(٢) أم سلمة المخزومية : زوجة أبي العباس السفاح .

فقالت أم سَلمة : لم أر أحداً أصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامة . فقال : ولا سَواءَ ، يرحَمُك الله ، لك منه ولدٌ وما ولَدتُ أنا منه . فضحكتْ ـ ولم تكن منذ مات أبو العبّاس ضحكتْ إلّا ذلك الوقت ـ وقالت له : لو حدّثتَ الشيطانَ لأضحكـتَه .

● قال أبو دُلامة :

كنت في عسكر مروان[١] أيامَ زحف إلى سِنان الخارجيِّ ، فلمّا التقى الزَّحفان خرج منهم رجلٌ فنادى : مَن يُبارز ؟ فلم يخرج إليه أحدٌ إلّا أعْجَله ولم يُنَهْنِهْه[٢] . فغاظ ذلك مروانَ وجعل يندُب الناس على خمسمائة ، فقُتل أصحاب الخمسمائة ، فزاد مروان ونَدَبهم على ألف ، ولم يزل يزيدُهم حتى بلغ خمسة آلاف درهم . وكان تحتي فرسٌ لا أخاف خَونَه ، فلمّا سمعت بالخمسة آلاف ترقّبته واقتحمت الصفّ . فلما نظرني الخارجيّ علم أنّي خرجت للطمع ، فأقبل إليّ متهيئّاً ، وإذا عليه فَروٌ قد أصابه المطر فابتلّ ، ثم أصابته الشمسُ فاقفعلّ[٣] ، وإذا عيناه تَقِدان كأنّهما من غَورهما في وَقْبَين[٤] . فلمّا دنا منّي أنشأ يقول :

وخارجٍ أخرجه حُبُّ الطَّمَـعْ　　فرّ من الموت وفي الموت وقَع
من كان يَنوي أهلَه فلا رَجَعْ

فلمّـا وقرتْ في أُذُني انصرفتُ عنه هارباً ، وجعل مروان يقول : مَن هذا الفاضح ؟ إيتُوني به . فدخلت في غمار الناس فنجوتُ .

---

(١) المراد به مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .
(٢) نهنهه : كفه وزجره والمقصود هنا أنه لم يمهله .
(٣) اقفعلّ : تلبّد .
(٤) الوقب : نقرة في الجبل .

● أبو دلامة قال :

أُتي بي المنصورُ أو المهديُّ وأنا سكرانُ ، فحلف لَيُخرِجَنّي في بَعث حربٍ فأخرجني مع رَوح بن حاتم المُهلّبيّ لقتال الشُرّاة[1] . فلمّا التقى الجَمعان قلت لرَوح : أما واللهِ لو أنّ تحتي فرسَك ومعي سلاحَك لَأَثّرتُ في عدوِّك اليومَ أثراً ترتضيه . فضحك وقال : واللهِ العظيم لأدفعنّ ذلك إليك ، ولآخُذَنّك بالوفاء بشَرطك . ونزل عن فرَسه ونزَع سلاحه ودفعهما إليّ ، ودعا بغيرهما فاستبدل بهما . فلمّا حصَل ذلك في يدي وزالت عنّي حلاوةُ الطمع قلت له : أيُّها الأمير ، هذا مَقام العائذ بك ، وقد قلت بيتَين فاسمَعْهما . قال : هاتِ . فأنشدتُه :

إنّي استجرتُك أن أُقدَّم في الوغى | لتَطاعُـــنٍ وتنازُلٍ وضِـرابِ
فهبِ السُّيوفَ رأيتُها مشهــورةً | فتركـتُها ومضَيت في الهُـرّاب
ماذا تقول لما يَجيء وما يُـــرى | من واردات الموت في النُشّابِ[2]

فقال : دَعْ عنك هذا وستعلم[3] .

وبرز رجلٌ من الخوارج يدعو للمُبارزة فقال : أخرُج إليه يا أبا دُلامة . فقلت : أَنشُدك الله أيّها الأمير في دمي . قال : واللهِ لَتَخرجُنَّ . فقلت : أيّها الأمير ، فإنّه أوّل يوم من الآخرة وآخرُ يومٍ من الدنيا ، وأنا واللهِ جائعٌ ما شبعتْ مني جارحةٌ[4] من الجوع ، فمُرْ لي بشيءٍ آكُله ثم أَخرُج . فأمر لي برغيفَين ودَجاجةٍ ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصفّ . فلمّا رآني الشّاري

---

(١) الشراة : الخوارج .
(٢) النشّاب : النبّال .
(٣) كذا وردت في المطبوعة ونرجح أنها محرفة عن « واستلئم » أي البس اللأمة وهي الدرع .
(٤) الجوارح : أعضاء الأنسان التي تكتسب .

أقبل نحوي ، عليه فَروٌ وقد أصابه المطر فابتلّ ، وأصابته الشمس فاقفعلّ ، وعيناه تقِدان ؛ فأسرع إليّ ، فقلت له : على رِسْلك يا هذا كما أنت[١] . فوقف . فقلت : أتقتل مَن لا يُقاتلك ؟ قال : لا . قلت : أتقتل رجلاً على دينك ؟ قال : لا . قلت أفتستحلُّ ذلك قبل أن تدعوَ من تُقاتله إلى دينك ؟ قال : لا ، فاذهب عنّي إلى لعنة الله . قلت : لا أَفعلُ أو تسمعَ مني . قال : قُلْ . قلت : هل كانت بيننا قطُّ عداوةٌ أو تِـرةٌ[٢] ، أو تعرِفني بحالٍ تُحفِظُك[٣] عليّ ، أو تعلم بين أهلي وأهلك وِتْراً ؟ قال : لا والله ، قلت : ولا أنا واللهِ إلّا جميلَ الرأي ، وإنّي لأهواك وأنتحل مذهبَك وأَدين دِينك وأُريد السُّوءَ لمن أراده لك . قال : يا هذا جزاك الله خيراً فانصرف . قلت : إنّ معي زاداً أُحبّ أن آكُلَه معك ، وأحبّ مُؤاكلتَك لتتوكّد المودّة بيننا ، ويرى أهل العسكر هَوانَهم علينا . قال : فافعَلْ . فتقدّمت إليه حتى اختلفت أعناقُ دَوابّنا وجمعنا أرجُلَنا على مَعارفها[٤] ، والناسُ قد غُلبوا ضحكاً . فلمّا استوفَينا ودَّعني . ثم قلت له : إنّ هذا الجاهلَ إن أقمتَ على طلب المبارزة ندَبني إليك فتُتعِبُني وتَتعبُ ، فإن رأيتَ ألّا تبرُزَ اليوم فافْعَلْ . قال : قد فعلتُ . ثم انصرف وانصرفتُ . فقلت لرَوح : أمّا أنا فقد كفَيتُك قِرْني[٥] ، فقل لِغيري أن يكفيك قِرنَـه كما كفَيتك . فأَمْسَك .

وخرج آخر يدعو إلى البِراز فقال لي : اخرُج إليه . فقلت :

إنّي أَعُوذ برَوحٍ أن يقدّمـني ... إلى البِـراز فتَـخزى بي بنو أسدِ
إنّ البِـرازَ إلى الأقران أعلمـه ... ممّا يُفرّق بين الرُّوح والجَسَد

---

(١) عل رسلك : تمّهل . كما أنت : الزم مكانك .
(٢) الترة : العداوة التي توجب طلب الثأر .
(٣) تحفظك : تغضبك .
(٤) معارف الخيل وأعرافها : الشعر المسترسل على أعناقها .
(٥) قِرن الرجل : من يكافئه في الشجاعة ومن يتصدى لمنازلته .

قد حالفتك المنايا إذ صَمَدتَ لها وأصبحَتْ لجميع الخَلق بالرَّصَد
إنّ المهلَّب حُبَّ الموت أَورثكم وما ورثتُ اختيار الموت عن أحَدِ
لو أنّ لي مُهْجةً أخرى لَجُدْتُ بها لكنّها خُلِقَتْ فَرْداً فلم أَجُدِ[1]

فضحك وأعفاني .

● عن الهيثم بن عديّ قال :

دخل أبو عطاء السِّنْديّ يوماً إلى أبي دلامة فاحتبسه عندَه ، ودعا بطعام فأكلا وشبِعا . وخرجت إلى أبي دلامة صبيّةٌ له فحملها على كَتِفه ، فبالت عليه ، فنَبذها عن كتفه ثم قال :

بَلَلتِ عليَّ ـ لا حُيِّيتِ ـ ثوبي فبال عليك شيطانٌ رجيمُ
فما ولدتْكِ مَريمُ أمُّ عيسى ولا ربّاكِ لُقمانُ الحكيمُ

ثم التفت إلى أبي عطاء فقال له : أجِزْ . فقال :

صدقتَ أبا دُلامةَ لم تلِدْها مُطَّهَرةٌ ولا فَحْلٌ كريمُ
ولكن قد حَوَتْها أمٌّ سَوْءٍ إلى لَبّاتها وأبٌ لئيمُ

فقال أبو دلامة : عليك لعنةُ الله ! ما حملكَ على أن بلغتَ بي هذا كلَّه ! والله لا أُنازعُك بيت شِعر أبداً . فقال أبو عطاء : لَأَن يكون الهربُ من جهتك أحبُّ إليّ .

● جعفر بن الحسين اللِّهْبيّ قال :

عزم موسى بن داود بن عليّ الهاشميّ[2] على الحجّ ، فقال لأبي دلامة : احجُجْ معي ولك عشرةُ آلاف درهم . فقال : هاتِها . فدفعت إليه ، فأخذها

(١) صمدت لها . قصدت لها . المهلّب : هو المهلب بن أبي صفرة من القادة المشهورين في عصر بني أمية واليه ينتمي روح بن حاتم .
(٢) هو ابن عم الخليفة أبي العباس السفاح ، وقد ولاه السفاح امارة المدينة حقبة من الزمن .

وهرب إلى السَّواد ، فجعل يُنفقها هناك ويشرب بها الخمر . فطلبه موسى فلم يقدِر عليه ، وخشي فَوْت الحجّ فخرج . فلمّا شارف القادسيّة إذا هو بأبي دلامةَ خارجاً من قريةٍ إلى أخرى وهو سَكرانُ ، فأَمر بأخذه وتقييدِه وطرحه في مَحمِلٍ بين يديه ، ففُعل ذلك به . فلمّا سار غيرَ بعيدٍ أقبل على موسى وناداه :

يا أيّها الناسُ قُولُوا أجمعين مَعاً ... صلّى الإلّه على مُوسى بن داودِ
كأنّ دِيباجَتي خدَّيه من ذهَبٍ ... اذا بدا لك في أثوابه السُّودِ
إنّي أعُوذ بداودٍ وأُعظِمُه ... من أن أُكَلَّفَ حَجّاً يابنَ داود
خُبّرتُ أنّ طريق الحجِّ مَعْطَشَةٌ ... من الشَّراب وما شُربي بتَصْريدِ
واللهِ ما فيَّ من أَجْرٍ فتطلُبَه ... ولا الثَّناءُ على دِيني بمحمود[1]

فقال موسى : أَلقُوه ، لَعنَه اللهُ ، عن المَحمل ودعُوه ينصرفْ . فأُلقي وعاد إلى قَصْفِه بالسَّواد حتى نَفِدت العشرةُ آلاف درهم .

● عن المدائنيّ قال :

خاصم رجلٌ أبا دُلامة في داره ، فارتفعا إلى عافيةَ القاضي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتْني دُهاةُ الرِّجالِ ... وخاصمتُهما سنةً وافيهْ
فما أدحض اللهُ لي حُجّةً ... ولا خيّب اللهُ لي قافية
ومَن خِفتُ من جَوره في القضاءِ ... فلستُ أخافُك يا عافيه

فقال له عافيةُ : أما والله لأشكونّك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنّه أنّك هجوتَني . قال : إذاً يَعزِلَك . قال : ولمَ؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء . فبلغ ذلك المنصورَ فضحك وأمر لأبي دُلامة بجائزة .

● العَبْسيُّ قال :

---

(١) التصريد : التقليل والشرب دون الارتواء .

كان أبو دلامةمع أبي مسلم في بعض حروبه مع بني أميّـة . فدعا رجلٌ إلى البِراز ، فقال له أبو مسلم : ابرُزْ إليه . فأنشأ يقول :

ألا لا تَلُمْني إن فررتُ فإنّـــــني أخاف على فخّارتي أن تَـحَـطّما
فلو أنّني في السُّوق أبتاعُ مثلهَــــا وجَدِّك ما باليتُ أن أتقـدّما

فضحك وأعفاه .

● عن عبد الرحمن بن صالح قال :

جاء ابنُ أبي دُلامة يوماً إلى أبيه وهو في مَحْفِـلٍ من جيرانه وعشيرته جالسٌ ، فجلس بين يديه ثم أقبل على الجماعة فقال لهم : إنّ شيخي ، كما تَروَن ، قد كَبرت سِنُّه ، ورقّ جِلدُه ، ودَقّ عَظمُه ، وبنا إلى حياته حاجةٌ شديدةٌ ، فلا أَزال أُشير عليه بالشيء يُمسِك رَمَقَه ويُبقي قُوّته ، فيخالفُني فيه ؛ وأنا أسألكم أن تسألوه قضاءَ حاجةٍ لي أذكرُها بحضرتكم ، فيها صَلاحٌ لجسمه ، وبَقاءٌ لحياته ، فأسعِفُوني بمَسألته . فقالوا : نَفعلُ حُبّاً وكَرامةً . ثم أقبلوا على أبي دلامة بألسنتهم وتناولُوه بالعِتاب حتى رَضِي ، وهو ساكتٌ ، فقال : قُولوا للخبيث فليقُلْ ما يريد ، فستَعلمون أنّه لم يأتِ إلّا ببَلِيّة . فقالوا له : قل . فقال : إنّ أبي إنّما يقتلُه كثرةُ الجِماع ، فتُعاونوني عليه حتى أَخصِيَه ، فلن يقطعَه عن ذلك غيرُ الخِصاء ، فيكون أصحَّ لجسمه وأطول لعُمره . فعجِبوا من ذلك وعلموا أنه إنّما أراد أن يعبَث بأبيه ويُخجلَه حتى يشيعَ ذلك عنه فيرتفعَ له بذلكِ ذِكرٌ . فضحكوا منه ، ثم قالوا لأبي دلامة : قد سمعتَ فأَجِبْ . قال : قد سمعتُم أنتم وعَرَّفْتُكم أنّه لن يأتِيَ بخير . قالوا : فما عندك في هذا ؟ قال : قد جعلتُ أُمَّه حكماً بيني وبينَه ، فقُوموا بنا إليها . فقاموا بأجمعهم فدخلوا إليها ، وقَصّ أبو دُلامة القِصّةَ عليها وقال لها : قد حَكَّمْتُكِ . فأقبلتْ على الجماعة فقالت : إنّ ابني ـ أَصلحه اللهُ ـ قد نصَح أباه وبَرَّه ولم يألُ جُهداً ، وما أنا إلى بقاء أبيه بأحوجَ منّي إلى بقائه ، وهذا أمرٌ لم تقعْ به

تجربةٌ منّا ، ولا جرتْ بمثله عادةٌ لنا ، وما أشُكّ في مَعرفته بذلك ، فَلْيَبدأْ بنفسه فَلْيَخْصها ، فاذا عُوفي ورأينا ذلك قد أثَّر عليه أثراً محموداً استعمله أبوه . فنَعَرَ[1] أبوه وجعل يضحك به ، وخجِل ابنُه . وانصرف القوم يضحكون ويَعْجَبون من خُبثهم جميعاً واتّفاقهم في ذلك المذهب .

* * *

---

(١) نعر : صاح وصوت بخيشومه .

٩

أبو العتاهية

[الأغاني الجزء ٤ ص ١ وما بعدها]

الشاعر

أبو العَتاهية لقبٌ غلب عليه ، واسمُه إسماعيل بن القاسم بن سُويد بن كَيسان ، مولى عَنَزة ، وكُنيته أبو إسحاق ...

ومَنشؤه بالكوفة ، وكان في أول أمره يتخنّث ويحمل زامِلة[1] المُخَنَّثين ، ثم كان يبيع الفَخّار بالكوفة ، ثم قال الشعر فبرَعَ فيه وتقدّم . ويقال : أطبع الناس بَشّارٌ والسَيّد وأبو العتاهية ، وما قَدَر أحدٌ على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته .

(*) ذكر أبو الفرج في نهاية ترجمته لأبي العتاهية أنه لم يورد هنا أخبار أبي العتاهية مع عتبة لطولها وأنه أفردها ، ولكن كتابه خلو من هذه الأخبار ويحتمل أنها سقطت منه أو نسي أبو الفرج ذكرها .

(١) الزاملة في الاصل الناقة يحمل عليها المسافر طعامه ومتاعه ،، والمراد بها هنا الجراب أو نحوه .

وكان غزيرَ البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألفاظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلّف ، إلّا أنّه كثير الساقط المرذُول مع ذلك . وأكثر شعره في الزهد والأمثال ؛ وكان قومٌ من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممّن لا يُؤمن بالبعث ، ويَحتجُّون بأنّ شعره إنّما هو في ذِكر الموت والفناء دون ذكر النُّشور والمَعاد . وله أوزانٌ طريفة قالها ممّا لم يتقدَّمْه الأوائلُ فيها . وكان أبخلَ الناس مع يَساره وكثرة ما جَمعه من الأموال .

محمد بن موسى بن حَمّاد قال :

قال المهديُّ يوماً لأبي العتاهية : أنت إنسانٌ مُتَحذلقٌ مُعَتَّهٌ[1] . فاستوتْ له من ذلك كُنيةٌ غلبتْ عليه دون اسمه وكُنيته ، وسارت له في الناس . قال : ويقال للرجل المُتَحذلِق : عَتاهِية ...

قال محمد بن سَلّام : وكان محمد بن أبي العتاهية يذكر أنّ أصلهم من عَنَزة ، وأنّ جدّهم كيسان كان من أهل عين التَّمْر[2] ، فلمّا غزاها خالد ابن الوليد كان كيسانُ جدُّهم هذا يتيماً صغيراً يكفُله قرابةٌ له من عَنَزة ، فسباه خالدٌ مع جماعةِ صِبيانٍ من أهلها ، فوَجّه بهم إلى أبي بكر ، فوصلوا إليه وبحَضْرته عَبّادُ بن رِفاعةَ العَنَزيّ بن أسد بن ربيعة بنِ نزار ، فجعل أبو بكر رضي الله عنه يسأل الصّبيانَ عن أنسابهم فيُخبره كلٌّ واحدٍ بمبلغ معرفته ، حتى سأل كَيسان ، فذكر له أنّه من عَنَزة . فلمّا سمعه عبّادٌ يقول ذلك استوهبه من أبي بكر رضي الله عنه ، وقد كان خالصاً له ، فوهَبه له ، فأعتَقَه ، فتَولّى عَنَزة .[3]

---

(١) المعتَّه : المجنون المضطرب الخلق ، ويقال انه كان قد تعته بجارية للمهدي .
(٢) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة .
(٣) تولى عنزة : اتخذهم موالي له .

خِيارٌ الكاتب قال :

كان أبو العتاهيةَ وإبراهيم المَوْصليّ من أهل المَذار[1] جميعاً ، وكان أبو العتاهية وأهلُه يعملون الجِرارَ الخُضْر ، فقدِما إلى بغداد ثم افترقا ، فنزل إبراهيم الموصليّ بغداد ، ونزل أبو العتاهية الحِيرة . وذُكر عن الرِّياشيّ أنه قال مثل ذلك ، وأن أبا أبي العتاهية نقله إلى الكوفة .

قال محمد بن موسى : فولاءُ أبي العتاهية من قِبل أبيه لعَنَزة ، ومن قِبل أمّه لبني زُهرة ، ثم لمحمد بن هاشم بن عُتبة بن أبي وَقّاص ، وكانت أمّه مَولاةً لهم يقال لها أمّ زيد .

قال الخليل بن أَسد : كان أبو العتاهية يأتينا فيستأذن ويقول : أبو إسحاق الخَزّاف . وكان أبوه حَجّاماً من أهل وَرْجة[2] . ولذلك يقول أبو العتاهية :

ألا إنّما التَقوى هو العِزّ والكرمْ ... وحُبّك للدنيا هو الفَقر والعَدَمْ
وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ ... إذا صَحّح التَّقوى وإن حاكَ أو حَجَمْ

محمد بن موسى قال :

كان أبو العتاهية قَضيفاً[3] ، أبيض اللون ، أسودَ الشعر ، له وَفْرةٌ[4] جَعْدة ، وهيئة حسنة ولَباقة وحَصافة ، وكان له عَبيد من السُّودان ، ولأخيه زيدٍ أيضاً عبيد منهم يعملون الخَزَف في أَتُّون لهم ؛ فإذا اجتمع منه شيء ألْقوه على أجيرٍ لهم يُقال له أبو عبّاد اليَزيديّ ، من أهل طاق الجِرار بالكوفة ، فيبيعه على يديه ويردّ فضلَه إليهم . وقيل : بل كان يفعل ذلك أخوه زيدٌ لا هو ، وسُئِل عن ذلك فقال : أنا جَرّار القوافي ، وأخي جَرّار التجارة .

---

(١) المذار : قصبة ميسان ، بين واسط والبصرة .

(٢) ذكر محقق المطبوعة أنه لم يجد هذا الموضع في معاجم البلدان ، ولعل في اللفظ تحريفاً .

(٣) القضيف : الدقيق العظم القليل اللحم .

(٤) الوفرة : ما اجتمع من الشعر على الرأس .

عبد الحميد بن سَريع مولى بني عِجْل قال :

أنا رأيتُ أبا العتاهية وهو جرّارٌ يأتيه الأحداث والمتأدّبون فيُنشدهُم أشعاره ، فيأخذون ماتكسّر من الخَزَف فيكتبونها فيها .

أحمد بن زهير قال :

سمعت مصعَب بن عبدالله يقول : أبو العتاهية أشعرُ الناس . فقلت : بأيّ شيء استحقّ ذلك عندك ، فقال : بقوله :

تعلّقتَ بآمـــالِ طوالِ أيِّ آمـــالِ
وأقبلتَ عـلى الدُّنيـــاَ مُلحّاً أيَّ إقبـــال
أيا هــذا تجهَّــزْ لِفـــراق الأهــل والمـالِ
فلا بُــدّ من المـــوت على حالٍ مـــن الحـــال

ثم قال مصعب : هذا كلامٌ سهلٌ حقٌّ لا حَشوَ فيه ولا نُقصان ، يعرفه العاقلُ ويُقرّ به الجاهلُ .

موسى بن صالح الشَّهرزُوريّ قال :

أتيت سَلْماً الخاسر فقلت له : أنشِدْني لنفسك . قال : لا ، ولكن أُنشدك لأشعر الجنّ والإنس ، لأبي العتاهية . ثم أنشَدني قوله :

سَكَنٌ يَبقى له سَكَـــنُ ما بهذا يُؤذِنُ الزَّمَــنُ
نحن في دارٍ يُخبِّرُنـــا ببِلاها ناطقٌ لَسِــنُ
دارُ سوءٍ لم يَدُمْ فَرَحٌ لامرئٍ فيها ولا حَزَنَ
في سبيل الله أنفسُنـــا كُلُّنا بالموت مُرْتَهَـــنُ
كلُّ نفسٍ عند مِيتتهـــا حَظُّها من مالها الكَفَنُ
إنّ مال المرء ليس لـــه منه إلّا ذِكرُه الحَسَـنُ

يحيى بن زياد الفَرّاء قال :

دخلت على جعفر بن يحيى فقال لي : يا أبا زكريّا ، ما تقول فيما أقول ؟ فقلت : وما تقول ، أصلحك الله ؟ قال : أزعمُ أنّ أبا العتاهية أشعرُ أهل هذا العصر . فقلت : هو واللهِ أشعرُهم عندي .

محمد بن شِيرويْه الأَنْماطيُّ قال :

قلت لداود بن زيد بن رَزين الشاعر : من أشعرُ أهل زمانه ؟ قال : أبو نُواس . قلت : فما تقول في أبي العتاهية ؟ فقال : أبو العتاهية أشعر الإنس والجنّ .

المُعَلَّى بن عثمان قال :

قيل لأبي العتاهية : كيف تقول الشعر ؟ قال : ما أردتُه إلّا مَثَل لي ، فأقول ما أُريد وأترُكُ ما لا أريد .

رَوح بن الفَرَج الحِرمازيّ قال :

جلست إلى أبي العتاهية فسمعته يقول : لو شئت أن اجعل كلامي كلّه شعراً لفعلتُ .

أبو عِكرمة قال :

قال محمد بن أبي العتاهية : سُئل أبي : هل تعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض . وله أوزانٌ لا تدخُل في العَرُوض .

أبو عكرمة قال :

حُمّ الرّشيد ، فصار أبو العتاهية إلى الفَضل بن الرّبيع برُقعة فيها :

لو عَلِم الناسُ كيف أنت لهـم   ماتوا إذا ما أَلِمْتَ أجمعُهمْ
خليفةَ الله أنت ترجَـح بالنّـاس إذا ما وُزنـت أنت وهُـمْ
قد علم الناسُ أنّ وَجْهَـك يَسْتَغني إذا ما رآه مُعْدِمُهـم

فأنشدها الفضلُ بن الربيع الرشيد ، فأمر بإحضار أبي العتاهية ، فما زال يُسامره ويُحدّثه إلى أن بَرِىء ، ووصَل إليه بذلك السبب مالٌ جليل .

قال : وحُدّثت أنّ ابن الأعرابيّ حَدّث بهذا الحديث ، فقال له رجلٌ بالمجلس : ما هذا الشعر بمستحقٍ لِما قُلت . قال : ولمَ ؟ قال : لأنّه شعرٌ ضعيف . فقال ابن الأعرابيّ ـ وكان أَحَدَّ الناس ـ :الضعيفُ ، والله ، عَقلُك ، لا شعر أبي العتاهية .. ألأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر ! فوالله ما رأيت شاعراً قطّ أطبعَ ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسبُ مذهبه إلّا ضرباً من السِّحر . ثم أنشد له :

قطّعتُ منك حبائلَ الآمـــالِ ... وحَطَطتُ عن ظهر المَطيّ رِحالي
ووجدتُ بَرْدَ اليأس بين جوانحي ... فأَرحتُ من حَلٍّ ومن تَرحال
يأيّها البَطِرُ الذي هو من غـدٍ ... في قبره مُتمزِّقُ الأوصـــال
حَذَفَ المُنى عنه المُشَمِّرُ في الهدى ... وأرى مُناك طويلـةَ الأذيال
حِيَلُ ابنِ آدمَ في الأمور كثيرةٌ ... والموتُ يقطع حِيلـــةَ المُحتالِ
قِستُ السُّؤالَ فكان أعظمَ قيمةً ... من كلّ عارفةٍ جرَت بسُؤالِ
فإذا ابتُليتَ بِبَذْل وجهك سائلاً ... فابذُلْه للمُتكرّم المِفْضـالِ
وإذا خشِيتَ تَعَذُّراً في بلـدةٍ ... فاشْدُدْ يَدَيك بعاجل التَّرحال
واصبِرْ على غِيَر الزّمان فإنّما ... فَرَج الشّدائد مثلُ حَلِّ عِقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يُحسِن أن يقول مثل هذا الشعر ؟ فقال له الرجل : يا أبا عبدالله ، جَعلني الله فِداءَك ! إنّي لم أَردُد عليك ما قلت ، ولكنّ الزُّهدَ مذهبُ أبي العتاهية ، وشعره في المديح ليس كشعره في الزُّهد . فقال : أفليس الذي يقول في المديح :

وهارونُ ماءُ المُزْنِ يُشفَى به الصَّدَى ... إذا ما الصَّدِي بالرِّيق غصَّت حَناجِرُهْ
وأوسَطُ بيتٍ في قريش لَبَيْتُـــه ... وأوّل عِـــزٍّ في قـــريشٍ وآخـرُه

وزَحْفٍ له تَحكي البُروقَ سيوفُه وتحكي الرُّعودَ القاصفاتِ حوافرُه
إذا حَمِيتْ شمسُ النهارِ تضاحكتْ إلى الشمس فيه بَيْضُه ومَغافِرُه
إذا نُكب الإسلام يوماً بنكبـةٍ فهارونُ من بينِ البَريّةِ ثائـرُه
ومن ذا يَفُوت الموتَ والموتُ مُدرِكٌ كِذا لم يَفُتْ هارونَ ضِدٌّ يُنافره (١)

قـال : فتخلّص الرجل من شرّ ابن الأعرابيّ بأن قال له : القولُ كما قلت ، وما كنتُ سمعت له مثل هذين الشِعرين . وكتبهما عنه .

هارون بن سَعدان بن الحارث مولى عَبّاد قال :

حضرت أبا نواس في مجلس وأَنشد شعراً ، فقال له مَن حضر في المجلس : أنت أشعرُ الناس . قال : أما والشيخُ حيٌّ فلا . (يعني أبا العتاهية) .

قال إبراهيم بن أبي شيخ : قلت لأبي العتاهية : أيُّ شعرٍ قلتَه أحكم ؟ قال قولي :

علمتَ يا مجاشعُ بنَ مَسْعَـدَهْ أنّ الشَّبابَ والفَراغ والجِـدَه
مَفسَدَةٌ للمرءِ أيُّ مَـفْسَدهْ (٢)

محمد بن إبراهيم بن خَلَف قال : حدّثني أبي قال :

حُدّثت أنّ المهديّ جلس للشعراء يوماً ، فأذِن لهم وفيهم بشّارٌ وأشجعُ ـ وكان أشجَع يأخذ عن بشّار ويُعظِّمه ـ وغيرُ هذين ، وكان في القوم أبوالعتاهية . قال أشجع : فلمّا سمع بشّارٌ كلامَه قال : يا أخا سُليم ، أهذا ذلك الكوفيُّ المُلَقبُ ؟ قلت : نعم . قال : لا جزى اللهُ خيراً من جَمَعنا معه . ثم قال له

---

(١) الصدى : الظمأ . البيض ج بيضة : الخوذة . المغافر ج مغفر : زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٢) الجدة : الغني .

المهديّ : أَنشِدْ . فقال : ويحَك ! أوَ يَبدأ فيُسْتَنْشَد أيضاً قبلَنا ! فقلتُ : قد ترى . فأَنشد :

ألا ما لسيّـــدتي مالَهـــا ... أَدلّا فأحمِـــلَ إدلالَهـــا
وإلّا ففيمَ تَجنَّـــت ومـــا ... جَنَيتُ سَقى الله أطلالَـهـا
ألا إنّ جاريـــةً للإمـــــا ... م قد أُسكِن الحبُّ سِربـالها
مشتْ بين حُورٍ قِصـــار الخُـطا ... تُجاذب في المَشي أكفالَهـــا
وقد أتعب اللهُ نفسي بهـــــا ... وأتعب باللّـــوم عُـذّالهَا

قال أشجع : فقال لي بشّار : ويحَك يا أخا سُليم ! ما أدري من أيّ أَمْرَيه أَعجبُ : أمِن ضَعف شعره ، أم من تَشبيبه بجارية الخليفة يَسمع ذلك بأُذنه ! حتى أتى على قوله :

أتتْه الخـلافـةُ مُنقـــادةً ... إليـــه تُجرِّر أذيالَهـــا
ولم تـك تصلُح إلّا لـــــه ... ولم يـك يصلُح إلّا لهـــا
ولو رامها أحدٌ غيـــرُه ... لَزُلْـزِلت الأرضُ زِلزالَهـا
ولو لم تُـطِعْه بناتُ القلـوب ... لمَا قبِـل اللهُ أعمـــالها
وإنّ الخليفـــةَ مِـن بُغض « لا » ... إليه لَيُبْغِضُ مَن قالهـا (١)

قال أشجع : فقال لي بشّارٌ وقد اهتزّ طَرَباً : وَيحك يا أخا سُليم ! أترى الخليفة لم يَطِر عن فَرْشه طَرَباً لِما يأتي به هذا الكُوفيّ !

محمد بن النَّضر كاتب غسّان بن عبدالله قال :

أُخرجتُ رسولاً إلى عبدالله بن طاهر وهو يُريد مِصر ، فنزلت على العَتّابيّ ، وكان لي صديقاً ، فقال : أنشِدني لشاعر العراق ـ يَعني أبا نُواس، وكان قد مات ـ فأنشدتُه ما كنت أحفَظ من مُلَحه ،وقلت له : ظننتُك تقول هذا

(١) بنات القلوب : النيّات .

لأبي العتاهية . فقال : لو أردتُ أبا العتاهية لقلتُ لك : أنشِدني لأَشْعَر الناس ، ولم أقتصر على العراق .

عن السِّدْري قال :

سمعت الأصمعيَّ يقول : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتُّراب والخَزَف والنَّوى .

هارون بن سَعدان مولى البَجَليّين قال :

كنت مع أبي نواس قريباً من دور بني نِيبَخْت بنهر طابِق[1] وعنده جماعةٌ ، فجعل يمرُّ به القُوّاد والكُتّاب وبنو هاشم فيُسَلّمون عليه وهو مُتّكئٌ ممدودُ الرِّجْل لا يتحرّك لأحدٍ منهم ، حتى نظرنا إليه قد قبض رجليه ووثب وقام إلى شيخٍ قد أقبل على حمارٍ له ، فاعتنق أبا نواس ووقف أبو نواس يحادثه ، فلم يزل واقفاً معه يُراوح بين رجليه يرفع رجلاً ويضع أخرى . ثم مضى الشيخ ورجع إلينا أبو نواس وهو يتأوّه ، فقال له بعضُ من حضَر : واللهِ لأنت أَشعرُ منه . فقال : والله ما رأيتُه قطُّ إلّا ظننت أنّه سماءٌ وأنا أرضٌ .

السَّرِيّ بن الصَّبّاح مولى ثَوبان بن عليّ قال :

كنت عند بشّار فقلت له : مَن أشعرُ أهل زماننا ؟ فقال : مُخَنَّث أهل بغداد (يعني أبا العتاهية) .

عيسى بن إسماعيل قال :

قال لي الحرمازيّ : شهدتُ أبا العتاهية وأبا نُواس في مجلس ، وكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جواباً عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعَهما في قول الشعر ، فإذا تعاطَيا جميعاً السرعة فَضَلَه أبو العتاهية ، وإذا توقّفا وتمهّلا فضَلَه أبو نواس .

---

(١) نهر طابق : محلة كانت بالجانب الغربي من بغداد .

عبدالله بن أبي سعد قال :

قال لي أبو تمّام الطائيّ : لأبي العتاهية خمسةُ أبياتٍ ما شَرِكه فيها أحدٌ ولا قَدَر على مثلها متقدِمٌ ولا متأخّر ، وهو قوله :

النّـاسُ في غَـفَـلاتهـم ورحـى المَنيّـة تَـطْحَـنُ

وقوله لأحمد بن يوسف :

ألم تَرَ أنّ الفَقر يُرجَى له الغِنى وأنّ الغِنى يُخشى عليه من الفَقْرِ

وقوله في موسى الهادي :

ولمّـا استقلّـوا بأثقالهـم وقد أزمعُوا لِلذي أَزمَعُـوا
قرنتُ التفاتـي بآثارهـم وأَتبعتُهـم مُقلـةً تَـدْمَعُ

وقولُه :

هبِ الدّنيا تَصير إليك عَفْـواً أليس مصيرُ ذاك إلى زَوال

عبدالله بن الحسن قال :

جاءني أبو العتاهية وأنا في الديوان فجلس إليّ . فقلت : يا أبا إسحاق ، أما يصعبُ عليك شيءٌ من الألفاظ فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائرُ من يقول الشعر أو إلى ألفاظٍ مستكرهة ؟ قال : لا . فقلت له : إنّي لَأحسَب ذلك من كثرة رُكوبك القوافي السَّهلة . قال : فاعرِضْ عليّ ما شئت من القوافي الصعبة . فقلت : قل أبياتاً على مثل « البلاغ » . فقال من ساعته :

أيُّ عيشٍ يكون أبلـغَ من عيشٍ كَفافٍ قُـوتٍ بقَدر البَـلاغِ
صاحبُ البَغْي ليس يسلَم منـه وعلى نفسه بغى كـلُّ باغـي
رُبَّ ذي نعمةٍ تعرَّض منهـا حائلٌ بينه وبين المَسـاغ
أبلغَ الدّهـرُ في مواعظـه بـل زاد فيهنّ لي على الإبـلاغ

غَبَنَتْني الأيامُ عقلي ومالــــي   وشبابي وصِحّتي وفراغــــي[1]

مذهبُه واتّهامه بالزندقة

عن أحمد بن حَرب قال :

كانمذهب أبي العتاهية القولَ بالتَّوحيد ، وأنّ الله خلقجوهرين مُتضادَّين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالمَ هذه البِنْيَةَ منهما ، وأنّ العالم حديث العين والصَّنعة لا مُحدِثَ له إلّا اللهُ . وكان يزعُم أنّ الله سيردُّ كلّ شيء إلى الجوهرين المتضادَّين قبل أن تفنى الأعيانُ جميعاً . وكان يذهب إلى أنّ المعارف واقعةٌ بقَدر الفِكر والاستدلال والبحث طِباعاً . وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب ، ويتشيّع بمذهب الزَّيْديّة البَتْريّة[2] المبتدعة ، لا يتنقّص أحداً ولا يرى مع ذلك الخروجَ على السّلطان . وكان مُجَبِّراً[3] ...

عون بن محمد الكِنديّ قال :

سمعت العبّاس بن رُستم يقول : كان أبو العتاهية مُذَبْذَباً في مذهبه : يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعِناً عليه ترك اعتقاده إيّاه وأخذ غيره .

أبو شعيب صاحب ابن أبي دُواد قال :

قلت لأبي العتاهية : القرآن عندك مخلوقٌ أم غير مخلوق ؟ فقال : أسألتَني عن الله أم عن غير الله ؟ قلت : عن غير الله . فأمسك . وأعدتُ عليه فأجابني

(١) البلاغ : الكفاية .

(٢) الزيدية : فرقة من الشيعة تنسب الى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، تجعل الامامة في أبناء فاطمة دون غيرهم وهي ترى أن كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة يصلح ان يكون إماماً ، والبترية : طائفةمنهم أصحاب كثير النوى الأبتر .

(٣) مجبر : يقول بالجبر ، وهو اسناد الافعال كلها الى الله ، ويقول الجبرية ان العبد لا قدرة له مؤثرة ولا كاسبة .

هذا الجواب ، حتى فعل ذلك مراراً . فقلت له : ما لك لا تُجيبني ؟ قال : قد أجبتُك ولكنّك حمار .

رَجاء بن سَلَمة قال :

سمعت أبا العتاهية يقول : قرأتُ البارحةَ « عمَّ يَتَساءلون » ثم قلت قصيدةً أحسنَ منها . قال : وقد قيل إنّ منصور بن عمّار شَنّع عليه بهذا .

أبو عُمر القرشيّ قال :

لمّا قصّ منصور بن عَمّار على النّاس مَجلسَ البَعُوضة[1] قال أبو العتاهية : إنّما سرق منصورٌ هذا الكلام من رجلٍ كُوفيّ . فبلغ قولُه منصوراً فقال : أبو العتاهية زِنديقٌ ، أما تَرَونه لا يذكر في شعره الجنّةَ ولا النّار وإنما يذكر الموت فقط ؟ فبلغ ذلك أبا العتاهية ، فقال فيه :

يا واعظَ الناس قد أصبحتَ مُتَّهَماً إذ عِبتَ منهم أموراً أنت تَأتيها
كالمُلْبِسِ الثوبَ من عُريٍ وعَورتُه للناس باديةٌ ما إن يُواريها
فأعظَمُ الإثم بعد الشِّرك نعلمُه في كلّ نفسٍ عَماها عن مَساويها
عِرفانُها بعُيوب الناس تُبصرها منهم ولا تُبصِر العيبَ الذي فيها

فلم تمضِ إلّا أيامٌ يسيرة حتى مات منصورُ بن عمّار ، فوقف أبو العتاهية على قبره وقال : يَغْفِرُ الله لك أبا السَّريّ ما كنتَ رميتَني به .

عن محمد بن أبي العتاهية قال :

لمّا قال أبي في عُتْبةُ[2] :

كأنّما عُتبةَ في حُسنها دُميةُ قَسٍّ فَتَنتْ قَسَّها

---

(١) مجلس البعوضة : أي المجلس الذي تحدث فيه عن البعوضة وخلقها وما أودعه الله فيها من أسرار وكانت عادة القصاص أن يتحدثوا بمثل هذا .

(٢) هي عتبة جارية المهديّ ، وكان أبو العتاهية محباً لها وقد شبب بها كثيراً في شعره .

يا ربٌّ لو أنْسَيْتَنيها بما ... في جنّة الفردوس لم أنْسَها

شنّع عليه منصور بن عمّار بالزندقة وقال : يتهاون بالجنّة ويَبتذل ذِكرها في شعره بمثل هذا التهاوُن ! وشنّع عليه أيضاً بقوله :

إنّ المليكَ رآكِ أحسنَ خَلْقه ... ورأى جَمالَكْ
فحذا بقُدرة نفسِه ... حُور الجِنان على مِثالِكْ

وقال : أيصوّر الحُورَ على مثال امرأة آدميّة واللهُ لا يحتاج إلى مِثال ! وأوقع له هذا على ألسنة العامّة ، فلقِي منهم بلاءً .

الخليل بن أسد النُوْشَجانيُّ قال :

جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا فقال : زعَم الناس أنّي زِنديق ، واللهِ ما دِيني إلّا التوحيد . فقلنا له : فقل شيئاً نَتحدّث به عنك . فقال :

ألا إنّنا كُلُّنا بائدُ ... وأيُّ بني آدمٍ خالدُ
وبَدْأُهُم كان من ربّهم ... وكلٌّ إلى ربّه عائدُ
فيا عَجَبا كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يَجْحَدُه الجاحِدُ
وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلّ على أنّه واحدُ

العبّاس بن رستم قال :

كان حَمْدَويه صاحب الزّنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ، ففزع من ذلك وقعَد حَجّاماً .

عن محمد بن أبي العتاهية قال :

كانت لأبي العتاهية جارةٌ تُشرف عليه ؛ فرأته ليلةً يقنُتُ[1] ، فروت عنه أنه يكلّم القمر . واتّصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة ، فصار إلى منزلها

---

(١) القنوت : اقامة الصلاة والدعاء والامساك عن الكلام .

وبات وأشرف على أبي العتاهية ورآه يصلّي ، ولم يزل يرقُبه حتى قَنَت وانصرف إلى مضجعه ، وانصرف حمدويه خاسئاً .

بُخله

الحسين بن أبي السَّريّ قال :

قال ثُمامة بن أشرس : أنشدني أبو العتاهية :

إذا المرءُ لم يُعتِقْ من المالِ نفسَه ... تملكّه المالُ الذي هو مالكُهْ
ألا إنّما مالي الذي أنا مُنفِقٌ ... وليس لي المالُ الذي أنا تاركُه
إذا كنت ذا مالٍ فبادِرْ به الذي ... يَحِقُّ وإلّا استهلكتْه مَهالِكُه

فقلت له : من أين قضيتَ بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله ﷺ : « إنّما لك من مالك ما أكلت فأَفنيتَ ، أو لبِست فأبليتَ ، أو تَصدّقتَ فأَمْضيتَ » فقلت له : أتُؤمن بأنّ هذا قول رسول الله ﷺ وأنّه الحقُّ ؟ قال : نعم . قلت : فلمَ تحبِسُ عندك سبعاً وعشرين بَدْرةً[1] في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تُزكّي ولا تُقدِّمها ذُخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا مَعن ، والله إنّ ما قلتَ لهو الحقّ ، ولكنّي أخاف الفقر والحاجةَ إلى الناس . فقلت : وبمَ تزيد حالُ من افتقَر على حالك وأنت دائمُ الحِرص ، دائم الجمع ، شحيحٌ على نفسك لا تشتري اللحمَ إلّا من عيدٍ إلى عيد ؟ فترك جوابَ كلامي كلّه ، ثم قال لي : والله لقد اشتريتُ في يوم عاشُوراء لحماً وتوابلَه وما يتبعه بخمسة دراهم . فلمّا قال لي هذا القول أضحكني حتى أذهَلني عن جوابه ومُعاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنّه ليس ممّن شرَح اللهُ صدرَه للإسلام .

قال الجاحظ : حدّثني ثُمامةُ قال :

دخلت يوماً إلى أبي العتاهية فإذا هو يأكل خبزاً بلا شيء ، فقلت : كأنك رأيتَه يأكل خُبزاً وحدَه . قال : لا ، ولكنّي رأيتُه يتأدَّمُ بلا شيء . فقلت :

---

(١) البدرة : عشرة الآف درهم

وكيف ذلك ؟ فقال : رأيت قُدّامه خبزاً يابساً من رِقاق فَطيرٍ وقَدَحاً فيه لبنٌ حليبٌ ، فكان يأخذ القِطعة من الخبز فيغمِسُها من اللبن ويُخرجها ولم تتعلّق منه بقليلٍ ولا كثير ، فقلت له : كأنّك اشتهيت أن تتأدّم بلا شيء ، وما رأيت أحداً قبلَك تأدّم بلا شيء .

قال الجاحظ : وزعم لي بعضُ أصحابنا قال : دخلت يوماً على أبي العتاهية في بعض المتنزَّهات ، وقد دعا عَيّاشاً صاحب الجسر وتهيّأ له بطعام ، وقال لغلامه : إذا وضعتَ قُدّامَهم الغَداء فقدِّمْ إليَّ ثَريدةً بخَلٍّ وزيت . فدخلت عليه ، وإذا هو يأكل منها أكلَ مُتَكَمِّشٍ[1] غيرَ مُنكِرٍ لشيء . فدعاني ، فمددت يدي معه ، فإذا بثريدةٍ بخَلٍّ وَبَزْرٍ بدلاً من الزيت ، فقلت له : أتدري ما تأكل ؟ قال : نعم ، ثريدةً بخَلٍّ وبزر . فقلت : وما دعاك إلى هذا ؟ قال : غلِط الغلام بين دَبّة[2] الزيت ودَبّة البِزر ، فلمّا جاءني كرهت التجبُّر وقلت : دُهْنٌ كدهن . فأكلت وما أنكرت شيئاً .

محمد بن عيسى الخُزيميّ ـ وكان جارَ أبي العتاهية ـ قال :

كان لأبي العتاهية جارٌ يلتقط النوى ضعيفٌ سيّء الحال مُتجمِّل[3] ،عليه ثياب . فكان يمرّ بأبي العتاهية طَرَفي النهار ، فيقول أبو العتاهية : اللهمّ أَغْنِه عمّا هو بسبيله ، شيخٌ ضعيف سيّء الحال عليه ثيابٌ متجمّل ، اللهمّ أَعِنه ، اصنَعْ له ، بارك فيه . فبقي على هذا إلى أن مات الشيخُ نحواً من عشرين سنةً ، ووالله إنْ تصدّق عليه بدِرهم ولا دانقٍ قطٌّ ، وما زاد على الدُعاء شيئاً . فقلت له يوماً : يا أبا إسحاق ، إنّي أراك تُكثِر الدعاء لهذا الشيخ وتزعُم أنه فقيرٌ مُقِلّ ، فلمَ لا تتصدّق عليه بشيء ؟ فقال : أخشى أن يعتاد الصَّدَقة ، والصدقةُ آخِرُ كَسْب العبد ، وإنّ في الدعاء لخيراً كثيراً .

---

(١) المتكمش : المسرع .

(٢) الدبة : وعاء يتخذ للزيت والبزر ، والبزر التابل .

(٣) المتجمل : الفقير الذي لم يظهر على نفسه المسكنة والذل .

قال محمد بن عيسى الخُزيميّ هذا :

وكان لأبي العتاهية خادمٌ أسودُ طويل كأنه مِحراك أتُّون ، وكان يُجري عليه في كلّ يوم رغيفين . فجاءني الخادم يوماً فقال لي : واللهِ ما أشبَع . فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : لأنّي ما أفتُر من الكَدّ وهو يُجري عليّ رغيفين بغير إدام ، فإنْ رأيت أن تكلّمه حتى يزيدَني رغيفاً فتُؤجَرَ . فوعدته بذلك . فلمّا جلست معه مرّ بنا الخادم فكرهت إعلامَه أنّه شكا إليّ ذلك ، فقلت له : يا أبا إسحاق ، كم تُجري على هذا الخادم في كل يوم ؟ قال : رغيفين . فقلت له : لا يَكْفيانه . قال : من لم يكْفِه القليلُ لم يكفه الكثير ، وكلّ من أعطى نفسه شهوتها هَلك ، وهذا خادمٌ يدخل إلى حُرَمي وبناتي ، فإن لم أُعَوِّدْه القناعة والاقتصاد أهلَكَني وأهلكَ عِيالي ومالي . فمات الخادمُ بعد ذلك فكَفّنه في إزارٍ وفِراش له خَلَقٍ ، فقلت له : سُبحانَ الله ! خادمٌ قديمُ الحُرمة ، طويل الخِدمة ، واجبُ الحقِّ ، تُكفّنه في خلَق ، وإنما يكفيك له كفَنٌ بدينار ! فقال : إنّه يصير إلى البِلى ، والحيُّ أَولى بالجديد من الميّت . فقلت له : يَرحمك اللهُ أبا إسحاق ! فلقد عَوَّدتَه الاقتصاد حَيّاً ومَيّتاً .

قال محمد بن عيسى هذا : وقف عليه ذاتَ يومٍ سائلٌ من العَيّارين[1] الظُّرَفاء وجماعةٌ من جِيرانه حولَه ، فسأله مِن بين الجيران ، فقال : صنع اللهُ لك . فأعاد السؤال ، فأعاد عليه ثانيةً ، فأعاد عليه ثالثةً فردّ عليه مثلَ ذلك . فغضب وقال له : ألستَ القائل :

كلُّ حيٍّ عند مِيتَتِـــــه ... حَظُّه من مالِه كَفَنُ

ثم قال : فبالله عليك أَتريد أن تُعِدَّ مالَكَ كُلَّه لثَمن كَفَنك ؟ قال : لا . قال : فباللهِ كم قَدّرتَ لكَفَنك ؟ قال : خمسة دنانير . قال : فهي إذاً حَظُّك

(١) العيارون : قوم كانوا يتكسبون بالحيلة والمسألة واللصوصية .

من مالك كله ؟ قال : نعم . قال : فتصدَّقْ عليَّ من غير حَظِّك بدرهم واحد . قال : لو تصدّقتُ عليك لكان حَظّي . قال : فاعمَلْ على أنّ ديناراً من الخمسة الدنانير وَضِيعةٌ[1] قيراط ، وادفع إليّ قيراطاً واحداً ، وإلّا فواحدةٌ أخرى . قال : وما هي ؟ قال : القبور تُحفَر بثلاثة دراهم ، فأَعطِني درهماً وأُقيم لك كفيلاً بأنّي أَحفِر لك قَبرك به متى مُتَّ ، وتربح درهمين لم يكونا في حُسبانك ، فإن لم أَحتفِر رددتُه على وَرَثتك أو ردّه كَفيلي عليهم . فخجل أبو العتاهية وقال : اغرُبْ ، لَعَنك اللهُ وغضِب عليك . فضحكجميع من حضر ، ومرّ السائلُ يضحك . فالتفت إلينا أبو العتاهية فقال : من أجل هذا وأمثاله حُرّمت الصَدَقة . فقلنا له : ومَن حَرَّمها ومتى حُرِّمت ؟ فما رأينا أحداً ادّعى أنّ الصدَقة حُرّمت قبلَه ولا بعدَه .

قال محمد بن عيسى هذا : وقلت لأبي العتاهية : أتزكّي مالكَ ؟ فقال : والله ما أُنفِق على عيالي إلّا من زَكاة مالي . فقلت : سُبحانَ الله ! إنما ينبغي أن تُخرج زكاةَ مالك إلى الفقراء والمساكين . فقال : لو انقطعتْ عن عِيالي زكاةُ مالي لم يكن في الأرض أفقرُ منهم .

الحسين بن أبي السَّريّ قال :

قيل لأبي العتاهية : مالكَ تبخَلُ بما رَزَقك الله ! قال : والله ما بَخِلتُ بما رزقني اللهُ قطّ . قيل له : وكيف ذاك وفي بيتك من المال ما لا يُحصَى ؟ قال : ليس ذلك رِزقي ، ولو كان رزقي لأنفقتُه .

أخباره مع المهديّ

أبو خَيثم العَنَزيّ ـ وكان صديقاً لأبي العتاهية ـ قال : حدّثني أبو العتاهية قال :

أخرجني المهديُّ معه إلى الصَّيد ، فوقعنا معه على شيءٍ كثير ، فتفرّق

(١) الوضيعة : الخسارة وما يحط الثمن ، ولعل الصواب هنا : وضيعته .

أصحابُه في طَلبه وأخذ هو في طريقٍ غير طريقهم فلم يلتقُوا ، وعرَض لنا وادٍ جرّار وتغيّمت السماءُ وبدأت تُمطر ، فتَحيّرنا وأَشرفْنا على الوادي فإذا فيه مَلّاحٌ يُعبِّر الناس ، فلجأنا إليه فسألناه عن الطريق ، فجعل يُضَعِّف رأينا ويُعَجِّزُنا في بَذْلنا أنفسَنا في ذلك الغيم للصَّيد حتى أَبْعَدْنا . ثم أدخَلَنا كُوخاً له ، وكاد المهديُّ يموت بَرداً ، فقال له : أُغَطّيك بجُبَّتي هذه الصوف ؟ فقال : نعم . فغطّاه بها ، فتماسك قليلاً ونام . فافتقده غِلمانُه وتبِعوا أثرَه حتى جاؤونا . فلمّا رأى المَلّاحُ كثرتَهم علم أنه الخليفةُ فهرب ، وتبادر الغِلمانُ فنحَّوا الجُبّة عنه وألقَوا عليه الخزَّ والوَشْي . فلمّا انتبه قال لي : ويحَك ! ما فَعل المَلّاحُ ؟ فقد والله وَجَبَ حقُّه علينا . فقلت : هرَب واللهِ خوفاً من قُبح ما خاطَبَنا به . قال : إنّا لله ! والله لقد أردتُ أن أُغْنِيَه ، وبأيِّ شيءٍ خاطَبَنا ! نحن والله مُستحقّون لِأقبحَ ممّا خاطبَنا به ! بحياتي عليك الّا ما هجوتَني.
فقلت : يا أمير المؤمنين ، كيف تطيبُ نفسي بأن أَهْجُوَك ! قال : واللهِ لَتفعلَنّ ، فإنّي ضعيفُ الرأي ، مُغْرَمٌ بالصَّيد . فقلت :

يا لابسَ الوَشْيِ على ثوبــــه ما أقبحَ الأشيبَ في الرّاحِ(١)

فقال : زِدْني بحياتي . فقلت :

لوشئتَ أيضاً جُلتَ في خامــةٍ وفي وِشاحَين وأوضــاحِ (٢)

فقال : ويلَك ! هذا معنى سَوء يرويه عنك الناس ، وأنا أستأهِلُ ، زِدْني شيئاً آخرَ . فقلت : أخاف أن تغضب . قال : لا والله . فقلت :

كم من عظيم القَدْر في نفسـه قد نام في جُبّة مَـلّاحِ

فقال : مَعنى سَوء ، عليك لعنةُ الله ! وقُمنا وركبنا وانصرفنا .

أبو العتاهية قال :

---

(١) الراحة : طيّ الثوب .
(٢) الخام : ثوب من القطن غير مغسول . الاوضاح : الخلاخيل .

ماتت بنتُ المهديّ فحزِن عليها حُزناً شديداً حتى امتنع من الطعام والشّراب ، فقلت أبياتاً أُعزّيه بها ، فوافيتُه وقد سَلا وضحك وأكل وهو يقول : لا بُدّ من الصّبر على ما لا بُدّ منه ، ولئن سَلَونا عمّن فَقَدْنا لَيَسْلُونّ عنّا من يَفقِدُنا ، وما يأتي الليلُ والنهار على شيء إلّا أبلياه . فلمّا سمعتُ هذا منه قلت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي أن أُنشدَك ؟ قال : هاتِ . فأنشدته :

ما للجديدَين لا يَبْلَى اْختلافُهما ... وكلُّ غضٍّ جديدٍ فيهما بالي
يا مَن سَلا عن حبيبٍ بعد مِيتته ... كم بعد موتِك أيضاً عنك من سالي
كأنّ كلَّ نعيمٍ أنت ذائقُه ... من لذّة العيش يَحكي لَمْعَةَ الآلِ
لا تلعَبَنَّ بك الدنيا وأنت ترى ... ما شئتَ من عِبَرٍ فيها وأمثالِ
ما حِيلةُ الموت إلّا كلُّ صالحةٍ ... أو لا فما حِيلةٌ فيه لِمحتالِ[1]

فقال لي : أحسنتَ ويحَك ! وأصبت ما في نفسي ووعظت وأوجزت . ثم ثم أمر لي لكلّ بيت بألف درهم .

أخباره مع الهادي

عُروة بن يوسف الثقفيّ قال :

لمّا وَلي الهادي الخلافة كان واجداً على أبي العتاهية لملازمته أخاه هارونَ وانقطاعَه إليه وتَركه موسى ، وكان أيضاً قد أمر أن يخرجَ معه إلى الرَّيّ فأبى ذلك فخافه وقال يستعطفُه :

ألا شافعٌ عند الخليفة يَشفعُ ... فيدفَعَ عنّا شرَّ ما يُتَوَقَّعُ
وإنّي على عُظم الرّجاء لخائفٌ ... كأنّ على رأسي الأسِنّةَ تُشْرَعُ
يُرَوِّعني موسى على غير عَثرةٍ ... ومالي أرى موسى من العَفو أَوسَعُ
وما آمِنٌ يُمسي ويُصبح عائذاً ... بعفو أمير المؤمنين يُرَوَّعُ

(١) الجديدان : الليل والنهار. الآل : السراب .

محمد بن أبي العتاهية قال :

دخل أبي على الهادي فأنشده :

يا أمينَ الله مـــــــالي ... لست أدري اليومَ مالي
لم أَنَلْ منك الذي قـــــد ... نال غيري من نَـــوالِ
تبذُل الحـــقَّ وتُعطـــي ... عن يمـــينٍ وشِمـــالِ
وأنا البـــائسُ لا تنظُـــرُ - ... في رِقَّـــــة حـــالي

قال : فأمر المُعَلّى الخازنَ أن يُعطيَه عشرة آلاف درهم . قال أبو العتاهية : فأتيتُه ، فأبى أن يُعطيَها . ذلك أنّ الهادي امتَحنني في شيء من الشعر - وكان مَهيباً ، فكنت أخافه - فلم يُطِعني طَبعي ، فأمر لي بهذا المال ، فخرجت . فلمّا مَنَعنِيه المُعَلّى صِرت إلى أبي الوليد أحمد بن عِقال - وكان يجالس الهادي - فقلت له :

أبلغْ - سَلِمتَ أبا الوليد - سَلامي ... عنّي أميرَ المؤمنين إمامـــي
وإذا فرغتَ من السَّلام فقُـل لـه ... قد كان ما شاهدتَ من إفحامي
وإذا حَصِرتُ فليس ذاك بمُبطِلٍ ... ما قد مضى من حُرمتي وذمامي
ولطالما وَفَدت إليك مدائحـــي ... مخطوطـةً فَلْتـأبَ كلَّ مَـلامِ
أيّامَ لي لَسَنٌ ورقّةُ جِـــدّةٍ ... والمرءُ قد يَبلى مع الأيام (١)

قال : فاستخرج لي الدراهم وأنفذها إليّ .

محمد بن أحمد بن سليمان قال :

وُلد للهادي ولدٌ في أول يوم وَلي الخلافة ، فدخل أبو العتاهية فأنشده :

أكثَرَ موسـى غيـظَ حُسّاده ... وزيّن الأرض بــــأولاده
وجـاءنا من صُلْبـه سيّـــدٌ ... أَصْيَـدُ في تقطيـع أجـــداده

(١) الحصر : الارتجاج والعي في القول .

فاكتست الأرضُ به بَهجةً واستبشر الملكُ بميـــلادِه
وابتســم المِنـبرُ عن فَـرحـةٍ عَلَت بها ذِروةُ أعـــواده
كأنّني بعد قليــــل بـــه بين مَـواليه وقُــــوّاده
في مَحفلٍ تَخفِقُ راياتُـــه قد طَبّق الأرضَ بأجنـــاده

قال : فأمر له موسى بألفِ دينار وطِيبٍ كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضِي عنه .

عمر بن شَبّة قال :

كان الهادي واجداً على أبي العتاهية لملازمته أخاه هارونَ في خلافة المهديّ ، فلمّا وَلي موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يضطرب الخوفُ والرّجـاءُ إذا حَرّك موسى القضيبَ أو فَكَّرْ
ما أبينَ الفضلَ في مُغَيَّــب ما أوردَ من رَأيه وما أَصدَرْ
فكــم ترى عَــزّ عند ذلك مــن مَعشرٍ قومٍ وذَلَّ مِن مَعْشَرْ
يُثمِرُ مِن مَسّه القضيبُ ولو يَمَسُّه غيرُه لما أثمــــر
مَن مثلُ موسى ومثلُ والـدِه المهـديّ أو جَــدِّه أبي جَـعْفَــر

قال : فرضي عنه . فلمّا دخل عليه أنشده :

لَهْفي على الـزَّمـنِ القصيرِ بــين الخَوَرْنَــق والسَّـــديرِ
إذ نحن في غُـرَف الجنـــــا نِ نَعُوم في بحر السُّـرور
في فتيــةٍ ملكــوا عِنـــا نَ الدهر أمثالِ الصُّقور [1]

[الأبيات ...]

---

(١) الخورنق والسدير : قصران للنعمان بن المنذر بظاهر الحيرة ، وهما أيضاً موضعان بها وقيل نهران كانا بالحيرة .

ـ قال : قيل لو كان جَزْل اللفظ لكان أشعر الناس ـ فأجزل صِلته وعاد إلى أفضل ما كان له عليه .

أخباره مع الرّشيد

ابن الأعرابي قال :

اجتمعت الشعراء على باب الرّشيد ، فأذِن لهم ، فدخلوا وأنشدوا ، فأنشد أبو العتاهية :

يا مَن تَبَغّى زمناً صالحاً صلاحُ هارونَ صلاح الزمَنْ
كلٌّ لسانٍ هو في مُلكِهِ بالشُكر في إحسانه مرتَهَنْ

قال : فاهتزّ له الرَّشيد وقال له : أحسنتَ والله ! وما خرج في ذلك اليوم أحدٌ من الشعراء بصلة غيرُه .

ابن الأعرابي قال :

أجرى هارون الرشيد الخيل ، فجاءه فرسٌ يقال له المُشَمّر سابقاً ، وكان الرشيد معجباً بذلك الفرس ، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه ، فبدَرَهم أبو العتاهية فقال :

جاء المُشَمِّرُ والأفراسُ يَقْدُمُها هَوْناً على رِسْله منها وما انْبَهَرا
وخلّف الرّيحَ حَسْرى وهي جاهدةٌ ومرّ يختطف الأبصارَ والنَّظَرا[1]

فأجزل صلته وما جَسَر أحدٌ بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً .

عن خالد بن أبي الأزهر قال :

بعث الرّشيد بالحَرَشيّ[2] إلى ناحية الموصل فجبى له منها مالاً عظيماً من بقايا الخراج ، فوافى به بابَ الرشيد ، فأمر بصَرف المال أجمعَ إلى بعض جواريه .

(١) الرسل : الرفق والتؤدة . انبهر : انقطع نفسه من الاعياء . حسرى : كليلة .
(٢) هو سعيد الحرشي وكان الرشيد يوليه كثيراً من أعماله .

فاستعظم الناسُ ذلك وتحدّثوا به ؛ فرأيت أبا العتاهية وقد أخذه شِبهُ الجنون ، فقلت له : مالك ويحك ؟! فقال لي : سُبحانَ الله ! أَيُدفَع هذا المالُ الجليل إلى امرأة ، ولا تتعلّق كفيّ بشيء منه ! ثم دخل إلى الرشيد بعد أيّام فأنشده :

اللهُ هَوّن عندك الدُّنيا وبَغَّضها إليكا
فأبيت إلّا أن تُصَغِّرَ - كلَّ شيء في يَديكا
ما هانت الدنيا على أحدٍ كما هانت عليكا

فقال له الفضلُ بن الرّبيع : يا أمير المؤمنين ، ما مُدحت الخلفاءُ بأصدقَ من هذا المدح . فقال : يا فَضلُ ، أَعطِه عشرين ألف درهم . فغدا أبو العتاهية على الفضل فأنشده :

إذا ما كنتَ مُتَّخذاً خليلاً فمثلُ الفضلِ فاتّخذِ الخليلا
يرى الشُكرَ القليل له عظيماً ويُعطي من مواهبه الجزيلا
أراني حيثما يَمّمتُ طرفي وجدتُ على مكارمه دليلا

فقال له الفضل : والله لولا أن أُساويَ أمير المؤمنين لأعطيتك مثلَها ، ولكن سأُوصلها إليك في دَفَعات . ثم أعطاه ما أمر له به الرّشيد وزاد له خمسة آلاف درهم من عنده .

أحمد بن معاوية القُرَشيّ قال :

لمّا عقد الرشيد ولاية العهد لبَنيه الثلاثة : الأمين ، والمأمون ، والمؤتَمَن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عن الرَّبْع المُحيلِ قَعُودي إلى ذي زُحوف جَمّةٍ وجُنودِ
وراعٍ يُراعي الليلَ في حِفظ أُمّةٍ يُدافع عنها الشَّرَّ غيرِ رَقُودِ
بألويةٍ جِبريلُ يَقدُم أهلَها ورايات نصرٍ حولَه وبُنودِ
تجافى عن الدنيا وأيقن أنّها مُفارِقةٌ ليست بدار خُلودِ

وشدَّ عُرا الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثةِ أملاكٍ وُلاةِ عُهـــود
همُ خيرُ أولادٍ لهم خيرُ والدٍ له خيرُ آباءٍ مضت وجُـدودِ
بنو المصطفى هارونَ حولَ سريرِه فخيرُ قِيامٍ حولَه وقُعـودِ
تُقَلِّبُ ألحاظَ المَهابةِ بينهم عيونُ ظِباءٍ في قلوب أسودِ
جُدودهُم شَمسٌ أتتْ في أَهِلّةٍ تبدّتْ لِراءٍ في نجوم سُعودِ

قال : فوصله الرشيد بصلةٍ ما وصل بمثلها شاعراً قطّ .

الرِّياشيُّ قال :

قدِم رسولٌ لملك الرُوم إلى الرشيد ، فسأل عن أبي العتاهية وأنشده شيئاً من شعره ـ وكان يحسن العربية ـ فمضى إلى ملك الروم وذكَره له. فكتب ملك الروم إليه وردّ رسولَه يسأل الرشيد أن يُوجِّه بأبي العتاهية ويأخذَ فيه رهائنَ من أراد ، وألحّ في ذلك . فكلّم الرشيد أبا العتاهية في ذلك ، فاستعفى منه وأباه . واتصل بالرشيد أنّ ملك الروم أمر أن يكتبَ بيتان من شعر أبي العتاهية على أبواب مَجالسه وباب مدينته ، وهما :

ما اختلف الليـلُ والنّهـار ولا دارتْ نجومُ السماء في فَلَكِ
إلّا لِنقل السُّلطان عن مَلِـكٍ قد انقضى مُلكُه إلى مَلِكِ

محمد بن أبي العتاهية قال :

قال الرشيد لأبي : عِظْني . فقال له : أخافُك . فقال له : أنت آمِنٌ .

فأنشده :

لا تَأْمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ إذا تَستَّرتَ بالأبواب والحَرَسِ
واعلَمْ بأنّ سِهامَ الموت قاصِـدةٌ لكلِّ مُدَّرعٍ منّا ومُتَّـرِسِ
ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ طريقتَهـا إنّ السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

قال : فبكى الرشيد حتى بَلّ كُمَّه .

مُخارق قال :

لمّا تنسّك أبو العتاهية ولبس الصوف أمره الرشيد أن يقول شعراً في الغزل ، فامتنع ، فضربه الرشيد ستّين عصاً وحلَف ألّا يخرُجَ من حَبْسه حتى يقول شعراً في الغزل . فلمّا رُفعت المقارعُ عنه قال أبو العتاهية : كلُّ مملوكٍ له حُرٌّ وامرأته طالقٌ إن تكلّم سنةً إلّا بالقرآن أو بلا إله إلّا الله محمدٌ رسول الله . فكأنّ الرشيد تحزّن ممّا فعله ، فأمر أن يُحبَس في دارٍ ويُوسَّعَ عليه ولا يُمنع من دخول من يُريد إليه . قال مخارق : وكانت الحال بينه وبين إبراهيم المَوصليّ لطيفةً ، فكان يبعثُني إليه في الأيّام أتعرّف خبرَه ، فإذا دخلتُ وجدتُ بين يديه ظَهراً[1] ودواةً ، فيكتب إليّ ما يريد ، وأُكلّمه ، فمكث هكذا سنةً . واتّفق أنّ إبراهيم الموصليّ صنع صوته :

أعرفت دار الحـــيّ بالحِجْرِ فشدوريان فقُنّــة الغَمْــرِ
وهجرتَنا وألِفــتَ رسمَ بِلىً والرسمُ كان أحقَّ بالهَجْرِ[2]

قال مخارق : فقال لي إبراهيم : اذهب إلى أبي العتاهيـة حتى تغنّيـه هـذا الصوت . فأتيته في اليوم الذي انقضت فيه يمينُه ، فغنَّيتُه إياه . فكتب إليّ بعد أن غنّيته : هذا اليوم تنقضي فيه يميني ، فأُحبّ أن تُقيم عندي إلى الليلِ . فأقمت عنده نهاري كلَّه ، حتى إذا أذّن الناسُ المغربَ كلَّمني فقال : يا مخارقُ . قلت : لَبَّيك . قال : قل لصاحبك : يا بنَ ... أما والله لقد أبقيت للناس فتنةً إلى يوم القيامة ، فانظر أين أنت من الله غداً . قال مخارق : فكنت أوّل من أفطر على كلامه ، فقلت : دَعني من هذا ، هل قلت شيئاً للتخلُّص من هذا الموضع ؟ فقال : نعم ، قد قلت في امرأتي شعراً . قلت : هاتِه . فأنشدَني :

(١) الظهر : الجانب القصير من الريش وكان من عادتهم أن يكتبوا به .

(٢) حَجر ، بفتح أوله : مدينة باليمامة كثيرة القرى ، وبالكسر قرية من نواحي المدينة واسم ديار ثمود بوادي القرى والراجح أن المقصود هنا الاول لأن الغمر جبل في اليمامة أما شدوريان فلم تذكرها كتب البلدان ولعل في لفظها تحريفاً .

مَن لقلبٍ مُتيَّمٍ مشتـــاقِ ... شفّه شوقُه وطولُ الفراقِ
طال شوقي إلى قعِيدة بيـــتي ... ليت شِعري فهل لنا من تلاقي
هي حَظّي قد اقتصرتُ عليهــا ... من ذَوات العُقود والأطواق
جَمع الله عاجلاً بكِ شَمــلي ... عن قريبٍ وفكّني من وَثاقي

قال : فكتبتُها وصِرت بها إلى إبراهيم ، فصنع فيها لحناً ودخل بها على الرشيد ، فكان أولَ صوتٍ غنّاه إيّاه في ذلك المجلس ، وسأله : لِمن الشعر والغناءُ ؟ فقال إبراهيم : أمّا الغِناء فلي ، وأمّا الشعر فلأسيرك أبي العتاهية . فقال : أوَ قد فعل ؟ قال : نعم ، قد كان ذلك . فدعا به ، ثم قال لمسرورٍ الخادم : كم ضَرَبنا أبا العتاهية ؟ قال : سِتّين عصاً . فأمر له بسِتّين ألف درهم وخلع عليه وأطلقه .

الحسين بن أبي السَّريّ قال :

قال لي الفضل بن العبّاس : وجَد الرشيد ، وهو بالرَّقّة ، على أبي العتاهية ، وهو بمدينة السّلام . فكان أبو العتاهية يرجو أن يتكلّم الفَضل بن الرَّبيع في أمره ، فأبطأ عليه بذلك ، فكتب إليه أبو العتاهية :

أجَفَوْتَني فيمن جفاني ... وجعلتَ شأنكَ غيرَ شاني
ولَطالما أمَّنْتَني ... ممّا أرى كلَّ الأمان
حتى إذا انقلب الزما ... نُ صِرت عليَّ مع الزمانِ

فكلّم الفضلُ فيه الرشيد فرضي عنه . وأرسل إليه الفضلُ يأمره بالشُّخوص ويذكر له أن أمير المؤمنين قد رضيَ عنه ، فشَخَص إليه . فلمّا دخل إلى الفضل أنشَده قولَه فيه :

قد دَعَوناه نائياً فوجدنا ... ه على نَأيه قريباً سميعا

فأدخله إلى الرشيد ، فرجع إلى حالته الأولى .

محمد بن يزيد قال :

بلغني من غير وجهٍ أنّ الرشيد لمّا ضرب أبا العتاهية وحَبَسه وكَّل به صاحبَ خَبرٍ يكتب إليه بكلّ ما يسمعه ، فكتب إليه أنه سمعه يُنشد :

أما واللهِ إنّ الظُّلمَ لُـــومُ   وما زال المسيءُ هو الظَّلـومُ
إلى ديّـان يوم الدِين نَمضي   وعند الله تجتمـع الخُصـوم

قال : فبكى الرشيد وأمر بإحضار أبي العتاهية وإطلاقه ، وأمر له بألفي دينار .

عبدالله بن أبي سعد قال :

قال لي محمد بن أبي العتاهية : كان أبي لا يُفارق الرشيد في سَفَرٍ ولا حَضَر إلّا في طريق الحجّ ، وكان يُجري عليه في كلّ سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمَعاوِن . فلمّا قدم الرشيد الرَّقَّة لَبِس أبي الصُّوف وتزهّد وترك حُضور المنادمة والقول في الغزل ، وأمر الرشيد بحَبسه فحُبس ، فكتب إليه من وقته :

أنا اليومَ لي والحمـدُ لله أَشْهُرُ   يَرُوح عليَّ الهمُّ منكم ويَبْكُرُ
تَذكَّرْ أمينَ الله حَقّي وحُرمتي   وما كنتَ تُوليني لعلّك تَذْكُرُ
لياليَ تُدني منك بالقُربِ مجلسي   ووجُهك من ماء البشاشةِ يَقْطُرُ
فمَن ليَ بالعين التي كنت مرّةً   إليَّ بها في سالف الدّهر تَنْظُرُ

قال : فلمّا قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأسَ عليك . فكتب إليه :

أَرِقتُ وطار من عيني النُّعاسُ   ونام السّامرون ولم يُواسُوا
أمينَ الله أَمْنُك خيرُ أَمْنٍ   عليك من التُّقى فيه لِباسُ
تُساسُ من السّماء بكلّ بِرٍ   وأنت به تَسُوسُ كما تُساس
كأنّ الخَلْقَ رُكّب فيه رُوحٌ   له جَسَدٌ وأنت عليه راسُ
أمينَ الله إنّ الحبسَ بأسٌ   وقد أرسلتَ : ليس عليك باسُ

قال : وكتب إليه أيضاً في الحبس :

وكَلَّفْتَني ما حُلْتَ بيني وبينَه ... وقلتَ سأبغي ما تُريد وما تَهوى
فلو كان لي قَلبانِ كَلَّفتُ واحداً ... هواك وكَلَّفتُ الخَلِيَّ لما يَهْوَى

قال : فأمر بإطلاقه .

ابن أخت أبي خالد الحَربيّ قال :

قال لي الرشيد : احبِسْ أبا العتاهية وضَيِّقْ عليه حتى يقول الشعر الرقيقَ في الغزل كما كان يقول . فحبستُه في بيتٍ خمسةِ أشبارٍ في مِثلها ، فصاح : الموت ، أخرِجوني فأنا أقول كلَّ ما شِئتم . فقلت : قُلْ . فقال : حتى أتنفَّسَ . فأخرجتُه وأعطيته دواةً وقِرطاساً ، فقال أبياته التي أوّلها :

مَنْ لِعبدٍ أذلّـه مَـولاه ... ماله شافعٌ إليه سِواهُ
يشتكي ما به إليـه ويخشا ... ه ويَرجوه مثلَ ما يخشاه

قال : فدفعتُها إلى مسرورٍ الخادم فأوصلَها ، وتقدّم الرشيد إلى إبراهيم الموصليّ فغنّى فيها ، وأمر بإحضار أبي العتاهية فأُحضر . فلمّا أُحضر قال له : أَنشِدْني قولَك :

يا عُتبَ سيِّدتي أما لكِ دِينُ ... حتّى متى قلبي لديكِ رَهينُ
وأنا الذَّلُولُ لكلِّ ما حَمَّلْتِني ... وأنا الشَقيُّ البائسُ المِسكينُ
وأنا الغَداةَ لكلّ باكٍ مُسْعِدٌ ... ولكلّ صَبٍّ صاحبٌ وخَدينُ
لا بأسَ إنّ لِذاك عندي راحةً ... للصَّبِّ أن يَلقى الحزينَ حَزينُ
يا عُتبَ أين أفِرُّ منك أميرتي ... وعليَّ حِصنٌ من هَواكِ حَصِينُ

فأمر له الرشيد بخمسين ألف درهم .

ولأبي العتاهية في الرشيد لمّا حَبَسه أشعارٌ كثيرة ، منها قولُه :

يا رَشيدَ الأمر أَرشِدْني إلى ... وَجه نُجْحي لاعَدِمت الرَّشدا

لا أراكَ اللهُ سُوءاً أبـــداً ما رأتْ مِثلَك عينٌ أحـــدا
أَعِنِ الخائفَ وارحَمْ صوتَه رافعاً نحوك يدعُوك يَـــدا
وبَلائي من دَعاوَى أمـــلٍ كلّما قُلتُ تَدانَى بَعُـــدا
كم أُمَنَّى بغـــدٍ بعد غـــدٍ يَنفَدُ العُمرُ ولم أَلقَ غـــدا

عبد القَويّ بن محمد بن أبي العتاهية عن أبيهقال :

لبس أبو العتاهية كساء صُوفٍ ودُرّاعة صوف وآلى على نفسه ألّا يقول شعراً في الغزل ، وأمر الرّشيد بحبسه والتضييق عليه ، فقال :

يا بنَ عمِّ النبيّ سَمعاً وطاعَهْ قد خَلعنا الكِساءَ والدُرّاعـــه
ورجَعنا إلى الصِّنـــاعة لمّـــا كان سُخطُ الإمام تركَ الصناعة

وقال أيضاً :

أما رَحِمَتْني يومَ وَلّتْ فأسرعت وقد تركَتْني واقفـاً أتلفَّـــتُ
أُقَلّب طَرفي كي أراها فلا أَرى وأحلِبُ عَيني دَرَّها وأُصَوِّتُ

فلم يزل الرشيد مُتوانياً في إخراجه إلى أن قال :

أمـــا واللهِ إنّ الظُّـلمَ لُـومُ وما زال المُسيءَ هو الظَّـلـومُ
إلى دَيّان يوم الدِّين نَمضي وعند الله تجتمع الخُصـــومُ
لأمرٍ ما تصرّفت الليـــالي وأمرٍ ما تُوُلّيت النُّجـــومُ
تموت غداً وأنت قريـرُ عينٍ من الغَفَلات في لُجَجٍ تعومُ
تنام ولم تنَمْ عنك المنايـــا تَنَبَّهْ للمَنِيّـة يا نَـــؤوم
سَلِ الأيام عن أُمَم تَقضَّتْ ستُخبِرك المعالمُ والرُّســومُ
تَـرُوم الخُـلْدَ في دارٍ المنايـا وكم قد رام غيرُك ما تَرُوم
ألا يأيُّها الملكُ المُـرجَّـى عليه نَواهضُ الدنيا تَحُوم
أقِلْني زَلَّـــةً لم أَجرِ منهـــا إلى لَومٍ وما مِثلي مَلُـــومُ

وخَلّصْني تُخلّصْ يومَ بَعثٍ   إذا للنّاس بُرّزت الجحيمُ[1]

فرّق له وأمر بإطلاقه .

أحمد بن خلّاد قال حدّثني أبي قال :

لمّا مات موسى الهادي قال الرشيد لأبي العتاهية : قُل شعراً في الغزل . فقال : لا أقول شعراً بعد موسى أبداً . فحبسه . وأمر إبراهيم الموصليّ أن يغنّي فقال : لا أُغنّي بعد موسى أبداً . وكان مُحسِناً إليهما ، فحبسه . فلمّا شَخَص إلى الرَّقّة حفَر لهما حَفيرة واسعة وقطع بينهما بحائط وقال : كُونا بهذا المكان لا تخرُجا حتى تَشعُر أنت ويغنّي هذا . فصبَرا على ذلك بُرهةً . وكان الرشيد يشرب ذات يوم وجعفرُ بن يحيى معه ، فغنّت جاريةٌ صوتاً فاستحسَناه وطرِبا عليه طَرباً شديداً وكان بيتاً واحداً . فقال الرشيد : ما كان أحوجَه إلى بيتٍ ثانٍ ليطُولَ الغِناءُ فيه فنستَمْتِع مُدّةً طويلة به ! فقال له جعفر : قد أصبتُه . قال : من أين ؟ قال : تبعث إلى أبي العتاهية فيُلحِقُه به لقُدرته على الشعر وسُرعته . قال : هو أنْكَدُ من ذلك ، لا يُجيبُنا وهو محبوسٌ ونحن في نعيمٍ وطرب . قال : بلى ، فاكتُبْ إليه حتى تعلَم صِحّة ما قلت لك . فكتب إليه بالقصّة وقال : ألحِقْ لنا بالبيت بيتاً ثانياً . فكتب إليه أبو العتاهية :

شُغلَ المِسكينُ عن تلك المِحَنْ   فارق الرُّوحَ وأخلى من بَدَنْ
ولقد كُلّفتُ أمراً عَجَباً   أُسأَلُ التَفريح من بيت الحَزَنْ

فلمّا وصلت قال الرشيد : عرّفتُك أنه لا يفعل . قال : فتُخرجُه حتى يفعل . قال : لا ، حتى يَشعُر ، فقد حلفتُ . فأقام أياماً لا يفعل . قال : ثم قال أبو العتاهية لإبراهيم : إلى كم نُلاجُّ الخلفاء ! هَلُمّ أَقُلْ شعراً وتُغَنِّ فيه . فقال أبو العتاهية :

---

(١) توليت النجوم : تولاها الله فتطلع ثم تغيب بقدرته . الناهض(في الاصل) : فرخ الطائر الذي وفز جناحه وتهيأ للطيران .

بأبي مَن كان في قلبي له مرّةً حُبٌّ قليل فسُرِقْ
يا بني العبّاس فيكم ملِكٌ شُعب الإحسان منه تفترِقْ
إنّما هارونُ خيرٌ كلُّه مات كلُّ الشرّ مُذ يوم خُلِقْ

وغنّى فيه إبراهيم. فدعا بهما الرشيد، فأنشده أبو العتاهية وغنّاه إبراهيم، فأعطى كلّ واحدٍ منها مائةَ ألف درهم ومائة ثوب.

الرّبيع بن محمد الخُتَّليّ الورّاق قال: أخبرني ابن أبي العتاهية أن الرشيد لمّا أطلق أباه من الحبس لزِم بيته وقطع الناسَ، فذكره الرّشيدُ فعُرِّف خبرَه، فقال: قولوا له: صِرتَ زير نساء وحِلْسَ[1] بيت. فكتب إليه أبو العتاهية:

بَرِمتُ بالناس وأخلاقهم فصرتُ أستأنس بالوَحْدَهْ
ما أكثر الناسَ لَعَمري وما أَقَلَّهم في مُنتهى العِدَّه

ثم قال: لا ينبغي أن يمضي شعرٌ إلى أمير المؤمنين ليس فيه مدحٌ له. فقرَنَ هذين البيتين بأربعة أبيات مَدَحه بها وهي:

عاد لي من ذِكْرها نَصَبُ فدموعُ العين تنسَكِبُ
وكذاك الحبُّ صاحبُه يَعتريه الهمُّ والوَصَبُ
خيرُ من يُرجَى ومن يَهَبُ ملِكٌ دانت له العربُ
وحقيقٌ أن يُدانَ له من أبوه للنبيِّ أبُ

محمد بن صالح العدويّ قال: أخبرني أبو العتاهية قال:

كان الرشيد ممّا يُعجبه غناء المَلّاحين في الزّلّالات إذا ركبها، وكان يتأذّى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يَعملوا لهؤلاء شعراً يغنّون فيه. فقيل له: ليس أحدٌ أقدرَ على هذا من أبي العتاهية، وهو في الحبس. قال: فوَجَّه إليَّ الرشيد: قُل شعراً حتى أسمعه منهم، ولم يأمر باطلاقي،

---

(١) حلس بيته: يلازم بيته فلا يبرحه.

فغاظني ذلك فقلت : والله لأقولنَّ شعراً يُحزنه ولا يُسَرّ به ، فعملتُ شعراً ودفعته إلى مَن حَفَّظه المَلاحين . فلمّا ركب الحرّاقة[1] سمعه ، وهو :

خانك الطَّرفُ الطَّمُوحُ ... أيّها القلبُ الجَمُوحُ
لِدواعي الخير والشَّرّ دُنُوٌّ ونُزوح
هل لمطلوبٍ بذنبٍ ... تَوبةٌ منه نَصُوح
كيف إصلاحُ قلوبٍ ... إنّما هنّ قُروح
أحسَن الله بنا أنّ الخَطايا لا تَفُوحُ
فإذا المستور منّا ... بين ثَوبيه نَضُوحُ
كم رأينا من عزيزٍ ... طُويتْ عنه الكُشوحُ
صاحَ منه برحيلٍ ... صائحُ الدّهر الصَّدوحُ
موتُ بعض الناس في الأرض على قومٍ فُتوح
سيصير المرءُ يوماً ... جَسَداً ما فيه رُوحُ
بين عينَي كلِّ حيٍّ ... عَلَمُ الموت يَلُوح
كُلّنا في غَفلةٍ والموت يَغدو ويَرُوح
لبني الدُّنيا من الدُّنيا غَبُوقٌ وصَبُوحُ[2]
رُحْنَ في الوَشْي وأصبحنَ عليهنّ المُسوحُ
كلُّ نَطّاحٍ من الدَّهْر - له يومٌ نَطُوح
نُحْ على نفسك يا مِسكينُ إن كنت تَنُوح
لَتمُوتَنَّ وإن عُمِّرتَ ما عُمِّر نوحُ (٢)

---

(١) الحراقة : ضرب من السفن الحربية الكبيرة فيها مرامي نيران يرمى بها العدو ، وكان منها أنواع يتخذها الخلفاء والامراء للنزهة .

(٢) الصبوح : ما يشرب في الصبوح والغبوق : ما يشرب في المساء . المسوح ج مسح : ثوب الراهب وكساء خشن .

قال : فلمّا سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب ـ وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة وأشدهم عَسْفاً في وقت الغضب والغِلظة ـ فلمّا رأى الفضل بن الرَّبيع كثرةَ بكائه أومأ إلى الملّاحين أن يسكُتوا .

الحُسين بن أبي السَّريّ قال :

مرّ القاسم بن الرّشيد في موكبٍ عظيم ـ وكان من أتْيَه الناس ـ وأبو العتاهية جالسٌ مع قوم على ظهر الطَّريق . فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاماً له ، فلم يزل قائماً حتى جاز ، فأجازه ولم يلتفت إليه ؛ فقال أبو العتاهية :

يَتِيـــهُ ابنُ آدمَ مِن جَهـــله كأنّ رَحا المـوت لا تَـطْحَـنُـهْ

فسمع بعضُ من في مَوكبه ذلك ، فأخبر به القاسم ، فبعث إلى أبي العتاهية وضربه مائةَ مِقْرعة ، وقال له : يا بن ..! أتُعرِّضُ بي في مثل ذلك الموضع ! وحَبَسه في داره . فدَسّ أبو العتاهية إلى زُبيدة بنت جعفر ـ وكانت تُوجِب له حَقَّه ـ هذه الأبيات :

حتى متى ذو التِيه في تِيهـــهِ أصلَحـــه اللهُ وعافـــاهُ
يَتِيهُ أهلُ التِّيه من جَهلهـــم وهم يموتــون وإن تاهُــوا
من طَلَب العـزَّ لِيبقَى لـــه فـإنّ عِـــزَّ المـرء تقـــواه
لم يعتصِمْ باللهِ من خَلْقـــه مَن ليس يرجُوه ويخشـــاه

وكتب إليها بحاله وضِيق حَبسه ، وكانت مائلةً إليه ، فرثت له وأخبرت الرّشيد بأمره وكلّمته فيه ، فأحضره وكساه ووصَلَه ، ولم يرض عن القاسم حتى بَرّ أبا العتاهية وأدناه واعتذر إليه .

أخباره مع المأمون :

جماعة من كُتّاب الحسن بن سَهل قالوا :

وقعت رُقعةٌ فيها بيتا شعر في عسكر المأمون ، فجيء بها إلى مُجاشع بن مَسْعَدة ، فقال : هذا كلام أبي العتاهية ، وهو صديقي ، وليست المخاطبة لي

ولكنّها للأمير الفضل بن سهل . فذهبوا بها ، فقرأها وقال : ما أعرف هذه العلامة . فبلغ المأمون خبرُها فقال : هذه إليّ وأنا أعرف العلامة . والبيتان :

ما على ذا كنّا افْتَرَقْنا بسَنْـدا ... نَ وما هكذا عَـهِدنا الإخـاءَ

تضرِبُ الناسَ بالمُهَنَّدة البِيضِ عـلى غَدرهم وتنسى الوفـاءَ

قال : فبعث إليه المأمون بمال .

المُعَلّى بن أيّوب قال :

دخلت على المأمون يوماً وهو مُقبِلٌ على شيخ حسنِ اللحية خَضِيبٍ شديد بياض الثوب على رأسه لاطئةٌ[1] ، فقلت للحسن بن أبي سعيد ـ قال : وهو ابنُ خالة المعلّى بن أيوب ، وكان الحسن كاتب المأمون على العامة ـ : مَن هذا ؟ فقال : أما تعرفه ؟ فقلت : لو عرفتُه ما سألتُك عنه . فقال : هذا أبو العتاهية . فسمعت المأمون يقول له : أنشِدني أحسنَ ما قلتَ في الموت . فأنشده :

أنساك مَحياك المَماتـا ... فطلبتَ في الدنيا الثَّبـاتا

أَوَثِقْتَ بالدنيا وأنـت تـرى جَماعتَها شَتاتـا

وعَـزَمتَ منك على الحيـا ... ة وطُولها عَـزماً بَتـاتـا

يا مَن رأى أبويـهْ فيمَـ ... ـن قد رأى كانا فمـاتـا

هل فيهما لك عِبـرةٌ ... أم خِلتَ أنّ لك انفلاتـا

ومن ذا الذي طلـب التفلُّـ ... ـتَ من مَنيّتـه ففاتـا

كُـلٌّ تُصَبِّحـهُ المنيّـةُ أو تُبَيِّتُـه بَيَاتـا

قال : فلمّا نهض تبعتُه فقبضت عليه في الصَّحْن أو في الدِّهليز ، فكتبتُها عنه .

عن ثُمامة قال :

---

(١) اللاطئة : قلنسوة صغيرة تلطأ بالرأس

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

ما أَحسنَ الدنيـا وإقبالهـــا إذا أطــاع اللهَ مَنْ نالَهــا
مَن لم يُواسِ الناسَ في فَضلهــا عَـرّض لـلإدبـار إقبالَها

فقال له المأمون : ما أجودَ البيت الأول ! فأمّا الثاني فما صنعتَ فيه شيئاً ، الدنيا تُدبِرُ عمّن واسَى منها أو ضَنّ بها ، وإنما يُوجِب السّماحةُ بها الأَجْرَ ، والضَّنُّ بها الوِزْرَ فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهلُ الفضل أَولى بالفضل ، وأهل النَقص أَولَى بالنقص . فقال المأمون : اِدفَع إليه عشرةَ آلاف درهم لاعترافه بالحقّ .

فلمّا كان بعد أيام عاد فأنشدَه :

كـم غافـلٍ أُودى بـه المـــوتُ لم يأخُـذِ الأُهْبَةَ للفَـوتِ
من لم تزَل نعمتُه قبلَـــــه زال عن النّعمة بالمـــوتِ

فقال له : أحسنتَ ! الآنَ طيّبتَ المعنى . وأمر له بعشرين ألف درهم .

عن الحسن بن عائِـذ قال :

كان أبو العتاهية يَـحُجّ في كلّ سنةٍ ، فإذا قدِم أهدى إلى المأمونِ بُـرْداً ومِطْـرَفاً ونَعلاً سَوداءَ ومَساويكَ أَراك[1] ، فيبعث إليه بعشرين ألف درهم . وكان يُوصِل الهديّـةَ من جِـهته مِنجابٌ مولى المأمون ويَجيئه بالمال . فأهدى مرّةً له كما كان يُهدي كلَّ سنة إذا قدِم ، فلم يُثِبْه ولا بعث إليه بالوظيفة . فكتب إليه أبو العتاهية :

خَبَّروني أنّ من ضَـرْبِ السَّنَــهْ جُـدُداً بيضاً وصُفراً حَسَنَــهْ
أُحدِثَــتْ لكنّني لم أَرهـــــا مثلَ ما كنتُ أرى كــلَّ سَنَـهْ

فأمر المأمون بحمل العشرين ألف درهم ، وقال : أغفلَـنْاه حتى ذَكَّرَنا .

(١) الأراك : ضرب من الشجر يتخذ منه المساويك .

أخباره مع عبدالله بن مَعن بن زائدة

محمد بن أبي العتاهية ومحمد بن سعد قالا :

كان أبو العتاهية يهوَى في حداثته امرأةً نائحة من أهل الحِيرة لها حُسنٌ وجمال يقال لها سُعدى ، وكان عبدالله بن معن بن زائدة المكنّى بأبي الفضل يهواها أيضاً ، وكانت مولاةً لهم ، ثم اتّهمها أبو العتاهية بالنّساء ...

مَهديّ بن سابق قال :

تهدّد عبدالله بن مَعن أبا العتاهية وخوّفه ونهاه أن يَعرِض لَمولاته سُعدى ، فقال أبو العتاهية :

ألا قُلْ لابن مَعنٍ ذا الـــــذي في الوُدّ قد حـــــالا
لقد بُلّغتُ ما قــــالَ   فما باليــت ما قـــالا
ولـو كان من الأُسْـــــد   لمـا صـال ولا جـــالا
فصُـغ ما كنـت حَلَّيـت   به سيفَـــك خَلخـــالا
وما تصنع بالسّيـــفِ   إذا لم تـــكُ قَتّـــالا
ولـــو مـــدّ إلى أُذْنَيـــــــه كَفَّيــه لمـــانـالا
قصـيرُ الطُّـول والطِّيْلَـــــةِ لا شبّ ولا طـــالا
أرى قومـــك أبطـــالاً   وقـد أصبحتَ بَطّالا[1]

سليمان المدائنيّ قال :

احتال عبدالله بن مَعن على أبي العتاهية حتى أُخذ في مكان ، فضربه مائةَ سَوط ضرباً ليس بالمُبرِّح غيظاً عليه ، وإنّما لم يعنُفْ في ضربه خوفاً من كثرة مَن يُعنَى به . فقال أبو العتاهية يهجوه :

جَلَـدَتْـــني بكَفِّهـــا   بنتُ مَعنِ بن زائـــدهْ

(١) الطيلة : العمر.

جلدتْني فأوجعتْ　　بأبي تلك جالده
وتراها مع الخَصِيّ على الباب قاعده
تتكنّى كُنَى الرّجال بعَمدٍ مُكايده
جلدتْني وبالغتْ　　مائةً غيرَ واحده
اجلِديني واجلِدِي　　إنّما أنتِ والده[1]

عَون بن محمد ومحمد بن موسى قالا :

لمّا اتّصل هجاء أبي العتاهية بعبدالله بن مَعن وكَثُر غضب أخوه يزيد ابن مَعن من ذلك وتوعّد أبا العتاهية ، فقال فيه قصيدته التي أوّلها :

بَنَى مَعْنٌ ويهدِمُه يزيدُ　　كذاك اللهُ يَفعل ما يُريدُ
فمَعنٌ كان للحُسّاد هَمّاً　　وهذا قد يُسَرٌّ به الحَسُود
يزيدُ يزيدُ في مَنعٍ وبُخلٍ　　ويَنْقُص في العطاء ولا يزيد

أبو عِكرمة قال :

كان الرّشيد إذا رأى عبدالله بن مَعن بن زائدة تمثّل قول أبي العتاهية :

أُختُ بني شَيبانَ مرّتْ بنا　　مَمشوطةً كُوراً على بَغْل

وأوّل هذه الأبيات :

يا صاحبيَ رَحْليَ لا تُكثِرا　　في شَتم عبدالله من عَذْلِ
سبحانَ من خصّ ابنَ مَعنٍ بما　　أرى به من قِلّة العَقلِ
قال ابنُ مَعنٍ وجَلا نفسَه　　على مَن الجَلْوةُ يا أهلي
أنا فتاةُ الحيّ من وائلٍ　　في الشَرف الشامخ والنُّبلِ
ما في بني شَيبانَ أهلِ الحِجا　　جاريةٌ واحدةٌ مثلي

---

(۱) يعني ببنت معن بن زائدة عبدالله بن معن المهجو وكان يرميه بالخنث والتشبه بالنساء .

وَيْلي ويا لهفـــي على أَمـردٍ   يُلصِقُ منّي القُرط بالحَجْلِ
صافحتـــه يومـــاً على خلوةٍ   فقال دَعْ كفّي وخُذ رِجـلي
أختُ بني شيبانَ مرّت بنـا   ممشوطـــةً كُوراً على بَغْلِ
تُكـنَى أبا الفضل ويا مَن رأى   جارية تُكنى أبا الفَضـلِ[1]

[الأبيات ...] ...

جبَلة بن محمد قال : حدّثني أبي قال :

مضى بنو مَعن إلى مَنْدَل وحَيّان ابنَي عليّ العَنَزِيّيْن الفقيهَين ـ وهمامن من بني عمرو بن عامر ، بطنٍ من يَقدُم بن عَنَزة ، وكانا من سادات أهل الكوفة ـ فقالوا لهما : نحن بيتٌ واحد وأهل ، ولا فرقَ بيننا ، وقد أتانا من مَولاكم هذا ما لو أتانا من بعيد الوَلاءِ لوجَب أن تردَعاه . فأحضرا أبا العتاهية ـ ولم يكن يُمكنه الخلافُ عليهما ـ فأصلحا بينه وبين عبدالله ويزيد ابنَي مَعن ، وضَمِنا عنه خُلوص النيّة ، وعنهما ألّا يَتْبعاه بسُوء ، وكانا ممّن لا يُمكن خِلافُهما ، فرجعت الحالُ إلى المودّة والصَّفاء ...

سائر أخباره

● عبدالله بن أبي سعد قال :

ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أنّ بِشْرَ بن المُعْتَمِر قال يوماً لأبي العتاهية : بلَغني أنّك لمّا نَسكت جلستَ تَحجُم اليتامى والفقراء للسَّبيل ، أكذلك كان ؟ قال : نعم . قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع من نفسي حَسبما رفعتْني الدنيا ، وأضع منها ليسقُط عنها الكِبْرُ وأكتسب بما فعلتُه الثواب ، وكنت أَحجِم اليتامى والفقراء خاصّةً . فقال له بشر : دَعْني من تَذليلك نفسَك بالحِجامة ، فإنه ليس بحُجّة لك أن تُؤدّبها وتُصلحها بما لعلّك

(١) الحجل : الخلخال . الكور : الرحل .

تُفسِد به أمرَ غيرك . أحبّ أن تُخبرني هل كنت تعرِف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجِمُه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا . قال : هل كنت تعرف مقدارَ ما يَحتاج فيه كلٌّ واحدٍ منهم إلى أن يُخرجه على قَدر طبعه ، ممّا إذا زدتَ فيه أو نَقَصتَ منه ضَرّ المحجومَ ؟ قال : لا . قال : فما أُراك الّا أردت أن تتعلّم الحِجامة على أقفاء اليتامى والمساكين .

- قال أبو دِعامة عليّ بن يزيد :

أُخبِر يحيى بن خالد أنّ أبا العتاهية قد نَسَك وأنه جلس يحجُم الناس للأَجْر تواضُعاً بذلك . فقال : ألم يكن يبيع الجِرارَ قبل ذلك ؟ فقيل له : بلى . فقال : أما في بيع الجِرار من الذُّلّ ما يَكفيه ويَستغني به عن الحِجامة !

- عبد الرحمن بن إسحاق العُذريّ قال :

كان لبعض التّجار من أهل باب الطاق (١) على أبي العتاهية ثمنُ ثيابٍ أخذها منه ، فمرّ به يوماً ، فقال صاحب الدُكّان لغُلامٍ ممّن يَخدُمه حسنِ الوجه : أَدرِكْ أبا العتاهية فلا تُفارقْه حتى تأخذَ منه مالناً عنده . فأدركه على رأس الجِسر ، فأخذ بعِنان حماره ووَقفه . فقال له : ما حاجتُك يا غُلامُ ؟ قال : أنا رسولُ فلان بعثني إليك لأخُذَ مالَه عليك . فأمسك عنه أبو العتاهية ـ وكان كلٌّ من مرّ فرأى الغلامَ متعلّقاً به وقف ينظر ـ حتى رضِي أبو العتاهية جَمْعَ الناس وحَفْلَهم ، ثم أنشأ يقول :

والله ربِّـــك إنـــني لَأَجِلُّ وَجهَك عن فِعالِــكْ
لــو كــان فِعْلُك مثــلَ وَجْهِــك كنتَ مكتفياً بذلــك

فخجِل الغلام وأرسل عِنان الحمار ورجَع إلى صاحبه وقال : بعثتَني إلى شيطانٍ جَمع عليَّ الناس وقال فيَّ الشعر حتى أخجلني فهرَبت منه .

---

(١) باب الطاق : محلة بالجانب الشرقي من بغداد .

● الحسين بن أبي السَّريّ قال :

كان يزيد بن منصور خالُ المهديّ يتعصّب لأبي العتاهية لأنه كان يمدح اليمانية أخوال المهديّ في شعره ، فمن ذلك قولُه :

سُقيتَ الغيثَ يا قصرَ السّلامِ فنِعْمَ مَحلّةُ الملك الهُمامِ
لقد نَشر الإلَهُ عليك نُوراً وحَفّك بالملائكة الكرام
سأشكُر نِعمةَ المهديّ حتى تدورَ عليّ دائرةُ الحِمام
له بيتان بيتٌ تُبَّعِيّ وبيتٌ حلّ بالبلَد الحَرام

قال : وكان أبو العتاهية طولَ حياة يزيد بن منصور يدّعي أنه مولىً لليمن وينتفي من عَنَزة . فلمّا مات يزيد رجع إلى ولائه الأوّل . فحدّثني الفضل بن العبّاس قال : قلت له : ألم تكن تزعُم أنّ ولاءك لليمنِ ! قال : ذلك شيء احتَجنا إليه في ذلك الزمن ، وما في واحد ممّن انتميتُ إليه خيرٌ ، ولكنّ الحقّ أحقُّ أن يُتَّبع . وكان ادّعى ولاء اللَخميّين ، قال : وكان يزيد بن منصور من أكرم الناس وأحفظهم لِحُرمةٍ ، وأرعاهم لعهدٍ ، وكان بارّاً بأبي العتاهية ، كثيراً فضلُه عليه ، وكان أبو العتاهية معه في مَنعة وحِصنٍ حَصين ، مع كثرة ما يدفعه إليه ويمنعه من المكاره . فلمّا مات قال أبو العتاهية يرثيه :

أَنعى يَزيدَ بنَ منصورٍ إلى البَشَرِ أَنعى يزيد لأهل البدو والحضَر
يا ساكنَ الحُفرة المهجورِ ساكنُها بعد المقاصر والأبواب والحُجَرِ
وجدتُ فَقْدَكَ في مالي وفي نسبي وجدتُ فقدكَ في شَعري وفي بشَري
فلستُ أدري جزاكَ اللهُ صالحةً أمنظري اليومَ أسوا فيك أم خَبَري

● أبو دُلف هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال :

تذاكروا يوماً شعر أبي العتاهية بحَضرة الجاحظ ، إلى أن جرى ذكرُ أُرجوزته المزدوجة التي سمّاها « ذات الأمثال » ، فأخذ بعضُ من حضر يُنشدها حتى أتى على قوله :

يا للشَّبابِ المَرِحِ التَّصابي	روائحُ الجنّة في الشبابِ

فقال الجاحظ للمُنشِد : قِف : ثم قال ، انظروا إلى قوله :

روائح الجنّة في الشباب

فإن له معنىً كمعنى الطَرَب الذي لا يقدِر على معرفته إلا القلوبُ ، وتعجِز عن ترجمته الألسِنة إلّا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخيرُ المعاني ما كان القلبُ إلى قَبوله أسرعَ من اللسان إلى وصفه .

وهذه الأُرجوزة من بدائع أبي العتاهية ، ويقال إن له فيها أربعةَ آلاف مثل . منها قوله :

حَسْبُك ممّا تبتغيه القُوتُ | ما أكثرَ القوتَ لِمن يموتُ
الفقرُ فيما جاوز الكَفافا | من اتّقى اللهَ رجا وخافا
هي المقاديرُ فلُمْني أو فَذَرْ | إن كنت أخطأتُ فما أخطا القَدَرْ
لكلّ ما يُؤذي وإن قَلّ أَلَمْ | ما أطْولَ الليلَ على من لم يَنَمْ
ما انتفع المرءُ بمثل عَقلِهِ | وخيرُ ذُخر المرء حُسن فِعلِهِ
إنّ الفسادَ ضِدُّه الصَّلاحُ | ورُبَّ جِدٍّ جَرّه المُزاحُ
من جَعَل النَمّامَ عَيْناً هَلَكا | مُبْلِغُك الشرَّ كباغيه لَكا
إنّ الشبابَ والفَراغ والجِدَه | مَفْسَدةٌ للمرء أيُّ مَفْسَده[1]

[الأبيات ...] ...

● الفضل بن عبّاس بن عُقبة بن جعفر قال :

كان عليّ بن ثابت صديقاً لأبي العتاهية وبينهما مجاوبات كثيرة في الزهد والحكمة . فتوفي عليّ بن ثابت قبله ، فقال يرثيه :

مؤنِسٌ كان لي هَلَكْ	والسّبيلُ التي سَلَكْ

(١) الجدة : الغنى .

يا عـلـيّ بـن ثابــتٍ غفَـر اللهُ لي ولـكْ
كلُّ حـيٍّ مُـمَـلَّـكٍ سوف يَفنى وما مَلَكْ

قال الفضل : وحضر أبو العتاهية عليَّ بن ثابت وهو يجود بنفسه ، فلم يزل مُلتزمَه حتى فاض ، فلما شُدّ لَحياه بكى طويلاً ثم أنشد يقول :

يا شَريكـي في الخـير قَـرَّبــك اللهُ فنعمَ الشريكُ في الخـير كُنتا
قد لَعَمري حكيتَ لي غُصَص المو ت فحرَّكْتَني لها وسَكَنْـتـا

قال : ولمّا دُفن وقف على قبره يبكي طويلاً أحرَّ بُكاء ، ويُـردّد هذه الأبيات :

ألا مَنْ لي بأُنسِك يا أُخَيّـا ومَن لي أن أَبُثَّك ما لَديّا
طوتْك خطوبُ دهرِك بعد نَشْرٍ كذاك خُطوبُه نَشْراً وطَيّا
فلو نَشَرت قُواك ليَ المنايـا شكوتُ إليك ما صَنعتْ إليّا
بكيتُك يا عليُّ بدمع عَيْـني فما أَغنى البكاءُ عليك شَيّا
وكانت في حياتك لي عِظـاتٌ وأنت اليومَ أَوعظُ منـك حَيّا

قال عليُّ بن الحسين مؤلّف هذا الكتاب : هذه المعاني أخذها كلَّها أبو العتاهية من كلامِ الفلاسفة لمّـا حضروا تابوت الإسكندر ، وقد أُخرج الاسكندر ليُدفَن . قال بعضُهم : كان الملك أمسِ أهيبَ منه اليومَ ، وهو اليوم أوعظُ منه أمسِ . وقال آخر : سَكَنتْ حركةُ الملك في لَذّاته ، وقد حَرَّكَنا اليومَ في سُكونه جزعاً لِفَقْده . وهذان المَعْنَيان هما اللّذان ذكرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار.

● عن عبدالله بن الحسن قال :

أُنشد المأمون بيتَ أبي العتاهية يخاطب سَلْماً الخاسر :

تَعالى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عَمرٍو أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرِّجالِ

فقال المأمون : إنّ الحِرص لَمُفسِدٌ للدِّين والمُروءة ، والله ما عرفتُ من رجلٍ قطُّ حِرصاً ولا شَرَهاً فرأيت فيه مُصْطَنَعاً . فبلغ ذلك سَلْماً فقال :

ويلي على المخنَّث الجرّار الزنديق ! جمع الأموال وكَنَزها وعَبّأ البُدور[1] في بيته ، ثم تزهّد مُراءاةً ونفاقاً ، فأخذ يهتِف بي به إذا تصدّيت للطلب .

● عمر بن شَبّة قال :

كانت لأبي العتاهية بنتان ، اسم إحداهما « لله » والأخرى « بالله » . فخطب منصور بن المهديّ « لله » فلم يُزوِّجه وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبي العتاهية ، وكأنّي به قد مَلّها ، فلم يكن إلى الإنتصاف منه سبيلٌ ، وما كنت لأزوّجها إلا بائعَ خزَف وجِرارٍ ، ولكنّي أختاره لها مُوسِراً .

● قال عبدالله بن الحسن :

سمعت أبا العتاهية يُحدّث قال : ما زال الفَضل بن الرّبيع من أميلِ الناس إليّ فلمّا رجَع من خُراسان بعد موت الرَّشيد دخلت إليه ، فاستنشدني فأنشدتُه :

أفنيتَ عُمركَ إدباراً وإقبالا ... تَبغي البَنِين وتبغي الأهلَ والمالا
الموتُ هولٌ فكُن ما عشتَ ملتمِساً ... من هَوله حِيلةً إن كنتَ محتالا
ألم ترَ المَلِك الأَمْسِيَّ حين مضى ... هل نال حيٌّ من الدنيا كما نالا
أفناه من لم يَزَلْ يُفني القُرونَ فقد ... أضحى وأصبح عنه المُلْكُ قد زالا
كم من ملوكٍ مضى رَيبُ الزمان بهم ... فأصبحوا عِبَراً فينا وأمثالا

فاستحسنها وقال : أنت تعرف شُغلي ، فَعُدْ إليّ في وقت فراغي أقعدْ معك وآنَسْ بك . فلم أزل أُراقبه أياماً حتى كان يومُ فَراغه فصِرت إليه ، فبينما هو مُقبِلٌ عليّ ويستنشدني ويسألني فأُحدّثُه ، إذ أنشدتُه .

وَلّى الشبابُ فما له من حِيلةٍ ... وكَسا ذُؤابتيَ المشِيبُ خِمارا
أين البَرامكةُ الذين عَهِدتُهم ... بالأمس أعظمَ أهلها أخطارا

---

(١) البدور ج بدرة : كيس فيه الف درهم أوعشرة آلاف درهم .

فلمّا سمع ذكر البرامكة تغيّر لونُه ورأيت الكراهيةَ في وجهه ، فما رأيت منه خيراً بعد ذلك .

قال : وكان أبو العتاهية يحدّث هذا الحديث ابنَ الحسن بن سهل ، فقال له : لئنْ كان ذلك ضَرّك عند الفَضل بن الرَّبيع لقد نَفَعك عندنا . فأمر له بعشرةَ آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كلَّ شهر ثلاثةَ آلاف درهم ، فلم يزل يقبضها دارّةً إلى أن مات .

● عن محمد بن عيسى الحربيّ قال :

كنت جالساً مع أبي العتّاهية ، إذ مرّ بنا حُميدٌ الطُوسيّ في موكبه وبين يديه الفُرسانُ والرّجّالةُ ، وكان بقُرب أبي العتاهية سَواديٌّ[1] على أَتان ، فضربوا وجه الأَتان ونَحّوه عن الطريق ، وحُميدٌ واضعٌ طَرْفَه على مَعْرَفة فرسه[2] ، والناس ينظرون إليه يَعجبون منه وهو لا يلتفت تِيهاً ، فقال أبوالعتاهية :

لِلموت أبناءٌ بهم ما شئتَ من صَلَفٍ وتِيْهِ
وكأنّني بالموت قد دارت رَحاه على بَنِيهِ

قال : فلمّا جاز حُميد مع صاحب الأتان قال أبو العتاهية :

ما أَذَلَّ المُقِلَّ في أعينُ النا س لإقلاله وما أَقْماهُ
إنما تنظر العيونُ من النا س إلى من ترجُوه أو تخشاه

● عن عليّ بن عبدالله الكِنديّ قال :

جلس أبو العتاهية يوماً يَعذُل أبا نُواس ويَلُومه في استماع الغناء ومجالسته لأصحابه ، فقال له أبو نواس :

أتُراني يا عَتاهي تاركاً تلك الملاهي

(١) السوادي : القروي من سكان سواد العراق .

(٢) معرفة الفرس وعرفه : الشعر المسترسل على عنقها .

أتُــراني مُفسِـــداً بالنُّســك عند القوم جاهـي

فوثب أبو العتاهية وقال : لا بارك الله عليك ! وجعل أبو نواس يضحك .

● هارون بن مُخارِق[1] قال حدّثني أبي قال :

جاءني أبو العتاهية فقال : قد عزمتُ على أن أتزوّد منك يوماً تَهَبُه لي ، فمتى تَنشَط ؟ فقلت : متى شئت . فقال : أخاف أن تقطع بي . فقلت : واللهِ لا فعلتُ وإن طَلَبني الخليفةُ . فقال : يكون ذلك في غدٍ . فقلت : أفعل . فلمّا كان من غدٍ باكرَني رسولُه ، فجئتُه ، فأدخلني بيتاً له نظيفاً فيه فَرشٌ نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبزُ سَميذٍ[2] وخَلٌّ وبَقلٌ وملحٌ وجَدْيٌ مَشويّ ، فأكلنا مِنْه ، ثم دعا بسمك مَشويّ ، فأصَبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بحَلْواء فأصَبْنا منها ، وغسَلْنا أيدينَا ، وجاؤونا بفاكهةٍ وريْحانٍ وألوان من الأَنبذة فقال : اختَرْ ما يَصلُح لك منها ، فاختَرت وشرِبت ، وصَبّ قَدَحاً ثم قال : غَنّني في قولي :

أحمدٌ قال لي ولم يدرِ ما بـــي أتحبُّ الغَداةَ عُتبـــةَ حقّـا

فغنَّيته ، فشرب قدحاً وهو يبكي أحرَّ بكاء . ثم قال : غَنِّني في قولي :

ليس لِمن ليست له حِيلـــةٌ موجودةٌ خيرٌ من الصـــبرِ

فغنّيتُه وهو يبكي وينشِج . ثم شرب قدحاً آخر ثم قال : غَنِّني ، فَديتُك ، في قولي :

خليليَّ مالي لا تزالُ مَضرّتــي تكون مع الأقدارحَتماً من الحَتْمِ

فغنّيتُه إيّاه . وما زال يقترح عليّ كلَّ صَوتٍ غُنّي به في شعرِه فأُغنّيه ويشرب

(١) مخارق : مغن مشهور كان أيام الرشيد وكانت بينه وبين أبي العتاهية مودة وله غناء في كثير من شعره .

(٢) السميذ : لباب الدقيق .

ويبكي حتى صار العَتَمَة[1] ، فقال : أُحبّ أن تصبر حتى ترى ما أَصنع . فجلست ، فأمر ابنَه وغلامه فكَسَرا كلَّ ما بين أيدينا من النَّبيذ وآلته والملاهي ، ثم أمر بإخراج كلّ ما في بيته من النّبيذ وآلته ، فأُخرج جميعُه ، فما زال يكسِره ويصُبّ النبيذ وهو يبكي حتى لم يبق من ذلك شيءٌ ، ثم نزَع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بِيضاً من صُوف ، ثم عانقني وبكى ، ثم قال : السّلامُ عليك يا حبيبي وفرَحي من الناس كُلِّهم سلامَ الفِراق الذي لا لِقاءَ بعدَه ، وجعل يبكي وقال : هذا آخرُ عهدي بك في حال تَعاشُر أهل الدنيا . فظننت أنها بعضُ حماقاته ، وما لقِيتُه زماناً . ثم تشوّقتُه فأتيتُه ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت ، فإذا هو قد أخذ قَوْصَرّتَين[2] وثقب إحداهما وأدخل رأسه ويدَيه فيها وأقامها مَقامَ القميص ، وثقب الأخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السَّراويل . فلمّا رأيته نسيتُ كلَّ ما كان عندي من الغَمّ عليه والوَحشة لعشْرته وضحكت والله ضَحِكاً ما ضحكتُ مثلَه قطّ . فقال ، من أيّ شيءٍ تضحك ؟ فقلت : أسخَنَ اللهُ عينك[3] ! هذا أيُّ شيءٍ هو ؟ من بَلَغك عنه أنّه فعل مثلَ هذا من الأنبياء والزُهّاد والصحابة والمجانين ، انزِعْ عنك هذا يا سَخِين العين ! فكأنه استحيا منّي . ثم بلغني أنّه جلس حَجّاماً ، فجَهِدتُ أن أَراه بتلك الحال فلم أَرَه . ثم مرض ، فبلغني أنه اشتهى أن أُغنّيَه ، فأتيتُه عائداً ، فخرج إليّ رسولُه يقول : إن دخلتَ إليّ جَدَّدْت لي حُزناً وتاقت نفسي من سَماعك إلى ما قد غلبتُها عليه ، وأنا أستودِعُك اللهَ وأعتذر إليك من ترك الالتقاء ، ثم كان آخرَ عهدي به .

---

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء الآخرة ، أو الثلث الاول من الليل .
(٢) القوصرة(بتشديد الراء وتخفيفها) : وعاء من قصب يجعل فيه التمر .
(٣) أسخن الله عينك : دعاء عليه بالغم والحزن .

وفاته

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

قيل لأبي العتاهية عند الموت : ما تشتهي ؟ فقال : أشتهي أن يجيء مُخارق فيضعَ فمَه على أذني ثم يُغنّيني :

سَيُعْرَضُ عن ذِكري وتُنسى مَودّتي ... ويحدُث بعدي للخليل خليلُ
إذا ما انقضت عني من الدهر مُدّتي ... فإنّ غِناءَ الباكيات قليل

محمد بن أبي العتاهية قال :

آخرُ شعر قاله أبي في مرضه الذي مات فيه :

إلٰهي لا تُعَذِّبْني فإنّي ... مُقِرٌّ بالذي قد كان منّي
فمالي حيلةٌ إلّا رجائي ... لِعفوك إن عفوتَ وحُسنُ ظنّي
وكم من زَلّةٍ لي في الخطايا ... وأنت عليَّ ذو فضلٍ ومَنِّ
إذا فكّرتُ في ندمي عليها ... عَضِضتُ أناملي وقرعتُ سِنّي
أُجَنّ بزهرة الدنيا جنوناً ... وأقطع طولَ عُمري بالتمنّي
ولو أنّي صدقتُ الزُّهدَ عنها ... قلبتُ لأهلها ظهر المِجَنّ
يظنُّ الناسُ بي خيراً وإنّي ... لَشرُّ الخَلْقِ إن لم تعفُ عنّي

أبو محمد المؤدِّب قال :

قال أبو العتاهيةلابنته رُقَيّة في عِلّته التي مات فيها : قُومي يا بُنَيَّةُ فأندُبي أباكِ بهذه الأبيات . فقامت فندبتْه بقوله :

لعِب البِلى بمعالِمي ورُسومي ... وقُبرتُ حَيّاً تحت رَدْم هُمومي
لزِم البِلى جِسمي فأوهن قُوّتي ... إنّ البلى لَمُوَكَّلٌ بلُزومي

مُخارق المغنيّ قال :

تُوفيّ أبو العتاهية ، وإبراهيم المَوصليّ ، وأبو عمرو الشيبانيّ بمدينة السَّلام[1] في يوم واحد في خلافة المأمون ، وذلك سنةثلاث عشرة ومائتين .

عن إسماعيل بن أبي قُتيبة قال :

مات أبو العتاهية ، وراشدُ الخَنّاق ، وهشيمة الخَمّارة ، في يوم واحد سنة تسع ومائتين .

وذكر الحارثُ بن أبي أُسامة عن محمد بن سعد كاتب الواقديّ : أنّ أبا العتاهية مات في يوم الاثنين لثمان خَلَون من جُمادى الأولى سنة إحدى عشرةَ ومائتين ، ودُفن حِيالَ قنطرة الزّيّاتين ، في الجانب الغربي ببغداد .

عن محمد بن أبي العتاهية : أنّ أباه تُوفيّ سنة عشرٍ ومائتين .

عن إسحاق بن عبدالله بن شُعيب قال :

أمر أبو العتاهية أن يُكتَب على قبره :

أُذنَ حَيٍّ تَسمَّعي ... اسمَعي ثم عِي وعي
أنا رَهْنٌ بمَضجعي ... فاحذَري مثلَ مَصْرعي
عشتُ تسعين حِجّةً ... أسلمتْني لِمَضْجَعي
كم ترى الحيَّ ثابتاً ... في دِيار التَزَعْزُعِ
ليس زادٌ سوى التُقى ... فخُذي منه أو دَعي

أحمد بن زهير قال :

قال محمد بن أبي العتاهية : لقيني محمد بن أبي محمد اليزيديّ فقال : أَنشِدْني الأبياتَ التي أوصى أبوك أن تُكتَب على قبره ، فأنشأتُ أقول :

---

(١) في أصول المطبوعة : عبد السلام مكان مدينة السلام ، وقد استظهر المحقق انها محرفة عن مدينة السلام أي بغداد .

كذبتَ على أخٍ لك في مَماتِـهْ وكم كِذبٍ فَشا لك في حياتـهْ
وأكذَبُ ما تكونُ على صديـقٍ كذبتَ عليه حيّـاً في مَمَـاته

فخجل وانصرف. قال : والناس يقولون : إنـه أوصى أن يكتب على قبره شعرٌ له ، وكان ابنُه يُـنكر ذلك .

وذكر هارونُ بن علي بن مهديّ عن عبد الرحمن بن الفضل أنه قرأ الأبيات العينية التي أولها :

أذنَ حيّ تسمّعي

على حجر عند قبر أبي العتاهية .

* * *

١٠

أبو عُيَيْنَة

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ٧٥ وما بعدها]

الشاعر

أبو عُيَينة ـ فيما أخبرنا به عليٌّ بن سليمان الأخفش عن محمد بن يزيد ـ اسمُه ، وكُنيته أبو المِنْهال . قال : وكلٌّ من يُدعى أبا عُيينة من آل المهلَّب فأبو عُيينةَ اسمُه وكُنيته أبو المنهال .

وأبو عُيينة هو ابن محمد[١] بن أبي عُيينة بن المهلَّب بن أبي صُفرة .

أبو خالد الأسلميّ قال :

أبو عُيَينة الشاعر هو أبو عُيَينة بن المنجاب بن أبي عُيينة بن المهلَّب ، وكان محمد بن أبي عُيَينة أبو أبي عُيَينة الشاعر[٢] يتولّى الرَّيّ لأبي جعفر المنصور ثم قبض عليه وحبسه وغرّمه .

---

(١) في المطبوعة : وابن أبي عيينة هو محمد بن أبي عيينة ولكن ما يأتي من أخباره يرجح ان اسمه ابو عيينة وان محمداً اسم أبيه .

(٢) يستخلص من هذا الخبر ان ابا الشاعر اسمه محمد وأن المنجـاب قد يكون لقباً له .

واسمُ أبي صُفرة ظالم بن سَرّاق ... بن الأسدِ بن عِمران بن الوَضّاح بن عمرو بن مُزيقِياء بن حارثةَ الغِطْريف ... بن الأَزْد .

هذا النسب الذي عليه آلُ المهلّب ، وذكر غيرُهم أن أصلهم من عَجَم عُمان وأنّهم تولّوا الأزد ، فلما ساد المهلَّب وشَرُف وعلا ذِكره استلحقوه ...

وهو شاعرٌ مطبوعٌ ظريف غزِل هَجّاءٌ ، وأنفدَ أكثرَ أشعاره في هجاء ابن عمّه خالد .. وكان من شعراء الدولة العبّاسية من ساكني البصرة .

محمد بن يزيد قال :

كان أبو عُيَينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً ، من غير أدب موصوف ولا رواية كثيرة ، وكان يُقرّب البعيد ، ويحذِف الفُضول ، ويُقلّ التكلُّف ، وكان أصغر من أخيه عبدالله ومات قبلَه .

عن الأصمعيّ قال :

قال لي الفَضل بن الرّبيع : يا أصمعيُّ ، مَن أشعرُ أهل زمانك ؟ فقلت : أبو نواس . قال : حيث يقول ماذا ؟ قلت : حيث يقول :

أما ترى الشمسَ حَلّت الحَمَلا　　　وقام وزنُ الزمان فاعتـــــدلا

فقال : واللهِ إنّـه لذَهِنٌ فَطِن ، وأشعرُ عندي منه أبو عُيَينة .

تعشّقه فاطمة بنت عمر وشعره فيها

الفَيض بن مُخَلَّد مولى أبي عُيينة بن المهلّب قال :

كان أبو عُيينة بن محمد بن أبي عُيينة يهوى فاطمة بنت عمر بن حَفْص الملقَّب هَزارَمَرْدَ ، وكانت امرأة نبيلةً شريفة ، وكان يخاف أهلَها أن يذكُرَها تصريحاً ويرهَبُ زوجَها عيسى بن سليمان ، فكان يقول الشعر في جارية لها يقال لها « دنيا » ، وكانت قَيِّمة دارها ، ووالية أمورها كلِّها . وأنشدنا لأبي عُيينة فيها ويَكني باسم دنيا هذه :

ما لقلبي أرقَّ من كـلِّ قلبِ ولحبّي أشدَّ من كلّ حُـبِّ
ولِـدُنيا على جُنوني بدُنيـا أشتهي قُربَها وتكرَهُ قُـربي
نزلتْ بي بليّـةٌ من هـواها والبَلايا تكون من كـلّ ضَرب
قُلْ لِـدُنيا إن لم تُجبْكِ لما بي رَطْبةٌ من دموعِ عينيَ كُتبي
فعلامَ انتهرتِ باللهِ رُسْـلي وتهدّدتِهم بحَبْسٍ وضـرب
أيُّ ذنبٍ أذنبتُـه ليت شِعري كان هذا جزاءه أيُّ ذنـبِ

قال محمدبن يزيد : وحُدّثتُ عن محمد بن المهلّب أنه أنكر أن يكون أبو عُيينة يهوى فاطمة ، وقال : إنّما كان جنديّاً في عِداد الشُطّار ، وكانت فاطمة من أنبل النساء وأَسراهنّ ، وإنما كان يتعشّق جاريةً لها ...

وممّا قاله فيها وغُنّي فيه :

ضَيّعتِ عهدَ فتىً لِعهدكِ حافظٌ في حِفْظه عَجَبٌ وفي تَضييعكِ
ونأيتِ عنه فما له من حِيلـةٍ إلّا الوقوفُ إلى أوانِ رُجـوعكِ
مُتخشّعاً يُذري عليكِ دُموعَـه أسَفاً ويعجَبُ من جُمود دموعِك
إن تقتُليـه وتذهـبي بفؤاده فبحُسن وجهك لا بحُسن صَنيعك

أحمد بن يزيد عن أبيه قال :

لمّا ولي عمر بن حَفص هزارَ مَرْد البصرةَ قال ابن أبي عُيينة[١] في ذلك وفي دُنيا يَكني بها عن فاطمة بنت عمر بن حفص صاحبته :

هَنيئاً لدُنيـا هنيئاً لهـا قدومُ أبيهـا على البَصْـرَهْ
على أنّها أظهرتْ نَخـوةً وقالت : ليَ المُلكُ والقُـدرَهْ
فيا نُورَ عيني كذا عاجـلاً علـيَّ تطاولـتِ بالإمْـرهْ

قال : وهذا دليلٌ على أنه كان يَكني عن فاطمةَ بدُنيا ، لا أنه كان يهوى جاريتها دنيا .

(١) ابن أبي عيينة : نسبة الى جده ابي عيينة وقد مرّ بنا ان اسم أبيه محمد .

قال محمد بن يزيد : ومما قاله في فاطمة وصَرّح بذكر القرابة بينهما وحقّق على نفسه أنه يَعنيها قولُه :

دعوتُكِ بالقَرابة والجِـــوارِ دعاء مُصرِّح بادي السِّـرارِ
لأنّي عنكِ مشغـولٌ بنفسي ومحترقٌ عليكِ بغير نـار
وأنت تُوَقَّرين وليس عنـدي على نار الصَّبابة من وَقـار
فأنتِ لأنّ ما بكِ دونَ ما بي تُدارين العدوَّ ولا أُداري
ولو والله تشتاقين شَـوقي جَمحتِ إلى مُخالعـة العِـذار
ألا يا وهبُ فيمَ فضحتِ دُنيا وبُحتِ بسرِّها بين الجـواري
أمـا والرّاقصاتِ بكلّ وادٍ غَوادٍ نحو مكّـة أو سَواري
لقد فَضَلَتْكِ دنيا في فؤادي كفَضلِ يدي اليمين على اليَسار
فقُولي ما بدا لك أن تقـولي فإنّي لا أَلومُكِ أن تُضـاري[1]

فَضلُ اليَزيديّ عن إسحاق :

أنه أنشده لأبي عُيينة في دنيا التي كان يُشبِّب بها ، وقد زُوِّجت وبلغه أنها تُهدَى إلى زوجها ، وكان إسحاق يستحسن هذا الشعر ويستجيده :

أرى عهدَها كالـوَرد ليس بدائمٍ ولا خيرَ فيمن لا يَدومُ له عهـدُ
وعَهْدي لها كالآسِ حُسناً وبهجةً له نَضرةٌ تبقى إذا ما انقضى الوردْ
فما وجَدَ العُـذريُّ إذ طـال وَجدُه بعَفراءَ حتى سَلّ مُهجتَه الوجدُ
كوجدي غَـداةَ البَين عند التفاتها وقد شَفَّ عنها دون أترابها البُـرْدُ
فقلتُ لأصحابي هي الشمسُ ضَوءُها قريبٌ ولكن في تناولها بُعْـدُ
وإنّي لِمَنْ تُهدَى إليه لَحاسِـدٌ جرى طائري نحساً وطائرُه سَعدُ[2]

---

(١) وهب : مرخم وهبة ، وهي جارية كان الشاعر يشبب بها .

(٢) العذري : أراد عروة بن حزام الذي عشق عفراء ومات من وجده بها .

قال أحمد بن يزيد : أنشدني أبي لأبي عُيينة يُصرّح بنسبه الجامع له ولفاطمة من أبيات له :

ولأَنتِ إن مُتُّ المُصابةُ بـــي   فتجَنَّبي قَتْلي بلا وِتْــرِ
فلئن هَلَكْتُ لَتَلْطِمَنْ جزَعاً   خَدَّيكِ قائمةً على قـــبري

قال أحمد : وأنشدني أبي أيضاً في تصديق ذلك ، وأنه كان يكني بُدنيا عن غيرها :

ما لِدُنيا تَجفُوكَ والذَّنْبُ منها   إنّ هذا منها لَخَبٌّ ومَكْـرُ
عرفتْ ذنبَها إليّ فقالــــت :   ابدَؤُوا القومَ بالصِّياح يَفِرّوا
قد أمرتُ الفؤادَ بالصَّبر عنهــا   غير أنْ ليسَ لي مع الحُبّ أمرُ
وكتمتُ اسمَها حِذاراً من النــا   س ومن شرِّهم وفي الناس شَرُّ
ويقولون : بُحْ لنا باسم دُنيــا   واسمُ دنيا سِرٌّ على الناس ذُخْرُ
ثم قالوا لِيعلموا ذات نفسي :   أعَوانٌ دنياك أم هي بِكْــرُ
فتنَفَّستُ ثم قلتُ : أبِكْــــرٌ   شبّ يا إخوتي عن الطَوق عَمْرُو(١)

هجاؤه ابن عمّه

عن محمد بن يزيد المُبّرد وعن أحمد بن يزيد المهلّبيّ عن أبيه ، قالا جميعاً :

وَلي خالدُ بن يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المهلّب جُرجان ، فسأَل يزيدُ ابن حاتم أبا عُيينة أن يَصحَبَه ويخرجَ معه ، ووعده بالإحسان والولاية وأوسع له المواعيد . وكان أبو عيينة جُنديّاً ، فجَرَد اسمه في جريدته وأخرج رِزقَه معه .

---

(١) الخب : الخداع . ابدؤوا القوم بالصياح : مثل يضرب للمذنب يلصق الذنب بغيره . العوان : المرأة التي سبق لها أن تزوجت . شب عن الطوق عمرو : مثل يضرب لمن يلابس ما هو دون قدره ، وعمرو هو عمرو بن عـديّ (أنظر قصة المثل في جمهرة الأمثال للميداني) .

فلمّا حصل بجرجان أعطاه رِزقه لشهرٍ واحد واقتصر على ذلك وتشاغل عنه وجفاه . فبلغه أنه قد هجاه وطعن عليه وبسط لسانَه فيه وذكَره بكل قبيح عند أهل عملِه ووُجوه رَعيّته ، فلم يقدِر على مُعاقبته لموضع أبيه وسِنّه ومَحلّه في أهله ، فدعا به وقال له : إنه قد بلغنيَ أنك تريد أن تهرُب فإمّا أن أقمتَ لي كفيلاً برِزقك أو رددته ، فأتاه بكفيلٍ ، فأَعْنَته ولم يَقبلْه ، ولم يزل يُردّده حتى ضجِر ، فجاءه بما قَبَض من الرزق فأخذه ، ولجّ أبو عُيَينة في هجائه وأكثر فيه حتى فَضَحه ، فقال في هذا ـ عن أحمد بن يزيد المهلّبيّ ـ :

دُنيا دعوتُكِ مُسرعاً فأجيبي ... وبما اصطَفيتُكِ في الهوى فأثيبي
دُومي أَدُمْ لك بالصَّفاء على النَوى ... إنّي بعهدك واثقٌ فثِقي بي
ومن الدليل على اشتياقي عَبرتي ... ومشيبُ رأسي قبلَ حين مَشيبي
أبكي إليك إذا الحمامةُ طَرَّبتْ ... يا حُسنَ ذاك إليّ من تطريبِ
تبكي على فَنَن الغصون حزينةً ... حُزنَ الحبيبة من فراقِ حبيب
وأنا الغريبُ فلا أُلامُ على البكا ... إنّ البَكا حَسَنٌ بكلّ غريبِ
أفلا يُنادى للقُفول برِحلةٍ ... تشفي جَوىً من أنفُسٍ وقلوب
مالي اصطفيتُ على التعسُّف خالداً ... واللهِ ما أنا بَعدَها بأَريب
تَبّاً لصُحبة خالدٍ من صُحبةٍ ... ولِخالدِ بن يزيدَ من مَصحوب
يا خالدَ بنَ قبيصةٍ هيَّجتَ بي ... حَرباً فدُونك فاصطبِرْ لحروبي
لمّا رأيتُ ضميرَ غِشّك قد بدا ... وأَبيتَ غيرَ تَجهُّمٍ وقُطوب
وعرفتُ منك خلائقاً جَرَّبتُها ... ظهرتْ فضائحُها على التجريب
خَلّيتُ عنكَ مُفارقاً لك عن قِلىً ... ووهبتُ للشيطان منك نَصيبي
فلئن نظرتُ إلى الرُّصافة مرّةً ... نظراً يُفرّج كُربةَ المكروب
لأمزِّقَنَّك قائماً أو قاعداً ... ولَأروينّ عليك كلَّ عجيب

ولَتأتينَّ أباك فيك قصائـــدٌ حَبَّرتُها بتشكُّرٍ مقلـــوبِ
ولَيُنْشَدَنّ بها الإمامُ قصيدةً ولَتُشْتَمَنّ وأنت غيرُ مَهيبِ
ولأوذينَّك مثلما آذيتَـــني ولأُشْلينَّ على نِعاجك ذيــبي[1]

أحمدُ بن يزيد قال : حدّثني أبي قال :

لَقي دِعبلٌ أبا عُيَينة فقال له : أنشِدْني قولك في ابن عمّك . فأنشده :

يا حفصُ عاطِ أخاك عاطِهْ كأساً تُهيّج من نشاطِهْ
صِرفاً يعــود لِوَقْعهـا كالظَبْبي أُطلِق من رِباطهْ
صَبّاً طوتْ عنه الهمو مُ نعيمَه بعد انبســاطه
فبكى وحقّ له البُــكـا لشقائـه بعد اغتباطــه
جــزِع المخنَّثُ خالـدٌ لمّا وقعتُ على قِماطــه
فانظُـر إلى نَزَواتــــه من مَنطقي وإلى اختلاطه
دَعْـــني وإيّـــا خـالدٍ فلأَقطعنّ عُـرَى نِياطه
رجلٌ يعدّ لك الوعيـــــدَ إذا وطئتَ على بساطه
وإذا انتظرت غَــداءه فخَفِ البوادرَ من سِياطـهْ
يا خالِ صَـدّ المجدُ عنـــكَ فلن تجوزَ على سِراطه
وعَرِيت من حُلل الندى عُرْيَ اليتيم ومن رِياطــه
فــإذا تطــاولت الرؤ وس فغَطِّ رأسَك ثم طاطِهْ[2]

فقال له دِعبلٌ : أغرقت والله في النَّزْع[3] وأسرفت وهتَكتَ ابنَ عمّك وقتلتَه

(١) أشلى الدابة : أراها المخلاة لتأتيه ، يريد أنه سيسلط ذئبه على نعاجه .
(٢) القماط : الخرقة تلف على الوليد ، ووقعت على قماطه : فطنت لحيله ومكره .
نزواته : وثباته . النياط : عرق غليظ يناط به القلب الى الوتين فإذا قطع مات صاحبه .
الرياط . ج ريطة : الملاءة وكل ثوب رقيق . طاطه : مخففة عن طأطئه .
(٣) نزع القوس : مدّ وترها .

وغضضتَ منه ، وإنما استنشدتك وأنا أظن أنك قلت كما يقول الناسُ قولاً متوسطاً ، ولوعلمتُ أنك بلغت به هذا كله لما استنشدتُك .

محمد بن يزيد قال : ومن مختار ما قاله في خالدٍ قوله :

قُل لدُنيا بالله لا تقطعينـــا	واذكرينا في بعضِ ما تذكُرينا
لا تخوني بالغيب عهدَ صديقٍ	لم تخافيه ساعةً أن يخونـــا

* * *

وتبّدلتُ خالداً لعنةُ اللـــه عليه ولعنةُ اللاعنينـــا
رجلٌ يقهَر اليتيمَ ولا يُؤ	تي زكاةً وينهرَ المِسكينـــا
ويصون الثيابَ والعِرضُ بالٍ	ويُرائي ويمنع الماعونـــا
نزع الله منــه صالحَ ما أعطـــاه آمينَ عاجلاً آمينـــا
فلَعَمرُ المُبادرين إلى مكّـــةَ وفداً غادين أو رائحينـــا
إنّ أضيافَ خالدٍ وبَنيـــه	ليَجوعُون فوقَ ما يشبعُونـــا
وتراهم من غير نسكٍ يصومون ومن غير عِلةٍ يحتمونـــا
يا بَني خالدٍ دعُوه وفِرُّوا	كم على الجوع ويحكم تصبرونا

زعم القَحذميّ أنّ الرشيد قال للفضل بن الربيع : مَن أهجى المحدَثين عندك يا فضلُ في عصرنا هذا ؟ قال : الذي يقول في ابن عمه :

لو كما ينقُص يـــزدا	دُ إذاً نال السّمـــاء
خالدٌ لــولا أبـــوه	كان والكلبُ ســواء
أنا ما عِشتُ عليـــه	أســوأُ النـاس ثنـــاء
إنّ من كان مُسيئـــاً	لحقيــقٌ أن يُســـاء

فقال الرشيد : هذا ابنُ أبي عُيَينة ، ولَعَمري لقد صدقت .

محمد بن القاسم بن مَهرُويه قال : حدّثني أبي قال :

كان ابنُ أبي عُيينة مع ابن عمه خالد بجُرجان ، فأساء به وجفاه ، وكان لابن أبي عيينة صديقان من جُند خالد من أهل البصرة ، أحدهما مُهَلّبي والآخر مولًى للأزد ، وكلُّهم شاعر ظريف ، فكانوا يمدحون السَّراة من أهل جرجان فيُصيبون منهم ما يَقُوتهم . وولي موسى الهادي الخلافة فكتب ابن أبي عُيينة إلى من كان في خدمة الخلفاء من أهله بهذه القصيدة :

كيف صبري ومنزلي جُرجـانُ　　والعراقُ البـلادُ والأوطـانُ
نحـن فيهـا ثـلاثـةٌ حُلفـاءُ　　ونَدامَى على الهـوى إخْـوان
نتسـاقـى الهوى ونطـربَ للـذِّكْر　　كما تُطرب النَشاوَى القيـانُ
وإذا ما بكـى الحمـامُ بكَيـنـا　　لِبـكاه كأنّنـا صِبيـانُ
يا زماني الماضي ببغداد عُدْ لي　　طالما قد سَررتَني يا زمـانُ
يا زمـاني المُسيءِ أحسِنْ فقِدماً　　كان عنـدي من فِعلك الإحسانُ
ما يُريد العُذّالُ منّي أما يُتْـرَك　　أيضاً بغَمّـه الإنسـان
ويقولون املِـك هـواك وأَقْصِر　　قلت ما لي على الهوى سُلطـان
أيها الكاتمُ الحديثَ وقـد طـا　　ل به الأمرُ وانتهى الكِتمانُ
قـد لَعَمري عَرّضتَ حِيناً فبَيّنْ　　ليس بعد التعريض إلّا البَيـانُ
واتّخذْ خالـداً عدوّاً مُبينـاً　　ما تَعادى الإنسانُ والشيطـانُ
والْـهُ عنـه فما يضرُّك منـه　　عضُّ كلـبٍ ليست له أسنـان
ولَعمري لولا أبـوه لنـا　　لتْـه بسوءٍ مني يـدٌ ولسـانُ
قُـل لِفتياننـا المقيمين بالبـا　　ب ثِقوا بالنجـاح يا فتيـانُ
لا تخافوا الزمانَ قد قام مـوسى　　فلكُم من رَدى الزمان أمـانُ
أوَ لم تأتِـه الخِلافـةُ طَـوعـاً　　طاعةً ليس بعدَها عِصيـانُ

فهـي منقادةٌ لموسـى وفيهـا عن سواه تقاعسٌ وحِـران
قُـل لموسى يا مالكَ المُلك طَـوعـاً بقيادٍ وفي يديـك العِنـان
أنت بحـرٌ لنا ورأيُـك فينـا خيرُ رأيٍ رأى لنا سُلطـان
فاكفِنـا خالـداً فقد سامنا الخسـفَ رمـاه لِحتَفـه الرحمـن
كم الى كم يُغضَى على الذُلّ منـه وإلى كم يكون هذا الهَـوانُ

قال : فلما قرأ هذه القصيدةَ موسى الهادي أمر له بِصلة ، وأعطاه ما فات من رزقه ، وأقفله من جيش خالدٍ إليه .

* * *

١١

أَبُو نُوَاس

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ٦١ وما بعدها]

أخباره مع جِنان

كانت جِنانُ هذه جاريةَ آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثَّقَفيّ المحدِّثِ الذي كان ابنُ مُناذِر يصحَب ابنَه عبدَ المجيد ورثاه بعد وفاته ...

وكانت حُلوةً جميلةَ المنظر أديبةً ، ويُقال إن أبا نُواسٍ لم يَصْدُقْ في حُبّه امرأةً غيرَها .

عن أبي هِفّان عن أصحاب أبي نُواس قالوا :

كانت جِنانُ جاريةً حسناء أديبةً عاقلة ظريفة تعرِف الأخبار وتروي الأشعار . قال اليُوْيُوْ خاصّةً : وكانت لبعض الثقفيّين بالبصرة ، فرآها أبو نواس فاستحلاها وقال فيها أشعاراً كثيرة ، فقلت له يوماً : إنّ جنانَ قد عزمت على الحجّ . فكان هذا سببَ حجّه ، وقال : أما واللهِ لا يَفُوتَني المسيرُ

(*) أورد صاحب الأغاني في هذا الموضع أخبار أبي نواس وجنان خاصة وذكر أنه أفرد له ترجمة مستقلة في موضع آخر ولكن هذه الترجمة لا وجود لها فيما وصلنا من كتاب الأغاني فلعله أنسيها أو ربما سقطت من المخطوطات التي انتهت الينا .

معها والحجُّ عاميَ هذا إن أقامت على عزيمتها . فظننتُه عابثاً مازحاً ، فسَبقها واللهِ إلى الخروج بعد أن علِم أنّها خارجة ، وما كان نَوَى الحجَّ ، ولا أحدَث عَزْمَه له إلاّ خروجها ، وقال وقد حَجّ وعاد :

ألم ترَ أنّني أفنيتُ عُمـــــري بمَطْلَبها ومَطلبُهـــا عَســيرُ
فلمّا لم أجِدْ سبباً إليهــــــا يُقرّبُـــني وأعيتـــني الأمـــور
حَجَجْتُ وقلت قد حَجّتْ جِنانٌ فيجمعُني وإيّـــاها المَسِـيرُ

قال اليُوْيُؤ : فحدّثني مَن شهِده لمّا حجّ مع جنان وقد أحرم ، فلمّا جَنّه الليلُ جعل يُلبّي بشعر ويَحْدُو به ويُطرِب ، فغنّى به كلٌّ من سمعه ، وهو قوله :

إلهنَـــا ما أعْـدَلَـكْ مَليك كلٍّ من مَلَـكْ
لَبّيكَ قد لبّيتُ لــكْ لبّيك إنّ الحمدَ لــكْ
والمُلــكَ لا شريكَ لك والليلَ لمّـا أن حَلَــكْ
والسابحـــاتِ في الفَلَك على مَجاري المُنْسَلَك
ما خاب عبـدٌ أمّلــك أنت له حيــث سَلَـك
لولاك يا ربٍّ هَلَــك كـلُّ نبيٍّ ومَلَـــك
وكل من أهَلَّ لــك سَبّح أو لَبّى فلَــك
يا مُخطئــاً ما أغفلَلك عجِّلْ وبــادر أجَلَك
واختُـمْ بخيرٍ عملَـــك لبّيك إنّ المُلـكَ لـك
والحمدُ والنعمــةُ لك والعزّ لا شريـــكَ لك

عمر بن شبّـة قال :

كانت جنانُ التي يذكرها أبو نواس جاريـةً لآل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثّقفيّ ، وفيها يقول :

جَفْنُ عيني قد كاد يَسقُطُ مِن طُولِ ما اختلَجْ
وفؤادي من حرّ حُبّك والهجرِ قد نَضِجْ
خَبِّريني فَدتْكِ نفسي وأهلي متى الفَرَجْ
كان ميعادُنا خروجَ زيادٍ فقد خَرَجْ
أنتِ مِن قتلِ عائذٍ بكِ في أضيق الحرج[1]

ابن عمّار قال : حدّثني إسحاق بن محمد النَخَعيّ قال : حدّثني الجمّاز ، قال ابن عمّار : وحدّثني به قُليب بن عيسى قال :

كانت جنان قد شهدتْ عُرساً في جوار أبي نواس ، فانصرفتْ منه وهو جالسٌ معنا ، فرآها ، فأنشدنا بَديهاً قولَه :

شهِدتْ جَلْوةَ العروسِ جنانٌ فاستمالتْ بحُسنها النَظّارةْ
حسِبوها العروسَ حين رأوها فإليها دون العروس الإشاره
قال أهلُ العروس حين رأوها ما دَهانا بها سواكِ عُمارةْ

قال : وعمارة زوج عبد الرحمن الثقفي[2] ، وهي مَولاةُ جِنان :

قال أبو خالد يزيدُ بن محمد :

وكان أبو نواس صادقاً في محبّته جِنانَ من بين مَن كان ينسُب به من النساء ويُداعبه ، ورأيت أصحابنا جميعاً يصحّحون ذاك عنه، وكان لها مُحبّاً ، ولم تكن تُحبّه . فممّا عاتبها به حتى استمالها بصِحة حُبّه لها فصارت تُحبّه بعد نُبُوِّها عنه قولُه :

جنانُ إن جُدتِ يا مُناي بما آمُلُ لم تَقطُرِ السماءُ دَما
وإن تمادى ولا تماديتِ في مَنْعِك أُصبِحْ بقَفْرةٍ رِمَما

---

(١) زياد : هو زياد بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي .

(٢) كذا ضبط اسمه والصواب كما ورد في مواضع أخرى : امرأة عبد الوهاب .

عَلِقتُ مَن لو أتى على أَنفُس الماضِين والغابِرين ما ندِمـــــا
لو نظرتْ عينُــه إلى حجــرٍ   وَلّــد فيه فتورُهــا سَقَما[1]

الجَمّازُ قال :

كنت عند أبي نُواس جالساً إذ مرّت بنا امرأةٌ ممّن يُداخل الثَقفيّين ، فسألها عن جنان وألحف في المسألة واستقصى ، فأخبرتْه خبرَها وقالت : سمعتُها تقول لصاحبةٍ لها من غير أن تعلم أنّي أسمع : ويحَك ! قد آذاني هذا الفتى وأبرمَني وأحرج صَدْري وضَيّق عليّ الطُرُق بحِدّة نظره وتهتّكُه ، فقد لهِج قلبي بذكره والفِكر فيه من كثرة فِعله لذلك حتى رَحِمتهُ . ثم التفتت فأمسكتْ عن الكلام . فسُرّ أبو نواس بذلك ، فلمّا قامت المرأةُ أنشأ يقول :

يا ذا الذي عن جِنانٍ ظلّ يُخبرُنـــا   باللهِ قُلْ وأعِدْ يــا طيّبَ الخـبرِ
قال اشتكتْك وقالت ما ابتُليتُ بــه   أَراه من حيثما أقبلتُ في أثري
ويُعمِل الطَّرفَ نحوي إن مررتُ به   حتى لَيُخجِلَني من حِدّة النَّظَر
وإن وقفتُ له كيما يكلّمُـــــني   في الموضع الخِلْو لم ينطِقْ من الحَصَر
ما زال يفعل بي هذا ويُدمِنُـــــه   حتى لقد صار مِن هَمّي ومن وَطَري

محمد بن يزيد قال :

كان أبو عثمان أخا مولى جنان ـ وكان مَولاها أبو ميّةَ زوجُ عُمارة وهي مَولاتُها ـ وكانت له بحَكَمان[2] ضيعةٌ كان ينزِلها هو وابن عمٍّ له يُقال له : أبو ميّة ، فقال أبو نواس فيه قوله :

أسألُ القادِمَيْن من حَكَمــانِ   كيف خلّفتُما أبا عثمانِ
وأبا ميّةَ المهذّبَ والمــا   جدَ والمرتجى لِريَب الـزّمانِ

(١) الرمم ج رمة : العظام البالية .

(٢) حكمان : ضيعة بالبصرة لبني عبد الوهاب الثقفيين موالي جنان سميت باسم الحكم ابن العاصي الثقفي .

فيقولان لي : جِنـــانٌ كمـــا سَرَّكَ في حالها فسَلْ عن جِنانِ
ما لهم لا يُبـــارك اللهُ فيهـــم كيف لم يُغنِ عنهمُ كِتمـــاني

فأخبرني ابنُ عمّار قال : حدّثني محمدُ بن القاسم بن مَهرويه قال : حدّثني محمدُ بنُ عبد الملك بن مَروان الكاتب قال :

كنت جالساً بسُرّ من رأى في شارع أبي أحمد ، فأنشدني قولَ أبي نواس :

أســـأل المُقبِلَين مِن حَكَمان كيـف خلّفتُمـــا أبا عثمان

وإلى جانبي شيخٌ جالس فضحك ، فقلت له : لقد ضحكتَ من أمرٍ . فقال : أَجَلْ ، أنا أبو عثمان الذي قال أبو نواس فيه هذا الشعر ، وأبو ميّةَ ابنُ عمي ، وجنان جاريةُ أخي ، ولم تكن في موضع عِشق ، ولا كان مذهبَ أبي نواس النساءُ ، ولكنه عبثٌ خرج منه .

عبدُ الملك بن عمر بن أَبانٍ النَخَعيُّ ، وكان صديقاً لأبي نواس :

أن أبا نواس أشرف من دارٍ على منزل عبد الوهاب الثقفيّ ، وقد مات بعضُ أهله وعندهم مَأتَمٌ ، وجنانٌ واقفة مع النساء تَلطِم وجهها وفي يدها خِضابٌ ، فقال :

يا قمـــراً أَبرزه مَـــأتَـــمُ يندُبُ شَجْواً بـــين أتراب
يبكي فيُذْري الدُّرَّ من عينـــه ويلطِمُ الوَردَ بعُنّـــابِ
لا تبكِ مَيْتاً حلَّ في حُفـــرةٍ وابكِ قتيلاً لكَ بالبـــابِ
أبرزه المأتم لي كارهـــاً برَغْم دايـــاتٍ وحُجّابِ
لا زال موتاً دَأْبُ أحبابـــه ولا تزلْ رُؤيتُـه دابـــي (١)

(١) يذري : ينثر . العناب : أراد أصابعها فشبهها بالعناب .

عن الجمّاز واليُوَيُو وأصحاب أبي نواس :

أنّ جِنانَ وجّهت إليه : قد شهّرتني ، فاقطَعْ زيارتَك عنّي أياماً لينقطعَ بعضُ القالة . ففعل وكتب إليها :

إنّـا اهتَجَرْنا للنّـاس إذ فطِنوا　　وبينَنا حـين نَلتقـي حَسَـنُ
نُدافـع الأمرَ وهو مُقتبِـــلٌ　　فشَبَّ حتى عليه قد مَرَنُـــوا
فليس يُقذي عيناً معايَنَـــةٌ　　لــه ومـا أن تَـمُـجّـه أُذُن
ويحَ ثقيفٍ ماذا يَضرُّهُــــم　　أن كان لي في دِيارهم سَكَنُ
أريَبُ ما بينَنا الحديثُ فــإن　　زِدنا فزِيدوا وما لِذا ثَمَنُ(١)

ابن أبي سعد قال :

بلَغني أنّ أبا نُواس كتب إلى جِنان من بغداد :

كفى حَزَنا إلّا أرى وجهَ حِيلةٍ　　أَزُور بها الأحباب في حَكَمانِ
وأُقسِم لولا أن تنال مَعاشرٌ　　جِناناً بما لا أشتهي لِجنان
لأصبحتُ منها دانيَ الدّار لاصِقاً　　ولكنّ ما أَخشى ـ فُديتِ ـ عَناني
فواحزَنا حُزناً يؤديّ إلى الرَّدى　　فأَصبحَ مأثوراً بكلّ لسـانِ
أُراني انقضت أيامُ وصليَ منكم　　وآذَن فيكم بالوَداع زمـاني

عن الخُريميّ قال :

بلغ أبا نواس أن امرأةً ذَكَرتْ لجِنانَ عِشقَه لها ، فشتمتْه جنانُ وتنقَّصَتْه وذكرتْه أقبح الذِّكر ، فقال :

وابِأبي مَن إذا ذُكرتُ لــــه　　وطولُ وَجدي به تنقَّصني
لو سألوه عن وجـه حُجّتـه　　في سَبّه لي لقال يَعشَقُـــني

(١) سكنك : من تسكن إليه .

نعمْ إلى الحَشْرِ والتنادِ نعـــمْ | أعشقُه أو أُلَفَّ في كَفَـني
أَصبح جَهراً لا أستسِرُّ بـــه | عَنَّفَني فيه من يُعنِّفُـني
يا معشر الناس فاسمعُوه وعُوا | أنّ جِناناً صديقـة الحَسَنِ[1]

فبلغها ذلك ، فهجرتْه وأطالت هجرَه ، فرآها ليلةً في مَنامه وأنّها قد صالحتْه ، فكتب إليها :

إذا التقى في النوم طَيْفانـا | عاد لنا الوصلُ كما كانـا
يا قُرّةَ العينِ فما بالُنـا | نَشقى ويَلتـذّ خَيـالانا
لو شئتِ إذ أحسنتِ لي في الكَرى | أتممتِ إحسانَك يَقْظانا
يا عاشقَين اصطلحـا في الكرى | وأصبحا غضبَى وغَضبانـا
كذلـك الأحـلامُ غَدّارةٌ | وربّمـا تصـدُق أحيانـا

أبو عِكرمةَ الضَّبّي :

أنّ رجلاً قدِم البصرة فاشترى جنانَ من مواليها ورحل بها ، فقال أبو نواس في ذلك :

أمّا الدّيارُ فقَلّما لبِثوا بهـا | بين استياف العِيس والرُّكْبانِ
وضعوا سِياط السَّوق في أعناقها | حتى اطَّلعنَ بهم على الأوطان

* * *

(١) يوم التنادي : يوم القيامة .

١٢

أَشْجَع السُّلَمِيّ

[الأغاني الجزء ١٨ ص ٢١٢ وما بعدها]

الشاعر

عليّ بن الفَضل السُّلَميّ قال :

كان أشجعُ بن عمرو السُلميّ يكُنى أبا الوليد ، من ولَـد الشَّريد بن مَطرود السُلميّ ، تزوّج أبوه امرأةً من أهل اليمامة فشَخص معها إلى بلدها ، فولَدت له هناك أشجعَ ، ونشأ باليمامة . ثم مات أبوه فقدِمت به أُمُّه البصرة تطلب ميراث أبيه ، وكان له هناك مالٌ ، فماتت بها . ورُبّيَ أشجعُ ونشأ بالبصرة ، فكان من لا يعرفُه يدفع نسبَه ، ثم كبِر وقال الشعر وأجاد وعُدّ في الفحول . وكان الشعر يومئذٍ في ربيعةَ واليمن ، ولم يكن لقيسٍ شاعرٌ معدود ، فلمّا نجَم أشجعُ وقال الشعر افتخرت به قيس واثبتت نسبَه .

وكان له أخَوان : أحمد وحُريث ابنا عمرو ، وكان أحمدُ شاعراً ، ولم يكن يُقارب أشجع ، ولم يكن لحُريث شعر .

ثم خرج أشجع إلى الرَقّة ، والرشيدُ بها ، فنزل على بني سُليم ، فتقبّلوه وأكرموه ، ومدح البرامكة وانقطع إلى جعفرٍ خاصةً وأصفاه مدحَه ، فأُعجب

به وأوصله إلى الرشيد ، ومدَحه فأُعجب به أيضاً ، فأثرى وحسُنت حالُه في أيامه وتقدّم عنده .

أخباره مع الرشيد ومدائحه فيه

أحمد بن العبّاس الرَّبيعيّ :

أنّ الذي أوصل أشجعَ السُلّمي إلى الرشيد جَدُّه الفَضل بن الرَّبيع ، وأنه أوصله له وقال له : هو أشعرُ شعراء أهل هذا الزَّمان ، وقد اقتطعتْه عنك البرامكةُ . فأمره بإحضاره وإيصاله مع الشعراء ، ففعل . فلمّا وصَل إليه أنشده قولَه :

قصرٌ عليه تحيّةٌ وسـلامُ ... نثرتْ عليه جمالَها الأيامُ
فيه اجتلى الدنيا الخليفةُ والتقتْ ... للمُلك فيه سلامةٌ وسلامُ
قصرٌ سُقوفُ المُزن دونَ سُقوفه ... فيه لأعلام الهُدى أعلامُ
نشرتْ عليه الأرضُ كُسوتها التي ... نسَج الربيعُ وزَخرفَ الإرهامُ
أدنتك من ظِلّ النبيّ وصيّةٌ ... وقرابةٌ وُشِجَت بها الأرحامُ
برقتْ سماؤك في العدوّ وأمطرتْ ... هاماً لها ظِلُّ السيوف غَمامُ
وإذا سيوفُك صافحتْ هامَ العِدا ... طارت لهنّ عن الرؤوس الهامُ
أثنى على أيّامك الأيامُ ... والشاهدان : الحِلُّ والإحرام
وعلى عدوِّك يابنَ عمّ محمدٍ ... رَصَدان : ضوءُ الصُبح والاظلام
فإذا تنبّه رُعتَه وإذا غفـا ... سَلّت عليه سيوفَك الأحلامُ[1]

قال : فاستحسنها الرشيدُ وأمر له بعشرين ألف درهم ، فمدح الفضلَ بن الربيع وشكر إليه إيصاله إيّاه إلى الرشيد ...

---

(١) الارهام : من أرهمت السماء أذا أمطرت مطراً ضعيفاً .

محمد بن القاسم بن مَهْرُويه قال : حدّثني أبي قال : بلَغني أن أشجع لمّا أنشد الرشيد هذين البيتين :

« وعلى عدوّك يابنَ عمّ محمد »

والذي بعدَه ، طرِب الرشيد ، وكان مُتّكِئاً فاستوى جالساً وقال : أحسَن والله ، هكذا تُمدَح الملوك .

أحمد بن سعيد بن سالم الباهليّ عن أبيه قال :

كنت عند الرّشيد ، فدخل إليه أشجعُ ومنصورٌ النَّمَري ، فأنشده أشجع قوله :

وعلى عدوّك يابن عـم محمد رَصَدان ضوءُ الصبح والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعتَه وإذا غفـا سَلّت عليه سُيوفَك الأحلام

فاستحسن ذلك الرشيد ، وأومأت إلى أشجع أن يقطع الشعر ، وعلمتُ أنه لا يأتي بمثلهما ، فلم يفعل ، ولمّا أنشده ما بعدهما فَتَر الرشيد وضرب بمِخصرة كانت بيده الأرض ؛ واستنشد منصوراً النَمريّ فأنشده قوله :

ما تنقضي حَسْرةٌ منّي ولا جَزَعُ إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرتَجع

فمَر والله في قصيدة قلّ ما تقول العربُ مثلَها ، فجعل الرشيد يضرب بمخصرته الأرض ويقول : الشعرُ في ربيعةَ سائرَ اليوم . فلمّا خرجنا قلت لأشجع : غمزتُك أن تقطَع فلم تفعل ، ويلَك ! ولم تأتِ بشيء ، فهلّا مِتّ بعد البيتَين أو خرِستَ فكنت تكون أشعرَ الناس .

أشجع السُّلَميّ قال :

شخصتُ من البصرة إلى الرَّقَّة ، فوجدتُ الرّشيد غازياً ، ونالتْني خَلّةٌ[1] ، فخرجتُ حتى لقِيتُه منصرفاً من الغزو ، وكنت قد اتّصلت ببعض أهل داره

(١) الخلة : الفقر والحاجة .

فصاح صائحٌ ببابه : مَن كان ها هنا من الشعراء فليحضُر يومَ الخميس . فحضرْنا سبعة وأنا ثامنهُم وأُمرنا بالبكُور في يوم الجمعة ، فبكَّرْنا وأُدخِلنا ، وقُدِّم واحدٌ واحد منا يُنشِد على الأسنان ، وكنتُ أحدثَ القوم سِنّاً ، وارثَّهم حالاً ، فما بُلغ إليّ حتى كادت الصلاةُ أن تجِب ، فقُدمتُ والرشيدُ على كُرسيّ ، وأصحابُ الأعمدة بين يديه سِماطان ، فقال لي : أنشِدْني . فخِفتُ أن أبتدىء من أوّل قصيدتي بالتشبيب فتجِب الصّلاةُ ويفوتني ما أردت ، فتركتُ التَّشبيب وأنشدتُه من موضع المديح في قصيدتيالتي أوّلُها :

تذكَّر عهدَ البِيض وهو لها تِرْبُ وأيامَ يُصبي الغانياتِ ولا يَصبُو

فابتدأت قولي بالمديح :

إلى ملكٍ يستغرقُ المالَ جُودُه مكارمُه نَثْرٌ ومعروفُه سَكْبُ
وما زال هارونُ الرِّضا بنُ محمّدٍ له من مياه النَّصر مَشربُها العَذْبُ
متى تبلغُ العيسُ المراسيلُ بابَـــه بنا فهناك الرُّحبُ والمنزلُ الرَّحْبُ
لقد جُمعت فيك الظُّنونُ ولم يكن بغيرك ظنٌّ يستريح له القَلبُ
جمعتَ ذوي الأهواء حتى كأنهم على مَنهجٍ بعدَ افتراقهم رَكْبُ
بثثتَ على الأعداء أبناءَ دُربـــةٍ فلم يَقِهم منهم حُصونٌ ولا دَربُ
وما زلت ترميهم بهم مُتفرِّداً أنيساك حَزمُ الرأي والصارمُ العَضْب
جَهَدتُ فلم أبلغْ عُلاك بمِدْحةٍ وليس على من كان مجتهداً عَتْبُ[1]

فضحك الرشيد وقال لي : خِفتَ أن يفوت وقتُ الصلاة فينقطعَ المديحُ عليك ، فبدأتَ به وتركت التشبيب . وأمَرني بأن أُنشده التشبيب ، فأنشدتُه إياه ، فأمر لكلّ واحدٍ من الشعراء بعشرة آلاف درهم وأمر لي بضِعفها .

عليٌّ بن الجَهم قال :

دخل أشجعُ على الرّشيد وقد مات ابنٌ له والناسُ يُعزُّونه ، فأنشده قولَه :

(١) ناقة مرسال ج مراسيل : سهلة السير .

نَقصٌ من الدّيـن ومن أهلـــه   نقصُ المنايا من بني هاشـم
قدّمتَه فاصبِر على فَقـــده   إلى أبيه وأبي القاســـم

فقال الرشيد : ما عَزّاني اليَومَ أحدٌ أحسنَ من تعزية أشجع . وأمر له بِصلة .

عن عمرو بن عليّ :

أنّ أشجع السلميّ كتب إلى الرشيد وقد أبطأ عنه شيءٌ أَمر له به :

أبلِغْ أميرَ المؤمنين رسالـــةً   لها عَنَقٌ بين الرّواة فَسيـحُ
بأنّ لسان الشعر يُنطقه النَّـدى   ويُخرسه الإبطاءُ وهو فصيحُ[1]

فضحك الرشيد وقال له : لن يَخرسَ لسانُ شعرك . وأمر بتعجيل صِلته ـ

عن إسحاق الموصليّ قال :

لمّا انصرف الرشيد من غَزاة هِرَقْلَةَ[2] قدم الرَّقّةَ في آخر شهر رمضان ، فلمّا عَيّد جلس للشعراء ، فدخلوا عليه وفيهم أشجع ، فبدَرهم وأنشأ تقول :

لا زلتَ تنشُر أعياداً وتَطويهـا   تَمضي بها لك أيامٌ وتَثنيها
مستقبلاً زِينةَ الدنيا وبهجتَهـا   أيامُنا لك لا تَفنى وتُفنيهـا
ولا تقضّتْ بك الدنيا ولا بَرِحتْ   يَطوي لك الدَّهرُ أياماً وتَطويها
وَلْيَهنِكَ الفتحُ والأيامُ مُقبلـةٌ   إليك بالنصر معقوداً نَواصيها
أمست هِرَقْلةُ تهوي من جوانبها   وناصرُ الله والاسلامِ يَرميها
مُلِكْتَها وقتلتَ الناكثين بهـا   بنَصر مَن يملِكُ الدُّنيا وما فيها
ما رُوعي الدّينُ والدنيا على قدمٍ   بمثل هارونَ راعيه وراعيها

---

(١) العنق : السير السريع .

(٢) كان نقفور ملك الروم قد صالح الرشيد على أن يؤدي الجزية الى الرشيد ، ثم نقض العهد ، فغزا الرشيد بلاده وافتتح مدينة هرقلة سنة ١٩٠ هـ .

قال : فأمر له بألف دينار وقال : لا يُنشدني أحدٌ بعدَه . فقال أشجع : واللهِ لَأمرُه بألّا يُنشدَه أحدٌ بعدي أحبُّ إليَّ من صِلته .

أحمد بن محمد بن منصور بن زياد عن أبيه قال :

دخل أشجع على الرشيد ثاني يوم الفِطر فأنشده :

استَقبِلِ العيدَ بعُمرٍ جديـد ... مدّتْ لك الأيامُ حبلَ الخُلودِ
مصعَّداً في درجات العُـلا ... نجمُك مقرونٌ بسَّعد السُّعودِ
واطوِ رداءَ الشمس ما أَطلعتْ ... نُوراً جديداً كلَّ يومٍ جديدِ
تَمضي لك الأيامُ ذا غِبطـةٍ ... إذا أتـى عيدٌ طَوى عمرَ عيـدِ

فوصله بعشرة آلاف درهم ، وأمر أن يُغنَّى في هذه الأبيات .

أبو عبدالله النَّخعيّ قال :

دخل أشجع على الرشيد فأنشده قوله :

أبت طَبَرِستانُ غيرَ الذي ... صدعتَ به بين أعضائهـا
ضممتَ مناكِبَها طَيَّـةً ... رمتك بما بين أحشائهـا
سموتَ إليها بمثل السَّمـاء ... تدلّى الصواعقُ في مائهـا
فلمّا نظرتَ إلى جُرحهـا ... وضعت الدّواءَ على دائها
فرشتَ الجِهاد ظُهورَ الجياد ... بأبنائـه وبأبنائهـا
بنفسكَ ترميهمُ والخُيُولِ ... كرَميْ العُقابِ بأفلائهـا
نظرتَ برأيـك لمّـا هَمَمْتَ دون الرّجـال وآرائها (١)

قال : فأمر له بألف دينار .

---

(١) أفلاء ج فلاة : الصحراء الواسعة .

أبو عمرو الباهليّ البصري قال :

دخل أشجع بن عمرو السلمي على هارون الرشيد حين قدم من الحج ، وقد مُطر الناس يوم قُدومه ، فأنشده يقول :

إنّ يُمْنَ الإمام لمّا أتانا جَلب الغيثَ من مُتون الغَمامِ
فابتسامُ النّبات في أثر الغيث بنُوّاره كسُرْجِ الظّلام
ملكٌ من مَخافة الله مُغْضٍ وهو مُغضىً له من الإعظام
أَلِف الحجَّ والجهادَ فما ينفكُّ من سَفرتَين في كلّ عامِ
سفرٍ للجهاد نحو عدوٍّ والمَطايا لسَفرة الإحرامِ
طلب اللهَ فهو يسعى إليه بالمطايا وبالجياد السّوَامي
فَيداه يدٌ بمكة تدعو ه وأُخرى في دعوة الإسلام(٢)

أخباره مع البرامكة ومدائحه فيهم

أشجع السلميّ قال :

كنت ذات يومٍ في مجلس بعض أخواني أتحدّث وأُنشد ، إذ دخل عليهم أنس بن أبي شيخ النّصريّ صاحبُ جعفر بن يحيى ، فقام له جميعُ القوم غيري ، ولم أعرِفْه فأقومَ له ، فنظر إليّ وقال : من هذا الرجل ؟ قالوا : أشجع السُّلميّ الشاعر . قال: أنشِدني بعضَ قولك . فأنشدتُه ، فقال : إنك لَشاعرٌ ، فما يمنعُك من جعفر بن يحيى ؟ فقلت : ومَن لي بجعفر بن يحيى ؟ فقال : أنا ، فقُل أبياتاً ولا تُطِل ، فإنه يَمَلّ الإطالة . فقلت : لستُ بصاحب إطالة . فقلت أبياتاً على نحو ما رسَم لي ، وصِرتُ إلى أنس فقال : تقدَّمْني إلى الباب . فتقدَّمتُ ، فلم يلبث أن جاء فدخَل ، وخرج أبو رُمح الهمذانيّ حاجب جعفر

(١) السرج : جمع سِراج ، وهو المصباح . السوامي : من سامت الخيل اذا خرجت الى المرعى واراد هنا خروجها الى الجهاد .

ابن يحيى فقال : أشجع . فقمت ، فقال : أدخُلْ ، فدخلت ، فاستنشدني فأنشدتُه أقول :

وترى المُلوكَ إذا رأيتَهـــــم كلٌّ بعيدُ الصَّوتِ والجَرسِ
فإذا بدا لهم ابن يحيى جعفـــرٌ رجَعوا الكلامَ بمنطقٍ هَمْس
ذهبــت مكارمُ جعفرٍ وفَعالُــه في الناس مثلَ مذاهب الشمسِ

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال ـ وكان أشجع يُحبّ الثياب ، وكان يكتري الخِلعة كلَّ يوم بدرهمين ، فيلبَسُها أياماً ، ثم يكتري غيرَها فيفعلُ بها مثل ذلك ـ قال : فابتعَتُ أثواباً كثيرة بباب الكَرْخ ، فكسوتُ عيالي وعيالَ إخوتي حتى أنفقتُها .

ثم لقيت المبارك مُؤدِّبَ الفضل بن يحيى بعد أيام ، فقال لي : أنشدني ما قُلتَه في جعفر . فأنشدتُه ، فقال : ما يمنعُك من الفضل ؟ فقلت : ومَن لي بالفَضل ؟ فقال : أنا لك به . فأدخلني عليه ، فأنشدتُه :

وما قدّم الفضلَ بن يحيى مكانُه على غيره بل قدّمتْه المكــارمُ
لقد أرهب الأعداءَ حتى كأنّما على كل ثَغرٍ بالمنيّـة قائـــمُ

فقال لي : كم أعطاك جعفر ؟ فقلت : عشرة آلاف درهم . فقال : أعطُوه عشرين ألفاً .

داود بن مُهلهِل قال :

لمّا خرج جعفر بن يحيى ليُصلح أمر الشأم ، نزل في مِضرَبِه وأمر بإطعام الناس ، فقام أشجع فأنشده قوله :

فئتان باغيـــــةٌ وطاغيـــــة جلّت أمُورُهما عــن الخَطْبِ
قد جاءكم بالخيـــل شازِبَـــةً ينقُلْن نحوكمُ رَحى الحـــرب

لم يبق إلّا أن تدورَ بكـــــم قد قام هاديها على القُطْبِ[1]

قال : فأمر له بصلة ليست بالسَنيّـة ، وقال له : دائمُ القليل خيرٌ من منقطِع الكثير . فقال له : ونَـزْرُه أكثرُ من جزيل غيره . فأمر له بمثلها . قال : وكان يُجري عليه في كلّ جمعة مائةَ دينار مُـدّة مُقامه ببابه .

عبد الرحمن بن النُّعمان السلميّ قال :

كنّا بباب جعفر بن يحيى وهو عليلٌ ، فقال لنا الحاجب : إنه لا إذنَ عليه . فكتب إليه أشجع :

لمّـا اشتكى جعفرُ بن يحيـــى فارقني النومُ والقَـــــرارُ
ومَرَّ عيشي عـــليّ حتــــــى كأنّما طعمُـهُ المُـــرارُ
خَوفاً على جعفر بن يحيـــى لا حُقّـــق الخوفُ والحِذارُ
إن يُعفِـه اللهُ لا نُحـــاذرْ ما أحدث الليل والنهـــارُ[2]

قال : فأوصل الحاجبُ رُقعتَه ، ثم خرج فأمره بالوصول وحده ، وانصرف سائرُ الناس .

إسحاق بن إبراهيم المَوصليّ قال :

لمّـا وَلّى الرشيد جعفرَ بن يحيى خُراسان جلس للناس ، فدخلوا عليه يهنّئونه ، ثم دخل الشعراء فأنشدوه ، فقام أشجعُ آخرَهم فاستأذن في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قوله :

أتصبِرُ للبَين أم تجــزَعُ فإنّ الدّيـــارَ غـداً بَلْقَــعُ
غداً يتفرّقُ أهـــلُ الهـــوى ويكـثُر باكٍ ومُسترجِـــــعُ

حتى انتهى إلى قوله :

---

(١) شازبة : ضامرة .

(٢) المرار : شجر اذا أكلته الأبل قلصت مشافرها فبدت أسنانها .

ودَوِّيَّـــةٍ بين أقطارِهـــــا مقاطيــع أرضِينَ لا تُقطَــعُ
تجاوزتُهـــا فوق عَيْرانَــةٍ من الرّيــح في سيرها أسرع
إلى جعفرٍ نَزَعـتْ رَغبــةٌ وأيُّ فتىً نحوَه تنـــــزِعُ
فما دونَــه لامــرىءٍ مَطمَعٌ ولا لامرىءٍ غــيرِه مَقنَـعُ
ولا يرفــعُ الناسُ مَــن حَطَّه ولا يضَعون الذي يرفَـــعُ
يُريد الملوكُ مَــدى جعفــرٍ ولا يصنعون كما يصنـــعُ
وليس بأوسعهـــم في الغِنى ولكــنّ معروفَـــه أوسَـعُ
تلُوذ الملـــوكُ بآرائـــه إذا نالها الحَدَثُ الأفظَـــعُ
بديهتُـــه مثــلُ تدبــيرِه متى رُمتَــه فهو مُستجمِـــع
وكم قائلٍ إذ رأى ثــروتي وما في فُضول الغِنى أصنــع :
غدا في ظِلال ندى جعفــرٍ يَجُرُّ ثيابَ الغِنى أشجَـــعُ
فقُـل لخراسانَ تَحيـــا فقد أتاها ابنُ يحيـى الفتى الأَروعُ[1]

فأقبل عليه جعفرُ بن يحيى ضاحكاً ، واستحسن شعره ، وجعل يخاطبه مخاطبة الأخ أخاه ، ثم أمر له بألف دينار .

قال : ثم بدا للرّشيد في ذلك التدبير ، فعزل جعفراً عن خراسان بعد أن أعطاه العَهد والكُتب وعقد له العَقد وأمرَ ونَهَى ، فوَجَم لذلك جعفرٌ ، فدخل عليه أشجع فأنشده يقول :

أمستْ خُراسانُ تُعزَّى بمــــا أخطأها من جعفر المُرتَجَى
كان الرشيــدُ المعتلي أمــرُه ولّى عليها المُشرِقَ الأَبلجـا
ثم أراه رأيُـــه أنّـــــه أمسى إليه منهمُ أحوَجـــا
فكم به الرحمنُ من كُـــربــةٍ في مُدّةٍ تقصُر قد فَرّجـــا

(١) الدوية : الصحراء الواسعة . العيرانة : الناقة النشيطة .

فضحك جعفر ثم قال : لقد هوّنتَ عليّ العَزْل ، وقُمت لأمير المؤمنين بالعُذر ، فسَلني ما شئت . فقال : قد كفاني جُودُك ذِلّة السؤال . فأمر له بألف دينار آخر .

مَهديّ بن سابق قال :

أعطى جعفرُ بن يحيى مروانَ بن أبي حَفصة ، وقد مَدَحه ، ثلاثين ألف درهم ، وأعطى أبا البَصير عشرين ألفاً ، وأعطى أشجعَ ـ وقد أنشده معهما ـ ثلاثةَ آلاف درهم ، وكان ذلك في أول اتصاله به . فكتب إليه أشجع :

أعطيتَ مروانَ الثـــــلا ... ثـين التي دلَّـــت رِعاثَـــهْ
وأبا البَصـــير وإنّمــــا ... أعطيتَـــني منهم ثــــلاثــهْ
ما خانَني حَوكُ القـــريـــــض ولا اتّهمتَ سوى الحداثَه[1]

فأمر له بعشرين ألف درهم أخرى .

عن ابن النطّاح قال :

ولّى جعفرُ بن يحيى أشجعَ عملاً ، فرفع إليه أهلُه رفائع كثيرة ، وتظلّموا منه وشكَوه ، فصرفه جعفرُ عنهم . فلمّا رجَع إليه من عمله مثَل بين يديه ثم أنشأ يقول :

أمُفسِدةٌ سُعادُ عليَّ دِيـــــني ... ولائمتي على طُول الحنـــينِ

...

لقد هَزّت سنانَ القول مـــنّي ... رجالُ رفيعةٍ لم يعرِفـــوني
همُ جازوا حِجابَك يابنَ يحيى ... فقالوا بالذي يهوَون دوني
أطافوا بي لديك وغِبتُ عنهم ... ولو أدنيتَـــني لتَجَنّبونـــي
وقد شهدتْ عيونُهـــم فمالت ... عليّ وغُيّبت عنهم عـــيوني

---

(١) الرعاث ج رعثة : عثنون الديك ، وأراد بقوله : تدلت رعاثه أنه تكبر وزها .

ولمّا أن كتبتُ بما أرادوا تدرّع كلُّ ذي غِمْرٍ دفـيـنِ
كففتُ عن المقاتل باديـاتٍ وقد هَيّأت صخرةَ مَنْجَنُونِ
ولو أرسلتُها دمغـتْ رجـالاً وصالت في الأخِشّـة والشُّؤون
وكنت إذا هززت حُسامَ قول قطعتُ بحُجّتي عَلَـق الوَتين
لعلّ الدهرَ يُطلِق من لسـاني لهم ويبسُط من يميـني

[إلى أن يقول :]

علامَ وأنت تعلمُ نُصْحَ جنبي وأخـذي منـك بالسَّبب المتينِ
وعَسْفي كلَّ مَهمهةٍ خَـلاء إليك بكلّ يَعْمَلَـةٍ أَمـونِ
وإحيائي الدُّجى لك بالقوافي أُقيم صُدورَهنّ على المُتُـونِ
تُقرّب منك أعـدائي وأُنأَى ويجلسُ مجلسي من لا يَليـني
ولو عاتبتَ نفسَك في مكاني إذاً لَنزلتُ عندك باليَمـينِ
ولكنّ الشُكوك نَأَيـن عـني بوِدّك والمصيرُ إلى اليقـين
فإن أنصفتَني أحرقت منهم بنُضج الكيّ أَثباجَ البُطـون[1]

عن قُدامة بن نوح قال :

جلس جعفرُ بن يحيى بالصالحيّة يشرب على مستَشرِفٍ له ، فجاءه أعرابيٌّ من بني هِلال فاشتكى واستماح بكلامٍ فصيح ولفظٍ مثله يعطِف المسؤول ، فقال له جعفر بن يحيى : أتقول الشعر يا هِلاليٌّ؟ فقال : قد كنت أقولُه

---

(١) الغمر : الحقد والعداوة . وفي المطبوعة : غمز ، واراه مصحفاً . المنجنون : الدولاب يستقى عليه . الأخشة ج خشاش : العود يجعل في عظم أنف البعير . الشؤون ج شأن : عرق الدمع ومجراه . العلق : الحبل . الوتين : عرق في القلب ، وفي بعض الروايات : عرق الوتين . اليعملة : الناقة النجيبة . الأمون : الموثقة الخلق ، المأمونة الكلال . أثباج . ج ثبج : من كل شيء أوسطه .

وأنا حَدَثٌ أتملّح به ثم تركتُه لمّا صِرتُ شيخاً. قال: فأنشِدنا لشاعركم حُميد بن ثَور. فأنشده قوله:

لِمن الدّيارُ بجانب الحُمْسِ كَمَحطٍّ ذي الحاجات بالنفس

حتى أتى على آخرها. فاندفع أشجع فأنشده مديحاً له فيه قاله لِوقته على وزنها وقافيتها، فقال:

ذهبت مكارمُ جعفرٍ وفعالُه في الناس مثلَ مذاهب الشمسِ
ملكٌ تسُوس له المعالي نفسُه والعقلُ خيرُ سياسة النفس
فإذا تراءته الملوكُ تراجعوا جَهرُ الكلام بمنطقٍ هَمْسِ
ساد البرامكَ جعفرٌ وهم الأُلى بعد الخلائف سادةُ الإنس
ما ضرّ مَن قصد ابنَ يحيى راغباً بالسَّعد حلّ به أم النَّحْسِ

فقال له جعفر: صِف موضعَنا هذا. فقال:

قُصور الصالحيّة كالعَذارى لبِسن ثيابهنّ لِيوم عُرْسِ
مُطلّاتٌ على بطنٍ كَسَتْه أيادي الماء وَشْياً نسجَ غَرسِ
إذا ما الطلُّ أثرّ في ثراه تنفّس نَورُه من غير نَفْسِ
فتَغبِقُه السماءُ بصِبغ وَرْسٍ وتَصبَحُه بأكؤُسِ عين شمسِ(١)

فقال جعفر للأعرابي: كيف ترى صاحبَنا يا هِلاليُّ؟ فقال: أرى خاطرَه طوعَ لسانه، وبيانَ الناس تحت بيانه، وقد جعلتُ له ما تصِلُني به. قال: بل نصلك يا أعرابيّ ونُرضيه. وأمر للأعرابي بمائة دينار ولأشجع بمائتين.

سائر أخباره

أبو هِفّان قال:

ذكر أبو دِعامة أنّ أشجع دخل على الفضل بن الربيع، وقد تُوفيّ ابنه

---

(١) غبقه: سقاه بالعشي. الورس: الزعفران. صبحه. سقاه صباحاً.

العبّاس والناس يُعزّونه ، فعزّاه فأحسن ، ثم استأذن في إنشاد مَرثيةٍ قالها فيه ، فأذن له ، فأنشده :

لا تَبكينَّ بعينٍ غيرِ جائدةٍ … وكلُّ ذي حَزَنٍ يبكي كما يجدُ
أيّ امرىءٍ كان عبّاسٌ لنائبةٍ … إذا تَقنّع دونَ الوالد الوَلَدُ
لم يُدنِه طَمعٌ من دار مُخزيةٍ … ولم يَعِزّ له من نعمةٍ بَلَدُ
قد كنتُ ذا جَلدٍ في كلّ نائبةٍ … فبان منّي عليك الصبرُ والجَلَدُ
لمّا تسامت بك الآمالُ وابتهجتْ … بك المُروءةُ واعتَدَّتْ بك العُدَدُ
ولم يكن لفتىً في نفسه أملٌ … إلّا إليك به من أرضه يفِدُ
وحين جئت أَمام السّابقين ولم … يَبْلُلْ عِذارَك ميدانٌ ولا أَمَدُ
وافاك يومٌ على نَكْراء مشتملٌ … لم ينجُ من مِثله عادٌ ولا لُبَدُ
فما تكشّف إلّا عن مُوَلوِلةٍ … حَرّى ومكتئبٍ أحشاؤه تقِدُ[1]

قال : فبكى الفضل وبكى الناسُ معه ، وما انصرفوا يومئذٍ يتذاكرون غيرَ أبيات أشجع .

عن أشجع قال :

دخلت على محمد الأمين حين أُجلس مجلسَ الأدب للتعليم ، وهو ابنُ أربع سنين ، وكان يجلس فيه ساعةً ثم يقوم ، فأنشدتُه :

ملكٌ أبوه وأمُّه من نَبْعةٍ … منها سِراجُ الأمة الوهّاجُ
شربتْ بمكة في رُبا بطحائها … ماءَ النبوّة ليس فيه مِزاجُ[2]

---

(١) لم يبلل عذارك : أي لم يتصبب منك العرق لا في الحرب ولا السباق . لبد : اسم آخر نسور لقمان بن عاد .

(٢) النبع : شجر تتخذ منه السهام والقسيّ .

يعني النَبعة . قـال : فأمرت لـه زُبيدةُ بمائة ألف درهـم . قـال : ولم يملك الخلافة أحدٌ أبوه وأمه من بني هاشم إلا أميرَ المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه ، ومحمد بن زُبيدة .

سعيد بن هُريم وأبو دِعامة قالا :

كان انقطاعُ أشجع إلى العباسِ بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، فقال الرشيد للعباس يوماً : يا عمّ ، إنّ الشُعراء قد أكثروا في مدح محمد[1] بسببي وبسبب أم جعفر ، ولم يقل أحدٌ منهم في المأمون شيئاً ، وأنا أحِبّ أن أقع على شاعرٍ فَطِنٍ ذكيّ يقول فيه . فذكر العباسُ ذلك لأشجع وأمره أن يقول فيه ، فقال :

بَيعـةُ المأمـونِ آخـذةٌ بعِنانِ الحقّ في أُفُقِـهْ
أُحكِمت مِرّاتُهـا عُقَـداً تمنـع المحتالَ في نَفَقِـه
لن يفكَّ المـرءُ رِبْقَتَهـا أو يفـكَّ الدِّيـن من عُنُقِهْ
ولـه من وجـه والـده صورةٌ تَمّت ومن خُلُقِـهْ [2]

قال : فأتى بها العباسُ الرشيد وأنشده إياها ، فاستَحسنها وسأله : لِمن هي ؟ فقال : هي لي . فقال : سررتني مرتين : بإصابتك ما في نفسي ، وبأنها لك ، وما كان لك فهو لي . وأمر له بثلاثين ألف دينار ، فدفع إلى أشجع منها خمسةَ آلاف درهم وأخذ باقيها لنفسه .

عليّ بن الفضل السُّلمي قال :

أوّلُ ما نجم به أشجع أنه اتّصل بجعفر بن المنصور ، وهو حَدَثٌ ،

(١) يريد ابنه محمداً الأمين .

(٢) المرات ج مرّة : طاقة الحبل . المحتال : في المطبوعة : المختال ، ولا معنى لها هنا ، وقصد الشاعر أن البيعة أحكمت إحكاماً يمنع المنافق من الخروج عليها ، وشبه ذلك باليربوع في نافقائه أي حجره ، واحتياله في التخلص من مطارديه .

وَصَله به أحمد بن يزيد السُّلميّ وابنُه عوف ، فقال أشجع في جعفر بن المنصور قوله :

اذكُروا حُرمةَ العواتـكِ منّـا يا بني هاشمٍ بنِ عبد مَنافِ
قـد ولـدنـاكـم ثـلاثَ ولادات خَلَطْن الأشرافَ بالأشرافِ
مَهّدت هاشماً نجومُ قُصيٍّ وبنو فالجٍ حُجور عَفافِ
إنّ أرماحَ بُهثةَ بنَ سُليم لعِجاف الأطراف غيرُ عِجافِ
ولأسيافهم فِرىً غيرُ لَذٍّ راجعٌ في مَراجع الأكتافِ
معشرٌ يُطمِعون من ذِروة الشَّول ويسقون خمرةَ الأقحافِ
يضرِبون الجبّارَ في أَخدَعَيْه ويُسَقُّونه نَقيعَ الذُّعافِ (١)

فشاع شعره وبلغ البصرة ، ولم يزل أمرُه يتراقى إلى أن وصلتْه زُبيدة بعد وفاة أبيها بزوجها هارون الرشيد ، فأَسْنى جوائزَه ، وألحقه بالطبقة العليا من الشعراء .

ابن أشجع السلميّ قال :

لمّا مرّ أبي وعمّاي أحمدُ ويزيد ، وقد شربوا ، وانتشَوا ، بقبر الوليد بن عُقبة وإلى جانبه قبرُ أبي زَبيد الطائيّ ـ وكانَ نصرانياً ، والقبران مختلفان كلٌّ واحدٍ منهما متوجهٌ إلى قِبلة مِلّته ، وكان أبو زَبيدِ أوصى لمّا احتُضِر أن يُدفَن إلى جنب الوليد بالبَليخ ـ قال : فوقفوا على القبرين ، وجعلوا يتحدّثون بأخبارهما ويتذاكرون أحاديثَهما ، فأنشأ أبي يقول :

---

(١) العواتك : من كانت اسمها عاتكة من بني سليم وهنّ ثلاث تزوجن رجالاً من بني هاشم وهن : عاتكة بنت مرة بن هلال السلمية وهي أم هاشم وعبد شمس والمطلب بني عبد مناف وعاتكة بنت جابر بن قنفذ ، وعاتكة بنت عصبة بن خفاف . فالج : هو فالـج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثةَ بن سليم ، وفي المطبوعة : فالح ، وهو تصحيف . فراه : قطعه . الشول : الناقة . الأقحاف ج قحف : إناء من خشب كالقدح . الأخدعان : عرقان في صفحتي العنق . الذعاف : السم .

مــررتُ على عِظــام أبي زَبيــدٍ　　وقد لاحت ببَلْقعةٍ صَلُــودِ
وكان له الوليدُ نديمَ صــــدقٍ　　فنادم قبرُه قبرَ الوليـــــد
أنيسا أُلفةٍ ذهبت فأمســـــتْ　　عظامُهما تآنس بالصَّعيـــد
وما أدري بمــن تَبدا المنايــــا　　بأحمد أو بأشجع أو يزيــدِ

قال : فماتوا والله كما رتّبهم في الشعر : أولهم أحمد ، ثم أشجع ، ثم يزيد .

* * *

١٣

البُحتُريّ

[الأغاني ج ٢١ ص ٣٧ وما بعدها]

الشاعر

هو الوليد بن عُبيدالله بن يحيى ... بن بُحْتُر ... بن عَمْرو بن الغَوث ابن جُلْهمةُ ـ وهو طَيِّء ـ بن أُدَد بن زيد بن كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحطان . ويُكنى أبا عُبادة .

أبو الغَوث يحيى بن البحتريّ قال :

كان أبي يُكنَى أبا الحسن ، وأبا عُبادة ، فأُشير عليه في أيّام المتوكّل بأن يقتصر على أبي عُبادة ، فإنّها أشهر ، فاقتصر عليها .

شاعرٌ فاضلٌ ، فصيح ، حَسَن المذهب ، نقيُّ الكلام ، مطبوع ، كان مشايخُنا ـ رحمةُ اللهم عليهم ـ يختُمون به الشعراء ، وله تصرُّفٌ حسنٌ فاضل نقيّ في ضروب الشعر ، سوى الهجاء فإنّ بضاعته فيه نَزْرة وجيّده منه قليل . وكان ابنه أبو الغوث يزعم أنّ السبب في قلّة بضاعته في هذا الفن أنّه لمّا حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كلَّ شيء قلتُه في الهجاء . ففعل ، فأمره بإحراقه ، ثم قال له : يا بُنيّ ، هذا شيء قلتُه في وقت فشفيت به غَيظي وكافأتُ به قبيحاً فُعل بي ، وقد انقضى أَرَبي في ذلك ، وإن بقي روي ، وللنّاس أعقابٌ

يُورّثونَهم العِداء والمودّة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولي فيه . قال : فعلمت أنه قد نصحني وأشفق عليّ ، فأحرقتُه ...

وكان البحتريّ يتشبّه بأبي تمّام في شعره ويَحذُو مذهبَه وينحو نحوَه في البديع الذي كان أبو تمام يستعمله ، ويراه صاحباً وإماماً ، ويُقدّمه على نفسه ، ويقول في الفرق بينه وبينَه قولَ مُنصِف : إنّ جيّدَ أبي تمّام خيرٌ من جيّده ، ووسطَه ورَديئَه خيرٌ من وسَط أبي تمّام ورديئه . وكذا حَكَم هو على نفسه .

الحسين بن عليّ الياقطانيّ قال :

قلت للبحتريّ : أيُّما أشعرُ أنت أو أبو تمّام ؟ فقال : جيّدُه خيرٌ من جيّدي ، ورديئي خير من رَديئه .

محمّد [بن يحيى] قال :

سمعت عبدالله بن الحسين بن سَعد يقول للبحتريّ ـ وقد اجتمعنا في دار عبدالله بالخُلْد[١] ، وعندَه المُبّرد ، في سنة ست وسبعين ومائتين ، وقد أنشد البحتريّ شعراً لنفسه قد كان أبو تمام قال في مِثله ـ : أنت واللهِ أشعرُ من أبي تمام في هذا الشعر . قال : كلّا والله . إنّ أبا تمّام للرئيسُ والأستاذُ ، والله ما أكلتُ الخُبز إلّا به . فقال له المبّرد : لله دَرُّك يا أبا الحسن ، فإنّك تأبى إلّا شرَفاً من جميع جوانبك . .

الحسين بن إسحاق قال :

قلت للبحتريّ : إنّ الناس يزعُمون أنّك أشعرُ من أبي تمّام . فقال : والله ما ينفَعُني هذا القولُ ولا يضرُّ أبا تمام ، والله ما أكلت الخبزَ إلّا به ، ولَوَدِدت

---

(١) الخلد : اسم قصر بناه المنصور ببغداد على شاطىء دجلة عندما فرغ من بناء بغداد ، ثم بنيت حوله منازل فصارت محلة كبيرة .

أنّ الأمر كان كما قالوا ، ولكنّي والله تابعٌ له آخِذٌ منه ، لائذٌ به ، نسيمي يركُد عند هوائه ، وأرضي تنخفِض عند سمائه .

حكم بن يحيى الكنتحيّ قال :

كان البحتريّ من أوسخ خَلق الله ثوباً وآلةً ، وأبخَلَهم على كلّ شيء . وكان له أخٌ وغلامٌ معه في داره ، فكان يقتُلهما جُوعاً ، فإذا بلغ منهما الجوعُ أتياه يبكيان ، فيرمي إليهما بثَمَن أقواتهما مُضَيّقاً مُقتِّراً ، ويقول : كُلا ، أجاع اللهُ أكبادَكما ، وأعرى أجْلادَكما ، وأطال إجهادَكما .

صلته بأبي تمّام

عن البحتريّ قال :

أوّل ما رأيت أبا تمّام أنّي دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف ، وقد مدحته بقصيدتي :

أأفاق صَبٌّ من هوىً فأُفِيقا ... أوخان عَهداً أو أطاع شفيقا

فسُرّ بها أبو سعيد وقال : أحسنتَ والله يا فتى وأجدتَ . قال : وكان في مجلسه رجلٌ نبيل رفيعُ المجلس منه ، فوقَ كلّ من حضر عنده ، تكاد تَمَسّ ركبتُه رُكبتَه ، فأقبل عليّ ثم قال : يا فتى ، أما تستحي منّي ! هذا شعرٌ لي تنتحِلُه وتُنشده بحضرتي ! فقال له أبو سعيد : أحقّاً تقول ؟ قال : نعم ، وإنّما عَلِقه منّي ، فسبقني به إليك ، وزاد فيه . ثم اندفع فأنشد أكثر هذه القصيدة ، حتى شكّكني ـ عَلم اللهُ ـ في نفسي ، وبقيت مُتَحيّراً . فأقبل عليّ أبو سعيد فقال : يا فتى ، قد كان في قرَابتك منّا ووُدِّك لنا ما يُغنيك عن هذا ! فجعلتُ أحلِف له بكلّ مُحرِجةٍ من الأَيمان أنّ الشِّعر لي ما سَبقني إليه أحدٌ ولا سمعتُه منه ولا انتحلتُه . فلم ينفَع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد ، وقُطع بي حتى تمنّيت أنّي سُختُ في الأرض ، فقُمت مُنكسرَ البال ، أَجُرّ رِجْليّ ، فخرجتُ ، فما هو إلّا أن بلغتُ بابَ الدّار حتى خرج الغِلمانُ فَردُّوني ؛فأقبل عليّ الرجلُ

فقال : الشِعر لك يا بُنيّ ، واللهِ ما قُلتُه قطُّ ولا سمعتُه إلّا منك ، ولكنّني ظننت أنّك تهاونت بموضِعي ، فأقدمتَ على الإنشاد بحَضرتي من غير معرفةٍ كانت بيننا ، تُريد بذلك مُضاهاتي ومُكاثرتي ، حتى عرّفني الأميرُ نَسَبك ومَوضِعَك ، ولَوَدِدتُ ألّا تلِد أبداً طائيّةٌ إلّا مِثْلَك . وجعل أبو سعيد يَضحك ، ودعاني أبو تَمّام وضمّني إليه وعانقني ، وأقبل يُقرِّظني . ولَزِمتُه بعد ذلك ، وأخذت عنه ، واقتديتُ به .

عبدالله بن الحسين بن سَنَد القُطْرُبُلّي :

أنّ البحتريّ حدّثه أنه دخل على أبي سعيد محمد بن يُوسُف الثَغْريّ ، وقد مدحه بقصيدة ، وقصَده بها ، فألفى عنده أبا تمّام وقد أنشده قصيدةً له فيه ، فاستأذنه البحتريُّ في الإنشاد ، وهو يومئذٍ حديثُ السِنّ ، فقال له : يا غُلام أتُنشِدني بحضرة أبي تمّام ! فقال : تأذَنُ ويستمع . فقام فأنشده إيّاها ، وأبو تمّام يسمع ويهتزّ من قَرْنه[1] إلى قدمه استحساناً لها . فلمّا فرَغ منها قال : أحسنتَ واللهِ يا غلام ، فمِمَّن أنت ؟ قال : من طَيِّيء . فطرب أبو تمام وقال : من طَيِّيء ! الحمدُ لله على ذلك ، لَوَدِدتُ أنّ كلَّ طائيّة تلِد مِثلك . وقَبّل بين عينيه وضَمّه إليه وقال لمحمّد بن يوسُف : قد جعلتُ له جائزتي . فأمر محمّدٌ بها ، فضُمّت إلى مِثلها ، ودُفعت إلى البحتريّ ، وأعطى أبا تمّام مِثلها . وخُصّ به ، وكان مَدّاحاً له طولَ أيامه ولابنه بعدَه ، ورثاهما بعد مقتليهما فأجاد ، ومَراثيه فيهما أجودُ من مدائحه . ورُوي أنّه قيل له في ذلك فقال : من تمام الوفاء أن تَفضُلَ المراثي المدائحَ ، لا كما قال الآخر ـ وقد سُئل عن ضَعف مراثيه فقال ـ : كُنّا نعمل للرّجاء ، ونحن نَعمل اليومَ للوَفاء ، وبينهما بُعْد .

محمدُ بن عليّ الأنباريّ قال :

سمعت البحتريّ يقول : أنشدني أبو تمّام يوماً لنفسه :

---

(١) من قرنه : من رأسه .

وسابحٍ هَطِلِ التَّعْداء هَتّانِ   على الجِراء أمينٍ غيرِ خَوّانِ
أَظْمَى الفُصوصِ ولم تَظْمأْ قوائمُه   فجُلْ بعَينيك في ظَمآنَ ريّانِ
فلو تراه مُشِيحاً والحَصَى زِيَمٌ   بين السَّنابك من مَثْنى ووُحْدانِ
أيقنت إن لم تَثَبَّتْ أنّ حافرَه   من صَخرِ تَدْمُرَ أو من وَجهِ عثمانِ[1]

ثم قال لي : ما هذا الشعر ؟ قلت : لا أدري . قال : هذا هو المستطرِد ، أو قال : الاستطراد . قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يُريك أنه يريد وصف الفرس وهو يريد هجاء عثمان .

وقد فعل البحتريّ ذلك فقال في صفة الفرس :

ما إن يَعاف قَذًى ولو أوردتَه   يوماً خلائقَ حَمْدَوَيهِ الأحولِ[2]

وكان حَمدويه الأحولُ عدوّاً لمحمد بن عليّ القُمّي الممتدَح بهذه القصيدة ، فهجاه في عُرض مدحه محمّداً .

أبو الغَوث بن البحتريّ قال :

حدّثني أبي قال : قال لي أبو تمّام : بلغني أنّ بني حُمَيد أعطَوك مالاً جليلاً فيما مدحتَهم به ، فأنشِدني شيئاً منه . فأنشدتُه بعضَ ما قُلته فيهم ، فقال لي : كم أعطَوك ؟ فقلت : كذا وكذا . فقال : ظَلَموك ، واللهِ ما وَفَوك حقَّك ، فلِمَ استكثرتَ ما دفعوه إليك ؟ والله لَبيتٌ منها خيرٌ ممّا أخذت . ثم أطرق قليلاً ، ثم قال : لَعَمري لقد استكثرت ذلك ، واستكْثَر لك لمّا مات الناسُ وذهب الكِرام وغاضت المكارم ، فكَسَدت سُوقُ الأدب ؛ أنت والله يا بُنيَّ

---

(١) هطل التعداء هتان : سريع الجري . جرى الفرس جراء : عدا ، وقد جعل محقق المطبوعة جراء جمع جرو ، وهو ولد الكلب ، وقصد أبي تمام ان هذا الفرس يوثق بعدوه وسرعة جريه . أظمى : ضامر . الفصوص : المفاصل . مشيحاً : مقبلاً . زيم ج زيمة : القطعة .

(٢) يعاف : يكره . القذى : ما يقع في الماء والشراب والعين من الوسخ .

أميرُ الشعراء غداً بعدي . فقمتُ فقبّلتُ رأسه ويديه ورِجلَيه ، وقلت له : والله لهذا القولُ أسَرُّ إلى قلبي وأقوى لنفسي ممّا وصل إليَّ من القوم .

طائفة من أخباره

● أبو العَنْبَس الصَيْمريّ قال :

كنت عند المتوكّل والبحتريّ يُنشد :

عن أيّ ثَغرٍ تبتسـم ... وبأيِّ طَرْفٍ تَحتكِمْ

حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جَعفرِ الـ ... متوكّلِ بنِ المعتصِمْ
المُبتدي للمُجتدي ... والمُنعِم بنِ المنتقم
اسلَمْ لِدين محمّدٍ ... فإذا سَلِمت فقد سَلِمْ [1]

قال : وكان البحتريّ من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور في مَشيه[2] ، مرّةً جانباً ، ومرّةً القَهْقَرى ، ويهزّ رأسَه مرّةً ، ومَنكِبَيه أخرى ، ويُشير بكُمّه ، ويقف عند كلّ بيت ويقول : أحسنتُ واللهِ . ثم يُقبِل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنتَ ! هذا والله ما لا يُحسِن أحدٌ أن يقول مِثله . فضَجِر المتوكّل من ذلك وأقبل عليّ وقال : أما تسمع يا صَيمريٌّ ما يقول ؟فقلت : بلى يا سيّدي ، فمُرني فيه بما أحببتَ . فقال : بحياتي اهجُه على هذا الرَويّ الذي أنشدَنيه . فقلت : تأمرُ ابنَ حَمدون أن يكتب ما أقول . فدعا بدَواةٍ وقِرطاسٍ ، وحضَرني على البَديهة أن قُلتُ :

أدخلتَ رأسَك في الرَّحِمْ ... وعلمتَ أنّك تَنهزِمْ
يا بُحتريٌّ حَذارِ وَيْحَك من قُضاقِضةٍ ضُغُمْ

---

(١) المجتدي : طالب الجدا ، وهو العطية .

(٢) يتزاور في مشيه : ينحرف

فلقد أسلـــتَ بِـوادِ يَيـــــك من الهِجا سَيلَ العَرِمْ
فبأيِّ عِـرضٍ تعتصـــــمْ وبِهَتْكِـه جَـفَّ القَلَـمْ [1]

[الأبيات ...]

قال : فغضب ، وخرج يعدُو ، وجعلت أصيح به :

أدخلـت رأسك في الـرّحم وعلمــت أنّــك تنهزم

والمتوكل يضحك ويصفّق حتى غاب عن عينه .

قال أحمد بن زياد : فحدّثني أبي قال :

جاءني البحتريّ فقال لي : يا أبا خالد ، أنت عشيرتي وابن عمّي وصديقي ، وقد رأيتَ ما جرى عليَّ ، أفترى لي أن أخرج إلى مَنْبِج بغير إذن ، فقد ضاع العِلم وهَلَك الأدب ؟ فقلت : لا تفعل من هذا شيئاً ، فإن الملوك تمزح بأعظم ممّا جرى . ومضيت معه إلى الفَتْـح [2] ، فشكا إليه ذلك ، فقال له نحواً من قولي ، ووَصَله وخَلَع عليه ، فسَكَن إلى ذلك .

● أبو الفضل عباس بن أحمد بن ثَوابة قال :

قدم البحتريّ النِّيْـل [3] على أحمد بن عليّ الإسكافيّ مادحاً له ، فلم يُثبه ثواباً يرضاه بعد أن طالت مُـدّته عنده ، فهجاه بقصيدته التي يقول فيها :

ما كسِبنا من أحمد بن عـــليٍّ ومن النِّيل غـيرَ حُـمّى النِّيلِ

وهجاه بقصيدة أخرى أولها :

قِصّة النِّيل فاسمعوها عُجابَهْ

(١) القضاقض : الأسد ، وجمعه : قضاقضة . ضغم : ج ضاغم وضغمه : عضه بملء فيه .

(٢) الفتح : أراد الفتح بن خاقان نديم المتوكل .

(٣) النيل : بليدة في سواد الكوفة .

فجمع إلى هجائه إيّاه هجاءَ أبي ثَوابة ، وبلغ ذلك أبي فبعث إليه بألف درهم وثيابٍ ودابّة بسَرْجها ولِجامها ، فرَدّه إليه وقال : أسلفتكُم إساءةً لا يجوز معها قَبولُ رِفْدكم[1] . فكتب إليه أبي : أمّا الإساءة فمغفورةٌ ، وأمّا المَعذرة فمَشكورة ، والحسَناتُ يُذهبن السيّئات ، وما يأسُو جِراحَك مثلُ يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددتَه عليّ وأضعفتُه ، فإن تلافيتَ ما فَرَط منك أَثبنا وشكَرنا ، وإن لم تفعل احتملنا وصَبَرْنا . فقبِل ما بعث به ، وكتب إليه : كلامُك واللهِ أحسَنُ من شعري ، وقد أسلفتَني ما أَخجلني ، وحَمَّلتَني ما أثقلني ، وسيأتيك ثَنائي . ثم غدا إليه بقصيدة أوّلها :

ضَلالٌ لها ماذا أرادت إلى الصّدّ

وقال فيه بعد ذلك :

برقٌ أضاء العقيقَ من ضَرَمِهْ

وقال فيه أيضاً :

دانٍ دعا داعي الصِّبا فأجابَهْ

قال ولم يزل أبي يَصلُه بعد ذلك ويتابع بِرّه لديه حتى افترقا .

● أخبرني جَحظة قال :

كان نسيمٌ غلامُ البحتريّ الذي يقول فيه :

دعا عَبْرتي تجري على الجَور والقَصْد   أظنُّ نسيماً قارف الهمَّ من بعدي
خلا ناظري من طَيفه بعد شَخصه   فيا عَجَبا للدّهر فَقْدٌ على فَقدِ

غلاماً رُوميّاً ليس بحسن الوجه ، وكان قد جعله باباً من أبواب الحِيل على

---

(١) الرفد : العطية .

الناس ، فكان يَبيعه ويتعمّد أن يُصيّره إلى مِلك بعض أهل المُروءات ومن ينفُق عنده الأدب ، فإذا حصَل في مِلكه شَبّب به ، وتشوّقه ، ومدح مَولاه ، حتى يَهبَه له . فلم يزل ذلك دأبَه حتى مات نسيم ، فكُفي الناسُ أمرَه .

● عليّ بن يحيى المنجّم قال :

اجتازت جاريةٌ بالمتوكّل معها كُوز ماء ، وهي أحسنُ من القمر ، فقال لها : ما اسمُك؟ قالت : بُرهان . قال : ولِمن هذا الماء؟ قالت : لِستّي قُبَيحة . قال : صُبيّه في حَلقي . فشربه عن آخره . ثم قال للبحتريّ : قُل في هذا شيئاً . فقال البحتريّ :

ما شَرْبةٌ من رَحيقٍ كأسُها ذَهَبٌ ... جاءت بها الحُورُ من جَنّات رِضْوانِ
يوماً بأطيبَ من ماءٍ بلا عَطَشٍ ... شربتُه عَبَثاً من كفّ بُرهانِ

وفاته

أخبرني عليّ بن سُليمان الأخفش قال : سألني القاسم بنُ عُبيدِالله عن خبر البحتريّ ، وقد كان أَسْكَت (١) ، ومات من تلك العلّة ، فأخبرتُه بوفاته ، وأنه مات في تِلك السَّكْتة ، فقال : ويحَه ، رُمي في أَحسَنه .

* * *

(١) أسكت : انقطع كلامه فلم ينطق .

١٤

بشّار بن بُرْد

[الأغاني الجزء ٣ ، ص ١٣٥ وما بعدها]

الشاعر

هو ــ فيما ذكره الحسن بن عليّ عن محمد بن القاسم بن مَهْرُويه عن غَيلان الشعوبيّ ــ بشّار بن بُرْد بن يَرجُوخ ... قال : وكان يَرجوخ من طُخارُسْتان[1] من سَبْي المهلّب بن أبي صُفرة . ويُكنى بشّار أبا مُعاذ ، ومحلُّه في الشعر وتَقدُّمه طبقات المُحْدَثين فيه بإجماع الرُّواة ، ورِياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يُغني عن وصفه وإطالةٍ بذِكر مَحلّه . وهو من مخضرمي شعراء الدولتين العبّاسية والأموية ، قد شُهر فيهما ومَدَح وهجا وأُخذ سَنيّ الجوائز مع الشعراء .

---

* ذكر أبو الفرج في خاتمة أخباره عن بشار في هذا الموضع أنه لم يذكر في هذه الترجمة أخبار بشار وعبدة وكذلك أخبار مهاجاته لحماد عجرد وأبي هاشم الباهلي لأنه أفردها في أبواب مستقلة ، ولم نجد ذكراً لأخباره مع عبدة في أي موضع من كتاب الأغاني أما أخباره مع حماد فقد ذكرها في ترجمة حماد .

(١) طخارستان : ضبطها ابن خلكان في ترجمته لبشار بضم الطاء وضم الراء ، وضبطها ياقوت في معجمه بفتح الطاء وكسر الراء ، وهي ولاية واسعة كبيرة من نواحي خراسان غربي نهر جيحون ومن أكبر مدنها طالقان .

عن خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه قال :

كان بشّار بن بُرد بن يَرجوخ وأبوه بُرْد من قِنّ[1] خِيرة القُشيرية امرأة المهلّب بن أبي صُفرة ، وكان مقيماً لها في ضَيعتها بالبصرة المعروفة «بخِيرَتان» مع عبيدٍ لها وإماء ، فوهبت بُرداً ـ بعد أن زَوّجتْه ـ لامرأة من بني عُقيل كانت مُتّصلةً بها ، فولدت له امرأته ، وهو في ملكها ، بشّاراً ، فأعتقتْه العُقَيليّة .

العَنَزيّ قال : حدّثني رجلٌ من ولد بشار يقال له حمدان كان قصّاراً بالبصرة قال : ولاؤنا لبني عُقيل . فقلت : لأيّهم ؟ فقال : لبني رَبيعة بن عُقيل .

بَدْر بن مُزاحم : أنّ بُرداً أبا بشّار كان طَيّاناً يضرِب اللَّبِنَ ، وأراني أبي بيتَين لنا فقال لي : لبِنُ هذين البيتين من ضَرب بُرد أبي بشّار .

أبو عبيدة :

لُقّب بشار بالمُرَعَّث لأنه كان في أُذنه وهو صغيرٌ رِعاثٌ . والرّعاث : القِرَطة ، واحدتُها رَعْثة وجمعها رِعاث ورَعَثات . ورعثات الديك : اللحم المتدلّي تحت حنكه ...

عن الأصمعيّ قال :

كان بشارٌ ضخماً ، عظيم الخَلق والوجه ، مجدوراً ، طويلاً ، جاحظَ المُقْلَتَين قد تَغشّاهما لحمٌ أحمرُ ، فكان أقبح الناس عمىً وأفظَعه منظراً ، وكان إذا أراد أن يُنشد صَفّق بيديه وتنحنح وبصَق عن يمينه وشِماله ، ثم يُنشد فيأتي بالعَجَب .

(١) القن : العبيد .

عمر بن شَبّة قال : كان الأصمعيّ يقول :

بشّارٌ خاتمة الشعراء ، واللهِ لولا أنّ أيامه تأخّرت لفضّلْته على كثير منهم .

عن أبي عبيدة قال :

قال بشّار : لي اثنا عشر ألفَ بيتٍ عَيْنٍ[1] . فقيل له : هذا ما لم يكن يَدّعيه أحدٌ قطّ سواك ! فقال : لي اثنتا عَشْرةَ ألفَ قصيدةٍ ، لَعَنها اللهُ ولعن قائلَها إن لم يكن في كلّ واحدة منها بَيتٌ عَيْنٌ .

وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين وقد ذكره : كان بشارٌ شاعراً خطيباً صاحبَ منثور ومُزْدَوج وسَجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المُفْتَنّين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه . قال الشعر في حياة جرير وتعرّضَ له ، وحُكي عنه أنه قال : هجوتُ جريراً فأعرض عنّي ولو هاجاني لكنت أشعرَ الناس .

نَجم بن النَطّاح قال :

عَهدي بالبصرة وليس فيها غزِلٌ ولا غزِلةٌ إلّا يروي من شعر بشّار ، ولا نائحةٌ ولا مُغنّية إلّا تتكسّب به ، ولا ذو شَرَف إلّا وهو يَهابه ويخاف مَعرّة لسانه .

عن الأصمعي قال :

وُلد بشّار أعمى فما نظر إلى الدنيا قطّ ، وكان يُشبّه الأشياء بعضَها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدِر البُصَراء أن يأْتُوا بمثله ؛ فقيل له يوماً وقد أَنشد قوله :

كأنّ مُثار النَقْع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوى كواكبُه

ما قال أحدٌ أحسنَ من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم ترَ الدُّنيا قطّ ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إنّ عدمَ النظر يُقوّي ذكاءَ القلب ويقطع عنه الشُّغل بما يُنظَر إليه من الأشياء فيتوفّز حِسُّه وتذكُو قَريحتُه . ثم أَنشدهم قولَه :

---

(١) العين من كل شيء : خياره .

عَميتُ جَنيناً والذكاءُ من العَمى   فجئتُ عجيبَ الظَّنِّ للعِلم مَوْئلا
وغاض ضِياءُ العَين للعلم رافداً   لقلبٍ إذا ما ضَيَّع الناسُ حَصّلا
وشعرٍ كَنَوْرِ الأرض لاءمتُ بينه   بقولٍ إذا ما أحزَنَ الشعرُ أَسهلا[1]

أحمد بن المبارك قال حدّثني أبي قال :

قلت لبشار : ليس لأحدٍ من شعراء العرب شعرٌ إلّا وقد قال فيه شيئاً استنكرتْه العربُ من ألفاظهم وشُكَّ فيه ، وإنّه ليس في شعرك ما يُشَكّ فيه . قال : ومن أين يأتيني الخطأ ! ولدت ها هنا ونشأت في حَجور ثمانين شيخاً من فُصَحاء بني عُقيل ما فيهم أحدٌ يعرف كلمةً من الخطأ ، وإن دخلتُ إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت[2] إلى أن أدركتُ ، فمن أين يأتيني الخطأ ؟

قال الأصمعي :

لَقي أبو عمرو بن العَلاء بعضَ الرُّواة فقال له : يا أبا عَمرو ، مَن أبدعُ الناس بيتاً ؟ قال : الذي يقول :

لم يَطُلْ ليلي ولكن لم أَنَمْ   ونفى عنّي الكَرَى طيفٌ أَلَمّْ
رَوِّحي عنّي قليلاً واعلَمي   أنّني يا عَبْدَ من لحمٍ ودَمْ

قال : فمن أمدحُ الناس ؟ قال : الذي يقول :

لَمستُ بكَفّي كفَّه أبتغي الغِنى   ولم أدرِ أنّ الجُودَ من كَفّه يُعْدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغِنى   أَفَدتُ وأعداني فأتلفتُ ما عندي

قال : فمَن أهجى الناس ؟ قال : الذي يقول :

رأيتُ السُّهَيْلَين استوى الجُودُ فيهما   على بُعد ذا من ذاك في حُكْم حاكمِ

---

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض .

(٢) أبديت : خرجت الى البادية .

سهيلُ بنُ عثمانٍ يجودُ بمالِـــــه كما جاد بالوَجْعا سُهيلُ بنُ سالم[1]

قال : وهذه الأبيات كلّها لبشّار .

قُـدامه بن نُوح قال :

كان بشّارٌ يحشوشعره إذا أَعْوَزَتْه القافيةُ والمعنى بالأشياء التي لا حقيقةَ لها . فمن ذلك أنه أَنشد يوماً شعراً له فقال فيه :

غَـنِّني للغَـريض يا بنَ قَـنـانِ

فقيل له : مَـن ابنُ قنانٍ هذا ؟ لسنا نعرفه من مُغَنّي البصرة ؟ قال : وما عليكم منه ؟ أَلَكُم قِبَلَه دَينٌ فتُطالبوه به ؟ أو ثأرٌ تريدون أن تُدركوه ، أو كَفَلتُ لكم به فإذا غاب طالبتموني بإحضاره ؟ قالوا : ليس بيننا وبينه شيءٌ من هذا ، وإنّما أردنا أن نَعرفَه . فقال : هو رجلٌ يُغنّي لي ولا يخرُج من بيتي . فقالوا له : إلى متى ؟ قال : مُذ يوم وُلد وإلى يوم يموت ...

قال أبو عبيدة :

قال بشّار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، ثم بلَغ الحُلُم وهو مَخْشِيٌّ مَعَرّةِ لسانه .

تحدّيه الشعراء والرُجّاز

محمد بن الحجّاج قال :

دخل بشار على عُقبةَ بن سَلْم[2] ، فأنشده بعض مدائحه فيه وعنده عُقْبة ابن رُؤبة يُنشده رجزاً يمدحه به ، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله إلى أن فَرَغ ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طِرازٌ لا تُحسِنه أنت يا أبا مُعاذ . فقال له بشارِ : ألي يُقال هذا ! أنا والله أَرْجَزُ منك ومن أبيك وجَدّك . فقال له

(١) الوجعاء : الدبر

(٢) عقبة بن سلم كان والياً على البصرة من قبل أبي جعفر المنصور، وكان كريماً ، ولبشار مدائح كثيرة فيه .

عقبةُ : أنا واللهِ وأبي فَتَحْنا للناس باب الغريب وباب الرَّجز ، وواللهِ إنّي لخَليقٌ أن أَسُدَّه عليهم . فقال بشار : ارحَمْهم رَحِمك الله . فقال عقبة : أتستخفّ بي يا أبا مُعاذ وأنا شاعرٌ ابن شاعر ابن شاعر ! فقال له بشار : فأنت إذاً من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطَهّرهم تطهيراً . ثم خرج من عنده عقبةُ مُغْضَباً .

فلمّا كان من غدٍ غدا على عُقْبة بن سلم وعنده عقبة بن رُؤبة فأنشده أُرجوزته التي مدحه فيها :

يا طَلَلَ الحيّ بذات الصَّمْدِ   بالله خَبِّرْ كيف كنتَ بعدي
أوحشتَ من دَعْدٍ وتِرْب دعدِ   سَقياً لأسماءَ ابنةِ الأَشَدِّ
قامت تراءى إذ رأتْني وَحْدي   كالشّمس تحتَ الزِّبْرِج المُنْقَدِّ
صَدَّتْ بخَدٍّ وجَلت عن خَدِّ   ثم انثنتْ كالنَّفَس المُرتَدِّ
عَهْدي بها سَقْياً له من عَهْدِ   تُخلِفُ وَعْداً وتَفي بوَعْدِ[1]

[الأبيات ...]

فطرب عُقبةُ بن سَلم وأجزل صِلته ، وقام عقبة بنُ رُؤبة فخرج عن المجلس بخِزْيٍ ، وهرب من تحت ليلته فلم يَعُدْ إليه .

محمد بن صالح بن الحّجاج قال :

قلت لبشّار : إنّي أنشدتُ فلاناً قولك :

إذا أنت لم تشرب مِراراً على القَذَى   ظَمِئتَ وأيُّ النّاس تَصفُو مَشاربُهْ

فقال لي : ما كنت أظنّه إلّا لرجلٍ كبير ! فقال لي بشار : وَيْلَك ! أفلا قلتَ له : هو والله لأكبر الجِنّ والإنس .

---

(١) الزبرج : السحاب . المنقدّ : المتقطع .

بَصَره بالشعرِ ونقده

عن الأصمعيّ قال :

كنت أَشهد خلَف بن أبي عَمرو بن العَلاء وخَلَفاً الأحمر يأتيان بشّاراً ويُسَلِّمان عليه بغاية التعظيم ثم يقولان : يا أبا مُعاذ ، ما أحدثتَ ؟ فيُخبرهما ويُنشِدُهما ويسألانه ويكتبان عنه مُتواضِعَين له حتى يأتيَ وقتُ الظُّهر ، ثم ينصرفان عنه . فأتياه يوماً فقالا له : ما هذه القصيدةَ التي أحدثَتها في سَلْم بن قُتَيبة ؟ قال : هي التي بَلَغَتْكما . قال : بَلَغنا أنك أكثرت فيها من الغريب . فقال : نعم ، بَلَغني أنّ سَلْماً يَتباصر بالغريب فأحببتُ أن أُوردَ عليه ما لا يعرِفه . قالا : فأَنشِدْناها . فأنشدهما :

بَكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهَجيرِ ... إنّ ذاك النَّجاحَ في التبكيرِ

حتى فَرَغ منها ، فقال له خَلَف : لو قلت يا أبا مُعاذ مكان « إنّ ذاك النجاح » :

بَكِّرا فالنّجاحُ في التَّبكْير

كان أحسنَ . فقال له بشار : بَنَيتُها أعرابيّةً وَحشيّةً فقلت : « إنّ ذاك النجاح » كما يقول الأعرابُ البدويون ، ولو قلتُ : « بكِّرا فالنجاح » كان هذا من من كلام المولّدين ولا يُشبه ذلك الكلام ولا يدخُل في معنى القصيدة . فقام خلفُ فقبَّل بين عَينيه ، وقال له خلفُ بن أبي عمرو يمازحه : لو كان عُلاثةُ وَلَدَك[1] يا أبا مُعاذ لفعلتُ كما فعل أخي ، ولكنّك مولىً . فمدّ بشارٌ يده فضرب بها فَخِذَ خلفٍ وقال :

ارفُقْ بعَمرٍو إذا حرّكْتَ نِسبتَه ... فإنّه عربيٌّ من قواريرِ[2]

فقال له : أفعلتَها يا أبا مُعاذِ ! قال : وكان عمرو يُغمز في نسبه .

---

(١) يريد : لو كنت عربياً لأن اسم « علاثة » من أسماء الأعراب .

(٢) يريد أنه مغموز في نسبه وليس عربياً صريح النسب .

أبو عبيدة قال : سمعت بشاراً يقول وقد أُنشد في شعر الأعشى :

وأنكرتْني ومـا كان الـذي نَـكِـرتْ — من الحوادث إلا الشَّيبَ والصَّلَعا

فأنكره وقال : هذا بيتٌ مصنوع ما يُشبه كلام الأعشى . فعجبتُ لذلك . فلمّا كان بعدَ هذا بعشر سنين كنت جالساً عند يونس فقال : حدّثني أبو عمرو بن العَلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت — من الحوادث إلا الشيب والصَّلعا

فجعلت حينئذٍ ازداد عجباً من فطنة بشار وصحّة قريحته وجَودة نقده للشعر .

الرّياشيّ قال : أُنشد بشّارٌ قول الشاعر :

وقد جعل الأعداء يَنتقِصوننـــا — وتَـطمعُ فينا أَلسُـنٌ وعيـونُ
ألا إنما ليـلى عصـــا خيزُرانةٍ — إذا غمزُوها بالأَكُـفِّ تَـلـينُ

فقال : والله لو زعم أنها عصا مُخٍّ أو عصا زُبْدٍ لقد كان جعلها جافيةً خشنة بعدَ أن جعلها عصاً ! ألا قال كما قلتُ :

ودَعْجاء المَحاجر من مَعـــــدٍّ — كأنّ حديثَها ثَمَرُ الجِنـــانِ
إذا قامتْ لِمشْيتها تَثَنّـــــتْ — كأنّ عظامَهـــا من خيزُرانِ

الموازنة بينه وبين مروان بن أبي حفصة

عن أبي حاتم قال :

قلت لأبي عبيدة : أمروانُ عندك أشعر أم بشّار ؟ فقال : حكَم بشّارٌ لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألفَ بيتٍ جيّد ، ولا يكون عدد الجيّد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العده ، وما أحسَبُهم برّزوا في مثلها ، ومَروانُ أَمدحُ للملوك .

الرِّياشيّ قال :

سُئل الأصمعيُّ عن بشّار ومروان أيُّهما أشعر ؟ فقال : بشّار . فسُئل عن السبب فقال : لأنّ مروانَ سلك طريقاً كثُر من يَسلُكُه فلم يَلحقْ مَن تَقدَّمه ، وشَرِكه فيه من كان في عصره ، وبشّار سلك طريقاً لم يُسلَكْ وأَحسن فيه وتفرّد به ، وهو أكثر تصرُّفاً وفنونَ شعرٍ وأَغزرُ وأوسعُ بديعاً ، ومروانُ لم يتجاوزْ مذاهب الأوائل .

عن أبي حاتم قال :

سمعت الأصمعيَّ وقد عاد إلى البصرة من بغداد فسأله رجلٌ عن مروانَ ابن أبي حَفْصة فقال : وجد أهل بغداد قد ختموا به الشعراء ، وبشارٌ احقُّ بأن يختِموهم به من مروان . فقيل له : ولمَ ؟ فقال : وكيف لا يكون كذلك وما كان مروانُ في حياة بشّار يقول شعراً حتى يُصلَحه له بشارٌ ويُقَوِّمَه ! وهذا سَلْمٌ الخاسرُ من طبقة مروان يُزاحمه بين أيدي الخلفاء بالشعر ويُساويه في الجوائز ، وسَلْمٌ معترفٌ بأنه تَبَعٌ لبَشّار .

عن أبي حاتم قال :

كان الأصمعيّ يُعجَبُ بشعر بشّار لكثرة فنونه وسَعَة تصرّفِه ويقول : كان مطبوعاً لا يُكلِّفُ طَبعهشيئاً متعذّراً لا كَمن يقول البيت ويُحكِّكه أياماً . وكان يشبّه بشّاراً بالأعشى والنابغة الذُّبيانيّ ، ويشبّه مَروان بزهير والحطيئة ، ويقول : هو مُتكلِّف .

قال أبو حاتم : وقلت لأبي زيد : أيُّما أشعرُ بشارٌ أم مروان؟ فقال : بشارٌ أشعر ، ومروانُ أكفر .

قال أبو حاتم : وسألت أبا زيد مرّةً أخرى عنهما فقال : مروانُ أجَدُّ وبشّار أهزلُ . فحدّثت الأصمعيَّ بذلك فقال : بشّار يصلُح للجِدّ والهزل ، ومروان لا يَصلحُ إلّا لأحدهما .

علي بن يحيى قال :

كان إسحاقُ الموصلّي لا يعتدّ ببشار ويقول : هو كثير التخليط في شعره ، وأشعارُه مختلفةٌ لا يُشبه بعضُها بعضاً ، أليس هو القائل :

إنّما عظمُ سُليمي حِبَّتي ... قصبُ السُكَّر لا عظمُ الجَمَلْ
وإذا أدنيتَ منها بصَلاً ... غَلَبَ المِسكُ على رِيح البَصَلْ

لو قال كلَّ شيءٍ جيّد ثم أضيف إلى هذا لَزيَّفه . قال : وكان يُقدِّم عليه مروانَ ويقول : هو أشدُّ استواءَ شعرٍ منه ، وكلامُه ومَذهبُه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يَعُدُّ أبا نُواسٍ البتّةَ ولا يرى فيه خيراً .

إغارة الشعراء على شعره

أحمد بن صالح ـ وكان أحدَ الأدباء ـ قال :

غضب بشّارٌ على سَلْم الخاسر ، وكان من تلامذته ورُواته ، فاستشفع عليه بجماعة من إخوانه ، فجاؤوه في أمره ، فقال لهم : كلُّ حاجةٍ لكم مَقضِيّةٌ إلّا سَلْماً . قالوا : ما جئناك إلّا في سَلم ولا بُدَّ من أن ترضى عنه لنا . فقال : أين هو الخبيثُ ؟ قالوا ها هوذا . فقام إليه سَلْمٌ فقبَّل رأسَه ومَثَل بين يديه وقال : يا أبا مُعاذٍ ، خِرِّيجُك وأَديبك . فقال : يا سلمُ ، من الذي يقول :

من راقب الناسَ لم يَظْفَر بحاجته ... وفاز بالطَيِّبات الفاتكُ اللَّهِجُ

قال : أنت يا أبا مُعاذ ، جعلني الله فداءَك . فقال : يا سَلم ، من الذي يقول :

من راقب الناس مات غَمّاً ... وفاز باللّذّة الجَسُورُ

قال : خِرِّيجُك يقول ذلكَ (يَعني نَفسه) . قال : أفتأخُذ معانيَّ التي قدعُنيتُ بها وتعبتُ في استنباطها فتكسُوها ألفاظاً أخفَّ من ألفاظي حتى يُروَى ما تقولُ ويذهبَ شعري ! لا أرضَى عنك أبداً . قال : فما زال يتضرّع إليه ويَشفَعُ له القومُ حتى رضيَ عنه ...

شعوبيته وتلوّنه في ولائه

يحيى بن الجَون العَبْديّ راوية بشار قال :

قال بشار : لمّا دخلت على المهديّ قال لي : فيمن تعتدّ يا بشّارُ؟ فقلت : أمّا اللسانُ والزِّيّ فعربيّان ، وأما الأصلُ فعجميّ ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

ونُبِّئتُ قوماً بهم جِنّةٌ يقولون : مَن ذا ، وكنتُ العَلَمْ
ألا أيّها السائلي جاهداً لِيعرفَني أنا أصلُ الكَرَمْ
نَمَت في الكرامِ بني عامرٍ فُروعي وأصلي قريشُ العَجَمْ
فإنّي لأُغني مَقامَ الفتى وأُصْبي الفتاةَ فما تعتصِمْ

قال : وكان أبو دلامةَ حاضراً فقال : كلّا ، لَوَجهُك أقبحُ من ذلك ، ووجهي مع وَجهك . فقلت : كلّا ، واللهِ ما رأيتُ رجلاً أصدقَ على نفسه وأكذبَ على جليسه منك ، واللهِ إنيّ لطويلُ القامة ، عظيم الهامة ، تامُّ الألواح[1] ، أسجح الخدَّين[2] ، ولَرُبَّ مُسترخي المِذْرَوَين[3] ، للعين فيه مَرادٌ[4] ، قد جلس من الفتاة حَجْرةً[5] وجلستُ منها حيث أُريد ، فأنت مثلي يا مَرْضَعانُ[6] قال : فسكتَ عنّي . ثم قال لي المهدي : فمن أيّ العجم أصلُك ؟ فقلت : من أكثرها في الفُرسان ، وأشدِّها على الأقران ، أهل طُخارستان . فقال بعضُ القوم : أولئك الصُّغْد . فقلت : لا ، الصُغدُ تجارٌ . فلم يَرْدُد ذلك المهديّ .

---

(١) الألواح ج لوح : العريض من العظام .
(٢) أسجح الخد : لين الخد .
(٣) المذروان : طرفا الألية ، ومن الرأس ناحيتاه .
(٤) الرود والارتياد : الذهاب والمجيء .
(٥) حجرة : ناحية .
(٦) المرضعان : اللئيم .

وكان بشّارٌ كثيرَ التلّون في ولائه ، شديدَ الشَّغْب والتعصُّب للعجم ، مرّةً يقول يفتخر بولائه في قيس :

أَمِنتُ مَضَرَّةَ الفُحَشـــاء إنّي ... أرى قيساً تَضُرُّ ولا تُضـــارُ
كأنّ الناس حين تغيبُ عنهم ... نباتُ الأرض أخطأه القِطـارُ
وقد كانت بتَدْمُرَ خيلُ قيسٍ ... فكان لِتَدْمُـرٍ فيها دَمـــارُ
بحيٍّ من بني عَيلانَ شُوسٍ ... يسير الموتُ حيث يُقــال ساروا
وما نلقاهــم إلا صَدَرْنـــا ... بِسرِيٍّ منهـمُ وهم حِرارُ(١)

ومرّةً يتبّرأ من ولاء العرب فيقول :

أصبحتُ مَولى ذي الجَلال وبعضُهم ... مولى العُرَيب فخُذْ بفَضْلك فافْخَرِ
مولاك أكرمُ من تميمٍ كُلّها ... أهلِ الفَعال ومن قُريشٍ المَشْعَرِ
فارجِعْ إلى مولاك غيرَ مدافَعٍ ... سُبحانَ مولاك الأجلِّ الأكبرِ(٢)

وقال يفتخر بولاء بني عُقيل :

إنّي من بني عُقَيل بن كعـبٍ ... مَوضعَ السيف من طُلَى الأعناقِ(٣)

أبو عبدالله المُقرئ الجَحْدريّ ... قال :

دخل أعرابيٌّ على مَجزأَةَ بن ثَور السَّدُوسيّ وبشّارٌ عنده وعليه بِزَّةُ الشعراء ، فقال الأعرابي : مَن الرجل ؟ فقالوا : رجلٌ شاعر . فقال : أَمَولىً هو أم عربيّ ؟ قالوا : بل مَولىً . فقال الأعرابي : وما للموالي وللشعر ! فغضب

(١) القطار ج قطر : المطر.
حرار ج حران : الشديد العطش .
(٢) المشعر الحرام : موضعه بالمزدلفة .
(٣) الطلى ج طلية وطلاة : أصل العنق .

بشّارٌ وسكت هُنَيهةً ، ثم قال : أتأذنُ لي يا أبا ثَور ؟ قال : قُل ما شئتَ يا أبا مُعاذ . فأنشأ بشّارٌ يقول :

خليلي لا أنامُ على اقتسار ولا آبى على مولىً وجارِ
سأُخبر فاخرَ الأعراب عنّي وعنه حين تأذن بالفَخار
أحين كُسِيتَ بعدَ العُري خَزّاً ونادمت الكِرام على العُقار
تُفاخر يا بنَ راعيةٍ وراعٍ بني الأحرار حَسبُك من خَسار
وكنت إذا ظَمِئتَ إلى قَراحٍ شركتَ الكلبَ في وَلَغ الإطار
تُريغ بخُطبةٍ كَسْرَ الموالي ويُنسيك المكارمَ صيدُ فار
وتَغدُو للقنافذِ تَدرّيها ولم تَعْقِلْ بدَرّاجِ الدّيار
وتّشح الشِّمالَ للابسيها وتَرعى الضَّأنَ بالبلد القِفار
مُقامُك بيننا دَنَسٌ علينا فليتك غائبٌ في حَرّ نار
وفَخْرُكَ بين خِنزيرٍ وكلبٍ على مثلي من الحَدَث الكُبارِ[1]

فقال مجزأة للأعرابي : قَبحك اللهُ ! فأنت كسَبت هذا الشرّ لنفسك ولأمثالك .

محمد بن عبد الرحمن التَيْميّ قال :

دخل بشّارٌ إلى إبراهيم بن عبدالله بن حَسَن ، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصور ويُشير عليه برأي يستعمله في أمره . فلمّا قُتل إبراهيم خاف بشارٌ ، فقلب الكُنيةَ ، وأظهر أنه كان قالها في أبي مُسلِم ، وحذف منها أبياتاً وأوّلها :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشٍ بدائمِ ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسالمِ

قلب هذا البيت فقال : « أبا مسلم » .

على الملك الجبّار يقتحم الردّى ويَصرعُه في المأزق المُتلاحم

---

(١) العقار : الخمرة . اطار البيت : مايطيف به كالمنطقة . تريغ : تريد وتطلب ، تدريها : تختلها لتصيدها . الدرّاج : القنفذ . الشمال ج شملة : الكساء يتّشح به .

كأنّك لم تسمعْ بقتل مُتوَّجٍ عظيم ولم تسمع بفَتك الأعاجم
تقسّم كِسرى رهطُه بسيوفهم وأمسى أبو العبّاس أحلامَ نائمِ

يعني الوليد بن يزيد

وقد كان لا يخشى انقلابَ مكيدةٍ عليه ولا جَرْيَ النُّحوس الأشائم
مُقيماً على اللّذات حتى بدتْ له وجوهُ المنايا حاسراتِ العمائم
وقد ترِد الأيّام غُرّاً وربّما وردنَ كُلوحاً باديات الشكائم
ومروانُ قد دارت على رأسه الرَّحى وكان لِما أجرمتَ نَزْرَ الجرائم
فأصبحت تجري سادراً في طريقهم ولا تتّقي أشباه تلك النقائم
تجرّدت للاسلام تعفُو سبيله وتُعري مَطاه للّيوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدينَ أهلُه عليك فعاذوا بالسّيوف الصوارمِ
فرُمْ وَزَراً يُنجيك يابنَ سَلامةٍ فلستَ بناجٍ من مَضيمٍ وضائم

جعل موضع « يابنَ سلامة » : « يابن وَشيكة » وهي أم أبي مسلم .

لحا الله قوماً رأّسُوك عليهم وما زلت مَرؤوساً خبيثَ المَطاعم
أقول لبسّامٍ عليه جَلالةٌ غدا أَرْيَحيّاً عاشقاً للمكارم
من الفاطميّين الدُّعاة إلى الهُدى جِهاراً ومَن يَهديك مثلُ ابنِ فاطم

هذا البيت حذفه بشارٌ من الأبيات .

سِراجٌ لِعينِ المُستضيء وتارةً يكون ظَلاماً للعَدُوّ المُزاحمِ
إذا بلغ الرأيُ المَشُورةَ فاستعِنْ برأي نَصيحٍ أو نَصيحةِ حازم
ولا تَجعلِ الشُورى عليكَ غَضاضةً فإنّ الخوافي قوّةٌ للقوادم
وما خيرُ كفٍّ أَمسك الغُلُّ أُختَها وما خيرُ سيفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائم
وخَلِّ الهُوَينَى للضعيف ولا تكُنْ نَؤوماً فإنّ الحزمَ ليس بنائم

وحاربْ إذا لم تُعْطَ إلّا ظُلامـةً   شَبا الحرب خيرٌ من قَبول المظالم[1]

قال الأصمعيّ : قلت لبشار : يا أبا مُعاذ ، إنّ الناس يعجبون من أبياتك في المشورة . فقال لي : يا أبا سعيد ، إنّ المُشاوِرَ بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشارِكُ في مكروهه . فقلت له : أنت والله في قولك هذا أَشْعَرُ منك في شعرك .

عقيدته

قال الجاحظ : وكان بشّارٌ يَدين بالرَّجعة[2] ، ويُكفّر جميع الأمّة ، ويُصوّب رأي إبليس في تقديم النار على الطّين ، وذكَر ذلك في شعره فقال :

الأرضُ مُظلِمـةٌ والنّـارُ مُشرِقـةٌ   والنّارُ معبودةٌ مُذ كانت النارُ

قال : وبلَغه عن أبي حُذيفة واصل بن عَطاء إنكارٌ لقوله وهَتْفٌ به فقال يهجوه :

ما لي أُشايعُ غَزّالاً له عُنُـقٌ   كنِقْنِقِ الدَّوِّ إن وَلّى وإن مَثَلا
عُنْقَ الزَّرافة ما بالي وبالكُـمُ   أتُكْفِرُون رجالاً كَفَّروا رَجُلا[3]

قال : فلمّا تتابع على واصل منه ما يَشْهَد على إلحاده خطَب به واصلٌ ـ وكان أَلثغَ على الراء فكان يَجْتَنِبها في كلامه ـ فقال : أما لهذا الأعمى المُلحِد ، أما لهذا المُشنَّفَ المَكْني بأبي مُعاذ من يقتُله ؟ أما والله لولا أنّ الغيلة[4] سَجيّةٌ من سجايا الغالية لدَسستُ إليه من يَبعجُ بطنه في جَوف منزله أو في حَفْله ، ثم كان لا يتولّى ذلك إلّا عُقَيليٌّ أو سَدُوسيّ !

---

(١) الشكائم ج شكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس ، وبادي الشكيمة كناية عن تكشيره وعبوسه . مروان : اراد به مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية تعفو : تمحو. المطا : الظهر. الغل : القيد. الشباج شباة : إبرة العقرب .

(٢) الرجعة : الاعتقاد بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت .

(٣) النقنق : الظليم وهو ذكر النعام . الدو : الفلاة .

(٤) الغيلة : الاغتيال .

فقـال : أبا مُعاذ ولم يقُل بشّـارا ، وقـال : المشنَّف ولم يقل المُرَعَّث ، وقال : من سجايا الغالية ولم يقل الرافضة ، وقال : في منزله ولم يقل في داره ، وقال : يبعج بطنه ولم يقل يبقُر ، للّثغة التي كانت به في الرّاء .

سعيد بن سَلّام قال :

كان بالبصرة ستةٌ من أصحاب الكلام : عَـمْرو بن عُبيد ، وواصل بن عَطاء ، وبشّار الأعمى ، وصالح بن عبد القُـدّوس ، وعبد الكريم بن أبي العَوجاء ، ورجلٌ مـن الأزد ـ قال أبو أحمد : يعني جرير بن حازم ـ فكانوا يجتمعون في منزل الأزديّ ويختصمون عنده . فأمّا عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأمّا عبد الكريم وصالح فصَحَّحا التوبة[١] ، وأمّا بشارٌ فبقي مُتحيّراً مُخَـلِّطاً ، وأمّا الأزديّ فمال إلى قول السُّمَنيّة[٢] ، وهو مذهب من مذاهب الهند ، وبقي ظاهره على ما كان عليه . قال : فكان عبد الكريم يُفسد الأحداث ، فقال له عمرو بن عبيد : قد بلغني أنّك تخلو بالحدَث من أحداثنا فتُفسده وتَسترلّـه وتُدخله في دينك ، فإن خرجت من مِصرنا وإلّا قمتُ فيك مَقاماً آتي فيه على نفسك . فلحِق بالكوفة ، فدُلّ عليه محمد بن سليمان فقتله وصَلَبه بها .

سليمان قال :

قال بعض أصحاب بشار : كـنّا نكون عنده فإذا حَضَرت الصلاةُ قُمنا إليها ونَجعل على ثيابه تُراباً حتى ننظرَ هل يقوم يُصلّي ، فنعود والتُـرابُ بحاله وما صَلّى .

---

(١) هذا القول يناقض ما جاء في تتمة الخبر من أن عبد الكريم كان يفسد الأحداث ويدخلهم في دينه ولهذا قتله محمد بن سليمان ، ولهذا أرجح ان لفظ التوبة محرف عن لفظ « الثنوية » وهو مذهب الزنادقة الذين أضمروا الولاء لعقيدة الفرس المجوسيّة .

(٢) السمنية : فرقة من الدهرية الذين يذهبون الى قدم الدهر ولا يؤمنون بالبعث والآخرة نسبة الى مدينة « سومنات » بالهند . وقيل إنهم فرقة تقول بالتناسخ وتنكر وقوع العلم بالأخبار .

عن الجاحظ قال :

كان بشار صديقاً لأبي حُذيفة واصلِ بن عطاء قبل أن يَدين بالرَّجعة ويُكفّر الأُمّة ، وكان قد مدح واصلاً وذكر خُطبته التي خطبها فنزع منها كلّها الراء وكانت على البديهة ، وهي أطولُ من خُطبتي خالد بن صَفوان وشبيب بن شَيبة ، فقال :

تكلَّفُوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلوا　　وحَبَّروا خُطباً ناهيكَ من خُطَبِ
فقام مرتجلاً تَغلي بداهتُـــــــه　　كمِرجل القَين لمّا حُفّ باللَّهَب
وجانبَ الرّاءَ لم يَشعُرْ به أحــدٌ　　قبل التصفُّح والإغراق في الطَّلب

قال : فلمّا دان بالرَّجعة زعم أنّ الناس كلّهم كفروا بعد رسول الله ﷺ ، فقيل له : وعليّ بن أبي طالب ؟ فقال :

وما شرُّ الثـلاثة أمَّ عمــــروٍ　　بصاحبك الذي لا تَصْبَحينا (١)

أحمد بن خلّاد قال : حدّثني أبي قال :

كنت أُكلّم بشاراً وأردّ عليه سُوءَ مذهبه بميله إلى الالحاد ، فكان يقول : لا أَعرفُ إلا ما عايَنْتُه أو عاينت مثلَه . وكان الكلام يطول بينَنا ، فقال لي : ما أظنّ الأمر يا أبا خالد إلّا كما تقول ، وأنّ الذي نحن فيه خِذلانٌ ، ولذلك أقول :

طُبعتُ على ما فيَّ غيرَ مُخيَّـــر　　هَواي ولو خُيّرتُ كنتُ المهذَّبا
أُريد فلا أُعطى وأُعطَى ولم أُردْ　　وقَصّر عِلمي أن أنالَ المُغيَّبا
فأُصرَفُ عن قصدي وعلمي مُقَصِّرٌ　　وأُمسي وما أُعقِبتُ إلّا التعجُّبا

---

(١) هذا البيتُ لعمرو بن كلثوم من معلقته .

عن حَمّاد عن أبيه قال :

كان بشار جالساً في دار المهديّ والناس ينتظرون الإذن ، فقال بعض موالي المهدي لِمن حَضر : ما عندكم في قول الله عزّ وجلّ : « وأَوحى ربُّك إلى النَّحلِ أن اتّخِذي من الجبال بُيوتاً ومن الشَّجَر » ؟ فقال له بشار : النَحل التي يعرفُها الناس . قال : هَيْهاتَ يا أبا مُعاذ ، النّحل : بنو هاشم ، وقوله : « يخرُج من بُطونها شَرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شِفاءٌ للناس » يعني العِلم . فقال له بشار : أراني الله طعامَك وشَرابكَ وشِفاءك فيما يخرُج من بطون بني هاشم ، فقد أوسعتَنا غَثاثةً . فغضب وشتم بشاراً . وبلغ المهديَّ الخبرُ فدعا بهما فسألهما عن القصّة ، فحدّثه بشارٌ بها ، فضحك حتى أمسك على بطنه ، ثم قال للرجل : أَجَلْ ! فجعل اللهُ طعامَك وشرابك ممّا يخرُج من بطون بني هاشم ، فإنك باردٌ غثّ .

عن حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

دخل يزيدُ بن منصور الحِمْيريّ على المهديّ وبشّارٌ بين يديه يُنشِده قصيدةً امتدحه بها . فلمّا فَرَغ منها أقبل عليه يزيدُ بن منصور الحِميريّ ـ وكانت فيه غَفْلةٌ ـ فقال له : يا شيخُ ، ما صِناعتك ؟ فقال : أثقُب اللؤلؤ . فضحك المهديّ ثم قال لبشار : اغرُب ويلكَ ، أتتنادرُ على خالي ! فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخاً أعمى يُنشد الخليفةَ شعراً ويسأله عن صناعته !

الفَضل بن سعيد قال : حدّثني أبي قال :

مرّ بشارٌ بقاصٍّ بالبصرة فسمعه يقول في قَصصه : مَن صام رجباً وشَعبان ورمضان بنى اللهُ له قصراً في الجنّة صَحنُه ألفُ فَرسخٍ في مثلها وعُلوُّه ألفُ فرسخٍ وكل باب من أبواب بُيوته ومقاصره عشرةُ فراسخَ في مِثلها . قال : فالتفت بشار إلى قائده فقال : بِئستْ واللهِ الدارُ هذه في كانون الثاني .

قال الفضلُ بن سعيد : وحدّثني رجلٌ من أهل البصرة ممّن كان يتزوّج بالنّهاريّات[1] قال : تزوّجت امرأةً منهنّ فاجتمعت معها في عُلْو بيت وبشارٌ تحتنا ، أو كنّا في أسفل البيت وبشّار في عُلْوه مع امرأةٍ ؛ فَنَهق حمارٌ في الطريق فأجابه حمارٌ في الجيران وحمارٌ في الدار ، فارتجّت الناحية بنَهِيقها ، وضرب الحمارُ الذي في الدار الأرضَ برِجْله وجعل يَدقُّها بها دقّاً شديداً ، فسمعتُ بشاراً يقول للمرأة : نُفِخ - يَعلم اللهُ - في الصُّور وقامت القيامةُ ، أما تَسمعين كيف يُدَق على أهل القبور حتى يخرجوا منها ! قال : ولم يلبث أن فزعتْ شاةٌ كانت في السطح فقطعتْ حبلَها وعَدَتْ فألقت طبقاً وغضارة[2] إلى الدار فانكسرا ، وتطاير حَمامٌ ودَجاجٌ كُنّ في الدار لصوت الغضارة ، وبكى صبيّ في الدار ، فقال بشار : صَحّ والله الخبرُ ونُشر أهلُ القبور من قبورهم ، أَزِفت - يشهد اللهُ - الآزفةُ وزُلزلت الأرضُ زلزالها . فعجبتُ من كلامه وغاظني ذلك ، فسألتُ من المتكلّم ؟ فقيل لي : بشارٌ ؛ فقلت : قد علمتُ أنه لا يتكلّم بمثل هذا غيرُ بشار .

قُدامة بن نُوح قال :

مرّ بشارٌ برجلٍ قد رمحتْه بغلةٌ وهو يقول : الحمدُ لله شكراً . فقال له بشار : استَزِدْه يَزِدْك . قال : ومرّ به قومٌ يحملون جنازةً وهم يسرعون المشيَ بها ، فقال : ما لهم مُسرعين ! أتُراهم سَرقوه فهم يخافون أن يُلحَقوا فيُؤْخَذَ منهم !

عن أبي عثمان اللَّيثيّ وعن أبي مُسلم قالا :

رفع غلامُ بشار إليه في حساب نَفقته جِلاءَ مِرآةٍ عشرةَ دراهمَ ، فصاح به بشار وقال : والله ما في الدنيا أعجبُ من جِلاء مرآةِ أعمى بعشرة دراهم ، والله لو

(١) استظهر محقق المخطوطة أنها نسبة الى بني النهارى وهي قبيلة من أشراف اليمن . والذي يرجحه السياق أنهن نساء من الأعاجم يتزوجن الرجال لفترة قصيرة .

(٢) الغضارة : القصعة الكبيرة .

صَدِئت عينُ الشمس حتى يبقى العالمُ في ظُلمةٍ ما بلغتْ أُجرةُ من يَجلوها عشرةَ دراهم .

محمد بن الحَجّاج قال :

جاءنا بشار يوماً فقلنا له : ما لَكَ مُغتمّاً ؟ فقال : مات حماري فرأيتُه في النوم فقلت له : لِمَ مُتَّ ؟ ألم أكن أُحسنُ إليك ! فقال :

سيِّدي خُذْ بي أَتانـــاً عنـد بـاب الأصبهـاني
تَيَّمَتْني بِبَنـــانٍ وبدَلٍّ قـد شجـاني
تَيَّمتـني يومَ رُحنـا بثناياهـا الحِســان
وبغُنْـــجٍ ودلالٍ سلَّ جسمـي وبَـراني
ولهـا خـدٌّ أَسِيـلٌ مثـلُ خـدّ الشَيْفَـران
فلذا مِتُّ ولـو عشـتُ إذاً طـال هـواني

فقلت له : ما الشيفران ؟ قال : ما يُدريني ؟ هذا من غريب الحمار فإذا لَقِيته فاسأَلْـه .

بشار وأبو الشمَقْمَق

رجلٌ من الأنصار قال :

جاء أبو الشَمَقْمَق إلى بشار يشكو إليه الضِيقة ويحلِف له أنه ما عنده شيء ، فقال له بشار : والله ما عندي شيءٌ يُغنيك ولكن قُم معي إلى عُقبةَ بن سَلْم . فقام معه فذكر له أبا الشَمقمق وقال : هو شاعرٌ وله شكرٌ وثناء . فأمر له بخمسمائة درهم ، فقال له بشار :

يا واحدَ العرب الـذي أمسى وليس له نظيرُ
لو كان مِثلَك آخَـرٌ ما كان في الدنيا فقيرُ

فأمر لبشار بألفي درهم ، فقال له أبو الشمقمق : نفعتَنا ونَفَعناك يا أبا مُعاذ . فجعل بشار يضحك .

الأصمعيّ قال :

أمر عُقبة بن سَلم الهُنائيّ لبشار بعشرة آلاف درهم ، فأُخبر أبو الشمقمق بذلك فوافى بشاراً فقال له : يا أبا معاذ ، إني مررت بصبيان فسمعْتُهم يُنشدون :

هَلِّلينَـــهْ هَلِّلينـــه طعنَ قِثّاةٍ لِتِينـــه

إنّ بشار بن بُـــردٍ تيسٌ اعمى في سفينه

فأخرج إليه بشار مائتي درهم فقال : خُذ هذه ولا تكن راويةً للصبيان يا أبا الشمقمق .

دعبل بن عليّ قال :

كان بشار يُعطي أبا الشمقمق في كلّ سنةٍ مائتي درهم . فأتاه أبو الشمقمق في بعض تلك السنين فقال له : هَلُمّ الجِزيةَ يا أبا معاذ . فقال : ويحَك ، أجِزيةٌ هي ! قال : هو ما تسمع . فقال له بشار يمازحه : أنت أفصح مني ؟ قال : لا . قال : فأعلمُ مني بمثالب الناس ؟ قال : لا . قال فأشعرُ مني ؟ قال : لا . قال : فلمَ أُعطيك ؟ قال : لئلّا أهجُوَك . فقال له : إن هجوتَني هجوتُك . فقال له أبو الشمقمق : هكذا هو ؟ قال : نعم ، فقل ما بدا لك . فقال أبو الشمقمق :

إنّي إذا ما شاعرٌ هجانِيَـــهْ ولجّ في القـول له لســانيه

أدخلته . . . . . علانيـــهْ بشار يا بشـــار . . . . .

وأراد أن يقول : « يابن الزانية » ، فوثب بشّار فأمسك فاه وقال : أراد والله أن يشتُمَني . ثم دفع إليه مائتي درهم ثم قال له : لا يسمعنّ هذا منك الصِبيان يا أبا الشمقمق .

هجاؤه وتخوّف الناس أذاة لسانه

محمد بن عثمان البصريّ قال :

استمنح بشارُ بن بردِ العبّاس بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس فلم يَمْنَحْه ، فقال يهجوه :

ظلَّ اليَسار على العباس مَمدودُ وقلبُه أبداً بالبُخل مَعقودُ
إنّ الكريمَ لَيُخفي عنك عُسْرتَه حتى تراه غَنيّاً وهو مجهودُ
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ زرقُ العيون عليها أَوْجُهٌ سُودُ
إذا تكرَّهتَ أن تُعطي القليلَ ولم تقدِرْ على سَعةٍ لم يَظهر الجودُ
أَورقْ بخيرٍ تُرجّى للنَّوال فما تُرجى الثمارُ إذا لم يُورقِ العُودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تَمنعْك قِلَّتُه فكلٌّ ما سَدَّ فقراً فهو محمود

عن سليمان بن سليمان العَلَويّ قال :

قيل لبشار : إنك لكثير الهجاء ! فقال : إنّي وجدتُ الهجاء المُؤلم آخذَ بضَبْعِ[1] الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يُكرَم في دهر اللئام على المديح فَلْيَستعدّ للفقر وإلّا فَلْيُبالغْ في الهجاء ليُخافَ فيُعْطَى .

عن أبي حاتم قال :

كان الأخفش طَعن على بشار في قوله :

فالآن أقصرَ عن سُمَيّةَ باطلي وأشار بالوَجَلَى عليَّ مُشِيرُ

وفي قوله :

على الغزَلَى منّي السَّلامُ فربّما لَهوتُ بها في ظِلّ مَرْؤُومةٍ زُهْرِ[2]

---

(١) الضبع : العضد ، واخذ بضبعه : أيّده ورفع من شأنه .

(٢) المرؤومة : المحبوبة الأثيرة .

وفي قوله في صفة سفينة :

تُلاعب نِينانَ البحـــور وربّما رأيتَ نُفوس القوم من جَريها تجري[1]

وقال : لم يُسمَعْ من الوجل والغزل فَعَلَى ، ولم أَسمع بِنُونٍ ونينانٍ . فبلغ ذلك بشاراً فقال : وَيلي على القصّارين[2] ! متى كانت الفصاحةُ في بيوت القَصَّارين ! دعُوني وإيّاه . فبلغ ذلكَ الأخفشَ فبكى وجَزِع ، فقيل له : ما يُبكيك ؟ فقال : ومالي لا أبكي وقد وقعت في لسان بشار الأعمى ! فذهب أصحابه إلى بشار فكذّبوا عنه واستوهبوا منه عِرضه وسألوه ألا يهجوَه . فقال ، قد وهبتُه لِلؤم عِرضه . فكان الأخفشَ بعد ذلك يحتجّ بشعره في كُتبه لِيبلُغَه ، فكفّ عن ذِكره بعد هذا .

قال : وقال غير أبي حاتم : إنّما بَلَغه أنّ سِيبويـهِ عاب هذه الأحرف عليه لا الأخفش ، فقال يهجوه :

أَسِبْويـهِ يابنَ الفارسيّة ما الـذي تحدّثتَ عن شتمي وما كنتَ تَنْبذُ

أَظَلْتَ تُغَنّي سادراً في مَساءتي وأُمُّك بالمِصْرَين تُعطي وتأخُذُ

قال : فتوقّاه سيبويه بعد ذلك ، وكان إذا سُئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له شاهداً من شعر بشار احتجّ به استكفافاً لِشرّه .

غزله ومجونه

عن محمود بن الحجّاج قال :

كان بشارٌ يهوى امرأةً من أهل البصرة ، فراسلَها يسألُها زيارتَها ، فوعدتْه بذلك ثم أَخْلَفَتْه ، وجعل ينتظرها ليلتَه حتى أصبح ، فلمّا لم تأته أرسل إليها يُعاتبها ، فاعتذرت بمرضٍ أصابها ، فكتب إليها بهذه الأبيات :

---

(١) النون : الحوت والجمع أنوان ونينان .

(٢) القصار : من يحوّر الثياب ويدقها .

يا لَيْلَتي تزدادُ نُكــرا ... مِن حُبّ من أحببتُ بِكرا
حــوراءُ إن نظــرتْ إليــك سقتْك بالعينين خمرا
وكأنّ رَجْعَ حديثهــا ... قِطعُ الرياض كُسِين زَهْرا
وكأنّ تحــت لسانهــا ... هاروتَ ينفُــث فيه سِحرا
وتخال ما جمعــتْ عليــه ثِيابَها ذهَباً وعِطْرا
وكأنّهــا بَرْدُ الشَــرا ... ب صفا ووافق منكَ فِطْرا
جِنّيّــةٌ إنسيّــةٌ ... أو بين ذاك أجلُّ أمرا
وكفـاك أنّي لم أُحِــطْ ... بشَكاةِ من أحببتُ خُبْرا
إلّا مقالــةَ زائــرٍ ... نثرتْ لي الأحزانَ نَثْرا
متخشّعاً تحت الهــوى ... عشراً وتحت الموت عَشرا

خالد بن يزيد بن وَهب بن جَرير عن أبيه قال :

كان لبشار في داره مجلسان : مجلسٌ يجلس فيه بالغَداة يُسمّيه « البَرْدانَ » ومجلسٌ يجلس فيه بالعَشيّ اسمه « الرَّقيق » . فأصبح ذاتَ يومٍ فاحتجم وقال لغُلامه : أَمْسِك عليَّ بابي واطبُخْ لي من طَيِّب طعامي وصَفِّ نَبيذي . قال : فإنه لكذلك إذ قُرِع البابُ قَرعاً عنيفاً ، فقال : ويحَك يا غُلام ! انظُرْ من يدقُّ البابَ دَقَّ الشُّرَط . قال : فنظر الغلام ، فقال له : نِسوةٌ خمسٌ بالباب يَسألنَ أن تقول لهنّ شعراً يَنُحْنَ به . فقال : أَدخِلْهُنّ . فلمّا دخلنَ نَظرن إلى النَّبيذ مُصفًّى في قَنانيِّه في جانب بيته قال : فقالت واحدةٌ منهنّ : هو خمرٌ . وقالت الأخرى : هو زَبيبٌ وعسَلٌ . وقالت الثالثةُ : نَقيعُ زَبيب . فقال : لستُ بقائلٍ لكُنّ حَرْفاً أو تَطْعَمن من طعامي وتشرَبْنَ من شرابي . قال : فتماسَكْن ساعةً ، ثم قالت واحدةٌ منهنّ : ما عليكُنّ ! هو أعمى ، فكُلْنَ من طعامه واشْرَبْن من شرابه وخُذْنَ شِعرَه . فبلغ ذلك الحسنَ البصريّ فعابه وهتف ببشار ، فبلغه ذلك ــ وكان بشارٌ يسمّي الحسنَ البصريّ القَسَّ ــ فقال :

لمّا طَلَعْنَ من الرَّقيـق عليّ بالبَردان خَمْسا
وكأنهنّ أهِلّة تحت الثياب زَفَفْنَ شمسا
باكرنَ عِطْرَ لَطيمة وغُمِسْن في الجاديّ غَمْسا
لمّا طَلَعْنَ حَفَفْنَها وأَصَخْن ما يَهْمِسْنَ هَمْسا
فسألنَني مَن في البيو ت فقلتُ ما يُؤْوِين إنسا
ليت العيونَ الطارفا ت طُمِسْن عنّا اليومَ طَمْسا
فأَصَبْن من طُرف الحديـث لَذاذةً وخرجْن مُلْسا
لولا تَعَرُّضُهنّ لي يا قَسُّ كنتُ كأنت قَسّا[1]

عن الأصمعي قال :

كان لبشارٍ مجلس يجلس فيه يقال له « البَردان » ، وكان النساءُ يحضُرنه فيه . فبينما هو ذاتَ يوم في مجلسه إذ سمع كلامَ امرأة في المجلس فعَشِقها ، فدعا غلامَه فقال : إذا تكلّمت المرأةُ عَرَّفْتُك فاعرِفْها ، فإذا انصرفتْ من المجلس فاتْبَعْها وكَلّمها وأَعْلِمْها أنّي لها مُحبّ . وقال فيها :

يا قومُ أُذني لبعض الحيّ عاشقةٌ والأذنُ تعشقُ قبلَ العين أحيانا
قالوا : بمَن لا ترى تَهذي فقلت لهم الأُذنُ كالعين تُوفي القلبَ ما كانا
هل من دواءٍ لِمشغوفٍ بجاريةٍ يَلقى بلُقيانها رَوْحاً ورَيحانا

قال يحيى بن عليّ وأنشدني أصحاب أحمد بن إبراهيم عنه لبشار في هذا المعنى ، وكان يستحسنه :

يُزهّدُني في حُبّ عَبْدَةَ مَعشرٌ قلوبُهمُ فيها مخالفةٌ قلبي
فقلتُ : دَعُوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلبِ لا بالعين يُبصرُ ذو الحُبّ
فما تُبصرُ العَينان في مَوضع الهوى ولا تسمعُ الأُذنان إلّا من القلب

(١) زف العروس الى زوجها : هداها . اللطيمة : نافجة المسك . الجادي : الزعفران . ملس : أراد بريئات من العيوب .

وما الحُسْنُ إلّا كلُّ حُسْنٍ دعا الصِّبا   وألَّف بين العِشق والعاشق الصَّبِّ

مراثيه

عن عافية بن شَبيب وعن الحسن بن جُمهور قالا :

تُوفّي ابنٌ لبشار فجزع عليه ، فقيل له : أَجرٌ قَدّمتَه ، وفَرَطٌ افترَطْتَه[1] ، وذُخرٌ أحرزتَه . فقال : ولَدٌ دَفنتُه ، وثُكْلٌ تَعَجَّلْتُه ، وغيبٌ وُعِدتُه فانتظرتُه ، والله لئن لم أجزَعْ للنَّقص لا أفرح للزِّيادة . وقال يرثيه :

أجارتَنا لا تَجزعي وأَنيبي   أتاني من الموت المُطِلِّ نَصيبي
بُنَيّي على رَغمي وسُخطي رُزِئتُه   وبُدّل أحجاراً وجالَ قَليبِ
وكان كرَيحان الغُصون تخالُه   ذَوى بعد إشراقٍ يَسُرُّ وطِيبِ
أُصِيب بُنَيّي حين أورق غُصنُه   وأَلقى عليّ الهَمَّ كلُّ قريب
عجبتُ لإسراع المنيّةِ نحوَه   وما كان لو مُلِّيتُه بعجيبِ[2]

أبو عمرو بن العَلاء قال :

رأيتُ بشاراً المُرَعَّث يرثي بُنَيَّةً له وهو يقول :

يا بنتَ من لم يكُ يهوى بِنتا   ما كنتِ إلاّ خمسةً أو سِتّا
حتى حَلَلتِ في الحشى وحتى   فَتَّتِّ قلبي من جَوىً فانفَتّا
لَأَنتِ خيرٌ من غُلامٍ بَتّا   يُصبح سكرانَ ويُمسي بَهْتا[3]

---

(١) الفرط : ما لم يدرك من الولد وما تقدّمك من أجرٍ وعمل . وافترط ولداً : مات ولده قبل الحُلم .

(٢) الجال : الجانب . القليب : البئر والمراد به هنا القبر . مليته : مُتعت به .

(٣) بت : انقطع عن العمل . البهت : الانقطاع والحيرة وقد استعمل المصدر هنا مكان الصفة .

أبو نواس قال :

كان لبشار خمسةُ نُدَماء فمات منهم أربعةٌ وبقي واحدٌ يقال له البَراء ، فركب في زورق يريد عُبور دِجلة العَوراء[1] ، فغرق . وكان المهديّ قد نَهى بشاراً عن ذكر النساء والعِشق ، فكان بشار يقول : ما خيرٌ في الدنيا بعد الأصدقاء! ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بنَ مُوسى ماذا يقول الإمامُ　　في فتاةٍ بالقلب منهـا أُوامُ
بتُّ من حُبِّهـا أُوَقَّـرَ بالكـأسِ ويَهفو على فؤادي الهُيـامُ

* * *

لم يكـن بينهـا وبيـني إلّا　　كُتبُ العاشقين والأحـلامُ
يابنَ موسى اسقِني ودَعْ عنك سَلمى　　إنّ سَلْمى حمىً وفيٌّ احتشامُ
رُبَّ كأسٍ كالسَّلْسبيلِ تَعَلّلـتُ بها والعيونُ عنّي نيـامُ
حُبست للشُّراة في بيت رأسٍ　　عُتِّقتْ عانِساً عليها الخِتـامُ
نفحتْ نَفحةً فهزّتْ نديمي　　بنسيمٍ وانشقّ عنهـا الزُّكام
وكأنّ المعلولَ منهـا إذا را　　ح شجٍ في لسانِه بِرسـامُ
صدمتْه الشَّمُولُ حتى بعينَيـه انكسارٌ وفي المفاصل خامُ
وهو باقي الأطراف حَيَّتْ به الكأسُ وماتت أوصالُـه والكـلامُ
وفتىً يشربُ المُدامـة بالمـا　　ل ويمشي يَروم ما لا يُـرامُ
أَنْفَدَتْ كأسُه الدنانيرَ حتّى　　ذهب العَينُ واستمرَّ السَّـوامُ
تركته الصهباءُ يرنُـو بعيـنٍ　　نام إنسانُها وليست تنـامُ
جُنّ من شَربةٍ تُعلّ بأخرى　　وبكى حين سار فيه المُدامُ
كان لي صاحباًفأودى بـه الدَّهـرُ وفارقتُـه عليه السَّـلام
بقي الناسُ بعد هُلْك نداما　　ي وُقوعاً لم يشعرو ما الكـلامُ

(١) دجلة العوراء : دجلة البصرة .

كجُزُور الأَيْسار لا كَبِدٌ فيهـــــا لِباغٍ ولا عليهـا سَـــنامُ
يا بنَ موسى فَقْدُ الحبيب على العَين قَـذاةٌ وفي الفـؤاد سَقـامُ
كيف يصفُو لي النعيمُ وحيداً والأَخلّاء في المقابر هـــامُ
نَفِسَتْهم عليّ أمُّ المنايـــا فأنامتهمُ بعُنـفٍ فنامـــوا
لا يَغيضُ انسجامُ عيني عليهـم إنّما غايــةُ الحزين السُّجام(١)

مدائحه

عن الأصمعيّ :

أنّ بشاراً وفد إلى عمر بن هبيرة وقد مَدحه بقوله :

يخاف المنايا إن ترحّلتُ صاحبي كأنّ المنايا في المُقام تناسبُـــهْ
فقلت له إن العــراق مُقــامه وخَيمٌ إذا هبّتْ عليك جنائبـه
لِألقى بني عيــلانَ إنّ فَعالَهـم تزيد على كلِّ الفَعــال مراتبُـه
أولاك الأُلى شقُّوا العَمى بسيوفهم عن العين حتى أبصر الحقَّ طالبُهْ
وجيشٍ كجُنح الليل يزحَفُ بالحَصَا وبالشَوكِ والخَطّيّ حُمراً ثعالبُه
غَدَونا له والشمسُ في خِدر أُمِّها تُطالعُنا والطـلُّ لم يجرِ ذائبُـهْ
بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طَعمَه وتُـدرك من نَجّى الفرارُ مَثالبُه
كأنّ مُثار النَقْع فوقَ رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوى كواكبُــه
بَعَثْنا لهم موتَ الفُجاءة إنّنـــا بنو الموتِ خفّاقٌ علينا سبائبُهْ

---

(١) الأوام : حرّ الظمأ ، واراد به وقد الحب . الهيام : ذهاب العقل من العشق . بيت رأس : قرية بالأردن مشهورة بخمورها . البرسام : حمى تسبب الهذيان . الخام :الاسترخاء حيّت : عاشت . العين : الدينار والذهب . استمر : ذهب . السوام : الإبل الراعية . جزور الأيسار : الناقة التي تذبح ويقامر عليها . هام ج هامة : جثمان الميت . السجام : سيلان الدمع .

فراحُوا فريقٌ في الإسار ومثلُه قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُـه
إذا الملكُ الجبّار صَعَّر خـدَّه مَشينا إليـه بالسُّيوف نُعاتبـه [1]

فوصله بعشرة آلاف درهم ، فكانت أول عطيّة سنيّـة أُعطيها بشار ورفعتْ من ذكره . وهذه القصيدة هي التي يقول فيها :

إذا كنتَ في كلّ الأمـور معاتبـاً صديقَك لم تلقَ الذي لا تُعاتبُـهْ
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فإنه مُقارف ذنبٍ مرّةً ومُجانِبُـهْ
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القَـذى ظَمِئتَ وأيُّ الناس تَصفُو مَشاربُه [2]

أبو الشِّبل البُرجُميُّ قال :

قال رجلٌ لبشار : إنّ مدائحك عُقبةَ بن سَلْم فوقَ مدائحك كلَّ أحدٍ ! فقال بشار : إنّ عطاياه إيّاي كانت فوق عَطاء كلّ أحدٍ .دخلت إليه يوماً فأنشدتُه :

حَرّم اللهُ أن تَرى كابنِ سَلْـمٍ عُقبـةِ الخير مُطعِمِ الفقـراء
ليس يُعطيك للرَّجاء ولا الخـو ف ولكن يَلَـذُّ طعـمَ العَطاء
يسقُط الطيرُ حيث يَنتثِرُ الحَـبُّ وتُغْشَى منازل الكُرماء

فأمر لي بثلاثة آلاف دينارٍ ، وهأنا قد مدحتُ المهديّ وأبا عُبيدِالله وزيرَه ـ أو قال يعقوب بن داود ـ وأقمت بأبوابهما حَولاً فلم يُعطياني شيئاً ، أفأُلامُ على مدحي هذا !

نسخت من كتاب هارون بن عليّ بن يحيى : حدّثني بعضُ أصحابنا قال :

وَفَد بشار إلى خالد بن بَرْمَك وهو على فارس فأنشده :

أخالـدُ لم أَخبِـطْ إليك بذِمَّـةٍ سوى أنّني عـافٍ وأنت جَوادُ

(١) جنائبه : ج جنوب . الخطيّ : الرمح المنسوب الى بلدة الخط . ثعالبه ج ثعلب : طرف الرمح الداخل في السنان . السبائب ج سبيبة : شقة رقيقة من الكتان وأراد بها هنا الرايات . صعّر خده : أماله كبراً وتيهاً .

(٢) مقارف : مرتكب .

أخالدُ بين الأجر والحَمد حاجتي ... فأيَّهما تأتي فأنتَ عِمادُ
فإن تُعطِني أُفرِغْ عليك مدائحي ... وإن تَأْبَ لم يُضرَبْ عليَّ سِدادُ
رِكابي على حَرْفٍ وقلبي مُشَيَّعٌ ... ومالي بأرض الباخِلين بلادُ
إذا انكرتْني بلدةٌ أو نَكِرتُها ... خرجتُ مع البازي عليَّ سَوادُ[١]

قال : فدعا خالدٌ بأربعةِ آلاف دينار في أربعة أكياس فوضع واحداً عن يمينه وواحداً عن شِماله وآخرَ بين يديه وآخرَ خلفَه وقال : يا أبا مُعاذ ، هل استقلّ العِمادُ ؟ فلمس الأكياسَ ثم قال : استقلّ والله أيها الأمير .

أخباره مع المهديّ

عن نصر بن عبد الرحمن العِجليّ قال :

هجا بشارُ رَوح بن حاتم ، فبلغه ذلك فقذَفه وتهدَّده . فلمّا بلغ ذلك بشاراً قال فيه :

تَهدّدني أبو خَلَفٍ ... وعن أوتاره ناما
بسيفٍ لأبي صُفْرَ ... ةَ لا يقطعُ إبهاما
كأنّ الوَرْسَ يعلُوه ... إذا ما صدرُه قاما[٢]

قال : فبلغ ذلك رَوحاً فقال : كلُّ مالي صَدقةٌ إن وقعتْ عيني عليه لأضربنَّه ضربةً بالسيف ولو أنه بين يدي الخليفة . فبلغ ذلك بشاراً فقام من فَوره حتى دخل على المهديّ ، فقال له : ما جاء بك في هذا الوقت ؟ فأخبره بقصة روح وعاذ به منه ، فقال : يا نُصيرُ ، وَجِّهْ إلى روحٍ من يُحضرُه الساعةَ . فأرسل إليه في الهاجرة ـ وكان ينزل المُخَرَّم[٣] ـ فظنّ هو وأهلُه أنه دُعي لولاية . قال :

(١) لم أخبط اليك بذمة : لم أسر اليك متوسلاً بعهد . السداد : ما تُسد به الثلمة . الحرف : الناقة القوية . المشيع : الشجاع . استقل : نهض بحمله ورفعه .

(٢) الورس . الزعفران .

(٣) المخرم : محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلّى .

يا روحُ ، إنّي بعثت إليك في حاجة . فقال له : أنا عبدُكِ يا أمير المؤمنين فقُل ما شئتَ سوى بشار فإني حلفتُ في أمره بيَمين غَمُوسٍ[1] . قال : قد علمتُ ، وإيّاه أردتُ . قال له : فاحتَلْ ليميني يا أمير المؤمنين . فأُحضر القُضاة والفُقهاء ، فاتّفقوا على أن يضرِبه ضربةً على جسمه بعُرض السيف[2] . وكان بشار وراء الخيش[3] ، فأُخرج وأُقعد ؛ واستَلّ روحٌ سيفه فضربه ضربةً بعُرضه ، فقال : أوَّه باسم الله . فضحك المهديّ وقال له : ويلَك ! هذا وإنما ضربك بعُرْضه وكيف لو ضربك بحَدّه !

محمد بن الحجّاج قال :

قدِم بشار الأعمى على المهديّ بالرُّصافة فدخل عليه في البستان فأنشده مديحاً فيه تشبيبٌ حسن ، فنهاه عن التشبيب لِغَيرةٍ شديدة كانت فيه ، فأنشده مديحاً فيه يقول فيه :

كأنمــا جئتُــه أُبَشِّرُه ولم أَجِيء راغباً ومُحتَلِبا
يُزيّنُ المِنبَـر الأشـمَّ بعِطْفَيْـه وأقواله إذا خطَبـا
تُشَمّ نَعلاه في النَّديِّ كمـا يُشَمُّ مـاءُ الرَّيحان مُنْتَهَبا

فأعطاه خمسةَ آلاف درهم وكساه وحَمَلهعلى بغل وجعل له وِفادةً في كل سنةٍ ونهاه عن التشبيب البتّـةَ . فقدِم عليه في السنة الثالثة فدخل عليه فأنشده :

تجالَلتُ عن فِهْرٍ وعن جارتَيْ فِهرِ وودَّعتُ نُعْمَى بالسَّلام وبالبِشْرِ
وقالت سُليمى فيك عنّا جَـلادةٌ مَحلّكُ دانٍ والزِّيارةُ عن عُفْرِ
أخي في الهوى مالي أراكَ جفوتَنا وقد كنت تقفُونا على العُسْرِ واليُسْرِ
تثاقلتُ إلّا عن يدٍ أَستفيدُهـا وزَوْرةِ أمـلاك أشدُّ بها أَزْري

---

(١) يمين غموس : لا استثناء فيها .

(٢) عرض السيف ، بضم أوله : صفحه .

(٣) الخيش : نسيج خشن والمراد هنا : الستر.

وأخرجني من وِزْر خمسين حِجّــةً فتىً هاشمي يَقشَعِرُّ مــن الـــوِزْر
دفنتُ الهوى حَيّاً فلستُ بزائـــرٍ سُليمى ولا صفــراءَ ما قَرقر القُمْري
ومُصفَرّةً بالزَّعْفران جلـــودُها إذا اجتُليت مثلَ المُفَرطحةِ الصُّفرِ
فرُبَّ ثَقال الرِّدف هبَّتْ تلومُــني ولو شهدتْ قبري لصَلّت على قبري
تركت لمَهديِّ الأنامِ وصالَهـــــا وراعيتُ عهداً بيننا ليس بالخَتْرِ
ولولا أمـــيرُ المؤمنـــين محمدٌ لقَبّلتُ فاها أو لكان بها فِطْري
لعَمري لقد أوقرتُ نفسي خَطيئةً فما أنا بالمُزدادِ وَقْراً على وَقْر [1]

في قصيدة طويلة امتدحه بها ، فأعطاه ما كان يُعطيه قبل ذلك ولم يَزده شيئاً .

خَلّادٌ الأرقط قال :

لمّا أُنشد المهديّ قولَ بشار :

لا يُؤْيِسَنَّك مــن مُخَــدَّرة قولٌ تُغَلِّظُــه وإن جَرَحـــا
عُسرُ النســاء إلى مُياســـرةٍ والصَعبُ يُمكِنُ بعدما جَمَحا

نهاه المهديّ عن قوله مثلَ هذا . ثم حضر مجلساً لصديقٍ له يُقال له عمرو بن سَمّان فقال له : أنشِدنا يا أبا مُعاذٍ شيئاً من غَزَلك ، فأنشأ يقول :

وقائلٍ هاتِ شَوِّقْنا فقُلت لـــــه : أنائــمٌ أنت يا عَمرو بنَ سَمّانِ
أما سمعتَ بما قد شاع في مُضَـــرٍ وفي الحَليفَين من بكــرٍ وقحطان
قال الخليفةُ : لا تنسُبْ بجاريـــةٍ إيّاك إيّاكَ أن تَشقَى بعِصيـــانِ

زعم أبو العالية أنّ بشاراً قدِم على المهديّ ، فلمّا استأذن عليه قال له الرَّبيع : قد أذِن لك وأمرك ألّا تُنشد شيئاً من الغزل والتشبيب فادخُلْ على ذلك . فأنشَده قولَه :

---

(١) تجاللت : ترفعت . العفر : قلة الزيارة والبعد . قرقر : صوّت وردّد صوته . المفرطحة الصفر : الدنانير . ثقال : ثقيلة . الختر : الغدر والخديعة .

يا منظراً حَسناً رأيتُـهْ   من وجه جارية فَدَيتُـه
بعَثتْ إليّ تَسُـومُـني   بُـردَ الشبـاب وقد طويتُـه
واللهِ ربّ محمّـدٍ   ما إن غدرتُ ولا نويتُـه
أمسكتُ عنـكِ وربّما   عَرَض البلاءُ وما ابتغيتُـهْ
إنّ الخليفةَ قـد أبـى   وإذا أبـى شيئـاً أَبيتُـه
ومُخضَّبِ رَخْصِ البَنـا   ن بكى عليَّ وما بَكَيْتُه
ويَشُـوقُني بيـتُ الحبيـبِ إذا ادّكرتُ وأين بيتُـه
قام الخليفـةُ دُونَـه   فصبرتُ عنه وما قَلَيتُـه
ونهانيَ الملك الهُمـا   مُ عن النَّسيب وما عَصَيتُه
لا بل وفيتُ فلم أُضِعْ   عهداً ولا رأياً رأيتُـه
وأنا المُطِلُّ على العِـدا   وإذا غـلا عِلْقٌ شَرَيتُـه
أُصفي الخليلَ إذا دنا   وإذا نأى عنّـي نَـأَيتُـه[1]

ثم أنشده ما مَدَحه به بلا تشبيب ، فحرَمه ولم يُعطِه شيئاً ، فقيل له : إنه لم يستحسن شعرك . فقال : والله لقد مدحتُه بشعر لو مُدح به الدهرُ لم يُخشَ صَرفُه على أحد ، ولكنه كذّب أملي لأني كذبتُ في قولي .

أبو غَسّان دَماذ قال :

سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهديُّ بشاراً عن ذكر النساء قال : كان أوّلُ ذلك استهتار نساء البصرة وشبّانها بشعره ، حتى قال سَوّار بن عبدالله الأكبر ومالك بن دينار : ما شيءٌ أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفِسق من أشعار هذا الأعمى . وما زالا يَعِظانه ، وكان واصل بن عَطاء يقول : إنّ من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لَكَلِماتُ هذا الأعمى المُلحِد . فلمّا كثر ذلك

(١) قليته : أبغضته . العلق : النفيس من كل شيء .

وانتهى خبرُه من وجوه كثيرة إلى المهديّ ، وأنشَد المهديَّ ما مدحَه به ، نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ، وكان المهديّ من أشدّ الناس غيرةً . قال : فقلت له : ما أحسَبُ شعر هذا أبلغَ في هذه المعاني من شعر كُثَيّر وجميل وعُروة ابن حِزام وقيس بن ذَريح وتلك الطبقة . فقال : ليس كل من يسمع تلك الأشعار يعرف المُرادَ منها ، وبشارٌ يُقارب النساء حتى لا يخفى عليهنّ ما يقول وما يُريد ، وأيُّ حُرّة حَصان تسمع قول بشار فلا يُؤثّر في قلبها ، فكيف بالمرأة الغَزِلة والفتاة التي لا هَمَّ لها إلاّ الرّجالُ ! ثم أنشد قوله :

قد لامني في خليلتي عُمَـرُ ... واللّومُ في غير كُنهِه ضَجَرُ
قال أَفِقْ قلتُ لا فقال بلى ... قد شاع في الناس منكما الخَبَرُ
قلت وإذ شاع ما اعتذارك ممّا ليس لي فيه عندَهم عُذُر
ماذا عليهم وما لهم خَرِسوا ... لو أنّهم في عُيوبهم نَظَروا
أَعشقُ وحدي ويُؤخَذون به ... كالتُرك تَغزو فتُؤخَذُ الخزَرُ
يا عجبًا للخِلاف ويا عَجبا ... بفي الذي لام في الهوى الحَجَرُ
حَسْبي وحسبُ الذي كلفتُ به ... منّي ومنه الحديثُ والنَّظَرُ
أو قُبلةٌ في خلالِ ذاك وما ... بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لي الأُزُر
أو عضّةٌ في ذِراعها ولها ... فوقَ ذِراعي من عَضِّها أَثَر
أو لَمسةٌ دونَ مِرْطها بيدي ... والبابُ قد حال دونَه السُّتُر
والساقُ برّاقة مُخَلْخَلُها ... أو مصٌّ ريقٍ وقد علا البُهرُ
واسترخت الكفُّ للعراك وقا ... لت إيهِ عنّي والدمعُ منحدرُ
انهضْ فما أنت كالذي زعموا ... أنت وربّي مُغازلٌ أشِرُ
قد غابت اليومَ عنك حاضنتي ... والله لي منك فيك يَنتَصِرُ

(الأبيات ...)

ثم قال : بمثل هذا الشعر تَميل القلوب ويَلين الصعبُ .

أخبار متفرقة

النَّضر بن طاهر أبو الحَجّاج قال :

قال بشار : دعاني عُقبةُ بن سَلم ودعا بحمّاد عَجْرَد وأعشى باهلة ، فلمّا اجتمعنا عنده قال لنا : إنه خطر ببالي البارحةَ مَثَلٌ يتمثّله الناسُ : « ذهب الحمارُ يطلب قَرنين فجاء بلا أُذُنَين » فأَخرِجُوه من الشعر ، ومن أخرجه فله خمسةُ آلاف درهم ، وإن لم تفعلوا جلدتُكم كُلَّكم خَمسمائةٍ . فقال حمّاد : أَجِّلْنا أعزّ اللهُ الأميرَ شهراً . وقال الأعشى : أَجِّلْنا أسبوعين . قال : وبشار ساكتٌ لا يتكلّم ، فقال له عقبةُ : مالكَ يا أعمى لا تتكلّم ! أعمى الله قلبَك . فقال : أصلح اللهُ الأميرَ ، قد حَضَرني شيءٌ فإن أمرتَ قلتُه . فقال : قُلْ . فقال :

شَطّ بسَلمى عاجلُ البَيْنِ وجاورتْ أُسْدَ بني القَينِ
ورنّت النفسُ لها رَنّةً كادت لها تنشقّ نِصفَين
يابنةَ من لا أشتهي ذِكرَه أَخشى عليه عُلَق الشَّيْن
والله لو ألقاكِ لا أَتّقي عيناً لَقَبَّلْتُكِ ألفَين
طالبتُها دَيني فراغتْ به وعلّقتْ قلبي مع الدَّيْن
فصِرت كالعَيرِ غدا طالباً قَرناً فلم يَرجِعْ بأُذْنَين

قال : فانصرف بشّار بالجائزة .

مقتله

عمر بن شَبّة قال :

بلغ المهديَّ قولُ بشار :

قاسِ الهمومَ تنلْ بها نُجُحا والليلَ إنّ وراءه صُبُحا
لا يُؤْيِسَنّك من مُخدَّرةٍ قولٌ تُغَلِّظُه وإن جرحا
عُسرُ النساء إلى مياسرةٍ والصَّعبُ يُمكنُ بعدما جَمَحا

فلمّا قدِم عليه استنشده هذا الشعر فأنشده إياه ، وكان المهديّ غيوراً ، فغضب وقال : تلك أمُّك يا .... أتحضُّ الناسَ على الفُجور وتقذِف المحصَنات المُخبّآت ! واللهِ لئن قلتَ بعد هذا بيتاً واحداً في نسيبٍ لآتينَّ على رُوحك .
فقال بشار في ذلك :

واللهِ لولا رضا الخليفة ما أعطيتُ ضَيماً عليَّ في شَجَنِ
وربّما خِير لابن آدمَ في الكُرْه وشقّ الهوى على البَدَنِ
فاشربْ على أُبْنَة الزمان فما تلقى زماناً صفا من الأُبَن
اللهُ يُعطيك من فواضله والمرءُ يُغضي عيناً على الكُمَنِ
قد عشت بين الرَّيحان والرّاح والمِزْهَر في ظلّ مجلسٍ حَسَن
وقد ملأتُ البلاد ما بين فُغفورٍ إلى القيروان فاليَمَنِ
شعراً تُصلّي له العواتقُ والثيِّبُ صلاةَ الغُواة للوثَن
ثم نهاني المهديُّ فانصرفتْ نفسي صَنيع الموفَّق اللَّقِنِ
فالحمد لله لا شريكَ له ليس بباقٍ شيءٌ على الزمن (١)

ثم أنشده قصيدته التي أولها :

تجاللتُ عن فهرٍ وعن جارَتَيْ فِهْرِ

ووصف بها تركه التشبيب ومدحه ... فلم يحظَ منه بشيء ، فهجاه فقال في قصيدته :

خليفةٌ يَزني بعَمّاته يلعب بالدَّبُّوق والصَولجانْ
أبدلَنا الله به غيرَه ودسّ موسى في ... الخيزُرانْ (٢)

---

(١) الأبن ج أبنة : العداوة والحقد والكدر. الكمن ج كمنة : حمرة من رمد أصاب العين أو قرح في المآقي . فغفور : ملك الصين . العواتق ج عاتق : الجارية اول ما أدركت. اللقن : السريع الفهم .

(٢) الدبوق : لعبة للصبيان . الصولجان : المحجن وعصا تضرب بها الكرة .

وأنشدها في حَلْقة يونُس النحويّ ، فسُعي به إلى يعقوب بن داود ، وكان بشار قد هجاه فقال :

بني أميةَ هُبّوا طال نومُكُـــم ... إنّ الخليفةَ يعقوبُ بنُ داودِ
ضاعت خلافتكُم يا قومُ فالتمسوا ... خليفةَ الله بين الزِّقِّ والعُود

فدخل يعقوب على المهديّ فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذا الأعمى الملحد الزِّنديق قد هجاك . فقال : بأيّ شيء ؟ فقال : بما لا ينطِق به لساني ولا يتوهَّمُه فكري . قال له : بحياتي إلّا أنشدتَني . فقال : واللهِ لو خيّرتَني بين إنشادي إياه وبين ضرب عُنقي لاختَرتُ ضربَ عنقي . فحلف عليه المهديّ بالأَيمان التي لا فُسحةَ فيها أن يُخبِرَه ، فقال : أمّا لفظاً فلا ، ولكنّي أكتب ذلك . فكتبه ودفعه إليه ، فكاد ينشقّ غيظاً ، وعمد إلى الانحدار إلى البصرة للنظر في امرها ، وما وَكْدُه[(١)] غيرُ بشار . فانحدر فلما بلغ إلى البَطيحة[(٢)] سمع أَذاناً في وقت ضحى النّهار فقال : انظروا ما هذا الأذان . فإذا بشار يُؤَذّن سكرانَ ، فقال له : يا زِنديقُ يا ... عجبتُ أن يكون هذا غيرَك ، أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكرانُ ! ثم دعا بابن نُهيك فأمره بضربه بالسَّوط ، فضربه بين يديه على صدر الحَرّاقة[(٣)] سبعين سَوطاً أتلفه فيها ، فكان إذا أوجعه السَّوطُ يقول : حَسِّ ـ وهي كلمةٌ تقولها العربُ للشيء إذا أَوجع ـ فقال له بعضُهم : انظُر إلى زندقته يا أمير المؤمنين ، يقول : حسّ ولا يقول : باسم الله . فقال : ويلَك ! أطعامٌ هو فأسمِّيَ اللهَ عليه ! فقال له الآخر : أفلا قُلتَ : الحمدُ لله ؟ قال : أوَ نِعمةٌ هي حتى أحمَدَ اللهَ عليها ! فلمّا ضربه سبعين سوطاً بان الموتُ فيه ، فأُلقي في سفينة حتى مات ، ثم رُمي به في البَطيحة ، فجاء بعضُ أهله فحملوه إلى البصرة فدُفن بها .

---

(١) وكده : قصده .
(٢) البطيحة : موضع بين واسط والبصرة .
(٣) الحراقة : سفينة فيها مرامي نيران يرمى بها العدو وفي غير أوقات الحرب تتخذ للتنزهة .

عمر بن شَبّة قال :

أمر المهديُّ عبد الجبّار صاحب الزنادقة فضرب بشاراً ، فما بقي بالبصرة شريفٌ إلّا بعث إليه بالفَرش والكُسوة والهدايا ، ومات بالبَطيحة . قال : وكانت وفاتُه وقد ناهز ستّين سنةً .

قال أبو زيد : وحدّثني جماعةٌ من أهل البصرة منهم محمّد بن عَون بن بشير ـ وكان يُتّهم بمذهب بشار ـ فقال :

لمّا مات بشار أُلقيت جُثّتُه بالبَطيحة في موضع يعرف بالخرّارة ، فحمله الماء فأخرجه إلى دِجلة البصرة ، فأُخِذ فأُتي به أهلُه فدفنوه . قال : وكان كثيراً ما يُنشدني :

ستری حولَ سريري حُسَّراً يَلْطِمن لَطْماً
يا قتيلاً قَتَلَتْه عَبْدةُ الحَوْراءُ ظُلما

قال : وأُخرجت جنازتُه فما تبِعها أحدٌ إلّا أَمَةٌ له سوداءُ سِنْديّةٌ عجماءُ ما تُفصِح ، رأيتُها خلف جنازته تصيح : واسيّداه ، واسيّداه !

قال أبو زيد : وحدّثني سالم بن عليّ قال :

لمّا مات بشار ونُعي إلى أهل البصرة تباشر عامَّتُهم وهنّأ بعضُهم بعضاً وحمِدوا الله وتصدَّقوا ، لما كانوا مُنُوا به من لسانه .

وقال أبو هشام الباهليّ :

قد تبع الأعمى قفا عَجْرد فأصبحا جارَين في دارِ
قالت بِقاعُ الأرض لا مَرحباً بِرُوح حمّادٍ وبشّار
تجاورا بعد تنائيهما ما أبغضَ الجارَ إلى الجار
صارا جميعاً في يدَي مالك في النّار والكافر في النّارِ

عن أحمد بن خَلاّد عن أبيه قال :

مات بشارٌ سنة ثمان وستين ومائة وقد بلغ نَيّفاً وسبعين سنةً .

محمد بن القاسم بن مَهرُويه قال :

لمّا ضرب المهديُّ بشاراً بعث إلى منزله من يُفتِّشه ـ وكان يُتّهم بالزندقة ـ فوُجد في منزله طومارٌ[1] فيه :

بسم الله الرحمن الرّحيم

إني أردت هجاء آل سليمان بن عليّ لبُخْلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ فأمسكتُ عنهم اجلالاً له ﷺ ...

فلمّا قرأه المهديّ بكى وندم على قتله وقال : لا جزى الله يعقوب بن داود خيراً فإنَه لمّا هجاه لفّق عندي شهوداً على أنه زنديقٌ فقتلْتُه ثم ندمتُ حين لا يُغني الندم .

* * *

(١) الطومار : الصحيفة .

١٥

الحسن بن وهب

[الأغاني ج ٢٣ ص ٩٥ وما بعدها]

الشاعر

هو الحَسن بن وَهْب بن سعيد ، كاتبٌ شاعرٌ مُترسِّلٌ فصيحٌ أديب ، وأخوه سليمانُ بن وهب فَحلٌ من الكُتّاب ويكنى أبا عليّ ، وهو عريق في الكتابة ، ولأولاده نَجابةٌ مشهورة تستغني عن وصف ذلك ، وكانوا يقولون إنهم من بني الحارث بن كعب ، وأصلُهم نصارى ، وفي بني الحارث نصارى كثير .

أخبرني الصُّولي ، وذكر ذلك عن جماعة من الكُتّاب :

أنّ الحسن بن وهب كان أشدّ تمسّكاً بالنسب إلى بني الحارث بن كعب من أخيه سليمان ، وكان سليمانُ يُنكر ذلك ويعاتب عليه أخاه الحسن وابنَه أحمد بن سليمان ، وأصلُهم من قرية من سواد واسط في جسر سابور يقال لها « سارَقيقا » .

عمر بن نصر الكاتب ـ وكان من مشايخ الكُتّاب بسُرَّ مَن رأى ـ قال :

كنا نتهادى ، ونحن في الدِيوان ، أشعار الحسن بن وهب ونتباهى بحفظها .

أخباره مع نَبات[1]

كان الحسن بن وهب يعشق نبات ، جاريةَ محمد بن حَـمّاد الكاتب ، وكان له معها أخبارٌ كثيرة ، وكان لا يصبِر عنها ...

محمد بن موسى بن حَمّـاد قال :

كنت أكتب في حَداثتي بين يدَي الحسَن بن وهب ، وكان شديد الشَّغَف بنبات جارية محمد بن حمّاد كاتب راشدٍ ، فكُنّا يوماً عنده وهي تُغنّي ، وبين أيدينا كانونُ فحم ، فتأذّت به ، فأمر أن يُباعَد ، فقال الحسن :

بأبي كرهتِ النّـارَ حتى أُبعدتْ ... فعَلمتُ ما مَعناك في إبعادها
هي ضَرّةٌلك بالتمـاع ضِيائها ... وبحُسن صورتها لدى إيقادِها
وأرى صَنيعَك في القلوب صَنيعَها ... في شَوكها وسَيالِها وقَتـادها
شَرِكتكِ في كلّ الجِهات بحُسنها ... وضيائها وصَلاحها وفسادها[2]

قرأت في بعض الكتب :

دخلتْ يوماً نباتُ على الحسن بن وهب ، وهو مَخمورٌ ، فسلّمت عليه وقبّلت يده ، فأراد تقبيل يدها ، فمنعتْه ، فرُعش فقال :

أقول وقد حاولت تقبيل كفِّها ... وبي رِعدةٌ أهتزّ منها وأسكُنُ
فديتُكِ إنّي أشجع النّاس كلّهم ... لدى الحرب إلاّ أنّني عنكِ أجبُنُ

محمد بن موسى قال :

جاءت نَباتُ تسأل عن الحسن بن وهب من عِلّةٍ نالتْه ، فحين رآها دعا برِطْلٍ

---

(١) ضبط اسمها في الأغاني ٣٦٤/٨ : بنان ، وضبط اسمها في هذا الجزء من المطبوعة بنات وضبط في كتاب التشبيهات لابن أبي عون (ص ١٢٥) وكتاب الورقة لابن الجراح (ص ٢٣) : نبات ، ونباتة ، ولعله الصواب .

(٢) السَيال ج سَيالة : نبات له شوك أبيض طويل اذا نزع خرج منه اللبن . القتـاد : الشوك .

فشربه على وجهها وقال : قد عُوفيتُ ، فأقيمي اليومَ عندي . فأبتْ وقالت : عند مَولاي دَعوةٌ . فأمر بإحضار مائتي دينار ، فأُحضرتْ ، فقال : هذه مائةٌ لِمولاكِ ، فابعثي بها إليه ، ومائة لكِ . فقالت : أمّا هو فابعث إليه بمائته ، وأمّا أنا فواللهِ لا أخذتُ المائة الأخرى ، ولأتصدقَنّ بمثلها لِعافيتك ، ولكن اكتُبْ إليه رُقعةً تقوم بعُذري ، فأخذ الدَواة وكتب إلى مولاها :

ضَرّة الشمسِ والقمرْ　　مَتِّعيني من النَّظرْ
مَتِّعيني بجَلسةٍ　　منكِ يا أَحسنَ البَشَر
أَشتريها إنْ بِعْتِنيها　　بسَمعي وبالبَصر
أذهبَ السُّقمَ سُقمُ طَرفكِ ذي الغُنْجِ والحَوَرْ
فأديمي السُّرورَ لا　　تمزِجي الصَّفوَ بالكَدَر
ليس يُبقي عليَّ حُبُّكَ هذا ولا يَذرْ
وأنا منه فانعَمي　　بمُقامٍ على خَطَرْ
وتغنَّيْ فَداكِ كلُّ مُغَنٍّ لكي أُسَرّ
رَبعُ سَلمى بذي بَقَرْ　　عُرضةُ الرّيحِ والمَطَرْ[1]

أحمد بن سليمان بن وهب قال : قال لي أبي :

قد عزمتُ على معاتبة عمّك في حبّه لنبات ، فقد شُهّر بها وافتَضَح ، فكُن معي وأَعِنّي عليه . وكان هواي مع عمّي فمضيت معه فقال له أبي ، وقد أطال عتابَه : يا أخي ، جُعلتُ فِداك ، الهوى ألَذُّ وأَمتع ، والرأيُ أصوبُ وأنفع . فقال عمّي متمثّلاً :

إذا أمرتْك العاذلاتُ بهَجرِها　　أبتْ كبِدٌ عمّا يَقُلنَ صَديعُ
وكيف أُطيع العاذلاتِ وحبُّها　　يُؤرّقني والعاذلاتُ هُجوعُ

(١) ذو بقر : واد بين أخيلة حمى الربذة .

فالتفت إليّ أبي ينظُر ما عندي ، فتمثّلتُ :

وإنّي لَيلحاني على فَرط حُبّهـــا رجالٌ أطاعتْهم قلوبٌ صحائحُ

فنهض أبي مغضَباً ، وضَمّني عمّي إليه وقبَّلني . وانصرفتُ إلى نبات فحدّثتها بما جرى وعمّي يسمع ، فأخذت العود فغنّت .

يَلُومك في مَودّتهـا أنـــاسٌ لو انّهم برأيكَ لم يَلُومـوا

قال أحمد بن سليمان :

وعذلته عجوزٌ لنا يُقال لها مُنَى ، فقال لها : قومي فانظُري إليها واسمعي غِناءها ، ثم لُوميني . فقامت معه ، فرأتْها وسمعت غناءها ، فقالت له : لست أُعاود لومَك فيها بعدَ هذا . فأنشأ يقول :

ويوم ٍ سَها عنه الزّمانُ فأصبحتْ نواظرُه قد حار عنها بَصيرُها
خلوتُ بمَن أهوَى به فتكاملتْ سُعودٌ أدار النَّحْسَ عنّا مُديرُها
أما تعذِريني يا مُنىً في صَبابــتي بمُن وجهُها كالشمس يلمع نُورُها

ميمون بن هارون قال :

كتب الحسن بن وهب إلى نبات يومَ جمعة يستدعيها ، فكتبت إليه أنّ عند مولاها أصدقاءَ له ، وقد مَنعها من المسير إليه ، فكتب إليها ثانياً يقول :

يومُنا يومُ جُمعةٍ بأبي أنــــتِ وعند الوَضيــع لا كــان قـومُ
سَفَلٌ مثلُــه يسُومونَه الخَسْـفَ ويَرضاه وهو للوَعـد سَوْمُ
فامنعيهـم منكِ البشاشـةَ حتى يتغشّاهم من البَـرد نـومُ
وليكـن منك طُولَ يومـك لله صلاةٌ إلى المســاء وصَـومُ
وارفعي عنهم الغِناء وإن نا لكِ عَـذْلٌ من الوضيع ولَـومُ
واذكري مُغْـرَمـاً بحُبّك أمسى هَمُّـه أن يُدِيلَـه منـكِ يومُ[1]

(١) أداله الله عليه : نصره عليه .

أبو العَيناء قال :

طلب محمدَ بن عبد الملك الزيّات الحسنَ بن وهب ، وكان قد اصطبح مع نبات ، فكتب إليه : يا سيّدي ، أنا في مجلس بَهيٍّ ، وطعام هَنِيّ ، وشراب شَهيّ ، وغناء رَضيّ ، أفأتحوّل عنه إلى كَدِّ الشقيّ ! ووثبت نباتُ لتقوم ، فردّها وكتب :

ما بان عنك الذي بِنْتَ عنه لا عاش بَعْدَكْ
إن لم يكن عنده الصَبرُ والسُلُوُّ فعندكْ
وما وجدتَه إلا عَبْدَ الرَّجاء وعبدَك

فاستلبها الرسول ومضى بها إلى محمّد ، فوقّع فيها :

أبا عليّ أراك الإلٰهُ في الأمر رُشدَكْ
إن لم تكن عنديَ اليو مَ كنتُ بالشوق عندك
فاهدِمْ محلَّك عندي واجهَدْ لذلك جهدَك
فلستُ أزداد إلّا رعايةً لك وُدَّك
وانعَم بمن قلتَ فيها عبدَ الرَّجاء وعبدَك
أزيلَ نَحْسُكَ فيها وأطلعَ اللهُ سَعْدَك

وردّ الرُّقعة إلى الحسن ؛ فلمّا قرأها خجل وحلف ألّا يشرب نبيذاً شهراً ، ولا يفارق مجلس الوزير .

عن إبراهيم بن المدبّر قال :

ولدت نباتُ من مولاها ولداً وسمته بإبراهيم ، فأبغضها الحسن بن وهب وكتب إليها :

نُتج المُهرةَ الهِجانُ هَجيناً ثم سمّى الهجينَ إبراهيما

بخليلِ الرحمن سَمّيت عبداً   أم قريعَ الفتيان ذاك الكريما

وبعث بالبيتين إليها ، وكان آخر عهده بها .

طائفة من أخباره وأشعاره

● محمد بن يزيد المبرّد قال :

لمّا حبس محمد بن عبد الملك الزيّات سليمانَ بن وهب وطالبه بالأموال وقت نكبته قال الحسن بن وهب :

خليليَّ من عبد المدّان تَروَّحا   ونُصّا صُدور العِيس حَسْرى وطُلَّحا
فإنّ سليمان بن وهبٍ بمنزلٍ   أصاب صميمَ القلب منّي فأقرحا
أُسائلُ عنه الحارسِين لِحبسه   إذا ما أَتوني كيف أمسى وأصبحا
فلا يهنِىء الأعداءَ حبسُ ابن حُرّةٍ   يراه العِدا أندى يميناً وأسمحا
وقُولا لهم صبراً قليلاً وأَصبِحوا   فما أقربَ الليلَ البَهيم من الضُحى[1]

قال : وقيل له ، وسليمانُ محبوس : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحتُ والله قليل النشاط ، كالَّ القريحة ، صَدِىء الذِّهن ، ميّت الخاطر ، من سوء فعل الزمان وتوارد الأحزان وتغيّر الاخوان . قال : وآلى ألّا يذوق طعاماً طيّباً ، ولا يشرب ماءً بارداً ، ما دام أخوه محبوساً ؛ فوفى بذلك .

● قرأت في بعض الكتب :

كان الحسن بن وهب يعاشر أبا تمّام عِشرةً متّصلةً ، فنُدب الحسن بن وهب للنظر في أمر بعض النواحي ، فتشاغل عن عِشرة أبي تمام ، فكتب إليه أبو تمّام :

(١) نصّ الناقة : حملها على الإسراع في السير . الحسير : من أصابه الإعياء من طول المسير . طلح البعير : أعيا .

قالوا جَفاك فلا عَهدٌ ولا خبــرُ ماذا تراه دهــاه قلت : أيلولُ
شهرٌ كأنّ حِبال الهجر منه فلا عَقدٌ من الوصل إلّا وهو مَحلولُ

فأجابه الحسن :

ما عاقني عنك أَيلــولٌ بلذّتــه وطِيبــه ولَنِعْـمَ الشهرُ أيلولُ
لكن توقّع وَشك البينَ عن بلدٍ تحتلّه ووِكاء العـين مَحلولُ(١)

محمد بن موسى قال :

قال رجل للحسن بن وهب : إنّ أبا تمّام سرَق من رجلٍ يقال له مُكْنِف ، من ولد زهير بن أبي سُلمى ـ وهو رجلٌ من أهل الجزيرة ـ قصيدته التي يقول فيها :

كأنّ بني القَعقاع يومَ وفاتـــه نجومُ سماءٍ خرّ من بينها البدرُ
توفّيت الآمــال بعد محمّـــد وأصبح في شُغل عن السَفَر السَّفْرُ

فقال الحسن : هذا دعبلٌ حكاه وأشاعه في الناس ، وقد كذَب ، وشعر مُكْنِف عندي . ثم أخرجه وأخرج هذه القصيدة بعينها ، فقرأها الرجل فلم يجد فيها شيئاً ممّا قاله أبو تمام في قصيدته . ثم دخل على تَفْيئة ذلك(٢) دعبل على الحسن ابن وهب فقال له : يا أبا عليّ ، بلَغني أنك قلت في أبي تمّام كَيت وكيت ، فهَبْه سرق هذه القصيدة كلّها وقَبِلنا قولك فيه ، أسرق شعرَه كلَّه ؟ أتحسن أنت أن تقول كما قال :

شهدتُ لقد أقوتْ مَغانيكم بَعدي ومَحّت كما مَحّت وشائعُ من بُرْدِ
وأنجدتـــمُ من بعد إتهام داركم فيادمعُ أنجدني على ساكني نجد(٣)

---

(١) الوكاء : رباط القربة وغيرها .
(٢) على تفيئة ذلك : بعد انقضاء وقت يسير .
(٣) محّ الثوب : بلي . الوشيعة : الطريقة في البرُد .

فانخزل دعبل واستحيا ، فقال له الحسن : الندمُ توبةٌ ، وهذا الرجل قد تُوفّي ، ولعلّك كنت تعاديه في الدنيا حسداً على حظّه منها ، وقد مات الآن ، فحسبك من ذكره . فقال له : أُصدِقك يا أبا عليّ ، ما كان بيني وبينه شيء قطّ إلّا أنّي سألته أن ينزل لي عن شيء استحسنته من شعره ، فبَخِل عليّ به ، وأمّا الآن فأُمسك عن ذِكره . فجعل الحسن يضحك من قوله واعترافه بما اعترف به .

* * *

١٦

حسين بن الضحّاك

[الأغاني الجزء ٧ ، ص ١٤٦ وما بعدها]

الشاعر

الحسين بن الضحّاك باهليٌّ صَلِيبة[١] ، فيما ذكر محمد بن داود الجرّاح ، والصحيح أنه مولى لباهلة . وهو بَصري المولد والمنشأ ، من شعراء الدولة العبّاسيّة ، وأحد ندماء الخُلفاء من بني هاشم . ويقال إنه أوّلُ من جالس منهم محمدٌ الأمين .

شاعرٌ أديب ظريف مطبوعٌ حسنُ التصرُّف في الشعر حُلو المذهب ، لشعره قَبولٌ ورونقٌ صاف . وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيُغير عليها ، وإذا شاع له شعرٌ نادر في هذا المعنى نسبه الناسُ إلى أبي نواس . وله مَعانٍ في صفتها أبدع فيها وسبَق إليها ، فاستعارها أبو نواس ...

وكان يُلقّب بالخَليع والأشقَر وهاجى مُسلِم بن الوليد فانتصف منه . وله غزلٌ كثير جيّد ، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارُهم ومَذاهبهم جُملةً من التكلُّف .

---

(١) يقال : عربي صليبة أي خالص النسب ، وامرأة صليبة : كريمة المنصب عريقة .

وعُمّر عُمراً طويلاً حتى قارب المائة السنة ، ومات في خلافة المستعين أو المنتصر .

يزيد بن محمد المهلّبيّ قال :

سألت حسين بن الضحّاك ، ونحن في مجلس المتوكّل ، عن سنّه ، فقال : لست أحفظ السنةَ التي وُلدت فيها بعَينها ، ولكنّي أذكر وأنا بالبصرة موتَ شُعبةَ بن الحجّاج سنة ستّين ومائة .

إغارة أبي نواس على معانيه

المغيرة بن محمّد المهلبيّ قال :

حدّثنا حسين بن الضّحّاك قال : أنشدتُ أبا نُواس لمّا حَجَجتُ قصيدتي التي قلتُها في الخمر ، وهي :

بُدِّلتَ من نَفَحات الورد بـالآء ... ومن صَبُوحك دَرَّ الإبل والشّاءِ

فلمّا انتهيت إلى قولي :

حتى إذا أُسنِدتْ في البيت واحتُضِرت ... عند الصَّبُوح ببسّـامين أكفاءِ
فُضّت خَواتمُها في نَعت واصفهـا ... عن مثل رَقْراقةٍ في جَفْنِ مَرْهاء[1]

قال : فصَعِق[2] صعقةً أفزعتني ، وقال : أحسنتَ واللهِ يا أشقرُ ! فقلت : ويلكَ يا حسنُ ! إنك أفزعتَني والله . فقال : بلى واللهِ أفزعتَني ورُعتني ، هذا معنىً من المعاني التي كان فكري لا بُدّ أن ينتهي إليها أو أَغوصَ عليها وأقولَها ،

(١) الآء : ثمر شجر مرّ . الصبوح : الخمر تشرب صباحاً . الرقراقة : الدمعة تترقرق في العين ولا تسيل . المرهاء : المرأة التي لم تكتحل .
تشرب صباحاً . المرهاء : المرأة التي لم تكتمل .
(٢) صعق : صاح .

فسَبَقْتَني إليه واختلستَه منّي ، وستعلم لِمن يُروى إلي أم لك . فكان واللهِ كما قال ، سمعتُ من لا يعلم يَرويها له .

عن حسين بن الضّحّاك قال : أنشدتُ أبا نواس قصيدتي :

وشاطريّ اللسان مختلِق التكريه شاب المُجونَ بالنُسُكِ

حتى بلغت إلى قولي :

كأنّما نُصبَ رأسه قمرٌ يكرَعُ في بعض أنجُم الفَلَكِ[1]

قال : فأنشدني أبو نواس بعد أيّام لنفسه :

إذا عَبّ فيها شاربُ القوم خِلتَه يُقبّل في داجٍ من الليل كوكبا

قال : فقلت له : يا أبا عليّ ، هذه مُصَالتةٌ[2] . فقال لي : أتظنّ أنه يُروى لك في الخمر معنىً جيّد وأنا حيّ !

عن حسين بن الضحّاك قال :

لقِيني أبو نواس ذات يوم عند باب أم جعفر من الجانب الغربيّ ، فأنشدتُه :

أَخَويَّ حيَّ على الصَّبُوحِ صَباحا هُبّا ولا تَعِدا الصباحَ رَواحا
هذا الشَّمِيطُ كأنّه متحيِّرٌ في الأُفق سُدّ طريقُه فألاحا
ما تأمُران بسَكرةٍ قَرَويّةٍ قَرَنت إلى درك النَّجاح نَجاحا[3]

---

(١) شاطري : نسبة الى شاطر ، وهو لفظ كان يطلق على أهل الفساد والشر في العصر العباسي .

(٢) المصالتة : أن يسرق الشاعر بيتاً لغيره لفظاً ومعنى .

(٣) الشميط . الصبح .

... قال : فلمّا كان بعد أيّام لقِيني في ذلك الموضع فأنشدني يقول :

ذَكر الصَّبوحَ بسُحْرةٍ فارتاحا   وأَملّه ديكُ الصَّباح صِياحا

فقلت له : حسنٌ ، يا ... أفعلتها ! فقال : دع هذا عنك ، فوالله لا قُلتَ في الخمر شيئاً أبداً وأنا حيٌّ إلّا نُسب لي .

إعجاب الناس بشعره

أحمد بن المعتصم قال :

حجّ أبو نواس وحسين بن الضحّاك فجمعهما الموسم ، فتناشدا قصيدتيهما : قول أبي نواس :

دَعْ عنك لومي فإنّ اللومَ إغراءُ   وداوني بالتي كانت هي الداءُ

وقصيدة حسين :

بُدّلت من نَفَحات الورد بالآءِ

فتنازعا أيُّهما أشعر في قصيدته ، فقال أبو نواس : هذا ابنُ مُناذر حاضرٌ الموسمَ ، وهو بيني وبينك . فأنشده قصيدته حتى فَرغَ منها ، فقال ابن مناذر : ما أحسبُ أنّ أحداً يجيء بمثل هذه . وهَمّ بتفضيله ، فقال له الحسين : لا تَعجَلْ حتى تسمع . فقال : هاتِ . فأنشده قوله :

بُدّلت من نفحات الورد بالآء   ومن صَبُوحك دَرَّ الابل والشّاء

حتى انتهى إلى قوله :

فُضّت خواتمُها في نعت واصفها   عن مثل رقراقةٍ في عين مَرهاء

فقال له ابن مناذر : حَسبُك ، قد استغنيتَ عن أن تزيد شيئاً ، والله لو لم تقل في دهرك كلِّه غيرَ هذا البيت لفضَّلْتُك به على سائر من وصف الخمر ، قم فأنت أشعرُ وقصيدتُك أفضل . فحكم له وقام أبو نواس منكسراً .

عليّ بن الجَهم قال :

دخلت يوماً على المتوكّل وهو جالسٌ في صحن خُلده[1] ، وفي يده غُصن آسٍ وهو يتمثّل بهذا الشعر :

بالشَّطِّ لي سَكَنٌ أَفديه من سَكَنِ　　أهدَى من الآسِ لي غُصنَين في غُصُنِ
فقلت إذ نُظما إلفَين والتبسـا　　سَقياً ورَعْياً لفألٍ فيكم حَسَنِ
فالآسُ لا شكَّ آسٍ من تشوّقنـا　　شافٍ وآسٍ لنا يبقى على الزمن
أبشَرْتُماني بأسبابٍ ستجمعُنـا　　إن شاء ربيّ ومهما يَقضِه يَكُنِ

قال : فلمّـا فَرَغ من إنشادها قال لي ، وكِدت أَنشقُّ حَسداً : لِمَن هذا الشعرُ يا عليُّ؟ فقلت : للحسين بن الضحّاك يا سيّدي : فقال : هو عندي أشعر أهل زماننا وأملحُهم مَذهباً وأظرفُهم نَمَطاً . فقلت وقد زاد غيظي : في الغزل يا مولاي . قال : وفي غيره وإن رَغِم أنفُك ومُتَّ حسَداً . وكنتُ قد مدحتُه بقصيدة وأردت إنشادها يومئذٍ فلم أفعَل ، وعلمت أنّي لا أنتفع ـ مع ما جرى بيننا ـ بشيءٍ لا به ولا بالقصيدة ، فأخّرتُها إلى وقت آخر .

محمد بن موسى بن حَمّاد قال : سمعت مَهديّ بن سابق يقول :

التقى أبو نواس وحسين بن الضحّاك ، فقال أبو نواس : أنت أشعر أهل

---

(١) الخلد : قصر بناه المنصور العباسي على شاطيء دجلة وتوارثه الخلفاء العباسيون بعده .

زمانك في الغزل . قال : وفي أيّ ذلك ؟ قال : ألا تعلم يا حسين ؟ قال : لا . قال : في قولك :

وابأبي مُقْحَمٌ لِعزّتـــه قلت لـه إذ خَلوتُ مكتتما
نحبّ بالله من يخصّك بالوُدّ فما قال لا ولا نَعَمـا
ثم تولّى بمُقْلَتَي خجِـلٍ أراد رجعَ الجواب فاحتشما
فكنت كالمبتغـي بحيلتـه بُرءاً من السُّقم فابتدا سَقَما

فقال الحسين : ويحكَ يا أبا نواس ، فأنت لا تُفارق مذهبك في الخمر البتّةَ ! قال : لا والله ، وبذلك فَضَلْتُك وفضلتُ الناس جميعاً .

أبو العبّاس ثعلب قال : أنشدني حمّاد بن المبارك صاحب حسين بن الضحّاك قال : أنشدني حسينٌ لنفسه :

لا وحُبّيـكَ لا أُصـــا فح بالدَمع مَدمعـا
مـن بكـى شَجْوَه استرا ح وإن كان مُوجَعـا
كبِـدي مـن هـواك أسقَـمُ من أن تُـقَطَّعـا
لم تدعْ سَورةُ الضَّنَـى فيَّ للسُّقم موضعـا [١]

قال : ثم قال لنا ثعلب : ما بقي من يُحسِن أن يقول مثل هذا .

محمّد بن الفضل الأهوازيّ قال : سمعت عليَّ بن العبّاس الرُّومي يقول :

حسين بن الضحّاك أغزل الناس وأظرفُهم . فقلت : حين يقول ماذا ؟ فقال : حين يقول :

يا مُستعيرَ سَوالفَ الخِشْـفِ اسمَعْ لِحَلْفـةِ صادق الحِلْفِ
إن لم أُصِحْ ليلي : ويا حَرَبـي من وجنتَيْكَ وفترةِ الطَّـرفْ

---

(١) الشجو : الهمّ والحزن .

فجحدتُ ربيَّ فضلَ نِعمتـــــه وعَبَدتُه أبداً على حَـرْفِ[1]

بدء صلته بخلفاء بني العبّاس

حسين بن الضحّاك قال :

كنت أنا وأبو نواس تِربّين ، نشأنا في مكان واحد وتأدّبنا بالبصرة ، وكنّا نحضُر مجالس الأدباء متصاحبَين . ثم خرج قبلي عن البصرة وأقام مُدّةً ، واتّصل بي ما آل إليه أمرُه ، وبلغني إيثار السلطان وخاصّته له ، فخرجت عن البصرة إلى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتُهم وأخذت جوائزهم وعُددتُ في الشعراء ، وهذا كلّه في أيّام الرشيد ، الا أنّي لم أصل إليه واتّصلت بابنه صالح فكنت في خدمته ، فغُنّي يوماً بهذا الصوت :

أأن زُمَّ أَجمالٌ وفارق جـيرةٌ وصاح غُراب البَين أنت حزين[2]

فقال لي صالح : قُل أنت في هذا المعنى شيئاً . فقلت :

أأن دَبَّ حُسّادٌ ومَـلَّ حبيـبُ وأورق عُود الهَجْر أنت كئيبُ
لِيبلُغْ بنا هجرُ الحبيب مُـرامَـه هل الحبّ إلّا عبرةٌ ونحيبُ
كأنّـك لم تسمع بفُرقة إلفــةٍ وغَيبة وَصلٍ لا تَراه يَؤوبُ[3]

---

(١) الخشف : الظبي أول ما يولد . وفي المطبوعة : الحشف ، وليس لها معنى يناسب السياق هنا وأراهـا محرفة . عل حرف : على طرف من الدين ، وهذا مثل لمن كان على غير طمأنينة في دينه ،وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن اصابه خير اطمأن به وان اصابه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ .

(٢) زم البعير : وضع زمامه وخطمه .

(٣) كئيب : في أصول المطبوعة : حبيب ، وقد رجح المحقق أنها محرفة عن كئيب ، وهو الأليق بالمعنى . الفرقة (بضم الفاء) : الفراق . الإلفة (بكسر الهمزة) : المرأة تألفها وتألفك .

فأمر أن يُغنّى فيه. واتّصلت بمحمّد ابن زُبَيدة[1] في أيام أبيه وخدمتُه، ثم اتّصلت خِدمتي له في أيام خلافته.

عن الحسين بن الضحّاك قال:

كنت يوماً عند صالح بن الرشيد، فجرى بيننا كلامٌ على النبيذ، وقد أخذ منّي الشرابُ مأخذاً قويّاً، فرددتُ عليه ردّاً أنكره وتأوّله على غير ما أردت، فهاجرني، فكتبتُ إليه:

يابنَ الإمـام تركتَني هَمَـــلاً   أبكي الحياة وأندُب الأَمَــلا
ما بالُ عَينك حـين تَلحظـني   ما إن تُقِلُّ جُفونَهـا ثِقَـلا
لو كان لي ذنبٌ لَبُحتُ بــه   كي لا يُقالَ هجرتَني مَلَـلا
إن كنت أعرف زَلَّةً سلَفـت   فرأيتُ مِيتةَ واحدي عَجَلا[2]

قال: فكتب إليّ: قد تلافى لسانُك بشعرك ما جناه في وقت سُكرك؛ وقد رضِيت عنك رضاً صحيحاً، فصِرْ إليّ على أتمّ نشاطك، وأكمل بِساطك. فعُدتُ إلى خدمته، فما سكرت عنده بعدها. قال: وكانت في حسين عَربدةٌ.

أخباره مع الأمين

أبو محمد بن النَشّار قال:

كان أبي صديقاً للحسين بن الضّحاك وكان يعاشره، فحملني معه يوماً إليه وجعل أبي يحادثه إلى أن قال له: يا أبا عليّ، قد تأخّرتْ ارزاقُك وانقطعت موادُّك ونفقتُك كثيرة، فكيف يمشي أمرُك؟ فقال له: بلى والله يا أخي، ما قِوامُ أمري إلّا ببقايا هِبات الأمين محمد بن زُبيدة وذخائره وهِباتِ جارية له – لم يُسَمّها – أغنَتْني للأبد لشيء ظريفٍ جرى على غير تعمُّد؛ وذلك أنّ

---

(١) أراد محمد الأمين بن هارون الرشيد.

(٢) تقل: تحمل. فرأيت ....: دعاء على نفسه أن يموت ولده الوحيد إن هو أساء إليه.

الأمين دعاني يوماً فقال لي : يا حُسينُ ، إنّ جليس الرجل عَشِيرُه وثقته وموضعُ سِرّه وأمنه ، وإنّ جاريتي فلانةَ أحسنُ الناس وجهاً وغِناءً ، وهي منّي بمحلّ نفسي ، وقد كدّرتْ عليَّ صَفوها ونغّصت عليّ النعمةَ فيها بعُجْبها بنفسها وتَجنّيها عليَّ وإدلالها بما تعلم من حبّي إيّاها ، وإنّي مُحضرُها ومحضرٌ صاحبةً لها ليست منها في شيء لتغَنّي معها ، فإذا غنّت وأومأتُ لك إليها - على أنّ أمرَها أَبْيَن من أن يخفَى عليك - فلا تستحسِن الغناء ولا تشربْ عليه ؛ وإذا غنّت الأخرى فاشرَبْ واطرَب واستحسِن واشقُق ثيابك ، وعليَّ مكان كلّ ثوبٍ مائةُ ثوب . فقلت : السَمْع والطاعةُ .

فجلس في حُجرة الخَلوة وأحضرني وسقاني وخلع عليّ . وغنّت المحسِنةُ ، وقد أخذ الشَّراب منّي ، فما تمالكتُ أن استحسنتُ وطربتُ وشربتُ ، فأومأ إليّ وقطّب في وجهي . ثم غنّت الأخرى فجعلت أتكلّف ما أقوله وأفعله . ثم غنّت المُحسنة ثانيةً فأتت بما لَم أسمع مثلَه قطّ حُسناً ، فما ملكت نفسي أن صِحت وشربتُ وطرِبت ، وهو ينظر إليّ ويَعَضّ شفتَيه غيظاً ، وقد زال عقلي فما أفكّر فيه ، حتى فعلت ذلك مراراً ؛ وكلّما ازداد شُربي ذهب عقلي وزدتُ ممّا يَكره . فغضب فأَمضّني وأمر بِجَرّ رِجلي من بين يدَيه وصَرْفي ، فجُررت وصُرفتُ ، فأمر بأن أُحجَب .

وجاءني الناس يتوجّعون لي ويسألونني عن قصّتي ، فأقول لهم : حَمل عليَّ النَّبيذُ فأسأتُ أدبي ، فقوّمني أميرُ المؤمنين بصَرفي وعاقبني بمنعي من الوصول إليه .

ومضى لما أنا فيه شهرٌ ، ثم جاءتني البِشارةُ أنّه قد رضي عنّي ، وأمر بإحضاري فحضرتُ وأنا خائفٌ ، فلمّا وصلت أعطاني الأمينُ يدَه فقَبّلتُها ، وضحك إليّ وقام وقال : اتبَعْني . ودخل إلى تلك الحُجرة بعَينها ولم يُحضر غيري . وغنّت المُحسنةُ التي نالني من أجلها ما نالني فسكتُّ ، فقال لي : قُل ما شئتَ ولا تخَفْ . فشربت واستحسنتُ . ثم قال لي : يا حسين ، لقد خار الله لك بخلافي وجرى القَدر بما تُحبّ فيه . إنّ هذه الجاريةَ عادت إلى الحال التي

أُريد منها ورضِيتُ كلَّ أفعالها ، فأَذكرتْني بك وسألتْني الرِّضا عنك والاختصاص لك ، وقد فعلتُ ووصلتك بعشرة آلاف دينار ، ووصلتْك هي بدون ذلك . والله لـو كنتَ فعلـتَ مـا قلتُ لـك حتى تعودَ إلى مثل هذه الحال ثم تحقـد ذلك عليك فتسألُني ألّا تصِلَ إليَّ لأَجبتُها . فدعوتُ له وشكرته وحمِدت الله على توفيقه ، وزِدت في الاستحسان والسّرور إلى أن سكرتُ وانصرفت وقد حُمل معي المال . فما كان يمضي أسبوعٌ إلّا وصِلاتُها وألطافُها تصل إليّ من الجوهر والثياب والمال ، بغير علم الأمين ؛ وما جالسته مجلساً بعد ذلك إلّا سألتْه أن يصِلَني . فكلّ شيءٍ أنفقتُـه بعدَه إلى هذه الغاية فمن فضل مالها وما ذَخَرت من صِلاتها . قال ابن النشّار : فقال له أبي : ما سمعتُ بأحسنَ من هذا الحديث ولا أعجبَ ممّا وفّقه اللهُ لك فيه .

محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال : حدّثني أبي قال :

دخل الحسين بن الضحّاك على محمّد الأمين بعَقِب وقعةٍ أوقعها أهلُ بغدادَ بأصحاب طاهر [1] ، فهزموهم وفضحوهم ، فهنّأه بالظَّفَر ثم استأذنه في الإنشاد ، فأذن له فأنشده :

أمـينَ الله ثِـقْ باللـه تُعْطَ العزَّ والنُّصْرَهْ
كِلِ الأمـرَ إلى اللـه كَـلَاكَ اللهُ ذو القُـدره
لنـا النصرُ بـإذن اللـه والكَـرَّةُ لا الفَـرَّه
وللمُـرّاق أعـدائـك يومُ السَّوء والـدَّبْـره
وكأسٌ تُـورد المـوت كـريـهٌ طعمُهـا مُـرّه
سقَـونا وسقَينـاهـم فكانت بهـمُ الحَـرَّه
كذاك الحـربُ أحياناً علينـا ولنـا مَـرَّه [2]

(١) طاهر : المراد به طاهر بن الحسين قائد المأمون الذي حارب الأمين وقتله .

(٢) كلاك : مخفف كلأك أي حفظك . الدبرة : الهزيمة في القتال . الحرّة : العذاب الموجع .

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولم يزل يتبسّم وهو ينشده .

عن عمرو بن بانةَ : أنّهم كانوا عند صالح بن الرَّشيد ، فقال : لستَ تطرح على جواريَّ وغِلماني ما أستجيدُه ! فقال له : ويلك ما أبغضَك ! ابعث إلى منزلي فجِيءْ بالدفاتر واخترْ منها ما شئتَ حتى أُلقيَه عليهم . فبعث إلى منزلي فجِيء إليه بدفاتر الغِناء ، فأخذ منها دفتراً ليتخيّر ممّا فيه ، فمرّ به شعرُ الحسين بن الضَحّاك يرثي الأمين ويهجو المأمون وهو :

أَطِلْ حَزَناً وابكِ الإمامَ محمّداً — بحُزنٍ وإن خِفتَ الحُسامَ المُهنّدا
فلا تَمَّتِ الأشياءُ بعد محمّـــدٍ — ولا زال شَملُ المُلك منها مُبدَّدا
ولا فرِح المأمونُ بالمُلك بعدَهُ — ولا زال في الدّنيا طريداً مُشرَّدا

فقال لي صالح : أنت تعلم أنّ المأمون يجيء إليَّ في كلّ ساعة ، فإذا قرأ هذا ما تُراه يكون فاعلاً ؟ ثم دعا بسكّين فجعل يَحُكُّه ، وصعِد المأمون من الدَّرَجة ورمى صالحٌ الدفتر ، فقال المأمون : يا غلامُ الدفترَ . فأُتي به ، فنظر فيه ووقف على الحَكّ فقال : إن قلتُ لكم ما كنتم فيه تصدُقوني ؟ قلنا : نعم . قال : ينبغي أن يكون أخي قال لك : ابعَث فجيء بدفاترك ليتخيَّر ماتطرح ، فوقف على هذا الشعر فكرِه أن أراه فأمر بحَكّه . قلنا : كذا كان . فقال : غَنِّه يا عمرو . فقلت : يا أمير المؤمنين ، الشعر لحسين بن الضحّاك والغناء لسعيد ابن جابر . فقال : وما يكون ! غَنّه . فغنَّيتُه ، فقال : اردُدْه . فرددتُه ثلاث مرات ، فأمر لي بثلاثين ألف درهم وقال : حتى تعلم أنه لم يَضْرُرْك عندي ...

ولحسين بن الضحّاك في محمد الأمين مَراثٍ كثيرةٌ جِياد ، وكان كثير التحقّق به (١) والمُوالاة له لكثرة أفضاله عليه ومَيله إليه وتقديمه إيّاه . وبلغ من جزعه عليه أنّه خُولط ، فكان يُنكر قتله لمّا بلغه ويدفعُه ويقول : إنّه

(١) رجح محقق المطبوعة أن تكون محرفة عن : التعلّق به .

مُستتر وإنّه قد وقف على تفرّق دُعاته في الأمصار يدعون إلى مُراجعة أمره والوفاء ببَيعته ، ضَنّاً به وشفقةً عليه . ومن جيّد مراثيه إيّاه قوله :

سَألُونا أن كيف نحن فقُلنا ... مَن هَوَى نجمُه فكيف يكونُ
نحن قومٌ أصابنا حَدَث الدَّهْر فظَلْنا لِريبه نَستكِينُ
نتمنّى من الأمين إياباً ... لَهْفَ نفسي وأين منّي الأمينُ

الحسين بن الضحّاك قال :

كنت عازماً على أن أَرثي الأمين بلساني كلّه وأَشفي لوعتي ، فلَقِيني أبو العتاهية فقال لي : يا حسينُ ، أنا إليك مائلٌ ولك مُحبّ ، وقد علمتُ مكانَك من الأمين ، وإنّه لحقيق بأن ترثيَه ، إلّا أنّك أطلقت لسانك من التلهّف عليه والتوجُّع له بما صار هجاءً لغيره وثَلْباً له وتحريضاً عليه ، وهذا المأمون مُنصَبٌ إلى العراق قد أقبل عليك ، فأَبْقِ على نفسك . يا ويحَك ! أتجسُر على أن تقول :

تركوا حَريم أبيهمُ نَفَلاً ... والمُحْصَناتُ صوارخٌ هُتُفُ
هيهاتَ بعدَك أن يدومَ لهم ... عِزٌّ وأن يبقى لهم شَرَفُ[1]

اكفُفْ غَرْب لسانِك واطوِ ما انتشر عنك وتَلافَ ما فَرَط منك . فعلمتُ أنه قد نصحني ، فجزيتُه الخير وقطعت القول ، فنجوت برأيه وما كِدت أن أنجو .

أخباره مع المأمون

عن ثُمامة بن أشرس وعبدالله بن العبّاس بن الفضل بن الربيع :

لمّا قدم المأمون من خَراسان وصار إلى بغداد أمر بأن يُسمّى له قومٌ من أهل الأدب لِيجالسوه ويُسامروه ، فذُكر له جماعةٌ فيهم الحسين بن الضحّاك ،

(١) النفل : الغنيمة .

ـ وكان من جُلَساء محمّد المخلوع ـ فقرأ أسماءهم حتى بلغ إلى اسم حسين ، فقال : أليس هو الذي يقول في محمّد :

هَـلّا بَقيتَ لِسَدّ حاجتنـــــا أبداً وكان لغيرك التَّلَـــفُ
فلقد خلفتَ خلائفاً سَلَفُـــوا ولسوف يُعوِز بعدَكَ الخَـلَفُ

لا حاجةَ لي فيه ، والله لا يراني أبداً إلّا في الطَّريق . ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به . قال : وانحدر حسينٌ إلى البصرة فأقام فيها طولَ أيّام المأمون .

محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدّثني أبي قال :

لمّا أعيت حسين بن الضحّاك الحِيلةُ في رضا المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن مَسْعَدة وكتب إليه :

أنت طَوْدي من بين هذي الهِضابِ وشِهابي من دُون كلّ شهابِ
أنت يا عمــرو قوّتي وحيـــاتي ولساني وأنــت ظُفْري ونابي
أتُــراني أنسى أياديـــك البيــــض إذ اسودّ نائـــــلُ الاصحاب
أين عطفُ الكـرام في مَأقِط الحا جـة يحمُــون حَـوزةَ الآداب
إنّ أخــلاقك الرضِيّــة حالت فيَّ أم أيـن رِقّـةُ الكُتّــاب
أنا في ذِمّـــة السَّحــاب وأظما إنّ هذا لَوَصْمــةٌ في السحــاب
قُــمْ إلى سيّــد البَريّـــة عــنّي قَومـةً تَستجـرُّ حُسنَ خِطاب
فلعــلّ الإلَــهَ يُطفـيء عنّـــي بك ناراً عليَّ ذاتَ التهـابِ (١)

قال : فلم يزل عمرو يَلْطُف للمأمون حتى أوصله إليه و أدرّ أرزاقَــه .

ابن أبي الأزهر قال :

كنت بين يدَي المأمون واقفاً ، فأُدخل إليه ابنُ البوّاب رُقعةً فيها أبياتٌ

(١) المأقط : المضيق .

وقال : إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذنَ لي في إنشادها . فظنّها له فقال : هاتِ . فأنشده :

أجِرني فإنّي قد ظَمِئت إلى الوعد ... متى تُنجزُ الوعدَ المؤكّد بالعَهدِ
أُعيذُك من خُلْف الملوك وقد تَرى ... تقطُّعَ أنفاسي عليك من الوَجد
أيبخل فَردُ الحُسن عنّي بنائلٍ ... قليلٍ وقد أفردتُه بهوًى فَرْدِ

إلى أن بلغ إلى قوله :

رأى الله عبدَالله خيرَ عبادهِ ... فملَّكه والله أعلمُ بالعَبدِ
ألا إنّما المأمونُ للناس عِصمةٌ ... مُمَيِّزةٌ بين الضَّلالة والرُّشْد

فقال المأمون : أحسنتَ يا عبدالله ! فقال : يا أمير المؤمنين ، أحسنَ قائلُها . قال : ومن هو ؟ فقال : عبدُك حسين بن الضحّاك . فقطّب ثم قال : لا حيّا الله مَن ذكرتَ ولابَيّاه[1] ولا قَرَّ به ولا أَنعمَ به عينا . أليس القائل :

أعينيَّ جُودا وابكيالي محمداً ... ولا تَذْخَرا دمعاً عليه وأسعِدا
فلا تَمّت الأشياءُ بعد محمدٍ ... ولا زال شَمل المُلك فيه مبدَّدا
ولا فرِح المأمونُ بالمُلك بعده ... ولا زال في الدنيا طريداً مُشرَّدا

هذا بذاك ، ولا شيء له عندنا . فقال له ابنُ البوّاب : فأين فضلُ إحسان أمير المؤمنين وسَعَةُ حِلمه وعادتُه في العفو ؟ فأمر بإحضاره ، فلمّا حضر سَلّم ، فردّ عليه السّلامَ ردّاً جافياً ، ثم أقبل عليه فقال : أخبِرْني عنك ، هل عرفتَ يومَ قُتل أخي محمد هاشميّةً قُتلت أو هُتكت ؟ قال : لا . قال : فما معنى قولك :

وسِربِ ظِباءٍ من ذُؤابة هاشمٍ ... هَتفن بدعوى خير حيٍّ وميّتِ
أردّ يداً منّي إذا ما ذكرته ... على كِبدٍ حَرّى وقلبٍ مُفتّت

---

(١) بيّاه الله : أضحكه أو قرّبه .

فلا بات ليلُ الشامتين بغِبطـةٍ ولا بلغتْ آمالُهم ما تمنَّـتِ

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعةٌ غَلَبَتْني ، وروعة فاجأتني ، ونعمةٌ فقدتُها بعد أن غمرتْني ، وإحسانٌ شكرتُه فأَنطقني ، وسيّدٌ فقدتُه فأقلقني ، فإن عاقبتَ فبحقّك ، وإن عفوتَ فبفضلك . فدمَعت عينا المأمون وقال : قد عفوتُ عنك وأمرت بإدرار أرزاقك وإعطائك ما فات منها ، وجعلتُ عُقوبةَ ذَنبك امتناعي من استخدامك .

عليّ بن محمد النوفليّ قال : قال لي محمد بن عبّاد :

قال لي المأمونُ ، وقدمتُ من البصرة : كيف ظريفُ شُعرائكم وواحدُ مِصركم ؟ قلت : ما أعرِفه . قال : ذاك الحسين بن الضَحّاك أشعرُ شعرائكم وأظرف ظرفائكم ، أليس هو الذي يقول :

رأى اللهُ عبدَالله خيرَ عبـاده فمَلكّه واللهُ أعلمُ بالعبـدِ

قال : ثم قال المأمون : ما قال فيّ أحدٌ من شعراء زماننا بيتاً أبلغَ من بيته هذا ، فاكتب إليه فاستقدِمْه ـ وكان حسين عليلاً ، وكان يخاف بوادر المأمون لِما فرَط منه ـ فقلت للمأمون : إنّه عليلٌ يا أمير المؤمنين ، عِلّته تمنعه من الحركة والسفر . قال : فخُذ كتاباً إلى عامل خَراجكم بالبصرة حتى يعطيَه ثلاثين ألف درهم . فأخذتُ الكتاب بذلك وأنفذتُه إليه فقبض المال .

أخباره مع المعتصم

سَوادةُ بن الفَيض المخزوميُّ قال : حدّثني أبو الفيض بن سوادة عن جَدّي قال :

لمّا وَلي المعتصمُ الخلافة سألني عن حسين بن الضحّاك ، فأخبرتُه بإقامته بالبصرة لانحراف المأمون عنه ، فأمر بمكاتبته بالقُدوم عليه ، فقَدِم . فلمّا دخل وسَلّم استأذن في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قوله :

هَلّا سألت تلذُّذَ المُشتـاقِ ومَنَنْت قبل فِراقه بتَـلاقِ

إنّ الرَّقيبَ لَيَستريـب تنفُّساً صُعُداً إليك وظاهـرَ الإقلاق
ولئن أَرِبْتُ لقد نظرتُ بمُقلةٍ عَبْرى عليك سخينة الآمـاق
نفسي الفِداءُ لخائفٍ مترقِّـبٍ جعل الوَداع إشـارةً بعِنـاق
إذ لا جوابَ لُمفْحَمٍ متحيّرٍ إلّا الدموعُ تُصان بالإطراق (١)

حتى انتهى إلى قوله :

خيرُ الوفود مُبشِّرٌ بخلافـةٍ خصّت ببهجتها أبا إسحـاق
وافتْـه في الشهر الحَـرام سليمةً من كلّ مُشكلـةٍ وكلّ شِقـاق
أعطتْـه صَفْقَـتَها الضمائرُ طاعةً قبل الأَكُفّ بأوكد الميثـاق
سكَن الأنامُ إلى إمام سـلامةٍ عَفٍّ الضمير مهذّبِ الأخـلاقِ
فحمى رعيّتَه ودافع دُونَها وأجار مُملِقَهـا من الإملاق(٢)

حتى أتمّها . فقال له المعتصم : ادن منّي . فدنا منه ، فملأ فمَه جوهراً من من جَوهر كان بين يديه ، ثم أمر بأن يُخرجَه من فِيه ، فأخرجه ، وأمر بأن يُنظَم ويدفَعَ إليه ويَخرجَ إلى الناس وهو في يده ليعلموا موقعه من رأيه ويعرفوا فعلَه . فكان أحسنَ ما مُدح به يومئذٍ ...

الحسين بن الضحّاك قال :

غضب المعتصم عليّ في شيء جرى على النَّبيذ فقال : والله لأُؤَدِّبنَّه . وحجبني أياماً . فكتبتُ إليه :

غَضَبُ الإمـام أشدُّ من أَدبِـه وقد استجرتُ وعُذْتُ من غَضَبه

---

(١) تلذذ المشتاق : لا معنى لها في هذا الموضع وقد استظهر محقق المطبوعة ان تكون محرفة عن « تلدّد » وهو الحيرة والدهش . صعداً : يقال تنفّس الصعداء أي تنفس تنفساً طويلاً .

(٢) أعطته صفقتها : بايعته .

أصبحتُ معتصماً بمعتصمٍ أثنى الإلهُ عليه في كُتبه
لا والذي لم يُبقِ لي سبباً أرجو النَّجاةَ به سوى سَببه
ما لي شفيعٌ غيرُ حُرمته ولكلّ من أَشْفَى على عَطَبه

قال : فلمّا قُرىء عليه التفت إلى الواثق ثم قال : بمثل هذا الكلام يُستعطَف الكرام ، ما هو إلّا أن سمعتُ أبياتَ حسين هذه حتى أزالت ما في نفسي عليه . فقال له الواثق : هو حَقيقٌ بأن يُوهَب له ذنبُه ويُتجاوزَ عنه . فرضي عنّي وأمر بإحضاري .

قال الصولي : فحدّثني الحسين بن يحيى أن هذه الأبيات إنّما كتب بها إلى المعتصم لأنه بلغه أنه مدح العبّاس بن المأمون وتمنّى له الخلافة ، فطلبه فاستتر ، وكتب بها إلى المعتصم على يَدي الواثق ، فأوصلها وشفَع له ، فرضي عنه وأمنّه ، فظهر إليه ...

أخباره مع الواثق

محمد بن مُخارق قال :

لمّا بُويع الواثق بالخلافة دخل عليه الحسين بن الضحّاك فأنشده قصيدته التي أوّلُها :

ألم يَرُعِ الإسلامَ موتُ نَصيره بَلَى حَقّ أن يرتاع من مات ناصِرُهْ
سيُسْلِيَك عمّا فات دولةُ مُفْضِلٍ أوائلُه محمودةٌ وأواخرُه
ثنى الله عِطفَيه وألّف شخصَه على البِرّ مُذ شُدَّت عليه مآزره
يَصَبٌّ ببَذْل المال حتى كأنّما يرى بَذْله للمال نَهْباً يُبادرهُ
وما قَدّم الرحمنُ إلّا مُقَدَّماً مَوارِدُه محمودةٌ ومصادره[1]

فقال الواثق : إن الحسين لَينطقُ عن حُسن طَويّةٍ ويمدح بخُلوص نيّة .

(١) يصب : يكلف ويولع .

ثم أمر بأن يُعطَى لكل بيت قاله من هذه القصيدة ألفَ درهم . فأعجبته الأبياتُ حتى أمر فصُنعت فيها عدّة ألحانٍ .

محمد بن عمرو الرّومي قال :

لما وَلي الواثق الخلافة أنشده حسين بن الضحّاك قصيدةً منها :

سيُسليك عما فات دولةُ مُقبلٍ أوائله محمودةٌ وأواخرُه
وما قدّم الرحمن إلّا مُقدَّماً موارِدُه محمودةٌ ومصادره

قال : فأنشدتُ إسحاق الموصليّ هذا الشعر ، فقال لي : نقل حسين كلامَ أبي العتاهية في الرشيد حتى جاء بألفاظه بعينها حيث يقول :

جرى لك من هارونَ بالسَّعد طائرُه إمامُ اعتزامٍ لا تُخاف بوادرُه
إمامٌ له رأيٌ حميدٌ ورحمةٌ موارِدُه محمودة ومصادره

قال : فعجبت من رواية إسحاق شعرَ المحدَثين ، وإنما كان يروي للأوائل ويتعصّب على المُحْدَثين ، وعلى أبي العتاهية خاصّةً .

عبدالله بن المؤمّل العسكريّ قال :

لمّا ولي الواثقُ الخلافةَ جلس للناس ودخل إليه المهنّئون والشعراء فمدحوه وهَنّؤوه ، ثم استأذن حسين بن الضحّاك بعدهم في الإنشاد ، وكان من الجُلساء فترفّع عن الإنشاد مع الشعراء ، فأذِن له ، فأنشده قوله :

أُكاتمُ وَجدي فما يَنْكَتِمْ بِمَنْ لوشكوتُ إليه رَحِمْ
وإنّي على حُسن ظنّي به لَأحذرُ إن بُحتُ أن يَحتشِمْ
ولي عند لَحْظَته رَوعةٌ تُحقّق ما ظَنّه المُتَّهِم
وقد علم الناس أنّي له مُحبٌّ وأحسَبُه قد عَلِمْ

ثم قال يمدح الواثق :

يَضيقُ الفضاءُ به إن غدا بطَوْدَي أعاريبِه والعَجَمْ

ترى النَّصرَ يقدُم راياتِـــه إذا ما خفقـن أمـامَ العَلَـمْ
وفي الله دَوّخ أعـــداءه وجَرّد فيهم سيوفَ النِّقـم
وفي الله يكظِم من غَيظـــه وفي الله يصفَح عمّن جَرَم
رأى شِيَم الجُود محمـودةً وما شيَمُ الجود إلّا قِسَـم
فراح على «نَعَمٍ» واغتدى كأن ليس يُحسِـن إلّا نَعَـمْ

قال : فأمر له الواثق بثلاثين ألف درهم ، واتّصلت أيامُه بعد ذلك ، ولم يزل من نُدَمائه .

حسين بن الضحّاك قال :

كانت لي نَوبةٌ في دار الواثق أحضُرها ، جلس أو لم يجلس . فبينا أنا نائمٌ ذاتَ ليلةٍ في حُجرتي إذ جاء خادمٌ من خَدم الحُرَم فقال : قُم فإنّ أمير المؤمنين يدعوك . فقلت له : وما الخبر ؟ قال : كان نائماً والى جَنْبه حَظِيّةٌ له فقام وهو يظنُّها نائمةً ، فألَمّ بجاريةٍ له أخرى ـ ولم تكن ليلةَ نَوبتها ـ وعاد إلى فِراشه . فغضبتْ حَظِيّتُه وتركتْه حتى نام ، ثم قامت ودخلتْ حُجرتَها ، فانتبه وهو يرى أنّها عنده ، فلم يجدها ، فقال : اختُلستْ عزيزتي ، ويحَكم أين هي ؟ فأُخبر أنّها قامت غَضبَى ومضت إلى حُجرتها ، فدعا بك . فقلت في طريقي :

غضبتْ أَن زُرتُ أخرى خِلسةً فلهـا العُتبَى لدينا والرِّضـا
يا فدتْك النفسُ كانت هفـوةً فاغفِريها واصفَحي عمّا مضى
واترُكي العَذْلَ على من قالـــه وانسَي جَوري إلى حُكم القضا
فلقد نَبَّهْتِني مـن رَقـــدتي وعلى قلبي كنِيران الغَضـا

قال : فلمّا جئتُه خبَّرني القصّة وقال لي : قُل في هذا شيئاً . ففكّرت هُنيهةً كأنّي أقول شعراً ثم أنشدتُه الأبيات ، فقال : أحسنتَ وحَياتي ! أَعِدها

يا حُسين . فأعدتُها عليه حتى حفِظها ، وأمر لي بخمسائة دينارٍ ، وقام فمضى إلى الجارية وخرجت أنا إلى حجرتي .

مَهْديّ بن سابق قال :

قال الواثق لحسين بن الضحّاك : قُل الساعةَ ابياتاً مِلاحاً حتى أهبَ لك شيئاً مَليحاً . فقال : في أيّ معنىً يا أمير المؤمنين؟ فقال : امدُدْ طرفَك وقُل فيما شئتَ ممّا ترى بين يديك وصفْه . فالتفتُّ[1] فإذا ببساطِ زهرِه قد تفتّحت أنوارُه وأشرق في نُور الصبح ، فأُرتج عليَّ ساعةً حتى خجلتُ وضِقتُ ذَرْعاً . فقال لي الواثق : مالك ويحَك ! ألست ترى نُورَ صَباح ، ونَوْر أَقاح ! فانفتح القولُ فقلت :

ألستَ ترى الصُبح قد أسفرا ... ومُبتكِرَ الغيثِ قد أَمطرا

وأسفرتِ الأرضُ عن حُلّةٍ ... تُضاحك بالأحمر الأصفرا

ووافاك نَيسانُ في وَردِه ... وحَثّك في الشُرب كي تسكَرا

وتُعمِلَ كأسَين في فِتيةٍ ... تُطارد بالأصغر الأكبَرا

يَحُثُّ كُؤوسَهم مُخْطَفٌ ... تُجاذب أردافُه المِئْزَرا[2]

[الأبيات ...] ...

قال : فضحك الواثق وقال : سنستعمل كلَّ ما قلت يا حسين إلا الفِسقَ الذي ذكرتَه فلا ولا كرامةَ . ثم أمر بإحضار الطعام فأكل وأكلوا معه . ثم قال : قومُوا بنا إلى حانة الشَّطّ . فقاموا إليها ، فشرب وطرب ، وما ترك يومئذٍ أحداً من الجُلَساء والمغنّين والحشَم إلّا أمــر لـه بصِلة . وكانت من الأيام التي سارت أخبارها وذُكرتْ في الآفاق ...

---

(١) يلاحظ هنا أن المتكلم هو الحسين بن الضحاك مع أن الحديث مرويّ عن غيره .

(٢) رجل مخطف الخصر : ضامره .

حسين بن الضحّاك قال :

كان الواثق يميل إلى الفَتْح بن خاقان[1] ويأنَس به وهو يومئذٍ غُلامٌ ، وكان الفتح ذكـيّاً جيّد الطَبع والفِطنة . فقال له المعتصم يوماً وقد دخل على أبيه خاقان عُرْطوج : يا فتحُ أيُّما أحسنُ : داري أو دار أبيك ؟ فقال له وهو غير متوقّف وهو صبيٌّ له سبعُ سنين أو نحوها : دارُ أبي إذا كنتَ فيها . فعجب منه وتبنّاه . وكان الواثق له بهذه المنزلة ، وزاد المتوكّل عليها . فاعتلّ الفتح في أيام الواثق عِلّةً صعبةً ثم أفاق وعُوفي ، فعزم الواثق على الصَّبُوح ، فقال لي : يا حسينُ ، أكتب بأبياتٍ عنّي إلى الفتح تدعوه إلى الصّبوح . فكتبتُ إليه :

لمّا اصطبحتُ وعينُ اللهو ترمُقني ... قد لاح لي باكراً في ثوب بِذْلته
ناديت فَتحاً وبَشّرتُ المُدامَ بـه ... لمّا تخلّص من مكروه عِلّته
ذَبَّ الفتى عن حَريم الرّاح مَكرمةٌ ... إذا رآه امرؤٌ ضِدّاً لِنِحلَته
فاعجَلْ إلينا وعَجّل بالسُّرور لنا ... وخالِسِ الدّهرَ في أوقات غَفلته

فلما قرأها الفتح صار إليه فاصطبح معه .

أخباره مع المتوكّل

عليّ بن محمد بن نصر قال : حدّثني خالي (يعني أحمد بن حَمدون) قال :

أمر المتوكّل أن يُنادمَه حسين بن الضحّاك ويلازمَه ، فلم يُطق ذلك لِكبَر سنّه . فقال للمتوكّل بعضُ من حضر عنده : هو يُطيق الذّهابَ إلى القُرى والمَواخير والسُّكرَ فيها ويعجِز عن خِدمتك ! فبَلغه ذلك ، فدفع إليّ أبياتاً قالها وسألني إيصالَها ، فأوصلتُها إلى المتوكّل ، وهي :

أمـا في ثمـانين وفَّيْتُهـا ... عَذيـرٌ وإن أنا لم أعتـذِرْ

(١) الفتح بن خاقان : أديب حسن الحديث حاد الذكاء اتخذه الواثق نديماً له ثم أصبح نديماً للمتوكل لا يفارق مجالسه . وقد قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ .

فكيف وقد جُزتُها صاعداً مع الصّاعدين بتسعٍ أُخَر
وقد رفع الله أقلامَه عن ابن ثمانين دُون البشرْ
سوى من أصرَّ على فِتنةٍ وألحدَ في دينه أو كفر
وإنّي لَمِن أسَراء الإلَه في الأرض نُصْبَ صُروف القَدَر
فإن يَقضِ لي عملاً صالحاً أثاب وإن يَقضِ شرّاً غَفَرْ
فلا تَلْحَ في كِبَرٍ هَدّني فلا ذنب لي إن بلغتُ الكِبَرْ
هو الشّيبُ حلّ بعقب الشباب فأعقبني خوَراً من أَشَرْ
وقد بسط اللهُ لي عُذرَه فمن ذا يلومُ إذا ما عَذَرْ
وإنّي لَفي كَنَفٍ مُغْدِقٍ وعزٍّ بنصر أبي المنتصِرْ
يُباري الرّياح بفضل السَّماحِ حتى تَبلَّد أو تنحسر
له أكّد الوحيُ ميراثَه ومن ذا يُخالف وَحيَ السُّوَر
وما للحَسُود وأشياعِه ومَن كذّب الحقَّ إلّا الحَجَر[1]

قال ابن حمدون : فلمّا أوصلتُها شيَّعتُها بكلامي أعذِره وقلت : لو أطاق خِدمةَ أمير المؤمنين لكان أسعدَ بها . فقال المتوكّل : صدقتَ ، خُذْ له عشرين ألف درهم واحمِلها إليه . فأخذتُها فحملتُها إليه .

عن حسين بن الضحّاك قال :

ضربني الرَّشيد في خلافته لصُحبتي ولدَه ؛ ثم ضربني الأمين لمُمايلة ابنه عبدالله ؛ ثم ضربني المأمون لميلي إلى محمد ؛ ثم ضربني المعتصم لمودّةٍ كانت بيني وبين العبّاس بن المأمون ، ثم ضربني الواثق لشيء بلغه من ذهابي إلى المتوكّل ، وكلّ ذلك يجري مجرى الولَع بي والتحذير لي . ثم أحضرني

---

(١) رفع الله أقلامه : أراد أن الله لا يحاسِب من جاوز الثمانين من سنه على ما يفعله إلا إذا كفر بالله . الأشر : المرح واللهو. أبو المنتصر : هو المتوكل والمنتصر وليّ عهده . الحجر : أي الرجم .

المتوكّـل وأمر شفيعاً بالوَلع بي ، فتغاضب المتوكّل عليّ ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إن كنت تريد أن تضرِبني كما ضربني آباؤك فاعلم أنّ آخر ضَربٍ ضُربتُه بسببك . فضحك وقال : بل أُحسِن إليك يا حُسين وأَصُونُك وأُكرمُك .

ميمون بن هارون قال :

كان للحسين بن الضحّاك ابنٌ يُسمّى محمداً ، له ارزاقٌ ، فمات فقُطعت أرزاقُه . فقال يخاطب المتوكّل ويسأله أن يجعل أرزاق ابنه المتوفّى لزوجته وأولاده :

إنّي أتيتُـك شافعــــاً بوليّ عهـــد المُسلمينـا
وشبيهِـــك المعتـــزِّ أَو جَهِ شافـعٍ في العالمينا
يا بنَ الخـــلائف الاوّلـــين ويا أبـــا المتأخّـرينـــا
إنّ ابن عبدك مـــات والأيّـــامُ تخترم القَـــرينـــا
ومضـــى وخَلـف صِبيـةً بعِراصِـه مُتَلَدِّدينــا
ومَهيرةً عَبْـرى خــلا ف أقاربٍ مُستعبيرينـــا
أصبحـــن في رَيب الحـوا دث يُحسنـون بك الظّنونا
قطـع الوُلاةُ جِـرايـةً كانـــوا بها مُستمسِكينا
فأمنُنْ برَدّ جميـع مـــا قطعـوه غير مُراقبينـــا
أعطـاك أفضلَ ما تُؤمِّـــلُ أفضلُ المُتَفَضّلينا (١)

قال : فأمر المتوكّل له بما سأل . فقال يشكره :

يا خيرَ مُستَخْلَفٍ من آل عبّـــاسِ اسلَمْ وليس على الأيام من باسِ
أُحييتَ من أملي نِضْـواً تَـعاوَرَه تعاقُبُ اليأس حتى مات باليأس

---

(١) اخترمته المنية : أخذته . تلدد : تحيرّ وتلفت يمينا ويساراً . المهيرة : الحرة الغالية المهر .

هجاؤه مغنّية استخفّت به

محمد بن عبدالله بن مالك قال :

كنّا في مجلس ومعنا حسين بن الضحاك ، ونحن على نبيذٍ ، فعبث بالمغنّية وجَمَّشها[1] ، فصاحت عليه واستخفّت به ، فأنشأ يقول :

لها في وَجهها عُكَنُ   وثُلثا وجهها ذَقَنُ
وأسنانٌ كريش البَطّ   بين أصولها عَفَنُ

قال : فضحكنا ، وبكت المغنّية حتى قلت قد عَمِيتْ ، وما انتفعنا بها بقيّةَ يومنا . وشاع هذان البيتان فكسَدت من أجلهما ، وكانت إذا حضرتْ في موضع أنشدوا البيتين فتُجَنّ . ثم هربت من سُرّ من رأى فما عَرفنا لها بعد ذلك خَبراً .

* * *

(١) جمّشها : غازلها ولاعبها .

١٧

الحَكَم بن قَنْبُر

[الأغاني الجزء ١٤ ص ١٦٢ وما بعدها]

الشاعر

هو الحكم بن محمد بن قُنْبُر المازنيّ ، مازن بني عمرو بن تميم . بصريّ ، شاعرٌ ظريف من شعراء الدولة الهاشميّة ؛ وكان يُهاجي مُسلم بن الوليد الأنصاريّ مُدّةً ، ثم غلبه مُسلم .

مهاجاته مسلم بن الوليد

منصور بن جَهْوَر قال

لمّا تهاجى مسلم بن الوليد وابنُ قُنبُر أمسك عنه مسلمٌ بعد أن بسط عليه لسانَه ، فجاء مُسلماً ابنُ عمّ له فقال : أيّها الرجل ، إنك عند الناس فوق هذا الرجل في عمود الشعر ، وقد بعثت عليه لسانَك ، ثم أمسكت عنه ، فإما أن قاذَعته ، وإمّا أن سالمتَه . فقال له مسلم : إنّ لنا شيخاً وله مسجدٌ يتهجَّد فيه ، وله دَعَواتٌ يدعوها ، ونحن نسأله أن يجعل بعضَ دعواته في كِفايتنا إياه . فأطرق الرجلُ ساعةً ثم قال :

غَلَب ابنُ قُنبر واللئيمُ مُغَلَّبٌ   لمّا اتَّقَيْتَ هجاءَه بدُعاءِ
ما زال يقذِف بالهجاء ولَذْعِه   حتّى اتَّقوَه بدعوة الآباء

قال : فقال له مسلم : والله ما كان ابنُ قُنبر لِيَبْلُغَ منّي هذا ، فأمسِك عنّي لسانَك وتعرَّفْ خبَره بعدُ. قال : فبعث الرجلُ واللهِ عليه من لسان مُسلم ما أسكته.

محمد بن عبدالله العَبْدي القَسْريّ قال :

رأيت مسلم بن الوليد والحكمَ بن قنبر في مسجد الرُّصافة في يوم جمعة ، وكل واحدٍمنهما بإزاء صاحبه ، وكانا يتهاجيان. فبدأ مسلمٌ فأنشد قصيدته :

أنا النارُ في أحجارها مستَكِنّة   فإن كنتَ ممّن يقدحُ النارَ فاقدَحِ

وتلاه ابن قنبر فأنشده قوله :

قد كِدت تَهوي وما قَوسي بمُوترةٍ   فكيف ظَنُّك بي والقوسُ في الوترِ

فوثب مسلم وتواخزا وتواثبا حتى حَجز الناسُ بينهما فتفرّقا. فقال رجلٌ لمسلم ـ وكان يتعصّب له ـ : ويحَك ! أعجَزْتَ عن الرجل حتى واثبتَه ؟ قال : أنا وإياه لكما قال الشاعر :

« هنيئاً مَريئاً أنت بالفُحش أَبْصَرُ »

وكان بن قنبر مستعلياً عليه مدّةً ، ثم غلبه مسلم بعد ذلك. فمن مناقضتهما قول ابن قنبر :

ومن عجَب الأشياء أن لمسلمٍ   إليّ نِزاعاً في الهجاء وما يدري
وواللهِ ما قِيستْ عليّ جُدودُه   لدى مَفْخَرٍ في الناس قوساً ولا شعري(١)

ولابن قنبر قولُه :

كيف أهجوك يا لئيمُ بشعري   أنت عندي فاعلَمْ هجاءُ هجائي

(١) قوساً : مقدار قوس.

يا دَعيٌّ الأنصار بل عبدَهــا النَّــذْ لَ تعرّضتَ لي لِـدَرْك الشقــاء

سائرُ أخباره

● عن محمد بن سَلّام قال : أنشدني ابن قنبر لنفسه :

وَيْلي على من أطار النومَ وامتنعــا وزاد قـلبي على أوجـاعه وَجَعا
ظَبْـيٌ أغَــرٌّ ترى في وجهـه سُرُجاً تُعشي العُيونَ إذا ما نورُه سطَعا
كأنّما الشمسُ في أثــوابه بزَغَـت حُسناً أو البدرُ في أردانه طَلَعا
فقد نسيتُ الكَرى من طُول ما عَطِلتْ منه الجُفونُ وطارت مُهجتي قِطَعا

قال ابن سلّام : ثم قال ابن قنبر : لَقِيَتْني جَوارٍ من جواري سليمان بن عليّ في الطريق الذي بين المِربَد وقصر أوس فقُلن لي : أنت الذي تقول :

« ويلي على من أطار النوم وامتنعا »

فقلت : نعم ، فقلن : أمع هذا الوجه السَّمْـح تقول هذا ؟ ثم جعلن يجذُبْنَني ويَلهُون بي حتى أخرجنني من ثيابي ، فرجعت عارياً إلى منزلي . قال : وكان حسنَ اللِباس .

● عن محمد بن سلّام قال :

أنشدني ابنُ قنبر لنفسه قولَه :

صَرَمتِني ثـم لا كَلَّمْتِـني أبـداً إن كنتُ خُنتُكِ في حالٍ من الحالِ
ولا اجترمتُ الذي فيـه خيانَتكُــم ولا جَرتْ خطرةٌ منه على بالي

قال : فقلت له وأنا أضحك : يا هذا ، لقد بالغتَ في اليمين . فقال : هي عندي كذاك وإن لم تكن عندك كما هي عندي .

● عليّ بن محمد النوفليّ قال : حدّثني عمّي قال :

دخل الحكَم بن قنبر على عمّي ـ وكان صديقاً له ـ فبشّ به ورفع مجلسه ،

وأظهر له الأُنس والسُّرور ، ثم قال : أنشِدْني أبياتك التي أقسمتَ فيها بما في قلبك . فأنشده :

وحَقِّ الـذي في القلب منـك فإنـه | عظيمٌ لقد حَصَّنت سِرَّكِ في صَدري
ولكنّما أفشـاه دمعـي ورُبّمـا | أتى المرءُ ما يخشاه من حيث لا يَدري
فهَبْ لي ذُنوبَ الدَّمعِ إني أَظُنّـهُ | بما منه يبدُو إنما يبتغي ضُرّي
ولو يَبتغي نفعي لَـخَلّى ضمائـري | يَـرُدُّ على أسرار مكنونِها سِتري

فقال لي : يا بُنَيّ ، اكتُبها واحفَظها . ففعلت وحفظتُها يومئذٍ وأنا غُلام .

● قال اليزيديّ : قال عمّي : وهو الذي يقول :

ليس فيها ما يُقال لـه | كَمُلَتْ لـو أنّ ذا كَمَلا
كلُّ جزءٍ من مَحاسنهـا | كائنٌ في فَضلـه مثـلا
لو تمنّت في ملَاحتهـا | لم تجـد من نفسها بَدَلا

● ابن مَهرُويه قال : قال لي إبراهيم بن المُدبّر : أتعرف الذي يقول :

إن كنتَ لا تَرهَبُ ذمّي لمـا | تعرِف من صَفحي عن الجاهلِ
فاخشَ سُكوتي فَطِناً مُنصِتـاً | فيك لتحسين خنا القائـلِ
مَقالـةُ السُّوء إلى أهلهـا | أسهلُ من مُنحدَرٍ سائـلِ
ومن دعا الناس إلى ذَمِّـه | ذَمُّوه بالحقّ وبالباطـلِ[1]

فقلت : هذه للعَتّابيّ . فقال : ما أنشدتُها إلا لابن قُنبر . فقلت له : من شاء منهما فليَقُلها ، فإنه سرقه من قول عبيدِالله بن عبدالله بن عُتبة :

وإن أنا لم آمُرْ ولم أنهَ عنكمـا | سكتُّ له حتى يَلجّ ويستَشري[2]

---

(١) الخنا : الكلام الفاحش .

(٢) استشرى الفرس في سيره : لجّ ومضى بلا فتور.

● محمد بن سلّام قال :

مرض ابنُ قُنبر فأتَوه بخَصيبٍ الطبيب يعالجه ، فقال فيه :

ولقد قلتُ لأهلي إذ أتَوني بخَصيبِ
ليس والله خصيبٌ للّذي بي بِطبيبِ
إنّما يَعرِف دائي مَن به مثلُ الذي بي

قال : وكان خصيب عالماً بمرضه ، فنظر إلى مائه فقال : زعم جالينوس أن صاحب هذه العلّة إذا صار ماؤه هكذا لم يَعِش . فقيل له : إن جالينوس ربما أخطأ . فقال : ما كنت إلى خطئه أحوجَ مني إليه في هذا الوقت . قال : ومات من علّته .

* * *

١٨

حمّاد عجرد

[الأغاني الجزء ١٤ ص ٣٢١ وما بعدها]

الشاعر

هو حَمّادُ بن يحيى بن عُمر بن كُليب ، ويُكنى أبا عُمر ، مولى بني عامر بن صَعصعة ... وأصلُه ومَنشؤه بالكوفة ، وكان يَبري النَّبْل . وقيل : بل أبوه كان نَبّالاً ، ولم يتكسّب هو بصناعة غير الشعر ...

وحمّادٌ من مخضرمي الدولتين الأموية والعبّاسية ، إلّا أنه لم يَشتهِر في أيام بني أمية شُهرتَه في أيام بني العباس . وكان خليعاً ماجناً ، مُتَّهماً في دينه ، مَرميّاً بالزَّندقة .

عاصم بن أفلَح بن مالك بن أسماء قال :

كان يحيى أبو حمّادِ عَجردٍ مولًى لبني هند بنت أسماء بن خارجة ، وكان وكيلاً لها في ضَيعتها بالسَّواد ، فولدت هندٌ من بشر بن مروان عبدَ الملك ابن بشر ، فجرّ عبدُ الملك ولاءَ مَوالي أمّه فصاروا مَواليَه .

قال : ولمّا كان والدُ حَمّاد عجرد بالسّواد في ضَيعتها نَبّطه[1] بشارٌ لمّا هجاه بقوله :

---

(١) نبطه : نسبه الى النبط .

واشدُدْ يديك بحَمّاد أبي عُمـرٍ فإنّـه نبطيٌّ من زَنابـير [1]

قال : وإنّما لقّبه بِعَجْرَد عمرُو بن سِنديّ ، مولى ثقيف ... وعجرد مأخوذ من المُعَجْرِد ، وهو العُريان في اللغةِ ، يقال : تَعجرد الرجلُ إذا تعرّى فهو يَتَعَجْرَدُ تعجرُداً ، وعجردتُ الرجل أُعَجرِدُه عَجردةً إذا عرّيتُه .

صالح بن سليمان الخثعميّ قال : قيل لعبدالله بن ياسين : إنّ بشاراً المُرعَّث هجا حماداً فنَبّطه . فقال عبدالله : قد رأيت جدّ حمّاد ، وكان يُسمّى كُليبا ، وكانت صناعته صناعةً لا يكون فيها نَبَطيّ ، كان يبري النِّبال ويَريشُها ، وكان يقال له : كُليب النَبّال ، مولى بني عامر بن صعصعة .

زندقته

عن إبراهيم بن عُمر العامريّ قال : كان بالكوفة ثلاثةُ نَفَرٍ يقال لهم الحَمّادون : حمّاد عَجرد ، وحمّاد الراوية ، وحمّاد بن الزِبرقان ، يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشَرُون معاشرةً جميلةً ، وكانوا كأنهم نفسٌ واحدة ، يُرمَون بالزندقة جميعاً ، وأشهرهُم بها حمّاد عجرد .

أبو نواس قال :

كنت أتوهّم أنّ حماد عجرد إنّما رُمي بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حُبست في حبس الزّنادقة ، فإذا حماد عَجرد إمامٌ من أئمّتهم ، وإذا له شعرٌ مزاوَج بيتين بيتين يقرؤون به في صَلاتهم . قال : وكان له صاحبٌ يُقال له حُريث على مذهبه ، وله يقول بشّار حين مات حماد عجرد على سبيل التعزية له :

بكى حُريثٌ فوَقّـره بتعزيـــة مات ابنُ نِهيا وقد كانا شريكَيْنِ
تفاوضا حين شابا في نسائهمــا وحَلّلا كلَّ شيء بين رِجليـن
أمسى حُريثٌ بما سَدّى له غَـــيَراً كراكب اثنين يرجو قوّة اثنين

(١) زنابير : أرض قرب جُرش .

حتى إذا أخذا في غير وجههما تفرّقا وهوى بين الطريقيْن[1]

يعني أنه كان يقول بقول الثَّنَوية في عبادة اثنين ، فتفرّقا وبقي بينهما حائراً .

قال : وفي حماد يقول بشار أيضاً وينسبُه إلى أنه ابن نِهيا :

يابنَ نِهيا رأسٌ عليّ ثقيلٌ واحتمالُ الرؤوس خطبٌ جليلُ
أُدْعُ غيري إلى عبادة الاثنين فإنّي بواحدٍ مشغولُ
يابنَ نِهيا بَرِئتُ منك إلى الله جِهاراً وذاك منّي قليلُ

قال : فأشاع حمادٌ هذه الأبيات لبشار في الناس وجعل فيها مكان : « فإنّي بواحدٍ مشغول » : « فإني عن واحد مشغول » ليُصحّح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى. فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس حتى انتهت إلى بشار ، فاضطرب منها وتغيّر وجزِع وقال : أشاط ابنُ...بدمي ، والله ما قلت إلاّ : « فإني بواحد مشغول » ، فغيّرها حتى شهَرني في الناس بما يُهلكني .

مهاجاته بشار بن برد

عمر بن شَبّة قال :

كان السبب في مهاجاة حمّاد عجرد بشاراً أن حمّاداً كان نديماً لنافع ابن عُقبة ، فسأله بشار تنجُّزَ حاجة له من نافع ، فأبطأ عنها ، فقال بشارٌ فيه :

مواعيدُ حمّادٍ سماءٌ مُخِيلةٌ تكشّف عن رعد ولكن ستبرُقُ
إذا جئته يوماً أحال على غدٍ كما وُعِد الكَمّونُ ما ليس يَصدُق
وفي نافع عني جفاءٌ وإنني لأُطرق أحياناً وذو اللُّبّ يُطرق
وللنَقَرى قومٌ فلو كنتُ منهم دُعيتُ ولكن دونيَ البابُ مُغلَقُ
أبا عُمر خَلّفتُ خلفَك حاجتي وحاجةُ غيري بين عينَيك تَبْرُقُ
وما زلت أستأنيك حتى حسرتَني بوعدٍ كجاري الآلِ يَخفَى ويَخفُق[2]

(١) تفاوضا : اشتركا .

(٢) كما وعد الكمون : مثل يضرب لإخلاف الوعد لأن الكمون يوعد بالسقاية ثم لا يسقى . النقرى : دعوة قوم دون قوم . استأناه : انتظره ولم يتعجله . الآل : السراب .

قال : فغضب حمّاد وأنشد نافعاً الشعر ، فمنعه من صلة بشار ، فقال بشار :

أبا عمر ما في طِلابيكَ حاجـــةٌ ولا في الذي منّيتَنا ثم أصحرا
وعدتَ فلم تصدُقْ وقلتَ غداً غـــداً كما وُعِد الكمّونُ شُرباً مؤخَّرا

قال : فكان ذلك السبب في التهاجي بين بشّار وحمّاد .

عن أبي أيوب الزُبالي قال :

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حمّاد وبشّار على اتفاقٍ منهما ورِضىً بأن ينقل إلى كل واحد منهما وعنه الشعر . فدخل يوماً إلى بشار فقال له : إيهٍ يا فُلان ، ما قال ابنُ ... فيّ ؟ فأنشده :

إن تاه بشـــارٌ عليكم فقـــد أمكنتُ بشّاراً من التِيـــهِ

فقال بشار : بأيّ شيء ويَحك ؟ فقال :

وذاك إذ سَمَّيتـــه باسمِـــه ولـم يكن حُـرٌّ يُسمّيـه

فقال : سخِنتْ عينُه ، فبأي شيء كنتُ أُعرَف ؟ إيهٍ . فقال :

فصـار إنساناً بذِكري لـــه ما يبتغي من بعـد ذِكريـهِ

فقال : ما صنع شيئاً ، إيهٍ ويحك ؟ فقال :

لـم أهـجُ بشاراً ولكنّـــني هجـوتُ نفـسي بهِجائِيـهِ

فقال : على هذا المعنى دار وحوله حامَ ، إيه أيضاً وأيَّ شيء قال ؟ فأنشده :

أنت ابنُ بُـردٍ مثـلُ بُـــر دٍ في النّذالـــة والرّذالـهْ
من كان مثـلَ أبيك يـــا أعمـى أبوه فلا أبـــا لـــه

فقال : جَوّد ابنُ ... وتمامُ الأبيات الأُوَل :

لم آتِ شيئاً قطّ فيما مضـــى ولســت فيما عِشتُ آتِيـهِ
أسـوأ لي في الناس أُحدوثـــةً مـن خطـأٍ أخطأتُه فيه

فأصبح اليومَ بسَبّي لـــــــه أعظمَ شأنـــاً من مَواليــهِ

محمد بن عبدالله بن أبي عُيَينة قال :

قال حمّاد عجرد لمّا أُنشد قولَ بشار فيه :

يابنَ نِهيا رأسٌ عليّ ثقيـــــلٌ واحتمال الرأسين خطبٌ جليلُ
فادعُ غيري إلى عبـــادة ربَّيـــــن فإني بواحـدٍ مشغـولُ

والله ما أُبالي بهذا من قوله ، وإنما يَغيظُني منه تجاهلُه بالزّندقة ، يُوهم الناسَ أنه يظنّ أنّ الزّنادقة تعبُد رأساً لِيظنّ الجُهّالُ أنّه لا يعرفُها ، لأن هذا قولٌ تقوله العامة لا حقيقةَ له ، وهو والله أعلمُ بالزندقة من ماني .

أبو أيوب الزباليّ قال :

قال بشار لراوية حماد : ما هجاني به اليومَ حمّاد ؟ فأنشده :

ألا مَـــن مُبلِـغٌ عنّـي الّـــذي والـــدُه بُـــرْدُ

فقال : صدق ابن الفاعلة ، فمايكون ؟ فقال :

إذا ما نُسـب النـــاسُ فلا قبـلٌ ولا بعــــدُ

فقال : كذب ابن الفاعلة ، وأين هذه العَرَصاتُ من عُقيل ؟ فما يكون ؟ فقال :

وأعمـى قَلْطبـانٌ مـــا عـلى قاذِفِـــه حَـدٌّ(١)

فقال : كذب ابنُ الفاعلة ، بل عليه ثمانون جلدةً ، هيـهِ . فقال :

وأعمـى يشبــه القـــردَ إذا ما عَمِـي القِـــردُ

فقال : والله ما أخطأ ابن ... حين شبّهني بقرد ، حَسبُك حَسبُك . ثم صفق بيديه وقال : ما حيلتي ؟ يراني فيشبِّهُني ولا أراه فأشبّهه .

أبو غسّان دَماذ .. :

(١) القلطبان : من لا غيرة له والقوّاد .

لمّا قال حمّاد عجرد في بشار :

شبيــه الوجــه بالقـــــرد | إذا ما عَـــمي القـــردُ

بكى بشار ، فقال له قائل : أتبكي من هجاء حماد فقال : والله لا أبكي من هجائه ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه ، فيَصِفُني ولا أصِفُه . قال : وتمام هذه الأبيات :

ولـو يَنْكَهُ في صَلْـــدٍ | صَفاً لانْصدع الصَّلْـدُ
دَنيٌّ لم يَـــرُح يومــــاً | إلى مجـدٍ ولم يَغْـــدُ
ولم يحضُـرْ مع الحُضّـا | رفي خـيرٍ ولـم يَبْدُ
ولـم يُخشَ لــه ذَمٌّ | ولم يُـرجَ لـه حَمدُ
جرى بالنَّحس مـذ كان | ولم يجـرِ لـه سَعـدُ
هو الكلـبُ إذا ما مـا | ت لم يُوجَد له فَقْدُ (١)

خَلّاد الأرقط قال :

أشاع بشار في الناس أن حمّاد عجرد كان يُنشد شعراً ورجُلٌ بإزائه يقرأُ القرآن وقد اجتمع الناس عليه ، فقال حمّاد : علامَ اجتمعوا ؟ فواللهِ لَمَا أقول أحسنُ ممّا يقول !

قال : وكان بشار يقول : لمّا سمعت هذا من حماد مقتُّه عليه .

أخبرني أحمد بن عبيدِالله بن عمار قال : أنشدني ابن أبي سعد لحمّاد عجرد في بشار : قال : وهو من أغلظ ما هجاه به عليه :

نهارُه أخبـــثُ من ليلـــــه | ويومُـه أخبثُ من أَمسِــهِ
وليس بالمُقلِعِ عـن غَيِّـــه | حتى يُوارى في ثَرى رَمْسِه

---

(١) نكه : تنفّس . نكه فيه : أطلق نَفَسه عليه . الصلد : الصلب الأملس .

قال : وكان أغلظَ على بشار من ذلك كله وأوجعَه له قولُـه فيه :

لو طُليت جلدتُـه عَنـبراً ... لأفسدتْ جِلدتُـه العَنبرا

أو طُليت مِسكـاً ذكيّاً إذاً ... تحـوّل المسـكُ عليـه ...

قال ابن أبي سعد : وقد بالغ بشارٌ في هجاء حمّاد ولكن حَكَم الناسُ عليه لحمّاد بهذه الأبيات .

قال يحيى بن الجَون العَبديّ راوية بشار : أنشدُت بشاراً يوماً قولَ حمّاد :

ألا قُل لعبـدالله إنّـك واحـدٌ ... ومثلـك في هذا الزمـان كثيرُ

قطعتَ إخائي ظالماً وهجرتَـني ... وليس أخي مَن في الاخاء يَجُورُ

أُديمُ لأهـل الوُدّ وُدّي وإننـي ... لِمن دام هَجْـري ظالمـاً لَهَجُور

ولو أنّ بعضي رابني لقطعتُـه ... وإني بقطع الرائبـين جَديـرُ

فلا تحسبنْ مَنحي لك الودَّ خالصـاً ... لِعِزٍّ ولا أنّي إليـك فقـيرُ

ودونَك حظّـي منك لست أُريـدُه ... طَوالَ الليالي ما أقام ثَبِـيرُ (١)

فقال بشار : ما قال حماد شعراً قطّ هو أشدُّ عليّ من هذا . قلت : كيف ذاك ولم يَهجُك فيه ؟ وقد هجاك في شعر كثير فلم تجزع . قال : لأنّ هذا شعرٌ جيدٌ ومثلُه يُروى ، وأنا أَنفَسُ عليه أن يقول شعراً جيداً .

محمد بن النَطّاح قال :

كنت شديد الحبّ لشعر حماد عجرد ، فأنشدتُ يوماً أخي بكر بن النطاح قوله في بشار :

أَسأتُ في ردّي على ابن ... ... إسـاءةً لم تُبقِ إحسـانـا

فصار إنساناً بذِكـري لـه ... ولم يكن من قبـلُ إنسانـا

قرعتُ سنّي ندَمـاً سادمـاً ... لو كان يُغني ندَمـي الآنـا

(١) ثبير : جبل بظاهر مكة .

يا ضيعـةَ الشعر ويا سَوءتنا لي ولأزمـانيَ أزمـانـا
من بعد شتمي القِرد لا والذي أنزل تـوراةً وقـرآنـا
ما أحـدٌ من بعد شتمـي له أنذَلُ مني كان مَن كانـا[1]

قال : فقال لي : لِمن هذا الشعر ؟ فقلت : لحماد عجرد في بشّار . فأنشأ يتمثّل بقول الشاعر :

ما يضرّ البحرَ أمسى زاخـراً أن رمـى فيه غـلامٌ بحَجَـرْ

ثم قال : يا أخي ، إنسَ هذا الشعر ، فنِسيانُه أَزْيَن بك ، والخَرَسُ كان أسترَ على قائله .

علي بن مَهديّ قال :

أجمَعَ العلماءُ بالبصرة أنه ليس في هجاء حمّاد عجرد لبشّار شيءٌ جيد إلا أربعين بيتاً معدودةً ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . قال : وكل واحدٍ منهما هو الذي هتك صاحبه بالزّندقة وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد عجرد وتهتّك[2] بفَضْل بلاغة بشار وجَودة معانيه ، وبقي بشارٌ على حاله لم يسقُط ، وعُرف مذهبه في الزندقة فقُتل به .

أبو مُعاذ النُميريّ :

أن بشاراً ولد له ابنٌ ، فلمّا ولد قال فيه حماد عجرد :

سائلْ أُمامـةَ يابنَ بُـر دِ مَن أبو هذا الغُـلامِ
أمِن الحَـلال أتـت بـه أم من مُقارفـة الحَرامِ
فَلتُخبِرنَّـك أنّـه بين العِـراقي والشـآمي

(١) السدم : الغم والغيظ مع الندم .
(٢) تهتك : تقطع .

والآخرِ الرُوميّ والنَبَطِيّ أيضاً وابنِ حامِ
أجعلتَ عِرسَك شِقوةً غَرَضاً لأسهُم كلّ رامي

عن النَّضر بن عَمرو قال : وَلي عيسى بن عمرو إمارةَ البصرة من قِبل محمد بن أبي العباس السفّاح لمّا خرج عنها عليلاً ، فقال له حمّاد عجرد :

قل لعيسى الأمير عيسى بنِ عَمرٍو ذي المساعي العِظام في قحطانِ
والبناء العالي الذي طال حتى قَصُرت دُونه يدا كلِّ بانِ
يا بنَ عمرو عمرو المكارم والتقوى وعمرو النَّدَى وعمرو الطِّعان
لك جارٌ بالمِصرِ لم يجعلِ اللهُ له منك حُرمةَ الجيران
لا يُصلّي ولا يصوم ولا يقرأ حرفاً من مُحكَم القرآن
إنَما معدِن الزُّناة من السِّفْلة في بيته ومأوى الزَّواني
وهو خِدنُ الصِّبيان وهو ابن سبعينَ فماذا يهوى من الصِّبيانِ
طَهِّر المِصرَ منه يا أيُّها المولَى تَفُزْ منه فوزَ أهل الجِنان
يابنَ بُردٍ اِخسَأْ إليك فمثلُ الكلب في الناس أنت لا الانسانِ
ولَعَمري لأنت شرٌّ من الكلب وأولى منه بكلِّ هَوانِ(١)

سائر أهاجيه

التَوَّزيُّ قال :

كان عيسى بن عمرو بن يزيد صديقاً لحمّاد عَجرد ، وكان يواصله أيام خِدمته للرّبيع (٢) ، فلمّا طرده الربيعُ واختلّت حالُه جفاه عيسى ، وإنما كان يصله لحوائج يسأل له الربيع فيها ، فقال حمّاد عجرد فيه :

(١) الك جار : أراد به بشار بن برد . اخسأ : لفظ زجر .

(٢) هو الربيع بن يونس وزير المنصور ، وكان حماد مؤدباً لولده ، فأرسل اليه بشار أبياتاً يحذره فيها من حماد ويتهمه في خلقه فصرف الربيع حماداً من خدمته .

أوصَلُ الناس إذا كانت لـــه حاجـةٌ عيسى وأقضاهـم لِحَقْ
ولعيسى إن أتى في حـــاجـةٍ مَلَقٌ يُنسَى به كـلُّ مَلَـقْ
فإن استغنى فمـــا يَعدِلُـــه نَخوةً كِسرى على بعض السُّوَق
إن تكن كنتَ بعيسى واثقـــاً فبهذا الخُلْـقِ من عيسى فثِقْ

عن أحمد بن أبي طاهر قال :

كان رجلٌ من أهل الكوفة من الأشاعثة[1] يقال له حُشَيش ، وكانت أمه حارثية ، فمدحه حمّاد عجرد ، فلم يُثِبه وتهاون به ، فقال يهجوه :

يا لقَومي للبـــلاء ومَعـاريض الشّقـــاء
قُسِمـت ألويـــةٌ بَـــين رجـالٍ ونســـاء
ظفرتْ أخـتُ بني الحـــارث منهـا بِلِـــواء
حارثٌ في الأرض يرتـــا ع لــه أهــلُ السّمـاء

قال : فعُرضت أسماء العُمّال على المنصور فكان فيها اسمُ حُشيش ، فقال : أهو الذي يقول فيه الشاعر :

يا لقـــومي للبـــلاء ومعـــاريض الشقـــاء

قالوا : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : لو كان في هذا خيرٌ ما تعرّض لهذا الشاعر . ولم يستعمله ...

محمد بن الحسن بن الحرُون قال :

كان حمّاد عجرد يعاشر أبا عَون جدَّ ابن أبي عَون العابد ، وكان ينزل الكَرْخَ ، وكان عجرد إذا قدم بغداد زاره ، فبلغ أبا عون أنه يُحدّث الناس أنه يهوى جارية يقال لها جوهر ، فحَجبه وجفاه واطّرحه ، فقال يهجو أبا عون :

(١) من الأشاعثة : أراد من آل الأشعث بن قيس الكندي .

أبــا عونٍ لحاك اللـــــهُ ـ يا عُـرَّةُ ـ إنســـانـــا
فقد أصبحت في الناسَ ـ إذا سُمِّيت ـ كَشْخانا
بنيتَ اليومَ في الكَشْخ لأهـل الكَـرْخ بُنيانـــا
وشرّفت لهـم في ذا ك أبــواباً وحِيطانـــا
وألفيـــتَ عـــلى ذاكَ من الفُسّـــاق أعوانـــا
ومُجّـــاناً ولـــن يَعدَمَ مَن يَـمْجُــن مُجّــانـا
فأخزى الله من كنـت أخاه كان مَـــن كانـــا
ولا زلـــتَ ولا زالَ بأخـــلاقك خَزْيانـــا
وعُريانـــاً كمـــا أصبحـــتَ من دِينك عُريانـــا[1]

عن مَهديّ بن سابق قال :

استعمل محمدُ بن أبي العبّاس ـ وهو يلي البصرة ـ غَيلانَ ، جدّ عبد الصّمد ابن المعذَّل ، على بعض أعشار البصرة ، وظَهر منه على خيانة ، فعزَله وأخذ ما خانه فيه فقال حمّاد عجرد يهجوه :

ظهر الأميرُ عليك يا غَيـــلانُ إذ خُنتَه إنّ الأميرَ مُعــانُ
أمع الدمامـــةِ قد جمعتَ خيانـةً قُبُــح الدَّميم الفاجــرُ الخَوّانُ

محمد بن صالح الجَبليّ قال :

كان حمّاد عجرد قد مدح يقطيناً فلم يُثبه ، فقال يهجوه :

متى أَرى فيما أرى دولـــــةً يَعِزُّ فيهـــا ناصرُ الدّيـــنِ
ميمـــونـــة مَجّدها ربُّهـــا بصـــادق النّيّـــة ميمـونِ
تَــرُدُّ يقطينـــاً ، وأشياعــه منهـــا إلى أبـــزار يقطـــين

(١) العرة : الجرب . الكشخان : الديوث .

قال : وكان يقطين قبل ظهور الدولة العباسية بخُراسان حائكاً .

قال : ومرّ يوماً بيُونسَ بن فَروة الذي كان الربيع يزعُم أنه ابنُه ، فلم يَهَشَّ له كما عَوّده ، فقال يهجوه :

أما ابنُ فَروةَ يونسٌ فكأنه ... من كِبْره ابنٌ للإمام القائم

وقال فيه :

ولقد رضيتَ بعُصبةٍ آخيتَهم ... وإخاؤهم لك بالمَعَرّة لازمُ
فعلمتُ حين جعلتَهم لك دِخلةً ... أنّي لِعرضي في إخائك ظالمُ

أخباره مع مطيع بن إياس

عن عليّ بن منصور قال :

مرِض حمّاد عجرد فلم يَعُدْه مطيعُ بن إياس ، فكتب إليه :

كفاكَ عِيادتي مَن كان يرجو ... ثوابَ الله في صِلة المريضَ
فإن تُحدِثْ لك الأيامُ سُقماً ... يحُولُ جَريضُه دون القَريض
يكنْ طولُ التأوُّهِ منك عندي ... بمنزلة الطَّنين من البَعُوضِ (١)

قال ابن عبد الأعلى الشَّيبانيّ :

حضر حمّاد عجرد ومطيع بن إياس مجلسَ محمد بن خالد وهو أمير الكوفة لأبي العبّاس ، فتمازحا ، فقال حماد :

يا مطيعٌ يا مطيعُ ... أنت إنسانٌ رقيعُ
وعن الخير بطيءٌ ... وإلى الشرّ سريعُ

---

(١) حال الجريض دون القريض : مثل يضرب للأمر يقدر عليه حين لا ينفع . والجريض : الغصة ، وجرض بريقه : ابتلعه مع هم وحزن ، والقريض : الشعر .

فقال مطيع :

إنّ حمّـــاداً لئيـــــــمُ　　سِفْلة الأصـــل عديـــمُ
لا تَــــراه الدهــرَ إلّا　　بَـهِنُ العَيْــر يهيـــمُ

فقال له حماد : ويلكَ ، أترمينني بدائك ! والله لولا كراهيتي لِتمادي الشرّ ولَجاجَ الهجاء لقلت لك قولاً يبقى ، ولكنّي لا أُفسد مودّتَك ، ولا أكافئك إلّا بالمديح . ثم قال :

كــلُّ شيءٍ لي فِــــداءُ　　لمُطيـعِ بن إيــــاسِ
رجـــلٌ مُستملَـــحٌ في　　كُـلّ لِيـنٍ وشِمـــاسِ
عِـدْلُ رُوحـــي بـــين جَنْبَـــيَّ وعَيـنَيّ براســـي
غَـرَس اللهُ لــــــه في　　كبِـدي أحلـــى غِراس
لستُ دهـــري لمطيـعِ بــــن إيـاسٍ ذا تنـاسي
ذاك إنســــانٌ لـــه فضـــلٌ على كـلّ أُنـــاسِ
فـــإذا مـا الكأسُ دارت　　واحتســاهـا مَن أحاسي
كان ذكـرانا مُطيعـــاً　　عندَهـــا رَيحانَ كاسي

ابن إسحاق عن أبيه قال :

... قال [حماد عجرد] في مطيع أيضاً وقد لجّ الهجاءُ بينهما :

عجبتُ للمدَّعي في النـاس منزلـــةً　　وليس يَصلـح للدُّنيـا وللدِّينِ
لو أبصروا فيـك وجهَ الرأي ما تركوا　　حتى يَشُـدُّوك كَرها شدَّ مجنون
ما نال قطُّ مطيـعٌ فضلَ منزلــــةٍ　　إلاّ بأن صِرتُ أهجوه ويهجــوني
ولــو تركـتُ مُطيعاً لا أُجاوبُــــه　　لكان ما فيه م الآفاتِ يكفيني
يختار قُربَ الفُحول المُردِ معتمـــداً　　جهلاً ويترُك قُربَ الخُرَّدِ العِين (١)

(١) الخرد ج خريدة : الفتاة البكر . العين ج عيناء : الواسعة العين .

ذكر محمد بن سِنان أنّ حماد عجرد حضر جاريةً مغنّيةً يقال لها سُعاد وكان مولاها ظريفاً ، ومعه مطيعُ بن إياس ، فقال مُطيع :

قَبِّليني سعـادُ باللهِ قُبلَـهْ ... واسأليني لها فديتُكِ نِحْلَهْ
فوَربِّ السماءِ لـو قلتِ لي صَـلِّ لوجهي جعلتُكِ الدهرَ قِبْلَهْ(1)

فقالت لحماد : اكفِنيهِ يا عمّ . فقال حماد :

إنّ لي صاحبـاً سواك وفيّـاً ... لا مَلُولاً لنا كمـا أنتَ مَلَّهْ
لا يُباعُ التقبيلُ بيعـاً ولا يُشرى فلا تجعـل التعشُّقَ عِلَّـه(2)

فقال مطيع : يا حمّاد ، هذا هجاءٌ ، وقد تعدّيتَ وتعرّضت ، ولم تأمُرْك بهذا . فقالت الجارية ــ وكانت بارعة ظريفة ــ : أجل ، ما أردنا هذا كُلّه . فقال حمّاد :

أنا واللهِ أشتهي مثلَهـا منـكِ والنُّحـلُ في ذاك حِلَّـهْ
فأجيبي وأَنعمي وخُذي البَذْلَ وأَطفِي بقُبلـةٍ منكِ غُلَّـهْ(3)

أخباره مع محمد بن أبي العبّاس ومحمد بن سليمان

عن إسحاق الموصليّ قال :

كان حمّاد عجرد في ناحية محمد بن أبي العبّاس السفّاح ، وهو الذي أدّبه ، وكان محمد يهوَى زينب بنت سليمان بن عليّ ، وكان قد قدِم البصرة أميراً عليها من قِبَل عمّه أبي جعفر ، فخطَبها ، فلم يُزوّجوه لشيءٍ كان في عقله ، وكان حمّاد وحَكَم الوادي ينادمانه ، فقال محمد لحمّاد : قُل فيها

(1) النحلة : العطية .
(2) رجل ملّة : سريع الملل .
(3) النحل : الهبة . حلة : حلال . الغلة : الظمأ .

شعراً . فقال حمادٌ فيها على لسان محمد بن أبي العباس ، وغَنّى فيه حكمُ الوادي :

زينبُ ما ذنبي وما الـــذي غضِبتمُ منه ولم تُغْضَبوا
والله ما أعرِفُ لي عندكـــم ذنباً ففيمَ الهجرُ يا زينبُ
إن كنتُ قد أغضبتكُمْ ضَلّــةً فاستعتِبُوني إنني أُعتــبُ
عُودوا على جهلي بأحلامكم إنّي وإن لم أُذنِب المذنِبُ(١)

العُتبيُّ قال :

كان محمد بن أبي العبّاس شديداً قوّياً جَواداً مُمدَّحاً ، وكان يَلوي العَمود ثم يُلقيه إلى أخته ريْطة فتردُّه . وفيه يقول حماد عجرد :

أرجوكَ بعد أبي العبّــاس إذ بانــا يا أكرمَ الناس أعراقاً وعِيدانا
فأنت أكرمُ من يمشي على قــدمٍ وأنضَرُ الناس عند المَحْل أغصانا
لو مَجّ عُودٌ على قومٍ عُصارتَــه لَمجّ عُودُك فينا المِسكَ والبانا

أبو عثمان المازنيّ قال :

قال حمّاد عجرد يُشبّب بزينب بنت سليمان على لسان محمد بن أبي العبّــاس :

ألا مَن لِقلبٍ مُستَهامٍ مُعَــذَّبِ بحُبّ غَزالٍ في الحِجال مُربَّبِ
يراه فلا يسطيع ردّاً لِطَرْفِــه إليه حِذارَ الكاشح المُترقّبِ
ولولا مَليكٌ نافذٌ فيه حُكمُــه لَأدنى وِصالاً ذاهباً كلَّ مَذهب
تَغبّرْتُ خِلْفَ اللهو بعد صِراوةٍ فبُحت بما ألقاه من حُبّ زينبِ(٢)

(١) لم تغضبوا : لم أفعل ما يستوجب غضبكم . استعتبه : طلب منه العتبى أي العفو والرضا . ضلة : ضلالاً .

(٢) الحجال ج حجلة : موضع يزين بالستور والثياب للعروس . مربب : مربى . =

قال : فبلغ الشعرُ محمدَ بن سليمان ، فنذَر دمه ، ولم يقدِر عليه لمكانه من محمد .

عن محمد بن عبد الرحمن قال :

مات محمد بن أبي العبّاس في أول سنة خمسين ومائة ، فقال حمّادٌ يرثيه بقوله :

صِرتُ للدّهر خاشعاً مُستكينا بعدما كنتُ قد قهرتُ الدُّهورا
حين أودَى الأميرُ ذاك الـذي كنتُ به حيث كُنتُ أُدعَى الأميرا
كنتُ إذ كان لي أُجير بـه الدَّهـرَ فقد صِرتُ بعده مُستجيرا
يا سَميَّ النبيِّ يابنَ أبي العَبّـاس حقّقتَ عنديَ المحذُورا
سلبتـني الهمـومُ إذ سَلَبَتْنيـكَ سروري فلست أرجو سرورا
ليتني مِتُّ حينَ موتك لا بـل ليتني كنتُ قبلَك المقبُورا
أنت ظَلَّلتني الغَمـامَ بنُعمـا ك ووَطّأتَ لي وِطـاءً وَثيرا
لم تدَعْ إذ مضيتَ فينا نظـيراً مِثلَ ما لم يَدَعْ أبوك نظِيرا

عن إسحاق قال :

لمّا مات محمد بن أبي العبّاس طلب محمد بنُ سليمان حمّاد عجرد لِما كان يقوله في أخته زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مُقام له معه بالبصرة ، فمضى فاستجار بقبر أبيه سليمان بن عليّ ، وقال فيه :

مِن مُقرٍّ بالذَّنب لم يُوجب اللـهُ عليه بسَيِّءٍ إقـرارا
ليس إلاّ بفضـل حِلمـك يَعتَـدُّ بـلاءً وما يُعـدّ اعتـذارا
يابـنَ بنت النبيّ أحمـدَ لا أجعـلُ إلاّ إليـكَ منـك الفِـرارا

= تغبر الناقة : احتلب غيرها والغبر : بقية اللبن في ضرع الناقة . الخلف : الضرع . أصرت الناقة : تحفل اللبن في ضرعها .

غير أنّي جعلــت قبرَ أبي أيّـــوب لي من حوادث الدَّهـر جـارا
وحَرِيٌّ من استجــار بذاك القَبـــر أن يأمَــنَ الرَّدى والعِثــارا
لم أجِد لي من العبـــاد مُجيـراً فاستجرتُ الـتراب َ والأحجارا

[الأبيات ...]

عليّ بن الصبّاح قال :

كان محمد بن سليمان قد طلب حمّاد عجرد بسبب نَسيبه بأخته زينب ، ولم يكن يقدر عليه لمكانه من محمد بن أبي العبّاس ، فلمّا هلَك محمد جَدّ ابنُ سليمان في طلبه ، وخافه حمّاد خوفاً شديداً ، فكتب إليه :

يابنَ عمّ النبيٍّ وابن النـــبيّ لِعـليٍّ إذا انتمـى وعـليٍّ
أنت بدرُ الـدُّجى المضيىءُ إذا أظلـــم واسودّ كلُّ بدرٍ مُضيّ
وحَيا الناس في المُحولِ إذا لــم يُجدِ غيثُ الربيع والوَسْميّ
إنّ مـولاك قـد أسـاء ومن أعتب من ذَنبه فغيرُ مُسِـــيّ
ثم قد جاء تائبــاً فاقبل التــو بة منه يابن الوصيّ الرَّضِيّ

قال : ومضى إلى قبر أبيه سليمان بن عليّ فاستجار به ، فبلغه ذلك ، فقال : والله لأبلَّـنّ قبر أبي من دمه . فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، فقال : لا أرضى أو تهجوَ محمد بن سليمان ، فقال يهجوه :

قُل لوجه الخَصيّ ذي العار إنّي سوف أُهدي لزينب الأشعارا
قد لعمري فررتُ من شدّة الخو ف وأنكـرت صـاحيٍّ نهارا
وظننتُ القبور تمنع جـــاراً فاستجرتُ التُراب والأحجارا
كنـت عنـد استجارتي بأبي أيّـوب أبغـي ضَلالـــةً وخَسـارا
لم يُجِـرني ولم أجِد فيه حظّـــاً أضرم الله ذلك القـبرَ نـارا

... قال : فبلغ هجاؤه محمدَ بن سليمان فقال : والله لا يُفلتني أبداً ، وإنما يزداد حَتفاً بلسانه ، ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً .

سائر أخباره

● أبو دُهمان قال :

كان أبو حنيفة الفقيه صديقاً لحمّاد عجرد ، فنسك أبو حنيفة وطلب الفِقه ، فبلغ فيه ما بلغ ، ورفَض حمّادٍ وبسَط لسانه فيه ، فجعل حمّاد يُلاطفه حتى يكفّ عن ذِكره ، وأبو حنيفة يَذكره ، فكتب إليه حمّاد بهذه الأبيات :

إن كـــان نُسكُـــك لا يتـــمّ بغير شتمـــي وانتقـــاصي
أو لم تكـــن إلّا بـــــه ترجو النجاةَ من القِصاص
فاقعُـــد وقُـم بي كيــف شئتَ مــع الأداني والأقاصي
فلطالمـــا زكّيتَـــــني وأنا المقيمُ على المعاصي
أيـــام تأخُـــذها وتُعطـــي في أباريـــق الرَّصـــاص[1]

قال : فأمسك أبو حنيفةَ رحمه الله بعد ذلك عن ذكره خوفاً من لسانه .

● عن النَّضر بن حديد قال :

كان حمّـاد عجرد صديقاً ليحيى بن زياد ، وكانا يتنادمان ويجتمعان على ما يَجتمع عليه مثلُهما . ثم إنّ يحيى بن زياد أظهر تورّعاً وقراءةً ونُزوعاً عمّا كان عليه ، وهجر حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكر عنده ثَلَبه وذكر تهتّكَه ومُجونَه . فبلغ ذلك حمّاداً ، فكتب إليه :

هـــل تذكـرن دَلَجي إليـــك على المُضمَّرةِ القِلاصِ
أيّـامَ تُعطيـــني وتــــأ خُذ من أباريقِ الرِّصاص

---

(١) تأخذها : أي الخمرة .

إن كـــان نُسكـك لا يتـــــمّ بغير شتمـــــي وانتقاصي
أو كنتَ لست بغير ذا ... ك تنال منزلـــةَ الخَـــلاص
فعليـــك فاشتُـــم آمنـــاً ... كلَّ الأمان من القِصاص

[الأبيات ..]

فاتّصل هذا الشعر بيحيى بن زياد ، فنسب حماداً إلى الزَّندقة ورمـاه بالخروج عن الإسلام ، فقال حمّاد فيه :

لا مُؤمـنٌ يعرفُ إيمـانـــــه ... وليس يحيى بالفتـى الكافـرِ
منـــافقٌ ظاهـــرهُ ناســـــكٌ ... مُخالفُ البـــاطن للظّـاهرِ

● عن إبراهيم بن محمد بن عبد الحميد قال :

اجتمع عمّي سهمُ بن عبد الحميد وجماعةٌ من وجوه أهل البصرة عند يحيى بن حُميد الطويل ، ومعهم حمادُ عجردٍ ، وهو يومئذٍ هاربٌ من محمد ابن سليمان ونازلٌ على عُقبةَ بن سَلْم وقد أَمِن ، وحضَر الغَداءُ فقيل له : سهمُ بن عبد الحميد يصلّي الضُّحى فانتظِر . وأطال سهمٌ الصلاة ، فقال حماد :

ألا أيُّهذا القانتُ المتهجِّـــــدُ ... صلاتُـــك للرحمن أم ليَ تسجُدُ
أما والذي نادى من الطُّور عبدَه ... لَمن غيرِ ما بِرٍّ تقوم وتَقعُد
فهلّا اتَّقيتَ اللهَ إذ كنتَ واليـــاً ... بصنعاءَ تَبري مَن وَلِيت وتجرُدُ
ويشهدُ لي أنّي بذلـك صـــادقٌ ... حُريثٌ ويحيى لي بذلك يشهد
وعند أبي صِفوانَ فيك شهـــادةٌ ... وبَكرٍ ، وبكرٌ مسلمٌ متهجِّدُ
فإن قلتَ زِدني في الشهود فإنـــه ... سيشهد لي أيضاً بذاك محمدُ

قال : فلمّا سمعها قطع الصلاة وجاء مبادراً فقال له : قَبحَك اللهُ يا زنديقُ ، فعلت بي هذا كلَّه لِشرهك في تقديم أكلٍ وتأخيره ! هاتوا طعامَكم فأطعِموه لا أطعمه الله تعالى ، فقُدّمت المائدة .

● عن إسحاق الموصليّ

أنّ مُجاشع بن مَسعَدة ، أخا عمرو بن مسعدة ، هجا حمّادَ عجردٍ ، وهو صبيّ حينئذٍ ، ليرتفع بهجائه حماداً ، فترك حمادا وشبب بأمه ، فقال :

راعتْكَ أم مجاشــــعٍ   بالصَّــدِّ بعد وصالِهـا

واستبدلــتْ بــكَ والبــلاءُ عليك في استبدالهـــا

جِنّيّــةٌ مــن بَربــرٍ   مشهورةٌ بجمــالهـــا

فحرامُهـــا أشهـى لنـــا   ولهـــا مـــن استحلالها

فبلغ الشعر عمرو بن مسعدة ، فبعث إلى حماد بصلةٍ ، وسأله الصَّفح عن أخيه ، ونال أخاه بكل مكروهٍ وقال له : ثَكلتْك أمُّك ، أتتعرّضُ لحمادٍ وهو يُناقف[1] بشاراً ويقاومه ! والله لو قاومتَه لما كان لك في ذلك فخرٌ ، ولئن تعرّضتَ له لَيَهْتِكَنَّك وسائرَ أهلك ولَيفضحنّا فضيحةً لا نَغسلها أبداً عنّا .

وفاته

وقد اختُلف في وفاة حمّاد

عمر بن شبّة قال : حدّثني أبو داحةَ وعبدُ الملك بن شيبانَ أنّ حمّاداً هرب من محمد بن سليمان فأقام بالأهواز مُستتراً ، وبلغ محمداً خبرُه فأرسل مولًى له إلى الأهواز ، فلم يزل يطلبُه حتى ظفِر به فقتله غيلةً .

عن أحمد بن خلّاد أن حماداً نزل بالأهواز على سُليم بن سالم ، فأقام عنده مدّةً مستتراً من محمد بن سليمان ، ثم خرج من عنده يريد البصرة ، فمرّ بشِير زاذانَ في طريقه ، فمرض بها ، فاضطُرّ إلى المُقام بها بسبب علّته ، فاشتدّ مرضُه ، فمات هناك ودُفن على تَلعة . وكان بشار بلغه أن حمّاداً عليلٌ لما به ، ثم نعي إليه قبل موته ، فقال بشار :

(١) المناقفة : المضاربة بالسيوف ، وأراد أنه يهاجيه .

لو عـاش حمّـاد لهونا بـه لكنـه صار إلى النـار

فبلغ هذا البيت حمادا قبل أن يموت وهو في السِّياق[1] ، فقال يردّ عليه :

نُبّئتُ بشـاراً نَعـاني ولِلمـوت براني الخالـقُ البـاري
يـا ليتـني مـتٌّ ولم أهجُـه نعـمْ ولو صرت إلى النـار
وأيٌّ خِزيٍ هو أخزى مـن ان يقالَ لي يا سِبَّ بشّـار[2]

قال : فلما قَتل المهديُّ بشاراً بالبَطيحة اتفق أن حُمل إلى منزله ميتاً ، فدفن مع حمّاد على تلك التَلعة ، فمرّ بهما أبو هشام الباهليُّ الشاعر البصري الذي كان يهاجي بشاراً ، فوقف على قبريهما وقال :

قد تبع الأعمى قفا عَـجردٍ فأصبحـا جارين في دار
قالت بِقاعُ الأرض لا مَرحـباً بقُـرب حمّـاد وبشّـار
تجـاوروا بعد تنائيهمـا ما أبغضَ الجارَ إلى الجـار
صارا جميعاً في يدَي مالـكٍ في النـار والكافرُ في النار

* * *

(١) السياق : نزع الروح .

(٢) سب الرجل : من يسابه ويشاتمه .

١٩

دِعْبِل

[الأغاني ج ٢٠ ص ١٢٠ وما بعدها]

الشاعر

هو دِعْبِل بن عليّ بن رَزين ... بن أَسْلَم بن أَفْصى بن حارثةَ بن عَمرو ابن عامر بن مُزَيْقِيا[1] ، ويُكنَى أبا عليّ .

شاعرٌ متقدّمٌ مطبوعٌ هَجّاء خبيث اللّسانِ ، لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة ، أَحْسَنَ إليه أو لم يُحْسِن ولا أفلت منه كبيرُ أحدٍ .

---

(١) كذا أورد أبو الفرج نسب أسلم في هذه الترجمة والذي عليه جمهرة النسابين : أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو مُزيقياء بن عامر ماءالسماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد) وثمة خلاف بين النسابين في نسب قبيلتي أسلم وخزاعة ، اذ يجعلهما بعضهم من ولد قمعة بن اليأس بن مضر فهما عندهم من عدنان ويجعلهما آخرون من بطون قبيلة الأزد القحطانية ، وعلى الرغم من أن دعبل بن علي كان من قبيلة أسلم فالنسابون ينسبونه الى خزاعة من باب التغليب وبنو أفصى هم أسلم ومالك ومِلكان ويقول النسابون إن هذه البطون الثلاثة تخزعت من بني قمعة فأطلق عليها لفظ خزاعة . (راجع جمهرة الأنساب لابن حزم) .

وكان شديد التعصّب على النِّزاريّـة للقَحطانيّة ، وقال قصيدة يردّ فيها على الكميت بن زيد ويُناقضه في قصيدته المُـذْهَبة التي هجا بها قبائل اليمن :

ألا حُيّيتِ عنّـا يا مَدِينا

فرأى النبيَّ ﷺ في النوم ، فنهاه عن ذكر الكُميت بسوء .

وناقضه أبو سَعد المخزوميّ في قصيدته وهاجاه ، وتطاول الشرُّ بينهما ، فخافت بنو مَخزوم لسان دِعبل وأن يَعمَّهم بالهجاء ، فنفَوا أبا سعد عن نسبهم ، وأشهَدوا بذلك على أنفُسهم .

وكان دعبِـلٌ من الشِيعة المشهورين بالميل إلى عليّ صَلوات الله عليه ، وقصيدته :

مدارسُ آياتٍ خَلتْ من تِـلاوةٍ

من أحسن الشعر وفاخر المدائح المَقُولة في أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وقصد بها أبا الحَسَن عليّ بن موسى الرِّضا ـ عليه السّلام ـ بخُراسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهمٍ من الدّراهم المضروبة باسمه ، وخَلع عليه خِلعةً من ثيابه ، فأعطاه بها أهلُ قُمٍّ ثلاثين ألف درهم ، فلم يَبِعها ، فقطعوا عليه الطريق فأخذوها ، فقال لهم : إنّها إنّما تُراد لله عزّ وجلّ ، وهي مُحرّمة عليكم . فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألّا يبيعها أو يُعطوه بعضَها ليكون في كفَنه ، فأعطوه فَرْدَ كُـمّ ، فكان في أكفانه .

وكتب قصيدته « مدارس آيات » ـ فيما يقال ـ على ثوبٍ ، وأحرم فيه ، وأمر بأن يكون في أكفانه .

ولم يزل مرهوبَ اللسان ، وخائفاً من هجائه للخلفاء ، فهو دهرَه كلَّه هاربٌ مُتوارٍ .

أبو هـفّان قال : قال لي دعبلٌ : قال لي أبو زيد الأنصاريُّ : مِمَّ اشتُـقّ دِعبل ؟ قلت : لا أدري . قال : الدِّعبل الناقة التي معها ولدُها .

محمد بن أيّوب قال :

دعبل اسمه محمّد ، وكنيته أبو جعفر ، ودعبل لقبٌ لُقّب به .

محمد بن القاسم بن مَهْرَويه قال : سمعت حُذيفة بن محمّد الطائيّ يقول : الدِّعبل : الشيء القديم . قال ابن مَهْرُويه : سمعت أبي يقول : خُتم الشعر بدِعبل .

محمد بن القاسم بن مهرويه قال : قال لي البحتريّ : دعبل بن عليّ أشعر عندي من مُسلم بن الوليد . فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم . وكان يتعصّب له .

الجاحظ يقول : سمعت دعبل بن عليّ يقول : مكثت نحو ستين سنةً ليس من يوم ذرّ شارقُه إلا وأنا أقول فيه شعراً .

الحسين بن عليّ قال : قلت لابن الكلبيّ : إنّ دِعْبِلاً قُطَعيّ[1] ، فلو أخبرت الناس أنه ليس من خُزاعة . فقال لي : يا فاعل ، مِثل دعبلٍ تَنفيه خُزاعة ! والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدّعيَه ؛ دعبل واللهِ يا أخي خُزاعةُ كلّها .

مصاحبته الشطّار واللصوص في شبابه

أبو خالد الخُزاعيّ الأسلَميّ :

كان سبب خروج دعبل بن عليّ من الكوفة أنه كان يتشطّر ويصحب الشُطّار[2] ، فخرج هو ورجل من أشجَع فيما بين العِشاء والعَتَمة ، فجلسا

---

(١) قطعي : منسوب الى قُطيعة ، بضم أوله ، وهو بطن من ربيعة بن زُبيد بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج .

(٢) الشطار ج شاطر : أصل معناه من أعيا أهله خبثاً ، ثم أريد به اللص الذي يعدو على الناس ويغصبهم أموالهم .

على طريق رجلٍ من الصيارفة ـ وكان يروح كلَّ ليلة بكيسه إلى منزله ـ فلمّا طلع مُقبلاً إليهما وثبا إليه فجرَحاه، وأخذا ما في كُمّه، فإذا هي ثلاث رُمّانات في خِرقة، ولم يكن كيسُه لَيْلَتئذ معه. ومات الرجل مكانه، واستتر دِعبل وصاحبُه، وَجَدّ أولياء الرجلُ في طلبهما، وجَدّ السلطان في ذلك، فطال على دعبل الاستتار، فاضطُر إلى أن هرب من الكوفة. قال أبو خالد: فما دخلها حتى كتبتُ إليه أُعلِمه أنه لم يبق من أولياء الرجل أحدٌ.

عن أبي خالد الأسلَميّ قال:

كان دعبل بن عليّ الخُزَاعي بالكوفة يتشطّر وهو شابّ، وكانت له شَعرةٌ جَعدة[1]، وكان يَدهنُها ويُرَجِّلُها حتى تكاد تقطُر دُهناً، وكان يصلت[2] على الناس بالليل. فقتل رجلاً صيرفياً، وظنّ أن كيسه معه، فوجد في كمه رمّاناً، فهرب من الكوفة. وكنت إذا رأيت دِعبلاً يمشي رأيت الشَّطارة في مِشيته وتبختُره.

أحمد بن أبي كامل قال:

كان دعبل يخرج فيغيب سِنين، يدور الدنيا كلَّها، ويرجع وقد أفاد وأثرى. وكانت الشُّراة[3] والصَّعاليك يلقَونه فلا يُؤذونه، ويُؤاكلونه ويُشاربونه ويَبَرُّونه، وكان إذا لَقِيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم إليه، ودعا بغُلاميه نقيف وشعف، وكانا مُغَنّيَين، فأقعدهما يُغنّيان، وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكانوا قد عرَفوه وألِفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يُواصلونه ويَصِلُونه. وأنشدني دعبل بن عليّ لنفسه في بُعد أسفاره:

حللتُ محلاً يقصرُ البرقُ دونه ... ويعجزُ عنه الطَّيف أن يتجشَّما

(١) يراد بالشعرة هنا الشعر كله لا واحدته.

(٢) يصلت على الناس: يعدو عليهم للسرقة والصلت ـ بكسر الصاد ـ اللص.

(٣) أحسب أن في الكلمة تحريفاً وأن أصلها «الشطّار» أي اللصوص الذين يعدون على الناس.

تشيّعه لآل البيت

موسى بن عيسى المَروزيّ قال :

سمعت دعبل بن عليّ وأنا صبيّ يتحدّث في مسجد الَمْروزيّة قال : دخلتُ على عليّ بن موسى الرضا ـ عليهما السلام ـ فقال لي : أنشِدني شيئاً مما أحدثت . فأنشدتهُ :

مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاوةٍ ومَنزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصات

حتى انتهيت إلى قولي :

إذا وُتِروا مَدُّوا الى واتريهم أَكُفّاً عن الأوْتار مُنقبضاتِ

قال فبكى حتى أُغمي عليه ، وأومأ إليَّ خادمٌ كان على رأسه : أن اسكُتْ. فسكتٌّ ساعةً ، ثم قال لي : أَعِدْ . فأعدتُ حتى انتهيت إلى هذا البيت ، فأصابه مثلُ الذي أصابه في المرّة الأولى ، وأومأ إليّ الخادم أن اسكُتْ ، فسكتٌّ . فمكث ساعةً أخرى ثم قال لي : أعِدْ . فأعدتُ حتى انتهيت إلى آخرها ، فقال لي : أحسنتَ ، ثلاث مرّات . ثم أمر لي بعشرة آلاف دِرهم ممّا ضُرب باسمه ، ولم تكن دُفعت إلى أحدٍ بعدُ ، وأمرَ لي مَن في مَنزله بحَلْيٍ كثيرٍ أخرجه إليّ الخادمُ ، فقدِمت العراق ، فبِعتُ كلّ درهم منها بعشرة دراهم ، اشتراها مني الشّيعةُ ، فحصل لي مائةُ ألف درهم ، فكان أوّل مالٍ اعتقدتُه[1] .

قال ابن مَهرويه وحدّثني حُذَيفة بن محمد :

أنّ دِعبلاً قال له : إنه استوهبَ من الرِّضا عليه السلام ثوباً قد لبسه ليجعلَه في أكفانه ، فخلَع جُبّةً كانت عليه فأعطاه إيّاها . وبلغ أهلَ قُمَّ خبرُها ، فسألوه أن يبيعَهم إيّاها بثلاثين ألف درهم ، فلم يفعل ، فخرجوا عليه في طريقه فأخذوها منه غصْباً ، وقالوا له : إن شئت أن تأخذ المالَ فافعل ، وإلاّ

(١) اعتقدته : جمعته .

فأنت أعلَم . فقال لهم : إنّي والله لا أُعطيكم إياها طوعاً ، ولا تنفعكُم غَصباً ، وأشكُوكم إلى الرِّضا عِليه السّلام . فصالحوه على أن أعطَوه الثلاثين الألف الدِرهم وفَرْدَ كُمٍّ من بِطانتها ، فرضي بذلك .

إغارته على معاني الشعراء

أبو هَفّان قال : قال مسلم بن الوليد :

مُستعبِرٌ يبكي على دِمنـــــةٍ ورأسُه يضحكُ فيه المَشيبْ

فسرقه دعبل فقال :

لا تعجَبي يا سَلمُ من رَجُـلٍ ضحك المشيبُ برأسه فبكى

فجاء به أجود من قول مُسلم ، فصار أحقّ به منه .

أبو المثنّى أحمدُ بن يعقوب ابن أخت أبي بكر الأصمّ قال :

كنّا في مجلس الأصمعيّ ، فأنشده رجل لِدعبل قولَه :

لا تعجَبي يا سلمُ من رجلٍ ضحك المَشيبُ برأسه فبكى

فاستحسنّاه ، فقال الأصمعي : إنّما سرقه من قول الحسين بن مُطَير الأسديّ :

أين أهلُ القِباب بالدَّهنـاءِ أين جيرانُنا على الأحساءِ
فارقونا والأرضُ مُلْبَسَةٌ نَوْ رَ الأَقاحي تُجادُ بالأنواء
كلَّ يومٍ بأُقحُوانٍ جديـدٍ تضحك الأرضُ من بُكاء السّماء

ولعه بالهجاء ورداءة طبعه

أبو خالد الخُزاعيُّ الأَسلميّ قال :

قلت لِدعبل : ويحَك ، قد هجوتَ الخُلفاء والوزراء والقُوّاد ، ووترتَ الناسَ جميعاً ، فأنت دَهرَك كُلّه شريدٌ طريد هاربٌ خائف ، فلو كففتَ عن هذا وصرفتَ هذا الشرَّ عن نفسك . فقال : ويحَك ! إنّي تأمّلتُ ما تقول ،

فوجدت أكثر الناس لا يُنْتَفَع بهم إلّا على الرَّهبة ، ولا يُبالَى بالشاعر وان كان مُجيداً إذا لم يُخَفْ شَرُّه ، ولَمَن يتَّقيك على عِرضه أكثر ممّن يرغَب إليك في تشريفه ، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كلٌّ من شَرَّفتَه شَرُف ، ولا كلٌّ من وصفتَه بالجُود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفَع بقولك ، فإذا رآك قد أوجعتَ عِرضَ غيره وفضحتَه اتّقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر . ويحك يا أبا خالد ! إنّ الهجاء المُقْذِع آخذُ بِضَبْع[1] الشاعرِ من المديح المُضرِع . فضحكت من قوله وقلت : هذا واللهِ مَقالُ مَن لا يموتُ حَتْفَ أنفه .

عبدالله بن مُسلِم بن قتيبة قال :

رأيت دعبلَ بن عليّ وسمعته يقول : أنا أحمل خَشَبَتي على كتفي منذ خمسين سنةً ، لست أجد أحداً يَصلِبُني عليها .

أحمد بن أبي كامل قال :

كان دعبلٌ يُنشدني كثيراً هجاءً قاله ، فأقول له : فيمن هذا ؟ فيقول : ما استحقّه أحدٌ بعينه بعدُ ، وليس له صاحبٌ . فإذا وَجِد[2] على رجلٍ جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر .

محمد بن الأشعث قال :

سمعت دعبلاً يقول : ما كانت لأحدٍ قطُّ عندي مِنّةٌ إلا تمنّيت موتَه .

تتلمذه لمسلم بن الوليد

الحسين بن أبي السَريّ قال : قال لي دعبل : ما زلت أقول الشعر وأعرِضه على مُسلِم فيقول لي : اكتُم هذا . حتى قلت :

---

(١) الضبع : العضد أو الأبط ، وأخذ بضبعه : رفع من شأنه وقوّاه .

(٢) وجد عليه ـ بفتح الجيم وكسرها ـ : غضب .

أيـــن الشبـــاب وأيّـــةً سلكـــا لا أين يطلَبُ ضَلّ بل هَلَكـــا

فلما أنشدته هذه القصيدة قال : اذهب الآن فأظهِر شِعرك كيف شئت لِمن شئت .

بدء اشتهاره بالشعر وهجاؤه خلفاء بني العبّاس

[عن عبدالله بن طاهر] قال :

أسمع أنه كان أيامَ ترعرع خاملاً لا يُؤْبَه له ، وكان ينام هو ومسلم ابن الوليد في إزارٍ واحد ، لا يملِكان غيرَه . ومُسلمٌ أستاذُه وهو غلامٌ أَمرَدُ يخدمُه ، ودِعبل حينئذٍ لا يقول شعراً يفكر فيه حتى قال :

لا تعجبي يا سلمُ من رجـــلٍ ضحك المشيب برأســـه فبكى

وغنّى فيه بعض المُغَنّين وشاع ، فغنيَّ به بين يَدي الرَّشيد إمّا ابنُ جامع أو ابنُ المكّي ، فطرِب الرَّشيدُ وسأل عن قائل الشعر ، فقيل له : دِعبل بن عليّ ، وهو غلامٌ نشأ من خُزاعـة . فأمر بإحضارعشرة آلاف درهم وخِلعةٍ من ثيابه ، فأُحضر ذلك ، فدفَعه مع مركَبٍ من مَراكبه إلى خـادم من خاصّته وقال له : اذهب بهذا إلى خُزاعة فاسأل عن دِعبل بن عليّ فإذا دُللتَ عليه فأَعطِه هذا وقُل له : لِيَحضَرْ إن شاء ، وإن لم يحبّ ذلك فدَعْه . وأمر للمغنّي بجائزة ، فسار الغلام إلى دعبل وأعطاه الجائزة وأشار عليه بالمسير إليه .

فلمّا دخل وسلّم أمره بالجلوس فجلس ، واستنشده الشعر فأنشده إيّاه ، فاستحسنه وأمره بملازمته وأجرى عليه رِزقاً سَنِيّاً ، فكان أوّلَ من حَرّضه على قول الشعر ، فوالله ما بلغه أنّ الرّشيد مات حتى كافأه على ما فَعله من العَطاء السَّنيّ ، والغِنى بعد الفقر ، والرِّفْعة بعد الخُمول ، بأقبح مكافأة ، وقال فيه من قصيدة مَدح بها أهل البيت عليهم السّلام ، وهجا الرشيد :

وليس حيٌّ من الأحيـاء نعلَمُـه من ذي يمانٍ ومن بَكْرٍ ومن مُضَرِ
إلّا وهـم شركـاءُ في دمائهـم كما تشارك أَيسارٌ على جُزُر

قتلٌ وأسرٌ وتحريـــقٌ ومَنْهبَـــة	فعلَ الغُزاة بأرض الرُّوم والخَزر
أرى أُميّةَ مَعذُورين إن قَتلـــوا	ولا أَرى لبني العبّاس من عُـذُر
اِربَعْ بطُوسٍ على القبر الزَكيّ إذا	ما كنت تَربَعُ من دِينٍ على وطَر
قبران في طُوسَ خَيرُ الناس كلِّهم	وقبرُ شَرّهم هــذا من العِبَـــر
ما ينفعُ الرِّجسَ من قُرب الزَكيّ ولا	على الزكيّ بقُرب الرِّجس من ضَرر
هيهات كلّ امرىءٍ رهنٌ بما كسَبتْ	له يداه فخُذ ما شئتَ أو فَذَرِ (١)

يعني قبر الرّشيد وقبر الرّضا عليه السَّلام ، فهذه واحدة . وأما الثانية فإن المأمون لم يزل يطلُبه وهو طائرٌ على وجهه ، حتى دُسّ إليه قوله :

عِلْمٌ وتحكيمٌ وشَيبُ مَفــــــارقِ	طَمَّسْن رَيْعانَ الشَّباب الرائــقِ
وإمــارةٌ في دولــةٍ مَيمونـــــــةٍ	كانت على اللّذاتِ أشغبَ عائق
أنّى يكون وليس ذاك بكائـــــــنٍ	يَرث الخلافةَ فاسقٌ عن فــاسقِ
إن كان إبراهيم مُضطَّلعاً بهــــا	فَلَتَصْلُحَنْ من بَعده لِمُخارقِ(٢)

فلمّا قرأها المأمون ضحك وقال : قد صفحتُ عن كلّ ما هجانا به إذ قرن إبراهيم بمُخارق في الخلافة وولّاه عهدَه .

وكتب إلى أبي (٣) أن يُكاتبه بالأَمان ، ويحمِل إليه مالاً . وإن شاء أن يُقيم عنده أو يصير إليهحيث شاء فَلْيفعلْ . فكتب إليه أبي بذلك ـ وكان

---

(١) الأيسار: القوم المجتمعون على الميسر. والجزر ج جزور: الناقة المعدة للذبح وهي التي يقامرون عليها .

(٢) ابراهيم : أراد ابراهيم بن المهدي ، وكان دعبل كثير الهجاء له . ومخارق : هو ابن يحيى المغني ، وكان من موالي الرشيد .

(٣) الى أبي : اي الى طاهر بن الحسين ، قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين ، وكان خزاعياً بالولاء ، ولدعبل هجاء فيه وفي ابنه عبدالله بن طاهر .

واثقاً به ـ فصار إليه ، فحمله وخلع عليه وأجازه واعطاه المال ، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل . فلمّا دخل وسلّم عليه تبسم في وجهه ، ثم قال أنشِدني :

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تِلاوةٍ ومنزلُ وَحْيٍ مُقفِر العَرَصات

فجزع ، فقال له : لك الأمانُ ، فلا تَخَفْ ، وقد روَيتُها ، ولكنّي أحبّ سَماعَها من فيك . فأنشده إيّاها إلى آخرها والمأمون يبكي حتى أَخْضَل لِحيتهِ بدمعه ، فوالله ما شعرَنا به إلّا وقد شاعت له أبياتٌ يهجو بها المأمونَ بعد إحسانه إليه وأُنسه به ، حتى كان أوّل داخل وآخرَ خارجٍ من عنده .

محمد بن المؤدّب قال :

قيل للمأمون : إنّ دِعبل بن عليّ قد هجاك . فقال : وأيُّ عَجَبٍ في ذاك ؟ هو يهجو أبا عَبّاد ولا يهجوني أنا ! ومن أَقدم على جُنون أبي عَبّاد أقدم على حِلمي . ثم قال للجُلَساء : مَن منكم يحفظ شعره في أبي عبّاد فليُنْشِدْنيه . فأنشده بعضُهم :

أَولَى الأمور بضَيعةٍ وفَساد أمرٌ يُدبِّره أبو عَبّادِ
خَرِقٌ على جُلَسائه فكأنّهم حضَروا لِملحمةٍ ويوم جِلاد
يسطُو على كُتّابه بدَواته فمُضَمَّخٌ بدمٍ ونَضْح مِداد
وكأنّه من دَير هِزْقِلَ مُفلِتٌ حَرِدٌ يجُرُّ سَلاسلِ الأقيادِ
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين قِيادَه فأصحُّ منه بَقِيَّةُ الحَدّاد (١)

قال : وكان بقيّة هذا مجنوناً في المارستان . فضحك المأمون ، وكان إذا نظر إلى أبي عباد يضحك ويقول لمن يقرُب منه : والله ما كذب دِعبل في قوله .

---

(١) دير هزقل : دير بين البصرة وعسكر مكرم ، يقال إن الطاعون وقع في ذلك الموضع فخرج أهله من ديارهم هاربين ، والذي يستخلص من البيت أنه أصبح مكاناً يحتبس فيه المجانين . حرد : غضبان .

إبراهيم بن المُدبّر قال :

لقيت دِعبل بن عليّ فقلت له : أنت أجسرُ الناس عندي وأقدَمُهم[1] حيث تقول :

إنّي من القوم الذين سيوفُهم ... قتلت أخاك وشرّفتك بمَقْعَدِ
رفعوا محلَّك بعد طُول خُموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد[2]

فقال : يا أبا إسحاق ، أنا أحمِل خشَبَتي منذ أربعين سنةً ، فلا أجد من يصلِبُني عليها .

عمرو بن مَسْعدة قال :

حضرت أبا دُلف عند المأمون ، وقد قال له المأمون : أيَّ شيءٍ تَروي لأخي خُزاعة يا قاسم ؟ فقال : وأيُّ أخي خزاعةَ يا أمير المؤمنين؟ قال : ومن تعرف فيهم شاعراً؟ فقال : أمّا من أنفُسهم فأبو الشِّيص ودِعْبِل وابنُ أبي الشِّيص وداود بن أبي رَزين ، وأمّا من مَواليهم فطاهرٌ وابنُه عبدالله . فقال : ومن عَسَى في هؤلاء أن يُسأَل عن شعره سوى دِعبل ! هاتِ أيَّ شيءٍ عندك فيه . فقال : وأيَّ شيءٍ أقول في رجلٍ لم يَسْلَم عليه أهلُ بيته حتى هجاهم ، فقَرن إحسانهم بالإساءة ، وبَذْلَهم بالمَنع ، وجُودهَم بالبخل ، حتى جعل كل حَسَنةٍ منهم بإزاء سَيّئةٍ ! قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول في المُطَّلِب بن عبدالله بن مالك ، وهو أصدق الناس له ، وأقرَبهم منه ، وقد وفد إلى مصر فأعطاه العطايا الجزيلة وولّاه ، ولم يمنعْه ذلك من أن قال فيه :

اضرِب ندَى طَلْحةِ الطَّلَحات مُتَّئداً ... بلوَم مُطّلبٍ فينا وكُن حَكَما
تخرجْ خزاعةُ من لُؤمٍ ومن كرمٍ ... فلا تُحسّ لها لُؤماً ولا كَرَما

---

(١) أقدمهم : من الإقدام أي أشجعهم .

(٢) يفخر دعبل على المأمون في هذين البيتين بأن الذي قتل أخاه الأمين هو من خزاعة قومه وقاتل الأمين هو طاهر بن الحسين وكان خزاعياً بالولاء .

قال : فقال المأمون : قاتَله اللهُ ! ما أغوصَه وألطفه وأدهاه ! وجعل يضحك . ثم دخل عبدَالله بن طاهر فقال له : أيَّ شيءٍ تحفظ يا عبدَالله لِدعبل ؟ فقال : أحفَظ أبياتاً له في أهل بيت أمير المؤمنين . قال : هاتِها ، ويحَك . فأنشده عبدالله قولَ دعبل :

سَقياً ورَعْياً لِأيّام الصَّبابـــات ... أيّامَ أرفُل في أثواب لَذّاتي
أيامَ غُصني رَطيبٌ من لَيانتـــه ... أصبُو إلى غير جاراتٍ وكَنّاتِ
دع عنك ذكر زمانٍ فات مَطلبُـه ... واقذِفْ بِرَحلك عن مَتْن الجَهالات
واقصِدْ بكلّ مديحٍ أنتَ قائلُـــه ... نحو الهُداة بني بيت الكرامات

فقال المأمون : إنّه قد وجد واللهِ مَقالاً فقال ، وينال بِبعيد ذِكرهم مالا يناله في وصف غيرهم . ثم قال المأمون : لقد أحسن في وصف سفرٍ سافره ، فطال ذلك السَّفرُ عليه ، فقال فيه :

أَلَمَ يأْنِ للسَّفْر الذي تَحمّلـــوا ... إلى وطنٍ قبل الممات رُجوعُ
فقلت ، ولم أملِكْ سوابقَ عَبْرةٍ ... نطقنَ بما ضُمّت عليه ضُلوع
تَبَيَّنْ فكم دارٍ تفرّق أهلُهــــا ... وشَمل شَتيتٍ عاد وهو جَميع
كذاك الليالي صَرْفُهنّ كما ترى ... لكلّ أُناسٍ جَدْبَةٌ وربيعُ (١)

ثم قال : ما سافرت قطّ إلّا كانت هذه الأبياتُ نُصبْ عيني في سفري ، وهِجِّيرِي(٢) ومُسَلِّيتي حتى أعود .

أبو ناجيةَ قال :

كان المعتصم يُبغض دعبلاً لطُول لسانه ، وبلغ دعبلاً أنه يريد اغتيالَه وقتله ، فهرب إلى الجبل وقال يهجوه :

بكَى لشَتاتِ الدِّين مُكتئبٌ صَبٌّ ... وفاض بفَرط الدمع من عَينه غَرْبُ

(١) ألَم يأن : ألم يحن . السفر : جماعة المسافرين . تحملوا : ارتحلوا .
(٢) هجّيري : دأبي .

وقـام إمامٌ لم يكـن ذا هِـدايـةٍ فليس له دِينٌ وليس له لُـبُّ
وما كانت الآبـاءُ تأتي بمِثلـه يُملَّكُ يوماً أو تَـدِينُ له العُربُ
ولكن كما قال الذين تتابعـوا من السَّلف الماضين إذ عَظُم الخَطْبُ :
ملوكُ بني العبّاس في الكُتب سبعةٌ ولم تأتنا عَـن ثامنٍ لهمُ كُتـبُ
كذلك أهلُ الكهف في الكهف سبعةٌ خيارٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كلـبُ
وإني لأُعلي كلبَهم عنك رِفعـةً لأنّـك ذو ذَنْبٍ وليس له ذَنْبُ
لقد ضاع مُلكُ الناس إذ ساسَ مُلْكَهم وَصَيفٌ وأشناسٌ وقد عَظُم الكَرْبُ
وفَضلُ بنُ مَروانٍ يُثَلِّمُ ثَلْمـةً يَظَلّ لها الإسلامُ ليس له شَعْبُ[1]

ميمون بن هارون قال :

لمّـا مات المعتصم قال محمد بن عبدالملك الزيّات يرثيه :

قد قلتُ إذ غَيَّبُوه وانصرفـوا في خير قبرٍ لِخير مَدفُـونِ
لـن يجبُرَ اللهُ أمّـةً فقَـدت مِثلَك إلّا بمثل هـارونِ

فقال دعبل يُعارضه :

قد قلت إذ غَيّبوه وانصرفـوا في شرّ قبرٍ لِشرّ مدفـونِ
اذهَب إلى النّار والعذاب فمـا خِلتُك الا من الشياطـين
ما زلتَ حتى عقدتَ بَيعـة مَـن أضرَّ بالمُسلمِين والدِّيـن

محمد بن القاسم بن مَهرُويه قال :

كنت مع دعبل بالصَّيْمَرة[2] وقد جاء نَعي المعتصم وقيام الواثق ، فقال

---

(١) الغرب : الفيضة من الدمع وعرق في العين يسقي لا ينقطع . والغرب أيضاً : الدلو العظيمة . وصيف وأشناس : من الموالي الأتراك الذين كانوا قواداً في جيش المعتصم . الفضل بن مروان : من وزراء بني العباس ، وهو الذي أخذ البيعة للمعتصم بعد وفاة المأمون . الشعب : الإصلاح والترميم .

(٢) الصيمرة : بلد بين ديار الجبل وخوزستان .

لي دعبل : أمعك شيءٌ تكتب فيه ؟ فقلت : نعم . وأخرجتُ قِرطاساً ، فأملى عليّ بَدِيهاً :

الحمــدُ لله لا صــبرٌ ولا جَلَـــدُ ولا عَزاءٌ إذا أهلُ البَلا رَقَدُوا
خليفـــةٌ مات لم يحزَنْ لـــه أحـــدٌ وآخرٌ قام لم يَفرحْ به أحـــدُ

محمّد بن جرير قال :

أنشدني عُبيدِالله بن يعقوبَ هذا البيت وحدَه لدعبل يهجو به المتوكّل ، وما سمعت له غيره فيه :

ولســت بقائلٍ قَذَعـــاً ولكــن لأمرٍ ما تَعَبَّدك العَبيـــــدُ

قال : يرميه في هذا البيت بالأُبْنة .

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

بُويع إبراهيم بن المهديّ ببغداد ، وقد قلّ المالُ عنده ، وكان قد لجأ إليه أعرابٌ من أعراب السَّواد وغيرهم من أوغاد الناس ،فاحتبس عنهم العطاءُ . فجعل إبراهيم يُسوّ فهم ولا يَرون له حقيقة ، إلى أن خرج إليهم رسولُـه يوماً وقد اجتمعوا وضجّوا ، فصرّح لهم بأنّـه لا مالَ عنده . فقال قومٌ من غَوغاء أهل بغداد : أَخرجوا إلينا خليفتَنا ليغنّيَ لأهل هذا الجانب ثلاثةَ أصوات . ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، فتكونَ عَطاءً لهم . فأنشدَني دعبل بعد ذلك بأيام قوله :

يا معشرَ الأَجنـــاد لا تَقْـنَطوا وارضَوا بما كان ولا تَسخَطُوا
فسوف تُعطَون حُنَينيّــــــةً يلتذّها الأمردُ والأشمَـــطُ
والمَعْبَدِيّـــاتِ لِقُــوّادكم لا تَدخلُ الكيسَ ولا تُربَطُ
وهكذا يرزُق قُـــــوّادَه خليفـــةٌ مُصحَفُــه البَرْبَطُ(١)

---

(١) الحنينية : الأصوات المنسوبة الى حنين المغني ، والمعبديات : الأغاني المنسوبة الى معبد المغني . البربط : العود .

مهاجاته أبا سعد المخزومي

كان سبب مناقضته أبا سعد المخزوميّ وما خرج إليه الأمر بينهما قول دعبل قصيدته التي هجا فيها قبائل نزار ، فحمي لذلك أبو سعد ، فهجاهم ، فأجابه أبو سعد ، ولجّ الهجاء بينهما .

ورُوي أنه نزل بقوم من بني مخزوم ، فلم يُضيّفوه ، فهجاهم ، فأجابه أبو سعد ولجّ الهجاء بينهما .

محمد بن القاسم بن مهرويه قال :

حدّثني محمد بن الأشعث قال : حدّثني دعبل أنه ورَزيناً العروضيّ نزلا بقوم من بني مخزوم ، فلم يقرُوهما ولا أحسَنوا ضيافَتهما ، فقال دعبل : فقلت فيهم :

عصابةٌ من بني مَخزوم بتُّ بهم ... بحيث لا تطمع المِسحاةُ في الطِّينِ[1]

ثم قلت لرَزين : أجِزْ فقال :

في مَضْغ أعراضهم من خُبزهم عِوضٌ ... بني النِّفاق وأبناء المَلاعين

قال ابن الأشعث : فكان هذا أوّل الأسباب في مُهاجاته لأبي سعد .

أحمد بن أبي كامل قال :

كان سبب وقوع الهجاء بين دعبل وأبي سعد قول دعبل في قصيدة يفخر فيها بخُزاعة ويهجو نزاراً ، وهي التي يقول فيها :

أتانا طالباً وَغْراً ... فأعقبناه بالوَغْرِ
وترناه فلم يرض ... فأعقبناه بالوِترِ

---

(١) المسحاة : أداة يسحى بها الطين أي يقشر.

فغضب أبو سعد وقال قصيدته التي يقول فيها لدعبل ـ وهي مشهورة ـ :

وبالكَرْخ هوًى أبقى | على الدَّهر من الدهرِ
هوًى والحمدُ لله | كفاني كُلفةَ العُذرِ

قال : ثم التحم الهجاء بينهما بعد ذلك .

محمد بن يزيد قال :

كان أبو سعد المخزوميُّ قد كان يستعلي على دِعبل في أول أمره ، وكان يدخل إلى المأمون فيُنشده هجاء دعبل لنزار وللخلفاء ، ويحرضه عليه وينشده جوابَه . فلم يجد عند المأمون ما أراده فيه ، وكان يقول : الحقّ في يدك والباطلُ في يد غيرك ، والقولُ لك مُمكِنٌ ، فقُل ما يُكذّبه ، فأمّا القتل فإنّي لست أستعمله فيمن عَظُم ذنبُه ، أفأستعمله في شاعر !

وقال فيه دعبل :

إن أبا سعدٍ فتًى شاعرٌ | يُعرَف بالكُنية لا الوالدِ
يَنشُد في حيّ مَعَدٌّ أباً | ضَلّ عن المنشود والناشدِ
فرحمةُ الله على مُسلِمٍ | أرشد مَفقوداً إلى فاقدِ

أحمد بن عثمان الطبريّ قال :

سمعت دعبل بن عليّ يقول : لمّا هاجيت أبا سَعد أخذت معي جَوزاً ودعوت الصّبيان فأعطيتهم منه وقلت لهم : صِيحوا به قائلين :

يا أبا سعدٍ قَوْصَره | زانيَ الأُختِ والمَرَه (١)

فصاحوا به ، فغلبتُه .

أحمد بن مروان قال : حدّثني أبو سعدٍ المخزوميُّ ـ واسمه عيسى بن خالد بن الوليد ـ قال :

---

(١) القوصرة كناية عن المرأة . المرة : مخفف عن المرأة .

أنشدت المأمون قصيدتي الداليّة التي رددتُ فيها على دعبل قوله :

ويسومُني المأمونُ خُطّةَ عاجزٍ   أوَما رأى بالأمس رأسَ محمّدِ[1]

وأوّل قصيدتي :

أخذ المَشيبُ من الشباب الأَغيَدِ   والنائباتُ من الأَنام بِمَرْصَدِ

ثم قلت له : يا أمير المؤمنين ، ائذن لي أن أَجيئَك برأسه . قال : لا ، هذا رجلٌ فخَر علينا ، فافخرْ عليه كما فَخر علينا ، فأمّا قتلُه بلا حُجّةٍ فلا .

محمّد بن عليٍّ الطالبيُّ قال :

لَقِيت دعبل بن عليّ ، فحدّثني أن أبا عَمرو الشيبانيّ سأله : ما هو دعبل ؟ فقلت له : لا أدري . فقال : إنّها الناقة المُسِنّة . قال محمد : ثم تحدّثنا ساعةً فقلت : أما ترى لأبي سعد يا أبا عليّ وانهماكِه في هجائك ؟ فقال دعبل : لكنّي لم أقل فيه إلّا أبياتاً سَخيفة يلعب بها الصِّبيانُ والإماء ... قال محمد : فقلت لدعبل : دَعْ عنك ذا ، فقد ـ واللهِ ـ أَوجعك الرجل ، فإن أجبتَه بجوابٍ مثلِه انتصفت ، وإلّا فإنّ هذا اللغوَ الذي فخرتَ به يسقُط وتُفضَحُ آخرَ الدهر . قال : ثم أنشدته قول أبي سعد فيه :

لم يبق لي لَذّةٌ من طِيّةٍ بَدَدِ   ولا المنازلِ من خَيفٍ ولا سَنَدِ

* * *

لِدعبلٍ وَطَرٌ في كلّ فاحشةٍ   لو باد لؤمُ بني قحطانَ لم يَبِدِ
ولي قوافٍ إذا أنزلتُها بَلَداً   طارت بهنّ شياطيني إلى بَلَدِ
لم ينجُ من خَيرها أو شرِّها أحدٌ   فاحذَرْ شآبيبَها إن كنت من أَحَد
إنّ الطرمّاح نالته صواعقُها   في ظُلمة القبر بين الهام والصُّرَد
وأنت أولَى بها إذ كنتَ وارثَه   فابعُدْ وجُهْدُك أن تنجو على البُعُدِ
تهجو نزاراً وترعى في أَرُومَتها   وتنتمي في أُناسٍ حاكةِ البُرُدِ

(١) أراد بمحمد محمداً الأمين ، أخا المأمون .

إنيّ إذا رجـلٌ دبّـت عقاربُـه سقيتُه سُـمَّ حَيّاتي فلم يَعُـدِ
زِدني أَزِدْك هَواناً أنت مَوضِعُـه ومَن يزيـد إذا ما نحن لم نَـزِدِ
لو كنـت متّئـداً فيما تُـلفّـقـهُ لكان حظُّك منه حظَّ مُـتّـئـد
أو كنت معتمداً منه على ثقـةٍ من المكارم قُلنا طَولُ مُعتمِـد
لقد تقلّدت أمراً لسـتَ نائلَـه بلا وَليٍّ ولا مَولًى ولا عَضُـد
وقد رميتَ بياضَ الشمس تحسَبُه بياضَ بطنك من لُؤمٍ ومن نَـكَـدِ
لا تُوعِدَنّي بقومٍ أنت ناصرُهـم واقعُد فإنّـك نَـوْمانٌ من القَـعَدِ
لله معتصـمٌ بـالله طاعتُـه قضيّـة من قضايا الواحد الصمَد(١)

قال : فلمّا أنشدتها دِعبلاً قال : أنا أشتُمه وهو يشتُمني فما إدخال المعتصم بيننا ! وشقّ ذلك عليه وخافه ، ثم قال نقيض هذه القصيدة :

منازل الحيّ من غُمدانَ فالنَّضَدِ

وهي طويلة مشهورة في شعره .

أبو ناجيةَ ـ شيخٌ من ولد زهير بن أبي سُلمى ـ قال :

حضرت بني مخزوم وهم ببغدادَ ، وقد اجتمعوا على أبي سعد لمّا لَجّ الهجاءُ بينه وبين دعبل ، وقد خافوا لسان دعبل وأن يقطَعهم ويهجوَهم هجاءً يَعُمّهم جميعاً ، فكتبوا عليه كتاباً ، وأَشهدوا أنه ليس منهم . فحدّثني غيرُ واحدٍ أنه أتى حينئذٍ بخاتمه النقّاشَ ، فنَقش عليه : أبو سعد العَبدُ ابنُ العبد بريءٌ من بني مخزوم ، تهاوُناً بما فعلوه .

(١) الطية : الحاجة والوطر. الخيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . السند : ما علا من سفح الجبل. الشآبيب ج شؤبوب : الدفعة من المطر وحدّ كل شيء . الطرماح : يشير الى أنه هجا الطرماح بعد موته ، وذلك أن الطرماح كان متعصباً للقحطانية فردّ عليه أبو سعد كما ردّ عل دعبل لهذا السبب . الهام ج هامة : طائر يكون بين القبور. الصرد : طائر ضخم يصطاد العصافير. الطول : القدرة . النومان : الكثير النوم . والقعد : القاعد عن القتال .

أحمد بن أبي كامل قال :

رأيت دِعبلاً قد لَقِي أبا سعد في الرُّصافة ، وعليهما السَّواد وسيفاهما على أكتافهما . فشدّ دعبل على أبي سعد فقنّعه[1] ، فركض أبو سعد بين يديه هارباً ، وركض دعبل في أثره وهو يهرُب منه حتى غاب . قال : وكنت أرى أبا سعد يجلس مع بني مخزوم في دار المأمون ، فتظلّموا منه إلى المأمون وذكروا أنّهم لا يعرفون له فيهم نسَباً ، فأمرهم المأمونُ بنفيه ، فانتفَوا منه ، وكتبوا بذلك كتاباً . فقال دعبل فيه يذكر ذلك ، من قصيدة طويلة :

غيرَ أنّ الصِّيد منهم قَنَّعوه بخزَايه
كتبوا الصَّكّ عليه فهو بين الناس آيه
فإذا أقبل يوماً قيل قد جاء النُّفايه

هجاؤه سائر الناس

أحمد بن محمد بن أبي أيّوب قال :

مدح دَعبلٌ أبا نَصير بن حُميد الطُّوسيّ ، فقصّر في أمره ولم يُرضِه من نفسه ، فقال عند ذلك دعبل فيه يهجوه :

أبا نَصيرٍ تَحلحَلْ عن مَجالسنا فإنّ فيك لِمن جاراك مُنْتَقَصا
أنت الحمار حَروناً إن وقعتَ به وإن قصدتَ إلى معروفه قَمَصا
إنّي هززتك لا آلوك مجتهداً لوكنت سيفاً ولكنّي هززتُ عصا[2]

قال الحُسين بن دِعبل :

كان أبي يختلف إلى الفضل بن العبّاس بن جعفر بن محمد بن الأشعث ،

(١) قنّع رأسه بالسوط والسيف : غشاه به .
(٢) تحلحل : تزحزح . قمص الحمار والفرس : رفع يديه معاً وعجن برجليه .

وهو خرّجه وفهّمه وأدّبه ، فظهر له منه جفاء ، وبلغه أنّه يَعيبه ويذكره وينال منه ، فقال يهجوه :

يا بُؤسَ للفضل لو لم يأت ماعابه ... يستفرغ السُمّ من صّماء قِرضابه
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه ... جهلاً لأعراض أهل المجد عَيّابه
إن عابني لم يعِبْ إلّا مُؤدّبَه ... ونفسَه عاب لمّا عاب أَدّابَه
فكان كالكلب ضرّاه مُكَلِّبُه ... لِصَيده فعدا فاصطاد كَلّابَه [1]

عن الحسين بن دعبل قال :

قال أبي في الفضل بن مروان :

نصحتُ فأخلصت النصيحةَ لِلفَضل ... وقلتُ فسيّرت المقالةَ للفَضلِ
ألا إنّ في الفضل بن سهلٍ لَعِبْرةً ... إن اعتبر الفضلُ بن مروان بالفَضل
وللفضل في الفضل بن يحيى مَواعظٌ ... إذا فكّر الفضل بن مروان في الفضلِ
فأبقِ جميلاً من حديثٍ تَفُزْ به ... ولا تَدعِ الإحسانَ والأخذَ بالفَضل
فإنّك قد أصبحت للمُلك قَيّماً ... وصِرت مكان الفضلِ والفضل والفضلِ
ولم أرَ أبياتاً من الشعر قبلَها ... جميعُ قوافيها على الفَضل والفضلِ
وليس لها عيبٌ إذا هي أُنشِدت ... سوى أنّ نُصحي الفضلَ كان من الفضلِ [2]

فبعث إليه الفضل بن مروان بدنانير وقال له : قد قبلتُ نُصحك ، فاكفِني خيرَك وشَرّك .

---

(١) الصماء : الداهية . القرضاب : الأسد والسيف القاطع والقرضابة : الذي لا يدع شيئاً الا أكله . ضرّاه : علّمه كيف يصيد .

(٢) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد وأخوه في الرضاع ولما نكب الرشيد البرامكة قبض عليه وسجنه في الرقة فتوفي وهو في سجنه .

عن إسحاق النَخَعيّ قال :

كنت جالساً مع دعبل بالبصرة وعلى رأسه غُلامه نَفيف ، فمرّ به أعرابيٌّ يرفُل في ثياب خزّ ، فقال لغُلامه : أدعُ لي هذا الأعرابيّ . فأومأ الغلام إليه فجاء ، فقال له دعبل : ممّن الرجل ؟ قال : من بني كِلاب . قال : من أيّ ولد كلابٍ أنت ؟ قال : من ولد أبي بكر . فقال دعبل : أتعرف القائل :

ونُبّئتُ كلباً من كلابٍ يَسُبُّني ... ومحضُ كِلابٍ يقطع الصَّلواتِ

فإن أنا لم أُعلم كِلاباً بأنّهـــا ... كلابٌ وأنّي باسلُ النِّقَمات

فكان إذاً من قيس عيلانَ والدي ... وكانت إذاً أمّي من الحَبَطاتِ(١)

قال : وهذا الشعر لدعبل يقوله في عمرو بن عاصم الكلابيّ ، فقال له الأعرابيّ : ممّن أنت ؟ فكرِه أن يقول له من خُزاعة فيهجوهم ، فقال : أنا أنتمي إلى القوم الذين يقول فيهم الشاعر :

أناسٌ عليٌّ الخَير منهـــم وجعفرٌ ... وحمزةُ والسَّجّاد ذو الثَفِنات

إذا فخروا يوماً أتَـوا بمحمّـــدٍ ... وجبريلَ والفُرقان والسُّورات(٢)

فوثب الأعرابيّ وهو يقول : مالي إلى محمّد وجبريل والفرقان والسُّورات مرتقى .

قال الفتح [غلام أبي تمام الطائي] : حدّثني مولاي أبو تمّام قال : ما زال دعبلٌ مائلاً إلى مُسلم بن الوليد مُقرّاً بأُستاذيّته حتى ورد عليه جُرجان ، فجفاه مسلم ، وكان فيه بُـخلٌ ، فهجره دعبل وكتب إليه :

---

(١) الحبطات : هم أولاد الحارث بن مالك بن عمرو بن تميم .

(٢) السجاد ذو الثفنات : أراد علياً زين العابدين ، ولقب بذي الثفنات لكثرة سجوده فقد أصبح ما يمس الأرض من أعضائه كثَفِنة البعير ، وهي ركبته وما مسّ الأرض من أعضائه .

أبا مَخْلَدٍ كنّا عَقيدَي مـــودّةٍ هوانـــا وقلبانا جميعاً معاً معـــا
أَحُوطك بالغَيب الذي أنت حائطي وأَيجع إشفاقاً لأن تتوجَّعــــا
فصيَّرني بعدُ انتكاسُك مُتْهِمـــاً لنفسي عليها أَرهبُ الخَلق أجمعا
غششتَ الهوى حتى تداعت أُصولُـه بنا وابتذلتَ الوصلَ حتى تَقطّعــا
وأنزلت من بين الجـــوانح والحَشَى ذخيرةَ وُدٍّ طالما قد تمنّعــا
فـلا تعذُلنّــي ليس لي فيك مَطْمَعٌ تخرّقتَ حتى لم أجِد لك مَرْقَعا
فهَبْك يميني استأكلتْ فقطعتُهـــا وجَشّمتُ قلبي صَبره مُتشّجما[1]

قال : ثم تهاجرا ، فما التقيا بعد ذلك .

قال ابنُ مَهرويه : وحدّثني إبراهيم بن المُدبِّر أن دعبلاً قصد مالك بنَ طَوق[2] ومدحه ، فلم يرضَ ثوابه ، فخرج عنه وقال فيه :

إنّ ابنَ طَوقٍ وبنـي تَغـلـبٍ لو قُتلـوا او جُرحـوا قُصْرَهْ
لم يأخذوا من دِيــةٍ درهمـــاً يومـــاً ولا مـــن أَرْشِهم بَعره
دماؤهـــم ليس لهـــا طالــــبٌ مطلولـةٌ مثلُ دم العُـــذْره
وجوهُهـــم بيضٌ وأحسابُهــــم سُودٌ وفي آذانِهم صُفْــره[3]

(١) أيجع : أشكو الوجع . أستأكلت : أصابتها الأَكِلة بفتح الهمزة وكسر الكاف ـ وهي داء في العضو يأتكل منه .
(٢) مالك بن طوق التغلبي : من أشراف بني تغلب وفرسانهم ولاه المتوكل إمرة دمشق .
(٣) قصره : دون الناس جميعاً. الأرش : دية الجراحات . دم العذرة : دم الختان . يعرض بهم في البيت الأخير بكونهم ليسوا من أصل عربي .

أخباره مع آل طاهر

عُمر بن عبدالله أبو حفص النحويّ مُؤدّب آل طاهر قال :

دخل دعبل بن عليّ على عبدالله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جئتُ بلا حُرمةٍ ولا سببِ ... إليك إلّا بحُرمة الأدبِ
فاقضِ ذِمامي فإنّني رجلٌ ... غير مُلِحٍّ عليك في الطَلب

قال : فانتعل عبدالله ودخل إلى الحُرَم ، ووَجّه إليه بِصُرّةٍ فيها ألف درهم ، وكتب إليه :

أعجلتَنا فأتاك عاجلُ بِرّنا ... ولو انتظرتَ كثيرَه لم يَقلِلِ
فخُذ القليل وكُن كأنّك لم تَسَلْ ... ونكونُ نحن كأننا لم نَفعلِ

أبو الطيّب الحرّاني قال :

كان دعبلٌ منحرفاً عن الطاهريّة ، مع ميلهم إليه وأياديهم عنده ، فأنشدني لنفسه فيهم :

وأبقى طاهرٌ فينا ثلاثاً ... عجائبَ تُستَخفّ لها الحُلومُ
ثلاثةَ أَعبُدٍ لأبٍ وأُمٍّ ... تُمَيّز عن ثلاثتهم أُروم
فبعضٌ في قريش مُنتحاه ... ولا غيرٌ ومجهولٌ قديمُ
وبعضهم يَهَشّ لآل كسرى ... ويزعُم أنه عِلْجٌ لئيمُ
فقد كَثُرتْ مَناسبُهم علينا ... وكُلُّهم على حالٍ زَنيمُ(١)

أخباره مع المطّلب بن عبدالله

عن عبدالله بن أبي الشِّيص قال : حدّثني دعبل قال :

حججتُ أنا وأخي رَزين وأخذنا كُتباً إلى المطَّلب بن عبدالله بن مالك ، وهو

(١) الزنيم : الدعيّ الملحق بالقوم .

بمصر يتولّاها ، فصِرنا من مكّة إلى مصر ، فصَحبنا رجلٌ يُعرف بأحمد بن فلان السَّرّاجِ ـ نسي عبدالله بن أبي الشِّيص اسمَ أبيه ـ فما زال يُحدّثنا ويُؤانسنا طُولَ طريقنا ويتولّى خِدمتنا كما يتولّاها الرفقاء والأتباع. ورأيناه حَسن الأدب ، وكان شاعراً ولم نَعلم ، وكَتَمَنا نفسَه ، وقد علم ما قَصَدنا له .

فعَرضنا عليه أنه يقول في المطّلب قصيدة نَنحله إيّاها . فقال : إن شئتم . وأَرانا بذلك سروراً وتقبُّلاً له . فعملنا قصيدةً وقُلنا له : تُنشدها المطّلب فإنك تنتفع بها . فقال : نعم . ووردنا مِصرَ به ، فدخلنا إلى المطّلب وأوصلنا إليه كُتُباً كانت معنا ، وأنشدناه . فسُرّ بموضعنا ، ووصَفنا له أحمد السّراج هذا وذكرنا له أمره ، فأذن له ، فدخل عليه ، ونحن نظنّ أنه سيُنشد القصيدة التي نحلناه إيّاها . فلمّا مثل بين يديه عدَل عنها وأنشده :

لم آتِ مُطّلِباً إلا بمطّلبِ ... وهِمّةٍ بلغتْ بي غايةَ الرُّتَبِ
أفردتُه برجاءٍ أن تُشاركَه ... فيّ الوسائلُ أو ألقاه في الكُتب

قال : وأشار إلى كتبي التي أوصلتُها إليه ، وهي بين يديه ، فكان ذلك أشدَّ من كل شيءٍ مرّ بي منه عليّ ، ثم أنشده :

رحلتُ عَنْسي إلى البيت الحرام على ... ما كان من وَصَبٍ فيها ومن نَصَبِ
ألقى بها وبوجهي كلَّ هاجرةٍ ... تكاد تقدحُ بين الجِلد والعَصَب

[الأبيات ...]

قال : فصاح مطلب : لَبّيك لَبّيك . ثم قام إليه فأخذ بيده وأجلسه معه وقال : يا غِلمانُ ، البِدَر . فأُحضِرت ، ثم قال : الخِلَع . فنُشرت . ثم قال : الدوابّ . فقِيدت ، فأمر له من ذلك بما ملأ عينَه وأعينَنا وصدورَنا ، وحَسدناه عليه ، وكان حسَدُنا له بما اتّفق له من القَبول وجودة الشعر ، وغَيظُنا بكَتْمِه إيّانا نفسَه واحتيالِه علينا أكثرَ وأعظم ، فخرج بما أمر له به ، وخرجنا

صِفْراً . فمكثنا أياماً ، ثم وَلّى دعبلَ بن عليّ أُسوانَ ، وكان دعبل قد هجا المطّلب غيظاً منه ، فقال :

تُعلّق مصرُ بك المُخزيـــاتِ   وتبصُق في وجهك المَوْصِلُ
وعاديت أقواماً فمـا ضَرّهـم   وشرّفتَ قوماً فلم ينبلُـوا
شعارُك عند الحروب النَّجـاءُ   وصاحبُك الأخـور الأَفشَلُ
فأنت إذا ما التقَوا آخِـرٌ   وأنت إذا انهزمـوا أوّلُ

وقال فيه :

اِضْرِب ندى طَلحة الطلحات متّئـداً   بلؤُم مُطّلبٍ فينا وكن حَكَما
تُخرج خزاعةَ من لؤمٍ ومن كرمٍ   فلا تعدّ لها لؤمـاً ولا كرما

قال : وكانت القصيدة التي مدح بها دعبل المطّلب قصيدتَه المشهورة التي يقول فيها :

أبعدَ مصرٍ وبعد مُطّلـبٍ   ترجو الغِنى إنّ ذا من العَجَبِ
إن كاثَرُونا جئنـا بأُسرتـه   أو واحَدُونا جئنـا بمطّلب (١)

قال : وبلغ المطّلب هجاؤه إيّاه بعد أن ولّاه ، فعَزله عن أُسوان ، فأنفذ إليه كتاب العزل مع مولًى له وقال : انتظره حتى يصعدَ المِنبر يومَ الجمعة ، فإذا عَلاه فأَوصل الكتاب إليه وامنعه من الخُطبة وأَنزِله عن المنبر واصعَدْ مكانَه . فلمّا أن علا المِنبر وتنحنح ليخطبَ ناوله الكتاب ، فقال له دعبل : دَعْني أخطُبْ ، فإذا نزلتُ قرأتُه . قال : لا ، قد أَمَرني أن أمنعَك الخطبة حتى تقرأَه ، فقرأه وأنزله عن المنبر معزولاً .

عن أحمد بن يحيى العَدويّ أن سبب سُخطه على المطّلب أنّ رجلاً من

---

(١) واحدونا : فاخرونا بشخص واحد .

العلويّين كان قد تحرّك بطَنجة ، فكان يبثّ دُعاتَـه إلى مصر ، وخافه المطّلب ، فوكّـل بالأبواب من يمنع الغُرباء من دخولها .

فلمّـا جاء دعبل مُنع فأَغلظ للذي مَنعه ، فقَـنّعه بالسَّوط وحَبَسه . فمضى رَزينٌ فأخبرالمطّلب ، فأمر بإطلاقه ، ودعابه فخَلَع عليه ، فقال له : لا أرضى أو تقتلَ الموكَّـل بالباب . فقال له : هذا لا يُمكن لأنّـه قائدٌ من قُـوّاد السلطان . فغضب . ثم أنشده الرجل[1] الأبيات المذكورة ، فأجازه ...

قتله

أبو طالب الجعفريّ ومحمد بن أُميّـة الشاعر جميعاً قالا :

هجا دعبل بن عليّ مالك بن طَوق فقال :

سألت عنكـم يـا بني مالـكٍ ... في نازح الأَرضِين والدانيـه
طُـرّاً فلم تُعرَف لكم نِسبـةٌ ... حتى إذا قلت بني الزانيـه
قالوا فَـدَع داراً على يَـمْنـةٍ ... وتلـك ها دارُهـم ثانيـه

[الأبيات ...]

وبلغت الأبيات مالكاً فطلبه ، فهرب فأتى البصرة وعليها إسحاقُ بن العبّاس بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس بن عبد المطّلب ، وكان بلغه هجاء دِعبل وابن أبي عُيينة نزاراً . فأمّـا ابن أبي عُيينة فإنّـه هرب منه فلم يظهر بالبصرة طولَ أيامه . وأمّا دعبل فإنه حين دخل البصرة بعث فقبض عليه ، ودعا بالنِّطع[2] والسيف ليضرِب عُنقه، فجحَدَ القصيدة [3] وحلف بالطّلاق على جحدها وبكلّ يمينٍ تبرّئ من الدم أنه لم يقلها وأنّ عدوّاً له قالها إمّـا أبو سعد المخزوميّ

(١) الرجل : المراد به ابن السراج رفيق دعبل في القدوم على المطلب
(٢) النطع : بساط من أديم .
(٣) المقصود بالقصيدة هنا قصيدة دعبل في هجاء نزار.

أو غيره ، ونسبها إليه ليُغريَ بدمه ، وجعل يتضرّع إليه ويقبّل الأرض ويبكي بين يديه . فرقّ له ، فقال : أما إذ أعفيتك من القتل فلا بُدّ من أن أَشْهَرَك . ثم دعا بالعصا فضربه حتى سَلَح ، وأمر به فأُلقي على قَفاه وفُتح فمه فرُدّ سَلحُه فيه والمَقارع تأخذ رجليه ، وهو يحلِف ألّا يكفّ عنه حتى يستوفيَه ويبلَعَه أو يقتلَه . فما رُفعت عنه حتى بلع سَلْحَه كلّه ، ثم خلّاه فهرب إلى الأهواز .

وبعث مالك بن طوق رجلاً حَصيفاً مِقداماً وأعطاه سُمّاً وأمره أن يغتاله كيف شاء ، وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم ، فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السُّوس ، فاغتاله في وقت من الأوقات بعد صلاة العَتَمة ، فضرب ظهر قدمه بعُكّاز لها زُجٌّ[1] مَسموم ، فمات من غدٍ ، ودُفن بتلك القرية .

وقيل بل حُمل إلى السوس فدُفن فيها ، وأمر إسحاق بن العباس شاعراً يقال له الحسن بن زيد ، ويكنَى أبا الذَّلفاء ، فنقض قصيدتي دعبل وابن أبي عُيَينة بقصيدة أوّلها :

أما تَنفكّ مَتبولاً حَزينـــا ... تُحبّ البِيض تَعصي العاذِلينا

يهجو بها قبائل اليمن ويذكر مثالبهم ، وأمره بتفسير ما نظمه ، وذكرِ الايام والأحوال ، ففعل ذلك وسمّاها الدامغة ، وهي إلى اليوم موجودة .

* * *

(١) الزج : الحديدة في أسفل الرمح والعصا .

٢٠

ديك الجنّ

[الأغاني الجزء ١٤ ص ٥١ وما بعدها]

الشاعر

ديكُ الجِنّ لقبٌ غَلَب عليه ، واسمُه عبد السَّلام بن رَغْبان بن ... تميم . وكان جَدُّه تميمٌ ممّن أنعم الله عزّ وجلّ عليه بالإسلام من أهل مُؤتة[١] على يَدي حَبيب بن مَسلَمة الفِهْريّ ، وكان شديد التشعُّب[٢] والعصبيّة على العرب . يقول : ما للعرب علينا فضلٌ ، جمعتْنا وإيّاهم ولادةُ إبراهيم ﷺ ، وأسلَمْنا كما أسلموا ، ومَنٍ قَتَل منهم رجلاً منا قُتل به ، ولم نجد الله عزّ وجلّ فضَّلهم علينا ، إذ جَمَعنا الدين .

وهو شاعرٌ مُجيد يذهب مذهب أبي تمّام والشاميّين في شعره ، من شعراء الدولة العبّاسية ، وكان من ساكني حِمص ولم يبرَح نواحي الشأم ولا وفَد إلى العراق ولا إلى غيره مُنتجِعاً بشعره ولا مُتصدِّياً لأحد . وكان يتشيّع تشيُّعاً حسناً ، وله مَراثٍ كثيرة في الحسين بن عليّ ، عليهما السلام ، منها قولُه :

يا عينُ لا للقَضا ولا الكُتُبِ ... بُكا الرَّزايا سِوى بُكا الطَّرَبِ

(١) مؤتة : قرية من قرى البلقاء بمشارف الشام .

(٢) التشعب : الأخذ برأي الشعوبية الذين كانوا يكرهون العرب .

وهي مشهورة عند الخاصّ والعامّ ويُناح بها . وله عدّةُ أشعار في هذا المعنى . وكانت له جارية يهواها ، فاتّهمها بغُلامٍ له فقتلها ، واستنفد شعرَه بعد ذلك في مراثيها .

خبره مع زوجته وَرْد

قال [أبو وهب الحِمصيّ] :

كان عبد السلام قد اشتهر بجاريةٍ نصرانيّة من أهل حِمصَ هَوِيها ، وتمادى به الأمرُ حتى غلبتْ عليه وذهبتْ به . فلمّا اشتهر بها دعاها إلى الإسلام ليتزوّج بها ، فأجابته لعلمها برغبته فيها ، وأسلمت على يده ، فتزوّجها ، وكان اسمُها وَرداً ، ففي ذلك يقول :

انظُر إلى شمس القُصور وبَدْرِها ... وإلى خُزاماها وبَهْجةِ زَهرِها
لم تَبلُ عينُك أبيضاً في أسودٍ ... جمع الجمالَ كوَجهها في شَعرِها
ورديّةُ الوَجَنات يَختبرُ اسمَها ... مِن رِيقها من لا يُحيطُ بخُبْرِها
وتمايلتْ فضحكتُ من أردافها ... عَجَباً ولكنّي بكَيتُ لِخصرِها
تَسقيك كأسَ مُدامةٍ من كفّها ... ورديةً ومُدامةً من ثَغرِها

قال : وكان قد أعسر واختلّت حالهُ ، فرحل إلى سَلَمْيَةَ[1] قاصداً لأحمد بن عليّ الهاشميّ ، فأقام عنده مُدّةً طويلة ، وحَمَل ابنَ عمّه بغضُه إياه بعد مودّته له وإشفاقه عليه بسبب هجائه له على أن أذاع على تلك المرأة التي تزوّجها عبد السلام أنها تهوى غلاماً له ، وقرّر ذلك عند جماعة من أهل بيته وجيرانه وإخوانه ، وشاع ذلك الخبرُ حتى أتى عبد السلام ، فكتب إلى أحمد بن عليّ شعراً يستأذنه في الرجوع إلى حمص ويُعلمه ما بلغه من خبر المرأة ، من قصيدة أولها :

إنّ ريبَ الزمان طال انتكاثُه ... كم رمتني بحادثٍ أحداثُه

---

(١) سلمية : بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة .

يقول فيها :

ظبيُ إنسٍ قلبي مَقِيلُ ضُحاه وفؤادي بَرِيرُه وكَباثُه

وفيها يقول :

خِيفةً أن يخونَ عهدي وأن يُضحي لغيري حُجولُه ورِعاثُه[1]

ومدح أحمد بعد هذا ، وهي طويلة ، فأذِن له فعاد إلى حمص ، وقدّر ابنُ عمه وقت قدومه ، فأرصد له قوماً يُعلمونه بموافاته بابَ حمص ، فلمّا وافاه خرج إليه مستقبلاً ومُعنِّفاً على تمسُّكه بهذه المرأة بعدما شاع من ذكرها بالفساد ، وأشار عليه بطلاقها ، وأعلمه أنّها قد أحدثت في مَغيبه حادثةً لا يجمُل به معها المُقام عليها ، ودسّ الرجلَ الذي رماها به ، وقال له : إذا قدِم عبدُ السلام ودخل منزله فقِف على بابه كأنك لم تعلم بقُدومه ونادِ باسم وَرد ، فإذا قال : مَن أنت ؟ فقل : أنا فُلان . فلمّا نزل عبد السلام منزله وألقى ثيابه سألها عن الخبر وأغلظ عليها ، فأجابته جوابَ مَن لم يعرف من القصّة شيئاً . فبينما هو في ذلك إذ قرع الرجلُ الباب فقال : مَن هذا ؟ فقال : أنا فلان . فقال لها عبد السلام : يا زانيةُ ، زعمتِ أنك لا تعرفين من هذا الأمر شيئاً ! ثم اخترط سيفَه فضربها به حتى قتلها ، وقال في ذلك :

ليتني لم أكن لِعَطْفك نلتُ وإلى ذلك الوصالِ وصلتُ

فالذي منّي اشتملتِ عليه ألِلعار ما قد عليه اشتملتِ

قال ذو الجهل قد حَلُمتَ ولا أعلم أنّي حلُمتُ حتى جَهِلتُ

لائمٌ لي بجَهلِه ولماذا أنا وَحْدي أحببتُ ثم قَتلتُ

سوف آسَى طولَ الحياة وأبكيكِ على ما فعلتِ لا ما فعلتُ

---

(١) البرير : الأول من ثمر الأراك . الكباث : الناضج منه . الحجول ج حجل : الخلاخيل . الرعاث ج رعثة : القرط .

وقال فيها أيضاً :

لــكِ نفسٌ مُــواتيَـهْ والمنـايا مُعادِيَـــه
أيّهـا القلبُ لا تَعُــدْ لِهـوى البِيض ثانيـه
ليس بــرقٌ يكــون أخلـبَ من برق غانيـــه
خِنتِ سِرّي ولــم أَخُنــكِ فُــوتي علانيـه

قال : وبلغ السُلطانَ الخبرُ فطلبه ، فخرج إلى دمشق فأقام بها أياماً . وكتب أحمد بن عليّ إلى أمير دمشق أن يُؤَمِّنَه ، وتحمَّل عليه بإخوانه حتى يستوهِبوا جنايته . فقدِم حمص ، وبلغه الخبرُ على حقيقته وصِحّته ، واستيقنه فندِم ، ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يَطعَمُ من الطعام إلّا ما يُقيم رَمَقه . وقال في نَدَمه على قتلها :

يا طلعــةً طلـع الحِمامُ عليهـا وجنى لها ثَمَر الرَّدى بيدَيْها
روّيتُ من دمها الثرى ولطالمـا رَوّى الهوى شفَتيّ من شفتيها
قد بات سَيفي في مَجالِ وِشاحهـا ومدامعـي تجري على خَدَّيها
فوحقِّ نعليهـا وما وَطِيء الحَصَى شيءٌ أعزُّ عليّ من نَعْلَيهـا
ما كان قتليهـا لأنّي لم أكــن أبكـي إذاسقط الذُّبـابُ عليها
لكن ضَننتُ على العيون بحُسْنها وأنِفتُ من نظر الحَسُود إليهـا

وقال ديك الجنّ في هذه المقتولة :

أشفقــتُ أن يردَ الزمانُ بغَــدْرهِ أو أُبتَلَـى بعد الوِصال بهَجْره
قمرٌ أنا استخرجتُه من دَجْنِــهِ لِبليّتي وجَلَوتُه من خِــدرِهِ
فقتلتُــه ولـه علـيَّ كــرامةٌ مِلءَ الحَشَى وله الفؤادُ بأَسْرِهِ
عهـدي به مَيْتاً كأحسنِ نائـــم والحُزنُ يسفَحُ عَبرتي في نَحره

لو كان يدري الميتُ ماذا بعــــدَه بالحيِّ حلَّ بكـى له في قَبره
غُـصَصٌ تكاد تفيظ منهـا نفسُـه وتكاد تُخرج قلبَه من صَدره (١)

وقال فيها أيضاً :

أساكـنَ حُفرةٍ وقـرارِ لَحْـدِ مُفارقَ خُلّـةٍ من بعد عَهدِ
أَجِبني إن قَدَرْت على جـوابي بحـقِّ الوُدِّ كيف ظَلِلت بعـدي
وأين حللتَ بعد حُلول قلـبي وأحشائي وأضـلاعي وكِبْـدي
أما والله لـو عـاينتَ وَجـدي إذا استعبرتُ في الظُّلمـات وحدي
وجَـدَّ تنفُّسي وعـلا زَفـيري وفاضت عَبْرتي في صَحن خَدّي
إذاً لعلمتَ أنّي عـن قـريبٍ ستُحْفَـرُ حُفرتي ويُشقّ لَحدي
ويعذِلُني السَّفيهُ على بكـائي كأنّي مبتلى بالحُزن وَحـدي
يقول قتلتهَـا سفَهـاً وجَهـلاً وتَبكيهـا بكـاءً ليس يُجدي
كصَيّـاد الطيـور له انتخـابٌ عليهـا وهو يَذبحُهـا بِحَدٍّ (٢)

طائفة من أخباره

● عن أبي طاهر :

أنّ خطيب أهل حمص كان يصلي على النبيّ ﷺ على المنبر ثلاثَ مرّات في خُطبته ، وكان أهل حمصَ كلُّهم من اليمن ، لم يكن فيهم من مُضرَ إلا ثلاثةُ أبيات ، فتعصَّبوا على الإمام وعزلوه ، فقال ديك الجن :

سمعـوا الصَّلاةَ على النبيِّ تَـوالى فتفرّقوا شِيعـاً وقالوا : لا ، لا
ثم استمرّ على الصّلاة إمامُهـم فتحزّبوا ورمـى الرجـالُ رجالا

---

(١) فاظت نفسه : خرجت روحه .
(٢) الخلة : الخليل والصديق للذكر والأنثى .

يا آلَ حِمصَ توقّعُوا من شرِّهـــــا ... خِزياً يحِـلُّ عليكـم ووَبـــالا
شاهت وجوهُكُــم وجوهــاً طالما ... رَغِمتْ مَعاطسُها وساءت حالا [1]

● ابن أخٍ لديك الجنّ يقال له أبو وَهْب الحِمصيّ قال :

كان عمّي خليعاً ماجناً مُعتكفاً على القَصْف[2] واللهو ، مِتلافاً لِما ورث عن آبائه وما اكتسب بشعره من أحمد وجعفر ابنَي عـليّ الها شميَّين ، وكان له ابنُ عمّ يُكنَى أبا الطَّيّب يَعِظُه وينهاه عمّا يفعله ، ويحول بينه وبين ما يُؤثِره ويركبُه من لَذّاته ، وربّما هجم عليه وعنده قومٌ من السُّفَهاء والمُجّان وأهل الخَلاعة ، فيستخِفُّ بهم وبه . فلمّا كثُر ذلك على عبد السلام قال فيه :

مَولاتُنـــا يا غُـلامُ مُبتَكِرَهْ ... فباكرِ الكأسَ لي بلا نَظِـرَه
غدتْ على اللهـو والمجون عـلى ... أنّ الفتاةَ الحَيِّيـةُ الخَفِـره
لحُبّهـــا لا عَدِمتُهـا حُرَقٌ ... مَطويّــةٌ في الحشا ومُنتشِرَه
ما ذُقت منها سوى مُقَبَّلِهـــا ... وضَمٌّ تلك الفُــروعِ مُنحدره
وانتهرتْني فمتُّ من فَـــرَقٍ ... يا حُسنَها في الرِّضا ومُنتَهِـره
ثم انثنت سَـورةُ الخُمـار بنـا ... خلالَ تلك الغدائر الخَمِـره
وليلـةٍ أشرفـتْ بكَلْكَلهـــا ... عليّ كالطَّيْلســان مُعتَجِره
فَتقتُ دَيْجورَهـا إلى قمـرٍ ... أثوابُــه بالعفافِ مُستَـتِرَهْ
عُجْ عَبَراتِ المُدام نحويَ من ... عشرٍ وعشرين واثنتَي عشَره
قد ذُكر الناسُ عن قيامهـــم ... ذِكـرى بعقلي ما أصبحتْ نَكِرَه
معرفتي بالصّـــواب معرفـةٌ ... غَـرّاءُ إمّا عَرَفتـمُ النَكِـره

(١) شاهت الوجوه : قبحت . المعاطس : الأنوف .
(٢) القصف : الإقامة في الشرب واللهو.

يا عجَبا من أبي الخبيث ومِن سُروحه في البقائر الدُّثِـره
يحملُ رأساً تنبُو المعاولُ عن صَفحته والجلَّامـدُ الوَعِره
لو البغالُ الكُمْتُ ارتقت سَنَداً فيه لَمـدّتْ قوائمـاً خَدِره
ولا المجانيقُ فيه مُغنيـةٌ ألفٌ تَسامى وألفُ مُنكَدِره
انظُر إلى موضع المِقَصِّ من الهـامة تلك الصَّفيحـةِ العَجِـره
فلو أخذتُم لها المطارقَ حَـرّانيَّـةً صَنعـةَ اليـد الخَبِـره
إذاً لراحت أكـفٌّ جِلَّتهم كليلـةً والأداةُ مُنكَسِره
كم طَرَباتٍ أفسدتَهـنَّ وكم صَفوةِ عيشٍ غادرتَها كَدِره
وكم إذا ما رأوك يا مَلَكَ المـوت لهـم من أنامـلٍ خَصِره
وكم لهم دعـوةٌ عليـك وكم قَذفةِ أُمٍّ شنعاءَ مُشتهـره
كريمـةٍ لُؤمُك استخفَّ بها ونالها بالمثالب الأشِـره
قِفوا عـلى رَحله تَروا عجباً في الجهل يحكي طرائف البَصِره
يا كُلَّ مَنْيٍ وكلَّ طالعـة نَحسٍ ويا كلَّ ساعةٍ عَسِره
سُبحانَ من يُمسِكُ السماء على الأرض وفيها أخلاقُـك القَذِره (١)

* * *

(١) باكره وابتكره : بكر اليه . النظرة : التأخير . الفروع ج فرع : الشعر التام . سورة الخمر : حدتها . الخمار : ما يصيب شارب الخمر من صداعها وأذاها . الخمرة : من الخَمَر وهو ما واراك من شجر وغيره أراد أن غدائرها غزيرة . . الكلكل : الصدر . اعتجرت المرأة : لبست المعجر ، وهو ثوب تشده المرأة على رأسها . الديجور : الظلام . قيامهم : أراد بعثهم يوم القيامة . نكرة : منكرة . غراء : مشهورة . أبو الخبيث : أراد أبا الطيب ابن عمه . البقير والبقيرة ج بقار : برد يشق ثم تلقيه المرأة في عنقها من غير كمين ولا جيب . الدثرة : الوسخة . الكمت : التي لونها الكمتة ، وهي حمرة مشربة بسواد . السند : ما علا عن سفح الجبل . منكدرة : منقضة . العجرة : الضخمة ، الصلبة . خصرة : باردة . البصرة أرض حجارتها جص وبها سميت مدينة البصرة . مني : مصدر مناه به يمنيه إذا ابتلاه به .

٢١

رُؤبة بن العجّاج

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ٣٤٥ وما بعدها]

الشاعر

هو رُؤْبة بن العَجّاج . واسمُ العجّاج عبدالله بن رؤبة بن حَنيفة ، وهو أبو جُذيم بن مالك ... بن سَعد بن زيد مَناة بن تميم .

من رُجاز الإسلام وفصحائهم ، والمذكورين المقدّمين منهم . بدويّ نزل البصرة ، وهو من مُخضرمي الدولتين . مدح بني أمية وبني العبّاس ، ومات في أيام المنصور . وقد أخذ عنه وُجوه أهل اللغة ، وكانوا يَقتدون به ، ويحتّجون بشعره ، ويجعلونه إماماً . ويُكنى أبا الجحّاف وأبا العجّاج .

أحمد بن عمّار ـ واللفظ له ـ قال : حدّثنا عمر بن شَبّة ، قال : حدّثنا خَلّاد بن يزيد ، قال : حدّثني يونس بن حبيب ، قال : كنت جالساً مع أبي عَمرو بن العَلاء إذ مرّ بنا شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعيّ ـ قال أبو زيد[١] : وكان علّامةً ـ فقال : يا أبا عَمرو ، أشعرتَ[٢] أنّي سألت رُؤبةَ عن اسمه فلم

(١) أبو زيد : المقصود به عمر بن شبة .

(٢) أشعرت : أعلمت .

يدرِ ماهو وما معناه؟ قال يونس : فقلت له : واللهِ لَرؤبةُ أفصحُ من مَعدّ ابن عدنان ، وأنا غلام رؤبة ، أفتعرف أنت رَوْبة ورُوبة وراُوبة ورُوبة ورُؤبة؟ قال : فضرب بغلته وذهب ، فما تكلّم بشيء . فقال لي أبو عمرو : ما يَسرُّني أنّك نقصتَني منها .

قال ابن عمّار في خبره :

والرَّوبة : اللبن الخاثر ، والرُّوبة : ماء الفحل ، والرُّوبة : الساعة تمضي من الليل . والروبة : الحاجة . والرُؤبة : شَعب القَدح ...

عن محمد بن سلّام قال : قلت ليونس : هل رأيت عربياً أفصح من رُؤبة؟ قال : لا ، ما كان بعد معدّ بن عدنان أفصحُ منه .

وقد روى رؤبة بن العجّاج الحديث المسنَد عن رسول الله ﷺ ، ورواه أبوه أيضاً .

عن ابن عون قال :

ما شبّهتُ لهجة الحسن البصريّ إلا بلهجة رؤبة ، ولم يوجَد له ولا لأبيه في شعرهما حرفٌ مُدغَمٌ قطّ .

عبد الرحمن بن أخي الأصمعيّ عن عمه قال : قيل ليونس : مَن أشعرُ الناس؟ قال : العجّاج ورؤبة . فقيل له : لمَ ولم نَعنِ الرُجّاز؟ فقال : هما أشعرُ من أهل القصيد ، إنما الشعر كلامٌ فأجودُه أَشعَرُه ، قد قال العجّاج :

« قد جَبَر الدِّين الآلـهُ فجُبر »

وهي نحو من مائتي بيت موقوفةِ القوافي[1] ، ولو أطلقت قوافيها كانت كلّها منصوبة . وكذلك عامّةُ أراجيزهما .

---

(١) موقوفة القافية : ساكنة القافية .

عن أبي زيد الأنصاريّ والحكم بن قُنبر قالا :

كنّا نقعُد إلى رؤبة يومَ الجمعة في رَحبة بني تميم ، فاجتمعنا يوماً فقطعنا الطريق ، ومرّت بنا عجوزٌ فلم تقدر على أن تجوز في طريقها . فقال رؤبة ابن العجّاج :

تنحَّ للعجوز عن طريقها إذ أقبلت رائحةً من سُوقها

دَعْها فما النحويُّ من صديقِها

عن يعقوب بن داود قال :

لقيت الخليلَ بن أحمد يوماً بالبصرة فقال لي : يا أبا عبدالله ، دَفَنّا الشعر واللغة والفصاحةَ اليوم . فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : هذا حين انصرفت من جَنازة رؤبة .

طائفة من أخباره

● عن رؤبة بن العجّاج قال :

بعث إليّ أبو مُسلم لمّا أفضت الخلافةُ إلى بني هاشم ، فلمّا دخلتُ عليه رأى منّي جزَعاً ، فقال : اسكُن فلا بأسَ عليك ، ما هذا الجَزَعُ الذي ظهر منك ! قلت : أخافُك . قال : ولمَ ؟ قلت : لأنّه بلغني أنّك تقتل الناس . قال : إنّما أقتُل من يُقاتلني ويريد قتلي ، أفأنت منهم ؟ قلت : لا . قال : فهل ترى بأساً ؟ قلت : لا . فأقبل على جُلسائه ضاحكاً ثم قال : أما ابنُ العَجّاج فقد رَخّص لنا . ثم قال : أنشِدني قولك :

وقاتمِ الأعماق خاوي المُخْتَرَقْ[1]

فقلت : أوَ أُنشدك ـ أصلحك اللهُ ـ أحسنَ منه . قال : هاتِ . فأنشدته :

---

(١) الأعماق ج عمق : البعيد من أطراف المفاوز. المخترق : موضع قطع المفاوز .

قلتُ وقولي مُستجِدٌّ حَوْكـا لَبَّيك إذ دعوتَني لَبَّيكـا

أحمَد ربّاً ساقني إليكا

قال : هاتِ كلمتك الأولى . قلت : أوَ أنشدك أحسنَ منها ؟ قال : هاتِ . فأنشدتُه :

ما زال يبني خَندقاً ويهدِمُـهْ ويستجيش عسكـراً ويهزِمُهْ

ومَغنمـاً يجمعـه ويقسِمـه مروانُ لمّـا أن تهـاوت أَنجُمه

وخانه في حُكمه مُنَجِّمُـه

قال :دع هذا وأنشِدني : وقاتم الأعماق . قلت : أو أحسن منه ؟ قال : هاتِ . فأنشدته :

رفعتَ بيتاً وخفضـتَ بيتـا وشِدتَ رُكن الدِّين إذ بَنَيْتا

في الأكرمين من قريشٍ بَيتا

قال : هات ما سألتُك عنه . فأنشدته :

ما زال يأتي الأمرَ من أَقطـارِهِ على اليمين وعلى يَسـارِهِ

مُشمِّـراً لا يُصطَلـى بنـاره حتى أقرّ المُلكَ في قَـراره

وفرّ مَروانُ على حمارِهِ

قال : ويحَك ! هاتِ ما دعوتك له وأمرتك بإنشاده ، ولا تُنشِد شيئاً غيرَه . فأنشدتُه :

وقاتم الأعماق خاوي المخترَقْ

فلمّا صِرتُ إلى قولي :

يرمي الجلاميدَ بجُلمودٍ مِدَقّْ

قال : قاتلك الله ! لَشدّ ما استصلبتَ الحافِر ! ثم قال : حسبُك ، أنا ذلك الجُلمودُ المِدَقّ .

قال : وجيءِ بمِنديلٍ فيه مالٌ ، فوُضع بين يديَّ ، فقال أبو مسلم : يا رُؤبة ، إنك أتيتنا والأموالُ مشفوهة[1] ، وإنّ لك لعودةً إلينا وعلينا مُعوَّلاً ، والدّهر أَطرقُ مُستَتبٌّ[2] ، فلا تجعلْ بجَنْبَيك الأَسِدَّة[3] .

قال رؤبة : فأخذت المنديل منه ، وتاللهِ ما رأيت أعجميّاً أفصحَ منه ، وما ظننتُ أنّ أحداً يعرف هذا الكلام غيري وغير أبي .

● ابن قتيبة قال :

كان رؤبة يأكل الفأر ، فقيل له في ذلك وعُوتب ، فقال : هو واللهِ أنظفُ من دَواجنكم ودَجاجكم اللّواتي يأكُلن القَذَر ، وهل يأكل الفأر إلّا نقيَّ البُرّ ولُبابَ الطعام .

● عن رؤبة قال :

لمّا وَلي الوليد بن عبد الملك الخلافة بعث بي الحجّاج مع أبي لِنلقاه ، فاستَقبلْنا الشَّمال حتى صرنا بباب الفراديس[4] .

قال : وكان خروجنا في عامٍ مُخصِب ، وكنت أصلّي الغَداة وأجتني من الكَمأة ما شئت ، ثم لا أجاوز إلّا قليلاً حتى أرى خيراً منها ، فأرمي بها وآخذ الأُخَر ، حتى نزلنا بعض المياه ، فأُهدي لنا حَمَل مُخَرْفَج[5] ووطَبْ لبن غليظ

---

(١) مشفوهة : اشتد عليها الطلب حتى نفدت . ويقال : اشتف ما في الأناء وشفهه : اذا أتى عليه .

(٢) الدهر أطرق مستتب : هذا مثل ، والطرق : استرخاء وضعف في الركبتين والاستتباب الاستقامة ، أراد أن الدهر يعوجّ تارة ويستقيم تارة أخرى فلا يدوم عل حال واحدة .

(٣) لا تجعل بين جنبيك الأسدّة : هذا مثل أيضاً والأسدّة (بالتشديد) جمع السَدّ ، جمع عل غير القياس ، وهي العيوب والعاهات كالعمى والصمم أي لا يضيقنّ صدرك .

(٤) باب الفراديس : من أبواب دمشق .

(٥) مخرفج : سمين .

وزُبدة كأنّها رأس نعجة حُوشيّة[1] ، فقطّعنا الحَمل آراباً[2] ، وكررنا عليه اللبن والزُبدة ، حتى إذا بلغ إناه[3] انتشلنا[4] اللحم بغير خبز . ثم شربتُ من مَرَقه شَربةً لم تزل لها ذِفْرِياي[5] ترشَحان ، حتى رجعنا إلى حَجْر .

فكان أوّل من لَقِينا من الشعراء جريراً ، فاستعهدَنا ألّا نُعين عليه . فكان أوّلَ من أُذن له من الشعراء أبي ثم أنا . فأقبل الوليد على جرير فقال له : ويلكَ ، ألا تكون مثلَ هذين ! عقَدا الشِّفاه عن أعراض الناس ! فقال : إنّي أُظلَم فلا أصبر .

ثم لقِينا بعد ذلك جريرٌ فقال : يا بَنيْ أُمّ العجّاج ، والله لئن وضعت كَلْكَلي عليكما ما أغنت عنكما مُقَطّعاتكما . فقلنا : لا والله ما بَلغَه عنّا شيء ، ولكنّه حسَدنا لمّا أُذِن لنا قبلَه ، واستَنْشَدَنا قبله .

● عن المدائنيّ قال :

قدم البصرة راجزٌ من أهل المدينة ، فجلس إلى حَلْقةٍ فيها الشعراء فقال : أنا أرجَز العرب ، أنا الذي أقول :

مروانُ يعطي وسعيدٌ يمنـــــعُ مروانُ نبعٌ وسعيدٌ خِرْوع[6]

ودِدت أنّي راميت من أَحبّ في الرجز يداً بيد ، والله لأنا أَرجز من العجّاج ، فليت البصرةَ جمعتْ بيني وبينه . قال : والعجّاج حاضرٌ وابنه رؤبةُ معه . فأقبل

(١) حوشية ، الحوشي من الأبل وغيرها : الوحشي ، نسبة الى الحوش وهو فيما زعموا بلاد الجن .

(٢) الآراب ج إرب : وهو العضو.

(٣) بلغ إناه : نضج .

(٤) انتشلنا : كذا في المطبوعة ، ويحتمل أن تكون محرفة عن انتشنا أي تناولنا .

(٥) الذفرى : العظم الشاخص خلف الأذن .

(٦) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسي والسهام . الخروع : نبت ضعيف لا يرعى .

رؤبة على أبيه فقال : قد أنصفك الرجل . فأقبل عليه العجّاج وقال : هأنذا العجّاجُ ، فهَلُمّ . وزحف إليه ، فقال : وأيّ العجّاجَين أنت ؟ قال : ما خِلتُك تعني غيري ، أنا عبدالله الطويل ـ وكان يُكنى بذلك ـ . فقال له المدنيُّ : ما عَنَيتك ولا أردتُك . فقال : وكيف وقد هتفتَ بي ؟ قال : وما في الدنيا عجّاجٌ سواك ؟ قال : ما علمتُ . قال : ولكنّي أعلم ، وإيّاه عَنيتُ . قال : فهذا ابني رُؤبة . فقال : اللهمّ غَفراً ، مابيني وبينكما عملٌ ، وإنّما مُرادي غيرُكما . فضحك أهل الحلْقة منه وكفّا عنه .

● قال ابن سلّام :

وقف رؤبة على باب سليمان بن عليّ يستأذن ؛ فقيل له : قد أخذ الإذرِيطُوس[1] . فقال رؤبة :

يا مُنزلَ الوحي على إدريس ومُنزلَ اللّعنِ على إبليس
وخالقَ الاثنين والخميس بارِكْ له في شُرب إذريطَوسِ

● عن الأصمعيّ قال :

أنشد رؤبة سَلْم بن قتيبة في صفة خيل :

يَهوِين شتّى ويقعنَ وُقَّفا

فقال له : أخطأت يا أبا الجحّاف : جعلته مُقيّداً . فقال : أَدْنِني ، أيها الأمير ، ذنب البعير أَصِفْه لك كما يجب .

● عن عَلقمة الضبيّ قال :

خرج شاهين بنُ عبدالله الثَقفيّ برؤبة إلى أرضه ، فقعدوا يلعبون بالنَرد ، فلمّا أَتَوا بالخِوان قال رؤبة :

---

(١) الاذريطوس : اسم دواء واللفظة رومية معربة .

يا إخوتي جاء الخِوانُ فارفعوا حَنّانـةً كِعابُها تُقعقِـعُ
لم أدرِ ما ثَلاثُها والأرْبَع (١)

قال : فضحكنا ورفعناها ، وقُدّم الطعام .

* * *

(١) الحنانة : المصوّتة ، أراد بها أداة النرد .

٢٢

سَلْم الخاسر

[الأغاني الجزء ١٩ ص ٢٦١ وما بعدها]

الشاعر

سَلْمُ بن عَمرو مولى بني تَيم بن مُرّة ، ثم مولى أبي بكر الصِّدّيق ، رضوان الله عليه ، بصريّ ، شاعرٌ مطبوع متصرّف في فنون الشعر ، من شعراء الدولة العبّاسية . وهو راوية بشار بن بُرد وتلميذه ، وعنه أخذ ، ومن بحره اغترف ، وعلى مَذهبه ونَمَطه قال الشعر .

ولُقّب سَلمٌ بالخاسر ـ فيما يقال ـ لأنه ورِث من أبيه مُصحَفاً ، فباعه واشترى بثمنه طُنبوراً . وقيل : بل خَلّف له أبوه مالاً فأنفقه على الأدب والشعر ، فقال له بعضُ أهله : إنك لخاسرُ الصَّفْقة . فلُقّب بذلك .

وكان صديقاً لإبراهيم الموصليّ ، ولأبي العتاهية ، خاصة من الشعراء والمغنّين ، ثم فسَد ما بينه وبين أبي العتاهية . وكان سَلم منقطعاً إلى البرامكة ، وإلى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إنما الفَضلُ لِسَلْمٍ وحـده ... ليس فيه لِسوى سَلْمٍ دَرَكْ

وكان هذا أحد الأسباب في فساد ما بينه وبين أبي العتاهية ..

أبو عمرو سعيد بن الحسن الباهليّ الشاعر قال :

لمّا مات عمروٌ أبو سلم الخاسر اقتسموا ميراثه ، فوقع في قِسط سَلم مصحفٌ ، فردّه وأخذ مكانَه دفاترَ شعر كانت عند أبيه ، فلُقّب الخاسر بذلك .

محمد بن عمر الجرجانيّ قال :

ورث سلمٌ الخاسرُ أباه مائةَ ألف درهم ، فأنفقها على الأدب وبقي لا شيءَ عنده ، فلقّبه الجيرانُ ومن يعرفه بالخاسر وقالوا : أنفق مالَه على ما لا ينفعه . ثم مدح المهديّ - أو الرشيد - وقد كان بلغه اللقبُ الذي لُقّب به ، فأمر له بمائة ألف درهم وقال له : كذِّبْ بهذا المال جيرانَك . فجاءهم بها وقال لهم : هذه المائةُ الألف التي أنفقْتُها وربحت الأدب ، فأنا سَلمٌ الرابحُ لا سَلم الخاسر .

موسى بن عبدالله بن شِهاب المِسْمَعيّ قال :

سمعت أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنّى يقول : كان سَلم الخاسر لا يُحسن أن يمدح ، ولكنه كان يُحسن أن يرثي ويسأل .

إغارته على شعر بشار

عن أحمد بن صالح قال : قال بشار بن بُرد :

لا خيرَ في العيش إن دُمْنا كذا أبداً ... لا نَلتقي وسبيلُ الملتقَى نَهَجُ
قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم ... ما في التلاقي ولا في غيره حَرَج
من راقب الناسَ لم يظفَرْ بحاجته ... وفاز بالطّيّباتِ الفاتك اللَّهِجُ (1)

قال : فقال سلم الخاسر أبياتاً ثم أخذ معنى هذا البيت فسلخَه وجعله في قوله :

من راقب الناس مات غمّاً ... وفاز باللّذةِ الجَسُورُ

(1) نهج : واضح . اللهج : المثابر .

فبلغ بيتُه بشاراً ، فغضب واستشاط ، وحلَف ألّا يدخلَ إليه ولا يُفيدَه ولا ينفعه ما دام حيّاً ، فاستشفع إليه بكلّ صديق له ، وكُلّ من يثقُل عليه ردُّه ، فَكلّموه فيه فقال : أدخِلُوه إليّ . فأدخَلُوه إليه ، فاستَدناه ، ثم قال : إيـهِ يا سلمُ ، من الذي يقول .

مَن راقب الناس لم يظفَر بحاجتــه وفــاز بالطَيّبات الفــاتك اللهِجُ

قال : أنت يا أبا مُعاذ ، قد جعلني الله فداءك . قال : فمن الذي يقول :

من راقب الناس مات همّــاً وفــاز باللّــذة الجَسُــورُ

قال : تلميذك وخرِّيجُك وعبدُك يا أبا معاذ . فاجتذبه إليه ، وقَنّعه[1] بمخصرة كانت في يده ثلاثاً ، وهو يقول : لا أعُود يا أبا مُعاذ إلى ما تُنكره ، ولا آتي شيئاً تَذُمّه ، إنما أنا عبدُك ، وتلميذك ، وصَنيعتُك ، وهو يقول له : يا فاسقُ ، أتجيء إلى معنىً قد سهِرتْ له عيني ، وتعب فيه فكري ، وسبقتُ الناس إليه ، فتسرقُه ، ثم تختصره لفظاً تُقرِّبُه به ، لِتزري علي وتُذهب بيتي ! وهو يحلف له ألّا يعود ، والجماعة يسألونه . فبعد لأْيٍ وجَهد ما شَفَّعهم فيه ، وكفّ عن ضربه ، ثم رجَع له ورضي عنه .

قال أبو معاذ النُميريّ : قال بشار قصيدة وقال فيها :

من راقب الناس لم يظفر بحاجتـــه وفاز بالطَيّبات الفـاتكُ اللهِجُ

فعرّفتُه أنّ سَلماً قد قال :

من راقب الناس مـــات غَمّـاً وفاز باللّــذّة الجَسُــورِ

فلما سمع بشار هذا البيت قال : سار والله بيتُ سَلم ، وخَمَل بيتُنا ! قال : وكان كذلك ، لهِج الناسُ ببيت سَلم ، ولم يُنشد بيت بشّار أحدٌ .

---

(١) قنعه بالعصا : ضربه بها .

صالح بن عبد الرحمن عن أبيه قال :

دخل سلم الخاسر على الرشيد ، وعنده ـ العباس بن محمد وجعفر بن يحيى ، فأنشده قوله :

« حضر الرّحيلُ وشُدّت الأحداجُ »[1]

فلما انتهى إلى قوله :

إنّ المنايا في السيوف كوامنٌ حتى يُهَيِّجَها فتىً هَيّاجُ

فقال الرشيد : كان ذَلك معنَ بن زائدة . فقال : صدق أمير المؤمنين . ثم أنشده حتى انتهى إلى قوله :

ومُدَجَّجٍ يَغشى المَضِيقَ بسيفه حتى يكونَ بسيفه الإفراجُ

فقال الرشيد : ذلك يزيد بن مَزيَد . فقال : صدق أميرُ المؤمنين . فاغتاظ جعفر بن يحيى ، وكان يزيد بن مَزيد عدوّاً للبرامكة مُصافياً للفضل بن الربيع ، فلما انتهى إلى قوله :

نزلتْ نجومُ الليل فوقَ رؤوسهم ولكلّ قومٍ كوكبٌ وهّاجُ

قال له جعفر بن يحيى : من قلّة الشعر تمدح أمير المؤمنين بشعرٍ قيل في غيره ! هذا لبشار في فلان التميميّ . فقال الرشيد : ما تقول يا سَلمُ ؟ قال : صدق يا سيّدي ، وهل أنا إلّا جزءٌ من محاسن بشار ، وهل أنطِق إلّا بفضل مَنطقه ! وحياتك يا سيدي إنّي لأروي له تسعةَ آلاف بيت ما يعرف أحدٌ غيري منها شيئاً . فضحك الرشيد وقال : ما أحسَنَ الصِّدقَ ! امضِ في شعرك . وأمر له بمائة ألف درهم ...

---

(١) الأحداج ج حَدج : مركب للنساء . وتتمة البيت : وغدا بهنّ مشمّر مزعاج .

أخباره مع أبي العتاهية

عن محمد بن عمر الجُرجانيّ قال :

كان سلمٌ تلميذ بشار ، إلّا أنه كان تباعدَ ما بينهما ، فكان سلمٌ يقدّم أبا العتاهية ويقول : هو أشعرُ الجِنّ والإنس . إلى أن قال أبو العتاهية يخاطب سَلماً :

تَعالى اللهُ يا سلمَ بنَ عَمرٍو ... أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرّجالِ
هَبِ الدنيا تصيرُ إليك عفواً ... أليس مصيرُ ذاك إلى زَوال

قال : وبلغ الرّشيدَ هذا الشعر فاستحسنه وقال : لَعَمري إنّ الحِرصَ لَمفسَدةٌ لأمر الدين والدنيا ، وما فتّشتُ عن حريصٍ قطّ مُغيَّبِه إلّا انكشف لي عمّا أذمّه . وبلغ ذلك سَلماً ، فغضب على أبي العتاهية وقال : وَيْلي على الجَرّار ابن الفاعلة الزّنديق ! زعم أنّي حريصٌ وقد كنز البُدورَ[1] ، وهو يطلب وأنا في ثوبيَّ هذين لا أملِك غيرَهما . وانحرف عن أبي العتاهية بعد ذلك .

عن علي بن المبارك القضاعيّ ، عن سلم الخاسر :

أنّ أبا العتاهية لمّا قال هذا الشعر فيه كتب إليه :

ما أقبحَ التزهيدَ من واعظٍ ... يُزهِّد الناسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان في تزهيده صادقاً ... أضحى وأمسى بيتَه المسجدُ
ورفَض الدنيا ولم يَلْقَها ... ولم يكن يَسعى ويَسترفِدُ
يخاف أن تنفَدَ أرزاقُه ... والرِّزق عند الله لا ينفَدُ
الرّزقُ مقسومٌ على من ترى ... يناله الأبيضُ والأسودُ
كلٌّ يُوفَّى رِزقَه كاملاً ... من كفّ عن جُهدٍ ومن يَجْهَدُ

---

(١) البدور ج بدرة : كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم .

صلته بخلفاء بني العباس ووزرائهم

عن أبي هَفّان قال :

وصل إلى سلم الخاسر من آل بَرْمَك خاصّةً سوى ما وصل إليه من غيرهم عشرون ألف دينار ، ووصل إليه من الرشيد مثلُها .

أبو مالك محمد بن موسى اليمانيّ قال :

كان سلمٌ الخاسر مدح بعض العلويين ، فبلغ ذلك المهديّ ، فتوعّده وهمّ به ، فقال سَلمٌ فيه :

إني أتتني عن المهديّ مَعْتَبَةٌ ... تكاد من خَوفها الأحشاءُ تضطربُ
اسمع فداك بنو حوّاء كلُّهم ... وقد يجور برأس الكاذب الكذِبُ
فقد حلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ ... يومَ المَغيبة لم يُقطَعْ لها سببُ
ألّا يُحالف مَدحي غيرَكم أبداً ... ولو تلاقى عليَّ الغَرْضُ والحقَبُ
ولو ملكتُ عِنانَ الرّيح أصرِفُها ... في كلّ ناحيةٍ ما فاتها الطلبُ
مولاك مولاك لا تُشمِتْ أعاديَه ... فما وراءك لي ذِكرٌ ولا نسبُ (١)

فعفا عنه .

سعيد أبو هُريم وأبو دعامة قالا :

لمّا قال سلم الخاسر في الرشيد حين عقد البيعة لابنه محمد الأمين :

قد بايع الثَقَلانِ في مَهد الهُدى ... لمحمد بن زُبَيدةَ ابنةِ جعفرِ
ولَّيتَه عهدَ الأنام وأمرهم ... فدمغت بالمعروف رأسَ المُنْكَرِ

أعطته زبيدةُ مائة ألف درهم .

---

(١) الغرض . حزام الرحل . الحقب : الحزام يلي حقو البعير .

عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق عن أبيه قال :

قال سَلْمٌ الخاسر في المهديّ قصيدته التي يقول فيها :

له شِيمةٌ عند بَذل العطـــا ء لا يعرف النـاسُ مِقدارَها
ومَهديٌّ أمّتنا والـــذي حَماها وأدرك أوتارَهـــا

فأمر له المهديّ بخمسائة ألف درهم .

منصور بن أبي مُزاحم قال :

شهِدتُ المهديَّ وقد أمر لمروان بن أبي حَفصةَ بأربعين ألف درهم ، وفرض له على أهل بيته وجلسائه ثلاثين ألف درهم . وأمر الرشيدُ بعد ذلك لمّا ولي الخلافةَ لسَلم الخاسر ، وقد مدحه ، بسبعين ألف درهم ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ أكثر ما أعطى المهديُّ مَروانَ سبعون ألف درهم ، فزِدني وفضِّلْني عليه . ففعل ذلك وأعطاه تتمّة ثمانين ألف درهم ، فقال سلم :

ألا قُل لِمروانٍ أتتـك رسالـــةٌ لها نَبَـــأٌ لا يَنثـني عن لِقائكا
حَباني أميرُ المؤمنين بنَفحـــةٍ مُشَهَّرةٍ قد طأطأتْ من حِبائكـا
ثمانين ألفاً حُزت من صُلب مالـــه ولم يـكُ قَسْماً من أُولى وأُولائكا

فأجابه مروان فقال :

أسَلْمَ بنَ عَمرٍو قد تعاطيتَ غايـــةً تُقصِّر عنها بعد طُول عَنـائكا
فأُقسم لولا ابنُ الرَّبيـــع ورِفـدُه لما ابتَلَّت الدَّلْوُ التي في رِشائكا
وما نِلتَ مُذ صُوِّرتَ إلّا عَطيّـــةً تقوم بها مَصرورةً في رِدائكـا

عبد الصَّمد بن المُعَذَّل قال :

لمّا أنشد سلم الخاسر الرشيد قصيدته فيه :

« حَضر الرَّحيلُ وشُدّت الأَحداجُ »

أمر له بمائة ألف درهم .

أبو دِعامة قال :

دخل سلم الخاسر على الرشيد فأنشده :

« حَيِّ الأحبَّةَ بالسّلامِ »

فقال الرشيد : حيّاهم الله بالسلام .

فقال : « على وَداعٍ أم مُقام »

فقال الرشيد : حَيّاهم اللهُ على أيّ ذلك كان . فأنشده :

لم يبقَ منكَ ومنهمُ غيرُ الجلودِ على العظامِ

فقال له الرشيد : بل منك . وأمر بإخراجه ، وتطيّر منه ومن قوله فلم يسمع منه باقي الشعر ولا أثابه بشيء .

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

أتت وفاةُ المهديّ إلى موسى الهادي وهو بجُرجان ، فبُويع له هناك ، فدخل عليه سلم الخاسر مع المهنّئين ، فهنّأه بخلافة الله ، ثم أنشده :

لمّا أتتْ خيرَ بني هاشمٍ خلافةُ الله بجُرجانِ
شَمّر للحَزم سَرابيلَه برأيٍ لا غَمْرٍ ولا وانِ
لم يُدخل الشُورى على رأيه والحزمُ لا يُمضِيه رأيانِ[1]

يحيى بن الحسن قال : حدّثني أبي قال :

كنت أنا والربيع نسير قريباً من محمِل المنصور حين قال للرّبيع : رأيت كأنّ الكعبة قد تصدّعت ، وكأنّ رجلاً جاء بحبلٍ أسود فشَدَّدها . فقال له الربيع : مَن الرجلُ؟ فلم يُجبه . حتى إذا اعتلّ قال للرّبيع : أنت الرجلُ الذي رأيته في نومي شدّد الكعبة ، فأيَّ شيء تعمل بعدي؟ قال : ما كنتُ أعمل في

(١) الغمر : غير المجرب . الواني : الضعيف الفاتر الهمة .

حياتك . فكان من أمره في أخذ البيعة للمهديّ ما كان ، فقال سلم الخاسر في الفضل بن الربيع :

يابنَ الذي جَبَرَ الاسلامَ يومَ وَهَى ... واستنقذ الناس من اعمياء صَيْخُودِ
قالت قريشٌ غداةَ انهاضَ مُلكُهمُ ... أين الرّبيع وأعطَوا بالمقاليدِ
فقام بالأمر مِئناسٌ بوَحدته ... ماضي العزيمة ضَرّابُ القماحيد
إنّ الأمور إذا ضاقت مَسالكُها ... حلّت يدُ الفضل منها كلَّ مَعقود
إنّ الرّبيع وإنّ الفضلَ قد بَنَيا ... رُواقَ مَجدٍ على العبّاس مَمدودِ(١)

قال : فوهب له الفضل خمسة آلاف دينار .

ميمون بن هارون قال :

دخل سلم الخاسر على الفضل بن يحيى في يوم نَيروز والهدايا بين يديه فأنشده :

أمِن ربْع تُسائلَه ... وقد أقوتْ منازلُه
بقلبي من هوى الأطلا ... ل حُبٌّ ما يُزايلُه
رُوَيدكمُ عن المشغو ... ف إنّ الحبَّ قاتلُه
بلابلُ صَدره تَسري ... وقد نامتْ عواذلُه
أحقُّ الناس بالتفضيـل من تُرجى فواضلُه
رأيت مكارم الأخلا ... ق ما ضَمّت حمائلُه
فلستُ أرى فتىً في النا ... س إلّا الفضلُ فاضلُه
يقول لسانُه خيراً ... فتَفعلُه أناملُه
ومهما يُرجَ من خيرٍ ... فإنّ الفضلَ فاعلُه

(١) الصيخود : أراد الفتنة الشديدة ، والصيخود : الصخرة القوية ، ويوم صيخود : شديد الحر. انهاض : وهى وانكسر. القماحيد ج قمحود : الهنة الناشزة فوق القفا وأعلى القذال ، وأراد بها الأعناق .

وكان إبراهيمُ الموصليّ وابنه اسحاقُ حاضرَين ، فقال لإبراهيم : كيف ترى وتسمع ؟ قال : أحسنَ مَرئيٍّ ومسموع ، وفضلُ الأمير أكثرُ منه . فقال : خذوا جميعَ ما أُهدي إليّ اليومَ فاقتسموه بينكم أثلاثاً ، إلّا ذلك التمثال ، فإني أريد أن أُهديَه اليومَ إلى دنانيرَ . ثم قال : لا واللهِ ما هكذا تفعل الأحرار ، يُقوَّم وندفع إليهم ثمنَه ، ثم نُهديه . فقُوِّم بألفَي دينار ، فحملها إلى القوم من بيت ماله ، واقتسموا جميع الهدايا بينهم .

عن أبي توبة قال :

حدث في أيام الرشيد أمرٌ فاحتاج فيه إلى الرأي ، فأَشكل ، وكان الفضل ابن يحيى غائباً ، فورد في ذلك الوقت ، فأخبروه بالقصة ، فأشار بالرأي في وقته ، وأُنفذ الأمر على مَشُورته ، فحُمد ما جَرىفيه . فدخل عليه سَلم الخاسر فأنشده :

بديهتُــــه وفِكرتـــه ســواءٌ   إذا ما نابــه الخطبُ الكبــيرُ
وأحزمُ ما يكون الدّهرَ رأيــاً   إذا عَيَّ المُشاورُ والمُشــيرُ

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ابتلاؤه بالكيمياء

يحيى بن الحسن الرّبيعيّ قال : أخبرني أبي قال :

كان سلم الخاسر قد بُلي بالكيمياء[1] ، فكان يذهب بكلّ شيء له باطلاً ، فلمّا أراد الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يصنع له[2] عُرِّف أنّ بباب الشام صاحبَ كيمياء عجيباً ، وأنه لا يصل إليه أحدٌ إلّا ليلاً ، فسأل عنه ، فدَلُّوه عليه .

قـــال : فدخلت إليه إلى مــوضع مُعْوِر[3] ، فدققت الباب ، فخرج إليّ

(١) يقصد بالكيمياء هنا تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب .
(٢) أن يصنع له : أن يسدي له الخير .
(٣) معور : لا يؤمن الشر فيه .

فقال : مَن أنت ، عافاك الله ؟ فقلت : رجلٌ معجَب بهذا العلم . قال فلا تَشْهَرني ، فإني رجلٌ مستور ، وإنما أعمل للقوت . قال : قلت : إنّي لا أَشهَرُك ، إنما أقتبس منك . قال : فاكتُم ذلك . قال : وبين يديه كُوز شَبَهٍ[1] صغيرٌ ، فقال لي : اقلَع عُروتَـه . فقلعتُها . فقال : اسبُكْـها في البُوطَقة[2] . فسبكتُها ، فأخرج شيئاً من تحت مُصَلّاه فقال : ذُرَّه عليه . ففعلتُ . فقال : أَفرِغه . فأفرغتُـه ، فقال : دَعْـه معك ، فإذا أصبحتَ فاخرُج ، فبِعه وعُد إليّ . فخرجتُه إلى باب الشأم ، فبعت المِثقال بأحد وعشرين درهماً ، ورجعت إليه فأخبرتُـه فقال : أطلبُ الآنَ ما شئت . قلت : تُفيدني . قال : بخمسمائة درهم على أن لا تُعلِّمَـه أحداً . فأعطيتُـه ، وكتب لي وَصفةً ، فامتحنتُها ، فإذا هي باطلة ، فعُدت إليه ، فقيل لي : قد تحوّل ، وإذا عُروة الكوز المشبَّـه من ذهب مُركبّةٌ عليه ، والكُوز شَبَـهٌ ، ولذلك كان يُدخل إليه من يطلبه ليلاً ليخفى عليه . فانصرفت وعلمت أنّ الله عزّ وجلّ أراد بي خيراً ، وأنّ هذا كلَّه باطلٌ .

سائر أخباره

- أبو كعب قال :

لمّـا ماتت البانوكـة بنت المهديّ رثاها سلم الخاسر بقوله :

أودى ببانوكـةَ رَيبُ الزمـــانْ   مُؤنسةِ المهـديّ والخيــزُرانْ
لم تنطـــوِ الأرضُ على مِثلهـــا   مولودةً حَنّ لها الوالـــدان
بانوكُ يا بنتَ إمـام الهُـــدى   أصبحتِ من زينة أهل الجِنان
بكـت لك الأرضُ وسُكّـانُـهـا   في كلّ أُفقٍ بين إنسٍ وجـانْ

---

(١) الشبه : النحاس الأصفر. البوطقة : إناء من زجاج أو غيره يستخدم في تجارب الكيمياء .

● قيل لِمعن بن زائدة : ما أحسنَ ما مُدحت به من الشعر عندك ؟ قال : قولُ سلم الخاسر :

أَبلِــغ الفِتيــانَ مَــأْلُكــةً   أنّ خيرَ الوُدّ ما نَفعــا
إنّ قَرْمــاً من بني مَطــرٍ   أتلفتْ كفّــاه ما جمعا
كُلّمــا عُدنا لِنـائلــه   عاد في مَعروفه جَذَعــا [1]

وفاته

حمّاد عن أبيه قال :

استوهب أبي من الرشيد تركة سَلمٍ الخاسر ـ وكان قد مات من غير وارث ـ فوهبها له قبل أن يتسلّمها صاحبُ المواريث ، فحصّل منها خمسين ألف دينار .

عن سعيد بن هُريم وأبي دعامة : أنه رُفع إلى الرشيد أنّ سَلماً الخاسر قد توفّي وخلّف ممّا أخذ منه خاصّةً ومن زُبيدة ألفَ ألفٍ وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلّفه من عَقار وغيره ممّا اعتقده [2] قديماً ، فقبضه الرشيد . وتظلّم إليه مواليه من آل أبي بكر الصّدّيق ، رضوانُ الله عليه ، فقال : هذا خادمي ونديمي ، والذي خلّفه من مالي ، فأنا أحقّ به . فلم يعطهم إلّا شيئاً يسيراً من قديم أملاكه .

* * *

(١) المألكة : الرسالة . القرم : السيد .

(٢) اعتقده : اقتناه .

٢٣

السَّيِّد الحِمْيَريّ

[الأغاني الجزء ٧ ص ٢٢٩ وما بعدها]

الشاعر

السيّدُ لقبهُ ، واسمُه إسماعيل بن محمّد بن يزيد بن مُفرِّغ الحِمْيَريّ ، ويُكنى أبا هاشم ؛ وأمُّه امرأةٌ من الأزد ثم من بني الحُدّان ؛ وجدُّه يزيد ابن ربيعةَ(١) ، شاعر مشهور ، وهو الذي هجا زياداً وبَنيه ونفاهم عن آل حرب ، وحبَسه عبيدالله بن زياد لذلك وعَذَّبه ، ثم أطلقه معاوية ...

وكان شاعراً متقدّماً مطبوعاً ، يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة : بشّار وأبو العتاهية والسيّد ، فإنّه لا يُعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحدٍ منهم أجمعَ .

وإنّما مات ذكرُه وهجَر الناسُ شعرَه لِما كان يُفرِط فيه من سَبّ أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه في شعره ويستعمله من قَذْفهم والطعن عليهم ، فتُحُومي شعرُه من هذا الجنس وغيرِه لذلك ، وهجره الناسُ تخوُّفاً وتوقّياً . وله طِرازٌ من الشعر ومذهبٌ قلّما يُلحَق فيه أو يُقارب ،ولا يُعرَف له من الشعر كثيرٌ ،

(١) هو يزيد بن مفرّغ الحميري ، وترجمته في الجزء الرابع من هذه الاختيارات .

وليس يخلو من مدح بني هاشم أو ذمّ غيرهم ممّن هو عنده ضِدٌّ لهم . ولولا أن أخباره كلّها تجري هذا المَجْرى ولا تخرج عنه لوجب ألّا نذكُرَ منها شيئاً ، ولكنّا شَرَطنا أن نأتي بأخبار مَن نذكُره من الشعراء ، فلم نجد بُدّاً من ذكر أسلم ما وجدناه له ...

أبو جعفر الأعرج ابن بنت الفُضَيل بن بشّار قال :

كان السيّد أسمَر ، تامَّ القامة ، أشنبَ(١) ، ذا وَفْرة(٢) ، حسَن الألفاظ ، جميل الخِطاب ، إذا تحدّث في مجلس قوم أعطى كلَّ رجل في المجلس نصيبَه من حديثه .

عن لَبَطة بن الفرزدق قال :

تذاكرنا الشعراء عند أبي فقال : إنّ ها هنا لرجلين لو أخذا في معنى الناس لما كُنّا معهما في شيء . فسألناه من هما ؟ فقال : السيّد الحِميريّ وعِمران ابن حِطان السَّدُوسيّ ، ولكنّ الله عزّ وجلّ قد شغل كلَّ واحدٍ منهما بالقول في مذهبه (٣) .

التَوَّزيّ قال : رأى الأصمعيّ جزءاً فيه من شعر السيّد ، فقال : لِمَن هذا ؟ فسترتُه عنه لعلمي بما عنده فيه ، فأقسم عليّ أن أُخبره ، فأخبرتُه ، فقال : أنشِدني قصيدةً منه . فأنشدته قصيدةً ثم أخرى وهو يستزيدني ، ثم قال : قبَحه اللهُ ما أسلكَه لطريق الفحول ! لولا مذهبُه ولولا ما في شعره ما قدّمتُ عليه أحداً من طبقته .

أبو حاتم قال : سمعت أبا عبيدة يقول : أشعر المحدَثين السيّد الحِميريّ وبشّار .

---

(١) الشنب : بياض الأسنان وبريقها .

(٢) الوفرة : ما جاوز شحمة الأذنين من الشعر ، او الشعر المجتمع عل الرأس . ..

(٣) هذا الخبر لا يصح لأن السيد الحميري ولد سنة ١٠٥ وتوفي الفرزدق سنة ١١٤ هـ ، أي أن السيد لم يكن جاوز التاسعة عند وفاة الفرزدق .

عمر بن شَبّـة قال :

أتيت أبا عبيدة مَعمر بن المثنّى يوماً وعنده رجلٌ من بني هاشم يقرأ عليه كتاباً ، فلمّا رآني أطبقه ، فقال له أبو عبيدة : إن أبا زيد ليس ممّن يُحتشَم منه فاقرأ . فأخذ الكتاب وجعل يقرؤه ، فإذا هو شعر السيّد . فجعل أبو عبيدة يَعجب منه ويستحسنه . قال أبو زيد : وكان أبوعبيدةَ يَرويه .

وقال المَوصليّ : حدّثني عمّي قال :

جمعت للسيّد في بني هاشم ألفين وثلاثمائة قصيدةً ، فخِلتُ أن قد استوعبتُ شعرَه ، حتى جلس إليّ يوماً رجلٌ ذو أَطمارٍ رَثّـةٍ ، فسمعني أُنشد شيئاً من شعره ، فأنشدني له ثلاثَ قصائد لم تكن عندي ، فقلت في نفسي : لو كان هذا يَعلم ما عندي كلَّه ثم أنشدني بعده ما ليس عندي لكان عجيباً ، فكيف وهو وهو لا يعلم وإنّما أنشد ما حَضَره ! وعرفت حينئذٍ أنّ شعره ليس ممّا يُدرَك ولا يمكن جمعُه كُلُّه .

عن إسحاق بن ثابت العطّار قال :

كنّا كثيراً ما نقول للسيّد : مالك لا تستعمل في شعرك الغريبَ ، ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ؟ قال : لَأن أقولَ شعراً قريباً من القلوب يَلَذُّه من سمِعه خيرٌ من أن أقول شيئاً مُتعقّداً تضِلّ فيه الأوهام .

تشيّعه لآل البيت

عن إسماعيل بن الساحر راوية السيّد وأحمد بن سليمان بن أبي شيخ عن أبيه :

أن أَبوي السيّد كانا إباضيّين(١) ، وكان منزلهما بالبصرة في غرفة بني ضبّة ،

---

(١) الإباضية : احدى فرق الخوارج ، نسبة الى عبدالله بن إباض .

وكان السيّد يقول : طالما سُبّ أمير المؤمنين في هذه الغُرفة . فإذا سُئل عن التشيّع من أين وقع له قال : غاصت عليَّ الرَّحمةُ غَوصاً .

ورُوي عن السيّد أن أبويه لمّا علِما بمذهبه همّا بقَتله ، فأتى عُقبةَ بن سَلْم الهُنائيّ(١) فأخبره بذلك ، فأجاره وبَوّأه منزلاً وَهَبه له ، فكان فيه حتى ماتا فورثهما .

عن أبي داود سليمان بن سفيان المعروف بالحنزق(٢) راوية السيّد الحِميريّ قال :

ما مضى واللهِ إلّا على مذهب الكيسانيّة(٣) ، وهذه القصائد التي يقولها الناس مثل :

تجعفرتُ باسم الله واللهُ أكبرُ

و تجعفرت باسم الله فيمن تجعفرا

وقوله :

أيـــا راكبـاً نحو المدينة جَسْـرةً ... عُذافِرةً تَهوي بهـا كـلّ سَبْسَبِ

إذا ما هداك الله لاقيــتَ جعفــراً ... فقل يا أمينَ الله وابنَ المهذَّبِ(٤)

---

(١) عقبة بن سلم : كان والي البصرة للمنصور.

(٢) الحنزق : كذا ضبطه المحقق ، وفي مواضع أخرى من ترجمة السيد ضبطه : « المسترق » .

(٣) الكيسانية : فرقة من الشيعة كانت تقول بإمامة محمد بن الحنفية وبالرجعة والبداء وهي منسوبة الى كيسان صاحب شرطة المختار الثقفي .

(٤) الجسرة : الناقة الضخمة والعذافرة : الناقة الشديدة. جعفر: هو جعفر الصادق الامام السادس من أئمة الشيعة الامامية ، وهم يخالفون الكيسانية في حصرهم الإمامة بأبناء فاطمة في حين ان الكيسانيَة أجازوا الإمامة في أبناء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عامة ولذلك بايعوا محمد بن الحنيفة ، وهو ليس من أولاد فاطمة . والقصائد التي ذكر السيد فيها جعفراً عرفت بالجعفريات .

لغلام للسيّد يقال له قاسم الخيّاط ، قالها ونَحَلها للسيّد ، وجازت على كثير من الناس ممّن لم يعرف خبرها ، لمحلّ قاسم منه وخِدمته إيّاه .

عن مسعود بن بِشر :

أنّ جماعةً تذاكروا أمر السيّد ، وأنّه رجع عن مذهبه في ابنِ الحَنفيّة وقال بإمامة جعفر بن محمد . فقال ابن السّاحر راويته : والله ما رجع عن ذلك ولا القصائدُ الجعفريّات إلّا مَنحولةً له قيلت بَعدَه . وآخرُ عهدي به قبل موته بثلاثٍ وقد سمع رجلاً يروي عن النبيّ ﷺ أنا قال لعليّ عليه السلام : « إنّه سيُولَد لك بعدي ولدٌ وقد نحلتُه اسمي وكُنيتي » ، فقال في ذلك وهي آخر قصيدةٍ قالها :

أشاقتـك المنازلُ بعد هِنـــدِ ... وتربْيْها وذاتِ الدَّلِّ دَعْـدِ
منازلُ أقفرتْ منهـنّ مَحَّـتْ ... مَعالمُهـنّ من سَبَلٍ ورَعْـد
وريحِ حَرْجَفٍ تَستَنُّ فيهـا ... بسافي التُّرْبِ تُلْحِمُ ما تُسَدّي
ألم يبلُغـك والأنبـاءُ تَنْمي ... مَقالُ محمّـدٍ فيما يُؤَدّي
إلى ذي عِلمه الهادي عـلـيٍّ ... وخَولـةُ خادمٌ في البيت تَرْدي
ألم تَرَ أنّ خَولـةَ سوف تـأتي ... بواري الزَّنْد صافي الخِيم نَجْدِ
يفُوز بكُنيتي واسمـي لأنّـي ... نَحَلْتُهماه والمهـديٌّ بعدي
يُغَيَّبُ عنهمُ حتـى يقولـوا ... تَضمَّنـه بطَيْبـةَ بطـنُ لَحْدِ
سِنين وأشهراً ويُرى برَضْوى ... بشِعْبٍ بين أنْمارٍ وأُسْدِ (١)

[الأبيات ...]

---

(١) محّت : عفت . السبل : المطر. ريح حرجف : باردة . تستنّ : تعدو مقبلة مدبرة ألحم : جعل للثوب لحمة وأسداه : جعل له سدى ، وعلى المجاز يقال : ألحم ما أسديت أي أتمم ما بدأت. خولة : امرأة من بني حنيفة تزوجها علي وأنجب منها ابنه محمداً الذي جعلته الكيسانية إماماً لها. تردي : تلعب . واري الزند : ذو نجدة =

وقال إسماعيل بن السّاحر راوية السيّد : كنت عنده يوماً في جَناحٍ له ، فأجال بصرَه فيه ثم قال : يا إسماعيل ، طال واللهِ ما شُتم أميرُ المؤمنين عليٌّ في هذا الجناح . قلت : ومَن كان يفعل ذلك ؟ قال : أَبَواي .

وكان يذهب مَذهب الكيسانيّة ويقول بإمامة محمّد بن الحنفيّة ، وله في ذلك شعرٌ كثير . وقد روَى بعضُ مَن لم تصحّ روايته أنّه رجع عن مذهبه وقال بمذهب الإماميّة ، وله في ذلك :

تجعفرتُ باسم الله والله أكـــبرُ وأيقنت أنّ اللهَ يعفُو ويغفِرُ

وما وجدنا ذلك في رواية مُحَصِّل ، ولا شعرُه أيضاً من هذا الجنس ولا في هذا المذهب ، لأنّ هذا شعرٌ ضعيفٌ يتبيّن التوليدُ فيه ، وشعرُه في قصائده الكيسانيّة مُباينٌ لهذا جَزالةً ومَتانةً وله رَونقٌ ومعنىً ليسا لما يُذكَر عنه في غيره .

محمد بن موسى قال :

جاء رجلٌ إلى السيّد فقال : بَلغني أنّك تقول بالرَّجْعة[1] . فقال : صدق الذي أخبرك ، وهذا دِيني . قال : أفتُعطيني ديناراً بمائة دينارٍ إلى الرَّجعة ؟ قال السيّد : نعم وأكثر من ذلك إذا وثّقتَ لي بأنّك ترجع إنساناً . قال : وأيّ شيءٍ أرجِع ؟ قال : أخشى أن ترجِعَ كلباً أو خِنزيراً فيذهبَ مالي . فأفحمه .

أبو داود المُسْتَرِق راوية السيّد :

أنه حضر يوماً وقد ناظره محمد بن عليّ بن النُعمان المعروف بشَيطان

= ومعروف . الخيم : الطبع والسجية . طيبة : من أسماء المدينة المنورة . بين أنمار وأسد : يعتقد الكيسانية أن محمد بن الحنفية لم يمت وانما تغيب في جبل رضوى يقيم فيه بين أسد ونمر وعنده عينان نضاحتان تجريان عسلاً وماءً .

(١) كان الكيسانية يقولون بالرجعة ، أي بالرجوع الى الدنيا بعد الموت .

الطاق[1] في الإمامة ، فغَلبه محمّد في دفع ابن الحنفيّة عن الإمامة ، فقال السيّد :

ألا يا أيّهـا الجَدِلُ المُعَنّي | لنا ، ما نحن ويحَك والعَناءُ
أتُبصر ما تقول وأنت كهلٌ | تُراك عليك من وَرَعٍ رِداءُ
ألا إنّ الأئمّةَ من قُريش | وُلاةَ الحقّ أربعةٌ سَواءُ
عليٌّ والثلاثةُ من بَنِيه | همُ أسباطُه والأَوصياءُ
فأنّى في وَصيّته إليهم | يكون الشَكّ منّا والمِراءُ
بهم أوصاهم ودعا إليه | جميعَ الخَلق لو سُمع الدُّعاء
فسِبطٌ سِبطُ إيمانٍ وحِلْم | وسِبطٌ غَيَّبتْه كَرْبلاءُ
سقى جَدَثاً تضمّنه مُلِثٌّ | هَتُوفُ الرَّعد مُرتَجِزٌ رِواءُ
تظلّ مُظِلّةً منها عَزالٍ | عليه وتغتدي أُخرى مِلاءُ
وسِبطٌ لا يذوق الموتَ حتى | يقودَ الخيلَ يَقْدُمُها اللواء
من البيت المُحَجَّب في سَراةٍ | شُراةٍ لفَّ بينهم الإخاءُ
عصائبُ ليس دون أغرَّ أجلى | بمكّة قائمٍ لهمُ انتهاءُ[2]

وهذه الأبيات بعينها تروى لكُثَيِّر .

---

(٢) الطاق : حصن بطبرستان كان يسكنه محمد هذا واليه تنسب الطائفة الشيطانية وهم من غلاة الشيعة .

(١) عنّاه : أتعبه . السبط : ابن البنت ، والاسباط هنا هم : الحسن والحسين ومحمد بن الحنيفة أبناء عليّ كرم الله وجهه . ملث : دائم غير منقطع . ارتجز الرعد : تتابع صوته . الرواء : الكثير المروي . العزالي ج عزلاء : مصب الماء من القربة واراد بها المطر الغزير . السراة : الأشراف النبلاء .

طائفة من أخباره

● عن ابن عائشةَ قال :

لمّا استقام الأمرُ لبني العبّاس قام السيّد إلى أبي العبّاس السفّاح حين نزل عن المِنبر فقال :

دُونَكُموها يا بَــني هاشــمٍ فجَدِّدوا من عَهدهــا الدّارسا
دونكموها لا علا كَعبُ مَــن كان عليكم مُلْكَهــا نافِســا
دونكموهـا فالبَسُوا تاجَهــا لا تعدَمُوا منكمْ له لابسـا
لو خُيّر المِنبرُ فُرسانَــــه ما اختار إلّا منكمُ فارسـا
قد ساسهــا قبلكــم ساســةٌ لم يتركوا رَطْبــاً ولا يابِســا
ولستُ من أن تملِكوهــا إلى مَهْبِط عيسى فيكمُ آيِسا

فسُرّ أبو العبّاس بذلك ، وقال له : أحسنتَ يا إسماعيلُ ! سَلْني حاجتَك . قال : تُولّي سليمان بن حَبيب الأهواز . ففعل .

الحارث بن عبد المطّلب قال :

كنت جالساً في مجلس أبي جعفر المنصور ، وهو بالجِسر وهو قاعدٌ مع جماعةٍ على دِجلةَ بالبصرة ، وسَوّار بن عبدالله العَنبريّ قاضي البصرة جالسٌ عنده ، والسيّد ابن محمد بين يَديه يُنشد قوله :

إنّ الإلــه الذي لا شيءَ يُشبهـــــه أعطاكم المُلكَ للدنيا وللدِيــن
أعطاكم اللهُ ملكاً لا زَوالَ لـــــه حتى يُقادَ إليكم صاحبُ الصِّين
وصاحبُ الهند مأخوذاً برُمَّتــــــه وصاحبَ التُرك محبوساً على هُونِ

والمنصور يضحك سروراً بما يُنشده ، فحانت منه التفاتةٌ فرأى وجه سَوّارٍ يتربّد غيظاً ويَسْودُّ حَنَقاً ويدلُك إحدى يديه بالأخرى ويَتحرّق ، فقال له المنصور : مالك ! أرابَك شيءٌ ؟ قال : نعم ، هذا الرجلُ يُعطيك بلسانه ما ليس

في قلبه ، والله يا أميرَ المؤمنين ما صَدَقك ما في نفسه ، وإنّ الذين يُواليهم لَغيْرُكُم . فقال المنصور : مَهلاً ، هذا شاعرُنا ووليُّنا ، وما عرفتُ منه إلّا صِدقَ مَحبّةٍ وإخلاصَ نِيّة . فقال له السيد : يا أمير المؤمنين ، والله ما تحمّلتُ غَضّكم لأحدٍ ، وما وجدت أَبَويّ عليه فافتتنتُ بهما ، وما زلت مشهوراً بموالاتكم في أيّام عدوّكم . فقال له : صدقت . قال : ولكنّ هذا وأَهْلُوه أعداءُ الله ورسوله قديماً والذين نادَوا رسول الله ﷺ من وراء الحُجُرات[1] ، فنزلت فيهم آيةٌ من القرآن: ﴿ أكثرُهم لا يَعقلون ﴾ .وجرى بينهما خِطابٌ طويل ، فقال السيّد قصيدته التي أوّلها :

قِفْ بنا يا صاحِ واربَــــعْ ... بالمَغـــاني المُوحشـــاتِ

وقال فيها :

يا أمـينَ الله يا مَنْصـــورُ يا خـيرَ الـوُلاة
إن سوّار بـــن عبد اللـــه من شرّ القُضـــاة

[الأبيات ...]

فشكاه سَوّارٌ إلى أبي جعفر ، فأمره بأن يصير إليه معتذراً ، ففعل ، فلم يَعذِرْه ، فقال :

أتيتُ دَعِـيَّ بني العَنــبر ... أَرُومُ اعتـذاراً فلم أُعْـذَرِ
فقلت لنفـسي وعاتبتُهــا ... على اللوْم في فِعلهـا أَقصِري
أيعتـذر الحُـرُّ ممّـاأتـى ... إلى رجـلٍ من بني العَنْـبرِ

(١) الذين نادوا الرسول : أراد وفد بني تميم ، وقد قدم وفدهم على رسول الله عليه السلام في السنة التاسعة للهجرة فدخلوا المسجد فوقفوا عند الحجرات وهي بيوت نسائه عليه السلام فنادوا : اخرج إلينا يا محمد فقد جئنا لنفاخرك ، فأنزل الله فيهم قوله: ﴿ ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

أبـــوك ابنُ سارق عَنْز النبيّ وأُمُّك بنت أبي جَحْـــدَرِ
ونحـــن على رَغْمـــك الـرافضـــون لأهل الضَّلالة والمُنْكَرِ[1]

قال : وبلغ السيّد أنّ سَوّاراً قدَ أعدّ جماعةً يشهَدُون عليه بسرقة لِيقطعَه ، فشكاه إلى أبي جعفر ، فدعا بسَوّارٍ وقال له : قد عَزَلتُك عن الحُكم للسيّد أو عليه . فما تعرّض له بسُوءٍ حتى مات .

● وروى عبدالله بن أبي بكر العَتَكيّ أنّ أبا الخَلّال العَتَكيّ دخل على عُقْبَة بن سَلْم والسيّد عنده ، وقد أمر له بجائزة ، وكان أبو الخَلّال شيخ العشيرة وكبيرَها ، فقال له : أيّها الأمير ، أتُعطي هذه العطايا رجلاً ما يَفْتُرُ عن سَبّ أبي بكر وعمر ! فقال له عُقبة : ما علمت ذلك ولا أعطيتُه إلّا على العُشْرة والمودّة القديمة وما يُوجبه حقُّه وجِوارُه ، مع ما هو عليه من مُوالاة قومٍ يَلزمُنا حقُّهم ورعايتهم . فقال له أبو الخَلّال : فمُرْه إن كان صادقاً أن يمدح أبا بكر وعمرحتى نعرفَ براءتَه ممّا يُنسَب إليه من الرَّفْض[2] . فقال : قد سمِعك ، فإن شاء فعَل . فقال السيّد :

إذا أنا لم أحفَظْ وَصاةَ محمّـــدٍ ولا عهدَه يومَ الغَدير المؤكَّدا
فإنّي كمَن يشري الضَّلالةَ بالهُدى تنصَّر من بعد التُّقى وتَهوَّدا
ومالي وَتيمٍ أو عديٍّ وإنّمـــا أُولُو نِعمتي في الله من آلِ أَحمدا

[الأبيات ...]

ثم نهض مُغضَباً . فقام أبو الخَلّال إلى عُقبة فقال : أَعِذْني من شرِّه ، اعاذكَ الله من السُّوء ، أيّها الأمير . قال : قد فعلتُ على ألّا تعرِضَ له بعدَها .

---

(١) سارق العنز : يعني به عنزة بن نقب ، وكان ممن قدم عل رسول الله ﷺ في وفد بني العنبر واتهم بسرقة عنز رسول ﷺ .

(٢) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي ثم طلبوا منه أن يبرأ من أبي بكر وعمر فأبى فتركوه ورفضوه .

أبو سليمان النّاجي قال :

جلس المَهديّ يوماً يعطي قريشاً صِلاتٍ لهم ، وهو وليُّ عهد ، فبدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش . فجاء السيّد فرفع إلى الرَّبيع[1] رُقعةً مختومةً وقال : إنّ فيها نصيحةً للأمير فأَوصلها إليه . فأوصلَها ، فإذا فيها :

قُل لابن عبّاسٍ سَمِيّ محمّدٍ ... لا تُعْطِينّ بني عَدِيٍّ دِرهما
احرِمْ بني تَيْم بن مُرّة إنّهم ... شرُّ البَريّة آخِراً ومُقدَّما
إن تُعطِهم لا يشكُروا لك نعمةً ... ويُكافئوك بأن تُذَمَّ وتُشتَما
وإن ائتمنتَهمُ أو استعملتَهم ... خانُوك واتّخذوا خَراجك مَغْنَما
ولَئن منعتَهمُ لقد بَدؤُوكمُ ... بالمَنْع إذ مَلَكُوا وكانوا أَظْلَما
منعوا تُراثَ محمّدٍ أعمامَه ... وابنَيْه وابنَتَه عَديلةَ مَريما
وتأمّروا من غير أن يُستَخْلَفُوا ... وكفى بما فعلوا هنالك مَأْثَما
لم يشكروا لمحمّدٍ إنعامَه ... أفيشكرون لِغيره إن أَنْعَما
واللهُ مَنّ عليهمُ بمحمّدٍ ... وهداهمُ وكسا الجُنوبَ وأطعما
ثم انبرَوا لوَصِيّه ووَليّه ... بالمنكَراتِ فجرّعوه العَلْقَما[2]

.. قال : فرمَى بها إلى ابي عبيدالله[3] ثم قال : اقطَعْ العَطاء . فقطَعه . وانصرف

---

(١) الربيع : هو الربيع بن يونس ، حاجب المنصور وقد وزر له بعد أبي أيوب المورياني .

(٢) بنو عديّ : هم بنو عديّ بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه . بنو تيم بن مرة : رهط أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولكونهما رهط عمر وابي بكر حرّض السيد المهديّ على حرمانهما من الصلات . بدؤوكم بالمنع : يريد أنهم منعوا آل رسول الله عليه السلام تراثهم . أعمامه . أراد العباس بن عبد المطلب وإليه ينتمي خلفاء بني العباس . ابنيه : الحسن والحسين . ابنته : فاطمة بنت رسول الله عليه السلام ، وجعلها معادلة في منزلتها لمريم بنت عمران ، أم عيسى عليه السلام .

(٣) أبو عبيد الله : هو معاوية بن عبيدالله الأشعري كاتب المهديّ .

الناس ؛ ودخل السيّد إليه ، فلمّا رآه ضحك وقال : قد قبِلنا نصيحتك يا إسماعيل. ولم يُعطِهم شيئاً .

● محمد بن عبدالله الحِميريّ قال :

دخل السيّد على المهديّ لمّا بايع لابنَيه موسى وهارون ، فأنشأ يقول :

ما بالُ مَجرى دمعك الساجمِ أمِن قَذًى بات بها لازمِ
أم من هوًى أنت له ساهرٌ صَبابةً من قلبك الهائمِ
آليتُ لا أمدَحُ ذا نائلٍ من مَعشرٍ غيرَ بني هاشم
أَولتْهمُ عندي يدُ المصطفى ذي الفَضلِ والمَنّ أبي القاسم
فإنّها بيضاءُ محمودةٌ جَزاؤها الشُكرُ على العالِمِ
جَزاؤها حِفظُ أبي جَعفرٍ خليفةِ الرحمن والقائم
وطاعةُ المَهْديّ ثم ابنِه موسى على ذي الإرْبة الحازم
وللرّشيد الزابعِ المرتضى مُفترَضٌ من حقّه اللازم
مُلكُهم خمسون معدودة برَغْم أنف الحاسد الرّاغم
ليس علينا ما بَقُوا غيرَهم في هذه الأُمّةِ من حاكم
حتى يردّوها إلى هابطٍ عليه عيسى منهمُ ناجمِ (١)

● عن المدائنيّ قال :

كان السيّد يأتي الأعمش (٢) فيكتب عنه فضائل عليّ رضي الله عنه ويخرج من عنده ويقول في تلك المعاني شعراً . فخرج ذاتَ يوم من عند بعض أمراء الكوفة ، وقد حمله على فرس وخلع عليه ، فوقف بالكُناسة (٣) ثم قال :

(١) الى هابط : يريد المهديّ المنتظر الذي يقول الشيعة بنزوله في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

(٢) الأعشى : هو سليمان بن مهران الكوفي مولى بني كاهل ، من أعلام الشيعة وعلمائهم.

(٣) الكناسة : ميدان الكوفة الذي يجتمع فيه الناس ، بمثابة المربد بالبصرة .

يا معشر الكوفيين. مَن جاءني منكم بفَضيلة لعليّ بن أبي طالب لم أقُل فيها شعراً أعطيتُه فَرسي هذا وما عليّ. فجعلوا يحدّثونه ويُنشدهم، حتى أتاه رجلٌ منهم وقال: إنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عزم على الرُكوب، فلبس ثيابَه وأراد لُبسَ الخُفّ فلبس أحد خُفَّيه ثم أهوى إلى الآخر لِيأخذَه، فانقضّ عُقابٌ من السماء فحلّق به ثم ألقاه فسقط منه أسودٌ[1] وانساب فدخل جُحْراً، فلبِس عليٌّ رضي الله عنه الخُفّ. قال: ولم يكن قال في ذلك شيئاً؛ ففكّر هنيهةً ثم قال:

ألا يا قومِ للعَجَب العُجابِ ... لخُفّ أبي الحسين وللحُبَابِ
أتى خُفّاً له وانساب فيه ... لِينهشَ رِجْلَه منه بِناب
فخرّ من السّماء له عُقابٌ ... من العِقْبان أو شِبهُ العُقاب
فطار به فحلّق ثم أهوى ... به للأرض من دون السَّحاب
إلى جُحرٍ له فانساب فيه ... بعيدِ القَعْر لم يُرْتَجْ بباب
كريهُ الوجه أسودُ ذو بَصيصٍ ... حديدُ النابِ أزرقُ ذو لُعابِ
ودُوفع عن أبي حسنٍ عليٍّ ... نقِيعُ سِمامه بعد انسياب[2]

● عليّ بن المُغيرة قال:

كنت مع السيّد على باب عُقبة بن سَلْم، ومعنا ابنٌ لسليمان بن عليّ[3]، ننتظرُه وقد أُسرِج له لِيركبَ، إذ قال ابنُ سليمان بن عليّ يُعرّض بالسيّد: أشعرُ الناس والله الذي يقول:

محمّدٌ خيرُ من يمشي على قَدَمٍ ... وصاحباه وعثمانُ بن عفّانا

(١) الأسود: الحية العظيمة، اذا لحظنا فيه الاسمية فهو ليس ممنوعاً من الصرف.
(٢) الحباب: الحية. لم يرتج: لم يغلق. البصيص: الرعدة واللمعان.
(٣) هو سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس عم أبي جعفر المنصور.

فوثب السيّد وقال : أشعر والله منه الذي يقول :

سائلْ قريشاً إذا ما كنتَ ذا عَمَهٍ ... مَن كان أثبتَها في الدِين أوتادا
مَن كان أعلمَها عِلماً وأحلمَها ... حِلماً وأصدقها قولاً وميعادا
إن يصدقُوك فلن يَعدُوا أباحسَنٍ ... إن أنت لم تلقَ للأبرار حُسّادا

ثم أقبل على الهاشميّ فقال : يا فتى ، نعمَ الخَلَفُ أنت لِشرف سَلَفك ! أراك تهدِم شرفَك ، وتثلِبُ سَلَفك ، وتسعى بالعَداوة على أهلك ، وتُفضّل مَن ليس أصلُك من أَصله على من فَضْلُك من فضْله ، وسأُخبر أمير المؤمنين عنك بذا حتى يضَعَك . فوثب الفتى خجِلاً ولم ينتظر عُقبةَ بن سلم .

● روى أبو سليمان الناجيّ :

أنّ السيّد قدِم الأهواز وأبو بُجَير بن سِماك الأسديّ يتولّاها ، وكان له صديقاً . وكان لأبي بُجير مولًى يقال له يزيد بن مَذعور يحفظ شعر السيّد يُنشده أبا بجير ، وكان أبو بجير يتشيّع . فذهب السيّد إلى قوم من إخوانه بالأهواز فنزل بهم وشرب عندهم . فلمّا أمسى انصرف ، فأخذه العَسَسُ ، فحُبس . فكتب من غده بهذه الأبيات وبعث بها إلى يزيد بن مَذعور . فدخل على أبي بُجير وقال : قد جَنَى عليك صاحبُ عَسَسك ما لا قِوامَ لك به . قال : وما ذلك ؟ قال : اسمع هذه الأبيات ، كتَبها السيّدُ من الحبس . فأنشده قوله :

قِف بالديّار وحَيِّها يا مَربَعُ ... واسألْ وكيف يُجيب من لا يَسمعُ
أنّ الديّارَ خلَتْ وليس بجَوِّها ... إلّا الضَّوابحُ والحَمامُ الوُقَّعُ
ولقد تكون بها أوانسُ كالدُّمَى ... جُمْلٌ وعَزّةُ والرَّبابُ وبَوْزَعُ
حُورٌ نواعمُ لا تُرى في مِثلِها ... أمثالُهنّ من الصِّيانة أَربَعُ
فعَرِينَ بعد تألُّفٍ وتجمُّعٍ ... والدّهرُ صاحٍ مُشَتِّتٌ ما تَجْمَعُ
فاسلَمْ فإنّك قد نزلتَ بمنزِلٍ ... عند الأمير تضُرُّ فيه وتنفَعُ

تُؤتَى هَواكَ إذا نطقتَ بحاجـةٍ   فيه وتَشفَـعُ عنـده فتُشَفَّـعُ
قُـل للأمير إذا ظفِرت بخَلْـوةٍ   منه ولم يكُ عنـده من يَسمـع
هَبْ لي الذي أَحبيتَـه في أحمـدٍ   وبَنِيـه إنّـك حاصدٌ ما تَزرع
يختصّ آلَ محمّـدٍ بمحبّـةٍ   في الصَّدر قد طُويت عليها الأضلُعُ[1]

● وحكى ابنُ السّاحر : أنّ السيّد دُعي لشهادة عند سوّار القاضي ، فقال لصاحب الدَّعوى : أعْفِنِي من الشهادة عند سَوّار . فلم يُعْفِه صاحبُها منها وطالبه بإقامتها عند سوّار . فلمّا حضَر عنده وشهِد قال له : ألم أَعْرِفـك وتعرِفْني ! وكيف مع معرفتك بي تُقدِم على الشهادة عندي ! فقال له : إنّي تخوّفتُ إكراهَه ، ولقد افتديتُ شهادتي عندك بمالٍ فلم يقبَل مني ، فأقمتُها ؛ فلا يقبل الله لك صَرْفاً ولا عَدْلاً[1] إن قَبلتَها . وقام من عنده ، ولم يَقدر سوّارٌ له على شيء لِما تقدّم به المنصورُ إليه في أمره ؛ واغتاظ غيظاً شديداً وانصرف من مجلسه فلم يَقْضِ يومئذٍ بين اثنين .

ثم إنّ سَوّاراً اعتلّ عِلّته التي مات فيها فلم يقدِر السيّدُ على هجائه في حياته لنَهيْ المنصور إيّاه عن ذلك . ومات سوّار فأُخرج عَشيّاً وحُفر له ، فوقع الحفْر في كَنيف . وكان بين الأزد وبين تميم عداوةٌ ، فمات عَقِب موته عَبّاد بن حَبيب بن المُهَلَّب ، فهجا السيّدُ سَوّاراً في قصيدة رثى بها عَبّاداً ودفعها إلى نوائحِ الأزد لِما بينهم وبين تميم من العداوة ، ولقُربهم من دار سَوّار ، يَنُحنَ بها ، وأوّلُها :

يا مَن غدا حامـلاً جُثمـانَ سـوّارِ   مِن داره ظاعناً منها إلى النّار
لاقدّس اللهُ رُوحاً كان هَيْكلَهـا   فقد مضت بعظيم الخِزْي والعار

---

(١) ضبح الثعلب والبوم : صوّت . وقع الطائر : نزل عن طيرانه ووقع على شجر او نحوه. عرين : خلت من أهلها ، والضمير يعود عل الديار.
(٢) الصرف والعدل : التوبة والفدية .

حتى هَوَتْ قَعْرَ بُرْهُوتٍ مُعَذَّبَةً وجسمُه في كَنيفٍ بين أقذار
لقد رأيت من الرحمن مُعجِبَةً فيه وأحكامُه تجري بمقدار
فاذهَبْ عليك من الرحمن بَهْلَتَه يا شرَّ حيٍّ بَراه الخالقُ الباري(١)

● روى أبو داود المُسترِق :

أنّ السيّد والعَبْديّ(٢) اجتمعا ، فأنشد السيّد :

إنّي أَدِين بما دان الوصيُّ به يومَ الخُرَيبة من قتل المُحِلّينا
وبالذي دان يومَ النَّهروان به وشاركت كفَّه كفّي بصِفّينا(٣)

فقال له العبديّ : أخطأتَ ، لو شاركت كفُّك كفَّه كنت مثله ، ولكن قل : تابعتْ كفي كفَّه لتكون تابعاً لا شريكاً . فكان السيّد بعد ذلك يقول : أنا أشعرُ الناس إلّا العَبديّ .

● قال إسماعيل :

رأى أبو بُجَير السيّدَ متغيّرَ اللون ، فسأله عن حاله ، فقال : فقَدتُ الشّراب الذي أَلِفْتُه لِكراهة الأمير إيّاه . قال فاشرَبْه ، فإننا نحتمله لك . قال : ليس عندي . قال لكاتبه : اكتُب له بمائتَي دَوْرَقٍ مِيبَخْتَج(٤) . فقال له السيّد : ليس هذا من البلاغة . قال : وما هي ؟ قال : البلاغةُ أن تأتي من الكلام بما يُحتاج إليه وتَدَعَ ما يُستَغنى عنه . قال : وكيف ذلك ؟ قال : اكتُب بمائتي دورق « مِي » ولا تكتبْ « بختج » ، فإنك تستغني عنه . فضحك ، ثم أمر فكُتب له بذلك . والمِي : النَّبيذ .

---

(١) برهوت : بئر عميقة بحضر موت يروون أنها مأوى أرواح الكافرين والمنافقين . بهلته : لعنته .

(٢) العبدي : هو إبرهيم بن هاشم العبدي البصري ، من شعراء الشيعة .

(٣) يوم الخريبة : المراد به يوم وقعة الجمل ، والخريبة الموضع الذي دارت فيه الوقعة .

(٤) ميبختج : كلمة فارسية مركبة من (مي) أي النبيذ ، و(بختج) أي مطبوخ .

● وممّا يحكى عنه أنّه اجتمع في طريقه بامرأة تميميّة إباضيّة ، فأعجبها وقالت : أُريد أن أتزوّج بك ونحن على ظهر الطريق . قال : يكون كنكاح أُمّ خارجةَ [1] ، قبلَ حضور وَليٍّ وشُهود . فاستضحكت وقالت : ننظُر في هذا ، وعلى ذلك فمن أنت ؟ فقال :

إن تسألِيني بقومي تسألي رجـــلاً ... في ذِرْوة العِزّ من أحياء ذي يَمَنِ
حَولي بها ذو كَـلاعٍ في مَنازلهـــا ... وذو رُعَينٍ وهَمْدانٌ وذو يَـزَنِ
والأزدُ أزدُ عُمانَ الأكرمـــون إذا ... عُدّتْ مآثرهُم في سالف الزمن
بانت كريمتُهـم عنّي فدارُهـــمُ ... داري وفي الرَّحْب من أوطانهم وطني
لي مَنْزلان بلَحْجٍ منزلٌ وَسَـــطٌ ... منها ولي منزلٌ للعزّ في عَدَنِ
ثمّ الوَلاءُ الذي أرجو النَّجــاةَ بــه ... من كَبّة النّار للهادي أبي حَسَنِ [2]

قالت : قد عرفناك ، ولا شيء أعجب من هذا : يمانٍ وتميميّة ، ورافضيٌّ وإباضيّة . فكيف يجتمعان ! فقال : بحُسن رأيك فيَّ تسخُو نفسُك ، ولا يذكر أحدنا سَلَفاً ولا مَذهباً . قالت : أفليس التزويجُ إذا عُلم انكشف معه المستور وظهرت خفيّات الأمور ؟ قال : فأنا أعرِضُ عليك أخرى . قالت : وما هي ؟ قال : المُتعة [3] التي لا يَعلم بها أحدٌ . قالت : تلك أختُ الزِّنا . قال : أُعيذُكِ بالله أن تكفُري بالقرآن بعد الإيمان ! قالت : فكيف ؟ قال : قال اللهُ تعالى : « فما استَمْتَعْتُم به منهنّ فآتوهنّ أُجُورَهنّ فَريضةً ولا جُناحَ عليكم فيما تَراضيتُم به من بعد الفَريضة . » فقالت : أَستخِيرُ اللهَ وأُقلِّدُك أن كنتَ صاحبَ قياس . ففعلتْ ، فانصرفت معه وبات مُعرِساً بها . وبلغ أهلَها من الخوارج أمرُها ،

---

(١) أم خارجة : امرأة من العرب ضرب بها المثل في سرعة زواجها ، كان يأتيها الخاطب فيقول : خِطب ، فتقول : نِكح . وقد تزوجت عدداً كبيراً من الرجال .

(٢) ذو كلاع وذو رعين وذو يزن . من بطون قبيلة حمير المشهورة . همدان : قبيلة ضخمة من قبائل قحطان . لحج : مخلاف باليمن .

(٣) المتعة : أن تتزوّج امرأة تتمتع بها مدة ثم تخلي سبيلها ، وهي جائزة عند الشيعة .

فتوعَّدُوها بالقتل وقالوا : تزوّجت بكافر . فجَحَدت ذلك ، ولم يعلموا بالمُتعة . فكانت مدّةً تختلف إليه على هذه السَّبيل من المُتعة وتُواصله حتى افترقا .

● ذكر التميميٌّ ـ وهو عليّ بن إسماعيل ـ عن أبيه قال :

كنت عند أبي عبدالله جعفر بن محمّد إذ استأذن آذنُه للسيّد ، فأمره بإيصاله وأقعد حُرَمَه خَلفَ سِتر ، ودخل فسلّم وجلس . فاستنشده فأنشده قولَه :

امـــرُرْ عـــلى جَـدَث الحُسَـين فقل لأعظُمِـه الزَكيَّـهْ
آأعظُمـــاً لا زلتِ مـــن وَطفـــاءَ ساكبــةٍ رَويَّهْ
وإذا مـــررتَ بقَـــبره فأطِـلْ به وقفَ المَطِيَّـه
وابكِ المُطَهَّرَ للمُطَهَّـــرِ والمطَهَّـــرةِ النقيَّـــهْ
كبُـكاء مُعْولـــةٍ أتـــت يوماً لِـواحدِهـا المنيّـه[1]

قال : فرأيت دموع جعفر بن محمد تنحدر على خدّيه ، وارتفع الصُّراخُ والبكاء من داره حتى أمره بالإمساك ، فأمسَكَ ...

وفاته

عن فُضَيل الرَسّان :

أُنشد جعفر بن محمّد قصيدة السيّد :

لِأُمّ عمرٍو باللِّـوى مَــرْبَـــعُ دارســـةٌ أعلامُــه بَلْقَـــعُ

فسمعتُ النحيب من داره ، فسألني لمن هي ؟ فأخبرته أنّها للسيّد ، وسألني عنه ، فعرّفتُه وفاتَه ، فقال : رحمه الله . قلت : إنّي رأيته يشرب النَّبيذ في

(١) الوطفاء : صفة للسحابة الغزيرة المطر .

الرُّسْتاق[1] . قال : أتعني الخمر ؟ قلت : نعم . قال : وما خَطَرُ ذنبٍ عندالله أن يغفِرَه لِمُحبّ عليّ[2] !

وروى أبو داود وإسماعيل بن السّاحر : أنهما حضَرا السيّد عند وفاته بواسط وقد أصابه شَرًى[3] وكَرْب . فجلس ثم قال : اللهمّ أهكذا جَزائي في حُبِّ آل محمّد ! قال : فكأنّها كانت ناراً فطَفِئت عنه .

عن محمد بن العبّاس اليزيديّ قال :

حدّثني من حضر السيّد وقد احتُضر فقال :

بَرِئت إلى الإلّـه من ابـن أَروَى ومن دين الخـوارج أجمعينا
ومن فُعَلٍ بَرِئـتُ ومن فُعَيـلٍ غَداةَ دُعي أميرَ المؤمنينـا[4]

ثم كأنّ نفسه كانت حصاةً فسقطتْ .

عن أبي جعفر المنصور قال :

بلغني أن السيّد مات بواسط فلم يدفِنُوه ، والله لئن تحقّق عندي لأحرِقَنّها .

محمد بن عبّاد بن صُهَيبْ عن أبيه قال :

كنت عند جعفر بن محمد ، فأتاه نعيُ السيّد ، فدعا له وترحّم عليه . فقال رجلٌ : يا بنَ رسول الله ، تدعو له وهو يشرب الخمر ويُؤمن بالرَّجعة . فقال : حدّثني أبي عن جدّي أنّ مُحبيّ آل محمد لا يموتون إلّا تائبين ، وقد تاب .

---

(١) الرستاق : كلمة فارسية تعني القرى التي فيها زرع ، وهي أيضاً بلدة بفارس .

(٢) يستخلص من هذا أن السيد توفي قبل وفاة جعفر الصادق ، وقد توفي جعفر عام ١٤٨ هـ أي أنه توفي أيام المنصور وثمة أخبار تجعله يعيش الى ما بعد ذلك وقد جاء في فوات الوفيات أنه مات في أول خلافةالرشيد سنة ثلاث وسبعين ومائة وولد سنة خمس ومائة .

(٣) الشرى : داء يصيب الجلد .

(٤) ابن أروى : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأروى أمه . يعني بفُعَل وفُعَيل : عمر وابا بكر.

ورفع مصلّى كانت تحته فأخرج كتاباً من السيّد يعرّفه فيه أنه قد تاب ويسأله الدُّعاء له .

وذكر محمّد بن إدريس العُتبيّ أنّ مُعاذ بن يزيد الحِميَريّ حدّثه أنّ السيّد عاش إلى خلافة هارون الرَّشيد ، وفي أيامه مات ، وأنه مدحه بقصيدتين فأمر له بِبَدرتين ، ففرّقهما . فبلغ ذلك الرشيد فقال : أحسب أبا هاشم تورّع عن قبول جوائزنا .

إسحاق بن محمد بن بشير بن عمَّار الصَيرفيّ عن جدّه بشير بن عمّار قال :

حضرت وفاة السيد في الرُمَيلة ببغداد ، فوجّه رسولاً إلى صفّ الجزّارين الكوفيّين يُعلمهم بحاله ووفاته ، فغلط الرسول فذهب إلى صفّ السموسين ، فشتموه ولعنوه ، فعلم أنه قد غَلِط ، فعاد إلى الكوفيين يُعلمهم بحاله ووفاته ، فوافاه سبعون كفناً .

قال : وحضرناه جميعاً ، وإنّه ليتحسّر تحسُّراً شديداً ، وإنّ وجهه لأسودُ كالقار ، وما يتكلّم ، إلى أن أفاق إفاقةً وفتح عينيه فنظر إلى ناحية القِبلة ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أتفعل هذا بوَليّك ! قالها ثلاث مرّات مرةً بعد أخرى . قال : فتجلّى والله في جَبينه عِرقُ بياض ، فما زال يتّسع ويلبَس وجهَه حتى صار كلُّه كالبَرَد . وتُوفّي ، فأخذنا في جِهازه ودفنّاه في الجُنَينة ببغداد ، وذلك في خلافة الرّشيد .

* * *

٢٤

العبّاس بن الأحنف

[الأغاني الجزء ٨ ص ٣٥٢ وما بعدها]

الشاعر

هو ـ فيما ذكر ابن النطّاح ـ العبّاسُ بن الأحنف بن الأسود ... من بني عَديّ بن حَنيفة .

محمد بن بكر الحَنَفيّ الشاعر قال : حدَّثني أبي قال :

سمعت العبّاس بن الأحنف يذكر أنّ هَوْذَةَ بن عليّ الحَنفيّ قد وَلده من قِبَل بعض أمّهاته .

وكان العبّاس بن الأحنف شاعراً غزِلاً ظريفاً مطبوعاً ، من شعراء الدولة العبّاسيّة ، وله مذهبٌ حَسَنٌ ، ولدِيباجة شِعره رَونقٌ ، ولِمعانيه عُذوبةٌ ولُطْف . ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديحٍ ولا هجاء ، ولا يتصرّف في شيءٍ من هذه المعاني ؛ وقدمه أبو العبّاس المُبّرِد في كتاب «الرَّوضة» على نُظَرائه ، وأطنَب في وصفه ، وقال : رأيت جماعةً من الرُّواة للشعر يقدّمونه . قال : وكان العبّاس من الظُرَفاء ، ولم يكن من الخُلعَاء ، وكان غزِلاً ، ولم يكن

فاسقاً ؛ وكان ظاهر النِّعمة ، مُلوكيَّ المذهب ، شديد التَّترُّف[1] ، وذلك بَيّنٌ في شعره . وكان قصدُه الغَزَل وشغلُه النَّسيب ، وكان حُلواً مقبولاً غزِلاً غزير الفكر واسعَ الكلام كثير التصرُّف في الغزل وحده ، ولم يكن هـجّاءً ولا مَدّاحاً .

أبو ذَكْوان قال :

سمعت إبراهيم بن العبّاس يصف العبّاس بن الأحنف فقال : كان واللهِ مِمّن إذا تكلّم لم يُحبَّ سامعهُ أن يسكُت ، وكان فصيحاً جميلاً ظَريف اللِسان ، لو شئتَ أن تقول : كلامُـه كلُّه شِعرٌ لقلتَ .

عُبيد الله بن عبدالله بن طاهر قال :

رأيت نُسَخاً من شعر العبّاس بن الأحنف بخراسان ، وكان عليها مكتوبٌ : « شعر الأمير أبي الفضل العبّاس » .

صالح بن عبد الوهّاب : أنّ العبّاس بن الأحنف كان من عرب خُراسان ، ومَنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تُقدّمه على كثير من المُحدَثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جِداً حتى تُلحقَه بالمُحسِنين .

أقوال في شعره

يموت بن المُزَرِّع قال :

سمعت خالي (يعني الجاحظ) يقول : لولا أن العبّاس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهُم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ما قدَر أن يُكثر شعرَه في مذهب واحدٍ لا يُجاوزه ، لأنه لا يهجو ولا يمدَح ولا يتكسّب ولا يتصرّف ؛ وما نعلم شاعراً لزِم فنّاً واحداً لُزومَه فأحسَن فيه وأكثر .

محمد بن القاسم بن خَلّاد قال : أنشد الحِرمازيّ أبو عليّ ـ وأنا حاضرٌ ـ للعبّاس بن الأحنف :

(١) التترف : التنعم .

لا جَزَى اللهُ دمعَ عيـنيَ خيراً ... وجَزَى اللهُ كلَّ خيرٍ لسـاني
نَمَّ دمعي فليس يكتُم شيئاً ... ورأيتُ اللِّسانَ ذا كِتْمانِ
كنتُ مثل الكتاب أخفاه طيٌّ ... فاستدلُّوا عليه بالعُنوان

ثم قال الحِرمازيّ : هذا واللهِ طِرازٌ يطلُب الشعراءُ مثلَه فلا يقدِرون عليه .

عن الرِّياشيّ قال :

قيل للأصمعيّ ، أو قلت له : ما أحسنُ ما تحفَظ للمُحدَثين؟ قال : قول العبّاس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسَكَّن رَوْعتي ... أَمَلي رِضاكِ وزُرتُ غير مُراقِبِ
لكن مَلِلتِ فلم تكن لي حِيلةٌ ... صَدُّ المَلُولِ خِلافُ صَدِّ العاتبِ

العَطَويّ يقول :

كان العبّاس بن الأحنف شاعراً مجيداً غزِلاً ، وكان أبو الهُذيل العلّاف[1] يبغضه ويَلعنه لقوله :

إذا أردتُ سُلُوّاً كان ناصرُكم ... قلبي وما أنا من قلبي بمنتصِرِ
فأكثِروا أو أقِلّوا من إساءتكم ... فكلٌّ ذلك محمولٌ على القَدَر

قال : فكان أبو الهُذيل يلعنه لهذا[2] ويقول : يعقِد الكُفرَ والفُجورَ في شعره .

قال محمد بن يحيى : وأنشدني محمد بن العبّاس اليزيديّ شعراً للعبّاس أظنّه يهجو به أبا الهُذَيل ، وما سمعت للعبّاس هجاءً غيره :

يا مَن يُكذّب أخبارَ الرسول لقد ... أخطأتَ في كلّ ما تأتي وما تَذَرُ
كذَّبتَ بالقَدَر الجاري عليك فقد ... أتاك منّي بما لا تشتهي القَدَرُ

(١) أبو الهذيل العلاف : هو محمد بن الهذيل بن عبدالله العبيدي ، من كبار رجال المعتزلة في العصر العباسي ، ولد بالبصرة وعاش في بغداد ، توفي سنة ٢٢٧ هـ .

(٢) لهذا : أراد لكلامه في القدر . ومذهب المعتزلة خلاف هذا .

محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال : أنشدني إبراهيم بن العبّاس للعبّاس ابن الأحنف :

قالت ظَلومُ سَمِيّةُ الظُلمِ ... مالي رأيتُك ناحلَ الجِسم
يا مَن رمى قلبي فأقصَده ... أنت العَليمُ بموضع السَّهمِ

فقلت له : إنّ أبا حاتم السِّجستاني حكى عن الأصمعيّ أنّه أُنشد للعبّاس بن الأحنف :

أتأذَنُون لِصَبٍّ في زيارتكم ... فعندكم شَهَواتُ السَّمع والبَصَرِ
لا يُضمرُ السُّوءَ إن طال الجلوسُ به ... عَفُّ الضَمير ولكن فاسقُ النظَر

فقال الأصمعي : ما زال هذا الفتى يُدخل يده في جِرابه فلا يُخرج شيئاً حتى أدخلها فأَخرَج هذا ، ومَن أدمَن طلب شيءٍ ظفِر ببعضه . فقال إبراهيم بن العبّاس : أنا لا أدري ما قال الأصمعيّ ، ولكن أُنشدك للعبّاس ما لا تدفع أنت ولا غيرُك فضلَه . ثم أنشدني قوله :

والله لو أنّ القلوبَ كقَلبها ... ما رقّ للوَلد الضعيفِ الوالدُ

وقولَه :

لكن مَلِلتِ فلم تكن لي حِيلةٌ ... صَدُّ المَلُول خِلافُ صَدّ العاتبِ

وقوله :

حتى إذا اقتحم الفتى لُجَجَ الهوى ... جاءت أُمورٌ لا تُطاق كِبارُ

ثم قال : هذا والله ما لا يقدِر أحدٌ على أن يقول مثله أبداً .

سعيد بن جُنيد يقول :

ما أعرف أحسنَ من شعر العبّاس في إخفاء أمره حيث يقول :

أُريدُكِ بالسّلام فأتّقيهم ... فأعمِدُ بالسَّلام إلى سِواكِ

وأُكثر فيهم ضَحكي ليخفَى		فسِنّي ضاحكٌ والقلبُ باكِ

الزُبير يقول : ابن الأحنف أشعر الناس في قوله :

تعتلُّ بالشُّغل عنّا ما تُكلّمنا		الشُّغل للقلب ليس الشغل للبَدَنِ

ويقول : لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيرِهاوشرّها إلّا وهو يصلح أن يُتمثَّل فيه بهذا النصف الأخير .

أحمد بن إبراهيم قال : رأيت سلمة بن عاصم ومعه شعر العبّاس بن الأحنف ، فعجبت منه وقلت : مثلُك ـ أعزّك اللهُ ـ يَحمل هذا ! فقال : ألا أحملُ شعر من يقول :

أسأتُ أن أحسنتُ ظنّي بكمْ		والحَزمُ سوءُ الظنّ بالنّاسِ
يُقلقُني الشوقُ فآتيكمُ		والقلبُ مملوءٌ من الياس

وأوّل الصوت :

يا فَوزُ يا مُنيةَ عبّاسِ		واحَرَبا من قلبك القاسي

وروى أحمد بن إبراهيم قال :

أتاني أعرابيٌّ فصيح ظريف ، فجعلت أكتب عنه أشياء حِساناً ، ثم قال : أنشِدْني لأصحابكم الحضَريّين . فأنشدته للعبّاس بن الأحنف :

ذكرتكِ بالتُّفّاح لمّا شمِمتُه		وبالرّاحِ لمّا قابَلَتْ أَوجُهَ الشَّرْبِ
تذكّرتُ بالتفّاح منك سَوالفاً		وبالرّاح طَعماً من مُقبَّلَك العَذْبِ

فقال : هذا عندك وأنت تكتب عنّي ! لا أُنشدك حَرفاً بعد هذا .

عبدالله بن العبّاس بن الفضل يقول :

ما أعرف في العراق أحسنَ من قول ابن الأحنف :

سُبحانَ ربِّ العُلا ما كان أغفَلَني		عمّا رَمَتْني به الأيامُ والزمنُ

من لم يَـذُقْ فُرقةَ الأحبـابِ ثم يرى آثارَهم بعدَهـم لم يَـدْرِ ما الحَـزَنُ

حسين بن الضَحّاك يقول :

لو جاء العبّاس بن الأحنف بقوله ما قاله في بيتين في أبياتٍ لعُـذر ، وهو قوله :

لَـعَمرُك ما يستريـح المُحِبُّ حـتى يبوحَ بأسـرارِه
فقد يكتُـم المـرءُ أسرارَه فتظهر في بعض أشعاره

ثم قال : أمّا قولُـه في هذا المعنى الذي لم يتقدَّمْه فيه أحدٌ فهو :

الحُـبّ أملَكُ للفُـؤاد بقَهـره من أن يُرى للسَّتْر فيه نصيبُ
وإذا بدا سِرُّ اللبيبِ فإنّـه لم يبدُ إلّا والفـتى مغلـوبُ

الزبير بن بَكّار قال : قال أبو العتاهية : ما حسدتُ أحداً إلّا العبّاس بن الأحنف في قوله :

إذا امتنع القريبُ فلـم تَـنَلْـه على قُـرْبٍ فذاك هو البعيـدُ

فإنّي كنت أولى به منه ، وهو بشعري أشبه منه بشعره . فقلت له : صدقت ، هو يشبه شعرك .

أبو الحسن الأنصاريّ قال :

سمعت الكِنديّ يقول : العبّاس بن الأحنف مَليحٌ ظريف حكيم جَزْلٌ في شعره ، وكان قليلاً ما يُرضيني الشعرُ . فكان يُنشد له كثيراً :

ألا تعجَبـون كمـا أَعجَـبُ حبيبٌ يُسيءُ ولا يُعتِـبُ
وأَبغـي رضـاه على سُخطِـه فيأبى عـليَّ ويستصعِـبُ
فيا ليت حظّي إذا ما أسـأتَ أنّك ترضـى ولا تغضَـبُ[1]

---

(١) أعتبه : أرضاه وأزال عتبه .

محمد بن عَمرو الرّوميّ قال :

كنّا عند الواثق فقال : أُريد أن أصنعَ لَحْناً في شعرٍ معناه أنّ الانسان كائناً من كان لا يقدِر على الاحتراس من عدوّه ؛ فهل تعرفون في هذا شيئاً ؟ فأنشدْنا ضروباً من الأشعار ، فقال : ما جئتم بشيءٍ مثل قول العبّاس بن الأحنف :

قلبي إلى ما ضَرّني داعـــي	يُكـثر أسقامي وأوجاعـــي
كيف احتراسي من عدوّي إذا	كان عَدوّي بـين أضـلاعي
أسلمـني للحُـبّ أشيـــاعي	لمّــا سعـى بي عنـدها الساعي
لقلّمـا أبقـى على كـــل ذا	يُوشِـك أن ينعانيَ النـــاعي

قال : فعمل فيه الواثق لحنه الثّقيل الأول ، النّشيد بالوُسطى .

أبو الحسن الأسديّ قال :

سمعت الرِّياشيّ يقول ـ وقد ذُكر عنده العبّاس بن الأحنف ـ : واللهِ لو لم يقل من الشعر إلا هذين البيتين لكفَيا :

أُحرَمُ منكم بما أقــول وقـــد	نال به العاشقون من عَشِقـوا
صِرتُ كأنّي ذُبالــةٌ نُصِبـــت	تُضيىء للنــاس وهي تحترقُ

عن إسحاق بن إبراهيم المَوصليّ قال :

كان الرّشيدُ يُقدّم أبا العتاهية حتى يجوز الحدّ في تقديمه ، وكنت أُقدّم العبّاس بن الأحنف . فاغتابني بعضُ الناس عند الرّشيد وعابني عنده ، وقال عَقب ذلك : وبِحَسْبِك يا أمير المؤمنين أنّه يُخالفك في العبّاس بن الأحنف على حداثة سنّه وقِلّة حِذْقه وتجريبه ، ويُقدّمه على أبي العتاهية مع ميلك إليه . وبلغني الخبرُ ، فدخلت على الرّشيد ، فقال لي ابتداءً : أيُّما أشعرُ عندك : العبّاس بن الأحنف أو أبو العتاهية ؟ فعلمتُ الذي يريد ، فأطرقتُ كأنّي مُستَثبِتٌ ، ثم قلت : أبو العتاهية أشعر . قال : أنشِدني لهذا ولهذا . قلت :

فبأيّهما أَبدأُ ؟ قال : بالعبّاس . قال : فأنشدته أجودَ ما أَرويه للعبّاس ، وهو قوله :

أُحرمَ منكم بما أقول وقــــــد نال به العاشقون مَــن عَشِقوا

فقال لي : أحسَن ، فأنشِدْني لأبي العتاهية . فأنشدته أضعفَ ما أَقدر عليه ، وهو قوله :

كأنّ عَـتّابةَ من حُسنهـــــا دُميةُ قَسٍّ فَتَنت قَسَّها

[الأبيات ...]

قال : أَتُعيّره هذا ! فأين أنت عن قوله :

قال لي أحمدُ ولم يدرِ ما بـــــي أتُحبّ الغَداةَ عُتْبةَ حَقّـــا

فتنفّســـــتُ ثم قلت : نعم حُبّـــــاً جرى في العُروقِ عِرقاً فعِــرقا

ويحَك ! أتعرف لأحدٍ مثل هذا ، أو تعرف أحداً سبقه إلى قوله : « فتنفّست ثم قلت كذا وكذا .. » ! اذهب ، ويحك ، فاحفَظْها . فقلتُ : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ولو كنت سمعت بها لحفظتُها . قال إسحاق : وما أَشُكّ أنّي كنت أحفَظَ لها حينئذٍ من أبي العتاهية ولكنّي إنّما انشدت مـا أنشدتُ تعصباً .

حدّثني الصُّوليّ قال : سمعت عبدَالله بن المعتزّ يقول : لو قيل لي : ما أحسنُ شيءٍ تعرفه ؟ لقلت : شعر العبّاس بن الأحنف :

قد سحب الناسُ أذيال الظُّنون بنـــا وفرّق الناسُ فينـــا قولَهم فِرَقا

فكاذبٌ قد رَمى بالحبّ غـــيرَكـمُ وصـادقٌ ليس يَدري أنّـه صدَقا

التمثّل بشعره وكثرة الغناء فيه

محمد بن عيسى قال :

جاء عبدالله بن العبّاس بن الفضل بن الرّبيع إلى الحسن بن وهب ، وعنده بَنان [١] جاريةُ محمّد بن حمّاد ، وهي نائمةٌ سَكرى ، وهو يبكي عندها .

(١) ضبطها محقق هذا الجزء « بنان » وضبطها محقق الجزء الثالث والعشرين : بنات .

فقال له : مالَك ؟ قال : قد كنتُ نائماً فجاءتني فأَنْبهَتْني وقالت : اجلِس حتى تشرب . فجلست ، فوالله مـا غنّتْ عشرة أصوات حتى نامـت ، وما شربتُ إلّا قليلاً ، فذكرتُ قول أشعر الناس وأظرفهم العبّاس بن الأحنف :

أبكي الذين أذاقوني مودّتهـم   حتى إذا أيقظوني للهوى رَقَدُوا

فأنا أبكي وأُنشد هذا البيت .

أحمد بن يزيد المهلّبي عن أبيه قال :

قالت للواثق جاريةٌ كان يهواها ، وقد جرى بينهما عَتْبٌ : إن كنتَ تستطيل بعِزّ الخلافة فأنا أُدلّ بعزّ الحبّ ، أتُراك لم تسمع بخليفة عشِق قبلك قطّ فاستوفى من معشوقه حقّه ؟ ولكنّي لا أرى لـي نظيراً في طاعتك ! فقال الواثق : لله درّ ابن الأحنف حيث يقول :

أما تَحْسَبيني أرى العاشقـين   بلَى ثم لستُ أرى لي نَظيرا
لعـلّ الذي بيديـه الأمـورُ   سيَجعل في الكُره خيراً كثيرا

أحمد بن حَمدون قال :

كان بين الواثق وبين بعض جواريه شرٌّ ، فخرج كسلانَ ، فلم أَزَل أنا والفَتْح بن خاقان نحتال لنشاطه ، فرآني أُضاحك الفَتح فقال : قاتل اللهُ ابنَ الأحنف حيث يقول :

عَـدْلٌ من الله أبكاني وأضحكَهـا   فالحمدُ لله عَـدْلٌ كلُّ ما صَنَعـا
اليـومَ أبكـي على قلبي وأندُبُـه   قلبٌ ألحّ عليه الحُبّ فانصدَعا

فقال الفتح : أنت واللهِ يا أميرَ المؤمنين في وضع التَمثُّلِ مَوْضعَه أشعرُ منه وأعلم وأظرف .

حمّاد بن إسحاق قال :

كان جدّي إبراهيم[1] مشغوفاً بشعر العبّاس ، فتغنّى في كثير من شعره ، فذكر أشعاراً كثيرة حفظت منها :

وقد مُلئتْ ماءَ الشَّبـــاب كأنّهـــا قضيبٌ من الرَّيْحان ريّانُ أخضرُ
هـــمُ كَتَمُوني سَيرَهم حين أزمَعوا وقالـــوا اتَّعَدْنـــا للرَّواح وبَكَّروا

... قال : وحفظت منها :

تمنّى رجـــالٌ ما أحبُّـــوا وإنّمـــا تمنّيتُ أن أشكو إليك وتَسْمَعا
أرى كلَّ معشوقَين غيري وغيرِهـــا قد استعذَبا طولَ الهوى وتمتّعا

عن حمّاد بن إسحاق قال :

ما غَنّى جَدّي في شعر أحد من الشعراء أكثر ممّا غنّى في شعر ذي الرُّمّة وعبّاس بن الأحنف .

أحمد بن يزيد المهلّبي قال :

سمعت عليّ بن يحيى يقول : من الشعر المرزوق من المغنِّين خاصّةً شعر العبّاس بن الأحنف ، وخاصّة قوله :

نامَ مَن أهـدى ليَ الأَرَقـــا مستريحـــاً سامَني قَلَقـــا

فإنّه غنّى فيه جماعةٌ من المغنّين ، منهم إبراهيم الموصليّ وابنه إسحاق وغيرهما .

صحبته الرشيد

حُدِّثت من غير وجهٍ أنّ الرَّشيد أَلِف العبّاس بن الأحنف ، فلمّا خرج إلى خُراسان طال مُقامه بها ، ثم خرج إلى أَرمينية والعبّاس معه ماشياً إلى بغداد ،

---

(١) المراد به إبراهيم الموصلي المغني المشهور.

فعارضه في طريقه فأنشده :

قالوا خُراسانُ أقصى ما يُراد بنــــا ثم القُفولُ فقد جئنا خُراسانا
ما أَقدرَ اللهَ أن يُدني على شَحَــــطٍ سُكّانَ دِجلــةَ من سُكّان جَيْحانا
متى الذي كنت أَرجُوه وآمُلُـــــه أمّا الذي كنت أخشاه فقد كانا
عَينُ الزمان أصابتنـــا فلا نظرتْ وعَذَّبتْ بصُنوف الهَجْر ألوانا (١)

قال : فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عبّاسُ وأذِنت لك خاصّةً . وأمر له بثلاثين ألف درهم .

* * *

(١) الشحط : البعد . جيحان : نهر بالمصّيصة بالثغر الشامي ، مخرجه من بلاد الروم ويمر بمدينة تعرف بكفربيّا ويصب في بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) .

٢٥

عبد الصّمد بن المُعَذَّل

[الأغاني الجزء ١٣ ص ٢٢٦ وما بعدها]

الشاعر

عبد الصَّمَد بن المُعَذَّل بن غَيلان ... بن عبد القيس ... بن ربيعة بن نزار ... ويكنى عبد الصمد أبا القاسم ، وأمّه أمُّ ولدٍ يقال لها الزرقاء .

شاعرٌ فصيح من شعراء الدولة العباسية ، بصريّ المولد والمنشأ . وكان هَجّاءً خبيث اللسان ، شديد العارضة . وكان أخوه أحمد أيضاً شاعراً ، إلا أنه كان عفيفاً ، ذا مُروءة ودين وتقدُّم في المعتزلة ، وله جاهٌ واسع في بلده وعند سلطانه ، لا يقاربه عبد الصمد فيه ، فكان يحسُده ويهجوه فيحلُم عنه . وعبد الصّمد أشعرُهما ، وكان أبو عبد الصَّمد المعذَّلُ وجدُّه غيلان شاعرَين ...

هجاؤه الناس ومهاجاته الشعراء

إبراهيم بن عُقبة اليشكُريّ قال :

قال لي عبد الصَّمَد بن المعذَّل : هجاني الجمّاز ببيتين سخيفَين فسارا في أفواه الناس حتى لم يبق خاصٌ ولا عامٌ إلّا رواهما وهما :

ابنُ المعذَّلِ مَـن هـو ... ومـن أبـوه المعـذَّلْ
سألتُ وَهمـانَ عنـه ... فقال بيضٌ مُحَـوَّلْ

فقلت أنا فيه شعراً تركته يتحاجى فيه[1] كلُّ أحد ، فما رواه أحدٌ ولا فكّر فيه ، وذلك لضعته ، وهو قولي :

نسـب الجمّـاز مقصو ... رٌ إليـه مُنتهـاهُ
يـتراءى نسـبُ النـا ... س فما يَخفى سـواه
يتحـاجى في أبي الجمّـا ... ز من هُـو كاتبـاه
ليس يَدري من أبو الجَمّا ... ز إلّا مـن يـراه

يزيد بن محمد المهلّبيّ قال :

بلغ عبدَ الصّمد بن المعذّل أنّ أبا قِلابة الجَرْميّ تدسّس إلى الجمّاز لما بلغه تعرّضُه له ، وهجاؤه إيّاه ، فحمله على الزّيادة في ذلك ، ويضمن له أن ينصرَه ويعاضِدَه ـ وقد كان عبد الصمد هجا أبا قلابة حتى أفحمه ـ فقال عبد الصمد فيهما :

يا من تركتُ بصخـرةٍ ... صَمّـاءَ هامتَـه أَمِيمهْ
إن الذي عاضدتَـه ... أشبهتَه خُلُقـاً وشِيمـه
وكفعل جَـدّتك الحديثـة ... فعلُ جَدّتـه القديمـة
فتناصرا فابنُ اللئيمـة ... ناصرٌ لابن اللئيمـه[2]

الفضل بن أبي جرزة قال :

كان أبو قِلابة الجرميّ وعبد الصمد بن المعذّل وعبدالله بن محمد بن أبي عُيينة المهلّبيّ أرادوا المسير إلى بيت بحر البكراوي ، وكانت له جارية مغنّية يقال لها جبلة ، وكان أبو رِهْم إليها مائلاً يتعشّقُها ، ثم اشتراها بعد ذلك ، فلمّا

---

(١) يتحاجى فيه : من الأحجية وهي اللغز.
(٢) الأميم : المشجوج الرأس .

أرادوا الدخولَ إليها وافاهم أبو رِهم ، فأدخلوه وحده وحَجبوهم ، فانصرفوا إلى بستان ابن أبي عيينة ، فقال أبو قلابة : لا بدَّ أن نهجوَ أبا رهم . فقالوا : قل . فقال :

ألا قُل لأبي رهـــم ... سيَهوى نَعتَك الوصفُ
كما حالفــك الغِيّ ... كذا جانَبك الظَّرفُ
أتانا أنــه أهـدى ... إلى بحرٍ من الشَّغْف
حُزَيمـاتٍ من الصِّير ... فهلّا معه رُغْفُ
فنـادَوا إقسمي فينا ... فقد جاءكم اللَّطْفُ (١)

فقال له عبد الصمد : سخِنتْ عينُك ، أيشٍ هذا الشعر ! بمثل هذا يُهجى من يُراد به الفضيحة ! فقال أبو قلابة : هذا الذي حضَرني ، فقل أنت ما يَحضُرك . فقال : أَفعله وأُجوّد . فكان هذا سبب هجاء عبد الصّمد أبا رهم . وأول قصيدة هجاه به قولُه :

دعو الإسلام وانتَحِلُوا المَجُوسا ... وألقُوا الرِّيْطَ واشتمِلُوا القُلُوسا
بـني العبدِ المُقيم بنهر تِيرَى ... لقد أنهضتْ طيرَكم نُحوسا
حرامٌ أن يَبيت لكم نزيلٌ ... فلا يُمسي بأُمّكم عَروسا (٢)

[الأبيات ...]

---

(١) الشغف : شدة التعلق وغاية الحب والعشق . الحزيمة : تصغير حزمة . الصير : السمك المملح . اللطف : بفتح أوله وثانيه : الهدية واليسير من الطعام ، وسكنت الطاء للشعر .

(٢) الريط ج ريطة : كل ملاءة غير ذات لفقين . القلوس : الحبل الضخم من حبال السفينة . نهر تيرى : بلد في الأهواز .

الأينسيّ قال :

كنت عند إسحاق بن إبراهيم وزاره أحمد بن المعذَّل ، وكان خرج من البصرة على أن يغزو ، فلما دخل على إسحاق بن إبراهيم أنشده :

أفضلتَ نُعمَى على قومٍ رعيتَ لهم حقّاً قديماً من الودّ الذي دَرَسا
وحرمة القصد بالآمال إنّهمُ أتَوا سواك فما لاقَوا بـه أَنَسا
لأنت أكرمُ منه عند رِفعته قولاً وفعلاً وأخلاقاً ومُغْتَرَسا (١)

فأمر له بخمسمائة دينار ، فقبضها ورجع إلى البصرة ، وكان خرج عنها ليجاور في الثَغر ، وبلغ عبدَ الصمد خبرُه فقال فيه :

يُري الغُزاةَ بأنّ الله هِمّتُه وإنما كان يغزو كيسَ إسحاقِ
فباع زُهداً ثواباً لا نَفادَ لـه وابتاع عاجلَ رِفْد القوم بالباقي

فبلغ إسحاق بن إبراهيم قولُـه فقال : قد مسّنا أبو السّم عبدُ الصمد بشيء من هجائه ، وبعث إليه بمائة دينارٍ ...

عبدالله بن يزيد الكاتب قال :

جَمَع بين أبي تمّام الطائيّ وبين عبد الصّمد بن المعذَّل مجلسٌ ، وكان عبد الصمد سريعاً في قوله الشعر ، وكان في أبي تمام إبطاء ، فأخذ عبد الصمد القرطاسَ وكتب فيه :

أنت بين اثنتين تبرُز للنا س وكلتاهما بوجهٍ مُذالِ
لستَ تنفكّ طالباً لوصالٍ من حبيبٍ أو طالباً لنَوال
أيُّ ماءٍ لِحُرّ وجهك يبقى بين ذُلّ الهوى وذُلّ السؤالِ (٢)

---

(١) المغترس : الأصل .
(٢) مذال : مهان .

قال : فأخذ أبو تمام القرطاس وخلا طويلاً ، وجاء به وقد كتب فيه :

أفيَّ تنظِمُ قولَ الزُّور والفَنَـــدِ ... وأنت أَنْـزَرُ من لا شيءَ في العددِ
أشرجتَ قلبك من بُغضي على حُرَقٍ ... كأنّها حركاتُ الرُّوح في الجسَدِ[1]

فقال له عبد الصمد : يا ... ، يا غثُّ ، أخبِرني عن قولك : « أنزر من لا شيء » ، وأخبرني عن قولك : « أشرجت قَلبك » ، قلبي مِفرشٌ أو عَيْبَة[2] أو خُرْج فأُشرجَه ، عليك لعنةُ الله فما رأيت أغثَّ منك . فانقطع أبو تمام انقطاعاً ما يُرى أقبحُ منه ، وقام فانصرف ، وما راجعه بحَرف .

سائر أخباره

● سَوّار بن أبي شُراعة قال :

كان بالبصرة طُفيليٌّ يُكنى أبا سَلمة ، وكان إذا بلغه خبرُ وليمة لبس لُبسَ القضاة وأخذ ابنَيه معه وعليهما القَلانس الطِّوال والطَّيالسة الرِّقاق ، فيقدّم ابنَيه فيدقُّ البابَ أحدُهما ويقول : افتح يا غلامُ لأبي سلمة . ثم لا يُلبث البوّابَ حتى يتقدّمَ الآخرُ فيقول : افتح ويلَك ، فقد جاء أبو سلمة . ويتلوهما فيدقّون جميعاً البابَ ويقولون : بادِرْ ويلَك ! فإنّ أبا سلمة واقفٌ . فإن لم يكن عرَفهم فَتح لهم وهاب منظرَهم ، وإن كانت معرفتُه إياهم قد سَبقت لم يلتفت إليهم ، ومع كلّ واحدٍ منهم فِهرٌ[3] مدوَّر يسمّونه « كَيسان » ، فينتظرون حتى يجيءَ بعضُ من دُعي ، فيُفتَح له البابُ ، فإذا فتح طَرحوا الفِهر في العَتَبة حيث يدور الباب ، فلا يقدِر البوّابُ على غَلَقه ، ويهجمُون عليه فيدخلون .

---

(١) يقال : أشرج صدره على كذا : أي ضمه عليه وكتمه ، واصله من أشرج العيبة اذا داخل بين أشراجها وشدّها .

(٢) العيبة : الحقيبة من الجلد توضع فيها الثياب .

(٣) الفهر : الحجر .

فأكل أبو سلمة يوماً على بعض الموائد لُقمةً حارّة من فالُوذَج[1] وبَلعها لشدّة حرارتها ، فجُمعت أحشاؤه ، فمات على المائدة ، فقال عبد الصمد بن المعذّل يرثيه :

أحزانُ نفسي عليها غيرُ مُنصرِمـــــهْ ... وأدمُعي من جفوني الدّهرَ مُنسَجمهْ
على صديقٍ ومولًى لي فجُعتُ بـــــه ... ما إن له في جميع الصالحين لُمَـه
كم جَفنةٍ مثل جَوف الحوض مُتْرَعةٍ ... كوماءَ جاء بها طَبّاخُها رَذِمه
قد كلَّلتْهـا شُحومٌ مـن قَـليَّتهـا ... ومن سَنام جَزورٍ عَبْطةٍ سَنِمه
غُيِّبتَ عنها فلم تَعرف لها خـــبراً ... لَهفي عليك ووَيلي يا أبا سَلمهْ
ولو تكون لها حَيّاً لما بَعُـــــدتْ ... يوماً عليك ولو في جاحمٍ حُطَمه
قد كنت أعلم أنّ الأكلَ يقتُلـــــه ... لكنّني كنت أخشى ذاك من تُخَمه
إذا تَعمّـم في شِبْلَيه ثم غـــــدا ... فإنّ حَوزةَ من يأتيه مُصْطَلَمه[2]

● الأخفش قال :

كان لعبد الصمد بستانٌ نظيف عامر ، فأنشدنا لنفسه فيه :

إذا لم يَزُرني نَـدمانيـــــــهْ ... خلوتُ فنادمـــت بُستانيَـــهْ
فنادمتُــه خَضِـراً مُؤْنِقـــاً ... يُهَيّجُ لي ذِكرَ أَشجانيــــه
يُقرّبُ مَفرحـــةَ المستلـــذِّ ... ويَبعد هَمّـــــي وأَحزانيـه
أرى فيه مثـلَ مَداري الظِّبــاءِ ... تَظـلّ لأَطلائهـــا حانيـه
ونَـوْرَ أقاحٍ شَتيت النَبـــاتِ ... كما ابتسمــت عجَبــاً غانيه

(٢) الفالوذج : حلوى تصنع من ماء ودقيق وعسل .
(٢) اللمة : المثل والنظير. الكوماء : المرتفعة . الرذمة : التي يسيل دسمها . الجزور : الناقة المذبوحة . العبطة : المذبوحة من غير علة . السنمة : العظيمة السنام . الجاحم الحطمة : النار الشديدة . مصطلمة : مستأصلة .

ونَرجِسُـــه مثـلُ عينِ الفتــاة إلى وجـه عاشِقِهــا رانيه[1]

● أبو العَيناء قال :

كان لعبد الصمد بن المعذل صديقٌ يعاشره ويأنس به ، فتزوّج إليه أميرُ البصرة ، وكان من ولد سليمان بن عليّ ، فنُبل الرجل وعلا قدرُه ، وولّاه المتزوِّجُ إليه عملاً ، فكتب إليه عبد الصمد :

أحُلتَ عمّا عهدتُ مـن أدبــكْ أم نِلتَ مُلكاً فتِهتَ في كُتُبكْ
أم هـل ترى أنّ في مناصفــة الإخوان نَقصــاً عليـك في حَسَبــكْ
أم كان ما كان منك عن غضــبٍ فأيُّ شيءٍ أدناك مـن غضبِكْ
إنّ جَفــاءً كتــابُ ذي ثقـــةٍ يكون في صدره : « وأمتَع بك »
كيف بإنصافنــا لديـك وقـــد شاركتَ آلَ النبيِّ في نَسَبــك
قُــل للـوفــاء الــذي تُـقدِّرُه نفسُك عندي مَللتُ من طلبك
أتعبتَ كفيَّـك في مُواصلـــتي حسبُــك ماذا كُفيت من تَعبك

فأجابه صديقُه :

كيف يحـولُ الإخـاءُ يا أَمَـــلي وكــلُّ خيرٍ أنــالُ من نسبــكْ
إن يـكُ جهلٌ أتاك مِن قِبَـــلي فامنُنْ بفَضــلِ عـليَّ من أدبك
أنكرتَ شيئاً فلستُ فاعلَـــــه ولا تـــراه يُخطّ في كُتُبك

* * *

(١) المداري : القرون ج مدراة ومدرى . الأطلاء ج طلى : ولد الظبي . الأقاحي ج الأقحوان تشبه بها الأسنان .

٢٦

عَبدُاللّٰه بن مُصْعَب

[الأغاني الجزء ٢٤ ص ٢٣٧ وما بعدها]

الشاعر

عبدالله بن مصعَب بن ثابت بن عبدالله بن الزُبير بن العَوّام ... بن كَعب ابن لُؤَيّ بن غالب .

شاعرٌ فصيحٌ خطيب ذو عارضةٍ وبَيانٍ واعتبار بين الرِجال وكلامٍ في المَحافل . وقد نادم أوائل الخلفاء من بني العبّاس وتولّى لهم أعمالاً ؛ وكان خَرج مع محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالمدينة على أبي جعفر المنصور فيمن خرج من آل الزُبير ، فلمّا قُتل محمد استَتر عنه ، وقيل : بل كان استتاره مُدّةً يسيرة إلى أن حجّ أبو جعفر المنصور وآمَن الناسَ جميعاً فظَهر .

قال النَوفليّ : وكان عبدالله بن مصعَب يلقَّب عائدَ الكلب لقوله :

مالي مَرِضتُ فلم يَعُدْني عائدٌ ... منكم ويمرضُ كلبكُم فأعودُ
وأشَدّ مِن مَرضي عليَّ صُدودكُم ... وصُدُود عَبدكم عليَّ شديدُ

فلُقّب « عائد الكلب » .

طائفة من أخباره

● عن الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فَروة قال :

دخلتُ على المهديّ ، وإذا هو يكتب على الأرض بفَحمة قولَ عبدالله بن مصعب :

فإن يحجبُوها أو يَحُلْ دونَ وَصْلها	مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أميرِ
فلن يَمنعوا عينيَّ من دائم البُكا	ولن يُخرجوا ما قد أجَنّ ضميري
وما برِح الواشون حتى بدتْ لنا	بطونُ الهوى مَقلوبةً لظُهورِ
إلى الله أشكو ما أُلاقي من الجَوى	ومن نَفَسٍ يعتادُني وزفيرِ

ويقول : أحسنَ واللهِ عبدُ الله بن مصعَب ما شاء . وهذه الأبيات تُنسَب إلى المجنون أيضاً .

● عن أبي الطِّرمّاح مولى آل مصعب بن الزبير :

أنّ عبدالله بن مصعب لمّا وَلي اليمامة مرّ بالحَوْأَب يوماً ـ وهو ماءٌ لبني أبي بكر بن كِلاب ، وهو الذي ذكره النبيُّ ﷺ لعائشة ـ فرأى على الماء جاريةً منهم ، فهَوِيها وهَوِيته ، وقال :

يا جُمْلُ للوالِهِ المستعبِرِ الوَصِبِ	ماذا تضمَّن من حُزنٍ ومن نَصَبِ
أنّى أُتيحتْ له للحَين جاريةٌ	في غير ما أَمَمٍ منها ولا صَقَبِ
جاريةٌ من أبي بكرٍ كَلِفتُ بها	ممّن يَحُلُّ من الحَصّاء والحوَبِ
من غير معرفةٍ إلّا تَعرُّضَها	حيناً لذلك إنّ الحَينَ مُجتلَبي
قامت تَعرَّضُ لي عَمْداً فقلت لها	يا عَمْرَكِ اللهَ هل تَدرين ما حَسَبي
بين الحَواريّ والصِّدّيق في نسَبٍ	ينهَى عن الفُحشِ مثلي غيرَ مُؤْتَشَب
ولا أَدِبٌّ إلى الجارات مُنسَرِباً	تالله إنّي لعِزْهاةٌ عن الرِّيَبِ (١)

(١) الحين : الهلاك . الأمم : القريب . الصقب : المجاور . الحصاء والحوأب : من مياه =

فخطبها ، وكانت العرب لا تُنكح الرجلَ امرأةً شبّب بها قبل خِطْبته ، فلم يُزوّجوها إيّاه ، فلمّا يئست منه قالت :

إذا خَدِرت رِجْلي ذكرتُ ابنَ مُصعبٍ ... فإن قيل عبدُالله خَفّ فُتورها
ألا ليتني صاحبتُ ركبَ ابنِ مصعبٍ ... إذا ما مطاياه اتلأبّتْ صدورُها
لقد كنت أبكي واليمامةُ دُونَه ... فكيف إذا التفّتْ عليه قصورُها[1]

قال أبو الطرماح في خبره : وكان لها إخوةٌ شُرُسٌ غُيُرٌ فقتلوها .

● عن أبي عمر الزُهريّ قال : حدّثني أبي :

أنّ عبدالله بن مُصعَب خاصم رجلاً من ولد عمر بن الخطاب بحضرة المهدي فقال له عبدُالله بن مصعب : أنا ابنُ صفيّة . قال : هي أَدْنَتْك من الظِّلّ ولولاها لكنت ضاحياً[2] وكنت بين الفَرْث والحَوِيّة[3] . قال : أنا ابنُ الحَواريّ . قال له العُمَري : بل أنت ابنُ ورْدان المكُاريّ . قال : وكان يقال إن أمه كانت تهوى رجلاً يكري الحمير يقال له وردان فكان من يسُبّه ينسِبه إليه . وقال فيه الشاعر :

أتُدعَى حَواريَّ الرسول سَفاهةً ... وأنت لِوَرْدان الحمير سَليلُ

فقال : والله لأنا بأبي أَشبَهُ من التَمرة بالتمرة والغُراب بالغراب . قال له

= بني أبي بكر بن كلاب ، والحوب مخففة من حوأب . الحواري : أراد جده الزبير ابن العوّام . مؤتشب : مختلط . انسرب في الدار : دخلها متسللاً . العزهاة : العازف عن اللهو والنساء .

(١) اتلأبت : اجتمعت وتلاقت .

(٢) الضاحي : البارز للشمس ، والمراد أنه لولاها لكان من أفناء قومه .

(٣) الفرث : بقايا الطعام في الكرش ، والحوية : ما تحوي من الأمعاء أي لم يكن لك شأن .

العمري : كذبتَ ، وإلّا فأخبرني ما بالُ آل الزبير ثُطُّ اللحِى[1] وأنت ألْحَى ، وما لَهم سُمْراً جِعاداً وأنت أَحمرُ سَبْطٌ ؟ قال : ألي تقول هذا يابنَ قتيل أبي لُؤلؤة ! قال العمري : يابنَ قتيل ابن جُرموز[2] على ضَلالة ، أتُعيِّرني أن قَتل أبي رجلٌ نصرانيّ وهو أمير المؤمنين قائماً يُصلّي في محرابه ، وقد قَتل أباك رجلٌ مُسلمٌ بين الصَّفَّين يدفعُه عن باطل ويدعوه إلى حق ! فأنا أقول رَحم اللهُ ابنَ جُرموز فقل أنت : رحِم اللهُ أبا لُؤلؤة . ثم أقبل على المهديّ فقال : ألا تسمع يا أمير المؤمنين ما يقول عائذُ الكلب في عمر بن الخطاب ! وقد عرفتَ ما كان بينه وبين أبيك العبّاس بن عبد المطلب وابنه عبدالله من المودّة ، وتعلم ما بين جَدّه عبدالله بن الزبير وبين جَدّك عبدالله بن العباس من العداوة ، فأَعِنْ يا أمير المؤمنين أَولياءك على أعدائك . فوثب رجلٌ من آل طَلْحة فقال له : يا أمير المؤمنين ، ألّا تكُفُّ هذين السَّفيهَين عن تناول أعراض أصحاب رسول الله ﷺ وآله ؟ وتكلّم الناس بينهما وتوسَّطوا كلامَهما وأكثروا ، فأمر المهديُّ بكَفِّهما والتفريق بينهما .

* * *

(١) الأثط : الخفيف شعر اللحية .

(٢) عمر بن جرموز : هو قاتل الزبير بن العوام ، وكان لحق به بعد موقعة الجمل حتى اذا وجد منه غرة قتله .

٢٧

عَبدُاللهِ بن المُعتَزّ

[الأغاني الجزء ١٠ ص ٢٧٤ وما بعدها]

الشاعر

ممّن صنَع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسَن وبرَع وتقدّم جميعَ أهل عصره فضلاً وشرَفاً وأدباً وشعراً وظَرفاً وتصرُّفاً في سائر الآداب أبو العبّاس عبدالله بن المعتزّ بالله .

وأمرُه ـ مع قُرب عهده بعصرنا هذا ـ مشهورٌ في فضائله وآدابه شهرةً تُشرِك في أكثر فضائله الخاصَّ والعامّ . وشعرُه ، وإن كان فيه رقّةُ الملوكيّة وغَزَل الظُّرفاء وهَلْهلة المُحْدَثين ، فإنّ فيه أشياءَ كثيرةً تجري في أسلوب المُجيدين ولا تَقصُر عن مَدى السابقين ، وأشياءَ ظريفة من أشعار الملوك في جِنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهليّة . فليس يُمكن واصفاً لصَبوح ، في مجلسٍ شَكِلٍ ظريف ، بين نَدامَى وقِيانٍ ، وعلى مَيادين من النَّور والبنفسَج والنَّرجِس ومنضودٍ من أمثال ذلك ، إلى غير ما ذكرتُه من جنس المجالس وفاخر الفُرش ومختار الآلات ورقّة الخدم ، أن يَعدِل بذلك عمّا يُشبهه من الكلام السَّبْط الرقيق الذي يَفهمُه كلٌّ من حضر ،

إلى جَعْد الكلام ووَحْشيّه وإلى وصف البِيد والمَهامِهِ والظَّبْي والظَّليم[1] والناقة والجمل والدّيار والقِفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدَل عن ذلك وأحسن قِيل له مُسيء ، ولا أن يُغمَط حقّه كُلّه إذا أحسن في الكثير وتوسَّط في البعض وقصَّر في اليسير ، ويُنسَب إلى التقصير في الجميع ، لنشر المقابح وطَيّ المحاسن ، فلو شاء أن يفعل هذا كلُّ أحدٍ بمن تقدَّم لوجَد مَساغاً ...

وإنّما على الإنسان أن يحفَظ من الشيء أحسنَه ، ويُلغيَ ما لم يستحسنْه ، فليس مأخوذاً به . ولكنّ أقواماً أرادوا أن يرفعُوا أنفسَهم الوضيعةَ ، ويُشيدوا بذِكرهم الخامل ، ويُعلُوا أقدارهم الساقطةَ بالطَّعنِ على أهل الفضل والقَدْحِ فيهم ، فلا يزدادون بذلك إلّا ضَعةً ، ولا يزداد الآخَرُ إلّا ارتفاعاً . ألا تَرى إلى ابن المُعتزّ قد قُتل أسوأ قِتْلةٍ ، ودَرَج فلم يبقَ له خَلَفٌ يُقرِّظه ولا عقِبٌ يرفَع منه ، وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحُسن أخباره وتصرُّفِه في كلّ فنّ من العلوم إلّا رِفعةً وعُلوّاً ؛ ولا نُظر إلى أضداده ؛ كلّما ازدادوا في طَعنه وتقريظ أنفُسهم وأسلافهم الذين كانوا مثلَهم في ثَلْبه والطَّعن عليه زادوها سقوطاً وضَعَةً ، وكلّما وصفوا أشعارهم وقرّظوا آدابهم زادوا بها ثِقَلاً ومَقتاً . فإذا وقع عليهم المحصِّل الموافِق عدَلوا عن ثَلبه في الآداب إلى التشنيع عليه بأمر الدّين وهجاء آل أبي طالب . وهم أوّل من فعل ذلك وشَنّع به على آل أبي طالب عند المُكتفي حتى نهاهم عنه ، فعدلوا عن عيب أنفسهم بذلك إلى عَيبه ، وارتكبوا أكثر منه ....

عِلمه بصناعة النغم والموسيقا

كان عبدالله حسنَ العلم بصناعة الموسيقا والكلام على النَغم وعِللها ، وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتبٌ مشهورة ، ومراسلاتٌ جرت بينه وبين عبيدِالله بن عبدالله بن طاهر وبين بني حَمدون وغيرهم تدلّ على فضله وغزارة علمه وأدبه .

---

(١) الظليم : ذكر النعام .

ولقد قرأت بخطّ عبيدالله بن عبدالله بن طاهر رُقعةً إليه بخطّه ، وقد بعث إليه برسالة إلى ابن حَمدون في أنّه يُجوّز ولا يُنكِر أن يُغيّر الإنسان بعضَ نغَم الغِناء القديم ويعدِل بها إلى ما يحسُن في حَلْقه ومذهبه ؛ وهي رسالةٌ طويلة ، وشاوره فيها . فكتب إليه عبيدالله : « قرأت ــ أيّدك اللهُ ــ الرسالةَ الفاضلة البارعة الموفَّقة ، فأنا والله أَقرؤها إلى آخرها ، ثم أعود إلى أوّلها مُبتهجاً ، وأتأمَّل وأدعو مُبتهلاً ، وعين الله التي لا تنام عليك وعلى نِعمه عندك ، فإنّها ــ عَلِم الله ــ النعمةُ المعدومةُ المِثل . ولقد تمثّلتُ وأنا أُكرّر نظري فيها قول القائل في سيّدنا وابن سيّدنا عبدالله بن العبّاس :

كفى وشفى ما في النُّفوس ولم يــدع　　　لِذي إربةٍ في القول جِدّاً ولا هَزْلا(١)

ولا والله ما رأيت جِدّاً في هزل ، ولا هَزلاً في جِدّ ، يُشبه هذا الكلام في بلاغته وفصاحته وبيانه وإنارة بُرهانه وجزالة ألفاظه ؛ ولقد خُيّل إليّ أنّ لسان جَدّك العبّاس عليه السلام ينقسم على أجزاء ، فلَك ــ أعزّك الله ــ نِصفُها ، والنّصف الآخر مقسومٌ بين أبي جعفر المنصور والمأمون ، رحمة الله عليهما ، ولو أنّ هذه الرسالة جَبهت الإبراهيمَين : إبراهيم بن المهديّ وإبراهيمَ المَوصليّ وابنَه إسحاق ، وهم مجتمعون ، لَبُهت منهم الناظرُ ، وأُخرس الناطق ، ولأقرّوا لك بالفضل في السَّبْق ، وظهور حُجّة الصِّدق ، ثم كان قولُك لهم فَرقاً بين الحقّ والباطل ، والخطأ والصواب . واللهِ ما تأخذ في فنّ من الفنون إلّا بَرّزتَ فيه تبريزَ الجواد الرائع ، المُغبِّر في وجه كلّ حصان تابع . عضَد الله الشَرف ببقائك ، وأحيا الأدب بحياتك ، وجَمّل الدنيا وأهلها بطُول عُمرك . » .

هذا كلام العقلاء وذوي الفضل في مثله ، لا كلام الثُقَلاء وذوي الجَهل...

---

(١) هذا البيت لحسان بن ثابت في أبيات مدح بها عبدالله بن العباس .(ديوان حسان ج ا ص ٣٣١ تحقيق وليد عرفات) .

طائفة من أخباره

● جعفر بن قُدامة قال :

كنّا عند ابن المعتزّ يوماً وعنده نَشْرُ ـ وكان يُحبّها ويَهيم بها ـ فخرجتْ علينا من صدر البستان ، في زمن الرّبيع ، وعليها غِلالةٌ مُعصفَرةٌ ، وفي يدَيها جُنّابى وباكورة باقِلّى[1] . فقالت له : يا سيّدي تلعب معي جُنّابى ؟ فالتفت إلينا وقال على بديهته ، غيرَ متوقّف ولا مفكّر :

فديتُ من مَرّ يمشي في مُعصفَرةٍ عشيّةً فسقاني ثم حيّاني
وقال : تلعب جُنّابَى فقلت له : مَن جاء بالوَصل لم يلعبَ بهِجرانِ

وأمر فغُنّي فيه .

● عبيد الله بن موسى الكاتب قال :

كانت بنت الكُراعة تألف عبدالله بن المعتزّ ، وكان يحبّ غناءها ويستظرفها ويُحبّها ويواصل إحضارَها ، ثم انقطعت عنه فقال :

ليت شِعري بمَن تشاغلتِ بعَدي وهو لا شكَّ جاهلٌ مغرورُ
هكذا كنت مثلَه في سرورٍ وغَداً في الهُموم مثلي يصير

● جعفر بن قُدامة قال :

كنّا عند ابن المعتزّ يوماً ومعنا النُميريّ ، وعنده جاريةٌ لبعض بنات المُغَنّين تُغنّيه ، وكانت محسنةً إلا أنّها كانت في غايةٍ من القُبح ، فجعل عبدالله يُجَمِّشُها ويتعلّق بها . فلمّا قامت قال له النُميريّ : أيّها الأمير ، سألتك بالله أتتعشّقُ هذه التي ما رأيت قطّ أقبحَ منها ؟ فقال عبدالله وهو يضحك :

---

(١) الجُنّابى والجُنّاباء : لعبة للصبيان ، وقد ضبطت في القاموس بتخفيف النون ، ولكنها في بيت ابن المعتز مشددة النون . الباقلى : (بتشديد اللام وتخفيفها) ،والباقلاء (بتخفيفها) : الفول .

قلـــبيَ وثّــابٌ إلـــى ذا وذا   ليس يـــرى شيئاً فَيـــأْباه
يهيـــم بالحُسن كما ينبغـــي   ويرحَـــم القُبــح فيهـــواهُ

* * *

٢٨

العَتّابيّ

[الأغاني الجزء ١٣ ص ١٠٩ وما بعدها]

الشاعر

هو كُلثوم بن عمرو بن أيّوب ... بن عمرو بن كُلثوم الشاعر ، وهو ابن مالك بن عتّاب بن .... تغلب . شاعرٌ مترسّل بليغ مطبوع متصرّف في فنون الشعر ومقدَّم ، من شعراء الدولة العبّاسيّة ، ومنصور النَّمَريّ تلميذه وراويته ، وكان منقطعاً إلى البرامكة ، فوصفوه للرّشيد ووصلوه به فبلغ عنده كلّ مَبْلَغ ، وعظمت فوائدهُ منه ، ثم فسَدت الحال بينه وبين منصور وتباعدت .

عن رجلٍ من ولد إبراهيم الحرّانيّ قال :

كثر الشعراء بباب المأمون ، فأُوذِن بهم ، فقال لعليّ بن صالح صاحب المصلّى : اعرِضْهم ، فمن كان منهم مجيداً فأَوصِله إليّ ، ومن كان غير مُجيد فاصرِفْه . وصادف ذلك شُغلاً من عليّ بن صالح كان يريد أن يتشاغل به عن أمرِ نفسه ، فقام مغضَباً وقال : والله لأَعُمَّنَّهم بالحِرمان . ثم جلس لهم ودعا بهم ، فجعلوا يتغالبون على القُرب منه ، فقال لهم : على رِسْلكم ، فإنّ المَدَى أقربُ من ذلك ، هل فيكم مَن يُحسن أن يقول كما قال أخوكم العتّابيّ :

ماذا عسى مادحٌ يثني عليك وقد ناداك في الوَحْي تقديسٌ وتطهيرُ
فُتَّ المَمَادحَ إلّا أنّ أَلسُنَنا مُسْتَنطَقاتٌ بما تحوي الضمائيرُ

قالوا : لا واللهِ ، ما بنا أحدٌ يُحسِن أن يقول مثلَ هذا . قال : فانصرِفوا جميعاً .

أبو بكر أحمد بن سهل قال :

تذاكرنا شعرَ العتّابيّ فقال بعضُنا : فيه تكلُّفٌ . ونَصَره بعضُنا ، فقال شيخٌ حاضر : ويحكم ! أيُقال إنّ في شعره تكلّفاً وهو القائل :

رُسُلِ الضمير إليك تَتْرى بالشوق ظالعةً وحَسْرى
مُتَرَجِّياتٍ ما يَنِين على الوَجَى من بُعْدِ مَسْرى
ما جفّ للعينَين بَعْدكَ يا قريرَ العين مَجْرى
فاسلَمْ سَلِمت مُبَرَّءاً من صَبْوتي أبداً مُعَرَّى
إنّ الصَّبابةَ لم تَدَعْ منّي سوى عظمٍ مُبَرَّى
ومَدامعٍ عَبْرى على كبِدٍ عليك الدَّهرَ حَرّى (١)

أوَ يقال إنه متكلّف ؟ وهو الذي يقول :

فلو كان للشكر شخصٌ يَبِينُ إذا ما تأمّله الناظرُ
لَمَثَّلْتُه لك حتى تراه لِتعلمَ أنّي امرؤٌ شاكرُ

عن موسى بن عبدالله التميميّ قال :

وفد إلى عبدالله بن طاهر جمعٌ من الشعراء ، فعلِم أنّهم على بابه ، فقال لخادمٍ له أديب : اخرُجْ إلى القوم وقُل لهم : مَن كان منكم يقول كما قال العتّابيّ للرشيد :

---

(١) ظلع في مشيته : عرج عرجاً خفيفاً . حسرى : متعبة مجهدة . مترجّيات : مقودة . ما ينين : ما يفترن . الوجى : الحفى . مبريّ : منحوت .

مُستَنْبِطُ عَزَماتِ القلب من فِكَرٍ ... ما بينهــنّ وبين الله مَعمــورُ

فَلْيدخُلْ ، وليعلم أني إن وجدتُه مقصِّراً عن ذلك حرمتُه ، فمن وَثِق من نفسه أنه يقول مثل هذا فليقُل . قال : فدخلوا جميعاً إلّا أربعةَ نَفَرٍ .

أبو عصام محمد بن العبّاس قال :

قال يحيى بن خالد البرمكيّ لولده : إن قدرتُم أن تكتبُوا أنفاسَ كُلثوم ابن عمرو العتّابيّ ، فضلاً عن رسائله وشعره ، فلن تَروا أبداً مثلَه .

محمد بن الأشعث قال :

قال دِعبلٌ : ما حسَدت أحداً قطُّ على شعرٍ كما حسدت العتّابيَّ على قوله :

هَيبـــةُ الإخــوان قاطعـــــةٌ ... لأخي الحاجات عن طلبِــــهْ

فإذا ما هِبتُ ذا أمـــــــلٍ ... مات ما أَمَّلتُ من سَبَبِـــه

قال ابن مَهرويه : هذا سرقه العتّابي من قول علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه : « الهَيبة مقرونة بالخَيبة ، والحياءُ مقرونٌ بالحِرمان ، والفُرصة تمرّ مرَّ السَّحاب » .

أخباره مع الرشيد والمأمون

الحسين بن داود الفَزاريّ عن أبيه قال :

كان أخَوان من فَزارةَ يخفُران قريةً بين آمِد وسُميساط يقال لها تلّ حُوم ، فطال مقامُهما بها حتى أثريا ، فحسدهما قومٌ من ربيعة وقالوا : يخفُران هـذان الضِّياعَ في بلدنا . فجمعوا لهما جمعاً وساروا إليهما ، فقاتلوهما ، فقُتل أحدُهما ، وعلى الجزيرة يومئذٍ عبد الملك بن صالح الهاشميّ ، فشكا القيسيُّ أمرَه إلى وجوه قيس ، وعرّفهم قتلَ ربيعة أخاه وأخذَهم مالَه ، فقالوا له : إذا جلس الأمير فادخل إليه . ففعل ذلك ، ودخل على عبدالملك وشكا ما لَحِقه ثم قال له : وحَسْبُ الأمير أنهم لمّا قتلوا أخي وأخذوا مالي قال قائلٌ منهم :

اشرَبا ما شربتُما إنّ قيساً من قتيل وهالكٍ وأسيرِ
لا يَحُوزَنّ أمرَنا مُضَريٌّ بخفيرٍ ولا بغير خفير

فقال عبد الملك : أتندبُني إلى العصبيّة ! وزَبَره[1] ، فخرج الرجلُ مغموماً ، فشكا ذلك إلى وجوه قيس فقالوا : لا تُرَعْ : فوالله لقد قذفتَها في سُويداء قلبه ، فعاوِدْه . فعاودَه في المجلس الآخر ، فزبره وقال له قوله الأول ، فقال له : إني لم آتِك أندُبك للعصبيّة ، وإنما جئتك مُستعدياً[2] . فقال له : حدّثني كيف فَعَل القوم ؟ فحدّثه وأنشده ، فغضب فقال : كذب ، لَعَمري لَيحوزنَّها . ثم دعا بأبي عِصمة ، أحد قوّاده ، فقال : اخرُج ، فجَرّد السيف في ربيعة . فخرج وقتل منها مَقتلةً عظيمة ، فقال كلثوم بن عمرو العتّابي قصيدته التي أوّلها :

ماذا شجاكَ بحُوّارين من طَللٍ ودِمنةٍ كشفت عنها الأعاصيرُ

يقول فيها :

هذي يمينُك في قُرباك صائلةٌ وصارمٌ من سيوف الهند مشهورُ
إن كان منّا ذَوُو إفكٍ ومارقةٌ وعُصبةٌ دِينُها العُدوانُ والزُّورُ
فإنّ منا الذي لا يُستَحثُّ إذا حُثّ الجيادُ وضَمَّتها المضامير
مستنبِطٌ عَزَماتِ القلب من فِكَرٍ ما بينهنّ وبين الله معمورُ[3]

يعني عبدالله بن هشام بن بِسطام التغلبيّ ، وكان قد أخذ قوّادهم .

فبلغت القصيدة عبد الملك ، فأمر أبا عِصمةَ بالكفّ عنهم . فلمّا قدِم الرشيد الرافقة[4] أنشده عبدُالملك القصيدةَ ، فقال : لِمن هذه ؟ فقال : لرجل

(١) زبره : زجره وانتهره .
(٢) مستعدياً : مستنصراً .
(٣) الإفك : الكذب والبهتان . المضمار : الموضع تضمرّ فيه الخيل .
(٤) الرافقة : بلد متصل بالرقة على الفرات .

من بني عتّاب يقال له كلثوم بن عمرو . فقال : وما يمنعه أن يكون ببابنا ؟ فأمر بإشخاصه من رأس عين(١) . فوافى الرشيدَ وعليه قميصٌ غليظ وفَروة وخُفّ وعلى كتفه مِلحفةٌ جافية بغير سَراويل ، فلمّا رُفع الخبر بقدومه أمر الرشيدُ بأن تُفرش له حُجرةٌ وتُقام له وظيفة ، ففعلوا ، فكانت المائدة إذا قُدّمت إليه أخذ منها رُقاقةً وملحاً وخلَط الملح بالتُراب فأكله بها ، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض والخدمُ يتفقّدونه ويتعجّبون من فعله ، وسأل الرشيدُ عنه ، فأخبروه بأمره ، فأمر بطَرده ، فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العُقيليّ ، وهو في منزله ، فسلّم عليه وانتسب له ، فرحّب به وقال له : ارتفِعْ . فقال : لم آتِك للجلوس . قال : فما حاجتك ؟ قال : دابّةٌ أبلُغ عليها إلى رأس عين . فقال : يا غلام أعطِه الفرس الفلانيّ . فقال : لا حاجةَ لي في ذلك ، ولكن تأمر أن تُشترى لي دابةٌ أتبلّغ عليها(٢) . فقال لغلامه : امضِ معه فابتَعْ له ما يريد . فمضى معه ، فعدَل به العتّابي إلى سوق الحمير ، فقال له : إنّما أمرني أن ابتاع لك دابّةً . فقال له : إنه أرسلك معي ، ولم يُرسلني معك ، فإن عملت ما أريد وإلّا انصرفْ . فمضى معه فاشترى حماراً بمائة وخمسين درهماً وقال : ادفَع إليه ثمنه . فدفع إليه ، فركب الحمار عُرْياً بمِرشحةٍ(٣) عليه وبِرذعة ، وساقاه مكشوفتان ، فقال له يحيى بن سعيد : فضحتَني ، أمثلي يحمل مثلك على هذا ؟ ! فضحك وقال : ما رأيتُ قدرَك يستوجب أكثر من ذلك ، ومضى إلى رأس عين .

وكانت تحته امرأةٌ من باهلة ، فلامتْه وقالت : هذا منصورٌ النَمَريّ قد أخذ الأموال فحلّى نساءه ، وبني داره ، واشترى ضِياعاً ، وأنت ها هنا كما ترى ! فأنشأ يقول :

---

(١) رأس عين : مدينة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين .

(٢) تبلّغ بالشيء : وصل الى مراده .

(٣) المرشحة : ما يجعل على ظهر الدابة وتحت السرج ليمتص العرق .

تلــومُ على ترك الغِـنى باهليّــــــةٌ ... زَوى الفقرُ عنها كلَّ طِرفٍ وتالدِ
رأت حولَهـا النِّـسوان يرفُلن في الثَّرا ... مُقلَّـدةً أعناقُها بالقلائــــــــدِ
أسرّكِ أنّي نلـتُ ما نال جعفــــــرٌ ... من العيش أو ما نال يحيى بنُ خالد
وأنّ أمـير المؤمنـين أغصَّــــــني ... مُغَصَّهما بالمُشرقات البـــواردِ
رأيت رفيعاتِ الأمـــور مَشُوبــــةً ... بمستودَعاتٍ في بطـون الأساود
دَعيني تَـجِئْني مِيتـــتي مُطمئنّــــةً ... ولم أتجشَّم هولَ تلك المـوارد[1]

وهذا الخبرُ عندي فيه اضطرابٌ ، لأن القصيدة المذكورة التي أولها :

ماذا شجاك بُحوّارين من طلل

للعتّابي في الرشيد لا في عبدالملك ، ولم يكن كما ذكره في أيام الرشيد متنقّصاً منه ، وله أخبارٌ معه طويلة ...

عن إبراهيم بن الحدين قال :

وَجِد[2] الرشيدُ على العتّابي ، فدخل سرّاً مع المتظلّمين بغير إذنٍ ، فمَثل بين يدي الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين ، قد آذتْني الناسُ لك ولنفسي فيك ، وردّني ابتلاؤهم إلى شكرك ، وما مع تذكُّرِك قناعةٌ بغيرك ، ولنعمَ الصائن لنفسي كنتُ ، لو أعانني عليك الصبرُ ، وفي ذلك أقول :

أخِضْني المَقام الغَمْرَ إن كان غَـــرّني ... سَنا خُلَّـــبٍ أو زلّت القدمانِ
أتتركُني جَدْبَ المعيشـةِ مُقْتِـــــراً ... وكَفّاك من ماء الندى تَكِفـانِ
وتجعلُني سَهْمَ المطامع بعــــدمـــا ... بلَلتَ يميني بالنّدى ولسـاني[3]

---

(١) زوى : أبعد . المشرقات : السيوف اللوامع . البوارد : التي تثبت في الضريبة فلا تنثني ، يشير الى مصرع البرامكة على يد الرشيد . الأساود ج أسود : الحية . .

(٢) وجد : غضب .

(٣) الغمر : الماء الكثير . الخلب : البرق الذي لا يعقبه مطر .

قال : فأعجب الرشيدَ قولُه ، وخرج وعليه الخِلَعُ ، وقد أمر له بجائزة ، فما رأيت العتّابيّ قطّ أبسطَ منه يومئذٍ .

عن موسى بن عبدالله التميميّ قال :

عَتَب الرشيدُ على العتّابي أيامَ الوليد بن طريف ، فقطع عنه أشياء كان عوّده إياها ، فأتاه متنصّلاً بهذه القصيدة :

ماذا شجاك بحُوّارين من طللٍ ودِمنةٍ كشفت عنها الأعاصيرُ
شجاك حتى ضميرُ القلب مشتَرِكٌ والعينُ إنسانُها بالماء مغمورُ
في ناظريَّ انقباضٌ عن جفونهما وفي الجفون عن الآماق تقصيرُ
لو كنتِ تدرين ما شوقي إذا جَعلتْ تنأى بنا وبك الأوطانُ والدُّور
علمتِ أنّ سُرى ليلي ومُطَّلعي من بيت نجرانَ والغَورين تَغوير
إذا الركائبُ مخسوفٌ نواظرُها كما تضمَّنت الدُّهنَ القوارير
نادتكَ أرحامُنا اللاتي نَمُتُّ بها كما تُنادي جِلادَ الجِلّةِ الخُورُ
مُستنبِطٌ عَزَماتِ القلب من فِكَرٍ ما بينهنّ وبين الله معمور
فُتَّ المدائحَ إلّا أنّ ألسُننا مُستَنطقاتٌ بما تحوي الضمائيرُ
ماذا عسى مادحٌ يُثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهير
إن كان منا ذوو إفكٍ ومارقةٌ وعُصبةٌ دينُها العُدوانُ والزُّور
فإنّ منا الذي لا يُستحثُّ إذا حُثّ الجياد وحازتها المضاميرُ
ومَن عراقُه السَّفّاحُ عندكم مُجرّبٌ من بَلاء الصدق مخبور
الآن قد بَعُدت في خطو طاعتكم خُطاهم حيث يحتلّ الغشاميرُ (١)

---

(١) حوارين : قرية من أعمال حلب . التغوير : الدخول في الغور وهو تهامة . الجلاد : النوق القليلة اللبن . الجلة : الأبل المسنة . الخور ج خوارة : الناقة الغزيرة اللبن . مخبور : مختبر مجرب . الغشامير من الغشمرة : الظلم والتهضم .

ـ يعني يزيد بن مَزْيد ، وهشامَ بن عمرو التغلبيّ ، وهو من ولد سُفيح بن السَفّاح ـ قال : فرضي عنه وردّ أرزاقه ووَصله .

عن عبدالله بن مسلم ومحمد بن يزيد :

كتب المأمون في إشخاص كلثوم بن عَمرو العتّابيّ ، فلمّا دخل عليه قال له : يا كلثوم ، بلغتْني وفاتُك فساءتني ، ثم بلغتْني وِفادتُك فسرّتني . فقال له العتابي : يا أمير المؤمنين ، لو قُسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسِعتاها فضلاً وإنعاماً ، وقد خَصَصتَني منهما بما لا يتّسع له أُمنيةٌ ، ولا يبسط لسواه أملٌ ، لأنه لا دِين إلّا بك ، ولا دنيا إلا معك . فقال له : سَلْني . فقال : يدُك بالعطاء أَطلَقُ من لساني بالسؤال . فوصَله صِلاتٍ سنيّةٍ ، وبلغ به من التقديـم والإكرام أعلى محلّ .

عن محمد بن إبراهيم اليساريّ قال :

لمّـا قدم العتّابيمدينة السلام على المأمون أذِن له ، فدخَل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، وكان العتابي شيخاً جليلاً نبيلاً ، فسلّم فردّ عليه وأدناه وقرّبه حتى قَرُب منه ، فقبّل يدَه ، ثم أمَره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يُسائله عن حاله ، وهو يُجيبه بلسانٍ ذَلْقٍ طَلْق ، فاستظرف المأمون ذلك ، وأقبل عليه بالمداعبة والمُزاح ، فظنّ الشيخ أنه استخفّ به فقال : يا أمير المؤمنين ، الإيناسُ قبل الإبساس[1] . فاشتَبه على المأمون قولُه ، فنظر إلى إسحاق مستفهماً ، فأومأ إليه ، وغـمَزه على معناه حتى فهم ، فقال : يا غُلامُ ، ألفَ دينار . فأُتي بذلك ، فوضعهبين يَدي العتّابي ، وأخذوا في الحديث ، وغمز المأمونُ إسحاق بن إبراهيم عليه ، فجعل العتّابي لا يأخذ في شيء إلّا عارضه فيه إسحاق ، فبقي العتّابي متعجّباً ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه ؟ قال : نعم ، سَلْ . فقال لإسحاق : يا شيخُ من أنت ؟ وما اسمُك ؟ قال : أنا من الناس ، واسمي كُلْ بَصَلْ . فتبسّم العتّابي وقال : أمّا أنت

(١) الإبساس : مسح ضرع الناقة لتسكن وتدر.

فمعروف ، وأما الاسم فمُنْكَر . فقال إسحاق : ما أقلَّ إنصافَك ، أتُنكر أن يكون اسمي « كُلْ بَصَلْ » واسمُكَ « كُلْ ثُوم » ! وكُل ثوم من الأسماء ، أوَ ليس البصل أطيبَ من الثوم ؟ فقال له العتّابي : لله درُّك ، فما أَحَجَّك ، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصلَه بما وصلتَني به ؟ فقال له المأمون : بل ذلك مُوَفَّرٌ عليك ونَأمُر له بمثله . فقال له إسحاق : أمّا إذ أقررتَ بهذا فتوَهَّمْني تَجِدْني . فقال : ما أظنُّك إلا إسحاقَ الموصليَّ الذي تناهى إلينا خبرُه . قال : أنا حيث ظننتَ . وأقبل عليه بالتحيّة والسلام ، فقال المأمون ، وقد طال الحديث بينهما : أمّا إذ قد اتَّفقتُما على المودّة فانصرِفا متنادمَين . فانصرف العتّابي إلى إلى منزل إسحاق فأقام عنده .

عبد الواحد بن محمد قال :

وقف العتّابي بباب المأمون يلتمس الوصول إليه ، فصادف يحيى بن أكثَم جالساً ينتظر الإذنَ فقال له : إن رأيت ـ أعزّك الله ـ أن تذكُر أمري لأمير المؤمنين إذا دخلتَ فافعل . قال له : لست ـ أعزّك الله ـ بحاجِبه . قال : فإن لم تكن حاجباً فقد يفعلُ مثلُك ما سألتُ ، واعلم أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ جَعل في كل شيء زَكاةً ، وجعل زكاةَ المال رَفدَ المستعين ، وزكاة الجاه إغاثةَ الملهوف ، واعلم أن الله ـ عزّ وجلّ ـ مُقبِلٌ عليك بالزيادة ان شكرت ، أو التغيير إن كفرت ، وإنّي لك اليومَ أصلحُ منك لنفسك ، لأنّي أدعوك إلى ازدياد نِعمتك وأنت تأبى . فقال له يحيى : أفعلُ وكرامةً . وخرج الإذن ليحيى ، فلمّا دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلّا أن استأذن المأمون للعتابي ، فأذِن له .

قال جعفر بن المفضّل : قال لي أبي :

رأيت العتابي جالساً بين يدي المأمون وقد أسَنّ ، فلمّا أراد القيامَ قام المأمونُ فأخذ بيده ، واعتمد الشيخ على المأمون ، فما زال يُنهِضه رُويداً رويداً

حتى أقلّه فنهض. فعجبتُ من ذلك وقلت لبعض الخدم: ما أسوأ أدبَ هذا الشيخ فمن هو؟ قال: العتّابي.

سائر أخباره

● كلّم العتابي يحيى بن خالد في حاجةٍ بكلمات قليلة، فقال له يحيى: لقد نَذَر كلامُك اليومَ وقلّ. فقال له: وكيف لا يَقِلّ وقد تكنَّفني ذُلُّ المسألة، وحَيرة الطلب، وخوفُ الردّ؟! فقال: والله لئن قلّ كلامُك لقد كثُرت فوائدُهُ. وقضى حاجته.

● عثمان الورّاق قال:

رأيت العتّابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشأم، فقلت له: ويحَك! أما تستحي! فقال لي: أرأيت لو كُنّا في دارٍ فيها بقرٌ كنت تستحي وتحتشِم أن تأكلَ وهي تراك؟ فقال: لا. قال: فاصبِرْ حتى أُعلمَك أنهم بقر. فقام فوعظ وقصّ ودعا حتى كثُر الزِّحام عليه، ثم قال لهم: رَوى لنا غيرُ واحد، أنه مَن بلَغَ لسانُه أَرنبةَ أنفِه لم يدخُل النار. فما بقي واحدٌ إلا وأخرج لسانه يُومىء به نحو أرنبة أنفه، ويُقدّره حتى يبلغَها أم لا. فلمّا تفرّقوا قال لي العتابيّ: ألم أُخبِرك أنهم بقر.

● عن أبي الشِّبْل قال:

دخل العتابيّ على عبدالله بن طاهر فمثَل بين يديه وأنشده:

حُسنُ ظنّي وحسن ما عَوّد اللـــهُ سواي منك الغَداةَ أتى بي
أيُّ شيء يكون أحسنَ من حُســن يقينٍ حدا إليك رِكابي

قال: فأمر له بجائزة. ثم دخل عليه من الغد فأنشده:

وُدُّكَ يَكفينيك في حاجتي ورُؤيتي كافيةٌ عن سُؤالْ
وكيف أخشى الفقرَ ما عشتَ لي وإنّما كَفّاك لي بيتُ مال

فأمر له بجائزة . ثم دخل في اليوم الثالث فأنشده :

بَهِجاتُ الثياب يُخلِقُها الدَّهرُ وثوبُ الثناء غضٌّ جديدُ
فاكسُني ما يَبِيدُ أصلحك اللهُ فالله يكسُوك ما لا يَبيدُ[1]

فأمر له بجائزة وأنعم عليه بخِلعةٍ سَنيّة .

● أبو دِعامة قال :

قال طَوق بن مالك للعتّابي : أما ترى عَشيرتَك - يعني بني تغلب - كيف تُدِلّ عليّ وتتمرّغ وتستطيل ، وأنا أصبرُ عليهم ؟ ! فقال العتابي : أيّها الأمير ، إن عشيرَك من أحسنَ عِشْرَتَك ، وإنّ عَمَّك من عَمّك خيرُه ، وإنّ قريبَك مَن قَرُب منك نفعُه ، وإنّ أخفّ الناس عندك أخَفُّهم ثِقلاً عليك ، وأنا الذي أقول :

إنّي بلوت الناسَ في حالاتهم وخَبَرتُ ما وَصلوا من الأسبابِ
فإذا القرابةُ لا تُقرِّب قاطعاً وإذا المودّةُ أقربُ الأنساب

● الرياشيُّ قال :

شكَا منصورُ النَمَريّ العتّابي إلى طاهر بن الحسين ، فوَجّه طاهرٌ إلى العتابي فأحضره ، وأخفى منصوراً في بيت قريب منهما ، وسأل طاهر العتابيَّ أن يُصالحه ، فشكا سوءَ فِعله به ، فسأله أن يصفَح عنه ، فقال : لا يستحقّ ذلك . فأمر منصوراً بالخروج ، فخرج وقال للعتابي : لمَ لا أستحقّ هذا منك ؟ فأنشأ العتابي يقول :

أَصْحبتُكَ الفضلَ إذ لا أنت تعرفُه حقّاً ولا لك في استصحابه أَدَبُ
لم تَرتبِطْك على وصلي مُحافَظةٌ ولا أعاذك ممّا اغتالك الأدبَ
ما من جميلٍ ولا عُرْفٍ نطقتَ به إلّا إليّ وإن أنكرتَ يَنتسِبُ

(١) يخلقها : يبليها .

قال : فأصلح طاهرٌ بينهما ـ وكان منصورٌ من تعليم العتابي وتخريجه ـ وأمر طاهر للعتابي بثلاثين ألف درهم .

● أبو هِفّان قال :

كان العتّابي جالساً ذاتَ يوم ينظُر في كتاب ، فمرّ به بعضُ جيرانه فقال : أيشٍ ينفعُ العلمُ والأدب مَن لا مال له ؟ فأنشد العتابي يقول :

يا قاتلَ اللهُ أقواماً إذا ثَقِفُـــــوا ... ذا اللُّبّ ينظُر في الآداب والحِكَمِ
قالوا وليس بهم إلّا نَفاستُـــــه ... أنافعٌ ذا من الإقتار والعَدَمِ
وليس يَدرُون أنّ الحظّ ما حُرِموا ... لَحاهم الله ، من علمٍ ومن فَهَمِ

● عبد الرحيم بن أحمد بن زيد بن الفرج قال :

لمّا سعى منصورٌ النَّمَريّ بالعتّابي إلى الرشيد اغتاظ عليه ، فطلبه ، فستَره جعفر بن يحيى مدّةً ، وجعل يستعطفه عليه حتى استلّ ما في نفسه وأمّنه ، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

ما زِلتُ في غَمَرات الموت مُطَّرحـاً ... قد ضاق عني فسيحُ الأرض من حِيَلي
ولم تزل دائباً تسعى بلُطفك لـــــي ... حتى اختلستَ حياتي من يدَي أَجَلي

● أحمد بن خلّاد عن أبيه قال :

عاد عبدُالله بن طاهر وإسحاقُ بن إبراهيم بن مصعب كلثوم بن عمرو العتابي ، في عِلّة اعتلّها ، فقال الناس ، هذه خَطرةٌ خطَرتْ . فبلغ ذلك العتابي فكتب إلى عبدالله بن طاهر :

قالوا الزيارةُ خَطْرةٌ خَطَرتْ ... ونـجـارُ بِرّك ليس بالخَطْرِ
أَبطِلْ مقالتَهـــــم بثانيـــــةٍ ... تَستنفِدِ المعروفَ من شُكري[1]

---

(١) النجار : الأصل .

فلمّا بلغت أبياتُه عبدالله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق بن إبراهيم ، فعاداه مرّةً ثانية .

* * *

٢٩

عليّ بن جبلة العكوّك

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ١٤ وما بعدها]

الشاعر

هو عليّ بن جَبَلة بن عبدالله الأبْناويّ[١] ، ويُكنى أبا الحسن ، ويُلقّب بالعَكَوَّك[٢] ، من أبناء الشّيعة الخُراسانيّة من أهل بغداد ، وبها نشأ ، ووُلد بالحَرْبيّة[٣] من الجانب الغربيّ . وكان ضريراً ، فذكر عَطاءُ المِلْطُ[٤] أنه كان أكْمَه ، وهو الذي يُولَد ضريراً ، وزعم أهلُه أنه عَمي بعد أن نشأ .

وهو شاعرٌ مطبوع ، عَذبُ اللفظ ، جَزْلُه ، لطيفُ المعاني ، مدّاحٌ حسن التصرُّف ، واستنفد شعرَه في مدح أبي دُلَف القاسم بن عيسى العِجْليّ ، وأبي غانم حُميد بن عبد الحميد الطُّوسيّ ، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي

---

(١) الأبناوي : نسبة الى الأبناء ، وهم قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة اليهم أبناوي وبنويّ .

(٢) العكوّك : القصير السّمين .

(٣) الحربية : محلة كبيرة ببغداد تنسب الى حرب بن عبدالله ، أحد قادة المنصور .

(٤) الملط في اللغة : الخبيث لا يرفع له شيء الأسرقه ، والمختلط النسب .

دُلف خاصّةً حتى فَضّل من أجله ربيعةَ على مُضَرَ ، وجاوز الحدَّ في ذلك . فيقال : إنّ المأمون طلبه حتى ظَفِر به ، فسَلّ لسانه من قَفاه ؛ ويُقال : بل هرب ولم يزل متوارياً منه حتى مات ولم يقدِر عليه . وهذا هو الصحيح من القَولين ، والآخر شاذّ .

الحسين بن عبدالله بن جَبَلة بن عليّ بن جبلة قال :

كان لجدّي أولادٌ ، وكان عليٌّ أصغرَهم ، وكان الشيخ يرِقُّ عليه ، فجُدر ، فذهبت إحدى عينيه في الجُدَريّ . ثم نشأ فأُسلم في الكُتّاب ، فحَذَق بعضَ ما يَحذِقُه الصِّبيان ، فحُمل على دابّةٍ ونُثر عليه اللَّوز ، فوقعت على عَيْنه الصحيحة لَوزة فذهبتْ . فقال الشيخ لولده : أنتم لكم أرزاقٌ من السُّلطان ، فإن أَعَنْتُموني على هذا الصَّبيّ ، وإلّا صَرفتُ بعضَ أرزاقكم إليه . فقلنا : وما تريد ؟ قال : تختلفون به إلى مجالس الأدب . قال : فكُنّا نأتي به مجالسَ العِلم ونَتشاغل نحن بما يلعب به الصِبيان . فما أتى عليه الحَوْل حتى بَرَع ، وحتى كان العالمُ إذا رآه قال لِمن حولَه : أَوسِعُوا للبَنَويّ [1] . وكان ذكيّاً مطبوعاً ، فقال الشعر .

مدائحه في أبي دُلف العجليّ

وبلغه أنّ الناس يقصُدون أبا دُلف لِجُوده وما كان يُعطي الشعراء فقصَده ، وكان يُسمّى العَكَوَّك ، فامتدحه بقصيدته التي أوّلها :

ذادَ وِرْدَ الغَيّ عن صَدَرِهْ　　　وارعوى واللّهوُ مِن وَطَرِهْ

---

(١) البنوي : ضُبط في المطبوعة (البغويّ) ، وهو نسبة الى مدينة بغشور ، على غير القياس . ولكن نسبه المذكور في مطلع الترجمة هو « الأبناوي » نسبة الى الأبناء فينبغي أن يكون لفظ « البغوي » محرفاً عن « البنويّ » وقد سبق أن ذكرنا أن النسبة إلى الأبناء : أبناوي وبنويّ .

يقول فيها في مدحه :

يا دَواءَ الأرض إن فَسَدَت ... ومُديلَ اليُسْر من عُسَره
كلُّ من في الأرض من عرب ... بين باديه إلى حَضَره
مستعيرٌ منك مَكرُمةً ... يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه
إنّما الدُّنيا أبو دُلَفٍ ... بين مَبْداه ومُحْتَضَره
فإذا وَلّى أبو دلفٍ ... وَلّت الدُّنيا على أَثَره

فلمّا وصل إلى أبي دُلَف ـ وعنده من الشعراء وهم لا يعرفونه ـ استرابوه بها ، فقال له قائدُه : إنّهم قد اتّهموك ، وظنّوا أنّ الشعر لغيرك . فقال : أيّها الأميرُ ، إنّ المِحنةَ(١) تُزيلُ هذا . قال : صدقتَ ، فامتحِنُوه . فقالوا له : صِفْ فَرَس الأمير ، وقد أجَّلناك ثلاثاً . قال : فاجعلوا معي رجلاً تثِقون به يكتبُ ما أقول . فجعلوا معه رجلاً ، فقال هذه القصيدة في ليلته ، وهي :

رِيعتْ لِمنشورٍ على مَفْرِقِهِ ... ذمّ لها عهدَ الصِّبا حين انْتَسَبْ
أهدابُ شَيبٍ جُدُدٌ في رأسه ... مكروهةُ الجِدّة أنضاءُ العُقَبْ
أشرقن في أسودَ أزرَيْنَ به ... كان دُجاه لهوى البِيضِ سَبَبْ
واعتَقْنَ أيّامَ الغواني والصِّبا ... عن مَيِّت مطلبُه حيٌّ الأدب
لم يزدجِرْ مُرعَوياً حين ارعوى ... لكن يدٌ لم تتصّل بمُطَّلَبْ
لم أرَ كالشَّيب وقاراً يُجتَوى ... وكالشَّباب الغَضّ ظِلّاً يُسْتَلَبْ
فنازلٌ لم يُبْتَهَجْ بقُربه ... وذاهبٌ أبقى جوًى حين ذهَبْ
كان الشبابُ لِمّةً أزْهَى بها ... وصاحباً حُرّاً عزيز المُصْطَحَب
إذ أنا أُجْرِي سادراً في غَيّه ... لا أُعتِبُ الدّهرَ إذا الدهر عتَب
أبعِدُ شأو اللهو في إجرائه ... وأقصِد الخودَ وراء المُحْتَجَب
وأَذْعَرُ الرَّبْرَبَ عن أطفاله ... بأعوجيٍّ دُلَفيِّ المُنْتَسَب

---

(١) المحنة : الامتحان .

تحسبه من مَرح العِزّ بـــه مستنفراً بروعة أو مُلتهب
مُرتَهِجٌ يرتجُّ من أقطاره كالماء جالت فيه ريحٌ فاضطرَب
تحسبُه أُقعد في استقباله حتى إذا استدبرتَه قلت أَكَبّ[1]

[الأبيات ...]

قال : فلمّا غدا عليه بالقصيدة وأنشده إيّاها استحسَنها من حضَر وقالوا : نشهد أنّ قائل هذه قائلُ تلك . فأعطاه ثلاثين ألف درهم . وقد قيل إنّ أبا دُلَف أعطاه مائةَ ألف درهم ، ولكن أراه في دَفَعات ، لأنّه قصَده مراراً كثيرة ومَدحه بعدّة قصائد .

إبراهيم بن خَلف قال :

بينا أبو دُلَف يسير مع أخيه مَعقِل ـ وهما إذ ذاك بالعراق ـ إذ مرّ بامرأتين تتماشيان ، فقالت : إحداهما لصاحبتها : هذا أبو دُلَف . قالت : ومَن أبو دلف ؟ قالت : الذي يقول فيه الشاعر :

إنّما الدنيا أبو دُلَفٍ بين باديه ومُحتَضَره
فإذا ولّى أبو دلف ولّت الدّنيا على أثرهْ

قال : فاستعبر أبو دلف حتى جرى دمعُه . قال له معقل : مالك يا أخي تبكي ؟! قال : لأنّي لم أَقْضِ حقَّ عليّ بن جَبلة . قال : أوَ لم تُعطِه مائة ألف درهم لهذه القصيدة ! قال : والله يا أخي ما في قلبي حَسرةٌ تقارب حَسْرتي على أنّي لم أكن أعطيتُه مائة ألف دينار ، والله لو فعلت ذلك لما كنت قاضياً حقّه .

---

(١) المنشور: أراد الشيب المنتشر. أنضاء : مهزولة . اعتقى البئر : احتفرها . يجتوى : يكره . أعتبه : أرضاه . الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . الربرب : القطيع من بقر الوحش . الأعوجي : الفرس المنسوب الى أعوج ، وهو فرس لبني هلال . دلفي : منسوب الى أبي دلف . مرتهج : مثير للغبار.

عليّ بن القاسم قال : قال لي عليُّ بن جبَلة :

زُرت أبا دُلف ، فكنت لا أدخل عليه إلّا تلقّاني ببِرّه وأفرط . فلمّا أكثر قعدتُ عنه حياءً منه ، فبعث إليّ بمعقل أخيه ، فأتاني فقال لي : يقول لك الأميرُ : لَمَ هجرتَنا ؟ لعلك استبطأتَ بعض ما كان منّي ، فإن كان الأمر كذلك فإنّي زائدٌ فيما كنت أفعلُه حتى ترضى . فدعوتُ مَن كتب لي وأمللتُ عليه هذه الأبيات ، ثم دفعتُها إلى مَعقل وسألتُه أن يُوصلَها ، وهي :

هجرتُك لم أهجرك من كُفر نعمةٍ — وهل يُرتَجى نيلُ الزيادة بالكُفرِ
ولكنّني لمّا أتيتُك زائراً — فأفرطتَ في بِرّي عجَزتُ عن الشُكر
فها أنا لا آتيك إلّا مُسلِّماً — أَزُورك في الشهرَين يوماً وفي الشهر
فإن زِدتَني بِرّاً تزايدتُ جَفوةً — ولم تلقَني طُولَ الحياةَ إلى الحَشْرِ

قال : فلمّا سمعها معقل استحسنها جِدّاً وقال : جَوّدت والله ، أما إنّ الأمير لَيُعْجَب بمثل هذه الأبيات . فلمّا أوصلها إلى أبي دلف قال : لله درُّه ، ما أشعرَه وما أرقَّ معانيَه ! ثم دعا بدوَاة ، فكتب إليّ :

ألا رُبَّ ضَيفٍ طارقٍ قد بسَطتُه — وآنستُه قبلَ الضِيافة بالبِشْرِ
أتاني يُرَجّيني فما حال دُونَه — ودون القِرى من نائلي عنده سِتْري
وجدتُ له فضلاً عليَّ بقَصْده — إليَّ وبِرّاً يستحقّ به شُكري
فلم أعدُ أن أَدنيتُه وابتدأتُه — ببِشرٍ وإكرامٍ وبِرٍّ على بِرِ
وزوّدتُه مالاً قليلاً بقاؤه — وزوّدني مَدحاً يدُوم على الدّهر

ثم وجّه بهذه الأبيات مع وصيفٍ يحمِل كيساً فيه ألفُ دينار ، فذلك حيث قلت له :

إنّما الدنيا أبو دلف — بين باديه ومحتضَره

قال أحمد بن إسماعيل الخصيب الكاتب :

دخل عليّ بن جَبَلة يوماً إلى أبي دُلَففقال له : هاتِ يا عليُّ ما معك فقال : إنّه قليل . فقال : هاتِه ، فكم من قليلٍ أجودُ من كثير . فأنشده :

اللهُ أجرى من الأرزاق أكثرها على يَديك فشُكراً يا أبا دلفِ
أعطى أبو دلفٍ والرّيحُ عاصفةٌ حتى إذا وقفتْ أعطى ولم يقفِ

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم . فلمّا كان بعد مُدّةٍ دخل إليه ، فقال له : هات ما معك . فأنشده :

مِن مَلَكِ الموت إلى قاسمٍ رسالةٌ في بطن قِرطاسِ
يا فارسَ الفُرسان يومَ الوغى مُرْني بمن شئتَ من النّاس

قال : فأمر له بألفَي درهم ، وكان قد تطيّر من ابتدائه في هذا الشعر ، فقال : ليست هذه من عطاياك أيّها الأمير ! فقال : بلغ بها هذا المقدارَ ارتياعُنا من تحمُّلك رسالةَ ملَكَ الموت إلينا .

عن سالم مولى حُميد الطُّوسيّ قال :

جاء عليُّ بن جبلة إلى حُميد الطّوسيّ مستشفعاً به إلى أبي دُلَف ـ وقد كان غضب عليه وجفاه ـ فركب معه إلى أبي دلف شافعاً ، وسأله في أمره ، فأجابه ، واتّصل الحديث بينهما ، وعليُّ بن جبلة محجوب . فأقبل على رجلٍ إلى جانبه وقال : اكتُبْ ما أقول . فكتب :

لا تَترُكَنّي بباب الدّار مُطَّرَحاً فالحُرّ ليس عن الأحرار يَحتجبُ
هَبْنا بلا شافعٍ جئنا ولا سببٍ ألستَ أنت إلى مَعروفك السّبَب ؟

قال : فأمر بإيصاله إليه ورضي عنه ووصله .

أحمد بن أبي فَنَن قال : قال عبد الله بن مالك :

قال المأمون يوماً لبعض جلسائه : أُقسم على مَن حضر ممّن يحفظ قصيدة

عليّ بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلّا أنشدَنِيها . فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أمير المؤمنين ، ولا بُدَّ من إبرار قسَمه ، وما أَحفظها ولكنّها مكتوبةٌ عندي . قال : قم فجئني بها . فمضى وأتاه بها ، فأنشده إيّاها وهي :

ذاد وِردَ الغَيِّ عن صَدَره   وارعوى واللهوُ من وَطَـرِهْ

......

دع جَدا قحطانَ أو مُضرٍ   في يَمانيـه وفي مُضَـرِه
وامتدحْ من وائـلٍ رجـلاً   عَصَرُ الآفاق في عَصَرِهْ
المنايا في مَناقبـــــــه   والعطايا في ذَرا حُجره
مَلِكٌ تندَى أناملُـــــــه   كانبـلاج النَّوْء عن مَطره
مستهلٌّ عــن مواهبـــــه   كابتسـام الرَّوض عن زَهَره
جبــلٌ عــزّت مناكبُـــه   أمنتْ عدنانُ في ثَغَـره
إنّمـا الدنيا أبو دلـــــف   بـين مَبْــداه ومحتضَره
فإذا ولّـى أبو دلـــــف   وَلّـت الدنيا على أَثَـره (١)

[الأبيات ...]

قال : فغضب المأمون وقال : لست لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفكْ دمه .

قال ابن أبي فَنَن : وهذه القصيدة قالها عليّ بن جبلة وقصد بها أبا دُلَف بعد قتله الصُّعلوك المعروف بقُرقور ، وكان من أشدّ الناس بأساً وأعظمهم ، فكان يقطع هو وغِلمانه على القوافل وعلى القُرى ، وأبو دلف يجتهد في أمره فلا يقدر عليه . فبينا أبو دلف خرج ذات يوم يتصيّد وقد أمعن في طلب الصَّيد وحدَه إذا بقرقور قد طلع عليه وهو راكبٌ فرساً يشقّ الأرض بجَرْيه ،

---

(١) الجدا : العطاء . العصر : المنجاة والملاذ . المناقب هنا ج منقب ومنقبة : الطريق في الجبل . الذرا : الناحية .

فأيقن أبو دلف بالهلاك ، وخاف أن يولّيَ عنه فيهلِكَ ، فحمل عليه وصاح : يا فِتيانُ ، يمنةً يمنة ـ يُوهمه أنّ معه خيلاً قد كَمنها له ـ فخافه قُرقور وعطف على يساره هارباً ، ولحقه أبو دلف فوضع رُمحه بين كتِفيه فأخرجه من صدره ، ونزل فاحتزّ رأسه وحمله على رُمحه حتى أدخله الكَرَج[1] .

قال : فحدّثني مَن رأى رمح قرقور ، وقد أُدخل بين يدَيه يحمله أربعة نفر . فلمّا أنشده عليّ بن جبلة هذه القصيدة استحسنها وسُرّ بها وأمر له بمائة ألف درهم .

مدائحه في حُميد الطوسي ورثاؤه إيّاه

أبو واثلةَ قال : قال رجلٌ لعليّ بن جَبلة : ما بلغتَ في مديح أحدٍ ما بلغتَه في مديحك حُميداً الطوسيّ . فقال : وكيف لا أفعل وأدنى ما وصل إليّ منه أنّي أهديت له قصيدةً في يوم نَيروز فسُرّ بها وأمر أن يُحمَل إليّ كلُّ ما أُهدي له ، فحُمل إليّ ما قيمتُه مائتا ألف درهم . وأهديتُ له قصيدةً في يوم عيدٍ فبعث إليّ بمثل ذلك . قال أبو واثلة : وقد كان حُميد ركب يومَ عِيد في جيشٍ عظيم لم يُرَ مثله ، فقال عليٌّ بن جبلة يصف ذلك :

غدا بأمير المؤمنين ويُمْنِه ... أبو غانمٍ غَدْوَ النَّدى والسحائبِ
وضاقت فِجاجُ الأرض عن كلّ موكبٍ ... أحاط به مُستعلياً للمَواكب
كأنّ سُموَّ النَّقْع والبَيْضُ فوقهم ... سَماوةُ ليلٍ قُرّنت بالكواكب
فكان لأهل العِيد عيدٌ بنُسكهم ... وكان حميدٌ عِيدَهم بالمَواهب
ولولا حميدٌ لم تَبَلَّجْ عن الندى ... يمينٌ ولم يُدرِكْ غِنىً كسبُ كاسب
ولو مَلَكَ الدنيا لما كان سائلٌ ... ولا اعتام فيها صاحبٌ فضلَ صاحبِ
له ضِحكةٌ تستغرق المالَ بالنَّدى ... على عَبْسةٍ تُشجي القَنا بالتَرائبِ

---

(١) الكرج : أكبر قرية في ناحية روز راور بالقرب من همذان ، وتعرف بكرج أبي دلف لأنه مصّرها واستوطنها .

ذهبتَ بأيام العُلا فارداً بهـــا   وصَرّمت عن مَسعاك شأْوَ المطالِب
وعدّلت مَيلَ الأرض حتى تعدّلتْ   فلم يَنأْ منها جانبٌ فوق جانب
بلغتَ بأدنى الحزم أبعدَ قُطرها   كأنّك منها شاهدٌ كلَّ غائبِ [1]

قال : والتي أهداها له يومَ النيروز قصيدته التي فيها :

حُميدُ يا قاسمَ الدنيا بنائلـه   وسيفِه بين أهل النَّكثِ والدِّين
أنتَ الزمّان الذي يجري تصرّفه   على الأنام بتشديدٍ وتَليين
لو لم تكن كانت الأيّام قد فنِيتْ   والمكرماتُ ومات المجدُ مُذْ حِين
صوّرك الله من مجدٍ ومن كرمٍ   وصوّر الناس من ماءٍ ومن طِين

أبو وائلة السَّدُوسيّ قال :

دخل عليّ بن جبلة العَكَوَّك على حُميدٍ الطوسيّ في أول يوم من شهر رمضان فأنشده :

جعل الله مَدخل الصَّوم فوزاً   لحميدٍ ومُتعةً في البقاء
فهو شهر الربيع للقُـرّاء   وفِراقِ النَّدمان والصَّهباء
وأنا الضّامن الكفيل لمن عاقرها مُفطراً بطول الظَّماء
وكأنّي أرى النَدامى على الخَسف يُرجّون صبحَهم بالمساء
قد طوى بعضهم زيارة بعضٍ   واستعاضوا مَصاحفاً بالغِناء

يقول فيها :

بحُميدٍ ، وأين مثل حميدٍ ،   فخَرت طَيٌّء على الأحياء
جُودُه أظهر السماحةَ في الأرض وأغنى المقوِي عن الإقواء

---

(١) البيض ج بيضة : الخوذة . اعتام : أخذ العيمة بكسر العين وهي خيار المال . تشجي : تغصّ . الترائب ج تريبة : عظام الصدر وما ولى الترقوتين منه . صرمت : قطعت .

مَلِكٌ يأمُلُ العِبادُ نَــــداه   مثلَ ما يأمُلون قَطر السّمـاء
صاغه اللهُ مُطعمَ الناس في الأرض وصـاغ السّحابَ للإسقـاء[1]

قال : فأمر له بخمسة آلاف درهم وقال : استعن بهذه على نَفقة صومك .
ثم دخل إليه ثانيَ شوّال فأنشده :

عَلّلاني بصَفْو ما في الدِّنــانِ   واتركا ما يقولُــه العــاذلانِ
واسبِقــا فاجــعَ المنيّــة بالعيــش فكلٌّ على الجديدَيــن فانــي
علّلاني بشَربــةٍ تُـذهب الهَــمَّ وتَنفي طـوارقَ الأحــزانِ
وانفُثا في مَسامــعٍ سدّهــا الصَّو   م رُقى المَوصليّ أو دَحْمـانِ
قد أتانا شوّالُ فاقتبــل العَيـــشُ وأعــدى قسْراً على رمضــان
نِعـمَ عَـونُ الفتى على نُـوَب الدَّهــر سَماعُ القِيان والعِيــدان
وكـؤوسٌ تجري بمــاء كُرومٍ   ومَطيٌّ الكـؤوس أيدي القِيان
من عُقارٍ تُميت كــلَّ احتشامٍ   وتَسُرّ النَّدْمــانَ بالنَّدْمــانِ
وكــأنّ المِزاجَ يقــدحُ منهــا   شَرراً في سبائــك العِقيــان
فاشربِ الرّاحَ واعصِ مَن لام فيها   إنّهــا نعـمَ عُدّةُ الفِتيــان
واصحــب الدّهـر بارتحالٍ وحَلٍّ   لا تَـخفْ ما يجُـرّه الحادثــانِ
حَسبُ مُسْتظهِـرٍ على الدّهـر رُكناً   بحُميدٍ رِدْءاً من الحِدْثــان
مَلِكٌ يقتني المكارمَ كَنْــزاً   وتراه من أكــرم الفِتيــان
خُلقتْ راحتــاه للجُـود والبَـأْ   سِ وأموالُــه لشُكر اللّســانِ
مَلّكتْه على العِبــادِ مَعَــدٌّ   وأقرّت له بنو قَحطـــانِ

[الأبيات ...]

---

(١) المقوي : الجائع .

فأمر له بعشرة آلاف درهم وقال : تلك كانت للصّوم ، فخفّفت وخَفّفْنا ، وهذه للفِطر ، فقد زدتَنا وزدناك .

وهبَ بن سعيد المَرْوزيّ ، كاتب حُميد الطوسيّ ، قال :

جئت حميداً في أول يوم من شهر رمضان ، فدفع إليّ كيساً فيه ألف دينار ، وقال : تصدّقوا بهذه . وجاءه ابنه أصْرَمُ فسلمّ عليه ودعا له ، ثم قال له : خادمُك عليّبن جبلة بالباب . فقال : وما أصنع به ؟ جئتَني به يا بُنيّ تقابلني بوجهه في أول يوم من هذا الشهر ! فقال : إنّه يُجيد فيك القول . قال : فأنشِدني بيتاً ممّا تستجيد له . فأنشده قوله :

حِيدي حَيادِ فإنّ غَزْوةَ جيشــــه ضَمنت لجائلةِ السِّباع عِيالَهَا [1]

فقال : أحسَن ، ائذنوا له . فدخل فسلّم ، ثم أنشده قوله :

إن أبا غـــانـمٍ حُميـــداً غيـثٌ عـلى المعتِفين هامـي
صَوّره اللهُ سيفَ حَتْـــفٍ وبابَ رزقٍ على الأنــام
يا مانـعَ الأرض بالعـــوالي والنِّـعـم الجَمَّـة العِظـام
ليس من السُّوء في مَعـــاذ من لم يكن منـك في ذِمـام
وما تعمـدتُ فيـك وصفـاً إلّا تقــدّمتَــه أمامـــي
فقد تناهت بـك المعــالي وانقطعت مَدّةُ الكــلام
أجِدَّ شهراً وأَبْـلِ شهــراً واسلم على الدّهـر ألفَ عامِ [2]

أحمد بن عُبَيد بن ناصح قال :

كَلّم حُميد الطوسيّ المأمونَ في أن يُدخلَ عليه عليَّ بن جَبلة فيسمعَ منه مديحاً مَدَحه به ، فقال : وأيُّ شيءٍ يقوله فيَّ بعد قوله في أبي دلف :

(١) حيدي حياد : أمر بالحياد والروغان ، تخاطب به الخيل المغيرة في الحرب لتطارد العدو حتى لا يجد مفراً .

(٢) المعتفي : طالب المعروف . المدة : المدّ والاستمداد .

إنّمـــا الدنيا أبو دُلَــف بين مَغـداه ومحتضـره
فإذا ولّـى أبو دلـــف ولّـت الدنيا على أثــره

وبعد قوله فيك :

يا واحدَ العـرب الـذي عَزّت بعِزّته العَـرَبْ

أحسنُ أحواله أن يقول فيّ مثلَ ما قاله في أبي دلف ، فيجعلَني نظيراً له . هذا إن قَدَر على ذلك ولم يُقصّر عنه ، فخَيِّروه بين أن أَسمعَ منه ، فإن كان مدحُه إيّاي أفضلَ من مدحه أبا دلف وصلتُه ، وإلّا ضربتُ عنقَه أو قطعت لسانه ، وبين أن أُقِيله وأُعفيَه من هذا وذا . فخَيَّروه بذلك ، فاختار الإقالة .

ثم مدح حميداً الطوسيّ ، فقال له : وما عساك أن تقول فيّ بعدما قلته في أبي دُلف ؟ فقال : قد قلت فيك خيراً من ذلك . قال : هاتِ فأنشده :

دجلـةُ تَسقي وأبو غانـــمٍ يُطعم مَن تَسقي من النّاسِ
الناسُ جِسمٌ وإمـامُ الهُـــدى رأسٌ وأنــت العينُ في الراس

فقال له حميد : قد أجدتَ ، ولكن ليس هذا مثل ذلك . ووصَله .

قال أحمد بن عُبيد : ثم مات حميد الطوسي فرثاه عليّ بن جبلة ، فلقيتُه فقلت له : أنشِدني مرثيتَك حُميداً . فأنشدني :

نَعاءِ حُميداً للسَّرايا إذا غـــدت تُـذاد بأطـراف الرِّماح وتُوزَعُ[1]

حتى أتى على آخرها . فقلت له : ما ذهب على النحو الذي نحوتَه ياأبا الحَسن ، وقد قاربتَه وما بلغتَه . فقال : وما هو ؟ فقلت : أردت قول الخُريميّ في مرثيته أبا الهَيْذام :

وأعددتُه ذُخراً لكـلّ مُلمّـــةٍ وسهمُ المنايا بالذّخائر مُـولَعُ

فقال : صدقت والله ؛ أما والله لقد نحوتُه وأنا لا أطمع في اللّحاق به ، لا

(١) نعاء : اسم فعل أمر مبني على الكسرة بمعنى : انعِ .

والله ولا امرؤ القيس لو طلبه وأراده ما كان يطمع في أن يقاربه في هذه القصيدة .

قال الأصبهانيّ :

لمّا مات حميد الطوسيّ رثاه بقصيدته العينيّة المشهورة ، وهي من نادر الشعر وبديعه ... :

أللدهر تبكي أم على الدّهر تجزَعُ ... وما صاحبُ الأيّام إلّا مُفجَّعُ
ولو سَهّلتْ عنك الإسا كان في الإسا ... عَزاءُ مُعَزٍ للّبيب ومَقْنَعُ
تعزَّ بما عَزَّيتَ غيرك إنّها ... سهامُ المنايا حائماتٌ ووُقَّعُ
أُصِبنا بيومٍ في حُميدٍ لوانّه ... أصاب عُروش الدهر ظَلّت تَضَعضع
وأدَّبنا ما أَدّب الناسَ قبلَنا ... ولكنّه لم يبقَ للصبر مَوضِعُ
ألم تر للأيّام كيف تصرّفت ... به وبه كانت تُذاد وتُدفَعُ
وكيف التقى مثوىً من الأرض ضيّقٌ ... على جبلٍ كانت به الأرض تُمنَع
ولمّا انقضت أيامه انقضت العُلا ... وأضحى به أنفُ النَّدى وهو أَجْدَع
وراح عدوُّ الدِّين جَذْلان ينتحي ... أمانيَّ كانت في حَشاه تَقطّع

[ومنها :]

هوى جَبل الدنيا المَنيعُ وغَيثها المَريعُ وحاميها الكَميُّ المُشَيَّعُ
وسيف أمير المؤمنين ورُمحه ... ومفتاح باب الخَطب والخطبُ أَفظَعُ
فأقنعه من مُلكه ورِباعه ... ونائِله قفرٌ من الأرض بَلقعُ
علي أيّ شَجْوٍ تشتكي النفسُ بعدَه ... إلى شَجوه أو يَذْخَر الدمعَ مَدمَعُ
ألم ترَ أنّ الشمس حال ضياؤها ... عليه وأضحى لونُها وهو أسفَعُ
وأوحشت الدنيا وأودى بهاؤها ... وأجدب مرعَاها الذي كان يَمْرَع
وقد كانت الدنيا به مطمئنّةً ... فقد جَعلت أوتادُها تتقلّع
بكى فقدَه روحُ الحياة كما بكى ... نَداه النّدى وابنُ السَّبيل المُدفَّع

وفارقت البِيضُ الخُـدورَ وأبرزت عواطلَ حَسرى بعدَه لا تَقَنَّـع
وأيقظ أجفاناً وكان لها الكــرى ونامت عيونٌ لم تكن قبلُ تَـهْجَع
ولكنّـه مقـدار يومٍ ثَـوى بـه لكلّ امرىءٍ منها نِـهالٌ ومَشْرَع
وقد رأب الله المَـلا بمحمّـد وبالأصـل ينمي فرعُـه المتفـرِّع
أغـرَّ على أسيافـه ورماحـه تُقسَّم أنفالُ الخميس وتُجمـع
حوى عن أبيه بذلَ راحته الندى وطَعنُ الكُلى والزاعِبيّةُ شُرَّعُ [1]

وإنما ذكرت هذه القصيدة ـ على طولها ـ لجودتها وكثرة نادرتها . وقد أخذ البحتري أكثر معانيها فسلخه ، وجعله في قصيدتيه اللتين رثى بهما أبا سعيد الثغريّ :

« انظر إلى العليـاء كيف تُضام »
« بـأي إسـاً تُثنَى الدموعُ الهواملُ »

وقد أخذ الطائيُّ[2] أيضاً بعض معانيها ، ولولا كراهةُ الإطالة لشرحت المواضعَ المأخوذة ...

غضب المأمون عليه

ابن أبي حرب الزَعفرانيُّ قال :

لمّا بلغ المأمونَ قولُ عليّ بن جبلة لأبي دلف :

كلُّ من في الأرض من عـرب بـين باديـه إلى حَضَـرِهْ
مستعـيرٌ منـك مَكرمَـةً يكتسيها يومَ مُفْتَخَـرِه

---

(١) الأسا ، بالكسر ويضم ج إسوة (بالكسر) ما يأتسي به الحزين . المشيّع : الشجاع القلب . أمرع : أخصب . العواطل ج عاطل : المرأة العارية عن الحلي . الأنفال : الغنائم . الزاعبية : الرماح المنسوبة الى زاعب وهو اسم رجل او بلد .

(٢) الطائي : أراد به أبا تمام .

غضب من ذلك ، وقال : اطلبُوه حيث كان . فطُلب فلم يُقدَر عليه ، وذلك أنه كان بالجبل ، فلمّا اتّصل به الخبر هرب إلى الجزيرة . وقد كانوا كتبوا الى الآفاق في طلبه ، فهرب من الجزيرة أيضاً وتوسّط الشام ، فظفِروا به فأخذوه ، وحملوه إلى المأمون . فلمّا صار إليه قال له : يا بنَ اللّخْناء ، أنت القائلُ للقاسم بن عيسى :

كلّ من في الأرض من عربٍ　　بين باديه إلى حضَره
مستعيرٌ منك مكرمةً　　يكتسيها يومَ مفتخره

جعلتَنا ممّن يستعير المكارم منه ! فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنتم أهل بيت لا يُقاس بكم أحد ، لأنّ الله جلّ وعزّ فضّلكم على خَلقه ، واختاركم لنفسه ؛ وإنّما عنَيت بقولي في القاسم أشكالَ القاسم وأقرانَه . فقال : والله ما استثنيتَ أحداً عن الكُلّ ، سُلّوا لسانه من قَفاه .

محمد بن موسى قال : وحدّثني أحمد بن أبي فَنن :

أنّ المأمون لمّا أدخل عليه عليّ بن جَبَلة قال له : إنّي لست أستحلُّ دمَك لتفضيلك أبا دلف على العرب كلّها وإدخالِك في ذلك قريشاً ـ وهم آلُ رسول الله ﷺ وعِتْرتُه[1] ـ ولكنّي أستحلّه بقولك في شعرك وكفرك حيث تقول القول الذي أشركتَ فيه :

أنت الذي تُنزل الأيامَ منزلَها　　وتَنقل الدهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مَدى طَرْفٍ إلى أحدٍ　　الّا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ

كذبتَ يا ... ما يقدِر على ذلك أحدٌ إلّا اللهُ ـ عزّ وجلّ ـ الملكُ الواحد القهّار ، سُلّوا لسانه من قفاه .

* * *

---

(١) عترة الرجل : نسل الرجل ورهطه الأدنون .

٣٠

عليّ بن الجهم

[الأغاني الجزء ١٠ ص ٢٠٣ وما بعدها]

الشاعر

هو عليّ بن الجَهم بن بدر .... بن الحارث بن سَامَة بن لُؤي بن غالب. هكذا يدَّعُون ، وقريش تدفعهم عن النَّسَب وتُسمّيهم بني ناجية ، يُنسبون إلى أمّهم ناجية ، وهي امرأة سامة بن لُؤيّ . وكان سامةُ ـ فيما يُقال ـ خرج إلى ناحية البحرين مغاضباً لأخيه كعب بن لؤيّ ...

وقال من يدفع بني سَامة من نَسّابي قريش : وكانت معه امرأتُه ناجية . فلمّا مات ، تزوّجت رجلاً من أهل البحرين فولدت منه الحارث ، ومات أبوه وهو صغير . فلمّا تَرَعْرع طمعتْ أمُّه في أن تُلحقه بقريش ، فأخبرته أنه ابنُ سامة ابن لُؤيّ . فرحل من البحرين إلى عمّه كعب وأخبره أنه ابن أخيه سامة . فعرف كعبٌ أمَّه وظنّه صادقاً في دعواه . ومكث عنده مُدّةً ، حتى قدم مكّةَ رَكْبٌ من أهل البحرين ، فرأوا الحارث ، فسلّموا عليه وحادثوه ساعةً . فسألهم عنه كعبُ بن لؤيّ ومن أين يعرفونه ، فقالوا له : هذا ابنُ رجلٍ من أهل بلدنا يُقال له فلان . وشرَحوا له خبرَه فنفاه كعبٌ ونفى أمَّه ، فرجعا إلى البحرين ، فكانا هناك ، وتزوّج الحارث وأعقَب هذا العَقِب ....

وكان عليّ بن الجهم شاعراً فصيحاً مطبوعاً ، وخُصّ بالمتوكّل حتى صار من جُلسائه ، ثم أبغضه لأنه كان كثير السِّعاية إليه بنُدَمائه والذِكْر لهم بالقبيح عنده ، وإذا خلا به عرّفه أنهم يَعيبونه وَيَثْلِبُونه ويتنقَّصُونه ، فيكشف عن ذلك فلا يجد له حقيقةً ، فنفاه بعد أن حَبسه مُدّةً .

وكان ينحو نحوَ مروان بن أبي حَفْصة في هجاء آل أبي طالب وذَمّهم والإغراء بهم وهجاء الشّيعة ، وهو القائل :

ورافضة تقول بشِعْبِ رَضْوى إمامٌ ، خاب ذلك من إمامِ
إمامٌ مَن له عشرون ألفاً من الأتراك مُشْرَعَةُ السِّهامِ [1]

أخباره مع المتوكل وسبب سجنه إيّاه

محمد بن سعد الهشاميّ قال :

كان عليّ بن الجهم قد هجا بَخْتيشُوعَ [2] ، فسبّه عند المتوكل ، فحبسه المتوكّل . فقال عليّ بن الجهم في حبسه عدّة قصائد كتب بها إلى المتوكّل ، فأطلقه بعد سنةٍ ، ثم نفاه بعد ذلك إلى خُراسان ...

أخبرني عمّي قال حدّثنا محمد قال :

كان سبب حبس المتوكّل عليّ بن الجهم أنّ جماعةً من الجُلسَاء سعَوا به إليه وقالوا : إنّه يُجَمّش [3] الخَدَم ويغمزهم ، وإنّه كثير الطَّعن عليك والعَيب لك والإزراء على أخلاقك . ولم يزالوا به يُوغِرون صدرَه عليه حتى حبسه . ثم أبلغوه عنه أنه هجاه ، فنفاه إلى خراسان وكَتب بأن يُصلَب إذا وَردها يوماً

(١) الرافضة : أراد بهم هنا الكيسانية الذين كانوا يقولون بإمامة محمد بن الحنفية ، ولما مات قالوا إنه لم يمت وانما تغيب بشعب رضوى وسيرجع بعدُ ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

(٢) بختيشوع : هو بختيشوع بن جبريل وكان من أشهر الأطباء في عصره .

(٣) يجمشه : يلاعبه ويتحرش به .

إلى الليل . فلمّا وصل إلى الشاذياخ[1] حَبَسه طاهر بن عبدالله بن طاهر بها ، ثم أُخرج فصُلب يوماً إلى الليل مُجَرَّداً ، ثم أُنزل . فقال في ذلك :

لم ينصِبوا بالشاذياخ عشيّةَ الإثنين مسبوقاً ولا مجهولا

نصبوا بحَمدالله ملءَ قلوبهم — شرفاً وملءَ صُدورهم تبجيلا

ما ازداد إلاّ رفعةً بنكُوله — وازدادت الأعداءُ عنه نكُولا

هل كان إلاّ الليثَ فارق غِيلَه — فرأيتَه في مَحْمِلٍ مَحمولا

لا يأمَنُ الأعداءُ من شَدّاته — شَدّاً يُفصِّل هامَهم تفصيلا

ما عابه أن بُزّ عنه لِباسُه — فالسيفُ أهولُ ما يُرى مَسلولا

إن يُبتَذَلْ فالبدرُ لا يُزْري به — أن كان ليلةَ تِمّه مَبذولا

أو يَسلبُوه المالَ يُحزِنْ فَقدُه — ضيفاً ألمّ وطارقاً ونَزِيلا

أو يحبِسوه فليس يُحبَسُ سائرٌ — من شِعره يَدَعُ العزيزَ ذليلا

إنّ المصائبَ ـ ما تعدّتْ دِينَه ـ — نِعَمٌ وأن صَعُبت عليه قليلا

والله ليس بغافلٍ عن أمره — وكفى بربِّك ناصراً ووكيلا

ولَتَعلمُنّ إذا القلوبُ تكشَّفتْ — عنها الأَكِنَّةُ مَن أَضَلُّ سبيلا[2]

إبراهيم بن المدبِّر قال :

كتب صاحبُ الخبر إلى المتوكّل أن الحسن بن عبد الملك بن صالح احترق فمات . فقال عليُّ بن الجَهْم : قد بلغني أنّ العاملُ قَتَله وصانَع صاحبَ الخبر حتى كتب بهذا ؛ وكان يسعى بالجُلَساء إلى المتوكّل ، فأبغضه وأمره بأن يَلزم بيته . ثم بلغه أنه هجاه فحبسه . وأحسنُ شعر قاله في الحبس قصيدتُه التي أوّلها :

---

(١) الشاذياخ : من ضواحي نيسابور .

(٢) نكوله : التنكيل به ونكول الثانية يراد بها الإعراض والاحجام . غيل الأسد : أجمته . الأكنة ج كِنّ : السِتر .

قالت : حُبستَ ، فقلت : ليس بضائري حَبْسي وأيُّ مُهنَّدٍ لا يُغمَدُ
أَوَ ما رأيت الليثَ يألَفُ غِيلَه كِبْراً وأوباش السِّباع تَرَدَّدُ
والشمسُ لولا أنّها محجوبةٌ عن ناظرَيك لما أضاء الفَرْقَدُ
والبدر يُدركُه السِّرارُ فتنجلي أيّامُه وكأنّه مُتجدِّدُ
والغيثُ يَحصُرُه الغَمامُ فما يُرى إلاّ وَرِيِّقُه يَرُوع وَيرْعُدُ
والزاعبيّةُ لا يُقيم كُعوبَها إلاّ الثِّقافُ وجَذوةٌ تَتوقّد
والنّار في أحجارها مَخبُوءةٌ لا تُصطَلى إن لم تُثرها الأَزْنُد
والحبسُ ما لم تَغْشَه لدَنيَّةٍ شَنعاءَ نِعْمَ المنزلُ المُتَوَرَّدُ
بيتٌ يُجدِّد للكريم كرامةً ويُزار فيه ولا يَزُور ويُحْفَدُ
لو لم يكن في الحبس إلاّ أنّه لا يَستذِلُّك بالحِجاب الأَعْبُد
كم من عليلٍ قد تَخطّاه الرَّدى فنجا ومات طبيبُه والعُوَّدُ
يا أحمدُ بنَ أبي دُؤادٍ إنّما تُدعى لكلّ عظيمةٍ يا أحمَدُ
أبلِغْ أميرَ المؤمنين فدُونَه خَوضُ الرَّدى ومخاوفٌ لا تَنْفَدُ
أنتم بنو عمّ النبيّ محمّدٍ أَولى بما شَرَع النبيُّ محمّدُ
ما كان من كرمٍ فأنتم أهلُه كَرُمت مَغارِسُكم وطاب المَحْتِد
أمِن السَّوِيّة يا بنَ عمٍّ محمّدٍ خَصمٌ تُقَرِّبُه وآخَر تُبعِدُ
إنّ الذين سَعوا إليك بباطلٍ حُسّادُ نِعمتك التي لا تُجْحَدُ
شهِدوا وغِبنا عنهمُ فتحكّموا فينا وليس كغائبٍ مَن يَشْهَدُ
لو يَجمَعُ الخُصَماءَ عندك مَجلسٌ يوماً لَبان لك الطريقُ الأَقْصَدُ
فبأيِّ جُرمٍ أصبحت أعراضُنا نَهْباً تَقسَّمَها اللئيمُ الأَوغَدُ(١)

---

(١) الفرقد : النجم الذي يهتدى به . السرار : آخر أيام الشهر. الزاعبية : رماح منسوبة الى رجل من الخزرج يقال له زاعب كان يصنع الأسنة . الثقاف : آلة من خشب

عبدالله بن المعتزّ قال :

لمّا حَبس أميرُ المؤمنين المتوكّلُ عليَّ بن الجَهْم وأجمع الجُلَساء على عَداوته وإبلاغِ الخليفة عنه كلَّ مكروه ووصفهم مَساوئه ، قال هذه القصيدة يَمدحُه ويُذكِّره حقوقَه عليه ، وهي :

عفا اللهُ عنـــك ألا حُرمـــةٌ ... تَعوُذ بعَفوك أن أبعَـــدا

ووجّه بها إلى بَيدون الخادم ، فدخل بها إلى قُبيحة وقال لها : إنّ عليّ بن الجهم قد لاذ بك وليس له ناصرٌ سِواكِ ، وقد قصده هؤلاء الندماءُ والكُتّاب لأنّه رجلٌ من أهل السُّنّة وهم رَوافضُ ، فقد اجتمعوا على الإغراء بقَتله . فَدعَتْ المعتزَّ وقالت له : اذهب بهذه الرُّقعة يا بُنيّ الى سيّدك وأوصِلْها إليه . فجاء بها ووقف بين يدَي أبيه ، فقال له : ما مَعَك ، فَديتُك ؟ فدنا منه وقال : هذه رُقعةٌ دفعتْها إليّ أُمّي . فقرأها المتوكّل وضحك ، ثم أقبل عليهم فقال : أصبح أبو عبدالله ـ فَدَيتُه ـ خَصْمَكم ؛ هذه رقعةُ عليّ بن الجَهم يستقيل[1] ، وأبو عبدالله شفيعُه ، وهو ممّن لا يُردّ . وقرأها عليهم ، فلمّا بلغ إلى قوله :

فلا عُدتُ أَعصيك فيمـا أمرتَ ... الى أن أَحُلَّ الثرى مُلْحَــدا

وإلاّ فخالفتُ ربَّ السّمــــاء ... وخُنتُ الصديقَ وعِفتُ النَّدى

وكنتُ كعَزُّونَ أو كابن عمروٍ ... مُبيح العِيال لمن أولــــدا

وثب ابن حمدون وقال للمعتزّ : يا سيّدي ، فمن دفَع هذه الرُّقعة إلى السيّدة ؟ قال بَيدون الخادم : أنا . فقالوا له : أحسنتَ ! تُعادينا وتُوصل رُقعةَ علوّنا في هجائنا ! فانصرف بيدون وقام المعتزّ فانصرف . واستلب ابن حَمدون قوله :

وكنت كعزُّون أو كابن عمروٍ ... مُبيــح العِيال لمن أَولـــدا

= تقوم بها الرماح . يحفد : يخدم ، ورواية المطبوعة : يحمد ، وما أثبتناه رواية الديوان وهي أمثل . السوية : الاستواء والعدل .

(١) يستقيل : يطلب الإقالة من ذنبه والعفو عنه .

فجعل يُنشدهم إيّاه وهم يشتُمون ابن حَمدون ويَضِجُّون ، والمتوكل يضحك ويُصفّق ويشرب حتى سكِـر ونـام . وسرقـوا قصيدتـه من بين يدي المتوكّـل وانصرفوا ، ولم يُوقّع بإطلاقه ، ونَسِيَـه . فقالوا لابن حمدون : ويلك ! تُعيد هجاءَنا وشَتْـمَنا ! فقال : يا حَمقى ، واللهِ لو لم أفعلْ ذلك فيضحكَ ويشربَ حتى يسكَـرَ وينام لوقَّع في إطلاقه ووقَـعْنا معه في كلّ ما نَـكْـرَه .

محمد بن عبد السّلام قال :

رأيت مع عليّ بن يحيى المنجِّم قصيدة عليّ بن الجهم يمدح المتوكّل ويصف الهارونيّ[1] . فقلت له : يا أبا الحسن ، ما هذه القصيدةُ معك ؟ فضحك وقال : قصيدة لعليّ بن الجهم سألَني عرضَها على أمير المؤمنين فعرضتُها ، فلمّا سمع قولَـه :

وقُبّـةُ مَلكٍ كـأنّ النجـــو   مَ تُفضي إليهـا بأسرارهـــا
تخـرُّ الوفـودُ لهـا سُجّـداً   اذا مـا تجلّت لأبصارهـــا
وفـوّارةٌ ثـأرهـا في السّمـاء   فليست تُقصّر عـن ثارهـــا
تَـرُدّ على المُـزْن مـا أنـزلـتْ   إلى الأرض من صَوب مدرارها

تهلّـل وجههُ واستحسنها . فلمّا انتهيت إلى قوله :

تَـبوّأتُ بعـدَك قَعـرَ السُّجـون   وقد كنتُ أَرثي لزُوّارهـــا

غضِب وتربّد وجهُه وقال : هذا بما كَسَبت يداه . ولم يسمع تَمام القصيدة .

محمد بن سعد قال :

كتب المتوكّل الى طاهر بن عبدالله بإطلاق عليّ بن الجهم ، فلمّا أطلقه قال :

أطاهرُ إنيّ عـن خُراسانَ راحـلُ   ومُستَخْبَرٌ عنها فما أنـا قائـلُ
أأصدُق أم أَكْني عـن الصِّدق أيّمـا   تخيّرتَ أدّيْتـه إليـك المَحافـلُ

(۱) الهاروني : قصر على دجلة قرب سامراء ينسب الى هارون الواثق بالله .

وسارت بـه الرُّكبانُ واصطفقتْ بـه ... أكفٌّ قِيانٍ واجْتَبَتْه القبائـلُ
وإنيّ بغالي الحَمـد والذمِّ عالـمٌ ... بما فيهما نامي الرَّميَّـة ناضـلُ
وحقّـاً أقول الصّدقَ إنيّ لَمائـلٌ ... إليك وإن لم يحظ بالودِّ مائـلُ
ألا حُرمـةٌ تُرعى ألا عَقـدُ ذِمّـة ... لجارٍ ألا فِعلٌ لِقولٍ مُشاكِـلُ
ألا مُنصِفٌ إن لم نجدْ مُتَفضِّـلاً ... علينا ألا قاضٍ مـن الناس عـادلُ
فـلا تَقطَعَنْ غيظـاً علـيَّ أنامـلاً ... فقَبْلَك مـا عُضَّتْ عليَّ الانامِلُ
أطاهـرُ إن تُحسِنِ فإنيّ مُحسِـنٌ ... إليك وإن تَبْخَلْ فإنيّ باخلُ(١)

فقال له طاهر : لا تَقُل إلاّ خيراً فإنيّ لا أفعل بك إلاّ ما تُحبّ . فوصَله وحَمله وكَساه .

إبراهيم بن المُدَبِّر قال : قال المتوكّل :

عليّ بن الجهم أكذبُ خلَق الله . حفظت عليه أنّه أخبرني أنه أقام بخراسان ثلاثين سنةً ، ثم مضت مدّةٌ أخرى وأُنسي ما أخبرني به ، فأخبرني أنّه أقام بالثغور ثلاثين سنة . ثم مضت مدّةٌ أخرى وأُنسي الحكايتين جميعاً ، فأخبرني أنه أقام بالجبل ثلاثين سنةً . ثم مضت مدّة أخرى فأخبرني أنه أقام بمصر والشأم ثلاثين سنةً ، فيجب أن يكون عمره على هذا وعلى التقليل مائةً وخمسين سنةً ، وإنّما يُزاهِي(٢) سنّه الخمسين سنةً ، فليت شعري أيُّ فائدةٍ له في هذا الكذب وما معناه فيه ؟ !

أبو الفضل الرَّبَعي قال : قال لي عليّ بن الجهم :

دخلت على المتوكّل وقد بلغني أنه كَـلَّم قَبيحة جاريته فأجابته بشيءٍ أغضبه ، فرماها بِمخَـدَّة فأصابت عينهَا فأثَّرتْ فيها ، فتأوّهت وبكت وبكى المعتزّ

(١) اجتباه : اختاره . الرمية النامية : التي تصاب ثم تغيب عن الرامي فتموت ، يريد أنه يصيب مرماه . ناضله : باراه في الرمي .
(٢) يزاهي : يقارب .

لبكائها[1] . فخرج المتوكّل وقد حُمّ من الغَمّ والغضب . فلمّا بَصُر بي دعاني ، وإذا الفتح[2] يري بَختيشوعَ القارورةَ ويُشاوره فيها ، فقال لي : قُل يا عليُّ في علّتي هذه شيئاً وصِفْ أَنّ الطبيب ليس يَدري ما بي . فقلت :

تَنكّر حالَ عِلّتيَ الطّبيبُ ... وقال أرى بجسمك ما يُريبُ
جَسستُ العِرقَ منك فدَلَّ جَسّي ... على أَلمٍ له خبرٌ عجيبُ
فما هذا الذي بك هاتِ قُل لي ... فكان جوابَه منّي النَّحيبُ
وقلتُ : أيا طبيبُ الهَجْرُ دائي ... وقلبي ياطبيبُ هو الكئيب
فحرّك رأسَه عَجَباً لقولي ... وقال : الحبُّ ليس له طبيبُ
فأعجبني الذي قد قال جِدّاً ... وقلت : بَلَى إذا رَضي الحبيبُ
فقال : هو الشّفاءُ فلا تُقصِّرْ ... فقلت : أجلْ ولكن لا يُجيب
ألاهل مُسعِدٌ يبكي لِشَجْوي ... فإنّي هائمٌ فَرْدٌ غريبُ

فقال أحسنتَ وحياتي ! يا غُلامُ اسقِني قَدَحاً . فجاءه بقَدح فشرب وسُقيت الجماعة مثلَه . وخَرجتْ إليه فَضلُ الشاعرة بأبياتٍ أمرتْها قبيحةُ أن تقولَها عنها . فقرأها فإذا هي :

لَأكتُمَنَّ الذي في القلب من حُرَقٍ ... حتى أموتَ ولم يَعلمْ به الناسُ
ولا يُقال شكا من كان يَعشَقُه ... إنّ الشّكاةَ لِمن تهوَى هي الياسُ
ولا أبوح بشيء كنت أكتُمه ... عند الجُلوس إذا ما دارت الكاسُ

فقال المتوكل : أحسنتِ يا فضلُ . وأمر لها بعشرين ألف درهم ، ودخل إلى قبيحة فترضّاها .

---

(١) قبيحة كانت أم المعتز بالله ولذلك بكى لبكائها .

(٢) أراد الفتح بن خاقان نديم المتوكل .

سائر أخباره

● محمد بن سعد قال :

خرج عليّ بن الجهم إلى الشأم في قافلة ، فخرجت عليهم الأعراب في خُساف[1] ، فهرب مَن كان في القافلة من المُقاتلة ، وثبت عليّ بن الجَهم ، فقاتلهم قتالاً شديداً وثاب الناس إليه فدفَعهم ولم يحظَوا بشيء . فقال في ذلك :

صبرتُ ومِثلي صَبرُه ليس يُنكَرُ ... وليس على تَرك التَقحُّم يُعْذَرُ
غريزةُ حُرٍّ لا اختلاقُ تكلُّفٍ ... إذا خام في يوم الوغى المتصبّرُ
ولمّا رأيت الموتَ تهفو بُنودُه ... وبانت علاماتٌ له ليس تُنْكَرُ
وأقبلت الأَعرابُ من كلّ جانبٍ ... وثار عَجاجٌ أسودُ اللّون أكدَرُ
بكلّ مُشيحٍ مُستميتٍ مُشَمِّرٍ ... يجول به طِرفٌ أقبُّ مُشَمَّرُ
بأرض خُسافٍ حين لم يك دافعٌ ... ولا مانعٌ إلّا الصَّفيحُ المذَكَّرُ
فقَلّل في عَينيَّ عُظْمَ جموعهم ... عزيمةُ قلبٍ فيه ما جَلَّ يَصغُر
بمعتَركٍ فيه المنايا حواسرٌ ... ونار الوغى بالمشرفيّة تُسعَرُ
فما صُنتُ وجهي عن ظُبات سيوفهم ... ولا انحَزْت عنهم والقَنا تتكسّر
ولم أكُ في حَرّ الكَريهة مُحْجِماً ... إذا لم يكن في الحرب للوِرْد مَصْدَرُ
إذا ساعد الطِّرفُ الفتى وجَنانُه ... وأسمرُ خَطّيٌ وأبيضُ مِبْتَرُ
فذاك ، وإن كان الكريمُ بنفسه ، ... إذا اصطكّت الأبطالُ في النَقْع عَسكَرُ
منعتُهم من أن ينالوا قُلامةً ... وكنتُ شجاهم والأَسنّةُ تَقطُرُ
وتلك سجايانا قديماً وحادثاً ... بها عُرِف الماضي وعَزّ المُؤَخَّرُ
أبت لي قرومٌ أَنجبتنيَ أن أُرى ... إذا جَلّ خَطْبٌ خاشعاً أتضجَّرُ
أولئك آلُ اللهِ فهرُ بن مالكٍ ... بهم يُجْبَرُ العظم الكَسير ويُكسَر

---

(١) خساف : بّرية بين بالس وحلب .

هم المَنْكِبُ العالي على كلِّ مَنْكِبٍ سيوفُهم تُفني وتُغْني وتُفْقِرُ (١)

● عيسى بن أبي حَرب قال : حدّثني عليّ بن الجَهم قال :

حَبسني أبي في الكُتّاب ، فكتبتُ إلى أمّي :

يا أُمّتا أَفديكِ من أُمٍّ أشكو إليكِ فَظاظةَ الجَهْمِ
قد سُرّح الصِّبيانُ كلُّهم وبَقيتُ محصوراً بلا جُرمِ

قال : وهو أوّل شعر قُلته وبعثت به إلى أمّي ، فأرسلت إلى أبي : والله لَئن لم تُطْلِقه لأخرجنّ حاسرةً حتى أُطلِقَه . قال عيسى : فحدّثت بهذا الخبر إبراهيم بن المدبّر فقال : عليّ بن الجهم كَذّاب ، وما يمنعه من أن يكون وَلّد هذا الحديث وقال هذا الشعر وله ستّون سنةً ، ثم حدّثكم أنه قاله وهو صغير ليرفعَ من شأن نفسه !

● محمد بن سَعد قال :

كان أحمد بن أبي دؤاد منحرفاً عن عليّ بن الجَهم لاعتقاده مذهب الحَشْويّة (٢) . فلمّا حُبس عليّ بن الجهم مَدح أحمد بن أبي دُواد عدّة مدائح وسأله أن يقوم بأمره ويَشفعَ فيه ، فلم يَفعل وقَعد عنه ...

فلمّا نفى المتوكّل أحمد بن أبي دُواد شمِت به عليّ بن الجهم وهجاه فقال :

يا أحمدُ بنَ أبي دُوادٍ دَعوةً بعثتْ إليك جَنادلاً وحديدا
ما هذه البِدَعُ التي سَمَّيتَها بالجهل منك العَدل والتَوحيدا
أفسدتَ أمرَ الدّين حين وَلِيتَه ورميتَه بأبي الوليد وليدا
لا مُحكَماً جَزْلاً ، ولا مُستطرَفاً كَهلاً ، ولا مُستَحْدَثاً محمودا

(١) خام : نكص وجبن . المشيح : المقبل والمجدّ . الطرف : الفرس الكريم . الأقب : الضامر البطن . الصفيح : العريض من السيوف . المبتر : القاطع ، والعرب قالوا : بتار وباتر ، أما مبتر فقد صاغها الشاعر على وزن اسم الآلة . النقع : الغبار .

(٢) الحشوية : فرقة من المرجئة .

شرِهاً ، إذا ذُكر المكارم والعُلا ذَكر القلايا مُبدئاً ومُعيدا
ويودّ لو مُسخت ربيعةُ كلُّها وبنو إيادٍ صَحْفةً وثَريدا
وإذا تربَّع في المجالس خِلتَه ضَبُعاً وخِلتَ بني أبيه قُرودا
وإذا تبسّم ضاحكاً شَبَّهتَه شرِقاً تعجّل شُربَه مَزؤودا
لا أَصبحت بالخير عينٌ أَبصرتْ تلك المَناخرَ والثَّنايا السُّودا (١)

● إبراهيم بن المدبِّر قال : أنشدني عليّ بن الجهم لنفسه :

وإذا جَزى اللهُ امرءاً بفعَالِه فجزى أخاً لي ماجداً سَمْحا
ناديتُه عن كُربةٍ فكأنّما أطلعت عن ليلٍ به صُبحا

فقلت له : ويلَك ! هذا لإبراهيم بن العبّاس بقوله في محمد بن عبد الملك الزيّات . فجَحدني وكابَر. فدخل يوماً عليّ بن الجهم إلى إبراهيم بن العبّاس وأنا عنده . فلمّا رآني قال : اجتمع الإبراهيمان. فتركته ساعةً ثم أنشدتُ البيتين وقلت لإبراهيم بن العبّاس : إنّ هذا يزُعمُ أنّ هذين البيتين له . فقال : كذب ، هذان لي في محمد بن عبد الملك الزيّات . فقال له عليّ بن الجهم بقِحَةٍ : ألم أَنْهَك أن تَنتحِل شعري ! فغضب إبراهيم وجعل يقول له بيده : سَوءةً عليك ، سَوءةً لك ، ما أوقَحَك ! وهو لا يفكر في ذلك ولا

---

(١) الجنادل : الحجارة الكبيرة . يشير في البيت الثاني الى مذهب الاعتزال الذي كان ابن أبي دواد يعتنقه ، وقد نكل المتوكل بالمعتزلة . أبو الوليد : هو محمد بن أحمد بن أبي دواد وكان على المظالم بسامرا ثم عزله المتوكل . الجزل: الجيد الرأي . المستطرف من يراه الناس طريفاً . محمود : في المطبوعة (معموداً) ولا معنى لها في هذا الموضع وقد أثبتنا رواية الديوان . القلايا : المقليّ من الأطعمة . الثنايا ج ثنية . الأضراس الأربعة في مقدم الفم . مزؤوداً : فزعاً . وفي المطبوعة (مردوداً) وقد آثرنا رواية الديوان .

يخجل . ثم التقينا بعد مدّة فقال : أرأيتَ كيف أخزيتُ إبراهيم بن العبّاس ! فجعلت أعجب من صلابة وجهه .

محمدبن سعد قال :

كان محمد بن عبدالملك الزيّات مُنحرفاً عن عليّ بن الجهم ، وكان يَسْبَعُه[1] عند الخليفة ويَعيبه ويذكُره بكل قبيح . فقال فيه عليّ بن الجهم :

لَعائنُ اللهِ مُتابَعاتِ ... مُصَبَّحاتٍ ومُهَجَّراتِ
على ابن عبد الملك الزيّاتِ ... عَرّض شَمل المُلكَ للشَّتات
وأنفذ الأحكامَ جائراتِ ... على كتابِ الله ذاريات
وعن عقول الناس خارجات ... يَرمي الدَّواوين بتوقيعات
مُعقَّداتٍ كرُقى الحَيّاتِ ... سُبحانَ من جَلّ عن الصِّفات
بعد رُكوبِ الطَّوف في الفُرات ... وبعد بيع الزَيت بالحَبّاتِ
صِرتَ وزيراً شامخَ الثبات ... هارونُ يابنَ سيّد السّادات
أما تَرى الأمورَ مُهْمَلاتِ ... تشكو إليك عَدَمَ الكُفاة
فعاجِلِ العِلْجَ بمُرْهَفاتِ ... من بعد ألفٍ صُخَّب الأصوات
بمُثمِراتٍ غيرِ مُورقاتِ ... تُرى بمَتْنَيه مُرصَّفاتِ
ترصُّفَ الأسنان في اللِثاتِ[2]

---

(١) سبعه : شتمه ووقع فيه .

(٢) ذاريات : من ذرت الريح التراب أي فرّقته واطارته ، يريد أنه أفسد كتاب الله ورواية الديوان : زاريات ، أي عائبات . الطوف : قرب تنفخ ويشد بعضها الى بعض ويركب عليها في الماء ويحمل عليها ، يعيّر المهجو في هذا البيت ببيعه الزيت . هارون : أراد به الواثق بالله . ألف : أراد الفاً من السياط . الثمرة من السوط : عقدة في طرفه .

● أسلَم مولى عبدالله بن طاهر قال :

دخل عليّ بن الجهم يوماً على عبدالله بن طاهر في غُدوة من غُدوات الرّبيع ، وفي السماء غيمٌ رقيق والمطرُ يجيء قليلاً ويسكُن قليلاً ، وقد كان عبدالله عزَم على الصَّبُوح ، فغاضبتْه حَظِيّةٌ له ، فتنغَّص عليه عزمُه وفَتر . فخُبّر عليّ ابن الجهم بالخبر وقيل له : قُل في هذا المعنى شيئاً ، لعلّه يَنْشَط للصَّبوح . فدخل عليه فأنشده :

أما ترى اليومَ ما أحلى شَمائلَــه ... صحوٌ وغيمٌ وإبراقٌ وإرعادُ
كأنّه أنت يا مَن لا شَبيهَ لــه ... وصلٌ وهجرٌ وتقريبٌ وإبعادُ
فباكر الرّاحَ واشرَبْها مُعَتَّقـةً ... لم يَدَّخِر مِثلَها كسرى ولا عادُ
واشربْ على الرَّوض إذ لاحت زخارفُه ... زهرٌ ونَورٌ وأوراقٌ وأَوراد
كأنّما يومُنا فِعلُ الحبيب بنا ... بَذْلٌ وبُخلٌ وإبعادٌ ومِيعادُ
وليس يذهبُ عنّي كلُّ فِعلكم ... غيٌّ ورُشدٌ وإصلاحٌ وإفسادُ

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثمائة دينار وحَمَله وخلَع عليه ، وأمر بأن يُغَنّى في الأبيات .

● محمد بن سعد قال : حدّثني رجلٌ من أهل خُراسان قال :

رأيت عليّ بن الجَهم بعدما أُطلق من حَبسه جالساً في المقابر فقلت له : ويحَك ! ما يُجلسك ها هنا ؟! فقال :

يشتاق كلُّ غريبٍ عند غُربتـه ... ويذكر الأهلَ والجِيران والوطَنا
وليس لي وطنٌ أمسيتُ أذكُرُه ... إلّا المقابرَ إذ صارت لهم وطنا

● عبيدالله بن عبدالله بن طاهر قال :

لمّا أطلق أبي[1] طاهر[2] عليَّ بن الجهم من الحَبس أقام معه بالشّاذياخ مُدّةً . فخرجوا يوماً إلى الصَّيد ، واتّفق لهم مَرجٌ كثير الطير والوحش ـ وكانت أيامَ الزَّعفران ـ فاصطادوا صيداً كثيراً حسَناً ، وأقاموا يشربون على الزَّعْفَران . فقال عليّ بن الجهم يصف ذلك :

وَطِئنـا رياضَ الزَّعْفران وأَمسَكتْ ... علينا البُزاةُ البِيض حُمَر الدَّرارجِ
ولـم تَحمِهـا الأدغالُ منّا وإنّمـا ... أبحنا حِماها بالكلاب النَّوابجِ
بمُستَروِحـاتٍ سابحاتٍ بطونُهـا ... على الأرض أمثالَ السِّهـام الزَّوالج
ومُستشرِفـاتٍ بالهَـوادي كأنّمـا ... وما عَقَفت منها رؤوسُ الصَّوالج
ومن دالعاتٍ أَلسُناً فكأنّهـا ... لِحيٌ من رجالٍ خاضبين كَواسج
فَلَيْنا بها الغِيطـانَ فَلْياً كأنّهـا ... أنامـلُ إحدى الغانيات الحَوالجِ
فقل لبُغاة الصَّيد هل من مُفاخـرٍ ... بصيدٍ وهل من واصفٍ أو مُخارجِ
قَرنّا بُزاةً بالصُّقور وحَـوَّمت ... شَواهِينُنا من بعد صيد الزَّمامجِ[3]

---

(١) كذا في المطبوعة ، وراوي الخبر هـو ابـن عبدالله بن طاهر لا ابن طاهر ولعل (أبي) محرفة عن (اخي) .

(٢) هو طاهر بن عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعيّ . ولي خراسان ثماني عشرة سنة وتوفي عام ٢٤٨ هـ

(٣) الدرارج جمع دُرّاج (بضم أوله) : طير يصاد لجودة لحمه . نباج الكلب : نباحه . استروح الشيء : تشممه ، والوصف هنا للكلاب . الزوالج : التي تمضي على وجه الأرض مسرعة . الهوادي : الأعناق . عقفت : عطفت . دلع لسانه : أخرجه . خاضبين : في المطبوعـة : (خـاضعين) والسيـاق يقتـضي مـا أثبتنـاه . الكوسج : من كانت لحيته تغطي ذقنه دون عارضيه . الحوالج : التي تندف القطن وتستخرج منه البذور. مخارج : من المخارجة وهي أن يخرج هذا من أصابعه ما شاء والآخر مثل ذلك ، يريد هل من مبار . الشواهين ج شاهين : طائر يصاد به . الزمامج ج زُمَّج (على وزن سُكّر) : نوع من الطير يصاد به دون العقاب ، لونه إلى الحمرة .

● عبيدالله بن عبدالله بن طاهر قال :

دخل إلينا عليّ بن الجهم بعقب موت أبي[1] والمجلسُ حافلٌ بالمُعَزِّين ، فمَثَل قائماً وأنشدنا يرثيه :

أيُّ رُكنٍ وَهَى من الإســلام ... أيّ يوم ٍ أخنى على الأيّــام
جَلّ رُزْءُ الأمير عن كلّ رُزْءٍ ... أدركتْه خواطرُ الأوهــام
سَلَبَتْنا الأيّامُ ظِلاً ظَليــلا ... وأباحت حِمىً عزيزَ المُــرام
يا بني مُصعَبٍ حَللتم من النــا ... س محلَّ الأرواح في الأجسام
فإذا رابَكُم من الدّهـر رَيــبٌ ... عَمّ ما خَصَّكم جميعَ الأنام
أنظُروا هل تَرون إلّا دمــوعاً ... شاهداتٍ على قلوبٍ دَوامي
مَن يُـداوي الدنيا ومـن يَكْـلأُ المُلــ ... ـكَ لَدى فادحِ الخُطوب العِظام
نحن مُتنا بموته وأَجَــلّ الخَطْـــ ... ـب مَوتُ السّاداتِ والأعلام
لم يَمُتْ ، والأميرُ طاهرٌ حيٌّ ، ... دائمُ الإنتقامِ والإنعــامِ
وهو من بعده نظــامُ المعــالي ... وقِـوامُ الدنيا وسيفُ الإمامِ[2]

قال : فما أذكُر أنّي بكيت أو رأيت في دوُرنا باكياً أكثر من يومئذٍ .

● محمد بن سعد قال :

لمّـا فُلج ابن أبي دواد شمِت به عليُّ بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لم يبقَ منك سوى خَيالِك لامعــاً ... فــوق الفِراش مُـمهَّـداً بوِسـادِ
فرِحت بمَصرعــك البريّــةُ كلُّهـا ... مَن كان منهم مُوقِناً بمَعَاد

(١) هو عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعيّ من ولاة العباسيين المشهورين ، ولي الشام مدة ثم نقل الى مصر ثم ولاه المأمون خراسان وظل في ولايته حتى وفاته سنة ٢٣٠ هـ وكانت وفاته أيام الواثق بالله وخلفه ابنه طاهر.

(٢) أخنى عليه : أهلكه . يكلأ : يحفظ . وهو من بعده : أراد ولده طاهر بن عبدالله .

كـم مجلسٍ لله قـد عَطَّلْتَـه   كي لا يُحَدَّثَ فيه بالإسناد
ولكم مصابيحٍ لنا أطفأتها   حتى يزول عن الطريق الهادي
ولكم كريمة معشرٍ أرملتَها   ومُحدِّثٍ أوثقتَ في الأقياد
إنّ الأُسارى في السّجون تَفرّجوا   لمّا أتتك مَواكبُ العُوّادِ
وغدا لمصرعك الطبيبُ فلم يجد   شيئاً لِدائك حِيلةَ المُرتادِ
فذُق الهَوانَ مُعَجّلاً ومؤجّلاً   واللهُ ربٌّ العرش بالمِرصاد
لا زال فالجُك الذي بك دائباً   وفُجعت قبل الموت بالأولاد [1]

مقتله

الحسين بن موسى قال :

لمّا شاع في الناس مذهبُ عليّ بن الجهم وشَرّه وذِكْرُه كلَّ أحدٍ بسُوء من صديقه وعدوّه تحاماه الناسُ ، فخرج عن بغداد إلى الشأم ، فاتّفقنا في قافلة إلىحلب . وخرج علينا نفرٌ من الأعراب ، فتسرّع إليهم قومٌ من المُقاتلة ، وخرج فيهم فقاتل قتالاً شديداً وهَزم الأعراب .

فلمّا كان من غدٍ خرج علينا منهم خَلقٌ كثير ، فتسرّعت إليهم المُقاتلة وخرج فيهم ، فأصابته طعنةٌ قَتلتْه ، فجئنا به واحتملناه وهو يُنْزَفُ دَمَه [2] فلمّا رآني بكى وجعل يُوصيني بما يريد ، فقلت له : ليس عليك بأسٌ . فلمّا أمسينا قلِق قلقاً شديداً وأحسّ بالموت ، فجعل يقول :

أَزِيدَ في الليل ليلُ   أم سال بالصُبح سَيلُ
ذكرتُ أهلَ دُجَيلٍ   وأين منّي دُجَيلُ [3]

(١) يحدث فيه بالأسناد : أراد الحديث النبويّ الشريف . حتى يزول : كذا في المطبوعة ، ورواية الديوان : (حتى نحيد) وهي أجود .

(٢) يقال : نُزِف فلان دمَه (على المجهول) أي سال دمه ، ونزفه الدم .

(٣) دجيل : نهر مخرجه من أعلى بغداد يصب في دجلة .

فأبكى كُلَّ من كان في القافلة ، ومات مع السَّحَر ، فدُفن في ذلك المنزل على مرحلة من حلب .

* * *

٣١

عُمارة بن عقيل

[الأغاني الجزء ٢٤ ص ٢٤٥ وما بعدها]

الشاعر

عُمارة هو ابنُ عَقيل بن بِلال بن جرير بن عطيّة بن الخَطَفى . . . ويكنى عُمارة أبا عَقيل ؛ شاعرٌ مُقدَّمٌ فصيح ، وكان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء في الدولة العبّاسية فيجزِلون صلتَه ، ويمدح قُوّادَهم وكُتّابهم فيحظى منهم بكلّ فائدة ، وكان النَحويّون بالبصرة يأخذون عنه اللغة .

عليّ بن سليمان الأخفش قال : سمعت محمد بن يزيد يقول : خُتمت الفصاحة في شعر المحدَثين بعُمارةَ بن عَقيل .

الحسن بن عُليل العَنَزيّ قال : سمعت سَلْمَ بن خالد بن معاوية بن أبي عَمرو بن العَلاء يقول : كان جَدّي أبو عمرو يقول : خُتِم الشعر بذي الرُّمّة ، ولو رأى جَدّي عُمارةَ بن عقيل لعلم أنه أشعر في مذاهب الشعراء من ذي الرُمّة .

قال العَنَزيّ : ولَعَمري لقد صَدق .

وسمعت سَلْماً يقول : هو أشدُّ استواءً في شعره من جرير ، لأنّ جريراً أسْقط في شعره وضَعُف ، وما وجدوا لعُمارة سَقطةً واحدة في شعره .

وكان عُمارة هَجّاءً خبيث اللسان ، فهجا فروةَ بن حَميصَة الأسديّ وطال التهاجي بينهما فلم يغلِبْ أحدهما صاحبه حتى قُتل فَروةُ .

سَلْم بن خالد قال :

أنشد عُمارةُ قصيدةً له فقال فيها : الأرياح والأمطار. فقال له أبو حاتم السِّجستاني : هذا لا يجوز انما هو الأرواح . فقال : لقد جذبني اليها طبعي . فقال له أبو حاتم : قد اعترضه عِلمي . فقال : أما تسمعُ قولَهم : رياحٌ ؟ فقال له أبو حاتم : هذا خلافُ ذلك . قال : صدقتَ . ورجَع .

هجاؤه

أبو مُحلِّم قال :

هجا عمارةُ بن عقيل امرأةً ، ثم أتته في حاجة بعد ذلك ، فجعل يعتذر إليها ، فقالت له : خفِّض عليك يا أخي ، فلو ضَرَّ الهجاءُ أحداً لَقَتلك وقتل أباك وجدَّك .

أبو ذكوان قال :

قال لي عُمارة : ما هاجيتُ شاعراً قطّ إلا كُفيتُ مؤُونتَه في سنة أو أقلَّ من سنة : إمّا أن يموت ، أو يُقتَل ، أو أُفحِمَه ، حتى هاجاني أبو الرُّدينيّ العُكْليّ ، فخنقني بالهجاء . ثم هجا بني نمير فقال :

أتُوعِدُني لِتَقْتُلَني نُمـيرٌ ... متى قتلـتْ نميرٌ مَن هجاها

فكفانيه بنو نُمير فقتلوه ، فقتلتْ بنو عُكْلٍ ، وهم يومئذ ثلاثمائة رجلٍ ، أربعةَ آلاف رجلٍ من بني نُمير ، وقتلت لهم شاعرَين : رأسَ الكلب ، وشاعراً آخر .

محمد بن عبدالله بن آدم قال : حدّثني عُمارة قال : إنما قَتل فَروةَ قولي له :

ما في السَّويّةِ أن تَجُرَّ عليهـــم ... وتكونَ يومَ الرَّوع أوّلَ صادرِ

فلمّا أحاطت به طيّء ، وقد كان في مَعاذٍ ومَوْئِل ، وكان كثير الظفر بهم ، كثير العفو عمّن قَدَر عليه منهم ، فقالوا له : والله لاعَرَضْنا لك ولا أوصَلْنا إليك سُوءاً ، فامضِ لطِيَّتك ، ولكنّ الوِتْر معك فإنّ لنا فيهم ثأراً . فقال فَروة : فأنا إذاً كما قال ابنُ المَراغة :

ما في السَّوِيّة أن تجُرّ عليهم وتكون يومَ الرَّوع أوّلَ صادر

فلم يزل يحمي أصحابه ويَنكي[1] في القوم حتى اضطرّهم الى قتله ، وكان جمعُهم أضعاف جَمعه .

الحسن قال :

سمعت عبدالله بن محمد النُّباجيّ يقول : سمعت عُمارة يقول : ما هُجيتُ بشيء أشدّ عليّ من بيت فروة :

وابنُ المراغة جاحرٌ من خوفنا بالوَشْم منزلةَ الذليل الصاغرِ[2]

قال العَنَزيّ : وسمعت سَلْم بن خالد يقول : قلت لعمارة : ما أجودُ شعرك ؟ قال : ما هجوتُ به الأشراف . فقلت : ومَن هم ؟ قال : بنو أسَد ، وهل هاجاني أشرفُ من بني أسد !

عليُّ بن مُسلم قال :

أنشدت يعقوبَ بن السِّكِّيت قصيدةَ عُمارة التي ردّ فيها على رَجاء بن هارون ، أخي بني تيم اللات بن ثَعلبة التي أوّلها :

حيِّ الدِّيارَ كأنّها أسطارُ بالوَحي يَدرُس صُحفَها الأحبارُ
لعِب البِلى بجديدها وتنفّستْ عرَصَاتِها الأرواحُ والأمطار

---

(١) نكى في القوم ينكي : أكثر فيهم القتل .

(٢) جحر : دخل جحره . الوشم : موضع باليمامة يشتمل على أربع قرى .

قال أبو عليّ : وهذا البيت الذي أخطأ فيه عمارة فقال: الأرياح ،فردّه عليه أبو حاتم السِّجستاني وهو يتغيّظ ، فلمّا بلغ إلى قوله :

وجموع أسعدَ إذ تَعَضُّ رؤوسَهم ... بِيضٌ يطيرُ لِوقعهنّ شَرارُ
حتى إذا عَزموا الفرارَ وأسلموا ... بيضاً حَواصنَ ما بهنّ قَرارُ
لحِقتْ حَفيظتُنا بهنّ ولم نزلْ ... دون النساء إذا فزِعنَ نَغارُ

قال ابن السكّيت : لله درُّه ! ما سمعتُ هجاءً قط أكرمَ من هذا .

سائر أخباره

● محمد بن عبدالله قال : حدّثني عُمارة قال :

رُحت الى المأمون ، فكان ربّما قرّب اليّ الشيء من الشَّراب أشربُه بين يديه ، وكان يأمرُ بكتْب كثير ممّا أقولهُ ، فقال لي يوماً : كيف قلتَ : قالت مُفدّاة ؟ ونظر إليّ نظراً منكراً ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، مُفدّاةُ امرأتي ، وكانت نظرت إليّ وقد افتقرتُ وساءت حالي . قال : فكيف قُلتَه ؟ فأنشدته :

قالت مُفَدّاةُ لمّا أن رأتْ أَرَقي ... والهمُّ يَعتادُني من طَيفه لَمَمُ
أنهبتَ مالَك في الأدنَين آصِرةً ... وفي الأباعد حتى حَفّك العَدَمُ
فاطلُب إليهم تجدْ ما كنتَ من حَسَنٍ ... تُسْدي إليهم فقد ثابتْ لهم صِرَمُ
فقلتُ : عاذِلتي ، أكثرتِ لائمتي ... ولم يمتْ حاتمٌ هُزْلاً ولا هَرِمُ[1]

قال : فنظر إليّ المأمون مُغضَباً وقال : لقد علت هِمتُّك أن ترقى بنفسك الى هرِم وقد خرج من ماله في إصلاح قومه !

---

(١) اللمم : طرف من الجنون . الآصرة : القرابة . ثابت : رجعت . الصرم ج صرمة : القطعة من الأبل . الهزل : الهزال .

● العَنَزيّ قال :

قدِم عُمارةُ البصرةَ أيامَ الواثق ، فأتاه علماءُ البصرة وأنا معهم ، وكنت غلاماً ، فأنشدهم قصيدة يمدح فيها الواثق ، فلمّا بلغ الى قوله :

وبقيتُ في السَّبعين أنهض صاعـــداً   فـضى لِداتي كلُّهم فتشعّبـــوا

بكى على ما مضى من عمره ، فقالوا له : أملِها علينا . قال : لا أفعلُ حتى أنشدهَا أمير المؤمنين ، فإني مدحت رجلاً مرّةً بقصيدة فكتَبها منَي رجلٌ ثم سبَقني بها إليه . ثم خرج الى الواثق ، فلمّا قدم أتوه وأنا معهم ، فأملاها عليهم .

ثم حدّثهم فقال : أدخلني إسحاقٌ بن إبراهيم على الواثق ، فأمر لي بخِلعة وجائزة ، فجاءني بهما خادمٌ ، فقلت : قد بقي من خِلعتي شيءٌ . قال : وما بقي ؟ قلت : خَلع عليّ المأمونُ خلعةً وسيفاً . فرجع الى الواثق فأخبره ، فأمره بإدخالي ، فقال : يا عُمارةُ ، ما تصنع بسيف؟ أتريد أن تقتلَ به بقيّةَ الأعراب الذين قتلتَهم بمقالك ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن لي شريكٌ في نخيلٍ لي باليمامة ، ربّما خانني فيه ، فلعليّ أجرّبهُ عليه . فضحك وقال : نأمرُ لك به قاطعاً . فدفَع إليّ سيفاً من سيوفه .

● النَخَعيّ قال :

لمّا قَدم عمارة الى بغدادَ قال لي : كلّم لي المأمون ـ وكان النخعيّ من نُدماء المأمون ـ قال : فما زلت أُكلّمه حتى أوصلتُه إليه ، فأنشده هذه القصيدة :

حتّامَ قلبُك بـالحِسان مُوكَّـــلُ   كَلِفٌ بهنّ وهنّ عنه ذُهَّلُ

فلمّا فرغ قال لي : يا نَخعيُّ ، ما أدري أكثر ما قال إلا أن أفتّشه ، وقد أمرتُ له لكلامك فيه بعشرين ألف درهم .

● محمد بن يحيى قال :

وفد عُمارة على المتوكل ، فعمل فيه شعراً ، فلم يأتِ بشيء ولم يُقارب ، وكان عُمارة قد اختلّ وانقطع في آخر عُمره ، فصار الى إبراهيم بن سَعدان

المؤدِّب ، وكان قد روى عنه شعرَه القديم كلَّه ، فقال له : أُحبّ أن تُخرج إليّ أشعاري كلَّها لأنقلَ ألفاظها الى مدح الخليفة . فقال : لا والله أو تُقاسمَني جائزتَك . فحلف له على ذلك ، فأخرج إليه شعره ، وقَلَب قصيدةً الى المتوكّل وأخذ بها عشرةَ آلاف درهم ، وأعطى إبراهيم بن سَعدان نصفَها .

● محمد بن عبدالله بن آدم العَبديُّ قال :

كانت بنو تميم اجتمعت ببغداد على عُمارة حين قال شعره الذي يُقدّم فيه خالدَ بن يزيد على تميم بن خُزيمة ، فقالوا له : قطع الله رَحِمَك وأهانك وأذلّك ، أتقدّم غلاماً من ربيعة على شيخ من بني تميم ، تميم بن خزيمة ، وهو مع ذلك من بيت تميم ! ولاموه ، فقال :

صَهُوا يا تميمُ إنّ شيبانَ وائلٍ ... بطَرفهم عنكم أَضَنُّ وأرغَبُ
أآن سمتُ بِرذَونا بِطرفٍ غضبتمُ ... عليّ وما في السّوق والسَّوم مَغْضَبُ
فإن أكرمتْ أو أنجبتْ أمُّ خالدٍ ... فزَندُ الرِّياحيِّين أورى وأثقبُ[1]

قال : ثم حدّثنا عُمارة قال : قال لي عليُّ بن هشام ـ وفيه عصبيّة على العرب ـ : قد علمتَ مكانك مني ، وقيامي بأمرك ، حتى قرّبك أمير المؤمنين المأمون ، والمائةُ الألف التي وصلتْك أنا سببُها ، وها هنا من بني عمّك من هو أقربُ إليك ، وأجدرُ أن يُعينَني على ما قَبل[2] أمير المؤمنين لك . فقلت : ومن هو؟ قال : تميمُ بن خُزيمةَ . قال : قلت : إيه . قال : وخالدُ بن يزيد بن مَزْيد . قلت : سآتيهما . فبعث معي شاكرياً[3] من شاكريّته ، حتى وقف بي على باب تميم ، فلمّا نظر إليَّ غِلمانهُ أنكروا أمري ، فدنا الشاكريُّ فقال : أعلموا الأمير أنّ على الباب ابنَ جرير الشاعر جاء مُسلّماً . فتوانَوا ، وخرج غلامٌ أعرف أنه غلام

(١) صهوا : اصمتوا . البرذون : دابة لحمل الأثقال . الطرف : الكريم من الخيل . الرياحيين : أراد بني رياح وهم من بني يربوع بن تميم . زند ثاقب : وارٍ .

(٢) قبل : كفل .

(٣) الشاكري ، معرب جاكر : الخادم .

الأمير فحجبَني . فدَخلني من ذاك ما اللهُ به عالمٌ ، فقلت للشاكريّ : أين منزلُ خالد ؟ فقال : اتبَعني . فما كان الا قليلاً حتى وقف بي على بابه ، ودخل بعضُ غِلمانه يطلب الإذن ، فما كان إلاّ قليلاً حتى خرج في قميصه وردائه يتبعُه حَشَمُه . فقال لي بعضُ القوم : هذا خالدٌ قد أقبل إليك . قال : فأردتُ أن أنزِل إليه ، فوثب وثبةً فإذا هو معي آخذٌ بعَضُدي يريد أن أتكىء عليه ، فجعلت أقول : جعلني الله فداك ، أنزِلُ . فيأبى حتى أخذ بعَضُدي فأنزلني وأدخَلني ، وقرّب إليّ الطعامَ والشراب ، فأكلت وشربت ، وأخرج إليّ خمسةَ آلاف درهم وقال : يا أبا عَقيل ، ما آكُلُ إلاّ بالدَّين ، وأنا على جنَاحٍ[1] من ولاية أمير المؤمنين ، فإن صَحّت لي لم أَدَعْ أن أُغنيَك ، وهذه خمسةُ أثواب خزٍّ قد آثرتُك بها ، كنت قد ادّخرتُها . قال عمارة : فخرجتُ وأنا أقول :

أأترُك إن قلّت دراهــمُ خالــدٍ ... زيارتَه إنيّ إذاً لَلئيــــمُ
فليت بثوبيه لنا كــان خالــدٌ ... وكان لبَكْرٍ بالثَراء تميــمُ
فيصبح فينا سابقٌ مُتمهّـــلٌ ... ويُصبح في بكر أغمُّ بَهيــمُ
فقد يُسلعُ المرءُ اللئيم اصطناعُــه ... ويعتلّ نقدُ المرء وهو كريمُ

قال اليزيدي : يُسلع أي تكثر سِلعته ، والسِلعة : المتَاع .

محمد بن عبدالله قال : حدّثني عمارةُ قال :

لمّا بلغ خالد بن يزيد هذا الشعر قال لي : يا أبا عقيلٍ ، أبلَغَك أنّ أهلي يرتضون مني ببديلٍ كما رضيتْ بنو تميم بتميم بن خزيمة ؟ فقلت : إنّما طلبت حظاً نفسي وسُقت مكرمةً إلى أهلي ، لو جاز ذلك . فما زال يُضاحكني .

* * *

(١) على جناح من الأمر : قريب منه .

٣٢

الفضل بن عبد الصّمد الرقاشيّ

[الأغاني الجزء ١٦ ص ٢٤٥ وما بعدها]

الشاعر

هو الفَضل بن عبد الصّمد مَولى رَقاش ، وهو من ربيعة . وكان مطبوعاً ، سهل الشعر ، نقيَّ الكلام ، وقد ناقض أبا نُواس ...

عن المُعَلّى بن حُميد : أنّ الرَّقاشيّ كان من العجم ، من أهل الرَّيّ .

وقد مدح الرقاشيّ الرشيدَ وأجازه ، إلاّ أن انقطاعه كان إلى آل بَرْمَك ، فأغنوه عن سواهم .

انقطاعه إلى البرامكة

أحمد بن يزيد المهلبيّ قال : حدّثني أبي قال :

كان الفضل الرقاشي منقطعاً إلى آل بَرمك ، مستغنياً بهم عن سواهم ، وكانوا يصولون به على الشعراء ، ويُرَوّون أولادهم أشعاره ، ويُدوّنون القليل والكثير منها ، تعصباً له ، وحفظاً لِخدمته ، وتنويهاً باسمه ، وتحريكاً لنشاطه ، فحفظ ذلك لهم . فلمّا نُكبوا صارَ إليهم في حبسهم ، فأقام معهم مدّة أيامهم

يُنشدهم ويُسامرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم فأكثر ، ونشَر محاسنَهم وجُودهم ومآثرهم فأفرط ، حتى نشر منها ما كانَ مَطوياً ، وأذاع منها ما كان مستوراً ، وجرى على شاكلته بعدهم ، وكان كالموقوفِ المديحِ على جميعهم ، صغيرهم وكبيرهم ، ثم انقطع إلى طاهر ، وخرج معه إلى خُراسان ، فلم يزل بها معه حتى مات .

عن ابن النطّاح قال :

تُوفّي العباس بن محمد بن خالد بن بَرْمَك بالخُلد[1] ، والرشيد بالرُّصافة ، في يوم جُمعة ، فأخرجت جنازته مع العصر ، وحضر الرشيدُ والأمين ، وأُخرجت المضارب إلى مقابر البرامكة بباب البَرَدان[2] ، وفُرش للرشيد في مسجد هناك ، وجاء الرشيد في الحِلَق بالأعلام والحِراب ، فصَلّى عليه ووقف على قبره حتى دُفن ، فلمّا خرج يحيى ومحمد أخواه من القبر قَبّلا يدَ الرشيد وسألاه الانصراف فقال : لا ، حتى يُسَوّى عليه التُراب . ولم يزل قائماً حتى فُرغ من أمره ، وعزّاهما وأمرهما بالرُّكوب . فقال الرَّقاشيّ يرثي العباس بن محمد بن خالد بن برمك :

أتحسِبُني باكرتُ بعدَك لـــــذّةً ... أبا الفضل أو رفَّعتُ عن عاتقٍ سِتْرا
أو انتفعت عينـاي بعــدُ بنظــرةٍ ... أو ادنيتُ مـن كأسٍ بمشمُولةٍ ثغرا
جفاني إذن يوماً إلى الليل مُؤنِـــسي ... وأضحت يميني من ذخائرها صِفرا
ولكنّني استشعرت ثوبَ استكانــةٍ ... وبِتُّ كأنّ الموتَ يحفِر لي قبرا[3]

ومن ذلك[4] قوله في جعفر :

كـم هاتفٍ بـك مـن بـاكٍ وباكيةٍ ... يا طِيبَ للضَيفِ اذ تُدعى وللجارِ

(١) الخُلد : قصر بناه المنصور ببغداد وبنيت حواليه منازل فصارت محلة كبيرة .

(٢) البَرَدان : من قرى بغداد ، وباب البردان : من أبواب بغداد .

(٣) العاتق : الجارية التي أدركت وبلغت فخُدرت في بيت اهلها . المشمولة : الخمر الباردة . صفر : فارغة .

(٤) من ذلك : يريد من مراثيه في البرامكة .

إن يُعدَمِ القَطْرُ كنتَ المُزْنَ بارقُــه لَمْعُ الدنانير لا ما خَيّـل الساري

وقوله :

لعمرُك مـا بالموتِ عـارٌ على الفتـــى إذا لم تُصِبْـه في الحيـاة المعَايِرُ
ومـا أحدٌ حـيٌّ وإن كـان سالمـاً بأسلمَ ممّـن غَيّبتْه المقابـر
ومـن كان ممّـا يُحدث الدهرُ جازعاً فلا بُـدَّ يوماً أن يُـرى وهـو صابر
وليس لـذي عيشٍ عـن الموت مَقْصَرٌ وليس على الأيـام والدهر غابـرُ
وكلُّ شبابٍ أو جديـدٍ إلى البـلى وكـلُّ امرئٍ يومـاً إلى الله صائـرُ
فلا يُبْعِدَنّك اللهُ عنّـي جعفـراً برُوحي ولو دارتْ عليّ الدوائـر
فآليتُ لا أنفكُّ أبكيكَ مـا دعَـتْ على فنَنٍ ورقـاءُ أو طـار طائرُ (١)

عن محمد بن عبد العزيز :

أنّ الرّقاشي الشاعر فَني في حُبّ البرامكة حتى خِيف عليه .

عن المدائنيّ :

أنه لّما دارت الدوائر على آل برمك ، وأُمر بقتل جعفر بن يحيى وصُلب اجتاز به الرّقاشيّ الشاعر وهو على الجِذْع ، فوقف يبكي أحرَّ بكاء ، ثم أنشأ يقول :

أمـا واللهِ لـولا خـوفُ واشٍ وعينٌ للخليفةِ لا تنـامُ
لطُفْنا حولَ جِذْعك واستلمنـا كما للناس بالحَجَـر استـلامُ
فما أبصرت قبلكَ يا بنَ يحيـى حُساماً قَدَّه السيفُ الحُسـامُ
على اللـذات والدنيـا جميعـاً ودولةِ آلِ برمـكٍ السّـلامُ

فكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الرشيد ، فأحضره ، فقـال له : مـا حَمَلك على ما قُلتَ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، كان إليَّ مُحسِناً ، فلمّا رأيتهُ على الحال

---

(١) أبعده الله : أهلكه ، ومن عـادتهم الدعاء للميت بهذا الدعاء .

التي هو عليها حرّكني إحسانهُ ، فما ملكتُ نفسي حتى قلتُ الذي قلت . قال : وكم كان يُجري عليك ؟ قال : ألفَ دينار في كلّ سنة . قال : فإنّا قد أضعفناها لك .

سائر أخباره

[عن يزيد المهلّبي قال :]

● كان مع تقدمه في الشعر ماجناً خليعاً ، متهاوناً بمُروءته ودينه ، وقصيدته التي يُوصي فيها بالخلاعة والمجون مشهورةٌ ، سائرة في الناس ، مبتذلَة في أيدي الخاصة والعامّة ، وهي التي أوّلُها :

أوصى الرَّقاشيُّ إلى إخوانــــهِ   وصيَّةَ المحمود في نُدمانــهِ

وقال عبدالله بن المعتز : حدّثني ابنُ أبي الخنساء عن أبيهِ قال :

لّما قال أبو دُلف :

ناوليني الرُّمــحَ قــد طا   ل عــن الحـرب جَمامي
مـرّ لي شهران مُـذْ لــم   أرمِ قوساً بسِهـامـــي

قال الرقاشيّ يعارضهُ :

جَنّبيني الدّرعَ قـد طـــا   ل عن القَصْف جَمامــي
واكسِري المطْـرَدَ والبَيْـــضَ وأثـــــني بالحُســامِ
واقذفي في لُجّة البحــــــر بقــوسي وسِهــامي
وبتُــرسي وبرُمحـــي   وبسَرجــي ولجــامي
فبحسبي أن تَرَيــــني   بين فِتيــانٍ كِـــرام
سادةٍ نغــــــدو مُجدّيـن على حــرب المُـدام
واصطفــاق العُــود والنايــات في جَوف الظــلام
هزم أرواح دِنـــــانٍ   لم نَنَلْهــا باصطـلام

نهـزِمُ الرّاحِ إذا مــا هـمَّ قـومٌ بانهـزام
ثـم خَـلُّ الضرب والطعـنَ لأجسادٍ وهـام
لِشقـيٍّ قـال : قد طـال عن الحـرب جمامي

● الرّياشيُّ قال :

كان الفضل الرَّقاشي يجلس إلى إخوانٍ له يُحادثهم ، ويألفونه ويأنسون به ، فتفرّقوا في طلب المعاش ، وترامت بهم الأسفار ، فمرّ الرّقاشيُّ بمجلسهم الذي كانوا يجلسون فيه ، فوقف فيه طويلاً ، ثم استعبر وقال :

لولا التطيُّر قلـت غَـيَّركـم ريبُ الزمـان فخُنتم عهـدي
درستْ معالمُ كنـت آلَفُهـا من بعدكـم وتغيّرتْ عنـدي

● عن يوسف بن الداية قال :

كان أبو نواس والفضل الرّقاشي جالسَين ، فجاءهما عَمرو الورّاق فقال : رأيت جاريةً خرجت من دور آل سليمان بن عليّ ، فما رأيت جاريةً أحسنَ منها ، هيفاء نَجلاء ، زَجّاء دَعْجاء[1] ، كأنها خُوط بانٍ ، أو جَدْلُ عِنان ، فخاطبتُها فأجابتْني بأحلى لفظ ، وأحسنِ لسانٍ ، وأجمل خِطاب . فقال الرّقاشي : قد والله عشقتُها . فقال أبو نواس : أو تَعرِفُها ؟ قال : لا والله ولكن بالصّفة . ثم أنشأ يقول :

صِفاتٌ وظنّ أورثا القلبَ لوعـةً تَضَرَّمُ في أحشـاء قلـبٍ مُتَيَّـمِ
تُمثِّلهـا نفسي لعيـني فأنثـني إليها بطَرْف الناظـر المتوسِّمِ
يُحمِّلُني حُبـيّ لهـا فوق طاقـتي مـن الشوق دأبَ الحائر المُتَقسِّمِ

* * *

(١) زجاء : رقيقة الحاجب في طول . دعجاء : الدعج شدة سواد العين مع سعتها .

٣٣

محمد بن يسير

[الأغاني الجزء ١٤ ص ١٧ وما بعدها]

الشاعر

محمد بن يَسير الرِّياشيّ ، يقال إنه مولىً لبني رياش ... ويقال إنه منهم صَلِيبةٌ(١) ... وكان محمد بن يسير هذا شاعراً ظريفاً من شعراء المحدثين ، متقلّل ، لم يفارق البصرة ولا وفد إلى خليفة ولا شريفٍ مُنتجِعاً ، ولا تجاوز بلَده ، وصُحبته طَبقتهُ ، وكان ماجناً هجّاءً خبيثاً .

طائفة من أخباره

علي بن القاسم بن علي بن سليمان طارمة قال :

بعث إليّ محمد بن أيّوب بن سليمان بن جعفر بن سليمان ، وهو يتولى البصرة حينئذٍ ، في ليلة صَبيحتُها يومَ سبت ، فدخلت إليه وقد بقي من الليل ثلثهُ أو أكثر ، فقلت له : أنِمت وانتبهتَ أم لم تنم بعدُ ؟ فقال : قد قضيتُ حاجتي من النوم ، وأريد أن أصطبح وأبتدئ الساعة بالشُرب ، وأصلَ ليلتي بيومي محتجباً

(١) صليبة : صحيح النسب في قومه وليس بمولى ، وفي المطبوعة : صلبية وهو خطأ .

عن الناس ، وعندي محمد بن رَباح ، وقد وجّهتُ إلى إبراهيم بن رِياش وحضرتَ أنت ، فمن ترى أن يكون خامسَنا ؟ قلت : محمد بن يسير . فقال : واللهِ ما عدوتَ ما في نفسي . فقال لي ابن رباح : اكتب إلى محمد بن يسير بيتين تدعوه فيهما وتصفُ له طِيب هذا الوقت ـ وكان يومَ غيم والسماءُ تمطر مطراً غيرَ شديد ولا متتابِع ـ فكَتب إليه ابنُ رباح :

يـومُ سبتٍ وشَنْبَـذٍ ورَذاذٍ   فعلامَ الجلوسُ يابـن يسير
قُـم بنا نأخـذِ المُدامـةَ مـن كـفّ غزالٍ مُضَمَّـخٍ بالعبير [1]

وبعث إليه بالرُّقعة ، فإذا الغلمانُ قد جاؤوا بالجواب ، فقال لهم : بعثْتُكُم لِتجيئوني برجلٍ فجئتموني برُقعة ! فقالوا : لم نَلْقَه ، وإنما كتب جوابَها في منزله ، ولم تأمرنا بالهجوم عليه فنهجُم . فقرأها فإذا فيها :

أجيءُ على شرطٍ فإن كنتَ فاعـلاً   وإلاّ فإني راجعٌ لا أناظِـرُ
لِيُسْرَجْ لي البِرذَونُ في حال دُلجتي   وأنت بدُلجاتي مع الصبح خابرُ
لأقضيَ حاجاتي إليـه وأنثـني   إليك وحَجّامٌ إذا جئت حاضرُ
فيأخُذ مـن شعري ويَصلِحُ لِحيتي   ومن بعدُ حمّامٌ وطيبٌ وجامِرُ
ودَسْتيجةٌ مـن طيّب الرّاح ضخمةٌ   يُرَوِّدنيهـا طائعـاً لا يُعـاسر [2]

فقال محمد بن أيوب : ما تقول ؟ فقلت : إنك لا تقوى على مُطاولته ، ولكن اضمَنْ له ما طلب . فكتب إليه : قد أُعِدّ لك ، وحياتِك ، كلُّ ما طلبتَ ، فلا تُبطئْ . فإذا به قد طلع علينا ، فأمر محمد بن أيوب بإحضار المائدة ، فلمّا أُحضرت أمر بمحمد بن يسير فشُدّ بحبلٍ إلى أسطوانة من أساطين المجلس ، وجلسنا نأكل بحذائه . فقال لنا : أيّ شيٍّ يخلّصني ؟ قلنا : تجيب نفسك عما

---

(١) شنبذ : كلمة فارسية معناها يوم السبت ، وأراد أنه يوم لهو ونشاط .

(٢) الدلجة : السير في السحر . الجامر : البخور والطيب . الدستيجة : آنية الخمر ، فارسية معربة .

كتبت به أقبح جواب . فقال : كُفُّوا عن الأكل إذاً ولا تَستَبِقُوني به فتشغَلُوا خاطري . ففعلْنا ذلك وتوقَّفنا ، فأنشأ يقول :

أيـا عَجَبا مـن ذا التَّسرِّي فإنّـــه ... لـه نَخوةٌ في نفسه وتَـكَـابُـــرُ
يُشارِطُ لَمّـا زار حتى كأنـــه ... مُغَـنٌ مجيـدٌ أو غُـلام مُؤاجَرُ
فلولا ذِمامٌ كان بيـني وبينَـــه ... للَطَّـم بشّارٌ قفـــاه وياسرُ [(١)] .

فقال محمد : حسبُك ، لم نُرِد هذا كلّه . ثم حلَّه وجلس يأكل معنا وتَمَّمنا يومنا .

● عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ قال :

كان محمد بن يسير من شعراء أهل البصرة وأدبائهم ، وهو من خَثْعَم ، وكان من بخلاء الناس ، وكان له في داره بستانٌ قدرُه أربعةُ طوابيق [(٢)] قَلَعها من داره ، فغَرس فيه أصل رُمّان وفَسيلة [(٣)] لطيفة ، وزرع حوالَيه بَقْلاً ، فأفلتت شاةٌ لجارٍ له يقال له مَنيع ، فأكلت البَقل ومضغت الخُوص ، ودخلت إلى بيته فلم تجد فيه إلاّ القراطيسَ فيها شعرُه وأشياءُ من سَماعاته ، فأكلتْها وخرجتْ . فعَدا إلى الجيران في المسجد يشكو ما جرى عليه ، وعاد فزرع البستان ، وقال يهجو شاةَ منيع :

لِيَ بستـــانٌ أنيـــقٌ زاهـــرٌ ... ناضرُ الخُـضرة رَيّـانٌ تَـرِفْ

---

(١) تسرى : تكلف السَّرْو ، وهو المروءة والشرف ، والأجود عندنا أن يقال : من ذي التسرّي . التكابر : التكبر . بشار وياسر : يستخلص من السياق انهما رجلان من خدم الوالي .

(٢) الطابق ، بفتح الباء وكسرها : الآجر الكبير ، ولعله أراد أن عرض البستان أربعة طوابيق .

(٣) الفسيلة : النخلة الصغيرة .

راسخ الأعـراق رَيّـانُ الثَرى — غَدِقٌ تُربتُه ليست تَجِـفّ
لِمجاري الماء فيـه سُنَـنٌ — كيفما صرّفتَه فيه انصرَفْ
مُشرِق الأنوار مَيّادُ النَّدى — مُتَثَنٍ في كـلّ ريحٍ مُنعطِفْ
تملِكُ الرِّيحُ عليه أمرَه — فإذا لم يُؤنِس الرّيحَ وقَفْ
يكتسي في الشرق ثوبي يُمنةٍ — ومع الليل عليها يَلتحِفْ
ينطوي الليلُ عليه فإذا — واجه الشرقَ تجلّى وانكشَفْ
صابرٌ ليس يُبالي كثرةً — جُزَّ بالمِنجَلِ أو منه نُتِف
كلّما أُلحِفَ منه جانبٌ — لم يتلبّثْ منه تعجيلُ الخَلَفْ
لا ترى للكفّ فيه أثراً — فيه بل يَنمي على مسّ الأكُفْ
فترى الأطباق لا تُمهِلُه — صادراتٍ واردات تختلِفْ
فيه للخارف من جيرانه — كلّما احتاج إليه مُختَرَف
أُقحوانٌ وبَهارٌ مُونِقٌ — وسوى ذلك من كلّ الطُّرَف
وهو زهرٌ للنّدامى أُصُلاً — برضا قاطِفِهم ممّا قَطَف
وهو في الأيدي يُحيّون به — وعلى الآناف طوراً يُستَنشَقّ
أعفِه يا ربُّ من واحدةٍ — ثم لا أحفِل أنواعَ التّلَف
إكفِه شاةَ مَنيعٍ وحدَها — يومَ لا يُصبح في البيت عَلَفْ
اكفِه ذاتَ سُعالٍ شَهْلةً — مُتِّعت في شرّ عيشٍ بالخَرَفْ
اكفِه يا ربِّ وقصاءَ الطُّلى — ألحِمِ الكِتْفَين منها بالكَتِف
وكَلُوحٌ أبداً مُفتَرّةٌ — لك عن هُتْمٍ كَليلاتٍ رُجُف
ونَئُوس الأنف لا يرقا ولا — أبداً تُبصِرُه إلاّ يَكِف
لم تزل أظلافُها عافيةً — لم يُظَلِّفْ أهلُها منها ظِلَفْ
فترى في كلّ رجلٍ ويدٍ — من بقاياهنّ فوق الأرض خُفّ

تنسِفُ الأرضَ إذا مـرّت بــه   فلهـا إعصارُ تُرْبٍ مُنتَسِفْ[1]

[الأبيات ...]

● عبدالله بن محمد بن يَسير قال :

هوِي أبي قَينةً من قيان أبي هاشم بالبصرة ، فكتبتْ إليه أمّي تعاتبه ، فكتب إليها :

لا تذكُري لوعةً إثـري ولا جَزَعـا   ولا تقاسِنَّ بعدي الهـمَّ والهَلَعـا

بل ائتسي تجـدي إن ائتسيـتِ أُسـاً   بمثـلِ ما قـد فُجعتِ اليومَ قد فُجِعا

ما تصنعين بعينٍ عنـك قـد طَمَحت   إلى سواكِ وقلـبٍ عنـك قد نَزَعا

إن قلتُ قـد كنت في خَفْضٍ وتكرمةٍ   فقد صدقتِ ولكـن ذاك قد نُزِعـا

وأيُّ شيءٍ مـن الدنيـا سمعـت به   إلاّ إذا صـار في غاياتـه انقطعـا

ومن يُطيق خَليعاً عنـد صَبْوتـه   أم من يقـوم لِمستورٍ إذا خَلُعا[2]

---

(١) ترف النبات : تروّى . أرض غدقة : نديّة مرتوية . السنن : الطرائق . الأنوار ج نور : الزهر . الندى : (هنا) النبت . اليمنة : برد يمني موشى . ألحفه : استأصله . نمى ينمي : زاد . خرف الثمار واخترفها : جناها . الأقحوان : نبت طيب الرائحة وسطه أصفر وحواليه أوراق بيض . البهار : نبت أصفر طيب الرائحة . مونق : معجب . أصلاً ج أصيل : الوقت بعد العصر إلى المغيب . استشفه : استوفى شربه ، شبه الشم بالشرب . الشهلة : العجوز . الخرف (هنا) : أردأ التمر . الطلى ج طلية : العنق . الوقص : قصر العنق . كلحت الشاة : قلصت شفتاها عن أسنانها . الهتم ج أهتم : الأسنان المتكسرة . نؤوس الأنف : دائم السيلان . يرقأ : يجف . وكف الدمع والماء : سال . ظلّف : قلّم . ظلَف : أصلها ظِلْف بإسكان اللام وحركت لضرورة الشعر . تنسف به : بالخف . انتسفه : قلعه من أصله .

(٢) أساج أسوة : ما يأتسي به الحزين ويتعزى به . نزع عنه : كف وانتهى عنه .

● عبدالله بن محمد بن يسير قال :

كان لأبي صديقٌ يقال له داود من أسمج الناس وجهاً وأقلّهم أدباً ، إلا أنه كان وافر المتاع ، فكان القيانُ يواصلْنَه ويكثُرن عنده ، ويُهدين إليه الفواكه والنَّبيذ والطِّيب ، فيدعو أبي فيعاشره . فهوِيَتْه قَينةٌ من قيان البصرة كانت من أحسن الناس وجهاً ، فبعثت إلى داودَ برُقعةٍ طويلة جداً تعاتبه فيها وتَستجفيه وتَستزيرُه ، فسأل أبي أن يُجيبَها عَنه ، فقال أبي : اكتُب يا بُنيَّ قبل أن أجيبَ عنها :

وابلائي من طُول هذا الكتـابِ ... أَسعدوني عليه يا أصحابي
أسعدوني على قِراة كتـابٍ ... طولُه مثلُ طول يوم الحساب
إنّ فيه منيَّ البلاء مُلَقَّـى ... ولِغيري فيه الهوى والتصابي
ولـه الوُدُّ والهوى وعلينـا ... فيه للكاتِبين ردُّ الجواب
ثـم ممَّن يا سيِّدي ؟ وإلى مَـن ؟ ... من هَضِيم الحشا لَعُوبٍ كَعابِ
والى مَن إن قلت فيه بعَيـبٍ ... لم أُحِطْ في مقالتي بالصَّواب
لا يُساوي على التأمُّـل والتَفتيـش يوماً في الناس كفَّ تُرابِ [1]

فقال عبدالله : وكان أبي إذا انصرف من مجلسٍ فيه داودُ هذا أخذه معه ، فيمشي قُدّامَه ، فإن كان في الطريق طينٌ أو بئر أو أذىً لَقِيَ داودُ شرَّه وحَذِره أبي . فمات داود ، وانصرف أبي ذاتَ ليلةٍ وهو سكرانُ ، فعَثر بدُكّانٍ وتلوَّث بطينٍ ودخل في رِجله عظمٌ ولَقِي عَنَتاً ، فقال يرثي داود :

أقول والأرضُ قد غشّى وجَلَّلها ... ثوبُ الدُّجى فهو فوق الأرض ممدودُ
وسدّ كلَّ فُروجِ الجوّ مُنطبقـاً ... وكلُّ فَرْجٍ به في الجوّ مَسدود
وفي الوَداع وفي الإبداء لي عَنَتٌ ... دون المسير وبابُ الدار مسدود

---

(١) هضيم الحشا : ضامرة البطن . كعاب : ناهدة الثديين .

مَن لي بداودَ في ذي الحال يُرشدني ... من لي بداود ، لهفي أين داودُ
لَهفي على رِجْله ألاّ أُقدِّمَها ... قُدّام رجلي فتلقاها الجلاميدُ
إذ لا أزال إذا أقبلت ينكُبُني ... حَرفٌ وجُرفٌ ودُكّانٌ وأُخدودُ
فإن تكن شوكةٌ كانت تحِلُّ به ... أو نَكْتَةٌ في سواد الليل أو عُودُ(١)

● القاسم بن الحسن قال :

استعار ابن يسير من بعض الهاشميّين من جيرانه حماراً كان له ليَمضي عليه في حاجة أرادها ، فأبى عليه ، فمضى إليها ماشياً ، وكتب إلى عَمرو القِصافيّ ـ وكانَ جاراً للهاشميّ وصديقاً ـ يشكوه إليه ويُخبره بخَبره :

إن كنتُ لا عَيْرَ لي يوماً يُبَلّغني ... حاجي وأقضي عليه حقَّ إخواني
وضنَّ أهلُ العواري حين أسألهم ... من أهل وُدّي وخُلصاني وجيراني
فإنّ رِجليَّ عندي لا عَدِمتُهُما ... رجلا أخي ثقةٍ مذ كان جولاني
تُبلّغاني حاجاتي وإن بَعُدتْ ... وتُدنياني مماليس بالداني
كأنّ خلفي إذا ما جَدّ جِدّهُما ... إعصارَ عاصفةٍ ممّا تُثيران
رجلايَ لم تألَما نَكْباً كأنّهما ... قَطّاً وقَدّاً وإدماجاً مَداكان

* * *

إن تُبعثا في دَهاسٍ تبعثا رَهَجا ... أو في حزونٍ ذكا فيها شِهابان
فالحمدُ لله يا عَمرو الذي بهما ... عن العواري وعن ذا الناس أغناني(٢)

---

(١) الجرف : الجانب الذي أكله الماء من جانب النهر أو الوادي . النكتة : الأثر الحاصل من نكت الأرض ، ونكته : ألقاه على رأسه .

(٢) العير : الحمار . العواري ج عارية : ما يستعار . رجل جولانيّ : عام المنفعة للقريب والبعيد . القط : القطع . المداك : مدق الطيب . الدهاس : الموضع السهل . الحزن : ما غلظ من الأرض .

● محمد بن أبي حرب قال :

أنشدنا يوماً محمد بن يسير في مجلس أبي محمد الزّاهد صاحب الفُضَيل بن عِياض لنفسه قال :

ويلٌ لِمن لم يَرحمِ اللهُ ... ومن تكون النارُ مَثواهُ
واغَفْلتا في كلّ يومٍ مضى ... يُذكِرُني الموت وأنساه
من طال في الدنيا به عمرُه ... وعاش فالموتُ قُصاراه
كأنه قد قيل في مجلسٍ ... قد كنتُ آتيه وأغشاه
محمدٌ صار إلى ربّه ... يَرحمُنا اللهُ وإيّاه[1]

قال : فأبكى والله جميعَ من حضر .

● علي بن القاسم طارمةُ قال :

كنت مع المعتصم لّما غزا الرُّوم ، فجاء بعضُ سَراياه بخبر عمّه[2] ، فركب من فَوره وسار أجدَّ سَير وأنا أُسايره ، فسمع مُنشداً يتمثّل في عسكره :

إن الأمور إذا انسدّتْ مَسالكُها ... فالصبرُ يَفتح منها كلَّ ما ارتَتجا
لا تَيأسنَّ وان طالت مُطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجا[3]

فسُرّ بذلك وطابت نفسُه ، ثم التفت إليّ وقال لي : يا عليُّ أتروي هذا الشعر ؟ قلت : نعم . قال : من يقوله ؟ قلت : محمد بن يسير . فتفاءل باسمه ونسبه وقال : أمرٌ محمود وسيرٌ سريع يعقُب هذا الأمر . ثم قال : أنشِدْني الأبيات . فأنشدتهُ قولَه :

ماذا يُكلّفُك الرَّوحاتِ والدُّلجَا ... البَرَّ طوراً وطوراً تركبُ اللُّججا

---

(١) قصاراه : غايته .

(٢) عمه : هو إبراهيم بن المهديّ ، وكان خرج على المأمون .

(٣) رتج الباب وأرتجه : أغلقه .

كم من فتىً قصُرت في الرِّزق خَطوتُه ... ألفَيْتَه بسهام الرِّزق قد فَلَجا

لا تيأسنَّ وإن طالت مُطالبةٌ ... إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فَرَجا

إنَّ الأمور إذا انسدّت مَسالكُها ... فالصبرُ يفتح منها كلَّ ما ارتتجا

أخلِقْ بذي الصبر أن يَحظى بحاجته ... ومُدمنِ القَرْعِ للأبواب أنْ يَلجا

فاطلب لرجلك قبل الخطو مَوضعَها ... فمن علا زَلَقاً عن غِرَّةٍ زَلجا

ولا يَغُرَّنْك صَفْوٌ أنت شاربُه ... فربّما كان بالتكدير ممتزِجا

لا يُنْتَجِ الناسُ إلا من لِقاحهم ... يبدو لِقاحُ الفتى يوماً إذا نُتِجا[1]

● الرِّياشيّ قال :

كان محمد بن يسير جالساً في حَلْقتنا في مسجد البصرة ، وإلى جانبنا حَلْقةُ قومٍ من أهل الجدَل يتصايحون في المقالات والحُجج فيها ، فقال ابن يسير : اسمعوا ما قلت في هؤلاء . فأنشدَنا قولَه :

يا سائلي عن مقالة الشيَعِ ... وعن صُنوف الأهواء والبدَعِ

دعْ عنك ذكرَ الأهواء ناحيةً ... فليس ممّن شهدتُ ذو وَرَعِ

كلُّ أناسٍ بَديُّهم حَسَنٌ ... ثم يصيرون بعدُ للشُّنَعِ

أكثرُ ما فيه أن يُقالَ لهم : ... لم يك في قوله بمنقطِعِ[2]

● محمد بن عليّ الشاميّ قال :

كان محمد بن يسير يصف نفسه بالذكاء والحفظ والاستغناء عن تدوين شيء يسمعه ، من ذلك قولُه :

---

(١) الدلج ج دلجة : السير من أول الليل . فلج : ظفر وفاز . زلج : زلق . نتجت الناقة ، (بالبناء للمجهول) : ولدت .

(٢) بديئهم : أول أمرهم ، ولينت الهمزة .

إذا مـا غـدا الطُلاّبُ للعلم ما لهـم ... من الحظّ إلا مـا يُدوّنُ في الكُتبِ
غـدوتُ بتشمـيرٍ وجِـدٌّ عليهـم ... فمِحبرتي أُذني ودفترُهـا قلبـي

● إبراهيم بن المدبِّر قال :

كان إبراهيم بن رياح إذا حَزَبه الأمر[1] يقطعه بمثل قول محمد بن يسير :

تُخطي النفوسُ مـع العِيـا ... ن وقـد تُصيب مـع المظِنَّهْ
كـم مـن مضيقٍ في الفضـا ... ء ومَخرجٍ بين الأسنَّـهْ

* * *

(١) حزبه الأمر : اشتدّ عليه .

٣٤

مَروان بن أبي حفصة

[الأغاني الجزء ١٠ ص ٧١ وما بعدها]

الشاعر

هو مَروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حَفْصة ، ويُكْنَى أبا السِّمْط . واسم أبي حفصة يَزيد ، وذكر النَوفليُّ عن أبيه أنّه كان يهوديّاً ، فأسلم علي يَدَي مَروان ابن الحَكَم ، وأهله يُنكرون ذلك ويذكرون أنّه من سَبْي إصْطَخْر[1] ، وأنَّ عثمان اشتراه فوهبه لمروان بن الحكم ...

وشهِد أبو حَفْصة الدّار[2] مع مَولاه مروان بن الحكم وقاتل قتالاً شديداً وقَتل رجلاً من أسلَم يقال له بَنان ، وجُرح مروانُ يومئذ ، أصابته ضربةٌ قطعت عِلباءه[3] فسقط ، فوثب عليه أبو حفصة واحتمله ، فجعل يحمله مرّة على عنقه ومرّة يَجُرّه ، فيتأوّه، فيقول له : اسكُت واصبِرْ ، فإنّه إن علموا أنّك حيٌّ قُتلتَ . فلم يَزل به حتى أدخله دار امرأة من عَنَزة فداواه فيها حتى برِئ ،

---

(١) اصطخر : بلدة بفارس .

(٢) يوم الدار : يوم مقتل عثمان بن عفّان .

(٣) العلباء : عصب العنق .

فأعتقه مروان ونزل له عن أمّ ولد له يقال لها سُكّر كانت له منها بنتٌ يقال لها حَفصة ، فَحَضَنها ، فكُنّي أبا حفصةً ، فحَفصة بنتُ مروان ...

محمد بن إدريس قال : عُكْلٌ[1] تدّعي أنّ أبا حفصة منهم . يقولون : هو من كِنانة بن عوف بن عبد مَناه بن طابخة بن اليأس بن مُضر ، وقد كانوا استعَدوا عليه مروان بن الحكم وقالوا إنما باعته عمّتهُ لمجَاعة ، فأبى هو أن يُقرّ لهم بذلك ، ثم استعدَوا عليه عبد الملك بن مروان أيضاً ، فأبى إلاّ أنّه رجلٌ من العجَم من سَبْي فارس ، نشأ في عُكْل وهو صغير . قال محمّد بن إدريس : وَلد السَمَوْءل بن عادياء[2] يدّعونه ، والسّموءل من غسّان ...

خَلاّد الأرقط قال :

جاءنا مروان بن أبي حفصة إلى حَلْقة يونُس ، فأخذ بيد خَلَف الأحمر فأقامه ، وأخذ خَلَفٌ بيدي فقُمنا إلى دار أبي عُمير ، فجلسنا في الدّهليز . فقال مروان لخلف : نشَدتك اللهَ يا أبا مُحرِز إلاّ نصحتَني في شعري فإنّ الناس يُخدعون في أشعارهم . وأنشده قوله :

طرقتْك زائرةٌ فحيّ خَيالَهـــا ... بيضاءُ تَخلط بالجَمال دَلالَهـا

فقال له : أنت أشعر من الأعشى في قوله :

« رحلتْ سُمَيّةُ غُدوةً أجمالَهَا »

فقال له مروان : أتبلغ بي الأعشى هكذا ! ولا كلٌّ ذا ! قال : ويحَك ! إنّ الأعشى قال في قصيدته هذه :

« فأصاب حَبّة قلبه وطِحالَهَا »

(١) عُكل : هم بنو عوف بن عبد مناة بن اد ، إحدى قبائل الرِّباب .

(٢) السموءل بن عادياء : من شعراء يهود المشهورين في الجاهلية ، ويضرب به المثل في الوفاء بالعهد ، وذلك أن امرأ القيس أودع عنده أدراعه وسلاحه ، فطالبه ملك كندة بدفعها إليه بعد موت امرئ القيس وهدده إن لم يفعل بقتل ابن له ظفر به ، فآثر قتل ابنه على أن يخفر بذمته .

والطَّحال ما دخل قطُّ في شيءٍ إلاّ أفسده ، وأنت قصيدتك سليمةٌ كلُّها . فقال له مروان : إنّي إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتُها في حَول : أقولها في أربعة أشهر ، وأنتخِلُها في أربعة أشهر ، وأعرِضُها في أربعة أشهر .

العبّاس بن ميمون طائع قال :

سمعت الأصمعيّ ذكر مَروان بن أبي حفصة فقال : كان مولَّداً ، لم يكن له علمٌ باللغة .

بُخلُه

وكان مروان أبخل الناس ، على يَساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء ، ولا سيّما من بني العبّاس ، فإنّه كان رَسْمُهم أن يُعطوه بكلّ بيت يمدحهم به ألفَ درهم .

عليّ بن محمد النوفليّ قال : سمعت أبي يقول :

كان المهديّ يعطي مروانَ وسَلْماً الخاسر عطيّةً واحدة ، وكان سَلمٌ يأتي باب المهديّ على البِرْذَون قيمتُه عشرةُ آلاف درهم والسَّرجِ واللِّجام المقذوذين[١] ، ولباسه الخَزّ والوَشْي وما أشبهَ ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحةُ المسك والغالية[٢] والطِّيب تفُوح منه ؛ ويجيء مروانُ وعليه فَرْوُ كَبْش وقَميصُ كَرابيسُ[٣] وعِمامة كَرابيس وخُفّا كَبَلٍ[٤] وكساءٌ غليظ مُنتِنُ الرائحة . وكان لا يأكل اللحم بُخلاً حتى يَقْرَم[٥] إليه . فإذا قَرِم أرسل غُلامه فاشترى له رأساً فأكلَه . فقيل له : نَراك لا تأكل إلاّ الرُّؤوسَ في الصّيف والشتاء ، فلمَ

(١) المقذوذ : المزيّن المسوّى .
(٢) الغالية : ضرب من الطيب .
(٣) الكرابيس ج كرباس : ثوب أبيض .
(٤) الكبل : الفراء الكثير الصوف .
(٥) قرم : اشتهى اللحم .

تختار ذلك ؟ قال : نعم ، الرأس أعرف سِعرَه ولا يستطيع الغلامُ أن يَغْبِنَني فيه ، وليس بلحمٍ يطبُخه الغلام فيقدرَ أن يأكل منه ، إن مسّ عيناً أو أذُناً أو خدّاً وقفتُ عليه ، فآكُلُ منه ألواناً : آكُل عينيه لوناً ، وأُذُنَيه لوناً ، وغَلْصَمَته[1] لوناً ، وأُكفَى مُؤْنةَ طَبْخه ، فقد اجتمعت لي فيه مَرافق .

موسى بن يحيى قال :

أوصَلْنا إلى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألفَ درهم ، وجَمع إليه مالاً حتى تمّتْ مائة ألفٍ وخمسين ألف درهم ، وأَودعها يزيد بن مَزْيَد[2] . قال : فبينما نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزيد ـ وكانت فيه دُعابة ـ فقال : يا أبا عليّ ، أودَعَني مروانُ خمسين ومائةَ ألف درهم وهو يشتري الخُبزَ من البقّال . قال : فغضب يحيى ثم قال : عليَّ بمروان . فأُتي به . فقال له : أخبرني أبو خالد بما أودعتَه من المال وما تَبتاعه من البَقّال ، والله لَـما يُرى من أثر البُخل عليك أضرُّ من الفَقر لو كان بك .

عمر بن شبّة قال :

بلغني أن مروان بن أبي حفصة قال : ما فرحتُ بشيءٍ قطّ فَرَحي بمائة ألفٍ وهبَها لي أميرُ المؤمنين المهديّ ، فوزنتُها فزادت دِرهماً ، فاشتريت به لحماً .

عن جَهم بن خَلَف قال :

أتينا اليمامةَ فنزلنا على مروان بن أبي حفصة ، فأطعَمنا تمراً ، وأرسل غلامه بفَلس وسُكُرّجَة[3] ليشتري له زيتاً . فلمّا جاء بالزيت قال لغلامه : خُنتَني ! قال : من فَلسٍ كيف أخونك ! قال : أخذت الفَلس لنفسك واستوهبت الزيت .

---

(١) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق .

(٢) يزيد بن مزيد الشيباني : من القادة البارزين في العصر العباسي .

(٣) السكرّجة : الصحفة .

أخبرنا يحيى قال : أخبرنا أصحاب التَّوْزيّ عنه قال :

مرّ مروان بن أبي حفصة في بعض سفَراته ، وهو يريد مِنىً ، بامرأة من العرب ، فأضافته ، فقال : لله عليّ إن وهَب لي الأميرُ مائةَ ألف أن أهبَ لك درهماً . فأعطاه ستّين ألف درهم، فأعطاها أربعةَ دَوانق[1] .

عن أبي دِعامة قال :

اشترى مروان لحماً بنصف درهم ، فلمّا وضعه في القدر وكاد أن ينضَج دعاه صديقٌ له ، فرَدّه على القَصّاب بنُقصان دانق . فشكاه القصّاب وجعل ينادي : هذا لحمُ مروان . وظنّ أنه يأنَف لذلك . فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويلك ! ما هذا ! قال : أكرَهُ الإسراف .

مدائحه في معن بن زائدة

عليّ بن محمد النَوفليّ قال حدّثني أبي قال :

اجتاز مروان بن أبي حفصة برجلٍ من باهلة من أهلِ اليمامة وهو يُنشد قوماً كان جالساً إليهم شعراً مدَح به مروانَ بن محمدَ ، وإنّه قُتل قبل أن يَلقاه وينشدَه إيّاه ، أوّله :

مروانُ يا بنَ محمدٍ أنت الـذي زِيدتْ به شَرَفاً بنو مروانِ

فأعجبتْه القصيدة ، فأمهل الباهليَّ حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إنيّ سمعت قصيدتك وأعجبتني . ومروان قد مضي ومضى أهلُه وفاتك ما قد رُمتَه عنده ، أتبيعُني القصيدة حتى انتحلها ؟ فإنه خيرٌ لك من أن تبقى عليك وأنت فقير . قال : نعم . قال : بكم ؟ قال : بثلثمائة درهم . قال : قد ابتعتُها . فأعطاه الدّراهم وحلّفه بالطّلاق ثلاثا وبالأيمان المُحرِجة ألاّ ينتحلَها أبداً ولا ينسُبَها إلى نفسه ولا يُنشدها . وانصرف بها إلى منزله ، فغيّر منها أبياتاً وزاد فيها وجعلها في مَعن ، وقال في ذلك البيت :

(1) الدوانق ج دانق : وهو سدس الدرهم .

مَعْنُ بن زائدةَ الذي زيدتْ بــه　　شرفاً إلى شَرَفٍ بنـو شَيبانِ

ووفد بها إلى معن بن زائدة فملأ يديه وأقام عنده مدّةً حتى أثرى واتّسعت حالُه . فكان معنٌ أوّلَ من رفع ذِكره ونـوّه به . قال : وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفةٌ ومَراثٍ حسنة .

عبدالله بن أبي سَعد قال حدّثني أبي قال :

لمّا قدِم مَعن بن زائدة من اليمن استقبله الناسُ ، وتلقّاه مروان بن أبي حفصة فأنشده قصيدةً يُهنّئه فيها بقدومه وبرأي المنصور فيه . وتلقّاه فيمن تلقّاه أبو القاسم مُحرِز[1] فجعل يقول له : سفكتَ الدّماء ، وظلمتَ الناس ، وتعدّيتَ طَورك بذلك . فلمّا أكثر على مَعن التفت إليه ثم قال له : يا مُحرِز ، أخبرني بأيّ خُفَّيك تضرِب اليوم : أبالسُّباعـيّ أم بالثُّمانيّ ؟ قال : فانقطع وسكت خجلاً .

ودخل معنٌ على المنصور ، فلمّا سلّم عليه وسأله قال له : يا معنُ ، أعطيتَ ابن حفصة مائة ألف درهم عن قوله فيك :

معنُ بن زائدةَ الذي زِيدتْ بــه　　شرَفاً إلى شرفٍ بنو شَيبـــــان

فقال له : كلاّ يا أمير المؤمنين ، بل أعطيته لقوله :

ما زلتَ يومَ الهاشميّة مُعلِمـــاً　　بالسّيفِ دونَ خليفـة الرحمـنِ

فاستحيا المنصور من تهجينه إيّاه فتبسّم وقال : أحسنتَ يا مَعنُ في فِعلك .

أبو العبّاس العَدَويّ قال :

لما وَلي معنُ بن زائدة اليمن كان يحيى بن منصور الذُّهليّ قد تنسّك وترك الشعر . فلمّا بلغته أفعالُ معنٍ وفَد إليه ومدحه ، فقال مروان بن أبي حفصة :

---

(١) هو أبو القاسم بن محرز ، أحد قواد أبي مسلم الخراساني .

لا تعدَمُوا راحتي مَعنٍ فإنّهمـــا   بالجود أفنتنا يحيى بن منصورِ
لّما رأى راحتي معنٍ تدفَّقتـــا   بنائلٍ مـن عطاء غير مَنــزور
ألقى المسُوحَ التي قد كان يلبَسُها   وظـلّ للشّعر ذا رَصْفٍ وتحبير

العَنْسيّ قال :

لمّا قدم معنُ بن زائدة من اليمن دخل عليه مروانُ بن أبي حفصة والمجلسُ غاصّ بأهله ، فأخذ بعِضادتيَ[1] الباب وأنشأ يقول :

وما أَحجم الأعداءُ عنك بَقيّـةً   عليك ولكن لم يَرَوا فيك مَطعما
له راحتان الجودُ والحتَف فيهما   أبى الله إلاّ أن تَضُرّا وتَنفعا[2]

قال : فقال له معنٌ : احتَكِمْ . قال : عشرة آلاف درهم . فقال معن : رَبِحنا عليك تسعين ألفاً . قال : أَقِلْني . قال : لا أقال اللهُ من يُقيلُك .

أحمد بن الحارث الخَرّاز قال : حدّثنا ابنُ الأَعرابي أنّ مروان بن أبي حفصة أخبره أنه وفد على معن بن زائدة فأنشده قوله :

بنــو مَطَـرٍ يـومَ اللّقـاء كأنّهـم   أسودٌ لهــم في بَطنِ خَفّانَ أَشْبُلُ
هــمُ يَمنعون الجـارَ حتى كأنّمــا   لجارهــم بــين السماكَين مَنزلُ
لَهاميـمُ في الإسلام سادوا ولم يكن   كأَوّلهــم في الجاهليّـــة أَوّلُ
همُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُـوا   أجابوا وإن أعطَـوا أطابوا وأجْزَلُوا
ولا يستطيع الفاعلون فَعالهــــم   وإن أَحسنوا في النائبات وأَجْمَلُوا[3]

قال : فأمر لي بصِلة سَنيّة وخلع عليّ وحملني وزَوّدني . قال ثم قال لنا ابنُ

(١) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .
(٢) بقية عليك : إبقاءً عليك .
(٣) بنو مطر : هم رهط معن بن زائدة الشيبانيّ ، فهو معن بن زائدة بن عبدالله بن زائدة بن مطر . خفان : موضع قرب الكوفة ، وهو مأسدة . لهاميم ج لهميم : الجواد .

الأعرابيّ : لو أعطاه كلَّ ما يملك لما وفاه حقّه. قال : وكان ابنُ الأعرابيّ يختِم به الشعراء وما دوَّن لأحدٍ بعدَه شعراً.

أخباره مع خلفاء بني العباس ومدائحه فيهم

الفَضل بن الرّبيع قال :

رأيت مروانَ بن أبي حفصة وقد دخل على المهديّ بعد وفاة معن بن زائدة، في جماعة من الشعراء فيهم سَلْمٌ الخاسرُ وغيرُه، فأنشده مديحاً فيه، فقال له : ومن أنت؟ قال : شاعرُك يا أمير المؤمنين وعبدُك مروانُ بن أبي حفصة. فقال له المهديّ : ألست القائل :

أَقمنا باليمامة بعد مَعْنٍ ... مُقاماً لا نُريد به زَوالا
وقُلنا أين نَرحل بعد معنٍ ... وقد ذهب النَّوالُ فلا نَوالا

قد ذهب النَّوالُ فيما زعمتَ، فلمَ جئتَ تطلب نوالَنا؟ لا شيء لك عندنا، جُرّوا برِجلْه. فجَرُّوا برِجله حتى أُخرج.

قال : فلمّا كان من العام المُقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء - وإنما كانت الشعراءُ تدخل على الخلَفاء في كلّ عام مرّةً - فمثَل بين يديه وأنشده بعد رابع أو بعد خامسٍ من الشعراء :

طرقتْك زائرةً فحيِّ خيالَها ... بيضاءُ تخلط بالجمال دلالَها
قادت فؤادَك فاستقاد ومثلُها ... قاد القلوبَ إلى الصِّبا فأمالَها

قال : فأنصت الناسُ حتى بلغ إلى قوله :

هل تطمِسون من السّماء نجومَها ... بأكُفّكم أو تستُرون هلالَها
أو تجحَدون مَقالةً من ربِّكم ... جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالَها

شهدتْ من الأنفالِ آخرُ آيــةٍ بتُراثهم فأردتــمُ إبطالَهـــا[1]

قال : فرأيت المهديّ قد زحف من صدر مُصلاّه حتى صار على البِساط إعجاباً بما سمع ، ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أُعطِيها شاعرٌ في أيام بني العبّاس .

قال : ومضت الأيام ووَلِي هارونُ الرشيد الخلاَفة ، فدخل إليه مروانُ فرأيتُه واقفاً مع الشعراء ، ثم أنشده قصيدةً امتدحه بها ، فقال له : من أنت ؟ قال : شاعرك وعبدُك يا أمير المؤمنين مروانُ بن أبي حفصة . قال له : ألست القائل في معنِ بن زائدة ! وأنشده البيتين اللذين أنشده إيّاهما المهديّ ، ثم قال : خُذوا بيده فأَخرِجوه ، لا شيء لك عندنا . فأُخرج . فلمّا كان بعد أيام تلطّف حتى دخل ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

لَعمرُك ما أنسى غَـداةَ الُمحصَّبِ إشارةَ سَلمى بالبنَـان الُمخَضَّبِ
وقـد صـدَرَ الحُجّاجُ إلاّ أقلَّهم مَصادرَ شتّى موكباً بعد مَوكِبِ

قال : فأعجبتْه ، فقال : كم قصيدتُك من بيت ؟ فقال : ستّون أو سبعون . فأمر له بعدد أبياتها أُلوفاً . فكان ذلك رَسمُ مروان عندهم حتى مات .

عن إسحاق قال :

دخل مروانُ بن أبي حفصة على المهديّ في أوّل سنةٍ قدِم عليه . قال : فدخلتُ[2] عليه في قصرِه بالرُّصافة فأنشدته قولي فيه :

أَمَرُّ وأحلى ما بَلا الناسُ طَعْمَــه عذابُ أمير المؤمنين ونائلُـــهْ

---

(١) الآية التي عناها الشاعر هي قوله تعالى : « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شئ عليم » .

(٢) الضمير هنا يعود على مروان بن أبي حفصة .

فإنَّ طليقَ الله من أنت مُطلِـــقٌ وإنَّ قتيل الله من أنت قاتلــــه
كأنَّ أميرَ المؤمنين محمّــــداً أبو جعفر في كلِّ أمرٍ يُحاوله [1]

قال : فأعجب بها وأمر لي بمالٍ عظيم ، فكانت تلك الصِّلة أولَ صلة سَنِيّة وصلت إليّ في أيام بني هاشم .

مروان بن أبي حفصة قال :

دخلت على المهديّ في قصر السّلام [2] ، فلمّا سلّمت عليه ، وذلك بعَقِب سُخطه على يعقوب بن داود [3] ، قلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ يعقوب رجلٌ رافضيّ وإنه سمعني أقول في الوراثة :

أنّى يكون وليس ذاك بكائــنٍ لِبني البنـات وراثـةُ الأعمامِ

فذلك الذي حَمله على عَداوتي . ثم أنشدتُه :

كأنّ أمير المؤمنين محمّــــداً لِرأفته بالناسِ للنّاس والــدُ
على أنه مـن خالـفَ الحقَّ منهمُ سقتْه يَدَ الموتِ الحُتوفُ الرّواصدُ

ثم أنشدته :

أحيا أميرُ المؤمنين محمـــدٌ سُنَنَ النبيّ حَرامهـا وحَلالَها

قال فقال لي المهديّ : والله ما أُعطيك إلاّ من صُلب مالي فاعذِرْني . وأمر لي بثلاثين ألف درهم وكساني جُبّةً ومِطْرَفاً ، وفَرَض لي على أهل بيته ومَواليــه ثلاثين ألفاً أخرى .

محمد بن حرب بن قَطَن بن قَبيصة بن مُخارق الهلاليّ قال :

---

(1) بلاه : جرّبه . أبو جعفر : يريد أبا جعفر المنصور .
(2) استظهر محقق المطبوعة أنه قصر السّلامة لأن قصر السلام إنما بناه الرشيد .
(3) هو يعقوب بن داود السلمي ، كان وزيراً للمهدي ثم غضب عليه وسجنه .

لمّا مات المهديّ وفدت العرب على موسى يهنّئونه بالخلافة ويُعزّونه عن المهديّ ، فدخل مروان بن أبي حفصة فأخذ بعِضادتيَ الباب ثم قال :

لقد أصبحتْ تختال في كلّ بلدةٍ بقَبر أمير المؤمنين المقابـــرُ
ولو لم تُسَكَّنْ بابنه في مكانـــه لما بَرَحـت تبكي عليـه المنابر

قال : فخرج الناس بالبيتين .

عبدالله بن مصعب قال :

دخل مروان بن أبي حفصة على موسى الهادي فأنشده قوله فيه :

تشابَهَ يوما بَأسه ونوالـــــه فما أحدٌ يدري لأيّهمـا الفَضلُ

فقال له الهادي : أيُّهما أحبُّ إليك : أثلاثون ألفاً مُعجّلة أم مائةُ ألفٍ تُدوّن في الدّواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين أنت تُحسن ما هو خيرٌ من هذا ولكنّك نسِيته ، أفتأذن لي أن أُذَكّرك ؟ قال : نعم . قال :تُعجّل لي الثلاثين ألفاً وتُدوّن المائة الألف في الدواوين . فضحك وقال : بل يُعَجّلان جميعاً . فحُمل المال إليه أجمع .

إسحاق الموصليّ قال : أخبرني مروان بن أبي حفصة قال : قال لي الرّشيد : هـل دخلـت على الوليـد بـن يزيـد ؟ فقلت : نعـم ، دخلـت مع عمومتي إليـه . قـال : فأخبرني عنـه . قـال : فذهبـت أتزحـزح ، فقال لي : إنّ أمير المؤمنين لا يَكْرَه ما تقول ، فقل ما شئت . فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان من أجمل الناس وأشدّهم وأشعرهم وأجودهم . دخلتُ عليه مع عُمومتي ولي لِمّةٌ فَيْنانة ، فجعل يغمز القضيب فيها ويقول :ولدتْك سُكّرُ ؟ـ وهي أمّ وَلدٍ لمروان ابن الحكم وهَبها لجدّي أبي حفصة فولَدت منه ـ فقلت له : نعم . قال لي الرّشيد : فهل تحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت : نعم ، سمعته يُنشد في خلافته ، وذَكَر هشاماً وتَحامُلَه عليه وما كان يريد من نقض أمره وولايته :

ليت هشاماً عاش حتى يَـــرى مكْتَلَه الأوفـرَ قد أُترِعـا

كِلنا لـه الصاعَ الـتي كالهـا ... وما ظلمناه بها أَصوُعا
وما أتينا ذاك عن بِدْعةٍ ... أَحلّه القرآنُ لي أجمعا[1]

فقال الرشيد : يا غُلامُ ، الدَواةَ والقِرطاس . فأُتي بهما ، فأمر بالأبيات فكُتبت .

سائر أخباره

يحيى بن الجَوْن العَبْديّ قال :

فرّق المهديُّ على الشعراء جَوائزَ ، فأعطى مروانَ ثلاثين ألفاً . فجاءه أبو الشَمَقْمَق فقال له : أجزْني من الجائزة . فقال له : أنا وأنت نأخُذ ولا نُعطي . قال : فاسمَع منّي بيتين . قال : هاتِ . فقال أبو الشَمَقمق :

لِحيةُ مَروانَ تقي عَنْبراً ... خالط مِسكاً خالصاً أَذْفَرا
فما يُقيمان بها ساعةً ... إلاّ يَعودان جميعاً ...

فأمر له بدرهمين . وأخبرني بهذا الخبر أحمد بن جعفر جَحظةُ عن أبي هفّان فذكر مثل الخبر الماضي وزاد فيه : فأعطاه عشرة دراهم ، فقال له : خُذ هذه ولا تكن راوية الصِّبيان .

أحمد بن موسى بن حمزة قال :

رأيت مروان بن أبي حفصة في أيام محمد بن زُبَيدة في دار الخلافة ، وهو شيخٌ كبير ، فسألته عن جرير والفرزدق أيُّهما أشعر ؟ فقال لي : قد سُئلت عنهما في أيام المهديّ وعن الأخطل قبل ذلك ، فقلت فيهم قولاً عقدتُه في شعر ليثبُت . فسألته عنه فأنشدني :

ذَهَب الفرزدقُ بالفَخار وإنّما ... حُلوُ الكلام ومُرُّه لجريرِ

---

(١) المكتل : زبيل يعمل من الخوص ويحمل فيه التمر وغيره وسعته خمسة عشر صاعاً .
أحله القرآن : أراد قوله تعالى : «وجزاء سيئة سيئة مثلها» وقوله تعالى : «وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنفس والعين بالعين ... » .

ولقد هجا فأمضَّ أخطلُ تغلبٍ وحَوَى اللُّهى بمديحه المشهور
كلٌّ الثلاثة قد أجاد فمدحُه وهجاؤه قد سار كلَّ مَسيرِ
ولقد جَريتُ فقُتُّ غير مُهَلَّلٍ بجِراءِ لا قَرِفٍ ولا مَبْهور
إنيّ لآنفُ أن أُحبِّرَ مِدحةً أبداً لغير خليفةٍ ووزير
ما ضرَّني حَسَدُ اللئام ولم يزلْ ذو الفَضل يحسُده ذوو التقصير(١)

قال : فلم يرَ أن يقدِّم على نفسه غيرَها ، وكُتبت الأبيات عن فيه .

عن محمد بن حَفص بن عمرو بن الأَيْهم الحَنَفيّ قال :

مرّ مروان بن أبي حفصة برجلٍ من تَيم اللاّت بن ثَعلبة يُعرف بالجِنّيّ ، فقال له مروان : زعموا أنك تقول الشعر . فقال له : إن شئتَ عرّفتُك ذلك . فقال له مروان : ما أنت والشعر ، ما أرى ذلك من طريقتك ولا مَذهبك ولا تقوله ! فقال الجنّيّ : اجلِس واسمَع . فجلس ، فقال الجنّي يهجوه :

ثوى اللؤمُ في العَجْلان يوماً وليلةً وفي دار مَروانٍ ثَوَى آخرَ الدَّهرِ
غدا اللؤمُ يبغي مَطرحاً لِرحالـه فنقَّب في بَرِّ البلاد وفي البحرِ
فلمّا أتى مروانَ خَيَّم عنـده وقال رضِينا بالمُقام إلى الحشرِ
وليست لمروانٍ على العِرس غَيرةٌ ولكنّ مَرواناً يغار على القِدْر

فقال له مروان : ناشدتُك الله إلاّ كَففتَ ، فأنت أشعرُ الناس . فحلف الجنّي بالطّلاق ثلاثاً أنّه لا يكُفّ حتى يصير إليه بنفرٍ من رؤساء أهل اليمامة ثم يقول بحضرتهم : قاق في ... بَيضة . فجلبهم إليه مروان وفعل ذلك بحضرتهم ، وكان فيهم جدّي يحيى بن الأيهم ، فانصرفوا وهم يضحكون من فعله .

(١) في المطبوعة : « بالهجاء » بدلاً من « بالفخار » و « حوى النهى » بدلاً من حوى « اللهى » وما أثبتناه يوافق الرواية المشهورة لهذه الأبيات ، وهي أجود . واللهى ج لهية ولهوة : وهي العطية . هلل الرجل : جبن وبرّ . القرف والمقرف : الهجين من الخيل وهو ضد الكريم .

محمد بن يحيى بن أبي مُرّة التغلبيّ قال :

مررت بجعفر بن عفّان الطائيّ يوماً وهو على باب منزله ، فسلّمت عليه ، فقال لي : مرحباً يا أخا تَغلِب ، اجلس . فجلستُ ، فقال لي : أما تعجَب من ابن أبي حفصة ـ لَعَنه اللهُ ـ حيث يقول :

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ ... لِبني البَنات وِراثةُ الأعمامِ(1)

فقلت : بَلى والله إنيّ لأتعجّب منه وأُكثر اللَّعْن له ، فهل قلتَ في ذلك شيئاً ؟ فقال : نعم ، قلت :

لِمْ لا يكون وإنّ ذاك لَكائنٌ ... لِبني البنَات وِراثةُ الأعمام

للبِنت نصفٌ كاملٌ من ماله ... والعمُّ متروكٌ بغير سِهام

ما للطَّليق وللتُّراث وإنّما ... صَلّى الطَّليقُ مَخافةَ الصَّمصامِ(2)

وفاته

صالح بن عطيّة الأضجم قال :

لّما قال مروان :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثةُ الأعمام

لزمتهُ وعاهدتُ اللهَ أن أغتاله فأقتلَه أيَّ وقت أمكنني ذلك ، وما زلت أُلاطفه وأَبَرُّه وأكتب أشعاره حتى خُصصت به ، فأَنس بي جِداً ، وعرفتْ ذلك بنو حفصة جميعاً فأَنِسوا بي ، ولم أزل أطلب له غِرّةً حتى مرض من حُمّى أصابته ،

---

(1) في هذا البيت وفي الأبيات التي بعده ، ولم تذكر هنا ، يقرر ابن أبي حفصَة حق بني العباس في وراثة النبي عليه السلام دون أبناء علي .

(2) الطليق : أراد به العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله عليه السلام . الصمصام : السيف القاطع .

فلم أزل أُظهر لَه الجزع عليه وأُلازمه وأُلاطفه ، حتى خلا لي البيت يوماً ، فوثبتُ عليه فأخذت بحَلْقه ، فمَا فارقته حتى مات . فخرجت وتركتهُ ، فخرج إليه أهلُه بعد ساعةٍ فوجدوه ميّتاً ، وارتفعت الصَّيحةُ فحضرتُ وتباكيت وأظهرت الجزَع عليه حتى دُفن ، وما فطِنِ بما فعلت أحدٌ ولا اتّهمني به .

* * *

٣٥

مُسلِم بن الوَليد

[الأغاني الجزء ١٩ ص ٣٠ وما بعدها]

الشاعر

هو مُسلِم بن الوليد ، أبوه الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبي أُمامة أسعد ابن زُرارة الخارجيّ . يُلقَّب صريعَ الغواني ، شاعرٌ متقدّم من شعراء الدولة العباسية ، منشؤه ومَولده الكُوفة . وهو فيما زعَموا أولُ من قال الشعرَ المعروف بالَبديع ، هو لَقّب هذا الجنسَ « البديعَ » واللطيف ، وتبِعه فيه جماعةٌ وأشهرُهم فيه أبو تمّام الطائي ، فإنه جعل شعرَه كلَّه مَذهباً واحداً فيه ، ومسلمٌ كان مُتفنّناً متصّرِفاً في شعره .

قال أبو العبّاس محمد بن يزيد :

كان مسلمٌ شاعراً حسن النَّمَط ، جيّدَ القول في الشراب ، وكثيرٌ من الرُّواة يقرِنه بأبي نُواس في هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعاني الظَّريفة واستخرجها .

محمد بن القاسم بن مَهْرُوَية قال :

سمعت أبي يقول : أوّلُ من أَفسد الشعر مسلمُ بن الوليد ، جاء بهذا الذي سمّاه الناسُ البديعَ ، ثم جاء الطائيُّ بعده فتَفنّن فيه .

حمّاد بن اسحاق عن أبيه قال :

لقي مسلمُ بن الوليد أبا نُواس فقال له : ما أَعرِف لك بيتاً الاّ فيه سَقَط . قال : فما تحفَظ من ذلك ؟ قال : قُل أنت ما شئتَ حتى أُريَك سقَطه فيه . فأنشده :

ذَكر الصَّبوحَ سُحَيرة فارتاحا ... وأَملَّه ديكُ الصَّباح صِياحا

فقال له مسلم : فلمَ أَملَّه وهو الذي أَذكره به وارتاح ؟ فقال أبو نواس : فأنشِدني شيئاً من شعرك ليس فيه خَلَلَ . فأنشده مُسلم :

عاصى الشبابَ فراح غيرَ مُفَنَّدِ ... وأقام بين عَزيمةٍ وتجلُّدِ

فقال له أبو نواس : قد جعلتَه رائحاً مقيماً في حال واحدة وبيت واحد . فتشاغبا وتساباً ساعةً ، وكلا البيتين صحيحُ المعنى .

قال محمد بن عبدالله بن مُسلم : حدّثني أبي قال :

اجتمع أصحابُ المأمون عنده يوماً ، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضُهم : أين أنت يا أميرَ المؤمنين عن مُسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثى رجلاً :

أرادوا لِيخُفوا قبرَه عن عَدوّه ... فطِيب تُراب القبر دَلّ عل القبرِ

وحيث مدَح رجلاً بالشجاعة فقال :

يجُود بالنفس إذ ضَنّ الجَوادُ بها ... والجُود بالنفس أقصى غاية الجُودِ

وهجا رجلاً بقُبح الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحت مناظرُه فحين خَبرِتُه ... حَسُنتْ مناظره لقُبح المَخْبَرِ

وتغزل فقال :

هوىً يجِدُّ وحبيبُ يلعبُ ... أنت لَقىً بينهما مُعَذَّبُ

فقال المأمون : هذا أشعرُ من خُضتُم اليوم في ذِكره

عن الحسين بن أبي السَّريّ قال :

قيل لمسلم بن الوليد : أيُّ شعرك أحبُّ اليك ؟ قال : إنّ في شعري لَبيتاً أخذت معناه من التوراة ، وهو قولي :

دَلّتْ على عَيبها الدنيا وصَدَّقها ... ما أستَرجع الدهرُ ممّا كان أعطاني

قال الحسين : وحدّثني جماعة من أهل جُرجان أنّ راوية مُسلم جاء اليه بعد أن تاب لِيعرِض عليه شعره ، فتغافَله مسلمٌ ثم أخذ منه الدفتر الذي في يده ، فقذف به في البحر ، فلهذا قَلّ شعرُه ، فليس في أيدي الناس منه الا ما كان بالعـــراق وما كان في أيدي الممدوحين من مدائحهم .

قال الحسين : وحدّثني الحسين بن دِعبل قال : قال أبي لِمسلم : ما معنى قولك :

« لا تَدْعُ بي الشوقَ إني غيرُ مَعْمودِ »

قال : لا تدعُني صريعَ الغواني فلستُ كذلك . وكان يُلقَّب هذا اللقب وكان له كارهاً .

دِعبل بن عليّ قال :

كان مسلم بن الوليد من أبخل الناس ، فرأيتُه يوماً وقد استقبل الرِضّا عن غلام له بعد مَوجِدة[1] ، فقال له : قد رضِيتُ عنك وأمرت لك بدرهم .

الحسين بن أبي السريّ قال :

كان مسلمُ بن الوليد أستاذَ دِعبل ، وعنه أخذ ، ومن بحره استقى . وحدّثني دعبلٌ أنه كان لا يزال يقول الشعر فيعرِضهُ على مسلم فيقول له :

---

(١) الموجدة : الغضب .

إيّاك أن يكون أولُ ما يظهرُ لك ساقطاً فتُعرفَ به ، ثم لو قلت كلَّ شيء جيداً كان الأولُ أشهرَ عنك ، وكنت أبداً لا تزال تعيَّرُ به . حتى قلتُ :

« أين الشبابُ وأيّةً سَلَكا »

فلما سمع هذه قال لي : أظهِر الآن شعرك كيف شئتَ .

أحمد بن سعيد الحريريّ :

أن أبا تمّام حَلف الاّ يُصلي حتى يحفظ شعرَ مسلمٍ وأبي نواس . فمكث شهرين كذلك حتى حفظ شعرهما . قال : ودخلت عليه فرأيت شعرَهما بين يديه فقلت له : ما هذا ؟ فقال : اللاّتُ والعُزّى وانا أعبُدهُما من دون الله .

دِعبل بن عليّ قال :

كان أبو نواس يسألني أن أجمعَ بينه وبين مُسلم بن الوليد ، وكان مسلمٌ يسألني أن أجمع بينه وبين أبي نُواس وكان أبو نواس اذا حضَر تخلّف مسلمٌ واذا حضر مسلمٌ تخلّف أبو نواس ، الى ان اجتمعا ، فأنشده أبو نواس :

أجارةَ بيتينا أبــوكِ غَـيــورُ ومَيسور ما يُرجى لديكِ عسيرُ

وأنشده مسلم :

لله من هاشمٍ في أرضــه جَـبلٌ وأنت وابنُك رُكنا ذلك الجبلِ

فقلت لابي نواس : كيف رأيت مسلماً ؟ فقال : هو أشعر الناس بعدي .
وسألت مسلماً : كيف رأيت أبا نواس ؟ فقال : هو أشعر الناس وأنا بعدَه

أخباره مع يزيد بن مزيد ومدائحه فيه

عن عبدالله بن مُسلم الدينوريّ قال :

كان مسلمُ بن الوليد وأخوه سليمان منقطعَين الى يزيد بن مَزْيدَ ومحمد بن منصور بن زياد ، ثم الفضل بن سَهل بعد ذلك . وقَلّد الفضلُ مسلماً المَظالمَ بجُرجانَ ، فمات بها .

عن القَحْذَميّ قال :

قال يزيد بن مَزيد : أرسل إليّ الرشيدُ يوماً في وقت لا يُرسَل فيه الى مثلي ، فأتيتُه لابساً سلاحي ، مُستعداً لأمرٍ إن أراده . فلمّا رآني ضحك إليّ ثم قال : يا يزيدُ ، خَبِّرْني مَن الذي يقول فيك :

تراه في الأمن في دِرْعٍ مُضاعفَـــة   لا يأمَنُ الدَّهْرَ أن يُدعَى على عَجَلِ
صافي العِيانِ طموحُ العَين هِمَّتُــهُ   فَكُّ العُناة وأسرُ الفاتـك الخَطِلِ
للهِ من هاشمٍ في أَرضـه جبـلٌ   وأنت وابنُك رُكنا ذلك الجبلِ [1]

فقلت : لا أَعرِفُه يا أمير المؤمنين . قال : سَوءةً لك من سيّد قوم يُمدح بمثل هذا الشعر ولا تعرِف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فَرَواه ووصل قائله ، وهو مُسلم بن الوليد . فانصرفت فدعوتُ به ووصلتهُ ووليّتهُ .

أبو عبدالله أحمد بن محمد بن سليمان الحنفيّ ذو الهِدْمَين قال : حدّثني أبي قال :

دخل يزيد بن مَزْيد على الرشيد فقال له : يا يزيدُ ، من الذي يقول فيك :

لا يَعبَـقُ الطِيبُ خدَّيه ومَفرِقَـه   ولا يُمَسِّح عينَيه من الكُحُلِ
قدعَـوّد الطيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بهـا   فهنّ يَتبعنَه في كلّ مُرْتَحَـــلِ

فقال : لا أعرِف قائله يا أمير المؤمنين . فقال له هارون : أيُقال فيك مثلُ هذا الشعر ولا تعرف قائله ! فخرج من عنده خجِلاً ، فلما صار الى منزله دعا حاجبَه فقال له : من بالباب من الشعراء ؟ قال : مُسلم بن الوليد . فقال : وكيف حجبته عني فلم تُعلمني بمكانه ؟ قال : أخبرتُه أنك مُضيقٌ [2] ، وأنه ليس في يديك

---

(١) العناة ج العاني : الأسير . الخطل : السريع الطعن .

(٢) أضاق الرجل فهو مضيق : ضاق عليه عيشه وقلّ ماله .

شيءٌ تُعطيه اياه ، وسألتهُ الإمساكَ والمُقامَ أياماً الى أن تتّسعَ . قال : فأنكر ذلك عليه وقال : أدخِلْه إليَّ . فأدخله اليه ، فأنشدَه قوله :

أجررتُ حبلَ خَليعٍ في الصِبا غَزِلِ ... وشَمّرت هِمَمُ العُذّال في عَذَلي
ردَّ البكاءَ على العين الطَّموحِ هوىً ... مُفَرَّقٌ بين توديعٍ ومُرْتَحَلِ
أما كفى البَينَ أن أُرمَى بأسهُمه ... حتى رماني بلَحْظ الأعينُ النُجُلِ
مما جنت لي ، وإن كانت مُنىً صدقتْ ... صَبابةً خُلَسَ التّسليم بالمُقَلِ

فقال له : قد أمرنا لك بخمسين ألفَ درهم ، فاقبضها واعذِر. فخرج الحاجبُ فقال لمسلم : قد أَمرني أن أرهنَ ضَيعةً من ضِياعه على مائة ألف درهم ، خمسون ألفاً لك وخمسون ألفاً لنفقَته . وأعطاه إيّاها ، وكتب صاحبُ الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد بمائتي الف درهم وقال : اقضِ الخمسين الألف التي أخذها الشاعر وزِدْه مثلها ، وخذ مائةَ ألفٍ لنفَقتك . فافتكَّ ضَيعتَه وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أخرى .

عليّ بن عمرو قال :

حدّثني مسلمُ بن الوليد المعروفُ بصَريع الغواني قال : كنت يوماً جالساً في دكّان خياط بإزاء منزلي إذ رأيت طارقاً ببابي ، فقُمت اليه فإذا هو صديقٌ لي من أهل الكوفة قد قدِم من قُمٍّ ، فسُررت به ، وكأنّ إنساناً لطَم وجهي لأنه لم يكن عندي درهمٌ واحد أُنفقه عليه ، فقُمت فسلّمتُ عليه وأدخلتُه منزلي ، وأخذت خُفَّين كانا لي أتجمّلُ بهما ، فدفعتُهما الى جاريتي وكتبت معها رقعةً الى بعض معارفي في السوق أسأله أن يبيع الخُفَّين ويشتري لي لحماً وخبزاً بشيء سمَّيتُه . فمضت الجارية وعادت اليّ وقد اشترى لها ما قد حَدَّدْته له ، وقد باع الخُفَّين بتسعة دراهم ، فكأنها إنما جاءت بخُفَّين جديدين . فقعدت أنا وضيفي نطبُخ ،وسألت جاراً لي أن يَسقينا قارورةَ نبيذ ، فوَجَّه بها إليّ ، وأمرت الجارية بأن تُغلقَ باب الدّار مخافةَ طارق يجيءُ فيشركُنا فيما نحن فيه ليبقى

لي وله ما نأكله الى أن ينصرف . فإنا لجالسان نطبخُ حتى طَرق البابَ طارقٌ ، فقلت لجاريتي : انظري مَن هذا . فنظرتْ من شِقّ الباب فإذا رجلٌ عليه سوادٌ وشاشيّةٌ ومِنطقةٌ ومعه شاكريٌّ ، فخبّرتني بموضعه فأنكرتُ أمره ، ثم رجعتُ الى نفسي فقلت : لستُ بصاحب دَعارة ، ولا للسُّلطان عليَّ سبيلٌ . ففتحتُ الباب وخرجت اليه ، فنزل عن دابتّه وقال : أأنت مسلمُ بن الوليد ؟ قلت : نعم . فقال : كيف لي بمعرفتك ؟ قلت : الذي دلّك على منزلي يُصَحِحِ لك معرفتي . فقال لغلامه . أمضِ إلى الخيّاط فسَلْه عنه . فمضي فسأله عني ، فقال : نعم ، هو مُسلم بن الوليد ، فأخرَجَ إليَّ كتاباً من خُفّه وقال : هذا كتاب الأمير يزيد بن مَزيد إليّ ، يأمرني ألا أفضّه الا عند لقائك . فإذا فيه : اذا لقيتَ مسلم بن الوليد فادفَع اليه هذه العشرةَ آلاف درهم التي أنفذتُها ، تكون له في منزله ، وادفع ثلاثة آلافِ درهم نفقةً يتحمّل بها إلينا . فأخذتُ الثلاثة والعشْرةَ ودخلت الى منزلي والرجلُ معي ، فأكلنا ذلك الطعامَ ، وازدَدتُ فيه وفي الشراب ، واشتريتُ فاكهةً ، واتسعتُ ووهبت لضَيفي من الدراهم ما يُهدي به هديةً لعِياله ، وأخذت في الجِهاز ثم ما زلت معه حتى صِرنا الى الرَّقّة الى باب يزيد ، فدخل الرجلُ واذا هو أحد حُجّابه ، فوجده في الحَمام ، فخرجَ إليّ فجلس معي قليلاً ثم خُبِّرَ الحاجب بأنه قد خرج من الحَمام ، فأدخَلني اليه ، واذا هو على كُرسي جالسٌ ، وعلى رأسه وصيفةٌ بيدها غِلافُ مرآة ، وبيده هو مرآةٌ ومُشطٌ يُسرّح لِحيته ، فقال لي ، يا مسلمُ ، ما الذي بَطّأ بك عنّا ؟ فقلت : أيها الأميرُ قِلّةُ ذات اليد . قال : فأنشِدني . فأنشدتُه ، قصيدتي التي مدحتُه فيها :

أجررتَ حبلَ خليعٍ في الصِبا غـزِلِ ... وشَمّرتْ هِمَـمُ العُذال في عَـذَلي

فلمّا صرتُ الى قولي :

لا يعبَقُ الطِيبُ خـدَّيـه ومَفرِقـه ... ولا يُمسّح عينيه مـن الكُحُـلِ

وضع المرآة في غِلافها وقال للجارية : انصرفي ، فقد حَرّم علينا مُسلمٌ الطيبَ . فلما فرغت من القصيدة قال لي يا مسلمُ ، أتدري ما الذي حَداني الى ان وجهتُ اليك ؟ فقلت : لا والله ما أدري . قال : كنتُ عند الرشيد منذ ليالٍ أُغَمِّزُ[1] رجليه ، إذ قال لي : يا يزيدُ ، من القائل فيك :

سَلّ الخليفةُ سيفاً مـن بني مطرٍ يمضي فيخترمُ الأجسادَ والهاما
كالدّهر لا يَنثني عما يَهُمُّ بـه قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاما

فقلت : والله ما أدري . فقال لي الرشيد : يا سُبحانَ الله ! أنت مُقيمٌ على أعرابِيتّك ، يقال فيك مثلُ هذا الشعر ولا تدري مَن قائله ؟ فسألتُ عن قائله ، فأُخبرت أنك أنت هو ، فقُم حتى أُدخِلك على أمير المؤمنين .

ثم قام فدخل على الرشيد ، فما علمتُ حتى خرج عليّ الإذن ، فأذن لي ، فدخلت على الرشيد ، فأنشدتُه ما لي فيه من الشعر فأمر لي بمائتي ألف درهم . فلمّا انصرفتُ الى يزيد أمر لي بمائة وتسعين ألفاً وقال : لا يجوز لي أن أُعطيَك مثلما أعطاك أميرُ المؤمنين . وأقطَعَني إقطاعات تبلغ غَلَّتُها مائتي ألف درهم .

قال مسلم : ثم أفضت بي الأمور بعد ذلك الى أن أغضَبَني ، فهجوتُه ، فشكاني الى الرشيد ، فدعَاني وقال : أتبيعُني عِرضَ يزيد؟ فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، فقال لي : بكم ؟ فقلت : برغيف خُبز. فغضب حتى خفتُه على نفسي وقال : قد كنتُ على أن أشتريَه منك بمالٍ جَسيم ، ولست أفعلُ ولا كرامةَ ، فقد علمتُ إحسانَه إليك ، وأنا نَفيٌّ من أبي ووالله ثم والله لئن بَلغني أنك هجوتَه لأَنزِعَنَّ لسانَك من بين فَكَّيك . فأمسكتُ عنه بعد ذلك ، وما ذكرتُه بخيرٍ ولا شرّ .

محمد بن عبدالله اليعقوبيّ قال :

حدّثني البَيْدَق الراوية ، وكان من أهل نَصِيبين ، قال : دخلتُ دار يزيد بن

---

(١) غمز رجليه : كبسهما ودلكهما بيديه .

مزيد يوماً وفيها الخَلْقُ ، واذا فتىً جالس في أفناء النّاس ، ولم يكن يزيد عَرَفه بعدُ ، واذا هو مُسلم بن الوليد ، فقال لي : ما في نفسي أن أقولَ شعراً أبداً . فقلت : ولِمَ ؟ قال : لأني مدحتُ هذا الرجل بشعر ما مُدح بمثله قطّ ، ولست أجِد من يُوصِله . فقلت له : أنشدني بعضَه . فأنشَدني منه :

مُوفٍ على مُهَجٍ في يوم ذي رَهَجٍ ... كأنّه أجلٌ يسعى إلى أملِ
يَقري السّيوفَ نفوسَ الناكثين بِه ... ويَجعلُ الرُّوسَ تيجانَ القَنا الذُّبلِ
لا يَعْبَقُ الطِّيبُ خَدَّيه ومَفْرِقَه ... ولا يُمَسِّح عينَيه من الكُحُلِ
اذا انتضى سيفَه كانت مَسالكُه ... مسالكَ الموت في الأجسام والقُلَل
وإن خلتْ بحديث النفس فِكرتُه ... عاشَ الرجاءُ وماتَ الخوفُ من وَجَل
كالليث إن هِجتَه فالموتُ راحتُه ... لا يَستريحُ الى الأيّام والدُّوَل
لله من هاشمٍ في أرضه جَبَلٌ ... وأنت وابنُك رُكنا ذلك الجبل
صدّقتَ ظنّيَ وصدّقتَ الظنونَ به ... وحَطّ جُودُك عَقْدَ الرَّحل عن جَمَلي(١)

قال : فأخذت منها بيتين ثم قلت له : أنشِدني أيضاً مالك فيه . فأنشَدني قصيدةً أُخرى ابتداؤها :

طيفَ الخيال حَمِدنا منك إلماما ... داويتَ سُقماً وقد هيّجتَ أسقاما

يقول فيها :

كالدّهر لا يَنثني عمّا يَهُمُّ به ... قد أوسعَ الناسَ إنعاماً وإرغاما

قال : فأنشدتُ هذه الأبياتَ يزيدَ بن مَزيد ، فأمر له بخمسمائة درهم ، ثم ذكرتُه بالرِّقّة فقلت له : هذا الشاعر الذي قد مَدَحك فأحسنَ ، تَقتصر به على خمسمائة درهم ! فبعث إليه بخمسمائة درهم أُخرى ، قال : فقال لي مسلم :

---

(١) الرهج : الغبار المثار ، والفتنة والشغب . يقري : يطعم : رمح ذابل : حادّ . القلل ج قلة : الرأس ، ومن كل شيْ أعلاه .

جاءتْني وقد رهنتُ طَيْلَساني على رؤوس الأخوان ، فوقعتْ مني أحسنَ مَوقع .

عن أبي فِرعونَ مولى يزيد بن مزيد قال :

ركب يزيد يوماً الى الرشيد فتغلّف بغالية،[1] ثم لم يلبث أن عاد فدَعا بطَسْتٍ فغَسل الغالية وقال : كرهتُ أن أُكذِّب قول مسلم بن الوليد

لا يَعْبَقُ الطِيبُ خدَّيه ومَفرِقَه ولا يمسِّح عينيه من الكُحُلِ

أبو تَوبة قال :

كان مسلمُ بن الوليد جالساً بين يدَي يزيد بن مَزْيَد ، فأتاه كتابٌ فيه مُهمٌّ له ، فقرأه سِرّاً ووضَعه ، ثم أعاد قراءتَه ووضَعَه ، ثم أراد القيام فقال له مسلم بن الوليد :

الحَزْمُ تَحريقُهُ إن كنت ذا حَذَرٍ وإنّما الحزمُ سُوءُ الظنِّ بالناس
لقد أتاك وقد أدّى أمانتَه فاجعَلْ صِيانتَه في بطن أَرماسِ[2]

قال : فضحك يزيد وقال : صدقتَ لَعمري . وخرّق الكتاب ، وأمر بإحراقه .

مَيمون بن هارون قال :

كان مسلم بن الوليد قد انحرف عن مَعْنِ بن زائدة بعد مَدحه إياه لشيء أوحشه منه ، فسأله يزيد بن مَزيد أن يَهَبه له ، فوعَده ولم يفعل ، فتركه يزيدُ خوفاً منه ، فهجاه هجاءً كثيراً ، حتى حلف له الرشيد إن عاود هجاءَه قطعَ لسانه . فن ذلك قوله فيه :

يا معنُ إنك لم تزل في خِزْيةٍ حتى لففتَ أباك في الأكفانِ
فاشكُر بلاءَ الموت عندك إنه أَودى بلُؤم الحيّ من شَيبانِ

---

(۱) تغلف بغالية : تطيّب بطيب .

(۲) أرماس ج رمس : القبر .

قال : وهجا أيضاً يزيد بن مَزيد بعد مَدحه أياه فقال :

أيزيدُ يا مَغرورُ أَلأمُ مَـــن مَـشى ترجُو الفَلاحَ وأنت نُطفةُ مَزْيَدِ
إن كنتَ تُنكِر مَنْطِقي فاصرُخْ بـــه يومَ العَرُوبة عند باب المَسجـــد
في مَن يزيد فإن أصبستُ بمَزْيَــدِ فَلْساً فهاك على مُخاطرةٍ يـدي[1]

هكذا روى جَحظةُ في هذا الخبر ، والشِعران جميعاً في يزيد بن مزيد ، فالأول منهما أوّلهُ :

أيزيدُ إنك لم تزَلْ في خَزيةٍ

وهكذا هو في شعر مسلم ، ولم يلق مسلمٌ معن بن زائدة ولا له فيه مدحٌ ولا هجاء.

محمد بن عبدالله بن جُشَم قال :

كان يزيد بن مزيد قد سأل مسلم بن الوليد عما يكفيه ويكفي عيالَه ، فأخبره فجعله جِرايةً له ثم قال : ليس هذا مما تُحاسَب به بدلاً من جائزة أو ثواب مديح . فكان يبعث به اليه في كل سنة ، فلمّا مات يزيدُ رثاه مسلم فقال :

أحـــقّــاً أنه أودى يــــزيـــدُ تبيَّنْ أيّـها النـاعـي المُشيِدُ
أتدري مَن نعيتَ وكيف فاهـت به شفَتاك كان بها الصَّعيدُ
أحامي المجد والإســلام أودى فما للأرض ويحَك لا تَـميدُ
تأمّلْ هل ترى الإسلام مالـــت دعائمهُ وهل شاب الــوليد
وهل شِيمتْ سيوفُ بني نـــزارٍ وهل وُضِعتْ عن الخيل اللّبودُ
وهل تَسقي البلادَ ثِقالُ مُـــزْنٍ بدِرَّتها وهل يَخضرُّ عُــود
أما هُدّت لِمصرعِه نـــــزارٌ بلى وتقوَّض المجدُ المَشيــــدُ
وحَلَّ ضَريحَه إذ حـــلَّ فيـــه طريفُ المجد والحَسبُ التَّليدُ
أما واللهِ ما تنفـــــكُّ عيني عليك بدمعها أبداً تَجُــودُ

(١) اصرخ به : أي نادِ على أبيك مزيد . يوم العروبة : يوم الجمعة . المخاطرة : المراهنة .

وإن تجمُدْ دموعُ لئيم قومٍ ... فليس لِدمعِ ذي حسَبٍ جُمود
أبعدَ يزيدَ تختزِنُ البواكي ... دموعاً أو تُصانُ لها خُدودُ
لِتَبْكِك قُبّةُ الإسلام لّما ... وهَتْ أطنابُها ووَهَى العَمُودُ
وَيَبْكِكَ شاعرٌ لم يُبقِ دهرٌ ... له نشباً وقد كسَد القصيدُ
فإن يَهلِكْ يزيدُ فكلُّ حيٍ ... فَرِيسٌ للمنيّة أو طَرِيدُ [1]

هكذا في الخبر ، والقصيدة للتَيْميّ .

أحمد بن محمد بن أبي سَعد قال :

أهديت الى يزيد بن مَزيد جاريةٌ وهو يأكل ، فلمّا رُفع الطعامُ من بين يديه وَطئها فلم ينزِل عنها ألا مَيتاً ، وهو بِبرذَعة [2] فدُفن في مقابر بَرذعة ، وكان مسلم معه في صَحابته ، فقال يرثيه :

قبرٌ ببرذعَةَ استسرّ ضريحهُ ... خطَراً تقاصر دُونه الأخطارُ
أبقى الزمانُ على ربيعةَ بعدَه ... حُزناً كعُمر الدهر ليس يُعار
سلكت بك العَربُ السبيلَ إلى العُلا ... حتى إذا بلغوا المدى بك حارُوا
نُفضت بك الأحلاس نفضَ إقامة ... واستَرجَعَت نُزّادَها الأمصار
فاذهَب كما ذهبتْ غوادي مُزنةٍ ... أثنى عليها السَّهلُ والأوعارُ [3]

عبدالله بن الحسن اللهبيّ قال :

كان مسلم بن الوليد مَدّاحاً ليزيد بن مَزيد ،وكان يُؤثره ويُقدمّه ويُجزل

(١) أودى : هلك . كان بها الصعيد : دعاء تدعو به العرب على من يحمل خبراً مشؤوماً فيقال له : بفيك التراب ، والصعيد هو التراب . شام السيف : أغمده . النشب : المال .

(٢) برذعة : بلد في أقصى أذربيجان .

(٣) استسر : أخفى ، وارى . الخطر : العظيم الشأن . الأحلاس ج حِلس : كل شيئ ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل ، يريد أن القتال توقف بعد موتك .

صلتَه ، فلمّا مات وفد على ابنه محمّد ، فمدحه وعزّاه عن أبيه وأقام ببابه أياماً فلم ير منه ما يُحبّ ، فانصرف عنه وقال فيه :

لبستُ عَزاءً عن لِقاء محمـــدٍ ... وأعرضتُ عنه مُنصِفاً ووَدُودا
وقلت لِنفسٍ قادها الشوقُ نحوَه ... فعَوِّضهـا منه اللِقاءَ صدودا
هَبِيه امـرأً قد كان أصفاكِ ودَّه ... ومات وإلاّ فاحسِبيه يزيــدا
لَعَمري لقد ولّى فلم ألقَ بعــدَه ... وفاءً لِذي عهدٍ يُعدّ حَميـدا

مهاجاته ابن قُنْبُر

مالك بن إبراهيم قال :

كان مُسلم بن الوليد يُهاجي الحكَمَ بن قُنْبُر المازنيّ ، فغلب عليه ابن قُنبر مدّةً وأخرسه ، ثم أثاب مُسلم بعد أن انخزَلَ وأفحم ، فهتَك ابن قُنبر حتى كفّ عن مُناقضته ، فكان يهرُب منه ، فإذا لقيه مسلمٌ قبض عليه وهجاه وأنشده ما قاله فيه ، فيُمسك عن إجابته . ثم جاءه ابنُ قُنبر الى منزله واعتذر اليه ممّا سَلَف ، وتحمّلَ عليه بأهله وسألَه الإمساكَ ، فوعَده بذلك ، فقال فيه :

حلُم ابنُ قُنْبُرَ حين أقصر جَهلُــه ... هل كان يحلُمُ شاعرٌ عن شاعرِ
ما أنت بالحكَمَ الذي سُمّيتَـــه ... غالتْك حِلْمَك هفوةٌ من قاهر
لو لا اعتذارُك لارتمى بك زاخِــرٌ ... مَرِحُ العُباب يَفوتُ طَرْفَ الناظر
لا تُرتِعَنْ لَحمي لسـانَك بـعدهَـا ... إني أخاف عليك شَفرةَ جـازر
واستَغْنِمِ العفوَ الذي أُوتِيــتَـه ... لا تأمَنَنَّ عُقـوبةً مـن قـادر

محمد بن عبدالله أبو بكر العَبْديُّ قال :

رأيت مسلمَ بن الوليد وابنَ قُنبر في مسجد الرُّصافة في يوم جُمعة ، وكلٌّ واحدٍ منهما بإزاء صاحبه ، وكانا يتهاجيان ، فبدأ مسلمٌ فقال :

أنــا النّـارُ في أحجارهـا مُستِكَنّـةً فإن كنـتَ ممّـن يـقدَحُ النارَ فاقدَحِ

فأجابه ابنُ قُنبر :

قد كنتَ تَهـوي وما قَوسي بمُوتَرةٍ فكيف ظنُّك بـي والقوسُ في الوَتَرَ

قال : فوثب اليه مسلمٌ وتواخزا وتواثبا ، وحَجَزَ الناسر بينهما فتفرّقا .

عليّ بن عَمروس الأنصاريّ قال :

جاء رجلٌ من الأنصار ثم من الخزرج الى مسلم بن الوليد فقال له : ويلَك ما لنَا ولك ، قد فضحتنا وأخزَيْتنَا ، تعرَّضتَ لابن قُنبر فهاجَيته حتى اذا أمكنّته من أعراضنا انخزلتَ عنه وأرعيتَه لُحومنَا ! فلا أنت سكتَّ ووسعك ما وسع غيرَك ، ولا أنت لمـّا انتصرتَ انتصفت . فقال له مسلم : فما أَصنع ؟ فأنا أصبِر عليه ، فإن كَفّ وإلا تحمَّلتُ عليه بإخوانه ، فإن كفّ وإلا وكلتُه الى بَغْيه ، ولنا شيخٌ يصوم الدّهرَ ويقوم الليل فإن أقام على ما هو عليه سألتهُ أن يسهَرَ له ليلةً يدعو الله عليه فيها فإنّها تُهلِكُه . فقال له الأنصاريُّ : سَخِنتْ عينُك ! أَوَ بهذ تَنتصفُ ممّن هجاك ! ثم قال له :

قد لاذ من خوف ابن قُنبرَ مُسلـمٌ بدُعاء والده مع الأسحـارِ

[الأبيات . .]

قال : فكاد مسلمٌ أن يموتَ غَمّاً وبكاءً ، وقال له : أنت شرٌّ عليّ من ابن قنبر . ثم أثاب[1] وحَمِيَ فهتَكَ ابنَ قنبر ومزّقه حتى تركه ، وتحمّل عليه بابنه وأهله حتى أعفاه من المهاجاة .

محمد بن عبدالله بن الوليد مولى الأنصار ـ وكان عالماً بشعر مسلم بن الوليد وأخباره ـ قال :

كان سبب المهاجاة بين مسلم بن الوليد والحكَم بن قُنبر أنّ الطرمّاح بن حكيم قد كان هجا بني تميم بقصيدته التي يقول فيها :

(١) أثاب : أقبل ، وأثاب أيضاً : عادت إليه قوّته .

لا عزّ نصرُ امرىءٍ أضحى له فــرسٌ على تميم يريد النصر مــن أحدِ

[الأبيات . . .]

وهي قصيدة طويلة ، وكان الفرزدق أجاب الطرمّاحَ عنها ، ثم إنّ ابن قنبر المازنيّ قال بعد خبرٍ طويل يردّ على الطرمّاح :

يا عاوياً هــاج ليثاً بــالعُواء لـــــه شَثْنَ البَراثن وَرد اللون ذا لِبَدِ[1]

[الأبيات . . .] . . . . . .

. . . فبلغ مسلم بن الوليد هجاء ابن قنبر للأزد وطيّء وردُّه على الطرمّاح بعد موته ، فغضب من ذلك وقال : ما المعنى في مناقضة رجلٍ ميتٍ وإثارة الشرّ بذكر القبائل ! لا سيّما وقد أجابه الفرزدق عن قوله ! فأبى ابنُ قنبر الا تمادياً في مُناقضته ، فقال مسلم قصيدته التي أولُها :

آياتُ أطلالٍ برامـــــةَ دُرَّسِ هِجنَ الصَّبابةَ إذ ذكرتُ مُعَرَّسي

أوحت الى دِرر الدّمُوع فأسبلـتَ واستفهمتْها غيرَ أن لم تَنبِسِ[2]

يقول فيها يصف الخمر :

صفراء من حَلَب الكُـــروم كسوتُها بيضاء من حَلَب الغُيوم البُجَّسِ

مُزجتْ ولاوَذَها الحَـبابُ فحاكها فكأنّ حِليَتَها جَنيُّ النَّرجِـــــس

ويقول فيها . . . . . . :

واذا افتخرتُ عــددتُ سعيَ مآثــرٍ قَصَرت على الأعضاء طَرْفَ الأشوسِ

رفعت بنو النّجار حِلفيَ فـــيهم ثم انفردت فأفسحوا عــن مَجلسي

فاعقِل لسانَــك عن شتائم قومـــنا لا يَعلقنَّك خــادرٌ مــن مأنسِ

أخلقت فخرك مــن أبيـك وجئتني بأبٍ جديد بــعد طــول تلمُّس

أخذتْ عليك المحكَمـاتُ طريقهـا فغدا يُهاجي أعظُماً في مَرمَسِ[1]

(١) شثن البراثن : خشنها وغليظها .

(٢) عرّس بالمكان : نزل به ليلاً .

(١) الأشوس : الرافع رأسه تكبراً . الخادر : الأسد في عرينه ، شبه نفسه بالأسد في صولته =

قال : فلم يُجِبه ابنُ قُنبر عن هذه بشيء ، ثم التقيا فتعاتبا واعتذر كل واحد منهما الى صاحبه ، فقال مسلم يهجوه :

حلُم ابن قنبر حين قصّر شعرهُ هل كان يحلم شاعرٌ عن شاعر

قال : ومكث ابن قنبر حيناً لا يجيبه عن هذا ولا عن غيره بشيء طلباً للكفاف . ثم هجا مسلمٌ قريشاً وفخر بالأنصار فقال :

قُل لِمَن تاه إذ بنا عَزّ جهلاً ليس بالتيه يفخرُ الأحرارُ
فتناهَوا وأقصِروا فلقد جا رت عن القصد فيكم الأنصار
أيكُّم حاط ذا جِوارٍ بعزٍ قبل أن تَحتويه منّا الدّار
او رجا أن يفوتَ قوماً بوِتْرٍ لم تزلْ تَمتطيهم الأوتارُ
لم يكن ذاك فيكمُ فدعُوا الفخرَ بما لا يَسُوغُ فيه افْتِخَارُ
ونزاراً ففاخِروا تَفضُلوهم ودعُوا مَن له عبيداً نِزارُ
فبنا عزّ منكم الذلُّ والدهرُ عليكم بريبةٍ كرّار
حاذِروا دولةَ الزّمان عليكم إنه بين أهلِه أطوارُ
فتُرَدّوا ونحن للحالة الأولى وللأَوحد الأذَلّ الصَّغار
فاخرتْنا لمّا بَسَطْنا لها الفخرَ قريشٌ وفخرُها مستعارُ
ذكرتْ عزَّها وما كان فيها قبل أن يَستجيرَنا مُستجارُ
إنما كان عِزُّها في جبالٍ ترتقيها كما تَرَقّى الوِبارُ
أيها الفاخرون بالعزّ والعِزُّ لِقومٍ سواهمُ والفَخارُ
أخبِرونا مَن الأعَزُّ اَلْمنصورُ حتى اعتلى أم الأنصارُ
فلنا العِزُّ قبلَ عِزِّ قريشٍ وقريشٌ تلك الدّهورَ تِجارُ (٢)

= وشدة هجائه . يهاجي أعظماً في مرمس : أراد هجاء الطرماح بعد وفاته .

(٢) الوبار ج وَبر : حيوان صحراوي في حجم السِنّور .

قال : فانبرى له ابنُ قُنبر يُجيبه فقال :

ألا امثُلْ أميرَ المؤمنين بمُسلـــم وأفلِقْ به الأحشاء من كلّ مُجرمِ
ولا ترجِعَنْ عن قتله باستنابـــةٍ فما هو عن شتم النبيّ بمُحْجِمِ
ولا عن مساواةٍ لـــه ولقـــومه قريش بأصداء لِعادٍ وجُرهُمِ

[الأبيات . . .]

قال : وكان مسلم قال هذه القصيدة في قريش وكَتَمها ، فوقعت الى ابن قُنْبر ، وأجابه عنها واستعلى عليه وهَتَكَه ، وأغرى به السُّلطان ، فلم يكن عند مسلم في هذا جوابٌ أكثر من الانتفاء منها ونِسبتها الى ابن قُنبر ، والادعاء عليه أنه ألصقها به ، ونَسبها اليه ، ، لِيعُرِضَهُ للسلطان ، وخافه فقال ينتفي من هذه القصيدة ويهجو تميماً :

دعوتَ أمير المؤمنين ولـــم تكـــن هناك ولكن مَـــن يَخَفْ يتجشَّمِ
وإنك إذ تدعو الخليـــفـــة ناصـــراً لكـــالمترقّيّ في السّماء بسُلّـــم
كذاك الصّدى تدعُوه من حيث لا ترى وإن تتوهَّمْه تَمُتْ في التوهُّـــم
هجوتَ قريشاً عامـــداً ونحلـــتني رُويدَك يظهرْ مـــا تقولُ فيُعلَمِ
إذا كان مثلي في قَبيلي فـــإنّـــه على ابنَي لُؤَيٍّ قُصْرةً غيرُ متّهمِ

[الأبيات . . . .]

قال : ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قُل لعبد النَّضير مُسلمِ الوَغْـــدِ الدَّنيء اللئيم شيخ النِصّابِ

[الأبيات . . . .]

وهي قصيدة طويلة ، فلم يُجِبه مسلمٌ عنها بشيء ، فقال فيه ابنُ قنبر أيضاً :

لستُ أنفيكَ إن سوايَ نـــفاكـــا عن أبيك الذي لـــه مُنْتـــماكا

[الأبيات . . . .]

وهي طويلة ، فلم يُجبه مسلمٌ عنها بشيء ، فقال ابن قُنبر أيضاً يهجوه :

فخرَ العبدُ عبدُ قِنٍّ اليهودِ بضعيفٍ من فخره مَردُودِ

[الأبيات . . . .]

قال : فلمّا أفحش في هذه القصيدة وفي عدّة قصائد قالها ، ومسلمٌ لا يجيبه ، مشى اليه قومٌ من مَشيخة الانصار ، واستعانوا بمشيخةٍ من قُرّاء تميم وذوي العلم والفضل منهم ، فمشوا معهم اليه فقالوا له : ألا تستحي من أن تهجُوَ مَن لا يُجيبُك ! أنت بدأت الرجل فأجابك ، ثم عُدتَ فكَفّ ، وتجاوزت ذلك الى ذِكر أعراض الأنصار التي كان رسول الله ﷺ يحميها ويذُبُّ عنها ويَصُونُها لغير حالٍ أحلَّت لك ذلك منهم ، فما زالوا يَعِظُونه ويقولون له كلَّ قولٍ حتى أمْسَك عنِ المناقضة لُمسلم ، فانقطعتْ .

سائر أخباره

● محمد بن يزيد قال .

كان السبب في قول مسلم :

تَدَّعي الشوقَ إن نَأَتْ وتَجَنّى إذا دنتْ

أنه علِق جاريةً ذات ذِكرٍ وشَرَف ، وكان منزلها في مَهَبّ الشمال من منزله ، وفي ذلك يقول :

أُحبّ الرِيحَ ما هبّتْ شمالا وأحسُدُها إذا هبّتْ جَنُوبا
أهابُك أن أبوحَ بذات نفسي وأفرقُ إن سألتُك أن أخيبا
وأهجرُ صاحبي حُبَّ التجنّي عليه اذا تَجنّيتُ الذُّنوبا
كأني حين أُغضي عن سواكم أخاف لكم على عيني رَقيبا

قال : وكانت له جاريةٌ يُرسلها اليها ويَبُثُّها سرَّه وتعود اليه بأخبارها ورسائلها ،

فطال ذلك بينهما حتى أحبَّتْها الجاريةُ التي علِقها مسلمٌ ومالت اليها ، وكلتاهما في نهاية الحُسن والكمال .

وكان مسلمٌ يحبّ جاريته هذه محبةً شديدة ، ولم يكن يهوى تلك ، إنما كان يُريد الغزَل والمجونَ والمُراسلة وأن يَشيعَ له حديثٌ بهواها ، وكان يرى ذلك من الملاحة والظَّرف والأدب . فلما رأى مودّة تلك لجاريته هجر جاريته مُظهِراً لذلك ، وقطعها عنِ الذَّهاب الى تلك ، وذلك قولُه :

وأهجر صاحبي حُـبَّ التجنّـي ... عليه اذا تجنَّيتُ الذُّنوبـــا

وأرسلها مع غير جاريته الأولى وذلك قولُه :

تدَّعي الشـوقَ إن نـأتْ ... وتَجنَّى اذا دنـــتْ
واعدتنْا وأخلَـــفتْ ... فأساءت وأحســـنتْ
سرَّني لـو صبرتُ عنـها فتُجزَى بما جَنَـتْ
إنَّ سَلمى لـو اتَّقـت ... ربَّها فيَّ أنـجـزتْ
زرعـتْ في الحـشا الهـوى ... وسقـتْه حتـى نَبَـتْ

● الحسن بن سعيد عن أبيه قال :

كان داود بن يزيد بن حاتم المُهلَّبيّ يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً . فيقصِدونه لذلك اليوم ويُنشدونه . فوَجّه اليه مسلمُ بن الوليد راويته بشعره الذي يقول فيه :

جعلتَه حيـث ترتاب الرياحُ به ... وتحسُدُ الطَّيرَ فيه أضبُعُ البِيدِ

فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ، ولَحِقه بعقَبِ خروجهم عنه ، فتقدم الى الحاجب وحسر لِثامَه عن وجهه ثم قال له : استأذنْ لي على الأمير. قال : ومَن أنت ؟ قال : شاعرٌ. قال : قد انصرم وقتُك وانصرف الشعراءُ ، وهو على القِيام ، فقال له : ويحَك ! قد وفدتُ على الأمير بشعرٍ ما قالت العربُ مثلَه . قال : وكان مع الحاجبِ أدبٌ يفهم به ما يسمعُ ، فقال : هاتِ حتى أسمع ،

فإن كان الأمر كما ذكرتَ أوصلتُك إليه . فأنشَده بعض القصيدة ، فسمع شيئاً يقصُر الوصف عنه ، فدخل على داود فقال له : قد قدِم على الأمير شاعرٌ بشعرٍ ما قيل فيه مثلهُ . فقال : أُدخِل قا ئلَه . فأدخلَهَ ، فلمّا مثلَ بين يديه سلّم وقال : قدِمتُ على الأمير ــ أعزّه الله ــ بمدحٍ يسمعه فيَعلمُ به تقدُّمي على غيري ممّن امتدحه . فقال : هاتِ . فلمّا افتتح القصيدة وقال :

لا تدعُ بــي الشوق إنّي غير مَعمــودِ نَهى النُّهى عن هوىٰ البِيضِ الرّعاديدِ(١)

استوى جالساً وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه اليه ثم قال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم ، أعزّ الله الأمير . قال : في كم قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر ، أبقاك اللهُ . قال : لو قلتهُ في ثمانية أشهر لكنت مُحسناً ، وقد اتّهمتُك لجودة شعرك وخُمول ذِكرك ، فإن كنتَ قائلَ هذا الشعر فقد أنظرتك أربعةَ أَشهُر في مثله ، وأمرتُ بالإجراء عليك ، فإن جئتَنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم والا حرمتُك . فقال : او الإقالة ، أعزّ الله الأمير . قال : أقَلْتُك . قال : الشعر لمسلم بن الوليد ، وأنا راويتُه والوافدُ عليك بشعره . فقال : أنا ابنُ حاتم ! إنكَ لمّاَ افتتحت شعره فقلت :

« لا تدعُ بــي الشوق إني غير مَعمود »

سمعت كلامَ مسلم يناديني ، فأجبتُ نداءه واستويتُ جالساً . ثم قال : يا غُلام ، أعطِه عشرةَ آلاف درهم ، واحمِل السّاعةَ الى مُسلم مائة ألف درهم .

● موسى بن عبدالله التميميّ قال :

دخل مسلم بن الوليد الأنصاريّ على الفضل بن سَهل لينشِدَه شعراً ، فقال له : أيها الكَهل ، اني أُجِلّك عن الشعر ، فسَلْ حاجتك . قال : بل تَستتمُّ اليد عندي أن تسمع . فأنشده :

---

(١) فقاة رعديدة : رخصة ناعمة .

دموعُها من حِذار البَين تَنسَكبُ — وقلبُها مُغرَمٌ من حرّها يَجِبُ
جَدّ الرحيلُ به عنها ففارقها — لِبَيْنه اللهوُ واللذّات والطرب
يهوى المسير الى مَرْوٍ ويُحزِنه — فِراقُها فهو ذو نفسَين يَرتقبُ

فقال له الفضل : إني لأُجِلُّك عن الشعر. قال : فأغْنِني بما أحببتَ من عملك . فولاّه البريدَ بجُرجان .

● محمد بن عمرو بن سعيد قال :

خرج دِعبلٌ الى خراسان لمّا بلَغه حُظوة مسلم بن الوليد عند الفضل بن سَهل ، فصار الى مَرْوَ وكتب الى الفضل بن سهل :

لا تَعْبَأَنْ بابن الوليد فإنّه — يَرميك بعدَ ثلاثة بمَلالِ
إنّ المَلُولَ وإن تقادم عهدُه — كانت مَودّتُه كفَيْء ظِلالِ

قال : فدفع الفضلُ الى مسلم الرُّقعة وقال له : أنظُر يا أبا الوليد الى رُقعة دِعبل فيك . فلمّا قرأها قال له : هل عرفتَ لقب دِعبل وهو غُلامٌ أمرد . . . . ؟ قال : لا . قال : كان يُلقَّب .بمَيّاس . ثم كتب اليه :

مَيّاسُ قُـل لي: أين أنت من الورى — لا أنت معلومٌ ولا مجهولُ
أمّا الهجاءُ فدَقّ عِرضُك دُونَه — والمدحُ عنك كما علمتَ جَليلُ
فاذهب فأنت طَليقُ عِرضك إنه — عِرضٌ عززتَ به وأنت ذليلُ

● أبو تمّام الطائي قال :

ما زال دعبلٌ متعصباً لِمسلم مائلاً اليه ، معترفاً بأستاذيته ، حتى ورد عليه جُرجانَ ، فجفاه مُسلم ، وهجره دِعبل ، فكتب اليه :

أبا مَخْلَدٍ كنّا عَقيدَي مَودّةٍ — هوانا وقلبانا جميعاً معاً معا
أَحُوطك بالغيب الذي أنت حائطي — وأَجزَعُ إشفاقاً بأن تَتوجّعا

فصيّرتني بعد انتكـــــاثك مُتْهِماً   لنفسي عليها أَرهَبُ الخلقُ أجمعا
غششتَ الهوى حتى تداعت أصولُـــه   بنا وابتذلتَ الوصلَ حتى تَقطّعا
وأنزلت من بين الجـــوانـح والحشا   ذخيرةَ وُدٍ طال ما قد تمنّعـــا
فلا تَلحِيَنّي ليس لي فـيــك مَطــمعٌ   تخَرَقْتَ حتى لم أجد لك مَرقَعا
فهَبْك يميني استآكَلَـتْ فقَطعتُـــها   وجَشّمتُ قلبي صبره فتجشّمــا

قال : ثم تَهاجرا بعد ذلك فما التقيا حتى ماتا .

● عن محمد بن عبدالله العَبديّ قال :

هجا مسلمُ بن الوليد سعيدَ بن سَلْم ، ويزيدَ بن مَزْيدَ ، وخُزيمة بن خازم ، فقال :

دُيونُك لا يُقْضَى الزّمانَ غَريمُهـــا   وبُخلُك بُخل الباهليّ سعيـــدِ
سعيدُ بن سَلْمٍ أبخل الناس كُلِهّــم   وما قومُه من بُخلــه ببعيــدِ
يزيدُ له فضلٌ ولكـــنّ مَزْيـــداً   تدارك فينا بُخلَه بيزيــــدِ
خُزيمةُ لا عيبٌ لــه غير أنّــــه   لِمطبخه قُفلٌ وبـابٌ حديـــدِ

● مسلم بن الوليد قال :

وَجّه إليّ ذو الرِيّاستَين ، فحُملت اليه ، فقال أنشِدني قولك :

بالغَمرْ من زينـبَ أطـــلالُ   مَرت بهـا بعــدَكَ أحوالُ

فأنشدتُه إياها حتى انتهيت الى قولي :

وقائلٍ ليست لـــه ِهـمّـةٌ   كلاّ ولكــن ليس لي مالُ
وهِمّةُ المُقتِر أُمـــــنيّــةٌ   هَمٌّ مـع الـدهر وأشغـال
لا جِدَةٌ أُنهِـض عَزمي بـهـا   والناس سُؤّالٌ وبخّـــالُ
فاقعُد مـع الدهر الى دولــةٍ   ترفَع فيها حالَــك الحـالُ

قال : فلمّا أنشدتُه هذا البيت قال : هذه والله الدولةُ التي ترفع حالَك . وأمر لي بمالٍ عظيم وقلّدني جُوزجان[1] .

● موسى بن عبدالله التميميّ قال :

دخل مسلم بن الوليد عل الفضل بن سَهل فأنشده قولَه فيه :

لو نَطَق الناسُ أو أنبَوا بعلمهم ... ونبَّهتْ عن مَعالي دَهرك الكتبُ
لم يبلُغوا منك أدنى ما تَمُتُّ به ... اذا تفاخَرت الأملاكُ وانتَسَبُوا

فأمر له عن كلّ بيتٍ من هذه القصيدة بألف درهم .

ثم قُتل الفضل فقال يرثيه :

ذَهَلتُ فلم أنقَع غليلاً بعَبْرةٍ ... وأكبرتُ أن ألقَى بيومك ناعيا
فلمّا بدا لي أنه لاعجُ الأسى ... وأنْ ليس إلاّ الدمعُ للحزن شافيا
أقمتُ لك الأنواح ترتدُّ بينها ... مآتمُ تندبُنْ النَّدىَ والمعَاليا
وما كان مَنْعىَ الفَضل مَنعاةَ واحدٍ ... ولكنّ مَنعى الفضل كان مَناعياً
ألِلبأس أم للجُود أم لِمقاوِمٍ ... من المُلك يَزْحمن الجبال الرّواسيا
عفَتْ بعدَك الأيام لا بل تبدّلتْ ... وكُنّ كأعيادٍ فعُدنَ مباكيا
فلم أرَ إلاّ قبلَ يومك ضاحكاً ... ولم أرَ إلاّ بعدَ يومك باكيا

● محمد بن المُهَنّأ قال :

كان العبّاس بن الأحنف مع إخوانٍ له على شَراب ، فذكروا مسلم بن الوليد ، فقال بعضُهم : صَريعُ الغَواني ، فقال العبّاس : ذاك ينبغي أن يُسمَّى صَريعَ الغِيلان لا صَريعَ الغواني . وبلغ ذلك مسلماً فقال يهجوه :

بنو حنيفةَ لا يَرضى الدَعيُّ بهم ... فاترُك حنيفةَ واطلب غيرَها نسبا

---

(١) جوزجان : كورة واسعة من كور بلخ بخراسان .

فاذهب فأنت طليقُ الحِلم مُرْتَهَــنٌ بسَورة الجَهل ما لم أَملِــك الغَضَبا
اذْهَبْ الى عربٍ تــرضَى بِنسبتــهم إنّي أرى لك خَلقاً يُشبه العَرَبا
مُنّيتَ منّي وقد جَــدَّ الجِراءُ بنــا بغايةٍ منعتْك الفَوتَ والطَّلَبــا

● حمّاد بن إسحاق عن أبيه عن جَدّه قال :

قلت لمسلم بن الوليد : وَيحك ! أما استحييتَ من الناس حين تهجو خُزيمة بن خازم ، ولا استحييتَ منا ونحن إخوانُك وقد علمتَ أنّا نتولاّه ، وهو مَن تعرِف فضلاً وجوداً ! فضحك وقال لي : يا أبا إسحاق ، لِغيرك الجهلُ ، أما تعلم أنّ الهجاءَ آخَذُ بضَبعُ الشاعر وأجدى عليه من المديح المُضرِع ! وما ظلمتُ مع ذلك منهم أحداً ، وما مضى فلا سبيلَ الى ردّه ، ولكن قد وهبتُ لك عِرضَ خزيمة بعد هذا . قال : ثم أنشدني قوله في سعيد بن سَلم :

ديونُك لا يُقضَى الزمانَ غريمُها وبُخلُك بُخل الباهليّ سعيدُ
سعيدُ بن سَلم أبخل الناس كلِّهم وما قومه من بُخلــه ببعيــد

فقلت له : وسعيدُ بن سَلم صديقي أيضاً ، فهَبْه لي . فقال : إن أقبلتَ على ما يَعنيك وإلاّ رجعتُ فيما وهبتُ لك من خُزيمة . فأمسكت عنه راضياً بالكَفاف .

● أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود قال :

دخل مسلم بن الوليد يوماً على الفضل بن يحيى ، وقد كان أتاه خبرُ مَسيره ، فجلس للشعراء فمدحوه وأثابهم ، ونظر في حوائج الناس فقضاها ، وتفرّق الناس عنه ، وجلس للشُّرب ، ومسلمٌ غيرُ حاضرٍ لذلك ، وإنما بلغه حين انقضى المجلسُ ، فجاءه فأُدخل اليه فاستأذَن في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قولَه فيه :

أتتك المطايا تَهتدي بمَطيّــــةٍ عليها فتًى كالنَّصل مُؤنِسُه النَّصْلُ

يقول فيها :

وردتُ رِواقَ الفَضل آمُـل فَضلَــه فحَطّ الثناءَ الجَزْلَ نائلُـه الجزْلُ
فتىً ترتعي الآمـالُ مُزنـةَ جُـوده إذا كـان مَرعاها الأمانيُّ والمَطْـلُ
تُساقط يُمْناه النّدى وشِمـالـهالـرَّدى وعُيونُ القول مَنطِقُه الفَصْلُ
ألحّ على الأيام يَفري خطـوبَها عل مَنهجٍ ألفى أباه به قَبـلُ
أنافَ به العلياءَ يحيى وخـالـدٌ فليس له مثلٌ ومـا لهما مِثـلُ
فُروعٌ أصابت مَغرِساً مُتمـكّنـاً وأصلاً فطابـت حيث وَجّهها الأصلُ
بكفِّ أبـي العبّاس يُستَمطَرُ النـدى وتُستَنْزَل النُّعمى ويُسترعَفَ النَّصلُ[1]

قال: فطرب الفضل طرباً شديداً، وأمر بأن تُعَدَّ الأبيات، فعدت فكانت ثمانين بيتاً، فأمر له بثمانين الف درهم وقال: لولا أنها أكثرُ ما وُصل به الشعراءُ لزِدتُك، ولكنّه شأوٌ لا يُمكِنني أن أتجاوزَه - يعني أن الرشيد رسمه لِمروان بن أبي حَفصة - وأمره بالجلوس معه والمُقام عنده لمنادمته، فأقام عنده وشرب معه، وكانت على رأس الفضل وَصيفةٌ تَسقيه كأنها لؤلؤة، فلمح الفضلُ مُسلماً ينظر اليها فقال: قد وحياتي يا أبا الوليد أعجبتْك، فقل فيها أبياتاً حتى أهبها لك. فقال:

إن كنتِ تسقِين غيرَ الرّاحِ فاسقيـني كأساً ألَذُّ بها من فيكِ تَشفيني
عيناك راحي ورَيحـاني حديـثُك لي ولونُ خَدَّيكِ لـونُ الورد يَكفيني
إذا نهانيَ شُربُ الطِـلا حَـرَجٌ فخمرُ عينيكِ يُغنيني ويَجزينـي
لولا علاماتُ شيبٍ لـو أتتْ وَعَظتْ لقد صَحوتُ ولكن سوف تأتيني
أُرضي الشبابَ فإن أَهلِكْ فعن قَدَرٍ وإن بقيتُ فإنّ الشيبَ يُشقيني[2]

فقال له: خُذْها، بُورك لك فيها. وأمر بتوجيهها مع بعض خدمها اليه.

---

(١) يسترعف من رعف الدم: سال.

(٢) الطلا: الخمر.

● أحمد بن إبراهيم قال :

كانت لمسلم بن الوليد زوجةٌ من أهله كانت تكفيه أمرَه وتَسرُّه فيما تليه له منه ، فماتت ، فجزِع عليها جزعاً شديداً ، وتنسّك مُدّةً طويلة ، وعزَم على مُلازمة ذلك ، فأقسَم عليه بعضُ أخوانه ذات يوم أن يَزوره ، ففعل ، فأكلوا وقدّموا الشّراب فامتنع منه مسلمٌ وأباه ، وأنشأ يقول :

بُكاءٌ وكأسٌ كيـــــف يتّـفقـان ... سَبيلاهما في القلـب مختلفـــانِ
دعاني وإفـراطَ البكـاء فـإنّـــني ... أرى اليومَ فيه غيرَ مـا تَـرَيـان
غدتْ والثّـرى أولى بها مـن وَليِّـها ... إلى منزلٍ نـاءٍ لعينيـــك دان
فلا حُزنَ حتى تذرِفَ العينُ ماءهـــا ... وتعـترفَ الأحشـاءُ للخَفَقـان
وكيف بدفَع اليأسِ لـلوجْد بعدهـا ... وسَهْماهما في القلـب يعتلجـانِ

* * *

٣٦

مُطيع بن إياس

[الأغاني الجزء ١٣ ص ٢٧٤ وما بعدها]

الشاعر

هو مُطيع بن إياس الكِنانيّ . . . ولا أعلم أنيّ وجدتُ نسب مُطيع مُتّصلاً الى كنانة في رواية أحدٍ الا في حديثٍ أنا ذاكرُه ، فإنّ راويَه ذكر أن أبا قُرعة الكنانيّ جَدّ مُطيع ، فلا أُعلم أهو جَدّه الأدنى فأصِل نسبَه به ، أم هو بعيدٌ منه . . .

وهو شاعرٌ من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسيّة ، وليس من فحول الشعراء في تلك ، ولكنه كان ظريفاً خليعاً ، حُلو العُشرة ، مليحَ النادرة ، ماجِناً ، مُتَّهماً في دِينه بالزَّندقة ، ويُكنَى أبا سَلمى . ومَولده ومَنشؤه الكوفة ، وكان أبوه من أهل فِلَسطين الذين أمدّ بهم عبدُ الملك بن مروان الحَجّاج بن يوسف في وقت قِتاله ابنَ الزبير وابن الأشعث ، فأقام بالكوفة وتزوّج بها ، فوُلد له مُطيع .

وكان منقطعاً الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ومتصّرِفاً بعدَه في دولتهم ، ومع أوليائهم وعُمّالهم وأقاربهم لا يكسُد عند أحدٍ منهم ، ثم انقطع في الدولة العباسية الى جعفر بن أبي جعفر المنصور ، فكان معه حتى مات ؛ ولم أسمع له مع

أحدٍ منهم خبراً الا حكايةً بوفوده على سليمان بن عليّ ، وأنه وَلاّه عملاً ، وأحسَبه ماتَ في تلك الأيام .

عن محمد بن حبيبَ قال : سألتُ رجلاً من أهل الكوفة كان يصحَب مطيع بن إياس عنه فقال : لا تُرِد أن تسألَني عنه . قلت : ولمَ ذاك ؟ قال : وما سؤالُك إيّاي عن رجلٍ كان إذا حضَر مَلَكَك ، وإذا غاب عنك شاقَك ، وإذا عُرِفتَ بصُحبته فَضَحَكَ .

ذكر حَكَمٌ الواديُّ أنه غَنّى الوليد بن يزيد ذاتَ ليلةٍ وهو غُلامٌ حديثُ السِّنّ فقال :

إكليلُها ألوانُ ووجهُها فتّانُ
وخالُها فريدٌ ليس لها جِيران
إذا مشتْ تثَنَّتْ كأنّها ثُعبان

فطرب حتى زحف عن مجلسه إليَّ وقال : أعِدْ ، فديتُك بحياتي . فأعدتُه حتى صَحِل صوتي .[1] فقال لي : ويحَك ! من يقول هذا ؟ فقلت : عبدٌ لك يا أمير المؤمنين أرضاه لخدمتك . فقال : ومَن هو ، فديتك ؟ فقلت : مطيع بن إياس الكنانيّ . فقال : وأين محلُّه ؟ قلت : الكوفة . فأمر أنْ يُحملَ إليه على البريد ، فحُمل إليه ، فما أشعرُ يوماً إلاّ برسوله قد جاءني ، فدخلت إليه ومطيعُ بن إياسٍ واقفٌ بين يديه ، وفي يد الوليد طاسٌ من ذهب يشرب به فقال لي : غَنّ هذا الصوتَ يا واديّ . فغنّيته إياه ، فشرب عليه ، ثم قال لمطيع : مَن يقول هذا الشعر؟ قال : عبدُك أنا يا أمير المؤمنين . فقال له : ادنُ مني . فدنا منه ، فضمّه الوليد وقَبّل فاه وبين عينَيه ، وقبّل مُطيعٌ رجلَه والأرضَ بين يديه ، ثم أدناه منه حتى جلس أقربَ المجالس إليه ، ثم تمَّ يومُه فاصطبح أسبوعاً متواليَ الأيام على هذا الصوت .

(١) صحل صوته : بحّ .

اتّهامه بالزندقة

عبدالله بن أبي سعد قال :

كان مطيعُ بن إياس ، ويحيى بن زياد الحارثيّ ، وابنُ المقفَّع ، ووالبةُ بن الحُباب يتنادمون ولا يفترقون ، ولا يستأثر أحدهُم على صاحبه بمالٍ ولا مِلكٍ ، وكانوا جميعاً يُرمَون بالزَّندقة .

عليّ بن محمد النَوفليّ عن أبيه وعمومته :

أنّ مطيع بن إياس وعُمارة بن حمزة من بني هاشم ـ وكانا مَرميَّين بالزندقة ـ نزعا الى عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب لمّا خرج في آخر دولة بني أمية وأول ظهور الدولة العباسية بخراسان ، وكان ظهر على نواحٍ من الجبل منها أصبهان وقُمّ ونَهاوند ، فكان مطيع وعُمارة ينادمانه ولا يُفارقانه . . .

ذكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل الكاتب :

أنّ الرشيد أُتي ببنت مُطيع بن إياس في الزَّنادقة ، فقرأت كتابَهم واعترفتْ به ، وقالت : هذا دِينٌ علّمنيه أبي وتُبتُ منه . فقبِل توبتَها ورَدّها الى أهلها .

طائفة من أخباره

● مطيع بن إياس قال :

قال لي حَمّاد عَجْرِدٍ : هل لك في أن أُريَك خُشّةَ صديقي ،[1] وهي المعروفة بظَبية الوادي ؟ قلت : نعم . قال : إنك إن قَعدتَ عندها وخَبُثت عينُك في النظر أفسدتَها عليّ . فقلت : لا والله ، لا أتكلّم بكلمةٍ تَسُوءك وَلأَسُرَّنّك . فمضى وقال : والله لا أتكلّم ، لئن خالفتَ ما قلتُ لأُخرجَنّك . قال : قلت : إن خالفتُ ما تكره فاصنَع بي ما أحببت . قال : امضِ بنا . فأدخلني على أظرف خَلق الله وأحسنِهم وجهاً ، فلمّا رأيتُها أخذني الزَّمعُ ،[2]

(١) صديقي : أي صاحبتي .

(٢) الزمع : شبه الرعدة تأخذ الانسان .

وفَطِن لي فقال : اسكُن يا . . . فسكنتُ قليلاً ، فلَحَظْتَني ولحظتُها أخرى ، فغضب ووضع قُلَنسِيَتَه[1] عن رأسه ، وكانت صَلَعَتُه حمراء . . . ، فلمّا وضَعها وجدتُ للكلام موضعاً فقلت :

وارِ السَّوْأةَ السَّـوآ ءَ يا حَمّـادُ عـن خُشَّـه
عن الأُتْرُجّـةِ الغَـضّـ ـةِ والتُفّاحـة الغَضّـه[2]

فالتفت إليّ وقال : فعلتَها يا ابنَ . . . فقالت له : أَحسَنَ واللهِ ما بَلَغ صفَتَك بعدُ ، فما تريد منه ؟ . . . وثاورتْه وثاورها ، فشقّت قميصَه ، وبصَقت في وجهه وقالت له : ما تُصادقُك وتَدَعُ مثلَ هذا الأ . . . وخرجْنا وقد لقي كلٌّ بلاء ، وقال لي : ألم أقل لك يا ابنَ . . . إنك ستُفْسِد عليّ مجلسي . فأمسكتُ عن جوابه ، وجعل يهجُوني ويسبُّني ويشكوني الى أصحابنا ، فقالوا لي : اهجُه ودَعْنا وإيّاه . فقلت فيه :

ألا يـا ظَبيـةَ الـوادي وذاتَ الجَسـد الـرّادِ
وزَيـنَ المِـصر والـدّار وزيـنَ الحَـيِ والنـادي
وذاتَ المَبسِـم العَـذبِ وذاتَ الميسَـم البـادي
أمـا باللهِ تستحيـيـن مـن خُلّـة حَمّـاد
فحمّـادٌ فتـىً ليـس بـذي عـزٍّ فتَنقـادي
ولا مـالٍ ولا عِـزٍّ ولا حَـظٍّ لِمـرْتادِ
فتُـوبي واتّقـي اللهَ وبُتّـي حَبـلَ جَـرّادِ
فقـد مُيّـزتِ بـالحسنِ عـن الخَلْـقْ بـإفراد
وهـذا البَيـنُ قـد حُـمَّ فجـودي منـكِ بـالزّادِ[3]

---

(١) القلنسية والقلنسوة : لباس للرأس .

(٢) الأترجة : نوع من الفاكهة من فصيلة الليمون .

(٣) الراد ، تسهيل الرأد : الرخص اللين . الميسم : أثر الجمال . الخلة : الصداقة . بتي : اقطعي . الجراد : من يجلو آنية النحاس . حم : حان .

قال : فأخذ أصحابنا رِقاعاً ، فكتبوا الأبيات فيها وألقوها في الطريق . وخرجت أنا فلم أدخل إليهم ذلك اليومَ ، فلمّا رآها وقرأها قال لهم : يا أولاد . . . فعلها ابنُ . . . وساعدتموه عليّ !

قال : وأخذها حكَمُ الواديُّ فغنّى فيها ، فلم يبق بالكوفة سقّاءٌ ولا طَحّان ولا مُكارٍ إلاّ غنّى فيها . . . .

● عن حمّاد عن أبيه قال :

قدِم مطيعُ بن إياس من سفرٍ فقدم بالرّغائب ، فاجتمع هو وحمّادُ عجرد بصديقته ظَبيةِ الوادي ، وكان عَجردٌ على الخروج مع محمد بن أبي العباس الى البصرة ، وكان مطيعٌ قد أعطى صاحبته من طرائف ما أفاد ، فلما جلسوا يشربون غنّت ظبيةُ الوادي فقالت :

أَظُنُّ خليلي غُدوةً سيسيرُ　　　وربيّ على أن لا يَسيرَ قديرُ

فما فرغت من الصوت حتى غنّت صاحبةُ مطيع :

ما أبا لي اذا النّوى قَرَّبتْهم　　　ودنَونا مَن حَلّ منهم وساروا

فجعل مطيعٌ يضحك وحمّاد يشتُمها .

● عن محمد بن عمر الجرجانيّ قال :

كان لمطيع بن اياس صديقٌ يقال له عمرُ بن سعيد ، فعاتبه في أمر قينة يقال لها مَكنونة كان مطيعٌ يهواها حتى اشتُهر بها ، وقال له : إنّ قومك يشكونك ويقولون إنك تفضحهم بشُهرتك نفسَك بهذه المرأة ، وقد لَحقهم العيبُ والعارُ من أجلها . فأنشأ مطيع يقول :

قد لامني في حبيبتي عُمرُ　　　واللّومُ في غير كُنْهِهِ ضَجَرُ
قال أفِق ، قلت لا ، قال بلَى　　　قد شاع في الناس عنكما الخَبر
قلت قد شاع فما اعتذاريَ ممّا　　　ليس لي فيه عندهم عُذُرُ

عَجزٌ لَعَمري وليس يَنفعُنــــــي فكُفَّ عنّي العتابَ يا عُمَــــرُ
وارجعْ إليهم وقُل لهم قد أبــــــى وقال لي لا أُفيقُ فـــانتَحِـرُوا
أعشقُ وَحدي فيؤخَذون بـــــــه كالتُرك تَغزو فيُقتَلُ الخزَرُ(١)

● الفضل بن إياس الهُذَليّ الكوفي :

أنّ المنصور كان يريد البَيعةَ للمهديّ ، وكان ابنُه جعفرٌ يعترض عليه في ذلك .فأمر بإحضار الناس ، فَحضَرُوا ، وقامت الخطباء فتكلّموا ، وقالت الشعراء فأكثروا في وصف المهديّ وفضائله ، وفيهم مطيعُ بن إياس ، فلمّا فرَغَ من كلامه في الخطباء وإنشاده في الشعراء قال للمنصور: يا أمير المؤمنين ، حدَّثنا فلانٌ عن فلان أنّ النبي ﷺ قال : « المهديُّ منّا محمد بن عبدالله وأُمُّه من غيرنا ، يملؤها عدلاً كما مُلئت جَوراً » ، وهذا العبّاس بن محمد أخوك يشهد على ذلك . ثم أقبل على العبّاس فقال له : أَنشُدكَ اللهَ هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم . مخافةً من المنصور. فأمر المنصور الناسَ بالبَيعة للمهديّ .

قال : ولمّا انقضى المجلسُ ، وكان العباس بن محمد لم يأنَس به ، قال : أرأيتُم هذا الزِنديق إذ كذب على الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ حتى استشهَدني على كذِبه فشهدتُ له خوفاً وشهد كلٌّ من حضر عليَّ بأنّي كاذب ! وبلغ الخبرُ جعفر بن أبي جعفر ، وكان مطيعٌ منقطعاً إليه يخدُمه ، فخافه وطرده عن خدمته . .

● عن محمد بن الفضل السَّكونيّ قال :

رفع صاحبُ الخبر الى المنصور أن مطيع بن إياس زِنديقٌ ، وأنه يُعاشر ابنه جعفراً وجماعةً من أهل بيته ويوشك أن يُفسِدوا أديانهم ويُنسَبوا الى مذهبه . فقال له المهديّ : أنا به عارفٌ ، أمّا الزّندقة فليس من أهلها ، ولكنه خبيث الدِّين فاسقٌ مستحلّ للمحَارم . قال : فأحضِره وانْهَه عن صحبة جعفر وسائر أهله . فأحضره المهديُّ وقال له : يا خبيثُ يا فاسقُ ، لقد أفسدتَ أخي ومن تَصحبهُ

---

(١) كنهه : حقيقته ووجهه . انتحر القوم على الأمر : تخاصموا وتشاحّوا .

من أهلي ، والله لقد بلغني أنهم يتقادَعُون عليك[1] ، ولا يتمّ لهم سرورٌ إلاّ بك ، فقد غرّرتهم وشهّرتهم في الناس ، ولولا أني شهدتُ لك عند أمير المؤمنين بالبراءة ممّا نُسبت إليه بالزندقة لقد كان أمر بضَرب عُنُقك . وقال للربيع : اضربْه مائتي سَوط واحبِسه . قال : ولِمَ يا سيدي ؟ قال : لأنك سكّيرٌ خمّير قد أفسدت أهلي كلّهم بصُحبتك . فقال له : إن أَذنتَ وسمعتَ احتججتُ . قال : قل . قال : أنا امرؤٌ شاعر وسُوقي إنما تنفُق مع الملوك ، وقد كَسَدتْ عندكم ، وأنا في أيامكم مُطَّرَحٌ ، وقد رضيتُ فيها ـ مع سعتها للناس جميعاً ـ بالأكل عل مائدة أخيك ، لا يتبع ذلك عشيرة ، وأصفيتُه على ذلك شكري وشعري ، فإن كان ذلك عائباً عندك تُبتُ منه . فأطرق ثم قال : قد رَفع إليّ صاحبُ الخبر أنك تتماجن على السُّؤّالِ وتضحك منهم . قال : لا والله ، ما ذلك من فِعلي ولا شأني ، ولا جرى مني قطّ إلاّ مرّةً ، فإن سائلاً أعمى اعترضَني ، وقد عبرتُ الجسر عل بَغلتي ، وظنَّني من الجُند ، فرفع عصاه في وجهي ثم صاح : اللهمَّ سَخِّر الخليفة لأن يُعطي الجُندَ أرزاقهم فيشتروا من التُّجار الأمتعة ، ويربح التُّجار عليهم فتكثُرَ أموالهم ، فتجبَ فيها الزكاةُ عليهم ، فيصّدّقوا عليّ منها . فنفرتُ بقلبي من صِياحه ورفعه عصاه في وجهي حتى كدتُ أسقط في الماء فقلت : يا هذا ، ما رأيت أكثرَ فضولاً منك ، سلِ الله أن يرزُقك ولا تجعل هذه الحوالاتِ والوسائطَ التي لا يحتاج إليها ، فإن هذه المسائل فُضول . فضحك الناسُ منه ، ورُفع عليّ في الخبر قولي له هذا . فضحك المهديّ وقال : خلُّوه ولا يُضرَب ولا يُحبس . فقال له : أدخُلُ عليك لمَوْجِدَة[2] وأخرُج عن رضىً ،وتُبرّأُ ساحتي من عَضِيهة[3] وأنصرف بلا جائزة ؟ قال : لا يجوزُ هذا ، أعطُوه مائتي دينارٍ ولا يَعلم بها الأميرُ فيتجدّدَ عنده ذُنوبُه . قال :

(١) يتقادعون : يتهافتون .

(٢) الموجدة : الغضب .

(٣) العضيهة : الإفك والبهتان .

وكان المهديّ يشكر له قيامَه في الخطباء ووضعَه الحديث لأبيه في أنه المهديّ ، فقال له : اخرُج عن بغداد ودَعْ صُحبةَ جعفرٍ حتى ينساك أميرُ المؤمنين غداً . فقال له : فأين أقصد؟ قال : أكتُب لك إلى سليمان بن عليّ فيولّيك عملاً ويُحسن إليك . قال : قد رضيتُ . فوفد إلى سليمان بكتاب المهديّ ، فولاّه الصَدَقة بالبصرة ، وكان عليها داود بن أبي هند ، فعزَله به .

● عن محمد بن الفضل السَّكُونيّ قال :

مدح مطيع بن إياس معنَ بن زائدة بقصيدته التي أوّلها :

أهـلاً وسهـلاً بسيّد العـربِ ذي الغُـرَرِ الواضحـات والنُّجُبِ
فتى نـزارٍ وكهلِهـا وأخـي الجُـودِ حَوى غايتَيه مـن كَثَـب
قيـل أتاكـم أبـو الوليـد فقـا ل الناسُ طُرّاً في السَّهل والرَّحَب
أبو العُفاة الـذي يَلُوذ بـه من كان ذا رغبةٍ وذا رَهَـبِ
جاء الـذي تُفرَج الهمـومُ بـه حين يُلَزُّ الوَضينُ بالحَقَـبِ
جاء وجـاء المَضـاءُ يَقدُمُـه رأيٌ إذا همّ غـيرُ مُؤتَشـب
شَهـمٌ إذا الحـربُ شَبّ دائرُها أعادهـا عَودةً عـلى القُطُـبِ
يُطفىءُ نيرانَهـا ويُوقدُهـا إذا خبتْ نيرانُها بـلا حَطب[1]

[الأبيات ...]

فلمّا سمعها معنٌ قال له : إن شئتَ مدحناك كما مدحتَنا ، وإن شئت أثبناك . فاستحيا مطيع من اختيار الثواب على المديح وهو محتاجٌ إلى الثواب ، فأنشأ يقول لمعنٍ :

(١) لزّ : قرن . الوضين : للهودج بمثابة الحزام للسرج . الحقب : الحزام الذي يلي حقو البعير . مؤتشب : مختلط .

ثناءٌ مـن أميرٍ خيرُ كَسْـــبٍ لِصاحب فاقةٍ وأخـي ثـراء
ولكنّ الزمـــانَ بَـرَى عِظامـي ومـا مثـلُ الدّراهــم من دواء

فضحك معن حتى استلقى وقال : لقد لَطَفت حتى تخلّصتَ منها ، صدقتَ ـ لَعمري ـ ما مثلُ الدّراهم من دواء ! وأمر له بثلاثين ألفَ درهمٍ ، وخلَع عليه وحمَله .

● عن سعيد بن سالم قال :

أخبرني مطيع بن إياس اللَيْثيّ ـ وكان أبوه من أهل فلسطين من أصحاب الحجّاج بن يوسف ـ أنه كان مع سَلم بن قُتَيبة ، فلمّا خرج إبراهيم بن عبدالله ابن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام كتب إليه المنصور يأمُره باستخلاف رجلٍ على عمله والقدومِ عليه في خاصّته على البريد . قال مطيع : وكانت لي جاريةٌ يقال لها جودانة[1] كنت أُحبّها فأمرني سلمٌ بالخروج معه ، فاضطُررت إلى بيع الجارية ، فبعتُها وندمتُ على ذلك بعد خروجي وتمنّيت أن أكون أقمت ، وتَتَبّعتْها نفسي ، ونزلنا حُلوان[2] ، فجلست على العَقَبة أنتظر ثَقَلي [3] وعِنان دابّتي في يدي وأنا مُستندٌ الى نخلةٍ على العَقَبة والى جانبها نخلةٌ أخرى ، فتذكّرتُ الجارية واشتَقْتُها وقلت :

أسعِداني يـا نَخْلَتَي حُلـوانِ وابكيا لي من رَيـب هـذا الزّمانِ
واعلمـا أنّ رَيبـه لم يـزل يَفْـرُقُ بين الألاّف والجِـيرانِ
ولَعَمري لـو ذُقتُمـا ألَمَ الفُـرْ قَةِ قـد أبكاكمـا الـذي أبكاني
أَسعِداني وأيقنـا أنّ نحسـاً سوف يَلقاكمـا فتَفترقـان
كم رمتْني صُروفُ هـذي الليـالي بفـراق الأحبـاب والخُـلاّنِ

---

(١) في معجم البلدان لياقوت : جوذابة .
(٢) حلوان ، هذه : مدينة بالعراق في آخر حدود السواد .
(٣) الثقل : متاع المسافر .

غير أنيّ لم تلقَ نفسي كما لا ـ قيتُ من فُرقة ابنة الدِّهْقان
جارةٌ لي بالرَّي تُذهب هَمّي ويُسَلّي دُنُوُّها أحزاني
فجعتْني الأيامُ أَغبطَ ما كنتُ بصَدْعٍ للبَين غيرِ مُدان
وبرَغمي أن أصبحتْ لا تراها العينُ منّي وأصبحتْ لا تَراني
إن تكن وَدَّعتْ فقد تركتْ بي لَهَباً في الضمير ليس بوانِ
كحريق الضِّرام في قصَب الغاب زَفَتْه رِيحانِ تختلفانِ
فعليك السّلام منّي ما ساغ سلاماً عقلي وفاض لساني(١)

هكذا ذكر أبو الحسن الأسديّ في هذا الخبر وهو غلط : نسخت خبر هذا من خط أبي أيوب المدائنيّ عن حمّاد ـ ولم يقل عن أبيه ـ عن سعيد بن سالم عن مطيع قال : كانت لي بالريّ جارية أيام مقامي بها مع سلم بن قُتَيبة ، فكنت أتستّر بها ، وكنت أتعشّق امرأة من بنات الدّهاقين كنت نازلاً إلى جَنبها في دارٍ لها ، فلمّا خرجنا بعتُ الجارية وبقيت في نفسي علاقةٌ من المرأة التي كنت أهواها ، فلما نزلنا عقَبة حُلوان جلست مستنداً إلى إحدى النخلتين اللتين على العقبة ، فقلت :

أسعداني يا نخلتي حلوان وارثيا لي من ريب هذا الزمان

وذكَر الأبيات ، فقال لي سلم : ويلك ! فيمن هذه الأبيات ؟ أفي جاريتك ؟ فاستحييتُ أن أصدقَه فقلت : نعم . فكتب من وقته إلى خليفته أن يبتاعها لي ، فلم ألبث أن ورد كتابُه : إني وجدتُها قد تداولَها الرجال ، فقد عزفتْ نفسي عنها . فأمر لي بخمسة آلاف درهم ، ولا والله ما كان في نفسي منها شيء ...

● عن العُتبيّ قال :

حضر مطيع بن إياس وشُراعة بن الزندبوذ ، ويحيى بن زياد ، ووالبة

(١) الضرام : الاتقاد . زفته : طردته .

ابن الحباب ، وعبدالله بن العيّاش المتوف ، وحمّاد عجرد مجلساً لأمير من أمراء الكوفة ، فتكايدوا جميعاً عنده ، ثم اجتمعوا على مطيع يُكايدونه ويهجونه ، فغلبهم جميعاً حتى قطعهم ، ثم هجاهم بهذين البيتين وهما :

وخمسةٍ قد أبانوا لي كِيادَهُمُ   وقد تلظّى لهم مِقلىً وطِنْجيرُ
لو يقدِرون على لحمي لَمَزَّقه   قردٌ وكلب وجِرواهُ وخِنزيرُ (١)

● عن المدائنيّ قال :

كان مطيع بن إياس يخدُم جعفرَ بن أبي جعفرَ المنصور وينادمُه ، فكره أبو جعفر ذلك لما شُهر به مُطيعُ في الناس وخشي أن يُفسِدَه ، فدعا بمطيع وقال له : عزمتَ على أن تُفسِد ابني عليّ وتعلّمَه زندقتك ؟ فقال : أُعيذُك بالله يا أمير المؤمنين من أن تَظُنّ بي هذا ، واللهِ ما يسمعُ مني إلاّ ما إذا وَعاه جمَّله وزَيَّنه ونبَّله . فقال : ما أرى ذلك ولا يسمع منك إلاّ ما يَضُرُّه ويَغُرُّه . فلمّا رأى مطيعٌ إلحاحه في أمره قال له : أتُؤمِنُني يا أمير المؤمنين عن غَضَبك حتى أَصْدُقَك ؟ قال : أنت آمِنٌ . قال : وأيُّ مُستَصْلَحٍ فيه ، وأيّ نهايةٍ لم يَبلُغْها في الفَساد والضَّلال ؟ قال : ويلك ، بأيِّ شيء ؟ قال : يزعُم أنه لَيعشَق امرأةً من الجِنّ وهو مجتهدٌ في خِطْبتها وجَمعِ أصحاب العزائم عليها ، وهم يغرّونه ويَعِدُونه بها ويُمَنُّونه ، فوالله ما فيه فضلٌ لغير ذلك من جِدّ ولا هزل ولا كُفرٍ ولا إيمان . فقال له المنصور: ويلَك ! أتدري ما تقول ؟ قال : الحقَّ والله أقول ، فسَلْ عن ذلك . فقال له : عُد الى صُحبته واجتهد أن تُزيلَه عن هذا الأمر ، ولا تُعلِمْه أني علمت بذلك حتى أجتهد في إزالته عنه .

وقال المدائنيّ في خبره :

فأصاب جعفراً من كثرة ولعه بالمرأة التي ذكر أنه يتعشَّقُها من الجِنّ صَرَعٌ ،

---

(١) المقلى : المقلاة . الطنجير : وعاء تعمل فيه الحلوى ، معرب ، أراد تلظى غضبهم .

فكان يُصرَع في اليوم مرّاتٍ ، حتى مات ، فحزن عليه المنصورُ حزناً شديداً ، ومشى في جِنازته ، فلمّا دُفن وسُوّي عليه قبرُه قال للربيع : أنشِدني قولَ مطيع بن إياس في مرثية يحيى بن زياد . فأنشَده :

يا أهلِيَ ابكُوا لِقلبِيَ القَرِحِ   وللدُّموع الذَّوارفِ السُّفُحِ
راحوا بيحيى ولو تُطاوعني الأقـدارُ لم يَبتكِرْ ولم يَرُحِ
يا خيرَ مَن يَحسُن البكاءُ له اليو   مَ ومن كان أمسِ للمِدَحِ

قال : فبكى المنصور وقال : صاحبُ هذا القبر أحقُّ بهذا الشعر .

● قال محمد بن الفضل بن السَّكُونيّ :

رحل مطيعُ بن إياس الى هشام بن عمرو وهو بالسِّند مستميحاً له ، فلما رأته بنتهُ قد صحّح العزمَ على الرَّحيل بكت ، فقال لها :

اسكُتي قد حَززتِ بالدَّمع قلبي   طالما حَزَّ دَمعُكنّ القلوبا
ودَعِي أن تُقَطِّعي الآن قلبي   وتُريني في رحلتّي تَعذيبا
فعسى اللهُ أن يدافعَ عنّي   ريبَ ما تحذَرين حتى أؤوبا
ليس شيءٌ يشاءُه ذو المعالي   بعزيزٍ عليه فادعي المجيبا
أنا في قَبضة الإلٰهِ إذا ما   كنتُ بُعداً أو كنتُ منكِ قريبا

● هارون بن محمد بن عبد الملك قال :

لمّا بِيعت جوهرُ التي كان مطيع بن إياس يُشبّب بها قال فيها :

صاح غُرابُ البَيَن بالبَينِ   فكدتَ أَنقدُّ نِصفَينِ
قد صار لي خِدنانِ من بعدهَم   هَمٌّ وغمٌّ شرُّ خِدنَينَ
أفدي التي لم ألقَ من بَعدها   أُنساً وكانت قُرّةَ العَين
أصبحتُ أشكو فُرقة البين   لمّا رأتْ فُرقتَهم عيني

● عن محمد بن الفضل قال :

خرج جماعةٌ من الشعراء في أيام المنصور عن بغدادَ في طلب المعاش ، فخرج يحيى بن زياد الى محمد بن العبّاس ، وكنت في صِحابته ، افضى الى البصرة ، وخرج حمّاد عجرد اليها معه ، وعاد حمّادٌ الراوية الى الكوفة ، وأقام مطيع بن إياس ببغدادَ وكان يهوى جاريةً يقال لها رِيم لبعض النخّاسين وقال فيها :

لولا مكانُـك في مَـسـدينتهـم   لظعنتُ في صَحبي الأُلى ظَعَنُوا
أَوطنتُ بغـداداً بحبّكـم   وبغيرِهـا لولاكم الوطـنُ

قال : وقال مطيع في صَبُوحٍ اصطبحه معها :

ويومٍ ببغـدادٍ نَعِمنا صباحَـه   عـلى وجـه حَوراء المدامع تُطرِبُ
ببيتٍ ترى فيه الزُّجاجَ كـأنـه   نجومُ الدُّجى بين النَّدامَى تَـقلّبُ
يُصرِّفُ ساقينا ويَقطِب تـارةً   فياطيبَهـا مقطوبـةً حين يَقطِبُ
علينا سَحيقُ الزَّعفرانِ وفوقَنـا   أكاليـلُ فيها الياسمينُ المُذَهَّبُ
فما زلتُ أُسقَى بين صَنْجٍ ومِزهَرٍ   من الرّاح حتى كادت الشمس تَغرِبُ(1)

قال : وفيها يقول :

يا رِيمُ قد أتلفتِ رُوحـي فمـا   منهـا معـي إلا القليـلُ الحقيرْ
فـأَذنِـي إن كنـتِ لـم تُذنِـبي   فيَّ ذُنوباً إنّ ربّي غَفُـورْ
ماذا على أهلِكِ لو جُدتِ لـي   وزُرتِنـي يا ريـمُ فيمـن يَزُور
هـل لـك في أجرٍ تُجازَي بـه   في عاشقٍ يُرضيـه منكِ اليسير
يَقبَلُ ما جُدتِ به طائعـاً   وهـو وإن قَـلّ لديـه الكثير
لَعمري مَن أنتِ لـه صـاحبٌ   ما غاب عنه في الحيـاة السُّرور

---

(1) يصرف : يقدمها صرفاً . يقطب : يمزج .

عن ابن النطّاح لمطيع بن إياس بقوله في جوهر جارية بَرْبَر :

يا بأبي وجهُكِ من بينهـــم ... فإنه أحســنُ ما أُبصــرُ
يا بأبي وَجهك مـن رائــعٍ ... يُشبِهُــه البدرُ إذا يُــزهِرُ
جاريةٌ أحسنُ من حَلْيهــاً ... والحَلْـيُ فيه الدُرُّ والجـوهرُ
وجِرمُها أطيبُ من طِيبهـا ... والطيـبُ فيه المسـكُ والعنبرُ
جاءت بها بربرُ مكنونـــةً ... يا حبّذا ما جَلبتْ بــربـرُ
كأنّمــا رِيقتُهــا قَهــوةٌ ... صُبّ عليهــا باردٌ أسمــرُ

● عن حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

كان مطيع بن إياس يألف جواري بَربر ويهوى منهنّ جاريتها المسمّاة جوهر ، وفيها يقول :

خــافي اللهَ يا بــربـــرْ ... لقد أفسدتِ ذا العسكــرْ
إذا ما أقبلت جـــوهـــر ... يفوحُ المِســكُ والعَنبــر
وجـــوهــرُ دُرّةُ الغَــوّاص ... من يَملِكُهــا يُحْبَــرْ
لهـــا ثغــرٌ حكــى الدُرَّ ... وعينــا رَشَــأٍ أحــورْ (١)

* * *

(١) يحبر : يُسرّ . الرشأ : الظبي إذا قوي ومشى مع أمه .

٣٧

نُصَيب الأصغر

[الأغاني الجزء ٢٣ ص ١ وما بعدها]

الشاعر

نُصيب مولى المَهديّ ، عبدٌ نشأ باليمامة واشتُري للمَهديّ في حياة المنصور ، فلمّا سمع شعرَه قال : والله ما هو بِدون نُصيب مولى بني مَروان ، فأعتقه وزوّجه أمَةً يُقال لها جَعفَرة وكنّاه أبا الحَجْناء وأَقطعه ضيعةً بالسَّواد ، وعُمّر بعدَه .

أخباره مع المهديّ ومدائحه فيه

محمد بن عبدالله بن مالك قال : حدّثني أبي قال :

وَجّه المهديُّ نُصَيباً الشاعر مولاه الى اليمن في شراء إبلٍ مَهْريّةٍ ، ووجّه معه رجلاً من الشّيعة ، وكتب معه الى عامله على اليمن بعشرين ألف دينار . قال : فمدّ أبو الحَجناء يدَه في الدنانير يُنفقها في الأكل والشرب وشراء الجواري والترويج ، فكتب الشِيعيّ بخبره الى المَهديّ ، فكتب المهدي في حَمْله مُوثَقاً في الحديد . فلمّا دخل على المهديّ أنشده شعره وقال :

تأوَّبني ثِقلٌ من الهمّ مُوجِعُ ... فأَرّق عيني والخَلِيُّون هُجَّعُ
همومٌ توالتْ لو أطاف يَسِيرُها ... بسَلمى لظَلّتْ شُمّها تتصدّعُ

ولكنّها نِيطت فَناء بِحَملْها جَهيرُ المنايا حائنُ النفس مُجْزَعُ
وعادت بلادُ الله ظَلماءَ حِندِساً فخلتْ دُجى ظَلمائها لا تَقشّعُ

وهي قصيدة طويلة يقول فيها :

إليك أميرَ المؤمنين ولم أجدْ سواكَ مُجيراً منك يُدني ويَمنعُ
تلمّستُ هل من شافعٍ لي فلم أجد سوى رحمةٍ أعطاكها اللهُ تشفعُ
لئن جلّت الأجرامُ مني وأفظعت لَعفْوك عن جُرمي أجلّ وأوسع
لئن لم تَسَعني يابنَ عمّ محمدٍ لما عَجَزتْ عنيَ وسائل أربعُ
طُبِعتَ عليها صِبغةً ثم لم تزل على صالح الأخلاق والدين تُطْبَعِ
تَغابيكَ عن ذي الذّنب ترجو صلاحَه وأنت ترى ما كان يأتي ويَصنع
وعفوُك عمّن لو تكونُ جَزيتَه لطارت به في الجوّ نكْباءُ زَعزَعُ
وأنّك لا تنفكُّ تُنعِش عاثراً ولم تعترِضْه حين يكبُو ويَخمع
وحِلمك عن ذي الجهل من بعدما جرى به عَنَقٌ من طائش الجهل أشنَع
ففيهنّ لي إمّا شَفَعن منافعٌ وفي الأربع الأولى إليهنّ أفزَعُ
منا صحتي بالفعل أن كنتُ نائياً اذا كان دانٍ منك بالقول يَخدَعُ
وثانيةٌ ظنّي بك الخيرَ غائباً وإن قلتَ عبدٌ ظاهرُ الغشِ مُسْبَعُ
وثالثةٌ أني على ما هَويته وان كثّرَ الأعداءُ فيَّ وشنّعوا
ورابعةٌ أنيّ إليك يَسُوقني ولائي فمولاك الذي لا يُضَيّعُ
وإني لَمولاك الذي إن جفوته أتى مُستكيناً راهباً يتضرّع
وإني لَمولاك الضعيفُ فأَعفِني فإني لِعفوٍ منك أهلٌ ومَوضِع (١)

---

(١) تأوبني : أتاني ليلاً . الخليّ : الخالي من الهموم والعشق . سلمى : جبل لطيٍّ في الحجاز . الشم ج أشم : المرتفع . حائن : هالك . الحندس : الظلام الشديد . صبغة : خلقة . النكباء : الريح المنحرفة عن مهاب الرياح . زعزع : شديدة . يخمع : يعرج في المشي ويعثر . العنق : ضرب من السير السريع . مسبع : خبيث .

فقطع المهديّ عليه الإنشاد ثم قال له : ومَن أعتقكَ يا بنَ السوداء ؟ فأومأ بيده إلى الهادي وقال : الأمير موسى ، يا أمير المؤمنين . فقال المهديّ لموسى : أعتقته يا بُنيّ ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين . فأمضى المهديّ ذلك وأمر بحديده ففُكّ عنه ، وخَلع عليه عِدّةً من الخِلَع الوشي والخزّ والسَّواد والبياض ، ووصله بألفي دينار ، وأمر له بجارية يُقال لها جَعفرة جميلة فائقة من رُوقة[1] الرقيق .

فقال له سالمٌ قَيِّمُ الرقيق : لا أَدفعُها اليك أو تعطيني ألفَ درهم . فقال قصيدته :

آآذن الحيُّ فانصاعُوا بترحـالِ   فهـاج بينَهـم شَوقي وبَلْبـالي

وقام بها بين المهديّ ، فلمّا قال :

ما زلتَ تبـذلُ لي الأموالَ مجتهـداً   حتى لأصبحتُ ذا أهلٍ وذا مالِ
زوّجتَني بابنَ خير النـاس جاريـةً   ما كان أمثالُها يُهدَى لأمثـالي
زوَّجْتَني بضّةً بـيـضاء نـاعمـةً   كأنّها دُرّةٌ في كَـفّ لَألِ
حتى توهّمتُ أن الله عجّلهـا   يا بنَ الخلائف لي من خير أعمالي
فسالَني سالمٌ ألـفاً فقـلـت لـه   أنّى لي الألفُ يا قُبحتِ من سالِ

ـ أراد من سائل ، كما قالوا : شاكي السلاح وشائك ـ

هيهاتَ ألفُك إلا أن أجـيء بهـا   من فضل مَولىً لطيف المَنّ مِفضالِ[2]

فأمر له المهديّ بألف دينار ولسالمٍ بألف درهم .

قال ابن أبي سعد : وحدّثني غيرُ محمد بن عبدالله أنه حُبس باليمن مدّةً طويلة ، ثم أُشخِص الى المهديّ ، فقال وهو في الحبس ، ودخلت اليه ابنتُه حَجناء فلمّا رأت قيوده بكت ، فقال :

(١) روقة الرقيق : جمع رائقة ، أي من حسان الرقيق .
(٢) اللأال : بائع اللؤلؤ .

لقد أصبحتْ حَجنـــاءُ تبـكي لوالــد ... بدَرّة عينٍ قلَّ عنــه غَنَاؤهـــا
أحجناءُ صبراً كلُّ نــــفـسٍ رهينــةٌ ... بموتٍ ومكتوبٌ عليها بَلاؤهـــا
أحجنــاء أسبابُ المنايـــا بِمَرْصَــدٍ ... فإلاّ يُعاجلْ غَدْوُهـــا فَمساؤهـــا
أحجناء إن أُفلـتْ من السجن تَلْقَني ... حُتوفُ منايا لا يُرَدُّ قَضاؤهـــا
أحجناء إن أضحى أبـوكِ ودَلْـــوُه ... تعَرّتْ عَراقيها ورَثَّ رِشاؤهـــا
لقد كان يُدلي في رجــالٍ كثيــــرة ... فيَمْتَحُ مَلأى وهي صِفرٌ دِلاؤها
أحجناءُ إن يُصبِــح أبـوكِ ونفسُـــه ... قليلٌ تَمَنّيها قصيرٌ عَزاؤهــــــا
لقد كان في دنــيا تفيَّـــأ ظِلَّهـــــا ... عليه ومجلوبٌ اليــه بهاؤهـــا[1]

قال ابن أبي سعد : ولما دخل نُصيب على المهديّ مقيَّداً رفَده ثُمامةُ بن الوليد العبسيّ عنده واستعطفه له وسوّغ عُذره عنده ، ولم يزل يَرفُق به حتى أمر بإطلاقه .

سائر أخباره

● عن النَّضْر بن طاهر قال :

أتى نُصَيبٌ مولى المهديّ عبدَالله بن محمد بن الأشعث ، وهو يتقلّد صَنعاء للمهديّ ، فمدَحه ، فلم يُثبه ، واستكساه بُرداً فلم يكسُه ، فقال يهجوه :

سأكسوك من صنعاءَ مــا قد كسوتَني ... مُقَطَّعَةً تَبقى على قِدَم الدَّهـــرِ
إذا طُويت كانت فضوحُـــك طَيَّها ... وإن نُشِرتْ زادتْك خِزياً على النَّشْرِ
أغَرّك أن بَيَّضتَ بــيــت حَـــمامة ... وقلتَ : أنا شَبعانُ مُتتفِجُ الخَصْرِ
لقد كنتَ في سَلْحٍ سَلَحتَ مخافةً الحَرُوريَّةِ الشارين داعٍ الى الضُـــــرّ

(١) عراقيها ج عَرقُوة : خشبة معروضة على الدلو ، وفي المطبوعة : عرّاً منهـا ، ولا معنى لها .

ولكنّه يأبَى بك البُهــــرُ كلّمـــا جَريتَ مع الجاري وضِيقٌ من الصَّدرِ[1]

قال النضر : وكان النصيب ملعوناً هَجّاءً ، فأهدى للرَّبيع بن عبدالله بن الربيع الحارثي فرساً ، فقَبِله ، ثم ندم خوفاً من ثِقل الثواب ، فجعل يَعيب الفرس ويذكر بُطأه وعَجزه ، فبلغ ذلك النصيب فقال :

أعبتَ جوادنَا ورغبتَ عنــــه وما فيه لَعَمْرُك مـن مَـعـابِ
وما بجوادنـــا عجزٌ ولكـــن أظُنُّـك قـد عَجَزتَ عن الثّواب

فأجابه الربيع فقال :

رُويدَك لا تكن عجِلاً إلينــا أتاك بمـا يَسُوءُك مـن جوابِ
وجدتُ جوادكم فَـدْماً بطيئـاً فما لكم لدينا من ثـوابِ[2]

فلما كان بعد أيام رأى النصيب الفرسَ تحت الربيع فقال له :

أخذتَ مُشهَّراً في كـلّ أرضٍ فعَجِّل يـا ربيعُ مُشهَّراتـي
يمـانيةً تخيَّرَهـا يَمـانٍ مُنَمنمةَ البيـوت مُقطّعاتِ
وجاريةً أَضلّـت والديَـهـا مُولّدةً وبيضـاً وافيـاتِ
فعَجِّلهـا وأنفِذْهـا إليـنـا ودَعْنا مـن بنات التُّرهـاتِ[3]

فأجابه الربيعُ فقال :

بعثَ بمُقرِفٍ حَطِـمٍ إليـنـا بطيءِ الحُضْرِ ثم تقول : هاتِ[4]

---

(١) المقطعة : الأبيـات من الشعر ، وهي أيضاً : ضرب من الثيـاب ، وهي المرادة هنا . أغرّك ... : أراد أنه يعيش في نعمة وبحبوحة . متفج : مرتفع . الحرورية : الخوارج . البهر : انقطاع النفس عند الجري .

(٢) الفدم : الغليظ الثقيل .

(٣) الترهات : الأباطيل .

(٤) المقرف : الفرس غير الأصيل ، ومن الرجال : من كانت أمه عربية وأبوه أعجمياً . =

فقال النصيب :

في سبيل الله أودى فَرسـي ... ثم عُلِّلتُ بأبيات هَزَجْ
كنت أرجو من ربيعٍ فَرَجاً ... فإذا ما عنده لي من فَرَجْ

قال : ثم خرج الربيع الى مكة ، وقد كان وعد النُصيب جاريةً فلم يُعطه ، وأمر ابنه أن يدفع اليه ألفي درهم ، ففعل ، فقال النصيب :

ألا أبلغا عني الربيع رسالةً ... ربيعَ بني عبد المَدَان الأكارمِ
أعزّت عليك البِيضُ لمّا أَرغتُها ... فرُغْتَ الى إعداد بيض الدراهم
ألم ترَ أني غيرُ مُستطرَف الغِنى ... حديث وأني من ذُؤابة هاشم
وأنك لم تهبِط من الأرض تَلعةً ... ولا نَجوةً إلا بعهدي وخاتمي[1]

● محمد بن يزيد النَحْويّ قال : حُدّثت من غير وجه :

أنّ النُّصَيب دخل على الفضل بن يحيى بن خالد مُسَلِّماً ،فوجد عنده جماعةٍ من الشعراء قد امتدحوه ، فهم ينشدونه ، ويأمر لهم بالجوائز ،ولم يكن امتدحه ولا أعدّ له شيئاً . فلمّا فَرَغوا ـ وكان يروّي[2] قولاً في نفسه ـ استأذن في الإنشاد ثم أنشد قصيدته التي أولها قولُه :

طرقتْك مَيّةُ والمزارُ شَطِيبُ ... وتُثيبك الهِجرانَ وهي قريبُ
لله ميّةُ خُلّةً لو أنها ... تَجزي الودادَ بوُدّها وتُثيب
وكأن ميّة حين أتلعَ جِيدُها ... رشأٌ أَغَنُّ من الظِّباء رَبيبُ
نصفانِ ما تحت المؤزّر عاتكٌ ... دِعْصٌ أغرُّ وفوق ذاك قضيبُ
ما للمنازل لا تكاد تُجيب ... أنّى يُجيبُك جَندلٌ وجَبُوبُ

= حطم : متحطم . الحضر : العدو .

(١) البيض : النساء . أرغتها : أردتها وطلبتها . مستطرف الغنى : حديث الغنى .

(٢) روّى في الأمر : تفكر .

جادتْك مـن سَبَل الثريّـا دِيمـةٌ رَيّـا ومن نَوء السماك ذَنوب
فلقد عهدتُ بـك الحِلال بغِبطةٍ والدهرُ غضٌ والجَنابُ خَصيب
إذ للشباب عليَّ من ورق الصبـا ظلٌ واذ غُصن الشباب رطيبُ
طرب الفؤاد ولاتَ حينَ تطرُّبِ إن الموكَّل بالصِبَا لَطَروب
وتقول ميّة ما لِمثلـك والصِبَـا واللونُ أسودُ حـالكٌ غِربيبُ
شاب الغُراب ومـا أراك تَشيـب وطِلابُك البِيضَ الحسانَ عجيبُ
أعَـلاقَةٌ أسبـابُـهنّ وانمـا أفنان رأسك فُلفُلٌ وزبيبٌ[1]

. . . . . .

يقول فيها في مدح الفضل :

والبرَمكيُّ اذا تقـارب سِنُّـه أو باعدتَهْ السِنُّ فهـو نجيبُ
خِرْقُ العطاء إذا استهـلّ عَطاؤه لا مُتبعٌ مَـنّـاً ولا محسوبُ
يا آلَ بَـرمْكَ ما رأينـا مثلكـم ما منكم الا أغـرٌّ وَهُـوبُ
وإذا بدا الفضلُ بن يحيى هِبته لجلاله إنّ الجليـلَ مَهيبُ
قاد الجياد الى العِـدا وكـأنّهـا رِجْل الجَـراد تَسُوقهنّ جَنوب
قُبّاً تباري في الأسِنّـة شُزَّبـاً تدع الحـزُونَ كأنّهنّ سُهوب
من كل مضطرِب العِنان كأنّـه ذئبٌ يُبادرُه الفريسـةَ ذِيـبُ
تهوِي بكلّ مُغـاوِرٍ عاداتـهُ صِدقُ اللقاء فما له تكذيب[2]

(١) شطيب : بعيد ، وشَطَب : بَعُد . الخلة : الصديقة . أتلع : طال وارتفع . أغن : في صوته غُنّة . الدعص : الكثيب من الرمل . الجبَوب : وجه الأرض الصلبة . السبل : ما سال من المطر . الديمة : السحابة الممطرة . الثريا والسماك : من الكواكب . الذنوب : الدلو الممتلئة .

(٢) الخرْق : الشديد الكريم . الرِّجْل . (بكسر الراء) : القطعة العظيمة من الجراد . قبّاً : ضامرة البطون . الشزب ج شازب : الخشن اليابس .

[الأبيات . . . .]

قال : فاستحسنها الفضلُ وأمر له بثلاثين ألف درهم . . .

● أحمد بن سليمان بن أبي شيخ قال :

كان أبي يَستملح قول نصيب وقد رأى كثرة الشعراء على باب الفضل بن يحيى ، فلما دخل الناسُ اليه قال له :

ما لقِينا من جُود فضل بن يحيى ... ترك النّاسَ كلَّهم شعراء

ويقول : ما في الدنيا أحسنُ من هذا المعنى ، وعلى أنه قد أخذ منهم مالاً جليلاً ولكن قلّما سمعتُ بطبقته مثلَه .

* * *

٣٨

والبة بن الحُباب

[الأغاني الجزء ١٨ ص ١٠٠ وما بعدها]

الشاعر

والبةُ بن الحُباب أَسَديٌّ صليبةٌ ، كوفيّ ، شاعر من شعراء الدولة العبّاسيّة ، يُكنَى أبا أسامة ، وهو أستاذ أبي نُواس . وكان ظريفاً شاعراً غزِلاً وصّافا للشَراب والغلْمان المُـرْد ، وشعرُه في غير ذلك مُقارِبٌ[1] ليس بالجيّد ، وقد هاجى بشّاراً وأبا العتاهية فلم يصنع شيئاً وفضَحاه ، فعاد الى الكوفة كالهارب ، وخَمَل ذكرُه بعدُ .

أبو عدنان السُّلَميّ الشاعر قال .

قال المهديّ لعُمارة بن حمزة : مَن أرقُّ الناس شعراً ؟ قال : والبةُ بن الحُباب الأسديّ ، وهو الذي يقول :

ولهـا ولا ذنـب لهـا   حُبٌّ كأطراف الرّمـاح
في القلب يَقدحُ والحشا   فالقلبُ مجروح النـواحي

(١) شعر مقارب : وسط بين الجيد والرديء .

قال : صدقتَ ، واللهِ . . .

قال الجاحظ : كان والبةُ بن الحباب ، ومطيعُ بن إياس ، ومُنقذ بن عبد الرحمن الهلالي ، وحَفص بن أبي وَردة ، وابنُ المقفَّع ، ويونُس بن أَبي فَروة ، وحمّاد عَجْرَد ، وعليُّ بن الخليل ، وحمّاد بن أبي ليلى الرّاوية ، وابنُ الزّبرقان ، وعُمارة بن حمزة ، ويزيد بن الفَيض ، وجميل بن محفوظ ، وبشّارٌ المُرَعَّث ، وأبانُ اللاحقيّ ، نُدَماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هَزْلاَ وعَمداً ، وكلُّهم مُتهمٌ في دينه .

طائفة من أخباره

● عن ابن قُتيبة :

حدّثني الدَّعْلجيُّ غلامُ أبي نواس قال : أنشدت يوماً بين يدي أبي نواس قوله : يا شقيقَ النفس من حَكَمِ   نِمتَ عن ليلي ولم أَنَمِ
وكان قد سكر فقال : أُخبرك بشيء على أن تكتُمهَ ؟ قلت : نَعم . قال : أتدري مَن المَعْنيُّ بقوله : يا شقيق النفس من حكم ؟ قلت : لا . قال : أنا واللهِ المَعنيُّ بذلك ، والشعر لوالبةَ بن الحُباب . قال : وما علِم بذلك غيرُك وأنت أعلم . فما حدّثتُ بهذا حتى مات .

● محمد بن عمر الجُرجانيّ قال :

رأيت أبا العَتاهية جاء الى أبي فقال له : إن والبة بن الحُباب قد هجاني ، ومَن أنا منه ؟ أنا جرّارٌ مسكين ـ وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه ـ فأُحبّ أن تُكلّمه أن يُمسِكَ عنيّ ، قال : فكلّم أبي والبةَ وعرّفه أن ابا العتاهية جاءه وساله ذلك . فلم يقبل وجعل يشتُم أبا العتاهية ، فتركه ، ثم جاء أبو العتاهية فسأله عمّا عمل في حاجته ، فأخبره بما ردّ عليه والبةُ ، فقال لأبي : لي الآن اليك حاجةٌ . قال : وما هي ؟ قال : لا تُكلِمّني في أمره . قال قلت له : هذا أقلّ ما يجب لك . قال : فقال أبو العتاهية يهجوه :

أوالبُ أنت في العربِ   كمثل الشِيص في الرُّطَبِ

هَلُمّ الى المــوالي الصِيـــــد في سَعةٍ وفي رَحَـــب
فأنــت بنا لَعمـــرُ الـــلـــه أشبهُ مـــنـك بــالعربِ
غضبــت عليـك ثــم رأيـــتُ وجهَــك فانجلَى غضبي
لِما ذكّـــرتني مـــن لـــون أجـــدادي ولـــونِ أبـــي
فَقُل مـــا شئـتَ أقــبلــه وإن أطــنبــتَ في الكـذِب
لــقد أُخبرتُ عـــنـك وعــن أبيـك الخالص العــربي
فقال العــارفــون بــــه مُـــصاصٌ غيرُ مُـــؤتَشِب
أتانــا مـــن بــلاد الـــرُّو م مُـتَّجراً عـــلى قَتَــبِ[1]
[الأبيات . . . . .] . . . .

قال : وبلَغ الشعرُ والبة فجاء الى أبي فقال : قد كلّمتَني في أبي العتاهية ، وقد رغبتُ في الصُّلح . قال له أبـي : هَيهاتَ ! إنه قد أكّد عليّ إن لم تقبَل ما طلب أن أُخلّي بينك وبينَه ، وقد فعلت . فقال له والبةُ : فما الرأيُ عندك ؟ فإنه فَضَحني . قال : تنحدر الى الكوفة . فركب زورقاً ومضى من بغداد الى الكوفة .

وأجودُ ما قاله والبةُ في أبـي العتاهية قولهُ :

كان فينا يُكنَى أبـا إسحـــاق وبها الرُّكبُ سار في الآفاق
فتكنّى مَعتوهُنـــا بعَـتـــاهٍ يـا لهـا كُنيـةً أتتْ باتّفـــاق
خلق اللهُ لحيةً لك لا تَـــنـــفَـــكُّ معقودةً لدى الحـــلاّق

● حمّاد بن إسحاق قال :

قرأت على أبي عن أبيه أن حكماً الواديَّ أخبره أنه دخل على محمد بن العباس يوما بالبصرة وهو يتَململ خمارا ، وبيده كأسٌ وهو يجتهد في شربها

(١) الشيص : تمر رديء . المصاص : الخالص من كل شيء . غير مؤتشب : غير مختلط .

فلا يُطيقه ، ونُدماؤه بين يديه وفي أيديهم أقداحُهم ، وكان يوم نَيروز ، فقال لي : يا حكمُ ، غنّني ، فإن أطربتَني فلك كلُّ ما أُهدِي إلي اليومَ . قال : وبين يديه من الهدايا أمرٌ عظيم ، فاندفعتُ أغنّي في شعر والبة بن الحُباب :

قد قابلتْنا الكؤوسُ ودابَرتْنا النُّحوسُ
واليوم هوُ نَيروزُ قد عظَّمتْه المَجوُس
لم تُخطِه في حساب وذاك ممّا نَسُوس

فطرب واستعاده . فأعدتُه ثلاث مرّات ، فشُمّرت[1] قدحُه ، واستمرّ في شُربه ، وأمر بحمل كل ما كان بين يديه اليّ ، فكانت قيمته ثلاثين ألفَ درهم .

* * *

(١) شمرت : خففت بالماء .

فهرس التراجم
على حروف المعجم

الفهرس

اختيارات

من

كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

القسم الرابع

العصر الأموي

- ب -

صنعة

الدكتور إحسان النص

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

اختيارات
من
كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

تتمة شعراء السياسة والمديح والهجاء

٢٣

القُطامّي

(الأغاني ج ٢٤ ص ١٧ وما بعدها)

الشاعر

القُطاميّ لقبٌ غلب عليه ، واسمُه عُمَيْر بن شُيَيم ، وكان نصرانياً ، وهو شاعرٌ إسلاميّ مُقِلٌ مُجيد .

عن الشَعبيّ قال : قال عبدُ الملك بن مروان ــ وأنا حاضرٌ ــ للأخطل : يا أخطلُ ، أتُحبّ أنّ لك بشعرك شعرَ شاعر من العرب ؟ قال : اللهمّ لا ، إلاّ شاعراً منّا مُغْدِفَ القِناع (١) ، خاملَ الذكْر ، حديثَ السنّ ،

(١) أغدف قناعه : أرسله على وجهه ، أراد أنه غير معروف ولا نابه الذكر .

إن يكن في أحدٍ خير فسيكون فيه ، ولوَدِدتُ أنّي سبقته إلى قوله :

يقتُلنَنــا بحديثٍ ليس يَعلمــه ... من يتّقين ولا مَكنونُه بادي
فهنّ يَنبِذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ به ... مَواقع الماء من ذي الغُلّة الصادي(١)

عن عبد الملك بن مُسلم قال :

قال عبد الملك بن مروان للأخطل – وعنده عامرٌ الشعبيُّ – : أتحبّ أنّ لك قِياضاً (٢) بشعرك شعرَ أحدٍ من العرب ، أو تحبّ أنّك قلته ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، إلاّ أنّي ودِدت أنّي كنت قلت أبياتاً قالها رجلٌ منّا مُغدف القِناع ، قليل السَّماع ، قصير الذّراع . قال : وما قال ؟ فانشد قول القُطاميّ :

إنّا مُحيُّوكَ فاسلَمْ أيُّها الطَّلَلُ ... وإن بَليت وإن طالت بك الطِيَلُ
ليس الجديدُ به تبقى بَشاشتُــه ... إلاّ قليلاً ولا ذو خلّةٍ يَصِلُ
والعيشُ لا عيشَ إلاّ ما تَقَرُّ بــه ... عَينٌ ولا حالَ إلاّ سوف تَنتقلُ
إن ترجِعي من أبي عثمانَ مُنْجِحةً ... فقد يهونُ على المُستَنْجِحِ العملُ
والناسُ مَن يَلقَ خيراً قائلون لــه ... ما يَشتهي ولأُمّ المُخطئ الهَبَلُ
قد يُدرك المتأنّي بعضَ حاجتــه ... وقد يكون مع المستعجِل الزَّلَلُ(٣)

حتّى أتى على آخرها .

قال الشعبيّ : فقلت له : قد قال القُطاميّ أفضلَ من هذا . قال :

---

(١) الغلة : الظمأ . الصادي : الظمآن .
(٢) القياض : المقايضة والبدل .
(٣) طالت بك الطيل : طال عمرك ومكثك . ومثلها الطول ، بكسر الطاء . الجديد به : اي بالدهر ، عطفاً على بيت سابق لم يذكر هنا . الخلة : الحاجة والفقر ، وقد ضبطت في المطبوعة بالضم وهو خطأ . الهبل : الثكل .

وما قال ؟ قلتُ : قال :

طرقتْ جَنوبُ رحالنا من مَطْرَقِ ... ما كنتُ أحسبُها قريبَ المُعْنَقِ
قَطَعتْ إليك بمثل جيدِ جَدايةٍ ... حَسَنٍ مُعلَّقُ تُومَتَيْه مُطَوَّقِ
ومُصرَّعِين من الكَلال كأنّما ... بَكَرُوا الغَبُوقَ من الرَّحيق المُعْتَقِ
مُتوسِّدين ذِراعَ كلِّ شِمِلَّةٍ ... ومفرَّجٍ عَرِقِ المَقَذّ مُنَوَّقِ
وجَثت على رُكَبٍ تَهُدُّ بها الصَّفا ... وعلى كَلاكلِ كالنَّقيل المُطْرَقِ
وإذا سمعنَ إلى هَماهم رُفقةٍ ... ومن النجومِ غَوابرٌ لم تَخفُقِ
جعلتْ تُميلُ خُدودَها آذانُها ... طرَباً بهنّ إلى حُداء السُوَّقِ
كالمُنصِتات إلى الزَّمير سمِعنَه ... من رائعٍ لقلوبهنّ مُشَوَّقِ
فإذا نظرن إلى الطَّريق رأينه ... لَهَقاً كشاكلة الحِصان الأبلَقِ
وإذا تخلَّف بَعْدَهنّ لِحاجةٍ ... حادٍ يُشَسِّعُ نَعلَه لم يَلْحَقِ
واذا يُصيبُك ، والحوادثُ جَمَّةٌ ... حَدَثٌ حداكِ إلى أخيك الأوثَقِ
ليت الهُمومَ عن الفؤاد تَفرَّجت ... وخلا التكلُّمُ لِلّسان المُطلَقِ (١)

---

(١) جنوب : اسم امرأة . معنق : اسم مكان من أعنق أي أسرع . الجداية : الغزال . التومة : حبة تعمل من الفضة كاللؤلؤة ، يصفها بجمال العنق . الغبوق : ما يشرب بالعشي . الرحيق المعتق : الخمر القديمة ، وفي رواية الديوان : المعرق ، بفتح الراء ، أي التي مزجت بقليل من الماء . ناقة شملة : سريعة . المفرج : الذي بان مرفقه عن إبطه ، صفة البعير . المقذ : ما بين الأذنين من خلف الرأس . جمل منوق : مذلل منقاد جثت : الضمير يعود على الابل ، وفي الديوان : بركت مكان جثت . الصفا : الحجارة الكبيرة واحدتها صفاة . الكلكل : صدر الناقة . والنقيل جمع نقيلة : رقعة النعل التي يرقع بها خف البعير إذا حفي . المطرق : الذي وضع بعضه فوق بعض . الهماهم : الكلام الخفي . خفق النجم : غاب . الزمير : الغناء في القصب . اللهق : الأبيض لا بريق له . الشاكلة : الخاصرة . الأبلق : ما فيه سواد وبياض . يشسع : يجعل لنعله شسعاً ، وهو سير يدخل بين الأصبعين . حداك : دفعك. واذا يصيبك يشسع : جواب إذا ورد في بيت لم يذكر هنا وهو قوله :

قال : فقال عبد الملك بن مروان : ثكلت القُطاميَّ أمُّه ، هذا واللهِ الشعرُ. قال: فالتفت إليَّ الأخطل فقال لي : يا شَعبيُّ ، إنَّ لك فنوناً في الأحاديث ، وإنّما لنا فنٌّ واحد ، فإن رأيت ألاّ تحمِلني على أكتاف قومك فأدَعَهم حَرْبَى (١) . فقلت : وكرامةً ، لا أعرِض لك في شعرٍ أبداً ، فأقِلْني (٢) هذه المرّة .

ثم التفتُّ إلى عبد الملك بن مروان فقلت : يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تستغفرَ لي الأخطل ، فإنّي لا أعاود ما يَكرهُ . فضحك عبد الملك بن مروان وقال : يا أخطلُ ، إنّ الشعبيَّ في جواري . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد بدأته بالتحذير ، وإذا ترك ما نَكْرَهُ لم نعرِض له إلاّ بما يُحبّ . فقال عبد الملك بن مروان للأخطل : فعليَّ ألاّ يعرِض لك إلاّ بما تحبّ أبداً . فقال له الأخطل : أنت تتكفَّلُ بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك بن مروان : أنا أكفلُ به ، إن شاء الله تعالى .

عليّ بن يحيى المنجّم قال : سمعت من لا أُحصي من الرُّواة يقولون : أحسن الناس ابتداءَ قصيدٍ في الجاهليّة امرُؤ القيس حيث يقول :

ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَلَلُ البالي

وحيث يقول :

قفا نَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل

= فهم الرجال وكل ذلك منهم ... تجدنّ في رحب وفي متضيق

ليت الهموم : في الديوان : لئن الهموم ، وجواب القسم في بيت تالٍ في الديوان هو قوله :

لأعلقن على المطي قصائداً ... أذر الرواة بها طويلي المنطق

(١) تحملني على أكتاف قومك : تعرضهم لهجائي . حربى ج حَرِب : من اشتد غضبه وكلب.
(٢) أقلني : اصفح عن زلّتي .

وفي الاسلاميّين القُطاميّ حيث يقول :

إنّا مُحيّوك فاسلَمْ أيّها الطَّلَل

وفي المحدثين بشار حيث يقول :

أبى طللٌ بالجَزْع أن يتكلّما — وماذا عليه لو أجاب مُتيَّما

وبالفُرع آثارٌ لِهندٍ وباللّوى — مَلاعبُ ما يُعرَفن إلاّ توهُّما

محمد بن صالح بن النَطّاح قال :

القُطاميّ أوّل من لُقّب « صَريع الغواني » بقوله :

صَريعِ غَوانٍ راقَهنّ ورُقْنَه — لَدُنْ شَبّ حتّى شاب سُودُ الذّوائبِ

قال أبو عمرو الشيبانيّ :

لو قال القُطاميّ بيته :

يمشِين رَهْواً فلا الأعجازُ خاذلةٌ — ولا الصُّدورُ على الأعجاز تتّكلُ[1]

في صفة النساء لكان أشعر الناس .

وقوعه في أسر زفر بن الحارث

(عن طائفة من الرواة)

... لمّا ألحّ عُمير[2] بالغارات على كلب رحلَت حتى نزلت غَوْريّ الشام ، فلمّا صارت كلبٌ بالموضع الذي صارت ، انصرفت قيس في بعض ما كانت تنصرف من غزو كلب – وهم مع عُمير – فنزلوا بِثَنْيٍ من أثناء الفُرات بين منازل بني تغلب ، وفي بني تَغلب امرأةٌ

(١) الرهو : السير السهل اللين ، والبيت في صفة النوق .

(٢) هو عمير بن الحباب : من سادة قبيلة قيس وكانت له مشاركة في حروب قيس وكلب وقيس وتغلب بالجزيرة مع زفر بن الحارث .

من تميم يُقال لها ، أمّ دُوَيل ، ناكحةٌ في بني مالك بن جُشَم بن بكر . وكان دويلٌ من فرسان بني تغلب ، وكانت لها أعنُزٌ بمَجْنَبَةٍ ، فأخذوا من أعنُزها ، أخذها غُلامٌ من بني الحَرِيش . فشكَوا ذلك إلى عُمير فلم يُشْكِهم [1] ، وقال : مَعَرَّةُ الجُنْد . فلمّا رأى أصحابُه أنّه لم يَقْدَعْهم [2] وثبوا على بقيّة أعنُزها فأخذوها وأكلوها . فلمّا أتى دُويل أخبرتْه بما لقِيت ، فجمع جمعاً ثم سار فأغار على بني الحرِيش ، فلقي جماعةً منهم فقاتلوه ...

فلمّا بلغ ذلك قيساً أغارت على بني تغلب بإزاء الخابور [3] ، فقتلوا منهم ثلاثة نَفَرٍ ، واستاقوا خمسة وثلاثين بعيراً . فخرجت جماعةٌ من تغلب ، فأتَوا زفر بن الحارث وذكروا له القَرابة والجِوار ، وهم بقَرْقيسيا [4] ، وقالوا : إئتِنا برحالنا ورُدّ علينا نَعَمنا . فقال : أمّا النَعَم فنردُّها عليكم ، أو ما قَدَرنا لكم عليه ، ونُكمل لكم نَعَمكَم من نَعَمِنا إن لم نُصِبْها كلّها ، ونَدي [5] لكم القَتلى. قالوا له : فدَعْ لنا قُريّات الخابور ، ورَحِّل قيساً عنها ، فإنّ هذه الحروب لن تُطفأ ما داموا مُجاورينا . فأبى ذلك زُفَرُ ، وأبَوا هم أن يرضَوا إلاّ بذلك ، فناشَدهم اللهَ وألحَّ عليهم ، فقال له رجلٌ من النّمِر كان معهم : والله ما يَسُرُّني أنّه وَقاني حربَ قيسٍ كلبٌ أبقَعُ تركتُه في غنَمي اليومَ . وألحّ عليهم زُفر يطلب إليهم ويناشِدُهم ، فأبَوا . فقال عُميرٌ : لا

---

(١) أشكاه : أزال شكواه وأرضاه .

(٢) لم يقدعهم : لم يكفهم .

(٣) الخابور : نهر بالجزيرة بين رأس عين والفرات .

(٤) قرقيسيا : بلدة بشمالي بلاد الشام لجأ اليها زفر بن الحارث بعد هزيمة يوم مرج راهط .

(٥) وداه : أدى ديته .

عليك ، لا تُكثِرْ ، فوالله ِ إنّي لأرى عُيون قوم ٍ ما يُريدون إلا محاربتك . فانصرفوا من عنده ، ثمّ جمعوا جَمعاً وأغاروا على ما قَرُبَ من قَرقيسيا من قرى القَيسيّة ، فلِقيهم عُمير بن الحُباب ، فكان النَمَريُّ الذي تكلّم عند زفر أوّل قتيل ٍ ، وهَزم التَغْلِبيّين ، فأعظم ذلك الحيّان جميعاً قيسٌ وتغلِبُ ، وكرهوا الحرب وشماتَةَ العدوّ .

فذكر سليمان بن عبد الله بن الأصمّ :

أنّ إياس بن الحَرّاز ، أحد بني عُتَيبة بن سعد بن زهير ، وكان شريفاً من عيون تغلب ، دخل قرقيسيا لينظُر ويُناظر زُفر فيما كان بينهم ، فشدّ عليه يَزيدُ بن بجزن القَرْشيّ فقتلـه ، فتذمّم زفر من ذلك ، وكان كريماً مُجمّعاً لا يحبّ الفُرقة ، فأرسل إلى أمير بن قَرْشة .. بن تغلب، فقال له : هل لك أن تسُود بني نزار ٍ فتقبلَ منّي الدِية عن ابن ِ عمّك ؟ فأجابه إلى ذلك . وكان قَرْشَة من أشراف بني تغلب ، فتلافى زفر ما بين الحَيّين ، وأصلح بينهم ، وفي الصدور ما فيها .

فوفد عمير على المصعَب بن الزبير فأعلمه أنه قد أولج قُضاعة بمدائن الشام ، وأنّه لم يبق إلا حيٌّ من ربيعةَ أكثرهم نصارى ، فسأله أن يُولّيه عليهم . فقال : أكتُبُ إلى زفر ، فإن هو أراد ذلك والاّ وَلاّك . فلمّا قدِم على زفر ذكر له ذلك فشق عليه ذلك وكره أن يليَهم عميرٌ فيَحيف بهم ويكون ذلك داعيةً إلى منافرته . فوجّه إليهم قوماً ، وأمرهم أن يرفُقوا بهم ، فأتوا أخلاطاً من بني تغلب من مشارق الخابور فأعلموهم الذي وُجّهوا به فأبَوا عليهم ، فانصرفوا إلى زفر ، فردّهم وأعلمهم أنّ المصعب كتب إليه بذلك ، ولا يجدُ بُدّاً من أخذ ذلك منهم أو محاربتهم ، فقتلوا بعضَ الرسُل .

وذكر ابن الأصَمّ :

إنّ زُفر لمّا أتاه ذلك اشتدّ عليه ، وكره استفساد بني تغلِب . فصار إليهم عُمير بن الحُباب ، فلَقِيهم قريباً من ماكِسِين ، على شاطىء الخابور ، بينه وبين قرقيسيا مَسِيرةُ يوم ، فأعظم فيهم القتل .

وذكر زياد بن يزيد بن عُمير بن الحُباب :

أن القتلِ استحرَّ ببني عتّاب بن سعد ، والنَّمِر ، وفيهم أخلاطُ تغلب ، ولكنّ هؤلاء مُعظَمُ الناس ، فقتلوهم بها قتلاً شديداً . وكان زفر بن يزيد ، أخو الحارث بن جُشَم ، له عشرون ذكراً لِصُلْبه ، وأُصيب يومئذٍ أكثرُهم ، وأسر القُطاميّ الشاعر وأُخذت إبله ، فأصاب عميرٌ وأصحابه شيئاً كثيراً من النَعَم ، ورئيسُ تغلب يومئذٍ عبد الله بن شُريح ... بن عتّاب بن سعد بن زهير بن جُشَم ، فقُتل وقُتل أخوه وقتل مُجاشِع بن الأجلح وعُمرو بن معاوية ، من بني خالد بن كعب بن زهير ، وعبد الحارث بن عبد المسيح الأوسيّ (١) ، وسَعدان بن عبد يَسوعَ بن حَرب ، وسعد وُدّ بن أوس ، من بني جُشَم بن زهير . وجعل عميرٌ يصيح بهم : وَيلكَم لا تَستَبْقُوا أحداً . ونادى رجلٌ من بني قُشَير يقال له النَدّار : أنا جارٌ لكلّ حاملٍ أتَتْني ، فهي آمنةٌ . فأتته الحَبَالى ، فبلغني أنّ المرأة كانت تَشدُّ على بطنها الجَفْنة من تحت ثوبها تشبيهاً بالحُبلى بما جعل لهنّ . فلمّا اجتمعن له بَقَر بُطونَهنّ ، فأفظع ذلك زفرُ وأصحابُه ، ولام زُفَر عميراً فيمن بُقر من النساء ، فقال : ما فعلتُه ولا أمرتُ به ...

ولمّا أُسر القُطاميّ أتى زفر بقرقيسيا فخلّى سَبيله وردّ عليه مائةً

---

(١) الأوسي هنا : نسبة إلى أوس بن تغلب .

ناقة ... فقال القُطاميّ يمدحه :

قِفي قبلَ التفرّق يـا ضُباعـا ولايكُ موقفٌ منـكِ الوَداعـا
قفي فـادي أسيرك إنّ قـومي وقومك لا أرى لهـم اجتماعـا
ألم يَحزُنْك انّ حبـال قيسٍ وتغلبَ قد تباينـت انقطاعـا
فصارا مـا تُغِبُّهمـا أمورٌ تزيد سَنا حَريقتِهـا ارتفاعـا
كما العظمُ الكَسيرُ يُهاضُ حتّى يَبيتَ وإنّما بـدأ انصداعـا
فأصبح سيلُ ذلك قـد ترقّـى إلى مَن كان منزلـه يَفاعـا
فلا تبعَدْ دماءُ ابـنَيْ نـزارٍ ولا تَقْرَرْ عيونُك يـا قُضاعـا
ومـن يكن استلام الـى ثَوِيٍّ فقد أحسنتَ يـا زُفرُ المَتَـاعـا
أكُفراً بعـد رَدّ المـوت عنّي وبعد عطائك المائـةَ الرِّتاعـا
فلو بيدَيْ سِواك غَداة زَلّـتْ بيَ القَدَمان لم أرجُ اطّلاعـا
إذن لهلكتُ لو كـانت صِغـارٌ من الأخلاق تُبْتَدَع ابتداعـا
فلم أرَ مُنعِمين أقـلَّ مَنّـاً وأكرمَ عندما اصطَنعوا اصطناعا
من البِيض الوجوهِ بني نُفَيـلٍ أبتْ أخلاقُهم إلاّ اتّساعـا
بني القَرْم الذي علمتْ مَعَـدٌّ تفرَّعَ قومَها سَعةً وباعـا (١)

---

(٢) ضباع : هي ضباعة بنت زفر بن الحارث ، وكانت أشارت على أبيها بتخلية القطامي . تغبهما : تفارقهما ، وفي الأصل : أغبه : جاءه يوماً وفارقه يوماً . السناء : الضياء . يهاض : يكسر . يبت : ينقطع . اليفاع : المرتفع . لا تبعد : لا تهلك ، وهي صيغة دعائية . قرت عينه : سر ، وأصله من القر بمعنى البرد . قضاعة : هي القبيلة الجامعة التي تنتمي اليها قبيلة كلب . استلام : فعل ما يوجب اللوم والذم . الثوي : الضيف . المتاع : الزاد . الرتاع : من رتعت الماشية أي رعت كيف شاءت . الاطلاع ، هنا : النجاة . القرم : السيد . تفرع قومه : علاهم وفاقهم .

... وقال فيه أيضاً :

ما اعتاد حبُّ سُليمى حينَ مُعتادِ ولا تقضّى بواقي دَيْنِها الطادي
بيضاءُ مَحطوطةُ المتنَين بَهْكَنَةٌ ريّا الرَّوادف لم تُمْغِل بأولاد
ما للكواعبِ وَدَّعن الحياةَ كما ودَّعْنَني واتّخذن الشَّيب ميعادي
أبصارُهن إلى الشُّبان مائلةٌ وقد أراهنّ عنّي غيرَ صُدّادِ
إذ باطلي لم تَقَشَّعْ جاهليّتُهُ عنّي ولم يترُكِ الخُلاّنُ تَقوادي
كنِيّة الحيّ من ذي القَيْضة احتَملوا مُستَحقِبين فؤاداً ماله فادي
بانوا وكانت حياتي في اجتماعهم وفي تفرُّقهم قتلي وإقصادي
يقتُلننا بحديثٍ ليس يعلمه من يَتَّقِين ولا مَكْنُونُه بادي
فهنّ يَنْبِذْنَ من قولٍ يُصِبن به مَواقعَ الماء من ذي الغُلّة الصادي[1]

يقول فيها في مدح زفر بن الحارث :

من مُبلغٌ زُفَرَ القيسيَّ مِدْحَتَه من القُطاميّ قولاً غيرَ إفنادِ
إنّي وإن كان قومي ليس بينَهم وبينَ قومك إلا ضربةُ الهادي
مُثنٍ عليك بما استبقيتَ مَعرفتي وقد تَعرّض منّي مَقتلٌ بادي
فلن أُثيبَك بالنَّعماء مَشتَمةً ولن أُبدّلَ إحساناً بإفساد
فإن هجوتُك ما تمّت مُكارمتي وإن مدحتُ فقد أحسنتَ إصفادي
وما نسيت مَقام الوِرد تحبِسُه بيني وبين حَفيف الغابة الغادي
لولا كتائبُ من عمرو تصُول بها أُرديتُ يا خيرَ من يندُوله النادي

(١) الطادي : الثابت القديم . محطوطة المتنين : ممدودتهما . البهكنة : الشابة الغضة . ريا : ممتلئة . الممغل من النساء : التي تلد كل سنة وتحمل قبل فطام الصبي . يريد : لم يكثر ولدها فيكون ذلك مفسداً لجمالها ويرهل لحمها . النية : الوجه الذي يذهب فيه . مستحقبين : محتملين . أقصده : رماه فأصابه .

إذ لا ترى العينُ إلاّ كلَّ سَلْهَبَة ... وسابحٍ مثلِ سِيد الرَّدْهة العادي
اذ الفوارسُ من قيسٍ بشِكّتهم ... حولي شُهودٌ وما قومي بشُهّادِ
إذ يعتريك رجالٌ يسألون دمي ... ولو أطعتَهم أبكيتَ عُوّادي
فقد عصيتَهم والحربُ مُقبلةٌ ... لا بل قَدَحت زِناداً غيرَ صَلاّد
والصِّيدُ آلُ نُفَيلٍ خيرُ قومهم ... عند الشّتاء إذا ما ضُنَّ بالزّادِ
المانعون غَداةَ الرَّوع جارَهم ... بالمَشْرَفيّة من ماضٍ ومُنآدِ
أيّامَ قومي مكاني مُنْصِبٌ لهمُ ... ولا يَظنّون الاّ أنّني رادي
فانتاشني لك من غَمّاء مُظلمةٍ ... حَبلٌ تَضمّن إصداري وإيرادي
ولا كردّك مالي بعدما كَرَبَت ... تُبدي الشَماتةَ أعدائي وحُسّادي
فإن قدرتُ على خيرٍ جزَيت به ... واللهُ يجعلُ أقواماً بمِرْصادِ (١)

اتصاله ببني أمية

قال أبو عمرو بن العَلاء :

أوّل ما حرّك من القُطاميّ ورفع من ذِكره أنّه قدِم في خِلافة الوليد ابن عبد الملك دمشقَ ليمدحَه ، فقيل له : إنّه بَخيلٌ لا يُعطي الشُّعراء . وقيل : بل قَدِمها في خلافة عمر بن عبد العزيز فقيل له : إنّ الشعر لا يَنفُق عند هذا ولا يُعطي عليه شيئاً ، وهذا عبدُ الواحد بن سليمان بن عبد الملك فامْتَدِحْه ، فمدحه بقصيدته التي أوّلها :

(١) الافناد : الكذب . الهادي : نصل السيف . الإصفاد: العطاء . الورد : فرس كان لزفر بن الحارث . السلهبة : الفرس الطويلة . السيد : الذئب . الردهة : شبه أكمة كثيرة الحجارة . الشكة : السلاح الكامل . أصلد الزند : لم يقدح ، ورجل واري الزند : يرجى منه الخير والمعروف . منآد : معوج . منصب : متعب . الرادي الهالك . انتاشني : استخلصني .

إنّا مُحيّوكَ فاسلَمْ أيُّها الطَّلَلُ وإن بَليت وإن طالت بك الطِيَلُ[1]

فقال له : كم أمّلت من أمير المؤمنين ؟ قال : أمّلت أن يُعطيَني ثلاثين ناقةً . فقال : قد أمرت لك بخمسين ناقةً مُوقَرَةً بُراً وتمراً وثياباً . ثم أمر بدفع ذلك إليه .

• • •

---

(١) الطيل : العمر .

٢٤

كعبُ الأَشْـقَرِيّ

(الأغاني ج ١٤ ص ٢٨٣ وما بعدها)

الشاعر

هو كعب بن مَعْدان الأشقريّ ، والأشاقر : قبيلة من الأزد . وأُمُّه من عبد القَيس . وهو شاعرٌ فارسٌ خطيب معدود في الشجعان ، من أصحاب المهلَّب والمذكورين في حروبه للأزارقة . وأوفده المهلّب إلى الحجّاج ، وأوفده الحجّاج إلى عبد الملك .

عن قتادة قال : سمعت الفرزدق يقول : شعراء الإسلام أربعة : أنا وجرير والأخطل وكعب الأشقريّ .

وفوده على الحجّاج

عن العُتْبي قال : أوفد المهلّب بن أبي صفرة كعباً الأشقريّ ومعه

مُرّة بن التّلِيد الأَزديّ إلى الحجّاج بخبر وقعة كانت له مع الأزارقة . فلمّا قدِما عليه ودخلا داره بَدَر كعب بن مَعدان فأنشد الحجّاج قوله :

يا حَفْصَ انّي عَـداني عنكمُ السَّمَـرُ
وقد سَهِرتُ فآذى عَيْني السَّهَـرُ (١)

(ومنها قوله :)

أبا سعيدٍ فإنّي سرتُ مُنتَجِعـاً وطالبُ الخير مُرتادٌ ومُنتظِـرُ
لولا المهلَّبُ ما زُرنـا بلادَهـم ما دامتِ الأرضُ فيها الماءُ والشَّجَـرُ
وما من الناس من حـيٍّ علمتهُـمُ إلاّ يُرى فيهمُ من سَيْبِكم أثَـرُ

وهي قصيدة طويلة قد ذكرها الرُواة في الخبر ، فتركتُ ذِكرها لِطولها ، يقول فيها :

فما يُجاوز بابَ الجسر من أحدٍ قدعضّتِ الحربُ أهلَ المِصْرِ فانجحروا
كنّا نُهوِّن قبلَ اليوم شأنَهـم حتّى تفاقم أمرٌ كان يُحتَقَـرُ
لمّا وَهَنّا ، وقد حلُّوا بساحتنـا واستُنْفِر الناسُ تاراتٍ فما نَفَـرُوا
نادى امرُؤٌ لا خِلافٌ في عَشيرته عنه وليس به عن مِثلها قِصَـرُ

حتى انتهى إلى قوله بعد وصفه وقائعهم مع المهلّب في بلدٍ بلدٍ ، فقال :

خَبَّوا كَمينَهم بالسَّفح إذ نزلوا بكازَرُون فما عَزُّوا وما نُصِروا
باتت كتائبُنا تردِي مُسَوَّمـةً حول المهلّب حتى نَوّر القمرُ
هناك وَلّوا خَزايا بعدما هُزِموا وحال دُونَهم الأنهارُ والجُدُرُ

(١) يا حفص : منادى مرخم وأصله : يا حفصة . عداني : صرفني .

تأبىْ علينا حَزازاتُ النفوس فمـــا نُبقي عليهم ولا يُبقُون إن قَدَرُوا[1]

فضحك الحجّاج وقال له : إنّك لَمُنصِفٌ يا كعبُ. ثم قال الحجّاج : أخطيبٌ أنت أم شاعر ؟ فقال : شاعرٌ وخطيب . فقال له : كيف كانت حالكُم مع عدوّكم ؟ قال : كنّا إذا لَقيناهم بعَفْونا وعَفْوهم . فعَفْوهم تأنيسٌ منهم . فإذا لقيناهم بجَهْدنا وجَهدهم طمِعنا فيهم . قال : فكيف كان بنو المهلّب : قال : حُماةٌ للحَريم نهاراً ، وفُرسانٌ بالليل أيقاظاً . قال : فأين السَّماعُ من العيان ؟ قال : السّماعُ دون العِيان . قال : صِفْهم رجلاً رجُلاً . قال : المُغيرةُ فارسُهم وسيّدهم . نارٌ ذاكية ، وصَعْدة عاليةٌ ، وكفى بيزيدَ فارساً شجاعاً . ليثُ غابٍ ، وبحرٌ جَمٌّ العُباب ؛ وجوادُهم قَبيصةُ ، ليث المَغار ، وحامي الذِّمار ، ولا يستحي الشُجاع أن يَفِرَّ من مُدرِك . فكيف لا يَفِرُّ من الموت الحاضر ، والأسد الخادر ؛ وعبد الملك سَمٌّ ناقعٌ ، وسيفٌ قاطع ؛ وحَبيبُ الموتُ الذُّعاف . إنّما هو طَودٌ شامخ ، وفخرٌ باذخٌ ؛ وأبو عُيَينةَ البطل الهُمام . والسيف الحُسام ؛ وكفاك بالمفضَّل نجدةً . ليثٌ هَدّار . وبَحرٌ مَوّار ؛ ومحمّد ليثُ غاب ، وحُسامُ ضِراب . قال : فأيُّهم أفضلُ ؟ قال : هم كالحَلْقَة المُفْرَغة لا يُعرَفُ طَرَفاها . قال : فكيف جماعةُ الناس ؟ قال : على أحسن حالٍ ، أدركُوا ما رَجَوا ، وأمِنُوا مِمّا خافُوا ، وأرضاهم العدلُ ، وأغناهم النَّفْل . قال : فكيف رضاهم عن المهلَّب ؟ قال : أحسن رضا ، وكيف لا يكونون كذلك وهم لا يَعدَمُون منه رضا الوالد ، ولا يَعدَم منهم بِرَّ الوَلَد ؟ قال : فكيف فاتَهم قَطَرِيٌّ ؟ قال : كِدْناه فتحوّل عن مَنزله وظنّ أنّه قد كادنا .

---

(١) انجحر الضب : لزم جحره والمراد : اختبؤوا . وهنا : ضعفنا . خبوا : أي خبؤوا . كازرون : مدينة بفارس . ردى الفرس يردي : عدا فرجم الأرض بحوافره . مسومة : معلمة بعلامة .

قال : فَهلاّ تبعتمُوه ! قال : حالَ الليلُ بينَنا وبيْنَه فكان التحرُّزُ — إلى أن يقعَ العِيانُ ويعلمَ امرُؤٌ ما يَصْنَعُ — أَحزمُ ، وكان الحدُّ عندَنا آثَرَ من الفَلّ . فقال له : المهلَّبُ كانَ أعلمَ بك حيث بَعَثَك . وأمر له بعشرة آلاف درهمٍ ، وحمله على فرسٍ ، وأوفده الى عبد الملك ابن مروان فأمر له بعشرة آلافٍ أُخرى [1] .

أحمد بن زهير بن حرب قال : حدَّثني أبي قال :

كتب الحجّاج بن يوسف إلى المهلّب يأمره بمناجَزة الأزارقة ويَستبطِئُه ويُضعّفه ويُعجِّزه في تأخير أمرهم ومُطاولتهم ، فقال المهلّب لرسوله : قُل له : إنّما البَلاء أنّ الأمر إلى من يَملكُه لا إلى من يعرفه ، فإن كنت نَصبتَني لحرب هؤلاء القوم على أن أُدبّرها كما أرى ، فإن أمكنَتْني الفُرصة انتهزتُها وإن لم تُمكنّي توقّفْتُ ، فأنا أُدبّر ذلك بما يُصلحه ، وإن أردتَ منّي أن أعمَلَ وأنا حاضرٌ برأيك وأنت غائبٌ ، فإن كان صَواباً فلَك ، وإن كان خطأً فعلَيَّ ، فابعَثْ مَنْ رأيتَ مكاني . وكتب من فَوره بذلك إلى عبد الملك ، فكتب إليه عبد الملك : لا تُعارِضْ المهلّب فيما يراه ولا تُعجِلْه ، ودَعْه يُدَبِّرْ أمرَه . وقام الأشقريُّ إلى المهلّب فأنشده بحَضرة رسول الحجّاج :

إنّ ابنَ يُوسف غَرّه من غَزوكم ... خَفْضُ المُقام بجانب الأمصار
لو شاهَد الصَفَّين حين تلاقيا ... ضاقت عليه رَحيبةُ الأقطارِ
من أرض سابُورِ الجُنود ، وخيلُنا ... مثلُ القِداح بَرَيتَها بشِفار

---

(١) بعفونا وعفوهم : أي حين نكون ويكونون مستريحين غير مجهدين . الجهد : التعب والمشقة . الصعدة : القناة المستوية . العباب : الموج . الأسد الخادر : المقيم في خدره أي عرينه . الذعاف : الشديد السريع . الباذخ : المرتفع . المواز : الهائج المضطرب . النفل : الغنائم . الحد آثر من الفل : أي قتلهم أفضل من هزيمتهم .

من كلِّ خِنْذيذٍ يُرى بلَبانِـــه وَقْعُ الظُبات مع القَنا الخَطّار
ورأى مُعاودَةَ الرِّباعِ غَنيمـةً أزمانَ كان مُحالفَ الإقتـار
فدَعِ الحروبَ لِشيبِها وشبابِها وعليك كلَّ خَريدةٍ مِعطارِ (١)

فبلغت أبياته الحجّاجَ ، فكتب إلى المهلّب يأمره بإشخاص كعبٍ الأشقريّ إليه ، فأعلم المهلّب كَعباً بذلك وأوفده إلى عبد الملك من تحتً ليلته ، وكتب إليه يستوهبه منه . فقدم كعب على عبد الملك ، واستنشده فأعجبه ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجّاج وكتب إليه يُقسم عليه أن يعفُوَ عنه ويُعرِض عمّا بلغه من شعره . فلما وصل إليه ودخل عليه قال : إيه يا كعب

ورأى مُعاودةَ الرِّباع غنيمةً

فقال له : أيّها الأمير ، والله لَوَدِدتُ في بعض ما شاهدته في تلك الحروب وأزماتها وما يُوردناه المهلّبُ من خطرها أن أنجوَ منها وأكون حَجّاماً أو حائكاً . فقال له الحجّاج : أولى لك ، لولا قَسَمُ أمير المؤمنين لما نَفَعَك ما أسمع ، فالحَقْ بصاحبك . وردّه من وقته .

مهاجاته زياداً الأعجم

ذكر العُتبيُّ أنّ زياداً الأعجم هاجى كعباً الأشقريّ واتّصل الهجاء

---

(١) الرحيبة : الواسعة الرحبة . القداح : السهام ، يريد أن خيلهم قد هزلت لما عانته من أهوال الحروب . الخنذيذ : الفحل الطويل . لبان الفرس : صدره . الظبات ج ظبة : حد السيف . رمح خطار : شديد الاهتزاز . الرباع جمع رُبع كصرد : الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النتاج . الإقتار : الفقر ، يريد : أن الحجاج لو عاين ما عايناه من أهوال الحرب لآثر العودة إلى رعي الإبل يوم كان فقيراً معدماً . الخريدة المعطار : الحسناء التي همها العطر والطيب .

بينهما ، ثم غلبه زياد . وكان سبب ذلك أنّ شرّاً وقع بين الأزد وعبد القيس ، وحرباً سكّنها المهلّب وأصلح بينهم ، وتحمّل ما أحدثه كلّ فريق على الآخر ، وأدّى دِياته . فقال كعب يهجو عبد القيس :

إنّي وإن كنتُ فرعَ الأزد قد علموا
أخزَى إذا قيل عبد القيس أخوالي
فَهْمٌ ، أبو مالك ، بالمجد شرّفني
ودَنّس العبدُ عبدُ القيس سِربالي [1]

قال : فبلغ قولُه زياداً الأعجم فغضب وقال : يا عجباً للعبد بن العبد ابن الحِيتان والسَرَطان [2] يقول هذا القول في عبد القيس وهو يعلم موضعي فيهم ! والله لأَدَعنّه وقومَه غرَضاً لكل لسان . ثم قال يهجوه :

نُبِّئت أشقرَ تهجونا فقلتُ لهم : ما كنت أحسَبهم كانوا ولا خُلِقوا
لا يَكثُرون وإن طالت حياتُهم ولو يَبُول عليهم ثعلبٌ غرِقوا
قومٌ من الحسب الأدنى بمنزلةٍ كالفَقْع بالقاع لا أصلٌ ولا ورَقُ
إنّ الأشاقر قد أضحَوا بمنزلةٍ لو يُرهَنُون بنَعْلَي عبدِنا غَلِقوا [3]

قال : وقال فيه أيضاً :

هل تسمع الأزدُ ما يُقال لها في ساحة الدار أم بها صَمَم

(١) فهم : هو فهم بن غنم بن دوس ... بن الأزد ، والأشقر ، قبيلة كعب ، تنتمي إلى عمرو بن مالك بن فهم .
(٢) ابن الحيتان والسرطان : يعير زياد كعباً بأن قبيلته كانت تزاول قديماً الملاحة وصيد السمك .
(٣) ولو يبول .. : يريد أنهم من القلة بحيث تغرقهم بولة ثعلب . الفقع : الرخوة من الكمأة . غلق الرهن : استحقه المرتهن .

اختتن القومُ بعدمـــا هَرِمــوا واستعربُوا ضَلّةً وهم عَجَمَ [1]

قال : فشكاه كعبٌ إلى المهلّب وأنشده هذين البيتين وقال : والله ما عَنى بهما غيرَك ، ولقد عمّ بالهجاء قومك . فقال المهلّب : أنت أسمعتنا هذا وأطلقتَ لسانه فينا به ، وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد ، فاكفُفْ عن ذكره فإنك أنت بدأته . ثم دعا بزياد فعاتبه فقال : أيّها الأمير ، اسمَعْ ما قال فيَّ وفي قومي فإن كنت ظلمتُه فانصِرْ ، وإلاّ فالحُجّة عليه ، ولا حُجّةَ على امرىءٍ انتصر لنفسِه وحَسَبه وعَشيرته ، وأنشده قول كعب فيهم :

لعلّ عُبَيــد القيس تحسَبُ أنّهـــا
كتَغْلِبَ في يوم الحَفِيظة أو بَكْــرِ
يُضَعضعُ عبدَ القيس في الناس مَنْصِبٌ
دنيءٌ وأحسابٌ جُبِرن عـــلى كَسْر
إذا شَاع أمرُ الناس وانشقّت العصـــا
فإنّ لُكَيزاً لا تريش ولا تَبْـري [2]

فقـــال المهلب : قد قُلتَ له أيضاً . قال : لا واللهِ ما انتصرتُ ، ولَولاك ما قصّرتُ ، وأيّ انتصارٍ في قولي له :

يا أيُّها الجاهلُ الجاري ليُدركَني أقصِرْ فإنّك إن أدركتَ مَصْروعُ
يا كعبُ لا تكُ كالعَنْز التي بحثَت عن حَتفها وجَنابُ الأرض مَربُوعُ

وقولي :

(١) الضلة : الحيرة .
(٢) يوم الحفيظة : يوم الغضب للمحارم والدفاع عن الحمى . انشقت العصا : افترق أمر الناس واختلفوا . لا تريش ولا تبري : مثل يراد منه أنها ضعيفة عاجزة لا شأن لها .

لَئن نصبتَ لي الرَوْقَين مُعترضاً ... لأَرمينَّك رَمياً غيرَ ترفيعِ
إنّ المآثر والأحساب أورثني ... منها المجاجيعُ ذِكْراً غير موضوع (١)

يَعني مَجاعة بن مُرّة الحَنَفيّ ، ومَجاعة بن عَمرو بن عبد القيس . فأقسم عليهما المهلّب أن يصطلحا ، فاصطلحا وتكافّا .

وممّا هجا كعبٌ الأشقريُّ عبد القيس به قولُه :

ثَوا عامَين في الجِيَف اللواتي ... مُطَرَّحةٌ على باب الفَصيلِ
أحبُّ إليَّ من ظِلٍّ وكِنٍّ ... لِعبد القيس في أصل الفَسِيل
اذا ثار الفُساءُ بهم تَغَنّوا ... ألم تَرْبَعْ على الدِّمَن المُثُولِ
تظلّ لها ضَباباتٌ علينا ... مَوانعُ من مَبيتٍ أو مَقيل (٢)

مديحه قتيبة بن مُسلم

عن الهيثم بن عَديّ ولَقيط وغيرهما قالوا :

حاصر يزيد بن المهلّب مدينة خُوارزم في أيّام ولايته فلم يَقدر على فتحها ، واستَصعَب عليه . ثم عُزل ووُلّي قُتيبة بن مسلم ، فزحَف إليها فحاصرها ففتحها . فقال كعب الأشقريّ يمدحه ويهجو يزيد بن المهلّب بقوله :

رمتْكَ فِيلٌ بما فيها وما ظلمتْ ... من بعدما رامَها الفَجفاجةُ الصَلِف

---

(١) الروق : القرن . الترفيع : المباعدة في الحرب .
(٢) الثوا : مخفف الثواء وهو الإقامة . الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه . الكن : الستر والموضع يستكن فيه . الفسيل : الصغير من النخل . المثول ج ماثلة : قائمة . يعير بهذه الأبيات قبيلة عبد القيس بما عرفت به من كثرة الفساء .

قيسٌ صَريحٌ وبعضُ الناس يجمعهم قُرىً وريفٌ ومنسوبٌ ومُقترِف
منهم شُناسُ ومَرْداذاءُ نَعرِفُـه وفَسْخَراءُ قُبورٌ حَشْوُها القُلُفُ
لم يركبوا الخيلَ إلاّ بعدَما هَرِمُوا فهم ثِقالٌ على أكتافها عُنُفُ (١)

قال : الفيل الذي ذكره هو حصن خُوارزم يقال له : الكُهُنْدَر ، والكهندر : الحصن العتيق ، والفجفاجة : الكثير الكلام . وشُناس : اسم أبي صُفرة فغيّره وتسمّى ظالماً . ومرداذاء : أبو أبي صفرة ، وسمَّوه بسراق لمّا تعرّبوا : وفَسْخراء جدّه . وهم قوم من الخُوز من أهل عُمان . نزلوا الأزد ، ثم ادّعَوا أنّهم صَلِيبةٌ صُرَحاءُ منهم .

أخباره مع آل المهلّب ومقتله

عن أبي عُبيدة قال :

كان عبد الملك بن مَروان يقول للشعراء : تشبّهونني مرّة بالأسد ، ومرّةً بالبازي ، ومرّة بالصقر ! ألا قُلتم كما قال كعب الأشقريّ في المهلّب وولده :

بَراكَ اللهُ حين بَراك بحـــــراً وفَجّـــر منك أنهـــاراً غِزارا
بَنُوك السابقون إلى المعـــالي اذا ما أعظَمَ الناسُ الخِطـــارا
كأنّهم نجـومٌ حولَ بَـــدْرٍ دراريٌّ تكمّـــل فاستدارا

---

(١) الصلف : المتكبر المزهو بنفسه . قيس صريح : يشير إلى أن قتيبة هو من صريح قبيلة قيس ، وفي أصول المطبوعة : صريح قيس ، وقد أثبت المحقق رواية الطبري . مقترف : من القرف وهو المتهم في نسبه والمقرف من كانت أمه عربية وأبوه أعجمياً ، وهو هنا يعرض بنسب آل المهلب . القلف ج قلفة : جلدة الذكر تقطع عند الختان ، يعرض بأجداد يزيد بن المهلب وينفيهم عن العرب والإسلام .

ملوكٌ ينزِلون بكـلّ ثَغـرٍ ... إذا ما الهامُ يومَ الرّوع طـارا
رِزانٌ في الأمور تَرى عليهـم ... من الشّيْخ الشمائـلَ والنِجارا
نجومٌ يُهتَدى بهـم إذا مـا ... أخو الظّلْماء في الغَمَرات حارا[1]

وهذه الأبيات من القصيدة التي أوّلها :

طربتُ وهاج لي ذاك ادّكارا

قال أبو الفرج : ونسخت من كتاب النَضْر بن حَديد :

لمّا عُزل يزيد بن المهلّب عن خُراسان ووَليها قُتيبةُ بن مُسلم مدحه كعبٌ الأشقريّ ، ونال من يزيد وثَلَبه . ثم بلغتْه ولاية يزيدَ على خراسان ، فهرب إلى عُمان على طريق الطَّبَسَين وقال :

وإنّـي تاركٌ مَـرْواً ورائـي ... إلى الطّبسين مُعتـامٌ عُمانـا
لآويَ مَعقِلاً فيهـا وحِرزاً ... فكُنّا أهلَ ثروتها زمانـا [2]

فأقام بعُمـان مُدّةً ثم اجتواها [3] ، وساءت حالُه بها ، فكتب إلى المهلّب معتذراً :

بِئس التبدّلُ مـن مَرْوٍ وساكنِهـا
أرضُ عُمانَ وسُكنى تحت أطـوادِ
يُضحي السَحابُ مَطيراً دون مَنْصَفها
كأنّ أجبالهـا عُلّـت بفِرْصـاد

(1) براك مخفف ، برأك : خلقك . الخطار : الرهان . دراري جمع دري : الكوكب المضيء ، وهي هنا صفة للنجوم . الهام ج هامة : الرأس . النجار : الأصل . الغمرات ج غمرة : الشدة وأصلها الماء الكثير .
(2) اعتام : اختار . الثروة : الكثرة في عدد المال والناس .
(3) اجتواها : كرهها .

يا لهفَ نفسي على أمرٍ خَطِلت بــــه
وما شفيتُ به غِمْري وأحقــــادي
أفنيتُ خمسين عامــاً في مَديحكـــم
ثمّ اغتررتُ بقول الظـالم العــــادي
أبلغْ يزيدَ قَريــن الجُــود مَألُكــةً
بأنّ كعباً أسيرٌ بـــين أصفــــاد
فإن عفوتَ فبيتُ الجــــود بيتُكـــم
والدهر طَوران مـــن غَيٍّ وإرشــاد
وإن مَنَنْتَ بصَفحٍ أو سمحــت بـــه
نزعتُ نحوك أطنــابي وأوتــــادي (١)

وذكر المدائنيّ أن يزيد بن المهلّب حبسه ودسّ إليه ابن أخٍ له فقتله.

قال: وكان بين كعب وبين ابن اخيه هذا تباعد وعداوة، وكانت أمّه سوداء فقال يهجوه:

إن السَّوادَ الذي سُربلتَ تعرفــه ... ميراثُ جَدّك عن آبائه النُّوبِ
أشبهتَ خالَك خالَ اللؤم مؤتَسِياً ... بهَدْيه سالكاً في شرّ أُسلوبِ (٢)

قال المدائنيّ في خبره: وكان ابن أخي كعب هذا عدوّاً له يسعى عليه، فلمّا سأل مَجْزَأةُ بن زياد بن المهلّب أباه في كعب فخلّاه دسّ له زيادُ بن المهلّبِ(٣) ابنَ أخيه الشاعر وجعل له مالاً على قتله، فجاءه يوماً

(١) الطود: الجبل. منصف الطريق: وسطه ومنتصفه. علت: سقيت مرة بعد مرة. الفرصاد: صبغ أحمر. الغمر: الحقد. مألكة: رسالة. الأطناب: حبال البيت.
(٢) النوب: سكان بلاد النوبة. مؤتسياً: مقتدياً. الأسلوب: الطريق.
(٣) يلاحظ الخلاف بين الخبر المتقدم وهذا الخبر في من أوعز بقتل كعب والمرجح أنه يزيد ابن المهلب.

وهو نائمٌ تحت شجرة ، فضرب رأسه بفأسٍ فقتله . وذلك في فتنة يزيد ابن المهلّب ، وهو بعُمان يومئذٍ . وكان لكعبٍ أخٌ غير أخيه الذي قَتله ابنُه، فلمّا قُتل يزيد بن المهلّب فرّق مَسْلَمةُ بن عبد الملك أعماله على عُمّالٍ شتّى ، فولّى البصرة وعُمان عبد الرحمن بن سليمان الكلبيّ ، فاستخلف عبد الرحمن علىَ عمانَ محمّدَ بن جابر الراسبيّ، فأخذ أخو كعب الباقي ابنَ أخيه الذي قتل كعباً ، فقدّمه إلى محمد بن جابر ، وطلب القَوَد [1] منه بكعب . فقيل له : قُتل أخوك بالأمسِ وتقتُل قاتلَه — وهو ابن أخيك — اليومَ ! وقد مضى أخوك وانقضى ، فتبقى فَرداً كقَرْنِ الأعضَب [2] ! فقال : نعم ، إنّ أخي كعباً كان سيّدنا وعظيمَنا ووَجْهَنا فقتَله هذا ، وليس فيه خيرٌ ، ولا في بقائه عِزّ ، ولا هو خلَفٌ من كعب ، فأنا أقتُله به ، فلا خير في بقائه بعد كعب . فقدّمه محمّد بن جابر فضَرب عُنقه .

* * *

(١) القود : قتل القاتل بالقتيل .

(٢) الأعضب : الثور الذي كسر أحد قرنيه .

٢٥

الكُمَيْتُ بن زَيْـد

(الأغاني ج ١٧ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

هو الكميت بن زيد ... بن دُودان بن أسد ... شاعرٌ مقدَّم عالم بلغات العرب خبير بأيّامها ، من شعراء مُضر وألسنتها ، والمتعصّبين على القحطانيّة المقارنين المقارعين لشعرائهم ، العلماء بالمثالب والأيّام ، المفاخرين بها . وكان في أيّام بني أميّة ولم يدرك الدولة العبّاسيّة ، ومات قبلها . وكان معروفاً بالتشيُّع لبني هاشم ، مشهوراً بذلك ، وقصائده الهاشميّات من جيّد شعره ومختاره . ولم تزل عصبيّتُه للعدنانيّة ومهاجاتُه شعراء اليمن متّصلةً ، والمناقضةُ بينَه وبينهم شائعةً في حياته وبعد وفاته ، حتّى ناقض دِعْبِلٌ وابن أبي عُيَيْنةَ قصيدتَه المُذْهَبَةَ بعد وفاته ، وأجابهما

أبو البَلْقاء البصريّ مولى بني هاشم عنها ...

عن ابن كُناسة قال :

كان الكميت بن زيد طويلاً أصمّ ، ولم يكن حسن الصوت ولا جيّد الإنشاد ، فكان إذا استنشُد أمر ابنَه المُسْتَهِل فأنشد ، وكان فصيحاً حسن الإنشاد .

محمد بن عليّ النّوفَليّ قال : سمعت أبي يقول :

لمّا قال الكميت بن زيد الشعر كان أوّل ما قال الهاشميّات ، فستّرها ، ثم أتى الفرزدق بن غالب فقال له : يا أبا فِراس ، إنّك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسديّ . قال له : صدقتَ ، أنت ابن أخي ، فما حاجتُك ؟ قال : نُفِثَ على لساني فقلت شعراً ، فأحببت أن أعرِضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتَني بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتني بستْره ، وكنتَ أولى مَن ستَره عليّ . فقال له الفرزدق : أمّا عقلك فحسَن ، وإنّي لأرجو أن يكون شِعرك على قدر عقلك ، فأنشِدني ما قلت . فأنشده :

طربتُ وما شوقاً إلى البِيض أطربُ

قال : فقال له : فيمَ تطرَبُ يابنَ أخي ؟ فقال :

ولا لِعباً منّي وذو الشَيب يَلعبُ

فقال : بلى يا بنَ أخي ، فالعَبْ ، فإنّك في أوان اللّعب . فقال :

ولم يُلهِني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرّبْني بَنانٌ مُخَضَّبُ (١)

---

(١) بنان مخضب : كناية عن النساء .

فقال : ما يُطربك يا بنَ أخي ؟ فقال :

ولا السّانحاتُ البارحات عشيّــةً أمرّ سليمُ القَرْن أم مَرَّ أعضبَ [1]

فقال : أجل ، لا تتطيّرْ . فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهــَى وخيرِ بني حوّاءَ والخير يطلَبُ

فقال : ومَن هؤلاء ، ويحَك ؟ فقال :

إلى النَّفَر البيضِ الذيـن بِحُبّهـم إلى الله فيما نابني أتقـــرَّبُ

قال : أرِحني ويحَك ! مَن هؤلاء ؟ قال :

بني هاشمٍ رَهْطِ النبيّ فإنّـــني بهم ولهم أرضَى مِراراً وأغضب
خفضتُ لهم منّي جَناحَي مَودّةٍ إلى كنفٍ عِطفاه أهلٌ ومَرْحَبُ
وكنت لهـــم من هؤلاء وهؤلا مِجَنّاً ، على أنّي أُذَمُّ وأُقصَب
وأُرمَى وأرمي بالعَداوة أهلَهـا وإنّي لأوذى فيهمُ وأُؤَنَّب [2]

فقال له الفرزدق : يا بنَ أخـي ، أَذِعْ ثم أذع ، فأنت والله أشعَرُ مَن مضى ، وأشعر من بَقَي .

محمد بن أنس السّلامي الأسديّ قال :

سُئل مُعاذ الهَرّاء : مَن أشعرُ الناس ؟ قال : أمن الجاهليين أم من الإسلاميين ؟ قالوا : بل من الجاهليين . قال : امرُؤ القيس ، وزهير ، وعَبيد بن الأبرص . قالوا : فمن الإسلاميين ؟ قال : الفرزدق ، وجرير ،

---

(١) كان العرب يتطيرون إذا مر بهم ثور أعضب القرن أي مكسوره .

(٢) المرحب : المكان الواسع . المجن : الترس . وفي المطبوعة : محباً ، وما أثبتناه رواية الهاشميات . أقصب : أعاب وأشتم .

والراعي . قال : فقيل له : يا أبا محمّد ، ما رأيناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت . قال : ذاك أشعر الأوّلين والآخرين .

عن لقيطٍ قال :

اجتمع الكميت بن زيد وحمّاد الراوية في مسجد الكوفة ، فتذاكرا أشعار العرب وأيّامها ، فخالفه حمّاد في شيءٍ ونازعه ، فقال له الكميت : أتظنّ أنّك أعلم منّي بأيّام العرب وأشعارها ؟ قال : وما هو إلاّ الظنّ ؟ هذا والله اليقين . فغضب الكميت ثم قال له : لِكَمْ [1] شاعرٍ بصيرٍ يقال له عَمرو بن فلان تَروي ؟ ولِكَمْ شاعرٍ أعورَ أو أعمى اسمه فلان ابن عمرو تَروي ؟ فقال حماد قولاً لم يحفظه ، فجعل الكميت يذكر رجلاً رجلاً من صِنْفٍ صنف ، ويسأل حمّاداً هل يعرفه ؟ فإذا قال : لا ، أنشده من شعره جزءاً منه ، حتّى ضجرنا . ثم قال له الكميت : فإنّي سائلك عن شيء من الشعر . فسأله عن قول الشاعر :

طَرَحُوا أصحابَهم في وَرْطَةٍ ... قَذْفَكَ المَقْلَةَ شَطْرَ المُعْتَرَكْ [2]

فلم يعلم حمّاد تفسيره . فسأله عن قول الآخر :

تَدَرَّيْنَنا بالقَول حتّى كأنّما ... تدرّيْن وِلْدانا تصِيد الرَّهادِنا

فأفحم حمّاد ، فقال له : قد أجّلتك إلى الجمعة الأخرى . فجاء حمّاد ولم يأت بتفسيرهما ، وسأل الكميت أن يُفسّرهما له ، فقال : المَقْلَة : حَصاةٌ أو نَواة من نَوَى المُقل يحملها القوم معهم اذا سافروا ، وتوضَع في الإناء ، ويُصَبّ عليها الماء حتّى يغمرها ، فيكون ذلك علامة

(١) في المطبوعة : لكم ، بفتح اللام وضم الكاف أي عندكم، وهذا يخالف ما قصده الكميت ويفسد تركيب الجملة .

(٢) البيت ليزيد بن طعمة الخطمي ، وهو في لسان العرب مادة « مقل » .

يقتسمون بها الماء . والشطر : النصيب . والمعترك : الموضع الذي يختصمون فيه في الماء . فيلقونها هناك عند الشرّ . وقوله : تدرّيننا . يعني النساء . أي ختلننا فرميننا . والرهادن طير بمكة كالعصافير .

عن حمّاد الراوية قال :

كان للكميت جدّتان أدركتا الجاهليّة ، فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهليّة ، فإذا شكّ في شعر أو خبر عرضه عليهما فيخبرانه عنه ، فمن هناك كان علمه .

سبب سجن خالد القسريّ الكميت واحتياله في الهرب إلى الشام

كان خالد بن عبد الله القسْريّ ... قد بلغه أن الكميت أنشد قصيدته التي يهجو فيها اليمن وهي :

ألا حُيّيتِ عنّا يا مَدِينا

فأحفظتْه عليه ، فروّى جاريةً حسناء قصائده الهاشميّات وأعدّها ليُهديَها إلى هشام ، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بني أميّة . وأنفذ إليه قصيدته التي يقول فيها

فيا ربِّ هل إلاّ بك النّصرُ يُرتَجى
ويا ربِّ هل إلاّ عليك المُعَوَّل

وهي طويلةٌ يرثي فيها زيد بن عليّ وابنه الحسين بن زيد ويمدح بني هاشم [1] . فلمّا قرأها أكبرها وعظُمت عليه واستنكرها ، وكتب إلى

(١) الخبر فيه ما يخالف الحقيقة التاريخية ، فزيد إنما قتل في ولاية يوسف بن عمر الثقفي سنة ١٢٢ هـ بعد عزل خالد والذي قتل بعده إنما هو ابنه يحيى لا الحسين، والقصيدة المذكورة=

خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده . فلم يشعر الكُميت إلاّ والخيل مُحدِقةٌ بداره ، فأُخذ وحُبس في المُخَيَّس [١] . وكان أَبان بن الوليد عاملاً على واسط ، وكان الكميت صديقه ، فبعث اليه بغلام على بغل وقال له : أنت حرٌّ ان لحقتَه ، والبغلُ لك . وكتب إليه : قد بلغني ما صِرتَ إليه ، وهو القتل ، الاّ أن يدفع الله عزَّ وجلّ ، وأرى لك أن تبعث إلى حُبَّى — يعني زوجة الكميت ، وهي بنتُ نُكَيف بن عبد الواحد ، وهي ممّن يتشيّع أيضاً — فإذا دخلتْ إليك تنقَّبْت نِقابَها ولبستَ ثيابها وخرجت ، فإنّي أرجو ألاّ يُؤْبَه لك .

فأرسل الكميت إلى أبي وضّاح حَبيب بن بُدَيل ، وإلى فِتيان من بني عمّه من مالك بن سعيد ، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر ، وشاوره فيه ، فسدّد رأيه . ثم بعث إلى حُبّى امرأته فقصّ عليها القصّة وقال لها : أي ابنةَ عمِ ، إنّ الوالي لا يُقدم عليك ، ولا يُسلِمُك قومُك ، ولو خِفتُه عليك لما عرّضتُك له . فألبسته ثيابها وإزارَها وخمّرتْه [٢] ، وقالت له : أَقبِل وأدْبِر ، ففعل ، فقالت : ما أنكِر منك شيئاً إلاّ يَبَساً في كَتِفك ، فاخرُجْ على اسم الله .

وأخرجت معه جاريةً لها ، فخرج ، وعلى باب السجن أبو وَضّاح ومعه فتيانٌ من أسَد ، فلم يُؤبَه له ، ومشى والفِتيان بين يديه إلى سِكّة شبيب بناحية الكُناسة ، فمرّ بمجلس من مجالس بني تميم ، فقال بعضهم : رجلٌ وربِّ الكعبة . وأمر غلامه فاتّبعه ، فصاح به أبو الوضّاح : يا كذا وكذا ، لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم . وأومأ إليه بنَعْله ، فولّى العبد مُدبِراً ، وأدخله أبو الوضّاح منزله .

= يرثي فيها الكميت الحسين بن علي وليست في رثاء زيد وابنه .

(١) المخيس : سجن كان بناء علي بن أبي طالب بالكوفة .

(٢) خمرته : ألبسته الخمار .

ولمّا طال على السجّان الأمرُ نادى الكميت . فلم يُجبه . فدخل ليعرف خبره ، فصاحت به المرأة : وراءك ، لا أمّ لك . فشق ثوبه . ومضى صارخاً إلى باب خالد ، فأخبره الخبر . فأحضر حُبّى فقال لها : يا عَدُوّةَ الله احتلتِ على أمير المؤمنين . وأخرجت عدوّه ! لأُمثّلنّ بك ولأصنعنّ ولأفعلنّ . فاجتمعت بنو أسد إليه وقالوا : ما سبيلك على امرأةٍ منّا خُدعت ! فخافهم وخلّى سبيلها ...

قال المستهلّ [1] : وأقام الكميت مدّةً متوارياً ، حتى إذا أيقن أنّ الطلب قد خفّ عنه خرج ليلاً في جماعة من بني أسد . على خوف ووَجَل ، وفيمن معه صاعدٌ غلامُه ، قال : وأخذ الطريق على القُطْقُطانة [2] وكان عالماً بالنجوم ، مهتدياً بها ، فلمّا صار سُحَيراً [3] صاح بنا : هَوّموا [4] يا فتيان . فهوّمنا ، وقام يصلّي ...

فلم نزل نسير حتى جئنا الشام ، فتوارى في بني أسد وبني تميم ، وأرسل إلى أشراف قريش – وكان سيّدهم يومئذ عَنْبسة بن سعيد بن العاص – فمشت رجالات قريش بعضُها إلى بعض ، وأتَوا عنبسة فقالوا : يا أبا خالد ، هذه مَكرَمةٌ قد أتاك الله بها . هذا الكميت بن زيد لسانُ مُضَر . وكان أمير المؤمنين كتب في قتله . فنجا حتى تخلّص إليك وإلينا . قال : فمُروه أن يَعُوذ بقبر مُعاوية بن هشام بدَيْر حَنينا [5] . فمضى الكميت ، فضرب فُسطاطه عند قبره .

ومضى عنبسة فأتى مَسْلَمة بن هشام فقال له : يا أبا شاكر . مكرمةٌ

---

(١) المستهل : هو ابن الكميت البكر وبه كان يكنى .
(٢) القطقطانة : موضع بالكوفة .
(٣) سحير : تصغير سحر ، أي لما كان السحر ، وهو قبيل الفجر .
(٤) التهويم : النوم الخفيف .
(٥) دير حنيناء : من أعمال دمشق .

أتيتُك بها تبلغ الثريّا إن اعتقدتَها ، فإن علمت أنّك تفي بها وإلاّ كتمتَها . قال : وما هي ؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنّه قد مَدحكم عامّةً ، وإيّاك خاصّةً ، بما لم يُسمَع بمثله . فقال : عليّ خَلاصُه .

فدخل على أبيه هشام ، وهو عند أمّه في غير وقت دُخول ، فقال هشام : أجئتَ لحاجة ؟ قال : نعم . قال : هي مَقضيّةٌ الاّ أن يكون الكميت . فقال : ما أُحبّ أن تستثنيَ عليّ في حاجتي ، وما أنا والكميت ! فقالت أمُّه : والله لَتَقْضِينّ حاجته كائنةً ما كانت . قال قد قضيتُها ولو أحاطت بما بين قُطرَيْها [1] . قال : هي الكميت يا أمير المؤمنين ، وهو آمنٌ بأمان الله عزّ وجلّ وأماني ، وهو شاعر مُضرَ ، وقد قال فينا قولاً لم يُقَلْ مِثلُه . قال : قد أمّنْتُه ، وأجزتُ أمانَك له ، فاجلِس له مجلساً يُنشِدك فيه ما قال فينا .

فقعد له ، وعنده الأبرش الكلبيُّ ، فتكلّم بخُطبة ارتجلها ما سُمع بمثلها قطُّ ، وامتدحه بقصيدته الرائيّة ، ويقال إنّه قالها ارتجالاً ، وهي قوله :

قِفْ بالدّيار وُقوفَ زائرْ

فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله :

ماذا عليك من الوُقو ... فِ بها وأنّك غيرُ صاغرْ
درجتْ عليها الغاديا ... تُ الرّائحات من الأعاصر

وفيها يقول :

فالآنَ صِرتُ إلى أُميّةَ والأمورُ إلى المَصايرْ

---

(١) لو أحاطت بما بين قطريها : أراد لو أحاطت بالدنيا كلها .

وجعل هشام يغمز مسلمة بقضيب في يده ، فيقول : اسمَعْ ، اسمع . ثم استأذنه في مرثية ابنه معاوية ، فأذِن له ، فأنشده قوله :

سأبكيك للدُّنيا وللدِين إنَّني ... رأيت يدَ المعروف بعدَك شَلَّتِ
فدامت عليك بالسَّلام تحيَّةٌ ... ملائكةُ الله الكِرام وصَلَّت

فبكى هشام بكاءً شديداً ، فوثب الحاجب فسكَّتَه .

ثم جاء الكميت إلى منزله آمناً ، فحشدت له المُضريّةُ بالهدايا ، وأمر له مَسلمةُ بعشرين ألف درهم ، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم ، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته ، وأنّه لا سُلطانَ له عليهم .

قال : وجمعت له بنو أميّة بينها مالاً كثيراً . قال : ولم يُجمَع من قصيدته تلك يومئذٍ إلاّ ما حفظه الناسُ منها فأُلِّف . وسُئل عنها فقال : ما أحفظ منها شيئاً ، إنّما هو كلامٌ ارتجلتُه .

فقال : وودّع هشاماً ، وأنشده قوله فيه :

ذكر القلبُ إلفَه المذكورا

وقيل في سبب المنافرة بين خالد والكميت غير هذا ، نسخته من كتاب محمد بن يحيى الخَرّاز . قال : حدّثني أحمد بن إبراهيم الحاسب قال : حدّثني عبد الرحمن بن داود بن أبي أميّة البَلْخيّ ، قال :

كان حكيم بن عيّاش الأعور الكلبيُّ وَلِعاً بهجاء مُضر ، فكانت شعراء مضر تهجوه ويُجيبهم ، وكان الكميت يقول : هو والله أشعرُ منكم . قالوا : فأجب الرجل . قال : إنّ خالد بن عبد الله القَسْريّ مُحسنٌ إليّ فلا أقدِر أن أردّ عليه . قالوا : فاسمَعْ بأُذنك ما يقول في بنات عمّك وبنات خالك من الهجاء . وأنشدوه ذلك . فحمي الكميت لعشيرته ، فقال المُذْهَبة :

ألا حُيّيت عنّا يا مَدينــا

فأحسن فيها . وبلــغ خالداً خبرُها فقال : لا أبالي ما لم يجرِ لِعشيرتي ذِكرٌ ؛ فأنشدوه قوله :

ومن عجَبٍ بَجِيلَ ، لَعَمْرِ ، أمٌّ غَذَتْكِ وغيرَها تتأمّمينــا
تجاوزتِ الميــاه بــلا دليــلٍ ولا عَلَمٍ تَعَسَّفَ مُخطئينــا
فإنّكِ والتحوّلَ مــن معَــدٍّ كَهَيْلَةَ قبلَنــا والحالِبينــا
تخطّت خيرَهـــم حلَباً وبَسّاً إلى الوالي المُغادِرِهـا ذَنينــا
كعَنْزِ السّوءِ تنطــحُ عالِفيها وتَرميهــا عِصِيُّ الذابحينا (١)

فبلغ ذلك خالداً فقال : فَعَلَها ! والله لأقتلنّه . ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن ، وتخيّرهنّ نهايةً في حُسن الوجوه والكمال والأدب ، فروّاهنّ الهاشميات . ودَسَّهنّ مع نَخّاس إلى هشام بن عبد الملك ، فاشتراهنّ جميعاً ، فلمّا أنس بهنّ استنطقهنّ فرأى فصاحةً وأدباً . فاستقرأهنّ القرآن فقرَأْن ، واستنشدهنّ الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميّات . فقال : ويلَكنّ ! مَن قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسديّ . قال : وفي أيّ بلدٍ هو ؟ قلن : في العراق ، ثم بالكوفة . فكتب إلى خالد وهو عامله في العراق : ابعَثْ إليّ برأس الكميت بن زيد . فبعث خالد إلى الكميت في الليل ، فأخذه وأودعه السجن . ولمّا كان من الغد أقرأ مَن حضره من مضر كتاب هشام واعتذر إليهم من قتْله ، وآذَنَهم في إنفاذ الأمر فيه في غدٍ ، وقال لأبان بن الوليد البَجَليّ —

(١) رويت هذه الأبيات في المطبوعة رواية تخالف ما أثبتناه بعض المخالفة ، والتصويب من لسان العرب مادة « أمم » . تأمم : اتخذها أماً . هيلة : عنز كانت تنطح من يطعمها فضرب بها المثل . الذنين : الضعيف الهالك . يشير بهذه الأبيات إلى ما ذكره بعض رجال النسب من أن قبيلة بجيلة معدية الأصل وأنها تحولت إلى اليمن وانتمت إلى أنمار بنْ أراش .

وكان صديقاً للكميت ــ : انظُر ما ورد في صديقك . فقال : عزّ عليّ واللهِ ما به . ثم قام أبان ، فبعث إلى الكميت فأنذره ، فوجّه إلى امرأته .

ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه كما ذكر مَن تقدّمه . وقال فيه : فأتى مَسلمة بن عبد الملك فاستجار به فقال : إنّي أخشى ألاّ ينفعك جِواري عنده ، ولكن استجِرْ بابنه مَسْلَمة بن هشام . فقال : كن أنت السفيرَ بيني وبينه في ذلك ، ففعل مسلمةُ وقال لابن أخيه : قد أتيتُك بشرف الدهر واعتقاد الصَّنيعة في مضر ، وأخبره الخبر ، فأجاره مسلمة بن هشام . وبلغ ذلك هشاماً فدعا به ثم قال له : أتُجير على أمير المؤمنين بغير أمره ! فقال : كلاّ ، ولكنّي انتظرتُ سُكونَ غضبه . قال : أحضِرْنيه الساعةَ ، فإنّه لا جِوارَ لك . فقال مسلمة للكميت : يا أبا المستهِلّ ، انّ أمير المؤمنين أمرني بإحضارك . قال : أتُسلِمني يا أبا شاكر ؟! قال : كلاّ ، ولكنّي أحتال لك . ثم قال له : إنّ معاوية بن هشام مات قريباً ، وقد جزع عليه جزعاً شديداً ، فإذا كان من الليل فاضرِبْ رُواقَك على قبره ، وأنا أبعث إليك بَنيه يكونون معك في الرّواق ، فإذا دعا بك تقدّمت إليهم أن يربِطوا ثيابهم بثيابك ويقولوا : هذا استجار بقَبر أبينا ، ونحن أحقُّ مَن أجاره .

فأصبح هشامٌ على عادته مُتطلّعاً من قصره إلى القبر ، فقال : مَن هذا ؟ فقالوا : لعلّه مستجيرٌ بالقبر . فقال : يُجارُ من كان إلاّ الكميت . فإنّه لا جِوارَ له . فقيل : فإنّه الكميت . قال : يُحضَر أعنفَ إحضار . فلمّا دُعي به ربط الصِبيانُ ثيابهم بثيابه . فلمّا نظر هشامٌ إليهم اغرورقت عيناه واستعبر ، وهم يقولون : يا أمير المؤمنين ، استجار بقبرِ أبينا ، وقد مات ومات حظّه من الدنيا ، فاجعله هِبةً له ولنا ولا تفضَحْنا فيمن استجار به . فبكى هشام حتى انتحب ، ثم أقبل على الكميت فقال له : يا كُميتُ ، أنت القائل :

وإلاّ تقولـــوا غيرَهــا تتعرّفُــوا
نواصِيَها تَرْدِي بنا وهي شُزَّبُ(١)

فقـــال : لا واللهِ ، ولا أتانٌ من أتُنِ الحجاز وحشيّةٌ . فحمـد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه ثم قال : أمّا بعدُ ، فإنّي كنت أتَدَهْدَى في غَمْرة ، وأعوم في بحر غَواية ، أخنى عليّ خَطَلُها ، واستفزّني وَهَلُها ، فتحيّرت في الضّلالة ، وتسكّعت في الجَهالة ، مُهرِعاً عن الحقّ ، جائراً عن القَصْد ، أقول الباطل ضَلالاً ، وأفُوه بالبُهتان وَبالاً ، وهذا مَقام العائذ مُبصِرِ الهدى ، ورافض العمى ، فاغسِلْ عنّي يا أمير المؤمنين الحَوْبة بالتّوبة ، واصفَح عن الزّلّة ،واعفُ عن الجَرِمة(٢) . ثم قال :

كم قال قائلُكـم لَعــاً ... لك عند عَثْرته لِعاثرْ
وغفرتمُ لذوي الذنـو ... ب من الأكابر والأصاغر
أبـني أميّــةَ إنّكـــم ... أهل الوسائل والأوامـــر
ثِقتي لِكـــلّ مُلِمّـــةٍ ... وعشيرتي دون العشائـــر
أنتمُ معــادنُ للخــــلا ... فةِ كابراً من بعــد كابرِ
بالتّسعـــة المتتابعـــين ... خلائفـــاً وبخـير عاشر
وإلى القيامـــة لا تـــزا ... ل لشافِعٍ منكم وواتِرْ(٣)

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خُطبته فقال : إغضاء أمير المؤمنين وسَماحتُه وصَباحته ، ومَناط المنتجعين بحَبْله ، مَن لا تُحَلّ حُبوتُه لإساءة المُذنبين ، فضلاً عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين .

(١) ردى الفرس يردي : رجم الأرض بحوافره . شزب : ضامرة .
(٢) دهده الحجر ودهداه : دحرجه . الوهل : الفزع مهرعاً : منصرفاً . الحوبة : الإثم . الجرمة ، بوزن كلمة : الذنب والجرم .
(٣) لعاً لك : دعاء يقال للعاثر لإبعاد الأذى عنه . الشفع : الزوج والوتر : الفرد ، أي من جاء في ترتيبه فرداً أو زوجاً .

فقال له : ويلَك يا كميتُ ! مَن زيَّن لك الغواية ، ودلاّك في العَماية ؟ قال : الذي أخرج أبانا من الجنّة ، وأنساه العهد ، فلم يجد له عَزماً . فقال : إيهٍ ، أنت القائل :

فيـا موُقداً ناراً لِغيرك ضَوءُهـا
ويا حاطبـاً في غير حَبْلك تحطِـبُ

فقال : بل أنا القائل :

إلى آل بيتِ أبـي مـالكٍ مناخٌ هـو الأرحَبُ الأسهلُ
نَمُـتُّ بأرحامنـا الداخـلا ت من حيث لا يُنكَرُ المَدْخَلُ
بِبَرَّةَ والنَّضْـر والمالِكـين رَهْطٌ هم الأنبَلُ الأنبـل
وبابنَيْ خزَيمـة بدر السَّمـا ءِ والشمس مفتـاحُ ما نأمُـلُ
وجدنـا قريشاً قريش البِطـاح على مـا بَنَى الأوّل الأوّلُ
بهـم صَلَح الناسُ بعـد الفَساد وحِيص من الفتق ما رَعبَلُوا (١)

قال له : وأنت القائل :

لا كعبـد المليـك أو كوليـدٍ أو سليمانَ بعـدُ أو كهشامِ
من يَمُتْ لا يمت فقيداً ومـن يَحْيَ فلا ذو إلٍّ ولا ذو ذِمـام (٢)

ويلك يا كميت ! جعلتنا ممّن لا يَرقُب في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمّةً !

---

(١) أبو مالك : هو كنانة بن خزيمة ، وقريش من بطون كنانة . برة بنت مر يقول النسابون إنها زوج خزيمة وأنها ولدت له أسداً ثم مات فخلف عليها ابنه كنانة فولدت له النضر . ومن كنانة : مالك بن النضر ، ومالك بن كنانة ، ومن بني أسد مالك بن ثعلبة بن دودان ، وابنا خزيمة : أزاد أسداً وكنانة . قريش البطاح : من كان ينزل من قريش بين أخشبي مكة ، ومنهم بنو أمية . حيص : رتق وأصلح . رعبل الثوب : قطعه وفرقه .

(٢) الإل : العهد والذمام .

فقال : بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

فالآنَ صِرتُ إلى أميّةَ والأمورُ إلى المَصايرْ
والآن صرتُ بها المُصيبَ كمُهتدٍ بالأمس حائر
يا بنَ العقائل للعقائل والجَحاجحةِ الأخاير
من عبد شمسٍ والأكا بر من أميّة فالأكابر
إنّ الخلافةَ والإلا ف برَغْم ذي حسَدٍ وواغرْ
دَلَفا من الشّرف التّليد إليك بالرِّفْدِ المُوافر
فحللتَ مُعتَلِج البِطا ح وحلّ غيرُك بالظواهر(١)

قال له : إيه ، فأنت القائل :

فقُل لبني أميّةَ حيث حلّوا وإن خِفت المهنَّد والقَطيعا
أجاع اللهُ من أشبعتموه وأشبع مَن بجَورِكم أُجيعا
بمرضيٍّ السياسة هاشميٍّ يكون حَياً لأمتّه ربيعا(٢)

فقال : لا تثريبَ(٣) يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تمحوَ عنّي قولي الكاذب . قال : بماذا ؟ قال : بقولي الصادق :

أورثَتْه الحَصانُ أمُّ هِشامٍ حَسباً ثاقباً ووجهاً نَضيرا
وتعاطَى به ابنُ عائشةَ البَدْر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مَروانُ سَنِيَّ المكارم المأثورا

(١) الجحاجحة ج جحجاح : السيد العظيم . الالاف : إيلاف قريش ، وهو العهد والاجازة بالخفارة . الواغر : الحاقد . فحللت معتلج البطاح : بنو أمية من قريش البطاح وهي أكرم من قريش الظواهر ، والأبطح والبطحاء : مسيل فيه دقاق الحصى .
(٢) القطيع : السوط . الحيا : المطر .
(٣) التثريب : اللوم .

لم تَجَهَّمْ لـه البِطـاح ولكـنْ وَجَدَتْها لـه مَغاراً ودُورا

وكان هشام مُتّكئاً فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر — يقولها لسالم بن عبد الله بن عمر ، وكان إلى جانبه — ثم قال : قد رضيت عنك يا كميتُ . فقَبّل يده وقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيتَ أن تزيد في تشريفي ، ولا تجعلْ لخالدٍ عليّ إمارةً . قال : قد فعلتُ . وكتب له بذلك ، وأمر له بأربعين ألف درهمٍ وثلاثين ثوباً هِشاميّةً . وكتب إلى خالد أن يُخلي سبيل امرأته ويُعطيَها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ، ففعل .

وله مع خالدٍ أخبارٌ بعد قدومه الكوفة بالعَهد الذي كُتب له . منها أنّه مرّ به خالدٌ يوماً ، وقد تحدّث الناسُ بعزْله عن العراق ، فلمّا جاز تمثّل الكميت :

أراها ، وإن كانت تُحبّ ، كأنها سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تَقَشّعُ

فسمعه خالد فرجـع وقال : أما والله لا تنقشعُ حتّى يَغشاك منهـا شُؤبوبُ بـَرَد . ثم أمر به فجرُّد ، فضربه مائة سَوط ، ثم خلّى عنه ومضى .

صداقته للطرمّاح

عن خلف الأحمر : أنه رأى الكميت يُعلّم الصِبيان في مسجد بالكوفة . قال ابن قتيبة في خبره خاصّةً : وكانت بينه وبين الطِرِمّاح خُلطةٌ ومودّةٌ وصفاء لم يكن بينَ اثنين . قال : فحدّثني بعض أصحابه عن محمد بن سَهل راوية الكميت ، قال : أنشدت الكميت قول الطرمّاح :

إذا قُبضت نفسُ الطِرِمّـاح أخلقـت
عُرا المجد واسترخى عِنانُ القصائـد

قال : إي والله ، وعنان الخطابة والرّواية . قال : وهذه الأحوال بينهما على تفاوت المذاهب والعصبيّة والدّيانة : كان الكميت شيعياً عصبياً عدنانياً من شعراء مضر ، متعصّباً لأهل الكوفة ، والطرمّاح خارجيٌّ صُفْريٌّ قَحطانيّ عَصَبيّ لقَحطان ، من شعراء اليمن ، متعصّب لأهل الشام . فقيل لهما : ففيم اتّفقتما هذا الاتّفاقَ مع اختلاف سائر الأهْواء ؟ قالا : اتّفقنا على بُغض العامّة .

تشيّعه لبني هاشم ومدائحه فيهم

عن أبي بكر الحَضْرميّ قال :

استاذنت للكميت على أبي جعفر محمد بن عليّ [1] — عليهما السلام — في أيّام التشريق بمنىً ، فأذن له ، فقال له الكميت : جُعلتُ فِداك ، إنّي قلت فيكم شعراً أُحبّ أن أُنشِدكه . فقال : يا كميت ، اذكر الله في هذه الأيّام المعلومات ، وفي هذه الأيّام المعدُودات . فأعاد عليه الكميت القولَ ، فرقّ له أبو جعفر عليه السلام فقال : هاتِ ، فأنشده قصيدته حتى بلغ :

يُصيب به الرّامُون عن قوسِ غيرهم
فيا آخِراً سَدّى له الغَيَّ أوّلُ

فرفع أبو جعفر يدَيه إلى السماء وقال : اللهمّ اغفِرْ للكميت .

صاعد مولى الكميت قال :

دخلنا على أبي جعفر محمّد بن عليّ ، عليهما السلام ، فأنشده الكميت قصيدته التي أوّلها :

---

(١) هو الإمام أبو جعفر الصادق محمد الباقر بن علي زيد العابدين .

مَنْ لِقَلْبٍ مُتَيَّمٍ مُسْتَهامِ

فقال : اللهمّ اغفِر للكميت ، اللهمّ اغفِرْ للكميت .

قال : ودخلنا يوماً على أبي جعفر محمد بن عليّ ، فأعطانا ألف دينارٍ وكُسوة ، فقال له الكميت : واللهِ ما أحببتُكم للدّنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيتُ مَن هي في يَديه ، ولكنّي أحببتكُم للآخرة . فأما الثّياب التي أصابت أجسامكم فأنا أَقبلُها لبركاتها ، وأمّا المال فلا أقبله . فردّه وقبل الثياب .

قال : ودخلنا على فاطمةَ بنت الحسين ، عليهما السلام ، فقالت : هذا شاعرُنا أهلَ البيت . وجاءت بقَدَح فيه سَوِيق ، فحرّكته بيدها وسقت الكميت ، فشربه . ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركبٍ ، فهَمَلت عيناه وقال : لا واللهِ لا أَقْبَلُها ، انّي لم أحبّكم للدنيا .

رِبْعيّ بن عبد الله بن الجارود بن أبي سَبْرة عن أبيه قال :

دخل الكميت بن زيد الأسديّ على أبي جعفر محمد بن عليّ ، عليهما السلام ، فقال له : يا كميت ، أنت القائل :

فالآنَ صِرتُ إلى أُمَيّةَ والأمورُ إلى المَصايِرْ

قال : نعم ، قد قلتُ ، لا والله ما أردت به إلاّ الدنيا ، ولقد عرفتُ فضلكم . قال : أما إن قلت ذلك فإن التَقيّة لَتَحِلّ .

ابن فُضيل قال :

سمعت ابن شُبْرُمة قال : قلتِ للكميت : إنّك قلت في بني هاشم فأحسنت ، وقلت في بني أميّة أفضلَ . قال : إنّي اذا قلت أحببت أن أحسِن .

اعتذاره من الخروج مع زيد بن علي

أبو بكر الهُذلي قال :

لمّا خرج زيدُ بن عليّ كتب إلى الكميت : اخرُجْ معنا يا أُعَيمِش ، ألستَ القائل :

ما أبالي إذا حفظتُ أبــا القــا سم فيكم مَلامــةَ اللُــوّامِ

فكتب اليه الكميت :

تجودُ لكم نفسي بما دُون وَثبــةٍ تظَلّ لها الغِربانُ حولي تَحْجِلُ

سبب هجائه اليمانية

عن محمد بن سَلَمة بن أرتبيل :

أنّ سبب هجاء الكميت أهل اليمن أنّ شاعراً من أهل الشام يُقال له حكيم بن عيّاش الكَلْبيّ كان يهجو عليّ بن أبي طالب ، عليه السلام ، وبني هاشم جميعاً ، وكان منقطعاً إلى بني أميّة . فانتدَب له الكميت فهجاه وسبّه ، ولجّ الهجاءُ بينهما . وكان الكميت يخاف أن يفتضِحَ في شعره عن عليّ ، عليه السلام ، لِما وقع بينه وبين هشام ، وكان يُظهر أنّ هجاءه ايّاه في العصبيّة التي بين عدنان وقحطان ، فكان وَلَدُ إسماعيل ابن الصبّاح بن الأشعث بن قيس ووَلَد علقمة بن وائل الحَضْرميّ يَردّون (٢) شعر الكلبيّ ، فهجا أهل اليمن جميعاً إلاّ هذين ، فإنّه قال في آلِ علقمة :

---

(١) في المطبوعة : يروون ، وقد اختارها المحقق وأهمل رواية نسخة .

(٢) في المطبوعة : يروون ، ولا يستقيم المعنى بهذه الرواية والرواية التي أثبتناها أصح .

ولولا آلُ عَلْقَمةَ اجتدَعْنا   بقايا من أنوف مُصَلَّمينا [1]

وقال في إسماعيل :

فإنّ لإسماعيلَ حقّاً وإنّنا

له شاعِبُو الصَّدْعِ المُقارِب للشَّعْبِ

وكانت لآلِ علقمة عنده يدٌ ، لأنّ عَلقمة آواه ليلةَ خرج إلى الشام ، وأمّ إسماعيل من بني أسد ، فكفّ عنهما لذلك .

قال أبو سلمة : حدّثني محمد بن سهل قال : قال الكلبيُّ :

ما سرّني أنّ أمّي من بني أسدٍ   وأنّ ربّيَ نجاني من النّارِ
وأنّهم زوّجوني من بناتهمُ   وأنّ لي كلَّ يومٍ ألفَ دينار

فأجابه الكميت :

يا كلبُ مالك أمٌّ من بني أسدٍ   معروفةٌ فاحترِقْ يا كلبُ بالنارِ
لكنّ أُمّك من قومٍ شُنِئت بهم   قد قنّعوك قِناع الخِزي والعار

قال : فقال له الكلبيّ :

لن يبرحَ اللؤمُ هذا الحيَّ من أسَدٍ

حتّى يُفَرّق بين السَّبْت والأحدِ

قال محمد بن أنس : حدّثني المستهلّ بن الكميت قال : قلت لأبي : يا أبتِ ، إنّك هجوت الكلبيّ فقلتَ :

ألا يا سَلْمَ يا تِربْي   أفي أسماءَ من تِربِ

---

(١) الصلم : قطع الأذن والأنف من أصلهما .

وغمزت عليـه فيها ، ففخرتَ ببني أميّة ، وأنت تشهد عليها بالكفر ، فألا فخرتَ بعليّ وبني هاشم الذين تتولاّهم ! فقال : يا بُنيّ ، أنت تعلم انقطاعَ الكلبيّ إلى بني أميّة ، وهم أعداءُ عليٍّ عليه السلام ، فلو ذكرتُ علياً لترك ذكري وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرّضتُ علياً له ، ولا أجد له ناصراً من بني أميّة ، ففخرت عليه ببني أميّة وقلت : إن نَقَضَها عليّ قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلتُه غَمّاً وغلبتُه . فكان كما قال : أمسك الكلبيّ عن جوابه ، فغَلَب عليه وأُفحِم الكلبيّ .

وفاته ووصيّته لولده

حُجر بن عبد الجبّار قال :

خرجت الجعفريّة على خالد بن عبد الله القَسْريّ وهو يخطب على المنبر ، وهو لا يعلم بهم ، فخرجوا في التَبابِين [1] ينادون : لبّيك جعفر ، لبّيك جعفر . وعرف خالدٌ خبرهم وهو يخطب على المنبر ، فدُهش ، فلم يعلم ما يقول فزَعاً ، فقال : أَطعِمُوني ماءً . ثم خرج الناس إليهم فأخذوا . فجعل يجيء بهم إلى المسجد ويؤخَذ طُنّ قصب [2] ، فيُطلى بالنِّفْط ، ويقال للرجل : احتضِنْه ، ويضرَب حتى يفعل ، ثم يُحرق ، فحرّقهم جميعاً .

فلمّا قدم يوسف بن عُمر دخل عليه الكميت ، وقد مدحه بعد قتله زيد بن عليّ ، فأنشده قوله فيه :

---

(١) التبابين ج تبان : سراويل صغير يلبسه الملاحون . واستظهر المحقق أن تكون محرفة عن البيانيين أتباع بيان ،فقد ورد في تاريخ الطبري في حوادث سنة١١٩ أنهم خرجوا على خالد فحرقهم .

(٢) طن قصب : حفنة قصب .

خرجتَ لهم تمشي البَرَاحَ ولم تكن
كمَن حِصْنُه فيه الرِّتاجُ المضَبَّبُ
وما خالدٌ يستطعم الماءَ فاغراً
بِعِدْلِكَ والداعي إلى الموت ينعَبُ (١)

قال : والجُند قيامٌ على رأس يوسف بن عمر ، وهم يمانيةٌ . فتعصّبوا لخالدٍ . فوضعوا ذُباب سيوفهم في بطن الكميت . فوجَؤُوه بها (٢) . وقالوا : أتُنشد الأمير ولم تستأمِرْه ! فلم يزل ينزِف الدمُ حتى مات (٣) .

قال محمد بن سَلمة بن أرتبيل :

ولد الكميت أيام مقتل الحسين بن عليّ سنةَ ستِّين ، ومات في سنة ست وعشرين ومائة ، في خلافة مروان بن محمد . وكان مبلغ شعره حين مات خمسةَ آلاف ومائتين وتسعةً وثمانين بيتاً .

عن المستهلّ بن الكميت أنه قال :

حضرتُ أبي عند الموت ، وهو يجودُ بنفسه . ثم أفاق ففتح عينَيه ثم قال : اللهمّ آلَ محمّد . اللهمّ آل محمد . اللهم آل محمّد . ثلاثاً . ثم قال لي : يا بُنيّ . ودِدتُ أنّي لم أكن هجوت نساء بني كلب بهذا البيت :

مع العُضروط والعُسفاء ألقَوا بَرادِعَهنّ غيرَ مُحصَّنينا (٤)

---

(١) الرتاج : الباب العظيم : المضبب : المغلق بالضبة . ينعب : يصوت ويصيح .
(٢) وجأه بالسيف : ضربه به .
(٣) في هذا الخبر نظر ، فهو يناقض الأخبار الأخرى في موته في زمن مروان بن محمد سنة ١٢٦ ﻫ فضلا عن أنه من المستبعد أن يقدم الجند على قتله بغير أمر الوالي ، ولم يكن يوسف ابن عمر ليقتله وقد نال الأمان من هشام .
(٤) العضروط : الخادم بطعامه . العسيف : الأجير .

فعَمَتْهن قذفاً بالفُجور ، والله ما خرجتُ بليلٍ قطّ إلا خشيتُ أن أُرمَى بنجوم السماء لذلك . ثم قال : يا بُنيّ ، إنّه بلغني في الرّوايات أنه يحفَر بظَهر الكوفة خندق يُخرَج فيه الموتى من قبورهم ويُنْبَشون منها ، فيُحوّلون إلى قبورٍ غير قبورهم ، فلا تَدْفِنّي في الظهر ، ولكن اذا متُّ فامضِ بي إلى موضعٍ يُقال له مكران ، فادفِنّي فيه . فدُفن في ذلك الموضع ، وكان أوّلَ مَن دُفن فيه ، وهي مقبَرة بني أسد إلى الساعة .

قال المستهلّ : ومات أبي في خلافة مروان بن محمد سنة ستٍّ وعشرين ومائة .

* * *

٢٦

مِسْكِين الدّارِميّ

(الأغاني ج ٢٠ ص ٢٠٤ وما بعدها)

الشعر

مِسْكينٌ لقبٌ غَلب عليه . واسمُه ربيعةُ بن عامر ... بن عبد الله بن عُدُس بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مَناةَ بن تميم ... قال أبو عمرو : وإنما لُقّب مِسكيناً لقوله :

أنـا مِسكينٌ لِمن أنكرنـي ... ولِمَن يَعرِفني جِدُّ نُطُقْ
لا أبيع الناسَ عِرضي إنّـني ... لو أبيعُ الناسَ عِرضي لَنَفَقْ(١)

وقال أيضاً :

(١) نطق : لم نجد في كتب اللغة هذه الصيغة للدلالة على الناطق وانما وردت جمعاً لنطاق .

سمّيت مسكيناً وكانت لَجاجةً وإنّي لَمِسكينٌ إلى الله راغبُ

وقال أيضاً :

إن أُدعَ مسكيناً فلستُ بمُنْكَرٍ
وهل تُنْكَرَنَّ الشمسُ ذَرَّ شُعاعُها
لَعَمرُكَ ما الأسماءُ إلاّ علامةٌ
مَنارٌ ومن خيرِ المَنار ارتفاعُها

شاعر شريف من سادات قومه ، هاجى الفرزدق ثم كافّه ...

مهاجاته الفرزدق

عن أبي عبيدة قال :

كان زيادٌ قد أرعى مِسكيناً الدارميّ حِمىً له بناحية العُذَيب [1] في عام قَحط حتى أخصب الناس وأَحْيَوا ، [2] ثمّ كتب له ببُرٍّ وتَمرٍ وكساه . قال : فلمّا مات زياد رثاه مِسكين فقال :

رأيت زيادةَ الإسلام وَلّتْ جِهاراً حين وَدَّعَنا زيادُ

فعارضه الفرزدق — وكان منحرفاً عن زيادٍ لطلبه إيّاه وإخافته له — فقال :

أمِسكينُ أبكى الله عَينَكَ إنّما جرى في ضَلالٍ دمعُها فتحدّرا
بكيتَ على عِلْجٍ بمَيْسانَ كافرٍ ككسرى على عِدّانه أو كقيصرا

---

(١) ماء على مقربة من القادسية ، وهو حد نجد من جهة الكوفة .

(٢) أحيوا : مطروا ، والحيا : المطر .

أقول لـه لمـا أتاني نعيـه : به لا بظَبْيٍ بالصَّريمة أعفَرا (١)

فقال مسكين يُجيبه :

ألا أيّها المرءُ الذي لستُ قاعداً ولا قائماً في القوم إلاّ انبرى ليا
فجئني بعَم مثل عمّي أو أبٍ كمثل أبي أو خالٍ صِدْقٍ كخاليا
كعَمروبن عمرٍو أوزُرارة ذي الندى أو البِشْرِ من كُلٍّ فرعتُ الروابيا (٢)

قال : فأمسك الفرزدق عنه فلم يُجِبه وتكافا .

أخبرني ببعض هذا الخبر أبو خليفة عن محمّد بن سلاّم فذكر نحواً مما ذكره أبو عُبيدة وزاد فيه قال : البشر خال لمسكين من النَّمِر بن قاسط ، وقد فخر به فقال :

شُرَيحٌ فارسُ النُعمان عمّي وخالي البشر بِشرُ بني هِلال
وقاتِلُ خالِه بأبيه مِنّا سَماعةُ لم يَبِعْ حَسَباً بمال

وأخبرني عمّي قال : حدّثنا الحَزَنْبَل عن عَمرو بن أبي عمرو عن أبيه بمثل هذه الحكاية ، وزاد فيها ، قال :

فتكافا واتّقاه الفرزدق أن يُعين عليه جريراً (٣) ، واتّقاه مِسكين أن يُعين عليه عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت ، ودخل شيوخ بني عبد الله وبني مُجاشِع ، فتكافا .

---

(١) على عدانه : في زمانه وعهده . نعيه : خبر وفاته . الصريمة : القطعة المنعزلة من الرمل . الأعفر : ما لونه لون العفرة وهي التراب . يتمنى أن يقع الهلاك بزياد لا بالظبي ، وهو دعاء لهم يقولونه عند الشماتة بمهلك عدو لهم .
(٢) عمرو بن عمرو وزرارة : من أشراف بني دارم وهما من أجداد مسكين وهما أيضاً من قبيلة الفرزدق .
(٣) أن يعين عليه جريراً : أي خوفاً من أن يعين عليه جريراً .

عن أبي عَمرو قال : قال الفرزدق : نجوتُ من ثلاثة أشياءَ لا أخاف بعدها شيئاً : نجوتُ من زياد حين طَلبني ؛ ونجوت من ابنَي رُمَيلة ، وقد نذَرا دمي ، وما فاتهما أحدٌ طلباه قطُّ ؛ ونجوت من مهاجاة مِسكين الدارميّ ، لأنّه لو هجاني لاضطرّني أن أهدم شَطر حسَبي وفخري ؛ لأنّه من بُحبوحة [1] نسبي وأشراف عشيرتي ، فكان جريرٌ حينئذٍ ينتصف منّي بيدي ولساني .

أخباره مع بنيّ أميّة

أيّوب بن أبي أيّوب السَعديّ قال :

لمّا قدِم مسكينٌ الدارميُّ على معاويةَ فسأله أن يَفرِض له فأبى عليه —وكان لا يفرِض إلاّ لليمن— فخرج من عنده مسكين وهو يقول :

أخاك أخاك إنّ مــن لا أخــا لـــه
كساعٍ إلى الهَيْجــا بغير ســـلاحِ
وإنّ ابنَ عمّ المرء — فاعلَمْ — جَناحُه
وهل ينهض البــازي بغـير جنــاحِ
ومـــا طالب الحاجــات إلاّ مُغَرَّرٌ
ومـــا نال شيئاً طالــبٌ كنجــاحِ

قال السَعديّ : فلم يزل معاوية كذلك حتى عزّت [2] اليمن وكثُرت . وضُعضعت عدنانُ . فبلغ معاويةَ أنّ رجلاً من أهل اليمن قال : لهَممتُ ألاّ أدعَ بالشأم أحداً من مُضَر . بل هممت ألاّ أحُلَّ حُبْوَتي حتى

(١) بحبوحة المكان : وسطه .
(٢) في المطبوعة : غزت ، وما أثبتناه أجود .

اخرج كلّ نِزاريٍ بالشام . فبلغت معاوية ، ففَرض من وقته لأربعة آلافِ رجلٍ من قيس سوى خِنْدِف [1] ، وقدِم على تَفْيئة [2] ذلك عُطارِدُ بن حاجب على معاوية فقال له : ما فعل الفتى الدارميُّ الصَّبيحُ الوجه ، الفصيح اللسان ؟ يعني مسكيناً . فقال : صالحٌ يا أمير المؤمنين . فقال : أعْلِمه أنّي قد فرضت له في شَرَف العَطاء وهو في بلاده ، فإن شاء أن يُقيم بها أو عندنا فليَفْعل ، فإنّ عطاءه سيأتيه . وبَشِّره أنّي قد فرضت لأربعة آلافٍ من قومه من خِندِف . قال : وكان معاوية بعد ذلك يُغزي اليمن في البحر ، ويُغزي قيساً في البرّ .

عن عبد الله بن عيّاش قال :

كان يزيد بن معاويةَ يُؤثِر مسكيناً الدارميّ ويَصله ويقوم بحوائجه عند أبيه ، فلمّا أراد معاوية البَيعة ليزيد تَهيّب ذلك وخاف ألاّ يُمالئه عليه الناس ، لِحُسْن البَقِيّة فيهم ، وكثرة من يُرَشَّح للخلافة ، وبلغه في ذلك ذَرْءٌ وكلامٌ [3] كرِهه من سعيد بن العاص ومَروان بن الحكم وعبد الله بن عامر ، فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبياتاً ويُنشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلاً وحضره وجوه بني أميّة . فلمّا اتّفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالسٌ ، وابنُه يزيد عن يمينه ، وبنو أميّة حَواليه . وأشراف الناس في مجلسه ، فمَثَل بين يديه وأنشأ يقول :

إن أَدعَ مسكيناً فإنّي ابنُ مَعشَرٍ ... من الناس أحمي عنهم وأَذُودُ
إليك أميرَ المؤمنين رَحَلْتُها ... تُثير القَطا ليلاً وهنّ هُجود
وهاجرةٍ ظَلّت كأنّ ظِباءَها ... إذا ما اتّقتْها بالقُرون سُجود

(١) خندف وقيس : فرعا مضر الكبيران .
(٢) على تفيئة : على أثر .
(٣) لعل صواب العبارة : ذرء من كلام أي شيء منه .

ألا ليت شعري ما يقولُ ابنُ عامرٍ ومَروانُ أم ماذا يقول سعيدُ
بَنِي خُلفاءِ اللهِ مَهْلاً فإنّما يُبَوِّئُها الرحمنُ حيث يُريد
اذا المنبرُ الغربيُّ خَلاّه ربُّه فإن أميرَ المؤمنين يَزيدُ
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ لِكلّ أُناسٍ طائرٌ وجُدود
فلا زِلتَ أعلى الناس كعباً ولا تَزَلْ وفودٌ تُساميها إليك وُفودُ
ولا زال بيتُ المُلك فوقَك عالياً تُشَيَّدُ أطنابٌ له وعَمود
قُدورُ ابنِ حربٍ كالجوابي وتحتَها أثافٍ كأمثال الرِّئال رُكود (٤)

فقال له معاوية : نَنظر فيما قلت يا مسكين ، ونَستخير الله . قال : ولم يتكلم أحدٌ من بني أميّة في ذلك إلاّ بالإقرار والموافقة ، وذلك الذي أراده يزيد ليعلمَ ما عندهم ، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صِلته .

من مختار شعره

عن مسعود بن بِشر عن أبي عُبيدةَ أنه سمعه يقول :

أشعرُ ما قيل في الغَيرة قول مسكين الدارمي :

ألا أيُّها الغائرُ المُسْتَشيطُ — فيمَ تَغارُ إذا لم تُغَرْ
فما خيرُ عِرْسٍ إذا خِفْتَها وما خيرُ عِرسٍ إذا لم تُزَرْ
تغارُ على الناس أن ينظُروا وهل يَفتِنُ الصالحاتِ النظَر
وإنّي سأُخْلي لها بيتَها فتَحفظُ لي نفسَها أو تَذَر

(١) الهاجرة : نصف النهار حين يشتد الحر . الجد : الحظ . أعلى الناس كعباً : أعلاهم شرفاً ومنزلة . الجوابي ج جابية : الحوض يجمع فيه الماء لتشرب منه الإبل . الأثافي : حجارة القدر والواحدة أثفية . الرئال ج رأل : ولد النعام .

اذا اللهُ لـم يُعطِني حُبَّهـا   فلن يُعطِيَ الحُبَّ سَوطٌ مُمَرّ (١)

عن الأصمعيّ قال :

خطب مسكينٌ الدارميُّ فتاةً من قومه ، فكرهته لسواد لونه وقلّة ماله ، وتزوّجت بعدَه رجلاً من قومه ذا يَسارٍ ، ليس له مثلُ نسب مسكين . فمرّ بهما مسكينٌ ذاتَ يومٍ ، وتلك المرأة جالسةٌ مع زوجها ، فقال :

أنـا مسكـينٌ لِمن يعرِفـني   لوني السُمرةُ ألـوانُ العَرَبْ
من رأى ظَبيـاً عليـه لؤلـؤٌ   واضحَ الخدَّين مَقرونـاً بضَبّ
أكسبتْه الوَرِقُ البِيـضُ أبـاً   ولقد كان ومـا يُدعَى لِأَب
رُبَّ مَهزولٍ سمينٌ بَيتـهُ   وسَمينِ البيتِ مَهـزولُ النَسَبْ
أصبحتْ تُرزَقُ من شحم الذُرا   وتخال اللؤم دُرّاً يُنْتَهـبِ
لا تَلُمْهـا إنّهـا مـن نِسوةٍ   صَخِباتٍ مِلحُهـا فوق الرُكَبْ
كشَموس الخيل يبـدُو شَغْبُهـا   كلّما قيل لها هالٌ وهَـبْ (٢)

• • •

---

(١) سوط ممر : مفتول مجدول .
(٢) مقروناً بضب : أراد بالضب زوجها . الورق : الدراهم المضروبة . الذرا ج ذروة : أعلى السنام . ملحها فوق الركب : يقال : فلان ملحه على ركبته أي لا وفاء له أو حديد في غضبه او سمين والمراد هنا أنها كثيرة الخصام .

٢٧

المُتَوَكِّلُ اللَّيْثِيّ

(الأغاني ج ١٢ ص ١٥٩ وما بعدها)

الشاعر

هو المتوكّل بن عبد الله بن نَهْشَل ... بن لَيْث بن بكر بن عبد مَناة بن كِنانة ... من شعراء الإسلام ، وهو من أهل الكوفة . كان في عصرِ معاوية وابنه يزيد ، ومَدَحهما . ويُكنَى أبا جَهمة . وقد اجتمع مع الأخطل وناشَده عند قَبيصة بن والِق – ويُقال عند عِكْرِمة بن رِبْعِيّ الذي يُقال له الفيّاض – فقدّمه الأخطل .

طائفة من أخباره

* عن لَقيط بن بُكير المُحاربيّ قال :

قدِم الأخطل الكوفة فنزل على قَبيصة بن والِق ، فقال المتوكّل بن

عبد الله الليثيّ لرجلٍ من قومه : انطلق بنا إلى الأخطل نَستنشِده ونسمع من شعره . فأتياه فقالا : أَنْشِدْنا يا أبا مالك . فقال : إنّي لَخاثِرٌ (١) يوميَ هذا . فقال له المتوكّل : أنشِدْنا أيّها الرجلُ ، فوالله لا تُنشِدني قصيدةً إلاّ أنشدتُك مثلَها أو أشعرَ منها من شعري ! قال : ومَن أنتَ ؟ قال : أنا المتوكِّلُ . قال : أنشدني ، ويحَك ، من شعرك . فأنشَده :

لِلغانيــات بذي المَجاز رُسـومُ ... فببطن مكّةَ عَهدهُــنّ قديمُ
فبِمَنْحر البُدْن المقلَّد من منىً ... حِلَلٌ تلُوح كأنَهــنّ نجــومُ
لا تَنْهَ عن خُلُــقٍ وتأتيَ مِثلَه ... عارٌ عليك إذا فعلــتَ عظيمُ
والهَــمُّ إن لم تُمضِــه لِسبيلــه ... داءٌ تَضمَّنُه الضُلوعُ مُقيمُ (٢)

قال : وأنشَده أيضاً :

الشِعرُ لُبُّ المَــرْءِ يَعرِضُــه ... والقَول مثلُ مَواقــعُ النَبْــلِ
منهـــا المُقصِّرُ عن رَميّتــه ... ونوافذٌ يَذهــبنَ بالخَصْــلِ (٣)

قال : وأنشده أيضاً :

إنّنا معشرٌ خُلِقنـــا صُــدوراً ... من يُسَوّي الصُــدورَ بالأذنابِ

فقال له الأخطل : ويحَك يا متوكّل ! لو نَبحت الخمرُ في جَوفك لكنت أشعر الناس .

* عن عَوانَة قال :

أتى المتوكّل الليثيّ عِكْرِمة بن رِبْعيّ الذي يُقال له الفيّاض ،

(١) يقال : خثرت نفسه أي غثت واختلطت .
(٢) ذو المجاز : موضع السوق بعرفة ، وماء لهذيل بعرفة . البدن ج بدنة (محركة) : من الابل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة . الحلل ج حلة : جماعة بيوت القوم .
(٣) الخصل : الخطر ، وهو ما يتراهن عليه في السبق .

فامتدحه ، فحَرَمَه . فقيل له : جاءك شاعر العرب فحرمتَه ! فقال : ما عرفتُه . فأرسل إليه بأربعة آلاف درهمٍ ، فأبى أن يَقبلها وقال : حَرَمني على رؤوس الناس ويبعث إليّ سِرّاً !

فبينا المتوكّل بالحِيرة ، وقد رمِد رمداً شديداً ، فمرّ به قَسٌ منهم فقال : مالِك ؟ قال : رمِدتُ . قال : أنا أعالجك . قال : فافعَل ، فذَرَّه (١) ، فبينا القَسّ عندَه ، وهو مَذرُور العين مستلق على ظهره ، يفكّر في هجاء عكرمة ، وذلك غير مُطّرِدٍ له ولا القولُ في معناه ، إذ أتاه غُلامٌ له فقال : بالباب امرأةٌ تدعوك . فمسح عينَيه وخرج اليها ، فسَفرت عن وجهها فإذا الشمسُ طالعةً حُسناً ، فقال لها : ما اسمُك ؟ قالت : أميّة . قال : فممّن أنت ؟ فلم تُخبره . قال : فما حاجتُك ؟ قالت : بلغني أنّك شاعرٌ فأحببتُ أن تنسب بي في شعرك . فقال : أسفِري ، ففعلتْ فكرَّ طرفَه في وجهها مُصعِّداً ومُصوِّباً ، ثم تلثمت وولّت عنه . فاطّرد له القول الذي كان استصعب عليه في هجاء عِكرمة وافتتحه بالنسيب فقال :

أجَدّ اليومَ جيرتُك احتمالا وحيثّ حُداتُهم بهـم الجِمالا
وفي الأظعان آنسةٌ لَعُوبٌ ترى قتلي بغـير دمٍ حَـلالا
أميّة يوم دَيرِ القَسّ ضَنّت علينـا أن تُنَوّلنـا نَـوالا
أبيني لي فرُبّ أخٍ مُصافٍ رُزِئت وما أُحبّ بـه بِـدالا

وقال فيها يهجو عِكرمة :

أقِلْني يا بنَ رِبْعِيّ ثَنائي وهَبْها مِدْحـةً ذهبت ضَلالا
وهَبْها مِدحةً لم تُغن شيئاً وقولاً عـاد أكثرُه وَبـالا

---

(١) ذره : وضع الذرور في عينيه ، وهو الكحل وما شابهه .

وجَدنا العزَّ من أولاد بَكْرٍ إلى الذُّهْلَيْنِ يرجِــع والفَعالا
أعِكرَمَ كنتُ كالمُبتاع داراً رأى بيع الندامــةِ فاستقــالا
بنو شيبان أكرمُ آلِ بَكْــرٍ وأمتَنُهم اذا عَقَــدوا حِبالا
رجالٌ أعطيتْ أحلامَ عــادٍ إذا نطقوا وأيديَهــا الطِــوالا
وتَيْمُ الله حيٌّ حيٌّ صِدقٍ ولكنّ الرَّحَى تعلــو الثِّفالا(١)

• قال الأصمعيّ :

كانت للمتوكّل بن عبد الله الكنانيّ امرأةٌ يقال لها رُهَيمة — ويقال أمَيمة — وتُكنَى أمَّ بكر ، فأقعدت (٢) ، فسألته الطّلاق ، فقال : ليس هذا حينَ طلاق . فأبت عليه ، فطلّقها . ثم إنّها بَرَأت بعد الطلاق ، فقال في ذلك :

طربتُ وشاقني يا أمَّ بكرٍ دعــاءُ حمامةٍ تدعو حَمامــا
فبِتّ وبات همّي لي نَجِيّاً أعزّي عنك ِ قلبــاً مُستَهامــا
اذا ذُكِرتْ لِقلبكَ أمُّ بكرٍ يبيت كأنّمــا اغتبق المُدامــا
خَدَلَّجةٌ تَرِفُّ غُروب فيها وتكسُو المَتْنَ ذا خُصَلٍ سُخامــا
أبى قلبي فما يهوى سواهــا وإن كانت مودّتهــا غَرامــا
ينام الليل كلُّ خَلِيّ هــمّ وتأبى العــينُ منّي أن تنامــا
أراعي التاليات ِ مــن الثُريّا ودمــعُ العين منحدرٌ سِجاما
على حينَ ارعويتُ وكان رأسي كأنّ عــلى مَفارقــه ثَغامــا
سعى الواشون حتّى أزعجوها ورثّ الحبــلُ فانجذم انجذامــا

---

(١) الذهلان : أراد ذهل بن شيبان وذهل بن ثعلبة بن عكابة ، وكلاهما من بطون قبيلة بكر ، وعكرمة ينتمي إلى تيم الله بن ثعلبة بن عكابة . الثفال : ما يوضع تحت الرحى من جلد ونحوه . يريد أنه من أسافل قومه .

(٢) أقعدت : أصبحت قاعداً ، وهي التي تقعد عن الزوج والولد والحيض .

فلستُ بزائلٍ ما دمتُ حيّاً مُسِرّاً من تذكّرها هيامـــا
تُرَجّيها وقد شحطت نَواها ومَنّتْكَ المُنى عامـاً فعامـا
خَدلّجة لها كَفَـلٌ وثيرٌ ينُوء بها اذا قامت قيامـا
مُخَصّرة تَرى في الكَشح منها على تثقيل أسفلهـا انهضامـا
اذا ابتسمت تلألأ ضوءُ بـرقٍ تَهلّل في الدُجُنّة ثـم دامـا
وإن قامت تأمّل رائياهـا غمامةَ صَيّفٍ وَلجت غمّامـا
اذا تمشي تقول دبيبُ أيْـمٍ تعرّج ساعةً ثـم استقامـا
وإن جلست فدُميةُ بيت عيدٍ تُصان ولا تُرى إلاّ لِمامـا
فلو أشكو الذي أشكو إليهـا إلى حجرٍ اراجعـني الكلاما(١)

(الأبيات ...)

• قال أبو عمرو الشيبانيّ :

هجا معنُ بن حَمَل بن جَعُونة بن وهب ، أحد بني لَقيط بن يَعمر ، المتوكّل بن عبد الله الليثيّ ، وبلغ ذلك المتوكّل فترفّع عن أن يُجيبه ، ومكث معنٌ سنين يهجوه والمتوكّل مُعرضٌ عنه . ثم هجاه بعد ذلك وهجا قومه من بني الدِّيل هجاءً قذِعاً استحيا منه وندم ، ثم قال المتوكل لقومه يعتذر ويمدح يزيد بن معاوية :

خليـليّ عُوجا اليـومَ وانتظرانـي
فإنّ الهوى والهمَّ أمُّ أبـانِ

(١) خدلجة : ممتلئة الذراعين والساقين . ترف : تبرق . غروب الفم ج غرب : الريق . سخام : أسود ، يريد أن متنها يعلوه شعر أسود ذو خصلات . غراما : عذابا . أراعي : أراقب . الثغام : نبت أبيض يشبه به الشيب . الصيف (بالتشديد) : المطر يجيء في الصيف . الأيم : الحية .

هي الشّمس يبدو لي قريباً بعيدُهـا
أرى الشمس مـا أسطيعُها وتراني
نأت بعد قُربٍ دارُهـا وتبدّلـت
بنا بَدّلاً والدهرُ ذو حَدَثـانِ
فهاج الهوى والشوقَ لي ذِكرُ حُرّةٍ
من المُرْجَحِنّات الثّقال حَصانِ
سيعلم قومي أنّني كنت سُـورةً
من المجد إن داعي المَنُون دَعـاني
ألا رُبّ مسرورٍ بمـوتي لو أتـى
وآخرَ لـو أنعى لـه لَبكانـي
خليليَّ مـا لام امرءاً مثـل نفسِه
اذا هي لامت فاربَعـا ودعـاني
ندمتُ على شتمي العشيرةَ بعدمـا
تغنّى بها غَوري وحـنٌ يمـاني
قلبتُ لهم ظهر المِجـنّ وليتـني
رجعتُ بفَضلٍ مـن يـدٍ ولسان
على أنّني لم أرمِ في الشد مُسلمـاً
ولم أهجُ إلاّ مـن روى وهجـاني
همُ بطِروا الحِلم الذي من سجيّتي
فبدّلـت قومـي شدّة بلَيـان
ولو شئتمُ أولادَ وهـبٍ نزعـتمُ
ونحـن جميعٌ شمـلُنـا أخـوانِ

نهيتمُ أخاكم عن هجائي وقــد مضى
لــه بعد حــولٍ كاملٍ سَنتان

فلجّ ومنّاه رجــالٌ رأيتُهـــم
اذا قارنوني يكرهـــون قِـــراني

وكنت امرءاً يأبى ليَ الضيمَ أنّــني
صَرُومٌ اذا الأمرُ المهـمُّ عَناني[1]

.... ثم انه يقول فيها ليزيد بن معاوية :

أبا خالــدٍ حنّت إليــك مَطيّتي
على بُعد مُنتابٍ وهــول جَنانِ

أبا خالد في الأرض نَأيٌ ومَفْسَحٌ
لِـذي مِرّةٍ يُرمَى بـه الرّجَوان

فكيفِ ينــام الليــلَ حرٌّ عَطاؤه
ثلاثٌ لرأس الحَولِ أو مائتــان

تناهت قَلُوصي بعد إسآدي السُّرى
إلى ملك جَزل العَطــاء هِجــانِ

ترى الناس أفواجــاً يَنوبُون بابــه
لِبِكْرٍ من الحاجات أو لِعَــوانِ[2]

---

(١) حدثان الدهر : صروفه وغيره . المرجحنة : المرأة السمينة . حصان : عفيفة . السورة : المنزلة . لامت : أتت ما يوجب اللوم . اربعا : توقفا وكفا . غوري : منسوب إلى غور تهامة ، وخففت ياء النسبة للضرورة . قلبت لهم ظهر المجن : عاديتهم . بطروا : كرهوا ما لا يستحق الكراهية . نزعتم : كففتم وتوقفتم . قارنوني : صاحبوني .

(٢) جنان الليل : ظلمته . المرة : القوة . الرجوان مثنى الرجا : وهو الناحية ، ويرمى به الرجوان أي يستهان به ويعرض عنه . الإسآد : الاسراع في السير . السرى : السير ليلا . هجان : كريم الأصل . العوان : يريد الحاجة التي تكرر طلبها ، والعوان من النساء التي كان لها زوج .

٢٨

نابغة بني شيبان

(الأغاني ج ٧ ص ١٠٦ وما بعدها)

الشاعر

النابغةُ اسمه عبد الله بن المُخارِق ... بن ذُهْل بن شَيبان ... شاعرٌ بدويّ من شعراء الدولة الأموية . وكان يفِد إلى الشأم إلى خلفاء بني أميّة فيمدحُهم ويُجزلون عَطاءه . وكان – فيما أُرى – نصرانيّاً [1] ، لأنّني وجدته في شعره يحلِف بالإنجيل والرُّهْبان وبالأيمان التي يحلِف بها

(١) رجح محقق المطبوعة أن النابغة كان مسلماً واستدل على ذلك بقوله :

وتعجبني اللذات ثـم يعوجـني ... ويستر ني عنهـا من الله ساتر
ويزجرني الإسلام والشيب والتقى ... وفي الشيب والإسلام للمرء زاجر

ولكن في الخبر عينه وفي الأبيات التي أنشدها عبد الملك ما يرجح نصرانيته ، ويحتمل أنه كان في أول أمره نصرانياً ثم أسلم أو أن أمه كانت نصرانية .

النّصارى . ومدح عبد الملك بن مَروان ومَن بعدَه من وَلَدِه ، وله في الوليد مدائح كثيرة .

انقطاعه إلى عبد الملك وحضه على تولية ابنه بعده

عن العُتبيّ قال :

لمّا همّ عبد الملك بخلع عبد العزيز وتَولية الوليد ابنه العهدَ كان نابغة بني شيبان منقطعاً إلى عبد الملك مدّاحاً له، فدخل إليه في يوم حَفْلٍ ، والناسُ حوِاليه وولدُه قُدّامَهُ . فمثَل بين يديه وأنشده قوله :

أشْتقتَ وانْهلّ دمعُ عينــــك أن ... أضحى قِفاراً من أهله طَلَحُ

حتّى انتهى إلى قوله :

أزحتَ عنّا آلَ الزّبير ولـــو ... كانو همُ المالِكين ما صَلَحُوا

إن تلقَ بلوَى فأنت مُصطَــبِرٌ ... وإن تُلاقِ النُعمَى فلا فَرَحُ

ترمي بعَيْنَي أقنى على شَرَفٍ ... لم يُؤذِه عائرٌ ولا لَحَــحُ

آلُ أبي العاص آلُ مَأثُـــرةٍ ... غُرٌّ عِتاقٌ بالخير قد نَفَحُوا

خيرُ قريشٍ وهـــم أفاضلُهـــا ... في الجِدّ جِدٌّ وإن همُ مَزَحُوا

أرحبُها أذرُعـــا وأصبرُهـــــا ... أنتم إذا القوم في الوغى كَلَحُوا

أمّـــا قريشٌ فأنت وارثُهـــــا ... تكُفُّ من صَعبهم إذا طَمَحُوا

حفظتَ مـــا ضَيّعوا وزَنْدَهمُ ... أَوريتَ إذ أصلدوا وقد قَدَحُوا

آليتُ جهداً . وصادقٌ قَسَمـــي ... بربٍّ عَبدٍ تَجُنُّه الكُـرُحُ

يظـــلّ يتلو الإنجيــلَ يدرُسُه ... من خَشية الله قلبُه طَفَــحُ

لابنُكَ أولى بمُـــلك والـــده ... ونجمُ من قد عصاك مُطَّرَح

داودُ عَدلٌ فاحكُمْ بسيرتــه ... ثم ابنُ حَرْبٍ فإنّهم نَصَحُوا

وهم خيار فاعمَلْ بسُنَّتِهم ... واحيَ بخيرٍ واكدَحْ كما كَدَحوا[1]

قال : فتبسّم عبد الملك ولم يتكلّم في ذلك بإنذارٍ[2] ولا دفعٍ . فعلم الناسُ أنَّ رأيَه خَلعُ عبد العزيز . وبلغ ذلك من قول النابغة عبد العزيز فقال : لقد أدخل ابن النّصرانيّة نفسَه مُدخَلاً ضيّقاً فأوردها مَورداً خطِراً . وبالله عليَّ لَئِن ظفِرتُ به لأخضِبَنَّ قدمَه بِدمه .

أخباره مع سائر بني أمية

قال أبو عمرو الشيباني :

لمّا قُتل يزيد بن المهلّب دخل النابغةُ الشيبانيُّ على يزيد بنْ عبد الملك ابن مروان . فأنشده قوله في تهنئته بالفتح :

ألا طـــال التنظُّرُ والثَّـــواءُ ... وجاء الصَّيف وانكشف الغِطاءُ
وليس يُقيم ذو شَجَنٍ مُقيمٍ ... ولا يَمضي إذا ابتُغِيَ المَضاءُ
طَوالَ الدهر إلاّ في كتــابٍ ... ومقــدارٍ يوافقــه القَضاءُ
فما يُعطَى الحَريصُ غِنىً لِحِرصٍ
وقد يَنمي لِذي الجُود الثَّـــراء
وكلُّ شديدةٍ نزلــت بِحــــيٍّ
سيَتْبَعُها اذا انتهــت الرَّخـــاءُ

(١) الأقنى : الصقر . الدائر : الرمد . اللحح : التصاق الأجفان بالرمص ، وهو وسخ يعلق بالجفون . كلحوا : عبسوا وكشروا . أصلد الزند : لم يور ، ويقال : فلان واري الزند ، أي كثير الخير والمعروف والبر . آليت : أقسمت . تجنه : تستره . الكرح : بيوت صغار بأرض الكوفة كانت الرهبان تسكنها . داود وابن حرب : ذكرهما النابغة لأن كلا منها جعل الملك بعده لابنه .

(٢) هذه رواية المطبوعة ، وفي نسخ أخرى : بإقدار ، وأراها محرفة عن لفظ « إقرار » . وهو المناسب للمعنى هنا .

يقول فيه:

أَؤُمُّ فتىً من الأعياص مَلْكـاً
أغَرَّ كأنّ غُرَّتَه ضِياءُ
لأُسمِعَه غريبَ الشعر مَدْحاً
وأثني حيث يتّصل الثّناء
يزيدُ الخَير فهو يَزيدُ خيراً
ويَنمي كلّما ابتُغي النَّماء
فضَضتَ كتائبَ الأزدي فَضّاً
بكَبْشِك حين لفَّهما اللِقاء
سَمكتَ المُلك مُقتَبِلاً جديداً
كما سُمكت على الأرض السَّماء
نرجّي أن تدُومَ لنا إماماً
وفي مُلك الوليد لنا رَجاءُ
هشامٌ والوليدُ وكلُّ نفسٍ
تُريد لك الفَناءَ لك الفِداءُ (١)

وهي قصيدة طويلة ، فأمر له بمائة ناقةٍ من نَعَم كلْب وأن تُوقَر له بُرّاً وزَبيباً وكساه وأجزل صلته..

---

(١) ينمي : يزيد . الأعياص : بنو أمية ينقسمون إلى فرعين كبيرين أحدهما الأعياص ومنهم مروان بن الحكم ، جد الممدوح ، والثاني العنابس ، وهم آل أبي سفيان . الكبش : سيد القوم وقائدهم وأراد به هنا مسلمة بن عبد الملك ، أخا يزيد ، وهو الذي قضى على ثورة ابن المهلب . سمكت : رفعت . هشام والوليد : يجعل النابغة في هذا البيت هشام بن عبد الملك والوليد فداء ليزيد بن عبد الملك ، وبسبب هذا البيت غضب هشام على النابغة وطرده .

* قال : ووفد إلى هشام لمّا وَلي الخلافة ، فلمّا رآه قال له : يا ... ألست القائل :

هشامٌ والوليــد وكــلُّ نفسٍ تريد لك الفَناءَ لك الفِداءُ

أَخرِجُوه عنّي ، والله لا يـرْزَؤُني[1] شيئاً أبداً . وحـرَمه، ولم يزل طولَ أيامه طريداً ، حتى وَلي الوليد بن يزيد ، فوفد إليه ومدحه مدائح كثيرة . فأجزل صِلته .

* عن محمد بن سلاّم :

غنّى أبو كامل ، مولى الوليد بن يزيد ، يوماً بحضرة الوليد بن يزيد :

امدَحِ الكَأْسَ ومــن أعملها واهجُ قوماً قتلونــا بالعَطَشْ

فسأل عن قائل هذا الشعر فقيل نابغةُ بني شيبان ، فأمر بإحضاره ، فأُحْضِر . فاستنشده القصيدة ، فأنشده إياها ؛ وظنّ أنّ فيها مديحاً له ، فإذا هو يفتخر بقومه ويمدحهم . فقال له الوليد : لو سَعِد جَدُّك لكانت مديحاً فينا لا في بني شَيبان ، ولسنا نُخلِيك على ذلك من حظٍّ ؛ ووصَلَه وانصرف . وأوّل هذه القصيدة قولُه :

خَلَّ قلبي مــن سُليمَى نَبْلُهــا
إذ رَمَتْني بسهامٍ لــم تَطِــشْ
طَفْلَــةُ الأعطاف رُؤْدٌ دُمْيَــةٌ
وشَواها بَخْتَريٌّ لــم يُحَــشّْ
وكأنَّ الــدُرَّ في أَخراصهـــا
بَيْضُ كَحلاءَ أقَرّتْه بِعُشّْ

(١) لا يرزؤني شيئاً : أراد لا يصيب مني شيئاً .

ولها عينا مَهاةٍ في مَهاً
تَرْتَعي نَبتَ خُزامى وَنَتَشْ

حُرَّةُ الوجه رَخيمٌ صوتُها
رُطَبٌ تَجنيه كفُّ المُنْتَقِشْ

وهي في الليل اذا ما عُونِقت
مُنْيةُ البَعْل وهمُّ المُفْتَرِشْ (١)

وفيها يقول مفتخراً :

وبنو شيبان حَولي عُصَبٌ
منهمُ غُلْبٌ وليست بالقَمِشْ

وَرَدُوا المجدَ وكانوا أهلَه
فَرَوَوا والجُودُ عافٍ لم يَنِشْ

وترى الجُرْدَ لَدى أبياتِهِم
أرِناتٍ بين صَلْصالٍ وجُشّ

ليس في الألوان منها هُجْنَةٌ
وَضَحُ البُلْقِ ولا عَيبُ البَرَشْ

فبها يَحوُون أموالَ العِدا
ويَصيدُون عليها كلَّ وحْش

(١) خل : ثقب ونفذ . طفلة : ناعمة ، لينة . الرؤد : الشابة الحسناء . الشوى : الأطراف . البختري : الحسن المشي والمختال . حش الصيد : ضمه من جانبيه ، يريد أن أطرافها ليست مضمومة إلى جسدها . الأخراص ج خرص : القرط . الكحلاء : ضرب من الطير . المهاة : البقرة الوحشية . النتش : ما يبدو من النبات أول ما ينبت . حرة الوجه : عتيقة الوجه كريمته . انتقش الشيء : استخرجه واختاره ، وأنقش : دام على أكل النقش وهو الرطب الربيط .

دَميت أكفالُهـا من طَعنهـم
بالرُدَيْنيّات والخيـل النُجُشْ
نُنهِلُ الخَطّيَّ من أعدائنـا
ثمّ نَفْري الهامَ إن لم نَفتَرِشْ
فإذا العِيسُ من المَحْل غـدتْ
وهي في أعيُنهـا مثلُ العَمَـشْ
حُسَّرَ الأوبـار ممّـا لَقِيـت
من سَحابٍ حاد عنها لم يُرِشْ
خُسَّفَ الأعيُن ترعَى جَدْبَـةً
هَمَدَت أوبارُهـا لم تنتفِش
نَنْعَشُ العـافي ومَـن لاذ بنـا
بسِجال الخَير من أيـدٍ نُعُشْ
ذاك قَـولي وثنائـي وهـمُ
أهلُ وُدّي خالصاً في غير غِشّ
فسَلُـوا شيبانَ إن فارقتُهـم
يوم يمشُون إلى قـبري بِنَعْش
هل غَشِينا مَحرَماً في قومنا أو جَزَينا جازياً فُحشاً بفُحْش (١)

---

(١) الغلب ج أغلب : وهو الأسد . القمش (بإسكان الميم ونقلت حركة آخره إلى ما قبله للوقف) ج القماش : وهو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء وأطلق على رذالة الناس . العافي : الوافي . لم ينتش : لم يجف ولم ينضب . الجرد ج أجرد : السريع من الخيل والقصير الشعر . أرنات : نشيطات . الصلصال : المصوت ، وصلصل : صوت . جش ج أجش : الغليظ الصوت . الهجنة : العيب وفرس هجين : غير عتيق . الوضح : التحجيل في قوائم الفرس . البلق : ارتفاع التحجيل إلى الفخذين . البرش : نكت صغار في شعر الفرس تخالف سائر لونه . الخيل النجش : السريعة المنقادة . الخطي : الرمح المنسوب إلى الخط ، وهي مرفأ السفن بالبحرين . أرشت السماء : جادت بالمطر . خسف الأعين : غائرتها . جدبة : الأرض المجدبة ، وفي الديوان : جوفة ، وهي النبتة الفارغة الجوف . العافي : طالب المعروف . السجال ج سجل : وهي الدلو العظيمة .

٢٩

نُصَيْب

(الأغاني ج ١ ص ٣٢٤ وما بعدها)

الشاعر

هو نُصَيب بن رَباح . مولى عبد العزيز بن مَروان ، وكان لبعض العرب من بني كِنانة السُكّان بوَدّان[1]، فاشتراه عبد العزيز منهم. وقيل : بل كانوا أعتقوه . فاشترى عبد العزيز ولاءَه منهم . وقيل : بل كاتب مَواليَه ، فأدّى عنه مُكاتَبَته[2] ...

وقال أبو اليَقْظان : كان أبوه من كِنانة من بني ضَمْرة . وكان شاعراً فحلاً فصيحاً مُقَدَّماً في النَّسِيب والمديح ، ولم يكن له حظٌّ في الهجاء . وكان عفيفاً . وكان يُقال إنه لم يَنْسُب قطُّ إلاّ بامرأته ...

(١) ودان : قرية بين مكة والمدينة كانت تنزلها قبائل كنانة .
(٢) المكاتبة : أن يكاتب العبد سيده على نفسه بثمنه فإذا أداه أعتق .

عن محمّد بن كُناسة قال : كان نُصَيب من أهل وَدّان عبداً لرجل من كِنانة هو وأهلُ بيته . وكان أهل البادية يدعونه النُصَيب تفخيماً له ، ويَرووُن شعره . وكان عفيفاً كبير النفس مُقدّماً عند الملوك ، يُجيد مَديحَهم ومَراثيَهم .

عن أبي بكر بن مَزْيَد قال : لقيتُ النُصَيب يوماً بباب هشام ، فقلت له : يا أبا مِحْجَن ، لِمَ سُمّيت نُصَيباً ، ألِقَولك في شعرك : عايَنها النُصَيب ؟ فقال : لا ، ولكنّي وُلدتُ عند أهل بيت من وَدّان ، فقال سيّدي : إيتُونا بمولودنا هذا لننظُرَ اليه ، فلمّا رآني قال : إنّه لَمُنَصَّب الخَلْق (١) ، فسُمّيت النُصَيب ، ثم اشتراني عبد العزيز بن مروان فأعتقني .

عن عثمان بن حَفْص عن أبيه قال : رأيت النُصَيب ، وكان أسودَ خفيف العارضَين ، ناتىء الحَنْجَرة .

مُحَمّد بن سَلاّم عن خلفٍ : أنّ نُصَيباً أنشد جريراً شيئاً من شعره ، فقال له : كيف ترى يا أبا حَزْرةَ ؟ فقال له : أنت أشعرُ أهل جِلْدتِك .

الرِّياشيُّ قال : أنشدَنا الأصمعيّ لنُصَيب ، وكان يستجيد هذه الأبيات ويقول إذا أنشدها : قاتل اللهُ نُصَيباً ما أشعرَه ! .

فإن يكُ من لوني السَّوادُ فإنــني
لكالمِسْكِ لا يروَى من المِسك ذائقُهْ
وما ضرّ أثوابي سَوادي وتحتَهـــا
لِباسٌ من العَلياء بِيضٌ بَنائقُـــه

(١) منصب الخلق : مسوى الخلق مستقيمه .

اذا المرءُ لم يَبذُلْ من الوُدِّ مثلَ مـــا
بذلتُ له فاعلَمْ بأنّي مُفارِقُهْ [1]

عن عثمان بن حَفص الثَقفيّ عن أبيه قال :

رأيت النُّصَيب بالطائف ، فجاءنا وجلس في مَجلسنا ، وعليه قميصٌ قُوهِيّ ورداءٌ وحِبَرَة [2] ، فجعل يُنشِدنا مديحاً لابن هشام [3] ، ثم قال : إنّ الوادي مَسْبَعةٌ [4] ، فمَن أهلُ المجلس ؟ قالوا : ثقيف : فعرَف أنّا نُبغِض ابنَ هشام ويُبغِضُنا ، فقال : انّا لله ، أبعدَ ابنِ ليلَى أمتدحُ ابن جَيْداء [5] ! فقال له أهل المجلس : يا أبا مِحْجَن ، أتطلب القرِيض أحياناً فيعسُر عليك ؟ فقال : إي والله ، لربّما فعلتُ فآمرُ براحلتي فيُشَدُّ بها رَحْلي ، ثم أسير في الشِّعاب الخالية ، وأقف في الرِّباع المُقْوِية ، فيُطربني ذلك ويُفتَح لي الشعر ، والله إنّي — على ذلك — ما قلتُ بيتاً قَطُّ تستَحي الفتاةُ الحَيِيَّة من إنشاده في سِتر أبيها .

عن أبي يحيى : محمّد بن كُناسة قال :

قال لي عبد الله بن اسحاقَ البصْريّ [6] : لو وَلِيتُ العراق لاستكتبتُ نُصيباً قلت : لماذا ؟ قال : لفصاحته وتَخلُّصه إلى جيّد الكلام ، ألم تسمع قوله :

---

(١) البنائق ج بنيقة : طوق الثوب الذي يضم العنق وما حوله .
(٢) الحبرة : ضرب من برود اليمن ، وفي بعض نسخ الأغاني : ورداء حبرة ، وهو أجود ، جاء في اللسان : يقال : برد حبرة وبرد حبرة بالوصف أو الاضافة .
(٣) ابن هشام : المقصود به محمد بن هشام ، خال هشام بن عبد الملك ، وكان والياً على مكة .
(٤) أي الوادي كثير السباع ، يريد أن الأعداء كثيرون .
(٥) ابن ليلى : أراد عبد العزيز بن مروان وابن جيداء هو محمد بن هشام .
(٦) ضبط اسمه في رواية أخرى على النحو التالي : « أبو عبد الله بن أبي إسحاق البصري »

فلا النفسُ ملَّتْها ولا العــينُ تنتهــي
إليها سَوام الطَّرف عنها فترجِــع
رأتْها فمـــا ترتــدُّ عنها سآمـــةً
ترى بدلاً منها به النّفسُ تَقنــعُ (١)

اتصاله بعبد العزيز بن مروان ومدائحه فيه

عن أيّوب بن عَبَاية قال : حدّثني رجلٌ من خزُاعةَ من أهل كُلَيَّةَ — وهي قريةٌ كان فيها النُصَيب وكُثيِّر — قال :

بلغني أنّ النُّصَيب قال : قلت الشعر وأنا شابٌّ فأعجبني قولي ، فجعلت آتي مَشْيَخةً من بني ضَمْرة بن بكر بن عَبد مَناةَ — وهم موالي النُصَيب — ومشيخةً من خزُاعة ، فأُنشِدهم القصيدة من شعري ثم أنسُبها إلى بعض شعرائهم الماضين فيقولون : أحسنَ والله! هكذا يكون الكلام وهكذا يكون الشعر ! فلمّا سمعت ذلك منهم علمت أنّي مُحسِنٌ. فأزمعوا وأزمعت الخروج إلى عبد العزيز بن مروان ، وهو يومئذ بمصرَ . فقلت لأختي أمامةَ ، وكانت عاقلةً جَلْدة : أي أُخَيَّةَ ، إنّي قد قلت شعراً ، وأنا أُريد عبدَ العزيز بن مروان ، وأرجو أن يُعتِقكَ اللهُ عزّ وجلّ به وأُمّك ، ومن كان مرقوقاً من أهل قرابتي . قالت : انّا لله وانّا اليه راجعون ، يا بنَ أمٍّ ، أتجتمع عليك الخَصْلتان : السَّوادُ ، وأن تكون ضُحْكةً للناس ! قال : قلت : فاسمَعي . فأنشدتُها فسَمعتْ ، فقالت : بأبي أنتَ ، أحسنتَ والله ! في هذا والله رجاءٌ عظيم ، فاخرُجْ على بَركة الله . فخرجت على قَعُودٍ حتّى قدِمتُ المدينة ، فوجدتُ فيها الفرزدقَ

(١) سام إليه ببصره : رماه به . أراد أن العين لا تمل النظر إليها . ترى بدلا : في موقع الحال من : فما ترتد ، أي أنها لا ترى بدلا منها فترتد عنها .

في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فعرّجتُ إليه فقلت : أُنشده وأستنشدُه وأَعرِضُ عليه شعري ، فأنشدته ، فقال لي : وَيْلَكَ ، أهذا شعرُك الذي تطلب به الملوك ؟! قلت : نعم . قال : فلستَ في شيءٍ ، إن استطعتَ أن تكتُمَ هذا على نفسك فافْعَلْ . فانفضختُ عَرَقاً (١) ، فحصَبَني (٢) رجلٌ من قُريش كان قريباً من الفرزدق ، وقد سمع إنشادي وسمع ما قال لي الفرزدق ، فأومأ إليّ ، فقُمت اليه ، فقال : ويحَك ! أهذا شعرك الذي أنشدتَه الفرزدق ؟ قلت : نعم . فقال : قد والله أَصبتَ ، والله لَئِن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حَسَدك ، فإنّا لَنَعرفُ محاسنَ الشعر ، فامضِ لِوَجهك ولا يَكْسِرَنّك . قال : فسرّني قولُه ، وعلمت أنّه قد صَدَقني فيما قال ، فاعتزمتُ على المُضِيّ . قال : فمضيتُ فقدمتُ مِصر — وبها عبد العزيز بن مروان — فحضرتُ بابَه مع الناس ، فنُحّيتُ عن مجلس الوجوه ، فكنت وراءَهم ، ورأيت رجلاً جاء على بَغْلةٍ ، حَسنَ الشارة ، سهلَ المَدْخَل ، يُؤذَن له إذا جاء . فلمّا انصرف إلى منزله انصرفت معه أُماشي بغلتَه . فلمّا رآني قال : أَلَكَ حاجةٌ ؟ قلتُ : نعم ، أنا رجلٌ من أهل الحجاز شاعرٌ ، وقد مدحت الأمير وخرجت إليه راجياً معروفَه ، وقد ازدُريتُ فطُرِدت من الباب ونُحّيت عن الوجوه . قال : فأنشِدني . فأنشدتُه ، فأعجبه شعري ، فقال : ويحَك ! أهذا شعرُك ؟ فإيّاك أن تَنتحلَ ، فإنّ الأمير راويةٌ عالم بالشعر وعنده رُواةٌ ، فلا تفضَحْني ونفسَك . فقلت : والله ما هو إلاّ شِعري . فقال : ويحَك ! فقُل أبياتاً تذكرُ فيها حَوْفَ مصر (٣) وفضلَها على غيرها ، والقَني بها غداً . فغَدوتُ عليه من غدٍ فأنشدتُه قولي :

---

(١) انفضخت عرقاً : تدفق مني العرق .

(٢) حصبني : رماني بالحصباء .

(٣) حوف مصر : بمصر حوفان متصلان : الحوف الشرقي من جهة الشأم والحوف الغربي قرب دمياط ، وهما يشتملان على بلدان وقرى كثيرة .

سَرى الهَمُّ تَثْنيني إليك طلائِعُهْ
بمصرَ وبالحَوْفِ اعترتْني روائعُهْ
وبات وِسادي ساعدٌ قَلَّ لحمُه
عن العَظْمِ حتى كاد تبدُو أشاجِعه[1]

(الأبيات ...)

فقال : أنتَ واللهِ شاعرٌ ، احضَرْ بالباب حتى أذكُرَك للأمير . قال : فجلست على الباب ودخَل ، فما ظننتُ أنه أمكنَه أن يَذكُرَني حتى دُعي بي ، فدخلتُ فسَلّمتُ على عبد العزيز ، فصَعّد فيَّ بَصَرَه وصَوَّب ، ثمّ قال : أنت شاعرٌ ، وَيلَك ! قلت : نعم أيّها الأميرُ . قال : فأنشِدني . فأنشدتُه ، فأعجبه شعري ...

عن عبد الله بن عِمران بن أبي فَروة قال :

أوّل من نَوّه باسم نُصَيب وقدِم به على عبد العزيز بن مروان عبد الله ابن أبي فروة ، قدِم به عليه وهو وَصيفٌ[2] حين بَلَغ وأوّلَ ما قال الشعر . قال : أصلح الله الأمير ، جئتكُ بوصيفٍ نُوبيٍّ يقول الشعر ، وكان نُصيبٌ ابنَ نُوبِيَّين — فأدخله عليه ، فأعجبه شعرُه ، وكان معه أيمَن بن خُرَيم الأسديّ . فقال عبد العزيز : إذا دعوتُ بالغَداء فأدخلوه عليَّ في جُبّةِ صُوف ، مُحتزماً بعِقال ، فإذا قلت قَوِّمُوه فقَوِّمُوه وأخرِجُوه ورُدُّوه عليَّ في جُبّة وَشْيٍ ورِداء وَشي . فلمّا جلَس للغَداءِ ، ومعه أيمَن بن خُرَيم ، أُدخِل نُصَيبٌ في جُبّة صوف مُحتزماً بعِقال ، فقال : قَوِّمُوا الغلام . فقالوا : عشرةٌ ، عشرونَ ، ثلاثون ديناراً . فقال : رُدُّوه ،فأخرِجُوه ثم رَدُّوه في جُبّة وشيٍ ورداءِ وَشي . فقال : أنشِدْنا ، فأنشَدَهم ، فقال : قَوِّمُوه . قالوا : ألفُ دينارٍ . فقال أيمن :

---

(١) الأشاجع : أصول الأصابع .
(٢) الوصيف : الخادم .

والله ما كان قطُّ أقلَّ في عيني منه الآنَ، وإنّه لَنِعْمَ راعي المَخاضِ[١].
فقالَ له : فكيف شعرُه ؟ قال : هو أشعر أهل جِلدته . فقال له عبد العزيز :
هو واللهِ أشعرُ منك ... (تقدم سائر الخبر في ترجمة أيمن بن خريم) .

عن موسى بن عبد العزيز قال :

حمل عبد العزيز بن مروان النُصَيب بالمُقَطَّم (مقطّم مصر) على بُختيٍ[٢] قد رَحلَه بغَبيطٍ[٣] فوقَه ، وألبسه مُقَطَّعاتِ وَشْيٍ[٤] ، ثم أمره أن يُنشِد . فاجتمع حولَه السُّودانُ وفَرِحوا به ، فقال لهم : أسَررتُكم ؟ قالوا : إي والله . قال : والله لَما يَسُوءُكم من أهل جِلْدتكم أكثرُ .

المدائنيُّ قال :

كان عبد العزيز بن مروان اشترى نُصيباً وأهلَه ووَلَدَه فأعتقهم ، وكان نصيبٌ يرحل اليه في كلّ عامٍ مُستميحاً[٥] ، فيُجيزُه ويُحسن صِلته . فقال فيه نصيب :

يقولُ فيُحسن القولَ ابنُ ليلى ... ويَفعلُ فوقَ أحسنِ ما يقولُ
فتىً لا يَرْزأُ الخُلاّنَ إلاّ ... مَودّتَهم ويَرزَؤُه الخليلُ
فبَشِّرْ أهلَ مِصر فقد أتاهم ... مع النِّيل الذي في مِصرَ نِيلُ[٦]

---

(١) المخاض : الحوامل من النوق .
(٢) البختي : البعير الخراساني
(٣) الغبيط : ضرب من الرحال .
(٤) المقطعات : القصار من الثياب الواحد : ثوب ، ولا واحد له من لفظه ، أو برود عليها وشي من الشعر .
(٥) استماحه : طلب منه عطاء .
(٦) يرزأ الخلان مودتهم : أي ينال منهم مودتهم فكأنه يرزؤهم بها .

المدائنيّ قال :

وقع الطاعونُ بمصرَ في ولاية عبد العزيز بن مروان إيّاها ، فخرج هارباً منه ، فنزل بقرية من الصَّعيد يقال لها « سُكَر » (١) . فقدِم عليه حين نزَلها رسولٌ لعبد الملك ، فقال له عبد العزيز : ما اسمُك ؟ فقال : طالِب بن مُدرِك . فقال : أوَّهْ ، ما أُراني راجعاً إلى الفُسْطاط أبداً . ومات في تلك القرية . فقال نصيبٌ يرثيه :

أُصِبْتُ يومَ الصَّعيد من سُكَرٍ   مُصيبةً ليس لي بها قِبَلُ
تالله أنسى مُصيبتي أبداً   ما أَسمعتْني حَنينَها الإبلُ
ولا التَّبكِّي عليه أُعوِلُه   كلُّ المُصيبات بَعدَه جَلَلُ
لم يَعلم النعْشُ ما عليه من الـ   عُرْف ولا الحاملون ما حَملوا
حتّى أَجنُّوه في ضَريحِهمُ   حينَ انتهى من خَليلك الأملُ (٢)

أخباره مع سائر بني أمية وولاتهم

عن المدائنيّ قال :

دخل نُصَيبٌ على عبد الملك فتغدّى معه ، ثم قال : هل لك فيما نتنادم عليه ؟ فقال : تأمّلْني . ففَعل . فقال : لوني حائلٌ ، وشَعري مُفَلفَلٌ ، وخِلقَتي مُشوَّهة ، ولم أبلُغ ما بلغت من إكرامك إيّاي بشرف أبٍ أو أمّ أو عشيرة ، وانّما بلغتُه بعقلي ولساني ، فأنشُدك اللهَ يا أمير المؤمنين أن لا تحولَ بيني وبين ما بلغتُ به هذه المَنزلةَ منك ، فأعفاه :

---

(١) سكر : موضع بشرق الصعيد كان عبد العزيز كثيراً ما يخرج اليه .
(٢) أعول : رفع صوته بالبكاء . أجنوه : واروه .

عن سَلمة بن عبد الله بن أبي مَسْرُوح قال :

قال عبد الملك بن مَروان لنُصيب : أنشِدني ، فأنشد قصيدته التي يقول فيها :

ومُضْمَرِ الكَشْحِ يَطويه الضَّجِيعُ به
طَيَّ الحمائلِ لاجافٍ ولا فَقِرُ
وذي رَوادفَ لا يُلفَى الإزارُ بها
يَلوَى ولو كان سَبعاً حينَ يأتَزِرُ [1]

فقال له عبد الملك : يا نُصيب من هذه ؟ قال : بنت عمٍّ لي نُوبيَّة ، لو رأيتَها ما شربتَ من يدها الماءَ . فقال له : لو غيرَ هذا قلتَ لضربتُ الذي فيه عيناك .

محمدُ بن إسماعيلَ الجعفريّ قال :

دخل النُصَيب على سليمان بن عبد الملك ، وعنده الفرزدق . فاستنشد الفرزدقَ وهو يرى أنّه سيُنشده مديحاً له ، فأنشده قوله يفتخر :

ورَكْبٍ كأنّ الرِّيح تطلب عندهم
لها تِرةً من جَذْبها بالعَصائبِ
سَرَوا يَركبون الرِّيح وهي تَلُفُّهم
على شُعَب الأكوار من كلّ جانب
إذا استوضَحُوا ناراً يقولون لَيتها
وقد خَصِرت أيديهم نارُ غالبِ [2]

(١) مضر الكشح : ضامر الخصر . الحمائل : علاقة السيف التي يحمل بها . الفقر : من اشتكى فقاره .

(٢) العصائب ، هنا : العمائم . الأكوار ج كور : الرحل بأداته . استوضحوا : نظروا وقد وضعوا أيديهم فوق أعينهم . خصرت : بردت .

قال : وعِمامته عـلى رأسه مثلُ المِنْسَف [1] . فغاظ سليمانَ وكَلَح في وجهه ، وقال لنصيب : قُم فأنشدْ مولاك . وَيلك ! فقام نصيب فأنشده قوله :

أقول لِرَكْبٍ صادِريـن لقيتُهـم
قَفَا ذاتِ أوشالٍ ومولاك قـاربُ
قِفُوا خَبِّروني عـن سليمان إنّني
لمعروفـه من أهـل وَدّانَ طالب
فعاجوا فأثنَوا بالذي أنت أهلُـه
ولو سكتُوا أثنت عليك الحقائـب
وقالوا عهِدنـاهُ وكـلَّ عَشيّةٍ
بأبوابه من طالب العُرفِ راكـبْ
هو البَدْرُ والناسُ الكواكبُ حولَه
ولا تُشبه البدرَ المُضِيء الكواكبُ [2]

فقال له سليمان : أحسنت والله يا نُصَيب ! وأمر له بجائزة . ولم يصنع ذلك بالفرزدق . فقال الفرزدق وقد خرج من عنده :

وخيرُ الشعر أكرمُه رجـالاً وشرُّ الشِعر مـا قال العَبيدُ

قال أيّوب :

دخل النصيب على عمر بن عبد العزيز ، رحمة الله عليه ، بعدما وَلي الخلافة ، فقال له : إيه يا أسودُ ! أنت الذي تُشَهِّر النّساء بنَسيبك !

(١) المنسف : الغربال ، ووعاء ينفض به الحب .
(٢) قفا ذات أوشال : وراءها ، والوشل : الماء القليل . القارب : طالب الماء ليلا . الحقائب ج حقيبة : كل ما شد في مؤخر الرحل .

فقال : إنّي قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين ، وعاهدت الله عزّ وجلّ ألاّ أقول نسيباً ، وشهد له بذلك من حَضر وأثنَوا عليه خيراً . فقال : أمّا إذ كان الأمر هكذا فسَلْ حاجتك . فقال : بُنَيّاتٌ لي نفضتُ عليهنّ سَوادي فكَسَدْنَ ، أرغب بهنّ عن السُّودان ويرغب عنهنّ البِيضانُ . قال : فتريد ماذا ؟ قال تَفرض لهنّ ، ففعل ، قال : ونفقةٌ لطريقي . قال : فأعطاه حليةَ سيفه وكساه ثوبَيه ، وكانا يساويان ثلاثين درهماً .

عن الأصمعيّ قال :

دخل نُصيبٌ على يزيد بن عبد الملك ذاتَ يوم ، فأنشده قصيدةً امتدحه بها ، فطرب لها يزيد واستحسنها ، فقال له : أحسنت يا نُصَيب ، سَلْني ما شئت . فقال : يَدُك يا أمير المؤمنين بالعطاء أبسَطُ من لساني بالمَسْألَة . فأمر به فمُلِئ فمُه جَوهراً ، فلم يزل به غَنِيّاً حتّى مات .

عن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عَمرو بن عثمان بن عفّان عن أبيه قال :

استبطأ هشامُ بن عبد الملك ، حين وَلي الخلافة ، نُصيباً ألاّ يكونَ جاءه وافداً عليه ، مادحاً له ، ووجَد عليه . وكان نصيبٌ مريضاً ، فبلغه ذلك حين بَرَأ ، فقدم عليه وعليه أثر المرض ، وعلى راحلته أثر النَّصَب ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

حلفتُ بمَن حَجّت قريشٌ لبَيته
وأهدت له بُدْناً عليها القلائدُ

لئن كنت طالت غَيبتي عنك إنّني
بمَبلَغ حَوْلي في رضاك لَجاهد

ولكنّني قد طال سُقْمي وأكثرت
عليَّ العِهادَ المُشْفِقاتُ العوائدُ

صريع فِراشٍ لا يزَلن يقلن لي
بنُصحٍ وإشفاقٍ متى أنت قاعد
فلمّا زَجرتُ العيسَ أسرت بحاجتي
إليك وذَلّت للّسانِ القصائدُ
وانّي فلا تَستَبطِني بمودّتي
ونُصحي واشفاقي إليك لَعامِدُ
فلا تُقنِصني حتّى أكونَ بصَرْعة
فيَيأسَ ذو قُربى ويَشمتَ حاسد
أنِلني وقرِّبْني فإنّي بالغٌ
رِضاك بعفوٍ من نَداك وزائدُ
أبِتْ نائماً أمّا فؤادي فهَمُّه
قليلٌ وأما مَسُّ جِلدي فباردُ
وقد كان لي منكم إذا ما لقيتكُم
لَيانٌ ومعروف وللخير قائد
إليك رحلتُ العيس حتّى كأنّها
قِسِيٌّ السُّرى ذُبْلاً بَرَتْها الطّرائدُ
وحتّى هَواديها دقاقٌ وشَكْوُها
صَريفٌ وباقي النِّقْي منها شَرائدُ
وحتى وَنَتْ ذاتُ المِراح فأذْعنت
إليكَ وكلَّ الرّاسماتُ الحَواقدُ (١)

(١) البدن ج بدنة : الناقة أو البقرة التي تنحر بمكة . العهاد . ج عهد : مطر بعد مطر وأراد بها الدموع . العيس : البيض من النوق . لا تستبطني : مخففة من لا تستبطئني . بصرعة : أي حتى يدركني الموت . الليان : الخفض والنعمة . الذبل من القسي : اليابسة ومن الرماح :=

قال : فرقّ له هشامٌ وبكى وقال له : ويحَك يا نُصَيب ! لقد أضررنا بك وبرواحلك . ووصله وأحسن صِلته واحتفل به .

أيّوب بن عَباية قال :

بلَغني أنّ النُّصَيب كان إذا قدم على هشام بن عبد الملك أخلَى له مَجلسه واستنشده مَراثي بني أميّة ، فإذا أنشده بكى وبكى معه . فأنشده يوماً قصيدةً له مدحه بها يقول فيها :

اذا استبق الناسُ العُلا سَبَقْتَهُمُ
يمينُك عَفْواً ثم صَلَّت شِمالُها [1]

فقال له هشام : يا اسودُ ، بلغت غايةَ المدح فسَلْني . فقال : يدك بالعطيّة أجودُ وأبسط من لساني بمسألتك . فقال : هذا والله أحسنُ من الشعر ، وحباه وكساه وأحسن جائزته .

عن ابن الكَلبيّ :

أنّ نُصَيباً مدح عبد الرحمن بن الضحّاك بن قيس الفِهْريّ ، فأمر له بعَشر قلائصَ [2] ، وكتب بها إلى رجلين من الأنصار ، واعتذر إليه وقال له : واللهِ ما أملِك إلاّ رزقي ، وإنّي لأكرهُ أن أبسُط يدي في أموال هؤلاء القوم . فخرج حتّى أتى الأنصاريّين فأعطاهما الكتاب مختوماً ، فقرآه وقالا : قد أمرَ لك بثمان قلائصَ ، ودفعا ذلك إليه . ثم

= الرقيقة . الطرائد ج طريدة : قصبة فيها حزة توضع على المغازل والسهام فتنحت عليها وتبرى بها . الهوادي : الأعناق . شكوها : شكواها . الصريف : صرير الأنياب. النقي: مخ العظم . الشرائد ج شريد : البقية من الشيء . المراح : النشاط . الراسمات : ذوات الرسيم وهو ضرب من السير السريع . الحوافد : المسرعات .

(١) صلت شمالها : جاءت تالية لليمين ، ومنه المصلي وهو من الخيل الذي يصل بعد السابق .

(٢) القلائص ج قلوص : الشابة من الإبل .

عُزِل ووُلّي مكانَه رجلٌ من بني نَصر بن هَوازِن ، فأمر أن يُتَتَبَّع ما أعطى ابنُ الضَحّاك ويُرْتَجَع ، فوُجد باسم نُصيب عشرُ قلائص . فأمر بمطالبته بها ، فقال : والله ما دَفع إليّ إلاّ ثمانيَ قلائص . فقال : والله ما تخرُج من الدّار حتى تُؤدّيَ عشرَ قلائص أو أثمانَها ، فلم يخرُج حتى قُبِض ذلك منه . فلمّا قدِم على هشامٍ سَمَر عنده ليلةً وتذاكروا النَّصْريَّ ، فأنشده قوله فيه :

أفي قلائصَ جُرْبٍ كُنّ من عَمَلٍ
أُرْدَى وتُنْزَعُ من أحشائي الكَبِدُ
ثمانياً كُنّ في أهلي وعِندَهمُ
عَشْرٌ فأيَّ كتابٍ بعدَنا وَجَدُوا
أخانِي أخوا الأنصار فانتقصا
منها فعندَهما الفَقْدُ الذي فقَدُوا
وإنّ عاملك النَصريَّ كلّفني
في غير نائرةٍ دَيْناً له صَعَدُ
أذنبَ غيري ولم أُذنبْ يُكلّفني
أم كيف أُقتَلُ لا عَقْلٌ ولا قَوَدُ (١)

قال : فقال هشام : لا جَرَم والله ، لا يَعمل لي النَّصريُّ عملاً أبداً . فكتب بعَزله عن المدينة .

* عن محمد بن الحسن قال :

دخل نصيب على إبراهيمَ بن هشام فأنشده مديحاً له ، فقال له إبراهيم : ما هذا بشيء ، أين هذا من قول أبي دَهْبَل لصاحبنا ابن الأزرق حيث يقول :

---

(١) النائرة : الحقد والعداوة . الصعد : المشقة . العقل : الدية . القود : قتل القاتل بالمقتول .

إن تَغْدُ من مَنْقَلَيْ نَخْلانَ مُرتحِلاً
يَرحَلْ من اليَمَنِ المعروفُ والجُودُ (١)

قال : فغضب نصيبٌ ونزَع عِمامتَه وبَرَك عليها وقال : لَئن تأتُونا برجالٍ مثل ابن الأزرق نَأْتِكم بمثل مديح أبي دَهْبَلٍ أو أحسنَ ؛ إنّ المديح واللهِ إنّما يكون على قَدر الرِّجال . قال : فأطرق ابن هشام ، وعجبوا من إقدام نصيب عليه ، ومن حِلم ابن هشام وهو غير حَليم .

عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد قال :

دَخل نصيبٌ على إبراهيمَ بن هشام وهو والٍ بالمدينة ، فأنشده قوله :

يا بنَ الهِشامَين لا بيتٌ كبَيْتهما
إذا تسامت إلى أحسابها مُضَرُ (٢)

فقال له إبراهيم : قُم يا أبا محْجَن إلى تلك الراحلة المَرْحُولة فخُذْها برَحْلها . فقام إليها نصيبٌ متباطئاً والناس يقولون : ما رأينا عطيّةً أهنأَ من هذه ولا أكرمَ ولا أعجلَ ولا أجزلَ . فسمعهم نصيب فأقبل عليهم وقال : واللهِ إنّكم قلّما صاحبتم الكِرام ، وما راحلةٌ ورَحْلٌ حتى ترفعوهما فوق قدرهما .

بِرّه بذَويه وصدق ولائه لمواليه

عن العُتْبيّ قال :

دعا النُّصَيبَ مَواليه أن يَستلحِقُوه ، فأبى وقال : واللهِ لأن أكون

(١) المنقل : الطريق في الجبل . نخلان : من نواحي اليمن .
(٢) أراد بالهشامين : هشام بن عبد الملك وهو أبو الممدوح وهشام بن اسماعيل المخزومي ، خال هشام بن عبد الملك وجد الممدوح لأمه .

مولىً لائقاً [1] أحبّ إليّ من أن أكون دَعِيّاً لاحقاً . وقد علمتُ أنكم تريدون بذلك مالي ، ووالله لا أكسِب شيئاً أبداً إلاّ كنتُ أنا وأنتم فيه سواءً كأحدكم ، لا أستأثر عليكم منه بشيءٍ أبداً . قال : وكان كذلك معهم حتى مات ، إذا أصاب شيئاً قسَمه فيهمً ، فكان فيه كأحدهم .

عن أيّوب بن عَبَاية قال :

أصاب نصيبٌ من عبد العزيز بن مَروان معروفاً ، فكتمه ورجعَ إلى المدينة في هيئةٍ بَذّة[2]، فقالوا : لم يُصب بمدحه شيئاً . فمكث مُدّةً ثم ساوم بأمّه فابتاعها وأعتقها، ثم ابتاع أمّ أُمّه بضعف ما ابتاع به أُمّه فأعتقها ، وجاءه ابن خالة له اسمه سُحَيمٌ فسأله أن يُعتِقه ، فقال له : ما معي والله شيءٌ ، ولكنّي إذا خرجت أخرجتك معي ، لعلّ الله أن يُعتقك. فلمّا أراد الخروجَ دفع غُلاماً له إلى مولى سُحَيم يرعى إبله وأخرجه معه ، فسأل في ثمنه فأعطاه وأعتقه . فمرّ به يوماً وهو يَزْفِنُ [3] ويزمُر مع السُّودان ، فأنكر ذلك عليه وزجره ، فقال له : إن كنتَ أعتَقتني لأكونَ كما تُريد فهذا والله ما لا يكونُ أبداً ، وإن كنتَ أعتَقتَني لِتَصِلَ رَحِمي وتَقضيَ حقّي فهذا والله الذي أفعلُه هو الذي أُرِيدُه : أَزفِنُ وأزمُر وأصنع ما شئتُ . فانصرف النُّصَيب وهو يقول :

إنّي أراني لِسُحَيمٍ قائلا ... إنّ سُحَيماً لم يُثَبْني طائلا
نسيتَ إعمالي لك الرّواحلا ... وضربيَ الأبوابَ فيك سائلا
عند الملوك أستثيبُ النائلا ... حتّى إذا آنستَ عِتقاً عاجلا
ولَّيْتَني منك القفا والكاهلا ... أخلُقاً شَكْساً ولوناً حائلا ![4]

---

(١) لائق : لاصق .

(٢) بذة : رثة .

(٣) يزفن : يرقص .

(٤) إعمالي لك الرواحل : ركوبي النوق من أجلك .

حمّادٌ عن أبيه قال : حُدِّثت عن السَّدوسيّ قال :

وقف نُصيبٌ على أبيات فاستسقى ماءً ، فخرجت إليه جاريةٌ بلبنٍ أو ماء فسَقَتْه وقالت : شَبِّبْ بي . فقال : وما اسمُكِ ؟ فقالت : هِندٌ . ونظر إلى جبلٍ وقال : ما اسمُ هذا العَلَم ؟ قالت : قَنا . فأنشأ يقول :

أُحبُّ قَناً من حُبِّ هِندٍ ولم أكـن
أُبالي أَقُرباً زاده اللهُ أم بُعـدا

ألا إنّ بالقِيعانِ من بطن ذي قَنـاً
لنا حاجةً مالت إليه بنـا عَمْـدا

أَرُوني قنـاً أَنظُرْ إليـه فإنّـني
أُحبّ قناً إني رأيت به هندا

قال : فشاعت هــذه الأبيات وخُطبت هذه الجاريةُ من أجلها وأصابت بقول نُصيب فيها خيراً كثيراً .

محمّد بن سلاّم قال :

دخل نصيبٌ على يزيد بن عبد الملك ، فقال له : حدّثني يا نصيب ببعض ما مرّ عليك . فقال : نعم ، يا أمير المؤمنين . عُلِّقتُ جاريةً حمراءَ ، فمكثتْ زماناً تُمنّيني بالأباطيل ، فلمّا ألححتُ عليها قالت : إليك عنّي ، فواللهِ لكأنّك من طَوارق الليل [1] . قلت لها : وأنتِ والله لكأنّك من طوارق النّهار . فقالت : ما أظرفك يا أسودُ ! فغاظني قولُها ، فقلت لها : هل تَدرين ما الظَّرف ؟ إنّما الظّرفُ العقل . ثمّ

(١) طوارق الليل : مصائبه التي تقع على غير توقع .

قالت لي : انصرِفْ حتى أنظُرَ في أمرك . فأرسلت إليها هذه الأبيات :

فإن أكُ حالكاً فالمِسْكُ أحوَى   وما لِسواد جِلدي من دَواءِ
ولي كرمٌ عن الفحشاء نـــاءٍ   كبُعد الأرض عن جوّ السّماء
ومثلي في رجالكــم قليـــلٌ   ومِثلُكِ ليس يُعدَمُ في النّساء
فإن تَرْضَيْ فرُدّي قولَ راضٍ   وإن تأبَيْ فنحن على السَّواءِ [1]

قال : فلمّا قرأت الشعـــر قالت : المالُ والشِعر يأتيان على غيرهما ، فتزوّجَتْني .

عبد الرحمن بن عبد الله الزُّهريّ :

أنّ نصيباً كان ربّما قدم الشام فيطرحُ في حِجْر أُمّ بَكر الخُزاعيّة أربعمَائةِ دينارٍ ، وأنّ عبد الملك بن مروان ظهر على تعلّقه بها ونسيبه فيها ، فنهاه عن ذلك حتّى كفّ .

عن العُتْبيّ قال :

دخل نصيب على عبد العزيز بن مروان فقال له عبد العزيز ، وقد طال الحديث بينهما : هل عشِقتَ قطُّ ؟ قال : نعم ، أَمةً لبني مُدْلِج . قال : فكنت تصنع ماذا ؟ قال : كانوا يحرُسونها منّي ، فكنت أقنعَ أن أراها في الطَّريق وأُشيرَ إليها بعيني أو حاجبي ؛ وفيها أقول :

وقفتُ لها كيمـــا تمرَّ لعلّــني   أُخالسُها التَسليمَ إن لم تُسَلّمِ
ولمّا رأتْني والوُشاةَ تحــدّرتْ   مَدامعُها خوفاً ولــم تتكلّمِ

---

(١) أحوى : من الحوة وهي سواد مائل إلى الخضرة .

مَساكينُ أهلُ العِشق ماكنتُ أشترِي جميعَ حياة العاشقين بدِرهَم

فقال عبد العزيز : ويحَك ، فما فعلتَ ؟ قال : بِيعت فأولَدها سيّدُها . قال : فهل في نفسك منها شيء ؟ قال : نعم ، عَقابيلُ[1] أحزانٍ .

عن ابن أبي عُبيدة قال :

أتى نصيبٌ مكّةَ ، فأتى المسجد الحرام ليلاً ، فبينما هو كذلك إذ طلع ثلاثُ نسوةٍ فجلسن قريباً منه ، وجعلن يتحدّثْن ويتذاكرن الشعر والشعراء ، وإذاً هنّ من أفصح النّساء وآدبهنّ . فقالت إحداهنّ : قاتل اللهُ جميلاً حيث يقول :

وبين الصَّفا والمَرْوتَين ذكرتكُم
بمُختلِفٍ ما بين ساعٍ ومُوجِفَ
وعند طَوافي قد ذكرتُكِ ذِكْرةً
هي الموتُ بل كادت على الموت تضعَفُ[2]

فقالت الأخرى : بل قاتل اللهُ كُثَيِّر عَزّة حيث يقول :

طَلعن علينا بين مَروةَ والصَّفـا
يَمُرْنَ على البَطحاء مَوْرَ السحائبِ
فكِدْنَ لَعَمْرُ الله يُحدِثن فِتنـةً
لِمختشعٍ من خَشية الله تائبِ[3]

---

(١) العقابيل : بقايا العشق والعلة والعداوة .

(٢) موجف : مسرع . تضعف : تزيد .

(٣) المور : التردد والاضطراب والتحرك في سرعة .

فقالت الأخرى : قاتل اللهُ ابنَ الزانية نُصيباً حيث يقول :

ألام على ليلَى ولو أستطيعُهـا وحُرمةِ ما بين البَنِيَّةِ والسِّتْرِ
لَمِلتُ على ليلى بنفسي مَيلةً ولوكان في يوم التَّحالُقِ والنَّحْرِ[1]

فقام نصيب إليهنَّ فسلّم عليهنَّ ، فرددْن عليه السلامَ . فقال لهنَّ : إنّي رأيتكنَّ تتحادثن شيئاً عندي منه عِلمٌ . فقلن : ومن أنت ؟ فقال : اسمَعْنَ أولاً . فقلن : هاتِ . فأنشدهنَّ قصيدته التي أوّلها :

ويومَ ذي سَلَمٍ شاقتْكَ نائحـةٌ
وَرقاءُ في فَنَنٍ والرّيحُ تضطربُ

فقلـن له : نسألك بالله وبحقّ هذه البَنِيّة من أنت ؟ فقال : انا ابنُ المظلومة المقذوفة بغير جُرمٍ ، نصيبٌ . فقُمن إليه فسلّمن عليه ورحّبْن به ، واعتذرت إليه القائلةُ وقالت : واللهِ ما أردتُ سُوءاً ، وإنّما حملني الاستحسانُ لقولك على ما سمعتَ . فضحك وجلس إليهنَّ فحادثهنَّ إلى أن انصرفن .

تفضيل امرأة من بني أمية نصيباً على كثير والأحوص

اسماعيلُ بن المختار ، مولى آل طَلحةَ ، وكان شيخاً كبيراً ، قال :

حدّثني النُّصَيب أبو مِحْجَن أنّه خرج هو وكُثيّر والأحوص غِبَّ يوم أمطرت فيه السماءُ ، فقال : هل لكم في أن نركبَ جميعاً فنسير حتى نأتيَ العقيق فنُمتّعَ فيه أبصارَنا ؟ فقالا : نعم . فركبوا أفضل ما

---

(١) البنية : الكعبة المشرفة . التحالق : حلق الشعر ، وهو من شعائر الحج .

يقدِرون عليه من الدَّوابِّ ، ولبسوا أحسنَ ما يقدِرون عليه من الثّياب ، وتنكّروا ثم ساروا حتى أتَوا العَقيق ، فجعلوا يتصفّحُون ويَرون بعض ما يَشتَهُون ، حتى رُفع لهم سوادٌ عظيم فأمُّوه حتى أتَوه ، فإذا وصائفُ ورجالٌ من الموالي ونساءٌ بارزات ، فسألنَهم أن ينزِلوا ، فاستحيَوا أن يُجيبُوهنّ من أوّل وَهْلةٍ ، فقالوا : لا نستطيع أو نمضيَ في حاجةٍ لنا . فحلّفْنَهم أن يرجِعوا إليهنّ . ففعلوا وأتَوهنّ ، فسألنَهم النُزول فنزلوا . ودخلت امرأةٌ من النساء فاستأذنت لهم ، فلم تلبث ان جاءت المرأةُ فقالت : ادخلُوا . فدخَلْنا على امرأةٍ بَرْزةٍ [1] على فُرُشٍ لها ، فرحّبت وحيّت ، وإذا كَراسيُّ موضوعةٌ ، فجلسنا جميعاً في صفٍّ واحد ، كلّ إنسان على كُرسيّ . فقالت : إن أحببتُم أن ندعوَ بصبيٍّ لنا فنُصَيِّحَه ونَعْرُكَ أذُنَه [2] فعَلْنا ، وإن شئتم بَدأنا بالغَداءِ . فقُلنا : بل تدعين بالصّبيّ ولن يفوتَنا الغَداء . فأومأت بيدها إلى بعض الخدم ، فلم يكن إلاّ كَلا ولا [3] حتى جاءت جاريةٌ جميلة قد سُترت بمُطْرَفٍ ، فأمسكوه عليها حتى ذهب بُهْرُها [4] ، ثم كُشف عنها واذا جاريةٌ ذاتُ جمالٍ قريبةٌ من جمال مَولاتها ، فرحّبت بهم وحَيَّتْهم . فقالت لها مولاتها : خُذي ، ويحَك ، من قول النُصيب ، عافى الله أبا مِحجن :

ألا هل من البَينِ المُفرِّق مِــن بُدِّ
وهل مثلُ أيّامٍ بمنقَطَعِ السَّعْدِ

---

(١) امرأة برزة : تبرز للرجال وتحادثهم ، وهي أيضاً البارزة المحاسن .

(٢) أرادت بالصبي : العود .

(٣) كلا ولا أي لم يمض إلا وقت قصير .

(٤) البهر : انقطاع النفس من إعياء ، يريد : حتى أطمأنت وسكن روعها .

تمنّيتُ أيّامي أولئـــك والمُـــنى

على عَهد عادٍ ما تُعيدُ وما تُبْدي (١)

فغنّتْه ، فجاءت بـــه كأحسن ما سمعتُه قطّ بأحلى لفظٍ وأشجى صوت . ثم قالت لها : خُذي أيضاً من قول أبي مِحجن ، عافى الله أبا محجن :

أرق المُحبُّ وعـــاده سَهَـدُهُ ... لِطوارق الهـــمّ التي تَرِدُه
وذكرتُ مَن رَقّت له كَبِدي ... وأبى فليس تَرِقُّ لي كَبِدُه
لا قومُه قومي ولا بَلَـــدي ... فنكون حيناً جيرةً ، بَلَدُه
ووجَدت وجْداً لم يكن أحـدٌ ... قبلي من اجل صَبابةٍ يجِده
إلاّ ابنَ عَجْلانَ التي تَبلـتْ ... هِندٌ ففات بنفسه كَمَدُه (٢)

قال : فجاءت بـــه أحسنَ من الأوّل ، فكِدتُ أطير سروراً . ثم قالت لها : وَيحَكِ ، خُذي من قول أبي مِحجن ، عافى اللهُ أبا مِحجن :

فيا لك من ليلٍ تمتّعتُ طُولَـــه ... وهل طائفٌ من نائمٍ مُتَمَتّعُ
نعمْ إنّ ذا شَجْوٍ متى يلقَ شَجْوه ... ولو نائماً مُستعتِبٌ أو مُـــودِّعُ
له حاجةٌ قد طالمـــا قد أسرَّهـــا ... من الناس في صَدرٍ بها يتصدّعُ
تحمّلها طُولَ الزّمان لعلّهـــا ... يكون لها يوماً من الدّهر مَنْزِعُ

---

(١) السعد : موضع قريب من المدينة ، ومنقطعه : حيث ينقطع وينتهي . ما تعيد وما تبدي : لا جدوى منها ولا يرجى منها نفع .

(٢) السهد : الأرق . ابن عجلان : هو عبد الله بن العجلان النهدي ، وكان من الشعراء العشاق في الجاهلية ، تعشق فتاة من قومه اسمها هند ثم أكرهه أهله على طلاقها لأنها كانت عاقراً فندم على طلاقها وظل يذكرها في شعره ومات بسبب ذلك . (انظر ترجمته في الأغاني الجزء ٢٢) ، وقد أخطأ محقق المطبوعة فذكر أن المقصود هو عمرو بن العجلان الهذلي المعروف بعمرو ذي الكلب (انظر ترجمته كذلك في الجزء ٢٢ من الأغاني) .

وقد قُرِعتْ في أمّ عَمْرٍ ولي العصا قديماً كما كانت لذي الحِلم تُقْرَعُ[1]

قال : فجاءت والله بشيءٍ حيّرني وأذهلني طَرَباً لحُسن الغِناء وسروراً باختيارها الغناء في شعري ، وما سمعت فيه من حسن الصَّنعة وجودتها وإحكامها . ثم قالت لها : خُذي أيضاً من قول أبي محجن ، عافى الله أبا محجن :

يأيّها الرَّكْبُ إنّي غيرُ تابِعكم حتى تُلمُّوا وأنتم بي مُلِمُّونا
فما أرى مِثْلَكم ركباً كَشَكْلِكم يدعوهم ذو هوىً ألاّ يَعوجُونا
أم خبّروني عن دائي بعِلمكم وأعلمُ النّاس بالدّاء الأطَبُّونا[2]

قال نصيب : فوالله لقد زُهيتُ بما سمعت زَهْواً خَيَّل إليَّ أنّي من قريش وأنّ الخِلافة لي . ثم قالت : حسبُكِ يا بُنَيَّةُ ، هاتِ الطّعامَ يا غلامُ . فوثب الأحوص وكثيّر وقالا : واللهِ لا نَطعَمُ لك طعاماً ولا نجلِس لك في مَجلس ، فقد أسأتِ عِشْرَتنا واستَخففتِ بنا ، وقدّمتِ شعر هذا على أشعارنا ، واستمعت الغناءَ فيه ، وإنّ في أشعارنا لَما يَفضلُ شعره ، وفيها من الغناء ما هو أحسنُ من هذا . فقالت : على معرفةٍ كلُّ ما كان منّي ، فأيُّ شعر كما أفضلُ من شعره ؟ أقولك يا أحوصُ :

يقرُّ بعَيْني ما يقرّ بعينها وأحسنُ شيءٍ ما به العينُ قرّتِ

أو قولك يا كثيّرُ في عَزَّةَ :

---

(١) وهل طائف ، يريد : وهل يتمتع المرء بخيال محبوبه النائم . المستعتب : طالب العتبى وهي العفو والرضا . البيت الأخير مداره على المثل : « إن العصا قرعت لذي الحلم » ، يضرب لمن إذا نبه إلى أمر عرفه ، يريد أنهم طالما لاموه في حبها .

(٢) الأطبون : الحاذقون في الطب .

وما حسبتُ ضَمْريّــةً جَدَويّــةً

سوى التّيس ذي القرنَين أنّ لها بَعلا [1]

قال : فخرجــا مُغْضَبَين واحتَبستْني ، فتغدّيت عندها ، وأمرت لي بثلثمائة دينارٍ وحُلّتَين وطيبٍ ، ثم دفعت إليّ مائتي دينارٍ وقالت : ادفَعْها إلى صاحبيك ، فإن قَبِلاها وإلاّ فهي لك . فأتيتُهما منازلَهما فأخبرتُهما القِصّة . فأما الأحوص فقَبلها ، وأمّا كُثيّرٌ فلم يَقبَلها وقال : لعن الله صاحبتك وجائزتَها ولعنك معها . فأخذتُها وانصرفتُ . فسألت النصيب : ممّن المرأةُ ؟ فقال : من بني أُميّةَ ، ولا أذكر اسمَها ما حييتُ لأحدٍ .

بصره بنقد الشعر

عن ابن كُناسة قال :

اجتمع النصيب والكميت وذو الرُمّة ، فأنشدهما الكميت :

هل أنت عن طلب الأيفاعِ منقلبُ [2]

حتى بلغ إلى قوله فيها :

أم هــل ظعائنُ بالعَلياء نافعــةٌ

وإن تكامل فيها الأنس والشَّنَبُ [3]

فعقــد نصيب واحدةً . فقال له الكميت : ماذا تُحصي ؟ قال : خطأك ،

---

(١) جدوية : نسبة إلى جدي بن ضمرة بن بكر بن كنانة .
(٢) الأيفاع : الكواعب اللاتي شارفت البلوغ .
(٣) الشنب : عذوبة الأسنان وبردها .

باعدتَ في القول ، ما الأنس من الشَّنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمّة :

لمياءُ في شفتَيها حُوَّةٌ لَعَسُ وفي اللّثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ [1]

ثم أنشدهما قوله :

أبت هذه النفس إلاّ ادّكارا

حتى بلغ إلى قوله :

إذا ما الهَجارسُ غنَّيْنَها تُجاوِبن بالفلَوات الوِبارا [2]

فقال له النصيب : والوِبار لا تسكُن الفلوات . ثم أنشد حتى بلغ منها :

كأنّ الغُطامِطَ من غلْيِها أراجيزُ أسلمَ تهجو غِفارا [3]

فقال له النصيب : ما هجت أسلمُ غِفاراً قطّ ، فانكسر الكميت وأمسك .

سائر أخباره

• عن جُويرية بن أسماءَ قال :

أتى النُصَيب عبد الله بن جَعفر فحمله وأعطاه وكساه . فقال له قائل : يا أبا جعفر ، أعطيت هذا العبدَ الأسود هذه العطايا ؟ فقال : والله لَئن كان أسودَ إنّ ثناءه لأبيض ، وإنّ شعره لعربيّ ، ولقد استحقّ بما قال أكثر ممّا نال . وما ذاك ؟ إنّما هي رواحلُ تُنضَى [4] ، وثيابٌ تَبلى ،

(١) الحوة : سواد إلى خضرة . اللعس : سواد مستحسن في الشفة .
(٢) الهجارس ج هجرس : ولد الثعلب وكل ما يعسعس من السباع ليلا . أوبار ج وبر : دويبة بقدر السنور تدجن في البيوت .
(٣) الغطامط : صوت غليان القدر .
(٤) أنضاه : أهزله .

ودراهم تفنى ، وثناء يبقى ، ومدائح تروى .

* عن المدائنيّ قال :

قيل لنصيب : إنّ ها هنا نِسوةً يُرِدن أن ينظُرن إليك ويسمعن منك شعرك . قال : وما يَصنعن بي ! يَرين جِلدة سوداءَ وشعراً أبيضَ ، ولكن لِيسمَعْن شعري من وراء سِتْر .

* عن حَمّاد عن أبيه قال :

قال مَسلمةُ لنصيب : أنت لا تُحسن الهجاء . فقال : بلى والله ، أتُراني لا أُحسن أن أجعل مكان عافاك الله أخزاك الله ؟! قال : فإنّ فلاناً قد مدحتَه فحرمك فاهجُه . قال : لا والله ما ينبغي أن أهجوَه ، وإنما ينبغي أن أهجوَ نفسي حين مدحتُه . فقال مَسلمة : هذا والله أشدّ من الهجاء .

* * *

٣٠

يَزِيدُ بن مُفَرِّغ

(الأغاني ج ١٨ ص ٢٥٤)

الشاعر

هو يزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغ .. ويُكنى أبا عثمان ، وهو من حِمْيَر — فيما يزعُم أهلُه — وذكر ابن الكلبيّ وأبو عُبَيدة أنّ مُفَرِّغاً كان شَعّاباً بتَبالةَ (١) فادّعى أنّه من حِمْيَر .

عن لَقيط بن بكر المُحاربيّ ، قال : هو يزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغ الحِمْيَريّ ، حليفُ قريش ، ثم حليف آل خالد بن أَسِيد بن أبي العِيص بن أُميّة بن عبد شَمس ...

أبو العَيناء قال : سُئل الأصمعيّ عن شعر تُبَّع وقصّته ومَن وَضَعهما ،

(١) الشعاب : من يصلح الصدوع . تبالة : موضع ببلاد اليمن .

فقال : ابن مفرّغ . وذلك أن يزيد بن معاوية لمّا سيّره الى الشام وتخلّصه من عبّاد بن زياد أنزله الجزيرة . وكان مقيماً برأس العين . وزعم أنه من حميَر ، ووضع سيرة تُبّع وأشعاره ...

أخباره مع آل زياد وأهاجيه فيهم

(عن طائفة من الرواة :)

لمّا ولي سعيد بن عثمان بن عفّان خُراسان ، استصحب يزيد بن ربيعة ابن مُفرّغ ، واجتهد به أن يصحبه ، فأبى عليه وصحب عبّاد بن زياد ، فقال له سعيد بن عثمان : أمّا إذ أبيتَ أن تصحبني وآثرتَ عبّاداً فاحفظْ ما أُوصيك به : إنّ عبّاداً رجلٌ لئيم ، فإيّاك والدّالّة عليه ، وإن دعاك إليها من نفسه ، فإنّها خدعةٌ منه لك عن نفسك . وأقللْ من زيارته فإنّه طَرِفٌ[1] ملولٌ ، ولا تُفاخره وإن فاخرك ، فإنّه لا يحتمل لك ما كنت أحتملُه . ثم دعا سعيدٌ بمال فدفعه الى ابن مُفرّغ وقال : استعن به على سفرك ، فإن صلُح لك مكانُك من عبّاد وإلاّ فمكانك عندي مُمَهّد فائتني . ثم سار سعيدٌ الى خُراسان ، وتخلّف ابن مُفرّغ عنه وخرج مع عبّاد .

فلمّا بلغ عُبيدَ الله بن زياد صحبةُ ابن مُفرّغ أخاه عبّاداً شقّ عليه ، فلمّا سار أخوه عبّاد شيّعه وشيّع الناس معه ، وجعلوا يُودّعونه ويُودّع الخارجون مع عبّاد عبيدَ الله بن زياد . فلمّا أراد عبيد الله أن يودّع أخاه دعا ابنَ مُفرّغ فقال له : إنّك سألت عبّاداً أن تصحبه وأجابك الى ذلك . وقد شقّ عليّ . فقال ابنُ مُفرّغ : ولِمَ . أصلحك اللهُ؟ قال : لأن الشاعر لا يُقنعه من الناس ما يُقنع بعضهم من بعض . لأنّه يظنّ فيجعل الظنّ

(١) الطرف : الملول الذي لا يثبت على صاحب .

يقيناً ، ولا يَعذِر في موضع العُذر ، وانّ عبّاداً يقدَم على أرض حرب فيشتغل بحُروبه وخَراجه عنك ، فلا تعذِره أنت وتُكسِبنا شرّاً وعاراً . فقال له : لستُ كما ظنّ الأمير ، وإنّ لـمَعروفه عندي لشكراً كثيراً ، وإنّ عندي ، إن أغفل أمري ، عُذراً مُمهّداً . قال : لا ، ولكن تَضمَنُ لي إن أبطأ عنك ما تُحبّه ألاّ تَعجَل عليه حتى تكتب اليّ . قال : نعم . قال : امضِ إذاً على الطائر الميمون . قال : فقدم عبّادٌ خُراسان ، واشتغل بحربه وخَراجه ، فاستبطأه ابنُ مُفَرّغ ولم يكتب الى عُبيد الله بن زياد يشكُوه ، كما ضَمِن له ، ولكنه بَسط لسانه فذَمّهُ وهجاه .

وكان عبّادَ عظيمَ اللّحية كأنّها جُوالِق [1] . فسار يزيد بن مُفرِّغ يوماً مع عبّاد ، فدخلت الريح فنَفَشَتْها . فضحك ابن مفرّغ وقال لرجل من لَخْم كان الى جَنبه قوله :

ألا ليت اللِّحَى كانت حَشيشاً فنَعْلِفَها خُيولَ المُسلمينا

فسعى بـه اللَّخْميُّ الى عَبّاد ، فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال : لا يَجْمُل بي عُقوبتُه في هذه الساعة مع الصُّحبة لي ، وما أُؤَخّرها الاّ لأَشفيَ نفسي منه ، لأنّه كان يقوم فيشتُم أبي في عِدّة مَواطن . وبلغ الخبرُ ابنَ مُفرّغ فقال : إنّي لأَجدُ ريحَ الموت من عَبّاد .

ثم دخل عليه فقال له : أيّها الأمير ، إني كنتُ مع سعيد بن عثمان ، وقد بَلَغَك رأيُه فيّ ، ورأيتَ جميلَ أثره عليّ ، وانّي اختَرتُك عليه فلم أحظَ منك بطائلٍ ، وأريد أن تأذَن لي في الرُّجوع ، فلا حاجةَ لي في صُحبتك . فقال له : أمّا اختيارُك إيّاي فإنّي اختَرتُك كما اختَرتَني ، واستصحبتُك حين سألتَني ، وقد أعجَلْتَني عن بُلوغ مَحبّتي فيك ؛ وقد طلبتَ الإذنَ لِترجِعَ الى قومك ، فتَفْضَحَني فيهم ، وأنتَ على الإذن

---

(١) الجوالق : العدل من صوف أو شعر (فارسية) .

قادر بعد أن أقضي حقّك .

فأقام ، وبلغ عبّاداً أنه يسبّه ويذكره وينال من عرضه . وأجرى عبّادٌ الخيل فجاء سابقاً ، فقال ابنُ مفرّغ :

سبق عبّادٌ وصلّت لحيتُه (١)

وطلب عليه العلل ، ودسّ الى قوم كان لهم عليه دَينٌ ، فأمرهم أن يقدموه اليه ، ففعلوا ، فحبسه وأضرّ به ، فبعث اليه أن يبعثي الأراكةَ وبُرْداً ، وكانت الأراكةُ قينةً لابن مفرّغ وبُردٌ غلامَه ، ربّاهما وكان شديد الضّنّ بهما ، فبعث إليه ابنُ مفرّغ مع الرسول: أيبيع المرءُ نفسه أو ولدَه ! فأضرّ به عبّاد حتى أخذهما منه . هذه رواية مسلمة .

وأمّا لقيط وعُمر بن شبّة فإنهما ذكرا أنه باعهما عليه ، فاشتراهما رجلٌ من أهل خراسان . قال لقيط : فلمّا دخلا منزله قال له بُرْد وكان داهيةً أديباً : أتدري ما اشتريت؟ قال : نعم ، اشتريتك وهذه الجارية . قال : لا والله ما اشتريتَ إلاّ العارَ والدّمار والفضيحة أبداً ما حييتَ . فجزع الرجلُ وقال له : كيف ذلك ، ويلك ! قال : نحن ليزيد بن ربيعة ابن مفرّغ ، والله ما أصاره الى هذه الحال إلاّ لسانُه وشرُّه ، أفتراه يهجو ابنَ زياد — وهو أميرُ خراسان ، وأخوه أميرُ العراقين ، وعمُّه الخليفة (٢) في أن استبطأه ويُمسكُ عنك ؟ وقد ابتعتني وابتعتَ هذه الجارية وهي نفسُه التي بين جنبيه ! والله ما أرى أحداً أدخل بيته أشأمَ على نفسه وأهله ممّا أدخلته منزلك. فقال : فاشهدْ أنك وإيّاها له ، فإن شئتما أن تمضيا إليه فامضيا ، على أنّي أخاف على نفسي إن بلغ ذلك ابنَ زياد ؛ وان شئتما أن تكونا له عندي فافعلا . قال : فاكتبُ إليه بذلك .

(١) صلت : جاءت تالية بعد السابق .

(٢) كان معاوية بن أبي سفيان قد استلحق زياداً بنسبه وادعى أنه أخوه .

فكتب الرجل الى ابن مُفرّغ في الحَبس بما فعَله ، فكتب إليه يشكُر فِعله، وسأله أن يكونا عنده حتى يُفرِّجَ اللهُ عنه .

قال : وقال عَبّاد لحاجبه : ما أرى هذا — يعني ابن مُفرّغ — يُبالي بالمُقام في الحبس . فبِعْ فرسه وسلاحَه وأثاثه واقسِمْ ثمنَها بين غُرَمائه. ففعل ذلك وقَسم الثمن بينهم ، وبقيت عليه بقيّةٌ حبَسه بها . فقال ابن مفرّغ يذكر غلامَه بُرْداً وجاريته الأراكة وبيعَهما :

شريتُ بُرْداً ولو مُلِكتُ صَفْقَتَه
لما تَطَلّبت في بيعٍ له رَشَدا
لولا الدَعيُّ ولولا ما تعرّض لي
من الحوادث ما فارقتُه أبَدا
يا بُردُ ما مَسّنا دَهرٌ أضرَّ بنا
من قَبل هذا ولا بِعْنا له وَلَدا
أمّا الأَراكُ فكانت من مَحارِمنا
عيشاً لذيذاً وكانت جَنّةً رغَدا
كانت لنا جَنّةً كنّا نعيش بها
نَغْنَى بها إن خشِينا الأَزْلَ والنَّكَدا
يا ليتني قبلَ ما ناب الزّمانُ به
أهلي لقيت على عُدوانِه الأسَدا
قد خاننا زَمَنٌ لم نخشَ عَثْرتَه
مَن يأمَنُ اليومَ أم من ذا يعيش غدا
لامتني النفسُ في بُردٍ فقلت لها
لا تَهلِكي إثرَ بُردٍ هكذا كَمَدا

كم من نعيمٍ أصَبنا من لَذاذتـــه

قُلنا له إذ تَولّى ليتَه خَلَدا (١)

قالوا : وعلمُ ابن مفرّغ أنه إن أقام على ذمّ عبّاد وهجائه وهو في محبسه زاد نفسه شرّاً ، فكان يقول للناس إذا سألوه عن حبسه ما سَبَبُه : رجلٌ أدَّبه أميرُه ليُقَوِّمَ من أَوَده أو يكُفَّ من غَرْبه (٣) ، وهذا لَعَمري خيرٌ من جرِّ الأميرِ ذيلَه على مداهنة لصاحبه . فلمّا بلغ عبّاداً قولُه رقّ له وأخرجه من السجن . فهرب حتّى أتى البصرة ، ثم خرج منها إلى الشأم وجعل ينتقل في مُدنها هارباً ويهجو زياداً وولَده .

قالوا : فلم يزل ينتقل في قرى الشام ونواحيها ويهجو بني زياد ، وأشعارُه فيهم تَرِد البصرة وتنتشر وتبلُغهم ، فكتب عبيد الله بن زياد إلى معاوية — وقال الآخرون إنه كتب إلى يزيد ، وهو الصحيح — يقول له : إن ابن مفرّغ هجا زياداً وبني زياد بما هتكَه في قبره ، وفضح بَنيه طُولَ الدّهر ، وتعدّى ذلك إلى أبي سفيان ، فقذفه بالزنا وسبَّ وَلَده ، فهرب من خُراسان إلى البصرة ، وطلبتُه حتى لَفَظَتْه الأرضُ ، فلجأ إلى الشأم يتمضَّغ لُحومَنا ويهتِك أعراضَنا ، وقد بعثتُ إليك بما هَجانا به لِتنتصِفَ لنا منه . ثم بعث بجميع ما قاله ابنُ مَفَرّغ فيهم .

فأمر يزيد بطلبه ، فجعل ينتقل من بلدٍ إلى بلد ، فإذا شاع خبرُه انتقل ، حتّى لَفَظته الشأمُ ، فأتى البصرة ونزل على الأحنف بن قيس ، فالتجأ به واستجار ، فقال له الأحنف : إنّي لا أُجيرُ على ابن سُمَيّةَ (١) فأُعزَل ، وإنما يُجير الرجلُ على عشيرته ، فأمّا على سلطانه فلا ، فإن

---

(١) الدعي : أراد عباد بن زياد ، والشاعر يطعن في نسبة آل زياد إلى بني أمية .

(٢) الأزل : الضيق والشدة .

(٣) الأود : الأعوجاج . كف من غربه : من حدته وعنفوانه .

(٤) ابن سمية : هو عبيد الله بن زياد .

شئت أجرتُكَ من بني سعد وشُعرائهم ، فلا يُريبك أحدٌ منهم . فقال له ابن مفرّغ : ... بني سَعد ! وما عساهم أن يقولوا فيَّ ، هذا ما لا حاجةَ لي فيه .

ثم أتى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسِيد فاستجار به ، فأبى أن يُجيره . فأتى عُمرَ بن عبيد الله بن مَعمر فوعده ، وأتى طَلحة الطّلَحات فوعده ، وأتى المنذر بن الجارود العَبديَّ فأجاره . وكانت بَحْريّةُ بنت المنذر تحت عبيد الله ، وكان المنذر من أكرم الناس عليه ، فاغترّ بذلك وأدلّ بموضعه منه . وطَلبه عبيد الله ، وقد بلغه ورودُه البصرة ، فقيل له : أجاره المنذر بن الجارُود ، فبعث عبيد الله إلى المنذر ، فأتاه . فلمّا دخل عليه بعث عبيد الله بالشُرَط ، فكبسوا داره وأتَوه بابنُ مفرّغ ، فلم يشعرُ المنذر إلاّ بابن مُفرّغ قد أُقيم على رأسه ، فقام المنذر إلى عبيد الله فكلّمه فيه فقال : أُذَكِّرُكَ اللهَ ، أيّها الأمير ، أن تَخفِرَ جِواري فإنّي قد أجرتُه . فقال عبيد الله : يا مُنذِرُ لِيَمْدَحَنّ أباك ولِيَمدحَنّك ، ولقد هجاني وهجا أبي ، ثم تُجيرُه عليَّ ! لا ها الله [1] لا يكونُ ذلك أبداً ولا أغفِرُها له . فغضب المنذرُ ، فقال له : لعلّك تُدِلُّ بكَرِيمتك عندي ، إن شئتَ والله لأُبِيَنّنّها بتَطليق البتّة . فخرج المنذر من عنده ، وأقبل عبيد الله على ابن مُفرّغ فقال له : بِئسما صحبتَ بــه عَبّاداً . قال : بئسما صَحِبني به عبّادٌ . اختَرتُه على سعيد وأنفقتُ على صُحبته كلّ ما أفدتُه وكلّ ما أَمْلِكُه ، وظننت أنه لا يخلُو من عقل زياد ، وحِلم معاوية ، وسَماحة قريش ، فعَدَل عن ظنّي كُلّه ، ثم عاملني بكلّ قبيح ، وتناولني بكلّ مكروه ، من حَبْسٍ وغُرْمٍ وشَتم وضرب ، فكنت كمن شامَ بَرقاً خُلّباً في سَحابِ جَهامٍ [2] ، فأراق ماءه طمعاً

---

(١) لاها الله : أي لا والله .

(٢) برق خلب : لا مطر معه . وسحاب جهام : غير ممطر .

فيه فمات عطشاً ، وما هربت من أخيك إلاّ لما خفتُ من أن يجريَ فيّ إلى ما يندم عليه ، وقد صِرت الآنَ في يدك ، فشأنك فاصنَعْ بي ما أحببتَ . فأمر بحبسه ، وكتب إلى يزيد بن معاويه يسألُه أن يأذَنَ له في قتله ، فكتب إليه : إيّاك وقتلَه ، ولكن عاقِبْه بما يُنَكِّلُه ويشُدُّ سُلطانَك ، ولا تَبلُغْ نفسَه ، فإنّ له عشيرةً هي جُندي وبِطانتي ، ولا ترضَى بقَتله منّي ، ولا تَقنعُ إلاّ بالقَوَد منك ، فاحذَرْ ذلك ، واعلَمْ أنه الجِدُّ منهم ومنّي ، وأنّك مُرتَهَنٌ بنفسه ، ولك في دُون تَلَفها مَنْدُوحةٌ تشفي من الغيظ . فورد الكتاب على عبيد الله بن زياد ، فأمر بابن مفرّغ فسُقي نبيذاً حُلواً قد خُلط معه الشُّبْرُمُ (١) ، فأسهل بطنُه ، وطيف به وهو في تلك الحال ، وقُرن بهِرّةٍ وخِنزيرة، فجعل يَسْلَحُ والصِّبيان يتبعونه ... فجعل يُطاف به في أسواق البصرة والصّبيان خلفه يصيحون به . وألحّ عليه ما يخرُج منه حتّى أضعفه فسقَط ، فعرَف ابن زياد ذلك فقيل إنّه لما به لا نأمَن أن يموت ، فأمر به أن يُغسَل . ففعلوا ذلك به . فلمّا اغتسل قال :

يَغسِلِ الماءُ ما فعلتَ وقولي راسخٌ منك في العِظام البوالي

فردّه عبيد الله إلى الحبس ، وأمر أن يُسلَم مِحجَماً وقدَّمُوا له عُلوجاً وأمر بأن يَحجِمهَم ، فكان يأخذ المَشارطَ فيَقطع بها رقابَهم ، فيتوارَون منه . فتركه وردّه إلى مَحبِسه ، وقامت الشُرَط على رأسه تصُبّ عليه السِّياط ويقولون له : احجُمْهم ، فقال :

وما كنت حجّاماً ولكن أحلّني بمَنزلة الحجّامَ نأيي عن الأهلِ

وقال ابن مفرّغ يذكر جِوار المنذر بن الجارود ايّاه وأمانه :

---

(١) الشبرم : نبات مسهل له حب كالعدس .

تركتُ قُرَيشاً أن أجاوِرَ فيهم
وجاورتُ عبدَ القيس أهلَ المُشَقَّرِ[1]

(الأبيات ..)

وقال أيضاً في ذلك :

أصبحت لا من بني قيسٍ فتنصُرَني
قيسُ العِراق ولم تَغضبْ لنا مُضَرُ
ولم تَكَلَّمْ قريشٌ في حَليفهم
إذ غاب ناصرُه بالشأم واحتَضَروا

(الأبيات ...)

وقال أيضاً يذكر ذلك وما فعل به ابنُ زياد :

دار سَلمى بالخَبْت ذي الأطلال
كيف نومُ الأسير في الأغلال

* * *

أيُّها المالكُ المُرَهِّبُ بالقَتل بلغتَ النَّكالَ كلَّ النَّكالِ
فاخشَ ناراً تَشوي الوجوهَ ويوماً
يَقذفُ الناسَ بالدَّواهي الثِّقال
قد تعدّيت في القِصاص وأدركتَ —
ذُحولاً لِمَعْشَرٍ أقتال
وكسرت السِنَّ الصَّحيحةَ مِنّي
لا تُذِلَّنْ فمنكَرٌ إذلالي

---

(١) المشقر : حصن لعبد القيس عظيم بالبحرين .

وقرنتم مع الخنازير هِـــرّاً
ويميـــني مَغلولــةٌ وشِمـــالي
وكلابــاً ينهشْنَني مـــن ورائـــي
عجِب الناسُ ما لَهـــنّ ومالـــي
وأطلتُم مع العُقوبـــة سِجنـــاً
فكم السِّجنُ أو مـــتى إرسالـــي
يغسِلُ المـــاءُ ما صنعتَ وقـــولي
راسخٌ منك في العظام البوالـــي (١)

(الأبيات ...)

قال : واتّصل هجاؤه زياداً وولده وهو في الحبس ، فردّه عُبيد الله إلى أخيه عَبّاد بسِجستان ، ووكّل به رجالاً ووَجّههم معه . وكان لمّا هرب من عَبّاد يهجوه ويكتب كلّ ما هجاه به على حِيطان الخانات . وأمر عبيد الله الموكّلين به أن يأخذوه بمَحو ما كتبه على الحيطان بأظافيره ، وأمرهم ألاّ يتركوه يصلّي إلاّ إلى قِبلة النصارى إلى المشرق . فكانوا اذا دخلوا بعض الخانات التي نَزَلها فرأوا فيها شيئاً ممّا كتبه من الهجاء أخذوه بأن يمحُوَه بأظافره ، فكان يفعل ذلك ويحُكُّه حتى ذهبت أظافرُه ، فكان يمحوه بعظام أصابعه ودمه ، حتى سلّموه إلى عَبّاد ، فحبسه وضيّق عليه ...

فلمّا طال مُقام ابن مفرّغ في السجن استأجر رسولاً إلى دمشق وقال له : إذا كان يومُ الجمعة فقِف على درج جامع دمشق ، ثم اقرأ هذين البيتين بأرفع ما يمكنك من صوتك ، وكتبهما في رُقعة ، وهما :

---

(١) الذحل : الثأر والعداوة . أقتال ج قتل (بالكسر) : المقاتل الشجاع .

أبلِغْ لَديك بني قحطانَ قاطبةً
عَضّت ... أبيها سادةُ اليمنِ
أضحى دَعِيُّ زيادٍ فَقْعُ قَرْقَرةٍ
يا للعجائب يلهُو بابن ذي يَزَنِ [1]

ففعل الرسول ما أمره به ، فحميت اليمانية وغضبوا له ، ودخلوا على معاوية [2] فسألوه فيه، فدفعهم عنه، فقاموا غِضاباً، وعرَف معاويةُ ذلك في وجوههم فردّهم ووهبه لهم ، ووجّه رجلاً من بني أسد يقال له خَمخام – ويقال جِهْنام – بريداً إلى عبّادٍ ، وكتب له عهداً ، وأمره بأن يَبدأ بالحَبس فيُخرج ابن مُفرِّغ منه ويُطلقه قبل أن يعلم عَبّاد فيمَ قدِم فيغتاله . ففعل ذلك به ، فلمّا خرج من الحبس قُرِّبت إليه بغلةٌ من من بغال البريد فركبها ، فلمّا استوى على ظهرها قال :

عَدَسْ ما لعبّادٍ عليكِ إمارةٌ
نجوتِ وهذا تَحملين طَليقُ
فإنّ الذي نجّى من الكَرْب بعدَما
تلاحمَ في دربٍ عليكِ مَضيقُ
أتاك بخَمخامٍ فأنجاكِ فالحَقي
بأرضِك لا تُحبَسْ عليكِ طريقُ
لَعَمري لقد أنجاكَ من هُوّة الرّدى
إمامٌ وحَبلٌ للأنام وثيقُ

---

(١) يقال للذليل : هو أذل من فقع بقرقرة ، أي أذل من كماة في أرض منخفضة لأنه يداس بالأرجل .

(٢) يلاحظ التناقض في أخبار ابن مفرغ ، ففي أول الخبر أن سجنه كان في زمن ولاية يزيد وهنا يذكر أن ذلك كان في ولاية معاوية . وفي تاريخ الطبري (٣١٧/٥) ان ذلك كان في ولاية معاوية ، سنة ٥٩ هـ .

سأشكرُ ما أوليتَ من حُسن نِعمةٍ
ومثلي بشُكر المُنعِمين حقيـــقُ(١)

فلمّا أُدخل على معاوية بكى وقال : ركب مني ما لم يُركَبْ من مُسلمٍ قطّ ، على غير حدثٍ في الإسلام ولا خَلع يدٍ من طاعةٍ ولا جُرمٍ . فقال : ألست القائل :

ألا أبلغْ معاويـــةَ بن حـــربٍ ... مُغَلْغَلَةً من الرجـــل اليَماني
أتغضب أن يُقال أبوك عَـــفٌّ ... وترضى أن يُقال أبوك زاني
فأشهَدُ أنّ رِحْمَكَ من زيادٍ ... كرِحْم الفيل من ولد الأتانِ
وأشهد أنّهـــا ولدتْ زيـــاداً ... وصَخْرٌ من سُمَيّةَ غيرُ دان(٢)

فقال : لا والـــذي عَظّم حقّك يا أمير المؤمنين ما قُلته ، ولقد بلغني أنّ عبد الرحمن بن الحكم قاله ونسبه إليّ . قال : أفلم تقُل :

شهدتُ بأنّ أمّك لـــم تُباشرْ ... أبا سفيانَ واضعـــةَ القِناعِ
ولكن كـــان أمرٌ فيـــه لبْسٌ ... على وَجَلٍ شديـــدٍ وارتياع

أو لستَ القائل :

انّ زياداً ونافعـــاً وأبـــا ... بَكْرةَ عندي من أعجب العَجَبِ
إنّ رجـــالاً ثلاثةً خُلِقـــوا ... في رَحْم أنثى ما كُلُّهم لأبِ
ذا قُرَشيٌّ كمـــا يقـــول وذا ... مولىً وهذا بِزَعْمه عربي(٣)

(١) عدس : كلمة زجر للبغال .
(٢) مغلغلة : رسالة تنقل من مكان إلى مكان . سمية : هي أم زياد ، يشير في هذه الأبيات إلى استلحاق معاوية زياداً بنسبه وادعائه أن أباه أبا سفيان كان قدم الطائف واتصل بسمية أم زياد وأنجب منها زياداً .
(٣) نافع وأبو بكرة : هما أخوا زياد .

في أشعار كثيرة قلتَها في هجاء زيادٍ وبَنيه ، اذهَبْ فقد عفوتُ عن جُرمك ، ولو إيّانا تُعامل لم يكن شيءٌ ممّا كان ، فاسكُنْ أيّ أرضٍ شئت . فاختار المَوصل فنَزلها ، ثم ارتاح إلى البصرة فقَدمها ، فدخل على عبيد الله بن زياد واعتذر اليه وسأله الصَّفح والأمان ، فأمّنه وأقام بها مُدّةً . ثم دخل عليه بعد أن أمّنه فقال : أصلح الله الأميرَ ، إنّي قد ظننتُ أنّ نفسَك لا تَطيبُ لي بخير أبداً ، ولي أعداءٌ لا آمَن سعيَهم عليَّ بالباطل ، وقد رأيتُ أن أتباعَد . فقال له : إلى أين شئتَ ؟ فقال : كَرْمان . فكتب له إلى شَريك بن الأعور ، وهو عليها ، بجائزةٍ وقَطيعةٍ وكُسوةٍ ، فشخَص فأقام بها حتى هَرَب عبيد الله من البصرة ، فعاد إليها ...

(ثمة رواية أخرى في إنقاذ ابن مفرّغ من سجن عبّاد)

فقال يذكر هَرَب عبيد الله وتركه أمّه بقوله :

أعبيدُ هَلاّ كنت أوّلَ فارسٍ ... يوم الهِياج دعا بحَتْفك داعِ
أسلمت أمّك والرّماحُ تَنُوشُها ... يا ليتني لك ليلةَ الإفزاع
إذ تستغيثُ وما لنفسك مانعٌ ... عبدٌ تردّدُه بدار ضَياعِ

* * *

لابنُ الزُّبَير غَداةَ يَذمُر مُنذِراً ... أولَى بغاية كلّ يوم وِقاعِ
وأحقُّ بالصَّبر الجميل من امرىءٍ ... كَزٍّ أناملُه قصيرِ الباع
جَعْدِ اليدَين عن السَّماحة والنَّدَى ... وعن الضَّريبةِ فاحشٍ مَنّاعِ
كم يا عُبيدَ الله عندَك من دمٍ ... يَسعى لِيُدركَه بقتلك ساعِ
ومَعاشرٍ أنُفٍ أبحتَ حَريمَهم ... فرّقتَهم من بعد طول جِماع

اذكُرْ حُسَيناً وابنَ عُروَةَ هانئاً وابنَيْ عَقيلٍ فارسَ المِرباع [1]

عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد قال :

قال لي عبيد الله بن زياد : ما هُجيت بشيء أشدَّ عليَّ من قول ابن مفرّغ :

فَكّرٌ ففي ذاك ان فَكَّرتَ مُعْتَبَرٌ

هل نِلتَ مَكرُمةً إلاّ بتأميرِ

عاشت سُميَّةُ ما تَدري وقد عَمِرت

أنّ ابنَها من قريشٍ في الجماهير

قال أبو عبيدة :

كان زيادٌ يزعُم أن أمّه سُمَيّةَ بنت الأعور من بني عبد شمس ابن زيد مناة بن تميم ، فقال ابنُ مفرّغ يردّ ذلك عليه :

فأقسم ما زيادٌ من قريشٍ ولا كانت سُمَيّةُ من تميم

ولكن نسلُ عبدٍ من بَغِيٍّ عريق الأصل في النسب اللئيمِ

عن سَيف قال :

لمّا قُتل عبيد الله بن زياد يومَ الزّاب — قتله أصحاب المختار بن أبي عُبَيد ... — قال ابنُ مُفرّغ يهجوه :

إنّ الذي عاش ختّاراً بذِمّتـه

وعاش عبداً قتيلُ الله بالزّابِ

---

(١) ذمره : حصنه ولامه . كز الأنامل : بخيل ، ومثلها : جعد اليدين . هانيء بن عروة المرادي ومسلم بن عقيل بن أبي طالب ، ابن عم الحسين ، قتلهما ابن زياد قبيل مقدم الحسين من الحجاز إلى العراق .

العَبْد للعَبد لا أصل ولا طَرَف
ألوتْ به ذاتُ أظفارٍ وأنيابِ
انّ المنايا إذا ما زُرْنَ طاغيةً
هتَكْنَ عنه ستُوراً بين أبواب
هَلاّ جُموع نزارٍ إذ لَقِيتَهم
كنتَ امرءاً من قريش غيرَ مُرتاب
لا أنت زاحمتَ عن مُلْكٍ فتَمنعَه
ولا مَدَدت إلى قومٍ بأسبابِ
ما شُقّ جَيبٌ ولا ناحتك نائحةٌ
ولا بكتك جِيادٌ عند أسلابِ
لا يترك اللهُ أنفاً تعطِسُون بها
بني العَبيد شُهوداً غيرَ غُيّاب
أقولُ بُعداً وسُحقاً عند مَصرعه
لابن الخبيثة وابن الكَوْدَن الكابي (١)

تشبيبه بأناهيد ومديحه عبيد الله بن أبي بكرة

عن أبي عبيدة قال :

كان ابن مفرّغ يهوى أناهيد بنت الأعْنَق ، وكان الأعنق دِهْقاناً من الأهواز ، له ما بين الأهواز وسُرَّق ومَناذر والسُّوس ، وكان لها أخوات يُقال لهنّ أسماءُ والحُمانة وأخرى ... فكان يذكرهنّ جميعاً في شعره . فمن ذلك قوله في صاحبته أناهيد من أبيات :

---

(١) الختار : الغادر .الكودن : البرذون الهجين . الكابي : المنكب على وجهه .

سِيري أناهيد بالعَبْرَيْــن آمنــةً قد سَلّم اللهُ من قومٍ بهم طَمَع

(الأبيات ...)

عن الهيثم بن عديّ وأبي عبيدة قالا :

لمّا فَصَل ابن مفرّغ من عند معاوية ، نزل بالمَوصل على أخواله من آل ذي العُشراء من حِمْير ... فزوّجوه امرأةً منهم ... فلمّا كان اليوم الذي يكون البِناء في ليلته خرَج يتصيّد ومعه غُلامه بُرد ، فإذا هو بدِهْقان [1] على حِمارٍ يبيع عِطراً وأدهاناً ، فقال له ابن مفرّغ : من أين أقبلتَ ؟ قال : من الأهواز . قال : ويحَك ! كيف خلّفْتَ المَسْرُقانَ [2] وبَرْد مائه ؟ قال : على حاله . قال : ما فعلت دِهْقانةٌ يقال لها أناهيدُ بنت أعنَق ؟ قال : أصديقة ابن مُفرّغ ؟ قال : نعم . قال : ما تجِفّ جُفونُها من البكاء عليه . فقال لغلامه : أيْ بُرْدُ ، أما تسمع ! قال : بلى . قال : هو بالرّحمن كافرٌ إن لم يكن هذا وجهي [3] إليها . فقال له بُرد : أكرمك القومُ وقاموا دُونك وزوّجوك كريمتهم ، ثم تصنع هذا بهم ! وتَقَدَمُ على ابن زياد بعد خلاصك منه من غير أمره ولا عهدٍ منه ولا عَقد ! أبْقِ أيّها الرجلُ على نفسك وأقِمْ بمَوضعك وابنِ بأهلك وانظُر في أمرك ، فإن جَدّ عَزْمُك كنتَ حينئذ وما تختارُه . قال : دَعْ عنك هذا ، هو بالرحمن كافرٌ إن عَدَل عن الأهواز أو عرّج على شيءٍ غيرها . ومضى لوجهه من غير أن يُعلِم أهلَه ، وقال قصيدته :

سما بَرقُ الجُمانــة فاستطــارا لعلّ البرقَ ذاك يَحُورَ نــارا

---

(١) الدهقان : التاجر من العجم . ورئيس الإقليم

(٢) مسرقان : نهر بخوزستان عليه عدة قرى .

(٣) وجهي : طريقي ومسيري .

قعدت له العِشاءَ فهاج شوقي
وذكّرني المنازلَ والدّيارا

ديارٌ للجُمانة مُقفراتٌ
بَلِين وهِجْن للقلب ادّكارا

فلم أملِك دُموع العين منّي
ولا النفسَ التي جاشت مِرارا

بسُرَّقَ فالقرى من صَهرتاجٍ
فدير الرّاهب الطللَ القِفارا

فقلت لصاحبي عرِّج قليلاً
نُذاكرْ شوقَنا الدُّرُسَ البَوارا

بآية ما غدَوا وهمُ جميعٌ
فكاد الصبُّ يَنتحرُ انتحارا

فقال بكَوا لفَقدك منذ حينٍ
زماناً ثم إنّ الحيَّ سارا

بدِجلةَ فاستمرّ بهم سَفينٌ
يَشُقُّ صدورُها اللُّجَجَ الغِمارا

كأنْ لم أغنَ في العَرَصات منها
ولم أذعَرْ بقاعَتها صُوارا

ولم أسمع غناءً من خليلٍ
وصوتَ مُقرَطَقٍ خَلَعَ العِذارا(١)

قال : فقَدم البصرة ، فذُكر لعبيد الله بن زياد مَقدمُه فلم يَعرِض له ، وأرسَل إليه أن أقِم آمناً . فأقام بالبصرة أشهراً يختلف من البصرة إلى الأهواز ، فيزور أناهيد ويُقيم عندها .

ثم أتى عبيد الله بن زياد فقال له : إني امرؤٌ لي أعداء ، ولست آمَن بعضهم أن يقول شيئاً على لساني يُحفظ الأمير عليَّ ، وأحبّ أن يأذن لي أن أتنحّى عنه . فقال له : حُلّ حيث شئت . فخرج حتى قدم على شَريك ابن الأعور الحارثيّ ، وهو يومئذٍ عامل عبيد الله بن زياد على فارس وكَرمان ، فأعطاه ثلاثين ألف درهم ، فقدِم بها الأهواز فأعطاها أناهيد .

عن عَوانة :

أنّ عبيد الله بن أبي بَكْرة (٢) كتب إلى يزيد بن مُفرّغ : إنّي قد

---

(١) يحور : يرجع . صهرتاج : موضع بالأهواز . غني بالمكان : نزل به . الصوار : القطيع من البقر . المقرطق : لابس القرطق ، وهو قباء ذو طاق واحد (فارسية معربة) .

(٢) هو ابن أخي زياد لأبيه .

توجّهت إلى سجستان فالحقّ بي . فلعلّك إن قدمت عليّ ألاّ تندمَ ولا يُذَمّ رأيُك . فتجهّز ابن مفرّغ وخرج حتّى قدم سجستان مُمسياً ، فدخل عليه فشغله بالحديث ، وأمر له سرّاً بمنزل وفَرْشٍ وخَدَم ، وجعل يُطاوله حتّى علم أنه قد استتمّ له ما أمر له به . ثم صرَفه إلى المنزل الذي قد هُيِّئ له ، ثم دعا به في اليوم الثاني فقال له : يا بنَ مفرّغ ، إنّك قد تجشّمت إليّ شُقّةً بعيدةً ، واتّسع لك الأمل فرحلت إليّ لأقضيَ عنك دينك ولأُغنيَك عن الناس وقلتَ : أبو حاتم بسجستان فمَن لي بالغنى بعده ؟ فقال : والله ما أخطأتَ أيّها الأمير ما كان في نفسي . فقال عبيد الله : أما والله لأفعلنّ ولأقلّنّ لَبثَك عندي ، ولأُحسنَنّ صلتَك . وأمر له بمائة ألف درهم ، ومائة وصيفة ، ومائة نجيبة ، وأمر له بما يُنفقه إلى أن يبلغَ بلده سوى المائة الألف ، وبمَن يكفيه الخدمَةَ من غلمانه وأعوانه ، وقال له : إنّ من خفّة السفر ألاّ تهتمّ بخُفٍّ ولا حافرٍ . وكان مقامُه عنده سبعةَ أيام .

ثم ارتحل وشيّعه عبيد الله إلى قرية على أربعة فراسخَ يُقال لها زالق ، ثم قال له : يا بنَ مفرّغ ، انّه ينبغي للمودّع أن ينصرف . وللمتكلّم أن يسكُتَ ، وأنا مَن قد عرفتَ ، فأبقِ على الأمل وحُسن ظنّك بي ورَجائك فيّ ، وإذا بدا لك أن تعود فعُدْ ، والسلام .

قال : وسار ابن مفرّغ حتى أتى رامَهُرْمُزَ . فنزل بقرية أبْجَر ، فنزلت إليه بنت الأبجر فقالت : يا بن مفرّغ ، لِمن هذا المال ؟ قال : لابنة أعنَقَ دهْقانة الأهواز . واذا رسولُها في القافلة بكتابها : إنّك لو كنتَ على العهد الأوّل لتَعَجّلْت إليّ ولم تُساير ثَقَلك (١) ، ولكن قد علمت أن المال الذي أعطاكه عُبيد الله قد شغَلك عنّي . قال : فأعطى

(١) الثقل : متاع المسافر ومن يرافقه من أهله وحشمه .

رسولها مالاً على أن يقول فيه خيراً ، وقد قال لابنة أبجر في جواب قولها له :

حبّاني عُبيد الله يا بنةَ أبجرٍ
بهذا وهذا للجُمانة أجمعُ
يَقَرُّ بعيني أن أراها وأهلَها
بأفضل حالٍ ذاك مرأى ومَسمعُ
وخبّرتُها قالت لقد حال بعدَنا
فقد جعلت نفسي إليها تَطلّعُ
وقلتُ لها لمّا أتاني رسولُها
وأيُّ رسولٍ لا يَضُرُّ ويَنفعُ
أحبُّك ما دامت بنجدٍ وَشيجةٌ
وما رُفعت يوماً إلى الله إصبعُ
وإنّي مَليءٌ يا جُمانةُ بالهوى
وصِدق الهوى إن كان ذلك يُقنِعُ (١)

قال : فلمّا انتهت رُسُل عُبيد الله بن أبي بَكرة معه إلى الأهواز قالوا له : قد بلّغنا حيث أمرنا . قال : أجل . ثم أمر ابنة أعنَق أن تفتح الباب وقال لها : كلُّ ما دخل دارَك فهو لك .

وأقام بالأهواز ودعا ندماءَ كانوا له من فِتيان العرب ، فلم يبقَ ظريفٌ ولا مُغَنٍ إلاّ أتاه ، واستماحه جماعةٌ قصدوه من أهل البصرة والكوفة والشام فأعطاهم ، ولم يُفارق أناهيدَ ومعه شيءٌ من المال ، وجعل القوم يسألونه عن عبيد الله بن أبي بَكرة وكيف هو وأخلاقُه وجُوده فقال :

(١) الوشيج : شجر تتخذ منه للرماح .

يُسائلني أهلُ العراقِ عن النّـدى فقلت عُبيد الله حِلفُ المكـارمِ
فتىً حاتميٌّ في سِجستان رَحْلُـه وحَسبُكَ جُوداً أن يكون كحاتِمِ
سما لينالَ المَكرُماتِ فنالهـا بشَدّةِ ضِرغامٍ وَبذْلِ الدّراهم
وحِلمٍ إذا ما سَورةُ الحِقد أطلقت حُبا القوم عند الفادح المتفاقـم
وانّ لـه في كل حيٍّ صنيعـةً يُحدِّثُها الرُّكبانُ أهلَ المواسمِ [1]

(الأبيات ...)

قال الهيثم :

كان عمرو بن مُفرّغ ، عمّ يزيد بن ربيعة بن مفرّغ ، رجلاً له جاه وقَدْرٌ عند السُّلطان ، وكان ذا مالٍ وثروة وذا دينٍ وفضلٍ وصَلاحٍ ؛ فكان يُعنّف ابن أخيه في أمر أناهيدَ عشيقته ، ويعذِلُه ويُعيّره بها . فلمّا أكثر عليه أتاه يوماً فقال له : يا عمّ ، جُعلتُ فِداك ، انّ لي بالأهواز حاجةً ، ولي على قومٍ بها نحوٌ من ثلاثين ألف درهم قد خِفتُ أن تَتْوى [2] عليّ ، فإن رأيت أن تتجشّم العناءَ معي إليها حتّى تُطالب لي بحقّي وتُعينني بجاهك على غُرَمائي . وكان عمرو بن مفرّغ قد استخلفه ابنُ عبّاس عليها إذ كان عامل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى آله على البصرة . وكان عاملَ الأهواز حين سأل ابن مفرّغ عمّه أن يخرج معه ميمونُ بن عامر أخو بني قيس بن ثعلبة الذي يُقال لدراهمه اليوم الميمونيّة . فلم يزل ابن مفرّغ بعمّه حتّى أجابه إلى الخروج ، فاستأجر سفينةً وتوجّه إلى الأهواز ، وكتب إلى أناهيد أن : تَهيّئي وتَزيّني بأحسن زينتك واخرُجي إليّ مع جواريكِ فإنّي مُوافيكِ . ومنزلُها يومئذٍ بين سُرّقَ ورامَهُرْمُزَ .

---

(١) الحباء حبوة : ما يحتبى به من ثوب ونحوه .
(٢) تتوى : تذهب وتهلك .

فلمّا نزلوا منزلها خرجت إليهم وجلست معهم في هَيئتها وزيّها وحُليّها وآلتها ، فلمّا رآها عمُّه قال له : قَبّحك الله ! أفهلاّ إذ فعلت ما فعلت كنت عَلِقت مثل هذه ! فقال : يا عمّ ، أوَ قد أعجبتكَ ؟ فقال : ومَن لا تُعجبه هذه ! قال : أَلجِدٌّ هذا منك ؟ قال : نعم ، والله . قال : فإنّها واللهِ هذه بعينها . فقال : يا خبيثُ ، إنّما أشخصتَني لهذا ! يا غُلام ارحَلْ بنا . فانصرف عمُّه إلى البصرة ، وأقام هو معها . ولم يزل يتردّد كذلك حتّى مات في الطاعون ، في أيّام مصعب بن الزبير .

• • •

ثانياً : شعراء الغَزَل

٣١

أَبُودَهْبَل الجُمَحيّ

(الأغاني ج ٧ ص ١١٤ وما بعدها)

الشاعر

نسبُهُ – فيما ذكر الزبير بن بَكّار وغيره – وَهْب بن زَمْعة ... ابن جُمَح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب ... وأمّ أبي دهبل امرأة من هُذيل ...

قال المدائنيّ : كان أبو دهبَل رجلاً جميلاً شاعراً ، وكانت له جُمّةٌ [1] يُرسِلها فتضرِب مَنكِبَيه . وكان عفيفاً ، وقال الشعر في آخر

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

خلافة عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ومدح معاوية وعبد الله بن الزُبير ، وقد كان ابنُ الزبير ولاّه بعض أعمال اليمن .

محمد بن حبَش المخزوميّ قال :

دخل نصيبٌ على إبراهيم بن هشام ، وهو والٍ على المدينة ، فأنشده قصيدةً مدّحه فيها . فقال ابراهيم بن هشام : ما هذا بشيءٍ ، أين هذا من قول أبي دَهبل لصاحبنا ابن الأزرق حيث قال :

ان تَغْدُ من مَنْقَلَي نَجَرانَ مرتحلاً
يَبِنْ من اليَمَنِ المعروفُ والجـودُ [1]

فغضب نصيب فحَمِي فنزع عِمامته وطرحها وبرّك عليها ثم قال : إن تأتونا برجال مثل ابن الأزرق نأتكم بمديح أجود من مديح أبي دهبل .

القاسم بن المعتمِر الزُهريّ قال :

قلت لأبي السائب المخزوميّ : يا أبا السائب ، أما أحسن أبو دهبل حيث يقول :

أأترُكُ ليلَى ليس بيني وبينَها سوى ليلةٍ إنّي إذاً لَصَبُور
هَبُوني امرأً منكم أضلَّ بعيرَه له ذِمّةٌ إنّ الذّمام كبير
ولَلصاحب المتروك أفضلُ ذِمّةً على صاحبٍ من أن يَضلّ بعيرُ

قال : فقال لي : وبأبي أنت ! كنتُ والله لا أُحبّك وتثقلُ عليّ ، فأنا الآن أُحبّك وتخفّ عليّ .

---

(١) سبقت رواية هذا الخبر في ترجمة نصيب . المنقل : الطريق في الجبل

أخباره مع النساء

* محمد بن زهير قال : حدّثنا المدائنيّ :

أنّ أبا دهبل كان يهوى امرأةً من قومه يقال لها عَمْرة ، وكانت امرأةً جَزْلةً [1] يجتمع اليها الرجال للمحادثة وانشاد الشعر والأخبار ، وكان أبو دهبل لا يفارق مجلسها مع كل من يجتمع اليها ، وكانت هي أيضاً مُحبّةً له . وكان أبو دهبل رجلاً سيّداً من أشراف بني جُمَح ، وكان يحمل الحمَالات [2] ويُعطي الفقراء ويَقري الضيف . وزعمت بنو جمح أنه تزوّج عمرة هذه بعد ذلك ، وزعم غيرهم أنه لم يصل إليها . وكانت عمرة تُوصيه بحفظ ما بينهما وكِتمانه ، فضمن لها ذلك واتّصل ما بينهما . فوقفت عليه زوجته ، فدسّت إلى عمرة امرأةً داهيةً من عجائز أهلها ، فجاءتها فحادثتها طويلاً ثم قالت لها في عُرض حديثها : إنّي لأعجب لك كيف لا تتزوّجين أبا دهبل مع ما بينكما ! قالت : وأيّ شيء يكون بيني وبين أبي دهبل ؟ قال : فتضاحكت وقالت : أتستُرين عنّي شيئاً قد تحدّثت به أشراف قريش في مجالسها وسُوقة أهل الحجاز في أسواقها والسُّقاة في مواردها ! فما يتدافع اثنان أنّه يهواك وتَهوَينه . فوثبت من مجلسها فاحتجبت ومنعت كلّ من كان يجالسها من المصير اليها . وجاء أبو دهبل ، على عادته ، فحَجبتْه وأرسلت إليه بما كَرِه . ففي ذلك يقول :

تطاول هذا الليلُ ما يَتبلّجُ
وأعيتْ غواشي عَبْرتي ما تَفرّجُ
وبِتُّ كئيباً ما أنام كأنّما
خِلال ضلوعي جَمرةٌ تتوهّجُ

---

(١) الجزلة : العاقلة الأصيلة الرأي .
(٢) الحمالة : الدية يحملها قوم عن قوم .

فطوراً أُمَنّي النفسَ من عَمْرةَ المُنى
وطوراً إذا ما لجّ بي الحُزن أنشِجُ

لقد قطع الواشون مـا كـان بيننـا
ونحن إلى أن يُوصَلَ الحَبلُ أحْوَجُ

رأوا غِرّةً فاستقبلوهـا بإلْبِهـم
فراحوا على ما لا نُحبّ وأدلجـوا

وكانوا أناساً كنت آمَنُ غَيْبَهَـم
فلم يَنْهَهم حِلمي ولم يتحرَّجُوا

فليت كَوانيناً من اهلي وأهلهـا
بأجمعهم في قَعر دِجلة لَجّجـوا

همُ منعونا ما نُحبّ وأوقـدوا
علينا وشَبُّوا نار صُرمٍ تَأجَّج

ولو تركونا ، لا هَدى اللهُ سَعْيَهم،
ولم يُلحِموا قولاً من الشرّ يُنْسَجُ

لأوشك صَرفُ الدهر يَفرقُ بينِنـا
ولا يَستقيم الدهرُ والدهرُ أعـوجُ

عسى كُربةٌ أمسيتُ فيهـا مُقيمةٌ
يكونُ لنا منها نَجـاةٌ ومَخْرَج

فيُكْبَتَ أعداءٌ ويَجْذَلَ آلِفٌ
له كَبدٌ من لَوعة الحُبّ تَلعَج

وقلتُ لعَبّادٍ وجـاء كتابُهـا
لِهذا وربّي كانت العين تَخْلُجُ

وانّي لَمحزونٌ عشيّةَ زُرتُهـــا
وكنت إذا ما جئتُها لا أُعــرِّج

أُخطّطُ في ظهر الحَصير كأنّني
أسيرٌ يخاف القتل وَلْهانُ مُلْفَــج

وأشفَق قلبي من فِراق خليلــة
لها نسَبٌ في فرع فِهْرٍ مُتَــوَّج

وكفٌّ كهُدّاب الدِّمَقْس لطيفةٌ
بها دَوْسُ حِنّاءٍ حديثٌ مُضرَّج

يجول وِشاحاها ويَغتصّ حِجْلُها
ويشبع منها وَقفُ عــاجٍ ودُمْلَج

فلمّا التقينا لجلجتْ في حديثهــا
ومن آية الصُّرم الحديثُ المُلَجْلَج (١)

قالوا : وفيها يقول :

يلومونني في غير ذنبٍ جنيتُــه
وغيري في الذّنب الذي كان ألْوَمُ

أمِنّا أناساً كنتِ تَأْتَمنينهــم
فزادوا علينا في الحديث وأوهمــوا

وقالوا لنا ما لم يُقَلْ ثمّ كَثّــروا
علينا وباحُوا بالذي كنت أكْتُــم

(١) بألبهم : يجمعهم . والألب : القرم يجتمعون على عداوة إنسان . الكانون : الرجل الثقيل . لجج : غرق في اللجة . يجذل : يفرح . لعج في الصدر : اختلج . الملفج : الفقير المحتاج . الهداب : خمل الثوب . الدمقس : الديباج . مضرج : مصبوغ . يغتص : يمتلء . الحجل ، بالكسر والفتح : الخلخال . الوقف : سوار من عاج . الدملج : المعضد .

وقد مُنحت عيني القـــذى لفراقهم
وعاد لها تَهتانُها فـــهي تَسْجُمُ

وصافيتُ نِسواناً فلم أرَ فيهـــم
هوايَ ولا الوُدَّ الذي كنتُ أعلمُ

أليس عجيباً أن نكـــون ببلـــدةٍ
كلانـــا بهـــا ثاوٍ ولا نَتكلّـــمُ

* (عن صالح بن حسّان وابن الكلبيّ :)

حَجّت عاتكةُ بنت معاويةَ بن أبي سفيان ، فنزلت من مكّة بذي طُوىً. فبينما هي ذاتَ يوم جالسةٌ وقد اشتدَّ الحرّ وانقطع الطريقُ ، وذلك في وقت الهاجرة ، إذ أمرت جواريَها فرفعن السِّتر وهي جالسةٌ في مجلسها عليها شُفوفٌ (١) لها تنظر إلى الطريق ، إذ مرّ بها أبو دهبل الجُمَحيّ ، وكان من أجمل الناس وأحسنهم منظراً ، فوقف طويلاً ينظر إليها وإلى جمالها وهي غافلةٌ عنه ، فلمّا فطِنت له سترتْ وجهها وأمرت بطرح السِّتر وشتمتْه ، فقال أبو دهبل :

انّي دعاني الحَيْنُ فاقتادنـــي
حتّى رأيت الظَبْيَ بالبـــابِ

يا حُسْنَه إذ سبّني مُدبـــراً
مُستتِراً عـــنّي بجِلبـــاب

سبحانَ مَن وَقفها حَسْـــرةً
صُبّت على القلب بأوصـــابِ

يذُود عنهـــا انْ تَطَلّبْتُهـــا
أبٌ لهـــا ليس بوهّـــابِ

أَحلّها قصراً مَنيـــعَ الـــذُّرا
يُحمَى بأبوابٍ وحُجّـــابِ (٢)

قال : وأنشد أبو دهبل هذه الأبيات بعضَ إخوانه ، فشاعت بمكّة

---

(١) الشفوف ج شف : الثوب الرقيق .
(٢) الحين : الهلاك . الوصب : المرض .

وشهرت وغنّى فيها المغنّون ، حتى سمعتْها عاتكةُ إنشاداً وغِناءً ، فضحكت وأعجبتها وبعثت إليه بكُسوةٍ ، وجرت الرُّسل بينهما .

فلمّا صدرت عن مكّة خرج معها إلى الشام ونزل قريباً منها ، فكانت تَعاهَدُه بالبِرّ واللّطَف (١) حتى وردت دمشق وورد معها ، فانقطعت عن لقائه وبَعُد من أن يراها ، ومَرض بدمشق مرضاً طويلاً ، فقال في ذلك :

طال ليلي وبِتُّ كالمحزونِ ... ومَلِلتُ الثّواء في جَيرونِ
وأطلت المَقام بالشام حتّى ... ظنّ أهلي مُرجّمات الظُنون
فبكت خَشيةَ التفرُّق جُمْلٌ ... كبكاء القرين إثر القَرينِ
وهي زهراءُ مثلُ لؤلؤة الغَوّاص ميزتْ من جوهرٍ مكنونِ
وإذا ما نسبتَها لم تجدها ... في سَناءٍ من المكارم دُون
ثمّ خاصرتُها إلى القُبّة الخضراء تمشي في مَرمرٍ مَسْنُون
قُبّةٌ من مَراجلٍ ضربوها ... عند بَرْد الشتاء في قَيْطُون
عن يساري إذا دخلت من الباب وان كنث خارجاً عن يميني
ولقد قلتُ إذ تطاول سُقْمي ... وتقلّبت ليلتي في فنُون
ليت شعري أمن هوىً طار نومي ... أم بَراني الباري قصيرَ الجفُون (٢)

قال : وشاع هذا الشعر حتى بلغ معاويةَ فأمسك عنه ، حتى إذا كان في يوم الجمعة دخل عليه الناس وفيهم أبو دَهبل ، فقال معاوية لحاجبه :

---

(١) اللطف : الهدايا .

(٢) تنسب هذه الأبيات في خبر آخر في الأغاني (ج ١٥ ص ٨٤) إلى عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت في خبر يشبه خبر أبي دهبل وابنة معاوية .
جيرون : موضع بدمشق . المسنون : الأملس . المراجل : ضرب من ثياب اليمن قيطون : البيت في جوف البيت .

إذا أراد أبو دهبل الخروج فامنَعْه واردُده إليّ . وجعل الناس يُسلّمون وينصرفون ، فقام أبو دهبل لينصرف ، فناداه معاوية : يا أبا دهبل ، إليّ . فلمّا دنا إليه أجلسه حتى خلا به ثم قال له : ما كنتِ ظننت أنّ في قريش أشعر منك حيث تقول :

ولقد قلت إذ تطاول سُقمي ... وتقلّبت ليلتي في فنون
ليت شعري أمن هوىً طار نومي ... أم براني الباري قصير الجفون

غير أنّك قلت :

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوّاص ميزت من جوهرٍ مكنون
وإذا ما نسبتها لم تجدها ... في سَناء من المكارم دُون

والله إنّ فتاةً أبوها معاوية وجَدُّها أبو سفيان وجَدّتُها هِند بنت عُتبة لكما ذكرت ، وأيّ شيء زِدتَ في قدرها ! ولقد أسأت في قولك :

ثم خاصرتُها إلى القُبّة الخضراء تمشي في مرمرٍ مسنون

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما قلت هذا ، وانّما قيل على لساني . فقال له : أمّا من جهتي فلا خوف عليك ، لأنّني أعلم صِيانة ابنتي نفسَها ، وأعرف أن فتيان الشعر لم يتركوا أن يقولوا النسيب في كلّ من جاز أن يقولوه فيه وكلٍّ من لم يجُز ؛ وإنما أكره لك جوار يزيد ، وأخاف عليك وثَباته ، فإنّ له سَورة الشباب وأنفةَ الملوك . وإنما أراد معاوية أن يهرُب أبو دهبل فتنقضي المقالةُ عن ابنته ، فحذِر أبو دهبل فخرج إلى مكّة هارباً على وجهه ، فكان يكاتب عاتكة .

فبينا معاويةُ ذات يوم في مجلسه إذ جاءه خصيٌّ له فقال : يا أمير المؤمنين ، والله لقد سقط إلى عاتكةَ اليوم كتابٌ ، فلمّا قرأتْه بكت ، ثم أخذته فوضعتْه تحت مُصَلاّها ، وما زالت خاثرة النفس منذ اليوم . فقال له : اذهب فالطُفْ لهذا الكتاب حتى تأتيَني به . فانطلقْ الخصيُّ ،

فلم يزل يلطُف حتى أصاب منها غِرّةً ، فأخذ الكتاب وأقبل به إلى معاوية ، فإذا فيه :

أعاتكُ هلاّ إذ بَخُلتِ فلا تَرَيْ
لِذي صَبْوةٍ زُلفَى لديكِ ولا حقّا
رددتِ فؤاداً قد تولّى بــه الهوى
وسكّنتِ عيناً لا تملُّ ولا تَرْقــا
ولكن خلعتِ القلب بالوعد والمُنَى
ولم أرَ يوماً منكِ جُوداً ولا صِدقا
أتنسَين أيامي برَبْعــكِ مُدنَفــاً
صريعاً بأرض الشام ذا سَقَمٍ مُلقَى
وليس صديقٌ يرتضَى لوصيّــةٍ
وأدعو لِدائي بالشّراب فما أسقى
وأكبر همّي أن أرى لك مُرسَــلاً
فطولَ نهاري جالسٌ أرقُبُ الطُرقا
فواكبدي إذ ليس لي منكِ مجلــسٌ
فأشكو الذي بي من هَواكِ وما ألقى
رأيتُكِ تزدادين للصَّبّ غِلظــــةً
ويزداد قلبي كلَّ يومٍ لكم عِشقا (١)

قال : فلمّا قرأ معاوية هذا الشعر بعث إلى يزيد بن معاوية ، فأتاه فدخل عليه فوجد معاويةَ مُطرِقاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هذا الأمرُ

---

(١) الزلفى والزلفة : المنزلة والقربة . لا ترقأ : لا يجف دمعها . خلعت القلب : أراها محرفة عن : خدعت القلب .

الذي شجاك ؟ قال : أمرٌ أمرضني وأقلقني منذ اليوم ، وما أدري ما أعمل في شأنه . قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا الفاسق أبو دهبل ، كتب بهذه الأبيات إلى أختك عاتكة فلم تزل باكيةً منذ اليوم ، وقد أفسدها ، فما ترى فيه ؟ فقال : والله إنّ الرأي لَهيّنٌ . قال : وما هو ؟ قال : عبدٌ من عبيدك يكمُن له في أزقّة مكّة فيُريحنا منه . قال معاوية : أفٍّ لك ! والله إن امرءاً يريد بك ما يُريد ويسمو بك إلى ما يسمُو لَغيرُ ذي رأيٍ ، وأنت قد ضاق ذَرعُك بكلمة ، وقصُر فيها باعُك ، حتى أردتَ أنْ تقتل رجلاً من قريش ! أو ما تعلم أنّك إذا فعلتَ ذلك صَدّقتَ قوله وجعلتَنا أُحدوثةً أبداً ! قال : يا أمير المؤمنين ، انّه قال قصيدة أخرى تناشَدها أهلُ مكّة وسارت حتى بلغَتْني وأوجعتْني وحملتني على ما أشرتُ به فيه . قال : وما هي ؟ قال قال :

ألا لا تقُلْ مَهلاً فقد ذهب المَهْــلُ
وما كلُّ مَن يلحَى مُحبّاً له عقــلُ
لقد كان في حَوْلَين حالا ولــم أزُرْ
هوايَ وإن خُوّفتُ عن حُبّها شُغلُ
حمَى المَلِكُ الجبّــار عــنّي لقاءها
فمن دونِها تُخشى المَتالفُ والقتَــل
فلا خيرَ في حُبٍّ يُخــاف وَبالــهُ
ولا في حبيبٍ لا يكون لـــه وصلُ
فواكبدي إنّي شُهِرتُ بحبّهـــا
ولم يك فيما بيننا ساعةً بَـــذلُ
ويا عجبــاً أنّي أكاتــم حبّهـــا
وقد شاع حتى قُطّعت دونها السُبْلُ (١)

---

(١) يلحى : يلوم .

قال : فقال معاوية : قد والله رفّهت عنّي ،فما كنت آمَنُ أنه قد وصل إليها ؛ فأمّا الآنَ وهو يشكو أنه لم يكن بينهما وصلٌ ولا بذلٌ فالخَطْب فيه يسيرٌ ، قُمْ عنّي . فقام يزيد فانصرف .

وحجّ معاوية في تلك السنة ، فلمّا انقضت أيّام الحجّ كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وشعرائهم ، وكتب فيهم اسم أبي دهبل ؛ ثم دعا بهم ففرّق في جميعهم صلاتٍ سنيّةً وأجازهم جوائز كثيرة . فلمّا قبض أبو دهبل جائزته وقام لينصرف دعا به معاوية فرجع إليه ، فقال له : يا أبا دهبل ، ما لي رأيت أبا خالدٍ يزيدَ ابن أمير المؤمنين عليك ساخطاً في قوارص [1] تأتيه عنك وشعرٍ لا تزال قد نطقت به وأنفذتَه إلى خُصمائنا ومَوالينا ، لا تَعرِضْ لأبي خالد . فجعل يعتذر إليه ويحلِف له أنّه مكذوبٌ عليه . فقال له معاوية : لا بأسَ عليك ، وما يضرُّك ذلك عندنا ؛ هل تأهّلت ؟ قال : لا . قال : فأيُّ بنات عمّك أحبُّ إليك ؟ قال : فلانة . قال : قد زَوَّجْتُكها وأصدقتُها ألفي دينارٍ وأمرت لك بألف دينار . فلمّا قبضها قال : ان رأى أمير المؤمنين أنْ يعفو لي عمّا مضى ، فإن نطقت ببيت في معنى ما سبق منّي فقد أبحتُ به دمي وفلانةُ التي زوّجْتَنيها طالقٌ ألبتّةَ . فسُرّ بذلك معاوية وضمِن له رضا يزيد عنه ووعده بإدرار ما وصله به في كلّ سنة ، وانصرف إلى دمشق . ولم يحجُج معاويةُ في تلك السنة إلاّ من أجل أبي دَهْبَل .

أخباره مع ابن الأزرق ومدائحه فيه

الزبير بن بكّار قال : حدّثني عمّي مُصعَب قال :

وفد أبو دهبل الجُمحيّ على ابن الأزرق عبد الله بن عبد الرحمن بن

---

(١) قوارص الكلم : ما يؤلم منها ويؤذي .

الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان يقال له ابن الأزرق والهِبْرِزِيّ (١) ، وكان عاملاً لعبد الله بن الزبير على اليمن ، فأنكره ورأى منه جَفْوةً ، فمضى إلى عُمارة بن عَمرو بن حزم ، وهو عاملٌ لعبد الله بن الزبير على حَضرموتَ ، فقال يمدحه ويُعرّض بابن الأزرق :

يا رَبَّ حَيٍّ بخـيرِ مــا حَيّيت إنسانـاً عُمـارَهْ
أعطـى فأسنانــا ولــم يك من عَطِيّتـه الصِّغاره
ومن العَطِيّـة مـا تُـرى جَذماءَ ليس لها نَـزاره
حَجراً تُقلّبـه وهــل تُعطي على المـدح الحجاره
كالبغلِ يُحمَـد قائمــاً وتذمُّ مِشيته المُصـارَه (٢)

ثم رجع من عند عمارة بن عمرو بن حزم فقدم ، فقال له حَنين مولى ابن الأزرق في السِرّ : أرى أنّك عجِلت على ابن عمّك ، وهو أجودُ الناس وأكرمهم ، فعُد إليه فإنّه غير تاركك ، واعلم أنّا نخاف أن يكون قد عُزِل فلازِمْه ولا يَفقدك ، فإنّي أخاف أن ينساك . ففعل وأعطاه وأرضاه ، فقال في ذلك :

يا حُنُ إنّي لِمـا حَدّثتني أُصُلاً مُرنَتحٌ من صميم الوَجد معمودُ
نخاف عزل امرىءٍ كنّا نعيش به معروفُه إن طلبنا الجُودَ موجودُ
اعلَمْ بأنّي لِمن عاديتَ مُضطَغِنٌ ضَبّاً وأنّي عليك اليوم محسود
وأنّ شكرك عندي لا انقضاءَ لـه ما دام بالهَضْبِ من لُبنانَ جُلمودُ

---

(١) الهبرزي : الأسد ، والأسوار من أساورة الفرس .

(٢) الصغارة : انحطاط القدر والمنزلة . الجذماء : المقطوعة . النزارة : القلة . المصارة : الموضع تمصر فيه الخيل ، أي تجري ، يعرض بابن الأزرق فيقول إن هيئته ترضي الناس ولكنه إذا جرب ذم .

أنت الممدّح والمُغلي بـه ثمنـاً | إذ لا تُمَدحَّ صُمُّ الجَندل السود
إن تَغْدُ من مَنْقَلَي نجرانَ مرتحلاً | يرحَلْ من اليمن المعروفُ والجودُ
ما زِلت في دفعات الخير تفعلُهـا | لمّا اعترى الناس لأْواءٌ ومَجْهود
حتى الذي بين عُسْفانٍ إلى عَدَنٍ | لَحْبٌ لمن يطلبُ المعروفَ أُخدُودُ(١)

مصعبٌ قال :

خرج أبو دهبل يريد ابن الأزرق فلَقِيه معزولاً ، فشقَ ذلك عليه واسترجع . فقال له ابن الأزرق : هَوِّن عليك ، لم يَفُتك شيءٌ . فأعطاه مائتي دينار . فقال في ذلك أبو دهبل :

أعطى أميراً ومنزوعاً وما نَزَعت | عنه المكارم تغشاه ومـا نَزَعـا

عن ابي عمرو الشيبانيّ قال :

كان ابن الزبير بعث عبد الله بن عبد الرحمن على بعض أعمال اليمن ، فمدّ يده إلى أموالها وأعطى أعطية سنيّة وبثّ في قريش منها أشياء جزيلة ، فأثنتْ عليه قريش ووفدوا اليه فأسنى لهم العطايا . وبلغ ذلك عبدَ الله بن الزبير فحسده وعزله بإبراهيم بن سعد بن أبي وقّاص . فلمّا قدم عليه أراد أن يحاسبه فقال له : ما لك عندي حسابٌ ولا بيني وبينك عملٌ . وقدِم مكّة ، فخافت قريش ابنَ الزبير عليه أن يفتّشه أو يكشفَه ، فلبست السلاح وخرجت اليه لتمنعه . فلمّا لقيهم نزلت إليه قريش فسلّمت عليه وبسطت له أرديتها وتلقّته إماؤهم وولائدُهم بمجامر الألُوَّة (٢) والعُود المَنْدَليّ يبخّرونَ بين يديه ، حتّى انتهى إلى المسجد وطاف

---

(١) ياحن : مرخم ياحنين . معمود : شديد الحزن . الضب : شدة الحقد . المنقل : الطريق في الجبل . اللأواء : الشدة والضيق . اللحب : الطريق الواضح . الأخدود والخد : الطريق .
(٢) الألوة : بضم أوله وفتحه : العود يتبخر به .

بالبيت . ثم جاء إلى ابن الزبير فسلّم عليه وهم معه مُطيفون ، فعلم ابن الزبير أنه لا سبيل له إليه ، فما عرّض ولا صرّح له بشيء ، ومضى إلى منزله . فقال أبو دهبل :

فمن يكُ شان العزلُ أو هدّ رُكْنَه
لأعدائه يوماً فما شانه العزلُ
وما أصبحت من نعمةٍ مُستفادة
ولا رَحِمٍ إلاّ عليها لك الفضل

وقال أبو دهبل أيضاً فيه :

عَقِم النساءُ فلم يَلِدْن شبيهَه إنّ النساءَ بمثله عُقُمُ
مُتهلّلٌ بنَعَمْ ، بلا مُتباعِدٌ سيّانِ منه الوَفرَ والعُدْم
نَزْرُ الكلام من الحياء تَخالُه ضَمِناً وليس بجسمه سُقْمُ (١)

عن أبي عمرو الشيبانيّ :

مات ابن الأزرق وأبو دَهبل حيٌّ ، فدُفن بعُلَيْب (٢) . فلمّا احتُضِر أبو دهبل أيضاً أوصى أن يُدفَن عنده . وفيه يقول أبو دهبل يرثيه :

لقد غال هذا اللّحدُ من بطن عُلَيْبٍ
فتىً كان من أهل الندى والتكرُّمِ
فتىً كان فيما ناب يوماً هو الفتى
ونعم الفتى للطارق المتيمّم

---

(١) الضمن : المريض .
(٢) عليب : اسم واد ، وليس في اللغة على فعيل غيره .

أألْحقّ أنّي لا أزال على مِنىً
اذا صدر الحُجّاجُ عن كلّ موسم
سقى اللهُ أرضاً أنت ساكن قبرها
سِجالَ الغوادي من سَحيلٍ ومُبْرَمِ(١)

سائر أخباره

• أبو جعفر الشُوَيفعيّ قال :

قدِم سليمان بن عبد الملك مكّة في حرّ شديد ، فكان يُنقل سريره بفِناء الكعبة . وأعطى الناس العطاء ، فلمّا بلغ بَني جُمح نُودي بأبي دهبل ، فقال سليمان : أين أبو دهبل الشاعر ؟ عليّ به . فأُتي به ، فقال سليمان : أنت أبو دهبل الشاعر ؟ قال : نعم . قال : فأنت القائل :

فتنةٌ يُشعِلها وُرّادُها حَطبَ النار فدَعْها تَشتعِلْ
فإذا ما كان أمْنٌ فأْتِهمْ وإذا ما كان خوفٌ فاعتزِلْ

قال : نعم . قال : وأنت القائل :

يدعُون مروانَ كيما يستجيبَ لهم
وعند مَروانَ خار القومُ أو رقدُوا
قد كان في قوم موسى قبلهم جَسَدٌ
عِجلٌ إذا خار فيهم خَورةً سَجَدُوا(٢)

---

(١) السجال ج سجل : الدلو العظيمة . السحيل : الخيط غير المفتول ، وأراد بهذا أن تسقيه السحائب الغادية ما قل وما كثر .

(٢) الجسد ، هنا : الذي لا يعقل ولا يميز ، وهو المقصود في قوله تعالى : « فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار » .

قال : نعم . قال : أنت القائل هذا ثم تطلب مـــا عندنا ! لا والله ولا كرامةَ . فقال : يا أميرَ المؤمنين . إنّ قوماً فُتنوا فكافحوكم بأسيافهم وأجلبوا عليكم بخيلهم ورَجْلهم . ثم أدالكم الله منهم فعفوتُم عنهم . وإنما فُتِنتُ فقلت بلساني . فلمَ لا يُعفَى عنّي ؟ فقال سليمان : قد عفَونا عنك . وأقطعه قطيعةً بجاذان [١] باليمن . فقيل لسليمان : كيف أقطعتَه هذه القَطِيعة ! قال : أردت أن أميته وأُميتَ ذِكره بها .

* مصعبٌ قال :

قال أبو دهبل في قتل الحسين بن عليّ . صلوات الله عليه وزكواته :

تبيت سُكارى من أميّةَ نُوَّمـاً
وبالطَّفِّ قتلى ما ينام جميعُهـا
وما أفسد الإسلام إلاّ عصابـةٌ
تأمّر نَوْكاهـا ودام نعيمُهـا
فصارت قناةُ الدين في كفّ ظالمٍ
اذا اعوجّ منها جانبٌ لا يقيمُها [٢]

* * *

(١) استظهر محقق المطبوعة أن « حاذان » محرفة عن « جازان » ، لأن كتب البلدان لم تذكر هذا الموضع ، وجازان واد باليمن وموضع في طريق حاج صنعاء .
(٢) النوكى ج أنوك وهو الأحمق.

٣٢

الأَحْوَصُ الأنْصَـاريّ

(الأغاني ج ٤ ص ٢٢٤ و ج ٦ ص ٢٥٤
و ج ١٧ ص ٣٥١ و ج ٢١ ص ٩٥)

الشاعر

هو الأحوص . وقيل إنّ اسمه عبد الله ، وأنّه لُقّب الأحوصَ لحَوَص [1] كان في عينيه . وهو ابن محمّد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت ابن أبي الأقلح ...بن عوف بن مالك بن الأوس .

وكان جدّه عاصمٌ يقال له حَمِيّ الدَّبْر ؛ وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعثه بَعثاً ، فقتله المشركون ، وأرادوا أن يصلُبوه ، فحمتْه الدَّبْر ، وهي النّحل ، فلم يقدِروا عليه ، حتى بعث الله عزّ وجلّ الوادي

(١) الحوص : ضيق في مؤخر العينين .

في الليل ، فاحتمله فذهب به . وفي ذلك يقول الأحوص مفتخراً :

وأنا ابنُ الذي حَمَتْ لحمَه الدَّبْرُ قتيل اللَّحْيانِ يومَ الرَّجيعِ [1]

عن إسماعيل بن إبراهيم بن عُقبةَ عن عمّه قالَ :

كُنية الأحوص أبو محمّد ، وأمّه أثَيلة بنت عمير بن مَخْشِي ؛ وكان أحمر أحوصَ العينين .

قال الزبير : وجعل محمّد بن سلاّم الأحوصَ ، وابن قيس الرقيّات ، ونُصَيباً ، وجميلَ بن مَعْمَر طبقة سادسة من شعراء الاسلام ، وجعله بعد ابن قيس وبعد نُصيب . قال أبو الفرج : والأحوص ، لولا ما وضعَ به نفسَه من دَنيء الأخلاق والأفعال ، أشدُّ تقدُّماً منهم عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرُّواة . وهو أسمحُ طبعاً، وأسهل كلاماً ، وأصح معنىً منهم ولِشعره رونق وديباجة صافية وحَلاوة وعُذوبةُ ألفاظٍ ليست لواحدٍ منهم . وكان قليل المُروءة والدِّين ، هَجّاءً للناس ، مَأبوناً ، فيما يُروى عنه .

عن سالم بن أبي السّحماء ، وكان صاحب حمّادٍ الرّاوية ، أن حمّاداً كان يُقدّم الأحوص في النّسيب .

عن يوسف بن أبي سُليمان بن عُنَيزةَ قال :

هجا الأحوص رجلاً من الأنصار من بني حَرام يُقال له ابن بَشير ، وكان كثير المال ، فغضب من ذلك ، فخرج حتّى قدم على الفرزدق بالبصرة وأهدى إليه وألْطَفه [2] ، فقبل منه ، ثم جلسا يتحدّثان ، فقال الفَرزدق :

---

(١) لحيان : بطن من قبيلة هذيل ، وهم الذين غدروا بوفد الرسول عليه السلام يوم الرجيع ، ومعهم عضل والقارة ، وهما من القبائل المتصلة في نسبها بقبيلة هذيل .

(٢) ألطفه : أكرمه وبره .

ممّن أنت ؟ قال : من الأنصار . قال : ما أقدمك ؟ قال : جئت مُستجيراً بالله عزّ وجلّ ثم بك من رجلٍ هجاني . قال : قد أجارك الله منه وكفاك مؤْنتَه ، فأين أنت عن الأحوص ؟ قال : هو الذي هجاني . فأطرق ساعةً ثم قال : أليس هو الذي يقول :

ألا قِفْ برَسْم الدّار فاستَنطِقِ الرَّسْما
فقد هاج أحزاني وذكّرني نُعْما

قال : بلى . قال : فلا والله لا أهجو رجلاً هذا شعرُه . فخرج ابن بشير فاشترى أفضل من الشّراء الأول من الهدايا ، فقدم بها على جرير . فأخذها وقال له : ما أقدمك ؟ قال : جئت مُستجيراً بالله وبك من رجلٍ هجاني . فقال : قد أجارك الله عزّ وجلّ منه وكفاك . أين أنت عن ابن عمّك الأحوص بن محمّد ؟ قال : هو الذي هجاني . قال : فأطرق ساعةً ثم قال : أليس هو الذي يقول :

تمشّى بشَتمي في أكاريس مالكٍ
تُشيدُ به كالكلب إذ ينبَحُ النَّجْما
فما أنا بالمخسُوس في جِذم مالكٍ
ولا بالمسمّى ثم يلتزم الإسْما
ولكنّ بيتي إن سألتَ وجدتَه
توسّط منها العزَّ والحَسَبَ الضَّخْما (١)

قال : بلى والله . قال : فلا والله لأأهجو شاعراً هذا شعره . قال : فاشترى أفضل من تلك الهدايا وقدم بها على الأحوص فأهداها إليه وصالحه :

---

(١) أكاريس : جماعات . الجذم : الأصل .

أخباره مع أمّ جعفر وتغزّله بها

وأم جعفر هذه امرأة من الأنصار من بني خَطْمة ، وهي أم جعفر بنت عبد الله بن عُرْفُطَة ...بن مالك بن الأوس ، وله فيها أشعارٌ كثيرة .

(عن طائفة من الرّواة :)

لمّا أكثر الأحوص التَشبيب بأمّ جعفر وشاع ذكره فيها توعّده أخوها أَيْمَنُ وهدّده فلم ينتهِ ، فاستعدى عليه والي المدينة ، فربطهما في حبلٍ ودفع إليهما سَوطين وقال لهما : تَجالدا . فتجالدا ، فغلب أخوها ... وَسَلَح الأحوص في ثيابه وهرب وتبعه أخوها حتّى فاته الأحوص هرباً .

وقد كان الأحوصُ قال فيها :

لقد مَنعتْ معروفَها أمُّ جعفرٍ
وإنّي الى مَعروفها لَفقيرُ
وقد انكرت بعد اعتراف زيارتي
وقد وَغَرت فيها عليّ صُدور
أَدُور ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ
بأبياتكم ما دُرت حيث أدور
أزور البيوتَ اللاصقاتِ بِبَيْتِها
وقلبي الى البيت الذي لا أَزُور
وما كنت زَوّاراً ولكنّ ذا الهوى
إذا لم يَزُرْ لا بُدَّ أنْ سَيَزُور
أزورُ على أن لستُ أنفكُ كلّما
أتيتُ عدوّاً بالبَنان يُشيرُ

فقـال السائب بن عمرو ، أحد بني عمرو بن عوف ، يعارض الأحوص في هذه الأبيات ويعيّره بفراره :

لقد مَنع المعروفَ من أمّ جعفـرِ
أخو ثقةٍ عنـد الجـلاد صَبُورَ
عَلاك بمَتْن السَّوط حتى اتّقيتَـه
بأصفرَ من ماء الصِّفاق يَفور (١)

فقال الأحوص :

إذا أنا لم أغفِر لأيمـنَ ذنبَـه
فمَن ذا الذي يعفُو له ذنبَه بعدي
أُريد انتقام الـذَّنْـب ثم تَـردُّني
يَدٌ لأَدانيه مباركةٌ عنـدي (٢)

وقال الزبير في خبره خاصة : وانّما أعطاهما عمر بن عبد العزيز السوطين وأمرهما أن يتضاربا بهما اقتداءً بعثمان بن عفّان، فإنّه كان لمّا تهاجى سالم بن دارة ومُرّة بن واقع الغَطَفانيّ الفَزاريُّ لَزَّهُما (٣) عثمان بحبل وأعطاهما سوطين فتجالدا بهما .

وقال عمر بن شبّة في خبره : وقال الأحوص فيها أيضاً .. :

وانّي لَيدعوني هوى أمّ جعفـرِ
وجاراتها من ساعةٍ فأُجيـب

---

(١) الصفاق ج صفق : الأديم الجديد يصب عليه الماء فيخرج منه ماء أصفر .
(٢) يد لأدانيه : يريد أخته أم جعفر .
(٣) لزهما : قرن بينهما .

وإنّي لآتي البيت ما إن أحبُّـــه
وأكثر هجرَ البيت وهو حبيب
وأغضي على أشياءَ منكم تَسُوءُني
وأُدعى الى ما سَرّكم فأجيب
هَبيني امرءاً إمّا بريئاً ظلمتِه
وامّا مُسيئاً مُذنباً فيتوب
فلا تتركي نفسي شَعاعاً فإنّها
من الحُزن قد كادت عليك تذوبُ[1]

عن مُحرِز :

ان أمّ جعفر لمّا أكثر الأحوص في ذِكرها جاءت مُنتَقبةً ، فوقفت عليه في مَجلس قومه ولا يعرفُها ، وكانت امرأةً عفيفة ، فقالت له : اقضني ثمن الغَنَم التي ابتَعتها منّي . فقال : ما ابتَعتُ منك شيئاً . فأظهرتْ كتاباً قد وَضعتْه عليه وبكت وشكت حاجةً وضُرّاً وفاقةً وقالت : يا قومُ ، كَلّموه . فلامه قومُه وقالوا : اقض المرأةَ حَقّها . فجعل يحلِف أنّه ما رآها قطُّ ولا يعرفُها . فكشفت وَجْهَها وقالت ويحَك ! أما تعرِفني ! فجعل يحلِف مُجتهداً أنّه ما يعرفُها ولا رآها قطّ . حتّى إذا استفاض قولُها وقولُه واجتمع الناس وكثُروا وسمِعوا ما دار وكثُر لَغْطُهم وأقوالُهم قامت ثم قالت : أيّها الناسُ ، اسكُتوا . ثم أقبلت عليه وقالت : يا عدوَّ الله ! صدقتَ ، والله مالي عليك حقٌّ ولا تعرِفُني ، وقد حلفت على ذلك وأنت صادق ، وأنا أمّ جعفر ، وأنت تقول : قلت لأُمّ جعفر وقالت لي أم جعفر في شِعرك ! فخجل الأحوصُ وانكسر عن ذلك وبرئت عندهم .

---

(١) شعاعاً : متفرقة .

جَلده ونفيه إلى دهلك

عن أيّوب بن عمر عن أبيه قال :

لمّا جاء ابنُ حزم عملَه من قِبل سليمان بن عبد الملك على المدينة والحجّ جاءه ابنُ أبي جَهْم بن حُذيفة، وحُمَيد بن عوف، وسُراقةُ، فدخلوا عليه فقالوا له : إيهِ يابنَ حَزم ! ما الذي جاء بك ؟ قال : استعملني، والله، أميرُ المؤمنين على المدينة على رَغمَ أنف من رَغِمَ أنفُه. فقال له ابن أبي جهم : يابنَ حَزم، فإنّي أوّلُ من يَرْغَم من ذلك أنفُه. قال : فقال ابن حزم : صادقٌ، والله يحبّ الصّادقين.

فقال الأحوص :

سليمانُ إذ وَلاّكَ ربُّكَ حُكْمَنا
وسُلطانَنا فاحكُمْ إذا قُلتَ واعدِلِ
يؤُمُّ حَجيج المسلمين ابنُ فَرْتَنَى
فهب ذاك حَجّاً ليس بالمُتَقبَّلِ (١)

فقال ابنُ أبي عَتيق (٢) للأحوص : الحمدُ لله يا أحوصُ، إذ لم أحُجَّ ذلك العام بنعمة ربّي وشكره. قال : الحمدُ لله الذي صرف ذلك عنك يابنَ أبي بكرِ الصدّيق، فلم يُضْلِل دينَك، ولم تُعنِّ نفسَك وتَرَ ما يغيظُك ويغيظُ المسلمين معك.

عبد الله بن عِمران بن أبي فَرْوَة قال :

رأيت الأحوص حين وَقفه ابنُ حَزمٍ على البُلُس (٣) في سوق

---

(١) فرتنى : الأمة والزانية.

(٢) ابن أبي عتيق : لقب محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

(٣) البلس ج بلاس كسحاب : غرارة كبيرة، وكان المشهر بهم يقامون على البلس فيراهم الناس.

المدينة وإنّه لَيصيح ويقول :

ما مِن مُصيبةِ نَكْبةٍ أُمْنَى بهــا
إلاّ تُعَظِّمُني وتــرفــعُ شاني

وتزول حين تزُول عن مُتَخَمِّطٍ
تُخشى بوادرُه على الأقــران

إني إذا خَفِيَ اللئــامُ رأيتَـــني
كالشمس لا تخفَى بكلّ مكانِ [1]

قال : وهجا الأحوصُ ابن حَزم بشعر كثيرٍ منه :

أقول وأبصرتُ ابنَ حَزْمِ ابنِ فَرتَنَى
وقوفاً له بالمَأْزِمَين القبائـــلُ

تُرى فَرتَنَى كانت بما بلغَ ابنُهــا
مُصدِّقةً لو قال ذلك قائل [2]

عن أبي عبيدة : كلّ أمةٍ يقال لها فَرْتَنَى . وأخبرنا أبو خليفة عن محمّد بن سَلاّم قال : فَرتنى : الأَمَة بنت الأمة . قال الزبيرِ : فقال ابن حزم حين سمع قول الأحوص فيه « ابن فرتنى » لرجل من قومه له علمٌ : أنحن من ولدِ فَرْتَنَى ؟ أو تعرفها ؟ فقال : لا والله . قال : ولا أنا أعلم واللهِ ذلك ، ولقد عَضَهَني به [3] ، ولو كانت ولدتْني لم أجهل ذلك .

---

(١) المتخمط : المتكبر .

(٢) المأزمان : تثنية مأزم ، وهو شعب ضيق بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرفة ، فيه يدفع من عرفة إلى المزدلفة .

(٣) عضه : جاء بالإفك والبهتان .

جماعة من مشايخ الأنصار :

انَّ ابن حزم لمّا جلد الأحوص ووقفه على البُلُس يضربه ، جاءه بنو زُرَيق [1] فدفعوا عنه واحتملوه من أعلى البُلُس ، فقال في ذلك :

إمّا تُصِبْني المنايا وهي لاحقةٌ
وكلُّ جَنْبٍ له قد حُمَّ مُضْطَجَعُ
فقد جزيت بني حَزْمٍ بظُلمهم
وقد جزيتُ زُريقاً بالذي صنعوا

(الأبيات ...)

عمر بن أبي بكر المؤمّلي قال : حدّثني غير واحد من أهل العلم :

أنّ أبا بكر بن محمد بن عَمرو بن حَزم جلد الأحوص في الخُنُث ، وطاف به وغرّب به الى دَهْلَكَ [2] في مَحمِلٍ عُرياناً . فقال الأحوص وهو يُطاف به :

ما من مُصيبة نكبة أبْلَى بها

الأبيات . وزاد فيها :

إنّي على ما قد تَرَوْن مُحَسَّدٌ
أنْمي على البَغضاء والشَّنَآنِ
أصبحت للأنصار فيما نابهم
خَلَفاً وللشُعراء من حَسّان [3]

(١) بنو زريق : قبيل من الأنصار .

(٢) دهلك : جزيرة في بحر اليمن بين بلاد اليمن والحبشة ، وكان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها .

(٣) الشنآن : الحقد والبغض .

عُمر بن شَبّة قال : حدّثني أبي قال :

ركب الأحوصُ الى الوليد بن عبد الملك قبل ضرب ابن حَزم إيّاه ، فلَقيه رجلٌ من بني مَخزوم يقال له محمد بن عُتْبة ، فوعده أن يُعينه . فلمّا دخل على الوليد قال : ويحكَ ! ما هذا الذي رُميتَ به يا أحوصُ ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين لو كان الذي رماني به ابنُ حَزم من أمر الدين لاجْتَنَبْتُه ، فكيف وهو من أكبر معاصي الله ! فقال ابنُ عتبة : يا أمير المؤمنين ، انّ من فضل ابن حَزم وعَدله كذا وكذا . وأثنى عليه . فقال الأحوص : هذا والله كما قال الشاعر :

وكنتَ كذِئب السَّوء لمّـــا رأى دماً
بصاحبه يوماً أحال على الــدَّمِ [1]

عن الزُّهريّ ... وعن مصعب بن عثمان :

كان الأحوص يَنْسُب بنساء ذوات أخطارٍ [2] من أهل المدينة ، ويتغنّى في شعره معبدٌ ومالك ، ويَشيع ذلك في الناس . فنُهي فلم يَنتهِ ؛ فشُكي الى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة وسألوه الكتاب فيه اليه ، ففعل ذلك . فكتب سليمان الى عامله يأمره أن يضربه مائةَ سَوط ويُقيمه على البُلُس للناس ، ثم يُصيّره الى دَهْلَك . ففعل ذلك به ؛ فثوى هناك سُلطانَ سليمان بن عبد الملك . ثم وَلي عمر بن عبد العزيز ، فكتب اليه يستأذنه في القدوم ويمدحه ، فأبى أن يأذَن له . وكتب فيما كتب اليه به :

أيا رَاكباً إمّا عَرَضْتَ فَبــلِّغَـــنْ
هُـــديتَ أمــيرَ المـــؤمنـــين رسائلي

---

(١) البيت للفرزدق . أحال على الدم : أقبل عليه .
(٢) ذوات أخطار : ذوات شأن ومكانة .

وقُل لأبي حَفصٍ اذا ما لقيتَـه
لقد كنتَ نَفّاعـاً قليل الغوائل
وكيف ترى للعيش طيباً ولـذّةً
وخالُك أمسى مُوثَقـاً في الحبائـلِ

قال : فأتى رجالٌ من الأنصار عمر بن عبد العزيز ، فكَلّموه فيه وسألوه أن يُقْدِمَه ، وقالوا له : قد عرفتَ نسبه ومَوضعَه وقديمه ، وقد أُخرج الى أرض الشِّرك ، فنطلب اليك أن تَرُدَّه الى حَرَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودارقومه . فقال لَهم عمر : فمن الذي يقول :

فما هو إلاّ أن أراهـا فُجـاءةً
فأبْهَتَ حتى ما أكـاد أجيـب

قالوا : الأحوص . قال : فمن الذي يقول :

أدُور ولولا أن أرى أمَّ جعفـرٍ
بأبياتكم ما دُرت حيث أدُورُ
وما كنت زَوّاراً ولكنّ ذا الهـوى
إذا لم يَزرْ لا بدّ أن سَيـزورُ

قالوا : الأحوص . قال : فمن الذي يقول :

كأنّ لُبْنَى صَبِيرُ غـاديـة
أو دُمْيةٌ زُيِّنتُ بهـا البيـعُ
الله بيني وبـين قَـيِّـمهـا
يَفِرُّ منّي بهـا وأتّبـعُ (١)

(١) الصبير : السحاب الأبيض . الغادية : مطرة الغداة . البيع : الكنائس .

قالوا : الأحوص . قــال : بل الله بين قيّمها وبينه . قال : فمن الذي يقول :

ستَبقى لها في مُضْمَر القلــب والحشا
سَرِيرةُ حُبٍّ يوم تَبلَى السَّرائــرُ

قالــوا : الأحوص . قال : إنّ الفاسق عنها يومئذٍ لمشغول ؛ والله لا أردُّه ما كان لي سلطان .

قال : فمكث هناك بقيّة ولاية عمر وصَدراً من ولاية يزيد بن عبد الملك .

عفو يزيد بن عبد الملك عنه وردّه إلى بلده

قال : فبينا يزيد وجاريته حَبَابةُ ذاتَ ليلة تُغنّيه بشعر الأحوص قال لها : مَن يقول هذا الشعر ؟ قالت : لا وعَينَيك ما أدري — قال : وقد كان ذهب من الليل شطرُه — فقال : ابعثُوا إلى ابن شِهاب الزُّهْريّ فعسى أن يكون عنده عِلمٌ من ذلك . فأُتي الزّهريُّ ، فقُرِع عليه بابُه ، فخرج مُرَوَّعاً إلى يزيد . فلمّا صعِد إليه قال له يزيد : لا تُرَعْ ، لم نَدْعُك إلاّ لخيرٍ ، اجلِسْ ، مَن يقول هذا الشعر ؟ قال : الأحوص ابن محمد يا أميرَ المؤمنين . قال : ما فَعَل ؟ قال : قد طال حَبسُه بدَهْلَك . قال : قد عجبتُ لعُمر كيف أغْفَلَه . ثم أمر بتخلية سبيله ووهب له أربعمائة دينارٍ . فأقبل الزهريُّ من ليلته إلى قومه الأنصار فبَشّرهم بذلك .

الزبير بن بَكّار قال : كتب إليّ إسحاق بن إبراهيم أنّ أبا عبيدة حدّثه أنّ الأحوص لم يزل مُقيماً بدَهْلك حتى مات عمر بن عبد العزيز ، فدَسّ إلى حَبابَة فغنّت يزيد بأبيات له — قال أبو عبيدة : أظنُّها قولَه :

أيّها المُخْبري عن يزيدٍ بصلاحٍ فَداك أهلي ومالي
ما أبالي إذا يزيدُ بقَى لي مَن تولّت به صُروفُ الليالي

فقال : من يقول هذا ؟ قالت : الأحوص ، وهوّنت أمرَه ، وكلّمته في أمانه فأمّنه . فلما أصبح حضر فاستأذنت له ، ثم أعطاه مائة ألف درهم .

عن صالح بن حسّان :

أنّ الأحوص دسّ إلى حبابة فغنّت يزيد قوله :

كريمُ قريشٍ حين يُنسَب والذي
أقرّت له بالمُلكَ كهلاً وأمْرَدا
وليس وإن أعطاك في اليوم مانعاً
إذا عُدتَ من أضعاف أضعافه غدا
أهان تِلادَ المال في الحَمد إنّه
إمامُ هدًى يجري على ما تعوّدا
تشرّف مجداً من أبيه وجَدّه
وقد ورِثا بُنيانَ مجدٍ تشيّدا

فقال يزيد : ويلَك يا حبابة ! من هذا من قريش ؟ قالت : ومَن يكون ! أنت هو يا أمير المؤمنين . فقال : ومن قال هذا الشعر ؟ قالت : الأحوصُ يمدح به أمير المؤمنين . فأمر به أمير المؤمنين أن يَقْدَم عليه من دَهلك ، وأمر له بمالٍ وكُسوة .

الزُبير قال : حدّثني بعضُ أهل العلم قال :

دخل الأحوص على يزَيد بن عبد الملك وهو خليفةٌ ، فقال له يزيد : والله لو لم تَمُتّ الينا بحُرمةٍ ، ولا توسّلتَ بدالّة ، ولا جدّدت لنا مَدحاً غير أنك مُقتصِرٌ على البيتين اللذين قُلتهما فينا ، لكنتَ مستوجباً

لجزيل الصِّلة منّي حيث تقول :

وإنّي لأستحييكمُ أن يقودَنــي إلى غيركم من سائر الناس مَطْمَعُ
وأن أجتدي للنَّفْع غيرَك منهـــم وأنت إمامٌ للرَّعيّة مَقْنَــعُ

قال : وهذه قصيدة مدح بها عمر بن عبد العزيز .

شعر قاله في مرضه الذي مات فيه

عن يحيى بن الزبير وعامر بن صالح :

أن الأحوص قال في مرضه الذي مات فيه ــ وقال عامر بن صالح : حين هرب من عبد الواحد النَّصْريّ إلى البصرة ــ :

يا بِشْرُ يا رُبَّ مَحزونٍ بمَصرعنـا
وشامتٍ جَذِلٍ مـا مَسَّه الحَزَنُ
وما شَماتُ امرىءٍ إن مات صاحبُـه
وقد يرى أنّه بالموت مُرْتَهَـــنُ
يا بِشرُ هُبّي فـإنّ النوم أرّقــه
نَأيٌ مُشِتٌ وأرضٌ غيرُها الوَطَــنُ

* * *

٣٣

جَمِيلُ بن مَعْمَر

(الأغاني ج ٨ ص ٩١ وما بعدها)

الشاعر

هو جميل بن عبد الله بن مَعْمَر ... بن عُذْرَة بن سَعد ، وهو هُذَيم ... بن قُضاعة . والنّسابون مختلفون في قُضاعة ، فمنهم من يزعمُ أنّ قضاعةَ ابنُ مَعَدٍّ ، وهو أخو نزار بن مَعَدّ لأبيه وأمّه ... ومنهم من يزعمُ أنّهم من حِمْيَر . وقد ذكر جميلٌ ذلك في شعره فانتسب مَعَدّيّاً فقال :

أنا جميلٌ في السَّنام مـــن مَعَدّ

في الأسْرة الحَصْداءِ والعِيصِ الأشَدّ[1]

(١) الحصداء : الكثيرة العدد وأصله من الشجرة الحصداء وهي الكثيرة الورق . العيص : الشجر الكثير الملتف ، والأصل ، وهو المراد هنا .

... الاّ أنّ قُضاعة اليوم تُنسَب كلُّها في حِمير... وقال مُؤرِّج بن عمرو : هذا قولٌ أحدثوه بعدُ وصنعوا شعراً ألصقوه به ليُصَحّحوا هذا القول وهو :

يأيُّها الداعي ادعُنا وأبْشِـر   وكُن قُضاعياً ولا تَنَزَّرِ
قضاعةُ الأثْرَون خيرُ مَعْشَرِ   قضاعة بن مالكِ بنِ حِمْيرِ
النسبُ المعروف غيرُ المُنْكَرِ

قال مؤرّج : وهذا شيءٌ قيل في آخر أيام بني أميّة ، وشعراءُ قضاعة في الجاهليّة والإسلام كلّها تنتمي إلى مَعدّ ، قال جميل :

وأيُّ مَعَدٍّ كان فَيْءُ رِماحِهِم   كما قد أفَأْنا والمُفاخِرُ مُنصِفُ(١)

... وجميلٌ شاعرٌ فصيح مقدَّم جامع للشعر والرّواية . كان راويةَ هُدْبةَ بن خَشْرَم ، وكان هُدْبةُ شاعراً راويةً للحطيئة . وكان الحطيئة شاعراً راويةً لزهير وابنه . وقال أبو مُحلِّم : آخِر من اجتمع له الشعر والرواية كُثَيِّر ، وكان راويةَ جميل ، وجميلٌ راوية هُدبة ، وهدبة راوية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير .

عن أبي الزِّناد قال : كان كُثيّر راوية جميل . وكان يُقدّمه على نفسه ويتّخذه إماماً ، وإذا سُئل عنه قال : وهل علّم اللهُ عزّ وجلّ ما تسمعُون إلاّ منه !

عن محمّد بن سَلاّم قال :

كان لكُثيّر في النسيب حظٌّ وافر ، وجميلٌ مُقدَّم عليه وعلى أصحاب النَّسِيب في النسيب ، وكان كثيّر رواية جميل ، وكان جميل صادق

---

(١) أفأنا : غنمنا ، والفيء : الغنيمة .

الصَّبابة والعشق ، ولم يكن كثيّر بعاشق ولكنّه كان يتقوّل .

عن جُوَيرِيةَ بن أسماء قال :

كان أبو صَخر كُثَيّر صديقاً لي ، وكان يأتيني كثيراً ، فقلّما استنشدتهُ إلاّ بدأ بجميلٍ وأنشد له ثمّ أنشد لنفسه ، وكان يُفضّله ويتّخذه إمامـــاً .

عن إسحاق بن قَبيصةَ الكُوفيّ عن رجلٍ سَمّاه قال :

سألت نُصَيباً : أجميلٌ أنسَبُ أم كُثيّر ؟ فقال : أنا سألتُ كُثيّراً عن ذاك فقال : وهل وَطّأ لنا النَّسيب إلاّ جميل .

بدء عشقِه لبثينة

بُهْلول بن سُليمان بن قِرضاب البَلَويّ قال :

كان جميلٌ ينسُب بأمّ الجُسَير ، وكان أوّلَ ما علِق بُثَينة أنه أقبل يوماً بإبله حتى أوردها وادياً يُقال له بَغيض ، فاضطجع وأرسل إبله مُصْعِدةً ، وأهلُ بُثينة بذنَب الوادي. فأقبلت بُثينةُ وجارةٌ لها واردتَين الماء ، فمرّتا على فِصال [1] له بُرُوكٍ فعرَمَتهنّ بُثينةُ – يقول : نفّرتهنّ – وهي إذ ذاكَ جُوَيرِيةٌ صغيرة ، فسبّها جميلٌ ، فافترَتْ عليه ، فملُح اليه سِبابُها فقال :

وأوّلُ ما قاد المودّةَ بيننــا بوادي بَغيضٍ يا بُثينَ سِبابُ
وقُلنا لها قولاً فجاءت بمِثلــه لكلّ كلامٍ يا بثين جــوابُ

قال الزبير : وحدّثني أيضاً الأسباطُ بن عيسى بن عبد الجبّار

---

(١) الفصال ج فصيل : ولد الناقة حين يفصل عن أمه .

العَذري أنّ جميل بن مَعمر خرج في يوم عِيد ، والنساءُ إذ ذاك يتزيّنّ ويبدو بعضُهنّ لبعض ويبدُون للرّجال ، وأنّ جميلاً وقف على بُثينة وأختها أمّ الجُسير في نساء بني الأحَبّ ، وهنّ بنات عمّ عُبيد الله بن قُطْبة أخي أبيه لَحاً ، [1] فرأى منهنّ منظراً وأعجبنه وعشق بُثينة وقعد معهنّ ، ثم راح وقد كان معه فِتيانٌ من بني الأحبّ ، فعلم أنّ القوم قد عرفوا في نظره حبّ بثينةَ ووجَدوا عليه ، فراح وهو يقول :

عَجل الفِراقُ وليته لم يَعجَلِ ... وجرت بوادرُ دَمعكَ المتهلّلِ
طَرَباً وشاقك ما لَقيتَ ولم تَخَفْ ... بَيْنَ الحبيب غَداةَ بُرقةِ مِجْوَلِ
وعرفتَ أنّك حين رُحتَ ولم يكن ... بَعْدُ اليَقينُ وليس ذاك بمُشْكِلِ
لن تستطيعَ إلى بُثينة رَجعـــةً ... بعد التفرّق دونَ عامٍ مُقْبلِ [2]

قال : وإن بثينة لمّا أُخبرت أنّ جميلاً قد نسبَ بها حلفتْ بالله لا يأتيها على خَلاءٍ إلاّ خرجت إليه ولا تتوارى منه . فكان يأتيها عند غَفَلات الرّجال فيتحدّث إليها ومعها أخواتها ، حتى نُمِي إلى رجالها أنّه يتحدّث إليها إذا خلا منهم — وكانوا أصلافاً غُيُراً ، أو قال غَيارى — فرصَدُوه بجماعة نحوٍ من بضعةَ عشرَ رجلاً ، وجاء على الصَّهباء ناقته حتى وقف على بُثينة وأمّ الجُسير ، وهما تُحدّثانه وهو يُنشدهما يومئذ :

حلفتُ بربّ الراقصات إلى مِنىً ... هُوِيَّ القَطا يَجتَزْنَ بطن دَفينِ
لقد ظنّ هذا القلبُ أنْ ليس لاقياً ... سُليمى ولا أمّ الجُسير لِحينِ
فليت رجالاً فيكِ قد نَذَرُوا دمي ... وهمّوا بقتلي يا بُثَينَ لقُوني [3]

(١) لحاً : لاصقاً .
(٢) برقة مجول : اسم موضع .
(٣) الراقصات إلى منى : الابل المسرعة إلى منى . هوي القطا : إسراع القطا . دفين : اسم موضع .

فبينا هو على تلك الحال إذ وثب عليه القومُ فرماهم بها [1] فسبقتْ به وهو يقول :

إذا جمع الإثنانِ جمعاً رميتُهـم بأركانها حتى تُخلّى سبيلُها [2]

فكان هذا أوّل سبب المهاجاة بينه وبين عُبيد الله بن قُطْبة .

أخباره مع بثينة

عن مَشيخة من عُذرة :

أنّ بثينة واعدت جميلاً أن يلتقيا في بعض المواضع ، فأتى لِوعدها ، وجاء أعرابيٌ يستضيف القوم ، فأنزلوه وقَرَوه فقال لهم : قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفَرٍ متفرّقِين مُتوارين في الشجر ، وأنا خائفٌ عليكم أن يسلُبوا بعض إبلكم . فعرفوا أنه جميل وصاحباه ، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده . فلمّا أسفر له الصبح انصرف كئيباً سيّء الظنّ بها ورجع إلى أهله . فجعل نساء الحيّ يُقرّعْنَه بذلك ويُقلن له : انّما حصلت منها على الباطل والكذب والغَدر ، وغيرُها أولَى بوَصْلك منها ، كما أنّ غيرك يحظى بها . فقال في ذلك :

أبُثينَ إنّك قد ملكت فأسْجحي وخُذي بحظّك من كريمٍ واصلِ
فلرُبّ عارضةٍ علينا وَصْلها بالجِدّ تخلِطه بقول الهـازل
فأجبتُها في القول بعد تَستّرٍ حُبّي بُثينةَ عن وِصالك شاغلي
لو كان في صدري كقَدْرِ قُلامة فَضْلاً وصلتُكِ أو أتتك رسائلي

---

(١) بها : أي بناقته .

(٢) لفظ « الإثنان » في البيت لا معنى له ، وقد رجح محقق المطبوعة أن تكون محرفة عن لفظ « الشنآن » ، ومن المحتمل أن تكون محرفة عن لفظ آخر « كالفتيان » أو نحوه .

ويقُلن إنّك قد رضيتَ بباطلٍ ... منها فهل لك في اجتناب الباطل
ولَباطلٌ ممّا أُحبّ حديثه ... أشهى إليّ من البغيض الباذلِ
ليزلْنَ عنك هوايَ ثم يصلْنَني ... وإذا هَويتُ فما هوايَ بزائلِ
صادت فؤادي يا بثينَ حبالُكم ... يومَ الحَجُون وأخطأتكِ حبائلي
مَنَّيْتِني فلويتِ ما منّيْتِني ... وجعلت عاجلَ ما وعدتِ كآجلِ
وتثاقلتْ لمّا رأت كَلَفي بها ... أحْبِبْ إليّ بذاك من متثاقلِ
وأطعتِ فيَّ عواذلاً فهجرتِني ... وعصَيتُ فيك وقد جهَدن عواذلي
حاولنَني لأبتَّ حبلَ وِصالكم ... منيّ ولست وإن جهَدْن بفاعلِ
فرددتُهنّ وقد سعينَ بهجركم ... لمّا سعَين له بأفْوَقَ ناصلِ
يَعضَضْنَ من غيظٍ عليّ أناملاً ... وودِدْتُ لو يعضَضْنَ صُمَّ جنادل
ويقُلن إنك يا بُثين بخيلةٌ ... نفسي فداؤكِ من ضَنينٍ باخلِ [1]

قالوا : وفي إخلافها هذا الموعد قال :

ألا ليت ريعان الشباب جديدُ ... ودهراً تولّى يا بُثينَ يعُودُ
فنغنى كما كنّا نكون وأنتمُ ... قريبٌ وإذ ما تبذُلين زَهيدُ
ألا ليت شعري هل أبيتَنّ ليلةً ... بوادي القُرى إنّي إذاً لسَعيدُ
وهل ألقيَنْ فَرداً بُثينةَ مرّةً ... تَجود لنا من وُدّها ونَجُودُ
علِقْتُ الهوى منها وليداً فلم يزَلْ ... إلى اليوم يَنمي حبُّها ويزيد
وأفنَيتُ عُمري بانتظاريَ وَعْدَها ... وأبلَيْتُ فيها الدّهرَ وهو جديدُ
فلا أنا مَردودٌ بما جئتُ طالباً ... ولا حبُّها فيما يَبيدُ يَبيدُ
وما أنسَ م الأشياءِ لا أنسَ قولها ... وقد قُرِّبتْ نِضْوي : أمِصرَ تُريد

---

(١) الإسجاح : حسن العفو . أبت : أقطع . سهم أفوق : في فوقه ميل أو انكسار ، والفوق : مشق أسفل السهم حيث يقع الوتر . ناصل : مكسور النصل . الجندل : الحجارة .

ولا قولها : لولا العيون التي ترى
لَزُرتكَ فاعذِرْني فَدَتْك جُدودُ

خليلي ما ألقى من الوجد قاتلي
ودمعي بما قلتُ الغداةَ شهيدُ

يقولون : جاهِدْ يا جميلُ بغزوة
وأيَّ جِهادٍ غيرَهن أُريدُ

لكلّ حديثٍ بينهن بشاشةٌ
وكلُّ قتيلٍ عندهن شهيدُ

إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي
من الحبّ قالت : ثابتٌ ويزيدُ

وإن قلتُ : رُدّي بعض عقلي أعِشْ به
مع الناس قالت : ذاك منك بعيد

ألا قد أرى والله أن رُبَّ عبرةٍ
إذا الدار شطّت بيننا سترُود

إذا فكّرتْ قالت : قد ادركت جُودَه
وما ضرّني بُخلي فكيف أجودُ

فلو تُكشفُ الأحشاءُ صُودِف تحتها
لِبثنةَ حُبٌّ طارفٌ وتَليد

تذكّرنيها كلُّ ريحٍ مريضةٍ
لها بالتّلاع القاويات وَئيدُ

وقد تلتقي الأشتاتُ بعد تفرّقٍ
وقد تُدرَك الحاجاتَ وهي بعيدُ (١)

* أيوب بن عَباية قال :

سعت أَمَةٌ لبثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما : إنّ جميلاً عندها الليلةَ . فأتياها مشتملَين على سيفين ، فرأياه جالساً حَجْرةً (٢) منها يُحدّثها ويشكو إليها بثّه (٣) ، ثم قال لها : يا بثينةُ ، أرأيت وُدّي إيّاك وشَغَفي بك ألا تَجزينيه ؟ ! قالت : بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابّين . فقالت له : يا جميلُ ، أهذا تَبغي ! والله لقد كنتَ عندي

---

(١) نغنى : من غني بالمكان إذا نزل به . النضو : الناقة المهزولة من كثرة السير ، وفي المطبوعة : بصرى ، نقلا عن الأمالي وهي في الأصول : نضوي ، وهو الأنسب للسياق لأنها كانت تودعه ولم ترافقه في سفره حتى بلغ بصرى ، وهي من بلاد الشام . شطت : بعدت . ترود : تذهب وتجيء . الطارق : المستحدث والتليد : القديم . القاويات : الخاليات . الوئيد : الصوت العالي الشديد .

(٢) حجرة منها : ناحية منها .

(٣) البث : الحزن والهم .

بعيداً منه ، ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيتَ وجهي أبداً . فضحكَ وقال : والله ما قلتُ لك هذا إلاّ لأعلمَ ما عندكِ فيه ، ولو علمتُ أنك تُجيبينَني إليه لعلمت أنّك تُجيبين غيري ، ولو رأيت منكِ مساعَدةً عليه لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي ، ولو أطاعتني نفسي لهجرتُكِ هِجرةَ الأبدَ ، أوَ ما سمعتِ قولي :

وإنيّ لأرضى من بُثينةَ بالـذي ... لو ابصره الواشي لقرّت بلابلُهُ[1]
بلا وبأن لا أستطيع وبالمُـنى ... وبالأمل المرجُوِّ قد خاب آملُـه
وبالنَّظرة العَجْلَى وبالحَول ينقضي ... أواخرهُ لا نَلتقي وأوائله

قال : فقال أبوها لأخيها : قُمْ بنا ، فما ينبغي لنا بعدَ اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها . فانصرفا وتركاهما .

• أبو مالك النَهْديُّ قال :

جلس إلينا كُثَيِّر ذاتَ يوم فتذاكرنا جميلاً فقال : لَقِيني مرّةً فقال لي : من أين أقبلت ؟ قلت : من عند أبي الحَبيبة (أعني بثينة) . فقال : وإلى أين تمضي ؟ قلت : إلى الحبيبة (أعني عَزّة) . فقال : لا بُدَّ من أن ترجِعَ عَوْدَكَ على بَدْئك فتَستجدَّ لي موعداً من بثينة . فقلت : عَهْدي بها الساعة وأنا أستحيي أن أرجِـع . فقال : لا بُدَّ من ذلك . فقلت له : فمتى عهدُك ببُثينة ؟ فقال : في أوّل الصَّيد ، وقد وقعت سحابةٌ بأسفل وادي الدَّوْم[2] فخرجتْ ومعها جاريةٌ لها تغسِل ثيابَها ، فلمّا أبصرتْني أنكرتْني ، فضربتْ بيديها إلى ثوبٍ في الماء فالتحفَتْ به ، وعرفتْني الجاريةُ ، فأعادت الثوب في الماء ، وتحدثْنا

---

(١) البلابل : شدة الهم والوساوس .
(٢) وادي الدوم : واد معترض من شمالي خيبر إلى قبليها .

حتى غابت الشمس . وسألتُها الموعدَ فقالت : أهلي سائرون . وما وجدتُ أحداً آمَنُه فأرسلُه إليها . فقال له كثيّر : فهل لك في أن آتي الحيّ ، فأنزعُ [1] بأبياتٍ من شعرٍ أذكُرُ فيها هذه العَلامة إن لم أقدِر على الخَلوة بها ؟ قال : ذلكَ الصواب ، فأرسَله إليها ، فقال له : انتظِرْني . ثم خرج كثيّر حتى أناخ بهم. فقال له أبوها : ما ردّكَ؟ قال : ثلاثة أبيات عرضتْ لي فأحببتُ أن أعرِضها عليك . قال : هاتِها . قال كثيّر : فأنشدتُه وبُثينةُ تسمع :

فقلت لها : يا عزُّ أرسِل صاحبي إليكِ رسولاً والموكَّلُ مُرْسَلُ
بأن تجعلي بيني وبينكِ مَوعِداً وأن تأمُريني ما الذي فيه أفعلُ
وآخرُ عهدي منكِ يومَ لَقِيتِني بأسفل وادي الدَّوم والثوبُ يُغْسَلُ

قال : فضربت بُثينة جانب خِدْرها وقالت : إخْسَأْ اخسأ ! فقال أبوها : مَهْيَمْ [2] يا بثينة ؟ قالت : كلبٌ يأتينا إذا نَوّم الناس من وراء الرّابية . ثم قالت للجارية : ابغِينا من الدَّومات حطباً لِنذبح لكُثيّر شاةً ونَشويها له . فقال كثيّر : أنا أعْجَل من ذلك . وراح إلى جميل فأخبره . فقال له جميل : المَوعدُ الدَّوْماتُ . وقالت لأمّ الحُسَين وليلَى ونُجَيا بناتِ خالتها ، وكانت قد أنِست إليهنّ واطمأنّت بهنّ : إنّي قد رأيت في نحو نشِيد كُثيّر أنّ جميلاً معه . وخرج كثيّرٌ وجميلٌ حتى أتيا الدَّومات ، وجاءت بثينة ومَن معها ، فما بَرَحُوا حتى بَرَق الصُبح . فكان كثيّر يقول : ما رأيت مجلساً قطُّ أحسنَ من ذلك ولا مثل عِلم أحدهما بضمير الآخر ! ما أدري أيُّهما كان أفهم .

---

(١) نزع بالشعر : تمثل به وأنشده .
(٢) مهيم : كلمة استفهام أي ما حالك وما شأنك أو أحدث لك شيء .

• قال الهيثم بن عَدِيّ .. :

زار جميلٌ بثينة ذاتَ يوم ، فنزل قريباً من الماء يترصّد أمَةً لها أو راعية ، فلم يكن نزوله بعيداً من وُرود أمةٍ حبشيّةٍ معها قِرْبَةٌ ، وكانت به عارفةً وبما بينها وبينَه ، فسلّمت عليه وجلستْ معه ، وجعل يحدّثها ويسألها عن أخبار بثينة ويحدّثها بخبره بعدَها ويُحمّلها رسائله . ثم أعطاها خاتمَه وسألها دفعهُ إلى بُثينة وأخْذَ موعدٍ عليها . ففعلت وانصرفت إلى أهلها وقد أبطأتْ عليهم . فلَقِيها أبو بثينة وزوجُها وأخوها فسألوها عمّا أبطأ بها ، فالتوت [1] عليهم ولم تخبرهم وتعلّلت ، فضربوها ضرباً مُبَرِّحاً ، فأعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه . ومرّ بها في تلك الحال فتَيان من بني عُذرة فسمعا القصّة كلّها وعرَفا الموضع الذي فيه جميل ، فأحبّا أن يُثَبّطا عنه فقالا للقوم : إنكم إن لَقِيتم جميلاً وليست بثينةُ معه ثم قتلتموه لزِمكم في ذلك كلُّ مَكروه ، وأهل بُثينة أعزّ عُذرة [2] ، فدَعُوا الأمَة تُوصل خاتمه إلى بثينة ، فإذا زارها بَيِّتْمُوهما [3] جميعاً . قالوا : صدقتما ، لَعَمري إنّ هذا الرّأيُ . فدفعوا الخاتم إلى الأمة وأمروها بإيصاله وحذّروها أن تُخبر بثينة بأنّهم علموا القصّة ، ففعلتْ ، ولم تعلم بثينةُ بما جرى . ومضى الفتَيان فأنذرا جميلاً فقال : والله ما أرهبُهم ، وإنّ في كِنانتي ثلاثين سهماً والله لا أخطأ كلُّ واحدٍ منها رجلاً منهم ، وهذا سيفي ، والله ما أنا به رَعِشِ اليد ولا جبانُ الجَنان . فناشداه اللهَ وقالا : البَقِيّة [4] أصلحُ ، فتُقيم عندنا في بيوتنا حتّى يهدأ الطلب ، ثم نبعث إليها فتزورك وتقضي من لِقائها

---

(١) التوى بكلامه : خالف به عن جهته .

(٢) لاحظ محقق المطبوعة أن الأنسب للسياق أن تكون العبارة : وأهل جميل ، وهو على حق فيما رآه .

(٣) بيت القوم : أوقع بهم ليلا .

(٤) البقية والبقيا : الإبقاء على العدو وعدم استئصاله .

وَطَراً وتنصرف سليماً غيرَ مُؤَبّن [1] . فقال : أمّا الآنَ فابعثا إليها من يُنذرُها . فأتياه براعيةٍ لهما وقالا له : قُل بحاجتك . فقال : ادخُلي إليها وقُولي لها : إنّي أردتُ اقتناص ظَبي فحذّره ذلك جماعةٌ اعتَوَرُوه من القُنّاص ففاتني الليلةَ . فمضت فأعلمتْها ما قال لها ، فعرفت قصّته وبحَثَتْ عنها فعرفَتْها ، فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ، ورصَدُوها فلم تبرَحْ مكانها ، ومضوا يقتصُّون أثره فرأوا بعرَ ناقته ، فعرفوا أنّه قد فاتهم ، فقال جميلٌ في ذلك :

خليليَّ عُوجا اليومَ حتّى تُسلّمـا ... على عَذْبة الأنيابِ طَيّبة النَّشْرِ
ألِمّا بها ثُمّ اشفعا لي وسَلّمـا ... عليها سقاها الله من سائغ القَطْرِ [2]

* عمر بن أبي بكر المؤمّلي وبُهلول بن سليمان البَلَويّ :

أنّ جميلاً قال لمّا زُوّجت بثينة نُبَيهاً :

ألا نادِ عِيراً من بُثَينة تَرتعـي ... نُوَدِّعْ على شَحْط النَّوَى ونُوَدِّعِ
وحثُّوا على جمع الرِّكاب وقرِّبوا ... جمالاً ونُوقاً جِلّةً لم تُضعضعِ

ومنها :

أُعيذُكِ بالرحمن من عيشِ شِقوةٍ ... وأن تطمَعي يوماً إلى غير مَطْمَعِ
إذا ما ابنُ مَلعُونٍ تحدّرَ رَشْحُه ... عليك فمُوتي بعد ذلك أو دَعِي
مَلِلْنَ ولم أملَلْ وما كنتُ سائماً ... لأجمال سُعدى ما أنَخن بجَعْجَعِ
ألا قد أرى ألاّ بُثينـة ها هنا ... لنا بعد ذا المصطاف والمُتَربَّعِ [3]

---

(١) غير مؤبن : غير متهم ولا معيب .
(٢) النشر : الرائحة الطيبة .
(٣) شحط النوى : البعد . الركاب : الابل . ابل جلة : مسنة . الرشح : العرق .

• وذكر الهيثم بن عديّ وأصحابه :

أنّ جماعةً من بني عُذرة حدّثوا أنّ جميلاً رصَد بثينة ذاتَ ليلةٍ في نُجْعة لهم ، حتّى إذا صادف منها خَلوةً سكِر ودنا منها ، وذلك في ليلةٍ ظلّماء ذات غيم وريحٍ ورَعْدٍ ، فحذفها بحَصاةٍ فأصابت بعض أترابها ، ففزعتْ وقالت : واللهِ ما حَذَفني في هذا الوقت بحَصاةٍ إلاّ الجنُّ ! فقالت لها بثينة وقد فَطِنت : إنّ جميلاً فعل ذلك ، فانصرفي ناحيةً إلى منزلك حتّى ننام . فانصرفتْ وبقيت مع بثينة أمُّ الجُسَير وأمّ مَنظور ، فقامت إلى جميل فأدخلتْه الخِباءَ معها ، وتحدّثا طويلاً . ثم اضطجع واضطجعت إلى جَنْبه فذهب النومُ بهما حتّى أصبحا ، وجاءها غلامُ زوجها بصَبُوحٍ من اللبن بعث به إليها ، فرآها نائمةً مع جميل ، فمضى لِوجهه حتّى خبَّر سيّدَه . ورأته ليلَى والصَّبُوحُ معه ، وقد عرفتْ خبر جميل وبثينة ، فاستوقفتْه كأنّها تسأله عن حاله ، وبعثت بجاريةٍ لها وقالت : حَذّري بثينة وجميلاً . فجاءت الجاريةُ فنبّهتْهُما. فلمّا تَبيَّنت بثينةُ الصبحَ قد أضاء والناسَ منتشرين ارتاعت وقالت : يا جميلُ ، نفسَك نفسك ! فقد جاءني غلام نُبَيهٍ بصَبوحي من اللبن فرآنا نائمَين . فقال لها جميل وهو غير مُكترث لمّا خَوّفتْه منه :

لَعَمرِك ما خوّفتني من مخافـــة ... بُثينَ ولا حَذّرتِني موضعَ الحَذَرْ
فأُقسِـم لا يُلفى ليَ اليومَ غِـرّةً ... وفي الكفّ منّي صارمٌ قاطعٌ ذَكَرْ

فأقسمتْ عليه أن يُلقيَ نفسه تحت النَّضَد [١] وقالت : إنّما أسألك ذلك خوفاً على نفسي من الفضيحة لا خوفاً عليك . ففعل ذلك ، ونامت كما كانت ، واضطجعت أمُّ الجُسَير إلى جانبها . وذهبت خادمُ ليلى إليها فأخبرتْها الخبرَ ، فتركت العبدَ يمضي إلى سيّده ، فمضى والصَّبُوح معه

(١) النضد : متاع البيت الذي نضد بعضه فوق بعض .

وقال له : إنيّ رأيت بثينة مضطجعةً وجميلٌ إلى جَنبها . فجاء نُبيهٌ إلى أخيها وأبيها فأخذ بأيديهما وعرّفهما الخبر ، وجاؤوا بأجمعهم إلى بثينة وهي نائمةٌ ، فكشفوا عنها الثوب فإذا أمُّ الجُسَير إلى جانبها نائمةٌ . فخجل زوجها وسبّ عبدَه ، وقالت ليلى لأخيها وأبيها : قَبَحكما اللهُ ! أفي كلّ يوم تفضحان فتاتَكما ويلقاكما هذا الأعور فيها بكلّ قبيح ! قبّحه اللهُ وإيّاكما . وجعلا يَسُبّان زوجها ويقولان له كلَّ قول قبيح . وأقام جميلٌ عند بُثينة حتى أجنّه (١) الليلُ ، ثم ودّعها وانصرف . وحَذِرتْهم بُثينة لِما جرى من لقائه إيّاها فتحامَتْه مُدّةً . فقال في ذلك :

أأن هَتَفَتْ وَرْقاءُ ظَلْتَ سَفاهـةً
تُبكّي على جُمْلٍ لِورقاءَ تَهتِفُ

فلو كان لي بالصُّرم يا صاحِ طاقـةٌ
صرمتُ ولكنّي عـن الصّرم أضعُفُ

لها في سواد القلب بالحـبّ مَيْعـةٌ
هي الموتُ أو كادت على الموت تُشرِفُ

وما ذكرتْك النفسُ يا بَثْنَ مـرّةً
من الدّهر إلاّ كادت النفس تَتْلَفُ

وإلاّ اعترتني زَفْرةٌ واستكانـةٌ
وجاد لها سَجْلٌ من الدمْعِ يَذْرِفُ

وما استطرفت نفسي حديثاً لخُلّـة
أسَرُّ بـه إلاّ حديثُك أطرَفُ (٢)

---

(١) أجنه : ستره وأخفاه .

(٢) الورقاء : الحمامة . الميعة : أول الشباب والصمغ وعطر طيب الرائحة ، وأراد بها هنا لوعة الحب ولذعته . الخلة : الخليلة .

وأوّل هذه القصيدة :

أمِن منزلٍ قَفْرٍ تعفّت رُسُومَـــه
شَمالٌ تُغاديه ونَكْبـاءُ حَرْجَـف

فأصبح قَفْراً بعدمـا كانَ آهــلاً
وجُمْلُ المُنى تشتُو بــه وتُصَيِّفُ

ظِلِلْتَ ومُسْتَنٌّ من الدمع هامــلٌ
من العين لمّا عُجت بالدار ينزِف

أمُنصِفَتي جُمْلٌ فتَعْدِلَ بيننَــا
اذا حكمت والحاكم العَدْل يُنصِف

تعلّقْتُها والجسم مــنّي مُصَحّحٌ
فما زال يَنمي حُبّ جُملٍ وأضْعُفُ

إلى اليوم حتّى سَلّ جِسمي وشَفّني
وأنكرتُ من نفسي الذي كنت أعرِف

قناةٌ من المُرّان ما فوقَ حَقْوهــا
وما تحته منهــا نَقــاً يتقصّــف

لها مُقلتا ريمٍ وجِيــد جَدايــةٍ
وكَشحٌ كطيّ السابريّــةِ أهيَــفُ

ولست بناسٍ أهلَها حــين أقبلُوا
وجالوا علينــا بالسيوف وطَوّفــوا

وقالوا جميلٌ بات في الحيّ عندهــا
وقد جرّدوا أسيافهم ثُم وقّفــوا

وفي البيت ليث الغاب لولا مَخافةٌ
على نفس جُمْلٍ والإلهِ لأُرعِفُوا

هممت وقد كادت مزاراً تطلّعت
إلى حرّبهم نفسي وفي الكفّ مُرهَفُ
وما سَرّني غيرُ الذي كان منهـــمُ
ومنّي وقد جاؤوا إليّ وأوجَفُوا
فكم مُرتجٍ أمراً أُتيح لــه الرّدى
ومن خائفٍ لم ينتقصْه التَخوّفُ (١)

مهاجاته شعراء بني الأحبّ

أبو غسّان محمد بن يحيى المكّيّ :

أنّ جميلاً لما اشتهرت بثينة بحُبّه إيّاها اعترضه عُبيد الله بن قُطْبة . أحدُ بني الأَحَبّ ، وهو من رَهطها الأدْنَين . فهجاه . وبلغ ذلك جميلاً فأجابه ، وتطاولا فغلبه جميلٌ وكفّ عنه ابنُ قُطبة . واعترضه عُمير ابن رَمْل — رجلٌ من بني الأحبّ — فهجاه . وإيّاه عنى جميلٌ بقوله :

اذا الناسُ هابوا خِزْيةً ذهبتْ بها ... أحَبُّ المَخازي كهلُها ووليدُها
لَعَمرُ عجوزٍ طَرّقتْ بك إنّـــني ... عُميرَ بنَ رَمْلٍ لابنُ حربٍ أقودها
بنفسي فلا تقطَعْ فؤادَك ضَلّــةً ... كذلك حزْني وعثُها وصَعُودُها (٢)

---

(١) النكباء : الريح التي تنحرف عن مهب الرياح . الخرجف : الباردة الشديدة الهبوب . المستن : المنصب . المران : الرماح الصلبة اللدنة . الحقو : الكشح . النقا : الكثيب من الرمل . الجداية : الغزال . السابري : الرقيق من الثياب . أرعفه : أعجله ورعف : سال الدم من أنفه . أوجف : أسرع .

(٢) طرقت بك : حملت بك . الحزن : ما غلظ من الأرض . الوعث : الطريق العسر والمكان اللين تغوص فيه الأقدام . الصعود : العقبة الشاقة والطريق الصاعدة .

محمّد بن الضّحاك عن أبيه قال :

لمّا هاجى عُبيد الله بن قُطبة جميلاً واستعلى عليه جميلٌ أعرض عنه . واعترضه أخوه جوّاس بن قُطبة ، فهجاه وذكر أُختاً لجميل . وكان جميل قبل ذلك يحتقره ولا ينصب له (١) ، حتى هجا أُخته ... فغضب جميل حينئذٍ فواعده للمراجزة .

عن عبّاس قال :

قدمت من عند عبد الملك بن مروان وقد أجازني وكساني بُرداً ، كان ذلك البُرد أفضلَ جائزتي . فنزلت وادي القُرى ، فوافقتُ الجُمعة بها . فاستخرجت بُردي الذي من عند عبد الملك وقُلت أُصلّي مع الناس . فلَقيني جميلٌ ، وكان صديقاً لي ، فسلّم بعضُنا على بعضٍ وتساءَلنا (٢) ثم افترقنا . فلمّا أمسيت إذا هو قد أتاني في رَحْلي فقال : البُرْد الذي رأيتُه عليك تُعيرُنيه حتى أتجمّل به ، فإنّ بيني وبين جوّاس مُراجزةً ، وتحضُر فتسمع . قال قلت : لا ، بل هو لك كِسوةٌ . فكسوتُه إيّاه وقلت لأصحابي : ما من شيءٍ أحبُّ إليّ من أن أسمع مُراجزتهما .

فلمّا أصبحنا جعل الأعاريبُ يأتون أرْسالاً حتى اجتمع منهم بشرٌ كثير . وحضرتُ وأصحابي ، فإذا بجميلٍ قد جاء وعليه حُلّتان ما رأيت مثلهما على أحد قطُّ . وإذا بُرْدي الذي كسوتُه إيّاه قد جعله جُلاًّ لجمله . فتراجزا ، فرجز جميلٌ ، وكانت بثينة تُكنَى أُمَّ عبد الملك ، فقال :

يا أُمَّ عبد الملك اصْرِميني ... فبيِّني صرميَ أو صِليني
أبكي وما يُدريكِ ما يُبكيني ... أبكي حِذارَ أن تُفارقيني
وتجعلي أبعدَ منّي دُوني ... إنّ بني عمّك أوعدُوني

---

(١) نصب له : عاداه وتجرد له .
(٢) تساءلنا : سأل كل منا عن أحوال الآخر .

أن يقطعُوا رأسي إذا لَقُوني ويقتلوني ثم لا يَدُوني

كلاّ وربِّ البيت لو لَقُوني شَفْعاً وَوَتْراً لَتَواكلوني

قد علم الأعداءُ أنّ دُوني ضرباً كإيزاغ المَخاض الجُون

ألا أَسُبُّ القوم إذ سَبُّوني بلَى وما مرَّ على دَفِين

وسابحاتٍ بلِوى الحَجُون قد جرّبوني ثم جرّبوني

حتى إذا شابُوا وشَيّبُوني أخزاهم اللهُ ولا يُخزوني

أشباهُ أعيارٍ على مَعِينِ أَحْسَسن حِس أسد حَرُون

فهنّ يَضرِطْن من اليقين أنا جميلٌ فتعرّفوني

وما تقنّعتُ فتُنكِروني وما أُعنّيكم لِتسألوني

أُنمَى إلى عاديةٍ طَحُونِ يَنشقُّ عنها السيلُ ذو الشُّؤون

غَمْرٌ يدقُّ رُجُحَ السَّفِين ذو حَدَبٍ اذا يُرى حَجُون

تنحلّ أحقادُ الرّجال دوني (١)

قال : ورجز جميل أيضاً :

أنا جميلٌ في السّنام من مَعَدّ

ثم رجز بعده جَوّاسٌ فلم يصنع شيئاً . قال : فما رأيت غَلَبةً مثلَها قطّ .

---

(١) شفعاً ووتراً : أزواجاً وأفراداً ، أو مرة ومرتين . تواكلوني : وكلني بعضهم إلى بعض خوفاً مني . الإيزاغ : دفع الناقة ببولها . الجون : السود أو البيض . دفين : اسم موضع . الحجون : جبل بأعلى مكة ، والسابحات : أراد النوق المسرعة . العير : حمار الوحش . المعين : منهل الماء . أنمى : أنسب . الغمر : الموج والماء الكثير . رجح السفين : السفن الثقيلة الموقرة . حدب السيل : ارتفاعه . حجون : بعيد .

عن العَلاء بن سعيد البَلَوي وجماعةٍ غيره من قومه :

أنّ رجلاً من بني عُذرة كان يقال له خَوّات ، أمّه بَلَوِيّة ، وكان شاعراً ، وكان جميلٌ ابنَ جُذاميّة . فخرج جميل إلى أخواله بجُذام وهو يقول :

جُذامٌ سُيوف الله في كلّ مَوطنٍ
إذا أزمت يومَ اللقاء أزامِ
همُ منعوا ما بين مِصرَ فذي القُرى
إلى الشام مِن حِلٍّ به وحَرام
بضرب يُزيل الهامَ عن سَكَناته
وطعنٍ كإيزاغ المَخاض تُؤامِ
إذا قصرت يوماً أكفٌّ قبيلةٍ
عن المجد نالته أكُفٌّ جُذام (١)

فأعطوه مائة بَكْرة . قال : وخرج خَوّاتٌ إلى أخواله من بَلِيّ وهو يقول :

إنّ بليّاً غُرّةٌ يهتدَى بها
كما يهتدي الساري بمُطّلَع النجم
هم ولَدُوا أُمّي وكنت ابن أُختهم
ولم أتخوّلْ جِذْمَ قومٍ بلا عِلمِ (٢)

قال : فأعطوه مائة غُرّةٍ ما بين فرسٍ إلى وَليدةٍ ، ففخر على صاحبه ،

---

(١) أزام : شدة ، وهو مبني على الكسر . المخاض : النوق الحوامل . واحدته خلفة . تؤام ج توءم : يريد أنه طعن كثير متدارك . سكناته : مستقره وموضعه من العنق .
(٢) تخوله : اتخذه خالا .

وذكر أنّ الغُرّة الواحدة ممّا أتى به ميمّا معه تعدِل كلّ شيءٍ أتى به جميل . فقال عبيد الله بن قُطبة :

ستقضي بيننا حكماءُ سَعدٍ   أقُطبةُ كان خيراً أم صُباحُ

قال : وكان عبد الله بن مَعْمَر ، أبو جميل ، يُلقّب صُباحاً . وكان عبيد الله بن قُطبة يلقب حماظاً [1] . فقال النَخّار العُذريّ ، أحد بني الحارث بن سعد : قطبة كان خيراً من صُباح ، فقال جميل يهجو بني الأحبّ ، رهط قُطبة ، ويهجو النخّار :

إنّ أحبَّ سُفّلٌ أشرارُ   حُثالةٌ عُودُهم خَوّارُ
أذلُّ قوم حين يُدعى الجار   كما أذلَّ الحارثَ النَخّارُ

... وقال جماعة من شعراء سعد في تفضيل قُطبة على صُباح أقوالاً أجابهم عنها جميل فأفحمهم ...

استعداء قوم بثينة السلطان على جميل وإهداره دمه

عن أبي عمرو وإسحاق بن مروان قالا :

عشق جميل بثينة وهو غُلامٌ ، فلمّا بلغ خطبها فمُنع منها ، فكان يقول فيها الأشعار حتى اشتُهر وطُرد ، فكان يأتيها سِرّاً . ثم تزوّجت فكان يزورها في بيت زوجها في الحيّ خُفية ، إلى أن استُعمل دَجاجةُ ابن رِبْعيّ على وادي القُرى ، فشكوه إليه، فتقدّم إليه ألاّ يُلمّ بأبياتها، وأهدر دمَه لهم إن عاود زيارتها ، فاحتبس حينئذٍ .

جابر أبو العلاء التنوخيّ قال :

لمّا نذَر أهل بثينة دمَ جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميلٍ ،

---

(١) كذا في بعض الأصول ، ولا يتضح المقصود بهذا اللفظ .

فكان يصعد بالليل على قُور (١) رملٍ يتنسّم الريح من نحو حيّ بثينة ويقول :

أيا ريحَ الشّمال أمــــا تـَرَيْني أهيمُ وأنّني بـــادي النُّحول ِ
هَبي لي نسمةً من ريح بطــنٍ ومُنّي بالهُبوب إلى جميـــل
وقولي يا بثينةُ حسبُ نَفْســي قليلُك أو أقــلُّ من القليـــل

فإذا بــدا وضح الصبح انصرف . وكانت بثينة تقول لجَوارٍ من الحيّ عندها : وِيحَكُنّ ، إنّي لأسمع أنين جميل من بعض القِيران ! فيقلن لها : اتّقي الله ! فهذا شيءٌ يُخيّلُه لك الشيطان لا حقيقةَ له .

وقال الهيثم بن عديّ وأصحابه في أخبارهم :

لمّا نذرَ أهل بُثينة دمَ جميل وأباحهم السلطان قتله ، أعذَرُوا (٢) إلى أهله . وكانت منازلهم متجاورةً ، إنّما هم بُيوتات يفترقون كما يفترق البطون والأفخاذ والقبائل غيرَ متباعدين ، ألم تر إلى قول جميل :

أبيتُ مع الهُلاّك ضيفاً لأهلهـــا
وأهلي قريبٌ مُوسِعون أُولو فَضلِ (٣)

فمشت مَشيخة الحيّ إلى أبيه – وكان يُلقّب صُباحاً وكان ذا مالٍ وفضل وقدر في أهله – فشكَوه اليه وناشدُوه اللهَ والرَّحِمَ وسألوه كفَّ ابنه عمّا يتعرّض له ويفضحهم به في فتاتهم ، فوعدهم كفّه ومَنعه ما استطاع ، ثم انصرفوا . فدعا به فقال له : يا بُنيّ ، حتى متى أنت عَمِهٌ في ضَلالك ! لا تأنف من أن تتعلّق بذات بَعْلٍ يخلُو بها ... وأنت عنها بمَعْزِلٍ ، ثم تقوم من تحته إليك فتَغُرُّك بخداعها وتُريك الصَّفاء والمودّة

---

(١) القور ج قارة : الأكمة العظيمة .
(٢) أعذر إليه : أظهر عذره .
(٣) الهلاك : الصعاليك .

وهي مُضمِرة لبَعلها ما تُضمره الحُرّة لمن ملَكها ، فيكون قولها لك تعليلاً وغرُوراً ، فإذا انصرفتَ عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة ؛ إنّ هذا لَذلّ وضَيم ! ما أعرف أخيب سهماً ولا أضيعَ عُمراً منك . فأنشدُك اللهَ إلاّ كففتَ وتأمّلت أمرَك ، فإنّك تعلم أنّ ما قُلتُه حقٌ ، ولو كان إليها سبيلٌ لبذلتُ ما أملكه فيها ، ولكنّ هذا أمرٌ قد فات واستبدّ به من قُدّر له، وفي النّساء عِوضٌ . فقال له جميل : الرأيُ ما رأيتَ ، والقول كما قلت ، فهل رأيت قبلي أحداً قدَر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو ملَك أن يُسلي نفسَه ، أو استطاع أن يدفَع ما قُضي عليه ؟ واللهِ لو قدرتُ أن أمحو ذِكرها من قلبي أو أُزيل شخصَها عن عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنّما هو بلاءٌ بُليتُ به لحَيْنٍ (١) قد أُتيح لي، وأنا أمتنع من طُروق هذا الحيّ والإلمام بهم ولو مُتّ كمَداً ، وهَذا جَهْدي ومَبلغ ما أقدر عليه . وقام وهو يبكي ، فبكى أبوه ومن حضَر جزَعاً لما رأوا منه . فذلك حين يقول جميل :

ألا مَن لِقلبٍ لا يَمَلُّ فيَذْهَلُ
أَفِقْ فالتَعزّي عن بُثينةَ أَجملُ
سَلا كلُّ ذي وُدٍّ علمتُ مكانَه
وأنتَ بها حتّى المماتِ مُوكَّلُ
فما هكذا أحببتَ مَن كان قبلَها
ولا هكذا فيما مضى كنت تفعلُ
فيا قلبُ دَعْ ذكرى بثينة إنّها
وإن كنت تَهواها تضِنُّ وتَبخَلُ
وقد أيأَست من نَيلها وتجهّمتْ
ولَليأسُ إن لم يُقدَرِ النَيل أمثَلُ

(١) الحين : الهلاك .

وإلاَّ فسَلْها نائلاً قبـل بَينهـــا
وأبْخِلْ بهـا مَسؤولةً حين تُسأل
وكيف تُرجّي وصلَها بعدَ بُعدِها
وقد جُذَّ حبل الوصل ممّن تُؤمّل
وإنَّ التي أحببتَ قد حِيل دونَهــا
فكن حازمــاً والحازم المتحــوِّلُ
ففي اليأس ما يُسلي وفي الناس خُلّةٌ
وفي الأرض عمّن لا يُواتيك مَعْزِل
بدا كَلَفٌ منّي بهـــا فتثاقلــتْ
وما لا يُرى من غائب الوَجدِ أفضَلُ
هبيني بريئــاً نِلتِـه بظُلامــةٍ
عفاهــا لكَم أو مُذنِبــاً يتنصَّــلُ
قناةٌ من المُرّان ما فــوق حَقْوِها
وما تحتَه منها نقــاً يتهيّــلُ (١)

عن السّعديّ قال : حدّثني رجلٌ كان يصحَب جميلاً من أهل تَيْماءَ قال :

كنتُ يوماً جالساً مع جميل ، وهو يحدّثني وأحدّثه ، اذ ثار وتربّد وجهُه ، فأنكرتُه ورأيت منه غيرَ ما كنت أرى ، ووثب نافراً مقشعرَ الشّعر ، متغيّر اللون ، حتى أتي بناقة له قريبة من الأرض مجتمعة مُوَثّقة الخَلْق فشَدّ عليها رَحْلَه ، ثم أُتي بمِحْلَب فيه لبنٌ فشربه ، ثم ثَنّى بي فشربتُ حتى رَويتُ ، ثم قال لي: اشدُدْ أداة رَحْلك واشرب

(١) يتهيل : ينهال ويتساقط .

واسق جَملك فإنّي ذاهبٌ بك إلى بعض مَذاهبي ، ففعلتُ . فجال في ظهر ناقته وركبتُ ناقتي ، فسِرنا بياضَ يومنا وسَواد ليلتنا ، ثم أصبحنا فسِرْنا يومَنا كلّه ، لا والله ما نزلنا إلاّ للصّلاة . فلمّا كان اليومُ الثالث دَفعْنا إلى نِسوة ، فمال إليهنّ ، ووجدنا الرّجال خُلوفاً (١) ، وإذا قِدرُ لَبنٍ ثَمّ وقد جُهِدتُ جوعاً وعطشاً . فلمّا رأيت القدر اقتحمت عن بعيري وتركته جانباً ، ثم أدخلت رأسي في القدر ما يَثنيني حرُّها حتى رَويتُ ، فذهبت أخرج رأسي من القدر فضاقت عليّ وإذا هي على رأسي قَلَنْسِية ، فضحِكْن منّي وغسلنَ ما أصابني . وأُتي جميلٌ بِقِرًى ، فوالله ما التفت إليه . فبينا هو يحدّثهنّ اذا رَواعي الإبل ، وقد كان السلطان أحلّ لهم دمَه إن وجدوه في بلادهم ، وجاء الناسُ فقالوا له : ويحك ، انجُ وتقدَّمْ . فوالله ما أكبرهَم كلّ الإكبار . وغشِيَه الرجالُ فجعلوا يرمُونه ويطرُدونه ، فإذا قربُوا منه قاتلهم ورمى فيهم . وهام بي جمَلي فقال لي : يَسِّرْ لنفسك مركباً خلفي . فأردفَني خلفَه ، لا والله ما انكسر ولا انحلّ عن فِرصته (٢) حتى رجع إلى أهله ، وقد سار ستّ ليالٍ وستّةَ أيام وما التفت إلى طعام .

وشكا زوج بثينة إلى أبيها وأخيها إلمامَ جميل بها ، فوجّهوا إلى جميل فأعذروا إليه وشكوه إلى عشيرته وأعذَرُوا إليهم وتوعّدُوه وإيّاهم . فلامه أهلُه وعنّفوه وقالوا : استخلِصْ إليهم (٣) ونبرأ منك ومن جَريرتك. فأقام مُدّةً لا يُلمّ بها . ثم لقي ابنَي عمّه روقاً ومَسْعَدة ، فشكا إليهما ما به ... فقال له روق : إنّك لعاجزٌ ضعيفٌ في استكانتك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها ، مع كثْرة النساء ووجود من هو أجمل منها ، وإنّك

---

(١) خلوفاً : غائبين عن الحي .
(٢) الفرصة : القطعة من الصوف والقطن ، يريد ما وضعه تحته فوق الرحل .
(٣) استخلص اليهم : امض اليهم .

منها بين فُجورٍ أرفعك عنه ، أو ذُلٍّ لا أحبّه لك ، أو كَمَدٍ يُؤَدّيك إلى التَلَف ، أو مخاطرةٍ بنفسك لقومها إنّ تعرَّضْتَ لها بعد إعذارهم إليك . وإن صرفت نفسكَ عنها وغلبت هواك فيها وتجرّعت مرارةَ الحزم حتّى تألفَها وتصبر نفسك عليها طائعةً أو كارهةً ألِفتَ ذلك وسَلَوْتَ . فبكى جميل وقال : يا أخي ، لو ملكتُ اختياري لكان ما قلتَ صواباً ، ولكنّي لا أملك الاختيار ولا أنا إلاّ كالأسير لا يملِك لنفسه نفعاً ، وقد جِئتك لأمرٍ أَسألك ألاّ تُكدّر ما رجوتُه عندك فيه بلَومٍ ، وأن تحمل على نفسك في مُساعدتي . فقال له : فإن كنتَ لا بُدَّ مُهلِكاً نفسَك فاعمَلْ على زيارتها ليلاً ، فإنّها تخرج مع بنات عمٍّ لها إلى ملعبٍ لهنّ ، فأجيءُ معك حينئذٍ سِرّاً ، ولي أخٌ من رَهط بثينة من بني الأحَبّ نأوي عندَه نهاراً ، وأسألُه مساعدتك على هذا ، فتقيم عنده أياماً نهارَك ، وتجتمع معها بالليل إلى أن تقضيَ أَرَبَك ، فشكره ومضى رَوق إلى الرجل الذي من رهط بثينة،فأخبره الخبر واستعهده كِتمانَه وسأله مساعدته فيه. فقال له: لقد جئتَني بإحدى العظائم ، ويحَكَ ! إنّ في هذا مُعاداتي الحيّ جميعاً إن فُطن به . فقال : أنا أتحرّز في أمره من أن يظهر ، فواعَده في ذلك . ومضى إلى جميل فأخبره بالقصّة ، فأتيا الرجل ليلاً ، فأقاما عنده . وأرسل إلى بثينة بوليدةٍ له بخاتم جميل ، فدفعتْه إليها . فلمّا رأتْه عرفتْ ، فتبعتْها وجاءته ، فتحدّثا ليلتَهما . وأقام بموضعه ثلاثةَ أيّامٍ ثم ودّعها وقال لها : عن غير قِلىً والله ولا مَلل يا بثينة كان وَداعي لك ، ولكنّي قد تذمّمتُ من هذا الرجل الكريم وتعريضِه نفسَه لقومه، وأقمتُ عنده ثلاثاً ولا مَزيدَ على ذلك . ثم انصرف ؛ وقال في عذل روق ابن عمّه إيّاه :

لقد لامني فيهــا أخٌ ذو قرابةٍ	حبيبٌ إليه في مَلامته رُشدي
وقال : أفِقْ حتّى متى أنت هائمٌ	ببثنةَ فيها قد تُعيد وقد تُبدي
فقلت له : فيها قضى الله ما تــرى	عليّ وهل فيما قضى الله من رَدّ

فإن يكُ رُشداً حبُّها أو غَوايــةً فقد جئتُه ما كان منّي على عَمْدِ
لقد لجّ ميثاقٌ مــن الله بيننــــا وليس لمن لم يُوفِ لله من عَهْد
فلا وأبيها الخيرِ ما خنتُ عهدَهــا ولا لي علمٌ بالذي فعلتْ بعدي
وما زادها الواشون إلاّ كرامةً عليّ وما زالت مودّتُها عندي
أفي الناس أمثالي أحبّوا فحالُهــم كحالي أم أحببتُ من بينهم وحدي
وهل هكذا يلقى المحبّون مثلَ مــا لقيتُ بها أم لم يجِد أحدٌ وَجدي

نزوحه إلى اليمن ثم إلى الشام ومصر

عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه قال : حدّثني بعض رُواة عُذرة :

أنّ السلطان أهدر دم جميل لرهط بثينة إن وجدوه قد غشي دُورَهم ، فحذِرهم مدّةً ، ثم وجدوه عندها ، فأعذروا إليه وتوعّدوه وكرهوا أن ينشب بينهم وبين قومه حربٌ في دمه ، وكان قومه أعزَّ من قومها ، فأعادوا شكواه إلى السلطان ، فطلبه طلباً شديداً ، فهرب إلى اليمن فأقام بها مُدّةً ...

قال أبو عمرو : وحدّثني هذا العُذريُّ أنّ جميلاً لم يزل باليمن حتى عُزِل ذلك الوالي عنهم .

عن أيوب بن عَباية قال :

لمّا أراد جميل الخروج إلى الشام ، هجم ليلاً على بُثينة ، وقد وجد غَفلةً ، فقالت له : أهلكتَني والله وأهلكتَ نفسك ! ويحَك ، أما تخاف ؟ فقال لها : هذا وجهي إلى الشأم ، إنّما جئتك مودّعاً . فحادثها طويلاً وقال : يا بثينةُ ، ما أرانا نلتقي بعد هذا . وبكيا طويلاً ، ثم قال لها وهو يبكي :

ألا لا أبالي جَفوةَ الناس ما بـدا لنا منك رأيٌ يا بُثينَ جميـل
وما لم تُطيعي كاشحاً أو تَبدَّ لـي بنا بَدلاً أو كان منك ذهُول
وانّي وتكراري الزِّيارة نحوكـم بُثينَ بذي هَجْرٍ بثينَ يَطُـول
وانّ صَباباتي بـكم لكثيـرةٌ بُثينَ ونِسيانيـكمُ لَقليـلُ

وفاته بمصر

أيّوب بن عَباية قال :

خرجتُ من تيماءَ (١) في أغباشَ السَّحَر (٢) ، فرأيت عجوزاً على أتان ، فتكلّمتْ فإذا أعرابيّةٌ فصيحة ، فقلت : ممّن أنتِ ؟ فقالت : أنا عُذريّة . فأجريتُ ذكِر جميل وبُثينة فقالت : والله إنّا لعلى ماءٍ لنا بالجَناب (٣) وقد تنكّبنا الجادّة (٤) لجيوشٍ كانت تأتينا من قِبل الشّأم تُريد الحجاز ، وقد خرج رجالُنا لِسفرٍ وخلّفُوا معنا أحداثاً ، فانحدروا ذاتَ عشيّةٍ إلى صِرْمٍ قريبٍ منا يتحدّثون إلى جَوارٍ منهم ، فلم يبق غيري وغير بثينة ، إذ انحدر علينا مُنحدِرٌ من هَضْبَةِ تِلقاءَنا ، فسلّم ونحن مُستوحشون وَجِلون . فتأمّلتُه ورددتُ السلامَ فإذا جميلٌ . فقلت : أجميلٌ ؟ قال : إي والله . وإذا به لا يتماسك جُوعاً ، فقمت إلى قَعْبٍ لنا فيه أَقِطٌ(٥) مطحون وإلى عُكّةٍ (٦) فيها سمنٌ ورُبّ (٧) ، فعصرتُها

(١) تيماء : قرية في شمالي الحجاز ، على تخوم بلاد الشام .
(٢) أغباش السحر : ظلمة آخر الليل .
(٣) الجناب : الناحية والفناء .
(٤) الجادة : معظم الطريق .
(٥) الأقط : شيء يتخذ من المخيض الغنمي .
(٦) العكة : الزق الصغير يوضع فيه السمن .
(٧) الرب : ما يطبخ من التمر .

على الأُقيط ثم أدنيتُها منه وقلت : أصِبْ من هذا . فأصاب منه ، وقمت إلى سِقاء فيه لبنٌ فصببتُ عليه ماءً بارداً فشرب منه وتراجعتْ نفسُه . فقلت له : لقد بلغتَ ولقيت شرّاً، فما أمرُك؛ قال : أنا والله في هذه الهَضْبة التي تَرَين منذ ثلاث ما أريمُها [1] أنتظر أن أرى فُرْجةً ، فلمّا رأيت مُنْحَدَر فتياتكم أتيتكم لأُودّعكم ، وأنا عامدٌ إلى مصر . فتحدّثنا ساعةً ثم ودّعَنا وشخص ، فلم تطل غَيبته أن جاءنا نَعيُه . فزعموا أنه قال حين حضرتْه الوفاةُ :

صَدَعَ النَّعِيُّ وماكنَى بجميـلِ ... وثوى بمصرَ ثَواءَ غيرِ قُفُولِ
ولقد أجُرُّ الذَّيْلَ في وادي القُرى ... نَشْوانَ بين مَزارعٍ ونخيلِ
قُومي بثينةُ فانْدُبي بعَويـلِ ... وابكي خليلَكِ دون كلِّ خليلِ

عن الأصمعيّ قال :

حدّثني رجلٌ شهد جميلاً لمّا حضرتْه الوفاة بمصر أنه دعاه فقال : هل لك في أن أعطيك كلَّ ما أُخلّفُه على أن تفعل شيئاً أعهَده إليك؟ قال فقلت : اللهمّ نعمْ . قال : اذا متُّ فخُذْ حُلّتي هذه التي في عَيْبتي [2] فاعزِلها جانباً ثم كلُّ شيءٍ سواها لك ، وارحَلْ إلى رَهط بني الأحَبّ من عُذرة ، وهم رهط بثينة ، فإذا صرتَ إليهم فارتحل ناقتي هذه واركَبْها، ثم البَسْ حُلّتي هذه واشقُقْها ثم اعْلُ على شَرَفٍ وصِحْ بهذه الأبيات وخَلاك ذمّ . ثم أنشدني هذه الأبيات :

صَدَعَ النعيّ وما كنى بجميـلِ ... وثوى بمصرَ ثَواءَ غير قُفُولِ

وذكر الأبيات المتقدّمة . فلمّا قضى وواريتُه أتيت رهط بثينة ففعلت

---

(١) ما أريمها : ما أفارقها .

(٢) العيبة : ما يجعل فيه الثياب .

ما أمرني به جميل ، فما استممتُ الأبيات حتى برزتْ إليّ امرأةٌ يتبعها نِسوةٌ قد فَرعتهنّ طولاً وبرزت أمامهنّ كأنّها بدرٌ قد برز في دُجُنّةٍ[1] وهي تتعثّر في مِرْطها[2] حتى أتتني فقالت : يا هذا ، والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتَني ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتَني . قلت : والله ما أنا إلاّ صادقٌ ، وأخرجتُ حُلّته ، فلمّا رأتْها صاحت بأعلى صوتها وصَكّت وجهها ، واجتمع نساء الحيّ يبكِين معها ويندُبْنَه حتى صَعِقت ، فمكثت مغشياً عليها ساعةً ، ثم قامت وهي تقول :

وإنّ سُلُوّي عن جميلٍ لَساعـةٌ | من الدهر ما حانت ولا حان حِينُها
سواءٌ علينا يا جميلُ بن مَعْمَـرٍ | اذا مُتَّ بَأساءُ الحياة ولِينُهـا

قال : فلم أرَ يوماً كان أكثر باكياً وباكيةً منه يومئذٍ .

• • •

(١) الدجنة : الظلمة .
(٢) المرط : كساء من صوف .

٣٤

الحارث بن خالد

(الأغاني ج ٣ ص ٣١١ و ج ٩ ص ٢٢٧)

الشاعر

الحارث بن خالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر [١] بن مخزوم ...وكان العاص بن هشام جدُّ الحارث بن خالد خرج مع المشركين يوم بدر فقتله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ...

والحارث بن خالد أحد شعراء قريش المعدودين الغَزَليين ، وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة لا يتجاوز الغزل الى المديح ولا الهجاء ،

---

(١) في الجزء الثالث من المطبوعة : عبد الله بن عمرو ، وفي الجزء التاسع : عبد الله بن عمر ؛ وهو الصواب .

وكان يهوى عائشة بنت طَلحة بن عبيد الله ويُشبّب بها ؛ وولاّه عبد الملك بن مروان مكّةَ . وكان ذا قَدْر وخَطَر ومنظر في قريش ، وأخوه عِكرمة بن خالد المخزوميّ مُحدّث جليل من وجوه التّابعين ...

قال مُعاذ بن العلاء أخو أبي عَمرو بن العلاء : كان أبو عمرو إذا لم يَحُجّ استَبْضَعَني الحروف أسأل عنها الحارث بن خالد [1] ... وآتيه بجوابها . قال : فقدمت عليه سنةً من السنين وقد ولاّه عبد الملك بن مروان مكة . فلمّا رآني قال : يا مُعاذُ ، هاتِ ما معك من بضائع أبي عمرو . فجعلتُ أعجب من اهتمامه بذلك وهو أمير .

محمد بن الضّحاك الحزاميّ قال : كانت العرب تفضّل قريشاً في كلّ شيءٍ إلاّ الشعر . فلمّا نجم في قريش عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزوميّ والعَرْجيّ وأبو دَهْبَل وعبيد الله بن قيس الرُّقَيّات أقرّت لها العربُ بالشعر أيضاً .

عن يحيى بن عُروة بن أُذَينةَ عن أبيه قال : كان كُثَيّرٌ جالساً في فِتيةٍ من قريش إذ مرّ بهم سعيدُ الرّاس ، وكان مغنّياً ، فقالوا لكثيّر : يا أبا صخر ، هل لك أن نُسمعك غناءَ هذا ، فإنّه مجيد ؟ قال : افعَلُوا . فدعَوا به . فسألوه أن يغنّيهم :

هَلاّ سألتَ معالمَ الأطــلالِ ... بالجِزْعِ مِن حُرُضٍ وهنّ بَوالي
سَقْياً لعَزّةَ خُلّتي سَقيــاً لهــا ... إذ نحن بالهضَبــات من أملالِ
إذ لا تُكلّمُنا وكان كلامُهــا ... نَفَلاً نُؤَمّله من الأنفــالِ [2]

فغنّاه ، فطرب كثيّرٌ وارتاح ، وطرب القومُ جميعــاً واستحسنوا

---

(١) يريد أنه يحمله المسائل يسأل عنها الحارث بن خالد .

(٢) حرض : واد قرب أحد . أملال : موضع على طريق المدينة إلى مكة . النفل : الغنيمة الهبــة .

قول كُثير وقالوا : يا أبا صخر ، ما يستطيع أحد أن يقول مثل هذا ! فقال : بلى . الحارث بن خالد حيث يقول :

إنّي وما نَحَروا غَداةَ مِنىً عند الجِمار تَؤُودُها العُقُلُ
لو بُدّلت أعلى مَساكنها سُفلاً وأصبح سُفلُها يعلو
لعرفتُ مَغناها بما احتملتْ منّي الضُلوعُ لأهلها قَبْلُ (١)

مؤدّب لبني هشام بن عبد الملك قال : بينا أنا ألقي على وَلد هشام شعرَ قريش إذ أنشدتُهم شعر الحارث بن خالد :

ان امرأً تعتاده ذِكَرٌ منها ثلاثُ مِنىً لذُو صَبْرِ

وهشامٌ مُصغٍ اليّ حتى ألقيت عليهم قوله :

ففرغْنَ من سَبعٍ وقد جُهِدتْ أحشاؤهنّ مَوائلَ الخُمُرِ

فانصرف وهو يقول : هذا كلامُ مُعاينٍ . (٢)

محمد بن سَلاّم قال :

كانت سوداءُ بالمدينة مشغوفةً بشعر عمر بن أبي ربيعة ، وكانت من مولّدات مكة . فلمّا ورد على أهل المدينة نعي عُمر بن أبي ربيعة أكبروا ذلك واشتدّ عليهم،وكانت السوداءُ أشدّهم حزناً وتسلّباً (٣) . وجعلت لا تمرّ بسِكّة من سِكاك المدينة إلاّ ندبتْه . فلَقِيَها بعضُ فتيان مكة فقال

---

(١) الجمار ج جمرة ، وهي الحصاة وهي أيضاً جمرات المناسك وهي ثلاث : الجمرة الأولى والجمرة الوسطى وجمرة العقبة يرمين بالجمار . تؤودها : تبلغ منها المجهود وتتعبها . العقل (بضمتين) ج عقال : الحبل تربط به الدابة ، وسكنت القاف للضرورة . المغنى : مكان نزول القوم .

(٢) معاين : مشاهد .

(٣) التسلب : حداد المرأة على زوجها أو الحداد عامة .

لها : خفِّضي عليك ، فقد نشأ ابنُ عمٍّ له يشبه شعرُه شعرَه . فقالت : أنشِدْني بعضه . فأنشدها قوله :

إنّي وما نحروا غداةَ مِنىً عند الجِمار تَؤُودها العُقلُ

الأبيات كلّها . قال : فجعلت تمسح عينيها من الدموع وتقول : الحمد لله الذي لم يُضيّع حرَمه .

ولايته على مكّة ثم عزله عنها

(عن طائفة من الرواة :)

إنّ بني مخزوم كلّهم كانوا زُبيريّة سوى الحارث بن خالد فإنّه كان مروانيّاً . فلمّا ولي عبد الملك الخلافة عامَ الجماعة وفدَ عليه في دَين كان عليه . وذلك في سنة خمس وسبعين . وقال مصعب في خبره : بل حجّ عبد الملك في تلك السنة فلمّا انصرف رحل معه الحارثُ الى دمشق . فظهرت له منه جَفوةٌ . واقام ببابه شهراً لا يتّصل إليه . فانصرف عنه وقال فيه :

صَحِبتُك إذ عَيني عليها غِشاوةٌ فلمّا انجلَتْ قَطّعتُ نفسي ألومُها
وما بي وإن أقصَيْتَني من ضَراعةٍ ولا افتقرت نفسي الى من يَضيمُها
عطفت عليك النفس حتى كأنما بكفك بُؤسي أو عليك نعيمُها

وبلغ عبدَ الملك خبرُه وأُنشد الشعر ، فأرسل اليه مَن رَدّه من طريقه . فلمّا دخل عليه قال له : حارِ (١) . أخبِرْني عنك : هل رأيتَ عليك في المُقام ببابي غضاضةً أو في قصدي دناءةً ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين قال : فما حمَلَك على ما قلت وفعلت ؟ قال : جَفوةٌ ظهرت لي وكنت

---

(١) حار : مرخم حارث .

حقيقاً بغير هذا . قال : فاختَرْ ؛ فإن شئت أعطيتُك مائة ألف درهم ، أو قضيتُ دينَك ، أو ولّيتك مكّة . فولاّه إيّاها .

فحجّ بالناس وحَجّت عائشة بنت طلحة عامئذ ، وكان يهواها ، فأرسلت إليه أخِّر الصّلاة حتى أفرُغ من طَوافي . فأمّر المؤذّنين فأخّروا الصلاة حتى فَرَغت من طَوافها ، ثم أُقيمت الصلاةُ فصلّى بالناس . وأنكر أهلُ الموسم ذلك مِن فِعله وأعظموه . فعزله وكتب إليه يُؤنّبه فيما فعل ، فقال : ما أهونَ والله غضَبَه إذا رضِيتْ ! والله لو لم تفرَغ من طوافها الى الليل لأخّرتِ الصلاة الى الليل . فلمّا قَضَت حَجّها أرسل إليها : يابنةَ عمّي ، ألِمّي بنا أو عِدِينا مجلساً نتحدّث فيه. فقالت : في غدٍ أفعل ذلك . ثم رحلت من ليلتها ، فقال الحارث :

ما ضَرّكم لو قلتُـــم سَدَداً   إنّ المطايا عاجِلٌ غَـــدُها
ولها علينا نِعمةٌ سلَـــفتْ   لسنا على الأيام نَجحَدُها
لو تَمّمت أسبـــابَ نِعمتهـــا   تمّت بذلك عنـــدنا يدُهـــا

عن الزبيريّ قال :

أذّن المؤذّن يوماً وخرج الحارث بن خالد الى الصلاة ، فأرسلت إليه عائشة ابنةُ طلحة : إنه بقي عليّ شيءٌ من طوافي لم أُتمّه . فقعد وأمر المؤذّنين فكفّوا عن الإقامة ، وجعل الناس يصيحون ، حتى فرغت من طوافها . فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فعزَله وولّى مكّةَ عبد الرحمن ابن عبد الله بن خالد بن أَسِيد ، وكتب الى الحارث : ويلك ! أتَركتَ الصلاة لعائشة بنت طلحة ! فقال الحارث : والله لو لم تقضِ طوافها الى الفجر لما كَبّرتُ . وقال في ذلك :

لم أُرحّبْ بأن سَخِطتِ ولكـن   مَرحباً إن رضِيتِ عنّا وأهلا
إن وجهـــاً رأيتُه ليلةَ البـــد   رِ عليه انثنَى الجَمالُ وحَلاّ

وجهُها الوجهُ لو سألت به المُزنَ من الحُسن والجمال استهلا
إنّ عند الطّواف حين أتتْه لجَمالاً فَعْماً وخُلْقاً رِفلاً
وكُسين الجمال إن غِبن عنها فإذا ما بدَتْ لهن اضمحلاً (١)

تشبيبه بعائشة بنت طلحة وغيرها

أبو غسّان محمد بن يحيى قال :

لمّا تزوّج مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة ورحل بها إلى العراق قال الحارث بن خالد في ذلك :

ظَعن الأميرُ بأحسَن الخَلْقِ وغدا بلُبّك مَطْلِعَ الشَرْقِ
في البيت ذي الحسَب الرفيع ومن أهلِ التُقى والبِرّ والصِّدق
فظَلِلت كالمقهور مُهجتُه هذا الجنونُ وليس بالعِشق
أتْرُجّةٌ عَبِق العبيرُ بها عَبَقَ الدّهان بجانب الحُقّ
ما صَبّحت أحداً برُؤيتها إلاّ غدا بكواكب الطَّلْقِ (٢)

عن ابن جُعْدُبة قال :

لمّا أن قدمت عائشة بنت طلحة أرسل إليها الحارث بن خالد ، وهو أميرٌ على مكة : إنّي أريد السلام عليك . فإذا خفّ عليك أذِنْتِ . وكان الرسول الغَريض . فقالت له : إنّا حُرُمٌ ، فإذا أحلَلْنا أذِنّاك . فلمّا أحلّت سَرَت على بَغَلاتها ، ولحِقها الغَريض بعُسْفان (٣) أو قريب

(١) استهل المطر : انهمر . الفعم : الممتلىء المستوي . الرفل : الواسع .
(٢) الأترجة والترنجة : فاكهة من الحوامض . عبق به الطيب : لصق . الحقوج حقة (بالضم) : وعاء من خشب . كواكب الطلق : أراد كواكب السعد ، أي كانت طلقها يمناً عليه .
(٣) عسفان : منهلة من مناهل طريق الحج ، بين الجحفة ومكة ، وقيل هي قرية جامعة على ستة وثلاثين ميلا من مكة وهي حد تهامة .

منه ، ومعه كتاب الحارث إليها :

ما ضرّكم لو قلتمُ سَدَدا

الأبيات المذكورة . فلمّا قرأت الكتاب قالت : ما يَدَعُ الحارث باطله . ثم قالت للغريض : هل أحدثت شيئاً ؟ قال : نعم ، فاسمعي . ثم اندفع يغنّي في هذا الشعر ، فقالت عائشة : والله ما قلنا إلاّ سَدَداً ، ولا أردنا إلاّ أن نشتريَ لسانه ...

عن كلثوم بن أبي بكر قال : لمّا مات عمر بن عبد الله التَيْميّ عن عائشة بنت طلحةَ — وكانت قبله عند مصعب بن الزبير — قيل للحارث ابن خالد : ما يمنعُك الآن منها ؟ قال : لا يتحدّث والله رجالٌ من قريش أنّ نسيبي بها كان لشيءٍ من الباطل .

وممّا يغنّى فيه من شعر الحارث بن خالد في عائشة بنت طلحة تصريحاً ، وتعريضاً ببُسْرةَ جاريتها :

يا ربْعَ بُسْرةَ بالجَناب تَكلّمِ — وأبِنْ لنا خبراً ولا تَستَعْجِمِ
ما لي رأيتُك بعد أهلك موحِشاً — خَلَقاً كحوض الباقر المتهدِّمِ
تَسبي الضَّجيعَ إذا النجوم تَغوّرتْ — طَوعُ الضَجيع أنيقةُ المُتوسَّمِ
قُبُّ البُطون أوانسٌ مثلُ الدُّمَى — يَخلِطن ذاك بعِفّة وتَكرُّمِ (١)

• عن مصعب الزبيريّ قال :

كانت أمُّ عبد الملك بنت عبد الله بن خالد بن أسِيد عند الحارث ابن خالد ، فولدت منه فاطمة بنت الحارث ، وكانت قبله عند عبد الله بن مُطيع ، فولدت منه عِمرانَ ومحمداً ، فقال فيها الحارث وكنّاها بابنها عمران :

---

(١) الباقر : جماعة البقر . توسم الشيء : تفرسه والمتوسم : ما يراه المتوسم . قب : ضامرة .

يا أمَّ عِمرانَ ما زالت،وما برِحتْ | بي الصَّبابةُ حتى شَفّني الشَّفَقُ
القلبُ تاق إليكم كي يُلاقيَكـــم | كما يتُوقُ إلى مَنجاته الغَرِقُ
تُنيل نَزْراً قليلاً وهي مُشفِقةٌ | كما يخاف مَسيسَ الحيّةِ الفَرِقُ(١)

* عن القحذَميّ قال :

بينا الحارث بن خالد واقفٌ على جَمْرة العقَبة إذ رأى أمّ بكر وهي تَرمي الجَمْرة ، فرأى أحسنَ الناس وجهاً ، وكان في خدّها خالٌ ظاهر ، فسأل عنها فأخبر باسمها حتى عرف رَحلها ، ثم أرسل إليها يسألها أن تأذنَ له في الحديث ، فأذنت له ، فكان يأتيها يتحدّث إليها حتى انقضت أيام الحجّ فأرادت الخروج إلى بلدها ؛ فقال فيها :

ألا قُل لِذات الخال ياصاحِ في الخَدّ | تَدُوم إذا بانت على أحسَنِ العَهْدِ
ومنها علاماتٌ بمَجرى وِشاحهـــا | وأخرى تَزِينُ الجِيدَ من موضع العقد
وترعى من الودّ الذي كان بيننا | فما يستوي راعي الأمانة والمُبْدي
وقُل قد وعدتِ اليومَ وعداً فأنجِزي | ولا تُخلفي لا خيرَ في مُخلِف الوَعد
وجُودي عليّ اليومَ منكِ بنائلٍ | ولا تَبخلي قُدِّمتُ قبلكِ في اللّحْد
فمن ذا الذي يُبدي السُّرور إذا دنتْ | بك الدّار أو يُعنَى بنَأيكم بعدي
دنوُّكم منّا رَخـــاءٌ ننالُـــه | ونأيُكم والبعد جَهدٌ على جَهْدِ
كثيرٌ إذا تدنُوا اغتباطي بك النّوى | ووجدي إذا ما بِنْتُمُ ليس كالوجد
أقول ودمعي فوق خدّي مُخَضِّلٌ | له وَشَلٌ قد بَلّ تَهتانُه خَدّي
لقد منح اللهُ البخيلةَ وُدّنـــا | وما مُنحت ودّي بدعوى ولا قَصد(٢)

---

(١) الشفق : في الأصل : الخوف والشفقة ، والمراد هنا شدة الشوق والصبابة . الفرق : الشديد الفزع والوجل .

(٢) مخضل : مند ، والخضل : كل شيء ند يترشف نداه،وأخضله : بله . الوشل : الدمع والما الكثير . هتن الدمع : سال .

* عن المدائني :

طافت ليلى بنت أبي مُرّة بن عُروة بن مسعود – وأمُّها ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب – بالكعبة ، فرآها الحارث بن خالد فقال فيها :

أطافت بنا شمسُ النهار ومَن رأى ... من الناس شمساً بالعِشاء تطوفُ
أبو أُمّها أوفَى قريشٍ بذِمّةٍ ... وأعمامُها إمّا سألتَ ثَقيفُ

وفي ليلى هذه يقول :

لقد أرسلت في السِرّ ليلى تَلُومُني ... وتزعُمني ذامَلّةٍ طَرِفاً جَلْدا
وقد أخْلفتَنْا كلَّ ما وعدتْ بـه ... ووالله ما أخلفتُها عامـداً وعدا
فقلت مُجيباً للرّسول الذي أتى ... تُراه لك الويلاتُ من قولها جِدّا
إذا جئتَها فاقرَ السّلامَ وقُل لها ... دعي الجَور ليلى واسلُكي مَنهجاً قَصْدا
أفي مُكْثِنا عنكم ليالٍ مَرِضتُها ... تزيدينني ليلَى على مَرَضي جَهْدا
تَعُدِّين ذنباً واحداً ما جنيتُـه ... عليّ وما أُحصي ذُنوبَكم عَدّا
فإن شئتِ حرّمتُ النساءَ سواكم ... وإن شئت لم أطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْدا
وإن شئت غُرْنا بعدكم ثم لم نزَلْ ... بمكة حتى تَجْلِسي قابلاً نَجْدا(1)

* * *

(1) الملة : الملال . الطرف : الملول الذي لا يثبت على صحبة أحد . النقاخ : الماء البارد العذب الصافي. غرنا : نزلنا الغور أي تهامة . تجلسي : تقصدي نجداً ، وجلس (بإسكان اللام) : بلاد نجد .

٣٥

ذُو الرُّمَّة

(الأغاني ج ١٨ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

اسمه غَيْلان بن عُقْبة ... بن عَبد مَناة بن أُدّ .. بن مُضَر ... ويُكنَى أبا الحارث ، وذو الرُمّة لقبٌ . يقال لَقّبته به مَيّةُ ، وكان اجتاز بخبائها وهي جالسةٌ إلى جَنب أمّها ، فاستسقاها ماءً ، فقالت لها أمُّها : قُومي فاسقِيه . وقيل بل خَرَق إداوتَه [1] لمّا رآها ، وقال لها : اخرُزي لي هذه . فقالت : والله ما أُحسِنُ ذلك ، فإنّي لخَرْقاء . — قال : والخرقاء التي لا تعمل بيدها شيئاً لكرامتها على قومها — فقال لأمّها : مُريها أن تسقِيَني ماءً . فقالت لها : قُومي يا خَرَقاءُ فاسقِيه ماءً .

---

(١) الإداوة : إناء صغير من جلد .

فقامت فأتته بماء ، وكانت على كتفه رُمّة — وهي قطعة من حبل — فقالت : اشربْ يا ذا الرُّمّة ، فلُقّب بذلك ...

وقيل : بل كان يُصيبه في صغره فزَعٌ ، فكُتبتْ له تميمةٌ ، فعلّقها بحبلٍ ، فلُقّب بذلك ذا الرُّمّة ...

وقال الأصمعيُّ : أمُّ ذي الرُّمّة امرأةٌ من بني أسدٍ يُقال لها ظَبْية ، وكان له إخوةٌ لأبيه وأمّه شعراءُ ، منهم مسعودٌ ، وهو الذي يقول يرثي أخاه ذا الرُّمّة ويذكر ليلى بنته :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنّني ... وليلَى كِلانا مُوجَعٌ مات واحدُهْ

عن ابن الأعرابيّ قال : كان لذي الرّمّة إخوةٌ ثلاثة : مسعود ، وجِرفاس ، وهشام ، كلّهم شعراء . وكان الواحد منهم يقول الأبيات ، فيبني عليها ذو الرمّة أبياتاً أُخَر ، فيُنشدها الناسُ ، فيَغلب عليها لشُهرته وتُنسَب إليه .

قال زُرعة بن أُذبول : كان ذو الرمّة مدوَّر الوجه ، حَسَن الشَّعرة ، جَعْدَها ، أقنى ، أنزعَ (١) ، خفيف العارضَين ، أكحل ، حَسَن المَضحك ، مُفَوَّهاً ، إذا كلّمك كلّمك أبلغُ الناس ، يضع لسانه حيث يشاء .

ربيح النُمَيريّ قال: اجتمع الناس مرّة وتحلّقوا على ذي الرمّة،وهو ينشدهم ، فجاءت أمُّه فاطّلعت من بينهم ، فإذا رجلٌ قاعدٌ وهو ذو الرمّة ، وكان دميماً شَخْتاً (٢) أَجْنَأ (٣) ، فقالت أمّه : استمعوا إلى

---

(١) الأنزع : من انحسر الشعر عن جانبي وجنتيه .
(٢) الشخت : الدقيق الضامر الخلق .
(٣) الأجنأ : من يشرف كاهله على صدره .

شعره ولا نظروا إلى وجهه .

عن صالح بن سليمان قال : كان الفرزدق وجرير يحسُدان ذا الرمّة ، وأهلُ البادية يُعجبهم شعرُه .

قال حمّاد الرّاوية : قال الكميت لمّا سمع قول ذي الرمّة :

أعاذلُ قد اكثرتِ من قول قائلٍ وعيبٌ على ذي الودّ لومُ العواذلِ

هذا والله مُلهَم ، وما عِلمُ بدويٍّ بدقائق الفِطنة وذخائر كنز العقل المُعَدّ لذوي الألباب ! أحسنَ ثم أحسن ...

قال ابن كُناسة : وقال لي حمّاد الراوية : ما أخّر القومُ ذِكرَه إلاّ لحداثة سنّه ، وأنّهم حَسَدُوه .

وقال الأصمعيّ : ما أعلمُ أحداً من العُشّاق الحَضَريّين وغيرِهم شكا حُبّاً أحسن من شكوى ذي الرمّة ، مع عِفّةٍ وعقل رَصين .

قال : وقال أبو عبيدة : ذو الرمّة يُخبر فيُحسِن الخبر ، ثم يردّ على نفسه الحُجّةَ من صاحبته فيُحسِن الردّ ، ثم يعتذر فيحسن التخلّص ، مع حُسن إنصافٍ وعفافٍ في الحُكم .

عن عُمارة بن عَقيل قال : كان جرير عند بعض الخُلفاء ، فسأله عن ذي الرمّة فقال : أخذ من طريف الشعر وحَسَنه ما لم يَسْبِقه إليه أحدٌ غيرُه .

قال حمّاد الراوية : قدِم علينا ذو الرمّة الكوفة ، فلم أر أفصحَ ولا أعلم بغريبٍ منه .

عن حمّاد الراوية قال : أحسن الجاهليين تشبيهاً أمرُؤ القيس ، وذو الرمّة أحسن أهل الاسلام تشبيهاً .

عن ابن سلاّم قال : كان أبو عمرو بن العَلاء يقول : إنّما شعر ذي

الرمّة نَقْطُ عَرُوس يَضمحلُ عن قليل (١) ، وأبعارٌ لها مَشَمٌ في أوّل شَمّة ، ثم تعود إلى أرواح البَعَر .

قال أبو عبيدة : وقف الفرزدق على ذي الرمّة وهو ينشد قصيدته الحائيّة التي يقول فيها :

اذا ارفضّ أطراف السّياط وهُلّلت
جُروم المطايا عذّبتهن صَيْدَحُ (٢)

فقال ذو الرمّة : كيف تسمع يا أبا فِراس ؟ قال : أسمع حَسَناً . قال : فما لي لا أُعَدّ في الفحول من الشعراء ؟ قال : يَمنعُك من ذلك ويتقاعد بك ذِكرُك الأبعار وبكاؤك الدّيار .

عن ابن سلاّم أن أبا يحيى الضَبّي قال : قال ذو الرمّة يوماً : لقد قلت أبياتاً إنّ لها لَعَرُوضاً وإنّ لها لَمُراداً ومعنىً بعيداً . قال له الفرزدق : ما هي ؟ قال : قلت :

أحين أعاذت بي تميمٌ نساءها ... وجُرّدتُ تجريدَ اليَماني من الغِمْدِ
ومَدّت بضَبْعَيّ الرِبابُ ومالكٌ ... وعَمروٌ وشالت من ورائي بنو سَعدِ
ومن آل يربوعٍ زُهاءٌ كأنّه ... زُها الليل محمودُ النّكاية والرِّفْد (٣)

---

(١) نقط العروس : ما تنقط به المرأة خدها من السواد تجعله كالخال على خدها ، تتحسن بذلك ، وهو سريع الزوال .

(٢) ارفض : تفرق من العرق . الجرم : الجسد : هللت جرومها : صارت كالأهلة من الهزال . صيدح : اسم ناقة ذي الرمة . عذبتهن صيدح : يريد أن ناقته تسرع فلا تقدر الإبل على مجاراتها .

(٣) مد بضبعيه : أعانه ورفده ، والضبع : العضد . الرباب : قبيلة تجامع قبيلة تميم في نسبها فهم بنو عبد مناة بن أد بن طابخة ، وهي قبيلة ذي الرمة . مالك وعمرو وبنو سعد ويربوع : قبائل تنحدر كلها من بني تميم .

فقال له الفرزدق : لا تَعُودنّ فيها ، فأنا أحقُّ بها منك . قال : والله لا أعود فيها ولا أنشدها أبداً إلاّ لك ...

عن الشَّبْو بن قُسيم العُذريّ قال : سمعت ذا الرمّة يقول : من شعري ما طاوعني فيه القولُ وساعدني ، ومنه ما أجهدتُ نفسي فيه ، ومنه ما جُننت به جُنوناً . فأمّا ما طاوعني القول فيه فقولي :

خليليّ عُوجا من صُدور الرَّواحلِ

وأما ما أجهدتُ نفسي فيه فقولي :

أأن توسّمتَ من خَرقاءَ مَنزلةٌ

أمّا ما جُننت به جُنوناً فقولي :

ما بالُ عينيك منها الماء يَنسكبُ

عن إبراهيم بن نافع : أنّ الفرزدق دخل على الوليد بن عبد الملك أو غيره ، فقال له : مَن أشعرُ الناس ؟ قال : أنا . قال : أفتعلم أحداً أشعرَ منك ؟ قال : لا ، إلاّ أنّ غُلاماً من بني عديّ بن كعب يركب أعجاز الإبل وينعَت الفَلَوَات . ثم أتاه جريرٌ فسأله ، فقال له مثل ذلك . ثم أتاه ذو الرمّة فقال له : ويحَك ، أنت أشعر الناس ! قال : لا ، ولكن غلامٌ من بني عُقيل يُقال له مُزاحمٌ ، يسكن الرّوضات يقول وحشياً من الشعر لا نقدر على أن نقول مثله .

(عن طائفة من الرّواة :)

إنّما وَضَع من ذي الرمّة أنه كان لا يُحسِن أن يهجو ولا يمدح . وقد مدح بلالَ بن أبي بُردة فقال :

رأيت الناسَ ينتجعون غيثاً فقلت لِصَيدحَ انتَجِعي بلالا

فلمّـــا أنشده قال له : أوَ لم يتتجعِتني غيرُ صَيدحَ ! يا غُلام ، أعطِه حبلَ قَتٍّ[1] لِصيدح . فأخجله .

عن عُمارة بن عَقيل قال : قيل لِبلال بن جرير : أيُّ شعرِ ذي الرمّة أجودُ ؟ فقال :

هل حبلُ خرقاء بعد اليوم مَرمُومُ

إنها مدينة الشعر .

تشبيبه بميّة وخَرقاء

عن عُمارة بن ثقيف قال :

حدّثني ذو الرمّة أنّ أوّل ما قاد المودّة بينه وبين ميّة أنه خرج هو وأخوه وابنُ عمه في بِغاء إبلٍ لهم . قال : بينا نحن نسير إذ وَرَدْنا على ماءٍ وقد أجْهَدنا العطشُ ، فعدَلْنا إلى خباء عظيم ، فقال لي أخي وابن عمّي : ائت الخباء فاستسقِ لنا . فأتيتُه وبين يديه في رُواقه عجوزٌ جالسة . قال : فاستسقيتُ ، فالتفتتْ وراءها فقالت : يا ميُّ ، اسقي هذا الغُلامَ . فدخلت عليها ، فإذا هي تنسج عِلْقةً[2] لها ، وهي تقول :

يا مَن يرى بَرْقاً يمرُّ حِينــا   زَمزمَ رَعداً وانتحى يَمينا
كأنّ في حافاتــه حَنينــــا   أو صوتَ خيلٍ ضُمّرٍ يَرْدِينا

قال : ثم قامت تصبّ في شَكْوَتي[3] ماءً ، وعليها شَوْذَبٌ[4] لهـا .

(١) القت : عشب يجفف وتتخذ منه الحبال .
(٢) العلقة : قميص بلا كين .
(٣) الشكوة : وعاء من أدم للماء واللبن .
(٤) الشوذب : ثوب طويل .

فلمّا انحطّت على القِربة رأيت مُوَلَّىً لم أرَ أحسنَ منه . قال : فلهوتُ بالنظر إليها ، وأقبلت تصبّ الماء في شكْوتي والماءُ يذهب يميناً وشِمالاً . قال : فأقبلت العجوز وقالت : يا بُنيّ ، ألهتْك ميّ عمّا بعثك أهلُك له ، أما ترى الماء يذهب يميناً وشمالاً ! فقلت : أما والله ليطولنّ هيامي بها.

قال : وملأتُ شكوتي ، وأتيت أخي وابنَ عميّ ولففتُ رأسي ، فانتبذْتُ ناحيةً ، وقد كانت ميّ قالت : لقد كلّفك أهلُك السّفر على ما أرى من صِغرك وحداثة سِنّك . فأنشأتُ أقول :

قد سَخِرتْ أختُ بني لَبيـدِ　　وهزئتْ منيّ ومن مَسْعُود
رأتْ غُلامَي سفرٍ بعيـــد　　يَدّرِعان الليلَ ذا السُّدود
مثلَ ادّراع اليَلْمَقِ الجديد (١)

قال : وهي أول قصيدة قلتُها ، ثم أتممتُها :

هل تعرف المنزلَ بالوَحيدِ

ثم مكثتُ أهيمُ بها في ديارها عشرين سنةً .

عن إبراهيم بن نافع قال :

كان ذو الرمّة يتشبّب بميّ بنت طَلَبة بن قيس بن عاصم المِنْقَريّ ، وكانت كَثيرةُ أمَةً مُوَلّدةً لآل قيس بن عاصم — وهي أمّ سَهم بن بُرْدة اللصّ الذي قتله سِنان بن مُخَيَّس القُشَيريّ أيام محمد بن سليمان — فقالت كثيرة :

على وَجه ميّ مَسْحةٌ من مَلاحةٍ
وتحت الثيابِ الخِزْيُ لو كان باديا

(١) البيت الثاني في المطبوعة روايته مختلفة ، وقد اخترنا رواية الديوان . اليلمق : القباء .

ألم ترَ أنّ الماءَ يخبُثُ طعمُــه
ولو كان لونُ الماء في العين صافيا

ونَحَلَتْها ذا الرُمّة ، فامتعض لذلك ، وحلَفَ بجَهد أيمانه ما قالها . قال : وكيف أقول هذا ، وقد قطعتُ دَهري وأفنيت شبابي أشَبِّبُ بها وأمدحها ثم أقول هذا ! ثم اطّلع على أنّ كثيرة قالتهما ونَحَلتهما إيّاه .

عن أبي بكر بن جبَلة الفَقْعَسيّ قال :

وقف ذو الرمّة في ركب معه على ميّة ، فسلّموا عليها ، فقالت : وعليكم إلاّ ذا الرمّة . فأحفَظَه ذلك وغَمّه ما سمع منها بحضرة القوم ، فغضبَ وانصرف وهو يقول :

أيا ميُّ قد أشمتِّ بي ويحك العِـدا ... وقَطَّعتِ حبلاً كان يا ميُّ باقيا
فيا ميّ لا مَرجوعَ للوَصل بيننـــا ... ولكنّ هَجْراً بيننـــا وتَقاليا
ألم تر أنّ الماء يخبُثُ طعمُــــه ... وإن كان لونُ الماء في العين صافيا

عن النَوفليّ قال : سمعت أبي يقول :

ضاف ذو الرمّة زوجَ ميّ في ليلة ظَلْماءَ وهو طامعٌ في ألاّ يعرفَه زوجُها فيُدخلَه بيته ، فيراها ويُكلّمها . ففطِن له الزّوج وعرَفه فلم يُدخِلْه ، وأخرج إليه قِراه ، وتركه بالعَراء ، وقد عرفتْه ميّةُ . فلمّا كان في جَوف الليل تغنّى غِناء الرُّكبان قال :

أراجعةٌ يــا ميُّ أيّامُنا الأُلــى ... بذي الأَثْلِ أم لا ، ما لهنّ رُجوعُ

فغضب زوجُهــا وقال : قُومي فصِيحي به : يابنَ ... ، وأيُّ أيّام كانت لي معك بذي الأَثْل ! فقالت : يا سُبحانَ الله ، ضيفٌ ، والشاعر يقول ! فانتضى السيف وقال : والله لأَضربنّكِ به حتى آتيَ عليكِ أو تقولي . فصاحت به كما أمرها زوجُها . فنهض على راحلته ، فركبَها

وانصرف عنها مُغْضَباً يُريد أن يَصرِفَ مودّته عنها الى غيرها . فمر بفَلَج(1) في رَكْبٍ ، وبعضُ أصحابه يريد أن يرقَعَ خُفَّه ، فإذا هو بجَوارٍ خارجات من بيت يَرِدن آخرَ ، وإذا خَرقاءُ فيهن – وهي امرأةٌ من بني عامر – فإذا جاريةٌ حُلوةٌ شَهلاءُ ، فوقعت عين ذي الرمّة عليها ، فقال لها : يا جاريةُ ، أترقَعين لهذا الرجل خُفَّه ؟ فقالت تَهزأ به : أنا خَرقاءُ لا أُحسِن أن أعمل . فَسَمّاها خَرقاء ، وترك ذكر مَيّ ، يُريد أن يُغيظ بذلك ميّاً ، فقال فيها قصيدتين أو ثلاثاً ، ثم لم يلبث أن مات .

عن هارون بن عُتْبَة قال :

شبّب دو الرمّة بخَرقاء العامرية بغير هوىً ، وإنّما كانت كحّالةً ، فداوت عينَه من رَمَدٍ كان بها فزال . فقال لها : ما تُحبّين حتى أُعطيَك ؟ فقالت : عَشَرةَ أبيات تُشبّب بي ، ليرغب الناس فيّ إذا سمعوا أنّ فيَّ بقيّةً للتشبيب . ففعل .

عن موهوب بن رُشيد عمّن حدّثه قال :

نزل ركبٌ بأبي خَرقاء العامريّة ، فأمر لهُم بلبنٍ فسقُوه ، وقَصّر عن شابٍّ منهم فأعطتْه خرقاءُ صَبُوحَها وهي لا تعرفُه ، فشربه ، ومضَوا فركبوا . فقال لها أبوها : أتعرفين الرّجل الذي سقيتِه صَبُوحَكِ ؟ قالت : لا والله . قال : هو ذو الرمّة القائل فيكِ الأقاويل . فوضعت يَدها على رأسها وقالت : واسَوأتاه ، وابُؤْساه ! ودخلتْ بيتها ، فما رآها أبوها ثلاثاً .

أبو الشِبل المعدّيّ قال : كانت خرقاءُ البَكّائيّة(2) أصبح من

---

(1) فلج (بفتح أوله وثانيه) : مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة وقشير وكعب بن ربيعة ، ويقال لها فلج الأفلاج . وفي طبقات ابن سلام : فلجة ، وهي منزل على طريق مكة من البصرة ، وهو لبني البكاء ، فيما ذكر ياقوت . والصواب ما ذكره ابن سلاّم .

(2) بنو البكاء : بطن من بني عامر .

القَبَس . وبقيتْ بقاءً طويلاً حتى شبّب بها القُحيف العُقيليّ .

محمد بن الحجّاج الأسديّ التميميّ .. قال :

حججتُ فلما صِرتُ بمَرّانَ [1] منصرفاً . فإذا أنا بغلامٍ أشعثِ الذُؤابة قد أورد غُنيمات له . فجئته فاستنشدتُه . فقال لي : اليكَ عنّي ، فإنّي مشغول عنك . وألححتُ عليه فقال : أرشدك الى بعض ما تحبّ : انظُر الى ذلك البيت الذي يلقاك . فإن فيه حاجتَك . هذا بيتُ خَرقاء ذي الرمّة . فمضيت نحوه ، فطوّحتُ بالسلام من بعيد ، فقالت : ادْنُه . فدنوت فقالت : إنّك لَحَضريّ ، فمن أنت ؟ قلت : من بني تميم . وأنا أحسَب أنّها لا معرفةَ لها بالناس — قالت : من أيّ تميم؟ فأعلمتُها . فلم تزل تُنزلني حتى انتسبتُ الى أبي ، فقالت : الحجّاجُ ابن عُمير بن يزيد ؟ قلت نعم . قالت : رحم الله أبا المُثنّى ، قد كنّا نرجو أن يكون خلَفاً من عمير بن يزيد . قلت : نعم ، فعاجلتْه المنيّةُ شاباً . قالت : حيّاك الله يا بُنَيّ وقرّبك ، من أين أقبلت ؟ قلت : من الحجّ . قالت : فمالك لا تمرّ بي وأنا أحد مَناسك الحج ! إنّ حَجّك ناقصٌ ، فأقم حتى تحُجّ أو تُكَفّر بعتْق . قلت : وكيف ذلك ؟ قالت : أما سمعت قول غَيلان عمّك :

تمامُ الحجّ أن تقفَ المطايا على خَرقاءَ واضعةَ اللِّثامِ

قال : وكانت وهي قاعدةٌ بفِناء البيت كأنّها قائمة من طولها ، بيضاءَ ، شهلاء ، فخمة الوجه . قال : فسألتُها عن معها فقالت : لا أدري إلاّ أنّي كنت أذكرُ شَمِر بن ذي الجَوْشَن حين قَتل الحسين عليه السلام ، مرّ بنا ، وأنا جاريةٌ ، ومعه كِسرة فقسّمها في قومه . قالت : وكان أبي قد أدرك الجاهليّة وحمل فيها حَمالات . قال : ولمّا أنشدتني

---

(١) مران : بين البصرة ومكة لبني هلال من بني عامر .

خرقاءُ بيت ذي الرمّة فيها قلت : هيهات يا عمّةُ ، قد ذهب ذلك منك . قالت : لا تقُل يا بُنيّ ، أما سمعت قول قُحَيف فيّ :

وخَرقاءُ لا تزدادُ إلاّ مَلاحةً ولو عُمِّرت تعميرَ نُوحٍ وجَلّتِ

ثم قالت : رحم الله ذا الرمّة ، فقد كان رقيق البَشرة ، عذبَ المنطق ، حسنَ الوصف ، مُقارِب الرّصْف ، عفيف الطّرْف . فقلت لها : لقد أحسنتِ الوصف . فقالت : هيهاتَ أن يدركَهُ وصفٌ ، رحمه الله ورحم من سَمّاه اسمَهُ . فقلت : ومَن سَمّاه ؟ قالت : سيّد بني عَدِيّ الحُصَين بن عَبدة بن نُعيم ...

مهاجاته هشاماً المَرْئيّ

أبو الغَرّاف قال :

مرّ ذو الرمّة بمنزل لامرىءِ القيس بن زيد مَناة يُقال له مَرْأة ، به نخلٌ ، فلم يُنزلوه ولم يَقروه . فقال :

نزلنا وقد غار النهارُ وأوقدتْ علينا حَصى المَعْزاء شمسٌ تنالُها
أنَخنا فظلّلنا بأبراد يُمْنَة عِتاقٍ وأسيافٍ قديمٍ صِقالُها
فلمّا رآنا أهلُ مَرْأةَ أغلقوا مَخادعَ لم تُرفَعْ لخيرٍ ظِلالُها
وقد سُمّيتْ باسم امرىء القيس قريةٌ كِرامٌ صَواديها لِئامٌ رجالُها (1)

فلجّ الهجاء بين ذي الرمّة وبين هشام المَرْئيّ ، فمرّ الفرزدق بذي الرمّة وهو ينشد :

(1) غار النهار : انتصف . وهذه رواية الديوان ورواية المطبوعة : طال . المعزاء : الأرض ذات الحصى . تنالها : أي تنال المعزاء لقربها منها . اليمنة : ضرب من برود اليمن . صوادي جمع صادية : النخل التي بلغت عروقها الماء وطالت

وقفتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناقتي فما زلتُ أبكي عندَه وأُخاطبُه
وأسقيه حتّى كاد ممّا أبُثّــه تُكلّمني أحجارُه وملاعبُــه

فقال له الفرزدق : ألهاكَ البكاءُ في الديار ، والعبدُ يرتجز بك في المقابر ، يعني هشاماً .

وكان ذو الرمّة مستعلياً هشاماً حتّى لقي جريرٌ هشاماً ، فقال : غلَبك العبدُ ، يعني ذا الرُمّة . قال : فما أصنعُ يا أبا حَزرة ؟ وأنا راجزٌ وهو يُقصِّدُ ، والرَّجَز لا يقوم للقصيد في الهجاء ، فلو رَفَدْتَني ؟ فقال جرير – لتُهمته ذا الرمّة بالميل الى الفرزدق – : قُل له :

غضبتُ لِرهطٍ من عَديٍّ تَشمّسوا وفي أيّ يومٍ لم تَشَمّسْ رجالُها
وفيم عــديٌّ عند تَيْمٍ من العُــلا وأيّامنا اللاتي تُعدُّ فَعالُهـــا
وضَبّةُ عمّي يابن جَلٍّ فلا تَرُمْ مَساعيَ قومٍ ليس منك سِجالُها (١)

(الأبيات ...)

قال أبو عبد الله : فحدّثني أبو الغَرّاف قال : لمّا بلغت الأبيات ذا الرمّة قال : والله ما هذا بكلام هشام ، ولكنه كلام ابن الأتان ... (٢)

قال : فغلبه هشامٌ بها ، فلمّا كان بعد ذلك لقي ذوالرمّة جريراً فقال : تعصّبتَ على خالك للمَرئيّ ! فقال جرير : حيث فعلتُ ماذا ؟ قال : حين تقول للمرئيّ كذا وكذا . فقال جرير : لا ، بل ألهاك البكاءُ في دار ميّة حتّى استُبيحتْ مَحارمُك .... فقال ذو الرمة : لا ، ولكن اتّهمتني بالميــل مــع الفرزدق عليك . قال : كذلك هــو . قال :

---

(١) الرهط : هذه رواية ابن سلام وفي المطبوعة : رجل . تشمس : قعد في الشمس . بنو جل : هم بنو جل بن عدي بن عبد مناة ، رهط ذي الرمة . السجال : المساجلة والمباراة .
(٢) ابن الأتان : يعني جريراً ، وكان الفرزدق أطلق عليه لقب « ابن المراغة » ، وهي الأتان .

فوالله ما فعلتُ . وحلَف له بما يُرضيه . قال : فأَنشِدني ما هجوتَ به المَرَئيَّ . فأنشده قوله :

نَبَتْ عيناك عن طَلَلٍ بِحُزوَى عفَتْهُ الرِّيحُ وامْتَنَح القِطارا [1]

فأطال جداً . فقال له جرير : ما صنعت شيئاً . أفأَرفِدُك ؟ قال : نعم . قال : قل :

يَعُدُّ الناسبون الى تميمٍ بيوتَ المجد أربعةً كِبارا
يَعُدُّون الرِّبابَ وآلَ سَعدٍ وعَمْراً ثم حَنْظلةَ الخِيارا
ويهلِكُ بينها المَرئيّ لَغْواً كما أُلغيتَ في الدِّية الحُوارا [2]

ويروى : ويذهب بينها .

فغلبه ذو الرمّة بها ...

فلمّا سمعها المرئيّ جعل يلطِم رأسه ويصرُخ ويدعو بويله ويقول : قتَلني جرير ، قتَله الله ! هذا والله شعره الذي لو نقطتْ منه نقطةٌ في البحر لكدّرتْه ، قتَلني وفضَحني .

فلمّا استعلى ذو الرمّة على هشامٍ أتى هشامٌ وقومُه جريراً فقالوا: يا أبا حَزْرة ، عادتُك الحُسنى . فقال : هيهات ، ظلمتُ أخوالي . قد أتاني ذو الرمّة فاعتذر إليّ وحلَف ، فلستُ أُعين عليهم .

فلمّا يئِسوا من عنده أتَوا لهذا المُكاتَب ، وقد طلع بمُكاتبته [3] فأعطوه عشرة أعنُز ، وأعانوه على مكاتبته ، فقال أبياتاً عَينيّة يفضّل

---

(١) حزوى : موضع بنجد في ديار تميم ، القطار : القطر ، أي المطر . ورواية المطبوعة : وامتضح ، من مضح عرضه أي شانه ، ولا يستقيم بها المعنى ، وما أثبتناه رواية الديوان .

(٢) الحوار : ولد الناقة ، ولا يحتسب في الدية .

(٣) المكاتبة : أن يكتب العبد على نفسه مالا إذا أداه لسيده صار حراً .

فيها بني امرىء القيس على بني عديّ ، وهشاماً على ذي الرمّة . ومات ذو الرمّة في تلك الأيام ، فقال الناس : غلبه هشام . قال ابن النطاح : انّما مات ذو الرمّة بعقب إرفاد جرير إيّاه على المَرْئيّ ، فقال الناس : غلبه . ولم يغلبه ، انما مات قبل الجواب .

وفاته

وتُوفّي ذو الرّمة في خلافة هشام بن عبد الملك . وله أربعون سنةً ، وقد اختلفت الرُّواة في سبب وفاته .

عن يعقوب بن السكّيت : أنّه بلغ أربعين سنةً ، وفيها توفّي وهو خارجٌ إلى هشام بن عبد الملك ، ودُفن بحُزوى . وهي الرملة التي كان يذكرها في شعره .

جَبر بن رِياطٍ قال :

أنشد ذو الرمّة الناس شعراً له وصف فيه الفَلاة وهو بالثّعلبيّة [1] . فقال له حَلْبَسٌ الأسديُّ : انّك لتنعت الفَلاة نَعتاً لا تكون مَنيّتُك إلاّ بها .

قال : وصدر ذو الرمّة على أحد جَفْري بني تميم ، وهما على طريق الحاجّ من البصرة ، فلمّا أشرف على البصرة قال :

وإنّي لَعاليها وانّي لَخائــــفٌ لِما قال يومَ الثّعلبيّة حَلْبَسُ

قال : ويقال ان هذا آخر شعرٍ قاله . فلمّا توسّط الفَلاة نزل عن راحلته فنَفَرت منــه ، ولم تكن تنفِر منه . وعليها شرابُه وطعامُه ، فلمّا دنا منها نفَرت حتى مات . فيقال انه قال عند ذلك :

---

(١) الثعلبية : من منازل طريق مكة .

ألا أبلغ الفتيانَ عنّي رسالــةً أهينوا المَطايا هُنَّ أهلُ هَوانِ
فقد تركتْني صَيْدحٌ بمَضالّــةٍ لِساني مُلتاثٌ من الطَّلَوان (١)

قال هارون : وأخبرني أحمد بن محمد الكلابيّ بهذه القصّة ، وذكر أنّ ناقته وردت على أهله في مياههم . فركبها أخوه وقصّ أثره حتى وجده ميتاً وعليه خِلع الخليفة ، ووجد هذين البيتين مكتوبين على قوسه .

عن أبي الوَجيه قال : دخلت على ذي الرمّة وهو يجود بنفسه فقلت له : كيف تَجدُك ؟ قال : أجِدني والله أجدُ ما لا أجد أيامَ أزعمُ أنّي أجدُ ما أجد حيث أقول :

كأنّي يوم البَين يا ميّ مُدْنَفٌ
يَجود بنفسٍ قد أحمّ حِمامُها
حِذارَ اجتذام البين أقرانَ نيّــةٍ
مُصابٌ ولَوعاتُ الفؤاد انجذامُها (٢)

قال : وكان آخر ما قاله :

يا ربِّ قد أشرفتْ نفسي وقد علمتْ
عِلماً يقيناً لقد أحصيتَ آثاري
يامُخرِجَ الرُوحَ من جِسمي اذا احتُضِرتْ
وفارجَ الكرب زَحزِحني عن النّار

قال أبو الوجيه : وكانت منيّته هذه في الجُدَريّ ، وفي ذلك يقول :

ألم يأتِها أنّي تلبّستُ بعدَهــا مُفَوَّفَةً صَوّاغُها غيرُ أخرق (٣)

---

(١) الطلوان : بياض يعلو اللسان من مرض أو عطش .
(٢) بين الديوان والمطبوعة بعض الاختلاف في رواية هذين البيتين . أحم حمامها : دنت منيتها .
(٣) المفوفة : ثوب فيه خطوط بيض .

رجل من بني تميم قال :

كانت ميتة ذي الرمّة أنه اشتكى النّوطة [1] ، فوَجِعها دهراً ، فقال في ذلك :

أَلِفت كِلابَ الحيّ حتّى عَرفنني
ومُدّتْ نِساجُ العنكبوت على رَحْلي [2]

قال : ثم قال لمسعود أخيه : يا مسعودُ ، قد أجِدني تماثلتُ وخفّت الأشياءُ عندنا ، واحتَجنا إلى زيارة بني مَروان ، فهل لك بنا فيهم ؟ فقال : نعم . فأرسله إلى إبله يأتيه منها بلبنٍ يتزوّده ، وواعده مكاناً . وركب ذو الرمّة فقَمصت به ، وكانت قد أُعفِيت من الرّكوب ، وانفجرت النَوطة التي كانت به . قال : وبلغ موعدَ صاحبه وجُهد وقال : أردنا شيئاً ، وأراد اللهُ شيئاً ، وإنّ العلّة التي كانت بي انفجرت . فأرسل إلى أهله فصَلّوا عليه ، ودُفن برأس حُزوى ، وهي الرملة التي كان يذكرها في شعره .

عن المنتجع بن نبهان قال :

لما احتُضر ذو الرّمة قال : أنّي لست ممّن يُدفَن في الغموض والوِهاد . قالوا : فكيف نصنع بك ونحن في رمال الدّهناء ؟ قال : فأين أنتم من كثبان حُزوى ؟ قال : وهما رَملتان مشرفتان على ما حولهما من الرمال — قالوا : فكيف نحفِر لك في الرمل وهو هائل ؟ قال : فأين الشجر والمَدَر والأعواد ؟ قال : فصلَّينا عليه في بطن الماء ، ثم حملنا له الشجر والمدر على الكِباش ، وهي أقوى على الصّعود في الرمل من الإبل . فجعلوا قبره

(١) النوطة : ورم في الصدر ، أو غدة مهلكة في البطن .
(٢) يريد أنه أقام في الحي لا يفارقه .

هناك وزَبَّروه [1] بذلك الشجر والمدر، ودَلَّوه في قبره . فأنت اذا عرفت موضع قبره رأيته قبل أن تدخل الدهناء ، وأنت بالدَّوِّ [2] على مَسيرة ثلاث .

• • •

(١) زبر البئر : بناها بالحجارة فتماسكت واستحكمت .
(٢) الدو : أرض مسيرة أربع ليال على طريق البصرة إذا أصعدت إلى مكة .

٣٦

الصِّمَّةُ القُشَيْرِيّ

(الأغاني ج ٦ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

هو الصِّمَّة بن عبد الله بن الطُّفَيل ... بن قُشَيْر بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة ...

شاعرٌ إسلاميّ بدويّ مُقِلٌّ من شعراء الدولة الأموية ...

أبو الطيّب الوَشّاء قال : قال لي إبراهيم بن محمد بن سليمان الأزديّ : لو حلف حالفٌ أنّ أحسن أبيات قيلت في الجاهليّة والإسلام في الغزل قول الصمّة القُشيريّ ما حنِث :

حننتَ إلى ريّا ونفسُك باعــدتْ مَزارك من ريّا وشَعْبا كما معا
فما حسنٌ أن تأتيَ الأمرَ طائعــاً وتجزعَ أنْ داعي الصَّبابة أسمعا

بكتْ عينيَ اليُمنَى فلمّا زجرتُها عن الجَهل بعد الحِلم أسبَلتا معا
وأذكرُ أيّام الحِمى ثم أنثني على كبِدي من خَشية أن تَصَدّعا
فليست عَشيّات الحِمى بِرواجعٍ عليك ولكن خَلّ عينيك تدمعـا

خبره مع ابنة عمّه

قال ابن دَأْب :

وكان من خبر الصِّمّة أنه هَوِي امرأةً من قومه ثم من بنات عمّه دِنْيةً [1] يقال لها العامريّة بنت غُطَيف ... فخطبها إلى أبيها ، فأبى أن يزوّجه إيّاها . وخَطَبها عامرُ بن بشر بن أبي بَراء بن مالك مُلاعب الأسنّة بن جعفر بن كِلاب ، فزوّجه إيّاها . وكان عامرٌ قصيراً قبيحاً ، فقال الصِّمّة بن عبد الله في ذلك :

فإن تُنكِحوها عامراً لاطّلاعكم إليه يُدَهْدِهْكم برجليه عامرُ [2]

شبّهه بالجُعَل الذي يُدَهدِهُ البَعرة برجليه .

قال : فلمّا بنى بها زوجُها وَجَد الصِّمّةُ بها وجداً شديداً وحزِن عليها ، فزوّجه أهلُه امرأةً منهم يُقال لها جَبْرة بنت وَحْشِيّ بن الطُّفَيل .. ، فأقام عليها مُقاماً يسيراً ، ثم رحل إلى الشام غضباً على قومه وخلّف امرأته فيهم ، وقال لها :

كُلي التَّمْرَ حتى تَهرَمَ النَّخلُ واضْفِري
خِطامَكِ ما تَدرين ما اليومُ من أمسِ

وقال فيها [3] :

(١) دنية : لاصقة النسب .
(٢) لاطلاعكم إليه : لكي ترتفعوا إلى منزلته . دهدهه : دحرجه .
(٣) فيها : أي في العامرية ، كما يتضح من الأبيات .

لَعَمري لئن كنتم على النأي والقِلَى
بكم مثل ما بي إنكم لَصديـــق

اذا زفَرات الحبّ صَعَّدن في الحَشى
رُدِدن ولم تُنهَجْ لهنّ طريـــق (١)

وقال فيها أيضاً :

اذا ما أتتنا الرِّيحُ من نحو أرضكـــم
أتتنا بريَّاكـــم فطاب هُبوبُهـــا

أتتنا بريح المِسك خالَط عنـــبراً
وريح الخُزامى باكَرتْها جَنوبُها (٢)

وقال فيها أيضاً :

هل تَجزينّي العامريّـــةُ مَوقفـــي
على نِسوةٍ بين الحِمى وغَضَى الجَمْرِ

مررن بأسباب الصِّبـــا فذكرتُهـــا
فأومأتُ إذ ما من جوابٍ ولا نُكْـــرِ

عن الهيثم بن عَدِيّ :

أنّ الصِمّة خطب ابنة عمّه هذه إلى أبيها ، فقال له : لا أزوّجكها إلاّ على كذا وكذا من الإبل . فذهب إلى أبيه فأعلمه بذلك وشكا إليه ما يجدُ بها ، فساق الإبل عنه إلى أخيه ؛ فلمّا جاء بها عدّها عمُّه فوجدها تنقُص بعيراً ، فقال : لا آخذُها إلاّ كاملةً . فغضب أبوه وحلَف لا يزيده

---

(١) القلى : البغض .
(٢) الخزامى : نبت طيب الرائحة .

على ما جاء به شيئاً . ورجع إلى الصمّة ، فقال له : ما وراءك ؟ فأخبره ؛ فقال : تالله ما رأيت قطُّ ألأمَ منكما جميعاً ، وأنّي لألأم منكما أن أقمت بينكما . ثم ركب ناقته إلى ثغرٍ من الثُّغور ، فأقام به حتّى مات . وقال في ذلك :

أمِن ذِكْر دارٍ بالرّقاشَين أصبحت بها عاصفاتُ الصيف بَدْءاً ورُجَّعا
حننتَ إلى ريّا ونفسُك باعدت مزارك من ريّا وشَعبا كما معا
فما حسَنٌ أن تأتي الأمر طائعاً وتجزعَ أن داعي الصّبابة أسمعا
كأنّك لم تشهَدْ وَداعَ مُفارقٍ ولم تر شَعْبَي صاحبَين تَقطّعا
بكت عينيَ اليُسرى فلمّا زجرتُها عن الجهل بعد الحِلم أسبلتا معا
تحمّل أهلي من قنين وغادروا به أهلَ ليلى حين جِيد وأمرَعا
ألا يا خليليَّ اللذيـن تواصيا بلَوْميَ إلاّ أن أُطيع وأسمعا
قفا انّه لا بُدّ من رَجْع نَظرةٍ يمانيّةٍ شتّى بها القومُ أو معا
لمُغْتَصَب قد عزّه القومُ أمرَه حياءً يكفُّ الدّمعَ أن يتَطَلّعا
تَبَرّضُ عينيه الصّبابةُ كلّما دنا الليلُ أو أوفى من الأرض ميْفعا
فليست عَشيّات الحِمى برواجعٍ إليك ولكن خلّ عَينيك تدمعا (١)

عن بعض بني عُقَيل قال :

مررت بالصمّة بن عبد الله القشيريّ يوماً وهو جالسٌ وحدَه يبكي

(١) الرقاشان : جبلان بأعلى الشريف من بلاد نجد ، في ملتقى مواطن كعب وكلاب . قنين : يستخلص من السياق أنه اسم موضع ولكن كتب البلدان لم تذكره ولعله محرف عن قنيع ، وهو ماء في ديار بني عامر . جيد : أصابه الجود وهو المطر الغزير . عزه : غلبه تبرض ماء الحسي : أخذه قليلا قليلا ، أراد أن الشوق يأخذ ماء عينيه شيئاً بعد شيء . الميفع : المكان المشرف .

ويخاطب نفسه ويقول : لا والله ما صَدَقَتْكَ فيما قالت . فقلت : مَن تَعني ؟ ويحك ! أجُننت ! قال : أعني التي أقول فيها :

أما وجَلالِ الله لــو تذكرينــني
كَذِكْريكِ ما كفكفتُ للعينِ مَدْمَعا
فقالت بلى واللهِ ذِكراً لواتـــه
يُصَبُّ على صُمّ الصَّفا لَتصَدَّعــا

أسلّي نفسي عنهــا وأخبرها أنها لو ذكرتني كما قالت لكانت في مثل حالي .

وفاته

عبد العزيز بن أبي ثابت قال : حدّثني رجلٌ من أهل طَبَرِسْتانَ كبيرُ السنّ قال : بينا أنا يوماً أمشي في ضَيعة لي فيها ألوانٌ من الفاكهة والزّعفران وغيرِ ذلك من الأشجار ، إذ أنا بإنسان في البُستان مطروحٍ ، عليه أهدامٌ خُلْقانٌ (١) ، فدَنَوت منه فإذا هو يتحرّك ولا يتكلّم ، فأصغيت إليه فإذا هو يقول بصوت خَفيّ :

تَعزَّ بصَبْرٍ لا وَجَدِّكَ لا تَــرى
بَشَام الحِمَى أخرى الليالي الغوابـرِ
كأنّ فؤادي مــن تذكّره الحمى
وأهلَ الحمى يَهفُو به ريشُ طائرِ (٢)

(١) أهدام خلقان : أثواب بالية .
(٢) البشام : شجر طيب الرائحة يستاك به .

قال : فما زال يردّد هذين البيتين حتى فاضت نفسُه . فسألت عنه فقيل لي : هذا الصمّة بن عبد الله القُشيريّ .

وقال ابن دَأب : وأخبرني جماعة من بني قُشير أنّ الصِّمّة خرج في غَزِيٍّ[1] من المسلمين إلى بلد الدَّيْلم فمات بطبرستان .

• • •

(١) الغزي : الجماعة الغازون .

٣٧

عَبْدُاللهِ بن الدُّمَيْنَة

(الأغاني ج ١٧ ص ٩٣ وما بعدها)

الشاعر

الدُمَينة أمّه ، وهي الدُمَينة بنت حُذَيفة السَلُوليّة ، واسم ابن الدمينة عبد الله بن عُبيد الله ، أحد بني عامر بن تَيْم الله ... بن أفْتَل – وهو خَثْعم – بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغَوث بن نَبْت بن مالك . ويُكنَى ابن الدُمينة أبا السَّرِيّ .

قتله امرأته وعشيقها ومقتله

عن أبي عُبيدة وابن الأعرابي ومُصعب بن عَمرو السَلُوليّ ، قالوا : إنّ رجلاً من سَلُول يُقال له مُزاحم بن عَمرو كان يُرمى بامرأة

ابن الدُمَينة ، وكان اسمُها حَمّاء .. فكان يأتيها ويتحدّث إليها ، حتى اشتُهر ذلك . فمنعه ابن الدُمينة من إتيانها واشتدّ عليها ، فقال مزاحمٌ يذكر ذلك ... :

يا بنَ الدُمينة والأخبارُ يرفعُها — وَخْدُ النجائب والمحقُور يُخفيها
يا بن الدُمَينة إن تغضَبْ لِما فعلتْ — فطال خِزْيُك أو تغضَبْ مواليها

(الأبيات ...)

لمّا بلغ ابنَ الدمينة شعرُ مُزاحمٍ أتى امرأته فقال لها : قد قال فيكِ هذا الرجل ما قال . وقد بلغك . قالت : واللهِ ما رأى ذلك منّي قطّ . قال : فمن أين له العلامات ؟ [1] قالت : وصفهنّ له النساء . قال : هيهاتَ . والله . أن يكون ذلك كذلك . ثم أمسك مدّةً وصبر حتّى ظنّ أنّ مُزاحماً قد نسي القصّة ، ثم أعاد عليها القول ، وأعادت الحَلِف أنّ ذلك ممّا وصفه له النّساء . فقال لها : والله لئن لم تُمكّنيني منه لأقتلنّكِ . فعلمت أنه سيفعل ذلك ، فبعثت إليه وواعدتْه ليلاً ، وقعد له ابنُ الدمينة وصاحبٌ له ، فجاءها للموعد . فجعل يكلّمها وهي مكانها فلم تكلّمه ، فقال لها : يا حَمّاءُ . ما هذا الجَفاء الليلةَ ! قال : فتقول له هي بصوتٍ ضعيفٍ : ادخُل . فدخَل . فأهوى بيده ليضعَها عليها ، فوضعها على ابن الدمينة . فوثب عليه هو وصاحبه ، وقد جعَل له حصىً في ثوب ، فضرب بها كبده حتى قتله ، وأخرجه فطرحه ميتاً ، فجاء أهلُه فاحتملوه ، ولم يجدوا به أثرَ السّلاح . فعلموا أن ابن الدمينة قتله .

وقد قال ابن الدمينة في تحقيق ذلك :

قالوا : هَجَتْك سَلولُ اللُؤم مُخفيةً — فاليومَ أهجو سَلُولاً لا أُخافيها

---

(١) يريد ما ذكره مزاحم في قصيدته من علامات في جسم امرأته للدلالة على إتيانه إياها .

قالوا : هجاكَ سلوليٌّ فقلت لهم :

قد أنصفَ الصَّخرةَ الصَّمَّاءَ راميها

(الأبيات ...)

وقال أيضاً يذكر دخول مزاحم ووضعه يدَه عليه :

لكَ الخيرُ إن واعدتَ حَمّاءَ فالقها نهاراً ولا تُدلِجْ إذا الليلُ أظلما

فإنّكَ لا تَدري أبيضاءَ طَفْلَةً تُعانق أم ليثاً من القوم قَشْعَما

فلمّا سَرى عن ساعِديَّ ولِحيَتي وأيقن أنّي لستُ حَمّاءَ جَمْجَما(١)

ثم أتى ابن الدمينة امرأته فطرح على وجهها قَطيفةً ثم جلس عليها حتى قتلها ، فلمّا ماتت قال :

إذا قعَدتُ على عِرْنين جاريةٍ فوق القَطيفة فادعُوا لي بحَفّارِ (٢)

فبكت بُنيّةٌ له منها ، فضرب بها الأرضَ فقتلها وقال متمثّلاً : « لا تتّخذنَّ من كلب سَوءٍ جَرْواً » .

فخرج جَناحٌ ، أخو المقتول ، إلى أحمد بن إسماعيل فاستعداه على ابن الدُمينة ، فبعث إليه فحبسه ...

فلمّا طال حبسُه ولم يجد عليه أحمد بن إسماعيل سبيلاً ولا حُجّةً خلّاه ، وقتلت بنو سَلول رجلاً من خَثْعَم مكانَ المقتول ، وقتلت خثعم بعد ذلك نفَراً من سَلولٍ ، ولهم في ذلك قصصٌ وأشعار كثيرة .

وأقبل ابن الدمينة حاجّاً بعد مدّة طويلة ، فنزل بتَبالة (٣) ، فعَدا

(١) القشعم : الأسد . جمجم : تكلم بكلام غير بين .

(٢) العرنين : الأنف .

(٣) تبالة : أراد تبالة الحجاج وهي بلد بتهامة في طريق اليمن .

عليه مُصعب أخو المقتول لمّا رآه . وقد كانت أمّه حرّضته عليه وقالت : اقتُل ابن الدُّمينة ، فإنّه قتل أخاك وهجا قومك وذمّ أُختك ، وقد كنت أعذِرك قبل هذا لإنّك كنت صغيراً ، وقد كبرت الآن . فلمّا أكثرتْ عليه خرج من عندها ، وبَصُر بابن الدمينة واقفاً يُنشد الناس ، فعَدا إلى جزّار فأخذ شَفْرته ، وعدا على ابن الدّمينة فجرحه جِراحتَين ، فقيل إنّه مات لِوقته ، وقيل بل سَلِم تلك الدّفْعةَ . ومرّ به مصعب بعد ذلك ، وهو في سوق العَبْلاء يُنشد ، فعلّاه بسيفه حتّى قتله ، وعَدا وتبعه الناس حتّى اقتحم داراً وأغلقها على نفسه ، فجاءه رجلٌ من قومه فصاح به : يا مُصعَب ، إن لم تضعْ يدَك في يد السُّلطان قتلتْكَ العامّةُ فاخرُجْ . فلمّا عرَفه قال له : أنا في ذِمّتك حتّى تُسْلِمَني إلى السلطان ؟ قال : نعم . فخرج إليه ووضع يده في يده ، فسَلّمه إلى السلطان ، فقذفه في سجن تَبالة .

ومكث ابن الدمينة جريحاً ليلتَه ، ومات في غدٍ ، فقال في تلك الليلة يحرّض قومَه ويُوبّخُهم :

هتفتُ بأكلُبٍ ودعوتَ قيساً ... فلا خُذُلاً دعوتَ ولا قليلا
ثأرتَ مُزاحماً وسَررت قيساً ... وكنتَ لما هممت به فَعُولا
فلا تَشْلَلْ يداك ولا تَزالا ... تُفيدان الغَنائمَ والجزيلا
فلو كان ابنُ عبد الله حيّاً ... لَصَبّح في منازلها سَلولا [1]

---

(١) أكلب : هي العشيرة التي ينتمي اليها ابن الدمينة ، وقيس عيلان هي القبيلة التي تنتمي اليها سلول عشيرة مصعب قاتل ابن الدمينة . ابن عبد الله : هو رزق بن عبد الله الخثعمي ابن الدمينة .

غزله بأميمة وزواجه منها

عن هشام قال :

هوي ابن الدمينة امرأةً من قومه يقال لها أُميمة ، فهام بها مُدّةً ، فلمّا وصلته تجنّى عليها وجعل ينقطع عنها . ثم زارها ذات يوم فتعاتبا طويلاً ثم أقبلت عليه فقالت :

وأنتَ الذي أخلفتَني ما وعدتَني ... وأشْمتَّ بي مَن كان فيك يَلُومُ
وأبرزتَني للنّاس ثم تركتَني ... لهم غرَضاً أُرمى وأنتَ سليمُ
فلو أنّ قولاً يكلُم الجِسم قد بدا ... بجسمي من قول الوُشاة كُلُومُ (١)

قال : فأجابها ابن الدمينة فقال :

وأنتِ التي قَطّعتِ قلبي حَزازةً ... ومزّقتِ قَرْح القلب فهو كَليمُ
وأنت التي كلّفتِني دَلَجَ السُّرَى ... وجُونُ القَطا بالجَلْهتَين جُثُوم
وأنت التي أحفظتِ قومي فكلُّهم ... بعيدُ الرِّضا داني الصُّدود كظيمُ (٢)

قال : ثم تزوّجها بعد ذلك وقُتل وهي عِنده .

من مختار غزله

ممّا يُغنّى به من شعر ابن الدمينة قولُه من قصيدة أوّلها :

أقمتُ على زِمّانَ يوماً وليلةً ... لأنظُرَ ما واشي أُميمةَ صانعُ
فقَصْرُكِ منّي كلَّ عام ٍ قصيدةٌ ... تخُبُّ بها خُوصُ المَطِيّ النَّزائعُ

---

(١) غرضاً : هدفاً . يكلم : يجرح .
(٢) القرح : البثر وما يخرج بالبدن وأثر الجرح .. الجلهة : ناحية الوادي .

... والذي يُغنّى به منها قولُه :

أقضّي نهاري بالحديث وبالمُنى ... ويجمعُني والهمَّ بالليل جامعُ
نهاري نهارُ الناس حتى إذا بدا ... لي الليلُ شاقتْني إليكِ المَضاجع
لقد ثبتتْ في القلب منكِ محبّةٌ ... كما ثبتتْ في الرّاحتَين الأصابعُ (١)

حمّاد بن إسحاق قال : حدّثني أبي قال : كان العبّاس بن الأحنف إذا سمع شيئاً يستحسنه أطرفَني به. وأفعل مثل ذلك. فجاءني يوماً فوقف بين البابَين وأنشد لابن الدُمينة :

ألا يا صَبا نجدٍ متى هِجْتَ من نَجدِ ... فقد زادني مَسْراكِ وَجْداً على وَجْدِ
أأن هتَفت ورْقاءُ في رَونق الضُّحى ... على فَنَنٍ غَضِّ النَبات من الرَّنْد
بكيتَ كما يبكي الحزينُ صَبابةً ... وذُبت من الشوق المُبرِّح والصَّدِّ
بكيتَ كما يبكي الوليدُ ولم تكن ... جَزُوعاً وأبديت الذي لم تكن تُبْدي
وقد زعمُوا أنّ المحبَّ إذا دنا ... يَمَلُّ وأنّ النّأْي يَشفي من الوَجد
بكلٍّ تَداوينا فلم يُشفَ ما بنا ... على أنّ قربَ الدار خيرٌ من البُعدِ

وزِيد على ذلك بيتٌ وهو :

ولكنّ قربَ الدار ليس بنافعٍ ... إذا كان مَن تَهواه ليس بذي وُدٍّ (٢)

ثمّ ترنّح ساعةً وترجّح أخرى ثم قال : أأنطحُ العَمود برأسي من حُسن هذا ؟ فقلت : لا ، ارفُق بنفسك .

عن ابن زَبَنّج راوية ابن هَرْمَة قال :

لقي ابنُ هَرْمة بعض أصدقائه بالبَلاط ، فقال له : من أين أقبلت ؟

(١) زمان : محلة بني مازن بالبصرة . قصرك : حسبك وكفايتك . الخوص : الغائرة العينين . ناقة نازع : حنت إلى أوطانها .
(٢) الورقاء : الحمامة التي لونها بياض إلى سواد . الرند : نبات طيب الرائحة .

قال : من المسجد ، قال : فأيّ شيءٍ صنعت هناك ؟ قال : كنت جالساً مع إبراهيم بن الوليد المخزوميّ . قال : فأيّ شيء قال لك ؟ قال : أمرني أن أطلّق امرأتي . قال : فأيّ شيء قلت له ؟ قال : ما قلت له شيئاً . قال : فوالله ما قال لك ذلك إلاّ لأمرٍ أظهرتَه عليه وكتَمْتَنيه ؛ أفرأيت إن أمرتَه بطلاق امرأته أيُطلّقها ؟ قال : لا ، واللهِ . قال : فابنُ الدمينة كان أنصف منك ؛ كان يهوى امرأةً من قومه ، فأرسلت إليه : إنّ أهلي قد نَهَوني عن لقائك ومُراسلتك . فأرسل إليها :

أطعتِ الآمريكِ بقَطْع حَبْلي ... مُريهم في أحبّتهم بذاكِ
فإن هم طاوعوكِ فطاوعيهم ... وإن عاصَوك فاعْصي مَن عصَاك
أمَا والرّاقصاتِ بكلّ فَجٍّ ... ومن صَلّى بنعمَان الأراكِ
لقد أضمرتُ حُبّك في فؤادي ... وما أضمرتُ حُبّاً من سِواكِ [1]

• • •

(١) الراقصات : النوق المسرعة . نعمان الأراك : واد وراء عرفة .

٣٨

العَرْجيّ

(الأغاني ج ١ ص ٣٨٣ و ج ١٩ ص ٢١٧)

الشاعر

هو عبد الله بن عُمر بن عَمْرو بن عثمان بن عفّان ...

الزبير بن بكّار قال : حدّثني عمّي أنّه إنّما لُقّب العَرْجيّ لأنّه كان يسكُن عَرْجَ الطائف [1] . وقيل : بل سُمّي بذلك لماء كان له ومال عليه بالعَرج . وكان من شعراء قريش ومَن شُهر بالغَزل منها ، ونحا نحوَ عمر بن أبي ربيعة في ذلك وتشبّه به فأجاد ، وكان مشغوفاً باللّهو والصّيد ، حريصاً عليهما ، قليلَ المُحاشاة [2] لأحدٍ فيهما ، ولم يكن له نباهةٌ في

---

(١) عرج الطائف : قرية من نواحي الطائف .

(٢) المحاشاة : المبالاة .

أهله . وكان أشقرَ أزرقَ جميل الوجه .

وجَيداء التي شبّب بها هي أمّ محمّد بن هشام بن اسماعيل المخزوميّ ، وكان ينسُب بها ليفضحَ ابنها لا لمحبّةٍ كانت بينهما ، فكان ذلك سبب حَبس محمّد إيّاه وضربه له حتّى مات في السِّجن .

عن إسحاق عن أبيه عن بعض شيوخه : أنّ العَرجيّ كان أزرقَ كَوْسَجاً [1] ناتيء الحَنْجَرة ، وكان صاحب غزل وفُتوّة ، وكان يسكن بمالٍ له في الطائف يسمّى العَرج ، فقيل له العَرْجيّ ونُسب إلى ماله ، وكان من الفُرسان المعدودين مع مَسلمة بن عبد الملك بأرض الرُّوم ، وكان له معه بَلاءٌ حَسَنٌ ونَفَقة كثيرة .

عن مُصعَب قال :

كانت حَبَشيّةٌ من مُولّدات مكّة ظريفةٌ صارت إلى المدينة ، فلمّا أتاهم موتُ عمر بن أبي ربيعةَ اشتدّ جَزَعُها وجعلت تبكي وتقول : مَن لِمكّة وشِعابها وأباطحها ونُزَهها ووصف نسائها وحُسنهنّ وجمالهنّ ووصف ما فيها ! فقيل لها : خَفّضي عليك ، فقد نشأ فتىً من ولد عثمان رضي الله عنه يأخُذ مأخذَه ويسلُك مَسْلكَه . فقالت : أنشِدوني من شعره . فأنشَدوها ، فمسحت عينَها وضحكت وقالت : الحمدُ لله الذي لم يُضيّع حُرَمه .

ذكر عُتبةُ بن إبراهيم اللّهَبيّ : أنّ العَرجيّ فيما بلغه باع أموالاً عِظاماً كانت له وأطعم ثمَنَها في سبيل الله حتّى نفِد ذلك كلّه . وكان قد اتّخذ غلامين ، فإذا كان الليلُ نَصَب قِدْرَه وقام الغُلامان يُوقِدان ، فإذا نام واحدٌ قام الآخر ، فلا يزالان كذلك حتّى يُصبحا ؛ يقول : لعلّ طارقاً يَطرُق .

---

(١) الكوسج : الخفيف شعر اللحية والعارضين .

عن ابن داحة قال : كان العرجيّ يستقي على إبله في شَمْلَتين [1] ، ثم يغتسل ويلبَس حُلَّتين بخمسمائة دينارٍ ثم يقول :

يوماً لأصحابي ويومــاً للمــال   مِدْرعةٌ يوماً ويومــاً سِربالْ [2]

حمّاد بن اسحاق عن أبيه عن بعض رجاله : أنّ العرجيَّ كان غازياً ، فأصابت الناسَ مجاعةٌ ، فقال للتجّار : أعطُوا الناس وعليَّ ما تُعطُون . فلم يزل يُعطيهم ويُطعم الناسَ حتى أخصَبوا ، فبلغ ذلك عشرين ألف دينارٍ ، فألزمها العرجيُّ نفسَه . وبلغ الخبرُ عمر بن عبد العزيز فقال : بيتُ المال أحقُّ بهذا ، فقضى التُجّارَ ذلك المالَ من بيت المال .

عن سليمان بن عثمان بن يسار ... قال : كان للعرجيّ حائطٌ يقال له العَرج في وسط بلاد بني نصر بن معاوية ، فكانت إبلهم وغَنَمهم تدخُل فيه فيعقِر كلَّ ما دخل منها ، فكانت تَضُرّ به ويَضُرّ بها وبأهلها ، ويشكونه ويشكوهم ، وكان من أفرس الناس وأرماهم وأبراهم لِسهمٍ ، فكان ربّما يرى مائةَ سَهم من الرُمّان ، ثم يقول : والله لا أنقلب حتى أقتُلَ بها مائة خَلِفةٍ [3] من إبل بني نصر . فيفعل ذلك .

تشبيبه بالنساء

عن عَورك اللهبيّ قال :

قال العرجيّ في امرأةٍ من بني حبيب – بطن من بني نصر بن معاوية – يقال لها عاتكة ، وكانت زوجة طُريح بن إسماعيل الثَقَفيّ :

يا دارَ عاتكةَ الـتّي بالأزهــــرِ   أو فوقَه بقَفـا الكَثيب الأحمرِ

---

(١) الشملة : كساء مخمل دون القطيفة يشتمل به .

(٢) المدرعة : ثوب من صوف . السربال : القميص .

(٣) الخلفة : الناقة الحامل ، وجمعها مخاض ، على غير القياس .

لم ألق أهلكِ بعد عـــامَ لقيتهـم ... يا ليت أنّ لقاءهـــم لم يُقدَرِ
بفِناء بيتك وابنُ مِشعَب حاضرٌ ... في سامرٍ عَطِرٍ وليـــلٍ مُقْمِرِ
مُستشعِرين مَلاحِفـــاً هَرَوِيّةً ... بالزّعفران صِباغُهــا والعُصفُرُ
فتلازما عند الفِراق صَبابـــةً ... أخذَ الغَريم بفَضل ثوب المُعْسِرِ[1]

الأزهر : على ثلاثة أميالٍ من الطائف ، وابن مِشعَب الذي عناه مُغَنٍ من أهل مكّة كان في زمن ابن سُريج ...

عن الزُبيريّ وغيره :

أنّ العَرجيّ خرج إلى جنَبات الطائف متنزّهاً ، فمرّ ببطن النّقيع[2] ، فنظر إلى أم الأوقص – وهو محمد بن عبد الرحمن المخزوميّ القاضي – وكان يتعرّض لها ، فإذا رآها رمتْ بنفسها وتستّرت منه ، وهي امرأةٌ من بني تميم . فبَصُر بها في نِسوةٍ جالسةٌ وهنّ يتحدّثن ، فعرفها وأحبّ أن يتأمّلها من قُرب ، فعَدل عنها ؛ ولقي أعرابياً من بني نَصر على بَكْرٍ له ومعه وَطْبا[3] لبن ، فدفع إليه دابّته وثيابه وأخذ قَعُوده ولَبنه ولبس ثيابه ، ثم أقبل على النسوة فصحن به : يا أعرابيُّ ، أمعك لبنٌ ؟ قال : نعم . ومال إليهنّ وجعل يتأمّل أمّ الأوقص ، وتواثب من معها إلى الوطبَين وجعل العرجيُّ يَلحُظها وينظر أحياناً إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً وهنّ يشربن من اللبَنْ ، فقالت له امرأةٌ منهنّ : أيَّ شيءٍ تطلب يا أعرابيُّ في الأرض ؟ أضاع منك شيء ؟ قال : نعم ، قلبي . فلمّا سمعت التَميميّةُ كلامه نظرت إليه ، وكان أزرقَ ، فعرفتْه ، فقالت : العَرْجيُّ بن عمر وربِّ الكعبة ! ووثبت وسَترها نساؤها وقلن : انصرِفْ

(١) مستشعرين : لابسين . الملاحف ج ملحفة : كل ما التحف به .
(٢) النقيع : موضع بجنبات الطائف .
(٣) الوطب : سقاء اللبن .

عنّا لا حاجةَ بنا إلى لَبنك . فمضى منصرفاً ، وقال في ذلك :

أقولُ لصاحبيَّ ومثلُ مـــابي ... شكاه المرءُ ذو الوَجد الأليمِ
إلى الأخوَين مثلهما إذا مـــا ... تأوَّبه مُؤرِّقــةُ الهُمـوم
لِحَيني والبَلاء لقيتُ ظُهراً ... بأعلى النَّقْع أختَ بني تمــيم
فلمّا أن رأت عيناي منهـــا ... أسيل الخدّ في خَلْــقٍ عَميمِ
وعَينَي جُؤذَرٍ خَرِقٍ وثَغراً ... كلونِ الأُقْحُوان وجيدَ رِيم
حَنا أترابُهـــا دُوني عليهـــا ... حُنوَّ العائدات على السَّقيم (١)

خصومته مع محمد بن هشام وسجنه وموته في السجن

(عن طائفة من الرواة :)

كان محمد بن هشام خال هشام بن عبد الملك ، فلمّا وَلي الخلافة ولاّه مكة وكتب إليه أن يَحُجّ بالناس فهجاه العرجيّ بأشعار كثيرة ، منها قوله فيه :

كأنّ العام ليس بعام حَــــجٍّ ... تغيّرت المواسمُ والشُكولُ
إلى جَيــداءَ قد بعثوا رسولاً ... ليُخبرَها فلا صُحب الرّسولُ

. . .

فلم يزل محمد يطلب عليه العِلل حتّى وجدها فحبسه .

[قالوا :]

كان العرجيّ يشبّب بأمّ محمد بن هشام ، وهي من بني الحارث بن كعب ، ويقال لها جَيداء :

---

(١) تأوبه : عاوده . الحين : الهلاك . النقع : موضع قرب مكة في جنبات الطائف . عميم : تام . جؤذر خرق : ظبي أخذه الدهش والفزع .

عُوجي علينا ربّــةَ الهَودجِ ... إنّكِ إن لا تَفعلي تَحرَجي
إنّي أُتيحتْ لي يَمانيّــــةٌ ... إحدى بني الحارث من مَذحِجِ
نلبثُ حَولاً كامــلاً كلّــه ... ما نَلتقي إلاّ على منهــج
في الحجّ إن حَجّت وماذا منىً ... وأهلُه إن هي لم تَحجُجِ
أيسَرُ ما نال مُحِبٌّ لـدى ... بَينِ حَبيبٍ قولُه عَــرِّجِ
نَقضِ إليكم حاجةً أو نَقُلْ ... هل لي ممّا بيَ من مَخــرَجِ (١)

وقال في زوجته جَبْرة المخزوميّة — يعني زوجة محمد بن هشام — :

عُوجي عليّ فسَلّمي جَبْـــرُ ... فيمَ الصُّدودُ وأنتمُ سَفْرُ
ما نلتقي إلاّ ثــلاثَ مِــنىً ... حتّى يُفرِّقَ بيننا النَّفْــرُ
الحَولُ بعد الحــول يجمعُنـا ... ما الدهرُ إلاّ الحولُ والشهرُ (٢)

قالوا : فلم يزل محمد بن هشام مُضطَغِناً على العرجيّ من هذه الأشعار التي يقولها فيه ومتطلّباً سبيلاً عليه حتّى وجده فيه ، فأخذه وقيّده وضربه وأقامه للناس ثم حَبسه وأقسم : لا يخرُج من الحَبس ما دام لي سلطانٌ . فمكث في حبسه نحواً من تسع سنين حتّى مات فيه .

وذكر إسحاق في خبره عن أيوب بن عَباية ، ووافقه عمر بن شبّة ومحمد بن حَبيبَ : أن السبب في ذلك أنّ العرجيّ لاحَى (٣) مولىً كان لأبيه فأمَضّه (٤) العرجيّ . فأجابه المولى بمثل ما قاله له ، فأمهله ، حتّى إذا كان الليل أتاه مع جماعة من مواليه وعبيده ، فهجم عليه في منزله وأخذه

(١) تحرجي : تأثمي .
(٢) النفر : الانطلاق من منى إلى مكة .
(٣) لاحاه : شاتمه .
(٤) أمضه : أوجعه وآذاه .

وأوثقه كِتافاً (١) ، ثم أمر عبيده أن ينكِحوا امرأته بين يديه ، ففعلوا ، ثم قتله وأحرقه بالنار . فاستعدت امرأتُه على العرجيّ محمد بن هشام فحبسه .

وذكر الزبير في خبره عن الضَّحاك بن عثمان : أنّ العرجيّ كان وكّل بحُرَمه مولىً له يقوم بأمورهنّ . فبلغه أنه يُخالف إليهنّ ، فلم يزل يرصُده حتى وجده يُحدّث بعضَهنّ ، فقتله وأحرقه بالنار . فاستعدت عليه امرأةُ المولى محمدَ بن هشام المخزوميَّ ، وكان والياً على مكةَ في خلافة هشام ، وكان العرجيّ قد هجاه قبل ذلك هجاءً كثيراً لمّا ولاّه هشامٌ الحجّ فأحفظَه ، فلمّا وجد عليه سبيلاً ضربه وأقامه على البُلُس (٢) للناس وسجنه حتى مات في سجنه .

حمزةُ بن عُتبة اللهَبيُّ قال :

لمّا أخذ محمدُ بن هشام المخزوميّ العَرجيَّ أخذه وأخذ معه الحُصَين ابن غُرَير الحِميَريّ ، فجلَدهما وصبّ على رؤوسهما الزيت ، وأقامهما في الشمس على البُلُس في الحَنّاطِين بمكة . فجعل العرجيُّ يُنشد :

سيَنصرني الخليفةُ بعد ربّي ... ويَغضب حين يُخبَرُ عن مَساقي
عليّ عَباءةٌ بَلْقاءُ ليست ... مع البلوَى تُغيِّب نصفَ ساقي
وتغضَب لي بأجمَعِها قُصَيٌّ ... قَطِينُ البيت والدُّمْثِ الرّقاقِ (٣)

ثم يصيح : يا غُريرَ أجياد (٤) ، يا غُرير أجياد . فيقول له الحميريّ المجلودُ معه : ألا تَدَعُنا ! ألا ترى ما نحن فيه من البلاء ! — يعني بقوله : يا غُرير : الحصين بن غُرير الحِميري المجلود معه — وكان صديقاً

---

(١) الكتاف : الوثاق .
(٢) البلس : غرائر كبار كان يقام عليها من يراد التشهير بهم .
(٣) البلقاء : ما اجتمع فيها السواد والبياض . قصي : أراد قبيلة قريش . الدمث ج دمثاء : الأرض اللينة السهلة ، أراد نازلي البطحاء .
(٤) أجياد : موضع بمكة يلي الصفا .

للعرجيّ وخليطاً — وذكر إسحاق تمامَ هذه الأبيات وأوّلها :

وكم من كاعبٍ حَوراءَ بِكْرٍ ... ألُوفِ السِّتْرِ واضحةِ التَّراقي
بكتْ جزَعاً وقد سُمِرتْ كُبولٌ ... وجامعةٌ يُشَدُّ بها خِناقي
على دهماءَ مُشرِفةٍ سَمُوقٍ ... ثَناها القَمْحُ مزْلَقَةَ التَراقي
عليَّ عَباءةٌ بَلقاءُ ليست ... مع البلوى تُغيّبُ نصفَ ساقي
كأنَّ على الخدودِ وهنَّ شُعْثٌ ... سِجالَ الماء يُبعَثُ في السَّواقي
فقلت تجلُّداً وحلفتُ صبراً ... أبالي اليومَ ما دَمَعتْ مآقي
سينصُرني الخليفةُ بعد ربّي ... ويَغضب حين يُخبَر عن مَساقي
وتغضب لي بأجمعها قُصَيٌّ ... قطينُ البيت والدُّمْثُ الرّقاقِ
بمجتَمَعِ السُّيول إذا تنحّى ... لئامُ النّاس في الشُّعَب العِماقِ (١)

قال : فكان اذا أنشد هذا البيت التفت إلى ابن غرير فصاح به : يا غُرَير أجياد ، يا غُرير أجياد يعني بني مخزوم ، وكانت منازلهم في أجياد ، فعيّرهم بأنهم ليسوا من أهل الأبطح ...

قال : وقال العرجيُّ في حبسه :

أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسِدادِ ثَغْرِ
وصَبْرٍ عند مُعْتَرَكِ المنايا ... وقد شُرعتْ أسنّتُها بنَحري
أُجَرَّرُ في الجوامع كلَّ يومٍ ... فيا لِلّه مَظْلَمَتي وصَبري
كأنّي لم أكُنْ فيهم وَسيطاً ... ولم تكُ نِسبتي في آلِ عَمْرِو (٢)

---

(١) الترقوة : مقدم الحلق في أعلى الصدر . الجامعة : القيد . سموق : مرتفعة . والمراد بها البلس . السجل : الدلو العظيمة .

(٢) السداد (بالكسر) : ما يسد به . الجوامع ج جامعة : الغل . الوسيط في القوم : الرفيع النسب فيهم . آل عمرو : يريد آل عمرو بن عثمان بن عفان .

وقال اسحاق في خبره :

كان الوليد بن يزيد مُضطغناً على محمد بن هشام لأشياءَ كانت تبلُغه عنه في حياة هشام . فلمّا وَلي الخلافة قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام وأشخصا إليه إلى الشام ، ثم دعا بالسِّياط ، فقال له محمد : أسألك بالقَرابة . قال : وأيُّ قرابة بيني وبينك ، وهل أنت إلاّ من أشجَع ! قال : فأسألك بصِهر عبد الملك . قال : لم تحفَظْه . فقال له : يا أمير المؤمنين ، قد نَهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يُضْرَب قُرشيٌّ بالسِّياط إلاّ في حَدٍّ . قال : ففي حَدٍّ أضرِبك وقَوَد ، أنت أوّل من سَنّ ذلك على العَرجيّ ، وهو ابنُ عمّي وابن أمير المؤمنين عثمان ، فما رعيت حقّ جَدّه ولا نسبَه بهشام ، ولا ذكرت حينئذ هذا الخبر ، وأنا وَليٌّ ثأره ؛ اضرِبْ يا غُلامُ . فضربهما ضرباً مُبَرِّحاً ، وأثقلا بالحديد ، ووَجّه بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة ، وأمره باستصفائهما (١) وتعذيبهما حتى يَتْلَفا . وكتب إليه : احبِسهما مع ابن النصرانيّة — يعني خالداً القَسْريّ — ونَفْسَك نفسَك إن عاش أحدٌ منهم . فعذّبهم عذاباً شديداً ، وأخذ منهم مالاً عظيماً ، حتى لم يبق فيهم موضعٌ للضرب . فكان محمد بن هشام مطروحاً ، فإذا أرادوا أن يُقيموه أخذوا بلِحيته فجذبوه بها . ولمّا اشتدّت عليهما الحال تحامَل إبراهيم لينظر في وجه محمد فوقع عليه فماتا جميعاً ، ومات خالدٌ القَسْريّ معهما في يوم واحد .

• • •

(١) استصفاه : صادر أمواله .

٣٩

عُرْوَةُ بن أُذَيْنَة

(الأغاني ج ١٨ ص ٣٢٢ وما بعدها)

الشاعر

هو عُروةُ بن أُذَينة ، وأُذَينة لقبه ، واسمُه يحيى بن مالك ... بن لَيث بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة ...

ويُكنى عروة بن أذينة أبا عامر ، وهو شاعرٌ غَزِل مُقدَّم من شعراء أهل المدينة ، وهو معدودٌ في الفُقَهاء والمحدِّثين ؛ روى عنه مالك بن أنس وعبيدُ الله بن عُمر العَدَوِيّ .

طائفة من أخباره

* (طائفة من الرواة) عن يحيى بن عُروة بن أُذَينة قال :

أتى أبي وجماعةٌ من الشعراء هشامَ بن عبد الملك ، فنَسَبهم ، فلمّا

عَرف أبي قال له : أنت القائل :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلُقي ... أنّ الذي هو رِزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعَنيني تَطَلُّبُــــه ... ولو جلستُ أتاني لا يُعَنّيني

هذان البيتان فقط ذكرهما المهلّبي والجوهريُّ وذكر محمد بن جرير في خبره الأبيات كُلَّها :

وأن حظَّ امرىءٍ غيري سيَبلُغُــه ... لا بُدَّ لا بُدَّ أن يحتازَه دُوني
لا خيرَ في طَمعٍ يُدني لِمَنْقَصَة ... وغُفّةٍ من قَوام العيش تَكفيني
لا أركب الأمر تُزري بي عواقبُه ... ولا يُعابُ به عِرضي ولا دِيني
كم من فقيرٍ غنيّ النفس تعرفُــه ... ومن غنيٍّ فقيرِ النفس مِسكينِ
ومن عدوٍّ رماني لو قصدتُ لــه ... لم يأخذِ النِّصف مني حين يَرميني
ومن أخٍ لي طوى كَشْحاً فقلت له: ... إنّ انطواءَك عنّي سوف يَطويني
إنّي لأَنطِقُ فيما كان من أرَبي ... وأُكثِر الصَّمتَ فيما ليس يَعْنيني
لا أبتغي وصلَ مَن يَبغي مُفارقتي ... ولا أَلين لِمن لا يَشتهي لِيني (١)

فقال له ابنُ أذينة : نعم أنا قائلُها . قال : أفلا قعدتَ في بيتك حتى يأتيكَ رزقُك ! وغَفَل عنه هشام ، فخرج من وقته وركب راحلته ومضى منصرفاً . ثم افتقده هشامٌ ، فعرف خبره ، فأتبعه بجائزةٍ وقال للرّسول : قُل له : أردتَ أن تُكذّبَنا وتُصدِّقَ نفسك ! فمضى الرسول فلحقه وقد نزل على ماءٍ يتغدّى عليه ، فأبلغه رسالته ودفع الجائزة ، فقال : قُل له : صَدَّقني ربّي وكَذّبك .

أنَس بن حبيب قال :

خرج ابن أُذينة إلى هشام بن عبد الملك في قوم من أهل المدينة وفَدوا

(١) الغفة : البلغة من العيش . قوام العيش : ما يقوم به من قوت . النصف : الإنصاف . طوى كشحه عنه : أعرض عنه .

عليه ، وكان ابنُه مسلمةُ بن هشام سنةَ حَجّ أذِن لهم في الوفود عليه . فلمّا دخلوا على هشام انتسبوا له وسلّموا عليه ، فقال : ما جاء بك يابنَ أُذَينة ؟ فقال :

أتَينا نَمُتُّ بأرحامنا ... وجئنا بإذن أبي شاكرِ
فإنّ الذي سار معروفُه ... بنَجدٍ وغار مع الغائرِ
إلى خير خِندفَ في مُلكها ... لبادٍ من الناس أو حاضر (١)

فقال له هشام : ما أراك إلاّ قد اكذبتَ نفسَك حيث تقول :

لقد علمت وما الاسرافُ من خُلقي ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنّيني تطلّبُه ... ولو جلست أتاني لا يُعنّيني

فقال له ابن أذَينة : ما أكذبتُ نفسي يا أمير المؤمنين ولكني صدقتُها . وهذا من ذاك . ثم خرج من عنده فركب راحلته إلى المدينة . فلمّا أمر لهم هشامٌ بجوائزهم فَقَدَه ، فقال : أين ابنُ أذينة ؟ فقالوا : غضب من تَقريعك له يا أميرَ المؤمنين ، فانصرف راجعاً إلى المدينة . فبعث إليه هشام بجائزته .

* أبو غسّان محمد بن يحيى عن بعض أصحابه قال :

مرّ ابنُ عائشة المغنّي بعُروة بن أذينة فقال له : قُل لي أبياتاً هَزَجاً أُغنّي فيها . فقال له : اجلِس . فجلس ، فقال :

سُليمى أجمعتْ بَيْنا ... فأين تقولُها أينا
وقد قالت لأترابٍ ... لها زُهرٍ تَلاقَينا

---

(١) أبو شاكر : كنية مسلمة بن هشام . غار : نزل الغور أي تهامة . لم يذكر خبر « إن » بعد هذا البيت ولعل « فإن » محرفة عن « فأنت » .

تعالَيْنَ فقـد طـاب لنـا العيشُ تعالينا
وغاب البَرِمُ الليلـةَ والعـينُ فلا عَيْنا
فأقبلـن إليهـا مُسرعـات يتهادَينـا
إلى مثـل مَهـاة الرَّمـل تكسُو المجلس الزَّيْنا
تمنَّيـن مُناهـنَّ فكُنَّا ما تَمنَّيْنا (١)

عن الحارث بن محمد العوفيّ قال :

وقفت سُكينة بنت الحسين بن علي عليهما السلام على عروة بن أُذينة في مَوكبها ومعها جَواريها ، فقالت : يا أبا عامر ، أنت الذي تزعمُ أنّ لك مُروءةً وأنّ غَزَلَك من وراء عِفّة وأنّك تقيٌّ ؟ قال : نعم . قالت : أفأنت الذي تقول :

قالت وأبثثتُها وجدي فبُحتُ بـه قد كنتَ عندي تُحبُّ السَّترَ فاستَتِرِ
ألستَ تُبصر مَن حَولي فقلت لهـا غَطّى هواك وما ألقى على بَصَري

قال لها : بَلَى . قالت : هن حَرائر إنْ كان هذا خرج من قلبٍ سليم .

عبد العزيز بن أبي سَلمة قال :

مرّت امرأةٌ بابن أُذينة . وهو بِفِنـاء داره ، فقالت له : أأنت ابن أذينة ؟ قال : نعم . قالت : أأنت الذي يقول الناسُ إنّك امرُؤٌ صالح . وأنت الذي تقول :

إذا وجدتُ أُوارَ الحبّ في كبدي عَمَدتُ نحو سِقاءِ القوم أبترِدُ

---

(١) البرم : الضجر السؤوم .

هبْني بردتُ ببَرد الماء ظاهــرَه فمَن لِحَرٍّ على الأحشاء يتَّقِد

* عن عُروة بن عبد الله قال :

كان عروة بن أُذينة نازلاً في دار أبي بالعَقيق ، فسمعه يُنشد :

إنّ التي زعمتْ فؤادَك ملّهــا جُعِلتْ هواك كما جُعلتَ هوىً لها
فبك الذي زعمت بها وكلاكمــا يُبدي لصاحبه الصَّبابةَ كُلَّها
ويَبيتُ بين جَوانحي حُبٌّ لهــا لو كان تحت فِراشها لأَقلّهــا
ولَعَمرُها لو كان حُبُّك فوقَها يوماً وقد ضَحيتْ إذاً لأظلّهــا
وإذا وجدتُ لها وساوسَ سَلوةٍ شَفَعَ الفؤادُ إلى الضَّمير فسلَّها
بيضاءُ باكرها النعيمُ فصاغَهــا بلباقــة فأدقَّهــا وأجلَّهــا
لمّا عرضتُ مُسلِّماً لي حاجــةٌ أرجو مَعُونتَها وأخشى دَلّها
منعتْ تَحيّتَها فقلتُ لصاحبي : ما كان أكثرَها لنا وأقلَّهــا
فدنــا فقال لعلّهــا مَعذورةٌ من أجل رِقْبتها فقلت لَعلّها (١)

قال : فأتاني أبو السائب المخزوميّ وأنا في داري بالعقيق ، فقلت له بعد الترحيب : هل بدت لك حاجة ؟ فقال : نعم ، أبياتٌ لعُروة بن أُذينة بلغني أنّك سمعتها منه . فقلت له : وأيّةُ أبيات ؟ فقال : وهل يخفى القمر ؟ قولُه :

إنّ التي زعمتْ فؤادَك ملّهــا

فأنشدته إياها ، فلمّا بلغت إلى قولـه : « فقلت لعلّها » قال : أحسنَ واللهِ ، هذا والله الدائمُ العَهد ، الصادقُ الصَّبابة ، لا الذي يقول :

(١) أقلها : حملها . ضحيت : برزت للشمس . رقبتها : مراقبتها .

إن كان أهلُك يمنعونك رغبــــةً   عنّي فأهلي بي أضَنُّ وأرغَب

اذهَبْ ، لاصَحبك الله ولا وَسّع عليك – يعني قائـــل هذا البيت – لقد عدا الأعرابيَ طوره ، وإني لأرجو أن يغفِر الله لصاحبك – يعني عُروة – لحُسن ظنّه بها ، وطَلبه العُذر لها . قال : فعرضت عليه الطعام فقال : لا والله ، ما كنت لآكلَ بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل . وانصرف .

• • •

٤٠

عُرْوَة بن حِزَام

(الأغاني ج ٢٤ ص ١٤٥ وما بعدها)

الشاعر

هو عُروة بن حِزام بن مُهاصر ، أحد بني حَرام بن ضِنّة (١) .. ابن عُذرة . شاعرٌ إسلاميّ ، أحد المتيَّمين الذين قتلهم الهوى ، لا يُعرف له شعرٌ إلاّ في عَفراءَ بنت عمّه عِقال بن مُهاصر ، وتَشبيبه بها .

قصّة حبه لعفراء

أخبرني بخبرها جماعةٌ من الرُّواة ... وقد سُقت رواياتهم وجمعتها .

قال الأسباطُ بن عيسى ، وروايته كأنّها أتمّ الرّوايات وأشدّها

(١) المطبوعة : حزام بن ضبة ، وهو تصحيف .

اتّساقاً : أدركتُ شيوخ الحيّ يذكرون : أنه كان من حديث عُروة بن حِزام وعَفراء بنت عِقال أنّ حزاماً هلَك وترك ابنه عُروة صغيراً في حِجْر عمّه عِقال بن مُهاصِر . وكانت عفراءُ تِرْباً لعُروة ، يلعبان جميعاً ويكونان معاً حتّى ألف كلٌ واحد منها صاحبه إلْفاً شديداً . وكان عقالٌ يقول لعُروة لما يرى من إلْفهما : أَبشِرْ، فإنّ عفراء امرأتُك . إن شاء الله . فكانا كذلك حتّى لحِقت عفراء بالنّساء ولحق عُروة بالرّجال ؛ فأتى عروةُ عمّةً له يُقال لها هِنْد بنت مهاصِر ، فشكا إليها ما به من حُبّ عفراء وقال لها في بعض ما يقول لها : يا عمّةُ ، إنّي لأكلمُك وأنا منك مُستحٍ ، ولكن لم أفعل هذا حتّى ضِقت ذَرعاً بما أنا فيه . فذهبت عمّته إلى أخيها فقالت له : يا أخي ، قد أتيتُك في حاجة أُحبّ أن تُحسِن فيها الرّدّ ، فإنّ الله يأجُرُك بصلة رَحِمك فيما أسألك . فقال لها : قُولي ، فلن تسألي حاجةً إلاّ رَدَدْتُك بها.. قالت : تزوّج عُروة ابنَ أخيك بابنتك عفراء . فقال : ما عنه مذهبٌ ، ولا هو دُونَ رجلٍ يُرغَب فيه ، ولا بنا عنه رَغبةٌ ، ولكنّه ليس بذي مالٍ ، وليست عليه عَجَلةٌ . فطابت نفس عروة وسكَن بعضَ السُّكون .

وكانت أمُّها سيّئة الرأي فيه ، تريد لابنتها ذا مالٍ ووَفْرٍ ، وكانت عُرضَةَ ذلك كمالاً وجمالاً . فلمّا تكاملت سنّ عُروة وبلغ أشُدَّه عرَف أنّ رجلاً من قومه ذا يَسار ومالٍ كثير يخطُبُها ، فأتى عمّه فقال : يا عمّ ، قد عرفتَ حقّي وقرابتي ، وإنّي ولدُك ورُبّيت في حِجْرك ، وقد بلغني أنّ رجلاً يخطب عفراء ، فإن أسعفتَه بطَلِبته قتلتَني وسفكتَ دمي ، فأنشُدك الله ورَحِمي وحقّي . فرّق له وقال له : يا بُنَيّ ، أنت مُعْدِمٌ ، وحالُنا قريبةٌ من حالك ، ولستُ مُخرجَها إلى سواك ، وأمُّها قد أبت أن تزوّجَها إلاّ بمَهْرٍ غالٍ ، فاضطربْ (١) واسترزِق الله تعالى .

---

(١) اضطرب : ارتحل في طلب الرزق واكتسب .

فجاء إلى أمّها فلاطفها وداراها ، فأبت أن تُجيبَه إلاّ بما تحتكمُه من المَهْر وبعد أن يسوقَ شَطره إليها ، فوعدها بذلك .

وعلم أنه لا ينفعهُ قرابةٌ ولا غيرُها إلاّ بالمال الذي يطلبونه ، فعمَل على قَصد ابن عمٍّ له مُوسِرٍ كان مُقيماً باليمَن ، فجاء إلى عمّه وامرأته فأخبرهما بعَزْمه ، فصوّباه ووعداه ألاّ يُحدِثا حَدَثاً حتى يعود .

وصار في ليلة رحيله إلى عفراءَ ، فجلس عندها ليلَه هو وجواري الحيّ يتحدّثون حتى أصبحوا ، ثم وَدّعها وودّع الحيّ وشدّ على راحلته ، وصَحِبه في طريقه فَتَيان من بني هلال بن عامر كانا يألفانه ، وكان حَيّاهم مُتجاورَيْن ، وكان في طول سفره ساهياً يكلّمانه فلا يفهم ، فِكره في عفراء حتى يُرَدّ القولُ عليه مراراً ، حتى قدم على ابن عمّه ، فلَقِيه وعرّفه حاله وما قدِم له ، فوصله وكساه وأعطاه مائةً من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله .

وقد كان رجلٌ من أهل الشأم من أسباب بني أميّة [1] نزل في حيّ عفراء ، فنحرَ ووهب وأطعم ، وكان ذا مالٍ عظيم ، فرأى عفراء — وكان منزلُه قريباً من منزلهم — فأعجبتْه وخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سَمَّيتُها إلى ابن أخٍ لي يَعدِلها عندي ، وما إليها لغيره سبيلٌ . فقال له : إنّي أُرغِّبك في المَهر . قال : لا حاجةَ لي بذلك . فعَدَل إلى أمّها ، فوافق عندها قَبُولاً لِبَذْله ، ورغبتْ في ماله ، فأجابته ووعَدَتْه ، وجاءت إلى عِقالٍ فآذَتْه [2] وصَخِبت معه وقالت : أيُّ خيرٍ في عروة حتى تُحبَس ابنتي عليه وقد جاءها الغَنيُّ يَطرُق عليها بابَها ! والله ما ندري أعروةُ حيٌّ أم ميّت ؟ وهل ينقلب إليك بخيرٍ أم لا ؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سَنِياً . فلم تزلْ به حتى قال لها :

(١) من أسباب بني أمية : ممن يمتون إليهم بسبب .

(٢) في المطبوعة : فآدته ، وفي القاموس : آده الأمر : بلغ منه المجهود .

فإن عاد لي خاطباً أجبتُه . فوَجَّهت إليه أن عُدْ إليه خاطباً . فلمّا كان من غدٍ نَحر جزُراً[1] عِدّةً ، وأطعم ووهب وجمع الحيّ معه على طعامه ، وفيهم أبو عفراء . فلمّا طَعِموا أعاد القول في الخِطْبة ، فأجابه وزَوّجه ، وساق إليه المَهْر ، وحُوّلت إليه عفراء ، وقالت قبل أن يدخُل بها :

يا عُرْوَ إنّ الحيَّ قد نَقَضُوا   عهدَ الإله وحاولوا الغَدرا

في أبيات طويلة .

فلمّا كان الليلُ دخَل بها زوجُها ، وأقام فيهم ثلاثاً ، ثم ارتحل بها إلى الشأم . وعمد أبوها إلى قبرٍ عتيق ، فجدّده وسَوّاه ، وسأل الحيَّ كِتمان أمرها .

وقدِم عُروة بعد أيّام ، فنعاها أبوها إليه وذهب به إلى ذلك القبر ، فمكث يختلف إليه أيّاماً وهو مُضْنىً هالكٌ ، حتى جاءته جاريةٌ من الحيّ فأخبرته الخبر ، فتركهم وركب بعض إبله وأخذ معه زاداً ونفَقةً ورحَل إلى الشأم ، فقدِمها وسأل عن الرجل فأخبر به ودُلّ عليه ، فقصده وانتسب له في عدنان ، فأكرمه وأحسن ضِيافته ، فمكث أيّاماً حتى أنِسُوا به ، ثم قال لجاريةٍ لهم : هل لكِ في يدٍ تُولينيها ؟ قالت : نعم . قال : تدفَعين خاتَمي هذا إلى مولاتك . فقالت : سَوْءَةٌ لك ، أما تَستحي لهذا القول ! فأمسك عنها ، ثم أعاد عليها وقال لها : ويحَك ! هي واللهِ بنتُ عمّي ، وما أحدٌ منا إلاّ وهو أعزُّ على صاحبه من الناس جميعاً ، فاطرحي هذا الخاتَم في صَبُوحها[2] ، فإذا أنكرتْ عليك فقولي

---

(١) الجزر ج جزور : الناقة المعدة للذبح .

(٢) الصبوح : ما يشرب في الصباح .

لها : اصطبح ضيفُك قبلك ، ولعلّه سقط منه . فرقّت الأمَةُ وفعلت ما أمرها به .

فلمّا شربت عفراء اللبن رأت الخاتم فعرَفَتْه ، فشهَقت ثم قالت : اصدُقيني عن الخبر . فصدَقَتْها ، فلمّا جاء زوجُها قالت له : أتدري مَن ضَيفُك هذا ؟ قال : نعم ، فلان بن فلان ، للنّسب الذي انتسب له عُروة ، فقالت : كلاّ واللهِ يا هذا ، بل هو عُروة بن حِزام ابن عمّي ، وقد كتَم نَفْسه حَياءً منك ...

ثم بعث إليه فدعاه وعاتبه على كِتمانه نفسَه إيّاه وقال له : بالرَّحْب والسَّعة ، نشَدتُك اللهَ إن رِمْتَ [1] هذا المكان أبداً . وخرج وتركه مع عَفْراء يتحدّثان ، وأوصى خادماً له بالاستماع عليهما وإعادة ما تسمعه منهما عليه . فلمّا خلَوا تشاكيا ما وَجَدا بعدَ الفِراق ، فطالت الشّكوى ، وهو يبكي أحرَّ بكاء . ثم أتتْه بشرابٍ وسألته أن يشربَه فقال : والله ما دخل جَوفي حَرامٌ قطُّ ولا ارتكبتُه مُنذ كُنتُ ، ولو استحللتُ حراماً لكنت قد استحللته منكِ ، فأنت حَظّي من الدنيا ، وقد ذهبتِ منّي وذهبتُ بعدَك فما أعيش ؛ وقد أجمل هذا الرجلُ الكريم وأحسَن ، وأنا مُستَحيي منه ، ووالله لا أُقيم بعد عِلمه بمكاني ، وإنّي عالمٌ أنّي أرحَلُ إلى مَنيّتي . فبكت وبكى وانصرف .

فلمّا جاء زوجُها أخبرته الخادم بما دار بينهما فقال : يا عفراءُ ، امنَعي ابنَ عمّك من الخروج . فقالت : لا يمتنع ، هو والله أكرَمُ وأشدُّ حياءً من أن يُقيم بعدَما جرى بينكما . فدعاه وقال له : يا أخي ، اتّقِ اللهَ في نَفسك ، فقد عرفتُ خبَرك ، وإنّك إن رحلت تَلفتَ ، ووالله لا أَمنعُك من الاجتماع معها أبداً ، ولَئن شئتَ لأفارقنّها ولأنزلنَّ

---

(١) إن رمت هذا المكان : لا بارحت هذا المكان ، وإن هنا نافية .

عنها لك . فجزاه خيراً وأثنى عليه وقال : إنّما كان الطمعُ فيها آفَتي ، والآنَ قد يئست وقد حملت نفسي على اليأس والصَّبر ، فإنّ اليأسَ يُسْلي ، ولي أمورٌ ولا بُدّ لي من الرجوع إليها ، فإن وجدتُ من نفسي قوّةً على ذلك ، وإلاّ رجَعتُ إليكم وزُرتكم ، حتى يقضيَ الله من أمري ما يشاء . فزوّدُوه وأكرموه وشيّعوه ، فانصرف . فلمّا رحَل عنهم نُكِس بعد صلاحه وتَماثُله وأصابه غَشيٌ وخفقان ، فكان كلّما أغْميْ عليه أُلقي على وجهه خِمارٌ لِعفراء زوّدتْه إيّاه فيُفيق .

قال : ولقيه في الطريق ابنُ مَكْحُول عرّاف اليَمامة ، فرآه وجلس عنده وسأله عمّا به ، وهل هو خبَلٌ أو جُنُونٌ ؟ فقال له عُروة : ألك عِلمٌ بالأوجاع ؟ قال : نعم . فأنشأ يقول :

وما بيَ من خبْلٍ ولا بيَ جِنّةٌ ... ولكنّ عمّي يا أُخَيَّ كَذُوب
أقول لِعرّاف اليمامة داوِني ... فإنّك إن داويتَني لَطبيبُ
فواكبدا أمست رُفاتاً كأنّما ... يُلذّعها بالمُوقِدات طبيب
عَشيّةَ لا عفراءُ منكَ بعيدةٌ ... فتَسْلُو ولا عفراءُ منك قريب
عشيّةَ لا خلْفي مَكَرٌّ ولا الهوى ... أمامي ولا يهوَى هوايَ غريب
فوالله لا أنساكِ ما هبّت الصَّبا ... وما عقّبَتْها في الرياح جَنُوب
وإنّي لَتغشاني لِذكراكِ هِزّةٌ ... لها بين جلدي والعِظام دَبِيبُ

وقال أيضاً يخاطب صاحبيه الهِلاليّين بقصّته :

خليليَّ من عُليا هلال بن عامرٍ ... بصَنعاء عُوجا اليومَ وانتظراني
ولا تَزْهدا في الذُّخْر عندي وأجْمِلا ... فإنّكما بي اليومَ مُبْتَلَيان
ألِمّا على عفراءَ إنّكما غَداً ... بوَشْك النَّوى والبَيْن مُعترفان
فيا واشيَيْ عفراءَ ويحَكما بمَن ... وما وإلى من جئتما تَشيان

بمَن لو أراه عانياً نَفَدَيْتُـه ومن لو رآني عانياً لَفَـداني

متى تكشِفا عنّي القميص تَبيناً بِيَ الضُّرَّ من عفراءَ يا فتَيـان

إذن تريا لحماً قليلاً وأعظُمـاً بَلِين وقلباً دائـم الخفَقان

وقد تركتْني لا أعي لمُحدِّث حديثاً وإن ناجَيتُه ونَجاني

جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكمَه وعرّاف حَجْرٍ إن هما شفَياني

فما تركا من حيلـةٍ يعرفانها ولا شَرْبةٍ إلاّ وقد سَقَياني

ورَشّا على وجهي من الماء ساعةً وقاما مع العُوّاد يَبتَـدِرانِ

وقالا : شفاكَ اللهُ واللهِ ما لَنا بما ضُمّنَت منك الضُّلوعُ يَدانِ

فوَيْلي على عفراء ويلاً كأنّـه على الصّدر والأحشاء حَدُّ سِنانِ

أُحبّ ابنةَ العُذْريّ حُبّاً وإن نأتْ ودانيتُ فيها غيرَ مـا مُتداني

إذا قُلتُ:لا،قالا: بلَى،ثمّ أصبحا جميعاً على الرّأي الذي يَرَيـان

تحمّلت من عفراءَ ما ليس لي به ولا للجبال الرّاسيات يـدانِ

فيا ربِّ أنت المُستَعانُ على الذي تحمّلت من عفراء منذُ زمان

كأنّ قَطاةً عُلّقت بجَنَاحهـا على كَبِدي من شِدّة الخفَقان[1]

قال : فلم يزل في طريقه حتى مات قبل أن يصل إلى حيّه بثلاث لَيالٍ . وبلغ عفراء خبرُ وفاته فجزعت جزعاً شديداً ، وقالت ترثيه :

ألاأيُّها الرَّكْبُ المُخِبُّونَويْحَكم بحقٍّ نَعيتُم عُروةَ بنَ حِزامِ

فلا تَهْنَأِ الفِتيانَ بعدَكَ لـذّةٌ ولا رجَعوا من غَيْبةٍ بسَلام

وقل للحبالى لا ترجين غائباً ولا فرحات بعـده بغُلامِ

---

(١) النوى : الفراق . العاني : الأسير .

قال : ولم تزل تُردّد هذه الأبيات وتندُبه ، بها حتى ماتت بعده بأيّام قلائل . وذكر عُمر بن شَبّة في خبره :

أنّه لم يعلم بتزويجها حتى لقي الرُّفقة الّتي هي فيها ، وأنّه كان توجّه إلى ابن عمٍّ له بالشأم ، لا باليمن ، فلمّا رآها وقف دهِشاً ، ثم قال :

فما هي إلاّ أن أراها فُجاءةً فأبهتَ حتى ما أكاد أُجيبُ
وأصدِفُ عن رأيي الذي كنتُ أرتئي وأنسى الذي أزمعتُ حين تَغيبُ
ويُظهر قلبي عُذرَها ويُعينها عليَّ فما لي في الفؤاد نصيبُ
وقد علمت نفسي مكانَ شفائها قريباً وهل ما لا يُنال قريبُ
حلفتُ بربِّ السّاجدين لِربِّهم خُشوعاً وفوقَ السّاجدين رقيبُ
لَئن كان بَرْدُ الماء حرّانَ صادياً إليَّ حَبيباً إنّها لحبيبُ (١)

وقال أبو زيد في خبره :

ثم عاد من عند عفراء إلى أهله ، وقد ضَنِي ونَحَل ، وكانت له أخواتٌ وخالة وجَدّة ، فجعلن يَعِظنه ولا ينفع ، وجئن بأبي كُحيلة رَباح بن شَدّاد ، مولى بني ثُعيلة ، وهو عرّاف حَجْر (٢) ، لِيداويَه ، فلم ينفَعْه دواؤه .

وقال أبو زيد : وكان عروة يأتي حياض الماء الّتي كانت إبل عفراء تَرِدها ، فيُلصق صدره بها ، فيُقال له : مَهْلاً فإنّك قاتل نفسك ، فاتّقِ الله . فلا يَقبل ، حتى أشرف على التّلَف وأحسّ بالموت . فجعل يقول :

---

(١) صادياً : ظمآن .

(٢) حجر : قرية وهي قصبة اليمامة .

نيَ اليأسُ والدّاءُ الهُيامُ سُقَيتُه
فإيّاكَ عنّي لا يكُنْ بكَ ما بيا (١)

عن سليمان بن عبد العزيز بن عِمران الزّهريّ قال : حدّثني خارجة المكّيّ :

أنه رأى عروة بن حزام يُطاف به حول البيت ، قال : فدنوت منه فقلت : مَن أنت ؟ فقال : الذي أقول :

أفي كلّ يومٍ أنتَ رامٍ بلادَها   بعينَين إنساناهما غَرِقان
ألا فاحملاني بارك الله فيكما   الى حاضر الرَّوحاء ثم ذَراني (٢)

فقلت : زِدْني . فقال : لا والله ولا حرفاً .

عن أبي صالح قال :

كنت مع ابن عبّاس بعَرفَة ، فأتاه فِتيانٌ يحملون بينهم فتىً لم يبق منه إلاّ خياله ، فقالوا له : يابنَ عمّ رسول اللهِ ، ادْعُ له . فقال : وما به ؟ فقال الفتى :

بنا من جوى الأحزان في الصَّدر لَوعةٌ
تكاد لها نفسُ الشَّفيق تذوبُ
ولكنّما أبقى حُشاشةَ مُعْوِلٍ
على ما به عودٌ هناك صَليبُ

قال : ثم خفَت في أيديهم فإذا هو قد مات . فقال ابن عبّاس :

هذا قتيلُ الحُبّ لا عَقْلٌ ولا قَوَدُ (٣)

ثم ما رأيت ابن عبّاس سأل الله جلّ وعزّ في عَشيّته إلا العافية ، مما ابتُلي به ذلك الفتى ؛ وسألنا عنه فقيل : هذا عُروة بن حِزام .

• • •

(١) الهيام : مرض يصيب الابل يشبه الحمى .
(٢) الروحاء : موضع بين الحرمين ، على مقربة من المدينة .
(٣) العقل : الدية . القود : قتل القاتل بالقتيل .

٤١

عُمر بن أبي ربيعة

(الأغاني ج ١ ص ٦١ وما بعدها)

الشاعر

هو عُمر بن عبدالله بن أبي ربيعةَ ، واسم أبي رَبيعة حُذَيفةُ بن المُغيرة بن عبدالله بن عمر بن مَخزوم بن يَقَظة بن مُرّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهرْ ... ويُكنى عمر بن أبي ربيعة أبا الخَطّاب . وكان أبو ربيعة جَدُّه يُسمّى ذا الرُمْحَين ، سُمّي بذلك لطوله ، كان يُقال : كأنّه يمشي على رُمْحَين ...

قال محمد بن يحي : وكان اسم عبدالله بن أبي ربيعة في الجاهليّة بَحِيراً ، فسمّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلّم عبدَالله . وكانت قريش تُلقّبه « العِدْل » لأن قريشاً كانت تكسو الكعبة في الجاهلية

بأجمعها من أموالها سنةً ، ويكسُوها هو من ماله سنةً ، فأرادوا بذلك أنه وحدَه عِدْلٌ لهم جميعاً في ذلك ...

وكان عبدالله بنْ أبي ربيعة تاجراً مُوسِراً ، وكان مَتجرهُ الى اليمن ، وكان من أكثرهم مالاً . وأُمُّه أسماءُ بنت مُخَرِّبة - وقيل : مُخَرِّمة - وكانت عَطّارةً يأتيها العِطر من اليمن . وقد تزوّجها هشام بن المُغيرة أيضاً فولدت له أبا جَهل والحارث بن هشام ، فهي أمُّهما وأمّ عبدالله وعَيّاش ابنَي أبي ربيعةَ ...

عن الواقديّ قال : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عبدَالله ابن أبي ربيعة على الجَنَد ومَخاليفها[1] ،فلم يزل عاملاً عليها حتى قُتل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه .

وأمُّ عمر بن أبي ربيعة أمُّ ولَدٍ يقال لها « مَجْد » سُبيت من حَضْرموتَ ، ويقال من حِمْيَر . قالَ أبو مُحَلِّم ومحمد بن سَلاّم : هي من حِمير ، ومن هناك أتاه الغزلُ . يُقال : غَزَلٌ يمانٍ ، ودَلٌّ حِجازيّ .

وقال عمر بن شَبّة : أمّ عمر بن أبي ربيعة أمُّ ولدٍ سوداءُ من حَبَش يُقال لهم فَرَسان . وهذا غلطٌ من أبي زيد ، تلك أمُّ أخيه الحارث بن عبدالله الذي يقال له « القُباع » ، وكانت نصرانيّة . وكان الحارث بن عبدالله شريفاً كريماً دَيّناً وسيّداً من سادات قريش ...

وكان لعمر بن أبي ربيعة ابنٌ صالح يُقال له « جُوان » ، وفيه يقول العَرْجيّ :

شهيدي جُوانٌ على حُبّها ... أليس بعَدْلٍ عليها جُوان

---

(١) الجند : أحدى ولايات اليمن الثلاث في الإسلام . والمخاليف ج مخلاف : الكورة والرستاق .

قالوا : وكان لعمر أيضاً بنت يقال لها « أَمَةُ الواحِد » . وكانت مسترضعةً في هُذيل .

عن عَوانة بن الحكَم ... قال : ولد عُمر بن أبي ربيعة ليلةَ قُتل عمر بن الخطّاب ، رحمةَ الله عليه ، فأيُّ حق ٍ رُفع ، وأيُّ باطل ٍ وُضع . قال عَوانة : ومات وقد قارب السبعين أو جاوزها .

محمّد بن الضحّاك قال : عاش عمر بن أبي ربيعة ثمانين سنةً ، فتك منها أربعين سنةً . ونسك أربعين سنة .

يعقوب بن إسحاق قال :

كانت العرب تقرّ لقريش بالتقدُّم في كلّ شيء ٍ عليها إلاّ في الشعر فإنّها كانت لا تُقرّ لها به ، حتّى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرّت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تُنازِعْها شيئاً .

قال الزُبير : وسمعت عمّي مُصعَباً يُحدّث عن جدّي أنّه قال مثلَ هذا القول . قال : وحدّثني عدّة من أهل العلم أنّ النُّصيب قال : لَعُمرُ بن أبي ربيعة أوصَفُنا لربّات الحِجال .

قال المدائنيُّ : قال سليمان بن عبدالملك لعمر بن أبي ربيعة : ما يَمنعك من مَدحنا ؟ قال : إنّي لا أمدح الرّجال وإنّما أمدح النساء . قال : وكان ابن جُرَيج يقول : ما دخل على العواتق (١) في حِجالهنّ شيءٌ أضرُّ عليهنّ من شعر عمر بن أبي ربيعة .

عن حَمّاد الراوية أنّه سُئل عن شعر عمر بن أبي ربيعة فقال : ذاك الفُستق المُقَشّر .

---

(١) العواتق ج عاتق : الفتاة التي بلغت سن البلوغ فحجبت وخدرت في بيت أهلها .

الزُبير عن عمّه قال :

سمع الفرزدقُ شيئاً من نسيب عُمر فقال : هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأتْه وبكت الدِّيارَ ، ووقعَ هذا عليه .

عن عبد الله بن مَسْلَمة بن أسلمَ قال : لقيتُ جريراً فقلت له : يا أبا حَزْرةَ ، إنّ شعرك رُفع إلى المدينة وأنا أحبّ أن تُسمعَني منه شيئاً . فقال : إنّكم يا أهلَ المدينة يُعجبكم النَّسيبُ ، وانّ أنسبَ الناس المخزُوميُّ ، يعني ابن أبي ربيعة .

الزُبير بن بكّار قال : حدّثتني ظَبْيةُ مَولاةُ فاطمةَ بنت عُمر ابن مُصعَب قالت :

مررتُ بجَدِّك عبد الله بن مُصعَب وأنا داخلةٌ منزلَه ، وهو بفِنائه ، ومعي دفتر ، فقال : ما هذا معك ؟ ودعاني . فجئتُه وقلت : شعر عمر ابن أبي ربيعة . فقال : وَيْحَكِ ! تدخُلين على النساء بشعر عمر أبي بن ربيعة ! إنّ لِشعره لَموقِعاً من القلوب ومَدخلاً لطيفاً ، لو كان شِعرٌ يَسْحَر لكان هو ، فارجِعي به . قالت : ففعلتُ .

قال إسحاق : قال لي الأصمعيّ : عمرُ حُجّةٌ في العربيّة ، ولم يُؤخَذ عليه إلاّ قولُه :

ثمّ قالوا : تُحِبُّها قلتُ : بَهْراً عددَ الرَّمل والحَصى والتُّرابِ[1]

وله في ذلك مَخــرج ، إذ قد أتى به على سبيل الإخبار . قال : ومن الناس من يزعمُ أنّه إنّما قال :

---

(١) بهراً : فسرها بعضهم بمعنى : عجباً ، وذهب آخرون إلى أنها مصدر بهره بمعنى غلبه . وقد أخذ على عمر إتيانه في هذا البيت بالفعل : تحبها غير مسبوق بأداة استفهام ، وأجازه ذلك بعض النحاة .

قيل لي : هل تُحبّها قلت : بَهْراً

ابنُ عائشةَ عن أبيه قال :

كان جريرٌ إذا أُنشد شعر عمر بن أبي ربيعة قال : هذا شعر تِهاميٌّ إذا أنجد [1] وجَد البَرْد ، حتى أُنشد قوله :

رأت رجلاً أمّا إذا الشمسُ عارضت
فيضحى وأمّا بالعَشِيّ فيَخْصَرُ
قليلاً على ظَهر المَطيّة ظِلُّه
سوى ما نفَى عنه الرِّداءُ المُحَبَّرُ
وأعجبها من عيشِها ظِلُّ غُرفة
ورَيّانُ مُلتفُّ الحَدائق أخضرُ
ووالٍ كَفاها كلَّ شيءٍ يَهُمُّها
فليست لشيءٍ آخرَ الليل تسهَرُ [2]

فقال جرير : ما زال هذا القُرشيّ يَهذي حتّى قال الشعر .

عن هشام بن الكلبيّ :

أنّ عمر بن أبي ربيعة أتى عبد الله بن عبّاس وهو بالمسجد الحَرام فقال : متّعني الله بك ! إنّ نفسي قد تاقت إلى قول الشعر ونازعتْني إليه ، وقد قُلت منه شيئاً أحببتُ أن تسمعَه وتستُره عليّ . فقال : أنشِدْني فأنشَده :

(١) أنجد : دخل بلاد نجد ، يريد أنه إذا قيس بشعراء تهامة فهو شاعر جيد أما إذا قيس بشعراء نجد فهو يتأخر عنهم .

(٢) يخصر : يبرد . المحبر : المزين .

أمِن آلِ نُعمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرِ

فقال له : أنت شاعرٌ يا بنَ أخي ، فقل ما شئت . قال : وأنشد عُمر هذه القصيدة طَلْحَةَ بن عبد الله بن عَوف الزُهْريَّ وهو راكبٌ ، فوقف وما زال شانقاً [1] ناقته حتى كُتِبت له .

عن لِقيطٍ قال : أُنشِد جريرٌ قولَ عمر بن أبي ربيعة :

سائلا الرَّبْعَ بالبُلَيِّ وقُولا هِجْتَ شوقاً لنا الغَداةَ طويلا
أين حيٌّ حَلُّوك إذ أنت محفُو فٌ بهم آهِلٌ أراك جميلا
قال سارُوا فأمعنُّوا واستقلُّوا وبِرَغْمِي لو استطعتُ سبيلا
سئِمونا وما سَئِمْنا مُقاماً وأحبُّوا دَماثةً وسُهولا [2]

فقال جرير : إنّ هذا الذي كنّا ندُور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القُرشيّ .

الزبير بن بَكّار قال :

أدركت مَشيخةً من قريش لا يَزِنون بعمر بن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسيب ، ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره مِن مَدْحِ نفسِه ، والتحلّي بمودّته ، والابتيار في شعره . والابتيار : أن يفعل الإنسان الشيء فيذكرَه ويفخرَ به ...

المفاضلة بينه وبين معاصريه من شعراء الغزل

عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجِشُون عن عمّه يوسف قال :

ذُكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر بن أبي ربيعة عند ابن أبي عَتيق

(١) شنق البعير : جذبه بالشناق حتى يرفع رأسه ، والشناق : الزمام .
(٢) البلي : تل صغير قرب ذات عرق . استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

في مجلس رجل من ولد خالد بن العاصي بن هشام ، فقال : صاحبُنا – يعني الحارثَ بن خالد – أشعرُهما . فقال له ابن أبي عتيق : بعضَ قولك يا بن أخي ! لِشعر عمر بن أبي ربيعة نَوْطةٌ في القلب ، وعُلوقٌ بالنفس ، ودَرَكٌ للحاجة ليست لِشعرٍ ، وما عُصي الله جَلّ وعزّ بشعرٍ أكثر ممّا عُصي بشعر ابن أبي ربيعةَ . فخُذْ عنّي ما أصف لك : أشعَرُ قريش مَن دقّ معناه ، ولَطُف مَدخَلُه ، وسَهُل مَخرجُه ، ومَتُن حَشوُه ، وتعطّفت حَواشيه ، وأنارت مَعانيه ، وأعرب عن حاجته

فقال المُفضّل للحارث : أليس صاحبُنا الذي يقول :

إنّي وما نَحَرُوا غَداةَ مِنىً عند الجِمارِ يَؤُودُها العَقْلُ
لو بُدّلت أعلى مَساكنِها سُفلاً وأصبح سُفْلُها يعلُو
فيكاد يعرِفُها الخبيرُ بها فيَرُدُّه الإقواءُ والمَحْلُ
لعرَفتُ مَغناها بما احتملت منّي الضُلوعُ لأهلها قبلُ [1]

فقال له ابن أبي عتيق : يا بنَ أخي ، استُرْ على نفسك واكتُم على صاحبك ولا تشاهد المحافل بمثل هذا ؛ أما تطيّر الحارث عليها حين قلب ربعَها فجعل عالِيَه سافله ! ما بقي إلاّ أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حِجارةً من سِجّيل [2] ! ابنُ أبي ربيعة كان أحسنَ صُحبةً للرَّبع من صاحبك ، وأجملَ مخاطَبةً حيث يقول :

سائلا الرَّبع بالبُلَيّ وقُولا هِجت شوقاً لي الغَداةَ طويلا

وذكر الأبيات الماضية . قال : فانصرف الرجلُ خجِلاً مُذعِناً .

---

(1) آده الأمر : بلغ منه المجهود . عقل البعير : شد وظيفه إلى ذراعه . الإقواء : خلو الدار من أهلها . المحل : الجدب . المغنى : مكان نزول القوم .

(2) السجيل : الطين المتحجر .

عن عبد الجبّار بن سعيد المُساحِقيّ عن أبيه قال :

دخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم مع نوفَل بن مُساحِق . فإنّه لَمعتمدٌ على يدي إذ مررنا بسعيد بن المسيّب في مجلسه وحولَه جلساؤُه ، فسلّمنا عليه ، فردّ علينا ، ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد ، مَن أشعَرُ : صاحبُنا أم صاحبُكم ؟ يريد عبدَ الله بن قيس ، أو عمر بن أبي ربيعة . فقال نوفل : حينَ يقولان ماذا يا أبا محمّد ؟ قال : حين يقول صاحبُنا :

خليليّ ما بالُ المَطايا كأنّما
نَراها على الأدبار بالقوم تَنْكِصُ
وقد قُطّعت أعناقُهنّ صَبابةً
فأنفُسُنا ممّا يُلاقِين شُخَّصُ
وقد أتعب الحادي سُراهنّ وانتحى
بهنّ فما يألُو عَجُولٌ مُقَلِّصُ
يَزِدن بنا قُرباً فيزدادُ شَوقُنا
إذا زاد طولُ العهد والبُعدُ يَنقُصُ [١]

ويقول صاحبُك ما شئت . فقال له نوفل : صاحبكم أشعر في الغزل ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر . فقال سعيد : صدقتَ . فلمّا انقضى ما بينهما من ذكر الشعر جعل سعيداً يستغفر الله ويعقِد بيده حتى وفّى مائةً ...

عن أبي الحارث مولى هشام بن الوليد بن المغيرة ... قال : شهدتُ عمر بن أبي ربيعة وجميلَ بن مَعْمَر العُذْريّ ، وقد اجتمعا بالأبطح ، فأنشد جميلٌ قصيدته التي يقول فيها :

---

(١) تنكص : ترجع . شخص الجرح : انتبر وورم والمراد هنا التألم والعذاب . مقلص : مشمر ، جاد في سيره .

لقد فرِح الواشُون أن صرمتْ حَبـلي
بثينةُ أو أبدت لنا جانبَ البُخْـلِ
يقولون مهلاً يـا جميلُ وإنّـني
لأُقسم مالي عن بُثينة من مَهْلِ

حتى أتى على آخرها ، ثم قال لعمر : يا أبا الخطّاب ، هل قلتَ في هذا الرَوِيّ شيئاً ؟ قال : نعم . قال : فأنْشِدْنيه . فأنشده قوله :

جرى ناصحٌ بالوُدّ بيني وبينَهـا
فقَرَّبني يومَ الحِصاب إلى قَتْـلي
فطارت بحَدٍّ من فؤادي وقارنـت
قرينتُها حبلَ الصَّفاء إلى حَبـلي
فلمّا تواقفنا عرفتُ الـذي بهـا
كمثل الذي بي حَذوَكَ النَّعلُ بالنَّعلِ [1]

(الأبيات ...)

فقال جميل : هيهاتَ يا أبا الخَطّاب ! لا أقولُ واللهِ مثلَ هذا سَجيسَ الليالي [2] . والله ما يخاطب النساءَ مخاطبتَك أحدٌ .

أخبار في خُلقه وسيرته مع النساء

عن سَمُرة الدُومانيّ من حِمير قال :

إنّي لأطوفُ بالبيت فإذا أنا بشيخ في الطَّواف ، فقيل لي : هذا عمر

(١) الحصاب والمحصب : موضع رمي الجمار بمنى .
(٢) يقال : لا آتيك سجيس الليالي : أي لا آتيك أبداً .

بن أبي ربيعة . فقبضت على يده وقلت : يا بنَ أبي ربيعة . فقال : ما تشاء ؟ قلت : أكلّ ما قُلتَه في شعرك فعلتَه ؟ قال : إليك عنّي . قلت : أسألُك بالله قال : نعمْ وأستغفرُ الله .

قال إسحاق : وذكر محمد بن إسماعيل الجَعفريّ عن أبيه عن خاله عبد العزيز بن عبد الله بن عيّاش بن أبي ربيعة قال : أشرف عمر بن أبي ربيعةْ على أبي قُبَيس (١) ، وبنو أخيه معه وهم مُحرِمون ، فقال لبعضهم : خُذ بيدي . فأخذ بيده ، وقال : وربِّ هذه البَنِيَّة (٢) ما قلت لامرأة قطُّ شيئاً لم تَقُله لي ، وما كشفتُ ثوباً عن حَرام قطّ . قال : ولمّا مرض عمر مرضَه الذي مات فيه جزِع أخوه الحارثُ جزَعاً شديداً . فقال له عمر : أحسِبك إنّما تجزَع لما تظُنّه بي ، والله ما أعلم أنّي ركبتُ فاحشةً قط . فقال : ما كنت أشفِق عليك إلاّ من ذلك ، وقد سلّيت عنّي .

عن المُغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال :

حججتُ مع أبي وأنا غُلامٌ وعليّ جُمّةٌ (٣) . فلمّا قدمتُ مكّةَ جئت عمر بن أبي ربيعة ، فسلّمت عليه وجلست معه ، فجعل يمدّ الخُصلة من شعري ثمّ يُرسلها فترجع على ما كانت عليه ، ويقول : واشباباه ! حتى فعل ذلك مِراراً . ثم قال لي : يا بنَ أخي ، قد سمعتَني أقول في شعري : قالت لي وقلت لها ، وكلُّ مملوك لي حُرٌّ إن كنت كشفت عن حَرامٍ قطّ ...

قال أبو المقوّم الأنصاري : ما عُصِي الله بشيءٍ كما عُصِي بشعر عمر ابن أبي ربيعة .

---

(١) أبو قبيس : جبل بمكة .

(٢) البنية : الكعبة .

(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

قال إسحاق : وحدّثني قيس بن داود قال حدّثني أبي قال : سمعت ابن أبي ربيعة يقول : لقد كنت وأنا شابٌّ أُعْشَق ولا أعشق ، فاليومَ صِرت إلى مُداراة الحِسان إلى الممات . ولقد لَقِيَتْني فتاتان مرّةً فقالت لي إحداهما: أُدْنُ مني يا بن أبي ربيعة أُسِرَّ إليك شيئاً. فدنوت منها ودنت الأخرى فجعلتْ تعضّني ، فما شعرت بعضٍّ هذه من لذّة سِرار هذه .

الزُبير بن بَكّار قال :

لم يذهب على أحدٍ من الرُواة أن عمرَ كان عفيفاً يصِف ولا يَقِف ، ويَحُوم ولا يَرِد .

كان موكَّلاً بالجمال يتبعه

قال مصعَب بن عُروة بن الزُبير :

خرجت أنا وأخي عثمان إلى مكّة مُعتمِرَيْن أو حاجَّيْن ، فلمّا طُفنا بالبيت مَضَينا إلى الحِجْر نُصلّي فيه ، فإذا شيخٌ قد فرَج بيني وبين أخي ، فأوسعنا له . فلمّا قضى صلاتَه أقبل علينا فقال : من أنتما ؟ فأخبرناه فرحَّب بنا وقال : يا بنَيَّ أخي ، إنّي مُوكَّل بالجمال أَتْبَعُه ، وإنّي رأيتُكما فراقني حُسنكما وجمالكما ، فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندَما عليه . ثم قام ، فسألنا عنه فإذا هو عمر بن أبي ربيعة .

أحمد بن عُبيد أبو عَصيدة قال :

ذكر ابن الكلبيّ أن عمر بن أبي ربيعة كان يُساير عُروة بن الزبير ويُحادثه ، فقال له : وأين زَين المواكب ؟ يعني ابنَه محمد بن عُروة ، وكان يُسمّى بذلك لجماله . فقال له عروة : هو أمامك . فركض يطلبُه ، فقال له عروة: يا أبا الخَطّاب، أولسنا أكفاءً كِراماً لمحادثتك ومسايرتك؟ فقال : بَلَى ، بأبي أنت وأمّي ! لكنّي مُغرًى بهذا الجمال أتبعه حيث

كان . ثم التفت إليه وقال :

إنّي امرُؤٌ مُولَعٌ بالحُسن أتبعُـــــه
لا حظَّ لي فيه إلاّ لَذّةُ النَظَرِ

ثم مضى حتى لحقه فسار معه ، وجعل عروة يضحك من كلامه تعجُّباً منه .

خصائصه في غزله

عن عبد العزيز بن عِمران قال : قال ابن أبي عتيق لعمر وقد أنشده قولَه :

بينما يَنعتنَــــني أَبْصَرنَـــــني   دون قِيد المِيل يعدُو بي الأغَرّ
قالت الكبرى أتعرِفن الفَـــــتى   قالت الوسطى نعمْ هذا عُمَرْ
قالت الصُغرى وقـــد تيَّمتُهـــا   قد عَرَفناه وهل يخفَى القمر (١)

فقال له ابن أبي عتيق – وقد أنشدها – : أنت لم تنسُب بها وإنّما نسبت بنفسك . كان ينبغي أن تقول : قُلت لها فقالت لي ، فوضعتُ خدّي فوطِئت عليه .

عن مصعَب بن عبد الله الزُبيريّ ، وأخبرني الحَرَميُّ بن أبي العَلاء قال : حدّثنا الزبير بن بكّار عن عمّه مصعب أنّه قال :

راق عمر بن أبي ربيعة الناسَ وفاق نُظَراءه وبَرَعهـم بسهولة

---

(١) قيد الميل : قدر الميل ، والميل : قدر مد البصر ، واختلفوا في تقديره فجعله بعضهم ثلاثة آلاف ذراع وجعله آخرون غير ذلك . الأغر : صفة للفرس ذي الغرة ، وهي البياض في جبهته .

الشعر ، وشِدّة الأسر ، وحُسن الوصف ، ودِقّة المعنى ، وصَواب المصدَر ، والقَصْد للحاجة ، واستنطاق الرَّبْع ، وإنطاق القلب ، وحُسن العَزاء ، ومخاطبة النساء ، وعِفّة المَقال ، وقلّة الانتقال ، وإثبات الحُجّة ، وترجيح الشكّ في موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار . وفَتْح الغزَل ، ونَهْج العِلَل ، وعطف المَساءة على العُذّال ، وأحسَن التفجُّع . وبَخّل المنازل ، واختصر الخَبَر ، وصدَق الصَّفاء ؛ إن قدَح أورَى ، وإن اعتذر أبرا ، وإن تشكّى أشجى ؛ وأقدم عن خِبْرة ، ولم يعتذرْ بغِرّة ، وأسَر النومَ ، وغَمّ الطير ، وأغذّ السَّير ، وحَيّر ماء الشباب ، وسَهّل وقَوّل ، وقاس الهوى فأربى ، وعصى وأخلى ، وحالَف بسَمعه وطَرْفه ، وأبرم نَعت الرُّسُل ، وحَذّر ، وأعلن الحبّ وأسرّ ، وبَطَن به وأظهر ، وألحّ وأسَفّ ، وأنكح النومَ ، وجنَى الحديث ، وضرَب ظهرَه لِبطنه ، وأذلّ صَعبه ، وقنِع بالرَّجاء من الوفاء ، وأعلى قاتلَه ، واستبكَى عاذِله ، ونفّض النوم ، وأغلق رَهن [1] مِنيّ وأهدر قتلاه ، وكان بعد هذا كُلّه فصيحاً .

فمن سُهولة شعره وشِدّة أسْره [2] قولُه :

فلمّا تواقَفْنا وسَلّمتُ أشرقتْ   وجوهٌ زَهاها الحُسنُ أن تتقنّعا
تبالَهْنَ بالعِرفان لمّـــا رأينَــني   وقُلْن امرُؤٌ باغٍ أكَلّ وأوْضعا [3]

ومن حُسن وصفه قولُه :

لها من الرِّيم عينــاه وسُنّتُه   ونَخوةُ السابق المُختال إذ صَهلا [4]

(١) غلق الرهن : استحقه المرتهن إذا لم يفتكك في الوقت المشروط .
(٢) شدة الأسر : يراد بها المتانة وإحكام التأليف والأسر : الخلق .
(٣) تبالهن بالعرفان : تظاهرن بأنهن لا يعرفنني . امرؤ باغ : امرؤ يبغي بعيراً أضاعه . أكل : أتعب . أوضع : أسرع في السير .
(٤) سنته : صورته .

ومن دِقّة معناه وصواب مَصدره قوله :

عُوجا نُحَيِّ الطَّلَلَ المُحْوِلا والرَّبْعَ من أسماءَ والمَنْزِلا
بسابغِ البَوْباة لـم يَعْـدُهُ تقادُمُ العَهد بأن يُؤهَـلا (١)

ومن قَصده للحاجة قوله :

أيّها المُنكِحُ الثُريّا سُهيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيانِ
هي شاميّةٌ إذا ما استقلّت وسُهيلٌ إذا استقلّ يمـاني (٢)

ومن استنطاقه الرَّبْعَ قوله :

سائلا الرَّبع بالبُلَيّ وقـولا هجتَ شوقاً لنا الغداةَ طويلا
أين حيٌّ حَلُّوك إذ أنت محفو فٌ بهم آهلٌ أراك جميـلا
قال ساروا فأمعنُوا فاستقلُّـوا وبرَغْمي لو قد وجدتُ سبيلا
سئمُونا ومـا سَئِمنا جِـواراً وأحبُّـوا دَماثـةً وسُهـولا

ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لي فيها عَتيقٌ مَقـالاً فجرتْ ممّا يقـولُ الدُّموعُ
قال لي وَدِّعْ سُليمَى ودَعْهـا فأجاب القلب لا أستطيـعُ

ومن حُسن عزائه قوله :

أألْحقّ إن دارُ الرَّبابِ تباعـدتْ أو انبتّ حَبْلٌ أنّ قَلبَك طائرُ

(١) المحول : الذي أتت عليه أحوال كثيرة فغيرته . البوباة : صحراء بأرض تهامة . لم يعده : لم يجاوزه ؛ أراد : لم يؤهل فيعدوه تقادم العهد .
(٢) الثريا : أراد الثريا بنت علي الأموية ، تزوجها سهيل بن عبد الرحمن الزهري . وعمر شبههما هنا بالنجمين المعروفين . عمرك الله : سألت الله تعميرك .

أفِقْ قد أفاق العاشقون وفارقوا الهوى واستمرّت بالرِّجال المَرائرُ
زَعِ النفسَ واستبقِ الحياءَ فإنّما تُباعد أو تُدني الرَّبابَ المقادرُ
أمِتْ حُبَّها واجعلْ قديمَ وِصالها وعِشْرتَها كمثل مَن لا تُعاشرِ
وهَبْها كشيءٍ لم يكن أو كنازحٍ به الدارُ أو من غَيَّبَتْهُ المَقابرُ
فإن كنت عُلِّقتَ الرَّبابَ فلا تكنْ أحاديثَ مَن يَبدُو ومن يتحضرُ(١)

ومن حُسن غزله في مخاطبة النساء – قال مصعبٌ الزُّبَيريّ: وقد أجمع أهلُ بلدنا ممّن له عِلم بالشعر أنّ هذه الأبيات أغزَلُ ما سمعوا – قولُه :

تقولُ غداةَ التقينا الرَّبابُ أيا ذا أفلْتَ أفولَ السِّماكِ
وكَفَّتْ سَوابقَ من عَبْرةٍ كما ارفضّ نظمٌ ضعيفُ السِّلاكِ
فقلتُ لها من يُطِعْ في الصديـ ـقِ أعداءَه يجتنبْه كذاكِ
أغرَّكِ أنّي عصيتُ الملا مَ فيكِ وأنّ هَوانا هَواكِ
وألّا أرى لذّةً في الحياةِ تَقَرُّبها العينُ حتى أراكِ
فكان من الذّنب لي عندكم مُكارمتي واتّباعي رِضاكِ
فليت الذّي لام في حُبّكم وفي أن تُزاري بقَرْنٍ وقاكِ
هُمومَ الحياةِ وأسقامَها وإن كان حتفٌ جَهيزٌ فَداكِ (٢)

ومن عِفّة مقاله قوله :

طال ليلي واعتادني اليومَ سُقمُ وأصابت مَقاتل القلب نُعْمُ
حُرّةُ الوجه والشّمائل والجو هر تكليمُها لمن نال غُنْمُ

(١) استمرت مريرتهم : اشتدت عزائمهم . زع النفس : ازجرها وكفها عن هواها .
(٢) السماك : اسم نجمين في السماء أحدهما يقال له الرامح والثاني الأعزل . ارفض الدمع : ترشش . قرن : اسم قرية قرب الطائف أو اسم واد . جهيز : سريع .

وحديثٌ بمثله تُنْزَلُ العُصْـ ـمُ رخيمٌ يشُوب ذلك حِلْـم
هكذا وصفُ ما بـدا ليَ منهـا ليس لي بالذي تغيّـب علْمُ
إن تجُودي أو تَبخلي فبحَمْـدٍ لستِ يا نُعمُ فيهما مَن يُذَمّ (١)

ومن قلّة انتقاله قولُه :

أيّها القائلُ غيرَ الصّـوابِ أمسِك النُّصحَ وأقلِلْ عِتـابي
واجتَنِبْني واعلمَنْ أن ستُعصى ولَخَيرٌ لك طـولُ اجتنابي
إن تقلْ نُصْحاً فعن ظهر غِشٍّ دائم الغِمْرِ بعيدِ الذّهـابِ
ليس بي عِيٌّ بما قلتَ إنّي عالمٌ أفْقَهُ رَجْـعَ الجوابِ
إنّمـا قُـرّةُ عَيْني هَواها فدَعِ اللّوم وكِلْني لِما بي
لا تَلُمْني في الرَّباب وأمسَتْ عدلَتْ للنَّفس بَـرْدَ الشَّرابِ
هي واللهِ الـذي هـو ربّي صادقاً أحلِفُ غيرَ الكِـذابِ
أكرمُ الأحيـاء طُـرّاً علينا عند قُربٍ منهـمُ واجتنابِ
خاطبَتْني ساعةً وهي تبكـي ثُمّ عزّتْ خُلّتي في الخِطابِ
وكفى بي مِدْرَهـاً لخُصومٍ لِسواها عند حَدّ تَبابي (٢)

ومن إثباته الحُجّة قولُه :

خليليَّ بعضَ اللومِ لا تَرْحَلا به رفيقكما حتى تقُولا على عِلْمِ
خليليَّ من يكلَفْ بآخَرَ كالّذي كلِفتُ به يَدْمُلْ فؤاداً على سُقْم
خليليَّ ما كانت تُصاب مَقاتـلي ولا غِرّتي حتى وقعتُ على نُعْمِ

---

(١) العصم ج أعصم : من الوعول ما في ذراعيه بياض ، وهي تعتصم بقنن الجبال .
(٢) الغمر (بالكسر) : الحقد والغل . عدلت : ساوت . الخلة : الخليلة في عفاف . المدره : المقدم عند الخصومة والقتال . التباب : الهلاك . يريد : حسبي أنني أغالب كل خصم سواها إلى حد هلاكي .

خليليَّ حتى لفَّ حبْلي بخادعٍ ... مُوَقّىً إذا يُرمى صَيُودٍ إذا يَرمي
خليليَّ لو يُرقَى خليلٌ من الهوى ... رُقيتُ بما يُدْني النَّوارَ من العُصْمِ
خليليَّ إن باعدتُ لانت وإن ألِنْ ... تُباعِدْ فلم أنبُلْ بحربٍ ولا سِلْمِ (١)

ومن ترجيحه الشكَّ في موضع اليقين قوله :

نظرت إليها بالمُحَصَّب من منىً ... ولي نظَرٌ لولا التحرُّجُ عارمُ
فقلت أشمسٌ أم مصابيحُ بِيعةٍ ... بدتْ لك خلفَ السِّجْفِ أم أنت حالمُ
بعيدةُ مَهْوَى القِرْطِ إمّا لنوفلٍ ... أبوها وإمّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ
ومَدَّ عليها السِّجْفَ يومَ لَقِيتُها ... على عَجَلٍ تُبّاعُها والخَوادمُ
فلم أستطِعْها غيرَ أن قد بدا لنا ... عَشيّةَ راحتْ وجهُها والمَعاصم
معاصمُ لم تضرِبْ على البَهْمِ بالضُّحى ... عَصاها ووجهٌ لم تَلُحْهُ السَّمائمُ
نُضارٌ ترى فيه أساريعَ مائه ... صَبيحٌ تُغاديه الأكفُّ النَّواعم
إذا ما دعتْ أترابَها فاكتَنَفْنَها ... تمايلن أو مالتْ بهنَّ المآكمُ
طَلَبْنَ الصِّبا حتى إذا ما أصبْنَه ... نَزَعْنَ وهنَّ المُسْلماتُ الظوالمُ (٢)

ومن طُلاوة اعتذاره قوله :

عاود القلبَ بعضُ ما قد شجاه ... من حبيبٍ أمسى هَوانا هَواهُ
يا لَقومي فكيف أصبِرُ عَمَّن ... لا ترى النفسُ طِيبَ عيشٍ سِواه

---

(١) يقال : رحل فلان فلاناً بما يكره إذا أثقله باسماعه إياه . يدمل : يطوي . النوار : النافرة . العصم : من الوعول والظباء ما في أذرعها بياض . أنبل : أصب .

(٢) المحصب : موضع رمي الجمار بمنى . عارم : حاد شديد . السجف ، بفتح أوله وكسره : الستر . بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول العنق . البهم : صغار الضأن والماعز . السمائم ج سموم : الريح الحارة . النضار : الذهب . أساريع الماء : طرائقه . المآكم ج مأكمة : العجيزة . صبا إلى المرأة صبوة : حن ، وصبته المرأة : شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها . نزعن : أقلعن .

أرسلت إذ رأتْ بِعاديَ ألاّ يَقْبَلَنْ بي مُحَرِّشاً إن أتاه
دون أن يسمعَ المَقالةَ منّا ولْيُطِعْني فإنّ عندي رِضاه
لا تُطِعْ بي فَدَتْكَ نفسي عدوّاً لِحديثٍ على هواه افتراه
لا تُطِع بي مَن لو رآني وإيّا ك أسيرَيْ ضَرُورةٍ ما عَناهُ
ما ضِراري نفسي بِهَجْريَ مَن ليس مُسيئاً ولا بعيداً ثَراه
واجتنابي بيتَ الحبيب وما الخُلْدُ بأشهى إليّ من أن أراه (١)

ومن نَهجه العِلل قوله :

وآيةُ ذلك أن تَسمعي إذا جئتُكم ناشِداً يَنْشُدُ
فرُحْنا سِراعاً وراح الهوى دليلاً إليها بنا يَقصِدُ
فلمّا دَنَونا لِجَرْس النُّبا حِ والصوتِ والحيُّ لم يرقُدوا
بعثنا لها باغياً ناشِداً وفي الحيّ بُغيةُ مَن يَنْشُدُ (٢)

ومن فتحه الغزَل قوله :

إذا أنت لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى فكُن حجراً من يابس الصَّخر جَلْمَدا

ومن عطفه المساءة على العُذّال قوله :

لا تَلُمْني عتيقُ حَسْبي الذي بي إنّ بي يا عتيقُ ما قد كفاني
لا تَلُمْني وأنت زَيّنْتَها لي أنت مثلُ الشّيطان للإنسان

ومن حُسن تفجّعه قوله :

هجرتَ الحبيبَ اليومَ من غير ما اجترَمْ
وقَطّعتَ من ذي وُدّك الحبلَ فانصرَمْ

(١) المحرش : من يوقع العداوة . الثرى : الخير .
(٢) نشد : طلب وسأل .

أطعتَ الوُشاةَ الكاشحين ومن يُطِـعْ
مَقالةَ واشٍ يقرَعُ السِنَّ من نَـدَمْ
أتاني رسولٌ كنتُ أحسَبُ أنّـه
شفيقٌ علينا ناصحٌ كالّذي زَعَمْ
فلمّا تباثَثْنـا الحديثَ وصَرَّحتْ
سرائرُه عن بعض ما كان قد كَتَمْ
تَبَيّن لي أنّ المُحَرِّشَ كـاذبٌ
فعندي لك العُتْبَى على رَغْم من رَغَمْ
فمِلآنَ لُمتُ النّفس بعد الذي مـضى
وبعدَ الذي آلتْ وآليتُ من قَسَم
ظلمتَ ولم تُعتِبْ وكان رسولُهـا
إليك سريعاً بالرِّضا لك إذ ظَلَمْ (١)

ومن تبخيله المنازلَ قوله :

عرفتُ مَصِيف الحيّ والمُتَرَبّعا ... ببطن حُلَيّاتٍ دَوارسَ بَلْقَعا
إلى السَّرْح من وادي المُغَمّس بُدِّلت ... مَعالمُها وَبْلاً وَنكباءَ زَعْزَعا
فيَبْخَلْن أو يُخبِرن بالعلم بعدما ... نَكَأن فؤاداً كان قِدْماً مُفَجّعا (٢)

ومن اختصاره الخبر قوله :

أمِن آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ ... غَداةَ غدٍ أم رائـحٌ فمُهَجّرُ

(١) المحرش : المغري بالعداوة العتبى : الرضى . ملآن : من الآن .
(٢) حليات : اسم موضع . المغمس : موضع قرب مكة في طريق الطائف . وبلا : مطراً شديداً ، والمراد أن المطر هي التي بدلت المعالم فالكلمة منصوبة على نزع الخافض أي بالوبل . النكباء : الريح التي تنكب عن مهب الرياح . الزعزع : الشديدة .

بحاجة نفسٍ لم تقُلْ في جوابهــا ... فتبْلِيغَ عُذراً والمَقالةُ تُعذرُ
أشارت بِمِدْراها وقالت لِتِربها ... أهذا المُغيريُّ الذي كان يُذْكَرُ
لَئن كان إيّاه لقد حال بعدَنــا ... عن العهد والإنسانُ قد يتغيّرُ (١)

ومن صدقه الصَّفاء قوله :

كلُّ وصلٍ أمسى لَديكَ لأنثى ... غيرِها وَصْلُها إليهــا أداءُ
كلّ أنثى وإن دنتْ لِوِصالٍ ... أو نأتْ فهي للرّبابِ الفِــداءُ

وقولُه :

أُحبّ لِحُبّك مــن لم يكنْ ... صَفيّاً لِنفسي ولا صاحبــا
وأبــذُل مــالي لِمَرْضاتكم ... وأُعتِبُ مَن جاءكم عاتبــا
وأرغَب في وُدّ مَن لم أكُن ... إلى وُدّه قبلكــم راغبــا
ولو سلَكَ الناسُ في جانــبٍ ... من الأرض واعتزَلتْ جانبــا
لَيَمّمْــت طِيّتَهــا إنّــني ... أرى قُربَها العجَب العاجِبا (٢)

وممّا قدَح فيه فأورى قولُه :

طال ليلي وتَعنّاني الطّــرَبْ ... واعتراني طولُ هَمٍّ ووَصَبْ
أرسلتْ أسماءُ في مَعتَبــةٍ ... عتَبَتْها وهي أحلى من عتَبْ
أن أتى منها رسولٌ مَوْهِناً ... وجد الحيَّ نيامــاً فانقلَــبْ
ضرَب الباب فلم يشعُرْ بــه ... أحدٌ يفتَحُ باباً إذ ضَرَبْ
قال أيقاظٌ ولكــنْ حاجــةٌ ... عَرضَتْ تُكْتَمُ منّا فاحتَجَبْ
ولَعَمْــداً رَدّنــي فاجتهدتْ ... بيَمينٍ حَلْفةٌ عنــد الغضب

---

(١) المدرى : المشط .
(٢) طيتها : ناحيتها .

يشهدُ الرحمـنُ لا يجمعُنا سقفُ بيتٍ رَجَباً بعدَ رَجبْ
قلتُ حِلاً فاقبلي مَعْذِرتي ما كذا يَجْزي مُحبٌّ من أَحَبّ
إنّ كفّي لكِ رهنٌ بالرِّضا فاقبَلي يا هندُ قالت قد وَجَبْ (١)

قالوا : ومن شعره الذي اعتذر فيه فأبرأ قوله :

فالتقَينا فرَحّبَتْ حين سلّمتُ وكفّت دَمعاً من العين مارا
ثمّ قالت عند العتابِ رَأَيْنا منك عنّا تجلُّداً وازورارا
قلتُ كلاّ لاه ابنُ عمّكِ بل خِفْنا أموراً كُنّا بها أغمارا
فجعلْنا الصُّدُودَ لمّا خَشينا قالةَ النّاس للهوى أستارا
ليس كالعهْد إذ عَهِدْتِ ولكن أوقد الناسُ بالنّميمة نارا
فلذاك الإعراضُ عنك وما آ ثَرَ قلبي عليك أخرى اختيارا
ما أبالي إذا النّوَى قَرّبَتْكم فدنَوتم مَن حَلّ أو من سارا
فالليالي إذا نأيتِ طِوالٌ وأراها إذا قَرُبتِ قِصارا (٢)

ومن تشكّيه الذي أشجى فيه قوله :

لَعَمْرُكِ ما جاورت غُمدانَ طائعاً وقَصرَ شَعُوبٍ أن أكونَ به صَبّا
ولكنّ حُمّى أضرعتني ثلاثةً مُجَرِّمةً ثم استمرّتْ بنا غِبّا
وحتّى لوانّ الخُلدَ تَعرِض إن مشت إلى الباب رِجْلي ما نقلتُ لها إرْبا
فإنّكِ او أبصرتِ يومَ سُوَيقَةٍ مُناخي وحَبْسي العِيسَ دامِيةً حُدْبا
ومَصرعَ إخوانٍ كأنّ أنينَهم أنينُ المكاكي صادفتْ بلداً خِصْبا

---

(١) تعناني : أوقعني في العناء والمشقة . الوصب : المرض . موهناً : قريباً من منتصف الليل .

(٢) مار الدمع : جرى وسال . ازور عنه : أعرض . لاه ابن عمك : لله ابن عمك . الغمر الغر الذي لم يجرب الأمور .

إذاً لاقشعرَّ الرأسُ منك صَبابةً ... ولاستفرغتْ عيناك من سكْبةٍ غَرْبا[1]

ومن إقدامه عن خِبرة ولم يعتذر بغِرّة قوله :

صَرَمتُ وواصلتُ حتى عَرفتُ أين المصادرُ والمَوردُ
وجرَّبت من ذاك حتى عرفتُ ما أتوقّى وما أعْمِدُ

ومن أسره النوم قوله :

نام صَحْبي وبات نومي أسيراً ... أرقُب النّجمَ مَوْهِناً أن يَغُورا

ومن غَمّه الطير قوله :

فرُحْنا وقُلنا للظّلام اقضِ حاجةً ... لنا ثمّ أدرِكْنا ولا تَتغبّرِ
سِراعاً نَغُمُّ الطيرَ إن سَنَحت لنا ... وإن تَلقَنا الرُّكبانُ لا نَتخبّرِ[2]

تتغبّر : من قولهم : غبر فلان أي لبث .

ومن إغذاذِه السير[3] قوله :

قلتُ سِيرا ولا تُقيما ببُصْرَى ... وحَفيرٍ فما أُحبّ حَفيرا
وإذا ما مَررتُما بمَعانٍ ... فأقِلاّ به الثّواءَ وسِيرا
إنّما قَصْرُنا إذا حَسَر السّيْرُ بعيراً أن نَستجِدّ بَعيرا[4]

---

(١) غمدان : قصر مشهور باليمن . قصر شعوب : قصر مرتفع باليمن . أضرعتني : أضعفتني . وضرع : ضعف . مجرمة : تامة . الغب من الحمى : ما تأخذ يوماً وتدع يوماً . ما نقلت لها إرباً : ما حركت لها عضواً . حدب : مقوسة الظهر لشدة كلالها . المكاكي ج مكاء : وهو طير حسن الصوت . الغرب : انهلال الدمع من العين .

(٢) نغم الطير : نملؤها غماً بسبقنا لها ، وفي رواية : نعيف الطير ، أي نزجرها . نتخبر : نسأل عن الخبر .

(٣) أغذ السير : أسرع .

(٤) بصرى وحفير : بلدان في حوران من بلاد الشام، وحفير أيضاً : نهر بالأردن. قصرنا : =

ومن تحييره ماءَ الشباب قوله :

أبرزوها مثلَ المَهـاة تَهادى ... بين خَمْسٍ كَواعبٍ أترابِ
ثم قالوا تُحبّها قلت بَهْـراً ... عددَ القَطْر والحَصى والتُراب
وهي مكنُونةٌ تحيّر منهـا ... في أديم الخَدَّين مـاءُ الشباب (١)

ومن تَقويله وتسهيله قوله :

قالت على رقبةٍ يومـاً لجارتِهـا ... ما تأمُرين فإنّ القلبَ قد تُبِـلا
وهل لي اليومَ من أختٍ مُواخيةٍ ... منكنّ أشكو إليها بعضَ ما فَعلا
فراجعتْها حَصانٌ غَيرُ فاحشةٍ ... برَجْع قَولٍ ولُبٍّ لم يكن خَطِلا
لا تذكُري حُبّه حتى أراجعَـه ... إنّي سأكفيكِه إن لم أمُتْ عَجَلا
فاقنَيْ حَياءَكِ في سَتْرٍ وفي كَرَمٍ ... فلستِ أوّل أنثى عُلّقتْ رجلا (٢)

وأمّا ما قاس فيه الهوى فقوله :

وقرّبن أسباب الهوى لِمُتَيَّـمٍ ... يقيس ذِراعاً كلّما قِسْن إصبعا

ومن عِصيانه وإخلائه قوله :

وأنُصُّ المطيَّ يَتْبعنَ بالرَّكْبِ سِراعـاً نَواعـمَ الأظْعـانِ
فنَصيدُ الغَريرَ مـن بقَر الوَحْشِ ونَلهُـو بلـذّة الفِتْيـان
في زمانٍ لو كنتِ فيـه ضَجيعي ... غيرَ شكٍّ عَرفتِ لي عِصْيـاني
وتقلّبتِ في الفِراش ولا تَدْرين إلاّ الظُّنونَ أين مَكَـاني (٣)

= قصارانا وغايتنا . حسر البعير : أجهده وأعياه .

(١) الكاعب : الفتاة التي نهد ثدياها . بهراً : قيل إن معناها : بهرني بهراً ، وقيل إن معناها : كثيراً أو عجباً .

(٢) تبله الهوى : أسقمه وغلب عليه . الحصان : العفيفة . اقني حياءك : احفظيه وصونيه .

(٣) نص الناقة : حملها على السير حتى أجهدها . الغرير : الغافل .

ومن مُحالفته بسمعه وطرفه قوله :

سَمْعي وطَرْفي حَليفاها على جَسَدي
فكيف أصبِرُ عن سَمعي وعن بَصَري
لو طاوعاني علـى ألاّ أكلّمَهـا
إذاً لقَضَّيتُ من أوطارهـا وَطَـري

ومن إبرامه نَعتَ الرُّسُل قوله :

فبعثتُ كاتمـةَ الحـديث رفيقـةً بجوابهـا
وَحْشِيّـة إنسِيّـةً خرّاجـةً مـن بابهـا
فَرَقَتْ فسهّلـتِ المَعـا رِضَ من سبيل نِقابهـا (١)

ومن تحذيره قوله :

لقـد أرسلـتُ جاريـتي وقُلتُ لها خُـذي حَـذَرَكْ
وقُولي فـي ملاطفـةٍ لزينبَ نَـوّلي عُمَـرَكْ
فـإن داويتِ ذا سَقَـمٍ فأخزَى اللهُ مَـن كَفَـرك
فهـزّت رأسَهـا عَجَبـاً وقالت مَـن بِـذا أمَرك
أهـذا سِحْرُك النِّسـوانَ قـد خبّرْنَـني خبَـرك
وقُلْـن إذا قـضى وَطَـراً وأدرك حاجـةً هَجَرَك

ومن إعلانه الحُبّ وإسراره قوله :

شكوتُ اليها الحُبَّ أعلِن بعضَه وأخفيت منه في الفؤاد غَليـلا

---

(١) رقت : من الرقية ، أي قالت كلاماً تستميلها به . المعارض : المعاذير . من سبيل نقابها : أي بواسطة نقابها .

وممّا بطن به وأظهر قوله :

حبُّكم يا آلَ ليلَــى قاتــلي ظهر الحُبُّ بجسمي وبَطَن
ليس حُبٌّ فوقَ ما أحببتكُم غيرَ أن أقتُلَ نفسي أو أُجَــنَّ

وممّا ألحَ فيه وأسَفَّ قوله :

ليت حظّي كطَرْفة العَين منها وكثيرٌ منها القليلُ المُهَنّــا
أو حديثٌ على خَلاءٍ يُسَلّــي ما يُجِنّ الفؤاد منها ومِنّــا
كَبُرَتْ ربِّ نِعمةً منكَ يوماً أن أراها قبل المَمات ومَنّا (١)

ومن إنكاحه النوم قوله :

حتى إذا ما الليلُ جَنَّ ظلامُــه ونظرتُ غَفلةَ كاشحٍ أن يَعْقِلا
واستنكح النومُ الذين نَخافُهــم وسَقى الكَرى بوّابَهم فاستُثقِلا
خرجتْ تأطَّرُ في الثياب كأنّهــا أيْمٌ يَسيبُ على كَثيبٍ أهْيَلا (٢)

ومن جَنْيه الحديث قوله :

وجَوارٍ مُساعِفات عــلى اللّهْوِ مُسِرّاتِ باطنِ الأضغــانِ
صُيّدٍ للرّجــالِ يرشُقْن بالطّــرْفِ حِسانٍ كخُــذَّلِ الغِــزْلانِ
قــد دعاني وقــد دعاهــنّ للّهْــوِ شُجونٌ مُهمّةُ الأشجــان
فاجتَنَيْنــا من الحديث ثِمــاراً ما جَنى مثلَها لَعَمْرُك جاني (٣)

---

(١) ما يجن : ما يخفي ما يكتم .
(٢) الكاشح : المبغض . أثقله النوم : غلب عليه ، فهو مستثقل . تتأطر : تتثنى . الأيم : الأفعى . يسيب : يمشي في انسياب . كثيب أهيل : رمل منهال .
(٣) الخذل ج خاذل : الظبية أقامت على ولدها . مهمة الأشجان : مثيرة الأشجان .

ومن ضربه الحديث ظهرَه لبطنه قوله :

في خَلاءٍ مــن الأنيس وأَمْنٍ فبثَثْنَا غَليلَنـــا واشتفينا
وضرَبنا الحديث ظَهراً لبطـنٍ وأتينا من أمرِنـا ما اشتهينـا
فمكثنـا بذاك عشرَ ليــالٍ فقضَينا دُيوننـا واقتَضَيْنا

ومن إذلاله صعب الحديث قوله :

فلمّا أفضنا في الهــوى نَستَبِينُه وعاد لنا صَعبُ الحديث ذَلُولا
شكوتُ اليها الحُبَّ أُظهر بعضَه وأخفيتُ منه في الفؤاد غَليـلا

ومن قناعته بالرَّجاء من الوفاء قوله :

فعِــدي نائلاً وإن لم تُنيـلي إنّه ينفع المُحبَّ الرَّجــاءُ

ومن إعلائه قاتله قوله :

فبعثتُ جاريتي وقلت لها اذهــبي فاشكي إليها ما علمتِ وسلّمي
قُولي يقول تَحرَّجي في عاشــقٍ كَلِفٍ بكُم حتّى المماتِ مُتيَّم
ويقول إنّك قد علمتِ بأنّكــم أصبحتمُ يا بِشرُ أوجَه ذي دمٍ
فُكّي رَهينته فإن لــم تفعــلي فاعلَيْ على قتل ابن عمِّك واسلمي
فتضاحكت عَجَباً وقالت حقّهُ ألاّ يُعلِّمَنا بما لـــم نَعلَمِ
عِلمي به – واللهُ يغفرُ ذَنْبه – فيما بدا لي ، ذو هَوًى مُتَقَسَّم
طَرِفٌ يُنازعه إلى الأدنَى الهوَى ويَبُتّ خُلّةَ ذي الوِصال الأقدَم(١)

---

(١) تحرجي : لا ترتكبي الإثم والحرج . أوجه ذي دم : أحق من أطالبه بدمي . أعلي على الأمر : ارتفعي عنه . الطرف : الملول الذي لا يثبت على هوى امرأة ولا مودة صديق . الخلة : المودة .

ومن تنفيضه النوم قوله :

فلمّا فقَدتُ الصوتَ منهم وأطفِئت مَصابيح شُبّت بالعِشاء وأنؤرُ
وغاب قُمَيرٌ كنت أرجو غُيوبه ورَوّح رُعيانٌ ونَــوَّم سُمَّرُ
ونَفَضتُ عنّي النوم أقبلتُ مِشيةَ الحُباب ورُكني خشيةَ القوم أزْوَرُ (١)

ومن إغلاقه رَهن مِنى وإهداره قَتلاه قوله :

فكم من قَتيلٍ ما يُباءُ بــــه دَمٌ
ومن غَلِقٍ رَهْناً إذا لَفّه مِنَـى
ومن مالىءٍ عينَيه من شيء غَــيره
إذا راح نحو الجَمْرة البِيضُ كالدُمى (٢)

وكان بعد هذا كلّه فصيحاً شاعراً مِقْوَلاً (٣) .

عزوفه عن الغزل بعد أن أسنّ

عن إسحاق عن رجاله :

أنّ عمر بن أبي ربيعة نظر إلى رجلٍ يكلّم امرأةً في الطّواف ، فعاب ذلك عليه وأنكره ، فقال له : إنها ابنةُ عمّي . قال : ذاك أشنَع لأمرك . فقال : انّي خطبتُها إلى عمّي فأبى عليّ إلاّ بصَداقٍ أربعمائة دينارٍ ، وأنا غيرُ مُطيقٍ ذلك . وشكا إليه من حبّها وكَلَفه بها أمراً

(١) أنور وأنؤر : جمع نار . روح : رجع بالعشي . الحباب : الحية . أزور : مائل .
(٢) ما يباء به دم : ما يؤخذ بثأره . غلق الراهن : لم يقدر الراهن على افتكاكه ، والمراد هنا وقوع قلب العاشق أسيراً في يد من أحبه وعجزه عن الخلاص من أسره . الجمرة : الحصاة يرمى بها في المحصب .
(٣) المقول : الفصيح الحسن القول .

عظيماً ، وتحمّل (١) به على عمّه . فسار معه إليه فكلّمه ، فقال له : هو مُمْلِقٌ ، وليس عندي ما أُصلح به أمرَه ، فقال له عمر : وكم الذي تريده منه ؟ قال : أربعمائة دينارٍ . فقال له : هي عليَّ فزَوِّجْه ، ففعل ذلك .

وقد كان عمر حين أسَنّ حلَف ألاّ يقولَ بيت شعر إلاّ أعتق رقبةً . فانصرف عمر إلى منزله يُحدّث نفسه ، فجعلتْ جاريةٌ له تُكلّمه فلا يردّ عليها جواباً فقالت له : انّ لك لأمراً ، وأراك تريد أن تقول شعراً . فقال :

تقول وَليدتي لمّا رأتْني ... طرِبتُ وكنت قد أقصرتُ حِينا
أراكَ اليوم قد أحدثتَ شوقاً ... وهاج لك الهوى داءٌ دَفِينا
وكنت زعمتَ أنّك ذو عَزاءٍ ... إذا ما شئتَ فارقتَ القَرِينا
بربِّك هل أتاك لها رسولٌ ... فشاقك أم لقيتَ لها خَدِينا
فقلت شكا إليَّ أخٌ مُحِبٌّ ... كبعضِ زمانِنا إذ تَعلمِينا
فقَصّ عليّ ما يَلقى بِهِنْدٍ ... فذكّر بعض ما كُنّا نَسِينا
وذو الشوق القديم وإن تعزّى ... مَشُوقٌ حين يلقَى العاشقينا
وكم من خُلّةٍ أعرضت عنها ... لِغير قِليً وكنتُ بها ضَنِينا
أردتُ بعادها فصددتُ عنها ... ولو جُنَّ الفؤاد بها جُنونا (٢)

ثمّ دعا تسعةً من رقيقه فأعتقهم ، لكل بيتٍ واحدٌ .

---

(١) تحمل به : استشفع به لديه .

(٢) الخدين : الصديق يكون معك في كل أمر . القلى : البغض .

أخباره مع فاطمة بنت الأشعث

عن مُحرِز بن جعفر ، مولى أبي هُريرة ، عن أبيه قال :

سمعتُ بُديحاً يقول : حَجّت بنت محمد بن الأشعث الكِنْديّة ، فراسلها عُمر بن أبي ربيعة ووعدها أن يتلقّاها مساءَ الغد ، وجعل الآيةَ بينه وبينها أن تسمع ناشداً يَنْشُد[1] — إن لم يُمكنه أن يُرسل رسولاً — يُعلمها بمصيره إلى المكان الذي وعَدها . قال بُديح : فلم أشعرُ به إلاّ مُتلثّماً ، فقال لي : يا بُديح ، ائتِ بنت محمد بن الأشعث فأخبرها أنّي قد جئت لموعدها . فأبيت أن أذهب وقلت : مثلي لا يُعين على مثل هذا . فغيّب بغَلْته عنّي ثم جاءني فقال لي : قد أضللتُ بغلتي فانشُدْها لي في زُقاق الحاجّ . فذهبت فنَشَدتُها . فخرجتْ عليَّ بنتُ محمد بن الأشعث ، وقد فهِمَت الآية ، فأتته لموعده . وذلك قولُه :

وآيةُ ذلك أن تسمعــــي إذا جئتكُم ناشداً يَنشُدُ

قال بُديح : فلمّا رأيتُها مُقبلةً عرفت أنه قد خدَعني بنَشْدي البَغْلة ، فقلت له : يا عمر ، لقد صدَقت التي قالت لك :

فهذا سِحْرُك النِّسوانَ قد خبّرنَني خبرَكْ

قد سحرتَني وأنا رجلٌ ! فكيف بِرِقّة قلوب النّساء وضعف رأيهنّ ! وما آمَنُك بعدَها ، ولو دخلتَ الطّواف ظننتُ أنّك دخلتَه لِبَلِيّة . قال : وحَدّثها بحديثي ، فما زالا ليلتَهما يفصِلان حديثهما بالضَّحِك منّي .

عن إسحاق ، عن رجاله المذكورين ، قالوا :

حجّت بنتٌ لمحمّد بن الأشعث ... وكانت معها أمُّها ، وقد سمعت

---

(١) ينشد : يطلب شيئاً أضاعه .

بعمر بن أبي ربيعة ، فأرسلتْ إليه ، فجاءها ، فاستنشدتْه ، فأنشدها :

تَنشُطُ غـداً دارُ جيراننـا ولَلدّارُ بعـد غـدٍ أبْعَدُ

وذكر القصيدة بطولها . قال : وقد كانت لمّا جاءها أرسلت بينها وبينه سِتراً رقيقاً تراه من ورائه ولا يراها ، فجعل يُحدّثها حتى استنشدتْه ، فأنشدها هذه القصيدة ، فاستخفّها الشعر فرفَعت السِّجف ، فرأى وجهاً حسَناً في جسم ناحلٍ ، فخطبَها وأرسل إلى أُمّها بخمسمائة دينارٍ ، فأبت وحجبتْه وقالت للرسول : تعود إلينا . فكأنّ الفتاة غمّها ذلك ، فقالت لها أمّها : قد قتلك الوجدُ به فتزوّجيه . قالت : لا والله ، لا يتحدّثُ أهلُ العراق عنّي أنّي جئت ابن أبي ربيعة أخطبُه ، ولكن إن أتاني إلى العراق تزوّجتُه . قال : ويُقال إنّها راسلتْه وواعدته أن تزوره ، فأجْمَرَ[1] بيته وأعطى المبشّر مائة دينارٍ ، فأتته وواعدتْه إذا صدَر الناسُ أن يُشيّعها ، وجعلت علامة ما بينهما أن يأتيها رسولُه ينشُدها ناقةً له . فلمّا صدر الناس فعل ذلك عمر . وفيها يقول وقد شيّعها :

قال الخليطُ غداً تَصَدُّعُنـا أو بعدَه أفـلا تُشَيِّعُنـا
أمّا الرّحيلُ فدُونَ بعدَ غدٍ فمتى تقول الـدارُ تَجمَعُنا
لِتَشُوقَنـا هِنـدٌ وقد علِمتْ عِلماً بأنّ البَيْـنَ يُفزِعُنـا
عجباً لِموقفنـا ومَوقفهـا وبِسَمْعِ تِرْبَيها تَراجُعُنا
ومَقالِها سِرٍ ليلـةً معنـا نَعْهَدْ فإنّ البيـنَ فاجعُنا
قلت العيونُ كثيرةٌ معكـم وأظنُّ أنّ السّير مانعُنـا
لا بل نَزُوركُم بأرضِكـم فيُطاع قائلكُـم وشافعُنـا
قالت أشيءٌ أنت فاعلُـه هذا لَعَمْرُكَ أم تُخادعُنـا

(١) أجمر بيته : بخره بعود .

بالله حَدِّثْ مـا تُؤَمِّلـه واصدُقْ فإنَّ الصِدقَ واسعُنا
إضرِبْ لَنا أجَلاً نَعُدُّ لـه إخلافُ مَوعِدِه تَقاطُعُنا (١)

خبره مع زينب بنت موسى الجُمحيّة

عِمران بن عبد العزيز قال : شبّب عمر بن أبي ربيعة بزينبَ بنت موسى في أبياته التي يقول فيها :

لا تَلُومـا في آل زينبَ إنّ القلبَ رَهْـنٌ بآل زينب عـاني

فقال له ابن أبي عَتِيق : أمّا قلبك فقد غُيِّب عنّا ، وأما لسانك فشاهدٌ عليك .

قال عمران بن عبد العزيز : عذَل ابنُ أبي عَتيق عمرَ في ذِكره زينب في شعره ، فقال عمر :

لا تَلُمْني عَتيقُ حَسْبي الذي بي إنّ بي يـا عتيقُ ما قـد كَفاني
لا تَلُمْني وأنت زَيّنْتَهـا لـي

قال : فبدره ابن أبي عتيق فقال :

أنت مثلُ الشيطان للإنسانِ .

فقال ابن أبي ربيعة : هكذا وربِّ البيت قُلته . فقال ابن أبي عتيق : إنّ شيطانك وربِّ القبْر (٢) ربّما ألمَّ بي ، فيجِد عندي من عِصيانه خِلاف ما يجد عندك من طاعته ، فيُصيب منّي وأُصيبُ منه .

---

(١) تصدعنا : تفرقنا . نعهد : نأخذ عليك العهد والميثاق . نعد له : أي نحسب الأيام الباقية في انتظاره .
(٢) يقسم بقبر الرسول عليه السلام .

عن لقيط بن بكر المُحاربي قال : أنشدني ابن أبي عتيق قول عمر :

من لِسقيمٍ يكتُم الناسَ ما بــــه ... لزينبَ نَجوى صَدرِه والوَساوسِ
أقول لِمن يبغيّ الشِّفاءَ متى تَجِيء ... بزينبَ تُدرِكُ بعضَ ماأنتَ لامِسُ
فإنّك إن لم تَشفِ من سَقَمي بها ... فإنّي من طِبِّ الأطبّاء آيِسُ
ولستُ بناسٍ ليلةَ الدّار مَجلِساً ... لزينبَ حتى يَعلُوَ الرأسَ رامِسُ
خَلاءً بدتْ قَمْراؤه وتكشّفت ... دُجُنّتُه وغاب مَن هو حارسُ
وما نِلتُ منها مَحرَماً غيرَ أنّنا ... كِلانا من الثوب المُوَرَّدِ لابِسُ
نَجيِّيْن نَقضي اللّهْوَ في غيرِ مأثمٍ ... وإن رَغِمت م الكاشِحين المَعاطِسُ (١)

قال : فقال ابن أبي عتيق : أمِنّا يسخر ابن أبي ربيعة ! فأيُّ مَحْرَم بقي ! ثم أتى عمر فقال له : يا عمرُ ، ألم تُخبرني أنك ما أتيتَ حَراماً قطُّ ؟ قال : بلى . قال : فأخبرني عن قولك :

كِلانا من الثوب المُوَرَّد لابسُ

ما معنــــاه ؟ قال : واللهِ لأخبِرَنّك . خرجت أُريد المسجد ، وخرجتْ زينب تريده ، فالتقينا ، فاتّعَدْنا (٢) لبعض الشِّعاب ، فلمّا توسّطْنا الشِّعب أخذتْنا السماءُ (٣) ، فكرِهتُ أن يُرى بثيابها بَلَلُ المطر فيقال لها : ألا استترتِ بسَقائف المسجد أن كنتِ فيه ؟ فأمرتُ غِلماني فستَرُونا بكِساء خزٍّ كان عليَّ ، فذلك حين أقول :

كِلانا من الثوب الموَرَّد لابسُ

فقال له ابن أبي عتيق : يا عاهر ، هذا البيت يحتاج إلى حاضنة .

---

(١) الرامس : الدافن ، والرمس : القبر . الدجنة : الظلمة . المورد : بلون الورد . النجي : من يناجي صاحبه .

(٢) اتعدنا : تواعدنا .

(٣) أخذتنا السماء : أي تساقط المطر علينا .

خبره مع ليلى بنت الحارث

مُصعب قال : لَقي عمر بن أبي ربيعة ليلى بنت الحارث بن عمرو البَكْريّة وهي تسير على بغلة لها ، وقد كان نسب بها ، فقال : جعلني الله فِداكِ ! عَرِّجي ها هنا ً أُسْمِعْكِ بعض ما قلتُه فيك . قالت : أوَ قد فعلت ؟ قال : نعم . فوقفتْ وقالت : هاتِ . فأنشدها :

ألا يـا لَيلُ إنّ شِفاءَ نَفْسي نَوالُكِ إن بَخِلْتِ فنَوّلينا
وقد حضر الرّحيلُ وحان منّـا فِراقُكِ فانظُري ما تأمُرينـا

فقالت : آمرُك بتقوى الله وإيثار طاعته وترك ما أنت عليه . ثم صاحت ببَغْلتها ومضت .

عن ابن الأعرابي : أنّ ليلى هذه كانت جالسةً في المسجد الحَرام ، فرأت عمر بن أبي ربيعة ، فوجّهت إليه مَولىً لها ، فجاءها به ، فقالت له : يابنَ أبي ربيعة ، حتّى متى لا تزال سادراً [1] في حَرَم الله تُشبّب بالنساء وتشيد بذكرهنّ ! أما تخاف الله ! قال : دَعِيني من ذاك واسمَعي ما قُلت . قالت : وما قُلتَ ؟ فأنشدها الأبيات المذكورة . فقالت له القول الذي تقدّم أنها أجابته به . قال : وقال لها : اسمعي أيضاً ما قلت فيك . ثم أنشدها قوله :

أَمِنَ الرَّسْمِ وأطلالِ الدِّمَنْ عاد لي وَجْدي وعاودتُ الحَزَنْ
إنّ حُبي آلَ ليلى قاتِـلي ظهر الحُبّ بجسمي وبَطَـنْ
يا أبا الحارث قلبي طائـرٌ فَأْتَمِرْ أمرَ رشيدٍ مُؤْتَمَن
اِلتمِسْ للقلب وصلاً عندَها إنّ خير الوَصْل ما ليس يُمَنّ
عَلِقَ القلبُ وقد كان صحا من بني بَكرٍ غزالاً قد شَدَنْ

---

(١) السادر : المتحير ومن لا يبالي ما يصنع .

أحورَ المُقلــة كالبــدر إذا قُلّد الدُّرَّ فقلبي مُمْتَحَــنْ
ليس حُبٌّ فوق مــا أحببتكُم غيرَ أن أقتُلَ نفسي أو أُجَنّ
خُلقت للقلب منّي فِتنــــةٌ هكذا يُخلَقُ مَعروضُ الفِتَن*(١)

خبره مع سُكينة بنت الحسين

عن أبي عبد الله الزُبَيريّ قال :

اجتمع نسوةٌ من أهل المدينة من أهل الشرف ، فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه ، فتشوّقن إليه وتَمَنّيْنه ، فقالت سُكينة بنت الحسين عليهما السلام : أنا لكنّ به . فأرسلت إليه رسولاً وواعدَتْه الصَّوْرَين (٢) ، وسَمّت له الليلةَ والوقت ، وواعدت صَواحباتِها . فوافاهنّ عُمر على راحلته ، فحدّثهنّ حتى أضاء الفجر وحان انصرافهنّ ؛ فقال لهنّ : واللهِ إنّي لمحتاجٌ إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ والصّلاةِ في مسجده ، ولكن لا أخلِط بزيارتكنّ شيئاً . ثم انصرف إلى مكة وقال :

قالت سُكينةُ والدُّموع ذَوارفٌ منها على الخَدَّين والجِلبــابِ
ليت المُغيريَّ الذي لم أَجــزِه فيما أطال تصيُّدي وطِلابي
كانت تردُّ لنا المُنى أيّامُنــــا إذ لا نُلامُ على هوىً وتصابي
خُبِّرتُ ما قالت فبتُّ كأنّمــا تُرمى الحشَا بنَوافذِ النُشّاب
أسُكَينُ ما ماءُ الفُرات وطيبُــه منّي على ظَمَأً وفَقْد شَراب
بألذَّ منكِ وإن نأَيتِ وقلّمــا تَرعى النِساءُ أَمانةَ الغُيّابِ (٣)

---

(١) يمن : يقطع . شدن : شب وترعرع . ممتحن : واقع في محنة .
(٢) الصوران ، مثنى صور ، وهو الجماعة من النخل : موضع بين المدينة وبين بني قريظة .
(٣) الجلباب ، هنا : الخمار . النشاب : النبل .

خبره مع هند بنت الحارث المُرّيّة

(قال عمر) :

بينا أنا منذ أعوام جالس . إذ أتاني خالدٌ الخِرّيتُ [1] ، فقال لي : يا أبا الخَطّاب ، مرّت بي أربعُ نِسوةٍ قُبيل العِشاء يُردن موضع كذا وكذا لم أرَ مثلهنّ في بدو ولا حضرَ ، فيهنّ هند بنت الحارث المُرّيّة ، فهل لك أن تأتيَهنّ متنكّراً فتسمعَ من حديثهنّ وتتمتّعَ بالنظر إليهنّ ولا يَعلمن من أنت ؟ فقلت له : ويحَك ! وكيف لي أن أخفي نفسي ؟ قال : تلبَسُ لِبْسةَ أعرابيّ ثم تجلس على قَعُودٍ ثم ائتهنّ فسلّم عليهنّ ، فلا يشعُرن إلاّ بك قد هجمت عليهنّ . ففعلتُ ما قال ، وجلست على قَعُود ، ثم أتيتُهنّ فسلّمت عليهنّ ، ثم وقفت بقُربهنّ . فسألنَني أن أنشِدهنّ وأُحدّثهنّ ، فأنشدتُهنّ لكُثَيّر وجميل والأحوص ونُصَيب وغيرهم . فقلن لي : ويحك يا أعرابيّ ! ما أملحَك وأظرفَك ! لو نزلتَ فتحدّثت معنا يومَنا هذا . فإذا أمسيتَ انصرفتَ في حِفظ الله . قال : فأنختُ بَعيري ثم تحدّثت معهنّ وأنشدتهنّ ، فسُررن بي وجَذِلن بقُربي وأعجبهنّ حديثي . قال : ثم إنّهن تغامزنَ وجعل بعضُهُنّ يقول لبعض : كأنّنا نعرِفُ هذا الأعرابيّ ، ما أشبَهه بعمر بن أبي ربيعة ! فقالت إحداهنّ : فهو واللهِ عمر . فمدّت هِندٌ يدها فانتزعت عِمامتي فألقتها عن رأسي ثم قالت لي : هِيهِ يا عُمر ! أتُراك خدعتَنا منذ اليوم ؟ بل نحن واللهِ خدعناك واحتَلنا عليك بخالد ، فأرسلناه إليك لتأتينَا في أسوأ هَيئة ونحن كما ترى . قال عمر : ثم أخذنا في الحديث ... وحادثتهنّ ساعةً ، ثم ودّعتهنّ وانصرفتُ . فذلك قولي :

---

(١) خالد الخريت : هو خالد بن عبد الله القسري ، والخريت في اللغة هو الدليل الحاذق . (انظر الأغاني ١٥٢/١) .

عرفتُ مَصيفَ الحيِّ والمُتَرَبَّعـا ... ببطن حُلَيّاتٍ دوارسَ بَلْقَعا
إلى السَّفْح من وادي المُغَمَّس بُدِّلَت ... معالمُه وَبْلاً وَنكْباءَ زَعْزَعا
لِهندٍ وأترابٍ لهندٍ إذ الهوى ... جميعٌ وإذ لم نخشَ أن يتصدَّعا
وإذ نحنُ مثلُ الماء كان مِزاجُه ... كما صَفَّق السّاقي الرَّحيقَ المُشَعْشَعا
وإذ لا نُطيع الكاشِحين ولا نرى ... لواشٍ لدينا يطلب الصُّرم موضعا
فلمّا تواقفنا وسلّمتُ أشرقت ... وجوهٌ زَهاها الحُسنُ أن تَتَقنَّعا
تبالَهنَ بالعِرفان لمّا رَأيْنَني ... وقُلن امرُؤٌ باغٍ أكلَّ وأوْضَعا
وقرّبن أسباب الهوى لِمُتَيَّمٍ ... يَقيس ذِراعاً كلّما قِسْنَ إصبَعا(١)

وممّا قاله في هند هذه :

ليت هنداً أنجزَتْنا ما تَعِدْ ... وشفت أنفُسنا ممّا تَجِدْ
واستبدّت مرّةً واحدةً ... إنّما العاجزُ من لا يَستبدّ
ولقد قالت لجاراتٍ لها ... ذاتَ يومٍ وتَعرّتْ تَبْتَرِدْ
أكما يَنعتُني تُبصِرنني ... عَمْرَكنّ اللهَ أم لا يَقتصِدْ
فتضاحكن وقد قُلن لها ... حَسَنٌ في كلّ عينٍ مَن تَوَدّ
حسَداً حُمّلنَه من أجلها ... وقديماً كان في الناس الحَسَدْ (٢)

خبره مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان

عن أبي بكر القرشيّ قال :

كان عمر بن أبي ربيعة جالساً بمِنىً في فِناء مِضربه وغِلمانُه حولَه ،

(١) التصفيق : نقل الخمر من إناء إلى آخر لتصفو . الرحيق : الخمرة . المشعشع : الممزوج بالماء . الكاشح : العدو المبغض . زهاها الحسن أن تتقنع : منعها إعجابها بحسنها من وضع القناع . تبالهن بالعرفان : أظهرن أنهن لا يعرفنني . باغ : يبغي شيئاً أضاعه . أكل : أنصب . أوضع ناقته : حملها على الإسراع .

(٢) استبدت : انفردت برأيها . تبترد : تغتسل بالماء البارد . عمركن الله : سألت الله تعميركن .

إذ أقبلت امرأةٌ بَرْزَةٌ (١) عليها أثر النَّعمة ، فسلَّمتْ ، فردّ عليها عمر السلام ، فقالت له : أنت عمر بن أبي ربيعة ؟ فقال لها : أنا هو ، فما حاجتكِ ؟ قالت له : حيّاك الله وقرّبك ، هل لك في محادثة أحسن الناس وجهاً ، وأتمّهم خلْقاً ، وأكملهم أدباً ، وأشرفهم حسَباً ؟ قال : ما أحبَّ إليّ ذلك ! قالت : على شرط . قال : قولي . قالت : تُمكِّنُني من عينيك حتّى أشدّهما وأقودَك ، حتى إذا توسّطت الموضع الذي اريد حَللتُ الشدّ ، ثم أفعل ذلك بك عند إخراجك حتّى أنتهيَ بك إلى مضْرَبك . قال : شأنَك . ففعلت ذلك به . قال عمر : فلمّا انتهت بي إلى المَضرَب الذي أرادت كشفَتْ عن وجهي ، فإذا أنا بامرأةٍ على كُرسيٍّ لم أرَ مثلَها قطّ جمالاً وكمالاً . فسلّمتُ وجلست . فقالت : ألأنت عمر ابن أبي ربيعة ؟ قلت : أنا عمر . قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟! قلت : وما ذاكِ ، جعلني الله فداءك ؟ قالت : ألست القائل :

قالت وعيشِ أبي وحُرمةِ والدي ... لأُنَبِّهَنَّ الحيَّ إن لم تخرُجِ
فخرجت خوفَ يمينها فتبسّمتْ ... فعلمت أنّ يمينَها لم تحْرَجِ
فتناولتْ رأسي لِتعرفَ مَسَّه ... بمخضَّب الأطراف غيرِ مُشَنَّجِ
فلَثِمْتُ فاها آخذاً بقُرونِها ... شُربَ النَّزيفِ ببَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ (٢)

ثم قالت : قُم فاخرُجْ عنّي . ثم قامت من مجلسها ، وجاءت المرأة فشدّت عيني ، ثم أخرجتْني حتى انتهت بي إلى مضْرَبي ، وانصرفتْ وتركتني . فحللتُ عينيّ وقد دخلني من الكآبة والحزن ما اللهُ به أعلَم . وبِتُّ ليلتي ، فلمّا أصبحتُ إذا أنا بها ، فقالت : هل لك في العَوْد ؟

(١) البرزة من النساء : التي تبرز للقوم وتتحدث إليهم .
(٢) لم تحرج : لم تكن جادة في يمينها فلا تأثم . غير مشنج : غير متقبض . القرون ، هنا : خصل الشعر وذوائبه . النزيف : الشديد الظمأ . الحشرج : النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو .

فقلت : شأنَك . ففعلتْ بي مثل فِعلها بالأمس ، حتى انتهتْ بي إلى الموضع . فلمّا دخلتُ إذا بتلك الفتاة على كرسيّ ، فقالت : إيهِ [1] يا فضّاحَ الحرائر ! قلت : بماذا ؟ جعلني الله فِداءك ! قالت : بقولك :

وناهدةِ الثّدْيين قلت لها اتّكي
على الرَّمل من جبّانةٍ لم تَوَسَّدِ
فقالت على اسم الله أمرُك طاعةٌ
وإن كنت قد كُلِّفت ما لم أعَوَّدِ
فلمّا دنا الإصباحُ قالت فضحتَني
فقُم غيرَ مطرودٍ وإن شئتَ فازدَدِ [2]

ثم قالت : قُم فاخرُج عنّي . فقمت فخرجتُ ثم رُدِدتُ ، فقالت لي : لولا وَشْكُ الرّحيل وخوفُ الفَوت ومحبّتي لمُناجاتك والاستكثار من محادثتك لأقصيتُك . هاتِ الآنَ كلّمني وحدّثني وأنْشِدني . فكلّمتُ آدَبَ الناس وأعلمَهم بكلّ شيء . ثم نَهضتْ وأبطأت العجوزُ وخلا لي البيتُ ، فأخذتُ أنظرُ ، فإذا أنا بتَوْرٍ فيه خَلُوقٌ [3] ، فأدخلتُ يدي فيه ثم خبأتها في رُدْني [4] ، وجاءت تلك العجوز فشُدّت عينيّ ونهضتْ بي تَقُودني ، حتى إذا صِرتُ على باب المِضْرَب أخرجتُ يدي فضربت بها على المضرب ، ثم صِرت إلى مضربي ، فدعوتُ غلماني فقلت : أيّكم يَقِفُني على باب مضرب عليه خَلوقٌ كأنّه أثر كفّ فهو حرٌّ وله خمسمائة درهم . فلم ألبَث أن جاء بعضُهم فقال : قم . فنهضت معه ، فإذا أنا بالكفّ طَريّةٌ ، وإذا المِضرب مضرب فاطمة بنت عبد

(١) إيه : كلمة استنطاق واستزادة ، وهي مبنية على الكسر .
(٢) الجبانة : الأرض المستوية في ارتفاع .
(٣) التور : إناء صغير . الخلوق : نوع من الطيب .
(٤) الردن : الكم .

الملك بن مَروان . فأخَذتُ في أهْبة الرَّحيل ، فلمّا نَفَرتْ نفرتُ معها ، فبَصُرتْ في طريقها بقِباب ومِضرب وهَيئة جميلة ، فسألتْ عن ذلك . فقيل لها : هذا عمر بن أبي ربيعة . فساءها أمرُه [1] وقالت للعجوز التي كانت تُرسلها إليه : قُولي له نَشَدتُك اللهَ والرَّحِمَ أن تصحَبَني [2] . وَيْحَك ! ما شأنُك وما الذي تريد ؟ انصرِفْ ولا تَفْضَحْني فتُشيطَ بدمك [3] . فسارت العجوز إليه فأدّت إليه ما قالت لها فاطمة . فقال : لستُ بمُنصَرِف أو تُوَجِّهَ إليّ بقميصها الذي يَلي جِلْدَها . فأخبرتْها ، ففعلتْ ووجّهتْ إليه بقميصٍ من ثيابها ، فزاده ذلك شَغَفاً ، ولم يزل يَتبعهم ولا يُخالِطُهم ، حتى إذا صاروا على أميالٍ من دمشقَ انصرف وقال في ذلك :

ضاق الغَداةَ بحاجتي صَدْري ... ويَئِستُ بعد تقارُب الأمرِ
وذكرت فاطمةَ التي عُلِّقْتُها ... عَرَضاً فيا لِحوادث الدّهر
مَمْكورةٌ رَدْعُ العَبير بها ... جَمُّ العِظام لطيفةُ الحَصْرِ
وكأنّ فاها عند رَقْدتها ... تَجري عليه سُلافةُ الخمر [4]

(الأبيات ...)

عن أبي مُعاذ القُرشيّ قال :

لمّا قدمت فاطمةُ بنت عبد الملك بن مروان مكةَ جعلَ عمر بن أبي ربيعة يدورُ حولها ويقول فيها الشعر ولا يذكُرها باسمها فَرَقاً من عبد

(١) يلاحظ أن الحديث في أوله مروي على لسان عمر بن أبي ربيعة ، وهو هنا مروي بصيغة الغائب .
(٢) تريد : ألا تصحبني .
(٣) أشاط دمه وبدمه : أهدره وعرض نفسه للقتل ، والفاء قبله ناصبة .
(٤) الممكورة : المرتوية الساقين المدمجة الخلق . الردع : أثر الخلوق والطيب في الجسد . جم العظام : دقيقة العظام ، مكتنزة اللحم .

الملك بن مروان ومن الحجّاج ؛ لأنّه كان كتب إليه يتوعّده إن ذكرها أو عرّض باسمها . فلمّا قضتْ حَجّها وارتحلتْ أنشأ يقول :

كِدتُ يومَ الرَّحيلِ أقضي حياتي ليتني مِتُّ قبلَ يوم الرّحيلِ
لا أطيقُ الكلامَ من شدّةِ الخوف ودمعي يسيلُ كلَّ مَسيل
ذرفت عَينها وفاضت دموعي وكلانا يَلقَى بوجدٍ أصيلِ
لو خلَت خلّتي أصبتُ نَوالاً أو حديثاً يشفي من التّنويل
ولَظلّ الخلخالُ فوق الحَشايا مثلَ أثناء حيّةٍ مَقْتولِ
فلقد قالت الحبيبةُ لولا كثرةُ الناس جُدتُ بالتقبيلِ (١)

خبره مع عائشة بنت طلحة

عن رجل من قريش قال :

بينا عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت ، إذ رأى عائشةَ بنت طَلحة بن عُبيدِ الله ، وكانت من أجمل أهل دهرها ، وهي تريد الرُّكنَ تستلمه ، فبُهتَ لمّا رآها ، ورأتْه وعلمت أنّها قد وقعت في نفسه ، فبعثتْ إليه بجاريةٍ لها وقالت : قُولي له : اتّق الله ولا تَقُلْ هُجْراً ، فإنّ هذا مَقامٌ لا بُدَّ فيه ممّا رأيتَ . فقال للجارية : أقْرِئيها السّلام وقولي لها : ابنُ عمّك لا يقولُ إلاّ خيراً . وقال فيها :

لعائشةَ ابنة التّيْميّ عندي حِمىً في القلب لا يُرعى حِماها
يُذكّرُني ابنةَ التّيميّ ظَبْيٌ يَرودُ بروْضةٍ سَهلٍ رُباها
فقلت له وكاد يُراعُ قلبي فلم أرَ قطُّ كاليوم اشتباها
سِوى حَمْشٍ بساقكَ مُستَبينٍ وأنّ شَواك لم يُشبِه شَواها

---

(١) التنويل : بذل النوال . الحشية : الفراش المحشو . أثناء الحية : تضاعيفها إذا تثنت .

وأنّك عاطل عارٍ وليست بعارية ٍ ولا عُطُلٍ يداها
وأنّك غيرُ أفْرَعَ وهي تُدْلي على المَتْنَيْن أسحمَ قد كَساها
ولو قعَدتْ ولم تَكلفْ بوُدٍّ سوى ما قد كلفتُ به كفاها
أظَلُّ إذا أكلّمُها كأنّي أكلّم حيّةً غَلبتْ رُقاها
تَبيتُ إليَّ بعدَ النوم تَسْري وقد أمسيتُ لا أخشى سُراها [1]

قال : وقال فيها أشعاراً كثيرة ، فبلغ ذلك فتيان بني تَيْم ، أبلغهم إيّاه فتىً وقال لهم : يا بني تَيم بن مُرّة ، هالله ليَقْذِفنّ بنو مَخزوم بناتِنا بالعظائم وتَغفلون ! فمشى وَلَدُ أبي بكر وولد طلحة بن عبيد الله إلى عمر بن أبي ربيعة فأعلموه بذلك وأخبروه بما بلغهم . فقال لهم : والله لا أذكُرُها في شعرٍ أبداً . ثم قال بعد ذلك فيها — وكنى عن اسمها — قصيدته التي أوّلها :

يا أمّ طَلحةَ إن البين قد أفِدا قلّ الثَواء لئن كان الرحيلُ غدا
أمسى العراقيُّ لا يدري إذا بَرزتْ مَن ذا تطوّف بالأركان أو سَجَدا [2]

قال : ولم يزل عمر ينسُب بعائشة أيّام الحجّ ويطوف حولَها ويتعرّض لها ، وهي تكره أن يرى وجهها ، حتى وافقها وهي ترمي الجِمار سافرةً ، فنظر إليها فقالت : أما والله لقد كنت لهذا منك كارهةً يا فاسقُ . فقال :

إنّي وأوّلَ ما كَلِفتُ بذِكرها عَجَبٌ وهل في الحبّ من مُتَعَجّبِ
نَعَتَ النّساءُ فقلت لست بمُبصرٍ شَبَهاً لها أبداً ولا بمُقَرّبِ
فمَكثْن حيناً ثم قُلن تَوجّهتْ للحَجّ، مَوعدُها لِقاءُ الأخْشَبِ

---

(١) الحمش : دقة الساقين . الشوى : الأطراف . العاطل : من لا حلي لها . الأفرع : طويل شعر الرأس . الأسحم : الأسود ، أراد به شعرها .

(٢) أفد : قرب .

أقبلت أنظُر ما زَعَمْنَ وقُلن لي والقلب بين مُصَدّق ومُكذب
فلَقِيتُها تمشي تَهادَى مَوْهِناً ترمي الجِمارَ عشيَّةً في مَوكِب
غَرّاء يُعشي الناظرين بياضُها حَوراءَ في غُلَواءِ عيش مُعجِب
إنّ التي من أرضِها وسَمائِها جُلِبَتْ لِحَينكَ ليتَها لم تُجْلَب[1]

خبره مع كَلْثَم بنت سعد المخزومية وزواجه منها

عن هشام بن سليمان بن عِكرمة بن خالد المخزوميّ :

كان عمر بن أبي ربيعة يهوى كَلْثَم بنت سعد المخزومية ، فأرسل إليها رسولاً ، فضَرَبَتْها وحَلَقَتْها وأحلفتْها ألاّ تُعاود ، ثم أعادها ثانيةً ففعلت بها مثلَ ذلك ، فتحاماها رُسُلُه . فابتاع أَمَةً سوداءَ لطيفةً رقيقةً وأتى بها منزله ، فأحسن إليها وكساها وآنسها وعرّفها خبرَه وقال لها : إن أوصلتِ لي رُقعةً إلى كَلثم فقرأتْها فأنتِ حُرّة ولك معيشتكِ ما بقيت . فقالت : اكتُبْ لي مُكاتبةً[2] واكتُب حاجتك في آخرها . ففعل ذلك ، فأخذتْها ومضت بها إلى باب كلثم فاستأذنت ، فخرجت إليها أَمَةٌ لها فسألتها عن أمرها فقالت : مُكاتَبةٌ لبعض أهل مَولاتك جئت أَستعينُها في مُكاتبتي . وحادثَتْها وناشَدَتْها حتى ملأت قلبها ، فدخلت إلى كلثم وقالت : إنّ بالباب مُكاتَبَةً لم أرَ قطُّ أجملَ منها ولا أكملَ ولا آدبَ : ائذني لها . فدخلتْ ، فقالت : مَن كاتبك ؟ قالت : عمرُ بن أبي ربيعةَ الفاسق ! فاقرئي مكاتبتي.. فمدّت يدها لتأخُذَها ، فقالت لها : لي عليك عهدُ الله أن تَقرئيها ، فإن كان منك إليّ شيءٌ ممّا

---

(١) الأخشب : أحد الأخشبين وهما جبلان بمكة أحدهما أبو قبيس والآخر قعيقعان . موهناً : نحواً من منتصف الليل . غلواء العيش : نضارته . الحين : الهلاك .
(٢) المكاتبة : أن يكتب الرجل على عبده قدراً من المال إذا أداه كان حراً .

أحبّه وإلاّ لم يلحقْني منك مكروه . فعاهدتْها وفَطِنت ، وأعطتْها الكتاب فإذا أوّلُه :

مِن عاشقٍ صبٍّ يُسِرُّ الهوى　　قد شفّهُ الوَجْدُ إلى كَلْثَمِ
رأتكِ عيني فدعاني الهوى　　إليكِ للحَيْنِ ولم أعلمِ
قتلتِنا يا حبّذا أنتمُ　　في غيرِ ما جُرمٍ ولا مأْثَمِ
واللهُ قد أنزل في وَحْيِهِ　　مُبيّناً في آيِهِ المُحْكَمِ
من يَقتلِ النفسَ كذا ظالماً　　ولم يُقِدْها نفسَه يَظلِمِ
وأنتِ ثأري فتلافَيْ دمي　　ثم اجعليه نعمةً تُنْعِمِي
وحَكِّمي عَدْلاً يكنُ بيننا　　أو أنتِ فيما بيننا فاحكُمي
وجالسيني مَجلساً واحداً　　من غيرِ ما عارٍ ولا مَحْرَمِ
وخَبِّريني ما الذي عندكم　　باللهِ في قتلِ امرىءٍ مُسْلِمِ [1]

قال : فلمّا قرأت الشعر قالت لها : إنّه خَدّاعٌ مَلِقٌ ، وليس لما شكاه أصلٌ . قالت : يا مَولاتي ، فما عليك من امتحانه ؟ قالت : قد أذنتُ له ، وما زال حتّى ظفر ببُغْيته ، فقولي له : إذا كان المساءُ فليَجلسْ في موضع كذا وكذا حتّى يأتيَه رسولي . فانصرفت الجاريةُ فأخبرتْه ، فتأهّب لها . فلمّا جاءه رسولُها مضى معه حتّى دخل إليها وقد تَهيّأَتْ أجملَ هَيئة ، وزيّنت نفسها ومَجلسها وجلستْ له من وراء سِتر ، فسلّم وجلس . فتركتْه حتّى سكَن ، ثم قالت له : أخبِرْني عنك يا فاسق ! ألست القائل :

هلاّ ارعَوَيْتِ فترْحَمي صَبّاً　　صَدْيانَ لم تَدَعي له قَلْبا
جَشِمَ الزيارةَ في مَوَدّتكم　　وأراد ألاّ تُرْهِقي ذَنْبا

---

(١) الحين : الهلاك . يقدها نفسه : يجعل نفسه موضع العقوبة . محرم : حرام .

وزجا مصالحةً فكان لكم سِلماً وكنتِ تَرَيْنه حَرْبا
يأيّها المُعطي مَودّته مَن لا يَراك مُسايِاً خِطْبا
لا تجعلَنْ أحداً عليك إذا أحببتَه وهَويته رَبّا
وصِلِ الحبيبَ إذا شُغفتَ به واطوِ الزيارةَ دونَه غِبّا
فلذاك أحسَنُ من مُواظَبةٍ ليست تَزيدك عندَه قُربا
لا بل يَمَلُّك عند دَعوته فيقولُ هاهِ ولَطالما لَبّى [1]

فقال لها : جُعلتُ فِداكِ ! إنّ القلب إذا هَوِي نطق اللسان بما يهوى . فمكث عندها شهراً لا يدري أهلُه أين هو . ثم استأذنها في الخروج ، فقالت له : بعد أن فضحتني ! لا واللهِ لا تخرُج إلاّ بعد أن تتزوّجني . ففعل وتزوّجها ، فولدت منه ابنين احدهما جُوان ، وماتت عنده .

خبره مع الثريّا بنت عليّ

مَسْلمة بن إبراهيم بن هشام المخزوميّ عن أيُّوبَ بن مَسلمة : أنّه أخبره أنّ عمر بن أبي ربيعة كان مُسْهَباً [2] بالثُريّا بنت عليّ بن عبد الله ابن الحارث بن أُميّة الأصغر ، وكانت عُرْضَة [3] ذلك جمالاً وتماماً ، وكانت تَصيف بالطائف ، وكان عمر يغدو عليها كلّ غَداة إذا كانت بالطائف على فرسه ، فيسأل الرُّكبانَ الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار قِبَلَهم . فلَقِي يوماً بعضَهم فسأله عن أخبارهم فقال : ما استطرفْنا خبراً [4] ، إلاّ أنني سمعت عند رحيلنا صوتاً وصِياحاً عالياً على امرأةٍ من قريش اسمُها اسم نجمٍ في السماء ، وقد سقط عني اسمه . فقال

---

(١) الخطب : الخاطب . هاه : كلمة وعيد ، وهي بالتسكين وحركت لضرورة الشعر .
(٢) المسهب : من أسقمه الحب وذهب بعقله .
(٣) كانت عرضة ذلك : أي أهلا لذلك .
(٤) ما استطرفنا خبراً : ما عندنا خبر طريف نرويه لك .

عمر : الثريّا ؟ قال : نعم . وقد كان بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة . فوجّه فرسه على وجهه إلى الطائف يَركُضه مِلءَ فُروجه [1] وسلك طريق كَدَاء [2] ، وهي أخشن الطُرق وأقربُها ، حتى انتهى إلى الثُريّا ، وقد توقَّعَتْه وهي تتشوّف له وتُشرِف ، فوجدها سليمةً عَميمةً ومعها أختاها رُضَيّا وأمّ عثمان ، فأخبرها الخبر ؛ فضحكت وقالت : أنا والله أمرتُهم لأختبرُ ما لي عندك . فقال عمر في ذلك هذا الشعر :

تشكّى الكُميتُ الجَرْيَ لمّا جَهَدْتُه
وبيّن لو يسطيع أن يتكلّما
فقلت له إن ألْقَ للعين قُرّةً
فهان عليّ أن تَكِلَّ وتَسأما
لذلك أدْني دونَ خيلي رِباطَه
وأُوصي به ألاّ يُهانَ ويُكرَما
عَدِمتُ إذاً وَفْري وفارقت مُهجتي
لَئِن لم أقِلْ قَرْناً إن اللهُ سَلّما [3]

... بِلال مولى ابن أبي عتيق :

أن الحارث بن عبد الله بن عَيّاش بن أبي ربيعة قدِم للحجّ ، فأتاه ابن أبي عَتيق فسلّم عليه وأنا معه . فلمّا قضى سلامَه ومُساءَلته عن حجّه وسفره قال له : كيف تركت أبا الخَطّاب عمر بن أبي ربيعة ؟ قال : تركتُه في بُلَهْنِيَه من العيش [4] ، قال : وأنّى ذلك ؟ قال :

(١) الفروج : ما بين قوائم الفرس . يقال : ملأ فروج فرسه أي جعله يعدو أقصى ما يسعه .
(٢) كداء : جبل بأعلى مكة عند المحصب .
(٣) الكميت : صفة للجواد يميل لونه إلى حمرة يخالطها سواد . الوفر : المال الكثير . أقل : من القيلولة . قرن : هو قرن المنازل الذي يرد كثيراً في شعر عمر .
(٤) بلهنية العيش : سعته ورفاهيته .

حَجّت رَملةُ بنت عبد الله بن خَلَف الخُزاعيّة فقال فيها :

أصبح القلبُ في الحِبال رَهينــا مُقْصَداً يومَ فارق الظاعنينــا
قلتُ من أنتم فصَدَّتْ وقالــت أَمُبِدٌ سؤالــك العالَمينــا
نحن من ساكني العراق وكنّــا قبلَه قاطنين مكّــةَ حِينــا
قد صَدَقْناك إذ سألتَ فمن أنــت عسى أن يَجُرَّ شأنٌ شؤونا
ونرى أنّنــا عرفنــاك بالنَّعْــت بظنٍّ ومــا قتلنا يَقينــا
بســوَاد الثَنيتّيْــن ونعــتٍ قد نراه لِناظــرٍ مُستَبينا [1]

قال : فبلغ ذلك الثُريّا – بَلّغتها إيّاه أمُّ نَوفل – وكانت غضبى عليه ، وقد كان انتشر خبرُه عن الثريّا حتى بلغها من جهة أمّ نوفل ، وأنشدتها قوله :

أصبح القلب في الحبال رهينــا مُقصَداً يوم فارق الظاعنينــا

فقالت : إنّه لوَقاح [2] صَنَعٌ بلسانه [3] ، ولئن سَلِمتُ لأرُدَّنّ من شأوه [4] ، ولأثنينّ من عِنانه ، ولأعَرّفَنّه نفسَه ....

قال الزبير : ورَملةُ هذه أمُّ طَلْحة بن عمر بن عُبيدِ الله بن مَعْمَر التَيْميّ ، وهي أُخت طلحة الطَلَحات بن عبد الله بن خَلَف الخُزاعيّ ...

قال : فلمّا صرمت الثريّا عمر قال فيها :

مــن رسولي إلى الثُريّا فإنّــي ضِقتُ ذَرْعاً بِهَجْرها والكتابِ

---

(١) أمبد سؤالك : أي أمقسم أنت سؤالك على الناس جميعاً . أقصده : طعنه فلم يخطئه وأقصد السهم : أصاب مقتلا .
(٢) الوقاح : الوقح ، القليل الحياء .
(٣) صنع اللسان : فصيح اللسان ، حاذق في فنون القول .
(٤) الشأو ، هنا : الزمام .

سَلَبتني مجّاجةُ المِسك عقلي فسَلُوها ماذا أحلّ اغتصابي
وهي مكنونةٌ تحيّر منها في أديم الخدّين ماءُ الشّباب
أبرزُوها مثلَ المَهاة تَهادى بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ
ثم قالوا تُحبّها قلتُ بَهْراً عَددَ القَطْر والحصى والتّراب(١)

بلال مولى ابن أبي عتيق قال :

أنشد ابن أبي عتيق قول عمر :

من رسولي إلى الثريّا فإنّي ضقت ذرعاً بهجرها والكتاب

فقال ابن أبي عتيق : إيّاي أراد وبي نَوّه ! لا جَرَمَ والله لا أذُوق أكُلاً (٢) حتى أشخصَ فأُصلحَ بينهما . ونهض ونهضتُ معه ، فجاء إلى قوم من بني الدّيلِ بن بَكر لم تكن تُفارقُهم نجائبُ لهم فُرْهٌ (٣) يَكرُونها ، فاكترى منهم راحلتَين وأغلى لهم . فقلتُ له : استَوضعْهم (٤) أو دَعني أماكِسْهم ، فقد اشتَطُّوا عليك . فقال : وَيْحَك ! أما علمتَ أنّ المِكاسَ ليس من أخلاق الكِرام ! ثم ركب إحداهما وركبتُ الأخرى ، فسار سيراً شديداً ، فقلت : أبْقِ على نفسك ، فإنّ ما تريد ليس يَفُوتُك . فقال : وَيْحَك !

أُبادرُ حَبْلَ الوُدّ أن يَتقضّبا (٥)

وما حَلاوةُ الدنيا إن تَمّ الصَّدْعُ بين عمر والثريّا ! فقدِمنا مكّة

---

(١) سبق شرح الأبيات الأخيرة من هذه المقطوعة . والكتاب : الواو للقسم . مجاجة المسك : يصفها بطيب الرائحة وطيب مذاق ريقها .
(٢) الأكل ، بضمتين والأكال كسحاب : ما يؤكل .
(٣) الفره ج فاره : النشيط القوي من الدواب .
(٤) استوضعهم : اطلب منهم إنقاص الأجر .
(٥) يتقضب : ينقطع .

ليلاً غير مُحرِمَين ، فدقّ على عمرَ بابه ، فخرج إليه وسلّم عليه ولم ينزِل عن راحلته ، فقال له : اركَبْ أُصْلِحْ بينك وبين الثريّا ، فأنا رسولُك الذي سألتَ عنه . فركب معنا ، وقدمنا الطائف ، وقد كان عمر أرضى أمَّ نوفَل ، فكانت تطلب له الحِيَل لإصلاحها فلا يُمكنُها . فقال ابن أبي عتيق للثريّا : هذا عمر قد جَشَّمني السفرَ من المدينة إليك ، فجئتُك به معترفاً لك بذنبٍ لم يَجْنِه ، معتذراً إليك من إساءته إليك ، فدَعيني من التَّعداد والتَّرداد ، فإنّه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون. فصالحتْه أحسنَ صُلح وأتمّه وأجملَه . وكَرَرْنا إلى مكة ، فلم ينزِلها ابن أبي عتيقٍ حتى رحَل . وزاد عمر في أبياته :

أزهقت أمُّ نوفَــلٍ إذ دَعَتْها مُهْجَتي ما لِقاتلي من مَتابِ
حين قالت لها أجيبــي فقالــت مَن دَعاني قالت أبو الخَطّابِ
فاستجابت عنــد الدُّعاءِ كما لَبَّــى رجالٌ يَرجُون حُسن الثّوابِ (١)

(عن جماعة من الرُّواة :)

تزوّج سُهيل بن عبد العزيز بن مروان الثُريّا ... فقال عمر :

أيُّها المُنكِحُ الثُريّا سُهيــلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقيانِ
هي شاميّةٌ إذا مــا استقلّــتْ وسُهيلٌ إذا استقلَّ يَماني (٢)

عن أبي صالح السَّعديّ قال :

لمّا تزوّج سهيل بن عبد العزيز الثريّا ونقلها إلى الشام ، بلغ عمر بن أبي ربيعة الخبر ، فأتى المنزل الذي كانت الثريا تنزِله ، فوجدها قد رحلت

---

(١) أزهقت مهجتي : يريد أنها أذهبت نفسي إذ كنت أخشى ألا تجيبها الثريا .
(٢) استقلت : ارتفعت . في البيتين تورية : فالثريا هي الفتاة التي يتغزل بها وهي في الوقت عينه نجم في السماء وكذلك سهيل .

منه يومئذ ، فخرج في أثرها فلحقها على مَرحلتَين ، وكانت قبل ذلك مُهاجِرتَهَ لأمرٍ أنكرتْه عليه . فلمّا أدركهم نزل عن فرسه ودفعه إلى غلامه ومشى متنكراً حتى مرّ بالخيمة ، فعرفته الثريّا وأثبتتْ [1] حركته ومِشيتَه ، فقالت لحاضنتها : كَلّميه . فسلّمت عليه وسألته عن حاله وعاتبتْه على ما بلغ الثريّا عنه ، فاعتذر وبكى . فبكت الثريّا ، فقالت : ليس هذا وقتَ العتاب مع وشك الرّحيل . فحادثها إلى وقت طلوع الفجر ثم ودّعها وبكيا طويلاً ، وقام فركب فرسه ووقف ينظر إليهم وهم يَرحلون ، ثم أتبعهم بصرَه حتى غابوا . وأنشأ يقول :

يا صاحبيّ قِفا نَستَخبر الطَّلَلا
عن حالِ مَن حَلّه بالأمسِ ما فَعَلا

فقال لي الرَّبْعُ لمّا أن وقفتُ بــــه
إنّ الخلَيطَ أجدّ البَيْن فاحتَملا

وخادَعَتْك النّوى حتى رأيتَهم
في الفجر يحتثُّ حادي عِيسهم زَجِلا

لمّا وقفنا نُحيّيهم وقد صَرخت
هواتفُ البَين واستولت بهم أُصُلا

صَدّت بِعاداً وقالت للّتي معها
بالله لُومِيه في بعض الذي فَعلا [2]

(الأبيات ...)

---

(١) أثبتت : عرفت على وجه اليقين .

(٢) احتمل : ارتحل . يحتث : يسوق سوقاً شديداً . زجلا : رافعاً صوته ليحمل الابل على الاسراع .

وفاته

عن ثعلبةَ بن عبد الله بن صُعَير :

أنّ عمر بن أبي ربيعة نظر في الطّواف إلى امرأة شريفة ، فرأى أحسن خلق الله صورةً ، فذهب عقله عليها ، وكلّمها فلم تُجِبْه ، فقال فيها :

الرِّيحُ تسحب أذيالاً وتَنْشُرها ... يا ليتني كنتُ ممّن تسحَبُ الرّيحُ
كيما تجرَّ بنا ذَيلاً فتَطرَحَنا ... على التي دونَها مُغْبَرَّةٌ سُوحُ
أنّى بقُربكم أم كيف لي بكم ... هيهاتَ ذلك ما أمستْ لنا رُوحُ
فليت ضِعفَ الذي ألقى يكونُ بها ... بل ليت ضِعف الذي ألقى تَباريح
إحدى بُنَيّات عمّي دون مَنزلها ... أرضٌ بقِيعانها القَيصومُ والشّيحُ(١)

فبلغها شعره فجزِعت منه ، فقيل لها : اذكُريه لزوجك ، فإنّه سيُنكر عليه قوله . فقالت : كلاّ والله لا أشكوه إلاّ إلى الله . ثم قالت : اللّهم إن كان نَوّه باسمي ظالماً فاجْعَلْه طعاماً للرّيح . فضرب الدهرُ من ضَرْبه (٢) ، ثم إنه غدا يوماً على فرس فهبّت ريحٌ فنزل فاستتر بسَلَمة (٣) ، فعصفت الريحُ فخدشه غُصنٌ منها ، فدَمي ووَرِم به ومات من ذلك .

• • •

(١) سوح ج ساحة وهي الفضاء . تباريح الشوق : توهجه وشدته . القيصوم والشيح : من نبات البادية .

(٢) ضرب الدهر ضربانه ومن ضربانه ومن ضربه : أي مر حين من الدهر .

(٣) السلم : شجر من العضاه وورقه القرظ الذي يدبغ به الأديم .

٤٢

قَيْسُ بن ذَرِيح

(الأغاني ج ٩ ص ١٨٠ وما بعدها)

الشاعر

هو قيس بن ذَريح بن الحُباب بن سُنّة ... بن بكر بن عبد مَناة ، وهو عليّ بن كِنانة ...

عن هشام بن الكلبيّ قال حدّثني عدد من الكِنانيّين أن قيس بن ذَريح كان رَضيع الحُسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما . أرضعتْه أمّ قيس .

عشقه لُبنى وزواجه منها

(عن طائفة من الرّواة :)

كان منزل قومه في ظَاهر المدينة ، وكان هو وأبوه من حاضرة المدينة .

وذكر خالد بن كلثوم أن منزله كان بسَرِفَ [1] ، واحتجّ بقوله :

الحمــد لله قد أمست مجــاورةً أهل العقيقِ وأمسينا على سَرِفِ

قالوا : فمرّ قيس لبعض حاجته بخيام بني كعب بن خُزاعةَ ، فوقف على خيمة منها والحيُّ خُلُوفٌ [2] والخيمةُ خيمةُ لُبنَى بنت الحُباب الكَعبيّة ، فاستسقى ماءً ، فسقتْه وخرجت إليه به ، وكانت امرأة مديدةَ القامة شَهلاءَ [3] حُلوة المنظر والكلام . فلمّا رآها وقعتْ في نفسه وشرب الماء ، فقالت له : أتنزِلُ فتتبرّدَ عندنا ؟ قال : نعم . فنزل بهم . وجاء أبوها فنحر له وأكرمَه . فانصرف قيس وفي قلبه من لُبنى حرٌّ لا يُطفَأ ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع ورُوي .

ثم أتاها يوماً آخر وقد اشتدّ وجدُه بها ، فسلّم فظهرت له وردّت سلامَه وتحفّت به ، فشكا إليها ما يَجِدُ بها وما يلقَى من حبّها ، وشكت إليه مثل ذلك فأطالت ، وعرف كلٌّ واحد منهما ما له عند صاحبه . فانصرف الى أبيه وأعلمه وسأله أن يزوّجه إيّاها ، فأبى عليه وقال : يا بُنيّ ، عليك بإحدى بنات عمّك فهنّ أحقُّ بك . وكان ذريحٌ كثير المال مُوسِراً ، فأحبّ ألاّ يخرج ابنه الى غريبة . فانصرف قيس وقد ساءه ما خاطبه أبوه به ، فأتى أمّه فشكا ذلك إليها واستعان بها على أبيه ، فلم يجدْ عندها ما يُحبّ . فأتى الحسين بن عليّ بن أبي طالب وابنَ أبي عَتيق ، فشكا إليهما ما به وما ردّ عليه أبوه . فقال له الحسين : أنا أكفيك . فمشى معه الى أبي لُبنى ، فلمّا بَصُر به أعظَمه ووثب إليه وقال له : يابنَ رسول الله ، ما جاء بك ؟ ألا بعثتَ إليّ فأتيتك ! قال : إنّ الذي جئت فيه يُوجب قصدَك ، وقد جئتُك خاطباً ابنتَك لُبنى لقيس بن ذَريح . فقال : يابنَ

(١) سرف : موضع على ستة أميال من مكة .
(٢) خلوف : غائبون .
(٣) الشهلة : زرقة خفيفة في حدقة العين .

رسول الله ، ما كُنّا لِنَعْصِيَ لك أمراً وما بنا عن الفتى رَغبةٌ ، ولكنّ أحبَّ الأمر إلينا أن يخطُبَها ذريحٌ أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره ، فإنّا نخاف إن لم يَسْعَ أبوه في هذا أن يكون عاراً وسُبّةً علينا. فأتى الحسين رضي الله عنه ذَريحاً وقومَه وهم مجتمعون ، فقاموا إليه إعظاماً له وقالوا له مثل قول الخُزاعيّين . فقال لذريح : أقسمت عليك إلاّ خطبتَ لُبنى لابنك قيس . قال : السمعَ والطاعة لأمرك . فخرج معه في وجوه من قومه حتى أتَوا لبنى فخطبها ذَريحٌ على ابنه الى أبيها ، فزوّجه إيّاها .

إكراهه على طلاق لبنى وما حلّ به من جرّاء ذلك

وزُفّت إليه بعد ذلك ، فأقامت معه مدّةً لا يُنكِرُ أحدٌ من صاحبه شيئاً . وكان أبرَّ الناس بأُمّه ، فألهتْه لبنى وعُكوفُه عليها عن بعض ذلك ، فوجَدت أمّهُ في نفسها وقالت : لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بِرّي . ولم تر للكلام في ذلك موضِعاً ، حتى مرض مرضاً شديداً ، فلمّا برَأَ من علّته قالت أمُّه لأبيه : لقد خشيتُ أن يموت قيسٌ وما يترك خَلَفاً ، وقد حُرِم الولد من هذه المرأة وأنتَ ذو مال فيصير مالُك الى الكَلالة [1] ، فزَوِّجْه بغيرها لعلّ الله أن يرزُقه ولداً ، وألحّت عليه في ذلك . فأمهلَ قيساً حتى إذا اجتمع قومه دعاه فقال : يا قيسُ ، إنّك اعتللت هذه العلّةَ ، فخفت عليك ، ولا ولدَ لك ولا لي سواك ، وهذه المرأة ليست بوَلُود ، فتزوّجْ إحدى بنات عمّك لعلّ الله أن يَهبَ لك ولداً تَقَرُّ به عينُك وأعينُنا. فقال قيس: لست متزوّجاً غيرَها أبداً. فقال له أبوه: فإنّ في مالي سَعةً فتَسَرَّ بالإماء . قال : ولا أسوءُها بشيءٍ أبداً والله . قال أبوه : فإنّي أُقسِم عليك إلاّ طَلّقْتَها . فأبى وقال : الموت والله عليّ أسهلُ من ذلك . ولكنّي أُخيّرُك خَصلةً من ثلاث خِصال . قال : وما هي ؟ قال :

---

(١) الكلالة : ما خلا الوالد والولد ، وهي أيضاً أن يرث المال من لم يكن قريب النسب .

تتزوّج أنت فلعلّ الله أن يرزُقَكَ ولداً غيري . قال : فما فيَّ فضلةٌ لذلك . قال : فدَعْني أرتحلْ عنك بأهلي واصنَعْ ما كنتَ صانعاً لو مُتّ في علّتي هذه . قال : ولا هذه . قال : فأدعُ لُبنى عندك وأرتحلُ عنك فلعلّي أسلُوها ، فإنّي ما أحبّ بعد أن تكون نفسي طيّبةً أنّها في خيالي . قال : لا أرضى أو تُطلّقَها . وحلَفَ لا يكُنُّه سقفُ بيت أبداً حتى يطلّقَ لُبنى ، فكان يخرج فيقف في حرّ الشمس ، ويجيء قيسٌ فيقف الى جانبه فيُظلّه بردائه ويَصْلَى هو بحرّ الشمس حتى يَفيءَ الفَيءُ فينصرفَ عنه ، ويدخل الى لبنى فيعانقُها وتُعانقه ، ويبكي وتبكي معه وتقول له : يا قيسُ ، لا تُطِعْ أباك فتَهْلِكَ وتُهلكَني . فيقول : ما كنت لأُطيعَ أحداً فيكِ أبداً . فيقال إنّه مكث كذلك سنةً ...

عن ليث بن عَمرو : أنه سمع قيس بن ذَريح يقول لزيد بن سليمان : هَجَرَني أبوايَ في لبنى عشرَ سنين أستأذن عليهما فيَرُدّاني ، حتى طلّقتُها .

عن عمرو بن دينار قال : قال الحسين بن عليّ رضي الله عنهما لذريح ابن سُنّة أبي قيس : أَحَلَّ لك أن فرّقتَ بين قيس ولُبنى ! ؟ أما إنّي سمعت عمر بن الخطاب يقول : ما أبالي أفرّقتُ بين الرجل وامرأته أو مشَيت إليهما بالسيف .

قالوا : فلمّا بانتْ لُبنى بطلاقه إياها وفُرغ من الكلام ، لم يلبثْ حتى استُطير عقلُه وذُهب به ولحِقه مثلُ الجُنون . وتذكّر لبنى وحالها معه فأسِف وجعل يبكي وينشِجُ أحرَّ نَشيج . وبلغها الخبرُ فأرسلت الى أبيها ليحتملَها ، وقيل : بل أقامت حتى انقضت عِدّتُها وقيس يدخل عليها . فأقبل أبوها بهَودجٍ على ناقةٍ وبإبلٍ تحملُ أثاثَها . فلمّا رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها فقال : ويحَكِ ! ما دهاني فيكم ؟ فقالت : لا تسألْني وسَلْ لبنى . فذهب ليُلِمّ بخِبائها فيسألَها ، فمنعه قومها . فأقبلت عليه امرأةٌ من قومه فقالت له : مالك ويحَك ! تسأل كأنّك جاهلٌ أو

تتجاهل ! هذه لبنى ترتحل الليلةَ أو غداً . فسقط مَغشيّاً عليه لا يَعقِل ثم أفاق وهو يقول :

وإنّي لَمُفْنٍ دمعَ عينيَ بـالبُكا ... حِذارَ الذي قد كان أو هو كائنُ
وقالوا غداً أو بعد ذاك بـليلـةٍ ... فِراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهو بائنُ
وما كنت أخشى أن تـكون منيّتي ... بكفّيكِ إلاّ أن ما حان حائنُ

وقال قيس :

يقولون لُبْنى فِتنةٌ كنتَ قبلَهـا ... بخيرٍ فلا تندَمْ عليها وطَلِّقِ
فَطاوعت أعدائي وعاصيتُ ناصحي ... وأقررتُ عينَ الشامت المتخلِّقِ
وَددتُ وبيتِ الله أنّي عَصيتُهم ... وحُمِّلت في رِضوانها كلَّ مُوبِقِ
وكُلّفت خوضَ البحر والبحرُ زاخـرٌ ... أبيتُ على أثباج موجٍ مُغَرِّقِ
كأنّي أرى النّاس المحبّين بعـدَهـا ... عُصارةَ ماء الحَنْظَل المتَفلِّقِ
فتُنكر عيني بعدَها كلَّ منظـرٍ ... ويكره سَمعي بعدها كلَّ مَنطقِ (١)

قال : وسقط غرابٌ قريباً منه فجعل ينعِق مراراً ، فتطيّر منه وقال :

لقد نادى الغُراب ببَيْن لـبنى ... فطار القلبُ من حَذَر الغُرابِ
وقال غداً تباعَدُ دارُ لـبـنى ... وتنأى بعد وُدٍّ واقترابِ
فقلت تَعِستَ ويحَكَ من غرابٍ ... وكان الدّهرَ سَعيُك في تَبابِ (٢)

(١) المتخلق : الذي يتكلف ما ليس في خلقه وطبعه . الموبق : المهلك . أثباج ج ثبج : وسط الشيء ومعظمه .
(٢) التباب : الخسار والنقص .

وقال أيضاً وقد منعه قومه من الإلمام بها :

ألا يا غُرابَ البَين ويحَكَ نَبِّــني بعِلْمكَ في لُبنى وأنت خبير
فإن أنت لم تُخبِرْ بما قد علمتَــه فلا طِرتَ الاّ والجَناحُ كَسيرُ
ودُرتَ بأعداءٍ حبيبُــك فيهم كما قد تراني بالحبيب أدُور

قالوا : وقال أيضاً وقد أدخِلت هودجَها ورحلت وهي تبكي ويتبعُها :

ألا يا غُرابَ البين هل أنت مُخبِري
بخَير كما خَبَّرتَ بالنَّأي والشَّرِ
وقلت كذاك الدهرُ ما زال فــاجعــاً
صدقتَ وهل شيءٌ بباقٍ على الــدهر

قالوا : فلمّا ارتحل قومها اتّبعها مَليّاً (١) ، ثم علم أنّ أباها سيمنعه من السير معها ، فوقف ينظر إليهم ويبكي حتى غابوا عن عينه فكرّ راجعاً ، ونظر الى أثر خُفّ بعيرها فأكبَّ عليه يُقبّلهُ ، ورجع يُقبّل موضع مجلسها وأثر قَدَمها . فليم على ذلك وعنّفه قومه على تقبيل التراب فقال :

وما أحببتُ أرضَكم ولــكــن أُقبِّلُ إثرَ من وَطِيءَ التُرابا
لقد لاقيتُ من كَلَفي بــلُبــنى بَلاءً ما أسيغ به الشَّرابــا
إذا نادى المنادي باسم لــبــنى عَيِيتُ فما أُطيقُ له جَوابا

وقال وقد نظر الى آثارها :

ألا يا رَبْعَ لُــبنى مــا تقــولُ أَبِنْ لي اليومَ ما فَعلَ الحُلولُ
فلو أنّ الدّيار تُجيب صَبّــاً لردّ جَوابي الرَّبعُ المُحيلُ

---

(١) الملي : الساعة الطويلة من النهار .

ولو أنّي قدرتُ غداةَ قالــت غدرتَ وماءُ مُقلتها يَسيل
نَحرتُ النّفسَ حين سمعت منها مقالتها وذاك لها قليــلُ
شفَيتُ غليلَ نفسي من فِعالي ولم أَغْبُرْ بلا عقلٍ أجُولُ
كأنّي والهٌ بفِـراق لُبـنى تَهيمُ بفَقد واحدها ثَكُولُ
ألا يا قلبُ ويحَك كُن جَليداً فقد رحلتْ وفات بها الذَّميلُ
فإنّك لا تُطيقُ رجوعَ لُبنى إذا رحلتْ وإن كثُر العَويلُ
وكم قد عشتَ كم بالقُربِ منها ولكنّ الفراقَ هو السَّبيلُ
فصبراً كلُّ مُؤتَلِفَين يومــاً من الأيام عيشُهما يَزُول (١)

قال: فلمّا جَنّ عليه الليلُ وانفرد وأوَى الى مَضجعه لم يأخذْه القَرارُ وجعل يتململُ فيه تململَ السّليم (٢)، ثم وثب حتى أتى موضع خِبائها، فجعل يتمرّغ فيه ويبكي ويقول:

بِتُّ والهَمُّ يا لُبَينى ضَجيعــي وجرتْ مُذ نأيتِ عنّي دُموعي
وتنفّستُ إذ ذكرتُك حــتّى زالت اليومَ عن فؤادي ضُلوعي
أتناساكِ كي يُـريـغَ فؤادي ثم يشتدُّ عند ذاك وَلُوعــي
يا لُبَينَي فَدَتْكِ نفسي وأهــلي هل لِدهرٍ مضى لنا من رجوعِ (٣)

قالوا: وجعل قيسٌ يعاتب نفسه في طاعته أباه في طلاقه لُبنى ويقول: فألاّ رحلتُ بها عن بلده فلم أرَ ما يفعل ولم يسرّني! فكان إذا فقدني أقلع عمّا يفعله، وإذا فقدتُه لم أتحرَّجْ من فِعله! وما كان عليّ لو اعتزلتُه وأقمتُ في حَيّها أو بعض بوادي العرب! أو عَصَيتُه فلم أُطِعه! هذه

---

(١) الحلول: جمع حال. حال يحيل وأحال: تغير. الذميل: السير اللين.
(٢) السليم: الملدوغ، وسموه سليماً تفاؤلا بشفائه.
(٣) يريغ: يحيد.

جنايتي على نفسي فلا لومَ على أحد ، وهأنذا ميتٌ ممّا فعلته ، فمن يردّ رُوحي إليّ ! ؟ وهل لي سبيلٌ الى لُبنى بعد الطلاق ؟ ! وكلّما قرّع نفسه وأنّبها بلون من التقريع والتأنيب بكى أحرّ بكاء وألصق خدّه بالارض ووضعه على آثارها ثم قال :

وَيلي وعَوْلي ومالي حين تُفلتني
من بعدما أحرزتْ كفّي بها الظَّفَرا
قد قال لطَرْفي وهو يعذِلُه
هذا جَزاؤك منّي فاكدُمِ الحَجَرا
قد كنت أنهاك عنها لو تطاوعني
فاصبِرْ فمالك فيها أجرُ من صبَرا (١)

قالوا : فلمّا أصبح خرج متوجّهاً نحو الطّريق الذي سلكتْه يتنسَّمُ روائحها ، فسنحتْ له ظبيةٌ فقصدها فهربتْ منه فقال :

ألا يا شِبْهَ لُبنى لا تُراعي ولا تتيمَّمي قُلَل القِلاعِ

وهي قصيدة طويلة يقول فيها :

فواكبدي وعاودني رُداعي وكان فِراقُ لُبنى كالخِداعِ
تَكَنَّفَني الوُشاةُ فأزعجوني فيا لله لِلواشي المُطاعِ
فأصبحت الغَداةَ ألومُ نفسي على شيءٍ وليس بمُستطاعِ
كَمغبُونٍ يَعَضّ على يديه تبيّن غَبْنُه بعد البياعِ
بدار مَضيعةٍ تركتكَ لُبنى كذاك الحَيْنُ يُهدَى للمُضاعِ
وقد عِشنا نَلَذُّ العيش حيناً لو انّ الدّهر للانسان داعي

---

(١) كدم : عض .

ولكنّ الجمـــيع الى افـــتراقٍ وأسبابُ الحُتوف لها دواعي[1]

عن العُتبيّ عن أبيه قال :

بعثتْ أمُّ قيس بن ذَريح بفتياتٍ من قومه إليه يَعِبن إليه لُبنى ويَعِبْنَه بجزَعه وبكائه ويتعرّضن لوصاله ، فأتينَه فاجتمعن حَواليه وجعلن يُمازحْنه ويَعِبن لبنى عنده ويُعيِّرنَه ما يفعله . فلمّا أطلن أقبل عليهنّ وقال :

يَقَرُّ بعيني قربُها ويَزيـــدُني بها كَلَفاً من كان عندي يَعيبُها
وكم قائلٍ قد قـــال تُبْ فعَصَيتُه وتلك لَعمري توبةٌ لا أتوبُها
فيا نفس صبراً لستِ والله فاعلمـي بأوّل نفسٍ غاب عنها حَبيبُها

قال : فانصرفن عنه الى أمّه فأيأسْنَها من سَلْوته .

وقال سائر الرُّواة :

اجتمع إليه النّسوة فأطلن الجلوس عنده ومحادثته وهو ساهٍ عنهنّ ، ثم نادى : يا لُبنى . فقلن له : مالكَ ويحَك ! فقال : خَدِرتْ رِجلي ، ويقال إنّ دعاء الإنسان باسم أحبّ الناس إليه يُذهب عنه خَدَر الرِجل ، فناديتُها لذلك . فقُمن عنه ، وقال :

إذا خَدِرتْ رِجْلي تذكّرتُ مَن لها
فناديتُ لُبنى باسمها ودعـــوتُ
دعوتُ التي لو أنّ نفسي تُطيعـــني
لفارقتُها من حُبّهـــا وقضَيـــتُ

---

(١) القلاع ج قلعة (بالتحريك) : الصخور الضخمة تنقلع عن الجبل . الرداع : الداء المنتكس .

بَرَت نَبْلَها للصَّيْد لبنى ورَيَّشت
وريَّشْتُ أخرى مثلَها وبَرَيْــت

فلمّا رَمتني أقصدتْني بسهمــهــا
وأخطأْتُها بالسَّهم حين رَمَيــتُ

وفارقت لبنى ضَلَّــةً فكأنــــني
قُرِنت الى العَيّوق ثم هَوَيــتُ

فيا ليت أنّي مُتُّ قبل فِراقهــــا
وهل تَرجِعَنْ فَوت القضيّة ليــتُ

فصِرت وشيخي كالذي عثَرتْ به
غَداةَ الوغَى بين العُداة كُمَيْــتُ

فقامت ولم تُضْرَرْ هناك سَوِيَّــةً
وفارسُها تحت السَّنابك مَيْــتُ

فإن يك تـهيامي بلُبنى غَـوايــةً
فقد يا ذَريحُ بنَ الحُباب غَوَيتْ

فلا أنت ما أمّلتَ فيَّ رأيتَــه
ولا أنا لُبنى والحياةَ حَوَيــتُ

فَوطِّنْ لِيهُلْكي منك نفساً فإنّــني
كأنّك بي قد يا ذَريحُ قَضَيْتُ (١)

---

(١) ريش السهم : وضع له ريشاً فيستقيم في انطلاقه . أقصده : رماه فأصابه منه مقتلا . العيوق : نجم أحمر في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا . كميت : فرس لونها كميت ، والكمتة : بين الحمرة والسواد . سوية : مستوية .

وقال خالد بن كلثوم : مرض قيس ، فسأل أبوه فتيات الحيّ أن يَعُدْنَه ويحدّثنه لعلّه أن يتسلّى أو يعلَق بعضهنّ ، ففعلن ذلك . ودخل إليه طبيبٌ ليداويَه ، والفتياتُ معه ، فلمّا اجتمعن عنده جَعَلْن يُحادثنه وأطلن السؤال عن سبب علّته ، فقال :

عِيدَ قيسٌ من حُبّ لبنى ولُبنى ... داءُ قيسٍ والحبُّ داءٌ شديدُ
وإذا عادني العوائد يوماً ... قالت العينُ لا أرى مَن أريد
ليت لبنى تَعُودُني ثم أقضي ... إنّها لا تَعُود فيمن يعودُ
ويحَ قيسٍ لقد تضمّن منها ... داءَ خَبْلٍ فالقلبُ منها عَميدُ (١)

قالوا : فقال له الطبيب : منذ كم هذه العلّة ؟ ومنذ كم وجَدت بهذه المرأة ما وجدتَ ؟ فقال :

تعلّق رُوحي رُوحَها قبل خَلْقنا ... ومن بعدما كُنّا نِطافاً وفي المَهْدِ
فزاد كما زدنا فأصبح نامياً ... وليس إذا مُتنا بمنصرِم العهد
ولكنّه باقٍ على كلّ حادثٍ ... وزائرُنا في ظُلمة القبر واللّحْدِ (٢)

قالوا : فقال له الطبيب : إنّ ممّا يُسْليك عنها أن تتذكّر ما فيها من المساوىء والمعايب وما تعافه النفس من أقذار بني آدم ، فإن النفس تنبو حينئذٍ وتسلو ويخِفّ ما بها . فقال :

---

(١) العميد والمعمود : من هده العشق .
(٢) هذه الأبيات تنسب أيضاً إلى جميل بن معمر ، وقد وقع هذا الاختلاط في كثير من شعر شعراء الغزل .

إذا عِبتُها شَبَّهتها البدرَ طالعــاً
وحَسْبُكَ من عَيبٍ لها شَبَهُ البدرِ
لقد فُضّلت لبنى على الناس مثلمــا
على ألف شهرٍ فُضّلت ليلةُ القــدر
اذا ما مشت شِبراً من الأرض أَرجَفَتْ
من البُهْرِ حتى ما تزيدُ عــلى شِبر
لها كَفَلٌ يرتجّ منها اذا مَشَــتْ
ومَتنٌ كغُصن البان مُضطَمِرُ الخَصْرِ (١)

قالوا : ودخل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه المخاطبة ، فأنّبه ولامَه وقال له : يا بُنيّ ، اللهَ اللهَ في نفسِك ! فإنّك ميّتٌ إن دُمت على هذا الحال ! فقال :

وفي عُروة العُذْريّ إن متُّ أسوةٌ
وعَمرو بن عَجلانَ الذي قتلتْ هندُ
وبي مثل ما ماتا بــه غيرَ أنّــني
إلى أجلٍ لم يأتِني وقتُــه بَعــدُ
هل الحبُّ إلاّ عَبرةٌ بعد زَفْــرةٍ
وحَرٌّ على الأحشاء ليس لــه بَرْدُ
وفيضُ دموعٍ تَستَهِلُّ إذا بــدا
لنا عَلَمٌ من أرضكم لم يكن يبدو (٢)

---

(١) البهر : انقطاع النفس من الإعياء ، أراد أنها عظيمة الكفل فإذا مشت أصابها البهر .
(٢) تستهل : تنهمر . علم : جبل .

زواجه بفتاة أخرى اسمها لبنى وزواج لبنى من غيره

وقال خالد بن جَمَل : فلمّا طال على قيس ما به أشار قومُه على أبيه بأن يزوّجه امرأةً جميلة فلعلّه أن يسلُوَ بها عن لُبنى . فدعاه إلى ذلك فأباه وقال :

لقد خِفتُ ألاّ تقنعَ النفسُ بعدَها
بشيءٍ من الدنيا وإن كان مَقْنَعَـا
وأزجرُ عنها النفسَ إذ حِيل دونَها
وتأبى إليها النفسُ الاّ تَطَلُّعَـا

فأعلمهم أبوه بما ردّ عليه . قالوا : فمُرْه بالمَسير في أحياء العرب والنزول عليهم ، فلعلّ عينَه أن تقع على امرأة تُعجبه . فأقسم عليه أبوه أن يفعل . فسار حتى نزل بحيٍّ من فَزارة ، فرأى جاريةً حسناء قد حسَرت بُرقُع خزٍّ عن وجهها وهي كالبدر ليلةَ تِمِّه (١) ؛ فقال لها : ما اسمُكِ يا جاريةُ ؟ قالت : لُبنى . فسقط على وجهه مَغشياً عليه ، فنضحت على وجهه ماءً وارتاعت لِما عَراه ، ثم قالت : إن لم يكن هذا قيسَ بن ذَريح إنه لمجنون ! فأفاق ، فنَسَبته فانتسب ، فقالت : قد علمت أنك قيس ، ولكن نشَدتُك بالله وبحق لبنى إلاّ أصبتَ من طعامنا . وقدّمت إليه طعاماً ، فأصاب منه بإصبعه ، وركب . فأتى على أثره أخٌ لها كان غائباً ، فرأى مُناخ ناقته ، فسألهم عنه فأخبروه ، فركب حتى ردّه إلى منزله ، وحلف عليه لَيُقيمنَّ عنده شهراً . فقال له : قد شققتَ عليّ ، ولكنّي سأتّبع هواك . والفَزاريّ يزداد إعجاباً بحديثه وعقله وروايته ، فعَرض عليه الصِّهر ، فقال له : يا هذا إنّ فيك لَرغبةً ، ولكنّي في

---

(١) تمه : تمامه .

شُغل لا يُنْتَفَع بي معه . فلم يزل يُعاوده والحيُّ يلُومونه ويقولون له : قد خشِينا أن يصير علينا فِعلُك سُبَّة . فقال : دَعُوني ، ففي مثل هذا الفتى يَرغب الكرام . فلم يزل به حتّى أجابه وعقد الصِّهر بينه وبينه على أخته المُسمّاة لبنى ، وقال له : أنا أسوق عنك صَداقَها ، فقال : أنا والله يا أخي أكثرُ قومي مالاً ، فما حاجتك إلى تَكَلُّف هذا ؟ أنا سائرٌ إلى قومي وسائقٌ إليها المَهْر . ففعل وأعلم أباه الذي كان منه ، فسَرّه وساق المهر عنه ، ورجع إلى الفَزاريّين حتّى أُدخلت عليه زوجتُه ، فلم يَرَوه هشّ إليها ولا دنا منها ولا خاطبها بحرفٍ ولا نظر إليها . وأقام على ذلك أيّاماً كثيرة . ثم أعلمهم أنه يريد الخروج إلى قومه أيّاماً ، فأذِنوا له في ذلك ، فمضى لِوجهه إلى المدينة ، وكان له صديقٌ من الأنصار بها ، فأتاه فأعلمه الأنصاريّ أن خبر تزويجه بلغ لُبْنى فغَمّها وقالت : إنّه لغَدّار ، ولقد كنت أمتنع من إجابة قومي إلى التزويج فأنا الآن أُجِيبُهم . وقد كان أبوها شكا قيساً إلى معاوية وأعلمه تعرّضه لها بعد الطّلاق ، فكتب إلى مروان بن الحكم يُهدر دمه إن تعرّض لها ، وأمر أباها أن يزوّجها رجلاً يُعرف بخالد بن حِلِّزة ، من بني عبد الله بن غطَفان – ويقال بل أمره بتزويجها رجلاً من آل كثير بن الصَّلْت الكِنديّ حليفِ قريش – فزوّجها أبوها منه ... قال : فجزع قيس جَزَعاً شديداً وجعل ينشِج أحرّ نشيج ويبكي أحرّ بكاء . ثم ركب من فَوره حتّى أتى محلّة قومها ، فناداه النساء : ما تصنع الآن ها هنا ؟ قد نُقلت لُبْنى إلى زوجها . وجعل الفتيان يعارضونه بهذه المقالة وما أشبهها وهو لا يُجيبهم حتّى أتى موضع خبائها ، فنزل عن راحلته وجعل يتمعّك (١) في موضعها ويُمرّغ خدّه على ترابها ويبكي أحرّ بكاء ...

عن الهيثم بن عديّ ورواه عمر بن شَبّة أيضاً أن أبا لُبْنى شخص إلى

---

(١) يتمعك : يتمرغ .

معاوية فشكا إليه قيساً وتعرّضه لابنته بعدْ طلاقه ايّاها . فكتب معاوية إلى مروانَ أو سعيد بن العاص يُهدر دمه إن ألمّ بها وأن يشتدّ في ذلك . فكتب مروان أو سعيد في ذلك إلى صاحب الماء الذي ينزله أبو لُبنى كتاباً وكيداً ، ووجّهت لبنى رسولاً قاصداً إلى قيس تُعلمه ما جرى وتُحذّره . وبلغ أباه الخبر فعاتبه وتجهّمه وقال له : انتهى بك الأمر إلى أن يُهدِر السلطان دمك ! فقال :

فإن يحجبُوها أو يَحُلْ دونَ وصلها
مَقالةُ واشٍ أو وعيدُ أميرِ
فلن يمنعوا عينيَّ من دائم البُكا
ولن يُذهِبوا ما قد أجَنَّ ضميري
إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى
ومن حُرَقٍ تعتادني وزفير
ومن حَرَق للحبّ في باطن الحشى
وليلٍ طويل الحزن غيرِ قصير
سأبكي على نفسي بعينٍ غزيرةٍ
بكاءَ حزينٍ في الوَثاق أسير
وكنّا جميعاً قبل أن يظهر الهوى
بأنعمِ حالَيْ غِبطةٍ وسُرور
فما برِح الواشون حتّى بدت لهم
بطونُ الهوى مقلوبةً لظُهور
لقد كنت حَسْبَ النفس لو دام وَصْلُنا
ولكنّما الدنيا مَتاع غُرورِ (١)

(١) الحرق (بالتحريك) : النار ، وفي رواية أخرى : لوعة .

عن يحيى بن عليّ الكنانيّ قال :

شُهر أمر قيس بالمدينة وغنّى في شعره الغَريض ومَعْبَد ومالك وذووهم ، فلم يبق شريف ولا وضيع إلاّ سمع بذلك فأطربه وحزن لقيسٍ ممّا به . وجاءها زوجُها فأنّبها على ذلك وعاتبها وقال : قد فضحتِني بذِكرك . فغضبت وقالت : يا هذا ، اني واللهِ ما تزوّجتُك رغبةً فيك ولا فيما عندك ولا دُلّس أمري عليك ، ولقد علمتَ أنّي كنت زوجته قبلك وأنه أُكرِه على طلاقي ، ووالله ما قبلت التزويج حتى أُهدِر دمُه إن ألَمّ بحَيّنا ، فخشيت أن يحمِله ما يجدُ على المخاطرة فيُقْتَل ،فتزوّجتُك ؛ وأمرُك الآن إليك ، ففارِقْني فلا حاجةَ بي إليك . فأمسَك عن جوابها وجعل يأتيها بجواري المدينة يُغَنّينَها بشعر قيس كيما يستصلِحها بذلك ، فلا تزداد إلاّ تمادياً وبُعداً ، ولا تزال تبكي كلّما سمعتْ شيئاً من ذلك أحرّ بكاء وأشجاه .

وقال الحِرمازي وخالد بن جَمَل :

كانت امرأةٌ من موالي بني زُهرة يقال لها بُريكة من أظرف النساء وأكرمهنّ ، وكان لها زوج من قريش له دارُ ضيافة . فلمّا طالت علّة قيس قال له أبوه : إنّي لأعلم أنّ شفاءك في القُرب من لُبنى ، فارحَلْ إلى المدينة . فرحل إليها حتى أتى دار الضّيافة التي لزوج بُريكة . فوثب غِلمانُه إلى رَحْل قيس ليَحُطّوه ، فقال : لا تفعلُوا ، فلست نازلاً أو ألقى بُريكة ، فإنّي قصدتُها في حاجة ، فإن وجدتُ لها عندها موضعاً نزلت بكم وإلاّ رحلتُ . فأتَوها فأخبروها . فخرجت إليه فسلّمت عليه ورَحّبتْ به وقالت: حاجتُك مَقضيّةٌ كائنةً ما كانت ، فانزِلْ . فنزل ودنا منها فقال : أذكُر حاجتي ؟ قالت : إن شئتَ . قال : أنا قيسُ بن ذَريح . قالت : حيّاكَ اللهُ وقرّبك ، إنّ ذِكرك لَجديدٌ عندنا في كلّ وقت . قال : وحاجتي أن أرى لُبنى نظرةً واحدة كيف شئت . قالت :

ذلك لك علي .

فنزل بهم وأقام عندها وأخفتْ أمرَه ، ثم أهدى لها هدايا كثيرة وقال : لاطفيها وزوجَها بهذا حتى يأنَس بك . ففعلت وزارتْها مراراً ، ثم قالت لزوجها : أخبِرْني عنك ، أنت خيرٌ من زَوجي ؟ قال : لا . قالت : فلُبْنى خيرٌ منّي ؟ قال : لا . قالت : فما بالي أزورُها ولا تزُورني ؟ قال : ذلك إليها . فأتتها وسألتها الزّيارة وأعلمتها أنّ قيساً عندها ، فتسارعتْ إلى ذلك وأتتْها . فلمّا رآها ورأته بكيا حتى كادا يتلفان . ثمّ جعلت تسأله عن خبره وعِلّته فيخبرُها ، ويسألها فتخبره . ثم قالت : أنشِدني ما قُلت في عِلّتك . فأنشدها قوله :

أعالج من نفسي بقايا حُشَاشةٍ ... على رَمَقٍ والعائداتُ تَعُودُ
فإن ذُكرت لبنى هششتُ لِذكرها ... كما هَشّ للثّدي الدَّرُور وليدُ
أجيب بلبنى مَن دعاني تجلُّداً ... وبي زَفَراتٌ تنجلي وتعود
تُعيد إلى روحي الحياةَ وإنني ... بنفسيَ لو عاينْتِني لأجُودُ

...

وقال الحِرمازيّ في خبره خاصّةً : وعاتبتْه على تزوّجه فحلف أنه لم ينظر إليها مِلءَ عينيه ولا دنا منها . فصَدّقَتْه ...

قالوا : فلم يزل يومه معها يحدّثها ويشكو إليها أعفّ شكوى وأكرمَ حديث حتى أمسى . فانصرفت ووعدتْه الرّجوع إليه من غدٍ فلم ترجع . وشاع خبرُه فلم ترسل إليه رسولاً . فكتب هذه الأبيات في رُقعة ودفعها إلى بُريكة وسألها أن تُوصلها إليها ، ورحل متوجّهاً إلى معاوية . والأبيات :

بنفسيَ مَن قلبي له الدهرَ ذاكرٌ ... ومن هو عني مُعرِضُ القلب صابرُ
ومَن حبُّه يزداد عنديَ جِدّةً ... وحُبّي لدَيه مُخْلِق العهد داثرُ

قالوا : ثم ارتحل إلى معاوية، فدخل إلى يزيد فشكا ما به اليه وامتدحه. فرقّ له وقال : سَلْ ما شئت ، إن شئت أن أكتب إلى زوجها فأحتّم عليه أن يُطلّقَها فعلتُ . قال : لا أُريد ذلك ، ولكن أحبّ أن أقيم بحيث تُقيم من البلاد ، أتعرَّف أخبارها وأقنعُ بذلك من غير أن يُهدَر دمي . قال : لو سألت هذا من غير أن ترحل إلينا فيه لـَما وجَب أن تـُمْنَعَه ، فأقِم حيث شئتَ ، وأخذ كتابَ أبيه له بأن يقيمَ حيث شاء وأحبَّ ولا يَعترِضَ عليه أحد ، وأزال ما كان كتب به في إهدار دمه . فقدِم إلى بلده ، وبلغ الفـَزاريـّين خبرُه وإلمامُه بلبنى ، فكاتبوه في ذلك وعاتبوه ، فقال للرسول : قل للفتى — يعني أخا الجارية التي تزوّجها — : يا أخي ما غـَررتك من نفسي ، ولقد أعلمتـُك أنّي مشغولٌ عن كلّ أحد ، وقد جعلت أمر أختك إليك فأمْضِ فيه من حـُكمك ما رأيتَ. فتكرّم الفتى عن أن يُفرّق بينهما ، فمكثت في حِباله مُدّةً ثم ماتت .

وقال القـَحْذَميّ : قال ابن أبي عـَتيق لقيس يوماً : أنشِدني أحرَ ما قلتَ في لبنى . فأنشده قوله :

وإنّي لَأهوى النّومَ في غيرِ حينـه ... لعلّ لقاءً في المنام يكـون
تُحدّثني الأحلامُ أنّي أراكـمُ ... فيا ليت أحلامَ المنامِ يقـينُ
شهدتُ بأنّي لم أحُلْ عن مَـودّةٍ ... وأنّي بكم لو تعلمين ضَنين
وأنّ فؤادي لا يلين إلى هـوىً ... سواكِ وإن قالوا بَلَى سَيَلينُ

فقال له ابن أبي عتيق : لـَقلّ ما رضِيت به منها يا قيس . قال : ذلك جُهدُ المُقِلّ .

خاتمة أمره

وقد اختـُلف في آخر أمر قيس ولبنى ، فذكر أكثر الرُّواة أنهما ماتا

على افتراقهما ، فمنهم من قال : إنّه مات قبلـَها وبلغها ذلك فماتت أسـَفاً عليه . ومنهم من قال : بل ماتت قبله ومات بعدَها أسـَفاً عليها . وممّن ذكر ذلك اليوسُفيّ عن عليّ بن صالح صاحب المُصلّى ، قال : قال لي أبو عـَمرو المـَدَنيّ : ماتت لـُبنى ، فخرج قيسٌ ومعه جماعةٌ من أهله ، فوقف على قبرها فقال :

ماتت لُبَيْنى فموتـُهـا مـــوتي هل تَنفعنْ حَسْرتي على الفـَوْتِ

وسوف أبكي بكــاءَ مُكتئبٍ قضى حياةً وجْداً عــلى مَيْتِ

ثم أكبّ على القبر يبكي حتّى أُغمي عليه ، فرفعه أهلـُه إلى منزله وهو لا يعقل ، فلم يزل عليلاً لا يُفيق ولا يُجيب مُكلّماً ثلاثاً حتى مات فدُفن إلى جَنْبها .

وذكر القَحذميّ وابنُ عائشة وخالد بن جمَل أنّ ابن أبي عتيق صار إلى الحسن والحسين ابنَي عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم وجماعةٍ من قريش ، فقال لهم : إنّ لي حاجةً إلى رجلٍ أخشى أن يردّني فيها ، وإني أستعين بجاهكم و أموالكم فيها عليه . قالوا : ذلك لك مبْتَذَلٌ منّا . فاجتمعوا ليومٍ وعَدهم فيه ، فمضى بهم إلى زوج لبنى فلمّا رآهم أعظم مَصيرَهم إليه وأكبره . فقالوا : لقد جئناك بأجمعنا في حاجةٍ لابن أبي عَتيق . قال : هي مَقضيّةٌ كائنةً ما كانت . قال ابن أبي عتيق : قد قضيتَها كائنةً ما كانت من مِلْك أو مالٍ أو أهل ؟ قال : نعم قال : تَهَب لهم ولي لُبنى زوجتك وتطلّقُها . قال : إنّي أُشهِدكم أنّها طالقٌ ثلاثاً . فاستحيا القوم واعتذروا وقالوا : والله ما عَرَفنا حاجته ، ولوْ علمنا أنها هذه ما سألناك إيّاها . وقال ابنُ عائشة : فعوّضه الحَسَن من ذلك مائة ألف درهمٍ وحملها ابن أبي عتيق إليه . فلم تزل عنده حتى انقضت عِدّتُها ، فسألَ القومُ أباها فزوّجها قيساً ، فلم تزل معه حتى ماتا . فقال قيس يمدح ابن أبي عَتيق :

جَزَى الرحمنُ أفضلَ ما يُجازي   على الإحسان خيراً مـن صديقِ
فقد جرّبتُ إخـواني جميعـاً   فما ألفَيتُ كابن أبي عَتيق
سعى في جمع شَمْلي بعد صَـدْعٍ   ورأيٍ حِدتُ فيـه عن الطريق
وأطفأ لوعـةً كانت بقلـبي   أغصَّتني حرارتُهـا بِريقي

قال : فقال له ابن أبي عتيق : يا حبيبي أمسِك عن هذا المديح ، فما يسمعه أحد إلاّ ظَنّني قَوّاداً .

* * *

٤٣

قَيْسُ بن المُلَوّح

مجنون ليلى

(الأغاني ج : ٢ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

هو – على ما يقوله مَن صَحّح نسبَه وحديثَه – قيسٌ ، وقيل : مَهْديّ ، والصحيح أنه قيس بن المُلَوّح [1] بن مُزاحم ... بن جَعْدة ابن ربيعة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعة ...

عبد الجبّار بن سعيد ... بن مُساحق عن أبيه عن جدّه قال : سعيت على بني عامر فرأيت المجنون وأُتيت به وأنشدني .

---

(١) لم يضبط واوها في المطبوعة ولكن المحقق ذكر أن العرب سموا ملوحا ، بالفتح ، وهو المرجح .

عن المدائنيّ قال : المجنون المشهور بالشعر عند الناس ، صاحبُ ليلى : قيس بن مُعاذ ، من بني عامر ثم من بني عُقَيل ، أحد بني نُمَيْر بن عامر بن عُقَيل (١) .

حَمّاد بن اسحاق عن أبيه قال : اسم المجنون قيس بن مُعاذ ، أحد بني جَعْدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

ابن عبّاد : أنّه سأل الأصمعيّ عنه فقال : لم يكن مجنوناً ، بل كانت به لُوثةٌ (٢) أحدثها العِشق فيه . كان يهوى امرأةً من قومه يُقال لها ليلى ، واسمُه قيس بن مُعاذ .

وذكر عمرو بن أبي عمرو الشَّيبانيّ عن أبيه أن اسمه قيس بن مُعاذ .

عن أبي زياد الكِلابيّ قال : ليلى صاحبةُ المجنونِ هي ليلى بنت سَعد ابن مَهْديّ بن ربيعة بن الحَرِيش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعصعة .

عبد الجبّار بن سليمان ... بن مُساحِق عن أبيه عن جدّه قال :

أنا رأيت مجنون بني عامر ، وكان جميل الوجه أبيضَ اللون قد علاه شُحوبٌ ، واستنشدتُه فأنشدني قصيدته الّتي يقول فيها :

تذكّرتُ ليلى والسِّنين الخَواليـــا ... وأيّامَ لا أعْدي على اللهو عاديا(٣)

عن ابن عائشةَ قال : إنّما سُمّي المجنونَ بقوله :

ما بالُ قلبك يا مجنونُ قد خُلِعــا ... في حُبّ مَن لاترى في حُبّه طَمَعا

---

(١) في سياقة هذا النسب نظر ، فالثابت أن بني عقيل هم بطن من كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ؛ أما بنو نُمير فهم ينحدرون مباشرة من عامر بن صعصعة وليسوا من بني عقيل . (انظر نسب عامر بن صعصعة في جمهرة ابن حزم) .

(٢) اللوثة ، بالضم ويفتح : الحمق .

(٣) لا أعدي : لا أنصر ولا أعين .

الحبّ والوُدُّ نيطا بالفؤاد لهـــا فأصبحا في فؤادي ثابتَين معـــا

قال الأصمعي : لم يكن المجنون مجنوناً ، إنّما جنّنه العشق . وأنشد له :

يُسمّونني المجنونَ حـين يَروْنني
نعمْ بيَ من ليلى الغَداةَ جنـونُ
لياليَ يَزْهـانِي شبابٌ وشِـرّةٌ
واذ بيَ من خَفْضِ المعيشةِ لِينُ [1] .

عن المدائنيّ : أنه ذكر عنده مجنون بني عامر فقال : لم يكن مجنوناً ، وإنما قيل له المجنون بقوله :

وانّي لمجنونٌ بليـلى موكّـلٌ
ولستُ عَزُوفاً عن هواها ولا جَلْدا
اذا ذُكرتْ ليلى بكيتُ صَبابـةً
لِتَذْكارها حتّى يَبُلّ البُكا الخدّا

قال العُتْبيّ : إنّما سمّي المجنون بقوله :

يقولُ أُناسٌ عَلّ مجنونَ عامـرٍ يَرُومُ سُلُوّاً قلت أنّى لِما بيا
وقد لامني في حبّ ليلى أقـاربـي أخي وابنُ عمّي وابنُ خالي وخاليا
يقولون ليلى أهلُ بيت عَـداوةٍ بنفسيَ ليـلى مـن عدوٍّ وماليا
ولو كان في ليلى شذاً من خُصومةٍ لَلَوّيتُ أعناق المطيّ المَلاويا [2]

---

(١) يزهاني : يطيش بي ويستخفني . الشرة : النشاط والخفة .
(٢) الشذا والشدا : الحد . الملاوي ج ملوى : مصدر ميمي من لوى بمعنى عطف .

إنكار طائفة من الرواة وجوده

عن الحِزاميّ قال : حدّثني أيّوب بن عَبابة قال : سألتُ بني عامرٍ بطناً بطناً عن مجنون بني عامر فما وجدت أحداً يعرفه .

عن ابن دأبٍ قال : قلت لرجل من بني عامر : أتعرف المجنون وتروي من شعره شيئاً ؟ قال : أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتّى نروي أشعار المجانين ! إنّهم لكثيرٌ ! فقلت : ليس هؤلاء أعني ، إنّما أعني مجنون بني عامر الشاعرَ الذي قتله العِشق . فقال : هيهاتَ ! بنو عامر أغلظُ أكباداً من ذاك ، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضِعافِ قلوبُها ، السّخيفةِ عقولُها ، الصَّعْلةِ [1] رُؤوسها ، فأمّا نزارُ فلا .

الرِّياشيّ قال : سمعت الأصمعيّ يقول : رجلان ما عُرفا في الدنيا قطُّ إلاّ بالاسم : مجنونُ بني عامر ، وابن القِرِيّة [2] ، وإنما وضعهما الرُّواة .

عن ابن الأعرابيّ أنه ذكر عن جماعة من بني عامر أنهم سُئلوا عن المجنون فلم يعرفوه . وذكروا أن هذا الشعر كلّه مُولّد عليه .

عن عَوانة قال : ثلاثةٌ لم يكونوا قطُّ ولا عُرفوا : ابن أبي العَقِب صاحب قصيدة المَلاحم ، وابن القِرِيّة ، ومجنون بني عامر .

اسحاق قال : أنشدت أيّوب بن عَبابة هَذين البيتين :

وخَبّرتماني أنّ تيماءَ منزلٌ

لِليلى إذا ما الصَّيفُ ألقى المراسيا

---

(١) الصعل : صغر الرأس ، وأراد به الحمق .

(٢) ابن القرية : هو أيوب بن زيد بن قيس ، والقرية أمه ، وكان خطيباً مفوهاً ، خرج على الحجاج مع ابن الأشعث وانتهى أمره بالقتل .

فهذي شهور الصيف عنّا قــد انقضت
فما للنّوى ترمي بليلــى المّراميــــا

وسألته عن قائلهــا ، فقال : جميلٌ ، فقلت له : إنّ الناس يروُونها للمجنون . فقال : ومن هو المجنون ؟ فأخبرتُه ، فقال : ما لهذا حقيقةٌ ولا سمعتُ به .

عن أيّوب بن عَباية : أنّ فتىً من بني مَروان كان يهوى امرأةً منهم فيقول فيها الشعر وينسبُه إلى المجنون ، وأنّه عمل له أخباراً وأضاف اليها ذلك الشعرَ ، فحمله الناس وزادوا فيه .

عن عَوانة أنّه قال : المجنون اسمٌ مستعار لا حقيقة له ، وليس له في بني عامر أصلٌ ولا نسب ، فسُئل مَن قال هذه الأشعار ؟ فقال : فتىً من بني أميّة .

بدء تعشّقه لليلى وذهاب عقله بسببها

قال أبو عَمرو الشّيبانيّ وأبو عبيدة :

كان المجنون يهوى ليلى بنت مَهديّ بن سَعد بن مَهديّ بن ربيعة بن الحَريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعصعة ، وتُكْنَى أمَّ مالك ، وهما حينئذ صَبيّان ، فعلِق كلّ واحد منهما صاحبه وهما يَرعيان مَواشي أهلهما ، فلم يزالا كذلك حتى كَبِرا ، فحُجِبت عنه . قال : ويدلّ على ذلك قولُه :

تعلّقتُ ليلى وهي ذاتُ ذُؤابــــة
ولم يبدُ للأتراب من ثديها حَجْــمُ

صغيرَين نَرعى البَهْمَ يا ليت أنّنا

إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ (١)

وقال ابنُ الكلبيّ : حدّثني معروفٌ المكّيّ والمُعلّى بن هِلال وإسحاق بن الحَصّاص قالوا :

كان سبب عِشق المجنون ليلى أنّه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حُلّتان من حُلل الملوك ، فمر بامرأة من قومه يُقال لها : كَريمة ، وعندها جماعةُ نسوةٍ يتحدثّن فيهنّ ليلى ، فأعجبهنّ جمالُه وكماله ، فدعَونه إلى النُزول والحديث ، فنزل وجعل يُحدّثهنّ ، وأمر عَبداً له كان معه فعَقر لهنّ ناقته ، وظلّ يُحدّثهنّ بقيّةَ يومه . فبينا هو كذلك ، اذ طَلع عليهم فتىً عليه بُردةٌ من بُرَد الأعراب يُقال له « مُنازل » يسُوق مِعزًى له ، فلمّا رأينه أقبلنَ عليه وتركن المجنون ، فغضب وخرج من عندهنّ وأنشأ يقول :

أأعقِر من جَرّا كَريمةَ ناقتي

ووَصْلي مَفروشٌ لوصل مُنازلِ

إذا جاء قَعْقَعن الحُليّ ولم أكُنْ

إذا جئت أرضَى صوتَ تلك الخلاخلِ

متى ما انتَضَلْنا بالسّهام نَضَلْتُه

وإن نَرْمِ رَشْقاً عندَها فهو ناضِلي (٢)

قال : فلمّا أصبح لبس حُلّته وركب ناقةً له أخرى ومضى متعرّضاً لهنّ ، فألفى ليلى قاعدةً بفِناء بَيتها — وقد عَلِق حبّه بقلبها وهَوِيَتْه —

(١) البهم : أولاد الضأن والماعز واحده بهمة .

(٢) من جرا كريمة : من أجل كريمة . مفروش : ممهد . انتضلنا : ترامينا بالسهام . الرشق : رمي أهل النضال ما معهم من السهام في جهة واحدة .

وعندها جُوَيريات يتحدّثن معها ، فوقف بهنّ وسَلّم ، فدعَونه إلى النزول وقُلن له : هل لك في محادثة مَن لا يَشْغَلُه عنك مُنازلٌ ولا غيره ؟ فقال : إي لَعَمري ! فنزل وفعل مثلما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم هل لها عندَه مثلُ ما له عندها ، فجعلت تُعرِض عن حديثه ساعةً بعد ساعة وتُحدّث غيره ،وقد كان علِق بقلبه مثلُ حبّها إيّاه وشَغَفته واستَمْلَحها . فبينا هي تُحدّثه إذ أقبل فتىً من الحيّ ، فدَعَتْه وسارّتْه سِراراً طويلاً ، ثم قالت له : انصرِفْ. ونظرت إلى وجه المجنون قد تغيّر وانتُقع لونُه [1] وشَقّ عليه فِعلُها ، فأنشأتْ تقول :

كِلانا مُظهِرٌ للناس بُغضاً ... وكُلٌّ عند صاحبه مَكينُ
تُبلّغُنا العُيونُ بما أردنا ... وفي القلبَين ثَمّ هوًى دَفينُ

فلمّا سمع هذين البيتين شَهَق شَهقةً شديدة وأُغمي عليه ، فمكث على ذلك ساعةً ، ونضَحوا الماء على وجهه حتى أفاق ، وتمكّن حبُّ كلٍّ واحدٍ منهما في قلب صاحبه حتّى بلغ منه كلَّ مَبْلَغ .

عن أبي الهيثم العُقَيليّ قال :

لمّا شُهر أمر المجنون وليلى وتناشد الناسُ شعرَه فيها خطَبها وبذَل لها خمسين ناقةً حمراءَ ، وخَطَبها وَرْد بن محمد العُقَيليّ وبذل لها عَشراً من الإبل وراعيَها ، فقال أهلُها : نحن مُخيّروها بينَكما ، فمن اختارتْه تزوّجَتْه . ودخلوا إليها فقالوا : والله لَئن لم تختاري وَرداً لَنُمثّلَنّ بك . فقال المجنون :

ألا يا ليلَ إن مُلِّكتِ فينا ... خيارَكِ فانظري لِمن الخِيارُ
ولا تَستبدِلي منّي دَنِيّاً ... ولا بَرَماً إذا حُبَّ القُتارُ

---

[1] انتقع لونه : تغير من هم أو فزع .

يُهَرولُ فـي الصغير إذا رآه وتُعجِزه مُلِمّـاتٌ كِبارُ
فمِثلُ تأيُّمٍ منه نِكـاحٌ ومثلُ تَموُّلٍ منه افتقارُ (١)

فاختارت وَرْداً فتزوّجته على كُرهٍ منها .

عن عثمان بن عِمارة بن حُرَيم المُرّي قال :

خرجت إلى أرض بني عامر لألقى المجنون ، فدُللت عليه وعلى مَحلّته فلَقيتُ أباه شيخاً كبيراً وحولَه إخوة للمجنون مع أبيهم رجالاً ، فسألتهم عنه فبكَوا ، وقال الشيخ : أما والله لهو كان آثرَ عندي من هؤلاء جميعاً ، وانّه عشق امرأةً من قومه والله ما كانت تطمع في مثله ، فلمّا فشا أمرُه وأمرُها كره أبوها أن يُزَوِّجَه إيّاها بعدما ظهر من أمرهما ، فزوّجها غيرَه . وكان أوّلَ ما كَلِفَ بها يجلِس إليها في نفرٍ من قومها فيتحدّثون كما يَتحدّث الفِتيانُ ، وكان أجملَهم وأظرفهم وأرواهم لأشعار العرب ، فيُفيضون في الحديث فيكون أحسنَهم فيه إفاضةً ، فتُعرِض عنه وتُقبِل على غيره ، وقد وقع له في قلبها مثلُ ما وقع لها في قلبه ، فظنّت به ما هو عليه من حُبّها ، فأقبلت عليه يوماً وقد خَلَت فقالت :

كِلانا مُظهِرٌ للنّاس بُغضـاً وكُلٌّ عند صاحبه مَكينُ
وأسرار المَلاحظ ليس تَخفى إذا نَطَقت بما تُخفي العُيون

قال : فخرّ مغشيّاً عليه ثم أفاق فاقداً عقلَه ، فكان لا يلبَسُ ثوباً إلاّ خرّقه ولا يمشي إلاّ عارياً ويلعب بالتُراب ويجمع العِظام حولَه ؛ فإذا ذُكرت له ليلى أنشأ يُحدّث عنها عاقلاً ولا يُخطىء حرفاً . وترك الصّلاة ، فإذا قيل له : مالَكَ لا تُصلّي ! لم يردّ حرفاً . وكنّا نحبسه ونُقَيِّده ، فيعَضّ لسانه وشَفَته ، حتى خشينا عليه فخلّينا سبيله فهو يَهيم .

---

(١) البرم : اللئيم الشحيح . القتار : رائحة الشواء ، ولعل « حب » محرفة عن « هب » . التأيم : فقد الزوج .

قال الهيثمُ : فولّى مروانُ بن الحكم عمرَ بن عبد الرحمن بن عوف صَدَقاتِ بني كعب وقُشَير وجَعْدة والحَريش وحَبيبَ وعبد الله ، فنظر إلى المجنون قبل أن يستحكمَ جُنونُه فكلّمه وأنشده فأعجب به ، فسأله أن يخرج معه ، فأجابه إلى ذلك ، فلمّا أراد الرّواح جاءه قومُه فأخبروه خبرَه وخبر ليلى ، وأنّ أهلها استعدَوا السلطانَ عليه فأهدر دمَه إن أتاهم ، فأضرَب عمّا وعَده به وأمر له بقلائصَ ، فلمّا علم بذلك وأُتي بالقلائص ردّها عليه وانصرف .

وذكر أبو نصر أحمد بن حاتم عن جماعة من الرواة : أن المجنون هو الذي سأل عمر بن عبد الرحمن أن يخرج به ، قال له : أكون معك في هذا الجمع الذي تجمعه غداً ، فأرى في أصحابك ، وأتجمّل في عشيرتي بك ، وأفخَر بقُربك . فجاءه رَهْطٌ من رهط ليلى وأخبروه بقصّته ، وأنه لا يريد التجمّل به ، وانما يريد أن يدخَل عليهم بيوتهم ويفضحهم في امرأةٍ منهم يهواها ، وأنهم قد شكَوه إلى السلطان فأهدر دمه إن دخل عليهم . فأعرض عمّا أجابه اليه من أخذه معه ، وأمر له بقلائص ، فردّها وقال في ذلك :

رددتُ قلائص القُرشيّ لمّـــا بدا لي النَقْضُ منه للعُهودِ
وراحُوا مُقْصِرين وخلّفُوني إلى حُزنٍ أعالجـه شديـدِ

قال : ورجع آيساً فعاد إلى حاله الأولى . قال : فلم تزل تلك حالُه ، إلاّ أنه غير مستوحِشٍ ، إنما يكون في جَنَبات الحيّ منفرداً عارياً لا يلبَس ثوباً إلاّ خرّقه ، ويهذي ويخطّط في الأرض ويلعب بالتُراب والحجارة ، ولا يجيب أحداً سأله عن شيء . فإذا أحبّوا أن يتكلّم أو يثوبَ عقلُه ذكروا له ليلى ، فيقول : بأبي هي وأمّي . ثم يرجع إليه عقلُه فيخاطبونه ويُجيبُهم ، ويأتيه أحداثُ الحيّ فيُحدّثونه عنها ويُنشدونه الشعرَ الغزَل ، فيُجيبهم جواباً صحيحاً وينشدهم أشعاراً قالها . حتى سعى

عليهم في السنة الثانية بعد عمر بن عبد الرحمن نوفَلُ بن مُساحِق ، فنزل مَجمعاً من تلك المجامع ، فرآه يلعب بالتراب وهو عُريانُ ، فقال لغلامٍ له : يا غُلامُ ، هاتِ ثوباً . فأتاه به ، فقال لبعضهم : خُذ هذا الثوب فألْقِه على ذلك الرجل ، فقال له : أتعرفه ، جُعلت فداك ؟ قال : لا . قال : هذا ابنُ سيّد الحيّ ، لا والله ما يلبسُ الثّيابَ ولا يزيد على ما تراه يفعلُه الآن ، واذا طُرح عليه شيءٌ خرّقه ، ولو كان يلبَس ثوباً لكان في مال أبيه ما يكفيه . وحدّثه عن أمره . فدعا به وكلّمه ، فجعل لا يعقل شيئاً يُكلّمه به ، فقال له قومه: إن أردتَ أن يُجيبكَ جواباً صحيحاً فاذكر له ليلى . فذكَرها وسأله عن حُبّه إيّاها ، فأقبَل عليه يُحدّثه بحديثها ويشكو إليه حُبّه إيّاها ويُنشِده شعرَه فيها . فقال له نوفل : الحُبّ صيّرك إلى ما أرى ؟ قال : نعم ، وسينتهي بي إلى ما هو أشدُّ ممّا ترى . فعجِب منه وقال له : أتُحبّ أن أُزوّجكَها ؟ قال : نعم ، وهل إلى ذلك من سبيل ؟ قال : انطلِقْ معي حتى أَقْدَمَ على أهلها بك وأخطُبَها عليك وأرَغّبَهم في المَهْر لها . قال : أتُراك فاعلاً ؟ قال : نعم . قال: انظر ما تقول . قال : لك عليّ أن أفعلَ بك ذلك . ودعا له بثياب فألبسه إيّاها ، وراح معه المجنونُ كأصحّ أصحابه يُحدّثه ويُنشِده . فبلغ ذلك رهطَها ، فتلَقَّوه في السّلاح ، وقالوا له : يا بنَ مُساحِق ، لا والله لا يدخُل المجنون منازلنا أبداً أو يموتَ ، فقد أهدر لنا السّلطانُ دمَه . فأقبَل بهم وأدْبَر ، فأبَوا . فلمّا رأى ذلك قال للمجنون : انصرِفْ . فقال له المجنون : والله ما وفيتَ لي بالعهد . قال له : انصرافُك بعد أن آيَسني القومُ من إجابتك أَصلَحُ من سَفك الدماء ، فقال المجنون :

أيا ويحَ مَن أمسى تُخُلِّس عقلُه فأصبح مَذهُوباً بـه كلّ مَذْهَبِ

خَليّاً من الخُلاّن إلاّ مُعذِّراً يُضاحكني من كان يهوى تَجنُّبي

إذا ذُكِرتْ ليلى عقَلتُ وراجعتْ
روائعُ عقلي من هوًى مُتشعِّبِ
وقالوا صحيحٌ ما به طَيفُ جِنّةٍ
ولا لَمَمٌ إلاّ افتراءُ التكذّبِ
وشاهدُ وَجدي دمعُ عيني وحُبُّها
بَرَى اللحمَ عن أحناء عظمي ومَنْكِبي
تجنّبْتَ ليلى أن يلجَّ بك الهوى
وهيهاتَ كان الحبُّ قبل التجنُّبِ
ألا إنّما غادرتِ يا أمَّ مالكٍ
صدًى أينما تذهبْ به الرِّيحُ يَذْهَبِ (١)

وهي قصيدة طويلة ، وممّا يغنّى فيه منها قولُه :

فلم أرَ ليلى بعد موقفِ ساعةٍ ... بخَيفِ منىً ترمي جِمارَ المُحَصَّبِ
ويُبدي الحصى منها إذا قذفَتْ به ... من البُرْد أطرافَ البنان المُخضَّبِ
فأصبحتُ من ليلى الغداةَ كناظرٍ ... مع الصُّبح في أعقاب نجمٍ مُغرِّبِ(٢)

عن هشام ابن الكَلْبيّ عن أبيه :

أنّ أبا المجنون وأمّه ورجال عشيرته اجتمعوا إلى أبي ليلى فوعظُوه وناشَدُوه اللهَ والرَّحِمَ ، وقالوا له : إنّ هذا الرجل لَهالكٌ ، وقبلَ

---

(١) تخلس : اختلس وسلب . المعذر : المقصر الذي لا عذر له . الروائع : جمع رائعة أي مرتاعة . اللمم : الجنون اليسير ، ورواية المطبوعة : ولا الهم إلا بافتراء التكذب ، وما أثبتناه رواية الديوان . الأحناء ج حنو : كل شيء فيه اعوجاج . الصدى : الرجل المهزول الجسم .

(٢) الخيف : ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . الجمار : الحصى . البنان : الأصابع .

ذلك لقي أقبحَ من الهلاك بذهاب عقله ؛ وإنّك فاجع به أباه وأهله ؛ فنشدناك اللهَ والرّحمَ أن تفعل ذلك ، فوالله ما هي أشرفُ منه ، ولا لك مثلُ مال أبيه ، وقد حكّمك في المَهر ، وان شئت أن يخلعَ نفسه إليك من ماله فعل . فأبى وحلف بالله وبطلاق أمّها انّه لا يزوّجه ايّاها أبداً ، وقال : أفضحُ نفسي وعشيرتي وآتي ما لم يأته أحدٌ من العرب وأسِمُ ابنتي بميسم فضيحة ! فانصرفوا عنه ، وخالفهم لوقته فزوّجها رجلاً من قومها وأدخلها إليه ، فما أمسى إلاّ وقد بنى بها . وبلغه الخبرُ فأيس منها حينئذ وزال عقلُه جملةً . فقال الحيُّ لأبيه : احججْ به إلى مكّةَ وادعُ اللهَ عزّ وجلّ له ، ومُرْه أن يتعلّق بأستار الكعبة فيسألَ الله أن يعافيَه ممّا به ويبغّضها إليه ، فلعلّ الله أن يخلّصَه من هذا البلاء . فحجّ به أبوه ، فلمّا صاروا بمنىً سمع صائحاً في الليل يصيح : يا ليلى . فصرخ صرْخةً ظنّوا أنّ نفسه قد تلفتْ ، وسقط مغشيّاً عليه ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، ثم أفاق حائلَ اللون ذاهلاً ، فأنشأ يقول :

عرضتُ على قلبي العزاءَ فقال لـي
من الآنَ فايأسْ لا أعزّك مِن صبرِ

اذا بان مَن تهوى وأصبح نائيـاً
فلا شيءَ أجدى من حلولكَ في القبر

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منىً
فهيّج أطرابَ الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنّما
أطار بليلى طائراً كان في صدري(1)

دعا باسم ليلى ضلّل اللهُ سعْيَه
وليلى بأرضٍ عنه نازحةٍ قفْرِ

(1) الأطراب ج طرب : خفة تعتري المرء عند الحزن والفرح .

ثم قال أبوه : تعلّقْ بأستار الكعبة واسأل الله أن يُعافيَك من حُبِّ ليلى . فتعلّق بأستار الكعبة وقال : اللّهمّ زِدْني لليلى حُبّاً وبها كَلَفاً ولا تُنسِني ذِكرَها أبداً . فهام حينئذ واختلَط [1] فلم يَضْبِط . قالوا : فكان يَهيم في البرّيّة مع الوَحش ولا يأكل إلاّ ما ينبُت في البرّيّة من بَقْل ولا يشرب إلاّ مع الظِّباء إذا وردت مَناهلَها ، وطال شعرُ جسده ورأسه ، وألِفَتْه الظباءُ والوحوش فكانت لا تنفِر منه . وجعل يَهيم حتى يبلغَ حدودَ الشأم ، فإذا ثاب اليه عقلُه سأل مَن يمرّ به من أحياء العرب عن نَجد . فيُقال له : وأين أنت من نجد ! قد شارفتَ الشأم ! أنت في موضع كذا . فيقول : فأروُني وجهة الطريق ، فيرحَمُونه ويَعرِضون عليه أن يحمِلوه أو يكسُوه فيأبى ، فيَدُلُّونه على طريق نجد فيتَوَجّه نحوَه .

عن عَوانة : أنّ أهل المجنون خرجوا به معهم إلى وادي القُرى قبل توحُّشِه ليَمْتاروا [2] ، خوفاً عليه من أن يضيع أو يهلِك . فمرّوا في طريقهم بجبلَي نَعْمانَ [3] . فقال له بعض فِتيان الحيّ : هذان جَبَلا نَعْمان ، وقد كانت ليلى تنزِلُ بهما . فقال : فأيُّ الرِّياح يأتي من ناحيتهما ؟ قالوا : الصَّبا ، قال : فوالله لا أريمُ [4] هذا الموضع حتى تَهبَّ الصَّبا . فأقام ومضَوا فامتاروا لأنفسهم ، ثم أتَوا عليه فأقاموا معه ثلاثةَ أيام حتى هبّت الصَّبا ، ثم انطلق معهم فأنشأ يقول :

أيا جَبَلَي نعمانَ بالله خَلّيـــا ... سبيل الصَّبا يَخْلُصْ إليّ نسيمُها
أجِدْ بَرْدَها أو تشفِ منّي حرارةً ... على كَبِدٍ لم يبقَ إلاّ صَميمُها

---

(١) اختلط : فسد عقله .
(٢) امتار : جلب الميرة أي الطعام .
(٣) جبلا نعمان : أراد نعمان الأراك وهو واد بين مكة والطائف ، أو هو واد لهذيل .
(٤) لا أريم : لا أفارق .

فإنّ الصّبا ريح إذا مـا تَنسمّتْ   على نفس محزونٍ تجلّتْ همومُها

عن جماعة من الرواة :

لمّا منع أبو ليلى المجنونَ وعشيرته من تزويجه بها كان لا يزال يغشى بيوتهم ويهجُم عليهم ، فشكَوه إلى السُّلطان ، فأهدر دمه لهم . فأخبروه بذلك فلم يَرُعْه وقال : الموتُ أروَح لي ، فليتهم قتلوني . فلمّا علموا بذلك وعرَفوا أنه لا يزال يطلب غِرّةً منهم حتى إذا تفرّقوا دخل دُورهم ، فارتحلوا عنها وأبعَدُوا . وجاء المجنون عشيّةً ، فأشرف على دُورهم فإذا هي منهم بَلاقعُ [1] ، فقصد منزل ليلى الذي كان بيتُها فيه ، فألصق صدرَه به وجعل يُمرّغ خدّيه على تُرابه ويبكي . ثم أنشأ يقول :

أيا حرَجاتِ الحيّ حيث تَحمّلُوا   بذي سَلَمٍ لاجادَكُنّ ربيعُ
وخيْماتكِ اللاتي بمُنْعرَجِ اللّوى   بَلِينَ بِلىً لم تَبْلَهُنّ رُبُوع
ندمتُ على ما كان منّي نَدامةً   كما يندَمُ المَغْبُون حين يبيعُ
فَقَدتُكِ من نفسٍ شَعاعٍ فإنّني   نَهيتُكِ عن هذا وأنتِ جميع
فقرّبتِ لي غيرَ القريب وأشرفتْ   إليكِ ثنايا ما لهنّ طُلوعُ [2]

عن أبي كَثير والعُتْبيّ :

كان المجنون وليلى وهما صبيّان يرعيان غنماً لأهلهما عند جبلٍ في بلادهما يقال له التَوْباد [3] ، فلمّا ذهب عقلُه وتوحّش كان يجيء إلى ذلك الجبل فيقيم به ، فإذا تذكّر أيّام كان يُطيف هو وليلى به جزِع جزَعاً

---

(١) بلاقع ج بلقع : خالية من أهلها .

(٢) الحرجات ج حرجة : الغيضة . ذوسلم : موضع بالحجاز . شعاع : متفرقة . أشرفت : ظهرت ولاحت . الثنايا ج ثنية : المرقى الصعب في الجبل ، أراد أن الوصول إلى ليلى أمر شاق لا سبيل إليه .

(٣) التوباد : جبل بنجد ، وضبطه ياقوت بالذال المعجمة .

شديداً واستوحش فهام على وجهه حتى يأتي نواحي الشأم . فإذا ثاب إليه عقلُه رأى بلداً لا يعرفُه فيقول للناس الذين يلقاهم : بأبي أنتم ، أين التَّوباد من أرض بني عامر ؟ فيقال له : وأين أنت من أرض بني عامر ! أنت بالشأم ، عليك بنجم كذا فأُمَّه . فيمضي على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن ، فيرى بلاداً يُنكرها وقوماً لا يعرفهم فيسألهم عن التَّوباد وأرض بني عامر ، فيقولون : وأين أنت من أرض بني عامر ! عليك بنجم كذا وكذا . فلا يزال كذلك حتى يقع على التَّوباد ، فإذا رآه قال في ذلك :

وأجهشتُ للتَّوباد حين رأيتُه ... وكَبَّر للرحمن حين رآني
وأذريت دمع العين لمّا عرفتُه ... ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له قد كان حولَك جيرةٌ ... وعهدي بذاك الصُّرم منذ زمان
فقال مضوا واستودعوني بلادهم ... ومن ذا الذي يبقى على الحَدَثان
وإنيّ لأبكي اليوم من حَذَري غداً ... فِراقَك والحيّان مجتمعان
سِجالاً وتَهتاناً ووَبْلاً وديمةً ... وسَحّاً وتَسجاماً إلى هَمَلان[1]

قال أبو نصر في أخباره :

لمّا زُوّجت ليلى بالرجل الثقفيّ سمع المجنون رجلاً من قومها يقول لآخر : أنت ممّن يُشيِّع ليلى ؟ قال : ومتى تخرُج ؟ قال : غداً ضحوةً أو الليلة . فبكى المجنون ثم قال :

كأنّ القلب ليلةَ قيل يُغدَى ... بليلى العامريّة أو يُراحُ
قطاةٌ عَزّها شَرَكٌ فباتت ... تُجاذبه وقد عَلِق الجناحُ[2]

---

(١) هتنت السماء : انصبت . الوبل : المطر الشديد . الديمة : المطرة الدائمة .

(٢) عزها : غلبها .

عن ابن الكلبيّ قال : لمّا قال مجنون بني عامر :

قضاها لغيري وابتلاني بحبّها فهلاّ بشيءٍ غير ليلى ابتلانيا

نُودي في الليل : أنت المتسخّط لقضاء الله المعترض في أحكامه ! واختُلس عقله فتوحّش منذ تلك الليلة وذهب مع الوحش على وجهه .

وهذه القصيدة التي قال فيها هذا البيت من أشهر أشعاره ... وفيها أيضاً عدة أبيات يُغنّى فيها ، فمن ذلك :

أَعُدُّ الليالي ليلةً بعد ليلة وقد عِشتُ دهراً لا أَعُدُّ اللياليا
أراني إذا صلّيتُ يمّمتُ نحوها بوجهي وإن كان المُصلّى ورائيا
وما بي إشراكٌ ولكنّ حبّها كعُود الشّجا أعيا الطبيب المُداويا
أُحبّ من الأسماء ما وافق اسمَها وأشبهه أو كان منه مُدانيا
وخبّرتماني أنّ تيماءَ منزلٌ لليلى إذا ما الصّيفُ ألقى المَراسيا
فهذي شُهور الصيف عنّي قد انقضت فما للنّوى ترمي بليلى المَراميا
فلو كان واشٍ باليمامة بيتُه وداري بأعلى حَضْرموت اهتدى ليا
وماذا لهم ، لا أحسنَ اللهُ حالَهم ، من الحظّ في تَصريم ليلى حِباليا
فأنت التي إن شئتِ أشقيتِ عيشتي وإن شئتِ بعد الله أنعمتِ باليا
وأنتِ التي ما من صديقٍ ولا عِداً يرى نِضْوَ ما أبقيتِ إلاّ رثى ليا
أمضروبةٌ ليلى على أن أزُورَها ومُتّخذٌ ذنباً لها أن تَرانيا
إذا سرت في الأرض الفضاء رأيتُني أصانع رَحْلي أن يميلَ حِياليا
يَميناً إذا كانت يميناً وإن تكن شمالاً ينازعْني الهوى عن شِماليا
هي السّحرُ إلاّ أنّ للسّحر رُقيةً وإنّي لا أُلفي لها الدهر راقيا (١)

---

(١) الشجا : ما اعترض في الحلق من عظم وغيره . النوى : البعد والتحول من مكان إلى =

طائفة من أخباره مع ليلى

عن أبي ثُمامةَ الجَعْديّ قال : حدّثني بعضُ العشيرة قال :

قلتُ لقيس بن الملوّح قبل أن يُخالِط : ما أعجبُ شيءٍ أصابك في وَجْدك بليلى ؟ قال : طَرَقَنا ذاتَ ليلة أضيافٌ ، ولم يكن عندنا لهم أدْمٌ ، فبعثني أبي إلى منزل أبي ليلى وقال لي : أطلُبْ لنا منه أدْماً . فأتيتُه فوقفت على خِبائه فصِحت به ، فقال : ما تشاء ؟ فقلت : ضيفانٌ ولا أدْمَ عندَنا لهم ، فأرسلني أبي نطلبُ منك أدماً . فقال : يا ليلى ، أخرجي إليه ذلك النِّحْيَ (١) ، فاملئي له إناءَه من السمن . فأخرجتْه ومعي قَعْبٌ (٢) ، فجعلتْ تصبّ السّمن فيه وتتحدّث ، فألْهانا الحديثُ وهي تصبّ السَّمن ، وقد امتلأ القَعب ، ولا نعلمُ جميعاً ، وهو يسيلُ حتّى استنقعتْ أرجلُنا في السمن . قال : فأتيتُهم ليلةً ثانيةً أطلب ناراً ، وأنا متَلفّعٌ ببُرْدٍ لي ، فأخرجتْ لي ناراً في عُطْبةٍ (٣) فأعطَتْنيها ووقفنا نتحدّث ، فلمّا احترقت العُقبةُ خرَقتُ من بُرْدي خِرقةً وجعلتُ النار فيها . فكلّما احترقت خرَقت أخرى وأذكيتُ بها النّار حتّى لم يبق عليّ من البُرد إلاّ ما وارَى عورتي ، وما أعقل ما أصنع .

بعض مشايخ بني عامر : أنّ المجنون مرّ في توحّشه فصادف حيَّ ليلى راحلاً ، ولَقيها فجأةً فعرفَها وعرفتْه فصَعِق وخرّ مَغشيّاً على وجهه . وأقبل فِتيانٌ من حيّ ليلى فأخذوه ومسحوا التُراب عن وجهه . وأسندوه

= آخر . التصريم : التقطيع . النضو : المهزول . الرحل : ما يوضع على ظهر الناقة والمراد به هنا البعير ، وفي روايات أخرى : أصانع رجلي أن تميل حياليا ، وهي رواية جيدة كذلك .

(١) النحي : زق يوضع فيه السمن .

(٢) القعب : القدح الضخم .

(٣) العطبة : خرقة تؤخذ بها النار .

إلى صُدورهم وسألوا ليلى أن تقفَ له وَقفةً ، فرَقَّت لِما رأتْه به وقالت : أمّا هذا فلا يجوز أن أفتضح به ، ولكن يا فُلانةُ — لأمَةٍ لها — اذهبي إلى قيس فقولي له : ليلى تقرأ عليك السلامَ وتقول لك : أَعْزِزْ عليَّ بما أنت فيه ، ولو وجدتُ سبيلاً إلى شفاء دائك لوقَيتك بنفسي منه . فمضت الوليدةُ إليه وأخبرتْه بقولها ، فأفاق وجلس وقال : أبلِغيها السلامَ وقُولي لها : هيهاتَ ، انّ دائي ودوائي أنتِ ، وانّ حياتي ووفاتي لفي يديك ، ولقد وَكَلْت بي شقاءً لازماً وبلاءً طويلاً . ثم بكى وأنشأ يقول :

أقول لأصحابي هي الشمسُ ضَوْءُها
قريبٌ ولكنْ في تَناوُلِها بُعْدُ
لقد عارضَتْنا الرِّيحُ منها بنَفحةٍ
على كَبِدي من طِيب أرواحها بَرْدُ
فما زلتُ مغشيّاً عليَّ وقد مضتْ
أناةٌ وما عندي جوابٌ ولا رَدّ
أُقلَّبُ بالأيدي وأهلي بعَوْلةٍ
يُفدُّونَني لو يستطيعون أن يَفدُوا
ولم يبقَ إلاّ الجلد والعظمُ عارياً
ولا عظمَ لي إن دام ما بي ولا جِلْدُ
أدُنياي ما لي في انقطاعي وغُربتي
إليكِ ثوابٌ منكِ دَيْنٌ ولا نَقْدُ
عِديني بنفسي أنتِ وعداً فربّما
جلا كُربةَ المكروب عن قلبه الوَعْد
وقد يُبتَلَى قومٌ ولا كبَلِيَّتي
ولا مثلَ جَدّي في الشّقاء بكم جَدُّ

غزَتْني جُنود الحُبّ من كلّ جانبٍ
إذا حان من جُندٍ قُفولٌ أتى جُنْدُ[1]

قال خالد بن حمل : حدّثني رجلٌ من بني عامر أن زوج ليلى وأباها خرجا في أمرٍ طرَق الحيَّ إلى مكة ، فأرسلت ليلى بأمَةٍ لها إلى المجنون فدعته ، فأقام عندها ليلةً ، فأخرجتْه في السَّحَر وقالتْ له : سِرْ إليَّ في كلّ ليلةٍ ما دامَ القومُ سَفْراً[2] ، فكان يختلف إليها حتى قدِموا . وقال فيها في آخر ليلةٍ لَقيها وودّعتْه :

تَمتّعْ بليلى إنّما أنت هامةٌ
من الهام يدنو كلَّ يوم حِمامُها

تمتّع إلى أن يرجِع الرّكبُ إنّهم
متى يرجِعوا يَحْرُمْ عليك كَلامُها[3]

عن القَحْذَميّ قال : قال رجلٌ من عشيرة المجنون له : إنّي أُريد الإلمامَ بحيّ ليلى فهل تُودِعني إليها شيئاً ؟ فقال : نعم ، قِفْ بحيث تَسمعك ثم قُل :

اللهُ يعلمُ أنّ النفسَ هالكةٌ ... باليأس منكِ ولكنّي أُعنّيها
مَنّيْتُكِ النفس حتى قد أضرَّ بها ... واستيقنَتْ خُلُفاً ممّا أُمنّيها
وساعةٌ منك ألهوها وإن قَصُرتْ ... أشهى إليّ من الدنيا وما فيها[4]

---

(١) الأناة : الانتظار ، ويحتمل أن تكون محرفة عن : أناء ، وهي الساعة من الليل . العولة : رفع الصوت بالبكاء . الجد : الحظ والنصيب . القفول : الرجوع .

(٢) السفر : المسافرون .

(٣) الهامة : طائر وكان العرب يزعمون أن أرواح الموتى أو عظامهم تصير هامة ولهذا يقولون : إنه هامة اليوم أو غد ، كما نشأت عندهم أسطورة الهامة فزعموا أن القتيل إذا لم يؤخذ بثأره صاحت الهامة على قبره حتى يؤخذ بثأره . الحمام : الموت .

(٤) أعنيها : أكلفها ما لا تطيق وما يشق عليها .

قال : فمضى الرجل ، ولم يزل يرقُب خَلوةً حتّى وجدها ، فوقف عليها ثم قال لها : يا ليلى لقد أحسن الذي يقول :

الله يعلم أنّ النفس هالكـــة   باليأس منك ولكنّي أعنّيها

وأنشد الأبيات ، فبكت بكاءً طويلاً ثم قالت : أبلِغْه السلام وقُل له :

نفسي فِداؤك لو نفسي ملكتُ إذاً
ما كان غيرُك يَجزيها ويُرضيهـــا
صَبراً على ما قضاه الله فيك على
مرارةٍ في اصطباري عنك أُخفيها

قال : فأبلغه الفتى البيتين وأخبره بحالها ، فبكى حتّى سقط على وجهه مغشيّاً عليه . ثم أفاق وهو يقول :

عجبتُ لعُروةَ العُذريّ أضحى   أحاديثـــاً لقومٍ بعد قومِ
وعُروةُ مات موتاً مُستَريحاً   وها أنا مَيّتٌ في كلّ يَوم

وفاتـــه

(عن جماعة من الرواة) :

أنّ عثمان بن عُمارة المُرّي أخبرهم أنّ شيخاً منهم من بني مُرّة حَدّثه أنه خرج إلى أرض بني عامر ليلقى المجنون ، قال : فدُلِلت على مَحلّته فأتيتُها، فإذا أبوه شيخٌ كبير وإخوةٌ له رجالٌ، وإذا نَعَمٌ كثير وخيرٌ ظاهر ، فسألتهم عنه فاستعبروا جميعاً ؛ وقال الشيخ : واللهِ لهو كان آثرَ في نفسي من هؤلاء وأحبّهم إليّ ! وإنّه هَوِي امرأةً من قومه ،

والله ما كانت تطمع في مثله ، فلمّا أن فشا أمرُه وأمرها كره أبوها أن يزوّجها منه بعد ظهور الخبر فزوّجها من غيره ، فذهب عقلُ ابني ولَحِقه خَبَلٌ وهام في الفيافي وَجْداً عليها ، فجبسناه وقَيَّدْناه ، فجعل يَعَضُّ لسانه وشَفَتَيه حتى خفنا عليه أن يقطعَها فخلّينا سبيلَه ، فهو يَهيم في هذه الفيافي مع الوحوش يُذهَب إليه كلَّ يومٍ بطعامه فيوضَعُ له حيث يراه ، فإذا تَنَحّوا عنه جاء فأكل منه . قال : فسألتُهم أن يَدُلّوني عليه ، فدلّوني على فتىً من الحيّ كان صديقاً له وقالوا : إنّه لا يأنَسُ إلاّ به ولا يأخذ أشعارَه عنه غيرُه . فأتيته فسألته أن يدلّني عليه ، فقال : إن كنت تريد شِعره فكلُّ شعرٍ قاله إلى أمس عندي ، وأنا ذاهبٌ إليه غداً ، فإن كان قال شيئاً أتيتُكَ به . فقلت : بل أُريد أن تدلّني عليه لآتيَه . فقال لي : إنّه إن نَفَر منك نفر منّي فيذهبُ شِعره . فأبيت إلاّ أن يدلّني عليه ، فقال : اطلُبْه في هذه الصحارى فإذا رأيتَه فادنُ منه مُستأنِساً ولا تُرِه أنّك تَهابُه ، فإنّه يتهدّدُك ويتوعّدُك أن يرميَك بشيء ، فلا يَرُوعَنّك واجلِس صارفاً بصرَك عنه والْحَظْه أحياناً ، فإذا رأيته قد سكَن من نِفاره فأنشِده شعراً غزَلاً ، وان كنت تَروي من شعر قيس بن ذَريح شيئاً فأنشِده إيّاه فإنّه مُعْجَبٌ به . فخرجتُ فطلبته يومي إلى العَصر فوجدته جالساً على رَملٍ قد خطّ فيه بإصبعه خطوطاً ، فدنوت منه غيرَ منقبِضٍ ، فنفَر منّي نفورَ الوحش من الإنس ، وإلى جانبه أحجارٌ فتناول حجراً ، فأعرضتُ عنه ، فمكث ساعةً كأنّه نافرٌ يريد القيام ، فلمّا طال جلوسي سكَن وأقبل يخطّ بأصبعه ، فأقبلت عليه وقلت : أحسَن واللهِ قيسُ بن ذَريح حيث يقول :

ألا يا غُراب البَين ويحَك نَبّنّي ... بعِلمك في لُبنَى وأنت خبيرُ
فإن أنت لم تُخبِر بشيءٍ علمتَه ... فلا طِرت إلاّ والجَناحُ كسيرُ
ودُرتَ بأعداءِ حبيبُك فيهمُ ... كما قد تراني بالحبيب أدُور

فأقبل علي وهو يبكـي فقال : أحسنَ واللهِ ، وأنا أحسَنُ منه قولاً حيث أقول :

كأنّ القلبَ ليلةَ قيل يُغدَى بليلى العامريّة أو يُـراحُ
قطاةٌ عزّها شركٌ فباتـت تُجاذبه وقـد علِق الجَناحُ

فأمسكت عنه هُنيهةً ، ثم أقبلتُ عليه فقلت : وأحسنَ والله قيس بن ذريح حيث يقول :

وإنّي لَمُفْنٍ دمعَ عينيَ بالبُكـا حِذاراً لما قد كان أو هو كائنُ
وقالوا غداً أو بعـد ذاك بليلةٍ فِراقُ حبيبٍ لم يبَينْ وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيّتي بكفّيكِ إلاّ أنّ من حان حائن(١)

قال : فبكى واللهِ حتى ظننتُ أنّ نفسه قد فاضت ، وقد رأيتُ دموعَه قد بلّت الرّملَ الذي بين يديه . ثم قال : أحسَنَ لَعَمْرُ الله ، وأنا والله أشعَرُ منه حيث أقول :

وأدنَيتِني حتى إذا ما سَبَيتِني
بقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سهلَ الأباطحِ
تناءيتِ عنّي حينَ لا لي حيلةٌ
وخلّفتِ ما خلّفت بين الجوانح (٢)

ثم سَنَحت له ظَبيةٌ فوثب يعدُو خلفَها حتى غاب عنّي ، وانصرفتُ . وعُدتُ من غدٍ فطلبتُه فلم أجِده ، وجاءت امرأةٌ كانت تصنع له طعامه إلى الطعام فوجدتْه بحاله . فلمّا كان في اليوم الثالث غدوتُ وجاء أهلُه

---

(١) حان : هلك .
(٢) العصم ج أعصم : الوعل في ذراعيه بياض .

معي فطلبناه يومنا فلم نجده ، وغدونا في اليوم الرابع نستقري أثَرَه حتى وجدناه في واد كثير الحجارة خَشِنٍ ، وهو ميّتٌ بين تلك الحجارة ، فاحتمله أهلُه فغسّلوه وكفّنوه ودفنوه .

قال الهيثم : فحدّثني جماعة من بني عامر أنّه لم تبقَ فتاةٌ من بني جَعْدةَ ولا بني الحَريش إلاّ خرجت حاسرةً صارخةً عليه تندُبه . واجتمع فِتيانُ الحيّ يبكُون عليه أحرَّ بكاء ، وينشِجون عليه أشدَّ نشيجٍ [1] ، وحضرَهم حيُّ ليلى مُعَزّين وأبوها معهم ، فكان أشدَّ القوم جزَعاً وبكاءً عليه ، وجعل يقول : ما علمنا أنّ الأمر يبلُغ كلَّ هذا ، ولكنّي كنت امرأً عربياً أخاف من العار وقُبْح الأحدُوثة ما يخافه مثلي ، فزوّجتُها وخرجتُ عن يدي ، ولو علمت أنّ أمره يجري على هذا ما أخرجتُها عن يده ولا احتملتُ ما كان عليّ في ذلك . قال : فما رُئِي يومٌ كان أكثرَ باكيةً وباكياً على ميّتٍ من يومئذٍ .

عن محمد بن حَبيبَ قال :

لمّا مات مجنونُ بني عامر وُجد في أرضٍ خَشِنة بين حجارةٍ سُودٍ . فحضر أهلُه وحضر معهم أبو ليلى — المرأة التي كان يهواها — وهو مُتذمّمٌ [2] من أهله ، فلمّا رآه ميّتاً بكى واسترجع وعلم أنه قد شَرِك في هلاكه . فبينما هم يُقلّبونه إذ وجدوا خِرقةً فيها مكتوبٌ :

ألا أيُّها الشيخ الذي ما بنا يَرضى
شقيتَ ولا أدركتَ من عَيشك الخَفْضا

---

(١) نشج الباكي : غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب .

(٢) متذمم : مستنكف ، منقبض .

شقيتَ كما أشقيتَني وتركتَني
أهيمُ مع الهُلاّك لا أطعمُ الغَمْضا

كأنّ فؤادي في مَخالب طائرٍ
إذا ذُكرتْ ليلى يشدُّ بها قَبْضا

كأنّ فِجاجَ الأرض حلْقةُ خاتمٍ
عليَّ فما تزداد طُولاً ولا عَرضا (١)

* * *

(١) روي الشطر الثاني من البيت الأول في المطبوعة : ولا هنيت من عيشك الغضا ، وقد اثبتنا رواية الديوان . الهلاك : الذين ينتابون الناس طلباً لمعروفهم ، والمنتجعون الذين ضلوا الطريق .

٤٤

كُثَيِّر عَزَّة

(الأغاني ج ٩ ص ١ وما بعدها ، و ج ١٢
ص ١١٣ و ج ١٢ ص ١٧٤)

الشاعر

هو أبو صَخر كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود ... بن خُزاعة ... ابن الأزد ... وكانت كنية الأشيم جدّه أبي أمّه أبا جُمُعة ، ولذلك قيل له ابن أبي جمعة .

وكان له ابنٌ يقال له ثَواب من أشعر أهل زمانه ، مات سنة إحدى وأربعين ومائة ، ولا وَلد له .

ومات كُثيّر سنة خمسٍ ومائة في ولاية يزيد بن عبد الملك ، وليس له اليوم ولدٌ إلاّ من بنته ليلى . ولليلى بنتُه ابنٌ يُكنَى أبا سَلمَة شاعرٌ ...

ويكنَى كُثيِّر أبا صَخر ، وهو من فحول شعراء الإسلام ، وجعله ابنُ سَلاّم في الطبقة الأولى منهم وقَرَن به جريراً والفرزدقَ والأخطل والرّاعي . وكان غالياً في التشيُّع يذهب مذهبَ الكيسانيّة (١) ، ويقول بالرَّجْعة (٢) والتّناسخ ، وكان مُحَبَمّقاً مشهوراً بذلك . وكان آلُ مروان يعلمون بمذهبه فلا يُغيِّرهم ذلك لجلالته في أعينهم ولُطف محلّه في أنفسهم وعندهم ، وكان من أتْيَه الناس وأذهبِهم بنفسه على كلّ أحدٍ .

سليمان بن فليح قال : سمعت محمد بن عبد العزيز (يعني ابن عمر بن عبد الرحمن بن عوف) يقول : ما قَصّد القَصيد ولا نعتَ الملوك مثل كثيِّر .

إبراهيم بن سعد قال : إنّي لأروي لكُثيِّر ثلاثين قصيدةً لو رُقي بها مجنونٌ لأفاق .

عن عبد الله بن أبي عُبيدة قال : من لم يجمع من شعر كثيِّر ثلاثين لاميّةً فلم يجمع شعره . قال الزبير : قال المؤمّلي : وكان ابن أبي عبيدة يُملي شعر كثيِّر بثلاثين ديناراً . قال : وسُئل عمّي مصعب : مَن أشعرُ الناس ؟ فقال : كثيّر بن أبي جُمُعة . وقال : هو أشعر من جرير والفرزدق والراعي وعامّتهم – يعني الشعراء – ، ولم يدرك أحدٌ في مديح الملوك ما أدرك كُثيِّرٌ .

محمد بن سَلاّم الجُمَحيّ قال : كان كثيِّر شاعر أهل الحِجاز ، وهو شاعرٌ فحل ، ولكنّه منقوص حظُّه بالعراق .

ابن سلاّم قال : سمعت يونُس النحويّ يقول : كثيِّر أشعر أهل

---

(١) الكيسانية : فرقة من الشيعة أتباع المختار الثقفي ، وكانت ترى أن الامامة في أولاد علي عامة ولهذا دعت إلى إمامة محمد بن الحنفية .

(٢) الرجعة : أي رجعة الإمام بعد غيبته ليملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جوراً .

الاسلام . قال ابن سلاّم : وسمعت ابن أبي حفصة يُعجبه مذهبه في المديح جداً ويقول : كان يستقصي المديح ، وكان فيه مع جودة شعره خَطَلٌ وعُجْبٌ .

عن النضر بن عمر قال : كان عبد الملك بن مروان يُخرج شعر كثيّر إلى مؤدّب ولده مختوماً يُروّيهم إيّاه ويردّه .

عن الوقّاصيّ قال : رأيت كثيّراً يطوف بالبيت ، فمن حدّثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذّبه . وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول : طأطِىءْ رأسك لا يُصِبْه السّقفُ .

عن المدائنيّ وعن ابن حبيب عن أبيه عن جدّه عن جدّ أبيه عبد العزيز ، وأمّه جُمعة بنت كثيّر ، قال :

قال جرير لكثيّر : أيُّ الرّجال أنت لولا دَمامتُك ! فقال كثيّر :

إن أكُ قَصْداً في الرّجال فإنّني إذا حلّ أمرٌ ساحتي لَطويلُ [1]

عن طلحة بن عبيد الله قال :

ما رأيت أحمق من كثيّر . دخلت عليه يوماً في نفرٍ من قريش ، وكنّا كثيراً ما نتهزّأ به ، وكان يتشيّع تشيّعاً قبيحاً . فقلت له : كيف تجدُك يا أبا صخر ؟ وهو مريض . فقال : أجِدني ذاهباً . فقلت : كلاّ . فقال : هل سمعتم الناس يقولون شيئاً ؟ فقلت : نعم ! يتحدّثون أنّك الدجّال . قال : أمّا لئن قلت ذاك إنّي لأجِد في عيني ضَعفاً منذ أيّام .

عن عبد العزيز بن عِمران : أنّ ناساً من أهل المدينة كانوا يلعبون بكُثيّر فيقولون ، وهو يسمع : إنّ كثيّراً لا يلتفت من تِيهِه . فكان

---

(١) القصد : الربعة من الرجال .

الرجل يأتيه من ورائه فيأخذُ رداءه فلا يلتفت من الكِبْر ويمضي في قميص .

عشقه عـَزّة وتغزّله بها

محمد بن الحسن قال :

أبو بَصْرة الغِفاريّ المحدِّث واسمه حُمَيل بن وَقّاص هو أبو عـَزّة التي كان ينسُب بها كُثيّر .

عبد العزيز الخُزاعيّ ، وأمّه جُمعة بنت كُثيّر ، عن أمّه جمعة عن أبيها كُثيّر : أن أوّل علاقته بعـَزّة أنه خرج من منزله يسوق جَلَب غنم إلى الجار [1] . فلمّا كان بالخَبْت [2] وقف على نِسوةٍ من بني ضَمْرة ، فسألهنّ عن الماء فقلن لعـَزّة — وهي جارية حين كعَب ثدياها — أرشِديه إلى الماء . فأرشدتْه ، فأعجبتْه . فبينا هو يسقي غنَمه إذ جاءتْه عـَزّةُ بدراهم ، فقالت : يقُلن لك النّسوة ، بِعنا بهذه الدّراهم كبشاً من ضأنك . فأمر الغُلامَ فدفع إليها كبشاً وقال : رُدّي الدراهم وقُولي لهنّ : إذا رُحت بكنّ اقتضيت حقّي . فلمّا راح مرّ بهنّ ، فقُلن له : هذا حقُّك فخُذه . فقال : عـَزّةُ غَريمي ، ولست اقتضي حقّي إلاّ منها . فمزحن معه وقلن : ويحَك ! عزّةُ جارية صغيرة وليس فيها وفاءٌ لحقّك فأحِلْه على إحدانا فإنّها أملأُ به منها وأسرعُ له أداءً . فقال : ما أنا بمُحيلٍ حقّي عنها . ومضى لوجهه . ثم رجع إليهنّ حين فرَغ من بيع

---

(١) الجار : موضع على ثلاث مراحل من المدينة .

(٢) الخبت : علم لصحراء بين مكة والمدينة .

جَلَبِه فأنشدهنّ فيها :

نظرتُ إليها نظرةً وهي عاتِـقٌ
على حين أن شَبّت وبان نُهُودها
وقد دَرَّعُوها وهي ذاتُ مُؤَصَّـدٍ
مَجُوبٍ ولمّا يلبَس الدِّرْعَ رِيدُها
من الخَفِرات البِيض وَدَّ جليسُها
إذا ما انقضت أحدُوثةٌ لو تُعيدُها[1]

وأنشدهنّ أيضاً :

قضى كلُّ ذي دَين فوفّى غريمَه وعَزةُ ممطولٌ مُعنّى غَريمُها

فقلن له : أبيت إلاّ عـزّة ! وأبرزنها إليه وهي كارهة . ثم أحبّته عزّة بعد ذلك أشدَّ من حبّه إيّاها .

عن قَسيمة بنت عِياض بن سعيد الأسْلَمِيّة ، وكُنيتها أمّ البنين ، قالت :

سارت علينا عَزّة في جماعة من قومها بين يدَي يربوع وجُهَينة ، فسمعنا بها ، فاجتمعت جماعة من نساء الحاضر أنا فيهنّ ، فجئناها فرأينا امرأةً حُلْوةً حُمَيراءَ [2] نظيفةً ، فتضاءلنا لها ، ومعها نِسوةٌ كلُّهن لها عليهنّ فضلٌ من الجمال والخَلْق ، إلى أن تحدّثتْ ساعةً فإذا هي أبرعُ الناس وأحلاهم حديثاً ، فما فارقناها إلاّ ولها علينا الفَضْلُ في أعيُننا ، وما نرى في الدُّنيا امرأةً تروقُها جمالاً وحُسناً وحلاوةً .

عن إبراهيم بن أبي عَمرو الجُهَنيّ عن أبيه قال :

سارت علينا عَزّة في جماعة من قومها ، فنزلتْ حِيالَنا ، فجاءني

---

(١) العاتق : الجارية أول ما أدركت . درعه : ألبسه الدرع ، وهو قميص المرأة . المؤصد والأصدة : قميص صغير تلبسه الصغيرة فإذا أدركت ألبست الدرع . جاب القميص : عمل له جيباً فهو مجوب . ريدها ، مخففة من رئدها : تربها ولدتها .

(٢) حميراء : أي بيضاء .

كُثَيِّر ذات يوم فقال لي : أُريد أن أكون عندك اليوم فأذهبَ إلى عزّة . فصرت به إلى منزلي ، فأقام عندي حتّى كان العِشاء ، ثم أرسلني اليها وأعطاني خاتَمه وقال : إذا سلّمتَ فستخرجُ إليك جارية ، فادفَع إليها خاتَمي وأعلِمها مكاني . فجئت بيتها فسلّمتُ فخرجَت إليّ الجارية فأعطيتها الخاتَم . فقالت : أين الموعد ؟ قلت : صَخَرات أبي عُبيد الليلة . فواعدتُها هناك ، فرجعتُ إليه فأعلمتُه . فلمّا أمسى قال لي : انهَض بنا . فنهضْنا ، فجلسنا هناك نتحدّث حتّى جاءت من الليل ، فجلستْ فتحدّثا فأطالا . فذهبت لأقوم فقال لي : إلى أين تذهب ؟ فقلت : أُخَلّيكما ساعةً لعلّكما تتحدّثان ببعض ما تكتُمان . فقال لي : اجلسْ ، فوالله ما كان بيننا شيءٌ قطُّ . فجلست وهما يتحدّثان وإنّ بينهما لثُمامةً [1] عظيمةً هي من ورائها جالسةً حتّى أسْحَرنا [2] ، ثم قامت فانصرفت ، وقمت أنا وهو ، فظلّ عندي حتّى أمسى ثم انطلق .

عن الهيثَم بن عَديّ :

أنّ عبد الملك سأل كثيّراً عن أعجب خبرٍ له مع عزّة ، فقال : حَجَجتُ سنةً من السنين وحجّ زوج عزّة بها ، ولم يعلم أحدٌ منّا بصاحبه . فلمّا كنّا ببعض الطّريق أمرها زوجها بابتياع سمنٍ تُصلح به طعاماً لأهل رُفقته . فجعلت تدُور الخيامَ خيمةً خيمةً حتّى دخلتْ إليّ وهي لا تعلم أنّها خيَمتي ؛ وكنت أبري أسهُماً لي ، فلمّا رأيتُها جعلت أبري وأنا أنظُر إليها ولا أعلم حتّى بَرَيت عظامي مرّات ولا أشعرُ به والدمُ يجري . فلمّا تبيّنتْ ذلك دخلتْ إليّ فأمسكتْ يدي وجعلتْ تمسحُ الدمَ عنها بثوبها . وكان عندي نِحْيٌ [3] من سَمن ، فحلفتُ لتأْخُذَنّه . فأخذتْه

(١) الثمام : نبت ضعيف لا يطول .
(٢) أسحر : صار في وقت السحر .
(٣) النحي : زق للسمن .

وجاءت إلى زوجها بالسَّمن . فلمّا رأى الدمَ سألها عن خبره ، فكاتمته ، حتّى حلف لَتَصْدُقَنَّه . فصدقَتْه ، فضربها وحلَف لَتَشتُمنّي في وجهي . فوقفتْ عليّ ، وهو معها . فقالت لي : يا بنَ الزّانية . وهي تبكي ، ثم انصرفا . فذلك حين أقول :

يُكلّفُها الخِنزيرُ شتمي وما بها هَواني ولكن للمَليك استذلّتِ

. . . .

خليليَّ هذا رسمُ عَزّةَ فاعقِلا
قَلُوصَيكما ثم ابكيا حيث حلّتِ
وما كنت أدري قبل عزّة ما البُكا
ولا مُوجعات القلب حتّى تولّتِ
فليت قَلُوصي عند عزّة قُيّدت
بحبلٍ ضعيفٍ بانَ منها فضَلَّت
وأصبح في القوم المُقيمين رَحلُها
وكان لها باغٍ سِوايَ فبلّتِ
فقُلت لها يا عزُّ كلُّ مُصيبة
إذا وُطِّنت يوماً لها النّفسُ ذَلّت
أسيئي بنا أو أحسِني لا مَلُومةٌ
لَدينا ولا مَقْليّةٌ إن تَقلَّتِ
هنيئاً مَريئاً غيرَ داءٍ مُخامِرٍ
لِعزّةَ من أعراضنا ما استحلّت
تَمنّيتُها حتى إذا ما رأيتُها
رأيت المنايا شُرَّعاً قد أظلّت

كأنّي أُنادي صخرةً حين أعرضتْ
من الصُمّ لو تمشي بها العُصْمُ زَلّتِ
صَفُوحاً فما تلقاك إلاّ بخيلـةً
فمَن مَلَّ منها ذلك الوصل مَلّـت
أصاب الرَّدى مَن كان يهوَى لكِ الرَّدَى
وجُنَّ اللواتي قُلن عزّةُ جُنَّتِ [1]

ابن سلاّم قال :

كان كثيّر مدّعياً ولم يكن عاشقاً ، وكان جميلٌ صادقَ الصَّبابة والعشق .

تغزّله بأمّ الحُوَيرث

إبراهيم بن المهديّ قال :

قدِم عليَّ هشامُ بن محمّد الكلبيّ فسألتُه عن العُشّاق يوماً فحدّثني قال : تعشّق كُثيِّرٌ امرأةً من خزُاعة يقال لها أمُّ الحُوَيرثِ . فنسَبَ بها ، وكرِهتْ أن يُسَمَّع بها ويفضَحَها كما سَمّع بعزّة فقالت له : إنّك رجلٌ فقير لا مالَ لك ، فابْتَغِ مالاً يُعَفّي عليك [2] ثم تعالَ فاخطُبْني كما يَخطُب الكرام . قال : فاحلِفي لي ووَثّقي أنّك لا تتزوّجين حتى أقدَمَ عليك . فحلفت ووثّقتْ له . فمدح عبدَ الرحمن بن الأبرش الأزديَّ ، فخرج إليه ، فلَقيته ظِباءٌ سَوانحُ [3] ولقِي غُراباً

---

(١) عقل الدابة : ربطها . بلت الناقة : ذهبت في الأرض ضالة . مقلية : مبغضة ، والقلى : البغض . العصم ج أعصم : الوعل . الصفوح : المعرضة الهاجرة .

(٢) يعفي عليك : يصلحك ويبدل مظهرك .

(٣) سنح الظبي : ولاك ميامنة وبرح : ولاك مياسرة ، وكانت العرب تتفاءل إذا سنح الظبي=

يفحَصُ التُرابَ بوجهه ، فتطيّر من ذلك حتّى قدِم على حيٍّ من لِهْبٍ [1] فقال : أيُّكم يَزْجُرُ ؟ فقالوا : كلّنا ، فمن تريد ؟ قال : أعلَمكم بذاك . قالوا : ذاك الشيخ المنحني الصُّلب . فأتاه ، فقصّ عليه القصّة فكره ذلك له وقال له : قد تُوفّيت أو تزوّجت رجلاً من بني عمّها فأنشأ يقول :

تيمَّمتُ لِهْباً أبتغي العلمَ عندَهم
وقد رُدّ عِلم العائفين إلى لِهب

تيمّمت شيخاً منهم ذا بَجالةٍ
بصيراً بزَجر الطّير مُنحيَ الصُّلْب

فقلت له ماذا ترى في سَوانحٍ
وصوتِ غُرابٍ يفحَصُ الوجهَ بالتُربِ

فقال جرى الطيرُ السَّنيحُ بِبَينِها
وقال غُرابٌ جَدّ مُنهَمِرُ السَّكبِ

فإلاّ تكُنْ ماتت فقد حال دونَها
سواك خليلٌ باطنٌ من بني كَعب

قال : فمدح الرجلَ الأزديّ ثم أتاه فأصاب منه خيراً كثيراً ، ثم قدِم عليها فوجدها قد تزوّجت رجلاً من بني كعب ، فأخذه الهُلاسُ [2] فكُشح [3] جنباه بالنار ، فلمّا اندمل من عِلّته وضع يده على ظهره فإذا هو برَقْمَتَين ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إنّه أخذك الهُلاس وزعم

= ومن كلامهم : من لي بالسانح بعد البارح ، أي بالمبارك بعد المشؤوم ، ولكن السياق يدل على أن الظباء السوانح هنا نذير بالشر والفراق .

(١) لهب : قبيلة يمانية اشتهرت بزجر الطير والعيافة ، والزجر : التكهن بما سيحدث إما بواسطة الطير أو بغير ذلك ومثله العيافة .

(٢) الهلاس : داء يصيب الجسم بالهزال وهو مرض السل أيضاً . الكشح : الكي .

الأطبّاء انّه لا عِلاج لك إلاّ الكَشح بالنار فكُشحتَ بالنار . فأنشأ يقول :

عفا اللهُ عن أمّ الحُويرث ذنبَهـا　　　عَلامَ تُعنّيني وَتكْمي دَوائيا
فلو آذَنُوني قبل أن يرقُموا بهــا　　　لقلتُ لهم أمُّ الحُويرث دائيا [1]

عن محمد بن سليمان بن فُلَيح ... عن أبيه عن جدّه قال :

جاء كثيّر إلى عبد الله بن جعفر وقد نَحِل وتغيّر ، فقال له عبد الله : ما لي أراك متغيّراً يا أبا صَخر ؟ قال : هذا ما عملتْ بي أمُّ الحُوَيرث ! ثم ألقى قميصه فإذا به قد صار مثل القَشّ ، وإذا به آثار كَيٍّ . ثم أنشده :

« عفا الله عن أمّ الحويرث ذنبَها »

الأبيات .

تشيّعه

عمرو ومحمّد بن الضحّاك قالا :

كان كُثيّر يتشيّع تشيّعاً قبيحاً : يزعُم أن محمّد بن الحنفيّة لم يَمُتْ . قال : وكان ذلك رأيَ السيّد [2] ... وقال كثيّر في ذلك :

ألا إنّ الأئمّـةَ من قريـشٍ　　　وُلاةَ الحقّ أربعةٌ سَـواءُ
عــليٌّ والثلاثةُ مــن بَنيــه　　　همُ الأسباطُ ليس بهم خَفاءُ
فسِبطٌ سِبط إيمانٍ وبِــرٍّ　　　وسِبطٌ غَيَّبتْــه كَربــلاءُ
وسِبطٌ لا تراه العــين حــتّى　　　يقودَ الخيلَ يقدُمها اللّواءُ

---

(١) تكمي : تستر .
(٢) هو السيد الحميري ، شاعر الشيعة في العصر العباسي .

تَغيّب لا يُرى فيهم زمانــاً   برَضْوى عنده عسَلٌ وماءُ (١)

عن أبي بكر الهُذليّ قال :

كان عبد الله بن الزُبير قد أغري ببني هاشم يتّبعهم بكل مكروه ويغري بهم ويخطُب بهم على المنابر ويُصرّح ويُعرّض بذكرهم . فربّما عارضه ابن عبّاس وغيرُه منهم . ثم بدا له فيهم فحبس ابن الحنفيّة في سجن عارِم ، ثم جمعه وسائر من كان بحضرته من بني هاشم فجعلهم في مَحبِس وملأه حطباً وأضرم فيه النار . وقد كان بلغه أن أبا عبد الله الجَدَلي (٢) وسائر شيعة ابن الحنفيّة قد وافَوا لنُصرته ومحاربة ابن الزبير . فكان ذلك سبب إيقاعه به . وبلغ أبا عبد الله الخبرُ فوافى ساعةَ أُضرمت النار عليهم فأطفأها واستنقذهم ، وأخرج ابن الحنفية عن جِوار ابن الزُبير منذ يومئذ . فأنشدنا محمد بن العبّاس اليزيديّ قال أنشدَنا محمد بن حبيبَ لكُثيّر يذكر ابن الحنفيّة وقد حبسه ابن الزبير في سجن يقال له سجن عارِم :

مَن يرَ هذا الشيخَ بالخَيف من مِنىً   مِن النّاس يعلمْ أنّه غيرُ ظالمِ
سَميّ النبيّ المصطفى وابنُ عمّه   وفكّاكُ أغلالٍ ونفّاعُ غـارم
أبى فهو لا يَشري الضَّلالةَ بالهُدى   ولا يتّقي في الله لومةَ لائـم
ونحن بحمد الله نَتلُو كتابَه   حُلولاً بهذا الخَيف خيفِ المَحارِم
بحيث الحَمامُ آمِنُ الرّوع ساكنٌ   وحيث العَدوُّ كالصّديق المُسالم
فما فرحُ الدنيا بباقٍ لأهله   ولا شِدّةُ البَلْوى بضَربةِ لازم

(١) السبط : ولد البنت . والأول هنا المراد به الحسن بن علي والثاني الحسين والثالث محمد بن الحنفية ، وكان الكيسانية يقولون برجعة ابن الحنفية .

(٢) كان المختار الثقفي قد أرسل أبا عبد الله الجدلي لنجدة محمد بن الحنفية وشيعته .

تُخبِّرُ مَن لاقيتَ أنّك عائذٌ بل العائذُ المظلوم في سجن عارِمِ (١)

عن عُقبةَ الجُهنيّ عن أبيه قال :

سمعت كثيّراً يُنشد عليّ بن عبد الله بن جعفر قوله في محمد بن الحنفيّة :

أقرّ الله عيني إذ دَعاني أمينُ الله يَلْطُفُ في السؤالِ
وأثنى في هوايَ عليَّ خيراً وساءلَ عن بَنيّ وكيف حالي
وكيف ذكرتُ حال أبي خُبَيب وزَلّة فِعله عند السؤال
هو المَهْديُّ خبَّرناه كعبٌ أخو الأحبار في الحِقَب الخوالي (٢)

فقال له علي بن عبد الله : يا أبا صخر ، ما يُثني عليك في هواك خيراً إلاّ من كان على مثل مذهبك . قال : أجل ، بأبي أنت وأمّي . وكان كُثيّر كَيسانياً يرى الرَّجْعة . قال الزبير : أبو خُبيب عبد الله بن الزبير ، كنّاه بابنه خبيب ، وهو أكبر ولده ، وكان كثيّرٌ سيّيء الرأي فيه . قال الزبير : فأخبرني عمّي قال : لما قال كثيّر :

هو المهديّ خبّرناه كعب أخو الأحبار في الحقب الخوالي

فقيل له : ألَقيت كعباً ؟ قال : لا . قيل : فلمَ قلت : « خبّرناه كعب » ؟ قال : بالتوهّم .

قال : وكان كثيّر شيعيّاً غالياً يزعم أن الأرواح تتناسخ ، ويحتجّ بقول الله تعالى : « في أيّ صورةٍ ما شاء ركّبك » ويقول : ألا ترى أنه

(١) الخيف : ناحية من منى ، وهو في الأصل كل هبوط وارتقاء في الجبل . عائذ : كان عبد الله ابن الزبير قد لزم البيت وعاذ به وسمى نفسه العائذ .

(٢) أبو خبيب : كنية عبد الله بن الزبير . كعب الأحبار الحميري : كان يهودياً ، ثم أسلم ، أثرت عنه مرويات وأحاديث وكثير ينسب إليه قوله إن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر .

حوّله من صورة إلى صورة .

عن عبد الله بن أبي عُبيدة قال : خِندِفٌ الأسديّ الذي أدخل كثيّراً في الخَشَبيّة [1] .

عن ابن الماجِشون قال : كان أبو هاشم عبد الله بن محمد بن عليّ قد وضع الأرصاد على كُثيّر فلا يزال يُؤتى بالخبر من خبَره ، فيقول إذا لقيه : كنتَ في كذا وكنت في كذا . إلى أن جرى بين كثيّر وبين رجلٍ كلامٌ فأُتي [2] به أبو هاشم ، فأقبل على أدراجه [3] . فقال له أبو هاشم : كنتَ الساعة مع فلانٍ فقلت له كذا وكذا وقال لك كذا وكذا . فقال له كثيّر : أشهد أنك رسول الله .

إبراهيم بن داجَةَ قال :

كان كثيّر شيعيّاً ، وكان يأتي ولدَ حسن بن حسن إذا أخذ عطاءه ، فيهب لهم الدراهم ويقول : وا بأبي الأنبياء الصّغار ! وكان يؤمن بالرّجعة ، فيقول له محمد بن عبد الله بن عَمرو بن عثمان — وهو أخوهم لأُمّهم — : يا عمٌّ ، هَبْ لي . فيقول : لا ، لستَ من الشجرة .

عن إبراهيم بن يعقوب بن أبي عُبيدِ الله قال :

قال عمر بن عبد العزيز : إنّي لأعرف صُلاّحَ بني هاشم من فُسّادهم بحُبّ كُثيّر : من أحبّه منهم فهو فاسد ، ومن أبغضه فهو صالحٌ ، لأنّه كان خشبيّاً يؤمن بالرّجعة .

عن ابن دَأْبٍ قال :

كان كثيّرٌ يدخل على عمّة له بَرْزة [4] ، فتُكرمه وتطرح له وسادةً

(1) الخشبية : هم أصحاب المختار بن عبيد الثقفي .
(2) أتي به : الضمير هنا يعود على الكلام على كثير .
(3) على أدراجه : على أثره .
(4) امرأة برزة : تبرز للرجال وتحادثهم .

يجلس عليها . فقال لها يوماً : لا والله ما تعرفيني ولا تُكرميني حقّ كرامتي ! قالت : بلى والله إنّي لأعرفُك . قال : فمَن أنا ؟ قالت : ابن فلان وابن فلانة . وجعلت تمدح أباه وأمّه . فقال : قد عرفتُ أنك لا تعرفيني . قالت : فمن أنت ؟ قال : أنا يونُس بن متّى .

عبد الله بن مُسلم بن قُتيبةَ قال :

بلغني أنّ كثيّراً دخل على عبد الملك بن مروان ، فسأله عن شيء فأخبره به . فقال : وحقّ عليّ بن أبي طالب إنّه كما ذكرتَ ؟ قال كثيّر : يا أمير المؤمنين ، لو سألتَني بحقّك لصدقتُك . قال : لا أسألك إلاّ بحقّ أبي تُراب [1] . فحلف له به فرضيَ .

أخبار له متفرّقة

* عمر بن شَبّة قال :

قال كثيّر : في أي شعر أعطى هؤلاء الأحوصَ عشرة آلاف دينار ؟ قالوا : في قوله فيهم :

وما كان مالي طارفاً من تجارةٍ وما كان ميراثاً من المال مُتْلَدا
ولكن عطايا من إمامٍ مُباركٍ مَلاَ الأرضَ مَعروفاً وجُوداً وسُودَدا [2]

فقال كثيّر : انّه لَضَرِعٌ قبحه الله ! ألا قال كما قلتُ :

دَعْ عنكَ سَلمى إذ فاقَ مَطلبُها واذكُرْ خليلَيك من بني الحَكَمِ
ما أعطياني ولا سألتُهما ألا وإنّي لَحاجِزي كَرَمي

---

(١) أبو تراب : لقب علي بن أبي طالب ، لقبه به الرسول عليه السلام حين وجده في المسجد وقد غطاه التراب .

(٢) الطارف والطريف . المال المكتسب والمتلد والتليد : المال الموروث .

إنّي متى لا يكن نوالُهما عندي بما قد فعلتُ أحتشمِ
مُبدي الرّضا عنهما ومنصرفٌ عن بعض ما لو فعلتُ لم ألَمِ
لا أنزُر النائلَ الخليل اذا ما اعتلّ نَزْرَ الظّؤور لم ترَمِ (١)

* عبد الله بن أبي عبيدة قال :

كان الحزين الكِنانيّ قد ضرب على كل رجلٍ من قريش درهمين في كل شهر ، منهم ابن أبي عتيق . فجاءه لأخذ درهميه على حمارٍ له أعجف — قال : وكثيّر مع إبن أبي عتيق — . فدعا ابن أبي عتيق للحزين بدرهمين . فقال الحزين لابن أبي عتيق : مَن هذا معك ؟ قال : هذا أبو صخر كُثيّر بن أبي جُمعة — قال : وكان قصيراً دميماً — فقال له الحزين : أتأذن لي أن أهجوه ببيت من شعر ؟ قال : لا ! لعمري لا آذنُ لك أن تهجو جليسي ولكن أشتري عرضه منك بدرهمين آخرين . ودعا له بهما . فأخذهما ثم قال : لا بُدّ من هجائه ببيت . قال : أو أشتري ذلك منك بدرهمين آخرين . ودعا له بهما . فأخذهما ثم قال : ما أنا بتاركِه حتى أهجوَه . قال : أو أشتري ذلك منك بدرهمين . فقال له كثيّر : إيذَنْ له ، ما عسى أن يقول في بيت ؟ فأذِن له ابن أبي عتيق ، فقال :

قصير القميص ، فاحشٌ عند بيته يعَضّ القُراد باستِه وهو قائمُ

قال : فوثب كثيّر إليه فلكزه ، فسقط هو والحمار ، وخلّص ابنُ أبي عتيق بينهما ، وقال لكثيّر : قَبحك الله ! أتأذَنُ له وتَسفَهُ عليه !

---

(١) لا أنزر النائل الخليل : أي لا ألح عليه بالمسألة يقال : نزرته أنزره إذا ألححت عليه . نزر : في موضع المفعول المطلق لفعل أنزر السابق ، أي لا ألح إلحاح الظؤور . الظؤور : المتعطفة على غير أولادها . لم ترم : لم تعطف وأصلها لم ترأم ، حذفت الهمزة للضرورة .

فقال كثيّر : أوَ أنا ظننتُه أن يبلغ بي هذا كلّه في بيت واحد !

• (عن عمرٍ بن شبّة وغيره) :

أنّ عبد الملك بن مروان قال له : ويحَك ! الحَقْ بقومك من خزُاعة . فأخبَر أنه من كنانة قريش . وأنشد كثيّرٌ قولَه :

أليس أبي بالصَّلْت أم ليس إخوتي بكلّ هِجانٍ بن بني النَّضْر أزهرا
فإن لم تكونوا من بني النضر فاتركُوا أراكاً بأذيَالِ الحمائل أخضرا
أبيَتُ التي قد سُمتَنِي وَنَكِرتُها ولو سُمتَها قبلي قَبيصة أنكرا
لبسنا ثيابَ العَصْب فاختلط السَّدَى بنا وبهم والحَضرميَّ المُخَصَّرا (١)

فقال له عبد الملك : لا بُدّ أن تنشد هذا الشعر على مِنبري الكوفة والبَصرة . وحمَله وكتب إلى العراق في أمره . قال عمر بن شبّة في خبره خاصة : فأجابته خزُاعة الحجاز إلى ذلك وقال فيه الأحوص — ويقال : بل قاله سُراقة البارقيّ — :

لَعَمري لقد جاء العراق كثيّــرٌ بأحدوثةٍ من وَحيه المتكذّبِ
أيزعُم أنّي من كِنانَة أوّلــي ومالِيَ من أمٍّ هناك ولا أبِ
فإن كنتَ حرُّاً أو تخاف مَعــرّةً فخُذْ ما أخذتَ من أميرك واذهبِ (٢)

فقال كثيّر يجيبه — وفي خبر الزبير : قال هذا لأبي علقمة الخزُاعيّ — :

(١) النضر : هو النضر بن كنانة بن خزيمة وكان للنضر ولد يقال له الصلت ، للشطر الثاني من البيت الثاني روايتان في المطبوعة وقدرجحنا ما أثبتناه.قبيصة : هو قبيصة بن ذؤيب الخزاعي توفي سنة ٨٦ هـ . العصب : برود يمنية يعصب غزلها . الحضرمي : النعال المخصرة . يريد أنهم يساكنونهم ويشبهونهم في قاماتهم وملبسهم .

(٢) هذه الأبيات لسراقة وليست للأحوص ، لأن الأحوص أنصاري وسراقة من بارق ، وهو بطن من خزاعة .

أيا خُبَثٌ أكرِمْ كنانــةَ إنّهــم مَواليك إن أمرٌ سما بك معلقُ
بنو النَّضْر تَرمي من ورائك بالحصى أولُو حَسَبٍ فيهم وفاءٌ ومَصْدَقُ
يُفيدونك المالَ الكثير ولم تجِــدْ لِمُلكهم شِبْهاً لو انك تَصدُقُ
إذا ركبوا ثارت عليك عَجاجــةٌ وفي الأرض من وقع الأسنّة أولَقُ[(١)]

...

قال : فخرج كثيّر فأتى الكوفة ، فرُمي به إلى مسجد بارق ، فقالوا له : أنت من أهل الحجاز ؟ قال : نعم . قالوا : فأخبِرْنا عن رجل شاعرٍ ولدِ زِناً يُدعَى كثيّراً . قال : سبحان الله ! أما تسمعون أيها المشايخ ما يقول الفتيان ! قالوا : هو ما قاله لنفسه . فانسلّ منهم وجاء إلى والي الكوفة حسّان بن كَيسان ، فطيّره على البريد . وقال عمر بن شبّة في خبره : إنّ سُراقة البارقي هو المخاطِب له بهذه الشتيمة وإنه عرفه وقال له : ان قلت هذا على المنبر قتلتْك قحطانُ وأنا أوّلهم . فانصرف إلى منزله ولم يَعُد إلى عبد الملك .

• حَفصٌ الأمويُّ قال :

كنت اختلفُ إلى كثيّر أتروّى شعره . قال : فوالله إنّي لَعندَه يوماً إذ وقف عليه واقفٌ فقال : قُتل آلُ المهلّب بالعَقْر[(٢)] . فقال : ما أجلَّ الخَطْبَ ! ضحّى آلُ أبي سُفيانَ بالدِّين يومَ الطَفّ[(٣)] ، وضحّى بنو مروان بالكَرَم يومَ العَقْر . ثم انتضحت عيناه باكياً . فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك فدعا به ، فلمّا دخل عليه قال : عليك لعنةُ الله ، أتُرابيّة[(٤)] وعصبيّة ! وجعل يضحك منه .

---

(١) الأولق : الجنون .
(٢) العقر : موضع قرب كربلاء قتل عنده يزيد بن المهلب سنة ١٠٢ هـ .
(٣) يوم الطف : أي يوم كربلاء .
(٤) ترابية : نسبة إلى أبي تراب ، لقب علي بن أبي طالب .

وفاتـــه

عبد الرحمن بن عبد الله الزُّهريّ قال :

بكى بعض أهل كثيّر عليه حين نزل به الموت ، فقال له كثيّر : لا تبكِ ، فكأنك بي بعد أربعين ليلةً تسمع خَشْفَةَ نعلي من تلك الشُّعبة راجعاً إليكم .

عن جُويرية بن أسماءَ قال :

مات كثيّرٌ وعِكرمةُ مولى ابن عبّاس في يوم واحد ، فاجتمعت قريش في جنازة كثيّر ولم يوجَد لِعكرمةَ من يَحملُه .

خالد بن القاسم البَياضيّ قال :

مات عكرمة مولى ابن عبّاس وكثيّر بن عبد الرحمن الخُزاعيّ صاحبُ عَزّة في يوم واحد في سنة خمس ومائة ، فرأيتهما جميعاً صُلّي عليهما في يوم واحد بعد الظهر في موضع الجنائز ، فقال الناس : مات اليومَ أفقهُ الناس وأشعرُ الناس .

• • •

٤٥ - ٤٦

ليلى الأخيلية
و
توبة بن الحمير

(الأغاني ج : ١١ ص ٢٠٤ وما بعدها)

الشاعران

هي ليلى بنت عبد الله بن الرّحّال ... بن عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وهي من النساء المقدّمات في الشعر من شعراء الإسلام . وكان تَوْبة بن الحُمَيِّر يهواها ، وهو توبة بن الحُمَيِّر بن حزم بن كعب ابن خَفَاجة بن عمرو بن عُقَيل .

قال أبو عبيدة : كان توبة شِرّيراً كثير الغارة على بني الحارث بن كعب وخَثْعَم وهَمْدان ، فكان يزور نساءً منهنّ يتحدّث إليهنّ ، وقال :

أيذهب رَيْعانُ الشَّباب ولـم أَزُرْ غرائرَ من هَمْدانَ بِيضاً نُحورُها

قال أبو عبيدة : وكان توبةُ ربّما ارتفع إلى بلاد مَهْرة فيُغير عليهم ، وبين بلاد مَهْرة وبلاد عُقَيل مَفازةٌ مُنكَرَةَ لا يقطعها الطَّيرُ ، وكان يحمل مَزاد الماء فيدفِن منه على مَسِيرة كلِّ يوم مَزادةً ، ثم يُغير عليهم فيطلبونه فيركب بهم المَفازة ، وانّما كان يتعمّد حَمارّة القَيظ [1] وشِدّة الحرّ ، فإذا ركب المَفازة رجَعوا عنه .

حبّ توبة ليلى الأخيلية وأخبارهما

عن أبي عبيدة قال : حدّثني أُنَيْس بن عمرو العامريّ قال :

كان توبةُ بن الحُميِّر أحد بني الأسَديّة ، وهي عامرة بنت والبة ابن الحارث ، وكان يتعشّق ليلى بنت عبد الله بن الرحّالة ويقول فيها الشعر ؛ فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوّجَه إيّاها وزوّجها في بني الأدْلَع . فجاء يوماً كما كان يجيء لزيارتها فإذا هي سافرةٌ ، ولم ير منها اليه بشاشةً ، فعلم أنّ ذلك لأمرٍ ما كان ، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى . وبلغ بني الأدلعِ أنّه أتاها فتبعوه ففاتهم فقال توبة في ذلك :

نأتْك بليلى دارُهـا لا تزورُهـا وشَطّت نَواها واستمرّ مَريرُها [2]

وهي طويلة ، يقول فيها :

وكنتُ اذا ما جئتُ ليلى تَبرقعتْ فقد رابني منها الغَداةَ سُفورُهـا

عمر بن شَبّةَ قال :

كان توبة بن الحميّر إذا أتى ليلى الأخيليّة خرجت إليه في بُرقُع .

---

(١) حمارة القيظ : شدة الحر .

(٢) استمر : استحكم وقوي . المرير ، في الأصل : الحبل المفتول ، وهنا : العزيمة والشكيمة .

فلمّا شُهر أمرُه شكَوه إلى السلطان ، فأباحهم دمَه إن أتاهم . فمكثوا له في الموضع الذي كان يلقاها فيه ، فلمّا علمت به خرجت سافرةً حتى جلست في طريقه . فلمّا رآها سافرةً فَطِن لما أرادت وعلم أنه قد رُصِد . وأنّها سفَرت لذلك تُحذّره ، فركَض فرسَه فنجا . وذلك قوله :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغَداةَ سفورُها

قال أبو عبيدة : وحدّثني غيرُ أُنيس أنه كان يكثر زيارتها ، فعاتبه أخوها وقومها فلم يُعتِبْ [1] ، وشكَوه إلى قومه فلم يُقلِعْ ، فتظلّموا منه إلى السلطان فأهدر دمه إن أتاهم . وعلمت ليلى بذلك ، وجاءها زوجُها، وكان غيُوراً ، فحلَف لئن لم تُعلِمْه بمجيئه لَيقتلنّها، ولئن أنذرتْه بذلك ليقتلنّها . قالت ليلى : وكنت أعرف الوجه الذي يجيئني منه ، فرصَدُوه بموضع ورصَدتُه بآخَر ، فلمّا أقبل لم أقدِرْ على كلامه لليمين ، فسفرتُ وألقيت البُرقُع عن رأسي ، فلمّا رأى ذلك أنكره فركب راحلته ومضى ففاتهم .

أيّوب بن عمرو عن رجلٍ يقال له وَرقاء قال :

سمعتُ الحجّاج يقول لليلى الأخيليّة : انّ شبابك قد ذهب ، واضمحل أمرُك وأمرُ توبة . فأقسِم عليك ألاّ صَدَقْتِني : هل كان بينكما ريبةٌ قطُّ أو خاطبك في ذلك قطُّ ؟ فقالت : لا واللهِ أيّها الأميرُ ، إلاّ أنّه قال لي ليلةً ، وقد خَلَونا ، كلمةً ظننتُ أنه قد خضع فيها لبعض الأمر ، فقلت له :

وذي حاجة قلنا له لا تَبُحْ بها فليس اليها ما حَيِيتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَه وأنتَ لأُخرى فارغٌ وحَليلُ

---

(١) أعتب الرجل : أرضاه .

فلا والله ما سمعت منه ريبةً بعدَها حتّى فرّق بيننا الموت ...

عن ابن قُتيبة قال : بلغني أنّ ليلى الأخيليّة دخلت على عبد الملك ابن مروان وقد أسنّت وعَجزت ، فقال لها : ما رأى توبةُ فيكِ حين هَوِيَك ؟ قالت : ما رآه الناس فيك حين ولّوك . فضحك عبد الملكَ حتى بدتْ له سِنٌّ سوداءُ كان يُخفيها .

مقتل توبة

قال أبو عُبيدة :

كان الذي هاج مقتل توبةَ بن الحُميّر ... أنه كان بينه وبين بني عامر بن عوف بن عُقيل لِحاءٌ (١) ، ثم انّ توبة شهد بني خفاجة وبني عوف وهم يختصمون عند همّام بن مُطرّف العُقيليّ في بعض أمورهم . قال : وكان مروان بن الحكم يومئذٍ أميراً على المدينة في خلافة معاوية ابن أبي سفيان ، فاستعمله على صَدقاتِ بني عامر . قال : فوثب ثَور بن أبي سِمْعان بن كعب بن عامر بن عوف بن عُقيل على توبة بن الحميّر فضربه بجُرْزٍ (٢) ، وعلى توبةَ الدِّرْعُ والبَيضة (٣) ، فجرح أنفُ البيضة وجهَ توبة . فأمر همّام بثور بن أبي سِمعان فأقعد بين يدي تَوبة ، فقال : خُذ بحقّك يا توبة . فقال له توبة : ما كان هذا إلاّ عن أمرك ، وما كان ليجترىء عليّ عند غيرك ... فانصرف ولم يقتصّ منه .

فمكثوا غيرَ كثير ، وانّ توبة بلغه أن ثور بن أبي سمعان خرج في نفرٍ من رَهْطه إلى ماء من مياه قومه يقال له قَوباء يريدون مالَهم بموضع

---

(١) لحاء : مصدر لاحاه ملاحاة أي نازعه وشاتمه .
(٢) الجرز : عمود من حديد .
(٣) البيضة : الخوذة من الحديد .

يقال له جُرَيرٌ بتَثْليث [١] . قال : وبينهما فَلاةٌ ، فاتّبعه توبةُ في ناسٍ من أصحابه ، فسأل عنه وبحث حتى ذُكر له أنه عند رجل من بني عامر بن عُقيل يقال له ساريةُ بن عُمير بن أبي عَديّ ، وكان صديقاً لتوبة . فقال توبةُ : واللهِ لا نَطرُقُهم عند ساريةَ الليلةَ حتى يخرجوا عنه . فأرادوا أن يخرُجوا حين يُصبحون ، فقال لهم سارية : ادَّرِعُوا الليل [٢] ، فإنّي لا آمَنُ توبةَ عليكم الليلةَ فإنّه لا ينام عن طَلَبكم . قال : فلمّا تعشّوا ادَّرَعوا الليل في الفَلاة . وأقعد له توبةُ رجلَين فغفَل صاحبا توبة . فلمّا ذهب الليل فزِع توبة وقال : لقد اغترّرت إلى رجلين ما صنعا شيئاً ، وانّي لأعلم أنّهم لم يُصبِحوا بهذه البلاد . فاقتصّ آثارهم ، فإذا هو بأثَر القوم قد خرجوا ، فبعث إلى صاحبَيه فأتياه ، فقال : دُونَكما هذا الجملَ فأوقِراه من الماء في مَزادَتَيه ثم اتّبعا أثري ، فإن خَفي عليكما أن تُدركاني فإنّي سأنوّر لكما إن أمسيتُما دُوني . وخرج توبةُ في أثر القوم مُسرعاً ، حتى إذا انتصف النهارُ جاوز عَلَماً يُقال له أَفْيَح في الغائط ، فقال لأصحابه : هل تَرَون سُمُراتٍ [٣] إلى جَنْب قُرون بَقَر ؟ — وقرون بقر مكان هنالك — فإنّ ذلك مَقيل القوم لم يتجاوزوه فليس وراءه ظِلٌ . فنظروا فقال قائل : أرى رجلاً يقود بعيراً كأنّه يقُوده لِصيد . قال توبة : ذلك ابنُ الحَبَتّريّة ، وذلك من أرمى مَن رمَى ، فمَن له يَختَلِجُه [٤] دون القوم فلا يَنْذَرُون بنا [٥] ؟ قال : فقال عبدُ الله ، أخو توبة : أنا له . قال : فاحذَرْ لا يضرِبنّك ، وإن استطعت أن تَحُول بينه وبين أصحابه فافعَلْ . فخَلّى طريق فَرسه

---

(١) تثليث : موضع بالحجاز قرب مكة .

(٢) ادرع الليل : اتخذه درعاً أي استتر بظلامه .

(٣) سمرات ج سمرة : ضرب من الشجر .

(٤) يختلجه : ينتزعه .

(٥) لا ينذرون بنا : لا يعلمون بمقدمنا .

في غَـمْـضٍ (١) من الأرض ، ثم دنا منه فحمل عليه ، فرماه ابنُ الحبتريّة — قال : وبنو الحَبْتَر ناسٌ من مَذْحِج في بني عُقَيل — فعقَر فرسَ عبد الله أخي توبة واختلَ (٢) السهمُ ساقَ عبد الله ، فانحاز الرجلُ حتى أتى أصحابه فأنذرهم ، فجمعوا ركابهم وكانت متفرّقةً . قال : وغَشيهم توبة ومن معه ، فلمّا رأوا ذلك صَفّوا رِحالهم وجعلوا السَمُرات في نُحورهم وأخذوا سلاحهم ودَرَقَهم (٣) ، وزحف إليهم توبةُ ، فارتمى القومُ لا يُغني أحدٌ منهم شيئاً في أحد . ثمّ إنّ توبة ، وكان يُتَرّس (٤) له أخوه عبد الله ، قال : يا أخي لا تُتَرِّسْ لي ، فإنّي رأيتِ ثوراً كثيراً ما يرفع التُرس ، عسى أن أُوافقَ منه عند رفعه مَرمىً فأرميَه . قال : ففَعل ، فرماه توبة على حَلَمة ثديه فصرَعه . وجال القومِ فغَشيهم توبة وأصحابُه فوضعوا فيهم السّلاحَ حتى تركوهم صَرْعى ، وهم سبعةُ نفَر . ثم إنّ ثوراً قال : انتزِعوا هذا السّهم عنّي . قال توبة : ما وضعناه لِننْتَزِعَه . فقال أصحابُ توبة : انجُ بنا نأخُذْ آثارنا ونَلحقْ راويتَنا (٥) فقد أخذنا ثأرنا من هؤلاء وقد مُتنا عطَشاً . قال توبة : كيف بهؤلاء القوم الذين لا يمنَعون ولا يَمتنعون ! فقالوا : أبعَدَهم الله (٦) . قال توبة : ما أنا بفاعلٍ وما هم إلاّ عشيرتكُم ، ولكن تجيء الراوية فأضعُ لهم ماءً وأغسِلُ عنهم دماءهم وأُخَيّل (٧) عليهم من السِّباع والطير لا تأكُلُهم حتى أُوذِنَ قومَهم بهم بعَمْق (٨) . فأقام توبة حتى أتته

---

(١) الغمض : المطمئن المنخفض .

(٢) اختله السهم : أصابه ونفذ فيه .

(٣) الدرق ج درقة : ترس من جلد .

(٤) يترس له : يستره بالترس .

(٥) الراوية : البعير يحمل الماء ، وهي المزادة أيضاً .

(٦) أبعدهم الله : أهلكهم الله .

(٧) خيل عليهم : وضع لهم خيالا من الثياب ونحوها لإبعاد السباع عنهم .

(٧) عمق : واد من أودية الطائف ، وهو أيضاً اسم موضع قرب المدينة من بلاد مزينة .

الراويةُ قبلَ الليل ، فسقاهم من الماء وغسَل عنهم الدَماء ، وجعل في أساقيهم (١) ماءً ، ثم خيّل لهم بالثياب على الشجر ، ثم مضى حتى طرَق من الليل ساريةَ بن عوَيمِر بن أبي عَديّ العُقيليّ فقال : إنّا قد تركْنا رَهْطاً من قومكم بسَمُرات من قُرون بقر فأدرِكُوهم ، فمن كان حيّاً فداوُوه ، ومن كان ميّتاً فادفِنوه . ثم انصرف فلحق بقومه . وصبّح ساريةُ القومَ فاحتملهم وقد مات ثور بن أبي سِمعان ، ولم يمُت غيره . ولم يزل توبةُ خائفاً .

وكان السّليلُ بن ثورِ المقتولِ رامياً كثير البَغي والشَرّ ، فأخبر بغِرّةٍ من توبة وهو بقُنّة من قِنان الشَرَف (٢) يقال لها قُنّةُ بني الحُمَيّر . فركِبَ في نحو ثلاثين فارساً حتى طرَقه ، فترقّى توبةُ ورجلٌ من إخوته في الجبل ، فأحاطوا بالبيوت ، فناداهم وهو في الجبل : هأنذا مَن تَبغُون فاجتَنِبُوا البيوت . فقالوا : إنكم لن تستطيعُوه وهو في الجبل ، ولكن خُذوا ما استدفَ (٣) لكم من ماله ، فأخذوا أفراساً له ولإخوته وانصرَفوا . ثم إنّ توبة غزاهم ، فمرّ على أفْلَتَ بن حزْن بن معاوية بن خَفاجة ببطن بِيشةَ . فقال : يا توبةُ أين تُريد ؟ قال : أُريد الصِّبيان من بني عوف بن عُقيل . قال : لا تَفعل ، فإنّ القوم قاتلوك ، فمهلاً ، قال : لا أُقلع عنهم ما عشتُ . ثم ضرب بطن فرسه فاستمرّ به يُحضِرُ (٤) وهو يرتجز ويقول :

تنجُو إذا قيل لهــا يَعــاطِ ... تنجو بهم من خَلَل الأمشاط (٥)

(١) الأساقي ج أسقية وهي جمع سقاء : وعاء الماء .
(٢) الشرف : من ديار بني عامر بنجد .
(٣) استدف : تهيأ وأمكن .
(٤) يحضر : يعدو عدواً سريعاً .
(٥) يعاط : زجر للإبل . تنجو : تسرع .

حتّى انتهى إلى مكان يُقال له حَجْر الراشدة ظليلٍ ، أسفلُه كالعَمود وأعلاه مُنتشِر ، فاستظلّ فيه هو وأصحابُه . حتّى إذا كان بالهاجرة [1] مرّت عليه إبلُ هُبَيْرة بن السّمين ، أخي بني عوف بن عُقَيل ، واردةٌ ماءً لهم يقال له طَلُوبٌ ، فأخذها وخلّى طريقَ راعيها وقال له : إذا أتيت صُدْغ البقرة مولاك فأخبِره أنّ توبة أخذ الإبل . ثم انصرف توبة يطرُد الإبل . قال : فلمّا ورد العبدُ على مولاه فأخبره نادى في بني عوف وقال : حتّامَ هذا ! فتعاقدوا بينهم نحواً من ثلاثين فارساً ، ثم اتّبعوه . ونهضت امرأةٌ من بني خَثْعَم من بني الهِرّة كانت في بني عوف ، وكانت تُؤَخّذ لهم [2] ، فقالت : أروني أثرَه . فخرجوا بها فأرَوها أثره ، فأخذت من تُرابه فسافَتْه [3] ، فقالت : اطلُبوه ، فإنّه سيُحْبَسُ عليكم . فطلبوه ، فسبَقهم ، فتلاوموا بينهم وقالوا : ما نرى له أثراً ، وما نُراه إلاّ وقد سبقكم . قال : وخرج توبة حتّى إذا كان بالمضجَع من أرض بني كِلاب جعل نِذارتَه [4] وحبَس أصحابه . حتّى إذا كان بشِعب من هَضْبة يقال لها هِندٌ من كَبِد المَضجع جعل ابنَ عمّ له يقال له قابضُ بن عبد الله ربيئةً [5] له على رأس الهَضْبة فقال : انظُرْ ، فإن شَخَص لك شيءٌ فأعلِمْنا . فقال عبد الله بن الحُميّر . يا توبة إنك حائنٌ [6] ، أُذكِّرُك الله ، فوالله ما رأيت أشبهَ بسَمُرات بني عوف يومَ أدركناهم في ساعتهم التي أتيناهم فيها منه ، فانجُ إن كان بك نَجاةٌ . قال : دَعْني ، فقد جعلتُ ربيئةً ينظُر لنا . قال : ويرجِع بنو عوف بن عُقيل حين لم يجدوا أثر تَوبة فيلقَون رجلاً من غَنِيٍّ ، فقالوا له : هل

(١) الهاجرة : منتصف النهار عند اشتداد الحر .
(٢) تؤخذ لهم : تتعاطى السحر لهم .
(٣) سافته : شمته .
(٤) نذارته : قوماً ينذرونه .
(٥) الربيئة : طليعة يراقب العدو ورابأه : راقبه .
(٦) حائن : هالك .

أحسَستَ في مجيئك أثر خيلٍ أو أثر إبلٍ؟ قال : لا واللهِ . قالوا : كذبتَ . وضَربوه ، فقال : يا قومُ لا تضربوني فإنّي لم أجد أثراً ، ولقد رأيت زُهاء كذا وكذا إبلاً شُخوصاً في هاتيك الهَضْبة ، وما أدري ما هو . فبعثوا رجلاً منهم يُقال له يزيد بن رُوَيبة لينظُر ما في الهضبة ،فأشرف على القوم ، فلمّا رآهم ألوى بثوبه (١) لأصحابه حتى جاؤوا ، فحمل أوّلهم على القوم حتى غَشِي توبةَ ، وفزِع توبة وأخوه إلى خيلهما ، فقام توبة إلى فرسه فغلَبَتْه لا يقدِر على أن يُلجِمَها ولا وقفت له ، فخلّى طريقَها . وغشِيه الرجلُ فاعتنقه ،فصَرَعه توبة وهو مَدْهوشٌ ،وقد لبس الدِّرع على السيف ، فانتزعه ثم أهوى به ليزيد بن رُوَيبة ، فاتّقاه بيده فقطع منها ، وجعل يزيد يُناشده رَحِم صَفِيّةَ — وصَفيّةُ أُمٌّ له من بني خَفاجةَ — وغشي القوم توبة من ورائه فضربوه فقتلوه . وعَلِقهم عبد الله بن الحُمَيّر يطعنُهم بالرُّمح حتى انكسر . قال : فلمّا فرغوا من توبة لَوَوا على عبد الله ابن الحميّر فضربوا رجلَه فقطعوها ، فلمّا وقع بالأرض أشرع سيفه وحدَه ثم جثا على رُكبتَيه ، وجعل يقول : هَلُمُّوا ، ولم يشعر القوم بما أصابه .

وانصرف بنو عوف بن عُقيل ، وولّى قابضٌ مُنهزما حتى لحق بعبد العزيز بن زُرارةَ الكِلابيّ فأخبره الخبر . قال : فركب عبد العزيز حتى أتى توبةَ فدفَنه وضمّ أخاه ، ثم ترافع القومُ إلى مَروان بن الحكم ، فكافأ بين الدَّمَين وحُملت الجراحات (٢) . ونزل بنو عوف بن عُقيل البادية ولحِقوا بالجزيرة والشام .

رثاء ليلى توبة

فقالت ليلى الأخيليّة ... :

أقسمتُ أرثي بعد توبةَ هالكاً ... وأحفِلُ مَن دارت عليه الدوائر

---

(١) ألوى بثوبه : أشار به .

(٢) حملت الجراحات : أديت دياتها .

لَعَمْرُكَ ما بالموت عارٌ علـى الفتى
إذا لم تُصِبْه في الحيـاة المَعايِر
وما أحدٌ حيٌّ وإن عاش سالمـاً
بأخلدَ مِمَّن غَيَّبَتْـه المَقابـر
ومَن كان ممّـا يُحدِث الدهرُ جازعاً
فلا بُدَّ يوماً أن يُرى وهـو صابرُ
وليس لذي عيشٍ عن الموت مَقْصَرٌ
وليس على الأيّام والدهـر غابرُ
ولا الحيُّ ممّا يُحدِثُ الدَّهرُ مُعْتَبٌ
ولا المَيْت إن لم يَصبِر الحيُّ نـاشرُ
وكل شبابٍ أو جديـدٍ إلى بـلىً
وكلُّ امرىءٍ يومـاً إلى الله صائـر
وكلُّ قَرينَي ألْفـةٍ لِتَفَرُّقٍ
شتاتاً وإن ضَنّا وطـال التعاشرُ
فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوبُ هالكاً
أخا الحرب إن دارت عليـه الدوائر
فآلَيْتُ لا أنفكُّ أبكيك مـا دعتْ
على فَنَنٍ وَرْقاءُ أو طـار طائرُ
قتيلُ بني عوفٍ فيـا لَهْفَتا لـه
وما كنت إيّاهم عليـه أُحاذِرُ
ولكنّما أخشى عليـه قبيلـةً
لها بدُروب الرُّوم بادٍ وحاضرُ (١)

(١) أقسمت أرثي : أي أقسمت لا أرثي ، وحذف « لا » في مثل هذا الموضع كثير. مقصرٌ :=

عن أبي عَمرو بن العَلاء قال :

سأل معاويةُ بن أبي سفيان ليلى الأخيليّة عن توبة بن الحُميّر فقال : وَيْحك يا ليلى ! أكما يقول الناسُ كان توبةُ ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ليس كلُّ ما يقولُ الناسُ حقّاً ، والناس شجرةُ بَغْيٍ يحسُدون أهلَ النِّعَم حيث كانوا وعلى من كانت . ولقد كان يا أمير المؤمنين سَبْطَ البَنان (١) ، حَديدَ اللّسان ، شَجاً للأقران ، كريمَ المَخْبَر ، عفيف المِئْزَر (٢) ، جميل المنظر ، وهو يا أمير المؤمنين كما قُلت له . قال ؛ وما قُلتِ له ؟ قالت : قلتُ ولم أتعدَّ الحقَّ وعلمي فيه :

بَعيدُ الثّرى لا يَبلغُ القومُ قَعْرَه ... أَلَدٌّ مُلِدٌّ يغلِبُ الحقَّ باطلُهْ
إذا حلَّ رَكْبٌ في ذَراه وظِلّـه ... لِيمنَعَهم ممّا تُخاف نوازِلُه
حَماهم بنصْل السّيف من كل فادحٍ ... يخافونه حتّى تَموتَ خَصائله (٣)

فقال لهـا معاوية : ويحَك ! يزعمُ الناس أنّه كان عاهراً خارباً (٤) فقالت من ساعتها :

مَعاذَ إلهي كان والله سَيّـداً ... جَواداً على العِلّاتِ جَمّاً نوافلُه
أغرَّ خَفاجيّاً يرى البُخلَ سُبّةً ... تَحلّبُ كَفّاه النّدى وأنامله
عفيفاً بعيدَ الهَمّ صُلباً قَناتُـه ... جميلاً مُحيّاه قليلاً غَوائله

= مجيد ومصرف . غابر : باق . أعتبه : أرضاه ، وأزال عتبه . ناشر : عائد إلى الحياة بعد موته ، وفعل نشر لازم متعد . أبعده : أهلكه .

(١) سبط البنان : كناية عن الجود .

(٢) عفيف المئزر : كناية عن العفة .

(٣) الألد الملد : الشديد الخصومة . ذراه : ناحيته . الخصائل ج خصيلة : كل لحمة فيها عصب ، أرادت حتى يموت .

(٤) الخارب : اللص .

وقد علم الجوعُ الذي بات سارياً على الضّيفِ والجيران أنّك قاتلُه
وأنّك رَحْبُ الباع يا تَوبُ بالقِرى إذا ما لئيمُ القوم ضاقت مَنازلُه
يَبيتُ قَريرَ العينِ مَن بات جارَه ويُضحي بخيرٍ ضيفُه ومُنازِله[1]

فقال لها معاوية : ويحَكِ يا ليلى ! لقد جُزت بتوبة قدرَه . فقالت : واللهِ يا أمير المؤمنين لو رأيتَه وخَبِرته لعرفتَ أنّي مُقصِّرةٌ في نَعْته وأنّي لا أبلُغُ كُنْهَ ما هو أهلُه . فقال لها معاوية : من أيّ الرِّجال كان ؟ قالت :

أتتْه المنايا حينَ تمّ تَمامُه وأقصر عنه كلُّ قِرْنٍ يُصاوله
وكان كليث الغاب يحمي عَرينَه وتَرضى به أشبالُه وحَلائلُه
غَضوبٌ حليمٌ حين يُطْلَب حِلمه وسُمٌّ زُعافٌ لا تُصاب مَقاتله[2]

قال : فأمر لها بجائزة عظيمة ...

وفودها على الحجّاج

عن محمّد بن الحجّاج بن يُوسف قال :

بينا الأميرُ جالسٌ إذ استُؤذِن لليلى ، فقال الحجّاج : ومَن ليلى ؟ قيل : الأخيليّةُ صاحبة توبة . قال : أدخلُوها . فدخلت امرأةٌ طويلة دَعْجاء العَينين [3] ، حَسَنة المِشية ، إلى الفَوَه [4] ما هي ، حسَنة الثّغْر .

---

(١) على العلات : في حالي اليسر والعسر . خفاجياً : منسوباً إلى خفاجة وهم رهطه . الغوائل : الدواهي وغاله : اغتاله وأهلكه وأخذه من حيث لم يدر .
(٢) قرنك : خصمك الذي ينازلك . سم زعاف وذعاف : قاتل لساعته .
(٣) الدعج : سواد العين مع سعتها.
(٤) الفوه : سعة الفم .

فسلّمت ، فردّ الحجّاجُ عليها ورحّب بها ، فدنت . فقال الحجّاج : دَراكِ[1] ضَعْ لها وِسادةً يا غُلامُ . فجلستْ ، فقال : ما أعملك الينا ؟ قالت : السّلامُ على الأمير ، والقضاءُ لِحقّه ، والتعرُّض لمعروفه . قال : وكيف خلّفتِ قومك ؟ قالت : تركتُهم في حال خِصْبٍ وأمْن ودَعَة ؛ أمّا الخِصبُ ففي الأموال والكلأ ، وأمّا الأمن فقد أمّنَهم اللهُ عزّ وجلّ بك ، وأمّا الدّعَة فقد خامرهم من خَوفك ما أصلح بينهم . ثم قالت : ألا أُنشِدك ؟ فقال : إذا شئتِ . فقالت :

أحجّاجُ إنّ الله أعطاك غايةً ... يُقصّر عنها من أراد مَداها
أحجّاج لا يُفْلَلْ سِلاحُك إنّما المنايا بكفّ الله حيث تراها
إذا هبط الحجّاجُ أرضاً مريضةً ... تتبّع أقصى دائها فشفاها
شَفاها من الدّاءِ العُضال الذي بها ... غُلامٌ إذا هزّ القناةَ سَقاها
سَقاها دماءُ المارقين وعَلّها ... إذا جَمَحت يوماً وخِيف أذاها
إذا سمع الحجّاج رِزّ كَتيبةٍ ... أعدّ لها قبلَ النّزول قِراها
أعدّ لها مصقُولةً فارسيّةً ... بأيدي رجالٍ يَحلِبون صَراها
أحجّاج لا تُعطِ العُصاةَ مُناهمُ ... ولا اللهُ يُعطي للعُصاة مُناها
ولا كلّ حَلاّفٍ تَقلّد بَيعةً ... فأعظمَ عهدَ الله ثم شَراها[2]

فقال الحجّاج ليحيى بن مُنْقِذ : لله بلادُها ما أشعرَها ! فقال : مالي بشعرها عِلمٌ . فقال : عليَّ بعُبيدة بن مَوْهَب ، وكان حاجبَه ، فقال : أنشديه . فأنشدتْه ، فقال عُبيدةُ : هذه الشاعرةُ الكريمة قد وجب حقُّها . قال : ما أغناها عن شفاعتك ! يا غُلامُ ، مُرْ لها بخمسمائة

(١) دراك : اسم فعل بمعنى أدرك .
(٢) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . المصقولة : صفة السيوف . الصرى : بقية اللبن ، أراد أنهم يجيدون استعمالها . شراها : باعها .

درهمٍ واكسُها خمسةَ أثوابٍ أحدُها كساءُ خزّ ، وأدخلها على ابنة عمّها هند بنتِ أسماء فقُل لها : حلّيها [1] . فقالت : أصلح الله الأمير ، أضرّ بنا العَريف [2] في الصَدقة ، وقد خرِبت بلادُنا وانكسرت قلوبُنا ، فأخذ خيارَ المال . قال : اكتبُوا لها إلى الحَكَم بن أيّوب فَلْيَبْتَعْ لها خمسةَ أجمالٍ وليجعلْ أحدَها نَجيباً [3] ، واكتبوا إلى صاحب اليَمامة بعَزْل العريف الذي شَكَتْه . فقال ابن مَوْهَب : أصلح الله الأمير ، أأصِلُها ؟ قال : نعم . فوصلها بأربعمائة درهم ، ووصلتْها هِندٌ بثلاثمائة درهم ، ووصلها محمد بن الحجّاج بوصيفتَين .

عن خالد بن سعيد عن أبيه قال : كنت عند الحجّاج فدخلت عليه ليلى الأخيليّة ثم ذكر مثل الخبر الأول ، وزاد فيه : فلمّا قالت :

غُلامٌ إذا هزّ القَناة سقاها

قال : لا تقولي : غُلامٌ ، قولي : هُمامٌ .

وفاتها

عن محمد بن عليّ بن المُغيرة قال : سمعت أبي يقول : سمعت الأصمعي يذكر أنّ الحجّاج أمر لها بعشرة آلاف درهم ، وقال لها : هل لك من حاجة قالت : نعمْ ، أصلح الله الأمير ، تحمِلُني إلى ابن عمّي قتيبةَ بن مسلم — وهو على خراسان يومئذ — فحملها اليه ، فأجازها وأقبلت راجعةً تُريد البادية ، فلمّا كانت بالرَّيّ ماتت ، فقبرُها هناك . هكذا ذكر الأصمعيّ في وفاتها وهو غلط . وقد أخبرني عمّي عن الحَزَنْبَل الأصبهانيّ عمّن

---

(1) حليها : ألبسيها الحلي .

(2) العريف : الموكل بجباية الصدقات .

(3) ناقة نجيبة : كريمة .

أخبره عن المدائنيّ ، وأخبرني الحسن بن علي عن ابن مَهديّ عن ابن أبي سعد عن محمد بن الحسن النَّخَعيّ عن ابن الحضيب الكاتب ، واللفظ في الخبر للحزنبل ، وروايته أتمّ :

أنّ ليلى الأخيليّة أقبلت من سَفر ، فمرّت بقبر توبة ومعها زوجُها ، وهي في هَودَجٍ لها ، فقالت : والله لا أَبْرَحُ حتى أُسلِّم على توبة . فجعل زوجُها يمنعها من ذلك وتأبى إلاّ أن تُلِمّ به . فلمّا كثُر ذلك منها تركها ، فصَعِدت أكَمة عليها قبرُ توبة ، فقالت : السلامُ عليك يا توبةُ . ثم حوّلت وجهها إلى القوم فقالت : ما عرَفت له كَذِبةً قطُّ قبل هذا . قالوا : وكيف ؟ قالت : أليس القائل :

ولو أنّ ليلى الأخيليّةَ سلّمت ... عليّ ودُوني تُربةٌ وصفائحُ
لَسلّمتُ تسليم البشاشة أو زَقا ... إليها صدًى من جانب القبر صائح
وأُغبَط من ليلى بما لا أنالُه ... ألا كُلُّ ما قرّت به العينُ صالح[1]

فما بالُه لم يُسلِّم عليّ كما قال ! وكانت إلى جانب القبر بُومةٌ كامنة ، فلمّا رأت الهودج واضطرابَه فَزِعت وطارت في وجه الجمل ، فنفَر فرمى بليلَى على رأسها ، فماتت من وقتها ، فدُفنت إلى جنبه ، وهذا هو الصحيح في خبر وفاتها .[2]

* * *

(١) زقا : صاح . الصدى : طائر يغشى المقابر ، وكانت العرب تزعم أنه إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره صاح الصدى على قبره : اسقوني اسقوني ، فلا يزال كذلك حتى يؤخذ بثأره

(٢) رجح أبو الفرج الرواية الثانية في خبر وفاة ليلى الأخيلية مع أن أثر الوضع فيها ظاهر ، والخبر الأول يبدو لنا أنه الأدنى إلى الصحة لبعده عن التكلف والافتعال .

٤٧

النّميريّ

(الأغاني ج ٦ ص ١٩٠ وما بعدها)

الشاعر

هو محمّد بن عبد الله بن نُمَير ... بن ثَقِيف . شاعرٌ غزِل مُوَلّدٌ ، ومَنشؤه بالطائف ، من شعراء الدولة الأموية . وكان يهوى زينبَ بنت يوسف بن الحَكَم ، أخت الحَجّاج بن يوسف ، وله فيها أشعار كثيرة .

عن إبراهيم بن محمّد بن العبّاس المطّلبيّ : أنّ سعيد بن المُسَيّب مرّ في بعض أزقّة مكّة ، فسمع الأخضر الحَربيّ يتغنّى في دار العاص ابن وائل :

تَضوّع مِسكاً بطن نُعمانَ إذ مشت ... به زينبٌ في نِسوةٍ خَفِرات

فضرب برجله وقال : هذا والله مما يَلَذّ استماعه .

تغزّله بزينب بنت يوسف

عُمر بن شَبّة :

أن النُميريّ كان يهوى زينب بنت يوسف ، أخت الحجّاج بن يوسف بن الحكم لأبيه وأمّه ، وأُمّهما الفارعة بنت هـمّام ...

وكان يوسف بن الحكم اعتلّ عِلّةً فطالت عليه ، فنذَرت زينب إن عُوفي أن تمشي إلى البيت [1] . فعُوفي ، فخرجت في نِسوة فقطعن بطنَ وَجٍّ [2] – وهو ثلثمائة ذِراعٍ – في يومٍ جَعلتْه مرحلةً لِثقَل بَدَنها ، ولم تقطع ما بين مكّة والطائف إلاّ في شهر . فبينا هي تسير إذ لقيها إبراهيمُ بن عبد الله النُميريّ ، أخو محمد بن عبد الله ، منصرِفاً من العُمرة . فلمّا قدِم الطائف أتى محمداً يُسلّم عليه ، فقال له : ألك عِلمٌ بزينب ؟ قال : نعم ، لَقيتُها بالهمَاء في بطن نَعمانَ [3] . فقال : ما أحسَبك إلاّ وقد قلتَ شيئاً . قال : نعم ، قلت بيتاً واحداً وتناسَيته كراهةَ أن ينشَب بيننا وبين إخوتنا شرٌّ . فقال محمد هذه القصيدةَ ، وهي أوّل ما قاله :

تضوّع مِسكاً بطنُ نَعمانَ إذ مشت ... به زينبٌ في نِسوةٍ عَطِراتِ
فأصبح ما بين الهمَاء فحزَوْة ... إلى الماء ماءِ الجِزْع ذي العُشَرات
له أَرَجٌ من مِجْمَرِ الهند ساطعٌ ... تَطَلّعُ رَيّاه من الكَفِرات
تَهادَين ما بين المُحَصَّبِ من مِنىً ... وأقبلْنَ لا شُعْثاً ولا غَبِرات
أعان الذي فوق السّماوات عَرشُه ... مَواشِيَ بالبَطحاء مُؤتجِرات

(١) البيت : المراد به البيت الحرام أي الكعبة .
(٢) وج : واد بالطائف .
(٣) نعمان : واد بين مكة والطائف ، والهماء موضع بنعمان .

مررن بفَخٍّ ثم رُحْن عَشيّــةً ... يُلَبّين للرّحمــن معتمــراتِ
يُخَبِّئْن أطرافَ البَنان من التُقى ... ويقتلن بالألحاظ مُقتــدِرات
تقسّمْن لُبّي يومَ نَعمان إنّني ... رأيت فؤادي عارمَ النظرات
جَلَوْنَ وُجوهاً لم تَلُحْها سَمائمٌ ... حَرورٌ ولم يُسْفَعْن بالسّبِراتِ
فقلت يَعافير الظِّباء تناولــت ... نِباعَ غُصون المَرْدِ مُهتصِرات
ولمّا رأتْ ركبَ النُميريّ راعَهـا ... وكنّ من ان يلقَينــه حَذِرات
فأدنين حتى جاوز الرّكْبُ دُونَها ... حِجاباً من القَسّيّ والحِبَراتِ
فكِدت اشتياقاً نحوَها وصَبابــةً ... تَقطّعُ نفسي إثرَها حَسَراتِ
فراجعتُ نفسي والحَفيظةَ بعدما ... بَلَلْتُ رِداءَ العَصْب بالعَبَرات(1)

قال أبو زيد : فبلغت هذه القصيدة عبدَ الملك بن مروان ، فكتب إلى الحجّاج : قد بلغني قول الخبيث في زينب ، فالْهَ عنه وأعرِضْ عن ذكره ، فإنك إن أدنيته أو عاتبته أطمعتَه ، وإن عاقبته صدّقتَه .

أبو سَلمة الغِفاريّ قال :

هرب النُميريّ من الحجّاج إلى عبد الملك واستجار به ، فقال له عبد الملك : أنشِدني ما قلت في زينب . فأنشده ، فلمّا انتهى إلى قوله :

ولمّا رأت ركب النُميريّ أعرضتْ ... وكُنّ من ان يَلقينه حَذِراتِ

(1) حزوة : ليس في كتب البلدان موضع بهذا الاسم ولعل فيها تحريفاً . العشرات ج عشر : شجر كبير عريض الورق . الكفرات ج كفر (بفتح فكسر) : العظيم من الجبال . مؤتجرات : طالبات الأجر . فخ : موضع قرب مكة . السبرات ج سبرة : شدة برد الشتاء . اليعفور : الظبي الأعفر . النياع من الغصون : التي تحركها الريح فتتمايل . المرد : الغض من ثمر الأراك . سفعته : لفحته لفحاً خفيفاً . القسي : ضرب من الثياب يصنع من الحرير والكتان . الحبرة : ضرب من برود اليمن موشى . العصب : ضرب من البرود يصبغ غزلها ثم تنسج .

قال له عبد الملك : وما كان رَكْبُك يا نُميريّ ؟ قال : أربعةَ أحْمِرة لي كنت أجلُب عليها القَطِران ، وثلاثةُ أحمرة صحبتي تحمل البَعر . فضحك عبد الملك حتى استغرب ضحكاً ، ثم قال : لقد عَظّمتَ أمرك وأمرَ ركبك . وكتب له إلى الحجّاج أن لا سبيلَ له عليه . فلمّا أتاه بالكتاب وضَعه ولم يَقرأْه ، ثم أقبل على يزيد بن أبي مُسلِم فقال له : أنا بريءٌ من بَيعة أمير المؤمنين : لئن لم يُنشدني ما قال في زينب لآتِيَنّ على نفسه . ولئن أنشدَني لأعفُونّ عنه ، وهو إذا أنشدَني آمِنٌ . فقال له يزيد : ويلَك ! أنشِده . فأنشدَه قوله :

تضوّع مسكاً بطن نَعمان أن مشت به زينب في نسوة خفرات

فقال : كذبت واللهِ ، ما كانت تتعطّر إذا خرجت من منزلها ، ثم أنشده حتى بلغ إلى قوله :

ولمّا رأت ركب النميريّ راعها وكنّ من آن يلقينه حذِرات

قال له : حقّ لها أن ترتاع لأنها من نسوة خفِرات صالحات . ثم أنشده حتى بلغ إلى قوله :

مررن بفَخٍّ رائحاتٍ عَشيّةً يُلَبّين للرحمن معتمرات

فقال : صدقت ، لقد كانت حَجّاجةً صَوّامةً ما علمتُها . ثم أنشده حتى بلغ إلى قوله :

يُخمّرن أطراف البنَان من التُقى ويخرجن جُنحَ الليل مُعتجرات[1]

فقال له : صدقتَ ، هكذا كانت تفعل ، وهكذا المرأة الحُرّة المُسلمة . ثم قال له : ويحك ! إنّي أرى ارتياعَك ارتياعَ مُريب ، وقولَك

---

(١) الاعتجار : لبسة المرأة .

قولَ بريء ، وقد أمتَنْتُك . ولم يعرِضْ له .

قال أبو زيد : وقال النميريّ في زينب أيضاً :

طربتَ وشاقتك المنازلُ من جَفْنِ
ألا رُبّما يَعتادُك الشوقُ بالحُزْنِ
نظرت إلى أظعان زينب باللِّوى
فأعْوَلْتُها لو كان إعوالُها يُغْني
فوالله لا أنساكِ زينبُ ما دعتْ
مُطوَّقةٌ ورقاءُ شَجواً على غُصنِ
فإنّ احتمالَ الحيّ يومَ تحمّلُوا
عناكَ وهل يَعنيك إلاّ الذي يَعني
ومُرسِلةٍ في السِّرّ أن قد فضحتَني
وصرّحتَ باسمي في النّسيب فما تُكنْي
وأشمتَّ بي أهلي وجُلَّ عشيرتي
لِيَهْنِئْكَ ما تَهواه إن كان ذا يَهْني
وقد لامني فيها ابنُ عمّيَ ناصحاً
فقلت له خُذ لي فؤاديَ أو دَعْني [(1)]

قال أبو زيد : فيقال إنه بلغ زينب بنت يوسف قوله هذا فبكت ، فقالت لها خادمتُها : ما يُبكيكِ ؟ فقالت : أخشى أن يسمع بقوله هذا جاهلٌ بي لا يَعرفني ولا يعلم مذهبي فيراه حقّاً .

---

(1) جفن : اسم واد بالطائف لقبيلة ثقيف . اعول : رفع صوته بالبكاء ، والمستعمل فيه اللزوم ولكنه ورد في البيت متعدياً .

عثمان بن حَفْص وغيره :

أنّ يوسف بن الحكَم قام إلى عبد الملك بن مَروان لمّا بعث بالحجّاج لحرب ابن الزُبير . وقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ غُلاماً منّا قال في ابنتي زينب ما لا يزال الرجلُ يقول مثلَه في بنت عمّه ، وإنّ هذا — يعني ابنه الحجّاج — لم يزل يَتَتَوَّق إليه ويَهُمّ به ، وأنت الآن تبعثه إلى ما هناك ، وما آمَنُه عليه . فدعا بالحجّاج فقال له : إنّ محمّداً النُميريّ جاري . ولا سُلطانَ لك عليه ، فلا تَعرِضْ له .

عن عاصم بن الحَدَثان قال :

كان ابن نُمَير الثقفيّ يُشبِّب بزينب بنت يوسف بن الحكم ، فكان الحجّاج يتهدّده ويقول : لولا أن يقول قائلٌ صَدَق لقطعتُ لسانه . فهرب إلى اليمن ثم ركب بحر عَدَن ، وقال في هربه :

أتَتْني عن الحجّاج والبحرُ بينَنا
عقاربُ تَسري والعُيون هواجعُ
فضِقتُ بها ذَرْعاً وأجهشت خِيفةً
ولم آمنِ الحجّاج والأمرُ فاظعُ
وحَلّ بي الخطبُ الذي جاءني به
سميعٌ فليست تَستقرُّ الأضالعُ
فبِتُّ أدير الأمرَ والرأيَ ليلتي
وقد أخضلتْ خدّي الدُموع التوابع
ولم أر خيراً لي من الصّبر إنّه
أعفُّ وخيرٌ إذ عرتني الفواجع
وما أمِنت نفسي الذي خِفتُ شرَّه
ولا طاب لي ممّا خشيتُ المضاجع

إلى أن بدا لي رأسُ إسْبِيلَ طالعاً
وإسبيلُ حِصنٌ لم تَنَلْه الأصابع

فلي عن ثقيفٍ إن هممتُ بنَجوةٍ
مَهامِهُ تهوِي بينهنَّ الهَجارعُ

وفي الأرض ذاتِ العَرض عنكَ ابنَ يوسفٍ
إذا شئتُ مَنأىً لا أبالكَ واسع

فإن نِلتَني حجّاجُ فاشتفِ جاهداً
فإنّ الذي لا يحفظُ اللهُ ضائعُ (١)

فطلبه الحجّاج فلم يقدر عليه . وطال على النميريّ مُقامه هارباً واشتاق إلى وطنه فجاء حتى وقف على رأس الحجّاج فقال له : إيهِ يا نُميريّ ، أنت القائل :

فإن نلتني حجّاجُ فاشتفِ جاهداً

فقال : بل أنا الذي أقول :

أخاف من الحجّاج ما لست خائفاً
من الأسَد العِرْباضِ لم يَثْنِه ذُعرُ

أخاف يديه أن تنالا مَقاتلي
بأبيضَ عَضْبٍ ليس مِن دُونه سِترُ (٢)

وأنا الذي أقول :

فهأنذا طَوَّفتُ شرقاً ومَغرِباً
وأبْتُ وقد دَوَّخْتُ كلَّ مكانِ

---

(١) العقارب : النمائم وأحاديث السوء . إسبيل : حصن بأقصى اليمن . الهجارع ج هجرع : الكلب السلوقي الخفيف .
(٢) العرباض : الأسد العظيم القوي .

فلو كانت العنقاءُ منك تطير بـــي لخِلْتُك إلاّ أن تَصُدَّ تراني (١)

قال :. فتبسّم الحجّاج وأمّنه ، وقال له : لا تُعاوِدْ ما تعلم . وخلّى سبيله .

ومما قاله النميريّ في زينب وغُنّي فيه :

تشتو بمكّــــةَ نَعْمـــــةً ومَصيفُهـــا بالطـــائفِ
أَحبِبْ بتلــك مَواقفـــاً وبزينـــبٍ من واقــفِ
وعزيزةٍ لم يَغْذُهـــــا بُؤسٌ وجَفوةُ حـــائفِ
غَــراءَ يحكيهـــا الغـــزال بمُقلـــةٍ وسوالـــفِ

ومن الغِناء في أشعاره في زينب :

ألا من لِقلبٍ مُعَنّىً غَــزِلْ يُحبّ المُحِلّةَ أختَ المُحِلّ
تراءت لنا يـــوم فَرع الأراك بـــين العِشاءِ وبين الأُصُـــلْ
كأنّ القَرَنفُلَ والزَّنجَبيلَ وريحَ الخُزامى وذَوبَ العَسَلْ
يُعَلّ به بَـــرْدُ أنيابهـــــا إذا ما صَفا الكوكبُ المعتدِلْ
وقالت لجارتها هـــل رأيـــت إذ أعرَضَ الرَّكبُ فِعلَ الرَّجُلْ
وأنّ تبَسُّمَـــــه ضاحكـــاً أجدّ اشتياقاً لِقلبٍ غَزِلْ (٢)

المُحلّ الذي عناه النميريّ هنا : الحجّاج بن يوسف ، سُمّي بذلك لإحلاله الكعبة . وكان أهل الحجاز يسمّونه بذلك . ويسمّي أهل الشأم عبد الله بن الزبير المُحلّ لأنه أحلّ الكعبة ، زَعَموا أنه بمقامه فيها ، وكان أصحابه أحرقوها بنارٍ استضاؤوا بها .

• • •

(١) دوخ فلان البلاد : سار فيها حتى عرف طريقها ومسالكها .

(٢) العل والعلل : الشرب مرة بعد مرة .

٤٨

وَضّاح اليَمَن

(الأغاني ج ٦ ص ٢٠٩ وما بعدها)

الشاعر

وَضّاحٌ لقبٌ غَلَب عليه لجماله وبهائه ، واسمه عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كُلال بن داذ بن أبي جَمَد . ثم يُختلف في تحقيق نسبه ، فيقول قوم إنه من أولاد الفرس الذين قدِموا اليمن مع وَهْرِز لنُصرة سيف ابن ذي يَزَن على الحبشة . ويزعُم آخرون أنه من أولاد خَوْلان بن عَمْرو ... بن الهَمَيْسَع بن العَرَنْجَج وهو حِمْيَر بن سَبَأ ...

عن العبّاس بن هشام عن أبيه قال :

كان وَضّاح اليمن والمقنّع الكِنْديّ وأبو زُبَيد الطائيّ يَرِدُون مواسم العرب مُقَنّعِين يستُرون وجوههم خوفاً من العَين وحَذَراً على أنفسهم من النِّساء لجمالهم .

عشقه روضة وتغزّله بها

عن عبد الله بن عيّاش :

أنّ وضّاحاً هوِي امرأةً من بنات الفرس يقال لها روضة ، فذهبت به كلَّ مَذهب ، وخطبها فامتنع قومه من تزويجه إيّاها ، وعاتبه أهله وعشيرته ، فقال في ذلك :

يأيُّها القلبُ بعضَ ما تَجِدُ ... قد يعشقُ المرء ثمّ يتّئِدُ
قد يكتُمُ المرء حبّه حِقَباً ... وهو عميدٌ وقلبُه كَمِدُ
ماذا تُريدين من فتىً غزِلٍ ... قد شفّه السُّقْمُ فيك والسّهَدُ
يُهدِّدوني كيما أخافَهُم ... هيهات أنّى يُهَدِّدُ الأسَدُ

مصعَب بن عبد الله قال :

كان وضّاح اليمن يهوى امرأةً يُقال لها رَوضةُ ويُشبّب بها في شعره ، وهي امرأة من أهل اليمن . وفيها يقول :

يا روضةَ الوضّاحِ قد ... عَنّيتِ وضّاحَ اليَمَنْ
فاسقي خليلَك من شَرا ... بٍ لم يُكدِّرْه الدَّرَنْ
الرِّيحُ ريحُ سَفَرْجَلٍ ... والطّعمُ طعمُ سُلافِ دَنّ
إنّي تُهيِّجُني إليكِ ... حَمامتان على فَنَنْ

قال مصعب : فحدّثني بعض أهل العلم ممّن كان يعرف خبر وضّاح مع روضةَ من أهل اليمن أنّ وضّاحاً كان في سفر مع أصحابه ، فبينا هو يسير إذ استوقفهم وعدَل عنهم ساعةً ، ثم عاد إليهم وهو يبكي ؛ فسألوه عن حاله فقال : عدلتُ إلى روضةَ ، وكانت قد جُذِمتْ فجُعلتْ مع المجذُومين ، وأخرجت من بلدها ؛ فأصلحتُ من شأنها وأعطيتُها صدراً

من نَفَقتي . وجعل يبكي غمّاً بها .

وممّا قاله وضّاح في رَوضة :

أيا رَوضة الوَضّاح يا خيرَ روضةٍ
لأهلكِ لو جادُوا علينا بمنزلِ

رَهينكِ وضّاحٌ ذهبتِ بعقلِه
فإن شئتِ فاحييه وإن شئتِ فاقتُلي

وتُوقد حيناً باليَلَنْجُوجِ نارَها
وتُوقد أحياناً بمِسكٍ ومَنْدَلِ (١)

ومن قوله فيها :

يا رَوضُ جيرانكُم الباكرُ ... فالقلبُ لا لاهٍ ولا صابرُ
قالت ألا لا تَلجَنْ دارَنا ... إنّ أبانا رجلٌ غائر
قلت فإنّي طالبٌ غِرّةً ... منه وسيفي صارمٌ باترُ
قالت فإنّ القصرَ من دُوننا ... قلت فإنّي فوقَه ظاهرُ
قالت فإنّ البحر من دُوننا ... قلت فإنّي سابحٌ ماهر
قالت فحَولي إخوةٌ سبعةٌ ... قلت فإنّي غالبٌ قاهر
قالت فليثٌ رابضٌ بينَنا ... قلت فإنّي أسدٌ عاقرُ
قالت فإنّ اللهَ مِن فَوقِنا ... قلت فربّي راحمٌ غافر
قالت لقد أعييتَنا حُجّةً ... فأتِ إذا ما هجَع السامرُ
فاسقُطْ علينا كسُقوط الندى ... ليلةَ لا ناهٍ ولا زاجرُ

---

(١) اليلنجوج : عود البخور . المندل : أجود العود .

وممّا قاله في روضة :

يا لَقومي لِكثـرة العُـذّالِ ولِطَيْفٍ سَرَى مَليحِ الدّلالِ
زائر في قصور صنعاءَ يَسْري كلَّ أرضٍ مَخُوفةٍ وجبالِ
يقطع الحَزْنَ والمَهامهِ والبِيـد ومن دُونـه ثمانُ ليـالي
عاتبٌ في المنام أحْبِبْ بعتْبـا ه الينا وقوله مـن مَقـالِ
قلت أهلاً ومَرحباً عددَ القَطْـرِ وسَهلاً بطَيف هذا الخيال
حبّذا مَن إذا خلَونا نَجيّاً قال أهلي لك الفِـداءُ ومالي
وهي الهمُّ والمُنى وهوى النّفس إذا اعتلّ ذو هوىً باعتـلالِ
قِستُ ما كـان قبلَنا من هوى الناسِ فما قِستُ حبّها بمثـالِ
لم أجدْ حبُها يُشاكِلُه الحبُّ - ولا وَجْدَنا كوَجـد الرّجالِ
كلُّ حُبٍّ إذا استطال سيَبْلَى وهوى روضةِ المنى غيرُ بالي
لم يَزِدْهُ تقادُمُ العهـد إلاّ جِدّةً عندنا وحُسنَ احتلالِ
أيّها العاذِلُون كيف عِتابي بعدما شاب مَفرقي وقَـذالي
كيف عَذْلي على التي هي منيّ بمكان اليَمينِ أختِ الشّمالِ
والذي أحرمُوا له وأحلّـوا بمِنىً صُبحَ عاشرات الليالي
ما ملكت الهوى ولا النفسَ منيّ منذ عُلِّقْتُها فكيف احتيـالي
إن نأت كان نأيُها الموتَ صِرْفاً أو دنت لي فثَمّ يَبدو خَبـالي
يابنةَ المالكيّ يـا بهجـة النّفس أفي حُبّكم يَحِـلّ اقتتالي
أيُّ ذنبٍ عليّ إن قلت إنّي لأحبّ الحِجازَ حُبّ الزُّلالِ
لأحبُّ الحجاز مِنْ حبّ مَن فِيه وأهوى حِلالَه من حِلالِ [1]

---

(١) خلونا نجياً : خلونا نتناجى . عاشرات الليالي : يريد العاشر من ذي الحجة يوم الوقوف بعرفة . الحلال ج حلة (بالكسر) : محلة القوم ، والقوم النازلون فيها .

خبره مع أم البنين ومقتله

عن لَقيط والهيثَم بن عديّ :

أنّ أمّ البَنين بنت عبد العزيز بن مروان استأذنت الوليد بن عبد الملك في الحجّ فإذِن لها، وهو يومئذ خليفةٌ وهي زوجته . فقدمت مكّة ومعها من الجواري ما لم يُرَ مثلُه حُسناً . وكتب الوليد يتوعّد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحدٌ منهم أو ذكر أحداً ممّن تبعها . وقدمت ، فتراءت للناس ، وتصدّى لها أهلُ الغزل والشعر ، ووقعت عينُها على وضّاح اليمن فهويتْه .

عن بُدَيح قال :

قدمتْ أمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان – وهي عند الوليد بن عبد الملك – حاجّةً ، والوليد يومئذ خليفةٌ . فبعثت إلى كُثيّر وإلى وضّاح اليمن أن أنسُبا بي . فأمّا وضّاح اليمن فإنّه ذكرها وصرّح بالنسيب بها ، فوجَد الوليد عليه السّبيل فقتله . وأما كُثَيّر فعدل عن ذكرها ونسب بجاريتها غاضرة .

عن العُتبيّ قال :

مدح وضّاح اليمن الوليد بن عبد الملك ، وهو يومئذ خليفةٌ ، ووعدته أمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان أن ترفدَه عنده وتقوّيَ أمره . فقدم عليه وضاحٌ وأنشده قوله فيه :

صَبا قلبي ومال إليك مَيْـــلا وأرّقني خيالُك يــا أُثَيْلا
يمانيةٌ تُلِـمّ بنـا فتُبْـــدي دقيقَ مَحاسنٍ وتُكِنُّ غَيْلا
دعينا ما أممتُ بناتِ نعــشٍ من الطّيف الذي ينتاب ليلا
ولكن إن أردت فصَبّحينــا إذا أمّتْ ركائبُنـا سُهيلا .

فإنّك لو رأيت الخيل تعدُو سِراعاً يتّخذن النّقعَ ذَيلا
إذاً لرأيتِ فوق الخيل أُسْداً تُفيد مغانماً وتُفيت نَيلا
إذا سار الوليدُ بنا وسِرنا إلى خيلٍ نَلُفُّ بهن خيلا
وندخُل بالسُّرور ديارَ قومٍ ونُعقِب آخرين أذىً ووَيلا [1]

فأحسن الوليد رِفدَه وأجزل صلته . ومدحه بعدة قصائد ، ثم نُمي إليه أنه شبّب بأمّ البنين فجفاه وأمر بأن يحجَب عنه ، ودبّر في قتله .

وقال خالد بن كلثوم في خبره :

كان وضّاح اليمن قد شبّب بأمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان امرأةِ الوليد بن عبد الملك ... فبلغ الوليدَ تشبيبُه بها ، فأمر بطلبه ، فأُتي به ، فأمر بقتله . فقال له ابنه عبد العزيز : لا تفعل يا أمير المؤمنين فتُحقّقَ قولَه ، ولكن افعَلْ به كما فعل معاوية بأبي دَهْبَل ، فإنّه لمّا شبّب بابنته شكاه يزيد وسأله أن يقتله ، فقال : إذاً تُحقّق قوله ، ولكن تبرّه وتحسن إليه فيستحي ويكفُّ ويكذّب نفسه . فلم يقبل منه ، وجعله في صندوقٍ ودفنه حيّاً .

فوقع بين رجلٍ من زنادقة الشعوبية وبين رجلٍ من ولد الوليد فَخارٌ خرجا فيه إلى أن أغلظا المُسابّة ، وذلك في دولة بني العبّاس ، فوضع الشُعوبيّ عليهم كتاباً زعم فيه أنّ أمّ البنين عشقت وضّاحاً ، فكانت تدخله صندوقاً عندها . فوقف على ذلك خادمُ الوليد ، فأنهاه إليه وأراه

(١) أثيل : ترخيم أثيلة ، وهو اسم امرأة . الغيل: الساعد الريان الممتلىء. بنات نعش: من الكواكب الشامية . يقول : دعيني من طيفك حتى أؤم بنات نعش ، أي حتى أغزو الروم في بلاد الشام . إذا أمت ركائبنا سهيلا : أي إذا اتجهت قوافلنا نحو اليمن ، وسهيل من النجوم اليمانية . النقع : غبار الحرب . تفيت نيلا : أي لا تدع الأعداء ينالون منها أي مغنم .

الصندوق ، فأخذه فدفنه ، هكذا ذكر خالد بن كُلثوم والزُبيرَ بن بَكّار جميعاً .

عن ابن الكلبيّ قال :

عشِقت أمّ البنين وضّاحاً ، فكانت تُرسل إليه فيدخل إليها ويقيمُ عندها ، فإذا خافت وارتْه في صُندوقٍ عندها وأقفلتْ عليه . فأهدي للوليد جوهرٌ له قيمة ، فأعجبه واستحسنه ، فدعا خادماً له فبعث به إلى أمّ البنين وقال : قُل لها إنّ هذا الجوهر أعجبني فآثرتُك به . فدخل الخادم عليها مفاجأةً ووضّاحٌ عندها ، فأدخلته الصندوق وهو يرى ، فأدّى إليها رسالة الوليد ودفع اليها الجوهر ، ثم قال : يا مَولاتي ، هبي لي منه حجراً . فقالتِ : لا ، يابنَ اللّخْناء (١) ، ولا كرامةَ . فرجع إلى الوليد فأخبره ، فقال : كذبت يابنَ اللّخْناء . وأمر به فوُجِئت عنقُه . ثم لبس نعليه ودخل على أمّ البنين وهي جالسة في ذلك البيتَ تمتشط ، وقد وصف له الخادم الصُندوق الذي أدخلته فيه فجلس عليه ثم قالَ لها : يا أمّ البنين ، ما أحبَّ إليك هذا البيتَ من بين بيوتك ! فلم تختارينه ؟ فقالت : أجلِس فيه وأختاره لأنّه يجمع حوائجي كلّها فأتناولها منه كما أُريد من قُرب . فقال لها : هبي لي صندوقاً من هذه الصناديق . قالت : كلّها لك يا أمير المؤمنين . قال : ما أُريدها وإنّما أُريد واحداً منها . فقالت له : خُذ أيّها شئت . قال : هذا الذي جلستُ عليه . قالت : خُذ غيره فإنّ لي فيه أشياءَ أحتاج إليها . قال : ما أُريد غيره . قالت : خُذه يا أمير المؤمنين . فدعا بالخَدم وأمرهم بحَمله ، فحمله حتى انتهى به إلى مجلسه فوضعه فيه . ثم دعا عبيداً له فأمرهم فحفروا بئراً في المجلس عميقةً ، فنُحّي البِساط وحُفرت إلى الماء . ثم دعا بالصندوق فقال : يا هذا ، إنّه بلغنا شيءٌ إن كان حقّاً فقد كَفّنّاك ودفنّاك ودفنّا ذِكرك وقطعنا

(١) اللخناء : التي لم تختتن والخبيثة الرائحة .

أثرك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلاً فإنّا دفنّا الخشب ، وما أهونَ ذلك ! ثم قُذف به في البئر وهيل عليه التُراب وسُوِّيت الأرض ورُدَّ البِساط إلى حاله وجلس الوليد عليه . ثم ما رُئي بعد ذلك اليوم لِوضّاحٍ أثرٌ في الدّنيا إلى هذا اليوم .

قال : وما رأت أمّ البنين لذلك أثراً في وجه الوليد حتى فرّق الموتُ بينهما .

• • •

٤٩

يَزيدُ بن الطَّثْرِيَّة

(الأغاني ج ٨ ص ١٥٥ وما بعدها)

الشاعر

ذكر ابن الكلبيّ أنّ اسمه يزيد بن الصمّة ، أحد بني سَلَمة الخير بن قُشَير . وذكر البصريّون أنّه من ولد الأعور بن قُشَير . وقال أبو عَمرو الشَّيبانيّ : اسمه يزيد بن سَلَمة بن سَمُرة بن سَلمة الخير بن قُشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة ...

والطَّثْرِيَّةُ أمُّه فيما أخبرني به عليّ بن سليمان الأخفش عن السُّكَّريّ عن محمد بن حَبيبَ — امرأةٌ من طَثْر،وهم حيٌّ من اليمن عِدادُهم في جَرْم. وقال غيرُه: إنّ طَثْراً من عَنْز بن وائل ، إخوة بكر بن وائل ...

وزعم بعض البصريّين أنّ الطَّثْريّة ، أم يزيد ، كانت مولعةً .

بإخراج زُبْد اللَّبن ، فسُمّيت الطّثْرية . وطَثْرة اللبن : زُبدتُه .

ويُكنى يزيد أبا المَكْشُوح ، وكان يُلقَّب مُوَدَّقاً ؛ سُمّي بذلك لحُسن وجهه ، وحسن شِعره ، وحلاوة حديثه ، فكانوا يقولون إنّه إذا جلس بين النّساء وَدَّقهن(١) .

عن حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

كان يزيد بن الطثريّة يقول : من أُفحِم عند النّساء فليُنشِد من شعري . قال : وكان كثيراً ما يتحدّث إلى النساء ، وكان يُقال إنّه عِنّين .

مباراته ميّاداً الجَرْميّ في استغواء النساء

عن يحيى بن جابر ، أحد بني عمرو بن كلاب ، عن سُعاد بنت يزيد بن زُرَيق ، امرأةٍ منهم :

أنّ يزيد بن الطّثريّة كان من أحسن من مضى وجهاً وأطيبه حديثاً ، وأنّ النساء كانت مفتونةً به ، وذكر الناسُ أنّه كان عِنّيناً ، وذلك أنّه لا عَقِبَ له ، وأنّ الناس أَمحلُوا حتى ذهبت الدقيقة من المال ونُهِكَت الجليلةُ . فأقبل صِرْمٌ(٢) من جَرْم ساقته السّنة(٣) والجَدْبُ من بلاده إلى بلاد بني قُشير ، وكان بينهم وبين بني قُشير حربٌ عظيمة ، فلم يجدوا بُدّاً من رَمْي قشير بأنفُسِهم لِما قد ساقهم من الجَدْب والمجاعة ودِقّة الأموال وما أشرفوا عليه من الهَلَكة . ووقع الربيعُ في بلاد بني

---

(١) ودقهن : أي فتنهن بجماله وغزله . يقال : ودقت المرأة واستودقت إذا مالت إلى الفحل ، وودق إليه : استأنس

(٢) الصرم : الجماعة من الناس .

(٣) السنة : المحل .

قشير فانتجعها الناسُ وطلبوها ، فلم يَعدُ أن لقِيت جَرْم قُشيراً .
فنصَبتْ قشيرٌ لها الحرب ، فقالت جرم : إنّما جئنا مُستجيرين غيرَ مُحاربين . قالوا « ممّاذا ؟ قالوا : من السّنة والجدْبْ والهَلكــة التي لا باقيةَ لها . فأجارتْهم قشير وسالمتْهم وأرْعَتْهم طَرَفاً من بلادها .

وكان في جرم فتىً يُقال له مَيّاد ، وكان غَزِلاً حسنَ الوجه ، تامّ القامة ، آخذاً بقلوب النساء . والغزَل في جرم جائزٌ حسَن ، وهو في قشيرٍ نائرة . فلمّا نازلت [1] جرمٌ قشيراً وجاورتْها أصبح مَيّادٌ الجَرْميُّ فغدا إلى القُشيريّات يطلب منهنّ الغزل والصِّبا والحديث واستبرازَ الفتيات عند غيبة الرّجال واشتغالهم بالسّقْي والرِّعْية وما أشبه ذلك ، فدفعنه عنهنّ وأسمعنه ما يكرهُ . وراحت رجالهنّ عليهنّ وهنّ مُغْضَبات، فقال عجائزٌ منهنّ : والله ما نَدري أأرعيتُم جَرماً المَرعى أم أرعيتموهم نساءكم ! فاشتدّ ذلك عليهم فقالوا : وما أدراكُنّهَ ؟ قُلن : رجلٌ منذ اليوم ظلّ مُجْحراً [2] لنا ، ما يطلعُ منا رأسُ واحدةٍ ، يَدور بين بيوتنا . فقال بعضُهم : بَيّتوا جرماً فاصطَلِمُوها [3] . وقال بعضُهم : قبيحٌ ! قومٌ قد سقَيتموهم مِياهكم وأرعيتموهم مَراعِيَكم وخلَطْتموهم بأنفُسكم وأجَرْتمُوهم من القَحط والسّنة تفتاتون [4] عليهم هذا الافتيات ! لا تفعلوا ، ولكن تُصبحوا وتَقدّموا إلى هؤلاء القوم في هذا الرجل ، فإنه سَفيهٌ من سُفهائهم فَلْيأخُذوا على يدَيه ؛ فإن يفعلوا فأتمُّوا لهم إحسانَكم ، وإن يَمتنعوا ويُقِرُّوا ما كان منه يَحِلّ لكم البَسْطُ عليهم وتخرُجوا من ذِمّتهم . فأجمَعُوا على ذلك .

---

(١) نازلتها : نزلت معها في ديارها .

(٢) أجحره : ألجأه أن يدخل جحره ، والمراد أنه ألجأهن إلى التزام بيوتهن بتعرضه لهن .

(٣) اصطلموها : استأصلوها .

(٤) افتات عليه : حكم . وافتأت عليه (بالهمز) : اختلق عليه الباطل .

فلمّا أصبَحُوا غدا نفرٌ منهم إلى جَرم فقالوا : ما هذه البِدْعة التي قد جاورتُمونا بها ! إن كانت هذه البدعة سَجيّةً لكم فليس لكم عندنا إرعاءٌ ولا إسقاء ، فبَرِّزُوا عنّا أنفسكم وأذَنوا بحَربٍ ، وإن كان افتتاناً فغَيِّروا على من فعله [1] . وإنّهم لم يَعدُوا أن قالوا لجرم ذلك ، فقام رجالٌ من جرم وقالوا : ما هذا الذي نالكم ؟ قالوا : رجلٌ منكم أمسِ ظلّ يجُرُّ أذياله بين أبياتنا ما نَدري عَلامَ كان أمره ! فقهقهت جرمٌ من جفاء القُشيريين وعَجْرَفيّتها [2] وقالوا : إنّكم لَتَحسُّون من نسائكم ببَلاء ، ألا فابعثوا إلى بيوتنا رجلاً ورجلاً . فقالوا : والله ما نحسّ من نسائنا ببَلاء وما نعرف منهنّ إلاّ العفّةَ والكرم ، ولكن فيكم الذي قُلتم . قالوا : فإنّا نبعث رجلاً إلى بيوتكم يا بني قُشير إذا غدت الرّجالُ وأُخلف النساء ، وتبعثون رجلاً إلى البيوت ، ونتحالف أنّه لا يتقدم رجلٌ منّا إلى زوجةٍ ولا أخت ولا بنت ولا يُعلمها بشيءٍ ممّا دار بين القوم ، فيظلّ كلاهما في بيوت أصحابه حتى يَرِدا علينا عَشِيّاً الماءَ ، وتُخلى لهما البيوت ، ولا تبرُز عليهما امرأةٌ ولا تُصادِق منهما واحداً فيُقْبَل منهما صَرْفٌ ولا عَدْلٌ [3] إلاّ بمَوْثِقٍ يأخذه عليها وعلامةٍ تكون معه منها . قالوا : اللّهم نعم . فظلُّوا يومَهم ذلك وباتوا ليلَتهم ، حتى إذا كان من الغد غدَوا إلى الماء وتحالَفُوا أنّه لا يعود إلى البيوت منهم أحدٌ دون الليل .

وغدا مَيّاد الجرميّ إلى القشيريّات ، وغدا يزيد بن الطّريّة القُشيريّ إلى الجرميّات ، فظلّ عندهنّ بأكرم مَظَلّ ، لا يصير إلى واحدة منهنّ إلا افتُتِنت به وتابعتْه إلى المودّة والإخاء وقبض منها رَهْناً وسألتْه ألاّ

---

(١) غير عليه : زجره وردعه .

(٢) العجرفة والعجرفية : جفوة في الكلام والخلق .

(٣) الصرف والعدل في الحديث : التوبة والفدية أو الوزن والكيل ، والمراد لا يقبل قولهما ودعواهما .

يدخل من بيوت جرم إلاّ بيتَها ، فيقول لها : وأيَّ شيء تخافين وقد أخذتِ منيّ المواثيق والعُهود وليس لأحدٍ في قلبي نصيبٌ غيرِك . حتّى صُليت العصرُ ، فانصرف يزيد بفتَخ[1] كثير وذَبْل[2] وبراقعَ ، وانصرف مكحولاً مدهوناً شبْعانَ ريّان مُرَجّل اللمّة[3] . وظلّ ميّادٌ الجرميّ يدور بين بيوت القشيريّات مَرجوماً مُقْصىً لا يتقرّب إلى بيت إلاّ استقبلتْه الولائدُ بالعمَد والجنْدَل ، فتهالك لهنّ وظنّ أنه ارتيادٌ[4] منهنّ له ، حتى أخذه ضربٌ كثير بالجندل ورأى البأس منهنّ وجهَده العطش ، فانصرف حتى جاء إلى سَمُرة[5] قريباً إلى نصف النهار ، فتوسّد يدَه ونام تحتَها نُوَيمةً حتى أفرجتْ عنه الظّهيرةُ وفاءت الأظلال وسكن بعضُ ما به من ألم الضرب وبَرَد عطشُه قليلاً ، ثم قرُب إلى الماء حتى ورد على القوم قبل يزيد ، فوجد أمَةً تذُود غنماً في بعض العَطَن[6] ، فأخذ بُرقُعَها فقال : هذا برقُع واحدةٍ من نسائكم ، فطرحه بين يدَي القوم ؛ وجاءت الأمة تعدُو فتعلّقت ببرقعها ، فرُدَّ عليها ، وخجل ميّاد خجلاً شديداً . وجاء يزيدُ مُمسياً وقد كاد القوم أن يتفرّقوا ، فنثر كُمّه بين أيديهم ملآنَ براقعَ وذَبْلاً وفتَخاً ؛ وقد حلف القوم ألاّ يعرف رجلٌ شيئاً إلاّ رفعه . فلمّا نثر ما مَعه اسودّت وجوهُ جَرم وأمسكوا بأيديهم[7] إمساكةً ، فقالت قشير : أنتم تعرِفون ما كان بيننا أمسِ من العهود والمواثيق وتحرُّج الأموال والأهل ، فمن شاء أن ينصرف

---

(١) الفتخ : حلقة من فضة لا فص لها .

(٢) الذبل : عظام ظهر دابة من دواب البحر تتخذ النساء منه الأساور والأمشاط .

(٣) اللمة : ما جاوز شحمة الأذن من الشعر .

(٤) الارتياد : الطلب .

(٥) السمرة : ضرب من شجر العضاه ذو شوك .

(٦) العطن : مربض الغنم حول الماء . وفي روايات أخرى : الظعن وهو النجعة ، وما أثبتناه أجود .

(٧) أمسكوا بأيديهم : أي قبضوا أيديهم ولم يمدوها إلى شيء مما وضع أمامهم .

إلى حرامٍ فليُمْسِكْ يده . فبسط كلّ رجلٍ يده إلى ما عَرَف فأخذه ، وتفرّقوا عن حرب وقالوا : هذه مَكيدةٌ يا قُشير . فقال في ذلك يزيد ابن الطَّثْريّة :

فإنْ شئتَ يا مَيّاد زُرنا وزُرتُم ولم نَنْفَس الدنيا على من يُصيبُها
أيذهب ميّادٌ بألبابِ نِسوتي ونسوة ميّادٍ صحيحٌ قلوبُها [1]

وقوع ابن الطثرية في حبّ وحشيّة الجرميّة وأخباره معها

قال: وبُلي يزيد بعشق جارية من جَرْم في ذلك اليوم يُقال لها وَحشيّة، وكانت من أحسن النساء ، ونافرتهم جرمٌ فلم يجد إليها سبيلاً ، فصار من العشق إلى أن أشرف على الموت واشتدّ به الجَهْد ، فجاء إلى ابن عمّ له يقال له خَليفة بن بَوْزَل ، بعد اختلاف الأطبّاء إليه ويأسهم منه ، فقال له : يا بن عمٍّ ، قد تعلم أنه ليس إلى هذه المرأة سبيلٌ ، وأنّ التعزّي أجمل ، فما أرَبُك في أن تقتل نفسك وتأثم بربّك ! قال : وما همّي يا بن عمّ بنفسي وما لي فيها أمرٌ ولا نهي ، ولا همّي إلاّ نفسُ الجَرميّة ، فإن كنت تريد حياتي فأرِنيها . قال : كيف الحيلة ؟ قال : تحملني إليها . فحمله إليها وهو لا يطمع في الجرميّة ، إلاّ أنهم كانوا إذا قالوا له : نذهب بك إلى وحشيّة أبَلّ قليلاً وراجع وطمِع ، وإذا أيِس منها اشتدّ به الوجع . فخرج به خليفةُ بن بوزَل فحمله فتخلّل به [2] اليمن ، حتى إذا دخل في قبيلة انتسب إلى أخرى ويُخبِر أنّه طالب حاجة . وأبلّ حتى صلَح بعض الصّلاح ، وطمع فيه ابنُ عمّه ، وصارا بعد زمانٍ إلى حيّ وحشيّة فلقيا الرّعيان وكَمنا في جبل من الجبال ؛ فجعل

---

(١) نفس عليه الشيء : حسده عليه .
(٢) تخللهم : دخل بينهم .

خليفةُ ينزل فيتعرّض لرُعيان الشّاء فيسألهم عن راعي وحشيّة ، حتى لقي غلامَها وغنمها ، فواعدهم مَوعداً وسألهم : ما حالُ وحشيّة ؟ فقال غلامها : هي والله بِشَرٍّ ، لا حفِظ الله بني قُشير ولا يوماً رأيناهم فيه ! فما زالت عليلةً منذ رأيناهم — وكان بها طَرَفٌ مما بابن الطَّثْريّة — فقال : ويحَك ! فإنّ ها هنا إنساناً يُداويها ، فلا تقل لأحدٍ غيرِها . قال : نعم ، إن شاء الله تعالى . فأعلمها الراعي ما قال له الرجل حين صار إليها ، فقالت له : ويحَك ! فجِيءْ به . ثم إنّه خرج فلقيه بالغد فأعلمه ، وظلّ عنده يرعى غنمه ، وتأخّر عن الشاء حتى تقدّمتْه الشّاءُ وجنَحَ الليلُ ، وانحدر بين يديّ غنمه حتى أراحها . ومشى فيها يزيد حتى قَرُبت من البيت على أربع (١) ، وتجلّل شَمْلةً سوداء بلون شاةٍ من الغنم ، فصار إلى وحشيّةَ ، فسُرّت به سروراً شديداً وأدخلتْه ستراً لها ، وجمعت عليه من الغد من تثق به من صُوَيحباتها وأترابها . وقد كان عهد إلى ابن عمّه أن يُقيم في الجبل ثلاث ليالٍ ، فإن لم يَرَه فَلْينصرفْ . فأقام يزيد عندها ثلاثَ ليالٍ ورجع إلى أصحّ ما كان عليه ، ثم انصرف فصار إلى صاحبه . فقال : ما وراءَك يا يزيد ؟ ورأى من سروره وطِيب نفسه ما سرّه ، فقال :

لو انّك شاهدت الصِّبا يا بن بَوْزَلٍ
بجِزْعِ الغَضَى إذ راجعتْني غياطِلُهْ
اشاهدت لهواً بعد شَحطٍ من النَّوَى
على سَخَطِ الأعداء حلواً شمائلُه
ويوماً كإبهام القَطاةِ مُزَيَّنــــاً
لِعَيني ضُحاه غالياً لي باطله (٢)

---

(١) على أربع : يريد أنه مشى على أربع ليظن أنه شاة .
(٢) الغياطل ج غيطلة : الظلمة المتراكبة ، أراد بها هنا جهالات الصبا . الشحط : البعد . =

عليّ بن الصبّاح قال :

قال أبو مَحْضَة الأعرابيّ ، وأنشد هذه الأبيات ليزيد بن الطثرية ، فلمّا بلغ إلى قوله :

بنفسيَ مَن لو مَرّ بَرْدُ بَنانِـــه | على كبدي كانت شِفاءً أناملُه
ومَن هابني في كلّ أمرٍ وهِبْتُـه | فلا هو يُعطيني ولا أنـا سائلُه

طَرِب لذلك وقال : هذا والله من مغنج الكلام .

ظَبْيةُ بنت وزير الباهليّة قالت :

كتب يزيد بن الطَّثْريّة إلى وحشيّة :

أُحبّك أطرافَ النّهـار بَشاشةً | وباللّيل يدعُوني الهـوى فأجيبُ
لَئن أصبحت ريحُ المودّة بيننـا | شَمالاً لَقِدْماً كنتِ وهي جَنوبُ

فأجابته بقولها :

أُحبّك حبَّ اليأس إن نفع الحيـا | وان لم يكن لي من هواك طبيبُ (١)

عن أبي زيادٍ قال :

كان يزيد بن الطَّثْريّة يتحدّث إلى نساء فُدَيك بن حَنْظلة الجَرْميّ ، ومنزلهما بالفَلَج (٢) . فبلغ ذلك فُديكاً فشقّ عليه فزجر نساءَه عن ذلك فأبَيْن إلاّ أن يدخل عليهنّ يزيدُ . فدخل عليهنّ فُديكٌ ذاتَ يوم .

= كإبهام القطاة : أي هو قصير كإبهام القطاة ، والقطا يضرب المثل بقصر إبهامها .

(١) لا يتضح المقصود بقولها : إن نفع الحيا ، وقد استظهر محقق المطبوعة أن من المحتمل كون هذه العبارة محرفة عن : أحبك حب الناس أن يقع الحيا ، والحيا هنا : المطر .

(٢) الفلج : مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة وقشير ، وكان بنو جرم مجاورين لقشير يومذاك ، وتعرف الفلج اليوم باسم الأفلاج .

وقد جمعهن جميعاً أخواته وبنات عمه وغيرهن من حرمه ، ثم قال لهن : قد بلغني أن يزيد دخل عليكن ، وقد نهيتكن عنه ، وإن لله علي نذراً واجباً – واخترط سيفه – إن لم أضرب أعناقكن به . فلما ملأهن رعباً ضرب عنق غلام له مولد يقال له عصام فقتله ، ثم أنشأ يقول :

جعلت عصاماً عبرة حين رابني أناسي من أهلي مراض قلوبها

ثم إن فديكاً رأى يزيد قائماً عند باب أهله ، فظن أنه يواعد بعض نسائه ، فارتصده على طريقه وأمر بزبية [1] فحفرت على الطريق ، ثم أوقد فيها ناراً لينة ، ثم اختبأ في مكان ومعه عبدان له وقال لهما : تبصرا هل تريان أحداً . فلم يلبثا إلا قليلاً حتى خرجت بنت أخي فديك – وكان يقال لها وحشية – تتهادى في برودها لميعاد يزيد ، فأيقظه العبدان ؛ ومضت حتى وقعت على الزبية ، فاحترق بعضها ، وأمر بها فأخرجت ، واحتملها العبدان فانطلقا بها إلى داره . فقال فديك :

شفى النفس من وحشية اليوم أنها
تهادى وقد كانت سريعاً عنيقها
فإلا تدع خبط الموارد في الدجى
تكن قمناً من غشية لا تفيقها
دواء طبيب كان يعلم أنه
يداوي المجانين المخلى طريقها [2]

فبلغ ذلك يزيد فقال :

---

(١) الزبية : الحفرة تحفر ليقع فيها الأسد .

(٢) العنيق : من أعنق في سيره إذا سار سيراً سريعاً ممتداً . قمناً وقميناً : جديراً وخليقاً .

سَتَبْرَأُ من بعد الضَّمانة رِجْلُها وتأتي الذي تَهوَى مُخَلَّى طريقُها
عليَّ هَدايا البُدْنِ إن لم أُلاقِها وإن لم يكن إلاّ فُدَيكٌ يَسُوقُها
تُذيقونَها شيئاً من النّار كلّما رأت من بني كعبٍ غلاماً يروقُها[1]

قال : وانما كانت وضعت رجلها فأحرقتها النار .

عن رجل من بني عامر ثم من بني خفاجة قال :

استعدَتْ جرمٌ على ابن الطثرية في وحشيّة ، فكتب بها صاحبُ اليمامة إلى ثَور أخي يزيد بن الطثرية وأمره بأدَبه ، فجعل عقوبته حَلْقَ جُمّته[2] ، فحلَقها ، فقال يزيد :

أقول لثورٍ وهو يحلِقُ جُمَّتي بحَجْناء مَردُودٍ عليها نِصابُها
ترفّقْ بها يا ثورُ ليس ثوابُها بهذا ولكنْ غيرُ هذا ثوابُها
ألا رُبّما يا ثورُ قد غَلَّ وسطَها أناملُ رَخْصاتٌ حديثٌ خِضابها
وتَسلكُ مِدرَى العاج في مُدْلهمةٍ اذا لم تُفَرَّجْ مات غَمّاً صُؤابُها
فراح بها ثورٌ تَرِفُّ كأنّها سلاسلُ دِرْعٍ خِيرُها وانسكابُها
مُنَعَّمةٌ كالشَّرْية الفَرْدِ جادها نِجاءُ الثُريّا هَطْلُها وذِهابُها

---

(١) الضمانة : العلة في الجسد والعاهة ، يشير إلى احتراق رجلها . هدايا البدن : ما يهديه الحاج من الابل والبقر إلى مكة ، واحدتها بدنة . بنو كعب : قبيلة قيسية ضخمة تنتمي إليها عشائر كثيرة ومنها قشير وجعدة وعقيل .

(٢) في المطبوعة : لمتي ، وكذا في شطر البيت الأول ، واللمة هي ما جاور شعر الأذن من الشعر ، وقد رجحنا أنها محرفة عن جمة ، وهي مجتمع شعر الرأس ، لأن سياق الأبيات يدل على ذلك ، ولا سيما البيت الأخير ، فهو يشبه رأسه بعد حلق شعره بصخرة ، ويدل على ذلك أيضاً الخبر الذي أورده أبو الفرج بعد هذه الأبيات فهو يسوق فيه أخبار من حلقت جمتهم ، وكان حلق شعر الرأس عقوبة شائعة في مثل هذه الأحوال .

فأصبح رأسيَ كالصُّخَيرة أشرفت   عليها عُقابٌ ثم طارت عُقابُها [1]

سائر أخباره

• قال أبو عثمان سعيد بن طارق :

نزلت سارية [2] من بني سِدْرة على بني قشير بمالهم ، فجعلت فتيان قشير ترجّل وتتزيّن وتزور بيوتَ سِدْرة ، فاستنهوْهم ؛ فقال يزيد ابن الطثْرية : وما في هذا عليكم ! زُوروا بُيوتنا كما نَزُور بيوتكم، وقال :

دعُوهنّ يَتْبَعنَ الصِّبا وتبادلـــوا   بنا ليس بأسٌ بينَنا بالتّبادلِ

ثم انّ بني سِدْرة قالوا لنسائهم : ويحكنّ فَضَحْتُنّنَا ! نأتي نساءَ هؤلاء فلا نَقدِر عليهنّ ويأتونكنّ فلا تَحْتَجِبنَ عنهم . فقالت كهلةٌ منهنّ : مُرُوا نساءكم يجتمعن إلى بيتي ، فإذا جاؤوا لم يجدوا امرأةً إلاّ عندي ، فإنْ يزيدُ أتاني لم يَعْدُ في بيوتكم . ففعلوا . فجاء يزيد فقال :

سلامٌ عليكنّ الغَداة فما لنـــا   إليكنّ إلاّ أن تَشَأنَ سبيل

فقالت الكهلةُ : ومن أنت ؟ فقال :

أنا الهائمُ الصَّبُّ الذي قاده الهـــوى   إليكِ فأمسى في حِبالكِ مُسْلَما
بَرَتْه دواعي الحُبّ حتى تركْنَـــه   سقيماً ولم يَتْرُكنَ لحماً ولا دَمَا

---

(١) حجناء : معقوفة ، أراد موسى الحلاقة . غل وسطها : تخلل وسطها . المدرى : المشط . ملمة : شديدة السواد ، يصف لمته بسواد شعرها. رف لونه : برق وتلألأ . الحير : الهيئة . الشرية : شجرة الحنظل . النجاء ج نجو : السحاب هراق ماءه . النهاب جمع ذهبة بكسر أوله : المطرة الضعيفة .

(٢) سارية ، جماعة تسري .

فقالت : اختَرْ إحدى ثلاث خِصال : إمّا أن تمضيَ ثم ترجعَ علينا فإنّا نرقُب عيون الرّجال فإنّهم قد سَبَّونا فيك ؛ وإمّا أن تختار أحَبَّنا إليك ، وأن تطلب امرأةً واحدةً خيرٌ من أن يَشْهَرَك الناسُ — ونسي الثالثة — فقال : سآخُذ إحداهنّ ...

* قال اسحاق : فأخبرني الفَزاريّ : أنّ قوماً من بني نُمير وقوماً من بني جعفر تزاوروا ، فزار شبّانٌ من بني جعفر بيوت بني نمير ، فقُبلوا وحُدّثوا . وزار بنو نمير بني جعفر فلم يُقْبَلوا . فاستنجدوا بابن الطّثْريّة ، فزار معهم بيوت بني جعفر ، فأنشدهنّ وحدّثهنّ ، فأعْجبن به واجتمعن إليه من البُيوت . فتوعّد بنو جعفر ابنَ الطّثْريّة ، فتَتاركُوا وأمسك بعضُهم عن بعض . فأرسلت أسماءُ الجعفريّة إلى ابن الطثْرية أن لا تَقطَعْني وان مُنعتُ فإنّي سأتخلّص إلى لقائك . فأنشأ يقول :

خليليَّ بين المُنْحنَى من مُخَمَّر ... وبين اللّوى من عَرْفَجاء المُقابلِ
قِفا بين أعناق اللّوى لِمُرِيَّةٍ ... جَنُوبٍ تُداوي غُلَّ شوقٍ مُماطِلِ
لكيما أرى أسماءَ أو لِتَمسَّني ... رياحٌ بريّاها لِذاذُ الشّمائلِ
لقد حادلت أسماءُ دونك باللّوى ... عُيون العِدا سَقْياً لها من مُحادِلِ
ودسّت رسولاً أنّ حولي عِصابةً ... همُ الحَرْبُ فاستبطِنْ سلاحَ المُقاتل
عشيّةَ مالي من نصيرٍ بأرضِها ... سوى السّيفِ ضَمّتْه إليَّ حَمائلي
فيأيُّها الواشون بالغِشّ بينَنا ... فُرادى ومَثْنَى من عدوٍّ وعاذلِ
دعُوهنّ يتبَعْن الهوى وتبادلُوا ... بنا ليس بأسٌ بيننا بالتّبادُلِ
ترَوا حين نَأتيهنّ نحن وأنتمُ ... لِمَن وعلى مَن وَطْأةُ المتثاقل
ومَن عُرّيت للّهو قِدماً ركابُه ... وشاعت قوافي شعره في القبائل
تُبَرِّزْ وجوهُ السابقين ويَخْتلِط ... على المُقرِف الكاني غُبارُ القنابلِ
فإن تمنعوا أسماءَ أو يكُ نفعُها ... لكم أو تَدِبُّوا بيننا بالغوائل

فلن تمنعُوني أن أعلّلَ صُحبتي   على كلّ شيءٍ من مَدى العين قابلِ (١)

* أبو الغَرّاف قال :

كان يزيد بن الطثْريّة صاحب غزلٍ ومحادثةٍ للنساء ، وكان ظريفاً جميلاً من أحسن الناس كلّهم شعراً ، وكان أخوه ثَورٌ سيّداً كثير المال والنّخل والرّقيق ، وكان متنسّكاً كثير الحجّ والصَّدَقة ، كثير الملازمة لإبله ونخله ، فلا يكاد يُلمّ بالحيّ إلاّ الفَلْتَه والوَقْعة (٢) ، وكانت إبله ترد مع الرِّعاة على أخيه يزيد بن الطثْريّة فتُسقى على عينيه .

فبينا يزيد مارٌّ في الإبل وقد صدَر عن الماء ، إذ مرّ بخِباء فيه نسوةٌ من الحاضر ، فلمّا رأينه قلن : يا يزيد ، أطعِمْنا لحماً . فقال : أعطينني سِكّيناً . فأعطينه ، ونحر لهنّ ناقةً من إبل أخيه . وبلغ الخبر أخاه ، فلمّا جاءه أخذ بشَعره وفسّقه وشتمه . فأنشأ يزيد يقول :

يا ثورُ لا تَشْتُمَنْ عِرضي فِداك أبي   فإنّما الشّتمُ للقوم العواويرِ
ما عَقْرُ نابٍ لأمثال الدُّمى خُرُدٍ   عِينٍ كِرامٍ وأبكارٍ مَعاصِير
عَطَفن حوليَ يسألن القِرى أُصُلاً   وليس يَرضَينَ منّي بالمعاذير

(١) مخمر : واد لبني قشير . عرفجاء : ماء لبني قشير أو بئر لبني جعفر بن كلاب . حادلت : راوغت . المقرف : الفرس الهجين ، والمقرف من الناس : من كانت أمه عربية وأبوه غير عربي . الكافي : فسرها محقق المطبوعة بالخادم ، والشاعر إنما يصف الفرس غير السابق ، يريد به منافسيه ، ولعلها محرفة عن « الكابي » . القنابل ج قنبلة : الجماعة من الخيل . الغوائل : الدواهي .
(٢) الفلتة والوقعة : أي كان يلم بالحي أوقاتاً يسيرة .

هَبْهن ضيفاً عَراكم بعد هَجْعتكم
في قِطْقطٍ من سَقيط الليل منثور

وليس قُرْبَكم شاءٌ ولا لَبَنٌ
أيرحل الضيفُ عنكم غيرَ مَجْبور

ما خيرُ واردةٍ للماء صادرةٍ
لا تَنجلي عن عَقيرِ الرِّجل منحورِ[1]

• أبو مُحَلِّم قال :

كان ليزيد بن الطَّثْريّة أخٌ يُقال له ثورٌ أكبرُ منه ، فكان يزيد يُغير على ماله ويُتلفه ، فيتحمّله ثورٌ لمحبّته إيّاه . فقال يزيد في ذلك :

نُغيرُ على ثَورٍ وثورٌ يَسُرُّنا ... وثورٌ علينا في الحياة صَبُورُ
وذلك دَأبي ما حَييتُ وما مشَى ... لِثورٍ على عَفْر التُّراب بعير

• الزبير بن بكّار قال : حَدّثتني ظَبيةُ قالت :

مرّ يزيد بن الطثرية بأعداء له ، فأرادوه وهو على راحلته ، فركَضها وركضُوا الإبل على أثره ، فخشي أن يُدركوه ، وكانت نفسُه عنده أوثقَ من الراحلة ، فنزل فسبقهم عَدْواً ، وأدركوا الراحلة فعقَروها ، فقال في ذلك :

ألا هل أتى ليلَى على نَأي دارها ... بأن لم أُقاتِلْ يومَ صَخرٍ مُذَوَّدا
وأنّي أسلمتُ الرِّكابَ فعُقِّرت ... وقد كنت مِقداماً بسيفيَ مُفرَدا
أثرت فلم أسطِعْ قِتالاً ولا ترى ... أخا شيعةٍ يوماً كآخرَ أوحَدا

---

(1) العواوير ج عوار (بضم أوله) : الضعيف الجبان . الناب : الناقة المسنة . الخرد ج خريدة : البكر الحيية . العين ج عيناء : الواسعة العينين . المعاصر ج معصر : الجارية أدركت وبلغت سن الشباب . القطقط : المطر المتتابع . السقيط : الندى والثلج .

فهل تَصرِمَنَّ الغانياتُ مودّتـي   اذا قيل قد هاب المَنُونَ فعَرّدا (١)

* قال اسحاق : وحدّثني أبو زِياد الكلابيّ :

أن يزيد بن الطثْرية كان شريفاً متلافاً يغشاه الدَّيْن ، فإذا أُخذ به قضاه عنه أخٌ له يُقال له ثَور . ثم إنّه كثر عليه دَين لمولى لعُقبةَ بن شَريك الحَرَشيّ يقال له البربريُّ ، فحبسه له عُقبة بالعَقيق (٢) من بلاد بني عُقيل ، وعُقبة عليها يومئذٍ أميرٌ . وقال المفضَّل بن سَلَمة قال أبو عمرو الشيبانيّ : كان يزيد قد هرَب منه ، فرجع إليه من حُبّ أسماء ، وكانت جارة البربريّ . ويقال : إنه أعطاه بعيراً من إبل ثور أخيه . فقال يزيد في السجن :

قضى غُرَمائي حبُّ أسماءَ بعدما   تخوّنني ظُلْمٌ لهم وفُجُورُ
فلو قلّ دَين البربريّ قَضَيتُه   ولكنّ دينَ البربريّ كثيرُ
وكنتُ اذا حلّت عليَّ دُيونُهم   أضمُّ جَناحي منهمُ فأطيرُ
عليَّ لهم في كلّ شهرٍ أديَّةٌ   ثمانون وافٍ نَقدُها وجَزُور
نَجيءُ إلى ثورٍ ففيمَ رحيلُنا   وثورٌ علينا في الحياة صَبُور
أشُدّ على ثورٍ وثورٌ اذا رأى   بنا خُلّةً جزْلُ العَطاء غَفُور
فذلك دأبي ما بقِيتُ وما مشى   لثورٍ على ظهر البلاد بعيرُ (٣)

... ثم انّ عُقبة حجّ على جملٍ له يقال له ابنُ الكُميت أنجبَ ما ركب الناسُ ، وثبت ابن الطثْرية في السجن حتّى انصرف عُقبة بن شريك

---

(١) مذوداً : مدافعاً . عرد : فر .
(٢) العقيق ، في الأصل : كل مسيل شقه ماء السيل والوادي ، وقد سمي به طائفة من الوديان والمواضع ومنها عقيق المدينة وعقيق اليمامة .
(٣) سبقت رواية بعض هذه الأبيات في خبر سابق مع اختلاف يسير في الألفاظ . الأدية الأدي : المال القليل . الوافي : درهم وأربعة دوانق . الخلة : الحاجة والفقر .

من مكّةَ ، فأرسل ابنَ الكميت في مَخاضه (١) مُستقبلةً الرّبيع وهي حاضرة العقيق ، تأكل الغَضى وتشرب بأحْسائه (٢) . وانحدر عُقبةُ نحو اليمامة وعليها المُهاجر بن عبد الله الكِلابيّ . فلمّا ضاقت بابن الطّثْرية المخارجُ قال له صاحبٌ له : لا أعلم لك أنْجَى إن قَدَرت على الخروج من السّجن إلاّ أن تركب ابن الكميت فيُنجيك نحو بلدٍ من البلاد . فلم يزل حتى جعل للحَدّاد (٣) — على أن يُرسله ليلةً إلى ابن عمّه — جُعْلاً . فشكا إليه وَجْده بها فأرسله . فمضى يزيد نحو الإبل عِشاءً فاحتكم ابنَ الكميت حتى جلس عايه ، فوجّهه قصدَ اليمامة يريد عُقبة بن شَريك ... فورد اليمامة ، فأناخ بابن الكميت على باب المُهاجر ، فكان أوّل من خرج عليه عُقبة بن شريك ، فلمّا نظر إليه عَرَفه وعرف الجمل فقال : وَيْحَكَ ! فما شأنُك ؟ قال : يا عقبةُ ، فارٌ منك إليك . وأنشده قصيدته التي يقول فيها :

يا عُقبَ قد شُذب اللّحاءُ عن العصا
عنّي وكنتَ مُؤزَّراً محمودا
صِلْ لي جَناحي واتّخِذْني عُدّةً
تَرمي به المُتَعاشِيَ الصِّنْديدا (٤)

فقال له عقبةُ — وكانت من خير فَعْلةٍ علمناه فَعَلها — : أُشهِدكم أنّي قد أبرأتُه من دين البَربريّ وأنّ له ابنَ الكُميت . وأمره أن يحتكم فيما سوى ذلك من ماله . وهذان البيتان من القصيدة التي أوّلها :

---

(١) المخاض : الحوامل من النوق ولا مفرد لها من لفظها وواحدتها خلفة .
(٢) الأحساء ج حسي : سهل من الأرض يستنقع فيه الماء .
(٣) الحداد ، هنا : السجان .
(٤) شذب اللحاء : انتزع القشر ، يريد ما أصابه من فقر وحاجة .

أمسى الشبابُ مُوَدَّعاً محمودا

وهي من جيّد شعره ، يقول فيها :

ومُــدِلّةٍ عند التبــذُّل يفتري ... منها الوِشاحُ مُخَصَّراً أُمْلُودا
نازعتُها غُنْمَ الصِّبا إنّ الصِبــا ... قد كان منّي للكواعب عِيدا
يا للرِّجال وإنّمــا يشكو الفتى ... مَرَّ الحوادث أو يكونُ جَلِيدا
بَكَرَت نَوارُ تَجِدُّ باقيةَ القُوى ... يومَ الفِراق وتُخلِف الموعودا
ولَرُبَّ أمرِ هوًى يكونُ نَدامــةً ... وسبيلِ مَكرهةٍ يكونُ رشيدا [1]

ثم قال يفتخر :

لا أتقي حَسَكَ الضَّغائن بالرُّقَى ... فِعْلُ الذليلِ وإن بقِيتُ وحيدا
لكن أُجَرِّد للضَّغائـن مِثلَهــا ... حتى تَمُوتَ وللحُقودِ حُقودا [2]

مقتلــه

عن أبي عُبيدة وابن الكلبيّ وعن أبي الجَرّاح العُقَيليّ :

أغارت بنو حَنيفة على طائفة من بني عُقيلٍ ، ومعهم رجلٌ من قُشَير جارٌ لهم ، فقُتل القُشيريُّ ورجلٌ من بني عُقيل ، واطَّردت [3] إبلٌ من العُقَيليّين ؛ فأتى الصَّريخُ [4] عُقَيلاً ، فلحِقُوا القومَ فقاتلوهم ،

---

(١) التبذل : ترك التزين . يفتري : يكسو ، وأصلها من لبس الفروة . كذا في المطبوعة ، وأراها مصحفة عن : يقتري ، أي يأكل ، يريد أن وشاحها يجور على خصرها لدقته . الوشاح : أديم عريض يرصع بالجوهر ، تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها . المخصر : الضامر . الأملود : الناعم الغض . الجليد : الشديد القوي . تجد . تقطع .

(٢) الحسك : الحقد والعداوة .

(٣) اطردت الإبل : سرقت وأخذت ، والطريدة : ما يسرق من الإبل .

(٤) الصريخ : طلب النجدة والاستغاثة .

فقَتلوا من بني حَنيفة رجلاً وعَقَروا أفراساً ثلاثةً من خيل حنيفةَ وانصرفوا . فلبِثُوا سنةً .

ثم إنّ عُقيلاً انحدرت مُنتجِعةً (١) من بلادها إلى بلاد بني تميم ، فذُكر لحنيفةَ وهم بالكَوْكَبة والقيضاف ، فغزتْهم حَنيفةُ ، وحذِر العُقَيليّون وأتتْهم النُّذُر من نُمير فانكشفُوا ، فلم يقدِروا عليهم . فبلغ ذلك بني عُقيل وتلهّفوا على بني حنيفة ، فجمعوا جمعاً ليغزُوا حنيفة ، ثم تشاوروا ، فقال بعضهم : لا تغزُوا قوماً في منازلهم ودُورهم فيتحصّنُوا دُونكم ويمتنعوا منكم ، ولا نأمن من أن يفضحوكم . فأقاموا بالعَقيق . وجاءت حنيفةُ غازيةً كَعباً لا تتعدّاها حتى وقعت بالفَلَج ، فتطاير الناس ، ورأسُ حنيفةَ يومئذ المُندلِفُ ، وجاء صريخُ كعبٍ إلى أبي لَطيفة بن مُسلم العُقيليّ وهو بالعقيق أميرٌ عليها ، فضاق بالرسول ذَرْعاً وأتاه هولٌ شديد ، فأرسل في عُقيل يستمدّها ، فأتتْه رَبيعةُ بن عُقيل وقُشير بن كعب والحَرِيش بن كعب وأفناءُ خَفاجةَ ، وجاش (٢) إليه الناسُ فقال : انّي قد أرسلت طليعة فانتظِروها حتى تجيء ونعلمَ ما تُشير به . قال أبو الجرّاح : فأصبح صُبحَ ثالثةٍ على فرسٍ له يهتِف : أعزّ الله نصركم وأمتَعَنا بكم ، انصرِفُوا راشدين فلم يكن بأسٌ . فانصرف الناس ، وسار في بني عمّه ورَهطه دِنْية (٣) . وإنّما فعل ذلك لتكون له السُّمعة والذِّكر ؛ فكان فيمن سار معه القُحَيف بن خُمير (٤) ويزيد ابن الطثْريّة الشاعران . فساروا حتى واجهوا القوم فواقعُوهم ، فقُتل المُنْدَلِف ، رمَوه في عينه ، وسبَوا وأسروا ومَثّلُوا بهم وقطعوا أيدي اثنين منهم وأرسلوهما إلى اليمامة وصنعوا ما أرادوا . ولم يُقتَل ممّن كان

---

(١) انتجع : طلب الكلأ والمرعى .

(٢) جاش اليه الناس : ساروا إليه ليلا واحتشدوا .

(٣) دنية : الدانون منه في النسب .

(٤) في القاموس المحيط : القحيف بن عمير .

مع أبي لَطيفة غيرُ يزيد بن الطّثْريّة ، نشِب [1] ثوبُه في جِذْلٍ من عُشَرَة [2] ، فانقلب ، وخبَطه القوم فقُتل . فقال القُحَيف يرثيه :

ألا تبكي سَراةُ بني قُشيرٍ على صِنديدها وعلى فتاها
فإن يُقْتَلْ يزيدُ فقد قتلْنا سراتَهم الكُهولَ على لِحاها
أبا المكشُوح بعدَكَ مَن يُحامي ومن يُزجي المطيَّ على وَجاها [3]

• • •

(1) نشب ثوبه : علق .

(2) الجذل : أصل الشجرة . العشرة : شجرة من العضاه ، والعضاهة : ضرب من الشجر الشائك ضخم .

(3) أبو المكشوح : كنية ابن الطثرية . الوجى : ما يصيب أخفاف الإبل من كثرة السير .

ثالثاً : سائر شعراء العصر الأُموي

٥٠

الأُقَيْشِر الأَسَدِيّ

(الأغاني ج : ١١ ص ٢٥١ وما بعدها)

الشاعر

الأُقَيشِر لقبٌ غلَب عليه لأنّه كان أحمرَ الوجه أقشَر ، واسمُه المغيرةُ بن عبد الله بن ... أسَد ... وكان يُكنَى أبا مُعْرِض . وقد ذكر ذلك في شعره في مواضعَ عِدّة ، ... وعُمّر عُمراً طويلاً ، فكان أقعَد[1] بني أسد نسباً ، وما أخلقه بأن يكون وُلد في الجاهليّة ، ونشأ في أوّل الإسلام ...

(١) أقعدهم نسباً : أي أقربهم نسباً إلى الأب الذي ينحدرون منه .

عن محمّد بن سلاّم قال : كان الأُقيشر كُوفيّاً خليعاً ماجناً مُدمناً لشُرب الخمر ، وهو الذي يقول لنفسه :

فإنّ أبا مُعرِضٍ إذ حسَا ... من الرّاح كأساً على المِنْبَرِ
خطيبٌ لبيبٌ أبو مُعرِضٍ ... فصار خَليعاً على المَكْبَرِ
أحلّ الحَرامَ أبو مُعرِضٍ ... فإن لِيم في الخمر لم يَصبرِ
يُجلّ اللئامَ ويلحَى الكرامَ ... وإن أقصَروا عنه لم يُقصِرِ (١)

عن محمّد بن معاوية قال : غنّت جاريةٌ عند عبد الملك بن مروان بشعر الأُقيشر :

قرّب اللهُ بالسّلام وحيّا ... زكريّا بنَ طَلحةَ الفيّاضِ
مَعدِنُ الضيف إن أناخوا إليه ... بعد أيْنِ الطّلائح الأنقاضِ
ساهماتُ العيون خُوصٌ رَذايا ... قد بَراها الكَلالُ بعد إياضِ
زاده خالدُ ابنُ عمّ أبيه ... مَنْصِباً كان في العُلا ذا انتقاضِ
فَرعُ تَيمٍ من تَيْمِ مُرّةَ حقّاً ... قد قَضى ذاك لابنِ طلحةَ قاضِ (٢)

فقال عبد الملك للجارية : ويحَك ! لِمن هذا ؟ قالت : للأُقيشر. قال : هذا المدحُ لا على طَمَعٍ ولا فَرَقٍ ، وأشعر الناس الأُقيشر.

وذكر عبد الله بن خَلف أنّ أبا عمرو الشّيباني أخبره أن الكميت بن زيد لقي الأُقيشر في سَفرةٍ ، فقال له : أين تقصِدُ يا أبا مُعرِض ؟ فقال :

---

(١) المكبر : الكبر في السن .

(٢) معدن : من عدن بالمكان أي نزل به وأقام. الأين : التعب . الطلائح ج طليح وطليحة: الدابة التي أعياها السير . الأنقاض ج نقض : المهزول من السير . الخوص : الغائرة العيون . الرذايا ج رذي ورذية : المهزول . الأيض : تحول الشيء عن حاله ، والرجوع . انتقض البناء : تهدم .

سالني الناس أين يقصِد هــذا | قلت آتي في الدار قَرْماً سَريّا
ما قطعتُ البلاد أسري ولا يَمّمْتُ إلاّ إيّاك يــا زكريــا
كم عطــاءٍ ونائــلٍ وجزيلٍ | كان لي منكمُ هنيّاً مَريّــا

فلم يزل الكميت يستعيــده إيّاها مِراراً ، ثمّ قال : ما كذب مَن قال إنّك أشعر الناس .

طائفة من أخباره

• نسخت من كتاب عبد الله بن خلَف : حدّثني أبو عَمرو الشيبانيّ قال :

شرب الأقيشر في بيت خَمّار بالحِيرة ، فجاءه الشُّرَط ليأخذوه ، فتحرّز منهم وأغلقِ بابه وقال : لست أَشرب ، فما سبيلُكم عليّ ؟ قالوا : قد رأينا العُسَّ (١) في كفّك وأنت تشرب . قال : إنّما شربت من لبن لِقْحةٍ (٢) لصاحب الدّار . فلم يبرحوا حتّى أخذوا منه درهمين . فقال :

إنّمــا لِقْحَتُنــا باطِيــــةٌ | فإذا ما مُزِجت كانت عَجَبْ
لبنٌ أَصفرُ صــافٍ لونُــــه | يَنزِع الباسُورَ من عَجْبِ الذَّنَب
إنّمــا نشرب مــن أموالنــا | فسَلُوا الشُّرطيَّ ما هذا الغضب (٣)

• أبو الفَيّاض بن أبي شُراعةَ عن أبيه قال :

شرب الأقيشر بالحِيرة في بيت فيه خيّاطٌ مُقْعَدٌ ورجلٌ أعمى ، وعندهم مُغَنٍّ مُطرب . فطرب الأقيشر ، فسقاهم من شرابه ، فلمّا

(١) العس : القدح العظيم .
(٢) اللقحة : الناقة الحلوب .
(٣) الباطية : إناء الخمرة . العجب : أصل الذنب .

انتشَوا وثب الأعمى يسعى في حوائجهم ، وقفز الخيّاط المُقْعَد يرقُص على ظَلَعٍ [1] ، يجهَد في ذلك كلّ جَهْد . فقال الأقيشر :

ومُقعَد قومٍ قد مشَى من شَرابنا وأعمى سقيناه ثلاثاً فأبصرا
شراباً كريح العنبر الوَرْدِ رِيحُه ومسحوقِ هِنديّ من المسك أذفرا
من الفتَيات الغُرّ من أرض بابلٍ اذا شفّها الحاني من الدَّنّ كبَّرا
لها من زُجاج الشام عُنْقٌ غَرِيبةٌ تأنّق فيها صانعٌ وتخيّرا
ذخائرُ فرعونَ التي جُبِيت له وكُلٌّ يُسمّى بالعَتيق مُشهَّرا
إذا ما رآها بعد إنقاء غَسْلها تدورُ علينا صائمُ القوم أفطرا [2]

• سَلَمة بن عبد سُواعَ عن أبيه قال :

كان الأقيشر لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم ، يجعل درهمين في كِراء بغل إلى الحِيرة ، ودرهمين للشراب ، ودِرهماً للطعام . وكان له جارٌ يُكنَى أبا المَضاء له بغلٌ يُكريه ، وكان يُعطيه درهمين ويأخذ بغله فيركبه إلى الحِيرة،حتى يأتي بيت الخَمّار فينزل عنده ويربُطه بلجامه وسَرْجه – فيقال إنه أعطى ثمنه في الكِراء – ثم يجلس فيشرب حتى يُمسي ، ثم يركبه وينصرف . فقال في ذلك :

يا بغلُ بغلَ أبي المَضاء تعَلّمَنْ أنّي حلفتُ ولليمينِ نُذورُ
لتُعَسَّفَنّ وإن كرهتَ مَهامهاً فيما أُحبّ وكلُّ ذاك يَسيرُ
بالرَّغم يا ولدَ الحمار قطعتَها عَمداً وأنت مُذَلّلُ مَصبور
حتى تزورَ مُسَمّعاً في داره وترى المُدامة بالأكفّ تدور

---

(١) على ظلع : على عرج خفيف .
(٢) مسك أذفر : جيد للغاية . شفها : شربها . الحاني : بائع الخمرة ، نسبة إلى الحانة ، وخففت ياء النسبة .

لا يرفَعُون بمـــا يَسـوءك نَعرةً وإذا سخطتَ فخَطبُ ذاك صغيرُ[1]

قال : فأتى يوماً من الأيام بيت الخمّار الذي كان يأتيه فلم يُصادفه ، فجعل ينتظره . ودخلت الدار امرأةٌ عِباديّة [2] ، فقال لها : ما فعل فلان ؟ قالت : مضى في حاجة وأنا امرأته ، فما تريد ؟ قال : نبيذاً . قالت : بكم؟ قال : بدرهَمين. قالت : هَلُمّ درهميك وانتظرني قال :لا[3] . قالت : فذلك إليك . ومضت وتَبعها ، فدخلت داراً لها بابان وخرجت من أحدهما وتركتْه . فلمّا طال جلوسه خرج إليه بعضُ أهل الدار ، قالوا : ما يُجلِسُك ؟ فأخبرهم ، فقالوا له : تلك امرأة محتالة يقال لها أمّ حُنين من العِباديين . فعلم أنه خُدع ، فانصرف إلى خمّاره فأخبره بالقصة وقال له : أنِسئْني [4] اليوم فاسقِني . ففَعل ؛ وأنشأ الأقيشر يقول :

لم يُغَرّرْ بذات خُفٍّ سِوانـــا بعد أُخت العِباد أمّ حُنينِ
وَعَدَتْنا بدِرهمين نَبيــــذا أو طِلاءً مُعَجّلاً غيرَ دَيْنِ
ثم ألوت بالدرهـــين جميعـاً يا لَقومي لِضَيعةِ الدّرهمينِ[5]

* قال أبو عمرو :

وخطب رجلٌ من حَضْرَموتَ امرأةً من بني أسد ، فأقبل يسأل عنها وعن حَسبها وأُمّهاتها ، حتى جاء الأقيشرَ فسأله عنها ، فقال له : من أين أنت ؟ قال : من حضرموتَ . فأنشأ يقول :

حَضْرَمَوْتٌ فتّشت أحسابَنا وإلينا حضرموتٌ تَنتسِبْ

(١) عسف المفازة وتعسفها : قطعها بغير هداية . المهامه ج مهمه : المفازة البعيدة .
(٢) عبادية : نسبة إلى العباد وهم قبائل شتى اجتمعوا على النصرانية بالحيرة .
(٣) قال : لا ، يريد : لا أنتظر ، كما يستدل من السياق .
(٤) انسئني : بعني نسيئة ، أي إلى أجل .
(٥) الطلاء : الخمرة .

إخوةُ القِرد وهم أعمامُــه بَرِئت منكم إلى الله العربْ

* قال أبو أيّوب :

وحُدِّثتُ أنّه شرب يوماً في بيت خمّار بالحِيرة ، فجاءه شُرَطيٌّ من شُرَط الأمير ليدخلَ عليه ، فغلّق الباب دُونه . فناداه الشُرْطيّ : اسقِني نبيذاً وأنت آمِنٌ . فقال : والله ما آمَنُك ولكن هذا ثَقبٌ في الباب فاجلِسْ عنده وأنا أسقيك منه . ثم وضع له أُنبوباً من قصَبٍ في الثّقب وصبّ فيه نبيذاً من داخل والشُرطيّ يشرب من خارج الباب حتّى سكر . فقال الأُقيشر :

سأل الشُرْطيُّ أن نَسقِيَــه فسقيناه بأنبوب القَصَبْ
إنّمــا نشرب مــن أموالنـا فسَلُوا الشُرطيَّ ما هذا الغضب

* عن محمّد بن معاوية قال :

اختصم قومٌ بالكوفة في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، فقالوا : نَجعل بينَنا أوّلَ من يطلُع علينا . فطلَع الأُقيشر وهو سكرانُ . فقال بعضُهم لبعض : انظُروا مَن حكَمُنا ! فقالوا : يا أبا مُعرِض قد حكّمناك . قال : فيماذا ؟ فأخبروه . فمكث ساعةً ثم أنشأ يقول :

إذا صلّيتُ خمساً كلَّ يـومٍ فإنّ اللهَ يغفِر لي فُسوقــي
ولم أُشرِكْ بربّ الناس شيئــاً فقد أمسكت بالحَبْل الوثيقِ
وهذا الحقُّ ليس بــه خفَــاءٌ ودَعْني من بُنَيّات الطريق (١)

---

(١) بنيات الطريق : الطرق الصغار المتشعبة من الطريق الأعظم ، ويضرب بها المثل فيقال : دع عنك بنيات الطريق : أي اسلك الطريق الواضح .

• قال محمد بن معاوية :

وتزوّج الأُقيشر ابنةَ عمّ له يُقال لها الرَّباب على أربعة آلاف درهم، ويقال على عشرة آلاف درهم . فأتى قومَه فسألهم فلم يُعطوه شيئاً . فأتى ابن رأس البَغل ، وهو دِهْقان[1] الصِّين ، وكان مجوسيّاً ، فسأله فأعطاه الصَّداق . فقال الأُقيشر :

كَفاني المَجُوسيُّ مَهْرَ الرَّبابِ ... فِدىً للمجوسيِّ خالٌ وعَمْ
شهدتُ بأنّك رَطْبُ المُشاش ... وأنَّ أباك الجَوادُ الخِضَمّ
وأنّك سيّدُ أهلِ الجحيم ... اذا ما تردَّيتَ فيمن ظَلَمْ
تجاور قارونَ في قَعرها ... وفرعون والمكتنى بالحَكَمْ[2]

فقال له المجوسيُّ : ويحَك ! سألت قومَك فلم يُعطوك ، وجئتَني فأعطيتُك ، فجزيتَني هذا القول ولم أُفلِت من شعرك وشرّك ! قال : أوَ ما ترضى أن جعلتك مع الملوك وفوق أبي جَهل !

ثم جاء إلى عِكرمة بن رِبْعِيّ[3] فلم يُعطِه ، فقال فيه :

سألتُ ربيعةَ مَن شرُّها ... أباً ثم أمّاً فقالوا لِمَهْ
فقلت لأعلمَ مَن شرُّكم ... واجعلَ بالسبِّ فيه سِمَهْ
فقالوا لِعِكرمةَ المُخزياتُ ... وماذا يرى الناسُ في عِكرِمه
فإن يكُ عبداً زكا مالُه ... فما غيرُ ذا فيه من مَكرُمَه[4]

• قال ابن الكَلبيّ :

وشرب الأُقيشر في حانة خمّار حتى أنفد مامعه ، ثم شرب بثيابه

---

(١) الدهقان : رئيس فلاحي العجم ، ورئيس الإقليم .
(٢) رطب المشاش : كناية عن طيب النفس وكرمها . الحكم : المراد به أبوجهل .
(٣) في المطبوعة : التميمي ، وهذا غلط لأن عكرمة بن ربعي كان من قبيلة بكر من ربيعة .
(٤) السمة : العلامة .

حتى غَلِقت (١) فلم يبق عليه شيءٌ . وجلس في تِبْنٍ إلى جانب البيت إلى حَلْقِه مُستدفئاً به . فمرّ رجلٌ ينشُد ضالّةً ، فقال : اللّهمَّ اردُدْ عليه واحفَظْ علينا . فقال له الخمّار : سَخِنت عينُك ! أيّ شيءٍ يحفظ عليك ربُّك ؟ قال : هذا التِّبن لا تأخذُه فأموتُ من البرد . فضحك الخمّار وردّ عليه ثيابه وقال : اذهَبْ فاطلُبْ ما تشرُب به ولا تَجِئْني بثيابك فإني لا أشتريها بعد ذلك .

* عن الأصمعيّ قال :

قال عبد الملك للأُقيشر : أنشِدني أبياتك في الخمر . فأنشده قوله :

تُريك القَذى مِن دونها وهي دونَــه
لِوجــه أخيها في الإنــاء قُطوبُ
كُمَيتٌ اذا فُضَّت ، وفي الكأس وردةٌ
لهــا في عظام الشاربين دَبيــبُ

فقــال له : أحسنتَ يا أبا مُعرِض ! ولقد أجدت وصفها ، وأظنّك قد شربتَها . فقال : والله يا أمير المؤمنين إنّه لَيَرِيبُني منك معرفتك بهذا .

* عن رجلٍ من الأزد قال :

كان الأُقيشر يأتي إخواناً له يسألهم فيعطونه ، فأتى رجلاً منهم فأمر له بخمسِمائة درهم ، فأخذها وتوجّه إلى الحانة ودفعها إلى صاحبها وقال له : أقِم لي ما أحتاج إليه . ففعل ذلك ، وانضمّ إليه رُفقاء له ، فلم يزل معهم حتى نفِدت الدراهم ، فأتاهم بعد إنفاقها بيومٍ ، ثم أتاهم من غدٍ فاحتملوه ، فلمّا أتاهم في اليوم الثالث نظر إليه أصحابُه من بعيد فقالوا لصاحب الحانة : أصْعِدْنا إلى غُرفتك هذه وأعلِم الأُقيشر أنّا لم نأتِ

(١) حتى غلقت : حتى استحقها الخمار .

اليومَ . فلمّا جاء الأُقيشر أعلمه ما قالوه له، فعلم الأُقيشر أنّه لا فَرَج له عند صاحب الحانة إلاّ برَهْنٍ ، فطرَح اليه ثيابه وقال له : أَقِم لي ما أحتاج إليه . ففعَل ، فلمّا أخذ فيه الشراب أنشأ يقول :

يا خليليَّ اسقِياني كاسَــا　　ثم كأساً حتى أخِرَّ نُعاسا
إنّ في الغُرفة التي فوق رأسي　　لأناساً يُخادعــون أَناســاً
يشربون المعتّق الرّاحَ صِرفــاً　　ثم لا يَرفَعُون بالزَّور راسا (١)

فلمّا سمع أصحابه هذا الشعر فدَّوه بآبائهم وأمّهاتهم ثم قالوا له : إمّا أن تصعَدَ الينا أو ننزل إليك ، فصَعِد إليهم .

* عن محمّد بن حبيبَ قال :

كان القُباع ، وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، قد أخرج الأُقيشر مع قومه لقتال أهل الشأم ، ولم يكن عند الأُقيشر فرسٌ فخرج على حمار . فلمّا عبرَ جسر سُورا (٢) ، فوصل لقرية يقال لها قنّين توارى عند خمّار نَبَطيّ يُبرز زوجته للفجور ، فباع حماره وجعل يُنفقه هناك ويشرب بثمنه ويفجُر إلى أن قَفَل الجيش . وقال في ذلك :

خرجتْ من المِصْرِ الحَواريَّ أهلُــه
بلا نَدْبَةٍ فيها احتسابٌ ولا جُعْلُ
إلى جيش أهل الشأم أُغزيتُ كارهــاً
سفاهاً بلا سيفٍ حديدٍ ولا نَبْــلِ

---

(١) الزَوْر : أعلى الصدر .
(٢) سورا : قرية بالعراق من أرض بابل ، تنسب إليها الخمر ، وسوراء – بالمد – موضع قرب بغداد .

ولكن بترسٍ ليس فيه حِمالـــة
ورمحٍ ضعيفِ الزُّجِّ منصدعِ النَّصْلِ
حَباني به ظُلمُ القُبَاع ولم أجـــد
سوى أمره والسير شيئاً من الفعل
فأزمعتُ أمري ثم أصبحتُ غازيـاً
وسلّمت تسليم الغُزاة عـلى أهلي
وقلت لعلّي أن أرى ثَمّ راكبـاً
على فرسٍ أو ذا متاعٍ على بغْلِ
جوادي حمارٌ كان حينـاً لِظهره
إكافٌ وأشناقُ المَـزادة والحبلِ
وقد خـان عينيه بياضٌ وخانـــه
قوائمُ سَوءٍ حين يزجَرُ في الوحَل
إذا ما انتحى في الماء والوَحل لم ترِمْ
قوائمُـــهُ حتى يؤخّـر بالحِمْـل
أنادي الرِّفاقَ بارك اللهُ فيكـــم
رُويدَكم حتى أجـوزَ إلى السّهل
فسِرنا إلى قِنِّين يومـاً وليلـــةً
كأنّا بغايا ما يَسِرنَ إلى بعْـــل
إذا ما نزلنا لم نجدْ ظِلَّ ساحـةٍ
سوى يابس الأنهار أو سَعَف النّخلِ (١)

(الأبيات .)

---

(١) المصر الحواري أهله : يريد الكوفة ، والحواريون : أصحاب الأنبياء والأصدقاء. —

وممّا يغنّى فيه من شعر الأُقيشر :

لا أشربَنْ أبداً راحاً مُسارقــــةً | إلاّ مع الغُرّ أبناء البَطاريــقِ
أفنَى تِلادي وما جمّعت من نَشَبِ | قرعُ القواقيز أفواهَ الأباريق [1]

• • •

= الزج : أسفل الرمح . كاف الحمار ووكافه : برذعته . الشناق، بكسر الشين : خيط يشد به فم القربة، وهو للمفرد والجمع، وليس في كتب اللغة أشناق جمعاً لشناق، وضبط في المطبوعة بكسر الهمزة ، وهو مصدر أشنق البعير إذا كفه بزمامه .

(١) الغر : السادة الأشراف . البطاريق ج بطريق : العظيم من الروم . النشب : المال الثابت . القواقيز : ضرب من الكئوس الصغيرة .

٥١

بَيْهَسُ الجَرْمِيّ

(الأغاني ج ٢٢ ص ١٣٥ وما بعدها
والأغاني ج ١٢ ص ٤٥)

الشاعر

بَيْهَس بن صُهَيب بن عامر ... بن جَرْم بن رَبّان بن حُلوان بن عِمران بن الحاف بن قُضاعة .

وَيُكنى أبا المقدام ، شاعرٌ فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية . وكان يَتَبَدُّو (١) بنواحي الشأم مع قبائل جَرْم وكَلب وعُذْرة ، ويحضرُ إذا حَضَروا ، فيكون بأجناد الشأم . وكان مع المهلّب بن أبي صُفرة في حروبه للأزارقة ، وكانت له مواقفُ مشهورةٌ وبَلاءُ حَسَنٌ .

---

(١) يبدو : ينزل البادية ويحضر : ينزل الحاضرة .

خبره مع صفراء

قال أبو عَمرو :

وكان بَيهس بن صُهيب الجَرميّ يهوى امرأةً من قومه يُقال لها صَفراء بنتُ عبد الله بن عامر بن عبد الله بن نائل ، وهي بنت عمّه دِنْيَةً ، وكان يتحدّث إليها ويجلس في بيتها ويكتُم وجدَه بها ولا يُظهره لأحد ولا يخطُبها لأبيها ، لأنه كان صُعلوكاً لا مالَ له ، فكان ينتظر أن يُثْري ؛ وكان من أحسن الشباب وجهاً وشارةً وحديثاً وشِعراً ، فكان نساء الحيّ يتعرّضْن له ويجلِسن اليه ويتحدّثْن معه . فمرّت به صفراءُ ، فرأته جالساً مع فتاةٍ منهنّ ، فهجرتْه زماناً لا تُجيبه اذا دعاها ، ولا تخرج اليه إذا زارها .

وعَرَض له سَفرٌ ، فخرج اليه ثم عاد وقد زوّجها أبوها رجلاً من بني أسد ، فأخرجها وانتقل عن دارهم بها ، فقال بيهَس بن صُهَيب :

سَقى دِمنةً صفراءُ كانت تَحُلُّها ... بنَوء الثُريّا طلُّها وذِهابُها
وصاب عليها كلُّ أسحمَ هاطلٍ ... ولا زال مخضرّاً مَريعاً جَنابُها
أحَبُّ ثرى أرضٍ إليّ وإن نأتْ ... مَحلُّك منها نَبْتُها وتُرابُها
على أنّها غضبَى عليّ وحَبّذا ... رضاها إذا ما أُرْضِيَتْ وعِتابُها
وقد هاج لي حُزناً فراقُكِ غُدوةً ... وسعيُكِ في فيفاءَ تعوي ذِئابُها
نظرتُ وقد زال الحُمولُ ووازنوا ... برِكْوةَ والوادي وخفّت رِكابها
فقلت لأصحابي أبا لقُرب منهمُ ... جرى الطير أم نادى ببَيْنٍ غُرابُها(١)

(١) الدمنة : ما بقي من أثر الديار . نوء الثريا : مطرها . الذهاب ج ذهبة : الجود والمطرة الضعيفة . صاب المطر : انصب . أسحم : صفة للسحاب الأسود . الفيفاء : البيداء المقفرة . بركوة : كذا في المطبوعة ، ولم يذكر المحقق ما المقصود بها ، وليس في كتب البلدان موضع بهذا الاسم ، ولعلها محرفة عن « ركبة » ، وهي اسم لمواضع شتى .

قال أبو عمرو : ثم ماتت صفراء قبل أن يدخل بها زوجُها ، فقال بيهس يرثيها :

هل بالدّيار التي بالقاع من أحدِ ... باقٍ فيسمعَ صوتَ المُدلِجِ الساري
تلك المنازلُ من صفراءَ ليس بها ... نارٌ تُضيء ولا أصواتُ سُمّار
عفّت معارفَها هُوجٌ مُغبّرةٌ ... تسفي عليها تُرابَ الأبطحَ الهاري
حتّى تنكّرتُ منها كلّ معرفةٍ ... إلاّ الرّمادَ نَخيلاً بين أحجار
طال الوقوف بها والعينُ تسبقني ... فوق الرّداء بنوادي دَمعها الجاري
إن أصبحِ اليومَ لا أهلٌ ذوو لَطف ... ألهو لديهم ولا صفراءُ في الدار
أرعى بعيني نجومَ الليل مُرتَقِباً ... يا طُولَ ذلك من همٍّ وإسهار
فقد يكونُ لي الأهلُ الكرامُ وقد ... ألهو بصفراءَ ذات المنظر الواري
من المَواجِد أعراقاً إذا نُسِبَتْ ... لا تحرِمُ المال عن ضيفٍ وعن جار
لم تلقَ بُؤساً ولم يَضرِرْ بها عَوَزٌ ... ولم تُزَخِّفْ مع الصالي إلى النار
كذلك الدهرُ إنّ الدهر ذو غِيَرٍ ... على الأنام وذو نَقضٍ وإمرار
قد كاد يعتادني من ذكرها جَزَعٌ ... لولا الحياءُ ولولا رهبةُ العار
سقى الإله قُبوراً في بني أسد ... حول الربيعة غيضاً صوبَ مِدرار
مَن ذا الذي بعدَكم أرضى به بَدلاً ... أم من أحدّث حاجاتي وأسراري(١)

قال أبو عمرو : واجتاز بيهسٌ في بلاد بني أسد ، فمرّ بقبر صفراء وهو في موضع يقال له الأحَضَ ، ومعه ركبٌ من قومه ، وكانوا قد

---

(١) الهاري ، مخففة من الهارىء من هرأ بمعنى أبلى . النخيل : الناعم . اللطف : اليسير من الطعام ونحوه . الواري : من ورى النار أشعلها ، أي المضيء ، ويحتمل أن تكون بمعنى السمين الممتلىء . المواجد : ج ماجدة . الأعراق : الأصول . زخفت المرأة العجين : أكثرت ماءه ، يريد أنها لم تكن ممن يعملن لأنها كانت مترفة منعمة . الإمرار : فتل الحبل والنقض ضده. الربيعة : الروضة . أحدث حاجاتي : أحدث بحاجاتي ، بنزع الخافض .

انتجعوا بلاد بني أسد ، فأوسَعُوا لهم — وكان بينهم صِهرٌ وحِلْفٌ — فنزل بَيهس على القبر ، فقال له أصحابه : ألا ترحلُ ؟ فقال : لا والله حتّى أظلَّ نهاري كلّه عندَه وأقضي وطَراً . فنزلوا معه على قبرها ، فأنشأ يقول وهو يبكي :

ألِمّا على قبرٍ لصَفراءَ فاقرآ السَّـــلامَ وقُولا حَيِّنا أيّهـــا القبـــرُ
وما كان شيئاً ، غيرَ أن لستُ صابراً دُعاؤُك قبراً دونه حِجَجٌ عَشْرُ
برابيةٍ فيها كِرامٌ أحِبّـــةٌ على أنّها إلاّ مضاجعَهم قَفْرُ
عشيّةَ قال الرَّكْبُ من غَرَضٍ بنا تَروَّحْ أبا المِقدام قد جنَح العَصرُ
فقلتُ لهم يومٌ قليلٌ وليلـــةٌ لصفراء قد طال التجنُّبُ والهَجرُ
وبتُّ وبات الناسُ حَوليَ هُجّداً كأنّ عليَّ الليلَ من طُوله شَهرُ
إذا قلت هذا حينَ أهجعُ ساعـــةً تطاولَ بي ليلٌ كواكبُه زُهرُ
أقول إذا ما الجَنْبُ مَلّ مكانَـه أشوكٌ يُجافي الجَنب أم تحته جَمرُ
فلو أنّ صَخراً من عَمايةَ راسياً يُقاسي الذي ألقى لقدمَلّه الصَّخرُ(١)

قال : وأما القَحذميُّ فإنه ذكر أنه كان تزوّجها ، ثم طَلّقها بعد أن ولدت منه ابناً ، فتزوّجها رجلٌ من بني أسد ، فماتت عنده .

• • •

(١) الغرض : الضجر والملال . عماية : اسم جبل .

٥٢

الــــدَّارميّ

(الأغاني ج ٣ ص ٤٥ وما بعدها)

الشّـاعر

عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي عن عمّه قال :

الدارميُّ من وَلَد سُوَيد بن زيد الذي كان جَدّه قَتَل أسعَد بن عمرو ابن هند ، ثم هربوا إلى مكّة فحالفوا بني نوفَل بن عبد مناف .

وكان الدارميّ في أيّام عمر بن عبد العزيز ، وكانت له أشعارٌ ونوادر ، وكان من ظرفاء أهل مكّة ، وله أصواتٌ يسيرة ، وهو الذي يقول :

ولمّـا رأيتُـك أوليتَني الـ ... قبيـحَ وأبعدت عني الجميلا
تركت وصالَك في جانـبٍ ... وصادفت في الناس خِلاًّ بَديلا

طائفة من أخباره

عن الأصمعيّ :

أنّ تاجراً من أهل الكوفة قدِم المدينة بخُمُرٍ ، فباعها كُلّها وبقيتْ السُّودُ منها فلم تنفُق، وكان صديقاً للدارميّ ، فشكا ذاك إليه — وقد كان نَسَك وترك الغِناء وقول الشعر— فقال له: لا تَهتمّ بذلك فإني سأنفِقها لك حتى تبيعَها أجمع . ثم قال :

قُل للمَليحة في الخِمار الأسودِ ماذا صنعتِ براهبٍ متعبِّدِ
قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتى وقفتِ له بباب المسجدِ

وغنّى فيه ، وغنّى فيه أيضاً سِنانٌ الكاتب ، وشاع في الناس وقالوا : قد فتَك [1] الدارميّ ورجَع عن نُسكه ، فلم تبق في المدينة ظريفةٌ إلاّ ابتاعت خماراً أسودَ حتى نفِد ما كان مع العراقيّ منها . فلمّا علم بذلك الدارميُّ رجع إلى نُسكه ولزِم المسجد .

* ابن مَودُود قال :

كان الدارميُّ المكّيّ شاعراً ظريفاً ، وكانت مُتَفَتّيات [2] أهل مكة لا يطيب لهنّ مُتَنَزَّهٌ إلاّ بالدارميّ . فاجتمع جماعة منهنّ في متنزّه لهنّ ، وفيهنّ صديقةٌ له ، وكلّ واحدة منهنّ قد واعدتْ هواها [3] ، فخرجن حتى أتَيْن الجُحْفَة [4] وهو معهنّ . فقال بعضُهنّ لبعض : كيف لنا أن نَخلوَ مع هؤلاء الرّجال من الدّارمي ؟ فإنّا إن فعلْنا

(١) فتك : مجن .
(٢) تفتت الجارية : راهقت فخدرت ومنعت من مخالطة الصبيان .
(٣) هواها : من تهواه وتحبه .
(٤) الجحفة : قرية على مقربة من مكة في الطريق إلى المدينة .

قَطَّعَنا في الأرض [1] . قالت لهن صاحبتُه : أنا أكْفِيكُنَّه . قلن : إنّا نريد ألاّ يلومَنا . قالت : عليّ أن ينصرفَ حامداً . وكان أبخلَ الناس ، فأتته فقالت : يا دارميُّ ، إنّا قد تَفِلْنا [2] فاجلُبْ لنا طِيباً . قال : نعم ، هوذا آتي سوقَ الجُحفة آتيكُنّ منها بطِيبٍ . فأتى المُكارين فاكترى حماراً ، فصار عليه إلى مكة وهو يقول :

أنا بالله ذي العِـــز وبالرُّكْن وبالصَّخره
من اللائي يُرِدْن الطيبَ في اليُسر وفي العُسْره
وما أقوى على هــذا ولو كنتُ على البَصرة

فمكث النسوةُ ما شئن . ثم قدم من مكة فلَقِيته صاحبته ليلةً في الطوّاف ، فأخرجتْه إلى ناحية المسجد وجعلت تُعاتبه على ذهابه ويُعاتبها ، إلى أن قالت له : يا دارميّ ، بحقّ هذه البَنِيّة [3] أتحبّني ؟ فقال : نعم ، فبِرَبِّها اتُحبينني ؟ قالت : نعم . قال : فيا لَكِ الخيرُ ، فأنتِ تُحبّينني وأنا أُحبّك ، فما مَدخلُ الدّراهم بيننا !

* الزبير بن بكّار قال : حدّثني عمّي قال :

مدح الدارميّ عبد الصَّمد بن عليّ بقصيدة واستأذنه في الإنشاد فأذن له ، فلمّا فرَغ أُدخل عليه رجلٌ من الشُّراة [4] ، فقال لغلامه : أعطِ هذا مائة دينارٍ واضرِبْ عُنق هذا . فوثب الدارميّ فقال : بأبي أنت وأمّي ! بِرُّك وعقوبتك جميعاً نَقْدٌ ! فإن رأيت أن تبدأ بقتل هذا ، فإذا فرَغ منه أمرتَه فأعطاني ، فإني لن أريمَ من حضرتك حتّى يفعل ذلك . قال :

---

(1) قطعنا في الأرض : أي مزق أعراضنا وشهر بنا .
(2) تفل : تغيرت رائحته لطول عهده بترك الطيب .
(3) البنية : الكعبة .
(4) الشراة : الخوارج .

ولِمَ ؟ ويلَك ! قال : أخشى أن يغلَطَ فيما بيننا ، والغَلَطُ في هذا لا يُستقال . فضحك وأجابه إلى ما سأل .

* الزُّبير قال : حدّثني عمّي قال :

أصابت الدارميّ قُرْحَةٌ في صَدره ، فدخل إليه بعض أصدقائه يَعُودُه . فرآه قد نَفَثَ من فِيه نَفْثاً أخضرَ ، فقال له : أبشِر ، قد اخضرّت القَرحةُ وعُوفيت . فقال : هيهات ! والله لو نفثت كلَّ زُمرُّدَةٍ في الدنيا ما أفلتُّ منها .

* * *

٥٣

مَالِكُ بن الرَّيْب

(الأغاني ج ٢٢ ص ٢٨٦ وما بعدها)

الشاعر

هو مالك بن الرَّيب بن حَوْط ... بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم .

وكان شاعراً فاتكاً لصاً ، ومنشؤه في بادية بني تميم بالبصرة ، من شعراء الإسلام في أول أيام بني أمية .

خبر القبض عليه وفراره إلى بلاد فارس

(عن طائفة من الرّواة :)

استعمل معاويةُ بن أبي سفيان سعيدَ بن عثمان بن عفّان على خراسان ،

فمضى سعيدٌ بجُنده في طريق فارس . فلقيه بها مالك بن الرَّيب المازنيّ . وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم ثياباً ، فلمّا رآه سعيد أعجبه وقال له : مالَكَ ويحَكَ تُفسد نفسك بقطع الطريق ! ؟ وما يدعوك إلى ما يبلغُني عنك من العيث والفَساد وفيك هذا الفضل ؟ قال : يدعوني إليه العجز عن المعالي ومساواة ذوي المُروءات ومكافأة الإخوان . قال : فإن أنا أغنيتُك واستصحبتُك أتكفّ عمّا كنت تفعل ؟ قال : إي والله أيّها الأمير ، أكفُّ كَفّاً لم يكفّ أحدٌ أحسنَ منه . قال : فاستصحبه وأجرى له خمسمائة درهمٍ في كل شهر .

* قالوا :

وكان السبب الذي من أجله وقع مالك بن الرّيب إلى ناحية فارس أنه كان يقطع الطريقَ هو وأصحابٌ له ، منهم شظاظٌ ، وهو مولى لبني تميم ، وكان أخبثَهم ، وأبو حَرْدَبَةَ أحدُ بني أُثالة بن مازن ، وغُويث أحد بني كعب بن مالك بن حَنظلة ... فساموُا الناس شرّاً ، وطَلبهم مروان بن الحكم – وهو عاملٌ على المدينة – فهربوا . فكتب إلى الحارث ابن حاطب الجُمَحيّ ، وهو عامله على بني عمرو بن حنظلة ، يطلُبهم ، فهربوا منه . وبلغ مالك بن الرَّيب أنّ الحارث بن حاطب يتوعّده فقال :

تألّى حلفةً في غـير جُـرمٍ أميري حارثٌ شبه الصِّرارِ

عليّ لأُجْلَدَنْ في غير جُرم ولا أُدنى فيَنفعُني اعتـذاري

وقلت وقـد ضممتُ إليّ جأشي تحلَّلْ لا تألَّ عليّ جاري

فإني سوف يكفينيك عزمـي ونَصُّ العيس بالبلد القَفار [1]

---

(١) تألى : أقسم . الصرار : خيط يشد به ضرع الناقة . النص : استخراج أقصى ما عند الناقة من سير

فبعث إليه الحارث رجلاً من الأنصار فأخذه وأخذ أبا حردبة ، فبعث بأبي حردبة ، وتخلّف الأنصاري مع القوم الذين كان مالك فيهم ، وأمر غلاماً له فجعل يسوق مالكاً . فتغفّل مالك غلام الأنصاري ، وعليه السيفُ ، فانتزعه منه وقتله به ، وشدّ على الأنصاري فضربه بالسيف حتى قتله ، وجعل يقتل مَن كان معه يميناً وشمالاً . ثم لحق بأبي حردبة فتخلّصه ، وركبا إبل الأنصاري وخرجا فراراً من ذلك هاربَين ، حتى أتيا البحرين ، واجتمع إليهما أصحابهما . ثم قطعوا إلى فارس فراراً من ذلك الحدث الذي أحدثه مالك ، فلم يزل بفارس حتى قدم عليه سعيد ابن عثمان فاستصحبه .

فقال مالك في مهربه :

أحقاً على السلطان أمّا الذي له ... فيُعطى وأمّا ما يُراد فيُمنعُ
إذا ما جعلتُ الرملَ بيني وبينه ... وأعرض سهبٌ بين يبرين بلقعُ
من الأُدمَى لا يستجمّ بها القطا ... تكِلّ الرّياح دُونه فتقطّعُ
فشأنكمُ يا آل مروانَ فاطلبوا ... سِقاطي فما فيه لباغيه مطمعُ
وما أنا كالعيْرِ المُقيم لأهله ... على القيد في بُحبوحة الضّيم يرتعُ
ولولا رسولُ الله أن كان منكمُ ... تبيّن مَن بالنّصْفِ يرضى ويقنعُ (١)

قالوا : وبينا مالك بن الريب ذات ليلة في بعض هَناته وهو نائم – وكان لا ينام إلاّ متوشّحاً بالسيف – إذ هو بشيءٍ قد جثم عليه لا يدري ما هو ، فانتفض به مالك ، فسقط عنه ، ثم انتحى له بالسيف

(١) السهب : الفلاة . يبرين : رمل لا تدرك أطرافه في بلاد بني تميم . أدمى : اسم موضع ببلاد بني سعد . سقاطي : عثاري . كالعير : في المطبوعة ضبطت بالغين ، وهو تصحيف ، والعير يضرب المثل به في الذلة .

فقَدّه نِصفين ، ثم نظر إليه فإذا هو رجلٌ أسودُ كان يَقطع الطّريق في تلك النَاحية . فقال مالك في ذلك :

أدلجتُ في مَهْمَهٍ ما إن أرى أحداً ... حتّى إذا حان تَعريسٌ لِمن نَزَلا
وضعت جَنْبي وقلتُ اللهُ يَكْلَؤُني ... مهما تَنَمْ عنك من عينٍ فما غفَلا
والسيف بيني وبين الأرض مُشْعِرَه ... أخشى الحوادثَ إنّي لم أكُن وَكَلا
ما نِمتُ إلاّ قليلاً نِمتُه شَتَزاً ... حتّى وجدتُ على جُثماني الثِّقَلا
داهيةٌ من دواهي الليل بَيّتَني ... مُجاهِراً يبتغي نفسي وما خَتَلا
أهويتُ نَفحاً له والليلُ ساترُه ... إلاّ توخّيتُه والجرس فانخَزلا
لما ثنى اللهُ عني شرَّ عَدْوته ... رقدتُ لا مُثْبَتاً ذُعراً ولا بَعِلا
أما ترى الدار قفراً لا أنيسَ بها ... إلاّ الوحوشَ وأمسى أهلُها احتمَلا
بين المُنيفةِ حيث استَنّ مَدفعُها ... وبين فَردةَ من وَحشيّها قَبلا
وقد تقول وما تُخفي لجارتها ... إنّي أرى مالكَ بن الرَّيبِ قد نَحَلا
من يَشهدِ الحربَ يَصلاها ويُسعِرها ... تراه ممّا كَسَته شاحباً وَجِلا
خُذها فإنّي لَضَرّابٌ إذا اختلفت ... أيدي الرِّجال بضربٍ يَختلِ البطلا(١)

قال : وانطلق مالك بن الرّيب مع سعيد بن عثمان إلى خراسان ، حتى إذا كانوا في بعض مَسيرهم احتاجوا إلى لبن ، فطلبوا صاحبَ إبلهم فلم يجدوه ، فقال مالك لغُلام من غِلمان سعيد : أَدْنِ منّي فُلانة – لناقة كانت لسعيد عزيزة – فأدناها منه ، فمسَحها وأبَسَّ بها (٢) حتى درّت ،

---

(١) التعريس : النزول ليلا . مشعره : جاعله شعاراً لي ، والشعار ما يلي الجسد من الثياب . الوكل : العاجز . شتزاً : قلقاً . ختل : خدع . نفحاً : ضرباً بالسيف . انخزل : انقطع . بعلا : دهشاً فرقاً . المنيفة : ماء لتميم في بلاد فلج . استن الماء : جرى في مسيله . مدفعها : مسيلها . فردة : جبل في بلاد طيء . قبلا : عياناً .

(٢) أبس بها : مسح ضرعها لتدر .

ثم حلَبها ، فإذا أحسنُ حلْبٍ حلَبه الناس وأغزرُه دِرّةً ، فانطلق الغلام إلى سعيد فأخبره ، فقال سعيد لمالك : هل لك أن تقوم بأمر إبلي فتكونَ فيها وأجزل لك الرِّزق إلى ما أرزُقك وأضع عنك الغزو ؟ فقال مالك في ذلك :

إنّي لأَستحيي الفوارسَ أن أرى ... بأرض العِدا بَوَّ المَخاض الرَّوائمِ
وإنّي لأستحيي إذا الحربُ شمّرتْ ... أن ارخيَ دون الحرب ثوبَ المُسالِمِ
وما أنا بالنائي الحفيظةِ في الوغى ... ولا المتّقي في السلم جرَّ الجرائم
ولا المتأنّي في العواقب للّذي ... أهمَّ به من فاتكات العزائمِ
ولكنّني مُستوحِدُ العزم مِقدَمٌ ... على غمَرات الحادث المتفاقم
قليلُ اختلاف الرأي في الحرب باسلٌ ... جَميعُ الفؤاد عند حَلِّ العظائم (١)

فلمّا سمع ذلك منه سعيدُ بن عثمان علم أنه ليس بصاحب إبل وأنه صاحب حرب ، فانطلق به معه .

قالوا : وبينما مالك بن الرَّيب ليلةً نائمٌ في بعض مَفازاته إذ بَيّته ذئبٌ ، فزجره فلم يزدجر ، فأعاد فلم يبرح ، فوثب إليه بالسيف فضربه ، فقتله . وقال مالك في ذلك :

أذئبَ الغضا قد صرتَ للناس ضُحْكَةً
تُغادي بك الرُّكبانُ شرقاً إلى غربِ
فأنت وإن كنت الجريءَ جَنانُــه
مُنيتَ بضِرغامٍ من الأُسْد الغُلْبِ
بمَن لا ينام الليل إلاّ وسيفُــه
رَهينةُ أقوامٍ سِراعٍ إلى الشّغْب

---

(١) البو : جلد الحوار يحشى تبناً ثم يقرب من أم الفصيل فتعطف عليه فتدر . المخاض : النوق الحوامل . الروائم : العاطفات على أولادها . جميع الفؤاد : شجاع .

ألم ترني يا ذئبُ إذ جئتَ طارقـاً
تخاتِلُني أنّي امرُؤٌ وافرُ اللُـب
زَجَرتُك مرّاتٍ فلمّـا غلبتَـني
ولم تنزِجرْ نَهْنَهتُ غَربَك بالضربِ
فصِرتَ لَقىً لما علاك ابنُ حُرّةٍ
بأبيضَ قطّاعٍ يُنجّي من الكَرْب
ألا ربَّ يومٍ ريبَ لو كنتَ شاهداً
لَهالَك ذِكري عند معمعة الحربِ
ولستَ ترى إلاّ كَمِيّاً مُجَدَّلاً
يداه جميعاً تثبتان من التُّـربِ
وآخرَ يهوِي طائرَ القلب هاربـاً
وكنت امرأً في الهَيْج مجتمع القلب
أصول بذي الزِرّين أمشي عِرَضْنَةً
إلى الموت والأقران كالإبل الجُرْب
أرى الموت لا أنحاش عنه تكرُّمـاً
ولو شئتُ لم أركب على المركبِ الصَّعب
ولكن أبت نفسي وكانت أبيّةً
تَقاعَسُ أويَنصاعَ قومٌ من الرُّعبِ[1]

قال أبو عبيدة : لمّا خرج مالك بن الرَّيب مع سعيد بن عثمان تعلّقت

(١) جنانه : قلبه . نهنهت : كفكفت . الغرب : النشاط والحدة والتمادي . لقى : ملقى مطروح . مجدل : مصرع . الزر : حد السيف . مشى العرضنة : مشى مشية فيها بغي من نشاطه .

ابنته بثوبه وبكت وقالت له : أخشى أن يطول سفرك أو يحولَ الموت بيننا فلا نلتقي . فبكى وأنشأ يقول :

ولقد قلت لابنتي وهي تبكي بدخيل الهموم قلباً كئيبا
وهي تُذري من الدموع على الخدَّين من لوعة الفراق غُروبا
عبرات يكَدْنَ يَجرحنَ ما جُزنَ به أو يدَعْن فيه نُدوبا
حذرَ الحتف أن يُصيب أباها ويُلاقي في غير أهلٍ شَعُوبا
اسكُتي قد حَززتِ بالدمع قلبي طالما حزَّ دمعُكنَّ القلوبا
فعسى اللهُ أن يدفعَ عني رَيبَ ما تحذَرين حتى أؤوبا
ليس شيءٌ يَشاؤه ذو المعالي بعزيزٍ عليه فادعي المُجيبا
ودَعي أن تُقطِّعي الآنَ قلبي أو تُريني في رِحلتي تعذيبا
أنا في قبضة الإله إذا كنتُ بعيداً أو كنتُ منكِ قريبا
كم رأينا امرأً أتى من بعيدٍ ومُقيماً على الفراش أصيبا
فدعيني من انتحابك إني لا أبالي إذا اعتزمتُ النَّحيبا
حَسبيَ اللهُ ثمَّ قرَّبت للسَّير عَلاةً أنجِبْ بها مرَكُوبا (١)

طرائف من أخباره وأخبار أصحابه

أبو الهيثم قال :

اجتمع مالك بن الريب وأبو حَرْدبَة وشِظاظٌ يوماً ، فقالوا : تعالَوا نتحدَّثْ بأعجبَ ما عملناه في سَرقتنا . فقال أبو حَردبة : أعجَبُ ما صنعت وأعجب ما سرقت أنّي صحبت رُفقةً فيها رجلٌ على رَحْلٍ ، فأعجبني ، فقلت لصاحبي : والله لأسرقنَّ رَحله ، ثم لا رضيتُ أو آخذَ

---

(١) الغروب : الدموع ، وانهلال الدمع من العين ومسيله . العلاة : الناقة المشرفة .

عليه جُعالةٌ . فرمقتُه حتّى رأيته قد خفَق برأسه [1] ، فأخذت بخِطام جمله فقُدتُه وعدَلت به عن الطريق ، حتّى إذا صيّرته في مكانٍ لا يُغاث فيه إن استغاث أنختُ البعير ، وصرعته [2] فأوثقت يده ورِجله ، وقُدت الجمل فغيّبتُه ، ثم رجعت إلى الرُّفقة ، وقد فقدوا صاحبَهم ، فهم يَسترجعُون . فقلت : ما لَكم ؟ فقالوا : صاحبٌ لنا فقدناه . فقلت : أنا أعلمُ الناس بأثَره . فجعلوا لي جُعالةً ، فخرجت بهم أتّبعُ الأثر ، حتّى وقفوا عليه ، فقالوا : مالك ؟ قال : لا أدري ، نَعستُ فانتبهت لخمسين فارساً قد أخذوني ، فقاتلتهم فغلبوني . قال أبو حردبة : فجعلت أضحك من كذبه ، وأعطوني جُعالتي وذهبوا بصاحبهم .

وأعجبُ ما سرقت أنّه مرّ بي رجلٌ معه ناقةٌ وجمل ، وهو على الناقة ، فقلت : لآخذنّهما جميعاً . فجعلت أعارضه ، وقد رأيته خفق برأسه ، فدُرت فأخذت الجمل فحَللتُه وسُقته فغيّبته في القَصيم — وهو الموضع الذي كانوا يسرقون فيه — ثم انتبه ، فالتفت فلم ير جَمَله ، فنزل ، وعَقَل راحلته ، ومضى في طلب الجمل ، ودُرت فحللت عِقال ناقته وسقتُها .

فقالوا لأبي حردبه : ويحَك ، فحتامَ تكون هكذا ! قال : اسكتوا ، فكأنّكم بي وقد تُبْت واشتريت فرساً وخرجت مجاهداً ، فبينا أنا واقفٌ إذ جاءني سهمٌ كأنّه قطعة رِشاء [3] ، فوقع في نحري ، فمُتُّ شهيداً . قال : فكان كذلك : تاب ، وقدِم البصرة فاشترى فرساً وغزا الرُّوم ، فأصابه سهمٌ في نَحره فاستُشْهد .

ثم قالوا لشِظاظ : أخبرنا أنت بأعجبِ ما أخذت في لُصوصيّتك

---

(١) خفق برأسه : نعس وأغفى .

(٢) صرعته : الضمير هنا يعود على الرجل لا على البعير .

(٣) الرشاء : الحبل .

ورأيت فيها . فقال : نعم . كان فلانٌ — رجلٌ من أهل البصرة — له بنتُ عمٍّ ذاتُ مالٍ كثير ، وهو وَليُّها ، وكانت له نِسوةٌ ، فأبت أن تتزوّجه ، فحلف ألاّ يُزوّجَها من أحدٍ ضِراراً لها . وكان يخطُبها رجلٌ غنيٌّ من أهل البصرة ، فحرِصت عليه ، وأبى الآخر أن يزوّجها منه .

ثم إنّ وليّ الأمر حجّ ، حتى إذا كان بالدَّوّ — على مرحلة من البصرة ، حِذاءَها قريبٌ منه جبلٌ يُقال له سَنام ، وهو منزل الرِّفاق إذا صدرَت أو وَردتْ — مات الوليُّ ، فدُفن برابية وشُيِّد على قبره ، فتزوّجت الرجل الذي كان يخطُبها . قال شِظاظ : وخرجت ورُفقةٌ من البصرة معهم بزٌّ [1] ومتَاع ، فتبصّرتهم وما معهم وأتبعتُهم حتى نزلوا . فلمّا ناموا بيّتُّهم وأخذت من متَاعهم . ثم إنّ القوم أخذوني وضربوني ضرباً شديداً وجرّدوني — قال : وذلك في ليلة قَرّة [2] — وسَلبوني كلّ قليل وكثير ، فتركوني عُريان ، وتَماوتُّ لهم ، وارتحل القوم . فقلت : كيف أصنع ؟ ثم ذكرت قبر الرّجل ، فأتيتُه فنزعت لَوحَه ثم احتفرت فيه سَرَباً [3] ، فدخلت فيه ، ثم سَددت عليّ باللّوح وقلت : لعلّي الآن أدفأ فأتبعهم . قال : ومرّ الرجل الذي تزوّج بالمرأة في الرُّفقة ، فمرّ بالقبر الذي أنا فيه ، فوقف عليه وقال لرفيقه : والله لأنزِلنّ إلى قبر فلان ، حتى أنظر هل يحمي الآنَ بُضْعَ فلانة ؟ قال شظاظ : فعرفت صوته فقلعت اللّوح ثم خرجت عليه بالسيف من القبر وقلت : بلى وربِّ الكعبة لأحمينّها . فوقع والله على وجهه مَغشياً عليه لا يتحرّك ولا يعقِل ، فسقط من يده خِطام الرّاحلة ، فأخذت ، وعَهدَ الله ، بخِطامها ، فجلست عليها ، وعليها كلُّ أداةٍ وثياب ونَقد كان

(١) البز : الثياب ، أو متاع البيت من الثياب ونحوها .
(٢) قرة : باردة .
(٣) السرب : النفق .

معه ، ثم وَجّهتُها قصد مطلع الشمس هارباً من الناس ، فنجوتُ بها . فكنت بعد ذلك أسمعَه يُحدّث الناس بالبصرة ، ويحلف لهم أنّ الميّت الذي كان منعه من تزويج المرأة خرج عليه من قبره بسلَبه وكفَنه . فبقي يومَه ، ثم هرَب منه ، والناس يَعجبون منه ، فعاقلهم يكذّبه ، والأحمق منهم يُصدّقه ، وأنا أعرف القصّة فأضحك منهم كالمتعجّب .

قالوا : فزِدْنا . قال : فأنا أزِيدُكم أعجبَ من هذا وأحمق من هذا . إنّي لأمشي في الطريق أبتغي شيئاً أسرِقه ، قال : فلا والله ما وجدت شيئاً . قال : وكان هناك شجرةٌ ينام من تحتها الرُّكبانُ بمكانٍ ليس فيه ظِلٌّ غيرها ، وإذا أنا برجلٍ يسير على حمارٍ له ، فقلت له : أتسمع ؟ قال : نعم . قلت : إنّ المَقِيلَ [1] الذي تريد أن تَقيلَه يُخْسَفُ [2] بالدوابّ فيه ، فاحذَرْه . فلم يلتفت إلى قولي . قال : ورمقتُه حتى إذا نام أقبلت على حماره فاستَقْتُه ، حتى إذا برزتُ به قطعتُ طرف ذَنَبه وأذنَيه ، وأخذت الحمار فخبأتُه ؛ وأبصرته حين استيقظ من نومه ، فقام يطلب الحمار ويقفُو أثرَه ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى طَرف ذنبه وأذنيه فقال : لَعَمري لقد حُذِّرت لو نفَعَني الحذَر . واستمرّ هارباً خوفَ أن يُخسفَ به ، فأخذت جميع ما بقي من رَحْله فحملتُه على الحمار ، وأستمرُّ فألحَقُ بأهلي .

قال أبو الهيثم : ثم صلب الحجّاج رجلاً من الشُّراة بالبصرة ، وراح عَشيّاً لينظر إليه ، فإذا برجلٍ بإزائه مُقبلٍ بوجهه عليه . فدنا منه فسمعه يقول للمصلوب : طال ما ركِبتَ فأعْقِبْ [3] . فقال الحجّاج : مَن هذا ؟ قالوا : هذا شِظاظ اللصّ . قال : لا جَرَمَ ، والله ليُعقِبَنّك . ثم وقف وأمر بالمصلوب فأُنزِل ، وصلب شظاظاً مكانَه .

---

(١) المقيل : موضع القيلولة .
(٢) خسف المكان : ذهب في الأرض .
(٣) أعقب : دع مكانك لمن يخلفك .

وفاتـــه

قال ابن الأعرابيّ :

مرَض مالك بن الرَّيب عند قفول سعيد بن عثمان من خراسان في طريقه . فلمّا أشرف على الموت تخلّف معه مُرّةُ الكاتب ورجلٌ آخر من قومه من بني تميم ، وهما اللّذان يقول فيهما :

أيا صاحبَي رَحْلي دنا الموت فانزِلا برابيةٍ إنّي مُقيـــمٌ لياليـــا

ومات في منزله ذلك ، فدفَناه ، وقبرُه هناك معروف إلى الآن . وقال قبل موته قصيدته هذه يرثي بها نفسَه (ومنها :)

أيا صاحبي رَحْلي دنا الموت فانـزلا
برابيـــةٍ إنّي مُقيـــمٌ لياليـــا
وخُطّا بأطراف الأسنّة مَضجعي
ورُدّا على عيـــنيّ فضلَ ردائيا
ولا تحسُداني بارك اللهُ فيكمـــا
من الأرض ذاتِ العَرض أن تُوسِعا ليا
لَعَمري لئن غالت خراسانُ هامتي
لقد كنت عن بابَي خُرَاسان نائيـــا
فيا ليت شِعري هل أبيتَنّ ليلـــةً
بجنب الغَضا أُزجي القِلاصَ النواجيا[1]

قال أبو عبيدة : الذي قاله ثلاثةَ عشرَ بيتاً ، والباقي منحولٌ ولّده الناسُ عليه .

• • •

---

(١) الهامة : الرأس . الغضا : واد بنجد . أزجي : أسوق . القلاص ج قلوص : الناقة السريعة . النواجي ج ناجية : السريعة من النوق .

٥٤

المُقَنَّعُ الكِنْدِيّ

(الأغاني ج ١٧ ص ١٠٨ وما بعدها)

الشاعر

المُقنّع لقبٌ غلَب عليه لأنّه كان أجملَ الناس وَجهاً ، وكان إذا سفَرَ اللِّثام عن وجهه أصابتْه العَين .

قال الهيثم : كان المقنّع أحسنَ الناس وَجهاً ، وأمَدَّهم قامةً ، وأكملهم خَلقاً . فكان إذا سَفر لُقِـع — أي أصابتْه أعينُ الناس — فيمرض ، ويلحقُه عَنَتٌ ، فكان لا يمشي إلاّ مُقَنّعاً .

واسمه محمد بن ظَفَر بن عُمَير بن أبي شَمِر ... بن كِنْدَةَ ... ابن كَهْلانَ بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحطان .

شاعر مُقِلٌّ من شعراء الدولة الأمويّة ، وكان له مَحَلّ كبير وشَرف ومُروءة وسُؤدُدٌ في عشيرته .

إتلافه ماله

قال الهيثم بن عديّ : كان عمير جدُّه سيّدَ كِندة ، وكان عمّه عَمْرو بن أبي شَمِر يُنازع أباه الرِّياسة ، ويُساجِلُه فيها فيُقصِّر عنه .

ونشأ محمد بن عمير المقنّع ، فكان متخرّقاً (١) في عطاياه ، سَمْح اليد بماله ، لا يَرُدّ سائلاً عن شيء ، حتّى أتلف كلّ ما خلّفه أبوه من مال ، فاستعلاه بنو عمّه عمرو بن أبي شَمِر بأموالهم وجاههم. وهَوِيَ بنت عمّه عَمروٍ ، فخطبها إلى إخوتها ، فردُّوه وعيّروه بتخرُّقه وفقره وما عليه من الدِّين ، فقال .. :

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمّي لمختلفٌ جِدّاً
فما أحمِلُ الحِقدَ القديم عليهم ... وليس رئيسُ القوم مَن يحمِل الحِقدا
وليسوا إلى نَصْري سِراعاً وإن هُمُ ... دَعَوني إلى نَصْرٍ أتيتُهم شَدّا (٢)
إذا أكلوا لحمي وَفَرتُ لحومهم ... وإن هَدَموا مجدي بنيتُ لهم مَجدا
يُعاتبني في الدِّين قومي وإنّما ... تَدَيّنتُ في أشياء تُكسِبُهم حَمْدا

شعره في ذم البخل

عن العُتْبيّ قال : حدّثني أبو خالدٍ ، من ولد أميّة بن خَلَف . قال :

---

(١) التخرق : التوسع في السخاء .
(٢) الشد : الإسراع .

قال عبد الملك بن مَروان – وكان أوّل خليفة ظهر منه بُخلٌ – : أيّ الشعراء أفضلُ؟ فقال له كثير بن هَراسة – يُعرّض ببخل عبد الملك – : أفضلهم المقنّع الكنديّ حيث يقول :

إنيّ أُحرّض أهلَ البُخلِ كُلّهم ... لو كان يَنفع أهلَ البخلِ تحريضي
ما قلَّ ماليَ إلاّ زادني كرَماً ... حتّى يكون برِزق الله تعويضي
والمالُ يَرفعُ مَن لولا دراهمُه ... أمسى يُقلَّبُ فينا طرفَ مَخفُوضِ
لن تخرجَ البِيضُ عفواً من أكفّهم ... إلاّ على وجعٍ منهم وتمريض
كأنّها من جُلود الباخلين بها ... عند النّوائب تُحذَى بالمقاريضِ (١)

فقال عبد الملك – وعَرَف ما أراد – : اللهُ أصدقُ من المقنَّع حيث يقول : « والذين إذا أنفقُوا لم يُسرِفوا ولم يَقْتُرُوا » (٢)

• • •

(١) البيض : كناية عن الدراهم . تحذى : تقطع . المقراض : المقص .
(٢) لم يقتروا : لم يضيقوا في الإنفاق .

٥٥

هُدْبَةُ بن خَشْرَم

(الأغاني ج ٢١ ص ٢٥٤ وما بعدها)

الشاعر

هو هُدْبَةَ بن خَشْرَم ... بن سَعد بن هُذَيم . وسعدُ بن هُذيم شاعرٌ من أسلُم بن الحاف بن قُضاعة ...

وهُدبة شاعرٌ فصيح متقدّم من بادية الحجاز ، وكان شاعراً راوية ، كانَ يروي للحُطَيئة ، والحطيئة يروي لكعب بن زهير ، وكعب بن زهير يروي لأبيه زهير ، وكان جميلٌ راويةَ هُدبة ، وكُثيّر راوية جميل ، فلذلك قيل : إنّ آخر فحلٍ اجتمعت له الرّواية إلى الشعر كُثَيّر .

وكان لهُدبة ثلاثةُ إخوةٍ كُلُّهم شاعر : حَوْط ، وسَيْحان ، والواسع ...

النزاع بين رهط هدبة ورهط زيادة بن زيد وقتل هدبة

(عن طائفة من الرّواة) :

كان أوّل ما هاج الحرب بين بني عامر بن عبد الله بن ذبيان وبين بني رَقاش — وهم بنو قُرّة بن حَفش بن عَمرو بن عبد الله بن ثَعلبة بن ذبيان . وهم رَهط زيادة بن زيد ، وبنو عامر رهط هدبة — أنّ حَوْط بن خَشرم ، أخا هُدبة ، راهَن زياده بن زيد على جملين من إبلهما ، وكان مُطْلَقُهما [1] من الغاية على يوم وليلة ، وذلك في القَيظ . فتزوّدوا الماء في الرّوايا [2] والقِرَب . وكانت أختُ حَوط سلمى بنت خَشْرَم تحت زيادة بن زيد ، فمالت مع أخيها على زوجها ، فوَهّنت أوعية زيادة ، ففَنِي ماؤه قبل ماء صاحبه ...

قال : فكان ذلك أوّلَ ما أنبت الضغائن بينهما . ثم إنّ هُدبة بن خَشرم وزيادة بن زيد اصطحبا ، وهما مُقبلان من الشأم في ركب من قومهما ، فكانا يتعاقبان السّوق بالإبل ، وكان مع هدبة أختُه فاطمة ، فنزل زيادة فارتجز فقال :

عُوجي علينا واربَعي يا فاطما ... ما دُونَ أن يُرى البعيرُ قائما
ألا تَرَين الدَّمعَ منّي ساجِما ... حِذارَ دارٍ منك لن تُلائما
فعَرَّجتْ مُطّرِداً عُراهِما ... فَعْماً يَبُذّ القُطُفَ الرَّواسِما
كأنّ في المَثْناة منه عائما ... إنّكَ والله لأَن تُباغِما
خَوداً كأنّ البُوصَ والمآكما ... منها نقاً مُخالِطٌ صَرائما
خيرٌ من استقبالك السَّمائما ... ومن مُنادٍ يبتغي مُعاكِما [3]

---

(١) مطلقهما : مكان انطلاقهما .

(٢) الروايا ج راوية : المزادة فيها الماء .

(٣) ما دون أن يرى البعير قائماً : أي ما بين مناخ البعير إلى قيامه . مطردا : صفة للبعير=

فغضب هُدبة حين سمع زيادة يرتجز بأخته ، فنزل فرجز بأخت زيادة ، وكانت تدعى أمّ حازم ، فقال هدبة :

لقد أراني والغلامَ الحازمـــا ... نُزجي المطيَّ ضُمّراً سَواهِما
متى تظنّ القُلُصَ الرّواسمـا ... والجِلةَ النّاجيةَ العَياهِمـا
يُبلِغن أمّ حازمٍ وحازِمـا ... إذا هبَطن مُستحيراً قاتمـا
ورجّع الحادي لها الهَماهِمـا ... ألا تَرَين الحزنَ منّي دائمـا
حِذارَ دارٍ منكِ لن تُلائمـا ... والله لا يشفي الفؤادَ الهائمـا
تَمْساحُكَ اللبّاتِ والمآكِما ... ولا اللِّمامُ دونَ أن تُلازِما
ولا اللِّثامُ دون أن تُفاقِمـا ... ولا الفِقامُ دون أن تُفاغِمـا

وتَعلوَ القوائمُ القَوائما (١)

قال : فشتمه زيادةُ ، وشتمه هُدبة ، وتسابّا طويلاً ، فصاح بهما القوم : اركَبا ، لا حمَلكما اللهُ ، فإنّا قومٌ حُجّاجٌ . وخَشُوا أن يقع بينهما شرٌّ فوعظوهما حتى أمسك كلٌّ واحدٍ منهما على ما في نفسه ، وهُدبةُ أشدُّهما حنَقاً ، لأنه رأى أنّ زيادة قد ضامَه ، إذ رجز بأخته وهي تسمع قوله ، ورجز هو بأخته وهي غائبة لا تسمع قوله فمضيا ولم

= المتتابع السير . عراهم : شديد . فعم : ضخم ممتلىء . الرواسم : الإبل التي تسير الرسيم ، وهو سير للإبل سريع . المثناة : الزمام . عائم : سائح . تباغم : تكلم . الخود : الشابة اللطيفة . البوص : العجز . المأكتان : ما عن يمين العجز وعن شماله . النقا : الكثيب من الرمل . الصرائم ج صريمة : القطعة من معظم الرمل . السمائم ج سموم : الريح الحارة . عكمه : شده .

(١) الضمر السواهم : النوق الضامرة . الجلة والناجية : السريعة في سيرها . العياهم : الشداد . المستحير : الطريق في المفازة لا يعرف أين ينتهي . الهماهم ج همهمة : الكلام الخفي وكل صوت معه بحح ، والمراد بها هنا الحداء . تمساحك : فاعل يشفي . المآكم : رؤوس الأفخاذ . اللثام : اللثم . الفقام : المجامعة . الفغام : التقبيل .

يتحاورا بكلمة حتّى قضَيا حجّهما ورجعا إلى عشيرتهما .

ثم التقى نفرٌ من بني عامر ، من رهط هدبة ، فيهم أبو جَبْر ، وهو رئيسُهم الذي لا يعصُونه ، وخَشرمُ أبو هُدبة ، وزُفَر عمّ هدبة ، وهو الذي بَعث الشر ، وحَجّاج بن سَلامة ، وهو أبو ناشِب ، ونفرٌ من بني رَقاش رهطِ زيادة ، وفيهم زيادةُ بن زيد وإخوته : عبد الرحمن ونَفّاع وأدرَعُ ، بوادٍ من أودية حَرّتهم . فكان بينهم كلامٌ ، فغضب ابن الغسّانيّة ، وهو أدرَع ، وكان زفر عمّ هدبة يُعزَى إلى رجلٍ من بني رقاش ، فقام له أدرع فرجز به فقال :

أدُّوا إلينــا زُفَــرا   نعرِفُ منــه النَظَــرا
وعينَه والأثَرا

قال : فغضب رهط هدبة ، وادَّعَوا حَدّاً [1] على بني رقاش ، فتداعَوا إلى السلطان ثم اصطلحوا على أن يُدفَع إليهم أدرعُ ، فيخلُو به نفرٌ منهم ، فما رأوه عليه أمضَوه . فلمّا خلَوا به ضربوه الحدّ ضرباً مُبرِّحاً ، فراح بنو رقاش وقد أضمروا الحرب وغضبوا .

وجعل هُدبة وزيادة يتهاديان الأشعار ويتفاخران ، ويطلب كلٌ واحد منهما العُلوّ على صاحبه في شعره ...

فلم يزل هُدبة يطلب غِرّة زيادة حتّى أصابها فبَيَّته فقتله ، وتنحّى مَخافةَ السلطان ، وعلى المدينة يومئذ سعيد بن العاص ، فأرسل إلى عمّ هدبة وأهله فحبسهم بالمدينة ، فلمّا بلّغ هدبةَ ذلك أقبل حتّى أمكن من نفسه وتخلّص عمّه وأهله ، فلم يزل محبوساً حتّى شخص عبد الرحمن ابن زيد ، أخو زيادة ، إلى معاوية ، فأورد كِتابَه إلى سعيد بأن يُقبدَ منه

(١) الحد : ما يستوجب العقوبة والقصاص ، والمراد هنا حد القذف .

إذا قامت البيِّنةُ ، فأقامها ، فمشت عُذرةُ إلى عبد الرحمن فسألوه قبول الدية فامتنع ..

وأمّا عليّ بن محمد النوفليّ فذكر عن أبيه أنّ سعيدَ بن العاص كره الحكم بينهما ، فحملهما إلى معاوية ... فلمّا صاروا بين يدي معاوية قال عبد الرحمن أخو زيادة له : يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك مظلمتي وما دُفعت اليه ،وما جرى عليّ وعلى أهلي وقُرباي ، وقتل أخي زيادة وترويع نِسوتي . فقال معاوية : يا هُدبة قل . فقال : إنّ هذا رجلٌ سَجّاعةٌ ، فإن شئت أن أقصّ عليك قِصّتَنا كلاماً أو شعراً فعلتُ . قال : لا بل شعراً . فقال هدبة هذه القصيدة ارتجالاً :

ألا يا لَقومي لِلنّوائب والدّهرِ ... ولِلمرء يُردي نفسَه وهو لايدري
وللأرضِ كم من صالح قد تأكّمَت ... عليه فوارَتْه بلَمّاعةٍ قَفْرِ
فلا تتقي ذا هَيبةٍ لِجَلالــــه ... ولا ذا ضِياعٍ هنّ يتركْن للفقر

حتى قال :

رُمينا فرامَينا فصادف رَمْيُنـــا ... منايا رجالٍ في كتابٍ وفي قَدْرِ
وأنت أميرُ المؤمنين فما لنـــا ... وراءك من مَعْدًى ولا عنكَ من قَصْر
فإن تك في أموالنا لم نَضِقْ بهـــا ... ذراعاً وإن صبْرٌ فنَصْبِرُ للصّبْرِ (١)

فقال له معاوية : أراك قد أقررت بقتل صاحبهم . ثم قال لعبد الرحمن : هل لزيادةَ وَلدٌ ؟ قال : نعم ، المِسْوَر ، وهو غلام صغير لم يبلُغ ، وأنا عمُّه ووَليُّ دم أبيه . فقال : إنّك لا تُؤمَن على أخذ الديّة أو قتل الرجل بغير حقّ ، والمِسورُ أحقّ بدم أبيه . فردّه إلى المدينة فحُبس

---

(١) يردي : يهلك . تأكمت عليه : صارت أكمة . اللماعة : الفلاة يلتمع فيها السراب . فلا تتقي : الضمير هنا يعود على النوائب . الصبر : الحبس حتى الموت .

ثلاث سنين حتّى بلغ المِسور .

فأرسل هدبة العشيرةَ إلى عبد الرحمن في أوّل سنة فكلّموه . فاستمع منهم ثم قال :

أبعدَ الذي بالنّعْفِ نعفِ كُوَيكِبِ
رَهينةِ رَمْسٍ ذي تُرابٍ وجَندلِ

أذكَّرُ بالبُقْيا على من أصابني
وبُقيايَ أنّي جاهدٌ غير مُؤتلي [1]

فرجعوا إلى هدبة بالأبيات فقال : لم يُوئِسني بعدُ .

فلمّا كانت السنة الثالثة بلغ المِسورُ ، فأرسل هدبة إلى عبد الرحمن مَن كلّمه ، فأنصت حتى فرَغوا ، ثم قام عنهم مُغضَباً وأنشأ يقول :

سأكذب أقواماً يقولون إنّني ... سآخذُ مالاً مِن دمٍ أنا ثائرُه

...

ونهض ، فرجعوا إلى هدبة ، فأخبروه الخبر فقال : الآنَ أيِست منه . وذهب عبد الرحمن بالمِسوَر — وقد بَلَغ — إلى والي المدينة ، وهو سعيد ابن العاص ، وقيل مروان بن الحكم ، فأخرج هدبة .

قالوا : فلمّا كان في الليلة التي قُتل في صباحها أرسل إلى امرأته ، وكان يُحبّها : إيتيني الليلةَ أستمتعْ بك وأودّعْك . فأتته في اللّباس والطّيب ، فصارت إلى رجلٍ [2] قد طال حبسُه ، وأنتنتْ في الحديد

---

(١) النعف : المكان فيه صعود وهبوط . كويكب : موضع في ديار بني سعد بن هذيم . البقيا : الإبقاء . غير مؤتل : غير مقصر عن طلب الثأر .

(٢) المقصود بالرجل هنا هدبة نفسه .

راثحتَه ، فحادثتْها وبكَى وبكتْ ، ثم راودها عن نفسها وطاوعتْه ، فلما علاها سمعتْ قعقعة الحديد ، فاضطربت تحتَه ، فتنحّى عنها وأنشأ يقول :

وأدْنَيتِني حتى إذا ما جعلتِني لدى الخَصرِ أو أدنى استقلّكِ راجِفُ
فإن شئتُ واللهِ انتهيتُ وإنّني لئلاّ تَرَيني آخرَ الدهرِ خائفُ
رأت ساعدَيْ غُول وتحت ثيابه جَآجِئُ يَدمَى حَدُّهاوالحراقفُ(١)

ثم قال الشعر حتى أتى عليه وهو طويل جداً وفيه يقول :

فلم ترَ عيني مثلَ سِربٍ رأيتُه خرجن علينا من زقاق ابن واقف
تضمّخْنَ في الجاديّ حتى كأنّما الأنوفُ اذا استعرضتَهُنّ رواعفُ
خرجن بأعناقِ الظّباء وأعينِ الجآذرِ وارتجّتْ لهنّ السّوالفُ
فلو أنّ شيئاً صاد شيئاً بطَرْفِه لصِدْنَ ظباءٌ فوقهنّ المطارفُ(٢)

فلمّا مُضي به من السجن للقتل التفت فرأى امرأته ، وكانت من أجمل النساء ، فقال :

أَقِلّي عليّ اللّوْمَ يا أمَّ بَوْزَعا ولا تجزَعي ممّا أصاب فأوْجَعا
ولا تنكَحي إن فرّق الدهرُ بيننا أغمَّ القَفا والوجهِ ليس بأنْزَعا
كليلاً سوى ما كان من حَدّ ضِرْسِه أُكَيْبِدَ مِبْطانَ العشيّات أَروَعا
ضَرُوباً بلَحْيَيْه على عظمِ زَوْره اذا الناس هَشّوا للفَعال تقنّعا

---

(١) استقلك راجف : أصابك ما جعلك ترجفين وتفزعين . في البيت الثاني قوله : إنني ، لا خبر لها ، ويحتمل انها محرفة عن كلمة أخرى . ولعل صواب هذا الشطر : فإن شئت والله انثنيت وأنثني . جآجيء جمع جؤجؤ : عظم الصدر . الحراقف ج حرقفة : أعلى الورك .

(٢) الجادي : الزعفران . الجآذر ج جؤذر : ولد البقرة الوحشية . السوالف ج سالفة : جانب العنق . لصدن ظباء : ظباء هنا هي فاعل صدن ، وهي لغة أكلوني البراغيث .

وحلّي بذي أكرومةٍ وحَميّـــةٍ　　وصَبرٍ اذا ماالدّهرُ عضّ فأسرعا [1]

عن مصعب بن عبد الله قال :

لمّا أُخرج هدبة من السجن ليقتل جعل الناس يتعرّضون له ويخبَرُون صبره ، ويَستنشدونه . فأدركه عبدُ الرحمن بن حسّان فقال له : يا يا هدبة ، أتأمُرني أن أتزوّج هذه مِن بَعدك ؟ يعني زوجته ، وهي تمشي خلفَه . فقال : نعم ، إن كنت من شَرْطها . قال : وما شَرطُها ؟ قال : قلت في ذلك :

فلا تنكِحي إن فرّق الدّهرُ بيننـــا　　أغمَّ القفا والوجه ليس بأنزعـــا

وكُوني حبيساً أو لِأروعَ ماجــدٍ　　اذا ضَنَّ أعشاشُ الرّجال تبرّعا [2]

فمالت زوجته إلى جزّارٍ وأخذت شَفرته ، فجدعت بها أنفَها ، وجاءته تَدْمَى مَجدُوعةً فقالت : أتخاف أن يكون بعد هذا نِكاحٌ ؟ قال : فرسَف في قيوده [3] وقال : الآنَ طاب الموت .

قال ابن قُتيبة في حديثه :

فسأل سعيدُ بن العاص أخا زيادة أن يقبل الدّيةَ عنه قال : أُعطيكَ

---

(١) الغمم : سيلان الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا ، يقال : هو أغم الوجه والقفا . الأنزع : من انحسر شعره عن جبينه وقفاه . أكيد : من ارتفع موضع كبده ، مصغر أكبد ، يريد أنه كثير الأكل . أروع : جبان . اللحيان : العظمان اللذان ركبت فيهما الأسنان . الزور : الصدر ، يريد أنه نهم مبطان .

(٢) أعشاش الرجل : بخلاؤهم ، والعش : إقلال العطاء .

(٣) رسف في قيوده : مشى مشي المقيد .

ما لم يُعطه أحدٌ من العرب ، أعطيك مائة ناقة حمراء ليس فيها جدّاء [1] ولا ذاتُ داءٍ . فقال له : واللهِ لو نقبتَ لي قُبّتكَ هذه ثم ملأتَها لي ذهباً ما رضيتُ بها من دم هذا الأجدع . فلم يزل سعيد يسأله ويعرِض عليه فيأبى ، ثم قال له : والله لو أردتُ قبول الدّية لمنعني قولُه :

لَنَجْدَعَنّ بأيدينـــا أنوفَكم ويذهب القتلُ فيما بيننا هَدرا

فدفعه حينئذٍ ليقتله بأخيه .

عن مصعب بن عبد الله الزُبَيري قال :

ومرّ هُدبةُ بحُبّى [2] فقالت له : كنت أعُدّك في الفِتيان ، وقد زهِدت فيك اليومَ ، لأني لا أنكر أن يصبر الرّجال على الموت ، ولكن كيف تصبر عن هذه ؟ [3] فقال : أما والله انّ حُبّي لها لَشديدٌ ، وان شئت لأصفنّ لك ذلك . ووقف الناس معه فقال :

وجدتُ بها ما لم تجدْ أمٌّ واحـدٍ ولا وجدُ حُبّى بابن أمّ كِلابِ
رأتْه طويل السّاعدين شَمَرْدلاً كما تشتهي من قوة وشبابِ [4]

فانقمعت داخلةً إلى بيتها ، فأغلقت الباب دُونَه .

قالوا : فدُفع إلى أخي زيادة لِيقتلَه ، قال : فاستأذن في أن يُصلّي ركعتين ، فأذن له ، فصَلاّهما وخفّفَ ، ثم إلتفت إلى مَن حضر وقال : لولا أن يُظَن بي الجزعُ لأطلتهما ، فقد كنت محتاجاً إلى إطالتهما . ثم قال لأهله : إنّـه بلغني أنّ القتيل يَعقِل ساعةً بعد سقوط رأسه ، فإن

---

(١) الجداء : التي جف لبنها من داء أصابها .
(٢) امرأة كان للشاعر صلة بها .
(٣) أرادت بهذه زوجته .
(٤) الشمردل : الحسن الخلق .

عَقَلتُ فإنّي قابضٌ رجلي وباسطُها ثلاثاً . فَفعل ذلك حين قتل . وقال قبل أن يُقتل :

إن تقتُلوني في الحديـد فإنّـني قتلت أخاكم مُطلقاً لم يُقَيَّدِ

فقال عبد الرحمن أخو زيادة : والله لاقتلنّه إلا مُطلقاً من وَثاقه . فأُطلق له ، فقام إليه وهزّ السيف ثم قال :

قد عَلِمتْ نفسي وأنت تَعلمُهْ لأقتُلَنَّ اليومَ مَن لا أَرحَمُهْ

ثم قتله .

فقال حمّاد في روايته :

ويقال ان الذي قتله ابنُه المِسْور ، دفع إليه عمُّه السيف وقال له : قم فاقتُلْ قاتل أبيك . فقام فضربه ضربتين قتله فيهما .

قال حمّاد : قرأت على أبي قال : بلغني أنّ هُدبة أوّلُ من أُقيد منه في الإسلام .

* * *

٥٦

الوليد بن يزيد

(الأغاني ج ٧ ص ١ وما بعدها)

الشاعر

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مَروان بن الحكَم بن أبي العاصي بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مَناف ، ويكنى أبا العبّاس . وأمّه أُمّ الحجّاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم بن أبي عَقيل الثقَفيّ ، وهي بنت أخي الحجّاج ...

وكان الوليد بن يزيد من فِتيان أمّية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدّائهم ، وكان فاسقاً خليعاً مُتهماً في دِينه مَرمياً بالزندقة . وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقُتل . وله أشعارٌ كثيرة تدل على خُبثه وكُفره . ومن الناس من ينفي ذاك عنه ويُنكره ويقول إنه نُحِلَه وأُلصِق إليه ، والأغلبُ الأشهر غيرُ ذلك .

عشقه سلمى بنت سعيد وتغزله بها

(عن طائفة من الرواة) :

أن يزيد بن عبد الملك كان خرج إلى قُـرَين [1] متبدّياً به ، وكان هناك قصر لسعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ، وكانت بنتُه أمُّ عبد الملك ، واسمُها سَعدة ، تحت الوليد بن يزيد . فمرض سعيد في ذلك الوقت ، وجاءه الوليد عائداً ، فدخل فلَمح سَلمى بنت سعيد ، أخت زوجته وسترها حواضنُها وأختُها ، فقامت ففَـرعتهنّ طولاً [2] ،فوقعت بقلب الوليد . فلمّا مات أبوه طلّق أمَّ عبد الملك زوجتَه وخطب سلمى إلى أبيها . وكانت لها أخت يقال لها أمُّ عثمان تحت هشام بن عبد الملك،فبعثْ إلى أبيها ، وقيل بعث إليه هشام : أتريد أن تستفحل [3] الوليدَ لبناتك يُطلّق هذه وينكِح هذه ! فلم يزوّجه سعيد وردّه أقبحَ ردّ . وهَويها الوليد ورام السُلُوَّ عنها فلم يَسْلُ ؛ وكان يقول : العجبُ لسعيد ! خطبت إليه فردّني ، ولو قد مات هشام ووَليتُ لزَوَّجني ! وهي طالقٌ ثلاثاً إن تزوّجتُها حينئذٍ ، وإن كنت أهواها . فيقال إنّه لمّا طلّق سَعْدة ندِم على ذلك وغَمّه ، وكان لها من قلبه مَحَلٌ ، ولم تحصُل له سَلمى فاهتمّ لذلك وجزِع . وراسل سَعدة ، وقد كانت زُوّجت غيرَه ، فلم ينتفع بذلك .

المدائنيّ قال :

بعث الوليد بن يزيد إلى أشعب بعدما طلّق امرأته فقال : يا أشعبُ ، لك عندي عشرةُ آلاف درهم على أن تبلّغَ رسالتي سعدة . فقال : أحضِر

---

(١) قرين : موضع باليمامة يسمى قرين نجدة ، قتل عنده نجدة الحروري .

(٢) فرعتهن طولا : علتهن طولا .

(٣) تستفحله : تتخذه فحلا .

العشرة الآلاف الدرهم حتى أنظر إليها . فأحضرها الوليد ، فوضعها أشعب على عنقه وقال : هاتِ رسالتك . قال : قل لها يقول لك أميرُ المؤمنين :

أسَعدةُ هل إليكِ لنا سبيـلُ ... وهل حتى القيامة من تلاقي
بلَى ولعلَّ دهراً أن يُـؤاتي ... بموتٍ من حَليلكِ أو طَلاقِ
فأصبحَ شامتـاً وتقـرَّ عيـني ... ويُجمَعَ شَمْلُنا بعد افتراق

فاتى أشعبُ الباب ، فأُخبرتْ بمكانه ، فأمرت بفُرُشٍ لها ففُرشت وجلست وأذِنت له . فلمّا دخل أنشدها ما أمره ، فقالتْ لخَدَمِها : خُذوا الفاسق . فقال : يا سيّدتي ، إنّها بعشرة آلاف درهم . قالت: والله لأقتُلنّك أو تُبلّغُه كما بلّغتني . قال : وما تَهَبين لي ؟ قالت : بِساطي الذي تحتي . قال : قُومي عنه . فقامت ، فطواه وجَعله إلى جانبه ، ثم قال : هاتِ رسالتكِ ، جُعلتُ فِداكِ . قالت : قُل له :

أتبكي على لُبنَى و أنتَ تركتَهـا ... فقد ذهبتْ لُبنى فما أنت صانعُ

فأقبل أشعبُ فدخل على الوليد بن يزيد فقال : هِيه . فأنشده البيت ، فقال : أَوّهْ ، قتلتَني يا بنَ الزانية ! ما أنا صانع ! فاختر أنت الآنَ ما أنت صانعٌ يا بنَ الزّانية : إمّا أن أُدَلّيَك على رأسك مُنَكّساً في بئر ، أو أرمي بك مُنَكّساً من فوق القصر ، أو أضربَ رأسك بعمودي هذا ضربةً ؛ هذا الذي أنا صانعٌ ، فاختَرْ أنت الآنَ ما أنت صانع . فقال : ما كنتَ لِتفعلَ شيئاً من ذلك . قال : ولِمَ يا بنَ الزانية ؟ قال : لم تكن لِتعذّبَ عينَين نظرتا إلى سَعدة ! قال : أَوّه ، أفلَتَّ والله بهذا يا بنَ الزّانية ! اخرُج عنّي

قال ابن سلاّم والمدائنيّ :

وخرج الوليد بن يزيد يريد قُرَيناً (١) لعلّه يراها ، فلَقيه زيّاتٌ معه

(١) في المطبوعة: فرتنى،وهو قصر بمرو الروذ، وقد سبق القول إن قصر سعيد بن خالد كان ـ

حمارٌ عليه زيت ، فقال له : هل لك أن تأخذ فرَسي هذا وتعطيَني حمارك هذا بما عليه وتأخذَ ثيابي وتعطيني ثيابك ؟ ففعل الزيّات ذلك . وجاء الوليد وعليه الثيابُ وبين يديه الحمار يسُوقه متنكّراً حتى دخل قصر سعيد ، فنادى مَن يشتري الزيت ؟ فاطّلع بعضُ الجواري فرأينَه ، فدخلن إلى سَلمى وقُلن : انّ بالباب زيّاتاً أشبه الناس بالوليد ، فاخرُجي فانظُري إليه . فخرجت فرأتْه ورآها ، فرجعت القَهقرى وقالت : هو والله الفاسق الوليد ، وقد رآني ، فقُلن له : لا حاجةَ بنا إلى زيتك ، فانصرِف . وقال :

فما مِسكٌ يُعَلّ بزَنْجبيلِ ... ولا عَسَلٌ بألبان اللّقاحِ
بأشهى من مُجاجة ريق سلمى ... ولا ما في الزّقاق من القَراح
ولا والله لا أنسى حياتي ... وَثاقَ الباب دوني واطّراحي (١)

عبد الله بن عَمرو قال :

لَقِي سعيدُ بن خالد الوليدَ بن يزيد وهو ثَمِلٌ ، فقال له : يا أبا عثمان ، أتردُّني على سَلمى ، وكأنّي بك لو قد وَليت الخلافة خطبتَني فلم أُجبْك ، وان تزوّجتُها حينئذٍ فهي طالقٌ ثلاثاً . فقال له سعيدٌ : إنّ المرء يجعل كريمتَه عند مِثلك لَحقيقٌ بأكثر ممّا قُلتَ . فأمضّه الوليد وشتمه وتسامعا (٢) وافترقا . وبلغ الوليد أنّ سلمى جزِعت لِما جرى وبكت وسبّت الوليد ونالت منه ، فقال :

عَتَبت سلمى علينا سَفَاهاً ... أن هجوتُ اليومَ فيها أباها
كان حقُّ العَتْب يا قومُ منّي ... ليس منها كان قلبي فِداها
فلَئن كنتُ أردتُ بقلبي ... لأبي سَلمى خِلافَ هواها

= بقرين ، وهو باليمامة ، وقد حرفت « قرين » إلى « فرتنى » .

(١) يعل : يمزج .

(٢) تسامعا : أسمع كل منهما الآخر شتمه .

فتكلتُ اليوم سلمى فسلمى ملأت أرضي معاً وسَماها
غير أنّي لا أظن عدوّاً قد أتاها كاشحاً بأذاها
فأها العُتبى لَدينا وقلّتْ أبداً حتى أنال رضاها

قال المدائني : لمّا غضبت سلمى من هجائه أباها قال يعتذر إليه بقوله :

ألا أبلغْ أبا عثمان عِذرةَ مُعتِبٍ أسَفاً
فلست كمن يَودّك باللسان ويُكثِر الحَلِفا
عتبتَ عليَّ في أشياءَ كانت بيننا سَرَفا
فلا تُشمتْ بي الأعداءَ والجيرانَ مُلْتَهِفا
تَوَدّ لو انّني لحمٌ رأتهُ الطيرُ فاختُطِفا
ولا ترفعْ به رأساً عفا الرحمنُ ما سلَفا

قال المدائني وابن سلاّم : فلمّا طال بالوليد ما به كتب إلى أبيها سعيد :

أبا عثمانَ هل لك في صَنيعٍ تُصيب الرشدَ في صِلَتي هُدِيتا
فأشكُر منك ما تُسدي وتُحيي أبا عثمانَ مَيّتةً ومَيْتا

قالوا : فلم يُجبْه إلى ذلك ، حتى ولي الخلافة . فلما وَلِيها زوّجه إيّاها ، فلم تلبث إلاّ مدّةً يسيرةً حتى ماتت . وقال فيها ليلةَ زُفّت إليه :

خَفّ من دار جيرتي يا بنَ داودَ أُنسُها

وهي طويلة . وفيها ممّا يُغنّى به :

أَوَلا تخرُج العروسُ فقد طال حَبسُها
قد دنا الصُبح أو بدا وهي لم يُقضَ لُبسُها
برزت كالهلال في ليلةٍ غاب نَحسُها
بين خمسٍ كواعبٍ أكرمُ الخَمس جنسُها

وقال المدائني : مكثت عنده سَلمى أربعين يوماً ثم ماتت ، فقال :

أَلمَّا تعلما سَلمى أقامــــت ... مُضَمَّنةً من الصحراء لَحْدا
لعَمرُك يا وليدُ لقد أجَنُّــوا ... بها حَسَباً ومَكرُمةً ومجــدا
ووجهاً كان يَقصرُ عن مَداه ... شعاعُ الشمس أهلٌ أن يُفَدَّى
فلم أرَ ميتاً أبكى لِعَــــينٍ ... وأكثرَ جازعاً وأجلَّ فَقْدا
وأجدرَ أن تكون لَديه مَلْكــاً ... يُريك جَلادةً ويُسِرُّ وَجْدا

و (من شعره فيها) وهو من أملح شعره :

أراني الله يا سَلمى حياتــــي ... وفي يوم الحسابِ كما أراكِ
ألا تجزين من تَيَّمْتِ عصـرا ... ومَن لو تطلبين لقد قضاكِ
ومن لو مُتِّ مات ولا تموتي ... ولو أُنسِي له أجلٌ بَكاكِ
ومن حقّاً لو اعطِي ما تمنّى ... من الدنيا العريضة مــا عَداكِ
ومَن لو قلتِ مُتْ فأطاق موتــاً ... إذاً ذاق الممات وما عصاكِ
أثيبي عاشقاً كَلِفــاً مُعَنّى ... إذا خَدِرتْ له رِجلٌ دعاكِ [1]

كانت العــرب تقول : إنَّ الإنسان إذا خدِرت قدمه دعا باسم أحبِّ الناس إليه فسكنت ... ومنه :

أنا الوليدُ الإمامُ مفتخــراً ... أُنعِمُ بالي وأَتْبَعُ الغَزَلا
أهوى سُليمى وهي تصرِمني ... وليس حقّاً جَفاءُ من وَصَلا
أسحبُ بُرْدي إلى منازلهــا ... ولا أُبالي مَقالَ مَن عَذَلا

---

(١) أنسي : أصلها أنسيء أي أخر ، ولينت الهمزة للشعر .

خمريّاته

للوليد أشعارٌ جِياد ... فمنها – وهو ما بَرّز فيه وجَوّده وتبعه الناس جميعاً فيه وأخذوه منه – قولُه في صِفة الخمر .. :

إصْدَعْ نَجِيَّ الهُمومِ بالطّرَبِ　　وانعَمْ على الدّهر بابنة العِنَبِ
واستقبلِ العيشَ في غَضارتهِ　　لا تَقْفُ منه آثار مُعتَقِبِ
من قَهوةٍ زانها تقادُمُها　　فهي عجوزٌ تعلُو على الحِقَبِ
أشهى إلى الشّرْب يومَ جَلْوتها　　من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلّتْ ورقّ جَوهرُها　　حتى تَبدّتْ في منظرٍ عَجَبِ
فهي بغير المِزاجِ من شَرَرٍ　　وهي لدى المَزْجِ سائلُ الذّهبِ
كأنّها في زُجاجتها قَبَسٌ　　تذكو ضياءً في عينِ مُرتَقِبِ
في فتية من بني أميّةَ أهل المجد والمأثُرات والحَسَبِ
ما في الوَرَى مِثلُهم ولا بِهمُ　　مثلي ولا مُنْتَمٍ لمِثل أبي (١)

وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم ، سَلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصّةً فإنه سلخ معانيه كلّها وجعلها في شعره فكرّرها في عدة مواضع منه ...

وله أبيات أنشدنيها الحسن بن عليّ ... وكان أبو غسّان يكاد أن يرقص إذا أنشدها :

اصدَعْ نَجيّ الهموم بالطرب　　وانعَمْ على الدهر بابنة العنبِ

الأبيات التي مضت متقدّماً . وهذا من بديع الكلام ونادره ، وقد

---

(١) تقفو : تتبع . جلوتها : عرضها ، تشبيهاً لها بالعروس .

جوّد فيه منذ ابتدأ إلى أن ختم . وقد نقلها أبو نواس والحسين بن الضحّاك في أشعارهما .

نزاعه مع هشام بن عبد الملك

(عن طائفة من الرّواة :)

أنّ يزيد بن عبد الملك لمّا وجّه الجيوش إلى يزيد بن المهلّب وعقد لمَسْلَمةَ بن عبد الملك على الجيش وبعث العبّاس بن الوليد بن عبد الملك وعقد له على أهل دمشق ، قال له العبّاس : يا أمير المؤمنين ، إنّ أهل العراق أهلُ غَدر وإرجاف ، وقد وَجّهتنا مُحاربين والأحداثُ تحدُث ، ولا آمَنُ أن يُرجِفَ أهلُ العراق ويقولوا : مات أمير المؤمنين ولم يَعْهَدْ ، فيفتُ ذلك في أعضاد أهل الشأم ، فلو عهِدتَ عهداً لعبد العزيز ابن الوليد ! قال : غداً . وبلغ ذلك مَسْلَمة بن عبد الملك ، فأتى يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ، أيّما أحبُّ إليك : وَلَدُ عبد الملك أو وَلَدُ الوليد ؟ فقال : بل وَلدُ عبد الملك . قال : أفَأخوك أحقُّ بالخلافة أم ابنُ أخيك ؟ قال : إذا لم تكن في ولدي فأخي أحقُّ بها من ابن أخي . قال : فابنُك لم يَبلغْ ، فبايعْ لهشام ثم لابنك بعد هشام — قال : والوليد يومئذٍ ابنُ إحدى عشرةَ سنةً — قال : غداً أبايع له .

فلمّا أصبح فعل ذلك وبايع لهشام ، وأخذ العهدَ عليه ألاّ يخلَعَ الوليدَ بعدَه ولا يُغيّر عهده ولا يحتالَ عليه . فلمّا أدرك الوليدُ ندِم أبوه ، فكان ينظر إليه ويقول : اللهُ بيني وبين مَن جَعل هشاماً بيني وبينك . وتُوفّي يزيد سنة خمسٍ ومائة وابنُه الوليد ابنُ خمسَ عشرةَ سنة . قالوا : فلم يزل الوليد مُكرَّماً عند هشام رفيعَ المنزلة مُدّةً ثم طمع في خَلعه وعقد العهد بعده لابنه مَسلمة بن هشام ، فجعل يذكر الوليد بن يزيد وتَهتّكَه وإدمانَه على الشّراب . ويذكر ذلك في مجلسه ويقوم ويقعُد

به . وولاّه الحجَّ ليظهرَ ذلك منه بالحَرَمَين فيسقُطَ ، فحجَّ وظهر منه فعلٌ كثير مذموم ، وتشاغل بالمغنّين وبالشّراب ، وأمر مولى له فحجّ بالناس . فلمّا رجع [1] طالبه هشامٌ بأن يخلعَ نفسَه ، فأبى ذلك ؛ فحرمه العَطاء وحَرَم سائرَ مواليه وأسبابه وجفاه جفاءً شديداً . فخرج مُتبدّياً وخرج معه عبد الصّمد بن عبد الأعلى مُؤدِّبُه ، وكان يُرمى بالزندقة . ودعا هشامٌ الناس إلى خَلعه والبَيعة لمَسلمة بن هشام — وأمُّه أمُّ حكيم بنت يحيى بن الحكَم بن أبي العاصي . وكان مَسلمة يُكنَى أبا شاكر ، كُنّي بذلك لمولىً كان لمروان يكنى أبا شاكر ، كان ذا رأيٍ وفضل وكانوا يعظّمونه ويتبرّكون به — فأجابه إلى خَلع الوليد والبيعةِ لمَسلمةَ بن هشام محمدٌ وإبراهيمُ ابنا هشام بن إسماعيل المَخزوميّ ، والوليدُ [2] وعبد العزيز وخالد بن القَعْقاع بن خُويلد العَبْسيّ وغيرهم من خاصّة هشام . وكتب إلى الوليد : ما تَدَعُ شيئاً من المنكر إلاّ أتيتَه وارتكبتَه غير مُتحاشٍ ولا مُستَتِرٍ ! فليت شعري ما دينُك ؟ أعلى الإسلام أنت أم لا ؟! فكتب إليه الوليد بن يزيد — ويقال : بل قال ذلك عبد الصّمد بن عبد الأعلى ونَحَلَه إيّاه — :

يأيُّها السائلُ عن ديننا ... نحن على دينِ أبي شاكرِ
نشربُها صِرفاً ومَمزوجةً ... بالسُّخن أحياناً وبالفاترِ

فغضب هشام على ابنه مَسلمة ، وقال : يُعيّرني بك الوليدُ وأنا أرشّحك للخلافة ! فالزَمِ الأدب ، واحضَرِ الصّلوات . وولاّه المَوسِم سنة سبعَ عشرة ومائة ، فأظهرَ النُسْكَ وقسم بمكّة والمدينة أموالاً ...

قال المدائنيّ : وبلغ خالداً القَسْريَّ ما عزَم عليه هشامٌ ، فقال : أنا

(١) في المطبوعة : فلما حج ، والسياق يقتضي ما أثبتناه .
(٢) لا يتضح من المقصود بالوليد هنا ولعل في العبارة تحريفاً ، وقد يكون أصلها : العباس ابن الوليد . أما عبد العزيز فهو عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك .

بريءٌ من خليفةٍ يُكنّى أبا شاكر . فبلغتْ هشاماً عنه هذه ، فكان ذلك سبب إيقاعه به .

عن المدائنيّ قال :

دخل الوليدُ بن يزيد مجلسَ هشام بن عبد الملك وفيه سعيد بن هشام ابن عبد الملك وأبو الزُّبير مولى مَروان وليس هشامٌ حاضراً . فجلس الوليد مجلسَ هشام . ثم أقبل على سعيد بن هشام فقال له : من أنت ؟ وهو به عارفٌ . قال : سعيدُ ابن أمير المؤمنين . قال : مَرحباً بك . ثم نظر إلى أبي الزبير فقال : من أنت ؟ قال : أبو الزُّبير مولاك أيّها الأمير . قال : أنسْطاسٌ أنت ؟ مرحباً بك . ثم قال لإبراهيم بن هشام : من أنت ؟ قال : إبراهيم بن هشام . قال : مَن إبراهيم بن هشام ؟ وهو يعرفه . قال : إبراهيم ابن هشام بن إسماعيل . قال : مَن إسماعيل ؟ وهو يعرفه . قال : اسماعيل ابن هشام بن الوليد بن المغيرة . قال : مَن الوليد بن المغيرة ؟ قال : الذي لم يكن جَدُّك يُرى أنه في شيء ، حتى زَوّجه أبي ، وهو بعضُ ولد ابنته . قال : يا بنَ اللخْناء [1] ، أتقول هذا ؟! واتّخذا [2] . وأقبل هشام، فقيل لهما : قد جاء أمير المؤمنين . فجلَسا وكَفّا . ودخل هشام فما كاد الوليد يتنحّى له عن صدر مجلسه ، إلاّ أنه زَحل له قليلاً . فجلس هشام وقال له : كيف أنت يا وليد ؟ قال : صالحٌ . قال: ما فعلتْ برابطُك؟ [3] قال : مُعْمَلة أو مستعملة . قال : فما فعل ندماؤك ؟ قال : صالحون ، ولعَنَهم اللهُ إن كانوا شرّاً مِمّن حَضَرَك . وقام ، فقال له هشام : يا بنَ اللّخْناء ! جَؤُوا عُنُقَه [4] . فلم يفعلوا ودفعوه رويداً . فقال الوليد :

---

(١) رجل الخن وامرأة لخناء : لم يختتنا ، واللخن أيضاً : الرائحة النتنة .

(٢) اتّخذا : تصارعاً .

(٣) البربط : العود .

(٤) وجأ عنقه : ضربه بسكين أو بيده .

أنا ابنُ أبي العاصي وعثمانُ والدي ... ومَروانُ جَدّي ذو الفَعّال وعامرُ
انا ابنُ عظيمِ القَريتَين وعِزُّهــا ... ثقيفٌ وفِهرٌ والعُصاةُ الأكابر
نبيُّ الهُدى خالي ومن يكُ خالُــه ... نبيُّ الهُدى يَقْهَرْ به من يُفاخر[1]

عن المدائنيّ قال : كان هشام بن عبد الملك يُكثر تنقّصَ الوليد بن يزيد ، فكان مسلمة يعاتب هشاماً ويكُفُّه . فمات مَسلمةُ ، فغُمَّ الوليد ورثاه ...

موسى بن زُهير ... عن أبيه قال :

رأيت هشامَ بن عبد الملك ، وأنا في عَسكره ، يومَ توفي مَسلمة ابن عبد الملك ، وهشامٌ في شُرْطَته ، إذ طلع الوليد بن يزيد على الناس وهو نَشوانُ يَجُرّ مُطْرَفَ[2] خزٍّ عليه . فوقف على هشام فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عُقْبَى من بقي لحُوقُ من مَضَى ، وقد أقفر بعد مَسْلمةُ الصيدُ لِمن يَرى[3] ، واختلّ الثّغرُ فوهَى ، وعلى أثر من سَلَفَ يمضي من خلف ، فتزوّدوا ، فإنّ خير الزّاد التقوى . فأعرض عنه هشامٌ ولم يَرُدّ جواباً ، ووَجَم الناسُ فما هَمَس أحدٌ بشيء ...

محمد بن الضحّاك عن أبيه قال :

أراد هشامٌ أن يخلع الوليد ويجعل العهد لولده ، فقال الوليد :

كفرتَ يداً من مُنْعِمٍ لو شكرتَها
جزَاك بها الرحمنُ ذو الفَضل والمَنّ
رأيتك تَبني جاهداً في قَطيعتي
ولو كنتَ ذا حزمٍ لَهدَّمتَ ما تَبني

(١) القريتان : مكة والطائف .
(٢) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .
(٣) لا يتضح المقصود من هذه العبارة ، ويبدو أن فيها تحريفاً .

أراكَ على الباقين تجني ضَغينـــةً
فيا ويحَهم إن مُتَّ من شرّ ما تجني

كأنّيَ بهم يوماً وأكثرُ قولهـــم
أيا ليت أنّا ، حين « يا ليت » لا تُغني

عن المدائنيّ قال :

عتَب هشام على الوليد وخاصّته ، فخرج الوليد ومعه قومٌ من خاصّته ومَواليه ، فنزل بالأبْرَق بين أرضِ بَلْقَين وفَزارة على ماءٍ يُقال له الأغدف ، وخلّف بالرُّصافة كاتبه عِياض بن مُسلِم ، مولى عبد الملك ، ليكاتبَه بما يحدُث ، وأخرج معه عبد الصَّمد بن عبد الأعلى . فشربوا يوماً ، فقال له الوليد : يا أبا وَهب ، قُل أبياتاً نُغنّي فيها . فقال أبياتاً ، وأمر عُمر الوادي فغَنّى فيها ، وهي :

ألم تَرَ لِلنّجم إذ سَبّعـــا ... يُبادرُ في بُرجِه المَرْجِعا
تحيّر عن قصـــد مَجراتــه ... إلى الغَور والتمس المطلَعا
فقلت وأعجبـــني شأنُــــه ... وقد لاح إذ لاح لي مُطمِعا
لعلّ الوليد دنـــا مُلكـــه ... فأمسى إليــه قد استجمعا
وكنّا نُؤَمِّـــل في مُلكــه ... كتأميل ذي الجَدْب أن يُمرِعا
عقدنا لــه مُحكَمات الأمــــور ... طَوعاً وكان لها مَوضِعا (١)

فرُوي هذا الشعر وبلغ هشاماً ، فقطع عن الوليد ما كان يُجري عليه وعلى أصحابه وحَرَمَهم . وكتب إلى الوليد : قد بلغني أنّك اتّخذت عبد الصّمد خِدْناً ومُحدِّثاً ونديماً ، وقد حقّق ذلك ما بلغني عنك ، ولن أبرّئك من سوء ، فأخرِجْ عبد الصمد مذموماً . قال : فأخرجه الوليد وقال :

---

(١) سبع : أقام سبع ليال . يمرع : يخصب .

لقد قذفوا أبـا وهبٍ بأمـرٍ كبيرٍ بـل يزيد على الكبيرِ
وأشهدُ أنّهم كذبـوا عليه شهادةَ عالمٍ بهـمُ خبيرِ

فكتب الوليد إلى هشام بأنه أخرج عبد الصمد ، واعتذر إليه من منادمته ، وسأله أن يأذَنَ لابن سهيلٍ في الخروج إليه ، وكان من خاصّة الوليد . فضرب هشامٌ ابنَ سهيل ونفاه وسيّره ، وكان ابنُ سهيل من أهل النّباهة ، وقد وُلي الولايات ، ولي دمشق مراراً وولي غيرها ، وأخذ عِياض بن مُسلم كاتب الوليد فضربه ضرباً مُبرِّحاً وألبسه المُسوحَ وقيّده وحبسه . فغَمّ ذلك الوليد فقال : من يثق بالناس ! ومَن يصنع المعروف ! هذا الأحولُ المشؤومُ قدّمه أبي على ولده وأهل بيته وولاّه وهو يصنعُ بي ما ترَوَن ، ولا يَعلم أنّ لي في أحدٍ هوىً إلاّ أضرّ به : كتب إليّ بأن أخرج عبد الصمد فأخرجتُه ، وكتبتُ إليه في أن يأذَن لابن سهيل في الخروج إليّ فضربه وطَرَده ، وقد علم رأيي فيه ، وعرف مكان عياضٍ منّي وانقطاعه إليّ فضربه وحبَسه ، يُضارُّني بذلك ، اللّهم أجِرني منه . ثم قال الوليد :

أنا النّذيرُ لِمُسْدي نعمةٍ أبـداً إلى المقاريفِ لَمّا يَخبُرِ الدَّخَلا
إن أنت أكرمتَهم ألفيتَهم بَطِروا وإن أهنتَهُم ألفيتَهم ذُلُـلا
أتشمخون ومنّا رأسُ نِعمتكم ستَعلمون إذا أبصرتُمُ الدُّوَلا
انظُرْ فإن أنت لم تقدِرْ على مَثَلٍ لهم سوى الكلب فاضرِبْه لهم مَثَلا
بينا يُسَمِّنُهُ للصَّيْد صاحبُـه حتى إذا ما استوى من بعد ما هُزِلا
عَدا عليه فلم تَضْرُرْه عَدْوَتُـه ولو أطاق له أكلاً لقد أكَلا (١)

(١) المقارف ج مقرف : من كانت أمه عربية وأبوه غير عربي . الدخل : دخيلة المرء ومذهبه ونيته وجميع أمره . الدول ، هنا : انقلاب الأمور وتغير الأحوال .

المنهالُ بن عبد الملك قال :

كتب الوليد إلى هشام : « قد بلَغني ما أحدث أميرُ المؤمنين من قطع ما قطع عنّي ومَحْو من محا من أصحابي ، وأنّه حَرَمَني وأهلي ؛ ولم أكن أخاف أن يبتليَ اللهُ أميرَ المؤمنين بذلك فيّ ، ولا أن ينالَني مثله منه ، ولم يبلغ استصحابي لابن سُهيل ومسألتي في أمره أن يجريَ عليّ ما جرى . وإن كان ابن سهيل على ما ذكره أميرُ المؤمنين فبحسبَ العَيْر أن يقرُب من الذّئب ، وعلى ذلك فقد عقد الله لي من العهد وكتب لي من العمر وسَبّب لي من الرِّزق ما لا يقدِر أحد دونَه تبارك وتعالى على قطعه عنّي دون مُدّته ، ولا صَرفِه عن مَواقعه المحتومة له . فقَدَرُ الله يجري على ما قَدّره ، فيما أحبّ الناس وكرهوا ، لا تعجيلَ لآجِله ولا تأخيرَ لعاجله ؛ والناس بعد ذلك يحتسبون الأوزار ويقترفون الآثام على أنفُسهم من الله بما يستوجِبون العُقوبة عليه . وأمير المؤمنين أحقّ بالنظر في ذلك والحِفظ له ، والله يوفّق أمير المؤمنين لطاعته ، ويُحسن القضاءَ له في الأمور بقُدرته . »

وكتب إليه الوليد في آخر كتابه :

أليس عظيماً أن أرى كلّ واردٍ ... حِياضَك يوماً صادراً بالنّوافلِ

فأرجِعَ محمودَ الرّجاء مُصَرّداً ... بتَحلِئةٍ عنْ وِرْد تلك المناهل

فأصبحتُ مما كنتُ آمُلُ منكمُ ... وليس بلاقٍ ما رَجا كلُّ آمِلِ

كمُقْتَبِضٍ يوماً علىعُرْض هَبْوَةٍ ... يَشُدّ عليها كفّه بالأناملِ (١)

---

(١) النوافل : العطايا . محمود العطاء : كذا في الأصل وينبغي أن يكون في العبارة تحريف لأن السياق يقتضي أنه عاد خائباً . التصريد : تقليل العطاء وإنقاصه . حلأه عن الماء : منعه من وروده . الهبوة : الغبار .

فكتب إليه هشام :

« قد فهم أمير المؤمنين ما كتبتَ به من قطع ما قطع وغير ذلك ، وأمير المؤمنين يستغفر الله من إجرائه ما كان يُجري عليك ، ولا يتخوّف على نفسه اقتراف المآثم في الذي أحدث من قطع ما قطع ومَحو مَن محا من صِحابتك لأمرين : أما أحدهما فإنّ أمير المؤمنين يعلم مواضعك التي كنت تصرِف اليها ما يُجريه عليك ، وأما الآخر فإثباتِ صحابتك وأرزاقُهم دارّةٌ عليهم لا ينالهم ما نال المسلمين عند قطع البُعوث عليهم وهم معك تجول بهم في سَفَهك . وأميرُ المؤمنين يرجو أن يُكفّرَ اللهُ عنه ما سلفَ من إعطائه إيّاك باستئنافه قطعَه عنك . وأما ابنُ سُهيل فلَعَمري لئن كان نزل منك بحيث يَسُوءُك ما جرى عليه لما جعله اللهُ لذلك أهلاً ، وهل زاد ابن سهيل ، لله أبوك ، على أن كان زفّاناً (١) مغنّياً قد بلغ في السفه غايته ! وليس مع ذلك ابنُ سهيل بِشرٍّ ممّن كنت تستصحبه في الأمور التي يُنَزّه أمير المؤمنين نفسَه عنها مما كنتَ ، لَعَمري ، أهلاً للتوبيخ فيه . وأمّا ما ذكرتَ ممّا سبّبه الله لك ، فإنّ الله قد ابتدأ أميرَ المؤمنين بذلك واصطفاه له ، واللهُ بالغٌ أمره . ولقد أصبح أمير المؤمنين وهو على يقين من رأيه إلاّ أنه لا يملِك لنفسه ممّا أعطاه الله من كرامته ضُرّاً ولا نَفعاً ، وإنّ الله وَليٌّ ذلك منك وإنّه لا بُدّ له من مفارقته ، وإنّ اللهَ أرأفُ بعباده وأرحم من أن يُولّي أمرَهم غيرَ مَن يرتضيه لهم منهم . وإن أمير المؤمنين ، مع حسن ظنّه بربّه ، لَعَلى أحسنِ الرّجاء لأن يُولّيَه بسبب ذلك لمن هو أهله في الرِّضا به لهم ، فإنّ بلاءَ الله عند أمير المؤمنين أعظمُ من أن يبلغَه ذِكره أو يُوازيَه شُكرُه إلاّ بعَونٍ منه . ولئن كان قد قدّر الله لأمير المؤمنين وفاةَ تعجيلٍ ، فإنّ في الذي هو مُفضٍ وصائرٌ إليه من كرامة الله لَخَلَفاً من الدنيا . ولَعَمري إنّ

---

(١) الزفن : الرقص .

كتابك لأمير المؤمنين بما كتبتَ به لَغيرُ مُستنكَر من سَفَهك وخُمقك .
فأبْقِ على نفسك وقصِّر من غُلوائها وأربَعْ على ظَلْعك [1] ، فإنّ لله سَطَوات وغِيَراً يُصيب بها من يشاء من عباده . وأميرُ المؤمنين يسأل اللهَ العِصمةَ والتوفيق لأحبّ الأمور إليه وأرضاها له . وكتب في أسفل الكتاب .

إذا أنت سامحت الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقــالُ

والسلام » .

وفاة هشام وتولي الوليد الخلافة

عن ابي الزُبير المنذر بن عمرو ، وكان كاتباً للوليد بن يزيد ، قال :

أرسل إليّ الوليدُ صَبيحةَ اليوم الذي أتته فيه الخلافةُ ، فأتيتُه فقال لي : يا أبا الزُبير ، ما أتَتْ عليّ ليلةٌ أطولُ من هذه الليلة ، عرضتْني أمورٌ وحدّثتُ نفسي فيها بأمور ؛ وهذا الرجلُ قد أولع بي ، فاركَبْ بنا نَتنفّسْ . فركب وسرت معه ، فسار مِيلين ووقف على تلٍّ فجعل يشكو هشاماً ، إذ نظر إلى رَهْج [2] قد أقبل ، وسمع قعقعةَ البريد ، فتعوّذ بالله من شرّ هشام ، وقال : إنّ هذا البريدَ قد أقبل بموتٍ وَحِيٍّ [3] أو بمُلك عاجل . فقلت : لا يسوءُكَ اللهُ أيّها الأمير بل يَسرُّكَ ويُبقيك . إذ بدا رَجلان على البَريد يُقبِلان ، أحدهما مولىً لآل أبي سُفيان بن حَرب . فلمّا قرُبا رأيا الوليد فنزلا يَعدُوان حتى دَنَوا ، فسلّما عليه بالخلافة ، فوَجَم ، وجعلا يُكرّران عليه التسليم بالخلافة ، فقال :

---

(١) اربع على ظلعك : يراد به أنك ضعيف فانته عما لا تطيقه .
(٢) الرهج : بفتح أوله وسكون ثانيه ، ويحرك : الغبار .
(٣) الوحي : السريع .

ويحكم ! ما الخبرُ ؟ أمات هشام ؟ قالا : نعم . قال : فمَرحَباً بكما ، ما مَعكما ؟ قالا : كتاب مولاك سالم بن عبد الرحمن . فقرأ الكتاب وانصرفنا . وسأل عن عِياض بن مُسلِم كاتبه الذي كان هشامٌ ضربه وحَبَسه ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، لم يزل محبوساً حتى نَزَل بهشام أمرُ الله ، فلمّا صار إلى حال لا تُرجى الحياة لمثله معها أرسل عياضٌ إلى الخُزّان : احتفظوا بما في أيديكم فلا يَصلَنّ أحدٌ إلى شيء . وأفاق هشامٌ إفاقةً فطلب شيئاً فمُنعه فقال : أرانا كُنّا خُزّاناً للوليد . وقضى من ساعته . فخرج عياضٌ من السجن ساعةَ قَضى هشام ، فختَم الأبواب والخزائن ، وأمر بهشام فأُنزل عن فِراشه ومَنعهم أن يُكفّنُوه من الخزائن ، فكفّنه غالبٌ مولى هشام ، ولم يجدوا قُمقُماً [1] حتى استعارُوه .

وأمرَ الوليدُ بأخذ ابنيَ هشام بن إسماعيل المَخزوميّ ، فأخذا بعد أن عاذ إبراهيم بن هشام بقبر يزيد بن عبد الملك ، فقال الوليد : ما أُراه إلاّ قد نجا . فقال له يحيى بن عُروة بن الزُّبير وأخوه عبد الله : إنّ الله لم يجعلْ قبرَ أبيك مَعاذاً للظّالمين ، فخُذه بردّ ما في يده من مال الله . فقال : صدقتَ. وأخذهما فبعث بهما إلى يوسُف بن عمر ، وكتب إليه أن يبسُط عليهما العذابَ حتى يَتلفا ، ففعل ذلك بهما وماتا جميعاً في العذاب بعد أن أُقيم إبراهيم بن هشام للنّاس حتى اقتضَوا منه المَظالم .

وقال عمر بن شبّة في خبره : إنّه لمّا نُعي له هشام قال : والله لأتلقينّ هذه النعمة بسَكرة قبل الظهر . ثم أنشأ يقول :

طاب يومي ولَذّ شُربُ السُّلافه ... إذ أتاني نَعِيُّ مَن بالرُّصافه
وأتانا البريدُ ينعَى هشامـاً ... وأتانـا بخاتَـمٍ للخلافـه
فاصطبَحنا من خمر عانةَ صِرْفاً ... ولَهَونا بقَينـةٍ عزّافـه

(١) القمقم : إناء من نحاس يسخن فيه الماء .

ثم حلف ألاّ يبرح موضعَه حتى يُغنّى في هــذا الشعر ويَشرَبَ عليه ، فغُنّي له فيه وشرب وسكر ، ثم دخل فبُويع له بالخلافة .

المدائنيّ قال :

لمّا قدم العبّاس بن الوليد لإحصاء ما في خزائن هشام وولده ، سوى مَسلمة بن هشام فإنه كان كثيراً ما يكُفّ أباه عن الوليد ويُكلّمه فيه ألاّ يعرِضَ له ولا يدخل منزله ، وكانت عند مَسلمة أمُّ سَلمة بنت يعقوب المخزوميّة ، وكان مسلمة يشرب . فلمّا قدم العباس لإحصاء ما كتب إليه الوليدُ كتبت إليه أمُّ سَلمة : ما يُفيق من الشراب ولا يهتمّ بشيءٍ ممّا فيه إخوتُه ولا بموت أبيه . فلمّا راح مسلمة بن هشام إلى العبّاس قال له : يا مسلمةُ ، كان أبوك يُرشّحك للخلافة ونحن نرجوك لِما بلَغني عنك . وأنّبَه وعاتبه على الشّراب ، فأنكر مَسلمةُ ذلك وقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : كتبتْ إليّ به أمُّ سَلمة . فطلّقها في ذلك المجلس ، فخرجت إلى فلَسطين ، وبها كانت تنزل ، وتزوّجها أبو العبّاس هناك .

شيء من سيرته أيام خلافته

عن عمر عن أبيه قال :

خرج الوليد بن يزيد ، وكان مع أصحابه على شراب ، فقيل له : إنّ اليومَ الجمعة . فقال : واللهِ لأخطبنّهم اليوم بشعر . فصعِد المنبر فخطب فقال :

الحمدُ للــه وليِّ الحَمْــدِ   أحمَدُه في يُسرِنا والجَهْدِ
وهو الذي في الكرب أستعينُ   وهو الذي ليس له قَرينُ
أشهدُ في الدُّنيا وما سِواها   أن لا إله غيره إلهــاً
ما إنْ له في خَلقــه شريكُ   قد خضعتْ لمُلكه المُلــوكُ

أشهدُ أنّ الدين دينُ أحمدِ فليس مَن خالَفَه بمُهتدي
وأنّه رسولُ ربّ العَـرْشِ القادرِ الفَرْدِ الشديد البطشِ
أرسله في خَلقــه نذيــرا وبالكتاب واعظـاً بشيرا

(الأبيات ...)

ثم نزل .

قال المدائنيّ : وبلغ الوليد أنّ العبّاس بن الوليد وغيره من بني مروان يعيبونه بالشراب ، فلعنهم وقال : إنّهم ليَعيبون عليّ ما لو كانت لهم فيه لذّةٌ ما تركوه . وقال هذا الشعر ، وأمر عمر الوادي أن يُغنّي فيه ، وهو من جيد شعره ومختاره :

ولقد قضيتُ وإن تجلّل لِمتّي شيبٌ على رَغم العدا لَذّاتي
من كاعباتٍ كالدُّمى ومَناصفٍ ومراكبٍ للصَّيــد والنشواتِ
في فتيةٍ تأبى الهوانَ نفوسُهــم شُمِّ الأنوفِ جَحاجحٍ سادات
إن يَطلبوا بتِراتهم يُعطَوا بهـا أو يُطلَبُوا لا يُدرَكوا بتِراتِ[1]

عَقيل بن عَمرو قال : قال يزيد بن أبي مُساحِق السُلَميّ مؤدّب الوليد شعراً وبعث به إلى النوّار جارية الوليد ، فغنّته به وهو :

مضى الخلفاءُ بالأمر الحميدِ وأصبحت المَذمّــةُ للوليدِ
تشاغل عن رعيّتــه بلهــوٍ وخالف فعلَ ذي الرأي الرّشيدِ

فكتب إليه الوليد :

ليت حظّي اليومَ من كُلّ مَعاش لي وزادِ

---

(١) المناصف ج منصف : الخادم . الترة : الثأر .

قهوةٌ أبذُل فيهــــا طارفي ثم تِــلادي
فيظلُّ القلبُ منهــا هائماً في كلِّ وادِ
إنّ في ذاك صَلاحي وفلاحي ورشــادي

عن الفضل بن سُويد قال :

بعث الوليد بن يزيد إلى جماعة من أهله لمّا ولي الخلافة فقال : أتدرُون لِمَ دعوتُكم ؟ قالوا : لا . قال : ليقُل قائلُكم . فقال رجلٌ منهم : أردتَ يا أمير المؤمنين أن تُرينا ما جدّد اللهُ لك من نعمته وإحسانه . فقال : نعم ، ولكنّي :

أُشهِدُ اللهَ والملائكةَ الأبْرارَ والعابدين أهــلَ الصــلاح
أنّني أشتهي السّماعَ وشُرب الكأس والعضَّ للخدود المِلاح
والنديمَ الكريمَ والخادمَ الفــارهَ يَسعى عليَّ بالأقداح

قوموا إذا شئتم .

إسحاق قال :

عُرضت على الوليد بن يزيد جاريةٌ صفراءُ كُوفيّة مُولّدة يقال لها سعاد ، فقال لها : أيّ شيء تُحسنين ؟ قالت : أنا مُغنّية . فقال لها : غنّيني . فغنّت :

لولا الذي حُمّلتُ من حُبّكم لكان في إظهاره مَخْــرَجُ
أو مذهبٌ في الأرض ذو فُسحة أجَلْ ومَن حَجّت له مَذْحِــج
لكن سَباني منكــم شــادنٌ مُرَبّبٌ ذو غُنّــة أدعجُ
أغرُّ ممكورٌ هَضيم الحَشَــــى قد ضاق عنه الحَجْلُ والدُّمْلُجُ(١)

---

(١) ربب الصبي : رباه حتى أدرك . المكورة : صفة المرأة المستديرة الساقين، المدمجة =

فطرب طرباً شديداً وقال : يا غلام اسقِني . فسقاه عشرين قدحاً ، وهو يستعيدها . ثم قال لها : لِمن هذا الشعر ؟ قالت : للحارث بن خالد . قال : وممّن أخذتِه ؟ قالت : من حُنين . قال : وأين لَقِيتِه ؟ قالت : رُبّيتُ بالعراق ، وكان أهلي يجيئون به فيُطارحني . فدعا صاحبه فقال : اذهَبْ فابتَعْها بما بَلغتْ ولا تُراجِعنّي في ثمنها . ففعل ، ولم تزل عنده حَظِيّة .

عن المدائنيّ قال :

لمّا وَلي الوليد بن يزيد لَهِج بالغِناء والشّراب والصّيد ، وحَمل المغنّين من المدينة وغيرها إليه وأرسل إلى أشعَب فجاء به ، فألبسه سَراويلَ من جلد قِرد له ذَنَب ، وقال له : ارقُص وغَنّني شعراً يُعجِبني ، فإن فعلت فلك ألف درهم ، فغنّاه فأعجبه فأعطاه ألف درهم .

عبد الصّمد بن موسى الهاشميّ قال :

إنّما أغلى الجوهَرَ بنو أميّة ، ولقد كان الوليد بن يزيد يلبَس منه العُقود ويغيِّرها في اليوم مراراً كما تُغيَّر الثياب شغفاً ، فكان يجمعه من كلّ وجه ويُغالي به .

قال : وكان يوماً في داره على فرسٍ له وجاريةٌ تضرب بطبل قُدّامَه ، فأخذه منها ووضعه على رقبته ، ونَفَرَ الفرس من صوت الطبل فخرج به على أصحابه في هذه الهَيئة ، وكان خليعاً .

مصعب قال : حدّثني رجلٌ قال :

كان الوليد بن يزيد إذا أصبح يوم الاثنين تغدّى وشرب رطلين ثم

= الخلق . هضيم الحشا : ضامرة البطن . الحجل : الخلخال . الدملج : المعضد ، حلي يوضع في العضد ، يصفها بامتلاء الساقين والذراعين .

جلس للناس . قال : فحدّثني عمر الوادي قال : دخلت عليه وعنده أصحابُه وقد تغدّى وهو يشرب ، فقال لي : اشرَبْ . فشربتُ وطربَ وغَنّى صوتاً واحداً وأخذ دَفّافةً فدفق بها ، فأخذ كلٌّ واحدٍ منا دفّافة فدفق بها ، وقام وقمنا حتّى بلغنا إلى الحاجب ، فلمّا رآنا الحاجب صاح بالناس : الحُرَم ، الحُرَم . اخرُجوا . ودخل الحاجب فقال : جعلني الله فداءَك ، اليوم يحضُر فيه الناس . فقال له : اجلس واشرب . فقال : إنّما أنا حاجبٌ فلا تحمِلْني على الشّراب فما شربتُه قطُّ . قال : اجلس فاشرَبْ . فامتنع ، فما فارقناه حتّى صبَبنا في حَلقه بالقِمْع ، وقام وهو سكران .

عن الزُبير بن بكّار عن عمّه :

أنّ الوليد بن يزيد لمّا انهمك على شُربه ولذّاته ورفض الآخرة وراءَ ظهره وأقبل على القَصْف والعَسْف[1] مع المغنّين مثل مالك ومَعبَد وابن عائشة وذويهم ، كان نديمهُ القاسمَ بنَ الطويل العِبادي ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً ، فكان لا يصبر عنه . فغنّاه معبد ذات يوم شعر عديّ :

بكر العاذلــون في وضَح الصُبْح يقولون لي ألا تستفيـــق
لست أدري وقد جفاني خليـلي أعدوٌّ يلومُني أم صديـق
ثم قالوا ألا اصبَحُونا فقامـت قينةٌ في يمينهـا إبريـق
قدّمتْه عـلى عُقارٍ كعين الدّيك صَفّى سُلافَها الرّاووق[2]

قال : فاستحسنه الوليد وأعجب به وطرب عليه وجعل يشرب إلى أن غلب عليه السُكر فنام في موضعه ، فانصرف ابن الطويل . فلمّا أفاق الوليد سأل عنه ، فعُرّف حين انصرافه ، فغضب وقال وهو سكران

(١) العسف : المراد به شرب الخمرة ، وأعسف : لزم الشرب في القدح الكبير .
(٢) الراووق : إناء الخمر الذي تروق به .

لغلام كان واقفاً على رأسه يُقال له سَبْرة : ائتني برأسه . فمضى الغلام حتى ضرب عنقه وأتاه برأسه فجعله في طَست بين يديه . فلمّا رآه أنكره وسأل عن الخبر فعرَّفه ، فاسترجع وندم على ما فرّط منه، وجعل يُقلّب الرأس بيده . ثم قال يرثيه :

عينيَّ للحَدَث الجليـلِ جُودا بأربعةٍ هُمُولِ
جُودا بـدمعي إنّــه يشفي الفؤاد من الغَليل(١)

(الأبيات ...)

هارون بن الحسن العنبريّ قال :

قال الوليد بن يزيد : يا بني أميّة ، إيّاكم والغناءَ ، فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدِم المروءة ويثُور على الخمر ويفعل ما يفعل السُّكْر . فإن كنتم لا بدّ فاعلين فَجنّبُوه النساء ، فإنّ الغناء رُقْية الزِّنا . وإنّي لأقولُ ذلك فيه على أنه أحبُّ إليّ من كلّ لذّة وأشهى إليّ من الماء البارد إلى ذي الغُلّة (٢) ، ولكن الحقّ أحقُّ أن يقال .

عن يحيى بن سُليم قال :

دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحَف ، فلمّا فتحه وافق ورقةً فيها : « واستفتَحوا وخابَ كلُّ جبّارٍ عنيد . من ورائه جَهنّمُ ويُسقَى من ماءٍ صَديد » . فقال : أسجعاً سَجعاً ! علّقوه . ثم أخذ القوس والنّبل فرماه حتى مزّقه ، ثم قال :

أتُوعِدُ كلَّ جبّارٍ عنيـدٍ فها أنا ذاك جبّارٌ عنيـدٌ

---

(١) الأربعة : المراد بها اللحاظان والمؤقان ، فالدمع يجري من الموقين فإذا غلب وكثر جرى من اللحاظين أيضاً .
(٢) الغلة : شدة العطش .

إذا لاقيت ربّك يومَ حَشرٍ فقل يا ربِّ مزّقني الوليـدُ

قال : فما لبث بعد ذلك إلاّ يسيراً حتى قُتل .

بعض موالي الوليد قال :

دخلت إليه وقد عقد لابنَيه بعدَه وقَدّم عثمان ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أقول قولَ الموثوق بنصيحته أو يَسَعني السُّكوتُ ؟ قال : بل قُل قول الموثوق به . فقلت : انّ الناس قد أنكروا ما فعلتَ وقالوا : يُبايع لمن لم يَحتلِمْ ، وقد سمعت ما أكرهُ فيك . فقال : عَضّوا ... أمّهاتكم ، أفأُدخِل بيني وبين ابني غيري ، فيلقَى منه ما لقِيت من الأحوَل (١) بعد أبي ! ثم أنشأ يقول :

سَرَى طيفُ ذا الظَبْي بالعاقِدان ليـلاً فهَيَّج قلباً عَميدا
وأرّق عيـني عـلى غِـرّةٍ فباتت بحزنٍ تُقاسي السُّهودا
نُؤمِّلُ عثمانَ بعـد الوليـد للعهد فينا ونرجو سعيـدا
كما كان إذ كان في دَهره يزيدُ يُرَجّي لتلك الوليدا
على أنّها شَسَعتْ شَسْعـةً فنحن نُرجّي لها أن تَعُودا
فإن هي عادتْ فعاصِ القـريب منها لِتؤيِسَ منها البعيدا (٢)

مقتلـه

عن المدائنيّ قال :

لمّا أكثر الوليد بن يزيد التهتُّك وانهمك في اللذّات وشُرب الخمر وبَسَط المكروه على وَلد هشام والوليد وأفرط في أمره وغَيّه ، ملّ الناسُ

---

(١) الأحول : أراد هشام بن عبد الملك .

(٢) شسعت : بعدت .

أيّامه وكرهوه ، وكان قد عقد لابنيه بعده ، ولم يكونا بلّغا . فمشى الناسُ بعضُهم إلى بعض في خَلعه ، وكان أقواهم في ذلك يزيدَ الناقصَ بن الوليد ابن عبد الملك بن مروان ، فمشى إلى أخيه العبّاس – وكان امرأ صدقٍ ولم يكن في بني أميّة مثلُه ، كان يتشبّه بعمر بن عبد العزيز – فشكا إليه ما يجري على الناس من الوليد ، فقال له : يا أخي ، إنّ الناس قد ملّوا بني مروان ، وإن مشى بعضُكم في أمر بعض أُكِلتُم ، ولله أجلٌ لا بدّ أن يَبلُغَه فانتَظِرْه . فخرج من عنده ومشى إلى غيره ، فبايعَه جماعةٌ من اليمانية الوُجوه ، فعاد إلى أخيه ومعه مولىً له وأعاد عليه القول وعرّض له بأنّه قد دُعي إلى الخلافة ؛ فقال له : والله لولا أنّي لا آمَنُه عليك من تحامُله لوجّهتُ بك إليه مَشدوداً ، فنشدتُكَ اللهَ ألاّ تَسعى في شيءٍ من هذا . فانصرف من عنده وجعل يدعو الناسَ إلى نفسه .

قال ابن بِشر بن الوليد بن عبد الملك :

لمّا أظهر الوليد بن يزيد أمره وأدمَن على اللهو والصيد واحتجب عن الناس ووالى بين الشرب وانهمك في اللذّات سئمه الناس ووعَظه مَن أشفق عليه من أهله ، فلمّا لم يُقلِعْ دَبّوا في خَلعه . فدخل أبي بِشرُ بن الوليدِ على عمّي العبّاس بن الوليد ، وأنا معه ، فجعل يكلّم عمّي في أن يخلَعَ الوليدَ بن يزيد ، ومعه عمّي يزيدُ بن الوليد ، فكان العبّاسُ ينهاه وأبي يردّ عليه . فكنت أفرح وأقول في نفسي : أرى أبي يجترىء أن يُكلّم عمّي ويردّ عليه ؛ فقال العبّاس : يا بني مروان ، أظنّ أنّ الله قد أذِن في هَلاككم . ثم قال العبّاس :

إنّي أُعيذُكم بالله من فِتَنٍ ... مثلِ الجبال تَسامى ثم تَندفعُ
إنّ البريّة قد ملّت سياستَكم ... فاستمسِكوا بعَمود الدّين وارتدِعوا
لا تُلحِمُنّ ذئابَ الناس أنفسَكم ... إنّ الذّئابَ إذا ما أُلحِمت رَتَعُوا

لا تَبْقُرُنَّ بأيديكم بُطونَكـم فثَمّ لا حَسْرةٌ تُغني ولا جَزَعُ(١)

قال المدائنيّ : فلمّا استجمع ليزيد أمرُه، وهو مُتَبَدٍّ ، أقبل إلى دمشق، وبين مكانه الذي كان متبدّياً فيه وبين دمشق أربعُ ليالٍ ، فأقبل إلى دمشق متنكّراً في سبعة أنفسٍ على حُمُرٍ وقد بايع له أكثرُ أهل دمشق وبايع له أكثر أهل المِزّة ... وتمّ ليزيد أمرُه فأجمع على الظهور . وقيل لعامل دمشق : إنّ يزيدَ خارجٌ ، فلم يُصدّق . وأرسل يزيد أصحابه بين المغرب والعشاء في ليلة الجمعة من جُمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة (٢) ، فكَمنوا في مِيضَأةٍ عند باب الفَراديس ، حتى إذا أُذِّنُوا العَتَمَةَ (٣) دخلوا المسجد معَ الناس فصَلّوا ، وللمسجد حَرَسٌ قد وُكِّلوا بإخراج الناس من المسجد بالليل ، فإذا خرج الناس خرج الحرسُ وأَغلق صاحبُ المسجد الأبواب ، ودخل الدّار من باب المَقصورة فيدفَعُ المفاتيح إلى مَن يحفظُها ويخرُج . فلمّا صَلّى الناس العَتَمة صاحَ الحرسُ بالناس فخرجوا ، وتباطأ أصحابُ يزيدَ الناقصِ ، فجعلوا يُخرجونهم من باب ويَدخلون من بابٍ ، حتى لم يبق في المسجد إلاّ الحرسُ وأصحابُ يزيد ، فأخذوا الحرسَ . ومضى يزيد بن عَنْبَسةَ السّكْسَكي إلى يزيد فأخبره وأخذ بيده وقال : قُم يا أمير المؤمنين وأَبْشِر بعَون الله ونَصره . فأقبلَ وأقبلنا ونحن اثنا عشرَ رجلاً ، فلمّا كنّا عند سوق القمح لَقِيهم فيها مائتا رجلٍ من أصحابهم ، فمضَوا حتى دخلوا المسجد وأتَوا باب المقصورة وقالوا : نحن رُسُل الوليد . ففتح لهم خادمٌ الباب ، ودخلوا

---

(١) ألحمت القوم : أطعمتهم اللحم . رواية الشطر الأخير في المطبوعة : فثم لا فدية تغني ولا جزع ، وما أثبتناه رواية الطبري .

(٢) هذا يخالف ما في المصادر التاريخية التي تنص على أن خلع الوليد إنما كان عام ست وعشرين ومائة .

(٣) العتمة : العشاء .

فأخذوا الخادم ، وإذا أبو العاجِ (١) سكرانُ ، فأخذوه وأخذوا خُزّان البيت (٢) وصاحب البريد ، وأرسلَ إلى كلّ من كان يَحذرُه فأخذه . وأرسل من ليلته إلى محمد بن عُبيدة مولى سعيد بن العاص ، وهو على بَعْلَبَكّ ، وإلى عبد الملك بن محمد بن الحجّاج فأخذهما . وبعث أصحابه إلى الخَشَبيّة (٣) فأتَوه . وقال للبوّابين : لا تفتحوا الأبواب غُدوةً إلاّ لمن أخبركم بشِعار كذا وكذا . قال : فتركوا الأبواب في السّلاسل . وكان في المسجد سلاحٌ كثير قدِم به سليمانُ بن هشام من الجزيرة ، فلم يكن الخُزّان قبضوه ، فأصابوا سلاحاً كثيراً فأخذوه . وأصبحوا وجاء أهلُ المِزّة مع حُريث بن أبي الجَهم ، فما انتصف النهارُ حتى بايع الناسُ يزيد وهو يتمثّل قول النابغة :

إذا استُنزلوا عنهنّ للطّعن أرقلوا　　إلى الموت إرقالَ الجِمال المَصاعبِ (٤)

فجعل أصحابُه يتعجبّون ويقولون : انظروا إلى هذا ، كان قُبيل الصُّبح يُسبّح وهو الآن يُنشد الشعر .

قال : وأمر يزيدُ عبد العزيز بن الحجّاج بن عبد الملك بن مَروان فوقف بباب الجابية فنادى : من كان له عَطاءٌ فَلْيأتِ إلى عطائه ، ومن لم يكن له عطاءٌ فله ألفُ درهمٍ مَعُونةً . فبايع له الناسُ وأمر بالعطاء . قال : ونَدَبَ يزيدُ بن الوليد الناسَ إلى قتال الوليد بن يزيد مع عبد العزيز وقال : من انتَدَبَ معه فله ألفان . فانتدب ألفا رجلٍ ، فأعطاهم

---

(١) أبو العاج : هو أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي كان على شرطة عامل دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف في عهد الوليد .

(٢) أي بيت المال .

(٣) الخشبية : هم أصحاب المختار بن عبيد الثقفي .

(٤) أرقلوا : سرعوا . المصعب : الفحل من الإبل .

وقال : مَوعدُكم ذَنَبَةُ (١) . فوافى ذنبةَ ألفٌ ومائتا رجلٍ ، فقال : ميعادُكم مَصنعةٌ بالبَرّية ، وهي لبني عبد العزيز بن الوليد ، فوافاه ثمانمائة رجل ، فسار فوافاهم ثَقَلُ (٢) الوليد فأخذوه ، ومع عبد العزيز فُرسان منهم منصور بن جُمهور ويعقوب بن عبد الرحمن السُلَميّ والأصبَغ بن ذُؤالة وشبيب بن أبي مالك الغَسّاني وحُمَيد بن نصر اللّخميّ . فأقبلوا فنزلوا قريباً من الوليد . فقال الوليد : أخرِجوا لي سريراً . فأخرَجوه ، فصعِد عليه . وأتاه خبرُ العبّاس بن الوليد : إنّي أجيئُك . وأُتي الوليد بفرسَيه الذّائد والسّنديّ ، وقال : أعليّ يتواثب الرّجالُ وأنا أثبُ على الأسد وأتخصّرُ (٣) الأفاعي . وهم ينتظرون العبّاس أن يأتيَهم ، ولم يكن بينهم كبيرُ قتال ، فقُتل عثمان الخَشَبيُّ ، وكان من أولاد الخَشَبيّة الذي كانوا مع المختار . وبلغ عبدَ العزيز بن الحجّاج أنّ العباس بن الوليد يأتي الوليد فأرسل منصور بن جُمهور في جَريدة (٤) خيلٍ وقال : إنكم تلقَون العباس بن الوليد ومعه بنوه في الشِّعب فخُذوه . وخرج منصور في تلك الخيل وتقدّموا إلى الشّعب ، واذا العبّاسُ ومعه ثلاثون قد تقدّموا أصحابَه ، فقال له : اعدِلْ إلى عبد العزيز ، فشَتَمهم ، فقال له منصور : والله لئن تقدّمتَ لأنفُذَنّ حَصِينَك (٥) بالرمح. فقال: انّا لله! فأقبلوا به يسوقونه إلى عبد العزيز ، فقال له عبد العزيز : بايِعْ ليزيدَ . فبايع ووقف ، ونصبوا رايةً وقالوا : هذا العبّاس قد بايع . ونادى منادي عبد

---

(١) ذنبة : موضع من أعمال دمشق ، وهي أيضاً موضع من أعمال البلقاء .

(٢) الثقل : المتاع .

(٣) تخصر : أمسك المخصرة بيده ، أي العصا .

(٤) الجريدة : خيل لا رجالة فيها .

(٥) الحصين : الرمح . وفي أصول المخطوطة : خصيتيك ، وهي رواية توافق ما جرى عليه كلام العرب ، ويقال أيضاً : أنفذ حضنيه .

العزيز : مَن لحق بالعبّاس بن الوليد فهو آمِنٌ . فقال العبّاس : إنا لله ! خُدْعةٌ من خُدَع الشيطان ، هلك والله بنو مَروان ! فتفرّق الناس عن الوليد وأتَوا العبّاس . وظاهر الوليدُ في دُرعَين وقاتلهم ، وقال الوليد : مَن جاء برأس فله خمسمائةُ درهم . فجاء جماعةٌ بعدّة رؤوس فقال : اكتُبوا أسماءهم . فقال له رجلٌ من مواليه : ليس هذا يا أمير المؤمنين يوماً يُعامَلُ فيه بالنّسيئة . وناداهم رجالٌ : اقتُلوا اللّوطِيّ قِتْلةَ قوم لوط . فرمَوه بالحجارة . فلمّا سمع ذلك دخل القصر وأغلق الباب وقال :

دَعُوا لي سُلَيمى والطِّلاءَ وقَينةً ... وكأساً ألا حسبي بذلك مالا
إذا ما صفا عيشٌ برَملة عالجٍ ... وعانقتُ سَلمى لا أريدُ بِدالا
خُذوا مُلكَكُم لاثَبَّتَ اللهُملككم ... ثَباتاً يساوي ما حَيِيتُ عِقالا
وخلّوا عِناني قبلَ عَيْرٍ وما جرَى ... ولا تحسُدوني أن أموتَ هُزالا (١)

ثم قال لعمر الوادي : يا جامعَ لذّتي ، غنّني بهذا الشعر . وقد أحاط الجند بالقصر ، فقال لهم الوليد من وراء الباب : أما فيكم رجلٌ شريف له حسبٌ وحياءٌ أكلّمُه ؟ فقال له يزيد بن عَنبسة السَّكسَكيّ : كَلّمني . فقال له الوليد : يا أخا السّكاسك ، ما تنقمون منّي ؟ ألم أزِد في أعطِياتكم وأعطية فقرائكم وأخْدَمتُ زَمْناكم (٢) ودفعتُ عنكم المُؤَن ! فقال : ما نَنقِمُ عليك في أنفُسنا شيئاً ، ولكن ننقِم عليك انتهاك ما حرّم اللهُ وشُربَ الخمور ونِكاحَ أمّهاتِ أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله . قال :

---

(١) سلمى : هي زوجة الوليد ، وذكره سلمى هنا يناقض الخبر الذي سبق ذكره والذي جاء فيه أن سلمى توفيت بعد قليل من زواجه منها . الطلاء : الخمرة . عالج : رملة بالبادية . ما يساوي عقالا : مثل يضرب لما لا شأن له . قبل عير وما جرى : أي قبل لحظ العين . وحمار الوحش يضرب به المثل في سرعة الهرب والجري .

(٢) الزمنى ج زمين : من به عاهة .

حَسبُكَ يا أخا السَّكاسك ! فلَعَمري لقد أغرقتَ فأكثرت ، وانّ فيما أحلّ اللهُ لسَعةً عمّا ذكرتَ .

ورجَع إلى الدّار فجلس وأخذ المُصحف وقال : يومٌ كيوم عثمان . ونشر المصحف يقرأ ، فعلَوا الحائط ، فكان أوّلُ من علا الحائطَ يزيدَ ابن عَنْبَسةَ ، فنزل وسيفُ الوليد إلى جَنْبه ، فقال له يزيد : نَحِّ سيفَكَ . فقال الوليد : لو أردتُ السيف لكانت لي ولك حالةٌ غير هذه . فأخذ بيده وهو يُريد أن يُدخله بيتاً ويُؤامرَه فيه[1] ، فنزل من الحائط عشرةٌ فيهم منصورُ بن جُمهور وعبد الرحمن وقيس مولى يزيد بن عبد الملك والسّري ابن زياد بن أبي كَبْشة ، فضربه عبد الرحمن السُّلَميّ على رأسه ضربةً ، وضربه السّريّ بن زياد على وجهه ، وجرّوه بين خمسة ليُخرجوه ، فصاحت امرأةٌ كانت معه في الدّار فكَفّوا عنه فلم يُخرجوه ، واحتزّ رأسه أبو عِلاقةَ القُضاعيُّ وخاط الضربةَ التي في وجهه بالعَقَب[2] ، وقُدم بالرأس على يزيد ، قدِم به رَوح بن مُقبِل ، وقال : أبشِر يا أمير المؤمنين بقتل الفاسق . فاستتمّ الأمرُ له وأحسنَ صِلتَه ...

فقال الأصبغ بن ذُؤالة الكلبيّ في قتل الوليد وأخذهم ابنَيه :

من مُبلغٌ قيساً وخِندفَ كلَّهـا   وساداتِهم من عبد شمسٍ وهاشم
قتلنا أمير المؤمنين بخالـــدٍ   وبِعنا وليّيْ عهده بالــدراهم[3]

اسحاق قال :

كان الوليد قد بايع لابنيه الحَكَم وعثمان ، وهو أوّل من بايع لابن

---

(١) يؤامره فيه : يشاور في أمره .

(٢) العقب : العصب الذي تصنع منه الأوتار .

(٣) خالد : هو خالد بن عبد الله القسري ، وكان الوليد قد سجنه ثم قتله فثارت اليمانية لمقتله .

سَرِيّة أمَةٍ ، ولم يكونوا يفعلون ذلك ، وأخذهما يزيد بن الوليد الناقص فحبسهما ثمّ قتلهما .

عن المدائنيّ : أن ابناً للغَمْر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد ، فقال : ممّن أنت ؟ قال : من قريش . قال : من أيّها ؟ فأمسك ، قال : قُل وأنت آمنٌ ، ولو أنّك مروانيّ . قال : أنا ابن الغَمْر بن يزيد . قال : رحم الله عمّك ولعن يزيد الناقص وقتلة عمّك جميعاً ، فإنهم قتلوا خليفةً مُجمَعاً عليه .

• • •

٥٧

أبو النَّجْم العِجْليّ

(الأغاني ج ١٠ ص ١٥٠ وما بعدها)

الشاعر

قال أبو عمرو الشَّيبانيّ : اسمه المفضَّل ، وقال ابن الأعرابيّ : اسمه الفضل بن قُدامة ... بن عِجْل بن لُجَيم بن صَعْب بن عليّ بن بكر ... وهو من رُجّاز الإسلام الفُحول المقدَّمين وفي الطبقة الأولى منهم .

قال أبو عمرو بن العَلاء : كان أبو النجم أبلغ في النّعت من العَجّاج .

عن أبي عبيدة قال : ما زالت الشعراء تغلب حتى قال أبو النجم :

الحمد لله الوَهُوب المُجزِلِ

وقال العجّاج :

قد جَبَرَ الدينَ الإلهُ فجَبَرْ

وقال رؤبة :

وقاتم الأعماق خاوي المُخْتَرَقْ (١)

فانتصفوا منهم .

وقال الأصمعيّ : قيل لبعض رُواة العرب : مَن أرجزُ الناس ؟ قال : بنو عِجل ، ثم بنو سعد ، ثم بنو عجل ، ثم بنو سعد . (يريد الأغلب ثم العجّاج ثم أبا النجم ثم رؤبة) .

أبو الأسود النّوجشانيّ قال : مرّ أبي بالأصمعيّ ، وأنا عنده ، فقال له : يا أبا سعيد ، أيُّ الرَّجَز أحسنُ وأجود ؟ قال : رجَزُ أبي النّجْم .

قال الأصمعي : أخطأ أبو النجم في أشياءَ أُخذت عليه ، منها قولُه :

وهي على عَذْبٍ رَوِيِّ المَنْهَلِ دَحْلِ أبي المِرْقال خيرِ الأدْحُلِ
من نَحْتِ عادٍ في الزّمان الأوّلِ

قال الأصمعيّ : الدَّحْل لا تُورَده الإبل إنما تُورَد الرَّكايا (٢) . وقد عِيب بهذا وعيب بقوله في البيت الذي يليه إنّ هذا الدّحل من نحت عاد . قال : والدُّحْلان لا تُحفَر ولا تُنْحَت ، إنّما هي خُروقٌ وشعابٌ في الأرض والجبال لا تُصيبها الشمس فتبقى فيها المياه ، وهي هُوّةٌ في الأرض يضيق فمُها ثم يتّسع فيدخلُها ماءُ السّماء .

قال الأصمعيّ : وقال يصف فرسَه وقد أجراه في حَلْبةٍ :

تَسْبَحُ أُخْراه ويطفو أوّلُه

---

(١) المخترق : الممر .

(٢) الركايا ج ركية : البئر .

قال الأصمعيّ : أخطأ في هذا ، لأنه إذا سبح أُخراه كان حِمار الكُساح أسرعَ منه .قال الأصمعيّ : وحدّثني أبي أنّه رأى فرسه هذا فقوّمه بسبعين دِرهماً . وإنّما يُوصف الجواد بأنه تَسبح أُولاه وتَلْحَق رِجلاه . قال : وخيرُ عَدْو الذُّكور أن تُشرِف ، وخير عدو الإناث ان تَنبَسِط وتَصْغَى [1] كعَدْو الذئب .

مقارعته الرُجّاز والشعراء

قال عامر بن عبد الملك المِسْمَعيّ : كان رُؤبةُ وأبو النّجم يجتمعان عندي فأطلب لهما النّبيذ ، فكان أبو النجم يتسرّع إلى رؤبة حتّى أكفّه عنه .

أبو بَرْزة المَرْثَديّ قال :

خرج العَجّاج مُتحفّلاً [2] عليه جُبّةُ خَزّ وعِمامةُ خَزّ ، على ناقةٍ له قد أجاد رَحْلَها ، حتّى وقف بالمِربَد ، والناسُ مجتمعون ، فأنشدهم قولَه :

قد جَبَرَ الدّينَ الإلهُ فجَبَرْ

فذكر فيها ربيعة وهجاهم . فجاء رجل من بكر بن وائل إلى أبي النجم وهو في بيته فقال له : أنت جالسٌ وهذا العَجّاجُ يهجُونا بالمِربد قد اجتمع عليه الناس ! قال لي : صفْ لي حالَه وزيّه الذي هو فيه . فوصف له ، فقال : ابغِني جملاً طَحّاناً قد أُكثِر عليه من الهِناء [3] .

---

(١) تصغى : تميل .
(٢) متحفلا : متزيناً .
(٣) الهناء : القطران .

فجاء بالجمل إليه ، فأخذ سراويلَ له فجعل احدى رجلَيه فيها وأتزر بالأخرى وركب الجمل ودفع خِطامَه إلى من يقردُه ، فانطلق حتّى أتى المِربد . فلمّا دنا من العَجّاج قال : اخلَعْ خِطامَه . فخلَعه ، وأنشد :

تذكّر القلبُ وجَهلاً ما ذَكَرْ

فجعـــل الجملُ يدنو من الناقة يتشمّمُها ويتباعد عنه العجّاجُ لئلاّ يُفسِدَ ثيابه ورَحْلَهُ بالقَطران ، حتّى إذا بلغ إلى قوله :

شيطانُه أنثى وشيطاني ذَكَرْ

تعلّق الناسُ هذا البيت وهرب العجّاج عنه .

أبو الأزهر ابن بنت أبي النجم عن أبي النجم : أنه كان عند عبد الملك ابن مروان — ويقال عند سليمان بن عبد الملك — يوماً وعنده جماعةٌ من الشعراء ، وكان أبو النجم فيهم والفرزدقُ ، وجاريةٌ واقفة على رأس سليمان أو عبد الملك تَذُبّ عنه ، فقال : مَن صَبَّحني بقصيدة يفتخر فيها وصدق في فخره فله هذه الجارية . فقاموا على ذلك ثم قالوا : إنّ أبا النَجم يغلبنا بمُقَطّعاته (يعنُون الرّجز) . قال : فإني لا أقول إلاّ قصيدةً . فقال من ليلته قصيدته التي فخرَ فيها وهي :

عَلِق الهوى بحبائلِ الشَعْثاءِ

ثم أصبح ودخل عليه ومعه الشعراء فأنشده ، حتّى إذا بلغ إلى قوله :

منّا الذي رَبَعَ الجُيوشَ لِظهره عشرون وهو يُعدّ في الأحياءِ (١)

فقـــال له عبد الملك : قِفْ ؛ إن كنت صدقت في هذا البيت فلا نُريد

---

(١) ربع القوم : أخذ ربع أموالهم ، وربع الجيش : أخذ ربع الغنيمة .

ما وراءه . فقال الفرزدق : وأنا أعرف منهم ستة عشر، ومن وَلَد ولده أربعةٌ كلُّهم قد ربَع . فقال عبد الملك أو سليمان : وَلَدُ وَلَدِه هم ولدُه ، ادفَع إليه الجاريةَ يا غُلامُ . قال : فغلبَهم يومئذٍ .

قال : وبلغني من وجهٍ آخر أنه قال له : فإذا أقررت له بستة عشر فقد وهبت له أربعة . ودفع اليه الجارية ، فقدم البادية ، فكان بينه وبين أهله شرٌّ من أجلها .

طائفة من أخباره

• عن عثمان بن حَفص :

أنّ أبا النجم مدح الحجّاج برَجزٍ يقول فيه :

ويل امّ دُور عِزّةٍ ومَجْدِ   دُور ثقيفٍ بسَواء نَجْدِ
أهل الحصون والخيول الجُرْدِ

فأعجب الحجّاجَ رجزُه وقال : ما حاجتك ؟ قال : تُقطعني ذا الجبنين . فوجَم لها وسكت ، ثم دعا كاتبه فقال : انظُر ذا الجبنين ما هو ؟ فإنّ ذا الأعرابيّ سألَنيه ، فلعلّه نهر من أنهار العراق . فسأل عنه ، فقيل : وادٍ في بلاد بني عِجل أعلاه حَشَفَة [1] ، وأسفله سَبَخةٌ [2] ، يخاصمه فيه بنو عمٍّ له . فقال : اكتُبوا له به . قال : فأهلُه به إلى اليوم .

• قال أبو عمرو :

بعث الجُنيد بن عبد الرحمن المُرِّيُّ إلى خالد بن عبد الله القَسْريّ بسَبْيٍ

---

(١) الحشفة : صخرة رخوة حولها سهل من الأرض .
(٢) السبخة : أرض ذات نز وملح .

من الهند بيض . فجعل يَهَبُ أهلَ البيت [1] كما هو للرّجل من قريش ومن وجوه الناس ، حتى بقيتْ جاريةٌ منهنّ جميلة كان يَدّخرها . وعليها ثيابٌ أرضِها : فُوطتان . فقال لأبي النجم : هل عندك فيها شيء حاضر ، تأخذُها الساعة ؟ قال : نعم ، أصلحك اللهُ . فقال العُريان بن الهيثم النَخَعيّ : كذبَ والله ما يقدِر على ذلك . فقال أبو النجم :

عَلِقتُ حَوْداً من بنات الزُّطِّ
. . . .
إذا بدا منها الذي تُغَطّي — كأنّ تحت ثوبها المُنْعَطِّ
شَطّاً رميتَ فوقه بشَطِّ — لم يَنْزُ في البطن ولم يَنْحَطّ
فيه شفاءٌ من أذى التّمطي — كهامة الشيخ اليماني الثَّطِّ [2]

وأومأ بيده إلى هامة العُريان بن الهيثم . فضحك خالد وقال للعريان : كيف ترى ؟ أحتاجَ إلى أن يُرَوّيَ فيها يا عُريانُ ؟ ! قال : لا ، ولكنّه ملعون ابن ملعون .

• عن فُليح بن إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير قال :

ورد أبو النجم على هشام بن عبد الملك في الشعراء . فقال لهم هشام : صِفُوا لي إبلاً فقَطِّروها [3] وأورِدُوها وأصدِروها حتى كأنّي أنظر إليها . فأنشدوه وأنشده أبو النجم :

الحمدُ لله الوَهُوب المُجزِلِ

حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال : « وهي على الأفْق كعين ... »

---

(1) في المطبوعة : لأهل البيت ، والسياق يقتضي ما أثبتناه .

(2) الزط : جيل أسود من بلاد السند . وبعد هذا البيت ثلاثة أبيات أهملنا ذكرها لما فيها من وصف فاحش . انعط الثوب : انشق . الشط : شاطىء النهر وجانب السنام . الثط : الخفيف اللحية .

(3) قطر الإبل : قرب بعضها من بعض على نسق .

وأراد أن يقول : « الأحول » ثم ذكر حَوْلة هشام فلم يتمّ البيت وأُرتِج عليه . وقال هشام : أَجِزِ البيت . فقال « كعين الأحول » وأتمّ القصيدة . فأمر هشام فوُجِئ عُنقُه (١) وأُخرج من الرُّصافة . وقال لصاحب شُرطته : ياربيعُ ، إيّاك وأن أرى هذا . فكلّم وجوهُ الناس صاحبَ الشرطة أن يُقِرَّه . ففَعل . فكان يُصيب من فُضول أطعمة الناس ويأوي إلى المساجد . وقال الزبير في خبره : قال أبو النجم : ولم يكن أحدٌ بالرُّصافة يُضيف إلاّ سُليمَ بن كَيسان الكلبيّ وعمروَ بن بِسطام التغلبيّ ، فكنت آتي سُليماً فأتغدَّى عنده . وآتي عَمْراً فأتعشّى عنده ، وآتي المسجد فأبيتُ فيه .

قال : فاهتمّ هشامٌ ليلةً وأمسى لَقِسَ النّفس (٢) ، وأراد مُحدِّثاً يحدِّثه . فقال لخادمٍ له : ابغِني مُحدِّثاً أعرابيّاً أهوجَ شاعراً يَروي الشعر . فخرج الخادم إلى المسجد فإذا هو بأبي النجم ، فضربه برجله وقال له : قُم أجِبْ أمير المؤمنين . قال : إني رجلٌ أعرابيّ غريب . قال : إيّاك أبغي . فهل تروي الشعر ؟ قال : نعم وأقولُه . فأقبَلَ به حتى أدخله القصر وأغلق الباب . قال : فأيقن بالشرّ . ثم مَضى به فأدخله على هشام في بيت صغير ، بينه وبين نسائه سِترٌ رقيق ، والشّمع بين يديه تَزْهَر (٣) . فلمّا دخل قال له هشام : أبو النجم ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، طَريدُك . قال : اجلِس . فسأله وقال له : أين كنت تأوي ومَن كان يُنزِلك . فأخبره الخبر . قال : وكيف اجتمعا لك ؟ قال : كنت أتغدّى عند هذا وأتعشّى عند هذا . قال : وأين كنت تَبيتُ ؟ قال : في المسجد حيث وجدني رسولُك . قال : ومالك من الولد والمال ؟ قال : أمّا المال فلا مالَ لي ، وأمّا الولد فلي ثلاثُ بناتٍ وبُنَيٌّ يقال له شَيبان . فقال :

---

(١) وجأه بيده وبالسكين : ضربه .

(٢) لقست نفسه : غثت وخبثت .

(٣) تزهر : تضيىء وتتلألأ .

هل زوّجتَ من بناتك أحداً ؟ قال : نعم ، زوّجتُ اثنتين وبقيتْ واحدةٌ تجمِزُ (١) في أبياتنا كأنّها نَعامة . قال : وما وَصّيتَ به الأولى ؟ – وكانت تُسمّى بَرّة ، بالراء – فقال :

أوصيتُ من بَرّة قلباً حُـرّا ... بالكلبِ خيراً والحَماةِ شَرّا
لا تَسأمي ضرباً لها وجَـرّا ... حتّى تَرى حُلوَ الحياة مُـرّا
وإن كَسَتْكِ ذهبـاً ودُرّا ... والحيَّ عُمّيهم بشَرٍّ طُـرّا

فضحك هشام وقال : فما قلتَ للأخرى ؟ قال قلتُ :

سُبّي الحَماةَ وابْهَتي عليها ... وإن دَنَتْ فازْدَلِفي إليهـا
وأَوجِعي بالفِهـر رُكبتَيْها ... ومِرفَقَيها واضربي جَنْبَيها
وظاهري النَّذْرَ لها عليهـا ... لا تُخبري الدّهرَ به ابنتَيها (٢)

قال : فضحك هشام حتّى بدت نَواجذُه وسقط على قَفاه . فقال : ويحَك ! ما هذه وصيّة يعقوبَ ولدَه ! فقال : وما أنا كيَعقوب يا أمير المؤمنين . قال : فما قلت للثالثة ؟ قال قلتُ :

أُوصيكِ يا بِنتي فإنّي ذاهبُ ... أُوصيكِ أن تَحمَدَكِ القرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريمُ السّاغبُ ... لا يُرْجَعَ المِسكينُ وهو خائبُ
ولاتَني أظفارُكِ السّلاهِـبُ ... منهنّ في وَجه الحَماة كاتبُ
والزّوج إنّ الزّوجَ بئس الصاحبُ (٣)

قال : فكيف قلت لها هذا ولم تتزوّج ؟ وأيّ شيء قلت في تأخير تزويجها ؟ قال قلت فيها :

---

(١) تجمز : تعدو في وثب .

(٢) ابهتي : من البهتان وهو الكذب والافتراء . ازدلف : اقترب . الفهر : الحجر يملأ الكف .

(٣) السلاهب : الطويلة .

كأنّ ظَلاّمةَ أخت شَيبانْ يتيمةٌ ووالداها حَيّانْ

الرّأسُ قَمْلٌ كُلُّه وصِئبانْ وليس في السّاقَين إلا خَيْطانْ

تلك التي يَفزَعُ منها الشّيطانْ

قال : فضحك هشام حتى ضحك النساء لِضَحكه . وقال للخَصِيّ : كم بقي من نَفَقتك ؟ قال : ثلثمائةُ دينار . قال : أَعطِه إيّاها ليجعلَها في رِجْل ظَلاّمة مكان الخيطَين .

قال ابن كُناسةَ :

قال هشام بن عبد الملك لأبي النجم : يا أبا النجم ، حَدّثني . قال : عنّي أو عن غيري ؟ قال : بل عنك . قال : انّي لمّا كَبِرتُ عرض لي البولُ ، فوضعتُ عند رِجلي شيئاً أبولُ فيه . فقمت من الليل أبولُ ، فخرج منّي صوتٌ . فتشدّدتُ . ثم عُدت فخرج مني صوتٌ آخرُ ، فأويت إلى فِراشي ، فقلت : يا أمَّ الخيار هل سمعتِ شيئاً ؟ فقالت : لا والله ولا واحدةً منهما . فضحك . قال : وأمُّ الخيار التي يعني بقوله :

قد أصبحت أمُّ الخيار تدّعي علي ذَنْباً كلّه لم أَصْنَعِ

وهي أرجوزة طويلة .

* عن بعض الرُّواة :

أنّ عبد الملك بن بشر بن مَروان قال لأبي النجم : صِفْ لي فُهودي هذه . فقال :

انّا نَزَلْنا خيرَ مَنْزِلاتِ بين الحُمَيْرات المباركاتِ

في لحم وحشٍ وحُبارَيات وان أردنا الصّيد ذا اللّذات

جاء مُطيعاً لِمُطاوعات عُلّمن أو قد كنّ عالمات

فسكّن الطّرفُ بمُطرفاتِ تُريك آماقاً مُخطّطات (1)

* * *

(1) الحباريات جمع الحبارى : طائر ، وهو للذكر والأنثى .

الفهرست

اختيارات
من
كتاب الأغاني

منقحة

لأبي الفرج الأصفهاني

القسم الخامس

العصر العباسي

صنعة
الدكتور إحسان النص

بسم الله الرحمن الرحيم

اختيارات
من
كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

(٥)

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقدمة المجلدة الخامسة
من الاختيارات

هذا هو الجزء الخامس من كتاب «اختيارات من كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ، وقد وقفته على شعراء العصر العبّاسي الذين بلغ تعدادهم ثمانية وثلاثين شاعراً .

والتزمت في هذا الجزء ما جريت عليه في الأجزاء السابقة ، من حيث حذف أسانيد الأخبار والاجتزاء بالراوية الأخير ، وتنسيق أخبار الشاعر وتصنيف كل طائفة منها تحت عنوان يؤلّف بينها كلما أمكن ذلك ، وعند تعدد روايات الخبر الواحد الاقتصار على الرواية التي تبدو لي أدنى إلى الصحة ، وعدم الإطالة في رواية الأشعار إلا حين تكون القصيدة من عيون الشعر ، وحذف الأخبار والأشعار إذا وقع فيها ما لا يليق ذكرُه ، لأن الغاية من هذه الاختيارات إبراز الوجه الناصع من تراثنا الأدبي وتحبيب الرجوع إليه الى الناشئة .

وقد حاولت ـ جهدي ـ تحقيق ما في المطبوعة حين يبدو لي أن فيه شيئاً من التصحيف أو التحريف ، مع شرح مايغمض من الألفاظ والمعاني .

ولم أصنف شعراء العصر العباسي زمراً وطوائف ، لأنهم ـ في جلّهم ـ من الشعراء الذين احترفوا المديح وجعلوه فنّهم الأول ، ولهذا رتّبتهم على أحرف الهجاء مراعياً ما اشتهروا به من اسم أو لقب أو كنية ، دون مراعاة لمنزلتهم الشعرية واتجاههم الفنّي .

وبهذا الجزء أستوفي الحديث عن أبرز الشعراء الذين ترجم لهم أبو الفرج ، والجزء السادس الأخير سيكون ـ بعون الله ـ وقفاً على تراجم المغنّين والقيان .

دمشق في ٨٢/٨/٢٣

إحسان النص

١

أبان بن عبد الحميد

[الأغاني ج ٢٣ ص ١٥٥ وما بعدها]

الشاعر

أَبان بن عبد الحميد بن لاحِق بن عَفير ، مولى بني رقَاش ...

عيسى بن إسماعيل تِينة قال : كنّا في مجلس أبي زيد الأنصاري ، فذكروا أبان بن عبد الحميد ، فقالوا : كان كافراً . فغضب أبو زيد وقال : كان جاري ، فما فقَدتُ قُرآنه في ليلةٍ قطّ .

أحمد بن مَهران مولى البرامكة قال :

شكا مَروانُ بن أبي حَفْصة إلى بعض إخوانه تغيّر الرشيد عليه وإمساك يده عنه ، فقال له : ويحَك ، أتشكو الرشيدَ بعد ما أعطاك ! قال : أوَ تعجبُ من ذلك ؟ هذا أبان اللاحقي ، قد أخذ من البرامكة بقصيدة قالها واحدةٍ مثلَ ما أخذتهُ من الرشيد في دهري كُلّه ، سوى ما أخذه منهم ومن أشباههم بعدها . وكان أبانٌ نقل للبرامكة كتاب كليلة ودِمنة ، فجعله شعراً ليسهل حفظُه عليهم ، وهو معروفٌ أوّلُه :

هذا كتابُ أدبٍ ومِحنَـــــــهْ وهو الذي يُدعَى كَليلَة دِمْنَهْ
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشْـــــــدُ وهو كتابٌ وضعتْه الهنـــدُ[1]

فأعطاه يحيى بن خالد عشرةَ آلاف دينار ، وأعطاهُ الفضل خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفرٌ شيئاً ، وقال : ألا يكفيك أن أحفظه فأكونَ راويتك ؟
وعمل أيضاً القصيدة التي ذكر فيها مبدأً الخَلق وأمر الدنيا وشيئاً من المنطق ، وسمّاها « ذاتَ الحُلَل » ، ومن الناس من ينسبُها إلى أبي العتاهية ، والصحيح أنّها لابان .

عن عيسى بن إسماعيل قال :

جلس أبانُ بن عبد الحميد ليلةً في قوم ، فثلب أبا عبيدة فقال : يقدح في الأنساب ولا نَسَبَ له . فبلغ ذلك أبا عبيدة فقال في مجلسه : لقد أغفل السّلطان كُلَّ شيء حتى أغفل أخذ الجِزية من أبانِ اللاحقيّ ، وهو وأهله يهود ، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة ، وليس فيها مصحف ، وأوضح الدَّلالة على يهوديّتهم أنّ أكثرهم يدّعي حفظ التوراة ، ولا يحفظ من القرآن ما يُصلّى به . فبلغ ذلك أباناً فقال :

لا تَنِمَّنَّ عن صديقٍ حديثـاً واستعِذْ مـن تسرُّر النَمّـــامِ
واخفِضِ الصوت إن نطقتَ بليلٍ والتفِتْ بالنّهار قبل الكــلام

طائفة من أخباره

● أبو قِلابةَ عبدُ الملك بن محمّد قال :

كان أبان اللاحقيُّ صديقاً للمعذَّل بن غَيلان ، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء ، فيهجوه المعذَّلُ بالكُفر وينسبُه إلى الشُؤم ، ويهجوه أبان وينسبه إلى

[1] الشطر الثاني من البيت الأول غير مستقيم الوزن وينبغي حذف التاء من الشطر الثاني او اسكانها ليستقيم الوزن

الفُساء الذي تُهجَى به عبد القيسِ ، وبالقِصرَ ، وكان المعذَّل قصيراً . فسعى في الإصلاح بينهما أبو عُيَينة المهلَّبيُّ ، فقال له أخوه عبدالله ـ وهو أَسَنّ منه ـ : يا أخي إنَ في هذين شرّاً كثيراً ، ولا بُدَّ من أن يُخرجاه ، فدَعْهما ليكونَ شرُّهما بينهما وإلّا فَرَّقاه على الناس . فقال أبانٌ يهجو المعذّل :

أُحاجيكمُ ما قوسُ لحمٍ سِهامُها ... من الرِّيح لم تُوصَلْ بقِدٌ ولا عَقَبْ
وليست بشَرْيانٍ وليست بشَوْحَطٍ ... وليست بنَبْعٍ لا وليست من الغَرَبْ
ألا تلك قوسُ الدَحْدحيِّ مُعَذَّل ... بها صار عَبْدِيّاً وتَمّ له النَسَبْ
تَصُكّ خياشيم الأنوف تعمُّداً ... وإن كان راميها يُريد بها العُقَبْ
فإن تفتخرْ يوماً تميمٌ بحاجبٍ ... وبالقَوس مضمونا لكسرى بها العَرَبْ
فحيٌّ ابن عَمروٍ فاخرون بقوسه ... وأسهُمه حتى يُغلَّب من غَلَبْ(١)

فقال المعذَّل في جواب ذلك :

رأيت أباناً يومَ فِطرٍ مُصَلِّياً ... فقُسّم فكري واستفزَّني الطَرَبْ
وكيف يُصلّي مظلمُ القلب دينُه ... على دين ماني انّ ذاك من العَجب

● (عن طائفة من الرواة) :

كان المعذَّل بن غَيلان المَهْريّ يجالس عيسى بن جعفر بن المنصور ـ وهو يلي حينئذٍ إمارة البصرة من قِبَل الرشيد ـ فوهب للمعذَّل بن غيلان بَيضةَ عنبرٍ وزنها أربعةُ أرطالٍ ، فقال أبان بن عبد الحميد :

أصلحك الله وقد أَصلحا ... إنّي لا آلوك أن أنصحا
عَلامَ تُعطي مَنوَيْ عَنبرٍ ... وأحسِبُ الخازن قد أرجحا

(١) القدّ : سير من جلد . العقب : عصب تعمل منه الاوتار . الشريان والشوحط والنبع أشجار تتخذ منها القسيّ . الغرب : ضرب من الشجر الدحدحي والدحداح : القصير . عبدياً : منسوباً الى عبد القيس وكانت هذه القبيلة تعير بالفساء . حاجب : هو حاجب بن زرارة التميمي .

من ليس من قِردٍ ولا كَلبةٍ   أبهى ولا أحلى ولا أملَحا
ما بين رجليه إلى رأسه   شِبرٌ فلا شبَّ ولا أفلحا[1]

● الجِرمازيّ قال :

خرج أبان بن عبد الحميد من البصرة طالباً للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائباً ، فقصده ، فأقام ببابه مدّةً طويلة لا يصل إليه ، فتوسّل بمن أوصل له شعراً إليه ، وقيل إنه توسّل إلى بعض بني هاشم ممّن شخص مع الفضل ، وقال له :

يا غزيرَ الندى ويا جوهرَ الجو   هر من آل هاشمٍ بالبطاحِ
إنّ ظنّي وليس يُخلِف ظنّي   بك في حاجتي سبيلُ النجاحِ
إنّ من دونها لَمُصْمَتَ بابٍ   أنت من دُونِ قِفله مِفتاحي
تاقت النّفس يا خليلَ السَّماح   نحو بحر النَّدى مُجاري الرِّياح
ثم فكّرت كيف لي واستَخَرْت الله عند الإمساء والإصباح
وامتدحت الأميرَ أصلَحه اللهُ بشعرٍ مُشَهَّرِ الأوضاح

فقال : هاتِ مديحَك . فأعطاه شعراً في الفضل في هذا الوزن وقافيته :

أنا مَن بُغْيةُ الأمير وكَنزٌ   من كُنوز الأمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديب   ناصحٌ زائدٌ على النُصّاح
شاعرٌ مُفْلِقٌ أخفُّ من الرِّيشة ممّا يكون تحت الجنَاحِ

وهي طويلة جداً يقول فيها :

إن دعاني الأميرُ عاين منّي   شَمَّريّاً كالبُلبل الصَيّاحِ[2]

(١) لا آلو : لا أقصر. المَنَا والمناة : كيل او ميزان ويثنى منوان ومَنيَان .
(٢) شَمّرياً : ماضياً مجرّباً .

قال : فدعا به ووصله ، ثم خُصّ بالفَضل ، وقُدّم معه ، فقرب من قلب يحيى بن خالد وصار صاحب الجماعة وزمام أمرهم .

● عليّ بن محمد النّوفليّ :

أن أبانَ بن عبد الحميد عاتب البرامكة على تركهم إيصاله إلى الرّشيد وإيصال مديحه إليه ، فقالوا له : وما تُريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروانُ بن أبي حَفصة . فقالوا له : أنّ لِمروان مذهباً في هجاء آل أبي طالب وذَمّهم به يَحظى وعليه يُعطَى ، فاسلُكْهُ حتى نفعلٍ . قال : لا أستحلٌ ذلك . قالوا : فما تصنع ؟ لا يجيء طلب الدنيا إلا بما لا يَحِلٌ . فقال أبان :

نَشَدتُ بحقٍّ الله مَن كان مُسلِماً أَعُمٌ بما قد قُلتُه العُجْمَ والعَرَبْ
أَعمٌ رسولِ الله أقربُ زُلفةً لَدَيه أم ابنُ العَمّ في رُتْبة النَسَبْ
وأيُّهما أَولى بهِ وبِعَهْدِه ومَن ذا له حَقٌّ التُّراث بما وَجَبْ
فإن كان عَبّاسٌ أحقَّ بِتلكمُ وكان عليٌّ بعدَ ذاك على سَبَب
فأبناءُ عبّاسٍ همُ يَرِثُونه كما العَمٌّ لابن العمّ في الإرث قد حَجَب

وهي طويلة ، وقد تركت ذِكرها لما فيها . فقال له الفضل : ما يَرِدُ على أمير المؤمنين اليومَ شيءٌ أَعْجَبُ إليه من أبياتك . فركب ، فأنشدها الرَّشيد ، فأمر لأبان بعشرين ألف درهم ، ثم اتّصل مدحُه الرَّشيدَ بعد ذلك وخُصّ به .

● قال أبو الفَيّاض سَوّار بن أبي شُراعة :

كان في جوار أبان بن عبد الحميد رجلٌ من ثقيف يقال له محمد بن خالد ، وكان عدوّاً لِأبان . فتزوّج بعَمّارةَ بنت عبد الوهاب الثقفيّ ، وهي أخت عبد المجيد الذي كان ابن مُناذر يهواه ، ورثاه ، وهي مَولاةُ جِنان التي يُشبّب بها أبو نُواس ...

قال : وكانت مُوسِرة ، فقال أبان بن عبد الحميد يهجوه ويُحذّرها منه :

لَمّا رأيتُ البَزَّ والشـــــارهْ والفَرشَ قد ضاقت به الحـــارهْ
واللّوز والسُكّـرَ يُـرمَـى به من فوق ذي الدّار وذي الدّاره
وأحضروا المُلْهِين لم يترُكـوا طبلاً ولا صاحبَ زَمّــــاره
قلـت : لمـاذا ؟ قيل أُعجوبةٌ مُحمّـدٌ زُوِّج عَـمّــــاره
لا عَـمّرَ اللهُ بهـــا بيتـــه ولا رأتْـه مُدرِكاً ثـــارَه
ماذا رأت فيه وماذا رجـتْ وهي من النِّسوان مختـــاره
أسودُ كالسَّفُّـود يُنسَى لدى التَنُّـــور بل مِحراكُ قَيّـــاره
يُـجري على أولاده خمســـةً أرغفـةً كالـرِّيش طيّــــاره
وأهلُـه في الأرض من خَـوفه إن أفرطوا في الأكل سَيّــاره
ويحَكِ فِرّي واعصِبي ذاك بي فهذه أختُــك فَــــــرّاره
إذا غَفـا بالليـل فاستيقظي ثم اطفِري إنّـك طَـفّـــاره
فصَعّدت نائلـــةً سُلَّمـاً تخاف أن تصعَدَه الفـــارَه
سُرورُ غَرَّتْهـا فلا أفلحتْ فإنّـها اللَّخْنــاءُ غَـــرّاره
لو نلت ما أبعدتَ من ريقهـا إنّ لهـا نَفثـةَ سَحّــاره(١)

قال : فلمّا بلغت قصيدته هذه عَمّارة هربت ، فحُرم الثقفيّ من جهتها مالاً عظيماً . قال : والثلاثة الأبيات التي أوّلها :

فصعّدت نائلة سلّماً

زادها في القصيدة بعد أن هربت .

* * *

(١) السفود : حديدة يشوى بها اللحم . القِير : بالكسر ، وهو القار أيضاً : الزفت ومادة تطلى بها السفن ، والقيار : صاحب القير . سيارة : الجماعة يسيرون . أعصبي ذاك بي : ألقي الذنب علي .

٢

إبراهيم بن العبّاس

[الأغاني ج ١٠ ص ٤٣ وما بعدها]

الشاعر

إبراهيم بن العبّاس بن محمد بن صُول . وكان صُول رجلاً من الأتراك ، ففتح يزيد بن المهلّب بلدَه وأسلم على يديه ، فهم موالي يزيد . ولمّا دعا يزيد إلى نفسه لحِق به صول لينصُرَه ، فصادفه قد قُتل . وكان يقاتل كلَّ من بينه وبين يزيد من جيش بني أميّة ويكتب على سهامه : صُولٌ يدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه . فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك فاغتاظ وجعل يقول : وَيْلي على ابن الغَلْفاء ! وماله وللدُّعاء إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ! ولعلّه لا يَفْقَه صَلاتَه .

وكان ابنه محمد بن صُول من رجال الدولة العبّاسيّة ودُعاتها . وقد كان بعض أَهلِيهم ادَّعَوا أنّهم عربٌ وأنّ العبّاس بن الأحنف خالُهم ...

وأمّا إبراهيم بن العبّاس وأخوه عبدالله فإنّهما كانا من وجوه الكُتّاب ، وكان عبدالله أسنَّهما وأشدّهما تقدُّماً ، وكان إبراهيم آدبَهما وأحسنَهما شعراً . وكان يقول الشعر ثم يختاره ويُسقط رَذْله ، ثم يُسقِط الوسط ، ثم

يُسقط ما يُسبَق إليه ، فلا يدع من القصيدة إلّا اليسير ، وربّما لم يدعْ منها إلّا بيتاً أو بيتَين ...

ابن إبراهيم قال : سمعتُ دعبلاً يقول : لو تكسّب إبراهيم بن العبّاس بالشعر لتركَنا في غير شيء . قال : ثم أنشدَنا له ، وكان يستحسن ذلك من قوله :

إن امرءاً ضَنّ بمعروفه عنّي لَمبذولٌ له عُذري
ما أنا بالرّاغب في عُرفه إن كان لا يرغَبُ في شُكري

أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العبّاس ، وكان يفضّلها ويستجيدها :

أمِيل مع الذّمام على ابن أمّي وآخذُ للصّديق من الشّقيقِ
وإن ألفيتَني حُراً مُطاعاً فإنّك واجدي عبدَ الصّديق
أفرّق بين معروفي ومَنّي وأجمع بين مالي والحقوق

أنشدتُ عمّي ـ رحمه الله ـ أبياتاً لابن دُريد يمدح رجلاً من أهل البصرة :

يا مَن يُقبّل كفَّ كلّ مُخرّق هذا ابنُ يحيى ليس بالمِخراقِ
قبّلْ أناملَه فلسنَ أناملاً لكنّهنّ مُفاتحُ الأرزاقِ (١)

فقال : يا بنيّ ، هذا سرقَه هو وابنُ الرومي جميعاً من إبراهيم بن العبّاس ، قال إبراهيم بن العبّاس يمدح الفضل بن سَهل :

لِفضل بن سهلٍ يدٌ تقاصَر عنها الأمَلْ
فباطنُها للنَّدى وظاهرُها للقُبَل
وبَسطتُها للغِنى وسطوتُها للأجلْ

وسرقه ابن الروميّ فقال :

أصبحتُ بين خَصاصة ومَذلّةٍ والحُرّ بينهما يموت هزيلا

(١) التخريق : التمزيق وكثرة الكَذب . المخراق : في الأصل : الرجل الحسن الجسم ، والمتصرف في الأمور والسخي ولكنه أراد به الذمّ هنا وجعله بمعنى المخرّق .

فامدُدْ إليّ يداً تعـوَّد بطنُـها   بَـذْلَ الندى وظهورُها التقبيلا[1]

أخبرني الصُوليّ قال : سمعت أحمد بن يحيى ثعلباً يقول :

كان إبراهيم بن العبّـاس أشعرَ المحدَثين. قال : وما روى ثعلبٌ شعرَ كاتبٍ قطُّ . قال : وكان يستحسن كثيراً قولَـه :

لنا إبِلٌ كُـومٌ يضيقُ بها الفَـضا   ويفترُّ عنها أرضُها وسماؤها
فمـن دُونهـا أن تُستبـاحَ دماؤنا   ومن دُوننا أن تستباحَ دماؤهـا
حِمىً وقِرىً فالموتُ دون مَرامها   وأيسر خَـطبٍ يوم حَقّ فَناؤها[2]

ثم قال : والله لو كان هذا لبعض الأوائل لاستُجيد له .

أخبرني عمّي قال : اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن عبد الملك وابن بَرْد الخِيار في مجلس عبيدالله بن سليمان قبل وزارته ، فجعل هارون يُـنشد من أشعار أبيهِ محاسنها ويفضّلها ويقدّمها ، فقال له ابنُ بَرْد الخِيار : إن كان لأبيك مثلُ قول إبراهيم بن العبّـاس :

أسدٌ ضارٍ إذا هَـيّجتَـه   وأبٌ بَـرٌّ إذا ما قَـدَرا
يعرف الأبعَـدَ إن أثـرى ولا   يعرف الأدنى إذا ما افتقـرا

أو مثلُ قوله :

تَلِجُ السّنون بيوتَـهم وتَرى لهم   عن جار بيتِـهم ازورارَ مَناكبِ
وتراهمُ بسيوفهم وشِفارهـم   مُستشرِفينَ لراغـبٍ أو راهب
حامِين أو قارِين حيث لقيتَـهم   نَـهْبَ العُفاة ونُـهزَةً للرّاغب

فاذكُرْه وافخرَ به ، وإلاّ فأقْلِل من الافتخار والتطاول بما لا طائل فيه . فخجل هارون .

---

(١) الخصاصة : الفقر.

(٢) الكوم ج كوماء : الناقة العظيمة السنام .

العداوة بينه وبين ابن الزيّات

كان إبراهيم بن العبّاس صديقاً لمحمد بن عبد الملك الزيّات ، ثم آذاه وقصَده وصارت بينهما شحناءُ عظيمة لم يمكن تلافيها ، فكان إبراهيم يهجوه ، فمن قوله فيه :

أبا جعفرٍ خَفْ خَفضةً بعد رِفعةٍ ... وقصِّر قليلاً عن مَدى غُلَوائكا
لئن كان هذا اليومُ يوماً حويتَه ... فإنّ رجائي في غدٍ كرجائكا

وله فيه أيضاً :

دعوتُك في بلوى أَلَمّت صُروفُها ... فأوقدتَ من ضِغنٍ عليَّ سَعيرَها
فإني إذا أدعوك عند مُلمّةٍ ... كداعيةٍ عند القبور نَصيرَها

وقال فيه لمّا مات :

لما أتاني خبرُ الزيّات ... وأنّه قد صار في الأموات
أيقنتُ أنّ موته حياتي

عليّ بن الحسين بن عبد الأعلى قال :

وجّه محمد بن عبد الملك بأبي الجَهم أحمد بن سيف إلى الأهواز ليكشِف إبراهيم بن العبّاس ، فتحامل عليه تحاملاً شديداً . فكتب إبراهيم إلى محمد ابن عبد الملك يُعرّفه ذلك ويشكوه إليه ويقول له : أبو الجهم كافرٌ لا يُبالي ما عمِل ، وهو القائل لمّا مات غلامُه يخاطب ملَك الموت :

وأقبلتَ تسعى إلى واحدي ... ضِراراً كأنّي قتلتُ الرّسولا
تركتَ عَبيد بني طاهرٍ ... وقد مَلؤوا الأرض عرضاً وطُولا
فسوف أدين بترك الصَّلاة ... وأصطبح الخمر صِرفاً شَمُولا

فكان محمد لعصبيته على إبراهيم وقصده له يقول : ليس هذا الشعر لأبي الجهم ، إنما إبراهيم قاله ونسَبه إليه .

ميمون بن هارون قال :

كتب إبراهيم بن العبّاس إلى محمّد بن عبد الملك يستعطفه : « كتبتُ إليك وقد بلغت المُدية المَحَزَّ ، وعَدَت الأيام بك عليّ بعد عَدْوي بك عليها ، وكان أسوأ ظنّي وأكثر خوفي أن تسكُن في وقت حركتها ، وتكفَّ عند أذاها ، فصرتَ عليَّ أضرَّ منها ، وكفّ الصّديق عن نُصرتي خوفاً منك ، وبادر إليّ العدوّ تقرُّباً إليك » . وكتب تحت ذلك :

أخٌ بيني وبين الدّهْـــر صاحبَ أيَّنـا غَـلَـبـا
صديقي ما استقام فإن نبا دهـرٌ عـليَّ نَبـا
وثبتُ على الزّمـان بـه فعاد به وقـد وثبـا
ولو عـاد الزمـانُ لنا لعاد به أخـاً حَـدِبا

قال : وكتب إليه :

« أما والله لو أمِنت وُدّك لقلت ، ولكنّي أخاف منك عَتْباً لا تُنصفني فيه ، وأخشى من نفسي لائمةً لا تحتملها لي . وما قد قُدّر فهو كائن ، وعن كل حادثةٍ أُحدوثة ، وما استبدلت بحالةٍ كنتُ فيها مغتبطاً حالةً أنا في مكروهها وألمها أشدَّ عليَّ من أنّي فزِعت إلى ناصري عند ظُلم لَحِقني ، فوجدتُ من يظلِمُني أخفَّ نيّةً في ظُلمي منه ، وأحمَدُ الله كثيراً . » ثم كتب في أسفلها :

وكنتَ أخي بإخاء الزمّـانِ فلمّا نبا صرتَ حَرباً عَـوانا
وكنت أذمُّ إليك الزّمـان فأصبحتُ فيك أذمُّ الزّمانـا
وكنت أُعِدُّك للنائبـات فأصبحتُ أطلب منك الأمانا

أحمد بن بِشر المَرْثَديّ قال :

كان إبراهيم بن العبّاس يوماً عند أحمد بن أبي دُواد ، فلمّا خرج من عنده لَقِيه محمد بن عبد الملك الزيّات وهو خارجٌ من داره ، فتبيّن إبراهيمُ

في وجه محمّدٍ الغضبَ فلم يخاطبه في العاجل بشيءٍ . فلمّا انصرف إلى منزله كتب إليه :

دَعْني أُواصِلْ مَن قَطَعْتَ يراك بي إذ لا يَراكا
إنّي متى أَهجُرْ لهجرك لا أَضرّ به سِواكا
وإذا قطعتُك في أخيك قطعتُ فيك غداً أخاكا
حتى أُرى مُتَقسَّماً يومي لذا وغَدي لِذاكا

وقرأت في بعض الكتب :

لمّا عُزل إبراهيم بن العبّاس عن الأهواز في أيام محمد بن عبد الملك الزيّات اعتُقل بها وأُوذي ، وكان محمد قبل الوزارة صديقَه ، وكان يُؤمّل منه أن يسامحه ويُطلقَه ، فكتب إليه :

فلو إذ نبا دهرٌ وأُنكر صاحبٌ وسُلّط أعداءٌ وغاب نصيرُ
تكون عن الأهواز داري بنَجوةٍ ولكن مقاديرٌ جرتْ وأمورٌ
وإنّي لأرجو بعد هذا محمّداً لِأفضلَ ما يُرجى أخٌ ووزيرُ

فأقام محمد على قصده وتكشُّفه والإساءة إليه حتى بلغ منه كلّ مكروه ؛ وانفرجت الحال بينهما على ذلك ، وهجاه إبراهيم هجاءً كثيراً .

الحسين بن فَهم قال :

كان محمّد بن عبد الملك قد أَغرى الواثق بإبراهيم بن العبّاس ، وكان إبراهيم يُعاتبه على ذلك ويُداريه . ثم وقف الواثق على تَحامُله عليه فرفع يَده عنه وأمر أن يُقبَل منه ما رفعه ، وردّه إلى الحَضْرة مَصوناً . فلمّا أحسّ إبراهيم بذلك بَسَط لسانه في محمّد ، وحسُن ما بينه وبين ابن أبي دُواد[1] . وهجا محمّد بن عبد الملك هجاءً كثيراً ، منه قولُه :

---

(١) هو القاضي أحمد بن أبي دواد ، وكانت بينه وبين ابن الزيات عداوة شديدة .

قَدرتَ فلم تَضْرُر عدوّاً بقُدرةٍ وسُمتَ بها إخوانك الذُّلّ والرَّغْما
وكنت مَليئاً بالتي قد يَعافُها من النّاس مَن يأبى الدنيئةَ والذمّا

أبو محمّد الحسن بن مَخْلَد قال :

أودع محمد بن عبد الملك الزيّات مالاً عظيماً وجوهراً نفيساً ، وقد رأى تغيّراً من الواثق فخافه وفرّق ذلك في ثقاته من أهل الكَرْخ ومُعامليه من التُجّار . وكان إبراهيم بن العبّاس يُعاديه ويَرْصُد له بالمكاره لإساءته إليه ، فقال أبياتاً وأشاعها حتى بلغت الواثق يُغريه به :

نصيحةٌ شانَها وزيرُ مُستحفَظٌ سارقٌ مُغيرُ
ودائعٌ جَمّةٌ عِظامٌ قد أُسبِلت دُونَها السُّتور
تسعةُ آلافِ ألفِ ألفٍ خِلالها جوهرٌ خطيرُ
بجانب الكَرْخ عند قومٍ أنت بما عندهم خبير
والمَلِكُ اليومَ في أمورٍ تحدُثُ من بَعدها أمورُ
قد شغلتْه مُحقَّراتٌ وصاحبُ الكارةِ الوزيرُ (١)

تعشقه لسامر

ابن بَرْد الخِيار عن أبيه قال :

كان إبراهيم بن العبّاس يهوى جاريةً لبعض المغنّين بسُرّمن رأى يقال لها سامِر ، وشُهر بها ، فكان منزله لا يخلو منها . ثم دُعيت في وليمة لبعض أهلها ، فغابت عنه أياماً ، ثم جاءته ومعها جاريتان لمَولاتها وقالت له : قد أهديتُ صاحبتيَّ إليك عِوضاً من مَغيبي عنك . فأنشأ يقول :

أقبلن يحفُفن مثل الشمس طالعةً قد حسّن الله أُولاها وأخراها
ما كنت فيهنّ إلّا كنت واسطةً وكنّ دُونك يُمناها ويُسراها

(١) الكارة : أراد الصُرة التي فيها المال ، وهي في الاصل للطعام .

محمد بن القاسم بن مَهْروية قال :

كان إبراهيم بن العبّاس يهوى قَينةً بسُرّ من رأى ، فكان لا يكاد يُفارقها . فجلس يوماً للشرب ومعه إخوانٌ له ، ودعا جماعةً من جواري القِيان ، ودعاها فأبطأتْ ، فتنغّص عليهم يومُهم لِما رأَوا من شُغل قلبه بتأخّرها ، ثم وافت ، فسُرّي عنه وطابت نفسه وشرب وطرِب . ثم دعا بدَواةٍ فكتب :

ألم تَرَنا يومَنا إذ نـأتْ ... فلم تأتِ من بين أترابها
وقد غمرتْنا دواعي السُّرور ... بإشعالها وإلهابها
ومدّت علينا سَماءَ النعيم ... وكلُّ المُنى تحت أطنابها
ونحن فُتورٌ إلى أن بدتْ ... وبدرُ الدُّجى بين أثوابها
فلمّا نأتْ كيف كُنّا لها ... ولمّا دنتْ كيف صِرنا بها

وأمر مَن حضر فقرأ عليها الأبيات ، فتجنّت وقالت : ما القصّة كما وصفتَ ، وقد كنتم في قَصْفكم مع من حضَر ، وإنّما تجمّلتُم لي لمّا حضرتُ . فأنشأ يقول :

يا مَن حنيني إليهِ ... ومن فؤادي لَدَيه
ومَن إذا غاب من بَيْنهم أسفتُ عليه
إذا حضرتِ فما منهمُ - مَنَ اصبُو إليه
مَن غاب غيرُك منهم ... فأمرُه في يَدَيه

قال : فرضيت عنه ، وأتممنا يومَنا على أحسن حال .

عبدالله بن أبي سَعد قال :

أنشدني إبراهيم بن العبّاس لنفسه في قَينة اسمُها سامِر كان يهواها فغضبت عليه :

وعَلّمِتني كيف الهوى وجَهِلتِه ... وعَلّمكم صبري على ظُلمكم ظُلمي
وأعلم مالي عندكم فيردُّني ... هَواي إلى جَهل فأُقصِر عن عِلمي

سائر أخباره

● محمد بن عيسى بن عبد الرحمن قال :

خرج إبراهيم بن العباس ودِعبل بن عليّ وأخوه رَزِين في نُظرائهم من أهل الأدب رَجّالةً إلى بعض البساتين في خلافة المأمون ، فلَقيهم قومٌ من أهل السّواد من أصحاب الشَّوك[1] ، فأعطَوهم شيئاً وركبوا تلك الحمير . فأنشأ إبراهيم يقول :

أُعِيضت بعد حَمل الشَّـو ... ك أحمالاً من الحَرْفِ
نَشاوى لا من الصَّهبـا ... ء بل من شدّة الضَّعْفِ[2]

فقال رزين :

فلو كنتم على ذاك ... تَؤولون إلى قَصْفِ
تساوت حالُكم فيه ... ولم تبقَوا على خَسْفِ[3]

فقال دعبل :

وإذ فات الذي فات ... فكونوا من بني الظَّرْفِ
ومُرّوا نقصِف اليومَ ... فإنّي بائعٌ خُفّي

فانصرفوا معه فباع خُفّه وأنفقه عليهم .

● محمد بن صالح بن النطّاح قال :

لمّا عزم المأمون على الفتك بالفَضل بن سهل وندَب له العزيز بن عِمران الطائيّ ومُؤنِساً البصريّ وخَلَفاً المصريّ وعليّ بن أبي سعد ذا القلمَين وسِراجاً

---

(١) أصحاب الشوك : أراد الذين يجمعون الشوك ويحملونه عل الحمير .
(٢) الحرف : كذافي الأصول ولا يتضح المقصود بها هنا ولعله أرد أن راكبيها من أهل الحرف أي الكتابة والشعر .
(٣) القصف : اللهو.

الخادم ، نُـمي الخبرُ إلى الفضل ، فأظهره للمأمون وعاتبه عليه . فلمّا قُتل الفضل وقتل المأمونُ قَتَلَتَه سأل من أين سقط الخبر إلى الفضل ، فعُرِّف أنه من جهة إبراهيم بن العبّاس ، فطلبه ، فاستَتر . وكان إبراهيم عرف هذا الخبر من جهة عبد العزيز بن عِمران ، وكان الفضل استكتب إبراهيمَ لعبد العزيز بن مروان ، فأخبر به الفضل . قال : وتحمّل إبراهيم بالناس على المأمون وجرّد في أمره هشاماً الخطيب المعروف بالعبّاسيّ ، وكان جريئاً على المأمون لأنّه ربّاه ، وشخص إليه إلى خراسان في فِتنة إبراهيم بن المهديّ ، فلم يُجبه المأمون إلى ما سأل . فلقيه إبراهيم مستتراً وسأله عمّا عمل في حاجته ، فقال له هشام : قد وعدَني في أمرك بما تُحبّ . فقال له إبراهيم : أظنّ أنّ الأمر على غير هذا . قال : وما تظنّ ؟ قال : محلُّك عند أمير المؤمنين أجلّ من أن يَعِدَك شيئاً فترضى بتأخيره ، وهو أكرم من أن يعدَ مثلك شيئاً فيؤخّرَه ، ولكنّك سمعت ما لا تُحبّ فيَّ فكرهت أن تَغُمَّني به ، فقلتَ لي هذا القول ؛ وأحسَن اللهُ على كل الأحوال جَزاءك . فمضى هشام إلى المأمون فعرّفه خبر إبراهيم ، فعجب من فِطنته وعفا عنه .

وفي هشام يقول إبراهيم بن العبّاس :

مَن كانت الأموالُ ذُخراً له ... فإنّ ذُخري أَمَلي في هشامْ
فتىً يقي اللامةَ عن عِرضه ... وأنهبَ المالَ قضاءَ الذِّمام[1]

● محمد بن يونس الأنباريّ قال : حدّثني أبي :

أنّ إبراهيم بن العبّاس الصُّولي دخل على الرِّضا لمّا عقد له المأمونُ وولّاه العهد ، فأنشده قوله :

أزالت عَزاءَ القلب بعد التجلُّدِ ... مَصارعُ أولادِ النبيّ محمّدِ

---

(١) اللامة : اللوم .

ﷺ ، فوهب له عشرة آلاف درهم من الدراهم التي ضُربت باسمه ، فلم تزل عند إبراهيم ، وجعل منها مُهورَ نسائه ، وخَلّف بعضها لكَفنه وجَهازه إلى قبره .

● محمد بن يزيد قال : سمعت الحسن بن رَجاء يقول :

كنّا بفَم الصُّلح[1] أيامَ بنى المأمون ببُوران بنت الحسن بن سهل ، فقدِم إبراهيم بن العبّاس علينا ودخل إلى الحسن بن سهل فأنشده :

لِيَهْنِئْك أصهارٌ أذلّت بعِزّها ... خُدوداً وجَدّعت الأنوفَ الرَّواغما
جمعت بها الشَّملَين من آل هاشمٍ ... وحُزت بها للأكرمِين الأكارما
بَنُوك غدَوا آلَ النبي ووارثو الخلافةِ والحاوُون كِسرى وهاشما

فقال له الحسن : « شِنْشِنةٌ أعرِفُها من أَخْزَم »[2] ، أي أنك لم تزل تمدحُنا . ثم قال له : أحسنَ اللهُ عنّا جَزاءك يا أبا إسحاقَ ، فما الكثير من فِعلنا بك بجزاءٍ لليسير من حقّك .

● ميمون بن هارون قال :

لمّا عقد المتوكّل لولاة العهود من وَلده ركب بسُرّ من رأى رَكْبَةً لم يُرَ أحسنُ منها ، وركب وُلاة العهود بين يديه ، والأتراك بين أيديهم أولادُهم يمشون بين يدَي المتوكّل بمَناطق الذهب ، في أيديهم الطَّبْرَزيناتُ[3] المُحلّاةُ بالذهب . ثم نزل في الماء فجلس فيه والجيش معه في الجَوانحيّات[4] وسائر السُّفن . وجاء حتى نزل في القصر الذي يقال له العَروس ، وأذِن للناس فدخلوا

---

(١) فم الصلح : نهر قرب واسط عليه قرى كثيرة وفيه كانت دار الحسن بن سهل .
(٢) هذا مثل يضرب للامر المألوف المتوقع ، قاله أبو أخزم الطائي حين لقي العقوق من أحفاده وكان أبوهم أخزم عاقاً لأبيه قبلهم .
(٣) الطبرزين : آلة من السلاح عل هيئة الفأس .
(٤) الجوانحيات : ضرب من السفن .

إليه . فلمّا تكاملوا بين يديه مثلَ إبراهيم بن العبّاس بين الصفّين فاستأذن في الإنشاد فأذن له ، فقال :

ولمّا بدا جعفرٌ في الخميس بين المُطِلّ وبين العَروسِ
بدا لابساً بِبهما حُلّةً أُزيلت بها طالعاتُ النُّحوسِ
ولمّا بدا بين أحبابه وُلاةِ العُهود وعزِّ النفوس
غدا قمراً بين أقماره وشمساً مُكلّلةً بالشمُوس
لإيقاد نارٍ وإطفائها ويومِ أنيقٍ ويومِ عَبُوسِ

ثم أقبل على وُلاة العهود فقال :

أضحت عُرى الإسلام وهي مَنُوطةٌ بالنّصر والإعزاز والتأييدِ
بخليفةٍ من هاشمٍ وثلاثةٍ كَنَفُوا الخلافةَ من وُلاة عُهود
قمرٌ توافت حولَه أقمارُه فحفَفْنَ مطلَع سَعده بسُعود
رفعتهم الأيّامُ وارتفعوا به فسعَوا بأكرمِ أنفُسٍ وجُدودِ

قال : فأمر له المتوكّل بمائة ألف درهم ، وأمر له وُلاةُ العهود بمثلها .

● القاسم بن إسماعيل قال :

انصرف إبراهيم بن العبّاس يوماً من دار المتوكّل فقال لنا : أنا والله مسرور بشيء مغمومٌ منه . فقلنا له : وما ذاك ، أعزّكَ الله ؟ قال : كان أحمد بن المُدبّر رفع إلى أمير المؤمنين أنّ بعض عُمّالي اقتطع مالاً ، وصدق في الذي قاله ، وكنت قد رأيت هلال الشهر ونحن مع أمير المؤمنين على وجهه ، فدعوتُ له وضحك إليّ فقال لي : إن أحمد قد رفع على عاملك كذا وكذا فاصدُقْني عنه . فضاقت عليّ الحُجّة ، وخِفت أن أُحقّقَ قوله إن اعترفتُ ، ثم لا أرجعَ منه إلى شيء فيعودَ عليّ الغُرم ، فعدَلت عن الحُجّة إلى الحِيلة فقلت : أنا في هذا يا أمير المؤمنين كما قلتُ فيك :

رَدّ قولي وصَدّق الأقـــوالا وأطـاع الوُشـاةَ والعُـــذّالا

أتُراه يكون شهرَ صُـــدودٍ وعلى وجهه رأيت الهـــلالا

قال : لا يكونُ واللهِ ذلك بحياتي يا إبراهيم ؛ رَوِّ هذا الشعر بَناناً حتى يُغَنِّيني فيه . فقلت : نعم يا سيّدي ، على ألّا يُطالب صاحبي بقول أحمد . فقال للوزير : تَقَبَّلْ قول صاحبه في المال . فسُررت بالظَّفَر ، واغتممتُ لبُطلان هذا المال وذَهابه بمثل هذه الحِيلة ، ولعلّه قد جُمع في زمن طويلٍ وتعب شديد .

● عن أبي العَيناء قال :

كان عُبيد الله بن يحيى يقول للمتوكّل : يا أمير المؤمنين ، إنّ إبراهيم ابن العبّاس فضيلةٌ خَبَأها الله لك ، وذخيرةٌ ذَخَرها لدولتك .

● أبو العبّاس بن الفُرات والباقطانيّ قالا :

كان إسحاق بن إبراهيم ابن أخي زيدان صديقاً لإبراهيم بن العبّاس ، فأنسخه شعره في مدح الرِّضا . ثم وَلي إبراهيم بن العبّاس في أيّام المتوكّل ديوان الضِّياع ، فعزله عن ضياعٍ كانت بيده بحُلوان ، وطالبه بمالٍ وجَب عليه ، وتباعدَ بينهما . فقال إسحاق لبعض من يثق به : قل لإبراهيم بن العبّاس : والله لئن لم يَكفُف عمّا يفعله فيّ لأُخرجنّ قصيدته في الرّضا بخطّه إلى المتوكّل . فأحجم عنه إبراهيم وتلافاه ، ووجَّه من ارتجع القصيدة منه وجعله على ثقةٍ من أنّه لا يُظهرها ، ثم أفرج عنه وأزال ما كان يُطالبه به .

● قال عليّ بن الحسين الإسكافيّ :

كان لإبراهيم ابنٌ قد يَفَع وترعرع ، وكان مُعجَباً به ، فاعتلّ عِلّةً لم تَطُل ومات . فرثاه بمراثٍ كثيرة ، وجزع عليه جزَعاً شديداً . فممّا رثاه به قولُه :

كنتَ السَّوادَ لِمُقلتي فبكى عليك الناظـــرُ

من شاء بعدَك فَليمُتْ فعليك كنت أُحـــاذرُ

ومن مراثيه إيّاه قولُه :

وما زلتُ مُذْ لَدُ أُعْطِيتُه	أُدافعُ عنه حِمامَ الأَجَلْ
أُعَوِّذُه دائباً بالقُران	وأَرمي بطَرْفي إلى حيث حلّ
فأضحت يدي قَصدُها واحدٌ	إلى حيث حَلّ فلم يَرتَحلْ

● ابن السَّخيّ قال :

وهب عبدالله بن العبّاس لأخيه إبراهيم ثُلثَ ماله ، ووهَب لأُخته الثُلثَ الآخرَ ، فصار مساوياً لهما في الحال . فقال إبراهيم :

ولكنّ عبدالله لمّا حَوى الغِنى	وصار له من بين إخوته مالُ
رأى خَلَّةً منهم تُسَدّ بماله	فساهمهم حتى استوتْ بهمُ الحالُ(١)

وهذا ممّا عِيب على إبراهيم قولُه ابتداءً : ولكنّ عبدالله . وقد كرره في شعره فقال :

ولكنّ الجوادَ أبا هشام	وفيٌّ العهد مأمونُ المَغيبِ
بطيءٌ عنكَ ما استغنيت عنه	وطلّاعٌ عليك مع الخطوب

والسبب في ذلك اختيارُه شعره واسقاطُه ما لم يرضَه منه .

● أنشدني الأخفش لإبراهيم بن العبّاس يقولها لأحمد بن المُدَبِّر ، وقد جاءه بعد خلاصه من النكبة مهنّئاً ، وكان استعان به في أمر نكبته فقعد عنه ، وبلغه أنّه كان يُحرّض عليه ابن الزيّات :

وكنتَ أخي بالدّهر حتى إذا نبا	نَبوتَ فلمّا عاد عُدت مع الدّهرِ
فلا يومَ إقبالٍ عددتُك طائلاً	ولا يومَ إدبارٍ عددتُك في وِتْر
وما كنتَ إلّا مثلَ أحلامِ نائمٍ	كلا حالَتيك من وفاءٍ ومن غَدْر

* * *

(١) الخلة : الفقر .

٣

إبراهيم بن المُدبّر

[الأغاني ج ٢٢ ص ١٥٧ وما بعدها]

الشاعر

أبو إسحاق إبراهيم بن المدبِّر شاعرٌ كاتبٌ متقدّم من وجوه كتّاب أهل العراق ومتقدّميهم وذوي الجاه والمتصرِّفين في كبار الأعمال ومذكورِ الولايات. وكان المتوكّل يقدّمه ويُؤثِره ويُفضّله، وكانت بينه وبين عَريبَ حالٌ مشهورة، كان يهواها وتَهواه، ولهما في ذلك أخبارٌ كثيرة ....

أخباره مع المتوكّل

إبراهيم بن المدبّر قال:

مرض المتوكّل مَرضةً خِيف عليه منها، ثم عُوفي، وأذن للناس في الوصول إليه، فدخلوا على طبقاتهم كافّةً ودخلتُ معهم، فلمّا رآني استدناني حتى قُمت وراء الفتح[١]، ونظر إليّ مُستنطقاً، فأنشدتُه:

---

(١) أراد الفتح بن خاقان نديم المتوكل.

يـومٌ أتـانـا بالسُّرورِ فالحمدُ لله الكبـيرِ
أخلصتُ فيـه شُكـرَه ووفيت فيـه بالنُّـذور
لمّا اعتللتَ تصدّعـتْ شُعبُ القلوب من الصّدورِ
من بين مُلتهِـبِ الفـؤا د وبين مُكتئب الضَّمـير
يا عُـدّتي للـدّين والـدُّنيـا وللخَطب الخطـير
كانت جُـفوني ثَـرّةَ الآمـاق بالدّمـع الغزيـرِ
لو لم أَمُت جزَعـاً لَعَمْـرُكَ إنّني عـينُ الصَّبُـور

[الأبيات ...]

فقال المتوكّل للفتح : إنّ إبراهيم لَينطِقُ عن نيّةٍ خالصة ووُدّ مَحْض ، وما قَضَينا حقَّه ، فتقدَّمْ بأن يُحمَلَ إليه الساعة خمسون ألف درهم ، وتقدّم إلى عبيدِ الله بن يحيى[1] بأن يُولّيَه عملاً سَرِيًّا[2] ينتفعُ به .

محمد بن داود بن الجَرّاح قال :

كان أحمد بن المُدبِّر وَلِي لعُبيدِالله بن يحيى بن خاقان عملاً فلم يَحْمَدْ أثرَه فيه ، وعمل على أن ينكبَه . وبلغ أحمدَ ذلك فهرب ، وكان عبيدالله منحرفاً عن إبراهيم ، شديد النَّفاسة عليه[3] لرأي المتوكل فيه . فأغراه به وعَرّفه خبر أخيه ، وادّعى عليه مالاً جليلاً ، وذكر أنه عند إبراهيم أخيه ، وأوغر صدره عليه حتى أُذِن له في حبسه . فقال وهو محبوس :

تسلَّـي ليس طـولُ الحَبس عـاراً وفيه لنا من الله اختيـارُ
فلولا الحَبس مـا بُلـيَ اصطبـارُ ولولا الليلُ ما عُـرف النهـارُ
ومـا الأيـام إلا مُعقِبـاتٌ ولا السُّلطـان إلّا مُستعـارُ

(١) عبيد الله بن يحيى بن خاقان : وزير المتوكل .
(٢) سرياً : شريفاً .
(٣) النفاسة عليه : أراد الحسد له .

ومن قَدَرٍ حُبستُ فلا نَقيضٌ ... وفيما قَدَّر اللهُ الخيارُ
سَيُفرَج ما تَرَين إلى قليلٍ ... مقدّره وإن طال الإسارُ [1]

ولإبراهيم في حبسه أشعارٌ كثيرة حِسانٌ مختارة ، منها قولُه في قصيدة أوّلها :

أدموعُها أم لؤلؤٌ مُتناثرُ ... يندَى به وردٌ جَنيٌّ ناضرُ

يقول فيها :

لا تُؤْيِسَنّك من كريمٍ نَبْوةٌ ... فالسيفُ ينبُو وهو عَضْبٌ باترُ
هذا الزمان تَسُومني ايّامُه ... خَسْفاً وهأنذا عليه صابرُ
إن طال ليلي في الإسار فطالما ... أفنيتُ دهراً ليلُه مُتقاصر
والحبسُ يَحْجُبُني وفي أكنافه ... منّي على الضَرّاء ليثٌ خادرُ
عجباً له كيف التقت أبوابُه ... والجودُ فيه والغَمامُ الباكر
هلّا تقطَع أو تصدَّع أو وهى ... فعَذَرتهُ لكنّه بي فاخرُ [2]

عن محمد بن داود :

أنّ حبسه طال فلم يكن لأحدٍ في خلاصه منه حيلةٌ مع عَضْل[3] عبيدالله وقصده إيّاه ، حتى تَخلّصه محمد بن عبدالله بن طاهر وجَوّد المسألة في أمره[4] ، ولم يلتفت إلى عبيدالله ، وبَذل أن يَحتملَ في ماله كلَّ ما يُطالب به ، فأعفاه المتوكّل من ذلك ، ووَهبه له . وكان إبراهيم استغاث به ومدحه ...

(١) معقبات : يعقب بعضها بعضاً .
(٢) الضرّاء : الشدة . الخادر : الذي يلازم خدَره أي عرينه .
(٣) عضل عليه : ضيّق ، والعضل : التضييق .
(٤) جوّد المسألة في أمره : أحسن الشفاعة فيه .

أخباره مع عَريب

جعفر بن قُدامة قال :

كتبت عَريبُ من سُرّ مَن رأى الى إبراهيم بن المدبّر كتاباً تتشوّقه فيه ، وتُخبره باستيحاشها له واهتمامها بأمره ، وأنّها قد سألت الخليفة في أمره ، فوعدها بما تُحبّ . فأجابها عن كتابها وكتب في آخر الكتاب :

لَعَمركَ ما صوتٌ بديعٌ لِمَعْبَدٍ ... بأحسنَ عندي من كتاب عَريبِ
تأمّلتُ في أثنائه خطَّ كـاتبٍ ... ورِقّةَ مُشتاقٍ ولفظَ خطيبِ
وراجعني من وصلها ما استرقّني ... وزهّدني في وَصل كلّ حَبيب
فصِرتُ لها عبداً مُقرّاً بِملِكها ... ومستمسكاً من وُدّها بنصيبِ

جعفر قال :

زارت عَريبُ إبراهيم بن المدبّر وهو في داره على الشاطىء في المَطِيرة[1] ، واقترحت عليه حضور أبي العُبَيس[2] فكتب إليه إبراهيم :

قل لأبي حمدونَ ذاك الأريبِ ... وذاك الظّريف وذاك الحَسيبِ
كتابي إليك بشكوى عريبٍ ... لِوجدٍ شديدٍ وشوقٍ عجيبِ
وشوقي إليك كشوق الغريب ... إلى أرضه بعد طول المَغيب
ويَومي إن أنت تَمّمتَه ... بقُربك ذو كلِّ حُسنٍ وطِيب
حباني الزمان كما أشتهي ... بقُرب الحبيب وبُعد الرقيب
فما زلت أشرب من كفّه ... وأَسقيه سقيَ اللّطيف الأديبِ
ويشكو إليّ وأشكو إليه ... بقولٍ عفيفٍ وقول مُريب
إلى أن بدا لي وجهُ الصباحِ ... كوجهك ذاك العجيب الغريب

---

(١) المطيرة :قرية من متنزهات بغداد وسامرّا .

(٢) أبو العبيس بن حمدون : مغن وكان من أصدقاء ابن المدبر المقربين .

فلا تُخْلِنا يا نظـــام السرو ر منك فأنت شفـــاءُ الكئيـــب
وغَـــنِّ لنـــا هَزَجـــاً مُمسِـــكاً تخِفّ له حركاتُ اللّبيـــبِ
فإنّـك قد حُـــزت حُسن الغِنـــاء وقد فُزت منه بأوفى نصيـــب
وكُن بأبي أنت رَجْعَ الجـــوابِ فِداؤُك أنفُسُنا مِن مُجيـــبِ

الفضل بن العبّاس بن المأمون قال :

زارتني عريبُ يوماً ومعها عِـدّةٌ من جواريها ، فوافَتْنا ونحن على شَرابنا ، فتحدَّثتْ معنا ساعةً ، وسألتُها أن تُقيم عندنا ، فأبتْ وقالت : قد وعدتُ جماعةً من أهل الأدب والظَّرف أن أصير إليهم ، وهي في جزيرة المِربّد ، منهم إبراهيم بن المدبّـر ، وسعيد بن حُميد ، ويحيى بن عيسى بن مَنارة . فحلفتُ عليها ، فأقامت ، ودعت بدواةٍ وقِرطاس وكتبت إليهم سطراً واحداً : بسم الله الرحمن الرحيم ، أردتُ ، ولولا ، ولعلّي .

ووجّهت الرُقعة إليهم ، فلما وصلت قرؤوها ، وعَيُوا بجوابها . فأخذها إبراهيم بن المدبّر فكتب تحت « أردت » : « ليت » ، وتحت « لولا » : « ماذا » وتحت « لعلي » : « أرجو » ؛ ووجّه بالرقعة إليها ، فلمّا قرأتها طَرِبتْ ونعَرَت[1] ، وقالت : أنا أتركهؤلاء وأقعُد عندكم ! تركني الله إذاً من يديه . وقامت فمضت وقالت : لكم فيمن أتخلّفه عندكم من جواريَّ كفاية .

عبدالله بن المعتزّ قال :

قرأت في مكاتبات لعريب فصلاً من جواب أجابت به إبراهيم بن المدبِّر مكاتبةً بديعة بعيادة : « قد استبطأتُ عيادتَك ، قُدّمتُ قبلَك ، وعَـذرتُك ، فما ذكرتُ عذراً ضعيفاً لا ينبغي أن يُفرح به . فأستديم الله نِعمَه عندك ... » .

(١) نعرت : صوتت بخيشومها .

جعفر بن قدامة قال :

اتّصلت لعريبَ أشغالٌ دائمة ... فلم يرها إبراهيم بن المدبّر مدّةً ، فكتب إليها :

إلى الله أشكو وحشتي وتَفَجُّعي ... وبُعدَ المَدى بيني وبين عُريبِ
مضى دُونها شهران لم أحلَ فيهما ... بعيشٍ ولا من قُربها بنَصيب
فكنت غريباً بين أهلي وجِيرتي ... ولستُ إذا أبصرتُها بغريبِ
وإنّ حَبيباً لم يَرَ الناسُ مِثله ... حَقيقٌ بأن يُفدَى بكلّ حبيبِ

ميمون بن هارون قال :

اجتمعتُ مع عريبَ في مجلس أُنس بسُرَّ منَ رأى عند أبي عيسى بن المتوكّل ـ وإبراهيم بن المدبّر يومئذٍ ببَغدادَ ـ فمرّ لنا أحسنُ يومٍ ، وذكرتْه عريبُ فتشوّقتْه وأحسنتْ الثناء عليه والذّكر له ، فكتبتُ إليه بذلك من غدٍ ، وشَرَحْتُه له ، فأجابني عن كتابي وكتب في آخره :

أتعلمُ يا ميمونُ ماذا تُهيجُه ... بذكركَ أحبابي وحِفْظِهم العَهدا
ووصفِ عريبٍ في كريم وفائها ... وإجمالِها ذكري وإخلاصِها الوُدّا
عليها سلامي إن تكن دارُها نَأتْ ... فقد قَرّب اللهُ الذي بيننا جِداّ
سقى الله داراً بعدَنا جَمعتكمُ ... وسَكّن ربُّ العرش ساكنَها الخُلدا
وخصّ أبا عيسى الأميرَ بنعمةٍ ... وأسعد فيما أرتجيه له الجَدّا
فما ثَمَّ من مجدٍ وطَوْلٍ وسُودَدٍ ... ورأيٍ أصيل يَصدَعُ الحَجَرَ الصَّلْدا

عبدالله بن حَمدون قال :

اجتمعت أنا وإبراهيم بن المدبّر وابن منارة والقاسم وابن زُرزور في

بستان بالمَطِيرة[1] وفي يوم غَيم يُهَريق[2] رذاذه ويقطُر أحسن قَطْر ، ونحن في أطيب عيش وأحسن يوم ، فلم نشعر إلّا بعَريب قد أقبلت من بعيد ، فوثب إبراهيم بن المدبّر من بيننا ، فخرج حافياً حتى تلقّاها وأخذ بركابها حتى نزلت ، وقَبّل الأرضَ بين يديها . وكانت قد هجرته مُدّة لشيء أنكرتْه عليه ، فجلستْ وأقبلت عليه مبتسمةً وقالت : إنما جئت إلى مَن ها هنا لا إليك . فاعتذر وشَيَّعْنا[3] قولَه ، وشَفعنا له . فرضيتْ وأقامت عندنا يومئذٍ وباتت . واصطبحنا[4] من غدٍ ، وأقامت عندنا ، فقال إبراهيم :

أبي مَـن حَقَّق الظَّـنَّ بــه … فأتانــا زائـــراً مُبتديــا
كان كالغيث تَـراخى مُـدّةً … وأتى بعـدَ قُنوطٍ مُـــرويا
طاب يومــان لـنا في قُـربِه … بعد شهريـن لِـهجـرٍ مَضَيا
فأقــرّ الله عَيني وشفَـــى … سَقَـماً كان لِجسمي مُبْلِياً

عليٌّ بن العبّاس قال : حدّثني أبي قال :

كنت عند إبراهيم بن المُدبّر ، فزارتْه بِدعةُ وتُحفةُ[5] ، وأخرجتا إليه رقعةً من عريبَ ، فقرأناها فإذا فيها : « بنفسي أنت وسَمعي وبصري ، وقلّ ذاك لك . أصبح يومُنا هذا طيّباً ، طَيّب الله عيشَك ، قد احتجبتْ سماؤه ، ورقّ هواؤه ، وتكامل صَفاؤه ، فكأنه أنت في رقة شَمائلك ، وطيب مَحضرك ومَخبرك ، لا فَقدتُ ذلك أبداً منك ، ولم يصادفْ حُسنُه وطِيبُه منّي نشاطاً ولا طرباً لأمورٍ صَدَّتْني عن ذلك أكرهُ تنغيصَ ما أشتهيه لك من السّرور

(١) المطيرة ، بالفتح ثم الكسر (وقد ضبطها محقق المطبوعة بالضم وهو خطأ) : قرية من متنزهات سامرّا بنيت في آخر خلافة المأمون .

(٢) يهريق : يريق .

(٣) شيعنا : قوينا وأيدنا .

(٤) اصطبح : شرب شراب الصباح .

(٥) بدعة وتحفة : جاريتان لعريب .

بنشرها . وقد بعثتُ إليك بِبدعةَ وتُحفة ليؤنساك وتُسرَّ بهما . سَرّك اللهُ وسرّني بك » .

فكتب إليها يقول :

كيف السُّرورُ وأنـتِ نازحـةٌ   عنّي وكيف يَسُوغَ لي الطربُ
إن غِبتِ غاب العيشُ وانقطعتْ   أسبابُـه وألحّـت الكُـرَبُ

وأنفذ الجواب إليها ، فلم يلبث أن جاءت ، فبادر إليها وتلقّاها حافياً حتى جاء بها على حمارٍ مِصريّ كـان تحتها إلى صَدر مجلسه ، يطأ الحمارُ على بِساطه وما عليه ، حتى أخذ بِركابها(١) ، وأنزلها في صَدر مجلسه ، وجلس بين يديها ، ثم قال :

ألا رُبّ يوم ٍقَصّر الله طُـولَـه   بقُرب عَريبٍ حَبّذا هو من قُربِ
بها تَحسُن الدنيا وينعَـمُ عيشُها   وتجتمع السَّراءُ للعَين والقلـب

وحدّثني عن أبيه قال :

كنت عند إبراهيم بن المدّبر فزارتْه بِدعةُ وتُحفة وأقامتا عنده ، فأنشدَنا يومئذٍ :

أيّها الزائـرانِ حيّـاكما اللـهُ ومن أنتمـا له بالسَّـلامِ
ما رأينا في الدهـرِ بدراً وشمساً   طَرَقا ثمّ رَجّعا بالكـلامِ
كيف خَلَّفتُما عَريباً سقـاها اللـه ربُّ العباد صوبَ الغَمام
هي كالشمس والحسـانُ نجومٌ   ليس ضوءُ النهار مثل الظَّلامِ
جمعتْ كـلَّ ما تفـرّق في النـاس وصارت فريدةً في الأنامِ

(١) الركاب : حديدة معلقة في السرج يستعان بها عل الركوب .

سائر أخباره

● أبو الفيّاض سوّار بن أبي شُراعة القيسيّ البصريّ قال :

كان إبراهيم بن المدبّر يتولّى البصرة ، وكان مُحسناً إلى أهل البلد إحساناً يَعُمُّهم ، ويشتمل على جماعتهم نفعُه ، ويخصُّنا من ذلك بأوفر حظّ وأجزل نصيب . فلمّا صُرف عن البصرة شيّعه أهلُها ، وتفجّعوا لِفراقه ، وساءهم صَرفُه ، فجعل يردّ الناسَ من تشييعهم على قدر مراتبهم في الأُنس به ، حتى لم يبق معه إلّا أبي ، فقال له : يا أبا شُراعة ، إنّ المُشَيِّعَ مودِّعٌ لا مَحالةَ ، وقد بلغتَ أقصى الغايات ، فبحقّي عليك إلّا انصرفتَ . ثم قال : يا غُلام ، احمل إلى أبي شُراعةَ ما أمرتك له به .فأَحضَر ثياباً وطِيباً ومالاً ، فودّعه أبي ثم قال :

يا أبا إسحاق سرْ في دَعَـــــةٍ   وامض مصحوباً فما منكَ خَلَفْ
ليتَ شعري أيُّ أرضٍ أجدبت   فأُغِيثت بك من جَهد العَجَفْ
نزل الرُّحْمُ من الله بهـــــم   وحُرمناك لذنبٍ قد سَلَــف
إنّمـــا أنت ربيــعٌ باكـــرٌ   حيثما صَرّفه اللهُ انصرفْ (١)

● عن محمد بن داود قال :

كان إبراهيم بن المدبِّر صديق أبي الصقر إسماعيل بن بُلبُل ، فلم يُرضِه فِعلُه لمّا نُـكب ولا نيابتهُ عنه ، فقال فيه :

لا تُطِلْ عَذْلي عَنـــاءا   إنّ في العَذل بـــلاءا
لست أبكي بطـنَ مَــرٍّ   فكُدَيّـــاً فكَــدَاءا
إنَـما أبكـــي خليـــلاً   خان في الوُدّ الصَّفاءا
يا أبا الصَّقر سقاك اللــــــــه تَهتـــانـــاً رواءا

---

(١) العجف : الهزال الشديد . الرحم : الرحمة .

وأدام اللهُ نُعمـــــا ـ ك ومَــلّاك البقـاءا

لِـمْ تجاهلـــتَ ودادي وتناسيــت الإخــاءا

كنت بَــرّاً فعــلى رأســي تعلّمـــتَ الجَـفــاءا

لا تَـميلَــنَّ مــع الرّيـــح إذا هبّــت رُخاءا

رُبّمـــا هَبَّــتْ عَـقيمــاً تترك الدنيا هَـبــاءا [1]

* * *

(١) بطن مر وكديّ وكداء : مواضع بمكة . التهتان : الغزير المتتابع . رواء : غزيراً مروياً . ملاّك : متّعك . عقيماً : لا خير فيها .

٤

ابن مُناذر

[الأغاني الجزء ١٨ ص ١٦٩ وما بعدها]

الشاعر

هو محمّد بن مُناذر مَولى بني صُبَير بن يَربوع ، ويُكنى أبا جعفر ، وقيل إنه كان يُكنَى أبا عبدالله ...

وقال الجاحظ : كان محمد بن مُناذر مولى سليمان القَهرمان ، وكان سليمان مولى عُبيدِالله بن أبي بَكْرة مولى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بَكرة عبداً لثقيف ، ثم ادّعى عبيدالله بن أبي بكرة أنه ثَقَفيّ ، وادّعى سليمان القَهرمان انه تميميٌّ ، وادّعى ابن مناذر أنه صَلِيبةٌ[1] من بني صُبيرِ بن يربوع ، فابن مُناذر مَولى مولى مولىً ، وهو دَعيٌّ مولى دعِيّ ، وهذا ما لا يجتمع في غيره قطّ ممّن عرفناه وبَلغَنا خبرُه .

ومحمد بن مُناذر شاعرٌ فصيح مُقدَّم في العلم باللغة وإمامٌ فيها ، وقد أخذ عنه أكابِرُ علمائها ، وكان في أول أمره يتألّهُ ، ثم عدَل عن ذلك فهجا

(١) صليبة من القوم : خالص النسب فيهم .

النّاسَ وتَهتّك وخَلع وقذَف أعراضَ أهل البصرة حتى نُفي عنها إلى الحجاز فمات هناك .

محمد بن يزيد النحويّ قال :

كان ابن مُناذر مولى صُبيرِ بن يربوع ، وكان إماماً في علم اللغة وكلام العرب ، وكان في أول أمره ناسكاً مُلازماً للمسجد ، كثيرَ النّوافل ، جميل الأمر ، إلى أن فُتِن بعبد المجيد بن عبد الوهاب الثّقفيّ ، فتَهتّك بعد ستره ، وفتَك بعد نُسكه ، ثم ترامى به الأمرُ بعد موت عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفيّ إلى أن شَتم الأعراض وأظهر البذَاء وقذَف المُحصَنات ، ووَجَبت عليه حُدودٌ فهرب إلى مكّة وبقي بها حتى مات .

وكان يجالس سفيان بن عُيَينة ، فيسألُه سفيانُ عن معاني حديث النبيّ ﷺ فيُخبرُه بها ، ويقول له : كذا وكذا مأخوذٌ من كذا ، فيقول سُفيانُ : كلامُ العرب بعضُه يأخذ برِقاب بعضٍ . قال : وأدرك المهديَّ ومدَحه ، ومات في أيام المأمون .

العبّاسُ بن ميمون طائع قال :

سمعت الأصمعيَّ يقول : حضرْنا مأدبة ومعنا أبو محرِز خلَفٌ الأحمر ، وحضرَها ابنُ مناذر ، فقال لخلف الأحمر : يا أبا مُحرز ، إن يكن النابغةُ وامرؤُ القيس وزهيرٌ قد ماتوا فهذه أشعارُهم مُخلَّدةً ، فقِسْ شعري إلى شعرهم ، واحكُم فيها بالحقّ . فغضب خلفٌ ، ثم أخذ صَحفةً مملوءةً مَرَقاً فرمى بها عليه فَمَلأه ، فقام ابنُ مناذر مُغضَباً ، وأظنُّه هجاه بعد ذلك .

خَلّادٌ الأرقط قال :

لقِيني ابنُ مناذر بمكة فأنشدني قصيدتَه :

كلُّ حيٍّ لاقِي الحِمامِ فمُودي

ثم قال لي : أَقرِئْ أبا عُبيدة السلام وقُل له : يقول لك ابنُ مناذر : اتّقِ

اللهَ واحكمْ بين شعري وشعر عَـدِيّ بن زيد ، ولا تقُـل ذلك جاهليٌّ وهذا إسلاميّ ، وذاك قديمٌ وهذا مُـحدَث فتحكمَ بين العصرين ، ولكن احكُـم بين الشِعرين ودَع العصبيّة . قال : وكان ابن مناذر ينحو نحوَ عديّ بن زيد في شعره ويميل إليه ويُقدّمه .

بِشر بن دِحية الزِيادِيّ أبو معاوية قال :

سمعت ابن مناذر يقول : إنّ الشعر لَيسهلُ عليّ حتى لو شئت ألّا أتكلّم إلّا بشعرٍ لفعلتُ .

أخباره مع عبد المجيد بن عبد الوهاب

أبو عثمان المازنيّ قال :

كان ابن مناذر من أهل عَدن ، وإنما صار إلى البصرة في طلب الأدب لتوافر العلماء فيها ، فأقام فيها مدّةً ، ثم شُغل بعبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفيّ ، فتطاول أمرُه إلى أن خرج عنها ، وكان مقيماً بمكةَ ، فلمّا مات عبد المجيد نَسَك ؛ وقومٌ يقولون إنه كان دَهريّـاً[1] ...

وكان عبد المجيد هذا ـ فيما يقال ـ من أحسن الناس وجهاً وأدباً ولباساً وأكملهم في كلّ حالٍ ، وكان على غاية من المحبّـة لابن مناذر والمساعدة له والشغَف به . وكان يبلغ خبرُه أباه ـ على جلالته وسِنّه ومَوضعه من العلم ـ فلا يُنكِـر ذلك ، لأنه لم تكن تبلغُـه عنه رِيبةٌ . وكان ابن مناذر حينئذٍ حَميد الأمر حسنَ المروءة عفيفاً .

قُدامة بن نوح قال : قيل لعبد الوهاب بن عبد المجيد الثَقفيّ : إنّ ابن مناذر قد أفسد ابنَك ، وذكَره في شعره ، وشبّب به . فقال عبد الوهاب : أوَلا يرضى ابني أن يَـصحبَـه مثلُ ابن مُناذر ويذكره في شعره !

---

(١) الدهريون : قوم من أهل الجاهلية كانوا يقولون : ما يهلكنا الا الدهر .

عُمر بن شَبّةَ قال : حدّثني أبي قال :

خرج ابنُ مناذر يوماً من صلاة التراويح وهو في المسجد بالبصرة ، وخرج عبد المجيد بن عبد الوهاب خلفَه ، فلم يزل يُحدّثه إلى الصُّبح ، وهما قائمان ، إذا انصرف عبد المجيد شيّعه ابنُ مناذر إلى منزله ، فإذا بلغه وانصرف ابنُ مناذر شيّعه عبد المجيد ، لا يَطيب أحدٌ نَفْساً بفِراق صاحبه ، حتى أصبحا ...

وفي عبد المجيد يقول ابنُ مناذر يمدحه ، وهو من مختار ما قاله فيه ... ، من قصيدة أولها :

شَيّب ريبُ الزّمان رأسي ... لَهفي على ريب ذا الزّمانِ
يَقدَحُ في الصُّمّ مِن شَرَورى ... ويحدُر الصّمَّ من أبانِ (١)

يقول فيها يمدح عبد المجيد :

منّي إلى الماجدِ المُرَجَّى ... عبد المجيد الفتى الهِجانِ
خيرِ ثقيفٍ أباً ونفساً ... إذا التقت حَلْقتا البِطانِ
نفسي فداءٌ له وأهلي ... وكلُّ ما تملِكُ اليدان
كأنّ شَمسَ الضُّحى وبدرَ الدُّجى عليه مُعَلَّقان
نِيطا معاً فوق حاجبَيه ... والبدرُ والشمس يَضحكان
مُشمِّرٌ هَمُّه المعالي ... ليس بِرَثٌ ولا بِواني
بَنى له عِزّةً ومجداً ... في أوّل الدهر بانِيان
بانٍ تلقّاه من ثقيفٍ ... ومن ذُرا الأزد خيرُ باني
فاسألْه ممّا حَوَت يداه ... يهتزّ كالصارم اليماني (٢)

(١) أبان وشروري : جبلان .

(٢) الهجان : الكريم الاصل . اذا التقت حلقتا البطان : أي اذا اشتد الامر وهو مثل ، والبطان : حزام الرّحل .

أبو تَوبة صالح بن محمد قال :

مرض عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفيَ مرضاً شديداً بالبصرة ، وكان ابنُ مناذر ملازماً له يُـمرّضه ويخدمه ويتولّى أمره بنفسه ، لا يَكِلهُ إلى أحد . فحدّثني بعضُ أهلهم قال : حضرتُ يوماً عنده ، وقد أُسخِن له ماءٌ حارٌّ ليشربَه ، واشتد به الأمر فجعل يقول : آهِ . بصوتٍ ضعيف . فغمس ابنُ مناذر يدَه في الماء الحارّ وجعل يتأوّه مع عبد المجيد ، ويدُه تحترق حتى كادت يدُه تسقُط ، فجذبناها وأخرجناها من الماء ، وقلنا له : أمجنونٌ أنت ! أيُّ شيء هذا ! أينتفع به ذاك ! فقال : أساعدُه وهذا جُهدٌ من مُقِلّ . ثم استقلّ من علّته تلك وعُوفي مدّةً طويلة ، ثم تردّى من سطح فمات ، فجزع عليه جزعاً شديداً حتى كاد يفضُل أهلَه وإخوتَه في البكاء والعَويل ، وظهر منه من الجزَع ما عجب الناسُ له ، ورثاه بعد ذلك بقصيدته المشهورة ، فرواها أهلُ البصرة ، ونِيح بها على عبد المجيد ، وكان الناس يُعجَبون بها ويستحسنونها .

قال الجَمّاز :

تزوّج عبد المجيد امرأةً من أهله ، فأَولم عليها شهراً يجتمع عنده في كل يوم وجوهُ أهل البصرة وأدباؤها وشعراؤها . فصعِد ذاتَ يوم إلى السطح فرأى طُنباً[1] من أطناب السّتارة قد انحلّ ، فأكبّ عليه ليشدَّه ، فتردّى على رأسه ومات من سَقطته . فما رأيتِ مُصيبةً قطّ كانت أعظمَ منها ولا أنكأَ للقلوب .

محمد بن عمر الخَرّاز قال :

قال لي ابنُ مناذر : ويحَك ! لستُ أرى نساء ثَقيفَ يَنُحن على عبد المجيد نياحةً على استواء . قلت : فما تحبّ ؟ قال : تخرجُ معي حتى أُطارحَك . فطارحني القصيدة التي يقول فيها :

---

(١) الطنب : حبل يشد به الخباء والستارة .

إنّ عبد المجيد يومَ تولّـــــى هدَّ رُكناً ما كان بالمَهْـــدودِ
هدّ عبدُ المجيد رُكـني وقد كنـــت برُكنٍ أبوءُ منه شديـــــدِ

قال : فما زلت حتى حفظتُها ووعيتها ، ووضعْنا فيها لحناً . فلمّا كان في الليلة التي يُناح بها على عبد المجيد فيها صلَّينا العِشاء الآخرة في المسجد الجامع ، ثم خرجنا إلى دارهم ، وقد صعِد النساءُ على السَّطح ينُحن عليه ، فسكَتْن سَكتةً لهنّ ، فاندفعنا أنا وهو ننوح عليه ، فلمّا سَمِعْننا أقبلن يلطُمن ويصحن حتى كِدن يَنقلبن من السطح إلى أسفل من شدّة تشرّفهنّ علينا وإعجابهنّ بما سمعنه منّا ، وأصبح أهلُ المسجد ليس لهم حديثٌ غيرَنا ، وشاع الخبرُ بالبصرة وتحدّث به الناسُ حتى نُقل من مجلس إلى مجلس .

محمد بن النعمان بن جَبَلة الباهليّ قال :

لمّا قال ابن مناذر :

لَأُقيمنّ مأتماً كنجوم الليـــل زُهْراً يلطُمن حُرَّ الخُدودِ
مُوجَعاتٍ يبكين للكبِد الحَـــرَّى عليه وللفؤاد العَميـــد

قالت أم عبد المجيد : والله لأبِرَّنَّ قسَمَه . فأقامت مع أخوات عبد المجيد وجَواريه مَأتماً عليه ، وقامت تصيح عليه : واي ، وَيْـه ، واي ، وَيه .
فيُقال إنها أول من فعل ذلك وقاله في الإسلام .

عن محمد بن عامر الحنفي قال :

لمّا مات عبد المجيد بن عبد الوهاب خرج ابنُ مناذر إلى مكّة ، وترك النُّسْك وعاد للمجُون والخَلْع ، وقال في هذا المعنى شعراً كثيراً ، حتى كان إذا مدح أو فخر لم يجعل افتتاح شعره ومَباديَه إلا المجون ، وحتى قال في مدحه للرشيد :

هل عندكم رُخصةٌ عن الحسن البصْريّ في العشق وابن سِيرينـــا
إنّ سَفاهاً بذي الجَلالـــة والشَّيْبـــة ألّا يزال مَفتونـــاً

سائر أخباره

● قال محمد بن يزيد

لمّا عدل محمد بن مناذر عما كان عليه من النُّسك والتألُّه وعظَتْه المعتزلة ، فلم يتَّعظ ، وأوعدتْه بالمكروه فلم يزدجِر ، ومنعوه دخول المسجد ، فنابذهم وطعن عليهم وهجاهم ، وكان يأخذ المِداد بالليل فيطرحُه في مَطاهرهم ، فإذا تَوضّؤوا به سَوّد وجوهَهم وثيابهم . وقال في توعّد المعتزلة إيّاه :

أَبلغْ لديك بني تميم مَأْلُكاً ... عنّي وعَرِّجْ في بني يربوعِ
أنّي أخٌ لكمُ بدار مَضيعةٍ ... بُومٌ وغِربانٌ عليه وُقوع
يا للقبائلِ من تميم ما لَكم ... رَوبى ولحمُ أخيكم بمَضيع
هُبّوا له فلقد أراد بنصركم ... يأوي إلى جبلٍ أشمَّ مَنيعِ
وإذا تحزّبت القبائلُ كنتمُ ... ثقتي لكلّ مُلمّةٍ وفظيع
إن أنتمُ لم تثأروا لأخيكم ... حتى يُباءَ بوتره المتبوع
فخذُوا المغازل بالأكفّ وأيقنوا ... ما عِشتمُ بمَذلّةٍ وخُضوع
إن كنتمُ حُدُباً على أحسابكم ... سُمُعاً فقد أسمعتُ كلَّ سَميع
أين الصُّبَيريّون لم أر مثلَهم ... في النائبات وأين رهطُ وكيع[1]

قال : ثم استحيا من قوله : أين الصُّبيريّون ، لقلة عددهم فقال : أين الرياحيّون .

● مسعود بن بشر قال :

قال لي ابن مناذر : ولع بي قومٌ من المعتزلة ففَرقتُ منهم ، قال : وكان مَولى صُبَير بن يربوع ، فقلت : بنو صُبير نَفْسان ونَصف ، فمن أدعو منهم ؟

(١) المألك : الرسالة . روبى ج رائب : الفاتر النفس ، الخاثر البدن . يباء بوتره : يؤخذ بثأره .

فقلت : ليس إلا إخوتُهم بنو رياح . فقلتُ أبياتاً حرّضتُهم فيها وحَضضتُ بني رياح فقلت :

أين الرياحيّون لم أرَ مثلَهم ... في النائبات وأين رهطُ وكيع

قال : فجاء خَمسون شيخاً من بني رياح فَطردوهم عني .

● عن عَطاء المِلْط قال :

كان ابن مناذر يَؤُمّ الناس في المسجد الذي في قبيلته ، فلمّا أظهر ما أظهره من الخلاعة والمجون كرهوا أن يُصلّي بهم وأن يأتمّوا به ، فقالوا شعراً وذكروا ذلك فيه وهجَوه ، وألقوا الرُّقعة في المِحراب ؛ فلمّا قضى صلاتَه قرأها ، ثم قلبها وكتب فيها يقول :

نُبِّئتُ قافيةً قيلت تَناشَدها ... قومٌ سأُترك في أعراضهم نَدَبا

الخ ...

ثم رمى بها إليهم ولم يَعُد الى الصلاة بهم .

● عليّ بن المبارك الأحمر قال :

لقي أبوالعتاهية ابنَ مناذر بمكة ، فجعل يُمازحه ويُضاحكه ، ثم دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا ابنُ مناذر شاعرُ البصرة يقول قصيدة في سنة ، وأنا أقول في سنة مائتي قصيدة . فقال الرشيد : أَدخِلْه إليّ . فأدخلَه إليه وقَدّر أنه يَضَعُه عنده ، فدخل فسلّم ودعا ، فقال : ما هذا الذي يحكيه عنك أبو العتاهية؟ فقال ابن مناذر : وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال : زعم أنك تقول قصيدةً في سنة وأنه يقول كذا وكذا قصيدةً في السنة . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو كنت أقول كما يقول :

ألا يا عُتبةَ السّاعة ... أموت الساعةَ الساعهْ

لقلت منه كثيراً ، ولكنّي الذي أقول :

إنّ عبد المجيد يومَ تولّـــــى · هَدَّ ركناً ما كان بالمهــدودِ
ما دَرى نعشُه ولا حامِلُـــوه ما على النَّعْش من عفافٍ وجود

فقال لـه الرشيد : هاتِها فأنشِدْنيها . فأنشده . فقال الرشيد : ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلّا في خليفة أو وليّ عهد ، ما لها عيبٌ إلّا أنك قلتَها في سُوقةٍ . وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكاد أبو العتاهية يموت غمّاً وأسفاً .

● عن دَماذ قال :

دار بين الخليل بن أحمد وبين ابن مُناذر كلامٌ ، فقال له الخليل ، إنّما أنتم معشرَ الشعراء تَبَعٌ لي ، وأنا سُكّان السَّفينة ، إن قَرّظْتُكم ورضِيتُ قولكَم نَفَقْتُم وإلّا كَسَدتُم . فقال ابن مناذر : والله لَأَقُولنَّ في الخليفة قصيدةً أمتدحُه بها ولا أحتاجُ إليك فيها عنده ولا إلى غيرك . فقال في الرَّشيد قصيدته التي أوّلها :

ما هَيَّج الشوقَ من مُطوَّقـــةٍ أَوفت على بانـــةٍ تُغَنّينا

يقول فيها :

ولو سألْنا بحُسنِ وجهك يـــا هارونُ صَوبَ الغَمام أُسقِينا

قال : وأراد أن يفِد بها إلى الرشيد ، فلم يلبثْ أن قدِم الرشيدُ البصرةَ حاجّاً ليأخُذَ على طريق النِّباج ـ وكان الطريقَ قديماً ـ فدخلها وعَديله إبراهيم الحَرّاني ، فتحمّل عليه ابن مناذر بعثمان بن الحكَم الثقفيّ وأبي بكر السُّلَميّ حتى أوصلاه إلى الرشيد ، فأنشده إيّاها ، فلمّا بلغ آخرَها كان فيها بيتٌ يفتخر فيه وهو :

قومي تميمٌ عند السِّماك لهــــم مجدٌ وعِزٌّ فما يُنالونـــا

فلمّا أنشده هذا البيت تعصَّب عليه قومٌ من الجُلُساء فقال لـه بعضُهـم : يا جاهلُ ، أتفخر في قصيدة مدحتَ بها أميرَ المؤمنين ! وقال آخر : هذه حماقةٌ بَصْريّة . فكَفَّهم عنه الرشيد ووهب له عشرين ألف درهم .

● ابن مناذر قال :

حجّ الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة وحجّ معه الفضلُ بن الربيع ، وكنت مُضَيَّقاً مُملِقاً ، فهيّأت فيه قولاً أجدتُ تنميقه وتنوّقتُ فيه ، فدخلت إليه في يوم التَروية[1] ، وإذا هو يسأل عني ويطلُبني ، فبدَرَني الفضلُ بن الربيع قبل أن أتكلّم فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا شاعرُ البرامكة ومادحُهم . وقد كان البِشرُ ظهر لي في وجهه لمّا دخلتُ ، فتنكّر وعَبَس في وجهي ، فقال له الفضل : مُرْه يا أمير المؤمنين أن يُنشِدَك قولَه فيهم :

أتانا بنو الأملاك من آلِ برمكٍ

فقال لي : أَنشِد . فأبيتُ ، فتوعّدني وأكرهني ، فأنشدتُه :

أتانا بنو الأملاك من آلِ بَرْمَكٍ ... فيا طِيبَ أخبارٍ ويا حُسنَ مَنظرِ
إذا وَرَدُوا بطحاءَ مكَةَ أشرقت ... بيحيى وبالفَضل بن يحيى وجَعفر
فتُظلِمُ بغدادٌ ويجلُو لنا الدُّجى ... بمكّةَ ما حَجُّوا ثلاثةُ أَقمُر
فما صَلَحت إلّا لِجودٍ أَكُفُّهم ... وأَرجُلُهم إلّا لأعواد مِنْبَر
إذا راض يحيى الأمرَ ذلّتْ صِعابُه ... وحَسْبُكَ من راعٍ له ومُدَبِّرِ
ترى الناسَ إجلالاً له وكأنّهم ... غَرانيقُ ماءٍ تحت بازٍ مُصَرصِرِ[2]

ثم أتبعت ذلك بأن قلت : كانوا أولياءَك يا أمير المؤمنين أيامَ مدحتُهم

---

(١) يوم التروية : يوم قبل يوم عرفة ، وهو الثامن من ذي الحجة ، سمي به لأن الحجاج يتروون فيه من الماء وينهضون الى منى ولا ماء بها فيتزودون ريّهم من الماء أي يسقون ويستقون .

(٢) الغرانيق ج غرنوق وغرنيق : الكركي . المصرصر : المصوت .

وفي طاعتك ، لم يَلحقْهم سُخطُك ولم تَحلُلْ بهم نِقمتُك ، ولم أكن في ذلك مُبتدعاً ولا خَلا أحدٌ من نُظَرائي من مَدحهم ، وكانوا قوماً قد أظلّني فضلُهم وأغناني رِفدُهم ، فأثنيتُ بما أَوْلَوا . فقال : يا غُلامُ ، الطُمْ وجهَه . فلُطمت والله حتى سَدِرت[1] ، وأظلمَ ما كان بيني وبين أهل المجلس . ثم قال : اسحَبُوه على وجهه . ثم قال : والله لأَحرِمَنّك ولا تركتُ أحداً يُعطيك شيئاً في هذا العام . فسُحبت حتى خرجتُ ، وانصرفت وأنا أسوأُ الناس حالاً في نفسي وحالي وما جرى عليّ ، ولا والله ما عندي ما يُقيمُ يومئذٍ قُوتَ عِيالي لِعيدهم ، فإذا بشابٍ قد وقف عليّ ، ثم قال : أَعززْ عليّ والله يا كبيرَنا بما جرى عليك . ودفَع إليّ صُرّةً وقال : تَبلَّغْ بما في هذه . فظننتُها دراهمَ فإذا هي مائةُ دينار .. فقلت له : من أنت ، جعلني اللهُ فِداءك ؟ قال : أنا أخوك أبو نُواس ، فاستعِنْ بهذه الدنانير واعذِرْني . فقبلتُها وقلت : وصَلَكَ اللهُ يا أخي وأَحْسَنَ جزاءك .

● أبو حاتم قال :

كان الرشيد قد وصل ابن مناذر مرّاتٍ صِلاتٍ سَنيّةً ، فلمّا مات الرشيد رثاه ابن مناذر فقال :

مَن كان يبكي للعُــــلا مَلِكاً وللهِـــــم الشَّريفه
فَلْيَبكِ هــــارونَ الخليــــفةَ للخِليفــــة والخليفــه

● عن ابن عائشة قال :

وَلِي خالدَ بن طَليق القضاء بالبصرة ، وعيسى بن سليمان الإمارة بها ، فقال محمد بن مناذر يهجوهما بقوله :

الحمدُ لله على مـــــا أرى خالدٌ القاضي وعيــسى أميرْ
لكن عيسى نَوْكُه ســـاعةً ونَوْكُهُ هذا مَنْجَنُونٌ يَدُورْ[2]

---

(١) سدر : أصابه ما يشبه الدوار .

(٢) النوك : الحمق . المنجنون : الدولاب يتخذ للساقية .

وقال في شِيرويه الزِيادِيّ ـ وشيرويه لقب واسمه أحمد ـ وسأله حاجةً فأبى أن يَقضيها إلّا على أن يمدحَه :

يا سميَّ النبيِّ بالعربيّـــــــهْ   وسميَّ اللُّيوث بالفارسيّـــهْ
إن غضِبْنا فأنت عبـدُ ثَقيفٍ   أو رضِينا فأنت عبدُ أُميّـــه

فغضب شيرويه وجعل يشتمه ، وشاع الشعر بالبصرة ...

● عن أبي معبد قال :

مرّ بنا أبو حية النُميريّ ونحن عند ابن مناذر ، فقال لنا : علامَ اجتمعتم ؟ فقلنا : هذا شاعرُ المِصر . فقال له : أنشِدني . فأنشده ابن مناذر ، فلمّا فَرَغ قال له أبو حية : ألم أقل لك : أنشدني ؟ فقالوا له : أنشِدنا أنت يا أبا حيّة . فأنشدهم قوله :

ألا حيّ من أجل الحبيب المَغانيـــا   لبِسن البِلى ممّا لَبِسنَ اللياليا
إذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلـــــة   تقاضاه شيءٌ لا يَمَلُّ التقاضِيا

فلمّا فرغ قال له ابنُ مناذر: ما أرى في شعرك شيئاً يُستحسن . فقال له : ما في شعري شيءٌ يُعاب إلّا استماعَك إيّاه . فكادا أن يتواثبا ثم افترقا .

● التَوَّزيُّ قال :

سألت أبا عبيدةَ عن اليوم الثاني من النَّحر : ما كانت العرب تُسميّه ؟ قال : ليس عندي من ذلك عِلمٌ . فلَقيتُ ابنَ مناذر بمكة فأخبرتُه بذلك ، فعَجب وقال : أيسقُط هذا عن مِثل أبي عبيدة ! هي أربعة أيام مُتواليات كلُّها على الراء : أوّلها يومُ النَّحرْ ، والثاني يوم القَرّ ، والثالث يوم النَّفرْ ، والرابع يوم الصَّدْر . فحدّثتُه ـ يعني أبا عبيدة ـ فكتبه عن ابن مناذر ...

● خلّاد الأرقَط قال :

تذاكرنا ابنَ مناذر في حَلْقة يونس فقَدح فيه أكثرُ أهل الحلقة حتى نسبوه إلى الزَّندقة . فلمّا صِرت في السَّقيفة التي في مقدَّم المسجد سمعت قراءةً

قريبة من حائط القِبلة ، فدنوتُ فإذا ابنُ مناذر قائمٌ يُصلّي ، فرجعت إلى الحلقة فقلتُ لأهلها : قُلتم في الرجل ما قُلتم ، وها هوذا قائمٌ يُصلّي حيث لا يراه إلا اللهُ عزّ وجلّ .

وفاته

عليّ بن محمد النَّوفليّ قال :

رأيتُ ابنَ مناذر في الحجّ سنةَ ثمانٍ وتسعين ومائة ، قد كُـفَّ بصرُه ، تقودُه جُوَيريةٌ حُـرّة ، وهو واقفٌ يشتري ماءً قِربةٍ ، فرأيتُه وَسِـخَ الثوب والبَدَن . فلمّـا صِرنا إلى البصرة أتتنا وفاتُه في تلك الأيام .

* * *

٥

ابن هَرْمَة

[الأغاني الجزء ٤ ص ٣٦٧ وما بعدها]

الشاعر

عن الزبير بن بَكّار عن عمّه مصعب ، وذكر ذلك العبّاس بن هشام الكَلْبيّ عن أبيه هشام بن محمّد بن السائب ، قالوا جميعاً :

هو إبراهيم بن عليّ بن سلمة بن عامر بن هَرْمة ... بن قيس بن الحارث ابن ـ فِهْر ـ وفهرٌ أصلُ قريش ، فمن لم يكن من ولده لم يُعدّ من قريش ، وقد قيل ذلك في النّضْر بن كِنانة ـ وفهر بن مالك بن النَّضر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدرِكة بن الياسِ بن مُضر .

قال مَن ذَكَرنا من النسّابين :

قيس بن الحارث هو الخُلُج ، وكانوا في عَدْوان ، ثم انتقلوا إلى بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن . فلمّا استُخلف عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه ، أتَوه ليفرِضَ لهم ، فأنكر نَسَبهم . فلمّا استُخلف عثمان أتَوه فأثبتهم في بني الحارث بن فهِر وجعلهم معهم ديواناً . وسُمّوا الخُلُج لأنّهم اختلجوا ممّن كانوا معهم من عَدْوان ومن بني نصر بن معاوية ، وأهل المدينة يقولون :

إنّما سُمّوا الخُلج لأنهم نزلوا بالمدينة على خُلُج (وواحدها خَليج) فسُمّوا بذلك، ولهم بالمدينة عددٌ ...

عن أبي سَلمة الغِفاريّ قال: نفى بنو الحارث بن فهر ابنَ هَرْمة فقال:

أحارِ بنَ فِهْرٍ كيف تَطَّرحونني   وجاء العِدا من غيركم تبتغي نَصري

قال: فصار من وَلد فِهرٍ في ساعته.

العبّاس بن هشام الكلبيّ عن أبيه قال: كان ابنُ هَرمة يقول: أنا أَلأم العرب، دَعِيّ أدعياء: هَرْمة دَعِيّ في الخُلُج، والخُلُج أدعياء في قريش.

زكريّا بن يحيى بن خلّاد قال:

كان الأصمعيّ يقول: خُتم الشعراء بابن هَرْمة، والحكم الخُضْريّ، وابن مَيّادة، وطُفَيل الكِنانيّ، ومَكين العُذْريّ.

عبد الملك بن عبد العزيز قال:

قدِم جريرٌ المدينة، فأتاه ابن هَرمة وابن أُذَينة فأنشداه، فقال جرير: القُرَشيّ أشعرُهما، والعربيُّ أَفصحهُما.

عن ابن الأعرابيّ أنه كان يقول: خُتم الشعراء بابن هَرْمة.

قال يحيى بن عليّ - أراه عن البَلاذُريّ -: وُلد ابن هَرمة سنة تسعين، وأَنشد أبا جعفر المنصور في سنة أربعين ومائة قصيدته التي يقول فيها:

إنّ الغَوانيَ قد أَعْرَضْن مَقْلِيَةً   لمّا رمى هَدَفَ الخمسين ميلادي[1]

قال: ثم عُمّر بعدها مدّةً طويلة.

---

(١) مقلية، مصدر قلاه يقليه: أبغضه.

ولعه بالنبيذ

إسحاق بن نِسطاس قال :

كان ابن هرمة مشتهراً بالنَّبيذ ، فأتى عبدَالله بن حَسَن وهو بالسَّيالة[1] ، فأنشده مديحاً له . فقام عبدالله إلى غنمٍ كانت له ، فرمَى بساجةٍ[2] عليها ، فافترقت فِرقتين فقال : اختَرْ أيَّهما شئت . قال : فإمّا أن تكون زادت بواحدة أو نقصت بواحدة على الأخرى . قال : وكانت ثلاثمائة ، وكتب له إلى المدينة بدنانير . فقال له : يا بن هرمة ، انقُلْ عيالَك إلينا يكونوا مع عِيالنا . فقال : أَفعل يا بنَ رسول الله ﷺ .

ثم قدِم ابن هرمة المدينة وجهّز عياله لينقلهم إلى عبدالله بن حسن ، واكترى من رجلٍ من مُزَينة . فبينا هو قد شدّ متاعه وحَمله والكَريُّ[3] ينتظره أن يتحمّل ، إذ أتاه صديقٌ له فقال : أي أبا إسحاق ، عندي والله نبيذٌ يُسقط لحمَ الوجه . فقال : ويحَك ! أما تَرانا على مثل هذه الحال ، أعليها يُمكن الشّراب ! فقال : إنّما هي ثلاثةٌ لا تَزِدْ عليهنّ شيئاً . فمضى معه وهم وقوفٌ ينتظرون . فلم يزل يشرب حتى مضى من الليل صَدرٌ صالح ، ثم أُتِي به وهو سكرانُ ، فطُرح في شِقّ المَحْمِلِ وعادلتْه[4] امرأته ومضَوا . فلمّا أَسحروا رفع رأسه فقال : أين أنا ؟ فأقبلت عليه امرأتُه تَلُومه وتعذُله ، وقالت : قد أفسد عليك هذا النّبيذُ دِينك ودنياك ، فلو تعلّلت عنه بهذه الألبان ! فرفع رأسه إليها وقال :

لا تَبتغي لبنَ البعير وعندنـــــا ماءُ الزَّبيب وناطفُ المِعصـــارِ

---

(١) السَّيالة : موضع على مرحلة من المدينة .

(٢) الساجة : واحدة الساج : وهو خشب يجلب من الهند .

(٣) الكري : المكاري .

(٤) عادلته : أي ركبت في الشق الثاني من المحمل .

أبو حُذافة السَّهميّ أحمد بن إسماعيل قال :

كان ابنُ هَرمة مُدمناً للشّراب مُغرَماً به . فأتى أبا عمرو بن أبي راشد مَولى عدْوان ، فأكرمه وسقاه أياماً ثلاثة . فدعا ابنُ هرمة بالنَّبيذ ، فقال له غلامٌ لأبي عمرو بن أبي راشد : قد نفِد نبيذُنا . فنزع ابن هرمة رداءه عن ظهره فقال للغلام : اذهَبْ به إلى ابن حَونك ـ نبّاذٌ كان بالمدينة ـ فارهَنْه وَأْتِنا بنبيذٍ . ففعل . وجاء ابن أبي راشد فجعل يشرب معه من ذلك النبيذ ، فقال له : أين رداؤك يا أبا سحاق ؟ فقال : نصفٌ في القَدَح ونصف في بَطنك .

عن عبدالله بن عمر بن القاسم قال :

جاء أبي تَمرٌ من صَدَقة عُمر ، فجاءه ابنُ هرمة فقال : أَمتع اللهُ بك ، أَعطني من هذا التمر . قال : يا أبا إسحاق ، لولا أنّي أخاف أن تعمل منه نبيذاً لأعطيتُك . قال : فإذا علمتَ آنّي أعمل منه نبيذاً لا تُعطيني . قال : فخافه فأعطاه . فلقِيه بعد ذلك فقال له : ما في الدنيا أجودُ من نبيذٍ يجيء من صَدَقة عمر . فأخجله .

أحمد بن يحيى البَلاذُريّ :

أنّ ابن هرمة كان مُغرماً بالنّبيذ ، فمرّ علىجيرانه وهو شديد السُّكر حتى دخل منزله . فلمّا كان من الغد دخلوا عليه فعاتبوه على الحال التي رأوه عليها ، فقال لهم : أنا في طلب مثلها منذ دهرٍ ، أما سمعتم قولي :

أسألُ اللهَ سَكرةً قبل موتي وصِياحَ الصِّبيان يا سكرانُ

قال : فنفضوا ثيابَهم وخرجوا وقالوا : ليس يُفلح واللهِ أبداً .

عن أبي حسن المدائنيّ قال :

امتدح ابن هرمة أبا جعفر فوصله بعشرة آلاف درهم ، فقال : لا تَقع منيّ هذه . قال : ويحَك ! إنها كثيرة . قال : إن أردتَ أن تَهنئني فأَبِحْ لي الشّراب ، فإنّي مُغرَمٌ به . فقال : ويحَك ! هذا حَدٌّ من حدود الله . قال :

احتَلْ لي يا أمير المؤمنين. قال: نعم. فكتب إلى والي المدينة: مَن أتاك بابن هرمة سكرانَ فاضربه مائةً واضرِب ابنَ هرمة ثمانين. قال: فجعل الجِلْوازُ[1] إذا مرّ بابن هرمة سكرانَ قال: مَن يشتري الثمانين بالمائة!

طائفة من أخباره

● عبدالله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمّار بن ياسر قال:

زُرت عبدالله بن حَسَن بباديته وزاره ابنُ هَرمة، فجاءه رجلٌ من أَسلمَ، فقال ابن هرمة لعبدالله بن حسن: أصلحك الله، سَلْ الأَسْلَمِيّ أن يأذن لي أن أُخبرَك خَبَري وخَبَرَه. فقال له عبدالله بن حسن: ائذنْ له. فأذن له الأسلميّ، فقال له إبراهيم بن هَرمة: إنّي خرجت ـ أصلحك اللهُ ـ أَبغي ذَوْداً لي[2]، فأَوَحشتُ[3] وضِفت[4] هذا الأسلميّ، فذَبح لي شاةً وخَبز لي خُبزاً وأكرمني. ثم غدوتُ من عنده، فأقمت ما شاء اللهُ، ثم خرجت أيضاً في بُغاء ذَودٍ لي، فأوحشتُ، فضِفته، فقَراني بلَبَنٍ وتَمر. ثم غدوتُ من عنده، فأقمت ما شاء الله، ثم خرجت في بُغاء ذَودٍ لي، فأوحشت، فقلت: لو ضِفتُ الأسلميّ، فاللَّبَن والتّمْر خيرٌ من الطَّوى. فضِفتُه، فجاءني بلبنٍ حامِض. فقال: قد أجبتُه ـ أصلحك اللهُ ـ إلى ما سأل، فسَلْه أن يأذَن لي أن أُخبرَك لمَ فعلتُ. فقال: إئذَنْ له. فأذِن له، فقال الأسلميّ: ضافني، فسألتُه مَن هو؟ فقال: رجلٌ من قريش، فذبحتُ له الشاةَ التي ذَكَر، وواللهِ لو كان غيرُها عندي لذبحتُه له حين ذكر أنه من قريش. ثم غدا من عندي وغَدا عليّ الحيُّ فقالوا: مَن كان ضيفَك البارحةَ؟ قلت: رجلٌ من قريش. فقالوا: لا والله ما هو من قريش ولكنّه دعيٌّ فيها. ثم ضافني الثانيةَ على أنّه دعيٌّ في قريش، فجئته

---

(١) الجلواز: الشرطي.

(٢) الذود من الابل: من الثلاث الى التسع، ولا يكون الامن الاناث.

(٣) أوحش الرجل: جاع ونفد زاده.

(٤) ضافه: طلب ضيافته.

بلبنٍ وتَمر وقلت : دَعِيٌّ قريش خيرٌ من غيره . ثم غدا من عندي وغدا عليّ الحيٌّ فقالوا : من كان ضيفَكَ البارحةَ ؟ قلت : الرجْل الذي زعمتم أنّه دعيٌّ في قريش . فقالوا : لا والله ما هو بدَعِيٍّ في قريش ، ولكنّه دعيّ أدعياء قريش . ثم جاءني الثالثةَ ، فقريتُـه لبناً حامضاً ، ووالله لو كان عندي شرٌّ منه لقريتُـه إيّاه . قال : فانخذل ابنُ هرمة وضحِـك عبدُالله وضحكنا معه .

● نوفَل بن ميمون قال :

لقي ابنُ مَيّادة ابنَ هرمةَ فقال ابنُ ميّادة : واللهِلقد كنتُ أُحبّ أن ألقاك ، لا بُدّ من أن نَتَهاجى ، وقد فعل الناسُ ذلك قبلَنا . فقال ابن هرمة : بئس واللهِ ما دعوتَ إليه وأحببتَه ــ وهو يظنّـه جادّاً ــ ثم قال ابن هرمة : أما والله إنّني لَلّذي أقول :

إنّي لَـميْـمونٌ جِواراً وإنّـــني ... إذا زَجَرَ الطيرَ العِدا لَـمَشُومُ
وإنّي لَـمَلْآنُ العِنان مُناقِـــلٌ ... إذا ما وَنَى يوماً ألفٌّ سَؤُومُ
فوَدَّ رجالٌ أنّ أمّي تقنّعـــــت ... بشَيبٍ يُغشّي الرأسَ وهي عَقيمُ(١)

فقال ابنُ ميّـادة : وهل عندك جَـراءٌ(٢) ؟ ثكلتك أمُّـك ! أنـــت أَلأم من ذلك ! ما قلتُ إلّا مازحاً .

● عن عمر بن أيّوب اللّيثيّ قال :

شرب ابن هرمة عندنا يوماً ، فسَكر فنام . فلمّا حضرت الصّلاةُ تحرّك أو حرّكته ، فقال لي وهو يتوضّأ : ما كان حديثكم اليومَ ؟ قلت : يزْعُمون أنّ الوليد قُتل . فرفع رأسه إليّ وقال :

وكانت أمورُ الناس مُنْبَتَّـةَ القُـوى ... فشدّ الوليدُ حين قام نِظامَهــــا

---

(١) يقال : ملأ فلان عنان جواده ، أي أعداه وحمله على الاسراع . المناقل : السريع نقل القوائم . الألفّ : الثقيل البطيء .

(٢) الجراء بفتح الجيم وكسرها : الفتوة .

خليفةُ حقٌّ لا خليفـــة باطـــلٍ رمى عن قناة الدِّين حتى أقامها[1]

ثم قال : إيّـاك أن تذكر من هذا شيئاً ، فإنّي لا أدري ما يكون .

● ابن رُبَيح راوية ابن هرمة قال :

أصابت ابنَ هَرمة أَزْمةٌ ، فقال لي في يومٍ حارّ : اذهَبْ فَتَكَارَ حِمارين إلى ستّةِ أميالٍ ، ولم يُسَمِّ موضعاً . فركب واحداً وركبتُ واحداً ، ثم سِرنا حتى صِرنا إلى قصور الحسن بن زيد[2] ببطحاء ابن أَزْهَر[3] ، فدخلنا مسجدَه . فلمّا مالت الشمسُ خرج علينا مُشتملاً على قميصه ، فقال لمولىً له : أَذِّنْ . فأذَّن ، ولم يُكلّمْنا كلمةً . ثم قال له : أَقِمْ . فأقام ، فصَلّى بنا . ثم أقبل على ابنِ هَرمة فقال : مَرحباً بك يا أبا إسحاق ، حاجتَك ؟ قال : نعم ، بأبي أنت وأمّي ، أبياتٌ قُلتُها ـ وقد كان عبدالله وحسنٌ وإبراهيم بنو حسن بن حسن[4] وَعَدُوه شيئاً فأخلفوه ـ فقال : هاتها . فقال :

أمّا بنو هاشمٍ حولي فقد قَرَعـوا نَبْلَ الضِّباب التي جَمَّعتُ في قَرَنِ
فما بيثرب منهم مَن أُعاتبـه إلّا عوائدَ أرجوهنّ من حَسَنِ
اللهُ أعطاك فَضلاًمن عَطِيّتـه على هَنٍ وهَنٍ فيما مضى وَهَنِ[5]

قال : حاجتَك ؟ قال : لابنِ أبي مُضَرِّس عليّ خمسون ومائةُ دينار. قال : فقال لمولىً له : يا هيثمُ ، اركَب هذه البغلة فَأْتني بابن أبي مُضرِّس

(1) منبتة : منقطعة . القوى ج قوة : طاقات الحبل .
(2) الحسن بن زيد : هو الحسن بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين .
(3) بطحاء ابن أزهر : قريب من المدينة ، فيها مسجد للنبي ﷺ .
(4) عبدالله : هو عبدالله المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب واخواه الحسن وابراهيم وابنه محمد النفس الزكيّة .
(5) الضباب ، هنا ، الأحقاد ، أراد أنهم أظهروا عداوتهم لي . القرن : حبل يجمع به البعيران ، هن : كلمة يكنى بها عن اسم الانسان ، وقد كررها ثلاث مرات لأنه كنّى عن ثلاثة أشخاص هم بنو حسن بن حسن .

وذِكْر حقّه[1] . قال : فما صَلّينا العصر حتى جاء به ، فقال له : مَرحباً بك يا بن أبي مُضرّس ، أمعك ذِكْرُ حَقّك على ابن هرمة ؟ قال : نعم . قال : فامحُه . فمحاه ، ثم قال : يا هيثم ، بِع ابن أبي مَضرّس من تمر الخانِقَين بمائة وخمسين ديناراً وزِدْه على كلّ دينار رُبْعَ دينار ، وكِلِ ابنَ هَرمة بخمسين ومائة دينار تَمْراً ، وكِلِ ابنَ رُبَيح بثلاثين ديناراً تمراً . قال : فانصرفنا من عنده ، فلقيه محمد بن عبدالله بن حسن بالسَّيالة[2] ـ وقد بلغه الشعر ـ فغضب لأبيه وعُمومته فقال : .... أنتَ القائل :

على هَنٍ وهن فيما مضى وهنِ

فقال : لا واللهِ ، ولكنّي الذي أقول لك :

لا والذي أنت منه نِعمةٌ سَلَفتْ ... نرجُو عواقبَها في آخر الزَّمنِ
لقد أتيتَ بأمرٍ ما عَمَدتُ له ... ولا تعمّده قولي ولا سَنَني
فكيف أمشي مع الأقوام معتدلاً ... وقد رَميتُ بريء العُود بالأُبَنِ
ما غيّرت وجهَه أمٌّ مُهَجَّنةٌ ... إذا القَتامُ تغشّى أوجُهَ الهُجُنِ[3]

قال : وأم الحسن أمُّ ولد .

● عن أيوب بن عَباية قال :

لمّا قال ابنُ هرمة هذا الشعر في حسن بن زيد قال عبدالله بن حسن : واللهِ ما أراد الفاسقُ غيري وغير أخويّ : حسن وإبراهيم . وكان عبدالله يُجري على ابن هرمة رِزقاً فقطعه عنه وغضب عليه . فأتاه يعتذر ، فنُحّي وطُرد ، فسأل رجالاً أن يكلّموه ، فردّهم ، فيئس من رضاه واجتنبه وخافه . فمكث ما شاء

(١) ذكر الحق : الصك يكتب فيه الدين .
(٢) السَّيالة : أرض يطؤها طريق الحاج أول مرحلة لأهل المدينة اذا أرادوا مكة .
(٣) الأبن ج أُبنة : العقدة تكون في العود تفسده ويعاب بها . مهجنة : غير حرة ، والهجين : من كان أبوه عربياً وأمه غير عربية .

الله ، ثم مرّ عَشيّةً وعبدُ الله على زَرْبيّة[1] في ممّر المِنبر ، ولم تكن تُبسَط لأحدٍ غيره في ذلك المكان . فلمّا رأى عبدَالله تضاءل وتقنفذ[2] وأسرع المشيَ . فكأنّ عبدالله رقّ له ، فأمر به فردّ عليه ، فقال : يا فاسقُ يا شاربَ الخمر ، على هَنٍ وهن ! أتُفضّل الحسن عليّ وعلى أخويّ ! فقال : بأبي أنت وأميّ ! وربِّ هذا القبر ما عَنيتُ إلّا فِرعون وهامانَ وقارونَ ، أفتغضب لهم ! فضحك وقال : واللهِ ما أحسَبُك إلّا كاذباً . قال : واللهِ ما كَذَبتُك . فأمر بأن تُردّ عليه جِرايتُه .

عن مصعب قال : إنما اعتذر ابنُ هرمة بهذا إلى محمد بن عبدالله بن حسن .

● أبو مالك محمد بن عليّ بن هرمة قال :

قال ابنُ هرمة :

ومهما أُلامُ على حُبّهم فإنّي أُحبّ بني فاطمهْ
بني بِنت من جاء بالمُحكَمات والدِّين والسُّنّة القائمه

فلَقِيه بعد ذلك رجلٌ فسأله : من قائلُها ؟ فقال : مَن عَضّ ... فقال له ابنُه : يا أبتِ ، ألستَ قائلَها ؟ قال : بلى . قال : فلمَ شتمتَ نفسك ؟ قال . أليس أن يعضّ المرء ... خيراً من أن يأخُذَه ابنُ قحطبة[3] !

● قال يحيى (بن علي) : وأخبرني أبو أيوب عن عليّ بن صالح قال :

أنشدني عامر بن صالح قصيدةً لابن هرمة نحواً من أربعين بيتاً ليس فيها حرفٌ يُعجَم ، وذكر هذه الأبيات منها . ولم أجد هذه القصيدة في شعر ابن

---

(١) الزربية : البساط .

(٢) تقنفذ : حاكى القنفذ في مشيته .

(٣) ابن قحطبة : هو حميد بن قحطبة الطائي ، من أبرز قادة العباسيين وولاتهم . وإنما خاف ابن هرمة من نسبة الشعر الى نفسه لأن المنصور كان ينكل انئذ بالعلويين واتباعهم بعدما ثار عليه محمد بن عبدالله واخوه ابراهيم سنة ١٤٥ هـ وقد انتهى الامر بمقتلهما .

هزمة ، ولا كنت أظنّ أنّ أحداً تقدّم رُزيناً العَروضيّ إلى هذا الباب ، وأوّلها :

أرسمُ سَودة أمسى دارسَ الطَّلَلِ ... مُعَطَّلاً رَدّه الأحوالُ كالحُلَلِ

هكـذا ذكر يحيى بن عليّ في خبره أن القصيدة نحوٌ مـن أربعين بيتـاً ، ووجدتها في رواية الأصعميّ ويعقوب بن السِّكيت اثني عشر بيتاً ، فنسختُها ها هنا للحاجة إلى ذلك . وليس فيها حرفٌ يُعجَم إلّا ما اصطَلح عليه الكُتّاب من تصييرهم مكانَ ألفٍ ياءً مثل « أعلى » ، فإنها في اللفظ بالألف وهي تكتب بالياء ، ومثل « رأى » ونحو هذا ، وهو في التحقيق في اللفظ بالألف ، وإنما اصطلح الكُتّابَ على كتابته بالياء كما ذكرناه . والقصيدة :

أرسم سَودةَ مَحْلٌ دارسُ الطَّلَلِ ... مُعَطَّلٌ ردّه الأحوالُ كالحُلَلِ

لمّا رأى أهلَها سَدُّوا مَطالعَها ... رام الصُّدورَ وعاد الوُدُّ كالمُهلِ

وعاد وُدّك داءً لا دواء لـه ... ولو دعاك طوالَ الدّهرللرِّحَلِ

ما وصلُ سودةَ إلا وصلُ صارمةٍ ... أحلّها الدّهرُ داراً مأكلَ الوَعِلِ

وعاد أمواهُها سُدْماً وطار لها ... سهمٌ دعا أهلَها للصُّرم والعِللِ

صدُّوا وصدّ وساء المرءَ صَدُّهُم ... وحام للوِرْد رَدْهاً حَومةَ العَلَلِ

وحَلَّؤُوه رِداهاً ماؤُها عسلٌ ... ما ماءُ رَدْهٍ لَعَمرُ الله كالعَسَلِ

دعا الحَمامُ حماماً سدّ مَسمعَه ... لمّا دعاه رآه طامحَ الأَملِ

طموحَ سارحةٍ حَومٍ مُلَمَّعةٍ ... ومُمْرِعُ السرِّ سهلٌ ماكِدُ السَّهَلِ

وحاولوا ردَّ أمرٍ لا مَردَّ له ... والصُّرم داءٌ لأهل اللَّوعة الوُصُلِ

أَحلّك اللهُ أعلى كلِّ مكرمةٍ ... واللهُ أعطاك أعلى صالح العملِ

سهلٌ مَواردُه سمحٌ مَواعدُه ... مُسَوَّدٌ لكرامٍ سادةٍ حُمُلِ [1]

(١) يلاحظ أن في القصيدة تاء مربوطة وهي عندهم في الأصل هاء . المُهل : ما ذاب من الصفر والحديد ، وحرك ثانيه للضرورة . مأكل الوعل : أي مكاناً منيعاً كمعقل =

● عن مصعب بن عبدالله عن أبيهِ قال :

لَقِيني ابنُ هرمة فقال لي : يابنَ مُصعبَ ، أتفضّل عليّ ابنَ أُذَينة ! أما شكرت قولي :

فمالك مُختلاً عليــك خَصاصــةٌ كأنّـك لم تنبُت ببعض المنابتِ

كأنّـك لم تصحَـبْ شُعيبَ بن جعفـرٍ ولا مُصعَباً ذا المكرَمات ابن ثابتِ[1]

ـ يعني مُصعب بن عبدالله ـ قال : فقلت : يا أبا إسحاق ، أقِلْني ورَوِّني من شعرك ما شئت ، فإنّي لم أروِ لك شيئاً . فروّاني عبّاسيّاته تلك .

● عن مصعب بن عثمان قال :

قال ابن هرمة : ما رأيت أحداً قطّ أسخى ولا أكرم من رجلين : إبراهيم ابن عبدالله بن مطيع وإبراهيم بن طلحة بن عمرو بن عبدالله بن مَعْمَر . أما إبراهيم بن طلحة فأتيتُه فقال : أحسِنوا ضيافة أبي إسحاق . فأُتيت بكلّ شيء من الطعام ، فأردت أن أُنشده فقال : ليس هذا وقتَ الشعر . ثم أخرج الغلامُ إليّ رُقعةً فقال : ائتِ بها الوكيلَ . فأتيتُـه بها فقال : إن شئتَ أخذتُ لك جميعَ ما كَتب به ، وإن شئت أعطيتُـك القيمة . قلت : وما أُمر لي به ؟ فقال : مائتا شاةٍ برِعائها وأربعةُ أجمالٍ وغلامٌ جَمّالٌ ومِظلّةٌ وما تحتاج إليه وقُوتُك وقُوت عيالك سنةً . قلت : فأَعطني القيمة ، فأعطاني مائتي دينار . وأمّا إبراهيم بن عبدالله فأتيتُـه في منزله بمُشاش[2] على بئر الوليد بن عثمان

= الوعل . سدم : متغيرة الطعم . الحومة : كثرة الماء وغمرته . العلل : الشرب الثاني . الردة : مستنقع الماء . حلأهم عن الماء : منعهم من وروده . السارحة : الماشية . الحوم : القطيع الكثير العدد . الململع : الذي في جسده بقع تخالف سائر لونه . الممرع : المخصب . السر هنا : بطن الوادي . الماكد : الدائم الذي لا ينقطع . حمل جمع حمول : الكثير الاحتمال لما ينهض به من أمور.

(١) المختل : الفقير السيء الحال . الخصاصة : الفقر .

(٢) مشاش : موضع بين ديار بني سليم وبين مكة .

ابن عفّان ، فدخل إلى منزله ثم خرج إليَّ برُزمةٍ من ثياب وصُرّة من دراهم ودنانير وحُليّ ، ثم قال : لا والله ما بَقّينا في منزلنا ثوباً إلّا ثوباً نُواري به امرأةً ، ولا حَلْياً ولا ديناراً ولا دِرهماً . وقال يمدح إبراهيم :

أَرَّقَتْني تلومُ أمُّ بكـــرِ بعد هَدْءٍ واللَّومُ قد يُـؤذيني
حَذَّرتْني الزّمانَ ثُمَّتَ قالت ليس هذا الزّمان بالمأمـونِ
قلتُ لمّا هَبَّتْ تُحذِّرني الدَّهـرَ دَعي اللومَ عنـك واستَبْقِيني
إنّ ذا الجُود والمكارم إبـرا هيمَ يَعنيه كلُّ ما يَعنيني
قد خَبَرناه في القديم فألفينا مواعيدَه كعَين اليَقين
قلتُ ما قلتُ للّذي هو حَقٌّ مُستَبينٌ لا للّذي يُعطيني
نَضَحتْ أرضَنا سماؤُك بعد الجَدْب منها وبعد سُوء الظُّنون
فرعَينا آثارَ غيثٍ هَراقَتْه يدا مُحكَم القُوى مَيمونِ

● عن ابن زُريق ، وكان منقطعاً إلى أبي العبّاس بن محمد[1] ، وكان من أروى الناس ، قال :

كنت مع السَّريّ بن عبدالله باليمامةَ ، وكان يتشوّق إلى إبراهيم بن عليّ ابن هَرْمة ويُحبّ أن يفِدَ عليه ، فأقول : ما يمنعك أن تكتب إليه ، فيقول : أخاف أن يُكلّفَني من المَؤونة ما لا أُطيق . فكنت أكتب بذلك إلى ابن هرمة ، فكَره أن يَقْدَمَ عليه إلّا بكتاب منه ، ثم غُلب فشخص إليه ، فنزل عليّ ومعه راويتُه ابنُ رُبيح . فقلت له : ما منعك من القُدوم على الأمير وهو من الحِرص على قدومك على ما كتبتُ به إليك ؟ قال : الذي منعه من الكتاب إليّ . فدخلت على السَّريّ فأخبرتُه بقُدومه ، فسُرّ بذلك وجلس للنّاس مجلساً عامّاً ، ثم أذِن لابن هرمة ، فدخل عليه ومعه راويتُه ابن رُبيح ـ وكان ابن هرمة قصيراً

(١) هو أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس .

دميماً أُرَيمِص[1] ، وكان ابن رُبيح طويلاً جسيماً نقيّ الثياب - فسلّم على السّري ثم قال له : أصلحك اللهُ ، إنّي قد قلت شعراً أثنيتُ فيه عليك . فقال : أَنشِدْ . فقال : هذا يُنشِد . فجلس ، فأنشده ابن رُبيح قصيدته التي أوّلها :

عُوجا على رَبـع ليلى أمّ محمـودِ ... كيما نُسائلَـه من دون عَبُّـود
عن أمّ محمود إذ شطّ المَزارُ بهـا ... لعلّ ذلك يشفي داء مَعمـودِ
فعَرَّجا بعد تغويـر وقد وقفـتْ ... شمسُ النهار ولاذ الظِلُّ بالعُـودِ
شيئاً فما رَجَعت أطـلالُ منزلةٍ ... قَفْرٍ جواباً لمحزون الجَوى مُودي[2]

ثم قال فيها يمدح السَّريّ :

ذاك السَّريُّ الذي لـولا تدفُّقُـه ... بالعُرف مُتْنا ، حليفُ المجد والجُودِ
من يَعتمدْكَ ابنَ عبدالله مُجتديـاً ... لسَيب عُرفك يَعمِدْ خير مَعمود
يا بنَ الأُساةِ الشُّفاة المستغاثِ بهم ... والمُطعِمين ذُرى الكُوم المَقاحيدِ
والسّابقين إلى الخيراتِ قومَهـم ... سَبْقَ الجِياد إلى غاياتها القُـودِ
أنت ابنُ مُسْلَنْطح البَطْحاء مَنْبَتكُم ... بَطْحاءُ مكّةَ لا رُوسُ القَراديدِ
لكم سِقايتُهـا قِدْماً ونَـدوتُهـا ... قد حازها والدٌ منكم لِمولـودِ
لولا رجاؤك لم تَعسِفْ بنا قُلُصٌ ... أجواز مهمهـةٍ قَفْرِ الصُّوى بِيد
لكن دعاني وميضٌ لاح معترضاً ... من نحو أرضك في دُهْمٍ مَناضِيد[3]

---

(١) أريمص : تصغير أرمص والرمص وسخ أبيض يجتمع في الموق .

(٢) عبود وصغر : جبلان ما بين المدينة والسيالة ينظر احدهما الى الآخر وبينهما طريق المدينة . المعمود : من هدّه العشق . التغوير : النزول وقت القائلة . المودي : الهالك .

(٣) العرف : المعروف. مجتدياً : طالباً العطاء . معمود : مقصود . الذرى ج ذروة : اعلى السنام . الكوم ج كوماء : الناقة العظيمة السنام . المقاحيد ج مقحاد : الناقة العظيمة السنام . القود ج أقود : الطويل العنق من الخيل . اسلنطح الوادي : اتسع وانبسط . القراديد ج قردود : ما ارتفع وغلظ من الارض . السقاية : سقاية الحجيج =

وأنشده أيضاً قصيدة يمدحه فيها أوّلها :

أفـي طلـلٍ قَفْـرٍ تحمّـل أهلُـه ... وقفتَ وماءُ العين يَنهلُّ هاملُـهْ

[الأبيات ...]

قال : فلمّا فَرَغ ابن رُبَيح قال السّريّ لابن هرمة : مرحباً بك يـا أبـا إسحاق ، ما حاجتُك ؟ قال : جئتُك عبداً مملوكاً . قال ! لا ، بل حُرّاً كريماً وابنَ عمّ ، فما ذاك ؟ قال : ما تركتُ لي مالاً إلّا رهنتُه ، ولا صديقاً إلا كَلَّفته ... فقال له السّريّ : وما دَيْنُك ؟ قال : سبعمائة دينار : قال : قد قضاها الله عزّ وجلّ عنك . قال : فأقام أيّاماً ، ثم قال لي : قدْ اشتَقتُ . فقلت له : قل شعراً تتشوّق فيه . فقال قصيدته التي يقول فيها :

أألحمامـةُ في نَخـلِ ابن هَـدّاجِ ... هاجت صَبابةَ عاني القلب مُهتاجِ

أم المُخَبِّرُ أنّ الغيثَ قد وضعـتْ ... منه العِشارُ تَماماً غيرَ إخـداجِ

شقّت سَوائقُها بالفَرش من مَلَـلٍ ... إلى الأَعارفِ من حَزْنٍ وأَولاجِ

حتّى كأنّ وجوهَ الأرض مُلْبَسـةٌ ... طرائقاً من سَدَى عَصْبٍ ودِيباجِ

وهي طويلة مختارة من شعره ، يقول فيها يمدح السَّريّ :

أمّا السَّريُّ فإنّي سوف أَمدحُـه ... ما المادحُ الذاكرُ الإحسانِ كالهاجي

ذاك الـذي هوبعدَ الله أنقـذني ... فلست أنساه إنقاذي وإخراجـي

لَيثٌ بحَجْرٍ إذا ما هاجَـه فَـزَعٌ ... هاج إليه بإلجامٍ وإســراج

= أيام الجاهلية من النبيذ ، وكان يليها العباس بن عبد المطلب . الندوة : دار الندوة بمكة التي كانت تجتمع فيها قريش . العسف : السير في المفازة على غير هدى . القلوص : الناقة السريعة . أجواز ج جوز : وسط الشيء ومعظمه . المهمهمة : الفلاة الواسعة . الصوى ج صُوّة : أحجار توضع على جانبي الطريق يهتدي بها المسافر . وهي أيضاً ما غلظ وارتفع من الارض . دهم : سود . مناضيد : متراكبة بعضها فوق بعض ، ويريد بالدهم المناضيد السحب السود المتراكبة .

لَأَحْبُوَنّك ممّا أَصطفي مِدَحـاً مُصاحِباتٍ لعُمّـار وحُجّاجِ
أسدى الصَّنيعة من برٍّ ومن لَطَفٍ إلى قَرُوعٍ لِباب المُلك وَلاّج
كم من يدٍ لك في الأقوام قد سَلَفت عند امرىءٍ ذي غنىً أو عند محتاج[1]

فأمر لـه بسبعمـائة دينـار في قضاء دَينه ، ومائةِ دينار يتجهّز بها ، ومائـة دينار يُعرِّض بها أهله ، ومائة دينار إذا قدِم على أهله .

قوله : « يعرّض بها أهله » أي يُهدي لهم بها هديّة ، والعُراضة : الهَديّة ...

● جعفر بن مُدرِك الجَعْفيّ قال :

جاء ابنُ هرمة إلى رجلٍ كان بسوق النَّبط ، معه زوجةٌ له وابنتان كأنّهما ظَبيتان يقود عليهما ، بمالٍ فدفعه إليه ، فكان يشتري لهم طعاماً وشراباً . فأقام ابنُ هرمة مع ابنتيه حتى خَفّ ذلك المال ، وجاء قومٌ آخرون معهم مالٌ ، فأخبرهم بمكان ابن هرمة ، فاستثقلوه وكرهوا أن يعلم بهم ، فأمر ابنتيه ، فقالتا له : يا أبا إسحاق ، أما دَرَيتَ ما الناسُ فيه؟ قال : وماهم فيه؟ قالتا : زُلزِل بالرَّوضة . فتغافلهما . ثم جاء أبوهما مُتفازعاً فقال : أي أبا إسحاق ، ألا تَفزَعُ لِماالناسُ فيه ! قال : وما هم فيه؟ قال : زُلزل بالرَّوضة . قال : قد جاءكم الآن إنسانٌ معه مالٌ ، وقد أنفضتَ[2] ما جئتُكم به وثقُلت عليكم ، فأردتَ إدخالهَ وإخراجي ، أيُزلزل بروضة من رياض الجنّة ويُترك منزلُك وأنت تجمع فيه الرجالَ على ابنتيك ! واللهِ لا عُدتُ إليه . وخرج من عنده ...

---

(١) العشار ج عشراء (بضم أوله وفتح ثانيه) :الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر. أخدجت الناقة : ألقت ولدها قبل أوانه فهي مخدج . شقت الارض : انفطرت عن النبات . السوائف ج سائفة : أرض بين الرمل والجلد . الفرش : واد بين غميس الحمام وملل بالحجاز . ملل : موضع بين الحرمين ، نزله رسول الله ﷺ حين مسيره الى بدر . الاعارف : جبال باليمامة . الحزن : ما غلظ من الارض . الاولاج : ما غمض من الارض . العصب : ضرب من البرود . حجر : مدينة اليمامة .

(٢) أنفض القوم زادهم : أنفدوه .

● إبراهيم بن سكّرة جار أبي ضَمْرة قال :

جلس ابنُ هرمة مع قوم على شراب ، فذكر الحكَمَ بن المطَّلب فأطنب في مدحه ، فقالوا له : إنك لَتُكثِر ذكر رجلٍ لو طرقتَه السّاعةَ في شاةٍ يقال لها « غَرّاء » تسأله إيّاها لردّك عنها . فقال : أهو يفعل هذا ؟ قالوا : إي والله . وكانوا قد عرفوا أنّ الحكَم بها مُعجَب ، وكانت في داره سبعون شاةً تُحلَب . فخرج وفي رأسه ما فيه ، فدقّ الباب ، فخرج إليه غلامُه ، فقال له : أَعلم أبا مَروان بمكاني ـ وكان قد أمر ألّا يُحجَب إبراهيم بن هرمةَ عنه ـ فأعلمه به ، فخرج إليه مُتّشحاً فقال : أفي مثل هذه الساعة يا أبا إسحاق ! فقال : نعم ، جُعلتُ فِداك ، وُلد لأخٍ لي مولودٌ فلم تَدرّ عليه أُمُّه ، فطلبوا له شاةً حَلُوبة فلم يجدوها ، فذكَروا له شاةً عندك يقال لها « غرّاء » ، فسألني أن أَسألكَها . فقال : أتجيء في هذه الساعة ثم تنصرف بشاةٍ واحدة ! لا واللهِ لا تبقَى في الدّار شاةٌ إلّا انصرفتَ بها ، سُقْهنّ معه يا غلامُ. فساقهنّ ، فخرج بهنّ إلى القوم ، فقالوا : ويحَك ! أيَّ شيء صنعت ! فقصّ عليهم القصّة . قال : وكان فيهنّ والله ما ثمنه عشرةُ دنانير وأكثر من عشرة .

● عن نوفَل بن ميمون قال :

أرسل ابنُ هرمة إلى عبد العزيز بن المطّلب بكتابٍ يشكو فيه بعضَ حاله ، فبعث إليه بخمسةَ عشر ديناراً . فمكث شهراً ثم بعث يطلب منه شيئاً آخر بعد ذلك ، فقال : إنّا والله ما نَقْوَى على ما كان يقوى عليه الحكَم بن المطّلب . وكان عبد العزيز قد خطب إلى امرأة من ولد عمر فردّتْه ، فخطب إلى امرأة من بني عامر بن لُؤيّ فزوَّجوه . فقال ابن هرمة :

خطبتَ إلى كعبٍ فردُّوك صاغراً فحوَّلتَ من كَعبٍ إلى جذم عامرِ
وفي عامرٍ عزٌّ قديمٌ وإنّما أجازك فيهم هزلُ أهل المقابر

وقال فيه أيضاً :

أبالبُخلِ تطلبُ ما قَدَّمتْ عَرانينُ جادت بأموالها
فهيهاتَ خالفت فِعلَ الكرام خِلافَ الجِمال بأبوالها[1]

وفاته

عبد العزيز بن إسماعيل قال :

مدح ابنُ هرمة محمد بن عِمران الطَّلْحيّ ، وبعث إليه بالمديح مع ابن رُبَيح ، فاحتَجب عنه ، فمدح محمد بن عبد العزيز ، وكان ابن هرمة مريضاً ، فقال قصيدته التي يقول فيها :

إنّي دعوتُك إذ جُفيتُ وشَفَّني مرضٌ تضاعَفَني شديدُ المُشتَكى
وحُبستُ عن طلب المعيشة وارتقتْ دُوني الحوائج في وُعور المُرتَقى
فأجِبْ أخاك فقد أناف بصَوته يا ذا الإخاء ويا كريمَ المُرتَجى
ولقد حُفِيتَ صَبيبَ عَكّةِ بَيتنا ذَوباً ومِزتُ بصَفوْه عنك القَذى
فخُذ الغَنيمةَ واغتَنِمْني إنّني غُنْمٌ لِمثلك والمكارمُ تُشتَرى
لا ترمِينَّ بحاجتي وقَضائها ضَرْحَ الحِجابِ كما رمى بي مَن رمى[2]

فركب إلى جعفر بن سليمان نصفَ النّهار ، فقال : ما نَزَعك يا أبا عبدالله في هذا الوقت ؟ قال : حاجةٌ لم أر فيها أحداً أكفى منّي . قال : وما هي ؟ قال : قد مَدَحني ابنُ هرمة بهذه الأبيات فأردتُ من أرزاقي مائةَ دينارٍ . قال : ومِن عندي مِثلُها . قال : ومن الأمير أيضاً ! قال : فجاءت المائتا الدينارِ إلى ابن هرمة ، فما أنفق منها إلّا ديناراً واحداً حتى مات ، وورِث الباقيَ أهلُه .

(١) العرانين ، هنا : السادة .
(٢) أناف : ارتفع واشرف . حفيت : أعطيت ولا يبعد أن تكون محرفة عن« حبيت » والمعنى واحد . العكة : زق السمن والعسل ، يريد انه منحه خالص مديحه . الضرح : أن يؤخذ شيء فيرمى به في ناحية .

الزبير بن بَكّار قال :

أنشدني عمّي لابن هرمة :

ما أَظنّ الزمانَ يا أمَّ عَمْرٍو تاركاً إن هلكتُ مَن يَبكيني

قال : فكان والله كذلك ، لقد مات ، فأخبرني من رأى جنازتَه ما يحملها إلّا أربعةُ نفرٍ ، حتى دُفن بالبَقِيع[1] .

* * *

(١) البقيع : مقبرة اهل المدينة.

٦

أبو تمام

[الأغاني الجزء ١٦ ص ٣٨٣ وما بعدها]

الشاعر

أبو تمّام حَبيب بن أَوس الطائيّ ، من نفس طَيّء صليبةٌ . مولده ومنشأهُ مَنْبِج(١) ، بقرية منها يقال لها جاسِم . شاعرٌ مطبوع . لطيف الفِطنة ، دقيق المعاني ، غوّاص على ما يستصعب منها ويَعسُر مُتَناولُه على غيره . وله مذهبٌ في المطابَق هو كالسابق إليه جميعَ الشعراء ، وإن كانوا قد فَتحوه قبلَه ، وقالوا القليل منه ، فإنّ له فضلَ الإكثار فيه ، والسُّلوكِ في جميع طُرقه . والسليمُ من شعره النادرُ شيءٌ لا يتعلّق به أحدٌ . وله أشياءُ متوسّطة ورديئةٌ رَذْلة جدّاً .

وفي عصرنا هذا من يتعصّب له فيُفرِط حتى يُفضّلَه على كلّ سالفٍ وخالف ، وأقوامٌ يتعمّدون الرديء من شعره فينشرونه ، ويطوون محاسنه ، ويستعملون القِحة والمكابرة في ذلك ليقولَ الجاهلُ بهم : إنّهم لم يبلُغوا علمَ هذا وتمييزَه

(١) يلاحظ أن أبا الفرج خلط هنا بين البحتري وابي تمام ، فالبحتري كانت ولادته في منبج ، وهي من أعمال حلب ، شمالي بلاد الشام ، أما جاسم فهي من حوران ، جنوبي بلاد الشام ،

إلّا بأدبٍ فاضل وعلمٍ ثاقب ، وهذا ممّا يتكسّب به كثيرٌ من أهل هذا الدّهر ، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلبِ الناس ، وطلب معايبهم سبباً للترفُّع وطلباً للرّياسة . وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مُسقِطةً إحسانه ، ولو كثُرت إساءتُه أيضاً ثم أحسن لم يُقَل له عند الإحسان أسأتَ ، ولا عند الصّواب أخطأت ، والتوسُّط في كلّ شيء أجملُ ، والحقُ أحقُّ أن يُتَّبع .

وقد رُوي عن بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدةً له أحسنَ في جميعها ، إلّا في بيتٍ واحد ، فقال له : يا أبا تمّام ، لو ألقيتَ هذا البيتَ ما كان في قصيدتك عيبٌ . فقال له : أنا واللهِ أعلَمُ منه مثلَ ما تَعلم ، ولكنّ مثل شعر الرجل عنده مَثَلُ أولاده ، فيهم الجميل والقبيح ، والرّشيد والساقط ، وكلُّهم حلوٌ في نفسه ، فهو وإن أحبّ الفاضل لم يُبغِض الناقص ، وإن هوِي بقاء المتقدّم لم يهوَ موتَ المتأخّر .

واعتذاره بهذا ضِدٌّ لما وصَف به نفسه في مَدحه الواثقَ ، حيث يقول :

جاءتْك من نظْم اللسان قِلادةٌ	سِمطان فيها اللؤلُؤ المكنُونُ
أحذاكها صَنَعُ اللسانِ يَمُدُّه	جَفْرٌ إذا نضَب الكلامُ مَعِينُ
ويُسيءُ بالإحسان ظَنّاً لا كَمَن	هو بابنه وبشِعره مَفتونُ (١)

فلو كان يسيء بالإساءة ظَنّاً ولا يُفتَتن بشعره كنّا في غنىً عن الاعتذار له .

وقد فضّل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يَشُقُّ الطاعنون عليه غُبارَه ، ولا يُدركون ـ وإن جَدّوا ـ آثاره ، وما رأى الناسُ بعده إلى حيث انتَهوا له في جيِّده نظيراً ولا شكلاً ؛ ولولا أنّ الرّواةَ قد أكثروا في الاحتجاج له وعليه ، وأكثرَ متعصّبوه الشرحَ لجيّد شعره ، وأفرطَ مُعادُوه في التسطير لِرديئه ، والتنبيه على رَذْله ودَنيئه ، لذكرتُ منه طَرَفاً ، ولكن قد اتى من ذلك ما لا مَزيدَ عليه .

---

(١) صَنَع : حاذق بارع . الجفر : البئر الواسعة .

أخبرني عمّي قال : سمعت أبي قال : سمعت محمد بن عبد الملك الزيّات يقول : أشعَرُ الناس طُرّاً الذي يقول :

وما أُبالي وخيرُ القــول أَصدَقُـــــه ... حقنتَ لي ماءَ وجهي أو حَقنتَ دمي

فأحببت أن استثبتَ إبراهيمَ بن العبّاس[1] ـ وكان في نفسي أعلمَ من محمّد وآدَب ـ فجلستُ إليه ، وكنت أُجري عنده مَجْرى الولـد ، فقلت له : مَن أشعرُ أهل زماننا هذا ؟ فقال : الذي يقول :

مطـرٌ أبوك أبو أَهِلّـــة وائـــلٍ ... مــلأ البسيطـةَ عُــدّةً وعَـديـدا
نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضُّحى ... نُوراً ومن فَلَق الصبــاح عَـمُـو دا
ورثوا الأُبوّةَ والحظوظ فأصبحـــوا ... جمعوا جُدوداً في العلا وجدودا

فاتفقا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه .

محمد بن يزيد النحويّ قال :

قدِم عُمارة بن عَقيل[2] بغداد ، فاجتمع الناسُ إليه ، فكتبوا شعرَه وشعر أبيه ، وعَرَضوا عليه الأشعار ، فقال بعضُهم : ها هنا شاعرٌ يزعُمُ قومٌ أنه أشعرُ الناس طُـرّاً ، ويزعُم غيرُهم ضدَّ ذلك . فقال : أنشِدوني قولَه . فأنشَدوه :

غدتْ تستجير الدمعَ خوفَ نَـوَى غدٍ ... وعاد قَـتاداً عندَها كلُّ مَرقَـدِ
وأنقذها من غَمرة المـــوت أنّــه ... صُدودُ فراقٍ لا صُدود تَـعَـمُّـدِ
فأجرى لها الإشفاقُ دمعاً مُـوَرَّداً ... من الدَّم يجري فوق خدٍّ مُـوَرَّدِ
هي البدرُ يُغنيها تودُّدُ وجهِهـــــا ... إلى كلّ مَن لاقتْ وإن لم تَـوَدَّدِ

ثم قطع المنشِـدُ ، فقال له عُمارة : زِدنا من هذا . فوصَل نشيدَه وقال :

---

(١) ابراهيم بن العباس الصولي : أحد أعلام الكتابة والشعر في العصر العباسي .

(٢) هو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية ، الشاعر الاموي المشهور

ولكنّني لم أَحوِ وَفراً مُجَمَّعاً　　ففُزت به إلاّ بشَملٍ مُبَدَّدِ
ولم تُعطِني الأيامُ نوماً مُسَكَّناً　　أَلَذُّ به إلّا بنومٍ مُشَرَّدِ

فقال عُمارة : لله درُّه ! لقد تقدّم في هذا المعنى مَن سبقه إليه ، على كثرة القول فيه ، حتى لقد حَبَّب إليّ الاغتراب ، هِيهِ . فأنشده :

وطُولُ مُقام المرء في الحيّ مُخْلِقٌ　　لدِيباجتَيه فاغترِبْ تتجدّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زِيدتْ محبّةً　　إلى الناس أنْ ليست عليهم بسَرْمَد(١)

فقال عمارة : كمَل واللهِ ، لئن كان الشعرُ بجَودة اللفظ وحُسن المعاني واطّراد المُراد واتّساق الكلام فإنّ صاحبَكم هذا أشعرُ الناس .

محمد بن موسى بن حَمّاد قال :

سمعتُ عليّ بن الجَهمْ يصف أبا تمّام ويُفضّله ، فقال له رجلٌ والله لو كان أبو تمام أخاك ما زِدت على مَدحك هذا . فقال : إن لم يكن أخاً بالنسب فإنه أخٌ بالأدب والمودّة ، أما سمعتَ ما خاطَبني به حيث يقول :

إن يُكدِ مُطَّرِف الإخاء فإنّنا　　نَغْدُو ونَسري في إخاءٍ تالدِ
أو يختلفْ ماءُ الوِصال فماؤنا　　عَذْبٌ تحدَّر من غَمامٍ واحدِ
أو يفترقْ نسبٌ يُؤلِّفْ بيننا　　أدبٌ أقمناه مَقام الوالد(٢)

عبدالله بن محمد بن جرير قال :

سمعت محمد بن حازم البّاهليّ يقدّم أبا تمام ويفضّله ويقول : لو لم يقل إلّا مَرثيته التي أوّلها :

أصَمّ بك الناعي وإن كان أسمَعا

---

(١) القتاد : الشوك . أخلقه : أبلاه .

(٢) أكدى : خاب ولم ينفع . المطرف : المستحدث . التالد : القديم .

وقوله :

لو يقدِرون مشَوا على وَجناتهـم وجِباهِهم فضـلاً عن الأقـدام

لكَفَتاه .

الحسين بن عبدالله قال :

سمعت عمّي إبراهيم بن العبّاس يقول لأبي تمّام وقد أنشد شعراً له في المعتصم : يا أبا تمام ، أمراءُ الكلام رعيّةٌ لإحسانك .

هارون بن عبدالله قال : قال لي محمد بن جابر الأزْديّ ، وكان يتعصّب لأبي تمام :

أنشدتُ دِعبلَ بنَ عليّ شعراً لأبي تمام ، ولم أُعلِمْه أنه له ، ثم قلت له : كيف تراه ؟ قال : أحسَنُ من عافيةٍ بعد يأسٍ . فقلت : إنه لأبي تمام . فقال : لعلّه سَرَقه .

أحمد بن يزيد المهلّبيّ عن أبيه قال :

ما كان أحدٌ من الشعَراء يقدِر على أن يأخُذَ درهماً بالشعر في حياة أبي تمام ، فلمّا مات اقتسم الشعراء ما كان يأخُذه .

وهَبْ بن سعيد قال :

جاء دِعبل إلى الحسن بن وهب في حاجةٍ بعد موت أبي تمام ، فقال له رجلٌ في المجلس : يا أبا عليّ ، أنت الذي تطعن على من يقول :

شهِدتُ لقد أقوتْ مغانيكمُ بعـدي ومَحَّتْ كما محّت وشائعُ من بُرْدِ
وأنجدتمُ من بعد إتهام داركـم فيا دمعُ أَنجِدني على ساكني نَجد[1]

فصاح دعبل : أحسَنَ والله ! وجعل يردّد : « فيا دمعُ أنجدني على ساكني

(١) محت : درست وانمحت . الوشائع ج وشيعة : الطريقة في البرد ، وهي تخطيط يخالف لونه لون سائر البرد .

نجد » . ثم قال : رحمه اللهُ ! لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت إنه أشعر الناس .

طائفة من أخباره

● عبيد الله بن عبدالله بن طاهر قال :

لمّـا قدِم أبو تَمام إلى خُراسان اجتمع الشعراء إليه وسألوه أن يُنشدهم ، فقال : قد وعدني الأميرُ أن أُنشِدَه غداً وستسمعونني . فلمّـا دخل على عبدالله أنشده :

هُـنَّ عَـوادي يوسفٍ وصواحبـــه   فعَزمـاً فقِـدْمـاً أدرك السُّؤلَ طالُبهْ

فلما بلغ إلى قوله :

وقلقلَ نَـأيٌ من خراسان جَـأشَهـــا   فقلت اطمئنّي أنضرُ الرَّوض عاذُبُـهْ
وركبٍ كأطرافِ الأسنّة عـرَّسـوا   على مثلها والليلُ تسطو غياهِبُـه
لأمرٍ عليهم أن تتمّ صُـــــدورُه   وليس عليهم أن تتمَّ عواقِبُـه (١)

فصاح الشعراءُ بالأمير أبي العباس : ما يستحقّ مثلَ هذا الشعر غيرُ الأمير ، أعزّه الله ! وقال شاعرٌ منهم يُعرف بالرِياحيّ : لي عند الأمير ، أعزّه اللهُ ، جائزةٌ وَعَدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل جزاءً عن قوله للأمير . فقال له : بل نُضعفها لك ، ونقوم له بما يجب علينا . فلمّـا فرغ من القصيدة نثر عليه ألف دينارٍ ، فلقَطها الغِـلمانُ ولم يَمَسّ منها شيئاً ، فوجَد عليه عبدُ الله وقال : يترفّع عن بِـرّي ، ويتهاون بما أكرمته به ! فلم يبلُغ ما أراده منه بعد ذلك .

● عن سعيد بن جابر الكَـرْخيّ ، عن أبيه :

---

(١) قلقله : حركه وجعله يضطرب . عرسوا : نزلوا ليلاً . عل مثلهـا : أي على نوق تشبه أطراف الاسنة .

أنه حضر أبا دُلَف القاسم بن عيسى وعنده أبو تمام الطائيّ وقد أنشده قصيدته :

على مِثلها من أربُعٍ ومَلاعِبِ ... أُذِيلت مَصُوناتُ الدُّموع السّواكبِ

فلما بلغ إلى قوله :

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقَوسها ... وزادت على ما وطّدتْ من مناقب
فأنتم بذي قارٍ أمالت سيوفكُم ... عُروش الذين استَرْهَنوا قوسَ حاجب
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنُوا بها ... محاسنَ أقوام تكن كالمَعايب (١)

فقال أبو دلف : يا معشرَ ربيعةَ ، ما مُدحتم بمثل هذا الشعر قطّ ، فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمَطارفهم يرمون بها إليه ، فقال أبو دلف : قد قَبِلها وأعاركم لُبسَها ، وسأنوب عنكم في ثوابه ، تَمِّم القصيدة يا أبا تمام . فتمّمها ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، وقال : والله ما هي بإزاء استحقاقك وقدرك ، فاعذِرْنا . فشكره وقام ليقبّلَ يده ، فحلف ألّا يفعل ، ثم قال له : أنشدني قولَك في محمد بن حُميد :

وما مات حتى مات مضرِبُ سيفه ... من الضَّرب واعتلَّتْ عليه القنا السُّمْرُ
وقد كان فَوت الموت سهلاً فردَّه ... إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُق الوَعْر
فأثبت في مُستَنقع الموت رجلَه ... وقال لها من تحت أَخْمَصِك الحَشر
غدا غَدوةً والحمدُ نسجُ ردائه ... فلم ينصرفْ إلّا وأكفانُه الأَجرُ
كأنّ بني نَبْهانَ يومَ وفاته ... نجومُ سماءٍ خرّ من بينها البَدر
يُعَزَّون عن ثاوٍ تُعَزّى به العُلى ... ويبكي عليه البَأس والجود والشعر(٢)

---

(١) أذيلت : أهينت . قوس حاجب : كان حاجب بن زرارة سيد بني تميم قد رهن قوسه لدى كسرى ثم وفى بوعده له فضرب المثل بها . وابو دلف الممدوح هو من بني عجل وكانوا مع بني شيبان في قتال الفرس يوم ذي قار .

(٢) الأخمص من القدم : ما لا يصيب الارض من باطنها .

فأنشده إياها ، فقال : والله لَوَدِدْتُ أنّها فيّ . فقال : بل أُفَدّي الأمير بنفسي وأهلي وأكونُ المقدَّم . فقال : إنّه لم يمت مَن رُثي بهذا الشعر أو مثله .

● محمد بن سعد أبو عبدالله الرَّقيّ ـ وكان يكتب للحسن بن رَجاء ـ قال :

قدِم أبو تمام مادحاً للحسن بن رجاء ، فرأيت منه رجلاً عقلُه وعلمه فوق شعره ، فاستنشده الحسن ، ونحن على نبيذٍ ، قصيدته اللامية التي امتدحه بها ، فلما انتهى إلى قوله :

أنا من عرفتِ فإن عَرَتْكِ جَهالةٌ ... فأنا المُقيم قيامةَ العُذّالِ
عادت لـه أيامُه مُسودَّةً ... حتى توهّم أنهنّ ليالي

فقال الحسن : والله تَسْوَدُّ عليك بعد اليوم . فلمّا قال :

لا تُنكري عَطَلَ الكريم من الغنى ... فالسَّيل حربٌ للمكان العالي
وتَنَظَّري خَبَبَ الرِّكاب يَنُصُّها ... مُحيي القريض إلى مُميت المالِ

فقام الحسن بن رجاء على رجليه وقال : والله لا أتممتَها إلا وأنا قائم . فقام أبو تمام لقيامه ، وقال :

لمّا بلَغْنا ساحةَ الحَسَنِ انقضى ... عنّا تَمَلُّكُ دولة الإمحالِ
بَسَط الرَّجاءَ لنا برَغْم نوائبٍ ... كَثُرتْ بهنّ مَصارعُ الآمال
أَغلى عَذارى الشعر إنّ مُهورَها ... عند الكرام وإن رَخُصْن غَوالي
تَرِد الظُّنونُ به على تصديقها ... ويُحكِّمُ الآمالَ في الأموال
أضحى سَمِيُّ أبيك فيك مُصَدَّقاً ... بأجلّ فائدةٍ وأَيْمَنِ فالِ
ورأيتَني فسألتَ نفسَك سَيْبَها ... لي ثم جُدتَ وما انتظرتَ سؤالي
كالغيث ليس له أُريد غَمامُه ... أم لم يُرَدْ بُدٌّ من التَّهطالِ (١)

---

(١) الخبب : ضرب من السير السريع ، وفي المطبوعة : حيث وما أثبتناه رواية الديوان وهي أجود . السيب : العطاء .

فتعانقا وجَلسا . وقال له الحسن : ما أحسنَ ما جَلَوتَ هذه العروس . فقال : والله لو كانت من الحُور العِينِ لكان قيامُك لها أوفى مُهورها .

قال محمد بن سعد : وأقام شهرين ، فأخذ على يدي عشرةَ آلاف درهم ، وأخذ غير ذلك ممّا لم أعلم به ، على بُخل كان في الحسن بن رجاء .

● الحسن بن وَداع كاتب الحسن بن رجاء قال :

حضرتُ أبا الحسين محمد بن الهيثم بالجبل وأبو تمام يُنشده :

أَسْقى ديارَهم أَجَشُّ هَزِيمُ ... وغَدتْ عليهم نَضرةٌ ونعيمُ (1)

قال : فلمّا فَرَغ أمر له بألف دينارٍ وخَلَع عليه خِلعةً حسنة ، وأقمنا عنده يومَنا . فلمّا كان من غَدٍ كتب إليه أبو تمام :

قد كَسانا من كُسوة الصيف خِرْقٌ ... مُكتسٍ من مَكارمٍ ومَساعِ
حُلّةً سابريّةً ورِداءً ... كسَحا القَيض أو رداء الشُجاعِ
كالسَّراب الرَّقراقِ في الحُسن إلّا ... أنّه ليس مثلَه في الخِداع
قَصَبيّاً تَسترجفُ الرّيحُ مَتْنَيه ... بأمرٍ من الهَبُوبِ مُطاعِ
رَجَفاناً كأنّه الدّهرَ منه ... كبِدُ الصَّبّ أو حَشَا المُرتاع
لازماً ما يليه تحسِبهُ جُزْ ... ءاً من المَتنين والأضلاع
يطرُد اليومَ ذا الهَجِير ولو شُبّه ... في حَرّه بيوم الوَداعِ
خِلعةً من أغرَّ أروعَ رَحْبِ الصَّدْر رَحبِ الفؤاد رحب الذِّراع
سوف أكسُوك ما يُعفّي عليها ... من ثناءٍ كالبُرد بُردِ الصَّناع
حُسنُ هاتيك في العيون وهذا ... حُسنُه في القلوبِ والأَسماع (2)

---

(1) الأجش : الصوت الخشن الغليظ ، واراد به هنا الرعد . الهزيم : صوت الرعد.

(2) الخرق : الكريم السخي . السابري من الثياب : الرقيق النسج . سحا القيض . قشر البيض الذي يكون تحت القشرة الصلبة . الشجاع : الحية . القصبي من الثياب : الرقيق الناعم . تسترجف : تحرك . الهبوب من الرياح : الشديدة المثيرة للغبار يعفي عليها : يفوقها قيمة . الصناع : المرأة الحاذقة في العمل بيديها .

فقال محمد بن الهيثم : ومَن لا يُعطي على هـذا مُـلكَه ! والله لا بقـي في داري ثوبٌ إلا دفعتُه إلى أبي تمام . فأمر له بكل ثوب كان يملكه في ذلك الوقت .

● الفضلُ قال :

لمّـا شَخص أبو تمام إلى عبدالله بن طاهر وهو بخراسان أقبل الشتاء وهو هناك ، فاستثقل البلدَ ، وقد كان عبدالله وجَد عليه وأبطأ بجائزته لأنه نثر عليه ألف دينار فلم يمسَسْها بيده ترفُّعاً عنها ، فأغضبه وقال : يحتقر صِلتي ويترفَّع عليّ . فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء ، كالقُوت ، فقال أبو تمام :

لم يبقَ للصَّيفِ لا رسـمٌ ولا طَلَـلُ ... ولا قشيبٌ فيُستَكْسى ولا سَمَلُ
عَدلٌ من الدمع أن يُبكَى المَصِيفُ كما ... يُبكى الشبابُ ويُبكى اللهوُ والغزَلُ
يُمنى الزَّمانِ انقضى معروفُها وغَـدَت ... يُسراه وهي لنا من بَعدها بَدَلُ (١)

فبلغت الأبيـاتُ أبا العَمَيْثَلِ شاعرَ آل عبدالله بن طاهر ، فأتى أبا تمـام واعتذر إليه لعبدالله بن طاهر ، وعاتَبه على ما عَتَب عليه من أجله ، وتَضمّن له . ما يُحبّه . ثم دخل إلى عبدالله فقال: أيها الأمير ، أتتهاون بمثل أبي تمام وتَـجْفُوه ! فوالله لو لم يكن له مالَـه من النَّباهة في قَدره ، والإحسان في شعره ، والشائع من ذِكره ، لكان الخوفُ من شرّه ، والتوقّي لذَمّه ، يُوجب على مثلك رعايته ومُراقبتَه ، فكيف وله بنُزوعه إليك من الوطن ، وفِراقه السَّكَن ، وقد قصَدَك عاقداً بك أَمَلَه ، مُعمِلاً إليك رِكابه ، مُتعباً فيك فِكره وجسمه ، وفي ذلك ما يُلزِمُك قضاءَ حقّه ، حتى ينصرفَ راضياً ولو لم يأت بفائدة ، ولا سُمع فيك منه ما سُمع إلّا قولَه :

تقول في قُومَسٍ صَحبي وقد أَخذتْ ... منّا السُّرى وخُطا المَهريّة القُودِ

---

(١) القشيب : الجديد من الثياب . السمل : البالي .

أمطِلعَ الشمس تَبغي أن تَؤُمَّ بنــــا فقلت كلّا ولكن مَطلِعَ الجُودِ[1]

فقال لـه عبدُالله : لقـد نَبهتَ فأحسنتَ ، وشفَعت فلَطُفت ، وعاتبـتَ فأوجعت ، ولك ولأبي تمام العُتبىَ[2] ؛ ادعُه يا غلامُ . فدعاه ، فنادمَه يومَه ، وأمر له بألفي دينار وما يحمله من الظَّهْر[3] ، وخلع عليه خِلعةً تامّة من ثيابه ، وأمر بِبَذْرَقته[4] إلى آخر عمله .

● محمد بن يزيد قال :

مات لعبدالله بن طاهر ابنانِ صغيران في يوم واحد ، فدخل عليه أبو تمام فأنشده :

ما زالت الأيامُ تُخبرسائــلاً أن سوف تفجعُ مُسهِلاً أو عاقلا
مجدٌ تأوّب طارقاً حـتى إذا قلنا أقام الدهرَ أصبح راحـلا
نجمان شاء اللهُ ألّا يَطلُعــا الا ارتدادَ الطَّرف حتى يأفِـلا
إنّ الفجيعةَ بالرّياض نواضراً لأجلُّ منها بالرّياض ذوابـــلا
لو يُنسبان لكـان هذا غاربـاً للمَكْـرُمات وكان هذا كاهـلا
لهفي على تلك المخايـلِ منهما لو أُمهِلت حتى تكون شَمائـلا
لغدا سكونُـهما حِجىً وصِباهما حِلماً وتلك الأريحيّـةُ نائـلا
إنّ الهلال إذا رأيتَ نموَّه أيقنتَ أن سيكونُ بدراً كاملاً[5]

* * *

(١) قومس : صقع كبير من خراسان وبلاد الجبل . المهرية : الابل المنسوبة الى مهرة .
(٢) العُتبى : الرضى وازالة العتب .
(٣) الظهر : الأبل التي تحمل الأثقال .
(٤) بذرقته : حراسته .
(٥) المسهل : النازل في السهل . العاقل : الممتنع في الجبل العالي . تأوب . ورد ليلاً . ينسبان : كذا في المطبوعة ، ورواية الديوان : ينسآن ، أي يؤخر في أجلهما . الحجى : العقل والفطنة .

٧

أبو حَيَّة النُّمَيريّ

[الأغاني الجزء ١٦ ص ٣٠٧ وما بعدها]

الشاعر

أبو حَيّـةَ الهيثم بن الربيع بن زُرارة ... بن نُـمَير بن عامر بن صَعصعة ...

وأبو حيّة شاعرٌ مجيد مقدَّم من مُخَضرمي الدولتين الأموية والعبّاسية ، وقد مدح الخلفاء فيهما جميعاً ، وكان فصيحاً مُقَصِّداً راجزاً ، من ساكني البصرة ، وكان أهوجَ جَباناً بخيلاً كَذّاباً ، معروفاً بذلك أجمعَ . وكان أبو عمرو ابن العَلاء يُقدّمه . وقيل إنه كان يُصرَع .

أبو عثمان قال : كان أبو حيّة النميري مجنوناً يُصرَع ، وقد أدرك هشام ابن عبد الملك .

عبد الرحمن بن أخي الأصمعيّ قال : سمعت عمّي يقول : أبو حية في الشعراء كالرجل الرَّبْعة لا يُعَدّ طويلاً ولا قصيراً .

قال : وسمعت أبا عمرو يقول : هو أشعَرُ في عُظم الشِعر من الراعي .

طائفة من أخباره

● [عن طائفة من الرواة :]

كان لأبي حيّة سيفٌ يُسمّيه لُعابَ المنيّة ، ليس بينه وبين الخَشَبة فرقٌ ، وكان من أجبنَ الناس .

قال : فحدّثني جارٌ له قال : دخل ليلةً إلى بيته كلبٌ ، فظَنّه لِصاً ، فأشرفتُ عليه وقد انتضى سيفَه لعابَ المنيّة ، وهو واقفٌ في وسط الدار وهو يقول : أيّها المغترُّ بنا ، والمجترئُ علينا ، بئس والله ما اخترتَ لنفسك ، خيرٌ قليل ، وسيفٌ صَقيل ، لعابُ المنيّة الذي سمعتَ به ، مشهورةٌ ضربتُه ، لا تُخاف نَبْوتُه ، أُخرُجْ بالعفو عنك قبل أن أدخُلَ بالعُقوبة عليك . إنّي واللهِ إن أدعُ قيساً إليك لا تَقُمْ لها . وما قيس ؟ تملأ واللهِ الفضاءَ خيلاً ورَجْلاً ، سبحانَ الله ! ما أكثرَها وأطيبَها ! فبينا هو كذلك إذ خرج الكلبُ ، فقال : الحمدُ لله الذي مَسَخك كلباً ، وكفاني حَرباً .

● قالوا :

كان أبو حيّة النُميريّ من أكذب الناس ، فحدّث يوماً أنه يخرُج إلى الصحراء ، فيدعو الغِربان فتقعُ حولَه ، فيأخذ منها ما شاء . فقيل له : يا أبا حيّة ، أرأيتَ إن أخرجناك إلى الصحراء ، فدعوتَها فلم تأتِكَ ، فما نصنع بك ؟ قال : أبعَدَها اللهُ إذن .

قال : وحدّثنا يوماً قال : عنَّ لي ظَبْيٌ يوماً ، فرميتُه ، فراغ عن سهمي ، فعارضه السهمُ ، ثم راغ ، فعارضه السهم ، فما زال والله يروغ ويعارضه حتى صرعه ببعض الجبّانات .

قال : وقال يوماً : رميتُ والله ظَبيةً ، فلمّا نفَذ سهمي عن القوس ذكرت بالظبية حبيبةً لي ، فعدوتُ خلفَ السّهم حتى قبضتُ على قُذَذه[1] قبل أن يُدركَها .

---

(١) القذة : ريشة السهم .

● عن الأصمعيّ قال :

وفد أبو حيّة النميريّ على المنصور ، وقد امتدحه وهجا بني حسن بقصيدته التي أولها :

عُوجا نُحيٍّ ديارَ الحيّ بالسَّنَدِ وهل بتلك الدّيارِ اليومَ من أحدِ

يقول فيها :

أحينَ شِيمَ فلم يترُكْ لهم تِرةً سيفٌ تقلّده الرِّئبالُ ذو اللِّبَدِ
سَللتموه عليكم يا بني حَسَنٍ ما إن لكم من فَلاحٍ آخرَ الأَبَدِ
قد أصبحتْ لبني العبّاس صافيةً لِجَدْع آناف أهل البَغْي والحسَدِ
وأصبحت كلهَاة الليث في فمه ومن يحاولُ شيئاً في فم الأسدِ

فوصله أبو جعفر بشيء دون ما كان يُؤمِّلُ ، فاحتجن لِعيالـه أكثره ، وصار إلى الحِيرة ، فشرب عند خمّارة بها ، فأعجبه الشُّربُ ، فكرِه إنفادَ ما معه ، وأحب أن يدومَ له ما كان فيه ، فسأل الخمّارة أن تبيعَه بنسيئةٍ ، وأعلمها أنه مدح الخليفةَ ، وجماعةً من القُوّاد . ففعلت ....

● عن عبدالله بن مُسلم قال :

لقِي ابنُ مناذر أبا حيّة فقال له : أنشِدني بعضَ شعرك . فأنشده :

« ألا حيٍّ من أجل الحبيب المَغانيا »

فقال له ابن مناذر : وهذا شعرٌ ! فقال أبو حيّة : ما في شعري عيبٌ هو شرٌّ من أنك تسمعه . ثم أنشده ابنُ مناذر شيئاً من شعره ، فقال أبو حيّة : قد عرفتك ما قصتك[1] ؟

* * *

(١) روي هذا الخبر في ترجمة ابن مناذر عل نحو مختلف عما ها هنا بعض الاختلاف .

٨

أبو دُلامة

[الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٥ وما بعدها]

الشاعر

أبو دُلامة زَنْد بن الجَون ، وأكثر الناس يُصحِّف اسمه فيقول « زيد » بالياء ، وذلك خطأ ، وهو زندٌ بالنون . وهو كُوفيٌّ أسودُ ، مولًى لبني أسد . وكان أبوه عبداً لرجلٍ منهم يُقال له فُضافِض ، فأعتقه . وأدرك آخر أيام بني أميّة ، ولم يكن له في أيّامهم نَباهةٌ . ونبَغ في أيام بني العبّاس ، وانقطع إلى أبي عبّاس وأبي جعفر المنصور والمَهديّ ، فكانوا يُقدّمونه ويَصِلونه ويستطيبون مُجالسته ونوادره . وقد كان انقطع إلى رَوح بن حاتم المُهَلَّبيّ أيضاً في بعض أيامه ؛ ولم يصل إلى أحدٍ من الشعراء ما وصل إلى أبي دُلامة من المنصور خاصّةً .

وكان فاسدَ الدِّين ، رَديء المذهب ، مرتكباً للمَحارم ، مُضيّعاً للفُروض ، مُجاهراً بذلك . وكان يُعلَم هذا منه ويُعرَف به ، فيُتَجافى عنه لِلُطف محلّه .

عن محمّد بن حَبيبَ قال :

اسم أبي دلامة زَنْد ، بالنون ، ومن الناس من يَرويه بالياء . وكُنّي أبا دُلامة باسم جبلٍ بمكّة يقال له أبو دُلامة ، كانت قريش تئد فيه البناتِ في الجاهليّة ، وهو بأعلى مكّة .

أخباره مع المنصور

كان أوّل ما حُفظ من شعره وأسنيت الجوائز له به قصيدةً مدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قتلَه أبا مُسلم .

عن أحمد بن حبيبٍ قال : لمّا قال أبو دُلامة قصيدته في قتل أبي مُسلم التي يقول فيها :

أبا مُسلِمٍ خوفتَني القتلَ فانتحى ... عليك بما خوّفتَني الأسدُ الوَرْدُ
أبا مسلمٍ ما غيّر اللهُ نِعمــــةً ... على عَبده حتى يُغَيِّرَها العبـدُ

أنشدها المنصورَ في مَحفِلٍ من الناس فقال لـه : احتكِمْ . قال : عشرة آلاف درهم . فأمر له بها . فلمّا خلا به قال له : إيهِ ! أما والله لو تعدَّيتَها لقتلتُك .

أبو مالك عبدالله بن محمّد قال : حدّثني أبي قال :

لمّا تُوفيّ أبو العبّاس السفّاح دخل أبو دلامة على المنصور ، والناسُ عنده يُعزّونه ، فأنشأ أبو دُلامة يقول :

أمسيتَ بالأَنبار يا بنَ محمّـــدٍ ... لم تستطع عن عُقْرها تحويلا
وَيلي عليك وويلُ أهلي كُلّهــم ... وَيلاً وعَولاً في الحياة طويـلا
فَلتبكينّ لك النساءُ بعَـــــبرةٍ ... وَليبكينّ لك الرجالُ عَـــويلا
مات النّـدى إذ مُـتَّ يا بنَ محمّدٍ ... فجعلتَه لك في الثَّراء عَـدِيلا
إنّي سألتُ الناس بعدَكَ كلَّهــم ... فوجدت أسمحَ من سألتُ بخيلا
ألِشِقْوتي أُخّرتُ بعدك للـــتي ... تدع العزيزَ من الرّجال ذليـلا
فَلأَحلِفنّ يميــنَ حــقٍّ بَـــرّةً ... بالله ما أُعطِيتُ بعدك سُولا(١)

---

(١) الثراء : لغة في الثرى وهو التراب . السول والسؤل : ما يسأله المرء من مطالب .

قال : فأبكى الناسَ قولُه ، فغضب المنصور غضباً شديداً وقال : لَئن سمعتُك تُنشد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانك . فقال أبو دلامة : يا أُمير المؤمنين ، إنّ أبا العبّاس أميرَ المؤمنين كان لي مُكرِماً ، وهو الذي جاء بي من البَدو كما جاء الله بإخوة يوسُف إليه ، فقل كما قال يوسف لإخوته : «لا تَثريبَ عليكم اليومَ يَغفِرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين» . فسُرّي عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دلامة ، فسَلْ حاجتَك . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العبّاس أمرَ لي بعشرةِ آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريضٌ ، ولم أقبَضْها . فقال المنصور : ومَن يعرف هذا؟ فقال : هؤلاء . وأشار إلى جماعة ممن حضَر . فوثب سليمان بن مُجالِد وأبو الجَهْم فقالا : صدقَ أبو دلامة ، نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبي أيّوب الخازن وهو مَغيظٌ : يا سليمانُ ، ادفَعْها إليه وسيِّرْه إلى هذا الطاغية (يعني عبدَالله بن عليّ[1] ، وقد كان خرج بناحية الشأم وأظهر الخِلاف) ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي أُعيذُك بالله أن أخرج معهم ، فواللهِ إنّي لَمشؤوم . فقال المنصور : امضِ ، فإنّ يُمْني يغلِبُ شؤمَك ، فاخرُجْ . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أُحبّ لك أن تُجرّب ذلك منّي على مثل هذا العسكر ، فإنّي لا أدري أيُّهما يغلِب : أيُمْنك أم شؤمي ، إلّا أنّي بنفسي أوثَق وأعرَف وأطوَل تجربةً . قال : دَعْني من هذا فمالك من الخروج بُدّ . فقال : إنّي أَصْدُقُك الآنَ ، شهدتُ واللهِ تسعةَ عشرَ عسكراً كُلُّها هزمت ، وكنتُ سببَها ، فإن شئت الآن على بَصيرةٍ أن يكون عسكرُك العشرين فافعَلْ . فاستغرب أبو جعفر ضَحِكاً[2] وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى[3] بالكوفة .

(١) هو عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس عم الخليفة المنصور وقد خرج على المنصور عام ستة وثلاثين ومائة وانتهى الأمر بهزيمته عل يد أبي مسلم الخراساني ثم قتل .
(٢) استغرب ضحكاً : ضحك ضحكاً كثيراً .
(٣) عيسى بن موسى بن محمد الهاشمي : أمير الكوفة وكان وليّ عهد المنصور بعهد من السفاح ثم جعل المنصور المهدي مكانه .

عن الهيثم بن عَديّ قال :

لمّا مات أبو العبّاس السفّاح ووَلِي المنصورُ دخل عليه أبو دلامةَ ، فقال له أبو جعفر : ألست القائلُ لأبي العبّاس :

وكُنّا بالخليفة قد عَقدْنـــا لِـواءِ الأمر فانتقض اللـــواءُ
فنحن رعيّةٌ هَلَكت ضَياعـــاً تَسُوق بنا إلى الفِتن الرِّعـــاءُ

قال : ما قلت هذا يا أمير المؤمنين . قال : كذبتَ والله ، أفلست القائل :

هلَك النَّدى إذ بِنتَ يا بنَ محمّدٍ فجعلتَه لك في التُّراب عَديلا
ولقد سألت الناس بعدَك كلَّهم فوجدتُ أكرمَ من سألتُ بخيلا
وَلقد حلفتُ على يمينٍ بَـــرَّةٍ بالله ما أُعطيت بعدك سُـــولا

فقال أبو دلامة : إنّ أخاك صلّى الله عليه غَلَبني على صَبْري ، وسَلَبني عَزيمتي وعزّني بإحسانه إليّ وجَزَعي عليه ، فقلتُ ما لم أتأمّلْه ، وإنّي أرغب في الثمن فاستَفْرَهَ[1] السِّلعة حيّاً وميّتاً . فإن أعطيتَ ما أعطى أخذتَ ما أخَذ . فأمر به فحُبس ثلاثاً ، ثم خَلّى سبيله ودعاه إليه فوصله ، ثم عاد له إلى ما كان عليه .

الجاحظ قال :

كان أبو دُلامة بين يدي المنصور قائماً ـ وأخبرني إبراهيم بن أيّوب عن ابن قتيبة أنه كان واقفاً بين يدَي السَفّاح ـ فقال له : سَلْني حاجتَك . قال أبو دلامة : كلبٌ أتصيّد به . قال : أعطُوه إيّاه . قال : ودابّةٌ أتصيّد عليها . قال : أعطُوه . قال : وغلامٌ يصيد بالكلب ويقُوده . قال : أعطوه غلاماً . قال : وجاريةٌ تُصلح لنا الصَّيد وتُطعمنا منه . قال : أعطوه جاريةً . قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عَبيدُك فلا بُدّ لهم من دارٍ يسكُنونها : قال : أعطوه

(١) استفره الشيء : اختار فارهه أي كريمه .

داراً تجمعُهم . قال : فإن لم تكن لهم ضَيْعةٌ فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أعطيتُك مائةَ جَريبٍ[1] عامرة ومائة جَريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : ما لا نباتَ فيه . فقال : قد أقطعتُك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فَيافي بني أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلَّها عامرة . قال : فَأْذَنْ لي أن أُقبِّلَ يدك . قال : أمّا هذه فدَعْها . قال : واللهِ ما منعتَ عيالي شيئاً أقلَّ ضرراً عليهم منها .

قال الجاحظ : فانظُر إلى حِذقه بالمسألة ولطفه فيها : ابتدأ بكلب فسَهّل القصّة به ، وجعل يأتي بما يَليه على ترتيبٍ وفُكاهة ، حتى نال ما لو سأله بَديهةً لمَا وصَل إليه .

جعفر بن الحسين اللِّهبي[2] قال :

كان أبو جعفر المنصور قد أمر أصحابَه بلُبس السَّواد وقلانسَ طِوالٍ تُدْعَم بعيدان من داخلها ، وأن يُعلّقوا السُّيوف في المَناطق ، ويكتبُوا على ظهُورهم : « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهو السَّميعُ العَليم » . فدخل عليه أبو دلامة في هذا الزيِّ . فقال له أبو جعفر : ما حالُك ؟ قال : شرُّ حالٍ : وجهي في نِصفي ، وسَيفي في ... ، وكتابُ الله وراءَ ظَهري ، وقد صبغتُ بالسَّواد ثيابي . فضحك منه وأعفاه وحدَه من ذلك ، وقال له : إيّاك أن يسمعَ هذا منك أحدٌ .

ونسخت من كتابٍ لابن النَطّاح فذكر مثل هذه القصّة سواءً وزاد فيها :

وكنّا نُرجيّ من إمامٍ زيــادةً فجاد بطُول زاده في القَـلانس
تَراها على هام الرّجال كأنّـهــا دِنانُ يهودٍ جُلّلت بالبَرانسِ

---

(١) الجريب من الأرض : ما يوازي مساحة ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، وقيل أكثر من ذلك .

(٢) اللهبي : نسبة الى بني لهب بكسر أوله وسكون ثانية وهم بطن من الازد وقد ورد في المطبوعة اسم هذا الراوية منسوباً الى (لهب) تارة والى (المهلّب) تارة أخرى .

فضحك منه وأعفاه .

عن جعفر بن الحسين اللّهبيّ .. والهيثم بن عديّ قالا :

قال أبو أيوّب المُوريانيّ لأبي جعفر - وكان يَشنأ[1] أبا دُلامة - : إنّ أبا دلامةَ معتكفٌ على الخمر فما يحضُر صلاةً ولا مسجداً ، وقد أفسد فِتيان العسكر ، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأجِرتَ فيه وفي غيره من فتيان عَسكرك بقَطْعه عنهم . فلمّا دخل عليه أبو دلامة قال له : يا بنَ اللَّخْناء ، ما هذا المُجونُ الذي يبلُغني عنك ! قال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين ، ما أنا والمُجونُ وقد شارفتُ بابَ قبري ! قال : دَعْني من استكانتك وتضرُّعِك ، وإيّاك أن تَفُوتَك صلاةُ الظُّهر والعصر في مَسجدي ، فلئن فاتتاكَ لأُحسننَّ أدبكَ ولأُطيلنّ حبسَك . فوقع في شرٍّ ولزِم المسجد أياماً ، ثم كتب قصّته ودفعها إلى المهديّ فأوصَلَها إلى أبيه ، وكان فيها :

ألم تعلَما أنّ الخليفةَ لَــــزَّني ... بمسجدِه والقَصر مالي وللقصرِ
أُصلّي به الأُولى جميعاً وعَصرَها ... فوَيلي من الأُولى ووَيلي من العَصر
أُصلّيهما بالكرْه في غير مَسجدي ... فما ليَ في الأولى ولا العصر من أَجر
لقد كان في قومي مساجدُ جَمّـةٌ ... سِواه ولكنْ كان قَدْراً من القَدرِ
يُكلّفني من بعد ما شِبتُ خُطّـةً ... يَحُطُّ بها عنّي الثَّقيلَ من الوِزْر
وما ضرّه واللهُ يغفِرُ ذنبَــــه ... لو انّ ذُنوبَ العالمين على ظَهري[2]

قال : فلمّا قرأ المنصور قصّته ضحك وأعفاه من الحضور معه ، وأَحلفه أن يُصلّي الصّلاة في مسجد قبيلته .

نسخت من كتاب ابن النطّاح قال :

---

(١) يشنأ : يبغض ، والضمير يعود على أبي أيوب .

(٢) لزّني : ألزمني .

دخل أبو دلامة على المنصور فأنشده :

رأيتُك في المنام كسوتَ جِلْدي ثياباً جَمّةً وقضيتَ دَيني
فكان بَنفسجيُّ الخَزّ فيها وساجٌ ناعمٌ فأتمّ زَيْني
فصَدِّقْ يا فدتْك النفسُ رُؤيا رأتْها في المنام كذاك عَيني[1]

فأمر له بذلك وقال له : لا تَعُدْ أن تتحلّمَ[2] عليَّ ثانيةً فاجعلَ حُلمَك أضغاثاً[4] ولا أُحقّقه .

ثم خرج من عنده ومضى فشرب في بعض الحانات ، فسَكر وانصرف وهو يميل . فلَقِيه العَسَسُ فأخذوه ، وقيل له : مَن أنت وما دِينُك ؟ فقال :

دِيني على دين بني العبّاسِ ما خُتم الطِّين على القِرطاس
إنّي اصطحبتُ أربعاً بالكاس فقد أدار شُربُها براسي
فهل بما قلت لكم من باسِ

فأخذوه ومضَوا . وخَرّقوا ثيابه وساجَه . وأُتي به أبو جعفر ـ وكان يُؤتَى بكلّ من أخذه العَسس ـ فحبَسه مع الدّجاج في بيت . فلمّا أفاق جعل يُنادي غُلامه مَرّةً وجاريته أخرى فلا يُجيبه أحدٌ ، وهو في ذلك يسمع صوتَ الدّجاج وزُقاءَ الدُّيوك . فلمّا أكثر قال له السجّان : ما شأنك ؟ قال : ويلَك من أنت وأين أنا ؟ قال : في الحبس ، وأنا فلان السَجّان . قال : ومن حبسَني ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ومَن خرق طَيلساني قال : الحرَس . فطلب منه أن يأتيه بدواةٍ وقِرطاس ، ففعل ، فكتب إلى أبي جعفر :

---

(١) الساج : الطيلسان المدوّر الواسع .
(٢) تحلّم : ادّعى أنه حلم وهو كاذب .
(٣) اضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها .

أميرَ المؤمنين فَدَتْـك نفـسي — عَلامَ حبستَني وخَرقتَ ساجي
أمن صفراءَ صافيـةِ المـزاج — كأنّ شعاعَها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبخت بنـار الله حتى — لقد صارت من النُّطَف النِّضاج
تَهَشّ لها القلوبُ وتشتهيها — إذا بَرزت تَرقرقُ في الزُّجاج
أُقاد إلى السُّجون بغير جُرمٍ — كأنّي بعضُ عُمّال الخَراج
ولو معهم حُبست لكان سهلاً — ولكنّي حُبست مع الدَّجاج
وقد كانت تخبِّرُني ذنوبي — بأنّي من عِقابك غيرُ ناجي
على أنّي وإن لاقيتُ شرّاً — لِخيرك بعد ذاك الشرّ راجي[1]

فدَعا به وقال : أين حُبست يا أبا دُلامة ؟ قال : مع الدّجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أُقَوقي معهنّ حتى أصبحتُ . فضحك وخَلّى سبيله وأمر له بجائزة . فلمّا خرج قال له الرّبيع : إنّه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طبخت بنار الله (يعني الشمس) ؟ فأمر بردِّه ثم قال : يا خبيثُ شربت الخمر ؟ قال ؟ لا . قال : أفلم تقل : « طُبخت بنار الله » تعني الشمس ؟ قال : لا واللهِ ما عنَيت إلّا نارَ الله المُوقدة التي تَطَّلع على فؤاد الرّبيع . فضحك وقال : خُذها يا ربيعُ ولا تُعاوِدْ التعرُّض .

ونسخت أنا من كتاب ابن النَطّاح قال :

دخل أبو دلامة على المنصور فأنشده :

أما وربِّ العاديـات ضَبْحاً — حقّاً وربّ المُوريات قَدْحا
إنّ المُغيراتِ عليَّ صُبحا — والناكثاتِ من فؤادي قَرْحا
عَشرُ ليالٍ بينهنّ ضبحا — يَجلُفن مالي كلَّ عام صُبحا[2]

---

(١) النطف ج نطفة : الماء الصافي .

(٢) العاديات : الخيل تعدو . الضبح : صوت أنفاس الخيل اذا عدت . أورى : أشعل . =

فقال له أبو جعفر : وكم تذبح يا أبا دلامة ؟ قال : أربعاً وعشرين شاةً . ففرض له على كل هاشميٍّ أربعةً وعشرين ديناراً ، فكان يأخذها منهم . فأتى العباسَ بن محمد في عَشْر الأضحى يتنجزُّها ، فقال : يا أبا دلامة ، أليس قد مات ابنُك ؟ قال : بلى . قال : انقُصُوه دينارين . قال : أصلح الله الأمير لا تفعلْ ، فإنه ترك عليَّ وَلَدين . فأبى الّا أن ينقُصَه . فخرج وهو يقول :

أخطاك ما كنت ترجُوه وتأمُلُه فاغسِلْ يديك من العبّاس باليأسِ
واغسِل يديك بأُشْنان فأَنْقِهما ممّا تؤمِّل من معروف عبّاس
جزاك ربُّك يا عبّاسُ عنَّ فَرجٍ جَنّاتِ عَدْنٍ وعنّي جُرْزَتَي آسِ[1]

فبلغ ذلك أبا جعفر فضحك ، واغتاظ على العبّاس وأمره أن يبعث إليه بأربعة وعشرين ديناراً أخرى ...

قال ابن النطّاح :

وأنشد ابو دلامة المنصورَ يوماً :

هاتيك والدتي عجوزٌ هِمّةٌ مثلُ البليّة دِرْعُها في المِشجَبِ
مهزولة اللَّحْيَين من يَرها يَقُلْ أبصرتُ غُولاً أو خيالَ القُطْرُب
ما إن تركتُ لها ولا لابنٍ لها مالاً يُؤَمِّلُ غيرَ بَكرٍ أجربِ
ودَجائجاً خمساً يَرُحن إليهم لمّا يَبِضْن وغيرَ عَيْرٍ مُغْرِب
كتبوا إليَّ صحيفةً مطبوعةً جعلوا عليها طِينةً كالعَقْرب
فعلمتُ أنّ الشرَّ عند فَكاكها ففككتُها عن مثل رِيح الجَوْرَب

= نكأ القرح : قشره قبل أن يبرأ . ضبح الثانية : لا معنى لها في هذا الموضع وارى أن فيها تحريفاً . ويحتمل كذلك أن يكون في الشطر الثاني تحريف ولعل صوابه : يجلحن مالي كل عامٍ جلحاً ، وجلح : قشر والمجاليح : السنون التي تذهب بالمال .

(١) الأشنان : نبات كانوا يغسلون به أيديهم وآنيتهم .

وإذا شبيهٌ بالأفاعي رُقِّشَتِ   يُوعِدْنَني بتلمُّظٍ وتَثَــؤُّبِ
يشكون أنّ الجوعَ أهلك بعضَهم   لَزَباً فهل لك في عِيالِ لُزَّب
لا يسألونك غيرَ طَـلٍّ سَحابةٍ   تغشاهم من سَيلك المتحلِّــب
يا باذلَ الخَيرات يا بنَ بَـذُولها   وابن الكرام وكلِّ قَـرْمٍ مُنجِب
أنتم بنو العبّاس يُعلَم أنّـكم   قِدْماً فوارسُ كلِّ يومٍ أشهَب
أحلاسُ خيل الله وهي مُغِيرةٌ   يخرُجْنَ من خَلَل الغُبار الأكهب(١)

قال : فأمر له بدارٍ يسكُنها وكُسوةٍ ودراهم . وكانت الدار قريبةً من قصره ، فأمر بأن تزاد في قصره بعد ذلك لحاجةٍ دعتْه إليها . فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قوله :

يا بنَ عمّ النبيِّ دَعوة شيـخٍ   قد دنا هَدمُ داره ودمـارُهْ
فهو كالماخِضِ التي اعتـادهـا الطَّلْقُ فقَـرّتْ وما يَقِـــرُّ قَــرارُه
إن تَـحُزْ عُسرَهُ بكَـفَّيك يوماً   فبكَـفَّيك عُسرُه ويَســــارُه
أو تَـدَعْـــــه فللبَـوار وأنّى   ولماذا وأنت حـيٌّ بَــــوارُه
هل يخاف الهَلاك شاعرُ قومٍ   قَدُمتْ في مديحهم أشعــارُه
لكمُ الأرضُ كُلُّها فأَعــيروا   شَيْخَكُم ما احتوى عليه جِدارُه
فكأنْ قد مضى وخَلّف فيكم   ما أعرتُم واقفرتْ منه دارُه (٢)

فاستعبر المنصور وأمر بتعويضه داراً خيراً منها ووصله .

(١) الهمة : العجوز الفانية . المشجب : خشبات منصوبة تنشر عليها الثياب ، يريد أنها هزلت حتي باتت كخشبات المشجب . اللحي : عظم الحنك . القطرب : ذكر الغيلان . العير : الحمار . المغرب : الشديد البياض . اللزب : ضيق العيش . تحلب السيل : تدفق ماؤه . يقال : هو حلس خيل : أي يلازم ركوبها . الأكهب : الأغبر الى سواد .

(٢) الماخض : المرأة التي أتاها المخاض . البوار : الهلاك .

عن جعفر بن الحسين اللّهبيّ عن عمّه مصعَب :

أنّ حـمّادة بنت عيسى تُوفيّت وحضر المنصورُ جنازتَها . فلمّـا وقف على حُفرتها قال لأبي دُلامة : ما أعددتَ لهذه الحُفرة ؟ قال : بنتَ عمّك يا أمير المؤمنين حـمّادةَ بنتَ عيسى يُجاء بها الساعةَ فتُـدفَن فيها . فضحك المنصور حتى غُلب فسَتر وجهَه .

أخباره مع المَهديّ

قال ابن النَـطّاح :

لمّـا قدِم المهديُّ من الرَّيّ دخل عليه أبو دلامة فـأنشأ يقول :

إنّي نذرتُ لئن رأيتـك سالمـاً بقُرى العراق وأنت ذو وَفْرِ
لَتُـصَلِّيَنَّ على النـبيّ محمـدٍ ولَتمـلأَنَّ دراهمـاً حِجْري

فقال : صلى الله عليه وسلّم ، وأمّا الدراهم فلا . فقال له : أنت أكرم من أن تُفرّق بينهما ثم تختار أسهلهما . فأمر بأن يُملأ حِجرهُ دراهم .

قال ابن النطّاح :

وصام الناس في سنة شديدة الحرّ على عهد المهديّ ، وكان أبو دلامة يَتنجّز جائزةً أمر له المهديُّ بها . فكتب إليه أبو دلامة رقعةً يشكو فيها أذى الحرّ والصوم وهي :

أدعُوك بالرَّحِـم التي هي جَمَّعت في القُرب بين قَريبنا والأبعَدِ
إلّا سمعت وأنت أكرمُ مَن مَشى من مُنشِدٍ يرجو جزاءَ المنشِد
جاء الصّيام فصُمتُـه متعبّـداً أرجو رجاءَ الصائم المتعبّـدِ
ولقِيتُ من أمر الصِّيام وحَرِّه أمرين قِيسا بالعَذاب المُوْصَدِ

وسجدتُ حتى جَبْهتي مشجوجةٌ ... ممّا يُناطِحُني الحصى في المسجدِ
فامنُنْ بتسريحي بمَطْلك بالذي ... أَسْلَفتِنيه من البلاء المُرصَدِ(١)

فلمّا قرأ المهديّ رُقعته غضب وقال: يا عاضّ كذا من أُمّه، أيُّ قرابةٍ بيني وبينك؟ قال: رَحِم آدَم وحوّاء، أنسيتَهما يا أمير المؤمنين! فضحك وقال: لا والله ما نسيتُهما. وأمر بتعجيل ما أجازه به وزاد فيه.

عبدالله بن الضَحّاك قال:

دخل أبو دلامة على المهديّ وهو يبكي، فقال له: مالك؟ قال: ماتت أمُّ دلامة، وأنشده لنفسه فيها:

وكُنّا كزَوجٍ من قطاً في مَفازةٍ ... لَدى خَفض عيشٍ ناعمٍ مُؤْنِقٍ رَغْدِ
فأفردني ريبُ الزمان بصَرفه ... ولم أرَ شيئاً قطُّ أوحشَ من فَرْدِ

فأمر له بثياب وطِيب ودنانير، وخرج. فدخلت أمّ دلامة على الخيزُران فأعلمتها أنّ أبا دلامة قد مات، فأعطتها مثل ذلكَ، وخرجتْ. فلمّا التقى المهديّ والخَيْزُران عَرفا حيلتَهما فجعلا يضحكان لذلك ويَعجبان منه.

عن المدائنيّ قال:

دخل أبو دلامة على المهديّ وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعبّاس بن محمد ومحمد بن إبراهيم الإمام وجماعةٌ من بني هاشم، فقال له: أنا أُعطي الله عهداً لَئن لم تهجُ واحداً ممّن في البيت لأقطعنّ لسانك... فنظر إليه القوم، فكُلّما نظر إلى واحدٍ منهم غَمزه بأنّ عليه رِضاه. قال أبو دلامة: فعلمت أنّي قد وقعتُ وأنّها عَزْمة من عَزَماته لا بُدَّ منها، فلم أرَ أحداً أحقّ بالهجاء منّي، ولا أَدعى للسّلامة من هجاء نفسي، فقلت:

(١) المؤصد: المطبق.

ألا أبلِغْ لديك أبا دُلامَــــهْ فليس من الكِرام ولا كَـرامهْ
إذا لبِس العِمامةَ كان قـــرداً وخِنزيراً إذا نزَع العِمامــه
جمعتَ دمامةً وجمعت لؤمــاً كذاك اللُّؤم تتبعه الدَّمامـه
فإن تك قد أصبت نعيمَ دنيــا فلا تَفرحْ فقد دنت القِيامــه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحدٌ إلّا أجازه .

الزُّبير عن عمّه قال :

خرج المهديُّ وعليّ بن سليمان إلى الصّيد ، فسَنح لهما قطيعٌ من ظِباء ، فأُرسلت الكلاب وأُجريت الخيل ، فرمى المهديُّ ظَبياً بسهم فصرعه ، ورمى عليّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله . فقال أبو دلامة .

قد رمى المهـديّ ظَبيـاً شـكّ بالسَّهـم فـؤادَهْ
وعليّ بـن سليمـــا ن رمى كلبــاً فصـادَه
فهنيئـــاً لهمــــا كُـــلُّ امــرئ يـأكلُ زادَه

فضحك المهديّ حتى كاد أن يسقُطَ عن سَرجه ، وقال : صدَق والله أبو دلامة ، وأمر له بجائزة سَنيّة ...

قال ابن النّطّاح :

ودخل أبو دلامة على المهديّ وعنده مُحرِز ومُقاتل ابنا ذُؤال يعاتبانه على تقريبه أبا دلامة ويَعيبانه عنده ، فقال أبو دلامة :

ألا أيّها المهديُّ هل أنت مُخـبِـري وإن أنت لم تفعل فهل أنت سائلي
ألم تَـرْحَـم اللّـحْيَين من لِحيتَيهمــا وكلتاهما في طولهــا غـيرُ طائل
وإن أنت لم تفعل فهل أنت مُكرِمي بحَلْقِهما من مُحرزٍ ومُقاتِلِ
فــإن يأذَنِ المهـديُّ لي فيهما أَقُــلْ مقالاً كوقع السيف بين المَفاصل
وإلّا تَـدَعْـني والهمـومُ تَنُـوبني وقلبي من العِلْجَين جَمٌّ البلابلِ

فقال : أو آخذُ لك منهما عشرةَ آلاف درهم يفديان بها أعراضهما منك ؟ قال : ذلك إلى أمير المؤمنين . فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

قال : وأُهدي للمهديّ فيلٌ ، فرآه أبو دلامة فولّى هارباً وقال :

يا قوم إنّي رأيت الفيل بعدَكم لابارك اللهُ لي في رؤية الفيلِ
أبصرتُ قصراً له عينٌ يُقَلِّبُها فكدتُ أرمي بسَلْحي في سراويلي

قال ابن النَطّاح :

ودخل أبو دلامة على المهديّ فأنشده قصيدته في بغلته المشهورة :

أتاني بَغلةً يُستامُ منها عَريقٌ في الخَسارة والضَّلالِ
فقال تبيعُها قلتُ ارتبِطْها بحُكْمك إنّ بيعي غير غالي
فأقبل ضاحكاً نحوي سروراً وقال أراك سَمحاً ذا جَمال
هَلُمّ إليّ يخلو بي خِداعاً وما يَدري الشقيُّ بمن يُخالي
فقلت بأربعين فقال أَحسِنْ إليَّ فإنّ مِثْلَك ذو سِجال
فأَترك خمسةً منها لعلمي بما فيه يصير من الخَبالِ(١)

فقال المهديّ : لقد أفلتَّ من بَلاءٍ عظيم . قال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهراً أتوقّع صاحبَها أن يردَّها . قال : ثم أنشده :

فأَبْدِلْني بها يا ربِّ طِرْفاً يكون جمالُ مَرْكَبه جمالي(٢)

فقال لصاحب دوابّه : خَيِّره من الإصطَبل مَركبين . قال : يا أمير المؤمنين ، إن كان الاختيارُ لي وقعت في شرٍّ من البغلة ، ولكن مُرْه أن يختار لي . فقال : اختَرْ له .

---

(١) يستام : يسأل عن الثمن ويساوم . ذو سجال : أي كريم والسجل : الدلو العظيمة والرجل الجواد .

(٢) الطرف : الكريم من الخيل .

عن الهيثم بن عديّ قال :

دخل أبو دلامة على المهديّ ، فحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له : هل بقي أحدٌ من أهلي لم يَصِلك ؟ قال : إن أمَّنْتَني أخبرتُك ، وإن أعفيتَني فهو أَحبُّ إليّ . قال : بل تُخبرني وأنت آمِنٌ . قال : كلُّهم قد وصَلني إلّا حاتمَ بني العبّاس . قال : ومن هو ؟ قال : عمُّك العبّاس بن محمد . فالتفت إلى خادم على رأسه وقال : جأْ[1] عُنُقَ ... فلمّا دنا منه صاح به أبو دلامة : تنحَّ يا عبدَ السَّوء لا تُحنِثْ مولاك وتنكثْ عهدَه وأمانه . فضحك المهديّ وأمر الخادم فتنحّى عنه . ثم قال لأبي دلامة : ويلَك ! واللهِ عمّي أَبخل الناس . فقال أبو دلامة : بل هو أسخى الناس . فقال له المهديّ : واللهِ لو مُتَّ ما أعطاك شيئاً . قال : فإن أنا أتيتُه فأجازني ؟ قال : لك بكلّ درهم تأخذُه منه ثلاثةُ دراهم . فانصرف أبو دلامة فحبّر للعبّاس قصيدةً ثم غدا بها عليه وأنشده :

قِفْ بالدّيار وأيَّ الدّهر لم تَقِف ... على المنازل بين الظَّهر والنَّجَفِ
وما وقوفُك في أطلال مَنزلةٍ ... لولا الذي استدرجتْ من قلبك الكَلِفِ
إن كنت أصبحتَ مشغوفاً بساكنها ... فلا وربِّك لا تَشفيك من شغَف
دع ذا وقُل في الذي قد فاز من مُضرٍ ... بالمكرُمات وعِزٍّ غير مُقْتَرَفِ
هذي رسالةُ شيخٍ من بني أسدٍ ... يُهدي السّلام إلى العبّاس في الصُحُف
تخُطّها من جواري المِصر كاتبةٌ ... قد طالما ضَربت في اللام والألفِ
وطالما اختلفت صيفاً وشاتيةً ... إلى مُعلّمها باللّوح والكَتِفِ
حتى إذا نَهَد الثديان وامتلأ ... منها وخِيفت على الاسراف والقَرَفِ
صِينت ثلاثَ سِنينٍ ما ترى أحداً ... كما يصون تجارٌ دُرّةَ الصَّدَف
فينما الشيخُ يهوي نحو مجلسه ... مبادراً لصلاة الصُّبح بالسَّدَفِ

(١) وجأ عنقه : ضربها .

حانت له لمحةٌ منها فأبصرها | مُطلّةً بين سِجْفَيها من الغُرَف
فخرّ والله ما يَدري غدا تئذٍ | أخرَّ مُنكشفاً أم غير مُنكشف
وجاءه الناسُ أفواجاً بمائهم | ليغسِلوا الرّجلَ المَغْشِيّ بالنُطَف
ووسوسوا بقُرانٍ في مَسامعه | مخافةَ الجنّ والإنسانُ لم يَخَف
شيئاً ولكنّه من حُبّ جاريةٍ | أمسى وأصبح موقوفاً على التَّلَف
قالوا: لك الويلُ ما أبصرتَ؟ قلت لهم: | تطّلعتْ من أعالي القصر ذي الشُّرَف
فقلت: أيُّكم والله يَأجُره | يُعين قُوّته فيها على ضَعَف
فقام شيخٌ بهيٌّ من رجالهمُ | قد طالما خدع الأقوام بالحَلِفِ
فابتاعها لي بألفيَ درهمٍ فأتى | بها إليّ فألقاها على كتفي
فبتُّ ألثِمُها طَوراً وألزَمُها | طوراً وأصنع بعض الشيء في اللُّحُف
فبين ذاك كذا إذ جاء صاحبُها | يبغي الدراهمَ بالميزان ذي الكِفَف
وذِكْرِ حقٍّ على زَنْدٍ وصاحبه | والحقّ في طَرفٍ والطّينُ في طَرَف
وبين ذاك شهودٌ لا يضرُّهم | أكنتُ معترفاً أم غير معترِفِ
فإن يكن منك شيءٌ فهو حقُّهم | أو لا فإنّيَ مدفوعٌ إلى التَلَفِ (١)

قال: فضحك العبّاس وقال: ويَحك! أصادقٌ أنت؟ قال: نعم والله. قال: يا غلام ادفَع إليه ألفَي درهم ثمنها. قال: فأخذها ثم دخل على المهديّ فأخبره القصّة وما احتال له به، فأمر له المهديّ بستة آلاف درهم ...

---

(١) الظهر اسم موضع. النجف: موضع بظهر الكوفة، وهو دومة الجندل بعينها، وبالقرب منه قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. مقترف: متهم. السدف: الظلمة. النطفة: الماء الصافي. ألزمها: أعانقها. ذكر الحق: صكّ الدَين.

أبو الشِّبل عاصم بن وهب البُرجُميّ قال :

دخل أبو دلامة على المهديّ وبين يديه سَلمةُ الوصيف واقفاً ، فقال : إنّي أهديت إليك يا أمير المؤمنين مُهراً ليس لأحدٍ مثلُه ، فإن رأيت أن تُشرِّفَني بقَبوله . فأمره بإدخاله إليه ، فخرج وأدخل إليه دابّته التي كانت تحته ، فإذا به بِرْذَونٌ[1] مُحطَّم أعجفُ هرِمٌ . فقال له المهدي : أيُّ شيءٍ هذا وَيلك ! ألم تزعُم أنه مُهر ! فقال له : أو ليس هذا سَلمةَ الوصيفَ بين يديك قائماً تُسمّيه الوصيفَ وله ثمانون سنة ، وهو عندك وصيفٌ ! فإن كان سلمة وصيفاً فهذا مُهر . فجعل سلمة يشتُمه والمهديُّ يضحك . ثم قال لسلمة : ويلَك ، إنّ لهذه منه أخواتٍ ، وإن أتى بها في مَحفِلٍ فَضَحَك . فقال ، أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين ، فليس من مواليك أحدٌ إلّا وقد وصَلني غيرَه ، فإنّي ما شربت له الماء قطُّ . قال : فقد حكمت عليه أن يشتريَ نفسه منك بألف درهم حتى يتخلّص من يدك . قال : قد فعلتُ على أن لا يُعاوِد . فقال له : ما ترى ؟ قال : أَفعل ، فلولا أنّي ما أخذت منه شيئاً قطّ ما فعلت معه مثلَ هذه . فمضى سلمةُ فحملها إليه .

عن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه :

كان عند المهديّ رجلٌ من بني مروان ، فدخل إليه وسلّم عليه . فأُتي المهديّ بعِلْجٍ[2] فأمر المروانّي بضرب عُنقه . فأخذ السيف وقام فضربه ، فنبا السيفُ عنه ، فرمى المروانّي به وقال : لو كان من سيوفنا ما نبا . فسمع المهديُّ الكلام فغاظه حتى تغيّرَ لونُه وبان فيه . فقام يَقطينٌ[3] ، فأخذ السيف وحسَر عن

---

(١) البرذون : الدابّة .

(٢) العِلْج : الرجل من كفار العجم .

(٣) هو يقطين بن موسى البغدادي . كان أحدَ دعـاة بني العباس . ولاه المهدي بناء الزيادة في المسجد الحرام . توفي سنة ١٨٦ هـ

ذِراعيه ثم ضرب العلجَ فرمى برأسه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذه سيوفُ الطاعة لا تَعمل إلّا في أيدي الأولياء ولا تعمل في أيدي أهل المَعصية . ثم قام أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين ، قد حَضَرني بيتان أفأقولُهما ؟ قال : قُلْ . فأنشد :

أيُّهذا الإمامُ سيفُك ماضٍ وبكفِّ الوَليّ غيرُ كَهامِ[1]

فإذا ما نبا بكفٍّ عِلمنا أنّها كفُّ مُبغِضٍ للإمامِ

قال : فسُرّي عن المهديّ وقام من مجلسه ، وأمر حُجّابه بقتل الرجل المروانيّ ، فقُتل .

الهيثم قال :

حجّت الخيزُران[2] ، فلمّا خرجتْ صاح بها أبو دلامة . قالت : سَلُوه ما أمرُه . فقالوا له : ما أمرُك ؟ فقال : أَدنوني من مَحْمِلها . قالت : أَدنُوه . فأُدنيَ ، فقال : أيتها السيّدة ، إنّي شيخ كبير وأَجرُك فيَّ عظيم . قالت : فَمَهْ ؟ قال : تَهَبين لي جاريةً من جواريكِ تُؤنسني وترفُق بي وتُريحني من عجوزٍ عندي ، قد أَكلتْ رِفْدي[3] ، وأطالت كدّي ، وقد عاف جلدَها جِلدي ، وتمنّيت بُعدَها ، وتشوّقتُ فَقْدَها . فضحكت الخيزران وقالت : سوف آمرُ لك بما سألت .

فلمّا رجعتْ تلقّاها وذكَّرها وخرج معها إلى بغداد ، فأقام حتى غَرِض[4] . ثم دخل على أمّ عُبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رُقعةً قد كتبها إلى الخيزُران فيها :

---

(١) كهام : غير قاطع .

(٢) الخيزران : زوج المهدي وأم الخليفتين الهادي والرشيد ، وكانت أم ولد .

(٣) الرفد : العطاء .

(٤) غرض : ضجر وملّ .

أَبلِغي سيّدتي باللـه يا أمَّ عُبَيدَهْ
أنّها أرشدَها اللـهُ وإن كانت رشيدَه
وعدتْني قبل أن تَخْرُجَ للحجّ وَليدَه
فتأنّيتُ وأرسلتُ بعشرين قصيده
كلّما أَخْلَقْنَ أخلفتُ لها أخرى جديده
ليس في بيتيَ لتمهيد فِراشي من قعيده
غيرَ عَجفاءَ عجوزٍ ساقُها مثلُ القَديده
وجهُها أقبحُ من حُوتٍ طَريٍّ في عَصِيده
ما حياةٌ مع أنثى مثلِ عِرْسي بسعيده

فلمّا قُرئت عليها الأبيات ضحكت واستعادتْها منه لقوله: «حُوت طريّ في عصيده» وجعلت تضحك، ودعت بجارية من جواريها فائقة فقالت لها: خُذي كلَّ مالَكِ في قصري. ففعلتْ، ثم دعت ببعض الخدم وقالت له: سَلِّمها إلى أبي دلامة. فانطلق الخادمُ بها، فلم يصادِفْه في منزله، فقال لامرأته: إذا رجع فادفعيها إليه وقولي له: تقول لك السيّدة: أَحسِنْ صُحبةَ هذه الجارية فقد آثرتُك بها. فقالت له: نعم. فلمّا خرج دخل ابنُها دلامة فوجد أمّه تبكي، فسألها عن خبرها فأخبرتْه وقالت: إن أردتَ أن تَبرَّني يوماً من الدّهر فاليوم. فقال: قولي ما شئت فإنّي أَفعله. قالت: تدخُل عليها فتُعلِمُها أنّك مالكُها وتطؤها فتَحرُمُ عليه، وإلّا ذهبتْ بعقله وجفاني وجَفاك. ففعل ودخل إلى الجارية فوطِئها، ووافقها ذلك منه، وخرج. ثم دخل أبو دلامة فقال لامرأته: أين الجارية؟ قالت: في ذلك البيت. فدخل إليها شيخٌ محطّم ذاهب، فمدّ يده إليها وذهب ليقبّلَها. فقالت له: مالك ويلك! تَنَحَّ وإلّا لطمتُك لطمةً دقّقتُ منها أنفَك. فقال لها: أبهذا أوصَتْك السيّدة؟ فقالت: إنّها قد بعثتْ بي إلى فتىً من حاله وهيئته كيت وكيت، وقد كان عندي آنِفاً،

ونال منّي حاجته . فعلم أنـه قد دُهي من أمّ دلامة وابنها . فخرج إليه أبو دلامة فلطمه ولَبَّبه[1] وحلف ألّا يفارقه إلّا عند المهديّ . فمضى به مُلَبَّباً حتى وقف على بـاب المهـديّ ، فعُرّف خبرَه وأنـه قد جاء بابنه على تلك الحـالة ، فأمر بإدخاله . فلمّا دخل قال له : مالك ويلَك ؟ قال : عمِل بي هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعمل ولدٌ بأبيه ، ولا تُرضيني إلّا أن تقتلَه . فقال له : ويلَك ! فما فعل ؟ فأخبره الخبر . فضحك حتى استلقى ، ثم جلس . فقال له أبو دلامة : أعجبك فِعلُه فتضحكَ منه ! فقال : عليّ بالسّيف والنِّطع . فقال له دلامة : قد سمعتَ حُجّته يا أمير المؤمنين فاسمعَ حُجَّتي . قال : هاتِ . قال : هذا الشيخ أصفَقُ الناس وجهاً : (يطأ) أميّ منذ أربعين سنةً ما غضبتُ و (وطأت) جاريته مرّةً واحدة فغضب وصنع بي ما ترى ! فضحك المهديّ أكثر من ضحكه الأول ، ثم قال : دَعْها له يا أبا دُلامة وأنا أُعطيك خيراً منها . قال : على أن تَخْبَأْها لي بين السماء والأرض ... فتقدّم إلى دلامة ألّا يُعاود بمثل فِعله ، وحلَف أنه إن عاود قتله ، ووهب له جاريةً أخرى كما وعده .

سائر أخباره

● قال ابن النطّاح :

دخل (أبو دلامة) على أمّ سَلمة[2] بنت يعقوب بن سَلمة بعد وفاة أبي العبّاس فعزّاها به ، وبكى وبكت معه ، ثم أنشدها :

مَن مُجملٌ في الصبر عنكَ فلم يكن ... صبري عليك غَداةَ بِنْتَ جميلا
يجدون أبـدالاً به وأنـا امـرؤٌ ... لو متُّ وجداً ما وجدتُ بديلا
إنّي سألت الناس بعـدك كلّهـم ... فوجدت أجودَ من سألت بخيلا

---

(١) لببه : جمع ثيابه عند نحره ثم جرّه .
(٢) أم سلمة المخزومية : زوجة أبي العباس السفاح .

فقالت أم سَلمة : لم أر أحداً أصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامة . فقال : ولا سَواءَ ، يرحَمُك الله ، لك منه ولدٌ وما ولَدتُ أنا منه . فضحكتْ ـ ولم تكن منذ مات أبو العبّاس ضحكتْ إلّا ذلك الوقت ـ وقالت له : لو حدّثتَ الشيطانَ لأضحكتَه .

● قال أبو دُلامة :

كنت في عسكر مروان[1] أيامَ زحف إلى سِنان الخارجيِّ ، فلمّا التقى الزَّحفان خرج منهم رجلٌ فنادى : مَن يُبارز ؟ فلم يخرج إليه أحدٌ إلّا أعْجَله ولم يُنَهْنِهْه[2] . فغاظ ذلك مروانَ وجعل يندُب الناس على خمسمائة ، فقُتل أصحاب الخمسمائة ، فزاد مروان ونَدَبهم على ألف ، ولم يزل يزيدُهم حتى بلغ خمسة آلاف درهم . وكان تحتي فرسٌ لا أخاف خَونَه ، فلمّا سمعت بالخمسة آلاف ترقّبته واقتحمت الصفّ . فلما نظرني الخارجيّ علم أنّي خرجت للطمع ، فأقبل إليّ متهيّئاً ، وإذا عليه فَروٌ قد أصابه المطر فابتلّ ، ثم أصابته الشمسُ فاقفعلَّ[3] ، وإذا عيناه تَقِدان كأنّهما من غَورهما في وَقْبَين[4] . فلمّا دنا منّي أنشأ يقول :

وخارجٍ أخرجه حُبُّ الطَمَعْ   فرّ من الموت وفي الموت وقَع

من كان يَنوي أهلَه فلا رَجَعْ

فلمّا وقرتْ في أُذُني انصرفتُ عنه هارباً ، وجعل مروان يقول : مَن هذا الفاضح ؟ إيتُوني به . فدخلت في غمار الناس فنجوتُ .

---

(١) المراد به مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .

(٢) نهنهه : كفه وزجره والمقصود هنا أنه لم يمهله .

(٣) اقفعلّ : تلبّد .

(٤) الوقب : نقرة في الجبل .

● أبو دلامة قال :

أُتي بي المنصورُ أو المهديُّ وأنا سكرانُ ، فحلف لَيُخرِجَنّي في بَعث حربٍ فأخرجني مع رَوح بن حاتم المُهلّبيّ لقتال الشُرّاة[1] . فلمّا التقى الجَمعان قلت لرَوح : أما واللهِ لو أنّ تحتي فرسَك ومعي سلاحَك لَأثَّرتُ في عدوِّك اليومَ أثراً ترتضيه . فضحك وقال : واللهِ العظيم لأدفعنّ ذلك إليك ، ولآخُذنّك بالوفاء بشَرطك . ونزل عن فرَسه ونزَع سلاحه ودفعهما إليّ ، ودعا بغيرهما فاستبدل بهما . فلمّا حصَل ذلك في يدي وزالت عنّي حلاوةُ الطمع قلت له : أيُّها الأمير ، هذا مَقام العائذ بك ، وقد قلت بيتَين فاسمَعْهما . قال : هاتِ . فأنشدتُه :

إنّي استجرتُك أن أُقدَّم في الوغى لتَطاعُنٍ وتنازُلٍ وضِرابِ
فهبِ السُّيوفَ رأيتُها مشهورةً فتركتُها ومضَيت في الهُرّاب
ماذا تقول لما يَجيء وما يُرى من واردات الموت في النُشّابِ[2]

فقال : دَعْ عنك هذا وستعلم[3] .

وبرز رجلٌ من الخوارج يدعو للمُبارزة فقال : أخرُج إليه يا أبا دُلامة . فقلت : أَنشُدك الله أيّها الأمير في دمي . قال : والله لَتَخرجُنَّ . فقلت : أيّها الأمير ، فإنّه أوّل يوم من الآخرة وآخرُ يومٍ من الدنيا ، وأنا واللهِ جائعٌ ما شبعتْ مني جارحةٌ[4] من الجوع ، فمُرْ لي بشيءٍ آكُله ثم أَخرُج . فأمر لي برغيفَين ودَجاجةٍ ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصفّ . فلمّا رآني الشّاري

---

(١) الشراة : الخوارج .
(٢) النشّاب : النبّال .
(٣) كذا وردت في المطبوعة ونرجح أنها محرفة عن « واستلئم » أي البس اللأمة وهي الدرع .
(٤) الجوارح : أعضاء الأنسان التي تكتسب .

أقبل نحوي ، عليه فَروٌ وقد أصابه المطر فابتلّ ، وأصابته الشمس فاقفعلّ ، وعيناه تقِدان ؛ فأسرع إليّ ، فقلت له : على رِسْلك يا هذا كما أنت[١] . فوقف . فقلت : أتقتل مَن لا يُقاتلك ؟ قال : لا . قلت : أتقتل رجلاً على دينك ؟ قال : لا . قلت أفتستحلُّ ذلك قبل أن تدعوَ من تُقاتله إلى دينك ؟ قال : لا ، فاذهب عنّي إلى لعنة الله . قلت : لا أَفعلُ أو تسمعَ منّي . قال : قُلْ . قلت : هل كانت بيننا قطُّ عداوةٌ أو تِرةٌ[٢] ، أو تعرِفني بحالٍ تُحفِظُك[٣] عليّ ، أو تعلم بين أهلي وأهلك وِتْراً ؟ قال : لا والله ، قلت : ولا أنا والله إلّا جميلَ الرأي ، وإنّي لأهواك وأنتحل مذهبَك وأَدين دِينك وأُريد السُّوءَ لمن أراده لك . قال : يا هذا جزاك الله خيراً فانصرف . قلت : إنّ معي زاداً أُحبّ أن آكُلَه معك ، وأحبّ مُؤاكلتَك لتتوكّد المودّة بيننا ، ويرى أهل العسكر هَوانَهم علينا . قال : فافعَلْ . فتقدّمت إليه حتى اختلفت أعناقُ دَوابّنا وجمعنا أرجُلَنا على مَعارفها[٤] ، والناسُ قد غُلبوا ضحكاً . فلمّا استوفَينا ودَّعني . ثم قلت له : إنّ هذا الجاهلَ إن أقمتَ على طلب المبارزة ندَبني إليك فتُتعِبُني وتَتعبُ ، فإن رأيتَ ألّا تبرُزَ اليوم فافْعَلْ . قال : قد فعلتُ . ثم انصرف وانصرفتُ . فقلت لرَوح : أمّا أنا فقد كفَيتُك قِرْني[٥] ، فقل لِغيري أن يكفيك قِرنَه كما كفَيتك . فأَمْسَك .

وخرج آخر يدعو إلى البِراز فقال لي : اخرُج إليه . فقلت :

إنّي أَعُوذ برَوحٍ أن يقدّمني ... إلى البِراز فتَخزى بي بنو أسدِ
إنّ البِرازَ إلى الأقران أعلمه ... ممّا يُفرّق بين الرُّوح والجَسَد

---

(١) عل رسلك : تمّهل . كما أنت : الزم مكانك .
(٢) الترة : العداوة التي توجب طلب الثأر .
(٣) تحفظك : تغضبك .
(٤) معارف الخيل وأعرافها : الشعر المسترسل على أعناقها .
(٥) قِرن الرجل : من يكافئه في الشجاعة ومن يتصدى لمنازلته .

قد حالفتك المنايا إذ صَمَدتَ لها وأصبحتْ لجميع الخَلق بالرَّصَد
إنّ المهلَّب حُبَّ الموت أَورَثكم وما ورثتُ اختيار الموت عن أحَدِ
لو أنّ لي مُهْجةً أخرى لَجُدْتُ بها لكنّها خُلِقَتْ فَرْداً فلم أَجُدِ[1]

فضحك وأعفاني .

● عن الهيثم بن عديّ قال :

دخل أبو عطاء السِّنْديّ يوماً إلى أبي دلامة فاحتبسه عندَه ، ودعا بطعام فأكلا وشبعا . وخرجت إلى أبي دلامة صبيّةٌ له فحملها على كَتِفه ، فبالت عليه ، فنَبذها عن كتفه ثم قال :

بَلَلتِ عليَّ ـ لا حُيّيتِ ـ ثوبي فبال عليك شيطانٌ رجيمُ
فما ولدتْكِ مَريمُ أمُّ عيسى ولا ربّاكِ لُقمانُ الحكيمُ

ثم التفت إلى أبي عطاء فقال له : أجِزْ . فقال :

صدقتَ أبا دُلامةَ لم تلِدْها مُطَّهرةٌ ولا فَحْلٌ كريمُ
ولكن قد حَوَتْها أمُّ سَوْءٍ إلى لَبّاتها وأبٌ لئيمُ

فقال أبو دلامة : عليك لعنةُ الله ! ما حملكَ على أن بلغتَ بي هذا كلّه ! والله لا أُنازعُك بيت شِعر أبداً . فقال أبو عطاء : لَأَن يكون الهربُ من جهتك أحبُّ إليّ .

● جعفر بن الحسين اللِّهْبيّ قال :

عزم موسى بن داود بن عليّ الهاشميّ[2] على الحجّ ، فقال لأبي دلامة : احجُجْ معي ولك عشرةُ آلاف درهم . فقال : هاتِها . فدفعت إليه ، فأخذها

(١) صمدت لها . قصدت لها . المهلّب : هو المهلب بن أبي صفرة من القادة المشهورين في عصر بني أمية واليه ينتمي روح بن حاتم .
(٢) هو ابن عم الخليفة أبي العباس السفاح ، وقد ولاه السفاح امارة المدينة حقبة من الزمن .

وهرب إلى السَّواد ، فجعل يُنفقها هناك ويشرب بها الخمر . فطلبه موسى فلم يقدِر عليه ، وخشي فَوْت الحجّ فخرج . فلمّا شارف القادسيّة إذا هو بأبي دلامةَ خارجاً من قريةٍ إلى أخرى وهو سَكرانُ ، فأَمر بأخذه وتقييدِه وطرحه في مَحمِلٍ بين يديه ، ففُعل ذلك به . فلمّا سار غيرَ بعيدٍ أقبل على موسى وناداه :

يا أيّها الناسُ قُولُوا أجمعين مَعاً   صلّى الإلّه على مُوسى بن داودِ
كأنّ دِيباجَتي خدَّيه من ذهَبٍ   اذا بدا لك في أثوابه السُّودِ
إنّي أعُوذ بداودٍ وأُعظِمُه   من أن أُكَلَّفَ حَجّاً يابنَ داود
خُبّرتُ أنّ طريق الحجِّ مَعْطَشَةٌ   من الشَّراب وما شُربي بتَصْريدِ
واللهِ ما فيَّ من أَجْرٍ فتطلُبَه   ولا الثَّناءُ على دِيني بمحمود[١]

فقال موسى : أَلقُوه ، لَعنَه اللهُ ، عن المَحمل ودعُوه ينصرفْ . فأُلقي وعاد إلى قَصْفِه بالسَّواد حتى نَفِدت العشرةُ آلاف درهم .

● عن المدائنيّ قال :

خاصم رجلٌ أبا دُلامة في داره ، فارتفعا إلى عافيةَ القاضي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتْني دُهاةُ الرِّجالِ   وخاصمتُهما سنةً وافيهْ
فما أدحض اللهُ لي حُجّةً   ولا خيّب اللهُ لي قافية
ومَن خِفتُ من جَوره في القضاءِ   فلستُ أخافُك يا عافيه

فقال له عافيةُ : أما واللهِ لأشكونّك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنّه أنّك هجوتَني . قال : إذاً يَعزِلَك . قال : ولمَ؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء . فبلغ ذلك المنصورَ فضحك وأمر لأبي دُلامة بجائزة .

● العَبْسيُّ قال :

---

(١) التصريد : التقليل والشرب دون الارتواء .

كان أبو دلامةمع أبي مسلم في بعض حروبه مع بني أميّة . فدعا رجلٌ إلى البِراز ، فقال له أبو مسلم : ابرُزْ إليه . فأنشأ يقول :

ألا لا تَلُمْني إن فررتُ فإنّـني أخاف على فخّارتي أن تـحـطّما
فلو أنّني في السُّوق أبتاعُ مثلهـا وجَدِّك ما باليتُ أن أتقـدَّما

فضحك وأعفاه .

● عن عبد الرحمن بن صالح قال :

جاء ابنُ أبي دُلامة يوماً إلى أبيه وهو في مَحْفِلٍ من جيرانه وعشيرته جالسٌ ، فجلس بين يديه ثم أقبل على الجماعة فقال لهم : إنّ شيخي ، كما تَروَن ، قد كَبرت سِنُّه ، ورقّ جِلدُه ، ودَقّ عَظمُه ، وبنا إلى حياته حاجةٌ شديدةٌ ، فلا أَزال أُشير عليه بالشيء يُمسِك رَمَقَه ويُبقي قُوّته ، فيخالفُني فيه ؛ وأنا أسألكم أن تسألوه قضاءَ حاجةٍ لي أذكرُها بحضرتكم ، فيها صَلاحٌ لجسمه ، وبَقاءٌ لحياته ، فأسعِفُوني بمَسألته . فقالوا : نَفعلُ حُبّاً وكَرامةً . ثم أقبلوا على أبي دلامة بألسنتهم وتناولُوه بالعِتاب حتى رَضِي ، وهو ساكتٌ ، فقال : قُولوا للخبيث فليقُلْ ما يريد ، فستَعلمون أنّه لم يأتِ إلّا ببَلِيّة . فقالوا له : قل . فقال : إنّ أبي إنّما يقتلُه كثرةُ الجِماع ، فتُعاونوني عليه حتى أَخصِيَه ، فلن يقطعَه عن ذلك غيرُ الخِصاء ، فيكون أصحَّ لجسمه وأطول لعُمره . فعجِبوا من ذلك وعلموا أنه إنّما أراد أن يعبَث بأبيه ويُخجلَه حتى يشيعَ ذلك عنه فيرتفعَ له بذلكِ ذِكرٌ . فضحكوا منه ، ثم قالوا لأبي دلامة : قد سمعتَ فأَجِبْ . قال : قد سمعتُم أنتم وعَرَّفْتُكم أنّه لن يأتيَ بخير . قالوا : فما عندك في هذا ؟ قال : قد جعلتُ أُمَّه حكماً بيني وبينَه ، فقُوموا بنا إليها . فقاموا بأجمعهم فدخلوا إليها ، وقَصّ أبو دُلامة القِصّةَ عليها وقال لها : قد حَكَّمْتُكِ . فأقبلتْ على الجماعة فقالت : إنّ ابني ـ أَصلحه اللهُ ـ قد نصَح أباه وبَرَّه ولم يألُ جُهداً ، وما أنا إلى بقاء أبيه بأحوجَ منّي إلى بقائه ، وهذا أمرٌ لم تقعْ به

تجربةٌ منّا ، ولا جرتْ بمثله عادةٌ لنا ، وما أشُكّ في مَعرفته بذلك ، فَلْيَبدأ بنفسه فَلْيَخْصها ، فاذا عُوفي ورأينا ذلك قد أثَّر عليه أثراً محموداً استعمله أبوه . فنَعَرَ[1] أبوه وجعل يضحك به ، وخجِل ابنُه . وانصرف القوم يضحكون ويَعْجَبون من خُبثهم جميعاً واتّفاقهم في ذلك المذهب .

* * *

(١) نعر : صاح وصوت بخيشومه .

٩

أبو العتاهية

[الأغاني الجزء ٤ ص ١ وما بعدها]

الشاعر

أبو العَتاهية لقبٌ غلب عليه ، واسمُه إسماعيل بن القاسم بن سُويد بن كَيسان ، مولى عَنَزة ، وكُنيته أبو إسحاق ...

ومَنشؤه بالكوفة ، وكان في أول أمره يتخنّث ويحمل زامِلة[1] المُخَنَّثين ، ثم كان يبيع الفَخّار بالكوفة ، ثم قال الشعر فبرَعَ فيه وتقدّم . ويقال : أطبع الناس بَشّارٌ والسَيّد وأبو العتاهية ، وما قَدَر أحدٌ على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته .

(*) ذكر أبو الفرج في نهاية ترجمته لأبي العتاهية أنه لم يورد هنا أخبار أبي العتاهية مع عتبة لطولها وأنه أفردها ، ولكن كتابه خلو من هذه الأخبار ويحتمل أنها سقطت منه أو نسي أبو الفرج ذكرها .

(١) الزاملة في الاصل الناقة يحمل عليها المسافر طعامه ومتاعه ،، والمراد بها هنا الجراب أو نحوه .

وكان غزيرَ البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألفاظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلّف ، إلّا أنّه كثير الساقط المرذُول مع ذلك . وأكثر شعره في الزهد والأمثال ؛ وكان قومٌ من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممّن لا يُؤمن بالبعث ، ويَحتجُّون بأنّ شعره إنّما هو في ذِكر الموت والفناء دون ذكر النُّشور والمَعاد . وله أوزانٌ طريفة قالها ممّا لم يتقدَّمْه الأوائلُ فيها . وكان أبخلَ الناس مع يَساره وكثرة ما جَمعه من الأموال .

محمد بن موسى بن حَمّاد قال :

قال المهديُّ يوماً لأبي العتاهية : أنت إنسانٌ مُتَحذلقٌ مُعَتَّهٌ[1] . فاستوتْ له من ذلك كُنيةٌ غلبتْ عليه دون اسمه وكُنيته ، وسارت له في الناس . قال : ويقال للرجل المُتَحذلِق : عَتاهِية ...

قال محمد بن سَلّام : وكان محمد بن أبي العتاهية يذكر أنّ أصلهم من عَنَزة ، وأنّ جدّهم كيسان كان من أهل عين التَّمْر[2] ، فلمّا غزاها خالد ابن الوليد كان كيسانُ جدُّهم هذا يتيماً صغيراً يكفُله قرابةٌ له من عَنَزة ، فسباه خالدٌ مع جماعةِ صِبيانٍ من أهلها ، فوَجّه بهم إلى أبي بكر ، فوصلوا إليه وبحَضْرته عَبّادُ بن رِفاعةَ العَنَزيّ بن أسد بن ربيعة بنِ نزار ، فجعل أبو بكر رضي الله عنه يسأل الصّبيانَ عن أنسابهم فيُخبره كلٌّ واحدٍ بمبلغ معرفته ، حتى سأل كَيسان ، فذكر له أنّه من عَنَزة . فلمّا سمعه عبّادٌ يقول ذلك استوهبه من أبي بكر رضي الله عنه ، وقد كان خالصاً له ، فوهَبه له ، فأعتَقَه ، فتولّى عَنَزة .[3]

(١) المعتّه : المجنون المضطرب الخلق ، ويقال انه كان قد تعته بجارية للمهدي .
(٢) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة .
(٣) تولى عنزة : اتخذهم موالي له .

خِيارٌ الكاتب قال :

كان أبو العتاهيةَ وإبراهيم المَوْصليّ من أهل المَذار [١] جميعاً ، وكان أبو العتاهية وأهلُه يعملون الجِرارَ الخُضْر ، فقدِما إلى بغداد ثم افترقا ، فنزل إبراهيم الموصليّ بغداد ، ونزل أبو العتاهية الحِيرة . وذُكر عن الرِّياشيّ أنه قال مثل ذلك ، وأن أبا أبي العتاهية نقله إلى الكوفة .

قال محمد بن موسى : فولاءُ أبي العتاهية من قِبل أبيه لعَنَزة ، ومن قِبل أمّه لبني زُهرة ، ثم لمحمد بن هاشم بن عُتبة بن أبي وَقّاص ، وكانت أمّه مَولاةً لهم يقال لها أمّ زيد .

قال الخليل بن أَسد : كان أبو العتاهية يأتينا فيستأذن ويقول : أبو إسحاق الخَزّاف . وكان أبوه حَجّاماً من أهل وَرْجة [٢] . ولذلك يقول أبو العتاهية :

ألا إنّما التَقوى هو العِزّ والكرمْ ... وحُبّك للدنيا هو الفَقر والعَدَمْ
وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ ... إذا صَحّح التَّقوى وإن حاكَ أوحَجَمْ

محمد بن موسى قال :

كان أبو العتاهية قَضيفاً [٣] ، أبيض اللون ، أسودَ الشعر ، له وَفْرةٌ [٤] جَعْدة ، وهيئة حسنة ولَباقة وحَصافة ، وكان له عَبيد من السُّودان ، ولأخيه زيدٍ أيضاً عبيد منهم يعملون الخَزَف في أَتُّون لهم ؛ فإذا اجتمع منه شيء ألقوه على أجيرٍ لهم يُقال له أبو عبّاد اليَزيديّ ، من أهل طاق الجِرار بالكوفة ، فيبيعه على يديه ويردّ فضلَه إليهم . وقيل : بل كان يفعل ذلك أخوه زيدٌ لا هو ، وسُئل عن ذلك فقال : أنا جَرّار القوافي ، وأخي جَرّار التجارة .

---

(١) المذار : قصبة ميسان ، بين واسط والبصرة .
(٢) ذكر محقق المطبوعة أنه لم يجد هذا الموضع في معاجم البلدان ، ولعل في اللفظ تحريفاً .
(٣) القضيف : الدقيق العظم القليل اللحم .
(٤) الوفرة : ما اجتمع من الشعر على الرأس .

عبد الحميد بن سَريع مولى بني عِجْل قال :

أنا رأيتُ أبا العتاهية وهو جرّارٌ يأتيه الأحداث والمتأدّبون فيُنشدهُم أشعاره ، فيأخذون ماتكسّر من الخزَف فيكتبونها فيها .

أحمد بن زهير قال :

سمعت مصعَب بن عبدالله يقول : أبو العتاهية أشعرُ الناس . فقلت : بأيّ شيء استحقّ ذلك عندك ، فقال : بقوله :

تعلّقتَ بآمـــالِ ... طوالٍ أيِّ آمـــالِ
وأقبلتَ على الدُّنيـــا ... مُلحّاً أيَّ إقبـــال
أيا هـذا تجهَّزْ لِفـــراق الأهـــل والمـالِ
فلا بُـدّ من المـــوت ... على حالٍ مـن الحـــال

ثم قال مصعب : هذا كلامٌ سهلٌ حقٌّ لا حَشوَ فيه ولا نُقصان ، يعرفه العاقلُ ويُقرّ به الجاهلُ .

موسى بن صالح الشَّهرزُوريّ قال :

أتيت سَلْماً الخاسر فقلت له : أنشِدْني لنفسك . قال : لا ، ولكن أُنشدك لأشعر الجِنّ والإنس ، لأبي العتاهية . ثم أنشَدني قوله :

سَكَنٌ يَبقى له سَكَـــنُ ... ما بهذا يُؤذِنُ الزَّمَـنُ
نحن في دارٍ يُـخبِّـرُنـــا ... بِبلاها ناطقٌ لَسِـنُ
دارُ سوءٍ لم يَدُمْ فَرَحٌ ... لامرئٍ فيها ولا حَزَنُ
في سبيل الله أنفسُنـــا ... كُلُّنا بالموت مُرتَهَـــنُ
كلُّ نفسٍ عند مِيتتهـــا ... حَظُّها من مالها الكَفَنُ
إنّ مال المرء ليس لـــه ... منه إلّا ذِكرُه الحَسَـنُ

يحيى بن زياد الفَرّاء قال :

دخلت على جعفر بن يحيى فقال لي : يا أبا زكريّا ، ما تقول فيما أقول ؟ فقلت : وما تقول ، أصلحك الله ؟ قال : أزعمُ أنّ أبا العتاهية أشعرُ أهل هذا العصر . فقلت : هو واللهِ أَشعرُهم عندي .

محمد بن شِيرويْه الأَنْماطيُّ قال :

قلت لداود بن زيد بن رَزين الشاعر : من أشعرُ أهل زمانه ؟ قال : أبو نُواس . قلت : فما تقول في أبي العتاهية ؟ فقال : أبو العتاهية أشعر الإنس والجنّ .

المُعَلَّى بن عثمان قال :

قيل لأبي العتاهية : كيف تقول الشعر ؟ قال : ما أردتُه إلّا مَثَل لي ، فأقول ما أُريد وأترُكُ ما لا أريد .

رَوح بن الفَرَج الحِرمازيّ قال :

جلست إلى أبي العتاهية فسمعته يقول : لو شئت أن اجعل كلامي كلَّه شعراً لفعلتُ .

أبو عِكرمة قال :

قال محمد بن أبي العتاهية : سُئِل أبيَ : هل تعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض . وله أوزانٌ لا تدخُل في العَرُوض .

أبو عكرمة قال :

حُمّ الرّشيد ، فصار أبو العتاهية إلى الفَضل بن الرّبيع برُقعة فيها :

لو عِلِم الناسُ كيف أنت لهـــم ماتوا إذا ما أَلِمْـتَ أجمعُهمْ
خليفةَ الله أنت ترجَـــح بالنّـــاس إذا ما وُزنـت أنت وهُـمْ
قد علم الناسِ أنّ وَجْهَـــك يَسْتَغني إذا ما رآه مُعْدِمُهـــم

فأنشدها الفضلُ بن الربيع الرشيد ، فأمر بإحضار أبي العتاهية ، فما زال يُسامره ويُحدّثه إلى أن بَرِىء ، ووصَل إليه بذلك السبب مالٌ جليل .

قال : وحُدّثت أنّ ابن الأعرابيّ حَدّث بهذا الحديث ، فقال له رجلٌ بالمجلس : ما هذا الشعر بمستحقٍ لِما قُلت . قال : ولمَ ؟ قال : لأنّه شعرٌ ضعيف . فقال ابن الأعرابيّ ـ وكان أَحَدَّ الناس ـ :الضعيفُ ، والله ، عَقلُك ، لا شعر أبي العتاهية .. ألأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر ! فوالله ما رأيت شاعراً قطّ أطبعَ ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسبُ مذهبه إلّا ضرباً من السِّحر . ثم أنشد له :

قطّعتُ منك حبائلَ الآمـــالِ ... وحَطَطتُ عن ظهر المَطيّ رِحالي
ووجدتُ بَرْدَ اليأس بين جوانحي ... فأَرحتُ من حَلٍّ ومن تَرحال
يأيّها البَطِرُ الذي هو من غـدٍ ... في قبره مُتمزِّقُ الأوصـــال
حَذَفَ المُنى عنه المُشَمِّرُ في الهدى ... وأرى مُناك طويلـةَ الأذيال
حِيَلُ ابنِ آدمَ في الأمور كثيرةٌ ... والموتُ يقطع حِيلـــةَ المُحتالِ
قِستُ السُّؤالَ فكان أعظمَ قيمةً ... من كلّ عارفةٍ جرَت بسُؤالِ
فإذا ابتُليتَ ببَـذْل وجهك سائلاً ... فابذُلْه للمُتكرّم المِفْضـالِ
وإذا خشِيتَ تَعَذُّراً في بلـدةٍ ... فاشْدُدْ يَديك بعاجل التَّرحال
واصبِرْ على غِيَر الزّمان فإنّما ... فَرَج الشّدائد مثلُ حَلِّ عِقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحداً يُحسِن أن يقول مثل هذا الشعر ؟ فقال له الرجل : يا أبا عبدالله ، جَعلني الله فِداءَك ! إنّي لم أَرِدُد عليك ما قلت ، ولكنّ الزُّهدَ مذهبُ أبي العتاهية ، وشعره في المديح ليس كشعره في الزُّهد . فقال : أفليس الذي يقول في المديح :

وهارونُ ماءُ المُزْنِ يُشفَى به الصَّدَى ... إذا ما الصَّدِي بالرِّيق غصَّت حَناجِرُهْ
وأوسَطُ بيتٍ في قريش لَبَيْتُـــه ... وأوّل عِــزٍّ في قــريشٍ وآخــرُه

وزَحْفٍ له تَحكي البُروقَ سيوفُه وتحكي الرُّعودَ القاصفاتِ حوافرُه
إذا حَمِيتْ شمسُ النهارِ تضاحكتْ إلى الشمس فيه بَيْضُه ومَغافِرُه
إذا نُكب الإسلام يوماً بنكبةٍ فهارونُ من بينِ البَريّةِ ثائرُه
ومن ذا يَفُوت الموتَ والموتُ مُدرِكٌ كذا لم يَفُتْ هارونَ ضِدٌّ يُنافره (١)

قال : فتخلّص الرجل من شرّ ابن الأعرابيّ بأن قال له : القولُ كما قلت ، وما كنتُ سمعت له مثل هذين الشِعرين . وكتبهما عنه .

هارون بن سَعدان بن الحارث مولى عَبّاد قال :

حضرت أبا نواس في مجلس وأنشد شعراً ، فقال له مَن حضر في المجلس : أنت أشعرُ الناس . قال : أما والشيخُ حيٌّ فلا . (يعني أبا العتاهية) .

قال إبراهيم بن أبي شيخ : قلت لأبي العتاهية : أيُّ شعرٍ قلتَه أحكم ؟ قال قولي :

علمتَ يا مجاشعُ بنَ مَسْعَدَهْ أنّ الشَّبابَ والفَراغ والجِدَه
مَفسَدَةٌ للمرءِ أيُّ مَفْسَدَهْ (٢)

محمد بن إبراهيم بن خَلَف قال : حدّثني أبي قال :

حُدّثت أنّ المهديّ جلس للشعراء يوماً ، فأذِن لهم وفيهم بشّارٌ وأشجعُ ـ وكان أشجَع يأخذ عن بشّار ويُعظِّمه ـ وغيرُ هذين ، وكان في القوم أبوالعتاهية . قال أشجع : فلمّا سمع بشّارٌ كلامَه قال : يا أخا سُليم ، أهذا ذلك الكوفيُّ المُلَقبُ ؟ قلت : نعم . قال : لا جزى اللهُ خيراً من جَمَعنا معه . ثم قال له

---

(١) الصدى : الظمأ . البيض ج بيضة : الخوذة . المغافر ج مغفر : زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٢) الجدة : الغني .

المهديّ : أَنشِدْ . فقال : ويحَك ! أوَ يَبدأ فيُستَنْشَد أيضاً قبلَنا ! فقلتُ : قد ترى . فأَنشد :

ألا ما لسيّـــــدتي مالَهـــا أَدلًّا فأحمِـــلَ إدلالَهـــا
وإلّا ففيمَ تَجنَّـــت ومـــا جَنَيتُ سَقى الله أطلالَهـا
ألا إنّ جاريـــةً للإمـــــا م قد أُسكِنَ الحبُّ سِربـالها
مشتْ بين حُورٍ قِصـــارِ الخُطا تُجاذب في المَشي أكفالَهـــا
وقد أتعب اللهُ نفسي بهـــا وأتعب باللّـــوم عُـذّالهَا

قال أشجع : فقال لي بشّار : ويحَك يا أخا سُليم ! ما أدري من أيّ أَمْرَيه أَعجبُ : أمِن ضَعف شعره ، أم من تَشبيبه بجارية الخليفة يَسمع ذلك بأُذنه ! حتى أتى على قوله :

أتتْه الخـلافـةُ مُنقـــادةً إليـــه تُجرِّر أذيالَهـــا
ولم تـك تصلُح إلّا لـــه ولم يـك يصلُح إلّا لهـــا
ولو رامها أحدٌ غيـــرُه لَزُلْـزِلت الأرضُ زِلزالَهـا
ولو لم تُطِعْه بناتُ القلـوب لمَا قبِـل اللهُ أعمـــالها
وإنّ الخليفـــةَ مِـن بُغض « لا » إليه لَيُبْغِضُ مَن قالهـا [(١)]

قال أشجع : فقال لي بشّارٌ وقد اهتزّ طَرَباً : وَيحك يا أخا سُليم ! أترى الخليفة لم يَطِر عن فَرْشه طَرَباً لِما يأتي به هذا الكُوفيّ !

محمد بن النَّضْر كاتب غسّان بن عبدالله قال :

أُخرجتُ رسولاً إلى عبدالله بن طاهر وهو يُريد مِصر ، فنزلت على العَتّابيّ ، وكان لي صديقاً ، فقال : أنشِدني لشاعر العراق - يَعني أبا نُواس ، وكان قد مات - فأنشدتُه ما كنت أحفَظ من مُلَحه ، وقلت له : ظننتُك تقول هذا

(١) بنات القلوب : النيّات .

لأبي العتاهية . فقال : لو أردتُ أبا العتاهية لقلتُ لك : أنشِدني لأَشْعَر الناس ، ولم أقتصر على العراق .

عن السِّدْري قال :

سمعت الأصمعيَّ يقول : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتُّراب والخزَف والنَّوى .

هارون بن سَعدان مولى البَجَليّين قال :

كنت مع أبي نواس قريباً من دور بني نِيبَخْت بنهر طابِق[1] وعنده جماعةٌ ، فجعل يمرُّ به القُوّاد والكُتّاب وبنو هاشم فيُسَلّمون عليه وهو مُتّكئٌ ممدودُ الرِّجْل لا يتحرّك لأحدٍ منهم ، حتى نظرنا إليه قد قبض رجليه ووثب وقام إلى شيخٍ قد أقبل على حمارٍ له ، فاعتنق أبا نواس ووقف أبو نواس يحادثه ، فلم يزل واقفاً معه يُراوح بين رجليه يرفع رجلاً ويضع أخرى . ثم مضى الشيخ ورجع إلينا أبو نواس وهو يتأوّه ، فقال له بعضُ من حضَر : واللهِ لأنت أَشعرُ منه . فقال : والله ما رأيته قطُّ إلّا ظننت أنّه سماءٌ وأنا أرضٌ .

السَّرِيّ بن الصَّبّاح مولى ثَوبان بن عليّ قال :

كنت عند بشّار فقلت له : مَن أشعرُ أهل زماننا ؟ فقال : مُخَنَّث أهل بغداد (يعني أبا العتاهية) .

عيسى بن إسماعيل قال :

قال لي الحرمازيّ : شهدتُ أبا العتاهية وأبا نُواس في مجلس ، وكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جواباً عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعَهما في قول الشعر ، فإذا تعاطَيا جميعاً السرعة فَضَله أبو العتاهية ، وإذا توقّفا وتمهّلا فضَله أبو نواس .

---

(١) نهر طابق : محلة كانت بالجانب الغربي من بغداد .

عبدالله بن أبي سعد قال :

قال لي أبو تمّام الطائيّ : لأبي العتاهية خمسةُ أبياتٍ ما شَرِكه فيها أحدٌ ولا قَدَر على مثلها متقدِمٌ ولا متأخّر ، وهو قوله :

النّاسُ في غَفَلاتهم ورحى المَنيّة تَطْحَنُ

وقوله لأحمد بن يوسف :

ألم تَرَ أنّ الفقر يُرجَى له الغِنى وأنّ الغِنى يُخشى عليه من الفَقْرِ

وقوله في موسى الهادي :

ولمّا استقلّوا بأثقالهم وقد أزمعُوا لِلذي أَزمَعُوا
قرنتُ التفاتي بآثارهم وأَتبعتُهم مُقلةً تَدْمَعُ

وقولُه :

هبِ الدّنيا تَصير إليك عَفْواً أليس مصيرُ ذاك إلى زَوال

عبدالله بن الحسن قال :

جاءني أبو العتاهية وأنا في الديوان فجلس إليّ . فقلت : يا أبا إسحاق ، أما يصعبُ عليك شيءٌ من الألفاظ فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائرُ من يقول الشعر أو إلى ألفاظٍ مستكرهة ؟ قال : لا . فقلت له : إنّي لَأحسَب ذلك من كثرة رُكوبك القوافي السَّهلة . قال : فاعرِضْ عليّ ما شئت من القوافي الصعبة . فقلت : قل أبياتاً على مثل « البلاغ » . فقال من ساعته :

أيُّ عيشٍ يكون أبلغَ من عيشٍ كَفافٍ قُوتٍ بقَدر البَلاغِ
صاحبُ البَغْي ليس يسلَم منه وعلى نفسه بغى كلُّ باغي
رُبَّ ذي نعمةٍ تعرَّض منها حائلٌ بينه وبين المَساغ
أبلغَ الدّهرُ في مواعظه بل زاد فيهنّ لي على الإبلاغ

غَبَنَتْني الأيامُ عقلي ومالـــي وشبابي وصِحّتي وفراغـــي[1]

مذهبُه واتّهامه بالزندقة

عن أحمد بن حَرب قال :

كانمذهب أبي العتاهية القولَ بالتَّوحيد ، وأنّ الله خلق جوهرين مُتضادَّين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالمَ هذه البِنْيةَ منهما ، وأنّ العالم حديث العين والصَّنعة لا مُحدِثَ له إلّا اللهُ . وكان يزعُم أنّ الله سيردُّ كلّ شيءٍ إلى الجوهرين المتضادَّين قبل أن تفنى الأعيانُ جميعاً . وكان يذهب إلى أنّ المعارف واقعةٌ بقَدر الفِكر والاستدلال والبحث طِباعاً . وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب ، ويتشيّع بمذهب الزَّيْديّة البَتْريّة[2] المبتدعة ، لا يتنقّص أحداً ولا يرى مع ذلك الخروجَ على السّلطان . وكان مُجَبِّراً[3] ...

عون بن محمد الكِنديّ قال :

سمعت العبّاس بن رُستم يقول : كان أبو العتاهية مُذَبْذَباً في مذهبه : يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعِناً عليه ترك اعتقاده إيّاه وأخذ غيره .

أبو شعيب صاحب ابن أبي دُواد قال :

قلت لأبي العتاهية : القرآن عندك مخلوقٌ أم غير مخلوق ؟ فقال : أسألتَني عن الله أم عن غير الله ؟ قلت : عن غير الله . فأمسك . وأعدتُ عليه فأجابني

(١) البلاغ : الكفاية .

(٢) الزيدية : فرقة من الشيعة تنسب الى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، تجعل الامامة في أبناء فاطمة دون غيرهم وهي ترى أن كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة يصلح ان يكون إماماً ، والبترية : طائفةمنهم أصحاب كثير النوى الأبتر .

(٣) مجبر : يقول بالجبر ، وهو اسناد الافعال كلها الى الله ، ويقول الجبرية ان العبد لا قدرة له مؤثرة ولا كاسبة .

هذا الجواب ، حتى فعل ذلك مراراً . فقلت له : ما لك لا تُجيبني ؟ قال : قد أجبتُك ولكنّك حمار .

رَجاء بن سَلمة قال :

سمعت أبا العتاهية يقول : قرأتُ البارحةَ « عمَّ يَتَساءلون » ثم قلت قصيدةً أحسنَ منها . قال : وقد قيل إنّ منصور بن عمّار شَنّع عليه بهذا .

أبو عُمر القرشيّ قال :

لمّا قصّ منصور بن عَمّار على النّاس مَجلسَ البَعُوضة[1] قال أبو العتاهية : إنّما سرق منصورٌ هذا الكلام من رجلٍ كُوفيّ . فبلغ قولُه منصوراً فقال : أبو العتاهية زِنديقٌ ، أما تَرَونه لا يذكر في شعره الجنّةَ ولا النّار وإنما يذكر الموت فقط ؟ فبلغ ذلك أبا العتاهية ، فقال فيه :

يا واعظَ الناس قد أصبحتَ مُتَّهَماً إذ عِبتَ منهم أموراً أنت تَأتيها
كالمُلْبِسِ الثوبَ من عُري وعَورتُه للناس باديةٌ ما إن يُواريها
فأعظَمُ الإثم بعد الشِّرك نعلمُه في كلّ نفسٍ عَماها عن مَساويها
عِرفانُها بعُيوب الناس تُبصرها منهم ولا تُبصِر العيبَ الذي فيها

فلم تمضِ إلّا أيامٌ يسيرة حتى مات منصورُ بن عمّار ، فوقف أبو العتاهية على قبره وقال : يَغْفِرُ الله لك أبا السَّريّ ما كنتَ رميتَني به .

عن محمد بن أبي العتاهية قال :

لمّا قال أبي في عُتْبةُ[2] :

كأنّما عُتبةَ في حُسنها دُميةُ قَسٍّ فَتَنتْ قَسَّها

(١) مجلس البعوضة : أي المجلس الذي تحدث فيه عن البعوضة وخلقها وما أودعه الله فيها من أسرار وكانت عادة القصاص أن يتحدثوا بمثل هذا .

(٢) هي عتبة جارية المهديّ ، وكان أبو العتاهية محباً لها وقد شبب بها كثيراً في شعره .

يا ربِّ لو أنْسَيْتَنيها بما ... في جنّة الفردوس لم أنْسَها

شنّع عليه منصور بن عَمّار بالزندقة وقال : يتهاون بالجنّة ويَبتذل ذِكرها في شعره بمثل هذا التهاوُن ! وشَنّع عليه أيضاً بقوله :

إنّ المليكَ رآكِ أحسنَ خَلْقِه ... ورأى جَمالَكْ

فحذا بقُدرة نفسِه ... حُور الجِنان على مِثالِكْ

وقال : أيصوّر الحُورَ على مثال امرأة آدميّة واللهُ لا يحتاج إلى مِثال ! وأوقع له هذا على ألسنة العامّة ، فلقِي منهم بلاءً .

الخليل بن أسد النُوْشَجانيّ قال :

جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا فقال : زعَم الناس أنّي زِنديق ، واللهِ ما دِيني إلّا التوحيد . فقلنا له : فقل شيئاً نَتحدّث به عنك . فقال :

ألا إنّنا كُلُّنا بائدُ ... وأيُّ بني آدمٍ خالدُ

وبَدْأُهُم كان من ربّهم ... وكلٌّ إلى ربّه عائدُ

فيا عَجَبا كيف يُعصى الإلٰهُ ... أم كيف يَجْحَدُه الجاحِدُ

وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلّ على أنّه واحدُ

العبّاس بن رستم قال :

كان حَمْدَويه صاحب الزّنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ، ففزِع من ذلك وقعَد حَجّاماً .

عن محمد بن أبي العتاهية قال :

كانت لأبي العتاهية جارةٌ تُشرف عليه ؛ فرأته ليلةً يقنُتُ[1] ، فروت عنه أنه يكلّم القمر . واتّصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة ، فصار إلى منزلها

(١) القنوت : اقامة الصلاة والدعاء والامساك عن الكلام .

وبات وأشرف على أبي العتاهية ورآه يصلّي ، ولم يزل يرقُبه حتى قَنَت وانصرف إلى مضجعه ، وانصرف حمدويه خاسئاً .

بُخله

الحسين بن أبي السَّريّ قال :

قال ثُمامة بن أشرس : أنشدني أبو العتاهية :

إذا المرءُ لم يُعتِقْ من المالِ نفسَه   تملكّه المالُ الذي هو مالكُهْ
ألا إنّما مالي الذي أنا مُنفِقٌ   وليس لي المالُ الذي أنا تاركُه
إذا كنت ذا مالٍ فبادِرْ به الذي   يَحِقُّ وإلّا استهلكتْه مَهالِكُه

فقلت له : من أين قضيتَ بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله ﷺ : « إنّما لك من مالك ما أكلت فأَفنيتَ ، أو لبست فأبليتِ ، أو تَصدّقتَ فأَمْضيتَ » فقلت له : أتُؤمن بأنّ هذا قول رسول الله ﷺ وأنّه الحقُّ ؟ قال : نعم . قلت : فلمَ تحبِسُ عندك سبعاً وعشرين بَدْرةً[1] في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تُزكّي ولا تُقدّمها ذُخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا مَعن ، والله إنّ ما قلتَ لهو الحقّ ، ولكنّي أخاف الفقر والحاجةَ إلى الناس . فقلت : وبمَ تزيد حالُ من افتقَر على حالك وأنت دائمُ الحِرص ، دائم الجمع ، شحيحٌ على نفسك لا تشتري اللحمَ إلّا من عيدٍ إلى عيد ؟ فترك جوابَ كلامي كلّه ، ثم قال لي : والله لقد اشتريتُ في يوم عاشوراء لحماً وتوابلَه وما يتبعُه بخمسة دراهم . فلمّا قال لي هذا القول أضحكني حتى أذهَلني عن جوابه ومُعاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنّه ليس ممّن شرَح اللهُ صدرَه للإسلام .

قال الجاحظ : حدّثني ثُمامةُ قال :

دخلت يوماً إلى أبي العتاهية فإذا هو يأكل خبزاً بلا شيء ، فقلت : كأنك رأيتَه يأكل خُبزاً وحدَه . قال : لا ، ولكنّي رأيتُه يتأدَّمُ بلا شيء . فقلت :

---

(١) البدرة : عشرة الآف درهم

وكيف ذلك ؟ فقال : رأيت قُدّامه خبزاً يابساً من رِقاق فَطيرٍ وقَدَحاً فيه لبنٌ حليبٌ ، فكان يأخذ القِطعة من الخبز فيغمِسُها من اللبن ويُخرجها ولم تتعلّق منه بقليلٍ ولا كثير ، فقلت له : كأنّك اشتهيت أن تتأدّم بلا شيء ، وما رأيت أحداً قبلَك تأدّم بلا شيء .

قال الجاحظ : وزعم لي بعضُ أصحابنا قال : دخلت يوماً على أبي العتاهية في بعض المتنزَّهات ، وقد دعا عَيّاشاً صاحب الجسر وتهيّأ له بطعام ، وقال لغلامه : إذا وضعتَ قُدّامَهم الغَداء فقدِّمْ إليّ ثَريدةً بخَلٍّ وزيت . فدخلت عليه ، وإذا هو يأكل منها أكلَ مُتَكَمِّشٍ[1] غيرَ مُنكِرٍ لشيء . فدعاني ، فمددت يدي معه ، فإذا بثريدةٍ بخَلٍّ وَبَزْرٍ بدلاً من الزيت ، فقلت له : أتدري ما تأكل ؟ قال : نعم ، ثريدةً بخَلٍّ وبزر . فقلت : وما دعاك إلى هذا ؟ قال : غلِط الغلام بين دَبّة[2] الزيت ودَبّة البِزر ، فلمّا جاءني كرهت التجبُّر وقلت : دُهْنٌ كدهن . فأكلت وما أنكرت شيئاً .

محمد بن عيسى الخُزيميّ ـ وكان جارَ أبي العتاهية ـ قال :

كان لأبي العتاهية جارٌ يلتقط النوى ضعيفٌ سيّء الحال مُتجمِّل[3] ، عليه ثياب . فكان يمرّ بأبي العتاهية طَرَفي النهار ، فيقول أبو العتاهية : اللهمّ أَغْنِه عمّا هو بسبيله ، شيخٌ ضعيف سيّء الحال عليه ثيابٌ متجمّل ، اللهمّ أَعِنه ، اصنَعْ له ، بارك فيه . فبقي على هذا إلى أن مات الشيخُ نحواً من عشرين سنةً ، ووالله إنْ تصدّق عليه بدرهم ولا دانقٍ قطُّ ، وما زاد على الدُعاء شيئاً . فقلت له يوماً : يا أبا إسحاق ، إنّي أراك تُكثر الدعاءَ لهذا الشيخ وتزعُم أنه فقيرٌ مُقِلّ ، فلمَ لا تتصدّق عليه بشيء ؟ فقال : أخشى أن يعتاد الصَّدَقة ، والصدقةُ آخِرُ كَسْبِ العبد ، وإنّ في الدعاء لخيراً كثيراً .

---

(١) المتكمش : المسرع .

(٢) الدبة : وعاء يتخذ للزيت والبزر ، والبزر التابل .

(٣) المتجمل : الفقير الذي لم يظهر على نفسه المسكنة والذل .

قال محمد بن عيسى الخُزيميّ هذا :

وكان لأبي العتاهية خادمٌ أسودُ طويل كأنه مِحراك أَتُّون ، وكان يُجري عليه في كلّ يوم رغيفين . فجاءني الخادم يوماً فقال لي : واللهِ ما أشبَع . فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : لأنّي ما أَفْتُر من الكَدّ وهو يُجري عليّ رغيفين بغير إدام ، فإن رأيت أن تكلّمه حتى يزيدَني رغيفاً فتُؤجَرَ . فوعدته بذلك . فلمّا جلست معه مرّ بنا الخادم فكرهت إعلامَه أنّه شكا إليّ ذلك ، فقلت له : يا أبا إسحاق ، كم تُجري على هذا الخادم في كل يوم ؟ قال : رغيفين . فقلت له : لا يَكْفيانه . قال : من لم يكْفِه القليلُ لم يكفه الكثير ، وكلّ من أعطى نفسه شهوتها هَلك ، وهذا خادمٌ يدخل إلى حُرَمي وبناتي ، فإن لم أُعَوِّدْه القناعة والاقتصاد أهلَكَني وأهلكَ عِيالي ومالي . فمات الخادمُ بعد ذلك فكَفّنه في إزارٍ وفِراش له خَلَقٍ ، فقلت له : سُبحانَ الله ! خادمٌ قديمُ الحُرمة ، طويل الخِدمة ، واجبُ الحقّ ، تُكفّنه في خَلَق ، وإنما يكفيك له كفَنٌ بدينار ! فقال : إنّه يصير إلى البِلى ، والحيُّ أَولى بالجديد من الميّت . فقلت له : يَرحمك اللهُ أبا إسحاق ! فلقد عَوَّدتَه الاقتصاد حَيّاً ومَيّتاً .

قال محمد بن عيسى هذا : وقف عليه ذاتَ يومٍ سائلٌ من العَيّارين[1] الظُرَفاء وجماعةٌ من جِيرانه حولَه ، فسأله مِن بين الجيران ، فقال : صنع اللهُ لك . فأعاد السؤال ، فأعاد عليه ثانيةً ، فأعاد عليه ثالثةً فردّ عليه مثلَ ذلك . فغضب وقال له : ألستَ القائل :

كلُّ حيٍّ عند مِيتَتِـــــه حَظُّه من مالِه كَفَنُ

ثم قال : فبالله عليك أَتريد أن تُعِدَّ مالَكَ كُلَّه لثَمن كَفَنك ؟ قال : لا . قال : فبالله كم قَدّرتَ لكَفَنك ؟ قال : خمسة دنانير . قال : فهي إذاً حَظُّك

---

(١) العيارون : قوم كانوا يتكسبون بالحيلة والمسألة واللصوصية .

من مالك كله ؟ قال : نعم . قال : فتصدَّقْ عليَّ من غير حَظِّك بدرهم واحد . قال : لو تصدّقتُ عليك لكان حَظّي . قال : فاعمَلْ على أنّ ديناراً من الخمسة الدنانير وَضِيعةٌ[1] قيراط ، وادفع إليّ قيراطاً واحداً ، وإلّا فواحدةٌ أخرى . قال : وما هي ؟ قال : القبور تُحفَر بثلاثة دراهم ، فأَعطِني درهماً وأُقيم لك كفيلاً بأنّي أَحفِر لك قَبرك به متى مُتّ ، وتربح درهمين لم يكونا في حُسبانك ، فإن لم أَحتفِر رددتُه على وَرَثتك أو ردّه كَفيلي عليهم . فخجل أبو العتاهية وقال : اغرُبْ ، لَعَنك اللهُ وغضِب عليك . فضحك جميع من حضر ، ومرّ السائلُ يضحك . فالتفت إلينا أبو العتاهية فقال : من أجل هذا وأمثاله حُرّمت الصَدَقة . فقلنا له : ومَن حَرَّمها ومتى حُرِّمت ؟ فما رأينا أحداً ادّعى أنّ الصدَقة حُرّمت قبلَه ولا بعدَه .

قال محمد بن عيسى هذا : وقلت لأبي العتاهية : أتزكّي مالكَ ؟ فقال : والله ما أُنفِق على عيالي إلّا من زَكاة مالي . فقلت : سُبحانَ الله ! إنما ينبغي أن تُخرج زكاةَ مالك إلى الفقراء والمساكين . فقال : لو انقطعتْ عن عِيالي زكاةُ مالي لم يكن في الأرض أفقرُ منهم .

الحسين بن أبي السَّريّ قال :

قيل لأبي العتاهية : مالكَ تبخَلُ بما رَزَقك الله ! قال : والله ما بَخِلتُ بما رزقني اللهُ قطّ . قيل له : وكيف ذاك وفي بيتك من المال ما لا يُحصَى ؟ قال : ليس ذلك رِزقي ، ولو كان رزقي لأنفقتُه .

أخباره مع المهديّ

أبو خَيثم العَنَزيّ ـ وكان صديقاً لأبي العتاهية ـ قال : حدّثني أبو العتاهية قال :

أخرجني المهديُّ معه إلى الصَّيد ، فوقعنا معه على شيءٍ كثير ، فتفرّق

(١) الوضيعة : الخسارة وما يحط الثمن ، ولعل الصواب هنا : وضيعته .

أصحابُه في طَلبه وأخذ هو في طريقٍ غير طريقهم فلم يلتقُوا ، وعرَض لنا وادٍ جرّار وتغيّمت السماءُ وبدأت تُمطر ، فتَحيّرنا وأَشرفْنا على الوادي فإذا فيه مَلّاحٌ يُعبرّ الناس ، فلجأنا إليه فسألناه عن الطريق ، فجعل يُضَعِّف رأينا ويُعَجِّزُنا في بَذْلنا أنفسَنا في ذلك الغيم للصَّيد حتى أَبْعَدْنا . ثم أدخَلَنا كُوخاً له ، وكاد المهديُّ يموت بَرداً ، فقال له : أُغَطّيك بجُبَّتي هذه الصوف ؟ فقال : نعم . فغَطّاه بها ، فتماسك قليلاً ونام . فافتقده غِلمانُه وتبِعوا أثرَه حتى جاؤونا . فلمّا رأى المَلّاحُ كثرتَهم علم أنه الخليفةُ فهرب ، وتبادر الغِلمانُ فنحَّوا الجُبّة عنه وألقَوا عليه الخزَّ والوَشْي . فلمّا انتبه قال لي : ويحَك ! ما فَعل المَلّاحُ ؟ فقد والله وَجَبَ حقُّه علينا . فقلت : هرَب واللهِ خوفاً من قُبح ما خاطَبَنا به . قال : إنّا لله ! والله لقد أردتُ أن أُغْنِيَه ، وبأيّ شيءٍ خاطَبَنا ! نحن والله مُستحقّون لِأقبحَ ممّا خاطبَنا به ! بحياتي عليك إلّا ما هجوتَني. فقلت : يا أمير المؤمنين ، كيف تطيبُ نفسي بأن أَهْجُوَك ! قال : واللهِ لَتفعلَنّ ، فإنّي ضعيفُ الرأي ، مُغْرَمٌ بالصَّيد . فقلت :

يا لابسَ الوَشْي على ثوبه ... ما أقبحَ الأشيبَ في الرّاحِ(١)

فقال : زِدْني بحياتي . فقلت :

لوشئتَ أيضاً جُلتَ في خامةٍ ... وفي وِشاحَين وأوضاحِ (٢)

فقال : ويلَك ! هذا معنى سَوء يرويه عنك الناس ، وأنا أستأهِلُ ، زِدْني شيئاً آخرَ . فقلت : أخاف أن تغضب . قال : لا والله . فقلت :

كم من عظيم القَدْر في نفسه ... قد نام في جُبّة مَلّاحِ

فقال : مَعنى سَوء ، عليك لعنةُ الله ! وقُمنا وركبنا وانصرفنا .

أبو العتاهية قال :

---

(١) الراحة : طيّ الثوب .

(٢) الخام : ثوب من القطن غير مغسول . الاوضاح : الخلاخيل .

ماتت بنتُ المهديّ فحزِن عليها حُزناً شديداً حتى امتنع من الطعام والشّراب ، فقلت أبياتاً أُعزّيه بها ، فوافيتُه وقد سَلا وضحك وأكل وهو يقول : لا بُدّ من الصّبر على ما لا بُدَّ منه ، ولئن سَلَونا عمّن فَقَدْنا لَيَسْلُونَّ عنّا من يَفْقِدُنا ، وما يأتي الليلُ والنهار على شيء إلّا أبلياه . فلمّا سمعتُ هذا منه قلت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي أن أُنشدَك ؟ قال : هاتِ . فأنشدته :

ما للجديدَيـن لا يَبْلَـى اْختلافُهما ... وكلُّ غضٌّ جديـدٍ فيهما بالـي
يا مَن سَلا عن حبيبٍ بعد مِيتتـه ... كم بعد موتِك أيضاً عنك من سالي
كأنّ كـلَّ نعيمٍ أنت ذائقُـه ... من لذّة العيش يَحكي لَمْعةَ الآلِ
لا تلعَبَنَّ بك الدنيا وأنت تـرى ... ما شئتَ من عِبَرٍ فيها وأمثـالِ
ما حِيلـةُ الموت إلّا كلُّ صالحةٍ ... أو لا فما حِيلةٌ فيه لِمحتـالِ[1]

فقال لي : أحسنتَ ويحَك ! وأصبت ما في نفسي ووعظت وأوجزت . ثم ثم أمر لي لكلّ بيت بألف درهم .

أخباره مع الهادي

عُروة بن يوسف الثقفيّ قال :

لمّا وَلي الهادي الخلافة كان واجداً على أبي العتاهية لملازمته أخاه هارونَ وانقطاعَه إليه وتَرْكه موسى ، وكان أيضاً قد أمر أن يخرجَ معه إلى الرَّيّ فأبى ذلك فخافه وقال يستعطفُه :

ألا شافعٌ عند الخليفة يَشفعُ ... فيدفَعَ عنّا شرَّ ما يُتَوَقَّـعُ
وإنّي على عُظم الرّجـاء لخائفٌ ... كأنّ على رأسي الأسِنّةَ تُشْرَعُ
يُـرَوِّعـني موسى على غير عَثْرةٍ ... ومالي أرى موسى من العَفو أَوسَعُ
وما آمِنٌ يُمسي ويُصبح عائذاً ... بعفـو أمـير المؤمنـين يُـرَوَّعُ

(١) الجديدان : الليل والنهار. الآل : السراب .

محمد بن أبي العتاهية قال :

دخل أبي على الهادي فأنشده :

يا أمينَ الله مـــــالي لست أدري اليومَ مالي
لم أَنَلْ منك الذي قـــد نال غيري من نَـــوالِ
تبذُل الحـــقَّ وتُعطـــي عن يمـــينٍ وشِمـــالِ
وأنا البـــائسُ لا تنظُـــرُ - في رِقّـــــة حـــالي

قال : فأمر المُعَلّى الخازنَ أن يُعطيَه عشرة آلاف درهم . قال أبو العتاهية : فأتيتُه ، فأبى أن يُعطيَها . ذلك أنّ الهادي امتَحنني في شيءٍ من الشعر - وكان مَهيباً ، فكنت أخافه - فلم يُطِعني طَبعي ، فأمر لي بهذا المال ، فخرجت . فلمّا مَنَعنِيه المُعَلّى صِرت إلى أبي الوليد أحمد بن عِقال - وكان يجالس الهادي - فقلت له :

أبلغْ - سَلِمتَ أبا الوليد - سَلامي عنّي أميرَ المؤمنين إمامـــي
وإذا فرغتَ من السَّلام فقُـــل لــه قد كان ما شاهدتَ من إفحامي
وإذا حَصِرتُ فليس ذاك بمُبطِلٍ ما قد مضى من حُرمتي وذمامي
ولطالما وَفَدت إليك مدائحـــي مخطوطـــةً فَلْتأبَ كلَّ مَلامِ
أيّامَ لي لَسَنٌ ورقّةُ جِـــدّةٍ والمرءُ قد يَبلى مع الأيام (١)

قال : فاستخرج لي الدراهم وأنفذها إليّ .

محمد بن أحمد بن سليمان قال :

وُلد للهادي ولدٌ في أول يوم وَلي الخلافة ، فدخل أبو العتاهية فأنشده :

أكثَرَ موســى غيـــظَ حُسّاده وزيّن الأرض بـــــأولاده
وجـاءنا من صُلبـــه سيّـــدٌ أَصْيَدُ في تقطيـع أجـــداده

---

(١) الحصر : الارتاج والعي في القول .

فاكتست الأرضُ به بَهجةً　　واستبشر الملكُ بميلادِه
وابتسم المِنبرُ عن فَرحةٍ　　عَلَت بها ذِروةُ أعواده
كأنّني بعد قليلٍ به　　بين مَواليه وقُوّاده
في مَحفلٍ تَخفِقُ راياتُه　　قد طَبّق الأرضَ بأجناده

قال : فأمر له موسى بألفِ دينار وطِيبٍ كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضِي عنه .

عمر بن شَبّة قال :

كان الهادي واجداً على أبي العتاهية لملازمته أخاه هارونَ في خلافة المهديّ ، فلمّا وَلي موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يضطرب الخوفُ والرّجاءُ إذا　　حَرّك موسى القضيبَ أو فَكَّرْ
ما أبينَ الفضلَ في مُغَيَّب ما　　أوردَ من رَأيه وما أَصدَرْ
فكم ترى عَزّ عند ذلك من　　مَعشرٍ قومٍ وذَلَّ مِن مَعْشَرْ
يُثمِرُ مِن مَسّه القضيبُ ولو　　يَمَسُّه غيرُه لما أثمر
مَن مثلُ موسى ومثلُ والدِه المهديّ أو جَدِّه أبي جَعْفَر

قال : فرضي عنه . فلمّا دخل عليه أنشده :

لَهْفي على الزَّمنِ القصيرِ　　بين الخَوَرْنَق والسَّديرِ
إذ نحن في غُرَف الجنا　　نِ نَعُوم في بحر السُّرور
في فتيةٍ ملكوا عِنا　　نَ الدهر أمثالِ الصُّقور (١)

[الأبيات ...]

(١) الخورنق والسدير : قصران للنعمان بن المنذر بظاهر الحيرة ، وهما أيضاً موضعان بها وقيل نهران كانا بالحيرة .

ـ قال : قيل لو كان جَزْل اللفظ لكان أشعر الناس ـ فأجزل صِلته وعاد إلى أفضل ما كان له عليه .

أخباره مع الرّشيد

ابن الأعرابي قال :

اجتمعت الشعراء على باب الرّشيد ، فأذِن لهم ، فدخلوا وأنشدوا ، فأنشد أبو العتاهية :

يا مَن تَبَغَّى زمنـــاً صالحـــاً صلاحُ هارونَ صلاح الزمَنْ
كلُّ لسانٍ هـو في مُلكِـــــه بالشُكر في إحسانـه مرتَهَـنْ

قال : فاهتزّ له الرَّشيد وقال له : أحسنتَ والله ! وما خرج في ذلك اليوم أحدٌ من الشعراء بصلة غيرُه .

ابن الأعرابي قال :

أجرى هارون الرشيد الخيل ، فجاءه فرسٌ يقال له المُشَمّرِ سابقاً ، وكان الرشيد معجباً بذلك الفرس ، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه ، فبدَرَهم أبو العتاهية فقال :

جاء المُشَمِّرُ والأفراسُ يَقْدُمُها هَوْناً على رِسْله منها وما انْبَهَرا
وخلّف الرّيحَ حَسْرى وهي جاهدةٌ ومرّ يختطف الأبصارَ والنَّظَرا[١]

فأجزل صلته وما جَسَر أحدٌ بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً .

عن خالد بن أبي الأزهر قال :

بعث الرّشيد بالحَرَشيّ[٢] إلى ناحية الموصل فجبى له منها مالاً عظيماً من بقايا الخراج ، فوافى به بابَ الرشيد ، فأمر بصَرف المال أجمعَ إلى بعض جواريه .

(١) الرسل : الرفق والتؤدة . انبهر : انقطع نفسه من الاعياء . حسرى : كليلة .
(٢) هو سعيد الحرشي وكان الرشيد يوليه كثيراً من أعماله .

فاستعظم الناسُ ذلك وتحدّثوا به ؛ فرأيت أبا العتاهية وقد أخذه شِبهُ الجنون ، فقلت له : مالك ويحك ؟! فقال لي : سُبحانَ الله ! أيُدفَع هذا المالُ الجليل إلى امرأة ، ولا تتعلّق كفيّ بشيء منه ! ثم دخل إلى الرشيد بعد أيّام فأنشده :

اللهُ هَوّن عندك الدُّنيا وبَغَّضها إليكا
فأبيت إلّا أن تُصَغِّرَ - كلَّ شيء في يَديكا
ما هانت الدنيا على أحدٍ كما هانت عليكا

فقال له الفضلُ بن الرّبيع : يا أمير المؤمنين ، ما مُدحت الخلفاءُ بأصدقَ من هذا المدح . فقال : يا فَضلُ ، أَعطِه عشرين ألف درهم . فغدا أبو العتاهية على الفضل فأنشده :

إذا ما كنتَ مُتَّخذاً خليلاً فمثلُ الفضلِ فاتّخذِ الخليلا
يرى الشُكرَ القليلَ له عظيماً ويُعطي من مواهبه الجزيلا
أراني حيثما يَمّمتُ طرفي وجدتُ على مكارمه دليلا

فقال له الفضل : والله لولا أن أُساويَ أمير المؤمنين لأعطيتك مثلَها ، ولكن سأُوصلها إليك في دَفَعات . ثم أعطاه ما أمر له به الرّشيد وزاد له خمسة آلاف درهم من عنده .

أحمد بن معاوية القُرَشيّ قال :

لمّا عقد الرشيد ولاية العهد لبَنيه الثلاثة : الأمين ، والمأمون ، والمؤتَمَن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عن الرَّبْع المُحيلِ قَعُودي إلى ذي زُحوف جَمّةٍ وجُنودِ
وراعٍ يُراعي الليلَ في حِفظ أُمّةٍ يُدافع عنها الشَّرَّ غيرِ رَقُودِ
بألويةٍ جِبريلُ يَقدُم أهلَها وراياتِ نصرٍ حولَه وبُنودِ
تجافى عن الدنيا وأيقن أنّها مُفارِقةٌ ليست بدار خُلودِ

وشدَّ عُرا الإسلام منه بفتيةٍ ثلاثةِ أملاكٍ وُلاةِ عُهـــود
همُ خيرُ أولادٍ لهم خيرُ والدٍ له خيرُ آباءٍ مضت وجُـدودِ
بنو المصطفى هارونَ حولَ سريرِه فخيرُ قِيامٍ حولَه وقُعـودِ
تُقَلِّبُ ألحاظَ المَهابةِ بينهم عيونُ ظِباءٍ في قلوب أسودِ
جُدودهُم شَمسٌ أتتْ في أَهِلّةٍ تبدّتْ لِراءٍ في نجوم سُعـودِ

قال : فوصله الرشيد بصلةٍ ما وصل بمثلها شاعراً قطّ .

الرِّياشيُّ قال :

قدِم رسولٌ لملك الرُوم إلى الرشيد ، فسأل عن أبي العتاهية وأنشده شيئاً من شعره ـ وكان يحسن العربية ـ فمضى إلى ملك الروم وذكَره له . فكتب ملك الروم إليه وردّ رسولَه يسأل الرشيد أن يُوجِّه بأبي العتاهية ويأخذَ فيه رهائنَ من أراد ، وألحّ في ذلك . فكلّم الرشيد أبا العتاهية في ذلك ، فاستعفى منه وأباه . واتصل بالرشيد أنّ ملك الروم أمر أن يكتبَ بيتان من شعر أبي العتاهية على أبواب مَجالسه وباب مدينته ، وهما :

ما اختلف الليـلُ والنّهـار ولا دارتْ نجومُ السماء في فَلَكِ
إلّا لِنقل السُّلطان عن مَلِـكٍ قد انقضى مُلكُه إلى مَلِكِ

محمد بن أبي العتاهية قال :

قال الرشيد لأبي : عِظْني . فقال له : أخافُك . فقال له : أنت آمِنٌ .
فأنشده :

لا تَأْمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ إذا تَستَّرتَ بالأبواب والحَرَسِ
واعلَمْ بأنّ سِهامَ الموت قاصـدةٌ لكلِّ مُدَّرعٍ منّا ومُتَّـرِسِ
ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ طريقتَهـا إنّ السفينةَ لا تجري على اليَبسِ

قال : فبكى الرشيد حتى بَلّ كُمَّه .

مُخارق قال :

لمّا تنسّك أبو العتاهية ولبس الصوف أمره الرشيد أن يقول شعراً في الغزل ، فامتنع ، فضربه الرشيد ستّين عصاً وحلَف ألّا يخرُجَ من حَبْسه حتى يقول شعراً في الغزل . فلمّا رُفعت المقارعُ عنه قال أبو العتاهية : كلُّ مملوكٍ له حُرٌّ وامرأته طالقٌ إن تكلّم سنةً إلّا بالقرآن أو بلا إله إلّا الله محمدٌ رسول الله . فكأنّ الرشيد تحزّن ممّا فعله ، فأمر أن يُحبَس في دارٍ ويُوسَّعَ عليه ولا يُمنع من دخول من يُريد إليه . قال مخارق : وكانت الحال بينه وبين إبراهيم المَوصليّ لطيفةً ، فكان يبعثُني إليه في الأيّام أتعرّف خبرَه ، فإذا دخلتُ وجدتُ بين يديه ظَهراً[1] ودواةً ، فيكتب إليّ ما يريد ، وأُكلّمه ، فمكث هكذا سنةً . واتّفق أنّ إبراهيم الموصليّ صنع صوته :

أعرفت دار الحيّ بالحِجْرِ ... فشدوريان فقُنّة الغَمْرِ
وهجرتَنا وألِفتَ رسمَ بِلىً ... والرسمُ كان أحقَّ بالهَجْرِ[2]

قال مخارق : فقال لي إبراهيم : اذهب إلى أبي العتاهية حتى تغنّيه هذا الصوت . فأتيته في اليوم الذي انقضت فيه يمينُه ، فغنَّيتُه إياه . فكتب إليّ بعد أن غنّيته : هذا اليوم تنقضي فيه يميني ، فأُحبّ أن تُقيم عندي إلى الليلِ . فأقمت عنده نهاري كلَّه ، حتى إذا أذّن الناسُ المغربَ كلَّمني فقال : يا مخارقُ . قلت : لَبَّيك . قال : قل لصاحبك : يا بنَ ... أما والله لقد أبقيت للناس فتنةً إلى يوم القيامة ، فانظر أين أنت من الله غداً . قال مخارق : فكنت أوّل من أفطر على كلامه ، فقلت : دَعني من هذا ، هل قلت شيئاً للتخلُّص من هذا الموضع ؟ فقال : نعم ، قد قلت في امرأتي شعراً . قلت : هاتِه . فأنشدَني :

(١) الظهر : الجانب القصير من الريش وكان من عادتهم أن يكتبوا به .

(٢) حَجر ، بفتح أوله : مدينة باليمامة كثيرة القرى ، وبالكسر قرية من نواحي المدينة واسم ديار ثمود بوادي القرى والراجح أن المقصود هنا الاول لأن الغمر جبل في اليمامة أما شدوريان فلم تذكرها كتب البلدان ولعل في لفظها تحريفاً .

مَن لقلبٍ مُتيَّمٍ مشتـــاقِ شفّه شوقُه وطولُ الفراقِ
طال شوقي إلى قَعيدة بيـــتي ليت شِعري فهل لنا من تلاقي
هي حَظّي قد اقتصرتُ عليهـا من ذَوات العُقود والأطواق
جَمع الله عاجلاً بك شَمْـــلي عن قريبٍ وفَكّني من وَثاقي

قال : فكتبتُها وصِرت بها إلى إبراهيم ، فصنع فيها لحناً ودخل بها على الرشيد ، فكان أولَ صوتٍ غنّاه إيّاه في ذلك المجلس ، وسأله : لِمن الشعر والغناءُ ؟ فقال إبراهيم : أمّا الغِناء فلي ، وأمّا الشعر فلأسيرك أبي العتاهية . فقال : أوَ قد فعل ؟ قال : نعم ، قد كان ذلك . فدعا به ، ثم قال لمسرورٍ الخادم : كم ضَرَبنا أبا العتاهية ؟ قال : سِتّين عصاً . فأمر له بسِتّين ألف درهم وخلع عليه وأطلقه .

الحسين بن أبي السَّريّ قال :

قال لي الفضل بن العبّاس : وجَد الرشيد ، وهو بالرَّقّة ، على أبي العتاهية ، وهو بمدينة السّلام . فكان أبو العتاهية يرجو أن يتكلّم الفَضل بن الرَّبيع في أمره ، فأبطأ عليه بذلك ، فكتب إليه أبو العتاهية :

أجَفَوْتني فيمـن جفاني وجعلتَ شأنكَ غيرَ شاني
ولَطـالما أَمَّنْتَـني ممّا أرى كلَّ الأمان
حتى إذا انقلـب الزمـا نُ صِرت عليَّ مع الزمانِ

فكلّم الفضلُ فيه الرشيد فرضي عنه . وأرسل إليه الفضلُ يأمره بالشُّخوص ويذكر له أن أمير المؤمنين قد رضيَ عنه ، فشَخَص إليه . فلمّا دخل إلى الفضل أنشَده قولَه فيه :

قد دَعَونـاه نائيـاً فوجدنـا ه على نَأْيِه قريبـاً سميعا

فأدخله إلى الرشيد ، فرجع إلى حالته الأولى .

محمد بن يزيد قال :

بلغني من غير وجهٍ أنّ الرشيد لمّا ضرب أبا العتاهية وحَبَسه وكّل به صاحبَ خَبرٍ يكتب إليه بكلّ ما يسمعه ، فكتب إليه أنه سمعه يُنشد :

أما واللهِ إنّ الظُّلمَ لُـــومُ وما زال المسيءُ هو الظَّلومُ
إلى ديّان يوم الدين نَمضي وعند الله تجتمع الخُصوم

قال : فبكى الرشيد وأمر بإحضار أبي العتاهية وإطلاقه ، وأمر له بألفي دينار .

عبدالله بن أبي سعد قال :

قال لي محمد بن أبي العتاهية : كان أبي لا يُفارق الرشيد في سَفَرٍ ولا حَضَر إلّا في طريق الحجّ ، وكان يُجري عليه في كلّ سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمَعاونِ . فلمّا قدم الرشيد الرَّقّة لَبِس أبي الصُّوف وتزهّد وترك حُضور المنادمة والقول في الغزل ، وأمر الرشيد بحَبسه فحُبس ، فكتب إليه من وقته :

أنا اليومَ لي والحمدُ لله أَشْهُرُ يَرُوح عليَّ الهمُّ منكم ويَبْكُرُ
تَذكَّرْ أمينَ الله حَقّي وحُرمتي وما كنتَ تُوليني لعلّك تَذْكُرُ
لياليَ تُدني منك بالقُربِ مجلسي ووجُهك من ماء البشاشةِ يَقْطُرُ
فمَن ليَ بالعين التي كنت مرّةً إليَّ بها في سالف الدّهر تَنْظُرُ

قال : فلمّا قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأسَ عليك . فكتب إليه :

أَرِقتُ وطار من عيني النُّعاسُ ونام السّامرون ولم يُواسُوا
أمينَ الله أَمْنُك خيرُ أَمْنٍ عليك من التُّقى فيه لِباسُ
تُساسُ من السّماء بكلّ بِرٍّ وأنت به تَسُوسُ كما تُساس
كأنّ الخَلْقَ رُكّب فيه رُوحٌ له جَسَدٌ وأنت عليه راسُ
أمينَ الله إنّ الحبسَ بأسٌ وقد أرسلتَ : ليس عليك باسُ

قال : وكتب إليه أيضاً في الحبس :

وكَلَّفْتَني ما حُلْتَ بيني وبينَه   وقلتَ سأبغي ما تُريد وما تَهوى
فلو كان لي قَلبانِ كَلَّفتُ واحداً   هواك وكَلَّفتُ الخلِيَّ لما يَهْوَى

قال : فأمر بإطلاقه .

ابن أخت أبي خالد الحَربيّ قال :

قال لي الرشيد : احبِسْ أبا العتاهية وضَيِّقْ عليه حتى يقول الشعر الرقيقَ في الغزل كما كان يقول . فحبستُه في بيتٍ خمسةِ أشبارٍ في مِثلها ، فصاح : الموت ، أخرجوني فأنا أقول كلَّ ما شِئتم . فقلت : قُلْ . فقال : حتى أتنفَّسَ . فأخرجتُه وأعطيته دواةً وقِرطاساً ، فقال أبياته التي أوّلها :

مَنْ لِعبدٍ أذلّـه مَـولاه   ماله شافـعٌ إليـه سِـواهُ
يشتكي ما به إليـه ويخشا   ه ويَرجوه مثلَ ما يخشـاه

قال : فدفعتُها إلى مسرورٍ الخادم فأوصلَها ، وتقدّم الرشيد إلى إبراهيم الموصليّ فغنّى فيها ، وأمر بإحضار أبي العتاهية فأُحضر . فلمّا أُحضر قال له : أَنشِدْني قولَك :

يا عُتبَ سيِّدتي أما لكِ دِينُ   حتّى متى قلبي لديكِ رَهينُ
وأنا الذَّلُولُ لكلِّ ما حَمَّلْتِني   وأنا الشَّقيُّ البائسُ المِسكينُ
وأنا الغَداةَ لكلِّ باكٍ مُسْعِدٌ   ولكلِّ صَبٍّ صاحبٌ وخَدينُ
لا بأسَ إنّ لِذاك عندي راحةً   للصَّبِّ أن يَلقى الحزينَ حَزينُ
يا عُتبَ أين أفِرُّ منك أميرتي   وعليَّ حِصنٌ من هَواكِ حَصِينُ

فأمر له الرشيد بخمسين ألف درهم .

ولأبي العتاهية في الرشيد لمّا حَبَسه أشعارٌ كثيرة ، منها قولُه :

يا رَشيدَ الأمر أَرشِدْني إلى   وَجه نُجْحي لاعَدِمت الرَّشدا

لا أراكَ اللهُ سُوءاً أبــــداً   ما رأتْ مِثلَك عينٌ أحـــدا
أَعِنِ الخائفَ وارحَمْ صوتَه   رافعاً نحوك يدعُوك يَـــدا
وبلَائي من دَعاوَى أمــلٍ   كلّما قُلتُ تَداني بَعُـــدا
كم أُمَنّى بغـدٍ بعد غـدٍ   يَنفَدُ العُمرُ ولم ألقَ غـــدا

عبد القَويّ بن محمد بن أبي العتاهية عن أبيه قال :

لبس أبو العتاهية كساء صُوفٍ ودُرّاعة صوف وآلى على نفسه ألّا يقول شعراً في الغزل ، وأمر الرّشيد بحبسه والتضييق عليه ، فقال :

يا بنَ عمِّ النبيِّ سَمعاً وطاعَهْ   قد خلعنا الكِساءَ والدُرّاعـــه
ورجَعنا إلى الصِّنــاعة لمّــا   كان سُخطُ الإمام تركَ الصناعة

وقال أيضاً :

أما رَحِمتْني يومَ وَلّتْ فأسرعت   وقد تركَتْني واقفـاً أتلفَّـــتُ
أُقَلّب طَرفي كي أراها فلا أَرى   وأحلِبُ عَيني دَرَّها وأُصوِّتُ

فلم يزل الرشيد مُتوانياً في إخراجه إلى أن قال :

أمــا واللهِ إنّ الظُّلمَ لُـومُ   وما زال المُسيءَ هو الظَّلــومُ
إلى ديّان يوم الدِّين نَمضي   وعند الله تجتمع الخُصــومُ
لأمرٍ ما تصرّفت الليـــالي   وأمرٍ ما تُوُلِّيت النُّجـــومُ
تموت غداً وأنت قريرُ عينٍ   من الغَفَلات في لُجَجٍ تعومُ
تنام ولم تنَمْ عنك المنايــا   تَنَبَّهْ للمَنِيّة يا نَـــؤوم
سَلِ الأيام عن أُمَم تَقضَّتْ   سَتُخبِرك المعالمُ والرُّسـومُ
تَـرومُ الخُلْدَ في دارِ المنايـا   وكم قد رام غيرُك ما تَرُوم
ألا يأيّها الملكُ المُرجَّــى   عليه نَواهضُ الدنيا تَحُوم
أقِلْني زَلَّـــةً لم أجرِ منهـا   إلى لَومٍ وما مِثلي مَلُـــوم

وخَلِّصْني تُخلِّصْ يومَ بَعثٍ   إذا للنّاس بُرّزت الجحيمُ[1]

فرّق له وأمر بإطلاقه .

أحمد بن خلّاد قال حدّثني أبي قال :

لمّا مات موسى الهادي قال الرشيد لأبي العتاهية : قُل شعراً في الغزل . فقال : لا أقول شعراً بعد موسى أبداً . فحبسه . وأمر إبراهيم الموصليّ أن يغنّي فقال : لا أُغنّي بعد موسى أبداً . وكان مُحسِناً إليهما ، فحبسه . فلمّا شَخَص إلى الرَّقّة حفَر لهما حَفيرة واسعة وقطع بينهما بحائط وقال : كُونا بهذا المكان لا تخرُجا حتى تَشعُر أنت ويغنّي هذا . فصبَرا على ذلك بُرهةً . وكان الرشيد يشرب ذات يوم وجعفرُ بن يحيى معه ، فغنّت جاريةٌ صوتاً فاستحسَناه وطرِبا عليه طَرباً شديداً وكان بيتاً واحداً . فقال الرشيد : ما كان أحوجَه إلى بيتٍ ثانٍ ليطُولَ الغِناءُ فيه فنستَمْتِع مُدّةً طويلة به ! فقال له جعفر : قد أصبتُه . قال : من أين ؟ قال : تبعث إلى أبي العتاهية فيُلحِقُه به لقُدرته على الشعر وسُرعته . قال : هو أَنْكَدُ من ذلك ، لا يُجيبُنا وهو محبوسٌ ونحن في نعيمٍ وطرب . قال : بلى ، فاكتُبْ إليه حتى تعلَم صِحّة ما قلت لك . فكتب إليه بالقصّة وقال : أَلحِقْ لنا بالبيت بيتاً ثانياً . فكتب إليه أبو العتاهية :

شُغلُ المِسكينُ عن تلك المِحَنْ   فارق الرُّوحَ وأخلى من بَدَنْ
ولقد كُلّفتُ أمراً عَجَباً   أُسألُ التَفريح من بيت الحَزَنْ

فلمّا وصلت قال الرشيد : عرّفتُك أنه لا يفعل . قال : فتُخرجُه حتى يفعل . قال : لا ، حتى يَشعُر ، فقد حلفتُ . فأقام أياماً لا يفعل . قال : ثم قال أبو العتاهية لإبراهيم : إلى كم نُلاجُّ الخلفاء ! هَلُمّ أَقُلْ شعراً وتُغَنِّ فيه . فقال أبو العتاهية :

---

(١) توليت النجوم : تولاها الله فتطلع ثم تغيب بقدرته . الناهض(في الاصل) : فرخ الطائر الذي وفز جناحه وتهيأ للطيران .

بأبي مَن كان في قلبي له مرّةً حُبٌّ قليل فسُرِقْ
يا بني العبّاس فيكم ملِكٌ شُعب الإحسان منه تفترِقْ
إنّما هارونُ خيرٌ كلُّه مات كلُّ الشرّ مُذ يومِ خُلِقْ

وغنّى فيه إبراهيم. فدعا بهما الرشيد، فأنشده أبو العتاهية وغنّاه إبراهيم، فأعطى كلّ واحدٍ منهما مائةَ ألف درهم ومائة ثوب.

الرّبيع بن محمد الخُتَّليّ الورّاق قال: أخبرني ابن أبي العتاهية أن الرشيد لمّا أطلق أباه من الحبس لزِم بيته وقطع الناسَ، فذكره الرّشيدُ فعُرِّف خبرَه، فقال: قولوا له: صِرتَ زير نساء وحِلْسَ[1] بيت. فكتب إليه أبو العتاهية:

بَرِمتُ بالناس وأخلاقهم فصرتُ أستأنس بالوَحْدَهْ
ما أكثر الناسَ لَعَمري وما أقَلَّهم في مُنتهى العِدَّه

ثم قال: لا ينبغي أن يمضي شعرٌ إلى أمير المؤمنين ليس فيه مدحٌ له. فقرَنَ هذين البيتين بأربعة أبيات مَدَحه بها وهي:

عاد لي من ذِكْرها نَصَبُ فدموعُ العين تنسَكِبُ
وكذاك الحبُّ صاحبُه يَعتريه الهمُّ والوَصَبُ
خيرُ من يُرجَى ومن يَهَبُ ملكٌ دانت له العربُ
وحقيقٌ أن يُدانَ له من أبوه للنبيِّ أبُ

محمد بن صالح العدويّ قال: أخبرني أبو العتاهية قال:

كان الرشيد ممّا يُعجبه غناء المَلّاحين في الزّلّالات إذا ركبها، وكان يتأذّى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يَعملوا لهؤلاء شعراً يغنّون فيه. فقيل له: ليس أحدٌ أقدرَ على هذا من أبي العتاهية، وهو في الحبس. قال: فوَجَّه إليَّ الرشيد: قُل شعراً حتى أسمعه منهم، ولم يأمر باطلاقي،

---

(١) حلس بيته: يلازم بيته فلا يبرحه.

فغاظني ذلك فقلت : والله لأقولنَّ شعراً يُحزنه ولا يُسَرّ به ، فعملتُ شعراً ودفعته إلى مَن حفَّظه المّلاحين . فلمّا ركب الحرّاقة[1] سمعه ، وهو :

خانك الطَّرفُ الطَّمُوحُ أيّها القلبُ الجَمُوحُ
لِدواعي الخير والشَّرّ دُنُوٌّ ونُزوح
هل لمطلوبٍ بذنبٍ تَوبةٌ منه نَصُوح
كيف إصلاحُ قلوبٍ إنّما هنّ قُروح
أحسَن الله بنا أنّ الخَطايا لا تفُوحُ
فإذا المستور منّا بين ثَوبيه نَضُوحُ
كم رأينا من عزيزٍ طُويتْ عنه الكُشوحُ
صاحَ منه برحيلٍ صائحُ الدّهر الصَّدوحُ
موتُ بعض الناس في الأرض على قومٍ فُتوح
سيصير المرءُ يوماً جَسَداً ما فيه رُوحُ
بين عينَي كلِّ حيٍّ عَلَمُ الموت يَلُوح
كُلّنا في غَفلةٍ والموت يَغدو ويَرُوح
لِبني الدُّنيا من الدُّنيا غَبُوقٌ وصَبُوحُ
رُحْنَ في الوَشْي وأصبحنَ عليهنّ المُسوحُ
كلُّ نَطّاحٍ من الدَّهْر - له يومٌ نَطُوح
نُحْ على نفسك يا مِسكينُ إن كنت تَنُوح
لَتمُوتَنَّ وإن عُمِّرتَ ما عُمِّر نوحُ[2]

(١) الحراقة : ضرب من السفن الحربية الكبيرة فيها مرامي نيران يرمى بها العدو ، وكان منها أنواع يتخذها الخلفاء والامراء للتنزهة .

(٢) الصبوح : ما يشرب في الصبوح والغبوق : ما يشرب في المساء . المسوح ج مسح : ثوب الراهب وكساء خشن .

قال : فلمّا سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب ـ وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة وأشدهم عسْفاً في وقت الغضب والغلظة ـ فلمّا رأى الفضل بن الرَّبيع كثرةَ بكائه أومأ إلى الملّاحين أن يسكُتوا .

الحُسين بن أبي السَّريّ قال :

مرّ القاسم بن الرّشيد في موكبٍ عظيم ـ وكان من أتْيَه الناس ـ وأبو العتاهية جالسٌ مع قوم على ظهر الطَّريق . فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاماً له ، فلم يزل قائماً حتى جاز ، فأجازه ولم يلتفت إليه ؛ فقال أبو العتاهية :

يَتِيـــهُ ابنُ آدمَ مِن جَهـــله   كأنّ رَحا المـوت لا تَطْحَنُهْ

فسمع بعضُ من في مَوكبه ذلك ، فأخبر به القاسم ، فبعث إلى أبي العتاهية وضربه مائةَ مِقْرعة ، وقال له : يا بن .. ! أتعرِّضُ بي في مثل ذلك الموضع ! وحَبَسه في داره . فدَسّ أبو العتاهية إلى زُبيدة بنت جعفر ـ وكانت تُوجِب له حَقّه ـ هذه الأبيات :

حتى متى ذو التيه في تِيهـــهِ   أصلَحـــه اللهُ وعافـــاهُ
يَتِيهُ أهلُ التِّيه من جَهلهـــم   وهم يموتـون وإن تاهُـوا
من طَلَب العـزَّ لِيبقَى لــــه   فـإنّ عِـزّ المرء تقـواه
لم يعتصِمْ باللهِ من خَلْقـــه   مَن ليس يرجُوه ويخشـاه

وكتب إليها بحاله وضِيق حَبسه ، وكانت مائلةً إليه ، فرثت له وأخبرت الرّشيد بأمره وكلّمته فيه ، فأحضره وكساه ووصَلَه ، ولم يرض عن القاسم حتى بَرّ أبا العتاهية وأدناه واعتذر إليه .

أخباره مع المأمون :

جماعة من كُتّاب الحسن بن سَهل قالوا :

وقعت رُقعةٌ فيها بيتا شعر في عسكر المأمون ، فجيء بها إلى مُجاشع بن مَسْعَدة ، فقال : هذا كلام أبي العتاهية ، وهو صديقي ، وليست المخاطبة لي

ولكنّها للأمير الفضل بن سهل . فذهبوا بها ، فقرأها وقال : ما أعرف هذه العلامة . فبلغ المأمون خبرُها فقال : هذه إليّ وأنا أعرف العلامة . والبيتان :

ما على ذا كنّا افترَقْنا بسَنْـدا   نَ وما هكذا عَهِدنا الإخاء
تضرِب الناسَ بالمُهَنَّدة البِيضِ   على غَدرهم وتنسى الوفاء

قال : فبعث إليه المأمون بمال .

المُعَلّى بن أيّوب قال :

دخلت على المأمون يوماً وهو مُقبِلٌ على شيخ حسنِ اللحية خَضِيبٍ شديد بياض الثوب على رأسه لاطئةٌ(١) ، فقلت للحسن بن أبي سعيد ـ قال : وهو ابنُ خالة المعلّى بن أيوب ، وكان الحسن كاتب المأمون على العامة ـ : مَن هذا ؟ فقال : أما تعرفه ؟ فقلت : لو عرفتُه ما سألتُك عنه . فقال : هذا أبو العتاهية . فسمعت المأمون يقول له : أنشِدني أحسنَ ما قلتَ في الموت . فأنشده :

أنساك مَحياك المَماتا   فطلبتَ في الدنيا الثَباتا
أَوَثِقْتَ بالدنيا وأنت   ترى جَماعتَها شَتاتا
وعَزَمتَ منك على الحيا   ة وطُولها عَزماً بَتاتا
يا مَن رأى أبويْه فيمَن   قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عِبرةٌ   أم خِلتَ أنّ لك انفلاتا
ومن ذا الذي طلب التفلُّـ   ـتَ من مَنيّته ففاتا
كُلٌّ تُصَبِّحُه المنيّةُ   أو تُبَيِّتُه بَياتا

قال : فلمّا نهض تبعتُه فقبضت عليه في الصَّحْن أو في الدِّهليز ، فكتبتُها عنه .

عن ثُمامة قال :

(١) اللاطئة : قلنسوة صغيرة تلطأ بالرأس

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

ما أَحسنَ الدنيا وإقبالها ... إذا أطاع اللهَ مَنْ نالَها
مَن لم يُواسِ الناسَ في فَضلها ... عَرّض للإدبار إقبالَها

فقال له المأمون : ما أجودَ البيت الأول ! فأمّا الثاني فما صنعتَ فيه شيئاً ، الدنيا تُدبِرُ عمّن واسَى منها أو ضَنّ بها ، وإنما يُوجِب السّماحةُ بها الأَجْرَ ، والضَّنُّ بها الوِزْرَ فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهلُ الفضل أَولى بالفضل ، وأهل النَقص أَولىَ بالنقص . فقال المأمون : اِدفَع إليه عشرةَ آلاف درهم لاعترافه بالحقّ .

فلمّا كان بعد أيام عاد فأنشدَه :

كم غافلٍ أُودى به المـوتُ ... لم يأخُذِ الأُهْبَةَ للفَـوتِ
من لم تزَل نعمتُه قبلَه ... زال عن النّعمة بالمـوتِ

فقال له : أحسنتَ ! الآنَ طيّبتَ المعنى . وأمر له بعشرين ألف درهم .

عن الحسن بن عائِذ قال :

كان أبو العتاهية يَحُجّ في كلّ سنةٍ ، فإذا قدِم أهدى إلى المأمونِ بُرْداً ومِطْرَفاً ونَعلاً سَوداءَ ومَساويكَ أَراك[1] ، فيبعث إليه بعشرين ألف درهم . وكان يُوصِل الهديّةَ من جِهته مِنجابٌ مولى المأمون ويَجيئه بالمال . فأهدى مرّةً له كما كان يُهدي كلَّ سنة إذا قدِم ، فلم يُثِبْه ولا بعث إليه بالوظيفة . فكتب إليه أبو العتاهية :

خَبَّروني أنّ من ضَرْبِ السَّنَـهْ ... جُدُداً بيضاً وصُفراً حَسَنَـهْ
أُحدِثـتْ لكنّني لم أَرهـا ... مثلَ ما كنتُ أرى كـلَّ سَنَهْ

فأمر المأمون بحمل العشرين ألف درهم ، وقال : أغفلَنْاه حتى ذكَّرَنا .

---

(١) الأراك : ضرب من الشجر يتخذ منه المساويك .

أخباره مع عبدالله بن مَعن بن زائدة

محمد بن أبي العتاهية ومحمد بن سعد قالا :

كان أبو العتاهية يهوَى في حداثته امرأةً نائحة من أهل الحِيرة لها حُسنٌ وجمال يقال لها سُعدى ، وكان عبدالله بن معن بن زائدة المكنّى بأبي الفضل يهواها أيضاً ، وكانت مولاةً لهم ، ثم اتّهمها أبو العتاهية بالنّساء ...

مَهديّ بن سابق قال :

تهدّد عبدالله بن مَعن أبا العتاهية وخوّفه ونهاه أن يَعرِض لَمولاته سُعدى ، فقال أبو العتاهية :

ألا قُلْ لابن مَعنٍ ذا الـــذي في الوُدّ قد حـــالا
لقد بُلّغتُ ما قـــالَ فما باليـت ما قـــالا
ولـو كان من الأُسْـــد لمـا صـال ولا جـالا
فصُغ ما كنت حَلَّيـت به سيفَـك خَلخـالا
وما تصنع بالسّيـفِ إذا لم تـك قَتّـالا
ولـو مـدّ إلى أُذْنيـه كَفَّيـه لمـانالا
قصيـرُ الطُّول والطِّيْلَـةِ لا شبّ ولا طـالا
أرى قومـك أبطـالاً وقـد أصبحتَ بَطّالا[1]

سليمان المدائنيّ قال :

احتال عبدالله بن مَعن على أبي العتاهية حتى أُخذ في مكان ، فضربه مائةَ سَوط ضرباً ليس بالمُبرِّح غيظاً عليه ، وإنّما لم يعنُفْ في ضربه خوفاً من كثرة مَن يُعنَى به . فقال أبو العتاهية يهجوه :

جَلَدَتْـني بكَفّهـا بنتُ مَعنِ بن زائـدهْ

---

(١) الطيلة : العمر.

جلدتْني فأوجعتْ بأبي تلك جالده
وتراها مع الخَصِيّ على الباب قاعده
تتكنّى كُنَى الرّجال بعَمدٍ مُكايده
جلدتْني وبالغتْ مائةً غيرَ واحده
اجلِديني واجلِدِي إنّما أنتِ والده [1]

عَون بن محمد ومحمد بن موسى قالا :

لمّا اتّصل هجاء أبي العتاهية بعبدالله بن مَعن وكَثُر غضب أخوه يزيد ابن مَعن من ذلك وتوعّد أبا العتاهية ، فقال فيه قصيدته التي أوّلها :

بَنَى مَعْنٌ ويهدِمُه يزيدُ كذاك اللهُ يَفعل ما يُريدُ
فمَعنٌ كان للحُسّاد هَمّاً وهذا قد يُسَرُّ به الحَسُود
يزيدُ يزيدُ في مَنعٍ وبُخلٍ ويَنْقُص في العطاء ولا يزيد

أبو عِكرمة قال :

كان الرّشيد إذا رأى عبدالله بن مَعن بن زائدة تمثّل قول أبي العتاهية :

أُختُ بني شَيبانَ مرّتْ بنا مَمشوطةً كُوراً على بَغْل

وأوّل هذه الأبيات :

يا صاحبيَ رَحْليَ لا تُكثِرا في شَتم عبدالله من عَذْلِ
سبحانَ من خصّ ابنَ مَعنٍ بما أرى به من قِلّة العَقلِ
قال ابنُ مَعنٍ وجَلا نفسَه على مَن الجَلْوةُ يا أهلي
أنا فتاةُ الحيّ من وائلٍ في الشَرف الشامخ والنُّبلِ
ما في بني شَيبانَ أهلِ الحِجا جاريةٌ واحدةٌ مثلي

(١) يعني ببنت معن بن زائدة عبدالله بن معن المهجو وكان يرميه بالخنث والتشبه بالنساء .

وَيْلي ويا لهفــي على أَمـردٍ يُلصِقُ منّي القُرط بالحَجْلِ
صافحتــه يومــاً على خلوةٍ فقال دَعْ كفّي وخُذ رِجـلي
أختُ بني شيبانَ مرّت بنـا ممشوطــةً كُوراً على بَغْلِ
تُكنَى أبا الفضل ويا مَن رأى جارِيةً تُكنى أبا الفَضـلِ (١)

[الأبيات...] ...

جَبَلة بن محمد قال : حدّثني أبي قال :

مضى بنو مَعن إلى مَنْدَل وحَيّان ابنَي عليّ العَنَزِيَّيْن الفقيهَين ـ وهمامن من بني عمرو بن عامر ، بطنٍ من يَقدُم بن عَنَزة ، وكانا من سادات أهل الكوفة ـ فقالوا لهما : نحن بيتٌ واحد وأهل ، ولا فرقَ بيننا ، وقد أتانا من مَولاكم هذا ما لو أتانا من بعيد الوَلاءِ لوجَب أن تردَعاه . فأحضرا أبا العتاهية ـ ولم يكن يُمكنه الخلافُ عليهما ـ فأصلحا بينه وبين عبدالله ويزيد ابنَي مَعن ، وضَمِنا عنه خُلوص النيّة ، وعنهما ألّا يَتْبعاه بسُوء ، وكانا ممّن لا يُمكن خِلافُهما ، فرجعت الحالُ إلى المودّة والصّفاء ...

سائر أخباره

● عبدالله بن أبي سعد قال :

ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أنّ بِشْرَ بن المُعْتَمِر قال يوماً لأبي العتاهية : بلَغني أنّك لمّا نَسكت جلستَ تَحجُم اليتامى والفقراء للسَّبيل ، أكذلك كان؟ قال : نعم . قال له : فما أردت بذلك؟ قال : أردت أن أضع من نفسي حَسبما رفعتْني الدنيا ، وأضع منها ليسقُط عنها الكِبْرُ وأكتسب بما فعلتُه الثواب ، وكنت أَحجِم اليتامى والفقراء خاصّةً . فقال له بشر : دَعْني من تَذليلك نفسَك بالحِجامة ، فإنه ليس بحُجّة لك أن تُؤدِّبها وتُصلحها بما لعلّك

---

(١) الحجل : الخلخال . الكور : الرحل .

تُفسِد به أمرَ غيرك . أحبّ أن تُخبرني هل كنت تعرِف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجِمُه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا . قال : هل كنت تعرف مقدارَ ما يَحتاج فيه كلٌّ واحدٍ منهم إلى أن يُخرجه على قَدر طبعه ، ممّا إذا زدتَ فيه أو نَقَصتَ منه ضَرّ المحجومَ ؟ قال : لا . قال : فما أُراك الّا أردت أن تتعلّم الحِجامة على أقفاء اليتامى والمساكين .

● قال أبو دِعامة عليّ بن يزيد :

أُخبِر يحيى بن خالد أنّ أبا العتاهية قد نَسَك وأنه جلس يحجُم الناس للأَجْر تواضُعاً بذلك . فقال : ألم يكن يبيع الجِرارَ قبل ذلك ؟ فقيل له : بلى . فقال : أما في بيع الجِرار من الذُّلّ ما يَكفيه ويَستغني به عن الحِجامة !

● عبد الرحمن بن إسحاق العُذريّ قال :

كان لبعض التّجار من أهل باب الطاق (١) على أبي العتاهية ثمنُ ثيابٍ أخذها منه ، فمرّ به يوماً ، فقال صاحب الدُكّان لغُلامٍ ممّن يَخدُمه حسنِ الوجه : أَدرِكْ أبا العتاهية فلا تُفارقْه حتى تأخذَ منه مالنا عنده . فأدركه على رأس الجِسر ، فأخذ بعِنان حماره ووَقفه . فقال له : ما حاجتُك يا غُلامُ ؟ قال : أنا رسولُ فلان بعثني إليك لأُخُذَ مالَه عليك . فأمسك عنه أبو العتاهية ـ وكان كلٌّ من مرّ فرأى الغلامَ متعلّقاً به وقف ينظر ـ حتى رضِي أبو العتاهية جَمْعَ الناس وحَفْلَهم ، ثم أنشأ يقول :

واللهِ ربِّـــك إنـــني   لَأَجِلُّ وَجهَك عن فِعالِـكْ
لـو كـان فِعْلُك مثـلَ وَجْهـك كنتَ مكتفياً بذلـك

فخجِل الغلام وأرسل عِنان الحمار ورجَع إلى صاحبه وقال : بعثتَني إلى شيطانٍ جَمع عليَّ الناس وقال فيَّ الشعر حتى أخجلني فهرَبت منه .

---

(١) باب الطاق : محلة بالجانب الشرقي من بغداد .

● الحسين بن أبي السَّريّ قال :

كان يزيد بن منصور خالُ المهديّ يتعصّب لأبي العتاهية لأنه كان يمدح اليمانية أخوال المهديّ في شعره ، فمن ذلك قولُه :

سُقيتَ الغيثَ يا قصرَ السّلامِ فنِعْمَ مَحلّةُ الملكِ الهُمامِ
لقد نَشر الإلٓهُ عليك نُوراً وحَفّك بالملائكة الكرام
سأشكُر نِعمةَ المهديّ حتى تدورَ عليّ دائرةُ الحِمام
له بيتان بيتٌ تُبَّعِيٌّ وبيتٌ حلّ بالبلَد الحَرام

قال : وكان أبو العتاهية طولَ حياة يزيد بن منصور يدّعي أنه مولىً لليمن وينتفي من عَنَزة . فلمّا مات يزيد رجع إلى ولائه الأوّل . فحدّثني الفضل بن العبّاس قال : قلت له : ألم تكن تزعُم أنّ ولاءك لليمنِ ! قال : ذلك شيء احتَجنا إليه في ذلك الزمن ، وما في واحد ممّن انتميتُ إليه خيرٌ ، ولكنّ الحقّ أحقُّ أن يُتَّبع . وكان ادّعى ولاء اللَخميّين ، قال : وكان يزيد بن منصور من أكرم الناس وأحفظهم لِحُرمةٍ ، وأرعاهم لعهدٍ ، وكان باراً بأبي العتاهية ، كثيراً فضلُه عليه ، وكان أبو العتاهية معه في مَنعة وحِصنٍ حَصين ، مع كثرة ما يدفعه إليه ويمنعه من المكاره . فلمّا مات قال أبو العتاهية يرثيه :

أَنعى يَزيدَ بنَ منصورٍ إلى البَشَرِ أَنعى يزيد لأهل البدو والحضَر
يا ساكنَ الحُفرة المهجورِ ساكنُها بعد المقاصر والأبواب والحُجَرِ
وجدتُ فَقْدَك في مالي وفي نسبي وجدتُ فقدكَ في شَعري وفي بشَري
فلستُ أدري جزاك اللهُ صالحةً أمنظري اليومَ أسوا فيك أم خَبَري

● أبو دُلف هاشم بن محمد الخُزاعيّ قال :

تذاكروا يوماً شعر أبي العتاهية بحَضرة الجاحظ ، إلى أن جرى ذكرُ أُرجوزته المزدوجة التي سمّاها « ذات الأمثال » ، فأخذ بعضُ من حضر يُنشدها حتى أتى على قوله :

يا للشَّبــــابِ المَـرِحِ التَّصــابي　　　روائحُ الجنّـة في الشبــــابِ

فقال الجاحظ للمُنشِد : قِـف : ثم قال ، انظروا إلى قوله :

روائح الجنّة في الشباب

فإن له معنىً كمعنى الطَرَب الذي لا يقدِر على معرفته إلا القلوبُ ، وتعجِز عن ترجمته الألسِنة إلّا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخيرُ المعاني ما كان القلبُ إلى قَبوله أسرعَ من اللسان إلى وصفه .

وهذه الأُرجوزة من بدائع أبي العتاهية ، ويقال إن له فيها أربعةَ آلاف مثل . منها قوله :

حَسْبُك ممّـا تبتغيـه القُـــوتُ　　　ما أكثرَ القوتَ لِمـــن يموتُ
الفقـــرُ فيما جـاوز الكَفافـــا　　　من اتّقى اللهَ رجا وخافـــا
هي المقاديرُ فلُمـنْي أو فَـــذَرْ　　　إن كنت أخطأتُ فما أخطا القَدَرْ
لكلّ ما يُؤذي وإن قَـلّ أَلَـــمْ　　　ما أطْولَ الليلَ على من لم يَنَمْ
ما انتفع المرءُ بمثل عَقلـــــهِ　　　وخيرُ ذُخر المرء حُسن فِعلـهِ
إنّ الفسادَ ضِـدُّه الصَّـــــلاحُ　　　ورُبّ جِـدٍّ جَـرّه المُـــزاحُ
من جَعَل النَمّامَ عَيْناً هَـلَكــا　　　مُبْلِغُـك الشرَّ كباغيـه لَـكا
إنّ الشبابَ والفَراغ والجِـــدَه　　　مَفْسَـــدةٌ للمرء أيُّ مَفْسَـده[1]

[الأبيات ...] ...

● الفضل بن عبّاس بن عُقبة بن جعفر قال :

كان عليّ بن ثابت صديقاً لأبي العتاهية وبينهما مجاوبات كثيرة في الزهد والحكمة . فتُوفي عليّ بن ثابت قبله ، فقال يرثيه :

مؤنِسٌ كان لي هَـلَــــكْ　　　والسّبيلُ التي سَلَــــكْ

(١) الجدة : الغنى .

يا عـلـيّ بـن ثابـتٍ غفَـر اللهُ لي ولـكْ
كلُّ حـيٍّ مُـمَـلَّـكٍ سوف يَفنى وما مَلَـكْ

قال الفضل : وحضر أبو العتاهية عليَّ بن ثابت وهو يجود بنفسه ، فلم يزل مُلتزمَه حتى فاض ، فلما شُدَّ لَحياه بكى طويلاً ثم أنشد يقول :

يا شَريكـي في الخـير قَـرَّبـك اللهُ فنعمَ الشريكُ في الخـير كُنتا
قد لَعَمري حكيتَ لي غُصَص المو ت فحرَّكْتَني لها وسَكَنْـتـا

قال : ولمّا دُفن وقف على قبره يبكي طويلاً أحرَّ بُكاء ، ويُـردّد هذه الأبيات :

ألا مَنْ لي بأُنسِك يا أُخَيّـا ومَن لي أن أَبُثَّك ما لَديّـا
طوتْك خطوبُ دهرِك بعد نَشْرٍ كذاك خُطوبُه نَشْراً وطَيّا
فلو نَشَرت قُواك ليَ المنايـا شكوتُ إليك ما صَنعتْ إليّـا
بكيتُك يا عليُّ بدمع عَيْـني فما أَغنى البكاءُ عليك شيّـا
وكانت في حياتك لي عِظـاتٌ وأنت اليومَ أَوعظُ منـك حَيّا

قال عليُّ بن الحسين مؤلّف هذا الكتاب : هذه المعاني أخذها كلَّها أبو العتاهية من كلامِ الفلاسفة لمّا حضروا تابوت الإسكندر ، وقد أُخرج الاسكندر ليُدفَن . قال بعضُهم : كان الملك أمسِ أهيبَ منه اليومَ ، وهو اليوم أوعظُ منه أمسِ . وقال آخر : سَكَنتْ حركةُ الملك في لَذّاته ، وقد حَرَّكَنا اليومَ في سُكونه جزعاً لِفَقْده . وهذان المَعْنَيان هما اللّذان ذكرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار.

● عن عبدالله بن الحسن قال :

أُنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سَلْماً الخاسر :

تَعالى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عَمرٍو أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرِّجالِ

فقال المأمون : إنّ الحِرص لَمُفسِدٌ للدِّين والمُروءة ، والله ما عرفتُ من رجلٍ قطُّ حِرصاً ولا شَرَهاً فرأيت فيه مُصْطَنَعاً . فبلغ ذلك سَلْماً فقال :

ويلي على المخنَّث الجرّار الزنديق ! جمع الأموال وكَنَزها وعَبّأ البُدور[1] في بيته ، ثم تزهّد مُراءاةً ونفاقاً ، فأخذ يهتِف بي به إذا تصدّيت للطلب .

● عمر بن شَبّة قال :

كانت لأبي العتاهية بنتان ، اسم إحداهما « لله » والأخرى « بالله » . فخطب منصور بن المهديّ « لله » فلم يُزوِّجه وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبي العتاهية ، وكأنّي به قد ملّها ، فلم يكن إلى الإنتصاف منه سبيلٌ ، وما كنت لأزوّجها إلا بائعَ خزَفٍ وجِرارٍ ، ولكنّي أختاره لها مُوسِراً .

● قال عبدالله بن الحسن :

سمعت أبا العتاهية يُحدّث قال : ما زال الفَضل بن الرّبيع من أميل الناس إليّ فلمّا رجَع من خُراسان بعد موت الرّشيد دخلت إليه ، فاستنشدني فأنشدتُه :

أفنيتَ عُمرَكَ إدباراً وإقبـالا ... تَبغي البَنين وتبغي الأهلَ والمالا
الموتُ هولٌ فكُن ما عشتَ ملتمِساً ... من هَوله حيلةً إن كنتَ محتالا
ألم ترَ المَلِكَ الأمسِيَّ حين مضى ... هل نال حيٌّ من الدنيا كما نالا
أفناه من لم يزَلْ يُفني القُرونَ فقد ... أضحى وأصبح عنه المُلْكُ قد زالا
كم من ملوكٍ مضى رَيبُ الزمان بهم ... فأصبحوا عِبَراً فينا وأمثالا

فاستحسنها وقال : أنت تعرف شُغلي ، فَعُدْ إليّ في وقت فراغي أقعدْ معك وآنَسْ بك . فلم أزل أُراقبه أياماً حتى كان يومُ فَراغه فصِرت إليه ، فبينما هو مُقبِلٌ عليّ ويستنشدني ويسألني فأُحدّثه ، إذ أنشدتُه .

وَلّى الشبابُ فما له من حيلةٍ ... وكَسا ذُؤابتيَ المشِيبُ خِمارا
أين البَرامكةُ الذين عَهِدتُهم ... بالأمس أعظمَ أهلها أخطارا

(١) البدور ج بدرة : كيس فيه الف درهم أوعشرة آلاف درهم .

فلمّا سمع ذكر البرامكة تغيّر لونُه ورأيت الكراهيةَ في وجهه ، فما رأيت منه خيراً بعد ذلك .

قال : وكان أبو العتاهية يحدّث هذا الحديث ابنَ الحسن بن سهل ، فقال له : لئنْ كان ذلك ضَرّك عند الفَضل بن الرَّبيع لقد نَفَعك عندنا . فأمر له بعشرةَ آلاف درهم وعشرة أثواب وأجرى له كلَّ شهر ثلاثةَ آلاف درهم ، فلم يزل يقبضها دارّةً إلى أن مات .

● عن محمد بن عيسى الحربيّ قال :

كنت جالساً مع أبي العتّاهية ، إذ مرّ بنا حُميدٌ الطُوسيّ في موكبه وبين يديه الفُرسانُ والرّجّالةُ ، وكان بقُرب أبي العتاهية سَواديٌّ[1] على أتان ، فضربوا وجه الأَتان ونَحّوه عن الطريق ، وحُميدٌ واضعٌ طَرْفَه على مَعْرَفة فرسه[2] ، والناس ينظرون إليه يَعجبون منه وهو لا يلتفت تِيهاً ، فقال أبوالعتاهية :

لِلموت أبناءٌ بهم ... ما شئتَ من صَلَفٍ وتِيْهِ
وكأنني بالموت قد ... دارت رَحاه على بَنِيهِ

قال : فلمّا جاز حُميد مع صاحب الأتان قال أبو العتاهية :

ما أَذَلَّ المُقِلَّ في أعينُ النا ... س لإقلاله وما أَقْماهُ
إنما تنظر العيونُ من النا ... س إلى من ترجُوه أو تخشاه

● عن عليّ بن عبدالله الكِنديّ قال :

جلس أبو العتاهية يوماً يَعذُل أبا نُواس ويَلُومه في استماع الغناء ومجالسته لأصحابه ، فقال له أبو نواس :

أتُراني يا عَتاهي ... تاركاً تلك الملاهي

(١) السوادي : القروي من سكان سواد العراق .

(٢) معرفة الفرس وعرفه : الشعر المسترسل على عنقها .

أتُـــراني مُفسِـــداً بالنُّســـك عند القـوم جاهـي

فوثب أبو العتاهية وقال : لا بارك الله عليك ! وجعل أبو نواس يضحك .

● هارون بن مُخارِق[1] قال حدّثني أبي قال :

جاءني أبو العتاهية فقال : قد عزمتُ على أن أتزوّد منك يوماً تَـهَبُه لي ، فمتى تَنشَط ؟ فقلت : متى شئت . فقال : أخاف أن تقطع بي . فقلت : واللهِ لا فعلتُ وإن طَلَبني الخليفةُ . فقال : يكون ذلك في غدٍ . فقلت : أفعل . فلمّـا كان من غدٍ باكرَني رسولُـه ، فجئتُـه ، فأدخلني بيتاً له نظيفاً فيه فَرشٌ نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبزُ سَميذٍ[2] وخَـلٌّ وبَقلٌ وملحٌ وجَدْيٌ مَشويّ ، فأكلنا مْنه ، ثم دعا بسمك مَشويّ ، فأصَبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بحَلْواء فأصَبْنا منها ، وغسَلْنا أيدينَا ، وجاؤونا بفاكهةٍ وريْحان وألوان من الأَنبذة فقال : اختَـرْ ما يَصلُح لك منها ، فاختَرت وشرِبت ، وصَبَّ قَـدَحاً ثم قال : غَـنِّني في قولي :

أحمدٌ قال لي ولم يدرِ ما بـــــي أتحبُّ الغَداةَ عُـتبـــةَ حقّــا

فغنَّيته ، فشرب قدحاً وهو يبكي أحرَّ بكاء . ثم قال : غَـنِّني في قولي :

ليس لِـمن ليست له حِيلـــــةٌ موجودةٌ خـيرٌ من الصـــبرِ

فغنّيتُـه وهو يبكي وينشِـج . ثم شرب قدحاً آخر ثم قال : غَـنِّني ، فَديتُـك ، في قولي :

خليليَّ مالي لا تزالُ مَضَرَّتـــي تكون مع الأقدارحَتماً من الحَتْمِ

فغنّيتُه إيّـاه . وما زال يقترح عليّ كلَّ صَوتٍ غُنّي به في شعرِه فأُغنّيه ويشرب

(١) مخارق : مغن مشهور كان أيام الرشيد وكانت بينه وبين أبي العتاهية مودة وله غناء في كثير من شعره .

(٢) السميذ : لباب الدقيق .

ويبكي حتى صار العَتَمَة[1] ، فقال : أُحبّ أن تصبِر حتى ترى ما أَصنع . فجلست ، فأمر ابنَه وغلامه فكَسَرا كلَّ ما بين أيدينا من النَّبيذ وآلته والملاهي ، ثم أمر بإخراج كلّ ما في بيته من النّبيذ وآلته ، فأُخرج جميعُه ، فما زال يكسِره ويصُبّ النبيذ وهو يبكي حتى لم يبق من ذلك شيءٌ ، ثم نزَع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بِيضاً من صُوف ، ثم عانقني وبكى ، ثم قال : السّلامُ عليك يا حبيبي وفرَحي من الناس كُلِّهم سلامَ الفِراق الذي لا لِقاءَ بعدَه ، وجعل يبكي وقال : هذا آخرُ عهدي بك في حال تَعاشُر أهل الدنيا . فظننت أنها بعضُ حماقاته ، وما لقِيتُه زماناً . ثم تشوّقتُه فأتيتُه ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت ، فإذا هو قد أخذ قَوْصَرَّتَين[2] وثقب إحداهما وأدخل رأسه ويدَيه فيها وأقامها مَقامَ القميص ، وثقب الأخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السَّراويل . فلمّا رأيته نسيتُ كلَّ ما كان عندي من الغَمّ عليه والوَحشة لعشْرته وضحكت والله ضَحِكاً ما ضحكتُ مثلَه قطّ . فقال ، من أيّ شيءٍ تضحك ؟ فقلت : أسخَنَ اللهُ عينك[3] ! هذا أيُّ شيءٍ هو ؟ من بَلَغك عنه أنّه فعل مثلَ هذا من الأنبياء والزُهّاد والصحابة والمجانين ، انزِعْ عنك هذا يا سَخِين العين ! فكأنه استحيا منّي . ثم بلغني أنّه جلس حَجّاماً ، فجَهِدتُ أن أَراه بتلك الحال فلم أَرَه . ثم مرض ، فبلغني أنه اشتهى أن أُغنّيَه ، فأتيتُه عائداً ، فخرج إليّ رسولُه يقول : إن دخلتَ إليّ جَدَّدْت لي حُزناً وتاقت نفسي من سَماعك إلى ما قد غلبتُها عليه ، وأنا أستودِعُك اللهَ وأعتذر إليك من ترك الالتقاء ، ثم كان آخرَ عهدي به .

---

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء الآخرة ، أو الثلث الاول من الليل .

(٢) القوصرة(بتشديد الراء وتخفيفها) : وعاء من قصب يجعل فيه التمر .

(٣) أسخن الله عينك : دعاء عليه بالغم والحزن .

وفاته

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

قيل لأبي العتاهية عند الموت : ما تشتهي ؟ فقال : أشتهي أن يجيء مُخارق فيضَعَ فمَه على أذني ثم يُغنّيني :

سَيُعْرَضُ عن ذِكري وتُنسى مَودّتي ويحدُث بعدي للخليل خليلُ
إذا ما انقضت عني من الدهر مُدّتي فإنّ غِناءَ الباكيات قليلُ

محمد بن أبي العتاهية قال :

آخرُ شعر قاله أبي في مرضه الذي مات فيه :

إلهي لا تُعذّبني فإنّي مُقِرٌّ بالذي قد كان منّي
فمالي حيلةٌ إلّا رجائي لِعفوك إن عفوتَ وحُسنُ ظنّي
وكم من زَلّةٍ لي في الخطايا وأنت عليَّ ذو فضلٍ ومَنٍّ
إذا فكّرتُ في ندَمي عليها عَضِضتُ أناملي وقرعتُ سِنّي
أُجَنّ بزهرة الدنيا جنوناً وأقطع طولَ عُمري بالتمنّي
ولو أنّي صدقتُ الزُّهدَ عنها قلبتُ لأهلها ظهر المِجَنّ
يظنُّ الناسُ بي خيراً وإنّي لَشرُّ الخَلْقِ إن لم تعفُ عنّي

أبو محمد المؤدِّب قال :

قال أبو العتاهيةلابنته رُقَيّة في عِلّته التي مات فيها : قُومي يا بُنَيّةُ فأندُبي أباكِ بهذه الأبيات . فقامت فندبتْه بقوله :

لعِب البِلى بمعالِمي ورُسومي وقُبرتُ حَيّاً تحت رَدْم هُمومي
لزِم البِلى جِسمي فأوهن قُوّتي إنّ البلى لَمُوكّلٌ بلُزومي

مُخارق المغنيّ قال :

تُوفيّ أبو العتاهية ، وإبراهيم المَوصليّ ، وأبو عمرو الشيبانيّ بمدينة السَّلام[1] في يوم واحد في خلافة المأمون ، وذلك سنةثلاث عشرة ومائتين .

عن إسماعيل بن أبي قُتيبة قال :

مات أبو العتاهية ، وراشدُ الخنّاق ، وهشيمة الخمّارة ، في يوم واحد سنة تسع ومائتين .

وذكر الحارثُ بن أبي أُسامة عن محمد بن سعد كاتب الواقديّ : أنّ أبا العتاهية مات في يوم الاثنين لثمان خَلَون من جُمادى الأولى سنة إحدى عشرةَ ومائتين ، ودُفن حِيالَ قنطرة الزيّاتين ، في الجانب الغربي ببغداد .

عن محمد بن أبي العتاهية : أنّ أباه تُوفيّ سنة عشرٍ ومائتين .

عن إسحاق بن عبدالله بن شُعيب قال :

أمر أبو العتاهية أن يُكتَب على قبره :

أُذنَ حَيٍّ تَسمَّعي ... اسمَعي ثم عِي وعي
أنا رَهْنٌ بمَضجعي ... فاحذَري مثلَ مَصْرعي
عشتُ تسعين حِجّةً ... أسلمتْني لِمَضْجَعي
كم ترى الحيَّ ثابتاً ... في دِيار التَزَعْزُعِ
ليس زادٌ سوى التُقى ... فخُذي منه أو دَعي

أحمد بن زهير قال :

قال محمد بن أبي العتاهية : لقيني محمد بن أبي محمد اليزيديّ فقال : أَنشِدْني الأبياتَ التي أوصى أبوك أن تُكتَب على قبره ، فأنشأتُ أقول :

---

(١) في أصول المطبوعة : عبد السلام مكان مدينة السلام ، وقد استظهر المحقق انها محرفة عن مدينة السلام أي بغداد .

كذبتَ على أخٍ لك في مَماتِـهْ　　وكم كِذبٍ فَشا لك في حياتـهْ
وأكذَبُ ما تكونُ على صديقٍ　　كذبتَ عليه حيّـاً في مَمَـاته

فخجل وانصرف. قال : والناس يقولون : إنـه أوصى أن يكتب على قبره شعرٌ له ، وكان ابنُه يُنكر ذلك .

وذكر هارونُ بن علي بن مهديّ عن عبد الرحمن بن الفضل أنه قرأ الأبيات العينية التي أولها :

أذنَ حيّ تسمّعي

على حجر عند قبر أبي العتاهية .

* * *

١٠

أبُو عُيَيْنَة

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ٧٥ وما بعدها]

الشّاعِر

أبو عُيَينة ـ فيما أخبرنا به عليٌّ بن سليمان الأخفش عن محمد بن يزيد ـ اسمُه ، وكُنيته أبو المِنْهال . قال : وكلٌّ من يُدعى أبا عُيينة من آل المهلَّب فأبو عُيينةَ اسمُه وكُنيته أبو المنهال .

وأبو عُيينة هو ابن محمد[1] بن أبي عُيينة بن المهلَّب بن أبي صُفرة .

أبو خالد الأسلميّ قال :

أبو عُيَينة الشاعر هو أبو عُيَينة بن المنجاب بن أبي عُيينة بن المهلَّب ، وكان محمد بن أبي عُيَينة أبو أبي عُيَينة الشاعر[2] يتولّى الرَّيّ لأبي جعفر المنصور ثم قبض عليه وحبسه وغرّمه .

---

(١) في المطبوعة : وابن أبي عيينة هو محمد بن أبي عيينة ولكن ما يأتي من أخباره يرجح ان اسمه ابو عيينة وان محمداً اسم أبيه .

(٢) يستخلص من هذا الخبر ان ابا الشاعر اسمه محمد وأن المنجـاب قد يكون لقباً له .

واسم أبي صُفرة ظالم بن سَرّاق ... بن الأسدِ بن عِمران بن الوَضّاح بن عمرو بن مُزيقِياء بن حارثةَ الغِطْريف ... بن الأَزْد .

هذا النسب الذي عليه آلُ المهلّب ، وذكر غيرُهم أن أصلهم من عَجَم عُمان وأنّهم تولّوا الأزد ، فلما ساد المهلّب وشَرُف وعلا ذِكره استلحقوه ...

وهو شاعرٌ مطبوعٌ ظريف غزِل هَجّاءٌ ، وأنفدَ أكثرَ أشعاره في هجاء ابن عمّه خالد .. وكان من شعراء الدولة العبّاسية من ساكني البصرة .

محمد بن يزيد قال :

كان أبو عُيَينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذاً ، من غير أدب موصوف ولا رواية كثيرة ، وكان يُقرّب البعيد ، ويحذِف الفُضول ، ويُقلّ التكلُّف ، وكان أصغر من أخيه عبدالله ومات قبلَه .

عن الأصمعيّ قال :

قال لي الفَضل بن الرّبيع : يا أصمعيُّ ، مَن أشعرُ أهل زمانك ؟ فقلت : أبو نواس . قال : حيث يقول ماذا ؟ قلت : حيث يقول :

أما ترى الشمسَ حَلّت الحَمَلا وقام وزنُ الزمان فاعتـــــدلا

فقال : واللهِ إنّـه لذَهِنٌ فَطِن ، وأشعرُ عندي منه أبو عُيَينة .

تعشّقه فاطمة بنت عمر وشعره فيها

القَيض بن مُخَلّد مولى أبي عُيينة بن المهلّب قال :

كان أبو عُيينة بن محمد بن أبي عُيينة يهوى فاطمة بنت عمر بن حَفْص الملقَّب هَزارَمَرْدَ ، وكانت امرأة نبيلةً شريفة ، وكان يخاف أهلَها أن يذكُرَها تصريحاً ويرهَبُ زوجَها عيسى بن سليمان ، فكان يقول الشعر في جارية لها يقال لها « دنُيا » ، وكانت قَيِّمة دارها ، ووالِيةَ أمورها كلِّها . وأنشدنا لأبي عُيينة فيها ويَكني باسم دنيا هذه :

ما لقلبي أرقّ من كـلّ قلبِ ولحبّي أشدّ من كلّ حُـبّ
ولِـدُنيا على جُنوني بدُنيـا أشتهي قُربَها وتكرَهُ قُـربي
نزلتْ بي بليّـةٌ من هـواها والبَلايا تكون من كلّ ضَرب
قُلْ لِـدُنيا إن لم تُجِبْكَ لما بي رَطْبةٌ من دموع عينيَ كُتبي
فعلامَ انتهرتِ باللهِ رُسْـلي وتهدّدتِهم بحَبْسٍ وضـرب
أيُّ ذنبٍ أذنبتُـه ليت شِعري كان هذا جزاءه أيُّ ذنـبِ

قال محمدبن يزيد : وحُدّثتُ عن محمد بن المهلّب أنه أنكر أن يكون أبو عُيينة يهوى فاطمة ، وقال : إنّما كان جنديّاً في عِداد الشُطّار ، وكانت فاطمة من أنبل النساء وأسراهنّ ، وإنما كان يتعشّق جاريةً لها ...

وممّا قاله فيها وغُنّي فيه :

ضَيّعتِ عهدَ فتىً لِعهدكِ حافظٌ في حِفْظه عَجَبٌ وفي تَضييعكِ
ونأيتِ عنه فما له من حِيلـةٍ إلّا الوقوفُ إلى أوانِ رُجـوعكِ
مُتخشّعاً يُذري عليكِ دُموعَـه أسَفاً ويعجَبُ من جُمود دموعِك
إن تقتُليـه وتذهـبي بفؤاده فبحُسن وجهك لا بحُسن صَنيعك

أحمد بن يزيد عن أبيه قال :

لمّا ولي عمر بن حَفص هزارَ مَرْد البصرةَ قال ابن أبي عُيينة[1] في ذلك وفي دُنيا يَكني بها عن فاطمة بنت عمر بن حفص صاحبته :

هَنيئاً لدُنيـا هنيئاً لهـا قدومُ أبيهـا على البَصْـرَهْ
على أنّها أظهرتْ نَخـوةً وقالت : ليَ المُلكُ والقُـدرَهْ
فيا نُورَ عيني كذا عاجـلاً علـيَّ تطاولـتِ بالإمْـرَهْ

قال : وهذا دليلٌ على أنه كان يَكني عن فاطمةَ بدُنيا ، لا أنه كان يهوى جاريتها دنيا .

(١) ابن أبي عيينة : نسبة الى جده ابي عيينة وقد مرّ بنا ان اسم أبيه محمد .

قال محمد بن يزيد : وممّا قاله في فاطمة وصَرّح بذكر القرابة بينهما وحقّق على نفسه أنه يَعنيها قولُه :

دعوتُكِ بالقَرابة والجِـــوارِ ... دعاءَ مُصرِّح بادي السِّـرارِ
لأنّي عنكِ مشغـولٌ بنفسي ... ومحترِقٌ عليكِ بغيـر نـار
وأنت تُوَقَّرين وليس عنـدي ... على نار الصَّبابة من وَقـار
فأنتِ لأنّ ما بكِ دونَ ما بي ... تُدارين العدوَّ ولا أُداري
ولو والله تشتاقين شَـوقي ... جَمحتِ إلى مُخالعـة العِـذار
ألا يا وهبُ فيمَ فضحتِ دُنيا ... وبُحتِ بسِرِّها بين الجـواري
أمـا والرّاقصاتِ بكلّ وادٍ ... غَوادٍ نحو مكّـة أو سَواري
لقد فَضَلَتْكِ دنيا في فؤادي ... كفَضلِ يدي اليمين على اليَسار
فقُولي ما بدا لك أن تقـولي ... فإنّي لا أُلومُكِ أن تُضـاري[1]

فَضلُ اليَزيديِّ عن إسحاق :

أنه أنشده لأبي عُيينة في دنيا التي كان يُشبِّب بها ، وقد زُوِّجت وبلغه أنها تُهدَى إلى زوجها ، وكان إسحاق يستحسن هذا الشعر ويستجيده :

أرى عهدَها كالوَرد ليس بدائمٍ ... ولا خيرَ فيمن لا يَدومُ له عهـدُ
وعَهْدي لها كالآسِ حُسناً وبهجةً ... له نَضرةٌ تبقى إذا ما انقضى الورْدُ
فما وجَدَ العُذريُّ إذ طـال وَجدُه ... بعَفراءَ حتى سَلّ مُهجتَه الوجـدُ
كوجدي غَداةَ البَين عند التفاتها ... وقد شَفّ عنها دون أترابها البُـرْدُ
فقلتُ لأصحابي هي الشمسُ ضَوءُها ... قريبٌ ولكن في تناولها بُعْـدُ
وإنّي لِمَنْ تُهدَى إليه لَحاسِـدٌ ... جرى طائري نحساً وطائرُه سَعدُ[2]

---

(١) وهب : مرخم وهبة ، وهي جارية كان الشاعر يشبب بها .

(٢) العذري : أراد عروة بن حزام الذي عشق عفراء ومات من وجده بها .

قال أحمد بن يزيد : أنشدني أبي لأبي عُيينة يُصرّح بنسبه الجامع له ولفاطمة من أبيات له :

ولأَنتِ إن مُتُّ المُصابةُ بــــي فتجَنَّبي قَتْلي بـلا وِتْــرِ
فلئن هَلَكْتُ لَتَلْطِمَنْ جزَعاً خَدَّيكِ قائمةً على قــبري

قال أحمد : وأنشدني أبي أيضاً في تصديق ذلك ، وأنه كان يكني بُدنيا عن غيرها :

ما لِدُنيا تَجفُوكَ والذَّنْبُ منها إنّ هذا منها لَخَبٌّ ومَكـرُ
عرفتْ ذنبَها إليّ فقالـــت : ابدؤوا القومَ بالصِّياح يَفِرّوا
قد أمرتُ الفؤادَ بالصَّبر عنهــا غير أنْ ليس لي مع الحُبّ أمرُ
وكتمتُ اسمَها حِذاراً من النــا س ومن شرِّهم وفي الناس شَرٌّ
ويقولون : بُحْ لنا باسم دُنيــا واسمُ دنيا سِرٌّ على الناس ذُخْرُ
ثم قالوا لِيعلموا ذات نفسي : أعَوانٌ دنياك أم هي بِكْـرُ
فتنَفَّستُ ثم قلتُ : أبِكــرُ شبّ يا إخوتي عن الطَوق عَمْرُو(١)

هجاؤه ابن عمّه

عن محمد بن يزيد المُبّرد وعن أحمد بن يزيد المهلّبيّ عن أبيه ، قالا جميعاً :
وَلي خالدُ بن يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المهلَّب جُرجان ، فسأل يزيدُ ابن حاتم أبا عُيينة أن يَصحَبَه ويخرجَ معه ، ووعده بالإحسان والولاية وأوسع له المواعيد . وكان أبو عيينة جُنديّاً ، فجَرَد اسمه في جريدته وأخرج رِزقَه معه .

---

(١) الخب : الخداع . ابدؤوا القوم بالصياح : مثل يضرب للمذنب يلصق الذنب بغيره . العوان : المرأة التي سبق لها أن تزوجت . شب عن الطوق عمرو : مثل يضرب لمن يلابس ما هو دون قدره ، وعمرو هو عمرو بن عـديّ (أنظر قصة المثل في جمهرة الأمثال للميداني) .

فلمّا حصل بجرجان أعطاه رِزقه لشهرٍ واحد واقتصر على ذلك وتشاغل عنه وجفاه . فبلغه أنه قد هجاه وطعن عليه وبسط لسانَه فيه وذكَره بكل قبيح عند أهل عملِه ووُجوه رَعيّته ، فلم يقدِر على مُعاقبته لموضع أبيه وسِنّه ومَحلّه في أهله ، فدعا به وقال له : إنه قد بلغنيَ أنك تريد أن تهرُب فإمّا أن أقمتَ لي كفيلاً برِزقك أو رددته ، فأتاه بكفيلٍ ، فأَعْنَته ولم يَقبلْه ، ولم يزل يُردّده حتى ضجِر ، فجاءه بما قَبَض من الرزق فأخذه ، ولجّ أبو عُيَينة في هجائه وأكثر فيه حتى فَضَحه ، فقال في هذا ـ عن أحمد بن يزيد المهلّبيّ ـ :

دُنيا دعوتُكِ مُسرعاً فأجيبي ... وبما اصطَفيتُكِ في الهوى فأثيبي
دُومي أَدُمْ لك بالصَّفاء على النَوى ... إني بعهدك واثقٌ فثِقي بي
ومن الدليل على اشتياقي عَبرتي ... ومشيبُ رأسي قبلَ حين مَشيبي
أبكي إليك إذا الحمامةُ طَرَّبتْ ... يا حُسنَ ذاك إليّ من تطريبِ
تبكي على فَنَن الغصون حزينةً ... حُزنَ الحبيبة من فراقِ حبيب
وأنا الغريبُ فلا أُلامُ على البكا ... إنّ البكا حَسَنٌ بكلّ غريبِ
أفلا يُنادى للقُفول برِحلةٍ ... تشفي جَوىً من أنفُسٍ وقلوب
مالي اصطفيتُ على التعسُّف خالداً ... واللهِ ما أنا بَعدَها بأَريب
تَبّاً لصُحبة خالدٍ من صُحبةٍ ... ولِخالدِ بن يزيدَ من مَصحوب
يا خالدَ بنَ قبيصةٍ هيَّجتَ بي ... حَرباً فدُونك فاصطبِرْ لحروبي
لمّا رأيتُ ضميرَ غِشّك قد بدا ... وأَبيتَ غيرَ تَجهُّمٍ وقُطوب
وعرفتُ منك خلائقاً جَرَّبتُها ... ظهرتْ فضائحُها على التجريب
خَلّيتُ عنكَ مُفارقاً لك عن قِلىً ... ووهبتُ للشيطان منك نَصيبي
فلئن نظرتُ إلى الرُّصافة مرّةً ... نظراً يُفرّج كُربةَ المكروب
لأمزِّقَنَّك قائماً أو قاعداً ... ولَأروينّ عليك كلَّ عجيب

ولَـتأتينَّ أباك فيك قصائـــــدٌ حَبَّرتُها بتشكُّرٍ مقلـــــوبِ
ولَـيُنْشَدَنّ بها الإمامُ قصيدةً ولَـتُشْتَمَنّ وأنت غيرُ مَهيبِ
ولأوذينّك مثلما آذيتَـــــني ولأُشْلينّ على نِعاجك ذيـــبي[1]

أحمدُ بن يزيد قال : حدّثني أبي قال :

لَقي دِعبلٌ أبا عُيَينة فقال له : أنشِدْني قولك في ابن عمّك . فأنشده :

يا حفصُ عاطِ أخاك عاطِهْ كأساً تُهيّج من نشاطِهْ
صِرفاً يعــود لِوَقْعهــا كالظَبْي أُطلِق من رِباطهْ
صَبّاً طوتْ عنه الهمو مُ نعيمَه بعد انبســـاطه
فبكى وحقّ له البُـكــا لشقائــه بعد اغتباطـــه
جــزِع المخنَّثُ خالـدٌ لمّا وقعتُ على قِماطــه
فانظُر إلى نَزَواتـــــه من مَنطقي وإلى اختلاطه
دَعْـــني وإيّـــا خـالدٍ فلأَقطعنّ عُـرَى نِياطه
رجلٌ يعدّ لك الوعيـــــــدَ إذا وطئتَ على بساطه
وإذا انتظرت غَـــداءه فخَفِ البوادرَ من سِياطـهْ
يا خالِ صَـدّ المجدُ عنـــــكَ فلن تجوزَ على سِراطه
وعَرِيت من حُلل الندى عُريَ اليتيم ومن رِياطـــه
فـــإذا تطـــاولت الرؤ وس فغَطّ رأسَك ثم طاطِهْ[2]

فقال له دِعبلٌ : أغرقت والله في النَّزْع[3] وأسرفت وهتَكتَ ابنَ عمّك وقتلتَه

(١) أشلى الدابة : أراها المخلاة لتأتيه ، يريد أنه سيسلط ذئبه على نعاجه .
(٢) القماط : الخرقة تلف على الوليد ، ووقعت على قماطه : فطنت لحيله ومكره .
نزواته : وثباته . النياط : عرق غليظ يناط به القلب الى الوتين فإذا قطع مات صاحبه .
الرياط . ج ريطة : الملاءة وكل ثوب رقيق . طاطه : مخففة عن طأطئه .
(٣) نزع القوس : مدّ وترها .

وغضضتَ منه ، وإنما استنشدتك وأنا أظن أنك قلت كما يقول الناسُ قولاً متوسطاً ، ولوعلمتُ أنك بلغت به هذا كله لما استنشدتُك .

محمد بن يزيد قال : ومن مختار ما قاله في خالدٍ قوله :

قُل لدُنيا بالله لا تقطعينـا واذكرينا في بعضِ ما تذكُرينا
لا تخوني بالغيب عهدَ صديقٍ لم تخافيه ساعةً أن يخونا

* * *

وتبّدلتُ خالداً لعنةُ اللـه عليه ولعنةُ اللاعنينـا
رجلٌ يقهَر اليتيمَ ولا يُؤ تي زكاةً وينهرَ المِسكينـا
ويصون الثيابَ والعِرضُ بالٍ ويُرائي ويمنع الماعونـا
نزع الله منه صالحَ ما أعطـاه آمينَ عاجلاً آمينـا
فلَعَمرُ المُبادرين إلى مكّـةَ وفداً غادين أو رائحينـا
إنّ أضيافَ خالدٍ وبَنيـه ليَجوعُون فوقَ ما يشبعُونـا
وتراهم من غير نسكٍ يصومون ومن غير عِلةٍ يحتمونـا
يا بَني خالدٍ دعُوه وفِرُّوا كم على الجوع ويحكم تصبرونا

زعم القَحذميّ أنّ الرشيد قال للفضل بن الربيع : مَن أهجى المحدَثين عندك يا فضلُ في عصرنا هذا ؟ قال : الذي يقول في ابن عمه :

لو كما ينقُص يـزدا دُ إذاً نال السّماء
خالدٌ لـولا أبـوه كان والكلبُ سواء
أنا ما عِشتُ عليـه أسوأُ الناس ثناء
إنّ من كان مُسيئـاً لحقيقٌ أن يُساء

فقال الرشيد : هذا ابنُ أبي عُيَينة ، ولَعَمري لقد صدقت .

محمد بن القاسم بن مَهرُويه قال : حدّثني أبي قال :

كان ابنُ أبي عُيينة مع ابن عمه خالد بجُرجان ، فأساء به وجفاه ، وكان لابن أبي عيينة صديقان من جُند خالد من أهل البصرة ، أحدهما مُهَلّبي والآخر مولًى للأزد ، وكلُّهم شاعر ظريف ، فكانوا يمدحون السَّراة من أهل جرجان فيُصيبون منهم ما يَقُوتهم . وولي موسى الهادي الخلافة فكتب ابن أبي عُيينة إلى من كان في خدمة الخلفاء من أهله بهذه القصيدة :

كيف صبري ومنزلي جُرجـانُ ... والعراقُ البـلادُ والأوطـانُ
نحـن فيهـا ثـلاثـةٌ حُلفـاءُ ... ونَدامَى على الهـوى إخْـوان
نتسـاقـى الهوى ونطـربَ للـذِّكْر ... كما تُطرب النَشاوَى القيـانُ
وإذا ما بكـى الحمـامُ بكَينـا ... لِبـكاه كأنّنـا صِبيـانُ
يا زماني الماضي ببغداد عُدْ لي ... طالما قد سَررتَني يا زمـانُ
يا زمـاني المُسيء أحسِنْ فقِدماً ... كان عنـدي من فِعلك الإحسانُ
ما يُريد العُذّالُ منّي أما يُتْـرَك ... أيضاً بغَمّـه الإنسـان
ويقولون املُـك هـواك وأقْصِر ... قلت ما لي على الهوى سُلطـان
أيها الكاتمُ الحديثَ وقـد طا ... ل به الأمرُ وانتهى الكِتمانُ
قـد لَعَمري عَرّضتَ حيناً فبَيّنْ ... ليس بعد التعريض إلّا البَيـانُ
واتّخذْ خالـداً عدوّاً مُبينـاً ... ما تَعادى الإنسانُ والشيطـانُ
والْـهُ عنـه فما يضرُّك منـه ... عضُّ كلـبٍ ليست له أسنـان
ولَعمري لولا أبـوه لنـا ... لتْـه بسوءٍ مني يـدٌ ولسـانُ
قُـل لِفتياننـا المقيمين بالبـا ... ب ثِقوا بالنجـاح يا فتيـانُ
لا تخافوا الزمانَ قد قام مـوسى ... فلكُم من رَدى الزمان أمـانُ
أوَ لم تأتِـه الخِلافـةُ طَـوعـاً ... طاعةً ليس بعدَها عِصيـانُ

فهـي منقادةٌ لموسـى وفيهـا عن سواه تقاعسٌ وحِـران
قُـل لموسى يا مالكَ المُلك طَوعـاً بقيادٍ وفي يديـك العِنـانُ
أنت بحـرٌ لنا ورأيُـك فينـا خـيرُ رأيٍ رأى لنا سُلطـان
فاكفِنـا خالـداً فقد سامنا الخسـفَ رمـاه لِحتَفِـه الرحمـن
كم الى كم يُغضَى على الذُلّ منـه وإلى كم يكون هذا الهَـوانُ

قال : فلما قرأ هذه القصيدةَ موسى الهادي أمر له بِصلة ، وأعطاه ما فات من رزقه ، وأقفله من جيش خالدٍ إليه .

* * *

١١

أبو نواس

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ٦١ وما بعدها]

أخباره مع جِنان

كانت جِنانُ هذه جاريةَ آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثَقَفيّ المحدِّثِ الذي كان ابنُ مُناذِر يصحَب ابنَه عبدَ المجيد ورثاه بعد وفاته ...

وكانت حُلوةً جميلةَ المنظر أديبةً ، ويُقال إن أبا نُواسٍ لم يَصْدُقْ في حُبّه امرأةً غيرَها .

عن أبي هِفّان عن أصحاب أبي نُواس قالوا :

كانت جِنانُ جاريةً حسناء أديبةً عاقلة ظريفة تعرِف الأخبار وتروي الأشعار . قال اليُوْيُوْ خاصّةً : وكانت لبعض الثقفيّين بالبصرة ، فرآها أبو نواس فاستحلاها وقال فيها أشعاراً كثيرة ، فقلت له يوماً : إنّ جنانَ قد عزمت على الحّج . فكان هذا سببَ حجّه ، وقال : أما واللهِ لا يَفُوتَني المسيرُ

(*) أورد صاحب الأغاني في هذا الموضع أخبار أبي نواس وجنان خاصة وذكر أنه أفرد له ترجمة مستقلة في موضع آخر ولكن هذه الترجمة لا وجود لها فيما وصلنا من كتاب الأغاني فلعله أنسيها أو ربما سقطت من المخطوطات التي انتهت الينا .

معها والحجُّ عاميَ هذا إن أقامت على عزيمتها . فظننتُه عابثاً مازحاً ، فسَبقها واللهِ إلى الخروج بعد أن علِم أنّها خارجة ، وما كان نَوَى الحجَّ ، ولا أحدَث عَزْمَه له إلاّ خروجها ، وقال وقد حَجّ وعاد :

ألم ترَ أنّني أفنيتُ عُمــــري ... بمَطْلَبها ومَطلبُهـــا عَسيرُ
فلمّا لم أجِدْ سبباً إليهــــــا ... يُقربُّنــي وأعيتنــي الأمــــور
حَجَجْتُ وقلت قد حَجّتْ جِنانٌ ... فيجمعُني وإيّـــاها المَسِيرُ

قال اليُوْيُوْ : فحدّثني مَن شهِده لمّا حجّ مع جنان وقد أحرم ، فلمّا جَنّه الليلُ جعل يُلبّي بشعر ويَحْدُو به ويُطرِب ، فغنّى به كلٌّ من سمعه ، وهو قوله :

إلَـهنَـــا ما أَعْــدَلَـكْ ... مَليك كلٍّ من مَلَــكْ
لَبّيكَ قد لبّيتُ لـــكْ ... لبّيـك إنّ الحمدَ لـــكْ
والمُلـــكَ لا شريكَ لك ... والليلَ لمّـــا أن حَلَـــكْ
والسابحـــاتِ في الفَلَك ... على مَجاري المُنْسَلَك
ما خاب عبــدٌ أَمّلــك ... أنت له حيــث سَلَــك
لولاك يا ربِّ هَلَـــك ... كــلُّ نبــيٍّ ومَلَــــك
وكل من أَهَلَّ لـــك ... سَبّح أو لَبّى فلَـــك
يا مُخطئــاً ما أغفلَك ... عجِّلْ وبـــادر أَجَلَك
واختُـمْ بخيرٍ عملَـــك ... لبّيك إنّ المُلـــكَ لـــك
والحمدُ والنعمـــةُ لك ... والعزّ لا شريــــكَ لك

عمر بن شبّة قال :

كانت جنانُ التي يذكرها أبو نواس جاريـةً لآل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفيّ ، وفيها يقول :

جَفْنُ عيني قد كاد يَسقُطُ مِن طُولِ ما اختلَجْ
وفؤادي من حرّ حُبّك والهجرِ قد نَضِجْ
خَبِّريني فَدتْكِ نفسي وأهلي متى الفَرَجْ
كان ميعادُنا خروجَ زيادٍ فقد خَرَجْ
أنتِ مِن قتلِ عائذٍ بكِ في أضيق الحرج[1]

ابن عمّار قال : حدّثني إسحاق بن محمد النَخَعيّ قال : حدّثني الجمّاز ، قال ابن عمّار : وحدّثني به قُليب بن عيسى قال :

كانت جنان قد شهدتْ عُرساً في جوار أبي نواس ، فانصرفتْ منه وهو جالسٌ معنا ، فرآها ، فأنشدنا بَديهاً قولَه :

شهِدتْ جَلْوةَ العروسِ جنانٌ فاستمالتْ بحُسنها النَظّارةْ
حسِبوها العروسَ حين رأوها فإليها دون العروس الإشاره
قال أهلُ العروس حين رأوها ما دَهانا بها سواكِ عُمارةْ

قال : وعمارة زوج عبد الرحمن الثقفيّ[2] ، وهي مَولاةُ جِنان :

قال أبو خالد يزيدُ بن محمد :

وكان أبو نواس صادقاً في محبّته جِنانَ من بين مَن كان ينسُب به من النساء ويُداعبه ، ورأيت أصحابنا جميعاً يصحِّحون ذاك عنه، وكان لها مُحبّاً ، ولم تكن تُحبّه . فمّما عاتبها به حتى استمالها بصِحة حُبّه لها فصارت تُحبّه بعد نُبُوِّها عنه قولُه :

جنانُ إن جُدتِ يا مُناي بما آمُلُ لم تَقطُرِ السماءُ دَما
وإن تمادى ولا تماديتِ في مَنْعِك أُصبحْ بقَفْرةٍ رِمَما

(١) زياد : هو زياد بن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي .
(٢) كذا ضبط اسمه والصواب كما ورد في مواضع أخرى : امرأة عبد الوهاب .

عَلِقتُ مَن لو أتى على أَنفُس الماضِين والغابِرين ما ندِما
لو نظرتْ عينُه إلى حجرٍ وَلَّد فيه فتورُها سَقَما[1]

الجَمّازُ قال :

كنت عند أبي نُواس جالساً إذ مرّت بنا امرأةٌ ممّن يُداخل الثَقفيّين ، فسألها عن جنان وألحف في المسألة واستقصى ، فأخبرتْه خبرَها وقالت : سمعتُها تقول لصاحبةٍ لها من غير أن تعلم أنّي أسمع : ويحَك ! قد آذاني هذا الفتى وأبرمَني وأحرج صَدْري وضَيّق عليّ الطُرُقَ بحِدّة نظره وتهتّكُه ، فقد لهِج قلبي بذكره والفِكر فيه من كثرة فِعله لذلك حتى رَحِمتهُ . ثم التفتت فأمسكتْ عن الكلام . فسُرّ أبو نواس بذلك ، فلمّا قامت المرأةُ أنشأ يقول :

يا ذا الذي عن جِنانٍ ظلّ يُخبرُنا بالله قُلْ وأعِدْ يا طيّبَ الخبرِ
قال اشتكتْك وقالت ما ابتُليتُ به أَراه من حيثما أقبلتُ في أثري
ويُعمِل الطَّرفَ نحوي إن مررتُ به حتى لَيُخجِلَني من حِدّة النَّظَر
وإن وقفتُ له كيما يكلّمُني في الموضع الخِلْو لم ينطِقْ من الحَصَر
ما زال يفعل بي هذا ويُدمِنُه حتى لقد صار مِن هَمّي ومن وَطَري

محمد بن يزيد قال :

كان أبو عثمان أخا مولى جنان ـ وكان مَولاها أبو ميّةَ زوجُ عُمارة وهي مَولاتُها ـ وكانت له بحَكَمان[2] ضيعةٌ كان ينزِلها هو وابن عمٍّ له يُقال له : أبو ميّة ، فقال أبو نواس فيه قوله :

أسألُ القادِمَيْن من حَكَمانِ كيف خَلّفتُما أبا عثمانِ
وأبا ميّةَ المهذَّبَ والما جدَ والمرتجى لِريَب الزّمانِ

(١) الرمم ج رمة : العظام البالية .
(٢) حكمان : ضيعة بالبصرة لبني عبد الوهاب الثقفيين موالي جنان سميت باسم الحكم ابن العاصي الثقفي .

فيقولان لي : جِنــــــانٌ كمـــــــا سَرُّكَ في حالها فسَلْ عن جِنانِ
ما لهم لا يُبــارك اللهُ فيهـــــم كيف لم يُغنِ عنهمُ كِتمــاني

فأخبرني ابنُ عمّار قال : حدّثني محمدُ بن القاسم بن مَهرويه قال : حدّثني محمدُ بنُ عبد الملك بن مَروان الكاتب قال :

كنت جالساً بسُرّ من رأى في شارع أبي أحمد ، فأنشدني قولَ أبي نواس :

أســـأل المُقبِلَين مِن حَكَمان كيــف خلّفتُمـــا أبا عثمان

وإلى جانبي شيخٌ جالس فضحك ، فقلت له : لقد ضحكتَ من أمرٍ . فقال : أَجَلْ ، أنا أبو عثمان الذي قال أبو نواس فيه هذا الشعر ، وأبو ميّةَ ابنُ عمي ، وجنان جاريةُ أخي ، ولم تكن في موضع عِشق ، ولا كان مذهبَ أبي نواس النساءُ ، ولكنه عبثٌ خرج منه .

عبدُ الملك بن عمر بن أَبانٍ النَخَعيُّ ، وكان صديقاً لأبي نواس :

أن أبا نواس أشرف من دارٍ على منزل عبد الوهاب الثقفيّ ، وقد مات بعضُ أهله وعندهم مَأتَمٌ ، وجنانٌ واقفة مع النساء تَلطِم وجهها وفي يدها خِضابٌ ، فقال :

يا قمـــراً أَبرزه مَــأتَـــمُ يندُبُ شَجْواً بــين أتراب
يبكي فيُذري الدُّرَّ من عينـــه ويلطِمُ الوَردَ بعُنّـــابِ
لا تبكِ مَيْتاً حلَّ في حُفـــرةٍ وابكِ قتيلاً لكَ بالبــابِ
أبرزه المأتم لي كارهـــــاً برَغْم دايــاتٍ وحُجّابِ
لا زال موتاً دَأْبُ أحبابـــه ولا تزلْ رُؤيتُـه دابـــي (١)

(١) يذري : ينثر . العناب : أراد أصابعها فشبهها بالعناب .

عن الجمّاز واليُؤيؤ وأصحاب أبي نواس :

أنّ جِنانَ وجّهت إليه : قد شهّرتني ، فاقطَعْ زيارتَك عنّي أياماً لينقطعَ بعضُ القالة . ففعل وكتب إليها :

إنّـا اهتَجَرْنا للنّـاس إذ فطِنوا　　وبينَنا حـين نَلتقـي حَسَـنُ
نُدافـع الأمرَ وهو مُقتبِـــلٌ　　فشَبّ حتى عليه قد مَرَنُـــوا
فليس يُقذي عيناً معاينَـــةٌ　　لـه ومـا أن تَـمُـجّـه أُذُن
ويحَ ثقيفٍ ماذا يَضرُّهـــم　　أن كان لي في دِيارهم سَكَنُ
أَريَبُ ما بينَنا الحديثُ فـإن　　زِدنا فزِيدوا وما لِذا ثَمَنُ(١)

ابن أبي سعد قال :

بلَغني أنّ أبا نُواس كتب إلى جِنان من بغداد :

كفى حَزَنا إلّا أرى وجهَ حِيلةٍ　　أَزُور بها الأحباب في حَكَمانِ
وأُقسِم لولا أن تنال مَعاشرٌ　　جِناناً بما لا أشتهي لِجنان
لأصبحتُ منها دانيَ الدّار لاصِقاً　　ولكنّ ما أَخشى ـ فُديتِ ـ عَناني
فواحزَنا حُزناً يؤديّ إلى الرَّدى　　فأَصبحَ مأثوراً بكلّ لسـانِ
أُراني انقضت أيامُ وصليَ منكم　　وآذَن فيكم بالوَداع زمـاني

عن الخُريميّ قال :

بلغ أبا نواس أن امرأةً ذَكَرتْ لجِنانَ عِشقَه لها ، فشتمتْه جنانُ وتنقَّصَتْه وذكرتْه أقبح الذِّكر ، فقال :

وابِأَبي مَن إذا ذُكرتُ لــــه　　وطولُ وَجدي به تنقَّصني
لو سألوه عن وجـه حُجّتـه　　في سَبّه لي لقال يَعشَقُـني

---

(١) سكنك : من تسكن إليه .

نعمْ إلى الحَشْر والتنادِ نعـــــمْ   أعشقُه أو أُلَفَّ في كَفَني
أَصيح جَهراً لا أستسرُّ بـــــه   عَنَّفَني فيه من يُعنِّفُني
يا معشر الناس فاسمعُوه وعُوا   أنّ جِناناً صديقة الحَسَنِ[1]

فبلغها ذلك ، فهجرتْه وأطالت هجرَه ، فرآها ليلةً في مَنامه وأنّها قد صالحتْه ، فكتب إليها :

إذا التقى في النوم طَيْفانا   عاد لنا الوصلُ كما كانا
يا قُرّةَ العينِ فما بالُنا   نَشقى ويَلتذّ خَيالانا
لو شئتِ إذ أحسنتِ لي في الكَرى   أتممتِ إحسانَك يَقْظانا
يا عاشقَين اصطلحا في الكرى   وأصبحا غضبَى وغَضبانا
كذلك الأحلامُ غَدّارةٌ   وربّما تصدُق أحيانا

أبو عِكرمةَ الضَبّي :

أنّ رجلاً قدِم البصرة فاشترى جنانَ من مواليها ورحل بها ، فقال أبو نواس في ذلك :

أمّا الدّيارُ فقَلّما لبِثوا بها   بين استياف العِيس والرُّكْبانِ
وضعوا سِياط السَّوق في أعناقها   حتى اطَّلعنَ بهم على الأوطان

* * *

(١) يوم التنادي : يوم القيامة .

١٢

أشجع السُّلَميّ

[الأغاني الجزء ١٨ ص ٢١٢ وما بعدها]

الشاعر

عليّ بن الفَضل السُّلَميّ قال :

كان أشجعُ بن عمرو السُلميّ يكْنى أبا الوليد ، من ولَد الشَّريد بن مَطرود السُلميّ ، تزوّج أبوه امرأةً من أهل اليمامة فشَخص معها إلى بلدها ، فولَدت له هناك أشجعَ ، ونشأ باليمامة . ثم مات أبوه فقدِمت به أُمُّه البصرة تطلب ميراث أبيه ، وكان له هناك مالٌ ، فماتت بها . ورُبيَّ أشجعُ ونشأ بالبصرة ، فكان من لا يعرفُه يدفع نسبَه ، ثم كبِر وقال الشعر وأجاد وعُدّ في الفحول . وكان الشعر يومئذٍ في ربيعةَ واليمن ، ولم يكن لقيسٍ شاعرٌ معدود ، فلمّا نجَم أشجعُ وقال الشعر افتخرت به قيس واثبتت نسبَه .

وكان له أخَوان : أحمد وحُريث ابنا عمرو ، وكان أحمدُ شاعراً ، ولم يكن يُقارب أشجع ، ولم يكن لحُريث شعر .

ثم خرج أشجع إلى الرّقّة ، والرشيدُ بها ، فنزل على بني سُليم ، فتقبّلوه وأكرموه ، ومدح البرامكة وانقطع إلى جعفرٍ خاصةً وأصفاه مدحَه ، فأُعجب

به وأوصله إلى الرشيد ، ومدَحه فأُعجب به أيضاً ، فأثرى وحسُنت حالُه في أيامه وتقدّم عنده .

أخباره مع الرشيد ومدائحه فيه

أحمد بن العبّاس الرَّبيعيّ :

أنّ الذي أوصل أشجعَ السُّلَمي إلى الرشيد جَدُّه الفَضل بن الرَّبيع ، وأنه أوصله له وقال له : هو أشعرُ شعراء أهل هذا الزَّمان ، وقد اقتطعتْه عنك البرامكةُ . فأمره بإحضاره وإيصاله مع الشعراء ، ففعل . فلمّا وصَل إليه أنشده قولَه :

قصرٌ عليه تحيّةٌ وسلامُ ... نثرتْ عليه جمالَها الأيامُ
فيه اجتلى الدنيا الخليفةُ والتقتْ ... للمُلك فيه سلامةٌ وسلامُ
قصرٌ سُقوفُ المُزن دونَ سُقوفه ... فيه لأعلام الهُدى أعلامُ
نشرتْ عليه الأرضُ كُسوتها التي ... نسَج الربيعُ وزَخرفَ الإرهامُ
أدنتك من ظِلّ النبيّ وصيّةٌ ... وقرابةٌ وُشِجَت بها الأرحامُ
برقتْ سماؤك في العدوّ وأمطرتْ ... هاماً لها ظِلُّ السيوف غَمامُ
وإذا سيوفُك صافحتْ هامَ العِدا ... طارت لهنّ عن الرؤوس الهامُ
أثنى على أيّامك الأيامُ ... والشاهدان : الحِلُّ والإحرام
وعلى عدوِّك يابنَ عمّ محمدٍ ... رَصَدان : ضوءُ الصُبح والاظلام
فإذا تنبّه رُعتَه وإذا غفا ... سَلّت عليه سيوفَك الأحلامُ[1]

قال : فاستحسنها الرشيدُ وأمر له بعشرين ألف درهم ، فمدح الفضلَ بن الربيع وشكر إليه إيصاله إيّاه إلى الرشيد ...

---

(١) الارهام : من أرهمت السماء أذا أمطرت مطراً ضعيفاً .

محمد بن القاسم بن مَهْرُويه قال : حدّثني أبي قال : بلَغني أن أشجع لمّا أنشد الرشيد هذين البيتين :

« وعلى عدوّك يابنَ عمّ محمد »

والذي بعدَه ، طرِب الرشيد ، وكان مُتّكئاً فاستوى جالساً وقال : أحسَن والله ، هكذا تُمدَح الملوك .

أحمد بن سعيد بن سالم الباهليّ عن أبيه قال :

كنت عند الرّشيد ، فدخل إليه أشجعُ ومنصورٌ النَّمَري ، فأنشده أشجع قوله :

وعلى عدوّك يابن عـم محمد رَصَدان ضوءُ الصبح والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعتَه وإذا غفـا سلّت عليه سُيوفَك الأحلام

فاستحسن ذلك الرشيد ، وأومأت إلى أشجع أن يقطع الشعر ، وعلمتُ أنه لا يأتي بمثلهما ، فلم يفعل ، ولمّا أنشده ما بعدهما فَتر الرشيد وضرب بمِخصرة كانت بيده الأرض ؛ واستنشد منصوراً النَمريّ فأنشده قوله :

ما تنقضي حَسْرةٌ منّي ولا جَزَعُ إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرتَجع

فمرّ والله في قصيدة قلّ ما تقول العربُ مثلَها ، فجعل الرشيد يضرب بمخصرته الأرض ويقول : الشعرُ في ربيعةَ سائرَ اليوم . فلمّا خرجنا قلت لأشجع : غمزتُك أن تقطَع فلم تفعل ، ويلَك ! ولم تأتِ بشيء ، فهلّا مِتّ بعد البيتَين أو خرِستَ فكنت تكون أشعرَ الناس .

أشجع السُّلَميّ قال :

شخصتُ من البصرة إلى الرَّقَّة ، فوجدتُ الرّشيد غازياً ، ونالتْني خلّةٌ[1] ، فخرجتُ حتى لقِيتُه منصرفاً من الغزو ، وكنت قد اتّصلت ببعض أهل داره

(١) الخلة : الفقر والحاجة .

فصاح صائحٌ ببابه : مَن كان ها هنا من الشعراء فليحضُر يومَ الخميس . فحضرْنا سبعة وأنا ثامنهُم وأُمرنا بالبكُور في يوم الجمعة ، فبكَّرْنا وأُدخِلنا ، وقُدِّم واحدٌ واحد منا يُنشِد على الأسنان ، وكنتُ أحدثَ القوم سِنّاً ، وارثَّهم حالاً ، فما بُلغ إليّ حتى كادت الصلاةُ أن تجِب ، فقُدمتُ والرشيدُ على كُرسيّ ، وأصحابُ الأعمدة بين يديه سِماطان ، فقال لي : أنشِدْني . فخِفتُ أن أبتدىء من أوّل قصيدتي بالتشبيب فتجِب الصّلاةُ ويفوتني ما أردت ، فتركتُ التَّشبيب وأنشدتُه من موضع المديح في قصيدتيالتي أوّلُها :

تذكَّر عهدَ البِيض وهو لها تِرْبُ وأيامَ يُصبي الغانياتِ ولا يَصبُو

فابتدأت قولي بالمديح :

إلى ملكٍ يستغرقُ المالَ جُودُه مكارمُه نَثْرٌ ومعروفُه سَكْبُ
وما زال هارونُ الرِّضا بنُ محمّدٍ له من مياه النَّصر مَشربُها العَذْبُ
متى تبلغُ العيسُ المراسيلُ بابَـــه بنا فهناك الرُّحبُ والمنزلُ الرَّحْبُ
لقد جُمعت فيك الظُّنونُ ولم يكن بغيرك ظنٌّ يستريح له القَلبُ
جمعتَ ذوي الأهواء حتى كأنهم على مَنهجٍ بعدَ افتراقهم رَكْبُ
بثثتَ على الأعداء أبناءَ دُربـــةٍ فلم يَقِهم منهم حُصونٌ ولا دَربُ
وما زلت ترميهم بهم مُتفرِّداً أنيساك حَزمُ الرأي والصارمُ العَضْب
جَهَدتُ فلم أبلغْ عُلاك بمِدْحةٍ وليس على من كان مجتهداً عَتْبُ[1]

فضحك الرشيد وقال لي : خِفتَ أن يفوت وقتُ الصلاة فينقطعَ المديحُ عليك ، فبدأتَ به وتركت التشبيب . وأمَرني بأن أُنشده التشبيب ، فأنشدتُه إياه ، فأمر لكلّ واحدٍ من الشعراء بعشرة آلاف درهم وأمر لي بضِعفها .

عليٌّ بن الجَهم قال :

دخل أشجعُ على الرّشيد وقد مات ابنٌ له والناسُ يُعزُّونه ، فأنشده قولَه :

(١) ناقة مرسال ج مراسيل : سهلة السير .

نَقصٌ من الدّيـن ومن أهلـــه نقصُ المنايا من بني هاشـم
قدّمتَه فاصبِر على فَقــده إلى أبيه وأبي القاســم

فقال الرشيد : ما عَزّاني اليَومَ أحدٌ أحسنَ من تعزية أشجع . وأمر له بِصلة .

عن عمرو بن عليّ :

أنّ أشجع السلميّ كتب إلى الرشيد وقد أبطأ عنه شيءٌ أَمر له به :

أبلِغْ أميرَ المؤمنين رسالـــةً لها عَنَقٌ بين الرّواة فَسيـحُ
بأنّ لسان الشعر يُنطقه النّـدى ويُخرسه الإبطاءُ وهو فصيحُ(١)

فضحك الرشيد وقال له : لن يَخرسَ لسانُ شعرك . وأمر بتعجيل صِلته ـ

عن إسحاق الموصليّ قال :

لمّا انصرف الرشيد من غَزاة هِرَقْلَةَ(٢) قدم الرَّقّةَ في آخر شهر رمضان ، فلمّا عَيّد جلس للشعراء ، فدخلوا عليه وفيهم أشجع ، فبدَرهم وأنشأ تقول :

لا زلتَ تنشُر أعياداً وتَطويهـا تَمضي بها لك أيامٌ وتَثنيها
مستقبلاً زِينةَ الدنيا وبهجتَهـا أيامُنا لك لا تَفنى وتُفنيهـا
ولا تقضّتْ بك الدنيا ولا بَرِحتْ يَطوي لك الدّهرُ أياماً وتَطويها
وَلْيَهنِكَ الفتحُ والأيامُ مُقبلـةٌ إليك بالنصر معقوداً نَواصيها
أمست هِرَقْلةُ تهوي من جوانبها وناصرُ الله والاسلامِ يَرميها
مُلِكْتَها وقتلتَ الناكثين بهـا بنَصر مَن يملِكُ الدُّنيا وما فيها
ما رُوعي الدّينُ والدنيا على قدمٍ بمثل هارونَ راعيه وراعيها

(١) العنق : السير السريع .

(٢) كان نقفور ملك الروم قد صالح الرشيد على أن يؤدي الجزية الى الرشيد ، ثم نقض العهد ، فغزا الرشيد بلاده وافتتح مدينة هرقلة سنة ١٩٠ هـ .

قال : فأمر له بألف دينار وقال : لا يُنشدني أحدٌ بعدَه . فقال أشجع : واللهِ لَأمرُه بألّا يُنشدَه أحدٌ بعدي أحبُّ إليَّ من صِلته .

أحمد بن محمد بن منصور بن زياد عن أبيه قال :

دخل أشجع على الرشيد ثاني يوم الفِطر فأنشده :

استَقبِلِ العيدَ بعُمرٍ جديـــــد مدّتْ لك الأيامُ حبلَ الخُـلودِ
مصعِّداً في درجات العُـــــلا نجمُك مقرونٌ بسَّعد السُّعودِ
واطوِ رداءَ الشمس ما أَطلعتْ نُوراً جديداً كلَّ يومٍ جديدِ
تَمضي لك الأيامُ ذا غِبطـــــةٍ إذا أتـى عيدٌ طَوى عمرَ عيـدِ

فوصله بعشرة آلاف درهم ، وأمر أن يُغنَّى في هذه الأبيات .

أبو عبدالله النَّخعيّ قال :

دخل أشجع على الرشيد فأنشده قوله :

أبت طَبَرِستانُ غيرَ الذي صدعتَ به بين أعضائهـــا
ضممتَ مناكِبَها طَيّـــــةً رمتك بما بين أحشائهـــا
سموتَ إليها بمثل السَّمـــاء تدلّى الصواعقُ في مائهـــا
فلمّا نظرتَ إلى جُرحهـــا وضعت الدّواءَ على دائها
فرشتَ الجِهاد ظُهورَ الجياد بأبنائـــــه وبأبنائهـــا
بنفسكَ ترميهمُ والخُيُولِ كرَميْ العُقابِ بأفلائهـا
نظرتَ برأيـــك لمّـــا هَمَمْتَ دون الرّجـــال وآرائها [1]

قال : فأمر له بألف دينار .

---

(١) أفلاء ج فلاة : الصحراء الواسعة .

أبو عمرو الباهليّ البصري قال :

دخل أشجع بن عمرو السلمي على هارون الرشيد حين قدم من الحج ، وقد مُطر الناس يوم قُدومه ، فأنشده يقول :

إنّ يُمْنَ الإمام لمّـــا أتانـــا جَلب الغيثَ من مُتون الغَمامِ
فابتســـامُ النَّبات في أثر الغيـــــث بنُوّاره كسُرْجِ الظَّــلام
ملكٌ من مَخافة الله مُغْـــضٍ وهو مُغضىً له من الإعظـام
ألِـف الحــجَّ والجهــادَ فما ينفـــكُّ من سَفرتَين في كلّ عامِ
سفرٍ للجهاد نحو عـــدوٍّ والمطايـــا لسَفرة الإحـــرامِ
طلب اللهَ فهو يسعـــى إليـــه بالمطايا وبالجيـــاد السَّـــوَامي
فيَداه يدٌ بمكـــة تدعـــو ه وأُخرى في دعوة الإسلام[٢]

أخباره مع البرامكة ومدائحه فيهم

أشجع السلميّ قال :

كنت ذات يومٍ في مجلس بعض أخواني أتحدّث وأُنشد ، إذ دخل عليهم أنس بن أبي شيخ النَّصريّ صاحبُ جعفر بن يحيى ، فقام له جميعُ القوم غيري ، ولم أعرِفْه فأقومَ له ، فنظر إليّ وقال : من هذا الرجل ؟ قالوا : أشجع السُّلميّ الشاعر . قال: أنشِدني بعضَ قولك . فأنشدتُه ، فقال : إنك لَشاعرٌ ، فما يمنعُك من جعفر بن يحيى ؟ فقلت : ومَن لي بجعفر بن يحيى ؟ فقال : أنا ، فقُل أبياتاً ولا تُطِل ، فإنه يَمَلّ الإطالة . فقلت : لستُ بصاحب إطالة . فقلت أبياتاً على نحو ما رسَم لي ، وصِرتُ إلى أنس فقال : تقدَّمْني إلى الباب . فتقدَّمتُ ، فلم يلبث أن جاء فدخَل ، وخرج أبو رُمح الهمذانيّ حاجب جعفر

(١) السرج : جمع سِراج ، وهو المصباح . السوامي : من سامت الخيل اذا خرجت الى المرعى واراد هنا خروجها الى الجهاد .

ابن يحيى فقال : أشجع . فقمت ، فقال : أدخُلْ ، فدخلت ، فاستنشدني فأنشدتُه أقول :

وترى المُلوكَ إذا رأيتَهـــــم كلٌّ بعيدُ الصَّوتِ والجَرسِ
فإذا بدا لهمِ ابن يحيى جعفـــرٌ رجَعوا الكلامَ بمنطقٍ هَمْس
ذهبــت مكارمُ جعفرٍ وفَعالُــه في الناس مثلَ مذاهب الشمسِ

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال ـ وكان أشجع يُحبّ الثياب ، وكان يكتري الخِلعة كلَّ يوم بدرهمين ، فيلبَسُها أياماً ، ثم يكتري غيرَها فيفعلُ بها مثل ذلك ـ قال : فابتعَتُ أثواباً كثيرة بباب الكَرْخ ، فكسوتُ عيالي وعيالَ إخوتي حتى أنفقتُها .

ثم لقيت المبارك مُؤدِّبَ الفضل بن يحيى بعد أيام ، فقال لي : أنشدني ما قُلتَه في جعفر . فأنشدتُـه ، فقال : ما يمنعُك من الفضل ؟ فقلت : ومَن لي بالفَضل ؟ فقال : أنا لك به . فأدخلني عليه ، فأنشدتُه :

وما قدّم الفضلَ بن يحيى مكانُـه على غيره بل قدّمتْه المكــارمُ
لقد أرهب الأعداء حتى كأنّما على كل ثَغرٍ بالمنيّـة قائـــمُ

فقال لي : كم أعطاك جعفر ؟ فقلت : عشرة آلاف درهم . فقال : أعطُوه عشرين ألفاً .

داود بن مُهلهِل قال :

لمّا خرج جعفر بن يحيى لِيُصلح أمر الشأم ، نزل في مِضرَبِه وأمر بإطعام الناس ، فقام أشجع فأنشده قوله :

فئتان باغيـــــةٌ وطاغيـــــة جلّت أمُورُهما عــن الخَطْبِ
قد جاءكم بالخيــل شازِبَــةً ينقُلْن نحوكمُ رَحى الحــرب

لم يبق إلّا أن تدورَ بكـــــم قد قام هاديها على القُطْبِ[1]

قال : فأمر له بصلة ليست بالسَنيّـة ، وقال له : دائمُ القليل خيرٌ من منقطِع الكثير . فقال له : ونَـزْرُه أكثرُ من جزيل غيره . فأمر له بمثلها . قال : وكان يُجري عليه في كلّ جمعة مائةَ دينار مُـدّة مُقامه ببابه .

عبد الرحمن بن النُّعمان السلميّ قال :

كنّا بباب جعفر بن يحيى وهو عليلٌ ، فقال لنا الحاجب : إنه لا إذنَ عليه . فكتب إليه أشجع :

لمّـا اشتكى جعفرُ بن يحيـــى فارقني النومُ والقَـــــرارُ
ومَرَّ عيشي عـــليّ حتـــــى كأنّما طعمُـهُ المُـــرارُ
خَوفاً على جعفر بن يحيـــى لا حُقّـــق الخـوفُ والحِـذارُ
إن يُعفِـه اللهُ لا نُحـــاذرْ ما أحدث الليل والنهـــارُ[2]

قال : فأوصل الحاجبُ رُقعتَه ، ثم خرج فأمره بالوصول وحده ، وانصرف سائرُ الناس .

إسحاق بن إبراهيم المَوصليّ قال :

لمّـا وَلّى الرشيد جعفرَ بن يحيى خُراسان جلس للناس ، فدخلوا عليه يهنّئونه ، ثم دخل الشعراء فأنشدوه ، فقام أشجعُ آخرَهم فاستأذن في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قوله :

أتصبِرُ للبَين أم تجـــزَعُ فإنّ الدّيـــارَ غـداً بَـلْقَـــعُ
غداً يتفرّقُ أهـــلُ الهـــوى ويكـثُر باكِ ومُسترجِــــــعُ

حتى انتهى إلى قوله :

---

(١) شازبة : ضامرة .

(٢) المرار : شجر اذا أكلته الأبل قلصت مشافرها فبدت أسنانها .

ودَوِّيَّـــةٍ بين أقطارهــــــا مقاطيــع أرضِينَ لا تُقطَـعُ
تجاوزتُهــــا فوق عَيْرانَـــةٍ من الرّيــح في سيرها أسرع
إلى جعفرٍ نَزَعــتْ رَغبـــةٌ وأيُّ فتىً نحوَه تنــــــزعُ
فما دونَــه لامـــرىءٍ مَطمَعٌ ولا لامرىءٍ غـيرِه مَقنَـعُ
ولا يرفــعُ الناسُ مَــن حَطَّه ولا يضَعون الذي يرفَـــعُ
يُريد الملوكُ مَـدى جعفـرٍ ولا يصنعون كما يصنـــع
وليس بأوسعهـــم في الغِنى ولكــنّ معروفَــه أوسَـعُ
تلُوذ الملــوكُ بآرائـــه إذا نالها الحَدَثُ الأفظَـــعُ
بديهتُــه مثـلُ تدبـيرِه متى رُمتَـه فهو مُستجمِـــع
وكم قائلٍ إذ رأى ثــروتي وما في فُضول الغِنى أصنـــع :
غدا في ظِلال ندى جعفـــرٍ يَجُرُّ ثيابَ الغِنى أشجَـــعُ
فقُـل لخراسانَ تَحيـــا فقد أتاها ابنُ يحيـى الفتى الأَروعُ(١)

فأقبل عليه جعفرُ بن يحيى ضاحكاً ، واستحسن شعره ، وجعل يخاطبه مخاطبة الأخ أخاه ، ثم أمر له بألف دينار .

قال : ثم بدا للرّشيد في ذلك التدبير ، فعزل جعفراً عن خراسان بعد أن أعطاه العَهد والكُتب وعقد له العَقد وأمرَ ونَـهَى ، فوَجَم لذلك جعفرٌ ، فدخل عليه أشجع فأنشده يقول :

أمستْ خُراسانُ تُعزَّى بمــــا أخطأها من جعفر المُرتَجَى
كان الرشيـــدُ المعتلي أمــرُه ولّى عليها المُشرِقَ الأَبلجـا
ثم أراه رأيُــــه أنّـــــه أمسى إليه منهمُ أحوَجـــا
فكم به الرحمنُ من كُــربـــةٍ في مُدّةٍ تقصُر قد فَرّجـــا

(١) الدوية : الصحراء الواسعة . العيرانة : الناقة النشيطة .

فضحك جعفر ثم قال : لقد هوّنتَ عليّ العَزْل ، وقُمت لأمير المؤمنين بالعُذر ، فسَلني ما شئت . فقال : قد كفاني جُودُك ذِلّة السؤال . فأمر له بألف دينار آخر .

مَهديّ بن سابق قال :

أعطى جعفرُ بن يحيى مروانَ بن أبي حَفصة ، وقد مَدَحه ، ثلاثين ألف درهم ، وأعطى أبا البَصير عشرين ألفاً ، وأعطى أشجعَ ـ وقد أنشده معهما ـ ثلاثةَ آلاف درهم ، وكان ذلك في أول اتصاله به . فكتب إليه أشجع :

أعطيتَ مروانَ الثـــلا ... ثـين التي دلَّـت رِعاثَـــهْ
وأبا البَصــير وإنّمـــا ... أعطيتَـني منهم ثـــلاثـهْ
ما خانَني حَوكُ القــريــــض ولا اتّهمتَ سوى الحداثَه[1]

فأمر له بعشرين ألف درهم أخرى .

عن ابن النطّاح قال :

ولّى جعفرُ بن يحيى أشجعَ عملاً ، فرفع إليه أهلُه رفائع كثيرة ، وتظلّموا منه وشكَوه ، فصرفه جعفرُ عنهم . فلمّا رجَع إليه من عمله مثَل بين يديه ثم أنشأ يقول :

أمُفسِدةٌ سُعادُ عليَّ دِيــــني ... ولائمتي على طُول الحنــــينِ

...

لقد هَزّت سنانَ القول مــنّي ... رجالُ رفيعةٍ لم يعرِفــوني
همُ جازوا حِجابَك يابنَ يحيى ... فقالوا بالذي يهوَون دوني
أطافوا بي لديك وغِبتُ عنهم ... ولو أدنيتَــني لتَجَنّبونـــي
وقد شهدتْ عيونُهــــم فمالت ... عليّ وغُيّبت عنهم عـــيوني

---

(١) الرعاث ج رعثة : عثنون الديك ، وأراد بقوله : تدلت رعاثه أنه تكبر وزها .

ولمّا أن كتبتُ بما أرادوا | تدرّع كلُّ ذي غِمْرٍ دفينِ
كففتُ عن المقاتل باديـاتٍ | وقد هَيّأت صخرةَ مَنْجَنُونِ
ولو أرسلتُها دمغتْ رجالاً | وصالت في الأخِشّة والشُؤون
وكنت إذا هززت حُسامَ قول | قطعتُ بحُجّتي عَلَق الوَتين
لعلّ الدهرَ يُطلِق من لساني | لهم ويبسُط من يميني

[إلى أن يقول :]

علامَ وأنت تعلمُ نُصْحَ جنبي | وأخذي منك بالسَبب المتينِ
وعَسْفي كلَّ مَهمهةٍ خَلاء | إليك بكلّ يَعْمَلَةٍ أَمونِ
وإحيائي الدُّجى لك بالقوافي | أُقيم صُدورَهنّ على المُتُونِ
تُقرّب منك أعدائي وأُنأى | ويجلسُ مجلسي من لا يَليني
ولو عاتبتَ نفسَكَ في مكاني | إذاً لَنَزلتُ عندك باليَمينِ
ولكنّ الشُكوك نَأَينَ عني | بوِدّك والمصيرُ إلى اليقين
فإن أنصفتَني أحرقت منهم | بنُضج الكيّ أَثباجَ البُطون(١)

عن قُدامة بن نوح قال :

جلس جعفرُ بن يحيى بالصالحيّة يشرب على مستَشرِفٍ له ، فجاءه أعرابيٌّ من بني هِلال فاشتكى واستماح بكلامٍ فصيح ولفظٍ مثله يعطِف المسؤول ، فقال له جعفر بن يحيى : أتقول الشعر يا هِلاليّ ؟ فقال : قد كنت أقولُه

---

(١) الغمر : الحقد والعداوة . وفي المطبوعة : غمز ، واراه مصحفاً . المنجنون : الدولاب يستقى عليه . الأخشة ج خشاش : العود يجعل في عظم أنف البعير . الشؤون ج شأن : عرق الدمع ومجراه . العلق : الحبل . الوتين : عرق في القلب ، وفي بعض الروايات : عرق الوتين . اليعملة : الناقة النجيبة . الأمون : الموثقة الخلق ، المأمونة الكلال . أثباج . ج ثبج : من كل شيء أوسطه .

وأنا حَدَثٌ أتملّح به ثم تركتُه لمّا صِرتُ شيخاً . قال : فأنشِدنا لشاعركم حُميد بن ثَور . فأنشده قوله :

لِمن الدّيارُ بجانب الحُمْسِ كَمَحطٍّ ذي الحاجات بالنفس

حتى أتى على آخرها . فاندفع أشجع فأنشده مديحاً له فيه قاله لِوقته على وزنها وقافيتها ، فقال :

ذهبت مكارمُ جعفرٍ وفعالُه في الناس مثلَ مذاهب الشمسِ
ملكٌ تسُوس له المعالي نفسُه والعقلُ خيرُ سياسةِ النفس
فإذا تراءته الملوكُ تراجعوا جَهرُ الكلام بمنطقٍ هَمْس
ساد البرامكَ جعفرٌ وهم الأُلى بعد الخلائف سادةُ الإنس
ما ضرّ مَن قصد ابنَ يحيى راغباً بالسَّعد حلّ به أم النَّحْسِ

فقال له جعفر : صِف موضعَنا هذا . فقال :

قُصور الصالحيّة كالعَذارى لبِسن ثيابهنّ لِيوم عُرْسِ
مُطلّاتٌ على بطنٍ كَسَتْه أيادي الماء وَشْياً نسجَ غَرسِ
إذا ما الطلُّ أثرّ في ثراه تنفّس نَورُه من غير نَفْس
فتَغبِقُه السماءُ بصِبغ وَرْسٍ وتَصْبَحُه بأكؤُسِ عين شمسِ(١)

فقال جعفر للأعرابي : كيف ترى صاحبَنا يا هِلاليُّ ؟ فقال : أرى خاطرَه طوعَ لسانه ، وبيانَ الناس تحت بيانه ، وقد جعلتُ له ما تصِلُني به . قال : بل نصلك يا أعرابيّ ونُرضيه . وأمر للأعرابي بمائة دينار ولأشجع بمائتين .

سائر أخباره

أبو هِفّان قال :

ذكر أبو دِعامة أنّ أشجع دخل على الفضل بن الربيع ، وقد تُوفيّ ابنه

(١) غبقه : سقاه بالعشي . الورس : الزعفران . صبحه . سقاه صباحاً .

العبّاس والناس يُعزّونه ، فعزّاه فأحسن ، ثم استأذن في إنشاد مَرثيةٍ قالها فيه ، فأذن له ، فأنشده :

لا تَبكينَّ بعينٍ غيرِ جائدةٍ ... وكلُّ ذي حَزَنٍ يبكي كما يجدُ
أيّ امرىءٍ كان عبّاسٌ لنائبةٍ ... إذا تَقنّع دونَ الوالد الوَلَدُ
لم يُدنِه طَمعٌ من دار مُخزيةٍ ... ولم يَعِزّ له من نعمةٍ بَلَدُ
قد كنتُ ذا جَلدٍ في كلّ نائبةٍ ... فبان منّي عليك الصبرُ والجَلَدُ
لمّا تسامت بك الآمالُ وابتهجتْ ... بك المُروءةُ واعتَدّتْ بك العُدَدُ
ولم يكن لفتىً في نفسه أملٌ ... إلّا إليك به من أرضه يفِدُ
وحين جئت أَمام السّابقين ولم ... يَبْلُلْ عِذارَك ميدانٌ ولا أمَدُ
وافاك يومٌ على نَكْراء مشتملٌ ... لم ينجُ من مِثله عادٌ ولا لُبَدُ
فما تكشّف إلّا عن مُوَلوِلةٍ ... حَرّى ومكتئبٍ أحشاؤه تقِدُ (١)

قال : فبكى الفضل وبكى الناسُ معه ، وما انصرفوا يومئذٍ يتذاكرون غيرَ أبيات أشجع .

عن أشجع قال :

دخلت على محمد الأمين حين أُجلس مجلسَ الأدب للتعليم ، وهو ابنُ أربع سنين ، وكان يجلس فيه ساعةً ثم يقوم ، فأنشدتُه :

ملكٌ أبوه وأمُّه من نَبْعةٍ ... منها سِراجُ الأمة الوهّاجُ
شربتْ بمكة في رُبا بطحائها ... ماءَ النبوّة ليس فيه مِزاجُ (٢)

(١) لم يبلل عذارك : أي لم يتصبب منك العرق لا في الحرب ولا السباق . لبد : اسم آخر نسور لقمان بن عاد .

(٢) النبع : شجر تتخذ منه السهام والقسيّ .

يعني النَبعة. قال: فأمرت له زُبيدةُ بمائة ألف درهم. قال: ولم يملك الخلافة أحدٌ أبوه وأمه من بني هاشم إلا أميرَ المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، ومحمد بن زُبَيدة.

سعيد بن هُريم وأبو دِعامة قالا:

كان انقطاعُ أشجع إلى العباسِ بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس، فقال الرشيد للعباس يوماً: يا عمّ، إنّ الشُعراء قد أكثروا في مدح محمد[1] بسببي وبسبب أم جعفر، ولم يقل أحدٌ منهم في المأمون شيئاً، وأنا أحِبّ أن أقع على شاعرٍ فَطِن ذكيّ يقول فيه. فذكر العباسُ ذلك لأشجع وأمره أن يقول فيه، فقال:

بَيعةُ المأمونِ آخذةٌ ... بعِنانِ الحقّ في أُفُقِهْ
أُحكِمت مِرّاتُها عُقَداً ... تمنع المحتالَ في نَفَقِه
لن يفكّ المرءُ رِبْقَتَها ... أو يفكّ الدِّين من عُنُقِهْ
وله من وجه والده ... صورةٌ تَمّت ومن خُلُقِهْ [2]

قال: فأتى بها العباسُ الرشيد وأنشده إياها، فاستَحسنها وسأله: لِمن هي؟ فقال: هي لي. فقال: سررتني مرتين: بإصابتك ما في نفسي، وبأنها لك، وما كان لك فهو لي. وأمر له بثلاثين ألف دينار، فدفع إلى أشجع منها خمسةَ آلاف درهم وأخذ باقيها لنفسه.

عليّ بن الفضل السُّلمي قال:

أوّلُ ما نجم به أشجع أنه اتّصل بجعفر بن المنصور، وهو حَدَثٌ،

(١) يريد ابنه محمداً الأمين.

(٢) المرات ج مرّة: طاقة الحبل. المحتال: في المطبوعة: المختال، ولا معنى لها هنا، وقصد الشاعر أن البيعة أحكمت إحكاماً يمنع المنافق من الخروج عليها، وشبه ذلك باليربوع في نافقائه أي حجره، واحتياله في التخلص من مطارديه.

وَصَله به أحمد بن يزيد السُّلميّ وابنُه عوف ، فقال أشجع في جعفر بن المنصور قوله :

اذكُروا حُرمةَ العواتـكِ منّـا ... يا بني هاشمٍ بنِ عبد مَنافِ

قـد ولـدنـاكـم ثـلاثَ ولادات خَلَطْن الأشرافَ بالأشرافِ

مَهّدت هاشماً نجومُ قُصيٍّ ... وبنو فالجٍ حُجور عَفـافِ

إنّ أرماحَ بُهثـةَ بنَ سُليـم ... لعِجاف الأطراف غيرُ عِجافِ

ولأسيافهم فِرىً غيرُ لَـذٍّ ... راجعٌ في مَراجع الأكتـافِ

معشرٌ يُطمِعـون من ذِروة الشَّـول ويسقون خمرةَ الأقحافِ

يضرِبون الجبّـارَ في أَخدَعَيْه ... ويُسَقُّونه نَقيعَ الذُّعـافِ (١)

فشاع شعره وبلغ البصرة ، ولم يزل أمرُه يتراقى إلى أن وصلتْه زُبيدة بعد وفاة أبيها بزوجها هارون الرشيد ، فأَسْنى جوائزَه ، وألحقه بالطبقة العليا من الشعراء .

ابن أشجع السلميّ قال :

لمّا مرّ أبي وعمّاي أحمدُ ويزيد ، وقد شربوا ، وانتشَوا ، بقبر الوليد بن عُقبة وإلى جانبه قبرُ أبي زَبيد الطائيّ ـ وكان نصرانياً ، والقبران مختلفان كلُّ واحدٍ منهما متوجِّهٌ إلى قِبلة مِلّته ، وكان أبو زَبيدٍ أوصى لمّا احتُضِر أن يُدفَن إلى جنب الوليد بالبَليخ ـ قال : فوقفوا على القبرين ، وجعلوا يتحدّثون بأخبارهما ويتذاكرون أحاديثَهما ، فأنشأ أبي يقول :

---

(١) العواتك : من كانت اسمها عاتكة من بني سليم وهنّ ثلاث تزوجن رجالاً من بني هاشم وهن : عاتكة بنت مرة بن هلال السلمية وهي أم هاشم وعبد شمس والمطلب بني عبد مناف وعاتكة بنت جابر بن قنفذ ، وعاتكة بنت عصبة بن خفاف . فالج : هو فالـج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثةَ بن سليم ، وفي المطبوعة : فالح ، وهو تصحيف . فراه : قطعه . الشول : الناقة . الأقحاف ج قحف : إناء من خشـب كالقدح . الأخدعان : عرقان في صفحتي العنق . الذعاف : السم .

مــررتُ على عِظــام أبي زَبيــدٍ ... وقد لاحت ببَلْقعةٍ صَلُــودِ
وكان له الوليدُ نديمَ صــــدقٍ ... فنادم قبرُه قبرَ الوليـــــــد
أنيسا أُلفةٍ ذهبت فأمســــــتْ ... عظامُهما تآنس بالصَّعيـــــد
وما أدري بمــن تَبدا المنايـــــا ... بأحمد أو بأشجع أو يزيـــدِ

قال : فماتوا والله كما رتّبهم في الشعر : أولهم أحمد ، ثم أشجع ، ثم يزيد .

* * *

١٣

البُحتُريّ

[الأغاني ج ٢١ ص ٣٧ وما بعدها]

الشاعر

هو الوليد بن عُبيدالله بن يحيى ... بن بُحْتُر ... بن عَمْرو بن الغَوث ابن جُلْهمةُ ـ وهو طَيِّءُ ـ بن أُدَد بن زيد بن كَهْلان بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحطان . ويُكنى أبا عُبادة .

أبو الغَوث يحيى بن البحتريّ قال :

كان أبي يُكنَى أبا الحسن ، وأبا عُبادة ، فأُشير عليه في أيّام المتوكّل بأن يقتصر على أبي عُبادة ، فإنّها أشهر ، فاقتصر عليها .

شاعرٌ فاضلٌ ، فصيح ، حَسَنالمذهب ، نقيُّ الكلام ، مطبوع ، كان مشايخُنا ـ رحمةُ اللهم عليهم ـ يختُمون به الشعراء ، وله تصرُّفٌ حسنٌ فاضل نقيّ في ضروب الشعر ، سوى الهجاء فإنّ بضاعته فيه نَزْرة وجيّده منه قليل . وكان ابنه أبو الغوث يزعم أنّ السبب في قلّة بضاعته في هذا الفن أنّه لمّا حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كلَّ شيء قلتُه في الهجاء . ففعل ، فأمره بإحراقه ، ثم قال له : يا بُنيّ ، هذا شيء قلتُه في وقت فشفيت به غَيظي وكافأتُ به قبيحاً فُعل بي ، وقد انقضى أَرَبي في ذلك ، وإن بقي روي ، وللنّاس أعقابٌ

يُورِّثونَهم العِداء والمودّة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولي فيه . قال : فعلمت أنه قد نصحني وأشفق عليّ ، فأحرقتُه ...

وكان البحتريّ يتشبّه بأبي تمّام في شعره ويَحذُو مذهبَه وينحو نحوَه في البديع الذي كان أبو تمام يستعمله ، ويراه صاحباً وإماماً ، ويُقدّمه على نفسه ، ويقول في الفرق بينه وبينَه قولَ مُنصِف : إنّ جيّدَ أبي تمّام خيرٌ من جيّده ، ووسطَه ورَديئَه خيرٌ من وسَط أبي تمّام ورديئه . وكذا حَكَم هو على نفسه .

الحسين بن عليّ الياقطانيّ قال :

قلت للبحتريّ : أيُّما أشعرُ أنت أو أبو تمّام؟ فقال : جيّدُه خيرٌ من جيّدي ، ورديئي خير من رَديئه .

محمّد [بن يحيى] قال :

سمعت عبدالله بن الحسين بن سَعد يقول للبحتريّ ـ وقد اجتمعنا في دار عبدالله بالخُلْد[١] ، وعندَه المُبّرد ، في سنة ست وسبعين ومائتين ، وقد أَنشد البحتريّ شعراً لنفسه قد كان أبو تمام قال في مِثله ـ : أنت واللهِ أشعرُ من أبي تمام في هذا الشعر . قال : كلّا والله . إنّ أبا تمّام للرئيسُ والأستاذُ ، والله ما أكلتُ الخُبز إلّا به . فقال له المبّرد : لله دَرُّك يا أبا الحسن ، فإنّك تأبى إلّا شرَفاً من جميع جوانبك . .

الحسين بن إسحاق قال :

قلت للبحتريّ : إنّ الناس يزعُمون أنّك أشعرُ من أبي تمّام . فقال : والله ما ينفَعُني هذا القولُ ولا يضرُّ أبا تمام ، والله ما أكلت الخبزَ إلّا به ، ولَوَدِدت

---

(١) الخلد : اسم قصر بناه المنصور ببغداد على شاطىء دجلة عندما فرغ من بناء بغداد ، ثم بنيت حوله منازل فصارت محلة كبيرة .

أنّ الأمر كان كما قالوا ، ولكنّي والله تابعٌ له آخِذٌ منه ، لائذٌ به ، نسيمي يركُد عند هوائه ، وأرضي تنخفِض عند سمائه .

حكم بن يحيى الكنتحيّ قال :

كان البحتريّ من أوسخ خلق الله ثوباً وآلةً ، وأبخلَهم على كلّ شيء . وكان له أخٌ وغلامٌ معه في داره ، فكان يقتُلهما جُوعاً ، فإذا بلغ منهما الجوعُ أتياه يبكيان ، فيرمي إليهما بثَمَن أقواتهما مُضَيَّقاً مُقتَّراً ، ويقول : كُلا ، أجاع اللهُ أكبادَكما ، وأعرى أجْلادَكما ، وأطال إجهادَكما .

صلته بأبي تمّام

عن البحتريّ قال :

أوّل ما رأيت أبا تمّام أنّي دخلت على أبي سعيد محمد بن يوسف ، وقد مدحته بقصيدتي :

أأفاق صَبٌّ من هوىً فأُفيقا　　　أوخان عَهداً أو أطاع شفيقا

فسُرّ بها أبو سعيد وقال : أحسنتَ والله يا فتى وأجدتَ . قال : وكان في مجلسه رجلٌ نبيل رفيعُ المجلس منه ، فوقَ كلّ من حضر عنده ، تكاد تَمَسّ ركبتُه رُكبتَه ، فأقبل عليّ ثم قال : يا فتى ، أما تستحي منّي ! هذا شعرٌ لي تنتحِلُه وتُنشده بحضرتي ! فقال له أبو سعيد : أحقّاً تقول ؟ قال : نعم ، وإنّما عَلِقه منّي ، فسبقني به إليك ، وزاد فيه . ثم اندفع فأنشد أكثر هذه القصيدة ، حتى شَكّكني ـ عَلم اللهُ ـ في نفسي ، وبقيت مُتَحيّراً . فأقبل عليّ أبو سعيد فقال : يا فتى ، قد كان في قرَابتك منّا ووُدِّك لنا ما يُغنيك عن هذا ! فجعلتُ أحلِف له بكلّ مُحرِجةٍ من الأيمان أنّ الشِّعر لي ما سَبقني إليه أحدٌ ولا سمعتُه منه ولا انتحلتُه . فلم ينفَع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد ، وقُطع بي حتى تمنّيت أنّي سُختُ في الأرض ، فقُمت مُنكسرَ البال ، أَجُرُّ رِجْليّ ، فخرجتُ ، فما هو إلّا أن بلغتُ بابَ الدّار حتى خرج الغِلمانُ فَرَدُّوني ؛فأقبل عليَّ الرجلُ

فقال : الشِعر لك يا بُنيّ ، واللهِ ما قُلتُه قطُّ ولا سمعتُه إلّا منك ، ولكنّني ظننت أنّك تهاونت بموضِعي ، فأقدمتَ على الإنشاد بحَضرتي من غير معرفةٍ كانت بيننا ، تُريد بذلك مُضاهاتي ومُكاثرتي ، حتى عرّفني الأميرُ نَسَبَك ومَوضِعَك ، ولَوَدِدتُ ألّا تلِد أبداً طائيّةٌ إلّا مِثْلَك . وجعل أبو سعيد يَضحك ، ودعاني أبو تَمّام وضَمّني إليه وعانَقني ، وأقبل يُقرِّظني . ولَزِمتُه بعد ذلك ، وأخذت عنه ، واقتديتُ به .

عبدالله بن الحسين بن سَنَد القُطْرُبُلّي :

أنّ البحتريّ حدّثه أنه دخل على أبي سعيد محمد بن يُوسُف الثَغْريّ ، وقد مدحه بقصيدة ، وقصَده بها ، فألفى عنده أبا تمّام وقد أنشده قصيدةً له فيه ، فاستأذنه البحتريُّ في الإنشاد ، وهو يومئذٍ حديثُ السِنّ ، فقال له : يا غُلام أتُنشِدني بحضرة أبي تمّام ! فقال : تأذَنُ ويستمع . فقام فأنشده إيّاها ، وأبو تمّام يسمع ويهتزّ من قَرْنه[1] إلى قدمه استحساناً لها . فلمّا فرَغ منها قال : أحسنتَ واللهِ يا غلام ، فمِمَّن أنت ؟ قال : من طَيِّىء . فطرب أبو تمام وقال : من طَيِّىء ! الحمدُ لله على ذلك ، لَوَدِدتُ أنّ كلَّ طائيّة تلِد مِثلك . وقَبّل بين عينَيه وضَمّه إليه وقال لمحمّد بن يوسُف : قد جعلتُ له جائزتي . فأمر محمّدٌ بها ، فضُمّت إلى مِثلها ، ودُفعت إلى البحتريّ ، وأعطى أبا تمّام مِثلها . وخُصّ به ، وكان مَدّاحاً له طولَ أيامه ولابنه بعدَه ، ورثاهما بعد مقتليهما فأجاد ، ومَراثيه فيهما أجودُ من مدائحه . ورُوي أنّه قيل له في ذلك فقال : من تمام الوفاء أن تَفضُلَ المراثي المدائحَ ، لا كما قال الآخر ـ وقد سُئل عن ضَعف مراثيه فقال ـ : كُنّا نعمل للرَّجاء ، ونحن نَعمل اليومَ للوَفاء ، وبينهما بُعْد .

محمدُ بن عليّ الأنباريّ قال :

سمعت البحتريّ يقول : أنشدني أبو تمّام يوماً لنفسه :

---

(١) من قرنه : من رأسه .

وسابحٍ هَطِلِ التَّعْداء هَتّانِ على الجِراء أمينٍ غيرِ خَوّانِ
أَظْمَى الفُصوصِ ولم تَظْمأْ قوائمُه فجُلْ بعَينيك في ظَمآنَ ريّانِ
فلو تراه مُشِيحاً والحَصَى زِيَمٌ بين السَّنابك من مَثْنى ووُحْدانِ
أيقنت إن لم تَثَبَّتْ أنّ حافرَه من صَخرِ تَدْمُرَ أو من وَجهِ عثمانِ(١)

ثم قال لي : ما هذا الشعر ؟ قلت : لا أدري . قال : هذا هو المستطرِد ، أو قال : الاستطراد . قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يُريك أنه يريد وصف الفرس وهو يريد هجاء عثمان .

وقد فعل البحتريّ ذلك فقال في صفة الفرس :

ما إن يَعاف قَذًى ولو أوردتَه يوماً خلائقَ حَمْدَوَيهِ الأحولِ(٢)

وكان حَمدويه الأحولُ عدوّاً لمحمد بن عليّ القُمّي الممتدَح بهذه القصيدة ، فهجاه في عُرض مدحه محمّداً .

أبو الغَوث بن البحتريّ قال :

حدّثني أبي قال : قال لي أبو تمّام : بلغني أنّ بني حُمَيد أعطَوك مالاً جليلاً فيما مدحتَهم به ، فأنشِدني شيئاً منه . فأنشدتُه بعضَ ما قُلته فيهم ، فقال لي : كم أعطَوك ؟ فقلت : كذا وكذا . فقال : ظَلَموك ، واللهِ ما وَفَوك حقَّك ، فلمَ استكثرتَ ما دفعوه إليك ؟ والله لَبيتٌ منها خيرٌ ممّا أخذت . ثم أطرق قليلاً ، ثم قال : لَعَمري لقد استكثرت ذلك ، واستكْثِر لك لمّا مات الناسُ وذهب الكِرام وغاضت المكارم ، فكَسَدت سُوقُ الأدب ، أنت والله يا بُنيَّ

(١) هطل التعداء هتان : سريع الجري . جرى الفرس جراء : عدا ، وقد جعل محقق المطبوعة جراء جمع جرو ، وهو ولد الكلب ، وقصد أبي تمام ان هذا الفرس يوثق بعدوه وسرعة جريه . أظمى : ضامر . الفصوص : المفاصل . مشيحاً : مقبلاً . زيم ج زيمة : القطعة .

(٢) يعاف : يكره . القذى : ما يقع في الماء والشراب والعين من الوسخ .

أميرُ الشعراء غداً بعدي . فقمتُ فقبّلتُ رأسه ويديه ورِجلَيه ، وقلت له : والله لهذا القولُ أَسَرُّ إلى قلبي وأقوى لنفسي ممّا وصل إليَّ من القوم .

طائفة من أخباره

● أبو العَنْبَس الصَيْمريّ قال :

كنت عند المتوكّل والبحتريّ يُنشد :

عن أيّ ثَغرٍ تبتسمْ ... وبأيِّ طَرْفٍ تَحتكِمْ

حتى بلغ إلى قوله :

قل للخليفة جَعفرِ الـ ... متوكّلِ بنِ المعتصِمْ
المُبتدي للمُجتدي ... والمُنعِم بنِ المنتقم
اسلَمْ لِدين محمّدٍ ... فإذا سَلِمت فقد سَلِمْ [١]

قال : وكان البحتريّ من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور في مَشيه [٢] ، مرّةً جانباً ، ومرّةً القَهقَرى ، ويهزّ رأسَه مرّةً ، ومَنكِبَيه أخرى ، ويُشير بكُمّه ، ويقف عند كلّ بيت ويقول : أحسنتُ واللهِ . ثم يُقبِل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنتَ ! هذا والله ما لا يُحسِن أحدٌ أن يقول مِثله . فضَجِر المتوكّل من ذلك وأقبل عليّ وقال : أما تسمع يا صَيمريٌّ ما يقول ؟ فقلت : بلى يا سيّدي ، فمُرني فيه بما أحببتَ . فقال : بحياتي اهجُه على هذا الرَويّ الذي أنشدَنيه . فقلت : تأمرُ ابنَ حَمدون أن يكتب ما أقول . فدعا بدَواةٍ وقِرطاسٍ ، وحضَرني على البَديهة أن قُلتُ :

أدخلتَ رأسَك في الرَّحِمْ ... وعلمتَ أنّك تَنهزِمْ
يا بُحتريٌّ حَذارِ وَيْحَك من قُضاقِضةٍ ضُغُمْ

(١) المجتدي : طالب الجدا ، وهو العطية .

(٢) يتزاور في مشيه : ينحرف

فلقد أسلـــتَ بِـوادِ يَيـــــك من الهِجا سَيـلَ العَـرِمْ
فبأيِّ عِـرضٍ تعتصــــــمْ وبِهَتْكـه جَـفَّ القَـلَـمْ [1]

[الأبيات ...]

قال : فغضب ، وخرج يعدُو ، وجعلت أصيح به :

أدخلـت رأسـك في الـرّحم وعلمـت أنّـك تنهزم

والمتوكل يضحك ويصفّق حتى غاب عن عينه .

قال أحمد بن زياد : فحدّثني أبي قال :

جاءني البحتريّ فقال لي : يا أبا خالد ، أنت عشيرتي وابن عمّي وصديقي ، وقد رأيتَ ما جرى عليَّ ، أفترى لي أن أخرج إلى مَنْبِج بغير إذن ، فقد ضاع العِلم وهَلَك الأدب ؟ فقلت : لا تفعل من هذا شيئاً ، فإن الملوك تمزح بأعظم ممّا جرى . ومضيت معه إلى الفَتْح [2] ، فشكا إليه ذلك ، فقال له نحواً من قولي ، ووَصَله وخَلَع عليه ، فسَكن إلى ذلك .

● أبو الفضل عباس بن أحمد بن ثَوابة قال :

قدم البحتريّ النَّيْل [3] على أحمد بن عليّ الإسكافيّ مادحاً له ، فلم يُثبه ثواباً يرضاه بعد أن طالت مُدّته عنده ، فهجاه بقصيدته التي يقول فيها :

ما كسِبنا من أحمد بن عـلـيٍّ ومن النَّيل غـيرَ حُمّى النَّيلِ

وهجاه بقصيدة أخرى أولها :

قِصّة النَّيل فاسمعوها عُجابَهْ

(١) القضاقض : الأسد ، وجمعه : قضاقضة . ضغم : ج ضاغم وضغمه : عضه بملء فيه .

(٢) الفتح : أراد الفتح بن خاقان نديم المتوكل .

(٣) النيل : بليدة في سواد الكوفة .

فجمع إلى هجائه إيّاه هجاءَ أبي ثَوابة ، وبلغ ذلك أبي فبعث إليه بألف درهم وثيابٍ ودابّة بسَرْجها ولِجامها ، فرَدّه إليه وقال : أسلفتكُم إساءةً لا يجوز معها قَبولُ رِفْدكم[1] . فكتب إليه أبي : أمّا الإساءة فمغفورةٌ ، وأمّا المَعذرة فمَشكورة ، والحسَناتُ يُذهبن السيّئات ، وما يأسُو جِراحَك مثلُ يدك ، وقد رددتُ إليك ما رددتَه عليّ وأضعفتُه ، فإن تلافيتَ ما فَرَط منك أَثبنا وشكَرنا ، وإن لم تفعل احتملنا وصَبَرْنا . فقبِل ما بعث به ، وكتب إليه : كلامُك واللهِ أحسَنُ من شعري ، وقد أسلفتَني ما أَخجلني ، وحَمَّلتَني ما أثقلني ، وسيأتيك ثَنائي . ثم غدا إليه بقصيدة أوّلها :

ضَلالٌ لها ماذا أرادت إلى الصّدِّ

وقال فيه بعد ذلك :

برقٌ أضاء العقيقَ من ضَرَمِهْ

وقال فيه أيضاً :

دانٍ دعا داعي الصِّبا فأجابَهْ

قال ولم يزل أبي يَصِلُه بعد ذلك ويتابع بِرّه لديه حتى افترقا .

● أخبرني جَحظة قال :

كان نسيمٌ غلامُ البحتريّ الذي يقول فيه :

دعا عَبْرتي تجري على الجَور والقَصْد … أظنُّ نسيماً قارف الهمَّ من بعدي

خلا ناظري من طَيفه بعد شَخصه … فيا عَجَبا للدّهر فَقْدٌ على فَقدِ

غلاماً رُوميّاً ليس بحسن الوجه ، وكان قد جعله باباً من أبواب الحِيل على

---

(١) الرفد : العطية .

الناس ، فكان يَبيعه ويتعمّد أن يُصيّره إلى مِلك بعض أهل المُروءات ومن ينفُق عنده الأدب ، فإذا حصَل في مِلكه شَبّب به ، وتشوّقه ، ومدح مَولاه ، حتى يَهبَه له . فلم يزل ذلك دأبَه حتى مات نسيم ، فكُفي الناسُ أمْرَه .

● عليّ بن يحيى المنجّم قال :

اجتازت جاريةٌ بالمتوكّل معها كُوز ماء ، وهي أحسنُ من القمر ، فقال لها : ما اسمُك؟ قالت : بُرهان . قال : ولِمن هذا الماء؟ قالت : لِسِتّي قُبَيحة . قال : صُبّيه في حَلقي . فشربه عن آخره . ثم قال للبحتريّ : قُل في هذا شيئاً . فقال البحتريّ :

ما شَرْبةٌ من رَحيقٍ كأسُها ذَهَبٌ ... جاءت بها الحُورُ من جَنّات رِضْوانِ
يوماً بأطيبَ من ماءٍ بلا عَطَشٍ ... شربتُه عَبَثاً من كفّ بُرهانِ

وفاته

أخبرني عليّ بن سُليمان الأخفش قال : سألني القاسم بنُ عُبيدِالله عن خبر البحتريّ ، وقد كان أَسْكَتَ [1] ، ومات من تلك العلّة ، فأخبرتُه بوفاته ، وأنه مات في تِلك السَّكْتة ، فقال : ويحَه ، رُمي في أَحسَنه .

* * *

(١) أسكت : انقطع كلامه فلم ينطق .

١٤

بشّار بن بُرْد

[الأغاني الجزء ٣ ، ص ١٣٥ وما بعدها]

الشاعر

هو ـ فيما ذكره الحسن بن عليّ عن محمد بن القاسم بن مَهْرُويه عن غَيلان الشعوبيّ ـ بشّار بن بُرْد بن يَرجُوخ ... قال : وكان يَرجوخ من طُخارُسْتان[١] من سَبْي المهلّب بن أبي صُفرة . ويُكنى بشّار أبا مُعاذ ، ومحلُّه في الشعر وتَقدُّمه طبقات المُحْدَثين فيه بإجماع الرُّواة ، ورِياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يُغني عن وصفه وإطالةٍ بذِكر مَحلّه . وهو من مخضرمي شعراء الدولتين العبّاسية والأموية ، قد شُهر فيهما ومَدَح وهجا وأُخذ سَنيّ الجوائز مع الشعراء .

---

* ذكر أبو الفرج في خاتمة أخباره عن بشار في هذا الموضع أنه لم يذكر في هذه الترجمة أخبار بشار وعبدة وكذلك أخبار مهاجاته لحماد عجرد وأبي هاشم الباهلي لأنه أفردها في أبواب مستقلة ، ولم نجد ذكراً لأخباره مع عبدة في أي موضع من كتاب الأغاني أما أخباره مع حماد فقد ذكرها في ترجمة حماد .

(١) طخارستان : ضبطها ابن خلكان في ترجمته لبشار بضم الطاء وضم الراء ، وضبطها ياقوت في معجمه بفتح الطاء وكسر الراء ، وهي ولاية واسعة كبيرة من نواحي خراسان غربي نهر جيحون ومن أكبر مدنها طالقان .

عن خالد بن يزيد بن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه قال :

كان بشّار بن بُرد بن يَرجوخ وأبوه بُرْد من قِنّ[1] خِيرة القُشيرية امرأة المهلّب بن أبي صُفرة ، وكان مقيماً لها في ضَيعتها بالبصرة المعروفة « بخِيرَتان » مع عبيدٍ لها وإماء ، فوهبت بُرداً ـ بعد أن زَوّجته ـ لامرأة من بني عُقيل كانت مُتّصلةً بها ، فولدت له امرأته ، وهو في ملكها ، بشّاراً ، فأعتقتْه العُقَيليّة .

العَنَزيّ قال : حدّثني رجلٌ من ولد بشار يقال له حمدان كان قصّاراً بالبصرة قال : ولاؤنا لبني عُقيل . فقلت : لأيّهم ؟ فقال : لبني رَبيعة بن عُقيل .

بَدْر بن مُزاحم : أنّ بُرداً أبا بشّار كان طَيّاناً يضرِب اللَّبِنَ ، وأراني أبي بيتَين لنا فقال لي : لبِنُ هذين البيتين من ضَرب بُرد أبي بشّار .

أبو عبيدة :

لُقّب بشار بالمُرَعَّث لأنه كان في أُذنه وهو صغيرٌ رِعاثٌ . والرّعاث : القِرَطة ، واحدتُها رَعْثة وجمعها رِعاث ورَعَثات . ورعثات الديك : اللحم المتدلّي تحت حنكه ...

عن الأصمعيّ قال :

كان بشارٌ ضخماً ، عظيم الخَلق والوجه ، مجدوراً ، طويلاً ، جاحظَ المُقْلَتَين قد تَغشّاهما لحمٌ أحمرُ ، فكان أقبح الناس عمىً وأفظَعه منظراً ، وكان إذا أراد أن يُنشد صَفّق بيديه وتنحنح وبصَق عن يمينه وشِماله ، ثم يُنشد فيأتي بالعَجَب .

---

(١) القن : العبيد .

عمر بن شَبّة قال : كان الأصمعيّ يقول :

بشّارٌ خاتمة الشعراء ، واللهِ لولا أنّ أيامه تأخّرت لفضّلْتُه على كثير منهم .

عن أبي عبيدة قال :

قال بشّار : لي اثنا عشَر ألفَ بيتٍ عَيْنٍ[1] . فقيل له : هذا ما لم يكن يَدّعيه أحدٌ قطّ سواك ! فقال : لي اثنتا عَشْرةَ ألفَ قصيدةٍ ، لَعَنهاْ اللهُ ولعن قائلَها إن لم يكن في كلّ واحدة منها بَيتٌ عَيْنٌ .

وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين وقد ذكره : كان بشارٌ شاعراً خطيباً صاحبَ منثور ومُزْدَوج وسَجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المُفْتَنِّين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه . قال الشعر في حياة جرير وتعرّضَ له ، وحُكي عنه أنه قال : هجوتُ جريراً فأعرض عنّي ولو هاجاني لكنت أشعرَ الناس .

نَجم بن النَطّاح قال :

عَهدي بالبصرة وليس فيها غزِلٌ ولا غزِلةٌ إلّا يروي من شعر بشّار ، ولا نائحةٌ ولا مُغنّية إلّا تتكسّب به ، ولا ذو شَرَف إلّا وهو يَهابه ويخاف مَعرّة لسانه .

عن الأصمعي قال :

وُلد بشّار أعمى فما نظر إلى الدنيا قطّ ، وكان يُشبّه الأشياء بعضَها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدِر البُصَراء أن يأتُوا بمثله ؛ فقيل له يوماً وقد أَنشد قوله :

كأنّ مُثار النَقْع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوى كواكبُه

ما قال أحدٌ أحسنَ من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم ترَ الدُّنيا قطّ ولا شيئاً فيها ؟ فقال : إنّ عدمَ النظر يُقوّي ذكاءَ القلب ويقطع عنه الشُّغل بما يُنظَر إليه من الأشياء فيتوفّر حِسُّه وتذكُو قَريحتُه . ثم أَنشدهم قولَه :

---

(١) العين من كل شيء : خياره .

عَـمِيتُ جَنيناً والذكاءُ من العَمَـــي فجئتُ عجيبَ الظّنّ للعِلم مَوْئلا
وغاض ضِياءُ العَينِ للعلم رافـــداً لقلبٍ إذا ما ضَيَّع الناسُ حَصّلا
وشعرٍ كَنَوْر الأرض لاءمتُ بينه بقولٍ إذا ما أحزَنَ الشعرُ أَسهلا[1]

أحمد بن المبارك قال حدّثني أبي قال :

قلت لبشار : ليس لأحدٍ من شعراء العرب شعرٌ إلّا وقد قال فيه شيئاً استنكرتْه العربُ من ألفاظهم وشُكّ فيه ، وإنّه ليس في شعرك ما يُشَكّ فيه . قال : ومن أين يأتيني الخطأ ! ولدت ها هنا ونشأت في حَجور ثمانين شيخاً من فُصَحاء بني عُقيل ما فيهم أحدٌ يعرف كلمةً من الخطأ ، وإن دخلتُ إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت[2] إلى أن أدركتُ ، فمن أين يأتيني الخطأ ؟

قال الأصمعي :

لَقي أبو عمرو بن العَلاء بعضَ الرُّواة فقال له : يا أبا عَمرو ، مَن أبدعُ الناس بيتاً ؟ قال : الذي يقول :

لم يَطُلْ ليلي ولكن لم أَنَـــمْ ونفى عنّي الكَرَى طيفٌ أَلَـمْ
رَوِّحي عنّي قليلاً واعلَمـــي أنّني يا عَبْدَ من لحمٍ ودَمْ

قال : فمن أمدحُ الناس ؟ قال : الذي يقول :

لَـمستُ بكَفّي كفَّه أبتغي الغِنـــى ولم أدرِ أنّ الجُودَ من كَفّه يُعْدي
فـلا أنا منـه ما أفاد ذوو الغِنـــى أَفَدتُ وأعداني فأتلفتُ ما عندي

قال : فمَن أهجى الناس ؟ قال : الذي يقول :

رأيتُ السُّهَيْلَين استوى الجُودُ فيهما على بُعد ذا من ذاك في حُكْم حاكمِ

---

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض .
(٢) أبديت : خرجت الى البادية .

سهيلُ بنُ عثمانٍ يجودُ بمالِــــــــه كما جاد بالوَجْعا سُهيلُ بنُ سالم[1]

قال : وهذه الأبيات كلّها لبشّار .

قُدامه بن نُوح قال :

كان بشّارٌ يحشوشعره إذا أَعْوَزَتْه القافيةُ والمعنى بالأشياء التي لا حقيقةَ لها . فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه :

غَـنِّني للغَـريض يا بنَ قَـنـانِ

فقيل له : مَـن ابنُ قنانٍ هذا ؟ لسنا نعرفه من مُـغَـنّي البصرة ؟ قال : وما عليكم منه ؟ أَلَـكُم قِـبَـلَه دَينٌ فتُطالبوه به ؟ أو ثأرٌ تريدون أن تُدركوه ، أو كَـفَلْتُ لكم به فإذا غاب طالبتموني بإحضاره ؟ قالوا : ليس بيننا وبينه شيءٌ من هذا ، وإنّما أردنا أن نَعرفَه . فقال : هو رجلٌ يُغنّي لي ولا يخرُج من بيتي . فقالوا له : إلى متى ؟ قال : مُذ يوم وُلد وإلى يوم يموت ...

قال أبو عبيدة :

قال بشّار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، ثم بلَغ الحُـلُم وهو مَخْشِيٌّ مَعَرّةِ لسانه .

تحدّيه الشعراء والرُجّاز

محمد بن الحجّاج قال :

دخل بشار على عُقبةَ بن سَـلْم[2] ، فأنشده بعض مدائحه فيه وعنده عُقْبة ابن رُؤبة يُنشده رجزاً يمدحه به ، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله إلى أن فَرَغ ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طِرازٌ لا تُحسِنه أنت يا أبا مُعاذ . فقال له بشارِ : ألي يُقال هذا ! أنا والله أَرْجَزُ منك ومن أبيك وجَـدّك . فقال له

(١) الوجعاء : الدبر

(٢) عقبة بن سلم كان والياً على البصرة من قبل أبي جعفر المنصور، وكان كريماً ، ولبشار مدائح كثيرة فيه .

عقبةُ : أنا والله وأبي فَتَحْنا للناس بابَ الغريب وبابَ الرَّجز ، ووالله إنّي لخَليقٌ أن أَسُدَّه عليهم . فقال بشار : ارحَمْهم رَحِمك الله . فقال عقبة : أتستخفّ بي يا أبا مُعاذ وأنا شاعرٌ ابن شاعرٍ ابن شاعر ! فقال له بشار : فأنت إذاً من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطَهَّرهم تطهيراً . ثم خرج من عنده عقبةُ مُغْضَباً .

فلمّا كان من غدٍ غدا على عُقْبة بن سلم وعنده عقبة بن رُؤبة فأنشده أُرجوزته التي مدحه فيها :

يا طَلَلَ الحيّ بذات الصَّمْدِ ... بالله خَبِّرْ كيف كنتَ بعدي
أوحشتَ من دَعْدٍ وتِرْب دعدِ ... سَقياً لأسماءَ ابنةِ الأَشَدِّ
قامت تراءى إذ رأتْني وَحْدي ... كالشّمس تحتَ الزِّبْرج المُنْقَدِّ
صَدَّتْ بخَدٍّ وجَلت عن خَدّ ... ثم انثنتْ كالنَّفَس المُرتَدِّ
عَهْدي بها سَقْياً له من عَهْدِ ... تُخلِفُ وَعْداً وتَفي بوَعد[1]

[الأبيات ...]

فطرب عُقبةُ بن سَلم وأجزل صِلته ، وقام عقبة بنُ رُؤبة فخرج عن المجلس بخِزْيٍ ، وهرب من تحت ليلته فلم يَعُدْ إليه .

محمد بن صالح بن الحجّاج قال :

قلت لبشّار : إنّي أنشدتُ فلاناً قولك :

إذا أنت لم تشرب مِراراً على القَذَى ... ظَمِئتَ وأيُّ النّاس تَصفُو مَشارِبُهْ

فقال لي : ما كنت أظنّه إلّا لرجلٍ كبير ! فقال لي بشار : وَيْلَك ! أفلا قلتَ له : هو والله لأكبر الجِنّ والإنس .

---

(١) الزبرج : السحاب . المنقدّ : المتقطع .

بَصَره بالشعرِ ونقده

عن الأصمعيّ قال :

كنت أَشهد خلَف بن أبي عَمرو بن العَلاء وخَلَفاً الأحمر يأتيان بشّاراً ويُسَلِّمان عليه بغاية التعظيم ثم يقولان : يا أبا مُعاذ ، ما أحدثتَ ؟ فيُخبرهما ويُنشِدُهما ويسألانه ويكتبان عنه مُتواضِعَين له حتى يأتيَ وقتُ الظُّهر ، ثم ينصرفان عنه . فأتياه يوماً فقالا له : ما هذه القصيدةَ التي أحدثتَها في سَلْم بن قُتَيبة ؟ قال : هي التي بَلَغَتْكما . قال : بَلَغنا أنك أكثرت فيها من الغريب . فقال : نعم ، بَلَغني أنّ سَلْماً يَتباصر بالغريب فأحببتُ أن أُوردَ عليه ما لا يعرِفه . قالا : فأَنشِدْناها . فأنشدهما :

بَكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهَجيرِ إنّ ذاكَ النَّجاحَ في التبكيرِ

حتى فَرَغ منها ، فقال له خَلف : لو قلت يا أبا مُعاذ مكان « إنّ ذاكَ النجاح » :

بَكِّرا فالنّجاحُ في التَّبكْير

كان أحسنَ . فقال له بشار : بَنَيتُها أعرابيّةً وَحشيّةً فقلت : « إنّ ذاكَ النجاح » كما يقول الأعرابُ البدويون ، ولو قلتُ : « بكِّرا فالنجاح » كان هذا من من كلام المولّدين ولا يُشبه ذلك الكلام ولا يدخُل في معنى القصيدة . فقام خلفٌ فقبَّل بين عَينيه ، وقال له خلفُ بن أبي عمرو يمازحه : لو كان عُلاثةُ وَلَدَكَ[1] يا أبا مُعاذ لفعلتُ كما فعل أخي ، ولكنّك مولىً . فمدّ بشارٌ يده فضرب بها فَخِذَ خلفٍ وقال :

ارفُقْ بعَمرٍو إذا حرّكْتَ نِسبتَه فإنّه عربيٌّ من قواريرِ[2]

فقال له : أفعلتَها يا أبا مُعاذِ ! قال : وكان عمرو يُغمز في نسبه .

---

(١) يريد : لو كنت عربياً لأن اسم « علاثة » من أسماء الأعراب .

(٢) يريد أنه مغموز في نسبه وليس عربياً صريح النسب .

أبو عبيدة قال : سمعت بشاراً يقول وقد أُنشد في شعر الأعشى :

وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ ... من الحوادث إلا الشَّيبَ والصَّلَعا

فأنكره وقال : هذا بيتٌ مصنوع ما يُشبه كلام الأعشى . فعجبتُ لذلك . فلمّا كان بعدَ هذا بعشر سنين كنت جالساً عند يونس فقال : حدّثني أبو عمرو بن العَلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصَّلعا

فجعلت حينئذٍ ازداد عجباً من فطنة بشار وصحّة قريحته وجَودة نقده للشعر .

الرّياشيّ قال : أُنشد بشّارٌ قول الشاعر :

وقد جعل الأعداء يَنتقِصوننا ... وتَطمعُ فينا أَلسُنٌ وعيونُ

ألا إنما ليلى عصا خيزُرانةٍ ... إذا غمزُوها بالأكُفِّ تَلينُ

فقال : والله لو زعم أنها عصا مُخٍّ أو عصا زُبْدٍ لقد كان جعلها جافيةً خشنة بعدَ أن جعلها عصاً ! ألا قال كما قلتُ :

ودَعْجاء المَحاجر من مَعدٍّ ... كأنّ حديثَها ثَمَرُ الجِنانِ

إذا قامتْ لِمشْيتها تَثَنّتْ ... كأنّ عظامَها من خيزُرانِ

الموازنة بينه وبين مروان بن أبي حفصة

عن أبي حاتم قال :

قلت لأبي عبيدة : أمروانُ عندك أشعر أم بشّار ؟ فقال : حكَم بشّارٌ لنفسه بالاستظهار أنه قال ثلاثة عشر ألفَ بيتٍ جيّد ، ولا يكون عدد الجيّد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام هذا العدد ، وما أحسَبُهم برَّزوا في مثلها ، ومَروانُ أَمدحُ للملوك .

الرِّياشيّ قال :

سُئل الأصمعيُّ عن بشّار ومروان أيُّهما أشعر ؟ فقال : بشّار . فسُئل عن السبب فقال : لأنّ مروانَ سلك طريقاً كثُر من يَسلُكُه فلم يَلحقْ مَن تَقدَّمه ، وشَرِكه فيه من كان في عصره ، وبشّار سلك طريقاًلم يُسلَكْ وأُحسن فيه وتفرّد به ، وهو أكثر تصرُّفاً وفنونَ شعرٍ وأَغزرُ وأوسعُ بديعاً ، ومروانُ لم يتجاوزْ مذاهب الأوائل .

عن أبي حاتم قال :

سمعت الأصمعيَّ وقد عاد إلى البصرة من بغداد فسأله رجلٌ عن مروانَ ابن أبي حَفْصة فقال : وجد أهل بغداد قد ختموا به الشعراء ، وبشارٌ احقُّ بأن يختِموهم به من مروان . فقيل له : ولمَ ؟ فقال : وكيف لا يكون كذلك وما كان مروانُ في حياة بشّار يقول شعراً حتى يُصلَحه له بشارٌ ويُقَوِّمه ! وهذا سَلْمٌ الخاسرُ من طبقة مروان يُزاحمه بين أيدي الخلفاء بالشعر ويُساويه في الجوائز ، وسَلْمٌ معترفٌ بأنه تَبَعٌ لبَشّار .

عن أبي حاتم قال :

كان الأصمعيّ يُعجَبُ بشعر بشّار لكثرة فنونه وسَعَة تصرّفِه ويقول : كان مطبوعاً لا يُكلِّفُ طَبعهشيئاً متعذّراً لا كَمن يقول البيت ويُحكِّكه أياماً . وكان يشبّه بشّاراً بالأعشى والنابغة الذُّبيانيّ ، ويشبّه مَروان بزهير والحطيئة ، ويقول : هو مُتكلِّف .

قال أبو حاتم : وقلت لأبي زيد : أيُّما أشعرُ بشارٌ أم مروان ؟ فقال : بشارٌ أشعر ، ومروانُ أكفر .

قال أبو حاتم : وسألت أبا زيد مرّةً أخرى عنهما فقال : مروانُ أَجَدُّ وبشّار أهزلُ . فحدّثت الأصمعيَّ بذلك فقال : بشّار يصلُح للجِدّ والهزل ، ومروان لا يَصلحُ إلّا لأحدهما .

علي بن يحيى قال :

كان إسحاقُ الموصلّي لا يعتدّ ببشار ويقول : هو كثير التخليط في شعره ، وأشعارُه مختلفةٌ لا يُشبه بعضُها بعضاً ، أليس هو القائل :

إنّما عظمُ سُليمي حِبَّتي ... قصبُ السُكَّر لا عظمُ الجَمَلْ
وإذا أدنيتَ منها بصَلاً ... غَلَبَ المِسكُ على رِيح البَصَلْ

لو قال كلَّ شيءٍ جيّد ثم أضيف إلى هذا لَزيَّفه . قال : وكان يُقدِّم عليه مروانَ ويقول : هو أشدُّ استواءَ شعرٍ منه ، وكلامُه ومَذهبُه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يَعُدُّ أبا نُواسٍ البتّةَ ولا يرى فيه خيراً .

إغارة الشعراء على شعره

أحمد بن صالح ـ وكان أحدَ الأدباء ـ قال :

غضب بشّارٌ على سَلْم الخاسر ، وكان من تلامذته ورُواته ، فاستشفع عليه بجماعة من إخوانه ، فجاؤوه في أمره ، فقال لهم : كلُّ حاجةٍ لكم مَقضِيّةٌ إلّا سَلْماً . قالوا : ما جئناك إلّا في سَلم ولا بُدَّ من أن ترضى عنه لنا . فقال : أين هو الخبيثُ ؟ قالوا ها هوذا . فقام إليه سَلْمٌ فقبَّل رأسَه ومَثَل بين يديه وقال : يا أبا مُعاذٍ ، خِرِّيجُك وأَديبك . فقال : يا سلمُ ، من الذي يقول :

من راقب الناسَ لم يَظْفَر بحاجته ... وفاز بالطَيِّبات الفاتكُ اللَّهِجُ

قال : أنت يا أبا مُعاذ ، جعلني الله فداءَك . فقال : يا سَلم ، من الذي يقول :

من راقب الناس مات غَمّاً ... وفاز باللّذّة الجَسُورُ

قال : خِرِّيجُك يقول ذلكَ (يَعني نَفسه) . قال : أفتأخُذ معانيَّ التي قدعُنيتُ بها وتعبتُ في استنباطها فتكسُوها ألفاظاً أخفَّ من ألفاظي حتى يُروَى ما تقولُ ويذهبَ شعري ! لا أرضَى عنك أبداً . قال : فما زال يتضرّع إليه ويَشفَعُ له القومُ حتى رضيَ عنه ...

شعوبيته وتلوّنه في ولائه

يحيى بن الجَون العَبْديّ راوية بشار قال :

قال بشار : لمّا دخلت على المهديّ قال لي : فيمن تعتدّ يا بشّارُ؟ فقلت : أمّا اللسانُ والزِّيّ فعربيّان ، وأما الأصلُ فعجميّ ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

ونُبِّئتُ قوماً بهم جنّةٌ ... يقولون : مَن ذا ، وكنتُ العَلَمْ

ألا أيّها السائلي جاهداً ... لِيعرفَني أنا أصلُ الكَرَمْ

نَمَت في الكرام ِ بني عامرٍ ... فُروعي وأصلي قريشُ العَجَمْ

فإنّي لأُغني مَقامَ الفتى ... وأُصْبي الفتاةَ فما تعتصِمْ

قال : وكان أبو دلامةَ حاضراً فقال : كلّا ، لَوَجهُك أقبحُ من ذلك ، ووجهي مع وَجهك . فقلت : كلّا ، واللهِ ما رأيتُ رجلاً أصدقَ على نفسه وأكذبَ على جليسه منك ، واللهِ إنيّ لطويلُ القامة ، عظيم الهامة ، تامُّ الألواح [1] ، أسجح الخدَّين [2] ، ولَرُبَّ مُسترخي المِذْرَوَين [3] ، للعين فيه مَرادٌ [4] ، قد جلس من الفتاة حَجْرةً [5] وجلستُ منها حيث أُريد ، فأنت مثلي يا مَرْضَعانُ [6] قال : فسكتَ عنّي . ثم قال لي المهدي : فمن أيّ العجم أصلُك ؟ فقلت : من أكثرها في الفُرسان ، وأشدِّها على الأقران ، أهل طُخارستان . فقال بعضُ القوم : أولئك الصُّغْد . فقلت : لا ، الصُغدُ تجارٌ . فلم يَردُد ذلك المهديّ .

---

(١) الألواح ج لوح : العريض من العظام .

(٢) أسجح الخد : لين الخد .

(٣) المذروان : طرفا الألية ، ومن الرأس ناحيتاه .

(٤) الرود والارتياد : الذهاب والمجيء .

(٥) حجرة : ناحية .

(٦) المرضعان : اللئيم .

وكان بشّارٌ كثيرَ التلّون في ولائه ، شديدَ الشَّغْب والتعصُّب للعجم ، مرّةً يقول يفتخر بولائه في قيس :

أَمِنتُ مَضَرَّةَ الفُحَشـــاء إنّي أرى قيساً تَضُرُّ ولا تُضـــارُ
كأنّ الناس حين تغيبُ عنهم نباتُ الأرض أخطأه القِطارُ
وقد كانت بتَدْمُرَ خيلُ قيسٍ فكان لِتَدْمُرٍ فيها دَمـــارُ
بحيٍّ من بني عَيلانَ شُوسٍ يسير الموتُ حيث يُقــال ساروا
وما نلقاهـم إلا صَدَرْنـــا بِسِرِيٍّ منهـمُ وهم حِرارُ(۱)

ومرّةً يتبّرأ من ولاء العرب فيقول :

أصبحتُ مَولى ذي الجَلال وبعضُهم مولى العُرَيب فخُذْ بفَضْلك فافْخَرِ
مولاك أكرمُ من تميمٍ كُلّها أهلِ الفَعال ومن قُريشٍ المَشْعَرِ
فارجِعْ إلى مولاك غيرَ مدافَعٍ سُبحانَ مولاك الأجلِّ الأكبرِ(۲)

وقال يفتخر بولاء بني عُقيل :

إنّني من بني عُقَيل بن كعـبٍ مَوضعَ السيف من طُلَى الأعناقِ(۳)

أبو عبدالله المُقرئ الجَحْدريّ ... قال :

دخل أعرابيٌّ على مَجزأَةَ بن ثَور السَّدُوسيّ وبشّارٌ عنده وعليه بزَّةُ الشعراء ، فقال الأعرابي : مَن الرجل ؟ فقالوا : رجلٌ شاعر . فقال : أَمَولىً هو أم عربيّ ؟ قالوا : بل مَولىً . فقال الأعرابي : وما للموالي وللشعر ! فغضب

---

(۱) القطار ج قطر : المطر .
حرار ج حران : الشديد العطش .
(۲) المشعر الحرام : موضعه بالمزدلفة .
(۳) الطلى ج طلية وطلاة : أصل العنق .

بشّارٌ وسكت هُنَيهةً ، ثم قال : أتأذنُ لي يا أبا ثَور ؟ قال : قُل ما شئتَ يا أبا مُعاذ . فأنشأ بشّارٌ يقول :

خليلي لا أنامُ على اقتسار ... ولا آبى على مولىً وجارِ
سأُخبر فاخرَ الأعراب عنّي ... وعنه حين تأذن بالفَخار
أحين كُسِيتَ بعدَ العُري خَزّاً ... ونادمت الكِرام على العُقار
تُفاخر يا بنَ راعيةٍ وراعٍ ... بني الأحرار حَسبُك من خَسار
وكنت إذا ظَمِئتَ إلى قَراحٍ ... شركتَ الكلبَ في وَلَغ الإطار
تُريغ بخُطبةٍ كَسْرَ الموالي ... ويُنسيك المكارمَ صيدُ فار
وتَغدُو للقنافذِ تَدَّريها ... ولم تَعْقِلْ بدَرّاجِ الدّيار
وتّتشح الشِّمالَ للابسيها ... وتَرعى الضَّأنَ بالبلد القِفار
مُقامُك بيننا دَنَسٌ علينا ... فليتك غائبٌ في حَرّ نار
وفَخرُكَ بين خِنزيرٍ وكلبٍ ... على مثلي من الحَدَث الكُبارِ(١)

فقال مجزأة للأعرابي : قَبحك اللهُ ! فأنت كسبت هذا الشرْ لنفسك ولأمثالك .

محمد بن عبد الرحمن التَيْميّ قال :

دخل بشّارٌ إلى إبراهيم بن عبدالله بن حَسَن ، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصور ويُشير عليه برأي يستعمله في أمره . فلمّا قُتل إبراهيم خاف بشارٌ ، فقلب الكُنيةَ ، وأظهر أنه كان قالها في أبي مُسلِم ، وحذف منها أبياتاً وأوّلها :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشٍ بدائمِ ... ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسالمِ

قلب هذا البيت فقال : « أبا مسلم » .

على الملك الجبّار يقتحم الردَّى ... ويَصرعُه في المأزق المُتلاحم

(١) العقار : الخمرة . اطار البيت : مايطيف به كالمنطقة . تريغ : تريد وتطلب ، تدريها : تختلها لتصيدها . الدرّاج : القنفذ . الشمال ج شملة : الكساء يتّشح به .

كأنّك لم تسمعْ بقتل مُتَوَّجٍ عظيم ولم تسمع بفَتك الأعاجم
تقسّم كِسرى رهطُه بسيوفهم وأمسى أبو العبّاس أحلامَ نائمِ

يعني الوليد بن يزيد

وقد كان لا يخشى انقلابَ مكيدةٍ عليه ولا جَرْيَ النُّحوس الأشائم
مُقيماً على اللّذات حتى بدتْ له وجوهُ المنايا حاسراتِ العمائم
وقد تَرِد الأيّام غُرّاً وربّما وردنَ كُلوحاً باديات الشكائم
ومروانُ قد دارت على رأسه الرَّحى وكان لِما أجرمتَ نَزْرَ الجرائم
فأصبحت تجري سادراً في طريقهم ولا تتّقي أشباه تلك النقائم
تجرّدت للاسلام تعفُو سبيله وتُعري مَطاه للّيوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدينَ أهلُه عليك فعاذوا بالسّيوف الصوارمِ
فرُمْ وَزَراً يُنجيك يابنَ سَلامةٍ فلستَ بناجٍ من مَضيمٍ وضائم

جعل موضع « يابنَ سلامة » : « يابن وَشيكة » وهي أم أبي مسلم .

لحا الله قوماً رأّسُوك عليهم وما زلت مَرؤوساً خبيثَ المَطاعم
أقول لبسّامٍ عليه جَلالةٌ غدا أَرْ يَحيّاً عاشقاً للمكارم
من الفاطميّين الدُّعاة إلى الهُدى جِهاراً ومَن يَهديك مثلُ ابنِ فاطم

هذا البيت حذفه بشارٌ من الأبيات .

سِراجٌ لِعينِ المُستضيىءِ وتارةً يكون ظَلاماً للعَدُوِّ المُزاحمِ
إذا بلغ الرأيُ المَشُورةَ فاستعِنْ برأي نَصِيحٍ أو نَصيحةِ حازم
ولا تَجعلِ الشُورى عليكَ غَضاضةً فإنّ الخوافي قوّةٌ للقوادم
وما خيرُ كفٍّ أَمسك الغُلُّ أُختَها وما خيرُ سيفٍ لم يُؤَيَّدْ بقائم
وخَلِّ الهُوَيْنَى للضعيف ولا تكُنْ نَؤوماً فإنّ الحزمَ ليس بنائم

وحاربْ إذا لم تُعْطَ إلّا ظُلامــةً   شَبا الحرب خيرٌ من قَبول المظالم[١]

قال الأصمعيّ : قلت لبشار : يا أبا مُعاذ ، إنّ الناس يعجبون من أبياتك في المشورة . فقال لي : يا أبا سعيد ، إنّ المُشاورَ بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشارَك في مكروهه . فقلت له : أنت والله في قولك هذا أشْعَرُ منك في شعرك .

عقيدته

قال الجاحظ : وكان بشّارٌ يَدين بالرَّجعة[٢] ، ويُـكفّر جميع الأمّـة ، ويُصوّب رأي إبليس في تقديم النار على الطِّين ، وذكَر ذلك في شعره فقال :

الأرضُ مُظلِمــةٌ والنّـارُ مُشرِقــةٌ   والنّارُ معبودةٌ مُذ كانت النارُ

قال : وبلَغه عن أبي حُذيفة واصل بن عَطاء إنكارٌ لقوله وهَتْفٌ به فقال يهجوه :

ما لي أُشايعُ غـزّالاً له عُنُــــــقٌ   كنِقْنِقِ الدَّوِّ إن وَلّى وإن مَثَلا
عُنْقَ الزَّرافة ما بالي وبالكُـــــمُ   أتُكْفِرُون رجالاً كَفَّروا رَجُلا[٣]

قال : فلمّا تتابع على واصل منه ما يَشْهَد على إلحاده خطَب به واصلٌ ـ وكان ألْثغَ على الراء فكان يَجْتَنِبها في كلامه ـ فقال : أما لهذا الأعمى المُلحِد ، أما لهذا المُشنَّفَ المَكْني بأبي مُعاذ من يقتُله ؟ أما والله لولا أنّ الغيلة[٤] سَجيّةٌ من سجايا الغالية لدَسستُ إليه من يَبعجُ بطنه في جَوف منزله أو في حَفْله ، ثم كان لا يتولّى ذلك إلّا عُقَيليٌّ أو سَدُوسيّ !

---

(١) الشكائم ج شكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس ، وبادي الشكيمة كناية عن تكشيره وعبوسه . مروان : اراد به مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية تعفو : تمحو. المطا : الظهر. الغل : القيد. الشباح شباة : إبرة العقرب .

(٢) الرجعة : الاعتقاد بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت .

(٣) النقنق : الظليم وهو ذكر النعام. الدو : الفلاة .

(٤) الغيلة : الاغتيال .

فقـال : أبا مُعاذ ولم يقُل بشّـارا ، وقـال : المشنَّف ولم يقل المُرَعَّث ، وقال : من سجايا الغالية ولم يقل الرافضة ، وقال : في منزله ولم يقل في داره ، وقال : يبعج بطنه ولم يقل يبقُر ، للّثغة التي كانت به في الرّاء .

سعيد بن سَلّام قال :

كان بالبصرة ستةٌ من أصحاب الكلام : عَـمْرو بن عُبيد ، وواصل بن عَطاء ، وبشّار الأعمى ، وصالح بن عبد القُـدّوس ، وعبد الكريم بن أبي العَوجاء ، ورجلٌ مـن الأزد ـ قال أبو أحمد : يعني جرير بن حازم ـ فكانوا يجتمعون في منزل الأَزديّ ويختصمون عنده . فأمّا عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأمّا عبد الكريم وصالح فصَحَّحا التوبة[1] ، وأمّا بشارٌ فبقي مُتحيّراً مُخَـلِّطاً ، وأمّا الأزديّ فمال إلى قول السُّمَنيّة[2] ، وهو مذهب من مذاهب الهند ، وبقي ظاهره على ما كان عليه . قال : فكان عبد الكريم يُفسد الأحداث ، فقال له عمرو بن عبيد : قد بلغني أنّك تخلو بالحدَث من أحداثنا فتُفسده وتَسترلّـه وتُدخله في دينك ، فإن خرجت من مِصرنا وإلّا قمتُ فيك مَقاماً آتي فيه على نفسك . فلحِق بالكوفة ، فدُلّ عليه محمد بن سليمان فقتله وصَلَبه بها .

سليمان قال :

قال بعض أصحاب بشار : كنّا نكون عنده فإذا حَضَرت الصلاةُ قُمنا إليها ونَجعل على ثيابه تُراباً حتى ننظرَ هل يقوم يُصلّي ، فنعود والتُرابُ بحاله وما صَلّى .

---

(١) هذا القول يناقض ما جاء في تتمة الخبر من أن عبد الكريم كان يفسد الأحداث ويدخلهم في دينه ولهذا قتله محمد بن سليمان ، ولهذا أرجح ان لفظ التوبة محرف عن لفظ « الثنوية » وهو مذهب الزنادقة الذين أضمروا الولاء لعقيدة الفرس المجوسيّة .

(٢) السمنية : فرقة من الدهرية الذين يذهبون الى قدم الدهر ولا يؤمنون بالبعث والآخرة نسبة الى مدينة « سومنات » بالهند . وقيل إنهم فرقة تقول بالتناسخ وتنكر وقوع العلم بالأخبار.

عن الجاحظ قال :

كان بشار صديقاً لأبي حُذيفة واصلِ بن عطاء قبل أن يَدين بالرَّجعة ويُكفّر الأُمّة ، وكان قد مدح واصلاً وذكر خُطبته التي خطبها فنزع منها كلّها الراء وكانت على البديهة ، وهي أطولُ من خُطبتي خالد بن صَفوان وشبيب بن شَيبة ، فقال :

تكلَّفُوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلوا وحَبَّروا خُطباً ناهيكَ من خُطَبِ
فقام مرتجلاً تَغلي بداهتُـــــــه كمِرجل القَين لمّا حُفّ باللَّهَب
وجانبَ الرّاءَ لم يَشعُرْ به أحـــدٌ قبل التصفُّح والإغراق في الطَّلب

قال : فلمّا دان بالرَّجعة زعم أنّ الناس كلّهم كفروا بعد رسول الله ﷺ ، فقيل له : وعليّ بن أبي طالب ؟ فقال :

وما شرُّ الثـلاثة أمَّ عمـــروٍ بصاحبك الذي لا تَصْبَحينا (١)

أحمد بن خلّاد قال : حدّثني أبي قال :

كنت أُكلّم بشاراً وأردّ عليه سُوءَ مذهبه بميله إلى الالحاد ، فكان يقول : لا أَعرفُ إلا ما عايَنْتُه أو عاينت مثلَه . وكان الكلام يطول بينَنا ، فقال لي : ما أظنّ الأمر يا أبا خالد إلّا كما تقول ، وأنّ الذي نحن فيه خِذلانٌ ، ولذلك أقول :

طُبعتُ على ما فيَّ غيرَ مُخَيَّـــر هَواي ولو خُيّرتُ كنتُ المهذَّبا
أُريد فلا أُعطى وأُعطَى ولم أُرِدْ وقَصّر عِلمي أن أنالَ المُغَيَّبا
فأُصرَفُ عن قصدي وعلمي مُقَصِّرٌ وأُمسي وما أُعقِبتُ إلّا التعجُّبا

---

(١) هذا البيتُ لعمرو بن كلثوم من معلقته .

سخريته ونوادره

عن حَمّاد عن أبيه قال :

كان بشار جالساً في دار المهديّ والناس ينتظرون الإذن ، فقال بعض موالي المهدي لِمن حَضر : ما عندكم في قول الله عزّ وجلّ : « وأَوحى ربُّك إلى النَّحلِ أن اتّخِذي من الجِبال بُيوتاً ومن الشَّجَر » ؟ فقال له بشار : النَحل التي يعرفُها الناس . قال : هَيْهاتَ يا أبا مُعاذ ، النّحل : بنو هاشم ، وقوله : « يخرُج من بُطونها شَرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شِفاءٌ للناس » يعني العِلم . فقال له بشار : أراني الله طعامَك وشَرابكَ وشِفاءك فيما يخرُج من بطون بني هاشم ، فقد أوسعتَنا غَثاثةً . فغضب وشتم بشاراً . وبلغ المهديَّ الخبرُ فدعا بهما فسألهما عن القصّة ، فحدّثه بشارٌ بها ، فضحك حتى أمسك على بطنه ، ثم قال للرجل : أَجَلْ ! فجعل اللهُ طعامَك وشرابك ممّا يخرُج من بطون بني هاشم ، فإنك باردٌ غثّ .

عن حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

دخل يزيدُ بن منصور الحِمْيريّ على المهديّ وبشّارٌ بين يديه يُنشِده قصيدةً امتدحه بها . فلمّا فَرَغ منها أقبل عليه يزيدُ بن منصور الحِميريّ ـ وكانت فيه غَفْلةٌ ـ فقال له : يا شيخُ ، ما صِناعتك ؟ فقال : أثقُب اللؤلؤ . فضحك المهديّ ثم قال لبشار : اغرُب ويلكَ ، أتتنادرُ على خالي ! فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخاً أعمى يُنشد الخليفةَ شعراً ويسأله عن صناعته !

الفَضل بن سعيد قال : حدّثني أبي قال :

مرّ بشارٌ بقاصٍّ بالبصرة فسمعه يقول في قَصصه : مَن صام رجباً وشَعبان ورمضان بنى اللهُ له قصراً في الجنّة صَحنُه ألفُ فَرسخٍ في مثلها وعُلوُّه ألفُ فرسخٍ وكل باب من أبواب بُيوته ومقاصره عشرةُ فراسخَ في مِثلها . قال : فالتفت بشار إلى قائده فقال : بِئستْ والله الدارُ هذه في كانون الثاني .

قال الفضلُ بن سعيد : وحدّثني رجلٌ من أهل البصرة ممّن كان يتزوّج بالنّهاريّات[1] قال : تزوّجت امرأةً منهنّ فاجتمعت معها في عُلْو بيت وبشارٌ تحتنا ، أو كنّا في أسفل البيت وبشّار في عُلْوه مع امرأةٍ ؛ فَنَهق حمارٌ في الطريق فأجابه حمارٌ في الجيران وحمارٌ في الدار ، فارتجّت الناحية بنَهِيقها ، وضرب الحمارُ الذي في الدار الأرضَ برِجْله وجعل يَدقُّها بها دقّاً شديداً ، فسمعتُ بشاراً يقول للمرأة : نُفِخ ـ يَعلم اللهُ ـ في الصُّور وقامت القيامةُ ، أما تَسمعين كيف يُدَق على أهل القبور حتى يخرجوا منها ! قال : ولم يلبث أن فزعتْ شاةٌ كانت في السطح فقطعتْ حبلَها وعَدَتْ فألقت طبقاً وغضارة[2] إلى الدار فانكسرا ، وتطاير حَمامٌ ودَجاجٌ كُنّ في الدار لصوت الغضارة ، وبكى صبيّ في الدار ، فقال بشار : صَحّ والله الخبرُ ونُشر أهلُ القبور من قبورهم ، أَزِفت ـ يشهد اللهُ ـ الآزفةُ وزُلزلت الأرضُ زلزالها . فعجبتُ من كلامه وغاظني ذلك ، فسألتُ من المتكلّم ؟ فقيل لي : بشارٌ ؛ فقلت : قد علمتُ أنه لا يتكلّم بمثل هذا غيرُ بشار .

قُدامة بن نُوح قال :

مرّ بشارٌ برجلٍ قد رمحتْه بغلةٌ وهو يقول : الحمدُ لله شكراً . فقال له بشار : استَزِدْه يَزِدْك . قال : ومرّ به قومٌ يحملون جنازةً وهم يسرعون المشيَ بها ، فقال : ما لهم مُسرعين ! أتُراهم سَرقوه فهم يخافون أن يُلحَقوا فيُؤْخَذَ منهم !

عن أبي عثمان اللَّيثيّ وعن أبي مُسلم قالا :

رفع غلامُ بشار إليه في حساب نَفقته جِلاءَ مِرآةٍ عشرةَ دراهمَ ، فصاح به بشار وقال : والله ما في الدنيا أعجبُ من جِلاء مرآةِ أعمى بعشرة دراهم ، والله لو

(١) استظهر محقق المخطوطة أنها نسبة الى بني النهارى وهي قبيلة من أشراف اليمن . والذي يرجحه السياق أنهن نساء من الأعاجم يتزوجن الرجال لفترة قصيرة .

(٢) الغضارة : القصعة الكبيرة .

صَدِئت عينُ الشمس حتى يبقى العالمُ في ظُلمةٍ ما بلغتْ أُجرةُ من يَجلوها عشرةَ دراهم .

محمد بن الحَجّاج قال :

جاءنا بشار يوماً فقلنا له : ما لَك مُغتمّاً ؟ فقال : مات حماري فرأيتُه في النوم فقلت له : لِمَ مُتَّ ؟ ألم أكن أُحسنُ إليك ! فقال :

سيّدي خُذْ بي أَتانــــاً ... عنــد بــاب الأصبهـاني
تَيَّمَتْني بِبَنـــانٍ ... وبدَلٍّ قــد شجــاني
تَيَّمتـــني يومَ رُحنــا ... بثناياهــا الحِســان
وبغُنـــجٍ ودلالٍ ... سلَّ جسمــي وبَــراني
ولهــا خـدٌّ أَسيــلٌ ... مثـلُ خـدّ الشَيْفَــران
فلذا مِتُّ ولــو عشــتُ إذاً طــال هـــواني

فقلت له : ما الشيفران ؟ قال : ما يُدريني ؟ هذا من غريب الحمار فإذا لَقِيته فاسأَلْه .

بشار وأبو الشَمَقْمَق

رجلٌ من الأنصار قال :

جاء أبو الشَمَقْمَق إلى بشار يشكو إليه الضِيقة ويحلِف له أنه ما عنده شيء ، فقال له بشار : والله ما عندي شيءٌ يُغنيك ولكن قُم معي إلى عُقبةَ بن سَلْم . فقام معه فذكر له أبا الشَمقمق وقال : هو شاعرٌ وله شكرٌ وثناء . فأمر له بخمسمائة درهم ، فقال له بشار :

يا واحدَ العرب الــذي ... أمسى وليس له نظيرُ
لو كان مِثلَك آخَـــرٌ ... ما كان في الدنيا فقيرُ

فأمر لبشار بألفي درهم ، فقال له أبو الشمقمق : نفعتَنا ونَفَعناك يا أبا مُعاذ . فجعل بشار يضحك .

الأصمعيّ قال :

أمر عُقبة بن سَلم الهُنائيّ لبشار بعشرة آلاف درهم ، فأُخبر أبو الشمقمق بذلك فوافى بشاراً فقال له : يا أبا معاذ ، إني مررت بصبيان فسمعْتُهم يُنشدون :

هَلِّلينَــــهْ هَلِّلينــــه طعنَ قِثّاةٍ لِتِينبــــه
إنّ بشار بن بُـــــرْدٍ تيسٌ اعمى في سفينه

فأخرج إليه بشار مائتي درهم فقال : خُذ هذه ولا تكن راويةً للصبيان يا أبا الشمقمق .

دعبل بن عليّ قال :

كان بشار يُعطي أبا الشمقمق في كلّ سنةٍ مائتي درهم . فأتاه أبو الشمقمق في بعض تلك السنين فقال له : هَلُمّ الجِزيةَ يا أبا معاذ . فقال : ويحَك ، أجِزيةٌ هي ! قال : هو ما تسمع . فقال له بشار يمازحه : أنت أفصح مني ؟ قال : لا . قال : فأعلمُ مني بمثالب الناس ؟ قال : لا . قال فأشعرُ مني ؟ قال : لا . قال : فلمَ أُعطيك ؟ قال : لئلّا أهجُوَك . فقال له : إن هجوتَني هجوتُك . فقال له أبو الشمقمق : هكذا هو ؟ قال : نعم ، فقل ما بدا لك . فقال أبو الشمقمق :

إنّي إذا ما شاعرٌ هجانِيَــــــهْ ولجّ في القــول له لســـانيه
أدخلته . . . . . علانيــــــهْ بشار يا بشـــــار . . . . .

وأراد أن يقول : « يابن الزانية » ، فوثب بشّار فأمسك فاه وقال : أراد والله أن يشتُمَني . ثم دفع إليه مائتي درهم ثم قال له : لا يسمعنّ هذا منك الصِبيان يا أبا الشمقمق .

هجاؤه وتخوّف الناس أذاة لسانه

محمد بن عثمان البصريّ قال :

استمنح بشارُ بن بردِ العبّاس بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس فلم يَمْنَحْه ، فقال يهجوه :

ظلُّ اليَسار على العباس مَمدودُ وقلبُه أبداً بالبُخل مَعقودُ
إنّ الكريمَ لَيُخفي عنك عُسْرتَه حتى تراه غَنيّاً وهو مجهودُ
وللبخيل على أمواله عِللٌ زَرقُ العيون عليها أَوْجُهٌ سُودُ
إذا تكرَّهتَ أن تُعطي القليلَ ولم تقدِرْ على سَعةٍ لم يَظهر الجودُ
أَورِقْ بخيرٍ تُرجّى للنَّوال فما تُرجى الثمارُ إذا لم يُورقِ العُودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تَمنعْك قِلَّتُه فكلٌّ ما سَدَّ فقراً فهو محمود

عن سليمان بن سليمان العَلَويّ قال :

قيل لبشار : إنك لكثير الهجاء ! فقال : إنّي وجدتُ الهجاء المُؤلم آخذَ بضَبُعِ(١) الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد من الشعراء أن يُكرَم في دهر اللئام على المديح فَلْيَستعدّ للفقر وإلّا فَلْيُبالغْ في الهجاء ليُخافَ فيُعْطَى .

عن أبي حاتم قال :

كان الأخفش طَعن على بشار في قوله :

فالآن أقصرَ عن سُمَيّةَ باطلي وأشار بالوَجَلَى عليَّ مُشِيرُ

وفي قوله :

على الغزَلَى منّي السَّلامُ فربّما لَهوتُ بها في ظِلّ مَرْؤومةٍ زُهْرِ(٢)

(١) الضبع : العضد ، واخذ بضبعه : أيّده ورفع من شأنه .

(٢) المرؤومة : المحبوبة الأثيرة .

وفي قوله في صفة سفينة :

تُلاعب نِينانَ البحور وربّما رأيتَ نُفوس القوم من جَريها تجري[1]

وقال : لم يُسمَعْ من الوجل والغزل فَعَلَى ، ولم أَسمع بِنُونٍ ونينان . فبلغ ذلك بشاراً فقال : وَيلي على القصّارين[2] ! متى كانت الفصاحةُ في بيوت القَصّارين ! دعُوني وإيّاه . فبلغ ذلكَ الأخفشَ فبكى وجَزِع ، فقيل له : ما يُبكيك ؟ فقال : ومالي لا أبكي وقد وقعت في لسان بشار الأعمى ! فذهب أصحابه إلى بشار فكذّبوا عنه واستوهبوا منه عِرضه وسألوه ألا يهجوَه . فقال ، قد وهبتُه لِلؤم عِرضه . فكان الأخفشَ بعد ذلك يحتجّ بشعره في كُتبه لِيبلُغَه ، فكفّ عن ذِكره بعد هذا .

قال : وقال غير أبي حاتم : إنّما بَلَغه أنّ سِيبويهِ عاب هذه الأحرف عليه لا الأخفش ، فقال يهجوه :

أَسِيْبويهِ يابنَ الفارسيّة ما الذي تحدّثتَ عن شتمي وما كنتَ تَنْبذُ
أَظَلْتَ تُغنّي سادراً في مَساءتي وأُمُّك بالمِصْرَين تُعطي وتأخُذُ

قال : فتوقّاه سيبويه بعد ذلك ، وكان إذا سُئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له شاهداً من شعر بشار احتجّ به استكفافاً لِشرّه .

غزله ومجونه

عن محمود بن الحجّاج قال :

كان بشارٌ يهوى امرأةً من أهل البصرة ، فراسلَها يسألُها زيارتَها ، فوعدتْه بذلك ثم أَخْلَفَتْهُ ، وجعل ينتظرها ليلتَه حتى أصبح ، فلمّا لم تأته أرسل إليها يُعاتبها ، فاعتذرت بمرضٍ أصابها ، فكتب إليها بهذه الأبيات :

---

(١) النون : الحوت والجمع أنوان ونينان .

(٢) القصار : من يحوّر الثياب ويدقها .

يا لَيْلَتي تزدادُ نُكــرا مِن حُبِّ من أحببتُ بِكرا
حـوراءُ إن نظـرتْ إليــك سقتْك بالعينين خَمرا
وكأنَّ رَجْعَ حديثهــا قِطعُ الرياض كُسِين زَهْرا
وكأنّ تحــت لسانهــا هاروتَ ينفُـث فيه سِحرا
وتخال ما جمعتْ عليــه ثِيابَها ذهَباً وعِطْرا
وكأنّهــا بَرْدُ الشَــرا ب صفا ووافق منكَ فِطْرا
جِنّيّــةٌ إنسيّــةٌ أو بين ذاك أجلُّ أَمرا
وكفـاك أنّي لم أُحِــطْ بشَكاةِ من أحببتُ خُبْرا
إلّا مقالــةَ زائــرٍ نثرتْ لي الأحزانَ نَثْرا
متخشّعاً تحت الهــوى عشراً وتحت الموت عَشرا

خالد بن يزيد بن وَهب بن جَرير عن أبيه قال :

كان لبشار في داره مجلسان : مجلسٌ يجلس فيه بالغَداة يُسمّيه « البَرْدانَ » ومجلسٌ يجلس فيه بالعَشيّ اسمه « الرَّقيق » . فأصبح ذاتَ يومٍ فاحتجم وقال لغُلامه : أَمْسِك عليَّ بابي واطبُخْ لي من طَيِّب طعامي وصَفِّ نَبيذي . قال : فإنه لكذلك إذ قُرِع البابُ قَرعاً عنيفاً ، فقال : ويحَك يا غُلام ! انظُرْ من يدقُّ البابَ دَقَّ الشُّرَط . قال : فنظر الغلام ، فقال له : نِسوةٌ خمسٌ بالباب يَسأَلنَ أن تقول لهنّ شعراً يَنُحْنَ به . فقال : أَدخِلْهُـنّ . فلمّا دخلنَ نَظرن إلى النَّبيذ مُصفًّى في قَنانيِّه في جانب بيته قال : فقالت واحدةٌ منهنّ : هو خمرٌ . وقالت الأخرى : هو زَبيبٌ وعسَلٌ . وقالت الثالثةُ : نَقيعُ زَبيب . فقال : لستُ بقائلٍ لكُنّ حَرْفاً أو تَطْعَمن من طعامي وتشرَبْنَ من شرابي . قال : فتماسَكْن ساعةً ، ثم قالت واحدةٌ منهنّ : ما عليكُنّ ! هو أعمى ، فكُلْنَ من طعامه واشْرَبْن من شرابه وخُذْنَ شِعرَه . فبلغ ذلك الحسنَ البصريَّ فعابه وهتف ببشار ، فبلغه ذلك ـ وكان بشارٌ يسمّي الحسنَ البصريَّ القَسَّ ـ فقال :

لمّا طَلَعْنَ من الرَّقيـ ... ـق عليّ بالبَردان خَمْسا
وكأنهنّ أهِلّةٌ ... تحت الثياب زَفَفْنَ شمسا
باكرنَ عِطْرَ لَطِيمةٍ ... وغُمِسْن في الجاديّ غَمْسا
لمّا طَلَعْنَ حَفَفْنَها ... وأَصَخْن ما يَهْمِسْنَ هَمْسا
فسألنَني مَن في البيو ... ت فقلتُ ما يُؤْوِين إنسا
ليت العيونَ الطارفا ... ت طُمِسْن عنّا اليومَ طَمْسا
فأَصَبْن من طُرف الحديـ ... ـث لَذاذةً وخرجْن مُلْسا
لولا تَعَرُّضُهنّ لي ... يا قَسُّ كنتُ كأنت قَسّا[1]

عن الأصمعي قال :

كان لبشارٍ مجلس يجلس فيه يقال له « البَردان » ، وكان النساءُ يحضُرنه فيه . فبينما هو ذاتَ يوم في مجلسه إذ سمع كلامَ امرأة في المجلس فعَشِقها ، فدعا غلامَه فقال : إذا تكلّمت المرأةُ عرَّفْتُك فاعرِفْها ، فإذا انصرفتْ من المجلس فاتْبَعْها وكلّمها وأَعْلِمْها أنّي لها مُحبّ . وقال فيها :

يا قومُ أُذني لبعض الحيّ عاشقةٌ ... والأذنُ تعشقُ قبلَ العين أحيانا
قالوا : بمَن لا ترى تَهذي فقلت لهم ... الأُذنُ كالعين تُوفي القلبَ ما كانا
هل من دواءٍ لِمشغوفٍ بجاريةٍ ... يَلقى بلُقيانها رَوْحاً ورَيحانا

قال يحيى بن عليّ وأنشدني أصحاب أحمد بن إبراهيم عنه لبشار في هذا المعنى ، وكان يستحسنه :

يُزهّدُني في حُبّ عَبْدةَ مَعشرٌ ... قلوبُهمُ فيها مخالفةٌ قلبي
فقلتُ : دَعُوا قلبي وما اختار وارتضى ... فبالقلبِ لا بالعين يُبصرُ ذو الحُبّ
فما تُبصرُ العَينان في مَوضع الهوى ... ولا تسمعُ الأُذنان إلّا من القلب

(١) زف العروس الى زوجها : هداها . اللطيمة : نافجة المسك . الجادي : الزعفران . ملس : أراد بريئات من العيوب .

وما الحُسْنُ إلّا كلُّ حُسْنٍ دعا الصِّبا وألَّف بين العِشق والعاشق الصَّبِّ

مراثيه

عن عافية بن شَبيب وعن الحسن بن جُمهور قالا :

تُوفّي ابنٌ لبشار فجزع عليه ، فقيل له : أَجرٌ قَدّمتَه ، وفَرَطٌ افترَطْته[1] ، وذُخرٌ أحرزتَه . فقال : ولَدٌ دَفنتُه ، وثُكْلٌ تَعَجَّلْتُه ، وغيبٌ وُعِدتُه فانتظرتُه ، والله لئن لم أجزَعْ للنَّقص لا أفرح للزِّيادة . وقال يرثيه :

أجارتَنا لا تَجزعي وأَنيبي أتاني من الموت المُطِلِّ نَصيبي
بُنَيّي على رَغْمي وسُخطي رُزِئْتُه وبُدّل أحجاراً وجالَ قَليبِ
وكان كرَيحان الغُصون تخالُه ذَوى بعد إشراقٍ يَسُرُّ وطِيبِ
أُصِيب بُنَيّي حين أورق غُصنُه وأَلقى عليّ الهَمَّ كلُّ قريب
عجبتُ لإسراع المنيّةِ نحوَه وما كان لو مُلِّيتُه بعجيبِ[2]

أبو عمرو بن العَلاء قال :

رأيتُ بشاراً المُرَعَّث يرثي بُنَيَّةً له وهو يقول :

يا بنتَ من لم يكُ يهوى بِنتا ما كنتِ إلاّ خمسةً أو سِتّا
حتى حَلَلتِ في الحشى وحتى فَتَّتُّ قلبي من جَوىً فانفَتّا
لَأَنتِ خيرٌ من غُلامٍ بَتّا يُصبح سكرانَ ويُمسي بَهْتا[3]

---

(١) الفرط : ما لم يدرك من الولد وما تقدّمك من أجرٍ وعمل . وافترط ولداً : مات ولده قبل الحُلم .

(٢) الجال : الجانب . القليب : البئر والمراد به هنا القبر . مليته : مُتعت به .

(٣) بت : انقطع عن العمل . البهت : الانقطاع والحيرة وقد استعمل المصدر هنا مكان الصفة .

أبو نواس قال :

كان لبشار خمسةُ نُدَماء فمات منهم أربعةٌ وبقي واحدٌ يقال له البَراء ، فركب في زورق يريد عُبور دِجلة العَوراء[1] ، فغرق . وكان المهديّ قد نَهى بشاراً عن ذكر النساء والعِشق ، فكان بشار يقول : ما خيرٌ في الدنيا بعد الأصدقاء! ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بنَ مُوسى ماذا يقول الإمامُ   في فتاةٍ بالقلب منهـا أُوامُ
بتُّ من حُبِّهـا أُوَقَّـرَ بالكـأسِ ويَهفو على فؤادي الهُيـامُ

* * *

لم يكـن بينهـا وبيـني إلّا   كُتبُ العاشقين والأحـلامُ
يابنَ موسى اسقِني ودَعْ عنك سَلمى   إنّ سَلْمى حمىً وفيَّ احتشامُ
رُبَّ كأسٍ كالسَّلْسبيلِ تَعَلَّلـتُ بها والعيونُ عنّي نيـامُ
حُبست للشُّراة في بيت رأسٍ   عُتِّقتْ عانِساً عليها الخِتـامُ
نفحتْ نَفحةً فهزّتْ نديمي   بنسيمٍ وانشقّ عنهـا الزُّكام
وكأنّ المعلولَ منهـا إذا را   ح شجٍ في لسانِه بِرسـامُ
صدمتْه الشَّمُولُ حتى بعينَيـه انكسارٌ وفي المفاصل خامُ
وهو باقي الأطراف حَيَّتْ به الكأسُ وماتت أوصالُـه والكـلامُ
وفتىً يشربُ المُدامـة بالمـا   ل ويمشي يَروم ما لا يُـرامُ
أَنْفَدَتْ كأسُه الدنانيرَ حتّى   ذهب العَينُ واستمرَّ السَّـوامُ
تركته الصهباءُ يرنُـو بعيـنٍ   نام إنسانُها وليست تنـامُ
جُنَّ من شَربةٍ تُعلّ بأخرى   وبكى حين سار فيه المُدامُ
كان لي صاحباًفأودى بـه الدَّهـرُ وفارقتُـه عليه السّـلام
بقي الناسُ بعد هُلْك ندامـا   ي وُقوعاً لم يشعرو ما الكـلامُ

(١) دجلة العوراء : دجلة البصرة .

كجزور الأيسار لا كَبِدٌ فيهـــا لِباغٍ ولا عليهـا سَـنامُ
يا بنَ موسى فَقْدُ الحبيب على العَين قَـذاةٌ وفي الفـؤاد سَقـامُ
كيف يصفُو لي النعيمُ وحيداً والأخلّاءُ في المقابر هـامُ
نَفِسَتْهم عليّ أمُّ المنايـا فأنامتهم بعُنـفٍ فنامـوا
لا يَغيضُ انسجامُ عيني عليهـم إنّما غايـةُ الحزين السِّجام[1]

مدائحه

عن الأصمعيّ :

أنّ بشاراً وفد إلى عمر بن هبيرة وقد مَدحه بقوله :

يخاف المنايا إن ترحّلتُ صاحبي كأنّ المنايا في المُقام تناسبُهْ
فقلت له إن العراق مُقـامه وخَيمٌ إذا هبّتْ عليك جنائبه
لِألقى بني عيلانَ إنّ فَعالَهـم تزيد على كلّ الفَعال مراتبُه
أولاك الألى شقُّوا العَمى بسيوفهم عن العين حتى أبصر الحقَّ طالبُهْ
وجيشٍ كجُنح الليل يزحَفُ بالحَصَا وبالشَوكِ والخَطّيّ حُمراً ثعالبُه
غدَونا له والشمسُ في خِدر أُمِّها تُطالِعُنا والطلُّ لم يجرِ ذائبُهْ
بضربٍ يذوق الموتَ من ذاق طَعمَه وتُدرك من نَجّى الفرارُ مَثالبُه
كأنّ مُثار النَقْع فوقَ رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهاوى كواكبُه
بَعثْنا لهم موتَ الفُجاءة إنّنـا بنو الموتِ خَفّاقٌ علينا سبائبُهْ

---

(١) الأوام : حرّ الظمأ ، واراد به وقد الحب . الهيام : ذهاب العقل من العشق . بيت رأس : قرية بالأردن مشهورة بخمورها . البرسام : حمى تسبب الهذيان . الخام :الاسترخاء حيّت :: عاشت . العين : الدينار والذهب . استمر : ذهب . السوام : الإبل الراعية . جزور الأيسار : الناقة التي تذبح ويقامر عليها . هام ج هامة : جثمان الميت . السجام : سيلان الدمع .

فراحُوا فريقٌ في الإسار ومثلُه قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُـه
إذا الملكُ الجبّار صَعَّر خـدَّه مَشينا إليـه بالسُّيوف نُعاتبـه (١)

فوصله بعشرة آلاف درهم ، فكانت أول عطيّة سنيّة أُعطيها بشار ورفعتْ من ذكره . وهذه القصيدة هي التي يقول فيها :

إذا كنتَ في كلِّ الأمـور معاتبـاً صديقَك لم تلقَ الذي لا تُعاتبُـهْ
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فإنه مُقارف ذنبٍ مرّةً ومُجانِبُـهْ
إذا أنت لم تشربْ مراراً على القَذى ظَمِئتَ وأيُّ الناس تَصفُو مَشاربُه (٢)

أبو الشِّبل البُرجُميُّ قال :

قال رجلٌ لبشار : إنّ مدائحك عُقبةَ بن سَلْم فوقَ مدائحك كلَّ أحدٍ ! فقال بشار : إنّ عطاياه إيّاي كانت فوق عَطاء كلّ أحدٍ .دخلت إليه يوماً فأنشدتُه :

حَرّم اللهُ أن تَرى كابنِ سَلْـمٍ عُقبـةِ الخير مُطعِمِ الفقـراء
ليس يُعطيك للرَّجاء ولا الخـو ف ولكن يَلَـذُّ طعـمَ العَطاء
يسقُط الطيرُ حيث يَنتثِرُ الحَـبُّ وتُغْشَى منازل الكُرماء

فأمر لي بثلاثة آلاف دينارٍ ، وهأنا قد مدحتُ المهديّ وأبا عُبيدِالله وزيرَه ـ أو قال يعقوب بن داود ـ وأقمت بأبوابهما حَولاً فلم يُعطياني شيئاً ، أفأُلامُ على مدحي هذا !

نسخت من كتاب هارون بن عليّ بن يحيى : حدّثني بعضُ أصحابنا قال :

وَفَد بشار إلى خالد بن بَرْمَك وهو على فارس فأنشده :

أخالـدُ لم أَخبِـطْ إليك بذِمَّـةٍ سوى أنّني عـافٍ وأنت جَوادُ

(١) جنائبه : ج جنوب . الخطيّ : الرمح المنسوب الى بلدة الخط . ثعالبه ج ثعلب : طرف الرمح الداخل في السنان . السبائب ج سبيبة : شقة رقيقة من الكتان واراد بها هنا الرايات . صعّر خده : أماله كبراً وتيهاً .

(٢) مقارف : مرتكب .

أخالدُ بين الأجر والحَمد حاجتي فأيُّهما تأتي فأنتَ عِمادُ
فإن تُعطِني أُفرغْ عليك مدائحي وإن تَأْبَ لم يُضرَبْ عليَّ سِدادُ
رِكابي على حَرْف وقلبي مُشَيَّعٌ ومالي بأرض الباخِلين بلادُ
إذا انكرتْني بلدةٌ أو نَكِرتُها خرجتُ مع البازي عليَّ سَوادُ(١)

قال : فدعا خالدٌ بأربعةُ آلاف دينار في أربعة أكياس فوضع واحداً عن يمينه وواحداً عن شِماله وآخرَ بين يديه وآخرَ خلفَه وقال : يا أبا مُعاذ ، هل استقلّ العِمادُ ؟ فلمس الأكياسَ ثم قال : استقلّ والله أيها الأمير .

أخباره مع المهديّ

عن نصر بن عبد الرحمن العِجليّ قال :

هجا بشارُ رَوح بن حاتم ، فبلغه ذلك فقذَفه وتهدَّده . فلمّا بلغ ذلك بشاراً قال فيه :

تَهدّدني أبو خَلَفٍ وعن أوتاره ناما
بسيفٍ لأبي صُفْرَةَ لا يقطعُ إبهاما
كأنّ الوَرْسَ يعلُوه إذا ما صدرُه قاما(٢)

قال : فبلغ ذلك رَوحاً فقال : كلُّ مالي صَدقةٌ إن وقعتْ عيني عليه لأضربنَّه ضربةً بالسيف ولو أنه بين يدي الخليفة . فبلغ ذلك بشاراً فقام من فَوره حتى دخل على المهديّ ، فقال له : ما جاء بك في هذا الوقت ؟ فأخبره بقصة روح وعاذ به منه ، فقال : يا نُصيرُ ، وَجِّهْ إلى روحٍ من يُحضرُه الساعةَ . فأرسل إليه في الهاجرة ـ وكان ينزل المُخَرَّم(٣) ـ فظنّ هو وأهلُه أنه دُعي لولاية . قال :

(١) لم أخبط اليك بذمة : لم أسر اليك متوسلاً بعهد . السداد : ما تُسد به الثلمة . الحرف : الناقة القوية . المشيع : الشجاع . استقل : نهض بحمله ورفعه .

(٢) الورس . الزعفران .

(٣) المخرم : محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلّى .

يا روحُ ، إنّي بعثت إليك في حاجة . فقال له : أنا عبدُكِ يا أمير المؤمنين فقُل ما شئتَ سوى بشار فإني حلفتُ في أمره بيَمين غَمُوسٍ[1] . قال : قد علمتُ ، وإيّاه أردتُ . قال له : فاحتَلْ ليميني يا أمير المؤمنين . فأُحضر القُضاة والفُقهاء ، فاتّفقوا على أن يضربه ضربةً على جسمه بعُرض السيف[2] . وكان بشار وراء الخيش[3] ، فأُخرج وأُقعد ؛ واستَلّ روحٌ سيفه فضربه ضربةً بعُرضه ، فقال : أَوَّه باسم الله . فضحك المهديّ وقال له : ويلَك ! هذا وإنما ضربك بعُرْضه وكيف لو ضربك بحَدّه !

محمد بن الحجّاج قال :

قدِم بشار الأعمى على المهديّ بالرُّصافة فدخل عليه في البستان فأنشده مديحاً فيه تشبيبٌ حسن ، فنهاه عن التشبيب لِغَيرةٍ شديدة كانت فيه ، فأنشده مديحاً فيه يقول فيه :

كأنمـــا جئتُـــه أُبَشِّرُه ... ولم أَجِيء راغباً ومُحتَلِبا
يُزيّنُ المِنبَر الأشَـــمَّ بعِطْفَيْـــه وأقواله إذا خطَبـــا
تُشَمّ نَعلاه في النَّديِّ كمـا ... يُشَمُّ مـاءُ الرَّيحان مُنْتَهَبا

فأعطاه خمسةَ آلاف درهم وكساه وحَمَلَه على بغل وجعل له وِفادةً في كل سنةٍ ونهاه عن التشبيب البتّةَ . فقدِم عليه في السنة الثالثة فدخل عليه فأنشده :

تجالَلتُ عن فِهْرٍ وعن جارتَيْ فِهرِ ... وودَّعتُ نُعْمَى بالسَّلام وبالبِشْرِ
وقالت سُليمى فيك عنّا جَـــلادةٌ ... مَحلّكُ دانٍ والزِّيارةُ عن عُفْر
أخي في الهوى مالي أراكَ جفوتَنا ... وقد كنت تقفُونا على العُسْر واليُسْرِ
تثاقلتُ إلّا عن يدٍ أَستفيدُهـــا ... وزَوْرةِ أمـلاك أشدُّ بها أَزْري

---

(١) يمين غموس : لا استثناء فيها .

(٢) عرض السيف ، بضم أوله : صفحه .

(٣) الخيش : نسيج خشن والمراد هنا : الستر .

وأخرجني من وِزْر خمسين حِجّـةً فتىً هاشميٌّ يَقشَعِرُّ مـن الـوِزْر
دفنتُ الهوى حَيّاً فلستُ بزائـرٍ سُليمى ولا صفـراءَ ما قَرقر القُمْري
ومُصفَرّةً بالزَّعْفران جلـودُها إذا اجتُليت مثلَ المُفَرطحةِ الصُّفرِ
فرُبّ ثَقال الرِّدف هبَّتْ تلومُني ولو شهدتْ قبري لصَلّت على قبري
تركت لمَهديّ الأنامِ وصالَهـا وراعيتُ عهداً بيننا ليس بالخَتْرِ
ولولا أمـيرُ المؤمنـين محمدٌ لقَبّلتُ فاها أو لكان بها فِطْري
لعَمري لقد أوقرتُ نفسي خَطيئةً فما أنا بالمُزدادِ وَقْراً على وَقْر [1]

في قصيدة طويلة امتدحه بها ، فأعطاه ما كان يُعطيه قبل ذلك ولم يَزِده شيئاً .

خَلّادٌ الأرقط قال :

لمّا أُنشد المهديّ قولَ بشار :

لا يُؤيِسَنَّك مـن مُخَـدَّرة قولٌ تُغَلِّظُه وإن جَرَحا
عُسرُ النسـاء إلى مُياسـرةٍ والصَعبُ يُمكِنُ بعدما جَمَحا

نهاه المهديّ عن قوله مثلَ هذا . ثم حضر مجلساً لصديقٍ له يُقال له عمرو بن سَمّان فقال له : أنشِدنا يا أبا مُعاذٍ شيئاً من غَزَلك ، فأنشأ يقول :

وقائلٍ هاتِ شَوِّقْنا فقُلت لـه : أنائـمٌ أنت يا عَمرو بنَ سَمّانِ
أما سمعتَ بما قد شاع في مُضَـرٍ وفي الحَليفَين من بكـرٍ وقحطان
قال الخليفةُ : لا تنسُبْ بجاريـةٍ إيّاك إيّاكَ أن تَشقَى بعِصيـانِ

زعم أبو العالية أنّ بشاراً قدِم على المهديّ ، فلمّا استأذن عليه قال له الرَّبيع : قد أذِن لك وأمرك ألّا تُنشد شيئاً من الغزل والتشبيب فادخُلْ على ذلك . فأنشَده قولَه :

---

(١) تجاللت : ترفعت . العفر : قلة الزيارة والبعد . قرقر : صوّت وردّد صوته . المفرطحة الصفر : الدنانير . ثقال : ثقيلة . الختر : الغدر والخديعة .

يا منظراً حَسناً رأيتُـهْ ... من وجه جارية فَدَيتُـه
بعَثتْ إليّ تَسُـومُـني ... بُـردَ الشبـاب وقد طويتُـه
واللهِ ربِّ محمّـدٍ ... ما إن غدرتُ ولا نويتُـه
أمسكتُ عنكِ وربّما ... عَرَض البلاءُ وما ابتغيتُـهْ
إنّ الخليفةَ قـد أبـى ... وإذا أبـى شيئـاً أَبيتُـه
ومُخضَّب رَخْصِ البَنـا ... ن بكى عليّ وما بَكَيْتُه
ويَشُـوقُني بيـتُ الحبيـ ... ـبِ إذا ادّكرتُ وأين بيتُـه
قام الخليفـةُ دُونَـه ... فصبرتُ عنه وما قَلَيتُـه
ونهانيَ الملك الهُمـا ... مُ عن النَّسيب وما عَصَيتُه
لا بل وفيتُ فلم أُضِعْ ... عهداً ولا رأياً رأيتُـه
وأنا المُطِلُّ على العِـدا ... وإذا غـلا عِلْقٌ شَرَيتُـه
أُصفي الخليلَ إذا دنا ... وإذا نأى عنّـي نَأَيتُـه[1]

ثم أنشده ما مَدَحه به بلا تشبيب، فحرَمه ولم يُعطِه شيئاً، فقيل له: إنه لم يستحسن شعرك. فقال: والله لقد مدحتُه بشعر لو مُدح به الدهرُ لم يُخشَ صَرفُه على أحد، ولكنه كذّب أملي لأني كذبتُ في قولي.

أبو غسّان دَماذ قال:

سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهديُّ بشاراً عن ذكر النساء قال: كان أوّلُ ذلك استهتار نساء البصرة وشبّانها بشعره، حتى قال سَوّار بن عبدالله الأكبر ومالك بن دينار: ما شيءٌ أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفِسق من أشعار هذا الأعمى. وما زالا يَعِظانه، وكان واصل بن عَطاء يقول: إنّ من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لَكَلِماتُ هذا الأعمى المُلحِد. فلمّا كثر ذلك

(١) قليته: أبغضته. العلق: النفيس من كل شيء.

وانتهى خبرُه من وجوه كثيرة إلى المهديّ ، وأَنشَد المهديَّ ما مدحَه به ، نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ، وكان المهديّ من أشدّ الناس غيرةً . قال : فقلت له : ما أحسَبُ شعر هذا أبلغَ في هذه المعاني من شعر كُثيِّر وجميل وعُروة ابن حِزام وقيس بن ذَريح وتلك الطبقة . فقال : ليس كل من يسمع تلك الأشعار يعرِف المُرادَ منها ، وبشارٌ يُقارب النساء حتى لا يخفى عليهنّ ما يقول وما يُريد ، وأيُّ حُرّةٍ حَصان تسمع قول بشار فلا يُؤثّر في قلبها ، فكيف بالمرأة الغَزِلة والفتاة التي لا هَمَّ لها إلاّ الرِّجالُ ! ثم أنشد قوله :

قد لامني في خليلتي عُمَـرُ ... واللَّومُ في غير كُنهِه ضَجَرُ
قال أَفِقْ قلتُ لا فقال بلى ... قد شاع في الناس منكما الخَبَرُ
قلـت وإذ شاع مـا اعتـــذارك ممّـا ليس لي فيه عندَهم عُـذُرُ
ماذا عليهم وما لهـم خَرِسوا ... لو أنّهم في عُيوبهـم نَظَروا
أَعشقُ وحدي ويُؤْخَذون به ... كالتُرك تَغزو فتُؤْخَذُ الخَزَرُ
يا عجَبا للخِلاف ويا عَجبا ... بفي الذي لام في الهوى الحَجَرُ
حَسْبي وحسبُ الذي كلفتُ به ... منّي ومنه الحديثُ والنَّظَرُ
أو قُبلةٌ في خلالِ ذاك وما ... بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لي الأُزُرُ
أو عضّةٌ في ذِراعها ولها ... فوقَ ذِراعي من عَضِّها أَثَرُ
أو لَمسةٌ دونَ مِرْطها بيدي ... والبابُ قد حال دونَه السُّتُرُ
والساقُ برّاقةٌ مُخلْخَلُها ... أو مصُّ ريقٍ وقد علا البُهرُ
واسترخت الكفُّ للعراك وقا ... لت إيهِ عنّي والدمعُ منحدرُ
انهضْ فما أنت كالذي زعموا ... أنت وربّي مُغازلٌ أشِرُ
قد غابت اليومَ عنك حاضنتي ... والله لي منك فيك يَنتصرُ

(الأبيات ...)

ثم قال : بمثل هذا الشعر تَميل القلوب ويَلين الصعبُ .

أخبار متفرقة

النَّضر بن طاهر أبو الحَجّاج قال :

قال بشار : دعاني عُقبةُ بن سَلم ودعا بحمّاد عَجْرَد وأعشى باهلة ، فلمّا اجتمعنا عنده قال لنا : إنه خطر ببالي البارحةَ مَثَلٌ يتمثَّلُه الناسُ : « ذهب الحمارُ يطلب قَرنين فجاء بلا أُذُنَين » فأَخرِجُوه من الشعر ، ومن أخرجه فله خمسةُ آلاف درهم ، وإن لم تفعلوا جلدتُكم كُلَّكم خمسمائةً . فقال حمّاد : أَجِّلْنا أعزّ اللهُ الأميرَ شهراً . وقال الأعشى : أَجِّلْنا أسبوعين . قال : وبشار ساكتٌ لا يتكلّم ؛ فقال له عقبةُ : مالكَ يا أعمى لا تتكلّم ! أعمى الله قلبَك . فقال : أصلح اللهُ الأميرَ ، قد حَضَرني شيءٌ فإن أمرتَ قلتُه . فقال : قُلْ . فقال :

شَطَّ بسَلمى عاجلُ البَيْنِ — وجاورتْ أُسْدَ بني القَينِ
ورنّت النفسُ لها رَنّةً — كادت لها تنشقّ نِصفَين
يابنةَ من لا أشتهي ذِكرَه — أخشى عليه عُلَقَ الشَّيْن
والله لو ألقاكِ لا أتّقي — عيناً لَقَبَّلْتُكِ ألفَين
طالبتُها دَيني فراغتْ به — وعلّقتْ قلبي مع الدَّيْن
فصِرت كالعَيرِ غدا طالباً — قَرناً فلم يَرجِعْ بأُذْنَين

قال : فانصرف بشّار بالجائزة .

مقتله

عمر بن شَبّة قال :

بلغ المهديَّ قولُ بشار :

قاسِ الهمومَ تنلْ بها نُجُحا — والليلَ إنّ وراءه صُبُحا
لا يُؤْيِسَنَّك من مُخدَّرةٍ — قولٌ تُغَلِّظُه وإن جرحا
عُسرُ النساء إلى مياسرةٍ — والصَّعبُ يُمكنُ بعدما جَمَحا

فلمّا قدِم عليه استنشده هذا الشعر فأنشده إياه ، وكان المهديّ غيوراً ، فغضب وقال : تلك أمُّك يا .... أتحضُّ الناسَ على الفُجور وتقذِف المحصَنات المُخبّآت ! واللهِ لئن قلتَ بعد هذا بيتاً واحداً في نسيبٍ لآتينَّ على رُوحك . فقال بشار في ذلك :

واللهِ لولا رضا الخليفة ما ... أعطيتُ ضَيماً عليَّ في شَجَنِ
وربّما خِير لابن آدمَ في الكُرْه وشقّ الهوى على البَدَنِ
فاشربْ على أُبْنَة الزمان فما ... تلقى زماناً صفا من الأُبَن
اللهُ يُعطيك من فواضلِه ... والمرءُ يُغضي عيناً على الكُمَنِ
قد عشت بين الرَّيحان والرّاح والمِزْهَر في ظلّ مجلسٍ حَسَن
وقد ملأتُ البلاد ما بين فُغفورٍ إلى القيروان فاليَمَنِ
شعراً تُصلّي له العواتقُ والثيِّبُ صلاةَ الغُواة للوَثَن
ثم نهاني المهديُّ فانصرفتْ ... نفسي صَنيع الموفَّق اللَّقِنِ
فالحمد لله لا شريكَ له ... ليس بباقٍ شيءٌ على الزمن (١)

ثم أنشده قصيدته التي أولها :

تجاللتُ عن فهرٍ وعن جارَتَيْ فِهْرِ

ووصف بها تركه التشبيب ومدحه ... فلم يحظَ منه بشيء ، فهجاه فقال في قصيدته :

خليفةٌ يَزني بعَمّاته ... يلعب بالدَّبُّوق والصَولجانْ
أبدلَنا اللهُ به غيرَه ... ودسّ موسى في ... الخيزُرانْ (٢)

(١) الأبن ج أبنة : العداوة والحقد والكدر. الكمن ج كمنة : حمرة من رمد أصاب العين أو قرح في المآقي . فغفور : ملك الصين . العواتق ج عاتق : الجارية اول ما أدركت. اللقن : السريع الفهم .

(٢) الدبوق : لعبة للصبيان . الصولجان : المحجن وعصا تضرب بها الكرة .

وأنشدها في حَلْقة يونُس النحويّ ، فسُعي به إلى يعقوب بن داود ، وكان بشار قد هجاه فقال :

بني أميةَ هُبّوا طال نومُكُـــــم إنّ الخليفةَ يعقوبُ بنُ داودِ
ضاعت خلافتكُم يا قومُ فالتمسوا خليفةَ الله بين الزِّقِّ والعُود

فدخل يعقوب على المهديّ فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذا الأعمى الملحد الزِّنديق قد هجاك . فقال : بأيّ شيء ؟ فقال : بما لا ينطِق به لساني ولا يتوهّمُه فكري . قال له : بحياتي إلّا أنشدتَني . فقال : واللهِ لو خيّرتَني بين إنشادي إياه وبين ضرب عُنقي لاختَرتُ ضربَ عنقي . فحلف عليه المهديّ بالأَيمان التي لا فُسحةَ فيها أن يُخْبِرَه ، فقال : أمّا لفظاً فلا ، ولكنّي أكتب ذلك . فكتبه ودفعه إليه ، فكاد ينشقّ غيظاً ، وعمد إلى الانحدار إلى البصرة للنظر في امرها ، وما وَكْدُه[١] غيرُ بشار . فانحدر فلما بلغ إلى البَطيحة[٢] سمع أَذاناً في وقت ضحى النّهار فقال : انظروا ما هذا الأذان . فإذا بشار يُؤَذّن سكرانَ ، فقال له : يا زِنديقُ يا ... عجبتُ أن يكون هذا غيرَك ، أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت سكرانُ ! ثم دعا بابن نُهيك فأمره بضربه بالسَّوط ، فضربه بين يديه على صدر الحَرّاقة[٣] سبعين سَوطاً أتلفه فيها ، فكان إذا أوجعه السَّوطُ يقول : حَسِّ ـ وهي كلمةٌ تقولها العربُ للشيء إذا أَوجع ـ فقال له بعضُهم : انظُر إلى زندقته يا أمير المؤمنين ، يقول : حسّ ولا يقول : باسم الله . فقال : ويلَك ! أطعامٌ هو فأسمّيَ اللهَ عليه ! فقال له الآخر : أفلا قُلتَ : الحمدُ لله ؟ قال : أوَ نِعمةٌ هي حتى أحمدَ اللهَ عليها ! فلمّا ضربه سبعين سوطاً بان الموتُ فيه ، فأُلقي في سفينة حتى مات ، ثم رُمي به في البَطيحة ، فجاء بعضُ أهله فحملوه إلى البصرة فدُفن بها .

---

(١) وكده : قصده .
(٢) البطيحة : موضع بين واسط والبصرة .
(٣) الحراقة : سفينة فيها مرامي نيران يرمى بها العدو وفي غير أوقات الحرب تتخذ للنزهة .

عمر بن شَبّة قال :

أمر المهديُّ عبد الجبّار صاحب الزنادقة فضرب بشاراً ، فما بقي بالبصرة شريفٌ إلّا بعث إليه بالفَرش والكُسوة والهدايا ، ومات بالبَطيحة . قال : وكانت وفاتُه وقد ناهز ستّين سنةً .

قال أبو زيد : وحدّثني جماعةٌ من أهل البصرة منهم محمّد بن عَون بن بشير ـ وكان يُتّهم بمذهب بشار ـ فقال :

لمّا مات بشار أُلقيت جُثّتُه بالبَطيحة في موضع يعرف بالخرّارة ، فحمله الماء فأخرجه إلى دِجلة البصرة ، فأُخِذ فأُتي به أهلُه فدفنوه . قال : وكان كثيراً ما يُنشدني :

ستری حولَ سريري حُسَّراً يَلْطِمن لَطْماً
يا قتيلاً قَتَلَتْه عَبْدةُ الحَوْراءُ ظُلما

قال : وأُخرجت جنازتُه فما تبِعها أحدٌ إلّا أَمَةٌ له سوداءُ سِنْديّةٌ عجماءُ ما تُفصِح ، رأيتُها خلف جنازته تصيح : واسيّداه ، واسيّداه !

قال أبو زيد : وحدّثني سالم بن عليّ قال :

لمّا مات بشار ونُعي إلى أهل البصرة تباشر عامّتُهم وهنّأ بعضُهم بعضاً وحمِدوا الله وتصدّقوا ، لما كانوا مُنُوا به من لسانه .

وقال أبو هشام الباهليّ :

قد تبع الأعمى قفا عَجْرد فأصبحا جارَين في دارِ
قالت بِقاعُ الأرض لا مَرحباً برُوح حمّادٍ وبشّار
تجاورا بعد تنائيهما ما أبغضَ الجارَ إلى الجار
صارا جميعاً في يدَي مالك في النّار والكافر في النّارِ

عن أحمد بن خَلّاد عن أبيه قال :

مات بشارٌ سنة ثمان وستين ومائة وقد بلغ نَيّفاً وسبعين سنةً .

محمد بن القاسم بن مَهرُويه قال :

لمّا ضرب المهديُّ بشاراً بعث إلى منزله من يُفتِّشه ـ وكان يُتّهم بالزندقة ـ فوُجد في منزله طومارٌ[1] فيه :

بسم الله الرحمن الرّحيم

إني أردت هجاء آل سليمان بن عليّ لبُخْلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ فأمسكتُ عنهم اجلالاً له ﷺ ...

فلمّا قرأه المهديّ بكى وندم على قتله وقال : لا جزى الله يعقوب بن داود خيراً فإنَه لمّا هجاه لفّق عندي شهوداً على أنه زنديقٌ فقتلْتُه ثم ندمتُ حين لا يُغني الندم .

* * *

(١) الطومار : الصحيفة .

١٥

الحسن بن وهب

[الأغاني ج ٢٣ ص ٩٥ وما بعدها]

الشاعر

هو الحَسن بن وَهْب بن سعيد ، كاتبٌ شاعرٌ مُترسِّلٌ فصيحٌ أديب ، وأخوه سليمانُ بن وهب فَحلٌ من الكُتّاب ويكنى أبا عليّ ، وهو عريق في الكتابة ، ولأولاده نَجابةٌ مشهورة تستغني عن وصف ذلك ، وكانوا يقولون إنهم من بني الحارث بن كعب ، وأصلُهم نصارى ، وفي بني الحارث نصارى كثير .

أخبرني الصُّولي ، وذكر ذلك عن جماعة من الكُتّاب :

أنّ الحسن بن وهب كان أشدّ تمسّكاً بالنسب إلى بني الحارث بن كعب من أخيه سليمان ، وكان سليمانُ يُنكر ذلك ويعاتب عليه أخاه الحسن وابنَه أحمد بن سليمان ، وأصلُهم من قرية من سواد واسط في جسر سابور يقال لها « سارَقيقا » .

عمر بن نصر الكاتب ـ وكان من مشايخ الكُتّاب بسُرَّ مَن رأى ـ قال :

كنا نتهادى ، ونحن في الدِيوان ، أشعار الحسن بن وهب ونتباهى بحفظها .

أخباره مع نَبات[1]

كان الحسن بن وهب يعشق نبات ، جاريةَ محمد بن حَمّاد الكاتب ، وكان له معها أخبارٌ كثيرة ، وكان لا يصبِر عنها ...

محمد بن موسى بن حَمّاد قال :

كنت أكتب في حَداثتي بين يدَي الحسَن بن وهب ، وكان شديد الشَّغَف بنبات جارية محمد بن حمّاد كاتب راشدٍ ، فكُنّا يوماً عنده وهي تُغنّي ، وبين أيدينا كانونُ فحم ، فتأذّت به ، فأمر أن يُباعَد ، فقال الحسن :

بأبي كرهتِ النّارَ حتى أُبعدتْ   فعَلمتُ ما مَعناك في إبعادها
هي ضَرّةٌ لك بالتماع ضِيائها   وبحُسن صورتها لدى إيقادِها
وأرى صَنيعَك في القلوب صَنيعَها   في شَوكها وسَيالِها وقَتادها
شَرِكتكِ في كلّ الجِهات بحُسنها   وضيائها وصَلاحها وفسادها[2]

قرأت في بعض الكتب :

دخلتْ يوماً نباتُ على الحسن بن وهب ، وهو مَخمورٌ ، فسلّمت عليه وقبّلت يده ، فأراد تقبيل يدها ، فمنعتْه ، فرُعش فقال :

أقول وقد حاولت تقبيل كفِّها   وبي رِعدةٌ أهتزّ منها وأسكُنُ
فديتُكِ إنّي أشجع النّاس كلّهم   لدى الحرب إلّا أنّني عنكِ أجبُنُ

محمد بن موسى قال :

جاءت نَباتُ تسأل عن الحسن بن وهب من عِلّةٍ نالتْه ، فحين رآها دعا برِطْلٍ

---

(١) ضبط اسمها في الأغاني ٣٦٤/٨ : بنان ، وضبط اسمها في هذا الجزء من المطبوعة بنات وضبط في كتاب التشبيهات لابن أبي عون (ص ١٢٥) وكتاب الورقة لابن الجراح (ص ٢٣) : نبات ، ونباتة ، ولعله الصواب .

(٢) السَّيال ج سَيالة : نبات له شوك أبيض طويل اذا نزع خرج منه اللبن . القتاد : الشوك .

فشربه على وجهها وقال : قد عُوفِيتُ ، فأقيمي اليومَ عندي . فأبتْ وقالت : عند مَولاي دَعوةٌ . فأمر بإحضار مائتي دينار ، فأُحضرتْ ، فقال : هذه مائةٌ لِمولاكِ ، فابعثي بها إليه ، ومائة لكِ . فقالت : أمّا هو فابعث إليه بمائته ، وأمّا أنا فواللهِ لا أخذتُ المائة الأخرى ، ولأتصدقَنّ بمثلها لِعافيتك ، ولكن اكتُبْ إليه رُقعةً تقوم بعُذري ، فأخذ الدَواة وكتب إلى مولاها :

ضَـرّة الشمسِ والقمـــرْ مَتِّعيني مـن النَّـــظرْ
مَتِّعيـــني بجَلســـةٍ منـكِ يا أَحســنَ البَـشَر
أَشتريهـــا إنْ بِعْتِنيهـــــا بسَمــعي وبالبَـــصر
أذهــب السُّقمَ سُقمُ طَـــرفكِ ذي الغُنْج والحَــوَرْ
فـأديمـي الـسُّرورَ لا تمزِجـي الصَّفوَ بالكَـدَر
ليس يُبقــي عــليَّ حُبُّـــكَ هــذا ولا يَــــذرْ
وأنا منـــه فانعَمـــــي بُمقامٍ عـــلى خَطَـرْ
وتغنَّــيْ فَـداكِ كـــلُّ مُغَـــنٍّ لكـــي أُسَـــرّ
رَبْــعُ سَلمى بــذي بَقَـرْ عُرضَـةُ الرّيح والمَطَرْ(١)

أحمد بن سليمان بن وهب قال : قال لي أبي :

قد عزمتُ على معاتبة عمّك في حبّه لنبات ، فقد شُهّر بها وافتَضَح ، فكُن معي وأَعِنّي عليه . وكان هواي مع عمّي فمضيت معه فقال له أبي ، وقد أطال عتابَه : يا أخي ، جُعلتُ فِداك ، الهوى ألــذُّ وأَمتع ، والرأيُ أصوبُ وأنفع . فقال عمّي متمثّلاً :

إذا أمرتْـك العاذلاتُ بهَجرِهـــا أبتْ كبِدٌ عمّا يَقُلنَ صَديعُ
وكيف أُطيع العاذلاتِ وحبُّهـــا يُؤرّقني والعاذلاتُ هُجــوعُ

---

(١) ذو بقر : واد بين أخيلة حمى الربذة .

فالتفت إليّ أبي ينظُر ما عندي ، فتمثلّتُ :

وإنّي لَيلحاني على فَرط حُبّهـــا   رجالٌ أطاعتْهم قلوبٌ صحائحُ

فنهض أبي مغضَباً ، وضَمّني عمّي إليه وقبّلني . وانصرفتُ إلى نبات فحدّثتها بما جرى وعمّي يسمع ، فأخذت العود فغنّت .

يَلُومك في مَودّتهـا أنــاسٌ   لو انّهم برأيكَ لم يَلُومـوا

قال أحمد بن سليمان :

وعذلته عجوزٌ لنا يُقال لها مُنَى ، فقال لها : قومي فانظُري إليها واسمعي غِناءها ، ثم لُوميني . فقامت معه ، فرأتْها وسمعت غناءها ، فقالت له : لست أُعاود لومَك فيها بعدَ هذا . فأنشأ يقول :

ويوم ٍ سَها عنه الزّمانُ فأصبحتْ   نواظرُه قد حار عنها بَصيرُها
خلوتُ بمَن أهوَى به فتكاملتْ   سُعودٌ أدار النَّحْسَ عنّا مُديرُها
أما تعذِريني يا مُنىً في صَبابـتي   بمُن وجهُها كالشمس يلمع نُورُها

ميمون بن هارون قال :

كتب الحسن بن وهب إلى نبات يومَ جمعة يستدعيها ، فكتبت إليه أنّ عند مولاها أصدقاءَ له ، وقد مَنعها من المسير إليه ، فكتب إليها ثانياً يقول :

يومُنا يومُ جُمعةٍ بأبي أنـــتِ وعند الوَضيـع لا كـان قـومُ
سَفَلٌ مثلُـه يسُومونَه الخَسْـفَ ويَرضاه وهو للوَعـد سَوْمُ
فامنعيهـم منكِ البشاشـةَ حتى   يتغشّاهم من البَـرد نـومُ
وليكـن منـك طُولَ يومـك لله صلاةٌ إلى المسـاء وصَـومُ
وارفعي عنهم الغِناء وإن نا   لكِ عَـذْلٌ من الوضيع ولَـومُ
واذكري مُغْرَمـاً بحُبّك أمسى   هَمُّه أن يُدِيلَـه منـكِ يومُ[1]

---

(١) أداله الله عليه : نصره عليه .

أبو العَيناء قال :

طلب محمدَ بن عبد الملك الزيّات الحسنَ بن وهب ، وكان قد اصطبح مع نبات ، فكتب إليه : يا سيّدي ، أنا في مجلس بَهيٍّ ، وطعام هَنِيّ ، وشراب شَهيّ ، وغناء رَضيّ ، أفأتحوّل عنه إلى كَدٍّ الشقيّ ! ووثبت نباتُ لتقوم ، فردّها وكتب :

ما بان عنك الذي بِنْتَ عنه لا عاش بَعْدَكْ
إن لم يكن عنده الصَبرُ والسُلُوٌّ فعندَك
وما وجدتَه إلا عَبْدَ الرَّجاءِ وعبدَك

فاستلبها الرسول ومضى بها إلى محمّد ، فوقّع فيها :

أبا عليّ أراك الإلهُ في الأمر رُشدَكْ
إن لم تكن عنديَ اليومَ كنتُ بالشوق عندك
فاهدِمْ محلَّك عندي واجهَدْ لذلك جهدَك
فلستُ أزداد إلّا رعايةً لك وُدَّك
وانعَم بمن قلتَ فيها عبدَ الرَّجاء وعبدَك
أزيلَ نَحْسُك فيها وأطلعَ اللهُ سَعْدَك

وردّ الرُّقعة إلى الحسن ؛ فلمّا قرأها خجل وحلف ألّا يشرب نبيذاً شهراً ، ولا يفارق مجلس الوزير .

عن إبراهيم بن المدبّر قال :

ولدت نباتُ من مولاها ولداً وسمته بإبراهيم ، فأبغضها الحسن بن وهب وكتب إليها :

نُتج المُهرةَ الهِجانُ هَجيناً ثم سمّى الهجينَ إبراهيما

بخليـلِ الرحمن سَمَّيت عبـداً   أم قريـعَ الفتيان ذاك الكريمـا

وبعث بالبيتين إليها ، وكان آخر عهده بها .

طائفة من أخباره وأشعاره

● محمد بن يزيد المبرّد قال :

لمّا حبس محمد بن عبد الملك الزيّات سليمانَ بن وهب وطالبه بالأموال وقت نكبته قال الحسن بن وهب :

خليليَّ من عبد المدَان تَـروَّحا   ونُصّا صُدور العِيس حَسْرى وطُلَّحا
فإنّ سليمان بـن وهـبٍ بمنزلٍ   أصاب صميمَ القلـب منّي فأقرحا
أسائلُ عنه الحارسِين لِحبسـه   إذا ما أَتوني كيف أمسى وأصبحا
فلا يهنىء الأعداءَ حبسُ ابن حُـرّةٍ   يراه العِدا أندى يميناً وأسمحـا
وقُولا لهم صبراً قليلاً وأَصبِحـوا   فما أقربَ الليلَ البَهيم من الضُحى[١]

قال : وقيل له ، وسليمانُ محبوس : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحتُ والله قليل النشاط ، كالَّ القريحة ، صَدِىء الذِّهن ، ميّت الخاطر ، من سوء فعل الزمان وتوارد الأحزان وتغيّر الاخوان . قال : وآلى ألّا يذوق طعاماً طيّباً ، ولا يشرب ماءً بارداً ، ما دام أخوه محبوساً ؛ فوفى بذلك .

● قرأت في بعض الكتب :

كان الحسن بن وهب يعاشر أبا تمّام عِشرةً متّصلةً ، فنُدب الحسن بن وهب للنظر في أمر بعض النواحي ، فتشاغل عن عِشرة أبي تمام ، فكتب إليه أبو تمّام :

(١) نصّ الناقة : حملها على الإسراع في السير . الحسير : من أصابه الإعياء من طول المسير . طلح البعير : أعيا .

قالوا جَفاكَ فلا عَهدٌ ولا خبــرُ ماذا تراه دهــاه قلت : أيلولُ
شهرٌ كأنّ حِبال الهجر منه فلا عَقدٌ من الوصل إلّا وهو مَحلولُ

فأجابه الحسن :

ما عاقني عنك أَيلــولٌ بلذّتــه وطِيبــه ولَنِعْـمَ الشهرُ أيلولُ
لكن توقّع وَشك البينَ عن بلدٍ تحتلّه ووِكاء العـين مَحلولُ(١)

محمد بن موسى قال :

قال رجل للحسن بن وهب : إنّ أبا تمّام سرَق من رجلٍ يقال له مُكْنِف ، من ولد زهير بن أبي سُلمى - وهو رجلٌ من أهل الجزيرة - قصيدته التي يقول فيها :

كأنّ بني القَعقاع يومَ وفاتــــه نجومُ سماءٍ خرّ من بينها البدرُ
توفّيت الآمــال بعد محمّـــد وأصبح في شُغل عن السَفَر السَّفْرُ

فقال الحسن : هذا دعبلٌ حكاه وأشاعه في الناس ، وقد كذَب ، وشعر مُكْنِف عندي . ثم أخرجه وأخرج هذه القصيدة بعينها ، فقرأها الرجل فلم يجد فيها شيئاً ممّا قاله أبو تمام في قصيدته . ثم دخل على تَفْيئة ذلك(٢) دعبل على الحسن ابن وهب فقال له : يا أبا عليّ ، بلَغني أنك قلت في أبي تمّام كَيت وكيت ، فهَبْه سرق هذه القصيدة كلّها وقَبِلنا قولك فيه ، أسرق شعرَه كلَّه ؟ أتحسن أنت أن تقول كما قال :

شهدتُ لقد أقوتْ مَغانيكم بَعدي ومَحَّت كما مَحّت وشائعُ من بُرْدِ
وأنجدتـــمُ من بعد إتهام داركم فيادمعُ أنجدني على ساكني نجد(٣)

---

(١) الوكاء : رباط القربة وغيرها .
(٢) على تفيئة ذلك : بعد انقضاء وقت يسير .
(٣) محّ الثوب : بلي . الوشيعة : الطريقة في البرُد .

فانخزل دعبل واستحيا ، فقال له الحسن : الندمُ توبةٌ ، وهذا الرجل قد تُوفّي ، ولعلّك كنت تعاديه في الدنيا حسداً على حظّه منها ، وقد مات الآن ، فحسبك من ذكره . فقال له : أُصدِقك يا أبا عليّ ، ما كان بيني وبينه شيء قطّ إلّا أنّي سألته أن ينزل لي عن شيء استحسنته من شعره ، فبَخِل عليّ به ، وأمّا الآن فأُمسك عن ذِكره . فجعل الحسن يضحك من قوله واعترافه بما اعترف به .

* * *

١٦

حسين بن الضحاك

[الأغاني الجزء ٧ ، ص ١٤٦ وما بعدها]

الشاعر

الحسين بن الضحّاك باهليٌّ صَلِيبة[١] ، فيما ذكر محمد بن داود الجرّاح ، والصحيح أنه مولى لباهلة . وهو بَصري المولد والمنشأ ، من شعراء الدولة العبّاسيّة ، وأحد ندماء الخُلفاء من بني هاشم . ويقال إنه أوّلُ من جالس منهم محمدٌ الأمين .

شاعرٌ أديب ظريف مطبوعٌ حسنُ التصرُّف في الشعر حُلو المذهب ، لشعره قَبولٌ ورونقٌ صاف . وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيُغير عليها ، وإذا شاع له شعرٌ نادر في هذا المعنى نسبه الناسُ إلى أبي نواس . وله مَعانٍ في صفتها أبدع فيها وسبَق إليها ، فاستعارها أبو نواس ...

وكان يُلقّب بالخَليع والأشقَر وهاجى مُسلِم بن الوليد فانتصف منه . وله غزلٌ كثير جيّد ، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارُهم ومَذاهبهم جُملةً من التكلُّف .

---

(١) يقال : عربي صليبة أي خالص النسب ، وامرأة صليبة : كريمة المنصب عريقة .

وعُمّر عُمراً طويلاً حتى قارب المائة السنة ، ومات في خلافة المستعين أو المنتصر .

يزيد بن محمد المهلّبيّ قال :

سألت حسين بن الضحّاك ، ونحن في مجلس المتوكّل ، عن سنّه ، فقال : لست أحفظ السنةَ التي وُلدت فيها بعَينها ، ولكنّي أذكر وأنا بالبصرة موتَ شُعبةَ بن الحجّاج سنة ستّين ومائة .

إغارة أبي نواس على معانيه

المغيرة بن محمّد المهلبيّ قال :

حدّثنا حسين بن الضّحّاك قال : أنشدتُ أبا نُواس لمّا حَجَجتُ قصيدتي التي قلتُها في الخمر ، وهي :

بُـدِّلتَ من نَفَحات الورد بـالآء ... ومن صَبُوحك دَرَّ الإبل والشّاء

فلمّا انتهيت إلى قولي :

حتى إذا أُسنِدتْ في البيت واحتُضِرت ... عند الصَّبُوح ببسَّـامِين أكفاء
فُضّت خَواتمُها في نَعت واصفهـا ... عن مثل رَقْراقةٍ في جَفْنِ مَرْهاء[1]

قال : فصَعِق[2] صعقةً أفزعتني ، وقال : أحسنتَ واللهِ يا أشقرُ ! فقلت : ويلكَ يا حسنُ ! إنك أفزعتَني والله . فقال : بلى واللهِ أفزعتَني ورُعتني ، هذا معنىً من المعاني التي كان فكري لا بُدّ أن ينتهي إليها أو أَغوص عليها وأقولَها ،

---

(١) الآء : ثمر شجر مرّ . الصبوح : الخمر تشرب صباحاً . الرقراقة : الدمعة تترقرق في العين ولا تسيل . المرهاء : المرأة التي لم تكتحل .
تشرب صباحاً . المرهاء : المرأة التي لم تكتمل .
(٢) صعق : صاح .

فسَبَقْتَني إليه واختلستَه منّي ، وستعلم لِمن يُروى إلي أم لك . فكان واللهِ كما قال ، سمعتُ من لا يعلم يَرويها له .

عن حسين بن الضّحّاك قال : أنشدتُ أبا نواس قصيدتي :

وشاطريِّ اللسان مختلِق التكريه شاب المُجونَ بالنُسُكِ

حتى بلغت إلى قولي :

كأنّما نُصبَ رأسه قمرٌ يكرَعُ في بعض أنجُم الفَلَكِ[1]

قال : فأنشدني أبو نواس بعد أيّام لنفسه :

إذا عَبّ فيها شاربُ القوم خِلتَه يُقبّل في داجٍ من الليل كوكبا

قال : فقلت له : يا أبا عليّ ، هذه مُصالتةٌ[2] . فقال لي : أتظنّ أنه يُروى لك في الخمر معنىً جيّد وأنا حيّ !

عن حسين بن الضحّاك قال :

لقِيني أبو نواس ذات يوم عند باب أم جعفر من الجانب الغربيّ ، فأنشدتُه :

أَخَويَّ حيَّ على الصَّبُوحِ صَباحا هُبّا ولا تَعِدا الصباحَ رَواحا
هذا الشَّمِيطُ كأنّه متحيِّرٌ في الأُفق سُدّ طريقُه فألاحا
ما تأمُران بسَكرةٍ قَرَويّةٍ قَرَنت إلى درك النَّجاح نَجاحا[3]

---

(١) شاطري : نسبة الى شاطر ، وهو لفظ كان يطلق على أهل الفساد والشر في العصر العباسي .

(٢) المصالتة : أن يسرق الشاعر بيتاً لغيره لفظاً ومعنى .

(٣) الشميط . الصبح .

... قال : فلمّا كان بعد أيّام لقِيني في ذلك الموضع فأنشدني يقول :

ذَكر الصَّبوحَ بسُحْرةٍ فارتاحـا   وأَملّه ديكُ الصَّباح صِياحـا

فقلت له : حسنٌ ، يا ... أفعلتها ! فقال : دع هذا عنك ، فوالله لا قُلتَ في الخمر شيئاً أبداً وأنا حيٌّ إلّا نُسب لي .

إعجاب الناس بشعره

أحمد بن المعتصم قال :

حجّ أبو نواس وحسين بن الضحّاك فجمعهما الموسم ، فتناشدا قصيدتيهما :
قول أبي نواس :

دَعْ عنك لومي فإنّ اللومَ إغراءُ   وداوني بالتي كانت هي الـداءُ

وقصيدة حسين :

بُـدّلت من نَـفَـحات الورد بالآءِ

فتنازعا أيُّهما أشعر في قصيدته ، فقال أبو نواس : هذا ابنُ مُناذر حاضرٌ الموسمَ ، وهو بيني وبينك . فأنشده قصيدته حتى فَرغَ منها ، فقال ابن مناذر : ما أحسبُ أنّ أحداً يجيء بمثل هذه . وهَـمّ بتفضيله ، فقال له الحسين : لا تَعجَلْ حتى تسمع . فقال : هاتِ . فأنشده قوله :

بُـدّلت من نفحات الورد بـالآء   ومن صَبُوحك دَرَّ الابل والشّاء

حتى انتهى إلى قوله :

فُضّت خواتمُها في نعت واصفهـا   عن مثـل رقراقةٍ في عين مَرهـاء

فقال له ابن مناذر : حَسبُك ، قد استغنيتَ عن أن تزيد شيئاً ، والله لو لم تقل في دهرك كلِّه غيرَ هذا البيت لفضَّلْتُك به على سائر من وصف الخمر ، قم فأنت أشعرُ وقصيدتُك أفضل . فحكم له وقام أبو نواس منكسراً .

عليّ بن الجَهم قال :

دخلت يوماً على المتوكّل وهو جالسٌ في صحن خُلده[1] ، وفي يده غُصن آسٍ وهو يتمثّل بهذا الشعر :

بالشَّطِّ لي سَكَنٌ أَفديه من سَكَنِ أهدَى من الآسِ لي غُصنَين في غُصُنِ
فقلت إذ نُظما إلفَين والتبسـا سَقياً ورَعْياً لفألٍ فيكم حَسَنِ
فالآسُ لا شكَّ آسٍ من تشوّقنـا شافٍ وآسٍ لنا يبقى على الزمن
أبشَرْتُماني بأسبابٍ ستجمعُنـا إن شاء ربيّ ومهما يَقضِه يَكُنِ

قال : فلمّا فَرَغ من إنشادها قال لي ، وكِدت أَنشقُّ حَسداً : لِمَن هذا الشعرُ يا عليُّ ؟ فقلت : للحسين بن الضحّاك يا سيّدي : فقال : هو عندي أشعر أهل زماننا وأملحُهم مَذهباً وأظرفُهم نَمَطاً . فقلت وقد زاد غيظي : في الغزل يا مولاي . قال : وفي غيره وإن رَغِم أنفُك ومُتَّ حسَداً . وكنتُ قد مدحتُه بقصيدة وأردت إنشادها يومئذٍ فلم أفعَل ، وعلمت أنّي لا أنتفع ـ مع ما جرى بيننا ـ بشيءٍ لا به ولا بالقصيدة ، فأخّرتُها إلى وقت آخر .

محمد بن موسى بن حَمّاد قال : سمعت مَهديّ بن سابق يقول :

التقى أبو نواس وحسين بن الضحّاك ، فقال أبو نواس : أنت أشعر أهل

---

(١) الخلد : قصر بناه المنصور العباسي على شاطيء دجلة وتوارثه الخلفاء العباسيون بعده .

زمانك في الغزل . قال : وفي أيّ ذلك ؟ قال : ألا تعلم يا حسين ؟ قال : لا . قال : في قولك :

وابأبي مُقْحَمٌ لِعزّتــه　　قلت لـه إذ خَلوتُ مكتتما
نحبّ بالله من يخصّك بالوُدّ　　فما قال لا ولا نَعَمـا
ثم تولّى بمُقْلَتَي خجِـلٍ　　أراد رجعَ الجواب فاحتشما
فكنت كالمبتغـي بحيلتـه　　بُرءاً من السُّقم فابتدا سَقَما

فقال الحسين : ويحكَ يا أبا نواس ، فأنت لا تُفارق مذهبك في الخمر البتّةَ ! قال : لا والله ، وبذلك فَضَلْتُك وفضلتُ الناس جميعاً .

أبو العبّاس ثعلب قال : أنشدني حمّاد بن المبارك صاحب حسين بن الضحّاك قال : أنشدني حسينٌ لنفسه :

لا وحُبّيكَ لا أُصـا　　فح بالدَمع مَدمعـا
مـن بكـى شَجْوَه استرا　　ح وإن كان مُوجَعـا
كبِـدي مـن هـواك أسقَمُ من أن تُقَطَّعـا
لم تدعْ سَورةُ الضَّنـى　　فيَّ للسُّقم موضعـا (١)

قال : ثم قال لنا ثعلب : ما بقي من يُحسِن أن يقول مثل هذا .

محمّد بن الفضل الأهوازيّ قال : سمعت عليَّ بن العبّاس الرُّومي يقول : حسين بن الضحّاك أغزل الناس وأظرفُهم . فقلت : حين يقول ماذا ؟ فقال : حين يقول :

يا مُستعيرَ سَوالفَ الخِشْـفِ　　اسمَعْ لِحَلْفـةِ صادق الحِلْفِ
إن لم أُصِحْ ليلي : ويا حَرَبـي　　من وجنتَيْكَ وفترةِ الطَّـرفْ

(١) الشجو : الهمّ والحزن .

فجحدتُ ربيّ فضلَ نِعمتـــــه   وعَبَدتُه أبداً على حَـرْفِ[(١)]

بدء صلته بخلفاء بني العبّاس

حسين بن الضحّاك قال :

كنت أنا وأبو نواس تِربَين ، نشأنا في مكان واحد وتأدّبنا بالبصرة ، وكنّا نحضُر مجالس الأدباء متصاحبَين . ثم خرج قبلي عن البصرة وأقام مُدّةً ، واتّصل بي ما آل إليه أمرُه ، وبلغني إيثار السلطان وخاصّته له ، فخرجت عن البصرة إلى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتُهم وأخذت جوائزهم وعُددتُ في الشعراء ، وهذا كلّه في أيّام الرشيد ، الا أنّي لم أصل إليه واتّصلت بابنه صالح فكنت في خدمته ، فغُنّي يوماً بهذا الصوت :

أآن زُمّ أَجمالٌ وفارق جـيرةٌ   وصاح غُراب البَين أنت حزين[(٢)]

فقال لي صالح : قُل أنت في هذا المعنى شيئاً . فقلت :

أآن دَبّ حُسّادٌ ومَـلّ حبيـبُ   وأورق عُود الهَجْر أنت كئيبُ
لِيبلُغْ بنا هجرُ الحبيب مُـرامَـه   هل الحبّ إلّا عبرةٌ ونحيبُ
كأنّك لم تسمع بفُرقة إلفـــةٍ   وغَيبة وَصلٍ لا تَراه يَؤوبُ[(٣)]

---

(١) الخشف : الظبي أول ما يولد . وفي المطبوعة : الحشف ، وليس لها معنى يناسب السياق هنا وأراهـا محرفة . عل حرف : على طرف من الدين ، وهذا مثل لمن كان على غير طمأنينة في دينه ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن اصابه خير اطمأن به وان اصابه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ .

(٢) زم البعير : وضع زمامه وخطمه .

(٣) كئيب : في أصول المطبوعة : حبيب ، وقد رجح المحقق أنها محرفة عن كئيب ، وهو الأليق بالمعنى . الفرقة (بضم الفاء) : الفراق . الإلفة (بكسر الهمزة) : المرأة تألفها وتألفك .

فأمر أن يُغنّى فيه . واتّصلت بمحمّد ابن زُبَيدة[1] في أيام أبيه وخدمتُه ، ثم اتّصلت خِدمتي له في أيام خلافته .

عن الحسين بن الضحّاك قال :

كنت يوماً عند صالح بن الرشيد ، فجرى بيننا كلامٌ على النبيذ ، وقد أخذ منّي الشرابُ مأخذاً قويّاً ، فرددتُ عليه ردّاً أنكره وتأوّله على غير ما أردت ، فهاجرني ، فكتبتُ إليه :

يابنَ الإمــام تركتَني هَـمَــــلاً ... أبكي الحياة وأندُب الأَمَــلا
ما بالُ عَينك حــين تَـلحظــني ... ما إن تُقِلُّ جُفونَهـا ثِقَـلا
لو كان لي ذنبٌ لَبُحتُ بــــه ... كي لا يُقالَ هجرتَني مَلَـلا
إن كنت أعرف زَلَّـةً سلَفَــت ... فرأيتُ مِيتةَ واحدي عَجَلا[2]

قال : فكتب إليّ : قد تلافى لسانُك بشعرك ما جناه في وقت سُكرك ؛ وقد رضِيت عنك رضاً صحيحاً ، فصِرْ إليّ على أتمّ نشاطك ، وأكمل بِساطك . فعُدتُ إلى خدمته ، فما سكرت عنده بعدها . قال : وكانت في حسين عَربدةٌ .

أخباره مع الأمين

أبو محمد بن النَشَّار قال :

كان أبي صديقاً للحسين بن الضّحاك وكان يعاشره ، فحملني معه يوماً إليه وجعل أبي يحادثه إلى أن قال له : يا أبا عليّ ، قد تأخّرتْ ارزاقُك وانقطعت موادُّك ونفقتُك كثيرة ، فكيف يمشي أمرُك ؟ فقال له : بلى والله يا أخي ، ما قِوامُ أمري إلّا ببقايا هِبات الأمين محمد بن زُبَيدة وذخائره وهِباتِ جارية له ــ لم يُسَمّها ــ أغنَتْني للأبد لشيء ظريفٍ جرى على غير تعمُّد ؛ وذلك أنّ

---

(١) أراد محمد الأمين بن هارون الرشيد .

(٢) تقل : تحمل . فرأيت .... : دعاء على نفسه أن يموت ولده الوحيد إن هو أساء إليه .

الأمين دعاني يوماً فقال لي : يا حُسينُ ، إنّ جليس الرجل عَشِيرُه وثقته وموضعُ سِرّه وأمنه ، وإنّ جاريتي فلانةَ أحسنُ الناس وجهاً وغِناءً ، وهي منّي بمحلّ نفسي ، وقد كدّرتْ عليَّ صَفوها ونغّصت عليَّ النعمةَ فيها بعُجْبها بنفسها وتَجنّيها عليَّ وإدلالها بما تعلم من حبّي إيّاها ، وإنّي مُحضرُها ومحضرٌ صاحبةً لها ليست منها في شيء لتغَنّي معها ، فإذا غنّت وأومأتُ لك إليها ـ على أنّ أمرَها أَبْيَن من أن يخفَى عليك ـ فلا تستحسِن الغناء ولا تشربْ عليه ؛ وإذا غنّت الأخرى فاشرَبْ واطرَب واستحسِن واشقُق ثيابك ، وعليَّ مكان كلّ ثوبٍ مائةُ ثوب . فقلت : السَمْع والطاعةُ .

فجلس في حُجرة الخَلوة وأحضرني وسقاني وخلع عليّ . وغنّت المحسِنةُ ، وقد أخذ الشَّراب منّي ، فما تمالكتُ أن استحسنتُ وطربتُ وشربتُ ، فأومأ إليّ وقطّب في وجهي . ثم غنّت الأخرى فجعلت أتكلّف ما أقوله وأفعله . ثم غنّت المُحسنة ثانيةً فأتت بما لَم أسمع مثلَه قطّ حُسناً ، فما ملكت نفسي أن صِحت وشربتُ وطرِبت ، وهو ينظر إليّ ويَعَضّ شفتَيه غيظاً ، وقد زال عقلي فما أفكّر فيه ، حتى فعلت ذلك مراراً ؛ وكلّما ازداد شُربي ذهب عقلي وزدتُ ممّا يَكره . فغضب فأَمضَّني وأمر بِجَرّ رِجلي من بين يدَيه وصَرْفي ، فجُررت وصُرفتُ ، فأمر بأن أُحجَب .

وجاءني الناس يتوجّعون لي ويسألونني عن قصّتي ، فأقول لهم : حَمل عليَّ النَّبيذُ فأسأتُ أدبي ، فقوَّمني أميرُ المؤمنين بصَرفي وعاقبني بمنعي من الوصول إليه .

ومضى لما أنا فيه شهرٌ ، ثم جاءتني البِشارةُ أنّه قد رضي عنّي ، وأمر بإحضاري فحضرتُ وأنا خائفٌ ، فلمّا وصلت أعطاني الأمينُ يدَه فقَبَّلتُها ، وضحك إليّ وقام وقال : اتبَعْني . ودخل إلى تلك الحُجرة بعَينها ولم يُحضر غيري . وغنّت المُحسنةُ التي نالني من أجلها ما نالني فسكتُّ ، فقال لي : قُل ما شئتَ ولا تخَفْ . فشربت واستحسنتُ . ثم قال لي : يا حسين ، لقد خار الله لك بخلافي وجرى القَدر بما تُحبّ فيه . إنّ هذه الجاريةَ عادت إلى الحال التي

أُريد منها ورضِيتُ كلَّ أفعالها ، فأَذكرتْني بك وسأَلتْني الرِّضا عنك والاختصاص لك ، وقد فعلتُ ووصلتك بعشرة آلاف دينار ، ووصلتْك هي بدون ذلك . والله لـو كنتَ فعلـتَ مـا قلتُ لـك حتى تعودَ إلى مثل هذه الحال ثم تحقِـد ذلك عليك فتسألُني ألّا تصِلَ إليَّ لأَجبتُها . فدعوتُ له وشكرته وحمِدت الله على توفيقه ، وزِدت في الاستحسان والسّرور إلى أن سكرتُ وانصرفت وقد حُمل معي المال . فما كان يمضي أسبوعٌ إلّا وصِلاتُها وألطافُها تصل إليّ من الجوهر والثياب والمال ، بغير علم الأمين ؛ وما جالسته مجلساً بعد ذلك إلّا سألتْه أن يصِلَني . فكلّ شيءٍ أنفقتُه بعدَه إلى هذه الغاية فمن فضل مالها وما ذَخَرت من صِلاتها . قال ابن النشّار : فقال له أبي : ما سمعتُ بأحسنَ من هذا الحديث ولا أعجبَ ممّا وفّقه اللهُ لك فيه .

محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال : حدّثني أبي قال :

دخل الحسين بن الضحّاك على محمّد الأمين بعَقِب وقعةٍ أوقعها أهلُ بغدادَ بأصحاب طاهر (١) ، فهزموهم وفضحوهم ، فهنّأه بالظَّفَر ثم استأذنه في الإنشاد ، فأذن له فأنشده :

أمِـينَ الله ثِـقْ باللـه تُعْطَ العزَّ والنُّصْرَهْ
كِلِ الأمـرَ إلى اللـه كَـلَاكَ اللهُ ذو القُـدره
لنـا النصرُ بـإذن اللـه والكَـرَّةُ لا الفَـرَّه
وللمُـرّاق أعـدائـك يومُ السَّوء والـدَّبْـره
وكأسٌ تُـورد المـوت كـريـهٌ طعمُهـا مُـرّه
سقَـونا وسقَينـاهـم فكانت بهـمُ الحَـرَّه
كذاك الحـربُ أحياناً علينـا ولنـا مَـرَّه (٢)

(١) طاهر : المراد به طاهر بن الحسين قائد المأمون الذي حارب الأمين وقتله .
(٢) كلاك : مخفف كلأك أي حفظك . الدبرة : الهزيمة في القتال . الحرّة : العذاب الموجع .

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولم يزل يتبسّم وهو ينشده .

عن عمرو بن بانةَ : أنّهم كانوا عند صالح بن الرَّشيد ، فقال : لستَ تطرح على جواريَّ وغِلماني ما أستجيدُه ! فقال له : ويلك ما أبغضَك ! ابعث إلى منزلي فجيء بالدفاتر واخترْ منها ما شئتَ حتى أُلقيَه عليهم . فبعث إلى منزلي فجِيء إليه بدفاتر الغِناء ، فأخذ منها دفتراً ليتخيّر ممّا فيه ، فمرّ به شعرُ الحسين بن الضَحّاك يرثي الأمين ويهجو المأمون وهو :

أَطِلْ حَزَناً وابكِ الإمامَ محمّداً | بحُزنٍ وإن خِفتَ الحُسامَ المُهنّدا
فلا تَمَّت الأشياءُ بعد محمّــد | ولا زال شَملُ المُلك منها مُبدَّدا
ولا فرِح المأمونُ بالمُلك بعدَه | ولا زال في الدّنيا طريداً مُشَرَّدا

فقال لي صالح : أنت تعلم أنّ المأمون يجيء إليَّ في كلّ ساعة ، فإذا قرأ هذا ما تُراه يكون فاعلاً ؟ ثم دعا بسكّين فجعل يَحُكُّه ، وصعِد المأمون من الدَّرَجة ورمى صالحٌ الدفتر ، فقال المأمون : يا غلامُ الدفترَ . فأُتي به ، فنظر فيه ووقف على الحَكّ فقال : إن قلتُ لكم ما كنتم فيه تصدُقوني ؟ قلنا : نعم . قال : ينبغي أن يكون أخي قال لك : ابعَث فجيء بدفاترك ليتخيَّر ماتطرح ، فوقف على هذا الشعر فكرِه أن أراه فأمر بحَكِّه . قلنا : كذا كان . فقال : غَنِّه يا عمرو . فقلت : يا أمير المؤمنين ، الشعر لحسين بن الضحّاك والغناء لسعيد ابن جابر . فقال : وما يكون ! غَنِّه . فغنَّيتُه ، فقال : ارْدُدْه . فرددتُه ثلاث مرات ، فأمر لي بثلاثين ألف درهم وقال : حتى تعلم أنه لم يَضْرُرْك عندي ...

ولحسين بن الضحّاك في محمد الأمين مَراثٍ كثيرةٌ جِياد ، وكان كثير التحقّق به (١) والمُوالاة له لكثرة أفضاله عليه ومَيله إليه وتقديمه إيّاه . وبلغ من جزعه عليه أنّه خُولط ، فكان يُنكر قتله لمّا بلغه ويدفعُه ويقول : إنّه

(١) رجح محقق المطبوعة أن تكون محرفة عن : التعلّق به .

مُستتِر وإنّه قد وقف على تفرّق دُعاته في الأمصار يدعون إلى مُراجعة أمره والوفاء ببَيعته ، ضَنّاً به وشفقةً عليه . ومن جيّد مراثيه إيّاه قوله :

سَألُونا أن كيف نحن فقُلنا   مَن هَوَى نجمُه فكيف يكونُ
نحن قومٌ أصابنا حَدَثُ الدّهْر   فظَلْنا لِريبه نَستكِينُ
نتمنّى من الأمين إياباً   لَهْفَ نفسي وأين منّي الأمينُ

الحسين بن الضحّاك قال :

كنت عازماً على أن أَرثي الأمين بلساني كلّه وأَشفي لوعتي ، فلَقِيني أبو العتاهية فقال لي : يا حسينُ ، أنا إليك مائلٌ ولك مُحبٌ ، وقد علمتُ مكانَك من الأمين ، وإنّه لحقيق بأن ترثيَه ، إلّا أنّك أطلقت لسانك من التلهُّف عليه والتوجُّع له بما صار هجاءً لغيره وثَلْباً له وتحريضاً عليه ، وهذا المأمون مُنصَبٌّ إلى العراق قد أقبل عليك ، فأَبْقِ على نفسك . يا ويحَك ! أتجسُر على أن تقول :

تركوا حَريم أبيهمُ نَفَلاً   والمُحْصَناتُ صوارخٌ هُتُفُ
هيهاتَ بعدَك أن يدومَ لهم   عِزٌّ وأن يبقى لهم شَرَفُ(١)

اكفُفْ غَرْب لسانِك واطوِ ما انتشر عنك وتَلافَ ما فَرَط منك . فعلمتُ أنه قد نصحني ، فجزيتُه الخير وقطعت القول ، فنجوت برأيه وما كِدت أن أنجو .

أخباره مع المأمون

عن ثُمامة بن أشرس وعبدالله بن العبّاس بن الفضل بن الربيع :

لمّا قدم المأمون من خَراسان وصار إلى بغداد أمر بأن يُسمّى له قومٌ من أهل الأدب لِيجالسوه ويُسامروه ، فذُكر له جماعةٌ فيهم الحسين بن الضحّاك ،

---

(١) النفل : الغنيمة .

ـ وكان من جُلَساء محمّد المخلوع ـ فقرأ أسماءهم حتى بلغ إلى اسم حسين ، فقال : أليس هو الذي يقول في محمّد :

هَلّا بَقيتَ لِسَدّ حاجتنـــا أبداً وكان لغيرك التَّلَـفُ
فلقد خلفتَ خلائفاً سَلَفُــوا ولسوف يُعوِز بعدَك الخَلَفُ

لا حاجةَ لي فيه ، والله لا يراني أبداً إلّا في الطَّريق . ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به . قال : وانحدر حسينٌ إلى البصرة فأقام فيها طولَ أيّام المأمون .

محمد بن القاسم بن مَهرويه قال حدّثني أبي قال :

لمّا أعيت حسين بن الضحّاك الحِيلةُ في رضا المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن مَسْعَدة وكتب إليه :

أنت طَوْدي من بين هذي الهِضابِ وشِهابي من دُون كلّ شهابِ
أنت يا عمـرو قوّتي وحيـاتي ولساني وأنـت ظُفْري ونابي
أتُـراني أنسى أياديـك البيـض إذ اسودّ نائـلُ الاصحاب
أين عطفُ الكـرام في مَأقِط الحا جـة يحمُـون حَـوزةَ الآداب
إنّ أخـلاقك الرضِيّـة حالت فيَّ أم أيـن رِقّـةُ الكُتّـاب
أنا في ذِمّـة السَّحـاب وأظما إنّ هذا لَـوَصْمـةٌ في السحـاب
قُـمْ إلى سيّـد البَريّـة عـنّي قَومـةً تَستجـرُّ حُسنَ خِطاب
فلعـلّ الإلـهَ يُطفـيء عنّـي بك ناراً عليَّ ذاتَ التهـابِ (١)

قال : فلم يزل عمرو يَلْطُف للمأمون حتى أوصله إليه و أدرّ أرزاقَـه .

ابن أبي الأزهر قال :

كنت بين يدَي المأمون واقفاً ، فأُدخل إليه ابنُ البوّاب رُقعةً فيها أبياتٌ

---

(١) المأقط : المضيق .

وقال : إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذنَ لي في إنشادها . فظنّها له فقال : هاتِ . فأنشده :

أجِرني فإنّي قد ظَمِئت إلى الوعد ... متى تُنجزُ الوعدَ المؤكّد بالعَهدِ
أُعيذُك من خُلْف الملوك وقد تَرى ... تقطُّعَ أنفاسي عليك من الوَجد
أيبخل فَردُ الحُسن عنّي بنائلٍ ... قليلٍ وقد أفردتُه بهوًى فَرْدِ

إلى أن بلغ إلى قوله :

رأى الله عبدَالله خيرَ عبادِه ... فملّكه والله أعلمُ بالعَبدِ
ألا إنّما المأمونُ للناس عِصمةٌ ... مُمَيِّزةٌ بين الضَّلالة والرُّشْد

فقال المأمون : أحسنتَ يا عبدالله ! فقال : يا أمير المؤمنين ، أحسنَ قائلُها. قال : ومن هو ؟ فقال : عبدُك حسين بن الضحّاك . فقطّب ثم قال : لا حيّا الله مَن ذكرتَ ولابَيّاه[1] ولا قرَّ به ولا أنعمَ به عينا . أليس القائل :

أعينيَّ جُودا وابكيالي محمداً ... ولا تَدْخَرا دمعاً عليه وأسعِدا
فلا تَمّت الأشياءُ بعد محمدٍ ... ولا زال شَمل المُلك فيه مبدَّدا
ولا فرِح المأمونُ بالمُلك بعده ... ولا زال في الدنيا طريداً مُشرَّدا

هذا بذاك ، ولا شيء له عندنا . فقال له ابنُ البوّاب : فأين فضلُ إحسان أمير المؤمنين وسَعَةُ حِلمه وعادتُه في العفو ؟ فأمر بإحضاره ، فلمّا حضر سَلّم ، فردّ عليه السّلامَ ردّاً جافياً ، ثم أقبل عليه فقال : أخبِرْني عنك ، هل عرفتَ يومَ قُتل أخي محمد هاشميّةً قُتلت أو هُتكت ؟ قال : لا . قال : فما معنى قولك :

وسِربِ ظِباءٍ من ذُؤابة هاشمٍ ... هَتفن بدعوى خير حيٍّ وميّتِ
أردّ يداً منّي إذا ما ذكرته ... على كبدٍ حَرّى وقلبٍ مُفتّت

---

(١) بيّاه الله : أضحكه أو قرّبه .

فلا بات ليلُ الشامتين بغِبطةٍ ولا بلغتْ آمالُهم ما تمنَّتِ

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعةٌ غَلَبَتْني ، ورَوعة فاجأتني ، ونعمةٌ فقدتُها بعد أن غمرتْني ، وإحسانٌ شكرتُه فأَنطقني ، وسيّدٌ فقدتُه فأقلقني ، فإن عاقبتَ فبحقِّك ، وإن عفوتَ فبفضلك . فدمَعت عينا المأمون وقال : قد عفوتُ عنك وأمرت بإدرار أرزاقك وإعطائك ما فات منها ، وجعلتُ عُقوبةَ ذَنبك امتناعي من استخدامك .

عليّ بن محمد النوفليّ قال : قال لي محمد بن عبّاد :

قال لي المأمونُ ، وقدمتُ من البصرة : كيف ظريفُ شُعرائكم وواحدُ مِصركم ؟ قلت : ما أعرِفه . قال : ذاك الحسين بن الضَحّاك أشعرُ شعرائكم وأظرف ظرفائكم ، أليس هو الذي يقول :

رأى اللهُ عبدَالله خيرَ عبادِه فمَلكّه واللهُ أعلمُ بالعبدِ

قال : ثم قال المأمون : ما قال فيّ أحدٌ من شعراء زماننا بيتاً أبلغَ من بيته هذا ، فاكتب إليه فاستقدِمْه ـ وكان حسين عليلاً ، وكان يخاف بوادر المأمون لِما فرَط منه ـ فقلت للمأمون : إنّه عليلٌ يا أمير المؤمنين ، عِلّته تمنعه من الحركة والسفر . قال : فخُذ كتاباً إلى عامل خَراجكم بالبصرة حتى يعطيَه ثلاثين ألف درهم . فأخذتُ الكتاب بذلك وأنفذتُه إليه فقبض المال .

أخباره مع المعتصم

سَوادةُ بن الفَيض المخزوميُّ قال : حدّثني أبو الفيض بن سوادة عن جَدّي قال :

لمّا وَلي المعتصمُ الخلافة سألني عن حسين بن الضحّاك ، فأخبرتُه بإقامته بالبصرة لانحراف المأمون عنه ، فأمر بمكاتبته بالقُدوم عليه ، فقَدِم . فلمّا دخل وسَلّم استأذن في الإنشاد ، فأذِن له ، فأنشده قوله :

هَلّا سألت تلذُّذَ المُشتاقِ ومَنَنْت قبل فِراقه بتَلاقِ

إنّ الرَّقيبَ لَيَستريب تنفُّساً صُعُداً إليك وظاهرَ الإقلاق
ولئن أَرِبْتُ لقد نظرتُ بمُقلةٍ عَبْرى عليك سخينة الآماق
نفسي الفِداءُ لخائفٍ مترقِّبٍ جعل الوَداع إشارةً بعِناق
إذ لا جوابَ لمُفْحَمٍ متحيّرٍ إلّا الدموعُ تُصان بالإطراق (١)

حتى انتهى إلى قوله :

خيرُ الوفود مُبشِّرٌ بخلافةٍ خصّت ببهجتها أبا إسحاق
وافتْه في الشهر الحَرام سليمةً من كلّ مُشكلةٍ وكلّ شِقاق
أعطتْه صَفْقَتَها الضمائرُ طاعةً قبل الأَكُفّ بأوكد الميثاق
سكَن الأنامُ إلى إمام سلامةٍ عَفٍّ الضمير مهذّبِ الأخلاقِ
فحمى رعيّتَه ودافع دُونَها وأجار مُملِقَهَا من الإملاق (٢)

حتى أتمّها . فقال له المعتصم : ادن منّي . فدنا منه ، فملأ فمَه جوهراً من من جَوهر كان بين يديه ، ثم أمر بأن يُخرجَه من فِيه ، فأخرجه ، وأمر بأن يُنظَم ويدفَعَ إليه ويَخرجَ إلى الناس وهو في يده ليعلموا موقعه من رأيه ويعرفوا فعلَه . فكان أحسنَ ما مُدح به يومئذٍ ...

الحسين بن الضحّاك قال :

غضب المعتصم عليّ في شيء جرى على النَّبيذ فقال : والله لأُؤَدِّبنَّه . وحجبني أياماً . فكتبتُ إليه :

غَضَبُ الإمام أشدُّ من أَدبِه وقد استجرتُ وعُذْتُ من غَضَبه

(١) تلذذ المشتاق : لا معنى لها في هذا الموضع وقد استظهر محقق المطبوعة ان تكون محرفة عن « تلدّد » وهو الحيرة والدهش . صعداً : يقال تنفّس الصعداء أي تنفس تنفساً طويلاً .

(٢) أعطته صفقتها : بايعته .

أصبحتُ معتصماً بمعتصمٍ أثنى الإلـهُ عليه في كُتبه
لا والذي لم يُبقِ لي سبباً أرجو النَّجاةَ به سوى سَببه
ما لي شفيعٌ غيرُ حُرمته ولكلّ من أَشْفَى على عَطَبه

قال : فلمّا قُرىء عليه التفت إلى الواثق ثم قال : بمثل هذا الكلام يُستعطَف الكرام ، ما هو إلّا أن سمعتُ أبياتَ حسين هذه حتى أزالت ما في نفسي عليه . فقال له الواثق : هو حَقيقٌ بأن يُوهَب له ذنبُه ويُتجاوزَ عنه . فرضي عنّي وأمر بإحضاري .

قال الصولي : فحدّثني الحسين بن يحيى أن هذه الأبيات إنّما كتب بها إلى المعتصم لأنه بلغه أنه مدح العبّاس بن المأمون وتمنّى له الخلافة ، فطلبه فاستتر ، وكتب بها إلى المعتصم على يَدي الواثق ، فأوصلها وشفَع له ، فرضي عنه وأمنّه ، فظهر إليه ...

أخباره مع الواثق

محمد بن مُخارق قال :

لمّا بُويع الواثق بالخلافة دخل عليه الحسين بن الضحّاك فأنشده قصيدته التي أوّلُها :

ألم يَـرُعِ الإسلامَ موتُ نَصيره بَلَى حَقّ أن يرتاع من مات ناصرُهْ
سيُسْلِيَك عمّا فات دولةُ مُفْضِلٍ أوائلُـه محمودةٌ وأواخرُه
ثنى الله عِطفَيه وألَّف شخصَه على البِرّ مُذ شُدَّت عليه مآزره
يَصَبٌّ بِبَذْل المال حتى كأنّما يرى بَذْله للمال نَهْباً يُبادرهُ
وما قَدّم الرحمنُ إلّا مُقَدَّماً مَواردُه محمودةٌ ومصادره[1]

فقال الواثق : إن الحسين لَينطقُ عن حُسن طَويّةٍ ويمدح بخُلوص نيّة .

(١) يصب : يكلف ويولع .

ثم أمر بأن يُعطَى لكل بيت قاله من هذه القصيدة ألفَ درهم . فأعجبته الأبياتُ حتى أمر فصُنعت فيها عدّة ألحانٍ .

محمد بن عمرو الرّومي قال :

لما وَلي الواثق الخلافة أنشده حسين بن الضحّاك قصيدةً منها :

سيُسليك عما فات دولةُ مُقبل أوائله محمودةٌ وأواخرُه
وما قدّم الرحمن إلّا مُقدَّماً موارِدُه محمودةٌ ومصادره

قال : فأنشدتُ إسحاق الموصليّ هذا الشعر ، فقال لي : نقل حسين كلامَ أبي العتاهية في الرشيد حتى جاء بألفاظه بعينها حيث يقول :

جرى لك من هارونَ بالسَّعد طائرُه إمامُ اعتزامٍ لا تُخاف بوادرُه
إمامٌ له رأيٌ حميد ورحمةٌ موارِدُه محمودة ومصادره

قال : فعجبت من رواية إسحاق شعرَ المحدَثين ، وإنما كان يروي للأوائل ويتعصّب على المُحْدَثين ، وعلى أبي العتاهية خاصّةً .

عبدالله بن المؤمّل العسكريّ قال :

لمّا ولي الواثقُ الخلافةَ جلس للناس ودخل إليه المهنّئون والشعراء فمدحوه وهَنّؤوه ، ثم استأذن حسين بن الضحّاك بعدهم في الإنشاد ، وكان من الجُلساء فترفّع عن الإنشاد مع الشعراء ، فأذِن له ، فأنشده قوله :

أُكاتمُ وَجدي فما يَنْكَتِمْ بِمَنْ لوشكوتُ إليه رَحِمْ
وإنّي على حُسن ظنّي به لَأحذرُ إن بُحتُ أن يَحتشِمْ
ولي عند لَحْظَته رَوعةٌ تُحقّق ما ظَنّه المُتَّهِم
وقد علم الناس أنّي له مُحبٌّ وأحسَبُه قد عَلِمْ

ثم قال يمدح الواثق :

يَضيقُ الفضاءُ به إن غدا بطَوْدَي أعاريبِه والعَجَمْ

ترى النَّصرَ يقدُم راياتِــــه إذا ما خفقـن أمـامَ العَلَـمْ
وفي الله دَوَّخ أعــــداءه وجَرّد فيهم سيوفَ النِّقـم
وفي الله يكظِم من غَيظـــه وفي الله يصفَح عمّن جَرَم
رأى شِيَم الجُود محمـودةً وما شيَمُ الجود إلّا قِسَـــم
فراح على «نَعَمٍ» واغتدى كأن ليس يُحسِـن إلّا نَعَـمْ

قال : فأمر له الواثق بثلاثين ألف درهم ، واتّصلت أيامُه بعد ذلك ، ولم يزل من نُدَمائه .

حسين بن الضحّاك قال :

كانت لي نَوبةٌ في دار الواثق أحضُرها ، جلس أو لم يجلس . فبينا أنا نائمٌ ذاتَ ليلةٍ في حُجرتي إذ جاء خادمٌ من خَدم الحُرَم فقال : قُم فإنّ أمير المؤمنين يدعوك . فقلت له : وما الخبر ؟ قال : كان نائماً والى جَنْبه حَظِيّةٌ له فقام وهو يظنُّها نائمةً ، فألَمّ بجاريةٍ له أخرى ـ ولم تكن ليلةَ نَوبتها ـ وعاد إلى فِراشه . فغضبتْ حَظِيّتُه وتركتْه حتى نام ، ثم قامت ودخلتْ حُجرتَها ، فانتبه وهو يرى أنّها عنده ، فلم يجدها ، فقال : اختُلستْ عزيزتي ، ويحَكم أين هي ؟ فأُخبر أنّها قامت غَضبَى ومضت إلى حُجرتها ، فدعا بك . فقلت في طريقي :

غضبتْ أَن زُرتُ أخرى خِلسةً فلهـا العُتبَى لدينا والرِّضـا
يا فدتْك النفسُ كانت هفـوةً فاغفِريها واصفَحي عمّا مضى
واترُكي العَذْلَ على من قالـــه وانسِي جَوري إلى حُكم القضا
فلقد نَبَّهْتِني من رَقـــدتي وعلى قلبي كنيران الغَضـا

قال : فلمّا جئتُه خبَّرني القصّة وقال لي : قُل في هذا شيئاً . ففكّرت هُنيهةً كأنّي أقول شعراً ثم أنشدتُه الأبيات ، فقال : أحسنتَ وحَياتي ! أَعِدها

يا حُسين . فأعدتُها عليه حتى حفِظها ، وأمر لي بخمسائة دينارٍ ، وقام فمضى إلى الجارية وخرجت أنا إلى حجرتي .

مَهْديّ بن سابق قال :

قال الواثق لحسين بن الضحّاك : قُل الساعةَ ابياتاً مِلاحاً حتى أهبَ لك شيئاً مَليحاً . فقال : في أيّ معنىً يا أمير المؤمنين؟ فقال : امدُدْ طرفَك وقُل فيما شئتَ ممّا ترى بين يديك وصفْه . فالتفتُّ[1] فإذا ببساطِ زهرِه قد تفتّحت أنوارُه وأشرق في نُور الصبح ، فأُرتج عليَّ ساعةً حتى خجلتُ وضِقتُ ذَرْعاً . فقال لي الواثق : مالك ويحَك ! ألست ترى نُورَ صَباح ، ونَوْر أَقاح ! فانفتح القولُ فقلت :

ألستَ ترى الصُبح قد أسفرا ... ومُبتكِرَ الغيثِ قد أَمطرا
وأسفرتِ الأرضُ عن حُلّةٍ ... تُضاحك بالأحمر الأصفرا
ووافاك نَيسانُ في وَرده ... وحثّك في الشُرب كي تسكَرا
وتُعمِلَ كأسَين في فِتيةٍ ... تُطارد بالأصغر الأكبَرا
يَحُثُّ كُؤوسَهم مُخْطَفٌ ... تُجاذب أردافُه المِئْزَرا[2]

[الأبيات ...] ...

قال : فضحك الواثق وقال : سنستعمل كلَّ ما قلت يا حسين إلا الفِسقَ الذي ذكرتَه فلا ولا كرامةَ . ثم أمر بإحضار الطعام فأكل وأكلوا معه . ثم قال : قومُوا بنا إلى حانة الشَّطّ . فقاموا إليها ، فشرب وطرب ، وما ترك يومئذٍ أحداً من الجُلَساء والمغنّين والحشَم إلّا أمر له بصِلة . وكانت من الأيام التي سارت أخبارها وذُكرتْ في الآفاق ...

---

(١) يلاحظ هنا أن المتكلم هو الحسين بن الضحاك مع أن الحديث مرويّ عن غيره .

(٢) رجل مخطف الخصر : ضامره .

حسين بن الضحّاك قال :

كان الواثق يميل إلى الفَتْح بن خاقان[1] ويأنس به وهو يومئذٍ غُلامٌ ، وكان الفتح ذكيّاً جيّد الطَبع والفِطنة . فقال له المعتصم يوماً وقد دخل على أبيه خاقان عُرْطوج : يا فتحُ أيُّما أحسنُ : داري أو دار أبيك ؟ فقال له وهو غير متوقّف وهو صبيٌّ له سبعُ سنين أو نحوها : دارُ أبي إذا كنتَ فيها . فعجب منه وتبنّاه . وكان الواثق له بهذه المنزلة ، وزاد المتوكّل عليها . فاعتلّ الفتح في أيام الواثق عِلّةً صعبةً ثم أفاق وعُوفي ، فعزم الواثق على الصَّبُوح ، فقال لي : يا حسينُ ، أكتب بأبياتٍ عنّي إلى الفتح تدعوه إلى الصّبوح . فكتبتُ إليه :

لمّا اصطبحتُ وعينُ اللهو ترمُقني ... قد لاح لي باكراً في ثوب بِذْلته
ناديت فَتحاً وبَشّرتُ المُدامَ بـه ... لمّا تخلّص من مكروه عِلّته
ذَبٌّ الفتى عن حَريم الرّاح مَكرمةٌ ... إذا رآه امرؤٌ ضِدّاً لِنِحلَتِه
فاعجَلْ إلينا وعَجّل بالسُّرور لنا ... وخالِسِ الدّهرَ في أوقات غَفلته

فلماً قرأها الفتح صار إليه فاصطبح معه .

أخباره مع المتوكّل

عليّ بن محمد بن نصر قال : حدّثني خالي (يعني أحمد بن حَمدون) قال :

أمر المتوكّل أن يُنادمَه حسين بن الضحّاك ويلازمَه ، فلم يُطق ذلك لِكبَر سنّه . فقال للمتوكّل بعضُ من حضر عنده : هو يُطيق الذّهابَ إلى القُرى والمَواخير والسُّكرَ فيها ويعجِز عن خِدمتك ! فبَلغه ذلك ، فدفع إليّ أبياتاً قالها وسألني إيصالَها ، فأوصلتُها إلى المتوكّل ، وهي :

أَمـا في ثمـانـين وفَّيْتُهـا ... عَذيـرٌ وإن أنا لم أعتـذِرْ

---

(١) الفتح بن خاقان : أديب حسن الحديث حاد الذكاء اتخذه الواثق نديماً له ثم أصبح نديماً للمتوكل لا يفارق مجالسه . وقد قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ .

فكيف وقد جُزتُها صاعداً مع الصّاعدين بتسعٍ أُخَر
وقد رفع الله أقلامَه عن ابن ثمانين دُون البشرْ
سوى من أصرَّ على فتنةٍ وألحدَ في دينه أو كفر
وإنّي لَمِن أسَراء الإلَه في الأرض نُصْبَ صُروف القَدَر
فإن يَقضِ لي عملاً صالحاً أثاب وإن يَقضِ شرّاً غفَرْ
فلا تَلْحَ في كِبَرٍ هدّني فلا ذنب لي إن بلغتُ الكِبَرْ
هو الشّيبُ حلّ بعقب الشباب فأعقبني خَوَراً من أَشَرْ
وقد بسط اللهُ لي عُذرَه فمن ذا يلومُ إذا ما عَذَرْ
وإنّي لَفي كَنَفٍ مُغْدِقٍ وعزٍّ بنصر أبي المنتصِرْ
يُباري الرّياح بفضل السَّماحِ حتى تَبلَّد أو تنحسر
له أكّد الوحيُ ميراثَه ومن ذا يُخالف وَحيَ السُّوَر
وما للحَسُود وأشياعِه ومَن كذّب الحقَّ إلّا الحجَر(١)

قال ابن حمدون : فلمّا أوصلتُها شيَّعتُها بكلامي أعذِره وقلت : لو أطاق خِدمةَ أمير المؤمنين لكان أسعدَ بها . فقال المتوكّل : صدقتَ ، خُذْ له عشرين ألف درهم واحمِلها إليه . فأخذتُها فحملتُها إليه .

عن حسين بن الضحّاك قال :

ضربني الرَّشيد في خلافته لصُحبتي ولدَه ؛ ثم ضربني الأمين لمُمايلة ابنه عبدالله ؛ ثم ضربني المأمون لميلي إلى محمد ؛ ثم ضربني المعتصم لمودّةٍ كانت بيني وبين العبّاس بن المأمون ، ثم ضربني الواثق لشيء بلغه من ذهابي إلى المتوكّل ، وكلّ ذلك يجري مجرى الولَع بي والتحذير لي . ثم أحضرني

---

(١) رفع الله أقلامه : أراد أن الله لا يحَاسِب مَن جاوز الثمانين من سنه على ما يفعله إلا إذا كفر بالله . الأشر : المرح واللهو. أبو المنتصر : هو المتوكل والمنتصر وليّ عهده . الحجر : أي الرجم .

المتوكّل وأمر شفيعاً بالوَلع بي ، فتغاضب المتوكّل عليّ ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إن كنت تريد أن تضرِبني كما ضربني آباؤك فاعلم أنّ آخر ضَربٍ ضُربتُه بسببك . فضحك وقال : بل أحسِن إليك يا حُسين وأَصُونُك وأُكرمُك .

ميمون بن هارون قال :

كان للحسين بن الضحّاك ابنٌ يُسمّى محمداً ، له ارزاقٌ ، فمات فقُطعت أرزاقُه . فقال يخاطب المتوكّل ويسأله أن يجعل أرزاق ابنه المتوفَّى لزوجته وأولاده :

إنّي أتيتُك شافعاً ... بوليّ عهد المُسلمينا
وشبيهِك المعتزّ أو ... جَهِ شافعٍ في العالمينا
يا بنَ الخلائف الاوّلين ويا أبا المتأخّرينا
إنّ ابن عبدك مات والأيّامُ تخترم القَرينا
ومضى وخَلف صِبيةً ... بعِراصِه مُتَلَدِّدينا
ومَهيرةً عَبْرى خلا ... ف أقاربٍ مُستعبِرينا
أصبحن في رَيب الحوا ... دث يُحسنون بك الظُّنونا
قطع الوُلاةُ جِرايةً ... كانوا بها مُستمسِكينا
فأمنُنْ بردّ جميع ما ... قطعوه غير مُراقبينا
أعطاك أفضلَ ما تُؤمِّـ ... ـلُ أفضلُ المُتَفَضِّلينا (١)

قال : فأمر المتوكّل له بما سأل . فقال يشكره :

يا خيرَ مُستَخْلَفٍ من آل عبّاسِ ... اسلَمْ وليس على الأيام من باسِ
أحييتَ من أملي نِضْواً تَعاوَرَه ... تعاقُبُ اليأس حتى مات باليأس

(١) اخترمته المنية : أخذته . تلدد : تحيّر وتلفت يمينا ويساراً . المهيرة : الحرة الغالية المهر .

هجاؤه مغنّية استخفّت به

محمد بن عبدالله بن مالك قال :

كنّا في مجلس ومعنا حسين بن الضحاك ، ونحن على نبيذٍ ، فعبث بالمغنّية وجَمَّشها[1] ، فصاحت عليه واستخفّت به ، فأنشأ يقول :

لها في وَجهها عُكَنُ ... وثُلثا وجهها ذَقَنُ
وأسنانٌ كريش البَطّ بين أصولها عَفَنُ

قال : فضحكنا ، وبكت المغنّية حتى قلت قد عَمِيتْ ، وما انتفعنا بها بقيّةَ يومنا . وشاع هذان البيتان فكسَدت من أجلهما ، وكانت إذا حضرتْ في موضع أنشدوا البيتين فتَجَنّ . ثم هربت من سُرّ من رأى فما عَرفنا لها بعد ذلك خَبراً .

* * *

(١) جمّشها : غازلها ولاعبها .

١٧

الحَكَم بن قُنْبُر

[الأغاني الجزء ١٤ ص ١٦٢ وما بعدها]

الشاعر

هو الحكم بن محمد بن قُنْبُر المازنيّ ، مازن بني عمرو بن تميم . بصريّ ، شاعرٌ ظريف من شعراء الدولة الهاشميّة ؛ وكان يُهاجي مُسلم بن الوليد الأنصاريّ مُدّةً ، ثم غلبه مُسلم .

مهاجاته مسلم بن الوليد

منصور بن جَهْوَر قال

لمّا تهاجى مسلم بن الوليد وابنُ قُنبُر أمسك عنه مسلمٌ بعد أن بسط عليه لسانَه ، فجاء مُسلماً ابنُ عمّ له فقال : أيّها الرجل ، إنك عند الناس فوق هذا الرجل في عمود الشعر ، وقد بعثت عليه لسانَك ، ثم أمسكت عنه ، فإما أن قاذَعته ، وإمّا أن سالمتَه . فقال له مسلم : إنّ لنا شيخاً وله مسجدٌ يتهجّد فيه ، وله دَعَواتٌ يدعوها ، ونحن نسأله أن يجعل بعضَ دعواته في كِفايتنا إياه . فأطرق الرجلُ ساعةً ثم قال :

غَلَب ابنُ قُنبر واللئيمُ مُغلَّبٌ لمّا اتّقَيْتَ هجاءَه بدُعاءِ
ما زال يقذِف بالهجاء ولَذْعِه حتّى اتّقوه بدعوة الآباء

قال : فقال له مسلم : والله ما كان ابنُ قُنبر لِيَبْلُغَ منّي هذا ، فأمسِك عنّي لسانَك وتعرَّفْ خبَره بعدُ . قال : فبعث الرجلُ واللهِ عليه من لسان مُسلم ما أسكته .

محمد بن عبدالله العَبْدي القَسْريّ قال :

رأيت مسلم بن الوليد والحكمَ بن قنبر في مسجد الرُّصافة في يوم جمعة ، وكل واحدٍمنهما بإزاء صاحبه ، وكانا يتهاجيان . فبدأ مسلمٌ فأنشد قصيدته :

أنا النارُ في أحجارها مستَكِنّة فإن كنتَ ممّن يقدحُ النارَ فاقدَحِ

وتلاه ابن قنبر فأنشده قوله :

قد كِدت تَهوي وما قَوسي بمُوترةٍ فكيف ظَنُّك بي والقوسُ في الوترِ

فوثب مسلم وتواخزا وتواثبا حتى حَجز الناسُ بينهما فتفرّقا . فقال رجلٌ لمسلم ـ وكان يتعصّب له ـ : ويحَك ! أعجَزْتَ عن الرجل حتى واثبتَه ؟ قال : أنا وإياه لكما قال الشاعر :

« هنيئاً مَريئاً أنت بالفُحش أَبْصَرُ »

وكان بن قنبر مستعلياً عليه مدّةً ، ثم غلبه مسلمٌ بعد ذلك . فمن مناقضتهما قول ابن قنبر :

ومن عجَب الأشياء أن لمسلمٍ إليَّ نِزاعاً في الهجاء وما يدري
وواللهِ ما قِيستْ عليّ جُدودُه لدى مَفْخَرٍ في الناس قوساً ولا شعري(١)

ولابن قنبر قولُه :

كيف أهجوك يا لئيمُ بشعري أنت عندي فاعلَمْ هجاءُ هجائي

(١) قوساً : مقدار قوس .

يا دَعيٌّ الأنصار بل عبدَهـا النَّـذْ لَ تعرّضتَ لي لِـدَرْك الشقـاء

سائرُ أخباره

● عن محمد بن سَلّام قال : أنشدني ابن قنبر لنفسه :

وَيْلي على من أطار النومَ وامتنعا وزاد قلبي على أوجاعه وَجَعا
ظَبْيٌ أغَـرٌّ ترى في وجهه سُرُجاً تُعشي العُيونَ إذا ما نورُه سطَعا
كأنّما الشمسُ في أثـوابه بزَغَـت حُسناً أو البدرُ في أردانه طَلَعا
فقد نسِيتُ الكَرى من طُول ما عَطِلتْ منه الجُفونُ وطارت مُهجتي قِطَعا

قال ابن سلّام : ثم قال ابن قنبر : لَقِيَتْني جَوارٍ من جواري سليمان بن عليّ في الطريق الذي بين المِربَد وقصر أوس فقُلن لي : أنت الذي تقول :

« ويلي على من أطار النوم وامتنعا »

فقلت : نعم ، فقلن : أمع هذا الوجه السَّمْـح تقول هذا ؟ ثم جعلن يجذُبْنني ويلهُون بي حتى أخرجنني من ثيابي ، فرجعت عارياً إلى منزلي . قال : وكان حسنَ اللِباس .

● عن محمد بن سلّام قال :

أنشدني ابنُ قنبر لنفسه قولَه :

صَرَمتِني ثـم لا كَلَّمْتِني أبـداً إن كنتُ خُنتُكِ في حالٍ من الحالِ
ولا اجترمتُ الذي فيه خيانَتكُـم ولا جَرَتْ خطرةٌ منه على بالي

قال : فقلت له وأنا أضحك : يا هذا ، لقد بالغتَ في اليمين . فقال : هي عندي كذاك وإن لم تكن عندك كما هي عندي .

● عليّ بن محمد النوفليّ قال : حدّثني عمّي قال :

دخل الحكَم بن قنبر على عمّي ــ وكان صديقاً له ــ فبشَّ به ورفع مجلسه ،

وأظهر له الأُنس والسُّرور ، ثم قال : أنشِدْني أبياتك التي أقسمتَ فيها بما في قلبك . فأنشده :

وحَقِّ الـذي في القلب منـك فإنـه عظيمٌ لقد حَصَّنت سِرَّكِ في صَدري
ولكنَّما أفشـاه دمعـي ورُبَّمـا أتى المرءُ ما يخشاه من حيث لا يَدري
فهَبْ لي ذُنوبَ الدَّمعِ إني أظُنّـهُ بما منه يبدُو إنما يبتغي ضُرّي
ولو يَبتغي نفعي لَـخَلّى ضمائـري يَـرُدُّ على أسرار مكنونِها سِتري

فقال لي : يا بُنّي ، اكتُبها واحفَظها . ففعلت وحفظتُها يومئذٍ وأنا غُلام .

● قال اليزيديّ : قال عمّي : وهو الذي يقول :

ليس فيها ما يُقال لـه كَمُلَتْ لـو أنّ ذا كَمَلا
كلُّ جزءٍ من مَحاسنهـا كائنٌ في فَضلـه مثـلا
لو تمنّت في مَلاحتهـا لم تجـد من نفسها بَدَلا

● ابن مَهرُويه قال : قال لي إبراهيم بن المُدبّر : أتعرف الذي يقول :

إن كنتَ لا تَرهَبُ ذمّي لمـا تعرِف من صَفحي عن الجاهلِ
فاخشَ سُكوتي فَطِناً مُنصِتـاً فيك لتحسين خنا القائـلِ
مَقالـةُ السُّوء إلى أهلهـا أسهلُ من مُنحدَرٍ سائـلِ
ومن دعا الناس إلى ذَمّـه ذَمُّوه بالحقّ وبالباطـلِ (١)

فقلت : هذه للعَتّابيّ . فقال : ما أنشدتُها إلا لابن قُنبر . فقلت له : من شاء منهما فليَقُلها ، فإنه سرقه من قول عبيدِالله بن عبدالله بن عُتبة :

وإن أنا لم آمُرْ ولم أنهَ عنكمـا سكتُّ له حتى يَلجَّ ويستَشري(٢)

---

(١) الخنا : الكلام الفاحش .
(٢) استشرى الفرس في سيره : لجّ ومضى بلا فتور.

● محمد بن سلّام قال :

مرض ابنُ قُنبر فأتَوه بخَصيبٍ الطبيب يعالجه ، فقال فيه :

ولقد قلتُ لأهلي إذ أتوني بخَصيبِ
ليس والله خصيبٌ للّذي بي بِطبيبِ
إنّما يَعرِف دائي مَن به مثلُ الذي بي

قال : وكان خصيب عالماً بمرضه ، فنظر إلى مائه فقال : زعم جالينوس أن صاحب هذه العلّة إذا صار ماؤه هكذا لم يَعِش . فقيل له : إن جالينوس ربما أخطأ . فقال : ما كنت إلى خطئه أحوجَ مني إليه في هذا الوقت . قال : ومات من علّته .

* * *

١٨

حمّاد عجرد

[الأغاني الجزء ١٤ ص ٣٢١ وما بعدها]

الشاعر

هو حَمّادُ بن يحيى بن عُمر بن كُليب ، ويُكنى أبا عُمر ، مولى بني عامر بن صَعصعة ... وأصلُه ومَنشؤه بالكوفة ، وكان يَبري النَّبْل . وقيل : بل أبوه كان نَبّالاً ، ولم يتكسّب هو بصناعة غير الشعر ...

وحمّادٌ من مخضرمي الدولتين الأموية والعبّاسية ، إلّا أنه لم يَشتهِر في أيام بني أمية شُهرتَه في أيام بني العباس . وكان خليعاً ماجناً ، مُتَّهماً في دينه ، مَرميّاً بالزَّندقة .

عاصم بن أفلَح بن مالك بن أسماء قال :

كان يحيى أبو حمّادِ عَجردٍ مولًى لبني هند بنت أسماء بن خارجة ، وكان وكيلاً لها في ضَيعتها بالسَّواد ، فولدت هندٌ من بشر بن مروان عبدَ الملك ابن بشر ، فجرّ عبدُ الملك ولاءَ مَوالي أمّه فصاروا مَواليَه .

قال : ولمّا كان والدُ حَمّاد عجرد بالسّواد في ضَيعتها نَبّطه[1] بشارٌ لمّا هجاه بقوله :

(١) نبطه : نسبه الى النبط .

واشدُدْ يديك بحَمّاد أبي عُمــرٍ　　فإنّـه نبطيٌّ من زَنابــير [1]

قال : وإنّما لقبّه بِعَجْرَد عمرُو بن سِنديّ ، مولى ثقيف ... وعجرد مأخوذ من المُعَجْرِد ، وهو العُريان في اللغةِ ، يقال : تَعجرد الرجلُ إذا تعرّى فهو يَتَعَجْرَدُ تعجرُداً ، وعجردتُ الرجل أُعَجرِدُه عَجردةً إذا عرّيتُه .

صالح بن سليمان الخثعميّ قال : قيل لعبدالله بن ياسين : إنّ بشاراً المُرعَّث هجا حماداً فنَبّطه . فقال عبدالله : قد رأيت جدّ حمّاد ، وكان يُسمّى كُليبا ، وكانت صناعته صناعةً لا يكون فيها نَبَطيّ ، كان يبري النِّبال ويَريشُها ، وكان يقال له : كُليب النَبّال ، مولى بني عامر بن صعصعة .

زندقته

عن إبراهيم بن عُمر العامريّ قال : كان بالكوفة ثلاثةُ نَفَرٍ يقال لهم الحَمّادون : حمّاد عَجرد ، وحمّاد الراوية ، وحمّاد بن الزِبرقان ، يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشَرُون معاشرةً جميلةً ، وكانوا كأنهم نفسٌ واحدة ، يُرمَون بالزندقة جميعاً ، وأشهرهُم بها حمّاد عجرد .

أبو نواس قال :

كنت أتوهّم أنّ حماد عجرد إنّما رُمي بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حُبست في حبس الزّنادقة ، فإذا حماد عَجرد إمامٌ من أَئمّتهم ، وإذا له شعرٌ مزاوَج بيتين بيتين يقرؤون به في صَلاتهم . قال : وكان له صاحبٌ يُقال له حُريث على مذهبه ، وله يقول بشّار حين مات حماد عجرد على سبيل التعزية له :

بكى حُريثٌ فوَقِّـره بتعزيـــــــةٍ　　مات ابنُ نِهيا وقد كانا شريكَيْنِ
تفاوضا حين شابا في نسائهمــــــا　　وحَلّلا كلَّ شيء بين رِجليـن
أمسى حُريثٌ بما سَدّى له غَـــيراً　　كراكب اثنين يرجو قوّة اثنين

(١) زنابير : أرض قرب جُرش .

حتى إذا أخذا في غير وجههما تفرّقا وهوى بين الطريقين[1]

يعني أنه كان يقول بقول الثَّنَوية في عبادة اثنين، فتفرّقا وبقي بينهما حائراً.

قال: وفي حماد يقول بشار أيضاً وينسبه إلى أنه ابن نِهيا:

يابنَ نِهيا رأسٌ عليّ ثقيلُ واحتمالُ الرؤوس خطبٌ جليلُ
أُدْعُ غيري إلى عبادة الاثنين فإنّي بواحدٍ مشغولُ
يابنَ نهيا بَرِئتُ منك إلى الله جِهاراً وذاك منّي قليلُ

قال: فأشاع حمادٌ هذه الأبيات لبشار في الناس وجعل فيها مكان: «فإنّي بواحدٍ مشغول»: «فإني عن واحد مشغول» ليُصحّح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى. فما زالت الأبيات تدور في أيدي الناس حتى انتهت إلى بشار، فاضطرب منها وتغيّر وجزِع وقال: أشاط ابنُ...بدمي، والله ما قلت إلاّ: «فإني بواحد مشغول»، فغيّرها حتى شهَرني في الناس بما يُهلكني.

مهاجاته بشار بن برد

عمر بن شَبّة قال:

كان السبب في مهاجاة حمّاد عجرد بشاراً أن حمّاداً كان نديماً لنافع ابن عُقبة، فسأله بشار تنجُّزَ حاجة له من نافع، فأبطأ عنها، فقال بشارٌ فيه:

مواعيدُ حمّادٍ سماءٌ مُخِيلةٌ تكشّف عن رعد ولكن ستبرُقُ
إذا جئته يوماً أحال على غدٍ كما وُعِد الكَمّونُ ما ليس يَصدُقُ
وفي نافع عني جفاءٌ وإنني لأُطرق أحياناً وذو اللُّبِّ يُطرِق
وللنَقَرى قومٌ فلو كنتُ منهم دُعيتُ ولكن دونيَ البابُ مُغلَقُ
أبا عُمر خَلّفتُ خلفَك حاجتي وحاجةُ غيري بين عينَيك تَبْرُقُ
وما زلت أستأنيك حتى حسرتَني بوعدٍ كجاري الآلِ يَخفَى ويَخفُق[2]

(١) تفاوضا: اشتركا.

(٢) كما وعد الكمون: مثل يضرب لإخلاف الوعد لأن الكمون يوعد بالسقاية ثم لا يسقى. النقرى: دعوة قوم دون قوم. استأناه: انتظره ولم يتعجله. الآل: السراب.

قال : فغضب حمّاد وأنشد نافعاً الشعر ، فمنعه من صلة بشار ، فقال بشار :

أبا عمر ما في طِلابيكَ حاجـــةٌ ولا في الذي منَّيتَنا ثم أَصحرا
وعدتَ فلم تصدُقْ وقلتَ غداً غـدا كما وُعِد الكَمّونُ شُرباً مؤخَّرا

قال : فكان ذلك السبب في التهاجي بين بشّار وحمّاد .

عن أبي أيوب الزُبالي قال :

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حمّاد وبشّار على اتفاقٍ منهما ورضىً بأن ينقل إلى كل واحد منهما وعنه الشعر . فدخل يوماً إلى بشار فقال له : إيهٍ يا فُلان ، ما قال ابنُ ... فيّ ؟ فأنشده :

إن تاه بشـارٌ عليكم فقـد أمكنتُ بشّاراً من التِيـهِ

فقال بشار : بأيّ شيء ويَحك ؟ فقال :

وذاك إذ سَمَّيتـه باسمِـه ولـم يكن حُـرٌّ يُسمّيـه

فقال : سخِنتْ عينُه ، فبأي شيءٍ كنتُ أُعرَف ؟ إيهٍ . فقال :

فصـار إنساناً بذِكري لـه ما يبتغي من بعـد ذِكريـهِ

فقال : ما صنع شيئاً ، إيهٍ ويحك ؟ فقال :

لـم أهـجُ بشاراً ولكنّـني هجـوتُ نفـسي بهِجائِيـهِ

فقال : على هذا المعنى دار وحوله حامَ ، إيه أيضاً وأيَّ شيءٍ قال ؟ فأنشده :

أنت ابنُ بُـردٍ مثـلُ بُـر دٍ في النَّذالـة والرّذالـهْ
من كان مثـلَ أبيك يـا أعمـى أبوه فلا أبـا لـه

فقال : جَـوّد ابنُ ... وتمامُ الأبيات الأُوَل :

لم آتِ شيئاً قطّ فيما مضـى ولسـت فيما عِشتُ آتِيـهِ
أسـوأَ لي في الناس أُحدوثـةً مـن خطـأٍ أخطأتُه فيه

فأصبح اليومَ بسَبّي لـــــه أعظمَ شأنـــاً من مَواليـهِ

محمد بن عبدالله بن أبي عُيَينة قال :

قال حمّاد عجرد لمّـا أُنشد قولَ بشار فيه :

يابنَ نِـهيا رأسٌ عليّ ثقيـــــلٌ واحتمال الرأسين خطبٌ جليلُ

فادعُ غيري إلى عبـادة ربَّيـــــن فإني بواحـدٍ مشغـولُ

والله ما أُبالي بهذا من قوله ، وإنما يَغيظُني منه تجاهلُه بالزّندقة ، يُوهم الناسَ أنه يظنّ أنّ الزّنادقة تعبُد رأساً لِيظنّ الجُهّالُ أنّـه لا يعرفُها ، لأن هذا قولٌ تقوله العامة لا حقيقةَ له ، وهو والله أعلمُ بالزندقة من ماني .

أبو أيوب الزباليّ قال :

قال بشار لراوية حماد : ما هجاني به اليومَ حمّاد ؟ فأنشده :

ألا مَـن مُبلِـغٌ عنّـي الّـــذي والـدُه بُـــرْدُ

فقال : صدق ابن الفاعلة ، فمايكون ؟ فقال :

إذا ما نُسـب النـــاسُ فلا قبـلٌ ولا بعـــدُ

فقال : كذب ابن الفاعلة ، وأين هذه العَرَصاتُ من عُقيل ؟ فما يكون ؟ فقال :

وأعمـى قَلْطبـانٌ مـــا عـلى قاذِفِــه حَـدٌّ(١)

فقال : كذب ابنُ الفاعلة ، بل عليه ثمانون جلدةً ، هيـهِ . فقال :

وأعمـى يشبـه القـــردَ إذا ما عَمِـي القِـــردُ

فقال : والله ما أخطأ ابن ... حين شبّـهني بقرد ، حَسبُك حَسبُك . ثم صفق بيديه وقال : ما حيلتي ؟ يراني فيشبِّـهُني ولا أراه فأشبِّهه .

أبو غسّان دَماذ .. :

---

(١) القلطبان : من لا غيرة له والقوّاد .

لمّا قال حمّاد عجرد في بشار :

شبيه الوجه بالقرد إذا ما عَمي القردُ

بكى بشار ، فقال له قائل : أتبكي من هجاء حماد فقال : والله لا أبكي من هجائه ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه ، فيَصِفُني ولا أصِفُه . قال : وتمام هذه الأبيات :

ولو يَنْكَهُ في صَلْدٍ صَفاً لانْصدع الصَّلْدُ
دَنيٌّ لم يَرُح يوماً إلى مجدٍ ولم يَغْدُ
ولم يحضُرْ مع الحُضّا رفي خيرٍ ولم يَبْدُ
ولم يُخشَ له ذَمٌّ ولم يُرجَ له حَمدُ
جرى بالنَّحس مذ كان ولم يجرِ له سَعدُ
هو الكلبُ إذا ما ما ت لم يُوجَد له فَقْدُ (١)

خَلّاد الأرقط قال :

أشاع بشار في الناس أن حمّاد عجرد كان يُنشد شعراً ورجُلٌ بإزائه يقرأُ القرآن وقد اجتمع الناس عليه ، فقال حمّاد : علامَ اجتمعوا ؟ فواللهِ لَما أقول أحسنُ ممّا يقول !

قال : وكان بشار يقول : لمّا سمعت هذا من حماد مقتُّه عليه .

أخبرني أحمد بن عبيدِالله بن عمار قال : أنشدني ابن أبي سعد لحمّاد عجرد في بشار : قال : وهو من أغلظ ما هجاه به عليه :

نهارُه أخبثُ من ليله ويومُه أخبثُ من أَمسهِ
وليس بالمُقلِع عن غَيّه حتى يُوارى في ثَرى رَمْسِه

---

(١) نكه : تنفّس . نكه فيه : أطلق نَفَسه عليه . الصلد : الصلب الأملس .

قال : وكان أغلظَ على بشار من ذلك كله وأوجعَه له قولُـه فيه :

لو طُليت جلدتُـه عَنـبراً   لأفسدتْ جِلدتُـه العَنبـرا
أو طُليت مِسكـاً ذكيّاً إذاً   تحـوّل المسـكُ عليـه ...

قال ابن أبي سعد : وقد بالغ بشارٌ في هجاء حمّاد ولكن حَكَم الناسُ عليه لحمّاد بهذه الأبيات .

قال يحيى بن الجَون العَبديّ راوية بشار : أنشدُت بشاراً يوماً قولَ حمّاد :

ألا قُل لعبـدالله إنّـك واحـدٌ   ومثلـك في هذا الزمـان كثيرُ
قطعتَ إخائي ظالماً وهجرتَـني   وليس أخي مَن في الاخاء يَجُورُ
أُديمُ لأهـلِ الوُدّ وُدّي وإننـي   لِمن دام هَجْـري ظالمـاً لَهَجُور
ولو أنّ بعضي رابني لقطعتُـه   وإني بقطع الرائبـين جَديـرُ
فلا تحسبنْ مَنحي لك الودَّ خالصـاً   لِعِزٍّ ولا أنّي إليـك فقـيرُ
ودونَك حظّـي منك لست أُريـدُه   طَوالَ الليالي ما أقام ثَبِـيرُ (١)

فقال بشار : ما قال حماد شعراً قطّ هو أشدُّ عليّ من هذا . قلت : كيف ذاك ولم يَهجُك فيه ؟ وقد هجاك في شعر كثير فلم تجزع . قال : لأنّ هذا شعرٌ جيدٌ ومثلُه يُروى ، وأنا أَنفَسُ عليه أن يقول شعراً جيداً .

محمد بن النَطّاح قال :

كنت شديد الحبّ لشعر حماد عجرد ، فأنشدتُ يوماً أخي بكر بن النطاح قوله في بشار :

أَسأتُ في ردّي على ابن ...   إسـاءةً لم تُبقِ إحسـانـا
فصار إنساناً بذِكـري لـه   ولم يكن من قبـلُ إنسانـا
قرعتُ سنّي ندَمـاً سادمـاً   لو كان يُغني ندَمـي الآنـا

(١) ثبير : جبل بظاهر مكة .

يا ضيعـةَ الشعر ويا سَوءتنا ... لي ولأزمـانيَ أزمـانـا
من بعد شتمي القِرد لا والذي ... أنزل تـوراةً وقـرآنـا
ما أحـدٌ من بعد شتمـي له ... أنذَلُ مني كان مَن كانـا[1]

قال : فقال لي : لِمن هذا الشعر ؟ فقلت : لحماد عجرد في بشّار . فأنشأ يتمثّل بقول الشاعر :

ما يضرّ البحرَ أمسـى زاخـراً ... أن رمـى فيه غـلامٌ بحَجَـرْ

ثم قال : يا أخي ، إنسَ هذا الشعر ، فنِسيانُه أَزْيَن بك ، والخَرَسُ كان أسترَ على قائله .

علي بن مَهديّ قال :

أجمَعَ العلماءُ بالبصرة أنه ليس في هجاء حمّاد عجرد لبشّار شيءٌ جيد إلا أربعين بيتاً معدودةً ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . قال : وكل واحدٍ منهما هو الذي هتك صاحبه بالزّندقة وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد عجرد وتهتّك[2] بفَضْل بلاغة بشار وجَودة معانيه ، وبقي بشارٌ على حاله لم يسقُط ، وعُرف مذهبه في الزندقة فقُتل به .

أبو مُعاذ النُميريّ :

أن بشاراً ولد له ابنٌ ، فلمّا ولد قال فيه حماد عجرد :

سائلْ أُمامـةَ يابنَ بُـر ... دِ مَن أبو هذا الغُـلامِ
أمِن الحَـلال أتـت بـه ... أم من مُقارفـة الحَرامِ
فَلتُخبِرنّـك أنّـه ... بين العِـراقي والشـآمي

(١) السدم : الغم والغيظ مع الندم .
(٢) تهتك : تقطع .

والآخرِ الرُوميّ والنَبَطِيّ أيضاً وابنِ حامِ
أجعلتَ عِرسَك شِقوةً غَرَضاً لأسهُم كلّ رامي

عن النَّضر بن عَمرو قال : وَلِي عيسى بن عمرو إمارةَ البصرة من قِبل محمد بن أبي العباس السفَاح لمّا خرج عنها عليلاً ، فقال له حمّاد عجرد :

قل لعيسى الأمير عيسى بنِ عَمرٍو ذي المساعي العِظام في قحطانِ
والبناء العالي الذي طال حتى قَصُرت دُونه يدا كلِّ بانِ
يا بنَ عمرو عمرو المكارم والتقوى وعمرو النَّدَى وعمرو الطِّعان
لك جارٌ بالمِصرِ لم يجعلِ اللهُ له منك حُرمةَ الجيران
لا يُصلّي ولا يصوم ولا يقرأ حرفاً من مُحكَم القرآن
إنَما معدِن الزُّناة من السَّفْلة في بيته ومأوى الزَّواني
وهو خِدنُ الصِّبيان وهو ابن سبعينَ فماذا يهوى من الصِّبيانِ
طَهِّر المِصرَ منه يا أيّها المولَى تَفُزْ منه فوزَ أهل الجِنانِ
يابنَ بُردٍ اِخسَأْ إليك فمثلُ الكلب في الناس أنت لا الانسانَ
ولَعَمري لأنت شرٌّ من الكلب وأولى منه بكلِّ هَوانِ[1]

سائر أهاجيه

التَوَّزيُّ قال :

كان عيسى بن عمرو بن يزيد صديقاً لحمّاد عَجرد ، وكان يواصله أيام خِدمته للرّبيع[2] ، فلمّا طرده الربيعُ واختلّت حالُه جفاه عيسى ، وإنما كان يصله لحوائج يسأل له الربيع فيها ، فقال حمّاد عجرد فيه :

(١) الك جار : أراد به بشار بن برد . اخسأ : لفظ زجر.

(٢) هو الربيع بن يونس وزير المنصور، وكان حماد مؤدباً لولده ، فأرسل اليه بشار أبياتاً يحذره فيها من حماد ويتهمه في خلقه فصرف الربيع حماداً من خدمته .

أوصَلُ الناس إذا كانت لـــــه حاجـةٌ عيسى وأقضاهـم لِحَقْ
ولعيسى إن أتى في حــــاجــةٍ مَلَقٌ يُنسَى به كـلُّ مَلَــقْ
فإن استغنى فمــا يَعدِلُـــــه نَخوةً كِسرى على بعض السُّوَق
إن تكن كنتَ بعيسى واثقـــاً فبهذا الخُلْقِ من عيسى فَثِقْ

عن أحمد بن أبي طاهر قال :

كان رجلٌ من أهل الكوفة من الأشاعثة(١) يقال له حُشَيش ، وكانت أمه حارثية ، فمدحه حمّاد عجرد ، فلم يُثِبه وتهاون به ، فقال يهجوه :

يا لقَومي للبـــــلاء ومَعـاريض الشَّقـــاء
قُسِمـــت ألويـــةٌ بَـــين رجـالٍ ونســـاء
ظفرتْ أخـتُ بني الحــارث منهـا بِلِــواء
حارثٌ في الأرض يرتـــا ع لــه أهــلُ السّمـاء

قال : فعُرضت أسماء العُمّال على المنصور فكان فيها اسمُ حُشيش ، فقال : أهو الذي يقول فيه الشاعر :

يا لقــومي للبـــــلاء ومعـــاريض الشقـــاء

قالوا : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : لو كان في هذا خيرٌ ما تعرّض لهذا الشاعر . ولم يستعمله ...

محمد بن الحسن بن الحرُون قال :

كان حمّاد عجرد يعاشر أبا عَون جدَّ ابن أبي عَون العابد ، وكان ينزل الكَرْخَ ، وكان عجرد إذا قدم بغداد زاره ، فبلغ أبا عون أنه يُحدّث الناس أنه يهوى جارية يقال لها جوهر ، فحَجبه وجفاه واطّرحه ، فقال يهجو أبا عون :

---

(١) من الأشاعثة : أراد من آل الأشعث بن قيس الكندي .

أبـا عونٍ لحاك اللـــهُ ـ يا عُـرّةُ ـ إنسـانـا
فقد أصبحت في الناس ـ إذا سُمّيت ـ كَشْخانا
بنيتَ اليومَ في الكَشْخ لأهل الكَرْخ بُنيانـا
وشرّفت لهـم في ذا ك أبـواباً وحِيطانـا
وألفيـتَ عـلى ذاكَ من الفُسّـاق أعوانـا
ومُجّـاناً ولـن يَعدَمَ مَن يَمْجُن مُجّـانا
فأخزى الله من كنـت أخاه كان مَـن كانـا
ولا زلـتَ ولا زالَ بأخـلاقك خَزْيانـا
وعُريانـاً كمـا أصبحـتَ من دِينك عُريانـا(١)

عن مَهديّ بن سابق قال :

استعمل محمدُ بن أبي العبّاس ـ وهو يلي البصرة ـ غَيلانَ ، جدّ عبد الصّمد ابن المعذَّل ، على بعض أعشار البصرة ، وظَهر منه على خيانة ، فعزَله وأخذ ما خانه فيه فقال حمّاد عجرد يهجوه :

ظهر الأميرُ عليك يا غَيـلانُ إذ خُنتَه إنّ الأميرَ مُعـانُ
أمع الدمامـةِ قد جمعتَ خيانـةً قُبْـح الدَّميم الفاجـرُ الخَوّانُ

محمد بن صالح الجَبَليّ قال :

كان حمّاد عجرد قد مدح يقطيناً فلم يُثبه ، فقال يهجوه :

متى أَرى فيما أرى دولـةً يَعِزُّ فيهـا ناصرُ الدّيـنِ
ميمـونـة مَجّدها ربُّهـا بصـادق النيّـة ميمـونِ
تَـرُدُّ يقطينـاً ، وأشياعـه منهـا إلى أبـزار يقطـين

(١) العرة : الجرب . الكشخان : الديوث .

قال : وكان يقطين قبل ظهور الدولة العباسية بخُراسان حائكاً .

قال : ومرّ يوماً بيُونسَ بن فَروة الذي كان الربيع يزعُم أنه ابنُه ، فلم يَهَشَّ له كما عَوّده ، فقال يهجوه :

أما ابنُ فَروةَ يونسٌ فكأنــــه ... من كِبْره ابنٌ للإمــام القائم

وقال فيه :

ولقد رضيتَ بعُصبةٍ آخيتَهـــم ... وإخاؤهم لك بالمَعَرّة لازمُ

فعلمتُ حين جعلتَهم لك دِخلــةً ... أنّي لِعرضي في إخائك ظالمُ

أخباره مع مطيع بن إياس

عن عليّ بن منصور قال :

مرِض حمّاد عجرد فلم يَعُدْه مطيعُ بن إياس ، فكتب إليه :

كفاكَ عِيادتي مَن كان يرجـــو ... ثوابَ الله في صِلة المريضَ

فإن تُحدِثْ لك الأيامُ سُقمـــاً ... يحُولُ جَريضُه دون القَريض

يكنْ طولُ التأوُّهِ منك عنــدي ... بمنزلة الطَّنين من البَعُوضِ (١)

قال ابن عبد الأعلى الشَّيبانيّ :

حضر حمّاد عجرد ومطيع بن إياس مجلسَ محمد بن خالد وهو أمير الكوفة لأبي العبّاس ، فتمازحا ، فقال حماد :

يا مطيــعٌ يا مطيـــعُ ... أنت إنســـانٌ رقيـعُ

وعن الخير بطـــيء ... وإلى الشرّ سريـــع

---

(١) حال الجريض دون القريض : مثل يضرب للأمر يقدر عليه حين لا ينفع . والجريض : الغصة ، وجرض بريقه : ابتلعه مع هم وحزن ، والقريض : الشعر .

فقال مطيع :

إنّ حمّاداً لئيمُ ... سِفْلة الأصل عديمُ
لا تَراه الدهرَ إلّا ... بَهِنُ العَيْرِ يهيمُ

فقال له حماد : ويلكَ ، أترميني بدائك ! والله لولا كراهيتي لِتمادي الشرّ ولَجاجَ الهجاء لقلت لك قولاً يبقى ، ولكنّي لا أُفسد مودّتَك ، ولا أكافئك إلّا بالمديح . ثم قال :

كلُّ شيءٍ لي فِداءٌ ... لمُطيعِ بن إياسِ
رجلٌ مُستملَحٌ في ... كُلّ لِينٍ وشِماسِ
عِدلُ رُوحي بين جَنْبيَّ ... وعَينَيّ براسي
غَرَسَ اللهُ له في ... كبِدي أحلى غِراس
لستُ دهري لمطيعِ ... بنِ إياسٍ ذا تناسي
ذاك إنسانٌ له فضلٌ ... على كلّ أُناسِ
فإذا ما الكأسُ دارت ... واحتساها مَن أُحاسي
كان ذكرانا مُطيعاً ... عندَها رَيحانَ كاسي

ابن إسحاق عن أبيه قال :

... قال [حماد عجرد] في مطيع أيضاً وقد لجّ الهجاءُ بينهما :

عجبتُ للمدَّعي في الناس منزلةً ... وليس يَصلح للدُّنيا وللدِّينِ
لو أبصروا فيك وجهَ الرأي ما تركوا ... حتى يَشُدُّوك كَرها شدَّ مجنون
ما نال قطُّ مطيعٌ فضلَ منزلةٍ ... إلاّ بأن صِرتُ أهجوه ويهجوني
ولو تركتُ مُطيعاً لا أُجاوبُه ... لكان ما فيه م الآفاتِ يكفيني
يختار قُربَ الفُحول المُردِ معتمداً ... جهلاً ويترُك قُربَ الخُرَّدِ العِين (١)

(١) الخرد ج خريدة : الفتاة البكر . العين ج عيناء : الواسعة العين .

ذكر محمد بن سِنان أنّ حماد عجرد حضر جاريةً مغنّيةً يقال لها سُعاد وكان مولاها ظريفاً ، ومعه مطيعُ بن إياس ، فقال مُطيع :

قَبِّليني سعادُ باللهِ قُبلَهْ واسأليني لها فديتُكِ نِحْلَهْ
فوَربِّ السماء لو قلتِ لي صَلِّ لوجهي جعلتُكِ الدهرَ قِبْلَهْ(١)

فقالت لحماد : اكفِنيهِ يا عمّ . فقال حماد :

إنّ لي صاحباً سواك وفيّاً لا مَلُولاً لنا كما أنتَ مَلَّهْ
لا يُباع التقبيلُ بيعاً ولا يُشرى فلا تجعل التعشُّقَ عِلَّه(٢)

فقال مطيع : يا حمّاد ، هذا هجاءٌ ، وقد تعدّيتَ وتعرَّضت ، ولم تأمُرْك بهذا . فقالت الجارية ـ وكانت بارعة ظريفة ـ : أجل ، ما أردنا هذا كُلّه . فقال حمّاد :

أنا واللهِ أشتهي مثلَها منكِ والنُّحلُ في ذاك حِلَّهْ
فأجيبي وأنعمي وخُذي البَذْلَ وأطفي بقُبلةٍ منكِ غُلّهْ(٣)

أخباره مع محمد بن أبي العبّاس ومحمد بن سليمان

عن إسحاق الموصليّ قال :

كان حمّاد عجرد في ناحية محمد بن أبي العبّاس السفّاح ، وهو الذي أدّبه ، وكان محمد يهوَى زينب بنت سليمان بن عليّ ، وكان قد قدِم البصرة أميراً عليها من قِبَل عمّه أبي جعفر ، فخطَبها ، فلم يُزوّجوه لشيءٍ كان في عقله ، وكان حمّاد وحَكَم الوادي ينادمانه ، فقال محمد لحمّاد : قُل فيها

(١) النحلة : العطية .
(٢) رجل ملّة : سريع الملل .
(٣) النحل : الهبة . حلة : حلال . الغلة : الظمأ .

شعراً . فقال حمادٌ فيها عِلى لسان محمد بن أبي العباس ، وغَنّى فيه حكمُ الوادي :

زينبُ ما ذنبي وما الـــــذي | غضِبتمُ منه ولم تُغْضَبـوا
والله ما أعرِفُ لي عندكـــم | ذنباً ففيمَ الهجرُ يا زينبُ
إن كنتُ قد أغضبتكُمْ ضَلّـةً | فاستعتِبُوني إنني أُعتـبُ
عُـودوا على جهلـي بأحلامكم | إنّي وإن لم أُذنِب المذنِـبُ(١)

العُتبيُّ قال :

كان محمد بن أبي العبّاس شديداً قوّياً جَواداً مُمدَّحاً ، وكان يَلوي العَمود ثم يُلقيه إلى أخته ريْطة فتردُّه . وفيه يقول حماد عجرد :

أرجوكَ بعد أبي العبّـاس إذ بانـا | يا أكرمَ الناس أعراقـاً وعِيدانا
فأنت أكرمُ من يمشي على قـدمٍ | وأنضَرُ الناس عند المَحْل أغصانا
لو مَجّ عُودٌ على قوم عُصارتَــه | لَمجّ عُودُك فينا المِسكَ والبانـا

أبو عثمان المازنيّ قال :

قال حمّاد عجرد يُشبّب بزينب بنت سليمان على لسان محمد بن أبي العبّـاس :

ألا مَن لِقلبٍ مُستَهامٍ مُعَـذَّبِ | بحُبّ غَزالٍ في الحِجال مُربَّبِ
يراه فـلا يسطيع ردّاً لِطَرْفِـه | إليه حِذارَ الكاشـح المُترقِّبِ
ولولا مَليـكٌ نافـذٌ فيه حُكمُـه | لَأدنـى وِصالاً ذاهباً كـلَّ مَذهب
تَغبَّرْتُ خِلْفَ اللهو بعد صِراوةٍ | فبُحت بما ألقاه من حُبّ زينبِ(٢)

---

(١) لم تغضبوا : لم أفعل ما يستوجب غضبكم . استعتبه : طلب منه العتبى أي العفو والرضا . ضلة : ضلالاً .

(٢) الحجال ج حجلة : موضع يزين بالستور والثياب للعروس . مربب : مربى . =

قال : فبلغ الشعرُ محمدَ بن سليمان ، فنذَر دمه ، ولم يقدِر عليه لمكانه من محمد .

عن محمد بن عبد الرحمن قال :

مات محمد بن أبي العبّاس في أول سنة خمسين ومائة ، فقال حمّادٌ يرثيه بقوله :

صِرتُ للدّهر خاشعاً مُستكينا بعدما كنتُ قد قهرتُ الدُّهورا
حين أودَى الأميرُ ذاك الـــذي كنتُ به حيث كُنتُ أُدعَى الأميرا
كنتُ إذ كان لي أُجير بـــه الدَّهـــرَ فقد صِرتُ بعده مُستجيرا
يا سَميَّ النبيّ يابنَ أبي العَبّـــاس حقَّقتَ عنديَ المحذُورا
سلبتـــني الهمـــومُ إذ سَلَبَتْنيـكَ سروري فلست أرجو سرورا
ليتني مِتُّ حينَ موتك لا بـــل ليتني كنتُ قبلَك المقبُورا
أنت ظَلَّلتني الغَمـامَ بنُعمـا ك ووَطّأتَ لي وِطاءً وَثيرا
لم تدَعْ إذ مضيتَ فينا نظـيراً مِثلَ ما لم يَدَعْ أبوك نظيرا

عن إسحاق قال :

لمّا مات محمد بن أبي العبّاس طلب محمد بنُ سليمان حمّاد عجرد لِما كان يقوله في أخته زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مُقام له معه بالبصرة ، فمضى فاستجار بقبر أبيه سليمان بن عليّ ، وقال فيه :

مِن مُقرٌّ بالذّنب لم يُوجب اللـــهُ عليه بسَيّءٍ إقـــرارا
ليس إلاّ بفضـــل حِلمـــك يَعتَـدُّ بـلاءً وما يُعـدّ اعتـــذارا
يابـنَ بنت النبيّ أحمـدَ لا أَجعـــلُ إلاّ إليـكَ منـكَ الفِـرارا

= تغبر الناقة : احتلب غيرها والغبر : بقية اللبن في ضرع الناقة . الخلف : الضرع .
أصرت الناقة : تحفل اللبن في ضرعها .

غير أنّي جعلت قبرَ أبي أيّــوب لي من حوادث الدَّهـر جـارا
وحَرِيٌّ من استجـار بذاك القَبـر أن يأمَـنَ الرَّدى والعِثـارا
لم أجِد لي من العبـاد مُجيراً فاستجرتُ الـتراب والأحجارا

[الأبيات ...]

عليّ بن الصبّاح قال :

كان محمد بن سليمان قد طلب حمّاد عجرد بسبب نَسيبه بأخته زينب ، ولم يكن يقدر عليه لمكانه من محمد بن أبي العبّاس ، فلمّا هلَك محمد جَدّ ابنُ سليمان في طلبه ، وخافه حمّاد خوفاً شديداً ، فكتب إليه :

يابنَ عمّ النبيِّ وابن النـبيّ لِعـليٍّ إذا انتمـى وعـليٍّ
أنت بدرُ الـدُّجى المضيىءُ إذا أظلـم واسودّ كلُّ بدرٍ مُضيّ
وحَيا الناس في المُحولِ إذا لـم يُجدِ غيثُ الربيع والوَسْميّ
إنّ مـولاك قـد أسـاء ومن أعتب من ذَنبه فغيرُ مُسِـيّ
ثم قد جاء تائبـاً فاقبل التـو بة منه يابن الوصيّ الرَّضِـيّ

قال : ومضى إلى قبر أبيه سليمان بن عليّ فاستجار به ، فبلغه ذلك ، فقال : والله لأبلّـنّ قبر أبي من دمه . فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور ، فأجاره ، فقال : لا أرضى أو تهجوَ محمد بن سليمان ، فقال يهجوه :

قُل لوجه الخَصيّ ذي العار إنّي سوف أُهدي لزينب الأشعارا
قد لعمري فررتُ من شدّة الخو ف وأنكـرت صـاحبيَّ نهارا
وظننتُ القبور تمنع جـاراً فاستجرتُ التُراب والأحجارا
كنـت عنـد استجارتي بأبي أيّـوب أبغـي ضَلالـةً وخَسـارا
لم يُجِـرني ولم أجِد فيه حظّـاً أضرم الله ذلك القـبرَ نـارا

... قال : فبلغ هجاؤه محمدَ بن سليمان فقال : والله لا يُفلتني أبداً ، وإنما يزداد حَتفاً بلسانه ، ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً .

سائر أخباره

● أبو دُهمان قال :

كان أبو حنيفة الفقيه صديقاً لحمّاد عجرد ، فنسك أبو حنيفة وطلب الفِقه ، فبلغ فيه ما بلغ ، ورفَض حمّادٍ وبسَط لسانه فيه ، فجعل حمّاد يُلاطفه حتى يكفَّ عن ذِكره ، وأبو حنيفة يَذكره ، فكتب إليه حمّاد بهذه الأبيات :

إن كان نُسكُك لا يتمّ بغير شتمي وانتقاصي
أو لم تكن إلّا به ترجو النجاةَ من القِصاص
فاقعُد وقُم بي كيف شئتَ مع الأداني والأقاصي
فلطالما زكَّيتَني وأنا المقيمُ على المعاصي
أيام تأخُذها وتُعطي في أباريق الرَّصاص[1]

قال : فأمسك أبو حنيفةَ رحمه الله بعد ذلك عن ذكره خوفاً من لسانه .

● عن النَّضر بن حديد قال :

كان حمّاد عجرد صديقاً ليحيى بن زياد ، وكانا يتنادمان ويجتمعان على ما يَجتمع عليه مثلُهما . ثم إنّ يحيى بن زياد أظهر تورّعاً وقراءةً ونُزوعاً عمّا كان عليه ، وهجر حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكر عنده ثَلَبه وذكر تهتُّكَه ومُجونَه . فبلغ ذلك حمّاداً ، فكتب إليه :

هل تذكرن دَلَجي إليك على المُضمَّرةِ القِلاصِ
أيّامَ تُعطيني وتأخُذ من أباريقِ الرِّصاص

---

(١) تأخذها : أي الخمرة .

إن كـــان نُسكـك لا يتـــــمّ بغير شتمــــي وانتقاصي
أو كنتَ لست بغير ذا ك تنال منزلـــةَ الخَـــلاص
فعليــك فاشتُـــم آمنـــاً كلَّ الأمان من القِصاص

[الأبيات ..]

فاتّصل هذا الشعر بيحيى بن زياد ، فنسب حماداً إلى الزّندقة ورمـاه بالخروج عن الإسلام ، فقال حمّاد فيه :

لا مُؤمـنٌ يعرفُ إيمـانـــــه وليس يحيى بالفتـى الكافـرِ
منـــافقٌ ظاهــرهُ ناســـــكٌ مُخالفُ البــاطن للظّـاهرِ

● عن إبراهيم بن محمد بن عبد الحميد قال :

اجتمع عمّي سهمُ بن عبد الحميد وجماعةٌ من وجوه أهل البصرة عند يحيى بن حُميد الطويل ، ومعهم حمادُ عجردٍ ، وهو يومئذٍ هاربٌ من محمد ابن سليمان ونازلٌ على عُقبةَ بن سَلْم وقد أَمِن ، وحضَر الغَداءُ فقيل له : سهمُ بن عبد الحميد يصلّي الضُّحى فانتظِر . وأطال سهمٌ الصلاة ، فقال حماد :

ألا أيُّهذا القانتُ المتهجِّـــــدُ صلاتُــك للرحمن أم لِيَ تسجُدُ
أما والذي نادى من الطُّور عبدَه لَـمن غيرِ ما بِرٍّ تقوم وتَـقعُـد
فهلّا اتَّقيتَ اللهَ إذ كنتَ واليـــاً بصنعاءَ تَبري مَن وَلِيت وتجرُدُ
ويشهدُ لي أنّي بذلــك صـــادقٌ حُرَيثٌ ويحيى لي بذلك يَشهد
وعند أبي صِفوانَ فيك شهـــادةٌ وبَكرٍ ، وبكرٌ مسلمٌ متهجِّـدُ
فإن قلتَ زِدني في الشهود فإنـــه سيشهد لي أيضاً بذاك محمدُ

قال : فلمّا سمعها قطع الصلاة وجاء مبادراً فقال له : قَبحَك اللهُ يا زنديقُ ، فعلت بي هذا كلَّه لِشرهك في تقديم أكلٍ وتأخيره ! هاتوا طعامَكم فأطعِموه لا أطعمه الله تعالى ، فقُدّمت المائدة .

● عن إسحاق الموصليّ

أنّ مُجاشع بن مَسَعَدة ، أخا عمرو بن مسعدة ، هجا حمّادَ عجردٍ ، وهو صبيّ حينئذٍ ، ليرتفع بهجائه حماداً ، فترك حمادا وشبب بأمه ، فقال :

راعتْكَ أم مجاشــــعٍ بالصَّـدِّ بعد وصالِهـا
واستبدلـتْ بـكَ والبـلاءُ عليك في استبدالهـا
جِنّيّـةٌ مـن بَربـرٍ مشهورةٌ بجمـالهـا
فحرامُهـا أشهـى لنـا ولهـا مـن استحلالها

فبلغ الشعر عمرو بن مسعدة ، فبعث إلى حماد بصلةٍ ، وسأله الصَّفح عن أخيه ، ونال أخاه بكل مكروهٍ وقال له : ثَكلتْكَ أمُّك ، أتتعرّضُ لحمادٍ وهو يُناقف[1] بشاراً ويقاومه ! والله لو قاومتَه لما كان لك في ذلك فخرٌ ، ولئن تعرّضتَ له لَيَهْتِكَنَّك وسائرَ أهلك ولَيفضحنّا فضيحةً لا نَغسلها أبداً عنّا .

وفاته

وقد اختُلف في وفاة حمّاد

عمر بن شبّة قال : حدّثني أبو داحةَ وعبدُ الملك بن شيبانَ أنّ حمّاداً هرب من محمد بن سليمان فأقام بالأهواز مُستتراً ، وبلغ محمداً خبرُه فأرسل مولًى له إلى الأهواز ، فلم يزل يطلبُه حتى ظفِر به فقتله غيلةً .

عن أحمد بن خَلّاد أن حماداً نزل بالأهواز على سُليم بن سالم ، فأقام عنده مدّةً مستتراً من محمد بن سليمان ، ثم خرج من عنده يريد البصرة ، فمرّ بشِير زاذانَ في طريقه ، فمرض بها ، فاضطُرّ إلى المُقام بها بسبب علّته ، فاشتدّ مرضُه ، فمات هناك ودُفن على تَلعة . وكان بشار بلغه أن حمّاداً عليلٌ لما به ، ثم نعي إليه قبل موته ، فقال بشار :

---

(١) المناقفة : المضاربة بالسيوف ، وأراد أنه يهاجيه .

لو عـاش حمّـاد لهونا بـه   لكنـه صار إلى النـار

فبلغ هذا البيت حمادا قبل أن يموت وهو في السِّياق[1] ، فقال يردّ عليه :

نُبِّئتُ بشـاراً نَعـاني ولِلمـوت براني الخالـقُ البـاري

يـا ليتـني مـتٌّ ولم أهجُـه   نعـمْ ولو صرت إلى النـار

وأيٌّ خِزيٍ هو أخزى مـن ان   يقالَ لي يا سِبَّ بشّـار[2]

قال : فلما قَتل المهديُّ بشاراً بالبَطيحة اتفق أن حُمل إلى منزله ميتاً ، فدفن مع حمّاد على تلك التَلعة ، فمرّ بهما أبو هشام الباهليُّ الشاعر البصري الذي كان يهاجي بشاراً ، فوقف على قبريهما وقال :

قد تبع الأعمى قفا عَـجردٍ   فأصبحـا جارين في دار

قالت بِقاعُ الأرض لا مَرحبـاً   بقُـرب حمّـاد وبشّـار

تجـاورا بعد تنائيهمـا   ما أبغضَ الجارَ إلى الجـار

صارا جميعاً في يدَي مالـكٍ   في النـار والكافرُ في النار

* * *

(١) السياق : نزع الروح .

(٢) سب الرجل : من يسابه ويشاتمه .

١٩

دِعْبِل

[الأغاني ج ٢٠ ص ١٢٠ وما بعدها]

الشاعر

هو دِعْبِل بن عليّ بن رَزين ... بن أَسْلَم بن أَفْصى بن حارثةَ بن عَمرو ابن عامر بن مُزَيْقِيا(١) ، ويُكنَى أبا عليّ .

شاعرٌ متقدّمٌ مطبوعٌ هَجّاء خبيث اللّسانِ ، لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة ، أَحْسَنَ إليه أو لم يُحْسِن ولا أفلت منه كبيرُ أحدٍ .

---

(١) كذا أورد أبو الفرج نسب أسلم في هذه الترجمة والذي عليه جمهرة النسابين : أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو مُزيقياء بن عامر ماءالسماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد) وثمة خلاف بين النسابين في نسب قبيلتي أسلم وخزاعة ، اذ يجعلهما بعضهم من ولد قمعة بن اليأس بن مضر فهما عندهم من عدنان ويجعلهما آخرون من بطون قبيلة الأزد القحطانية ، وعلى الرغم من أن دعبل بن علي كان من قبيلة أسلم فالنسابون ينسبونه الى خزاعة من باب التغليب وبنو أفصى هم أسلم ومالك وملكان ويقول النسابون إن هذه البطون الثلاثة تخزعت من بني قمعة فأطلق عليها لفظ خزاعة . (راجع جمهرة الأنساب لابن حزم) .

وكان شديد التعصّب على النِّزاريّة للقَحطانيّة ، وقال قصيدة يردّ فيها على الكميت بن زيد ويُناقضه في قصيدته المُذْهَبة التي هجا بها قبائل اليمن :

ألا حُيّيتِ عنّا يا مَدِينا

فرأى النبيَّ ﷺ في النوم ، فنهاه عن ذكر الكُميت بسوء .

وناقضه أبو سَعد المخزوميّ في قصيدته وهاجاه ، وتطاول الشرُّ بينهما ، فخافت بنو مَخزوم لسان دِعبل وأن يَعمَّهم بالهجاء ، فنفَوا أبا سعد عن نسبهم ، وأشهَدوا بذلك على أنفُسهم .

وكان دعبِلٌ من الشِيعة المشهورين بالميل إلى عليّ صَلوات الله عليه ، وقصيدته :

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تِلاوةٍ

من أحسن الشعر وفاخر المدائح المَقُولة في أهل البيت ـ عليهم السلام ـ وقصد بها أبا الحَسَن عليّ بن موسى الرِّضا ـ عليه السّلام ـ بخُراسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدّراهم المضروبة باسمه ، وخَلع عليه خِلعةً من ثيابه ، فأعطاه بها أهلُ قُمٍّ ثلاثين ألف درهم ، فلم يَبعها ، فقطعوا عليه الطريق فأخذوها ، فقال لهم : إنّها إنّما تُراد لله عزّ وجلّ ، وهي مُحرّمة عليكم . فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألّا يبيعها أو يُعطوه بعضَها ليكون في كفَنه ، فأعطوه فَرْدَ كُمّ ، فكان في أكفانه .

وكتب قصيدته « مدارس آيات » ـ فيما يقال ـ على ثوبٍ ، وأحرم فيه ، وأمر بأن يكون في أكفانه .

ولم يزل مرهوبَ اللسان ، وخائفاً من هجائه للخلفاء ، فهو دهرَه كلَّه هاربٌ مُتوارٍ .

أبو هفّان قال : قال لي دعبلٌ : قال لي أبو زيد الأنصاريُّ : مِمَّ اشتُقّ دِعبل ؟ قلت : لا أدري . قال : الدِّعبل الناقة التي معها ولدُها .

محمد بن أيّوب قال :

دعبل اسمه محمّد ، وكنيته أبو جعفر ، ودعبل لقبٌ لُقّب به .

محمد بن القاسم بن مَهْرَويه قال : سمعت حُذيفة بن محمّد الطائيّ يقول : الدِّعبل : الشيء القديم . قال ابن مَهْرُويه : سمعت أبي يقول : خُتم الشعر بدِعبل .

محمد بن القاسم بن مهرويه قال : قال لي البحتريّ : دعبل بن عليّ أشعر عندي من مُسلم بن الوليد . فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم . وكان يتعصّب له .

الجاحظ يقول : سمعت دعبل بن عليّ يقول : مكثت نحو ستين سنةً ليس من يوم ذرّ شارقُه إلا وأنا أقول فيه شعراً .

الحسين بن عليّ قال : قلت لابن الكلبيّ : إنّ دِعْبِلاً قُطَعيّ[1] ، فلو أخبرت الناس أنه ليس من خُزاعة . فقال لي : يا فاعل ، مِثل دعبلٍ تَنفيه خُزاعة ! والله لو كان من غيرها لرغبت فيه حتى تدّعيَه ؛ دعبل واللهِ يا أخي خُزاعةُ كلّها .

مصاحبته الشطّار واللصوص في شبابه

أبو خالد الخُزاعيّ الأسلَميّ :

كان سبب خروج دعبل بن عليّ من الكوفة أنه كان يتشطّر ويصحب الشُطّار[2] ، فخرج هو ورجل من أشجَع فيما بين العِشاء والعَتَمة ، فجلسا

(١) قطعي : منسوب الى قُطيعة ، بضم أوله ، وهو بطن من ربيعة بن زُبيد بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج .

(٢) الشطار ج شاطر : أصل معناه من أعيا أهله خبثاً ، ثم أريد به اللص الذي يعدو على الناس ويغصبهم أموالهم .

على طريـق رجـلٍ من الصيارفة ـ وكان يروح كلَّ ليلة بكيسه إلى منزله ـ فلمّا طلع مُقبلاً إليهما وثبا إليه فجرَحاه، وأخذا ما في كُمّه، فإذا هي ثلاث رُمّانات في خِرقة، ولم يكن كيسُه لَيْلَتئذ معه. ومات الرجل مكانه، واستتر دِعبل وصاحبُه، وَجَدّ أولياء الرجلِ في طلبهما، وجَدّ السلطان في ذلك، فطال على دعبل الاستتار، فاضطُّر إلى أن هرب من الكوفة. قال أبو خالد: فما دخلها حتى كتبتُ إليه أُعلِمه أنه لم يبق من أولياء الرجل أحدٌ.

عن أبي خالد الأسلَميّ قال:

كان دعبل بن عليّ الخُزَاعي بالكوفة يتشطّر وهو شابّ، وكانت له شَعرةٌ جَعدة[1]، وكان يَدهنُها ويُرَجِّلُها حتى تكاد تقطُر دُهناً، وكان يصلت[2] على الناس بالليل. فقتل رجلاً صيرفياً، وظنّ أن كيسه معه، فوجد في كمه رمّاناً، فهرب من الكوفة. وكنت إذا رأيت دِعبلاً يمشي رأيت الشَّطارة في مِشيته وتبختُره.

أحمد بن أبي كامل قال:

كان دعبل يخرج فيغيب سِنين، يدور الدنيا كلَّها، ويرجع وقد أفاد وأثرى. وكانت الشُّراة[3] والصَّعاليك يلقَونه فلا يُؤذونه، ويُؤاكلونه ويُشاربونه ويَبَرُّونه، وكان إذا لَقِيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم إليه، ودعا بغُلاميه نقيف وشعف، وكانا مُغَنّيَين، فأقعدهما يُغنّيان، وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكانوا قد عرَفوه وألِفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يُواصلونه ويَصِلُونه. وأنشدني دعبل بن عليّ لنفسه في بُعد أسفاره:

حللتُ محلاً يقصرُ البرقُ دونـه ... ويعجزُ عنه الطَّيف أن يتجشَّما

(١) يراد بالشعرة هنا الشعر كله لا واحدته.

(٢) يصلت على الناس: يعدو عليهم للسرقة والصلت ـ بكسر الصاد ـ اللص.

(٣) أحسب أن في الكلمة تحريفاً وأن أصلها «الشطّار» أي اللصوص الذين يعدون على الناس.

تشيّعه لآل البيت

موسى بن عيسى المَروزيّ قال :

سمعت دعبل بن عليّ وأنا صبيّ يتحدّث في مسجد المَروزيّة قال : دخلتُ على عليّ بن موسى الرضا ـ عليهما السلام ـ فقال لي : أنشِدني شيئاً مما أحدثت . فأنشدتهُ :

مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تِلاوةٍ ومَنزلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصات

حتى انتهيت إلى قولي :

إذا وُتروا مَدُّوا الى واتريهـم أكُفّاً عن الأوْتار مُنقبضاتِ

قال فبكى حتى أُغمي عليه ، وأومأ إليَّ خادمٌ كان على رأسه : أن اسكُتْ. فسكتٌ ساعةً ، ثم قال لي : أَعِدْ. فأعدتُ حتى انتهيت إلى هذا البيت ، فأصابه مثلُ الذي أصابه في المرّة الأولى ، وأومأ إليّ الخادم أن اسكُتْ ، فسكتٌ . فمكث ساعةً أخرى ثم قال لي : أعِدْ . فأعدتُ حتى انتهيت إلى آخرها ، فقال لي : أحسنتَ ، ثلاث مرّات . ثم أمر لي بعشرة آلاف دِرهم ممّا ضُرب باسمه ، ولم تكن دُفعت إلى أحدٍ بعدُ ، وأمرَ لي مَن في مَنزله بحَلْي كثيرٍ أخرجه إليّ الخادمُ ، فقدِمت العراق ، فبِعتُ كلّ درهم منها بعشرة دراهم ، اشتراها مني الشّيعةُ ، فحصل لي مائةُ ألف درهم ، فكان أوّل مالٍ اعتقدتُه[1] .

قال ابن مَهرويه وحدّثني حُذَيفة بن محمد :

أنّ دِعبلاً قال له : إنه استوهبَ من الرِّضا عليه السلام ثوباً قد لبسه ليجعلَه في أكفانه ، فخلَع جُبّةً كانت عليه فأعطاه إيّاها . وبلغ أهلَ قُمّ خبرُها ، فسألوه أن يبيعَهم إيّاها بثلاثين ألف درهم ، فلم يفعل ، فخرجوا عليه في طريقه فأخذوها منه غصْباً ، وقالوا له : إن شئت أن تأخذ المالَ فافعل ، وإلاّ

---

(١) اعتقدته : جمعته .

فأنت أعلَم . فقال لهم : إنّي واللهِ لا أُعطيكم إياها طوعاً ، ولا تنفعكُم غَصباً ، وأشكُوكم إلى الرِّضا عِليه السّلام . فصالحوه على أن أعطَوه الثلاثين الألف الدِرهم وفَرْدَ كُمٍّ من بِطانتها ، فرضي بذلك .

إغارته على معاني الشعراء

أبو هَفّان قال : قال مسلم بن الوليد :

مُستعبِرٌ يبكي على دِمنــــةٍ ورأسُه يضحكُ فيه المَشيبْ

فسرقه دعبل فقال :

لا تعجَبي يا سَلمُ من رَجُــلٍ ضحك المشيبُ برأســه فبكى

فجاء به أجود من قول مُسلم ، فصار أحقّ به منه .

أبو المثّنى أحمدُ بن يعقوب ابن أخت أبي بكر الأصمّ قال :

كنّا في مجلس الأصمعيّ ، فأنشده رجل لِدعبل قولَه :

لا تعجَبي يا سلــمُ من رجــلٍ ضحك المَشيبُ برأسه فبكى

فاستحسنّاه ، فقال الأصمعي : إنّما سرقه من قول الحسين بن مُطَير الأسديّ :

أين أهلُ القِباب بالدَّهنــــاءِ أين جيرانُنا على الأَحســاءِ
فارقونا والأرضُ مُلْبَسَــةٌ نَــوْ رَ الأَقاحي تُجــادُ بالأنواءِ
كلَّ يومٍ بأُقحُوانٍ جديــــدٍ تضحك الأرضُ من بُكاء السّماءِ

ولعه بالهجاء ورداءة طبعه

أبو خالد الخُزاعيُّ الأَسلميّ قال :

قلت لِدعبل : ويحَك ، قد هجوتَ الخُلفاء والوزراء والقُــوّاد ، ووترتَ الناسَ جميعاً ، فأنت دَهرَك كُلّــه شريدٌ طريد هاربٌ خائف ، فلو كففتَ عن هذا وصرفتَ هذا الشرَّ عن نفسك . فقال : ويحَك ! إنّي تأمّلتُ ما تقول ،

فوجدت أكثر الناس لا يُنْتَفَع بهم إلّا على الرَّهبة ، ولا يُبالَى بالشاعر وان كان مُجيداً إذا لم يُخَفْ شرُّه ، ولَمَن يتَّقيك على عِرضه أكثر ممّن يرغَب إليك في تشريفه ، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كلٌّ من شَرَّفته شَرُف ، ولا كلٌّ من وصفتَه بالجُود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفَع بقولك ، فإذا رآك قد أوجعتَ عِرضَ غيره وفضحتَه اتّقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر . ويحك يا أبا خالد ! إنّ الهجاء المُقْذِع آخذُ بِضَبْع[1] الشاعرِ من المديح المُضرِع . فضحكت من قوله وقلت : هذا واللهِ مَقالُ مَن لا يموتُ حَتْفَ أنفه .

عبدالله بن مُسلِم بن قتيبة قال :

رأيت دعبلَ بن عليّ وسمعته يقول : أنا أحمل خَشَبتي على كتفي منذ خمسين سنةً ، لست أجد أحداً يَصلِبُني عليها .

أحمد بن أبي كامل قال :

كان دعبلٌ يُنشدني كثيراً هجاءً قاله ، فأقول له :فيمن هذا ؟ فيقول : ما استحقّه أحدٌ بعينه بعدُ ، وليس له صاحبٌ . فإذا وَجِد[2] على رجلٍ جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر .

محمد بن الأشعث قال :

سمعت دعبلاً يقول : ما كانت لأحدٍ قطُّ عندي مِنّةٌ إلا تمنّيت موتَه .

تتلمذه لمسلم بن الوليد

الحسين بن أبي السَريّ قال : قال لي دعبل : ما زلت أقول الشعر وأعرِضه على مُسلِم فيقول لي : اكتُم هذا . حتى قلت :

---

(١) الضبع : العضد أو الأبط ، وأخذ بضبعه : رفع من شأنه وقوّاه .

(٢) وجد عليه ـ بفتح الجيم وكسرها ـ : غضب .

أيــن الشبــاب وأيّــةً سلكــا   لا أين يطلَبُ ضَلّ بل هَلَكــا

فلما أنشدته هذه القصيدة قال : اذهب الآن فأظهِر شِعرك كيف شئت لِمن شئت .

بدء اشتهاره بالشعر وهجاؤه خلفاء بني العبّاس

[عن عبدالله بن طاهر] قال :

أسمع أنه كان أيامَ ترعرع خاملاً لا يُؤْبَه له ، وكان ينام هو ومسلم ابن الوليد في إزارٍ واحد ، لا يملِكان غيرَه . ومُسلمٌ أستاذُه وهو غلامٌ أَمرَدُ يخدمُه ، ودِعبل حينئذٍ لا يقول شعراً يفكر فيه حتى قال :

لا تعجبي يا سلمُ من رجـــلٍ   ضحك المشيب برأســـه فبكى

وغنّى فيه بعض المُغنّين وشاع ، فغنيَّ به بين يَدي الرّشيد إمّا ابنُ جامع أو ابنُ المكّي ، فطرِب الرَّشيدُ وسأل عن قائل الشعر ، فقيل له : دِعبل بن عليّ ، وهو غلامٌ نشأ من خُزاعـة . فأمر بإحضارعشرة آلاف درهم وخِلعةٍ من ثيابه ، فأُحضر ذلك ، فدفَعه مع مركَبٍ من مَراكبه إلى خـادم من خاصّته وقال له : اذهب بهذا إلى خُزاعة فاسأل عن دِعبل بن عليّ فإذا دُللتَ عليه فأَعطِه هذا وقُل له : لِيَحضَرْ إن شاء ، وإن لم يحبّ ذلك فدَعْه . وأمر للمغنّي بجائزة ، فسار الغلام إلى دعبل وأعطاه الجائزة وأشار عليه بالمسير إليه .

فلمّا دخل وسلّم أمره بالجلوس فجلس ، واستنشده الشعر فأنشده إيّاه ، فاستحسنه وأمره بملازمته وأجرى عليه رِزقاً سَنِيّاً ، فكان أوّلَ من حَرّضه على قول الشعر ، فوالله ما بلغه أنّ الرّشيد مات حتى كافأه على ما فَعله من العَطاء السَّنيّ ، والغِنى بعد الفقر ، والرِّفعة بعد الخُمول ، بأقبح مكافأة ، وقال فيه من قصيدة مَدح بها أهل البيت عليهم السّلام ، وهجا الرشيد :

وليس حيٌّ من الأحيـاء نعلَمُـه   من ذي يمانٍ ومن بَكْرٍ ومن مُضَرِ
إلّا وهـم شركـاءُ في دمائهـم   كما تشارك أَيسارٌ على جُزُر

قتلٌ وأسرٌ وتحريـــقٌ ومَنْهبَــــة … فعلَ الغُزاة بأرض الرُّوم والخَزر
أرى أُميّةَ مَعذُورين إن قَتلــــوا … ولا أَرى لبني العبّاس من عُـذُر
اِربَعْ بطُوسٍ على القبر الزكيّ إذا … ما كنت تَربَعُ من دِينٍ على وطَر
قبران في طُوسَ خيرُ الناس كلِّهم … وقبرُ شَرّهم هــذا من العِبَــــر
ما ينفعُ الرِّجسَ من قُرب الزكيّ ولا … على الزكيّ بقُرب الرِّجس من ضَرر
هيهات كلّ امرىءٍ رهنٌ بما كسَبتْ … له يداه فخُذ ما شئتَ أو فَذَرِ (١)

يعني قبر الرّشيد وقبر الرّضا عليه السَّلام ، فهذه واحدة . وأما الثانية فإن المأمون لم يزل يطلُبه وهو طائرٌ على وجهه ، حتى دُسَّ إليه قوله :

عِلْمٌ وتحكيمٌ وشَيبُ مَفــــارقِ … طَمَّسْن رَيْعانَ الشَّباب الرائــقِ
وإمــارةٌ في دولــةٍ مَيمونــــةٍ … كانت على اللّذاتِ أشغبَ عائق
أنّى يكون وليس ذاك بكائـــــنٍ … يَرث الخلافةَ فاسقٌ عن فـاسقِ
إن كان إبراهيم مُضطَّلعاً بهـــا … فَلَتَصْلُحَنْ من بَعده لِمُخارقِ (٢)

فلمّا قرأها المأمون ضحك وقال : قد صفحتُ عن كلّ ما هجانا به إذ قرن إبراهيم بمُخارق في الخلافة وولّاه عهدَه .

وكتب إلى أبي (٣) أن يُكاتبه بالأَمان ، ويحمِل إليه مالاً . وإن شاء أن يُقيم عنده أو يصير إليهحيث شاء فَلْيفعلْ . فكتب إليه أبي بذلك ـ وكان

---

(١) الأيسار: القوم المجتمعون على الميسر. والجزر ج جزور: الناقة المعدة للذبح وهي التي يقامرون عليها .

(٢) ابراهيم : أراد ابراهيم بن المهدي ، وكان دعبل كثير الهجاء له . ومخارق : هو ابن يحيى المغني ، وكان من موالي الرشيد .

(٣) الى أبي : اي الى طاهر بن الحسين ، قائد المأمون وقاتل أخيه الأمين ، وكان خزاعياً بالولاء ، ولدعبل هجاء فيه وفي ابنه عبدالله بن طاهر .

واثقاً به ـ فصار إليه ، فحمله وخلع عليه وأجازه واعطاه المال ، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل . فلمّا دخل وسلّم عليه تبسم في وجهه ، ثم قال أنشِدني :

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تِلاوةٍ ومنزلُ وَحْيٍ مُقفِر العَرَصات

فجزع ، فقال له : لك الأمانُ ، فلا تَخَفْ ، وقد روَيتُها ، ولكنّي أحبّ سَماعَها من فيك . فأنشده إيّاها إلى آخرها والمأمون يبكي حتى أَخْضَلَ لِحيتِهِ بدمعه ، فوالله ما شعرَنا به إلّا وقد شاعت له أبياتٌ يهجو بها المأمونَ بعد إحسانه إليه وأُنسه به ، حتى كان أوّل داخل وآخرَ خارجٍ من عنده .

محمد بن المؤدّب قال :

قيل للمأمون : إنّ دِعبل بن عليّ قد هجاك . فقال : وأيُّ عَجَبٍ في ذاك ؟ هو يهجو أبا عَبّاد ولا يهجوني أنا ! ومن أَقدم على جُنون أبي عَبّاد أقدم على حِلمي . ثم قال للجُلَساء : مَن منكم يحفظ شعره في أبي عبّاد فليُنْشِدْنيه . فأنشده بعضُهم :

أَولَى الأمور بضَيعةٍ وفَساد أمرٌ يُدبِّره أبو عَبّادِ
خَرِقٌ على جُلَسائه فكأنّهم حضَروا لِملحمةٍ ويوم جِلاد
يسطُو على كُتّابه بدَواته فمُضَمَّخٌ بدمٍ ونَضْحِ مِداد
وكأنّه من دَير هِزْقِلَ مُفلِتٌ حَرِدٌ يجُرُّ سَلاسلَ الأقيادِ
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين قِيادَه فأصحُّ منه بَقِيَّةُ الحَدّاد (١)

قال : وكان بقيّة هذا مجنوناً في المارستان . فضحك المأمون ، وكان إذا نظر إلى أبي عباد يضحك ويقول لمن يقرُب منه : والله ما كذب دِعبل في قوله .

---

(١) دير هزقل : دير بين البصرة وعسكر مكرم ، يقال إن الطاعون وقع في ذلك الموضع فخرج أهله من ديارهم هاربين ، والذي يستخلص من البيت أنه أصبح مكاناً يحتبس فيه المجانين . حرد : غضبان .

إبراهيم بن المُدبّر قال :

لقيت دِعبل بن عليّ فقلت له : أنت أجسرُ الناس عندي وأقدَمُهم[1] حيث تقول :

إنّي من القوم الذين سيوفُهم ... قتلت أخاك وشرّفتك بمَقْعَدِ

رفعوا محلَّك بعد طُول خُموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد[2]

فقال : يا أبا إسحاق ، أنا أحمِل خشَبَتي منذ أربعين سنةً ، فلا أجد من يصلِبُني عليها .

عمرو بن مَسْعدة قال :

حضرت أبا دُلف عند المأمون ، وقد قال له المأمون : أيَّ شيء تَروي لأخي خُزاعة يا قاسم ؟ فقال : وأيُّ أخي خزاعةَ يا أمير المؤمنين؟ قال : ومن تعرف فيهم شاعراً ؟ فقال : أمّا من أنفُسهم فأبو الشِّيص ودِعْبِل وابنُ أبي الشِّيص وداود بن أبي رَزين ، وأمّا من مَواليهم فطاهرٌ وابنُه عبدالله . فقال : ومن عَسَى في هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دِعبل ! هاتِ أيَّ شيء عندك فيه . فقال : وأيَّ شيء أقول في رجلٍ لم يَسْلَم عليه أهلُ بيته حتى هجاهم ، فقَرن إحسانهم بالإساءة ، وبَذْلَهم بالمَنع ، وجُودهم بالبخل ، حتى جعل كل حَسَنةٍ منهم بإزاء سَيّئةٍ ! قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول في المُطّلِب بن عبدالله بن مالك ، وهو أصدق الناس له ، وأقرُبهم منه ، وقد وفد إلى مصر فأعطاه العطايا الجزيلة وولّاه ، ولم يمنعْه ذلك من أن قال فيه :

اضرِب ندَى طَلْحةِ الطَّلَحات مُتَّئداً ... بلوَم مُطّلبٍ فينا وكُن حَكَما

تخرجْ خزاعةُ من لُؤمٍ ومن كرمٍ ... فلا تُحسّ لها لُؤماً ولا كَرَما

---

(١) أقدمهم : من الإقدام أي أشجعهم .

(٢) يفخر دعبل على المأمون في هذين البيتين بأن الذي قتل أخاه الأمين هو من خزاعة قومه وقاتل الأمين هو طاهر بن الحسين وكان خزاعياً بالولاء .

قال : فقال المأمون : قاتَله اللهُ ! ما أغوصَه وألطفه وأدهاه ! وجعل يضحك . ثم دخل عبدَالله بن طاهر فقال له : أيَّ شيء تحفظ يا عبدَالله لِدعبل ؟ فقال : أحفَظ أبياتاً له في أهل بيت أمير المؤمنين . قال : هاتِها ، ويحَك . فأنشده عبدالله قولَ دعبل :

سَقياً ورَعْياً لِأيّام الصَّبابــــات ... أيّامَ أرفُل في أثواب لَذّاتي
أيامَ غُصني رَطيبٌ من لَيانتــه ... أصبُو إلى غير جاراتٍ وكَنّاتِ
دع عنك ذكر زمانٍ فات مَطلبُـه ... واقذِفْ بِرَحلك عن مَتْن الجَهالات
واقصِدْ بكلّ مديحٍ أنتَ قائلُـه ... نحو الهُداة بني بيت الكرامات

فقال المأمون : إنّه قد وجد واللهِ مَقالاً فقال ، وينال بِبعيد ذِكرهم مالا يناله في وصف غيرهم . ثم قال المأمون : لقد أحسن في وصف سفرٍ سافره ، فطال ذلك السَّفرُ عليه ، فقال فيه :

ألَمَ يأْنِ للسَّفْر الذي تَحمّلــوا ... إلى وطنٍ قبل الممات رُجوعُ
فقلت ، ولم أملِكْ سوابقَ عَبْرةٍ ... نطقنَ بما ضُمّت عليه ضُلوع
تَبَيَّنْ فكم دارٍ تفرَّق أهلُهـا ... وشَمل شَتيتٍ عاد وهو جَميع
كذاك الليالي صَرْفُهنّ كما ترى ... لكلّ أُناسٍ جَدْبَةٌ وربيعُ (١)

ثم قال : ما سافرت قطّ إلّا كانت هذه الأبياتُ نُصبْ عيني في سفري ، وهِجِّيري(٢) ومُسَلِّيتي حتى أعود .

أبو ناجيةَ قال :

كان المعتصم يُبغض دعبلاً لطُول لسانه ، وبلغ دعبلاً أنه يريد اغتيالَه وقتله ، فهرب إلى الجبل وقال يهجوه :

بكَى لشَتاتِ الدِّين مُكتئبٌ صَبٌّ ... وفاض بفَرط الدمع من عَينه غَرْبُ

(١) ألَم يأن : ألم يحن . السفر : جماعة المسافرين . تحملوا : ارتحلوا .
(٢) هجّيري : دأبي .

وقــام إمامٌ لم يكـن ذا هِـدايــةٍ فليس له دِينٌ وليس له لُــبُّ
وما كانت الآبــاءُ تأتي بمِثلــه يُملَّكُ يوماً أو تَدِينُ له العُربُ
ولكن كما قال الذين تتابعــوا من السَّلف الماضين إذ عَظُم الخَطْبُ :
ملوكُ بني العبّاس في الكُتب سبعةٌ ولم تأتنا عَــن ثامنٍ لهمُ كُـتبُ
كذلك أهلُ الكهف في الكهف سبعةٌ خيارٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كلبُ
وإني لَأُعلي كلبَهم عنك رِفعــةً لأنّـك ذو ذَنْبٍ وليس له ذَنْبُ
لقد ضاع مُلكُ الناس إذ ساسَ مُلْكَهم وصَيفٌ وأشناسٌ وقد عَظُم الكَرْبُ
وفَضلُ بنُ مَروانٍ يُثَلِّمُ ثَلْمـةً يَظَلّ لها الإسلامُ ليس له شَعْبُ(١)

ميمون بن هارون قال :

لمّـا مات المعتصم قال محمد بن عبدالملك الزيّات يرثيه :

قد قلتُ إذ غيَّبُوه وانصرفــوا في خير قبرٍ لِخير مَدفُـونِ
لـن يجبُرَ اللهُ أمّـةً فقَـــدت مِثلَك إلّا بمثل هــارونِ

فقال دعبل يُعارضه :

قد قلت إذ غـيّبوه وانصرفــوا في شرّ قبرٍ لِشرّ مدفــونِ
اذهَب إلى النّـار والعذاب فمــا خِلتُك الا من الشياطـــينِ
ما زلتَ حتى عقدتَ بَيعـةَ مَــن أضرَّ بالمُسلمِين والدِّيـــنِ

محمد بن القاسم بن مَهرُويه قال :

كنت مع دعبل بالصَّيْمَرة(٢) وقد جاء نَعي المعتصم وقيام الواثق ، فقال

(١) الغرب : الفيضة من الدمع وعرق في العين يسقي لا ينقطع . والغرب أيضاً : الدلو العظيمة . وصيف وأشناس : من الموالي الأتراك الذين كانوا قواداً في جيش المعتصم . الفضل بن مروان : من وزراء بني العباس ، وهو الذي أخذ البيعة للمعتصم بعد وفاة المأمون . الشعب : الإصلاح والترميم .

(٢) الصيمرة : بلد بين ديار الجبل وخوزستان .

لي دعبل : أمعك شيءٌ تكتب فيه ؟ فقلت : نعم . وأخرجتُ قِرطاساً ، فأملى عليّ بَدِيهاً :

الحمـدُ لله لا صـبرٌ ولا جَلَـدُ — ولا عَزاءٌ إذا أهلُ البَلا رَقَدُوا
خليفـةٌ مات لم يحزَنْ لـه أحـدٌ — وآخرٌ قام لم يَفرحْ به أحـدُ

محمّد بن جرير قال :

أنشدني عُبيدِالله بن يعقوبَ هذا البيت وحدَه لدعبل يهجو به المتوكّل ، وما سمعت له غيره فيه :

ولسـت بقائلٍ قَذَعـاً ولكـن — لأمرٍ ما تَعَبَّدك العَبيـدُ

قال : يرميه في هذا البيت بالأُبْنة .

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

بُويع إبراهيم بن المهديّ ببغداد ، وقد قلّ المالُ عنده ، وكان قد لجأ إليه أعرابٌ من أعراب السَّواد وغيرهم من أوغاد الناس ،فاحتبس عنهم العطاءُ . فجعل إبراهيم يُسوّ فهم ولا يَرون له حقيقة ، إلى أن خرج إليهم رسولُه يوماً وقد اجتمعوا وضجّوا ، فصرّح لهم بأنّه لا مالَ عنده . فقال قومٌ من غَوغاء أهل بغداد : أَخرجوا إلينا خليفتَنا ليغنّيَ لأهل هذا الجانب ثلاثةَ أصوات . ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، فتكونَ عَطاءً لهم . فأنشدَني دعبل بعد ذلك بأيام قوله :

يا معشرَ الأَجنـاد لا تَقْنَطوا — وارضَوا بما كان ولا تَسخَطُوا
فسوف تُعطَون حُنَينيّـةً — يلتذّها الأمردُ والأشمَـطُ
والمَعْبَدِيّـاتِ لِقُـوّادكم — لا تَدخلُ الكيسَ ولا تُربَطُ
وهكذا يرزُق قُـوّادَه — خليفـةٌ مُصحَفُـه البَرْبَطُ(١)

---

(١) الحنينية : الأصوات المنسوبة الى حنين المغني ، والمعبديات : الأغاني المنسوبة الى معبد المغني . البربط : العود .

مهاجاته أبا سعد المخزومي

كان سبب مناقضته أبا سعد المخزوميّ وما خرج إليه الأمر بينهما قول دعبل قصيدته التي هجا فيها قبائل نزار ، فحمي لذلك أبو سعد ، فهجاهم ، فأجابه أبو سعد ، ولجّ الهجاء بينهما .

ورُوي أنه نزل بقوم من بني مخزوم ، فلم يُضيّفوه ، فهجاهم ، فأجابه أبو سعد ولجّ الهجاء بينهما .

محمد بن القاسم بن مهرويه قال :

حدّثني محمد بن الأشعث قال : حدّثني دعبل أنه ورَزيناً العروضيّ نزلا بقوم من بني مخزوم ، فلم يقرُوهما ولا أحسَنوا ضيافَتهما ، فقال دعبل : فقلت فيهم :

عصابةٌ من بني مَخزوم بتُّ بهم بحيث لا تطمع المِسحاةُ في الطِّينِ[1]

ثم قلت لرَزين : أجِزْ فقال :

في مَضْغ أعراضهم من خُبزهم عِوضٌ بني النِّفاق وأبناء المَلاعين

قال ابن الأشعث : فكان هذا أوّل الأسباب في مُهاجاته لأبي سعد .

أحمد بن أبي كامل قال :

كان سبب وقوع الهجاء بين دعبل وأبي سعد قول دعبل في قصيدة يفخر فيها بخُزاعة ويهجو نزاراً ، وهي التي يقول فيها :

أتانا طالباً وَغْراً فأعقبناه بالوَغْرِ
وترناه فلم يرض فأعقبناه بالوِتْرِ

(١) المسحاة : أداة يسحى بها الطين أي يقشر.

فغضب أبو سعد وقال قصيدته التي يقول فيها لدعبل ـ وهي مشهورة ـ :

وبالكَرْخ هوًى أبقى على الدَّهر من الدهرِ
هوًى والحمدُ لله كفاني كُلفةَ العُذرِ

قال : ثم التحم الهجاء بينهما بعد ذلك .

محمد بن يزيد قال :

كان أبو سعد المخزوميُّ قد كان يستعلي على دِعبل في أول أمره ، وكان يدخل إلى المأمون فيُنشده هجاء دعبل لنزار وللخلفاء ، ويحرضه عليه وينشده جوابَه . فلم يجد عند المأمون ما أراده فيه ، وكان يقول : الحقّ في يدك والباطلُ في يد غيرك ، والقولُ لك مُمكِنٌ ، فقُل ما يُكذّبه ، فأمّا القتل فإنّي لست أستعمله فيمن عَظُم ذنبُه ، أفأستعمله في شاعر !

وقال فيه دعبل :

إن أبا سعدٍ فتًى شاعرٌ يُعرَف بالكُنية لا الوالدِ
يَنشُد في حيّ مَعَدٌّ أباً ضَلّ عن المنشود والناشدِ
فرحمةُ الله على مُسلِمٍ أرشد مَفقوداً إلى فاقدِ

أحمد بن عثمان الطبريّ قال :

سمعت دعبل بن عليّ يقول : لمّا هاجيت أبا سَعد أخذت معي جَوزاً ودعوت الصّبيان فأعطيتهم منه وقلت لهم : صِيحوا به قائلين :

يا أبا سعدِ قَوْصَره زانيَ الأُختِ والمَرَه [1]

فصاحوا به ، فغلبتُه .

أحمد بن مروان قال : حدّثني أبو سعدِ المخزوميُّ ـ واسمه عيسى بن خالد بن الوليد ـ قال :

---

(١) القوصرة كناية عن المرأة . المرة : مخفف عن المرأة .

أنشدت المأمون قصيدتي الداليّـة التي رددتُ فيها على دعبل قوله :

ويسومُني المأمونُ خُـطّـةَ عاجـزٍ — أوَما رأى بالأمس رأسَ محمّدِ[1]

وأوّل قصيدتي :

أخذ المَشيبُ من الشباب الأَغيَـدِ — والنائباتُ من الأَنام بِمَرْصَـدِ

ثم قلت له : يا أمير المؤمنين ، ائذن لي أن أَجيئَك برأسه . قال : لا ، هذا رجلٌ فخَر علينا ، فافخَرْ عليه كما فَخر علينا ، فأمّا قتلُه بلا حُـجّـةٍ فلا .

محمّد بن عليٍّ الطالبيٌّ قال :

لَـقِـيت دعبل بن عليّ ، فحدّثني أن أبا عَمرو الشيبانيّ سأله : ما هو دعبل ؟ فقلت له : لا أدري . فقال : إنّها الناقة المُسِنّـة . قال محمد : ثم تحدّثنا ساعةً فقلت : أما ترى لأبي سعد يا أبا عليّ وانهماكِـه في هجائك ؟ فقال دعبل : لكنّي لم أقل فيه إلّا أبياتاً سَخيفة يلعب بها الصِّبيانُ والإماء ... قال محمد : فقلت لدعبل : دَعْ عنك ذا ، فقد ـ واللهِ ـ أَوجعك الرجل ، فإن أجبتَه بجوابٍ مثلِه انتصفت ، وإلّا فإنّ هذا اللغوَ الذي فخرتَ به يسقُط وتُفضَحُ آخرَ الدهر . قال : ثم أنشدته قول أبي سعد فيه :

لم يبق لي لَـذّةٌ من طِيـبَـةٍ بَـلَـدَدِ — ولا المنازلِ من خَيفٍ ولا سَنَـدِ

* * *

لِدعبلٍ وَطَـرٌ في كـلّ فاحشـةٍ — لو بادَ لؤمُ بني قحطانَ لم يَبِدِ
ولي قـوافٍ إذا أنزلتُهـا بَلَـداً — طارت بهنّ شياطيني إلى بَلَـدِ
لم ينجُ من خَيرها أو شرِّهـا أحدٌ — فاحذَرْ شآبيبَها إن كنت من أَحَد
إنّ الطرمّـاح نالتـه صواعقُهـا — في ظُلمة القبر بين الهام والصُّرَد
وأنت أولَى بها إذ كنتَ وارثَـه — فابعُدْ وجُهْدُك أن تنجو على البُعُدِ
تهجو نزاراً وترعى في أَرُومَتهـا — وتنتمي في أُناسٍ حاكةِ البُـرُدِ

(١) أراد بمحمد محمداً الأمين ، أخا المأمون .

إنيّ إذا رجلٌ دبّت عقاربُه سقيتُه سُمَّ حَيّاتي فلم يَعُدِ
زِدني أَزِدْك هَواناً أنت مَوضعُه ومَن يزيد إذا ما نحن لم نَزِدِ
لو كنت متّئداً فيما تُلفّقهُ لكان حظُّك منه حظَّ مُتّئد
أو كنت معتمداً منه على ثقةٍ من المكارم قُلنا طَوْلُ مُعتمِد
لقد تقلّدت أمراً لستَ نائلَه بلا وَليٍّ ولا مَولًى ولا عَضُد
وقد رميتَ بياضَ الشمس تحسَبُه بياضَ بطنك من لُؤمٍ ومن نَكَدِ
لا تُوعِدَنّي بقومٍ أنت ناصرُهم واقعُد فإنّك نَوْمانٌ من القَعَدِ
لله معتصمٌ بالله طاعتُه قضيّة من قضايا الواحد الصمَد[1]

قال : فلمّا أنشدتها دِعبلاً قال : أنا أشتُمه وهو يشتُمني فما إدخال المعتصم بيننا ! وشقّ ذلك عليه وخافه ، ثم قال نقيض هذه القصيدة :

منازل الحيّ من غُمدانَ فالنَّضَدِ

وهي طويلة مشهورة في شعره .

أبو ناجيةَ ـ شيخٌ من ولد زهير بن أبي سُلمى ـ قال :

حضرت بني مخزوم وهم ببغدادَ ، وقد اجتمعوا على أبي سعد لمّا لَجّ الهجاءُ بينه وبين دعبل ، وقد خافوا لسان دعبل وأن يقطَعهم ويهجوَهم هجاءً يَعُمّهم جميعاً ، فكتبوا عليه كتاباً ، وأشهدوا أنه ليس منهم . فحدّثني غيرُ واحدٍ أنه أتى حينئذٍ بخاتمه النقّاشَ ، فنَقَش عليه : أبو سعد العَبدُ ابنُ العبد بريءٌ من بني مخزوم ، تهاوُناً بما فعلوه .

---

(١) الطية : الحاجة والوطر . الخيف : ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . السند : ما علا من سفح الجبل . الشآبيب ج شؤبوب : الدفعة من المطر وحدّ كل شيء . الطرماح : يشير الى أنه هجا الطرماح بعد موته ، وذلك أن الطرماح كان متعصباً للقحطانية فردّ عليه أبو سعد كما ردّ على دعبل لهذا السبب . الهام ج هامة : طائر يكون بين القبور . الصرد : طائر ضخم يصطاد العصافير . الطول : القدرة . النومان : الكثير النوم . والقعد : القاعد عن القتال .

أحمد بن أبي كامل قال :

رأيت دِعبلاً قد لَقِيَ أبا سعد في الرُّصافة ، وعليهما السَّواد وسيفاهما على أكتافهما . فشدّ دعبلٌ على أبي سعد فقنّعه[1] ، فركض أبو سعد بين يديه هارباً ، وركض دعبل في أثره وهو يهرُب منه حتى غاب . قال : وكنت أرى أبا سعد يجلس مع بني مخزوم في دار المأمون ، فتظلّموا منه إلى المأمون وذكروا أنّهم لا يعرفون له فيهم نسَباً ، فأمرهم المأمونُ بنفيه ، فانتفَوا منه ، وكتبوا بذلك كتاباً . فقال دعبل فيه يذكر ذلك ، من قصيدة طويلة :

غيرَ أنّ الصِّيد منهم ... قَنَّعوه بخزَايه
كتبوا الصَّكّ عليه ... فهو بين الناس آيه
فإذا أقبل يوماً ... قيل قد جاء النُّفايه

هجاؤه سائر الناس

أحمد بن محمد بن أَبي أَيّوب قال :

مدح دَعبلٌ أبا نَصير بن حُميد الطُّوسيّ ، فقصّر في أمره ولم يُرضِه من نفسه ، فقال عند ذلك دعبل فيه يهجوه :

أبا نَصيرٍ تَحلحَلْ عن مَجالسنا ... فإنّ فيك لِمن جاراك مُنْتَقَصا
أنت الحمار حَروناً إن وقعتَ به ... وإن قصدتَ إلى معروفه قَمَصا
إنّي هززتك لا آلوك مجتهداً ... لوكنت سيفاً ولكنّي هززتُ عصا[2]

قال الحُسين بن دِعبل :

كان أبي يختلف إلى الفَضل بن العبّاس بن جعفر بن محمد بن الأشعث ،

---

(١) قنّع رأسه بالسوط والسيف : غشاه به .

(٢) تحلحل : تزحزح . قمص الحمار والفرس : رفع يديه معاً وعجن برجليه .

وهو خرّجه وفهّمه وأدّبه ، فظهر له منه جفاء ، وبلغه أنه يَعيبه ويذكره وينال منه ، فقال يهجوه :

يا بُؤسَ للفضل لو لم يأت ماعابه — يستفرغ السُمّ من صمّاء قِرضابه
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه — جهلاً لأعراض أهل المجد عيّابه
إن عابني لم يعِبْ إلّا مُؤدّبَه — ونفسَه عاب لمّا عاب أدّابَه
فكان كالكلب ضرّاه مُكَلِّبُه — لِصَيده فعدا فاصطاد كلّابَه [1]

عن الحسين بن دعبل قال :

قال أبي في الفضل بن مروان :

نصحتُ فأخلصت النصيحةَ لِلفَضل — وقلتُ فسيّرت المقالةَ للفَضلِ
ألا إنّ في الفضل بن سهلٍ لَعِبْرةً — إن اعتبر الفضلُ بن مروان بالفَضل
وللفضل في الفضل بن يحيى مَواعظٌ — إذا فكّر الفضل بن مروان في الفضلِ
فأبقِ جميلاً من حديثٍ تَفُزْ به — ولا تَدعِ الإحسانَ والأخذَ بالفَضل
فإنّك قد أصبحت للمُلك قَيّماً — وصِرت مكان الفضلِ والفضل والفضلِ
ولم أرَ أبياتاً من الشعر قبلَها — جميعُ قوافيها على الفضَل والفضلِ
وليس لها عيبٌ إذا هي أُنشِدت — سوى أنّ نُصحي الفضلَ كان من الفضلِ [2]

فبعث إليه الفضل بن مروان بدنانير وقال له : قد قبلتُ نُصحك ، فاكفِني خيرَك وشرّك .

---

(١) الصماء : الداهية . القرضاب : الأسد والسيف القاطع والقرضابة : الذي لا يدع شيئاً الا أكله . ضرّاه : علّمه كيف يصيد .

(٢) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد وأخوه في الرضاع ولما نكب الرشيد البرامكة قبض عليه وسجنه في الرقة فتوفي وهو في سجنه .

عن إسحاق النَخَعيّ قال :

كنت جالساً مع دعبل بالبصرة وعلى رأسه غُلامه نَقيف ، فمرّ به أعرابيٌّ يرفُل في ثياب خَزّ ، فقال لغُلامه : أدعُ لي هذا الأعرابيّ . فأومأ الغلام إليه فجاء ، فقال له دعبل : ممّن الرجل ؟ قال : من بني كِلاب . قال : من أيّ ولد كلاب أنت ؟ قال : من ولد أبي بكر . فقال دعبل : أتعرف القائل :

ونُبّئتُ كلباً من كلابٍ يَسُبُّني ... ومحضُ كِلابٍ يقطع الصَّلواتِ
فإن أنا لم أُعلم كِلاباً بأنّها ... كلابٌ وأنّي باسلُ النِّقَمات
فكان إذاً من قيس عيلانَ والدي ... وكانت إذاً أمّي من الحَبَطاتِ(١)

قال : وهذا الشعر لدعبل يقوله في عمرو بن عاصم الكلابيّ ، فقال له الأعرابيّ : ممّن أنت ؟ فكرِه أن يقول له من خُزاعة فيهجوهم ، فقال : أنا أنتمي إلى القوم الذين يقول فيهم الشاعر :

أناسٌ عليٌّ الخَير منهم وجعفرٌ ... وحمزةُ والسَّجّاد ذو الثَفِناتِ
إذا فخروا يوماً أتَوا بمحمّدٍ ... وجبريلَ والفُرقان والسُّورات(٢)

فوثب الأعرابيّ وهو يقول : مالي إلى محمّد وجبريل والفرقان والسُّورات مرتقى .

قال الفتح [غلام أبي تمام الطائي] : حدّثني مولاي أبو تمّام قال : ما زال دعبلٌ مائلاً إلى مُسلم بن الوليد مُقرّاً بأُستاذيّته حتى ورد عليه جُرجان ، فجفاه مسلم ، وكان فيه بُخلٌ ، فهجره دعبل وكتب إليه :

---

(١) الحبطات : هم أولاد الحارث بن مالك بن عمرو بن تميم .

(٢) السجاد ذو الثفنات : أراد علياً زين العابدين ، ولقب بذي الثفنات لكثرة سجوده فقد أصبح ما يمس الأرض من أعضائه كثَفِنة البعير ، وهي ركبته وما مسّ الأرض من أعضائه .

أبا مَخْلَدٍ كنّا عَقيدَي مــــودّةٍ هوانـــا وقلبانا جميعاً معاً معــا
أَحُوطك بالغَيب الذي أنت حائطي وأَيجع إشفاقاً لأن تتوجَّعـــــا
فصيَّرني بعدُ انتكاسُك مُتْهِمــــاً لنفسي عليها أَرهبُ الخَلق أجمعا
غششتَ الهوى حتى تداعت أُصولُـه بنا وابتذلتَ الوصلَ حتى تَقطّعـا
وأنزلت من بين الجـوانح والحَشَى ذخيرةَ وُدٍّ طالما قد تمنّعـا
فـلا تعذُلنّـي ليس لي فيك مَطْمَعٌ تخرّقتَ حتى لم أجِد لك مَرْقَعا
فهَبْك يميني استأكلتْ فقطعتُهـــا وجَشّمتُ قلبي صَبره مُتشّجما[1]

قال : ثم تهاجرا ، فما التقيا بعد ذلك .

قال ابنُ مَهرويه : وحدّثني إبراهيم بن المُدبِّر أن دعبلاً قصد مالك بنَ طَوق[2] ومدحه ، فلم يرضَ ثوابه ، فخرج عنه وقال فيه :

إنّ ابنَ طَوقٍ وبـني تَغـلبٍ لو قُتلـوا او جُرحـوا قَصْرَهْ
لم يأخذوا من دِيــةٍ درهمــاً يومــاً ولا مــن أَرْشهم بَعره
دماؤهــم ليس لهــا طالـــبٌ مطلولـةٌ مثلُ دم العُــذْره
وجوهُهــم بيضٌ وأحسابُهــم سُودٌ وفي آذانِهم صُفْــره[3]

(١) أيجع : أشكو الوجع . أستأكلت : أصابتها الأَكِلة بفتح الهمزة وكسر الكاف ــ وهي داء في العضو يأتكل منه .

(٢) مالك بن طوق التغلبي : من أشراف بني تغلب وفرسانهم ولاه المتوكل إمرة دمشق .

(٣) قصره : دون الناس جميعاً. الأرش : دية الجراحات . دم العذرة : دم الختان . يعرض بهم في البيت الأخير بكونهم ليسوا من أصل عربي .

أخباره مع آل طاهر

عُمر بن عبدالله أبو حفص النحويّ مُؤدّب آل طاهر قال :

دخل دعبل بن عليّ على عبدالله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جئتُ بلا حُرمةٍ ولا سببِ إليك إلّا بحُرمة الأدبِ
فاقضِ ذِمامي فإنّني رجلٌ غير مُلِحٍّ عليك في الطَلب

قال : فانتعل عبدالله ودخل إلى الحُرَم ، ووَجّه إليه بِصُرّةٍ فيها ألف درهم ، وكتب إليه :

أعجلتَنا فأتاك عاجلُ بِرّنا ولو انتظرتَ كثيرَه لم يَقلِلِ
فخُذ القليل وكُن كأنّك لم تَسَلْ ونكونُ نحن كأننا لم نَفعل

أبو الطيّب الحرّاني قال :

كان دعبلٌ منحرفاً عن الطاهريّة ، مع ميلهم إليه وأياديهم عنده ، فأنشدني لنفسه فيهم :

وأبقى طاهرٌ فينا ثلاثاً عجائبَ تُستَخفّ لها الحُلومُ
ثلاثةَ أعبُدٍ لأبٍ وأُمٍّ تُمَيّز عن ثلاثتهم أُروم
فبعضٌ في قريش مُنتحاه ولا غيرٌ ومجهولٌ قديمُ
وبعضهم يَهَشّ لآل كسرى ويزعُم أنه عِلْجٌ لئيمُ
فقد كَثُرتْ مَناسبُهم علينا وكُلُّهم على حالٍ زَنيمُ(١)

أخباره مع المطّلب بن عبدالله

عن عبدالله بن أبي الشِّيص قال : حدّثني دعبل قال :

حججتُ أنا وأخي رَزين وأخذنا كُتباً إلى المطّلب بن عبدالله بن مالك ، وهو

---

(١) الزنيم : الدعيّ الملحق بالقوم .

بمصر يتولّاها ، فصِرنا من مكّة إلى مصر ، فصَحبنا رجلٌ يُعرف بأحمد بن فلان السَّرّاجِ ـ نسي عبدالله بن أبي الشِّيص اسمَ أبيه ـ فما زال يُحدّثنا ويُؤانسنا طُولَ طريقنا ويتولّى خِدمتنا كما يتولّاها الرفقاء والأتباع، ورأيناه حَسن الأدب ، وكان شاعراً ولم نَعلم ، وكَتَمَنا نفسَه ، وقد علم ما قَصَدنا له .

فعَرضنا عليه أنه يقول في المطّلب قصيدة نَنحله إيّاها . فقال : إن شئتم . وأَرانا بذلك سروراً وتقبُّلاً له . فعملنا قصيدةً وقُلنا له : تُنشدها المطّلب فإنك تنتفع بها . فقال : نعم . ووردنا مِصرَ به ، فدخلنا إلى المطّلب وأوصلنا إليه كُتباً كانت معنا ، وأنشدناه . فسُرّ بمَوضعنا ، ووصَفنا له أحمد السّراج هذا وذكرنا له أمره ، فأذن له ، فدخل عليه ، ونحن نظنّ أنه سيُنشد القصيدة التي نحلناه إيّاها . فلمّا مثل بين يديه عدَل عنها وأنشده :

لم آتِ مُطّلِباً إلا بمطّلبِ وهِمّةٍ بلغتْ بي غايةَ الرُّتَبِ
أفردتُه برجاءٍ أن تُشاركَه فيّ الوسائلُ أو ألقاه في الكُتبِ

قال : وأشار إلى كتبي التي أوصلتُها إليه ، وهي بين يديه ، فكان ذلك أشدَّ من كل شيءٍ مرّ بي منه عليّ ، ثم أنشده :

رحلتُ عَنْسي إلى البيت الحرام على ما كان من وَصَبٍ فيها ومن نَصَبِ
ألقى بها وبوجهي كلَّ هاجرةٍ تكاد تقدحُ بين الجِلد والعَصَبِ

[الأبيات ...]

قال : فصاح مطلب : لَبَّيك لَبَّيك . ثم قام إليه فأخذ بيده وأجلسه معه وقال : يا غِلمانُ ، البِدَر . فأُحضِرت ، ثم قال : الخِلَع . فنُشرت . ثم قال : الدوابّ . فقِيدت ، فأمر له من ذلك بما ملأ عينَه وأعيننا وصدورَنا ، وحَسدناه عليه ، وكان حسَدُنا له بما اتّفق له من القَبول وجودة الشعر ، وغَيظُنا بكَتْمِه إيّانا نفسَه واحتيالِه علينا أكثرَ وأعظم ، فخرج بما أمر له به ، وخرجنا

صِفْراً . فمكثنا أياماً ، ثم وَلّى دعبلَ بن عليّ أُسوانَ ، وكان دعبل قد هجا المطّلب غيظاً منه ، فقال :

تُعلّق مصرُ بك المُخزيـــاتِ وتبصُق في وجهك المَوْصِلُ
وعاديت أقواماً فمــا ضَرّهــم وشرّفتَ قوماً فلم ينبلُــوا
شعارُك عند الحروب النَّجــاءُ وصاحبُك الأخــور الأَفشَلُ
فأنت إذا ما التقَوا آخِـــرٌ وأنت إذا انهزمـــوا أوّلُ

وقال فيه :

اِضْرِب ندى طَلحة الطلحات متّئـداً بلؤُم مُطّلبٍ فينا وكن حَكَما
تُخرج خزاعةَ من لؤمٍ ومن كـرمٍ فلا تعدّ لهـا لؤمــاً ولا كرما

قال : وكانت القصيدة التي مدح بها دعبل المطّلب قصيدتَه المشهورة التي يقول فيها :

أبعــدَ مصرٍ وبعــد مُطّلـــبٍ ترجو الغِنى إنّ ذا من العَجَبِ
إن كاثَرُونا جئنــا بأُسرتـــه أو واحَدُونا جئنــا بمطّلب (١)

قال : وبلغ المطّلب هجاؤه إيّاه بعد أن ولّاه ، فعَزله عن أُسوان ، فأنفذ إليه كتاب العزل مع مولًى له وقال : انتظره حتى يصعدَ المِنبر يومَ الجمعة ، فإذا عَلاه فأَوصل الكتاب إليه وامنعه من الخُطبة وأَنزِله عن المنبر واصعَدْ مكانَه . فلمّا أن علا المِنبر وتنحنح ليخطبَ ناوله الكتاب ، فقال له دعبل : دَعْني أخطُبْ ، فإذا نزلتُ قرأتُـه . قال : لا ، قد أَمَرني أن أمنعَك الخطبة حتى تقرأَه ، فقرأه وأنزله عن المنبر معزولاً .

عن أحمد بن يحيى العَدويّ أن سبب سُخطه على المطّلب أنّ رجلاً من

(١) واحدونا : فاخرونا بشخص واحد .

العلويّين كان قد تحرّك بطَنجة ، فكان يبثّ دُعاتَه إلى مصر ، وخافه المطّلب ، فوكّل بالأبواب من يمنع الغُرباء من دخولها .

فلمّا جاء دعبل مُنع فأَغلظ للذي مَنعه ، فقَنّعه بالسَّوط وحَبَسه . فمضى رَزينٌ فأخبر المطّلب ، فأمر بإطلاقه ، ودعابه فخَلع عليه ، فقال له : لا أرضى أو تقتلَ الموكّل بالباب . فقال له : هذا لا يُمكن لأنّه قائدٌ من قُوّاد السلطان . فغضب . ثم أنشده الرجل[1] الأبيات المذكورة ، فأجازه ...

قتله

أبو طالب الجعفريّ ومحمد بن أُميّة الشاعر جميعاً قالا :

هجا دعبل بن عليّ مالك بن طَوق فقال :

سألت عنكم يا بني مالكٍ ... في نازح الأَرضِين والدانيه
طُرّاً فلم تُعرَف لكم نِسبةٌ ... حتى إذا قلت بني الزانيه
قالوا فَدَع داراً على يَمْنةٍ ... وتلك ها دارُهم ثانيه

[الأبيات ...]

وبلغت الأبيات مالكاً فطلبه ، فهرب فأتى البصرة وعليها إسحاقُ بن العبّاس بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس بن عبد المطّلب ، وكان بلغه هجاء دِعبل وابن أبي عُيينة نزاراً . فأمّا ابن أبي عُيينة فإنّه هرب منه فلم يظهر بالبصرة طولَ أيامه . وأمّا دعبل فإنه حين دخل البصرة بعث فقبض عليه ، ودعا بالنِّطع[2] والسيف ليضرِب عُنقه، فجحَدَ القصيدة[3] وحلف بالطّلاق على جحدها وبكلّ يمينٍ تبرّئ من الدم أنه لم يقلها وأنّ عدوّاً له قالها إمّا أبو سعد المخزوميّ

(١) الرجل : المراد به ابن السراج رفيق دعبل في القدوم على المطلب
(٢) النطع : بساط من أديم .
(٣) المقصود بالقصيدة هنا قصيدة دعبل في هجاء نزار.

أو غيره ، ونسبها إليه ليُغريَ بدمه ، وجعل يتضرّع إليه ويقبّل الأرض ويبكي بين يديه . فرقّ له ، فقال : أما إذ أعفيتك من القتل فلا بُدّ من أن أُشْهرَك . ثم دعا بالعصا فضربه حتى سَلَح ، وأمر به فأُلقي على قَفاه وفُتح فمه فرُدّ سَلحُه فيه والمَقارع تأخذ رجليه ، وهو يحلِف ألّا يكفّ عنه حتى يستوفيَه ويبلَعَه أو يقتلَه . فما رُفعت عنه حتى بلع سَلْحَه كلّه ، ثم خلّاه فهرب إلى الأهواز .

وبعث مالك بن طوق رجلاً حَصيفاً مِقداماً وأعطاه سُمّاً وأمره أن يغتاله كيف شاء ، وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم ، فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السُّوس ، فاغتاله في وقت من الأوقات بعد صلاة العَتَمة ، فضرب ظهر قدمه بعُكّاز لها زُجٌّ[1] مَسموم ، فمات من غدٍ ، ودُفن بتلك القرية .

وقيل بل حُمل إلى السوس فدُفن فيها ، وأمر إسحاق بن العباس شاعراً يقال له الحسن بن زيد ، ويكنَى أبا الذَّلفاء ، فنقض قصيدتي دعبل وابن أبي عُيَينة بقصيدة أوّلها :

أما تَنفكّ مَتبولاً حَزينـــا ـــــــ تُحبّ البِيض تَعصي العاذِلينا

يهجو بها قبائل اليمن ويذكر مثالبهم ، وأمره بتفسير ما نظمه ، وذكرِ الايام والأحوال ، ففعل ذلك وسمّاها الدامغة ، وهي إلى اليوم موجودة .

* * *

(١) الزج : الحديدة في أسفل الرمح والعصا .

٢٠

ديك الجنّ

[الأغاني الجزء ١٤ ص ٥١ وما بعدها]

الشاعر

ديكُ الجِنّ لقبٌ غَلَب عليه ، واسمُه عبد السَّلام بن رَغْبان بن ... تميم . وكان جَدُّه تميمٌ ممّن أنعم الله عزّ وجلّ عليه بالإسلام من أهل مُؤتة⁽١⁾ على يَدي حَبيب بن مَسلَمة الفِهْري ، وكان شديد التشعُّب⁽٢⁾ والعصبيّة على العرب . يقول : ما للعرب علينا فضلٌ ، جمعتْنا وإيّاهم ولادةُ إبراهيم ﷺ ، وأسلَمْنا كما أسلموا ، ومَن قَتل منهم رجلاً منا قُتل به ، ولم نجد الله عزّ وجلّ فضَّلهم علينا ، إذ جَمَعنا الدّين .

وهو شاعرٌ مُجيد يذهب مذهب أبي تمّام والشاميّين في شعره ، من شعراء الدولة العبّاسية ، وكان من ساكني حِمص ولم يبرَح نواحي الشأم ولا وفَد إلى العراق ولا إلى غيره مُنتجِعاً بشعره ولا مُتصدِّياً لأحد . وكان يتشيّع تشيُّعاً حسناً ، وله مَراثٍ كثيرة في الحسين بن عليّ ، عليهما السلام ، منها قولُه :

يا عينُ لا للقَضا ولا الكُتُبِ ... بُكا الرَّزايا سِوى بُكا الطَّرَبِ

---

(١) مؤتة : قرية من قرى البلقاء بمشارف الشام .

(٢) التشعب : الأخذ برأي الشعوبية الذين كانوا يكرهون العرب .

وهي مشهورة عند الخاصّ والعامّ ويُناح بها . وله عدّةُ أشعار في هذا المعنى . وكانت له جارية يهواها ، فاتّهمها بغُلامٍ له فقتلها ، واستنفد شعرَه بعد ذلك في مراثيها .

خبره مع زوجته وَرْد

قال [أبو وهب الحِمصيّ] :

كان عبد السلام قد اشتهر بجاريةٍ نصرانيّـة من أهل حِمصَ هَوِيها ، وتمادى به الأمرُ حتى غلبتْ عليه وذهبتْ به . فلمّـا اشتهر بها دعاها إلى الإسلام ليتزوّج بها ، فأجابته لعلمها برغبته فيها ، وأسلمت على يده ، فتزوّجها ، وكان اسمُها وَرداً ، ففي ذلك يقول :

انظُر إلى شمس القُصور وبَدْرهـــا ... وإلى خُزاماهـــا وبَهْجةِ زَهرِهـا
لم تَبلُ عينُك أبيضاً في أســـــودٍ ... جمع الجمالَ كوَجهها في شَعرِها
ورديّـــةُ الوَجَنـات يَختبرُ اسمَهـــا ... مِن رِيقها من لا يُحيـطُ بخُبْرِها
وتمايلـتْ فضحكتُ من أردافهـــا ... عَجَباً ولكنّي بكَيتُ لِخصرِها
تَسقيك كأسَ مُدامــةٍ من كفّهـــا ... ورديــةً ومُدامــةً من ثَغرِهـا

قال : وكان قد أَعسر واختلّت حالهُ ، فرحل إلى سَلَمِيْةَ[1] قاصداً لأحمد بن عليّ الهاشميّ ، فأقام عنده مُدّةً طويلة ، وحَمَل ابنَ عمّه بغضُه إياه بعد مودّته له وإشفاقه عليه بسبب هجائه له على أن أذاع على تلك المرأة التي تزوّجها عبد السلام أنها تهوى غلاماً له ، وقرّر ذلك عند جماعة من أهل بيته وجيرانه وإخوانه ، وشاع ذلك الخبرُ حتى أتى عبد السلام ، فكتب إلى أحمد بن عليّ شعراً يستأذنه في الرجوع إلى حمص ويُعلمه ما بلغه من خبر المرأة ،من قصيدة أولها :

إنّ ريبَ الزمان طـال انتكاثُـــه ... كـم رمتني بحادثٍ أحـــداثُـهْ

---

(١) سلمية : بليدة في ناحية البرية من أعمال حماة .

يقول فيها :

ظبيُ إنسٍ قلبي مَقِيلُ ضُحاه وفؤادي بَرِيرُه وكَباثُه

وفيها يقول :

خِيفةً أن يخونَ عهدي وأن يُضحي لغيري حُجولُه ورِعاثُه[1]

ومدح أحمد بعد هذا ، وهي طويلة ، فأذِن له فعاد إلى حمص ، وقدّر ابنُ عمه وقت قدومه ، فأرصد له قوماً يُعلمونه بموافاته بابَ حمص ، فلمّا وافاه خرج إليه مستقبلاً ومُعنِّفاً على تمسُّكه بهذه المرأة بعدما شاع من ذكرها بالفساد ، وأشار عليه بطلاقها ، وأعلمه أنّها قد أحدثت في مَغيبه حادثةً لا يجمُل به معها المُقام عليها ، ودسّ الرجلَ الذي رماها به ، وقال له : إذا قدِم عبدُ السلام ودخل منزله فقِف على بابه كأنك لم تعلم بقُدومه ونادِ باسم وَرد ، فإذا قال : مَن أنت ؟ فقل : أنا فُلان . فلمّا نزل عبد السلام منزله وألقى ثيابه سألها عن الخبر وأغلظ عليها ، فأجابته جوابَ مَن لم يعرف من القصّة شيئاً . فبينما هو في ذلك إذ قرع الرجلُ الباب فقال : مَن هذا ؟ فقال : أنا فلان . فقال لها عبد السلام : يا زانيةُ ، زعمتِ أنك لا تعرفين من هذا الأمر شيئاً ! ثم اخترط سيفَه فضربها به حتى قتلها ، وقال في ذلك :

ليتني لم أكن لِعَطْفك نلتُ وإلى ذلك الوصالِ وصلتُ

فالذي منّي اشتملتِ عليه أَلِعارٍ ما قد عليه اشتملتِ

قال ذو الجهل قد حَلُمتَ ولا أعلم أنّي حلُمتُ حتى جَهِلتُ

لائمٌ لي بجَهله ولماذا أنا وَحْدي أحببتُ ثم قَتلتُ

سوف آسَى طولَ الحياة وأبكيكِ على ما فعلتِ لا ما فعلتُ

---

(١) البرير : الأول من ثمر الأراك . الكباث : الناضج منه . الحجول ج حجل : الخلاخيل . الرعاث ج رعثة : القرط .

وقال فيها أيضاً :

لـكِ نفسٌ مُـواتيَـهْ والمنـايا مُعادِيَـه
أيّهـا القلبُ لا تَعُـدْ لِهـوى البِيض ثانيـه
ليس بـرقٌ يكـون أخلـبَ من برق غانيـه
خِنتِ سِرّي ولـم أَخُنـكِ فُـوتي عَلانيـه

قال : وبلغ السُلطانَ الخبرُ فطلبه ، فخرج إلى دمشق فأقام بها أياماً . وكتب أحمد بن عليّ إلى أمير دمشق أن يُؤَمِّنَه ، وتحمَّل عليه بإخوانه حتى يستوهِبوا جنايته . فقدِم حمص ، وبلغه الخبرُ على حقيقته وصِحّته ، واستيقنه فندِم ، ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يَطعَمُ من الطعام إلّا ما يُقيم رَمَقه . وقال في نَدَمه على قتلها :

يا طلعـةً طلـع الحِمامُ عليهـا وجنى لها ثَمَر الرَّدى بيدَيْها
روّيتُ من دمها الثرى ولطالمـا رَوّى الهوى شفَتَيّ من شفتيها
قد بات سَيفي في مَجالِ وِشاحِها ومدامعي تجري على خَدَّيها
فوحقِّ نعلَيهـا وما وَطِيء الحَصَـى شيءٌ أعزُّ عليّ من نَعلَيهـا
ما كان قتلِيهـا لأنّي لم أكـن أبكـي إذاسقط الذُّبـابُ عليها
لكن ضَنَنـتُ على العيـون بحُسْنها وأنِفتُ من نظر الحَسُود إليها

وقال ديك الجنّ في هذه المقتولة :

أشفقـتُ أن يردَ الزمانُ بغَـدْرهِ أو أُبتَلَـى بعد الوِصال بهَجْره
قمرٌ أنا استخرجتُه من دَجْنِـهِ لِبليّتي وجَلَوتُه من خِـدرِهِ
فقتلتُـه ولـه علـيَّ كـرامةٌ مِلءُ الحَشَى وله الفؤادُ بأَسْرِهِ
عهـدي به مَيْتاً كأحسنِ نائـم والحُزنُ يسفَحُ عَبرتي في نَحره

لو كان يدري الميتُ ماذا بعـــدَه | بالحيّ حلَّ بكـى له في قَبره
غُـصَصٌ تكاد تفيظ منهـا نفسُـه | وتكاد تُخرج قلبَه من صَدره (١)

وقال فيها أيضاً :

أساكـنَ حُفرةٍ وقَـرارِ لَحْـدِ | مُفارقَ خُلّـةٍ من بعد عَهدِ
أَجِبني إن قَدَرْت على جـوابي | بحـقّ الوُدِّ كيف ظَلِلت بعـدي
وأين حللتَ بعد حُلول قلبـي | وأحشائي وأضـلاعي وكِبْـدي
أما والله لـو عـاينتَ وَجـدي | إذا استعبرتُ في الظُّلمـات وحدي
وجَـدَّ تنفُّسي وعـلا زَفـيري | وفاضت عَبْرتي في صَحن خَدّي
إذاً لعلمتَ أنّي عـن قـريبٍ | ستُحْفَرُ حُفرتي ويُشـقُّ لَحدي
ويعذِلُني السَّفيهُ على بكـائي | كأنّي مبتلى بالحُزن وَحـدي
يقول قتلتهَـا سفَهـاً وجَهـلاً | وتَبكيهـا بكـاءً ليس يُجدي
كصَيّـاد الطيـور له انتخـابٌ | عليهـا وهو يَذبحُهـا بِحَدِّ (٢)

طائفة من أخباره

● عن أبي طاهر :

أنّ خطيب أهل حمص كان يصلي على النبيّ ﷺ على المنبر ثلاثَ مرّات في خُطبته ، وكان أهل حمصَ كلُّهم من اليمن ، لم يكن فيهم من مُضرَ إلا ثلاثةُ أبيات ، فتعصَّبوا على الإمام وعزلوه ، فقال ديك الجن :

سمعـوا الصَّلاةَ على النبيّ تَـوالى | فتفرّقوا شِيعـاً وقالوا : لا ، لا
ثم استمرّ على الصّلاة إمامُهـم | فتحزّبوا ورمـى الرجـالُ رجالا

---

(١) فاظت نفسه : خرجت روحه .

(٢) الخلة : الخليل والصديق للذكر والأنثى .

يا آلَ حِمصَ توقّعُوا من شرِّهــــــا خِزياً يحِـلُّ عليكـم ووَبـــالا
شاهت وجوهُكُــم وجوهــاًطالما رَغِمتْ مَعاطِسُها وساءت حالا [1]

● ابن أخٍ لديك الجنّ يقال له أبو وَهْب الحِمصيّ قال :

كان عمّي خليعاً ماجناً مُعتكفاً على القَصْف[2] واللهو ، مِتلافاً لِما ورث عن آبائه وما اكتسب بشعره من أحمد وجعفر ابنَي عـليّ الها شميَّين ، وكان له ابنُ عمّ يُكنَى أبا الطَّيّب يَعِظُه وينهاه عمّا يفعله ، ويحول بينه وبين ما يُؤثِره ويركبُه من لَذّاته ، وربّما هجم عليه وعنده قومٌ من السُّفَهاء والمُجّان وأهل الخَلاعة ، فيستخِفُّ بهم وبه . فلمّا كثُر ذلك على عبد السلام قال فيه :

مَولاتُنـــــا يا غُـــلامُ مُبتَكِرَهْ فباكِرِ الكأسَ لي بلا نَظِـرَه
غدتْ على اللهـو والمجون عــلى أنّ الفتاةَ الحَيِّيــةُ الخَفِـره
لحُبّهـــا لا عَدِمتُهـــا حُرَقٌ مَطويّــةٌ في الحشا ومُنتشِرَه
ما ذُقت منها سوى مُقَبَّلِهـــــا وضَمٌّ تلك الفُـــروعِ مُنحدِره
وانتهرتْني فمتُّ من فَـــرَقٍ يا حُسنَها في الرِّضا ومُنتَهِـره
ثم انثنت سَـورةُ الخُمـــار بنـــا خلالَ تلك الغدائر الخَمِـره
وليلـةٍ أشرفـتْ بكَلْكَلهـــــا عليّ كالطَّيْلســــان مُعتَجِره
فَتقتْ دَيْجورَهـــا إلى قمـرٍ أثوابُـــه بالعفافِ مُستَــــتِرهْ
عُـجْ عَبَراتِ المُدام نحويَ من عشرٍ وعشرين واثنَتَي عشَره
قد ذُكر الناسُ عن قيامهـــــم ذِكـرى بعقلي ما أصبحتْ نَكِرَه
معرفتي بالصّــــواب معرفــةٌ غَـرّاءُ إمّا عَرَفتمُ النَكِـره

---

(١) شاهت الوجوه : قبحت . المعاطس : الأنوف .
(٢) القصف : الإقامة في الشرب واللهو.

يا عجَبا من أبي الخبيث ومِن سُروحه في البقائر الدِّثِـره
يحملُ رأساً تنبُو المعاولُ عن صَفحته والجلّامـدُ الوَعِره
لو البغالُ الكُمْتُ ارتقت سَنَداً فيه لَمـدّتْ قوائمـاً خَدِره
ولا المجانيقُ فيه مُغنيـةٌ ألفٌ تَسامى وألفُ مُنكَدِره
انظُر إلى موضع المِقَصِّ من الهـامة تلك الصَّفيحـةِ العَجِـره
فلو أخذتُم لها المطارقَ حَـرّانيَّـةً صَنعـةَ اليـد الخَبِـره
إذاً لراحت أكـفٌّ جِلّتهم كليلـةً والأداةُ مُنكَسِره
كم طَرَباتٍ أفسدتَهـنَّ وكم صَفوةِ عيشٍ غادرتَها كَدِره
وكم إذا ما رأوك يا مَلَكَ المـوت لهـم من أنامـلٍ خَـصِره
وكم لهم دعـوةٌ عليـك وكم قَذفةِ أُمٍّ شنعاءَ مُشتهـره
كريمـةٍ لُؤمُك استخفَّ بها ونالها بالمثالب الأشِـره
قِفوا عـلى رَحله تَروا عجباً في الجهل يحكي طرائف البَصِره
يا كُلَّ مَنْيٍ وكلَّ طالعـةٍ نَحسٍ ويا كلَّ ساعةٍ عَسِره
سُبحانَ من يُمسِكُ السماء على الأرض وفيها أخلاقُـك القَذِره (١)

* * *

(١) باكره وابتكره : بكر اليه . النظرة : التأخير. الفروع ج فرع : الشعر التام . سورة الخمر : حدتها . الخمار : ما يصيب شارب الخمر من صداعها وأذاها. الخمرة : من الخَمَر وهو ما واراك من شجر وغيره أراد أن غدائرها غزيرة . . الكلكل : الصدر . اعتجرت المرأة : لبست المعجر ، وهو ثوب تشده المرأة على رأسها . الديجور : الظلام . قيامهم : أراد بعثهم يوم القيامة . نكرة : منكرة . غراء : مشهورة . أبو الخبيث : أراد أبا الطيب ابن عمه . البقير والبقيرة ج بقار : برد يشق ثم تلقيه المرأة في عنقها من غير كمين ولا جيب . الدثرة : الوسخة . الكمت : التي لونها الكمتة ، وهي حمرة مشربة بسواد . السند : ما علا عن سفح الجبل . منكدرة : منقضة . العجرة : الضخمة ، الصلبة . خصرة : باردة . البصرة أرض حجارتها جص وبها سميت مدينة البصرة . مني : مصدر مناه به يمنيه إذا ابتلاه به .

٢١

رُؤبة بن العجّاج

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ٣٤٥ وما بعدها]

الشاعر

هو رُؤْبة بن العَجّاج . واسمُ العجّاج عبدالله بن رؤبة بن حَنيفة ، وهو أبو جُذيم بن مالك ... بن سَعد بن زيد مَناة بن تميم .

من رُجاز الإسلام وفصحائهم ، والمذكورين المقدّمين منهم . بدويّ نزل البصرة ، وهو من مُخضرمي الدولتين . مدح بني أمية وبني العبّاس ، ومات في أيام المنصور . وقد أخذ عنه وُجوه أهل اللغة ، وكانوا يَقتدون به ، ويحتّجون بشعره ، ويجعلونه إماماً . ويُكنى أبا الجحّاف وأبا العجّاج .

أحمد بن عمّار ـ واللفظ له ـ قال : حدّثنا عمر بن شَبّة ، قال : حدّثنا خَلّاد بن يزيد ، قال : حدّثني يونس بن حبيب ، قال : كنت جالساً مع أبي عَمرو بن العَلاء إذ مرّ بنا شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعيّ ـ قال أبو زيد[١] : وكان علّامةً ـ فقال : يا أبا عَمرو ، أشعرتَ[٢] أنّي سألت رُؤبةَ عن اسمه فلم

---

(١) أبو زيد : المقصود به عمر بن شبة .

(٢) أشعرت : أعلمت .

يدرِ ماهو وما معناه؟ قال يونس: فقلت له: واللهِ لَرؤبةُ أفصحُ من مَعدّ ابن عدنان، وأنا غلام رؤبة، أفتعرف أنت رَوْبة ورُوبة ورأوبة ورُوبة ورُؤبة؟ قال: فضرب بغلته وذهب، فما تكلّم بشيء. فقال لي أبو عمرو: ما يَسرُّني أنّك نقصتَني منها.

قال ابن عمّار في خبره:

والرَّوبة: اللبن الخاثر، والرُّوبة: ماء الفحل، والرُّوبة: الساعة تمضي من الليل. والروبة: الحاجة. والرُّؤبة: شَعب القَدح...

عن محمد بن سلّام قال: قلت ليونس: هل رأيت عربياً أفصح من رُؤبة؟ قال: لا، ما كان بعد معدّ بن عدنان أفصحُ منه.

وقد روى رؤبة بن العجّاج الحديث المسنَد عن رسول الله ﷺ، ورواه أبوه أيضاً.

عن ابن عون قال:

ما شبّهتُ لهجة الحسن البصريّ إلا بلهجة رؤبة، ولم يوجَد له ولا لأبيه في شعرهما حرفٌ مُدغَمٌ قطّ.

عبد الرحمن بن أخي الأصمعيّ عن عمه قال: قيل ليونس: مَن أشعرُ الناس؟ قال: العجّاج ورؤبة. فقيل له: لمَ ولم نَعنِ الرُجّاز؟ فقال: هما أشعرُ من أهل القصيد، إنما الشعر كلامٌ فأجودُه أَشعَرُه، قد قال العجّاج:

«قد جَبَر الدِّينَ الآلَهُ فجُبر»

وهي نحو من مائتي بيت موقوفةِ القوافي[1]، ولو أطلقت قوافيها كانت كلّها منصوبة. وكذلك عامّةُ أراجيزهما.

---

(١) موقوفة القافية: ساكنة القافية.

عن أبي زيد الأنصاريّ والحكم بن قُنبر قالا :

كنّا نقعُد إلى رؤبة يومَ الجمعة في رَحبة بني تميم ، فاجتمعنا يوماً فقطعنا الطريق ، ومرّت بنا عجوزٌ فلم تقدر على أن تجوز في طريقها . فقال رؤبة ابن العجّاج :

تنحَّ للعجوز عن طريقها إذ أقبلت رائحةً من سُوقها

دَعْها فما النحويُّ من صديقِها

عن يعقوب بن داود قال :

لقيت الخليلَ بن أحمد يوماً بالبصرة فقال لي : يا أبا عبدالله ، دَفَنّا الشعر واللغة والفصاحةَ اليوم . فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : هذا حين انصرفت من جَنازة رؤبة .

طائفة من أخباره

● عن رؤبة بن العجّاج قال :

بعث إليّ أبو مُسلم لمّا أفضت الخلافةُ إلى بني هاشم ، فلمّا دخلتُ عليه رأى منّي جزَعاً ، فقال : اسكُن فلا بأسَ عليك ، ما هذا الجَزَعُ الذي ظهر منك ! قلت : أخافُك . قال : ولمَ ؟ قلت : لأنّه بلغني أنّك تقتل الناس . قال : إنّما أقتُل من يُقاتلني ويريد قتلي ، أفأنت منهم ؟ قلت : لا . قال : فهل ترى بأساً ؟ قلت : لا . فأقبل على جُلسائه ضاحكاً ثم قال : أما ابنُ العَجّاج فقد رَخّص لنا . ثم قال : أنشِدني قولك :

وقاتمِ الأعماق خاوي المُخْتَرَقْ[1]

فقلت : أوَ أُنشدك ــ أصلحك اللهُ ــ أحسنَ منه . قال : هاتِ . فأنشدتُه :

(١) الأعماق ج عمق : البعيد من أطراف المفاوز . المخترق : موضع قطع المفاوز .

قلتُ وقولي مُستجِدٌّ حَوْكـا لَبَّيك إذ دعوتَني لَبَّيكا
أحمَد ربّاً ساقني إليكا

قال : هاتِ كلمتك الأولى . قلت : أوَ أنشدك أحسنَ منها ؟ قال : هاتِ . فأنشدتُه :

ما زال يبني خَندقاً ويهدِمُـهْ ويستجيش عسكـراً ويهزِمُـهْ
ومَغنمـاً يجمعـه ويقسِمـه مروانُ لمّـا أن تهـاوت أَنجُمه
وخانه في حُكمه مُنَجِّمُـه

قال :دع هذا وأنشِدني : وقاتم الأعماق . قلت : أو أحسن منه ؟ قال : هاتِ . فأنشدته :

رفعتَ بيتاً وخفضتَ بيتـا وشِدتَ رُكن الدِّين إذ بَنَيْتا
في الأكرمين من قريشٍ بَيتا

قال : هات ما سألتُك عنه . فأنشدته :

ما زال يأتي الأمرَ من أَقطارِهِ على اليمين وعلى يَسـارِهِ
مُشمِّـراً لا يُصطَلـى بنـاره حتى أقرّ المُلكَ في قَـراره
وفرّ مَروانُ على حمارِهِ

قال : ويحَك ! هاتِ ما دعوتك له وأمرتك بإنشاده ، ولا تُنشِد شيئاً غيرَه . فأنشدتُه :

وقاتم الأعماق خاوي المخترَقْ

فلمّا صِرتُ إلى قولي :

يرمي الجلاميدَ بجُلمودٍ مِدَقّْ

قال : قاتلك الله ! لَشدّ ما استصلبتَ الحافِر ! ثم قال : حسبُك ، أنا ذلك الجُلمودُ المِدَقّ .

قال : وجيءِ بمِنديلٍ فيه مالٌ ، فوُضع بين يديَّ ، فقال أبو مسلم : يا رُؤبة ، إنك أتيتنا والأموالُ مشفوهة[1] ، وإنّ لك لعودةً إلينا وعلينا مُعوَّلاً ، والدّهر أَطرقُ مُستَتبٌّ[2] ، فلا تجعلْ بجَنْبَيك الأَسِدَّة[3] .

قال رؤبة : فأخذت المنديل منه ، وتاللهِ ما رأيت أعجميّاً أفصحَ منه ، وما ظننتُ أنّ أحداً يعرف هذا الكلام غيري وغير أبي .

● ابن قتيبة قال :

كان رؤبة يأكل الفأر ، فقيل له في ذلك وعُوتب ، فقال : هو واللهِ أنظفُ من دَواجنكم ودَجاجكم اللّواتي يأكُلن القَذَر ، وهل يأكل الفأر إلّا نقيَّ البُرّ ولُبابَ الطعام .

● عن رؤبة قال :

لمّا وَلي الوليد بن عبد الملك الخلافة بعث بي الحجّاج مع أبي لِنلقاه ، فاستَقبلْنا الشَّمال حتى صرنا بباب الفراديس[4] .

قال : وكان خروجنا في عام مُخصِب ، وكنت أصلّي الغَداة وأجتني من الكَمأة ما شئت ، ثم لا أجاوز إلّا قليلاً حتى أرى خيراً منها ، فأرمي بها وآخذ الأُخَر ، حتى نزلنا بعض المياه ، فأُهدي لنا حَمَل مُخَرْفَج[5] ووطَبْ لبن غليظ

(١) مشفوهة : اشتد عليها الطلب حتى نفدت . ويقال : اشتف ما في الأناء وشفهه : اذا أتى عليه .

(٢) الدهر أطرق مستتب : هذا مثل ، والطرق : استرخاء وضعف في الركبتين والاستتباب الاستقامة ، أراد أن الدهر يعوجّ تارة ويستقيم تارة أخرى فلا يدوم عل حال واحدة .

(٣) لا تجعل بين جنبيك الأسدّة : هذا مثل أيضاً والأسدّة (بالتشديد) جمع السَدّ ، جمع عل غير القياس ، وهي العيوب والعاهات كالعمى والصمم أي لا يضيقنّ صدرك .

(٤) باب الفراديس : من أبواب دمشق .

(٥) مخرفج : سمين .

وزُبدة كأنّها رأس نعجة حُوشيّة[1] ، فقطّعنا الحَمل آراباً[2] ، وكررنا عليه اللبن والزُبدة ، حتى إذا بلغ إناه[3] انتشلنا[4] اللحم بغير خبز . ثم شربتُ من مَرَقه شَربةً لم تزل لها ذِفرياي[5] ترشَحان ، حتى رجعنا إلى حَجْر .

فكان أوّل من لَقِينا من الشعراء جريراً ، فاستعهدَنا ألّا نُعين عليه . فكان أوّلَ من أُذن له من الشعراء أبي ثم أنا . فأقبل الوليد على جرير فقال له : ويلكَ ، ألا تكون مثلَ هذين ! عقَدا الشِّفاه عن أعراض الناس ! فقال : إنّي أُظلَم فلا أصبر .

ثم لقِينا بعد ذلك جريرٌ فقال : يا بَنيْ أُمّ العجّاج ، والله لئن وضعت كَلْكَلي عليكما ما أغنت عنكما مُقَطَّعاتكما . فقلنا : لا والله ما بَلغَه عنّا شيء ، ولكنّه حسَدنا لمّا أُذِن لنا قبلَه ، واستَنْشَدَنا قبله .

● عن المدائنيّ قال :

قدم البصرة راجزٌ من أهل المدينة ، فجلس إلى حَلْقةٍ فيها الشعراء فقال : أنا أرجَز العرب ، أنا الذي أقول :

مروانُ يعطي وسعيدٌ يمنــــعُ مروانُ نبعٌ وسعيدٌ خِرْوع[6]

ودِدت أنّي راميت من أَحبّ في الرجز يداً بيد ، والله لأنا أَرجز من العجّاج ، فليت البصرةَ جمعتْ بيني وبينه . قال : والعجّاج حاضرٌ وابنه رؤبةُ معه . فأقبل

---

(١) حوشية ، الحوشي من الأبل وغيرها : الوحشي ، نسبة الى الحوش وهو فيما زعموا بلاد الجن .

(٢) الآراب ج إرب : وهو العضو.

(٣) بلغ إناه : نضج .

(٤) انتشلنا : كذا في المطبوعة ، ويحتمل أن تكون محرفة عن انتشنا أي تناولنا .

(٥) الذفرى : العظم الشاخص خلف الأذن .

(٦) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسي والسهام . الخروع : نبت ضعيف لا يرعى .

رؤبة على أبيه فقال : قد أنصفك الرجل . فأقبل عليه العجّاج وقال : هأنذا العجّاجُ ، فهَلُـمّ . وزحف إليه ، فقال : وأيّ العجّاجَين أنت ؟ قال : ما خِلتُك تعني غيري ، أنا عبدالله الطويل ـ وكان يُكنى بذلك ـ . فقال له المدنيُّ : ما عَنَيتك ولا أردتُك . فقال : وكيف وقد هتفتَ بي ؟ قال : وما في الدنيا عجّاجٌ سواك ؟ قال : ما علمتُ . قال : ولكنّي أعلم ، وإيّاه عَنيتُ . قال : فهذا ابني رُؤبة . فقال : اللهمّ غَفراً ، مابيني وبينكما عملٌ ، وإنّما مُرادي غيرُكما . فضحك أهل الحلْقة منه وكفّا عنه .

● قال ابن سلّام :

وقف رؤبة على باب سليمان بن عليّ يستأذن ؛ فقيل له : قد أخذ الإذرِيطُوس[1] . فقال رؤبة :

يا مُنزلَ الوحي على إدريـــس ومُنزلَ اللّعنِ على إبليـــس
وخالقَ الاثنين والخميـــــس بارِكْ له في شُرب إذريطَوسِ

● عن الأصمعيّ قال :

أنشد رؤبة سَلْم بن قتيبة في صفة خيل :

يَهوِين شَتّى ويقعنَ وُقَّفا

فقال له : أخطأت يا أبا الجحّاف : جعلته مُقيّداً . فقال : أَدْنِني ، أيها الأمير ، ذنب البعير أَصِفْه لك كما يجب .

● عن عَلقمة الضبيّ قال :

خرج شاهين بنُ عبدالله الثَقفيّ برؤبة إلى أرضه ، فقعدوا يلعبون بالنَرد ، فلمّا أتَـوا بالخِوان قال رؤبة :

---

(١) الاذريطوس : اسم دواء واللفظة رومية معربة .

يا إخوتي جاء الخِوانُ فارفعوا حَنَّانةً كِعابُها تُقعقِعُ
لم أدرِ ما ثلاثُها والأربَع [1]

قال : فضحكنا ورفعناها ، وقُدِّم الطعام .

* * *

(١) الحنانة : المصوّتة ، أراد بها أداة النرد .

٢٢

سَلْم الخاسِر

[الأغاني الجزء ١٩ ص ٢٦١ وما بعدها]

الشاعر

سَلْمُ بن عَمرو مولى بني تَيم بن مُرّة ، ثم مولى أبي بكر الصِّدّيق ، رضوان الله عليه ، بصريّ ، شاعرٌ مطبوع متصرّف في فنون الشعر ، من شعراء الدولة العبّاسية . وهو راوية بشار بن بُرد وتلميذه ، وعنه أخذ ، ومن بحره اغترف ، وعلى مَذهبه ونَمَطه قال الشعر .

ولُقّب سَلمٌ بالخاسر ـ فيما يقال ـ لأنه ورِث من أبيه مُصحَفاً ، فباعه واشترى بثمنه طُنبوراً . وقيل : بل خَلّف له أبوه مالاً فأنفقه على الأدب والشعر ، فقال له بعضُ أهله : إنك لخاسرُ الصَّفْقة . فلُقّب بذلك .

وكان صديقاً لإبراهيم الموصليّ ، ولأبي العتاهية ، خاصة من الشعراء والمغنّين ، ثم فسَد ما بينه وبين أبي العتاهية . وكان سَلم منقطعاً إلى البرامكة ، وإلى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إنما الفَضلُ لِسَلْمٍ وحدَه ... ليس فيه لِسوى سَلْمٍ دَرَكْ

وكان هذا أحد الأسباب في فساد ما بينه وبين أبي العتاهية ..

أبو عمرو سعيد بن الحسن الباهليّ الشاعر قال :

لمّا مات عمرٌو أبو سلم الخاسر اقتسموا ميراثه ، فوقع في قِسط سَلم مصحفٌ ، فردّه وأخذ مكانَه دفاترَ شعر كانت عند أبيه ، فلُقّب الخاسر بذلك .

محمد بن عمر الجرجانيّ قال :

ورث سلمٌ الخاسرُ أباه مائةَ ألف درهم ، فأنفقها على الأدب وبقي لا شيء عنده ، فلقّبه الجيرانُ ومن يعرفه بالخاسر وقالوا : أنفق مالَه على ما لا ينفعه . ثم مدح المهديّ - أو الرشيد - وقد كانبلغه اللقبُ الذي لُقّب به ، فأمر له بمائة ألف درهم وقال له : كذِّبْ بهذا المال جيرانَك . فجاءهم بها وقال لهم : هذه المائةُ الألف التي أنفقْتُها وربحت الأدب ، فأنا سَلمٌ الرابحُ لا سَلم الخاسر .

موسى بن عبدالله بن شِهاب المِسْمَعيّ قال :

سمعت أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنّى يقول : كان سَلم الخاسر لا يُحسن أن يمدح ، ولكنه كان يُحسن أن يرثي ويسأل .

إغارته على شعر بشار

عن أحمد بن صالح قال : قال بشار بن بُرد :

لا خيرَ في العيش إن دُمْنا كذا أبداً ... لا نلتقي وسبيلُ الملتقى نَهَجُ
قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم ... ما في التلاقي ولا في غيره حَرَج
من راقب الناسَ لم يظفَرْ بحاجته ... وفاز بالطيّباتِ الفاتك اللَّهِجُ [1]

قال : فقال سلم الخاسر أبياتاً ثم أخذ معنى هذا البيت فسلخَه وجعله في قوله :

من راقب الناس مات غمّاً ... وفاز باللّذةِ الجَسُورُ

(١) نهج : واضح . اللهج : المثابر.

فبلغ بيتُه بشاراً ، فغضب واستشاط ، وحلَف ألّا يدخلَ إليه ولا يُفيدَه ولا ينفعه ما دام حيّاً ، فاستشفع إليه بكلّ صديق له ، وكُلّ من يثقُل عليه ردُّه ، فَكلّموه فيه فقال : أدخِلُوه إليّ . فأدخَلُوه إليه ، فاستَدناه ، ثم قال : إيـهِ يا سلمُ ، من الذي يقول .

مَن راقب الناس لم يظفَر بحاجتـــه وفــاز بالطَيّبات الفــاتك اللهِجُ

قال : أنت يا أبا مُعاذ ، قد جعلني الله فداءك . قال : فمن الذي يقول :

من راقب الناس مـات همّـــاً وفــاز باللّــذة الجَسُـــورُ

قال : تلميذك وخرّيجُك وعبدُك يا أبا معاذ . فاجتذبه إليه ، وقَنّعه[1] بمخصرة كانت في يده ثلاثاً ، وهو يقول : لا أعُود يا أبا مُعاذ إلى ما تُنكره ، ولا آتي شيئاً تَذُمّه ، إنما أنا عبدُك ، وتلميذك ، وصَنيعتُك ، وهو يقول له : يا فاسقُ ، أتجيء إلى معنىً قد سهِرتْ له عيني ، وتعب فيه فكري ، وسبقتُ الناس إليه ، فتسرقُه ، ثم تختصره لفظاً تُقرِّبُه به ، لِتزري علي وتُذهب بيتي ! وهو يحلف له ألّا يعود ، والجماعة يسألونه . فبعد لأْيٍ وجَهد ما شَفَّعهم فيه ، وكفّ عن ضربه ، ثم رجَع له ورضي عنه .

قال أبو معاذ النُميريّ : قال بشار قصيدة وقال فيها :

من راقب الناس لم يظفر بحاجتـــه وفاز بالطَيّبات الفـاتكُ اللهِجُ

فعرّفتُه أنّ سَلماً قد قال :

من راقب الناس مـــات غَمّـاً وفاز باللّــذّة الجَسُـــورِ

فلما سمع بشار هذا البيت قال : سار والله بيتُ سَلم ، وخَمَل بيتُنا ! قال : وكان كذلك ، لهِج الناسُ ببيت سَلم ، ولم يُنشد بيت بشّار أحدٌ .

---

(١) قنعه بالعصا : ضربه بها .

صالح بن عبد الرحمن عن أبيه قال :

دخل سلم الخاسر على الرشيد ، وعنده ـ العباس بن محمد وجعفر بن يحيى ، فأنشده قوله :

« حضر الرّحيلُ وشُدّت الأحداجُ »(١)

فلما انتهى إلى قوله :

إنّ المنايا في السيوف كوامنٌ ... حتى يُهيّجَها فتىً هَيّاجُ

فقال الرشيد : كان ذلك معنَ بن زائدة . فقال : صدق أمير المؤمنين . ثم أنشده حتى انتهى إلى قوله :

ومُدَجَّجٍ يَغشى المَضِيقَ بسيفه ... حتى يكونَ بسيفه الإفراجُ

فقال الرشيد : ذلك يزيد بن مَزيَد . فقال : صدق أميرُ المؤمنين . فاغتاظ جعفر بن يحيى ، وكان يزيد بن مَزيد عدوّاً للبرامكة مُصافياً للفضل بن الربيع ، فلما انتهى إلى قوله :

نزلتْ نجومُ الليل فوقَ رؤوسهم ... ولكلّ قومٍ كوكبٌ وهّاجُ

قال له جعفر بن يحيى : من قلّة الشعر تمدح أمير المؤمنين بشعرٍ قيل في غيره ! هذا لبشار في فلان التميميّ . فقال الرشيد : ما تقول يا سَلمُ ؟ قال : صدق يا سيّدي ، وهل أنا إلّا جزءٌ من محاسن بشار ، وهل أنطِق إلّا بفضل مَنطقه ! وحياتك يا سيدي إنّي لأروي له تسعةَ آلاف بيت ما يعرف أحدٌ غيري منها شيئاً . فضحك الرشيد وقال : ما أحسَنَ الصِّدقَ ! امضِ في شعرك . وأمر له بمائة ألف درهم ...

(١) الأحداج ج حَدج : مركب للنساء . وتتمة البيت : وغدا بهنّ مشمّر مزعاج .

أخباره مع أبي العتاهية

عن محمد بن عمر الجُرجانيّ قال :

كان سلمٌ تلميذ بشار ، إلّا أنه كان تباعدَ ما بينهما ، فكان سلمٌ يقدّم أبا العتاهية ويقول : هو أشعرُ الجنّ والإنس . إلى أن قال أبو العتاهية يخاطب سَلماً :

تَعالى اللهُ يا سلمَ بنَ عَمرٍو أذلّ الحِرصُ أعناقَ الرّجالِ
هَبِ الدنيا تصيرُ إليكَ عفواً أليس مصيرُ ذاك إلى زَوال

قال : وبلغ الرّشيدَ هذا الشعر فاستحسنه وقال : لَعَمري إنّ الحِرصَ لَمفسَدَةٌ لأمر الدين والدنيا ، وما فتّشتُ عن حريصٍ قطّ مُغَيَّبِه إلّا انكشف لي عمّا أذمُّه . وبلغ ذلك سَلماً ، فغضب على أبي العتاهية وقال : وَيْلي على الجَرّار ابن الفاعلة الزِّنديق ! زعم أنّي حريصٌ وقد كنز البُدورَ[1] ، وهو يطلب وأنا في ثوبيَّ هذين لا أملِك غيرَهما . وانحرف عن أبي العتاهية بعد ذلك .

عن علي بن المبارك القضاعيّ ، عن سلم الخاسر :

أنّ أبا العتاهية لمّا قال هذا الشعر فيه كتب إليه :

ما أقبحَ التزهيدَ من واعظٍ يُزهِّد الناسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان في تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيتَه المسجدُ
ورفَض الدنيا ولم يَلْقَها ولم يكن يَسعى ويَسترفِدُ
يخاف أن تنفَدَ أرزاقُه والرِّزق عند الله لا ينفَدُ
الرّزقُ مقسومٌ على من ترى يناله الأبيضُ والأسودُ
كلٌّ يُوفَّى رِزقَه كاملاً من كفّ عن جُهدٍ ومن يَجْهَدُ

---

(١) البدور ج بدرة : كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم .

صلته بخلفاء بني العباس ووزرائهم

عن أبي هَفّان قال :

وصل إلى سلم الخاسر من آل بَرْمَك خاصّةً سوى ما وصل إليه من غيرهم عشرون ألف دينار ، ووصل إليه من الرشيد مثلُها .

أبو مالك محمد بن موسى اليمانيّ قال :

كان سلمٌ الخاسر مدح بعض العلويين ، فبلغ ذلك المهديّ ، فتوعّده وهمّ به ، فقال سَلمٌ فيه :

إني أتتني عن المهديّ مَعْتَبَةٌ ... تكاد من خَوفها الأحشاءُ تضطربُ
اسمع فداك بنو حوّاء كلُّهم ... وقد يجور برأس الكاذب الكذِبُ
فقد حلفتُ يميناً غيرَ كاذبة ... يومَ المَغيبة لم يُقطَعْ لها سببُ
ألّا يُحالف مَدحي غيرَكم أبداً ... ولو تلاقى عليَّ الغَرْضُ والحقَبُ
ولو ملكتُ عِنانَ الرّيح أصرِفُها ... في كلّ ناحيةٍ ما فاتها الطلبُ
مولاك مولاك لا تُشمِتْ أعاديَه ... فما وراءك لي ذِكرٌ ولا نسبُ[1]

فعفا عنه .

سعيد أبو هُريم وأبو دعامة قالا :

لمّا قال سلم الخاسر في الرشيد حين عقد البيعة لابنه محمد الأمين :

قد بايع الثَقَلانِ في مَهد الهُدى ... لمحمد بن زُبَيدةَ ابنةِ جعفرِ
ولّيتَه عهدَ الأنام وأمرهم ... فدمغت بالمعروف رأسَ المُنْكَرِ

أعطته زبيدةُ مائة ألف درهم .

(١) الغرض . حزام الرحل . الحقب : الحزام يلي حقو البعير .

عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق عن أبيه قال :

قال سَلْمٌ الخاسر في المهديّ قصيدته التي يقول فيها :

له شِيمةٌ عند بَذل العطا ... ء لا يعرف الناسُ مِقدارَها
ومَهديُّ أمّتنا والذي ... حَماها وأدرك أوتارَها

فأمر له المهديّ بخمسمائة ألف درهم .

منصور بن أبي مُزاحم قال :

شهِدتُ المهديَّ وقد أمر لمروان بن أبي حَفصةَ بأربعين ألف درهم ، وفرض له على أهل بيته وجلسائه ثلاثين ألف درهم . وأمر الرشيدُ بعد ذلك لمّا ولي الخلافةَ لسَلم الخاسر ، وقد مدحه ، بسبعين ألف درهم ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ أكثر ما أعطى المهديُّ مَروانَ سبعون ألف درهم ، فزِدني وفضِّلْني عليه . ففعل ذلك وأعطاه تتمّة ثمانين ألف درهم ، فقال سلم :

ألا قُل لِمروانٍ أتتك رسالةٌ ... لها نَبَأٌ لا يَنثني عن لِقائكا
حَباني أميرُ المؤمنين بنَفحةٍ ... مُشَهَّرةٍ قد طأطأتْ من حِبائكا
ثمانين ألفاً حُزت من صُلب ماله ... ولم يكُ قَسْماً من أُولى وأُولائكا

فأجابه مروان فقال :

أسَلْمَ بنَ عَمرٍو قد تعاطيتَ غايةً ... تُقصِّر عنها بعد طُول عَنائكا
فأُقسم لولا ابنُ الرَّبيع ورِفدُه ... لما ابتَلَّت الدَّلْوُ التي في رِشائكا
وما نِلتَ مُذ صُوِّرتَ إلّا عَطيّةً ... تقوم بها مَصرورةً في رِدائكا

عبد الصَّمد بن المُعَذَّل قال :

لمّا أنشد سلم الخاسر الرشيد قصيدته فيه :

« حَضر الرَّحيلُ وشُدّت الأَحداجُ »

أمر له بمائة ألف درهم .

أبو دِعامة قال :

دخل سلم الخاسر على الرشيد فأنشده :

« حَيِّ الأحبَّةَ بالسّلامِ »

فقال الرشيد : حيّاهم الله بالسلام .

فقال : « على وَداعٍ أم مُقام »

فقال الرشيد : حَيّاهم اللهُ على أيِّ ذلك كان . فأنشده :

لم يبقَ منكَ ومنهمُ ... غيرُ الجلودِ على العظامِ

فقال له الرشيد : بل منك . وأمر بإخراجه ، وتطيّر منه ومن قوله فلم يسمع منه باقي الشعر ولا أثابه بشيء .

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

أتت وفاةُ المهديّ إلى موسى الهادي وهو بجُرجان ، فبُويع له هناك ، فدخل عليه سلم الخاسر مع المهنّئين ، فهنّأه بخلافة الله ، ثم أنشده :

لمّا أتتْ خيرَ بني هاشمٍ ... خلافةُ الله بجُرجانِ
شَمّر للحَزم سَرابيلَه ... برأيِ لا غَمْرٍ ولا وانِ
لم يُدخل الشُورى على رأيه ... والحزمُ لا يُمضِيه رأيانِ[1]

يحيى بن الحسن قال : حدّثني أبي قال :

كنت أنا والربيع نسير قريباً من محمِل المنصور حين قال للرَّبيع : رأيت كأنّ الكعبة قد تصدّعت ، وكأنّ رجلاً جاء بحبلٍ أسود فشَدَّدها . فقال له الربيع : مَن الرجلُ ؟ فلم يُجبه . حتى إذا اعتلّ قال للرّبيع : أنت الرجلُ الذي رأيته في نومي شدّد الكعبة ، فأيَّ شيء تعمل بعدي ؟ قال : ما كنتُ أعمل في

(١) الغمر : غير المجرب . الواني : الضعيف الفاتر الهمة .

حياتك . فكان من أمره في أخذ البيعة للمهديّ ما كان ، فقال سلم الخاسر في الفضل بن الربيع :

يابنَ الذي جبَّر الاسلامَ يومَ وَهَى ... واستنقذ الناس من اعمياء صَيْخُودِ
قالت قريشٌ غداةَ انهاضَ مُلكُهمُ ... أين الرّبيع وأعطَوا بالمقاليدِ
فقام بالأمر مِشناسٌ بوَحدته ... ماضي العزيمة ضَرّابُ القماحيد
إنّ الأمور إذا ضاقت مَسالكُها ... حلّت يدُ الفضل منها كلَّ مَعقود
إنّ الرّبيع وإنّ الفضلَ قد بَنَيا ... رُواقَ مَجدٍ على العبّاس مَمدودِ (١)

قال : فوهب له الفضل خمسة آلاف دينار .

ميمون بن هارون قال :

دخل سلم الخاسر على الفضل بن يحيى في يوم نَيروز والهدايا بين يديه فأنشده :

أمِن ربْعٍ تُسائلُه ... وقد أقوتْ منازلُه
بقلبي من هوى الأطلا ... ل حُبٌّ ما يُزايلُه
رُوَيدكمُ عن المشغو ... ف إنّ الحبَّ قاتلُه
بلابلُ صَدره تَسري ... وقد نامتْ عواذلُه
أحقُّ الناس بالتفضيل من تُرجى فواضلُه
رأيت مكارم الأخلا ... ق ما ضَمّت حمائلُه
فلستُ أرى فتىً في النا ... س إلّا الفضلُ فاضلُه
يقول لسانُه خيراً ... فتَفعلُه أناملُه
ومهما يُرجَ من خيرٍ ... فإنّ الفضلَ فاعلُه

---

(١) الصيخود : أراد الفتنة الشديدة ، والصيخود : الصخرة القوية ، ويوم صيخود : شديد الحر . انهاض : وهبى وانكسر . القماحيد ج قمحود : الهنة الناشزة فوق القفا وأعلى القذال ، وأراد بها الأعناق .

وكان إبراهيمُ الموصليّ وابنه إسحاقُ حاضرَين ، فقال لإبراهيم : كيف ترى وتسمع ؟ قال : أحسنَ مَرئيٍّ ومسموع ، وفضلُ الأمير أكثرُ منه . فقال : خذوا جميعَ ما أُهدي إليّ اليومَ فاقتسموه بينكم أثلاثاً ، إلّا ذلك التمثال ، فإني أريد أن أُهديَه اليومَ إلى دنانيرَ . ثم قال : لا واللهِ ما هكذا تفعل الأحرار ، يُقوَّم وندفع إليهم ثمنَه ، ثم نُهديه . فقُوّم بألفَي دينار ، فحملها إلى القوم من بيت ماله ، واقتسموا جميع الهدايا بينهم .

عن أبي توبة قال :

حدث في أيام الرشيد أمرٌ فاحتاج فيه إلى الرأي ، فأشكل ، وكان الفضل ابن يحيى غائباً ، فورد في ذلك الوقت ، فأخبروه بالقصة ، فأشار بالرأي في وقته ، وأُنفذ الأمر على مَشُورته ، فحُمد ما جَرى فيه . فدخل عليه سَلم الخاسر فأنشده :

بديهتُـــه وفِكرتـــه ســواءٌ ... إذا ما نابــه الخطبُ الكبـيرُ
وأحزمُ ما يكون الدّهرَ رأيـــاً ... إذا عَيَّ المُشاورُ والمُشـيرُ

فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ابتلاؤه بالكيمياء

يحيى بن الحسن الرّبيعيّ قال : أخبرني أبي قال :

كان سلم الخاسر قد بُلي بالكيمياء[1] ، فكان يذهب بكلّ شيءٍ له باطلاً ، فلمّا أراد الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يصنع له[2] عُرِّف أنّ بباب الشام صاحبَ كيمياء عجيباً ، وأنه لا يصل إليه أحدٌ إلّا ليلاً ، فسأل عنه ، فدَلُّوه عليه .

قـــال : فدخلت إليه إلى مـوضع مُعْوِر[3] ، فدققت الباب ، فخرج إليّ

(١) يقصد بالكيمياء هنا تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب .

(٢) أن يصنع له : أن يسدي له الخير .

(٣) معور : لا يؤمن الشر فيه .

فقال : مَن أنت ، عافاك الله ؟ فقلت : رجلٌ معجَب بهذا العلم . قال فلا تَشْهَرني ، فإني رجلٌ مستور ، وإنما أعملُ للقوت . قال : قلت : إنّي لا أشهَرُك ، إنما أقتبس منك . قال : فاكتُم ذلك . قال : وبين يديه كُوز شَبَهٍ[1] صغيرٌ ، فقال لي : اقلَع عُروتَه . فقلعتُها . فقال : اسبُكْها في البُوطَقة[2] . فسبكتُها ، فأخرج شيئاً من تحت مُصَلّاه فقال : ذُرَّه عليه . ففعلتُ . فقال : أَفرِغه . فأفرغتُه ، فقال : دَعْه معك ، فإذا أصبحتَ فاخرُج ، فبِعه وعُد إليّ . فخرجتُه إلى باب الشأم ، فبعت المِثقال بأحد وعشرين درهماً ، ورجعت إليه فأخبرتُه فقال : أطلبُ الآنَ ما شئت . قلت : تُفيدني . قال : بخمسمائة درهم على أن لا تُعلِّمَه أحداً . فأعطيتُه ، وكتب لي وَصفةً ، فامتحنتُها ، فإذا هي باطلة ، فعُدت إليه ، فقيل لي : قد تحوّل ، وإذا عُروة الكوز المشبَّه من ذهب مُركَّبةٌ عليه ، والكُوز شَبَهٌ ، ولذلك كان يُدخل إليه من يطلبه ليلاً ليخفى عليه . فانصرفت وعلمت أنّ الله عزّ وجلّ أراد بي خيراً ، وأنّ هذا كلَّه باطلٌ .

سائر أخباره

● أبو كعب قال :

لمّا ماتت البانوكة بنت المهديّ رثاها سلم الخاسر بقوله :

أودى ببانوكةَ رَيبُ الزمانْ ... مُؤنسةِ المهديّ والخيزُرانْ
لم تنطوِ الأرضُ على مِثلها ... مولودةً حَنّ لها الوالدان
بانوكُ يا بنتَ إمامِ الهُدى ... أصبحتِ من زينة أهل الجِنان
بكت لك الأرضُ وسُكّانُها ... في كلّ أُفقٍ بين إنسٍ وجانْ

---

(١) الشبه : النحاس الأصفر. البوطقة : إناء من زجاج أو غيره يستخدم في تجارب الكيمياء .

● قيل لِمعن بن زائدة : ما أحسنَ ما مُدحت به من الشعر عندك ؟ قال : قولُ سلم الخاسر :

أَبلِـــغ الفِـتيـــانَ مَـأْلُـكـةً أنّ خيرَ الوُدِّ ما نَفعــــا
إنّ قَـرْمــاً من بني مَطـــرٍ أتلفتْ كفّــــاه ما جمعا
كُلّمــــا عُدنا لِنـائلــــه عاد في مَعروفه جَذَعــا[1]

وفاته

حمّاد عن أبيه قال :

استوهب أبي من الرشيد تركة سَلمٍ الخاسر ـ وكان قد مات من غير وارث ـ فوهبها له قبل أن يتسلّمها صاحبُ المواريث ، فحصّل منها خمسين ألف دينار .

عن سعيد بن هُريم وأبي دعامة : أنه رُفع إلى الرشيد أنّ سَلماً الخاسر قد توفّي وخلّف ممّا أخذ منه خاصّةً ومن زُبيدة ألفَ ألفٍ وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلّفه من عَقار وغيره ممّا اعتقده[2] قديماً ، فقبضه الرشيد . وتظلّم إليه مواليه من آل أبي بكر الصِّدّيق ، رِضوانُ الله عليه ، فقال : هذا خادمي ونديمي ، والذي خلّفه من مالي ، فأنا أحقّ به . فلم يُعطهم إلّا شيئاً يسيراً من قديم أملاكه .

* * *

(١) المألكة : الرسالة . القرم : السيد .
(٢) اعتقده : اقتناه .

٢٣

السَّيِّد الحِمْيَري

[الأغاني الجزء ٧ ص ٢٢٩ وما بعدها]

الشاعر

السيِّدُ لقبهُ ، واسمُه إسماعيل بن محمّد بن يزيد بن مُفرِّغ الحِمْيَريّ ، ويُكنى أبا هاشم ؛ وأمُّه امرأةٌ من الأزد ثم من بني الحُدّان ؛ وجدُّه يزيد ابن ربيعةَ(١) ، شاعر مشهور ، وهو الذي هجا زياداً وبَنيه ونفاهم عن آل حرب ، وحبَسه عبيدالله بن زياد لذلك وعَذَّبه ، ثم أطلقه معاوية ...

وكان شاعراً متقدّماً مطبوعاً ، يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام ثلاثة : بشّار وأبو العتاهية والسيّد ، فإنّه لا يُعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحدٍ منهم أجمعَ .

وإنّما مات ذكرُه وهجَر الناسُ شعرَه لِما كان يُفرِط فيه من سَبّ أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه في شعره ويستعمله من قَذْفهم والطعن عليهم ، فتُحُومي شعرُه من هذا الجنس وغيرِه لذلك ، وهجره الناسُ تخوُّفاً وتوقّياً . وله طِرازٌ من الشعر ومذهبٌ قلّما يُلحَق فيه أو يُقارب ،ولا يُعرَف له من الشعر كثيرٌ ،

(١) هو يزيد بن مفرّغ الحميري ، وترجمته في الجزء الرابع من هذه الاختيارات .

وليس يخلو من مدح بني هاشم أو ذمّ غيرهم ممّن هو عنده ضِدٌّ لهم . ولولا أن أخباره كلّها تجري هذا المَجْرى ولا تخرج عنه لوجب ألّا نذكُرَ منها شيئاً ، ولكنّا شَرَطنا أن نأتي بأخبار مَن نذكُره من الشعراء ، فلم نجد بُدّاً من ذكر أسلم ما وجدناه له ...

أبو جعفر الأعرج ابن بنت الفُضَيل بن بشّار قال :

كان السيّد أسمَر ، تامَّ القامة ، أشنبَ[1] ، ذا وَفْرة[2] ، حسَن الألفاظ ، جميل الخِطاب ، إذا تحدّث في مجلس قوم أعطى كلَّ رجل في المجلس نصيبَه من حديثه .

عن لَبَطة بن الفرزدق قال :

تذاكرنا الشعراء عند أبي فقال : إنّ ها هنا لرجلين لو أخذا في معنى الناس لما كُنّا معهما في شيء . فسألناه من هما ؟ فقال : السيّد الحِميريّ وعِمران ابن حِطان السَّدُوسيّ ، ولكنّ الله عزّ وجلّ قد شغل كلَّ واحدٍ منهما بالقول في مذهبه [3] .

التَوَّزيّ قال : رأى الأصمعيّ جزءاً فيه من شعر السيّد ، فقال : لِمَن هذا ؟ فسترتُه عنه لعلمي بما عنده فيه ، فأقسم عليّ أن أخبره ، فأخبرتُه ، فقال : أنشِدني قصيدةً منه . فأنشدته قصيدةً ثم أخرى وهو يستزيدني ، ثم قال : قَبحه اللهُ ما أسلكَه لطريق الفحول ! لولا مذهبُه ولولا ما في شعره ما قدّمتُ عليه أحداً من طبقته .

أبو حاتم قال : سمعت أبا عبيدة يقول : أشعر المحدَثين السيّد الحِميريّ وبشّار .

(١) الشنب : بياض الأسنان وبريقها .
(٢) الوفرة : ما جاوز شحمة الأذنين من الشعر ، او الشعر المجتمع على الرأس . ..
(٣) هذا الخبر لا يصح لأن السيد الحميري ولد سنة ١٠٥ وتوفي الفرزدق سنة ١١٤ هـ ، أي أن السيد لم يكن جاوز التاسعة عند وفاة الفرزدق .

عمر بن شَبّـة قال :

أتيت أبا عبيدة مَعمر بن المثنّى يوماً وعنده رجلٌ من بني هاشم يقرأ عليه كتاباً ، فلمّـا رآني أطبقه ، فقال له أبو عبيدة : إن أبا زيد ليس ممّـن يُحتشَم منه فاقرأ . فأخذ الكتاب وجعل يقرؤه ، فإذا هو شعر السيّد . فجعل أبو عبيدة يَعجب منه ويستحسنه . قال أبو زيد : وكان أبوعبيدةَ يَرويه .

وقال المَوصليّ : حدّثني عمّي قال :

جمعت للسيّد في بني هاشم ألفينِ وثلاثمائة قصيدةً ، فخِلتُ أن قد استوعبتُ شعرَه ، حتى جلس إليّ يوماً رجلٌ ذو أَطمارٍ رثّـةٍ ، فسمعني أُنشد شيئاً من شعره ، فأنشدني له ثلاثَ قصائد لم تكن عندي ، فقلت في نفسي : لو كان هذا يَعلم ما عندي كلّـه ثم أنشدني بعده ما ليس عندي لكان عجيباً ، فكيف وهو وهو لا يعلم وإنّما أنشد ما حَضَره ! وعرفت حينئذٍ أنّ شعره ليس ممّـا يُدرَك ولا يمكن جمعُه كُلُّـه .

عن إسحاق بن ثابت العطّار قال :

كنّـا كثيراً ما نقول للسيّد : مالك لا تستعمل في شعرك الغريبَ ، ما تسأل عنه كمـا يفعل الشعراء ؟ قال : لَأن أقولَ شعراً قريباً من القلوب يَلَـذّه من سمِعه خيرٌ من أن أقول شيئاً مُتعقّـداً تضِـلّ فيه الأوهام .

تشيّعه لآل البيت

عن إسماعيل بن الساحر راوية السيّد وأحمد بن سليمان بن أبي شيخ عنِ أبيه :

أن أبَوي السيّد كانا إباضيّين[١] ، وكان منزلهما بالبصرة في غرفة بني ضبّـة ،

(١) الإباضية : احدى فرق الخوارج ، نسبة الى عبدالله بن إباض .

وكان السيّد يقول : طالما سُبّ أمير المؤمنين في هذه الغُرفة . فإذا سُئل عن التشيّع من أين وقع له قال : غاصت عليَّ الرَّحمةُ غَوصاً .

ورُوي عن السيّد أن أبويه لمّا علِما بمذهبه همّا بقَتله ، فأتى عُقبَةَ بن سَلْم الهُنائيّ[1] فأخبره بذلك ، فأجاره وبَوّأه منزلاً وَهَبه له ، فكان فيه حتى ماتا فورثهما .

عن أبي داود سليمان بن سفيان المعروف بالحنزق[2] راوية السيّد الحِميريّ قال :

ما مضى واللهِ إلّا على مذهب الكيسانيّة[3] ، وهذه القصائد التي يقولها الناس مثل :

تجعفرتُ باسم الله والله أكبرُ

و تجعفرت باسم الله فيمن تجعفرا

وقوله :

أيا راكباً نحو المدينة جَسْرةً ... عُذافِرةً تَهوي بها كلُّ سَبْسَبِ
إذا ما هداك الله لاقيتَ جعفراً ... فقل يا أمينَ الله وابنَ المهذَّبِ[4]

---

(١) عقبة بن سلم : كان والي البصرة للمنصور.

(٢) الحنزق : كذا ضبطه المحقق ، وفي مواضع أخرى من ترجمة السيد ضبطه : « المسترق » .

(٣) الكيسانية : فرقة من الشيعة كانت تقول بإمامة محمد بن الحنفية وبالرجعة والبداء وهي منسوبة الى كيسان صاحب شرطة المختار الثقفي .

(٤) الجسرة : الناقة الضخمة والعذافرة : الناقة الشديدة . جعفر : هو جعفر الصادق الامام السادس من أئمة الشيعة الامامية ، وهم يخالفون الكيسانية في حصرهم الإمامة بأبناء فاطمة في حين ان الكيسانيَة أجازوا الإمامة في أبناء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عامة ولذلك بايعوا محمد بن الحنيفة ، وهو ليس من أولاد فاطمة . والقصائد التي ذكر السيد فيها جعفراً عرفت بالجعفريات .

لغلام للسيّد يقال له قاسم الخيّاط ، قالها ونَحلَها للسيّد ، وجازت على كثير من الناس ممّن لم يعرف خبرها ، لمحلّ قاسم منه وخِدمته إيّاه .

عن مسعود بن بِشر :

أنّ جماعةً تذاكروا أمر السيّد ، وأنّه رجع عن مذهبه في ابنِ الحَنفيّة وقال بإمامة جعفر بن محمد . فقال ابن السّاحر راويته : والله ما رجع عن ذلك ولا القصائدُ الجعفريّات إلّا مَنحولةً له قيلت بَعدَه . وآخرُ عهدي به قبل موته بثلاثٍ وقد سمع رجلاً يروي عن النبيّ ﷺ أنا قال لعليّ عليه السلام : « إنّه سيُولَد لك بعدي ولدٌ وقد نحلتُه اسمي وكُنيتي » ، فقال في ذلك وهي آخر قصيدةٍ قالها :

أشاقتك المنازلُ بعد هِنــدِ ... وتربْيْها وذاتِ الدَّلِّ دَعْدِ

منازلُ أقفرتْ منهنّ مَحّتْ ... مَعالمُهنّ من سَبَلٍ ورَعْد

وريحٍ حَرْجَفٍ تَستَنُّ فيها ... بسافي التُّرْبِ تُلْحِمُ ما تُسَدّي

ألم يبلُغك والأنباءُ تَنْمي ... مَقالُ محمّدٍ فيما يُؤَدّي

إلى ذي عِلمه الهادي علــيٍّ ... وخَولةُ خادمٌ في البيت تَرْدي

ألم تَرَ أنّ خَولةَ سوف تأتي ... بواري الزّنْد صافي الخِيم نَجْدِ

يفُوز بكُنيتي واسمي لأنّي ... نَحَلْتُهماه والمهديُّ بعدي

يُغَيَّبُ عنهمُ حتى يقولوا ... تَضمَّنه بطَيْبةَ بطنُ لَحْدِ

سِنين وأشهراً ويُرى برَضْوى ... بشِعْبٍ بين أنْمارٍ وأُسْدِ (١)

[الأبيات ...]

---

(١) محّت : عفت . السبل : المطر. ريح حرجف : باردة . تستنّ : تعدو مقبلة مدبرة ألحم : جعل للثوب لحمة وأسداه : جعل له سدى ، وعلى المجاز يقال : ألحم ما أسديت أي أتمم ما بدأت. خولة : امرأة من بني حنيفة تزوجها علي وأنجب منها ابنه محمداً الذي جعلته الكيسانية إماماً لها. تردي : تلعب . واري الزند : ذو نجدة =

وقال إسماعيل بن السّاحر راوية السيّد : كنت عنده يوماً في جَناحٍ له ، فأجال بصرَه فيه ثم قال : يا إسماعيل ، طال واللهِ ما شُتم أميرُ المؤمنين عليٌّ في هذا الجناح . قلت : ومَن كان يفعل ذلك ؟ قال : أَبَواي .

وكان يذهب مَذهب الكيسانيّة ويقول بإمامة محمّد بن الحنفيّة ، وله في ذلك شعرٌ كثير . وقد روَى بعضُ مَن لم تصحَّ روايته أنّه رجع عن مذهبه وقال بمذهب الإماميّة ، وله في ذلك :

تجعفرتُ باسم الله والله أكبرُ وأيقنت أنّ اللهَ يعفُو ويغفِرُ

وما وجدنا ذلك في رواية مُحَصِّل ، ولا شعرُه أيضاً من هذا الجنس ولا في هذا المذهب ، لأنّ هذا شعرٌ ضعيفٌ يتبيّن التوليدُ فيه ، وشعرُه في قصائده الكيسانيّة مُباينٌ لهذا جَزالةً ومَتانةً وله رَونقٌ ومعنًى ليسا لما يُذكَر عنه في غيره .

محمد بن موسى قال :

جاء رجلٌ إلى السيّد فقال : بَلغني أنّك تقول بالرَّجْعة[1] . فقال : صدق الذي أخبرك ، وهذا دِيني . قال : أفتُعطيني ديناراً بمائة دينارٍ إلى الرَّجعة ؟ قال السيّد : نعم وأكثر من ذلك إذا وثَّقتَ لي بأنّك ترجع إنساناً . قال : وأيَّ شيءٍ أرجِع ؟ قال : أخشى أن ترجعَ كلباً أو خِنزيراً فيذهبَ مالي . فأفحمه .

أبو داود المُسْتَرِق راوية السيّد :

أنه حضر يوماً وقد ناظره محمد بن عليّ بن النُعمان المعروف بشَيطان

= ومعروف . الخيم : الطبع والسجية . طيبة : من أسماء المدينة المنورة . بين أنمار وأسد : يعتقد الكيسانية أن محمد بن الحنفية لم يمت وانما تغيب في جبل رضوى يقيم فيه بين أسد ونمر وعنده عينان نضاحتان تجريان عسلاً وماءً .

(١) كان الكيسانية يقولون بالرجعة ، أي بالرجوع الى الدنيا بعد الموت .

الطاق[1] في الإمامة ، فغَلبه محمّد في دفع ابن الحنفيّة عن الإمامة ، فقال السيّد :

ألا يا أيّهـا الجَدِلُ المُعَـنّي ... لنا ، ما نحن ويحَك والعَناءُ
أتُبصر ما تقول وأنت كهـلٌ ... تُراك عليك من وَرَعٍ رِداءُ
ألا إنّ الأئمّـةَ من قُريـش ... وُلاةَ الحقّ أربعةٌ سَـواءُ
عليٌّ والثـلاثـةُ من بَنِيـه ... همُ أسباطُه والأَوصيـاءُ
فأنّـى في وَصيّته إليهـم ... يكون الشَكّ منّا والمِـراءُ
بهم أوصـاهم ودعـا إليـه ... جميعَ الخَلق لو سُمع الدُّعاء
فسِبطٌ سِبطُ إيمانٍ وحِلْـم ... وسِبطٌ غَيَّبتْـه كَرْبـلاءُ
سقى جَدَثاً تضمَّنـه مُلِـثٌّ ... هَتُوفُ الرَّعد مُرتَجِـزٌ رِواءُ
تظلُّ مُظِلّـةً منها عَـزالٍ ... عليه وتغتدي أُخرى مِـلاءُ
وسِبطٌ لا يذوق الموتَ حتـى ... يقودَ الخيلَ يَقْدُمُهـا اللواء
من البيت المُحَجَّـب في سَراةٍ ... شُراةٍ لفَّ بينهم الإخـاءُ
عصائبُ ليس دون أغرَّ أجلى ... بمكّـة قائمٍ لهمُ انتهـاءُ [2]

وهذه الأبيات بعينها تروى لكُثيّر .

---

(٢) الطاق : حصن بطبرستان كان يسكنه محمد هذا واليه تنسب الطائفة الشيطانية وهم من غلاة الشيعة .

(١) عنّاه : أتعبه . السبط : ابن البنت ، والاسباط هنا هم : الحسن والحسين ومحمد بن الحنيفة أبناء عليّ كرم الله وجهه . ملث : دائم غير منقطع . ارتجز الرعد : تتابع صوته . الرواء : الكثير المروي . العزالي ج عزلاء : مصب الماء من القربة واراد بها المطر الغزير . السراة : الأشراف النبلاء .

طائفة من أخباره

● عن ابن عائشةَ قال :

لمّا استقام الأمرُ لبني العبّاس قام السيّد إلى أبي العبّاس السفّاح حين نزل عن المِنبر فقال :

دُونَكُموها يا بَــني هاشــمٍ فجَدِّدوا من عَهدهــا الدّارسا
دونكموها لا علا كَعبُ مَــن كان عليكم مُلْكَهــا نافِســا
دونكموهـا فالبَسُوا تاجَهـــا لا تعدَمُوا منكمْ له لابسـا
لو خُيِّر المِنبرُ فُرسانَــــــه ما اختار إلّا منكمُ فارسـا
قد ساسهــا قبلكــم ساســةٌ لم يتركوا رَطْبــاً ولا يابسـا
ولستُ من أن تملِكوهــا إلى مَهْبِط عيسى فيكمُ آيِسا

فسُرّ أبو العبّاس بذلك ، وقال له : أحسنتَ يا إسماعيلُ ! سَلْني حاجتَك . قال : تُولّي سليمان بن حَبيب الأهواز . ففعل .

الحارث بن عبد المطّلب قال :

كنت جالساً في مجلس أبي جعفر المنصور ، وهو بالجِسر وهو قاعدٌ مع جماعةٍ على دِجلةَ بالبصرة ، وسَوّار بن عبدالله العَنبريّ قاضي البصرة جالسٌ عنده ، والسيّد ابن محمد بين يَديه يُنشد قوله :

إنّ الإلَــه الذي لا شيءَ يُشبهـــــه أعطاكم المُلكَ للدنيا وللدِيــن
أعطاكم اللهُ ملكاً لا زَوالَ لـــــه حتى يُقادَ إليكم صاحبُ الصِّين
وصاحبُ الهند مأخوذاً برُمَّتـــــه وصاحبَ التُرك محبوساً على هُونِ

والمنصور يضحك سروراً بما يُنشده ، فحانت منه التفاتةٌ فرأى وجه سَوّارٍ يتربّد غيظاً ويَسْودُّ حَنَقاً ويدلُك إحدى يديه بالأخرى ويَتحرّق ، فقال له المنصور : مالك ! أرابَك شيءٌ ؟ قال : نعم ، هذا الرجلُ يُعطيك بلسانه ما ليس

في قلبه ، والله يا أميرَ المؤمنين ما صَدَقك ما في نفسه ، وإنّ الذين يُواليهم لَغَيْرُكُم . فقال المنصور : مَهلاً ، هذا شاعرُنا ووليُّنا ، وما عرفتُ منه إلّا صِدقَ مَحبّةٍ وإخلاصَ نِيّة . فقال له السيد : يا أمير المؤمنين ، والله ما تحمّلتُ غَضَّكم لأحدٍ ، وما وجدت أَبَويّ عليه فافتتنتُ بهما ، وما زلت مشهوراً بموالاتكم في أيّام عدوّكم . فقال له : صدقت . قال : ولكنّ هذا وأَهْلُوه أعداءُ الله ورسوله قديماً والذين نادَوا رسول الله ﷺ من وراء الحُجُرات[1] ، فنزلت فيهم آيةٌ من القرآن: ﴿ أكثرُهم لا يَعقلون ﴾ .وجرى بينهما خِطابٌ طويل ، فقال السيّد قصيدته التي أوّلها :

قِفْ بنا يا صاحِ واربَعْ ... بالمَغاني المُوحشاتِ

وقال فيها :

يا أمينَ الله يا مَنْصورُ يا خيرَ الوُلاة
إن سوّار بن عبد الله من شرّ القُضاة

[الأبيات ...]

فشكاه سَوّارٌ إلى أبي جعفر ، فأمره بأن يصير إليه معتذراً ، ففعل ، فلم يَعذِرْه ، فقال :

أتيتُ دَعيَّ بني العَنبر ... أَرُومُ اعتذاراً فلم أُعْذَرِ
فقلت لنفسي وعاتبتُها ... على اللوْم في فِعلها أَقصِري
أيعتذر الحُرُّ ممّاأتى ... إلى رجلٍ من بني العَنْبرِ

(١) الذين نادوا الرسول : أراد وفد بني تميم ، وقد قدم وفدهم على رسول الله عليه السلام في السنة التاسعة للهجرة فدخلوا المسجد فوقفوا عند الحجرات وهي بيوت نسائه عليه السلام فنادوا : اخرج إلينا يا محمد فقد جئنا لنفاخرك ، فأنزل الله فيهم قوله: ﴿ ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

أبـــوك ابنُ سارق عَنْز النبيّ وأُمُّك بنت أبي جَحْـــدَر
ونحـــن على رَغْمــك الـرافضـــون لأهل الضَّلالة والمُنْكَرِ[1]

قال : وبلغ السيّد أنّ سَوّاراً قد أعدّ جماعةً يشهَدُون عليه بسرقة لِيقطعَه ، فشكاه إلى أبي جعفر ، فدعا بسَوّارٍ وقال له : قد عَزَلتُك عن الحُكم للسيّد أو عليه . فما تعرّض له بسُوءٍ حتى مات .

● وروى عبدالله بن أبي بكر العَتَكيّ أنّ أبا الخَلّال العَتَكيّ دخل على عُقْبة بن سَلْم والسيّد عنده ، وقد أمر له بجائزة ، وكان أبو الخَلّال شيخ العشيرة وكبيرَها ، فقال له : أيّها الأمير ، أتُعطي هذه العطايا رجلاً ما يَفْتُرُ عن سَبّ أبي بكر وعمر ! فقال له عُقبة : ما علمت ذلك ولا أعطيتُه إلّا على العُشْرة والمودّة القديمة وما يُوجبه حقُّه وجِوارُه ، مع ما هو عليه من مُوالاة قومٍ يَلزمُنا حقُّهم ورعايتهم . فقال له أبو الخَلّال : فمُرْه إن كان صادقاً أن يمدح أبا بكر وعمر حتى نعرفَ براءتَه ممّا يُنسَب إليه من الرَّفْض[2] . فقال : قد سمِعك ، فإن شاء فعَل . فقال السيّد :

إذا أنا لم أحفَظْ وَصاةَ محمّـــدٍ ولا عهدَه يومَ الغَدير المؤكَّدا
فإنّي كمَن يشري الضَّلالةَ بالهُدى تنصَّر من بعد التُّقى وتَهوَّدا
ومالي وَتيمٍ أو عديٍّ وإنّمـــا أُولُو نِعمتي في الله من آلِ أَحمدا

[الأبيات ...]

ثم نهض مُغضَباً . فقام أبو الخَلّال إلى عُقبة فقال : أَعِذْني من شرِّه ، اعاذكَ الله من السُّوء ، أيّها الأمير . قال : قد فعلتُ على ألّا تعرِضَ له بعدَها .

(١) سارق العنز : يعني به عنزة بن نقب ، وكان ممن قدم عل رسول الله ﷺ في وفد بني العنبر واتهم بسرقة عنز رسول ﷺ .

(٢) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي ثم طلبوا منه أن يبرأ من أبي بكر وعمر فأبى فتركوه ورفضوه .

أبو سليمان النّاجي قال :

جلس المَهديّ يوماً يعطي قريشاً صِلاتٍ لهم ، وهو وليُّ عهد ، فبدأَ ببني هاشم ثم بسائر قريش . فجاء السيّد فرفع إلى الرَّبيع[1] رُقعةً مختومةً وقال : إنّ فيها نصيحةً للأمير فأَوصلها إليه . فأوصلَها ، فإذا فيها :

قُل لابن عبّاسٍ سَميّ محمّدٍ ... لا تُعْطِينّ بني عَدِيٍّ دِرهما
احرِمْ بني تَيْم بن مُرّة إنّهم ... شرُّ البَريّة آخِراً ومُقدَّما
إن تُعطِهم لا يشكُروا لك نعمةً ... ويُكافئوك بأن تُذَمَّ وتُشتَما
وإن ائتمنتَهمُ أو استعملتَهم ... خانُوك واتّخذوا خَراجك مَغْنَما
ولَئن منعتَهمُ لقد بَدؤوكمُ ... بالمَنْع إذ مَلَكُوا وكانوا أَظْلَما
منعوا تُراثَ محمّدٍ أعمامَه ... وابنَيْه وابنتَه عَديلةَ مَريما
وتأمّروا من غير أن يُستَخْلَفُوا ... وكفى بما فعلوا هنالك مَأْثَما
لم يشكروا لمحمّدٍ إنعامَه ... أفيشكرون لِغيره إن أَنْعَما
واللهُ مَنّ عليهمُ بمحمّدٍ ... وهداهمُ وكسا الجُنوبَ وأطعما
ثم انبرَوا لوَصِيّه ووَليّه ... بالمنكَراتِ فجرّعوه العَلْقَما[2]

.. قال : فرمَى بها إلى ابي عبيدالله[3] ثم قال : اقطَعْ العَطاء . فقطَعه . وانصرف

(١) الربيع : هو الربيع بن يونس ، حاجب المنصور وقد وزر له بعد أبي أيوب المورياني .
(٢) بنو عديّ : هم بنو عديّ بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه . بنو تيم بن مرة : رهط أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولكونهما رهط عمر وابي بكر حرّض السيد المهديّ على حرمانهما من الصلات . بدؤوكم بالمنع : يريد أنهم منعوا آل رسول الله عليه السلام تراثهم . أعمامه . أراد العباس بن عبد المطلب وإليه ينتمي خلفاء بني العباس . ابنيه : الحسن والحسين . ابنته : فاطمة بنت رسول الله عليه السلام ، وجعلها معادلة في منزلتها لمريم بنت عمران ، أم عيسى عليه السلام .
(٣) أبو عبيد الله : هو معاوية بن عبيدالله الأشعري كاتب المهديّ .

الناس ؛ ودخل السيّد إليه ، فلمّا رآه ضحك وقال : قد قبِلنا نصيحتك يا إسماعيل. ولم يُعطِهم شيئاً .

● محمد بن عبدالله الحِميريّ قال :

دخل السيّد على المهديّ لمّا بايع لابنَيه موسى وهارون ، فأنشأ يقول :

ما بالُ مَجرى دمعــك الساجمِ　　أمِن قَذًى بات بها لازمِ
أم من هوًى أنت لــه ساهرٌ　　صَبابــةً من قلبــك الهائــمِ
آليتُ لا أمدَحُ ذا نائــلٍ　　من مَعشرٍ غيرَ بني هاشــم
أَولتْهمُ عندي يــدُ المصطفى　　ذي الفَضلِ والمَنّ أبي القاسـم
فإنّهــا بيضــاءُ محمــودةٌ　　جَزاؤها الشُكرُ على العالِــمِ
جَزاؤهــا حِفظُ أبي جَعفــرٍ　　خليفــةِ الرحمــن والقائــم
وطاعــةُ المَهْديّ ثم ابنِــه　　موسى على ذيْ الإرْبــة الحازم
وللرّشيد الزابعِ المرتضــى　　مُفترَضٌ من حقّــه الــلازم
مُـلكُهــم خمســون معدودة　　برَغْـم أنف الحاسد الــرّاغم
ليس علينا ما بَقُوا غـيرَهم　　في هذه الأُمّــةِ من حاكــم
حتى يردّوهــا إلى هابــطٍ　　عليه عيسى منهـمُ ناجمِ [1]

● عن المدائنيّ قال :

كان السيّد يأتي الأعمش[2] فيكتب عنه فضائل عليّ رضي الله عنه ويخرج من عنده ويقول في تلك المعاني شعراً . فخرج ذاتَ يوم من عند بعض أمراء الكوفة ، وقد حمله على فرس وخلع عليه ، فوقف بالكُناسة [3] ثم قال :

(١) الى هابط : يريد المهديّ المنتظر الذي يقول الشيعة بنزوله في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

(٢) الأعشى : هو سليمان بن مهران الكوفي مولى بني كاهل ، من أعلام الشيعةوعلمائهم.

(٣) الكناسة : ميدان الكوفة الذي يجتمع فيه الناس ، بمثابة المربد بالبصرة .

يا معشر الكوفيين. مَن جاءني منكم بفَضيلة لعليّ بن أبي طالب لم أقُل فيها شعراً أعطيتُه فَرسي هذا وما عليّ. فجعلوا يحدّثونه ويُنشدهم، حتى أتاه رجلٌ منهم وقال: إنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عزم على الرُكوب، فلبس ثيابَه وأراد لُبسَ الخُفّ فلبس أحد خُفَّيه ثم أهوى إلى الآخر ليأخذَه، فانقضّ عُقابٌ من السماء فحلّق به ثم ألقاه فسقط منه أسودٌ[1] وانساب فدخل جُحْراً، فلبِس عليٌّ رضي الله عنه الخُفّ. قال: ولم يكن قال في ذلك شيئاً، ففكّر هنيهةً ثم قال:

ألا يا قومِ للعَجَب العُجــابِ ... لخُفّ أبي الحسين وللحُبَابِ
أتى خُفّاً له وانساب فيــه ... لِينهش رِجلَه منه بِنــاب
فخرّ من السّماء له عُقــابٌ ... من العِقْبان أو شِبــهُ العُقــاب
فطار به فحلّق ثم أهــوى ... به للأرض من دون السَّحــاب
إلى جُحرٍ له فانساب فيــه ... بعيدِ القَعْر لم يُرْتَجْ ببــاب
كريــهُ الوجه أسودُ ذو بَصيصٍ ... حديدُ النابِ أزرقُ ذو لُعــابِ
ودُوفع عن أبي حسنٍ عــليٍّ ... نقِيعُ سِمامه بعد انسياب[2]

● عليّ بن المُغيرة قال:

كنت مع السيّد على باب عُقبة بن سَلْم، ومعنا ابنٌ لسليمان بن عليّ[3]، ننتظرُه وقد أُسرِج له لِيركبَ، إذ قال ابنُ سليمان بن عليّ يُعرّض بالسيّد: أشعرُ الناس والله الذي يقول:

محمّــدٌ خيرُ من يمشي على قَــدَمٍ ... وصاحبــاه وعثمــانُ بن عفّانا

---

(١) الأسود: الحية العظيمة، اذا لحظنا فيه الاسمية فهو ليس ممنوعاً من الصرف.
(٢) الحباب: الحية. لم يرتج: لم يغلق. البصيص: الرعدة واللمعان.
(٣) هو سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس عم أبي جعفر المنصور.

فوثب السيّد وقال : أشعر واللهِ منه الذي يقول :

سائـلْ قريشـاً إذا ما كنـتَ ذا عَـمَهٍ ... مَن كـان أثبتَهـا في الدِين أوتادا
مَن كان أعلمَهـا عِلماً وأحلمَهـــا ... حِلمـاً وأصدقها قولاً وميعادا
إن يصدقُوك فلن يَعدُوا أباحسَــــنٍ ... إن أنت لم تلقَ للأبرار حُسّادا

ثم أقبل على الهاشميّ فقال : يا فتى ، نعمَ الخَلَفُ أنت لِشرف سَلَفك ! أراك تهدِم شرفَك ، وتثلِبُ سَلَفك ، وتسعى بالعَداوة على أهلك ، وتُفضّل مَن ليس أصلُك من أَصله على من فَضْلُك من فضْله ، وسأُخبر أمير المؤمنين عنك بذا حتى يضَعَك . فوثب الفتى خجِلاً ولم ينتظر عُقبةَ بن سلم .

● روى أبو سليمان الناجيّ :

أنّ السيّد قدِم الأهواز وأبو بُجَير بن سِماك الأسديّ يتولّاها ، وكان له صديقاً . وكان لأبي بُجير مولًى يقال له يزيد بن مَذعور يحفظ شعر السيّد يُنشده أبا بجير ، وكان أبو بجير يتشيّع . فذهب السيّد إلى قوم من إخوانه بالأهواز فنزل بهم وشرب عندهم . فلمّا أمسى انصرف ، فأخذه العَسَسُ ، فحُبس . فكتب من غده بهذه الأبيات وبعث بها إلى يزيد بن مَذعور . فدخل على أبي بُجير وقال : قد جَنَى عليك صاحبُ عَسَسك ما لا قِوامَ لك به . قال : وما ذلك ؟ قال : اسمع هذه الأبيات ، كتَبها السيّدُ من الحبس . فأنشده قوله :

قِـف بالديّـار وحَيِّـها يا مَرْبَــعُ ... واسألْ وكيف يُجيب من لا يَسمعُ
أنّ الديّارَ خلَتْ وليس بجَــوِّهــا ... إلّا الضَّوابحُ والحَمامُ الــوُقَّــعُ
ولقد تكــون بها أوانسُ كالــدُّمَى ... جُمْلٌ وعَـزّةُ والرَّبابُ وبَـوْزَعُ
حُورٌ نواعــمُ لا تُرى في مِثلهـــا ... أمثالُهـنّ من الصِّيانـــة أَربَعُ
فعَرِيـــن بعد تألُّــفٍ وتجمُّــعٍ ... والدّهـرُ صاحٍ مُشَتِّـتٌ ما تَجْمَعُ
فاسلَمْ فإنّك قد نزلتَ بمنزِلٍ ... عند الأمير تضُرُّ فيــه وتنفَــعُ

تُؤتَى هَواكَ إذا نطقتَ بحاجةٍ فيه وتَشفَعُ عنده فتُشَفَّعُ
قُل للأمير إذا ظفِرت بخَلوةٍ منه ولم يكُ عنده من يَسمع
هَبْ لي الذي أَحبيتَه في أحمدٍ وبَنِيه إنّك حاصدٌ ما تَزرع
يختص آلَ محمّدٍ بمحبّةٍ في الصَّدر قد طُويت عليها الأضلُعُ[1]

● وحكى ابنُ السّاحر : أنّ السيّد دُعي لشهادة عند سوّار القاضي ، فقال لصاحب الدَّعوى : أعْفِنِي من الشهادة عند سَوّار . فلم يُعْفِه صاحبُها منها وطالبه بإقامتها عند سوّار . فلمّا حضَر عنده وشهِد قال له : ألم أَعْرِفك وتعرِفْني ! وكيف مع معرفتك بي تُقدِم على الشهادة عندي ! فقال له : إنّي تخوّفتُ إكراهَه ، ولقد افتديتُ شهادتي عندك بمالٍ فلم يقبَل مني ، فأقمتُها ؛ فلا يقبل الله لك صَرْفاً ولا عَدْلاً[2] إن قَبلتَها . وقام من عنده ، ولم يَقدر سوّارٌ له على شيء لِما تقدّم به المنصورُ إليه في أمره ؛ واغتاظ غيظاً شديداً وانصرف من مجلسه فلم يَقْضِ يومئذٍ بين اثنين .

ثم إنّ سَوّاراً اعتلّ عِلّته التي مات فيها فلم يقدِر السيّدُ على هجائه في حياته لنَهيْ المنصور إيّاه عن ذلك . ومات سوّار فأُخرج عَشيّاً وحُفر له ، فوقع الحفْر في كَنيف . وكان بين الأزد وبين تميمٍ عداوةٌ ، فمات عَقِب موته عَبّاد بن حَبيب بن المُهلَّب ، فهجا السيّدُ سَوّاراً في قصيدة رثى بها عَبّاداً ودفعها إلى نوائحِ الأزد لِما بينهم وبين تميم من العداوة ، ولقُربهم من دار سَوّار ، يَنُحنَ بها ، وأوّلُها :

يا مَن غدا حامِلاً جُثمانَ سوّارِ مِن داره ظاعناً منها إلى النّار
لاقدّس اللهُ رُوحاً كان هَيْكلَها فقد مضت بعظيم الخِزْي والعار

---

(١) ضبح الثعلب والبوم : صوّت . وقع الطائر : نزل عن طيرانه ووقع على شجر او نحوه. عرين : خلت من أهلها ، والضمير يعود على الديار.

(٢) الصرف والعدل : التوبة والفدية .

حتى هَوَتْ قَعْرَ بُرْهُوتٍ مُعـذَّبةً وجسمُـه في كَنيفٍ بين أقـذار
لقد رأيت من الرحمن مُعجِبـةً فيه وأحكامُـه تجري بمقـدار
فاذهَبْ عليك من الرحمن بَـهْلَتَـه يا شرَّ حيٍّ بَـراه الخالقُ البـاري[1]

● روى أبو داود المُسترِق :

أنّ السيّد والعَبْديّ[2] اجتمعا ، فأنشد السيّد :

إنّي أَدِيـن بمـا دان الـوصـيُّ بـه يومَ الخُـرَيبة من قتـل المُحِلّينا
وبالـذي دان يومَ النَّهـروان بـه وشاركت كفَّه كفّي بصِفّينا[3]

فقال له العبديّ : أخطأتَ ، لو شاركت كفُّك كفَّه كنت مثله ، ولكن قل : تابعتْ كفي كفَّه لتكون تابعاً لا شريكاً . فكان السيّد بعد ذلك يقول : أنا أشعرُ الناس إلّا العَبديّ .

● قال إسماعيل :

رأى أبو بُجَير السيّدَ متغيّرَ اللون ، فسأله عن حاله ، فقال : فقَدتُ الشَّراب الذي أَلِفْتُه لِكراهة الأمير إيّاه . قال فاشرَبْه ، فإننا نحتمله لك . قال : ليس عندي . قال لكاتبه : اكتُب له بمائتَي دَوْرَقٍ مِيبَخْتَج[4] . فقال له السيّد : ليس هذا من البلاغة . قال : وما هي ؟ قال : البلاغةُ أن تأتي من الكلام بما يُحتاج إليه وتَدَعَ ما يُستَغنى عنه . قال : وكيف ذلك ؟ قال : اكتُب بمائتي دورق « مِي » ولا تكتبَ « بختج » ، فإنك تستغني عنه . فضحك ، ثم أمر فكُتب له بذلك . والمِي : النَّبيذ .

---

(١) برهوت : بئر عميقة بحضر موت يروون أنها مأوى أرواح الكافرين والمنافقين . بهلته : لعنته .

(٢) العبدي : هو إبرهيم بن هاشم العبدي البصري ، من شعراء الشيعة .

(٣) يوم الخريبة : المراد به يوم وقعة الجمل ، والخريبة الموضع الذي دارت فيه الوقعة .

(٤) ميبختج : كلمة فارسية مركبة من (مي) أي النبيذ ، و(بختج) أي مطبوخ .

● وممّا يحكى عنه أنّه اجتمع في طريقه بامرأة تميميّة إباضيّة ، فأعجبها وقالت : أُريد أن أتزوّج بك ونحن على ظهر الطريق . قال : يكون كنكاح أُمّ خارجةَ[1] ، قبلَ حضور وَليٍّ وشُهود . فاستضحكت وقالت : ننظُر في هذا ، وعلى ذلك فمن أنت ؟ فقال :

إن تسألِيني بقومي تسألي رجـــــــلاً ... في ذِرْوة العِزّ من أحياء ذي يَمَنِ
حَولي بها ذو كَـلاعٍ في مَنازلِـهـــا ... وذو رُعَينٍ وهَمْدانٌ وذو يَـزَنِ
والأزدُ أزدُ عُمانَ الأكرمـــــون إذا ... عُدّتْ مآثرهُم في سالف الزمن
بانت كريمتُهـم عنّـي فدارُهـــمُ ... داري وفي الرَّحْب من أوطانهم وطني
لي مَنْزلان بلَحْجٍ منزلٌ وَسَــــطٌ ... منها ولي منزلٌ للعزّ في عَدَنِ
ثمّ الوَلاءُ الذي أرجو النَّجــاةَ بــه ... من كَبّة النّار للهادي أبي حَسَنِ[2]

قالت : قد عرفناك ، ولا شيء أعجب من هذا : يمانٍ وتميميّة ، ورافضيٌّ وإباضيّة . فكيف يجتمعان ! فقال : بحُسن رأيك فيَّ تسخُو نفسُك ، ولا يذكر أحدنا سَلَفاً ولا مَذهباً . قالت : أفليس التزويجُ إذا عُلم انكشف معه المستوروظهرت خفيّات الأمور ؟ قال : فأنا أعرِضُ عليك أخرى . قالت : وما هي ؟ قال : المُتعة[3] التي لا يَعلم بها أحدٌ . قالت : تلك أختُ الزِّنا . قال : أُعيذُك بالله أن تكفُري بالقرآن بعد الإيمان ! قالت : فكيف ؟ قال : قال اللهُ تعالى : « فما استَمْتَعْتُم به منهنّ فآتوهنّ أُجُورَهنّ فَريضةً ولا جُناحَ عليكم فيما تَراضيتُم به من بعد الفَريضة . » فقالت : أَستخِير اللهَ وأُقلِّدُك أن كنتَ صاحبَ قياس . ففعلتْ ، فانصرفت معه وبات مُعرِساً بها . وبلغ أهلَها من الخوارج أمرُها ،

(١) أم خارجة : امرأة من العرب ضرب بها المثل في سرعة زواجها ، كان يأتيها الخاطب فيقول : خِطب ، فتقول : نِكح . وقد تزوجت عدداً كبيراً من الرجال .
(٢) ذو كلاع وذو رعين وذو يزن . من بطون قبيلة حمير المشهورة . همدان : قبيلة ضخمة من قبائل قحطان . لحج : مخلاف باليمن .
(٣) المتعة : أن تتزوّج امرأة تتمتع بها مدة ثم تخلي سبيلها ، وهي جائزة عند الشيعة .

فتوعَّدُوها بالقتل وقالوا : تزوّجت بكافر . فجَحَدت ذلك ، ولم يعلموا بالُمتعة . فكانت مدّةً تختلف إليه على هذه السَّبيل من الُمتعة وتُواصله حتى افترقا .

● ذكر التميميُّ ـ وهو عليّ بن إسماعيل ـ عن أبيه قال :

كنت عند أبي عبدالله جعفر بن محمّد إذ استأذن آذنُه للسيّد ، فأمره بإيصاله وأقعد حُرَمَه خَلفَ سِتر ، ودخل فسلّم وجلس . فاستنشده فأنشده قولَه :

امـــرُرْ عـــلى جَـــدَثِ الحُسَـــين فقل لأعظُمِـــه الزَكيَّـــهْ
آأعظُمـــاً لا زلتِ مـــن وَطفـــاءَ ساكبـــةٍ رَويَّـهْ
وإذا مـــررتَ بقَـــبره فأطِـــلْ به وقفَ المَطِيَّـــه
وابكِ المُطَهَّرَ للمُطَهَّـــرِ والمطَـهَّـــرةِ النقيَّـــهْ
كبُـكاءِ مُعْوِلـــةٍ أتـــت يوماً لِـواحدِهـا المنيّـه[1]

قال : فرأيت دموع جعفر بن محمد تنحدر على خدّيه ، وارتفع الصُّراخُ والبكاء من داره حتى أمره بالإمساك ، فأمسَكَ ...

وفاته

عن فُضَيل الرَسّان :

أُنشد جعفر بن محمّد قصيدة السيّد :

لِأُمّ عمرٍو باللِّـوى مَـــربَـــعُ دارســـةٌ أعلامُـــه بَلْقَـــعُ

فسمعتُ النحيب من داره ، فسألني لمن هي ؟ فأخبرته أنّها للسيّد ، وسألني عنه ، فعرّفتُه وفاتَه ، فقال : رحمه الله . قلت : إنّي رأيته يشرب النَّبيذ في

(١) الوطفاء : صفة للسحابة الغزيرة المطر .

الرُّسْتاق[1] . قال : أتعني الخمر ؟ قلت : نعم . قال : وما خَطَرُ ذنبٍ عندالله أن يغفِرَه لِمُحبّ عليّ[2] !

وروى أبو داود وإسماعيل بن السّاحر : أنهما حضَرا السيّد عند وفاته بواسط وقد أصابه شَرًى[3] وكَرْب . فجلس ثم قال : اللهمّ أهكذا جَزائي في حُبِّ آل محمّد ! قال : فكأنّها كانت ناراً فطَفِئت عنه .

عن محمد بن العبّاس اليزيديّ قال :

حدّثني من حضر السيّد وقد احتُضر فقال :

بَرِئت إلى الإلَـه من ابـن أَروَى ... ومن دين الخـوارج أجمعينا
ومن فُعَلٍ بَرِئـتُ ومن فُعَيـلٍ ... غَداةَ دُعي أميرَ المؤمنينـا[4]

ثم كأنّ نفسه كانت حصاةً فسقطتْ .

عن أبي جعفر المنصور قال :

بلغني أن السيّد مات بواسط فلم يدفِنُوه ، والله لئن تحقّق عندي لأحرِقَنّها .

محمد بن عبّاد بن صُهَيبْ عن أبيه قال :

كنت عند جعفر بن محمد ، فأتاه نعيُ السيّد ، فدعا له وترحّم عليه . فقال رجلٌ : يا بنَ رسول الله ، تدعو له وهو يشرب الخمر ويُؤمن بالرَّجعة . فقال : حدّثني أبي عن جدّي أنّ مُحبيّ آل محمد لا يموتون إلّا تائبين ، وقد تاب .

---

(١) الرستاق : كلمة فارسية تعني القرى التي فيها زرع ، وهي أيضاً بلدة بفارس .

(٢) يستخلص من هذا أن السيد توفي قبل وفاة جعفر الصادق ، وقد توفي جعفر عام ١٤٨ هـ أي أنه توفي أيام المنصور وثمة أخبار تجعله يعيش الى ما بعد ذلك وقد جاء في فوات الوفيات أنه مات في أول خلافةالرشيد سنة ثلاث وسبعين ومائة وولد سنة خمس ومائة .

(٣) الشرى : داء يصيب الجلد .

(٤) ابن أروى : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأروى أمه . يعني بفُعَل وفُعَيل : عمر وابا بكر .

ورفع مصلّى كانت تحته فأخرج كتاباً من السيّد يعرّفه فيه أنه قد تاب ويسأله الدُّعاء له .

وذكر محمّد بن إدريس العُتبيّ أنّ مُعاذ بن يزيد الحِميَري حدّثه أنّ السيّد عاش إلى خلافة هارون الرَّشيد ، وفي أيامه مات ، وأنه مدحه بقصيدتين فأمر له بِبَـدْرتين ، ففرّقهما . فبلغ ذلك الرشيد فقال : أحسب أبا هاشم تورّع عن قبول جوائزنا .

إسحاق بن محمد بن بشير بن عمَّار الصَيرفيّ عن جدّه بشير بن عمّار قال :

حضرت وفاة السيد في الرُمَيلة ببغداد ، فوجّه رسولاً إلى صفّ الجزّارين الكوفيّـين يُعلمهم بحاله ووفاته ، فغلط الرسول فذهب إلى صفّ السموسين ، فشتموه ولعنوه ، فعلم أنه قد غَلِط ، فعاد إلى الكوفيين يُعلمهم بحاله ووفاته ، فوافاه سبعون كفناً .

قال : وحضرناه جميعاً ، وإنّـه ليتحسّر تحسُّراً شديداً ، وإنّ وجهه لأسودُ كالقار ، وما يتكلّم ، إلى أن أفاق إفاقةً وفتح عينيه فنظر إلى ناحية القِبلة ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أتفعل هذا بوَلِيّـك ! قالها ثلاث مرّات مرةً بعد أخرى . قال : فتجلّي والله في جَبينه عِرقُ بياض ، فما زال يتّسع ويلبَس وجهَه حتى صار كلُّه كالبَرَد . وتُوفّي ، فأخذنا في جِهازه ودفنّـاه في الجُنَينة ببغداد ، وذلك في خلافة الرّشيد .

* * *

٢٤

العبّاس بن الأحنف

[الأغاني الجزء ٨ ص ٣٥٢ وما بعدها]

الشاعر

هو ـ فيما ذكر ابن النطّاح ـ العبّاسُ بن الأحنف بن الأسود ... من بني عَديّ بن حَنيفة .

محمد بن بكر الحَنَفيّ الشاعر قال : حدَّثني أبي قال :

سمعت العبّاس بن الأحنف يذكر أنّ هَوْذَةَ بن عليّ الحَنفيّ قد وَلده من قِبَل بعض أمّهاته .

وكان العبّاس بن الأحنف شاعراً غزِلاً ظريفاً مطبوعاً ، من شعراء الدولة العبّاسيّة ، وله مذهبٌ حَسَنٌ ، ولدِيباجة شِعره رَونقٌ ، ولِمعانيه عُذوبةٌ ولُطْف . ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديحٍ ولا هجاء ، ولا يتصرّف في شيء من هذه المعاني ؛ وقدمه أبو العبّاس المُبَرِّد في كتاب «الرَّوضة» على نُظَرائه ، وأطنَب في وصفه ، وقال : رأيت جماعةً من الرُّواة للشعر يقدّمونه . قال : وكان العبّاس من الظُرَفاء ، ولم يكن من الخُلعَاء ، وكان غزِلاً ، ولم يكن

فاسقاً ؛ وكان ظاهر النِّعمة ، مُلوكيَّ المذهب ، شديد التَتَرُّف[1] ، وذلك بَيِّنٌ في شعره . وكان قصدُه الغَزَل وشُغلُه النَّسيب ، وكان حُلواً مقبولاً غزِلاً غزير الفكر واسعَ الكلام كثير التصرُّف في الغزل وحده ، ولم يكن هَجّاءً ولا مَدّاحاً .

أبو ذَكْوان قال :

سمعت إبراهيم بن العبّاس يصف العبّاس بن الأحنف فقال : كان واللهِ مِمّن إذا تكلّم لم يُحبَّ سامعهُ أن يسكُت ، وكان فصيحاً جميلاً ظَريف اللِسان ، لو شئتَ أن تقول : كلامُه كلُّه شِعرٌ لقلتَ .

عُبيد الله بن عبدالله بن طاهر قال :

رأيت نُسَخاً من شعر العبّاس بن الأحنف بخراسان ، وكان عليها مكتوبٌ : « شعر الأمير أبي الفضل العبّاس » .

صالح بن عبد الوهّاب : أنّ العبّاس بن الأحنف كان من عرب خُراسان ، ومَنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تُقدّمه على كثير من المُحدَثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جِداً حتى تُلحقَه بالمُحسِنين .

أقوال في شعره

يموت بن المُزَرِّع قال :

سمعت خالي (يعني الجاحظ) يقول : لولا أن العبّاس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهُم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ما قدَر أن يُكثر شعرَه في مذهب واحدٍ لا يُجاوزه ، لأنه لا يهجو ولا يمدَح ولا يتكسّب ولا يتصرّف ؛ وما نعلم شاعراً لزِم فنّاً واحداً لُزومَه فأحسَن فيه وأكثر .

محمد بن القاسم بن خَلّاد قال : أنشد الحِرمازيّ أبو عليّ ـ وأنا حاضرٌ ـ للعبّاس بن الأحنف :

---

(١) الترف : التنعم .

لا جَزَى الله دمعَ عيــنيَ خيراً وجَزى الله كلَّ خير لســاني
نَـمَّ دمعـي فليس يكتُم شيئــاً ورأيت اللّســانَ ذا كِتْمــانِ
كنتُ مثل الكتاب أخفاه طــيٌّ فاستدلّوا عليــه بالعُنــوان

ثم قال الحِرمازيّ : هذا واللهِ طِرازٌ يطلُب الشعراءُ مثلَه فلا يقدِرون عليه .

عن الرِّياشيّ قال :

قيل للأصمعيّ ، أو قلت له : ما أحسنُ ما تحفَظ للمُحدَثين؟ قال : قول العبّاس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبــةً لسَكَّن رَوْعــتي أَمَلي رِضاكِ وزُرتُ غير مُراقِبِ
لكن مَلِلتِ فلم تكن لي حِيلــــةٌ صَدُّ المَلُولِ خِلافُ صَدّ العاتبِ

العَطَويّ يقول :

كان العبّاس بن الأحنف شاعراً مجيداً غزِلاً ، وكان أبو الهُذيل العَلّاف[1] يبغضه ويَلعنه لقوله :

إذا أردتُ سُلُوّاً كان ناصرُكــم قلبي وما أنا من قلبي بمنتصِرِ
فأكثِروا أو أقِلّوا من إساءتكم فكلٌّ ذلك محمولٌ على القَـدَر

قال : فكان أبو الهُذيل يلعنه لهذا[2] ويقول : يعقِد الكُفرَ والفُجورَ في شعره .

قال محمد بن يحيى : وأنشدني محمد بن العبّاس اليزيديّ شعراً للعبّاس أظنّه يهجو به أبا الهُذَيل ، وما سمعت للعبّاس هجاءً غيره :

يا مَن يُكَذِّب أخبارَ الرسول لقــد أخطأت في كلّ ما تأتي وما تَذَرُ
كذَّبتَ بالقَدَر الجاري عليك فقــد أتاك منّي بما لا تشتهي القَـدَرُ

(١) أبو الهذيل العلاف : هو محمد بن الهذيل بن عبدالله العبيدي ، من كبار رجال المعتزلة في العصر العباسي ، ولد بالبصرة وعاش في بغداد ، توفي سنة ٢٢٧ هـ .

(٢) لهذا : أراد لكلامه في القدر . ومذهب المعتزلة خلاف هذا .

محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال : أنشدني إبراهيم بن العبّاس للعبّاس ابن الأحنف :

قالت ظَلومُ سَمِيّةُ الظُلمِ مالي رأيتُك ناحلَ[1] الجِسم
يا مَن رمى قلبي فأقصَده أنت العَليمُ بموضع السَّهمِ

فقلت له : إنّ أبا حاتم السِّجستاني حكى عن الأصمعيّ أنّه أُنشد للعبّاس بن الأحنف :

أتأذَنُون لِصَبٍّ في زيارتكم فعندكم شَهَواتُ السَّمع والبَصَرِ
لا يُضمرُ السُّوءَ إن طال الجلوسُ به عَفُّ الضَمير ولكن فاسقُ النظَرِ

فقال الأصمعي : ما زال هذا الفتى يُدخل يده في جِرابه فلا يُخرج شيئاً حتى أدخلها فأَخرَج هذا ، ومَن أدمَن طلب شيءٍ ظَفِر ببعضه . فقال إبراهيم بن العبّاس : أنا لا أدري ما قال الأصمعيّ ، ولكن أُنشدك للعبّاس ما لا تدفع أنت ولا غيرُك فضلَه . ثم أنشدني قوله :

والله لو أنّ القلوبَ كقَلبها ما رقّ للوَلد الضعيفِ الوالدُ

وقولَه :

لكن مَلِلتِ فلم تكن لي حِيلةٌ صَدُّ المَلُول خِلافُ صَدّ العاتبِ

وقوله :

حتى إذا اقتحم الفتى لُجَج الهوى جاءت أُمورٌ لا تُطاق كِبارُ

ثم قال : هذا والله ما لا يقدِر أحدٌ على أن يقول مثله أبداً .

سعيد بن جُنيد يقول :

ما أعرف أحسنَ من شعر العبّاس في إخفاء أمره حيث يقول :

أُريدُكِ بالسّلام فأتّقيهم فأعمِدُ بالسَّلام إلى سِواكِ

وأُكثر فيهم ضَحكي ليخفَى ... فسِنّي ضاحكٌ والقلبُ باكِ

الزُبير يقول : ابن الأحنف أشعر الناس في قوله :

تعتلُّ بالشُّغل عنّا ما تُكلّمنا ... الشُغل للقلب ليس الشغل للبَدَنِ

ويقول : لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيرِهاوشرّها إلّا وهو يصلح أن يُتمثّل فيه بهذا النصف الأخير .

أحمد بن إبراهيم قال : رأيت سلمة بن عاصم ومعه شعر العبّاس بن الأحنف ، فعجبت منه وقلت : مثلُك ـ أعزّك اللهُ ـ يَحمل هذا ! فقال : ألا أحملُ شعر من يقول :

أسأتُ أن أحسنتُ ظنّي بكمْ ... والحَزمُ سوءُ الظنّ بالنّاسِ

يُقلقُني الشوقُ فآتيكمُ ... والقلبُ مملوءٌ من الياس

وأوّل الصوت :

يا فَوزُ يا مُنيةَ عبّاسِ ... واحَرَبا من قلبك القاسي

وروى أحمد بن إبراهيم قال :

أتاني أعرابيٌّ فصيح ظريف ، فجعلت أكتب عنه أشياء حِساناً ؛ ثم قال : أنشِدْني لأصحابكم الحضَريّين . فأنشدته للعبّاس بن الأحنف :

ذكرتكِ بالتُّفّاح لمّا شمِمتُه ... وبالرّاحِ لمّا قابَلَتْ أَوجُهَ الشَّرْبِ

تذكّرتُ بالتفّاح منك سَوالفاً ... وبالرّاح طَعماً من مُقَبَّلَك العَذْبِ

فقال : هذا عندك وأنت تكتب عنّي ! لا أُنشدك حَرفاً بعد هذا .

عبدالله بن العبّاس بن الفضل يقول :

ما أعرف في العراق أحسنَ من قول ابن الأحنف :

سُبحانَ ربِّ العُلا ما كان أغفَلَني ... عمّارَمَتْني به الأيامُ والزمنُ

من لم يَذُقْ فُرقةَ الأحبـابِ ثم يرى   آثارَهم بعدَهـم لم يَدْرِ ما الحَزَنُ

حسين بن الضَحّاك يقول :

لو جاء العبّاس بن الأحنف بقوله ما قاله في بيتين في أبياتٍ لعُذر ، وهو قوله :

لَعَمرُك ما يستريـح المُحِبُّ حـتى يبوحَ بأســـرارِه
فقد يكتُـم المـرءُ أسرارَه   فتظهر في بعض أشعاره

ثم قال : أمّا قولُـه في هذا المعنى الذي لم يتقدَّمْه فيه أحدٌ فهو :

الحُبّ أملَكُ للفُؤاد بقَهـره   من أن يُرى للسَّتْر فيه نصيبُ
وإذا بدا سِرٌّ اللبيبِ فإنّـه   لم يبدُ إلّا والفـتى مغلـوبُ

الزبير بن بَكّار قال : قال أبو العتاهية : ما حسدتُ أحداً إلّا العبّاس بن الأحنف في قوله :

إذا امتنع القريبُ فلم تَنَلْـه   على قُرْبٍ فذاك هو البعيـدُ

فإنّي كنت أولى به منه ، وهو بشعري أشبه منه بشعره . فقلت له : صدقت ، هو يشبه شعرك .

أبو الحسن الأنصاريّ قال :

سمعت الكِنديّ يقول : العبّاس بن الأحنف مَليحٌ ظريف حكيم جَزْلٌ في شعره ، وكان قليلاً ما يُرضيني الشعرُ . فكان يُنشد له كثيراً :

ألا تعجَبـون كمـا أَعجَـبُ   حبيبٌ يُسيءُ ولا يُعتِـبُ
وأَبغـي رضـاه على سُخطِـه   فيأبى عـليَّ ويستصعِـبُ
فيا ليت حظّي إذا ما أسـأتَ أنّك ترضـى ولا تغضَـبُ[1]

---

(١) أعتبه : أرضاه وأزال عتبه .

محمد بن عَمرو الرّوميّ قال :

كنّا عند الواثق فقال : أُريد أن أصنعَ لَحْناً في شعرٍ معناه أنّ الانسان كائناً من كان لا يقدِر على الاحتراس من عدوّه ؛ فهل تعرفون في هذا شيئاً ؟ فأنشدْنا ضروباً من الأشعار ، فقال : ما جئتم بشيءٍ مثل قول العبّاس بن الأحنف :

قلبي إلى ما ضَرّني داعــــي ... يُكـثر أسقامي وأوجاعــي

كيف احتراسي من عدوّي إذا ... كان عَدوّي بــين أضلاعي

أسلمــني للحُـبّ أشيـــاعي ... لمّــا سعــى بي عنـدها الساعي

لقلّمــا أَبقــى على كــل ذا ... يُوشِــك أن ينعانيَ النـــاعي

قال : فعمل فيه الواثق لحنه الثّقيل الأول ، النّشيد بالوُسطى .

أبو الحسن الأسديّ قال :

سمعت الرِّياشيّ يقول ـ وقد ذُكر عنده العبّاس بن الأحنف ـ : واللهِ لو لم يقل من الشعر إلا هذين البيتين لكفَيا :

أُحرَمُ منكم بما أقــول وقـــد ... نال به العاشقون من عَشِقـوا

صِرتُ كأنّي ذُبالــةٌ نُصِبــت ... تُضيىء للنــاس وهي تحترقُ

عن إسحاق بن إبراهيم المَوصليّ قال :

كان الرّشيدُ يُقدّم أبا العتاهية حتى يجوز الحدّ في تقديمه ، وكنت أُقدّم العبّاس بن الأحنف . فاغتابني بعضُ الناس عند الرّشيد وعابني عنده ، وقال عَقب ذلك : وبِحَسْبِك يا أمير المؤمنين أنّه يُخالفك في العبّاس بن الأحنف على حداثة سنّه وقِلّة حِذْقه وتجريبه ، ويُقدّمه على أبي العتاهية مع ميلك إليه . وبلغني الخبرُ ، فدخلت على الرّشيد ، فقال لي ابتداءً : أيُّما أشعرُ عندك : العبّاس بن الأحنف أو أبو العتاهية ؟ فعلمتُ الذي يريد ، فأطرقتُ كأنّي مُستَثبِتٌ ، ثم قلت : أبو العتاهية أشعر . قال : أنشِدني لهذا ولهذا . قلت :

فبأيّهما أَبدأُ ؟ قال : بالعبّاس . قال : فأنشدته أجودَ ما أَرويه للعبّاس ، وهو قوله :

أُحرمَ منكم بما أقول وقــــــد نال به العاشقون مَــن عَشِقوا

فقال لي : أحسَن ، فأنشِدْني لأبي العتاهية . فأنشدته أضعفَ ما أَقدر عليه ، وهو قوله :

كأنّ عَتّابةَ من حُسنهـــا دُميةُ قَسٍّ فَتَنت قَسَّها

[الأبيات ...]

قال : أتُعيّره هذا ! فأين أنت عن قوله :

قال لي أحمدُ ولم يدرِ ما بـــي أتُحبّ الغَداةَ عُتْبةَ حَقّـا

فتنفّســـتُ ثم قلت : نعم حُبّــاً جرى في العُروقِ عِرقاً فعِـرقا

ويحَك ! أتعرف لأحدٍ مثل هذا ، أو تعرف أحداً سبقه إلى قوله : « فتنفّست ثم قلت كذا وكذا .. » ! اذهب ، ويحك ، فاحفَظْها . فقلتُ : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ولو كنت سمعت بها لحفظتُها . قال إسحاق : وما أشُكّ أنّي كنت أحفَظَ لها حينئذٍ من أبي العتاهية ولكنّي إنّما انشدت مـا أنشدتُ تعصباً .

حدّثني الصّوليّ قال : سمعت عبدَالله بن المعتزّ يقول : لو قيل لي : ما أحسنُ شيءٍ تعرفه ؟ لقلت : شعر العبّاس بن الأحنف :

قد سحب الناسُ أذيال الظُّنون بنـــا وفرّق الناسُ فينـــا قولَهم فِرَقا

فكاذبٌ قد رَمى بالحبّ غـيرَكــمُ وصـادقٌ ليس يَدري أنّـه صدَقا

التمثّل بشعره وكثرة الغناء فيه

محمد بن عيسى قال :

جاء عبدالله بن العبّاس بن الفضل بن الرّبيع إلى الحسن بن وهب ، وعنده بَنان [1] جاريةُ محمّد بن حمّاد ، وهي نائمةٌ سَكرى ، وهو يبكي عندها .

(١) ضبطها محقق هذا الجزء « بنان » وضبطها محقق الجزء الثالث والعشرين : بنات .

فقال له : مالَكَ ؟ قال : قد كنتُ نائماً فجاءتني فأَنْبَهَتْني وقالت : اجلِس حتى تشرب . فجلست ، فواللهِ ما غنّتْ عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربتُ إلّا قليلاً ، فذكرتُ قول أشعر الناس وأظرفهم العبّاس بن الأحنف :

أبكي الذين أذاقوني مودّتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رَقَدُوا

فأنا أبكي وأُنشد هذا البيت .

أحمد بن يزيد المهلَّبي عن أبيه قال :

قالت للواثق جاريةٌ كان يهواها ، وقد جرى بينهما عَتْبٌ : إن كنتَ تستطيل بعِزّ الخلافة فأنا أُدلّ بعزّ الحبّ ، أتُراك لم تسمع بخليفة عشِق قبلك قطّ فاستوفى من معشوقه حقّه ؟ ولكنّي لا أرى لي نظيراً في طاعتك ! فقال الواثق : لله درّ ابن الأحنف حيث يقول :

أما تَحْسَبيني أرى العاشقين بلَى ثم لستُ أرى لي نَظيرا
لعلّ الذي بيديه الأمورُ سيَجعل في الكُره خيراً كثيرا

أحمد بن حَمدون قال :

كان بين الواثق وبين بعض جواريه شرٌّ ، فخرج كسلانَ ، فلم أَزَل أنا والفَتْح بن خاقان نحتال لنشاطه ، فرآني أُضاحك الفَتح فقال : قاتل اللهُ ابنَ الأحنف حيث يقول :

عَدْلٌ من الله أبكاني وأضحكَها فالحمدُ لله عَدْلٌ كلُّ ما صَنَعا
اليومَ أبكي على قلبي وأندُبُه قلبٌ أَلحّ عليه الجُبّ فانصدَعا

فقال الفتح : أنت واللهِ يا أمير المؤمنين في وضع التَمثُّلِ مَوْضعَه أشعرُ منه وأعلم وأظرف .

حمّاد بن إسحاق قال :

كان جدّي إبراهيم[1] مشغوفاً بشعر العبّاس ، فتغنّى في كثير من شعره ، فذكر أشعاراً كثيرة حفظت منها :

وقد مُلئتْ ماءَ الشَّبــاب كأنّهــا قضيبٌ من الرَّيْحان ريّانُ أخضرُ
هــمُ كَتَمُوني سَيرَهم حين أزمَعوا وقالــوا اتَّعَدْنــا للرَّواح وبَكَّروا

... قال : وحفظت منها :

تمنّى رجـالٌ ما أحبُّـوا وإنّمــا تمنّيتُ أن أشكو إليك وتَسْمَعا
أرى كلَّ معشوقَين غيري وغيرِهــا قد استعذَبا طولَ الهوى وتمتّعا

عن حمّاد بن إسحاق قال :

ما غنّى جَدّي في شعر أحد من الشعراء أكثر ممّا غنّى في شعر ذي الرُّمّة وعبّاس بن الأحنف .

أحمد بن يزيد المهلّبي قال :

سمعت عليّ بن يحيى يقول : من الشعر المرزوق من المغنّين خاصّةً شعر العبّاس بن الأحنف ، وخاصّة قوله :

نامَ مَن أهدى ليَ الأَرَقــا مستريحــاً سامَني قَلَقــا

فإنّه غنّى فيه جماعةٌ من المغنّين ، منهم إبراهيم الموصليّ وابنه إسحاق وغيرهما .

صحبته الرشيد

حُدّثت من غير وجهٍ أنّ الرّشيد ألِف العبّاس بن الأحنف ، فلمّا خرج إلى خُراسان طال مُقامه بها ، ثم خرج إلى أَرمينية والعبّاس معه ماشياً إلى بغداد ،

---

(١) المراد به إبراهيم الموصلي المغني المشهور.

فعارضه في طريقه فأنشده :

قالوا خُراسانُ أقصى ما يُراد بنـا ثم القُفولُ فقد جِئنا خُراسانا
ما أَقدرَ اللهَ أن يُدني على شَحَطٍ سُكّانَ دِجلةَ من سُكّان جَيْحانا
متى الذي كنت أَرجُوه وآمُلُه أمّا الذي كنت أخشاه فقد كانا
عَينُ الزمان أصابتنا فلا نظرتْ وعَذَّبتْ بصُنوف الهَجْر ألوانا(١)

قال : فقال له الرشيد : قد اشتَقت يا عبّاسُ وأذِنت لك خاصّةً . وأمر له بثلاثين ألف درهم .

* * *

(١) الشحط : البعد . جيحان : نهر بالمصّيصة بالثغر الشامي ، مخرجه من بلاد الروم ويمر بمدينة تعرف بكفربيّا ويصب في بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) .

٢٥

عبد الصّمد بن المُعذَّل

[الأغاني الجزء ١٣ ص ٢٢٦ وما بعدها]

الشاعر

عبد الصَّمَد بن المُعَذَّل بن غَيلان ... بن عبد القيس ... بن ربيعة بن نزار ...
ويكنى عبد الصمد أبا القاسم ، وأمّه أمٌّ ولدٍ يقال لها الزرقاء .

شاعرٌ فصيح من شعراء الدولة العباسية ، بصريّ المولد والمنشأ . وكان هَجّاءً خبيث اللسان ، شديد العارضة . وكان أخوه أحمد أيضاً شاعراً ، إلا أنه كان عفيفاً ، ذا مُروءة ودين وتقدُّم في المعتزلة ، وله جاهٌ واسع في بلده وعند سلطانه ، لا يقاربه عبد الصمد فيه ، فكان يحسُده ويهجوه فيحلُم عنه . وعبد الصّمد أشعرُهما ، وكان أبو عبد الصَّمد المعذَّلُ وجدُّه غيلان شاعرَين ...

هجاؤه الناس ومهاجاته الشعراء

إبراهيم بن عُقبة اليشكُريّ قال :

قال لي عبد الصَّمَد بن المعذَّل : هجاني الجَمّاز ببيتين سخيفَين فسارا في أفواه الناس حتى لم يبق خاصٌ ولا عامٌّ إلّا رواهما وهما :

ابنُ المعذَّلِ مَــن هــو　　ومــن أبــوه المعــذَّلْ
سألتُ وَهمــانَ عنــه　　فقال بيضٌ مُحَــوَّلْ

فقلت أنا فيه شعراً تركته يتحاجى فيه[1] كلُّ أحد ، فما رواه أحدٌ ولا فكّر فيه ، وذلك لضعته ، وهو قولي :

نسـب الجمّـاز مقصو رٌ إليـه مُنتهـاهُ
يـتراءى نسـبُ النـا س فما يَخفى سـواه
يتحـاجى في أبي الجمّـا ز من هُـو كاتبـاه
ليس يَدري من أبو الجَمّا ز إلّا مـن يـراه

يزيد بن محمد المهلّبيّ قال :

بلغ عبدَ الصّمد بن المعذّل أنّ أبا قِلابة الجَرْميّ تدسّس إلى الجمّاز لما بلغه تعرّضُه له ، وهجاؤه إيّاه ، فحمله على الزّيادة في ذلك ، ويضمن له أن ينصرَه ويعاضِدَه ـ وقد كان عبد الصمد هجا أبا قلابة حتى أفحمه ـ فقال عبد الصمد فيهما :

يا من تركتُ بصخـرةٍ صَمّـاءَ هامتَـه أُميمهْ
إن الذي عاضدتَـه أشبهتَه خُلُقـاً وشِيمـه
وكفعل جَـدّتك الحديثـة فعلُ جَدّتـه القديمـة
فتناصرا فابنُ اللئيمـة ناصرٌ لابن اللئيمـه[2]

الفضل بن أبي جرزة قال :

كان أبو قِلابة الجرميّ وعبد الصمد بن المعذّل وعبدالله بن محمد بن أبي عُيينة المهلّبيّ أرادوا المسير إلى بيت بحر البكراوي ، وكانت له جارية مغنّية يقال لها جبلة ، وكان أبو رِهْم إليها مائلاً يتعشّقُها ، ثم اشتراها بعد ذلك ، فلمّا

---

(١) يتحاجى فيه : من الأحجية وهي اللغز.
(٢) الأميم : المشجوج الرأس.

أرادوا الدخولَ إليها وافاهم أبو رِهم ، فأدخلوه وحده وحَجبوهم ، فانصرفوا إلى بستان ابن أبي عيينة ، فقال أبو قلابة : لا بدّ أن نهجوَ أبا رهم . فقالوا : قل . فقال :

ألا قُل لأبي رهــم ... سيَهوى نَعتَك الوصفُ
كما حالفك الغِيُّ ... كذا جانَبك الظَّرفُ
أتانا أنه أهدى ... إلى بحرٍ من الشَّغْف
حُزَيمـاتٍ من الصِّير ... فهلّا معه رُغْفُ
فنادَوا إقسمي فينا ... فقد جاءكم اللَّطْفُ (١)

فقال له عبد الصمد : سخِنتْ عينُك ، أيشٍ هذا الشعر ! بمثل هذا يُهجى من يُراد به الفضيحة ! فقال أبو قلابة : هذا الذي حضَرني ، فقل أنت ما يَحضُرك . فقال : أَفعله وأُجوّد . فكان هذا سبب هجاء عبد الصّمد أبا رهم . وأول قصيدة هجاه به قولُه :

دعو الإسلام وانتَحِلُوا المَجُوسا ... وألقُوا الرَّيْطَ واشتمِلُوا القُلُوسا
بني العبدِ المُقيم بنهر تِيرَى ... لقد أنهضتْ طيرَكم نُحوسا
حرامٌ أن يَبيت لكم نزيلٌ ... فلا يُمسي بأُمّكم عَروسا (٢)

[الأبيات ...]

---

(١) الشغف : شدة التعلق وغاية الحب والعشق . الحزيمة : تصغير حزمة . الصير : السمك المملح . اللطف : بفتح أوله وثانيه : الهدية واليسير من الطعام ، وسكنت الطاء للشعر.

(٢) الريط ج ريطة : كل ملاءة غير ذات لفقين . القلوس : الحبل الضخم من حبال السفينة . نهر تيرى : بلد في الأهواز.

الأينسيّ قال :

كنت عند إسحاق بن إبراهيم وزاره أحمد بن المعذَّل ، وكان خرج من البصرة على أن يغزو ، فلما دخل على إسحاق بن إبراهيم أنشده :

أفضلتَ نُعمَى على قومٍ رعيتَ لهم حقّاً قديماً من الودّ الذي دَرَسا
وحرمة القصد بالآمال إنّهمُ أتَوا سواك فما لاقَوا به أَنَسا
لأنت أكرمُ منه عند رِفعته قولاً وفعلاً وأخلاقاً ومُغْتَرسا [1]

فأمر له بخمسمائة دينار ، فقبضها ورجع إلى البصرة ، وكان خرج عنها ليجاور في الثَغر ، وبلغ عبدَ الصمد خبرُه فقال فيه :

يُري الغُزاةَ بأنّ الله هِمّتُه وإنما كان يغزو كيسَ إسحاقِ
فباع زُهداً ثواباً لا نَفادَ له وابتاع عاجلَ رِفْد القوم بالباقي

فبلغ إسحاق بن إبراهيم قولُه فقال : قد مسّنا أبو السّم عبدُ الصمد بشيء من هجائه ، وبعث إليه بمائة دينارٍ ...

عبدالله بن يزيد الكاتب قال :

جَمَع بين أبي تمّام الطائيّ وبين عبد الصّمد بن المعذَّل مجلسٌ ، وكان عبد الصمد سريعاً في قوله الشعر ، وكان في أبي تمام إبطاء ، فأخذ عبد الصمد القرطاسَ وكتب فيه :

أنت بين اثنتين تبرُز للنا س وكلتاهما بوجهٍ مُذالِ
لستَ تنفكّ طالباً لوصالٍ من حبيبٍ أو طالباً لنَوالِ
أيُّ ماءٍ لِحُرّ وجهك يبقى بين ذُلّ الهوى وذُلّ السؤالِ [2]

---

(١) المغترس : الأصل .

(٢) مذال : مهان .

قال : فأخذ أبو تمام القرطاس وخلا طويلاً ، وجاء به وقد كتب فيه :

أفيَّ تنظِمُ قولَ الزُّور والفَنَـــــدِ ... وأنت أَنْـزَرُ من لا شيءَ في العددِ
أشرجتَ قلبك من بُغضي على حُرَقٍ ... كأنّها حركاتُ الرُّوح في الجسَد[1]

فقال له عبد الصمد : يا ... ، يا غثُّ ، أخبِرني عن قولك : « أنزر من لا شيء » ، وأخبرني عن قولك : « أشرجت قَلبك » ، قلبي مِفرشٌ أو عَيْبة[2] أو خُرْج فأُشرجَه ، عليك لعنةُ الله فما رأيت أغثَّ منك . فانقطع أبو تمام انقطاعاً ما يُرى أقبحُ منه ، وقام فانصرف ، وما راجعه بحَرف .

سائر أخباره

● سَوّار بن أبي شُراعة قال :

كان بالبصرة طُفيليٌّ يُكنى أبا سَلمة ، وكان إذا بلغه خبرُ وليمة لبس لُبسَ القضاة وأخذ ابنَيه معه وعليهما القَلانس الطُّوال والطَّيالسة الرِّقاق ، فيقدّم ابنَيه فيدقُّ البابَ أحدُهما ويقول : افتح يا غلامُ لأبي سلمة . ثم لا يُلبث البوّابَ حتى يتقدّمَ الآخرُ فيقول : افتح ويلَك ، فقد جاء أبو سلمة . ويتلوهما فيدقّون جميعاً البابَ ويقولون : بادِرْ ويلَك ! فإنّ أبا سلمة واقفٌ . فإن لم يكن عرَفهم فَتح لهم وهاب منظرَهم ، وإن كانت معرفتُه إياهم قد سَبقت لم يلتفت إليهم ، ومع كلّ واحدٍ منهم فِهرٌ[3] ملوَّر يسمّونه « كَيسان » ، فينتظرون حتى يجيءَ بعضُ من دُعي ، فيُفتَح له البابُ ، فإذا فتح طَرحوا الفِهر في العَتَبة حيث يدور الباب ، فلا يقدِر البوّابُ على غَلقه ، ويهجمُون عليه فيدخلون .

---

(١) يقال : أشرج صدره عل كذا : أي ضمه عليه وكتمه ، واصله من أشرج العيبة اذا داخل بين أشراجها وشدّها .

(٢) العيبة : الحقيبة من الجلد توضع فيها الثياب .

(٣) الفهر : الحجر.

فأكل أبو سلمة يوماً على بعض الموائد لُقمةً حارّة من فالُوذَج[1] وبَلعها لشدّة حرارتها ، فجُمعت أحشاؤه ، فمات على المائدة ، فقال عبد الصمد بن المعذّل يرثيه :

أحزانُ نفسي عليها غيرُ مُنصرِمـه ... وأدمُعي من جفوني الدّهرَ مُنسَجمهْ
على صديقٍ ومولًى لي فجُعتُ بـه ... ما إن له في جميع الصالحين لُمَه
كم جَفنةٍ مثل جَوف الحوض مُتْرَعةٍ ... كوماءَ جاء بها طَبّاخُها رَذِمه
قد كلَّلتْهـا شُحومٌ مـن قَليَّتها ... ومن سَنام جَزورٍ عَبْطةٍ سَنِمه
غُيِّبتَ عنها فلم تَعرف لها خبراً ... لَهفي عليك ووَيلي يا أبا سَلمهْ
ولو تكون لها حَيّاً لما بَعُدتْ ... يوماً عليك ولو في جاحمٍ حُطَمه
قد كنت أعلم أنّ الأكلَ يقتُلـه ... لكنّني كنت أخشى ذاك من تُخَمه
إذا تَعمّم في شِبْلَيه ثم غـدا ... فإنّ حَوزةَ من يأتيه مُصْطَلَمه[2]

● الأخفش قال :

كان لعبد الصمد بستانٌ نظيف عامر ، فأنشدنا لنفسه فيه :

إذا لم يَزُرني نَدمانيـهْ ... خلوتُ فنادمت بُستانيَـهْ
فنادمتُـه خَضِراً مُؤْنِقـاً ... يُهَيّجُ لي ذِكرَ أَشجانيـه
يُقرّبُ مَفرحـةَ المستلـذِّ ... ويَبعد هَمّـي وأَحزانيه
أرى فيه مثـلَ مَداري الظِّبـاءِ ... تَظـلّ لأطلائهـا حانيـه
ونَـوْرَ أقاحٍ شَتيت النَبـاتِ ... كما ابتسمت عجَباً غانيه

(٢) الفالوذج : حلوى تصنع من ماء ودقيق وعسل .

(٢) اللمة : المثل والنظير. الكوماء : المرتفعة . الرذمة : التي يسيل دسمها . الجزور : الناقة المذبوحة . العبطة : المذبوحة من غير علة . السنمة : العظيمة السنام . الجاحم الحطمة : النار الشديدة . مصطلمة : مستأصلة .

ونَرجِسُــــه مثلُ عينِ الفتــاة إلى وجــه عاشِقِهــا رانيه [1]

● أبو العَيناء قال :

كان لعبد الصمد بن المعذل صديقٌ يعاشره ويأنس به ، فتزوّج إليه أميرُ البصرة ، وكان من ولد سليمان بن عليّ ، فنُبل الرجل وعلا قدرُه ، وولّاه المتزوِّجُ إليه عملاً ، فكتب إليه عبد الصمد :

أحُلتَ عمّا عهدتُ من أدبــكْ أم نِلتَ مُلكاً فتِهتَ في كُتُبكْ
أم هل ترى أنّ في مناصفة الإخوان نَقصاً عليك في حَسَبك
أم كان ما كان منك عن غضبٍ فأيُّ شيءٍ أدناك من غضبِكْ
إنّ جَفاءً كتابُ ذي ثقةٍ يكون في صدره : «وأَمتَع بك»
كيف بإنصافنا لديك وقد شاركتَ آلَ النبيّ في نَسَبك
قُل للوفاء الذي تُقدِّرُه نفسُك عندي مَللتُ من طلبك
أتعبتَ كفيَّك في مُواصلتي حسبُك ماذا كُفيت من تَعبك

فأجابه صديقُه :

كيف يحولُ الإخاءُ يا أَمَلي وكلُّ خيرٍ أنالُ من نسبكْ
إن يكُ جهلٌ أتاك مِن قِبَلي فامنُنْ بفَضلِ عليًّ من أدبك
أنكرتَ شيئاً فلستُ فاعلَه ولا تراه يُخطّ في كُتُبك

* * *

(1) المداري : القرون ج مدراة ومدرى . الأطلاء ج طلى : ولد الظبي . الأقاحي ج الأقحوان تشبه بها الأسنان .

٢٦

عَبدُاللهِ بن مُصْعَب

[الأغاني الجزء ٢٤ ص ٢٣٧ وما بعدها]

الشاعر

عبدالله بن مصعَب بن ثابت بن عبدالله بن الزُبير بن العَوّام ... بن كَعب ابن لُؤَيّ بن غالب .

شاعرٌ فصيحٌ خطيب ذو عارضةٍ وبَيانٍ واعتبار بين الرِجال وكلامٍ في المَحافل . وقد نادم أوائل الخلفاء من بني العبّاس وتولّى لهم أعمالاً ؛ وكان خَرج مع محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالمدينة على أبي جعفر المنصور فيمن خرج من آل الزُبير ، فلمّا قُتل محمد استتَر عنه ، وقيل : بل كان استتاره مُدّةً يسيرة إلى أن حجّ أبو جعفر المنصور وآمَن الناسَ جميعاً فظَهر .

قال النَوفليّ : وكان عبدالله بن مصعَب يلقَّب عائذَ الكلب لقوله :

مالي مَرِضتُ فلم يَعُدْني عائدٌ ... منكم ويمرضُ كلبكُم فأعودُ
وأشَدّ مِن مَرضي عليَّ صُدودكُم ... وصُدُود عَبدكم عليَّ شديدُ

فلُقّب « عائد الكلب » .

طائفة من أخباره

● عن الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فَروة قال :

دخلتُ على المهديّ ، وإذا هو يكتب على الأرض بفَحمة قولَ عبدالله بن مصعب :

فإن يحجبُوها أو يَحُلْ دونَ وَصْلها مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أميرِ
فلن يَمنعوا عينيَّ من دائم البُكا ولن يُخرجوا ما قد أجَنّ ضميري
وما برِح الواشون حتى بدتْ لنا بطونُ الهوى مَقلوبةً لظُهورِ
إلى الله أشكو ما ألاقي من الجَوى ومن نَفَسٍ يعتادُني وزفيرِ

ويقول : أحسنَ واللهِ عبدُ الله بن مصعَب ما شاء . وهذه الأبيات تُنسَب إلى المجنون أيضاً .

● عن أبي الطِّرِمّاح مولى آل مصعب بن الزبير :

أنّ عبدالله بن مصعب لمّا وَلي اليمامة مرّ بالحَوْأب يوماً ـ وهو ماءٌ لبني أبي بكر بن كِلاب ، وهو الذي ذكره النبيُّ ﷺ لعائشة ـ فرأى على الماء جاريةً منهم ، فهَوِيها وهَوِيته ، وقال :

يا جُمْلُ للوالِهِ المستعبِرِ الوَصِبِ ماذا تضمَّن من حُزنٍ ومن نَصَبِ
أنّى أُتيحتْ له للحَين جاريةٌ في غير ما أَمَمٍ منها ولا صَقَبِ
جاريةٌ من أبي بكرٍ كَلِفتُ بها ممّن يَحُلُّ من الحَصّاء والحَوَبِ
من غير معرفةٍ إلّا تَعرُّضَها حيناً لذلك إنّ الحَينَ مُجتلَبي
قامت تَعرَّض لي عَمْداً فقلت لها يا عَمْرَكِ اللهَ هل تَدرين ما حَسَبي
بين الحَواريّ والصِّدّيق في نسَبٍ ينهَى عن الفُحشِ مثلي غيرَ مُؤْتَشَب
ولا أَدِبٌّ إلى الجارات مُنسَرِباً تالله إنّي لعِزْهاةٌ عن الرِّيَبِ (١)

(١) الحين : الهلاك . الأمم : القريب . الصقب : المجاور . الحصاء والحوأب : من مياه =

فخطبها ، وكانت العرب لا تُنكح الرجلَ امرأةً شبّب بها قبل خِطْبته ، فلم يُزوّجوها إيّاه ، فلمّا يئست منه قالت :

إذا خَدِرت رِجْلي ذكرتُ ابنَ مُصعبٍ ... فإن قيل عبدُالله خَفّ فُتورها

ألا ليتني صاحبتُ ركبَ ابنِ مصعبٍ ... إذا ما مطاياه اتلأبّتْ صدورُها

لقد كنت أبكي واليمامةُ دُونَه ... فكيف إذا التفّتْ عليه قصورُها[1]

قال أبو الطرماح في خبره : وكان لها إخوةٌ شُرُسٌ غُيُرٌ فقتلوها .

● عن أبي عمر الزُهريّ قال : حدّثني أبي :

أنّ عبدالله بن مُصعَب خاصم رجلاً من ولد عمر بن الخطاب بحضرة المهدي فقال له عبدُالله بن مصعب : أنا ابنُ صفيّة . قال : هي أَدْنَتْك من الظِّلّ ولولاها لكنت ضاحياً[2] وكنت بين الفَرْث والحَوِيّة[3] . قال : أنا ابنُ الحَواريّ . قال له العُمَري : بل أنت ابنُ ورْدان المكُاريّ . قال : وكان يقال إن أمه كانت تهوى رجلاً يكري الحمير يقال له وردان فكان من يسُبّه ينسِبه إليه . وقال فيه الشاعر :

أتُدعَى حَواريَّ الرسول سَفاهةً ... وأنت لِوَرْدان الحمير سَليلُ

فقال : والله لأنا بأبي أَشبَهُ من التَمرة بالتمرة والغُراب بالغراب . قال له

= بني أبي بكر بن كلاب ، والحوب مخففة من حوأب . الحواري : أراد جده الزبير ابن العوّام . مؤتشب : مختلط . انسرب في الدار : دخلها متسللاً . العزهاة : العازف عن اللهو والنساء .

(١) اتلأبت : اجتمعت وتلاقت .

(٢) الضاحي : البارز للشمس ، والمراد أنه لولاها لكان من أفناء قومه .

(٣) الفرث : بقايا الطعام في الكرش ، والحوية : ما تحوي من الأمعاء أي لم يكن لك شأن .

العمري : كذبتَ ، وإلّا فأخبرني ما بالُ آل الزبير ثُطُّ اللحِى[1] وأنت أَلْحَى ، وما لَهم سُمْراً جِعاداً وأنت أحمرُ سَبْطٌ ؟ قال : ألي تقول هذا يابنَ قتيل أبي لُؤلؤة ! قال العمري : يابنَ قتيل ابن جُرموز[2] على ضَلالة ، أتُعيِّرني أن قَتل أبي رجلٌ نصرانيّ وهو أمير المؤمنين قائماً يُصلّي في محرابه ، وقد قَتل أباك رجلٌ مُسلمٌ بين الصَّفَّين يدفعُه عن باطل ويدعوه إلى حق ! فأنا أقول رَحم اللهُ ابنَ جُرموز فقل أنت : رحِم اللهُ أبا لُؤلؤة . ثم أقبل على المهديّ فقال : ألا تسمع يا أمير المؤمنين ما يقول عائذُ الكلب في عمر بن الخطاب ! وقد عرفتَ ما كان بينه وبين أبيك العبّاس بن عبد المطلب وابنه عبدالله من المودّة ، وتعلم ما بين جَدّه عبدالله بن الزبير وبين جَدّك عبدالله بن العباس من العداوة ، فأَعِنْ يا أمير المؤمنين أَولياءك على أعدائك . فوثب رجلٌ من آل طَلْحة فقال له : يا أمير المؤمنين ، ألّا تكُفُّ هذين السَّفيهَين عن تناول أعراض أصحاب رسول الله ﷺ وآله ؟ وتكلّم الناس بينهما وتوسَّطوا كلامَهما وأكثروا ، فأمر المهديُّ بكَفّهما والتفريق بينهما .

* * *

(١) الأثط : الخفيف شعر اللحية .

(٢) عمر بن جرموز : هو قاتل الزبير بن العوام ، وكان لحق به بعد موقعة الجمل حتى اذا وجد منه غرة قتله .

٢٧

عبدالله بن المعتزّ

[الأغاني الجزء ١٠ ص ٢٧٤ وما بعدها]

الشاعر

ممّن صنَع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسَن وبرَع وتقدّم جميعَ أهل عصره فضلاً وشرَفاً وأدباً وشعراً وظرَفاً وتصرُّفاً في سائر الآداب أبو العبّاس عبدالله بن المعتزّ بالله .

وأمرُه ـ مع قُرب عهده بعصرنا هذا ـ مشهورٌ في فضائله وآدابه شهرةً تُشرِك في أكثر فضائله الخاصَّ والعامّ . وشعرُه ، وإن كان فيه رقّةُ الملوكيّة وغزَل الظُّرفاء وهَلْهلة المُحْدَثين ، فإنّ فيه أشياءَ كثيرةً تجري في أسلوب المُجيدين ولا تَقصُر عن مَدى السابقين ، وأشياءَ ظريفة من أشعار الملوك في جِنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبّه فيها بفحول الجاهليّة . فليس يُمكن واصفاً لصَبوح ، في مجلسٍ شكِلٍ ظريف ، بين نَدامَى وقِيانٍ ، وعلى مَيادين من النَّور والبنفسَج والنَّرجِس ومنضودٍ من أمثال ذلك ، إلى غير ما ذكرتُه من جنس المجالس وفاخر الفُرش ومختار الآلات ورقّة الخدم ، أن يَعدِل بذلك عمّا يُشبهه من الكلام السَّبْط الرقيق الذي يَفهمُه كلٌّ من حضر،

إلى جَعْد الكلام ووَحْشيّه وإلى وصف البِيد والمَهامِهِ والظَّبْي والظَّليم[1] والناقة والجمل والدّيار والقِفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدَل عن ذلك وأحسن قِيل له مُسيء ، ولا أن يُغمَط حقَّه كُلَّه إذا أحسن في الكثير وتوسَّط في البعض وقصَّر في اليسير ، ويُنسَب إلى التقصير في الجميع ، لنشر المقابح وطَيّ المحاسن ، فلو شاء أن يفعل هذا كلُّ أَحدٍ بمن تقدَّم لوجَد مَساغاً ...

وإنّما على الإنسان أن يحفَظ من الشيء أحسنَه ، ويُلغيَ ما لم يستحسنُه ، فليس مأخوذاً به . ولكنّ أقواماً أرادوا أن يرفعُوا أنفسَهم الوضيعةَ ، ويُشيدوا بذِكرهم الخامل ، ويُعلُوا أقدارهم الساقطةَ بالطَّعنِ على أهل الفضل والقَدْحِ فيهم ، فلا يزدادون بذلك إلّا ضَعةً ، ولا يزداد الآخَرُ إلّا ارتفاعاً . ألا ترى إلى ابن المُعتزّ قد قُتل أسوأَ قِتْلةٍ ، ودَرَج فلم يبقَ له خَلَفٌ يُقرِّظه ولا عقَبٌ يرفَع منه ، وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحُسن أخباره وتصرُّفِه في كلِّ فنٍّ من العلوم إلّا رِفعةً وعُلوّاً ؛ ولا نُظر إلى أضداده ؛ كلّما ازدادوا في طَعنه وتقريظ أنفُسهم وأسلافهم الذين كانوا مثلَهم في ثَلْبه والطَّعن عليه زادوها سقوطاً وضَعَةً ، وكلّما وصفوا أشعارهم وقرّظوا آدابهم زادوا بها ثِقَلاً ومَقتاً . فإذا وقع عليهم المحصِّل الموافِق عدَلوا عن ثَلبه في الآداب إلى التشنيع عليه بأمر الدّين وهجاء آل أبي طالب . وهم أوّل من فعل ذلك وشَنّع به على آل أبي طالب عند المُكتفي حتى نهاهم عنه ، فعدلوا عن عيب أنفسهم بذلك إلى عَيبه ، وارتكبوا أكثر منه ....

عِلمه بصناعة النغم والموسيقا

كان عبدالله حسنَ العلم بصناعة الموسيقا والكلام على النَغم وعِللها ، وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتبٌ مشهورة ، ومراسلاتٌ جرت بينه وبين عبيدِالله بن عبدالله بن طاهر وبين بني حَمدون وغيرهم تدلّ على فضله وغزارة علمه وأدبه .

---

(١) الظليم : ذكر النعام .

ولقد قرأت بخطّ عبيدالله بن عبدالله بن طاهر رُقعةً إليه بخطّه ، وقد بعث إليه برسالة إلى ابن حَمدون في أنّـه يُجوّز ولا يُنكِـر أن يُغَيّر الإنسان بعضَ نغَم الغِناء القديم ويعدِل بها إلى ما يحسُن في حَلْقه ومذهبه ؛ وهي رسالةٌ طويلة ، وشاوره فيها . فكتب إليه عبيدالله : « قرأت ـ أيّدك اللهُ ـ الرسالةَ الفاضلة البارعة الموفَّقة ، فأنا والله أَقرؤها إلى آخرها ، ثم أعود إلى أوّلها مُبتهجاً ، وأتأمّـل وأدعو مُبتهلاً ، وعين الله التي لا تنام عليك وعلى نِعمه عندك ، فإنّها ـ عَلِم الله ـ النعمةُ المعدومةُ المِثل . ولقد تمثّلتُ وأنا أُكرّر نظري فيها قول القائل في سيّدنا وابن سيّدنا عبدالله بن العبّاس :

كفى وشفى ما في النُّفوس ولم يـدع　　　لِـذي إربةٍ في القول جِداً ولا هَزْلا[1]

ولا والله ما رأيت جِدّاً في هزل ، ولا هَزلاً في جِدّ ، يُشبه هذا الكلام في بلاغته وفصاحته وبيانه وإنارة بُرهانه وجزالة ألفاظه ؛ ولقد خُيّـل إليّ أنّ لسان جَدّك العبّاس عليه السلام ينقسم على أجزاء ، فلَك ـ أعزّك الله ـ نِصفُها ، والنّصف الآخر مقسومٌ بين أبي جعفر المنصور والمأمون ، رحمة الله عليهما ، ولو أنّ هذه الرسالة جَبَهت الإبراهيمَين : إبراهيم بن المهديّ وإبراهيمَ المَوصليّ وابنَه إسحاق ، وهم مجتمعون ، لبُهت منهم الناظرُ ، وأُخرس الناطق ، ولأقرّوا لك بالفضل في السَّبْق ، وظهور حُجّة الصِّدق ، ثم كان قولُك لهم فَرقاً بين الحقّ والباطل ، والخطأ والصواب . واللهِ ما تأخذ في فنّ من الفنون إلّا بَرّزتَ فيه تبريزَ الجواد الرائع ، المُغَبِّر في وجه كلّ حصان تابع . عضَد الله الشَّرف ببقائك ، وأحيا الأدب بحياتك ، وجَمّل الدنيا وأهلها بطُول عُمرك . » .

هذا كلام العقلاء وذوي الفضل في مثله ، لا كلام الثُقَـلاء وذوي الجَهل...

---

(١) هذا البيت لحسان بن ثابت في أبيات مدح بها عبدالله بن العباس .(ديوان حسان ج ١ ص ٣٣١ تحقيق وليد عرفات) .

طائفة من أخباره

● جعفر بن قُدامة قال :

كنّا عند ابن المعتزّ يوماً وعنده نَشْرُ ـ وكان يُحبّها ويَهيم بها ـ فخرجتْ علينا من صدر البستان ، في زمن الرّبيع ، وعليها غِلالةٌ مُعصفَرةٌ ، وفي يدَيها جُنّابى وباكورة باقِلّى[1] . فقالت له : يا سيّدي تلعب معي جُنّابَى ؟ فالتفت إلينا وقال على بديهته ، غيرَ متوقّف ولا مفكّر :

فديتُ من مَرّ يمشي في مُعصفَرةٍ   عشيّةً فسقاني ثم حيّاني
وقال : تلعب جُنّابَى فقلت له :   مَن جاء بالوَصل لم يلعبَ بهِجرانِ

وأمر فغُنّي فيه .

● عبيد الله بن موسى الكاتب قال :

كانت بنت الكُراعة تألف عبدالله بن المعتزّ ، وكان يحبّ غناءها ويستظرفها ويُحبّها ويواصل إحضارَها ، ثم انقطعت عنه فقال :

ليت شِعري بمَن تشاغلتِ بعَدي   وهو لا شكَّ جاهلٌ مغرورُ
هكذا كنت مثلَه في سرورٍ   وغَداً في الهُموم مثلي يصير

● جعفر بن قُدامة قال :

كنّا عند ابن المعتزّ يوماً ومعنا النُميريّ ، وعنده جاريةٌ لبعض بنات المُغَنّين تُغنّيه ، وكانت محسنةً إلا أنّها كانت في غايةٍ من القُبح ، فجعل عبدالله يُجَمِّشُها ويتعلّق بها . فلمّا قامت قال له النُميريّ : أيّها الأمير ، سألتك بالله أتتعشّقُ هذه التي ما رأيت قطّ أقبحَ منها ؟ فقال عبدالله وهو يضحك :

---

(١) الجُنابى والجُناباء : لعبة للصبيان ، وقد ضبطت في القاموس بتخفيف النون ، ولكنها في بيت ابن المعتز مشددة النون . الباقلى : (بتشديد اللام وتخفيفها) ،والباقلاء (بتخفيفها) : الفول .

قلـبيَ وثّـابٌ إلـى ذا وذا ليس يـرى شيئاً فَيـأْباه
يهيـم بالحُسن كما ينبغـي ويرحَـم القُبـح فيهـواهُ

* * *

٢٨

العَتّابيّ

[الأغاني الجزء ١٣ ص ١٠٩ وما بعدها]

الشاعر

هو كُلثوم بن عمرو بن أيّوب ... بن عمرو بن كُلثوم الشاعر ، وهو ابن مالك بن عتّاب بن .... تغلب . شاعرٌ مترسّل بليغ مطبوع متصرّف في فنون الشعر ومقدَّم ، من شعراء الدولة العبّاسيّة ، ومنصور النَّمَريّ تلميذه وراويته ، وكان منقطعاً إلى البرامكة ، فوصفوه للرّشيد ووصلوه به فبلغ عنده كلّ مَبْلَغ ، وعظمت فوائدهُ منه ، ثم فسَدت الحال بينه وبين منصور وتباعدت .

عن رجلٍ من ولد إبراهيم الحرّانيّ قال :

كثر الشعراء بباب المأمون ، فأُوذِن بهم ، فقال لعليّ بن صالح صاحب المصلّى : اعرِضْهم ، فمن كان منهم مجيداً فأَوصِله إليّ ، ومن كان غير مُجيد فاصرِفْه . وصادف ذلك شُغلاً من عليّ بن صالح كان يريد أن يتشاغل به عن أمرِ نفسه ، فقام مغضَباً وقال : والله لأَعُمَّنَّهم بالحِرمان . ثم جلس لهم ودعا بهم ، فجعلوا يتغالبون على القُرب منه ، فقال لهم : على رِسْلكم ، فإنّ المَدَى أقربُ من ذلك ، هل فيكم مَن يُحسن أن يقول كما قال أخوكم العتّابيّ :

ماذا عسى مادحٌ يثني عليك وقد ناداك في الوَحْيِ تقديسٌ وتطهيرُ
فُتَّ المَمَادحَ إلّا أنّ أَلسُنَنا مُسْتَنطَقَاتٌ بما تحوي الضمائيرُ

قالوا : لا واللهِ ، ما بنا أحدٌ يُحسِن أن يقول مثلَ هذا . قال : فانصرِفوا جميعاً .

أبو بكر أحمد بن سهل قال :

تذاكرنا شعرَ العتّابيّ فقال بعضُنا : فيه تكلُّفٌ . ونَصَره بعضُنا ، فقال شيخٌ حاضر : ويحكم ! أيُقال إنّ في شعره تكلّفاً وهو القائل :

رُسُلِ الضمير إليك تَتْرى بالشوق ظالعةً وحَسْرى
مُتَرَجِّياتٍ ما يَنِين على الوَجَى من بُعْدِ مَسْرى
ما جفّ للعينَين بَعْدَكَ يا قريرَ العين مَجْرى
فاسلَمْ سَلِمت مُبَرَّءاً من صَبْوتي أبداً مُعَرَّى
إنّ الصَّبابةَ لم تَدَعْ منّي سوى عظمٍ مُبَرَّى
ومَدامعٍ عَبْرى على كبِدٍ عليك الدَّهرَ حَرّى (١)

أوَ يقال إنه متكلّف ؟ وهو الذي يقول :

فلو كان للشكر شخصٌ يَبِينُ إذا ما تأمّله الناظرُ
لَمَثَّلْتُه لك حتى تراه لِتعلمَ أنّي امرؤٌ شاكرُ

عن موسى بن عبدالله التميميّ قال :

وفد إلى عبدالله بن طاهر جمعٌ من الشعراء ، فعلِم أنّهم على بابه ، فقال لخادمٍ له أديب : اخرُجْ إلى القوم وقُل لهم : مَن كان منكم يقول كما قال العتّابيّ للرشيد :

---

(١) ظلع في مشيته : عرج عرجاً خفيفاً . حسرى : متعبة مجهدة . مترجّيات : مقودة . ما ينين : ما يفترن . الوجى : الحفى . مبريّ : منحوت .

مُستَنْبِطُ عَزَماتِ القلب من فِكَرٍ ما بينهنّ وبين الله مَعمورُ

فَلْيدخُلْ ، وليعلم أني إن وجدتُه مقصِّراً عن ذلك حرمتُه ، فمن وَثِق من نفسه أنه يقول مثل هذا فليقُل . قال : فدخلوا جميعاً إلّا أربعةَ نَفَرٍ .

أبو عصام محمد بن العبّاس قال :

قال يحيى بن خالد البرمكيّ لولده : إن قدرتُم أن تكتبُوا أنفاسَ كُلثوم ابن عمرو العتّابيّ ، فضلاً عن رسائله وشعره ، فلن تَروا أبداً مثلَه .

محمد بن الأشعث قال :

قال دِعبلٌ : ما حسَدت أحداً قطُّ على شعرٍ كما حسدت العتّابيَ على قوله :

هَيبةُ الإخوان قاطعةٌ لأخي الحاجات عن طلبِهْ

فإذا ما هِبتُ ذا أملٍ مات ما أَمَّلتُ من سَبَبِه

قال ابن مَهرويه : هذا سرقه العتّابي من قول عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه : « الهَيبة مقرونة بالخَيبة ، والحياءُ مقرونٌ بالحِرمان ، والفُرصة تمرّ مرَّ السَّحاب » .

أخباره مع الرشيد والمأمون

الحسين بن داود الفَزاريّ عن أبيه قال :

كان أخَوان من فَزارةَ يخفُران قريةً بين آمِد وسُميساط يقال لها تلّ حُوم ، فطال مقامُهما بها حتى أثريا ، فحسدهما قومٌ من ربيعة وقالوا : يخفُران هذان الضِّياعَ في بلدنا . فجمعوا لهما جمعاً وساروا إليهما ، فقاتلوهما ، فقُتل أحدُهما ، وعلى الجزيرة يومئذٍ عبد الملك بن صالح الهاشميّ ، فشكا القيسيُّ أمرَه إلى وجوه قيس ، وعرّفهم قتلَ ربيعة أخاه وأخذَهم مالَه ، فقالوا له : إذا جلس الأمير فادخل إليه . ففعل ذلك ، ودخل على عبدالملك وشكا ما لَحِقه ثم قال له : وحَسْبُ الأمير أنهم لمّا قتلوا أخي وأخذوا مالي قال قائلٌ منهم :

اشرَبا ما شربتُما إنّ قيســـاً من قتيل وهالكٍ وأســـيرِ
لا يَحُوزَنّ أمرَنـا مُضَريٌّ بخفيرٍ ولا بغير خفـــير

فقال عبد الملك : أتندبُني إلى العصبيّة ! وزَبَره[1] ، فخرج الرجلُ مغموماً ، فشكا ذلك إلى وجوه قيس فقالوا : لا تُرَعْ : فوالله لقد قذفتَها في سُويداء قلبه ، فعاوِدْه . فعاوده في المجلس الآخر ، فزبره وقال له قوله الأول ، فقال له : إني لم آتِك أندُبك للعصبيّة ، وإنما جئتك مُستعدياً[2] . فقال له : حدّثني كيف فَعَل القوم ؟ فحدّثه وأنشده ، فغضب فقال : كذب ، لَعَمري لَيحوزنَّها . ثم دعا بأبي عِصمة ، أحد قوّاده ، فقال : اخرُج ، فجَرّد السيف في ربيعة . فخرج وقتل منها مَقتلةً عظيمة ، فقال كلثوم بن عمرو العتّابي قصيدته التي أوّلها :

ماذا شجاكَ بحُوّارين من طَلَلٍ ودِمنـــةٍ كشفت عنها الأعاصيرُ

يقول فيها :

هذي يمينُك في قُرباك صائلــةٌ وصارمٌ من سيوف الهند مشهورُ
إن كان منّا ذَوُو إفكٍ ومارقــةٌ وعُصبةٌ دِينُها العُدوانُ والزُّورُ
فـإنّ منـا الذي لا يُستَحـثُّ إذا حُثّ الجيادُ وضَمَّتها المضامير
مستنبِطٌ عَزَماتِ القلب من فِكَـرٍ ما بينهنّ وبين الله معمـــورُ[3]

يعني عبدالله بن هشام بن بِسطام التغلبيّ ، وكان قد أخذ قوّادهم .

فبلغت القصيدة عبد الملك ، فأمر أبا عِصمةَ بالكفّ عنهم . فلمّا قدِم الرشيد الرافقة[4] أنشده عبدُالملك القصيدةَ ، فقال : لِمن هذه ؟ فقال : لرجل

(١) زبره : زجره وانتهره .
(٢) مستعدياً : مستنصراً .
(٣) الإفك : الكذب والبهتان . المضمار : الموضع تضمّر فيه الخيل .
(٤) الرافقة : بلد متصل بالرقة على الفرات .

من بني عتّاب يقال له كلثوم بن عمرو . فقال : وما يمنعه أن يكون ببابنا ؟ فأمر بإشخاصه من رأس عينٍ[1] . فوافى الرشيدَ وعليه قميصٌ غليظ وفَروة وخُفّ وعلى كتفه مِلحفةٌ جافية بغير سَراويل ، فلمّا رُفع الخبر بقدومه أمر الرشيدُ بأن تُفرش له حُجرةٌ وتُقام له وظيفة ، ففعلوا ، فكانت المائدة إذا قُدّمت إليه أخذ منها رُقاقةً وملحاً وخلَط الملح بالتُراب فأكله بها ، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض والخدمُ يتفقّدونه ويتعجّبون من فعله ، وسأل الرشيدُ عنه ، فأخبروه بأمره ، فأمر بطَرده ، فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العُقيليّ ، وهو في منزله ، فسلّم عليه وانتسب له ، فرحّب به وقال له : ارتفِعْ . فقال : لم آتِك للجلوس . قال : فما حاجتك ؟ قال : دابّةٌ أبلُغ عليها إلى رأس عين . فقال : يا غلام أعطِه الفرس الفلانيّ . فقال : لا حاجةَ لي في ذلك ، ولكن تأمر أن تُشترى لي دابةٌ أتبلّغ عليها[2] . فقال لغلامه : امضِ معه فابتَعْ له ما يريد . فمضى معه ، فعدَل به العتّابي إلى سوق الحمير ، فقال له : إنّما أمرني أن ابتاع لك دابّةً . فقال له : إنه أرسلك معي ، ولم يُرسلني معك ، فإن عملت ما أُريد وإلّا انصرفْ . فمضى معه فاشترى حماراً بمائة وخمسين درهماً وقال : ادفَع إليه ثمنه . فدفع إليه ، فركب الحمار عُرْياً بمِرشحةٍ[3] عليه وبِرذعة ، وساقاه مكشوفتان ، فقال له يحيى بن سعيد : فضحتَني ، أمثلي يحمل مثلك على هذا ؟ ! فضحك وقال : ما رأيتُ قدرَك يستوجب أكثر من ذلك ، ومضى إلى رأس عين .

وكانت تحته امرأةٌ من باهلة ، فلامتْه وقالت : هذا منصورٌ النَمَريّ قد أخذ الأموال فحلّى نساءه ، وبني داره ، واشترى ضِياعاً ، وأنت ها هنا كما ترى ! فأنشأ يقول :

---

(١) رأس عين : مدينة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين .

(٢) تبلّغ بالشيء : وصل الى مراده .

(٣) المرشحة : ما يجعل على ظهر الدابة وتحت السرج ليمتص العرق .

تلـومُ على ترك الغِـنى باهليّـــــةٌ زَوى الفقرُ عنها كلَّ طِرفٍ وتالدِ
رأت حولَهـا النِّسوان يرفُلن في الثَّرا مُقلَّـدةً أعناقُها بالقلائـــــدِ
أسرّكِ أنّي نلـتُ ما نال جعفـــرٌ من العيش أو ما نال يحيى بنُ خالد
وأنّ أمـير المؤمنـين أغصَّــني مُغَـصَّهما بالمُشرقات البـــواردِ
رأيت رفيعاتِ الأمــور مَشُوبـــةً بمستودَعاتٍ في بطـون الأساود
دَعيني تَـجِـئْني مِيتــتي مُطمئنّـــةً ولم أتجشَّم هولَ تلك المـوارد(١)

وهذا الخبرُ عندي فيه اضطرابٌ ، لأن القصيدة المذكورة التي أولها :

ماذا شجاك بُـحوّارين من طلل

للعتّابي في الرشيد لا في عبدالملك ، ولم يكن كما ذكره في أيام الرشيد متنقِّصاً منه ، وله أخبارٌ معه طويلة ...

عن إبراهيم بن الحدين قال :

وَجِـد(٢) الرشيدُ على العتّابي ، فدخل سرّاً مع المتظلّمين بغير إذنٍ ، فمَثل بين يدي الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين ، قد آذتْني الناسُ لك ولنفسي فيك ، وردّني ابتلاؤهم إلى شكرك ، وما مع تذكُّرِك قناعةٌ بغيرك ، ولنعمَ الصائن لنفسي كنتُ ، لو أعانني عليك الصبرُ ، وفي ذلك أقول :

أخِضْني المَقام الغَمْرَ إن كان غَــرّني سَنا خُلَّـبٍ أو زلّـت القدمانِ
أتتركُـني جَدْبَ المعيشـةِ مُقْتِـــراً وكَفّاك من ماء الندى تَكِفـانِ
وتجعلُـني سَهْـمَ المطامع بعــدمـا بلَلتَ يميني بالنّدى ولسـاني(٣)

---

(١) زوى : أبعد . المشرقات : السيوف اللوامع . البوارد : التي تثبت في الضريبة فلا تنثني ، يشير الى مصرع البرامكة على يد الرشيد . الأساود ج أسود : الحية . .
(٢) وجد : غضب .
(٣) الغمر : الماء الكثير . الخلب : البرق الذي لا يعقبه مطر .

قال : فأَعجب الرشيدَ قولُـه ، وخرج وعليه الخِلَعُ ، وقد أمر له بجائزة ، فما رأيت العتّابيّ قطّ أبسطَ منه يومئذٍ .

عن موسى بن عبدالله التميميّ قال :

عَتَب الرشيدُ على العتّابي أيامَ الوليد بن طريف ، فقطع عنه أشياء كان عوّده إياها ، فأتاه متنصّلاً بهذه القصيدة :

ماذا شجاك بحُوّارين من طلـلٍ ودِمنةٍ كشفت عنها الأعاصيرُ
شجاك حتى ضميرُ القلب مشتَركٌ والعينُ إنسانُها بالماء مغمورُ
في ناظريَّ انقباضٌ عن جفونهما وفي الجفون عن الآماق تقصيرُ
لو كنتِ تدرين ما شوقي إذا جَعلتْ تنأى بنا وبك الأوطانُ والدُّور
علمتِ أنّ سُرى ليلي ومُطّلعي من بيت نجرانَ والغَورين تَغوير
إذا الركائبُ مخسوفٌ نواظرُها كما تضمَّنت الدُّهنَ القوارير
نادتكَ أرحامُنا اللاتي نَمُتُّ بها كما تُنادي جِلادَ الجِلّةِ الخُورُ
مُستنبِطٌ عَزَماتِ القلب من فِكَرٍ ما بينهنّ وبين الله معمور
فُتَّ المدائح إلّا أنّ ألسُننا مُستَنطقاتٌ بما تحوي الضمائيرُ
ماذا عسى مادحٌ يُثني عليك وقد ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهير
إن كان منا ذوو إفكٍ ومارقةٌ وعُصبةٌ دينُها العُدوانُ والزُّور
فإنّ منا الذي لا يُستحثُّ إذا حُثّ الجياد وحازتها المضاميرُ
ومَن عرائقُه السَّفّاحُ عندكم مُجرّبٌ من بَلاء الصدق مخبور
الآن قد بَعُدت في خطو طاعتكم خُطاهم حيث يحتلّ الغشاميرُ (١)

---

(١) حوارين : قرية من أعمال حلب . التغوير : الدخول في الغور وهو تهامة . الجلاد : النوق القليلة اللبن . الجلة : الأبل المسنة . الخور ج خوارة : الناقة الغزيرة اللبن . مخبور : مختبر مجرب . الغشامير من الغشمرة : الظلم والتهضم .

ـ يعني يزيد بن مَزْيد ، وهشامَ بن عمرو التغلبيّ ، وهو من ولد سُفيح بن السَفّاح ـ قال : فرضي عنه وردّ أرزاقه ووَصله .

عن عبدالله بن مسلم ومحمد بن يزيد :

كتب المأمون في إشخاص كلثوم بن عَمرو العتّابيّ ، فلمّا دخل عليه قال له : يا كلثوم ، بلغتْني وفاتُك فساءتني ، ثم بلغتْني وِفادتُك فسرّتني . فقال له العتابي : يا أمير المؤمنين ، لو قُسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسِعتاها فضلاً وإنعاماً ، وقد خَصَصتَني منهما بما لا يتّسع له أُمنِيةٌ ، ولا يبسط لسواه أملٌ ، لأنه لا دِين إلّا بك ، ولا دنيا إلا معك . فقال له : سَلْني . فقال : يدُك بالعطاء أَطلَقُ من لساني بالسؤال . فوصَله صِلاتٍ سنيّةٍ ، وبلغ به من التقديـم والإكرام أعلى محلّ .

عن محمد بن إبراهيم اليساريّ قال :

لمّـا قدم العتّابي مدينة السلام على المأمون أذِن له ، فدخَل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، وكان العتابي شيخاً جليلاً نبيلاً ، فسلّم فردّ عليه وأدناه وقرّبه حتى قَرُب منه ، فقبّل يدَه ، ثم أمَره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يُسائله عن حاله ، وهو يُجيبه بلسانٍ ذَلْقٍ طَلْق ، فاستظرف المأمون ذلك ، وأقبل عليه بالمداعبة والمُزاح ، فظنّ الشيخُ أنه استخفّ به فقال : يا أمير المؤمنين ، الإيناسُ قبل الإبساس[1] . فاشتَبه على المأمون قولُـه ، فنظر إلى إسحاق مستفهماً ، فأومأ إليه ، وغَـمَزه على معناه حتى فهم ، فقال : يا غُلامُ ، ألفَ دينار . فأُتي بذلك ، فوضعه بين يَدي العتّابي ، وأخذوا في الحديث ، وغمز المأمونُ إسحاق بن إبراهيم عليه ، فجعل العتّابي لا يأخذ في شيء إلّا عارضه فيه إسحاق ، فبقي العتّابي متعجّباً ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه ؟ قال : نعم ، سَلْ . فقال لإسحاق : يا شيخُ من أنت ؟ وما اسمُك ؟ قال : أنا من الناس ، واسمي كُـلْ بَصَلْ . فتبسّم العتّابي وقال : أمّا أنت

(١) الإبساس : مسح ضرع الناقة لتسكن وتدر.

فمعروف ، وأما الاسم فمُنْكَر . فقال إسحاق : ما أقلَّ إنصافَك ، أتُنكر أن يكون اسمي « كُلْ بَصَلْ » واسمُكْ « كُلْ ثُوم » ! وكُلْ ثوم من الأسماء ، أوَ ليس البصل أطيبَ من الثوم ؟ فقال له العتّابي : لله درُّك ، فما أَحجَّك ، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصلَه بما وصلتَني به ؟ فقال له المأمون : بل ذلك مُوَفَّرٌ عليك ونَأمُر له بمثله . فقال له إسحاق : أمّا إذ أقررتَ بهذا فتوَهَّمْني تَجِدْني . فقال : ما أَظنُّك إلا إسحاقَ الموصليّ الذي تناهى إلينا خبرُه . قال : أنا حيث ظننتَ . وأقبل عليه بالتحيّة والسلام ، فقال المأمون ، وقد طال الحديث بينهما : أمّا إذ قد اتّفقتُما على المودّة فانصرِفا متنادمَين . فانصرف العتّابي إلى إلى منزل إسحاق فأقام عنده .

عبد الواحد بن محمد قال :

وقف العتّابي بباب المأمون يلتمس الوصول إليه ، فصادف يحيى بن أكثَم جالساً ينتظر الإذنَ فقال له : إن رأيت ـ أعزّك الله ـ أن تذكُر أمري لأمير المؤمنين إذا دخلتَ فافعل . قال له : لست ـ أعزّك الله ـ بحاجبه . قال : فإن لم تكن حاجباً فقد يفعلُ مثلُك ما سألتُ ، واعلم أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ جَعل في كل شيء زكاةً ، وجعل زكاةَ المال رَفدَ المستعين ، وزكاة الجاه إغاثةَ الملهوف ، واعلم أن الله ـ عزّ وجلّ ـ مُقبِلٌ عليك بالزيادة ان شكرت ، أو التغيير إن كفرت ، وإنّي لك اليومَ أصلحُ منك لنفسك ، لأنّي أدعوك إلى ازدياد نِعمتك وأنت تأبى . فقال له يحيى : أفعلُ وكرامةً . وخرج الإذن ليحيى ، فلمّا دخل لم يبدأ بشيء بعد السلام إلّا أن استأذن المأمون للعتابي ، فأذِن له .

قال جعفر بن المفضّل : قال لي أبي :

رأيت العتابي جالساً بين يدي المأمون وقد أسَنّ ، فلمّا أراد القيامَ قام المأمونُ فأخذ بيده ، واعتمد الشيخ على المأمون ، فما زال يُنهِضه رُويداً رويداً

حتى أقلّه فنهض . فعجبتُ من ذلك وقلت لبعض الخدم : ما أسوأ أدبَ هذا الشيخ فمن هو ؟ قال : العتّابي .

سائر أخباره

● كلّم العتابي يحيى بن خالد في حاجةٍ بكلمات قليلة ، فقال له يحيى : لقد نَذَر كلامُك اليومَ وقلّ . فقال له : وكيف لا يَقِلّ وقد تكنَّفني ذُلُّ المسألة ، وحَيرة الطلب ، وخوفُ الردّ ؟! فقال : والله لئن قلّ كلامُك لقد كثُرت فوائدُهُ . وقضى حاجته .

● عثمان الورّاق قال :

رأيت العتّابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشأم ، فقلت له : ويحَك ! أما تستحي ! فقال لي : أرأيت لو كُنّا في دارٍ فيها بقرٌ كنت تستحي وتحتشِم أن تأكلَ وهي تراك ؟ فقال : لا . قال : فاصبِرْ حتى أُعلمَك أنهم بقر . فقام فوعظ وقصّ ودعا حتى كثُر الزِّحام عليه ، ثم قال لهم : رَوى لنا غيرُ واحد ، أنه مَن بلَغَ لسانُه أَرنبةَ أنفِه لم يدخُل النار . فما بقِي واحدٌ إلا وأخرج لسانه يُومىء به نحو أرنبة أنفه ، ويُقدّره حتى يبلغَها أم لا . فلمّا تفرّقوا قال لي العتابيّ : ألم أُخبِرك أنهم بقر .

● عن أبي الشِّبْل قال :

دخل العتابيّ على عبدالله بن طاهر فمثَل بين يديه وأنشده :

حُسنُ ظنّي وحسن ما عَوّد اللـــهُ سواي منك الغَداةَ أتى بي
أيُّ شيءٍ يكون أحسنَ من حُســن يقينٍ حدا إليك رِكابي

قال : فأمر له بجائزة . ثم دخل عليه من الغد فأنشده :

وُدُّكَ يَكفينيك في حاجتي ورُؤيتي كافيةٌ عن سُؤالْ
وكيف أخشى الفقرَ ما عشتَ لي وإنّما كَفّاك لي بيتُ مال

فأمر له بجائزة . ثم دخل في اليوم الثالث فأنشده :

بَهِجاتُ الثياب يُخلِقُها الدَّهرُ وثوبُ الثناء غضٌّ جديدُ
فاكسُني ما يَبِيدُ أصلحك اللهُ فاللهُ يكسُوك ما لا يَبيدُ[1]

فأمر له بجائزة وأنعم عليه بخِلعةٍ سَنيّة .

● أبو دِعامة قال :

قال طَوق بن مالك للعتّابي : أما ترى عَشيرتَك - يعني بني تغلب - كيف تُدِلّ عليّ وتتمرّغ وتستطيل ، وأنا أصبرُ عليهم ؟ ! فقال العتابي : أيّها الأمير ، إن عشيرَك من أحسنَ عِشْرَتَك ، وإنّ عَمَّك من عَمّك خيرُه ، وإنّ قريبَك مَن قَرُب منك نفعُه ، وإنّ أخفّ الناس عندك أخفُّهم ثِقلاً عليك ، وأنا الذي أقول :

إنّي بلوت الناسَ في حالاتهم وخَبَرتُ ما وَصلوا من الأسبابِ
فإذا القرابةُ لا تُقرِّب قاطعاً وإذا المودّةُ أقربُ الأنساب

● الرياشيُّ قال :

شكا منصورُ النَمَريّ العتّابي إلى طاهر بن الحسين ، فوَجّه طاهرٌ إلى العتابي فأحضره ، وأخفى منصوراً في بيت قريب منهما ، وسأل طاهر العتابيَّ أن يُصالحه ، فشكا سوءَ فِعله به ، فسأله أن يصفَح عنه ، فقال : لا يستحقّ ذلك . فأمر منصوراً بالخروج ، فخرج وقال للعتابي : لمَ لا أستحقّ هذا منك ؟ فأنشأ العتابي يقول :

أَصْحبتُكَ الفضلَ إذ لا أنت تعرفُه حقّاً ولا لك في استصحابه أَدَبُ
لم تَرتبِطْك على وصلي مُحافَظةٌ ولا أعاذك ممّا اغتالك الأدبَ
ما من جميلٍ ولا عُرْفٍ نطقتَ به إلّا إليّ وإن أنكرتَ يَنتسِبُ

---

(١) يخلقها : يبليها .

قال : فأصلح طاهرٌ بينهما ـ وكان منصورٌ من تعليم العتابي وتخريجه ـ وأمر طاهر للعتابي بثلاثين ألف درهم .

● أبو هِفّان قال :

كان العتّابي جالساً ذاتَ يوم ينظُر في كتاب ، فمرّ به بعضُ جيرانه فقال : أيشٍ ينفعُ العلمُ والأدب مَن لا مال له ؟ فأنشد العتابي يقول :

يا قاتلَ اللهُ أقواماً إذا ثَقِفُوا ... ذا اللُّبّ ينظُر في الآداب والحِكَمِ
قالوا وليس بهم إلّا نَفاستُه ... أنافعٌ ذا من الإقتار والعَدَمِ
وليس يَدرُون أنّ الحظّ ما حُرِموا ... لَحاهم الله ، من علمٍ ومن فَهَمِ

● عبد الرحيم بن أحمد بن زيد بن الفرج قال :

لمّا سعى منصورٌ النَمَريّ بالعتّابي إلى الرشيد اغتاظ عليه ، فطلبه ، فستَره جعفر بن يحيى مدّةً ، وجعل يستعطفه عليه حتى استلّ ما في نفسه وأمّنه ، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

ما زِلتُ في غَمَرات الموت مُطَّرحاً ... قد ضاق عني فسيحُ الأرض من حِيَلي
ولم تزل دائباً تسعى بلُطفك لي ... حتى اختلستَ حياتي من يدَي أَجَلي

● أحمد بن خلّاد عن أبيه قال :

عاد عبدُالله بن طاهر وإسحاقُ بن إبراهيم بن مصعب كلثوم بن عمرو العتابي ، في عِلّة اعتلّها ، فقال الناس ، هذه خَطرةٌ خطَرتْ . فبلغ ذلك العتابي فكتب إلى عبدالله بن طاهر :

قالوا الزيارةُ خَطْرةٌ خَطَرتْ ... ونِجارُ بِرّك ليس بالخَطْرِ
أَبطِلْ مقالتَهم بثانيةٍ ... تَستنفِدِ المعروفَ من شُكري[1]

---

(١) النجار : الأصل .

فلمّا بلغت أبياتُه عبدالله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو وإسحاق بن إبراهيم ، فعاداه مرّةً ثانية .

* * *

٢٩

عليّ بن جبلة العكوّك

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ١٤ وما بعدها]

الشاعر

هو عليّ بن جَبَلة بن عبدالله الأبْناويّ (١) ، ويُكنى أبا الحسن ، ويُلقّب بالعَكَوَّك (٢) ، من أبناء الشّيعة الخُراسانيّة من أهل بغداد ، وبها نشأ ، ووُلد بالحَرْبيّة (٣) من الجانب الغربيّ . وكان ضريراً ، فذكر عَطاءُ المِلْطُ (٤) أنه كان أكْمَه ، وهو الذي يُولَد ضريراً ، وزعم أهلُه أنه عَمي بعد أن نشأ .

وهو شاعرٌ مطبوع ، عَذبُ اللفظ ، جَزْلُه ، لطيفُ المعاني ، مدّاحٌ حسن التصرُّف ، واستنفد شعرَه في مدح أبي دُلَف القاسم بن عيسى العِجْليّ ، وأبي غانم حُميد بن عبد الحميد الطُّوسيّ ، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي

(١) الأبناوي : نسبة الى الأبناء ، وهم قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة اليهم أبناوي وبنويّ .

(٢) العكوّك : القصير السّمين .

(٣) الحربية : محلة كبيرة ببغداد تنسب الى حرب بن عبدالله ، أحد قادة المنصور .

(٤) الملط في اللغة : الخبيث لا يرفع له شيء الأسرقه ، والمختلط النسب .

دُلف خاصّةً حتى فَضّل من أجله ربيعةَ على مُضَرَ ، وجاوز الحدَّ في ذلك . فيقال : إنّ المأمون طلبه حتى ظَفِر به ، فسَلّ لسانه من قَفاه ؛ ويُقال : بل هرب ولم يزل متوارياً منه حتى مات ولم يقدِر عليه . وهذا هو الصحيح من القَولين ، والآخر شاذّ .

الحسين بن عبدالله بن جَبَلة بن عليّ بن جبلة قال :

كان لجدّي أولادٌ ، وكان عليٌّ أصغرَهم ، وكان الشيخ يرِقُّ عليه ، فجُدر ، فذهبت إحدى عينيه في الجُدَريّ . ثم نشأ فأُسلم في الكُتّاب ، فحَذَق بعضَ ما يَحذِقُه الصِّبيان ، فحُمل على دابّةٍ ونُثر عليه اللَّوز ، فوقعت على عَيْنه الصحيحة لَوزة فذهبتْ . فقال الشيخ لولده : أنتم لكم أرزاقٌ من السُّلطان ، فإن أَعَنْتُموني على هذا الصَّبيّ ، وإلّا صَرفتُ بعضَ أرزاقكم إليه . فقلنا : وما تريد؟ قال : تختلفون به إلى مجالس الأدب . قال : فكُنّا نأتي به مجالسَ العِلم ونَتَشاغل نحن بما يلعب به الصِبيان . فما أتى عليه الحَوْل حتى بَرَع ، وحتى كان العالمُ إذا رآه قال لِمن حولَه : أَوسِعُوا للبَنَويّ [1] . وكان ذكيّاً مطبوعاً ، فقال الشعر .

مدائحه في أبي دُلف العجليّ

وبلغه أنّ الناس يقصُدون أبا دُلف لِجُوده وما كان يُعطي الشعراء فقصَده ، وكان يُسمّى العَكَوَّك ، فامتدحه بقصيدته التي أوّلها :

ذادَ وِرْدَ الغَيّ عن صَـــدَرِهْ وارعوى واللّهو مِن وَطَرِهْ

(١) البنوي : ضُبط في المطبوعة (البغويّ) ، وهو نسبة الى مدينة بغشور ، على غير القياس . ولكن نسبه المذكور في مطلع الترجمة هو« الأبناوي » نسبة الى الأبناء فينبغي أن يكون لفظ « البغوي » محرفاً عن « البنويّ » وقد سبق أن ذكرنا أن النسبة إلى الأبناء : أبناوي وبنوي .

يقول فيها في مدحه :

يا دَواءَ الأرض إن فَسَدَت ... ومُديلَ اليُسْر من عُسَره

كلُّ من في الأرض من عرب ... بين باديه إلى حَضَره

مستعيرٌ منك مَكرُمةً ... يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

إنّما الدُّنيا أبو دُلَفٍ ... بين مَبْداه ومُحْتَضَره

فإذا وَلّى أبو دلفٍ ... وَلّت الدُّنيا على أَثَره

فلمّا وصل إلى أبي دُلَف ـ وعنده من الشعراء وهم لا يعرفونه ـ استرابوه بها ، فقال له قائدُه : إنّهم قد اتّهموك ، وظنّوا أنّ الشعر لغيرك . فقال : أيّها الأميرُ ، إنّ المِحنةَ[1] تُزيلُ هذا . قال : صدقتَ ، فامتحِنُوه . فقالوا له : صِفْ فَرَس الأمير ، وقد أَجَّلناك ثلاثاً . قال : فاجعلوا معي رجلاً تثِقون به يكتبُ ما أقول . فجعلوا معه رجلاً ، فقال هذه القصيدة في ليلته ، وهي :

رِيعتْ لِمنشورٍ على مَفْرِقِهِ ... ذمّ لها عهدَ الصِّبا حين انْتَسَبْ

أهدابُ شَيبٍ جُدُدٌ في رأسه ... مكروهةُ الجِدّة أنضاءُ العُقَبْ

أشرقن في أسودَ أزريّنَ به ... كان دُجاه لهوى البِيض سَبَبْ

واعتَقْنَ أيّامَ الغواني والصِّبا ... عن مَيّت مطلبُه حيٌّ الأدب

لم يزدجِرْ مُرعَوياً حين ارعوى ... لكن يدٌ لم تتصّل بمُطّلَبْ

لم أرَ كالشّيب وقاراً يُجتَوى ... وكالشّباب الغَضّ ظِلّاً يُسْتَلَبْ

فنازلٌ لم يُبْتَهَجْ بقُربه ... وذاهبٌ أبقى جوًى حين ذهَبْ

كان الشبابُ لِمّةً أَزْهَى بها ... وصاحباً حُرّاً عزيز المُصْطَحَب

إذ أنا أُجْرى سادراً في غَيّه ... لا أُعتب الدّهرَ إذا الدهر عتَب

أبعِدُ شأو اللهو في إجرائه ... وأقصِد الخودَ وراء المُحْتَجَب

وأَذْعَرُ الرّبْرَب عن أطفاله ... بأعوجيٍّ دُلَفيّ المُنْتَسَب

(١) المحنة : الامتحان .

تحسبه من مَرَحِ العِزّ بـه مستنفراً بروعة أو مُلتهِب
مُرتَهِجٌ يرتجُّ من أقطاره كالماء جالت فيه ريحٌ فاضطرَب
تحسبُه أُقعد في استقباله حتى إذا استدبرتَه قلت أَكَبّ[1]

[الأبيات ...]

قال : فلمّا غدا عليه بالقصيدة وأنشده إيّاها استحسَنها من حضَر وقالوا : نشهد أنّ قائل هذه قائلُ تلك . فأعطاه ثلاثين ألف درهم . وقد قيل إنّ أبا دُلَف أعطاه مائةَ ألف درهم ، ولكن أراه في دَفَعات ، لأنّه قصَده مراراً كثيرة ومَدحه بعدّة قصائد .

إبراهيم بن خَلَف قال :

بينا أبو دُلَف يسير مع أخيه مَعقِل ـ وهما إذ ذاك بالعراق ـ إذ مرّ بامرأتين تتماشيان ، فقالت : إحداهما لصاحبتها : هذا أبو دُلَف . قالت : ومَن أبو دلف ؟ قالت : الذي يقول فيه الشاعر :

إنّما الدنيا أبو دُلَفٍ بين باديه ومُحتَضَره
فإذا ولّى أبو دلف ولّت الدّنيا على أثرهْ

قال : فاستعبر أبو دلف حتى جرى دمعُه . قال له معقل : مالك يا أخي تبكي ؟! قال : لأنّي لم أَقْضِ حقّ عليّ بن جَبلة . قال : أوَ لم تُعطِه مائة ألف درهم لهذه القصيدة ! قال : والله يا أخي ما في قلبي حَسرةٌ تقارب حَسْرتي على أنّي لم أكن أعطيتُه مائة ألف دينار ، والله لو فعلت ذلك لما كنت قاضياً حقّه .

---

(١) المنشور : أراد الشيب المنتشر. أنضاء : مهزولة . اعتقى البئر : احتفرها . يجتوى : يكره . أعتبه : أرضاه . الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . الربرب : القطيع من بقر الوحش . الأعوجي : الفرس المنسوب الى أعوج ، وهو فرس لبني هلال . دلفي : منسوب الى أبي دلف . مرتهج : مثير للغبار.

عليّ بن القاسم قال : قال لي عليُّ بن جبَلة :

زُرت أبا دُلف ، فكنت لا أدخل عليه إلّا تلقّاني ببِرّه وأفرط . فلمّا أكثر قعدتُ عنه حياءً منه ، فبعث إليّ بمعقل أخيه ، فأتاني فقال لي : يقول لك الأميرُ : لِمَ هجرتَنا ؟ لعلك استبطأتَ بعض ما كان منّي ، فإن كان الأمر كذلك فإنّي زائدٌ فيما كنت أفعلُه حتى ترضى . فدعوتُ مَن كتب لي وأمللتُ عليه هذه الأبيات ، ثم دفعتُها إلى مَعقل وسألتُه أن يُوصلَها ، وهي :

هجرتُك لم أهجرك من كُفر نعمةٍ ... وهل يُرتَجى نيلُ الزيادة بالكُفرِ
ولكنّني لمّا أتيتُك زائراً ... فأفرطتَ في بِرّي عجَزتُ عن الشُكر
فها أنا لا آتيك إلّا مُسلِّماً ... أَزُورك في الشهرَين يوماً وفي الشهر
فإن زِدتَني بِرّاً تزايدتُ جَفوةً ... ولم تلقَني طُولَ الحياةَ إلى الحَشْرِ

قال : فلمّا سمعها معقل استحسنها جِدّاً وقال : جَوّدت والله ، أما إنّ الأمير لَيُعْجَب بمثل هذه الأبيات . فلمّا أوصلها إلى أبي دلف قال : لله درُّه ، ما أشعرَه وما أرقَّ معانيَه ! ثم دعا بدوَاة ، فكتب إليّ :

ألا رُبَّ ضَيفٍ طارقٍ قد بسَطتُه ... وآنستُه قبلَ الضِيافة بالبِشْرِ
أتاني يُرَجّيني فما حال دُونَه ... ودون القِرى من نائلي عنده سِتْري
وجدتُ له فضلاً عليَّ بقَصْده ... إليَّ وبِرّاً يستحقّ به شُكري
فلم أعدُ أن أَدنيتُه وابتدأتُه ... ببِشرٍ وإكرامٍ وبِرٍّ على بِرِ
وزوّدتُه مالاً قليلاً بقاؤه ... وزوّدني مَدحاً يدُوم على الدّهر

ثم وجّه بهذه الأبيات مع وصيفٍ يحمِل كيساً فيه ألفُ دينار ، فذلك حيث قلت له :

إنّما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضَره

قال أحمد بن إسماعيل الخصيب الكاتب :

دخل عليّ بن جَبَلة يوماً إلى أبي دُلَففقال له : هاتِ يا عليُّ ما معك فقال : إنّـه قليل . فقال : هاتِـه ، فكم من قليلٍ أجودُ من كثير . فأنشده :

اللهُ أجرى من الأرزاق أكثرهـــا ... على يَديك فشُكراً يا أبا دلـفِ
أعطى أبو دلفٍ والرّيـحُ عاصفـةٌ ... حتى إذا وقفتْ أعطى ولم يقفِ

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم . فلمّا كان بعد مُـدّةٍ دخل إليه ، فقال له : هات ما معك . فأنشده :

مِن مَلَكِ الموت إلى قاسمٍ ... رسالةٌ في بطن قِرطاسِ
يا فارسَ الفُرسان يومَ الوغى ... مُرْني بمن شئتَ من النّاس

قال : فأمر له بألفَي درهم ، وكان قد تطيّر من ابتدائه في هذا الشعر ، فقال : ليست هذه من عطاياك أيّها الأمير ! فقال : بلغ بها هذا المقدارَ ارتياعُنا من تحمُّلك رسالةَ ملَكَ الموت إلينا .

عن سالم مولى حُميد الطُّوسيّ قال :

جاء عليُّ بن جبلة إلى حُميد الطّوسيّ مستشفعاً به إلى أبي دُلَف ـ وقد كان غضب عليه وجفاه ـ فركب معه إلى أبي دلف شافعاً ، وسأله في أمره ، فأجابه ، واتّصل الحديث بينهما ، وعليُّ بن جبلة محجوب . فأقبل على رجلٍ إلى جانبه وقال : اكتُبْ ما أقول . فكتب :

لا تَترُكَنّي بباب الدّار مُطَّرَحاً ... فالحُرّ ليس عن الأحرار يَحتجبُ
هَبْنا بلا شافعٍ جئنا ولا سببٍ ... ألستَ أنت إلى مَعروفك السَبَب ؟

قال : فأمر بإيصاله إليه ورضي عنه ووصله .

أحمد بن أبي فَنَن قال : قال عبد الله بن مالك :

قال المأمون يوماً لبعض جلسائه : أُقسم على مَن حضر ممّن يحفظ قصيدة

عليّ بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلّا أنشدَنِيها . فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أمير المؤمنين ، ولا بُدَّ من إبرار قسَمه ، وما أَحفظها ولكنّها مكتوبةٌ عندي . قال : قم فجئني بها . فمضى وأتاه بها ، فأنشده إيّاها وهي :

ذاد وِردَ الغيّ عن صَدَره   وارعوى واللهوُ من وَطَرِهْ

......

دع جَدا قحطانَ أو مُضرٍ   في يَمانيه وفي مُضَرِه
وامتدحْ من وائلٍ رجلاً   عَصَرُ الآفاق في عَصَرِهْ
المنايا في مَناقبه   والعطايا في ذَرا حُجره
مَلكٌ تندَى أناملُه   كانبلاج النَّوْء عن مَطره
مستهلٌّ عن مواهبه   كابتسام الرَّوض عن زَهَره
جبلٌ عزّت مناكبُه   أمنتْ عدنانُ في ثَغَره
إنّما الدنيا أبو دلف   بين مَبْداه ومحتضَره
فإذا ولّى أبو دلف   وَلّت الدنيا على أَثَره (١)

[الأبيات ...]

قال : فغضب المأمون وقال : لست لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفكْ دمه .

قال ابن أبي فَنَن : وهذه القصيدة قالها عليّ بن جبلة وقصد بها أبا دُلَف بعد قتله الصُّعلوك المعروف بقُرقور ، وكان من أشدّ الناس بأساً وأعظمهم ، فكان يقطع هو وغِلمانه على القوافل وعلى القُرى ، وأبو دلف يجتهد في أمره فلا يقدر عليه . فبينا أبو دلف خرج ذات يوم يتصيّد وقد أمعن في طلب الصَّيد وحدَه إذا بقرقور قد طلع عليه وهو راكبٌ فرساً يشقّ الأرض بجَرْيه ،

---

(١) الجدا : العطاء . العصر : المنجاة والملاذ . المناقب هنا ج منقب ومنقبة : الطريق في الجبل . الذرا : الناحية .

فأيقن أبو دلف بالهلاك ، وخاف أن يولّيَ عنه فيهلِكَ ، فحمل عليه وصاح : يا فِتيانُ ، يمنةً يمنة ـ يُوهمه أنّ معه خيلاً قد كَمَنها له ـ فخافه قُرقور وعطف على يساره هارباً ، ولحقه أبو دلف فوضع رُمحه بين كتِفيه فأخرجه من صدره ، ونزل فاحتزّ رأسه وحمله على رُمحه حتى أدخله الكَرَج[1] .

قال : فحدّثني مَن رأى رمح قرقور ، وقد أُدخل بين يدَيه يحمله أربعة نفر . فلمّا أنشده عليّ بن جبلة هذه القصيدة استحسنها وسُرّ بها وأمر له بمائة ألف درهم .

مدائحه في حُميد الطوسي ورثاؤه إيّاه

أبو واثلةَ قال : قال رجلٌ لعليّ بن جَبلة : ما بلغتَ في مديح أحدٍ ما بلغتَه في مديحك حُميداً الطوسيّ . فقال : وكيف لا أفعل وأدنى ما وصل إليّ منه أنّي أهديت له قصيدةً في يوم نَيروز فسُرَّ بها وأمر أن يُحمَل إليّ كلُّ ما أُهدي له ، فحُمل إليّ ما قيمتُه مائتا ألف درهم . وأهديتُ له قصيدةً في يوم عيدٍ فبعث إليَّ بمثل ذلك . قال أبو واثلة : وقد كان حُميد ركب يومَ عِيد في جيشٍ عظيم لم يُرَ مثله ، فقال عليٌّ بن جبلة يصف ذلك :

غدا بأمير المؤمنين ويُمْنِه ... أبو غانمٍ غَدْوَ النَّدى والسحائبِ
وضاقت فِجاجُ الأرض عن كلّ موكبٍ ... أحاط به مُستعلياً للمَواكب
كأنّ سُموَّ النَّقْع والبَيْضُ فوقهم ... سَماوةُ ليلٍ قُرّنت بالكواكب
فكان لأهل العِيد عيدٌ بنُسكهم ... وكان حميدٌ عِيدَهم بالمَواهب
ولولا حميدٌ لم تَبَلَّجْ عن الندى ... يمينٌ ولم يُدرِكْ غِنىً كسبُ كاسب
ولو مَلَكَ الدنيا لما كان سائلٌ ... ولا اعتام فيها صاحبٌ فضلَ صاحبِ
له ضِحكةٌ تستغرق المالَ بالنَّدى ... على عَبْسةٍ تُشجي القَنا بالتَرائبِ

---

(١) الكرج : أكبر قرية في ناحية روز راور بالقرب من همذان ، وتعرف بكرج أبي دلف لأنه مصّرها واستوطنها .

ذهبتَ بأيام العُلا فارداً بهــا ... وصَرّمت عن مَسعاك شأوَ المطالِب

وعدّلت مَيلَ الأرض حتى تعدّلتْ ... فلم يَنأْ منها جانبٌ فوق جانب

بلغتَ بأدنى الحزم أبعدَ قُطرها ... كأنّك منها شاهدٌ كلَّ غائبِ (١)

قال : والتي أهداها له يومَ النيروز قصيدته التي فيها :

حُميدُ يا قاسمَ الدنيا بنائله ... وسيفِه بين أهل النَّكثِ والدِّين

أنتَ الزمّان الذي يجري تصرّفه ... على الأنام بتشديدٍ وتَليين

لو لم تكن كانت الأيّام قد فنِيتْ ... والمكرماتُ ومات المجدُ مُذْ حِينِ

صوّرك الله من مجدٍ ومن كرمٍ ... وصوّر الناس من ماء ومن طِينِ

أبو وائلة السَّدُوسيّ قال :

دخل عليّ بن جبلة العَكَوَّك على حُميدٍ الطوسيّ في أول يوم من شهر رمضان فأنشده :

جعل الله مَدخل الصَّوم فوزاً ... لحميدٍ ومُتعةً في البقاء

فهو شهر الربيع للقُرّاءِ ... وفِراقِ النَّدمان والصَّهباءِ

وأنا الضّامن الكفيل لمن عاقرها مُفطراً بطول الظَّماء

وكأنّي أرى النَدامى على الخَسف يُرجّون صبحَهم بالمساء

قد طوى بعضهم زيارة بعضٍ ... واستعاضوا مَصاحفاً بالغِناء

يقول فيها :

فخَرت طَيّءٌ على الأحياء ... بحُميدٍ ، وأين مثل حميدٍ ،

جُودُه أظهر السماحةَ في الأرض وأغنى المقْوِي عن الإقواء

---

(١) البيض ج بيضة : الخوذة . اعتام : أخذ العيمة بكسر العين وهي خيار المال . تشجي : تغصّ . الترائب ج تريبة : عظام الصدر وما ولى الترقوتين منه . صرمت : قطعت .

مَلكٌ يأمُل العِبادُ نَــــداه مثلَ ما يأمُلون قَطر السَّماء
صاغه اللهُ مُطعمَ الناس في الأرض وصاغ السَّحابَ للإسقاء[1]

قال : فأمر له بخمسة آلاف درهم وقال : استعن بهذه على نَفقة صومك .
ثم دخل إليه ثانيَ شوّال فأنشده :

عَلّلاني بصَفْو ما في الدِّنان واتركا ما يقولُه العاذلانِ
واسبِقا فاجعَ المنيّة بالعيش فكلٌّ على الجديدَين فاني
علّلاني بشَربةٍ تُذهب الهَمَّ وتَنفي طوارقَ الأحزانِ
وانفُثا في مَسامعٍ سدّها الصَّو م رُقى المَوصليّ أو دَحْمانِ
قد أتانا شوّالُ فاقتبل العَيشُ وأَعدى قسْراً على رمضان
نِعمَ عَونُ الفتى على نُوَب الدَّهر سَماعُ القِيان والعِيدان
وكؤوسٌ تجري بماء كُرومٍ ومَطيٌّ الكؤوس أيدي القِيان
من عُقارٍ تُميت كلَّ احتشامٍ وتَسُرّ النَّدْمانَ بالنَّدْمانِ
وكأنّ المِزاجَ يقدحُ منها شَرراً في سبائك العِقيان
فاشربِ الرّاحَ واعصِ مَن لام فيها إنّها نعمَ عُدّةُ الفِتيان
واصحب الدّهر بارتحالٍ وحَلٍّ لا تَخفْ ما يجُرّه الحادثانِ
حَسبُ مُستظهِرٍ على الدّهر رُكناً بحُميدٍ رِدْءاً من الحِدْثانِ
مَلِكٌ يقتني المكارمَ كَنْزاً وتراه من أكرم الفِتيان
خُلقتْ راحتاه للجُود والبأ سِ وأموالُه لشُكر اللّسانِ
مَلّكته على العِبادِ مَعَدٌّ وأقرّت له بنو قحطانِ

[الأبيات ...]

---

(١) المقوي : الجائع .

فأمر له بعشرة آلاف درهم وقال : تلك كانت للصّوم ، فخفّفت وخَفّفْنا ، وهذه للفِطر ، فقد زدتَنا وزِدناك .

وهبُ بن سعيد المَرْوزيّ ، كاتب حُميد الطوسيّ ، قال :

جئت حميداً في أول يوم من شهر رمضان ، فدفع إليّ كيساً فيه ألف دينار ، وقال : تصدّقوا بهذه . وجاءه ابنه أصْرَمُ فسلمّ عليه ودعا له ، ثم قال له : خادمُك عليّ بن جبلة بالباب . فقال : وما أصنع به ؟ جئتَني به يا بُنيّ تقابلني بوجهه في أول يوم من هذا الشهر ! فقال : إنّه يُجيد فيك القول . قال : فأنشِدني بيتاً ممّا تستجيد له . فأنشده قوله :

حِيدي حَيادِ فإنّ غَزْوةَ جيشه ... ضَمنت لجائلةِ السِّباع عِيالَها (١)

فقال : أحسَن ، ائذنوا له . فدخل فسلّم ، ثم أنشده قوله :

إن أبا غانمٍ حُميداً ... غيثٌ على المعتِفين هامي
صَوّره اللهُ سيفَ حَتْفٍ ... وبابَ رزقٍ على الأنام
يا مانعَ الأرض بالعوالي ... والنِّعمِ الجَمّةِ العظام
ليس من السُّوء في مَعاذ ... من لم يكن منك في ذِمام
وما تعمدتُ فيك وصفاً ... إلّا تقدّمتَه أمامي
فقد تناهت بك المعالي ... وانقطعت مَدّةُ الكلام
أجِدَّ شهراً وأَبْلِ شهراً ... واسلم على الدّهر ألفَ عامِ (٢)

أحمد بن عُبَيد بن ناصح قال :

كَلّم حُميد الطوسيّ المأمونَ في أن يُدخلَ عليه عليَّ بن جَبلة فيسمعَ منه مديحاً مَدَحه به ، فقال : وأيُّ شيءٍ يقوله فيَّ بعد قوله في أبي دلف :

(١) حيدي حياد : أمر بالحياد والروغان ، تخاطب به الخيل المغيرة في الحرب لتطارد العدو حتى لا يجد مفراً .

(٢) المعتفي : طالب المعروف . المدة : المدّ والاستمداد .

إنّمـــا الدنيا أبو دُلَــف بين مَغـداه ومحتضـره
فإذا ولّـى أبو دلــــف ولّت الدنيا على أثـــره

وبعد قوله فيك :

يا واحدَ العـرب الـــذي عَزّت بعِزّته العَـــرَبُ

أحسنُ أحواله أن يقول فيّ مثلَ ما قاله في أبي دلف ، فيجعلَني نظيراً له . هذا إن قَدَر على ذلك ولم يُقصّر عنه ، فخَيِّروه بين أن أَسمعَ منه ، فإن كان مدحهُ إيّاي أفضلَ من مدحه أبا دلف وصلتُه ، وإلّا ضربتُ عنقَه أو قطعت لسانه ، وبين أن أُقِيله وأُعفيَه من هذا وذا . فخَيَّروه بذلك ، فاختار الإقالة .

ثم مدح حميداً الطوسيّ ، فقال له : وما عساك أن تقول فيّ بعدما قلته في أبي دُلف ؟ فقال : قد قلت فيك خيراً من ذلك . قال : هاتِ فأنشده :

دجلــةُ تَسقي وأبو غانـــــمٍ يُطعم مَن تَسقي من النّاسِ
الناسُ جِسمٌ وإمـامُ الهُــدى رأسٌ وأنــت العينُ في الراس

فقال له حميد : قد أجدتَ ، ولكن ليس هذا مثل ذلك . ووصَله .

قال أحمد بن عُبيد : ثم مات حميد الطوسي فرثاه عليّ بن جبلة ، فلِقيتُه فقلت له : أنشِدني مرثيتَك حُميداً . فأنشدني :

نَعاءِ حُميداً للسَّرايا إذا غـــــدت تُـذاد بأطـراف الرِّماح وتُوزَعُ[1]

حتى أتى على آخرها . فقلت له : ما ذهب على النحو الذي نحوتَه ياأبا الحَسن ، وقد قاربتَه وما بلغتَه . فقال : وما هو ؟ فقلت : أردت قول الخُريميّ في مرثيته أبا الهَيْذام :

وأعددتُه ذُخراً لكـلّ مُلمّـــةٍ وسهمُ المنايا بالذّخائر مُولَعُ

فقال : صدقت والله ؛ أما والله لقد نحوتُه وأنا لا أطمع في اللّحاق به ، لا

(١) نعاء : اسم فعل أمر مبني على الكسرة بمعنى : انعِ .

والله ولا امرؤالقيس لو طلبه وأراده ما كان يطمع في أن يقاربه في هذه القصيدة .

قال الأصبهانيّ :

لمّا مات حميد الطوسيّ رثاه بقصيدته العينيّة المشهورة ، وهي من نادر الشعر وبديعه ... :

أللدهر تبكي أم على الدّهر تجزَعُ وما صاحبُ الأيّام إلّا مُفجَّعُ
ولو سَهّلتْ عنك الإسا كان في الإسا عَزاءُ مُعَزٍ للّبيب ومَقْنَعُ
تعزَّ بما عَزَّيتَ غيرك إنّها سهامُ المنايا حائماتٌ ووُقَّعُ
أُصِبنا بيومٍ في حُميدٍ لوانّه أصاب عُروش الدهر ظَلّت تَضَعضع
وأدَّبنا ما أدَّب الناسَ قبلَنا ولكنّه لم يبقَ للصبر مَوضِعُ
ألم تر للأيّام كيف تصرّفت به وبه كانت تُذاد وتُدفَعُ
وكيف التقى مثوىً من الأرض ضيّقٌ على جبلٍ كانت به الأرض تُمنَع
ولمّا انقضت أيامه انقضت العُلا وأضحى به أنفُ النَّدى وهو أجْدَع
وراح عدوُّ الدِّين جَذْلان ينتحي أمانيَّ كانت في حَشاه تَقطَّع

[ومنها :]

هوى جَبل الدنيا المَنيعُ وغَيثها المَريعُ وحاميها الكَميُّ المُشَيَّعُ
وسيف أمير المؤمنين ورُمحه ومفتاح باب الخَطب والخطبُ أَفظَعُ
فأقنعه من مُلكه ورباعه ونائِله قفرٌ من الأرض بَلقعُ
عليَ أيّ شَجْوٍ تشتكي النفسُ بعدَه إلى شَجوه أو يَذْخَر الدمعَ مَدمَعُ
ألم ترَ أنّ الشمس حال ضياؤها عليه وأضحى لونُها وهو أسفَعُ
وأوحشت الدنيا وأودى بهاؤها وأجدب مرعَاها الذي كان يَمْرَع
وقد كانت الدنيا به مطمئنّةً فقد جَعلت أوتادُها تتقلّع
بكى فقدَه روحُ الحياة كما بكى نَداه النّدى وابنُ السَّبيل المُدَفَّع

وفارقت البِيضُ الخُـدورَ وأبرزت   عواطلَ حَسرى بعدَه لا تَقَنَّـع
وأيقظ أجفاناً وكان لها الكـــرى   ونامت عيونٌ لم تكن قبلُ تَـهْجَع
ولكنّـه مقـدار يومٍ ثَــوى بـــه   لكلّ امرىءٍ منها نِـهالٌ ومَشْرَع
وقد رأب الله المَــلا بمحمّـــــد   وبالأصـل ينمي فرعُــه المتفـرِّع
أغـرَّ على أسيافـــه ورماحـــــه   تُقسَّم أنفالُ الخميس وتُجمـع
حوى عن أبيه بذلَ راحته النـدى   وطَعنُ الكُلى والزاعِبيّةُ شُرّعُ (١)

وإنما ذكرت هذه القصيدة ـ على طولها ـ لجودتها وكثرة نادرتها . وقد أخذ البحتري أكثر معانيها فسلخه ، وجعله في قصيدتيه اللتين رثى بهما أبا سعيد الثغريّ :

« انظر إلى العليـاء كيف تُضام »
« بـأي إسـاً تُثنَى الدموعُ الهواملُ »

وقد أخذ الطائيُّ (٢) أيضاً بعض معانيها ، ولولا كراهةُ الإطالة لشرحت المواضعَ المأخوذة ...

غضب المأمون عليه

ابن أبي حرب الزَعفرانيُّ قال :

لمّا بلغ المأمونَ قولُ عليّ بن جبلة لأبي دلف :

كلُّ من في الأرض من عــرب   بـين باديـه إلى حَضَــرِهْ
مستعــيرٌ منــك مَكرمـــةً   يكتسيها يومَ مُفْتَخَـــرِه

(١) الأسا ، بالكسر ويضم ج إسوة (بالكسر) ما يأتسي به الحزين . المشيّع : الشجاع القلب . أمرع : أخصب . العواطل ج عاطل : المرأة العارية عن الحلي . الأنفال : الغنائم . الزاعبية : الرماح المنسوبة الى زاعب وهو اسم رجل او بلد .
(٢) الطائي : أراد به أبا تمام .

غضب من ذلك ، وقال : اطلبُوه حيث كان . فطُلب فلم يُقدَر عليه ، وذلك أنه كان بالجبل ، فلمّا اتّصل به الخبر هرب إلى الجزيرة . وقد كانوا كتبوا الى الآفاق في طلبه ، فهرب من الجزيرة أيضاً وتوسّط الشام ، فظفِروا به فأخذوه ، وحملوه إلى المأمون . فلمّا صار إليه قال له : يا بنَ اللّخْناء ، أنت القائلُ للقاسم بن عيسى :

كلّ من في الأرض من عربٍ ... بين باديه إلى حضَره
مستعيرٌ منك مكرمةً ... يكتسيها يومَ مفتخره

جعلتَنا ممّن يستعير المكارم منه ! فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنتم أهل بيت لا يُقاس بكم أحد ، لأنّ الله جلّ وعزّ فضّلكم على خَلقه ، واختاركم لنفسه ؛ وإنّما عنَيت بقولي في القاسم أشكالَ القاسم وأقرانَه . فقال : والله ما استثنيتَ أحداً عن الكُلّ ، سُلّوا لسانه من قَفاه .

محمد بن موسى قال : وحدّثني أحمد بن أبي فَنن :

أنّ المأمون لمّا أدخل عليه عليّ بن جَبَلة قال له : إنّي لست أستحلُّ دمَك لتفضيلك أبا دلف على العرب كلّها وإدخالِك في ذلك قريشاً ـ وهم آلُ رسول الله ﷺ وعِترتُه [1] ـ ولكنّي أستحلّه بقولك في شعرك وكفرك حيث تقول القول الذي أشركتَ فيه :

أنت الذي تُنزل الأيامَ منزلَها ... وتَنقل الدهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ مَدى طَرْفٍ إلى أحدٍ ... الّا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ

كذبتَ يا ... ما يقدِر على ذلك أحدٌ إلّا اللهُ ـ عزّ وجلّ ـ الملكُ الواحد القهّار ، سُلّوا لسانه من قفاه .

* * *

(١) عترة الرجل : نسل الرجل ورهطه الأدنون .

٣٠

عليّ بن الجهم

[الأغاني الجزء ١٠ ص ٢٠٣ وما بعدها]

الشاعر

هو عليّ بن الجَهم بن بدر .... بن الحارث بن سَامَة بن لُؤي بن غالب . هكذا يدَّعُون ، وقريش تدفعهم عن النَّسَب وتُسمّيهم بني ناجية ، يُنسبون إلى أمّهم ناجية ، وهي امرأة سامة بن لُؤيّ . وكان سامةُ ـ فيما يُقال ـ خرج إلى ناحية البحرين مغاضباً لأخيه كعب بن لؤيّ ...

وقال من يدفع بني سَامة من نَسّابي قريش : وكانت معه امرأتُه ناجية . فلمّا مات ، تزوّجت رجلاً من أهل البحرين فولدت منه الحارث ، ومات أبوه وهو صغير . فلمّا تَرَعْرع طمعتْ أمُّه في أن تُلحقه بقريش ، فأخبرته أنه ابنُ سامة ابن لُؤيّ . فرحل من البحرين إلى عمّه كعب وأخبره أنه ابن أخيه سامة . فعرف كعبٌ أمَّه وظنّه صادقاً في دعواه . ومكث عنده مُـدّةً ، حتى قدم مكّةَ رَكْبٌ من أهل البحرين ، فرأوا الحارث ، فسلّموا عليه وحادثوه ساعةً . فسألهم عنه كعبُ بن لؤيّ ومن أين يعرفونه ، فقالوا له : هذا ابنُ رجلٍ من أهل بلدنا يُقال له فلان . وشرَحوا له خبرَه فنفاه كعبٌ ونفى أمَّه ، فرجعا إلى البحرين ، فكانا هناك ، وتزوّج الحارث وأعقَب هذا العَقِب ....

وكان عليّ بن الجهم شاعراً فصيحاً مطبوعاً ، وخُصّ بالمتوكّل حتى صار من جُلسائه ، ثم أبغضه لأنه كان كثير السِّعاية إليه بنُدَمائه والذِكْر لهم بالقبيح عنده ، وإذا خلا به عرّفه أنهم يَعيبونه وَيَثْلِبُونه ويتنقَّصُونه ، فيكشف عن ذلك فلا يجد له حقيقةً ، فنفاه بعد أن حَبسه مُدّةً .

وكان ينحو نحوَ مروان بن أبي حَفْصة في هجاء آل أبي طالب وذَمّهم والإغراء بهم وهجاء الشّيعة ، وهو القائل :

ورافضة تقـول بشِعْبِ رَضْـوى إمـامٌ ، خـاب ذلـك من إمامِ
إمـامٌ مَـن لـه عشرون ألفـاً من الأتراك مُشْرَعَةُ السِّهـامِ[1]

أخباره مع المتوكل وسبب سجنه إيّاه

محمد بن سعد الهشاميّ قال :

كان عليّ بن الجهم قد هجا بَخْتيشُوعَ[2] ، فسبّه عند المتوكل ، فحبسه المتوكّل . فقال عليّ بن الجهم في حبسه عدّة قصائد كتب بها إلى المتوكّل ، فأطلقه بعد سنةٍ ، ثم نفاه بعد ذلك إلى خُراسان ...

أخبرني عمّي قال حدّثنا محمد قال :

كان سبب حبس المتوكّل عليَّ بن الجهم أنّ جماعةً من الجُلسَاء سعَوا به إليه وقالوا : إنّه يُجَمّش[3] الخَدَم ويغمزهم ، وإنّه كثير الطَّعن عليك والعيب لك والإزراء على أخلاقك . ولم يزالوا به يُوغِرون صدرَه عليه حتى حبسه . ثم أبلغوه عنه أنه هجاه ، فنفاه إلى خراسان وكتب بأن يُصلَب إذا وَردها يوماً

---

(1) الرافضة : أراد بهم هنا الكيسانية الذين كانوا يقولون بإمامة محمد بن الحنفية ، ولما مات قالوا إنه لم يمت وانما تغيب بشعب رضوى وسيرجع بعدُ ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

(2) بختيشوع : هو بختيشوع بن جبريل وكان من أشهر الأطباء في عصره .

(3) يجمشه : يلاعبه ويتحرش به .

إلى الليل . فلمّا وصل إلى الشاذياخ[1] حبَسه طاهر بن عبدالله بن طاهر بها ، ثم أُخرج فصُلب يوماً إلى الليل مُجَرَّداً ، ثم أُنزل . فقال في ذلك :

لم ينصِبوا بالشاذياخ عشيّةَ الإثنين مسبوقاً ولا مجهولا

نصبوا بحَمدالله ملءَ قلوبهم شرفاً وملءَ صُدورهم تبجيلا

ما ازداد إلاّ رفعةً بنكُوله وازدادت الأعداءُ عنه نكُولا

هل كان إلاّ الليثَ فارق غِيلَه فرأيتَه في مَحْمِلٍ مَحمولا

لا يأمَنُ الأعداءُ من شَدّاته شَدّاً يُفصِّل هامَهم تفصيلا

ما عابه أن بُزّ عنه لِباسُه فالسيفُ أهولُ ما يُرى مَسلولا

إن يُبتَذَلْ فالبدرُ لا يُزْري به أن كان ليلةَ تِمّه مَبذولا

أو يَسلبُوه المالَ يُحزِنْ فَقدُه ضيفاً ألمّ وطارقاً ونَزيلا

أو يحبِسوه فليس يُحبَسُ سائرٌ من شِعره يَدَعُ العزيزَ ذليلا

إنّ المصائبَ - ما تعدّتْ دِينَه - نِعَمٌ وأن صَعُبت عليه قليلا

واللهُ ليس بغافلٍ عن أمره وكفى بربّك ناصراً ووكيلا

ولَتَعلمُنّ إذا القلوبُ تكشّفتْ عنها الأكِنّةُ مَن أَضَلُّ سبيلا[2]

إبراهيم بن المدبِّر قال :

كتب صاحبُ الخبر إلى المتوكّل أن الحسن بن عبد الملك بن صالح احترق فمات . فقال عليُّ بن الجَهْم : قد بلغني أنّ العاملُ قَتَله وصانَع صاحبَ الخبر حتى كتب بهذا ؛ وكان يسعى بالجُلَساء إلى المتوكّل ، فأبغضه وأمره بأن يَلزم بيته . ثم بلغه أنه هجاه فحبسه . وأحسنُ شعر قاله في الحبس قصيدتُه التي أوّلها :

---

(١) الشاذياخ : من ضواحي نيسابور .

(٢) نكوله : التنكيل به ونكول الثانية يراد بها الإعراض والاحجام . غيل الأسد : أجمته . الأكنة ج كِنّ : السِتر .

قالت: حُبستَ، فقلت: ليس بضائري حَبْسي وأيُّ مُهنَّدٍ لا يُغمَدُ
أوَ ما رأيت الليثَ يألَفُ غِيلَه كِبْراً وأوباش السِّباع تردَّدُ
والشمسُ لولا أنّها محجوبةٌ عن ناظرَيك لما أضاء الفَرْقَدُ
والبدر يُدركُه السِّرارُ فتنجلي أيّامُه وكأنّه متجدِّدُ
والغيثُ يَحصُرُه الغَمامُ فما يُرى إلاّ وَرِيِّقُه يَروعُ ويَرْعُدُ
والزاعبيّةُ لا يُقيمُ كُعوبَها إلاّ الثِّقافُ وجَذوةٌ تَتوقَّدُ
والنّار في أحجارها مَخبُوءةٌ لا تُصطَلى إن لم تُثرها الأزْنُدُ
والحبسُ ما لم تَغْشَه لدَنيّةٍ شَنعاءَ نِعْمَ المنزلُ المُتَورَّدُ
بيتٌ يُجدِّد للكريم كرامةً ويُزار فيه ولا يَزُور ويُحْفَدُ
لو لم يكن في الحبس إلاّ أنّه لا يَستذِلُّك بالحِجاب الأعْبُدُ
كم من عليلٍ قد تَخطّاه الرَّدى فنجا ومات طبيبُه والعُوَّدُ
يا أحمدُ بنَ أبي دُؤادٍ إنّما تُدعى لكلّ عظيمةٍ يا أحمَدُ
أبلِغْ أميرَ المؤمنين فدونَه خَوضُ الرَّدى ومخاوفٌ لا تَنفَدُ
أنتم بنو عمّ النبيّ محمّدٍ أولى بما شَرَع النبيُّ محمّدُ
ما كان من كرمٍ فأنتم أهلُه كَرُمت مَغارِسُكم وطاب المَحْتِدُ
أمِنَ السَويّة يا بنَ عمٍّ محمّدٍ خَصمٌ تُقرِّبُه وآخَر تُبعِدُ
إنّ الذين سَعوا إليك بباطلٍ حُسّادُ نِعمتِك التي لا تُجْحَدُ
شهِدوا وغِبْنا عنهمُ فتحكّموا فينا وليس كغائبٍ مَن يَشْهَدُ
لو يَجمَعُ الخُصَماءَ عندك مَجلسٌ يوماً لَبان لك الطريقُ الأقْصَدُ
فبأيِّ جُرمٍ أصبحت أعراضُنا نَهْباً تَقسَّمَها اللئيمُ الأوغَدُ(١)

(١) الفرقد: النجم الذي يهتدى به. السرار: آخر أيام الشهر. الزاعبية: رماح منسوبة الى رجل من الخزرج يقال له زاعب كان يصنع الأسنة. الثقاف: آلة من خشب

عبدالله بن المعتزّ قال :

لمّا حَبس أميرُ المؤمنين المتوكّلُ عليَّ بن الجَهْم وأجمع الجُلَساء على عَداوته وإبلاغِ الخليفة عنه كلَّ مكروه ووصفهم مَساوئه ، قال هذه القصيدة يَمدحُه ويُذكّره حقوقَه عليه ، وهي :

عفا اللهُ عنــك ألا حُرمــةٌ　　تَعوُذ بعفوك أن أبعَــدا

ووجّه بها إلى بَيدون الخادم ، فدخل بها إلى قُبيحة وقال لها : إنّ عليّ بن الجهم قد لاذ بك وليس له ناصرٌ سِواكِ ، وقد قصده هؤلاء الندماءُ والكُتّاب لأنّه رجلٌ من أهل السُّنّة وهم رَوافضُ ، فقد اجتمعوا على الإغراء بقَتله . فَدعَتْ المعتزَّ وقالت له : اذهب بهذه الرُّقعة يا بُنيّ الى سيّدك وأوصلْها إليه . فجاء بها ووقف بين يدَي أبيه ، فقال له : ما مَعَك ، فَدَيتُك ؟ فدنا منه وقال : هذه رُقعةٌ دفعتْها إليّ أُمّي . فقرأها المتوكّل وضحك ، ثم أقبل عليهم فقال : أصبح أبو عبدالله ـ فَدَيتُه ـ خَصْمَكم ؛ هذه رقعةُ عليّ بن الجَهم يستقيل[1] ، وأبو عبدالله شفيعُه ، وهو ممّن لا يُردّ . وقرأها عليهم ، فلمّا بلغ إلى قوله :

فلا عُدتُ أَعصيك فيمــا أمرتَ　　الى أن أَحُلَّ الثرى مُلْحَــدا
وإلاّ فخالفتُ ربَّ السّمـــاء　　وخُنتُ الصديقَ وعِفتُ النَّدى
وكنتُ كعَزُّونَ أو كابن عمروٍ　　مُبيح العِيال لمن أولــدا

وثب ابن حمدون وقال للمعتزّ : يا سيّدي ، فمن دفَع هذه الرُّقعة إلى السيّدة ؟ قال بَيدون الخادم : أنا . فقالوا له : أحسنتَ ! تُعادينا وتُوصل رُقعةَ علوّنا في هجائنا ! فانصرف بيدون وقام المعتزّ فانصرف . واستلب ابن حَمدون قوله :

وكنت كعزُّون أو كابن عمروٍ　　مُبيــح العِيال لمن أَولــدا

= تقوم بها الرماح . يحفد : يخدم ، ورواية المطبوعة : يحمد ، وما أثبتناه رواية الديوان وهي أمثل . السوية : الاستواء والعدل .

(١) يستقيل : يطلب الإقالة من ذنبه والعفو عنه .

فجعل يُنشدهم إيّاه وهم يشتُمون ابن حَمدون ويَضِجُّون ، والمتوكل يضحك ويُصفّق ويشرب حتى سكِـر ونـام . وسرقـوا قصيدتـه من بين يدي المتوكّـل وانصرفوا ، ولم يُوقّع بإطلاقه ، ونَسِيَـه . فقالوا لابن حمدون : ويلك ! تُعيد هجاءَنا وشَتْـمَنا ! فقال : يا حَمقى ، واللهِ لو لم أفعلْ ذلك فيضحكَ ويشربَ حتى يسكَـرَ وينام لوقَّع في إطلاقه ووقَـعْنا معه في كلّ ما نَـكْـرَه .

محمد بن عبد السّلام قال :

رأيت مع عليّ بن يحيى المنجِّم قصيدة عليّ بن الجهم يمدح المتوكّل ويصف الهارونيّ[1] . فقلت له : يا أبا الحسن ، ما هذه القصيدةُ معك ؟ فضحك وقال : قصيدة لعليّ بن الجهم سألَني عرضَها على أمير المؤمنين فعرضتُها ، فلمّا سمع قولَـه :

وقُـبّـةُ مَلكٍ كـأنّ النجــو مَ تُفضي إليهـا بأسرارهـا
تخـرُّ الوفـودُ لهـا سُجّـداً اذا مـا تجلّت لأبصارهـا
وفـوّارةٌ ثـأرُهـا في السّمـاء فليست تُـقصّر عـن ثارهـا
تَـرُدّ على المُـزْن مـا أنزلـتْ إلى الأرض من صَوب مدرارها

تهلّـل وجههُ واستحسنها . فلمّا انتهيت إلى قوله :

تَـبَوّأتُ بعـدَك قَعـرَ السُّجـون وقد كنتُ أَرثي لزُوّارهـا

غضِب وتربّد وجهُه وقال : هذا بما كَسَبت يداه . ولم يسمع تَمام القصيدة .

محمد بن سعد قال :

كتب المتوكّل الى طاهر بن عبدالله بإطلاق عليّ بن الجهم ، فلمّا أطلقه قال :

أطاهرُ إنيّ عـن خُراسانَ راحـلُ ومُستَخْبَرٌ عنها فما أنـا قائـلُ
أأصدُق أم أَكْني عـن الصِّدق أيّمـا تخيّرتَ أدّتـه إليـك المَحافـلُ

---

(١) الهاروني : قصر على دجلة قرب سامراء ينسب الى هارون الواثق بالله .

وسارت بـه الرُّكبانُ واصطففتْ بـه   أكفٌّ قِيانٍ واجْتَبَتْه القبائـــلُ
وإنيّ بغالي الحَمـد والذمِّ عالـــمٌ   بما فيهما نامي الرَّمِيَّـــة ناضـــلُ
وحقّـاً أقول الصّدقَ إنيّ لَمائـــلٌ   إليك وإن لم يحظ بالودِّ مائـــلُ
ألا حُرمـةٌ تُرعى ألا عَقــدُ ذِمّــةٍ   لجارٍ ألا فِعلٌ لِقولٍ مُشاكِـــلُ
ألا مُنصِفٌ إن لم نجدْ مُتَـفـضِّـــلاً   علينا ألا قاضٍ مـن الناس عـــادلُ
فـلا تَقطَعَنْ غيظـــاً علـيَّ أنامـلاً   فقَبْلَك مـا عُضَّتْ عليَّ الانامل
أطاهـرُ إن تُحسِنِ فإنيّ مُحسِـــنٌ   إليك وإن تَبْخَلْ فإنيّ باخلُ(١)

فقال له طاهر : لا تَقُل إلاّ خيراً فإنيّ لا أفعل بك إلاّ ما تُحبّ . فوصَله وحَمله وكَساه .

إبراهيم بن المُدَبِّر قال : قال المتوكّل :

عليّ بن الجهم أكذبُ خلَق الله . حفظت عليه أنّه أخبرني أنه أقام بخراسان ثلاثين سنةً ، ثم مضت مدّةٌ أخرى وأُنسي ما أخبرني به ، فأخبرني أنّـه أقام بالثغور ثلاثين سنة . ثم مضت مدّةٌ أخرى وأُنسي الحكايتين جميعاً ، فأخبرني أنه أقام بالجبل ثلاثين سنةً . ثم مضت مدّة أخرى فأخبرني أنه أقام بمصر والشأم ثلاثين سنةً ، فيجب أن يكون عمره على هذا وعلى التقليل مائةً وخمسين سنةً ، وإنّما يُزاهِي(٢) سنّه الخمسين سنةً ، فليت شعري أيُّ فائدةٍ له في هذا الكذب وما معناه فيه ؟ !

أبو الفضل الرَّبَعي قال : قال لي عليّ بن الجهم :

دخلت على المتوكّل وقد بلغني أنه كَـلَّم قَبيحة جاريته فأجابته بشيءٍ أغضبه ، فرماها بِمخَـدَّة فأصابت عينهَا فأثّرتْ فيها ، فتأوّهت وبكت وبكى المعتزّ

(١) اجتباه : اختاره . الرمية النامية : التي تصاب ثم تغيب عن الرامي فتموت ، يريد أنه يصيب مرماه . ناضله : باراه في الرمي .
(٢) يزاهي : يقارب .

لبكائها[1] . فخرج المتوكّل وقد حُمّ من الغَمّ والغضب . فلمّا بَصُر بي دعاني ، وإذا الفتح[2] يري بَختيشوعَ القارورةَ ويُشاوره فيها ، فقال لي : قُل يا عليُّ في علّتي هذه شيئاً وصِفْ أَنّ الطبيب ليس يَدري ما بي . فقلت :

تَنكّر حالَ عِلّتيَ الطّبيبُ ... وقال أرى بجسمك ما يُريبُ
جَسستُ العِرقَ منك فدَلَّ جَسّي ... على أَلمٍ له خبرٌ عجيبُ
فما هذا الذي بك هاتِ قُل لي ... فكان جوابَه منّي النَّحيبُ
وقلتُ : أيا طبيبُ الهَجْرُ دائي ... وقلبي ياطبيبُ هو الكئيب
فحرَّك رأسَه عَجَباً لقولي ... وقال : الحبُّ ليس له طبيبُ
فأعجبني الذي قد قال جِدّاً ... وقلت : بَلَى إذا رَضي الحبيبُ
فقال : هو الشّفاءُ فلا تُقصِّرْ ... فقلت : أجلْ ولكن لا يُجيب
ألاهل مُسعِدٌ يبكي لِشَجْوي ... فإنّي هائمٌ فَرْدٌ غريبُ

فقال أحسنتَ وحياتي ! يا غُلامُ اسقِني قَدَحاً . فجاءه بقَدح فشرب وسُقيت الجماعة مثلَه . وخَرجتْ إليه فَضلُ الشاعرة بأبياتٍ أمرتْها قبيحةُ أن تقولَها عنها . فقرأها فإذا هي :

لَأكتُمَنَّ الذي في القلب من حُرَقٍ ... حتى أموتَ ولم يَعلمْ به الناسُ
ولا يُقال شكا من كان يَعشَقُه ... إنّ الشَّكاةَ لِمن تهوَى هي الياسُ
ولا أبوح بشيءٍ كنت أكتُمه ... عند الجُلوس إذا ما دارت الكاسُ

فقال المتوكل : أحسنتِ يا فضلُ . وأمر لها بعشرين ألف درهم ، ودخل إلى قبيحة فترضّاها .

---

(١) قبيحة كانت أم المعتز بالله ولذلك بكى لبكائها .

(٢) أراد الفتح بن خاقان نديم المتوكل .

سائر أخباره

● محمد بن سعد قال :

خرج عليّ بن الجهم إلى الشأم في قافلة ، فخرجت عليهم الأعراب في خُساف[1] ، فهرب مَن كان في القافلة من المُقاتلة ، وثبت عليّ بن الجَهم ، فقاتلهم قتالاً شديداً وثاب الناس إليه فدفَعهم ولم يحظَوا بشيء . فقال في ذلك :

صبرتُ ومِثلي صَبرُه ليس يُنكَرُ ... وليس على تَركِ التَقحُّم يُعْذَرُ
غريزةُ حُرٍّ لا اختلاقُ تكلُّفٍ ... إذا خام في يوم الوغى المتصبّرُ
ولمّا رأيت الموتَ تهفو بُنودُه ... وبانت علاماتٌ له ليس تُنْكَرُ
وأقبلت الأَعرابُ من كلّ جانبٍ ... وثار عَجاجٌ أسودُ اللّون أكدَرُ
بكلّ مُشيحٍ مُستميتٍ مُشمِّرٍ ... يجول به طِرفٌ أقبُّ مُشمَّرُ
بأرض خُسافٍ حين لم يك دافعٌ ... ولا مانعٌ إلّا الصَّفيحُ المذَكَّرُ
فقَلّل في عَينيَّ عُظْمَ جموعهم ... عزيمةُ قلبٍ فيه ما جَلَّ يَصغُر
بمعتَركٍ فيه المنايا حواسرٌ ... ونار الوغى بالمشرفيّة تُسعَرُ
فما صُنتُ وجهي عن ظُبات سيوفهم ... ولا انحَزْت عنهم والقَنا تتكسّر
ولم أكُ في حَرّ الكَريهة مُحْجِماً ... إذا لم يكن في الحرب للوِرْد مَصْدَرُ
إذا ساعد الطِّرفُ الفتى وجَنانُه ... وأسمرُ خَطّيٌ وأبيضُ مِبْتَرُ
فذاك ، وإن كان الكريمُ بنفسه ، ... إذا اصطكّت الأبطالُ في النَقْع عَسكَرُ
منعتُهم من أن ينالوا قُلامةً ... وكنتُ شجاهم والأَسنّةُ تَقْطُرُ
وتلك سجايانا قديماً وحادثاً ... بها عُرِف الماضي وعَزّ المُؤخَّرُ
أبت لي قرومٌ أَنجبتنيَ أن أُرى ... إذا جَلّ خَطْبٌ خاشعاً أتضجَّرُ
أولئك آلُ اللهِ فهرُ بن مالكٍ ... بهم يُجْبَرُ العظم الكَسير ويُكْسَر

---

(١) خساف : بّرية بين بالس وحلب .

هم المَنْكِبُ العالي على كلِّ مَنْكبٍ سيوفُهـم تُفني وتُغْني وتُفْقِرُ [1]

● عيسى بن أبي حَرب قال : حدّثني عليّ بن الجَهم قال :

حَبسني أبي في الكُتّاب ، فكتبتُ إلى أمّي :

يا أُمّتـــا أَفديــكِ من أمٍّ أشكو إليكِ فَظاظـةَ الجَهْمِ
قد سُـــرِّح الصِّبيانُ كلُّهــــم وبَقيتُ محصوراً بــلا جُرمِ

قال : وهو أوّل شعر قُلته وبعثت به إلى أمّي ، فأرسلت إلى أبي : والله لَئن لم تُطْلِقه لأخرجنّ حاسرةً حتى أُطلِقَه . قال عيسى : فحدّثت بهذا الخبر إبراهيم بن المدبّر فقال : عليّ بن الجهم كَذّاب ، وما يمنعه من أن يكون وَلّد هذا الحديث وقال هذا الشعر وله ستّون سنةً ، ثم حدّثكم أنه قاله وهو صغير ليرفعَ من شأن نفسه !

● محمد بن سَعد قال :

كان أحمد بن أبي دؤاد منحرفاً عن عليّ بن الجَهم لاعتقاده مذهب الحَشْويَّـة [2] . فلمّا حُبس عليّ بن الجهم مَدح أحمد بن أبي دُواد عدّة مدائح وسأله أن يقوم بأمره ويَشفعَ فيه ، فلم يَفعل وقَعد عنه ...

فلمّا نفى المتوكّل أحمد بن أبي دُواد شمِت به عليّ بن الجهم وهجاه فقال :

يا أحمـدُ بنَ أبي دُوادٍ دَعــوةً بعثتْ إليك جَنادلاً وحديـــدا
ما هذه البِـدَعُ الـتي سَـمَّيتَهـا بالجهل منـك العَدل والتَوحيدا
أفسدتَ أمرَ الدّين حـين وَلِيتَـه ورميتَه بأبي الوليـد وليـــدا
لا مُحكَماً جَزْلاً ، ولا مُستطرَفاً كَهلاً ، ولا مُستَحْدَثـاً محمودا

(١) خام : نكص وجبن. المشيح : المقبل والمجدّ. الطرف : الفرس الكريم. الأقب : الضامر البطن. الصفيح : العريض من السيوف. المبتر : القاطع ، والعرب قالوا : بتـار وباتر ، أما مبتر فقد صاغها الشاعر على وزن اسم الآلة . النقع : الغبار.

(٢) الحشوية : فرقة من المرجئة .

شرِهاً ، إذا ذُكر المكارم والعُلا   ذَكر القلايا مُبدئاً ومُعيدا
ويودّ لو مُسخت ربيعةُ كلُّها   وبنو إيادٍ صَحْفةً وثَريدا
وإذا تربَّع في المجالس خِلتَه   ضَبُعاً وخِلتَ بني أبيه قُرودا
وإذا تبسّم ضاحكاً شَبَّهتَه   شرِقاً تعجّل شُربَه مَزؤُودا
لا أَصبحت بالخير عينٌ أَبصرتْ   تلك المَناخرَ والثّنايا السُّودا (١)

● إبراهيم بن المدبِّر قال : أنشدني عليّ بن الجهم لنفسه :

وإذا جَزى اللهُ امرءاً بفعَاله   فجزى أخاً لي ماجداً سَمْحا
ناديتُه عن كُربةٍ فكأنّما   أطلعت عن ليلٍ به صُبحا

فقلت له : ويلَك ! هذا لإبراهيم بن العبّاس يقوله في محمد بن عبد الملك الزيّات . فجَحدني وكابَر. فدخل يوماً عليّ بن الجهم إلى إبراهيم بن العبّاس وأنا عنده . فلمّا رآني قال : اجتمع الإبراهيمان . فتركته ساعةً ثم أنشدتُ البيتين وقلت لإبراهيم بن العبّاس : إنّ هذا يزُعمُ أنّ هذين البيتين له . فقال : كذب ، هذان لي في محمد بن عبد الملك الزيّات . فقال له عليّ بن الجهم بِقِحَةٍ : ألم أَنْهك أن تَنتحِل شعري ! فغضب إبراهيم وجعل يقول له بيده : سَوءةً عليك ، سَوءةً لك ، ما أوقَحَك ! وهو لا يفكر في ذلك ولا

(١) الجنادل : الحجارة الكبيرة . يشير في البيت الثاني الى مذهب الاعتزال الذي كان ابن أبي دواد يعتنقه ، وقد نكل المتوكل بالمعتزلة . أبو الوليد : هو محمد بن أحمد بن أبي دواد وكان على المظالم بسامرا ثم عزله المتوكل . الجزل: الجيد الرأي . المستطرف من يراه الناس طريفاً . محمود : في المطبوعة (معموداً) ولا معنى لها في هذا الموضع وقد أثبتنا رواية الديوان . القلايا : المقليّ من الأطعمة . الثنايا ج ثنية . الأضراس الأربعة في مقدم الفم . مزؤوداً : فزعاً . وفي المطبوعة (مردوداً) وقد آثرنا رواية الديوان .

يخجل . ثم التقينا بعد مدّة فقال : أرأيتَ كيف أخزيتُ إبراهيم بن العبّاس ! فجعلت أعجب من صلابة وجهه .

محمدبن سعد قال :

كان محمد بن عبدالملك الزيّات مُنحرفاً عن عليّ بن الجهم ، وكان يَسْبَعُه[1] عند الخليفة ويَعيبه ويذكُره بكل قبيح . فقال فيه عليّ بن الجهم :

لَعائنُ اللهِ مُتابَعاتِ مُصَبَّحاتٍ ومُهَجَّراتِ
على ابن عبد الملك الزيّاتِ عَرّض شَمل المُلكَ للشَّتات
وأنفذ الأحكامَ جائراتِ على كتابِ الله ذاريات
وعن عقول الناس خارجات يَرمي الدَّواوين بتوقيعات
مُعقَّداتٍ كرُقى الحَيّاتِ سُبحانَ من جَلّ عن الصِّفات
بعد رُكوبِ الطَّوف في الفُرات وبعد بيع الزَيت بالحَبّاتِ
صِرتَ وزيراً شامخَ الثبات هارونُ يابنَ سيّد السّادات
أما تَرى الأمورَ مُهْمَلاتِ تشكو إليك عَدَمَ الكُفاة
فعاجِلِ العِلْجَ بمُرْهَفاتِ من بعد ألفٍ صُخَّب الأصوات
بمُثمِراتٍ غيرِ مُورقاتِ تُرى بمَتْنَيه مُرصَّفاتِ
ترصُّفَ الأسنان في اللِثاتِ[2]

---

(١) سبعه : شتمه ووقع فيه .

(٢) ذاريات : من ذرت الريح التراب أي فرّقته واطارته ، يريد أنه أفسد كتاب الله ورواية الديوان : زاريات ، أي عائبات . الطوف : قرب تنفخ ويشد بعضها الى بعض ويركب عليها في الماء ويحمل عليها ، يعيّر المهجو في هذا البيت ببيعه الزيت . هارون : أراد به الواثق بالله . ألف : أراد ألفاً من السياط . الثمرة من السوط : عقدة في طرفه .

● أسلَم مولى عبدالله بن طاهر قال :

دخل عليّ بن الجهم يوماً على عبدالله بن طاهر في غُدوة من غُدوات الرّبيع ، وفي السماء غيمٌ رقيق والمطرُ يجيء قليلاً ويسكُن قليلاً ، وقد كان عبدالله عزَم على الصَّبُوح ، فغاضبتْه حَظِيّةٌ له ، فتنغَّص عليه عزمُه وفَتَر . فخُبّر عليّ ابن الجهم بالخبر وقيل له : قُل في هذا المعنى شيئاً ، لعلّه يَنْشَط للصَّبوح . فدخل عليه فأنشده :

أما ترى اليومَ ما أحلى شَمائلَـــه ... صحوٌ وغيمٌ وإبراقٌ وإرعـادُ
كأنّه أنت يا مَن لا شَبيـهَ لـه ... وصلٌ وهجرٌ وتقريبٌ وإبعادُ
فباكر الرّاحَ واشربْها مُعَتَّقـةً ... لم يَدَّخِر مِثلَها كسرى ولا عادُ
واشربْ على الرَّوض إذ لاحت زخارفُه ... زهـرٌ ونَـورٌ وأوراقٌ وأَوراد
كأنّما يومُنا فِعلُ الحبيب بنـا ... بَذْلٌ وبُخلٌ وإبعادٌ ومِيعـادُ
وليس يذهـبُ عـنّي كـلٌّ فِعلكم ... غيٌّ ورُشدٌ وإصلاحٌ وإفسـادُ

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثمائة دينار وحَمَله وخلَع عليه ، وأمر بأن يُغَنّى في الأبيات .

● محمد بن سعد قال : حدّثني رجلٌ من أهل خُراسان قال :

رأيت عليّ بن الجَهم بعدما أُطلق من حَبسه جالساً في المقابر فقلت له : ويحَك ! ما يُجلسك ها هنا ؟! فقال :

يشتاق كلٌّ غريبٍ عند غُربتـه ... ويذكر الأهلَ والجِيران والوطَنـا
وليس لي وطـنٌ أمسيتُ أذكُرُه ... إلّا المقابرَ إذ صارت لهم وطنـا

● عبيدالله بن عبدالله بن طاهر قال :

لمّا أطلق أبي[1] طاهر[2] عليَّ بن الجهم من الحَبس أقام معه بالشّاذياخ مُدّةً . فخرجوا يوماً إلى الصَّيد ، واتّفق لهم مَرجٌ كثير الطير والوحش ـ وكانت أيامَ الزَّعفران ـ فاصطادوا صيداً كثيراً حسَناً ، وأقاموا يشربون على الزَّعْفَران . فقال عليّ بن الجهم يصف ذلك :

وَطِئنا رياضَ الزَّعْفران وأَمسَكتْ ... علينا البُزاةُ البِيض حُمَر الدَّرارجِ
ولم تَحمِها الأدغالُ منّا وإنّما ... أبحنا حِماها بالكلاب النَّوابجِ
بمُستَروِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها ... على الأرض أمثالَ السِّهام الزَّوالج
ومُستشرِفاتٍ بالهَوادي كأنّما ... وما عَقَفت منها رؤوسُ الصَّوالج
ومن دالعاتٍ أَلسُناً فكأنّها ... لِحىً من رجالٍ خاضبين كَواسج
فَلَيْنا بها الغِيطانَ فَلْياً كأنّها ... أناملُ إحدى الغانيات الحَوالجِ
فقل لبُغاة الصَّيد هل من مُفاخرٍ ... بصيدٍ وهل من واصفٍ أو مُخارجِ
قَرَنّا بُزاةً بالصُّقور وحَوَّمت ... شَواهِينُنا من بعد صيد الزَّمامِجِ[3]

(١) كذا في المطبوعة ، وراوي الخبر هو ابن عبدالله بن طاهر لا ابن طاهر ولعل (أبي) محرفة عن (اخي) .

(٢) هو طاهر بن عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعيّ . ولي خراسان ثماني عشرة سنة وتوفي عام ٢٤٨ هـ

(٣) الدرارج جمع دُرّاج (بضم أوله) : طير يصاد لجودة لحمه . نباح الكلب : نباحه . استروح الشيء : تشممه ، والوصف هنا للكلاب . الزوالج : التي تمضي على وجه الأرض مسرعة . الهوادي : الأعناق . عقفت : عطفت . دلع لسانه : أخرجه . خاضبين : في المطبوعة : (خاضعين) والسياق يقتضي ما أثبتناه . الكوسج : من كانت لحيته تغطي ذقنه دون عارضيه . الحوالج : التي تندف القطن وتستخرج منه البذور. مخارج : من المخارجة وهي أن يخرج هذا من أصابعه ما شاء والآخر مثل ذلك ، يريد هل من مبار . الشواهين ج شاهين : طائر يصاد به . الزمامج ج زُمَّجٍ (على وزن سُكّر) : نوع من الطير يصاد به دون العقاب ، لونه إلى الحمرة .

● عبيدالله بن عبدالله بن طاهر قال :

دخل إلينا عليّ بن الجهم بعقب موت أبي[1] والمجلسُ حافلٌ بالمُعَزِّين ، فمَثَل قائماً وأنشدنا يرثيه :

أيُّ رُكنٍ وَهَى من الإســلام أيّ يومٍ أخنى على الأيّــام
جَلّ رُزءُ الأمير عن كلّ رُزءٍ أدركتْه خواطرُ الأوهــام
سَلَبَتْنا الأيّامُ ظِلاً ظَليــلا وأباحت حِمىً عزيزَ المُــرام
يا بني مُصعَبٍ حَللتم من النــا س محلَّ الأرواح في الأجسام
فإذا رابَكُم من الدَّهر رَيــبٌ عَمّ ما خَصَّكم جميعَ الأنام
أنظُروا هل تَرون إلّا دمــوعاً شاهداتٍ على قلوبٍ دَوامي
مَن يُداوي الدنيا ومن يَكْلأُ المُلـــكَ لَدى فادحِ الخُطوب العِظام
نحن مُتنا بموته وأَجَــلّ الخَطْــب مَوتُ السّاداتِ والأعلام
لم يَمُتْ ، والأميرُ طاهرٌ حيٌّ ، دائمُ الإنتقامِ والإنعــامِ
وهو من بعده نظــامُ المعــالي وقِوامُ الدنيا وسيفُ الإمامِ[2]

قال : فما أذكُر أنّي بكيت أو رأيت في دُورنا باكياً أكثر من يومئذٍ .

● محمد بن سعد قال :

لمّا فُلج ابن أبي دواد شمِت به عليُّ بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لم يبقَ منك سوى خَيالِك لامعاً فـوق الفِراش مُمهَّداً بوِسادِ
فرِحت بمَصرعِك البريّةُ كلُّها مَن كان منهم مُوقِناً بمَعَاد

---

(١) هو عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعيّ من ولاة العباسيين المشهورين ، ولي الشام مدة ثم نقل الى مصر ثم ولاه المأمون خراسان وظل في ولايته حتى وفاته سنة ٢٣٠ هـ وكانت وفاته أيام الواثق بالله وخلفه ابنه طاهر.

(٢) أخنى عليه : أهلكه . يكلأ : يحفظ . وهو من بعده : أراد ولده طاهر بن عبدالله.

كم مجلسٍ لله قد عطّلته ... كي لا يُحدَّثَ فيه بالإسناد
ولكم مصابيحٍ لنا أطفأتها ... حتى يزول عن الطريق الهادي
ولكم كريمة معشرٍ أرملتَها ... ومُحدِّثٍ أوثقتَ في الأقياد
إنّ الأُسارى في السّجون تَفرّجوا ... لمّا أتتك مَواكبُ العُوّادِ
وغدا لمصرعك الطبيبُ فلم يجد ... شيئاً لِدائك حِيلةَ المُرتادِ
فذُق الهَوانَ مُعَجّلاً ومؤجَّلاً ... واللهُ ربٌّ العرش بالمِرصاد
لا زال فالجُك الذي بك دائباً ... وفُجعت قبل الموت بالأولاد [1]

مقتله

الحسين بن موسى قال :

لمّا شاع في الناس مذهبُ عليّ بن الجهم وشَرُّه وذِكْرُه كلَّ أحدٍ بسُوء من صديقه وعدوّه تحاماه الناسُ ، فخرج عن بغداد إلى الشأم ، فاتّفقنا في قافلة إلى حلب . وخرج علينا نفرٌ من الأعراب ، فتسرّع إليهم قومٌ من المُقاتلة ، وخرج فيهم فقاتل قتالاً شديداً وهَزم الأعراب .

فلمّا كان من غدٍ خرج علينا منهم خَلقٌ كثير ، فتسرّعت إليهم المُقاتلة وخرج فيهم ، فأصابته طعنةٌ قَتلتْه ، فجئنا به واحتملناه وهو يُنْزَفُ دَمَه [2] فلمّا رآني بكى وجعل يُوصيني بما يريد ، فقلت له : ليس عليك بأسٌ . فلمّا أمسينا قلِق قلقاً شديداً وأحسّ بالموت ، فجعل يقول :

أَزِيدَ في الليل ليلُ ... أم سال بالصُّبح سَيلُ
ذكرتُ أهلَ دُجَيلٍ ... وأين منّي دُجَيلُ [3]

(١) يحدث فيه بالأسناد : أراد الحديث النبويّ الشريف . حتى يزول : كذا في المطبوعة ، ورواية الديوان : (حتى نحيد) وهي أجود .
(٢) يقال : نُزِف فلان دمَه (على المجهول) أى سال دمه ، ونزفه الدم .
(٣) دجيل : نهر مخرجه من أعلى بغداد يصب في دجلة .

فأبكى كُلّ من كان في القافلة ، ومات مع السَّحَر ، فدُفن في ذلك المنزل على مرحلة من حلب .

* * *

٣١

عُمارة بن عقيل

[الأغاني الجزء ٢٤ ص ٢٤٥ وما بعدها]

الشاعر

عُمارة هو ابنُ عَقيل بن بِلال بن جرير بن عطيّة بن الخَطَفى . . . ويكنى عُمارة أبا عَقيل ؛ شاعرٌ مُقدَّمٌ فصيح ، وكان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء في الدولة العبّاسية فيجزِلون صلتَه ، ويمدح قُوّادَهم وكُتّابهم فيحظى منهم بكلّ فائدة ، وكان النَحويّون بالبصرة يأخذون عنه اللغة .

عليّ بن سليمان الأخفش قال : سمعت محمد بن يزيد يقول : خُتمت الفصاحة في شعر المحدَثين بعُمارةَ بن عَقيل .

الحسن بن عُليل العَنَزيّ قال : سمعت سَلْمَ بن خالد بن معاوية بن أبي عَمرو بن العَلاء يقول : كان جَدّي أبو عمرو يقول : خُتِم الشعر بذي الرُّمّة ، ولو رأى جَدّي عُمارةَ بن عقيل لعلم أنه أشعر في مذاهب الشعراء من ذي الرُمّة .

قال العَنَزيّ : ولَعَمري لقد صَدق .

وسمعت سَلْماً يقول : هو أشدُّ استواءً في شعره من جرير ، لأنّ جريراً أسْقط في شعره وضَعُف ، وما وجدوا لعُمارة سَقطةً واحدة في شعره .

وكان عُمارة هَجّاءً خبيث اللسان ، فهجا فروةَ بن حَميصَة الأسديّ وطال التهاجي بينهما فلم يغلِبْ أحدهما صاحبه حتى قُتل فَروةُ .

سَلْم بن خالد قال :

أنشد عُمارةُ قصيدةً له فقال فيها : الأرياح والأمطار. فقال له أبو حاتم السِّجستاني : هذا لا يجوز انما هو الأرواح . فقال : لقد جذبني اليها طبعي . فقال له أبو حاتم : قد اعترضه عِلمي . فقال : أما تسمعُ قولَهم : رياحٌ ؟ فقال له أبو حاتم : هذا خلافُ ذلك . قال : صدقتَ . ورجَع .

هجاؤه

أبو مُحلّم قال :

هجا عمارةُ بن عقيل امرأةً ، ثم أتته في حاجة بعد ذلك ، فجعل يعتذر إليها ، فقالت له : خفِّض عليك يا أخي ، فلو ضَرَّ الهجاءُ أحداً لَقَتلك وقتل أباك وجدَّك .

أبو ذكوان قال :

قال لي عُمارة : ما هاجيتُ شاعراً قطّ إلا كُفيتُ مؤُونتَه في سنة أو أقلَّ من سنة : إمّا أن يموت ، أو يُقتَل ، أو أُفحِمَه ، حتى هاجاني أبو الرُّديَنيّ العُكْليّ ، فخنقني بالهجاء . ثم هجا بني نمير فقال :

أتُوعِدُني لِتَقْتُلَني نُمَيرٌ   متى قتلتْ نميرٌ مَن هجاها

فكفانيه بنو نُمير فقتلوه ، فقتلتْ بنو عُكْلٍ ، وهم يومئذ ثلاثمائة رجلٍ ، أربعةَ آلاف رجلٍ من بني نُمير ، وقتلت لهم شاعرَين : رأسَ الكلب ، وشاعراً آخر .

محمد بن عبدالله بن آدم قال : حدّثني عُمارة قال : إنما قَتل فَروةَ قولي له :

ما في السَّويّةِ أن تَجُرَّ عليهم   وتكونَ يومَ الرَّوع أوّلَ صادرِ

فلمّا أحاطت به طيّء ، وقد كان في مَعاذٍ ومَوئِل ، وكان كثير الظفر بهم ، كثير العفو عمّن قَدَر عليه منهم ، فقالوا له : والله لاعَرَضْنا لك ولا أوصَلْنا إليك سُوءاً ، فامضِ لِطِيَّتك ، ولكنّ الوِتْر معك فإنّ لنا فيهم ثأراً . فقال فَروة : فأنا إذاً كما قال ابنُ المَراغة :

ما في السَّويّة أن تجُرّ عليهم ... وتكون يومَ الرَّوع أوّلَ صادر

فلم يزل يحمي أصحابه ويَنكي[1] في القوم حتى اضطرّهم الى قتله ، وكان جمعُهم أضعاف جَمعه .

الحسن قال :

سمعت عبدالله بن محمد النَّباجيّ يقول : سمعت عُمارة يقول : ما هُجيتُ بشيء أشدّ عليّ من بيت فروة :

وابنُ المراغة جاحرٌ من خوفنا ... بالوَشْم منزلةَ الذليل الصاغرِ[2]

قال العَنَزيّ : وسمعت سَلْم بن خالد يقول : قلت لعمارة : ما أجودُ شعرك ؟ قال : ما هجوتُ به الأشراف . فقلت : ومَن هم ؟ قال : بنو أسَد ، وهل هاجاني أشرفُ من بني أسد !

عليُّ بن مُسلم قال :

أنشدت يعقوبَ بن السِّكِّيت قصيدةَ عُمارة التي ردّ فيها على رَجاء بن هارون ، أخي بني تيم اللات بن ثَعلبة التي أوّلها :

حيِّ الدِّيارَ كأنّها أسطارُ ... بالوَحي يَدرُس صُحفَها الأحبارُ
لعِبَ البِلى بجديدها وتنفّستْ ... عرَصَاتِها الأرواحُ والأمطار

---

(١) نكى في القوم ينكي : أكثر فيهم القتل .

(٢) جحر : دخل جحره . الوشم : موضع باليمامة يشتمل على أربع قرى .

قال أبو عليّ : وهذا البيت الذي أخطأ فيه عمارة فقال: الأرياح ،فردّه عليه أبو حاتم السّجستاني وهو يتغيّظ ، فلمّا بلغ إلى قوله :

وجموع أسعدَ إذ تَعَضُّ رؤوسَهم ... بِيضٌ يطيرُ لِوقعهنّ شَرارُ
حتى إذا عَزموا الفرارَ وأسلموا ... بيضاً حَواصنَ ما بهنّ قَرارُ
لحِقتْ حَفيظتُنا بهنّ ولم نزلْ ... دون النساء إذا فزِعنَ نَغارُ

قال ابن السكّيت : لله درُّه ! ما سمعتُ هجاءً قط أكرمَ من هذا .

سائر أخباره

● محمد بن عبدالله قال : حدّثني عُمارة قال :

رُحت الى المأمون ، فكان ربمّا قرّب اليّ الشيء من الشَّراب أشربُه بين يديه ، وكان يأمرُ بكتْب كثير ممّا أقولهُ ، فقال لي يوماً : كيف قلتَ : قالت مُفدّاة ؟ ونظر إليّ نظراً منكراً ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، مُفدّاةُ امرأتي ، وكانت نظرت إليّ وقد افتقرتُ وساءت حالي . قال : فكيف قُلته ؟ فأنشدته :

قالت مُفدّاةُ لمّا أن رأتْ أَرَقي ... والهمُّ يَعتادُني من طَيفه لَمَمُ
أنهبتَ مالَك في الأدنَين آصِرةً ... وفي الأباعد حتى حَفّك العَدَمُ
فاطلُب إليهم تجدْ ما كنتَ من حَسَنٍ ... تُسْدي إليهم فقد ثابتْ لهم صِرَمُ
فقلتُ : عاذِلتي ، أكثرتِ لائمتي ... ولم يمتْ حاتمٌ هُزْلاً ولا هَرِمُ(١)

قال : فنظر إليّ المأمون مُغضَباً وقال : لقد علت هِمتُك أن ترقى بنفسك الى هرِم وقد خرج من ماله في إصلاح قومه !

---

(١) اللمم : طرف من الجنون . الآصرة : القرابة . ثابت : رجعت . الصرم ج صرمة : القطعة من الأبل . الهزل : الهزال .

● العَنزيّ قال :

قدِم عُمارةُ البصرةَ أيامَ الواثق ، فأتاه علماءُ البصرة وأنا معهم ، وكنت غلاماً ، فأنشدهم قصيدة يمدح فيها الواثق ، فلمّا بلغ الى قوله :

وبقيتُ في السَّبعين أنهض صاعـــداً   فـمضى لِداتي كلُّهم فتشعَّبــــوا

بكى على ما مضى من عمره ، فقالوا له : أَملِها علينا . قال : لا أفعلُ حتى أنشدهَا أمير المؤمنين ، فإني مدحت رجلاً مرّةً بقصيدة فكتَبها منّي رجلٌ ثم سبَقني بها إليه . ثم خرج الى الواثق ، فلمّا قدم أتَوه وأنا معهم ، فأملاها عليهم .

ثم حدّثهم فقال : أدخلني إسحاقُ بن إبراهيم على الواثق ، فأمر لي بخِلعة وجائزة ، فجاءني بهما خادمٌ ، فقلت : قد بقي من خِلعتي شيءٌ . قال : وما بقي ؟ قلت : خَلع عليّ المأمونُ خلعةً وسيفاً . فرجع الى الواثق فأخبره ، فأمره بإدخالي ، فقال : يا عُمارةُ ، ما تصنع بسيف؟ أتريد أن تقتلَ به بقيّةَ الأعراب الذين قتلتَهم بمقالك ؟ قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن لي شريكٌ في نخيلٍ لي باليمامة ، ربّما خانني فيه ، فلعليّ أجرّبهُ عليه . فضحك وقال : نأمرُ لك به قاطعاً . فدفَع إليّ سيفاً من سيوفه .

● النَخَعيّ قال :

لّما قَدم عمارة الى بغدادَ قال لي : كلّم لي المأمون ـ وكان النخعيّ من نُدماء المأمون ـ قال : فما زلت أُكلّمه حتى أوصلتُه إليه ، فأنشده هذه القصيدة :

حتّامَ قلبُك بـالحِسان مُوكَّـــلُ   كَلِفٌ بهنّ وهنّ عنه ذُهَّلُ

فلمّا فرغ قال لي : يا نَخعيُّ ، ما أدري أكثر ما قال إلا أن أفتّشه ، وقد أمرتُ له لكلامك فيه بعشرين ألف درهم .

● محمد بن يحيى قال :

وفد عُمارة على المتوكل ، فعمل فيه شعراً ، فلم يأتِ بشيء ولم يُقارب ، وكان عُمارة قد اختلّ وانقطع في آخر عُمره ، فصار الى إبراهيم بن سَعدان

المؤدِّب ، وكان قد روى عنه شعرَه القديم كلَّه ، فقال له : أُحبّ أن تُخرج إليّ أشعاري كلَّها لأنقلَ ألفاظها الى مدح الخليفة . فقال : لا والله أو تُقاسِمَني جائزتَك . فحلف له على ذلك ، فأخرج إليه شعره ، وقَلَب قصيدةً الى المتوكّل وأخذ بها عشرةَ آلاف درهم ، وأعطى إبراهيم بن سَعدان نصفَها .

● محمد بن عبدالله بن آدم العَبديُّ قال :

كانت بنو تميم اجتمعت ببغداد على عُمارة حين قال شعره الذي يُقدّم فيه خالدَ بن يزيد على تميم بن خُزيمة ، فقالوا له : قطع الله رَحِمَك وأهانك وأذَلَّك ، أتُقدّم غلاماً من ربيعة على شيخ من بني تميم ، تميم بن خزيمة ، وهو مع ذلك من بيت تميم ! ولامُوه ، فقال :

صَهُوا يا تميمُ إنّ شيبانَ وائـــلٍ ... بطَرفهم عنكم أَضَـــنُّ وأَرغَبُ
أآن سمتُ بِرذَونا بِطـرفٍ غضبتـمُ ... عليّ وما في السّوق والسَّوم مَغْضَبُ
فإن أكرمتْ أو أنجبتْ أمُّ خـالـدٍ ... فزَندُ الرِّياحيِّين أورى وأثقبُ[1]

قال : ثم حدّثنا عُمارة قال : قال لي عليُّ بن هشام ـ وفيه عصبيّة على العرب ـ : قد علمتَ مكانك مني ، وقيامي بأمرك ، حتى قرّبك أمير المؤمنين المأمون ، والمائةُ الألف التي وصلتْك أنا سببُها ، وها هنا من بني عمّك من هو أقربُ إليك ، وأجدرُ أن يُعينَني على ما قَبِل[2] أمير المؤمنين لك . فقلت : ومن هو؟ قال : تميمُ بن خُزيمةَ . قال : قلت : إيه . قال : وخالدُ بن يزيد بن مَزْيد . قلت : سآتيهما . فبعث معي شاكرياً[3] من شاكريّته ، حتى وقف بي على باب تميم ، فلمّا نظر إليَّ غِلمانهُ أنكروا أمري ، فدنا الشاكريُّ فقال : أعلموا الأمير أنّ على الباب ابنَ جرير الشاعر جاء مُسلّماً . فتوانَوا ، وخرج غلامٌ أَعرف أنه غلام

---

(١) صهوا : اصمتوا . البرذون : دابة لحمل الأثقال . الطرف : الكريم من الخيل . الرياحيين : أراد بني رياح وهم من بني يربوع بن تميم . زند ثاقب : وارٍ .

(٢) قبل : كفل .

(٣) الشاكري ، معرب جاكر : الخادم .

الأمير فحجبَني . فدَخلني من ذاك ما اللهُ به عالمٌ ، فقلت للشاكريّ : أين منزلُ خالد ؟ فقال : اتبَعني . فما كان الا قليلاً حتى وقف بي على بابه ، ودخل بعضُ غِلمانه يطلب الإذن ، فما كان إلاّ قليلاً حتى خرج في قميصه وردائه يتبعُه حَشَمُه . فقال لي بعضُ القوم : هذا خالدٌ قد أقبَل إليك . قال : فأردتُ أن أنزِل إليه ، فوثب وثبةً فإذا هو معي آخذٌ بعَضُدي يريد أن أتكىء عليه ، فجعلت أقول : جعلني الله فِداك ، أنزِلُ . فيأبى حتى أخذ بعَضُدي فأنزلني وأدخَلني ، وقرّب إليّ الطعامَ والشراب ، فأكلت وشربت ، وأخرج إليَّ خمسةَ آلاف درهم وقال : يا أبا عَقيل ، ما آكُلُ إلاّ بالدَّين ، وأنا على جنَاحٍ[1] من ولاية أمير المؤمنين ، فإن صَحّت لي لم أَدَعْ أن أُغنيَك ، وهذه خمسةُ أثواب خزٍّ قد آثرتُك بها ، كنت قد ادّخرتُها . قال عمارة : فخرجتُ وأنا أقول :

أأترُك إن قلّت دراهمُ خالد ... زيارتَه إنيّ إذاً لَلئيمُ
فليت بثوبيه لنا كان خالدٌ ... وكان لبَكْر بالثَراء تميمُ
فيصبح فينا سابقٌ مُتمهّلٌ ... ويُصبح في بكر أغمٌّ بَهيمُ
فقد يُسلعُ المرءُ اللئيم اصطناعُه ... ويعتلّ نقدُ المرء وهو كريمُ

قال اليزيدي : يُسلع أي تكثر سِلعته ، والسِلعة : المتَاع .

محمد بن عبدالله قال : حدّثني عمارةُ قال :

لّما بلغ خالد بن يزيد هذا الشعر قال لي : يا أبا عقيلٍ ، أبلَغَك أنّ أهلي يرتضون مني ببديلٍ كما رضيتْ بنو تميم بتميم بن خزيمة ؟ فقلت : إنّما طلبت حظّاً نفسي وسُقت مكرمةً إلى أهلي ، لو جاز ذلك . فما زال يُضاحكني .

* * *

---

(١) على جناح من الأمر : قريب منه .

٣٢

الفضل بن عبد الصَّمَد الرقاشيّ

[الأغاني الجزء ١٦ ص ٢٤٥ وما بعدها]

الشاعر

هو الفَضل بن عبد الصّمد مَولى رَقاش ، وهو من ربيعة . وكان مطبوعاً ، سهل الشعر ، نقيَّ الكلام ، وقد ناقض أبا نُواس ...

عن المُعَلَّى بن حُميد : أنّ الرَّقاشيّ كان من العجم ، من أهل الرَّيّ .

وقد مدح الرقاشيّ الرشيدَ وأجازه ، إلاّ أن انقطاعه كان إلى آل بَرْمَك ، فأغنوه عن سواهم .

انقطاعه إلى البرامكة

أحمد بن يزيد المهلبيّ قال : حدّثني أبي قال :

كان الفضل الرقاشي منقطعاً إلى آل بَرمك ، مستغنياً بهم عن سواهم ، وكانوا يصولون به على الشعراء ، ويُروّون أولادهم أشعاره ، ويُدوّنون القليل والكثير منها ، تعصّباً له ، وحفظاً لِخدمته ، وتنويهاً باسمه ، وتحريكاً لنشاطه ، فحفظ ذلك لهم . فلمّا نُكبوا صار إليهم في حبسهم ، فأقام معهم مدّة أيامهم

يُنشدهم ويُسامرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم فأكثر ، ونشَر محاسنَهم وجُودهم ومآثرهم فأفرط ، حتى نشر منها ما كانَ مَطوياً ، وأذاع منها ما كان مستوراً ، وجرى على شاكلته بعدهم ، وكان كالموقوفِ المديحِ على جميعهم ، صغيرهم وكبيرهم ، ثم انقطع إلى طاهر ، وخرج معه إلى خُراسان ، فلم يزل بها معه حتى مات .

عن ابن النطّاح قال :

تُوفّي العباس بن محمد بن خالد بن بَرْمَك بالخُلد[1] ، والرشيد بالرُّصافة ، في يوم جُمعة ، فأخرجت جنازته مع العصر ، وحضر الرشيدُ والأمين ، وأُخرجت المضارب إلى مقابر البرامكة بباب البَرَدان[2] ، وفُرش للرشيد في مسجد هناك ، وجاء الرشيد في الحلَق بالأعلام والحِراب ، فصَلّى عليه ووقف على قبره حتى دُفن ، فلمّا خرج يحيى ومحمد أخواه من القبر قَبّلا يدَ الرشيد وسألاه الانصراف فقال : لا ، حتى يُسَوّى عليه التُراب . ولم يزل قائماً حتى فُرغ من أمره ، وعزّاهما وأمرهما بالرُّكوب . فقال الرَّقاشيّ يرثي العباس بن محمد بن خالد بن برمك :

أتحسِبُني باكرتُ بعدَك لــــذّةً ... أبا الفضل أو رفَّعتُ عن عاتقٍ سِتْرا
أو انتفعت عينـاي بعـدُ بنظـرةٍ ... أو ادنيتُ مـن كأسٍ بمشمُولةٍ ثغرا
جفاني إذن يوماً إلى الليل مُؤنِـسي ... وأضحت يميني من ذخائرها صِفرا
ولكنّني استشعرت ثوبَ استكانـةٍ ... وبِتُّ كأنّ الموتَ يحفِر لي قبرا[3]

ومن ذلك[4] قوله في جعفر :

كـم هاتفٍ بـك مـن بـاكٍ وباكيةٍ ... يا طِيبَ للضَيفِ اذ تُدعى وللجارِ

(١) الخُلد : قصر بناه المنصور ببغداد وبنيت حواليه منازل فصارت محلة كبيرة .
(٢) البَرَدان : من قرى بغداد ، وباب البردان : من أبواب بغداد .
(٣) العاتق : الجارية التي أدركت وبلغت فخُدرت في بيت اهلها . المشمولة : الخمر الباردة . صفر : فارغة .
(٤) من ذلك : يريد من مراثيه في البرامكة .

إن يُعدَمِ القَطْرُ كنتَ المُزْنَ بارقُـــه لَمْعُ الدنانير لا ما خَيّـل الساري

وقوله :

لعمرُك مـا بالموتِ عـارٌ على الفتـــى إذا لم تُصبْـه في الحيـاة المعَايرُ
ومـا أحدٌ حـيٌّ وإن كـان سالمـاً بأسلمَ ممّــن غَيّبتْـه المقابـــرُ
ومــن كان ممّـا يُحدث الدهرُ جازعاً فلا بُـدَّ يوماً أن يُـرى وهـو صابر
وليس لـذي عيشٍ عـن الموت مَقْصَرٌ وليس على الأيـام والدهر غابـرُ
وكلُّ شبابٍ أو جديـدٍ إلى البـــلى وكـلُّ امرئٍ يومـاً إلى الله صائـرُ
فلا يَبْعَـدَنَّك اللهُ عنّـي جعفـــراً برُوحي ولو دارتْ عليّ الدوائـــر
فآليتُ لا أنفكُّ أبكيكَ مـا دعَـــتْ على فَنَنٍ ورقـاءُ أو طـار طائرُ (١)

عن محمد بن عبد العزيز :

أنّ الرّقاشي الشاعر فَني في حُبّ البرامكة حتى خِيف عليه .

عن المدائنيّ :

أنه لّما دارت الدوائر على آل برمك ، وأُمر بقتل جعفر بن يحيى وصُلب اجتاز به الرّقاشيّ الشاعر وهو على الجِذْع ، فوقف يبكي أحرَّ بكاء ، ثم أنشأ يقول :

أمـا واللهِ لـولا خـوفُ واشٍ وعينٌ للخليفةِ لا تنـــامُ
لطُفْنا حولَ جِذْعك واستلمنـا كما للناس بالحَجَـر استـلامُ
فما أبصرت قبلكَ يا بنَ يحيـى حُساماً قَدَّه السيفُ الحُسـامُ
على اللـذات والدنيـا جميعـاً ودولةِ آلِ برمـكٍ السَّـلامُ

فكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الرشيد ، فأحضره ، فقـال له : مـا حَمَلك على ما قُلتَ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، كان إليَّ مُحسناً ، فلمّا رأيتهُ على الحال

---

(١) أبعده الله : أهلكه ، ومن عـادتهم الدعاء للميت بهذا الدعاء .

التي هو عليها حرّكني إحسانهُ ، فما ملكتُ نفسي حتى قلتُ الذي قلت . قال : وكم كان يُجري عليك ؟ قال : ألفَ دينار في كلّ سنة . قال : فإنّا قد أضعفناها لك .

سائر أخباره

[عن يزيد المهلّبي قال :]

● كان مع تقدمه في الشعر ماجناً خليعاً ، متهاوناً بمُروءته ودينه ، وقصيدته التي يُوصي فيها بالخلاعة والمجون مشهورةٌ ، سائرة في الناس ، مبتذلَة في أيدي الخاصة والعامّة ، وهي التي أوّلُها :

أوصى الرّقاشيُّ إلى إخوانــــهِ وصيَّةَ المحمود في نُدمانــهِ

وقال عبدالله بن المعتز : حدّثني ابنُ أبي الخنساء عن أبيهِ قال :
لَمّا قال أبو دُلف :

ناولني الرُّمــحَ قــد طا ل عــن الحـرب جَمامي
مـرّ لي شهران مُـذْ لــم أرمِ قوساً بسِهـامــي

قال الرقاشيّ يعارضهُ :

جَنّبيني الدّرعَ قــد طـــا ل عن القَصْف جَمامــي
واكسِري المطْـرَدَ والبَيْــضَ واثْــــني بالحُســامِ
واقذفي في لُجّة البحــــر بقــوسي وسِهـامـي
وبتُـرسي وبرُمحـــي وبسَرجــي ولجــامي
فبحسبي أن تَريـــني بين فِتيــانٍ كِــرام
سادةٍ نغـــدو مُجدّيــن على حــرب المُــدام
واصطفــاق العُــود والنايــات في جَوف الظــلام
هزم أرواح دِنـــانٍ لم نَنَلْهــا باصطــلام

نهـزِمُ الرّاحِ إذا مـــا   هـمّ قـومٌ بانهـــزام
ثـم خَـلٌ الضرب والطعـــنَ لأجسادٍ وهـــامِ
لِشقـيٍ قــال : قد طــا   ل عن الحـــرب جمامي

● الرّباشيٌ قال :

كان الفضل الرّقاشي يجلس إلى إخوانٍ له يُحادثهم ، ويألفونه ويأنسون به ، فتفرّقوا في طلب المعاش ، وترامت بهم الأسفار ، فمرّ الرّقاشيٌ بمجلسهم الذي كانوا يجلسون فيه ، فوقف فيه طويلاً ، ثم استعبر وقال :

لولا التطيرٌ قلــت غَـيَّركــم   ريبُ الزمــان فخُنتـم عهـدي
درستْ معالمُ كنـت آلَفُهـــا   من بعدكـم وتغيّرتْ عنـدي

● عن يوسف بن الداية قال :

كان أبو نواس والفضل الرّقاشي جالسَين ، فجاءهما عَمـرو الورّاق فقال : رأيت جاريةً خرجت من دور آل سليمان بن عليّ ، فما رأيت جاريةً أحسنَ منها ، هيفاء نَجلاء ، زَجّاء دَعْجاء[1] ، كأنها خُوط بانٍ ، أو جَدْلٍ عِنـان ، فخاطبتُها فأجابتْني بأحلى لفظ ، وأحسنِ لسانٍ ، وأجمل خِطاب . فقال الرّقاشي : قد والله عشقتُها . فقال أبو نواس : أو تَعرِفُها ؟ قال : لا والله ولكن بالصّفة . ثم أنشأ يقول :

صِفاتٌ وظنّ أورثا القلبَ لوعـــةً   تَضَرَّمُ في أحشـاء قلـــبٍ مُتَيَّــمِ
تُمثِّلهــا نفسي لعيـــني فأنثـــني   إليها بطَـرْف الناظـــر المتوسّمِ
يُحمّلُني حُبـيّ لهـا فوق طاقـــتي   مــن الشوق دأبَ الحائر المُتَقسَّمِ

* * *

(١) زجاء : رقيقة الحاجب في طول . دعجاء : الدعج شدة سواد العين مع سعتها .

٣٣

محمد بن يسير

[الأغاني الجزء ١٤ ص ١٧ وما بعدها]

الشاعر

محمد بن يَسير الرِّياشيّ ، يقال إنه مولىً لبني رياش ... ويقال إنه منهم صَلِيبةٌ(١) ... وكان محمد بن يسير هذا شاعراً ظريفاً من شعراء المحدثين ، متقلّل ، لم يفارق البصرة ولا وفد إلى خليفة ولا شريفٍ مُنتجِعاً ، ولا تجاوز بلَده ، وصُحبته طَبقتهُ ، وكان ماجناً هجّاءً خبيثاً .

طائفة من أخباره

علي بن القاسم بن علي بن سليمان طارمة قال :

بعث إليّ محمد بن أيّوب بن سليمان بن جعفر بن سليمان ، وهو يتولى البصرة حينئذٍ ، في ليلة صَبيحتُها يومَ سبت ، فدخلت إليه وقد بقي من الليل ثلثهُ أو أكثر ، فقلت له : أنِمت وانتبهتَ أم لم تنم بعدُ ؟ فقال : قد قضيتُ حاجتي من النوم ، وأريد أن أصطبح وأبتدئ الساعة بالشُّرب ، وأصلَ ليلتي بيومي محتجباً

(١) صليبة : صحيح النسب في قومه وليس بمولى ، وفي المطبوعة : صلبية وهو خطأ .

عن الناس ، وعندي محمد بن رَباح ، وقد وجّهتُ إلى إبراهيم بن رِياش وحضرتَ أنت ، فمن ترى أن يكون خامسَنا ؟ قلت : محمد بن يسير . فقال : واللهِ ما عدوتَ ما في نفسي . فقال لي ابن رباح : اكتب إلى محمد بن يسير بيتين تدعوه فيهما وتصفُ له طِيب هذا الوقت ـ وكان يومَ غيم والسماءُ تمطر مطراً غيرَ شديد ولا متتابِع ـ فكَتب إليه ابنُ رباح :

يــومُ سبتٍ وشَنْبَــذٍ ورَذاذٍ   فعلامَ الجلوسُ يابــن يسير
قُــم بنا نأخــذِ المُدامــةَ مــن كَـــفّ غزالٍ مُضَمَّـــخٍ بالعبيرِ (١)

وبعث إليه بالرُّقعة ، فإذا الغلمانُ قد جاؤوا بالجواب ، فقال لهم : بعثْتُكُم لِتجيئوني برجلٍ فجئتموني برُقعة ! فقالوا : لم نَلْقَه ، وإنما كتب جوابَها في منزله ، ولم تأمرنا بالهجوم عليه فنهجُم . فقرأها فإذا فيها :

أجيءُ على شرطٍ فإن كنتَ فاعــلاً   وإلاّ فإني راجعٌ لا أناظِــرُ
لِيُسْرَجْ لي البِرذَونُ في حال دُلجتي   وأنت بدُلجاتي مع الصبح خابرُ
لأقضيَ حاجاتي إليــه وأنثنــي   إليك وحَجّامٌ إذا جئت حاضرُ
فيأخُذ مــن شعري ويَصلِحُ لِحيتي   ومن بعدُ حمّامٌ وطيبٌ وجامِرُ
ودَسْتيجةٌ مـن طيّب الرّاح ضخمةٌ   يُرَوِّدنيهــا طائعــاً لا يُعــاسر (٢)

فقال محمد بن أيوب : ما تقول ؟ فقلت : إنك لا تقوى على مُطاولته ، ولكن اضمَنْ له ما طلب . فكتب إليه : قد أُعِدّ لك ، وحياتك ، كلُّ ما طلبتَ ، فلا تُبطئْ . فإذا به قد طلع علينا ، فأمر محمد بن أيوب بإحضار المائدة ، فلمّا أُحضرت أمر بمحمد بن يسير فشُدّ بحبلٍ إلى أسطوانة من أساطين المجلس ، وجلسنا نأكل بحذائه . فقال لنا : أيّ شيٍّ يخلّصُني ؟ قلنا : تجيب نفسك عما

(١) شنبذ : كلمة فارسية معناها يوم السبت ، وأراد أنه يوم لهو ونشاط .
(٢) الدلجة : السير في السحر . الجامر : البخور والطيب . الدستيجة : آنية الخمر ، فارسية معربة .

كتبت به أقبح جواب . فقال : كُفُّوا عن الأكل إذاً ولا تَستَبِقُوني به فتشغَلُوا خاطري . ففعلْنا ذلك وتوقَّفنا ، فأنشأ يقول :

أيا عَجَبا من ذا التَّسرِّي فإنّه ... له نَخوةٌ في نفسه وتَكَابُرُ
يُشارِطُ لَمّا زار حتى كأنه ... مُغَنٍّ مجيدٌ أو غُلام مُؤاجَرُ
فلولا ذِمامٌ كان بيني وبينَه ... للَطِّم بشّارٌ قفاه وياسرُ[1] .

فقال محمد : حسبُك ، لم نُرِد هذا كلّه . ثم حلَّه وجلس يأكل معنا وتَمَّمنا يومنا .

● عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ قال :

كان محمد بن يسير من شعراء أهل البصرة وأدبائهم ، وهو من خَثْعَم ، وكان من بخلاء الناس ، وكان له في داره بستانٌ قدرُه أربعةُ طوابيق[2] قَلَعها من داره ، فغَرس فيه أصل رُمّان وفَسيلة[3] لطيفة ، وزرع حوالَيه بَقْلاً ، فأفلتت شاةٌ لجارٍ له يقال له مَنيع ، فأكلت البَقل ومضغت الخُوص ، ودخلت إلى بيته فلم تجد فيه إلاّ القراطيسَ فيها شعرُه وأشياء من سَماعاته ، فأكلتْها وخرجتْ . فعَدا إلى الجيران في المسجد يشكو ما جرى عليه ، وعاد فزرع البستان ، وقال يهجو شاةَ منيع :

لِيَ بستانٌ أنيقٌ زاهرٌ ... ناضرُ الخُضرة رَيّانٌ تَرِفْ

---

(١) تسرى : تكلف السَّرْو ، وهو المروءة والشرف ، والأجود عندنا أن يقال : من ذي التسرّي . التكابر : التكبر . بشار وياسر : يستخلص من السياق انهما رجلان من خدم الوالي .

(٢) الطابق ، بفتح الباء وكسرها : الآجر الكبير ، ولعله أراد أن عرض البستان أربعة طوابيق .

(٣) الفسيلة : النخلة الصغيرة .

راسخ الأعـراق رَيّـانُ الثرى غَدِقٌ تُربتُه ليست تَجِـــفّ
لِمجاري الماء فيــه سُنَــــنٌ كيفمـا صرّفتَـه فيـه انصرَفْ
مُشرِق الأنوار ميّـادُ النَّـــدى مُتثَنٍ في كـل ريـح مُنعطِـفْ
تملِـكُ الرِّيحُ عليـه أمـرَه فإذا لم يُؤنِس الرّيــحَ وقَــفْ
يكتسي في الشرق ثوبـي يُمنةٍ ومع الليـل عليهـا يَلتحِـفْ
ينطوي الليـلُ عليــه فــإذا واجـه الشرقَ تجلّـى وانكشَفْ
صابـرٌ ليس يُبـالي كـــثرةً جُـزّ بالمِنْجَـلِ أو منـه نُتِـف
كلّمـا أُلحِـفَ منه جانـبٌ لم يتلبَّثْ منه تعجيـلُ الخَلَـفْ
لا تـرى للكـفّ فيـه أثـراً فيه بـل يَنمي على مسّ الأكُـفْ
فترى الأطبـاق لا تُمهِلُــهُ صادراتٍ واردات تختلِــفْ
فيه للخـارف مـن جيرانـه كلّمـا احتـاج إليـه مُخترَف
أُقحـوانٌ وبَهـارٌ مُونِــــقٌ وسوى ذلك من كلّ الطُّـرَف
وهو زهـرٌ للنّدامى أُصُـــلاً برضـا قاطِفهــم ممّا قَطَـف
وهو في الأيـدي يُحيُّون بــه وعلى الآنـاف طـوراً يُستَنشَـفّ
أعفِـه يـا ربِّ مـن واحــدةٍ ثم لا أحفِـل أنـواعَ التّلَـف
إكفِـه شاةَ مَنيـعٍ وحـدَها يومَ لا يُصبـح في البيـت عَلَفْ
اكفِـهِ ذاتَ سُعـالٍ شَهْلـةً مُتْعـت في شرّ عيشٍ بالخَـرَفْ
اكفِـه يـا ربِّ وقصـاءَ الطُّـلى ألحمِ الكِتْفَين منهـا بالكَتِـف
وكَلُـوحَ أبــداً مُفْتَــرّةً لـك عن هُتْـمٍ كَليلاتٍ رُجُف
ونَثُوُس الأنـف لا يـرقا ولا أبـداً تُبصِرُهُ إلاّ يَكِــــف
لـم تـزل أظلافُهـا عافيـةً لم يُظَلِّفْ أهلُهـا منها ظِلَـفْ
فترى في كـلّ رجـلٍ ويـدٍ من بقاياهنّ فـوق الأرض خُفّ

تنسِفُ الأرضَ إذا مرّت بـه　　فلهـا إعصارُ تُرْبٍ مُنْتَسِفْ[1]

[الأبيات ...]

● عبدالله بن محمد بن يَسير قال :

هوِي أبي قَينةً من قيان أبي هاشم بالبصرة ، فكتبتْ إليه أمّي تعاتبه ، فكتب إليها :

لا تذكُري لوعةً إثـري ولا جَزَعـا　　ولا تقاسِنَّ بعدي الهـمَّ والهَلَعـا

بل ائتسي تجـدي إن ائتسيـتِ أُسـاً　　بمثـلِ ما قـد فُجعتِ اليومَ قد فُجِعا

ما تصنعين بعينٍ عنـك قـد طَمَحت　　إلى سواكِ وقلـبٍ عنـك قد نَزَعا

إن قلتُ قـد كنت في خَفْضٍ وتكرمةٍ　　فقد صدقتِ ولكـن ذاك قد نُزِعـا

وأيُّ شيءٍ مـن الدنيـا سمعـت به　　إلاّ إذا صـار في غاياتـه انقطعـا

ومن يُطيق خَليعـاً عنـد صَبْوتـه　　أم من يقـوم لِمستورٍ إذا خلُعا[2]

---

(١) ترف النبات : تروّى . أرض غدقة : نديّة مرتوية . السنن : الطرائق . الأنوار ج نور : الزهر . الندى : (هنا) النبت . اليمنة : برد يمني موشى . ألحفه : استأصله . نمى ينمي : زاد . خرف الثمار واخترفها : جناها . الأقحوان : نبت طيب الرائحة وسطه أصفر وحواليه أوراق بيض . البهار : نبت أصفر طيب الرائحة . مونق : معجب . أصلاً ج أصيل : الوقت بعد العصر إلى المغيب . استشفه : استوفى شربه ، شبه الشم بالشرب . الشهلة : العجوز . الخرف (هنا) : أردأ التمر . الطلى ج طلية : العنق . الوقص : قصر العنق . كلحت الشاة : قلصت شفتاها عن أسنانها . الهتم ج أهتم : الأسنان المتكسرة . نؤوس الأنف : دائم السيلان . يرقأ : يجف . وكف الدمع والماء : سال . ظلّف : قلّم . ظلَف : أصلها ظلْف بإسكان اللام وحركت لضرورة الشعر . تنسف به : بالخف . انتسفه : قلعه من أصله .

(٢) أساج أسوة : ما يأتسي به الحزين ويتعزى به . نزع عنه : كف وانتهى عنه .

● عبدالله بن محمد بن يسير قال :

كان لأبي صديقٌ يقال له داود من أسمج الناس وجهاً وأقلّهم أدباً ، إلا أنه كان وافر المتاع ، فكان القيانُ يواصلْنَه ويكثُرن عنده ، ويُهدِين إليه الفواكـه والنَّبيذ والطِّيب ، فيدعو أبي فيعاشره . فهوِيَتْه قَينةٌ من قيان البصرة كانت من أحسن الناس وجهاً ، فبعثت إلى داودَ بِرُقعةٍ طويلة جداً تعاتبه فيها وتَستجفيه وتَستزيرُه ، فسأل أبي أن يُجيبَها عَنه ، فقال أبي : اكتُب يا بُنيَّ قبل أن أجيبَ عنها :

وابلائي مـن طُـول هذا الكتـابِ أَسعدوني عليه يـا أصحابـي
أسعدوني عـلى قِـراة كتـابِ طولُه مثـلُ طول يـوم الحسـاب
إنّ فيه مـنيّ البـلاء مُلَقّـى ولِغيري فيـه الهـوى والتصابـي
ولـه الـوُدُّ والهـوى وعلينـا فيـه للكاتِبين ردُّ الجـواب
ثـم ممّـن يا سيّدي ؟ وإلى مـن ؟ من هَضِيم الحشا لَعُوبٍ كَعابِ
والى مَـن إن قلـت فيـه بعَيـبٍ لم أُحِـطْ في مقالـتي بالصَّواب
لا يُساوي على التأمُّـل والتَفتيـش يوماً في الناس كـفَّ تُـرابِ(١)

فقال عبدالله : وكان أبي إذا انصرف من مجلسٍ فيه داودُ هذا أخذه معه ، فيمشي قُدّامَه ، فإن كان في الطريق طينٌ أو بئر أو أذىً لَقِي داودُ شرَّه وحَذره أبي . فمات داود ، وانصرف أبي ذاتَ ليلةٍ وهو سكرانُ ، فعَثر بدُكّانٍ وتلوَّث بطينٍ ودخل في رِجله عظمٌ ولَقِي عَنَتاً ، فقال يرثي داود :

أقول والأرضُ قـد غشّى وجَلَّلها ثوبُ الدُّجى فهو فوق الأرض ممدودُ
وسدّ كلَّ فُرُوجِ الجوّ مُنطبقـاً وكلُّ فَرْجٍ بـه في الجـوّ مَسـدود
وفي الوَداع وفي الإبـداء لي عَنَـتٌ دون المسير وبـابُ الـدار مسـدود

---

(١) هضيم الحشا : ضامرة البطن . كعاب : ناهدة الثديين .

مَن لي بداودَ في ذي الحـال يُرشدني ... من لي بداود ، لهفـي أيـن داودُ
لَـهفي على رِجْلـه ألاّ أُقدِّمَهـا ... قُـدّام رجلي فتلقاهـا الجلاميـدُ
إذ لا أزال إذا أقبلـتُ ينكُبُـني ... حَرفٌ وجُرفٌ ودُكّـانٌ وأُخدودُ
فإن تكن شوكـةٌ كانـت تحِـلُّ بـه ... أو نَـكْـتَـةٌ في سواد الليـل أو عُودُ(١)

● القاسم بن الحسن قال :

استعار ابن يسير من بعض الهاشميّين من جيرانه حماراً كان له ليَمضي عليه في حاجة أرادها ، فأبى عليه ، فمضى إليها ماشياً ، وكتب إلى عَمرو القِصافيّ - وكانَ جاراً للهاشميّ وصديقاً - يشكوه إليه ويُخبره بخَبره :

إن كنـتُ لا عَيْرَ لي يوماً يُبَلِّغُـني ... حاجي وأقضي عليه حقَّ إخوانـي
وضـنَّ أهلُ العواري حين أسأَلهـم ... من أهـل وُدّي وخُلصاني وجيراني
فإنّ رِجليَّ عندي لا عَدِمتُهُمـا ... رجـلا أخي ثقـةٍ مـذ كان جولاني
تُبلّغاني حاجـاتي وإن بَعُـدتْ ... وتُدنيـاني عمـاليس بالـداني
كأنّ خَلفي إذا مـا جَـدّ جِدّهُمـا ... إعصارَ عاصفـةٍ ممّـا تُثـيران
رجـلايَ لم تَألَمـا نَكْباً كأنّهمـا ... قَطْـاً وقَـدّاً وإدماجـاً مَداكـان

* * *

إن تُبعثـا في دَهـاسٍ تبعثا رَهَجـا ... أو في حزونٍ ذكـا فيهـا شِهابان
فالحمدُ لله يـا عَمـرو الـذي بهمـا ... عن العواري وعن ذا الناس أغناني(٢)

---

(١) الجرف : الجانب الذي أكله الماء من جانب النهر أو الوادي . النكتة : الأثر الحاصل من نكت الأرض ، ونكته : ألقاه على رأسه .

(٢) العير : الحمار . العواري ج عارية : ما يستعار . رجل جولانيّ : عام المنفعة للقريب والبعيد . القط : القطع . المـداك : مدق الطيب . الدهاس : الموضع السهل . الحزن : ما غلظ من الأرض .

● محمد بن أبي حرب قال :

أنشدنا يوماً محمد بن يسير في مجلس أبي محمد الزّاهد صاحب الفُضَيل بن عِياض لنفسه قال :

ويلٌ لِمن لم يَرحمِ اللهُ ومن تكون النارُ مَثواهُ
واغَفْلتا في كلِّ يومٍ مضى يُذكِرُني الموت وأنساه
من طال في الدنيا به عمرُه وعاش فالموتُ قُصاراه
كأنه قد قيل في مجلسٍ قد كنتُ آتيه وأغشاه
محمدٌ صار إلى ربّه يَرحمُنا اللهُ وإيّاه (١)

قال : فأبكى والله جميعَ من حضر .

● علي بن القاسم طارمةُ قال :

كنت مع المعتصم لّما غزا الرُّوم ، فجاء بعضُ سَراياه بخبر عمّه (٢) ، فركب من فَوره وسار أجدَّ سَير وأنا أُسايره ، فسمع مُنشداً يتمثّل في عسكره :

إن الأمور إذا انسدّتْ مَسالكُها فالصبرُ يَفتح منها كلَّ ما ارتَتجا
لا تَيأسَنَّ وان طالت مُطالبةٌ إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجا (٣)

فسُرّ بذلك وطابت نفسُه ، ثم التفت إليّ وقال لي : يا عليُّ أتروي هذا الشعر ؟ قلت : نعم . قال : من يقوله ؟ قلت : محمد بن يسير . فتفاءل باسمه ونسبه وقال : أمرٌ محمود وسيرٌ سريع يعقُب هذا الأمر . ثم قال : أنشِدْني الأبيات . فأنشدتهُ قولَه :

ماذا يُكَلِّفُك الرَّوحاتِ والدُّلجَا البَرَّ طوراً وطوراً تركبُ اللُّججا

(١) قصاراه : غايته .

(٢) عمه : هو إبراهيم بن المهديّ ، وكان خرج على المأمون .

(٣) رتج الباب وأرتجه : أغلقه .

كم من فتىً قصُرت في الرِّزق خَطوتُه — ألفَيْتَه بسهام الرِّزق قد فَلَجا
لا تيأسنَّ وإن طالت مُطالبةٌ — إذا استعنت بصبرٍ أن ترى فَرَجا
إنّ الأمور إذا انسدّت مَسالكُها — فالصبرُ يفتح منها كلَّ ما ارتتجا
أَخلِقْ بذي الصبر أن يَحظى بحاجته — ومُدمِنِ القَرْعَ للأبواب أن يَلجا
فاطلب لرجلك قبل الخطو مَوضعَها — فمن علا زَلَقاً عن غِرّةٍ زَلجا
ولا يَغُرَّنْك صَفوٌ أنت شاربُه — فربّما كان بالتكدير ممتزِجا
لا يُنْتَج الناسُ إلا من لِقاحهم — يبدو لِقاحُ الفتى يوماً إذا نُتِجا[1]

● الرِّياشيّ قال :

كان محمد بن يسير جالساً في حَلْقتنا في مسجد البصرة ، وإلى جانبنا حَلْقةُ قومٍ من أهل الجدَل يتصايحون في المقالات والحُجج فيها ، فقال ابن يسير : اسمعوا ما قلت في هؤلاء . فأنشدَنا قولَه :

يا سائلي عن مقالة الشيَعِ — وعن صُنوف الأهواء والبدَعِ
دعْ عنك ذكرَ الأهواء ناحيةً — فليس ممّن شهدتُ ذو وَرَعِ
كلُّ أناسٍ بَدِيُّهم حَسَنٌ — ثم يصيرون بعدُ للشُّنَعِ
أكثرُ ما فيه أن يُقالَ لهم : — لم يك في قوله بمنقطِعِ[2]

● محمد بن عليّ الشاميّ قال :

كان محمد بن يسير يصف نفسه بالذكاء والحفظ والاستغناء عن تدوين شيء يسمعه ، من ذلك قولُه :

---

(١) الدلج ج دلجة : السير من أول الليل . فلج : ظفر وفاز . زلج : زلق . نتجت الناقة ، (بالبناء للمجهول) : ولدت .

(٢) بديئهم : أول أمرهم ، ولينت الهمزة .

إذا مـا غـدا الطُّلاّبُ للعلم ما لهـم   من الحظّ إلا مـا يُدَوّنُ في الكُتبِ
غـدوتُ بتشمـيرٍ وجِـدٌّ عليهـم   فمِحبرتي أُذني ودفترُهـا قلبـي

● إبراهيم بن المدبِّر قال :

كان إبراهيم بن رياح إذا حَزَبه الأمر[1] يقطعه بمثل قول محمد بن يسير :

تُخطي النفوسُ مـع العِيـا   ن وقـد تُصيب مـع المظِنَّهْ
كـم مـن مضيقٍ في الفضـا   ء ومَخرجٍ بين الأسنَّـهْ

* * *

(١) حزبه الأمر : اشتدّ عليه .

٣٤

مروان بن أبي حفصة

[الأغاني الجزء ١٠ ص ٧١ وما بعدها]

الشاعر

هو مَروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حَفْصة ، ويُكْنَى أبا السِّمْط . واسم أبي حفصة يَزيد ، وذكر النَوفليُّ عن أبيه أنّه كان يهوديّاً ، فأسلم علي يَدَي مَروان ابن الحَكَم ، وأهله يُنكرون ذلك ويذكرون أنّه من سَبْبي إصْطَخْر [١] ، وأنّ عثمان اشتراه فوهبه لمروان بن الحكم ...

وشهد أبو حَفْصة الدّار [٢] مع مَولاه مروان بن الحكم وقاتل قتالاً شديداً وقَتل رجلاً من أسلَم يقال له بَنان ، وجُرح مروانُ يومئذ ، أصابته ضربةٌ قطعت عِلباءه [٣] فسقط ، فوثب عليه أبو حفصة واحتمله ، فجعل يحمله مرّة على عنقه ومرّة يَجرُّه ، فيتأوّه ، فيقول له : اسكُت واصبِرْ ، فإنّه إن علموا أنّك حيٌّ قُتلتَ . فلم يَزل به حتى أدخله دار امرأة من عَنَزة فداواه فيها حتى برِئ ،

---

(١) اصطخر : بلدة بفارس .

(٢) يوم الدار : يوم مقتل عثمان بن عفّان .

(٣) العلباء : عصب العنق .

فأعتقه مروان ونزل له عن أمّ ولد له يقال لها سُكّر كانت له منها بنتٌ يقال لها حَفصة ، فَحضَنها ، فكُنّي أبا حفصةً ، فحَفصة بنتُ مروان ...

محمد بن إدريس قال : عُكْلٌ[1] تدّعي أنّ أبا حفصة منهم . يقولون : هو من كِنانة بن عوف بن عبد مَناه بن طابخة بن اليأس بن مُضر ، وقد كانوا استعَدوا عليه مروان بن الحكم وقالوا إنما باعته عمّتهُ لمجَاعة ، فأبى هو أن يُقرّ لهم بذلك ، ثم استعدَوا عليه عبد الملك بن مروان أيضاً ، فأَبى إلاّ أنّه رجلٌ من العجَم من سَبْي فارس ، نشأ في عُكْل وهو صغير . قال محمّد بن إدريس : ووَلد السَمَوْءل بن عادياء[2] يدّعونه ، والسّموءل من غسّان ...

خَلاّد الأرقط قال :

جاءنا مروان بن أبي حفصة إلى حَلْقة يونُس ، فأخذ بيد خَلَف الأحمر فأقامه ، وأخذ خلَفٌ بيدي فقُمنا إلى دار أبي عُمير ، فجلسنا في الدّهليز . فقال مروان لخلف : نشَدتك الله يا أبا مُحرِز إلاّ نصحتَني في شعري فإنّ الناس يُخدعون في أشعارهم . وأنشده قوله :

طرقتْك زائرةٌ فحيٍّ خَيالَهـــــا بيضاءُ تَخلط بالجَمال دَلالَهـــا

فقال له : أنت أشعر من الأعشى في قوله :

« رحلتْ سُمَيّةُ غُدوةً أجمالَهَا »

فقال له مروان : أتبلغ بي الأعشى هكذا ! ولا كلٌّ ذا ! قال : ويحَك ! إنّ الأعشى قال في قصيدته هذه :

« فأصاب حَبّة قلبه وطِحالَهَا »

(١) عُكل : هم بنو عوف بن عبد مناة بن اد ، إحدى قبائل الرِّباب .

(٢) السموءل بن عادياء : من شعراء يهود المشهورين في الجاهلية ، ويضرب به المثل في الوفاء بالعهد ، وذلك أن امرأ القيس أودع عنده أدراعه وسلاحه ، فطالبه ملك كندة بدفعها إليه بعد موت امرئ القيس وهدده إن لم يفعل بقتل ابن له ظفر به ، فآثر قتل ابنه على أن يخفر بذمته .

والطَّحال ما دخل قطُّ في شيء إلاّ أفسده ، وأنت قصيدتك سليمةٌ كلُّها . فقال له مروان : إنيّ إذا أردت أن أقول القصيدة رفعتُها في حَول : أقولها في أربعة أشهر ، وأنتخِلُها في أربعة أشهر ، وأعرِضُها في أربعة أشهر .

العبّاس بن ميمون طائع قال :

سمعت الأصمعيّ ذكر مَروان بن أبي حفصة فقال : كان مولَّداً ، لم يكن له علمٌ باللغة .

بُخلُه

وكان مروان أبخل الناس ، على يَساره وكثرة ما أصابه من الخلفاء ، ولا سيّما من بني العبّاس ، فإنّه كان رَسْمُهم أن يُعطوه بكلّ بيت يمدحهم به ألفَ درهم .

عليّ بن محمد النوفليّ قال : سمعت أبي يقول :

كان المهديّ يعطي مروانَ وسَلْماً الخاسر عطيّةً واحدة ، وكان سَلمٌ يأتي باب المهديّ على البِرْذَون قيمتُه عشرةُ آلاف درهم والسَّرجِ واللِّجام المقذوذين[1] ، ولباسه الخَزّ والوَشْي وما أشبهَ ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحةُ المسك والغالية[2] والطِّيب تفُوح منه ؛ ويجيء مروانُ وعليه فَرْوُ كَبْش وقَميصُ كَرابيسَ[3] وعِمامة كَرابيس وخُفّا كَبَلٍ[4] وكساءٌ غليظ مُنتِنُ الرائحة . وكان لا يأكل اللحم بُخلاً حتى يَقْرَم[5] إليه . فإذا قَرِم أرسل غُلامه فاشترى له رأساً فأكلَه . فقيل له : نَراك لا تأكل إلاّ الرُّؤوسَ في الصّيف والشتاء ، فلمَ

(١) المقذوذ : المزيّن المسوّى .

(٢) الغالية : ضرب من الطيب .

(٣) الكرابيس ج كرباس : ثوب أبيض .

(٤) الكبل : الفراء الكثير الصوف .

(٥) قرم : اشتهى اللحم .

تختار ذلك ؟ قال : نعم ، الرأس أعرف سِعرَه ولا يستطيع الغلامُ أن يَغْبِنَني فيه ، وليس بلحمٍ يطبُخه الغلام فيقدرَ أن يأكل منه ، إن مسّ عيناً أو أذُناً أو خدّاً وقفتُ عليه ، فآكُلُ منه ألواناً : آكُل عينيه لوناً ، وأُذُنَيه لوناً ، وغَلْصَمَته[1] لوناً ، وأُكفَى مُؤْنَةَ طَبْخه ، فقد اجتمعت لي فيه مَرافق .

موسى بن يحيى قال :

أوصَلْنا إلى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألفَ درهم ، وجَمع إليه مالاً حتى تَمّتْ مائة ألفٍ وخمسين ألف درهم ، وأَودعها يزيد بن مَزْيَد[2] . قال : فبينما نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزيد - وكانت فيه دُعابة - فقال : يا أبا عليّ ، أودَعَني مروانُ خمسين ومائةَ ألف درهم وهو يشتري الخُبزَ من البَقّال . قال : فغضب يحيى ثم قال : عليَّ بمروان . فأُتي به . فقال له : أخبرني أبو خالد بما أودعتَه من المال وما تَبتاعه من البَقّال ، واللهِ لَما يُرى من أثر البُخل عليك أضرُّ من الفَقر لو كان بك .

عمر بن شَبّة قال :

بلغني أن مروان بن أبي حفصة قال : ما فرحتُ بشيءٍ قطّ فَرَحي بمائة ألفٍ وهبَها لي أميرُ المؤمنين المهديّ ، فوزنتُها فزادت دِرهماً ، فاشتريت به لحماً .

عن جَهم بن خَلَف قال :

أتينا اليمامةَ فنزلنا على مروان بن أبي حفصة ، فأطعَمنا تمراً ، وأرسل غلامه بفَلس وسُكُرّجَة[3] ليشتري له زيتاً . فلمّا جاء بالزيت قال لغلامه : خُنتَني ! قال : من فَلسٍ كيف أخونك ! قال : أخذت الفَلس لنفسك واستوهبت الزيت .

---

(١) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق .

(٢) يزيد بن مزيد الشيباني : من القادة البارزين في العصر العباسي .

(٣) السكرّجة : الصحفة .

أخبرنا يحيى قال : أخبرنا أصحاب التَّوَّزيّ عنه قال :

مرّ مروان بن أبي حفصة في بعض سفَراته ، وهو يريد مِنىً ، بامرأة من العرب ، فأضافته ، فقال : لله عليّ إن وهَب لي الأميرُ مائةَ ألف أن أهبَ لك درهماً . فأعطاه ستّين ألف درهم، فأعطاها أربعةَ دَوانق[1] .

عن أبي دِعامة قال :

اشترى مروان لحماً بنصف درهم ، فلمّا وضعه في القدر وكاد أن ينضَج دعاه صديقٌ له ، فرَدّه على القَصّاب بنُقصان دانق . فشكاه القصّاب وجعل ينادي : هذا لحمُ مروان . وظنّ أنه يأنَف لذلك . فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويلك ! ما هذا ! قال : أكرَهُ الإسراف .

مدائحه في معن بن زائدة

عليّ بن محمد النَوفليّ قال حدّثني أبي قال :

اجتاز مروان بن أبي حفصة برجلٍ من باهلة من أهلِ اليمامة وهو يُنشد قوماً كان جالساً إليهم شعراً مدَح به مروانَ بن محمدَ ، وإنّه قُتل قبل أن يَلقاه وينشدَه إيّاه ، أوّله :

مروانُ يا بنَ محمدٍ أنت الـذي زِيدتْ به شَرَفاً بنو مروانِ

فأعجبتْه القصيدة ، فأمهل الباهليَّ حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إنيّ سمعت قصيدتك وأعجبتني . ومروان قد مضي ومضى أهلُه وفاتك ما قد رُمتَه عنده ، أتبيعُني القصيدة حتى انتحلها ؟ فإنه خيرٌ لك من أن تبقى عليك وأنت فقير . قال : نعم . قال : بكم ؟ قال : بثلثمائة درهم . قال : قد ابتعتُها . فأعطاه الدّراهم وحلّفه بالطّلاق ثلاثا وبالأيمان المُحرِجة ألاّ ينتحلَها أبداً ولا ينسُبَها إلى نفسه ولا يُنشدها . وانصرف بها إلى منزله ، فغيّر منها أبياتاً وزاد فيها وجعلها في مَعن ، وقال في ذلك البيت :

---

(١) الدوانق ج دانق : وهو سدس الدرهم .

مَعْنُ بن زائدةَ الذي زيدتْ بــه		شرفاً إلى شَرَفٍ بنـو شَيبانِ

ووفد بها إلى معن بن زائدة فملأ يديه وأقام عنده مدّةً حتى أثرى واتّسعت حالُه . فكان معنٌ أوّلَ من رفع ذِكره ونـوّه به . قال : وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفةٌ ومَراثٍ حسنة .

عبدالله بن أبي سَعد قال حدّثني أبي قال :

لمّا قدِم مَعن بن زائدة من اليمن استقبله الناسُ ، وتلقّاه مروان بن أبي حفصة فأنشده قصيدةً يُهنّئه فيها بقدومه وبرأي المنصور فيه . وتلقّاه فيمن تلقّاه أبو القاسم مُحرِز (١) فجعل يقول له : سفكتَ الدّماء ، وظلمتَ الناس ، وتعدّيتَ طَورك بذلك . فلمّا أكثر على مَعن التفت إليه ثم قال له : يا مُحرِز ، أخبرني بأيّ خُفَّيك تضرِب اليوم : أبالسُّباعـيّ أم بالثُّمانيّ ؟ قال : فانقطع وسكت خجلاً .

ودخل معنٌ على المنصور ، فلمّا سلّم عليه وسأله قال له : يا معنُ ، أعطيتَ ابن حفصة مائة ألف درهم عن قوله فيك :

معنُ بن زائدةَ الذي زِيدتْ بــه		شرَفاً إلى شرفٍ بنو شَيبــــــان

فقال له : كلاّ يا أمير المؤمنين ، بل أعطيته لقوله :

ما زلتَ يومَ الهاشميّة مُعلِمـــاً		بالسّيفِ دونَ خليفـة الرحمـنِ

فاستحيا المنصور من تهجينه إيّاه فتبسّم وقال : أحسنتَ يا مَعنُ في فِعلك .

أبو العبّاس العَدَويّ قال :

لما وَلي معنُ بن زائدة اليمن كان يحيى بن منصور الذُّهليّ قد تنسّك وترك الشعر . فلمّا بلغته أفعالُ معنٍ وفَد إليه ومدحه ، فقال مروان بن أبي حفصة :

---

(١) هو أبو القاسم بن محرز ، أحد قواد أبي مسلم الخراساني .

لا تعدَمُوا راحتي مَعنٍ فإنّهمـــا　　بالجود أفنتنا يحيى بن منصورِ
لَمّا رأى راحتَي معنٍ تدفَّقتـــا　　بنائلٍ مـن عطاء غير مَنــزور
ألقى المسُوحَ التي قد كان يلبَسُها　　وظـلّ للشّعر ذا رَصْفٍ وتحبير

العَنْسيّ قال :

لمّا قدم معنُ بن زائدة من اليمن دخل عليه مروانُ بن أبي حفصة والمجلسُ غاصّ بأهله ، فأخذ بعِضادتَي[1] الباب وأنشأ يقول :

وما أَحجم الأعداءُ عنك بَقيّـةً　　عليك ولكن لم يَرَوا فيك مَطعما
له راحتان الجودُ والحَتفُ فيهما　　أبى الله إلاّ أن تَضُرّا وتَنفعا[2]

قال : فقال له معنٌ : احتَكِمْ . قال : عشرة آلاف درهم . فقال معن : رَبِحنا عليك تسعين ألفاً . قال : أَقِلْني . قال : لا أقال اللهُ من يُقيلُك .

أحمد بن الحارث الخَرّاز قال : حدّثنا ابنُ الأَعرابي أنّ مروان بن أبي حفصة أخبره أنه وفد على معن بن زائدة فأنشده قوله :

بنــو مَطَـرٍ يـومَ اللّقــاء كأنّهــم　　أسودٌ لهـــم في بَطنِ خَفّـانَ أَشْبُلُ
هــمُ يمنعون الجــارَ حتى كأنّمــا　　لجارهـــم بـين السماكَين مَنزلُ
لَهاميـمُ في الإسلام سادوا ولم يكن　　كأَوّلهـــم في الجاهليّـــة أَوّلُ
همُ القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعُـوا　　أجابوا وإن أعطَـوا أطابوا وأَجْزَلُوا
ولا يستطيع الفاعلون فَعالهـــم　　وإن أَحسنوا في النائبات وأَجْمَلُوا[3]

قال : فأمر لي بصِلة سَنيّة وخلع عليّ وحملني وزَوّدني . قال ثم قال لنا ابنُ

---

(١) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .
(٢) بقية عليك : إبقاءً عليك .
(٣) بنو مطر : هم رهط معن بن زائدة الشيبانيّ ، فهو معن بن زائدة بن عبدالله بن زائدة بن مطر . خفان : موضع قرب الكوفة ، وهو مأسدة . لهاميم ج لهميم : الجواد .

الأعرابيّ : لو أعطاه كلَّ ما يملك لما وفاه حقّه . قال : وكان ابنُ الأعرابيّ يختِم به الشعراء وما دوَّن لأحدٍ بعدَه شعراً .

أخباره مع خلفاء بني العباس ومدائحه فيهم

الفَضل بن الرَّبيع قال :

رأيت مروانَ بن أبي حفصة وقد دخل على المهديّ بعد وفاة معن بن زائدة ، في جماعة من الشعراء فيهم سَلْمٌ الخاسرُ وغيرُه ، فأنشده مديحاً فيه ، فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرُك يا أمير المؤمنين وعبدُك مروانُ بن أبي حفصة . فقال له المهديّ : ألست القائل :

أقمنا باليمامة بعد مَعْنٍ ... مُقاماً لا نُريد به زَوالا
وقُلنا أين نَرحل بعد معنٍ ... وقد ذهب النَّوالُ فلا نَوالا

قد ذهب النَّوالُ فيما زعمتَ ، فلمَ جئتَ تطلب نوالَنا ؟ لا شيء لك عندنا ، جُرّوا برِجلْه . فجَرُّوا برِجله حتى أُخرج .

قال : فلمّا كان من العام المُقبِل تلطّف حتى دخل مع الشعراء - وإنما كانت الشعراءُ تدخل على الخلَفاء في كلّ عام مرّةً - فمثَل بين يديه وأنشده بعد رابع أو بعد خامسٍ من الشعراء :

طرقَتْك زائرةً فحيِّ خيالَها ... بيضاءُ تخلِط بالجمال دلالَها
قادت فؤادَك فاستقاد ومثلُها ... قاد القلوبَ إلى الصِّبا فأمالَها

قال : فأنصت الناسُ حتى بلغ إلى قوله :

هل تطمِسون من السّماء نجومَها ... بأكُفّكم أو تستُرون هلالَها
أو تجحَدون مَقالةً من ربِّكم ... جبريلُ بلَّغها النبيَّ فقالَها

شهدتْ من الأنفالِ آخرُ آيــةٍ بتُراثهم فأَردتـمُ إبطالَهـا[1]

قال : فرأيت المهديّ قد زحف من صدر مُصلاّه حتى صار على البِساط إعجاباً بما سمع ، ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أُعطِيها شاعرٌ في أيام بني العبّاس .

قال : ومضت الأيام ووَلِي هارونُ الرشيد الخلاَفة ، فدخل إليه مروانُ فرأيتُه واقفاً مع الشعراء ، ثم أنشده قصيدةً امتدحه بها ، فقال له : من أنت ؟ قال : شاعرك وعبدُك يا أمير المؤمنين مروانُ بن أبي حفصة . قال له : ألست القائل في معنِ بن زائدة ! وأنشده البيتين اللذين أنشده إيّاهما المهديّ ، ثم قال : خُذوا بيده فأَخرِجوه ، لا شيء لك عندنا . فأُخرج . فلمّا كان بعد أيام تلطّف حتى دخل ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

لَعمرُك ما أنسى غَـداةَ المُحصَّبِ إشارةَ سَلمى بالبنَـان المُخَضَّبِ
وقـد صـدَرَ الحُجّاجُ إلاّ أقلَّهم مَصادرَ شتّى موكباً بعد مَوكِبِ

قال : فأعجبتْه ، فقال : كم قصيدتُك من بيت ؟ فقال : ستّون أو سبعون . فأمر له بعدد أبياتها أُلوفاً . فكان ذلك رَسمُ مروان عندهم حتى مات .

عن إسحاق قال :

دخل مروانُ بن أبي حفصة على المهديّ في أوّل سنةٍ قدِم عليه . قال : فدخلتُ[2] عليه في قصرِه بالرُّصافة فأنشدته قولي فيه :

أَمَرُّ وأحلى ما بَلا الناسُ طَعْمَـه عذابُ أمير المؤمنين ونائلُـهْ

(١) الآية التي عناها الشاعر هي قوله تعالى : « والذين آمنوا من إبعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيْ عليم » .

(٢) الضمير هنا يعود على مروان بن أبي حفصة .

فإنّ طليقَ الله من أنت مُطلِقٌ   وإنّ قتيل الله من أنت قاتله
كأنّ أميرَ المؤمنين محمّداً   أبو جعفر في كلِّ أمرٍ يُحاوله[1]

قال : فأعجب بها وأمر لي بمالٍ عظيم ، فكانت تلك الصِّلة أولَ صلة سَنيّة وصلت إليّ في أيام بني هاشم .

مروان بن أبي حفصة قال :

دخلت على المهديّ في قصر السّلام[2] ، فلمّا سلّمت عليه ، وذلك بعقِب سُخطه على يعقوب بن داود[3] ، قلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ يعقوب رجلٌ رافضيّ وإنه سمعني أقول في الوراثة :

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ   لِبني البنات وراثةُ الأعمامِ

فذلك الذي حَمله على عَداوتي . ثم أنشدتُه :

كأنّ أمير المؤمنين محمّداً   لِرأفته بالناسِ للنّاس والدُ
على أنه من خالفَ الحقَّ منهمُ   سقتْه يَدَ الموتِ الحُتوفُ الرّواصدُ

ثم أنشدته :

أحيا أميرُ المؤمنين محمدٌ   سُنَنَ النبيّ حَرامها وحَلالَها

قال فقال لي المهديّ : والله ما أُعطيك إلاّ من صُلب مالي فاعذِرْني . وأمر لي بثلاثين ألف درهم وكساني جُبّةً ومِطْرَفاً ، وفَرَض لي على أهل بيته ومَواليه ثلاثين ألفاً أخرى .

محمد بن حرب بن قَطَن بن قَبيصة بن مُخارق الهلاليٌّ قال :

---

(1) بلاه : جرّبه . أبو جعفر : يريد أبا جعفر المنصور .
(2) استظهر محقق المطبوعة أنه قصر السّلامة لأن قصر السلام إنما بناه الرشيد .
(3) هو يعقوب بن داود السلمي ، كان وزيراً للمهدي ثم غضب عليه وسجنه .

لمّا مات المهديّ وفدت العرب على موسى يهنّئونه بالخلافة ويُعزّونه عن المهديّ ، فدخل مروان بن أبي حفصة فأخذ بعِضادتيَ الباب ثم قال :

لقد أصبحتْ تختال في كلّ بلدةٍ بقَبر أمير المؤمنين المقابـــرُ
ولو لم تُسَكَّنْ بابنه في مكانـــه لما بَرَحـت تبكي عليـه المنابر

قال : فخرج الناس بالبيتين .

عبدالله بن مصعب قال :

دخل مروان بن أبي حفصة على موسى الهادي فأنشده قوله فيه :

تشابَهَ يوما بَأسه ونوالــــــه فما أحدٌ يدري لأيّهمـا الفَضلُ

فقال له الهادي : أيُّهما أحبُّ إليك : أثلاثون ألفاً مُعجّلة أم مائةُ ألفٍ تُدوّن في الدّواوين ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين أنت تُحسن ما هو خيرٌ من هذا ولكنّك نسِيته ، أفتأذن لي أن أُذَكّرك ؟ قال : نعم . قال : تُعجّل لي الثلاثين ألفاً وتُدوّن المائة الألف في الدواوين . فضحك وقال : بل يُعَجّلان جميعاً . فحُمل المال إليه أجمع .

إسحاق الموصليّ قال : أخبرني مروان بن أبي حفصة قال : قال لي الرّشيد : هـل دخلـت على الوليـد بـن يزيـد ؟ فقلت : نعـم ، دخلـت مع عمومتي إليـه . قـال : فأخبرني عنـه . قـال : فذهبـت أتزحـزح ، فقال لي : إنّ أمير المؤمنين لا يَكْرَه ما تقول ، فقل ما شئت . فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان من أجمل الناس وأشدّهم وأشعرهم وأجودهم . دخلتُ عليه مع عُمومتي ولي لِمّةٌ فَيْنانة ، فجعل يغمز القضيب فيها ويقول : ولدتْك سُكَّرُ ؟ ـ وهي أمّ وَلدٍ لمروان ابن الحكم وهَبها لجدّي أبي حفصة فولَدت منه ـ فقلت له : نعم . قال لي الرّشيد : فهل تحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت : نعم ، سمعته يُنشد في خلافته ، وذَكَر هشاماً وتَحامُلَه عليه وما كان يريد من نقض أمره وولايته :

ليت هشاماً عاش حتى يَـــرى مكْتَلَه الأوفـرَ قد أُترِعــا

كِلنا لـه الصاعَ الـتي كالهـا ومـا ظلمنـاه بهـا أَصوُعـا

ومـا أتينـا ذاك عـن بِـدْعـةٍ أَحلّـه القرآنُ لي أجمعـا[1]

فقال الرشيد : يا غُلامُ ، الدَواةَ والقِرطاس . فأُتي بهما ، فأمر بالأبيات فكُتبت .

سائر أخباره

يحيى بن الجَوْن العَبْديّ قال :

فرّق المهديُّ على الشعراء جَوائزَ ، فأعطى مروانَ ثلاثين ألفاً . فجاءه أبو الشَمَقْمَق فقال له : أجْزِني من الجائزة . فقال له : أنا وأنت نأخُذ ولا نُعطي . قال : فاسمَع منّي بيتين . قال : هاتِ . فقال أبو الشَمَقمق :

لِحيةُ مَروانَ تقي عَنْبـراً خالطِ مسكاً خالصاً أذْفَرا

فمـا يُقيمان بهـا ساعـةً إلاّ يَعـودان جميعـاً ...

فأمر له بدرهمين . وأخبرني بهذا الخبر أحمد بن جعفر جَحظةُ عن أبي هفّان فذكر مثل الخبر الماضي وزاد فيه : فأعطاه عشرة دراهم ، فقال له : خُذ هذه ولا تكن راوية الصِّبيان .

أحمد بن موسى بن حمزة قال :

رأيت مروان بن أبي حفصة في أيام محمد بن زُبَيدة في دار الخلافة ، وهو شيخٌ كبير ، فسألته عن جرير والفرزدق أيُّهما أشعر ؟ فقال لي : قد سُئلت عنهما في أيام المهديّ وعن الأخطل قبل ذلك ، فقلت فيهم قولاً عقدتُه في شعر ليثبُت . فسألته عنه فأنشدني :

ذَهَب الفرزدقُ بالفَخار وإنّمـا حُلوُ الكلام ومُرُّه لجريـرِ

---

(١) المكتل : زبيل يعمل من الخوص ويحمل فيه التمر وغيره وسعته خمسة عشر صاعاً . أحله القرآن : أراد قوله تعالى : «وجزاء سيئة سيئة مثلها » وقوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنفس والعين بالعين ... » .

ولقد هجا فأمضَّ أخطلُ تغلـبٍ وحَوَى اللُّهى بمديحه المشهور
كلٌّ الثلاثة قـد أجاد فمدحُـه وهجاؤه قـد سار كـلَّ مَسيرِ
ولقد جَريتُ ففُتُّ غير مُهَلِّـلٍ بجِراءِ لا قَرِفٍ ولا مبْهـور
إنيّ لآنـفُ أن أُحبِّـرَ مِدحـةً أبـداً لغير خليفـةٍ ووزيـر
مـا ضرَّني حَسَدُ اللئام ولم يـزلْ ذو الفَضل يحسُده ذوو التقصير[1]

قال : فلم يرَ أن يقدِّم على نفسه غيرَها ، وكُتبت الأبيات عن فيه .

عن محمد بن حَفص بن عمرو بن الأَيْهم الحَنَفيّ قال :

مرّ مروان بن أبي حفصة برجلٍ من تَيم اللاّت بن ثَعلبة يُعرف بالجِنّيّ ، فقال له مروان : زعموا أنك تقول الشعر . فقال له : إن شئتَ عرّفتُك ذلك . فقال له مروان : ما أنت والشعر ، ما أرى ذلك من طريقتك ولا مَذهبك ولا تقوله ! فقال الجنّيّ : اجلِس واسمَع . فجلس ، فقال الجنّي يهجوه :

ثوى اللؤمُ في العَجْلان يوماً وليلـةً وفي دار مَروانٍ ثَوَى آخرَ الدَّهرِ
غدا اللؤمُ يبغي مَطرحـاً لِرحالـه فنقَّب في بَـرّ البلاد وفي البحـرِ
فلمّـا أتى مروانَ خَيَّـم عنـده وقال رضِينا بالمُقـام إلى الحشرِ
وليست لمروانٍ على العِرس غَيـرةٌ ولكنّ مَروانـاً يغـار على القِـدْر

فقال له مروان : ناشدتُك الله إلاّ كَففتَ ، فأنت أشعرُ الناس . فحلف الجنّي بالطّلاق ثلاثاً أنّه لا يكُفّ حتى يصير إليه بنفرٍ من رؤساء أهل اليمامة ثم يقول بحضرتهم : قاق في ... بَيضة . فجلبهم إليه مروان وفعل ذلك بحضرتهم ، وكان فيهم جدّي يحيى بن الأيهم ، فانصرفوا وهم يضحكون من فعله .

---

(١) في المطبوعة : « بالهجاء » بدلاً من « بالفخار » و «حوى النهى » بدلاً من حوى « اللهى » وما أثبتناه يوافق الرواية المشهورة لهذه الأبيات ، وهي أجود . واللهى ج لهية ولهوة : وهي العطية . هلل الرجل : جبن وبرّ . القرف والمقرف : الهجين من الخيل وهو ضد الكريم .

محمد بن يحيى بن أبي مُرّة التغلبيّ قال :

مررت بجعفر بن عفّان الطائيّ يوماً وهو على باب منزله ، فسلّمت عليه ، فقال لي : مرحباً يا أخا تَغلِب ، اجلس . فجلستُ ، فقال لي : أما تعجَب من ابن أبي حفصة - لَعَنه اللهُ - حيث يقول :

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ ... لِبني البَنات وِراثةُ الأعمامِ [1]

فقلت : بَلى والله إنيّ لأتعجّب منه وأُكثر اللَّعْن له ، فهل قلتَ في ذلك شيئاً ؟ فقال : نعم ، قلت :

لِمْ لا يكون وإنّ ذاك لَكائنٌ ... لِبني البنَات وِراثةُ الأعمام
للبِنت نصفٌ كاملٌ من ماله ... والعمُّ متروكٌ بغير سِهام
ما للطَّليق وللتُّراث وإنّما ... صَلّى الطَّليقُ مَخافةَ الصَّمصامِ [2]

وفاته

صالح بن عطيّة الأضجم قال :

لّما قال مروان :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثةُ الأعمام

لزمتهُ وعاهدتُ اللهَ أن أغتاله فأقتلَه أيَّ وقت أمكنني ذلك ، وما زلت أُلاطفه وأَبَرُّه وأكتب أشعاره حتى خُصصت به ، فأَنس بي جِداً ، وعرفتْ ذلك بنو حفصة جميعاً فأَنِسوا بي ، ولم أزل أطلب له غِرّةً حتى مرض من حُمّى أصابته ،

---

(١) في هذا البيت وفي الأبيات التي بعده ، ولم تذكر هنا ، يقرر ابن أبي حفصة حق بني العباس في وراثة النبي عليه السلام دون أبناء علي .

(٢) الطليق : أراد به العباس بن عبد المطلب ، عم رسول الله عليه السلام . الصمصام : السيف القاطع .

فلم أزل أُظهر لَه الجزع عليه وأُلازمه وأُلاطفه ، حتى خلا لي البيت يوماً ، فوثبتُ عليه فأخذت بحَلْقه ، فمَا فارقته حتى مات . فخرجت وتركتهُ ، فخرج إليه أهلُه بعد ساعةٍ فوجدوه ميّتاً ، وارتفعت الصَّيحةُ فحضرتُ وتباكيت وأظهرت الجزَع عليه حتى دُفن ، وما فطِنِ بما فعلت أحدٌ ولا اتّهمني به .

* * *

٣٥

مُسلِم بن الوَليد

[الأغاني الجزء ١٩ ص ٣٠ وما بعدها]

الشاعر

هو مُسلِم بن الوليد ، أبوه الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبي أُمامة أسعد ابن زُرارة الخارجيّ . يُلقَّب صريعَ الغواني ، شاعرٌ متقدّم من شعراء الدولة العباسية ، منشؤه ومَولده الكُوفة . وهو فيما زعَموا أولُ من قال الشعرَ المعروف بالَبديع ، هو لَقّب هذا الجنسَ « البديعَ » واللطيف ، وتبِعه فيه جماعةٌ وأشهرُهم فيه أبو تمّام الطائي ، فإنه جعل شعرَه كلَّه مَذهباً واحداً فيه ، ومسلمٌ كان مُتفنّناً متصّرِفاً في شعره .

قال أبو العبّاس محمد بن يزيد :

كان مسلمٌ شاعراً حسن النَّمَط ، جيّدَ القول في الشراب ، وكثيرٌ من الرُّواة يقرِنه بأبي نُواس في هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعاني الظَّريفة واستخرجها .

محمد بن القاسم بن مَهْرُوَية قال :

سمعت أبي يقول : أوّلُ من أَفسد الشعر مسلمُ بن الوليد ، جاء بهذا الذي سمّاه الناسُ البديعَ ، ثم جاء الطائيُّ بعده فتَفَنّن فيه .

حمّاد بن اسحاق عن أبيه قال :

لقي مسلمُ بن الوليد أبا نُواس فقال له : ما أَعرِف لك بيتاً الاّ فيه سَقَط . قال : فما تحفَظ من ذلك ؟ قال : قُل أنت ما شئتَ حتى أُريَك سقَطه فيه . فأنشده :

ذَكر الصَّبوحَ سُحَيرة فـارتـاحـا   وأَملَّه ديكُ الصَّباح صِياحـا

فقال له مسلم : فلمَ أَملَّه وهو الذي أَذكره به وارتاح ؟ فقال أبو نواس : فأنشِدني شيئاً من شعرك ليس فيه خَلَلَ . فأنشده مُسلم :

عاصى الشبابَ فـراح غيرَ مُفَنَّدِ   وأقام بين عَـزيمـةٍ وتجلُّـدِ

فقال له أبو نواس : قد جعلتَه رائحاً مقيماً في حال واحدة وبيت واحد . فتشاغبا وتساباً ساعةً ، وكلا البيتين صحيحُ المعنى .

قال محمد بن عبدالله بن مُسلم : حدّثني أبي قال :

اجتمع أصحابُ المأمون عنده يوماً ، فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضُهم : أين أنت يا أميرَ المؤمنين عن مُسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثى رجلاً :

أرادوا لِيخُفوا قبرَه عـن عَدوّه   فطِيبُ تُراب القبر دَلّ عل القبرِ

وحيث مدَح رجلاً بالشجاعة فقال :

يجُود بالنفس إذ ضَنّ الجوَادُ بها   والجُود بالنفس أقصى غاية الجُودِ

وهجا رجلاً بقُبح الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحت مـناظرُه فحين خَبرِتُــه   حَسُنتْ مناظره لقُبح المَخْبَرِ

وتغزل فقال :

هوىً يجِدُّ وحبـيـبُ يـلعـبُ   أنت لَقىً بينهما مُـعَـذَّبُ

فقال المأمون : هذا أشعرُ من خُضتُم اليوم في ذِكره

عن الحسين بن أبي السَّريّ قال :

قيل لمسلم بن الوليد : أيٌّ شعرك أحبُّ اليك ؟ قال : إنّ في شعري لَبيتاً أخذت معناه من التوراة ، وهو قولي :

دَلّتْ عل عَيبها الدنيا وصَدَّقها ... ما استَرجع الدهرُ ممّا كان أعطاني

قال الحسين : وحدّثني جماعة من أهل جُرجان أنّ راوية مُسلم جاء اليه بعد أن تاب لِيعرِض عليه شعره ، فتغافَله مسلمٌ ثم أخذ منه الدفتر الذي في يده ، فقذف به في البحر ، فلهذا قَلّ شعرُه ، فليس في أيدي الناس منه الا ما كان بالعــراق وما كان في أيدي الممدوحين من مدائحهم .

قال الحسين : وحدّثني الحسين بن دِعبل قال : قال أبي لِمسلم : ما معنى قولك :

« لا تَدْعُ بي الشوقَ إني غيرُ مَعْمودِ »

قال : لا تدعُني صريعَ الغواني فلستُ كذلك . وكان يُلقَّب هذا اللقب وكان له كارهاً .

دِعبل بن عليّ قال :

كان مسلم بن الوليد من أبخل الناس ، فرأيتُه يوماً وقد استقبل الرِضّا عن غلام له بعد مَوجِدة[1] ، فقال له : قد رضِيتُ عنك وأمرت لك بدرهم .

الحسين بن أبي السريّ قال :

كان مسلمُ بن الوليد أستاذَ دِعبل ، وعنه أخذ ، ومن بحره استقى . وحدّثني دعبلٌ أنه كان لا يزال يقول الشعر فيعرِضهُ عل مسلم فيقول له :

---

(١) الموجدة : الغضب .

إيّاك أن يكون أولُ ما يظهرُ لك ساقطاً فتُعرفَ به ، ثم لو قلت كلَّ شيءٍ جيداً كان الأولُ أشهرَ عنك ، وكنت أبداً لا تزال تعيَّرُ به . حتى قلتُ :

« أين الشبابُ وأيّةً سَلَكا »

فلما سمع هذه قال لي : أَظهِر الآن شعرك كيف شئتَ .

أحمد بن سعيد الحريريّ :

أن أبا تمّام حَلف الاّ يُصلي حتى يحفظ شعرَ مسلمٍ وأبي نواس . فمكث شهرين كذلك حتى حفظ شعرهما . قال : ودخلت عليه فرأيت شعرَهما بين يديه فقلت له : ما هذا ؟ فقال : اللاّتُ والعُزّى وانا أعبُدهُما من دون الله .

دِعبل بن عليّ قال :

كان أبو نواس يسألني أن أجمعَ بينه وبين مُسلم بن الوليد ، وكان مسلمٌ يسألني أن أجمع بينه وبين أبي نُواس وكان أبو نواس اذا حضَر تخلّف مسلمٌ واذا حضر مسلمٌ تخلّف أبو نواس ، الى ان اجتمعا ، فأنشده أبو نواس :

أجارةَ بيتينا أبــوكِ غَـيــورُ ومَيسور ما يُرجى لديكِ عسيرُ

وأنشده مسلم :

لله من هاشمٍ في أرضــه جَـبلٌ وأنت وابنُك رُكنا ذلك الجبلِ

فقلت لابي نواس : كيف رأيت مسلماً ؟ فقال : هو أشعر الناس بعدي . وسألت مسلماً : كيف رأيت أبا نواس ؟ فقال : هو أشعر الناس وأنا بعدَه

أخباره مع يزيد بن مزيد ومدائحه فيه

عن عبدالله بن مُسلم الدينوريّ قال :

كان مسلمُ بن الوليد وأخوه سليمان منقطعَين الى يزيد بن مَزْيدَ ومحمد بن منصور بن زياد ، ثم الفضل بن سَهل بعد ذلك . وقلّد الفضلُ مسلماً المَظالمَ بجُرجانَ ، فمات بها .

عن القَحْذَميّ قال :

قال يزيد بن مَزيد : أرسل إليّ الرشيدُ يوماً في وقت لا يُرسَل فيه الى مثلي ، فأتيتُه لابساً سلاحي ، مُستعدّاً لأمرٍ إن أراده . فلمّا رآني ضحك إليّ ثم قال : يا يزيدُ ، خَبِّرني مَن الذي يقول فيك :

تراه في الأَمن في دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ لا يأمَنُ الدَّهرَ أن يُدعَى على عَجَلِ
صافي العِيانِ طموحُ العَينِ هِمَّتُهُ فَكُّ العُناة وأسرُ الفاتكِ الخَطِلِ
للهِ من هاشمٍ في أرضه جبلٌ وأنت وابنُك رُكنا ذلك الجبلِ (١)

فقلت : لا أعرِفُه يا أمير المؤمنين . قال : سَوءةً لك من سيّد قوم يُمدح بمثل هذا الشعر ولا تعرِف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فَرَواه ووصل قائله ، وهو مُسلم بن الوليد . فانصرفت فدعوتُ به ووصلتهُ ووليّتهُ .

أبو عبدالله أحمد بن محمد بن سليمان الحنفيّ ذو الهِدْمَين قال : حدّثني أبي قال :

دخل يزيد بن مَزْيد على الرشيد فقال له : يا يزيدُ ، من الذي يقول فيك :

لا يَعبَقُ الطِيبُ خَدَّيه ومَفرِقَه ولا يُمَسِّح عينَيه من الكُحُلِ
قد عَوّد الطيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها فهنّ يَتبعنَه في كلّ مُرْتَحَلِ

فقال : لا أعرِف قائله يا أمير المؤمنين . فقال له هارون : أيُقال فيك مثلُ هذا الشعر ولا تعرف قائله ! فخرج من عنده خجِلاً ، فلما صار الى منزله دعا حاجبَه فقال له : من بالباب من الشعراء ؟ قال : مُسلم بن الوليد . فقال : وكيف حجبته عني فلم تُعلِمني بمكانه ؟ قال : أخبرتُه أنك مُضيقٌ (٢) ، وأنه ليس في يديك

---

(١) العناة ج العاني : الأسير . الخطل : السريع الطعن .
(٢) أضاق الرجل فهو مضيق : ضاق عليه عيشه وقلّ ماله .

شيءٌ تُعطيه اياه ، وسألتهُ الإمساكَ والمُقامَ أياماً الى أن تتّسعَ . قال : فأنكر ذلك عليه وقال : أدخِلْه إليَّ . فأدخله اليه ، فأنشدَه قوله :

أجررتُ حبلَ خَليعٍ في الصِبا غَزِلِ ... وشَمّرت هِممُ العُذّال في عَذَلي
ردَّ البكاءُ على العينِ الطَّموحِ هوىً ... مُفَرَّقٌ بين توديعٍ ومُرْتَحَلِ
أما كفى البَينَ أن أُرمَى بأسهُمه ... حتى رماني بلَحْظ الأعينُ النُجُلِ
مما جنت لي ، وإن كانت مُنىً صدقتْ ... صَبابةً خُلَسَ التَّسليم بالمُقَلِ

فقال له : قد أمرنا لك بخمسين ألفَ درهم ، فاقبضها واعذِر. فخرج الحاجبُ فقال لمسلم : قد أَمرني أن أرهنَ ضَيعةً من ضِياعه على مائة ألف درهم ، خمسون ألفاً لك وخمسون ألفاً لنفقَته . وأعطاه إيّاها ، وكتب صاحبُ الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد بمائتي الف درهم وقال : اقضِ الخمسين الألف التي أخذها الشاعر وزِدْه مثلها ، وخذ مائةَ ألفٍ لنفَقتك . فافتكَّ ضَيعتَه وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أخرى .

عليّ بن عمرو قال :

حدّثني مسلمُ بن الوليد المعروفُ بصَريع الغواني قال : كنت يوماً جالساً في دكّان خياط بإزاء منزلي إذ رأيت طارقاً ببابي ، فقُمت اليه فإذا هو صديقٌ لي من أهل الكوفة قد قدِم من قُمَّ ، فسُررت به ، وكأنّ إنساناً لطَم وجهي لأنه لم يكن عندي درهمٌ واحد أُنفقه عليه ، فقُمت فسلّمتُ عليه وأدخلته منزلي ، وأخذت خُفَّين كانا لي أتجمّلُ بهما ، فدفعتُهما الى جاريتي وكتبت معها رقعةً الى بعض معارفي في السوق أسأله أن يبيع الخُفّين ويشتري لي لحماً وخبزاً بشيء سمَّيتُه . فمضت الجارية وعادت اليّ وقد اشترى لها ما قد حَدَّدْته له ، وقد باع الخُفَّين بتسعة دراهم ، فكأنها إنما جاءت بخُفَّين جديدين . فقعدت أنا وضيفي نطبُخ ،وسألت جاراً لي أن يَسقينا قارورةَ نبيذ ، فوَجّه بها إليّ ، وأمرت الجارية بأن تُغلقَ باب الدّار مخافةَ طارق يجيءُ فيشركُنا فيما نحن فيه ليبقى

لي وله ما نأكله الى أن ينصرف . فإنا لجالسان نطبخُ حتى طَرق البابَ طارقٌ ، فقلت لجاريتي : انظري مَن هذا . فنظرتْ من شِقِّ الباب فإذا رجلٌ عليه سوادٌ وشاشِيَّةٌ ومِنطقةٌ ومعه شاكريٌّ ، فخبّرتني بموضعه فأنكرتُ أمره ، ثم رجعتُ الى نفسي فقلت : لستُ بصاحب دَعارة ، ولا للسُّلطان عليَّ سبيلٌ . ففتحتُ الباب وخرجت اليه ، فنزل عن دابتّه وقال : أأنت مسلمُ بن الوليد ؟ قلت : نعم . فقال : كيف لي بمعرفتك ؟ قلت : الذي دَلَّك على منزلي يُصَحِح لك معرفتي . فقال لغلامه . أمضِ إلى الخيّاط فسَلْه عنه . فمضى فسأله عني ، فقال : نعم ، هو مُسلم بن الوليد ، فأخرَجَ إليَّ كتاباً من خُفِّه وقال : هذا كتاب الأمير يزيد بن مَزيد إليّ ، يأمرني ألا أفضَّه الا عند لقائك . فإذا فيه : اذا لقيتَ مسلم بن الوليد فادفَع اليه هذه العشرةَ آلاف درهم التي أنفذتُها ، تكون له في منزله ، وادفع ثلاثة آلافِ درهم نفقةً يتحمّل بها إلينا . فأخذتُ الثلاثة والعشْرةَ ودخلت الى منزلي والرجلُ معي ، فأكلنا ذلك الطعامَ ، وازدَدتُ فيه وفي الشراب ، واشتريتُ فاكهةً ، واتسعتُ ووهبت لضَيفي من الدراهم ما يُهدي به هديةً لعِياله ، وأخذت في الجِهاز ثم ما زلت معه حتى صِرنا الى الرَّقّة الى باب يزيد ، فدخل الرجلُ واذا هو أحد حُجّابه ، فوجده في الحَمّام ، فخرجَ إليّ فجلس معي قليلاً ثم خُبِّرَ الحاجب بأنه قد خرج من الحَمّام ، فأدخَلني اليه ، واذا هو على كُرسي جالسٌ ، وعلى رأسه وصيفةٌ بيدها غِلافُ مرآة ، وبيده هو مرآةٌ ومُشطٌ يُسرِّح لِحيته ، فقال لي ، يا مسلمُ ، ما الذي بَطَّأ بك عنّا ؟ فقلت : أيها الأميرُ قِلّةُ ذات اليد . قال : فأنشِدني . فأنشدتُه ، قصيدتي التي مدحتُه فيها :

أجررتَ حبلَ خليعٍ في الصِبا غزِلِ وشَمّرتْ هِمَمُ العُذال في عَذَلي

فلمّا صرتُ الى قولي :

لا يعبَقُ الطِيبُ خدَّيه ومَفرِقه ولا يُمسّح عينيه من الكُحُلِ

وضع المرآة في غِلافها وقال للجارية : انصرفي ، فقد حَرّم علينا مُسلمٌ الطِيبَ . فلما فرغت من القصيدة قال لي يا مسلمُ ، أتدري ما الذي حَداني الى ان وجهتُ اليك ؟ فقلت : لا والله ما أدري . قال : كنتُ عند الرشيد منذ ليالٍ أُغمّزُ (١) رجليه ، إذ قال لي : يا يزيدُ ، من القائل فيك :

سَلّ الخليفةُ سيفاً مـن بني مطرٍ ... يمضي فيخترمُ الأجـادَ والهاما
كالدّهر لا يَنثني عما يَهُمُّ بـه ... قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاما

فقلت : واللهِ ما أدري . فقال لي الرشيد : يا سُبحانَ الله ! أنت مُقيمٌ على أعرابيتّك ، يقال فيك مثلُ هذا الشعر ولا تدري مَن قائله ؟ فسألتُ عن قائله ، فأُخبرت أنك أنت هو ، فقُم حتى أُدخِلك على أمير المؤمنين .

ثم قام فدخل على الرشيد ، فما علمتُ حتى خرج عليّ الإذن ، فأذن لي ، فدخلت على الرشيد ، فأنشدتُه ما لي فيه من الشعر فأمر لي بمائتي ألف درهم . فلمّا انصرفتُ الى يزيد أمر لي بمائة وتسعين ألفاً وقال : لا يجوز لي أن أُعطيَك مثلما أعطاك أميرُ المؤمنين . وأقطعَني إقطاعات تبلغ غَلّتُها مائتي ألف درهم .

قال مسلم : ثم أفضت بي الأمور بعد ذلك الى أن أغضبَني ، فهجوتُه ، فشكاني الى الرشيد ، فدعاني وقال : أتبيعُني عِرضَ يزيد؟ فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، فقال لي : بكم ؟ فقلت : برغيف خُبز. فغضب حتى خِفتهُ على نفسي وقال : قد كنتُ على أن أشتريَه منك بمالٍ جَسيم ، ولست أفعلُ ولا كرامةَ ، فقد علمتُ إحسانَه إليك ، وأنا نَفيٌّ من أبي وواللهِ ثم واللهِ لئن بَلغني أنك هجوتَه لأَنزِعَنّ لسانَك من بين فَكّيك . فأمسكتُ عنه بعد ذلك ، وما ذكرتُه بخيرٍ ولا شرّ .

محمد بن عبدالله اليعقوبيّ قال :

حدّثني البَيْدَق الراوية ، وكان من أهل نَصِيبين ، قال : دخلتُ دار يزيد بن

---

(١) غمز رجليه : كبسهما ودلكهما بيديه .

مزيد يوماً وفيها الخَلْقُ ، واذا فتىً جالس في أفناء النّاس ، ولم يكن يزيد عَرَفه بعدُ ، واذا هو مُسلم بن الوليد ، فقال لي : ما في نفسي أن أقولَ شعراً أبداً . فقلت : ولِمَ ؟ قال : لأني مدحتُ هذا الرجل بشعر ما مُدح بمثله قطّ ، ولست أجِد من يُوصِله . فقلت له : أنشدني بعضَه . فأنشَدني منه :

مُوفٍ على مُهَجٍ في يوم ذي رَهَجٍ ... كـأنّه أجلٌ يسعى إلى أمـلِ
يَقري السّيوفَ نفوسَ الناكثين بـه ... ويَجعلُ الرُّوسَ تيجانَ القَنا الذُّبلِ
لا يَعبَقُ الطِّيبُ خَدَّيه ومَفْـرِقَـه ... ولا يُمَسِّح عينَيه من الكُحُـلِ
اذا انتضى سيفَه كانت مَسـالكُه ... مسالكَ الموت في الأجسام والقُلَلِ
وإن خلتْ بحديث النفس فِكرتُـه ... عاشَ الرجاءُ وماتَ الخوفُ من وَجَلِ
كالليث إن هِجتَه فالموتُ راحـتُـه ... لا يَستريحُ الى الأيّام والدُّوَلِ
لله من هاشمٍ في أرضـه جَـبَـلٌ ... وأنت وابنُك رُكنا ذلك الجبـلِ
صدّقتَ ظنّيّ وصدّقتَ الظنونَ بـه ... وحَطّ جُودُك عَقْدَ الرَّحل عن جَملي[1]

قال : فأخذت منها بيتين ثم قلت له : أنشِدني أيضاً مالك فيه . فأنشَدني قصيدةً أُخرى ابتداؤها :

طيفَ الخيال حَمِدنا منك إلمـامـا ... داويتَ سُقماً وقد هيّجتَ أسقاما

يقول فيها :

كالدّهر لا يَنثني عمّا يَـهُمُّ بـه ... قد أوسعَ الناسَ إنعاماً وإرغامـا

قال : فأنشدتُ هذه الأبياتَ يزيدَ بن مَزيد ، فأمر له بخمسمائة درهم ، ثم ذكرتهُ بالرِّقّة فقلت له : هذا الشاعر الذي قد مَدَحك فأحسنَ ، تَقتصر به على خمسمائة درهم ! فبعث إليه بخمسمائة درهم أُخرى ، قال : فقال لي مسلم :

---

(١) الرهج : الغبار المثار ، والفتنة والشغب . يقري : يطعم : رمح ذابل : حادّ . القلل ج قلة : الرأس ، ومن كل شيْ أعلاه .

جاءتني وقد رهنتُ طَيْلَساني على رؤوس الأخوان ، فوقعتْ مني أحسنَ مَوقع .

عن أبي فِرعونَ مولى يزيد بن مزيد قال :

ركب يزيد يوماً الى الرشيد فتغلّف بغالية،[1] ثم لم يلبث أن عاد فدَعا بطَسْتٍ فغَسل الغالية وقال : كرهتُ أن أكذّب قول مسلم بن الوليد

لا يَعْبَقُ الطِيبُ خدَّيه ومَـــفرِقَـــه ولا يمسّح عينيه من الكُحُـــــلِ

أبو تَوبة قال :

كان مسلمُ بن الوليد جالساً بين يدَي يزيد بن مَزْيَد ، فأتاه كتابٌ فيه مُهمٌّ له ، فقرأه سِرّاً ووضَعه ، ثم أعاد قراءتَه ووضَعَه ، ثم أراد القيام فقال له مسلم بن الوليد :

الحَزْمُ تَحريقـــهُ إن كنت ذا حَـــذَرٍ وإنّما الحزمُ سُوءُ الظنِّ بالنـــاس
لقد أتـــاك وقد أدّى أمـــــانتَـــــه فاجعَلْ صِيانتَه في بطن أَرماسِ[2]

قال : فضحك يزيد وقال : صدقتَ لَعمري . وخرّق الكتاب ، وأمر بإحراقه .

مَيمون بن هارون قال :

كان مسلم بن الوليد قد انحرف عن مَعْنِ بن زائدة بعد مَدحه إياه لشيء أوحشه منه ، فسأله يزيد بن مَزيد أن يَهَبه له ، فوعَده ولم يفعل ، فتركه يزيدُ خوفاً منه ، فهجاه هجاءً كثيراً ، حتى خلف له الرشيد إن عاود هجاءه قطعَ لسانه . فن ذلك قوله فيه :

يـــا معنُ إنك لم تزل في خِزْيـــــةٍ حتى لفقتَ أباك في الأكفانِ
فاشكُر بلاءَ الموت عنــــدك إنـــــه أَودى بلُؤم الحيّ من شَيبـــانِ

---

(١) تغلف بغالية : تطيّب بطيب .

(٢) أرماس ج رمس : القبر .

قال : وهجا أيضاً يزيد بن مَزيد بعد مَدحه أياه فقال :

أيزيدُ يا مَغرورُ ألأمُ مَـــن مَـشى ترجُو الفَلاحَ وأنت نُطفةُ مَزْيَدِ
إن كنتَ تُنكِر مَنْطِقي فاصرُخْ بـــه يومَ العَرُوبة عند باب المَسجــــد
في مَن يزيد فإن أصبــتُ بمَزْيَــدِ فَلْساً فهاك على مُخاطرةٍ يـدي[1]

هكذا روى جَحظةُ في هذا الخبر ، والشِعران جميعاً في يزيد بن مزيد ، فالأول منهما أوّلهُ :

أيزيدُ إنك لم تزَلْ في خَزيةٍ

وهكذا هو في شعر مسلم ، ولم يلق مسلمٌ معن بن زائدة ولا له فيه مدحٌ ولا هجاء.

محمد بن عبدالله بن جُشَم قال :

كان يزيد بن مزيد قد سأل مسلم بن الوليد عما يكفيه ويكفي عيالَه ، فأخبره فجعله جِرايةً له ثم قال : ليس هذا مما تُحاسَب به بدلاً من جائزة أو ثواب مديح . فكان يبعث به اليه في كل سنة ، فلمّا مات يزيدُ رثاه مسلم فقال :

أحـقّـاً أنه أودى يـــزيــدُ تبيَّنْ أيّـها الناعـي المُشيدُ
أتدري مَن نعيتَ وكيف فاهـت به شفَتاك كان بها الصَّعيدُ
أحامي المجد والإسـلام أودى فما للأرض ويحَك لا تَميدُ
تأمَّلْ هل ترى الإسلام مالـت دعائمهُ وهل شاب الـوليد
وهل شِيمتْ سيوفُ بني نــزارٍ وهل وُضِعتْ عن الخيل اللُّبودُ
وهل تَسقي البلادَ ثِقالُ مُـــزْنٍ بدِرَّتها وهل يَخضرُّ عُــود
أما هُدّت لِمصرعه نـــزارٌ بلى وتقوَّض المجدُ المَشيـــدُ
وحَلَّ ضَريحَه إذ حــلّ فيــه طريفُ المجد والحَسَبُ التَّليدُ
أما واللهِ ما تنفـــكُّ عيني عليك بدمعها أبداً تَجُـودُ

---

(١) اصرخ به : أي نادِ على أبيك مزيد . يوم العروبة : يوم الجمعة . المخاطرة : المراهنة .

وإن تجمُدْ دموعُ لئيم قوم ... فليس لِدمعِ ذي حسَبٍ جُمود
أبعدَ يزيدَ تختزِنُ البواكي ... دموعاً أو تُصانُ لها خُدودُ
لِتَبْكِك قُبّةُ الإسلام لمّا ... وهَتْ أطنابُها ووَهَى العَمُودُ
وَيَبْكِكَ شاعرٌ لم يُبقِ دهرٌ ... له نشباً وقد كسَد القصيدُ
فإن يَهلِكْ يزيدُ فكلُّ حيٍ ... فَرِيسٌ للمنيّة أو طَرِيدُ [1]

هكذا في الخبر ، والقصيدة للتَيْميّ .

أحمد بن محمد بن أبي سَعد قال :

أهديت الى يزيد بن مَزيد جاريةٌ وهو يأكل ، فلمّا رُفع الطعامُ من بين يديه وَطئها فلم ينزِل عنها ألا مَيتاً ، وهو بِبرذَعة [2] فدُفن في مقابر بَرذعة ، وكان مسلم معه في صَحابته ، فقال يرثيه :

قبرٌ ببرذعَةَ استسرّ ضريحُهُ ... خطَراً تقاصر دُونه الأخطارُ
أبقى الزمانُ على ربيعةَ بعدَهُ ... حُزناً كعُمر الدهر ليس يُعار
سلكت بك العَربُ السبيلَ إلى العُلا ... حتى إذا بلغوا المدى بك حارُوا
نُفضت بك الأحلاس نفضَ إقامة ... واستَرجَعَت نُزّادَها الأمصار
فاذهَب كما ذهبتْ غوادي مُزنةٍ ... أثنى عليها السَّهلُ والأوعارُ [3]

عبدالله بن الحسن اللهبيّ قال :

كان مسلم بن الوليد مَدّاحاً ليزيد بن مَزيد ،وكان يُؤثره ويُقدمّه ويُجزل

---

(١) أودى : هلك . كان بها الصعيد : دعاء تدعو به العرب على من يحمل خبراً مشؤوماً فيقال له : بفيك التراب ، والصعيد هو التراب . شام السيف : أغمده . النشب : المال .

(٢) برذعة : بلد في أقصى أذربيجان .

(٣) استسر : أخفى ، وارى . الخطر : العظيم الشأن . الأحلاس ج حِلس : كل شيءٍ ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل ، يريد أن القتال توقف بعد موتك .

صلتَه ، فلمّا مات وفد على ابنه محمّد ، فمدحه وعزّاه عن أبيه وأقام ببابه أياماً فلم يرَ منه ما يُحبّ ، فانصرف عنه وقال فيه :

لبستُ عَزاءً عن لِقاء محمـــدٍ وأعرضتُ عنه مُنصِفاً وودُودا
وقلت لِنفسٍ قادها الشوقُ نحوَه فعَوّضهـا منه اللِقاءَ صدودا
هَبِيه امـرأً قد كان أصفاكِ ودَّه ومات وإلاّ فاحسِبيه يزيـــدا
لَعَمري لقد ولىّ فلم ألقَ بعـــدَه وفاءً لِذي عهدٍ يُعدّ حَميـدا

مهاجاته ابن قُنْبُر

مالك بن إبراهيم قال :

كان مُسلم بن الوليد يُهاجي الحكَمَ بن قُنْبُر المازنيّ ، فغلب عليه ابن قُنبر مدّةً وأخرسه ، ثم أثاب مُسلم بعد أن انْخَزَلَ وأفحم ، فهتَك ابن قُنبر حتى كفّ عن مُناقضته ، فكان يهرُب منه ، فإذا لقيه مسلمٌ قبض عليه وهجاه وأنشده ما قاله فيه ، فيُمسك عن إجابته . ثم جاءه ابنُ قُنبر الى منزله واعتذر اليه ممّا سَلَف ، وتحمّلَ عليه بأهله وسألَه الإمساكَ ، فوعَده بذلك ، فقال فيه :

حلُم ابنُ قُنْبُرَ حين أقصر جَهلُـــه هل كان يحلُمُ شاعرٌ عن شاعرِ
ما أنت بالحكَمَ الذي سُمِّيتَـــــه غالتْك حِلْمَك هفوةٌ من قاهر
لو لا اعتذارُك لارتمـى بك زاخِـرٌ مَرِحُ العُباب يَفُوت طَرْفَ الناظر
لا تُرتِعَنْ لَحمي لســانَك بـعدهَـا إني أخاف عليك شَفرةَ جـازر
واستَغْنِمِ العفوَ الذي أُوتيـتَــه لا تأمَنَنَّ عُقـوبةً مــن قـادر

محمد بن عبدالله أبو بكر العَبْديّ قال :

رأيت مسلمَ بن الوليد وابنَ قُنبر في مسجد الرُّصافة في يوم جُمعة ، وكلٌّ واحدٍ منهما بإزاء صاحبه ، وكانا يتهاجيان ، فبدأ مسلمٌ فقال :

أنــا النّـارُ في أحجارهـا مُستكِنّـةٌ   فإن كنـتَ ممّـن يـقدَحُ النارَ فاقدَحِ

فأجابه ابنُ قُنبر :

قد كنتَ تَهـوي وما قَوسي بمُوتَرةٍ   فكيف ظنُّك بـي والقوسُ في الوَتَرِ

قال : فوثب اليه مسلمٌ وتواخزا وتواثبا ، وحَجَز الناس بينهما فتفرّقا .

عليّ بن عَمروس الأنصاريّ قال :

جاء رجلٌ من الأنصار ثم من الخزرج الى مسلم بن الوليد فقال له : ويلَك ما لنَا ولك ، قد فضحتنا وأخزَيْتَنَا ، تعرّضتَ لابن قُنْبر فهاجَيتَه حتى اذا أمكنّته من أعراضنا انخزلتَ عنه وأرعيتَه لُحومنَا ! فلا أنت سكتَّ ووسعك ما وسع غيرَك ، ولا أنت لمـّا انتصرتَ انتصفت . فقال له مسلم : فما أَصنع ؟ فأنا أَصبِر عليه ، فإن كَفّ وإلا تحمّلتُ عليه بإخوانه ، فإن كفّ وإلا وكلتُه الى بَغْيه ، ولنا شيخٌ يصوم الدّهرَ ويقوم الليل فإن أقام على ما هو عليه سألتهُ أن يسهَرَ له ليلةً يدعو الله عليه فيها فإنّها تُهلِكُه . فقال له الأنصاريُّ : سَخِنتْ عينُك ! أوَ بهذ تَنتصفُ ممّن هجاك ! ثم قال له :

قد لاذ من خوف ابن قُنبرَ مُسلـمٌ   بدُعاء والده مع الأسحـارِ

[الأبيات . .]

قال : فكاد مسلمٌ أن يموتَ غَمّاً وبكاءً ، وقال له : أنت شرٌّ عليّ من ابن قنبر . ثم أثاب[1] وحَمِيَ فهتَكَ ابنَ قنبر ومزّقه حتى تركه ، وتحمّل عليه بابنه وأهله حتى أعفاه من المهاجاة .

محمد بن عبدالله بن الوليد مولى الأنصار ـ وكان عالماً بشعر مسلم بن الوليد وأخباره ـ قال :

كان سبب المهاجاة بين مسلم بن الوليد والحكَم بن قُنبر أنّ الطرمّاح بن حكيم قد كان هجا بني تميم بقصيدته التي يقول فيها :

(١) أثاب : أقبل ، وأثاب أيضاً : عادت إليه قوّته .

لا عزّ نصرُ امرىءٍ أضحى له فـرسٌ ... على تميم يريد النصر مـن أحدِ

[الأبيات . . .]

وهي قصيدة طويلة ، وكان الفرزدق أجاب الطرمّاحَ عنها ، ثم إنّ ابن قنبر المازنيّ قال بعد خبرٍ طويل يردّ على الطرمّاح :

يا عاوياً هـاج ليثاً بـالعُواء لـــه ... شَثْنَ البَراثن وَرد اللون ذا لِبَدِ[1]

[الأبيات . . .] . . . . . .

. . .فبلغ مسلم بن الوليد هجاء ابن قنبر للأزد وطيّء وردُّه على الطرمّاح بعد موته ، فغضب من ذلك وقال : ما المعنى في مناقضة رجلٍ ميتٍ وإثارة الشرّ بذكر القبائل ! لا سيّما وقد أجابه الفرزدق عن قوله ! فأبى ابنُ قنبر الا تمادياً في مُناقضته ، فقال مسلم قصيدته التي أولُها :

آياتُ أطلالٍ برامـــةَ دُرَّسِ ... هِجنَ الصَّبابةَ إذ ذكرتُ مُعَرَّسي

أوحت الى دِرر الدّمُوع فأسبلـتَ ... واستفهمتْها غيرَ أن لم تَنبِسِ[2]

يقول فيها يصف الخمر :

صفراء من حَلَب الكُـروم كسوتُها ... بيضاء من حَلَب الغُيوم البُجَّسِ

مُزجتْ ولاوَذَها الحَـبابُ فحاكها ... فكأنّ حِلْيَتَها جَنيُّ النَّرجِـــس

ويقول فيها . . . . . . :

واذا افتخرتُ عـددتُ سعيَ مآثـرٍ ... قَصَرت على الأعضاء طَرْفَ الأشوسِ

رفعت بنو النّجار حِلفيَ فـيهـم ... ثم انفردت فأفسحوا عـن مَجلسي

فاعقِل لسانَـك عن شتائم قومـنا ... لا يَعلقنَّك خـادرٌ مـن مأنسِ

أخلقت فخرك مـن أبيـك وجئتَني ... بأبٍ جديد بـعد طـول تلمُّس

أخذتْ عليك المحكَمـاتُ طريقهـا ... فغدا يُهاجي أعظُماً في مَرمَسِ[1]

(١) شثن البراثن : خشنها وغليظها .

(٢) عرّس بالمكان : نزل به ليلاً .

(١) الأشوس : الرافع رأسه تكبراً . الخادر : الأسد في عرينه ، شبه نفسه بالأسد في صولته =

قال : فلم يُجِبه ابنُ قُنبر عن هذه بشيء ، ثم التقيا فتعاتبا واعتذر كل واحد منهما الى صاحبه ، فقال مسلم يهجوه :

حَلُم إبن قنبر حين قصّر شعرهُ هل كان يحلم شاعرٌ عن شاعر

قال : ومكث ابن قنبر حيناً لا يجيبه عن هذا ولا عن غيره بشيء طلباً للكفاف .
ثم هجا مسلمٌ قريشاً وفخر بالأنصار فقال :

قُل لِمنَ تاه إذ بنا عَزّ جَهلاً ليس بالِتيه يفخرُ الأحرارُ
فتناهَوا وأقصِروا فلقد جا رت عن القصد فيكم الأنصار
أيكُم حاط ذا جِوارٍ بعزٍ قبل أن تَحتويه منّا الدّار
او رجا أن يفوتَ قوماً بوِتْرٍ لم تزلْ تَمتطيهم الأوتارُ
لم يكن ذاك فيكمُ فدعُوا الفخرَ بما لا يَسُوغُ فيه افْتِخارُ
ونزاراً ففاخِروا تَفضُلوهم ودعُوا مَن له عبيداً نِزارُ
فبنا عزّ منكم الذلُّ والدهرُ عليكم برِيبةٍ كرّار
حاذِروا دولةَ الزّمان عليكم إنه بين أهله أطوارُ
فترُدّوا ونحن للحالة الأُولى وللأَوحد الأَذَلّ الصَّغار
فاخرتْنا لمّا بَسَطْنا لها الفخرَ قريشٌ وفخرُها مستعارُ
ذكرتْ عزَّها وما كان فيها قبل أن يَستجيرَنا مُستجارُ
إنما كان عِزُّها في جبال ترتقيها كما تَرقّى الوِبارُ
أيها الفاخرون بالعزّ والعِزُّ لِقومٍ سواهمُ والفَخارُ
أخبِرونا مَن الأعَزُّ أألمنصورُ حتى اعتلى أم الأنصارُ
فلنا العِزُّ قبلَ عِزِّ قريشٍ وقريشٌ تلك الدّهورَ تِجارُ (٢)

= وشدة هجائه . يهاجي أعظماً في مرمس : أراد هجاء الطرماح بعد وفاته .

(٢) الوبار ج وَبر : حيوان صحراوي في حجم السِنّور .

قال : فانبرى له ابنُ قُنبر يُجيبه فقال :

ألا امثُلْ أميرَ المؤمنين بمُسلـــم   وأفلِقْ به الأحشاءَ من كلّ مُجرمِ
ولا ترجِعَنْ عن قتله باستنابـــةٍ   فما هو عن شتم النبيّ بمُحْجِمِ
ولا عن مساواةٍ لــه ولقــومه   قريش بأصداء لِعادٍ وجُرهُمِ

[الأبيات . . .]

قال : وكان مسلم قال هذه القصيدة في قريش وكتَمها ، فوقعت الى ابن قُنْبر ، وأجابه عنها واستعلى عليه وهتَكَه ، وأغرى به السُّلطان ، فلم يكن عند مسلم في هذا جوابٌ أكثر من الانتفاء منها ونِسبتها الى ابن قُنبر ، والادعاء عليه أنه ألصقها به ، ونَسبها اليه ، ، لِيعُرضَهُ للسلطان ، وخافه فقال ينتفي من هذه القصيدة ويهجو تميماً :

دعوتَ أمير المؤمنين ولــم تكــن   هناك ولكن مَــن يَخَفْ يتجشَّمِ
وإنك إذ تدعو الخليــفــة ناصــراً   لكــالمترقّيّ في السّماء بسُلَّــم
كذاك الصّدى تدعُوه من حيث لا ترى   وإن تتوهَّمْه تَمُتْ في التوهُّــم
هجوتَ قريشاً عامــداً ونحلــتني   رُويدَك يظهرْ مــا تقولُ فيُعلَمِ
إذا كان مثلي في قَبيلي فــإنّــه   على ابنَي لُؤيٍّ قُصْرةً غيرُ متّهمِ

[الأبيات . . . .]

قال : ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قُل لعبد النَّضِير مُسلمِ الوَغــدِ الدَّنيء اللئيم شيخ النِصّابِ

[الأبيات . . . .]

وهي قصيدة طويلة ، فلم يُجِبه مسلمٌ عنها بشيء ، فقال فيه ابنُ قنبر أيضاً :

لستُ أنفيكَ إن سوايَ نـفاكــا   عن أبيك الذي لــه مُنْتماكا

[الأبيات . . . .]

وهي طويلة ، فلم يُجِبه مسلمٌ عنها بشيء ، فقال ابن قُنبر أيضاً يهجوه :

فخرَ العبدُ عبدُ قِـنّ اليهـودِ بضعيفٍ من فخره مَردُودِ

[الأبيات . . . .]

قال : فلمّا أفحش في هذه القصيدة وفي عدّة قصائد قالها ، ومسلمٌ لا يجيبه ، مشى اليه قومٌ من مَشيخة الانصار ، واستعانوا بمشيخةٍ من قُرّاء تميم وذوي العلم والفضل منهم ، فمشوا معهم اليه فقالوا له : ألا تستحي من أن تهجُوَ مَن لا يُجيبُك ! أنت بدأت الرجل فأجابك ، ثم عُدتَ فكَفّ ، وتجاوزت ذلك الى ذِكر أعراض الأنصار التي كان رسول الله ﷺ يحميها ويذُبُّ عنها ويَصُونُها لغير حالٍ أحلّت لك ذلك منهم ، فما زالوا يَعِظُونه ويقولون له كلَّ قولٍ حتى أمْسَك عنَ المناقضة لُمسلم ، فانقطعتْ .

سائر أخباره

● محمد بن يزيد قال .

كان السبب في قول مسلم :

تَدَّعي الشوقَ إن نَأَتْ وتَجَنّى إذا دنتْ

أنه علِق جاريةً ذات ذِكرٍ وشَرَف ، وكان منزلها في مَهَبّ الشمال من منزله ، وفي ذلك يقول :

أُحبّ الرِيحَ ما هبّتْ شمالا وأحسُدُها إذا هبّتْ جَنُوبا
أهابُك أن أبوحَ بذات نفسي وأفرقُ إن سألتُك أن أخيبا
وأهجرُ صاحبي حُبَّ التجنّي عليه اذا تَجنّيتُ الذّنوبا
كأني حين أُغضي عن سواكم أخاف لكم على عيني رَقيبا

قال : وكانت له جاريةٌ يُرسلها اليها ويَبُثُّها سرَّه وتعود اليه بأخبارها ورسائلها ،

فطال ذلك بينهما حتى أحبَّتْها الجاريةُ التي عِلقها مسلمٌ ومالت اليها ، وكلتاهما في نهاية الحُسن والكمال .

وكان مسلمٌ يحبّ جاريته هذه محبةً شديدة ، ولم يكن يهوى تلك ، إنما كان يُريد الغزَل والمجونَ والمُراسلة وأن يَشيعَ له حديثٌ بهواها ، وكان يرى ذلك من الملاحة والظَّرف والأدب . فلما رأى مودّة تلك لجاريته هجر جاريته مُظهِراً لذلك ، وقطعها عنِ الذَّهاب الى تلك ، وذلك قولُه :

وأهجر صاحبي حُبَّ التجنّي عليه اذا تجنَّيتُ الذُّنوبا

وأرسلها مع غير جاريته الأولى وذلك قولُه :

تدَّعي الشوقَ إن نأتْ وتَجنّى اذا دنتْ
واعدتْنا وأخلَفتْ فأساءت وأحسنتْ
سرَّني لو صبرتُ عنها فتُجزَى بما جَنَتْ
إنّ سَلمى لو اتَّقت ربَّها فيَّ أنجزتْ
زرعتْ في الحشا الهوى وسقتْه حتى نَبتْ

● الحسن بن سعيد عن أبيه قال :

كان داود بن يزيد بن حاتم المُهلّبيّ يجلس للشعراء في السنة مجلساً واحداً . فيقصِدونه لذلك اليوم ويُنشدونه . فوَجّه اليه مسلمُ بن الوليد راويته بشعره الذي يقول فيه :

جعلتَه حيث ترتاب الرياحُ به وتحسُدُ الطَّيرَ فيه أَضبُعُ البِيدِ

فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ، ولَحِقه بعَقبِ خروجهم عنه ، فتقدم الى الحاجب وحسر لِثامَه عن وجهه ثم قال له : استأذنْ لي على الأمير. قال : ومَن أنت ؟ قال : شاعرٌ. قال : قد انصرم وقتُك وانصرف الشعراءُ ، وهو على القِيام ، فقال له : ويحَك ! قد وفدتُ على الأمير بشعرٍ ما قالت العربُ مثلَه . قال : وكان مع الحاجبِ أدبٌ يفهم به ما يسمعُ ، فقال : هاتِ حتى أسمع ،

فإن كان الأمر كما ذكرتَ أوصلتُك إليه . فأنشَده بعض القصيدة ، فسمع شيئاً يقصُر الوصف عنه ، فدخل على داود فقال له : قد قدِم على الأمير شاعرٌ بشعرٍ ما قيل فيه مثلهُ . فقال : أَدخِل قائله . فأدخلَهَ ، فلمّا مثلَ بين يديه سلّم وقال : قدِمتُ على الأمير ـ أعزّه الله ـ بمدحٍ يسمعه فيَعلمُ به تقدُّمي على غيري ممّن امتدحه . فقال : هاتِ . فلمّا افتتح القصيدة وقال :

لا تدعُ بـي الشوق إنّي غير مَعمـودِ　　نَهى النُّهى عن هوىٰ البِيض الرّعاديدِ[1]

استوى جالساً وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه اليه ثم قال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم ، أعزّ الله الأمير . قال : في كم قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر ، أبقاك اللهُ . قال : لو قلتهُ في ثمانية أشهر لكنت مُحسناً ، وقد اتّهمتُك لجودة شعرك وخُمول ذِكرك ، فإن كنتَ قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعةَ أشهُرٍ في مثله ، وأمرتُ بالإجراء عليك ، فإن جئتَنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم والا حرمتُك . فقال : او الإقالة ، أعزّ الله الأمير . قال : أَقَلْتُك . قال : الشعر لمسلم بن الوليد ، وأنا راويتُه والوافدُ عليك بشعره . فقال : أنا ابنُ حاتم ! إنكَ لمّاَ افتتحت شعره فقلت :

« لا تدعُ بـي الشوق إني غير مَعمود »

سمعت كلامَ مسلم يناديني ، فأجبتُ نداءه واستويتُ جالساً . ثم قال : يا غُلام ، أَعطِه عشرةَ آلاف درهم ، واحمِل السّاعةَ الى مُسلم مائة ألف درهم .

● موسى بن عبدالله التميميّ قال :

دخل مسلم بن الوليد الأنصاريّ على الفضل بن سَهل لينشِدَه شعراً ، فقال له : أيها الكَهل ، اني أُجِلّك عن الشعر ، فسَلْ حاجتك . قال : بل تَستتمٌّ اليد عندي أن تسمع . فأنشده :

(١) فقاة رعديدة : رخصة ناعمة .

دموعُها من حِذار البَين تَنسَكِبُ   وقلبُها مُغرَمٌ من حَرّها يَجِبُ
جَدّ الرحيلُ به عنها ففارقها   لِبَيْنِه اللهوُ واللذّات والطرب
يهوى المسير الى مَرْوٍ ويُحزِنُه   فِراقُها فهو ذو نفسَين يَرتقِبُ

فقال له الفضل : إني لأُجِلُّك عن الشعر. قال : فأغْنِني بما أحببتَ من عملك . فولاّه البريدَ بجُرجان .

● محمد بن عمرو بن سعيد قال :

خرج دِعبلٌ الى خراسان لمّا بلَغه حُظوة مسلم بن الوليد عند الفضل بن سَهل ، فصار الى مَرْوَ وكتب الى الفضل بن سهل :

لا تَعْبَأَنْ بابن الوليد فإنّه   يَرميك بعدَ ثلاثة بمَلالِ
إنّ المَلُولَ وإن تقادم عهدُه   كانت مَودّتُه كفَيْءِ ظِلالِ

قال : فدفع الفضلُ الى مسلم الرُّقعة وقال له : أنظُر يا أبا الوليد الى رُقعة دِعبل فيك . فلمّا قرأها قال له : هل عرفتَ لقب دِعبل وهو غُلامٌ أمرد . . . . ؟ قال : لا . قال : كان يُلقَّب بمَيّاس . ثم كتب اليه :

مَيّاسُ قُل لي: أين أنت من الورى   لا أنت معلومٌ ولا مجهولُ
أمّا الهجاءُ فدَقّ عِرضُك دُونَه   والمدحُ عنك كما علمتَ جَليلُ
فاذهب فأنت طَليقُ عِرضك إنه   عِرضٌ عززتَ به وأنت ذليلُ

● أبو تمّام الطائي قال :

ما زال دعبلٌ متعصّباً لِمسلم مائلاً اليه ، معترفاً بأستاذيته ، حتى ورد عليه جُرجانَ ، فجفاه مُسلم ، وهجره دِعبل ، فكتب اليه :

أبا مَخْلَدٍ كنّا عَقيدَي مَودّةٍ   هوانا وقلبانا جميعاً معاً معا
أَحُوطك بالغيب الذي أنت حائطي   وأجزَعُ إشفاقاً بأن تَتوجَّعا

فصيّرتني بعد انتكـــاثك مُتْهِماً لنفسي عليها أرهَبُ الخلقُ أجمعا
غششتَ الهوى حتى تداعت أصولُـه بنا وابتذلتَ الوصلَ حتى تَقطّعا
وأنزلت من بين الجـوانـح والحشا ذخيرةَ وُدٍ طال ما قد تمنّعـا
فلا تَلحِيَنّي ليس لي فيـك مَطـمعٌ تخرَقْتَ حتى لم أجد لك مَرقَعا
فهَبْك يميني استآكلَـتْ فقطعتُـها وجَشّمتُ قلبي صبره فتجشّمـا

قال : ثم تَهاجرا بعد ذلك فما التقيا حتى ماتا .

● عن محمد بن عبدالله العَبديّ قال :

هجا مسلمُ بن الوليد سعيدَ بن سَلْم ، ويزيدَ بن مَزْيدَ ، وخُزيمة بن خازم ، فقال :

دُيونُك لا يُقْضَى الزّمانَ غَريمُهـا وبُخلُك بُخل الباهليّ سعيـدِ
سعيدُ بن سَلْمٍ أبخل الناس كُلِهّـم وما قومُه من بُخلـه ببعيـدِ
يزيدُ له فضلٌ ولكـنّ مَزْيـداً تدارك فينا بُخلَه بيزيـدِ
خُزيمةُ لا عيبٌ لـه غير أنّـه لِمطبخه قُفلٌ وبـابُ حديـدِ

● مسلم بن الوليد قال :

وَجّه إليّ ذو الرِياسَتَين ، فحُملت اليه ، فقال أنشِدني قولك :

بالغَمْرِ من زينـبَ أطـلالُ مرت بهـا بعـدَكَ أحوالُ

فأنشدتُه إياها حتى انتهيت الى قولي :

وقائلٍ ليست لــه هِـمّـةٌ كلاّ ولكـن ليس لي مالُ
وهِمّةُ المقْتر أمـنيّـةٌ هَمٌّ مـع الـدهر وأشغـال
لا جِدَةٌ أنهِـض عَزمي بـهـا والناس سُؤّالٌ وبخّـالُ
فاقعُد مـع الدهر الى دولـةٍ ترفَع فيها حالَـك الحـالُ

قال : فلمّا أنشدتُه هذا البيت قال : هذه والله الدولةُ التي ترفع حالَك . وأمر لي بمالٍ عظيم وقلّدني جُوزجان[1] .

● موسى بن عبدالله التميميّ قال :

دخل مسلم بن الوليد عل الفضل بن سَهل فأنشده قولَه فيه :

لو نَطَق الناسُ أو أنبَوا بعلمهـــم ونبَّهتْ عن مَعالي دَهرك الكتبُ
لم يبلُغوا منك أدنى ما تَمُتُّ بـــه اذا تفاخَرت الأملاكُ وانتَسَبُوا

فأمر له عن كلّ بيتٍ من هذه القصيدة بألف درهم .

ثم قُتل الفضل فقال يرثيه :

ذَهَلتُ فلم أنقَع غليلاً بعَبْـــــرةٍ وأكبرتُ أن أَلقَى بيومك ناعيا
فلمّا بدا لي أنـــه لاعجُ الأســــى وأنْ ليس إلاّ الدمعُ للحزن شافيا
أقمتُ لك الأنواح تــرتدُّ بيــــنها مآتمُ تندبُنْ النَّدى والمعَاليــــا
وما كان مَنْعىَ الفَضل مَنعـــاةَ واحدٍ ولكنّ مَنعى الفضل كان مَناعياً
ألِلبأس أم للجُود أم لِمقـــــاوِمٍ من المُلك يَزْحمن الجبال الرّواسيا
عفَتْ بعدَك الأيــام لا بل تبدّلــــتْ وكُنّ كأعيادٍ فعُدنَ مباكيـــــا
فلم أرَ إلاّ قبلَ يومـــك ضاحكـــاً ولم أرَ إلاّ بعدَ يومـــك باكيا

● محمد بن المُهَنّا قال :

كان العبّاس بن الأحنف مع إخوانٍ له على شَراب ، فذكروا مسلم بن الوليد ، فقال بعضُهم : صَريعُ الغَواني ، فقال العبّاس : ذاك ينبغي أن يُسمَّى صَريعَ الغِيلان لا صَريعَ الغواني . وبلغ ذلك مسلماً فقال يهجوه :

بنو حنيفةَ لا يَرضى الدَعيُّ بـــــهم فاترُك حنيفةَ واطلب غيرَها نسبا

---

(١) جوزجان : كورة واسعة من كور بلخ بخراسان .

فاذهب فأنت طليقُ الحِلم مُرْتَهَـــنٌ بسَورة الجَهل ما لم أَملِــك الغَضَبا
اذْهَبْ الى عربٍ تــرضَى بِنسبتــهم إنّي أرى لك خَلقاً يُشبه العَرَبا
مُنّيتَ منّي وقد جَــدّ الجِراءُ بنــا بغايةٍ منعتْك الفَوتَ والطَّلَبــا

● حَمّاد بن إسحاق عن أبيه عن جَدّه قال :

قلت لمسلم بن الوليد : وَيحك ! أما استحييتَ من الناس حين تهجو خُزيمة بن خازم ، ولا استحييتَ منا ونحن إخوانُك وقد علمتَ أنّا نتولاّه ، وهو مَن تعرِف فضلاً وجوداً ! فضحك وقال لي : يا أبا إسحاق ، لِغيرك الجهلُ ، أما تعلم أنّ الهجاء آخَذُ بضَبعُ الشاعر وأجدى عليه من المديح المُضرِع ! وما ظلمتُ مع ذلك منهم أحداً ، وما مضى فلا سبيلَ الى ردّه ، ولكن قد وهبتُ لك عِرضَ خزيمة بعد هذا . قال : ثم أنشدني قوله في سعيد بن سَلم :

ديونُك لا يُقضَى الزمانَ غريمُها وبُخلُك بُخل الباهليّ سعيدُ
سعيدُ بن سَلم أبخل الناس كلِّهم وما قومه من بُخلــه ببعيــد

فقلت له : وسعيدُ بن سَلم صديقي أيضاً ، فهَبْه لي . فقال : إن أقبلتَ على ما يَعنيك وإلاّ رجعتُ فيما وهبتُ لك من خُزيمة . فأمسكت عنه راضياً بالكَفاف .

● أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود قال :

دخل مسلم بن الوليد يوماً على الفضل بن يحيى ، وقد كان أتاه خبرُ مَسيره ، فجلس للشعراء فمدحوه وأثابهم ، ونظر في حوائج الناس فقضاها ، وتفرّق الناس عنه ، وجلس للشُّرب ، ومسلمٌ غيرُ حاضرٍ لذلك ، وإنما بلغه حين انقضى المجلسُ ، فجاءه فأُدخل اليه فاستأذَن في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قولَه فيه :

أتتك المطايا تَهتدي بمَطيّــــــةٍ عليها فتًى كالنَّصل مُؤنِسُه النَّصْلُ

يقول فيها :

وردتُ رِواقَ الفَضل آمُل فَضلَــه ... فحطَّ الثناءَ الجَزْلَ نائلُـه الجَزْلُ
فتىً ترتعي الآمــالُ مُزنــةَ جُـوده ... إذا كـان مَرعاها الأمانيُّ والمَطْـلُ
تُساقط يُمناه النَّدى وشِمــالــه الــرَّدي وعُيونُ القول مَنطِقُه الفَصْلُ
ألحّ على الأيام يَفري خطــوبَها ... عل مَنهجٍ ألفى أباه به قَبــلُ
أنافَ به العلياءَ يحيى وخــالــدٌ ... فليس له مثلٌ ومــا لهما مِثــلُ
فُروعٌ أصابت مَغرِساً مُتمــكّنــاً ... وأصلاً فطابـت حيث وَجَّهها الأصلُ
بكفِّ أبــي العبّاس يُستَمطَرُ النــدى ... وتُستَنزَل النُّعمى ويُسترعَفَ النَّصلُ(١)

قال : فطرب الفضل طرباً شديداً ، وأمر بأن تُعَدَّ الأبيات ، فعدت فكانت ثمانين بيتاً ، فأمر له بثمانين الف درهم وقال : لولا أنها أكثرُ ما وُصل به الشعراءُ لزِدتُك ، ولكنّه شأوٌ لا يمكِنني أن أتجاوزَه - يعني أن الرشيد رسمه لِمروان بن أبي حَفصة - وأمره بالجلوس معه والمُقام عنده لمنادمته ، فأقام عنده وشرب معه ، وكانت على رأس الفضل وَصيفةٌ تَسقيه كأنها لؤلؤة ، فلمح الفضلُ مُسلماً ينظر اليها فقال : قد وحياتي يا أبا الوليد أعجبتْك ، فقل فيها أبياتاً حتى أهبها لك . فقال :

إن كنتِ تسقِين غيرَ الرّاحِ فاسقيــني ... كأساً ألَذُّ بها من فيكِ تَشفيني
عيناك راحي ورَيحــاني حديـثُك لي ... ولونُ خَدَّيكِ لـونُ الورد يَكفيني
إذا نهاني شُربَ الطِــلا حَـرَجٌ ... فخمرُ عينيكِ يُغنيني ويَجزيــني
لولا علاماتُ شيبٍ لـو أتتْ وَعَظتْ ... لقد صَحوتُ ولكن سوف تأتيني
أُرضي الشبابَ فإن أَهْلِكْ فعن قَدَرٍ ... وإن بقيتُ فإنّ الشيبَ يُشقيني(٢)

فقال له : خُذْها ، بُورك لك فيها . وأمر بتوجيهها مع بعض خدمها اليه .

---

(١) يسترعف من رعف الدم : سال .
(٢) الطلا : الخمر .

● أحمد بن إبراهيم قال :

كانت لمسلم بن الوليد زوجةٌ من أهله كانت تكفيه أمرَه وتَسرُّه فيما تليه له منه ، فماتت ، فجزِع عليها جزعاً شديداً ، وتنسّك مُدّةً طويلة ، وعزَم على مُلازمة ذلك ، فأقسَم عليه بعضُ أخوانه ذات يوم أن يَزوره ، ففعل ، فأكلوا وقدَّموا الشّراب فامتنع منه مسلمٌ وأباه ، وأنشأ يقول :

بُكاءٌ وكأسٌ كيف يتّفقان ... سَبيلاهما في القلب مختلفانِ
دعاني وإفراطَ البكاء فإنّني ... أرى اليومَ فيه غيرَ ما تَرَيان
غدتْ والثّرى أولى بها من وَليِّها ... إلى منزلٍ ناءٍ لعينيك دان
فلا حُزنَ حتى تذرِفَ العينُ ماءها ... وتعترفَ الأحشاءُ للخَفَقان
وكيف بدفَع اليأسِ للوجْد بعدها ... وسَهْماهما في القلب يعتلجانِ

* * *

٣٦

مُطيع بن إياس

[الأغاني الجزء ١٣ ص ٢٧٤ وما بعدها]

الشاعر

هو مُطيع بن إياس الكِنانيّ . . . ولا أعلم أنيّ وجدتُ نسب مُطيع مُتّصلاً الى كنانة في رواية أحدٍ الا في حديثٍ أنا ذاكرُه ، فإنّ راويَه ذكر أن أبا قُرعة الكنانيّ جَدّ مُطيع ، فلا أعلم أهو جَدّه الأدنى فأصِل نسبَه به ، أم هو بعيدٌ منه . . .

وهو شاعرٌ من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسيّة ، وليس من فحول الشعراء في تلك ، ولكنه كان ظريفاً خليعاً ، حُلو العُشرة ، مليحَ النادرة ، ماجِناً ، مُتَّهماً في دِينه بالزَّندقة ، ويُكنَى أبا سَلمى . ومَولده ومَنشؤه الكوفة ، وكان أبوه من أهل فِلَسطين الذين أمدّ بهم عبدُ الملك بن مروان الحَجّاج بن يوسف في وقت قِتاله ابنَ الزبير وابن الأشعث ، فأقام بالكوفة وتزوّج بها ، فوُلد له مُطيع .

وكان منقطعاً الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ومتصّرِفاً بعدَه في دولتهم ، ومع أوليائهم وعُمّالهم وأقاربهم لا يكسُد عند أحدٍ منهم ، ثم انقطع في الدولة العباسية الى جعفر بن أبي جعفر المنصور ، فكان معه حتى مات ؛ ولم أسمع له مع

أحدٍ منهم خبراً الا حكايةً بوفوده على سليمان بن عليّ ، وأنه وَلاّه عملاً ، وأحسَبه ماتَ في تلك الأيام .

عن محمد بن حبيبَ قال : سألتُ رجلاً من أهل الكوفة كان يصحَب مطيع بن إياس عنه فقال : لا تُرِد أن تسألَني عنه . قلت : ولمَ ذاك ؟ قال : وما سؤالُك إيّاي عن رجلٍ كان إذا حضَر مَلكَك ، وإذا غاب عنك شاقَك ، وإذا عُرِفتَ بصُحبته فَضَحَكَ .

ذكر حَكَمٌ الواديُّ أنه غَنّى الوليد بن يزيد ذاتَ ليلةٍ وهو غُلامٌ حديثُ السِّنّ فقال :

إكليلُها ألوانُ ووجهُها فَتّانُ
وخالُها فريدٌ ليس لها جيران
إذا مشتْ تثَنَّتْ كأنّها ثُعبان

فطرب حتى زحف عن مجلسه إليَّ وقال : أعِدْ ، فديتُك بحياتي . فأعدتُه حتى صَحِلَ صوتي .[1] فقال لي : ويحَك ! من يقول هذا ؟ فقلت : عبدٌ لك يا أمير المؤمنين أَرضاه لخدمتك . فقال : ومَن هو ، فديتك ؟ فقلت : مطيع بن إياس الكنانيّ . فقال : وأين محلُّه ؟ قلت : الكوفة . فأمر أنْ يُحملَ إليه على البريد ، فحُمل إليه ، فما أشعرُ يوماً إلاّ برسوله قد جاءني ، فدخلت إليه ومطيعُ بن إياسٍ واقفٌ بين يديه ،وفي يد الوليد طاسٌ من ذهب يشرب به فقال لي : غَنّ هذا الصوتَ يا واديّ . فغنّيته إياه ، فشرب عليه ، ثم قال لمطيع : مَن يقول هذا الشعر؟ قال : عبدُك أنا يا أمير المؤمنين . فقال له : ادنُ مني . فدنا منه ، فضمّه الوليد وقَبّل فاه وبين عينَيه ، وقبّل مُطيعٌ رجلَه والأرضَ بين يديه ، ثم أدناه منه حتى جلس أقربَ المجالس إليه ، ثم تمَّ يومُه فاصطبح أسبوعاً متواليَ الأيام على هذا الصوت .

---

(١) صحل صوته : بحّ .

اتّهامه بالزندقة

عبدالله بن أبي سعد قال :

كان مطيعُ بن إياس ، ويحيى بن زياد الحارثيّ ، وابنُ المقفَّع ، ووالبةُ بن الحُباب يتنادمون ولا يفترقون ، ولا يستأثر أحدهُم على صاحبه بمالٍ ولا مِلكٍ ، وكانوا جميعاً يُرمَون بالزّندقة .

عليّ بن محمد النَوفليّ عن أبيه وعمومته :

أنّ مطيع بن إياس وعُمارة بن حمزة من بني هاشم ـ وكانا مَرميَّين بالزندقة ـ نزعا الى عبدالله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب لمّا خرج في آخر دولة بني أميــة وأول ظهور الدولة العباسية بخراسان ، وكان ظهر على نواحٍ من الجبل منها أصبهان وقُمّ ونَهاوند ، فكان مطيع وعُمارة ينادمانه ولا يُفارقانه . . .

ذكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل الكاتب :

أنّ الرشيد أُتي ببنت مُطيع بن إياس في الزّنادقة ، فقرأت كتابَهم واعترفتْ به ، وقالت : هذا دِينٌ علّمنيه أبي وتُبتُ منه . فقبِل توبتَها ورَدّها الى أهلها .

طائفة من أخباره

● مطيع بن إياس قال :

قال لي حمّاد عَجْرد : هل لك في أن أُريَك خُشّةَ صديقي ،[1] وهي المعروفة بظَبية الوادي ؟ قلت : نعم . قال : إنك إن قعدتَ عندها وخَبُثت عينُك في النظر أفسدتَها عليّ . فقلت : لا والله ، لا أتكلّم بكلمةٍ تَسُوءك وَلأَسُرَّنّك . فمضى وقال : والله لا أتكلّم ، لئن خالفتَ ما قلتُ لأُخرجَنّك . قال : قلت : إن خالفتُ ما تكره فاصنَع بي ما أحببت . قال : امضِ بنا . فأدخلني على أظرف خَلق الله وأحسنِهم وجهاً ، فلمّا رأيتُها أخذني الزَّمعُ ،[2]

---

(١) صديقي : أي صاحبتي .

(٢) الزمع : شبه الرعدة تأخذ الانسان .

وفَطِن لي فقال : اسكُن يا . . . فسكنتُ قليلاً ، فلَحَظَتْني ولحظتُها أخرى ، فغضب ووضع قُلَنسِيَتَه [1] عن رأسه ، وكانت صَلَعَتُه حمراء . . . ، فلمّا وضَعها وجدتُ للكلام موضعاً فقلت :

وارِ السَّوْأَةَ السَّـــوآ ء يا حَمّـادُ عـن خُشَّـه
عن الأُتْـرُجّـةِ الغَضّـ ـةِ والتُفّاحـة الغَضّه [2]

فالتفت إليّ وقال : فعلتَها يا ابنَ . . . فقالت له : أحسَن والله ما بَلَغ صفتَك بعدُ ، فما تريد منه ؟ . . . وثاورتْه وثاورها ، فشقّت قميصَه ، وبصَقت في وجهه وقالت له : ما تُصادقُك وتَدَعُ مثلَ هذا الأ . . . وخرجْنا وقد لقي كلٌّ بلاء ، وقال لي : ألم أقل لك يا ابنَ . . . إنك ستُفْسِد عليّ مجلسي . فأمسكتُ عن جوابه ، وجعل يهجوُني ويسبُّني ويشكوني الى أصحابنا ، فقالوا لي : اهجُه ودَعْنا وإيّاه . فقلت فيه :

ألا يـا ظَبيـةَ الـــوادي وذاتَ الجَسَـد الـرّادِ
وزَيــنَ المِـصر والــدّار وزيـنَ الحَـيِ والنـادي
وذاتَ المَبسِـم العَـذبِ وذاتَ المِيسَـم البـادي
أمـا بالله تستحيـين مـن خُلّـة حَمّـاد
فحمّـادٌ فتـىً ليـس بـذي عـزٍّ فتَنقـادي
ولا مـالٍ ولا عِـزٍّ ولا حَـظٌّ لِمُـرْتادِ
فتُـوبي واتّقـي اللهَ وبُتّـي حَبـلَ جَـرّادِ
فقـد مُيّـزتِ بـالحسن عـن الخَلْـقْ بـإفراد
وهـذا البَيـنُ قـد حُمَّ فجُودي منـكِ بـالزّادِ [3]

---

(١) القلنسية والقلنسوة : لباس للرأس .

(٢) الأترجة : نوع من الفاكهة من فصيلة الليمون .

(٣) الراد ، تسهيل الرأد : الرخص اللين . الميسم : أثر الجمال . الخلة : الصداقة . بتي : اقطعي . الجراد : من يجلو آنية النحاس . حم : حان .

قال : فأخذ أصحابنا رِقاعاً ، فكتبوا الأبيات فيها وألقوها في الطريق . وخرجت أنا فلم أدخل إليهم ذلك اليومَ ، فلمّا رآها وقرأها قال لهم : يا أولاد . . . فعلها ابنُ . . . وساعدتموه عليّ !

قال : وأخذها حكَمٌ الواديُّ فغنّى فيها ، فلم يبق بالكوفة سقّاءٌ ولا طحّان ولا مُكارٍ إلاّ غنّى فيها . . . .

● عن حمّاد عن أبيه قال :

قدِم مطيعُ بن إياس من سفرٍ فقدم بالرّغائب ، فاجتمع هو وحمّادُ عجرد بصديقته ظَبيةِ الوادي ، وكان عَجردٌ على الخروج مع محمد بن أبي العباس الى البصرة ، وكان مطيعٌ قد أعطى صاحبته من طرائف ما أفاد ، فلما جلسوا يشربون غنّت ظبيةُ الوادي فقالت :

أظُنُّ خليـــلي غُـــدوةً سيســـيرُ ... وربّي على أن لا يَســـيرَ قـــديـــرُ

فما فرغت من الصوت حتى غنّت صاحبةُ مطيع :

ما أبا لي اذا النّـــوى قـــرّبتْهـم ... ودنَـــونا مَن حَلّ منهم وساروا

فجعل مطيعٌ يضحك وحمّاد يشتُمها .

● عن محمد بن عمر الجرجانيّ قال :

كان لمطيع بن اياس صديقٌ يقال له عمرُ بن سعيد ، فعاتبه في أمر قينة يقال لها مَكنونة كان مطيعٌ يهواها حتى اشتُهر بها ، وقال له : إنّ قومك يشكونك ويقولون إنك تفضحهم بشُهرتك نفسَك بهذه المرأة ، وقد لَحقهم العيبُ والعارُ من أجلها . فأنشأ مطيع يقول :

قـــد لامني في حبيبــــتي عُمـــرُ ... واللّومُ في غير كُنْهِهِ ضَجَـــرُ
قال أفِق ، قلت لا ، قال بـــــلَى ... قد شاع في الناس عنكما الخَبر
قلت قد شاع فمـــا اعتذاريَ ممّـــا ... ليس لي فيـــه عنـــدهـــم عُذُرُ

عَجزٌ لَعَمري وليس يَنفعُنــــــي فكُفَّ عنّي العتابَ يا عُمَــــرُ
وارجعْ إليهم وقُل لهم قد أبــــــى وقال لي لا أُفيقُ فــــانتَحِـرُوا
أعشَقُ وَحدي فيؤخَذون بـــــــه كالتُرك تَغزو فيُقتَلُ الخزَرُ(١)

● الفضل بن إياس الهُذَليّ الكوفي :

أنّ المنصور كان يريد البَيعةَ للمهديّ ، وكان ابنُه جعفرٌ يعترض عليه في ذلك .فأمر بإحضار الناس ، فَحضَرُوا ، وقامت الخطباء فتكلّموا ، وقالت الشعراءُ فأكثروا في وصف المهديّ وفضائله ، وفيهم مطيعُ بن إياس ، فلمّا فرَغَ من كلامه في الخطباء وإنشاده في الشعراء قال للمنصور: يا أمير المؤمنين، حدَّثنا فلانٌ عن فلان أنّ النبي ﷺ قال : « المهديُّ منّا محمد بن عبدالله وأُمُّه من غيرنا ، يملؤها عدلاً كما مُلئت جَوراً » ، وهذا العبّاس بن محمد أخوك يشهد على ذلك . ثم أقبل على العبّاس فقال له : أَنشُدكَ اللهَ هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم . مخافةً من المنصور. فأمر المنصور الناسَ بالبَيعة للمهديّ .

قال : ولمّا انقضى المجلسُ ، وكان العباس بن محمد لم يأنَس به ، قال : أرأيتُم هذا الزِنديق إذ كذب على الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ حتى استشهَدني على كذِبه فشهدتُ له خوفاً وشهد كلُّ من حضر عليَّ بأنيّ كاذب ! وبلغ الخبرُ جعفر بن أبي جعفر ، وكان مطيعٌ منقطعاً إليه يخدُمه ، فخافه وطرده عن خدمته . .

● عن محمد بن الفضل السَّكونيّ قال :

رفع صاحبُ الخبر الى المنصور أن مطيع بن إياس زِنديقٌ ، وأنه يُعاشر ابنه جعفراً وجماعةً من أهل بيته ويوشك أن يُفسدوا أديانهم ويُنسَبوا الى مذهبه . فقال له المهديّ : أنا به عارفٌ ، أمّا الزّندقة فليس من أهلها ، ولكنه خبيث الدِّين فاسقٌ مستحلّ للمحَارم . قال : فأحضِره وانـهَه عن صحبة جعفر وسائر أهله . فأحضره المهديُّ وقال له : يا خبيثُ يا فاسقُ ، لقد أفسدتَ أخي ومن تَصحبهُ

---

(١) كنهه : حقيقته ووجهه . انتحر القوم على الأمر : تخاصموا وتشاحّوا .

من أهلي ، والله لقد بلغني أنهم يتقادَعُون عليك(١) ، ولا يتمّ لهم سرورٌ إلاّ بك ، فقد غرّرتهم وشهّرتَهم في الناس ، ولولا أني شهدتُ لك عند أمير المؤمنين بالبراءة ممّا نُسِبت إليه بالزندقة لقد كان أمر بضَرب عُنُقك . وقال للربيع : اضربْه مائتي سَوط واحبِسه . قال : ولِمَ يا سيدي ؟ قال : لأنك سكّيرٌ خمّير قد أفسدت أهلي كلّهم بصُحبتك . فقال له : إن أَذِنتَ وسمعتَ احتججتُ . قال : قل . قال : أنا امرؤٌ شاعر وسُوقي إنما تنفُق مع الملوك ، وقد كَسَدتْ عندكم ، وأنا في أيامكم مُطَّرَحٌ ، وقد رضيتُ فيها ـ مع سعتها للناس جميعاً ـ بالأكل عل مائدة أخيك ، لا يتبع ذلك عشيرة ، وأصفيتُه على ذلك شكري وشعري ، فإن كان ذلك عائباً عندك تُبتُ منه . فأطرق ثم قال : قد رَفع إليّ صاحبُ الخبر أنك تتماجن على السُّؤّالِ وتضحك منهم . قال : لا والله ، ما ذلك من فِعلي ولا شأني ، ولا جرى مني قطّ إلاّ مرّةً ، فإن سائلاً أعمى اعترضَني ، وقد عبرتُ الجسر عل بَغلتي ، وظنّني من الجُند ، فرفع عصاه في وجهي ثم صاح : اللهمَّ سَخِّر الخليفة لأن يُعطي الجُندَ أرزاقهم فيشتروا من التُّجار الأمتعة ، ويربح التُّجار عليهم فتكثُرَ أموالهم ، فتجبَ فيها الزكاةُ عليهم ، فيصَّدَّقُوا عليَّ منها . فنفرتْ بقلبي من صِياحه ورفعِه عصاه في وجهي حتى كدتُ أسقط في الماء فقلت : يا هذا ، ما رأيت أكثرَ فضولاً منك ، سلِ الله أن يرزُقك ولا تجعل هذه الحوالاتِ والوسائطَ التي لا يحتاج إليها ، فإن هذه المسائل فُضول . فضحك الناسُ منه ، ورُفع عليّ في الخبر قولي له هذا . فضحك المهديّ وقال : خَلُّوه ولا يُضرَب ولا يُحبس . فقال له : أدخُلُ عليك لمَوْجِدَة(٢) وأَخرُج عن رضىً ،وتَبَرَّأُ ساحتي من عَضِيهة(٣) وأنصرف بلا جائزة ؟ قال : لا يجوزُ هذا ، أعطُوه مائتي دينارٍ ولا يَعلم بها الأميرُ فيتجدّدَ عنده ذُنوبُه . قال :

(١) يتقادعون : يتهافتون .

(٢) الموجدة : الغضب .

(٣) العضيهة : الإفك والبهتان .

وكان المهديّ يشكر له قيامَه في الخطباء ووضعَه الحديث لأبيه في أنه المهديّ ، فقال له : اخرُج عن بغداد ودَعْ صُحبةَ جعفرٍ حتى ينساك أميرُ المؤمنين غداً . فقال له : فأين أقصد؟ قال : أكتُب لك إلى سليمان بن عليّ فيولّيك عملاً ويُحسن إليك . قال : قد رضيتُ . فوفد إلى سليمان بكتاب المهديّ ، فولاّه الصَدَقة بالبصرة ، وكان عليها داود بن أبي هند ، فعزَله به .

● عن محمد بن الفضل السَّكُونيّ قال :

مدح مطيع بن إياس معنَ بن زائدة بقصيدته التي أوّلها :

أهـلاً وسهـلاً بسيّـد العـربِ ... ذي الغُـرَرِ الواضحـات والنُّجُـبِ
فتى نـزارٍ وكهلِهـا وأخي الجُـودِ حَوى غايتَيه مـن كَثَـب
قيـل أتاكـم أبـو الوليـد فقـا ... ل الناسُ طُرّاً في السَّهل والرَّحَب
أبو العُفاة الـذي يَلُوذ بـه ... من كان ذا رغبةٍ وذا رَهَـبِ
جاء الـذي تُفرَج الهمـومُ بـه ... حين يُلَزُّ الوَضِينُ بالحَقَـبِ
جاء وجـاء المَضـاءُ يَقدُمُـه ... رأيٌ إذا همّ غيـرُ مُؤتَشِـب
شَهـمٌ إذا الحـربُ شَبّ دائرُها ... أعادهـا عَودةً عـلى القُطُـبِ
يُطفيءُ نيرانَهـا ويُوقدُهـا ... إذا خبتْ نيرانُها بـلا حَطب(١)

[الأبيات ...]

فلمّا سمعها معنٌ قال له : إن شئتَ مدحناك كما مدحتَنا ، وإن شئت أثبناك . فاستحيا مطيع من اختيار الثواب على المديح وهو محتاجٌ إلى الثواب ، فأنشأ يقول لمعنٍ :

---

(١) لزّ : قرن . الوضين : للهودج بمثابة الحزام للسرج . الحقب : الحزام الذي يلي حقو البعير . مؤتشب : مختلط .

ثناءٌ مـن أميرٍ خيرُ كَسْـبٍ لِصاحب فاقةٍ وأخـي ثـراء
ولكنّ الزمـانَ بَـرَى عِظامـي ومـا مثـلُ الدّراهـم من دواء

فضحك معن حتى استلقى وقال : لقد لَطَفت حتى تخلّصتَ منها ، صدقتَ ـ لَعمري ـ ما مثلُ الدّراهم من دواء ! وأمر له بثلاثين ألفَ درهمٍ ، وخلَع عليه وحمَله .

● عن سعيد بن سالم قال :

أخبرني مطيع بن إياس اللّيثيّ ـ وكان أبوه من أهل فلسطين من أصحاب الحجّاج بن يوسف ـ أنه كان مع سَلم بن قُتَيبة ، فلمّا خرج إبراهيم بن عبدالله ابن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام كتب إليه المنصور يأمُره باستخلاف رجلٍ على عمله والقدومِ عليه في خاصّته على البريد . قال مطيع : وكانت لي جاريةٌ يقال لها جودانة[1] كنت أُحبّها فأمرني سلمٌ بالخروج معه ، فاضطُررت إلى بيع الجارية ، فبعتُها وندمتُ على ذلك بعد خروجي وتمنّيت أن أكون أقمت ، وتَتَبّعتْها نفسي ، ونزلنا حُلوان[2] ، فجلست على العَقَبة أنتظر ثَقَلي[3] وعنان دابّتي في يدي وأنا مُستندٌ الى نخلةٍ على العَقَبة والى جانبها نخلةٌ أخرى ، فتذكّرتُ الجارية واشتَقْتُها وقلت :

أسعِداني يـا نَخْلَتَي حُلْـوانِ وابكيا لي من رَيْـب هـذا الزّمانِ
واعلمـا أنّ رَيبـه لم يـزل يَفْـرُقُ بين الأُلّاف والجيـرانِ
ولَعَمري لـو ذُقتُمـا ألَمَ الفُـرْ قَةِ قـد أبكاكمـا الـذي أبكاني
أَسعِداني وأيقنـا أنّ نحسـاً سوف يَلقاكمـا فتَفترقـان
كم رمَتْني صُروفُ هـذي الليـالي بفـراق الأحبـاب والخُـلّانِ

---

(١) في معجم البلدان لياقوت : جوذابة .
(٢) حلوان ، هذه : مدينة بالعراق في آخر حدود السواد .
(٣) الثقل : متاع المسافر .

غير أنيّ لم تلقَ نفسي كما لا - قيتُ من فُرقة ابنة الدِّهْقان
جارةٌ لي بالرَّي تُذهب هَمّي ويُسَلّي دُنُوُّها أحزاني
فجعتْني الأيامُ أغبطَ ما كنتُ بصَدْعٍ للبَين غيرِ مُدان
وبرَغْمي أن أصبحتْ لا تراها العينُ منّي وأصبحتْ لا تَراني
إن تكن وَدَّعتْ فقد تركتْ بي لَهَباً في الضمير ليس بوانِ
كحريق الضِّرام في قصَب الغاب زَفَتْه رِيحانِ تختلفانِ
فعليك السّلام منّي ما ساغ سلاماً عقلي وفاض لساني(١)

هكذا ذكر أبو الحسن الأسديّ في هذا الخبر وهو غلط : نسخت خبر هذا من خط أبي أيوب المدائنيّ عن حمّاد - ولم يقل عن أبيه - عن سعيد بن سالم عن مطيع قال : كانت لي بالريّ جارية أيام مقامي بها مع سلم بن قُتَيبة ، فكنت أتسَتَّر بها ، وكنت أتعشّق امرأة من بنات الدّهاقين كنت نازلاً إلى جَنبها في دارٍ لها ، فلمّا خرجنا بعتُ الجارية وبقيت في نفسي علاقةٌ من المرأة التي كنت أهواها ، فلما نزلنا عقَبة حُلوان جلست مستنداً إلى إحدى النخلتين اللتين على العقبة ، فقلت :

أسعداني يا نخلتي حلوان وارثيا لي من ريب هذا الزمان

وذكَر الأبيات ، فقال لي سلم : ويلك ! فيمن هذه الأبيات ؟ أفي جاريتك ؟ فاستحييتُ أن أصدقَه فقلت : نعم . فكتب من وقته إلى خليفته أن يبتاعها لي ، فلم ألبث أن ورد كتابُه : إني وجدتُها قد تداولَها الرجال ، فقد عزفتْ نفسي عنها . فأمر لي بخمسة آلاف درهم ، ولا والله ما كان في نفسي منها شيء ...

● عن العُتبيّ قال :

حضر مطيع بن إياس وشُراعة بن الزندبوذ ، ويحيى بن زياد ، ووالبة

---

(١) الضرام : الاتقاد . زفته : طردته .

ابن الحباب ، وعبدالله بن العيّاش المتوف ، وحمّاد عجرد مجلساً لأمير من أمراء الكوفة ، فتكايدوا جميعاً عنده ، ثم اجتمعوا على مطيع يُكايدونه ويهجونه ، فغلبهم جميعاً حتى قطعهم ، ثم هجاهم بهذين البيتين وهما :

وخمسةٍ قد أبانوا لي كِيادَهُمُ ... وقد تلظّى لهم مِقلىً وطِنْجيرُ
لو يقدِرون على لحمي لَمَزَّقه ... قردٌ وكلب وجِرواهُ وخِنزيرُ [1]

● عن المدائنيّ قال :

كان مطيع بن إياس يخدُم جعفرَ بن أبي جعفرَ المنصور وينادمُه ، فكره أبو جعفر ذلك لما شُهر به مُطيعُ في الناس وخشي أن يُفسدَه ، فدعا بمطيع وقال له : عزمتَ على أن تُفسِد ابني عليّ وتعلّمَه زندقتك ؟ فقال : أُعيذُك بالله يا أمير المؤمنين من أن تَظُنّ بي هذا ، واللهِ ما يسمعُ مني إلاّ ما إذا وَعاه جمَّله وزَيَّنه ونبَّله . فقال : ما أرى ذلك ولا يسمع منك إلاّ ما يَضُرُّه ويَغُرُّه . فلمّا رأى مطيعٌ إلحاحه في أمره قال له : أتؤمِنُني يا أمير المؤمنين عن غَضَبك حتى أَصْدُقَك ؟ قال : أنت آمِنٌ . قال : وأيُّ مُستَصْلَحٍ فيه ، وأيّ نهايةٍ لم يَبلُغْها في الفَساد والضَّلال ؟ قال : ويلك ، بأيّ شيء ؟ قال : يزعُم أنه لَيعشَق امرأةً من الجِنّ وهو مجتهدٌ في خِطْبتها وجَمعٍ أصحاب العزائم عليها ، وهم يغرّونه ويَعِدُونه بها ويُمَنُّونه ، فوالله ما فيه فضلٌ لغير ذلك من جِدّ ولا هزل ولا كُفرٍ ولا إيمان . فقال له المنصور: ويلَك ! أتدري ما تقول ؟ قال : الحقَّ واللهِ أقول ، فسَلْ عن ذلك . فقال له : عُد الى صُحبته واجتهد أن تُزيلَه عن هذا الأمر ، ولا تُعلِمْه أني علمت بذلك حتى أجتهد في إزالته عنه .

وقال المدائنيّ في خبره :

فأصاب جعفراً من كثرة ولعه بالمرأة التي ذكر أنه يتعشقُّها من الجِنّ صَرَعٌ ،

---

(١) المقلى : المقلاة . الطنجير : وعاء تعمل فيه الحلوى ، معرب ، أراد تلظى غضبهم .

فكان يُصرَع في اليوم مرّاتٍ ، حتى مات ، فحزن عليه المنصورُ حزناً شديداً ، ومشى في جنازته ، فلمّا دُفن وسُوّي عليه قبرُه قال للربيع : أنشِدني قولَ مطيع بن إياس في مرثية يحيى بن زياد . فأنشَده :

يا أهليَ ابكُوا لِقلبيَ القَرِحِ ... وللدُّموع الذَّوارِفِ السُّفُحِ
راحوا بيحيى ولو تُطاوعني الأقدارُ لم يَبتكِرْ ولم يَرُحِ
يا خيرَ مَن يَحسُن البكاءُ له اليو ... مَ ومن كان أمسِ للمِدَحِ

قال : فبكى المنصور وقال : صاحبُ هذا القبر أحقُّ بهذا الشعر.

● قال محمد بن الفضل بن السَّكُونيّ :

رحل مطيعُ بن إياس الى هشام بن عمرو وهو بالسِّند مستميحاً له ، فلما رأته بنتهُ قد صحّح العزمَ على الرَّحيل بكت ، فقال لها :

اسكُتي قد حَززتِ بالدَّمع قلبي ... طالما حَزّ دَمعُكنّ القلوبا
ودَعِي أن تُقطِّعي الآن قلبي ... وتُريني في رحلتي تَعذيبا
فعسى اللهُ أن يدافعَ عنّي ... ريبَ ما تحذَرين حتى أؤوبا
ليس شيءٌ يشاءُه ذو المعالي ... بعزيزٍ عليه فادعي المجيبا
أنا في قَبضةِ الإلٰهِ إذا ما ... كنتُ بُعداً أو كنتُ منكِ قريبا

● هارون بن محمد بن عبد الملك قال :

لمّا بِيعت جوهرُ التي كان مطيع بن إياس يُشبّب بها قال فيها :

صاح غُرابُ البَيْن بالبَينِ ... فكدتَ أنقدُّ نِصفَينِ
قد صار لي خِدنانِ من بعدهم ... هَمٌّ وغمٌّ شرُّ خِدنَينَ
أفدي التي لم ألقَ من بَعدها ... أُنساً وكانت قُرّةَ العَينِ
أصبحتُ أشكو فُرقةَ البَينِ ... لمّا رأتْ فُرقتَهم عيني

● عن محمد بن الفضل قال :

خرج جماعةٌ من الشعراء في أيام المنصور عن بغدادَ في طلب المعاش ، فخرج يحيى بن زياد الى محمد بن العبّاس ، وكنت في صِحابته ، افضى الى البصرة ، وخرج حمّاد عجرد اليها معه ، وعاد حمّادٌ الراوية الى الكوفة ، وأقام مطيع بن إياس ببغدادَ وكان يهوى جاريةً يقال لها رِيم لبعض النخّاسين وقال فيها :

لولا مكانُك في مَسدينتهم ... لظعنتُ في صَحبي الأُلى ظَعَنُوا
أَوطنتُ بغداداً بحبّكم ... وبغيرِها لولاكم الوطنُ

قال : وقال مطيع في صَبُوحٍ اصطبحه معها :

ويومٍ ببغدادٍ نَعِمنا صباحَه ... على وجه حَوراء المدامع تُطرِبُ
ببيتٍ ترى فيه الزُّجاجَ كأنه ... نجومُ الدُّجى بين النَّدامَى تَقلَّبُ
يُصرِّفُ ساقينا ويَقطِب تارةً ... فياطيبَها مقطوبةً حين يَقطِبُ
علينا سَحيقُ الزَّعفرانِ وفوقَنا ... أكاليلُ فيها الياسمينُ المُذَهَّبُ
فما زلتُ أُسقَى بين صَنْجٍ ومِزهَرٍ ... من الرّاح حتى كادت الشمس تَغرِبُ[1]

قال : وفيها يقول :

يا رِيمُ قد أتلفتِ رُوحي فما ... منها معي إلا القليلُ الحقيرْ
فأذنِبي إن كنتِ لم تُذنِبي ... فيَّ ذُنوباً إنّ ربّي غَفُورْ
ماذا على أهلِكِ لو جُدتِ لي ... وزُرتِني يا رِيمُ فيمن يَزُور
هل لك في أجرٍ تُجازَي به ... في عاشقٍ يُرضيه منكِ اليسير
يَقبَلُ ما جُدتِ به طائعاً ... وهو وإن قَلّ لديه الكثير
لَعمري مَن أنتِ له صاحبٌ ... ما غاب عنه في الحياة السُّرور

---

(١) يصرف : يقدمها صرفاً . يقطب : يمزج .

عن ابن النطّاح لمطيع بن إياس بقوله في جوهر جارية بَربَر :

يا بأبي وجهُكِ من بينهم ... فإنه أحسنُ ما أُبصِرُ
يا بأبي وَجهك من رائعٍ ... يُشبِهُه البدرُ إذا يَزهِرُ
جاريةٌ أحسنُ من حَلْيِها ... والحَلْيُ فيه الدُرُّ والجوهرُ
وجِرمُها أطيبُ من طِيبِها ... والطيبُ فيه المسكُ والعنبرُ
جاءت بها بربرُ مكنونةً ... يا حبّذا ما جَلبتْ بربرُ
كأنّما رِيقتُها قهوةٌ ... صُبّ عليها باردٌ أسمرُ

● عن حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال :

كان مطيع بن إياس يألف جواري بَربر ويهوى منهنّ جاريتها المسمّاة جوهر ، وفيها يقول :

خافي اللهَ يا بربرْ ... لقد أفسدتِ ذا العسكرْ
إذا ما أقبلت جوهر ... يفوحُ المِسكُ والعَنبر
وجوهرُ دُرّةُ الغوّاص من يَملِكُها يُحْبَرْ
لها ثغرٌ حكى الدُرَّ ... وعينا رَشأٍ أحورْ (1)

* * *

(1) يحبر : يُسرّ . الرشأ : الظبي إذا قوي ومشى مع أمه .

٣٧

نُصَيب الأصغر

[الأغاني الجزء ٢٣ ص ١ وما بعدها]

الشاعر

نُصيب مولى المَهديّ ، عبدٌ نشأ باليمامة واشتُري للمَهديّ في حياة المنصور ، فلمّا سمع شعرَه قال : والله ما هو بِدون نُصيب مولى بني مَروان ، فأعتقه وزوّجه أمَةً يُقال لها جَعفَرة وكنّاه أبا الحَجْناء وأَقطعه ضيعةً بالسَّواد ، وعُمّر بعدَه .

أخباره مع المهديّ ومدائحه فيه

محمد بن عبدالله بن مالك قال : حدّثني أبي قال :

وَجّه المهديُّ نُصَيباً الشاعر مولاه الى اليمن في شراء إبلٍ مَهْرِيّة ، ووجّه معه رجلاً من الشّيعة ، وكتب معه الى عامله على اليمن بعشرين ألف دينار . قال : فمدّ أبو الحَجناء يدَه في الدنانير يُنفقها في الأكل والشرب وشراء الجواري والترويج ، فكتب الشيعيّ بخبره الى المَهديّ ، فكتب المهدي في حَمْله مُوثَقاً في الحديد . فلمّا دخل على المهديّ أنشده شعره وقال :

تَأَوّ بني ثِـقلٌ مـن الهـمّ مُوجِـعُ ... فأَرّق عيـني والخَلِيُّون هُجَّـعُ
همومٌ توالـتْ لـو أطـاف يَسِيرُهـا ... بسَلمى لظَـلّـتْ شُمّهـا تتصدّعُ

ولكنّها نِيطــتْ فَنــاء بِحَملْهــــا جَهيرُ المنايا حائــنُ النفس مُجْزَعُ
وعادت بــلادُ الله ظَــلماء حِندِســاً فخِلتُ دُجى ظَلمائها لا تَقشَّــعُ

وهي قصيدة طويلة يقول فيها :

إليك أميرَ المؤمنين ولــم أجــــدْ سواكَ مُجيراً منك يُدني ويَمنعُ
تلمّستُ هــل من شافعٍ لي فلم أجِــد سوى رحمةٍ أعطاكها اللهُ تَشفَعُ
لئن جلّت الأجرامُ منـــي وأفظعت لَعَفْوك عن جُرمـي أجلّ وأوسع
لئن لم تَسَعني يابـنَ عــمّ محمـدٍ لما عَجَزتْ عنيَ وسائـل أربـعُ
طُبِعتَ عليها صِبغةً ثـم لـــم تزل على صالح الأخلاق والدِين تُطْبَع
تَغابيكَ عن ذي الذّنْب ترجو صلاحَه وأنت تـرى ما كان يأتي ويَصنع
وعفوُك عمّن لو تكونُ جَريــتَـــــه لطارت به في الجوّ نكْباءُ زَعزَعُ
وأنّك لا تنفــكُّ تُنعِـــش عــاثـراً ولم تعترِضْه حين يكبُو ويَخمع
وحِلمك عن ذي الجهل من بعدما جرى به عَنَقٌ من طائش الجهل أَشنَع
ففيهنّ لي إمّا شَفَعـــــــــن منافعٌ وفي الأربع الأولى إليهنّ أفزَعُ
منا صحتي بالفِعل أن كنــتُ نائيـــاً اذا كان دانٍ منك بالقول يَخدَعُ
وثانيةٌ ظنّي بك الخيرَ غــــائبـــاً وإن قلتَ عبدٌ ظاهرُ الغش مُسْبَعُ
وثالثةٌ أني على مــــا هَويتـــه وان كثّرَ الأعداءُ فيَّ وشنّعـــوا
ورابعةٌ أنيّ إليـــك يَسُوقـــــني ولائـي فمولاك الـذي لا يُضَيَّع
وإني لَمولاك الـذي إن جفوتـــــه أتى مُستكيناً راهباً يـتضرّع
وإني لَمولاك الضعيـــفُ فأَعفِـني فإني لِعفوٍ منك أهلٌ ومَوضِـع[1]

(١) تأوبني : أتاني ليلاً . الخليّ : الخالي من الهموم والعشق . سلمى : جبل لطيّ في الحجاز . الشم ج أشم : المرتفع . حائن : هالك . الحندس : الظلام الشديد . صبغة : خلقة . النكباء : الريح المنحرفة عن مهاب الرياح . زعزع : شديدة . يخمع : يعرج في المشي ويعثر . العنق : ضرب من السير السريع . مسبع : خبيث .

فقطع المهديّ عليه الإنشاد ثم قال له : ومَن أعتقكَ يا بنَ السوداء ؟ فأومأ بيده إلى الهادي وقال : الأمير موسى ، يا أمير المؤمنين. فقال المهديّ لموسى : أعتقته يا بُنيّ ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين . فأمضى المهديّ ذلك وأمر بحديده ففُكّ عنه ، وخلَع عليه عِدّةً من الخِلَع الوشي والخزّ والسَّواد والبياض ، ووصله بألفي دينار ، وأمر له بجارية يُقال لها جَعفرة جميلة فائقة من رُوقة[1] الرقيق .

فقال له سالمٌ قَيِّمُ الرقيق : لا أَدفعُها اليك أو تعطيني ألفَ درهم . فقال قصيدته :

آآذن الحيُّ فانصاعُوا بترحالِ فهاج بينَهم شَوقي وبَلْبالي

وقام بها بين المهديّ ، فلمّا قال :

ما زلتَ تبذلُ لي الأموالَ مجتهداً حتى لأصبحتُ ذا أهلٍ وذا مالِ
زوّجتَني بابنَ خير الناس جاريةً ما كان أمثالُها يُهدَى لأمثالي
زوَّجْتَني بضّةً بيضاء ناعمةً كأنّها دُرّةٌ في كفّ لآّلِ
حتى توهّمتُ أن الله عجّلها يا بنَ الخلائف لي من خير أعمالي
فسالَني سالمٌ ألفاً فقلت له أنّى لي الألفُ يا قُبحتِ من سالِ

ـ أراد من سائل ، كما قالوا : شاكي السلاح وشائك ـ

هيهاتَ ألفُك إلا أن أجيء بها من فضل مَولىً لطيف المَنّ مِفضالِ[2]

فأمر له المهديّ بألف دينار ولسالمٍ بألف درهم .

قال ابن أبي سعد : وحدّثني غيرُ محمد بن عبدالله أنه حُبس باليمن مدّةً طويلة ، ثم أُشخِص الى المهديّ ، فقال وهو في الحبس ، ودخلت اليه ابنتُه حَجناء فلمّا رأت قيوده بكت ، فقال :

---

(١) روقة الرقيق : جمع رائقة ، أي من حسان الرقيق .

(٢) اللأآل : بائع اللؤلؤ .

لقد أصبحتْ حَجنـاءُ تبـكي لوالـدٍ   بدرّة عينٍ قلَّ عنـه غَناؤهـا
أحجناءُ صبراً كلُّ نـفسٍ رهينـةٌ   بموتٍ ومكتوبٌ عليها بَلاؤهـا
أحجنـاء أسبابُ المنايـا بِمَرْصَـدٍ   فإلاَّ يُعاجلْ غَدْوُهـا فمساؤهـا
أحجناء إن أُفلِتْ من السجن تَلْقني   حُتوفُ منايا لا يُرَدُّ قَضاؤهـا
أحجناء إن أضحى أبـوكِ ودَلْـوُه   تعرّتْ عَراقيها ورَثَّ رِشاؤهـا
لقد كان يُدلي في رجـالٍ كثيـرة   فيَمْتَحُ مَلأى وهي صِفرٌ دلاؤها
أحجناءُ إن يُصبـح أبـوكِ ونفسُـه   قليلٌ تَمَنّيها قصيرٌ عَزاؤهـا
لقد كان في دنـيا تفيَّـأُ ظِلَّهـا   عليه ومجلوبٌ اليـه بهاؤهـا(١)

قال ابن أبي سعد : ولما دخل نُصيب عل المهديّ مقيَّداً رفَده ثُمامةُ بن الوليد العبسيّ عنده واستعطفه له وسوَّغ عُذره عنده ، ولم يزل يَرفُق به حتى أمر بإطلاقه .

سائر أخباره

● عن النَّضْر بن طاهر قال :

أتى نُصَيبٌ مولى المهديّ عبدَالله بن محمد بن الأشعث ، وهو يتقلّد صَنعاء للمهديّ ، فمدَحه ، فلم يُثبه ، واستكساه بُرداً فلم يكسُه ، فقال يهجوه :

سأكسوك من صنعاءَ مـا قد كسوتَني   مُقَطَّعةً تَبقى عل قِدَم الدَّهـرِ
إذا طُويت كانت فضوحُـك طَيَّها   وإن نُشرتْ زادتْك خِزياً عل النَّشْرِ
أغَرّك أن بيَّضتَ بـيـتَ حَـمامةٍ   وقلتَ : أنا شبعانُ مُنتفخُ الخَصْرِ
لقد كنتَ في سَلْحٍ سَلَحتَ مخافةً الحَروريّةِ الشارين داعٍ الى الضُـرّ

---

(١) عراقيها ج عَرقُوة : خشبة معروضة على الدلو ، وفي المطبوعة : عرّاً منهـا ، ولا معنى لها .

ولكنّه يأبى بك البُهـــرُ كُلّمــا جَريتَ مع الجاري وضِيقٌ من الصَّدرِ[1]

قال النضر : وكان النصيب ملعوناً هَجّاءً ، فأهدى للرَّبيع بن عبدالله بن الربيع الحارثي فرساً ، فقَبِله ، ثم ندم خوفاً من ثِقَل الثواب ، فجعل يَعيب الفرس ويذكر بُطأَه وعَجزه ، فبلغ ذلك النصيب فقال :

أعبتَ جوادنَا ورغبتَ عنـــه وما فيه لَعَمْرُك مـن مَـعـابِ
وما بجوادنـــا عجزٌ ولكــن أظُنُّـك قـد عَجَزتَ عن الثَّوابِ

فأجابه الربيع فقال :

رُويدَك لا تكن عجِلاً إلينـــا أتاك بمـا يَسُوءُك مـن جوابِ
وجدتُ جوادكم فَدْماً بطيئـاً فما لكم لدينا من ثـوابِ[2]

فلما كان بعد أيام رأى النصيب الفرسَ تحت الربيع فقال له :

أخذتَ مُشهَّراً في كـلّ أرضٍ فعَجِّل يـا ربيعُ مُشهَّراتـي
يمـانيةً تخيَّرهـا يمَــانٍ مُنَمنمةَ البيـوت مُقطَّعاتِ
وجاريةً أَضلّـت والديَــها مُولَّدةً وبيضـــاً وافيـاتِ
فعَجِّلها وأنفذهــا إليــنا ودَعْنا مـن بنات التُّرهـاتِ[3]

فأجابه الربيعُ فقال :

بعثتَ بمُقْرِفٍ حَطِمٍ إلينـا بطيءِ الحُضْرِ ثم تقول : هاتِ[4]

---

(١) المقطعة : الأبيـات من الشعر ، وهي أيضاً : ضرب من الثيـاب ، وهي المرادة هنا . أغرّك ... : أراد أنه يعيش في نعمة وبحبوحة . متفنج : مرتفع . الحرورية : الخوارج . البهر : انقطاع النفس عند الجري .

(٢) القدم : الغليظ الثقيل .

(٣) الترهات : الأباطيل .

(٤) المقرف : الفرس غير الأصيل ، ومن الرجال : من كانت أمه عربية وأبوه أعجمياً . =

فقال النصيب :

في سبيل الله أودى فَرسي ... ثم عُلّلتُ بأبيات هَزَجْ
كنت أرجو من ربيعٍ فَرَجاً ... فإذا ما عنده لي من فَرَجْ

قال : ثم خرج الربيع الى مكة ، وقد كان وعد النُصيب جاريةً فلم يُعطه ، وأمر ابنه أن يدفع اليه ألفي درهم ، ففعل ، فقال النصيب :

ألا أبلغا عني الربيع رسالةً ... ربيعَ بني عبد المَدَان الأكارمِ
أعزّت عليك البِيضُ لمّا أَرغتُها ... فرُغْتَ الى إعداد بيض الدراهم
ألم تَرَ أني غيرُ مُستطرَف الغنى ... حديث وأني من ذُؤابة هاشم
وأنك لم تهبِط من الأرض تَلعةً ... ولا نَجوةً إلا بعهدي وخاتمي[1]

● محمد بن يزيد النَحْويّ قال : حُدّثت من غير وجه :

أنّ النُّصَيب دخل على الفضل بن يحيى بن خالد مُسَلِّماً ،فوجد عنده جماعةٍ من الشعراء قد امتدحوه ، فهم ينشدونه ، ويأمر لهم بالجوائز ،ولم يكن امتدحه ولا أعدّ له شيئاً . فلمّا فَرَغوا ـ وكان يروّي[2] قولاً في نفسه ـ استأذن في الإنشاد ثم أنشد قصيدته التي أولها قولُه :

طرقتْك مَيّةُ والمزارُ شَطِيبُ ... وتُثيبك الهِجرانَ وهي قريبُ
لله ميّةُ خُلّةً لو أنها ... تَجزي الودادَ بوُدّها وتُثيب
وكأن ميّة حين أتلعَ جِيدُها ... رشأٌ أَغَنُّ من الظّباء رَبيبُ
نصفانِ ما تحت المؤزّر عاتكٌ ... دعْصٌ أغرُّ وفوق ذاك قضيبُ
ما للمنازل لا تكاد تُجيب ... أنّى يُجيبُك جَندلٌ وجَبُوبُ

= حطم : متحطم . الحضر : العدو .

(١) البيض : النساء . أرغتها : أردتها وطلبتها . مستطرف الغنى : حديث الغنى .

(٢) روّى في الأمر : تفكر .

جادتْك مـن سَبَل الثريّـا دِيمـةٌ رَيّـا ومن نَوء السماك ذَنوب
فلقد عهدتُ بـك الحِلال بغبطةٍ والدهرُ غضٌ والجَنابُ خَصيب
إذ للشباب عليَّ من ورق الصبـا ظلٌ واذ غُصن الشباب رطيبُ
طرب الفؤاد ولاتَ حينَ تطرُّبِ إن الموكَّل بالصِبا لَطَروب
وتقول ميّة ما لِمثلـك والصِبـا واللونُ أسودُ حـالكٌ غِربيبُ
شاب الغُراب ومـا أراك تَشيـب وطِلابُك البِيضَ الحسانَ عجيبُ
أعَـلاقَةٌ أسبـابُـهنّ وأنمـا أفنان رأسك فُلفُلٌ وزبيبٌ(١)

. . . . . .

يقول فيها في مدح الفضل :

والبرَمكيُّ اذا تقـارب سِنُّـه أو باعدتَهْ السِنٌ فهـو نجيبُ
خِرْقُ العطاء إذا استهـلّ عَطاؤه لا مُتبعٌ مَـنّـاً ولا محسوبُ
يا آلَ بَـرمْكَ ما رأينـا مثلكـم ما منكم الا أَغـرٌّ وَهُـوبُ
وإذا بدا الفضلُ بن يحيى هِبته لجلالهِ إنّ الجليـلَ مَهيبُ
قاد الجياد الى العـدا وكـأنّهـا رِجْل الجَـراد تَسُوقهنّ جَنوب
قُبّاً تباري في الأسنّـة شُزَّبـاً تدع الحـزُونَ كأنّهنّ سُهوب
من كل مضطرِب العِنان كأنّـه ذئبٌ يُبادرُه الفريسـةَ ذيـبُ
تهوِي بكلّ مُغـاورٍ عاداتـهُ صِدقُ اللقاءِ فما له تكذيب(٢)

---

(١) شطيب : بعيد ، وشَطَب : بَعُد . الخلة : الصديقة . أتلع : طال وارتفع . أغن : في صوته غُنّة . الدعص : الكثيب من الرمل . الجبَوب : وجه الأرض الصلبة . السبل : ما سال من المطر . الديمة : السحابة الممطرة . الثريا والسماك : من الكواكب . الذنوب : الدلو الممتلئة .

(٢) الخرْق : الشديد الكريم . الرِّجْل . (بكسر الراء) : القطعة العظيمة من الجراد . قبّاً : ضامرة البطون . الشزب ج شازب : الخشن اليابس .

[الأبيات . . . .]

قال : فاستحسنها الفضلُ وأمر له بثلاثين ألف درهم . . .

● أحمد بن سليمان بن أبي شيخ قال :

كان أبي يَستملح قول نصيب وقد رأى كثرة الشعراء على باب الفضل بن يحيى ، فلما دخل الناسُ اليه قال له :

ما لقِينا من جُود فضل بن يحيى ... تــرك النَاسَ كلَّهــم شعراء

ويقول : ما في الدنيا أحسنُ من هذا المعنى ، وعلى أنه قد أخذ منهم مالاً جليلاً ولكن قلّما سمعتُ بطبقته مثلَه .

* * *

٣٨

والبة بن الحُباب

[الأغاني الجزء ١٨ ص ١٠٠ وما بعدها]

الشاعر

والبةُ بن الحُباب أَسَديٌّ صليبةٌ ، كوفيّ ، شاعر من شعراء الدولة العبّاسيّة ، يُكنَى أبا أسامة ، وهو أستاذ أبي نُواس . وكان ظريفاً شاعراً غزِلاً وصّافا للشَراب والغلْمان المُـرْد ، وشعرُه في غير ذلك مُقارِبٌ[1] ليس بالجيّد ، وقد هاجى بشّاراً وأبا العتاهية فلم يصنع شيئاً وفضَحاه ، فعاد الى الكوفة كالهارب ، وخمَل ذكرُه بعدُ .

أبو عدنان السُّلَميّ الشاعر قال .

قال المهديّ لعُمارة بن حمزة : مَن أرقُّ الناس شعراً ؟ قال : والبةُ بن الحُباب الأسديّ ، وهو الذي يقول :

ولها ولا ذنبَ لها حُبٌّ كأطراف الرّماح
في القلب يَقدحُ والحشا فالقلبُ مجروح النواحي

(١) شعر مقارب : وسط بين الجيد والرديء .

قال : صدقتَ ، واللهِ . . .

قال الجاحظ : كان والبةُ بن الحباب ، ومطيعُ بن إياس ، ومُنقذ بن عبد الرحمن الهلالي ، وحَفص بن أبي وَردة ، وابنُ المقفَّع ، ويونُس بن أبي فَروة ، وحمّاد عَجْرَد ، وعليُّ بن الخليل ، وحمّاد بن أبي ليلى الرّاوية ،وابنُ الزّبرقان ، وعُمارة بن حمزة ، ويزيد بن الفَيض ، وجميل بن محفوظ ، وبشّارٌ المُرَعَّث ، وأبانُ اللاحقيّ ، نُدَماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هَزْلاَ وعَمداً ، وكلُّهم مُتهمٌ في دينه .

طائفة من أخباره

● عن ابن قُتيبة :

حدّثني الدَّعْلجيُّ غلامُ أبي نواس قال : أنشدت يوماً بين يدي أبي نواس قوله : يا شقيقَ النفس من حَكَمٍ   نِمتَ عن ليلي ولم أَنَمِ
وكان قد سكر فقال : أُخبرك بشيء على أن تكتُمهَ ؟ قلت : نَعم . قال : أتدري مَن المَعْنيُّ بقوله : يا شقيق النفس من حكم ؟ قلت : لا . قال : أنا واللهِ المَعنيُّ بذلك ، والشعر لوالبةَ بن الحُباب . قال :وما علِم بذلك غيرُك وأنت أعلم . فما حدّثتُ بهذا حتى مات .

● محمد بن عمر الجُرجانــيّ قال :

رأيت أبا العَتاهية جاء الى أبي فقال له : إن والبة بن الحُباب قد هجاني ، ومَن أنا منه ؟ أنا جرّارٌ مسكين ـ وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه ـ فأُحبّ أن تُكلّمه أن يُمسِكَ عنيّ ، قال : فكلّم أبي والبةَ وعرّفه أن ابا العتـاهية جاءه وساله ذلك . فلم يقبل وجعل يشتُم أبا العتاهية ، فتركه ، ثم جاء أبو العتاهية فسأله عمّا عمل في حاجته ، فأخبره بما ردّ عليه والبةُ ، فقال لأبي : لي الآن اليك حاجةٌ . قال : وما هي ؟ قال : لا تُكلِمّني في أمره . قال قلت له : هذا أقلّ ما يجب لك . قال : فقال أبو العتاهية يهجوه :

أوالــبُ أنت في العـــــربِ   كمثل الشِيص في الرُّطَــــبِ

هَلُمّ الى الموالي الصِيد في سَعةٍ وفي رَحَبِ
فأنت بنا لَعمرُ الله أشبهُ منك بالعربِ
غضبت عليك ثم رأيتُ وجهَك فانجلَى غضبي
لِما ذكّرتني من لون أجدادي ولونِ أبي
فقُل ما شئتَ أقبله وإن أطنبتَ في الكذِب
لقد أُخبرتُ عنك وعن أبيك الخالص العربي
فقال العارفون به مُصاصٌ غيرُ مُؤتَشِب
أتانا من بلاد الرُّو م مُتَّجراً على قَتَبِ(١)
[الأبيات . . . . .] . . . .

قال : وبلَغ الشعرُ والبة فجاء الى أبي فقال : قد كلّمتَني في أبي العتاهية ، وقد رغبتُ في الصُّلح . قال له أبي : هَيهاتَ ! إنه قد أكّد عليّ إن لم تقبَل ما طلب أن أُخلّي بينك وبينَه ، وقد فعلت . فقال له والبةُ : فما الرأيُ عندك ؟ فإنه فَضَحني . قال : تنحدر الى الكوفة . فركب زورقاً ومضى من بغداد الى الكوفة .

وأجودُ ما قاله والبةُ في أبي العتاهية قولهُ :

كان فينا يُكنَى أبا إسحاق وبها الرَّكبُ سار في الآفاق
فتكنّى مَعتوهُنا بعَتاهٍ يا لها كُنيةً أتتْ باتّفاق
خلق اللهُ لحيةً لك لا تَنفَكُّ معقودةً لدى الحلّاق

● حمّاد بن إسحاق قال :

قرأت على أبي عن أبيه أن حكماً الواديَّ أخبره أنه دخل على محمد بن العباس يوما بالبصرة وهو يتَململ خمارا ، وبيده كأسٌ وهو يجتهد في شربها

(١) الشيص : تمر رديء . المصاص : الخالص من كل شيء . غير مؤتشب : غير مختلط .

فلا يُطيقه ، ونُدماؤه بين يديه وفي أيديهم أقداحُهم ، وكان يوم نَيروز ، فقال لي : يا حكمُ ، غنّني ، فإن أطربتَني فلك كلُّ ما أُهدِي إليّ اليومَ . قال : وبين يديه من الهدايا أمرٌ عظيم ، فاندفعتُ أغنّي في شعر والبة بن الحُباب :

قد قابلتْنا الكؤوسُ ودابَرتْنا النُّحوسُ
واليوم هوُ نَيروزُ قد عظَّمتْه المَجوُس
لم تُخطِه في حساب وذاك ممّا نَسُوس

فطرب واستعاده . فأعدتُه ثلاث مرّات ، فشُمّرت[1] قدحُه ، واستمرّ في شُربه ، وأمر بحمل كل ما كان بين يديه اليّ ، فكانت قيمته ثلاثين ألفَ درهم .

* * *

(١) شمرت : خففت بالماء .

فهرس التراجم
على حروف المعجم

الفهرس

رقم الترجمة	اسم الشاعر	الصفحة
١٩	دعبل	٢٩٨
٢٠	ديك الجنّ	٣٢٥
٢١	رؤبة بن العجّاج	٣٣٢
٢٢	سلم الخاسر	٣٤٠
٢٣	السيّد الحميريّ	٣٥٢
٢٤	العبّاس بن الأحنف	٣٧٢
٢٥	عبد الصّمد بن المعذّل	٣٨٣
٢٦	عبد الله بن مُصعَب	٣٩٠
٢٧	عبد الله بن المعتزّ	٣٩٤
٢٨	العتّابيّ	٣٩٩
٢٩	العكوّك	٤١٢
٣٠	عليّ بن الجَهم	٤٢٧
٣١	عُمارة بن عقيل	٤٤٤
٣٢	الفضل الرّقاشيّ	٤٥١
٣٣	محمد بن يسير	٤٥٦
٣٤	مروان بن أبي حفصة	٤٦٦
٣٥	مسلم بن الوليد	٤٨١
٣٦	مطيع بن إياس	٥٠٧
٣٧	نُصيب الأصغر	٥٢١
٣٨	والبة بن الحباب	٥٢٩

اختيارات

من

كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

القسم السادس

العصر العباسي

صنعة

الدكتور إحسان النص

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

اختيارات

من

كتاب الأغاني

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

المقدّمة

هذا هو الجزء السادس والأخير من كتاب «اختيارات من كتاب الأغاني»، وقد جعلته وقفاً على أخبار المغنّين والقيان الذين ترجم لهم أبو الفرج في كتاب الأغاني. ولم أورد تراجم جميع المغنّين والقيان وإنما اقتصرت على المشهورين منهم، على أنني ذيّلت الكتاب بأسماء من أغفلتُهم، مع بيان مواضع تراجمهم من كتاب الأغاني، ليرجع إليها من شاء الوقوف على أخبارهم.

وقد جعلت هذا الجزء أقساماً خمسة: الأول لتراجم المغنين في العصر الأموي مرتبة على الحروف، والثاني لتراجم القيان في العصر الأموي، والثالث لمغنّي العصر العباسي، والرابع للقيان في العصر العباسي، والقسم الأخير جعلته لمن عرف بالغناء من الخلفاء وأولاد الخلفاء وبناتهم.

وجريت في هذا الجزء على النحو الذي سلكته في الأجزاء السابقة من توخّي الإيجاز، واختيار الرواية الراجحة حين تتعدّد روايات الخبر الواحد، والاجتزاء بذكر الراوي الأخير في السَّند، وترتيب الأخبار في كل ترجمة وتنسيقها، وشرح ما يغمض من الألفاظ والعبارات، وتحقيق ما قد يبدو لي من وجوه الاختلال في طبعة كتاب الأغاني المعتمدة ـ وهي طبعة دار الكتب

المصرية حتى الجزء السادس عشر وطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب من الجزء السابع عشر حتى الرابع والعشرين ، وحذف ما لا يليق ذكرهُ من الأخبار والألفاظ.

ولم أُعنَ في هذا الجزء بذكر جميع أصوات المغنّي أو المغنّية، وإنما اخترت طائفة منها، مع إغفال ما يورده أبو الفرج بعد كل صوت مما يتّصل بلحنه وملحنه، وموضع الأصابع من الأوتار ممّا لا غناء في ذكره لتعذّر الانتفاع به في أيامنا، بعد أن غابت عنا أصول الغناء التي ذكرها أبو الفرج في كتابه والتي وضع أسسها إسحاق الموصلّي.

وأرجو أن أكون قد يَسّرت بصنيعي هذا على من يودّون الرجوع إلى تراجم شعرائنا القدامى وأخبارهم، وأخبار المغنّين والقيان الوقوفَ على هذه الأخبار على نحو ميسّر مُنسَّق وافٍ بالقصد.

والله وليّ التوفيـق.

الكويت في ١٠ / ١٠ / ٨٣

إحسان النص

* .* .* .*

القِسمُ الأول

المغَنّونَ في العَصْر الأمويّ

[١]

الأبجر

[الأغاني الجزء ٣ ص ٣٤٤ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

الأَبْجَر لقبٌ غَلَب عليه واسمُهُ عُبيد الله بن القاسم بن ضيبة، ويُكنّى أبا طالب... وهو مولى لكنانة ثم لبني بَكْر، ويقال إنه مولى لبني لَيث.

طائفة من أخباره

● عَوْرَك اللِّهبيّ قال:

لم يكن بمكة أحدٌ أظرف ولا أَسْرى ولا أحسن هيئةً من الأبجر. كانت حُلّته بمائة دينار وفرسُه بمائة دينار ومَركبُه بمائة دينار، وكان يقف بين المَأْزِمَين[1] فيرفع صوته فيقف الناسُ له يركبُ بعضُهم بعضاً.

---

(١) المأزمان: اسم موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة، وقيل هما مضيقا جبلين بمكة.

● عن إسحـــاق:

جلس الأبجر في ليلة اليوم السـابع من أيام الحـجّ على قـريب من التَّنعيم[1]، فإذا عسكرٌ جَرّارٌ قد أقبل في آخر الليل، وفيه دوابُّ تُجْنَب[2]، وفيها فرسٌ أدهمُ عليه سرجٌ حِلْيَتهُ ذهبٌ، فاندفع فغنّى:

عـرفتُ ديـارَ الحيّ خـاليـةً قَفْـرا   كـأنّ بهـا لمّـا تـوهَّمْتُهـا سَـطرا

فلمّا سمعه مَن في القِباب والمَحامل أمسكوا، وصاح صائحٌ: ويحَك، أعِد الصوت. فقال: لا واللهِ! إلّا بالفَرَس الأدهم بسَرجه ولِجامه وأربعمائة دينارٍ. فإذا الوليدُ بن يزيدَ صاحبُ الإبل، فنُودي: أين مَنزلُـك ومن أنت؟ فقال: أنا الأبجر ومنزلي على باب زُقاق الخرّازين. فغدا عليه رسولُ الوليد بذلك الفرس وأربعمائة دينار وتَخْتٍ من ثيابِ وَشْيٍ وغيرِ ذلك، ثم أُتي به الوليد فأقام عنده، وراح مع أصحابه عَشيّة التَّرْوية[3]، وهو أحسنُهم هيئةً، وخرج معه أو بعدَه إلى الشأم.

قال إسحاق: وحدّثني عَوْرك اللهبيّ أن خروجَه كان معه، وذلك في ولاية محمد بن هشام بن إسماعيل مكّة، وفي تلك السنة حجّ الوليد، لأنّ هشاماً أَمَره بذلك ليَهْتِكَه عند أهل الحَرَم، فيجدَ السَّبيلَ إلى خَلعه، فظهر منه أكثرُ ممّا أراد به من التشاغُل بالمغنّين واللهو. وأقبل الأبجر معه حتى قُتل الوليد، ثم خرج إلى مصر فمات بها.

● عن عمر بن حفص بن أبي كلاب قال:

كان الأبجرُ مولانا، وكان مَكّيّاً، فكان إذا قدم المدينة نَزَلَ علينا. فقال لنا يوماً: أَسمِعوني غِناء ابن عائشتكم هذا. فأرسلنا فيه، فجَمَعنا بينهما في بيت

---

(1) التنعيم: موضع بين مكة وسرف في الحل، وكانت قريش في الجاهلية تقتل فيه أسراها.
(2) تجنب: تساق إلى جنب.
(3) عشية التروية: عشية الثامن من ذي الحجـة.

ابن هَبّار، فتغنّى ابنُ عائشة، فقال الأبجر: كلُّ مملوكٍ لي حُرٌّ إن تغنّيتُ معك إلّا بنصف صوتي. ثم أدخل إصبعَه في شِدقه فَتَغَنّى، فسمع صوتَهَ مَن في السُّوق، فحُشر الناسُ علينا، فلم يفترقا حتى تَشاتما. قال: وكان ابنُ عائشة حَديداً جاهلاً[1].

● ابن أشعَب عن أبيــه قال:

دُعي ذاتَ يـوم المغنّون للوليـد بن يزيـد، وكنتُ نـازلاً معهم، فقلت للرسول: خُذني فيهم. قال: لم أُومَرْ بذلك وإنما أُمرت بإحضار المغنّين، وأنت بَطّالٌ لا تدخلُ في جُملتهم. فقلت: أنا واللهِ أحسنُ غناءً منهم. ثم اندفعت فغنّيتُه، فقال: لقد سمعت حَسناً ولكنّي أخاف. فقلت: لا خـوفَ عليك، ولك مع هذا شرطٌ. قال: وما هو؟ قلت: كلُّ ما أَصَبْتُه فلك شَطرُه. فقال للجماعة: اشهَدوا عليه. فشهدوا، وَمَضَينا فدخلنا على الوليد وهو لَقِس النفس[2]، فغَنّاه المغنُّون في كلّ فنٍّ من خفيفٍ وثقيل، فلم يتحرك ولا نَشِط. فقام الأبجر إلى الخَلَاء. وكان خبيثاً داهياً ـ فسأل الخادمَ عن خبره وبأيّ سببٍ هو خاثر[3]؟ فقال: بينَه وبين امرأتِهِ شرٌّ، لأنه عشِق أختَها فغضبتْ عليه، فهو إلى أختها أَمْيَلُ، وقد عزَم على طلاقها وحلَف ألّا يذكرَها أبداً بمراسَلةٍ ولا مخاطبة، وخرج على هذا الحال من عندها. فعاد الأبجر إلينا وما جلس حتى اندفع فَغَنّى:

فــسني فــإنـيَّ لا أُبــالي وأيْـقِنـي أَصَعّــد بــاقي حُبّكم أم تَصَــوّبــا
ألم تعلمي أنّي عَـزُوفٌ عن الهوى إذا صـاحبي من غير شيءٍ تَغَضّبـا

فطرب الوليد وارتاح وقال: أصبتَ يا عُبيدُ واللهِ ما في نفسي. وأمرَ له بعشرة آلاف درهم وشرب حتى سَكِر، ولم يحظَ بشيءٍ أحدٌ سوى الأبجر. فلمّا

---

(١) حديداً جاهلاً: ذو حدّة سريع الغضب.
(٢) لقست نفسه: غثت وخبثت.
(٣) الخاثر : الذي غثت نفسه.

أيقنتُ بانقضاء المجلس وثَبتُ فقلت: إن رأيتَ يا أمير المؤمنين أن تأمر من يضرِبُني مائةً الساعةَ بحضرتك. فضحك وقال: قَبحك اللهُ! وما السببُ في ذلك؟ فأخبرته بقصّتي مع الرّسول وقلت: إنه بَدَأني من المكروه في أوّل يومه بما اتّصِل عليّ إلى آخره، فأُريد أن أضرَب مائةً ويُضرَب بعدي مثلها. فقال له: لقد لَطُفت، أعطُوه مائةَ دينار وأعطُوا الرسولَ خمسين ديناراً من مالنا عِوضاً عن الخمسين التي أراد أن يأخذَها. فقبضتُها وما حَظي أحدٌ بشيء غيري وغيرَ الرسول.



[٢]

ابن سُرَيج

[الأغاني الجزء الأول ص ٢٤٨ وما بعدها]
والجزء ٩ ص ٦١ وما بعدها]
[والجزء ١٧ ص ٤١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو عُبيدَ بن سُريج، ويُكنى أبا يحيى، مولى بني نوفل بن عبد مناف. وذكر ابنُ الكلبيّ عن أبيه وأبي مِسكين أنه مولىً لبني الحارث بن عبد المطّلب.

محمد بن يحيى أبو غسّان قال: ابنُ سريج مولىً لبني لَيث ومنزله مكّةُ..

ذكر إبراهيم بن زياد بن عَنْبسة بن سعيد بن العاص:

أنّ ابن سُريج كان آدمَ أحمرَ ظاهرَ الدّم، سُناطاً(١)، في عينَيه قَبَلٌ(٢)، بلغ

(١) السناط: الخفيف العارضين أو الذي لا لحية له.
(٢) القبل: إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى.

خمساً وثمانين سنةً، وصَلِع فكان يلبَس جُمّةً[1] مُركَّبةً، وكان أكثرَ ما يُرى مُقَنَّعاً، وكان منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر.

وقال ابن الكلبيّ عن أبيه: كان ابنُ سريج مُخنَّثاً أحولَ أعمشَ يُلقَّب «وجهَ الباب»، وصَلِع فكان يلبس جُمّةً، وكان لا يغنّي إلاّ مقنَّعاً يُسبِل القناع على وجهه.

وقال ابنُ الكلبيّ عن أبيه وأبي مِسكين: كان ابنُ سُريج أحسنَ الناس غناءً، وكان يغنّي مُرتجلاً ويوقِّع بقضيب، وغنّى في زمن عثمان بن عفّان، رضي الله عنه، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك.

عن أيوب بن سَلَمة المخزوميّ قال:

كان في عين ابن سُريج قَبَلٌ حُلو لا يبلُغ أن يكون حَوَلاً؛ وغنّى في خلافة عثمان رضي الله عنه، ومات بعد قتل الوليد بن يزيد، وكان له صَلَعٌ في جَبهته، وكان يلبس جُمّةً مُركَّبةً، فيكون فيها أحسنَ شيء، وكان يُلقَّب «وَجهَ الباب» ولا يغضَب من ذلك، وكان أبوه تُركيّاً.

وقال أبو أيوب المَديني: كان ابنُ سُريج - فيما رَوينا عن جماعة من المكّيّين - مولى بني جُنْدَع بن ليث بن بكر؛ وكان إذا غَنّى سدَل قناعه على وجهه حتى لا يُرى حَوَلُه؛ وكان يُوقّع بقضيب، وقيل إنه كان يضرب بالعُود. وكانت علّته التي مات منها الجُذام.

قال إسحاق: وحدّثني الأصمعي قال: أخبرني مَن رأى عُود ابن سُريج، وكان على صنعة عِيدان الفُرس. وكان ابنُ سُريج أوّلَ من ضَرب به على الغناء العربيّ بمكة، وذلك أنه رآه مع العَجَم الذين قدِم بهم ابنُ الزبير لبناء الكعبة، فأعجب أهلَ مكّةَ غناؤهم، فقال ابن سريج: أنا أضرِب به على غنائي، فضرَب به فكان أحذقَ الناس.

---

(١) الجمة: مجتمع شعر الرأس وأراد بها الشعر المستعار.

قال إسحاق وذكر الزُبيريّ: أنّ أمّ ابن سُريج مَولاةٌ لآل المطّلب يقال لها «رائقة». وقيل: بل أُمُّه هند أخت رائقة، فمن ثَمّ قيل إنه مولى بني المطّلب ابن حَنْطَب. وكان ابنُ سريج بعد وفاة عبد الله بن جعفر قد انقطع إلى الحَكَم ابن المطّلب بن عبد الله بن المطّلب بن حَنْطَب أحد بني مخزوم، وكان من سادة قريش ووجوهها. وأخذ ابنُ سُريج الغِناء عن ابن مِسْجَح.

قال إسحاق: وأَصلُ الغناء أربعةُ نفرٍ: مَكّيان ومَدنيّان، فالمكّيان: ابنُ سريج وابنُ مُحرِز، والمدنيّان: مَعَبدٌ ومالك.

قال إسحاق: وسألتُ هشامَ بن المُرّية ـ وكان قد عُمّر، وكان عالماً بالغناء فلا يُبارَى فيه ـ فقلت له: مَن أَحذقُ الناس بالغناء؟ فقال لي: أتُحبّ الإطالةَ أم الاختصار؟ فقلت: أُحبّ الاختصار الذي يأتي على سؤالي. قال: ما خَلَقَ اللهُ تعالى بعد داودَ النبيّ عليه الصلاةُ والسّلام أحسنَ صوتاً من ابن سُريج، ولا صاغ اللهُ عزّ وجلَّ أحداً أحذقَ منه بالغناء، ويَدُلُّك على ذلك أن معبداً كان إذا أعجبه غناؤه قال: أنا اليومَ سُرَيجيّ.

قال وأخبرني إبراهيمُ ـ يعني أباه ـ قال: أدركتُ يونُس بن محمد الكاتبَ فحدّثني عن الأربعة: ابن سُريج وابن مُحرِز والغَريض ومَعْبَد، فقلت له: من أحسنُ الناس غناءً؟ فقال: أبو يحيى. قلت: عُبَيد بن سُريج؟ قال: نعم. قلت: وكيف ذاك؟ قال: إن شئتَ فسّرتُ لك، وإن شئت أجملتُ. قلت: أَجمِلْ قال: كأنّه خُلق من كلّ قلب، فهو يغنّي لكلّ إنسانٍ ما يشتهي.

يوسف بن إبراهيم قال:

حضرت أبا إسحاق إبراهيم بن المهديّ وعنده إسحاقُ الموصليّ، فقال إسحاق: غنّى ابنُ سُريج ثمانيةً وستّين صوتاً. فقال له أبو إسحاق: ما تجاوز قطّ ثلاثة وستّين صوتاً. فقال: بَلَى . ثم جعلا يُنشدان أشعارَ الصحيح منها حتى بلَغا ثلاثةً وستّين صوتاً وهما يتّفقان على ذلك، ثم أنشد إسحاقُ بعد ذلك أشعارَ خمسة أصواتٍ أيضاً، فقال له أبو إسحاق: صدقتَ، هذا من غِنائه، ولكنّ لحن هذا الصوت نَقَله من لحنه في الشعر الفلانيّ، ولحنَ الثاني من

لحنه الفلانيّ، حتى عدّ له الخمسةَ الأصوات، فقال له: إسحاق: صدقتَ. ثم قال له إبراهيم: إن ابن سريج كان رجلاً عاقلاً أديباً وكان يغنيّ الناسَ بما يشتهون، فلا يُغنّيهم صوتاً مُدح به أعداؤهم ولا صوتاً عليهم فيه عارٌ أو غضاضة، ولكنه يعدِل بتلك الألحان إلى أشعارٍ في أوزانها، فالصَوتان واحدٌ لا ينبغي أن نَعُدَّهما اثنين عند التحصيل منّا لغنائه. فصدَّقه إسحاقُ...

عن ابن تَيْزَن المغنيّ قال:

قال أبو نافع الأسود ـ وكان آخر من بقي من غلمان ابن سريج ـ: إذا أعجزك أن تُطرب القرشيّ فَغَنِّه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة فإنك تُرقصه.

عن إسحاق عن أبيه أنه كان يقول:

غناء كل مُغنٍّ مخلوقٌ من قلب رجل واحد، وغناءُ ابن سريج مخلوقٌ من قلوب الناس جميعاً. وكان يقول: الغناء على ثلاثة أضرُب: فضربٌ مُلْهٍ مطربٌ يُحرّك ويستخفّ، وضربٌ ثانٍ له شجاً ورقّةٌ، وضرب ثالثٌ حِكمةٌ وإتقانُ صنعة. قال: وكلُّ هذا مجموع في غناء ابن سريج.

عن حَمّاد عن أبيه قال:

قَدِم جريرٌ المدينة أو مكةَ، فجلس مع قومٍ، فجعلوا يعرضون عليه غناءَ رجلٍ رجل من المغنّين، حتى غنَّوه لابن سريج فطرِب وقال: هذا أحسنُ ما أسمعتُموني من الغناء كلّه. قالوا: وكيف قلتَ ذاك يا أبا حَزْرَةَ قال: مَخرجُ كلّ ما أسمعتُموني من الغناء من الرأس، ومَخرجُ هذا من الصَّدْر.

عن إسحاق: أن ابن سريج كان عند بستان ابن عامر يغنّي:

لِمن نارٌ بأعلى الخَيف دُون البئر ما تَخبو
أرقتُ لِذكر مَوضعها فَحَنّ لِذكرها القلبُ

إذا ما أخمدت أُلقي عليها المَنْدَلُ الرَّطْبُ[1]

فجعل الحاجُّ يركب بعضُهم بعضاً، حتى جاء إنسانٌ من آخر القُطُرات[2]، فقال: يا هذا، قد قطعت على الحاج وحبستهم، والوقت قد ضاق، فاتَّقِ الله وقُم عنهم. فقام وسار الناسُ.

عن إسحاق الموصليّ:

أن سليمان بن عبد الملك لمّا حجّ سَبّق بين المُغنّين بَدْرةً[3]، فجاء ابنُ سُريج وقد أُغلق الباب، فلم يأذنْ له الحاجبُ، فأمسك حتى سكتوا وَغَنّى:

«سَرى هَمّي وهَمُّ المرء يَسري»

فأمر سليمان بدفع البَدْرة إليه.

بدء اشتغاله بالغناء

عن سِياطٍ قال:

كان ابنُ سُريج أوّلَ من غَنّى الغناء المتقَن بالحجاز بعد طُويس، وكان مولده في خلافة عمر بن الخطّاب، وأدرك يزيد بن عبد الملك وناح عليه، ومات في خلافة هشام. قال: وكان قبل أن يغنّي نائحاً ولم يكن مذكوراً، حتى ورد الخبرُ مكةَ بما فعله مُسرف بن عُقبة[4] بالمدينة، فعَلَا على أبي قُبيس وناح بشعر هو اليومَ داخلٌ في أغانيه وهو:

يا عينُ جُودي بالدُّموع السِّفاح وابكي على قَتْلَى قريش البِطاح

---

(١) المندل: العود الطيب الرائحة.

(٢) القطرات ج قطار: الإبل يقطر بعضها خلف بعض.

(٣) سبق بين المغنين بدرة: جعلها سبقاً بينهم من غلب أخذها.

(٤) هو لقب مسلم بن عقبة المرّيّ الذي وجّهه يزيد لقتال أهل الحجاز وأوقع بأهل المدينة وقعة الحرّة المشهورة.

فاستحسن الناسُ ذلك منه وكان أولَ ما قُدّم به.

قال ابنُ جامع: وحدّثني جماعةٌ من شيوخ أهل مكّة أنّهم حُدِّثوا أن سُكَينة بنت الحسين عليهما السلام بعثت إلى ابن سريج بشعرٍ أمرتْه أن يصوغَ فيه لحناً يُناح به، فصاغ فيه ـ وهو الآنَ داخلٌ في غنائه ـ والشعر:

يـا أرضُ وَيْحـكِ أكـرمي أمـواتي فلقـد ظفِـرتِ بسـادتي وحُمـاتي

فقدّمه ذلك عند أهل الحَرَمين على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف.

قال: وحدّثني ابنُ جامع وابنُ أبي الكَنّات جميعاً:

أن سُكينة بعثتْ إليه بمملوك لها يقال له عبد الملك، وامرتْه أن يُعلِّمَه النِّياحةَ، فلم يزل يُعلّمه مدّةً طويلة، ثم توفيّ عمُّها أبو القاسم محمد بن الحَنَفيّة عليه السلام، وكان ابنُ سريج عليلاً علّةً صعبة فلم يقدِر على النياحة، فقال لها عبدُها عبدُ الملك: أنا أَنُوح لكِ نَوحاً أُنسيكِ به نَوْحَ ابن سريج. قال: أَوَ تُحسن ذاك؟ قال: نعم. فأمرته فناح، فكان نَوحُه في الغاية من الجودة؛ وقال النساء: هذا نَوْحٌ غَرِيضٌ، فلُقّب عبدُ الملك الغريضَ. وأفاق ابنُ سريج من علّته بعد أيام وعَرف خبرَ وفاة ابن الحَنَفية فقال لهم: فَمن ناح عليه؟ قالوا: عبدُ الملك غلامُ سُكينة. قال: فهل جَوّز الناسُ نوحَه؟ قالوا: نعم، وقدَّمه بعضُهم عليك. فحلف ابنُ سُريج ألّا ينوحَ بعد ذلك اليوم، وترك النوحَ وعَدَل إلى الغناء، فلم يَنُحْ حتى ماتت حَبَابة ـ وكانت قد أخذتْ عنه وأحسنت إليه، فناح عليها، ثم ناح بعدها على يزيدَ بن عبد الملك، ثم لم يَنُحْ بعدَه حتى هَلَك.

قال: ولمّا عَدَل ابنُ سريج عن النوح إلى الغناء عدَل معه الغريضُ إليه، فكان لا يغنّي صوتاً إلّا عارضه فيه.

خبرته بأصـول الغنـاء:

عن مالك بن أبي السَّمح قال:

سألت ابنَ سُريج عن قول الناس: فلانٌ يُصيب وفلان يُخطىء، وفلانٌ

يُحسِن وفُلان يسيء، فقال: المُصِيبُ المُحسن من المغنّين هو الذي يُشبع الألحان، ويملأُ الأنفاسَ، ويُعدِّل الأوزان، ويُفخِّم الألفاظ، ويعرف الصَّواب، ويُقيم الإعـراب، ويستوفي النَّغَم الـطِّوال، ويُحسِّن مَقاطيـع النَّغم القِصار، ويُصيب أجناسَ الإيقاع، ويختلس مَوَاقِعَ النَّبرات، ويستوفي ما يُشاكلها في الضرب من النَّقرات. فعرضتُ ما قال على معبدٍ فقال: لو جاء في الغناء قُرآنٌ ما جاء إلّا هكذا.

طائفة من أخباره

● **عن يونُس الكاتب قال:**

وحجّ يزيد بن عبد الملك في تلك السنة بالناس، وخرج عمر بن أبي ربيعة ومعه ابنُ سُريج على نجيبتَين رِحالتاهما[1] مُلْبَستان بالدِّيباج، وقد خَضَبا النجيبَتين ولبِسا حُلّتَين، فجعلا يتلقّيان الحاجَّ ويتعرّضان للنساء إلى أن أظلم الليلُ، فَعَدَلا إلى كَثيبٍ مُشرف، والقمرُ طالعٌ يُضيء، فجلسا على الكثيب، وقال عمر لابن سُريج: غَنِّني صوتَكَ الجديد. فاندفع يُغنّيه، فلم يستتمَّه إلّا وقد طَلَع عليه رجلٌ راكب على فرس عَتيق، فسَلّم ثم قال: أيُمكنُك - أعزّك الله - أن تَرُدَّ هذا الصوت؟ قال: نعمْ، ونِعمةَ عَيْنٍ[2]، على أن تنزل وتجلسَ معنا. قال: أنا أَعْجَلُ من ذلك، فإن أجملتَ وأنعمت أعدتَه، وليس عليك من وقوفي شيءٌ ولا مَؤُونة. فأعاده فقال له: بالله أنت ابنُ سُريج؟ قال: نعم، حَيّاك الله! قال: وهذا عمرُ بن أبي ربيعة؟ قال: نعم. قال: حَيّاك اللهُ يا أبا الخَطّاب! فقال له: وأنت فحيّاك الله! قد عَرَفْتَنا فعرِّفْنا نفسَك. قال: لا يُمكِنُني ذلك. فغضب ابنُ سريج وقال: والله لو كنتَ يزيدَ بن عبد الملك لما زاد. فقال له: أنا يزيدُ بن عبد الملك. فوثَب إليه عمرُ فَأَعْظَمَه، ونزل ابنُ سُريج إليه فقَبَّل رِكابَه، فنَزَع حُلَّتَه وخاتَمه فَدَفعهما إليه، ومضى يركُض حتى لحِق

---

(١) الرحالة : سرج من جلود.

(٢) إي إنعاماً لعينك.

ثَقَلَه(١)، فجاء بهما ابنُ سُريج إلى عمر فأعطاه إيّاهما وقال له: إنّ هٰذين بك أَشْبَهُ منهما بي. فأعطاه عمر ثلاثمائة دينار وغَدا فيهما إلى المسجد، فَعَرَفهما الناسُ وجعلوا يتعجّبون ويقولون: كأنّهما والله حُلّةُ يزيد بن عبد الملك وخاتَمُهُ، ثم يسألون عمرَ عنهما فيُخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كَساه ذلك.

● عن عُمر بن سعد مولى الحارث بن هشام قال:

خرج ابنُ الزُبير ليلةً إلى أبي قُبَيس، فسمع غناءً، فلمّا انصرف رآه أصحابهُ وقد حال لونُه فقالوا: إنّ بك لَشَرّاً. قال: إنه ذاك. قالوا: وما هو؟ قال: لقد سمعت صوتاً إن كان من الجنّ إنه لعَجَبٌ، وإن كان من الإنس فما انتهى مُنتهاه شيءٌ! قال: فنظروا فإذا هو ابنُ سُريج يتغنّى:

أيـن رسـم دارٍ بـوادي غُـدَرْ ... لـجـاريـة من جـواري مُـضَـرْ
خَـدَلـجَـةُ الساق مَـمـكـورةٌ ... سَلُوس الـوِشاحِ كمثـل القمـرْ
تَـزيـن الـنـسـاءَ إذا مـا بَـدَتْ ... ويُبْهتُ في وجهها مَن نَظَرْ(٢)

الشعر ليزيد بن معاوية..

● قال محمد بن سعيد:

لمّا ضادَّ ابنَ سريج الغريضُ وناوَأه جعل ابنُ سريج لا يغنّي صوتاً إلاّ عارضه فيه الغَريض فغَنّى فيه لحناً غيرَه. وكانت ببعض أطراف مكّة دارٌ يأتيانها في كلّ جُمُعة ويجتمع لهما ناسٌ كثير، فيوضَع لكلّ واحدٍ منهما كرسيٌّ يجلسُ عليه ثم يتناقضان الغناء ويَترادّانه. قال: فلمّا رأى ابنُ سريج مَوقِع الغَريض وغنائه من الناس لِقُربه من النَّوح وشَبَهه به مال إلى الأَرمال والأَهزاج فاستخفّها الناسُ، فقال له الغَريض: يا أبا يحيى، قصّرت الغناء وحَذَفْتَه

---

(١) ثقل الرجل: متاعه وحشمه.

(٢) الخدلجة: الريّا الممتلئة الذراعين والساقين. الممكورة: المكتنزة اللحم. سلوس الوشاح: وشاحها لا يستقر في موضعه.

وأَفسدتَه. فقال له: نعم يا مُخنَّث، جُعلتَ تنوحُ على أبيك وأُمِّك، أَلي تقوَل هذا! والله لأُغَنِّينَّ غناءً ما غنّى أحدٌ أثقلَ منه ولا أجودَ. ثم تغنّى:

«تَشَكّى الكميتُ الجَرْيَ لمّا جَهَدْتُه»

● قال حمّاد: قال أبي وقال مَخْلَدُ بنَ خِداش المُهلّبيُّ:

كنّا بالمدينة في مجلسٍ لنا ومعنا مَعبدٌ، فقدِم قادمٌ من مكّة إلى المدينة فدخل علينا ليلاً، فجلس معبدٌ يُسائله عن الأخبار وهو يُخبرهُ ولا نَسمع ما يقول، فالتفت إلينا معبدٌ فقال: أصبحتُ أحسنَ الناس غناءً. فقيل له: أوَ لم تكن كذلك؟ قال: لا، لم أكن كذلك حيث كان ابنُ سريج حَيّاً، إنّ هذا أخبرني أن ابنَ سريج قد مات. ثم كان بعد ذلك إذا غَنّى صوتاً فأعجبه غناؤه قال: أصبحتُ اليومَ سُرَيجياً.

● قـال معبـدٌ:

أتيت أبا السائب المخزوميَّ ـ وكان يصلّي في كلّ يومٍ وليلة ألفَ رَكعة ـ فلمّا رآني تجوّز[1] وقال: ما معك من مُبكيات ابن سريج؟ قلت: قولُه:

ولـهنّ بـالبيـتِ العَـتيـق لُبـانـةٌ ... والـبيـتُ يعـرفـهـنّ لـو يـتـكـلّمُ
لـو كـان حَيّـا قَبْلَهنّ ظَعـائنـاً ... حَيّـا الحطِيمُ وجـوهَهنّ وزَمْـزَمُ
لَبِثـوا ثـلاثَ مِنىً بمنـزلِ غِبطةٍ ... وهمُ على سَفَرٍ لَعَمْرُك مـا هـمُ
مـتجـاوريـن بغيـر دار إقـامـةٍ ... لـو قد أَجَـدَّ تفرُّقٌ لم يَنْـدَمـوا[2]

فقال لي: غَنّه. فَغَنّيتُه، ثم قام يصلي فأطال، ثم تجوّز إليّ فقال: ما معك من مُطرِباته ومُشجِياته؟ فقلت: قولهُ:

لسنـا نُبـالي حين نُـدركُ حـاجـةً ... مـا بـات أو ظـلّ المَطِيُّ مُعَقَّـلا

---

(١) تجوز في صلاته: خففف فيهـا.

(٢) ثلاث منى: ليالي التشريق الثلاث التي يبيت فيها الحاج بمنى. أجد: تحقق وصار جداً.

فقال لي: غنِّه. فغنَّيته، ثم صلّى وتجوّز إليّ، وقال: ما معك من مُرقِصاته؟

فقلت:

فلم أرَ كالتَّجْمير مَنظَر ناظرٍ ولا كليالي الحجِّ أفتنَّ ذا هَوَى

فقال: كما أنت حتى أتحرَّمَ لهذا بَركْعَتين.

● عبد الرحمن بن إبراهيم المخزوميّ قال:

أرسلتْني أمّي وأنا غلامٌ أَسأَلُ عَطاءَ بنَ أبي رَباحٍ عن مَسألة، فوجدتُه في دارٍ يقال «لها دارُ المعلَّى»... وعليه مِلْحَفَةٌ مُعَصفَرة وهو جالسٌ على مِنبر وقد خُتِن ابنُه والطعامُ يُوضَع بين يديه، وهو يأمُر به أن يُفرَّق في الخَلْق، فلَهوتُ مع الصِّبيان ألعبُ بالجَوْز حتى أكل القومُ وتَفرّقوا وبقي مع عطاءٍ خاصّتُه فقالوا: يا أبا محمد، لو أذِنت لنا فأرسلنا إلى الغريض وابن سُريج. فقال: ما شئتم. فأرسَلوا إليهما، فلمّا أتيا قامُوا معهما وثبتَ عطاءٌ في مجلِسه فلم يدخُل، فدخلوا بهما بيتاً في الدار، فتغنّيا وأنا أسمعُ، فبدأ ابنُ سُريج فنقر بالدُّفّ وتغنّى بشعر كُثَيِّر:

بلَيْلَى وجاراتٍ لِليلَى كأنّها نعاجُ الفَلا تُحْدَى بهنّ الأباعرُ
أَمُنقطعٌ يا عزُّ ما كان بيننا وَشَاجَرني يا عَزُّ فيكِ الشَّواجِرُ
إذا قيل هذا بيتُ عَزَّةَ قادني إليه الهوى واستعجلتني البوادرُ
أصُدُّ وبي مثلُ الجُنون لكي يَرى رُواةُ الخَنَا أنّي لِبيتِك هاجرُ(١)

فكأنَّ القومَ قد نَزل عليهم السُّبات(٢)، وأدركهم الغَشْي فكانوا كالأموات، ثم أصغَوا إليه بآذانهم وشَخَصت إليه أعينُهم وطالت أعناقُهم. ثم غنّى الغريضُ بصوتٍ أُنسِيتُه بلحنٍ آخر، ثم غَنّى ابن سُريج ووقّع بالقضيب، وأخذ الغريضُ الدُّفّ فغَنّى بشعر الأخطل:

---

(١) الأباعر: جمع بعير. شجره عن الأمر: صرفه وشغله.

(٢) السبات: أراد أنهم كفوا عن الحراك.

فقلت اصبَحُونا لا أبا لأبيكُم ... وما وَضَعُوا الأثقالَ إلّا لِيفعلوا
وقلتُ اقتُلوها عنكُمُ بمِزاجها ... فأكرِمْ بها مقتولةً حين تُقْتَلُ
أناخوا فجرُّوا شاصياتٍ كأنها ... رجالٌ من السُّودان لم يتَسربَلُوا(١)

فوالله ما رأيتهم تحرّكوا ولا نطقوا إلاّ مستمعِين لِما يقول. ثم غنّى الغريضُ بشعرٍ آخر هو:

هل تعرف الرسمَ والأطلالَ والدِّمَنا ... زِدْن الفؤادَ على ما عندَه حَزَنا
دارٌ لأسماءَ إذ كانت تَحِلُّ بها ... وإذ ترى الوصلَ فيما بيننا حَسَنا
إذ تَستَبِيك بمصقولٍ عوارضُهُ ... ومُقلَتَي جُؤْذَرٍ لم يَعْدُ أن شَدَنا(٢)

ثم غنّيا جميعاً بلحنٍ واحد، فلقد خُيّل لي أنّ الأرض تميد وتبيّنتُ ذلك في عطاءٍ أيضاً. وغنّى الغريض في شعر عمرَ بن أبي ربيعة وهو قولُه:

كَفَى حَزَناً أن تجمعَ الدارُ بيننا ... وأُمسي قريباً لا أَزُورُكِ كَلْثَما
دَعي القلبَ لا يَزْدَدْ خَبالاً مع الذي ... به منكِ أو داوِي جَواه المُكَتَّما
ومن كان لا يَعدُو هواه لسانَه ... فقد حلّ في قلبي هواكِ وخَيّما
وليس بتزويق اللسان وصَوغه ... ولكنّه قد خالط اللحمَ والدَّما

وغنّى ابنُ سريج أيضاً:

خليليَّ عُوجا نسألِ اليومَ مَنزلا ... أبَى بالبِراقِ العُفْرِ أن يتحوّلا
ففُرع النُّبيت فالشَّرَى خَفّ أهلُه ... وبُدِّل أرواحاً جَنوباً وشَمألا(٣)

---

(١) اصبحونا: اسقونا الصبوح وهو ما يشرب في الغداة. اقتلوها: لطّفوها بمزجها بالماء. الشاصيات: زقاق الخمر المملوءة الشائلة القوائم.

(٢) الأبيات لذي الأصبع العدواني. العوارض: الثنايا والأسنان التي تبدو من الفم عند الضحك. الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. شدن: قوي وانفرد عن أمه.

(٣) البراق ج برقة: الأرض فيها رمل وحصى. الأعفر: ما كان لونه لون التراب. الفرع: قرية من نواحي الربذة. النبيت: بطن من الأوس. الشرى: اسم لمواضع كثيرة ومنها: واد قرب عرفة.

أرادتْ فلم تَسطِعْ كلاماً فأومأتْ إلينا ولم تأمَنْ رسولاً فتُرسِلا
بأن بِتْ عسى أن يستُرَ الليلُ مجلِساً لنا أو تنامَ العينُ عنّا فتغفلا

وغنّى الغريض أيضاً:

يا صاحبيّ قِفا نُقضّ لُبانةً وعلى الظّعائن قبل بَيْنكما اعرِضا
لا تُعجلاني أن أقول بحاجةٍ رفقاً فقد زُوِّدت زاداً مُجرِضا
ومقالَها بالنَّعْف نعفِ مُحسِّرٍ لفَتاتها هل تعرفين المُعرِضا
هذا الذي أَعطى مَواثقَ عهدِه حتى رَضيتُ وقلتِ لي لن يَنقُضا[1]

وأغانيَّ أُنسِيتُها، وعَطَاءٌ يَسمع على مِنبره ومكانه، وربما رأيت رأسَه قد مال وشفَتَيه تتحركان حتى بلغتْه الشمسُ، فقام يُريد منزلَه، فما سمع السامعون شيئاً أحسنَ منهما وقد رفعا أصواتَهما وتغنّيا بهذا. ولمّا بلغت الشمسُ عطاءً قام وهم على طريقةٍ واحدة في الغناء، فاطّلع في كُوّة البيت، فلمّا رأوه قالوا: يا أبا محمد، أيُّهما أحسنُ غناءً؟ قال: الرَّقيق الصوت. يعني ابنَ سُريج.

● قال إسحاق: حدّثني شيخٌ من موالي المنصور قال:

قدِم علينا فِتيانٌ من بني أميّة يريدون مكة، فسمعوا معبَداً ومالكاً فأُعجبوا بهما، ثم قدِموا مكة، فسألوا عن ابن سُريج فوجدوه مريضاً، فأتوا صديقاً له فسألوه أن يُسمعَهم غناءَه، فخرج معهم حتى دخلوا عليه فقالوا: نحن فِتيانٌ من قريش أتيناك مُسلِّمين عليك وأحببنا أن نسمعَ منك. فقال: أنا مريضٌ كما تَرَون. فقالوا: إن الذي نكتفي منك به يسيرٌ. وكان ابن سريج أديباً طاهرَ الخُلُق عارفاً بأقدار الناس، فقال: يا جاريةُ، هاتي جِلبابي وعُودي. فأتتْه خادمُه

---

(١) على الظعائن اعرضا: يريد اعرضا حاجتكما على الظعائن. أجرضه بريقه: أغصّه. النعف: ما انحدر عن سفح الجبل وغلظ. محسر: موضع بين مكة وعرفة.

بخامة(1)، فَسَدَلها على وجهه، وكان يفعل ذلك إذا تَغنّى لقُبح وجهه، ثم أخذ العُود فغنّاهم فأرخى ثوبه على عينيه وهو يغنّي، حتى إذا اكتفَوا ألقى عُودَه وقال: مَعذرةً. فقالوا: نعم، قد قبِل اللهُ عُذرَك، فأحسَن الله إليك ومَسَح(2) ما بك. وانصرفوا يتعجّبون ممّا سمعوا، فمرّوا بالمدينة منصرِفين، فسمعوا من مَعْبَد ومالك، فجعلوا لا يطرَبون لهما ولا يُعجَبُون بهما كما كانوا يَطربون، فقال أهل المدينة: نَحلِفُ بالله لقد سمعتم بعدَنا ابنَ سريج. قالوا: أجل، لقد سمعناه فسمعنا ما لم نَسمعْ مثلَه قطُّ، ولقد نَغَّص علينا ما بعدَه.

● إسحاق بن يحيى بن طلحة قال:

قدِم جريرُ بن الخطفَى المدينة ونحن يومئذٍ شبابٌ نطلب الشعرَ، فاحتشدنا له ومعَنا أشعبُ... وأقبلنا على جرير نُسائله وأشعبُ عند الباب وجريرٌ في مُؤخَّر البيت، فألحّ عليه أشعبُ يسأل، فقال: واللهِ إنّي لأراك أقبحَهم وجهاً وأُراك ألأمَهم حسباً، فقد أبرمتَني منذ اليوم! قال: إني والله أنفعُهم وخيرُهم لك. فانتبه جريرٌ وقال: ويحَك! كيف ذاك؟ قال: إنّي أُمَلّحُ شِعرك وأُجيد مَقَاطعَه ومَبادئه. قال: قل ويحك! فاندفع أشعبُ فنادى بلحن ابن سريج:

يا أختَ ناجيةَ السلامُ عليكم ... قبلَ الرّحيل وقبلَ عَذْلِ العُذَّلِ
لو كنتُ أعلم أنَّ آخر عهدكم ... يومُ الرَّحيل فعلتُ ما لم أفعلِ

فطرِب جريرٌ وجعل يزحف نحوَه حتى ألصق برُكبته رُكبتَه وقال: لعَمري لقد صدقتَ، إنك لأنفعُهم لي وقد حَسّنته وأجدتَه وزَيّنتَه، أحسنتَ والله! ثم وصله وكَساه؛ فلمّا رأينا إعجاب جرير بذلك الصوت قال له بعضُ أهل المجلس: فكيف لو سمعتَ واضعَ هذا الغناء؟! قال: أَوَ إنّ له لواضعاً غيرَ هذا؟ فقلنا: نعم. قال: فأين هو؟ قلنا: بمكّة. قال: فلست بمفارقٍ حجازَكم حتى أَبلُغَه. فمضى ومضى معه جماعةٌ ممّن يرغَب في طلبَ الشعر في

---

(1) الخامة: أراد بها القناع.
(2) مسح ما بك: شفاك من مرضك.

صحابته وكنتُ فيهم، فأتيناه جميعاً، فإذا هو في فِتيةٍ من قريش كأنّهم المَها مع ظَرف كثير، فأَدْنوا ورحَّبُوا وسألوا عن الحاجة، فأخبرناهم الخبرَ، فرحَّبوا بجرير وأدنَوه وسُرّوا بمكانه، وأعظم عُبيد بن سُريج موضعَ جرير وقال: سَلْ ما تُريد، جعلتُ فِداءَك! قال: أريد أن تغنّيَني لحناً سمعته بالمدينة أزعجني[1] إليكَ. قال: وما هو؟ قال:

يـا أُختَ نـاجيـةَ السـلامُ عليكم قبـلَ الـرّحيـل وقبـل عَـذْل العُـذَّلِ

فغنّـــاه ابن سريج، وبيده قضيبٌ يُوقِّع به وينكُتُ، فوالله ما سمعتُ شيئاً قطُّ أحسنَ من ذلك، فقال جرير: للهِ دَرُّكم يا أهل مكة، ماذا أُعطِيتم! والله لو أنّ نازعاً نَزَع إليكم لِيُقيمَ بين أَظهُركم فيسمَعَ هذا صباحَ مساءَ لكان أعظم الناس حَظّاً ونصيباً، فكيف ومع هذا بيتُ الله الحَرام، ووجوهُكم الحِسان، ورِقّةُ أَلسِنَتِكم، وحسُنُ شارتِكم، وكثرةُ فوائِدكم!

● عن حَمّاد عن أبيه عن جَدّه إبراهيم قال:

كتب الوليدُ بن عبد الملك إلى عامل مكّة: أن أَشخِص إليّ ابنَ سريج. فأَشْخَصَه، فلمّا قدِم مكَث أياماً لا يدعو به ولا يلتفِتُ إليه، قال: ثم إنّه ذَكَرَه فقال: ويلَكم! أين ابنُ سُريج؟ قالوا: هو حاضرٌ. قال: عليّ به. فقالوا: أَجِبْ أمير المؤمنين. فتهيَّأ ولبِس وأقبـل حتى دخل عليـه فسَلّم، فأشـار إليه أن اجلِسْ. فجلس بعيداً، فاستدناه، فَدَنا حتى كان منه قريباً وقال: ويحَك يا عُبيد! لقد بلَغني عنك ما حَمَلني على الوِفادة بك، من كثرة أدبك، وجَودة اختيارك، مع ظَرف لسانك وحلاوة مَجلسك. فقال: جُعلتُ فداءَك يا أمير المؤمنين! «تَسمع بالمُعَيْديّ خيرٌ من أن تراه»[2]. قال الوليد: إنّي لأرجو ألّا

---

(١) أزعجني إليك: حملني على الارتحال إليك.

(٢) المعيدي: تصغير المعدّي، وهذا مثل يضرب لمن تعجب بأخباره فإذا رأيته لم يعجبك منظره.

تكون أنت ذاك. ثم قال: هاتِ ما عندك. فاندفع ابنُ سريج فغنّى بشعر الأحوص:

أَمَنْـزِلتَيْ سَلمى على القِدَمِ اسلَمـا — فقـد هِجْتُما للشـوق قلباً مُتَيَّمـا
وذكَّرتُما عصرَ الشباب الـذي مضى — وجِـدّة وصـلٍ حَبْلُه قـد تَجَـذَّمـا
وإني إذا حَـلّت بِبيشٍ مُـقيمـةً — وحـلّ بـوَجٍّ جـالسـاً أو تَتهَّمـا
يمـانيـةٌ شـطّت فـأصبـح نفعُهـا — رجـاءً وظَنّـاً بـالمَغيب مُـرَجَّمـا
أُحبّ دنُـوَّ الـدار منهـا وقـد أبى — بهـا صَـدْعُ شَعب الـدّار إلاّ تَثَلُّمـا
بكاها وما يَدري سوى الظنّ مَن بكى — أحيّـاً يُبكِّي أم تُـرابـاً وأعـظُمـا
فـدَعْهـا وأَخلِفْ للخليفـة مِـدْحـةً — تُـزِلْ عنك بُؤسى أو تُفيـدك أنعُما
فـإن بـكفَّيـه مفـاتيـحَ رحمـةٍ — وغيثَ حياً يحيا بـه الناسُ مُرهِما
إمـامٌ أتـاه الملكُ عفـواً ولم يُثِبْ — على مُلكـه مـالاً حَـرامـاً ولا دمـا
تـخيَّـره ربُّ الـعبـاد لِـخَـلْقـه — وَليّـاً وكـان اللهُ بـالنـاس أَعلَمـا
فلمّـا قضـاه اللهُ لم يَـدْعُ مُسلِمـاً — لِـبَيـعتـه إلاّ أجـاب وسَـلّمـا
ينـال الغنى والعـزَّ مَن نـال وُدَّه — ويَـرهَبُ مَوتـاً عاجـلاً من تَشَأَّمـا(١)

فقال الوليد: أحسنتَ واللهِ وأحسنَ الأحوصُ! عليّ بالأحوص. ثم قال: يا عُبيد هِيه. فغنّاه بشعر عديّ بن الرِّقاع العامليّ يمدح الوليد:

طـار الكَـرَى وأَلَمّ الهمُّ فـاكتَنَعـا — وحِيـل بيني وبين النوم فـامتنعـا
كـان الشبـاب قنـاعـاً أَستكنُّ بـه — وأستـظلّ زمـانـاً ثُمـتّ انقشعـا

* . * . * . *

صلّى الـذي الصَلواتُ الطيِّبـاتُ له — والمؤمنـون إذا ما جَمّعـوا الجُمَعـا

---

(١) تجذم: تقطع. بيش: موضع ببلاد اليمن. مرج: اسم واد بالطائف. جالساً: آتياً الجلس وهو نجد. تتهم: أتى تهامة. مرهم: أرهمت السماء: أمطرت مطراً ضعيفاً دائماً. تشأم: تشاءم.

على الذي سبق الأقوامَ ضاحيةً | بالأجر والحَمْد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمنُ أُمّتَه | على يَدَيه وكانوا قبلَه شِيَعا
عُذْنا بذي العرش أن نحيا ونفقِدَه | وأن نكون لراعٍ غيره تَبَعا
إن الوليد أمير المؤمنين له | مُلكٌ عليه أعان اللهُ فارتفعا
لا يمنع الناسُ ما أعطى الذين همُ | له عِبادٌ ولا يُعطون ما مَنعا(١)

فقال له الوليد: صدقتَ يا عُبيد، أنّى لك هذا؟ قال: هو من عند الله. قال الوليد: لو غيرَ هذا قلتَ لأحسنتَ أدبكَ. قال ابنُ سريج: ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء. قال الوليد: يَزيدُ في الخَلْق ما يشاء. قال ابن سريج: هذا من فضل ربّي لِيَبْلُوَني أأشكُر أم أكفُر. قال الوليد: لَعِلْمُك، واللهِ، أكبرُ وأعجب إليّ من غنائك! غَنِّني. فغنّاه بشعر عَديّ بن الرِّقاع يمدح الوليد:

عَرَف الدِّيار تَوهُّماً فاعتادها | من بعدِ ما شمِل البِلَى أَبلادَها
ولَرُبَّ واضحة العَوارض طَفْلةٍ | كالرِّيم قد ضربتْ بها أوتادَها
إنّي إذا ما لم تَصِلْني خُلّتي | وتباعدتْ منّي اغتفرتُ بِعادَها
صَلّى الإلّهُ على امرىءٍ وَدَّعْتُه | وأَتمّ نِعمتَه عليه وزادها
وإذا الرَّبيعُ تتابعت أنواؤه | فَسقى خُناصِرةَ الأَحَصِّ فجادها
نزل الوليدُ بها فكان لأهلِها | غيثاً أغاث أَنيسَها وبلادَها
أوَ لا ترى أنّ البريَّةَ كُلَّها | ألقتْ خَزائمَها إليه فَقادها
ولقد أراد اللهُ إذ وَلّاكها | من أُمّةٍ إصلاحَها ورَشادَها
أَعمرتَ أرضَ المسلمين فأقبلتْ | وكففتَ عنها من يَرُوم فسادَها
وأصبت في أرض العدوّ مُصيبةً | عَمَّتْ أقاصي غَورِها ونجادَها
ظَفَراً ونصراً ما تناول مثلَه | أحدٌ من الخُلَفاءِ كان أرادها
فإذا نشرت له الثّناءَ وجدتَه | جمع المكارمَ طِرفَها وتِلادها(٢)

---

(١) اكتنع : دنا وحضر.
(٢) اعتادها : أعاد النظر إليه مرة بعد مرة حتى عرفها. أبلادها: آثارها. الطفلة: =

فأشار الوليد إلى بعض الخدم، فَغَطُّوه بالخِلَع ووضعوا بين يديه كيساً من الدنانير وبِدَراً من الدَّراهم، ثم قال الوليد بن عبد الملك: يا مَولى بنِي نوفل ابن الحارث، لقد أُوتيتَ أمراً جليلاً. فقال ابن سريج: يا أمير المؤمنين، لقد آتاك الله مُلكاً عظيماً وشرَفاً عالياً وعِزّاً بَسَط يدَك فيه فلم يَقبِضْه عنك ولا يفعلُ إن شاء الله، فأدَامَ اللهُ لك ما وَلّاك، وحَفِظك فيما استرعاك، فإنك أهلٌ لِما أعطاك، ولا نَزَعه منك إذ رآك له مَوضعاً. قال: يا نَوفليُّ، وخطيبٌ أيضاً! قال ابن سريج: عنك نطقت، وبلسانك تكلّمتُ، وبِعزّك بيَّنتُ.

وقد كان أمر بإحضار الأحوصِ بن محمد الأنصاريّ وعَديّ بن الرِّقـاع العامليّ، فلمّا قدِما عليه أمر بإنزالهما حيث ابنُ سريج، فأُنزِلا منزلاً إلى جَنب ابن سريج، فقالا: واللهِ لَقُربُ أمير المؤمنين كان أحبَّ إلينا من قُربك يا مَولى بني نَوفل، وإنّ في قُربك لَما يلدُّنا(١) ويشغَلُنا عن كثيرٍ مما نُريد. فقال لهما ابن سريج: أَوَ قلّةُ شُكر! فقال له عديّ: كأنك يابن اللُّخناء تَمُنُّ علينا، عليّ وعليَّ إن جَمَعنا وإيّاك سقفُ بيت أو صَحنُ دارٍ إلّا عند أمير المؤمنين. وأمّا الأحوصُ فقال: أَوَ لا تَحتملُ لأبي يحيى الزَّلَّةَ والهَفوة! كَفّارةُ يمين خيرٌ من عدم المحبّة، وإعطاءُ النفس سُؤْلَها خيرٌ من لَجاج في غير منفعة. فتحوّل عديٌّ وبقي عنده الأحوصُ. وبلغ الوليدَ ما جرى بينهم فدعا ابنَ سريج وأدخله بيتاً وأرخى دونَه سِتراً، ثم أمَره إذا فَرَغ الأحوصُ وعديٌّ من كَلمتيهما أن يغنّي. فلمّا دخلا وأنشداه مدائحَ فيه رفَع ابنُ سريج صوتَه من حيث لا يَرَونه وضَرب بعُوده، فقال عديٌّ: يا أمير المؤمنين، أتأذَنُ لي أن أتكلّم؟ فقال: قُل يـا عامليُّ. قال: أمِثلُ هذا عند أمير المؤمنين ويبعثُ إلى ابن سُريج يتخطّى به رِقابَ قريش والعرب من تِهامةَ إلى الشأم، تـرفعُهُ أرضٌ وتخفِضُـه أُخرى،

= الفتاة الناعمة. الخلة: الصديقة. الأنواء ج نوء: وهي في الأصل نجوم تظهر في أزمنة محددة ثم أطلق على المطر الذي يسقط في أوقات هذه النجوم. خناصرة. بليدة من أعمال حلب قرب قنسرين وهي قصبة كورة الأحصّ وهي كورة كبيرة مشهورة ذات مزارع وقرى، وكان بعض خلفاء بني أمية ينزلونهـــا.

(١) يلدّنـا: يحبسنـا، وتلدّد: تلبث.

فيقال: من هذا؟ فيقال: عُبيد بن سريج مولى بني نوفل بعثِ أميرُ المؤمنين إليه ليسمعَ غناءَه! فقالَ: ويحَك يا عديُّ! أوَ لا تعرف هذا الصَّوتَ؟ قال: لا والله ما سمعتُهُ قَطُّ ولا سمعتُ مثلَه حُسناً، ولولا أنه في مجلس أمير المؤمنين لقلت طائفةٌ من الجِنّ يتغنّون! فقال: اخرُجْ عليهم. فخرج فإذا ابنُ سُريج. فقال عديٌّ: حُقّ لهذا أن يُحمَلَ! حقّ لهذا أن يُحمل! ـ ثلاثاً ـ ثم أمر لهما بمثل ما أَمَرَ به لابن سريج، وارتحل القوم.

● قال: وبَلغني أنّ رجلاً من الأشراف من قريش من موالي ابن سُريج عاتَبه يوماً على الغِناء وأنكره عليه وقال له: لو أقبلتَ على غيره من الآداب لكان أَزْينَ بمواليك وبك. فقال: جُعلتُ فِداك! امرأتُهُ طالقٌ إن أنت لم تدخُل الدّار. فقال الشيخ: ويحَك! ما حَمَلَك على هذا؟ قال: جُعلتُ فداك، قد فعلتُ. فالتفت النَوفليّ إلى بعض من كان معه متعجِّباً ممّا فعل، فقال له القومُ: قد طَلُقَتِ امرأتُهُ إن أنت لم تدخل الدار. فدخل ودخل القومُ معه، فلمّا توسّطوا الدار قال: امرأتُهُ طالقٌ إن أنت لم تَسمعْ غنائي. قال: أعزُبْ عنّي يا لُكَعُ. ثم بَدَر الشيخُ لِيخرجَ فقال له أصحابُه: أَتُطَلِّقُ امرأتَهَ وتحمل وِزْرَ ذلك! قال: فوِزْرُ الغناء أشدُّ. قالوا: كلّا، ما سَوّى اللهُ عزّ وجلّ بينهما. فأقام الشيخُ مكانَه، ثم اندفع ابنُ سريج يغنّي في شعر عمر بن أبي ربيعة في زينب:

أليستْ بالتي قالت ... لِمولاةٍ لها ظَهَرا
أَشيري بالسَّلام له ... إذا هو نَحونا خَطَرا
وقُولي في ملاطفةٍ ... لِزينبَ نَوّلي عُمَرا
أهذا سِحرُكِ النِّسْوا ... نَ قد خَبَّرنني الخَبَرا

فقال للجماعة: هذا واللهِ حَسَنٌ! ما بالحجاز مثلُه ولا في غيره! وانصرفوا.

وفـــاته

عن حَمّاد عن أبيه قال:

قال ابنُ مِقَمّة: دخلت على ابن سريج في مرضه الذي مات فيه فقلت: كيف أصبحَتَ يا أبا يحيى؟ فقال: أصبحتُ والله كما قال الشاعر:

كـأنّي مـن تَـذَكُّـر مـا أُلاقي إذا مـا أظـلم الـليـلُ الـبَـهـيـمُ
سـقـيـمٌ مَـلّ مـنـه أقـربُـوه وأَسْلَمَـه الـمُـداوي والـحَـمـيـمُ

ثـم مـات.

قال إسحاق: قال ابنُ مِقَمّةَ:

لَمّا احتُضر ابن سريج نظر إلى ابنته تبكي فبكَى وقال: إنّ أكبرَ هَمّي أنتِ، وأخشى أن تَضِيعي بعدي. فقالت: لا تَخَفْ، فما غَنَّيتَ شيئاً إلاّ وأنا أُغنّيه. فقال: هاتي. فاندفعتْ تغنّي أصواتاً وهو مُصغٍ إليها، فقال: قد أصبتِ ما في نفسي، وهوّنتِ عليّ أَمْرَك. ثم دعا سعيدَ بن مسعودٍ الهُذَليّ فزَوّجه إيّاها، فأخذ عنها أكثرَ غناء أبيها وانتَحله، فهو الآنَ يُنسَب إليه.

قال إسحاق: وحدّثني هشامُ بن المُرِّيَة: أن قادماً قِدم المدينة فسارَّ معبداً بشيء، فقال معبد: أصبحتُ أحسنَ الناس غناءً. فقلنا: أَوَ لم تكن كذلك؟ فقال: ألا تدرُون ما أخبرني به هذا؟ قالوا: لا. قال: أعلمني أن عُبيدَ بن سريج مات، ولم أكن أحسنَ الناس غناءً وهو حيٌّ.

قال أبو أيوب المَدِيني: تُوفي ابن سريج بالعلّة التي أصابته من الجُذام بمكة في خلافة سليمان بن عبد الملك أو في آخر خلافة الوليد بمكة، ودُفن في موضعٍ بها يقال له دَسْم.

.* .* .* .*

[٣]

ابن عائشة

[الأغاني الجزء ٢ ص ٢٠٣ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

محمد بن عائشة، ويُكنى أبا جعفر، ولم يكن يُعرَف له أبٌ فكان يُنسَب إلى أُمّه، ويُلقبّه منَ عاداه أو أراد سبَّه «ابن عاهة الدار». وكان هو يزعمُ أن اسم أبيه جعفر، وليس يُعرَف ذلك. وعائشةُ أمّه مولاةٌ لكَثير بن الصَّلْت الكِندي حليفِ قريش، وقيل إنها مولاة لآل المطَّلِب بن أبي وَداعة السَّهْمي. . .

قال الوليد بن يزيد لابن عائشة: يا محمدُ، ألِغَيّةٍ[1] أنت؟ قال: كانت أمّي يا أمير المؤمنين ماشطةً، وكنت غلاماً، فكانت إذا دخلت إلى موضع قالوا: ادفعوا هذا لابن عائشة، فَغَلبتْ على نسبي.

قال إسحاق: وكان ابنُ عائشة يَفتِنُ كلَّ من سَمعه، وكان فِتْيانٌ من المدينة قد فَسَدوا في زمانه بمحادثته ومجالسته. وقد أَخذ عن معبَد ومالِك ولم يَمُوتا

(١) يقال: فلان لغيّة، ولغير رشدة أي لزنية.

حتى ساواهما، على تقديمه لهما واعترافه بفضلهما.

وقد قيل إنه كان ضارباً ولم يكن بالجيّد الضَرب، وقيل بل كان مُرتجلاً لم يضرِب قَطُّ.

وابتداؤه بالغنــاء كان يُضرَب بِه المثل فيقال للابتداء الحسَن ـ كائناً ما كان من قراءةِ قرآن أو إنشاد شعر أو غناء يُبدأ به فيُستَحسن ـ : كأنه ابتداءُ ابن عائشة. قال إسحاق: وسمعت علماءنا قديماً وحديثاً يقولون: ابنُ عائشة أحسنُ الناس ابتداءً، وأنا أقول: إنه أحسنُ الناس ابتداءً وتوسُّطاً وقَطعاً بعد أبي عَبّاد مَعْبَد؛ وقد سمعت من يقول إن ابن عائشة مثلُه، وأمّا أنا فلا أَجسُر على أن أقول ذلك.

وكان ابن عائشة غير جيّد اليَدَيْن فكان أكثرَ ما يغني مرتجلاً، وكان أطيبَ الناس صوتاً.

محمد بن أحمد بن يحيى المكّيّ عن أبيه عن جدّه قـال: ثلاثـةٌ من المُغَنّين كانوا أحسن الناس حُلوقاً: ابنُ عائشة وابنُ تَيزَن، وابنُ أبي الكَنّات.

عن يونس الكاتب قال: ما عَرَفنا بالمدينة أحسنَ ابتداءً من ابن عائشة إذا غَنّى، ولو كان آخرُ غنائه مثلَ أوّله لقدّمته على ابن سُريج. قال إبراهيم: هو كذاك عندي، وقال إسحاقُ مثلَ قولهما.

عن صالح بن حسّان: أنه ذَكر يوماً المغنِين بالمدينة فقال: لم يكن بها أحدٌ بعد طُويس أعلمَ من ابن عائشة ولا أظرفَ مجلساً ولا أكثر طِيباً، وكان يَصلحُ أن يكون نديمَ خليفة أو سمير ملِك. قال إسحاق: فأذكَرني هذا القولُ قولَ جميلة له: وأنت يا أبا جعفر فمع الخلفاء تصلُحُ أن تكون.

جرير قال: كان ابنُ عائشة تائهاً سيّء الخُلُق، فإن قال له إنسانٌ: تَغَنَّ. قال: أَلِمثلي يقال هذا! وإن قال له إنسان وقد ابتدأ هو بغناء: أحسنتَ. قال: أَلِمثلي يقال أحسنت! ثم يسكُت، فكان قليلًا ما يُنتَفَع به. فسال العقيقُ مرّةً، فدخل عَرْصَةَ سعيد بن العاصي الماءُ حتى مَلأها، فخرج الناسُ إليها، وخرج

ابنُ عائشةَ فيمن خَرج فجلس على قَرْن البئر[١]، فبيناهم كذلك إذ طَلع الحسنُ ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، على بغلةٍ وخلفَه غلامان أسودان كأنهما من الشياطين، فقال لهما: امضِيا رُويداً حتى تقِفا بأصلِ القَرن الذي عليه ابنُ عائشة. فخرجا حتى فَعلا ذلك، ثم ناداه الحسنُ: كيف أصبحتَ يابن عائشة؟ قال: بخيرٍ، فِدَاك أبي وأُمِي. قال: انظُر مَن إلى جَنْبك. فنظر فإذا العبدان، فقال له: أتعرفهما؟ قال: نعم. قال: فهما حُرّان لئن لم تُغَنِّني مائةَ صوتٍ لآمُرنّهما بطَرحك في البئر، وهما حُرّان لئن لم يفعلا لأقطعنّ أيديَهما. فاندفع ابنُ عائشة، فكان أوّلُ ما ابتدأ به صوتاً له وهو:

ألا لله دَرُّك مِن فتى قومٍ إذا رَهِبُوا[٢]

ثم لم يسكت حتى غنّى مائة صوت. فيقال إن الناس لم يسمعوا من ابن عائشة أكثرَ مما سمعوا في ذلك اليوم. وكان آخرَ ما غَنّى:

قل للمنازل بالظَّهْران قد حانا أن تَنطقي فتُبيني القولَ تِبيانا[٣]

قال جرير: فما رُئي يومٌ أحسنُ منه، ولقد سمع الناسُ شيئاً لم يسمعوا مثلَه، وما بلغني أن أحداً تشاغل عن استماع غنائه بشيء، ولا انصرف أحدٌ لقضاء حاجة ولا لغير ذلك حتى فَرَغ. ولقد تبادر الناس وما حولَها حيث بلغهم الخبرُ لاستماع غنائه، فيقال إنه ما رُئي جَمعٌ في ذلك الموضع مثلُ ذلك الجمع، ولقد رفع الناسُ أصواتَهم يقولون له: أحسنتَ والله، أحسنت والله. ثم انصرفوا حولَه يَزُفُّونه إلى المدينة زَفّاً.

عن عليّ بن الجَهم قال: حدّثني رجلٌ أن ابنَ عائشةَ كان واقفاً بالموسم

(١) قرن البئر: البكَرة، وقرنا البئر: ما بُني فعُرّض على رأس البئر توضع عليهما الخشبة وتعلق البكرة منها.
(٢) الشعر لأبي العيال الهذلي.
(٣) الظهران: واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها (مرّ) فيقال لها مرّ الظهران. والشعر لعمر بن أبي ربيعة.

مُتحيّراً، فمرّ به بعضُ أصحابه فقال له: ما يُقيمُك ها هنا؟ فقال: إني أعرف رجلًا لو تكلّم لحبَس الناسَ ها هنا فلم يذهب أحدٌ ولم يجيء. فقال له الرجل: ومن ذاك؟ قال: أنا. ثم اندفع يغنّي:

جَـرَتْ سُنُحاً فقلت لهـا أَجيـزي نـوًى مَشمـولـةً فمتـى اللقـاءُ[1]

قال: فحُبس الناس واضطربت المَحامل ومَدّت الإبلُ أعناقها، وكادت الفتنةُ أن تقع. فأتي به هشامُ بن عبد الملك فقال له: يا عدوَّ الله، أردتَ أن تفتِنَ الناس! قال: فأَمسك عنه وكان تيّاهاً، فقال له هشام: ارفُق بتِيهك. فقال: حَقّ لِمن كانت هذه مَقدِرتَه على القلوب أن يكون تيّاهاً. فضحك منه وَخَلّى سبيله.

طائفة من أخباره

● عن حَمّاد الراويـة قال:

كتب الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر: أمّا بعدُ، فإذا قرأت كتابي هذا فَسَرِّح إليّ حمّاداً الراوية على ما أحبّ من دوابّ البريد وأَعطِه عشرة آلاف درهم يتهيّأ بها. قال: فأتاه الكتاب وأنـا عنده، فَنَبَـذه إليّ فقلت: السمعُ والطاعة. فقال: يا دُكَين، مُر شجرةَ يُعطيه عشرة آلاف درهم. فأخذتُها؛ فلمّا كان اليومُ الذي أردت الخروجَ فيه أتيت يوسفَ بن عمر فقال: يا حَمّادُ، أنا بالموضع الذي قد عرفتَه من أمير المؤمنين، ولستُ مستغنياً عن ثَنائك. فقلت: أصلح اللهُ الأمير، إنّ العَوانَ لا تُعَلَّم الخِمْرَةَ»[2]، وسيبلُغُك قولي وثنائي. فخرجت حتى انتهيت إلى الوليد وهو بالبَخْراء[3]، فاستأذنت عليه فأذِن لي،

---

(١) السانح: ما ولّاك ميامنة. أجزت الوادي: قطعته وخلّفته. المشمولة: السريعة الانكشاف، وصف للسحابة، أراد فراقاً يكشفهم عن بلادهم. والبيت لزهير بن أبي سلمى.

(٢) هذا مثل يضرب للخبير بالأمر المستغني عن التعليم. العوان: المرأة التي سبق لها الزواج. الخمرة: طريقة لبس الخمار.

(٣) البخراء: الموضع الذي قتل فيه الوليد بن يزيد وهو بالأردن.

فإذا هو على سريرٍ مُمَهَّد وعليه ثوبان أصفران: إزارٌ ورِداء يقيئان الزَّعفران قيئاً، وإذا عنده معبدَ ومالك بن أبي السَّمْح وأبو كامل مَولاه، فتركني حتى سَكَن جَأشي، ثم قال أنشدْني:

«أمن المَنُون ورَيْبها تتوجَّعُ»

فأنشدتُه حتى أتيت على آخرها، فقال لساقيه: يا سَبْرةُ اسقِه. فسقاني ثلاثة أكْؤُس خَثَّرن ما بين الذُّؤابة والنَعل، ثم قال: يا مالك، غَنِّني:

ألا هـل هـاجـك الأظـعـا ... نُ إذ جـاوزن مُـطَّلَحـا

ففعل. ثم قال: لـه غَنّني:

جَـلا أُمَيّـةُ عني كـلَّ مُـظلِمـةٍ ... سهلُ الحجابِ وأوفى بالذي وعَـدا

ففعل. ثم قال له : غنّني:

أتـنسـى إذ تُـودِّعُـنـا سُـليمـى ... بفَـرع بَشـامـةٍ سُقي البَشـامُ(١)

ففعل. ثم قال: يا سَبرةُ، أو يا. أبا سَبرة، اسقِني.. فأتاه بقدح مُعْوَجٍّ فسقاه به عشرين، ثم أتاه الحاجب فقال: أصلح الله أميرَ المؤمنين، الرجلُ الذي طلبتَ بالباب. قال: أدخِله. فدخل شابٌّ لم أر شاباً أحسنَ وجهاً منه، في رِجله بعضُ الفَدَع(٢)، فقال: يا سَبرةُ، اسقِه. فسقاه كأساً، ثم قال له: غَنّني:

وهـي إذ ذاك عـليـهـا مِئـزرٌ ... ولـهـا بيـت جَـوارٍ من لُـعَـبْ

فغنّاه، فَنَبَذ إليه الثوبين، ثم قال له: غنّني:

طـاف الـخيـالُ فـمَـرْحبـا ... أَلْـفـاً برؤيـة زَيـنـبـا

(١) البشام: شجر طيب الرائحة يستاك به.
(٢) الفدع : اعوجاج في المفاصل.

فغضب معبد وقال: يا أمير المؤمنين، إنا مُقبلون عليك بأقدارنا وأسناننا، وإنك تركتَنا بمَزْجَرِ الكلب، وأقبلت على هذا الصبيّ! فقال: والله يا أبا عَبّاد، ما جهلتُ قَدرك ولا سِنَّك، ولكنّ هذا الغلامَ طَرحني في مثل الطّناجير[1] من حرارة غنائه. قال حمّاد الراوية: فسألتُ عن الغلام فقيل لي هو ابنُ عائشة.

● محمد بن سَلّام عن أبيه قال:

كان الحسنُ بن الحسن مُكرِماً لابن عائشة مُحبّاً له، وكان ابنُ عائشة منقطعاً إليه، وكان من أَتْيَهِ خَلق الله وأشدِّه ذَهاباً بنفسه، فسأله الحسن أن يخرج معه إلى البُغَيبغة[2]، فامتنع ابنُ عائشة من ذلك، فأقسم عليه، فأبى فدعا بغِلمانٍ له حُبْشان وقال: نُفيتُ من أبي لئن لم تَسِر معي طائعاً لَتسيرنّ كارهاً، ونُفيتُ من أبي لئن لم يُنفِذوا أمري فيك لأقطعنّ أيديَهم. فلمّا رأى ابنُ عائشة ما ظهر من الحسن علم أنه لا بدّ من الذَهاب فقال له: بأبي أنت وأمي، أنا أمضي معك طائعاً لا كارهاً. فأمر الحسنُ بإصلاح ما يُحتاج إليه وركب، وأمر لابن عائشةَ ببغلةٍ فركبها ومضيَا حتى صارا إلى البُغيبغة فنزلا الشِّعب، وجاءهم ما أَعدّوا فأكلوا، ثم أمر الحسن بأمره وقال: يا محمد، فقال له: لَبَّيك يا سيدي. قال: غَنّني. فاندفع فغنّاه:

يـدعـو النبيَّ بعمِّـه فيُجيبُـه ... يـا خيرَ من يـدعـو النبيَّ جَـلالا
ذهب الـرجـالُ فـلا أُحسّ رجـالا ... وأرى الإقـامـةَ بـالعـراق ضَـلالا
وأَرى المُـرَجّى لـلعـراق وأهـلِه ... ظَـمْـآنَ هـاجـرةٍ يُـؤَمِّـلُ آلا
وطـربتُ إذ ذَكـر المـدينةَ ذاكـرٌ ... يـومَ الخميس فهـاج لـي بَلْبـالا
فـظَلِلت أنظُر في السَّمـاء كـأنني ... أَبغي بنـاحيـة السمـاء هـلالا[3]

الشعر لابن المَولى من قصيدة طويلة قالها وقد قدم إلى العراق لبعض أمره

---

(١) الطناجير ج طنجير: كلمة فارسية معناها القدر من النحاس.
(٢) البغيبغة : ضيعة بالمدينة كانت لآل رسول الله ﷺ وبها ماء ونخل.
(٣) الآل : السراب.

فطال مُقامه بها واشتاق إلى بلده. . . فقال له الحسن: أحسنتَ والله يا بنَ عائشة. فقال ابنُ عائشة: والله لاغَنِّيتُك في يومي هذا شيئاً. فقال الحسن: فواللهِ لا برحتُ البُغيبغةَ ثلاثةَ أيام. فاغتمّ ابنُ عائشة لِيمينه وندِم وعلم أنه لا حِيلة له إلاّ المُقام، فأقاموا. فلمّا كان اليومُ الثاني قال له الحسن: هاتِ ما عندك فقد بَرّت يمينُك. وكانوا جلوساً على شيء مرتفع، فنظروا إلى ناقة تقدُم جماعة إبل، فاندفع ابنُ عائشة فغنّى:

تَمُرّ كَجَنْدلة المَنْجَنيق يُرمى بها السُّورُ يومَ القتالِ
فماذا تُخطِرفُ من قُلّةٍ ومن حَدَبٍ وإكامٍ تَوالي
ومن سَيرها العَنَقُ المُسْبَطِرُّ والعَجْرفيّةُ بعد الكَلالْ(١)

فقال له الحسن: ويلَك يا محمد! لقد أحسنت الصَّنعة. فسكت ابنُ عائشة، ثم قال له: غنّني. فغنّاه.

إذا ما انتشيتُ طرحتُ اللِّجا مَ في شِدْقِ مُنْجَرِدٍ سَلْهبِ
يَبُذُّ الجِيادَ بتَقريبه ويأوي إلى حُضُرٍ مُلْهِبِ
كُمَيْتٌ كأنّ على مَتْنه سبائكَ من قِطع المُذْهَبِ
كأنّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجبيلَ يُعَلّ على رِيقها الأطيبِ(٢)

فقال له الحسن: أحسنت يا محمد! فقال له ابنُ عائشة: لكنّك-بأبي أنت وأمي - قد ألجمتَني بحجرٍ فما أُطيق الكلام. فأقاموا باقي يومهم يتحدّثون. فلمّا كان اليومُ الثالث قال الحسن: هذا آخِرُ أيامك يا محمد. فقال له ابن عائشة: عليه وعليه إن غنّاك إلاّ صوتاً واحداً حتّى تنصرف، وعليه وعليه إن

---

(١) الجندل: الحجر الضخم. خطرف في مشيه: توسع. وتخطرف الشيء: تجاوزه. قلة الجبل: أعلاه. الحدبة من الأرض: ما غلظ وارتفع. العنق: ضرب من سير الإبل. المسبطّر: الممتدّ.

(٢) فرس منجرد: قصير الشعر، سريع الجري. سلهب: طويل. التقريب: أن يرفع الفرس يديه معاً ويضعهما معاً. الحضر - بإسكان الثاني وحرك هنا للضرورة -: العدو. ملهب: مثير للهب لشدته.

حلفتَ ألّا أَبرَّ قَسَمَك ولو في ذهاب رُوحه. فقال له الحسن: فلك الأمانُ على محبّتك. فاندفع فغَنّاه:

أَنعمَ اللهُ لي بـذا الـوجـهِ عينـاً ... وبـه مَـرحـبـاً وأهـلاً وسَـهـلا
حين قـلت لا تـذكـرنّ حَـديثي ... يـابنَ عميّ .أقسمتُ قلت: أجلْ لا
لا أَخُـون الصديقَ في السِّرّ حتى ... يُنْقَـل البحرُ بـالغـرابيـل نقـلا

قـــال: ثم انصرف القوم، فما رأى الحسن بن الحسن ابنَ عائشة بعدها.

● محمد بن الحارث بن كُليب بن زيد الرَّبَعي قـــال:

خرج ابن عائشة المدنيّ من عند الوليد بن يزيد وقد غَنّاه:

أَبعـدَك مَعـقِـلاً أرجـو وحِصنـاً ... قـد اعيتني المعـاقـلُ والحُصـونُ

... قال: فأطربه، فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارة القَصّار[١] كُسوةً، فبينا ابنُ عائشة يسير إذ نظر إليه رجلٌ من أهل وادي القُرى كان يشتهي الغناء ويشرب النَّبيذ، فدنا من غلامه، وقال: مَن هذا الراكبُ؟ قال: ابنُ عائشة المغنيّ. فدنا منه وقال: جُعلتُ فِداءَك، أنت ابن عائشة أم المؤمنين؟ قال: لا، أنا مولَى لقريش وعائشةُ أمي وحَسبُك هذا فلا عليك أن تُكثر. قال: وما هذا الذي أَراه بين يديك من المال والكُسوة؟ قال: غنَّيت أميرَ المؤمنين صوتاً فأطربتُهُ فكفر وترك الصلاة وأمر لي بهذا المال وهذه الكُسوة. قال: جُعلتُ فداءَك، فهل تَمُنّ عليَّ بأن تُسمعني ما أسمعتَه إياه؟ فقال: له: ويلَك! أمثلي يُكلَّم بمثل هذا في الطريق! قال: فما أصنع؟ قال: الحَقْني بالباب. وحَرّك ابن عائشة بغلةً شقراء كانت تحته لينقطعَ عنه، فغدا معه حتى وافيا البابَ كَفرَسَيْ رِهانٍ، ودخل ابنُ عائشة فمكث طويلاً طمعاً في أن يَضْجَرَ فينصرفَ، فلم يفعل، فلمّا أعياه قال لغلامه: أدخِله. فلمّا دخل قال لـه: وَيْلَكَ! من أين صَبّك اللهُ عليّ! قال: أنا رجلٌ من أهل وادي القرى أشتهي

---

(١) كارة القصار: ما يحمله القصار من الثياب على ظهره، وسميت كارة لأن القصار يكوّر الثياب ويجعلها في ثوب واحد.

هذا الغناء. فقال له: هل لك فيما هو أنفعُ لك منه؟ قال: وما ذاك؟ قال: مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرف بها إلى أهلك. فقال له: جُعلتُ فِداءَك، واللهِ إنّ لي لَبُنَيَّةً ما في أُذنها - عِلم الله - حَلْقةٌ من الوَرِق[1]، فضلاً عن الذهب، وإنّ لي لزوجةً ما عليها - يشهَدُ الله - قميصٌ، ولو أعطيتني جميعَ ما أمر لك به أميرُ المؤمنين، على هذه الخَلّة[2] والفَقــر اللذَين عرّفْتُكهما وأضعفتَ لي ذلك لكان الصوتُ أعجبَ إليّ. وكان ابنُ عائشة تائهاً لا يغنّي إلا لِخليفة أو لذي قَدْر جليل من إخوانه، فتعجَب ابنُ عائشة منه ورَحِمه، ودعا بالأداة - وكان يغنّي مرتجلاً - فغنّاه الصوتَ، فطرِب له طرباً شديداً وجعل يُحرّك رأسَهُ حتى ظنّ أنّ عُنُقَه سينقَصِف، ثم خرج من عنده ولم يَرْزأْه شيئاً. وبلغ الخبرُ الوليدَ ابن يزيد فسأل ابن عائشة عنه فجعل يغيب عن الحديث، ثم جَدّ الوليد به فَصَدقه عنه، وأمر بطلب الرجل فطُلب حتى أُحضِر، ووصله صِلةً سَنيّة وجعله في نُدَمائه ووكلّه بالسَّقْي، فلم يزل معه حتى مات.

● يونــس الكاتب قــال:

كنّـا يوماً مُتنزّهين بالعَقيق أنا وجماعةٌ من قريش، فبينا نحن على حالنا أقبل ابنُ عائشة يمشي ومعه غلامٌ من بني ليث وهو مُتوكّىءٌ على يده، فلمّا رأى جماعتنا وسمعني أُغنيّ جاءنا فسَلّم وجلس إلينا وتحدّث معنا، وكانت الجماعةُ تعرف سُوءَ خُلُقه وغضبه إذا سُئل أن يُغنّيَ، فأقبل بعضُهم على بعضٍ يتحدّثون بأحاديث كُثيّر وجميل وغيرِهما من الشعراء يستجرّون بذلك أن يَطربَ فيغنّيَ، فلم يجدوا عنده ما أرادوا، فقلت لهم أنا: لقد حَدّثني اليومَ بعضُ الأعراب حديثاً يأكل الأحاديث، فإن شئتم حدّثتكُم إياه. قالوا: هاتِ. قلت: حدّثني هذا الرجلُ أنه مرّ بناحية الرَّبَذة، فإذا صِبيانٌ يتغاطَسُون[3] في غدير، وإذا شابٌّ جميل منهوكُ الجسم عليه أثرُ العِلّة، والنُّحولُ في جسمه بَيِّنٌ، وهو

---

(١) الــورق : الفضة .
(٢) الخلــة : الفقر والحاجــة.
(٣) يتغاطسون: يغط بعضهم بعضاً في الماء.

جالسٌ ينظُر إليهم، فسلّمتُ عليه فردّ عليَّ السلام وقال: من أين وَضَحُ[١] الراكب؟ قلت: من الحِمى. قال: ومتى عَهدُك به؟ قلت: رائحاً. قال: وأين كان مَبيتُك؟ قلت: ببني فُلان. فقال: أوّه! وألقى بنفسه على ظهره وتنفس الصُّعَداء تنفُساً قلت إنه قد خرّق حجابَ قلبه، ثم أنشأ يقول:

سقى بلداً أمستْ سُلَيمى تَحُلُّه ... من المُزْن ما يَروَى به ويُسِيمُ
وإن لم أكن من قاطِنيه فإنه ... يَحُلّ به شخصٌ عليَّ كريمُ
ألا حَبّذا مَن ليس يَعْدِلُ قُربَه ... لديَّ وإن شطّ المَزارُ نعيمُ
ومَن لامَني فيه حَميمٌ وصاحب ... فرُدّ بغَيظٍ صاحبٌ وحميمُ[٢]

ثم سكن كالمغَشيّ عليه، فصحت بالصِّبْية، فأتوا بماء فصَببتُه على وجهه، فأفاق وأنشأ يقول:

إذا الصَّبُّ الغريبُ رأى خُشوعي ... وأنفاسي تَزَيَّنُ بالخُشوعِ
ولي عَينٌ أضرّ بها التفاتي ... إلى الأجزاع مُطلقةُ الدّموع
إلى الخَلَوات يأنَسُ فيك قلبي ... كما أنِس الغريبُ إلى الجميع[٣]

فقلت له: ألا أنزِل فأُساعدَك، أو أكُرُّ عَودي على بَدئي إلى الحِمى في حاجة إن كانت لك حاجةٌ أو رسالة؟ فقال: جُزيتَ خيراً وصَحِبتك السّلامةُ، امضِ لِطِيّتك[٤]، فلو أنّي علمتُ أنك تُغني عني شيئاً لكنتَ موضعاً للرَّغبة وحقيقاً بإسعاف المسألة، ولكنك أدركتَني في صُبابة[٥] من حياتي يسيرة. فانصرفت وأنا لا أُراه يُمسي ليلته إلا ميّتاً. فقال القوم: ما أعجبَ هذا الحديث! واندفع ابنُ عائشة فتغنّى في الشِعرين جميعاً وطرب وشرِب بقيَّةَ يومه، ولم يزل يغنّينا إلى أن انصرفنا.

(١) يريد: من أين مقدم الراكب وأين بدا.
(٢) أسام إبله: رعاها.
(٣) الاجزاع ج جزع: منعطف الوادي.
(٤) لطيتك: لوجهتك وغايتك.
(٥) الصبابة: البقية.

وفـــاتـــه

توفي ابن عائشة فيما قيل في أيام هشام بن عبد الملك وقيل في أيام الوليد، وما أظن الصحيح إلا أنه تُوفيّ في أيام الوليد، لأنه أقدمه إليه. وذكر من زَعم أنه توفي في خلافة هشام أنه إنما وَفَد على الوليد وهو وليّ عهــد.

عن حمّاد عن أبيــه قــال:

ذكر عِمران بن هند أنّ الغَمْر بن يزيد خرج إلى الشأم، فلمّا نزل قصر ذي خُشُب شرب على سَطحه، فغنّى ابنُ عائشة صوتاً طرِب له الغمر فقال: اردُدْه. فأبى - وكان لا يَرُدّ صوتاً لسوء خُلقه - فأمر به فطُرح من أعلى السَّطح فمات. ويقال: بل قام من الليل وهو سكرانُ ليبولَ فسقط من السَّطح فمات.

عن يعقوب بن طَلحة اللَّيْثيّ عن بعض مشايخه من أهل المدينة قال:

أقبل ابنُ عائشة من الشأم حتى نزل بقصر ذي خُشب ومعه مالٌ وطِيبٌ وكُسا، فشرب فيه، ثم تطرّقوا[1] إلى ظهر القصر فصَعِدوا، ثم نظر فإذا بنِسوةٍ يتمشّين في ناحية الوادي فقال لأصحابه: هل لكم فيهنّ؟ قالوا: وكيف لنا بهنّ؟ فنهض فلبس مُلاءةً مَدْلوكةً[2]، ثم قام على شُرْفة[3] من شُرَف القصر فتغنّى في شعر ابن أُذَينة:

وقـد قـالـت لأتـرابٍ لـهـا زُهْـرٍ تـلاقَـيـنـا
تـعـالَـيـنَ فـقـد طـابَ لـنـا الـعـيش تـعـالـيـنـا[4]

فأقبلن إليه، وطرب فاستدار فسقط فمـــات.

---

(١) تطرقوا : ابتغوا إليه طريقاً.
(٢) مدلوكة: مستوية مصقولة.
(٣) الشرفة : نتوء يجعل في أعلى القصر.
(٤) الأزهــر : الأبيض الحسن الوجه.

قال : ولمّا مات قال أشعب: قد قلت لكم، ولكنّه لا يُغني حَذَرٌ من قَدَر، زَوِّجوا ابنَ عائشة رُبيحة الشمّاسيّة تخرُجْ لكم بينهما مزاميرُ داود، فلم تفعلوا، وجعــل يبكي والناسُ يضحكون منــه.

* .* .* .* .*

[٤]

ابن مُحرِز

[الأغاني الجزء الأول ص ٣٧٨ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو مُسلِم بن مُحرِز فيما روى ابنُ المكّيّ، ويُكنَى أبا الخَطّاب، مولى بني عبد الدار بن قُصَيّ. وقال ابن الكلبي: اسمُهُ سَلْمٌ قال ويقال اسمُه عبد الله، وكان أبوه من سَدَنة(١) الكَعبة، أصلُه من الفُرس، وكان أصفرَ أَحْنَى طويلاً.

عن عبد الملك بن الماجِشُون قـال:

اسم ابن محرز سَلْم، وهو مولى بني مخزوم، وذكر إسحاق أنه كان يسكُن المدينة مَرّةً ومكّة مرّة، فإذا أتى المدينة أقام بها ثلاثة أشهر يتعلّم الضَرب من عَزّة المَيلاء، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثَةَ أشهر، ثم شَخص إلى فارس فتعلّم ألحان الفُرس وأخذ غناءَهم، ثم صار إلى الشأم فتعلّم ألحان الرُوم وأخَذَ غناءَهم، فـأسقط من ذلك مـا لا يُستَحْسَن من نَغَم الفريقين وأخـذ

---

(١) السدنة ج سادن : خادم الكعبة. وكانت سدانة الكعبة لبني عبد الدار.

محاسنها فمزج بعضَها ببعضٍ وألّف منها الأغاني التي صَنعها في أشعار العرب فأتى بما لم يُسمَع مثله، وكان يقال له «صَنّاج العرب»[1].

عن حَمّاد بن إسحاق عن أبيه قال: قال أبي: أول من غَنّى الرَّمَلَ ابنُ محرزِ وما غُنِّي قبلَه. فقلت له: ولا بالفارسية؟ قال: ولا بالفارسيّة....

قال إسحاق: كان ابنُ مُحرِز قليل المُلابسة للناس فأخمل ذلك ذِكرَه، فما يُذكَر منه إلّا غناؤه، وأخذتْ أكثر غنائه جاريةٌ كانت لصديقٍ له من أهل مكة كانت تألَفُه، فأخذه الناسُ عنها ومات بداءٍ كان بِهِ. وسقط إلى فارس فأخذ غناء الفُرس وإلى الشأم فأخذ غناء الرّوم، فتخيّر من نَغَمهم ما تَغنّى به غِناءَه، وكان يقدَم بما يُصيبُه فيدفعُه إلى صديقه ذاك فيُنفِقهُ كيف شاء، لا يسألهُ عن شيء منه، حتى إذا كاد أن ينفَد جَهّزه وأصلح من أمره وقال له: إذا شئتَ فارحَلْ. فيرحلُ ثم يعود، فلم يزل كذلك حتى مات. قال: وهو أوّل من غَنّى بَزوج من الشعر وعمل ذلك بعدَه المغنّون اقتداءً به، وكان يقول: الأفراد لا تتمُّ بها الألحانَ. وذكر أنه أولَ ما أخذ الغناء أخذه عن ابنَ مِسجَح. قال إسحاق: كانت العِلّة التي مات بها الجُذام، فلم يُعاشر الخلفاء ولا خالط الناس لأجل ذلك.

قال إسحاق: وقلت ليونس: مِنَ أحسنُ الناس غناءً؟ قال: ابنُ مُحرِز. قلت: وكيف قلت ذاك؟ قال: إن شئتَ فسّرتُ وإن شئت أجملت. قلت: أَجمِل. قال: كأنه خُلق من كل قلب، فهو يغني لكل إنسان بما يشتهي. وهذه الحِكاية بعينها قد حُكيت في ابن سُريج ولا أدري أيُهما الحقّ.

وكان إسحاق يقول: الفحولُ ابنُ سُريج ثم ابنُ محرِز ثم معبَدثم الغَريض ثم مالــــك.

---

(١) الصنج : صفيحة مدورة من الصُفر يضرب بها على أخرى. وهناك صنج ذو أوتار يختص به العجم.

طائفة من أخباره

● عن عبد الملك بن الماجُشون قـال:

كـان ابنُ محرز أحسنَ النـاس غناءً، فمـرّ بهند بنت كِنـانـة بن عبد الرحمن. . . الكِناني حَليف قريش، فسألتْه أن يجلسَ لها ولصواحبٍ لها، ففعل وقال: أُغَنّيكنّ صوتاً أمرني الحارث بن خالد بن العاص بن هشام[1] أن أُغنيّه عائشة بنت طَلْحة بن عبيد الله في شعر له قاله فيها وهو يومئذٍ أميرُ مكة؟ قُلت: نعم. فغنّاهنّ:

فـوددتُ إذ شَحَطوا وشَطّتْ دارهُم ... وعَـدَتْـهـم عنّـا عـوادٍ تَشْـغـلُ
أنّـا نُـطاع وأن تُـنَـقَّـلَ أرضُـنـا ... أو أنّ أرضَـهـم إلـيـنـا تُـنْـقَـلُ
لِتُـرَدَّ من كَـتْبٍ إلـيـك رسـائلي ... بجـوابهـا ويعـودَ ذاك المُـرسَـلُ[2]

● وقال أبو أيّوب المَدِينيّ في خبـره:

بلغني أن ابن مُحرز لمّا شخصَ يُريد العراق لقيه حُنينٌ فقال له: غَنّني صوتاً من غنائك. فغنّاه:

وحُسنُ الـزَّبَـرْجَـد في نَـظمـه ... على واضـح اللِّيتِ زان العُـقـودا
يُـفـصّـلُ يـاقـوتُـهُ دُرَّه ... وكـالجمْـرِ أبصـرتَ فيـه الفَـريـد[3]

قال: فقال له حُنين حينئذٍ: كم أمّلتَ من العراق قال: ألف دينار. فقال له: هذه خمسُمائة دينارٍ فخُذْها وانصرِفْ. ولمّا شاع ما فَعل لامَه أصحابُه عليه فقال: والله لو دخل العراقَ لما كان لي معه فيه خُبزٌ آكُلُه ولاطُّرِحتُ وسقطتُ إلى آخر الدهر.

وهذا الصوت. . . من صدور أغاني ابن محرز وأوائلها وما لا يتعلّق بمذهبه فيه ولا يتشبّه به أحدٌ.

* * *

(١) هو الحارث بن خالد المخزومي من مقدَمي شعراء الغزل في عصر بني أمية.
(٢) شحطوا : بعدوا ومثلها شطّ.
(٣) الليت : صفحة العنق. الفريد: الدرّ إذا نظم وفصل بجوهر آخـر.

[٥]

ابن مِسْجَح

[الأغاني الجزء ٣، ص ٢٧٦ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

سعيد بن مِسْجَح، أبو عثمان، مولى بني جُمَح، وقيل أنه مولى بني نوفَل ابن الحارث بن عبد المطّلب. مكّيٌّ، أسودُ، مُغنٍّ متقدِّم من فحول المغنّين وأكابرهم، وأوّل من صنع الغناءَ منهم، ونقل غناء الفُرس إلى غِناء العرب، ثم رحل إلى الشأم وأخذ ألحان الروم والبَرْبَطيّة والأسطوخوسيّة(١)، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناءً كثيراً وتعلّم الضربَ، ثم قدِم إلى الحجاز وقد أخذ محاسنَ تلك النَّغم وألقى منها ما استقبحه من النَّبَرات والنَّغم التي هي موجودةٌ

(١) البربطيـة: رجح الأب انستاس الكرملي أنها محرفة عن «البُزَنطية» نسبة إلى بزنطية وهي في موضع مدينة القسطنطينية. الأسطوخوسية: نسبة إلى أسطوخوس، وهي جزيرة في جنوب فرانسا كان أهلها معروفين بالقصف والغناء وهم خليط من الروم واليونانيين والقلطيين.

في نغم غناء الفُرس والروم، وخارجة عن غناء العرب، وغنّى على هذا المذهب فكان أوّل من أثبت ذلك ولَحّنه، وتبِعه الناسُ بعدُ.

عن هشام بن المُرِّيّة: أنّ أوّل من غنّى هذا الغناء العربيّ بمكّة ابنُ مِسجح مولى بني مخزوم، وذلك أنه مرّ بالفُرس وهم يبنُون المسجد الحرام، فسمع غناءهم بالفارسيّة فقلَبه في شعرٍ عربيّ، وهو الذي علّم ابنَ سُريج والغَريض؛ وكان ابنُ مِسجح مُوَلَّداً أسودَ يُكنَى بأبي عيسى.

عن صالح بن حَسّان قال:

كان ابنُ مِسجح فَطِناً كَيِّساً ذكيّاً، وكان أصفرَ حسنَ اللون، وكان مولاه مُعجَباً به، وكان يقول في صِغره: لَيَكُونَنّ لهذا الغلام شأنٌ، وما مَنَعني من عَتْقه إلّا حُسنُ فِراستي فيه، ولئن عشتُ لأتعرفنّ ذلك، وإن مُتُّ فهو حُرٌّ. فسمعه مولاه يوماً وهو يتغنّى بشعر ابن الرِّقاع العاملي:

أَلْمِمْ على طَلَلٍ عَفَا مَتقادمِ   بين اللُّكيك وبين غَيب الناعمِ
لولا الحياءُ وأنّ رأسي قد عثا   فيه المَشيبُ لَزُرتُ أُمَّ القاسم[1]

فدعا به مولاه فقال له: يا بُنَيّ أعِد ما سمعتُهُ منك عليَّ. فأعاده، فإذا هو أحسنُ ممّا ابتدأ به، فقال: إن هذا لمن بعض ما كنت أقول. ثم قال: أنّى لك هذا؟ قال: سمعت هذه الأعاجم تتغنّى بالفارسية فثَقِفْتُها[2] وقلبتُها في هذا الشعر. قال له: فأنت حُرٌّ لوجه الله. فلزِم مولاه وكثر أدبُه واتّسع في غنائِه ومَهَرَ بمكة وأُعجبوا به لظَرْفه وحُسن ما سمعوه منه، فدفع إليه مولاه عُبيدَ بن سُريج وقال له: يا بُنيّ عَلّمْه واجتهِدْ فيه. وكان ابنُ سريج أحسن الناس صوتاً، فتعلّم منه ثم بَرّز عليه حتى لم يُعرَف له نظير.

أحمد بن موسى بن حمزة بن عمارة بن صَفوان الجُمَحيّ عن أبيه قال:

---

(١) اللكيك : موضع في ديار بني عامر. غيب الناعم: ذكره ياقوت ولم يحدّد موضعه بل ذكر أنه ورد في بيت ابن الرقاع. عثا: أفسد.

(٢) ثقف الشيء: فهمه وأخذه.

أوّل من نقل الغناء الفارسي من الفارسيّ إلى الغناء العربيّ سعيدُ بن مِسْجَح مولى بني مخزوم ـ قال: وكان يُختلَف في ولائه إلّا أنّ الأغلبَ عليه وَلاءُ بني مخزوم ـ وذلك أن معاوية بن أبي سفيان لمّا بنى دُورَه التي يقال لها «الرُّقط»[1] ـ وهي ما بين الدّارين إلى الرَّدْم[2]: أوّلها الدار البيضاء وآخرُها دار الحَمام، وهي على يسار المُصْعِد من المسجد إلى «رَدم عمر» ـ حمل لها بنّائين فُرساً من العراق، فكانوا يبنُونها بالجِصّ والآجُرّ، وكان سعيد بن مِسجَح يأتيهم فيسمع من غنائهم على بُنيانهم، فما استحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربيّ، ثم صاغ على نحو ذلك. وهو الذي عَلّم الغَرِيض. . .

قال : وهو أول من غنّى الغناء العربيّ المنقول عن الفارسيّ. وعاش سعيد بن مسجح حتى لقيه مَعْبَدٌ وأخذ عنه في أيام الوليد بن عبد الملك.

نفيه إلى الشأم

دَحْمانُ الأشقر قال:

كنت عاملاً لعبد الملك بن مروان بمكة، فنُمي إليه أنّ رجلاً أسودَ يقال له سعيد بن مسجح أفسَد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم، فكتب إليّ: أن اقبِضْ ماله وسَيّره. ففعلتُ. فتوجّه ابنُ مِسجح إلى الشأم، فصَحِبه رجلٌ له جَوارٍ مُغنّيات في طريقه فقال له: أين تريد؟ فأخبره خبرَه وقال له: أُريد الشأم. قال له: فتكون معي؟ قال: نعم. فصحبه حتى بلغا دمشق. فدخلا مَسجدها فسَألا: مَن أخصُّ الناس بأمير المؤمنين؟ فقالوا: هؤلاء النفرُ من قريش وبنو عمّه. فوقف ابنُ مسجح عليهم وسلّم ثم قال: يا فِتيانُ، هل فيكم من يُضِيف رجلاً غريباً من أهل الحجاز؟ فنظر بعضُهم إلى بعض، وكان عليهم مَوعدٌ أن يذهبوا إلى قَينةٍ يقال لها «بَرق الأفُق»، فتثاقلوا به إلّا فتىً منهم تَذمّم[3]،

---

(1) سميت هذه الدور بالرقط لأنها بنيت بالآجر الأحمر والجص الأبيض.
(2) الردم : أراد ردم عمر بن الخطاب بمكة.
(3) تذمم : خشي الذم واللوم.

فقال: أنا أُضيفُك. وقال لأصحابه: انطلقوا أنتم وأنا أذهبُ مع ضَيفي. قالوا: لا، بل تجيءُ أنت وضيفُك. فذهبوا جميعاً إلى بيت القَينة، فلمّا أُتوا بالغَداء قال لهم سعيد: إنّي رجلٌ أسودُ، ولعلّ فيكم من يَقْذَرُني[1]، فأنا أجلِسُ وآكُل ناحيةً. وقام، فاستحيَوا منه وبعثوا إليه بما أكل، فلمّا صاروا إلى الشراب قال لهم مثلَ ذلك، ففعلوا به، وأخرجوا جاريتَين فجلستا على سريرٍ قد وُضع لهما، فغنّتا إلى العِشاء ثم دخلتا، وخرجت جاريةٌ حسنةُ الوجه والهيئة وهما معها، فجلست على السرير وجلستا أسفل مَنها عن يمين السَّرير وشَماله، قال ابن مسجح: فتمثّلتُ بهذا البيت:

فقلت: أشمسٌ أم مصابيحُ بيعةٍ بدتْ لك خلفَ السِّجفِ أم أنت حالمُ[2]

فغضبت الجارية وقالت: أَيَضرِبُ هذا الأسودُ بي الأمثال! فنظروا إليَّ نظراً مُنكَراً ولم يزالوا يُسَكِّنونها. ثم غنّت صوتاً، فقال ابنُ مسجح: أحسنتِ واللهِ. فغضب مولاها وقال: أمثلُ هذا الأسود يُقدِم على جاريتي! فقال لي الرجلُ الذي أنزلني عنده: قُم فانصرِف إلى منزلي فقد ثَقُلتَ على القوم. فذهبت أقوم، فتذمّم القومُ وقالوا لي: بل أَقِمْ وأَحْسِنْ أدبَك. فأقمتُ، وغَنَّتْ فقلت: أخطأتِ واللهِ يا جاريةُ وأسأتِ. ثم اندفعتُ فغنّيتُ الصوت، فوثبت الجاريةُ فقالت لمولاها: هذا واللهِ أبو عثمانَ سعيدُ بن مِسجح. فقلت: إنّي واللهِ أنا هو، واللهِ لا أُقيم عندكم. فوثب القرشيّون فقال هذا: يكون عندي، وقال هذا: يكون عندي، وقال هذا: بل عنـدي، فقلت: والله لا أُقيم إلّا عندَ سيّدكم ـ يعني الرجلَ الذي أنزله منهم ـ ثم سالوه عمّا أَقْدَمه، فأخبرهم الخبر، فقال له صاحبُه: إنّي أسمرُ الليلة مع أمير المؤمنين فهل تُحسِن أن تَحْدُوَ؟ قال: لا، ولكنّي استعمل حُداءً. قال: فإن منزلي بحِذاء منزل أمير المؤمنين، فإن وافقتُ منه طِيب نفسٍ أرسلتُ إليك. ومضى إلى عبد الملك، فلمّا رآه

(١) يقذرني: ينفر منـي ويتجنبني.
(٢) البيعـة: الكنيسـة.

طيِّبَ النفس أرسل إلى ابن مِسجح وأخرج رأسه من وراء شُرَف القصر ثم حدا:

إنّــك يــا مُعــاذُ يــابنَ الـفُضَّــلِ   إن زُلْــزِلَ الأقــدام لــم تُــزَلْــزَلِ
عن دِين مـوسى والكتـاب المنـزَل   تُقيـم أصـداغَ الـقُـرون المُـيَّـلِ
للحقّ حتى يَنْتَحُوا للأعدلِ(١)

فقال عبد الملك للقرشيِّ، مَن هذا؟ قال: رجلٌ حجازيّ قدِم عليّ. قال: أَحضِره. فأحضرَه له، وقال له: أُحْدُ مُجِدّاً. ثم قال: له: هل تغنّي غناء الرُّكبان؟ قال: نعم. قال: غَنِّه. فتغنّى، فقال له: فهل تغنّي الغناء المتقَن؟ قال: نعم. قال: غنّه. فتغنّى، فاهتزّ عبد الملك طرباً، ثم قال له: أُقسِم إنّ لك في القوم لأسماءً كثيرةً، من أنت، ويلَك! قال له: أنا المظلومُ المقبوضُ مـالُهُ المسَيَّرُ عن وطنه سعيد بن مسجح، قَبض مالي عاملُ الحجاز ونفاني. فتبسّم عبدُ الملك ثم قال له: قد وضَح عذرُ فتيان قريش في أن يُنفِقوا عليك أموالهم. وأَمَّنه ووصّله وكتب إلى عامله بردّ ماله عليه وألّا يَعرِضَ له بسوء.

*. *. *. *. *

(١) زلزل الأقدام: أراه مصحفاً عن زلزل الأقوام. يقيم أصداغ القرون: يعدل ميل الرؤوس ويقوّمها، كناية عن قوته.

[٦]

أحمد النَّصْبيّ

[الأغاني الجزء ٦ الصفحة ٦٣ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

النّصْبي هو صاحب الأنصاب. وأوّل من غنّى بها وعنه أُخذ النَّصْبُ في الغناء هو أحمد بن أُسامة الهَمْدانيّ، من رهط الأعشى الأدنَين. ولم أجد نَسبةَ متّصلاً فأذكُرَه. وكان يغنّي بالطُّنبور[1] في الإسلام، وكان ـ فيما يقال ـ ينادم عبيد الله بن زياد سرّاً ويُغنّيه. وله صنعةٌ كثيرة حسنة لم يلحقْها أحدٌ من الطُّنبوريّين ولا كثيرٌ ممّن يغنّي بالعُود.

وذكره جَحْظةُ في كتاب الطنبوريّين فأتى من ذكره بشيء ليس من جنس أخباره ولا زمانه، وثَلبه فيما ذكره. وكان مذهبُه ـ عفا الله عنا وعنه ـ في هذا

---

(١) الطنبور والطنبار: آلة يضرب عليها ، واللفظ معرّب أصله دُنبه برّه تشبيهاً له بألية الجمـل. .

الكتاب أن يثلِب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبحِ ما قدَر عليه، وكان يجب عليه ضدُّ هذا، لأن من انتسب إلى صناعة ثم ذكر متقدّمي أهلها كان الأَجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وظريف قصصهم، ومليحَ ما عرفه منهم لا أن يثلِبَهم بما لا يعلم وما يعلم. فكان فيما قرأت عليه من هذا الكتاب أخبارُ أحمد النَّصْبيّ، وبه صَدّر كتابه فقال: أحمد النَّصْبيّ أوّل من غنّى الأنصاب على الطنبور وأظهرهاوسيَّرها، ولم يخدم خليفةً ولا كان له شعرٌ ولا أدب.

وحدّثني جماعةٌ من الكوفيّين أنه لم يكن بالكوفة أبخلُ منه مع يَساره، وأنه كان يُقرض الناسَ بالرِّبا، وأنه اغتصّ في دعوة دُعي إليها بفالوذجة حادّة فبلعها فجمعت أحشاءَه، فمات، وهذا كلُّه باطل. أما الغناء فله منه صنعة في الثقيل الأول وخفيف الثقيل والثقيل الثاني، ليس لكثير أحدٍ مثلها..

وأما ما وصفه من بخله وقَرضه للناس بالرِّبا وموته من فالوذجة حارّة أكلها، فلا أدري مَن من الكوفيّين حدّثه بهذا الحديث، ليس يخلو من أن يكون كاذباً، أو نَحَل هو هذه الحكاية ووضعها هنا، لأن أحمد النَّصْبي خرج مع أعشى هَمْدان -وكان قرابته وإلفَه-في عسكر ابن الأشعث، فقُتل فيمن قُتل. روى ذلك الثِقاتُ من أهل الكوفة والعلم بأخبــار النــاس..

طائفة من أخباره

● حمّاد بن إسحاق عن أبيــه قــال:

كان أحمد النّصبي مؤاخياً لأعشى همدانَ مواصلاً له، فأكثرُ غنائه في أشعاره،مثل صنعته في شعره:

«حَيّيا خولةَ مني بالسّلام»

و«لمن الظعائنُ سَيرهنّ تَزَجُّفُ»

و«يأيها القلبُ المطيع الهوى».

وهذه الأصوات الثلاثة قلائد صَنعته وغُرر أغانيــه.

قال : وكان سبب قوله الشعر في سليم بن صالح بن سعد بن جابر

العنبريّ ـ وكان منزل سليم ساباط[1] المدائن ـ أن أعشى همدان وأحمد النُّصْبي خرجا في بعض مغازيهما فنزلا على سليم فأحسن قراهما وأمر لدوابّهما بعُلوفة وقَضيم[2]، وأقسم عليهما أن ينتقلا إلى منزله، ففعلا، فعرض عليهما الشراب فأنْعَما به وطلباه، فوُضع بين أيديهما وجلسا يشربان. فقال أحمد النّصبيّ للأعشى: قل في هذا الرجل الكريم شعراً تمدحُه به حتى أغنّي فيه. فقال الأعشى يمدحه:

يـأيها القلبُ المـطيع الهـوى   أنّـى اعـتـراك الـطَرَبُ الـنـازحُ

[القصيـدة...]

قـال: فغنّى أحمد النصبيّ في بعض هذه الأبيات، وجاريةٌ لسليم في السَّطح، فسمعت الغناء، فنزلت إلى مولاها وقالت: إني سمعت من أضيافك شعراً ما سمعتُ أحسنَ منه. فخرج معها مولاها، فاستمع حتى فهِم، ثم نزل فدخل عليهما فقال لأحمد: لِمن هذا الشعر والغناء؟ ومن أنتما؟ فقال: الشعر لهذا، وهو أبو المصبِّح أعشى هَمْدان، والغناء لي، وأنا أحمد النُّصْبيّ الهمْدانيّ. فانكبّ على رأس أعشى همدان فقبّله وقال: كتمتْماني أنفُسكما وكِدتما أن تُفارقاني ولم أعرِفكما ولم أعلم خبَركما. واحتبسهما شهراً ثم حملهما على فرسَين وقال: خَلِّفا عندي مـا كان من دَوابّكما وارجِعا من مَغزاكما إليّ.

فمضيا إلى مَغزاهما، فأقاما حيناً ثم انصرفا، فلمّا شارفا منزله قال أحمد للأعشى: إنّي أرى عَجباً. قال: وما هو؟ قال: أرى فوق قصر سَليم ثعلباً. قال: لئن كنتَ صادقاً فما بقي في القرية أحدٌ. فدخلا القرية، فوجدا سليماً وجميع أهل القرية قد أصابهم الطاعون، فمات أكثرُهم وانتقل بِاقيهم. هكذا

(١) ساباط: موضع بالمدائن لكسرى أبرويز.
(٢) العلوفة: جمع علف. القضيم: شعير الدابـة.

ذكر إسحاق، وذكر غيرُه: أن الحجّاج طالب سليماً بمال عظيم، فلم يخرُجْ منه حتى باع كلَّ ما يملِكُه، وخَرِبت قريتُه وتفرّق أهلُها. ثم باعه الحجّاج عبداً، فاشتراه بعضُ أشراف أهل الكوفة ـ إما أسماءُ بنُ خارجةَ وإمَّا بعض نُظَرائه ـ فأعتقــه.

* . * . * . *

* . *

[٧]

أَشْعَبُ

[الأغاني الجزء ١٩ ص ١٣٥ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هوْ أشعبُ بن جُبير، واسمُه شُعَيب وكُنيتُه أبو العَلاء، وكان يقال لأمه ـ أم الخَلَنْدَج ـ وقيل بل أم جميل، وهي مَولاة أسماء بنت أبي بكر واسمُها حُمَيدة. وكان أبوه خرج مع المختار بن أبي عُبَيد وأسره مُصعبٌ فضرب عُنقَه صَبراً وقال: تخرُج عليّ وأنت مَولاي! ونشأ أشعبُ بالمدينة في دُور آل أبي طالب، وتولّت تربيته وكَفَلَتْه عائشة بنت عثمان بن عَفّان.

وحُكي عنه أنه حكى عن أمّه أنها كانت تُغري بين أزواج النبي ﷺ، وأنّها زَنت فحُلِقت وطيف بها.

عن إبراهيم بن المهدي: أن عُبيدة بن أشعب أخبره ـ وقد سأله عن أوّلهم وأصلهم ، أن أباه وجَدّه كانا مَولَيي عثمان، وأن أمّه كانت مولاة لأبي سفيان بن حرب، وأن ميمونة أمَّ المؤمنين أخذتْها معها لمّا تزوّجها النبيّ ﷺ، فكانت

تدخل إلى أزواج النبيّ ﷺ فيستطْرفنها، ثم إنها فارقت ذلك وصارت تنقُل أحاديثَ بعضهنّ إلى بعض وتُغري بينهنّ، فدعا النبيُّ ﷺ عليها فماتت.

وذكروا أنه كان مع عثمان، رضي الله عنه، في الدار، فلمّا حُصر جَرَّد مماليكُه السيوفَ لِيقاتلوا، فقال لهم عثمان: من أغمد سيفَه فهو حُرّ. قال أشعب: فلمّا وقعتْ - واللهِ - في أُذني كنتُ أولَ من أَغمد سيفَه، فأُعتقت.

قال أشعب: كنت ألتقط السِّهام من دار عثمان يومَ حُوصر، وكنت في شبيبتي أَلحق الحُمر الوحشيّة عَدْواً.

مصعب بن عبد الله قال: كان أشعبُ من القُرّاء للقُرآن، وكان قد نَسَكَ وغَزا، وكان حسنَ الصوت بالقرآن! وربّما صَلّى بهم القِيام.

إسحاق بن إبراهيم قال: كان أشعب مع مَلاحته ونوادره يغنّي أصـواتاً فيُجيدُها.

الأصمعيّ يقول: سمعت أشعب يقول: سمعت الناس يَمُوجون في أمر عثمان. قال الأصمعي: ثم أدرك المهديّ.

هند بن حَمدان الأرقميّ المخزوميّ قال: أخبرني أبي قال: كان أشعب أزرقَ أحولَ أكشفَ[1] أقرع.

عن عُبيدة بن أشعب عن أبيه: أنه كان مولدُه في سنة تسع من الهجرة، وأن أباه كان من مماليك عثمان، وأن أمه كانت تنقل كلام أزواج النبيّ ﷺ بعضِهن إلى بعض فتُلقي بينهنّ الشرّ، فتأذى رسول الله ﷺ بذلك، فدعا الله عزّ وجلّ عليها فأماتها، وعُمّر ابنُها أشعب حتى هَلَكَ في أيام المهديّ.

وكان في أشعب خلال، منها أنه كان أطيبَ أهل زمانه عِشرةً، وأكثرهم نادرةً، ومنها أنه كان أحسنَ الناس أداءً لِغناءٍ، ومنها أنه أقومُ أهل دهره بحُجج المعتزلة، وكان امرءاً منهم.

---

(١) الأكشف: الذي انحسر مقدم شعر رأسه.

الأصمعيّ قال: رأيت أشعب يغنّي وكأنّ صوتَه صوتُ بُلبُل.

طائفة من أخباره

● قال المدائنّي: وقال أشعب:

تعلّقت بأستار الكعبة فقلت: اللهمّ أذهِب عني الحرصَ والطلبَ إلى الناس. فمررت بالقُرشيّين وغيرهم فلم يعطني أحدٌ شيئاً، فجئت إلى أمي فقالت: مالك قد جئتَ خائباً؟ فأخبرتُها، فقالت: لا والله لا تدخلُ حتى ترجِعَ فتَستَقِيل ربَّك. فرجعت فقلت: يا ربِّ أَقِلْني. ثم رَجَعت فلم أَمُرّ بمجلسٍ لقُريش وغيرهم إلاّ أعطَوني ووُهب لي غُلامٌ، فجئت إلى أمّي بحمار مُوقَرٍ من كل شيء فقالت: ما هذا الغلامُ؟ فخِفتُ أن أُخبِرها بالقصّة فتموتَ فرحاً، فقلت: وهَبوا لي. قالت: أيُّ شيء؟ قلت: غَين. قالت: أيُّ شيءٍ غين؟ قلت: لام. قالت: وأيّ شيء لام؟ قلت: ألِف. قالت: وأيُّ شيء ألِف؟ قلت: ميم. قالت: وأي شيء ميم؟ قلتُ: غلام. فغُشي عليها، ولو لم أُقطِّع الحروف لماتت الفاسقةُ فَرحــاً.

● الأصمعيُّ قــال:

ولّى المنصورُ زيادَ بن عبد الله الحارثي مكةَ والمدينة، قال أشعبُ: فلَقيتُه بالجُحفة(١)، فسلّمت عليه قال: فحضَر الغَداء وأُهـدي إليه جَـدْيٌ فطبخـه مَضِيرة(٢) وحُشيتْ القِبَة(٣)، قال: فأكلتُ أكلاً أتملّح به، وأنا أَعرف صاحبي، ثم أُتي بالقِبة فَشَققتُها، فصاح الطبّاخ: إنّا لله، شَقّ القِبةَ. قال: فانقطِعتُ، فلمّا فرغت قال: يا أشعبُ، هذا رمضانُ قد حضر، ولا بُدَّ أن تُصلّي بأهل السجن. قلت: والله ما أحفَظُ من كتاب الله إلاّ ما أُقيم به صــلاتي. قال: لا

---

(١) الجحفة : قرية كبيرة بين مكة والمدينة.
(٢) المضيرة: اللحم يطبخ باللبن الخالص.
(٣) القبــة : هنة متصلة بالكرش ذات أطباق.

بُدٌّ منه. قال: قلت: أو لا آكلُ جَدْياً مَضيرةً. قال: وما أصنع به وهو في بطنك! قال قلت: الطريقُ بعيد، أُريد أن أرجع إلى المدينة. قال: يا غلامُ، هاتِ ريشةَ ذَنَب ديك ـ قال أشعب: والجُحفة أطولُ بلاد الله ريشة ذَنَب ديك ـ قال: فأُدخلت في حَلْقي فتقيّأتُ ما أكلت، ثم قال لي: ما رأيُك؟ قال قلت: لا أُقيم ببلدة يُصاح فيها: شَقّ القِبة. قال: لك وظيفةٌ على السُلطان، وأكرَهُ أن أكسِرها عليك فقُل ولا تُشطِط. قال قلت: نصف درهم كِراءُ حمار يُبلّغني المدينة. قال: أنصفتَ. وأعطانيه.

● عـن المدائنيّ قال:

أُتي أشعبُ بفالوذجة عند بعض الولاة، فأكل منها، فقيل له: كيف تراها يا أشعب؟ قال: امرأتُه طالقٌ إن لم تكن عُملت قبل أن يُوحيَ الله عزّ وجلّ إلى النّحل.

● بعض المدنيّين قـالِ:

كان لأشعب خَرْقٌ في بابه، فينام ويُخرج يَده من الخَرق ويطمع أن يجيء إنسانٌ فيطرحُ في يده شيئاً، من الطمع.

● عبد الرحمن بن عبد الله الزُهريّ قال:

صلّى أشعبُ يوماً إلى جانب مَروان بن أبانَ بن عثمان، وكان مروانُ عظيم الخَلق والعَجِيزة، فأفلتتْ منه ريحٌ عند نهوضه، لها صوتٌ، فانصرف أشعب من الصلاة، فوَهِم الناسُ أنه هو الذي خرجت منه الريحُ. فلمّا انصرف مروان إلى منزله جاءه أشعب فقال له: الدِّية. فقال: دِيةُ ماذا؟ فقال: دية الضَّرطة التي تحمّلتُها عنك، واللهِ وإلاّ شهّرتُك.. فلم يـدعه حتى أخـذ منه شيئـاً صالحاً.

● يحيى بن محمد بن أبي قَتيلة قـال:

غَذا أشعبُ جَدْياً بلبن زوجته وغيرها حتى بلغ الغاية. قال: ومن مبالغته في ذلك أن قال لزوجته: أي ابنة وَردان، إني أُحبّ أن تُرضِعيه بلَبنك. قال:

ففعلتْ. قالِ: ثم جاء به إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد[1] فقال: بالله إنه لابني، قد رضَع بلبن زوجتي وقد حَبوتُك به، ولم أرَ أحداً يستأهلُه سواك. قال: فنظر إسماعيلُ إلى فِتنةٍ من الفِتن، فأَمر به فذُبح وسُمط[2]، فأقبل عليه أشعبُ فقال: المكافأةَ. فقال: ما عندي والله اليومَ شيءٌ، ونحن من تَعرف؛ وذلك غيرُ فائت لك. فلمّا يئس منه قام من عنده فدخل على أبيه جعفر بن محمد، ثم اندفع يشهَق حتى التقت أضلاعُه، ثم قال: أَخْلِني. قال: ما معنا أحدٌ يسمع ولا عَينٌ عليك. قال: وثب ابنُك إسماعيلُ على ابني فذَبحه وأنا أنظُر إليه. قال: فارتاع جعفرٌ وصاح: ويلَك! وفيم؟ وتريد ماذا؟ قال: أمّا ما أُريدُ فوالله ما لي في إسماعيلَ حِيلةٌ ولا يسمعُ هذا سامعٌ أبداً بعدَك. فجزاه خيراً وأدخله منزله وأخرج إليه مائتي دينار وقال له: خُذ هذه ولك عندنا ما تُحبّ. قال: وخرج إلى إسماعيل لا يُبصِر ما يَطأُ عليه، فإذا به مترسِّلٌ في مجلسِه، فلمّا رأى وجه أبيه نَكِرَهُ وقام إليـه فقال: يـا إسماعيـلُ أوَ فعلتَها بأشعب! قتلتَ ولدَه. قال: فاستضحك وقال: جاءني بَجَدْي من صِفته كذا؛ وخبّره الخبرَ، فأخبره أبوه ما كان منه وصار إليه. قال: فكان جعفـرٌ يقول لأشعب: رُعْتَني، راعك اللهُ. فيقول: رَوْعةُ ابنك والله إيّاي في الجَدْي أكبرُ من رَوْعتك أنت في المائتي دينار.

● أبو الحسن المدائنيّ قال:

وقف أشعبُ على امرأة تعمل طَبَق خُوص فقال: لِتكَبِّريه. فقالت: لمَ، أتُريد أن تَشتريهَ؟ قال: لا، ولكن عسى أن يشتريَه إنسانٌ فيُهدَى إليّ فيه، فيكون كبيراً خيرٌ من أن يكون صغيراً.

● المدائنـيّ قـال:

قال أشعب مرّة للصِّبيان: هذا عمرُو بن عثمان يُقسّم مالاً. فمضوا فلمّا أَبطؤوا عنه اتّبعهم، يحسب أن الأمر قد صار حقّاً كما قال.

---

(١) هو إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، إمام الشيعة الإسماعيلية.
(٢) سمط الجدي: نتف عنه الصوف ونظفه من الشعر بالماء الحار ليشويه.

● المدائنيّ قال:

قيل لأشعب: ما بَلغ من طمعك؟ قال: ما رأيت اثنين يَتسارّان قطّ إلا كنتُ أُراهما يأمُران لي بشيء.

● عن مصعبَ بن عثمان قال:

لقي أشعبُ سالَم بن عبد الله بن عمر فقال: يا أشعبُ، هل لك في هَريسٍ قد أُعّد لنا؟ قال: نعم، بأبي أنت وأمي. قال: فصِرْ إليّ. فمضى إلى منزله فقالت له امرأتُه: قد وَجّه إليك عبد الله بن عمرو بن عثمان يدعُوك. قال: ويحَكِ، إن لسالم بن عبد الله هَريسةً قد دعاني إليها، وعبدُ الله بن عمرو في يدي متى شئتُ، وسالمُ إنّما دَعوتُهُ للناس فَلتةٌ، وليس لي بُدٌّ من المُضيِّ إليه. قالت: إذاً يغضَبَ عبدُ الله. قال: آكُل عنده ثم أَصيرُ إلى عبد الله. فجاء إلى سالم وجعل يأكل أكلَ مُتعالِل فقال له: كُلْ يا أشعبُ وابعَثْ ما فضَل عنك إلى منزلك. قال: ذاك أردتُ بأبي أنت وأمّي. فقال: يا غُلامُ، احمِلْ هذا إلى منزله. فحمله ومضى معه فجاء به امرأتَهَ فقالت له: ثَكِلَتْكَ أمُّك، قد حَلَف عبدُ الله أن لا يُكلّمَكَ شهراً. قال: دَعيني وإيّاه، هاتي شيئاً من زَعفَران. فأعطته، ودخل الحمّام يمسح على وجهه ويَدَيه وجلس في الحمّام حتى صَفَّره، ثم خرج مُتّكئاً على عصا يُرعِد حتى أتى دار عبد الله بن عمرو، فلمّا رآه حاجبُه قال: ويحكَ، بلغتْ بك العِلّة ما أرى! ودخل وأعلم صاحبَه فأذِن له، فلمّا دخل عليه إذا سالمُ بن عبد الله عندَه، فجعل يزيد في الرِّعدة ويُقارب الخَطْوَ، فجلس وما يقدِرُ أن يستَقِلَّ، فقال عبدُ الله: ظَلمناك يا أشعبُ في غَضَبنا عليك؟ فقال له سالمُ: مالَك، وَيْلَك! ألم تكن عندي آنفاً وأكلتَ هَريسةً؟ فقال له: وأيَّ أكلٍ تَرَى بي؟ قال: ويلَك! ألم أقل لك كَيت وكَيت وتَقُل لي كَيْت وكيت؟ قال له: شُبِّه لك. قال: لا حولَ ولا قوّة إلا بالله، واللهِ إني لأَظُنّ الشيطانَ يتشبّه بك، ويلَك! أجادٌّ أنت؟ قال: عليّ وعليَّ إن كنتُ خرجت منذ شهر. فقال له عبدُ الله: اعزُب، ويحَكَ، أَتَبْهَته، لا أُمَّ لك! قال: ما قلتُ إلاّ حقاً. قال: بحياتي اصدُقْني وأنت آمِنٌ من غضبي

قال: لا وحياتِك لقد صَدق. ثم حَدّثه بالقصة فضحك حتى استلقى على قفـــاه.

● عن إبراهيـــم بن المهديّ:

أنّ الرشيد لما ولّاه دمشق بعث إليه عبدَ اللهِ بن أشعب، وكان يَقْدُم عليه من الحجاز إذا أراد أن يَطرب.

قال إبراهيم: وكان يحدّثني من حديث أبيه بالطرائف.

عادَلَتْهُ(١) يوماً وأنا خارجٌ من دمشق في قُبّةٍ على بَغلٍ لأَلهـوَ بحديثـه، فأصابنا في الطريق بردٌ شديد، فدعوتُ بدُوّاج سَمُّور(٢) لألبسَه، فأُتِيت به، فلمّا لبستُهُ أقبلتُ على ابن أشعب فقلت: حدِّثني بشيء من طمع أبيك. فقال لي: مالك ولأبي؟ ها أنا، إذ دعوتَ بالدُّوّاج فما شككتُ والله في أنك إنما جئت به لي. فضحكتُ من قوله ودعوتُ بغيره فلبستُه وأعطيته إياه، ثم قلت له: ألِأبيك ولدٌ غيرُك؟ فقال: كثيرٌ. فقلت: عشرَة؟ قال: أكثر. قلت: فخمسون؟ قال: أكثر كثيراً. قلت: مائة؟ قال: دَع المئين وخُذ الألوف. فقلت: ويلك! أي شيءٍ تقوله؟ أشعبُ أبوك ليس بينك وبينه أبٌ فكيف يكون له ألوفٌ من الولد؟ فضحك ثم قال: لي في هذا خبرٌ ظريف. فقلت له: حَدِّثني به. فقـــال:

كان أبي منقطعاً إلى سُكينة بنتِ الحسين، وكانت متزوّجةً بزيد بن عمرو ابن عثمان بن عفّان، وكانت مُحبّةً له، فكان لا يستقرّ معها، تقول له: أُريد الحجّ، فيخرجُ معها، فإذا أفضَوا إلى مكة تقول: أُريد الرُّجوع إلى المدينة. فإذا عاد إلى المدينة قالت: أُريد العُمرة. فهو معها في سفرٍ لا ينقضي. قال عبد الله: فحدّثني أبي قال:

كانت قد حلّفَتْه بما لا كَفّارةَ له ألّا يتزوّج عليها ولا يَتَسّرى ولا يُلِمَّ بنسائه

---

(١) عادله: ركب معه في محمل واحد، والكلام لإبراهيم.
(٢) الدواج: ما يلبس فوق الثياب ليقي من البرد. السمور: حيوان بري يتخذ من جلده فرو جيد.

وجواريه إلّا بإذنها. وحَجّ الخليفةُ في سنة من السّنين فقال لها. قد حَـجّ الخليفةُ، ولا بُدَّ لي من لِقائه. قالت: فاحلِفْ بأنك لا تدخلُ الطائف ولا تُلمُّ بجواريك على وَجهٍ ولا سَبب. فحلَف لها بما رَضِيتْ به من الأيمان على ذلك ثم قالت له: احلِفْ بالطلاق. فقال: لا أفعلُ ولكن ابعثي معـك بثِقتك. فدعتْني وأعطَتْني ثلاثين ديناراً وقالت لي: اخرُج معه. وحَلَّفَتْني بطلاق بنت وَردان زوجتي ألاّ أُطلِقَ له الخروجَ إلى الطائف بوَجهٍ ولا سبب. فحلفتُ لها بما أثلج صدرهَا، فأذِنتْ له فخرج وخرجت معه، فلمّا حاذَينا الطائف قال لي: يا أشعبُ، أنت تعرفني وتعرف صنائعي عندك، وهذه ثلاثُمائة دينار خُذها بارك الله لك فيها وأْذَنْ لي أُلمَّ بجواريّ. فلمّا سمعتُها ذهب عقلي ثم قلت: يا سيّدي، هي سُكَينة، فاللهَ اللهَ فيَّ. فقال: أَوَ تعلمُ سكينةُ الغيبَ؟ فلم يزل بي حتى أخذتُها وأذِنتُ له، فمضى وبات عند جَواريه.

فلمّا أصبحنا رأيتُ أبياتَ قوم من العرب قريبةً منا، فلبستُ حُلّة وشْيٍ كانت لزيد قيمُتها ألفُ دينار وركبت فرسَه وجئت إلى النساء فسَلّمتُ فردَدن، ونَسَبْنَني فانتسبتُ نسبَ زيد، فحادثْنَني وأَنِسْنَ بي؛ وأقبل رجالُ الحيّ وكلّما جاء رجلٌ سَأل عن نَسَبي فخُبِّر به هابني وسَلّم عليّ وعَظَّمني وانصرف، إلى أن أقبل شيخٌ كبير مُنكر مبطونٌ، فلمّا خُبّر بي وبنسبي شال حاجبيَه عن عينه ثم نظر إليّ وقال: وأبي ما هذه خِلقةُ قُرَشيٍّ ولا شمائلُه وما هو إلاّ عبدٌ لهم نادٌّ[1]. وعلمتُ أنه يريد شرّاً فركبت الفرسَ ثم مضَيت، ولحِقني فرماني بسهمٍ فما أخطأ قَرَبُوس السَّرج[2]، وما شككتُ أنه يلحقني بآخر يقتلني فسَلحتُ[3] ـ يعلمُ الله ـ في ثيابي فلوّثها ونفذ إلى الحُلّة فصَيّرها شهرة[4]؟ وأتيت رحلَ زيد ابن عمرو فجلست أغسِل الحلّة وأُجففها؛ وأقبل زيد بن عمرو فرأى ما لحق

(١) ناد : هارب، آبق.
(٢) قربوس السرج: حنوه وللسرج قربوسان.
(٣) سلح : بال.
(٤) الشهرة: ظهور الشيء في شنعة.

الحُلّة والسرج فقال لي: ما القصة؟ ويلك! فقلت: يا سيدي، الصِّدق أنجى. وحدّثتُهُ الحديث، فاغتاظ ثم قال لي: ألم يكفِك أن تلبس حُلّتي وتصنَع بها ما صنعت وتركبَ فَرَسي وتجلسَ إلى النساء حتى انتسبتَ بنسبي وفَضحتَني وجعلتَني عند العرب وَلّاجاً جَمّاشاً[1]، وجرى عليك ذُلٌّ نُسب إليّ! أنا نَفِيٌّ من أبي ومنسوبٌ إلى أبيك إن لم أَسُؤْك وأبلُغ في ذلك.

ثم لقي الخليفة وعاد، ودخلنا إلى سُكينة، فسألته عن خبره كُلّه فَخَبَّرها حتى انتهى إلى ذِكر جواريه فقالت: إيهِ، وما كان من خبرك في طريقك؟ هل مضيتَ إلى جواريك بالطائف؟ فقال لها: لا أدري، سَلي ثِقَتَكَ. فدعتْني فسألَتْني، وبدأتُ فحلفت لها بكلّ يمينٍ مُحرجةٍ أنه ما مرّ بالطائف ولا داخلها ولا فارقني، فقال لها: اليمينُ التي حلفِ بها لازمةٌ لي إن لم أكن دخلتُ الطائف وبِتُّ عند جَوارِيّ وغَسّلتهنّ جميعاً، وأخذ مني ثلاثمائة دينار وفعل كذا وكذا. وحَدّثها الحديث كلَّه وأَرَاها الحُلّةَ والسَّرج، فقالت لي: أفعلتَها يا أشعبُ! أنا نِفيّةٌ من أبي إن أنفقتُها إلا فيما يَسُوءُك. ثم أمرتْ بكَبْس منزلي وإحضارها الدنانير، فأُحضِرت، فاشترتْ بها خشباً وبيضاً وسِرْجيناً[2]، وعملت من الخشب بيتاً فحَبَسَتْني فيه وحلفتْ ألّا أخرجَ منه ولا أُفارقَه حتى أحضُنَ البَيضَ كلَّه إلى أن يَنْقَبَ. فمكثتُ أربعين يوماً أحضُن لها البَيض حتى نَقِب وخرج منه فراريجُ كثيرةٌ، فربَّتْهنّ وتناسَلن فكنّ بالمدينة يُسَمَّين بناتِ أشعب ونسلَ أشعب، فهؤلاء إلى الآن بالمدينة نَسْلٌ يزيد على الألوف، كُلّهن أهلي وأقاربي.

قال إبراهيم: فضحكتُ والله من قوله ضحكاً ما أَذكُر أني ضحكت مثلَه قطُّ، ووصلتُه ولم يزل عندي زماناً حتى خرج إلى المدينة وبلغني أنه مات هناك.

---

(١) الولاج: الكثير الدخول ويريد أنه كثير التعرض للنساء. الجماش: الذي يغازل النساء ويلاعبهن.

(٢) السرجين: لفظة معربة يراد بها ما تدمل به الأرض ويقال له أيضاً: السرقين.

● مصعب بن عبد الله بن عثمان قال:

قال رجلٌ لأشعبَ إن سالمَ بن عبد الله قد مضى إلى بستان فلان ومعه طعامٌ كثير. فبادر حتى لَحِقه، فأغلق الغلامُ البابَ دونه، فتَسوّر عليه فصاح به سالم: بناتي، وَيلك، بناتي. فناداه أشعبُ: «لقد علمتَ مالنا في بناتك من حقٍّ وإنك لَتعلم ما نُريد»(1). فأمر بالطعام فأُخرج إليه منه ما كفاه.

● جعفر بن سليمان قال:

قدم أشعبُ أيامَ أبي جعفر، فأطاف به فتيانُ بني هاشم وسألوه أن يُغنّيَهَم، فَغَنّى، فإذا ألحانُهُ مُطربةٌ وَحَلْقُه على حاله، فقال له جعفر بن المنصور: لمن هذا الشعر والغناء:

لِمَنْ طللٌ بذات الجَيش أمسى دارساً خَلَقا

فقال له: أخذت الغناء عن مَعبد، وهو للدَّلال، ولقد كنت أخُذ اللحن عن معبد فإذا سُئل عنه قال: عليكم بأشعب فإنه أحسنُ تأديةً له مني.

● عن عبد الله بن مصعب قال:

قدم جريرٌ المدينة فاجتمع إليه الناسُ يستنشدونه ويسألونه عن شعره فيُنشدهم ويأخذون عنه وينصرفون، ولزِمه أشعبُ من بينهم فلم يُفارقْه، فقال له جرير: أَراك أطولَهم جُلوساً وأكثرهم سؤالاً، وإني لأَظنُّك الأَمَهم حَسَباً. فقال له: يا أبا حَزرةَ، أنا والله أنفعُهم لك. قال: وكيف ذلك؟ قال: أنا آخُذ شِعرك فأُحسِّنه وأُجوّدُه. قال: كيف تُحسِّنه وتُجوّده؟ قال: فاندفع فغنّاه في شعره:

يا أُختَ ناجيةَ السَّلامُ عليكمُ ... قبلَ الرَّحيل وقبل لوم العُذَّلِ
لو كنتُ أعلم أنّ آخرَ عهدكم ... يوم الرّحيلِ فعلتُ ما لم أفعل

قال: فطرِب جَريرٌ حتى بكى وجعل يَزحف إليه حتى لصِقت رُكبتُه برُكبته

---

(1) الآية ٧٩ من سورة هود.

وقال: أَشهَد أنّك تُحسِّنه وتُجوِّده. فأعطاه من شعره ما أراد ووصله بدنانير وكُسوة.

● المدائنيّ قـال:

بعث الوليـدُ بن يزيد إلى أشعب بعدما طلّق امرأتَه سَعْدة فقال له: يا أشعبُ، لك عندي عشرةُ آلاف درهم على أن تبلّغ رسالتي سَعْدة. فقال له: أَحضِر المال حتى أنظرَ إليه. فأحضر الوليد بَدْرةً، فوضعها أشعبُ على عنقه ثم قال: هاتِ رسالتك يا أمير المؤمنين. قال قُل لها يقول لك:

أسَعْـدةُ هـل إليـك لنـا سبيـلُ ... وهـل حتى القيـامـة من تَـلاقي
بَـلَى ولعـلّ دهـراً أن يُـواتـي ... بمـوتٍ من حَـليلكِ أو طـلاقِ
فـأُصبِـح شـامتـاً وتَـقـرُّ عيني ... ويُجمَـعُ شَملُنـا بعـدَ افتـراقِ

قال: فأتى أشعبُ الباب، فأُخبِرت بمكانه، فأَمرت ففُرشت لها فُرُش، وجلستْ فأذنتْ له، فدخل فأنشَدها ما أمرَه فقالت لخدمها: خُذوا الفاسق. فقال: يا سيدّتي، إنها بعشرة آلاف درهم. قالت: والله لأَقتُلنّك أو تُبلِّغَه كما بلَّغتنَي. قال: وما تَهبين لي؟ قالت: بِساطي الذي تحتي. قال: قُومي عنه. فقامتْ، فطَواه ثم قال: هاتي رسالتَكِ، جُعلتُ فِداءَك. قالت: قُل له:

أتبكي على لُبنَى وأنت تـركـتَهـا ... فقـد ذهبتْ لُبنى فما أنت صانع؟

فأقبل أشعب فدخل على الوليد فأنشده البيت فقال: أَوّه! قتلتَني والله، ما تُراني صانعاً بك يا بنَ...؟ اخترْ: إمّا أن أُدلِّيك مُنكَّساً في بئر، أو أَرمي بك من فوق القصر مُنكَّساً، أو أَضرِبَ رأسَك بعَمودي هذا ضَربةً. فقال: ما كنتَ فاعلاً بي شيئاً من ذلك. قال: ولمَ؟ قال: لأنّك لم تكنِ لِتُعذِّبَ رأساً فيه عَينان قد نَظرتا إلى سعدةَ. فقال: صدقتَ.. اخرُج عني.

● مُصعَب بن عبد الله الزُبيريّ عن أبيه قال: حَدّثني أشعبُ قال:

وَلِي المدينةَ رجلٌ من وَلَد عامر بن لُؤَيّ، وكان أبخلَ الناس وأنكدَهم،

وأغراه الله بي يطلُبني في ليله ونهاره، فإن هَرَبت منه هَجَم على منـزلي بالشُرَط، وإن كنت في موضع بعث إلى مَن أكون معه أو عنده يطلُبني منه، فيُطالِبُني بأن أُحدِّثه وأُضحكَه، ثم لا أسكُت ولا أنام، ولا يُطعِمُني، ولا يُعطيني شيئاً، فلقِيت منه جَهداً عظيماً وبلاءً شديداً. وحضر الحجُّ فقال لي: يا أشعبُ، كُن معي. فقلت: بأبي أنت وأمي، أنا عَليلٌ وليست لي نيّةٌ في الحجّ. فقال: عَليه وعليه[1] وقال: إن الكعبة بيتُ النار، لئن لم تخرج معي لأُودعَنَّك الحبسَ حتى أَقْدَم. فخرجتُ معه مُكرَهاً، فلمّا نزلْنا المنزلَ أَظهر أنه صائمٌ، ونام حتى تشاغلتُ، ثم أكل ما في سُفرَته وأمر غلامَه أن يُطعِمنَي رغيفين بمِلح. فجئت وعندي أنه صائم، ولم أزل أنتظر المغربَ أتوقّع إفطاره. فلمّا صلّيتُ المغرِبَ قلت لغلامه: ما ينتظرُ بالأكل؟ قال: قد أكل منذ زمان. قلت: أوَ لم يكن صائماً؟ قال: لا. قلت: أفأَطوي أنا؟ قال: قد أعدّ لك ما تأكُله فكُلْ. وَأخرج إليّ الرَّغيفَين والملحَ، فأكلتُهما، وبِتُّ ميّتاً جوعاً، وأصبحت فسِرنا حتى نزلنا المنزلَ فقال لغلامه: ابتَعْ لنا لحماً بدرهم. فابتاعه، فقال: كَبِّبْ لي قِطعاً. ففعل، فأكله ونصبَ القِدْر فلمّا اغبرّتْ قال: اغرُفِ لي منها قِطعاً. ففعل: فأكلها، ثم قال: اطرَح فيها دُقّةً[2]، وأطعِمني منها. ففعل ثم قال: أَلقِ توابلَها وأطعِمني منها. ففعل، و أنا جالسٌ انظرُ إليه لا يَدعوني، فلما استوفى اللحمَ كلَّه قال: يا غلامُ، أَطعِم أشعب. ورمى إليّ برغيفَين، فجئت إلى القِدر وإذا ليس فيها إلاّ مَرَقٌ وعِظام، فأكلت الرغيفين، وأخرج له جِراباً فيه فاكهةٌ يابسة، فأخذ منها حَفنةً فأكلها وبقي في كفّه كفُّ لوزٍ بقِشره، ولم يكن له فيه حِيلةٌ، فرمى به إليّ وقال: كُلْ هذا يا أشعبُ. فذهبت أكسِر واحدةً منها فإذا بضِرسي قد انكسَرتْ منه قِطعةٌ فسقطتْ بين يديَّ، وتباعدتُ أطلب حَجَراً أكسِرهُ به فوجدته، فضربت به لوزةً فطفَرت ـ يعلمُ الله ـ مقدارَ رَمية حجرٍ، وعدَوتُ في طلبها، فبينما أنا في ذلك إذا أقبل بنو مُصعَب ـ يعني

---

(١) عليه وعليه: يريد أنه أقسم بالطلاق والأيمان.
(٢) الدقة: التوابل من الأبزار.

ابن ثابت وإخوته ـ يُلبُّون بتلك الحُلوق الجَهْوَريَّـة، فصحت بهم: الغَوثَ الغوث، العِياذُ بالله وبكم يا آلَ الزُبير، الحقُوني، أدرِكوني. فركضوا إليّ فلمّا رأوني قالوا: أشعبُ، مـالك، ويلَك؟ قلت: خُـذوني معكم تُخلِّصوني من الموت. فحملوني معهم، فجعلت أُرفرفِ بيدي كما يفعل الفَرخُ إذا طلب الزَّقَّ من أَبويه، فقالوا: مالَك، ويلك؟ قلت: ليس هذا وقتَ الحديث، زُقُّوني ممّا معكم، فقد مُتُّ ضُرّاً وجوعاً منذ ثلاث. قال :فأَطْعموني حتى تراجعتْ نفسي، وحملوني معهم في مَحْمِل، ثم قالوا: أخبِرنـا بقصّتك. فحـدّثْتُهم وأريتُهم ضرسي المكسورة، فجعلوا يضحكون ويُصفّقون وقالوا: ويلَك، من أين وقعتَ على هذا! هذا من أبخل خَلق الله وأدنَئهم نفساً. فحلفتُ بالطَّلاق أنّي لا أدخلُ المدينة ما دام له بها سُلطانٌ، فلم أدخُلها حتى عُزل.

● ابن زَبَنْج راويـةُ ابن هَرْمة عن أبيه:

كان أَبانُ بن عثمان من أهزل الناس وأعبثهم، وبلَغ من عَبَثه أنه كان يجيءُ بالليل إلى منزل رجلٍ في أعلى المدينة له لقبٌ يَغضبُ منه فيقول له: أنا فُلانُ بن فلان، ثم يهتِف بلقبه، فيشتُمه أقبحَ شَتم وأبانٌ يضحكِ. فبينما نحن ذاتَ يوم عندَه وعنده أشعبُ إذ أقبل أعرابيٌّ ومعه جملٌ له، والأعرابيُّ أشقرُ أزرق أزعَرُ(١) غَضُوبٌ يتلظّى كأنه أفعى ويتبيّن الشرُّ في وجهه، ما يدنو منه أحدٌ إلاّ شَتمه ونَهره، فقال أشعب لِأبان: هذا والله من البابة(٢)، ادعُوه. فدُعي وقيل له: إنّ الأمير أبانَ بن عثمان يدعُوك. فأتاه، فسلَمّ عليه، فسأله أبانٌ عن نسبه فانتسب له فقال: حَيّاك اللهُ يـا خالي، حبيبٌ ازداد حُبّاً. فجلس، فقال له: إنّي في طَلب جملٍ مثلِ جملك هذا منذ زمانٍ فلم أَجِده كما أشتهي بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصَدر والوَرك والأخفاف، فالحمدُ لله الذي جعل ظَفَري به من عند من أُحبّه، أتبيعُه؟ فقال: نعم، أيها الأمير.

---

(١) الأزعر : الشرس السيء الخلق.
(٢) البابة: الصنف ، يقال هذا من بابتك : أي من الصنف الذي يصلح لك، ويريد هنا أنه يصلح للسخرية منه.

فقال: فإني قد بذلت لك به مائة دينار ـ وكان الجملُ يساوي عشرةَ دنانير ـ فطمع الأعرابي وسُرّ وانتفخ وبان السّرورُ والطمع في وجهه، فأقبل أبانٌ على أشعب ثم قال له: ويلَك يا أشعبُ! إن خالي هذا من أَهلِك وأقاربك ـ يعني في الطمع ـ فأوسع له ممّا عندك. فقال له: نعم، بأبي أنت، وزيادة. فقال له أبان: يا خالي، إنما زِدتُك في الثمن على بصيرة، وإنما الجمل يساوي ستين ديناراً، ولكن بذلتُ لك مائةً لقلّة النَقد عندنا، وإني أعطيك به عُروضاً[1] تساوي مائةً. فزاد طمع الأعرابي وقال: قد قبلتُ ذلك أيها الأمير. فأسّر إلى أشعب، فأخرج شيئاً مُغَطّىً فقال له: أَخرِج ما جئت به. فأخرج جَرْدَ عِمامة خزٍّ خَلَقٍ تساوي أربعة دراهم، فقال له: قَوِّمْها يا أشعبُ. فقال له: عِمامةُ الأمير تُعرَف به ويشهد فيها الأعيادَ والجُمَع ويَلقى فيها الخُلَفاء، خمسون ديناراً. فقال: ضَعها بين يَديه. وقال لابن زَبْنَج: أثْبِت قِيمتَها. فكتب ذلك، ووُضِعتَ العِمامةُ بين يَدي الأعرابيّ، فكاد يدخُل بعضُه في بعض غيظاً ولم يقدِر على الكلام، ثم قال: هاتِ قَلَنْسوتي. فأخرج قَلَنْسوةً طويلةً خَلَقة قد علاها الوسَخُ والدُّهْن وتَخرَّقَتْ تساوي نصفَ درهم، فقال: قَوِّمْ. فقال: قَلَنْسوة الأمير تعلو هامَتَه ويُصلّي فيها الصَّلَواتِ الخمسَ ويجلِس للحُكْم، ثلاثون ديناراً. قال: أَثْبِتْ. فأثبتَ ذلك، ووُضِعت القلنسُوةُ بين يَدي الأعرابيّ، فتربّد وجهُهُ، وَجَحَظت عَيناه وهَمّ بالوُثوب، ثم تماسك وهو مُتَقَلْقِل. ثم قال لأشعب: هاتِ ما عندك. فأخرج خُفَّين خَلَقين قد نُقِبا وتَقَشّرا وتَفَتّقا فقال له: قَوِّمْ. فقال: خُفّا الأمير يطأ بهما الرَّوضة ويعلو بهما مِنبر النبيّ ﷺ، أربعون ديناراً. فقال: ضَعْهما بين يديه. فوَضعهما، ثم قال للأعرابي: اضمُم إليك مَتاعَك. وقال لبعض الأعوان: اذهَبْ فَخُذ الجَمَل. وقال لآخر: امضِ مع الأعرابيّ فاقبِضْ منه ما بقي لنا عليه من ثمن المَتاع وهو عشرون ديناراً. فوثب الأعرابيّ فأخذ القُماش[2] فضرب به وُجوهَ القوم لا يَألُو في شدّة الرَّمي به، ثم

---

(١) العروض: كل شيء سوى الدراهم والدنانير كالثياب وغيرها.
(٢) القماش: الرديء من كل شيء.

قال له: أتدري ـ أصلَحَكَ اللهُ ـ من أي شيء أموت ؟ قال: لا. قال: لم أُدرِك أباك عثمان فأشتركَ واللهِ في دمِهِ إذ وَلَد مِثلَك. ثم نهض كالمجنون حتى أخذ برأس بَعيره، وضحك أبانٌ حتى سقط وضحك كلُّ من كان معه. وكان الأعرابيُّ بعد ذلك إذا لقي أشعبَ يقول له: هَلُمَّ إليّ يابنَ الخبيثة حتى أُكافِئَكَ على تقويمك المتاع يومَ قُوِّم. فيهرُب أشعبُ منه.

● عن شعيب بن عُبيدة بن أشعب عن أبيه قال:

كان الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام يعبَث بأبي أشدَّ عبَث، وربّما أرَاه في عبثه أنه قد ثَمِل وأنه يُعربِد عليه، ثم يخرج إليه بسيفٍ مسلولٍ ويُريه أنه يريد قتلَه، فيجري بينهما في ذلك كلُ مستمَع، فهجره أبي مدّةً طويلة ثم لقِيه يوماً فقال له: يا أشعبُ، هجرتَني وقطعتَني ونسيت عهدي! فقال له: بأبي أنت وأمي، لو كنت تُعربد بغير السيف ما هجرتُك، ولكن ليس مع السَّيف لِعبٌ. فقال له: فأنا أُعفيك من هذا فلا تراه منّي أبداً، وهذه عشرةُ دنانير، ولك حماري الذي تحتي أَحمِلُك عليه، وصِرْ إليَّ ولك الشرطُ ألّا ترى في داري سيفاً. قال: لا واللهِ أو تُخرجَ كلَّ سيفٍ في دارك قبل أن نأكل. قال: ذلك لك. قال: فجاءه أبي ووفى له بما قال من الهِبة وإخراج السيوف، وخَلّف عنده سيفاً في الدار، فلمّا توسّط الأمر قام إلى البيت فأخرج السيف مشهوراً ثم قال له: يا أشعب، إنما أخرجتُ هذا السيفَ لخيرٍ أُريدُه بك. قال: بأبي أنت وأمّي، وأيُّ خير يكون مع السيف؟ ألستَ تذكر الشرطَ بينَنا؟ قال له: فاسمَع وأقول لك، لستُ أضربـك به ولا يلحقُك منه شيءٌ تكرهُهُ، وإنما أُريد أن أُضجِعَكَ وأجلِسَ على صدرك ثم آخذَ جِلدَةَ حَلقك بإصبعي من غير أن أَقبِض على عَصَبٍ ولا وَدج[1] ولا مَقتلَ، فأحزُّها بالسيف ثم أقوم عن صدرك وأعطيك عشرين ديناراً. فقال: نشدتُك اللهَ يابنَ رسول الله ألّا تفعل بي هذا! وجعل يصرُخ ويبكي ويستغيث والحسنُ لا يـزيده على

(١) الودج : عرق في العنق.

الحَلِف له أنه لا يقتُلُه ولا يتجاوز به أن يَحُزَّ جِلدَه فقط ويتوعّده مع ذلك بأنه إن لم يفعلْه طائعاً فعلَه كارهاً. حتى إذا طال الخطب بينهما واكتفى الحسنُ من المَزْح معه أراه أنه يتغافل عنه وقال له: أنت لا تَفعل هذا طائعاً ولكن أجيءُ بَحبلٍ فأكتِفُك به. ومضى كأنه يجيء بحبل، فهرب أشعب وتسوّر حائطاً بينه وبين عبد الله بن حسن أخيه، فسقط إلى داره فانفكّتْ رِجلُه وأُغمي عليه، فخرج عبد الله فزِعاً فسأله عن قصّته، فأخبره، فضحك منه وأمر له بعشرين ديناراً، وأقام في منزله يُعالجُه ويَعُولُه إلى أن صلحَت حالُه. قال: وما رآه الحسنُ بن الحسن بعدَها.

وفاتـــــه:

شيخٌ من أهل المدينة قال:

كانتْ بالمـدينة عجـوزٌ شديـدةُ العَين لا تنظُر إلى شيء تستحسنه إلّا عانَتْه[1]، فدخلتْ على أشعبَ وهو في الموت وهو يقول لبِنته: يا بُنَيّةُ، إذا مُتُّ فلا تَندُبيني والناسُ يَسمعونك فتقولين: وأبتاه، أندُبـك للصّوم والصّلَوات، وأبتاه أندُبك للفِقْه والقراءة ، فيُكَذِّبك الناسُ ويَلعنوني. والتفت أشعب فرأى المرأةَ، فَغطّى وجهَه بكُمّه وقال لها: يا فلانةُ، بالله إن كنتِ استحسنتِ شيئاً ممّا أنا فيه فصلّي على النبي ﷺ لا تُهلِكيني. فغضبت المرأةُ وقالت: سَخِنتْ عينُك، في أي شيء أنت مما يُستحسَن! أنت في آخر رمقٍ. قال: قد علمتُ، ولكن قلتُ لئلّا تكوني قد استحسنتِ خِفّةَ الموت عليَّ وسُهولة النَّزْع، فيشتدُّ ما أنا فيه. وخرجت من عنده وهي تشتُمه، وضحك كلُّ من كان حولَه من كلامه، ثم مـــات.

* . * . * . * . *

(١) عانـه: أصابه بالعين.

[٨]

حُنَيْن الحِيري

[الأغاني الجزء الثاني ص ٣٤١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

حُنين بن بَلْوَع الحِيريّ مختلفٌ في نسبه، فقيل إنه من العِبادِيّين[١] من تميم، وقيل إنه من بني الحارث بن كعب، وقيل إنه من قوم بَقُوا من جَديس وطَسْم، فنزلوا في بني الحارث بن كعب فعُدّوا فيهم. ويكنَى أبا كعب، وكان شاعراً مغنّياً فحلاً من فحول المغنّين، وله صنعةٌ فاضلة مُتقدّمة، وكان يسكن الحِيرة ويُكري الجِمال إلى الشأم وغيرها، وكان نصرانياً، وهو القائل يصف الحِيرة ومنزلَه بها:

أنا حُنينٌ ومنزلي النَّجَفُ ... وما نديمي إلاّ الفتى القَصِفُ
أَقرَعُ بالكأس ثَغْرَ باطيةٍ ... مُترعةٍ تارةً وأغترف

(١) العباد: قبائل شتى نزلت الحيرة ودانوا لملوكها، وكانوا على النصرانية.

من قهـوةٍ بـاكـر التِّجـارُ بـهـا بـيـتَ يـهـودٍ قـرارُهـا الـخَـزَفُ
والـعيشُ غَضٌّ ومـنـزلي خصِبٌ لـم تَغْـذُنـي شِقـوةٌ ولا عُـنُفُ[1]

بِشر بن الحسين بن سليمان بن سَمُرة بن جُنْدَب قال:

عاش حنينُ بن بَلْوَع مائة سنة وسبع سنين، وكان يقال إنه من جَدِيس، قال وقيل: أيضاً إنه من لَخْم، وكان هو يزعُم أنه عِباديّ وأخواله من بني الحارث بن كعب.

بدء اشتغاله بالغناء واشتهاره

عن المدائنيّ قـال:

كان حنينٌ غلاماً يحمل الفاكهة بالحيرة، وكان لطيفاً في عمل التحيّات[2]، فكان إذا حمل الرّياحين إلى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة، وأصحاب القِيان والمتطرّبين إلى الحيرة ورأَوا رشاقتَه وحُسنَ قَدّه وحلاوتَه وخِفّة رُوحه اسْتَحْلَوه وأقام عندهم وخَفّ لهم، فكان يَسمع الغناء ويَشتهيه ويُصغي إليه ويستمعه ويطيل الإصغاء إليه، فلا يكاد يُنتَفع به في شيء إذا سَمِعه، حتى شدا منه أصواتاً فأسمعها الناسَ ـ وكان مطبوعاً حسنَ الصوت ـ واشتهَوا غناءه والاستماعَ منه وعِشرتَه، وشُهر بالغناء ومَهَر فيه وبلغ منه مبلغاً كبيراً. ثم رحل إلى عمر بن داود الواديّ وإلى حَكمٍ الواديّ وأخذ منهما، وغنّى لنفسه في أشعار الناس فأجاد الصَّنعة وأحكمها، ولم يكن بالعراق غيرُه، فاستولى عليه في عصـره..

طائفة من أخباره

● عن المدائنـيّ:

حجّ هشام بن عبد الملك وَعَديلُه[3] الأبرشُ الكلبيُّ، فوقف له حُنَينٌ بظهر الكوفة ومعه عودُه وزامرٌ له وعليه قَلَنسيةٌ طويلة، فلمّا مرّ به هشامٌ عَرَض له فقال: مَن هذا؟ فقيل: حُنين.

---

(١) النجف: موضع بظاهر الكوفة، وبالقرب منه قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانت الحيرة في ذلك الموضع. القصف: المولع بالقصف واللهو. الباطية: زق الخمر.

(٢) التحيات: ما يقدم في المناسبات والأعياد من رياحين للتحيـة.

(٣) عديله: يعادله في المحمل.

فأمر به فحُمل به في مَحمل على جملٍ وعَديلُه زامُره وسِير به أمامَه وهو يتغنّى:

أَمِـن سَـلمـى بـظهَـر الـكـو فـة الآيـاتُ والـطَلل
يَـلُوحُ كـمـا تَـلوح عـلى جُـفـون الـصَّـيقـلِ الـخِـلَلُ[1]

قال: فأمر له هشامٌ بمائتي دينار وللزامر بمائـة.

● عن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل قال:

كان ابنُ مُحرِز قدِم الكوفة وبها بشرُ بن مَروان، وقد بلغه أنه يشرب الشَّرابَ ويسمع الغناء، فصادفه وقد خرج إلى البصرة. وبلغ خبرُه حُنين بن بَلْوَع فتلطّف له حتى دعاه، فغنّاه ابن محرز لحنه:

وحُـرُّ الـزَّبَـرْجَـد فـي نَـظمـه على واضـح اللِّيت زان العُـقـودا
يُـفـصِّـل يـاقـوتُـهُ دُرَّه وكـالجَمر أبصرتَ فيه الفريـدا[2]

قال: فسمع شيئاً هاله وحَيّره، فقال له حُنين: كم مَنّتك نفسُك من العراق؟ قال: ألف دينار. فقال: هذه خمسُمائة دينار حاصلةٌ عاجلة ونَفَقَتُك في عَودتك وبَدْأتك ودَع العراقَ لي وامضِ مُصاحَباً حيث شئت. قال: وكان ابن محرز صغير الهمّة لا يحبّ عشرةَ الملوك ولا يُؤثِر على الخَلوة شيئاً، فأخذها وانصـرف.

● عن حنيـن قـال:

خرجت إلى حمص ألتمس الكَسب بها وأرتاد مَن أستفيد منه شيئاً، فسألت عن الفِتيان بها وأين يجتمعون فقيل لي: عليك بالحَمّامات فإنهم يجتمعون بها

---

(١) الصيقل: من يصقل السيوف ويشحذها. الخلل ج خلة وهي بطانة يغشى بها جفن السيف لينقش بالذهب وغيره.
(٢) الليت: صفحة العنق. الفريد: الدر إذا نظم وفصل بغيره.

إذا أصبحوا. فجئت إلى أحدها فدخلتُه، فإذا فيه جماعةٌ منهم، فأَنِست وانبسطتُ، وأخبرتُهم أني غريبٌ، ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا بي إلى منزل أحدهم، فلمّا قعدنا أُتينا بالطعام فأكلنا، وأُتينا بالشراب فشربنا، فقلت لهم: هل لكم في مُغنٍّ يغنّيكم؟ قالوا: ومَن لنا بذلك؟ قلت: أنا لكم به، هاتُوا عُوداً. فأُتيتُ به، فابتدأت في هُنَيَّات[1] أبي عبّاد مَعْبَد، فكأنما غنّيت للحيطان، لا فَكِهوا غنائي ولا سُرّوا به، فقلت: ثَقُل عليهم غناءُ معبد لكثرة عمله وشدّته وصعوبة مذهبه، فأخذت في غناء الغريض فإذا هو عندهم كلا شيء، وغنّيتُ خَفَائف ابن سُريج، وأهزاجَ حَكَمٍ، والأغاني التي لي واجتهدتُ في أن يَفهموا، فلم يتحرّك من القوم أحدٌ وجعلوا يقولون: ليت أبا مُنَبِّه قد جاءنا. فقلت في نفسي: أرى أني سأفتضِح اليومَ بأبي مُنَبِّه فضيحةً لم يفتضِح أحدٌ قطُّ مثلها. فبينا نحن كذلك إذ جاء أبو مُنبّه، وإذا هو شيخٌ عليه خُفّان أحمران كأنّه جَمّال، فوثبوا جميعاً إليه وسَلّموا عليه وقالوا: يا أبا منبّه، أبطأتَ علينا. وقدّموا له الطّعامَ وسقَوه أقداحاً، وخَنَستُ أنا حتى صِرت كلا شيء خوفاً منه، فأخذ العود ثم اندفع يغنّي:

طرب البحرُ فاعبُري يا سفينة   لا تَشُقّي على رجال المدينة

فأقبل القومُ يُصفّقون ويَطربون ويَشربون، ثم أخذ في نحو هذا من الغناء، فقلت في نفسي: أنتم ها هنا! لئن أصبحتُ سالماً لا أمسيتُ في هذه البلدة. فلمّا أصبحتُ شددتُ رَحْلي على ناقتي واحتَقبتُ ركوةً[2] من شراب ورحلت متوجِّهاً إلى الحِيرة.

● عن حَمّاد عن أبيه:

أن خالد بن عبد الله القَسْريّ حَرّم الغناء بالعراق في أيامه، ثم أَذِن للناس يوماً في الدخول عليه عامةً، فدخل إليه حنين ومعه عودٌ تحت ثيابه فقال:

---

(١) الهنيّات : الأراجيز.
(٢) احتقب الركوة : حملها خلفه ، والركوة إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

أصلح اللهُ الأمير، كانت لي صناعةٌ أعود بها على عِيالي، فَحَرَّمها الأميرُ فأضرَّ ذلك بي وبهم. فقال: وما صناعتك؟ فكشف عن عُوده وقال: هذا. فقال له خالد: غَنِّ. فَحَرّك أوتاره وغَنّى:

أيها الشامتُ المُعيِّر بالدهر أأنت المُبَرَّأُ الموفورُ
أم لديك العهدُ الوثيق مَن الأيّام بل أنت جاهلٌ مغرور
مَن رأيت المَنونَ خَلَّدن أم من ذا عليه من أن يُضامَ خَفيرُ

قال: فبكى خالدٌ وقال: قد أذِنتُ لك وحَدَك خاصّةً، فلا تُجالِس سفيهاً ولا مُعربداً. فكان إذا دُعي قال: أفيكم سفيهٌ أو مُعربد؟ فإذا قيل له: لا . دَخل.

شعر هذا الصوت لعدِّي بن زيد...

● إبراهيم بن المهديّ قال:

كنت مع الرشيد في السنة التي نزل فيها على عَونٍ العِباديّ، فأتاني عونٌ بابن ابن حنين بن بَلوع، وهو شيخ، فغَنّاني عدّة أصوات لجدّه، فما استحسنتُها، لأن الشيخ كان مُشَوَّه الخَلْق، كَزّ الغناء، قليل الحلاوة، إلا أنه كان لا يُفارق عَمود الصوت أبداً حتى يفرُغ منه، فغناني صوتَ ابن سُريج:

فتركتُه جَزَرَ السِّباع يَنُشْنَه ما بين قُلّة رأسه والمِعصمِ[1]

فما أذكر أني سمعته من أحدٍ قط أحسنَ مما سمعتُهُ منه، فقلت له: لقد أحسنت في هذا الصوت، وما هو من أغاني جَدّك ولا من أغاني بلدك، وإني لأعجب من ذلك! فقال لي الشيخ: والصَّليبِ والقُرْبان ما صُنع هذا الصوت إلا في منزلنا وفي سِردابٍ لجَدّي، ولقد كاد أن يأتي على نَفْس عمّتي. فسألته عن الخبر في ذلك فقال:

---

(١) جزر السباع: اللحم الذي تأكله وناشه: تناوله. والبيت لعنترة.

حدّثني أبي أن عُبيدَ بن سُريجٍ قدِم الحِيرة ومعه ثلثُمائةِ دينار، فأتى بها منزلنا في ولايةِ بشر بن مروان الكوفة وقال: أنا رجلٌ من أهل الحجاز من أهل مكة، بلَغني طِيبُ الحِيرة وجَودةُ خمرها وحُسنُ غنائك في هذا الشعر:

حَنَتْني حـانيـاتُ الـدَّهـر حتى كـأنّي خـاتـلٌ يـدنُـو لِصَـيـدِ
قـريبُ الخَـطو يحسَب مَن رآنـي - ولستُ مُقيَّـداً - أنّي بقَـيْـدِ[1]

فخرجتُ بهذه الدنانير لأنفقَها معك وعندك ونتعاشر حتى تَنْفَدَ وأنصرف إلى منزلي.

فسأله جَدّي عن اسمه ونسَبه فغَيّرهما وانتمى إلى بني مخزوم، فأخذ جدّي المالَ منه وقال: مُوَفَّرٌ مالُك عليك ولك عندنا كلُّ ما يَحتاج إليه مثلُك ما نَشِطت للمُقام عندنا، فإذا دعتْك نفسُك إلى بلدك جهَّزناك إليه ورددْنا عليك مالكَ وأخلَفْنا ما أنفقتَه عليك إلى أن جئتَنا. وأسكَنه داراً كان ينفرد فيها، فمكث عندنا شهرين لا يعلمُ جَدّي ولا أحدٌ من أهلنا أنه يُغنّي، حتى انصرف جدّي من دار بشر بن مروان في يومٍ صائف مع قيام الظَّهيرة فصار إلى باب الدار التي كان أنزل ابنَ سُريج فيها فوجده مغلقاً، فارتاب بذلك ودقّ الباب، فلم يُفتَح له ولم يُجِبْه أحدٌ، فصار إلى منازل الحُرَم فلم يجد فيها ابنتَه ولا جواريه، ورأى ما بين الدار التي فيها الحُرم ودارِ ابـنُ سُـريج مفتـوحاً، فانتضى سيفَه، ودخل الدار ليقتلَ ابنتَه، فلمّا دخلها رأى ابنتَه وجواريه وقوفاً على باب السِّرداب وهنّ يُومِئْن إليه بالسُّكوت وتخفيف الوَطء، فلم يلتفت إلى إشارتهنّ لِما تداخَله، إلى أن سمع ترنُّم ابن سريج بهذا الصوت، فألقى سيفه من يده وصاح به - وقد عَرَفه من غير أن يكون رآه ولكن بالنَعت والحِذْق - : أبا يحيى، جُعلتُ فداءَك، أتيتَنا بثلاثمائة دينار لِتُنفِقَها عندَنا في جِيرتنا! فوحقِّ المسيح لاخرجتَ منها إلا ومعك ثلثُمائة دينار وثلثمائة دينار وثلاثمائة دينار سوى ما جئتَ به معك. ثم دخل إليه فعانقه ورَحّب به ولقِيه بخلاف ما كان يلقاه

(١) المخاتلة: مَشي الصياد قليلاً قليلاً في خفية لئلا يسمع الصيد حسّه.

به، وسأله عن هذا الصوت فأخبره أنه صاغه في ذلك الوقت، فصار معه إلى بشر بن مروان فوصَله بعشرة آلاف درهم أوّلَ مرّة، ثم وَصَله بعد ذلك بمثلها، فلمّا أراد الخروج ردّ عليه جَدّي مالَه وَجَهّزه ووصَله بمقدار نَفَقته التي أنفقها من مكة إلى الحِيرة، ورجع ابنُ سريج إلى أهله وقد أخذ جميعُ من كان في دارنا منه هذا الصوت.

وفاتـــــه

عُبيـد بن حُنين الحِيريّ[1] قــال:

كان المغنّون في عصر جدّي أربعةَ نَفَرٍ ثلاثةٌ بالحجاز وهو وحدَه بالعراق، والذين بالحجاز: ابنُ سُريج والغَريض ومَعْبَد. فكان يبلُغهم أن جدّي حُنيناً قد غنّى في هذا الشعر:

هـلاّ بكيتَ على الشبـاب الـذاهبِ ... وكففـتَ عن ذمّ الـمَشيبِ الآئـبِ
هـذا ورُبَّ مُسَـوِّفِيـن سقيـتُهـم ... من خمـر بـابـلَ لـذّةً للشـارب
بَكَـرُوا عليَّ بسُحْـرة فـصَبحتُهم ... من ذات كُوبٍ مثل قَعْب الحـالب
بـزُجاجـةٍ مِلء اليَـدين كـأنهـا ... قنـديلُ فِصْـحٍ في كنيسة راهبِ[2]

قال: فاجتمعوا فتذاكروا أمرَ جَدّي وقالوا: ما في الدنيا أهلُ صناعة شرٌّ منّا، لنا أخٌ بالعراق، ونحن بالحجاز لا نَـزُوره ولا نستزيـره. فكتبوا إليـه وَوَجّهوا إليـه نفقةً وكتبوا يقولون: نحن ثلاثةٌ وأنت وحدَك، فأنت أولَى بزيارتنا. فشَخَص إليهم. فلمّا كان على مَرحلةٍ من المدينة بلغهم خبرُه فخرجوا يَتلقّونه فلم يُرَ يومٌ كان أكثرَ حشداً ولا جمعاً من يومئذٍ. ودخلوا فلمّا صاروا في بعض الطريق قال لهم معبد: صِيروا إليّ. فقال له ابنُ سريج: إن كان لك من الشرف والمُروءة مثلُ ما لمولاتي سُكينةَ بنتِ الحسين عَطَفْنا إليك. فقال: مـا لي من ذلك

---

(١) عبيـــد : هو حفيد حنين كما يتضح من سياق الخبر وربما نسبوا الرجل إلى جده اختصاراً.

(٢) المسوف : الصبور. القعب : القدح الضخم.

شيءٌ. وعَدَلوا إلى منزل سكينة، فلمّا دخلوا إليها أذِنتْ للناس إذناً عامّاً، فغصّت الدارُ بهم وصعِدوا فوق السَّطح وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها، ثم إنهم سألوا جَدّي حُنيناً أن يُغنّيهم صوتَه الذي أوله:

«هلّا بكيت على الشباب الذاهب»

فغنّاهم إياه بعد أن قال لهم: ابدؤوا أنتم. فقالوا: ما كُنّا لِنتقدّمك ولا نُغنّيَ قبلَك حتى نسمَع هذا الصوت. فغنّاهم إياه، وكان من أحسن الناس صوتاً!، فازدحم الناسُ على السطح وكثُروا ليسمعوه، فسقط الرِّواق على من تحتَه، فسَلِموا جميعاً وأُخرِجوا أصحّاء ومات حُنينٌ تحت الهَدْم، فقالت سكينة عليها السلام: لقد كَدّر علينا حنينٌ سرورَنا، انتظرناه مدّةً طويلة كأنّا والله كُنّا نسُوقُه إلى مَنيّته.

*. *. *. *. *

[٩]

دَحْمان

[الأغاني الجزء ٦ ص ٢١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

دَحْمـانُ لقبٌ غلب عليه، واسمُه عبد الرحمن بن عمرو، مَولى بني لَيث ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة، ويُكنى أبا عمرو، ويقال له دَحمان الأشقر. قال إسحاق: كان دحمان مع شُهرته بالغناء رجلاً صالحاً كثير الصّلاة معدَّل الشهادة مُدمِناً للحجّ، وكان كثيراً ما يقول: ما رأيت باطلاً أشبه بحقّ من الغنـــاء.

قال إسحاق: وحدّثني الزبيريّ أن دحمان شهِـد عند عبـد العزيـز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب المخزوميّ وهو يلي القضاء، لرجلٍ من أهل المدينة على رجل من أهل العراق بشهادة، فأجازها وعَدَّله، فقال له العراقيّ: إنه دَحمان. قال: أعرِفه، ولو لم أعرفْه لسألت عنه. قال: إنّه يغنّي ويعلّم الجواري الغِناء. قال: غفر الله لنا ولك، وأيُّنا لا يتغنّى! اخرُجْ إلى الرجل عن حقّـه.

وفي دحمان يقول أعشى بني سُليم:

إذا ما هزّج الواديُّ أو ثَقَّل دَحْمانْ
سمعت الشَّدوَ من هذا ومن هذا بميزان
فهذا سيّد الإنس وهذا سيّد الجان[1]

عن ابن جامع وزُبير بن دحمان جميعاً:

أن دحمان كان معدَّلاً مقبول الشهادة عند القضاة بالمدينة، وكان أبو سعيد مولى فائد أيضاً ممّن تُقبل شهادته. وكان دَحمان من رُواة مَعْبَد وغِلمانه المتقدّمين..

قال إسحاق:

كان دحمانُ يُكنى أبا عمرو، مولى بني ليث، واسمُه عبد الرحمن، وكان يخضِب رأسه ولحيته بالحِنّاء، وهو من غلمان معبد. قال إسحاق: وكان أبي لا يضعُه بحيث يَضَعُه الناسُ ويقول: لو كان عبداً ما اشتريته على الغناء بأربعمائة درهم. وأشبه الناس به في الغناء ابنُه عبد الله، وكان يفضِّل الزُّبَير تفضيلاً شديداً على عبد الله أخيه وعلى دحمان أبيه.

طائفة من أخباره

● عمر بن شبّة قال:

بلغني أنّ المهديّ أعطى دَحمانَ في ليلة واحدة خمسين ألف دينار، وذلك أنه غنّى في شعر الأحوص:

قَطوف المَشْي إذ تَمشي ترى في مَشْيها خَرَقا[2]

فأعجبه وأطربه واستخفّه السرورُ حتى قال لدحمان: سَلْني ما شئت.

---

(1) هزج: غنّى الأهزاج. ثقّل: غنّى الثقيل.
(2) القطوف: المتقاربة الخطو. الخرق: الحيرة والخفر.

فقال: ضَيعتان بالمدينة يقال لهما رَيّان وغالب. فأقطعه إيّاهما. فلمّا خرج التوقيع بذلك إلى أبي عُبَيد الله وعمر بن بَزِيع راجعا المهديّ فيه وقالا: إنّ هاتين الضَّيعتين لم يملِكْهما قطُّ إلّا خليفةٌ، وقد استقطعهما وُلاةُ العهود في أيام بني أمية فلم يُقْطَعُوهما. فقال: والله لا أرجع فيهما إلّا بعد أن يَرضى. فصُولح عنهما على خمسين ألف دينار.

● عن أبي محمد العامريّ الأُيْسيّ قال:

كان دحمان جَمّالاً يُكري إلى المواضع ويتَّجِر، وكان له مُروءةٌ، فبينا هو ذاتَ يوم قد أكرى جِمالَه وأخذ ماله إذ سمع رَنَّةً، فقام واتّبع الصوت، فإذا جاريةٌ قد خرجت تبكي، فقال لها: أمملوكةٌ أنتِ؟ قالت: نعم. فقال: لِمن؟ فقالت: لامرأةٍ من قريش. وسَمَّتْها له، فقال: أَتَبيعُكِ؟ قالت: نعم. ودخلت إلى مولاتها فقالت: هذا إنسانٌ يشتريني. فقالت: ائذني له. فدخل، فسامها حتى استقرّ أمرُ الثمن بينهما على مائتي دينار، فنقَدها إيّاها وانصرف بالجارية. قال دحمان: فأقامت عندي مُدّةً أطرح عليها ويَطرح عليها مَعْبَدٌ والأبجر ونُظَراؤهما من المغنّين، ثم خرجت بها بعد ذلك إلى الشأم وقد حَذِقتْ، وكنت لا أزال إذا نزلنا أُنزِل الأكرياءَ[1] ناحيةً، وأَنزل معتزِلاً بها ناحيةً في مَحْمِلٍ وأَطرح على المَحْمل من أَعبية[2] الجَمّالين، وأجلس أنا وهي تحت ظِلّها فأُخرج شيئاً فنأكُله، ونضع رِكْوةً[3] فيها لنا شرابٌ، فنشرب ونغنّي حتى نرحَلَ. ولم نزل كذلك حتى قَرُبنا من الشأم؛ فبينا أنا ذاتَ يومٍ نازلٌ وأنا أُلقي عليها لحني:

لـو رَدّ ذو شَفَق حِمـامَ مَنيّـةٍ ... لرددتُ عن عبد العزيز حِماما
صلّى عليك الله من مُستودَعٍ ... جاورتَ بُوماً في القبور وهاما[4]

(١) الأكرياء ج كريّ: المكاري.
(٢) الأعبية: جمع عباء، ضرب من الأكسية.
(٣) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه.
(٤) الحمام: الموت. مستودع: مودّع. الهام ج هامة: طائر يغشى المقابر.

ـ الشعـر لكثيّر يرثي عبد العزيز بن مروان، وزعم بعضُ الرّواة أن هذا الشعر ليس لكثّير وأنه لعبد الصَّمد بن عليّ الهشاميّ يرثي ابناً له، والغنـاء لدَحْمان. . . ـ

قال : فرددتُه عليها حتى أخذتْه واندفعتْ تغنّيه، فإذا أنا براكبٍ قد طَلَع، فسلّم علينا، فردَدْنا عليه السلام، فقال: أتأذنون لي أن أنزِل تحت ظِلّكم هذا ساعةً؟ قلنا: نعم. فنزل، وعرضت عليه طعامَنا وشرابنا فأجاب، فقدّمنا إليه السُّفرةَ فأكل وشرب معنا، واستعاد الصَّوت مراراً، ثم قال للجارية: أتُغَنّين لدَحْمان شيئاً؟ قالت: نعم. قال: فغنَّتْه أصواتاً من صنعتي، وغمزتُها ألاّ تعرِّفَه أنّي دحمان. فطرب وامتلأ سروراً وشرب أقداحاً والجاريةُ تغنّيه حتى قرُب وقتُ الرحيل، فأقبل عليّ وقال: أتَبيعني هذه الجارية؟ فقلت: نعم. قال: بكم؟ قلت كالعابث: بعشرة آلاف دينارٍ. قال: قد أخذتُها بها، فهلمّ دواةً وقِرطاساً. فجئتُه بذلك، فكتب: «ادفَعْ إلى حامل كتابي هذا حين تقرؤُه عشرةَ آلاف دينار، واستوصِ به خيراً وأَعلِمْني بمكانه». وختَم الكتاب ودَفعه إليّ، ثم قال: أتدفع إليّ الجاريةَ أم تمضي بها معك حتى تقبَضَ مالَك؟ فقلت: بل أدفَعُها إليك. فَحَمَلَها وقال: إذا جئتَ البَخْراءَ[1] فسَلْ عن فلان وادفعَ كتابي هذا إليه واقبَضْ منه مالك. ثم انصرف بالجارية. قال: ومضيت، فلما وردت البخراءَ سألت عن اسم الرجل فدُللت عليه، فإذا دارُه دارُ مُلك، فدخلت عليه ودفعت إليه الكتاب، فقبّله ووضعه على عينيه ودعـا بعشرة آلاف دينار فدفَعها إليّ وقال: هذا كتابُ أمير المؤمنين. وقال لي: اجلِسْ حتى أُعلمَ أمير المؤمنين بك. فقلت له: حيث كنتُ فأنا عبدُك وبين يديك. وقد كان أَمر لي بأَنزالٍ[2] ـ وكان بخيلاً ـ فاغتنَم ذلك[3]، فارتحلت، وقد كنت أُصبتُ بجَملين، وكانت عدّة أجمالي خمسةَ عشر فصارت ثلاثةَ عشر. قال: وسأل عني الوليدُ فلم يدرِ

---

(١) البخراء : موضع وحصن في الأردن وبه قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

(٢) الأنزال ج نُزُل : ما يهيأ للضيف.

(٣) لعله أراد أنه جعل الأنزال غنيمة له فساء ذلك دحمان فارتحل، وقد استظهر محقق المطبوعة أن صوابها: فاغتنمت.

القَهْرمانُ أين يَطْلُبني، فقال له الوليد: عِدّةُ جِماله خمسةَ عشر جملاً فاردُدْه إليّ، فلم أُوجَدْ لأنه لم يكن في الرُّفقة مَن معه خمسةَ عشر جملاً، ولم يعرِف اسمي فيَسألَ عنّي. قال: وأقامت الجاريةُ عنده شهراً لا يَسأل عنها، ثم دعاها بعد أن استُبرئتْ[1] وأُصلح من شأنها، فظلّ معها يومَه، حتى إذا كان في آخر نهاره قال لها: غَنّيني لدَحْمان. فغنّت، وقال لها: زيديني. فزادتْ، ثم أقبلتْ عليه فقالت: يا أمير المؤمنين، أَو ما سمعتَ غناءَ دَحْمان منه؟ قال: لا. قالت: بلى واللهِ قال: أقول لك لا، فتقولين بلى والله! فقال: بلى واللهِ لقد سمعتَه. قال: وما ذاك ويحك؟ قالت: إن الرجل الذي اشتريتَني منه هو دحمان. قال: أو ذلك هو؟ قالت: نعم، هو هو. قال: فكيف لم أَعلم؟ قالت: غمزَني بألّا أُعلمَك. فأمر فكُتب إلى عامل المدينة بأن يُحمَل إليه دَحمان، فحُمل فلم يزل عندَه أثيراً.

● عبد العزيز بن الماجِشون قال:

صلّينا يوماً الصّبحَ بالمدينة، فقال قوم: قد سال العَقيق[2]. فخرجنا من المسجد مُبادِرين إلى العقيق فانتهينا إلى العَرْصة، فإذا من وراء الوادي قُبالَتَنا دحمانُ المغنّي وابن جُندَب مع طلوع الشمس قد تماسكا بينهما صوتاً وهو:

أسكُنُ البدوَ ما سكنتِ ببدوٍ فإذا ما حضرتِ طاب الحضورُ[3]

وإذا أَطيبُ صوت في الدنيا. قال: وكان أخي يكره السَّماع، فلمّا سمعه طرب طرباً شديداً وتحرّك، وكان لغناء دحمان أشدَّ استحساناً وحركة وارتياحاً، فقال لي: يا أخي، اسمع إلى غناء دَحمان، واللهِ لكأنه يسكب على الماء زيتاً.

* . * . * . * . *

---

(١) استبراء الجارية: ألا يقربها مالكها حتى تبرأ رحمها ويتبين حالها أهي حامل أم لا.
(٢) العقيق: وادي المدينة، وهو حين يسيل متنزّه أهل المدينة.
(٣) حضرت: نزلت الحضر.

[١٠]

الدَّلاَل

[الأغاني الجزء ٤ ص ٢٦٩ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

الدَّلال اسمُه نافذ(١)، وكنيته أبو زيد، وهو مَدنيٌّ مولى بني فَهْم.

قال إسحاق: لم يكن في المخنَّثين أحسنُ وجهاً ولا أنظفُ ثوباً ولا أظرفُ من الدَّلال. قال: وهو أحدُ مَن خصاه ابنُ حَزْم، فلمّا فُعل ذلك به قال: الآنَ تَمّ الخُنْث.

عن أبي عبد الله مُصعبَ الزُبيريّ قال: الدّلالُ مولى عائشة بنت سعيد بن العاص.

عن أبي عبد الله مصعب الزبيريّ قـــال:

كان الدّلال من أهل المدينة، ولم يكن أهلُها يَعُدُّون في الظُّرفَاء وأصحاب

(١) اختلفت المصادر في ضبط اسمه، فضبط في بعضها «نافذ» وفي بعضها الآخر «ناقد».

النوادر من المخنَّثين بها إلا ثلاثةً: طُوَيسٌ، والدَّلالُ، وهِنْبٌ[1]. فكان هنبَ أقدمَهم والدّلالُ أصغرهم، ولم يكن بعد طُويس أظرفُ من الدّلال ولا أكثرُ مُلَحاً.

قال إسحاق: وحدّثني هشام بن المُرِّيّة عن جرير - وكانا نديمين مدنيَّين - قال: ما ذكرت الدَّلال قطُّ إلاّ ضحكت لكثرة نوادره. قال: وكان نَزْرَ الحديث، فإذا تكلّم أضحك الثَّكْلَى» وكان ضاحك السّنّ، وصَنعتُهُ نَزْرة جيّدة، ولم يكن يغنّي إلاّ غِناءً مُضعفاً، يعني كثير العمل.

أيّــوب بن عَبايــة قـــال:

شهدتُ أهلَ المدينة إذا ذكروا الدّلال وأحاديثه طَوّلوا رقابَهم وفَخَرُوا به، فعلمت أنّ ذلك لفضيلة كانت فيه.

عن يونـــس قـــال:

كان الدَّلال مبتلًى بالنساء والكَون معهنّ، وكان يُطلَب فلا يُقدَر عليه، وكان بديع الغناء صحيحَه حسنَ الجِرْم[2].

الزبيـــريّ قـــال:

إنّما لُقّب بالدَّلال لشَكْله وحُسن دَلّه وظَرْفه وحلاوة مَنْطِقه وحُسن وجهه وإشارته. وكان مشغوفاً بمخالطة النساء ووصفهنّ للرّجال. وكان من أراد خِطْبة امرأة سأله عنها وعن غيرها، فلا يزال يصف له النساء واحدةً فواحدة حتى ينتهيَ إلى وصف ما يُعجبه، ثم يتـوسّط بينَه وبين من يُعجبـه منهنّ حتى يتزوّجها؛ فكان يُشاغل كلَّ مَن جالسه عن الغناء بتلك الأحاديث كراهةً منه للغنـــاء.

---

(١) ضبط اسمه في بعض المصادر «هيت» وكان الرسول عليه الصلاة والسلام نفاه من المدينة.

(٢) الجرم (هنا):جهـــارة الصـــوت.

طائفة من أخباره

عن ابـــن جُعدُبـــةَ:

أنّ الذي هاج سليمان بن عبد الملك على ما صنعه بمن كان بالمدينة من المخنَّثين أنه كان مستلقياً على فِراشه في الليل وجاريةٌ له إلى جَنْبه، وعليها غِلالةٌ ورداءٌ مُعَصفَران، وعليها وِشاحان من ذهب، وفي عُنقها فَصْلان من لؤلؤ وَزَبَرْجَد وياقوت، وكان سليمان بها مشغوفاً، وفي عسكره رجلٌ يقال له سُمير الأُبُلّيّ يغنيّ، فلم يفكّر سليمانُ في غنائه شُغلاً بها وإقبالاً عليها، وهي لاهيةٌ عنه لا تُجيبه مُصغيةٌ إلى الرجل، حتى طال ذلك عليه فحوّل وجهَه عنها مُغضَباً، ثم عاد إلى ما كان مشغولاً عن فهمه بها، فسمع سُميراً يغنّي بأحسن صوت وأطيب نغمة:

محجوبةٌ سمعتْ صوتي فأرّقها ... من آخر الليل حتى شَفّها السَّهَرُ
تُدني على جِيدها ثِنْيَيْ مُعصفَرةٍ ... والحَلْي منها على لَبّاتِها خَصِرُ
في ليلة النِّصف ما يَدري مُضاجِعُها ... أوجهُها ما يَرى أم وَجهُها القمرُ
لو خُلِّيت لمشتْ نحوي على قدَمٍ ... تكاد من رقّةٍ للمَشي تَنْفَطِرُ(١)

فلم يشكُك سليمان أنّ الذي بها ممّا سمعتْ، وأنّها تهوى سُميراً، فوجّه من وقته من أحضره وحَبَسه، ودعا لها بسيفٍ، ونِطْع وقال: واللهِ لَتَصْدُقِنّي أو لأَضربنَّ عُنقكِ. قالت: سَلْني عمّا تريد. قال: أخبريني عمّا بينك وبين هذا الرجل. قالت: واللهِ ما أعرِفه ولا رأيتُهُ قطُّ، وأنا جاريةٌ مَنْشئي الحجاز، ومن هناك حُملتُ إليك، واللهِ ما أعرِف بهذه البلاد أحداً سواك. فرقّ لها، وأحضر الرجل فَسأله، وتلطّف له في المسألة، فلم يجد بينه وبينها سبيلاً، ولم تَطِب نفسُه بتخليته سَوياً فخَصاه، وكتب في المخنّثين بمثل ذلك. هذه الرواية الصحيحة.

---

(١) شفّها: أنحلها وأهزلها. اللبة: صفحة العنق. تنفطر: تنقطع.

الزبيــر بن بكّار قال: حدّثني عمّي قال:

قيــل للوليد بن عبد الملك: إن نساء قريش يدخل عليهنّ المخنّثون بالمدينة، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «لا يدخل عليكنّ هؤلاء». فكتب إلى ابن حزم الأنصاري أن اخصِهم، فخصاهم. فمرّ ابن أبي عتيق فقال: أخصيتم الدَّلال! أما واللهِ لقد كان يُحسِن:

لِـمـن رَبْـعٌ بـذات الـجـيش أمـسـى دارسـاً خَـلَقـا
تـأبّـد بـعـدَ سـاكـنـه فـأصـبـح أهـلُه فِـرَقـا
وقـفـتُ بـه أسـائـلُه ومـرّت عِـيسُـهم حِـزَقـا[1]

وأما ابن الكلبي فإنه ذكر عن أبي مسكين ولَقيط أن سليمان كتب بإحصاء مَن في المدينة من المخنَّثين ليعرفَهم فيُوفد عليه من يختاره للوفادة، فظنّ الوالي أنه يريد الخِصاء فخصاهم.

● أبــو غسّان قــال:

مرّ الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك حاجّاً، فغنّاه الدَّلال:

بانت سُعاد وأمسى حَبْلُها انصرما واحتلّت الغَمْرَ فالأجراعَ من إِضَما[2]

فقــال لــه الغمر: أحسنَت والله وغلبت فيه ابنَ سُريج. فقال له الدّلال: نِعمةُ الله عليّ فيه أعظمُ من ذلك. قال: وما هي؟ قال: السُّمْعة، لا يسمعُه أحدٌ إلّا علم أنه غناء مخنَّث حقاً.

● عن فُلَيح بن سليمــان قــال:

كان الدّلال مُلازماً لأمّ سعيد الأسلميّة، وبنتٍ ليحيى بن الحكم بن أبي العاصي، وكانتا من أمجن النساء، كانتا تخرجان فتركبان الفرسَين فتستبقان

(١) تأبـد : توحش . حزقا : جماعات.
(٢) الغمــر : الماء الكثير. الأجراع ج جرع: الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها. اضم: واد بجبل تهامة. والبيت للنابغة الذبيــانــي.

عليهما حتى تبدوَ خلاخيلُهما. فقال معاوية لمروان بن الحكم: اكفِني بنتَ أخيك. فقال: أَفعل. فاستزارها، وأمر ببئرٍ فحُفرت في طريقها وغُطِّيت بحَصير، فلمّا مشَت عليه سقطت في البئر فكانت قبرَها. وطُلب الدَّلال فهرب إلى مكة....

● عن حمّاد عن أبيه قال:

صلّى الدَّلال يوماً خلف الإمام بمكة فقرأ: «ومالي لا أعبُدُ الذي فَطَرني وإليه تُرجَعون»، فقال الدّلال: لا أدري واللهِ! فضحك أكثرُ الناس وقطعوا الصّلاة. فلمّا قضى الوالي صَلاتَه دعا به وقال له: ويلَك! ألا تدع هذا المجونَ والسَّفَه! فقال له: قد كان عندي أنك تعبُد الله، فلمّا سمعتُك تستفهم ظَننتُ أنك قد تشكّكْتَ في ربّك فَثَبَّتُّك. فقال له: أنا شككت في ربي وأنت ثَبَّتَني! اذهب، لعَنك الله، ولا تُعاوِد فأبالغَ واللهِ في عُقوبتك.

● عن صالح بن حَسّان قال:

كان بالمدينة عُرْسٌ، فاتّفق فيه الدّلال وطُويس والوليد المخنَّث، فدخل عبد الرحمن بن حَسّان، فلمّا رآهم قال: ما كنت لِأجلسَ في مجلسٍ فيه هؤلاء. فقال له: طويس: قد علمتَ يا عبد الرحمن نكايتي فيك وأنّ جرحي إيّاك لم يندمل - يعني خبره معه بحضرة عبد الله بن جعفر وذكرَه لعمّته الفارعة - فاربَحْ نفسَك وأَقبِل على شأنك، فإنه لا قيامَ لك بمن يَفهَمُك فَهمي. وقال له الدّلال: يا أخا الأنصار، إنّ أبا عبد النَّعيم أَعلَمُ بك مني، وسأُعلمك بعضَ ما أعلم به. ثم اندفع ونقرَ بالدُّفّ، وكلُّهم ينقُر بدُفّه معه، فتغنّى:

أتهجُرُ يا إنسانُ من أنت عاشقُهْ ... ومَن أنت مشتاقٌ إليه وشائقُهْ
وريمٍ أَحَمِّ المُقلَتَين مُوَشَّحٍ ... زَرابِيُّه مَبثوثةٌ ونَمارقُه
ترى الرَّقْمَ والدِّيباجَ في بيته معاً ... كما زَيّن الروضَ الأنيق حدائقُه
وسِرب ظِباءٍ ترتعي جانبَ الحِمى ... إلى الجَوّ فالخَبْتَين بيضٌ عقائقُه

وما مِن حِمىً في النّاس إلا لنا حِمًى وإلّا لنا غربيُّه ومَشارقُهْ[1]

فاستضحك عبد الرحمن وقال: اللهمّ غَفـراً. وجلس.

● مولًى للوليـد بن عبد الملك قــال:

كان الدلّالُ ظريفاً جميلاً حسنَ البيان من أحضرِ الناس جواباً وأَحَجِّهم، وكان سليمان بن عبد الملك قد رقّ له حين خُصي غَلطاً، فوجّه إليه مولًى له وقال له: جِئني به سرّاً. وكان تبلُغه نوادرُه وطِيبُه، وحذّر رسولَه أن يعلَم بذلك أحدٌ. فنفذَ المولى إليه وأعلمه ما أَمَرَه به، وأمره بالكتمان وحَذّره أن يقفَ على مقصِده أحدٌ، ففعل. وخرج به إلى الشأم، فلمّا قدم أنزله المولى منزلَه وأعلم سليمانَ بمكانه، فدعا به ليلاً فقال: ويلَك ما خبرُك؟ فقال: جُببت من القُبُل[2] مرّة أخرى يا أمير المؤمنين، فهل تريد أن تَجُبّني المرّة من الدُّبُر؟ فضحك وقال: اعزُبْ، أخزاك الله! ثم قال له: غَنِّ. فقال: لا أُحسِن إلّا بالدُّفّ. فأمر فأُتي له بدفّ، فغنّى في شعر العَرجيّ:

أفي رسم دارٍ دمعُـكَ المتحـدِّرُ سَفاهاً ومـا استنطاقُ مـا ليس يُخبِرُ
تغيّر ذاك الـرَّبْـعُ من بعد جِـدّةٍ وكـلُّ جـديـد مـرّةً مُـتَـغـيِّـرُ
لأسمـاءَ إذ قلبي بـأسمـاءَ مُغـرَمٌ ومـا ذِكرُ أسمـاءَ الجميلةِ مُهْجَـرُ
وَمَمشى ثـلاثٍ بعـد هَدْءٍ كـواعبٍ كمثل الدُّمَى بل هنّ من ذاك أَنْضَرُ
فَسَلّمن تسليمـاً خفيّـاً وسقّـطت مَصَـاعِبةٌ ظُلّعٌ من السيـر حُسَّـرُ
لهـا أَرَجٌ من زاهـر البَقـل والثّرى وبُـردٌ إذا مـا بـاشر الجِلدَ يَخْصَـرُ

(١) أحم : أسود. الزرابي ج زربيّة: البساط. النمارق ج نمرقة: الوسادة الصغيرة والطنفسة. الرقم: ضرب مخطط من الوشي أو الخز. الجو: ما اتسع من الأودية، وفي جزيرة العرب أجواء كثيـرة تعرف بما تضاف إليه من المواضـع. الخبت: صحراء بين مكة والمدينة واسم موضع بينهمـا. العقائـق : مسايل الماء.

(٢) يشيـر بهذا إلى خصائه، والجب : القطع.

فقالت لِتِربَيها الغَداة تبقّيا بعَين ولا تَستبعِدا حين أُبصِرُ
ولا تُظهِرا بُرديكما وعليكما كِساءان من خَزٍّ بنَقْشٍ وأخضرُ
فعَدِّي فما هذا العتابُ بنافعٍ هوايَ ولا مُرْجي الهوى حين يُقصِرُ(١)

فقال له سليمان: حُقّ لك يا دلالُ أن يقالَ لك الدَّلال! أحسنت وأجملت! فواللهِ ما أدري أيُّ أمريك أَعْجَبُ: أسرعةُ جوابك وجَودة فَهمك أم حسَنُ غنائك، بل جميعاً عَجَبٌ! وأمر له بصِلة سنيّة. فأقام عنده شهراً يشرب على غنائه، ثم سَرّحه إلى الحجاز مُكرَماً.

● عن عَوانة بن الحَكَم قال:

لمّا أراد عبدُ الله بن جعفر إهداءَ(٢) بنته إلى الحجّاج كان ابنُ أبي عتيق عنده فجاءه الدّلال متعرِّضاً فاستأذن، فقال له ابنُ جعفر: لقد جئتَنا يا دَلَالُ في وقت حاجتنا إليك. قال: ذلك قصدتُ. فقال له ابنُ أبي عتيق: غَنِّنا. فقال ابن جعفر: ليس وقت ذلك، نحن في شغل عن هذا. فقال ابنُ أبي عتيق: وربِّ الكعبة لَيُغنِّيَنّ. فقال له ابنُ جعفر: هاتِ. فغنّى ونقَر بالدُّفّ - والهوادجُ والرّواحلُ قد هُيِّئت، وصُيّرت بنتُ ابن جعفر فيها مع جَواريها والمشيِّعين لها - :

يا صاحِ لو كنتَ عالماً خَبِراً بما يُلاقي المحبُّ لم تَلُمْهْ
لا ذنبَ لي في مُقَرَّطٍ حَسَنٍ أعجبني دَلُّه ومُبْتَسَمُهْ
شِيمتُهُ البخلُ والبِعادُ لنا يا حَبَّذا هُوْ وحَبَّذا شِيَمُهْ
مُضَمَّخٌ بالعبير عارِضُه طُوبى لمن شمّه ومن لَثَمهْ(٣)

(١) الهدء : الهزيع من الليل، وقيل: من أوله إلى ثلثه. مصاعبة ج مصعب : الفحل من الإبل الذي لم يركب. الظلع: العرج الخفيف. الحسرج حسير: من نهكه السير. يخصر: يبرد. تبقيا بعين: أي انتظرا بمرأى مني.
(٢) الاهداء : الزفاف.
(٣) المقرط : المتحلّي بالقرط. العارض: صفحة الخد. لثمة: الأصل في ميمه الفتح فنقلت إليه ضمة الهاء بعده على لغة لخم.

فطـــرب ابـــنُ جعفر وابن أبي عتيق، وقال له ابن جعفر: زِدْني. وطَرِب. فأعاد اللحن ثلاثاً ثم غنّى:

بَـكَـر الـعــواذلُ فــي الـصّـبـا ح يَـلُـمْـنَـنــي وألــو مُــهُــنَّــهْ
ويَــقُــلنَ شــيــبٌ قــد عــلا ك وقــد كـبِــرتَ فقلت: إنّــه[1]

ومضت بنتُ جعفر فاتّبعها يُغّنيها بهذا الشعـــر:

إن الـــخـليطَ أجــدَّ فــاحــتــمــلا وأراد غــيــظَك بــالــذي فَــعــلا
فــوقــفــتُ أنــظرُ بعضَ شــأنِهــم والـــنـفسُ مــمّــا تــأمُــل الأَمَــلا
وإذا الــبــغــالُ تُــشَــدّ صــافــنــةٌ وإذا الحُــداةُ قــد ازمَعُوا الـرِّحَــلا
فــهــنــاك كــاد الــشــوقُ يــقــتُلُني لــو أنّ شــوقــاً قــبــلَه قَــتــلا[2]

فدمعت عينا عبد الله بن جعفر وقال للدّلال: حَسْبُك، فقد أوجعتَ قلبي! وقال لهم: امضُوا في حِفظ الله على خير طائر وأيْمَن نَقيبة.

● عن عثمان بن حَفص الثّقفيّ قال:

كان للدّلال صوتٌ يغنّي به ويُجيده، وكان عمر بن أبي ربيعة سأله الغناء فيه وأعطاه مائة دينارٍ، ففعل، وهو قولُ عمر:

ألم تســأل الأطــلالَ والمتــربَّــعــا بــبــطنِ حُــلَيّــاتٍ دوارسَ بَــلْــقَــعــا
إلى السَّرْح من وادي المُغَمَّس بُدِّلتْ معــالــمُهُ وبْــلاً ونَكبــاءَ زَعْــزَعــا
وقَــرَّبْن أســبــابَ الــهــوى لِمــتــيَّــمٍ يقيسُ ذِراعــاً كلّمــا قِسْن إصبَعــا
فقلت لِمُــطْرِيهنّ في الحُسن إنّمــا ضررتَ فهل تستطيعُ نفعاً فَتنفعا[3]

---

(١) إنّه: إن حرف جواب بمعنى نعم والهاء للوقف. والبيتان لابن قيس الرقيـــات.
(٢) احتمــل: ارتحل. الصافن من الخيل ونحوه: القائم على ثلاث قوائم والرابعة على طرف الحافــر.
(٣) بطن حليات: موضع. وادي المغمّس: موضع قرب الطائف. وبــلاً. أي بالوبل، فهو منصوب بنزع الخافض، والوبل: المطر الشديد. النكباء: الريح تنحرف عن مهبها. ريح زعزع: شديدة تزعزع الأشياء.

● عن مصعب بن عبد الله الزُبيريّ قـــال:

كان الدّلال لا يشرب النَّبيذ، فخرج مع قوم إلى مُتَنَزَّهٍ لهم ومعهم نبيذٌ، فشربوا ولم يشرب منه، وسقَوه عَسَلاً مَجدوحاً[1]، وكان كلّما تغافل صَيّروا في شرابه النّبيذ فلا يُنكرُه، وكثُر ذلك حتى سكِر وطرِب وقال: اسقُوني من شَرابكم، فسقَوه حتى ثَمِل، وغنّاهم في شعر الأحوص:

طاف الخيالُ وطاف الهمُّ فاعتكرا ... عند الفراش فبات الهمُّ مُحتضِرا
أُراقب النجمَ كالحَيرانِ مرتقِباً ... وقَلّص النومُ عن عَيْنيّ فانشَمرا
من لَوعةٍ أورثتْ قَرْحاً على كبِدي ... يوماً فأصبح منها القلبُ مُنفَطِراً
ومن يَبِتْ مُضمِراً هَمّاً كما ضَمِنتْ ... منّي الضُّلوعُ يَبِتْ مُستَبْطِناً غِيَرا[2]

فاستحسنه القوم وطربوا وشربوا، ثم غنّاهـــم:

طَربتَ وهاجَك مَن تَذّكِرْ ... ومن لستَ من حُبّه تَعتذِرْ
فإن نلتُ منها الذي أرتجي ... فذاك لَعَمري الذي أنتظِرْ
وإلّا صبرتُ فلا مُفحِشاً ... عليها بسوءٍ ولا مُبْتَهِرْ[3]

قـــال: وسكِر حتى خلع ثيابه ونام عُرياناً، فغطّاه القومُ بثيابهم وحملوه إلى منزله ليلاً فنوّموه وانصرفوا عنه. فأصبح وقد تقيّأ ولَوّث ثيابَه بقَيئه، فأنكر نفسَه وحَلَفَ ألّا يغنّيَ أبداً ولا يعاشرَ من يشربُ النّبيذ؛ فوفَى بذلك إلى أن مات. وكان يُجالس المَشْيَخةَ والأشراف فيُفيضُ معهم في أخبار الناس وأيامهـــم حتى قضى نَحْبَــه.

*. *. *. *. *

---

(1) المجدوح: المخلوط.
(2) اعتكـــر: اختلط. محتضراً: حاضراً. قلّص: ارتفع وانزوى. غير الدهـــر: أحداثه المغيـــرة.
(3) الابتهـــار: قول الكذب والحلـــف عليه.

[١١]

سائب خاثر

[الأغاني الجزء ٨ ص ٣٢١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

كان سائبُ خاثرٍ مولى بني لَيْث، وأصله من فَيْء كِسرى واشترى عبدُ الله ابن جعفر ولاءَه من مَواليه، وقيل بل اشتراه فأعتقه، وقيل بل كان على وَلائه لبني ليث، وإنما انقطع إلى عبد الله بن جعفر فلزمه وعُرف به؛ وكان يبيع الطعام بالمدينة. واسم أبيه الذي أعتقه بنو ليث «يشا».

قال ابنُ الكلبيّ وأبو غسّان وغيرُهما: هو أوّل من عِمِلِ العود بالمدينة وغَنّى به. وقال ابنُ خُرْداذْبه: كان عبد الله بن عامر اشترى إماءً صَنّاجات[1] وأتى بهنّ المدينة، فكان لهنّ يومٌ في الجمعة يَلعبن فيه، وسمع الناسُ منهنّ،

---

(١) الصناجة: التي تضرب على الصنج، وهو صفيحة مستديرة من نحاس تضرب بأخرى مثلها.

فأُخذ عنهنّ. ثم قدِم رجلٌ فارسيّ يُسمى بنشيط، فغنّى، فأُعجب عبدُ الله بن جعفر به. فقال له سائب خاثر: أنا أصنع لك مثلَ غِناء هذا الفارسيّ بالعربية. ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد صنع:

«لِمن الديارُ رُسومُها قَفْـرُ»

قال ابنُ الكلبيّ: وهو أول صوت غُنيّ به في الإسلام من الغناء العربيّ المُتقَن الصَّنعة. قال: ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطاً بعد ذلك، فأخذ عن سائبِ خاثر الغناءَ العربيّ وأخذ عنه ابنُ سُرَيج وجميلةُ ومَعْبَد وعَزَّة المَيْلاء وغيرُهم.

وقال ابنُ الكلبيّ: سائبُ خاثر أوّلُ من غَنّى بالعربيّة الغِناء الثقيلَ، وأول لحن صَنعه منه:

لِمن الديـارُ رسومُهـا قَفـرُ

قـال: فألِفتُ هذا الصوت الفَرُوح.

عن لقيـط قـال:

أشرف معاويةُ بن أبي سُفيان ليلاً على منزل يزيدَ ابنِه، فسمع صوتاً أَعجبه، واستخفَّه السَّماعُ فاستمع قائماً حتى ملّ، ثم دعا بكُرسيّ فجلس عليه، واشتهى الاستزادة فاستمع بقيّةَ ليلته حتى ملّ. فلمّا أصبح غدا عليه يزيدُ، فقال له: يا بُنَيّ، من كان جَليسَك البارحةَ؟ قال: أيُّ جَليس يا أمير المؤمنين؟ واستعجم عليه. قال: عَرِّفْني فإنه لم يخفَ عليّ شيءٌ من أمرك؟ قال: سائبُ خاثِر. قال: فأَخْثِرْ له[1] يا بُنَيّ من بِرّك وصِلتك، فما رأيت بمجالسته بأساً.

قـال ابنُ الكلبـيّ:

قدم معاويةُ المدينةَ في بعض ما كان يقدَم، فأمر حاجبَه بالإذن للنّاس،

---

(١) اخثر له: أكثـر له.

فخرج الآذِن ثم رجَع فقال: ما بالباب أحدٌ. فقال معاويةُ: وأين الناسُ؟ قال: عند ابن جعفر. فدعا ببغلته فركبها ثم توجّه إليهم. فلمّا جلس قال بعضُ القرشيّين لسائب خاثر: مُطْرَفي هذا لك ـ وكان من خزّ ـ إن أنت اندفعت تغنّي ومشِيت بين السِّماطين وأنت تُغنّي. فقام ومشى بين السّماطينَ وغنّى:

لنـا الجفَنات الغُرُّ يلمعن بالضُحى وأسيـافُنا يقـطُرنَ من نَجـدةٍ دمـا[1]

فسمع منه معاويةُ وطرب وأصغى إليه حتى سكت وهو مستحسنٌ لذلك، ثم قام وانصرف إلى منزله، وأخذ سائب خاثر المطرَفَ.

عـن لقيـطٍ قـال:

وفد عبدُ الله بن جعفر على معاويةَ ومعه سـائبُ خاثـر، فَوَقّـع له في حوائجه، ثم عرض عليه حاجةً لسائب خاثر فقال معاوية: مَن سائبُ خاثرٍ؟ قال: رجلٌ من أهل المدينة لَيثيّ يروي الشعر. قال: أوَ كلُّ من روى الشعر أراد أن نَصِله! قال: إنّه حَسّنه. قال: وإن حَسَّنه! قال: أفأُدخِلهُ إليك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: فألبستُه مُمَصَّرَتين[2] إزاراً ورداءً. فلمّا دخل قام على الباب ثم رفع صوتَه يتغنّى:

«لِمن الدّيارُ رسومُها قَفرُ»

فالتفت معاويةُ إلى عبد الله بن جعفر فقال: أشهَدُ لقد حَسَّنه! فقضى حوائجَه وأَحسن إليه.

قـال ابن الكلبيّ:

كان سائبٌ تاجراً مُوسِراً يبيع الطعـام، وكان تحتَـه أربعُ نِسـوةٍ، وكان انقطاعُه إلى عبد الله بن جعفر، وكان مع ذلك يُخالط سَرَوات الناس وأشرافَهم

---

(١) الجفنة: قصعة الطعام. الغز: البيض. والبيت لحسان بن ثابت.
(٢) الممصـر من الثيـاب: ما فيه صفـرة خفيفـة.

لِظَرفه وحلاوته وحُسن صوته. وكان قد آلى ألاّ يُغنّي، أحداً سوى عبد الله بن جعفر، إلاّ أن يكون خليفةً أو وليّ عهد أو ابنَ خليفة، فكان على ذلك إلى أن قُتل. قال: وأخذ مَعبدٌ عنه غِناءً كثيراً، فَنَحَل الناسُ بعضَه إليه، وأهل العلم بالغناء يعرفون ذلك.

قال ابن الكلبـي : وحدّثني أبو مِسكين قـال:
كان سائب خاثر يُكنى أبا جعفر، ولم يكن يضرِب بالعـود إنما كـان يَقرع بقَضيبٍ ويُغنّي مُرتجلاً.

مقتلـه يوم الحـرّة

عن الزبيـريّ وعن المدائنيّ قـالا:

قُتل سائب خاثر يومَ الحَرّة، وكان خَشِي على نفسه من أهل الشأم فخرج إليهم وجعل يُحدّثهم ويقول: أنا مُغَنٍّ، ومنِ حالي وقصّتي كَيْتَ وكيت، وقد خدمتُ أميرَ المؤمنين يزيدَ وأباه قبلَه. قالوا: فَغَنِّ لنا. فجعل يُغنّي، فقام إليه أحدُهم فقال له: أحسنتَ والله! ثم ضربه بالسّيف فقتله.

وبلغ يزيدَ خبرُه ومرّ به اسمُه في أسماء من قُتل يومئذٍ فلم يعرِفه وقال: مَن سائبُ خاثر هذا؟ فقيل له: هو سائب خاثر المُغنّي. فعَرَفَه فقال: ويله، مالَه ولنا! ألم نُحسِن إليه ونَصِلْه ونَخْلِطْه بأنفُسنا! فما الذي حَمله على عداوتنا؟! لا جَرَمَ أنّ بَغْيَه صَرَعَـه.

وقال المدائنيّ في خبره: فقال : إنّا لله! أوَ بلغ القتلُ إلى سائب خاثر وطَبقته! ما أرى أنه بقي بالمدينة أحدٌ. ثم قال: قَبحكم اللهُ يأهل الشأم! تَجدُهم صادفوه في حديقة أو حائط مستتراً منهم فقتلـوه.

* . * . * . * . *

[١٢]

طُوَيس

[الأغاني الجزء ٣ ص ٢٧ وما بعدها
والجزء ٤ ص ٢١٩ وما بعدها](*)

أصله ومنزلته في الغناء

طُويسٌ لقبٌ غَلَب عليه، واسمُه عيسى بن عبد الله، وكُنيته أبو عبد المُنعِم وغَيَّرها المُخَنَّثون فجعلوها أبا عبد النَّعيم. وهو مولى بني مخزوم.

طويسٌ لقب، واسمه طاوُس، مولى بني مخزوم. وهو أول من غنّى الغناء المتقن من المخنَّثين، وهو أول من صنعَ الهَزَجَ والرَّمَل في الإسلام، وكان يقال: أحسنُ الناس غِناءً في الثَّقيل ابنُ مُحرِز، وفي الرَّمَل ابنُ سريج، وفي الهَزَج طُوَيس. وكان الناس يضرِبون به المثل فيقال: أهزَجُ من طويس.

[عن طائفة من الرواة] قالوا:

أوّل من غَنّى بالعربيّ بالمدينة طُوَيسٌ، وهو أوّل من ألقى الخَنَث بها،

(*) تكررت ترجمة طويس وأخباره في الأغاني، وقد حاولنا التوفيق بين الترجمتين.

وكان طويلاً أحولَ يُكنى أبا عبد المنعم، مولى بني مخزوم، وكان لا يضرِب بالعُود، إنما كان ينقُر بالدُّف، وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأنساب أهلها، وكان يُتَّقى للسانه. قالوا: وسُئل عن مولده فذكر أنه وُلد يوم قبض رسولُ الله ﷺ، وفُطم يوم مات أبو بكر، وخُتن يوم قُتل عُمر، وزُوّج يوم قُتل عثمان، ووُلد له يومَ قُتلَ عليّ رضوانُ الله عليهم أجمعين. قال وقيل: إنه وُلد يوم مات الحسن بن عليّ عليهما السلام. قال: وكانت أمّي تمشي بين نساء الأنصار بالنَّميمة.

قال صالح بن حَسّان الأنصاريّ: أنبأني أبي قال:

اجتمع يوماً جماعةٌ بالمدينة يتذاكرون أمرَ المدينة إلى أن ذكروا طُوَيساً فقالوا: كان وكان. فقال رجلٌ منا: أما لو شاهدتموه لرأيتم ما تُسَرّون به عِلماً وظَرْفاً وحُسنَ غناء وجَودة نقرٍ بالدُّف، ويُضحك كلَّ ثَكْلى حَرَّى[1]. فقال بعضُ القوم: واللهِ إنه على ذلك كان مشؤوماً. وذكر خبر ميلاده كما قال الواقديّ، إلا أنه قال: وُلد يوم مات نبيُّنا ﷺ، وفُطم يوم مات صِدّيقُنا، وخُتن يوم قُتل فاروقنا، وزُوّج يومَ قُتل نُورُنا، ووُلد له يومَ قُتل أخو نبيِّنا[2]، وكان مع هذا مُخَنَّثاً يَكِيدُنا ويطلُب عَثَراتِنا، وكان مُفرِطاً في طوله، مضطرباً في خَلْقه، أحولَ. فقال رجلٌ من جِلّة أهل المجلس: لئن كان كما قلتَ لقد كان مُمتِعاً فهِماً يُحسِن رعايةَ مَن حفِظ له حقَّ المجالسة، ورعايةَ حُرمة الخِدمة، وكان لا يحمل قول مَن لا يَرعى له بعضَ ما يَرعاه له، ولقد كان مُعظِّماً لمواليه بني مخزوم ومن والاهم من سائر قريش، ومُسالماً لمن عاداهم دون التَّحكيك به، وما يُلام مَن قال بعِلمٍ وتكلّم على فَهم، والظالمُ المَلُوم، والبادىءُ أَظْلَمُ. فقال رجلٌ آخر: لئن كان ما قلتَ لقد رأيت قريشاً يَكتَنِفُونه ويُحدِقون به ويُحبّون مجالستَه ويُنصِتون إلى حديثه ويتمنّون غِناءه، وما وضَعه شيءٌ إلّا خَنَثُه، ولولا ذلك ما بقي رجلٌ من قريش والأنصار وغيرهم إلّا أدناه.

---

(١) حرّى: عطشى، وأراد هنا التي غلب عليها الحزن.
(٢) يريد به علياً عليه السلام.

عن سِيــاط قــال:

كان أوّلَ من تغنّى بالمدينة غناءً يدخل في الإيقاع طويسٌ.. ووُلد وهو ذاهب العين اليُمنى، وكان يلقّب بالذّائب، وإنما لقّب بذلك لأنه غنّى:

قــد بــرانــي الـحـبُّ حتــى كُـدتُ مـن وجــدي أَذوبُ

المدائنــيّ قــال:

قدم ابن سُريج المدينة فجلس يوماً في جماعة وهم يقولون: أنت والله أحسنُ الناس غناءً، إذ مرّ بهم طويسٌ فسمعهم وما يقولون، فاستلّ دُفّه من حِضْنه ونَقَره وتغنّى:

إنّ الـمُـجَـنَّـبَـةَ الــتـي مَـرَّت بنـا قبـل الـصّبـاحِ
فـي حُـلّةٍ مَـوشـيّـةٍ مـكّـيـة غَـرْثَـى الـوِشـاح
زيــنٌ لـمـشــهـد فِـطرهـم وتَـزينُهم يـومَ الأضـاحي[1]

ـ الشعــر لابن زهيــر المخنَّث والغناء لطويس هَزَج..... فقال ابن سريج: هذا والله أحسنُ الناس غناءً لا أنــا.

طائفة من أخباره

● عن بعض أهل المدينة والهيثم بن عديّ والمدائنيّ قــالوا:

كان عبدُ الله بن جعفر معه إخوانٌ له في عشيّة من عَشَايا الربيع، فراحت عليهم السماءُ بمطرٍ جَوْدٍ[2] فأسال كلّ شيء، فقال عبدُ الله: هل لكم في العقيق؟ ـ وهو مُتَنَزَّه أهل المدينة في أيام الربيع والمطر ـ فركبوا دوابَّهم ثم

---

(١) المجنبة: من تسير إلى جنب. غرثى الوشاح: خميصة البطن دقيقة الخصر، فكان وشاحها جائــع.

(٢) جـــود: غزيـر.

انتهَوا إليه، فوقفوا على شاطئه وهو يرمي بالزَّبَد مثلَ مدّ الفُرات. فإنهم لَينظرون إذا هاجت السَّماءُ فقال عبدُ الله لأصحابه: ليس معنا جُنّة[1] نستجنّ بها، وهذه سماءٌ[2] خليقةٌ أن تبلّ ثيابنا، فهل لكم في منزل طويس فإنه قريبٌ منّا، فنستكِنُّ فيه ويُحدّثُنا ويُضحكنا؟ ـ وطويسٌ في النَّظّارة يسمع كلامَ عبد الله ابن جعفر ـ فقال له عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت: جُعلتُ فداءَك! وما تُريد من طُويس عليه غضبُ الله! مخنَّثٌ شائنٌ لِمن عَرَفه! فقال له عبد الله: لا تقُل ذلك فإنه مليحٌ خفيف لنا فيه أُنس. فلمّا استوفى طويسٌ كلامهم تَعجّل إلى منزله فقال لامرأته: وَيحكِ! قد جاءنا عبدُ الله بن جعفر سيدُ الناس، فما عندك؟ قالت: نَذبحُ هذه العَناق ـ[3] وكانت عندها عُنَيِّقة قد ربّتها باللَّبن ـ وأختَبِزُ خبزاً رُقاقاً. فبادر فَذَبحها وعَجَنَتْ هي، ثم خرج فتَلَقّاه مُقبلاً إليه، فقال له طُويس: بأبي أنت وأميّ! هذا المطرُ، فهل لك في المنزل فَتستكنّ فيه إلى أن تكفَّ السّماء؟ فقال: إيّاك أُريد. قال: فامش يا سيّدي على بركة الله. وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا، فتحدّثوا حتى أدرك الطعامُ[4]، فقال: بأبي أنت وأمي، تُكرمني إذ دخلتَ منزلي بأن تتعشّى عندي. قال: هاتِ ما عندك. فجاءه بعَناقٍ سمينة ورُقاق، فأكل وأكل القوم حتى تَملّؤُوا[5]، فأعجبَه طِيبُ طعامه، فلمّا غسَلوا أيديَهم قال: بأبي أنت وأمّي، أتمشّى معك وأُغنّيك؟ قال: افعَلْ يا طويس. فأخذ ملحفةً فأْتَزر بها وأرخى لها ذَنَبين، ثم أخذ المُربَّع[6] فتمشّى وأنشأ يغنّي:

يا خليلي نابني سُهُدي ... لم تَنَمْ عيني ولم تكَدِ
كيف تَلْحُوني على رجلٍ ... آنِسٍ تَلتذّه كبِدي

---

(١) جنة : وقاية، واستجن به: اتقى.
(٢) السماء (هنا) المطر.
(٣) العناق : الأنثى من ولد الماعز.
(٤) أدرك الطعام : نضج.
(٥) تملؤوا : امتلؤوا من كثرة الأكل.
(٦) المربع : ضرب من الدفوف.

مثـلُ ضـوء البـدر طـلعتُـهُ   لـيس بـالـزُمَّـيْـلةِ النَّـكِـدِ(١)

فطرب القومُ وقالوا: أحسنَت واللهِ يا طويس. ثم قال: يا سيِّدي: ، أتدرِي لِمن هذا الشعر؟ قال: لا والله، ما أدري لِمن هو، إلّا أني سمعت شعراً حسناً. قال: هو لفارعة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت، وهي تتعشّق عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ وتقول فيه هذا الشعر. فنكّس القومُ رؤوسهم، وضرب عبد الرحمن برأسه على صدره، فلو شُقّت الأرضُ له لَدَخل فيهـا.

● المدائنـيّ قـال:

كان طويسٌ وَلِعاً بالشعر الذي قالته الأوسُ والخزرج في حروبهم، وكان يُريد بذلك الإغراءَ، فقَلّ مجلسٌ اجتمع فيه هذان الحيّان فغنّى فيه طُويس إلّا وقع فيه شيء. فنُهي عن ذلك، فقال: واللهِ لا تركتُ الغناءَ بشعر الأنصار حتى يُوسِّدوني الترابَ. وذلك لكثرة تولُّع القوم به، فكان يُبدي السَّرائر ويخرج الضغائن، فكان القومُ يتشاءمون به.

وكانَ يُستحسَن غِناؤه ولا يُصبر عن حديثه ويُستشَهدُ على معرفته، فَغَنّى يوماً بشعر قيس بن الخَطِيم في حرب الأوس والخزرج وهو:

ردَ الخليطُ الجِمـالَ فـانصـرفـوا   مـاذا عـليهـم لـو أنّهـم وقـفـوا
لـو وقـفـوا سـاعـةً نُسـائـلُهـم   ريثَ يُضحيّ جمـالَـه الـسَّـلَفُ
فـليـت أهـلي وأهـلَ أَثْـلَةَ فـي الـدّار قـريبٌ مـن حيـث نـخـتـلفُ

فلمّـا بلـغ إلى آخر بيت غَنّى فيه طويسٌ من هذه القصيدة وهو:

أَبلِغْ بني جَحْجَبى وقـومـهـم   خَـطْمَـةَ أنّـا وراءَهـم أُنُـفُ(٢)

---

(١) لحاه : لامه وعذل. الزميلة : الجبان الضعيف.
(٢) يضحّي جماله : يرعاها بالضحى. السلف: القوم الذي يتقدّمون الظعائن. بنو جحجبى وخطمة: بطنان من الأوس. أنف ج : أنوف : شديد الأنفـة.

تكلّمـــوا وانصرفوا وجرتْ بينهم دماءٌ، وانصرف طويسٌ من عندهم سليماً لم يُكَلَّمْ ولم يُقَل له شيء.

● عن الكلبيّ وأبي مِسكين وصالح بن كَيسان:

أنّ أبان بن عثمان وفَد على عبد الملك بن مروان فأمّره على الحجاز، فأقبل حتى إذا دنا من المدينة تلقاه أهلُها وخرج إليه أشرافُها، فخرج معهم طُويس، فلمّا رآه سلّم عليه ثم قال له: أيّها الأمير، إنّي كنت أعطيتُ الله عهداً لئن رأيتُك أميراً لأخضِبنّ يديّ إلى المِرفَقين ثم أزْدُو[1] بالدُّفّ بين يديك. ثم أبدى عن دُفّه وتغنّى بشعر ذي جَدَن الحِمْيريّ:

مـا بـالُ أهـلِك يـا رَبـابُ   خُـزْراً كـأنّـهـم غِـضـابُ[2]

قـال: فطرِب أبانٌ حتى كاد أن يطير، ثم جعل يقـول: حسبُك يـا طاوُسُ - ولا يقول له: يا طويسُ لنُبله في عينه - ثم قال له: اجلِسْ. فجلس، فقال له أبان: قد زعموا أنك كافر. فقال: جُعلتُ فداءك! والله إنّي لأَشهَدُ أن لا إلَهَ إلاّ الله وأنّ محمداً رسولُ الله وأُصلّي الخَمْس وأصومُ شهر رمضان وأَحُجّ البيت. فقال: أفأنت أكبرُ أم عمرو بن عثمان؟ - وكان عمرٌو أخا أبان لأبيه وأمّه - فقال له طويس، أنا واللهِ - جُعلتُ فداءك - مع جلائل نساء قـومي، أُمسِك بذيولهنّ يومَ زُفَّتْ أُمُّك المباركةُ إلى أبيك الطيّب. قال: فاستحيا أبانٌ ورمى بطَرْفه إلى الأرض.

● عن نوفَل بن عُمارة قـال:[3]

خرج يحيى بن الحكَمَ وهو أميرٌ على المدينة، فبَصُر بشخصٍ بالسَّبَخة ممّا

---

(1) أزدو: أضـــرب.
(2) الخزر جمع أخزر: الضيــق العينين.
(3) ساق أبو الفرج هذا الخبر مرتين: مرة في الجزء الثالث منسوباً إلى مروان بن الحكم، وأخرى في الجزء الرابع منسوباً إلى أخيه الحكم بن مروان، باختلاف يسير بين الروايتين.

يلي مسجد الأحزاب، فلمّا نظر إلى يحيى بن الحكم جلس، فاستراب به، فوجّه أعوانَه في طَلبه، فأُتي به كأنه امرأة في ثيابٍ مُصَبَّغة مصقولة وهو مُمتشِطٌ مختضِب. فقال له أعوانه: هذا ابنُ نُغاش المخنَّث. فقال له: ما أحسَبك تقرأ من كتاب الله عزّ وجلّ شيئاً، اقْرأ أُمَّ القرآن. فقال: يا أبانا لو عرفتُ أُمَّهنّ عرفتُ البنات. فقال له: أتتهزّأ بالقرآن لا أُمَّ لك! وأمر به فضُربت عنقُه؛ وصاح في المخنَّثين: من جاء بواحدٍ منهم فله ثلاثُمائةِ درهم. قال زَرَجُون المخنَّث: فخرجت بعد ذلك أُريد العالية، فإذا بصوت دُفٍّ أعجبني، فدنوت من الباب حتى فهمت نَغمات قومٍ آنَسُ بهم، ففتحتُهُ ودخلت، فإذا بطُوِيس قائمٌ في يده الدّفُّ يتغنّى، فلمّا رآني قال لي: يا زَرَجون، قَتل يحيى بن الحَكَم ابنَ نُغاش؟ قلت: نعم. قال: وجعل في المخنَّثين ثلاثَمائة درهم؟ قلت: نعم. فاندفع يغنّي:

ما بالُ أهلكِ يا ربابُ ... خُزْراً كأنّهم غضابُ
إن زُرتُ أهلكِ أَوعدوا ... وتَهِرُّ دونَهم كلابُ

ثم قال لي: ويحَك! أفما جَعَلَ فيَّ زيادةً ولا فَضَّلني عليهم في الجُعل بفضلي شيئاً.

* . * . * . * . * . *

[١٣]

عُمَر الوادِيّ

[الأغاني الجزء ٧ ص ٨٥ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو عمر بن داود بن زاذان، وجَدُّه زاذان مولى عمرو بن عثمان بن عَفّان، وكان عمر مهندساً، وأخذ الغناء عنه حَكَمٌ وذَوُوه من أهل وادي القُرى. وكان قدِم إلى الحَرَم فأخذ من غناء أهله فحذِق وصَنع فأجاد وأتقن. وكان طيّبَ الصوت، شَجِيَّه، مُطرِباً. وكان أولَ من غَنّى من أهل وادي القُرى، واتّصل بالوليد بن يزيد في أيام إمارته فتقدّم عنده جِدّاً، وكان يُسمّيه جامعَ لَذّاتي ومُحيي طَرَبي. وقُتل الوليدُ وهو يُغنّيه، وكان آخَرَ عَهده به من الناس.

حَمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

كان عُمر الواديّ يجتمع مع معبَد ومالك وغيرِهما من المغنّين عند الوليد ابن يزيد فلا يمنعُه حضورُهم من تقديمه والإصغاء إليه والاختصاص له. وبَلغني أنه كانَ لا يضرِب وإنما كان مُرتجِلاً، وكان الوليد يسمّيه جامَعَ لذّاتي.

قال: وبلَغني أن حكماً الواديّ وغيرَه من مغنّي وادي القرى أخذوا عنه الغناءَ وانتحلوا أكثرَ أغانيــه.

طائفة من أخباره

● عن أيوب بن عَبايــة قـــال:

قال عمر الواديّ: خرج إليّ الوليدُ بن يزيد يوماً وفي يده خاتمُ ياقوتٍ أحمرَ قد كان البيتُ يلتمع من شُعاعه فقال لي: يا جامعَ لذّاتي، أتُحبّ أن أهبَه لك؟ قلت: نعم واللهِ يا مولاي. فقال: غَنِّ في هذه الأبيات التي أُنشِدك فيها واجهدْ نفسَك، فإن أصبتَ إرادتي وهبتُـه لك. فقلت: أَجتهـد وأرجو التوفيــق:

ألا يُـسـليـكَ عــن سَـلمـى ... قَـتِـيـرُ الـشَّـيـب والـحِـلْـمُ
وأنّ الـشـكَّ مُـلـتـبِسٌ ... فـلا وَصـلٌ ولا صُــرمُ
فـلا واللهِ ربِّ الـنـاس - مـالـك عـنـدنـا ظُـلـمُ
وكَـيـف بـظُلم جـاريـةٍ ... ومـنـهـا الـلِّيـن والـرُّحـمُ[1]

فخلوت في بعض المجالس، فمازلتُ أُديرُه حتى استقام، ثم خرجتُ إليه وعلى رأسه وصيفةٌ بيدها كأسٌ وهو يروم أن يشر بَها فلا يَقدِر خُماراً[2]، فقال: ما صنعتَ؟ فقلت: فرغتُ مما أمرتَني به. وغنّيتُه، فصـاح: أحسنتَ والله! ووثَب قائماً على رجليه وأخذ الكأس واستدناني فوضع يدهَ اليُسرى عليَّ مُتّكِئاً والكأسُ في يده اليمنى ثم قال لي: أَعِدْ بأبي أنت وأمّي! فأعدتُه عليه فشرب ودعا بثانية وثالثة ورابعة وهو على حاله يشربُ قائماً حتى كاد أن يسقط تَعَباً، ثم جلس وَنزَع الخاتم والحُلّةَ التي كانت عليه، فقال: واللهِ العظيم لا تَبرح هكذا حتى أَسكَر. فما زلتُ أُعيــدُه عليــه ويشرب حتى مال على جَنبه سُكراً فنــام.

* * * * *

(١) القتير: أول ما يظهر من الشيب. الرحم: العطف والرحمة.
(٢) الخمار: السكر الشديد.

[١٤]

الغَـريض

[الأغاني الجزء الثاني ص ٣٥٩ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

الغَريض لقبٌ لُقِّب به لأنه كان طريَّ الوجه نَضِراً غضَّ الشباب حسنَ المنظر، فلُقِّب بذلك، والغَريض: الطريُّ من كل شيء. وقال ابن الكلبيّ: شُبِّه بالإغْريض[1]، وهو الجُمّار، فسُمّيّ به، وثَقُل ذلك على الألسنة فحذفت الألف منه، فقيل له الغَريض. واسمُه عبد الملك، وكُنيته أبو يزيد.

عن جماعة من المكّيين: أنه كان يُكنَى أبا مروان، وهو مَولى العَبَلات. وكان مُولَّداً من مولَّدي البَربر، ووَلاؤه وولاء يحيى قَيْل وسُميَّة للثُريّا ـ صاحبة عمر بن أبي ربيعة ـ وأخواتها الرُضَيّا وقُرَيبة وأم عثمان بناتِ عليّ بن عبد الله

(١) الإغريض: الجمّار وهو طلع النخيل، الإغريض أيضاً: الأبيض الطريّ، ومن معاني الغريض في كتب اللغة: المغنّي المجيد.

ابن الحارث بن أُميّة الأصغر. . .

أبو عبد الله الزُّبيريّ قال: رأيت جريراً في مجلس من مجالس قريش فسمعته يقول: كان المغنّون بمكّة أربعةً، فسيّد مُبرِّز وتابعٌ مُسَدِّد. فسألناه عن ذلك فقال: كان السيّد أبو يحيى بن سُريج والتابعَ أبو يزيد الغَريض. وكان هناك رجلٌ عالم بالصّناعة فقال: كان الغريضُ أحذَقَ أهل زمانه بمكة بالغناء بعد ابن سُريج، وما زال أصحابُنا لا يفرّقون بينهما لمقاربتهما في الغناء. . . ولذلك قالت سُكينةُ لمّا غَنّى الغريض وابن سريج:

«عُوجي علينا ربّــة الهَوْدَج»

والله مــــا أُفرّق بينكما، وما مِثلكما عندي إلاّ كمِثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري الحِسان لا يُدرَى أيٌّ ذلك أحسنُ.

قال إسحاق : وسمعتُ جماعةً من البُصَراءَ عند أبي يتذاكرونهما، فأجمعوا على أنّ الغَريض أشجى غِناءً وأنّ ابنَ سُريج أَحكَمُ صنعةً.

أخذه الغنــاء عن ابن سُريج

عن الزبيريّ والمدائنيّ ومحمد بن سلاّم:

كان الغريض يضرِب بالعُود وينقُر بالدُّفّ ويُوقِع بالقضيب، وكان جميلاً وضيئاً، وكان يُصنِّع نفسَه ويُبرِّقها(١)، وكان قبلَ أن يغنّيَ خَيّاطاً. وأخذ الغناء في أول أمره عن ابن سُريج، لأنه كان يَخدِمُهُ. فلمّا رأى ابنُ سُريج طبعَهَ وظَرفه وحلاوة مَنطقه خشي أن يأخذ غناءَه فيغلِبَه عليه عند الناس، ويَفُوقه بحسن وجهه وجَسده، فاعتلّ عليه، وشكاه إلى مَوْلياته، وهنّ كنّ دفعنه إليه لِيعلّمَه الغناء، وجعل يتجنّى عليه، ثم طَرده. فشكا ذلك إلى مَوْلياته وعَرّفهنّ غَرضَ ابن سُريج في تَنحيته إيّاه عن نفسه وأنه حَسَده على تَقدُّمه، فقلن له: هل لك في أن تسمعَ نَوْحنا على قتلانا فتأخُذَه وتغنّيَ عليه؟ قال: نعم،

---

(١) يصنع نفسه ويبرقها: يحسنها ويزيّنها.

فافْعَلْنَ. فأسمَعْنه المراثي، فاحتذاها وخرَّج غناءً عليها كالمراثي، وكان يُنوح مع ذلك فيدخل المآتمَ وتُضرَب دونَه الحجُب ثم ينوح فيَفْتِنُ كلَّ من سمعه. ولمّا كثُر غناؤه اشتهاه الناسُ وعَدَلوا إليه لِما كان فيه من الشَّجا، فكان ابنُ سريج لا يغنّي صوتاً إلّا عارضه الغريض فيه لحناً آخرَ. فلمّا رأى ابنُ سريج موقعَ الغريض اشتدّ عليه وحسَده، فغَنّى الأرمالَ والأهزاج، فاشتهاها الناسُ، فقال له الغريض: يا أبا يحيى، قَصّرتَ الغناءَ وحذفتَه! قال: نعم يا مخنَّثُ، حين جعلتَ تنوح على أمّك وأبيـــك.

قال إسحاق وحدّثني أبو عبيـــدة قـال:

لمّا غضـــب ابنُ سريج على الغَريض فأقصاه وهجَره لحِق بَحَوْراءَ وبَغُومَ - جاريتَين نائحتين كانتا في شِعب ابن عامر بمكة، ولم يكن قبلَهما ولا بعدَهما مثلُهما - فرأتاه يوماً يعصِر عينيه ويبكي فقالتا له: مالك تبكي؟ فذكر لهما ما صَنع به ابنُ سريج فقالتا له: لا أرقأ اللهُ دمعَكَ! الزُزْ رأسك[1] بين ما أخذتَه عنه وبين ما تأخُذه منّا، فإن ضِعتَ بعدَها فأبعَدَك الله[2].

طائفة من أخباره

● أبو عبد الله الزبيريّ قال: حدّثني بعضُ أهلي قـال:

حَجَجنا فلمّا كنّا بَجَمْع[3] سمعنا صوتاً لم نسمع أحسنَ مَنه ولا أشجى، فأصغى الناسُ كلُّهم إليه تعجُّباً من حُسنه، فسألت: مَن هذا الرجل؟ فقيل لي: الغريض فتتابع جماعةٌ من مكة فقالوا: ما نعرِف اليومَ أحداً أحسنَ غناءً من الغريض، ويدُلّك على ذلك أنه يعترض بصوته الحاجَّ وهم في حَجّهم فيُصغون إليه. فسألوا الغريض عن ذلك فقـال: نعم. فسألـوه أن يُغنّيَهم، فأجابهم وخرج فوقف حيث لا يُرى ويُسمَع صوتُهُ، فترنّم ورَجّع صوتَه وغنّى

(١) الزز رأسك : ضع رأس.
(٢) أبعدك الله : أهلكك الله.
(٣) جمع : المزدلفة، وهو مبيت الحاج، ومجمع الناس إذا صدروا من عرفـات.

في شعر عمر بن أبي ربيعة:

أيّها الرائحُ المُجِدُّ ابتكاراً قد قَضَى من تِهامةَ الأوطارا

فما سمع السامعون شيئاً كان أحسنَ من ذلك الصوت، وتكلّم الناسُ فقالوا: طائفةٌ من الجِنّ حُجّاجٌ.

● إسحاق بن إبراهيم قال:

بلغني أن مَعبداً وابنَ سُريج والغَريض اجتمعوا بمكةَ ذاتَ ليلةٍ فقالوا: هَلُمَّ نُبكِ أهل مكة، ووجدتُ هذا الخبر بغير إسنادٍ مَروّياً عن يونُس الكاتب: أن أميراً من أمراء مكّة أمر بإخراج المُغنّين من الحَرم، فلمّا كان في الليلة التي عَزم بهم على النَفْي في غَدها اجتمعوا على أبي قُبَيس[1] - وكان معبدٌ قد زارهم - فبدأ مَعبد فغنّى:

أَتِربيَّ مِن أعلى مَعَدٍّ هُديتُما أَجِدّا البُكا إنّ التفرُّقَ باكرُ
فما مُكْثُنا - دام الجميلُ عليكما - بَثَهْلانَ إلا أن تُزَمَّ الأباعرُ[2]

قال: فتأوّه أهل مكة وأنُّوا وتمخّطوا[3]. واندفع الغريضُ يغنّي:

أيها الرّائحُ المُجدّ ابتكاراً قد قَضَى من تِهامَةَ الأوطارا

فارتفع البكاءُ والنحيب. واندفع ابنُ سريج يغنّي:

جَدِّدي الوصلَ يا قُريبُ وجُودي لِمُحبٍّ فِراقُه قد أَلَمّا
ليس بين الحياة والموت إلّا أن يَردُّوا جِمالَهم فَتُزَمّا

(١) أبو قبيس: جبل مشرف على مكة.
(٢) ثهلان: جبل بنجد.
(٣) تمخطوا: اضطربوا.

فارتفع الصُراخ من الدور بالوَيل والحَرَب[1]. قال يونس: واجتمع الناسُ إلى الأمير فاستعفَوه من نَفيهم، فأعفاهم.

● عن جرير:

أن سُكينة بنت الحسين عليه السلام حَجّت فدخل إليها ابنُ سُريج، والغريض وقد استعار ابنُ سريج حُلّةً لامرأة من قريش فلبسها، فقال لها ابنُ سريج: يا سيّدتي، إني كنت صنعت صوتاً وحَسّنته، وتنوَّقْت فيه وَخَبَأته لكِ في حَريرةٍ في دُرج مملوءٍ مِسكاً فنازَعَنيه هذا الفاسق - يعني الغريض - فأردنا أن نتحاكم إليكِ فيه، فأَيُّنا قَدَّمْتِه فيه تقدَّم. قالت: هاتِه. فغنّاها:

عُوجي علينا ربّةَ الهَودجِ   إنك إلاّ تَفعلي تَحْرَجي[2]

فقالت: هاتِه أنت يا غريضُ. فغنّاها إياه، فقالت لابن سُريج: أَعِدْه. فأعاده، وقالت للغريض: يا غريضُ، أَعِده. فأعاده، فقالت: ما أَشَبِّهُكما إلا بالجُوذابين[3] الحارّ والبارد لا يُدرَى أيّهما أطيب. وقال إسحاق في خبره: ما أُشبّهكما إلا باللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري الحِسان لا يُدرَى أيُّهما أحسن..

● عن مولى لآل الغريض قال:

حدّثني بعضُ مَولياتي، وقد ذكرن الغريض فترحَّمن عليه وقُلن: جاءنا يوماً يحدّثُنا بحديث أنكرناه عليه ثم عرفنا بعد ذلك حقيقتَه، وكان من أحسن الناس وجهاً صغيراً وكبيراً، وكنّا نلقى من الناس عَنتاً بسببه، وكان ابنُ سريج في جِوارنا فدفعناه إليه، فلَقِن الغناء، وكان من أحسن الناس صوتاً، ففتَن أهلَ مكة بحسُن وجهه مع حُسن صوته. فلمّا رأى ذلك ابنُ سريج نحّاه عنه، وكانت

---

(١) الحَرَب : أن يسلب الرجل ماله، وقد توسع فيه فأصبح يستخدم في كل مكروه فيقال: واويلاه، واحَرَباه

(٢) تحرجي : تأثمي.

(٣) الجوذاب : طعام يصنع من سكر وأرز ولحم وفي الأصل : بالجَديين.

بعضُ مُولَياته تُعلّمه النِّياحة فبرّز فيها، فجاءني يوماً فقال: نَهَتْني الجنُّ أن أَنُوحَ وأَسمعتْني صوتاً عجيباً فقد ابتنيت عليه لحناً فاسمعيه منّي. واندفع فغنّى بصوتٍ عجيب في شعر المَرّار الأسديّ:

حلفتُ لها بالله ما بينَ ذي الغَضا ... وهَضْبُ القَنانْ من عَوانٍ ولا بِكرِ
أحبُّ إلينا منكِ دَلّاً وما نرى ... به عند ليلى من ثَوابٍ ولا أَجرِ(١)

فكذّبناه وقلنا: شيءٌ فكّر فيه وأخرجه على هذا اللحنِ، فكان في كل يوم يأتينا فيقول: سمعتُ البارحةَ صوتاً من الجنّ بترجيع وتقطيع قد بنيتُ عليه صوتَ كذا وكذا بشعر فلان. فلم يزل على ذلك ونحنُ ننكر عليه. فإنّا لكذلك ليلةً وقد اجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكة في جمعٍ لنا سَهرنا فيه ليلَتنا والغريضُ يُغنّينا بشعر عمر بن أبي ربيعة:

أمِن آل زينب جَدّ البكُورُ ... نعم فلأيٍّ هَواها تَصيرُ

إذ سمعنا في بعض الليل عَزيفاً عجيباً وأصواتاً مختلفةً ذَعَرتْنا وأفزعتْنا، فقال لنا الغريض: إنّ في هذه الأصوات صوتاً إذا نِمتُ سمعتُه، وأُصبِحُ فأَبني عليه غنائي. فأصغَينا إليه فإذا نغمتُهُ نغمةُ الغريض بعينها، فصدّقناه تلك الليلةَ.

● قال أبو عبد الله مُصعَب الزبيريّ:

اجتمع نسوةٌ فذكرن عمر بن أبي ربيعةَ وشِعره وظَرفَه وحُسن مجلسه وحديثَه وتشوّقن إليه وتمنّينه، فقالت سكينة: أنا لكنّ به. فبعثتْ إليه رسولاً وواعدتْه الصَّوْرَين(٢) لليلة سمّتْها، فوافاها على رواحله ومعه الغَريض، فحدّثهنّ حتى وافى الفجرُ وحان انصرافُهنّ، فقال لهنّ: إنّي والله لمشتاقٌ إلى زيارة قبر

(١) القنان: جبل لبني أسد. والمرار الأسدي: هو المرار بن سعيد بن حبيب الأسدي، شاعر إسلامي ترجمته في الأغاني ج ١٠ ط. دار الكتب.
(٢) الصوران: موضع بالمدينة بالبقيع.

النبيّ ﷺ والصلاةِ في مسجده، ولكن لا أَخلِطُ بزيارتكنّ شيئاً. ثم انصرف إلى مكة وقال:

أَلْمِمْ بـزينب إنّ البَين قـد أَفِـدا   قلّ الثَّواءُ لئن كان الرحيـلُ غدا[1]

قال: وانصرف عمر بالغريض معه، فلمّا كان بمكة قال عمر: يا غريضُ، إني أُريد أن أُخبرك بشيء يتعجّل لك نفعُه ويبقى لك ذِكرُه، فهل لك فيه؟ قال: أفعَلُ من ذلك ما شئتَ وما أنت أهلُه. قال: إني قد قلتُ في هذه الليلة التي كنّا فيها شعراً فامض به إلى النِّسوة فأَنْشِدهنّ ذلك وأَخبِرهنّ أنّي وجّهتُ بك فيه قاصداً. قال: نعم. فحمل الغريضُ الشعر ورجَع إلى المدينة فقصد سُكينة وقال لها: جُعلتُ فِداكِ يا سيّدتي ومولاتي، إن أبا الخَطّاب ـ أبقاه الله ـ وجّهني إليكِ قاصداً، قالت: أوَ ليس في خير وسرورٍ تركتَه؟ قال: نعم. قالت: وفيمَ وجّهك أبو الخَطّاب، حفِظه الله؟ قال: جُعلتُ فِداكِ، إن ابن أبي ربيعة حَمَّلني شعراً وأمرني أن أُنشِدَكِ إياه. قالت: فهاتِه. فأنشدها:

أَلْمِمْ بـزينب إن البَين قـد أفـدا   قـلّ الثواء لئن كـان الرحيـلُ غـدا

الشعـرَ كلّـه. قالت: فيا ويحَه! فما كان عليه ألّا يرحَلَ في غده! فوجَّهتْ إلى النِّسوة فجمعتهنّ وأنشدتهنّ الشعر، وقالت للغريض: هل عمِلت فيه شيئاً؟ قالت: قد غنيّتُه ابنَ أبي ربيعة. قالت: فهاته. فغنّاه الغريض، فقالت سُكينة: أحسنتَ واللهِ وأحسن ابنُ أبي ربيعة، لولا أنك سبقت فغنّيتَه عُمرَ قَبلنَا لأحسَنّا جائزتك، يا بُنانةُ، أَعطيه بكلّ بيت ألفَ درهم. فأخرجت إليه بنانةُ أربعة آلاف درهم، فدفعتْها إليه وقالت سكينة: لو زادنا عمرُ لَزِدناك.

● عن محمد بن سلّام قال:

حَجّت عائشة بنت طَلحة بن عُبيد الله، فجاءتْها الثُّريا وأخواتُها ونساءُ أهل مكة القُرشيّات وغيرُهنّ، وكان الغريضُ فيمن جاء. فدخل النسوةُ عليها فأمرت

(١) أفد: دنـا وحان.

لهنّ بكُسوة وأَلطافٍ كانت قد أعدّتْها لِمن يجيئُتها، فجعلتَ تَخَرج كلُّ واحدة ومعها جاريتُها ومعها ما أمرت لها به عائشةُ، والغريضُ بالباب، حتى خرج مَولياتُه مع جواريهنّ الخِلَعُ والألطاف، فقال الغريض: فأين نَصيبي من عائشة؟ فقلن له: أغفلناك وذهبتَ عن قلوبنا. فقال: ما أنا ببارحٍ من بابها أو آخُذَ بحظّي منها، فإنها كريمةٌ بنت كرام. واندفع يغنّي بشعر جميل:

تــذكّــرتُ ليلى فــالـفؤادُ عَـميــدُ وشــطّت نَـواهــا فــالمــزَارُ بعيــدُ

فقالت: ويلكَم! هذ مَولى العَبَلات بالباب يُذكّر بنفسه، هاتُوه. فدخل، فلمّا رأته ضحكتْ وقالت: لم أعلم بمكَانك. ثم دعت له بأشياءَ أمرتْ له بها، ثم قالت له: إنْ أنت غَنَّيتَني صوتاً في نفسي فلكَ كذا وكذا... قال: فغنّاها في شعر كُثيّر:

ومـا زِلتُ من ليلى لَدُنْ طَـرّشاربي إلى اليـوم أُخفي حُـبَّهـا وأُداجِـنُ
وأحمــلُ في ليلى لقــومٍ ضَغينــةً وتُحمَــلُ في ليلى عليَّ الضَغــائنُ

فقالت له: ما عَدَوتَ في ما في نفسي. ووصلتْه فأجزلت..

● عن حَمّاد عن أبيــه قال:

كان الغريضُ إذا غنّى بيتين لكُثيّر قال: أنا السُّريجيُّ حقّاً. ولم يكن يقول ذلك في شيء من غنائه، وكان من جيّد غنائه.

وقدِم يزيد بن عبد الملك مكة فبعث إلى الغريض سِرّاً فأتاه، فغنّاه بهذا اللحــن:

وإنّي لأَرعى قــومَهــا من جَــلالهــا وإن أظهروا غِشّاً نصحتُ لهم جَهدي
ولــو حاربــوا قــومي لكنتُ لقــومهــا صديقاً ولم أحمِل على قومها حِقدي

فأُشير إلى الغريض أن اسكُتْ، وفَطِن يزيد فقال: دَعُوا أبا يزيد حتى يُغنّيَني بما يريد. فأعاد عليه الصوتَ مراراً، ثم قال: زِدْني ممّا عندك. فغنّاه

بشعر عمرو بن شَأْس الأسديّ:

فــوانـدمي على الشبــاب ووانَــدَمْ ندمتُ وبـان اليــومَ منّي بغيـر ذَمْ
أرادت عِــراراً بـالهَــوان ومن يُـرِدْ عراراً لَعمري بـالهَوان فقـد ظَلَمْ(١)

قــال: فطرب يزيد وأمر له بجائزة سنيّــة.

قال إسحاق: فحدّثت أبا عبد الله هذا الحديث، وقد أخذنا في أحاديث الخلفاء ومن كان منهم يسمع الغناء أيضاً، فقال أبو عبد الله: كان قدوم يزيد مكة وبعثُه إلى الغريض سّراً قبل أن يُستخلَف. فقلت له: فلمَ أُشير إلى الغريض أن يسكت حِين غنّاه بشعر كُثيِّر:

«وإني لأرعى قومَها من جَلالها»

وما السببُ في ذلك؟ فقال أبو عبد الله: أنا أُحَدِّثكَه. حدّثني أبي قال: كان عبد الملك بن مروان من أشدّ الناس حُبّاً لعاتكةَ امرأتِه ـ وهي ابنة يزيد بن معاوية وأُمّها أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كُريز، وهي أمّ يزيد بن عبد الملك ـ فغضبتْ مرّةً على عبد الملك وكان بينهما بابٌ فحَجبتْه وأغلقت ذلك الباب، فشقّ غضبهُا على عبد الملك وشكا إلى رجلٍ من خاصّته يقال له عمر ابن بِلال الأسديّ، فقال له: ما لي عندك إن رضيتْ؟ قال: حُكمُك. فأتى عمر بابها وجعل يتباكى وأرسل إليها بالسلام، فخـرجت إليه حـاضِنتُها ومـواليها وجواريها فقُلن: مالك؟ قال: فزِعتُ إلى عاتكة ورجوتُها، فقد علمتُ مكاني من أمير المؤمنين معاوية ومن أبيها بعدَه. قلن: وما لك؟ قال: ابناي لم يكن لي غيرُهما فقتل أحدُهما صاحبَه، فقال أميرُ المؤمنين: أنا قاتلٌ الآخرَ به. فقلت: أنا الوليُّ وقد عفوتُ. قال: لا أُعوِّدُ الناس هذه العادةَ؛ فرجوتُ أن يُنجيَ اللهُ ابني هذا على يدها. فدخَلن عليها فذكرن ذلك لها، فقالت: وكيف أصنعُ مع غضبي عليه وما أظهرتُ له؟ قلن: إذاً والله يُقْتَل. فلم يزلن حتى

---

(١) عرار: هو ابن الشاعر وله خبر في الأغاني ج ١١ ص ١٦٧ وما بعدها.

دعت بثيابها فأجمرتْها[1]، ثم خرجت نحو الباب، فأقبل حُديجٌ الخَصيُّ وقال: يا أمير المؤمنين، هذه عاتكةُ قد أقبلتْ. قال: ويلك! ما تقول؟ قال: قد واللهِ طَلعتْ. فأقبلتْ وسَلّمت فلم يَرُدّ عليها فقالت: أما والله لولا عُمَرُ ما جئتُ، إن أحدَ ابنيَه تعدّى على الآخر فقتله فأردتَ قتلَ الآخَر وهو الوليُّ وقد عفا. قال: إنّي أَكْرَهُ أن أُعوّدَ الناس هذه العادةَ. قالت: أنشُدُك الله يا أمير المؤمنين، فقد عرفتَ مكانَه من أمير المؤمنين معاوية ومن أمير المؤمنين يزيد، وهوببابي، فلم تزل به حتى أخذتْ برِجله فقَبّلَتْها فقال: هو لكِ. ولم يبرَحا حتى اصطلحا، ثم راح عمر بن بلال إلى عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، كيف رأيت؟ قال: رأينا أثرَك، فهاتِ حاجتَكَ. قال: مَزرعةٌ بِعُدَّتها وما فيها، وألفُ دينار وفرائضُ لولدي وأهل بيتي وعِيالي. قال: ذلك لك. ثم اندفع عبد الملك يتمثّل بشعر كُثيّر:

«وإنّي لأرعى قومَها من جَلالها»

البيتين. فعلمتْ عاتكةُ ما أراد؛ فلمّا غُنِّي يزيدُ بهذا الشعر كرهتْه مَواليه إذ كان عبد الملك تمثّل به في أمّه، ولم يكرهْه يزيد وقال: لو قيل هذا الشعر فيها ثم غُنّي به لما كان عَيباً، فكيف وإنما هو مَثَلٌ تمثّل به أميرُ المؤمنين في أجمل العالمين.؟

قال أبو عبد الله: وأمّا خبرُه لمّا غَنّى بشعر عمرو بن شَأس فإن ابن الأشعث[2] لمّا قُتل بعث الحجّاج إلى عبد الملك برأسه مع عِرار بن عمرو بن شَأس، فلمّا ورد به وأوصل كتاب الحجّاج جعل عبد الملك يقرؤه، فكلّما شكّ في شيء سأل عراراً عنه فأخبره، فعجب عبد الملك من بيانه وفصاحته مع سَواده، فقال متمثّلاً:

---

(١) أجمرتهـــا : بخّرتهـــا.
(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي ثار في زمن عبد الملك واستطاع الحجاج أن يهزمـــه.

وإنّ عـراراً إن يكن غيـرَ واضـحٍ فإنّي أُحبّ الجَوْنَ ذا المَنْكِبِ العَمَمْ[1]

فضحـك عـــرارٌ، من قوله ضحكاً غاظ عبد الملك فقال له: مِمَّ ضحكت ويلَك! قال: أتعرف عراراً يا أمير المؤمنين الذي قيل فيه هذا الشعر؟ قال: لا. قال: فأنا والله هو. فضحك عبد الملك وقال: حظٌّ وافق كلمة. ثم أحسن جائزتَه وسَرّحه.

قال أبو عبد الله: وإنما أراد الغريضُ أن يغنّي يزيد بمُتَمَثَّلات عبد الملك فيَ الأمور العِظام، فلمّا تبيّن كَراهةَ مَواليه غناءَه فيما تمثّل به في عاتكة أراد أن يُعقبَه ما تمثّل به في فتحٍ عظيم كان لعبد الملك، فغنّاه بشعر عمرو بن شأس في عرار.

وفــــاتـــــه

عن حَمّاد عن أبيه عن أيـوب:

كانت وفاة الغريض في أيام سليمان بن عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز لم يتجاوزها، والأشبَهُ أنه مات في خلافة سليمان لأن الوليد كان ولّى نافع بن علقمة مكة فهرب منه الغريضُ وأقام باليمن واستوطنها مدّةً ثم مات بها.

عمر بن شبّة قــال: حدّثني أبو غســان:

أنّ نافع بن علقمة لما وُلّيِ مكة خافه الغريض ـ وكان كثيراً ما يطلبُه فلا يجيئه ـ فهرب منه واستخفى في بعض منازل إخوانه. قال: فحدّثني رجلٌ من أهل مكة كان يخدُمه أنه دفع إليه يوماً رَبْعةً[2] له وقال له: صِرْ بها إلى فلان العطّار يملؤها لي طِيباً. قال: فصِرت بها إليه، فلَقيني نافعُ به علقمة فقال: هذه رَبعةُ الغريض والله. فلم أقدِر أن أكتُمه فقلت: نعم. قال: ما قِصّتُه؟ فأخبرتُهُ الخبر، فضحك وقال: سِر معي إلى المنزل. ففعلت، فملأها طيباً

(١) الواضــح: الأبيض اللون. الجون: الأسود. منكب عمم: طويـل.
(٢) الربعــة: جونـة العطــر.

وأعطاني دنانير وقال: أَعطِه وقل له يظهرُ فلا بأس عليه. فسِرت إليهمسروراً فأخبرته بذلك، فجزِع وقال: الآنَ ينبغي أن أهرُب، إنما هذه حِيلةٌ احتالها عليَّ لأقعَ في يده. ثم خرج من وقته إلى اليمن فكان آخَرَ العهد به.

قال إسحاق (عن أحد بني مخزوم):

إن الغريض لمّا صار إلى اليمن وأقام بِها اجتزنا به في بعض أسفارنا فلمّا رآني بكى، فقلت له: ما يُبكيك؟ قال: بأبي أنت وأمي! وكيف يطيب لي أن أعيش بين قوم يرونني أحمل عُودي فيقولون لي: يا هَناه[1]، أتبيعُ آخرةَ الرَّحْل[2]؟فقلت له: فارجع إلى مكة ففيها أهلُك. فقال: يابن أخي، إنما كنت أستلذُّ مكة وأعيش بها مع أبيك ونحوِه، وقد أوطنتُ[3] هذا المكان ولست تاركَه ما عشتُ. فقلنا له: فغنِّنا بشيء من غنائك فتأبّى، ثم أَقسمنا عليه فأجاب، وعمَدنا إلى شاة فذبحناها وخَرَطْنا من مُصرانها أوتاراً، فشدّها على عُوده واندفع فغنّى في شعر زهير:

جـرى دمعي فهيّـج لي شجـونـاً فـقـلـبي يُـسْـتَـجَـنُّ بـه جـنـونـا

فما سمعنا شَيئاً أحسنَ منه، فقلنا له: ارجِع إلى مكة فكـلّ مَن بها يشتاقك. ولم نزل نُرغّبُه في ذلك حتى أجاب إليه. ومضَينا لحاجتنا ثم عُدنا فوجدناه عليلاً، فقلنا: ما قصّتُك؟ قال: جاءني منذ ليالٍ قومٌ ـ وقد كنتُ أغنّي في الليـل ـ فقالـوا: غَنِّنا. فـأنكرتُهم وخِفتُهم، فجعلت أُغنّيهم، فقـال لي بعضُهم: غَنِّني:

لقد حَثُّوا الجمال لِيهرُبوا منّا فلم يَئِلُوا[4]

(١) الهن : كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان.
(٢) آخرة الرحل : ما يستند إليه الراكب.
(٣) أوطنتـه : اتخذته وطنـاً.
(٤) لم يئلوا: لم يرجعوا.

ففعلـــت: فقـام إليّ هَنٌ منهم أَزَبُّ[1]، فقال لي: أحسنتَ والله! ودقّ رأسي حتى سقطتُ لا أدري أين أنا، فأفقتُ بعد ثالثةٍ وأنا عليـلٌ كما ترى، ولا أراني إلا سأمــوت.

قال: فأقمنا عنده بقيّة يومنا ومات من غدٍ فدفنّاه وانصرفنـــا.

* . * . * . * . * . *

---

(١) الأزب: الكثيــر الشعر.

[١٥]

مالك بن أبي السَّمْح

[الأغاني الجزء ٥ ص ١٠١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو مالك بن أبي السَّمْح، واسم أبي السمح جابر بن ثعلبة الطائيّ، أحد بني ثُعَل ثم أحد بني عمرو بن دَرْماء. ويكنى أبا الوليد، وأُمّه قرشيّة من بني مخزوم، وقيل: بل أم أبيه منهم، وهو الصحيح...

وكان أبوه منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ويتيماً في حِجْره أوصى به أبوه إليه، فكان ابنُ جعفر يكفُله ويَمُونه، وأدخله وسائرَ إخوته في دِعوة بني هاشم، فهم معهم إلى اليوم.

وكان أحولَ طويلاً أجنى(١)... وأخذ الغناء عن جميلة ومَعْبَد وعُمَر(٢)

---

(١) أجنى: في ظهره احديداب خفيف، والأصل: أجنأ، بالهمز.

(٢) أراد عمر الواديّ.

حتى أدرك الدولة العباسيّة. وكان منقطعاً إلى بني سليمان بن عليّ، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور..

قال حمّاد: قرأت على أبي:

وعُمِّر مالك حتى أدرك دولة بني العبّاس، وقدم على سليمان بن عليّ بالبصرة، فمَتّ إليه بخُؤولته في قريش ودعوته لبني هاشم وانقطاعه الى ابن جعفر، فعَجّل له سليمانُ صلته وكساه وكتب له بأوساق[1] من تمر.

أخذه الغناء عن معبد

الوَرْداني قال:

كان مالك بن أبي السَّمح المغنّي من طيّىء، فأصابتهم حَطْمة[2] في بلادهم بالجبلين[3]، فقدمت به أمُّه وبإخوة له وأخوات أيتام لا شيء لهم، فكان يسأل الناس على باب حمزة بن عبد الله بن الزبير، وكان معبدٌ منقطعاً الى حمزة يكون عنده في كل يوم يغنّيه، فسمع مالكٌ غناءه فأعجبه واشتهاه، فكان لا يفارق باب حمزة ليسمع غناء معبد إلى الليل، فلا يطوف بالمدينة ولا يطلب من أحدٍ شيئاً ولا يَريم[4] موضعَه، فينصرف إلى أمه ولم يكتسب شيئاً فتضربُه، وهو مع ذلك يترنّم بألحان معبد ويؤدّيها دَوراً دوراً في مواضع صَيْحاته وإسجاحاته ونَبراته نغماً بغير لفظ ولا رواية شيء من الشعر، وجعل حمزةُ كلّما غدا وراح رآه ملازماً لبابه، فقال لغلامه يوماً: أَدخِل هذا الغُلامَ الأعرابيّ إليّ. فأدخَلَه، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا غلامٌ من طيّىء أصابتْنا حَطْمةٌ بالجبَلين فحطّتْنا إليكم ومعي أمٌّ لي وإخوة، وإنّي لزمتُ بابَك فسمعت من دارك صوتاً أعجبني، فلزمتُ بابك من أجله. قال: فهل تعرف منه شيئاً؟

---

(١) الأوساق ج وسق : وهو يوازي عند أهل الحجاز ثلاثمائة وعشرين رطلاً.
(٢) الحطمة : الجدب.
(٣) الجبلان : هما جبلا طيىء أجأ وسلمى.
(٤) لا يريم : لا يفارق.

قال: أعرِف لحنَه كلَّه ولا أَعرف الشعر. فقال: إن كنت صادقاً إنك لفَهِمٌ. ودعا بمَعْبَد فأمره أن يغنّي صوتاً، فغنّاه، ثم قال لمالك: هل تستطيع ان تقولَه؟ قال: نعم. قال: هاتِه. فاندفع فغنّاه فأدّى نَغَمَه بغير شِعر، يؤدّي مَدّاتِه ولَيّاته وعَطَفاته ونَبَراته وتعليقاتِه لا يَخرِم حرفاً، فقال لمعبد: خُذ هذا الغلامَ إليك وخَرِّجْه، فليكُونَنّ له شأن. قال معبد: ولِمَ أفعلُ ذلك؟ قال: لتكونَ محاسنُه منسوبةً إليك، وإلاّ عَدَل إلى غيرك فكانت محاسنُه منسوبةً إليه. فقال: صدَق الأمير، وأنا أفعل ما أمرتَني به. ثم قال حمزةُ لمالك: كيف وجدتَ ملازمتَك لِبابنا؟ قال: أرأيتَ لو قلتُ فيك غيرَ الذي أنت له مستحقٌّ من الباطل أكنتَ ترضى بذلك؟ قال: لا. قال: وكذلك لا يَسرُّك أن تُحمَدَ بما لم تفعل. قال: نعم. قال: فوالله ما شبعتُ على بابك شبعةً قط ولا انقلبتُ منه إلى أهلي بخير. فأمر له ولأمّه ولإخوته بمنزل وأجرى لهم رِزقاً وكِسوةً، وأمر لهم بخادم يخدُمهم وعبد يَسقيهم الماء، وأجلس مالكاً معه في مَجالسه وأمر مَعبداً أن يُطارحَه، فلم ينشَبْ أن مَهَر وحذَق، وكان ذلك بعقب مقتل هُدْبَة بن خَشْرَم[1]. فخرج مالكٌ يوماً فسمع امرأةً تنُوح على زيادةَ الذي قتله هُدبة بن خشرم بشعر أخي زيادة:

أبعدَ الذي بالنَّعف نَعْفِ كُويكِبٍ ... رهينةِ رَمْسٍ ذي ترابٍ وجَندلِ
أُذَكَّر بالبقيا على من أصابني ... وبُقيايَ أنّي جاهدٌ غيرُ مُؤْتَلي
فلا يدْعُني قومي لزيد بن مالكٍ ... لَئن لم أُعجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ
وإلاّ أَنَلْ ثأري من اليوم أو غدٍ ... بني عَمِّنا فالدّهرُ ذو مُتَطَوَّلِ
أَنَخْتم علينا كَلْكَلَ الحرب مرّةً ... فنحن مُنِيخُوها عليكم بكَلْكَلِ[2]

فغنّى في هذا الشعر لَحْنَين، أحدهما نحا فيه نحوَ المرأة في نَوحها ورقّقه

(١) انظر ترجمته في الجزء الرابع من هذه الاختيارات ص ٤٣٥.
(٢) النعف : ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مجرى السيل. البقيا: الإبقاء على الرجل وعدم قتله. المؤتلي : المقصر. الكلكل: صدر الناقة واستعير هنا للحرب.

وأصلحه وزاد فيه، والآخر نحا فيه نحوَ معبَد فيَ غنائه، ثم دخل على حمزة فقال: أيها الأمير، إني قد صنعت غناءً في شعرٍ سمعت بعضَ أهل المدينة يُنشده، وقد أَعجبني، فإن أذِن الأميرُ غنَّيتُه فيه. قال: هاتِه. فَغَنَّاه اللحن الذي نحا فيه نحوَ مَعبدٍ، فطرب حمزةُ وقال له: أحسنتَ يا غُلامُ، هذا الغناءُ غناءُ معبدٍ وطريقتهُ. فقال: لا تَعْجَلْ أيّها الأميرُ واسمع مني شيئاً ليس من غناء معبد ولا طريقته. قال: هاتِ. فغَنّاه اللحنَ الذي تشبّه فيه بنَوح المرأة، فطرب حمزةُ حتى ألقى عليه حُلَّةً كانت عليه قيمتها مائتا دينار، ودخل معبد فرأى حُلّة حمزة عليه فأنكَرها، وعلم حمزةُ بذلك فأخبر معبداً بالسبب، وأمر مالكاً فغنّاه الصّوتين؛ فغضب مَعبد لمّا سمع الصوت الأول وقال: قد كرهتُ أن آخُذَ هذا الغلام فيتعلّمَ غنائي فيدّعيَه لنفسه. فقال له حمزة: لا تَعْجَل واسمع غناءً صنَعَه ليس من شأنك ولا غنائك. وأمَره أن يغنّي الصوتَ الآخر، فغَنّاه، فأطرق مَعبد، فقال له حمزة: والله لو انفرد بهذا لضاهاك ثم يتزايد على الأيام، وكلّما كبِر وزاد شختَ أنت ونقَصتَ، فلأَن يكون منسوباً إليك أجملُ. فقال له معبد وهو منكسِر: صدَق الأمير. فأمر حمزة لمعبد بخلعةٍ من ثيابه وجائزةٍ حتى سكَن وطابت نفسُه، فقام مالكٌ على رِجله فقَبَّل رأسَ معبد وقال له: يا أبا عَبّاد، أساءك ما سمعتَ منّي؟ والله لا أُغنّي لنفسي شيئاً أبداً ما دُمتَ حيّاً، وإن غَلَبَتْني نفسي فغنّيت في شعر استحسنتُه لا نَسَبْتُه إلاّ إليك، فطِبْ نفساً وارضَ عنّي. فقال له معبد: أوَ تفعلُ هذا وتفي به؟ قال: إي والله وأزيد. فكان مالكٌ بعد ذلك إذا غنّى صوتاً وسُئل عنه قال: هذا لِمَعْبَد، ما غنّيتُ لنفسي شيئاً قطّ، وإنما آخُذ غناء معبد فأنقله إلى الأشعار وأُحسِّنه وأَزيد فيه وأنقص.

طائفة من أخباره

● أبو غسّان محمد بن يحيى قال:

كان مالك بن أبي السَّمح يتيماً في حِجْر عبد الله بن جعفر، وكان أبوه أبو السّمح صار إلى عبد الله بن جعفر وانقطع إليه. فلمّا احتُضر أوصى بمالكٍ إليه، فكَفَله وعاله وربّاه، وأدخله في دعوة بني هاشم، فهو فيهم إلى اليوم. ثم

خطب حسينُ بن عبد الله بن عبيد الله بن العبّاس العابدةَ بنت شُعيب بن محمد بن عبد الله بن عَمرو بن العاص، فمنعه بعضُ أهلها منها وخطَبها لنفسه، فعاون مالكٌ حُسيناً ـ وكانت العابدةُ تستنصحه، وكانت بين أبيها شُعيب وبينه مودّةٌ ـ فأجابت حسيناً وتزوّجتْه، فانقطع مالكٌ إلى حسين. فلمّا أفضى الأمر إلى بني هاشم قدِم البصرةَ على سليمان بن عليّ، فلمّا دخل إليه متّ بصُحبته عبدَ الله بن جعفر ودِعوته في بني هاشم وانقطاعه إلى حسين، فقال له سليمان: أنا عارفٌ بكلّ ما قلتَه يا مالكُ، ولكنّك كما تعلم، وأخاف أن تُفسد عليّ أولادي، وأنا واصلُك ومُعطِيك ما تُريد وجاعلٌ لك شيئاً أبعث به إليك ما دمت حيّاً في كلّ عام، على أن تخرجَ عن البصرة وترجِعَ إلى بلدك. قال: أَفْعَلُ، جعلني الله فِداك. فأمر له بجائزة وكُسوةٍ وحمله وزَوّده إلى المدينة.

● مالك بن أبي السَّمـح قـال:

قدمنا على يزيدَ بن عبد الملك أوّلَ قدومنا عليه مع معبد وابن عائشة، فغنّيناه ليلةً فأطربناه، فأمر لكـلّ واحد منّا بألف دينار وكتب لنا بها إلى كاتبه، فغَدونا عليه بالكتاب فلمّا رآه أنكره وقال: أيؤمَر لمثلكم بألف دينار ألفِ دينار! لا والله ولا حُبّاً ولا كرامةَ. فرجعنا إلى يزيد فأخبرناه بمقالته وكررنا عليه فقال: كأنه استنكر ذلك؟ فقلنا: نعم. فقال: مثلُه والله يَستنكره. ودعاه فلمّا حضرَ ورآنا عنده استأمره فيها، فأَطرق مستحيياً وقال لهم: إني قد قلتُها لهم ولا يَجملُ أن أرجِعَ عمّا قلت، ولكن قَطِّعْها عليهم. قال مالك: فمات واللهِ يزيدُ وقد بقي لكلّ واحدٍ منّا أربعُمائةِ دينار.

● قال ابـنُ الكلبـيّ:

قال الوليـدُ بن يزيد لمعبَد: قد آذَتْني وَلْوَلَتُك هذه؛ وقال لابن عائشة: قد آذاني استهلالُك هذا فانظُر لي رجلاً يكون مذهبُه متوسّطاً بين مَذهبيكما. فقالا له: مالكُ بن أبي السَّمح. فكتب في إشخاصه إليـه وسائِـر مُغنّي الحجاز المذكورين. فلمّا قدِم مالكٌ على الوليد بن يزيد فيمن معه من المغنّين نزل

على الغَمْر بن يزيد، فأدخله على الوليد، فغَنّاه فلم يُعجِبْه، فلمّا انصرف الغَمر قال له: إن أمير المؤمنين لم يُعجِبْه شيءٌ من غنائك. فقال له: جَعَلني الله فِداكَ! أطلُبْ لي الإذنَ عليه مرّةً واحدة، فإن أعجبه شيءٌ ممّا أُغنّيه وإلاّ انصرفتُ إلى بلادي. فلمّا جلس الوليدُ في مجلس اللّهو ذكَره الغمرُ وطلب له الإذنَ وقال له: إنه هابَك فَحَصِر[1]. قال: فَأْذَن له فبعَث إليه، فأمر مالكٌ الغلام فسقاه ثلاثَ صُراحيّات[2] صِرفاً، فخرج حتى دخل عليه يخطِر في مِشْيته... فلمّا بلغ باب المجلس وقف ولم يُسلِّم،وأخذ بحلَقْة الباب فقَعْقَعها، ثم رفع صوته فَغَنّى:

لا عيشَ إلا بمـالـك بن أبي السَّمـح فـلا تَلْحَني ولا تَلُم

فطرِب الوليد ورفع يديه حتى بدا إبطاه إليه مادّاً لهما، وقام فاعتنقه قائماً وقال له: ادنُ يابنَ أخي. فدنا حتى اعتنقه، ثم أخذ في صوته ذلك فلم يزالوا فيه أياماً، وأجزل صِلته حين أراد الانصراف.

قـال: ولمّا أتى مالكٌ على قولـه:

أبيضُ كـالسّيف أو كما يلمـع البـارقُ في حـالـكٍ من الـظُلمِ

قال له الوليـد:

أحـولُ كالقِـرد أو كمـا يـرقُب السـارقُ في حـالـك من الـظُّلم

وكان مالكٌ طويلاً أَجْنى فيه حَولٌ. وقد قال قوم: إن مالكاً لم يصنع لحناً قطُّ غيرَ هذا ـ أعني: لا عيش إلا بمالك بن أبي السمح ـ وإنه كان يأخذ غناءَ الناس فيزيد فيه وينقص منه وينسُبه الناس إليه، وكان إسحاقُ يُنكر ذلك غاية الإنكار ويقول: غناءَ مالك كلُّه مذهبٌ واحد لا تَبايُنَ فيه، ولو كان كما يقول

---

(١) الحصر: العي واستعصاء القول على المتكلم.
(٢) الصراحيّة: آنية للخمر من الزجاج.

النّاسُ لاختلــف غناؤه، وإنما كان إذا غَنّى ألحانَ مَعبد الطِّوال خَفَّفها وحَذَف بعض نَغَمها، وقال: أطاله معبدٌ ومَطّطه، وحذفتُه أنا وحسَّنْتُه. فأمّا ألاّ يكونَ صنعَ شيئاً فلا.

● عن حمّاد عن أبيــه عن جَدّه قـــال:

قال ابنُ عائشة : حضرتُ الوليدَ بن يزيد يومَ قُتل، وكان معنا مالكُ بن أبي السَّمح، وكان من أحمق الناس، فلمّا قُتل الوليد قال: اهرُبْ بنا. فقلت: وما يريدون منا؟ قال: وما يُؤْمِنُك أن يأخـذوا رأسَينا فيجعلوا رأسَـه بينهما ليُحسِّنوا أمرهم بذلك! قال ابنُ عائشة: فما رأيتُ منه عقلاً قطُّ قبل ذلك اليوم.

* . * . * . * . *

[١٦]

مَعْبَد

[الأغاني الجزء الأول ص ٣٦ وما بعدها
وج ٩ ص ١٢٧ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو مَعْبَد بن وَهْب، وقيل ابن قطنيّ، مولى ابن قَطَر، وقيل ابن قَطَن، مولى العاص بن وابِصة المخزوميّ، وقيل بل مولى معاوية بن أبي سفيان.

قال ابن الكلبي : معبدٌ مولى ابن قطر، والقطريّون موالي معاوية بن أبي سفيان.

أبو غسّان قال: معبَد بن وهب مَولى ابن قَطن، وهم موالي آل وابصة من بني مخزوم، وكان أبوه أسودَ، وكان هو خِلاسيّاً[1]، مَديدَ القامة أحولَ.

قال إسحاق : كان معبدٌ من أحسن الناسِ غناءً وأجودهم صنعةً وأحسنهم

(١) الخلاسي (بكسر الخاء): الولد بين أبوين أبيض وأسود.

حَلْفاً؛ وهو فحلُ المغنيّن وإمامُ أهل المدينة في الغناء، وأَخَذ عن سائبِ خاثرٍ ونَشيطٍ مولى عبد الله بن جعفر وعن جميلةَ مَولاة بَهْز (بطن من سُليم). . . وفي معبدٍ يقول الشاعر:

أجــاد طُويسٌ والسُّـرَيجيُّ بـعــدَه   ومــا قصَبــاتُ السَّبْق إلا لِمعبـدِ

قال ابنُ الكلبيّ عن أبيه: كان ابنُ أبي عتيق خرج إلى مكة فجاء معه ابنُ سُريج إلى المدينة، فأسمعوه غناء معبد وهو غلام ـ وذلك في أيام مُسلم بن عُقبةَ المُرّيّ ـ وقالوا: ما تقولُ فيه؟ فقال: إن عاشَ كان مغنّي بلاده.

ولِمعبد صنعةٌ لم يسبِقْه إليها من تقدّم ولا زاد عليه فيها من تأخّر. وكانت صناعتُهُ التجارَةَ في أكثر أيام رِقِّه، وربما رعى الغنم لِمواليه، وهو مع ذلك يختلف إلى نشيطٍ الفارسيِّ وسائبِ خاثرٍ مولى عبد الله بن جعفر، حتى اشتَهَر بالحِذْق وحُسن الغناء وطِيب الصوت، وصَنع الألحانَ فأجاد واعتُرِف له بالتَقدّم على أهل عصــره.

قال الجُمحيّ: بلغني أن معبداً قال: والله لقد صنعت ألحاناً لا يقدِر شبعانُ ممتلىء ولا سَقّاءٌ يحمل قِربةً على الترنُّم بها، ولقد صنعتُ ألحاناً لا يقدِرُ المتكِّىء أن يترنّم بها حتى يقعُدَ مُستوفِزاً[1]، ولا القاعدُ حتى يقوم.

قال إسحاق: وبلغني أنّ معبداً أتى ابنَ سُريج وابنُ سريج لا يعرِفُــــه، فسمع منه ما شاء، ثم عَرض نفسهَ عليه وغَنّاه وقال له: كيف كنتَ تسمع، جعلتُ فِداكَ؟ فقال له: لو شئتَ كنتَ قد كُفِيت بنفسك الطلبَ من غيرك. قال: وسمعتُ من لا أُحصي من أهل العلم بالغناء يقولون: لم يكن فيمن غَنّى أحدٌ أعلمُ بالغناء من مَعبـد.

عن الربيع بن أبي الهيثم قال:

كنّا جلوساً مع عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فقال: إنسانٌ لمالك[2]:

(١) المستوفز : الجالس على هيئة من يريد القيام.
(٢) أراد مالك بن أبي السمح.

أَنْشُدُك الله، أنت أحسنُ غناءً أم معبد؟ فقال مالك: واللهِ ما بلغتُ شِراكَه[١] قط، والله لو لم يغنّ معبدٌ إلا قوله:

لعمرُ أبيها لا تقول حَليلتي ألا فَرّ عنّي مالكُ بن أبي كعب
وهم يضرِبون الكَبْشَ تَبرُق بَيْضُه ترى حولَه الأبطالَ في حَلَقٍ شُهْبِ[٢]

لكان حَسْبَه! قال: وكان مالكٌ إذا غَنّى غناءَ معبد يُخفّف منه ثم يقول: أطال الشعرَ معبدٌ ومَطّطه، وحَذفتُه أنا.

كيف كان يصوغ ألحانه:

قال إسحاق: **قيل لمعبد**: كيف تصنع إذا أردت أن تَصُوغ الغناء؟ قال: أَرتحل قَعُودي وأُوقع بالقضيب على رَحْلي وأترنّم عليه بالشعر حتى يستويَ لي الصوتُ. فقيل له: ما أبينَ ذلك في غنائك.

قال يحيى بن عَبّاد بن حمزة بن عبد الله بن الزُّبير: حدّثني أبي قال:

قال معبد: كنت غلاماً مملوكاً لآل قَطَن مولى بني مخزوم، وكنت أتلقّى الغَنم بظَهر الحَرّة، وكانوا تُجّاراً أُعالج لهم التجارة في ذلك، فآتي صخرةً بالحَرّة مُلقاةً بالليل فأَستندُ إليها، فأسمع وأنا نائمٌ صوتاً يجري في مَسامعي، فأقوم من النوم فأَحْكِيه، فهذا كان مبدأ غنائي.

طائفة من أخباره

● قال ابنُ الكلبيّ:

قدِم ابنُ سريج والغَريض المدينةَ يتعرّضان لمعروف أهلها ويَزُوران مَن بها من صَدِيقهما من قريش وغيرهم. فلمّا شارفاها تقدّما ثَقَلَهما[٣] ليرتادا منزلاً،

---

(١) الشراك: سَير النعل.
(٢) الكبش: قائد القوم. البيضة: الخوذة. الحلَق: الدروع.
(٣) ثقل المسافر: متاعه وحشمه.

حتى إذا كانا بالمَغْسِلة ـ وهي جَبّانةٌ على طَرف المدينة يُغسَل فيها الثياب ـ إذا هما بغلام مُلتحِفٍ. بإزار وطَرَفُه على رأسه، بيده حِبالةٌ يتصيّد بها الطيرَ وهو يتغنّى ويقول:

القَصـرُ فـالنَخـلُ فـالجَمّـاءُ بينهمـا   أشهى إلى النفس من أبواب جَيرون[1]

وإذا الغلامُ معبدٌ، قال: فلمّا سمع ابنُ سريج والغريض معبداً مـالا إليه واستعاداه الصوتَ فأعاده، فسمعا شيئاً لم يَسمعا بمثله قطّ، فأقبل أحدُهما على صاحبه فقال: هل سمعت كاليوم قطُّ؟ قال: لا والله، فما رأيك؟ قال ابنُ سريج: هذا غناءُ غلام يَصيد الطير فكيف بمَن في الجَوْبة ـ يعني المدينة ـ؟! قال: أمّا أنا فثكلتْه والدتُه إن لم أرجِعْ. قال: فكّرا راجعَين.

قال: وقال معبد: قدمتُ مكة فذَهب بي بعضُ القرشيّين إلى الغرَيض، فدخلنا عليه وهو مُتصبِّح[2]، فانتبه من صُبحتـه وقَعد، فسلّم عليه القُرشيُّ، وسأله فقال له: هذا مَعبدٌ قد أتيتُك به وأنا أُحبّ أن تسمعَ منه. قال: هاتِ. فغنّيتُه أصواتاً، فقال بمِدرى[3] معه في رأسه، ثم قال: إنك يا معبدُ لَمليحُ الغناء. قال: فَأَحفظني ذلك، فجثوتُ على رُكبتيّ ثم غنّيتُه من صَنعتي عشرين صوتاً لم يُسمع بمثلها قط، وهو مُطرِقٌ واجمٌ قد تغيّر لونُه حسَداً وخَجَلاً.

● قال إسحاق: وقال معبـد:

بعث إليّ بعضُ أمراء الحجاز ـ وقد كان جُمع له الحَرَمان ـ أن اشخَصْ إلى مكة. فشخصتُ. قال: فتقدّمت غلامي في بعض تلك الأيام واشتدّ عليّ الحرُّ والعطَش، فانتهيت إلى خِباء فيه أسودُ وإذا حِبابٌ[4] ماءٍ قد بُرِّدتْ، فمِلت

---

(١) القصر والنخل: موضعان بالحجاز والجماء: جبل على مقربة من المدينة. باب جيرون: محلة بدمشق.
(٢) تصبح: نام بالغداة.
(٣) قال (هنـا): بمعنى حكّ. والمدرى: المشط.
(٤) الحباب ج حُب (بالضم): جرّة الماء.

إليه فقلت: يا هذا، اسقِني من هذا الماء. فقال: لا. فقلت: فَأْذن لي في الكِنِّ[1] ساعةً. قال: لا. فأنخت ناقتي ولجأت إلى ظِلّها فاستترتُ به، وقلت: لو أحدثتُ لهذا الأمير شيئاً من الغناء أَقْدَمُ به عليه، ولعليّ إن حرّكتُ لساني أن يَبُلَّ حَلْقي رِيقي فيُخفِّفَ عني بعضُ ما أجدُه من العطش. فترنّمت بصوتي:

«القصرُ فالنخل فالجمَّاء بينهمـــا»

فلمّا سمعني الأسودُ ما شعرت به إلا وقد احتملني حتى أدخلني خِباءَه ثم قال لي: أَي، بأبي أنت وأمي، هل لك في سَويق السُّلْت[2] بهذا المـاء البارد؟ فقلت: قد مَنعتَني أقلَّ من ذلك وشَربةُ ماءٍ تُجزِئُني[3]. قال: فسقاني حتى رَويتُ، وجاء الغلام فأقمتُ عنده إلى وقت الرَّواح. فلمّا أردتِ الرِّحلة قال: أي، بأبي أنت وأمي! الحرُّ شديدٌ ولا آمَنُ عليك مثلَ الذي أصابك، فَأْذَنْ لي في أن أحملَ معك قِربةً من ماء على عُنقي وأسعى بها معك، فكلّما عطشتَ سقيتُك صَحناً وغَنَّيتَني صوتاً. قال قلت: ذاك لك. فوالله ما فارقني يسقيني وأغَنّيه حتى بلغت المنزل.

● يونس الكاتب قـــال:

كان معبدٌ قد عَلّم جاريةً من جواري الحجاز الغناء تُدعَى «ظَبْية»، وعُني بتخريجها، فاشتراها رجلٌ من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة وباعها هناك، فاشتراها رجلٌ من أهل الأهواز، فأُعجب بها وذهبتْ به كلَّ مَذهب وغَلبت عليه، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده بُرهةً من الزمان وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها، فكان لمحبّته إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبَد وأين مُستَقَرُّه ويُظهر التعصُّبَ له والميل إليه والتقديمَ لغنائه على سائر أغاني أهل عصره إلى أن عُرف ذلك منه. وبَلغ معبداً خبرُه فخرج من مكة حتى أتى البصرة، فلمّا ورَدها

---

(١) الكن : ما وقاك من حر أو برد.
(٢) السلت : شعير لا قشر له يكون بالحجاز يتبرّدون بسويقه في الصيف.
(٣) تجزئني : تغنيني وتكفيني.

صادف الرجلَ قد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز فاكترى سفينةً. وجاء معبدٌ يلتمس سفينةً ينحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غيرَ سفينة الرجل - وليس يعرف أحدٌ منهما صاحبَهَ - فأمر الرجلُ المَلاّحَ أن يُجلِسَه معه في مُؤخَّر السفينة، ففعل وانحدروا؛ فلمّا صاروا في فم نهر الأُبُلَّة[1] تغدَّوا وشربوا، وأمر جواريه فَغَنَّين، ومعبدٌ ساكتٌ، وهو في ثياب السفر وعليه فَروٌ وخُفّان غليظان وزِيٌّ جافٍ من زيّ أهل الحجاز، إلى أن غنتّ إحدى الجواري:

بانت سعادُ وأمسى حَبلُها انصرما   واحتّلت الغَورَ فالأجزاعَ من إضَما
إحدى بَليٍّ وما هام الفؤادُ بها   إلاّ السَّفاهَ وإلاّ ذِكْرةً حُلُما[2]

فلم تُجِدْ أداءَه، فصاح بها معبد: يا جاريةُ، إن غناءك هذا ليس بمستقيم. قال: فقال له مولاها وقد غضب: وأنت ما يُدرِيكَ الغناء ما هو؟ ألا تُمسِكُ وتَلزم شأنَك! فأمسك، ثم غنّت أصواتاً من غناء غيره وهو ساكتٌ لا يتكلّم، حتى غنّت:

يابنةَ الأزديّ قلبي كئيبُ   مُستَهامٌ عندها ما يُنيبُ

[الأبيات...] والشعر لعبد الرحمن بن أبي بكر والغناء لمعبد.... قال: فأخلّت ببعضه، فقال لها معبد: يا جاريةُ، لقد أخلَلتِ بهذا الصوت إخلالاً شديداً. فغضب الرجل وقال له: ويلَك! ما أنت والغناءُ! ألا تكفُّ عن هذا الفضول! فأمسَكَ. وَغَنّى الجواري مَليّاً، ثم غَنّت إحداهنّ:

خليليَّ عُوجاً فابكيا ساعةً معي   على الرَّبْع نَقضي حاجةً ونُودِّعُ

[الأبيات.....] الشعر لكُثيِّر، والغناء لمعبد.... قال: فلم تصنع فيه شيئاً، فقال لها معبد: يا هذه، أما تَقْوَين على أداء صوت واحد! فغضب

(١) الأبلة: بلدة على شاطىء نهر دجلة.
(٢) إضم: واد بجبل تهامة وهو الوادي الذي فيه المدينة. بليّ: اسم قبيلة. الذكرة: التذكر. والبيتان للنابغة الذبياني.

الرجلِ وقال له: ما أراك تَدَعُ هذا الفضولَ بوجهٍ ولا حِيلة، وأُقسِم بالله لئن عاودتَ لأُخرِجَنَّك من السفينة. فأمسك معبدٌ، حتى إذا سكتت الجواري سَكْتةً اندفع يغنّي الصّوت الأولَ حتى فَرَغ منه، فصاح الجواري: أحسنتَ والله يا رجلُ! فأَعِدْه. فقال: لا والله ولا كَرامةَ. ثم اندفع يغنّي الثاني، فقلن لسيّدهنّ: ويحكَ! هذا واللهِ أحسنُ الناس غناءً فَسَلْه أن يُعيدَه علينا ولو مرّةً واحدة لعلّنا نأخُذُه عنه، فإنه إن فاتَنا لم نجِدِ مثله أبداً. فقال: قد سَمعتنّ سُوء رَدِّه عليكنّ وأنا خائفٌ مثلَه منه، وقد أسلفناه الإساءةَ فاصبِرْنَ حتى نُدارِيه. ثم غنّى الثالث فَزلزل عليهم الأرض. فوثب الرجلُ فخرج إليه وقبّل رأسَه وقال: يا سيدّي، أخطأنا عليك ولم نعرِفْ موضعَكَ. فقال له: فَهَبْك لم تعرف مَوضعي قد كان ينبغي لك أن تتثبّتَ ولا تُسرِعَ إليّ بسُوءِ العِشرة وجفاء القول. فقال له: قد أخطأت وأنا أعتذر إليك ممّا جرى، وأسألُك أن تنزِلَ إليّ وتختلطَ بي. فقال: أمّا الآن فلا. فلم يزل يَرفُقُ به حتى نزل إليه، فقال له الرجل: ممّن أخذتَ هذا الغناء؟ فقال: من بعضِ أهل الحجاز، فمن أين أخذه جَواريك؟ فقال: أخذنهَ من جارية كانت لي ابتاعها رجلٌ من أهل البصرة من مكة، وكانت قد أخذتْ عن أبي عَبّاد مَعبدٍ وعُني بتخريجها، فكانت تَحُلّ مني محلَّ الرُّوح من الجسد، ثم استأثر اللهُ عزّ وجلّ بها، وبقي هؤلاء الجواري وهنّ من تعليمها، فأنا إلى الآن أتعصّبُ لمعبد وأُفضِّلُه على المُغنّين جميعاً وأُفضّل صنعَتَه على كل صنعة. فقال له معبد: أَوَ إنك لأنت هو،أفتعرفني؟ قال: لا. فصَكّ معبدٌ بيده صَلَعَتَه ثم قال: فأنا والله مَعبدٌ، وإليك قدِمتُ من الحجاز ووافيتُ البصرةَ ساعةَ نزلتَ السفينة لأقصِدَك بالأهواز، والله لا قَصّرتُ في جواريك هؤلاء ولأجعلنّ لك في كلّ واحدة منهنّ خَلَفاً من الماضية. فأكبّ الرجلُ والجواري على يديه ورِجْليه يُقبِّلونها ويقولون: كتمتَنا نفسَك طولَ هذا اليوم حتى جفوناك في المخاطبة وأَسأنا عِشرتَك وأنت سيّدُنا ومن نتمنّى على الله أن نَلقاه. ثم غيّر الرجلُ زِيَّه وحالَه وخَلع عليه عِدّةَ خلع وأعطاه في وقته ثلثمائة دينار وطِيباً وهدايا بمِثلها. وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضِيَ حِذْقَ جواريه وما أَخَذْنَه عنه، ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز:

● عمر القاري بـن عديّ قال:

قال الوليد بن يزيد يوماً: لقد اشتقتُ إلى معبد. فَوَجّه البريدَ إلى المدينة فأتى بمعبد، وأمر الوليدُ ببركةٍ قد هُيِّئت له فَمُلئت بالخمر والماء، وأُتي بمعبد فأمر به فأُجلس والبِركةُ بينهما، وبينهما سِترٌ قد أُرخي، فقال له: غَنِّني يا معبدُ:

لَهفي على فِتيةٍ ذَلّ الزمانُ لهم فما أصابهمُ إلّا بما شاؤوا
ما زال يعدُو عليهم رَيبُ دهرهمُ حتى تفانَوا وريبُ الدهر عَدّاءُ
أبكى فِراقُهم عيني وأرّقها إنّ التفرُّقَ للأحباب بَكّاءُ

قال: فغنّاه إياه، فرفع الوليدُ السّتر وَنَزَع مُلاءةً مُطَيَّبةً كانت عليه وقذف نفسه في تلك البركةِ، فنَهل فيها نَهْلةً، ثم أُتي بأثوابٍ غيرها وتلقّوه بالمَجامر والطِّيب؛ ثم قال غَنِّني:

يا رَبْعُ مالَكَ لا تُجيب مُتَيَّماً قد عاج نحوَك زائراً ومُسَلِّما
جادتك كلُّ سحابةٍ هَطّالة حتى تُرى عن زَهرةٍ مُتبسِّما[1]

قال: فغنّاه، فدعاله بخمسة عشرَ ألف دينار فصَبّها بين يديه، ثم قال: انصرِفْ إلى أهلكِ واكتُمْ ما رأيت.

● قال: إسحاق: قال معبد:

أرسل إليّ الوليدُ بن يزيد فأُشخِصت إليه، فبينا أنا يوماً في بعض حَمّامات الشأم إذ دخل عليّ رجلٌ له هَيبةٌ ومعه غِلمانٌ له، فاطّلى واشتغل به صاحبُ الحمّام عن سائر الناس، فقلت: والله لئن لم أُطلِع هذا على بعض ما عندي لأكونَنّ بَمَزْجَرِ الكلب. فاستدبرتُه حيث يراني ويسمع مني، ثم ترنّمتُ، فالتفت إليّ وقال للغِلمان: قدِّموا إليه جميعَ ما هاهنا. فصار جميع ما كان بين يديه

---

(١) الزهرة: البهجة والنضارة والحسن.

عندي. قال: ثم سألني أن أسيرَ معه إلى منزله فأجبتُه، فلم يَدَعْ من البرِّ والإكرام شيئاً إلاّ فَعَله، ثم وضع النبيذ، فجعلتُ لا آتي بحسَنٍ إلاّ خرجتُ إلى ما هو أحسنُ منه وهو لا يرتاح ولا يحفِلُ لما يرى منّي فلمّا طال عليه أمري قال: يا غلامُ، شيخَنا، شيخَنا. فأُتي بشيخ، فلمّا رآه هشّ إليه، فأخذ الشيخُ العُود ثم اندفع يغنّي:

سِلَّور في القِدر وَيلي عَلُوهْ جاء القطُّ أكله ويلي عَلُوه[1]

ـ السِّلُّور: السمك الجِرّيّ بلغة أهل الشأم ـ قال: فجعل صاحبُ المنزل يُصفّق ويضرِب برجله طرباً وسروراً. قال: ثم غنّاه:

وترميني حبيبة بالدُّرَاقِن وتحسَبني حبيبةُ لا أراها

ـ الدُّراقِن: اسم الخوخ بلغة أهل الشأم ـ قال: فكاد أن يخرج من جلده طرباً. قال: وانسللتُ منهم فانصرفت ولم يعلم بي؛ فما رأيت مثلَ ذلك اليوم قطُّ غناءً أضيعَ ولا شيخاً أجهل.

● عن رجل من هُذيل قال:

قال معبد: غنّيت فأعجبني غنائي وأعجب الناسَ وذهب لي به صِيتٌ وذِكر فقلت: لآتينّ مكة فلأسمعنّ من المغنّين بها ولأُغنينّهم ولأتعرفَنّ إليهم. فابتعتُ حماراً فخرجت عليه إلى مكة، فلمّا قدمتُها بِعتُ حماري وسألت عن المغنّين أين يجتمعون؟ فقيل: بقُعَيقِعان[2] في بيت فلان. فجئت إلى منزله بالغَلَس[3] فقرعت الباب، فقال: مَن هذا؟ فقلت: انظُرْ، عافاك الله! فدنا وهو يُسبِّح ويَستعيذ كأنه يخاف، ففتح فقال: من أنت عافاك الله؟ قلت: رجلٌ من

(١) السلور: ضرب من السمك. علوه أراد عليه، ويبدو أنها لهجة عامية.
(٢) قعيقعان: قرية قرب مكة بها ماء وزرع.
(٣) الغلس: ظلمة آخر الليل.

أهل المدينة. قال: فما حاجتك؟ قلت: أنا رجلٌ أشتهي الغناء وأزعمُ أني أعرف منه شيئاً، وقد بلغني أن القوم يجتمعون عندك، وقد أحببت أن تُنزلَني في جانب منزلك وتخلِطَني بهم فإنه لا مَؤُونة عليك ولا عليهم مني. فلوَى شيئاً[1]، ثم قال: انزِلْ على بركة الله. قال: فنقلتُ مَتاعي فنزلت في جانب حُجرته.

ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعوا، فأنكروني وقالوا: مَن هذا الرجل؟ قال: رجلٌ من أهل المدينة خفيفٌ يشتهي الغناء ويَطرَب عليه، ليس عليكم منه عَناءٌ ولا مكروه. فرَحّبوا بي وكَلّمتُهم، ثم انبسَطوا وشربوا وغنَّوا، فجعلت أُعجَب بغنائهم وأُظهر ذلك لهم ويُعجِبُهم مني، حتى أقمنا أياماً، وأخذتُ من غنائهم وهم لا يَدْرُون أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً. ثم قلت لابن سريج: أي فَديتُك! أَمسِك عليّ صوتَك:

قُلْ لِهندٍ وتِرْبِها قبلَ شحْط النَّوَى غدا

قال: أوَ تُحسِن شيئاً؟ قلت: تَنَظَّرْ، وعسى أن أصنعَ شيئاً. واندفعت فيه فغنّيتُه، فصاح وصاحوا وقالوا: أحسنتَ، قاتلك اللهُ! قلت: فأَمْسِكْ عليّ صوتَ كذا. فأمسكوه عليّ، فغنّيتُه، فازدادوا عجباً وصياحاً. فما تركت واحداً منهم إلّا غنّيتُه من غنائه أصواتاً قد تخيّرتُها. قال: فصاحوا حتى علتْ أصواتُهم وهَرَفوا بي[2] وقالوا: لأنت أحسنُ بأداء غنائنا عنّا منّا. قال: قلت: فأمسِكوا عليّ ولا تضحكوا بي حتى تسمعوا من غنائي. فأمسَكوا عليّ، فغنّيت صوتاً من غنائي، فصاحوا بي، ثم غنّيتُهم آخَرَ وآخر، فوثبوا إليّ وقالوا: نَحلِف بالله إنّ لك لَصِيتاً واسماً وذِكراً، وإنّ لك فيما ها هنا لسهماً عظيماً، فمن أنت؟ قلت: أنا معبد. فقبّلوا رأسي وقالوا: لَفَّقْتَ علينا وكنّا نتهاون بك ولا نَعُدّك شيئاً وأنت أنت! فأقمت عندهم شهراً أَخُذ منهم ويأخذون مني، ثم انصرفت إلى المدينة.

---

(١) لوى شيئاً: تلكأ قليلاً.

(٢) هرف بفلان: مدحه وبالغ في الثناء عليه.

● أصوات معبد المُسمَّاة مُدن معبـــد.

عن يونس الكاتـــب قال:

قال معبد وقد سمع رجلاً يقول : إن قتيبةَ بن مُسلم فتح سبعة حصون أو سبَع مدن بخراسان فيها سبعةُ حُصونٍ صعبة المُرْتَقى والمسالك لم يُوصَل إليها قطّ، فقال: والله لقد صنعتُ سبعة ألحان كلٌّ لحنٍ منها أشدُّ من فتح تلك الحصون.

● عن هشام بن محمد عن أبيـــه:

زار معبدٌ ابنَ سُريج والغريضَ بمكة، فخرجا به إلى التنعيم[1]، ثم صاروا إلى الثنيّة العليا ثم قالوا: تعالَوا حتى نُبكي أهلَ مكة. فاندفع ابنُ سريج فغنّى صوته في شعر كَثير بن كَثير السَّهميّ:

أَسْعِـــديـنـــي بَعَبْـــرةٍ أَســـرابِ   من دمـــوعٍ كثيـــرةِ التَّسكـــابِ

فاخذ أهلُ مكة في البكاء وأَنُّوا حتى سُمع أنينهم. ثم غنّى معبـــد:

يـــا راكبـاً نحـــو المـدينـــة جَسْـرةً   أُجُـــداً تُـــلاعب حَلْقـــةً وزِمـامـــا[2]

[الأبيـــــات.....].

فنادَوا من الدُّروب بالويل والحَرَب والسَّلَب، وبقي الغريض لا يقدر من البكاء والصُّراخ أن يغنّي.

* . * . * . * . *

---

(١) التنعيم : موضع على مقربة من مكة منه يحرم المكيون بالعمـــرة.

(٢) الجســـرة : الناقة الضخمـــة. الأجد : القوية الموثقـــة الخلق.

[١٧]

الهُذَليّ

[الأغاني الجزء ٥ ص ٦٥ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

الهُذَليّان أَخوان يُقال لهما سعيد وعبد آل ابنا مسعود، فالأكبر منهما يقال له سعيد، ويُكنى أبا مسعود، وأمه امرأة يقال لها أمّ فَيْعل، وكان كثيراً ما يُنسَب إليها، وكان ينقُش الحجارة بأبي قُبَيس، وكان فتيانٌ من قريش يَرُوحون إليه كلّ عشيّة فيأتون بطحاء يقال لها بطحاء قريش فيجلسون عليها، ويأتيهم فيغنّي لهم ويكون معهم. وقد قيل إن الأكبر هو عبد آل والأصغر سعيد.

طائفة من أخباره

● حمزة بن عُتبة اللِهبـيّ:

أنّ الهذليّ كان نقّاشاً يعمل البُرَم[1] من حجارة الجبل، وكان يكنى أبا عبد

(١) البرم ج بُرمة : قدر من حجارة.

الرحمن؛ وكان إذا أمسى راح فأشرف على المسجد ثم غنّى، فلا يلبث أن يُرى الجبل كقُرص الخَبيص[1] صُفرةً وحُمرة من أردية قريش، فيقولون: يا أبا عبد الرحمن، أعِد. فيقول: أمّا واللهِ وها هنا حجرٌ أحتاج إليه لم يَرِد الأبطح فلا. فيضعون أيديَهم في الحجارة حتى يقطعوها له ويَحدُروها إلى الأبطح، وينزل معهم حتى يجلس على أعظمها حجَراً ويغنّي لهم.

● الحسن بن عَبّاد الكاتب مولى آل الزبيــر قال:

هجم الحارث بن خالد - وهو يومئذٍ أميرُ مكة - على الهُذَليّ، وهو مع فتيان قريش بالمَفْجَر[2] يغنّيهم وعليه جُبّةُ صوف، فطرح عليه مُقطَّعات خَزّ، فكانت هذه أول ما تحرّك لها.

● حمّاد عن أبيــه قال:

ذكر ابنُ جامع عن ابن عَبّاد، أن ابنَ سُريج لمّا حضَرْته الوفاةُ نظر إلى ابنته فبكى، فقالت له: ما يُبكيك؟ قال: أخشى عليكِ الضَيعةَ بعدي. فقالت له: لا تخفْ فما من غنائك شيءٌ إلّا وقد أخذتُه. قال: فغَنّيني. فغنّته، فقال: قد طابت نفسي. ثم دعا بالهُذليّ فزوّجها منه، فأخذ الهذليُّ غناءَ أبيها كلَّه عنها فانتحل أكثرَه، فعامّة غناء الهذليّ لابن سُريج ممّا أخذه عن ابنته وهي زوجته.

● عن إسحاق قال.

زوّج ابنُ سُريج لمّا حضرتْه الوفاةُ الهذليَّ الأكبر بابنته، فأخذ عنها أكثرَ غناء أبيها وادّعاه فغَلب عليه. قال: وولدت منه ابناً، فلمّا أيفع جاز يوماً بأشعب وهو جالسٌ في فتية من قريش، فوثب فحَمله على كتفه وجعل يُرقّصه ويقول: هذا ابنُ دِفَّتي المِصحف وهذا ابنُ مَزامير داود. فقيل له: ويلَك! ما

(١) الخبيص : نوع من الحلوى يصنع من التمر والعسل.
(٢) المفجر : موضع بمكة.

تقول ومَن هذا الصبيّ؟ فقال: أَوَ ما تعرفونه؟ هذا ابنُ الهذليّ من ابنة ابن سُريج، وُلد على عُود، واستَهلّ[1] بغناء، وحُنّك بملوى[2]، وقُطعت سُرَّته بوتر، وخُتن بمضراب.

● عليّ بن محمد النّوفليّ قال: حدّثني أبي قال:

كان الهُذليّ النَقّاش يغدو إليه فتيانُ قريش وقد عَمِل عملَه بالليل، ومعهم الطعامُ والشراب والدراهم، فيقولون له: غَنِّنا. فيقول لهم: الوظيفة[3]. فيقولون: قد جئنا بها. فيقول: الوظيفة الأخرى، أَنزلوا أحجاري. فيُلقون ثيابهم ويأتزرون بأُزُرهم وينقلون الحجارة ويُنزلونها، ثم يجلس على شُنْخوب[4] من شناخيب الجبل فيجلسون تحته في السهل فيشربون وهو يُغنّيهم حتى المساء، وكانوا كذلك مدةً؟ فقال له يوماً ثلاثةُ فِتيةٍ من قريش: قد جاءك كلُّ واحدٍ منا بمثل وظيفتك على الجماعة من غير أن تُنقص وظيفتُك عليهم، وقد اختار كل واحد منّا صوتاً من غنائك، ليجعَلَه حظَّه اليومَ، فإن وافقتِ الجماعةُ هَوانا كان ذلك مشترَكاً بيننا، وإن أَبَوا غَنّيت لهم ما أرادوا وجعلت هذه الثلاثةَ الأصواتِ لنا بقيّةَ يومنا. قال: هاتُوا. فاختار أحدُهم:

«عفَت عَرَفاتٌ فالمصايفُ من هِندِ»

واختار الآخر:

«أَلَمّ بنا طَيفُ الخيال المُهَجِّدُ»

واختار الثالث:

«هجرتُ سُعدى فزادني كَلَفاً»

فغنّاهم إياها، فما سمع السامعون شيئاً كان أحسنَ من ذلك، فلمّا أرادوا

---

(١) استهل الصبي : رفع صوته بالبكاء عند الولادة.
(٢) التحنيك : أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبيّ. الملوى: من أجزاء العود.
(٣) الوظيفة: ما يقدّر من عمل وطعام ورزق.
(٤) الشنخوب : المكان المرتفع في الجبل.

الانصرافَ قال لهم: إنّي قد صنعتُ صوتاً البارحةَ ما سمعه أحدٌ، فهل لكم فيه؟ قالوا: هاتِهِ مُنعماً بذلك. فاندفع فغنّاهم:

أأن هَتَفتْ وَرقاءُ ظَلْتَ سَفاهةً تُبكيّ على جُمْلٍ لِورقاءَ تهتِفُ

فقالوا: أحسنت والله، لا جَرَمَ لا يكون صَبُوحُنا في غدٍ إلاّ عليه. فعادوا وغنّاهم إيّاه وأعطوَه وظيفتَه، ولم يزالوا يستعيدونه إيّاه باقيَ يومهم.

* . * . * . * . * . *

[١٨]

يونُس الكاتِب

[الأغاني الجزء ٤ ص ٣٩٨ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو يونُس بن سليمان بن كُرْد بن شِهْريار، من وَلَد هُرْمُز. وقيل إنه مولًى لعَمرو بن الزبير؛ ومنشَؤُه ومنزله بالمدينة، وكان أبوه فقيهاً، فأَسلمه في الديوان فكان من كُتّابه؛ وأخذ الغناء عن مَعْبَد وابن سُريج وابن مُحرِز والغَريض، وكان أكثر روايته عن معبَد، ولم يكن في أصحاب مَعبد أحذَقُ ولا أَقْوَمُ بما أُخذ عنه منه. وله غناءٌ حَسَن وصنعةٌ كثيرة وشعرٌ جيّد؛ وكتابه في الأغاني ونسبتها إلى مَن غَنّى فيها هو الأصل الذي يُعمَل عليه ويُرجَع إليه؛ وهو أَوّل من دوّن الغِناء.

حمّاد بن إسحاق قال: حدّثني أبي قال: أنشدني مسعود بن خالد المُوزيانيّ لنفسه في يونس:

يا يونُسُ الكاتبُ يا يونسُ　　طاب لنا اليومَ بك المجلسُ

إنّ الـمـغـنّـيـن إذا مـا هـمُ جـارَوك أَخْنى بـهـمُ الـمَـقْبِسُ

تـنـشـرُ دِيـبـاجـاً وأشـبـاهَـه وهم إذا مـا نَشَرُوا كَـرْبَسُـوا(١)

طائفة من أخباره

● أحمد بن الهَيْثـم قـال:

خرج يونس الكاتب من المدينة إلى الشأم في تجارة، فبلغ الوليدَ بن يزيد مكانُهُ، فلم يشعُر يونس إلاّ برُسُله قد دخلوا عليه الخان فقالوا لـه: أجِبِ الأمير - والوليد إذذاك أميرٌ - قال: فنهضت معهم حتى أدخلوني على الأمير، لا أدري مَن هو، إلا أنّه من أحسَنِ الناس وجهاً وأَنبلِهم، فسلّمت عليه، فأمرني بالجلوس، ثم دعا بالشراب والجواري، فكُنّا يومَنا وليلَتنَا في أمرٍ عجيب، وغنيّته فأُعجب بغنائي، إلى أن غنّيتُه:

إن يَعِشْ مُصعَبٌ فنحن بخيرٍ قد أتـانـا من عيشِنا مـا نُرَجّي

ثم تنبَّهتُ فقطعت الصوت، فقال: مالَك؟ فأخذتُ اعتذر من غنائي بشعر في مصعب. فضحك وقال: إنّ مصعباً قد مضى وانقطع أثرُه ولا عداوةَ بيني وبينه، وإنما أُريد الغِناء فَأَمْضِ الصوت. فعُدتُ فيه فغنّيته، فلم يزل يَستعيدُنيه حتـى أصبـح، فشرب مُصْطَبِحاً وهو يستعيدني هذا الصوت ما يتجاوزه حتى مضت ثلاثةُ أيام. ثم قلت له: جَعَلني اللهُ فِداءَ الأمير! أنا رجلٌ تاجر خرجتُ مع تُجّار وأخاف أن يرتحلوا فيَضيعَ مالي. فقال لي: أنت تَغدو غداً. وشرِب باقي ليلَته، وأمر لي بثلاثةِ آلاف دينار، فحُملتْ إليّ، وغدوتُ إلى أصحابي، فلما خرجت من عنده سألت عنه فقيل لي: هذا الأميرُ الوليدُ بن يزيد وليُّ عهد أمير المؤمنين هشام. فلمّا استُخْلِف بعث إليّ فأتيتُه فلم أزَل معه حتى قُتل.

---

(١) أخنى: أزرى وقصّر. المقبس: مصدر من قبس النار إذا استمد منها شعلة، يريد أنهم استمدوا منه فلم يوفقوا وأخفقوا في مجاراته. كربسوا: أتوا بالكرابيس وهي الثياب الخشنـة.

أقصدت زينبُ قلبي بعدَما ذهب الباطلُ عنيّ والغَزَلْ
وعلا المَفْرِقَ شيبٌ شاملٌ واضحٌ في الرأس منّي واشتعَلْ

الشعر لابن رُهَيمةَ المَدَنيّ، والغناء في اللحن المختار لعمرَ الواديّ. . . . وفيه ليونس الكاتب لَحْنانِ. . . . ولحنُ يونس في هذا الشعر من أصواته المعروفة «بالزّنائب»، والشعر فيها كلّها لابن رُهيمة في زينب بنت عِكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهي سبعة .

* . * . * . * . * . *

القسم الثاني

القيان في العصر الأموي

[١٩]

جَمِيلَة

[الأغاني الجزء ٨ ص ١٨٦ وما بعدها]

أُصلها ومنزلتها في الغناء

هي جميلةُ مولاةُ بني سُليم ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بَهْز، وكان لها زوجٌ من موالي بني الحارث بن الخزرج ـ وكانت تنزل فيهم ـ فغَلب عليها ولاءُ زوجها فقيل إنها مولاةٌ للأنصار، تنزِل بالسُّنح[1]، وهو الموضع الذي كان ينزله أبو بكر الصِّديق. ذكر ذلك إبراهيم بن زياد الأنصاريّ الأمويّ السَّعيدي، وذكر عبد العزيز بن عِمران أنها مولاةٌ للحَجّاج بن عِلاط السُّلميّ.

وهي أصلٌ من أصول الغناء، وعنها أخذ معبدٌ وابنُ عائشة وحَبَابةُ وسَلّامة وعَقيلة العَقيقيّة والشمّاسيّتان خُليدة ورُبيحة. وفيها يقول عبد الرحمن بن أرطاة:

---

(١) السنح : موضع قرب المدينة المنورة.

إنّ الـدّلالَ وحُسـنَ الـغنـاء وسطَ بـيـوت بنـي الـخـزرجِ
وتـلكم جـميـلةُ زينُ الـنسـاء إذا هــي تــزدان لـلمَــخْـرَج
إذا جئـتَـهـا بـذلــتْ وُدَّهــا بـوجــهٍ منيـرٍ لـهـا أبـلجِ

عن المُحرزيّ قــال:

كانت جميلة أعلمَ خلق الله بالغناء، وكان معبدٌ يقول: أصلُ الغناء جميلَة وفَرعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مُغنّين.

مَسلمة بن محمد بن مسلمة الثّقفيّ قــال:

كانت جميلةُ ممّن لا يُشكّ في فضيلتها في الغناء، ولم يدّعِ أحدٌ مُقاربَتها في ذلك، وكلُّ مدنيّ ومكّيّ يشهد لها بالفضل.

بــدء تعلّمهـا الغنــاء

رجلٌ من الأنصار قــال:

سئلت جميلة: أنّى لك هذا الغناء؟ قالت: واللهِ ما هو إلاّ إلهـامٌ ولا تعليم، ولكنّ أبا جعفر سائبَ خاثر كان لنا جاراً وكنت أسمعُهُ يغنّي ويضرِب بالعود فلا أفهمه، فأخذت تلك النَغمات فبنيتُ عليها غِنائي، فجاءت أجوَدَ من تأليف ذلك الغناء، فعملت وألَقيتُ، فسمعني مولياتِـي يومـاً وأنا أغنّي سـرّاً ففهِمنَني ودخلن عليّ وقلن: قد علمنا فما تكتُمينا. فأقسمنَ عليّ، فرفعت صوتي وغنّيتهنّ بشعر زهير بن أبي سُلمى:

ومـا ذكرتُـكِ إلاّ هِجتِ لي طَـربـاً إنّ المحبَّ ببعض الأمـر مَعــذورُ
ليس المحبّ بمن إن شَطَّ غَـيَّــره هجـرُ الحبيب وفي الهِجران تغييـرُ

* . * . * . * . *

نــام الخليُّ فنـوم العين تعــذيــرُ ممّـا ادّكـرتُ وهـمُّ النفس مـذكـورُ
ذكرتُ سَلمى وما ذِكـري براجِعهـا ودونَهـا سَبْسَبٌ يهوي بـه المُـورُ[1]

(١) تعذير : قليل. السبسب: الفلاة. المور : التراب المنتشر.

فحينئذٍ ظهر أمري وشاع ذكري، فقصدني الناسُ وجلست للتعليم، فكان الجواري يتكاوسْنَني(1)، فربما انصرف أكثرهنّ ولم يأخذن شيئاً سوى ما سَمعنني أُطارح لغيرهنّ، ولقد كَسبت لمواليَّ ما لم يخطر لهـم ببالٍ، وأهلُ ذلك كانوا وكنت.

طائفة من أخبارها

● قـال جرير المدنيّ:

وفَد ابنُ سُريج والغَريض وسعيد بن مِسجَح ومُسلم بن مُحرِز المدينة لبعض من وَفَدوا عليه، فأجمع رأيُهم على النزول على جميلة مَولاة بَهْز، فنزلوا عليها. فخرجوا يوماً إلى العقيق متنزِّهين، فوردوا على معبَد وابن عائشة فجلسوا إليهما فتحدّثوا ساعة، ثم سأل معبدٌ ابنَ سُريج وأصحابه أن يَعرِضوا عليهم بعضَ ما ألَّفوا، فقال ابنُ عائشة: إنّ للقوم أعمالاً كثيرةً حسنة ولك أيضاً يا أبا عَبّاد، ولكن قد اجتمع علماءُ مكّة، وأنا وأنت وأهل المدينة، فلْيَعمل كلُّ واحد منّا صوتاً ساعتَهَ ثم يُغنِّ به. قال معبد: يابنَ عائشة، قد أعجبتك نفسُك حتى بَلّغتك هذه المرتبةَ! قال ابن عائشة: أَوَغضبتَ يا أبا عبّاد! إني لم أقل هذا وأنا أريد أن أتنقّصَك فإنك لأنت المُفادُ منه. قال معبد: أمّا إذ قد اختلفْنا وأصحابُنا المكّيون سُكوتٌ فَلْنجعلْ بيننا حكماً. قال ابن عائشة: إنّ أصحابَنا شركاءُ في الحكومة. قال ابن سُريج: على شَريطة أن يكون ما نُغنّي به من الشعر ما حُكّمت فيه امرأةٌ. قال ابن عائشة ومعبد: رضِينا، وهي أُمّ جُنْدَب(2). فأجمع رأيُهم على الاجتماع في منزل جميلة من غدٍ، فلمّا حضروا قال ابن عائشة: ما ترى يا أبا عَبّاد؟ قال: أرى أن يبتدىء أصحابُنا أو أحدُهم. قال ابن سُريج: بل أنتما أَوْلى. قالا: لم نكن لِنفعلَ. فأقبل ابن سريج على سعيد بن مِسجح فسأله أن يبتدىء فأبَى، فأجمع رأي المكّيين على أن يبتدىء ابنُ سريج، فغنّى ابن سريج:

ذهبتَ من الهِجران في غير مَذْهبِ ... ولم يكُ حقّاً كـلُّ هـذا التجنُّبِ

---

(1) يتكاوسنني: يتزاحمن حولي ويتكنفني.

(2) أم جندب: هي امرأة امرىء القيس وقد احتكم إليها امرؤ القيس وعلقمة الفحل في وصف كل منهما لفرسه ففضلت علقمة.

خليليَّ مُرّا بي على أمّ جُنْـدَب | أُقضّ لُبانـات الـفؤادِ الـمعـذَّب
فـإنكمـا إن تُـنـظراني سـاعـةً | من الـدّهر تَنْفَعْني لـدى أمّ جُندَب
ألم تـريـاني كُلمـا جئت طارقـاً | وجدتُ بها طيباً وإن لم تَطَيَّبِ(١)

الشعـر لامرىء القيس . . . وغنّى معبـد:

فـلّله عَينـا مَن رأى من تَـفَـرُّقٍ | أشتّ وأنـأى من فـراق المحصَّبِ
علون بـإنـطاكيّـة فـوق عِقْمـةٍ | كجِـرمـة نَخـلٍ أو كجنّـة يثـرب
فـريقان منهم سـالـكٌ بطنَ نخلةٍ | وآخُـرُ منهم جـازعُ نجـدَ كَبْكَبِ
فعينـاك غَرْبـا جـدولٍ في مُفـاضـةٍ | كَمـرّ خليـجٍ في سَنيـحٍ مُثَقَّبِ(٢)

وغنّى ابنُ مسجح:

وقـالت فـإن يُبْخَـلْ عليـك ويُعْتَللْ | يَسُؤْك وإن يُكشَفْ غرامُك تَـدْرَبِ
وإنـك لم يفخـرْ عليـك كفاخـرٍ | ضعيفٍ ولم يغلِبْـك مثـلُ مُغَلَّبِ
وإنــك لم تقطع لُبـانـةَ عـاشقٍ | بـمثـل بُكـورٍ أو رَواحٍ مُـؤَوّبِ
بـأدماءَ حُـرجـوجٍ كـأنّ قُتودَهـا | على أبلق الكَشْحَين ليس بِمُغْـرَبِ
يُغَـرِّد بـالأسحـار في كـلّ سُـدْفةٍ | تَغَـرُّدَ مَيّـاح النَـدامى المُـطَرِّبِ(٣)

---

(١) البانات: حاجات. ويلاحظ أن البيت الأول لعلقمة وسائر الأبيات لامرىء القيس.

(٢) المحصب : موضع رمي الجمار بمكة. بإنطاكية: بثياب مصنوعة في إنطاكية. العقمة: ضرب من الوشي. الجرمة: ما جرم من البسر. بطن نخلة: موضع قرب مكة. جزع: قطع. كبكب: جبل قرب عرفة. الغرب: الدلو الضخمة. المفاضة: الأرض الواسعة. الخليج: الخيط الذي يتناثر منه اللؤلؤ. السنيح : اللؤلؤ. والأبيات لامرىء القيس.

(٣) تدرب : تعتد. المؤوب (بالفتح): المردد والمكرّر وبالكسر: العائد ليلاً. الأدماء: الناقة البيضاء. الحرجوج: الجسيمة الطويلة. القتود ج قتد: خشب الرحل. أبلق الكشحين: أبيض الخاصرتين. المغرب: الواسع الغرّة أو الأبيض الأرفاغ مما يلي الخاصرة. والوصف هنا لحمار الوحش يشبه ناقته به. السدفة: الظلمة والطائفة من الليل. المياح : المتمايل المتبختر.

وغنّى ابنُ عائشـــة:

وقـد أغتـدي والـطيرُ في وُكُنـاتهـا ... وماءُ النَّدى يجري على كلّ مِذْنَبِ
بـمـنـجـردٍ قـيـد الأوابـدِ لاحَـه ... طِرادُ الهَـوادي كـلَّ شَـأوٍ مُغَـرِّبِ
إذا مـا جَرى شَـأْوين وابتلّ عِـطفُه ... تقـول هَزيـزُ الرّيـح مرّت بَـأَثْـأَبِ
لـه أَيْـطلا ظَبْيٍ وسـاقـا نعـامـةٍ ... وصَهوةُ عَيْرٍ قـائمٍ فوقَ مَـرْقَبِ(١)

وغنّى ابن مُحرِز:

فـللسَّـوطَ أُلـهـوبٌ ولـلسـاق دِرّةٌ ... وللزَّجْـر منه وَقْـعُ أَخـرجَ مُهْـذِبِ
فـأدرك لم يَجْهَـدْ ولم يُـبـلِ شَـدَّه ... يمُـرّ كخُـذْروف الـولـيـد المثقَّبِ
تَـذُبّ بـه طـوراً وطـوراً تُمـرُّه ... كـذَبّ البشِير بـالـرِّداءِ المَهَـدَّبِ
إذا ما ضربت الدَّفَّ أوصُلتُ صَولةً ... تَـرقَّبُ مني غيـرَ أدنى تَـرَقُّبِ(٢)

وغنىّ الغَريـض:

أخـائقـةٍ لا يلعن الحيُّ شخصَـه ... صَبُوراً على العِلّات غيـرَ مُسَبَّبِ

---

(١) وكناتها: أعشاشها. المذنب: مسيل الماء إلى الروضة. المنجرد: القصير الشعر، السريع في جريه. الأوابد: الوحوش، وقيد الأوابد: يريد أنه لسرعته يجعل الوحوش تقف في مكانها فكأنها مقيدة. لاحه: أهزله. الهوادي: الخيل السابقة المتقدمة. الشأو: الطلق وهو جري مرة إلى الغاية. المغرِّب: البعيد المدى. هزيز الريح: صوتها. الأثأب: شجر إذا تخللته الريح أصدرت صوتاً شديداً. الأيطل: الخاصرة. العير: حمار الوحش. المرقب: المكان المرتفع من الأرض.

(٢) الألهوب : العدو الشديد الذي يثير الغبار. للساق درة: أي إذا حرك بالساق زاد في عدوه. الأخرج: الذكر من النعام الذي اختلف ريشه في لونه. المهذب: الشديد العدو. الخذروف: لعبة للصبيان. تذب به: أي بذنب الناقة، وهذا البيت لعلقمة في وصف ناقته وقد اختلطت أشعار الشاعرين في هذا الغناء. المهدب: ذو الهدب، شبه تحريك الناقة لذنبها بتلويح البشير بالرداء المهدب. الدف: الجنب. ترقب: تلحظ السوط بمؤخر عينها خوفاً. غير أدنى ترقب: أي ترقباً شديداً.

رأينـا شِيـاهـاً يـرتَعيـن خميـلةً كَمَشْي العَذارى في المُلاء المُجَوَّبِ
ومـا أنت أم مـا ذِكـرُهـا ربَعيـةً تَحُـلّ بإيِـرٍ أو بـأكنـاف شُـرْبُب
أطعتُ الـوُشـاةَ والمُشاةَ بصَـرْمهـا فقـد أنهجتْ حِبالُهـا للتَّقَـطُّبِ(١)

فقالت جميلة: كُلُّكم مُحسِنٌ وكُلّكم مجيد في معناه ومذهبه. قال ابن عائشة: ليس هذا بمُقنِع دون التفصيل. فقالت: أما أنت يا أبا يحيى فتُضحك الثُّكلى بحُسن صوتك ومشاكلته للنفوس؛ وأما أنت يا أبا عبّاد فنَسيجُ وَحْدِك بجودة تأليفك وحسن نظمك مع عذوبة غنائك؛ وأما أنت يا أبا عثمان فلك أوَّلِيَّةُ هذا الأمروفضيلتُهُ؛ وأما أنت يا أبا جعفر فمع الخُلفاء تَصلحُ؛ وأما أنت يا أبا الخَطّاب فلو قدّمتُ أحداً على نفسي لقدّمتُك؛ وأما أنت يا مَولى العَبَلات فلو ابتدأت لقدَّمتُك عليهم. ثم سألوها جميعاً أن تغنّيَهم لحناً كما غنَّوا فغنَّتهم بيتاً لامرىء القيس وأربعة أبيات لعلقمةَ وهي:

خليليَّ مُـرّا بي على أمّ جُنـدَبِ أُقَضّ لُبـانـاتِ الفـؤاد المعـذَّبِ
ليـاليَ لا تبلَى نـصيحـةُ بينِنـا ليـاليَ حَـلُّوا بـالسِّتـار فغُـرَّبِ
مُـبَتّـلةٌ كـأن أنضـاء حَـلْيهـا على شـادنٍ من صـاحـةٍ مُتَربِّبِ
مَحـالٌ كـأجـواز الجَـراد ولـؤلؤٌ من القَـلَقيّ والـكَبيس المُـلَوَّبِ
إذا ألحم الـواشـون للشـرِّ بينَنـا تبلَّغ رَسُّ الحبّ غيـرُ المكـذَّبِ(٢)

---

(١) مسبب: مسبوب. الشياه:بقر الوحش. الخميلة: رملة فيها شجر. المجوب: ذو الجيوب. وما أنت أم ما ذكرها: يلوم نفسه على حب هذه المرأة. إير: جبل لغطفان وماء لبني نمير، شربب: واد في ديار ربيعة. أنهجت: خلقت وبليت. التقضب: التقطع.

(٢) الستار: جبل بعالية الحجاز. غرب: موضع تلقاء الستار. المبتلة: المكتنزة اللحم الضامرة الكشح. أنضاء الحلي: الدقيق اللطيف منه أراد القرطين والقلائد. الشادن: الظبي الذي قوي واستغنى عن أمه. صاحة: اسم لجبل أو لهضبتين بالبحرين. متربب: مربى. المحَال: ضرب من الحلي محزز. الجوز: وسط الشيء. القلقي: ضرب من القلائد المنظومة من اللؤلؤ. الكبيس: حلي =

فكُلّهـــم أقـــرّوا لها وفَضّلوها، فقالت لهم: ألا أحدّثكم بحديث يتمّ به حسنُ غنائكم وتمام اختياركم؟ قالوا: بلَى والله. قال الغريض: قد واللهِ فهمتُهُ يا سيدتي. قالت: لعنَكَ الله يا مُخنَّث، ما أجودَ فهمكَ وأحسنَ وجهَك! وما يُلام فيك أبو يحيى إذ عرفتَه، فهاتِه حَدِّثْنا. قال: يا سيدتي وسيدةَ مَن حَضر، والله لانطقتُ بحرف منه وأنت حاضرة، ولكِ الفضلُ والعُتْبَى. قالت: نازع امرؤ القيس علقمةَ بن عَبَدةَ الفحلَ الشعرَ فقال له: قد حكّمت بيني وبينك امرأتَكَ أمَّ جُنْدَب. قال: قد رضِيت. فقالت لهما: قُولا شعراً على رَويٍّ واحد وقافية واحدة صِفا فيه الخيل.

فقـــال امرؤ القيـــس:

خليليّ مُـــرّا بي على أمّ جُـنْـدَب أُقَضِّ لُبـانــات الفـؤاد المـعـذَّبِ

وقال علقمـــةُ:

ذهبتَ من الهِجرانِ في غير مَذهبِ ولم يـكُ حقّـاً كـلُّ هـذا التجنُّبِ

وأنشـــداهـــا فغَلّبت علقمة. فقال لها زوجها: بأيّ شيءٍ غَلَّبْتِه؟ قالت: لأنك قلت:

فـللسَّـــوط أُلْـهـــوبٌ ولـلسّـــاق دِرّةٌ وللزَّجـرْ منـه وقـعُ أهـوجَ مِنْعَبِ[1]

فَجَهَـــدْتَ فرسَك بسَوطك، ومَرَيْتَه[2] بساقك وزَجْرك وأتعبتَه بَجَهدك، وقال علقمـــة:

= يصاغ مجوّفاً ثم يحشى بالطيب ويضغط. الملوّب: المعطر بـالملاب. ألحم الشر: أثاره. الرس: الثابت الراسخ. تبلغ رس الحب: ثبت في القلب.

(١) هذه هي الرواية المشهورة لهذا البيت. المنعب: الأحمق المصوّت، والذي يمدّ عنقه أثناء العدو.

(٢) مرى الفرس: استخرج غاية عدوه.

فـولّى على آثـارهـنّ بحـاصـبٍ   وَغَبْيـة شُؤبـوبٍ من الشّـدّ مُلْهِبِ
فـأدركـهنّ ثـانيـاً مـن عِنـانـه   يَمُـرّ كَمَـرِّ الـرائـح المُتَحَلِّبِ[1]

فلم يضرب فرسَه بسَوط ولم يَمْرِه بساق ولم يُتعبْه بزَجر. فقال ابن عائشة: جُعِلتُ فِداك، أتأذنين أن أُحَدِّث؟ قالت: هِيه. قال: إنما تزوّج أمَّ جُندبَ حين هَرَب من المنذر بن ماء السماء فأتى جَبَلَي طيّىء، وكان مُفَرَّكاً[2]. فبينا هو معها ذاتَ ليلةَ إذ قالت له: قُم يا خيرَ الفِتيان فقد أصبحتَ. فلم يقُم، فكرّرت عليه، فقام فوجد الفجر لم يطلُع، فرجع فقال لها: ما حَملكِ على ما صنعتِ؟ فأمسكتْ، وألحّ عليها فقالت: حَملني أنك ثقيل الصدر، خفيف العجِيزة، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة. فعرَف تصديقَ قولها وسكت. فلمّا أصبح أتى علقمةَ وهو في خيمته وخلفَه أمُّ جُنْدَب، فتذاكروا الشعر، فقال امرؤ القيس: أنا أشعرُ منك. وقال علقمة مثلَ ذلك، فتحاكما إلى أمّ جُندب، ففضّلت أمُّ جُندب علقمةَ على امرىء القيس، فقال لها: بِمَ فَضّلتِه عليّ؟ قالت: فرسُ ابن عَبَدة أجودُ من فرسك: زجرتَ وضربت وحرّكت ساقَيك، وابنُ عَبَدة جامدٌ لا مقتدر. فغضب من قولها وطلّقها وخَلَف عليها عَلقمةُ. فقالت: جميلة: ما أحسنَ لو دام اجتماعُنا! ثم دعت بالغَداء، فأُتي بألوان الأطعمة وأنواع من الفاكهة. ثم قالت: لولا شناعةُ مجلِسنا لكان الشرابُ مُعَدّاً ولكنّ الليلَ بينَنا. فلم يزالوا يومَهم ذلك بأطيب مجلس وأحسن حديث. فلمّا جَنّهم الليلُ دعت بالشراب ودعت لكلّ رجلٍ منهم بعُود، وأخذت هي عوداً فضربتْ ثم قالت: اضرِبوا. فضربوا عليها بضربٍ واحد وغنّت بشعر امرىء القيس:

أأذكَـرتَ نفسَـك مـا لن يَعُـودا   فهـاج التـذاكُـرُ قـلبـاً عميـدا

(١) على آثارهن: يريد بقر الوحش. الحاصب: المطر العظيم القطر شبه به العدو الشديد. الغبية: المطرة الشديدة. الشؤبوب: الدفقة من المطر. الملهب: الذي يثير اللهب لشدة جريه واللهب هو الغبار الساطع. الرائح: السحاب الذي يأتي بالعشي ويكون غزير المطر. المتحلب: المتصبب.
(٢) المفرّك: المبغض من النســـاء.

تذكرتَ هنداً وأترابَها ... وأيامَ كنتَ لها مُستقيدا
ويُعجبك اللهوُ والمُسمعاتُ ... فأصبحت أزمعتَ منها صُدودا
ونادمتُ قيصرَ في مُلكه ... فأوجَهني وركبتُ البَريدا(١)

فما سمع السامعون بشيء أحسن من ذلك. ثم قالت: تَغَنَّوا جميعاً بلحنٍ واحد، فغنّوها هذا الشعر، والصوتَ بعينه كما غَنَّتْه؛ وعلم القوم ما أرادت بهذا الشعر فقال ابنُ عائشة: جُعلتُ فِداكِ، نرجو أن يدومَ مجلسُنا ويُؤثرَ أصحابُنا المُقام بالمدينة فنُواسيهم من كل ما نملِكُه. قال أبو عبّاد: وكيف بذاك؟ فباتوا بأنعم ليلة وأحسنها. قال إسحاق: قال أبي قال لي يونس: قال أبو عبّاد: لا أعرف يوماً واحداً منذ عقَلتُ ولا ليلةً عند خليفة ولا غيرِه مثلَ ذلك اليوم، ولا أحسَبه يكون بعدُ. قال يونس: ولا أدركنا نحن مثلَ ذلك اليوم ولا بلَغنا. قال إسحاق: ولا أنا، ولا أحسب ذلك اليومَ يكون بعدُ.

● يونس قال : قال لي أبو عبّاد:

أتيتُ جميلة يوماً وكان لي موعدٌ ظننت أنّي سبقت الناسَ إليها، فإذا مجلسُها غاصٌّ، فسألتُها أن تُعلّمني شيئاً فقالت لي: إنّ غيرك قد سَبَقك ولا يجمُل تقديمُك على مَن سِواك. فقلت: جُعلتُ فِداكِ، إلى متى تفرُغين ممّن سَبقني.؟ قالت: هو ذاك، الحقُّ يَسَعُك ويَسَعُهم. فبينا نحن كذلك إذا أقبل عبدُ الله بن جعفر - وإنه لأوّلُ يوم رأيته وآخرُه وكنت صغيراً كَيِّساً - وكانت جميلةُ شديدةَ الفرح، فقامت وقام الناسُ، فتلَّقَتْه وقَبّلت رجليه ويديه، وجلس في صدر المجلس على كَوم لها وتحوَّق أصحابُه حولَه، وأشارت إلى من عندها بالانصراف، وتفرّق الناسُ، وغمزتْني أن لا أبرَح، فأقمت، قالت: يا سيّدي وسيّد آبائي ومَواليَّ، كيف نَشِطتَ إلى أن تنقُلَ قدمَيك إلى أَمَتِك؟ قال: يا جميلةُ، قد علمتُ ما آليتِ على نفسك ألّا تغنّي أحداً إلّا في منزلك

(١) العميد: من هدّه الحب والحزن. استقاد له: انقاد له وذلّ. أوجهه: شرّفه وجعله وجيهاً.

وأحببت الاستماع، وكان ذلك طريقاً ماداً فسيحاً. قالت: جُعلتُ فداك، فأنا أصيرُ إليك وأُكَفِر. قال: لا أُكَلِّفكُ ذلك، وبلغني أنك تغنّين بيتين لامرىء القيس تجيدين الغناءَ فيهما، وكان اللهُ أنقذَ بهما جماعةً من المسلمين من الموت. قالت: يا سيّدي نعم. فاندفعت تغنّي فغنّت بعُودها، فما سمعت منها قبلَ ذلك ولا بعدُ إلى أن ماتت مثلَ ذلك الغناء، فسَبّح عبدُ الله بن جعفر والقومُ معه. وهما:

ولمّـا رأتْ أنّ الشَـريعـةَ هَمُّهـا وأنّ البيـاضَ من فَرائصهـا دامي
تَيمّمتِ العينَ التي عنـد ضـارجٍ يفيءُ عليها الظلُّ عَرَمَضُها طامي[1]

فلمّا فرغت قالت جميلة: أيْ سيّدي أَزيدُك؟ قال: حَسْبي. فقال بعضُ من كان معه: بأبي جُعلت فداك! وكيف أنقذ الله من المسلمين جماعةً بهذين البيتين؟ قال: نعم. أقبل قومٌ من أهل اليمن يريدون النبيَّ ﷺ فضَلُّوا الطريق ووقعوا على غيرها ومكَثوا ثلاثاً لا يقدِرون على الماء، وجعل الرجلُ منهم يَستذري[2] بفَيء السَّمُرُ والطَّلْح يائساً من الحياة، إذ أقبل راكبٌ على بعيرٍ له، وأنشد بعض القوم هذين البيتين... فقال الراكب: من يقول هذا؟ قال: امرؤ القيس. قال: واللهِ ما كذَب، هذا ضارجٌ عندكم. وأشار لهم إليه، فحبَوا على الرُّكَب، فإذا ماءٌ عَذْبٌ وإذا عليه العَرَمَضُ والظلُّ يفيءُ عليه، فشربوا منه رِيَّهم وحملوا ما اكتفَوا به حتى بلغوا الماء، فأتوا النبيَّ ﷺ فأخبروه وقالوا: يا رسولَ الله، أحيانا اللهُ عزّ وجلّ ببيتين من شعر امرىء القيس. وأنشدوه الشعر، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك رجلٌ مذكورٌ في الدنيا شريفٌ فيها، مَنسيٌّ في الآخرة خاملٌ فيها، يجيءُ يومَ القيامة معه لواءُ الشعراء إلى النار». فكلٌّ استحسن

---

(١) الشريعة: مورد الماء الذي تشرب منه الدواب. همها: طلبها. الفرائص ج فريصة: ما بين الكتف والصدر. والشاعر يتحدث هنا عن حمر الوحش التي كانت تقصد مورد الماء ولكنها تخشى سهام الرماة أن تدمي فرائصها. ضارج: موضع بين اليمن والمدينة. العرمض: الطحلب. الطامي. العالي.

(٢) يستذري: يستظـل.

الحديث، ونهض عبد الله بن جعفر ونهض القومُ معه، فما رأيت مجلساً كان أحسنَ منـــه.

● الحسن بن عُتبة اللهبيّ قال:

حـدّثني من رأى ابن أبي عَتيق وابن أبي ربيعة والأحـوصَ بنَ محمد الأنصاريّ، وقد أتَوا منزل جميلة، فاستأذنوا عليها فأذِنت لهم، فلمّا جلسوا سألت عمرَ وأَحْفت فقال لها: إني قصدتُكِ من مكّة للسّلام عليكِ. فقالت له: أهلُ الفَضل أنتَ. قال: وقد أحببتُ أن تُفرِّغي لنا نفسَك اليومَ وتُخلي لنا مجلسَك. قالت: أَفعل. قال لها الأحوص: أُحبّ ألّا تغنّي إلّا ما أسألكِ. قالت: ليس المجلس لك، والقوم شركاؤكَ فيه. قال: أجل. قال عمر: إن تُرِد أن تفعلَ ذلك بك يكُنْ. قال الأحوص: كلّا. قال عمر: فإنّي أرى أن نجعلَ الخِيارَ إليها. قال ابن أبي عتيق: وَفّقك الله. فدعت بالعود وغنّت:

تمشي الهُـوَينىَ إذا مشتْ فُضُـلاً ... مشيَ النزيفِ المخمور في الصُعُـدِ
تـظَلّ مـن زَور بيـت جـارتـهـا ... واضعـةً كفَّهـا عـلى الـكبِـدِ
يـا مَـن لِقـلبٍ مُتَـيَّـم سَـدِمٍ ... عـانٍ رهـيـنٍ مُـكَـلَّمٍ كَـمِـدِ
أزجُـرُه وهـو غـيـرُ مُـزْدَجِـرٍ ... عنهـا وطَرفي مُكَحَّـلُ السُّهَـدِ(١)

فلقـــدسُمعـــتْ للبيت زَلزلةٌ وللدار همهمةٌ، فقال عمر: لله درُّكِ يا جميلة! ماذا أُعطيتِ! أنت أول الغناء وآخره! ثم سكتت ساعةً وأخذوا في الحديث، ثم أخذت العود وغنّت:

شَطّتْ سُعادُ وأمسى البَيْنُ قـد أفِدا ... وأورثُـوكَ سَقـامـاً يصـدَعُ الكبِـدا
لا أستطيع لهـا هجـراً ولا تِـرةً ... ولا تـزال أحـاديثي بهـا جُـدُدا(٢)

---

(١) فضلًا : أي متبذلة في ثوب واحد. النزيف: السكران. الصعد: جمع صعيد وهو وجه الأرض أو جمع الصَّعود (بفتح الصاد) وهو المكان الصاعد. السّدم: الشديد الهم.

(٢) شطت : بعدت. أفد : حان ودنا.

فاستخفّ القومَ أجمعين وصَفّقوا بأيديهم وفَحَصوا بأرجُلهم وحرّكوا رؤوسَهم وقالوا: نحن فِداؤكِ من السُّوء ووِقاؤك من المكروه، ما أحسنَ ما غنّيتِ وأجملَ ما قلت! وأُحضر الغَداءُ فتغدّى القومُ بأنواعٍ من الأطعمة الحارّة والباردة ومن الفاكهة الرَّطْبة واليابسة، ثم دعت بأنواع من الأشربة، فقال عمر: لا أَشرب. وقال ابنُ أبي عتيق مثل ذلك، فقال الأحوصُ: لكنّني أشرب، وما جزاءُ جميلة أن يُمتَنع من شَرابها! قال عمر: ليس ذلك كما ظننتَه. قالت جميلة: من شاء أن يحملَني بنفسه ويخلِطَ رُوحي بروحه شكرناه، ومَن أبى ذلك عَذَرناه ولَم يسنَعْه ذلك عندنا ما يريد من قضاء حوائجه والأُنس بمحادثته. قال ابنُ أبي عتيق: ما يَحسُن بنا إلاّ مُساعدتُكِ. قال عمر: لا أَكون أَخَسَّكم، افعلوا ما شئتم تجدوني سميعاً مُطيعاً. فشرب القومُ أجمعون، فغنّت صوتاً بشعر عمر:

ولقد قالت لجاراتٍ لها ... كالَمها يَلعبنَ في حُجْرَتِها
خذن عنّي الظِّلَّ لا يَتْبَعُني ... ومضتْ تسعى إلى قُبَّتها
لم تُعانقْ رجلاً فيما مضى ... طَفْلَةٌ غيداءُ في حُلّتها
لم يطِشْ قطُّ لها سهمٌ ومَن ... تَرمه لا ينجُ من رَمْيتها(١)

فصاح عمر: وَيلاه! ويلاه! ثلاثاً، ثم عمد إلى جَيب قميصه فشقّه إلى أسفله فصار قَباءً، ثم آب إليه عقلُه فندم واعتذر وقال: لم أملِكْ من نفسي شيئاً. قال القوم: قد أصابنا كالذي أصابك وأُغمي علينا غيرَ أنّا فارقناك في تخريق الثياب. فدعت جميلةُ بثياب فخلعتْها على عمر، فقبِلها ولبِسها، وانصرف القوم إلى منازلهم. وكان عمر نازلاً على ابن أبي عتيق فوجّه عمر إلى جميلة بعشرة آلاف درهم وبعشرة أثوابٍ كانت معه، فقبلتْها جميلة. وانصرف عمرُ إلى مكة جذلانَ مسروراً.

● أخبرني من يفهم الغناء قال:

---

(١) الطفلة : الفتاة الناعمة اللينة الأطراف. الغيداء: المتثنّية ليناً.

بلَغني أن جميلة قعدتْ يوماً على كُرسيّ لها وقالت لآذِنتها: لا تحجُبي عنا أحداً اليومِ واقعدي بالباب فكلّ من يمرّ بالباب فاعرِضي عليه مجلسي. ففعلت ذلك حتى غصّت الدارُ بالناس، فقالت جميلة: اصعَدوا إلى العَلاليّ. فصعِدت جماعةٌ حتى امتلأت السُّطوح، فجاءتها بعضُ جواريها فقالت لها: يا سيدتي، إن تمادى أمرُكِ على ما أرى لم يبق في دارك حائطٌ إلاّ سقط، فأَظهري ما تريدين. قالت: اجلِسي. فلمّا تعالى النهارُ واشتدّ الحرّ استسقى الناسُ الماء فدعتْ لهم بالسَّويق[1]، فشرب من أراد فقالت: أقسمت على كل رجلٍ وامرأة دخل منزلي إلاّ شرب، فلم يبق في سُفْل الدار ولا عُلوها أحدٌ إلاّ شرب، وقام على رؤوسهم الجَواري بالمناديلِ والمراوح الكِبار، وأمرت جواريها فقُمن على كراسيّ صِغارٍ فيما بين كل عشرة نفرٍ جاريةٌ تُرَوِّح. ثم قالت لهم: إني قد رأيت في منامي شيئاً أفزعَني وأَرعبني، ولست أعرف ما سببُ ذلك، وقد خِفت أن يكون قَرُب أَجَلي، وليس ينفعني إلاّ صالُح عملي، وقد رأيت أن أترك الغناء كراهةَ أن يلحقَني منه شيءٌ عند ربّي. فقال قوم منهم: وفَّقك اللهُ وثَبَّت عَزْمَكِ. وقال آخرون: بل لا حَرَجَ عليك في الغناء. وقال شيخٌ منهم ذو سِنٍّ وعلم وفِقه وتجرِبة: قد تكلمت الجماعةُ، وكلُّ حزب بما لديهم فرِحُون، ولم أعترض عليهم في قولهم ولا شَرِكْتُهم في رأيهم، فاستمعوا الآن لقولي وأَنصِتوا ولا تشغَبُوا إلى وقت انقضاء كلامي، فمنَ قبِل قولي فاللهُ مُوفِّقهُ، ومن خالَفه فلا بأسَ عليه إذ كنتُ في طاعة ربّي. فسكت القومُ جميعاً، فتكلم الشيخ فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمد النبيّ ﷺ ثم قال: يا معشرَ أهل الحجاز، إنكم متى تخاذلتم فَشِلتُم ووثب عليكم عدوُّكم وظفِر بكم ولا تُفلحوا بعدها أبداً، إنكم قد انقلبتم على أعقابكم لأهل العراق وغيرهم ممّن لا يزال يُنكر عليكم ما هو وارثُه عنكم، لا يُنكره عالِمكُم ولا يدفعُه عابدُكم بشهادة شريفكم ووَضيعكم يندب إليه كما يندب جموعكم وشرفكم وعزّكم. فأكثرُ ما يكون عند عابدكم فيه الجلوسُ عنه لا للتحريم له لكن للزُّهد في الدنيا، لأن

---

(١) السويق : شراب يتخذ من الحنطة والشعير.

الغِناء من أكبر اللذّات وأَسَرُّ للنفوس من جميع الشَهَوات، يُحيي القلب، ويزيد في العقل ويَسُرّ النَّفْسَ ويَفسَح في الرأي ويتيسّر به العسيرُ وتفتح به الجيوش ويُذلّل به الجبّارون حتى يَمتهنوا أنفسهم عند استماعه، ويُبرىء المَرضى ومَن مات قلبُه وعقله وبصره، ويزيد أهلَ الثروة غنىً وأهل الفقر قَناعةً ورضاً باستماعه فيعزِفون عن طلب الأموال، من تمسّك به كان عالماً ومن فارقه كان جاهلاً، لأنه لا منزلةَ أرفعُ ولا شيء أحسنُ منه، فكيف يُستصوَبُ تركُه ولا يُستعان به على النشاط في عبادة ربّنا عزّ وجلّ. وكلامٌ كثير غيرُ هذا ذهب عن المحدِّث به، فما ردّ عليه أحدٌ ولا أنكر ذلك منهم بشَرٌ، وكلٌّ عاد بالخطأ على نفسه وأقرّ بالحقّ له. ثم قال لجميلة: أَوَعَيتِ ما قلتُ ووقع من نفسك ما ذكرتُ؟ قالت: أجلْ، وأنا أستغفر الله. قال لها: فاختِمي مجلِسَنا وَفرِّقي جماعَتنا بصوتٍ فقط. فغنّت:

أفي رسم دارٍ دمعُك المترقرِقُ سَفاهاً وما استنطاقُ ما ليس يَنطقُ
بحيث التقى جمعٌ وأقصى مُحَسِّرٌ مَغانيه قد كادت عن العهد تخلُق
مقامٌ لنا بعد العِشاء ومنزلٌ به لم يُكدِّرْه علينا مُعوِّقُ
فأحسن شيءٍ كان أوّلُ ليلنا وآخِرُه حزنٌ إذا نتفرّق(1)

فقال الشيخ: حسنٌ والله! أمثلُ هذا يُترَك! فيم يتشاهد الرجالُ! لا والله ولا كرامةَ لمن خالف الحق. ثم قام وقام الناسُ معه، وقال: الحمدُ لله الذي لم يُفرِّق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جُحود فضيلته، وسلامٌ عليكِ ورحمةُ الله يا جميلة.

● وقال أبو عبد الله:

جلست جميلةُ يوماً ولبست بُرنُساً طويلاً، وألبست من كان عندها بَرانسَ دون ذلك، وكان في القوم ابنُ سُريج، وكان قبيحَ الصَّلَع قد اتّخذ وَفْرة شَعر يضعها على رأسه، وأحبّت جميلة أن ترى صَلَعتَه، فلمّا بلغ البرنُس إلى ابن

---

(1) جمع: علم للمزدلفة. محسر: واد بين منى والمزدلفة.

سُريج قال: دَبّرتِ عليّ وربِّ الكعبة! وكشف صَلعَته ووضع القَلَنْسية على رأسه، وضحك القوم من قُبح صَلَعته. ثم قامت جميلة ورقصت وضربت بالعُود وعلى رأسها البُرنُس الطويل وعلى عاتقها بُردةٌ يمانية وعلى القوم أمثالُها، وقام ابنُ سريج يرقُص ومعبدٌ والغَريض وابن عائشة ومالكٌ وفي يد كلّ واحدٍ منهم عودٌ يضرِب به على ضرب جميلة ورَقصها، فغنّت وغنّى القومُ على غنائها:

ذهب الشبابُ وليته لم يذهب   وعَلا المَفَارقَ وَقْعُ شيبٍ مُغْرَبِ
والغانياتُ يُردنَ غيرَك صاحباً   ويَعِدْنك الهِجران بعد تقرُّب
إني أقول مقالةً بتجارِبٍ   حقّاً ولم يُخبِرْك مثلُ مُجَرِّب
صافِ الكريم وكُن لعرضك صائناً   وعن اللئيم ومثلِه فتَنكَّبِ(١)

ثم دعت بثيابٍ مُصَبَّغة ووفرة شعر مثلِ وفرةِ ابن سُريج فوضعتْها على رأسها، ودعت للقوم بمثل ذلك، فلبسوا، ثم ضربتْ بالعود وتمشّت وتمشّى القومُ خلفَها، وغنّت وغنّوا بغنائها بصوت واحد:

يمشِين مَشْيَ قطا البِطاح تَأوُّداً   قُبَّ البطونِ رَواجحَ الأكفالِ
فيهنّ آنسةُ الحديث حَيِيَّةٌ   ليست بفاحشةٍ ولا مِتْفَالِ
وتكون رِيقتُها إذا نَبَّهْتَها   كالمسك فوق سُلافةِ الجِريالِ(٢)

ثم نَعَرت ونَعَر القومُ طرباً، ثم جلستْ وجلسوا وخلعوا ثيابها ورجعوا إلى زِيّهم، وأذِنت لمن كان ببابها فدخلوا، وانصرف المغنّون وبقي عندها من يُطارحُها من الجواري.

● حدّثتني عمّتي قالت: سمعتُ سِياطاً يُحدّث أباك يوماً بأحاديث جميلة فقال:

---

(١) مغرب: أبيض.
(٢) القِب ج أقب: الضامر البطن. المتفال: من تغيرت رائحتها. الجريال: الخمرة.

بنفسي هي وأمي! فما كان أحسنَ وجهَها وخَلْقَها وغناءها! ما خَلّفت النساءُ مثلَها شبيهاً. فأعجبني ذلك. ثم قال سياط: جلست جميلةُ يوماً للوفادة عليها، وجعلت على رؤوس جواريها شعوراً مُسْدَلةً كالعناقيد إلى أعجازهنّ، وألبستْهنّ أنواع الثياب المصبَّغة، ووضعت فوق الشعور التِيجانَ، وزيَّنَتْهنّ بأنواع الحليّ، ووجّهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيره، وقالت لكاتب أملت عليه: «بأبي أنت وأميّ! قدرُك يجِلُّ عن رسالتي، وكرمُك يحتمل زَلَّتي، وذنبي لا تُقال عَثرتُه ولا تُغفر حَوْبَتُه[1]؛ فإن صفحتَ فالصَفحُ لكم معشرَ أهل البيت يُؤثَر، والخيرُ والفضل كلُّه فيكم مُدَّخرٌ، ونحن العبيدُ وأنتم الموالي، فطُوبى لمن كان لكم مُقارِباً، وإلى وجوهكم ناظراً، وطُوبى لمن كان لكم مجاوراً، وبعزّكم قاهراً، وبضيائكم مُبصراً، والويلُ لمن جهل قَدْركم ولم يعرف ما أوجبه اللهُ على هذا الخَلق لكم، فصغيرُكم كبيرٌ بل لا صغيرَ فيكم، وكبيرُكم جليل بل الجلالةُ التي وَهَبها اللهُ عزّ وجلّ للخَلق هي لكم ومقصورةٌ عليكم. وبالكتاب نسألك وبحقّ الرسول ندعوك إن كنت نشيطاً لمجلس هَيّأتُه لك لا يحسُن إلاّ بك ولا يتمّ إلا معك، ولا يصلحُ أن يُنقَل عن موضعه ولا يُسلَك به غيرُ طريقه.» فلمّا قرأ عبد الله الكتاب قال: إنّا لَنعرفُ تعظيمَها لنا وإكرامها لصغيرنا وكبيرنا، وقد علمت أنها قد آلت أليّةً[2] ألّا تغنّي أحداً إلّا في منزلها. وقال للرسول: والله قد كنتُ على الرُّكوب إلى موضع كذا وكان في عزمي المرورُ بها، فأمّا إذ وافق ذلك مُرادَها فإني جاعلٌ بعد رجوعي طريقي عليها.

فلمّا صار إلى بابها أدخل بعضَ من كان معه إليها وصَرَف بعضَهم، فنظر إلى ذلك الحُسن البارع والهيئة الباذّة[3]، فأعجبه ووقع من نفسه فقال: يا جميلةُ، لقد أُوتيتِ خيراً كثيراً، ما أحسنَ ما صنعتِ! فقالت: يا سيّدي، إن

---

(١) الحوبة : الذنب .
(٢) الأليّة : القسم.
(٣) الباذة : الفائقة.

الجميل للجميل يصلُح، ولك هيّات هذا المجلس. فجلس عبد الله بن جعفر وقامت على رأسه وقام الجواري صَفَّين، فأقسم عليها فجلستْ غيرَ بعيدٍ، ثم قالت: يا سيّدي، ألا أُغَنّيك؟ قال: بلى. فغنّت:

بني شَيْبَةِ الحَمْدِ الذي كان وجهُهُ يُضيءُ ظَلامَ الليلِ كالقمر البدرِ
كُهولُهم خيرُ الكهولِ ونَسْلُهم كنسلِ الملوك لا يَبورُ ولا يَحري
أبو عُتبةَ المُلقي إليك جمالَه أغرُّ هِجانُ اللون من نَفرٍ زُهْرِ
لِساقي الحجيج ثم للخَير هاشمٍ وعبدِ مَنافٍ ذلك السيِّد الغَمْرِ
أبوكم قُصَيٌّ كان يُدعَى مُجمِّعاً به جَمّع اللهُ القبائلَ من فِهْرِ[1]

فقال عبد الله: أحسنت يا جميلةُ وأحسن حُذافة ما قال! بالله أعيديه عليَّ. فأعادتْه، فجاء الصوتُ أحسنَ من الارتجال. ثم دعت لكل جارية بعودٍ وأمرتْهنّ بالجلوس على كراسي صغارٍ قد أعدّتْها لهنّ، فضربن وغنّت عليهنّ هذا الصوتَ وغنّى جواريها على غنائها. فلمّا ضربن جميعاً قال عبد الله: ما ظننتُ أنّ مثلَ هذا يكون، وإنه لمّما يفتِن القلب! ولذلك كرهه كثيرٌ من الناس لِما علِموا فيه. ثم دعا ببَغْلته فركبها وانصرف إلى منزله. وقد كانت جميلة أعدّت طعاماً كثيراً، وكان أراد المُقام، فقال لأصحابه: تخلَّفُوا للغَداء. فتغَدَّوا وانصرفوا مسرورين.

وهذا الشعر لحُذافة بن غانم... يمدح به عبد المطّلب.

● قال يونُس بن محمد:

كان الأحوص معجَباً بجميلة، ولم يكن يكاد يفارق منزلها إذا جلست. فصار إليها يوماً بغلامٍ جميل الوجه يفتِن مَن رآه، فشَغل أهلَ المجلس وذهبت اللُّحونُ عن الجواري وخَلَطن في غنائهنّ. فأشارت جميلةُ إلى الأحوص أن أَخرِج الغلام فالخَلل قد عمّ مجلسي وأفسد عليَّ أمري. فأبى الأحوص

(١) شيبة الحمد: لقب عبد المطلب بن هاشم. يحري: ينقص. هجان اللون: أبيض اللون. ساقي الحجيج: هو عبد المطلب بن هاشم. الغمر: الكريم الواسع الخلق.

وتغافل ـ وكان بالغلام معجباً فآثر لذّته بالنظر إلى الغلام مع السّماع ـ ونظر الغلام إلى الوجوه الحِسان من الجواري ونظرن إليه، وكان مجلساً عامّاً. فلمّا خافت عاقبة المجلس وظهورَ أمره أمرت بعضَ مَن حضر بإخراج الغلام، فأُخرج، وغضب الأحوص وخرج مع الغلام ولم يقل شيئاً. فأحمد[1] أهلُ المجلس ما كان من جميلة وقال لها بعضُهم: هذا كان الظنّ بك، أكرمك الله! فقالت: إنه والله ما استأذنني في المجيء به ولا علمتُ به حتى رأيته في داري، ولا رأيت له وجهاً قبل لَك، وإنه لَيعزّ عليّ غضبُ الأحوص ولكنّ الحقّ أَولى، وكان ينبغي له ألاّ يُعرّضَ نفسه وإيّاي لما نَكْرَهُ مثلَه. فلمّا تفرّق أهلُ المجلس بعثتْ إليه: الذنبُ لك ونحن منه بُرءاء، إذ كنت قد عَرَفت مذهبي، فلمَ عَرَّضْتَني للذي كان، فقد ساءني ذلك وبلغ مني ولكن لم أجد بُدّاً من الذي رأيت إمّا حياءً وإمّا تصنُّعاً. فردّ عليها: ليس هذا بعُذر إن لم تجعلي لي وله مجلساً نخلُو فيه جميعاً تمحِين فيه ما كان منك. قالت: أَفعل ذلك سرّاً. قال الأحوص: قد رضِيتُ. فجاءاها ليلاً، فأكرمتْهما ولم تُظهر واحدةً من جواريها على ذلك إلاّ عجائزَ من مَواليها. وسألها الأحوصُ وأقسم عليها أن تُغنّيه من شعره:

وبالقَهْر دارٌ من جميلةَ هيَّجتْ ... سَوالفَ حُبٍّ في فُؤادكَ مُنصِبِ
وكانت إذا تنأَى نوًى أو تفرَّقتْ ... سِدادُ الهوى لم تدرِ ما قولُ مِشْغَبِ
أسيلةُ مَجرى الدمع خُمْصانةُ الحَشا ... بَرُودُ الثّنايا ذاتُ خَلقٍ مُشَرعَبِ
ترى العينُ ما تهوى وفيها زيادةٌ ... من الحسن إذ تبدو ومَلهىً لِمُلْعِبِ[2]

قال يونس: ما لها صوتٌ أحسنُ منه، وابنُ مُحرِز يغنّيه وعنها أخذه، وأنا أغنّيه فتعجبني نفسي ويدخلني شيءُ لا أعرفه من النَّخوة والتِّيه.

* * * * *

---

(١) أحمد الأمر: وجده محموداً.

(٢) المشغب: المعاند في الحق والمشاغب، وفي بعض الأصول: لم تدر ما متشعبي، أي مذهبي. خمصانة الحشا: ضامرة البطن. مشرعب: طويل. ألعب المرأة: حملها على اللعب. وأبو الفرج يذهب إلى أن هذه الأبيات ليست للأحوص وإنما هي لطفيل الغنوي.

[٢٠]

حَبَابة

[الأغاني الجزء ١٥ ص ١٢٢ وما بعدها والجزء ، ٢٠ ص ٣٢٦]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت حَبابةِ مُولّدةً من مولّدات المدينة لرجلٍ من أهلها يُعرَف بابن رُمّانة - وقيل ابن مينا - وهو خَرّجها وأدّبها، وقيل: كانت لآل لاحق المكيّين. وكانت حلوةً جميلة الوجه، ظريفةً، حسنة الغناء، طيّبة الصوت، ضاربةً بالعود. وأخذت الغناء عن ابن سُريج، وابن مُحرِز، ومالك، ومَعبد، وعن جميلة وعَزّة المَيْلاء. وكانت تُسمّى «العالية» فسمّاها يزيد لمّا اشتراها حَبابة.

شراء يزيد بن عبد الملك حبابة

عن المدائنيّ:

أنّ حَبابة كانت تُسمّى «العالية»، وكانت لرجلٍ من الموالي بالمدينة. فقدِم يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان فتزوّج سَعْدة بنت عبد الله بن عمرو بن

عثمان على عشرين ألف دينار، وربيحة بنت محمد بن عليّ بن عبد الله بن جعفر على مثل ذلك، واشترى العالية بأربعة آلاف دينار. فبلغ ذلك سليمان فقال: لأَحْجُرنّ عليه. فبلغ يزيدَ قولُ سليمان فاستقال مولى حَبابة، ثم اشتراها بعد ذلك رجلٌ من أهل إفريقية، فلمّا ولي يزيد اشترتْها سَعدةُ امرأتُهُ وعلمت أنه لا بدَّ طالبُها ومشتريها. فلمّا حصَلت عندها قالت له: هل بقي عليك من الدنيا شيءٌ لم تَنلْه. فقال: نعم، العالية. فقالت: هـذه هي، وهي لك. فسَمّاها حَبابة، وعظُم قَدْرُ سَعدة عنده.. وقيل إن أمّ الحّجاج أم الوليد بن يزيد هي التي ابتاعتْها له...

● عن إسماعيل بن أبي أُوَيس عن أبيـه قال:

قال لي يزيد بن عبد الملك: ما تَقَرُّ عيني بما أُوتيتُ من الخلافة حتى أشتريَ سَلاّمَةَ جاريةَ مصعَب بن سهيل الزُّهريّ، وحَبَابة جاريةَ لاحقٍ المكّيَة. فأرسل فاشتُريتا له. فلمّا اجتمعتا عنده قال: أنا الآنَ كما قال القائل:

فألقت عصاها واستقرّت بها النّوَى ... كما قرّ عيناً بالإيابِ المُسافِرُ

● قال إسحاق: وأخبرني الزبيريّ أن يزيد اشتراها وهو أمير، فلمّا أراد الخروجَ بها قال الحارث بن خالد فيها:

قد سُلّ جسمي وقد أَودى به سَقَمُ ... من أجلِ حيٍّ جَلَوا عن بلدة الحَرَمِ
يحِنُّ قلبي إليهـا حين أَذكُرُهـا ... ومـا تـذكّرتُ شـوقاً آب من أَمَمِ
إلا حنينـاً إليـهـا إنّهـا رَشَـأٌ ... كـالشمس رُودٌ ثَقـالٌ سهلةُ الشِيَمِ
فضَّلهـا اللهُ ربُّ النـاس إذ خُلقتْ ... على النساء من اهل الحزم والكَرمِ (١)

وقال فيها الشعراء فأكثروا، وغنّى في أشعارهم المغنّون من أهل مكة والمدينة. وبلغ ذلك يزيدَ فاستشنعه فقال: هذا قبلَ رِحلتنا وقد هممنا فكيف لـ

(١) آب: عاد. من أمم: من قرب. الرؤد: الشابة الحسنة. الثقال: العظيمه الكفل.

ارتحلْنا، وتذكر القومُ شدّة الفراق! وبلغه أيضاً أن سليمان قد تكلّم في ذلك، فردَّها، ولم تزل في قلبه حتى مَلَك، فاشترتْها سَعدةُ امرأتُهُ العثمانية ووهبتْها لـــه.

طائفة من أخبارها

● عمــر بن شَبّــة قـــال:

إن مَسلمة (بن عبد الملك) أقبل على يزيد يلومه في الإلحاح على الغناء والشرب وقال له: إنك وَليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله، وقد تشاغلتَ بهذه الأَمَة عن النظر في الأمور، والوفودُ ببابك، وأصحابُ الظُّلامات يصيحون وأنت غافلٌ عنهم! فقال: صدقْتَ واللهِ. وأَعتَبه[1] وهمّ بترك الشُّرب، ولم يدخل على حبابةَ أياماً. فدسّت حبابةُ إلى الأحوص أن يقول أبياتاً في ذلك، وقالت له: إن رددتَه عن رأيه فلك ألفُ دينار. فدخل الأحوصُ إلى يزيد، فاستأذن في الإنشاد، فأذن له، فقال الأحوص:

ألا لا تَـلُمْــه الـيــومَ أن يـتـبـلَّدا   فقــد غُلب المحــزونُ أن يتجـلَّدا
بكَيتُ الصِّبا جُهدي فمن شاء لامني   ومن شاء آسى في البكاء وأَسْعـدا
وإنّي وإنْ فُنِّـدْتُ في طلبَ الصِّبـا   لأَعلمُ أنّي لستُ في الحبِّ أَوحَدا
إذا أنت لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى   فكن حجَراً من يابس الصَّخر جَلْمَدا
فمـــا العيش إلاّ مـــا تَلَذُّ وتشتـهي   وإن لام فيـه ذو الشَّنـانِ وَفَنّــدا[2]

قال : ومكث جمعةً لا يرى حَبابة ولا يدعو بها، فلمّا كان يومُ الجمعة قالت لبعض جواريها: إذا خرج أميرُ المؤمنين إلى الصلاة فأَعلِميني. فلمّا أراد

---

(١) أعتبــه : أرضاه وأزال عتبـــه.
(٢) التبلد : نقيض التجلد. أسعد : أسعف وأعان. التفنيد: التكذيب والتخطئة في القول والرأي. في المطبوعة: في طلب الغنى. والمعنى لا يناسب السياق، وقد آثرنا رواية الديوان. الشنان والشنآن: العداوة والبغض.

الخروجَ أَعلَمَتْها، فَتَلَقتـه والعودُ في يدها، فغنّت البيت الأول، فَغَطّى وجهَه وقال: مَهْ، لا تفعلي. ثم غَنَّتْ:

«وما العيـشُ إلا ما تَلَذّ وتشتهـي»

فَعَـــدل إليـها فقال يزيد: صدقتِ واللهِ، فعَلَى مَسَلمةَ لعنةُ الله! وعاود ما كان فيـــه....

● عن أبي بكر بن عَيّاش: أنّ حَبابة وسَلاّمة اختلفتا في صوت معبد:

ألا حـيّ الدّيارَ بـسُـعْـدَ إنّـي أحبّ لِحبِّ فـاطمـةَ الـدِّيـارا[1]

فبعــث يزيــد إلى معبد فأتى به، فسأل: لمَ بَعَثَ إليه؟ فأُخبِر. فقال: لِأَيَّتِهما المنزلةُ عند أمير المؤمنين؟ فقيل: لحبابة، فلمّا عَرَضتا عليه الصوت قَضَى لحبابة، فقالت سلاّمة: واللهِ ما قَضَى إلاّ للمنزلة، وإنه لَيعلم أنّ الصوابَ ما غَنّيت، ولكن ائذَنْ لي يا أمير المؤمنين في صِلته لأنّ له عليَّ حقّاً. قال: قد أذنت. فكان ما وصلتْه به أكثرَ من حَبَابة.

● قال الزبيــر : وحدّثتني ظَبيةُ أن يزيد قال لحبابةَ وسَلاّمة: أيّتُكما غَنَّتْني ما في نفسي فلها حُكْمُها. فغنّت سلاّمة فلم تُصِب ما في نفسه، وغنَّتْه حَبَابة:

حِـلَقٌ من بـنـي كِـنـانـةَ حَـولـي بفِلَسـطينَ يُسـرعـون الـرُّكـوبـا

فأصابـــت ما في نفسه فقال: احتكِمي. فقالت: سَلاّمة، تهبُها لي وما لَها. قال: اطلبي غيرَها. فأبتْ، فقال: أنتِ أولَى بها ومالِهـا. فلقيت سَلاّمةُ من ذلك أمراً عظيماً، فقالت لها حَبابةُ: لا تَرين إلاّ خيراً. فجاء يزيدُ فسألها أن تبيعَه إياها بحُكمها، فقـالت: أُشهِدك أنّهـا حُرّة، واخـطُبها إليّ الآنَ حتى أُزوّجَك مولاتي.

● عن المدائنيّ وأيّوب بن عَبَايــة قالا:

---

(١) سعد : ماء ونخل غربي اليمامة، والبيت لجريــر.

كانت سلاّمةُ المتقدِّمة منهما في الغناء، وكانت حبابةُ تنظر إليها بتلك العين. فلمّا حظِيت عند يزيد ترفَّعت عليها، فقالت لها سلاّمةُ: ويحك! أين تأديبُ الغناء وحقُّ التعليم! أنسيتِ قولَ جميلة لك: خُذي إحكامَ ما أُطارحكِ إيّاه من سلاّمة، فلن تزالي بخيرٍ ما بَقيتْ لـكِ وكان أمرُ كما مُؤتَلِفاً. قالت: صدقتِ يا خليلتي، واللهِ لاعُدتُ إلى شيء تكرهينه. فما عادت بعد ذلك إلى مكروه. وماتت حبابةُ وعاشت سلاّمةُ بعدها دهراً.

قال المدائنيّ : وكانت حبابةُ إذا غنّت وطرِبَ يزيدُ قال لها: أطيرُ؟ فتقول له: فإلى مَن تدعُ الناسَ؟ فيقــول: إليــك.

● عــن ظَبيـــة:

أنّ حبابةَ غنّت يوماً بين يدَي يزيدَ فطرب ثم قال لها: هل رأيت قطُّ أطربَ مني؟ قالت: نعم، مَولاي الذي باعني. فغاظه ذلك، فكتب في حَمله مقيِّداً. فلمّا عَرف خبرَه أمر بإدخاله إليه، فأُدخل يرسُفُ في قيده، وأمَرَها فغنَّت بغتةً:

تَـشُطُّ غـداً دارُ جـيـرانـنـا ولـلدارُ بـعـد غـدٍ أَبْـعَـدُ

فوثب حتى ألقى نفسه على الشمعة فأحرق لِحيتَه، وجعل يصيح: الحريقُ يا أولادَ... فضحك يزيدُ وقال: لَعَمري إنّ هذا لأطربُ الناس! فأمر بحلّ قيوده ووصله بألف دينار، ووصلَتْه حبابةُ، وَرَدّه إلى المدينـة.

وفاتهـــا وجزع يزيـد عليهـــا

أبو غانم الأزديّ قـــال:

نزل يزيد بن عبد الملك ببيت رأسٍ بالشام ومعه حَبَابة فقال: زعموا أنّه لا تَصفو لأحدٍ عيشةٌ يوماً إلى الليل إلاّ يُكدِّرها شيءٌ عليه، وسأُجرّب ذلك. ثم قال لمن معه: إذا كان غداً فلا تُخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب. وخلا هو وحبابةُ فأُتيا بما يأكلان، فأكلتْ رُمّانةً فَشَرِقت بحبّةٍ منها فماتت؛ فأقام لا يدفِنُها ثلاثاً حتى تغيّرت وأنتنت، وهو يَشَمُّها ويرشُفها، فعاتبه على ذلك ذَوو قرابته،

وصديقُه، وعابوا عليه ما يصنع وقالوا: قد صارت جِيفةً بين يديك! حتى أذِن لهم في غسلها ودَفْنها، وأُمر فأخرِجت في نِطْعٍ[1]، وخرج معها لا يتكلّم حتى جلس على قبرها. فلمّا دُفنت قال: أصبحتُ والله كما قال كُثيِّر:

فإن يَسْلُ عنكِ القلبُ أو يَدَعُ الصِّبا   فباليأس يَسلُو عنكِ لا بالتجلُّدِ
وكلُّ خليلٍ راءني فهو قائلٌ   من اجلك: هذا هامةُ اليومِ أو غدِ[2]

فما أقام إلاّ خمسَ عشرةَ ليلةً حتى دُفن إلى جَنْبها.

وقد روى المدائنيّ أنه اشتاق إليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها فقال: لا بُدَّ من أن تُنْبَش. فنُبِشتْ وكُشف له عن وجهها وقد تغيّر تغيُّراً قبيحاً، فقيل له: يا أمير المؤمنين، اتَّقِ الله، ألا ترى كيف قد صارت؟ فقال: ما رأيتُها قطُّ أحسنَ منها اليومَ، أَخرِجوها. فجاءه مَسلمةُ ووجوهُ أهله فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودَفنوها، وانصرف فكمِد كَمَداً شديداً حتى مات، فدُفن إلى جانبها.

عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال:

خرجتُ مع أبي إلى الشام في زمن يزيد بن عبد الملك؛ فلمّا ماتت حَبابةُ وأُخرِجت لم يستطع يزيدُ الركوبَ من الجَزَع ولا المشيَ، فَحُمِل على منبرٍ على رقاب الرجال. فلمّا دُفنت قال: لم أُصَلِّ عليها، انبِشُوا عنها. فقال له مسلمة: نَشَدتُك اللهَ يا أميرَ المؤمنين، إنّما هي أَمَةٌ من الإماء، وقد واراها الثَرى. فلم يأذَن للناس بعد حبابة إلا مرّةً واحدة. قال: فوالله ما استتمّ دخولُ الناس حتى قال الحاجب: أَجِيزوا، رَحِمكم اللهُ. ولم ينشَب يزيدُ أن مات كَمَداً.

ابن أبي الحُوَيرث الثقفيُّ قال:

---

(١) النطع: بساط من الأديم.
(٢) يقال هو هامة اليوم أو غد: أي يموت اليوم أو غدا.

لَمّا ماتت حَبَابةُ جزِع عليها يزيدُ جزعاً شديداً، فضمّ جُوَيريةً لها كانت تخدُمها إليه، فكانت تُحدّثه وتُؤنِسه. فبينا هو يوماً يدور في قصره إذ قال لها: هذا الموضع الذي كُنا فيه، فتمثّلتْ:

كفى حَـزَناً للهـائم الصبِّ أن يَرى   منـازلَ من يَهـوَى مُعَـطَّلةً قَفْـرا

فبكـى حتـى كاد يموت. ثم لم تزل تلك الجُوَيريةُ معه يتذكّر بها حبابةَ حتى مـات.

* . * . * . * . *

[٢١]

سلّامة القسّ

[الأغاني الجزء ٨ ص ٣٣٤ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت سلاّمةُ مولَّدةً من مولَّدات المدينة وبها نشأت، وأخذت الغناءَ عن مَعبد وابن عائشة وجميلة ومالك بن أبي السَّمْح وذَويهم فَمَهَرت. وإنّما سُمّيت سلاّمةَ القَسّ لأنّ رجلاً يُعرَف بعبد الرحمن بن أبي عَمّار الجُشَمِيّ من قُرّاء أهل مكة ـ وكان يُلقَّب بالقَسّ لعبادته ـ شُغف بها وشُهر، فغَلب عليها لقبُه. واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان وعاشت بعده، وكانت إحدى منِ اتُّهِم به الوليدُ من جواري أبيه حين قال له قَتَلَتهُ: ننقِم عليك أنك تطأُ جواري أبيــك.

عن حَمّاد عن أبيــه قــال:

كانت حَبَابَةُ وسلاّمة القسّ من قِيان أهل المدينة، وكانتا حاذقَتَين ظريفتَين ضاربتين، وكانت سلاّمة أحسنَهما غِناءً وحَبَابةُ أحسنَهما وجهاً، وكانت سلاّمةُ

تقول الشعر وكانت حبابةُ تتعاطاه فلا تُحسِن.

الزبيريّ قال : حدّثني من رأى سلاّمة قال: ما رأيتُ من قِيان المدينة فتاةً ولا عجوزاً أحسنَ غناءً من سَلاّمة. وعن جميلة أخذت الغنــاء.

افتتان عبد الرحمن القسّ بهـــا

المدائنــيّ قـــال:

كانت حَبَابة وسَلاّمة قَينتين بالمدينة؛ أمّا سلاّمة فكانت لسهيل بن عبد الرحمن، ولها يقول ابنُ قيس الرقيّات:

لقــد فَتنتْ رَيّا وسَــلاّمــةُ القَسّــا ... فلم تتركـا للقسّ عقـلاً ولا نَفَســا
فتــاتــان أمّــا منهمـا فشبيهــةُ الــ ... ــهلال وأُخرى منهما تُشبه الشمسا

وفيهـا يقول ابن قيس الرقيّات:

أختـان إحداهمـا كالشمس طـالعـةً ... في يوم دَجْنٍ وأُخرى تُشبـه القَمرا

قال : وفُتن القسُّ بسَلاّمة وفيها يقــول:

أَهــابُـك أن أقــولَ بــذلتُ نفسي ... ولــو أنّي أُطيــع الــقـلبَ قــالا
حيــاءً منــكِ حتى سُــلّ جسمـي ... وشــقّ عـليّ كِـتْـمــانــي وطــالا

قال : والقَسّ هو عبد الرحمن بن أبي عَمّار، من بني جُشَم بن معاوية، وكان مَنزله بمكّة. وكان سبب افتتانه بها فيما حدّثني خَلاّد الأرقط قال: سمعتُ من شيوخنا أهل مكة يقولون: كان القسّ من أعبد أهل مكة، وكان يُشَبّه بعَطَاء بن أبي رَباح، وإنه سمع غناء سلاّمة القسّ على غير تَعمّد منه لذلـك، فبلغ غناؤها منه كلَّ مَبلغَ، فرآه مولاها فقال له: هل لك أن أُخرجَها إليك أو تدخلَ فتسمع؟ فأبى، فقال مولاها: أنا أُقعِدُها في موضع تسمع غناءَها ولا تراها. فأبى، فلم يزل به حتى دخل فأسمعه غناءها فأعجبه، فقال له: هل لك في أن

أُخرجَها إليك؟ فأبى، فلم يزل به حتى أخرجها فأَقعدها بين يديه، فتغنّت، فشُغف بها وشُغفت به، وعَرف ذلك أهلُ مكة. فقالت له يوماً: أنا واللهِ أُحبُّك. قال: وأنا واللهِ أُحبُّك. قالت: وأُحبّ أن أضع فَمي على فمك. قال: وأنا والله أُحبّ ذاك. قالت: فما يمنعُك؟ فوالله إنّ الموضع لَخالٍ. قال: إنّي سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿الأَخلاّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلاّ المُتَّقِين﴾، وأنا أَكْرَهُ أن تكون خُلّةٌ[1] ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة. ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النُّسك، وقال من فَوره فيها:

إنّ التي طـرقتْـك بين ركـائبٍ ... تَمشي بِمِـزْهَـرهـا وأنت حَـرَامُ
لَـتَصِـيـدُ قلبَـك أو جـزاءَ مـودّةٍ ... إنّ الـرفيـقَ لـه عـليـك ذِمـامُ
بـاتـت تُعـلِّلُنـا وتـحسب أنّـنـا ... في ذاك أيقـاظٌ ونـحـن نـيـام
حتى إذا سـطع الضِّيـاءُ لِنـاظـرٍ ... فـإذا وذلـك بـيـنـنـا أحـلامُ
قد كنت أَعذِلُ في السَّفاهة أهلَها ... فـاعْجَبْ لمـا تـأتي بـه الأيـامُ
فـاليـوم أَعـذِرُهم وأعـلم أنـمـا ... سُبُـلُ الضَّـلالـة والهُـدى أقسـامُ

.... في أشعار كثيرة يطول ذكرهـا.

شراء يزيد بن عبد الملك سلاّمة وأخباره معهـا

جريـر قال:

لمّا قدم يزيد بن عبد الملك مكة وأراد شراء سلاّمة القَسّ وعُرضتْ عليه أمرها أن تُغنّيه، فكان أوّل صوت غنّته:

إن التي طـرقتْـك بين ركـائبٍ ... تمشي بِمِـزهـرهـا وأنـت حـرامُ
والبيضُ تمشي كـالبـدور وكـالـدُّمَى ... ونواعـمٌ يـمـشيـن في الأرقـام
لَـتَـصِـيـدُ قلبـكَ أو جـزاءَ مـودّةٍ ... إن الرفيـقَ لـه عـليـك ذِمـامُ[2]

---

(1) الخلـة : الصداقـة.

(2) الرقم : ضرب من البرود المخططة.

فاستحسنه يزيد فاشتراها. فكان أول صوت غنّته لمّا اشتراها:

ألا قلُ لهذا القلب هل أنت مُبصِرٌ وهل أنت عن سَلاّمةَ اليومَ مُقْصِرُ
ألا ليت أني حين صار بها النَوَى جليسٌ لسلمى حيثما عجّ مِزهرُ
وإني إذا ما الموتُ زال بنفسها يُزال بنفسي قبلَها حين تُقبرُ
إذا أخذتْ في الصوت كاد جليسُها يطير إليها قلبُه حين يَنظُر
كأنّ حماماً راعبيّاً مُؤدِّياً إذا نطقتْ من صدرها يَتغَشْمرُ[1]

فقال لها يزيد: يا حبيبتي، من قائل هذا الشعر؟ فقصّت عليه القصة، فرقّ له وقال: أحسَن وأحسنت.

أيّوب بن عَبَاية قال:

كانت سلاّمةُ وريّا لرجلٍ واحد، وكانت حَبَّابة لرجلٍ، وكانت المقدَّمة منهنّ سلاّمة، حتى صارتا إلى يزيد بن عبد الملك، فكانت حَبّابةُ تنظر إلى سَلاّمة بتلك العين الجليلة المتقدِّمة وتعرف فضلَها عليها؛ فلمّا رأت أُثْرَتَها عند يزيد ومحبّة يزيد لها استخفّت بها، فقالت لها سلاّمةُ: اي أُخَيّة، نَسيتِ لي فضلي عليكِ، ويلكِ! أين تأديبُ الغناء وأين حقُّ التعليم! أنسيتِ قول جميلة يوماً تُطارِحُنا وهي تقول لكِ: خُذي إحكامَ ما أُطارِحُك من أُختكِ سلاّمة، ولن تَزالي بخيرٍ ما بقيتْ لك وكان أمرُكما مؤتلِفاً! قالت: صدقتِ خليلتي، والله لا عُدتُ إلى شيءٍ تكرَهينه. فما عادت لها إلى مكروه، وماتت حَبابةُ وعاشت سلاّمةُ بعدَها دهراً.

عبدُ الله بن أبي فَروةَ قال:

قدِمتْ رسُلُ يزيد بن عبد الملك المدينةَ، فاشترَوا سَلاّمة المغنّية من آل رُمّانةَ بعشرين ألف دينار. فلمّا خرجتْ من مِلْك أهلها طلبوا إلى الرُسُل أن يتركُوها عندهم أياماً لِيُجهّزوها بما يُشبِهُها من حُلّي وثيابٍ وطِيبٍ وصِبْغ،

(١) الراعبي: نوع من الحمام. يتغشمر: يصوّت.

فقالت لهم الرسُلُ: هذا كلُّه معنا لا حاجةَ بنا إلى شيءٍ منه. وأَمَرُوها بالرَّحيل، فخرجتْ حتى نزلتْ سِقايةَ سليمان بن عبد الملك وشَيّعها الخَلْقُ من أهل المدينة، فلمّا بلغوا السِّقايةَ قالت للرسلُ: قومٌ كانوا يَغْشَونني ويُسلِّمون عليّ، ولا بُدَّ لي من وَدَاعهم والسَّلام عليهم. فأُذِن للناس عليها، فانقَضُّوا حتى مَلَؤُوا رَحْبَةَ القصر ووراءَ ذلك، فوقفتْ بينهم ومعها العُودُ، فَغَنَّتْهم:

فـارقـوني وقـد علمتُ يقينـاً ... مـا لِمن ذاق مِيتـةً من إيـابِ

[الأبيـــات....]

قال عيسى : وكنتُ في الناس، فلم تزل تُردّدْ هذا الصوتَ حتى راحت، وانتحب الناسُ بالبكاء عند ركوبها، فما شئتُ أن أرى باكياً إلّا رأيتُه.

عن حَمّاد عن أبيـه قــال:

وَجّه يزيدُ بن عبد الملك إلى الأحوص في القُدوم عليه، وكان الغريضُ معه، فقال له: اخرُج معي حتى آخُذَ لك جائزة أمير المؤمنين وتُغنّيه، فإني لا أحمِلُ إليه شيئاً هو أحبُّ إليه منك. فخرجا، فلمّا قدم الأحوصُ على يزيد جلس له ودعا به، فأنشده مدائحَ فاستحسنها، وخرج من عنده، فبعثتْ إليه سلّامةُ جاريةُ يزيد بلَطَفٍ، فأرسل إليها: إنّ الغريضَ عندي قدمتُ به هديّةً إليك. فلمّا جاءها الجوابُ اشتاقت إلى الغريض وإلى الاستماع منه. فلمّا دعاها أميرُ المؤمنين تمارضتْ وبعثت إلى الأحوص: إذا دعاك أميرُ المؤمنين فاحتَلْ له في أن تذكُرَ له الغريض. فلمّا دعا يزيدُ الأحوصَ قال له يزيد: ويحَك يا أحوصُ! هل سمعتَ شيئاً في طريقك تُطرِفُنا به؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، مـررتُ في بعض الطريق فسمعتُ صـوتاً أعجبني حسنُـه وجَودةُ شعره، فوقفت حتى استقصيتُ خبرَه، فإذا هو الغريض، وإذا هو يغنّي بأحسنِ صوتٍ وأشجاه:

ألا هـاج الـتـذكُّـرُ لي سَقاماً ... ونُكْسَ الـدّاء والـوَجَـعَ الغَـرامـا

سلامةُ إنها همّي ودائي ... وشرُّ الدّاء ما بَطَن العِظاما
فقلتُ له ودمعُ العين يجري ... على الخَدَّين أربعةً سِجاما
عليكَ لها السلامُ فمن لصَبٍّ ... يبيت الليلَ يهذِي مُستَهاما[1]

قال يزيد: ويلَك يا أحوصُ! أنا ذاك في هوى خليلتي، وما كنت أحسبُ مثل هذا يتّفق، وإن ذاك لَمِما يزيد لها في قلبي، فما صنعتَ يا أحوصُ حين سمعتَ ذاك؟ قال: سمعت ما لم أسمع يا أميرَ المؤمنين أحسنَ منه، فما صبرتُ حتى أخرجتُ الغريضَ معي وأخفيتُ أمره، وعلمتُ أن أمير المؤمنين يسألني عمّا رأيت في طريقي. فقال له يزيد: ائتيني بالغريض ليلاً وأَخْفِ أمرَه. فرجع الأحوصُ إلى منزله وبعث إلى سَلاّمة بالخبر، فقالت للرسول: قُل له جُزيت خيراً، قد انتهى إليَّ كلُّ ما قلتَ، وقد تلطّفتَ وأحسنتَ. فلمّا وارى الليلُ أهلَه بعث إلى الأحوص: أن عَجِّل المجيءَ إليَّ مع ضَيفك. فجاء الأحوصُ مع الغَريض فدخلا عليه، فقال: غَنِّني الصوتَ الذي أخبرني الأحوصُ أنه سمعه منك. ـ وكان الأحوصُ قد أخبر الغريض الخبر، وإنما ذلك شعرٌ قاله الأحوصُ يريد أن يُحَرِّكه به على سلاّمة ويحتال للغريض في الدخول عليه ـ فقال: غَنِّني الصوتَ الذي أخبرني الأحوص. فلمّا غنّاه الغريضُ دمعتْ عينُ يزيد ثم قال: ويحَكَ! هل يُمكن أن تصيرَ إلى مجلسي؟ قيل له: هي صالحةٌ. فأرسل إليها فأقبلتْ فقيل ليزيد: قد جاءت. فضُرب لها حِجابٌ، فجلستْ، وأعاد عليه الغريضُ الصوتَ: فقالت: أحسنَ واللهِ يا أميرَ المؤمنين، فاسمَعْه مني. فأخذتِ العودَ فضربَتْه وغنّت الصوت، فكاد يزيد أن يطيرَ فرحاً وسروراً وقال: يا أحوصُ ، إنك لَمباركٌ! يا غريضُ غنّني في ليلتي هذا الصوت. فلم يزل يُغنيّه حتى قام يزيدُ، وأمر لهما بمال وقال: لا يُصبح الغريضُ في شيءٍ من دمشق. فارتحل الغريضُ من ليلته، وأقام الأحوصُ بعده أياماً ثم لحق به، وبعثت سلاّمةُ إليهما بكُسوةٍ ولَطَفٍ كثير.

عليّ بن محمد النَوفليّ قال: حدّثني رجلٌ من أهلي من بني نَوفل قال:

---

(١) الغرام : الملازم الشديد. أربعة سجام : أراد اللحاظين والموقين.

قدمتُ في جماعــة من قريش على يزيد بن عبد الملك فألفَيناه في عِلّته التي مات فيها بعد وفاة حَبابة، فنزلنا منزلاً لاصقاً بقصر يزيد، فكُنّا إذا أصبحنا بعثنا بمولًى لنا يأتينا بخبره، وربما أتينا البابَ فسألْنا، فكان يَثْقُل في كل يوم. فإنّا لَفي منزلنا ليلةً إذ سمعنا هَمْساً من بُكاءٍ ثم يزيدُ ذلك، ثم سمعنا صوتَ سلاّمة القَسّ وهي رافعةٌ صوتهَا تنوحُ وتقول:

لا تَلـمنـــا إن خَـشَـعـنـا ... أو هَـمَـمْـنـا بِـخـشـوعِ
قـد لَـعـمـري بـتُّ لـيـلي ... كـأخـي الـداء الـوَجـيـع
كـلّمـا أبـصـرتُ رَبْـعـاً ... خـالـيـاً فـاضـت دمـوعـي
قـد خَـلاَ مـن سَـيّـدٍ ... كـان لنا غـيـرَ مَـضِـيـعِ

ثم صاحت: وأمير المؤمنين! فعلمنا وفاته، فأصبحنا فغَدونا في جنازتـه.

الجُمَحيّ قال: حدّثنا من رأى سَلاّمةَ تندبُ يزيد بن عبد الملك بمرثيةٍ رثته بها، فما سمع السامعون بشيء أحسن من ذلك ولا أشجى، ولقد أبكت العيون وأحرقت القلوب وأفتنت الأسماع وهي:

يـا صـاحـبَ القـبـر الـغـريـبِ ... بـالـشـأم في طَـرَف الـكـثـيـبِ
بـالـشـأم بـيـن صـفـائـحٍ ... صُـمٍّ تُـرَصَّـفُ بـالـجَـبُـوبِ
لـمّـا سـمـعـتُ أنـيـنـهَ ... وبـكـاءَهُ عـنـد الـمـغـيـبِ
أقـبـلـتُ أطـلـبُ طِـبَّـه ... والـداءُ يُـعضِـلُ بـالـطـبـيـب(۱)

إسماعيل بن أبي أُوَيس عن أبيــه قال:

قال يزيدُ بن عبد الملك : ما يُقرّ عيني ما أُوتيتُ من أمر الخلافة حتى أشترَي سلامة جارية مُصعب بن سُهيل الزُّهري وحَبَابَة جارية آل لاحق المكّيةَ. فأرسل فاشتُريتا له. فلمّا اجتمعتا عنده قال: أنا الآن كما قال الشاعر:

(۱) الجبوب : وجه الأرض الغليظة والتراب.

فألقت عصاها واستقرّت بها النّوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافرُ

فلمّا توفيّ يزيد رثته سلاّمة فقالت وهي تنوح عليه هذا الشعر:

لا تَلُمنا إن خَشَعنا أو هممنا بخُشوعِ

[الأبيات...]

طائفة من أخبارها

● الجُمَحيّ قال:

كانت سَلاّمةُ ورَيّا أُختَين، وكانتا من أجمل النساء وأحسنهنّ غناءً. فاجتمع الأحوصُ وابنُ قيس الرُقيّات عندَهما، فقال لهما ابنُ قيس الرقيّات: إنّي أُريد أن أمدحكما بأبياتٍ وأصدُق فيها ولا أكذبَ، فإن أنتما غنّيتماني بذلك وإلاّ هجوتُكما ولا أَقْرَبُكما. قالتا: فما قلت؟ قال قلت:

لقد فَتنتْ رَيّا وسلاّمةُ القَسّا فلم تتركا للقسّ عقلاً ولا نفسا
فتاتان أمّا منهما فشبيهةُ الـ ـهلالِ وأُخرى منهما تُشبه الشّمسا
تَكُنّان أَبْشارا رقاقاً وأَوجُهاً عِتاقاً وأطرافاً مُخَضَّبةً مُلْسا

فغنّتْه سلاّمةُ واستحسنتاه، وقالتا للأحوص: ما قلتَ يا أخا الأنصار؟ قال قلت:

أَسَلامُ هل لِمُتَيَّمٍ تنويلُ أم هل صَرمتِ وغال وُدَّكِ غُولُ
لا تَصرِفي عنّي دلالَك إنّه حَسَنٌ لديّ وإن بَخِلْتِ جميلُ
أزعمتِ أنّ صبابتي أكذوبةٌ يوماً وأنّ زيارتي تعليلُ(١)

فغنّت الأبيات، فقال ابن قيس الرقيّات: يا سلاّمةُ، أحسنتِ والله! وأظنُّك عاشقةً لهذا الحَلَقيّ(٢). فقال له الأحوص: : ما الذي أخرجك إلى هذا؟

---

(١) غالة : أهلكه. الغول : الهلكة والداهية.
(٢) يعرّض ابن قيس بالأحوص بهذا اللقب لما كان يرمى به.

قال: حسنُ غنائها بشعرك، فلولا أن لك في قلبها محبّةً مُفرِطة ما جاءها هكذا حسناً على هذه البديهة. فقال له الأحوص: على قَدر حُسن شعري على شِعرك هكذا حَسُن الغناءُ به، وما هذا منك إلاّ حسدٌ، ونُبيّن لك الآنَ ما حَسَدتَ عليه. فقالت: سلاّمة: لولا أن الدخول بينكما يُوجِب بِغْضةً لحكمت بينكما حكومةً لا يَرُدُّها أحدٌ. قال الأحوص: فأنتِ من ذلك آمنةٌ. قال ابن قيس الرقيّات: كلاّ، قد أَمِنْتَ أن تكون الحكومةُ عليك فلذلك سبقت بالأمان لها. قال الأحوص: فَرَأْيُك يدلُّك على أن معرفتك بأن المحكومَ عليه أنت. وتفرّقا، فلمّا صار الأحوص إلى منزله جاءه ابنُ قيس الرقيّات فقَرع بابَه، فأَذِن له وسَلّم عليه واعتــــذر.

● عن عبد الرحمن بن المُغيرة الحِزاميّ الأكبرِ قال:

لمّا قدِم عثمانُ بن حَيّانَ المُرّيُّ المدينةَ والياً عليها قال له قومٌ من وجوه الناس: إنك قد وَلِيت على كثرة من الفَساد، فإن كنت تُريد أن تُصلِحَ فَطَهِّرها من الغناء والزِّنا. فصاح في ذلك وأَجّل أهلَها ثلاثاً يخرُجون فيها من المدينة. وكان ابنُ أبي عَتيق غائباً، وكان من أهل الفضلَ والعَفَاف والصّلاح. فلمّا كان آخرُ ليلة من الأجَل قدِم فقال: لا أدخُلُ منزلي حتى أدخُلَ على سلاّمة القسّ. فدخل عليها فقال: ما دخلت منزلي حتى جئتكُم أُسَلّم عليكم. قالوا: ما أَغفلَك عن أمرنا! وأخبروه الخبر، فقال: اصبروا عليّ الليلةَ. فقالوا: نخاف ألا يُمكنَك شيءٌ ونُنْكَظَ[1]. قال: إن خِفتم شيئاً فاخرُجوا في السَّحَر. ثم خرج فاستأذن على عثمان بن حَيّان، فأذِن له، فسلّم عليه وذكر له غَيبته وأنه جاءه ليقضيَ حقّه، ثم جزاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزِّنا وقال: أرجو ألا تكون عمِلتَ عملاً هو خيرٌ لك من ذلك. قال عثمان: قد فعلتُ ذلك وأشار به عليّ أصحابُك. فقال: قد أصبتَ، ولكن ما تقول ـ أَمتع اللهُ بك ـ في امرأةٍ كانت هذه صناعتَها، وكانت تُكرَه على ذلك، ثم تركتْه وأقبلت على الصّلاة والصِّيام والخير، وأتى رسولُها إليك تقول: أَتَوجُّه إليك وأَعُوذ بك أن

---

(١) أنكظـه : أعجله عن حاجته.

تُخرجَني من جِوار رسول الله ﷺ ومَسجده؟ قال: فإني أَدَعُها لك ولكلامك.

قال ابنُ أبي عتيق: لا يَدَعُك الناسُ، ولكن تأتيك وتسمعُ من كلامها وتنظرُ إليها، فإن رأيت أنّ مثلَها ينبغي أن يُتْرَكَ تركتَها. قال: نعم. فجاءه بها وقال لها: اجعَلي معكِ سُبْحةً، وَتَخشّعي. ففعلتْ. فلمّا دخلتْ على عثمان حَدَّثَتْه، وإذا هي من أعلم الناس بالناس، وأُعْجِب بها، وحدّثتْه عن آبائه وأمورهم، ففكِه لذلك. فقال لها ابنُ أبي عتيق: اقرئي للأمير. فقرأتْ له، فقال لها: احْدِي ز . نعلتْ، فكثُر تعجُّبُه؛ فقال: كيف لو سمعتَها في صِناعتها! فلم يزل يُنزلُه شيئاً فشيئاً حتى أَمرها بالغناء، فقال لها ابنُ أبي عتيق: غَنّي. فَغَنَّت:

سَدَدْنَ خَصَاص الخَيْم لمّا دَخَلْنَه   بكلّ لَبانٍ واضحٍ وجَبينِ[1]

فغنّتْه، فقام عثمانُ من مجلسه فقَعد بين يديها ثم قال: لا والله ما مثلُ هذه تخرُج! قال ابن أبي عتيق: لا يَدَعُك الناسُ، يقولون: أَقَرَّ سَلاّمةَ وأخرج غيرَها. قال: فدعُوهم جميعاً. فتركُوهم جميعاً.

● الجمحيّ قال:

حدّثني من حَضَر الوليد بن يزيد وهو يسأل سلاّمة أن تغنّيه شعرهَا في يزيد وهي تتنغّص من ذلك وتَدمَعُ عيناها، فأقسم عليها فغنّته، فما سمعت شيئاً أحسنَ من ذلك. فقال لها الوليد: رَحم اللهُ أبي وأطال عُمري وأَمْتَعني بحُسن غنائك يا سَلاّمة! بمَ كان أبي يُقدّم عليكِ حَبَابة؟ قالت: لا أدري والله! قال لها: لكنّني واللهِ أدري، ذلك بما قَسَم اللهُ لها.

قالت: يا سيّدي أَجَلْ.

* . * . * . * . *

(١) الخصاص: الخروق. اللبان: الصدر.

[٢٢]

عَزّة المَيْلاء

[الأغاني الجزء ١٧ ص ١٦٢ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت عَزّةُ مولاةً للأنصار، ومسكنُها المدينة، وهي أقدمُ مَن غَنّى الغناءَ الموقَّع من النساء بالحجاز، وماتت قبل جميلة. وكانت من أجمل النساء وجهاً وأحسنهنّ جِسماً، وسُمّيت بالمَيْلاء لَتمايُلها في مَشيها، وقيل بل كانت تلبس المُلاء وتَشبّه بالرجال، فسُميت بذلك. وقيل: بل كانت مغرمةً بالشراب، وكانت تقول: خذ مِلْئاً[1] واردُد فارغاً.. والصحيح أنها سُميت الميلاءلميلها في مِشيتها.

عن مَعبد : كانت عزةُ الميلاء ممّن أحسنّ ضرباً بعُود، وكانت مطبوعةً على الغناء لا يُعييها أداؤه ولا صنعتُهُ ولا تأليفُه، وكانت تغنّي أغاني القِيان من

(١) الملء (بالكسر): ما يستوعبه الإناء إذا امتلأ.

القدائم مثل سيرين، وزرنب، وخولة، والرَّباب، وسلمى، ورائقة، وكانت رائقةُ أستاذَتها. فلمّا قدِم نشيطٌ وسائبُ خاثر المدينة غنّيا أغانيَ بالفارسية، فلَقِنت عزّة عنها نغماً، وألّفت عليها ألحاناً عجيبة، فهي أوّل من فَتن أهل المدينة بالغناء وحَرّض نساءَهم ورجالهم عليه.

قال الزبيـــر : إنه وجد مشايخ أهل المدينة إذا ذكروا عَزّةَ قالوا: لله دَرُّها! ما كان أحسنَ غَنَاءها، ومدَّ صوتها، وأندى حلقَها، وأحسنَ ضربها بالمزَاهر والمَعازف وسائر الملاهي، وأجملَ وجهها، وأظرفَ لسانَها، وأقرب مجلسَها، وأكرمَ خُلُقَها، وأسخى نفسَها، وأحسن مُساعدتَها.

قال إسحاق : وحدّثني أبي عن سِياط، عن مَعبد، عن جميلة، بمثل ذلك من القول فيهـــا.

عن يونس قـــال:

كان ابنُ سُريج في حَدَاثة سِنّه يأتي المدينة فيسمع من عَزّة ويتعلّم غناءَها ويأخذ عنها، وكان بها معجَباً. وكان إذا سُئل: من أحسنُ الناس غناءً؟ قال: مَولاةُ الأنصار المفضَّلةُ على كلّ مَن غنّى وضرب بالمعازف والعِيدان من الرجال والنساء.

قال : وحدّثني هشامُ بن المُرّيّة أن ابن مُحرزٍ كان يقيم بمكة ثلاثة أشهر، ويأتي المدينة فيُقيم بها ثلاثةَ أشهر من أجل عَزّة، وكان يأخذُ عنها.

عن جُرير المغنّي المدنيّ: أن طُويساً كان أكثرَ ما يأوي إلى منزل عَزّة الميلاء، وكان في جوارها، وكان إذا ذَكَرها يقول: هي سَيّدةُ من غَنّى من النساء، مع جمال بارع، وخُلق فاضل، وإسلامٍ لا يَشُوبه دَنَسٌ، تأمر بالخير وهي مِن أهله، وتَنهى عن السّوء وهي مُجانبةٌ له، فناهيك ما كان أنبلَها وأنبلَ مجلَسها.

ثم قال : كانت إذا جلست جُلوساً عامّاً فكأنّ الطيرَ على رؤوس أهل مجلسها، من تكلّم أو تحرّك نُقر رأسه.

قال ابن سلاّم : فما ظَنُّك بمن يقول فيه طويسٌ هذا القول! ومن ذلك لذي سَلِم من طُويس!

عن معبد : أنه أتى عزّة يوماً وهي عند جميلة، وقد أسنّت، وهي تغنّي على مِعزفة في شعر ابن الإطنابة قولـه:

عَـلِّلانـي وعَـلِّلا صـاحـبَـيّـا واسـقـيـانـي مـن الـمُـرَوَّق رِيّـا

قال : فمـا سمع السامعون قَطّ بشيء أحسنَ من ذلك. قال معبد: هذا غناؤها وقد أسنّت، فكيف بها وهي شابّة!

أبو عبد الله الأسلميّ المدنيّ قال:

كان حسّان بن ثابت معجَباً بعزَة الميلاء، وكان يقدِّمُها على سائر قيان المدينة.

طائفة من أخبارها

● عن صالح بن حَسّان الأنصاري قـال:

كانت عزّة مولاةً لنا، وكانت عفيفةً جميلة، وكان عبد الله بن جعفر وابنُ أبي عَتيق وعمر بن أبي ربيعة يغشَونها في منزلها فتُغنّيهم. وغنّت يوماً عمر بن أبي ربيعةَ لحناً لها في شيء من شعره فشقّ ثيابَه وصاح صَيحةً عظيمة صُعق معها، فلمّا أفاق قال له القوم: لِغيرك الجهلُ يا أبا الخَطّاب. قال: إني سمعت والله ما لم أملِك معه نفسي ولا عقلي.

● عن مُحرِز بن جعفر قال:

خَتن زيدُ بن ثابت بنتَه، فأَوْلَم، فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامّةُ أهل المدينة، وحضر حسّان بن ثابت وقد كُفّ بصرُه يومئذٍ وثَقُل سمعُهُ، وكان يقول إذا دُعي: أَعُرُس أم عِذارٌ[1]؟ فحضر ووُضع بين يديه خِوانٌ ليس عليه إلا

(١) العرس (بضمتين) : طعام الوليمة. العذار: طعام الختان.

عبد الرحمن ابنُه، فكان يسأله: أطعامُ يدٍ أم يَدَين؟ فلم يزل يأكل حتى جاؤوا بالشِّواء فقال: طعامُ يَدَين. فأمسك يدَه، حتى إذا فرغ من الطعام ثُنيت وِسادةٌ، وأقبلت المَيلاءُ ـ وهي يومئذٍ شابّةٌ ـ فوُضع في حِجرها مِزْهَرٌ، فضربت به، ثم تغنتّ، فكان أوّلَ ما ابتدأت به شعرُ حَسّان، قـــال:

فـلا زال قبـرٌ بين بُصـرى، وجِلّقٍ   عليـه من الـوَسْميّ جَـوْدٌ ووابـلُ[1]

فطرب حسان وجعلت عيناه تنضَحان وهو مُصْغٍ لهـــا.

●عن ابن جُعــدُبة قـــال:

كان ابن أبي عتيق معجَباً بعَزّة الميلاء، فأتى يوماً عند عبد الله بن جعفر فقال له: بأبي أنت وأمّيّ! هل لك في عزّةَ، فقد اشتَقَتُ إليها؟ قال: لا، أنا اليومَ مشغول. فقال: بأبي أنت وأمي، إنها لا تنشط إلا بحضورك، فأقسمتُ عليك إلاّ ساعدتَني وتركت شُغلك. ففعل، فأتياها ورسولُ الأمير على بابها يقول لها: دَعي الغناءَ، فقد ضَجّ أهلُ المدينة منك وذكروا أنك قد فتنتِ رجالَهم ونساءهم. فقال له ابنُ جعفر: ارجِع إلى صاحبك فقل له عنّي: أُقسِمُ عليك إلاّ ناديتَ في المدينة: أيُّما رجلٍ فسَد أو امرأة فُتنت بسبب عزّةَ إلاّ كشَف نفسَه بذلك لِنعرفَه، ويظهرَ لنا ولك أمرُه. فنادى الرسولُ بذلك، فما أظهر أحدٌ نفسه. ودخل ابنُ جعفر إليها وابنُ أبي عتيق معه فقال لها: لا يَهُولَنّكِ ما سمعتِ، وهاتي فَغَنّينا. فغنّته بشعر القُطاميّ:

إنّـا محُيّـوكَ فـاسلَمْ أيّهـا الـطَّلَلُ   وإن بَلِيتَ وإن طـالـتْ بك الـطِّيَـلُ

فاهتـــزّ ابنُ أبي عتيق طرباً، فقال عبد الله بن جعفر: ما أُراني أُدرك ركابَك بعد أن سمعت هذا الصـــوت من عزّة.

* . * . * . * . *

---

(١) الجود والوابل: المطر الغزيـر.

القِسمُ الثالِث

المغَنّونَ في العَصْر العَبّاسيّ

[٢٣]

إبراهيم الموصلي

[الأغاني الجزء ٥ ص ١٥٤ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو ـ فيما أخبرنا به يحيى بن عليّ بن يحيى المنجِّم عن حَمّادٍ عن أبيه، وأخبرني به عبد الله بن الربيع عن وَسْوَاسَة، وهو أحمدُ بن محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم الموصلي عن أبيه عن جَدّه وعن حمّاد عن أبيه ـ إبراهيم بن ميمون أو ابن ماهان بن بَهْمَن ابن نسك، وكان سبب نسبه إلى ميمون أنه كتب إلى صديق له فَعَنْونَ كتابه : من إبراهيم بن ماهان؛ فقال له بعضُ فتيان الكوفة: أما تَستحي من هذا الاسم! فقال: هو اسم أبي، فقال: غَيِّرْه؛ فقال: وكيف أُغيِّرُه؟ فأخذ الكتاب فمحا ماهان وكتب ميمون فبقي إبراهيم بن ميمون.

قال إسحاقُ عن أبيه: وأصلُنا من فارس، ولنا بيتٌ شريف في العجم، وكان جدُّنا ميمون هَرَب من جَوْر بعض عُمّال بني أمية، فنزل بالكوفة في بني عبد الله بن دارم، فكان بين إبراهيم وبين وَلَدِ نَضْلَةَ بن نُعَيْم رَضَاعٌ. وأمُّ

إبراهيم امرأةُ من بنات الدّهَاقِين الذين هَربوا من فارس لما هرب ميمون أبو إبراهيم، فنزلوا جميعاً بالكوفة في بني عبد الله بن دارِم، فتزوجها ماهانُ بالكوفة فولدت إبراهيمَ ومات في الطاعون الجارف، وخَلّف إبراهيمَ طفلاً، وكان مولُد إبراهيمَ سنَةَ خمس وعشرين ومائة بالكوفة، وتُوفِّي ببغداد سنة ثمانٍ وثمانين ومائة، وله ثلاثٌ وستون سنة.

قال أحمدُ بن أحمد بن إسماعيل وَسْوَاسة في خبره: ومات ماهان وخلّف إبراهيمَ طفلاً، فكفَلَه آلُ خُزيمة بن خازِم.

وقال يحيى بن عليّ في خبره: إنه كان لإبراهيم لما مات أبوه سنتان أو ثلاثٌ، وخلّف معه أخوين له من غير أُمّه أكبرَ منه، فأقام إبراهيم مع أُمه وأخواله حتى ترعرع، فكان مع ولد خُزَيمة بن خازم في الكُتّاب، فبهذا السبب صار ولاؤُه لبني تميم. وسأله الرشيدُ فقال: ما السَّببُ بينك وبين بني تَميم؟ فاقتص عليه قِصَّتَه، وقال:

ربَّوْنا يا أميرَ المؤمنين فأحسَنُوا تربيتَنا، ونشأتُ فيهم وكان بيننا رَضَاعٌ، فتولَّوْنا بهذا السبب، فقال له الرشيدُ: وَيْحَكَ! فما أُراك إذاً إلّا مولاي! فقال: فهذه والله قصّتي يا أميرَ المؤمنين.

قال يحيى بن عليّ في خبره: وكان سببُ قولهم: إبراهيمَ المَوْصليّ أنه لَمّا نشأ واشتدّ وأدرك، صَحِب الفتيانَ واشتهى الغِناءَ فطلبه، واشتد أخوالُه عليه في ذلك وبلغوا منه، فهرب منهم إلى المَوْصِل، فأقام بها نحواً من سنة، فلمّا رجع إلى الكوفة قال له إخوانهُ من الفِتيان: مرحباً بالفتى المَوْصلّي، فلُقّب به. وقال أحمدُ في خبره: إنّ سبب طلبه الغناء أنه خرج إلى الموصل، فصحب جماعةً من الصعاليك كانوا يُصيبون الطريق ويصيبُه معهم، ويَجمعون ما يُفيدون فيَقْصِفون[1] ويشربون ويغنّون، فتعلّم منهم شيئاً من الغناء وشَدا، فكان أطيَبهم وأحذقهم، فلما أحسّ بذلك من نفسه اشتهى الغناء وطلبه وسافر

---

(١) يقصفون : يلهون ويلعبون.

إلى المواضع البعيدة فيه. وذكر ابن خُرْداذَبة - وهو قليل التحصيل لما يقوله ويضمّنه كُتُبَه - أن سبب نسْبَتِهِ إلى الموصل أنه كان إذا سكِر كثيراً ما يغنّي على سبيل الوَلَع:

أناجت من طرق مَوْصل أحمل قلل خَمْريا
من شارب الملوك فلا بدّ من سُكْرِيا

وما سمعت بهذه الحكاية إلا عنه، وإنما ذكرُتها على غثَاثتها لشهرتها عند الناس، وأنها عندهم كالصحيح من الرواية في نِسْبة إبراهيم إلى الموصل، فذكرتُه دالاً على عَوَاره.

أخبرني الحسين بن يحيى المِرداس وابن أبي الأزهر قالا: حدثنا حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال: أُسْلِم أبي إلى الكتاب فكان لا يتعلّم شيئاً، ولا يزال يُضرَب ويُحْبَس ولا يَنْجَع ذلك فيه، فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء، ثم صار إلى الرَّيّ وتعلم بها أيضاً، ومَهر وتزوج هناك امرأتَهَ دُوشار - وتفسير هذا الاسم أسَدان - وطال مُقامُه هناك، وأخذ الغناءَ الفارسيّ والعربي، وتزوّج بها أيضاً شاهَك أمّ إسحاق ابنه وسائرِ ولـده.

عن حمّاد عن أبيه قال:

كان جدّك[1] محبّاً للأشراف، كثير الأصدقاء منهم، حتى إن كان الرشيد ليقول كثيراً: ما أعرف أحداً أكثر أصدقاء من إبراهيم.

قال إسحاق: وما سمعتُ أحسنَ غناءً من أربعة: أبي، وحَكَم الواديّ، وفُلَيحْ بن أبي العوراء، وسِيَاط، فقلت له: وما بلغ من حِذْقهم؟ قال: كانوا يصنعون فيُحسِنون، ويؤدّون غناءَ غيرهم فيُحسِنون؛ فقلت: فأيّهم كان أحذق؟ قال: كانوا بمنزلة خطيبٍ أو كاتب أو شاعر يُحسن صناعته، فإذا انتقل عنها إلى غيرها لم يبلُغ منها ما يبلغُ من صناعته، وكان جدُّك[1] كرجل مُفَوَّه، إن خطب

---

(١) المراد بالجدّ هنا إبراهيم الموصلي لأن إسحاق يخاطب بهذا الكلام ابنه حمّاداً.

أَجْزل، وإن كتب رسالة أحسن، وإن قال شعراً أَحْسن، ولم يكن فيهم مثلُه.

عن إسحاق قال:

لم يكن الناس يُعلِّمون الجاريةَ الحسناء الغناء، وإنما كانوا يعلِّمونه الصُفرَ والسُّودَ، وأوّلُ من علّم الجواري المُثَمَّناتِ أبي، فإنّه بلغ بالقيان كلَّ مَبلغ، ورفع من أقدارهن. وفيه يقول أبو عُيينة محمد بن أبي عُيَيْنة المهلّبي، وقد كان هَوِي جارية يقال لها أمان فأغلى بها مولاها السَّوْمَ، وجعل يردّدها إلى إبراهيم وإسحاق ابنه فتأخذ عنهما، فكلّما زادت في الغناء زاد في سَومُه، فقال أبو عُيَينة:

قلتُ لمّا رأيتُ مَولى أمانٍ قد طغى سَومه بها طُغيانَا
لا جَزَى الله المَوْصليّ أبا إسـ ـحاق عنّا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مُرسَلا بَوَحْي من الشيـ ـطان أغلى به علينا القِيانا
من غناءٍ كأنه سَكَرَاتُ الـ ـحُبّ يُصْبي القُلوبَ والآذانا

وقال فيه ابن سيابَة:

ما لإبراهيمَ في العِلْـ ـم بهذا الشأن ثاني
إنما عُمْرُ أبي إسـ ـحاق زَيْنٌ للزمان
جَنّةُ الدُّنْيا أبو إسحاق في كلّ مكانِ
فإذا غنّى أبو آسـ ـحق أجابته المثاني
منه يُجْنَى ثَمَرُ اللهـ ـو وريحانُ الجَنان

عن إسحاق قال:

لما صنع أبي لَحنه في:

ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِدْ وشَفت أنفُسنا ممّا تَجِدْ

خاصمتُه وعِبتُه في صنعته، وقلت له: أما بإزائك من ينتقد أنفاسك ويَعيب محاسنك وأنت لا تفكّر! تجيء إلى صوت قد عمل فيه ابنُ سُرَيْج لحناً

فَتُعارضه بلحن لا يقاربه والشعرُ أوسعُ من ذلك! فدَعْ ما قد اعتورتْه صناعةُ القدماء وخُذْ في غيره، فغضب، وكنت لا أزال أُفاخِره بصنعتي وأعيب ما يُعاب من صنعته، فإن قبل منيّ فذلك، وإن غضب داريتُه وترضَّيتُه؛ فقال لي: ما يعلم الله أني أدَعُك أو تفاخرني بخير صوتٍ صنعتَهَ في الثقيل الثاني في طريقة هذا الصوت. فلمّا رأيتُ الجِدّ منه اخترت صنعتي في هذا اللحن:

قُل لمن صَدّ عاتباً ونأى عنك جانِبا
قد بلغتَ الذي أردْ ت وإن كنتَ لاعبا

وكان ما تجارْيناه ونحن نَتَساير خارجَيْن إلى الصحراء نقطع فضلةَ خُمَارٍ[1] بنا، فقال: من تُحبّ أن يحكم بيني وبينك؟ فقلت: من تُرَى أن يحكم ها هنا؟ قال: أوّلُ من يَطلعُ [علينا] أُغنيّه لحني وتُغنّيه لحنك؛ فطمعتُ فيه وقلت: نعم؛ فأقبلَ شيخٌ نَبَطيٌّ يحمل شوكاً على حمار له، فأقبل عليه أبي فقال: إني وصاحبي هذا قد تراضينا بك في شيء، قال: وأيّ شيء هو؟ فقلنا: زعَم كلُّ واحد منّا أنه أحسنُ غناءً من صاحبه، فتسمع مني ومنه وتحكُم. فقال: على اسم الله. فبدأ أبي فغنّى لحنَه، وتبعتُه فغنّيت لحني، فلما فرغتُ أقبل عليّ فقال لي: قد حكمتُ عليك، عافاك الله. ومضى، فلطمني أبي لطمةً ما مرّ بي مثلُها منه قط، وسكتُّ فما أعدتُ عليه حرفاً ولا راجعتُه بعد ذلك في هذا المعنى حتى افترقنا.

حمّاد عن أبيه عن جدّه قال:

أدركتُ يونس الكاتبَ وهو شيخٌ كبير فعَرضت عليه غنائي؛ فقال: إن عشتَ كنت مُغنِّيَ دهرِك.

قال حمّاد قال لي محمد بن الحسن: كان لكلّ واحد مِن المغنّين مذهبٌ في الخفيف والثقيل، وكان مَعْبَد ينفرد بالثقيل، وابنُ سُريج بالرَّمَل، وحَكَمٌ

---

(١) الخمار: بقية السُكر.

بالهزج، ولم يكن في المُغَنين أحدٌ يتصرّف في كل مذهب من الأغاني إلا ابنُ سُريج وإبراهيمُ جَدُّك وأبوك إسحاق.

عليّ بن عبد الكريم قال:

زار ابنُ جامع إبراهيم الموصليّ؛ فأخرج إليه ثلاثين جارية فضربن جميعاً طريقةً واحدة وغَنَّيْن؛ فقال ابن جامع: في الأوتار وَتَرٌ غير مستوٍ؛ فقال إبراهيم: يا فلانةُ شُدّي مَثْنَاكِ. فَشَدَّتْه فاستوى، فعجبتُ أولاً من فطنة ابن جامع لوتر في مائة وعشرين وتراً غيرِ مستو، ثم ازداد عَجَبي من فِطْنة إبراهيم له بعينه.

الحُسين عن حَمّاد قال قال لي أبي:

صَنع جدُّك تسعمائة صوتٍ، منها دينارية، ومنها دِرْهَمّية، ومنها فَلْسِيّة، وما رأيت أكثرَ من صنعته، فأمّا ثلثُمائةٍ منها فإنه تقدّم الناس جميعاً فيها، وأما ثلثُمائةٍ، فشاركوه وشاركهم فيها، وأما الثلثُمائة الباقية، فَلِعبٌ وطَرَب. قال: ثم أسقط أبي الثلثمائة الآخرة بعد ذلك من غناء أبيه، فكان إذا سُئل عن صنعة أبيه قال: هي ستمائة صوت.

عن حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

أولُ من تعلّمتُ منه الغناءَ مجنون، كان إذا صِيح به: يا مُضَر، يهيج ويرجُم. فبلغني أنه يغني أصواتاً فيُجيدها، أخذها عن قدماء أهل الحجاز، فكنت أُدْخِله إليّ فأطْعِمُه وأَسقيه وأَخدعه حتى آخذ عنه، وكان حاذقاً، فأوّلُ صوت أخذتُهُ عنه:

أرسلي بالسّلام يا سَلْمُ إنّي ... منذُ عُلِّقْتُكم غنيٌّ فقيرُ
فالغِنَى إن ملكتُ أمرَكِ والفقـ ... ـرُ بأنّي أزورُ من لا يزور
وَيْحَ نفسِي تسلُو النفوسُ ونفسي ... في هَوى الرِّيم ذكرُها ما يَحُور
مَن لنفسٍ تَتُوق أنتِ هواها ... وفؤادٍ يكاد فيكِ يطيرُ

ثم مكثتُ زماناً آخذ عنه، وكان إذا عاد إليه عقلُه من أحذقِ الناس

وأقْوَمِهم على ما يؤدّيه، ثم غاب عنّي فما أعرف خبره.

أخبـــاره مع المهديّ

قال إسحاقُ وحدثني أبي قال: أوّلُ شيء أُعطِيته بالغناء أنّي كنتُ بالرَّيّ أنادم أهلها بالسَّويّة لا أرزؤُهم شيئاً، ولا أُنفِقُ إلا من بقية مالٍ كان معي انصرفتُ به من الموصل، فمرّ بنا خادمٌ أنفذه أبو جعفر المنصور إلى بعض عمّاله برسالة، فسمعني عند رجل من أهل الرّيّ، فشُغف بي وخلَع عليَّ دُوَّاجَ سَمّور[1]، له قيمةٌ، ومضى بالرسالة ورجع وقد وصَله العاملُ بسبعة آلاف درهم وكساه كُسوةً كثيرة، فجاءني إلى منزلي الذي كنتُ أسكنه فأقام عندي ثلاثة أيام، ووهب لي نصف الكُسوة التي معه وألفيْ درهم، فكان ذلك أوّلَ ما اكتسبتُه بالغناء، فقلتُ: والله لا أُنفقُ هذه الدراهم إلا على الصناعة التي أفادَتْنيها، ووُصف لي رجل بالأُبُلّة يقال له جُوانويه كان حاذقاً، فخرجتُ إليه، وصحبتُ فتيانَها، فأخذتُ عنهم وغنيّتهم فشغِفوا بي.

عن حمّاد عن أبيه عن جدّه قال:

لمّا أتيتُ جُوانُويهَ لم أصادفه في منزله، فانتظرتُه حتى جاء، فلمّا رآني احْتَشَمني، وكان مجوسيّا، فأخبرتُه بصناعتي والحالِ التي قصدتُه فيها، فرحّب بي، وأفرد لي جَنَاحا في داره، ووكلّ بي أُختَه. فقدَّمتْ إليّ ما أحتاج إليه، فلما كان العَشِيّ عاد إلى منزله ومعه جماعة من الفُرْس ممن يُغنّي، فنزلتُ إليه، فجلسنا في مجلس قد صُفّي لنا فيه نبيذٌ وأُعدّتْ لنا فاكهةٌ ورياحين، فجلسنا وأخذوا في شأنهم وضربوا وغَنّوْا، فلم أجد عند أحدٍ منهم فائـدة، وبلغتِ النَّوْبَةُ إليَّ، فضربتُ وغنيتُ فقاموا كلُّهم إليّ وقبّلوا رأسي، وقالوا: سخرتَ منا، نحن إلى تعليمك لنا أحوجُ منك إلينا. فأقمتُ على تلك الحال أيّاماً، حتى بلغ محمد بن سليمان بن عليّ خبري، فوجّه إلي فأحضـرني وأمرني بملازمته، فقلتُ له: أيها الأميرُ، إني لستُ أتكسّب بالغناء وإنما ألتذُّه

---

(١) دواج سمّور: ضرب من الثياب يتخذ من جلد حيوان يشبه السنّور.

فلذلك تعلّمتُه، وأريد العَوْدَ إلى الكوفه. فلم أنتفع بذلك عنده وأخذني بملازمته، وسألني من أين أنا؟ فانتسبتُ إلى الموصل، فَلزمتني وعُرِفْتُ بها، ولم أزل عنده أثيراً مُكَرَّماً حتى قدِم عليه خادمٌ من خَدَم المهديّ، فلمّا رآني عنده قال له: أميرُ المؤمنين أحوجُ إلى هذا منك. فدافعه عنّي، فلما قدِم الرسول على المهديّ سأله عمّا رأى في طريقه ومَقْصِده، فأخبره بذلك حتى انتهى إلى ذكري فوصفني له، فأمره المهديّ بالرجوع إلى محمد وإشخاصي إليه، ففعل ذلك وجاء فأشخصني إلى المهديّ، فحَظِيتُ عنده وقدّمني

قال إسحاقُ: فحدثني أبي قال: كان المهديّ لا يشرب فأرادني على مُلازمته وترك الشُّرب، فأبيتُ عليه، وكنتُ أغيبُ عنه الأيامَ، فإذا جئتُه جئتُه منتشياً، فغاظه ذلك مني فضربني وحبسني، فحذِقتُ الكتابة والقراءة في الحبس، ثم دعاني يوماً فعاتبني على شربي في منازل الناس والتبذُّل معهم؛ فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، إنما تعلمتُ هذه الصناعة للذّتي وعُشرتي لإخواني، ولو أمكنني تركها لتركتُها وجميعَ ما أنا فيه لله جلّ وعزّ. فغضب غضباً شديداً وقال: لا تَدْخل على موسى وهارون البتّةَ، فوالله لئن دخلتَ عليهما لأفعلنّ ولأصنعنّ. فقلتُ: نعم. ثم بلغه أني دخلتُ عليهما وشِربتُ معهما، وكانا مُسْتَهتَرَين بالنبيذ، فضربني ثلثَمائةِ سوط، وقيّدني وحبَسَني.

عن محمد بن جَبْر عن يحيى المَكّيّ قال:

كنا يوماً بين يَدي المهديّ وقد حَبَس إبراهيمَ الموصليّ وضَربه وأمر بأن يُلْبَسَ جُبَّةَ صوفٍ، وكان يُخرَج على تلك الحال فيُطَرح على الجواري، فكتب إلينا ذات يوم، ونحن مُصْطبِحون وقد جادت السماءُ بمطرٍ صَيِّف[1]، وبحضرتنا شيءٌ من ورد مُبكّر:

ألا مَن مُبْلِغٌ قوماً ... من آخواني وجيراني
هنيئاً لكم الشُّربُ ... على وَرْدٍ وتَهْتانِ
وإنيّ مُفْرَدٌ وحدي ... بأشجاني وأحزاني

---

(١) المطر الصيّف: الذي يسقط في أشهر الصيف.

فَمَن جَفَّ له جَفنٌ فجفناي يَسيلان(١)

قال: فوقف المهديّ على رُقعته وقرأها فَرَقّ له وأمر بطلبه في الوقت، ثم أطلقه بعدُ بأيام.

أخباره مع الهادي

قال حمّاد: فلما وَلِي موسى الهادي الخلافة استتر جدي منه ولم يظهر له بسبب الأيمان التي حلّفه بها المهديّ، فكانت منازلُنا تُكبَس في كل وقت وأهلُنا يُروَّعون بطلبه حتى أصابوه فمضوا به إليه، فلما عاينه قال: يا سيّدي، فارقتُ أمَّ ولدي وأعزَّ خلق الله عليّ، ثم غناه لحنَه في شعره:

يابَن خيرِ الملوك لا تَترُكَنّي غَرَضاً للعدوّ يَرمي حِيالي
فلقد في هواك فارقتُ أهلي ثم عرَّضتُ مهجتي للزوال
ولقد عِفْتُ في هواك حياتي وتغرّبتُ بين أهلي ومالي

قال إسحاق: فموَّلَه والله الهادي وخَوَّلَه(٢)، وبحسْبك أنه أخذ منه في يوم واحد مائةً وخمسين ألف دينار، ولو عاش لنا لبنيْنا حيطانَ دُورِنا بالذهب والفضة.

عن إسحاق قال:

كان موسى الهادي شَكِسَ الأخلاق صَعْبَ المِزاج، مَن توقّاه وعرف أخلاقه أعطاه ما أمَّل، ومن فتح فاه فاتّفق له أن يفتحه بغير ما يهواه أقصاه واطّرحه، فكان لا يحتجب عن نُدَمائه ولا عن المغنّين، وكان يُكثر جوائزهم وصِلاَتِهم ويُواتِرها، فتغنّى أبي عنده يوماً؛ فقال له: يا إبراهيم غنِّني جِنْساً من الغناء أَلَذُّ به وأطرَب له ولك حُكْمُك. فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن لم يقابلني زُحَلُ بَبْرده

---

(١) التهتان: من هتنت السماء أي انصبّ مطرها.
(٢) موّله وخوّله: أعطاه مالاً وخولاً أي خدماً.

رَجَوْتُ أن أصيبَ ما في نفسك. قال: وكنت لا أراه يُصغي إلى شيء من الأغاني إصغاءَه إلى النسيب والرقيق منه، وكان مذهبُ ابن سُرَيجْ عنده أحمدَ من مذهب مَعْبَد، فغنَّيتُه:

وإنـي لتَعـروني لِـذكـراكِ هِـزَّةٌ كما انتفض العُصفـورُ بلَّله القَـطْرُ

فضـــرب بيده إلى جَيْب دُرَّاعته (١) فحطَّها ذراعاً، ثم قال: أحسنتَ والله، زِدْني، فغنّيتُ:

فيـا حُبَّهـا زِدْني جَـوًى كـلَّ ليلةٍ ويـا سَلوةَ الأيـام مـوعـدُكِ الحَشْـرُ

فضـــرب بيده إلى دُرّاعته فحطّها ذِراعاً آخر أو نحوَه، وقال: زِدْني وَيْلكَ! أحسنت والله، ووجبَ حُكْمُك يا إبراهيم، فغنّيت:

هجرتُك حتى قيل لا يعرف الهَوى وزُرْتُـكِ حتى قيـل ليس لـه صَبْـرُ

فرفـــع صوتَه وقال: أحسنتَ ، لله أبوك! هاتِ ما تريد. قلت: يا سيدي، عَيْن مروان بالمدينة. فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جَمرتان وقال: يابن اللَّخْناء، أردتَ أن تَشْهَرني بهذا المجلس فيقول الناس: أَطْرَبه فحكَّمه، فتجعلني سَمَراً وحديثاً! يا إبراهيم الحَرّاني، خُذْ بيد هذا الجاهل إذا قُمتُ، فأَدْخلْه في بيت مال الخاصّة، فإن أخذ كلَّ ما فيه فَخَلِّه وإياه. فدخلتُ فأخذت خمسين ألفَ دينـار.

أخبـاره مع الرشيـد

عن حمّاد عن أبيه قال:

أوّلُ جائزة خرجت لشاعر من الرشيد لمّا وَلِيَ الخلافة جائزةٌ لإبراهيم، فإنه قال يمدحه لما وَلِيَ:

---

(١) الدرّاعة: جبة مشقوقة من مقدّمها.

ألم تَـرَ أن الشمسَ كانت مـريضـةً فلمّـا وَلي هـارونُ أشـرقَ نُـورُهـا
فـأُلبِستِ الـدنيـا جمـالاً بـوجهـه فهـارونُ واليهـا ويحيى وزيـرُهـا

وغنى فيه ، فأمر له بمائة ألف درهم، وأمر له يحيى بخمسين ألف درهم.

قال دِعْبِـل بن عليّ:

لماوَلِي الرشيدُ الخلافةَ وجلس للشُّرب بعد فَراغه من إحكام الأمور ودخل عليه المغنّون، كان أوّلَ مَنْ غَنّاه إبراهيمُ الموصليّ بشعره فيه، وهو:

صوت

إذا ظُـلَمُ الـبـلاد تَـجَـلَّلْتـنـا فـهـارونُ الإمـامُ لـهـا ضِـيـاءُ
بـهـارونَ استـقـام العـدلُ فـيـنـا وغـاض الجَـوْر وانفسـح الـرَّجـاء
رأيتُ النـاسَ قـد سكنـوا إليـه كمـا سكنتْ إلى الحَـرَم الظِّبـاء
تَبِعْتَ من الـرسـول سبيـلَ حـقٍّ فشَـأْنُـك في الأمـور بـه اقتـداءُ

فقـال له الخادمُ من خَلْفِ الستارة : أحسنتَ يا إبراهيمُ في شعرك وغِنائك، وأمر له بعشرين ألف درهم.

محمد بن أحمد بن يحيى المكيّ المرتجل عن أبيه عن جدّه، ووجدت هذا الخبر في بعض الكتب عن عليّ بن محمد بن نصر عن جدّه حَمْـدون بن إسماعيل فجمعت الروايات كلِها:

أنّ الرشيد قال يوماً لجعفر بن يحيى: قد طال سَماعُنا هذه العصابةَ على اختلاط الأمر فيها فهلمّ أُقاسِمْك إيّاها وأخايِرْك، فاقتسما المغنِّين على أن جعلا بإزاء كلِّ رجل نظيرَه، وكان ابنُ جامع في حَيِّز الرشيد وإبراهيمُ في حَيِّز جعفر بن يحيى، وحضر النُدَماءُ لِمحنة(١) المغنِّين، وأمر الرشيدُ ابنَ جامع فغنّى صوتاً أحسن فيه كلَّ الإحسان وطرِب الرشيد غاية الطرب، فلمّا قطعه قال الرشيد لإبراهيم: هاتِ يا إبراهيمْ هذا الصوتَ فغنِّه، فقال: لا والله يا أمير

---

(١) المحنة : الامتحان والاختبار.

المؤمنين ما أَعرِفه، وظهر الانكسارُ فيه، فقال الرشيدُ لجعفر: هذا واحدٌ. ثم قال لإسماعيل بن جامع: غنِّ يا إسماعيلُ، فغنى صوتاً ثانياً أحسنَ من الأول وأرضى في كل حال، فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم: هاتِه يا إبراهيمُ قال: ولا أعرف هذا. فقال: هذان اثنان، غنّ يا إسماعيلُ. فغنى ثالثاً يتقدم الصوتين الأوّلين ويفضُلُهما، فلما أتى على آخره، قال: هاته يا إبراهيم. قال: ولا أعرِفُ هذا أيضاً. فقال له جعفـر: أخزيتَنا أخـزاك اللهُ. قال: وأتمَّ ابنُ جامع يومَه والرشيدُ مسرورٌ به، وأجازه بجوائز كثيرة وخلع عليه خِلعاً فاخرة، ولم يزل إبراهيمُ مُنخذِلاً مُنكسِراً حتى انصرف. قال: فمضى إلى منزله، فلم يستقرّ فيه حتى بعث إلى محمد المعروف بالزّفّ، وكان الرشيد قد وجَد عليه في بعض ما يجده الملوكُ على أمثاله، فألزمه بيتَه وتناساه، فقال إبراهيم للزّف: إني اخترتُك على من هو أحبُّ إليّ منك لأمرٍ لا يصلُح له غيرُك، فانظُر كيف تكون. قال: أبلُغ في ذلك محبَّتك إن شاء الله تعالى. فأدّى إليه الخبرَ وقال: أريد أن تمضي الساعةَ إلى ابن جامع، فتُعلمُه أنك صِرت إليه مُهَنِّئاً بما تَهَيَّأ له عليّ، وتتنقّصني[1] وتَثْلِبُني وَتَشتُمُنــي، وتحتال في أن تسمعَ منه الأصوات وتأخذها منه، ولك ما تُحَبُّه من جِهَتي من عَرَضٍ من الأعـراض مع رضـا الخليفة إن شاء الله. قال: فمضى من عنده واستأذن على ابن جامع فأَذِن له، فدخل وسلّم عليه وقال: جئْتك مهنّئاً بما بلغني من خبرك، والحمد لله الذي أخزى ابنَ الجُرْمُقانيّة[2] على يدك، وكشف الفضل في مَحلّك من صناعتك. قال: وهل بلغك خبرُنا؟ قال: هو أشهر من أن يخفى على مثلي. قـال: ويحك! إنه يقصُر عن العِيان. قال: أيّها الأستاذ، سُرَّني بأن أَسمعه من فيك حتى أَروِيَه عنك، وأُسقِط بيني وبينك الأسانيد، قال: أَقِم عندي حتى أفعلَ، قال: السَّمع والطاعـة.

---

(١) تنقصه: عابه وطعن فيه.

(٢) الجرمقاني: واحد الجرامقة، وهم قوم من العجم استوطنوا الموصل في أوائل الإسلام.

فدعا له ابنُ جامعٍ بالطعام فأكلا ودعا بالشراب، ثم ابتدأ فحدّثه بالخبر حتى انتهى إلى خبر الصوت الأول، فقال له الزّف: وما هو أيها الأستاذ؟ فغنّاه ابنُ جامع إيّاه، فجعل محمد يُصفّق وينعَر(١) ويشرب وابن جامع مجتهدٌ في شأنه حتى أخذه عنه. ثم سأله عن الصوت الثاني،فغنّاه إيـاه، وفعل مثلَ فعلِه في الصوت الأول، ثم كذلك في الصوت الثالث، فلما أخذ الأصواتَ الثلاثة كلَّها وأحكمها قال له: يا أستاذ، قد بلغتُ ما أُحبّ، فتأذنُ لي في الانصراف؟ قال: إذا شئتَ.فانصرف محمدٌ من وجهه إلى إبراهيم، فلما طلَع من باب داره قال له: ما وراءك؟ قال: كلُّ ما تحبّ، أُدْعُ لي بعُود. فدعا له بـه، فضرب وغنّاه الأصواتَ، قال إبراهيم: وأبيك هي بُصَورها وأعيانها، رَدِّدْها عليّ الآنَ، فلم يزل يُردِّدُها حتى صحّتْ لإبراهيم، وانصرف الزفُّ إلى منـزله. وغـدا إبراهيم إلى الرشيد، فلما دعا بالمغنّين دخل فيهم، فلما بصُر به قال له: أو قد حضرتَ، أما كان ينبغي لك أن تجلس في منزلك شهراً بسبب ما لقيت من ابن جامع! قال: ولِمَ ذلـك يـا أميـر المؤمنين؟ جعلني الله فـداءك! والله لئن أَذِنتَ لي أن

قال: ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين؟ جعلني الله فداءك! والله لئن أذِنتَ لي أن

أقول لأقولنّ. قال: وما عساك أن تقول؟ قل. فقال: إنه ليس ينبغي لي ولا لغيري أن يراك نشيطاً لشيء فيعارضـك. ولا أن تكون مُتعصّباً لِحيِّزٍ وجَنْبَةٍ(٢)، فيغالِبَك، وإلا فما في الأرض صوتٌ لا أعرِفه. قال: دَعْ ذا عنك،قد أقررتَ أمسِ بالجهالة بما سمعتَ من صاحبنا، فإن كنتَ أمسكتَ عنه بالأمس على معرفةٍ كما تقول فهاتِهِ اليومَ، فليس ها هنا عصبيّةٌ ولا تمييز. فاندفع فـأَمَرّ الأصوات كلَّها، وابنُ جامع مُصْغٍ يسمع منه حتى أتى على آخرها، فاندفع ابنُ جامع فحلف بالأيمان المُحْرِجة أنه ما عرفها قطُّ ولا سمعها ولا هي إلا من صَنعته، ولم تخرج إلى أحدٍ غيره، فقال له : ويحَك! فما أحدثت بعدي؟ قال: ما أحدثت حَدَثاً. فقال: يا إبراهيم بحياتي اصدُقني! فقال: وحياتِك لأَصْدُقنّك، رميته بِحَجره، فبعثت له بمحمد الزّفّ وضمِنتُ له ضماناتٍ، أوّلها رضاك عنه، فمضى فاحتال لي عليه حتى أخذها عنه ونقلها إليَّ، وقد سقط

---

(١) نعر الرجل : صاح وصوت بخيشومه. (٢) الجنبـة : الناحية.

الآن اللّومُ عني بإقراره، لأنه ليس عليّ أن أعرف ما صنعه ولم يُخرجْه إلى الناس، وهذا بابٌ من الغيب، وإنما يلزمُني أن يَعرف هو شيئاً من غناء الأوائل وأجهله أنا، وإلا فلو لزمني أن أرويَ صنعته للزمه أن يروي صنعتي، ولزم كلَّ واحدٍ منا لسائر طبقته ونظرائه مثلُ ذلك، فمن قصّر عنه كان مذموماً ساقطاً. فقال له الرشيد: صدقت يا إبراهيم، ونَضَحتَ[1] عن نفسك، وقُمت بحُجتك. ثم أقبل على ابن جامع، فقال له: يا إسماعيل، أُتيتَ، أُتيتَ! دُهِيتَ دُهِيتَ! أبطل عليك الموصليُّ ما فعلتَه به أمسِ وانتصف اليومَ منك. ثم دعا بالزُّفّ فرضي عنـــه.

العبّاس بن الفَضْل قال: حدّثني أبي قـال: قال الـرشيد لإبـراهيم بن المهدي وإبراهيمَ الموصليّ وابنِ جامع وابن أبِي الكَنّات: بـاكِروني غـداً، وليكن كلُّ واحد قَد قال شعراً إن كان يقدِر أن يقوله، وغنّى فيه لحناً، وإن لم يكن شاعراً غنّى في شعره غيره. قال إبراهيم بن المهديّ: فقمتُ في السَّحَر وَجَهَدت أن أقدِر على شيء أصنعه فلم يتفّق لي، فلمّا خِفْتُ طلوع الفجر دعوتُ بغلماني وقلت لهم: إنّي أُريد أن أمضيَ إلى موضع ولا يَشعُرَ بي أحدٌ حتى أصيرَ إليه. وكانوا يبيتون على باب داري، فقمت فركبت وقَصدتُ دارَ إبراهيمَ الموصليّ، وكان قد حدّثني أنه إذا أراد الصنعة لم يَنَمْ حتى يدبّر ما يحتاج إليه، وإذا قام لحاجته في السَّحَرِ اعتمد على خشبة له في المُسْتَراح، فلم يزل يَقرَع عليها حتى يَفْرُغَ من الصوت ويرسخ في قلبه؛ فجئت حتى وقفت تحت مُستَراحه فإذا هو يُردد هذا الصوت:

إذا سُكِبتْ في الكأسِ قبل مِزاجها	تَرى لونَها في جلدة الكأس مُذْهَبَا
وإن مُـزجتْ راعت بلونٍ تخالــه	إذا ضُمِّنته الكأسُ في الكأس كوكبَا
أبـوهـا نِجاءُ المُزْن والكَـرْمُ أُمُّهـا	فلم أرَ زوجـاً منـه أشهى وأطيبـا
فجاءتك صَفْرا أشبهتْ غيرَ جنسهـا	وما أشبهتْ في اللون أُمًّا ولا أبا[2]

---

(١) نضحت عن نفسك: دفعت عنها بالحجة.

(٢) النجاء ج نجو : السحاب الذي أراق ماءه ومضى.

قال : فما زلتُ واقفاً أستمع منه الصوتَ حتى أخذتُه، ثم غدونا إلى الرشيد، فلما جلسنا للشُّرب خرج الخادم إليّ فقال: يقول لك أميرُ المؤمنين: يا ابنَ أمّ غنِّني. فاندفعتُ فغنّيتُ هذا الصوتَ، والموصليُّ في الموت حتى فرغتُ منه، فشرب عليه وأمر لي بثلثمائة ألف درهم، فوثب إبراهيمُ المَوصليُّ فحلف بالطَّلاق وحياة الرّشيد أنّ الشِعر له قاله البارحةَ، وغَنّى فيه، ما سبقه إليه أحدٌ، فقال إبراهيم: يا سيّدي، فمن أين هو لي أنا، لولا كذِبُه وبُهْتُه! وإبراهيمُ يضطرب ويضجّ، فلمّا قضيتُ أرَباً من العَبَث به قلتُ للرشيد: الحقُّ أَحقُّ أن يُتّبع، وصَدَقْتُه. فقال للموصلّي: أمّا أخي فقد أخذ المال ولا سبيل إلى ردّه، وقد أمرتُ لك بمائة ألف درهم عوضاً مما جرى عليه، فلو بدأتَ أنتَ بالصوت لكان هذا حظَّكَ. فأمر له بها فحُمِلَتْ إليه.

وقال أحمد بن المَرْزُبان: حدثني بعضُ كتّاب السُّلطان:

أن الرّشيد هبّ ليلة من نومه، فدعا بحمار كان يركبه في القَصْر أسودَ قريبٍ من الأرض فركبه، وخرج في دُرّاعة وشَيْ مُتلثّماً بعِمامة وَشْي ملتحفاً بإزارِ وشْيٍ، بين يديه أربعُمائةِ خادمٍ أبيضَ سوى الفرّاشين، وكان مسرورٌ الفَرْغانيّ جريئاً عليه لمكانه عنده، فلما خرج من باب القصر قال: أين يريد أميرُ المؤمنين في هذه الساعة؟ قال: أردتُ منزل الموصليّ. قال مسرور: فمضى ونحن بين يديه حتى انتهى إلى منزل إبراهيم، فخرج فتلقّاه وقبّل حافرَ حماره وقال له: يا أمير المؤمنين، أفي مثل هذه الساعة تظهر! قال: نعم، شوقٌ طرق لك بي. ثم نزل فجلس في طَرَف الإيوان وأجلس إبراهيم، فقال له إبراهيم: يا سيّدي أتنشَط لشيء تأكلُه؟ فقال: نعم، خَاميز ظَبي. فأُتي به كأنما كان مُعَدّاً له، فأصاب منه شيئاً يسيراً، ثم دعا بشراب حُمِل معه؛ فقال الموصليّ: يا سيدي، أَوُغنّيك أم تُغنّيك إماؤُك؟ فقال: بل الجواري. فخرج جواري إبراهيم فأخذن صدرَ الإيوان وجَانبيه، فقال: أيضربن كلُّهن أم واحدة؟ فقال: بل تضرب اثنتان اثنتان وتُغنّني واحدة فواحدة. ففعلن ذلك، حتى مرّ

(١) الخاميز : اسم عجمي تعريبه عاميص، وهو ضرب من الطعام.

صدرُ الإيوان وأحدُ جانبيه والرشيدُ يسمع ولا ينشَط لشيء من غنائهنّ، إلى أن غنّت صبيّة من حاشيته:

يا مُورِيَ الزَّند قد أعيتْ قوادحُه اقْبِسْ إذا شئتَ من قلبي بمقباسِ
ما أقبحَ الناسَ في عيني وأسمجهم إذا نظرتُ فلم أُبصِرْك في الناسِ

قال: فطرب لغنائها واستعاد الصوت مراراً وشرب أرطالاً، ثم سأل الجاريةَ عن صانعه فأمسكتْ، فاستدناها فتقاعَسَتْ، فأمر بها فأُقيمت حتى وُقفتْ بين يديه، فأخبرتْه بشيء أسَرّتْه إليه، فدعا بحماره فركبه وانصرف، ثم التفت إلى إبراهيم فقال: ما ضَرّكَ ألاّ تكونَ خليفةً! فكادت نفسُه تخرج، ثم دعا به وأدناه بعد ذلك. قال: وكان الذي خَبّرْته به أن الصَّنعة في الصوت لأخته عُلَيّة بنت المهديّ، وكانت الجارية لها وَجَّهتْ بها إلى إبراهيم يُطارحُها، فغار الرشيد.

صالح بن علي (يعني الأضجم) عن إبراهيم الموصليّ - قال: وكان صالح جاره - قال: بينا أنا عشيَّةً في منزلي إذ أتاني خادمٌ من خَدَم الرشيد بالركوب إليه فخرجتُ شبيهاً بالراكضِ، فلما صرتُ إلى الدّار عُدِل بي عن المدخل إلى طُرق لا أعرفها، فانتُهي بي إلى دارٍ حديثة البناء، فدخلتُ صَحناً واسعاً - وكان الرشيد يشتهي الصّحون الواسعة - فإذا هو جالسٌ على كرسيّ في وسط ذلك الصَّحْن، ليس عنده أحدٌ إلا خادمٌ يسقيه، وإذا هو في لِبْسَتِه التي كان يلبسُها في الصيف: غِلالةٌ[1] رقيقةٌ مُتوشّح عليها بإزار رشِيديّ عريض العَلَم مُضَرَّج[2]، فلما رآني هَشَّ لي وسُرّ، وقال: يا مَوصلّي، إني اشتهيت أن أجلس في هذا الصحن فلم يتّفق لي إلا اليومَ، وأحببتُ ألاّ يكونَ معي ومعك أحدٌ. ثم صاح بالخُدّام، فوافاه مائةُ وَصِيفٍ، وإذا هم بالأَرْوِقةِ مستترون بالأساطين[3] حتى لا يراهم، فلما ناداهم جاؤوا جميعاً، فقال: مُقطَّعة[4]

(١) الغلالة: ثوب رقيق يلبس تحت الثياب.
(٢) مضرج: مصبوغ بصبغ أحمر.
(٣) الأساطين ج أسطوانة: لأعمدة.
(٤) المقطعة: بَرد عليه وشي.

لإبراهيم. وكان هو أوّل من قطع المصلّيات، فأُتيتُ بمقعد فأُلقِي لي تُجاه وجهه بالقرب منه، ودعا بعود فقال: بحياتي أطربني بما قَدَرْتَ. قال: ففعلتُ واجتهدتُ في ذلك ونشِطتُ ورجوتُ الجائزة في عَشيَّتي؛ فبينا أنا كذلك إذ جاء مسرورٌ الكبيرُ، فقام مَقَامَه الذي كان إذا قامه علِم الرشيدُ أنه يريد أن يُسَارَّه بشيءٍ، فأومأ إليه بالدنوّ، فدنا فألقى في أذنه كلمةً خفيفة ثم تنحّى، فاستشاط غضباً واحمرّتْ عيناه وانتفخت أوداجُه، ثم قال: حَتَّامَ أصبرُ على آل بني أبي طالب! والله لأقتُلَنَّهم ولأقتلنّ شِيعَتهم ولأفعلنّ ولأفعلنّ! فقلتُ: إنا لله! ليس عند هذا أحدٌ يُخرِجُ غضبَه عليه، أحسِبه والله سَيُوقِعُ بي، فاندفعتُ أُغنّي:

نِعمَ عَوْناً على الهموم ثلاثٌ ... مُتْرَعاتٌ من بعدهّن ثلاثُ
بعدَها أربعٌ تَتَمَّةُ عَشرٍ ... لا بِطاءٌ لكنهنّ حِثاتُ
فإذا ناوَلَتْكَهُنّ جَوارٍ ... عَطِراتٌ بيضُ الوجوه خِناثُ
تمّ فيها لك السّرورُ وما طيَّبَ عَيْشاً إلا الخِناثُ الإناثُ[1]

قال: وَيْلَك! اسقِني ثلاثاً لا أُمّ‌ت هَمّاً. فشرب ثلاثاً متتابعة، ثم قال: غنِّ. فغنّيتُ، فلما قلتُ:

ثلاثٌ مُترعاتٌ من بعدهنّ ثلاثُ

قال: هاتِ وَيْلك ثلاثاً! ثم قال غنِّ، فلمّا غنّيتُه قال: حُثَّ عليّ بأربع تتمةِ العشر! ففعل؛ فوالله ما استوفىَ آخِرَهنّ حتى سَكِر، فنهض ليدخل، ثم قال: قم يا مَوصليّ فانصرف، يا مسرور، أقسمتُ عليك بحياتي وبحقّي إلاّ سَبقتَه إلى منزله بمائة ألف درهم، لا أُسْتَأْمَرُ فيها ولا في شيء منها. فخرجتُ والله وقد أَمِنتُ خوفي وأدركتُ ما أمّلتُ، ووافيتُ منزلي وقد سبقتني المائةُ الألف الدرهم إليه.

حمّاد بن إسحاق قال:

---

(١) حثاث: سراع.

أخبرني أبي أنه سمع الرشيدَ وقد سأل جَدِّي إبراهيم كيف يصنع إذا أراد أن يصوغَ الألحانَ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أُخرجُ الهمّ من فكري وأُمثِّل الطربَ بين عينيّ، فتسوغ لي مسالكُ الألحان التي أريد فأسلكُها بدليل الإيقاع، فأرجع مُصيباً ظافراً بما أريد. فقال: يَحقُّ لك يا إبراهيم أن تُصيب وتظْفَر، وإنّ حُسْن وصفك لمُشاكِلٌ حُسْنَ صنعتك وغنائك.

حَمَّاد عن أبيه عن جده قال:

قال لي الرشيدُ يوماً: يا إبراهيمُ بكِّرْ عليَّ غداً حتى نصطبح فقلتُ له: أنا والصُّبحُ كَفَرَسَيْ رِهانٍ. فبكَّرتُ فإذا أنا به خالياً، وبين يديه جاريةٌ كأنها خُوطُ بانٍ أوجَدْلُ عِنانٍ، حُلْوَة المنظر، دمِثةُ الشّمائل، وفي يدها عودٌ، فقال لها: غنّي، فغنّتْ في شعر أبي نواس وهو:

تَـوَهّـمـه قلبي فـأصبـح خَـدُّه ... وفيه مكانَ الـوَهْم من نـظري أُثْـرُ
ومـرَّ بفكـري خـاطـراً فجـرحتُه ... ولم أر جِسمـاً قطُّ يَجرَحُـه الفِكْـرُ
وصـافـحَـه قـلبي فـآلَم كـفَّـه ... فمِنْ غَمْـزِ قلبي في أناملِه عَقْـرُ[1]

قال إبراهيمُ: فذهبتْ بعقلي حتى كِدتُ أن أفتضحَ، فقلتُ: من هذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذه التي يقول فيها الشاعر:

لـهـا قلبي الغـداةَ وقـلبُهـا لـي ... فنحـن كـذاك في جَـسَـدَيْن رُوحُ

ثم قال لها : غنّي ، فغنَّتْ:

تقـول غـداةَ البينِ إحـدى نسـائهم ... لِيَ الكَبِدُ الحرَّى فسِرْ ولكِ الصَّبرُ
وقـد خَنقتْهـا عَبْـرةٌ فـدمـوعُهـا ... على خدِّها بيضٌ وفي نحرها صُفرُ

قال : فشرب وسقاني ثم سقاها، ثم قال: غنِّ يا إبراهيم، فغنّيتُ حسبَ ما في قلبي غيرَ مُتحفِّظٍ في شيءٍ:

---

(١) أثر الجرح (بالضم): أثره يبقى بعدما يبرأ. العقر: أثر الجرح.

تَشَرَّبَ قلبي حُبَّها ومَشَى به تَمَشّي حُميًا الكأس في جسم شارب
ودبَّ هواها في عظامي فشَفَّها كما دبَّ في الملسوع سمُّ العقارب

قال: ففطِن بتعريضي، وكانت جهالةً منّي، قال: فأمرني بالانصراف، ولم يدعُني شهراً ولا حضرتُ مجلسه، فلما كان بعد شهر دَسَّ إليّ خادماً معه رُقعةً، فيها مكتوبٌ:

قد تخوّفتُ أن أموتَ من الوَجْـ ـد ولم يَدْرِ مَن هَوِيتُ بما بي
يا كتابي فاقرَ السَّلامَ على مَنْ لا أُسمِّي وقُل له يا كتابي
إنَّ كفّاً إليكَ قد بعثَتْني في شَقَاءٍ مُواصَلٍ وعذابِ

فأتاني الخادمُ بالرُّقعة؛ فقلت له: ما هذا؟ قال: رقعة الجارية فلانة التي غنَّتك بين يدي أمير المؤمنين. فأحسَسْتُ القصَّةَ فشتمتُ الخادمَ ووثبتُ عليه وضربتُه ضرباً شَفَيْتُ به نفسي وغيظي، وركِبتُ إلى الرشيد من فوري فأخبرته القصة، وأعطيته الرُّقعة، فضحك حتى كاد يستلقي، ثم قال: على عَمْدٍ فعلتُ ذلك بك لأمتحنَ مذهَبك وطريقتك. ثم دعا بالخادم، فلمّا خرج رآني فقال لي: قطع اللهُ يديك ورجليك ويحك قتلتني! فقلت: القتلُ والله كان بعض حقّك لِما وردت به عليّ، ولكن رَحمتُك فأبقيتُ عليك، وأخبرتُ أمير المؤمنين ليأتي في عقوبتك بما تستحقّه. فأمر لي الرشيدُ بِصلةٍ سنيّة؛ والله يعلم أني ما فعلتُ الذي فعلتُ عَفَافاً ولكن خوفاً.

حَمّاد عن أبيه قال قال لي أبي:

قال لي جعفرُ بن يحيى يوماً وقد علم أنّ الرشيد أذِن لي وللمغنِّين في الانصراف يومئذٍ: صِرْ إليّ حتى أهبَ لك شيئاً حسناً. فصِرْتُ إليه فقال لي: أيما أحبُّ إليك: أَهبُ لك الشيء الحسن الذي وعدتُك به، أم أُرشِدك إلى شيء تَكسِب به ألفَ ألفِ درهم؟ فقلت: بل يُرشدني الوزيرُ ـ أعزّه الله ـ إلى هذا الوجه فإنه يقوم مقامَ إعطائه إيّاي هذا الحَسَن. فقال: إنّ أمير المؤمنين يحفظ شعر ذي الرُّمّة حفظ الصِّبا ويُعجبه ويُؤثره، فإذا سمع فيه غناءً أطربه

أكثرَ مما يُطربُه غيره مما لا يحفظ شعرَه، فإذا غَنَّيته فأطربته وأمر لك بجائزة فقُم على رجليك قائماً وقبِّل الأرض بين يديه وقل له: لي حاجةٌ غيرُ هذه الجائزة أريد أن أسألها أميرَ المؤمنين، وهي حاجة تقوم عندي مقامَ كلِّ فائدة ولا تَضُرّه ولا تَرْزَؤه؛ فإنّه سيقول لك: أيُّ شيء حاجتُك؟ فقل: قطيعةٌ تُقْطِعُنيها سهلةٌ عليك لا قيمة لها ولا منفعةَ فيها لأحدٍ، فإذا أجابك إلى ذلك، فقل له: تُقْطِعني شعر ذي الرُّمّة أغنيِّ فيه ما أختاره وتحظُر على المغنّين جميعاً أن يداخلوني فيه، فإني أحِبّ شعره وأستحسنه فلا أحبّ أن يُنغِّصَه عليّ أحدٌ منهم، وتَوثَّقْ منه في ذلك. فقبلتُ ذلك القولَ منه، وما انصرفت من عنده بعد ذلك إلا بجائزة، وتوخَّيت وقتَ الكلام في هذا المعنى حتى وجدتُه، فقمت فسألت كما قال لي، وتبيّنتُ السرورَ في وجهه، وقال: ما سألتَ شطَطا، قد أقطعتُك سُؤلتك[1]. فجعلوا يتضاحكون من قولي ويقولون: لقد استضخمتَ القطيعةَ،وهو ساكتٌ، فقلت: يا أميرَ المؤمنين أتأذن لي في التوثُّق؟ قال: تَوَثَّقْ كيف شئت. فقلت: بالله وبحقّ رسوله وبتُربة أمير المؤمنين المهديّ إلا جعلتني على ثِقةٍ من ذلك بأنّك تحلِف لي أنك لا تُعطي أحداً من المغنّين جائزة على شيء يُغنِّيه فيَ شعر ذي الرُّمّة فإنّ ذلك وثيقتي. فحلف مجتهداً لهم لئن غنّاه أحدٌ في شعر ذي الرُّمّة لا أثابه بشيء ولا بَرّه ولا سمع غناءه.فشكرتُ فِعله وقبّلت الأرضَ بين يديه وانصرفنا، فغنّيت مائةَ صوتٍ وزيادة في شعر ذي الرُّمّة، فكان إذا سمع منها صوتاً طَرب وزاد طربُه ووصلني فأجزَل، ولم ينتفع به أحدٌ منهم غيري؛ فأخذتُ منه والله بها ألفَ ألفِ درهم وألفَ ألفِ درهم.

إسحاق الموصليّ:

أنّ أباه لَعِب يوماً مع الرشيد بالنَّرْد في الخِلْعة التي كانت على الرّشيد، والخِلعة التي كانت عليه هو، فتقامَرَ للرشيد[2]، فلمّا قَمَره قام إبراهيم فنزع ثيابه، ثم قال للرشيد: حُكْم النَّرد الوفاءُ به، وقد قُمِرْتُ ووفَّيتُ لك، فالبَس ما

---

(١) سؤلتك : ما سألته.

(٢) تقامر له : تعمّد الخسارة في القمار.

كان عليّ. فقال له الرّشيد: ويلْكَ ! أنا ألبَس ثيابك! فقال: إي والله إذا أنصفتَ، وإذا لم تُنصِف قَدرتَ وأمكنك. قال: ويلك! أوَ أفتدي منك؟ قال: نعم: قال: وما الفِداء؟ قال: قل أنتَ يا أمير المؤمنين فإنّك أولَى بالقول. فقال: أُعطيك كلَّ ما عليّ. قال: فَمُر به يا أمير المؤمنين وأنا استخير الله في ذلك. فدعا بغير ما عليه فلبِسه ونزَع ما كان عليه فدفعه إلى إبراهيم.

المدائنيّ حَدّث قـــال:

قال إبراهيم الموصليّ : قال لي الرشيد يوماً: يا إبراهيمُ، إنّى قد جعلت غداً للحَريم، وجعلتُ ليلتـه للشُّرب مـع الرّجـال، وأنا مقتصـرٌ عليك من المغنّين، فلا تشتغل غداً بشيء ولا تشرب نبيذاً، وكن بحضرتي في وقت العِشاء الآخرةِ. فقلت: السَّمْعُ والطاعةُ لأمير المؤمنين. فقال: وحقِّ أبي لئن تأخّرت أو اعتلَلْت بشيء لأضربنّ عُنقَك، أفهمتَ؟ فقلت: نعم. وخرجتُ فما جاءني أحدٌ من إخواني إلا احتجبتُ عنه ولا قرأتُ رقعةً لأحـد، حتى إذا صَلّيتُ المَغْرب ركبتُ قاصداً إليه، فلما قربتُ من فِناء داره مررت بفناء قصر، وإذا زِنْبيلٌ[1] كبيرٌ مستوثَقٌ منه بحبال وأربعِ عُرَى أَدَم وقد دُلِّي من القصر، وجارية قائمةٌ تنتظر إنساناً قد وُعِد ليجلس فيه، فنازعتْني نفسي إلى الجلوس فيه، ثم قلت: هذا خطأٌ، ولعله أن يجريَ سببٌ يَعُوقني عن الخليفة فيكون الهلاكُ، فلم أزل أنازعُ نفسي وتُنازعني حتى غلبتْني، فنزلتُ فجلست فيه، وشُدَّ الزّنبيلُ حتى صار في أعلى القصر، ثم خرجتُ فنزلت، فإذا جَوارٍ كأنّهن المَها جلوسٌ، فضحِكنَ وَطَرِبْنَ، وقلن: قد جاء واللهِ من أردناه. فلمّا رَأَيْنني من قريب تبادرن إلى الحِجاب وقُلْن: يا عدوَّ الله، ما أدخلك إلينا؟ فقلتُ: يا عدوّاتِ الله، ومن الذي أردتُنّ إدخالَهَ؟ ولِمَ صار أولى بهذا مني؟ فلم يزل هذا دَأْبَنا وهنّ يضحكْن وأضحكُ معهنّ؛ ثم قالت إحداهنّ: أمّا من أردناه فقد فات، وما هذا إلا ظريفٌ، فهلُمّ نعاشِرْه عشرةً جميلة. فأُخرج إليَّ طعامٌ ودُعيتُ إلى أكله، فلم يكن فيّ فضْلٌ إلا أنّي كرِهت أن أُنسَب إلى سُوء

(١) الزّنبيل والزَّبيل: القفّة.

العِشرة، فأصبتُ منه إصابةَ مُعَذِّر(٢)، ثم جيء بالنبيذ فجعلنا نشربُ، وأَخْرجن إليَّ ثلاثَ جَوَارٍ لهنّ فغنّين غناءً مليحاً، فغنّتْ إحداهنّ صوتاً لَمعْبد، فقالت إحدى الثلاث من وراء السِّتر: أحسَن إبراهيمُ، هذا له. فقلتُ: كَذَبتِ ليس هذا له، هذا لِمَعْبَد. فقالت: يا فاسقُ، وما يُدْرِيك الغناءَ ما هو! ثم غنّت الأخرى صوتاً للغَريض. فقالت تلك: أحسَن إبراهيمُ، هذا له أيضاً. فقلت: كذبتِ يا خبيثةُ، هذا للغَريض، فقالت: اللهم أَخْزه، ويلك، وما يُدريك؟ ثم غنّت الجاريةُ صوتاً لي، فقالت تلك: أحسن ابنُ سُرَيج، هذا له. فقلت: كذبتِ هذا لإبراهيم، وأنت تنسُبين غناءَ الناس إليه وغناءه إليهم. فقالت: وَيْحَك! وما يدريك؟ فقلت: أنا إبراهيمُ. فتباشرْنَ بذلك جميعاً وطرِبْنَ كُلُّهنّ وظهرْن كلُّهن لي وقلن: كتمتَنا نفسَك وقد سررتَنا. فقلت: أنـا الآن واللهِ أستودِعكُنّ الله. فقلن: وما السببُ؟ فأخبرتهنّ بقصّتي مع الرّشيد؛ فضحكن وقلن: الآنَ واللهِ طاب حَبسُك، علينا وعلينا إن خرجتَ أسبوعاً. فقلت: هو واللهِ القتلُ.قلن: إلى لعنة الله. فأقمتُ واللهِ عندهنّ أسبوعاً لا أزول. فلما كان بعد الأسبوع ودّعنني وقُلن: إن سلّمك الله فأنت بعد ثلاثٍ عندنا. قلت: نعم. فأجلسنني في الزِّنبيل وسُرِّحتُ، فمضيت لوجهي حتى أتيت دارَ الرشيد، وإذا النّداءُ قد أُشيع ببغدادَ في طلبي وأنّ من أحضرني فقد سُوِّغ مُلكي وأُقطِع مالي، فاستأذنتُ،فتبادر الخدمُ حتى أدخلوني على الرّشيد، فلمّا رآني شتمني وقال: السيفُ والنِّطْعُ(٢)، إيهٍ يا إبراهيمُ تهاونتَ بأمري وتشاغلت بالعَوامّ عما أمرتُك به وجلستَ مع أشباهك من السُّفهاء حتى أفسدتَ عليّ لذّتي! فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أنا بين يديك، وما أمرتَ به غيرُ فائت، ولي حديثٌ عجيب ما سُمع بمثله قطُّ وهو الذي قطعني عنك ضرورةً لا اختياراً، فاسمَعْه، فإن كان عُذراً فاقبلْه وإلّا فأنت أعلم. قال: هاته فليس يُنجيك. فحدَّثْتُه، فوجم ساعةً ثم قـال: إنّ هذا لعَجبٌ، أفتحضِـرني معك هـذا الموضـع؟ قلت: نعم،

---

(١) المعذّر : المعتذر.

(٢) النطع (بالكسر والفتح والتحريك) : بساط من الأديم.

وأُجلِسك معهنّ إن شِئت قبلي حتى تحصل عندهنّ، وإن شئتَ فعلى موعدٍ. قال: بل على مَوعدٍ. قلت: أَفعل؛ فقال: أنظرك[1].قلتَ: ذلك حاصلٌ إليك متى شئت، فعدَل عن رأيه فيّ وأجلسني وشرب وطرب،فلمّا أصبحتُ أمرني بالانصراف وأن أجيئه من عندهنّ، فمضيتُ إليهنّ في وقت الوَعد، فلمّا وافيتُ الموضعَ إذا الزّنبيل معلّقٌ، فجلست فيه ومدّه الجواري فصعِدتُ، فلمّا رأينَني تباشَرْنَ وحَمِدْن الله على سلامتي، وأقمتُ ليلتي، فلمّا أردت الانصراف قلت لهنّ: إنّ لي أخاً هو عِدْلُ نفسي عندي، وقد أحبّ معاشرتكن ووعدتُه بذلك. فقلن: إن كنت ترضاه فمرحباً به. فوعدتهُنّ ليلةَ غدٍ وانصرفتُ وأتيتُ الرّشيد وأخبرتُهُ؛ فلما كان الوقتُ خرج معي متخفّياً حتى أتينا الموضع، فصعِدت وصعِد بعدي ونزلنا جميعاً، وقد كان الله وفّقني لأن قلت لهنّ: إذا جاء صديقي فاستترنَ عني وعنه ولا يَسمعْ لكُنّ نَطْقةً، وليكن ما تَخْتَرْنَه من غناء أو تَقُلْنَه من قولٍ مُراسَلةً؛ فلم يتعدَّيْنَ ذلك وأقمْنَ عليّ أتمَّ سِتْرٍ وخَفَر، وشربنا شُرباً كثيراً، وقد كان أمرني ألّا أُخاطبه بأمير المؤمنين، فلما أخذ منيّ النبيذُ قلتُ سَهواً: يا أمير المؤمنين، فَتَوَاثَبنَ من وراء السِّتارة حتى غابت عنّا حركاتهنّ؛ فقال لي: يا إبراهيم لقد أَفْلَتَّ من أمرٍ عظيم، واللهِ لو بَرَزتْ إليك واحدةٌ منهنّ لضربتُ عُنقكَ، قُم بنا.فانصرفنا، وإذا هنّ له، قد كان غضِب عليهنّ في ذلك القصر، ثم وَجّه من غدٍ بِخَدَم فردُّوهنّ إلى قصره، ووهَبَ لي مائةَ ألف درهم وكانت الهدايا والألْطافُ تأتيني بعد ذلك منهنّ.

حَمّاد بنُ إسحاق عن أبيه قال:

غَنّى أبي يوماً بحضرة الرشيد:

سَلِي هل قَلاني من عَشيرٍ صَحِبتُه وهل ذمّ رَحْلي في الرِّفاق رفيقُ

فطرب واستعاده وأمر له بعشرين ألفَ درهم، فلمّا كان بعد سنين، خطر ببالي ذلك الصوتُ وذكرتُ قصّته، فغنيتُه إياه، فطرب وشرب، ثم قال لي: يا

---

(١) أنظرك: أمهلك، وفي المطبوعة: انظر، وما أثبتناه أنسب للسياق.

إسحاق، كأني في نفسك ذكرتَ حديثَ أبيك وأنّي أعطيتُه ألفَ دينار على هذا الصوت فطمِعتَ في الجائزة! فضحكتُ ثم قلت: والله يا سيِّدي ما أخطــأتَ. فقال: قد أخذ ثمنَــه أبوك مرّةً فلا تطمع؛ فعجبتُ من قوله، ثم قلت: يا سيّدي، قد أخذ أبي منك أكثرَ من مائتي ألف دينار ما رأيتُك ذكرتَ منها غيرَ هذا الألف على بختي[1] أنا. فقال: وَيْحَك! أكثر من مائتي ألف دينار؟! قلت: إي والله؛ فوجَم وقال: أستغفرُ الله من ذلك، وَيْحَك! فما الذي خلّف منها؟ قلت: خلّف عليَّ ديوناً مبلغُها خمسةُ آلاف دينارٍ قضيتُها عنه. فقال: ما أدري أيُّنا أشدُّ تضييعاً! واللهُ المستعان.

إسحاقُ قال حدّثني أبي:

أنّ الرشيد غضِب عليه فقيّده وحبسه بالرَّقَّة[2]، ثم جلس للشُّرب يوماً في مجلس قد زينّه وحَسّنه، فقــال لعيسى بن جعفر: هل لمجلسنا عيبٌ؟ قال: نعم، غَيْبَةُ إبراهيمَ الموصلّي عنه. فأمر بإحضاري، فأُحضِرتُ في قيـودي، ففُكَّتْ عنّي بين يديه، وأمرهم فناولوني عُوداً وقال: غَنِّني يا إبراهيمُ. فغنّيته:

تَضَوّع مِسْكاً بطنُ نَعْمانَ أنْ مشتْ   بــه زيـنبُ فـي نِسْــوةٍ خَـفِـراتِ

فاستعاده وشرب وطرب، وقال: هَنَأْتَني ويومي وسأَهْنِئُك بـالصِّلة، وقد وهبتُ لك الهنيءَ والمَريء[1]، فانصرفتُ، فلما أصبحتُ عُوِّضتُ منهما مائتي ألف درهم.

عبد الله بن الفَضْل بن الربيع قال سمعت أبي يقول:

---

(١) البخت : الحظ ، وهو لفظ أعجمي معرّب.
(٢) الرقة : مدينة على الجانب الشرقي من الفرات، وكان الرشيد كثيراً ما يصير إليها.
(١) الهنيء والمريء: نهران بإزاء الرقة حفرهما هشام بن عبد الملك، والمراد أنه أقطعه ضيعتهما.

لمّا خرج الرشيدُ إلى الرَّقّة أَخْرَج معه إبراهيمَ الموصليّ، وكان به مشغوفاً، ففَقده في بعض المنازل أيّاماً وطلبه فلم يُخبره أحدٌ بقصّته؛ ثم أتاه، فقال له: وَيْحَك! ما خبرُك وأين كانت غَيْبتُك؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، حديثي عجيبٌ، نزلنا بموضع كذا وكذا، فوُصِف لي خَمّارٌ، من ظَرْفه ومن نظافة منزله كيتَ وكيت، فتقدّمتُ أمامَ ثَقَلي[٢] وأتيته مُخِفّاً، فوافيتُ أطيبَ منزل وأوسعَ رَحْلٍ وأطيبَ طعامٍ وأسخى نفسٍ، من شابٍّ حسنِ الوجه ظريفِ العشرة، فأقمت عنده، فلما أردت اللَّحاق بأمير المؤمنين أقسم عليّ وأخرج لي من الشراب ما هو أطيبُ وأجود ممّا رأيت، فأقمتُ ثلاثاً، ووهبتُ له دنانيرَ كانت معي وكُسوةً، وقلت فيه:

سَقْياً لمنزل خَمّارٍ قَصَفْتُ به ... وَسْطَ الرُّصافة يوماً بعد يومين
ما زلتُ أرهنُ أثوابي وأشرَبُها ... صفراءَ قد عُتِّقتْ في الدَّنِّ حَوْلين
حتى إذا نفدتْ مني بأجمعها ... عاودتُه بالرِّبا دَنًّا بدَنَّيْن
فقال: «إزْل بشين» حين ودَّعني ... وقد لَعَمْرُك زُلْنا عنه بالشَّيْن

قوله: «إزْلْ بشِين» كلمة سريانية، تفسيرُها: امْضِ بسلام، دعا بها لما وَدّعه، قال إبراهيم: فقال لي الرشيد: غَنِّني هذا الصوتَ، فغنّيتُه إيّاه وزَمَر عليه بَرْصُوما، فوهبَ لي الرشيد مائةَ ألف درهم وأقطعني ضَيْعةً، وبعث إلى الخَمّارِ فأُحضِر، وأَهْدى إلى الرشيد من ذلك الشّرابِ فوصَله، ووهَب له إبراهيمُ عشرةَ آلاف درهم.

حمّاد بن إسحاق عن أبيه عن جدِّه قال:

خرجتُ مع الرّشيد إلى الشأم لمّا غزا، فدعاني يوماً فدخلت إليه إلى مجلس لم أَرَ أحسنَ منه مفروشٍ بأنواع الرُّخام، فأكل وأمرني فأكلتُ معه، وجعلتُ أتولى خدمتَه إلى العصر، ثم دعا بالنبيذ فشرِب وسقاني معه، ثم خلع عليّ خِلعةَ وَشْي من ثيابه وأمر لي بألف دينار، ثم قال: انظرْ يا إبراهيم، كم

(٢) الثقل: متاع المسافر وحشمه.

من يَدٍ أوليتُك إيّاها اليومَ! نادمتَني مفْرداً، وآكلتَني، وخلعتُ عليك ثيابي من بدني، ووصلتُك، وأجلستُك في إيوان مَسْلمَةَ بن عبد الملك تشرب معي! فقلت: ياسيِّدي، ما ذهب عليّ شيءٌ من تفضُّلك، وإنّ نِعَمك عندي لأكثرُ من أن تُحصَى، وقبلّتُ رِجلَه والأرضَ بين يديه.

أبو غانم مولى جَبَلة بن يزيد السُّلَميّ قال:

اجتمع إبراهيمُ الموصليّ وزَلْزلٌ وبَرْصُومَا بين يَدَي الرَّشيد، فضرب زلزلٌ وزَمَر بَرْصوما وغنّى إبراهيم:

صحـــا قـلبـي وراعَ إلـيّ عـقـلـي وأقْـصَـر بـاطلي ونَسيتُ جهلي
رأيـتُ الـغـانـيـاتِ وكُـنَّ صُـوراً إلـيّ صَـرَمْنني وقَـطَعْـنَ حبـلي[1]

فطرب هارونُ حتى وثَب على رجليه وصاح: يا آدمُ، لو رأيتَ مَن يحضُرني من ولدك اليومَ لسرَّك! ثم جلس وقال: أستغفر الله.

ثروتــه وتَرَفُــه

قال حَمّادُ قال لي أبي : نظرتُ إلى ما صار إلى جَـدّك من الأموال والغَلّات وثمنِ ما باع من جواريه، فوجدتُه أربعةً وعشرين ألفَ ألفِ درهم سوى أرزاقِ الجارية، وهي عشرةُ آلاف درهم في كلّ شهر، وسوى غَلّات ضِياعه، وسوى الصِّلات النَّزْرَة التي لم يحفظها، ولا والله ما رأيتُ أكمَلَ مُروءةً منه، كان له طعامٌ مُعَدٌّ في كلّ وقت، فقلتُ لأبي: أكان يُمكِنُه ذلك؟ فقال: كان له في كلّ يوم ثلاثُ شِيَاهٍ: واحدة مقطَّعةٌ في القدور، وأخرى مسلوخةٌ ومعلَّقة، وأخرى حيّة، فإذا أتاه قومٌ طَعِمُوا ما في القدور، فإذا فرغتْ قُطعت الشاةُ المعلَّقة ونُصبت القدور وذُبحت الحيّة فعلِّقت وأُتي بأخرى فجعلت وهي حيّةَ في المطبخ. وكانت وظيفته لِطعامه وطِيبه وما يُتخّذ له في كل شهر ثلاثين ألف درهم سوى ما كان نُجري وسوى كُسْوته، ولقد اتفق عندنا مرّةً من

(١) راع : رجع . صور إليه جمع أصور وصوراء : متجه بوجهه ، مائل بعنقه نحوه.

الجواري الودائع لإخوانه ثمانون جاريةً، ما منهن واحدةٌ إلا ويُجْري عليها من الطعام والكُسوة والطِّيب مثلَ ما يُجرِي لأخصّ جواريه، فإذا رُدّت الواحدةُ منهنّ إلى مولاها وصلها وكساها، ومات وما في مِلكه إلا ثلاثةُ آلاف دينار، وعليه من الدَّين سبعمائة دينارٍ قُضِيتْ منها.

مرضـــه ووفاتـــه

الحسين بن يحيى قال:

سمعتُ إسحاقَ الموصليّ يقول: لما دخلتْ سنةُ ثمان وثمانين ومائة اشتدّ أمرُ القُولَنْج(١) على أبي ولزِمه، وكان يعتاده أحياناً، فقعد عن خدمة الخليفة وعن نَوبته في داره، فقال في ذلك:

مـــلّ واللهِ طـبـيـبـي مـن مُـقَـاسـاة الـذي بـي
ســوف أُنْـعَـى عـن قـريـب لـعـدوٍّ وحـبـيـبِ

وغنى فيه لحناً من الرَّمَل، فكان آخِرَ شعرٍ قاله وآخِرَ لحنٍ صنعه.

عن حمّاد بن إسحاق عن أبيه:

أن الرّشيد ركب حماراً ودخل إلى إبراهيم يَعُوده وهو في الأبْزَن(٢) جالسٌ، فقال له: كيف أنت يا إبراهيمُ؟ فقال: أنا والله يا سيدي كما قال الشاعر:

سَـقـيـمٌ مَـلَّ منه أَقَـربُـوه وأَسلَمـه المُـداوِي والـحميمُ

فقال الرشيد: إنّا لله ! وخرج، فلم يَبْعُد حتى سمع الواعيةَ(٣) عليــه.

عمر بن شبّة قـــال:

مات إبراهيم الموصليّ سنة ثمانٍ وثمانين ومائة، ومات في ذلك اليوم الكِسَائيّ النحويّ والعبّاسُ بن الأحنف الشاعر وهُشَيمة الخمارة، .رُفع ذلك إلى الرشيد، فأمر المأمونَ أن يصلّي عليهم، فخرج فصُفّوا بين يديه؛ فقال: من

---

(١) القولنج: هو التهاب الأمعاء المعروف بالتهاب «القولون».
(٢) الأبزن: حوض يغتسل فيه، معرّب.
(٣) الواعية: الصراخ والصوت.

هذا الأول: قيل: إبراهيمُ؛ فقال: أخِّروه وقدِّموا العبّاسَ بن الأحنف. فقُدّم فصَلَّى عليهم، فلمّا فرَغ وانصرف دنا منه هاشمُ بن عبد الله بن مالك الخُزاعيّ فقال: يا سيّدي، كيف آثرتَ العبّاسَ بالتّقدمة على من حضر؟ قال: لقوله:

وسعَى بها ناسٌ فقالوا إنها لهي التي تَشْقَى بها وتُكابِدُ
فجحدتُهم ليكون غيرَكِ ظنُّهم إني لَيُعجِبني المحبُّ الجاحِد

ثم قال: أتحفظُها؟ قلت: نعم؛ فقال: أنشِدْني باقيَها، فأنشدتُه:

لمّا رأيتُ الليلَ سدّ طَريقَه عنّي وعَذّبني الظلامُ الراكدُ
والنجمُ في كَبد السماء كأنه أعمى تحيَّر ما لديه قائدُ
ناديتُ مَنْ طَرَد الرُّقادَ بصدِّه عمّا أُعالج وهو خِلوٌ هاجد
ياذا الذي صدَع الفؤادَ بهجره أنت البَلاءُ طريفُه والتّالد
ألقيتَ بين جفون عيني حُرْقةً فإلى متى أنا ساهرٌ يا راقدُ

فقال المأمون: أليس من قال هذا الشعر حقيقاً بالتقدمة؟ فقلتُ: بلى والله يا سيِّدي:

حمَّادٌ عن أبيه قال:

دخلتُ إلى الرّشيد بَعقبِ وفاة أبي، وذلك بعد شهر من يوم وفاته، فلمّا جلستُ ورأيتُ موضعه الذي يجلس فيه خالياً دمعتْ عيني، فكفَفتُها وتصبّرتُ، ولمحني الرّشيد فدعاني إليه وأدناني منه، فقبّلتُ يدَه ورجلَه والأرضَ بين يديه، فاستعبر، وكان رقيقاً، فوثبتُ قائماً ثم قلت:

في بقاء الخليفة الميمونِ خَلَفٌ من مُصيبَةِ المحزونِ
لا يَضير المصابَ رُزْءٌ إذا ما كان ذا مَفْزَعٍ إلى هارونِ

فقال لي: كذلك والله هو، ولن تَفْقِد من أبيك ما دمتُ حيًّا إلاشخصه. وأمر بإضافة رزقه إلى رزقي، فقلت: بل يأمرُ أميرُ المومنين به إلى ولده، ففي خدمتي إيّاه ما يُغنيني. فقال: اجعلوا رزق إبراهيم لولده وأضْعِفوا رزقَ إسحاق.

* . * . * . * . *

[٢٤]

ابن جامع

[الأغاني الجزء السادس، ص ٢٨٩ وما بعدهـــا]

أصله ومنزلته في الغناء

هو إسماعيلُ بن جامع بن إسماعيل. . . . بن سَهْم بن عَمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب. . . .

ويكنى ابن جامع أبا القاسم. وأمّه امرأةٌ من بني سَهم، وتزوّجت بعد أبيه رجلاً من أهل اليمن.

حمّاد عن أبيه: أنّ الرشيد سأل يوماً عن نسبه وقال له: أيُّ بني الإنس وَلَدَك، يا إسماعيل؟ قال: لا أدري، ولكن سَلْ ابنَ أخي (يعني إسحاق). ـ وكان يُماظّ(١) إبراهيم الموصليّ ويميل إلى ابنه إسحاق . ـ قال إسحاق: ثم التفت إليّ ابنُ جامع فقال: أَخبِره يابن أخي بنسب عمّك. فقال له الرشيد:

---

(١) يماظه : ينازعه.

قَبّحك الله شيخاً من قريش! تجهل نسبك حتى يُخبِرَك به غيرُك وهو رجلٌ من العجم!

يحيى بن إبراهيم بن عثمان بن نَهيك قال: دعا أبي الرشيدُ يوماً، فأتاه ومعه جعفر بن يحيى فأقاما عنده، وأتاهما ابنُ جامع فغنّاهما يومَهما. فلمّا كان الغدُ انصرف الرشيد وأقام جعفر. قال: فدخل عليهم إبراهيم الموصليّ فسأل جعفراً عن يومهم، فأخبره وقال له: لم يزل ابن جامع يُغنّينا إلا أنه كان يخرج من الإيقاع - وهو في قوله يريد أن يطيّب نفسَ إبراهيم الموصلي - قال: فقال له إبراهيم: أتريد أن تطيّبَ نفسي بما لا تطيبُ به! لا واللهِ، ما ضرِط ابنُ جامع منذ ثلاثين سنة إلّا بإيقاع، فكيف يخرج من الإيقاع!

مصعَب الزُبَيري قال:

قدِم علينا ابنَ جامع المدينة قَدْمةً في أيام الرّشيد، فسمعتُه يوماً يغنّي في بعض بساتين المدينة:

وما ليَ لا أبكي وأَندُب ناقتي ... إذا صدَرَ الرُّعيانُ وِرْدَ المَناهلِ
وكنتُ إذا ما اشتدّ شوقي رَحَلْتُها ... فسارت بمحزونٍ كثيرِ البلابلِ

وكان رجلاً صَيِّتاً[1]، فكاد صوتُه يذهب بي كلَّ مَذْهب، وما سمعتُ قبلَه ولا بعدَه مثلَه.

قالَ برصوما الزامر، وذكر إبراهيمَ الموصليّ وابن جامع، فقال:

الموصليّ بستانٌ تجد فيه الحُلو والحامضَ وطريّاً لم ينضَج، فتأكل منه من ذا وذا؛ وابنُ جامع زِقّ عسلٍ، إن فتحت فَمَه خرج عسلٌ حُلو، وإن خرقت جنبَه خرج عسلٌ حلوٌ، وإن فتحت يده خرج عسلٌ حلو، كلُّه جيّد.

طائفة من أخباره

● محمد بن عبد الله بن أبي فَروة بن أبي قُراد المخزوميّ قال:

---

(١) الصيّت: الجيّد الصوت.

كان ابنُ جامع من أحفظ خَلق الله لكتاب الله وأعلمِه بما يحتاج إليه، كان يخرج من منزله مع الفجر يومَ الجمعة، فيصلّي الصبحَ ثم يصُفّ قدميه حتى تطلع الشمس، ولا يصلّي الناسُ الجمعة حتى يختِمَ القرآن، ثم ينصرف إلى منزلـه.

● صالح بن عليّ بن عطيّة وغيره، قالوا:

قدِم ابنُ جامع قدمةً له من مكّة على الرشيد، وكان ابنُ جامع حسنَ السَّمْت، كثير الصّلاة قد أخذ السجودُ جَبهتَه، وكان يعتمُّ بعِمامة سوداءَ على قَلَنْسُوة طويلة، ويلبس لباسَ الفقهـــاء، ويركب حماراً مِرِّيسيّاً[1] في زيّ أهل الحجاز. فبينا هو واقفٌ على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن عليه فوقف على ما كان يقفُ الناسُ عليه في القدِيم حتى يَأذنَ لهم أو يصرفَهم، أقبل أبو يوسُفَ القاضي بأصحابه أهلِ القَلانس، فلمّا هجم على الباب نظر إلى رجلٍ يقف إلى جانبه ويُحادثُه، فوقعتْ عينُه على ابن جامع فرأى سَمْتَه وحلاوةَ هَيئته، فجاء فوقف إلى جانبه ثم قال لـه: أَمتع اللهُ بـك، توسَّمتُ فيـك الحجازيّة والقُرَشيّة. قال: أصبتَ. قال: فمن أيّ قريش أنت؟ قال: من بني سهم، قال: فأيُّ الحَرَمين منزِلُك؟ قال: مكة. قال: ومَن لقيتَ من فقهائهم؟ قال: سَل عمّن شِئتَ. ففاتحه الفِقه والحديث فوجد عنده ما أحبّ فأُعجب به. ونظر الناس إليهما فقالوا: هذا القاضي قد أقبل على المغنّي. وأبو يوسُف لا يعلم أنّه ابنُ جامع؛ فقال أصحابُه: لو أخبرناه عنه. ثم قالوا: لا، لعلّه لا يعود إلى مواقفته بعد اليوم فلمَ نغُمُّه؟ فلمّا كان الاذن الثاني ليحيى غدا عليه الناسُ وغدا عليه أبو يوسف، فنظر يطلب ابنَ جامع، فرآه، فذهب فوقف إلى جانبه فحادثه طويلاً كما فعل في المرّة الأولى. فلمّا انصرف قال له بعضُ أصحابه: أيّها القاضي، أتعرِف هذا الذي تُواقف وتُحادث؟ قال: نعم، رجلٌ من قريش من أهل مكة من الفقهاء. قالوا: هذا ابنُ جامع المغنّي. قال: إنا لله. قالوا: إنّ الناس قد شَهَروك بمُواقفته وأنكروا ذلك من فِعلك. فلمّا كان الإذنُ الثالث

---

(١) مريسي: نسبة إلى مرّيسة، وهي قرية بصعيد مصر تنسب إليها الحمر المريسية.

جاء أبو يوسف ونظر إليه فتنكَّبَه، وعرف ابنُ جامع أنه قد أُنذِر به فجاء فوقف فسَلّم عليه، فردّ السلامَ عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذي كان يلقاه به ثم انحرف عنه. فدنا منه ابنُ جامع، وعرف الناسُ القصة ـ وكان ابنُ جامع جَهيراً ـ فرفع صَوتَه ثم قال: يا أبا يوسُفَ، مالك تنحرفُ عنّي! أيَّ شيءٍ أنكرتَ؟ قالوا لك إنّي ابنُ جامع المغنيّ فكرهتَ مواقفتي لك! أسألُك عن مسألة ثم اصنَعْ ما شئتَ. ومال الناسُ فأقبلوا نحوهما يستمعون، فقال: يا أبا يوسف، لو أنّ أعرابيّاً جِلْفاً وقف بين يديك فأنشدك بجَفاءٍ وغِلظة من لسانه وقال:

يـا دارَ ميّـةَ بـالعَليـاء فـالسَّنَـدِ أقـوتْ وطـال عليهـا سـالفُ الأمـدِ

أكنتَ ترى بذلك بأساً؟ قال: لا ، قد رُوي عن النبيّ ﷺ في الشعر قولٌ ورُوي في الحديث. قال ابنُ جامع: فإن قلتُ أنا هكذا؛ ثم اندفع يتغنّى فيه حتى أتى عليه، ثم قال: يا أبا يوسف، رأيتَني زِدتُ فيه أو نقصتُ منه؟ قال: عافاك الله، أعفِنا من ذلك. قال: يا أبا يوسف، أنت صاحبُ فُتيا، ما زدتُه على أن حَسَّنْتُه بألفاظي فحسُن في السّماع ووصل إلى القلب. ثم تنحّى عنه ابنُ جامع.

● مصعب بن عبد الله قال : حدّثني الطَرّازُ وكان بريدَ الفضل بن الربيع قال:

لمّا مات المهديّ ومُلّك موسى الهادي أعطاني الفَضْلُ دنانيرَ وقال: اِلحَقْ بمكة فَأْتني بابن جامع واحمِلْه في قُبّه ولا تُعلِمَنّ بذلك أحداً. ففعلت فأنزلتُه عندي واشتريتُ له جاريةً ـ وكان ابنُ جامع صاحبَ نساء ـ فذكره موسى ذاتَ ليلة ـ وكان هو والحَرّانيّ(١) منقطعَين إلى موسى أيام المهديّ فضربهما المهديُّ وطردهما ـ فقال لجُلسائه: أما فِيكم أحدٌ يُرسل إلى ابن جامع وقد علمتم موقعَه

(١) الحرانيّ : هو إبراهيم الحرّانيّ وكان من ندماء الهادي. وجاء في رواية أخرى لهذا الخبر أن الذي ضربه المهديّ هو إبراهيم الموصليّ.

منّي! فقال له الفضلُ بن الربيع: هو والله عندي يا أمير المؤمنين، وقد فعلتُ الذي أردتَ. وبعث إليه فأُتي به في الليل، فوصَلَ الفضلَ تلك الليلة بعشرة آلاف دينار وولّاه حِجابَته.

● الزبيــر بن بَكّار قال: قال لي فُلفلة:

تمنّى يوماً موسى أميرُ المؤمنين ابنَ جامع، فدفع إليّ الفضَلُ بن الربيع خمسمائةَ دينار وقال: امضِ حتى تحمل ابنَ جامع. وبعث إليه بما يُصلِحه، فمضيتُ فحملتُه. فلمّا دخلنا أدخله الفضلُ الحَمّامَ وأصلح من شأنه، ودخل على موسى فغنّاه، فلم يُعجِبه، فلمّا خرج قال له الفضلُ: تركتَ الخفيفَ وغنّيت الثقيل! قال، فأَدخِلْني عليه أخرى. فأدخَله، فغنّى الخفيف، فقال: حاجتك. فأعطاه ثلاثين ألف دينــار.

● أبو معاوية بن عبد الرحمــن قال:

قال لي ابنُ جامع: لولا أن القِمار وحُبَّ الكِلاب قد شغَلاني لتـركت المُغنّين لا يأكُلون الخُبــز.

● حَولاءُ مولاةُ ابن جامع قالت:

انتبه مولايَ يوماً من قائلته فقال: عليّ بهشام (يعني ابنَه)، ادعُوه لي، عَجِّلوه. فجاء مُسرعاً، فقال: أَيْ بُنَيّ، خُذ العُود، فإنّ رجلاً من الجنّ ألقى عليّ في قائلتي صوتاً فأخاف أن أنساه. فأخذ هشامٌ العُود وتغنّى ابنُ جامع عليه رملاً لم أسمع له رَملاً أحسنَ منه، وهو:

أمســتْ رســومُ الــدِّيــار غَيَّرهــا ... هُــوجُ الــرِّيــاح الــزَّعــازع العُصُفِ
وكــلُّ حَــنّــانــةٍ لــهــا زَجَــلٌ ... مثــلُ حَنين الــرَّوائم الشُّغُفِ[1]

(١) الحنّانة: أراد السحابة التي يخالطها هزيم الرعد. الروائم ج رائمة ورؤوم: الناقة التي تعطف على ولدها وتلزمه. شَغِف به: علــق.

فأخذه عنه هشام، فكان بعدَ ذلك يتغنّاه وينسُبه إلى الجنّ.

● أبو محمد عبد الله بن محمد المكّي قال: قال لي ابنُ جامع:

أخذت من هارون ببيتين غنّيتُه بهما عشرة آلاف دينار:

لا بدّ للعاشق من وَقْفةٍ تكون بين الوصل والصّرمِ
يعتِب أحياناً وفي عَتْبه إظهارُ ما يُخفي من السُّقم
إشفاقه داعٍ إلى ظَنّه وظنُّه داعٍ إلى الظُّلم
حتى إذا ما مَضّه هجرُه راجع مَن يهوى على رَغْمِ

عن إبراهيم بن المهديّ ـ وكان إبراهِيم يفضّل ابنَ جامع ولا يقدّم عليه أحداً، وابنُ جامع يميل إليه ـ قال:

كنّا في مجلس الرشيد وقد غلَب على ابن جامع النّبيذُ، فَغَنّى صوتاً فأخطأ في أقسامه، فالتفت إليّ إبراهيمُ الموصليّ فقال: قد [غَلط] فيه. وفهمت صدقَهُ قال: فقلت لابن جامع: يا أبا القاسم، أعدِ الصوت وتحفَّظْ فيه. فانتبه وأعاده فأصاب. فقال إبراهيم:

أُعلّمه الرّماية كلَّ يومٍ فلمّا استدّ ساعدُه رَماني(١)

وتنكّر لي لميلي مع ابن جامع عليه، فقلت للرشيد بعد أيام: إنّ لي حاجةً إليك. قال: وما هي؟ قلت: تسأل إبراهيم الموصلي أن يرضَى عنّي ويعودَ إلى ما كان عليه. فقال: إنّما هو عبدُك. وقال له: قُم إليه فقبِّلْ رأسه. فقلت: لا ينفعني رضاه في الظاهر دون الباطن، فسَلْه أن يُصحّح الرّضا فقام إليّ ليقبّل رأسي كما أُمر، فقال لي وقد أكبّ عليّ ليُقبّل رأسي: أتعودُ؟ قلت: لا. قال: قد رضِيتُ عنك رضاً صحيحاً. وعاد إلى ما كان عليه.

● قدم حَوراءُ غلام حَمّاد الشّعرانيّ، وكان أحد المغنّين المجيدين قال: حدّثني بعضُ أصحابنا قال:

---

(١) استدّ قوي واشتد.

كنّا في دار أمير المؤمنين الرشيد فصاح بالمغنّين: من فيكم يعرف:

وكَعبةُ نجرانَ حَتْمٌ عليكِ حتى تُناخي بأبوابها

ـ الشعر للأعشى ـ.فبَدَرهم إبراهيم الموصليّ فقال: أنا أُغنّيه. وغنّاه فجاء بشيءٍ عجيب، فغضب ابن جامع وقال لَزَلْزَل: دَعِ العُود، أنا من جِحاش وَجْرة لا أحتاج إلى بيطار[1]. ثم غنّى الصوت، فصاح إليه مسرورٌ[2]: أحسنت يا أبا القاسم! ثلاث مرات.

● قال إسحاق:

كان ابنُ جامع إذا تغنّى في هذا الشعر:

مَن كان يبكي لما بي ... من طُول سُقْمٍ رَسيسِ
فالآن من قبل موتي ... لا عِطْرَ بعدَ عروسِ
بنيتمُ في فؤادي ... أوكار طير النُحوسِ
قلبي فَريسُ المنايا ... يا ويحَه من فَريسِ[3]

ـ الشعر لرجل من قريش، والغناء لابن جامع في طريقة الرمل ـ لم يتغنَّ في ذلك المجلس بغيره. وكان إذا أراد أن يتغنّى سأل أن يزمُر عليه بَرْصوما. فلمّا كثُر ذلك سألوه فيه فقال: لا واللهِ، ولكنه إذا ابتدأتُ فغنّيت في الشعر عرَف الغَرضَ الذي يصلُح فما يُجاوزه، وكنت معه في راحة؛ وذلك أن المغنّي إذا تغنّى بزَمْر زامرٍ فأكثرُ العملِ على الزامر لأنه لا يقفُو الأثر، فإذا زَمَر برصوما

---

(١) وبرة: موضع بين مكة والبصرة وهو مربى للوحش، يريد أنه يجري على الطبيعة لا يحتاج إلى من يعينه بـآلات العزف.

(٢) مسرور: خادم الرشيد وحاجبه.

(٣) الرسيس: الثابت الملازم. لا عطر بعد عروس: مثل مشهور قالته أسماء بنت عبد الله العذرية، وكان اسم زوجها عروس، ومات عنها، فتزوجها رجل أعسر بخيل، فلما أراد أن يرتحل بها طلب إليها أن تأخذ معها عطرها فقالت هذا القول.

فأنا في راحة وهو في تعب، وإذا زَمَر عليّ غيره فهو في راحة وأنا في تعب؛ فإن شككتم فاسألوا برصوما ومنصور زلزلٍ. فسألوهما عمّا قال فقالا: صدَق.

● أحمد بن يحيى المكّيّ قـال:

كان ابنُ جامع أحسنَ ما يكون غناءً إذا حزِن صوتُهُ. فأحبّ الرشيدُ أن يسمع ذلك على تلك الحال، فقال للفضل بن الربيع: ابعثْ خريطةً فيها نَعْيُ أمّ ابن جامع ـ وكان باراً بأُمّه ـ ففعل. فوردت الخريطة على أمير المؤمنين وهو في مجلس لهوه، فقال: يابنَ جامع، جاء في هذه الخريطة نعيُ أُمّك. فاندفع ابنُ جامع يغنّي بتلك الحُرقة والحزن الذي في قلبـه:

كم بالدُّروب وأرض السِّنْد من قَدَمٍ ... ومن جماجم صَرعى ما بها قُبروا
بقُنْدُهارَ ومن تُكتَبْ منيّتُه ... بقُنْدُهار يُرَجَّمْ دونَه الخبرُ(١)

قـال: فـوالله ما ملكْنا أنفُسَنا، ورأيت الغلمان يضربون برؤوسهم الحيطان والأساطين... قال: ثم غنّى بعد ذلك:

«يا صاحب القبر الغريب».

.... فقال له الرشيد: أحسنتَ! وأمر له بعشرة آلاف دينار.

● عبد الله بن علي بن عيسى بن ماهان قال: سمعت بربر يحدّث:

أن أمّ جعفر بلغها أن الرشيد جالسٌ وحدَه ليس معه أحدٌ من النُّدماء ولا المُسامرين، فأرسلتْ إليه: يا أمير المؤمنين، إنّي لم أرَكَ منذ ثلاثٍ وهذا اليومُ الرابع. فأرسل إليها: عندي ابنُ جامع. فأرسلت إليه: أنت تعلم أنّي لا أتهنّأ بشُرب ولا سَماعٍ ولا غيرهما إلا أن تشركَني فيه، فما كان عليك أن أَشْرَكك في الذي أنت فيه. فأرسَل إليها: إنّي سائرٌ إليكِ الساعةَ. ثم قام وأخذ بيد ابن جامع، وقال لحسين الخادم: امضِ إليها فأعلمها أنّي قد جئت. وأقبل

(١) القدم: الشجاع. ويحتمل أنه أراد به ذلك العضو من الإنسان. قندهار: مدينة كبيرة بالقرب من كابل. والشعر ليزيد بن مفرّغ الحميري.

الرشيد، فلمّا نظر إلى الخَدم والوصائف قد استقبلوه علم أنها قد قامت تستقبِلَه، فَوجّه إليها: إن معي ابنَ جامع. فعدَلَتْ إلى بعض المقاصير، وجاء الرشيد وصَيَّر ابنَ جامع في بعض المواضع التي يُسمَع منه فيها ولا يكون حاضرا معهم. وجاءت أمُّ جعفر فدخلت على الرشيد وأهوتْ لِتنكبَّ على يده، فأجلسها إلى جانبه فاعتنقها واعتنقتْه، ثم أمر ابنَ جامع أن يغنّي، فاندفع فغَنّى:

مـا رَعَـدتْ رَعْـدةَ ولا بَـرَقَـتْ ... لـكـنّـهـا أُنشِئـت لـنـا خَـلِقَـهْ
المـاءُ يجـري عـلى نـظامٍ لـه ... لـو يجـد المـاءُ مَخْرِقـاً خَـرَقَـهْ
بِتنـا وبـاتـت عـلى نـمـارقـهـا ... حتى بـدا الصُّبـحُ عَينُـهـا أَرِقَـه
أنْ قيـل إنّ الـرّحيـلَ بعـدَ غـدٍ ... والـدّارُ بعـد الجميـع مُفتـرقَـهْ[1]

الشعر لعَبيد بن الأبرص، والغناء لابن جامع... قال: فقالت أمّ جعفر للرشيد: ما أحسنَ ما اشتهيتَ والله يا أمير المؤمنين! ثم قالت لمُسلم خادِمها: ادفعَ إلى ابن جامع لكل بيتٍ مائةَ ألف درهم. فقال الرشيد: غلبتنِا يا بنتَ أبي الفَضل وسبقتنا إلى بِرّ ضيفنا وجَليسنا. فلمّا خرج حمل إليها مكانَ كلّ درهم ديناراً.

● إسماعيل بن جامع السَّهْميّ قال:

ضمّني الدهر[2] ضمّاً شديداً بمكة، فانتقلت منها بعِيالي إلى المدينة، فأصبحتُ يوماً وما أملِك إلاّ ثلاثةَ دراهم فهي في كُمّي، إذا أنا بجارية حُميراء على رقبتها جَرّةٌ تريد الرّكيَّ[3] تسعى بين يديّ وتُرنّم بصوت شجيّ تقول:

شكَـونـا إلى أحبـابنـا طـولَ ليلنـا ... فقـالوا لنـا ما أقصـرَ الليل عنـدنـا
وذاك لأنّ النـومَ يَغشى عـيـونَهـم ... سِراعاً ومـا يَغشى لنا النـومُ أعيُنـا

---

(١) يقال: نشأت لهم سحابة خلقة: أي فيها أثر المطـر.
(٢) ضمني الدهر: أي قسا عليّ، لما عاناه من الفقر والحاجة.
(٣) الركيّ: البئـر.

إذا ما دنا الليلُ المُضِرُّ لذي الهوى   جَــزِعنـا وهم يستبشِــرون إذا دنـا
فلو أنّهم كــانـوا يُــلاقـون مثلمـا   نُـلاقي لكانـوا في المَضاجـع مثلَنا

قال : فأخذ الغناءُ بقلبي ولم يَدُر لي منه حرفٌ، فقلت: يا جاريةُ، ما أدري أَوَجْهُك أحسنُ أم غناؤكِ! فلو شئتِ أعدتِ. قالت: حُبّاً وكرامةً. ثم أسندتْ ظهرَها إلى جدار قَرُب منها ورفعتْ إحدى رجلَيها فوضَعْتها على الأخرى، ووضعتْ الجرّةَ على ساقَيها ثم انبعثتْ تُغنّيه، فوالله ما دار لي منه حرفٌ. فقلت: أحسنتِ! فلو شئتِ أعدتِه مرّةً أخرى. ففَطِنتْ وكَلَحت وقالت: ما أعجبَ أمرَكم! أحدُكم لا يزال يجيء إلى الجارية عليها الضَّريبةُ فيَشْغَلُها! فضربت بيدي إلى الثلاثة الدراهم فدفعتُها إليها وقلت: أقيمي بها وجهَكِ اليومَ إلى أن نلتقي. قال: فأخذتْها كالكارهة وقال: أنت الآنَ تريد أن تأخذَ منّي صوتاً، أحسَبُك ستأخذ به ألفَ دينار وألف دينار وألفَ دينارٍ. قال: وانبعثتْ تغنّي، فأعملتُ فكري في غنائها حتى دار لي الصـوتُ وفهمتُه وانصـرفت مسروراً إلى منزلــي أُردِّدُه حتى خفّ على لساني. ثم إنّي خرجت أُريد بغداد فدخلتُها، فنزل بي المُكاري على باب مُحَوّل(١)، فبقيت لا أدري أين أتوجّه ولا مَن أقصِد. فذهبت أمشي مع الناس حتى أتيت الجسر فعبرتُ معهم، ثم انتهيت إلى شارع المدينة، فرأيت مسجداً بالقرب من دار الفَضْل بن الربيع مُرتفعاً، فقلت: مسجدُ قومٍ سَراةٍ. فدخلتُه وحضرتُ صلاة المغرب وأقمت بمكاني حتى صلّيت العِشاء الآخرة على جُوع وتعب. وانصرف أهلُ المسجد وبقي رجلٌ يصلّي، خلفَه جماعةُ خدم وخَوَل ينتظرون فرَاغَه. فصَلّى مَلّياً ثم انصرف، فرآني فقال: أحسَبُك غريباً؟ قلت: أجل. قال: فمتى كنتَ في هذه المدينة؟ قلت: دخلتُها آنفاً، وليس لي بها منزلٌ ولا معرفة، وليست صناعتي من الصنائع التي يُمَتّ بها إلى أهل الخير. قال: وما هي صناعتك؟ قلت: أتغنّى. قال: فوثب مُبادراً ووَكّل بي بعَضَ من مَعه. فسألتُ الموكَّل بي عنه

---

(١) باب محوّل : محلة كبيرة من محالّ بغداد.

فقال: هذا سَلّام الأبرش[1]. قال: وإذا رسولٌ قد جاء في طلبي، فانتهى بي إلى قصر من قصور الخلافة، وجاوز بي مقصورةً إلى مقصورة، ثم أُدخلت مقصورة في آخر الدِّهليز ودعا بطعام، فأُتيت بمائدة عليها من طعام الملوك، فأكلت حتى امتلأتُ. فإنّي لكذلك إذا سمعتُ ركضاً في الدهليز وقائلاً يقول: أين الرجل؟ قيل: هو هذا. قال: ادعُوا له بغَسول[2] وخِلعةٍ وطِيب. ففعُل ذلك بي؛ فحُملت على دابّة إلى دار الخلافة - وعرفتُها بالحَرَس والتكبير والنِّيران - فجاوزت مقاصيرَ عَدّةً حتى صِرت إلى دارٍ قوراء[3] فيها أسِرّة في وسطها قد أُضيف بعضُها إلى بعض. فأمرني الرجلُ بالصُّعود فصعِدتُ، وإذا رجلٌ جالس عن يمينه ثلاثُ جَوارٍ في حُجورهنّ العِيدانُ، وفي حِجْر الرجل عُود. فرحّب الرجلُ بي، وإذا مَجالسُ حيالَه كان فيها قومٌ قد قاموا عنها، فلم ألبث أن خرج خادمٌ من وراء السِّتر فقال للرجل: تَغَنّ. فانبعث يغنّي بصوتٍ لي وهو:

لم تمشِ ميلاً ولم تركَبْ على قَتَبٍ ... ولم تـر الشمسَ إلا دونَهـا الكِلَلُ
تمشي الهُوَيني كأنّ الرِّيحَ تَـرْجِعها ... مشيَ اليعافير في جيـآتها الـوَهَلُ[4]

فغنّـى بغيـر إصابة وأوتار مختلفة ودساتين[5] مختلفة. ثم عاد الخادم إلى الجارية التي تلي الرجل فقال لها: تغنَّيْ. فغنّت أيضاً بصوتٍ لي كانت فيه أحسنَ حالاً من الرجل، وهو قوله:

يا دارُ أضحت خَلاَءً لا أنيسَ بهـا ... إلّا الـظِّبـاءُ وإلّا النـاشطُ الفَـرِدُ
أين الـذين إذا مـا زُرتُهم جَـذِلـوا ... وطار عن قلبي التَّشواقُ والكَمَـدُ[6]

(١) سلام الأبرش: كان يعمل في خدمة خلفاء بني العباس منذ أيام المنصور حتى أيام الرشيد.
(٢) الغسـول : الماء يغتسل به.
(٣) قوراء : واسعـة الجوف.
(٤) القتب : خشب الرحل. الكلل ج كلة: الستر يجعل حول البيت والسرير.
اليعافيـر ج يعفور : الظبي . الوهل : الفزع.
(٥) الدساتين: مواضع الأصابع من الأوتار.
(٦) الناشط : الثور الوحشي والحمار الوحشي.

ثـم عـــاد إلى الثانية وأحسبه أغفلها وما تغنّت به، ثم عاد الخـادم إلى الجارية التي تليها فانبعثت تغنّي بصوتٍ لَحَكَمٍ الواديّ وهو:

فــوالله مــا أدري أيغلِبُني الهــوى إذا جَدّ وشكُ البَين أم أنا غالبُهْ
فإن أستطعْ أغلبْ وإن يَغلب الهوى فمثـل الذي لاقيتُ يُغلَبُ صـاحبـه

قال : ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فغنّت بصوتٍ لحُنَين وهو قوله:

مَــررنــا على قَيسيَّــةٍ عــامـريّــةٍ لهــا بشَـرٌ صــافي الأديم هِجـانِ
فقـالت وألقتْ جانبَ السِّتر دونهـا مِن ايّــةِ أرضٍ أو مَن الــرجُــلانِ
فقلتُ لهــا أمّــا تميمٌ فــأُسـرتـي هُــديتِ وأمّــا صــاحبي فيَمــانِ
رفيقــان ضَمّ السَّفــرُ بيني وبينــه وقــد يلتقي الشَّتّى فيـأتلفـانِ(١)

ثم عاد إلى الرجل فغنّى صوتاً فشبَّه فيه(٢). والشعر لعمر بن أبي ربيعة وهو قوله:

أمسى بـأسماءَ هـذا القلبُ مَعمودا إذا أقــول صـحــا يعتــادُه عِيــدا
كــأنّ أحورَ من غِــزْلان ذي بقَرٍ أعــارَهــا شَبَــه العينَين والـجِيـدا
بمُشــرقٍ كُشُعــاع الشمس بَهجتُــه ومُسبَكــرٍ على لَبّــاتهــا سُــودا(٣)

ثم عاد إلى الجارية فتغنّت بصوتٍ لحكم الواديّ:

تُعيّــرُنــا أنّــا قــليــلٌ عــديــدُنــا فــقــلت لــهــا إنّ الــكــرام قــليــلُ
ومــا ضــرّنــا أنّــا قليــلٌ وجــارُنــا عــزيــزٌ وجــارُ الأكـثـرين ذلـيــلُ

---

(١) الهجان : الأبيض الخالص.
(٢) شبّه فيه : خلّط وأساء آداءه.
(٣) المعمود والعميد: من هدّه العشق. عيدا: أي اعتيـاداً. ذو بقر: اسم واد. المشرق: صفة للوجه، وهذا الجار والمجرور متعلق بقوله: تراءى، في بيت سابق على هذا البيت لم يروه أبو الفرج. المسبكر: صفة للشعر المسترسل. اللبـة: صفحة العنق.

وإنّا لَقومٌ ما نرى القتل سُبّةً	إذا ما رأتْه عامرٌ وسَلُولُ
يُقرّب حبُّ الموت آجالانا لنا	وتَكرهُهُ آجالُهم فتطولُ

وتغنّت الثانية:

وددْتك لمّا كان وُدُّك خالصاً	وأعرضتُ لمّا صِرتَ نَهْباً مقسّما
ولا يلبث الحوضُ الجديد بناؤهُ	إذا كثُرُ الوُرّاد أن يتهدّما

وتغنّت الثالثة بشعر الخنساء:

وما كرّ إلّا كان أوّلَ طاعنٍ	ولا أبصرتْه الخيلُ إلّا اقشعرّتِ
فيُدرك ثأراً وهو لم يُخطِه الغِنى	فمثلُ أخي يوماً به العينُ قرّت
فلستُ أرزَّا بعدَه بَرزيّةٍ	فأذكرَه إلّا سَلَتْ وتجلّتِ

وغنّى الرجلُ في الدور الثالث:

لَحى اللهُ صُعلوكاً مُناه وهَمُّه	من الدّهر أن يَلقى لَبُوساً ومَطْعَما
ينام الضُحى حتى إذا ليلهُ انتهى	تَنبّه مثلوجَ الفؤادِ مُوَرَّما
ولكنّ صُعلوكاً يُساور همّه	ويمضي على الهَيجاء ليثاً مُقدَّما
فذلك إن يلق الكَريهةَ يلقَها	كريماً وإن يستغنِ يوماً فربّما

قال: وتغنّت الجاريةُ:

إذا كنتَ ربّاً للقَلُوص فلا يكن	رفيقُك يمشي خلفَها غيرَ راكبِ
أنِخْها فأردِفْه فإن حملتكما	فذاك وإن كان العِقابُ فعاقبِ[1]

قال: وتغنّت الثالثة بشعر عمر بن أبي ربيعة:

فلمّا تواقفْنا وسَلّمتُ أسفرتْ	وجوهٌ زهاها الحُسنُ أن تتقنّعا
تبالَهْن بالعِرفان لمّا عَرفْنني	وقُلن امرؤٌ باغٍ أكلَّ وأوضعا

---

(١) القلوص: الناقة النشيطة السريعة العقاب: التعاقب في الركوب، تركب مرة ويركب صاحبك مرة.

ولمّـا تنازعن الأحـاديثَ قلن لي   أخِفتَ علينا أن نُغَـرَّ ونُخـدَعـا[1]

قال : وتوقعت مجيء الخادم إليّ فقلت للرجل: بأبي أنت، خُذ العود فشُدّ وترَ كذا وارفع الطبقة وحُطَّ دُسْتان كذا. ففعل ما أمرتُه، وخرج الخادم فقال لي: تَغَنَّ، عافاك الله. فتغنّيت بصوت الرجل الأول على غير ما غنّاه، فإذا جماعة من الخدم يحضُرون حتى استندوا إلى الأَسِرّة وقالوا: ويحكَ! لمن هذا الغناء؟ قلت: لي. فانصرفوا عني بتلك السرعة، وخرج إليّ الخادمُ وقال: كذبتَ! هذا الغناءُ لابن جامـع. ودار الدّورُ، فلمّـا انتهى الغناءُ إليّ قلت للجارية التي تلي الرجلَ: خُذي العُود. فعلمتُ ما أُريد، فسوّت العود على غنائها للصوت الثاني، فتغنّيتُ به؛ فخرجتْ إليّ الجماعةُ الأولى من الخدم فقالوا: ويحك! لمن هذا؟ قلت: لي. فرجعوا وخرج الخادم. فتغنيت بصوت لي

فلا يُعرَف إلّا بي، وسقَوني فتزيّدت، وهو:

عُـوجي علـيَّ فسَلِّمي جَبْـرُ   فـيمَ الـصُّـدودُ وأنـتـمُ سَـفْـرُ
مـا نـلـتـقـي إلاّ ثـلاثَ مِـنـىً   حتّى يُـفَـرّقَ بـيـنَـنـا الـنَّـفْـرُ[2]

قال : فتزلزلت والله الدارُ عليهم؛ وخرج الخادم فقال: ويحكَ! لمن هذا الغناء؟ قلت: لي. فرجَع ثم خرج فقال: كذبتَ، هـذا غناء ابن جـامع. فقلت: فأنا إسماعيل بن جامع. فما شعَرت إلّا وأميرُ المؤمنين وجعفر بن يحيى قد أقبلا من وراء السِّتْر الذي كان يخرج منه الخادم، فقال لي الفضلُ ابن الربيع: هذا أميرُ المؤمنين قد أقبل إليك. فلمّا صعِد السّريرَ وثبتُ قائماً. فقال لي: ابنُ جامع؟ قلت: ابنُ جامع، جعلني الله فِداك يا أمير المؤمنين. قال: ويحَك! متى كنت في هذه البلدة؟ قلت: آنفاً، دخلتُها في الوقت الذي

---

(١) تبالهن بالعرفان: تظاهرن بعدم معرفتي. باغ: ينشد ناقة لـه. أكلّ: أتعب. أوضع: أسرع السير.
(٢) النفر : نفر الحجيج من منى.

علم بي أميرُ المؤمنين. قال: اجلِس، ويحَك يابَن جامع! ومضى هو وجعفر فجلسا في بعض تلك المجالس، وقال لي: أَبْشِر وابسُطْ أَمَلك. فدعوتُ له، ثم قال: غَنّني يابنَ جامع. فخطر بقلبي صوتُ الجارية الحُمَيراء، فأمرتُ الرجل بإصلاح العود على ما أردتُ من الطبقة، فعرَف ما أردتُ، فوزَن العُود وزناً وتعاهَده حتى استقامت الأوتارُ وأخذتْ الدَّساتينُ مواضعَها، وانبعثتُ أغنّي بصوت الجارية الحُميراء، فنظر الرشيد إلى جعفر وقال: أسمعتَ كذا قطُّ؟ فقال: لا واللهِ ما خَرَق مَسامعي قط مثلُه. فرفع الرشيدُ رأسه إلى خادم بالقُرب منه، فدعا بكيس فيه ألفُ دينار فجاء به، فرمى به إليّ، فصيّرتُه تحت فخذي ودعوتُ لأمير المؤمنين؛ فقال: يابنَ جامع، رُدَّ على أمير المؤمنين هذا الصوت. فرددتُه وتزيّدتُ فيه، فقال له جعفر: يا سيّدي، أما تراه كيف يتزيّد في الغناء! هذا خلافُ ما سمعناه أولاً وإن كان الأمرُ في اللحن واحداً. قال: فرفع الرشيد رأسَه إلى ذلك الخادم فدعا بكيس آخر فيه ألفُ دينار، فجاءني به، فصيّرتُه تحت فخذي؛ وقال: تغنَّ يا إسماعيلُ ما حَضَرك. فجعلت أقصِد الصوتَ بعد الصوت ممّا كان يبلغني أنّه يشتري عليه الجواري فأُغنّيه؛ فلم أزل أفعل ذلك إلى أن عَسعس الليلُ، فقال: أتعبناك يا إسماعيلُ هذه الليلةَ بغنائك، فأعِد على أمير المؤمنين الصوت .(يعني صوتَ الجارية). فتغنّيت، فدعا الخادم وأمره فأحضر كيساً ثالثاً فيه ألفُ دينار. قال: فذكرتُ ما كانت الجاريةُ قالت لي فتبسّمتُ، ولَحَظَني فقال: يابن الفاعلة، ممّ تبسّمتَ؟ فجثوت على ركبتي وقلت: يا أمير المؤمنين، الصدقُ مَنجاةٌ. فقال لي بانتهار: قُلْ. فقصصت عليه خبرَ الجارية، فلمّا استوعبه قال: صدقتَ، قد يكون هذا. وقام، ونزلت من السرير ولا أدري أين أقصِد، فابتدرني فرّاشان فصارا بي إلى دارٍ قد أمر بها أميرُ المؤمنين، ففُرشتْ وأُعدّ فيها جميعُ ما يكون في مثلها من آلة جُلوس الملوك ونُدَمائهم من الخدم، ومن كل آلةٍ وخَوَل، إلى جَوارٍ ووُصَفاء، فدخلتُها فقيراً وأصبحت من جِلّة أهلها ومَياسيرهم.

* . * . * . * . * . *

[٢٥]

أبو حشيشة

[الأغاني الجزء ٢٣ ص ٧٥ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

أبو حشيشة لقبٌ غَلَب عليه، وهو محمد بن أمية بن أبي أمية، يُكنى أبا جعفر، وكان أهلُه جميعاً مُتَّصِلين بإبراهيم بن المهديّ، وكان هو من بينهم مَعنيّاً بالطُّنبور، يغنّي أحسنَ غناء، وخدَم جماعةً من الخلفاء أوّلُهم المأمون ومَن بعدَه إلى المعتمد.. وكان أكثرُ انقطاعه الى أبي أحمد بن الرشيد أيامَ حياته، وكان أبوه وجَدّه وأخوالُه كُتّاباً.

عليّ بن العبّاس قال: رأيتُه وقد حَضَرتْ عَريب عند ابن المدبِّر وهو يغنّي؛ فقالت له عريب: أحسنتَ يا أبا جعفر، ولو عاش الشيخان ما قلتُ لهما هذا (تعني علّويهِ ومُخارقاً).

طائفة من أخباره

● ابو حشيشة قال:

هجم عليّ خادمٌ أسودُ فقال لي: البِسْ ثيابَك. فعلمتُ أن هذا لا يكون إلّا عن أمر خليفة أو أمير فلم أُراجِعْه، حتى لبست ثيابي فمضيت معه، فعبَر بي الجسرَ وأدخلني إلى دارٍ لا أَعرفُها، ثم اجتاز بي في رِواق فيه حُجرٌ تفوح منهنّ رائحةُ الطعام والشراب، فأُدخِلت منهنّ إلى حُجرة مفروشة وجاءني بمائدة كأنها جَزْعةٌ[1] يمانية قد نُشِرت في عراصها الحِبَرة[2]، فأكلتُ وسقاني رطلين، وجاءني بصَندوق فَتَحه فإذا فيه طنابير فقال لي: اختَرْ. فاختَرتُ واحداً، وأخذ بيدي فأدخلني إلى دارٍ فيها سَمّاعةٌ وفيها رجلان على أحدهما قَباءٌ غليظ، وعلى الآخر ثيابُ مُلحَمٍ[3] وخَزّ، فقال لي صاحبُ الخزّ: اجلِس. فجلست، فقال أكلتَ وشربت؟ فقلت: نعم. قال: عندنا؟ قلت: نعم. قال: تُغنّي ما نقول لك؟ فقلت له: قُل. فقال: تغنّي بصَنعتك:

يا كثيرَ الإقبال والإنصرافِ ومَلُولاً ولو أشا قلت خافِ

فغنّيتُـــه إيـــاه، وجعل يطلب مني صوتاً بعد صوت من صَنعتي، فأغنّيه، ويستعيدُه ويشرب هو والرجلُ وأُسقَى بالأنصاف المختوتة[4]، إلى أن صَلُّوا العِشاءَ الآخِرةَ، وهم لا يشربون إلّا على الصوت الأول لا يُريدون غيره. ثم اومأ اليّ الخادمُ: قُمْ. فقُمت، فقال لي صاحبُ القَباء منهما: أتعرفني؟ قلت: لا والله. قال: أنا إسحاق بن إبراهيم الطاهريّ وهذا محمد بن راشد الخنّاق، والله لئن بَلَغني أنك تقول: إنك رأيتَني لأضرِبنّك مائتي صَوت، انصرِف.

---

(١) الجزعة: الخرزة.
(٢) الحِبرة: ضرب من برود اليمن.
(٣) الملحم: نوع من الثياب الفاخرة.
(٤) المختوتة: الناقصة.

فخرجت ودفع إليَّ الخادمُ ثلاثمائة دينار، فجهَدت أن يقبَل منها شيئاً على سبيل البرّ فما فَعل.

● أبو حشيشة قال:

وَجّه إليّ إسحاقُ بن إبراهيم الطاهريّ فصِرت إليه وهو في داره التي على طرَف الخندق، فدعا بجُونة[1] فأكل وأكلتُ من ناحية، ودعا بسِتارة وقال: تَغَنَّ بصنعتك.

عــادِ الهــوى بــالكــأس بَــردا فــأطِــعْ إمــارةَ مَــن تــبــدَّى

فغنّيتُه مراراً، ثم ضرب السِّتارة وقال: قُولوه. فقالتْه جاريةٌ فأحسنتْ غاية الإحسان، فضحك ثم قال: كيف تراه؟ فقلت: قد والله بَغَّضُوه إليّ. فازداد في الضحك، وأنا أرمُق جُبّة خَزٍّ خضراءَ كانت عليه فقال: كم ترمُق هذه الجُبّة! يا غلامُ، كانت عشرة أثواب خزٍّ فقطعتُ منها هذه الجُبّة، فهاتِ التسعةَ فجيء بها. فدفَعها إليّ، فكنت أَبيع رُذالَها بستين ديناراً.

● ونسخت من كتاب ألّفه أبو حشيشة وجمع فيه أخباره مع من عاشره ومن خدَم من الخلفاء، وهو كتابٌ مشهورٌ، قال:

أول من سمعني من الخلفاء المأمونُ، وهو بدمشق، وصَفَني له مخارقُ فأمر بِاشخاصي إليه وأمر لي بخمسين ألف درهم أَتجهَّز بها، فلمّا وصلتُ إليه أدناني وأُعجِب بي وقال للمعتصم: هذا ابنُ مَن خدَمك وخدَم آباءَك وأجدادك يا أبا إسحاق، جَدُّ هذا أميّةُ كاتب جَدِّك المهديّ على كتابة السِّرّ وبيت المال والخاتَم، وحَجّ المهديّ أربعَ حِججٍ كان جَدُّ هذا زميلَه فيها. واشتهى المأمونُ من غنائي:

(١) الجونة: سلة مغطّاة بالأدم.

كـان يُنهَى فنَهى حين انتَهى وانجلتْ عنه غَيابـاتُ الصِّبـا
خَلع اللهوَ وأضحى مُسبِلاً للنُّهَى فضلَ قميصٍ ورِدا
كيف يرجو البِيضَ مَن أوَّلُهُ في عيون البِيض شيبٌ وجَلا
كان كُحلاً لِمآقيها فقد صار بالشَّيب لعينيها قَذى[1]

الشعر لِدعبل والغناء لمحمد بن حسين بن مِحرِز.

قال ابو حشيشة: وكان مُخارقٌ قد نهاني أن أغنّي ما فيه ذِكرُ الشيب من هذا الشعر وأن أقتصر على البيتين الأوَّلَين لأن المأمون كان يشتدّ عليه ذِكرُ الشيب ويكرهه جدّاً من المُغنِّين، وأمَر ألاّ يُغنّيَه أحدٌ بشعرٍ قيل في الشيب أو فيه ذكرٌ له. فسكِرتُ يوماً فمررت في الشعر كلّه، فقال: يا مخارقُ، ألا تُحسِن أدبَ هذا الفتى! فنقَفني[2] مخارقٌ نَقفةً صُلبة، فما عُدتُ بعدها لذكر شيء فيه الشيبُ.

قال: وكان المتوكّل يحبّني ويستخفُّني، وكانت أغانيه التي يشتهيها عليَّ كثيرةً.

قال: وأخبرني محمد بن عليّ بن عِصْمة ـ وكان إليه الزُّهدُ في الدنيا كُلِّها ـ وقال: حضرتُ المعتزَّ وقد ورد عليه جوابُ كتابه إلى محمد بن عبد الله ابن طاهر ـ وكان كَتب إليه يطلُبني منه ـ فكتب إليه محمد أنّي عليلٌ لافضلَ فيَّ للخِدمة. قال أبو عِصمة: فقال لي المعتزُّ: يا أبا محمد، صديقُك أبو حَشيشةَ يُؤثِر علينا آلَ طاهر! فقلت له: يا سيّدي، أنا أعلَمُ الناس بخبره، هو والله عليل ما فيه موضعٌ لخدمة أمير المؤمنين.

قال: ثم ذكَرني المعتمِد وحَرّضه عليّ ابنُ حَمدون، فكتب إلى أبي أيّوب سليمان بن عبد الله بن طاهر ـ وهو يومئذٍ أميرُ بغداد ـ في إشخاصي،

(١) البيض: كناية عن النساء. الجلا: انحسار مقدم الشعر أو هو دون الصلع.
(٢) نقفه: ضربه بعصا أو نحوها.

فأَشخَصني إليه من ساعتي، فأكرمني وأدنى مجلسي وأمر لي بجائزة، واشتهى عليّ:

قـلبـي يُـحـبُّـك يـا مُـنـى قـلبي ويُـبغِضُ مـن يُـحـبُّـكْ
لأكـونَ فَـرداً فـي هـوا كِ فـليت شعـري كيف قَـلبُـكْ

الشعر لأحمد بن يوسف الكاتب والصنعة لأبي حشيشة..

● قال أبو حشيشة:

سمع إبراهيم بن المهديّ أصواتاً من غناء محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر وعمرو ابن بانة فاستحسنها وأخذها جَواريه وقال: الطُّنبور كلُّه باطل، فإن كان فيه شيءٌ حقّ فهذا[1]، وأشتهي أن يُسمعَني. فهِبتُه هَيبةً شديدة وقلت: إن رَضِيَني لم يزِد ذلك في قَدري، وإن لم يَرضَني بقيت وصمةً آخرَ الدّهر. وكان يطلبُني من محمد بن الحارث بن بُسخنّر خاصّة، ومن اسحاق بن عمرو بن بِزيع، فكنت أفرُّ منهما، حتى صِرت نُسرَّ مَن رأى، وأنا في تلك الأيامِ منقطعٌ إلى أبي أحمد بن الرشيد، ونحن في مَضارب لم نكن سَكنّا المنازلَ بعدُ. فوافى إلى أبي أحمد بن الرشيد رسولُ إبراهيم بن المهديّ فأبلَغه السّلام وقال: يقول لك عمُّك: قد أعيَتْني الحِيلُ في هذا الخبيث وأنا أُحبّ أن أسمعَه، وهو يهرُب مني، فأُحبّ أن تبعث به إليَّ، وتكون زَيرب معه تؤنِسُه. فقال لي أبو أحمد: لا بدَّ أن تمضيَ إلى عمّي. فجهَدت كلَّ الجَهد أن يُعفيَني، فأبى، فلمّا رأيت أنه لا بدّ لي منه لبست ثيابي ومضيتُ إليه، وهو نازلٌ في دَسْكرة، فرحَّب بي وقرّب وبَسَطني كلَّ البَسط، ومعي زَيربُ، ودعا بالنَّبيذ، وأمر خدَماً له كباراً فجلسوا معي وشربوا وسقَوني. وعَرض لي بكلّ حِيلة أن أغنّي، فهِبتُه هيبةً شديدة وحَصِرتُ. وشرب ودعا بثلاث جَوار، فخرجن وجلسن وقال لهنّ: قُلنَ:

كيف احـتيـالي وأنت لا تَـصِـلُ عِـيل اصـطـباري وقَلّت الحِيـلُ
إن كـان جـسمـي هَـواك يُنحِـلُه فـإنّ قـلبي عـليـك يَـتّـكـل

---

(١) هذا: يعني أبا حشيشة.

الشعر لخالد والغناء لأبي حشيشة.. رمل، وكان يُسمّيه الرُّهبانيّ، عمله على لحن من ألحان النصارى سمعه من رهبان في الليل يردّدونه، فغنّاه عليه.

فقالته إحداهنّ، فذهب عقلي وسمعت شيئاً لم أسمع مثله قطّ، فقال: يا خليلي، أهذا لك؟ فقلت: نعم، أصلح الله الأمير. وأخذتني رِعدة، ثم قال لهن: إيهِ قُلن:

ربِّ مـالـي ولـلـهـوى ما لـهـذا الـهـوى دوا
حـاز طـرفـي الـذي هـو الـحـسـن قـلـبـي ومـا حـوى
الشعر لخالد والغناء لأبي حشيشة...

فغنّته، فسمعتُ ما هو أعجبُ منَ الأول، فقال: يا خليلي، هذا لك؟ قلت: نعم يا سيّدي. قال: هكذا أخذناهما عن محمد بن الحارث. ثم شرب رطلاً آخر، فقلت: يا نفس ِ دعاك الرجلُ يسمعُك أو يُسمعك. وقوّيتُ عزمي وتغنّيتُه بشعر خالد الكاتب، وهو هذا:

لئـن لـجَّ قـلـبُـك فـي ذِكـره ولَـجَّ حَـبـيـبُـك فـي هـجـره
لقـد أورثَ العينَ طـولَ البكـا وعـزَّ الـفـؤاد عـلـى صَـبـره
فـإن أذهـب الـقـلـبَ وجـدٌ بـه فـجِـسـمُـك لا شـكَّ في إثـره
وأيُّ مـحـبٍّ تـجـافـى الـهـوى بـطـول الـتَـفـكُّـر لـم يُـبْـرِه

فجعل يردّد البيت الأول والبيت الأخير وقال لي: لا تَخرجنّ يا خليلي من هذا الى غيره. فلم أزل أردّده عليه، حتى شرب ثلاثاً، واسترحتُ ساعةً، وشربت وطابت نفسي، ثم استعادني فغنّيتُه، فأعجب به خلافَ الأول، فنظر إليّ وضحك ولم يقُل شيئاً، وشرب رطلاً رابعاً وجاءت المغرب فقال لي: يا خليلي، ما أشكّ في أنك قد أوحشتَ ابني[1] منك، فامضِ في حِفظ الله

(١) يريد به أحمد بن الرشيد فيجعله بمثابة ابنه.

تعالى. فخرجتُ أطيرُ فرحاً بانصرافي سالماً. فلمّا وافيتُ أبا أحمد وبصُر بي من بعيد قال: حِنطةٌ أو شعير؟ فقلت: بل سِمسِمٌ وشَهد، أنجو على رغم أنف من رَغَم! فقال: ويحك، أتُراني لا أعرف فضْلَك! ولكن أحببتُ أن أَستعين برأيه على رأيي فيك. وقصصتُ عليه القصّة، فسَرّه ذلك ولم يرضَ حتى دَسّ إليه محمد بن راشد الخنّاق فسأله عني فقال: ما ظننتُ أن يكون في صِناعته مثلُه.

● قال أبو حشيشة: وسمع إسحاق بن إبراهيم الموصليّ غنائي، فاستحسنه، فسُئل عني فقال: غناء الطُّنبور كلُّه ضعيف وما سمعت فيه قطُّ أقوى ولا أصحّ من هذا.

وفــاته

حدّثني جَحظةُ قال:

كان سبب موت أبي حشيشة بسُرّ مَن رأى أنّ قَلَمـاً غُلامَ الفضـل بن كاووس صار إليه في يوم بارد، فدعاه إلى الصَّبُوح فقال له: أنا لا آكُل إلاّ طعاماً حارّاً وليس عندك الا فُضَيلةٌ من مجليّة. قال: تُساعدني وتأكل معي. فأكَل منها فجَمّدتْ دمَ قلبه، فمات. فحمله إبراهيم بن المدبِّر إلى بناته وما كَسَبه بسُرّ من رأى معه، فاقتسمنه بينهنّ.

* * *

[٢٦]

أبو سعيد مولى فائد

[الأغاني الجزء ٤، ص ٣٣٠ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

أبو سعيد مَولى فائد، وفائد مولى عَمرو بن عثمان بن عَفّان رضي الله تعالى عنه. وذكر ابنُ خُرداذَبه أنّ اسم أبي سعيد إبراهيم. وهو يُعرَف في الشعراء بابن أبي سِنّة مولى بني أميّة، وفي المغنّين بأبي سعيد مولى فائد. وكان شاعراً مجيداً ومُغنّياً، وناسكاً بعد ذلك فاضلاً مقبولَ الشهادة بالمدينة مُعدَّلاً. وعُمّر الى خلافة الرشيد، ولَقِيه إبراهيم بن المهديّ وإسحاقُ الموصليّ وذَووهما. وله قصائدُ جِيادٌ في مراثي بني أمية الذين قَتلهم عبدُ الله وداود ابنا عليّ بن عبد الله بن العبّاس..

طائفة من أخباره

● قال إسحاق:

حججتُ مع الرشيد، فلمّا قرُبت من مكة استأذنتُه في التقدم، فأذِن لي،

فدخلتُ مكة، فسألت عن أبي سعيد مولى فائد فقيل لي: هو في المسجد الحَرام. فأتيت المسجد فسألت عنه فدُللت عليه، فإذا هو قائمٌ يصلّي، فجئت فجلست قريباً منه، فلمّا فرَغ قال لي: يا فتًى، ألك حاجةٌ؟ قلت: نعم، تُغنّيني: «لقد طُفت سبعاً».

هذه رواية يحيى بن عليّ، وأمّا الباقون فإنهم ذكروا عن إسحاق أنّ المهديّ قال هذا لأبي سعيد وأمره أن يغنّي له:

لقد طُفتُ سبعاً قلت لمّا قضيتُها ألا ليت هذا لا عليَّ ولا ليا

ورفَق به وأدنى مجلسَه ـ وقد كان نَسَك ـ فقال: أوَ أُغنّيك يا أمير المؤمنين أحسنَ منه؟ قال: أنت وذاك. فغنّى:

إنّ هذا الطويل من آلِ حَفْصٍ نشَر المجدَ بعدَما كان ماتا
وبناه على أساسٍ وثيقٍ وعِماد قد أُثبِتتْ إثباتا
مثلَ ما قد بنى له أوّلوه وكذا يُشبه البُناةُ البُناتا[1]

ـ الشعر والغناء لأبي سعيد مولى فائد ـ فأحسن، فقال له المهديّ: أحسنتَ يا أبا سعيد، فغنّني: «لقد طفت سبعاً». قال: أوَ أغنّيك أحسنَ منه؟ قال: أنت وذاك. فغنّاه:

قدِم الطويلُ فأشرقتْ واستبشرتْ أرضُ الحجاز وبان في الأشجار
إنّ الطويلَ من آل حَفصٍ فاعلموا ساد الحضورَ وسادَ في الأسفار

فأحسن فيه، فقال: غَنّني: «لقد طفت سبعاً». قال: أو أغنّيك أحسنَ منه؟ قال: فغنّني. فغنّاه:

أيّها السائلُ الذي يَخبِط الأرض دعِ الناس أجمعين وراكا
وأْتِ هذا الطويلَ من آل حفصٍ إن تخوّفتَ عَيْلةً أو هلاكا[2]

---

(١) الطويل من آل حفص: المراد به عبد الله بن عبد الحميد بن حفص المخزومي، وكان يجزل العطاء للشعراء، وكان تزوج أم سلمة المخزومية امرأة ابي العباس السفاح بعد وفاته فصار إليه منها مال عظيم.

(٢) العيلة: الفقر.

فأحســـن فيــه، فقال له: غنّني: «لقد طفتُ سبعاً»، فقد أحسنت فيما غنّيت، ولكنّا نحبّ أن تغنّي ما دعوناك إليه. فقال: لا سبيلَ إلى ذلك يا أمير المؤمنين، لأني رأيت رسول الله ﷺ في مَنامي وفي يده شيءٌ لا أدري ما هو، وقد رفعه ليضربَني به وهو يقول: يا أبا سعيد، لقد طفتُ سبعاً، لقد طفت سبعاً، سبعاً طفت! ما صنعتَ بأمّتي في هذا الصوت! فقلت له: بأبي أنت وأمي اغفِرْ لي، فوالذي بعَثك بالحقّ واصطفاك لا غنّيت هذا الصوتَ أبداً. فردّ يدَه ثم قال: عفا الله عنك إذاً. ثم انتبهتُ، وما كنت لأُعطيَ رسول الله ﷺ شيئاً في منامي فأرجِعَ عنه في يقظتي. فبكي المهديُّ وقال: أحسنتَ يا أبا سعيد أحسنَ الله إليك! لا تَعُدْ في غِنائه. وحَباه وكساه وأمر بردِّه إلى الحجاز. فقال له أبو سعيد: ولكن اسمَعْه يا أميرَ المؤمنين من مَنّةَ جارية البرامكة.

وأظنّ حكاية من حكى ذلك عن المهديّ غلَطاً، لأنّ مَنّة جارية البرامكة لم تكن في أيام المهديّ، وإنما نشأت وعُرفت في أيام الرشيد.

وقد حدّثني أحمدُ بن جعفر جَحظةُ قال: حدّثني هِبةُ الله بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيه أنه هو الذي لَقي أبا سعيد مولى فائد وجاراه هذه القصة...

عمـر بن شَبّـة:

أن إبراهيم بن المهديّ لقي أبا سعيد مولى فائد، ودكر الخبر بمثل الذي قبلَه وزاد فيه: فقال له: اشخَصْ معي إلى بغداد. فلم يفعل. فقال: ما كنتُ لآخُذَك بما لا تُحبّ، ولو كان غيرك لأكرهتهُ على ما أحبّ، ولكنْ دُلَّنِي على من ينوب عنك. فَدَلَّه على ابن جامعٍ وقال له: عليك بغُلام من بني سَهْم قد أخذ عنّي وعن نُظَرائي وتخرّج، وهو كما تُحبّ. فأخذه إبراهيمُ معه فأقدمه بغداد، فهو الذي كان سببَ وُروده إيّاها.

صوت من المائة المختارة

لقـد طُفتُ سبعاً قلتُ لمّـا قضيتُها ألا لـيت هــذا لا عـليّ ولا لـيـا
يُسـائلني صَحْبي فما أعقِـلُ الـذي يقـولـون من ذِكـرٍ لليلَى اعتـرانيـا

ذكر يحيى بن عليّ أن الشعر والغناء لأبي سعيد مولى فائد، وذكر غيرُه أن الشعر للمجنون. . . والذي ذكر يحيى بن عليّ من أن الشعر لأبي سعيد مولى فائد هو الصحيح. . .

وبعد هذين البيتين اللذَين مضيا هذه الأبياتُ:

إذا جئتَ باب الشِّعب شعب ابن عامرٍ فأقرِىء غَـزالَ الشِّعب منّي سَلاميا
وقُل لغزال الشعب هـل أنت نازلٌ بِشعبك أم هل يصبحُ القلب ثاويا
لقـد زادني الحُجّـاجُ شـوقاً إليكم وقـد كنتُ قبلَ اليـوم للحجّ قـاليـا
ومـا نظرتْ عيني إلى وجـه قـادمٍ من الحـجِّ إلّا بـلّ دمعي ردائيـا[1]

● أبو إسحاق ابراهيمُ بن المهديّ قال. حدّثني دنيةُ المدنيّ صاحبُ العبّاسة بنت المهديّ، وكان آدَبَ من قدِم علينا من أهل الحجاز:

أنّ أبا سعيد مولى فائد حضر مجلس محمد بن عِمران التَيْميّ قاضي المدينة لأبي جعفر، وكان مقدِّماً لأبي سعيد، فقال لهِ ابنُ عِمران التَيْميّ: يا أبا سعيد، أنت القائل:

لقـد طفت سبعاً قلت لمـا قضيتها ألا لـيت هــذا لا عـليّ ولا لـيـا

فقال: إي لعمرُ أبيك، وإنّي لأُدمجه[2] إدماجاً من لؤلؤ. فردّ محمد بن عمران شهادته في ذلك المجلس. وقام أبو سعيد من مجلسه مغضَباً وحلَف ألّا يشهد عنده أبداً. فأنكر أهلُ المدينة على ابن عمران ردَّه شهادته وقالـوا: عرّضتَ حقوقَنا للتَوى[3] وأموالَنا للتّلف، لأنّا كنّا نُشهد هذا الرجل لِعلمنا بما كنتَ عليه والقضاةُ قبلك من الثقة به وتقديمه وتعديله. فندم ابنُ عِمران بعد ذلك على ردّ شهادته، ووجّه إليه يسأله حضورَ مجلسه والشهادةَ عنده ليقضيَ بشهادته، فامتنع وذكر أنه لا يقدِر على حضور مجلسه لِيمينٍ لزمته إن حضَره

---

(١) شعب ابن عامر: ماء أوّله الأبلّة.
(٢) أدمجه: أدخل فيه.
(٣) التوى: الهلاك.

حَنِث. قال: فكان ابنُ عمران بعد ذلك إذا ادّعى آحدَ عنده شهادة أبي سعيد صار إليه إلى منزله أو مكانه من المسجد حتى يسمعَ منه ويسأله عمّا يشهدُ به فيخبره. وكان محمد بن عمران كثير اللحم، عظيمَ البطن، كبيرَ العجيزة، صغير القدمين، دقيق الساقين، يشتدّ عليه المشي، فكان كثيراً ما يقول: لقد أتعبني هذا الصوتُ «لقد طُفت سبعاً» وأضرّ بي ضرراً طويلاً شديداً ـ وأنا رجلٌ ثَقالٌ ـ بتردّدي إلى أبي سعيد لأسمعَ شهادته.

● عن إبراهيم بن رَباح قال:

عُمِّر أبو سعيد بن أبي سِنّة مولى بن أمية ـ وهو مولى فائد مولى عمرو بن عثمان ـ إلى أيام الرشيد، فلمّا حجّ أحضَره فقال: أنشِدني قصيدتك: «تقول أُمامةُ لمّا رأتْ»

فاندفع فغنّاه قبل أن يُنشِده الشعرَ لحنَه في أبياتٍ منها، أوّلُها:

«أفاض المَدامعَ قتلَى كُداً»(١)

وكان الرشيد مغضَباً فسكن غضبُه وطرب، فقال: أنشِدني القصيدة. فقال: يا أمير المؤمنين، كان القومُ مَواليّ وأنعموا عليّ، فرثيتُهم ولم أهجُ أحداً. فتركه.



(١) كدا (بضم الكاف والتنوين): بأسفل مكة، خرج منها النبي عليه السلام من مكة. وهذا البيت من قصيدة لعبد الله بن عمر العبلي يرثي فيها قومه بني أمية.

[٢٧]

أبو صدقة

[الأغاني الجزء ١٩ ص ٢٨٩ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

اسمهُ مِسكين بنُ صَدقةَ، من أهل المدينة، مولًى لقريش. وكان مَليح الغناء، طيّبَ الصوت، كثير الرّواية، صالحَ الصَنعة، من أكثر الناس نادرةً، وأخفِّهم رُوحاً، وأشدِّهم طمعاً، وألحِّهم في مسألة. وكان له ابنٌ يقال له صدقَة يغنّي، وليس من المعدُودين؛ وابن ابنه أحمدُ بن صَدقة الطُّنْبوريّ أحد المحسنين من الطُّنبوريّين وله صنعة جيّدة، وكان أشبهَ الناس بجَدّه في المزَح والنوادر. . وأبو صدقة من المغنّين الذين أَقدمَهم هارونُ الرشيد من الحجاز في أيامه.

طائفة من أخباره

● يوسف بن إبراهيم قال:

حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن المهديّ أن الرشيد قال للحارث بن بُسْخُنَّر:

قد اشتهيت أن أرى ندمائي ومن يحضُر مجلسي من المغنِّين جميعاً في مجلس واحد، يأكلون ويشربون ويتبذَّلون، منبسطين على غير هَيبة ولا احتشام، بل يفعلون ما يفعلون في منازلهم وعند نُظَرائهم، وهذا لا يتمّ إلّا بأن أكون بحيث لا يَرونني، عن غير علمٍ منهم برؤيتي إيّاهم، فأَعِدّ لي مكاناً أجلس فيه أنا وعمّي سليمانُ وإخوتي إبراهيم بن المهديّ وعيسى بن جعفر وجعفر بن يحيى، فإنّا مُغلِّسون[1] عليك غَداةَ غدٍ، واستزِرْ أنت محمد بن خالد بن بَرمَك، وخالداً أخا مهرويه، والخِضْر بن جِبريل، وجميع المغنّين، وأجلسهم بحيث نراهم ولا يَروننا، وابسُط الجميع وأَظهِر بِرَّهم واخلَع عليهم ولا تَدَع من الإكرام شيئاً الا فعلتَه بهم. ففعل ذلك الحارثُ وقدّم إليهم الطعام، فأكلوا، والرشيدُ ينظرُ إليهم، ثم دعا لهم بالنَّبيذ، فشربوا، وأحضِرت الخِلَع ـ وكان ذلك اليوم يوماً شديد البَرد ـ فخَلع على ابن جامع جُبَّةَ خَزٍّ طارُونيّ[2] مبطَّنةً بسَمُّور صِينيّ، وخلع على إبراهيم الموصليّ جُبَّةَ وَشْيٍ كُوفيّ مرتفع مُبطَّنةً بفَنَك[3]، وخَلع على أبي صَدقة دُرّاعةً مُلحَم[4] خراسانيّ محشْوّةٍ بقَزّ. ثم تغنّى ابنُ جامع، وتغنّى بعده إبراهيم، وتلاهما أبو صدقة فغنّى لابن سُريج:

ومن أجل ذات الخال أعلمتُ ناقتي   أُكلِّفُها سَيرَ الكَلال مع الظَّلْعِ[5]

فأجاده، واستعاده الحارثُ ثلاثاً وهو يُعيده، فقال له الحارث: أحسنتَ والله يا أبا صدقة! قال له: هذا غنائي وقد قَرَصني البردُ، فكيف تراه ـ فديتُك ـ كان يكون لو كان تحت درّاعتي هذه شُعيراتٌ؟ يعني الوبَرَ. والرشيد يسمع ذلك، فضحك، فأمر بأن يُخلَع عليه دُرّاعةُ مُلحَمٍ مُبَطَّنةٌ بفَنَك، ففعلوا، ثم تغنّى الجماعةُ وغنّى أبو صَدَقة لمعبد:

---

(١) غلّس: جاء وقت الغلس، وهو ظلمة آخر الليل.
(٢) الطاروني: ضرب من الخزّ.
(٣) الفنك: حيوان فروته من أجود الفراء.
(٤) الدراعة: جبة مشقوقة من مقدمها. والملحم: ضرب من الثياب.
(٥) ظلع: غمز في مشيته والظلع: عرج خفيف، والبيت لعمر بن أبي ربيعة.

بــان الخليطُ على بُــزْلٍ مُخَيَّســةٍ   هُدْل المَشافر أدنى سيرها الرَّمَلُ[1]

ثم تغنّى بعده لِمعبد أيضاً:

بـان الخلِيطُ ولو طُـووعت ما بـانـا   وقَطّعوا مِن حِبال الوصـلِ أقرانـا[2]

فأقام فيهما جميعاً القيامة، فطرب الرشيد حتى كاد أن يخرج إلى المجلس طَرَباً، فقال له الحارث: أحسنتَ والله يا أبا صدقة ـ فديتُك ـ وأجملت. فقال أبو صدقة: فكيف ترى ـ فديتك ـ الحال تَكون لو كانت على هذه الدُرّاعة نُقَيطات؟ يعني الوَشْي. فضحك الرشيد حتى ظهر ضحِكُه، وعلموا بموضعه وعرَف علمَهم بذلك فأمر بإدخالهم إليه وأمر بأن يُخلَع على أبي صدقة درّاعةٌ أخرى مُبطّنة، فخلعت عليه.

● حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

سأل الحسنُ بن سليمان، أخو عُبيد الله بنِ سليمان الطُفيليّ، الفضلَ وجعفراً ابني يحيى أن يُقيماً عنده يوماً، فأجاباه، فواعد عدّةً من المغنّين فيهم أبو صدقة المدنيُّ، فقال لأبي صدقة: إنك تُبْرِم بكثرة السؤال، فصادِرْني[3] على شيء أدفعُه إليك ولا تسألْ شيئاً غيرَه. فصادره على شيءٍ أعطاه إيّاه. فلمّا جلسوا وغنّوا أُعجِبوا بغناء أبي صدقة واقترحوا عليه أصواتاً من غناء ابن سُريج ومعبـد وابن مُحرِز وغيرهم فغنّاهم، ثم غنّى:

يـا ويحَ مَن لعب الهـوى بحيـاتـه   فأماتــه من قبـلِ حينِ وفاتـــه

---

(١) الخليط: القوم الذين امرهم واحد. البزل ج البازل: الناقة التي بزل نابها أي انشق. مخيسة: مذللة للركوب. الرمل: ضرب من السير دون العدو.
(٢) القَرَن: (بالتحريك) حبل يربط به البعيران. والبيت لجرير.
(٣) صادرني على شيء: اشرطه علي وطالبني به.

مَن ذا كـذا كـان الشقيُّ بشـادنٍ هـاروتُ بين لسـانـه ولهـاتـه[1]

... قال: فأجاد وأحسن ما شاء، وطرب جعفر فقال له: أحسنتَ وحياتي! وكان عليه دُوّاج[2] خَزٍ مُبطَّن بسَمُّور جيِّد، فلما قال له ذلك شرِهتْ نفسُه وعاد إلى طبعه فقال: لو أحسنتُ ما كان هذا الدُوّاجُ عليك، ولَخلعتَه عليّ. فألقاه عليه، ثم غنّى أصواتاً من القديم والحديث، وغنّى بعدها من صناعته في الرمل:

لـم يطُـل العهـدُ فـتـنـسـانـي ولـم أَغِـبْ عـنـك فـتـنـعـانـي
بـدّلـت بـي غـيـري وبـاهـتّـني ولـم تـكـن صـاحـب بُـهـتـان
لا وَثِـقَـتْ نـفـسـي بـإنـسـان بـعـدَك فـي سِـرٍّ وإعـلان
أعـطيـتَـنـي مـا شئتُ من مَوْثقٍ مـنـك ومـن عـهـدٍ وأيـمـانِ[3]

فقال له الفضل: أحسنتَ وحياتي! فقال: لو أحسنت لخلعتَ عليّ جُبّةً تكون شكلاً لهذا الدُوّاج. فنزع جُبّتَه وخَلَعها عليه وسكروا وانصرفوا. فوثب الحسن بن سليمان فقال له: قد وافقتُك على ما أرضاك ودفعتُه إليك على ألاّ تسأل أحداً شيئاً فلم تفِ، وقد أخذتَ مالَك، والله لا تركتُ عليك شيئاً ممّا أخذتَه. ثم انتزعه منه كَرهاً وصَرَفه، فشكاه أبو صَدقة الى الفضل وجعفر، فضحكا منه وأَخلفا عليه ما ارتجعه الطُفيليّ منه من خِلَعهما.

● إبراهيم بن المهديّ قال:

كان أبو صَدقة أسألَ خَلق الله وأَلَحّهم فقال له الرشيد: ويلك، ما أكثرَ سؤالك! فقال: وما يمنعني من ذلك واسمي مِسكين، وكُنيتي أبو صدَقة، واسم ابني صدَقة، وكانت أمّي تُلقَّب فاقة، واسم أبي صدقة، فمن أحقُّ مني بهذا؟

---

(١) الشادن: ولد الظبي. هاروت: ملك يضرب المثل بقدرته على السحر. اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق.

(٢) الدواج: لباس يرتدى فوق الملابس اتقاءً للبرد.

(٣) باهته: استقبله بأمر يتهمه به افتراء وهو منه بريء، والبهتان: الكذب.

وكان الرشيد يعبَث به عَبَثاً شديداً، فقال ذاتَ يوم لمسرور: قُل لابن جامع وإبـراهيم الموصلي وزُبيـر بن دَحْمان، وزَلزَل، وبَرصوما، وابن أبي مريم المَدينيّ: إذا رأيتموني قد طابت نفسي فَلْيسأَلْني كـلُّ واحدٍ منكم حـاجةً، مِقدارُها مقدار صِلته. وذكر لكل واحدٍ منهم مقدار ذلك وأمَرهم أن يكتُموا أمرهم عن أبي صدقة. فقال لهم مسرورٌ ما أمره به ثم أذِن لأبي صدقة قبلَ إذْنه لهم، فلما جلس قال له: يا أبا صدقة، قد أضجرتَني بكثرة مَسألتك، وأنا في هذا اليوم ضَجِرٌ، وقد أحببتُ أن أتفرّجَ وأَفرَح، ولست آمَنُ أن تُنغِّصَ عليّ مجلسي بمسألتك، فإمّا أن أعفَيْتَني من أن تسألَني اليومَ حاجةً، وإلاّ فانصرِفْ. فقال له: يا سيّدي، لست أسألُك في هذا اليوم ولا إلى شهرٍ حاجةً. فقال له الرشيد: أما إذ شَرطتَ لي هذا على نفسك فقد اشتريتُ منـك حوائجَـك بخمسمائة دينارٍ، وها هي ذه فخُذها هَنيئةً مُعَجَّلةً، فإن سألتَني شيئاً بعدَها في هذا اليوم فلا لومَ عليّ إن لم أَصِلْك سنةً بشيء. فقال له: نعم، وسَنتَين. فقال له الرشيد: زِدْني في الوثيقة. فقال: قد جعلتُ أمر أُمِّ صدقة في يدك فطَلِّقْها متى شئت، إن شئتَ واحدةً وإن شئت أَلْفاً إن سألتك في يومي هذا حاجةً، وأُشهد الله ومَن حَضَر على ذلك. فدفع إليه المال ثم أذِن للجُلَساء والمغنّين، فحضَروا وشرب القوم.

فلمّا طابت نفس الرشيد قال له ابنُ جامع: يا أميرَ المؤمنين، قد نِلتُ منك ما لم تبلُغْه أُمنيّتي وكثُر إحسانُك إليّ حتى كَبَتُّ أعدائي وقتلْتهم، وليست لي دارٌ تُشبِه حالي، فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمُرَ لي بمالٍ أَبني به داراً وأفرِشُها بباقِيه لأفقأَ عيون أعدائي وأزهَقَ نفوسهم فَعَل. فقال: وكم قدّرتَ لذلك؟ قال: أربعة آلاف دينار. فأمر له بها. ثم قام إبراهيمُ الموصليّ فقال له: قد ظهرتْ نِعمتُك عليّ وعلى أكابر ولدي، وفي أَصاغرهم مَن قد بَلَغ وأُريد تزويجَه، ومن أصاغرهم مَن أحتاج إلى أن أُطَهِّرَه، ومنهم صغارٌ أحتاج إلى أن أتّخذَ لهم خَدَماً، فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يُحسِن مَعُونتي على ذلك فَعَل. فأمر له بمثل ما أَمَر لابن جامع، وجعل كلُّ واحدٍ منهم يقوم فيقول من الثّناء ما يحضُرُه ويسأل حاجةً على قَدر جائزته، وأبو صدقة ينظر إليهم وإلى

الأموال تُفرَّق يميناً وشِمالاً، فوثَب على رِجليه قائماً وقال للرشيد: يا سيدي، أَقِلْني، أقال الله عَثْرَتَك. فقال له الرشيد: لا أُفعل. فجعل يستحلفُه ويضطرب ويلِحّ، والرشيد يضحك ويقول: ما إلى ذلك سبيلٌ، الشَرط أَمْلَكُ. فلمّا عِيل صَبْره أخذ الدنانير فرمى بها بين يدَي الرشيد وقال له: هاكَها، قد رددتُها عليك وزِدْتُك. . أمّ صَدقة، فطَلِّقْها إن شئت واحدةً وإن شئت ألفاً، وإن لم تُلحِقْني بجوائز القوم فألْحِقْني بجائزة هذا البارد ابن البارد عمرو الغَزّال، وكانت صلتُه ألفَ دينار. فضحك الرشيدُ حتى استلقَى، ثم ردّ عليه الخمسمائةَ الدينار وأمَر له بألفٍ معها، وكان ذلك أكثرَ ما أخَذه منه مذ يومِ خَدَمه إلى أن مات، فانصرف يومئذٍ بألفٍ وخمسمائة دينار.

●أبو إسحاق قال:

مُطِرنا ونحن مع الرشيد بالرَّقّة مطراً مع الفجر واتّصل إلى غدِ ذلك اليوم؛ وعَرَفنا خبرَ الرشيد وأنه مُقيمٌ عند أمّ وَلده المسمّاةِ بسَحَر. فتشاغَلْنا في منازلنا. فلمّا كان من غدٍ جاءنا رسولُ الرشيد، فحضرنا جميعاً، وأقبل يسأل واحداً واحداً عن يومه الماضي ما صَنَع فيه، فيُخبره، إلى أن انتهى إلى جعفر بن يحيى فسأله عن خبره فقال: كان عندي أبو زَكّار الأعمى وأبو صَدَقة، فكان أبو زكّار كلّما غنّى صوتاً لم يفرَغ منه حتى يأخذَه أبو صدقة، فإذا انتهى الدَّور إليه أعاده وحكى أبا زَكّار فيه وفي شمائله وحركاته، ويفطَن أبو زكار لذلك فيُجَنّ ويموت غيظاً ويشتم أبا صدقة كلَّ شتم حتى يضجَر، وهو لا يُجيبه ولا يَدَعُ العبثَ به، وأنا أضحك من ذلك، إلى أن توسّطنا الشرابُ وسئمنا من العبث به فقلت له: دَعْ هذا وغَنِّ غناءَك. فغنّى رَمَلاً ذِكر أنه من صنعته طربت له والله يا أمير المؤمنين طرباً ما أذكُر أني طربت مثله منذ حين وهو:

فَتَنَتْني بفاحم اللون جَعْدٍ ... وبثَغْرٍ كأنه نظمُ دَرّ
وبوجهٍ كأنه طلعة البد ... ر وعينٍ في طَرْفها نَفْثُ سِحرِ

فقلت له: أحسنتَ والله يا أبا صدقة. فلم أسكت عن هذه الكلمة حتى

قال لي: إني قد بنيتُ داراً أنفقتُ عليها حَرِيبتي[١]، وما أعددتُ لها فَرْشاً، فافرشها لي، نَجّد الله لك في الجنّة ألف قصر. فتغافلتُ عنه، وعاود الغناء فتعمدت أن قلت له: أحسنتَ، ليعاودَ مسألتي وأتغافلَ عنه، فسألني وتغافلت، فقال لي: يا سيدي، هذا التغافلُ متى حدث لك؟ سألتُك بالله وبحقّ أبيك عليك إلّا أجبتني عن كلامي ولو بشَتْم. فأقبلتُ عليه وقلت له: أنت والله بَغيضٌ، اسكت يا بغيضُ واكفُفْ عن هذه المسألة المُلِحّة. فوثب من بين يديّ، وظننتُ أنه خرج لحاجة، وإذا هو قد نزَع ثيابَه وتجرّد منها خوفاً من أن تبتلّ، ووقف تحت السماء لا يُواريه منها شيءٌ والمطرُ يأخُذه ورفع رأسه وقال: يا ربِّ، أنت تعلمُ أنّي مُلْـهٍ ولست نائحاً، وعبدُك هذا الذي رفعتَه وأحوجتَني إلى خِدمته يقول لي: أحسنتَ، لا يقول لي: اسأت، وأنا منذ جلستُ أقول له: بنَيتُ، لم أقل: هَدَمتُ، فيحلِفُ بك ـ جراْةً عليك ـ أنّي بَغيضٌ، فاحكُمْ بيني وبينه يا سيدي فأنت خيرُ الحاكمين. فغلبني الضحكُ، وأمرتُ به فتنحّى، وجهَدت به أن يغنّي فامتنع حتى حلفت له بحياتك، يا أمير المؤمنين، أني أفرُش له دارَه، وخدعتُه فلم أُسَمّ له ما أَفرشها به. فقال الرشيد: طَيّبٌ والله! الآنَ تمّ لنا به اللَهْوُ، وهو ذا أُدعُو به، فإذا رآك فسوف يقتضيك الفرشَ، لأنك حلفتَ بحياتي، فهو يَتنجّزُ ذلك بحضرتي ليكون أوثقَ له، فقُل له: أنا أفرُشُها لك بالبواريّ[٢]، وحاكِمْه إليَّ.

ثم دعا به، فأُحضر، فما استقرّ في مجلسه حتى قال لجعفر بن يحيى: الفَرْشُ الذي حلفتَ لي بحياة أمير المؤمنين أنك تَفرش به داري، تَقَدَّمْ فيه. فقال له جعفر: اختَرْ، إن شئتَ فرشتُها لك بالبواريّ، وإن شئت بالبَرْديّ من الحُصُر. فضجّ واضطرب، فقال له الرشيد: وكيف كانت القصةُ؟ فأخبَره، فقال له: أخطأتَ يا أبا صَدَقة، إذ لم تُسَمِّ النوع ولا حَدَّدتَ القيمة، فإذا فَرَشها لك بالبَواريّ أو بالبَرديّ أو بما دون ذلك فقد وفى يمينَه، وإنما خَدَعك، ولم تفطَنْ

(١) الحريبه: مال الرجل الذي يسلب منه.
(٢) البواري ج الباريّ والبارياء: الحصير المنسوج.

له أنت ولا توثّقت وضيّعتَ حقَّك، فسَكت وقال: نُوفّر البَرْديّ والبَواريّ علينا أيضاً، أعزّه الله.

وغنّى المغنّون حتى انتهى إليه الدَّور، فأخذ يغنّي غناء الملاّحين والبنّائين والسَقّائين وما جرى مَجراه من الغناء، فقال له الرشيد: أَيْش هذا الغناءُ ويلَك! قال: من فُرشت داره بالبواريّ والبَرْديّ فهذا الغناءُ كثيرٌ منه، وكثير أيضاً لِمن هذه صلتُه. فضحك الرشيد، والله، وطرِب وصَفّق، ثم أمر له بألف دينار من ماله وقال له: افرشْ دارك من هذه. فقال: وحياتك لا آخُذُها يا سيّدي أو تحكُمَ لي على جعفر بما وعَدني، وإلاّ مُتُّ أسَفاً لفَوات ما حصَل في طمعي ووُعدتُ به، فحَكم له على جعفرٍ بخمسمائة دينار، فقبِلها جعفرٌ وأمر له بها.

* * *

[٢٨]

أحمد بن يحيى المكّيّ

[الأغاني الجزء ١٦ ص ٣١١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

أحمد بن يحيى بن مرزوق المكّيّ، ويكنى أبا جعفر، وكان يلقب ظنيناً... وهو أحد المحسنين المبّرزين الرواة المحكمي الصَّنعة. وكان إسحاق يقدّمه ويُؤثِره ويُشيد بذكره ويجهر بتفضيله. وكتابهُ المجرّد في الأغاني ونِسبها أصلٌ من الأصول المعمول عليها، وما أعرف كتاباً بعد كتاب إسحاق الذي ألّفه لشبحا[1]، يقارب كتابه ولا يُقاس به، وكان مع جودة غنائه وحسن صنعته أحد الضُرّاب الموصوفين المتقدّمين.

عن محمد بن أحمد المكّي: أن أباه جمع لمحمد بن عبد الله بن طاهر ديواناً للغِناء ونِسَبه وجنسه، فكان محتوياً على أربعة عشر ألف صوت.

---

(١) كذا في الأصول والمعلوم أن إسحاق ألف كتابه للواثق.

عليّ بن يحيى قال:

قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصليّ: - وقد جرى ذِكرُ أحمد بن يحيى المكّي - يا أبا محمد، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكّي مملوكاً كم كان يساوي؟ فقال: أُخبرك عن ذلك. انصرفت ليلةً من دار الواثق، فاجتزت بدار الحسن بن وهب، فدخلت إليه فإذا أحمدُ عنده، فلمّا قام لصلاة العِشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب: كم يساوي أحمدُ لو كان مملوكاً؟ قلت: يساوي عشرين ألف دينار. قال: ثم رجع فغنّى صوتاً، فقال لي الحسن بن وهب: يا أبا محمد أضعِفْها. قال: ثم تغنّى صوتاً آخر، فقلت للحسن: يا أبا عليّ أَضعِفها. ثم أردت الانصراف فقلت لأحمد: غنّني:

لـولا الحياءُ وأنّ السِّترَ من خُلقي إذن قعـدتُ إليك الـدهـرَ لم أقُمِ
أليس عنــدك شُكــرٌ للتي جعـلتْ ما ابيضّ من قادمات الرأس كالحُمَم

قال: فغنّاه أحمد بن يحيى المكيّ فأحسن فيه كلَّ الإحسان. فلمّا قمت للانصراف قلت للحسن: يا أبا عليّ، اضعِف الجميع. فقال له أحمد: ما هذا الذي أسمعكما تقولانه ولست أدري ما معناه. قال: نحن نبيعك ونشتريك منذُ الليلة وأنت لا تدري.

محمد بن عبد الله بن مالك قال:

سألني إسحاقُ بن إبراهيم الموصليّ يوماً: مَن بقي من المُغَنّين؟ قلت: وَجه القَرْعة محمد بن عيسى، مولى عيسى بن جعفر. فقال: صالحٌ كَيِّس، ومن أيضاً؟ قلت: أحمد بن يحيى المكّي. قال: بخٍ بخٍ! ذاك المُحسنُ المُجمل الضارب المغنّي القائم بمجلسه، لا يُحوج أهلَ المجلس إلى غيره..

طائفة من أخباره

● محمد بن أحمد المكّيّ قال:

نَاظر أبي بعضَ المغنّين ذاتَ ليلة بين يدَي المعتصم، وطال تَلاحيهما في الغناء، فقال أبي للمعتصم: يا أمير المؤمنين، من شاء منهم فليغنِّ عشرة

أصوات لا أعرف منها ثلاثة، وأنا أغني عشرة وعشرة وعشرة لا يعرف أحدٌ منهم صوتاً منها. فقال إسحاق: صدَق يا أمير المؤمنين. واتبعه ابن بُسخُنَّر وعَلُّويه فقالا: صدق يا أمير المؤمنين إسحاق فيما يقوله. فأمر له بعشرين ألف درهم.

قال محمد: ثم عاد ذلك الرجل إلى مماظّته[1] يوماً، فقال له: قد دعوتك إلى النَّصَفة[2] فلم تقبل، وأنا أدعوك وأبدأ بما دعوتُك إليه. فاندفع يغنّي عشرة أصوات، فلم يعرف أحدٌ منهم صوتاً واحداً، كلُّها من الغناء القديم والغناء اللاحق به من صنعة المكّيّين الحُذّاق الخاملي الذِكر، فاستحسن المعتصم منها صوتاً وأسكت المغنّين له واستعاده مرّات عدة، ولم يزل يشرب عليه سحابةَ يومه، وأمر ألّا يراجعَ أحدٌ من المغنّين كلاماً ولا يعارضه أحدٌ منهم، إذ كان قد أبرّ عليهم وأوضح الحجّة في انقطاعهم وإدحاض حُجَجهم.

● ابن المكّي عن أبيه قال:

قال المعتصم يوماً لجلسائه ونحن عنده: خلعتُ اليومَ على فتىً شريفٍ ظريف نظيف، حسنِ الوجه، شجاع القلب، وولّيته المصّيصةَ[3] ونواحيها. فقلنا: مَن هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: خالدُ بن يزيد بن مَزْيَد. فقال: علّويه: يا أحمدُ، غنِّ أمير المؤمنين صوتك في مدح خالد. فأمسكتُ عنه، فقال المعتصم: مالك لا تُجيبُه؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، ليس هو ممّا يُغنّى بحضرة الخليفة. فقال: ما من أن تغنّيَه بُدّ. قال: فغنّيتُه صنعةً لي في هذا الشعر:

علّم النـاسَ خـالـدُ بن يـزيـد ... كـلَّ حِـلـم وكـلّ بـأس وجُـودِ
فتـرى النـاس هَيبـةً حين يبـدو ... مـن قـيـامٍ ورُكَّـع وسُـجـودِ

---

(١) ماظه: شادّه ونازعه.
(٢) النصفة: الإنصاف.
(٣) المصيصة (بفتح الميم وكسر الصاد وتشديدها، وقيل بتخفيف الصادين): مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام، بين أنطاكية وبلاد الروم.

فقال المعتصم: : يا سمانة، خُذْ أحمدَ بإلقاء هذا الصوت على الجواري في غدٍ. وأمر لي بعشرة آلاف درهم.

قال: وغنَى أبي يوماً محمدَ الأمين:

فعِشْ عُمرَ نوحٍ في سرورٍ وغِبطةٍ ... وفي خَفض عيش ليس في طُوله إثمُ
تُساعِدُك الأقدارُ فيه وتنثني ... إليك وتَرعى فضلَك العُربُ والعُجْمُ

فأمر له بخمس مئة دينار.

وفاته

وتوفّي أحمد بن يحيى المكّيّ في خلافة المستعين، في أوّلها.

* * *

[٢٩]

إسحاق الموصلي

[الأغاني الجزء ٥ ص ٢٦٨ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

قد مضى نسبُه مشروحاً في نسب أبيه، ويكنى أبا محمد، وكان الرشيدُ يُولَع به فَيكْنِيه أبا صفوان. ومَوضعهُ من العلم، ومكانُه من الأدب، ومَحَلّه من الرواية، وتقدمه في الشعر، ومنزلته في سائر المحاسن، أشهرُ من أن يُدَلّ عليه فيها بوصف. وأمّا الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يُوسم به، وإن كان الغالبَ عليه وعلى ما كان يُحسنه، فإنه كان له في سائر أدواته نُظَراءُ وأكفاء ولم يكن له في هذا نظيرٌ؛ فإنه لَحِق بمن مضى فيه وسَبق من بقي، ولَحَبَ للناس جميعاً طريقَه فأوضحها وسهّل عليهم سبيلَه وأنارها، فهو إمامُ أهل صناعته جميعاً ورأسُهم ومعلّمُهم، يَعْرِف ذلك منه الخاصُّ والعامُ، ويشهد به المُوافق والمُفارق. على أنه كان أكرَهَ الناس للغناء وأشدَّهم بُغضاً لأن يُدعى إليه أو يُسمّى به. وكان يقول: لَوَدِدْتُ أن أُضْرَبَ، كلّما أراد مريدٌ مني أن أغنّيَ وكلما قال قائل: إسحاق الموصلي المغنّي، عشرَ مَقارع، لا أُطِيق أكثرَ

من ذلك، وأُعْفَى من الغناء ولا ينسبني من يذكرني إليه. وكان المأمون يقول: لولا ما سَبق على ألسنة الناس وشُهر به عنـدهم من الغناء لـوَلّيتُه القضـاءَ بحضرتي، فإنه أَولى به وأَعفُ وأصدقُ وأكثر دِيناً وأمانةً من هؤلاء القضاة. وقد رَوى الحديثَ ولقي أهلَه: مثل مالِك بن أَنَس، وسُفيان بن عُيَيْنة، وهُشَيم بن بشير، وإبراهيم بن سَعْد، وأبي معاويةَ الضَّرير، ورَوْح بن عُبادة، وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز. وكان مع كراهته الغناءَ أَضَنَّ خَلْق الله وأشدَّهم بُخلاً به على كلّ أحد حتى على جَواريه وغِلْمانه ومن يأخذ عنه مُنتسِباً إليه مُتْعصِباً له فضلاً عن غيرهم. وهو الذي صحّح أجناسَ الغناء وطرائقَه وميزّه تمييزاً لم يقدر عليه أحدٌ قبله ولا تعلّق به أحدٌ بعدَه، ولم يكن قديماً مُميَّزاً على هذا الجنس، إنما كان يقال الثقيل، وثقيل الثقيل، والخفيف، وخفيف الخفيف، وهذا عمرُو ابن بانة، وهو من تلاميذه، يقول في كتابه: الرَّمَل الأوّل، والرمل الثاني؛ ثم لا يزيد في ذكر الأصابع على الوسطى والبنصر، ولا يعرف المجاريَ التي ذكرها إسحاق في كتابه، مثلَ ما ميَّز الأجناس، فجعل الثقيل الأوّل أصنافاً، فبدأ فيه بإطلاق الوتر في مجرى البنصر، ثم تلاه بما كان منه البنصر في مجراها، ثم بما كان السَبَّابة في مجرى البنصر. ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة، ثم جعل الثقيل الأولَ صنفين، الصنفُ الأوّل منهما هذا الذي ذكرناه، والصنفُ الثاني القَدْر الأوسط من الثقيل الأوّل، وأجراه المجرى الذي تقدّم من تمييز الأصابع والمجاري، وألحق جميعَ الطرائقِ والأجناس بذلك وأجراها على هذا الترتيب. ثم لم يتعلّقْ بَفهم ذلك أحدٌ بعدَه فضلاً عن أنْ يُصنِّفَه في كتابه، فقد ألّف جماعةٌ من المغنين كتباً، منهم يحيى المكيّ ـ وكان شيخَ الجماعة وأستاذَهم، وكلُّهم كان يفتقر إليه ويأخذ عنه غناءَ الحجاز، وله صنعةٌ كثيرة حسنةَ متقدّمة، وقد كان إبراهيم الموصليّ وابن جامع يُضطرّان إلى الأخذ عنه ـ ألّف كتاباً جمع فيه الغناءَ القديم، وألحق فيه ابنُه الغناءَ المُحَدث إلى آخر أَيّامه، فَأَتَيا فيه في أمر الأصابع بتخليطٍ عظيم، حتى جعلا أكثر ما جَنّساه من ذلك مختلطاً فاسداً، وجعلا بعضَه، فيما زعما تشترِك الأصابعُ كلُّها فيه؛ وهذا محالٌ، ولو اشتركت الأصابعُ لما احتيج إلى تمييز الأغاني وتصييرها

مقسومةً على صِنفين: الوسطى والبِنصر. والكلامُ في هذا طويلٌ ليس موضعُه ها هنا؛ وقد ذكرتُه في رسالةٍ عمِلتُها لبعض إخواني ممن سألني شرحَ هذا، فأثبتُّه واستقصيتُه استقصاءً يُستغنَى به عن غيره. وهذا كله فَعَلَه إسحاقُ واستخرجه بتمييزه، حتى أتى على كلّ ما رسمْته الأوائلُ مثل إقْلِيدس ومَنْ قبلَهَ ومَنْ بعدَه، من أهل العلم بالموسيقى، ووافقهم بطبعه وذِهنه فيما قد أفنَوْا فيه الدهورَ، من غير أن يقرأ لهم كتاباً أو يعرِفه.

فأخبرني جعفرُ بن قُدَامة قال حدّثني عليُّ بن يحيى المنجِّم قال:

كنت عند إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب، فسأل إسحاقَ الموصليّ - أو سأله محمد بن الحسن بن مُصعب بحضرتي - فقال له: يا أبا محمد، أرأيت لو أنّ الناس جعلوا للعود وتراً خامساً للنغمة الحادة التي هي العاشرة على مذهبك، أين كنت تخرج منه؟ فبقي إسحاقُ واجماً ساعة طويلةً مفكراً، واحمرّت أُذُناه وكانتا عظيمتين. وكان إذا ورد عليه مثل هذا احمرّتا وكثرُ وَلُوعه بهما. فقال لمحمد بن الحسن: الجوابُ في هذا لا يكون كلاماً إنما يكون بالضَرب، فإن كنتَ تضرِب أريتُك أين تخرج. فخجل وسكت عنه مُغْضَباً، لأنه كان أميراً وقابله من الجواب بما لا يَحْسُن، فحلُم عنه. قال عليّ بن يحيى: فصار إليّ به وقال لي: يا أبا الحسن، إنّ هذا الرجلَ سألني عما سمعتَ، ولم يبلُغ علمُه أن يستنبطَ مثلَه بقريحته، وإنما هو شيءٌ قرأه من كتب الأوائل، وقد بلغني أن التراجمة عندهم يترجمون لهم كتبَ الموسيقى، فإذا خرج إليك منها شيءٌ فأعطِنيه. فوعدتُه بذلك. ومات قبل أن يخرجَ إليه شيءٌ منها. وإنما ذكرتُ هذا بتمام أخباره كلِّها ومحاسنه وفضائله، لأنّه من أعجب شيء يُؤْثَرَ عنه: أنّه استخرج بطبعه عِلماً رسمتْه الأوائل لا يُوصَل إلى معرفته إلا بعد علم كتاب إقليدس الأول في الهندسة ثم ما بعده من الكتب الموضوعة في الموسيقى، ثم تعلّم ذلك وتوصّل إليه واستنبطه بقريحته، فوافق ما رسمه أولئك، ولم يَشِذَّ عنه شيءٌ يُحتاج إليه منه، وهو لم يقرأه ولا له مدخلٌ إليه ولا عَرفه، ثم تبيَّنْ بعد هذا، بما أذكرُه من أخباره ومعجزاته في صناعته، فضلَه على أهلها كلّهم وتميُّزه عنهم، وكونَه سماءً هم أرضُها، وبحراً هم جَداولُه.

وأمّ إسحاقَ امرأةٌ من أهل الرَّيّ يقال لها شاهك؛ وذكر قومٌ أنها دُوشَار التي كانت تُغنّي بالدُّف، فَهَوِيَها إبراهيمُ وتزوّجها. وهذا خطأٌ، تلك لم تلد من إبراهيم إلا بنتاً، وإسحاقُ وسائرُ وَلَد إبراهيم من شاهكَ هذه.

أحمدُ بن حَمْدُون قال:

سمعتُ الواثقَ يقول: ما غنّانــي إسحاقُ قطُّ إلا ظننتُ أنه قد زِيد لي في مُلْكي، ولا سمعتُهُ يغنِّي غناءَ ابن سُرَيج إلا ظننتُ أن ابنَ سريج قد نُشِر، وإنه ليحضُرني غيرُه إذا لم يكن حاضراً، فيتقدّمه عندي وفي نفسي بِطِيب الصوت حتى إذا اجتمعا عندي رأيت إسحاقَ يعلو ورأيت مَن ظننتُهُ يتقدّمُه يَنقص، وإنّ إسحاق لنعمةٌ من نِعم المُلْك التي لم يُحْظَ بمثلها، ولو أنّ العمرَ والشباب والنشاط مما يُشْتَرى لاشتريتهنّ له بشَطر ملكي.

عبد الله بن العبّاس الرَّبيعيّ قال:

أحضرني إسحاقُ بن إبراهيم بن مُصْعَب، فلما جلست واطمأننتُ، أخرج إليّ خادمهُ رُقعةً، فقال: اقرأْ ما فيها واعملْ بما رَسَمه الأميرُ أعزّه الله. فقرأتها فإذا فيها قوله:

يــرتـاح للدَّجن قلبي وهــو مقتَسمٌ ... بين الهمـوم ارتيـاحَ الأرض للمطرِ

إنّي جعلتُ لهــذا الـدَّجْنِ نِحْلَتــه ... ألّا يـزولَ ولي في اللهو من وَطَرِ

وتحــت هذيــن البيتين: «تقدّم - جُعِلتُ فداك - إلى مَنْ بحضرتـك من المغّنين بأن يُغَنُّوا في هذين البيتين، وألْقِ جميعَ ما يصنعونه على فلانة، فإذا أخذتْه فأَنفِذْها إليّ مع رسولي»؛ فقلت: السمعُ والطاعة لأمر الأمير أعزّه الله، فهل صنع فيهما أحدٌ قبلي؟ فقال: نعم، إسحاقُ المَوصليّ. فقلت: والله لو كُلِّف إبليسُ أن يصنعَ فيهما صنعةً يفضُل إسحاقَ فيها بل يُساويه بل يُقاربه ما قَدَر على ذلك ولا بلغ مبلغَه! فضحك حتى استلقى، وقال: صدقتَ والله! وهكذا يقول من يعقل لا كما يقولُ هؤلاء الحَمْقَى، ولكن اصنَع فيهما على كلّ حال كما أمر! فقلت: أفعلُ وقد بَرِئتُ من العُهْدة. فانصرفتُ فصنعت فيهما صنعةً كانت واللهِ عند صنعة إسحاق بمنزلة غناء القَرّادين.

حَمّادُ بن إسحاق قال: حدّثني حَمْدونُ بن إسماعيل قال: لَمّا صَنع أبوك لحنَه في:

قِفْ بـالـديـار التي عَفَـا القِـدَمُ   وغـيَّـرتْـهـا الأرواحُ والـدِّيَـمُ

رأيتُهـم (يعني المغنِّين) يأخذونه عنه ويَجْهَدون فيه، فتُوُفِّي والله وما أخذوا منه إلا رَسْمه.

عُجَيفُ بن عَنْبسـة قال:

كنت عند أمير المؤمنين المعتصم وعنده إسحاقُ الموصليّ، فغنّاه:

قُـلْ لـمـن صَـدّ عـاتـبـاً   ونـأى عـنـكَ جـانَـبـا

فأمـره بإعادته، فأعاده ثلاثاً، وشرب عليه ثلاثـاً. فقال لـه إبراهيمُ بن المهديّ: قد استحسنتَ هذا الصوتَ يا أمير المؤمنين، أفنأخُذُه؟ قال: نعم، خذوه فقد أعجبني! فاجتمع جماعةُ المغنِّين: مُخارقٌ وعَلُّوية وعَمْرُو بن بانَةَ وغيرُهم، فأمره المعتصم أن يُلقيَه عليهم حتى يأخذوه، فقال عُجَيفٌ: فعددتُ خمسين مرة قد أعاده فيها عليهم وهم يظنّون أنهم قـد أخذوه ولم يكـونوا أخذوه. قال هارون: فنحن في هذا الحديث إذ دخل علينا محمد بن الحارث ابن بُسخَنَّر، فقال له عُجَيْف: يا أبا جعفر، كنت أحدِّثُ أبا موسى بحديثنا البارحةَ مع إسحاقَ في الصوت وأنّي عددت خمسين مرة. فقال محمد: إي والله! أصلحك الله ـ ولقد عددتُ أنا أكثر من سبعين مرّة وما في القوم أحدٌ إلا وهو يظن أنّه قد أخذه، والله ما أخذه أحدٌ منهم وأنا أوّلُهم ما قدرَتُ ـ عَلِم الله ـ على أخذه على الصحة وأنا أسرعهم أخذاً، فلا أدري: ألِكَثْرة زوائده فيه أم لشدّة صعوبته، ومن يقدِر أن يأخذَ من ذلك الشيطانِ شيئاً!

محمد بن المَكّيّ المُرْتجِل قال: قلتُ لَزُرْزُورٍ الكبير: كيف كان إسحاقُ يَنْفُق على الخلفاء معكم وأنت وإبراهيمُ بن المهديّ ومُخارِقُ أطيبُ أصواتاً وأحسنُ نغمةً؟ قال: كنّا والله يا بنّي نحضُر معه فنجتهدُ في الغناء ونُقيم الوَهَجَ فيه ويُقبل علينا الخلفاءُ، حتى نطمعَ فيه ونظنّ أنا قد غَلَبناه، فإذا غَنّى عمِل

في غِنائه أشياءَ من مُدَارَاتِهِ وحِذْقِه ولُطْفه حتى يُسقِطَنا كلّنا ويُقْبِلَ عليه الخليفةُ دونَنا ويُجيزَه دُوننا ويُصغيَ إليه، ونَرى أنفسَنا اضطراراً دُونه.

محمد بن أحمد المَكّيّ قال حدّثني أبي قال:

كان المغنّون يجتمعون مع إسحاق وكلُّهم أحسنُ صوتاً منه، ولم يكن فيه عيبٌ إلا صوتُه فيطمعون فيه، فلا يزال بلُطفه وحِذْقه ومعرفته حتى يغلِبَهم ويَبُذَّهم جميعاً ويفضُلَهم ويتقدّمهم. قال: وهو أوّلُ من أحدث التخنيث ليوافق صوتَهَ ويُشاكلَه فجاء معه عجباً من العَجَب، وكان في حَلْقه نُبُوٌّ عن الوتر. أخبرني يحيى بن عليّ قال أخبرنَا أبو الغُبَيْس بن حَمْدون: أنّ إسحاق أوّل من جاء بالتخنيث في الغناء ولم يكن يُعْرَف، وإنما احتال بحِذقه لُمَنافرة حَلْقِه الوَتَر، حتى صار يجيبُه ببعض التخنيث فيكون أحسنَ له في السَّمع.

يعقوبُ بن إسرائيل قَرْقَارَةُ قــال:

قال لي محمد بن عمر الجُرْجانيّ وقد تذاكرّنا إسحاقَ يوماً بحضرته: ما تذكُرون من إسحاق شيئاً تُقاربون به وصفَه. كان والله إسحاقُ غُرَّةً في زمانه، وواحداً في دهره عِلماً وفقهاً وأدباً ووقاراً ووفاءً وجودةَ رأي وصِحّةَ مودّة. كان والله يُخرِس الناطق إذا نطق، ويُحيّر السامعَ إذا تحدَّث، لا يَملُّ جليسُه مَجلِسَه، ولا تَمُجُّ الآذانُ حديثَه، ولا تنبو النفوسُ عن مُطاولته. إن حدّثك ألهاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غنّاك أطربك. وما كنتَ ترى خَصْلةً من الأدب ولا جنساً من العلم يتكلّم فيه إسحاقُ فيُقدِم أحدٌ على مُساجلته ومباراته.

ابن المكيّ قال:

تذاكرْنا يوماً عند أبي صنعةَ إسحاق، وقد كنا بالأمس عند المأمون فغناه إسحاق لحناً صنعه في شعر ابن ياسين:

الـطُّلولُ الـدَّوارِسُ فــارقَــتْــهــا الأوَانِسُ
أَوْ حــشــبـتْ بــعــد أهــلهــا فــهــي قــفْــرٌ بَـسَــابِسُ

قال: فقال أبي: لو لم يكن من بدائع إسحاق غيرُ هذا لكفى! «الطلول

الدوارس» كلمتان و«فارقتها الأوانس» كلمتان، وقد غنّى فيهما استهلالاً وبسيطاً وصاح وسَجَع ورجَّع النغمةَ واستوفى ذلك كلَّه في أربع كلمات وأتى بالباقي مثله؛ فمن شاء فليفعل مثلَ هذا أو لِيُقاربْه. ثم قال: إسحاقُ والله في زماننا فوق ابن سُرَيْج والغَرِيض ومَعْبَد، ولو عاشوا حتى يَرَوْه لعَرَفوا فضله واعترفوا له به.

قرأتُ في بعض الكتب أن محمد بن الحسن ـ أظنّه ابنَ مصعَب ـ ذَكر إسحاق الموصليّ فقال:

كانت صنعتُهُ مُحكمةَ الأصول، ونغُمته عجيبةَ الترتيب، وقسمتُه مُعدَّلَةَ الأوزان، وكان يتصرّف في جميعَ بُسُط الإيقاعات، فأيّ بِساطٍ منها أراد أن يتغنّى فيه صوتاً قصد أقوى صوت جاء في ذلك البِساط لحُذّاق القدماء فعارَضَه: وقد كان يذهب مذهبَ الأوائل، ويسلُك سبيلهم، ويقتحم طُرُقَهم، فَيَبْني على الرّسْم فيصنعه، ويحتذي على المِثال فيحكيه، فتأتي صَنعتُهُ قويّةً وثيقةً يجمع فيها حالتين: القوّةَ في الطبع وسهولَة المسلك، وخُنْثاً بين كثرة النَّغَم وترتيبها في الصِّيَاح والإسجاح؛ فهي بصنعة الأوائل أشبهُ منها بصنعة المتوسّطين من الطبقات، فأما المتأخرون فأحسَنُ أحوالهم أن يَرْووُها فيردُّوها. وكان حسنَ الطبع في صياحه، حسنَ التلطُّف، لتنزيله من الصِّياح إلى الإسجاح على ترتيبٍ بنَغَم يشاكله، حتى تعتدل وتتّزن أعجازُ الشِعر في القسمة بصدوره. وكذلك أصواتُهُ كلُّها، وأكثُرها يبتدىء الصوت فيصيح فيه ـ وذلك مذهبُه في جُلّ غنائه؛ حتىَ كان كثيرٌ من المغنّين يلقّبونه الملسوعَ؛ لأنه يبدأ بالصِّياح في أحسن نغمةٍ فتح بها أحدٌ فاه ـ ثم يردّ نغمتَهَ فيرجْحها ترجيحاً وينزّلها تنزيلاً حتى يَحطّها من تلك الشدّة إلى ما يُوازيها من اللين، ثم يَعُود فيفعل مثل ذلك، فيخرج من شدَّةٍ إلى لين ومن لين إلى شدة، وهذا أشدُّ ما يأتي في الغناء وأعزّ ما يُعرف من الصنعة. قال يحيى بن عليّ بن يحيى وقد ذكر إسحاق في صدر كتابه الذي ألّفه في أخباره وزاد في بعض ما صنعه: «وكان إسحاق أعلمَ أهل زمانه بالغناء وانفذهم في جميع فنونه، وأضربَهم بالعود وبأكثر آلات الغناء، وأجودَهم صنعةً، وقد تشبّه بالقديم وزاد في بعض

ما صنعه عليه، وعارَض ابنَ سُريج ومعبداً فانتصف منهما؛ وكان إبراهيمُ بن المهدي يُنازعه في هذه الصناعة ولم يَبْلُغْه فيها، ولم يكن بعدَ إسحاقَ مثلُه.

أبو العُبَيْس بن حَمْدون قال أخبرني أبي قال: لما غَنّى إسحاقُ في شعره هذا:

لأسماءَ رَسْمٌ عفا باللِّوَى أقام رَهيناً لطُول البِلَى
تعاوره الدهرُ في صَرْفِهِ بِكَرِّ الجديدَيْنِ حتى عفا

ـ الشعر لإسحاقَ من قصيدة مَدح بها الرشيد والغِناء له ـ قال: فكان الناس يتهادَوْنه كما يتهادَوْن الطُرفَةَ والباكورةَ.

طلبه العلم ودراسته لصنعة الغناء

عن إسحاق قال:

بقيتُ دهراً من دهري أُغلّس[1] في كلِّ يوم إلى هُشَيم فأسمعُ منه، ثم أصير إلى الكِسائيّ، أو الفَرّاء أو ابن غَزالة فأقرأ عليه جزءاً من القرآن، ثم آتي منصورَ زَلْزَل فيضاربني طَرْقَين أو ثلاثة، ثم آتي عاتكةَ بنت شُهْدَة فآخذُ منها صوتاً أو صوتين، ثم آتي الأصمعيّ وأبا عبيدة فأُناشدهما وأُحدّثُهما فأستفيدُ منهما، ثم أصيرُ إلى أبي فأُعلمُه ما صنعتُ ومَنْ لَقِيت وما أخذتُ وأتغدّى معه، فإذا كان العِشاءُ رُحتُ إلى أمير المؤمنين الرشيد.

حَمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

أخذ منّي منصورُ زَلزل إلى أن تعلّمتُ مثل ضربه بالعود أكثَر من مائة ألف درهم.

الحسين بن يحيى أبو الجُمَان وعَوْنُ بن محمد الكِنْديّ قالا: سمعنا إسحاقَ الموصليّ يقول:

---

(١) غلّس: سار وقت الغلس، والغلس: ظلمة ما قبل الغروب.

جئتُ يوماً إلى أبي معاويةَ الضَّرير ومعي مائةُ حديث، فوجدتُ حاجبَهَ يومئذٍ رجلاً ضريراً، فقال لي: إنْ أبا معاوية قد ولاّنـــي اليوم حِجْبَتـه لِينفعني. فقلت: معي مائةُ حديثٍ وقد جعلَتُ لك مائةَ درهم إذا قرأتُها. فدخل واستأذن لي فدخلت؛ فلمّا عرفَني أبو معاويةَ دعاه فقال له: أخطأتَ، وإنّما جعلتُ لك مثل هذا من ضعفاء أصحاب الحديث فأمّا أبو محمد وأمثالُه فلا. ثم أقبل عليّ يُرَغّبني في الإحسان إليه ويذكر ضعفَه وعنايتَه به، فقلتُ له: احتِكمْ في أمره. فقال: مائة دينار. فأمرتُ بإحضارها الغلامَ، وقرأتُ عليه ما أردتُ وانصرفت.

أحمد بن يحيى الشيبانيّ ثعلب قال:

وقف أبو عبد الله بن الأعرابيّ على المَدَائنيّ، فقال له: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: أمضي إلى رجلٍ هو كما قال الشاعر:

نَـحـمِـلُ أشـبَـاحَـنـا إلـى مَـلِكٍ ... نـأخـذُ مـن مـالِـه ومـن أدبـهْ

فقـــال لـــه: ومَنْ ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصليّ. قال أبو بكر: والبيت لأبي تَمّام الطائيّ.

وقد أخبرني بهذا الخبر عن ثَعْلَب محمد بن القاسم الأنباريّ فقال فيه:

كان إسحاقُ يُجْرِي على ابن الأعرابيّ في كلّ سنة ثلثمائةَ دينار، وأَهْدى له ابنُ الأعرابي شيئاً من كتاب النوادر كتبه له بخطّه؛ فمرّ ابن الأعرابي يوماً على باب دار الموصليّ ومعه صديقٌ؛ فقال له صديقُه: هذه دار صديقِك أبي محمد إسحاق؛ فقال: هذه دارُ الذي نأخذ من ماله ومن أدبـه.

خبرتـه بالغنـاء وطرائـق المغنّين

قال إسحاق : كان عندي صَنّاجةٌ كنتُ بها مُعْجَباً، واشتهاها أبو إسحاق المعتصم في خلافة المأمون، فبينا أنا ذاتَ يومٍ في منزلي إذا ببابي يـــدقّ دقاً شديداً، فقلت: انظروا مَن هذا؛ قالوا: رسولُ أمير المؤمنين؛ فقلت: ذهبتْ صَنّاجتي، تجدُه ذكرها له ذاكرٌ فبعث إليّ فيها. فلما مَضَى بي الرسولُ انتهيت

إلى الباب وأنا مُثْخَنٌ(١)، فدخلتُ فسلّمتُ، فردّ السلام، ونظر إلي تغيّرِ وجهي فقال: اسكُنْ. فسكنتُ، وسألني عن صَوتٍ وقال: أتدري لمن هو؟ فقلت: أسْمَعُه ثم أُخْبرُ أميرَ المؤمنين إن شاء الله بذلك. فأمر جاريةً من وراء السّتار فغنّتْه وضربتْ فإذا هي قد شبّهْته بالقديم؛ فقلت: زِدْني معها عُوداً آخر فإنه أَثْبَتُ لي؛ فزادني عوداً آخر، فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا الصوتُ مُحْدَثٌ لامرأةٍ ضاربة. فقال: من أين قلت ذلك؟ فقلت: لمّا سمعتُهُ وسمعتُ لِينَه عرفتُ أنّه من صَنْعة النساء؛ ولمّا رأيتُ جَودة مَقَاطعه علمتُ أن صاحبته ضاربة. فقال: من أين قلت ذلك؟ فقلت: لأنها قد حَفِظتْ مقاطعه وأجزاءه، ثم طلبتُ عوداً آخر ليكون أثبتَ لي فلم أشكُكْ؛ فقال: صدقتَ،الغناء لِعَريب.

إسحاق بن إبراهيم الطّاهِريّ قال: حدّثتْني مُخارِقُ مَولاتُنا قالت:

كانَ لمولاي الذي علّمني الغناءَ فَرّاشٌ رُوميّ، وكان يغنّي بالروميّة صوتاً مليحَ اللحن، فقال لي مولاي: يا مخارقُ، خذي هذا اللحنَ الروميّ فانقُلِيه إلى شعرٍ من أصواتك العربية حتى أمتحنَ به إسحاقَ الموصليّ فأعلم أين يقع من معرفته! ففعلتُ ذلك، وصار إليه إسحاقُ فاحتبسه مولاي، فأقام وبعث إليّ أن أدخلي اللحنَ الروميّ في وسط غنائك؛ فغنيتُه إيّاه في دَرْجِ أصوات مرّتْ قبلَه، فأصغى إليه إسحاقُ وجعل يتفهّمه ويُقَسِّمه ويتفقد أوزانه ومقاطَعه ويُوقِع عليه بيده، ثم أقبل على مولاي فقال: هذا صوتٌ روميّ اللحن، فمن أين وقع إليك؟ فكان مولاي بعد ذلك يقول: ما رأيتُ شيئاً أحسن من استخراجِهِ لحناً رومياً لا يعرفه ولا العِلّةَ فيه، وقد نُقل إلى غناء عربيّ وامتزجتْ نَغَمةُ حتى عَرَفه ولم يَخْفَ عليه.

يحيى بن عليّ قال قال لي إسحاق:

كنتُ عند المعتصم وعنده إبرهيمُ بن المهديّ، فغنّى إبراهيمُ صوتاً لابن جامع أَخَلّ ببعضه، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، ترك ابنُ جامع الناسَ يحجِلُون

---

(١) أثخن فيه : أوهنه، واستثخن منه النوم: غلبه.

خلفَه ولا يلحَقونه وفي هذا الصوت خاصّة. فقلتُ: واللهِ يا أمير المؤمنين، ما صدَق، وما هذا الصوتُ بتامّ الأجزاء. فقال: كَذَب واللهِ يا أمير المؤمنين؛ فقلت: يا سيّدي، أنا أُوقِفُه على نُقصانه، فمُرْه فلِيُعْد يا أمير المؤمنين. فأعاد البيت الأول فأقامه وطمع في الإصابة؛ فقلت: آفتُهُ في البيت الثاني، فَلْيَردُدْه، فردّه، فنقَص من أجزائه وقسمته، فعرّفتُهُ فأقرّ به؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه صناعتي وصناعة آبائي وإبراهيم يكلِّمني فيها، وأنا أسأله عن ثلاثين مسألةً من بابٍ واحد في طريق الغناء لا يعرف منها مسألةً واحدة. فقال: أوَ يعفيني أميرُ المؤمنين من كلامه؟ فأعفــاه....

حَمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

دعاني المأمون وعنده إبراهيمُ بن المهديّ، وفي مجلسه عشرون جاريةً قد أَجْلس عَشْراً عن يمينه وعشراً عن يساره ومعهنّ العيدانُ يضرِبنَ بها؛ فلمّا دخلتُ سمعتُ من الناحية اليسرى خطأً فأنكرتُه؛ فقال المأمون: يا إسحاقُ، أتسمع خطأً؟ فقلت: نعم واللهِ يا أمير المؤمنين؛ فقال لإبراهيم: هل تسمع خطأً؟ فقال: لا فأعاد عليّ السؤالَ؛ فقلت: بلى واللهِ يا أمير المؤمنين، وإنّه لفي الجانب الأيسر، فأعار إبراهيمُ سَمْعَه إلى الناحية اليسرى ثم قال: لا واللهِ يا أمير المؤمنين، ما في هـذه الناحيـة خطأ! فقلتُ: يـا أميرَ المؤمنين، مُـرِ الجواريَ اللواتي على اليمين يُمْسِكْنَ فَأَمَرهنّ فأمسكْنَ؛ فقلت لإبراهيم: هل تَسمع خطأً؟ فتسَمّع ثم قال: ما هاهنـا خطأٌ. فقلت: يـا أميرَ المؤمنين، يُمْسِكْنَ وتضرِب الثامنة. فأمسكْنَ وضربت الثامنـةُ، فعرَف إبـراهيمُ الخطأَ، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، ها هنا خطأٌ، فقال عند ذلك لإبراهيم: يـا إبراهيمُ، لا تُمَارِ إسحاقَ بعدَها؛ فإن رجلاً فَهِم الخطأَ بين ثمانين وتراً وعشرين حَلْقاً لجديرٌ ألاّ تُماريه. فقال: صدقتَ يا أمير المؤمنين. وقال الحسين بن يحيى في خبره: وكان في الأوتار كلِّها مَثْنىً فاسدُ التَسوية. وقال فيه: فطرِب أميرُ المؤمنين المأمونُ، وقال: لله درُّك يا أبا محمد؛ فكَنّاني يومئذٍ.

ألحانه

عن حَمّاد بن إسحاقَ قال: أوّلُ صوت صنَعه أبي:

إني لأَكْنِي بأجبالٍ عن آجْبُلِها وباسمِ أوْدِيةٍ عن اسمِ واديها

وآخرُ صوتٍ صنعه مختاراً:

قِفْ نُحَيِّ المَغانِيَا والطُّلولَ البَوالَيا

ثم قطع الصنعةَ حتى أمره الواثق بأن يُعارض صنعته في:

لقدِ بَخِلتْ حتى لو آنيّ سألتُها.

قال حمّاد وحدثني أبي قال:

كان المغنّون يَحسُدونني مُذْ كنتُ غلاماً، فلمّا مات أبي صنعتُ هذا الصوتَ، فهو أوّلُ صوت صنعتُهُ بعد وفاته، وهو:

أمِنْ آل ليلَى عَرَفْتَ الطُّلولا بذي حُرُضٍ ماثِلاتٍ مُثُولاَ

فقالوا للرشيد: هذا من صنعة أبيه فقد انتحله. فقال لي الرشيدُ في ذلك؛ فقلتُ: هذا ومائةٌ بعدَه خيرٌ منه لهم. فقال: اصنَع في شعر الأخطل:

أعاذِلتيَّ اليومَ ويْحَكما مَهْلاَ وكُفّا الأذَى عني ولا تُكثِرا العَذْلاَ

فصنعتُ فيه كما أمرني؛ فلمّا سمعوا ذلك وما جاء بعده أَذْعنوا، وزال عن قلب الرشيد ما كان ظَنّه بي.

حدّثنا حَمّاد قال: أوّلُ ما سمعه الرشيدُ من غناء أبي:

ألم تسألْ فتُخبِرك المَغاني وكيف وهنّ مُذ حِجَجٍ ثماني
بَرِئتُ من المنازل غير شوقٍ إلى الدار التي بِلِوَى أَبانِ

دِيـارٌ لـلـتـي لَـجْـلَـجْـتُ فـيـهـا ... ولـو أعْـرَبْتُ لَـجَّ بهـا لـسـاني
فـكـادَ يَـظَلّ لـلعـيـنَـيـن غَـرْبٌ ... بِـرَبْـعَـيْ دِمْـنَـةٍ لا يَـنْـطِـقـان[1]

قال: فحدّثني أبي أنّ المغنّين قالوا للرشيد: هذا من صنعةِ أبيه انتحله بعد وفاته. فقلت له: أنا أدَعُ لهم هذا ومائةَ صوتٍ بعده. ثم نظروا إلى ما جاء بعد ذلك فأذعَنـوا.

عـن حَمّـاد:

أن آخرَ صوت صنعه أبوه: لقد بَخِلَتْ، ثم ما صنع شيئاً حتى مات.

عن ابن المَكّيّ عن أبيـه قال:

قلت لإسحاقَ يوماً: يا أبا محمّد، كم تكون صنعتُك؟ فقال: ما بلغتْ مائتين قطُّ.

حمّاد بن إسحاق قال:

قال لي وكيلُ بن الحَرُونيّ: قلت لأبيك إسحاقَ: يا أبا محمد، كم يكون غناؤك؟ قال: نحواً من أربعمائةِ صوت. قال: وقال له رجلٌ بحضرتي: مالكَ لا تُكثر الصنعة كما يُكثِرُ الناس؟ قال: لأنيّ إنّما أنقُر في صخرة.

أخبـاره مع إبراهيـم بن المهدي

قال عليّ بن محمد حدّثني جدّي حَمْدُون:

أنّ إسحاق قال لإبراهيمَ بن المهديّ بحضرة المعتصِم: ما تقول فيمن يزعُمُ أنّ ابن سُرَيج وابن مُحْرِز ومَعْبداً ومالكاً وابنَ عائشة لم يكونوا يُحْسنون تمام الصّنعة ولا استيفاءَ الغناء، ويعجِزون عمّا به يَكمُل ويتّم ويَحسُن، وأنه

---

(١) أبان: جبلان وهما أبانان اولهما الأبيص وهو شرقيّ الحاجر فيه نخلٌ وماء، والأسود لبني فزارة. واللوى: منقطع الرمل. اللجلجة: التردد في الكلام. الغرب: انهلال الدمع من العين.

أقدرُ على الصَّنعة منهم؟ قال: أقول: إنّه جاهلٌ أحمقُ؛ قال: فأنت تزعُمُ أنه قد كانت بَقِيَتْ عليهم أشياءُ لم يهتدوا لها ولم يُحسِنوها، فتنبّهتَ عليها أنت وتَمّمتْهَا وحسَّنْتَها بَجَنْدَرَتك[1] قال: فضحِك المعتصم وبقي إبـراهيمُ واجماً مُطْرِقاً، ولم ينتفع بنفسه بقيّةَ يومه؛ وما سمعتُهُ أنا ولا غيري بعد ذلك اليوم يتبجّح بغناءٍ يُصلحه من غناءِ المتقـدّمين حتى يُطنِبَ في صنعتـه ويُشتَهى استماعُه منه، كما كان يَدّعي قديماً.

قال : وكان حَمْدونُ يقول: كان إبراهيمُ يأكل المغنِّين أكلاً، حتى يحضُرَ إسحاق، فيُداريه إبراهيم ويطلب مكافأتَه، ولا يدَعُ إسحاقُ تبكيتَه ومعارضتَه؛ وكان إسحاقُ آفتَهُ، كما أنّ لكلّ شيء آفةً.

إسحاقُ بن إبراهيم الموصليّ قال:

عاتبني إبراهيمُ بن المهديّ في ترك المجيء إليه، فقال لي: مَنْ جمع لك مع المودَة الصادقة رأياً حازماً فاجمعْ له مع المحبة الخالصة طاعةً لازمة. فقلت له: جعلني اللهُ فداك، إذا ثَبتت الأصولُ في القلوب، نطقتِ الألسنُ بالفروع، واللهُ يعلم أنّ قلبي لك شاكرٌ، ولساني بالثناء عليك ناثر، وما يـظهر الـودُّ المستقيمُ إلا من القلب السليم. قال: فَأَبْرِىءْ ساحتَكَ عندي بكَثرة مجيئك إليّ. فقلت: أجعل مجيئي إليك في الليل والنهار نُوَباً أتيقّظُ لهـا كتيقّظي للصلواتِ الخمس، وأكونُ بعد ذلك مقصِّراً. فضحك وقال: من يقدِر على جواب المغنّين!! فقلت: مَن اتّخذ الغناءَ لنفسه ولم يتّخذْه لغيره. فضحك أيضاً، وأمر لي بِخِلَعٍ ودنانيرَ وبِرْذَوْنٍ وخادم. وبلغ الخبرُ المعتصمَ، فضاعف لإبراهيم ما أعطاني، فرُحتُ وقد ربِحت وأربحتُ.

محمد بن مَرْوان قال قال لي يحيى بن مُعَاذ:

كان إسحاقُ الموصليّ وإبراهيم بن المهديّ إذا خَلَوا فهما أَخَوانِ، وإذا التقيا عند خليفةٍ تَكَاشَحَا أقبحَ تكاشُح، فاجتمعا يوماً عند المعتصم؛ فقال

---

(١) جندره : حسّنه وزيّنه، مأخوذة من جندر الثوب: أعاد وشيه بعد ذهابه.

لإسحاق: يا إسحاق، إن إبراهيمَ يَثْلِبُك ويَغُضّ منك ويقول: إنك تقول: إنّ مُخارِقاً لا يُحسِن شيئاً ويتضاحك منك. فقال: إسحاق: لم أقُل يا أميرَ المؤمنين: إنّ مُخارقاً لا يُحسِن شيئاً، وكيف أقول ذلك وهو تلميذُ أبي وتخريجُه وتخريجي! ولكن قلت: إنّ مُخارقاً يملِك من صوته ما لا يملكه أحدٌ، فيتزايد فيه تزايداً لا يُبقي عليه ويتغيّر في كل حال، فهو أحلى الناس مسموعاً وأقلّه نفعاً لمن يأخذُ عنه، لقلّة ثباته على شيءٍ واحد. ولكنّي أفعل الساعةَ فعلاً إن زعم إبراهيمُ أنه يُحسِنه فلستُ أُحسِن شيئاً، وإلّا فلا ينبغي له أن يدّعيَ ما ليس يُحسنه. ثم أخذ عوداً فشوَّش أوتارَه، ثم قال لإبراهيم: غَنِّ على هذا أو يغنِّي غيرُك وتضربُ عليه. فقال المعتصم: يا إبراهيمُ، قد سمعتَ، فما عندك؟ قال: لِيفعلْه هو إن كان صادقاً. فقال له إسحاقُ: غنِّ حتى اضرِبَ عليك. فأَبَى، فقال لزُرْزُور: غنِ. فَغَنَّى وإسحاقُ يضرِب عليه حتى فُرِغَ من الصوت ما علِم أحدٌ أن العُود مُشوَّش. ثم قال: هاتوا عوداً آخرَ، فشَوَّشه وجعل كلَّ وترٍ منه في الشِّدّة واللِين على مقدار العود المشوّشِ الأوّلِ حتى استوفى؛ ثم قال لزُرْزور: خذ أحدَهما. فأخذه، ثم قال: انظرُ إلى يدي واعمِل كما أعملُ واضرب. ففعل؛ وجعل إسحاقُ يُغنّي ويضرِب وزُرْزور ينظر إليه ويفعل كما يفعل؛ فما ظنّ أحدٌ أنّ في العُوْدَين شيئاً من الفساد لصحّة نَغَمهما جميعاً إلى أن فُرِغ من الصوت. ثم قال لإبراهيم: خُذ الآن أحَدَ العُودين، فاضرِب به مبدأً أو عَمُودَ طريقةٍ أو كيف شئـ إن كنت تُحسِن شيئاً. فلم يَفعل وانكسر انكساراً شديداً؛ فقال له المعتصم: أرأيتَ مثل هذا قطُّ؟ قال: لا، والله ما رأيتُ ولا ظننت أن مثلَه يكون.

أخباره مع الفضل بن الرّبيع

عن إسحاقَ قال: أتيتُ الفضلَ بن الربيع يوماً عائداً وجاءه بنو هاشم يَعُودونه، فقلت في مجلسي ذلك:

إذا ما أبو العبّاس عِيدَ ولم يَعُد — رأيتَ مَعُوداً أكرم الناس عائدَا
وجاء بنو العبّاس يبتدرونه — مِراضاً لما يشكوه مَثْنَى وواحدا

يُفَدُّونه عند السَّلامِ وكلُّهم ... مُجِلٌّ له يدعوه عَمًّا ووالدا

قال: وكان الفضلُ مضطجعاً، فأمر خادماً له فأجلسه، ثم قال لي: أعِد يا أبا محمد فأعدتُ، فأمرني فكتبتُها، وسُرَّ بها وجعل يردّدها حتى حفظها.

عن إسحاق* قال:

جاءني الزُّبير بن دَحْمَان يوماً مُسلِّماً فاحتبستُهُ؛ فقال لي: أمرني الفضل بن الربيع بالمسير إليه؛ فقلت له:

أقِمْ يا أبا العوّام ويْحَكَ نَشْرَبِ ... ونَلْهُ مع اللاّهين يوماً ونَطْرَبِ
إذا ما رأيتَ اليومَ قد جاء خيرُه ... فخُذْه بشكرٍ واترك الفضلَ يغضَبِ

فأقام عندي وسُرِرنا يومَنا؛ ثم صار إلى الفضل، فسأله عن سبب تأخّره عنه، فحدّثه الحديثَ وأنشده البيتين؛ فغضب وحَوّل وجهَه عنّي، وأمَرَ عوناً حاجبه بألاّ يُدخلَني إليه ولا يستأذن لي عليه ولا يُوصِلَ لي رُقعةً؛ فقلت:

حرامٌ عليَّ الكأسُ ما دُمتَ غضبانَا ... وما لم يَعُد عنّي رضاك كما كانَا
فأحسِنْ فإنّي قد أسأت ولم تَزَلْ ... تُعوّدُني عند الإساءة إحسانا

قال: وأنشدْته إيّاهما، فضحك ورضي عنّي وعاد إلى ما كان عليه. وقد أخبرني بهذا الخبر محمد بن مَزْيد والحسين بن يحيى عن حَمّاد عن أبيه، فذكر مثلَه وزاد فيه: فقلت في عَوْن حاجبه:

عَوْنُ يا عونُ ليس مثلَك عونُ ... أنت لي عُدّةٌ إذا كان كَوْنُ
لك عندي واللهِ إن رَضي الفضـ ... ـلُ غلامٌ يُرضيك أو بِرْذَوْنُ

قال: فأتى عَوْنٌ الفضلَ بالشِعرين جميعاً، فقرأهما وضحك وقال: وَيْحَكَ! إنّما عرض لك بقوله: «غلام يُرضيك» بالسَّوءة. قال: قد وعَدني ما سمعت، فإن شئتَ أن تَحرِمنيه فأنت أعلمُ. فأمره أن يُرسِل إليّ، فأتاني رسولُه فصِرتُ إليه فرضِي عنّي.

إسحاقُ قال : لاعبْتُ الفضلَ بن الربيع بالنَّرْد، فوقع بيننا خلافٌ، فحلف وحلفتُ، فغضب عليّ وهَجرني، فكتبت إليه:

يقول أُناسٌ شامتون وقد رأَوْا مُقَامي وإغبابي الرَّواحَ إلى الفضلِ
لقد كان هذا خُصَّ بالفضل مرّةً فأصبح منه اليومَ مُنصرِمَ الحبل
ولو كان لي في ذاك ذنبٌ علِمتُهُ لَقطّعتُ نفسي بالمَلامة والعَذْل(١)

وعَرضتُ الأبياتَ عليه؛ فلمّا قرأها ضحِك وقال: أشدُّ من ذنبك أنك لا ترى لنفسك بذلك الفعل ذنباً؛ واللهِ لولا أنّي أدّبتُك أدبَ الرجلِ ولدَه، وأن حسنَكَ وقَبيحَك مضافان إليّ لأنكرتني؛ فأصلِح الآن قلبَ عَون . ـ وكان يَحْجبُه ـ فخاطبته في ذلك فكلّمني بما كَرِهت، فقلت: أتدخل بيني وبين الأمير أعزّه الله! وكان عَون يُرْمَى بالأُبْنة فقلتُ فيه:

وذاكرِ أمرٍ ضاق ذرعاً بذكره وناسٍ لداءٍ منه مُتّسِعِ الخَرْقِ

قال : ثم علِمت أنه لا يتمّ لي رضا الفَضْل إلا بعد أن يَرضى عون، فقلت فيه:

عَوْنُ يا عَوْنُ ليس مثلَك عونُ أنت لي عُدَّةٌ إذا كان كَونُ
لك عندي واللهِ إن رَضِيَ الفضـ ـلُ غلامٌ يُرْضيك أو بِرْذَوْنُ

فدخل إلى الفضل فترضّاه لي فرضِي ؛ ثم قال له : ويلك يا عون! إنه والله إنّما هجاك وأنت ترى أنه قد مدحك، ألا ترى إلى قوله: «غلام يرضيك»! هذا تعريضٌ بك. قال: فكيف أصنعُ به مع محلّه عند الأمير!

أخباره مع الأصمعي

قال مؤلّف هذا الكتاب: كان إسحاقُ يأخذ عن الأصمعيّ ويُكثر الرواية

---

(١) الاغباب : مصدر أغبّ إذا جاء يوماً وترك يوماً.

عنه، ثم فسَد ما بينهما، فهجاه إسحاق وثلَبه وكشَف للرَّشيد معايبه، وأخبره بقلّة شُكره وبُخلْه وضَعَة نفسه وأنّ الصَّنيعة لا تزكُو عندَه، ووصف له أبا عُبيدَة مَعْمَر بن المُثنّى بالثِّقة والصِّدق والسّماحة والعلم، وفعل مثلَ ذلك للفَضْل بن الربيع واستعان به، ولم يزل حتى وضع مرتَبَةَ الأصمعيّ وأسقطه عندهم، وأنفذوا إلى أبي عُبيدة مَنْ أَقْدَمه.

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال: أنشدتُ الفضلَ بنَ الربيع أبياتاً كان الأصمعيّ أَنْشَدَنيها في صفة فرس:

كأنّه في الجُلِّ وهو سامي مُشتَمِلٌ جاء من الحَمّام
يَسُور بين السَّرْج واللِّجامِ سَوْر القَطَامِيّ إلى اليَمامِ(١)

قال: ودخل الأصمعيُّ فسمعني أُنشدُها، فقال: هاتِ بقيَّتها. فقلت له. ألم تَقُل إنه لم يبقَ منها شيءٌ؟ فقال: ما بقي منها إلا عيونُها. ثم أنشد بعد هذه الأبيات ثلاثين بيتاً منها، فغاظني فعلُه؛ فلّما خرج عَرَّفتُ الفضلَ بن الربيع قِلّة شُكره لعارفةٍ(٢) وبخلَه بما عنده؛ ووصفتُ له فضلَ أبي عُبَيْدَة مَعْمَر ابن المُثَنَّى وعلمَه ونزاهتَهَ وبذلَه لما عنده واشتمالَه على جميع علوم العرب، ورَغَّبتُه فيه، حتى أنفذ إليه مالاً جليلاً واستقدمه، فكنتُ سببَ مجيئه به من البصرة.

عن إسحاقَ قال:

جاء عَطاءُ المُلْكِ بجماعة من أهل البَصْرة إلى قُرَيْب أبي الأصمعيّ، وكان نَذْلاً من الرجال، فوجده ملتفًّا في كِسائه نائماً في الشمس، فرَكضه برجله وصاح به: يا قُرَيْبُ، قم ويلَك! فقال له: هل لقيتَ أحداً من أهل العلم قطُّ

(١) الجل للدابة كالثوب للإنسان تصان به. اشتمل الرجل: تلفف بثوبه وأداره حول جسده. يسور: يثب ويثور. القطاميّ: الصقر. اليمام: الحمام.
(٢) العارفة: المعروف.

أو من أهل اللغة أو من العرب أو من الفقهاء أو من المحدِّثين؟ قال: لا والله. قال: ولا سمعتَ شيئاً تَرويه لنا أو تُنشِدُناه أو نكتبُه عنك؟ قال: لا والله. فقال لمن حضر: هذا أبو الأصمعيّ، فاشهدوا لي عليه وعلى ما سمعتم منه، لا يَقُلْ لكم غداً أو بعدَه: حدّثني أبي أو أنشدني أبي. ففضَحه. قال الفضل: ثم مرِض الأصمعيّ، وكانت الحال بينه وبين إسحاق الموصلي انفرجتْ؛ فعاده أبو رَبيعة، وكان يَرغب في الأدب ويَبَرُّ أهلَه؛ فقال له الأصمعيّ: أقرِضْني خمسةَ آلاف درهم. فقال: أَفعل. فقال له أبو ربيعة: فأيَّ شيء تشتهي سوى هذا؟ فقال: أشتهي أن تُهدي إليّ فَصًّا حسناً وسيفاً قاطعاً وبُرْداً حسناً وسَرجا مُحَلًّى. فقال: أَفعلُ. وبعث بذلك إليه لمّا عاد إلى منزله. وبلغ ذلك إسحاقَ فقال:

أليس من العجائب أنّ قِرداً ... أُصَيْمِعَ باهليًّا يستطيلُ
ويزعُمُ أنه قد كان يُفْتِي ... أبا عمروٍ ويسأله الخليلُ
إذا ما قال: قال أبي عجِبنا ... لِما يأتي به ولِما يقولُ
وما إن كان يَدْري ما دَبيرٌ ... أبوه إن سألتَ وما قَبيلُ
وجلّله عَطاءُ المُلْكِ عاراً ... تزول الراسياتُ ولا يزولُ
نصحتُ أبا ربيعةَ فيه جُهْدِي ... وبعضُ النصح أحياناً ثقيلُ
فقل لأبي ربيعة إذ عصاني ... وجار به عن القصد السبيلُ
لقد ضاعتْ بُرودُك فاحتَسِبْها ... وضاع الفَصّ والسيفُ الصّقيلُ
وسَرجٌ كان للبِرذونِ زَيْناً ... له في إثره جَزَعاً صَهيلُ
وأمّا الخمسةُ الآلافِ فاعلم ... بأنك غَبْنَها لا تستقيلُ
وأنّ قضاءها فَتَعَزَّ عنها ... سيأتي دونَه زمنٌ طويلُ[1]

أخباره مع الرشيد

حَمّاد بنُ إسحاق عن أبيه قال: أرسل إليّ الرشيدُ ذاتَ ليلة، فدخلت إليه

---

(١) دبير وقبيل: يقال فلان لا يعرف ما قبيله وما دبيرهُ أي لا يعرف ما قدامه وما خلفه غبنها: مفعول تستقيل المقدم، والغبن: الخديعة.

فإذا هو جالسٌ وبين يديه جاريةٌ عليها قميصٌ مُوَرَّدٌ وسَرَاويلُ مورَّدةٌ وقِناعٌ مورَّد كأنها ياقوتةٌ على وردة، فلما رآني قال لي: اجلِس، فجلستُ؛ فقال لي: غنِّ، فغنّيت:

تَشَكَّى الكُمَيْتُ الجَرْيَ لماّ جَهَدتُه   وبيَّن لو يسطيعُ أن يتكلَّما[1]

فقال: لمن هذا اللحنُ؟ فقلت: لي يا أمير المؤمنين، فقال: هاتِ لحنَ ابنِ سُرَيج، فغنّيتُه إياه، فطرِب وشرب رِطْلًا وسقى الجاريةَ رطلًا وسقاني رطلًا، ثم قال: غنِّ، فغنيتُه:

هاجَ شَوْقي بَعْدَما شُيِّب أصداغي بُرُوقُ
مَوهِناً والبَرْقُ ممّا ذا الهوى قِدْماً يَشُوق[2]

فقال: لمن هذا الصوت؟ فقلت: لي. قال: قد كنتُ سمعتِ فيه لحناً آخرَ. فقلت: نعم، لحن ابن مُحْرِز. قال: هاتِه. فغنّيتُه فطرب وشرب رطلاً، ثم سقى الجارية رطلاً وسقاني رطلاً، ثم قال: غنِّ. فغنّيتُه:

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ   وإن كنتِ قد أزْمَعْتِ صرمي فأجملي

فقال لي: ليس هذا اللحنَ أُريد، غَنِّ رَمَل ابن سُرَيج. فغنيتُه وشرب رطلاً وسقى الجارية رطلاً، ثم قال: حدّثني. فجعلتُ أحدِّثه بأحاديث القِيان والمغنِّين طَوْراً، وأحاديثِ العرب وأيامها وأخبارها تارةً، وأُنشِده أشعارَ القدماء والمُحْدَثين في خلال ذلك، إذ دخل الفضلُ بن الربيع، فحدّثه حديثَ ثلاثِ جوارٍ مَلَكهُنّ ووَصَفهنّ بالحُسْن والإحسان والظَّرْف والأدب، فقال له: يا عَبّاسيّ، هل تَسخُو نفسك بهنّ وهل لك من سَلوة عنهنّ؟ فقال له: والله يا أمير المؤمنين، إني لأسخُو بهنّ وبنفسي، فبها فداك الله. ثم قام فوَجَّه بهنّ

---

(١) الكميت: الفرس، والكمتة لون بين الحمرة والسواد.
(٢) موهناً: نحواً من منتصف الليل أو بعد انقضاء وقت منه.

إليه، فغَلَبنْ على قلبه، وهنّ سِحْر وضياء وخُنْثُ ذاتُ الخال، وفيهنّ يقول:

إنّ سِحْراً وضياءً وخُنُثْ هنّ سِحْرٌ وضياءٌ وخُنُثْ
أخذتْ سِحرٌ ولا ذنبَ لها ثُلُثَيْ قلبي وتِرباها الثُّلُثْ

عن الأصمعيّ قال: دخلت أنا وإسحاقُ الموصليّ يوماً على الرشيد فرأيناه لَقِسِ النّفْس، فأنشده إسحاقُ يقول:

وآمرة بالبخل قلتُ لها اقْصُري فذلك شيءٌ ما إليه سبيلُ
أرى الناس خُلّانَ الكرامِ ولا أرى بَخيلاً له حتى المماتِ خليلُ
وإني رأيتُ البُخلَ يُزْرِي بأهله فأكرمتُ نفسي أنْ يُقال بخيلُ
ومن خير حالات الفتى لو علمتِه إذا نال خيراً أن يكونَ يُنيلُ
فَعالي فَعالُ المُكْثِرين تجمُّلاً ومالي كما قد تعلمين قليلُ
وكيف أخافُ الفقر أو أحرَمُ الغِنى ورأيُ أمير المؤمنين جميلُ

قال: فقال الرشيد: لا تَخَفْ إن شاء الله. ثم قال: لله دَرُّ أبياتٍ تأتينا بها؛ ما أشدَّ أصولَها، واحسنَ فُصولَها، وأقلَّ فُضولَها! وأمر له بخمسين ألف درهم؛ فقال له إسحاقُ: وصفُك والله يا أمير المؤمنين لشعري أحسنُ منه، فعلامُ آخُذ الجائزة! فضحك الرّشيد وقال: اجعلوها لهذا القول مائةَ ألف درهم. قال الأصمعيّ: فعلمتُ يومئذٍ أن إسحاقَ أحذقُ بصَيد الدراهم منّي.

عن اسحاق قال:

أولُ جائزة أخذتُها من الرّشيد ألفُ دينارٍ في أوّلِ يوم دخلتُ إليه فغنّيتُه:

عَلِق القَلبُ بزَوْعا[١]

فاستحسنه واستعاده ثلاثَ مرّاتٍ وشرب عليه ثلاثة أرطالٍ وأمر لي بألف دينار، فكان أوّلَ جائزةٍ أجازَنيها.

---

(١) زوعى: من أسماء النساء.

حَمّادٌ عن أبيه قال:

خرجنا مع الرّشيد يريد الرَّقّة؛ فلمّا صِرنا بالموضع الذي يقال له القائم نزلْنا، وخرج يتصيّد وخرجنا معه، فأَبْعَـد في طلب الصَيد، ولاح لي دَيْـرٌ فقصدتُه وقد تعبتُ، فأشرفتُ على صاحبه، فقال: هل لك في النزول بنا اليوم؟ فقلت: إي والله، وإني إلى ذلك لمحتاج. فنزل ففتح لي البابَ وجلس يحدّثني، وكان شيخاً كبيراً وقد أدرك دولة بَني أمية، فجعل يحدّثني عمّن نزل به من القوم ومَوَالِيهم وجيوشِهم، وعرَض عليَّ الطعامَ فأجبتُه؛ فقدَّم إليَّ طعاماً من طعام الدِّيَارات نظيفاً طيِّباً، فأكلتُ منه، وأتاني بشرابٍ ورَيْحـان طَرِيّ فشربتُ منه، ووَكَّل بي جاريةً تخدُمُني راهبةً لم أر أحسنَ وجهاً منهـا ولا أشْكلَ(١)، فشربتُ حتى سَكِرتُ، ونِمتُ وانتبهتُ عِشاءً، فقلتُ في ذلك:

بِـدَيْـرِ الـقـائِـم الأقـصَـى غـزالٌ شـادِنٌ أَحْـوَى
بَـرَى حُـبِّي لـه جِـسْـمِـي ولا يَـعْـلَمُ مـا أَلْـقَـى
وأكـتُـمُ حـبَّـه جُـهـدِي ولا واللهِ مـا يَـخْـفَـى(٢)

ورَكبتُ فلحِقتُ بالمعكسر والرشيدُ قد جلس للشُّرب وطلبني فلم أُوجَد، وأُخبِـرتُ بذلـك، فغنَّيتُ في الأبيات ودخلتُ إليـه؛ فقال لي: أين كنتَ؟ وَيْحَك! فأخبرته بالخبر وغنَّيتُه الصوتَ، فطرِب وشرب عليه حتى سَكِر، وأخَّر الرحيلَ في غدٍ، ومَضَيْنا إلى الدَّيْر ونزَله، فرأى الشيخَ واستنطقه، ورأى الجاريةَ التي كانت تخدُمُني بالأمس؛ فدعا بطعام خفيفٍ فأصاب منه، ودعا بالشَّراب، وأمر الجارية التي كانت بالأمس تخدُمني أن تتولَّى خِدمتَـه وسَقْيَه ففعلتْ، وشرب حتى طابت نفسه، ثم أمر للدَّير بألفِ دينار، وأمر باحتمال خَراجِه له سَبْعَ سنين؛ فرحَلْنا.

---

(١) أشكل: أجمل شكلاً.
(٢) الشادن: الظبي الذي قوي واستغنى عن امه. أحوى: أسود الشفة.

قال حَمّاد: فحدّثني أبي قال: فلما صِرنا بتلِّ عَزاز من دَابِق[1] خرجتُ أنا وأصحابٌ لي نتنزّه في قريةٍ من قُراها، فأقمنا بها أياماً، وطلبَني الرشيدُ فلم يجِدْني فلمّا رَجعتُ أتيت الفضل بن الربيع؛ فقال لي: أين كنتَ؟ طلبَك أميرُ المؤمنين، فأخبرتُه بنُزهتنا فغضِب، وخِفتُ من الرشيد أكثَر مما لقيتُ من الفضل، فقلت:

إنّ قلبي بالتَّلِّ تلِّ عَزازِ ... عند ظَبي من الظِّباء الجَوَازي
شادِنٍ يسكُنُ الشآمَ وفيه ... مع ظَرْف العراق شَكْلُ الحجاز
يا لَقَوْمِي لبنت قَسٍّ أصابتْ ... منك صفوَ الهوى وليست تُجازِي
حَلَفتْ بالمسيح أن تُنْجِزَ الوعـ ... ـدَ وليستْ تَهُمُّ بالإنجاز

وغنَّيتُ فيه؛ ثم دخلتُ على الرشيد وهو مُغْضَبٌ، فقال: أين كنتَ؟ طلبتُك فلم أجِدْك. فاعتذرتُ إليه وأنشدتُه هذا الشعرَ وغنَّيتُه إياه؛ فتبسَّم وقال: عُذرٌ وأبيك وأيُّ عُذر! وما زَال يشربُ عليه ويَستَعِيدُنيه ليلتَه جَمْعاءَ حتى انصرفنا مع طلوع الفجر. فلمّا وصلتُ إلى رَحْلي إذا برسولِ أمير المؤمنين قد أتانا يَدْعُونا، فوافَيْتُ فدخلتُ، وإذا ابنُ جامعٍ يتمرّغ على دُكّانٍ في الدار وهو سَكْرانُ يتململ؛ فقال لي: يابنَ المَوصليّ، أتدري ما جاء بنا؟ فقلت: لا والله ما أدري. فقال: لكنِّي والله أدري دِرَايةً صحيحةً، جاءت بنا نَصْرانيَّتُك الزانيةُ، عليك وعليها لعنةُ الله! وخرج الآذِنُ فأذِنَ لنا، فدخلنا. فلمّا رأيتُ الرشيد تبسَّمت؛ فقال لي: ما يُضحكك؟ فأخبرتُه بقول ابن جامع؛ فقال: صَدَق، ما هو إلا أن فَقَدتُكم فاشتَقت إلى ما كنّا فيه، فعُودوا بنا. فعُدْنا فيه حتى انقضى مجلسُنا وانصرفنا.

حَمّادُ بن إسحاق عن أبيه قال:

نهاني الرشيدُ أن أغنِّي أحداً غيرَه، ثم استوهبني جعفرَ بن يحيى وسأله أن

---

(١) تل عزاز: بليدة شمالي حلب. دابق: قرية من أعمال عزاز.

يأذن لي في أن أُغنّيه ففعل، واتّفقنا يوماً عند جعفر بن يحيى وعنده أخوه الفضلُ، والرشيدُ يومئذ بعَقِب عِلّة قد عُوفي منها وليس يشَرب؛ فقال لي الفضل: انصرِف إليّ الليلةَ حتى أهَبَ لك مائةَ ألف درهم. فقلت له: إنّ الرشيد قد نهاني ألاّ أغنّي إلاّ له أو لأخيك، وليس يخفى عليه خبري، وأنا متَّهمٌ عنده بالميل اليكم، ولست أتعرّض له ولا أعرِّضك. ولم أُجِبْه. فلما نَكَبهم الرشيدُ قال: إيهِ يا إسحاقُ، تركتني بالرَّقّة وجلستَ ببغداد تغنّي للفضل ابن يحيى! فحلفت بحياته أنّي ما جالستُه قطُّ إلاّ على المذاكرة، والحديث، وأنّه ما سمعني قطُّ أغنّي إلا عند أخيه جعفر، وحلفت بتُربة المهديّ أن يسأل عن هذا جميعَ مَنْ في الدار من نسائه، فسأل عنه فحدَّثْنه بمثل ما ذكرتُه له، وعرف خبر المائة الألف الدرهم التي بذلها لي فرددتُها عليه. فلمّا دخلت عليه ضحِك إليّ ثم قال: قد سألتُ عن أمرك فعَرفتُ منه مثلَ ما عرّفتَني، وقد أمرتُ لك بمائة ألف درهم عوضاً مما بذله لك الفضل.

أخباره مع المـــأمون

أحمد بن يحيى المكّيّ قال:

أمر المأمون يوماً بالفَرْش الصَّيْفيّ أن يُخرَج، فأُخرج فيما أخرج منه بِساطٌ طَبَريّ أو أَصْبَهْبُذانيّ (١)، مكتوب في حواشيه:

لَــجّ بــالــعــيــن واكِــفُ مِــن هَــوًى لا يُــســاعِــفُ
كــلّمــا جَــفّ دمــعُــه هــيّــجَــتْــه المعــازفُ
إنــمــا الــمــوتُ أن تُــفــا رقَ مَــنْ أنــت آلِــفُ
لــك حُــبّــان فــي الــفــؤا د تَــلــيــدٌ وطَــارِفُ

قـــال: فاستحســن المأمون هذه الأبيات، وبعث إلى إسحاق فأحضره وأمره أن يصنع فيها لحناً ويُعجِّل به، فصنع فيها الهَزَج الذي يُغَنّى به اليومَ.

---

(١) أصبَهبذان: مدينة في بلاد الديلم.

أحمد بن معاوية بن بكر قال، قال لي صالح بن الرشيد:

كنا أمسِ عند أمير المؤمنين المأمون وعنده جماعةٌ من المغنِّين، فيهم إسحاقُ وعَلّوية ومُخارِق وعمرو بن بانة، فغنّى مخارِق في الثقيل الأوّل:

أعادلَ لا آلوكِ إلا خَليقتي فلا تجعلي فوقي لسانَك مِبْرَدَا
ذَريني أكُنْ للمالِ ربًّا ولا يكن لِيَ المالُ ربًّا تَحْمَدِي غِبَّه غدا
ذَريني يكن مالي لِعرْضي وِقايةً يَقي المالُ عِرْضي قبلَ أن يتبدّدا
ألم تعلمي أنِّي إذا الضيفُ نابني وعَزَّ القِرَى أَقْرِي السَّديفَ المسَرهَدا[١]

فقال له المأمون: لمن هذا اللحن؟ قال: لهذا الهِزَبر الجالس. (يعني إسحاق)؛ فقال المأمون لمخارق: قُم فاقعد بين يديّ وأعِدِ الصوت؟ فقام فجلس بين يديه وأعاده فأجاده، وشرب المأمون عليه رطلاً، ثم التفت إلى إسحاق فقال له: غنِّ هذا الصوت؛ فغنّاه فلم يَستحسنْه كما استحسنه من مُخارق، ثم دار الدورُ إلى عَلّويه، فقال له: غنِّ. فغنّى في الثقيل الأول أيضاً:

أُريتُ اليومَ نارَكِ لم أُغمِّضْ بَواقِصةٍ ومَشْرَبُنا بَرُودُ
فلم أرَ مثلَ موقِدها ولكن لأيّةِ نظرةٍ زَهَرَ الوَقُودُ
فبِتُّ بليلةٍ لا نومَ فيها أكابدُها وأصحابي رُقودُ
كأنَ نجومَها رُبِطتْ بَصخْرٍ وأمْراسٍ تدور وتستريدُ[٢]

فقال له المأمون: لمن هذا الصوت؟ فقال: لهذا الجالس - وأشار إلى إسحاق - فقال لعَلّويه: أعِدْه. فأعاده، فشرب عليه رطلاً، ثم قال لإسحاق: غنِّه. فغنّاه، فلم يطرَب له طَرَبَه لعَلْويه، فالتفت إليّ إسحاقُ ثم قال لي: أيها

---

(١) السديف: شحم السنام. المسرهد: السمين.
(٢) واقصة: منزل بطريق مكة. برود: بارد. زهر الوقود: اضاءت ناره. تستريد: تذهب وتجيء.

الأميرَ، لولا أنه مجلسُ سرور وليس مجلسَ لَجَاجٍ وجِدَالٍ لأَعلمتُه أنه طرِب على خطأ، وأنّ الذي استحسنه إنما هـو تَزايـدٌ منهما يُفسِد قِسمـةَ اللحن وتجزئتَه، وأنّ الصوتَ ما غنيّتُه لا ما زادا. ثم أقبل عليهما فقال: يا مُخنَّثان، قد علمتُ أنّكما لم تُريدا بما فعلتماه مدحي ولا رِفعتي، وأنا على مكافأتكما قادرٌ. فضحك المأمون وقال له: ما كان ما رأيتَه من طَرَبي لهما إلا استحساناً لأصواتهما لا تقديماً لهما ولا جهلاً بفضلك.

عن إسحاق، لفظُ الخبر وسِياقتُه للصُوليّ، قال: استدناني المأمونُ يوماً وهو مستلق على فِراش حتى صارت ركبتي على الفِراش، ثم قال لي: يا إسحاق، أشكو إليك أصحابي: فعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، وفعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدّد جماعةً من خواصّه، فقلت له: أنت يا سيِّدي بتفضُّلك عليّ وحُسنِ رأيك فيّ ظننتَ أنِّي ممّن يُشاوَر في مثل هذا، فجاوزتَ بي حدّي، وهذا رأيٌ يَجِلّ عنِّي ولا يبلُغه قدري. فقال: ولِمَ وأنت عندي عالمٌ عاقل ناصح؟ فقلت: هذه المنزلة عند سيِّدي علّمتني ألّا أقول إلّا ما أعرف ولا أطلبَ إلا ما أنال. فضحِك وقال: قد بلغني أنّك في هذه الأيام صنعتَ لحناً في شعر الراعي ولم أسمعْه منك. فقلتُ: يا سيِّدي، ما سمعه أحدٌ إلا جَوَارِيَّ، ولا حضرتُ عندك للشُّرب منذ صنعتُه. فقال: غَنِّه. فقلتُ: الهَيبةُ والصَّحو يمنعاني أن أؤدِّيَه كما تريد، فلو آنس أميرُ المؤمنين عبدَه بشيء يُطربه ويقوى به طبعه كان أجودَ. قال: صدقت ثم أمر بالغَداء فتغدَّينا، ومُدّت الستارةُ فغُنِّي من ورائها وشربنا أقداحاً؛ فقال: يا إسحاقُ، أما جاء أوانُ ذلك الصوتِ؟ فقلت: بلى يا سيِّدي، وغنَّيتُه لحني في شعر الراعي:

ألـم تـسـأل بـعـارمـةَ الـدِّيـارَا ... عـن الحيّ المُفـارِقِ أين صـارا
بـلى سـاءلتـهـا فـأبـتْ جـوابـاً ... وكيف تُسـائـل الـدِّمَنَ القِفَـارا[1]

قال: فاستحسنه وما زال يشرب عليه سائر يومه، وقال لي: يا إسحاقُ، لا

(١) عارمة: موضع في ديار بني عامر بنجد وماء لبني تميم بالرمل.

طَلبَ بعد وجود البُغية، ما أشربُ بقيّةَ يومي هذا إلّا على هذا الصوت. ثم وصلني وخلَع عليّ خِلعةً من ثيابه.

يزيد بن محمد المُهلَّبيّ قال:

كان إسحاق قد أظهر التوبة وغيّر زِيَّه واحتَجَر[1] من حضور دار السلطان. فبلغه أن المأمون وَجَد عليه من ذلك وتنكَّر، فكتب إسحاقُ إليه وغَنّى فيه بعد ذلك:

يـا بنَ عمِّ النبيّ سمعاً وطـاعـةْ   قـد خَـلعنـا الـرِّداءَ والـدُّرّاعـةْ
ورجـعنـا إلـى الصنـاعـة لـمّـا   كـان سُخْطَ الإمام تركُ الصِّناعـةْ

وقد ذكر الغلابي أن هذا الشعر لأبي العتاهية قاله لما حبسه الرشيد وأمره بأن يقول الشعر.

عن إسحاق قال:

أقام المأمون بعد قدومه عشرين شهراً لا يسمع حرفاً من الأغاني، فكان أوّلَ من تَغنى بحضرته أبو عيسى بن الرّشيد، ثم واظب على السَّماع متستّراً متشبِّهاً في أوّل أمره بالرّشيد، فأقام كذلك أربعَ حِجَجٍ، ثم ظهر إلى النُّدماء والمغنِّين. وكان حين أحبّ السّماع سأل عنّي، فجُرحتُ بحضرته، وقال الطاعن عليّ: ما يقول أمير المؤمنين في رجلٍ يَتيه على الخلافة! قال المأمون: ما أبقى هذا من التِّيه شيئاً إلّا استعمله. فأمسك عن ذكري، وجفاني من كان يصلني، لسوء رأيه الذي ظهر فيّ، فأضرّ ذلك بي، حتى جاءني عَلّويه يوماً فقال لي: أتأذنُ لي في ذكرك؟ فإنّا قد دُعينا اليومَ. فقلت: لا! ولكن غنِّه بهذا الشعر، فإنه سيبعثه على أن يسألك: لمن هذا؟ فاذا سألك انفتح لك ما تريد، وكان الجوابُ أسهلَ عليك من الابتداء. فقال: هاتِ، فألقيتُ عليه لحْنيْ في شعري:

---

(١) احتجر: امتنع.

يا سرْحة الماءِ قد سُدَّتْ مواردُه أمَا إليكِ طريقٌ غيرُ مسدودِ
لِحائمٍ حامَ حتّى لا حِيامَ له مُحَلَّأً عن طريق الماء مطرودِ[1]

قال: فمضى عَلّويه، فلما استقرّ به المجلسُ، غنّاه بالشعر الذي أمرتُه؛ فما عدا المأمون أن يسمع الغناء حتى قال: ويحَك يا عَلّويه! لمن هذا؟ قال: يا سيِّدي، لعبدٍ من عبيدك جفوتَه واطّرحتَه من غير جُرم؛ فقال: أإسحاقَ تَعْني؟ قال: نعم؛ قال: يحضر الساعةَ. فجاءني رسولُه، فصِرت إليه: فلمّا دخلتُ عليه قال: ادنُ. فدنوت؛ فرفع يديه مادَّهما، فانكببتُ عليه، واحتضنني بيديه، وأظهر من بِرّي وإكرامي ما لو أظهره صديقٌ مُؤانس لصديقه لَبَرَّه.

أخبـــاره مع المعتصـــم

عمر بن شَبّة قال حدّثني إسحاق قال:

لما ولِي المعتصم دخلتُ إليه في جملة الجلساء والشعراء، فهنّأه القوم نظماً ونثراً وهو ينظر إليّ مسْتنطِقاً، فأنشدتُه:

لاح بالمَفْرِقِ منك القَتيرُ وذَوَى غُصنُ الشَّباب النَّضيرُ
هزئتْ أسماءُ منّي وقالتْ أنت يابنَ الموصليّ كبيرُ
ورأتْ شيباً برأسي فصدّتْ وابنُ ستِّين بشَيْبٍ جديرُ
لا يَرُوعنْكِ شَيْبي فإنّي مع هذا الشّيب حُلوٌ مَزيرُ
قد يُفَلّ السَّيفُ وهو جُرازٌ ويَصُول الليثُ وهو عَقِيرُ
يا بني العَبّاس أنتمْ شفاءٌ وضياءٌ للقُلوب ونور
أنتُمُ أهل الخلافة فينا ولكم منبرُها والسّرير
لا يزال المُلكُ فيكم مَدَى الدَّهْـ ـرِ مُقيماً ما أقام ثَبيرُ
وأبو إسحاقَ خيرُ إمامٍ ماله في العالمين نظيرُ
ما له فيما يَريش ويَبْري غير توفيق الإلٓه وزير

---

(١) سرحة الماء: أراد بها المرأة. المحلأ: الممنوع من ورود الماء.

واضِح الغُرّة للخير فيه حين يبدو شاهدٌ وبشير
زانه هَدْيٌ تُقىً وجلالٌ وعفافٌ ووقارٌ وخِير
لو تُبارِي جُودَه الرِّيحُ يوماً نَزَعَتْ وهي طَليحٌ حَسيرُ[1]

قال : فأمر لي بجائزة فضّلني بها على الجماعة.

محمد بن يزيد المبرّد قال: حُدِّثْتُ عن غير واحد:

أن إسحاق الموصليّ دخل على المعتصم يوماً من الأيام فرآه لَقِسَ النَّفْس[2]، فقال له: أَمَا تَرَى يا أمير المؤمنين طِيبَ هذا اليوم وحُسْنَه! فقال المعتصمُ: ما يدعوني حُسْنُه إلى شيء مما تريد ولا أنشَطُ له. فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّه يومُ أكلٍ وشُربٍ؛ فاشرَب حتى أُنشِّطَك. قال: أَوَتفعل؟ قال: نعم. قال: يا غِلْمانُ، قدِّموا الطعامَ والشرابَ ومُدُّوا السِّتارةَ، وأحْضِروا النُدماءَ والمغنّين. فأُتِي بالطعام فأكل وبالشراب فشرب وحَضَر النُّدَماءُ والمغنّون؛ فغنّاه إسحاق:

سُقيتَ الغيثَ يا قصرَ السلام فنعْمَ مَحلّةُ المَلكِ الهُمَامِ
لقد نَشَر الإلَهُ عليك نُوراً وخصّك بالسّلامة والسلام

قال : فطرِب المعتصمُ وشرب شُرباً كثيراً، ولم يبقَ أحدٌ بحضرته إلاّ وَصَله وخَلع عليه وحملَه، وفَضّل إسحاقَ في ذلك أجمع.

إسحاق قال:

دخلتُ يوماً على المعتصم وقد رجع من الصيد وبين يديه ظِباءٌ مذبَّحة وطيرُ ماء وغير ذلك من الصيد وهو يشرب؛ فأمرني بالجلوس والغناء؛ فجلستُ وغنّيته:

---

(١) القتير : الشيب . مزير : ظريف. الجراز: الماضي القاطع . عقير: جريح ثبير: من جبال مكة. فيما يريش ويبري: أراد فيما يصرّف من أموره. الخير (بكسر الخاء): الشرف والكرم. طليح: متعب. حسير: كليل.

(٢) لقست نفسه: غثت وخبثت.

اشتَهَيْنا في ربيعٍ مرّةً زهمَ الوحشِ على لحم الإبلْ
فغَدونا بطُوَالٍ هَيْكَلٍ كَعَسيب النخل مَيَّادٍ خَضِلْ(١)

فتبسّم وقال: وأين رأيت لحم الإبل! فغنّيته:

ليس الفتى فيهم إذا شَرِب الشرابَ مُؤَنَّبا
لكن يروحُ مُرَنَّحاً حسنَ الثيابِ مُطَيَّبا
يسقُونه صِرْفاً على لحم الظباءِ مُضَهَّبا(٢)

فقال: هذا أشبه، وشَرِب. ثم غنّيته بشعر وضّاح اليمن:

أبى القلبُ اليمانيّ - الذي تُحْمَدُ أخلاقُهْ
ويَرْفَضُّ له اللحنُ فما تُفْتَقُ أرْتاقه
غزالٌ أدعجُ العينِ رَبيبُ خَدلَّج ساقه
رماني فسبَى قلبي وأرميه فأشتاقُه(٣)

فطرب وقال: هذا والله أحسن صيد وألذُّه. وشرب عليه بقيَّة يومه وخَلَع عليّ وأمر لي بجائزة.

أخبـاره مع الواثق ومنزلته عنده

ابن فيلا الطُّنْبُورِيّ،وكان قد دخل على الواثق وغنـاه، قال:

قال الواثق في بعض العَشَايا: لا يَبرحْ أحدٌ من المغنِّين الليلةَ، فقد عزمتُ على الصَّبُوح في غد. فأمسكوا جميعاً عن معارضته إلا إسحاقَ، فإنه قال له: لا وحياتِكَ ما أبيتُ. قال: فلا واللهِ ما كان له عند الواثق معارضةٌ أكثرُ

---

(١) الزهم: شحم الوحش. الهيكل: الضخم من أنواع الحيوان. الخضل: الندي الذي يترشف نداه.
(٢) لحم مضهب: مقطع.
(٣) الرتق: ضد الفتق. الخدلج: الممتلىء الساقين.

من أن قال له: فبحياتي إلّا بكَّرتَ يا أبا محمد. قال: فرأيتُ مُخارقاً وعَلّويه قد تقطّعا غيظاً، وبِتْنا في بعض الحُجَر، فقالا لي: اجلِس على باب الحجرة، فإذا جاء إسحاقُ فعرِّفنا حتى ندخلَ بدخوله. فلم نلبث أن جاء إسحاقُ مع أحمد بن أبي دُوَاد يُماشيه في زِيِّه وَسَوادِه وطَوِيلَتُهُ مثلُ طويلته، فدخلت فأعلمتُهما؛ فقامت على عَلّويه القيامة وقال: يا هؤلاء، خِينَاكر[1] يدخل إلى الخليفة مع قاضي القضاة! أسمعتم بأعجبَ من هذا البَخْت قطُّ! فقال له مُخَارِق: دَعْ هذا عنك، فقد واللهِ بلغ ما أراد. ولم نلبث أن خرج ابنُ أبي دُوَاد ودُعِيَ بنا فدخلنا، فإذا إسحاقُ جالس في صف الندماء لا يخرج منه، فإذا أمره الواثق أن يُغنّي خرج عن صَفِّهم قليلاً وأُتي بعود فغنَّى الصوت الذي يأمره به؛ فإذا فَرَغ من القَدَح قطع الصوت الذي يأمره به حيث بلغ ولم يُتمَّه، ورجع إلى صفّ الجلساء.

إسحاق الموصليّ قال:

قال لي المعتصِمُ أو قال لي الواثِق: لقد ضحِك الشَّيْبُ في عارِضَيْك! فقلت: نعم يا سيِّدي، وبكيت، ثم قلت أبياتاً في الوقت وغنّيت فيها:

تولّى شبابُكَ إلا قليلَا — وَحَلّ المَشيبُ فصبرا جميلاً
كفى حَزَناً بفِراق الصِّبَا — وأن أصبح الشَّيبُ منه بَديلاً
ولمّا رأى الغانياتُ المَشيـ — ـبَ أغضَيْنَ دونك طرفاً كَليلاً
سأندُب عهداً مضى للصِّبا — وأبكي الشبابَ بكاءً طويلَا

فبكى الواثق وحزن وقال: واللهِ لو قدَرتُ على ردّ شبابك لفعلت بشَطْر مُلكي، فلم يكن لكلامه عندي جوابٌ إلا تقبيلُ البِساط بين يديه.

أبو العُبَيس بن حَمْدون عن أبيه عن جدّه قال:

قال: كان إسحاق بعد وفاة المأمون لا يغنِّي إلا الخليفة أو وليَّ عهده أو

---

(١) الخيناكر: لفظة فارسية تعني المغني.

رجلاً من الطاهريَّة مثل إسحاق بن إبراهيم[1] وطبقتِهِ؛ فاجتمعنا عند الواثق وهو وليُّ عهد المعتصم، فاشتهى الواثق أن يُضَرِّبَ[2]. بين مخارِق وعَلّوية وإسحاق، ففعل حتى تَهاتروا؛ ثم قال لإسحاق: كيف هما الآن عندك؟ فقال: أمّا مُخارِقٌ فَمُنادٍ طيّبُ الصوتِ، وأمّا عَلّويه فهو خيرُ حِمَارَي العِبَاديّ[3]، وهو على كل حال شُيَيء (يريد تصغيره). فوثبَ عَلّوية مُغْضَباً، ثم قال للواثق: جواريه حرائرُ ونساؤه طوالقُ، لئن لم تستحلفه بحياتِك وحقِّ أبيك أن يصدُق عمّا أسألُه عنه لأتوبنّ عن الغناء ما عِشْتُ. فقال له الواثق: لا تُعَرْبِد يا عليُّ، نحن نفعل ما سألت. ثم حَلّف إسحاق أن يصدُق فحلف، فقال له: مَنْ أحسنُ الناسِ اليومَ صنعةً بعدك؟ قال: أنت. قال: فمن أضرَبُ الناس بعد ثَقيف؟ قال: أنت. قال: فمن أطيبُ الناس صوتاً بعد مُخارق؟ قال: أنت. قال علّوية لإسحاق: أهذا قولُك فيّ وأنت تعلم أنِّي مُصَلِّي[4] كلّ سابق فاضل، وأنِّي ثالثُ ثلاثةٍ أنت أحدهم لم يكن في الدنيا مثلُهم ولا يكون! فما أنت وغناؤك الذي لا يُسْمَع انخفاضاً! فغضب إسحاقُ، وانتهر الواثقُ عَلّويه. ثم أخذ إسحاقَ عوداً فنقل مَثْناه إلى موضع البَمّ، وزيرَه إلى موضع المَثْلَث[5]، وجعل البمَّ والمثلثَ مكانَ الزير والمَثْنى، وضرب وقال: لِيغنِّ من شاء منكم؛ فغنَّى مُخارِق عليه:

تَقَطّعَ من ظَلّامَةَ الوصلُ أجمعُ ... أخيراً على أن لم يكن يَتَقَطّعُ

وضرب عليه إسحاقُ، فلم يَبِنْ في الأوتار خلافٌ ولا فُقِد من الإيقاع شيء ولا بان فيه اختلالٌ، فعظُم عَجبُ الواثق من فعله؛ وقام إسحاق فرقَص طرباً،

---

(١) إسحاق بن إبراهيم: المقصود هنا إسحاق بن إبراهيم الطاهري.

(٢) يضرّب بينهما: يغري بينهما.

(٣) يشير بهذا إلى ما يقال من أنه كان لعباديّ حماران فقيل له: أي حماريك شر؟ قال: هذا ثم هذا، أي لافضل لأحدهما على الآخر، وهو مثل يضرب في خلتين إحداهما شر من الأخرى.

(٤) المصلّي: الذي يصل في السباق تالياً للسابق.

(٥) البم والزير والمثنى والمثلث: أسماء أوتار العود.

فكان والله أحسنَ رقصاً من كُبَيْش وعبد السلام ـ وكانا من أرقص الناس ـ فقال الواثق: لا يكمُل أحدُ أبداً في صناعته كمثل كمال إسحاق.

حَمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

خرجتُ مع الواثق إلى الصالحيّة وهو يريد النزهة، فذكرتُ بغدادَ وعيالي وأهلي وولدي بها فبكيتُ؛ فقال لي: بحياتي أذَكرتَ بغداد فبكيتَ شوقاً إليها؟ فقلت: نعم، وغَنَّيته:

وما زلت أبكي في الدّيار وإنما ... بكائي على الأحبابِ ليس على الدار

قال: فأمر لي بمائة الف درهم وصرَفني.

عن حَمّاد عن أبيه قال: ما وصلَني أحدٌ من الخلفاء قطُّ بمثل ما وصلني به الواثق. ولقد انحدرتُ معه إلى النَّجَفِ، فقلت له: يا أمير المؤمنين، قد قلت في النجف قصيدة، فقال: هاتِها! فأنشدتُه:

يا راكبَ العِيس لا تَعْجَلْ بنا وقِفِ ... نُحَيِّ داراً لسُعْدى ثم نَنْصرِفِ

حتى أتيتُ على قولي:

لم يَنزِل الناسُ في سهلٍ ولا جَبَل ... أَصْفَى هواءً ولا أَعْذَى من النَّجَفِ
حُفَّتْ بَبَرٍّ وبحر من جوانبها ... فالبَرُّ في طَرَف والبحر في طرفِ
وما يَزَالُ نسيمٌ من يَمانِيَةٍ ... يأتيك منها بَريّا رَوْضَةٍ أُنُفِ[1]

فقال: صدقتَ يا إسحاق، هي كذلك. ثم أنشدتُه حتى أتيت على قولي في مدحه:

لا يحسَبُ الجودَ يُفْنِي ما له أبداً ... ولا يرى بذلَ ما يَحْوِي من السَّرَف

(١) النّجف: موضع بظاهر الكوفة وهو دومة الجندل بعينها، وهو اليوم مدينة عامرة فيها قبر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. أعذى: أطيب هواء. روضة أنف: لم يرعها أحد.

ومضيت فيها حتى أتممتُها؛ فطرِب وقال: أحسنتَ والله يا أبا محمد. وكَنّاني يومئذ، وأمر لي بمائة ألف درهم؛ وانحدر إلى الصالحية التي يقول فيها أبو نُوَاس:

بالصالحيّــة من أكنافِ كَلْــواذِ

فذكرتُ الصبيانَ وبغدادَ فقلت:

أتبكي على بغــدادَ وهْي قــريبــةٌ فكيف إذا ما ازددتَ منها غداً بُعْدَا
لَعَمْرُك ما فـارقتُ بغـدادَ عن قِلًى لـو أنّا وجـدنا عن فـراقٍ لهـا بُدًّا
إذا ذكــرتْ بغـدادَ نفسي تقـطّعتْ من الشوق أو كادت تموت بها وَجْدَا
كفى حَزَناً أن رُحْتُ لم أستطع لها وَدَاعاً ولم أُحْدِثْ بساكنها عهـدا[1]

قـــال: فقـــال لي: يا موصليّ، أشتقتَ إلى بغداد؟ فقلت: لا واللهِ يا أمير المؤمنين، ولكن من أجـل الصِّبيان، وقـد حضرني بيتـان. فقال: هاتهما. فأنشدتُه:

حَـنَنْـتَ إلى الأُصَـيْبَيــة الصِّغــارِ وشــاقــك مـنهـمُ قــربُ الـمَـزَارِ
وأَبْــرحُ مـا يكــون الشـوقُ يــومـاً إذا دَنَــتِ الـدّيـارُ مـن الـديــار

فقال لي: يا إسحاق، صِرْ إلى بغداد فأَقِمْ مع عِيالك شهراً ثم صِرْ إلينا، وقد أمرتَ لك بمائة ألف درهم.

يحيى بن عليّ قال أخبرني أبي قال: لمّا صنع الواثق لحنَه في:

أيـا مُنْشِرَ المَـوْتَى أَقِـدْني من التي بهــا نَهِلَتْ نفسي سَقَــامــاً وعَلَّتِ
لقـد بَخِلَتْ حتى لـو انّي سـألتُهـا قَذَى العين من سَافي التراب لضَنَّتِ[2]

(١) القلى : البغض.

(٢) النهل : الشرب الأول، والعلل: الشرب الثاني بعد العلل.

أُعْجِب به إعجاباً شديداً؛ فوجّه بالشعر إلى إسحاق الموصليّ وأمره أن يغنّي فيه، فصنع فيه لحنَه الثقيل الأوّلَ، وهو من أحسن صنعةِ إسحاق؛ فلمّا سمعه الواثق عَجِبَ منه وصَغُر لحنُه في عينه، وقال: ما كان أغنانا أن نأمر إسحاق بالصنعة في هذا الشعر، لأنه قد أفسد علينا لحننا. قال عليّ بن يحيى قال إسحاق: ما كان يحضُر مجلسَ الواثق أعلمُ منه بهذا الشأن.

عن أبي جعفر بن دِهْقَانَةَ النديم عن أبيــه قال:

كان الواثق إذا صنع صوتاً قال لإسحاق: هذا وقع إلينا البارحةَ فاسمعْه. فكان ربّما أصلح فيه الشيء بعد الشيء، فكاده مخارقٌ عنده وقال له: إنما يستجيد صنعتَكَ إذا حضر لِيُقَارِبَك ويستخرجَ ما عندك، فإذا فارق حضرتَكَ قال في صنعتك غيرَ ما تسمع. قال الواثق: فأنا أحبّ أن أقف على ذلك. فقال له مخارق: فأنا أُغنّيه «أيا منشر الموتى» فإنه لم يعلم أنه لك ولا سمعه من أحد.

قال: فافعلْ. فلمّا دخل إسحاقُ غنّاه مخارقٌ وتعمّد لأن يُفسده بجهْده، وفعل ذلك في مواضعَ خفيّة لم يعلمها الواثق من قِسمته؛ فلمّا غنّاه قال له الواثق: كيف تَرَى هذا الصوتَ؟ قال له: فاسدٌ غير مَرْضِيّ. فأمر به فسُحِب من المجلس حتى أُخرج عنه، وأمر بنفيه إلى بغداد. ثم جَرى ذكرُه يوماً. فقالت له فَرِيدةُ: يا أميرَ المؤمنين، إنما كاده مخارقٌ فأفسد عليه الصوتَ من حيث أوهمك أنه زاد فيه بحذقه نَغَماً وجودةً، وإسحاق يأخذ نفسَه بقول الحقّ في كل شيء ساءه أو سَرّه، ويفهم من غامض عِلل الصنعة ما لا يفهمه غيره؛ فليُحضِرْه أميرُ المؤمنين ويُحلِّفه بغليظ الأيمان أن يَصْدُقَه عمّا يسمع، وأُغنّيه إياه حتى يقف على حقيقة الصوت؛ فإن كان فاسداً فصدَق عنه لم يكن عليه عتب، ووافقناه عليه حتى يستوي، فليس يجوز أن نتركه فاسداً إذا كان فيه فساد؛ وإن كان صحيحاً قال فيه ما عنده. فأمر بالكتاب بحمله، فحُمِل وأُحضِر، فأظهر الرِّضا عنه ولزِمه أياماً؛ ثم أحْلفه لَيَصْدُقَنّ عمّا يمرّ في مجلسه، فحلف

له. ثم غنّى الواثقُ أصواتاً يسأله عنها أجمع فيُخبر فيها بما عنده، ثم غنّته فريدةُ هذا الصوتَ وسأله الواثقُ عنه، فرضِيه واستجاده، وقال له: ليس على هذا سمعتُهُ في المرة الأولى. وأبان عن المواضع الفاسدة وأَخْبر بإفساد مُخارِق إيّاها، فسكن غضبُه ووصَل إسحاقَ وتنكّر لمُخارِقٍ مدّة.

محمد بن عبد الله بن مالك قال: حدّثني إسحاق الموصليّ:

أنه دخل على إسحاق بن إبراهيم الطاهِريّ، وقد كان تكلّم له في حاجةٍ فقُضيتْ، فقال له: أعطاك الله أيها الأمير ما لم تُحِطْ به أمنيّةٌ ولا تبلُغه رغبة.

قال: فاشتهى هذا الكلام واستعاده منّي فأعدتُهُ. ثم مكثْنا ما شاء الله، وأرسل الواثقُ إلى محمد بن إبراهيم يأمره بإخراجي إليه في الصوت الذي أمرني به بأن أغنّي فيه، وهو:

لقد بَخِلتْ حتى لو انّي سألتُهـــا

فغنّيتــه إياه، فأمر لي بمائة ألفِ درهم. فخرجتُ وأقمتُ ما شاء الله ليس أحدٌ من مغنّيهم يقدِر أن يأخذ هذا الغناءَ منّي. فلمّا طالَ مُقامي قلت له: يا أمير المؤمنين، ليس أحدٌ من هؤلاء المغنّين يقدِر أن يأخذ هذا الصوت منّي. فقال لي: ولِمَ؟ وَيْحَكَ! فقلت: لأني لا أُصَحّحه ولا تسخو نفسي به لهم؛ فما فعلتْ الجارية التي أخذتها منّي؟ (يعني شجا، وهي التي كان أهداها إلى الواثق وعَمِل مجرّد أغانيها وجنّسه ونسبه إلى شُعرائه ومُغنّيه، وهو الذي في أيدي الناس إلى اليوم)؛ فقال: وكيف؟ قال: لأنها تأخذه منّي ويأخذونه هم منها! فأمر بها فأُخرجتْ وأخذتْه على المكان؛ فأمر لي بمائة ألف درهم وأَذِن لي في الانصراف؛ وكان إسحاقُ بن إبراهيم الطاهريّ حاضراً، فقلت للواثق عند وَداعي له: أعطاك الله، يا أمير المؤمنين، ما لم تُحِطْ به أُمْنيّةٌ ولم تبلُغه رغبة.

فالتفت إليّ إسحاقُ بن إبراهيم فقال لي: أيْ إسحاقُ، أتُعيد الدعاء!

فقلت: إي والله أُعيده، قاضٍ أنا أو مغنٍّ. وقدِمتُ بغداد، فلمّا وافى إسحاقُ جئته مُسَلِّماً عليه، فقال لي: وَيْحَكَ يا إسحاقُ! أتدري ما قال أمير المؤمنين بعد خروجك من عنده؟ قلت: لا أيها الأمير. قال قال لي: ويْحَك! كنّا أغنَى الناس عن أن نبعث إسحاقَ على لحنِنا حتى أفسده علينا. قال عليّ بن يحيى: فحدثني إسحاق قال: إستأذنتُ الواثق عدّة دَفَعات في الانحدار إلى بغدادَ فلم يأذن لي، فصنعت لحناً في:

خليليَّ عُوجَا من صدور الرَّوَاحِل

ثم غنّيتُه الواثقَ فاستحسنه وعجِب من صحّة قِسْمته ومُكْث صوتِهِ أيّاماً، ثم قال لي: يا إسحاقُ، قد صنعتُ لحناً في صوتك في إيقاعه وطريقته، وأَمَر مَن وراءَ السّتارة فغَنَّوْه؛ فقلت: قد والله يا أميرَ المؤمنين بغَّضتَ إليّ لحني وسمَّجتَه عندي. وقد كنت استأذنتُهُ في الانحدار إلى بغداد فلم يأذن لي، فلمّا صَنَعَ هذا اللحنَ وقلتُ له ما قلتُ، أتبعتُهُ بأن قلت له: قد واللهِ يا أمير المؤمنين اقتَصَصْتَ منّي في «لقد بخِلتْ» وزدتَ، فأذن لي بعد ذلك.

حَمّادُ بن إسحاق عن أبيه قال:

كنت جالساً بين يدي الواثق وهو وليّ عهد، إذ خرجتْ وصيفةٌ من القصر كأنها خُوطُ بانٍ[1]، أحسنُ مَنْ رأتْهُ عيني قطُّ، تَقْدُمُ عدةَ وصائفَ بأيديهنّ المَذَابُ[2] والمناديل ونحوُ ذلك، فنظرتُ إليها نَظَرَ دَهِشٍ وهو يَرْمُقُني. فلما تبيّن إلحاحَ نظري قال: مالكَ يا أبا محمد قد انقطع كلامُك وبانت الحيرةُ فيك! فتلجلجتُ؛ فقال لي: رمَتْك واللهِ هذه الوصيفةُ فأصابت قلبَك!، فقلتُ: غيرُ ملوم. فضحك ثم قال: أنشدْني في هذا المعنى! فأنشدتُه قولَ المَرَّار:

ألِكْنِي إليها عَمْرَكَ اللهُ يا فتى بآيةِ ما قالت مَتى هو رائِحُ

---

(١) الخوط: الغصن الناعم. والبان: ضرب من الشجر لين الأغصان.
(٢) المذاب ج المذبة: ما يذب به الذباب.

وآيــةِ مــا قــالــت لــهــنّ عَـشِـيَّـةً وفي الستـر حُرّاتُ الـوجوه مَـلائحُ
تَخَيَّـرْنَ أرمـاكُـنّ فـارمين رميـةً أخـا أسـدٍ إذ طـوّحتْـه الـطوائـحُ
فَلَبَّسْن مِسْلاسَ الـوِشَـاحِ كـأنهـا مَهَـاةٌ لهـا طِفلٌ بـرَمَّـانَ راشِـحُ(١)

فقال له الواثق: أحسنتَ بحياتي وظَرُفتَ، اصنع فيها لحناً، فإن جاء كما نريد وأطربَنا فالوصيفةُ لك! فصنعت فيه لحناً وغنيّته إيّاه، فاصطبح عليه وشرب بقيَّةَ يومه وليلته حتى سكِر، ولم يقترح عليّ غيرَه، وانصرفتُ بالجارية.

إسحاق قال: لمّا خرجت مع الواثق إلى النَّجَف دُرْنا بالحيرة ومَرْرنا بدِيَاراتها؛ فرأيتُ ديرَ مريمَ بالحِيرة، فأعجبني موقعُه وحُسنُ بنائه؛ فقلتُ:

نِعَم المحـلُّ لمن يـسعَى لِلَذّتـه ديرٌ لمـريمَ فـوقَ الـظهـر معمـورُ
ظِـلٌّ ظليـلٌ ومـاءٌ غيـرُ ذي أسَنٍ وقـاصِراتٌ كـأمثال الـدُّمَى حُـورُ(٢)

فقال الواثقُ: لا نَصطَبِحَ والله غداً إلا فيه! وأمر بأن يُعَّدَ فيه ما يَصلُحُ من الليل؛ وباكرناه فاصطحبنا فيه على هذا الصوتِ؛ وأمر بمالٍ ففُرّق على أهل ذلك الدّيرِ، وأمر لي بجائزة.

أخبـــاره مع المتوكـــل

أبو عبد الله محمد بن حَمْدون قال:

سأل المتوكّل عن إسحاق الموصلّي، فعُرّف أنه قد كُفّ وأنه في منزله ببغداد؛ فكتب في إحضاره. فلما دخل عليه رَفعه حتى أجلسه قُدّامَ السّرير، وأعطاه مِخَدّة، وقال له: بلغني أن المعتصم دفع إليك مخدّة في أوّل يوم جلستَ بين يديه وهو خليفةٌ، وقال: إنه لا يُستجلب ما عند حُرّ بمثل الكرامة.

(١) الكني إليها: أبلغ رسالتي إليها. عمرك الله: أطال الله عمرك. طوحته: قذفت به. مسلاس: أصلها من أسلست النخلة أي ذهب كَربها ولان ملمسها. رمان: جبل ببلاد طيء قرب جبل سلمى. الراشح: الصغير إذا قوي ومشى مع أمه.
(٢) القاصرة الطرف: التي لا تمد بصرها إلى غير زوجها.

ثم سأله: هل أكل؟ فقال نعم. فأمر أن يُسقى؛ فلمّا شرب أقداحاً قال: هاتوا لأبي محمد عُوداً. فجيء به، فاندفع يغنّي بصوتٍ الشعرُ فيه والغناء له:

مـا عِلّةُ الشيـخ عينـاه بـأربعـةٍ تَغْـروْرِقـان بـدِمـعٍ ثم تَنْسكِبُ[1]

ــ قال أبو عبد الله: فوالله ما بقي غلامٌ من الغِلمان الوقوف على الحَيْر[2] إلا وجدتُهُ يرقُص طرباً وهو لا يعلم بما يفعل ـ فأمر له بمائة ألف درهم. ثم قال لي المتوكل: يابنَ حَمْدُون، أتُحسن أن تغنّيني هذا الصوت؟ فقلت: نعم! قال: غنّه! فترنّمت به؛ فقال إسحاق: مَن هذا الذي يَحْكيني؟ فقلت له: أنت عَرَّضْتني له يا أمير المؤمنين. ثم انحدر المتوكل إلى رَقّةِ بُوصَرا[3]؛ وكان يَستطيبها لكثرة تغريد الأطيار بها، فغنّى إسحاقُ:

أألن هَتَفتْ وَرْقاءُ في رونق الضُّحَى على غُصُنٍ غَضٍّ الشباب من الرَّنْدِ
بكيتَ كمـا يبكي الحـزينُ صبابـةً وشـوقاً وتـابعتَ الحَنينَ إلى نجـدِ

فضحك المتوكل وقال له: يا إسحاق، هذه أختُ فَعْلتك بالواثق لمّا غَنّيته بالصالِحية:

طَـرِبتُ إلى الأُصَيْبِيـة الصِّـغـارِ وذكّـرني الهـوى قـربُ الـمَـزارِ

فكم أعطاك لمّا أذِن لك في الانصراف؟ قال: مائة ألف درهم. فأمر له بمائة ألف درهم، وأذِن له بالانصراف إلى بغداد. وكان هذا آخرَ عهدنا به، لأن إسحاق تُوفّي بعد ذلك بشهرين.

مرضــه ووفاتـــه

وتوفّي إسحاق ببغداد في أوّل خلافة المتوكّل. فأخبرني الصُّوليّ قال ذكر

---

(1) يقال: عيناه تدمعان بأربعة، أي بأرعة آماق، وهو أشد البكاء.
(2) الحير: اسم قصر بناه المتوكل بسرّ من رأى.
(3) الرقة: كل أرض إلى جنب واد يسيل إليها الماء منه. بوصرا: قرية من قرى بغداد.

إبراهيمُ بن محمد الشَّاهِينيّ:

أنّ إسحاق كان يسأل الله ألاّ يبتليَه بالقُولَنْجِ[1] لِمَا رأى من صعوبته على أبيه؛ فرأى في منامه كأنّ قائلاً يقول له: قد أُجيبتْ دعوتُك ولستَ تموتُ بالقُولَنْج، ولكنك تموت بضدّه. فأصابه ذَرَبٌ[2] في شهر رمضان سنةَ خمسٍ وثلاثين ومائتين؛ فكان يتصدّق في كل يوم أمكنه أن يصومه بمائة درهم؛ ثم ضعُف عن الصوم فلم يُطِقْه ومات في شهر رمضان.

يزيـد بن محمد المهلَّبيّ قال:

نُعِي إسحاقُ إلى المتوكل في وسط خلافته، فَغَمّه وحَزِن عليه، وقال: ذهبَ صَدرٌ عظيمٌ من جمال الملك وبهائه وزينته! ثم نُعِي إليه بعده أحمدُ بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه، فقال: تكافأت الحالتان. وقام الفتح بوفاة أحمد - وما كنت آمَنُ وثْبَتَه عليّ - مقامَ الفَجيعة بإسحاق، فالحمد لله على ذلك.

* . * . * . * . *

---

(١) القولنج: مرض معوي مؤلم هو المعروف اليوم بالتهاب المستقيم (القولون).
(٢) الذرب : داء ينتاب المعدة فلا تمسك الطعام ولا تهضمه.

[٣٠]

حكم الوادي

[الأغاني الجزء ٦ ص ٢٨٠ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو الحَكَم بن ميمون مولى الوليد بن عبد الملك. وكان أبوه حلّاقاً يحلِق رأس الوليد، فاشتراه فأعتقه. وكان حكمُ طويلاً أحول، يَكتري الجمال يَنقل عليها الزيت من الشأم إلى المدينة، ويُكنى أبا يحيى. وقال مصعب بن عبد الله بن الزبير: هو حكمُ بن يحيى بن ميمون، وكان أصله من الفُرس، وكان جَمّالاً ينقل الزيت من وادي القُرى إلى المدينة. وذكر حَمّادُ بن إسحاق عن أبيه أنه كان شيخاً طويلاً أحولَ أجنأ[1] يخضِب بالحِنّاء، وكان جَمّالاً يحمل الزيت من جُدّة إلى المدينة، وكان واحدَ دهره في الحِذق، وكان ينقرُ بالدُّفّ ويغنّي مرتجلاً، وعُمّر عمراً طويلاً، غَنّى الوليد بن عبد الملك وغنّى الرشيد ومات في الشَّطر من خلافته، وذكر أنه أخذ الغناء من عُمر الواديّ. قال: وكان

(١) الأجنأ: الأحدب.

بوادي القُرى جماعة من المغنّين فيهم عمر بن زاذان ـ وقيل: ابن داود بن زاذان، وهو الذي كان يُسمّيه الوليد جامعَ لذّتي ـ وحَكم بن يحيى، وسليمان، وخُليد بن عَتيك ـ وقيل: ابن عُبيد ـ ويعقوب الواديّ. وكل هؤلاء كان يصنع فيحسن.

حمّاد قال قال لي أبي:

أَحذق من رأيت من المغنّين أربعة: جَدُّك وحَكَمٌ وفُليح بن أبي العوراء وسِياط. قلت: وما بلغ من حِذقهم؟ قال: كانوا يصنعون فيحُسنون، ويؤدّون غناء غيرهم فيحسنون. وقال لي أبي: ما في هؤلاء الذين تراهم من المغنّين أطبعُ من حكمٍ وابن جامع، وفُليح أدرى منهما بما يخرج من رأسه.

قال حمّاد بن إسحاق قال أبي:

أربعة بلغوا في أربعة أجناس من الغناء مبلغاً قصّر عنه غيرُهم: معبد في الثقيل، وابنُ سُريج في الرَّمل، وحَكَمٌ في الهَزَج، وإبراهيم في الماخُوريّ.

قال يحيى بن خالد: ما رأينا فيمن يأتينا من المغنّين أحداً أجودَ أداءً من حكم، وليس أحدٌ يَسمع غناءً ثم يغنّيه بعد ذلك إلاّ وهو يُغيّره ويَزيد فيه ويُنقص إلا حَكَماً. فقيل لحكم ذلك فقال: إني لست أشرب، وغيري يشرب فإذا شرب تغيّر غِناؤه.

طائفة من أخباره

● عن حكم الواديّ قـال:

أدخلني عمر الواديّ على الوليد بن يزيد، وهو على حمار، وعليه جَبّة وَشي ورداء وشي وخُفّ وشْي، وفي يده عِقْد جوهر، وفي كُمّه شيءٌ لا أدري ما هو، فقال: من غنّاني ما أشتهي فله ما في كُمّي وما عليّ وما تحتي. فغنّوه كلُّهم فلم يطرَب، فقال لي: غَنِّ يا غُلام. فغنّيت:

إكـليـلُهـا ألـوانُ ووجـهُـهـا فـتّـانُ

وخـالُـهـا فـريـدٌ لـيس لـه جـيـران
إذا مـشـت تـثـنّـت كـأنّـهـا ثُـعـبـان

ـ الشعر لمطيع بن إياس ـ فطرِب وأخرج ما كان في كُمّه، وإذا كيسٌ فيه ألفُ دينار، فرمى به إليّ مع عقد الجوهر، فلما دخل بعث إليّ بالحمار وجميع ما كان عليه.

● مُدرِك بن يزيد قال قال لي فُلَيح:

بعث إليّ يحيى بن خالد وإلى حكَمٍ الواديّ، وابنُ جامع معنا، فأتيناه. فقلت لحكم الواديّ ـ أو قال لي ـ: إن ابنَ جامع معنا، فعاونّي عليه لِنكسِرَه. فلمّا صِرنا إلى الغناء غنّى حكَمٌ، فصحت وقلت: هكذا واللهِ يكون الغناء! ثم غنّيتُ ففعل بي حكمٌ مثلَ ذلك، وغنّى ابنُ جامع فما كنّا معه في شيء؛ فلمّا كان العشيُّ أرسل إلى جاريته دنانير: إنّ أصحابك عندنا، فهل لك أن تخرجي إلينا؟ فخرجتْ وخرج معها وصائفُ لها، فأقبل عليها يقول لها من حيث يظنّ أنّا لا نسمع: ليس في القوم أَنْزَهُ نفساً من فُلَيح. ثم أشار إلى غلامٍ له: أن ائتِ كلَّ إنسان بألفَي درهم. فجاء بها، فدفع إلى ابن جامع الفين، فأخذها فطَرحها في كُمّه، ولحكَم مثلَ ذلك فطرحها في كُمّه، ودفع إليّ ألفين، فقلت لدنانير: قد بلغ منّي النّبيذُ فاحتبِسِيها لي عندك. فأخذت الدّراهم مني وبعثت بها إليّ من الغد وقد زادت عليها مثلَها، وأرسلت إليّ: قد بعثت إليك بودِيعتك وبشيء أحببت أن تُفرّقه على أَخواتي (تَعني جواريًّ).

● هِبة الله بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيه قال:

زار حكَمٌ الواديُّ الرشيد فَبَرّه ووَصَله بثلثمائة ألف درهم ، وسأله عمّن يختار أن يكتب له بها إليه، فقال: اكتُب لي بها إلى إبراهيم بن المهديّ ـ وكان عاملاً له بالشأم ـ . قال إبراهيم : فقـدِم عليّ حَكَمٌ بكتاب الرّشيد، فدفعت إليه ما كتب به ووصلتُه بمثل ما وَصَله إلاّ أنّي نقصتُه ألفاً من الثلثمائة وقلت له: لا أَصِلُك بمثل صلة أمير المؤمنين. فأقام عندي ثلاثين يوماً أخذتُ

منه فيها ثلثمائة صوتٍ، كلُّ صوت منها أحبُّ إليّ من الثلثمائة الألفِ التي وهبتُها له.

● أحمد بن المكّي عن أبيه:

أنّ حكماً لم يُشهَر بالغناء ويذهبْ له الصِّيت به حتى صار الأمرُ إلى بني العبّاس، فانقطع إلى محمد بن أبي العبّاس أمير المؤمنين ـ وذلك في خلافة المنصور ـ، فأُعجب به واختاره على المغنّين وأعجبتْه أهزاجُه، وكان يقال إنه من أهزَج الناس. ويقال إنه غنّى الأهزاجَ في آخر عمره وإن ابنه لامه على ذلك وقال له: أبعدَ الكِبرَ تغنّي غناء المخنَّثين! فقال له: اسكُت فإنك جاهلٌ، غنّيتُ الثّقيل ستّين سنةً فلم أنلْ إلاّ القُوتَ، وغنّيت الأهـزاجَ منذ سُنَيّـات فأكسبتُك ما لم تَر مثله قط.

● عمـــر بن شَبَّةَ قال:

كان خبرُ حكمٍ الواديّ يتناهى إلى المنصور ويبلُغه ما يصِلُه به بنو سليمان ابن عليّ فيعجَبُ لذلك ويستسرفهُ ويقول: هل هو إلاّ أن حَسّن شعراً بصوته وطَرّب مُستمعِيه! فماذا يكون، وعلامَ يُعطونه هذه العطايا المُسرفة! إلى أن جلس يوماً في مُستَشرف له، وقد كان حكمٌ دخل إلى رجلٍ من قُوّاده ـ أُراه قال: عليّ بن يقطين أو أبوه ـ وهو يراه، ثم خرج عَشيّاً وقد حمله على بغلةٍ له يعرفها المنصور، وخلع عليه ثياباً يعرفها له. فلمّا رآه المنصور قال: مَن هذا؟ فقيل: حَكَم الواديّ. فحرّك رأسه مَليّاً ثم قال: الآنَ علمت أن هذا يستحقّ ما يُعطاه. قيل: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وأنت تُنكر ما يَبلغُك منه؟ قال: لأنّ فلاناً لا يُعطي شيئاً من ماله باطلاً ولا يضعه إلاّ في حقّه.

● عن الأصمعـيّ قال:

رأيت حكماً الواديّ حين مضى المهديُ إلى بيت المقدِس، وقد عارضه في الطريق وأخرج دُفّه وَنَقَر فيه وله شُعَيراتٌ على رأسه وقال: أنا واللهِ يا أمير المؤمنين القائل:

ومتى تخرج العرو س فقد طال حبسُها

فتسرّع إليه الحَرَسُ فقال: دَعُوه. وسَأل عنه فأُخبر أنه حَكمُ الواديّ، فوصله وأحسن إليه.

● عن حكمٍ الواديّ قال:

كان الهادي يشتهي من الغناء ما توسّط وقَلّ ترجيعُه ولم يبلُغْ أن يُستخَفَّ جدّاً. فأخرج ليلةً ثلاثَ بِدَرٍ وقال: مَن أَطْرَبني فهي له. فغَنّاه ابنُ جامع وإبراهيمُ الموصليّ والزُبير بن دَحْمان فلم يصنعوا شيئاً، وعرفت ما أراد فغنّيتُه لابن سُريج:

غَرّاءَ كالليلة المُباركة الـ ـقمراءِ تَهدي أوائلَ الظُّلَمِ
أكني بغير اسمها وقد علم اللهُ خَفِيّاتِ كلِّ مُكْتَتَمِ
كأنّ فاها إذا تُنُسِّم عن طِيب مَشَمٍّ وحُسنِ مُبْتَسَم
يُسَنُّ بالضَّرْو من بَراقِشَ أو هَيْلانَ أو يانِعٍ من العُتُمِ[1]

ـ الشعر في هذا الغناء للنابغة الجَعْديّ والصَّنعة لابن سُريج. . . ـ فوثب عن فِراشه طَرَباً وقال: أحسنتَ أحسنت والله! اسقُوني. فسُقي؛ ووثقتُ بأنّ البِدَر لي، فقمت فجلست عليها، فأحسن ابنُ جامع المَحْضَر وقال: أحسن والله كما قال أميرُ المؤمنين، وإنه لمُحْسِنٌ مُجمِل. فلمّا سكِر أمر الفَرّاشين بحملها معي، فقلت لابن جامع: مثلُك يفعل ما فعلتَ في شرفك ونسبِك! فإن رأيت أن تُشرّفَني بقبول إحداها فعلتَ. فقال: لا واللهِ لا فعلتُ، والله لَوَدِدْتُ أن الله زادك، وأسألُ الله أن يُهنّيك ما رزقك. ولحقني الموصليّ فقال: آخذُ يا حكمُ مِن هذا؟ فقلت: لا والله ولا درهماً واحداً لإنك لم تُحسن المحضَرَ.

---

(١) يسن : يسوّك . الضرو : شجر طيب الرائحة يستاك به . براقش : واد باليمن يكثر فيه نبات الضرو. هيلان: واد باليمن. العتم : شجر الزيتون.

وفـــاتـــه

ومـات حكمٌ الواديّ من قُرحـة أصابتـه في صـدره.....

..*.*.*.*

[٣١]

الزُبَيرْ بنْ دَحْمان

[الأغاني الجزء ١٨ ص ٣٠٠ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

.. كان الزبير أحدَ المحسِنين المتقِنين الرُّواةِ الضُرّاب المتقـدِّمين في الصَّنعة، وقدم على الرشيد من الحجاز، وكان المغنّون في أيامـه حزبين: احدُهما في حِزبِ إبراهيم الموصليّ وابنِه إسحاق، والآخرُ في حِزب ابن جامع وابن المهديّ، وكان إبراهيُم بن المَهديّ أوكدَ أسباب هذا التحزُّب والتعصُّب لِما كان بينه وبين إسحاق، وكان الزبير بن دَحمان في حزب إسحاق، وأخوه عُبيدُ الله في حزب إبراهيم بن المَهديّ.

عن حَمّاد قال:

كان أبي يقول: ما كان دَحْمانُ يساوي على الغناء أربعَمائة درهم، وأَشبَهُ خَلْق الله به غناءً عُبيدُ الله. وكان يُفضِّل الزبير بن دَحْمان على أبيه وأخيه تفضيلاً بعيداً.

طائفة من أخباره

حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

لمّا قدِم الزُبير بن دَحمان على الرّشيد من الحجاز قدم رجلٌ ما شئتَ من رجلٍ عقلاً ونُبلاً ودِيناً وأدباً وسُكوناً ووقاراً، وكان أبوه قبلَه كذلك، وقدم معه أخوه عبيدُ الله. فلمّا وصَلا إلى الرشيد وجلسا معنا تخيَّلتُ في الزبير الفضلَ فقلت لأبي: يا أبَتِ، أَخْلِقْ بالزبير أن يكون أفضلَ من أخيه. فقال: هذا لا يجيء بالظَّنّ والتَخيُّل، والجوادُ إنما يمتَحن في الميدان. فقلت له: «فالجوادُ عَينهُ فِرارُه»(١). فضحك وقال: نَنظر في فِراستك. فلمّا غنَّيا بان فضلُ الزُبير وتقدُّمُه، فاصطفاه أبي واصطَفَيتُه لأنفُسنا، وقرَّظْناه ووَصَفْناه، وصار في حَيّزِنا. وغنَى الرشيدَ غناءً كثيراً من غناء المتقدمين فأجاد وأحسن، وسأله الرشيدُ أن يُغنّيَه شيئاً من صنعته فالتوى بعضَ الالتواء وقال: قد سمع أميرُ المؤمنين غناءَ الحُذّاق من المتقدِّمين وغناءَ مَن بحَضرته من خدمه ومن وفَد عليه من الحِجازيين، وما عسى أن يأتيَ من صنعتي! فأقسم عليه أن يُغنّيَه شيئاً من صنعته وجَدّ به في ذلك، فكان أوّلَ صوتٍ غنّاه منها:

ارحَلا صاحبيّ حان الرّحيلُ وابكياني فليس تَبكي الطُّلولُ
قد تولّى النهارُ وانقضّت الشمسُ يميناً وحان منها أفول

قال: فسمعت والله صنعةً حسنة مُتقنَة لا مَطْعنَ عليها، فطرب الرشيدُ واستعاده هذا الصوتَ ثلاثَ مرّات، وأمر له بثلاثين ألف درهم، ولأخيه بعشرين ألف درهم. ثم لم يزل زبيرٌ معنا كواحدٍ منّا، وانحاز عبيدُ الله الى جَنبة إبراهيم بن المهديّ فكان معه. قال حمّاد: فقلت لأبي: كيف كانت صنعةُ عبيد الله؟ قال: أنا أجمِل لك القول، لو كان زُبيرٌ مملوكاً لاشتريتَه بعشرين ألف دينار، ولو كان عُبيد الله مملوكاً ما طابت نفسي على أن أشتريَه بأكثرَ من

(١) «إن الجواد عينه فراره»: هذا مثل، والفرار النظر الى أسنان الدابة لتقدير سنها، ويضرب لمن يدل ظاهره على حقيقته ودخيلته.

عشرين ديناراً. فقلت: قد أجبتني بما يكفيني.

أبو إسحاق إبراهيم بن المهديّ ومحمد بن الحارث بن بسخُنَّر:

أن الرشيد كتب في إشخاص الزبير بن دَحمان الى مدينة السَّلام، فوافاها واتّفق قُدومُه في وقت خروج الرشيد إلى الرَّيّ لمحاربة بِنْدار هُرْمز إصْبَهبَذ[١] طَبَرستان، فأقام الزبير بمدينة السلام إلى أن دخل الرشيد، فلمّا قدم دخل عليه بالخَيْزُرانة، وهو الموضِع الذي يعرَف بالشمّاسيّة، فغَنّاه في أول غنائه صوتاً في شعر قاله هو أيضاً في الرشيد مدَحه به وذكر خروجَه إلى طَبَرستان وهو:

إلا إنّ حـزبَ الله ليس بمُـعجِـزِ ... وأنـصـارُه في مَنْعـة الـمتـحـرِّزِ
أبى الله أن يُعصَى لهـارونَ أمـرُه ... وذلّت له طـوعـاً يـدُ الـمـتـعـزِّز
إذا الرايةُ السوداء راحتْ أو اغتدتْ ... الى هـارب منهـا فليس بمُعجِـز
أطاعت لهارونَ العُداةُ لدى الـوغى ... وكَبّـر لـلاسـلام بِنـدارُ هُـرْمُـزِ

ـ وذكر إبراهيم بن المهدي أن الشعر للزبير بن دَحْمان، وهذا خطأ، الشعرُ لأبي العتاهية وهو موجودٌ في شعره في قصيدة طويلة مدَح بها الرشيد ـ.

قال أبو إسحاق: فاستحسن الرشيدُ الشعر والغناءَ وأمر له بألف دينار، فدُفعت إليه، ومكث ساعةً ثم غنّى صوتاً ثانياً وهو:

وأحـوَر كـالغُصن يشفي السَّقـامَ ... ويـحـكـي الـغـزالَ إذا مـا دنـا
شـربـتُ الـمُـدامَ عـلى وجـهـه ... وعـاطيتُـه الـكـأسَ حتى انثنى
وقـلـتُ مـديـحـاً أُرَجّـي بـه ... مـن الأجـر حَـظّاً ونيـلَ الغِنى
وأَعـنـي بـذاك الإمـامَ الـذي ... بـه الله اعـطى العِبـادَ المُنَى

قـال: فمـا فرَغ من الصَّوت حتى أمر له بألف دينار آخر، فقبَضه، وخَفّ على قلبه واستَظرفه، فأغناه في مُدّة يسيرة من الأيام.

---

(١) الاصبهبذ: الرئيس من العجم.

عن إسحاق قال:

جاءني الزُّبير بن دَحمان ذاتَ يوم مُسَلِّماً فاحتبستُه فقال: قد أمَرني الفضلُ ابن الربيع بأن أصيرَ إليه فقلت:

أقِمْ يا أبا العَوّام ويحَك نَشربُ ونَلهو مع اللاهين يوماً ونَطربُ
إذا ما رأيت اليومَ قد جاء خيرُه فخُذْه بشُكرٍ واترِكِ الفَضل يغضبُ

قال: فأقام عندي، فشربنا باقيَ يومنا، ثم صار الزبير الى الفَضل، فسأله عن سبب تأخرُّه عنه فحَدّثه بالحديث وأنشَده الشعر، فغضب وحَوّل وجهَه عنّي وأَمر عَوناً حاجبَه ألاّ يُدخلَني اليومَ ولا يستأذِنَ لي عليه ولا يُوصل لي رُقعةً إليه. قال فقلت:

حَرامٌ عليّ الكأسُ ما دُمتَ غَضْبانا ومالم يَعُدْ عني رضاكَ كما كانا
فأحسِنْ فإني قد أسأتُ ولم تَزَل تُعَوِّدني عند الإساءة إحسانا

قال: وأنشدتُه إياهما، فضحك ورضيَ عنّي وعاد لي إلى ما كان عليه.

إسحاق قال:

كان عندي الزَبير بن حَمان يوماً فغنيّت لحنَ أبي:

أشاقك من أرض العراقِ طُلولُ تحمَّل منها جِيرةٌ وحُمولُ

فقال لي الزبير: أنت الأستاذ وابن الأستاذ السيّد، وقد أخذتُ عن أبيك هذا الصوت، وأنا أُغَنّيه أحسنَ. فقلت له: والله إني لا أُحبّ أن يكونَ ذلك كذلك. فغضِب وقال: فأنا والله أحسنُ غناءً منك. وتلاحَينا طويلاً فقلت له: هَلُمّ نخرجْ الى صحراء الرَّقة فيكون أكلُنا وشربنا هناك ونَرضى في الحُكم بأوّل من يطلُع علينا. قال: أَفعلُ. فأخرجنا طعامَنا وشرابنا وجلسنا نشربُ على الفُرات. فأقبل حبشيٌّ يحفِر الأرضَ بالبال[1]، فقلت له: أتَرضى بهذا؟ قال:

---

(١) البال: أداة تحفر بها الأرض للزراع.

نعم. فدَعَوناه، فأطعمناه وسقَيناه، وبـدَرَني الزبيـرُ بالغنـاء، فغنّى الصوت، فطرب الحبشيُّ وحَرّك رأسه حتى طمع الزبير فيّ، ثم أخذت العود فغنَّيته، فتأمّلني الحبشيّ ساعةً ثم صاح: وأيّ شيطان هوه! ومدّ بها صوتَه، فما أَذكُر أني ضحكت مثلَ ضحكي يومئذٍ، وانخزل الزبير.

رجل من ثقيفٍ قال:

غضب الرشيدُ على أم جعفر، ثم ترضّاها فأبتْ أن ترضَى عنه، فأَرِق ليلته ثم قال: افرِشوا لي على دِجْلة. ففعلوا، فقعد ينظر إلى الماء وقد رأى زيادةً عجيبة، فسمع غناء في هذا الشعر:

جرى السَيلُ فاستبكاني السَّيلُ اذ جرى وفـاضت لـه من مُقلتيَّ غُـروبُ
ومـا ذاك إلّا حين خُـبِّـرتُ أنـه يـمُـرّ بـوادٍ أنـتِ مـنـه قـريـبُ
يكـون أُجاجـاً مـاؤه فـإذا انتهى إلـيكـم تلقّى طِيبَكم فـيَـطِيـبُ
فيـا سـاكني شرقيّ دِجلةَ كُـلُّكم إلى القلب من أجل الحبيب حَبيبُ[1]

فسأل عن الناحية التي فيها الغناء، فقيل: دار ابن المُسَيَّب، فبعث إليه أن ابعَثْ بالمغنّي، فإذا هو الزبير بن دَحْمان، فسأله عن الشعر فقال: هو للعبّاس ابن الأحنف، فأُحضر واستنشده فأنشدَه إيّاه، وجعل الزبيرُ يُغنّيه وعبّاسٌ يُنشده وهو يَستعيدُهما حتى أصبح، وقام فدخل الى أمّ جعفر، فسألت عن سبب دخوله فعُرِّفَتْه، فوَجّهت إلى العبّاس بألف دينار والى الزبير بألف دينارٍ أخرى.

حَمْـدون قـال:

تشوّق الرشيدُ بغدادَ وهو بالرَّقّة، فانحدر إليها وأقام بها مُدّةً وخَلّف هناك بعضَ جواريه، وكانت حظيّةٌ له فيهنّ خَلّفها لمُغاضَبَةٍ كانت بينه وبينها، فتشوّقها تشوُّقاً شديداً وقال فيها:

سـلامٌ عـلى الـنـازح الـمغـتـرِبْ تـحـيّـةَ صَـبٍّ بـه مُـكْـتَئِـبْ

(١) غروب ج غرب: مسيل الدمع من العين. أجاج: شديد الملوحة.

غَـزالٌ مَـراتِـعَـهُ بـالـبَـليـخِ إلى دَيـر زَكّى فـجِسـر الـخَشَـبْ
أيـا مَـن أعـان عـلى نـفـسـه بـتـخـليـفِـه طـائـعـاً مـن أَحَـبْ
سأسـتُـر والسِّتْرُ من شِـيمـتـي هـوى من أُحبُّ لمن لا أُحـبّ(١)

وجَمع المغنّين، فحضر الموصليُّ، وابنُ جامع، وفُليح، وزبير بن دَحمان، والمُعَلّى بن طَريف، وحسين بن مُحرِز، وسليم بن سَلام، ويحيى المكّي، وابنُه، وإسحاقُ، وأبو زَكّار الأعمى، وأعطاهم الشعر وقال: ليعمل كلُّ واحد منكم فيه لحناً. قال: فلقد عملوا فيه عشرين لحناً فما أعجب منها إلا بلحن الزُّبير وحده، أعجِب به إعجاباً شديداً وأجازه خاصّة دون الجماعة بجائزة سَنيّة.

* * *

(١) البليخ: نهر بالجزيرة الشامية يصب بالفرات قرب الرقة. دير زكّى: دير بالرها.

[٣٢]

سُلَيم الكوفيّ

[الأغاني الجز ٦ ص ١٦٤ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو سُليم بن سَلاّم الكُوفيّ، ويُكنى أبا عبد الله، وكان حسنَ الوجه، حسن الصوت. وقد انقطع وهو أمردُ إلى إبراهيم الموصليّ.. فعلّمه وناصَحه، فبَرع وكثرت روايته، وصنَع فأجاد. وكان إسحاق يهجوه ويطعَن عليه. واتّفق له اتّفاقَ سيّء: كان يخدُم الرشيد فيتّفِق مع ابن جامع وإبراهيم وابنه إسحاقَ وفُليح بن أبي العَوراء، وحكمٍ الواديّ فيكون بالإضافة إليهم كالسّاقط. وكان من أبخلِ الناس، فلمّا مات خَلّف جملةً عظيمة وافرة من المال فقَبضها السُّلطانُ عنـــه.

هارون بن مُخارق عن أبيه قال:

كان سُليم بن سَلاّم كُوفيّاً، وكان أبوه من أصحاب أبي مُسلِم صاحب الدَّولة ودعاته وثِقاته، فكان يكاتب أهل العراق على يده. وكان سُليم حسنَ الصوت جَهيرَه، وكان بخيلاً.

طائفة من أخباره

● قال محمد بن الحسن بن مصعَب:

إنما أخّر سُليماً عن أصحابه في الصَّنعة وَلَعُه بالأهزاج، فإنّ ثُلثَي صنعته هَزج، وله من ذلك ما ليس لأحد منهم. قال: ثم قال محمد: غنّى سُليم يوماً بين يدَي الرشيد ثلاثة أصواتٍ من الهزج وِلاءً[1]، أوّلها:

«مُتْ على من غِبتَ عنه أسَفاً»

والثاني:

«أسرفتَ في الإعراض والهَجْر»

والثالث:

«أصبح قلبي به نُدوبُ»

فأطربه وأمر له بثلاثين ألف درهم وقال له: لوكنت الحكمَ الواديَّ مازِدتَ على هذا الإحسان في أهزاجك. (يعني أن الحكَم كان منفرداً بالهزج).

● الفَضل بن محمد اليَزيديّ قال حدّثني أبي قال:

كان سُليم بن سَلاّم صديقي وكان كثيراً ما يغشاني. فجاءني يوماً وأعلمني الغلامُ بمجيئه، فأمرت بإدخاله، فدخل وقال: قد جئتُك في حاجةٍ. فقلت: مَقضيّة. فقال: إنّ المِهرجانَ بعد غدٍ، وقد أُمرنا بحضور مجلس الخليفة، وأُريد أن أُغَنِّيَهُ لحناً أصنعه في شعر لم يعرفْه هو ولا مَن بحضرته، فقُل أبياتاً أُغنّي فيها مِلاحاً. فقلت: على أن تُقيمَ عندي وتصنعَ بحَضرتي اللحن. قال: أَفعَلُ. فرَدُّوا دابّته وأقام عندي؛ وقلت:

أتيتُك عائذاً بك منك لمّا ضاقت الحِيَلُ
وصَيَّرني هواك وبي لِحَيْني يُضرَب المَثَلُ

---

(١) ولاء: متوالية.

فــإن سَـلِمـتْ لـكـم نـفـسـي فما لاقيتُه جَلَلُ
وإن قـتَـل الـهـوى رجـلاً فـإنّـي ذلـك الـرّجْـلُ

فغنّى فيه وشربنا يومئذٍ عليه، وغَنّانا عدّةَ أصواتٍ من غِنائه، فما رأيتُه مُذْ عرفته كان أنشطَ منه يومئذٍ.

● وجدت في كتاب عليّ بن محمد بن نصر عن جدّه حَمدون بن إسماعيل...

أنَ إبراهيم بن المهديّ سأل جماعةً من إخوانه أن يصطبحوا عنده ـ قال حمدون: وكنت فيهم ـ وكان فيمن دعا مُخارقٌ، فسار إليه سكرانَ لا فضلَ فيه لطعام ولا لشراب، فاغتمّ لذلك إبراهيم وعاتبه على ما صنع فقال: لا والله أيها الأميرُ، ما كان آفَتي إلاّ سُليمَ بن سلاَم، فإنه مرّ بي فدخل عليّ فغنّاني صوتاً له صنعه قريباً فشربت عليه إلى السَّحَر حتى لم يبق فيَّ فضلٌ وأخذتُه. فقال له إبراهيم: فغنِّناه إملالاً[1]. فغنّاه:

إذا كنت نَـدْمـانِي فبـاكِـرْ مُـدامـةً مُعتَّـقــةً زُفَّت إلـى غيــر خاطـب
إذا عُتِّقت في دَنِّهـا العــامَ أقبلتْ تَردَّى رداءَ الحُسن في عين شارب

قال: فبعث إبراهيم إلى سُليم فأحضرَه، فغَنّاه إيّاه وطرَحه على جَواريه وأمر له بجائزة، وشربنا عليه بقيّة يومنا حتى صِرنا في حالة مُخارق وصار في مثل أحوالنا.

* * *

(١) إملالا: أي كما أخذته.

[٣٣]

سِيَاط

[الأغاني الجزء ٦ ص ١٥٢ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

سياطٌ لقبٌ غلب عليه، واسمُه عبد الله بن وَهب، ويكنى أبا وهب، مكّيٌّ مولى خُزاعة. وكان مُقدَّماً في الغناء روايةً وصنعةً، ومقدَّماً في الضَّرب معدوداً في الضُّرّاب. وهو أستاذُ ابن جامع وإبراهيم الموصليّ وعنه أخذا ونَقلا ونَقَل نظراؤُهما الغناءَ القديم، وأخذه هو عن يونُس الكاتب؛ وكان سياطٌ زوجَ أمّ ابن جامع...

قال حمّاد بن إسحاق: لُقّب سِياطٌ هذا اللقبَ لأنه كان كثيراً ما يتغنّى:

كأنَّ مَزاحفَ الحيَّات فيه قُبيلَ الصُّبح آثارُ السِّياطِ

عن حَمّاد عن أبيه قال:

غنّى إبراهيمُ الموصليّ يوماً صَوتاً لِسياط فقال له ابنُه إسحاق: لِمن هذا

الغناءُ يا أَبَتِ؟ قال: لِمن لو عاش ما وجد أبوك شيئاً يأكلُه: لِسياط. قال: وقال المهديُّ يوماً وهو يشربُ لَسَلّام الأبرش: جِئني بسياط وعقاب وحِبال. فارتاع كلُّ من حضر وظنّ جميعُهم أنه يريد الإيقاعَ بهم أو ببعضهم، فجاءه بسياط المغنّي وعقاب المدنيّ - وكان الذي يُوقِع عليه - وحِبال الزامر. فجعل الجلساءُ يشتمُونهم والمهديُّ يضحك.

طائفة من أخباره

● حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

مرّ سياطٌ على أبي رَيحانَةَ المدنّي في يومٍ بارد وهو جالسٌ في الشمس وعليه ثوبٌ رقيقٌ رثّ، فوثب إليه أبو ريحانة وقال: بأبي أنت يا أبا وهب، غَنّني صوتك في شعر ابن جُندَب:

فؤادي رهينٌ في هــواك ومُهجتي تــذوب وأجفــاني عليــك هُمــولُ

فغَنّاه إياه، فشقّ قميصَه ورجع إلى موضعه من الشمس وقد ازداد بَرداً وجَهداً. فقال له رجلٌ: ما أَغنى عنك ما غَنّاك من شقّ قميصك! فقال له: يابَن أخي، إنّ الشعرَ الحسن من المغنّي الحَسن ذي الصوت المُطرب أدفأ للمقرور من حَمّام مُحْمَى. فقال له رجلٌ: أنت عندي من الذين قال الله جلّ وعزّ: «فمارِبحت تجارتُهم، وما كانوا مُهتِدين»، فقال: بل أنا من الذين قال تبارك وتعالى: «الذين يستمعون القولَ فيتبّعون آحسنهُ».

● عن إسحــاق قال:

كان سياطٌ أستاذَ أبي وأستاذ ابن جامع ومَن كان في ذلك العصر؛ فاعتلّ عِلّةً، فجاءه أبي وابنُ جامع يَعُودانه، فقال له أبي: أَعْزِزْ عليّ بعِلّتك أبا وهب، ولو كانت ممّا يُفتدَى لفديتُك منها. قال: كيف كنتُ لكم؟ قلنا: نِعمَ الأستاذُ والسيّد. قال: قد غنّيتُ لنفسي ستّين صوتاً فأُحبّ ألاّ تُغيِّروها، ولا تنتحلوها. فقال له أبي: أفعَلُ ذلك يا أبا وهب، ولكن أيَّ ذلك كرهتَ: أن يكون في غنائك فضلٌ فأقصّر عنه فيُعرَف فضلُك عليّ فيه، أو أن يكون فيه

نقصٌ فأُحسِّنه فيُنسَب إحساني إليك ويأخذه الناسُ عنّي لك؟ قال: لقد استعفيتَ من غير مكروه. ثم قال لي إسحاق: كان سياطٌ خُزاعياً، وكان له زامرٌ يقال له حِبال، وضاربٌ يقال له عقاب. قال حمّاد قال أبي: أدركت أربعةً كانوا أحسنَ الناس غناءً، سياطٌ أحدُهم. قال: وكان موتُه في أول أيام موسى الهادي.

وفاتـــــه

عن مصعَب قـــال:

دخل ابنُ جامع على سياط وقد نزل به الموت فقال له: ألك حاجةٌ؟ فقال: نعم، لا تَزِد في غنائي شيئاً ولا تنقص منه، دَعه رأساً برأس. فإذا هو ثمانيةَ عشرَ صوتاً.

حمّاد قال: حدّثني محمد بن حَديد أخو النَّضْر بن حديد:

أن إخواناً لسياط دَعَوه، فأقام عندهم وبات، فأصبحوا فوجدوه مَيّتاً في منزلهم، فجاؤوا إلى أُمّه وقالوا: يا هذه، إنّا دَعونا ابنَك لِنكْرِمَه ونُسَرَّ به ونَأنسَ بقُربه فمات فجأةً، وها نحن بين يديك فاحتكمي ما شئتِ، ونَشدناكِ اللهَ ألاّ تُعرِّضينا للسلطان أو تَدّعي فيه علينا ما لم نَفعلْه. فقالت: ما كنتُ لِأفعلَ، وقد صدقتم، وهكذا مات أبوه فجأةً. قال: فجاءت معنا فحملتْه إلى منزلها فأصلحتْ أمرَه ودفنتْه.

* . * . * . * . *

[٣٤]

عبد الله بن العبّاس الرَّبيعيّ

[الأغاني الجزء ١٩ ص ٢١٩ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

عبد الله بن العبّاس بن الفَضل بن الرَّبيع. والربيع - على ما يدّعيه أهلُه - ابنُ يونُس بن فَرْوة؛ وقيل إنه ليس ابنَه، وآلُ أبي فَروة يدفعون ذلك ويزعُمون أنه لقيط وُجِد منبوذاً، فكَفَله يونُس بن أبي فروة وربّاه، فلمّا خَدَم المنصور ادّعى إليه(١)... ويُكنى عبد الله بن العبّاس أبا العبّاس.

وكان شاعراً مطبوعاً، ومُغنّياً محسِناً جيّدَ الصنعة، نادرَها، حسنَ الرِّواية، حُلوَ الشعر ظريفه، ليس من الشِعر الجيِّد الجَزْل ولا من المَرْذُول، ولكنه شعر مطبوعٌ ظريف مَليح المذهب، من أشعار المُتْرفين وأولاد النِعَم.

حَمّاد بن إسحـاق قـال:

سمعتُ عبد الله بن العبّاس الرّبيعيّ يقول: أنا أوّلُ من غَنّى بالكَنْكَلة(٢)

(١) ادّعى إليه : انتسب إليه.
(٢) الكنكلة: آلة طرب هندية ذات وتر واحد.

في الإسلام ووضعت هذا الصوتَ عليها:

أتـاني يُـؤامـرني فـي الـصَّـبُـو ح لـيـلاً فـقـلتُ لـه غـادِهـا

سبب تعلمه الغنـــاء

عبد الله بن العباس الربيعي قـــال:

كان سبب دخولي في الغناء وتعلُّمي إياه أني كنت أهوى جاريةً لعمّتي رُقَيّة بنت الفضل بن الربيع، فكنت لا أقدِر على مُلازمتها والجلوسِ معها خوفاً من أن يظهر ما لها عندي فيكون ذلك سببَ منعي منها. فأظهرتُ لعمّتي أنني أشتهي أن أتعلّمَ الغناء ويكونَ ذلك في سِتْرٍ عن جَدّي، وكان جَدّي وعمّتي في حالٍ من الرِقّة عليّ والمحبّة لي لا نهايةَ وراءَها لأنّ أبي تُوفيَ في حياة جَدّي الفضل، فقالت: يا بُنيَّ، وما دعاك إلى ذلك؟ فقلت: شَهوةٌ غلبتْ على قلبي إن مُنعتُ منها متُّ غَمّاً. وكان لي في الغناء طبعٌ قويّ، فقالت لي: أنت أَعلمُ وما تختارُه، واللهِ ما أُحبُّ مَنعكَ من شيء، وإنّي لكارهةٌ أن تحذِق ذلك وتُشهَرَ به فَتَسقُطَ ويَفتضحَ أبوك وجَدُّك. فقلت: لا تخافي ذلك، فإنما آخُذُ منه مقدارَ ما ألهُو به. ولازمتُ الجاريةَ لمحبَّتي إيّاها بعِلّة الغناء، فكنت آخُذ عنها وعن صواحباتها حتى تقدّمتُ الجماعةَ حِذْقاً وأقرّرْن لي بذلك، وبلغت ما كنتُ أُريد من أمر الجارية، وصِرت أُلازم مجلسَ جدّي، فكان يُسَرُّ بذلك ويظنّه تقرُّباً مني إليه، وإنّما كان وَكْدي فيه أخذَ الغناء، فلم يكن يمرّ لإسحاقَ ولابن جامع ولا للزبير بن دَحْمان ولا لغيرهم صوتٌ إلّا أخذتُهُ، فكنت سريع الأخذ، وإنما كنت أسمعُهُ مرّتين أو ثلاثاً، وقد صحّ لي وأحسستُ من نفسي قوةً في الصّناعة، فصنعت أولّ صوت صنعتُهُ في شعر العَرْجيّ:

أماطتْ كِساءَ الخَزِّ عن حُرّ وجهها وأَدنتْ على الخَدّين بُـرْداً مُهَلْهَلا

ثم صنعــت فــي:

أقـفـر مـن بـعـد خُـلّةٍ سَـرِف فـالمُنحنى فـالعَقيقُ فـالجُـرُفُ[1]

---

(١) سرف والمنحنى والعقيق وجرف: مواضع ببلاد الحجاز.

وعرضتهمـــا على الجارية التي كنتُ أهواها وسألتُها عمّا عندها فيهما فقالت: لا يجوز أن يكون في الصنعة شيءٌ فوق هذا. وكان جواري الحارث بن بُسْخُنَّر وجواري ابنه محمد يدخلن إلى دارنا فيطرحن على جواري عمّتي وجواري جَدّي ويأخُذْن أيضاً منّي ما ليس عندهنّ من غناء دارنا، فسمعنني أُلقي هذين الصّوتين على الجارية، فأخذنَهما مني وسألن الجاريةَ عنهما فأخبرتهنّ أنّهما من صَنعتي، فسألنها أن تُصَحّحَهما لهنّ، ففعلتْ فأخذنَهما عنها، ثم اشتهرا حتى غُنّي الرشيد بهما يوماً، فاستظرفهما وسأل إسحاقَ: هل تعرفُهما؟ فقال: لا، وإنهما لمن حَسَن الصنعة وجَيّدها ومُتْقَنِها. ثم سأل الجارية عنهما، فتوقّفتْ خوفاً من عمّتي وحَذَراً أن يبلغَ جَدّي أنها ذكرتْني، فانتهرها الرشيدُ، فأخبرتْه بالقصة، فوَجّه مِن وقته فدعا بجَدّي، فلمّا أحضرَه، قال له: يا فَضَلُ، يكونُ لك ابنٌ يغنّي ثم يبلُغُ في الغناءِ المبلغَ الذي يُمكِنُه معه أن يصنع صوتين يَستحسنهما إسحاقُ وسائرُ المغنّين ويتداولُهما جَواري القِيان ولا تُعلمني بذلك! كأنك رفعت قَدْره عن خِدمتي في هذا الشأن! فقال له جَدّي: وحَقٍّ وَلائك، يا أمير المؤمنين، ونِعمتك، وإلاّ فأنا نَفِيٌّ منهما بريءٌ من بَيعتك، وعليَّ العهدُ والعِتْقُ والطّلاق، إن كنتُ علمتُ بشيء من هذا قطُّ إلاّ منك الساعةَ، فمَن هذا من وَلدي؟ قال: عبد الله بن العبّاس هو، فأحْضِرنيه الساعةَ. فجاء جَدِّي وهو يكاد أن ينشقَّ غيظاً، فدعاني، فلمّا خرجت إليه شَتمني وقال: يا كَلب، بلغ من أمرك ومِقدارك أن تجسُر على أن تتعلّمَ الغناءَ بغير إذني! ثم زاد ذلك حتى صَنَعت! ولم تَقْنَع بهذا حتى ألقيتَ صنعتَكَ على الجواري في داري، ثم تجـاوزتَهنّ إلى جواري الحـارث بن بُسْخُنَّر، فـاشتَهـرتَ وبلغ أمرُك أميرَ المؤمنين، فتنكّر لي ولامني وفضحتَ آباءَك في قبورهم وسقطت الأبدَ إلاّ من المغنّين وطبقة الخُنْياكَرين[1]! فبكيت غَمّاً بما جرى وعلمتُ أنه قد صدق، فَرَحِمني وضمّني إليه وقال: قد صـارت الآنَ مُصيبتي في أبيك مُصيبتَين: إحداهما به وقد مضى وفات، والأخرى بك وهي موصولةٌ بحياتي، ومصيبةٌ

---

(١) الخنياكر: كلمة فارسية معناها المطرب والموسيقي.

باقيةً: العار عليّ وعلى أهلي بعدي. وبكى وقال: عزّ عليّ يا بُنيّ أن أراك أبداً ما بقيت على غير ما أُحبّ، وليست لي في هذا الأمر حيلةٌ لأنه أمر قد خرج عن يدي. ثم قال: جِئْني بعود حتى أسمعَكَ وأَنظُرَ كيف أنت، فإن كنتَ تصلحُ للخِدمة في هذه الفضيحة، وإلاّ جئتُهُ بك منفرداً وعَرّفتُه خبرَك واستعفيتُه لك. فأتيته بعود وغنّيتُه غناءً قديماً فقال: لا، بل غَنِّ صوتَيك اللذين صنعتَهما. فغنَّيتُه إيّاهما، فاستحسنهما وبكى ثم قال: بَطلتَ والله يا بُنيَّ وخاب أملي فيك، فواحَزَني عليك وعلى أبيك! فقلت له: يا سيّدي، ليتني متُّ من قبل ما أنكرتَه أو خرستُ، ومالي حيلةٌ ولكنّي وحياتِك يا سيّدي - وإلاّ فعليّ عهدُ الله وميثاقُه والعِتقُ والطّلاق وكلُّ يمين يحلِف بها حالفٌ لازمةٌ لي - لا غَنَّيتُ أبداً إلاّ لِخليفةٍ أو وليّ عهد. فقال: قد أحسنتَ فيما نبّهت عليه من هذا.

ثم ركب وأمرني فأُحضرت، فوقفتُ بين يدي الرشيد وأنا أُرعَد، فاستدناني حتى صرتُ أقربَ الجماعة إليه، ومازَحني وأقبل عليّ وسَكَّن منّي، وأمَرَ جَدّي بالانصراف، وأمر الجماعةَ فحدَّثوني وسُقيت أقداحاً، وغنّى المغنّون جميعاً، فأومأ إليّ إسحاقُ الموصليّ بعَينه أن ابْدَأْ فَغَنِّ إذا بلغت النَوبةُ إليك قبل أن تُؤْمَرَ بذلك ليكونَ ذلك أصلحَ وأجود بك. فلمّا جاءت النَوبةُ إليّ أخذتُ عوداً ممّن كان إلى جَنبي وقمتُ قائماً واستأذنتُ في الغناء. فضحك الرشيد وقال: غَنِّ جالساً. فجلست وغنَّيت لَحْني الأول، فطرب واستعاده ثلاثَ مرّات وشرب عليه ثلاثةَ أنصاف، ثم غنّيت الثاني فكانت هذه حالَه، وسكِر، فدعا بمسرور فقال له: احمِل الساعةَ مع عبد الله عشرةَ آلاف دينار وثلاثين ثوباً من فاخر ثيابي وعَيْبةً مملوءة طِيباً. فحُمل ذلك أجمـعَ معي.

قال عبد الله : ولم أزَلْ كلّما أراد وليُّ عهد أن يعلَمَ مَن الخليفةُ بعد الخليفة الوالي أهو أم غيرُه دعاني فأمَرني بأن أُغنّيَ، فأُعرِّفُه بيميني، فيستأذن الخليفةَ في ذلك، فإن أذِن لي في الغناء عنده عرَف أنه وليُّ عهد، وإلاّ عرف أنه غيرُه، حتى كان آخِرُهم الواثق، فدعاني في أيام المعتصم وسألَه أن يأذنَ لي في الغناء، فأذِن لي، ثم دعاني من الغد فقال: ما كان غناؤك إلاّ سبباً

لظهور سِرّي وسِرّ الخلفاء قبلي، ولقد هممتُ أن آمُرَ بضرب رقَبتك، لا يَبلُغني أنك امتنعتَ من الغناء عند أحد، فواللهِ لئن بلَغني لأقتلنّك، فأَعتِقْ مَن كنت تملِكُه يومَ حلفت، وطَلّق مَن كان يُوجد عندك من الحرائر، واستبدِل بهنّ، وعليّ العِوَضُ من ذلك وأَرِحْنا من يَمينك هذه المشؤومة. فقمت وأنا لا أعقِل خوفاً منه، فأَعتقتُ جميعَ من كان بقي عندي من مماليكـــي الذين حلفتُ يومئذٍ وهم في مِلكي، وتصدّقتُ بجُملة، واستفتَيتُ في يميني أبا يوسُف القاضي حتى خرجتُ منها، وغنّيتُ بعد ذلك إخواني جميعاً حتى اشتَهر أمري وبلغ المعتصمَ خبري، فتخلّصتُ منه.

ثم غضب عليّ الواثق لشيءٍ أنكَره، ووَلي الخلافَةَ وهو ساخطٌ عليّ، فكتبتُ إليـه:

اذكُـرْ أميـرَ المؤمنين وسـائلي	أيـامَ أرهَـبُ سَطوَةَ السـيـفِ
ادعـو إلَـهي أن أراك خـليفـةً	بين المقـام ومسجـد الخَيْـفِ

فدعانـي ورضيَ عنـي.

طائفة من أخباره

● أحمد بن المَرْزُبـان قـال:

جاءني عبدُ الله بن العبّاس في خلافة المنتصر وقد سألَني عرضَ رقعة عليه، فأُعلم أني نائم، وقد كنت شربت بالليل شُرباً كثيراً، فصَلّيتُ الغَداةَ ونمت. فلمّا انتبهتُ إذا رُقعةٌ عند رأسي وفيها مكتوب:

أنـا بالبـاب واقفٌ منذ أصبحتُ	على السَّرج مُمسِكٌ بعِـنـانـي
وبعين البَوّاب كلُّ الذي بي	ويـرانـي كـأنـه لا يـرانـي

فأمرت بإدخاله، فدخل، فعَرّفتُه خبري واعتذرتُ إليه وعرضتُ رقعتَهُ على المنتصر وكلّمتهُ حتى قضى حاجته..

● قال محمد بن الفضل الجُرجاني: أنشدتُ عبد الله بن العباس الرَّبيعيّ

لمُعَلّى الطائيّ:

باكِرْ صَبُوحك صَبْحةَ النَّيْروزِ ... واشرَبْ بكأسٍ مُتْرَعٍ وبِكُوزِ
ضحك الربيعُ إليك عن نُوّارِه ... آسٍ ونِسرينٍ ومَرْ ماحوزِ[1]

فاستعادنيهما، فأعدتُهما عليه، وسألني أن أُمليَهما وصنع فيهما لحناً غَنّى به الواثق في يوم نَيروز، فلم يستعِد غيرَه يومئذٍ وأمر له بثلاثين ألف درهم.

● خالد بن حَمدون قال:

كنّا عند الواثق في يوم دَجْن، فلاح بَرقٌ واستطار فقال: قُولوا في هذا شيئاً. فبَدَرهم عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع فقال هذين البيتين:

أَعِنّي على لامعٍ بارقٍ ... خَفيٍّ كلَمْحِك بالحاجبِ
كأنّ تألُّقَه في السماءِ ... يدا كاتبٍ أو يدا حاسبِ

وصنع فيه لحناً شرب عليه الواثقُ بقيّة يومه، واستحسن شعرَه، ومعناه وصنعته، ووصل عبدَ الله بصلةٍ سَنيّة.

● أحمد بن المرزُبان قال: حدّثني أبي قال:

غضبتْ قَبيحةُ على المتوكّل وهاجرتْه، فجلس ودخل الجُلَساء والمغنّون، وكان فيهم عبدُ الله بن العباس الرَّبيعيّ - وكان قَد عَرَف الخبر - فقال هذا الشعر وغَنّى فيه:

لستَ منّي ولستُ منك فَدَعْني ... وامضِ عنّي مُصاحَباً بسلامِ
لم تَجِدْ علّةً تجنّى بها الذَّنب ... فصارت تعتلُّ بالأحلام
فإذا ما شكوتُ ما بيَ قالت ... قد رأينا خلافَ ذا في المَنامِ

قال: فطرب المتوكل وأمر له بعشرين ألف درهم وقال له: إنّ في حياتك يا عبد الله لأنساً وجمالاً وبقاءً للمرُوءة والظَّرف.

---

(١) الماحوز والمرماحوز: الريحان.

● عن محمد بن حُسيـن قـال:

كنّا عند أبي عيسى بن الرشيد في زمن الرّبيع ومعنا مُخارق، وعَلُّويه، وعبـد الله بن العبّاس الـرَّبيعيّ، ومحمـد بن الحـارث بن بُسخُنَّـر، ونحن مُصطَبِحون في طارمة(١) مضروبة على بستانه، وقد تفتّح فيه وردٌ وياسمينٌ وشقائقُ، والسماء مُتغيِّمةٌ غيماً مُطبِقاً وقد بدأت تَرُش رشّاً ساكباً، فنحن في أكمل نشاطٍ وأحسنِ يومٍ إذ خرجتْ قَيِّمةُ دار أبي عيسى فقالت: يا سيِّدي، قد جاءت عَساليجُ. فقال: لِتَخرُجْ إلينا فليس بَحَضْرتنا من تحتَشِمُه. فخرجت إلينا جاريةٌ شَكِلة(٢) حُلوة حسنةُ العَقْل والهَيئة والأدب، في يدها عود. فسَلّمت، فأمرها أبو عيسى بالجلوس فجلستْ، وغنّى القومُ حتى انتهى الدَّور إليها وظننّا أنها لا تصنع شيئاً وخِفنا أن تهابَنا فتَحصَر، فغنّت غناءً حَسَناً مُطَرباً متقَناً، ولم تَدَعْ أحداً ممّن حضرَ إلاّ غنّت صوتاً من صنعته وأدّته على غاية الإحكام. فطرِبنا واستَحسنّا غناءها وخاطبناها بالاستحسان، وألحّ عبدُ الله بن العبّاس من بيننا بالاقتراح عليها والمُزاح معها والنَّظر إليها، فقال له أبو عيسى: عَشِقتَها وحياتي يا عبدَ الله. قال: لا والله يا سيّدي وحياتِك مـا عشقتُها، ولكني استحسنت كلَّ ما شاهدتُ منها من منظر وشَكل وعقل وعِشرة وغناء. فقال له أبو عيسى: فهذا والله هو العِشقُ وسببُه، ورُبَّ جِدٍّ جَرّه اللّعبُ. وشرِبنا، فلمّا غلب النبيذُ على عبد الله غنّى أهزاجاً قديمة وحديثة وغنّى فيما غنّى بينهما هَزَجاً في شعر قاله فيها لِوقته فما فطِن له إلاّ أبو عيسى، وهو:

نـطق الـسُّـكْـرُ بـسِـرّي فـبـدا ... كم يُـرَى المكتومُ يَخفَى لا يَضِـحْ
سِـحْـرُ عَـيـنـيـك إذا مـا رَنَـتـا ... لم يَـدَعْ ذا صَبْـوةٍ أو يَـفْتَضِـحْ
مـلـكـت قـلـبـاً فـأمـسـى غَلِقاً ... عنـدهـا صَبّـاً بهـا لم يَسـتـرِحْ
بـجـمـالٍ وغـنـاء حَـسَـنٍ ... جَـلّ عن أن ينتَقِيـه المُـقْتَـرِحْ
أورث الـقـلـب هـمـومـاً ولـقـد ... كـنـتُ مـسـروراً بـمـرآه فَـرِحْ

---

(١) الطارمة: بيت من خشب كالقبـة.

(٢) امرأة شكلة: ذات دلّ وغنج.

ولكم مُغْتَبِقٍ همّاً وقد باكر اللهوَ بُكورَ المُصْطَبِحْ(١)

فقال له أبو عيسى: فعلتها واللهِ يا عبدَ الله. وطار طَرَباً وشرب على الصَّوت وقال له: صحّ واللهِ قولي لك في عساليج، وأنت تُكابرُني حتى فَضَحك السُّكرُ. فجَحَدَ وقال: هذا غناءٌ كنت أَرويه. فحلف أبو عيسى أنه ما قاله ولا غنّاه إلاّ في يومه وقال له: احلِفْ بحياتي أن الأمر ليس هو كذلك، فلم يفعل، فقال له أبو عيسى: والله لو كانت لي لَوهبتُها لك ولكنها لآل يحيى ابن مُعاذ، والله لَئن باعوها لأُملِّكَنَّك إياها ولو بكلّ ما أملِك، وحياتي لَتنصَرفنّ قبلَك إلى منزلك. ثم دعا بحافظتها وخادمٍ من خدَمه فوَجّه بها معهما إلى منزله، والتوى عبدُ الله قليلاً وتجلّد وجاحدَنا أمرَه ثم انصرف.

واتّصل الأمرُ بينهما بعد ذلك، فاشترتْها عمّتُه رُقَيّة بنتُ الفضل بن الربيع من آل يحيى بن مُعاذ، وكانت عندهم حتى ماتت.

فحدّثني جعفرُ بن قُدامة بن زياد عن بعض شيوخه.. قال: قالت بَذْلُ الكبيرة لعبد الله بن العبّاس: قد بلَغني أنك عشِقت جاريةً يقال لها عَساليج فاعرِضْها عليّ، فإمّا أن عَذَرتُك وإما أن عَذَلْتُك. فوجَّه إليها، فحضرَت وقال لبَذْل: هذه هي يا سِتّي فانظُري واسمعي ثم مُريني بما شئتِ أُطِعْك. فأقبلت عليه عساليجُ وقالت: يا عبدَ الله أتشاور فيَّ! فوالله ما شاورتُ فيك لمّا صاحبتُك. فنَعَرت بَذْل وصاحت: إيه، أحسنتِ والله يا صَبيّةُ! ولو لم تُحسِني شيئاً ولا كانت فيكِ خَصلةٌ تُحمَد لَوجب أن تُعشَقي لهذه الكلمة، أحسنتِ واللهِ! ثم قالت لعبد الله: ما ضَيَّعتَ، احتفِظ بصاحبتك.

● عبد الله بن العبّاسِ بن الفضل بن الربيع قال:

غنيّت المتوكّل ذاتَ يوم:

أحبّ إلينا منك دَلاًّ وما يَرى له عند فِعلي من ثوابٍ ولا أَجْرِ

---

(١) غلقاً: رهيناً. اغتبق: شرب عند المساء وعكسه اصطبح.

فطرب وقال: أحسنتَ والله يا عبد الله، أما واللهِ لو رآك الناسُ كلُّهم كما أَرَاك لما ذكروا مُغَنّياً سواك أبداً.

● قال عبد الله بن العبّاس الرّبيعيّ:

لَقِيني سَوّارُ بنُ عبد الله القاضي - وهو سَوّارُ الأصغر - فأصغى إليّ وقال: إن لي إليك حاجةً فَأْتِني في خَفْيٍ. فجئتُهُ فقال: لي إليك حاجةٌ قد أنِستُ بك فيها، لأنك لي كالولَد، فإن شَرَطتَ لي كِتْمانَها أفضَيت بها إليك. فقلت: ذلك للقاضي عليَّ شَرطٌ واجب. فقال: إني قلت أبياتاً في جارية لي أَميل إليها، وقد قَلَتْني وهَجَرتْني، وأحببتُ أن تصنعَ فيها لحناً وتُسمِعَنيه، وإن أظهرتَه وغنّيته بعدُ ألّا يعلمَ أحدٌ أنه شعري فلست أبالي، أتفعل ذلك؟ قلت: نعم، حُبّاً وكرامة. فأنشدَني:

سَلبتِ عظامي لحمَها فتركِتها ... عَواريَ في أَجلادها تتكسَّرُ
وأخليتِ منها مُخَّها فكأنَّها ... أنابيبُ في أجوافها الرِّيحُ تَصفِرُ
إذا سمعتْ باسم الفراقِ تَرعَّدتْ ... مفاصلُها من هول ما تتحذَّرُ
خُذي بيدي ثم اكشِفي الثوبَ فانظُري ... بِلَى جَسَدي لكنَّني أَتَسَتَّرُ
وليس الذي يجري من العين ماؤها ... ولكنّها رُوحٌ تَذوبُ فَتَقْطُرُ(١)

قال عبد الله: فصنعت فيه لحناً ثم عَرّفتَه خبرَه في رُقعة كتبتُها إليه وسألته وعداً يَعِدُني به للمَصير إليه. فكتب إليّ: نظرت في القِصّة فوجدتُ هذا لا يصلحُ ولا ينكتمُ عليّ حضورُك وسَماعي إياك، وأسألُ اللهَ أن يَسُرَّك ويُبقيك. فغنَّيت الصوت وظهر حتى تغنّى به الناسُ، فلَقِيني سَوّارٌ يوماً فقال لي: يابنَ أخي، قد شاع أمرُك في ذلك الباب حتى سمعناه من بُعد كأنّا لم نعرِف القصّة فيه. وجعلنا جميعاً نضحك.

● محمد بن محمد بن موسى قال:

سمعتُ عبد الله بن العبّاس يغنّي ونحن مجتمعون عند علّويه بشعرٍ في

---

(١) الأجلاد: جمع جلد. وأجلاد الإنسان أيضاً وتجاليده: جماعة شخصه وجسمه.

النَّصرانيّة التي كان يهواها والصَّنعةُ له:

إنّ في القلب من الظَّبْي كُلومْ ... فَدَعِ اللَّومَ فإن اللومَ لُومْ
حبّذا يومُ السَّعانين وما ... نلتُ فيه من نعيمٍ لو يدومْ
إن يكُنْ أعظمتَ أن هِمتُ به ... فالذي تركَبُ من عَذْلي عظيمْ
لم أكن أوّلَ مَن سنّ الهوى ... فدعِ اللومَ فذا داءٌ قديمْ[1]

● عبد الله بن العبّاس قال:

كنت مقيماً بسُرّ مَن رأى وقد ركبني دَينٌ ثقيل أكثرُه عِينةٌ[2] ورِباً، فقلت في المتوكل:

اسقِياني سَحَراً بالكُبُّرَه ... ما قَضَى اللهُ ففيه الخِيَره
أكرمَ اللهُ الإمامَ المرتَضَى ... وأطال اللهُ فينا عُمُرَه
إن أكُنْ أُقعِدْتُ عنه هكذا ... قدّر اللهُ رضِينا قَدَره
سَرّه اللهُ وأبقاه لنا ... ألفَ عامٍ وكفانا الفَجَره[3]

وبعثت بالأبيات إليه ، وكنت مستتراً من الغُرَماء ، فقال لعبيد الله بن يحيى: وَقِّع إليه: من هؤلاء الفَجَرة الذين استكفيتَ اللهَ شَرَّهم؟ فقلت: المُعَيِّنون[4] الذين قد ركِبني لهم أكثرُ ممّا أخذت منهم من الدَّين بالرِّبا. فأمر عبيدَ الله أن يقضيَ دَيني وأن يحتسِبَ لهم رؤوسَ أموالهم ويُسقِطَ الفَضْل، ويُنادي بذلك في سُرّ مَن رأى حتى لا يَقضِيَ أحدٌ أحداً إلا رأسَ ماله، وسقط عنّي وعن الناس من الأرباح زُهاءُ مائة ألف دينار كانت أبياتي هذه سبَبها.

* . * . * . *

(١) يوم السعانين: من أعياد النصارى وفيه يحيّي بعضهم بعضاً بالرياحين ويعرف اليوم باسم «عيد الشعانين».
(٢) العينة: السلف وأن يبيع الرجل سلعته بثمن إلى أجل ثم يشتريها منه بأقل من ذلك الثمن اتقاءً للربا.
(٣) الكبرة: أراد القدح الكبير وكبّرة القوم: أكبرهم.
(٤) المعيّن (بالكسر): الذي يقرض بالعينة.

[٣٥]

عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر

[الأغاني الجزء ٩ ص ٤٠ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحُسين، ويكنى أبا أحمد. وله محلٌّ من الأدب والتصرُّف في فنونه ورواية الشعر وقولِه والعلمِ باللغة وأيام الناس وعلوم الأوائل من الفلاسفة في الموسيقا والهندسة وغيرِ ذلك ممّا يجِلّ عن الوصف ويكثُر ذِكرُه. وله صنعةٌ في الغناء حَسَنةٌ متقَنةٌ عجيبة تدلّ على ما ذكرناه ها هنا من توصُّله إلى ما عَجَز عنه الأوائلُ من جَمع النَّغَمِ كلِّها في صوت واحد تتبَّعَه هو وأتى به على فضله فيها وطَلبه لها. وكان المعتضد بالله، رحمةُ الله عليه، ربما كان أراد أن يصنع في بعض الأشعار غناءً وبحضرته أكابرُ المغنّين مثل القاسم بن زُرزُور وأحمد بن المكّيّ ومَن دونَهما مثل أحمد ابن أبي العَلاَء وطبقتهم، فيعدِل عنهم إليه فيصنعُ فيها أحسنَ صنعة، ويترفّعُ عن إظهار نفسه بذلك ويُومىء إلى أنه من صنعة جاريته شاجي، وكانت إحدى

المحسِنات المبرِّزات المقدَّمات، وذلك بتخريجه وتأديبه، وكان بها معجَباً ولها مُقدِّماً..

ومن نادر صنعة عبيد الله وجيّد شعره قوله:

أَنـفِقْ إذا أيـســرتَ غـيـرَ مُـقَـتّـرٍ وأنفِقْ على مــا خَيَّلتْ حين تُعسِـرُ
فلا الجُودُ يُفني المالَ والمالُ مُقبِلٌ ولا البُخلُ يبقي المالَ والجَدُّ مُدبِرُ(١)

وأشعارهُ كثيرة جيّدة كثيرةُ النادر والمختار. وكتابهُ في النَّغم وعِلَلِ الأغاني المسمّى «كتاب الآداب الرفيعة» كتابٌ مشهور جليلُ الفائدة دالٌّ على فضل مؤلّفه.

ومن الأصوات التي تجمع النَّغمَ العشر، وهو يجمع النغمَ العشرَ كلَّها على غير تَوالٍ:

وإنـك إذ أطمعتَني منك بـالـرِّضـا وأيـأستَني من بعد ذلـك بـالغَضَبْ
كَمُمْكِنـةٍ من ضَـرعِهـا كفَّ حـالبٍ ودافقـةٍ من بعـد ذلــك مـا حَلَبْ

الشعــر لإبراهيم بن عليّ بن هَرْمــة، والغنــاء في هذا اللحن الجامع للنَّغم لعُبيد الله بن عبد الله بن طاهــر.

*. *. *. *. *. *

---

(١) على ما خيّلت: على أيّ حال.

[٣٦]

عَشْعَث

[الأغاني الجزء ١٤ ص ٢١١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

كان عَشعَثُ أسودَ مملوكاً لمحمد بن يحيى بن مُعاذ، ظهر له طبعٌ وحُسن أخذ وأداءٍ فعلّمه الغِناء وخرّجه وأدّبه، فبرع في صناعته، ويُكنى أبا دُلَيجة. . . .

قال ميمون: وكان مُخارق يشتهي غناءه ويحزنه إذا سمعه.

طائفة من أخباره

● ابن حمدون قال:

كنا يوماً مجتمعين في منزل أبي عيسى بن المتوكّل، وقد عَزمنا على الصَّبوح، ومعنا جعفر بن المأمون، وسليمان بن وهب، وإبراهيم بن المدبِّر، وحضرتْ عَريبُ وشارية وجواريهما، ونحن في أتمّ سرور، فغنّت بِدعةُ جارية عريب:

أعـاذلتي أكثرتِ جهـلاً من العَـذْل   على غير شيءٍ من مَلَامي وفي عَذْلي

والصَّنعة لعَريب، وغنّت عِرفـانُ:

إذا رام قلبي هجـرَهـا حـال دونَه   شفيعـان من قلبي لـهـا جَـدِلانِ

والغناء لشارية، وكان أهلُ الظَّـرف والمُتَعانُـون في ذلك الوقت صِنفَين: عَرِيبيّة وشاريّة، فمال كلُّ حزب إلى من يتعصب له منهما من الاستحسان والطّرب والاقتراح، وعريب وشاريـةُ ساكنتـان لا تَنطِقـان، وكلّ واحـدة من جواريهما تغنّي صنعةَ سِتّها لا تتجاوزها، حتى غنّت عِرفانُ:

بـأبي مَـن زارني في مَـنـامي   فـدنـا مـنّـي وفـيـه نِـفـارُ

فأحسنتْ ما شاءت، وشربنا جميعاً. فلمّا أمسكتْ قالت عريبُ لشارية: يا أُختي، لِمن هذا اللحن؟ قالت: لي، كنت صنعتُهُ في حياة سيِّدي - تعني إبراهيمَ بن المهديّ - وغنيّتُه إياه فـاستحسنه، وعـرَضَه على إسحـاقَ وغيره فاستحسنوه. فأَسكتتْ[1] عريبُ، ثم قالت لأبي عيسى: أُحبّ يا بُنيّ - فديتُك - أن تبعثَ إلى عَثعَث فتجيئَني به. فوَجّه إليه، فحضر وجلس، فلمّا اطمأنّ وشرب وغنّى قالت له: يا أبا دُليجةَ، أوَ تذكُر صوتَ زُبير بن دَحمَان عندي وأنت حاضر، فسألتَه أن يطرحَه عليك؟ قال: وهل تنسى العذراءُ أبا عُذرها[2]! نعم، والله إنّي لذاكرُه حتى كأننا أمسِ افترقْنا عنه. قالت: فغَنِّه. فاندفع فغنّى الصـوت الذي ادّعتْـه شاريـةُ حتى استوفـاه. وتضاحكتْ عَـريبُ، ثم قالت لجواريها: خُذوا في الحق ودَعُونا من الباطل وغَنُّوا الغناء القديم. فغنّت بِدعةُ وسائر جواري عريب، وخجلت شارية وأطرقت وظهر الانكسارُ فيها، ولم تنتفع هي يومئذٍ بنفسها ولا أحدٌ من جواريها ولا مُتعصّبيها أيضاً بأنفسهم.

---

(١) أسكتت: انقطعت عن الكلام.

(٢) أبو عذرها وأبو عذرتها: من افتض بكارتها.

● يحيى بن حَمدون قال:

قال لي عَثعَث الأسود: دخلتُ يوماً على المتوكّل وهومصطبح، وابن المارقيّ يغنِّيه قولَه:

أقاتلتي بالجِيد والقَدّ والخدِّ   وباللون في وجهٍ أرقَّ من الوردِ

وهو على البركة جالسٌ، وقد طرب واستعاده الصوتَ مِراراً وأقبل عليه، فجلست ساعةً ثم قمت لأبولَ، فصنعتُ هَزجاً في شعر البحتريّ الذي يصف فيه البركة:

إذا النجومُ تراءت في جوانبها   ليلاً حسبتَ سماءً رُكِّبت فيها
وإن علتْها الصَّبا أبدتْ لها حُبُكاً   مثلَ الجَواشِن مصقولاً حواشيها
وزادها زينةً من بعد زِينتها   أن اسمَه يومَ يُدْعَى من أساميها[1]

فما سكت ابنُ المارقيّ سكوتاً مستوجَباً حتى اندفعتُ أغنّي هذا الصوت، فأَقبل عليّ وقال لي: أحسنتَ وحياتي، أَعِدْ. فأعدتُ، فشرب قدحاً، ولم يزل يستعيد يه ويشرب حتى اتّكأ، ثم قال للفتح: بحياتي، ادفَع إليه الساعةَ ألفَ دينار وخِلعةً تامّة واحمله على شِهْريّ فارهٍ[2] بسَرجه ولِجامه. فانصرفت بذلك أجمع.

● أحمد بن طَيفور قال:

كتب صديق لأحمد بن يوسف الكاتب في يوم دَجْن: «يومُنا يومٌ ظريف النَّواة، رقيق الحواشي، قد رعَدت سماؤه وبَرَقت، وحنّتْ وارجحنّتْ[3]، وأنت قُطبُ السّرور، ونظام الأمور، فلا تُفرِدْنا منك فنَقلّ، ولا تَنفرد عنّا فنَذِلّ، فإن المرء بأخيه كثير، وبمساعدته جدير». قال: فصار أحمدُ بن يوسف إلى الرجل، وحضرَهم عَثعث الأسودُ فقال أحمد:

---

(١) الحبك: طرائق الماء. الجواشن ج: جوشن: الدرع.
(٢) الشهري: ضرب من البراذين. الفاره: الجيِّد السير.
(٣) ارجحن السحاب: مال من ثقله.

أرى غَـيْمـاً يُـؤلفّـه جَـنُـوبُ   وأحـسِبـه سـيـأتيـنـا بَـهَـطْلِ
فعين الـرأي أن تـأتي بـرِطْـلٍ   فتشـربَـه وتـدعـو لي بـرطـلِ
وتـسـقيـه نَـدامـانـا جـمـيعـاً   فينصـرفـون عنـه بغيـر عـقـلِ
فيـومُ الغَـيم يـومُ الـغَـمّ إن لـم   تُبـادرْ بـالمُـدامـة كـلَّ شُـغـل
ولا تُـكـرِه مُـحـرِّمَـهـا عليـهـا   فـإنّـي لا أراه لـهـا بـأَهـلِ

قال : وغنّى فيه عثعث اللحن المشهـور الذي يُغنّى به اليـوم.

* . * . * . * . *

[٣٧]

عَطَرَّد

[الأغاني الجزء ٣ ص ٣٠٣ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

عَطَرَّد مولى الأنصار، ثم مَولَى بني عَمرو بن عوف. وقيل: إنه مولى مُزينة. مَدَنيٌّ، يُكنَى أبا هارون، وكان ينزِل قُباء. وزعم إسحاق أنه كان جميل الوجه، حسنَ الغِناء، طيِّبَ الصوت، جيّد الصَّنعة، حسن الرأي والمُروءة، فقيهاً، قارئاً للقرآن. وكان يغنّي مرتجلاً، وأدرك دولة بني أمية وبقي إلى أيام الرشيد، وذكر ابنُ خَرْداذْبة ـ فيما حدّثني به عليٌّ بن عبد العزيز عنه ـ أنه كان معدَّل الشهادة بالمدينــة. . .

طائفة من أخباره

● عن محمد بن عبد الحميد بن إسماعيل بن عبد الحميد بن يحيى عن عمّه أيّوب بن إسماعيــل قــال:

لَمّا استُخْلِف الوليد بن يزيد كتب إلى عامله بالمدينة يأمره بالشُخوص إليه بعَطَّرَد المغنّي. قال عطرّد: فأقرأني العاملُ الكتاب وزوّدني نَفقةً وأشخَصني إليه، فأُدخلت عليه وهو جالسٌ في قصره على شَفير بِركةٍ مُرَصَّصةٍ مملوءةٍ خمراً ليست بالكبيرة ولكنها يدور الرجلُ فيها سباحةً، فوالله ما تركني أُسلِّم عليه حتى قال: أَعَطَّردُ؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: لقد كنت إليك مشتاقاً يا أبا هارون، غَنِّني:

حَيِّ الحُمولَ بجانب العَزْلِ | إذ لا يُلائمُ شَكلُها شَكلي
إنّي بحَبْلِك واصلٌ حَبْلي | وبِريشِ نَبْلِك رائشٌ نَبْلي
وشمائلي ما قد علمتِ وما | نبحتْ كلابُكِ طارقاً مثلي(١)

قال: فغنّيتُه إياه، فوالله ما أتممتُه حتى شقّ حُلّةَ وَشْي كانت عليه لا أدري كم قِيمتُها، فتجرّد منها كما ولدتْه أمُّه، وألقاها نِصفين، ورمى بنفسه في البركة فنَهِل منها حتى تبيّنتُ ـ عِلم اللهُ ـ فيها أنها قد نقصَتْ نُقصاناً بَيّناً، وأُخرج منها وهو كالميّت سُكراً، فأُضجِع وغُطّي؛ فأخذتُ الحُلّةَ وقمتُ، فواللهِ ما قال لي أحدٌ: دَعْها ولا خُذها. فانصرفت إلى منزلي متعجّباً ممّا رأيت من ظَرفه وفِعله وطَربه. فلمّا كان من غدٍ جاءني رسولُه في مثل الوقت فأحضرَني، فلمّا دخلتُ عليه قال لي: يا عَطَرَّدُ. قلت: لَبَّيك يا أمير المؤمنين. قال: غَنِّني:

أيذهبُ عُمري هكذا لم أَنَلْ بها | مجالسَ تَشفي قَرْحَ قلبي من الوجدِ
وقالوا تَداوَ إنّ في الطِّبّ راحةً | فعلَّلتُ نفسي بالدواء فلم يُجْدِ

فغنّيتُه إياه، فشقّ حُلّة وَشْي كانت تلتمع عليه بالذهب التماعاً احتقرتُ ـ واللهِ ـ الأولى عندها، ثم ألقى نفسه في البِركة فنَهِل فيها حتى تبيَّنتُ ـ علم ـ اللهُ ـ نقصانَها، وأُخرج منها كالميّت سُكراً، وأُلقي وغُطّي فنام، وأخذت

---

(١) الحمول: الهوادج أو الإبل عليها الهوادج الواحد حِمْل (بالكسر). العزل: اسم موضع.

الحُلّة، فوالله ما قال لي أحدٌ: دَعْها ولا خُذْها؛ وانصرفتُ. فلمّا كان اليومُ الثالث جاءني رسولُه، فدخلت إليه وهو في بَهْوٍ قد أُلقِيَتْ سُتورُه، فكلّمني من وراء السُّتور وقال: يا عَطَرَّدُ. قلت: لَبَّيك يا أمير المؤمنين. قال: كأنّي بك الآنَ قد أتيتَ المدينة فقُمتَ بي في مَجلسها ومَحفِلها وقعدتَ وقلتَ: دعاني أميرُ المؤمنين، فدخلت إليه، فاقترح عليّ، فغنّيتُه وأطربتُه، فشقّ ثيابَه وأخذتُ سَلَبَه وفعل وفَعل؛ والله يابن.....، لئن تحرّكتْ شفَتاك بشيءٍ ممّا جرى فبلَغني لأضربنّ عُنُقك؛ يا غلامُ أَعطِه ألفَ دينار؛ خُذها وانصرف إلى المدينة. قلت: إن رأى أميرُ المؤمنين أن يأذن لي في تقبيل يده، ويُزوّدني نَظرةً منه وأُغنّيه صوتاً. فقال: لا حاجةَ بي ولا بك إلى ذلك، فانصرِفْ. قال عطرّد: فخرجت من عنده وما عَلِم الله أني ذكرت شيئاً ممّا جرى حتى مضت من دولة بني هاشم مُدّة.

● عن إسحـاق قـال:

كان عَطرّد منقطعاً في دولة بني هاشم إلى آل سليمان بن عليّ لم يخدِمْ غيرَهم، وتُوفيّ في خلافة المهديّ. قال: وكان يوماً يغنّي بين يَدَي سليمان بن عليّ، فغنّاه:

أَلْـهُ فكم من مـاجـدٍ قـد لَهـا   ومـن كـريـمٍ عِـرضُـه وافـرُ

فقيـل له: سرقتَ هذا من لحن الغَريض:

يـا ربـعَ سَـلّامـةَ بـالـمُنْحَنـى   فـخيـف سَلْعٍ جـادك الـوابـلُ(١)

فقال: لم أَسرِقْه ولكنّ العقول تتوافق. وحلَف أنه لم يسمعه قطّ.

● خالـد بن كلثـوم قـال:

كنت مع زَبْراء بالمدينة وهو والٍ عليها، وهو من بني هاشم أحدُ بني ربيعة

---

(١) الخيف: ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيـل الماء. سلع: اسم لمواضع كثيـرة.

ابن الحارث بن عبد المطلّب ـ فأمر بأصحاب الملاهي فحُبسوا وحُبس عَطرّد فيهم، فجلس لِيعرضَهم، وحضر رجالٌ من أهل المـدينة شفّعـوا لعطرّد، وأخبروه أنه من أهل الهَيئة والمُروءة والنِّعمة والدِّين، فدعا به فَخَلّى سبيلَه وأمره برفع حوائجه إليه، فدعا له وخرج فإذا هو بالمغنّين أُحضِروا لِيُعْرَضَوا، فعاد إليه عطرّد فقال: أصلح الله الأمير، أعَلى الغِناء حبستَ هؤلاء؟ قال: نعم. قال: فلا تَظِلمهم، فوالله ما أحسنوا منه شيئاً قط! فضحك وخَلّى سبيلهـم.

* . * . * . * . *

[٣٨]

عَلَّوَيه(*)

[الأغاني الجزء ١١ ص ٣٣٣ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو عليّ بن عبد الله بن سَيف، وكان جَدُّه من السُّغْد(١) الذين سَباهم الوليد بن عثمان بن عفّان واسترقّ منهم جماعةً اختصّهم بخِدمته وأعتق بعضَهم ولم يُعتِق الباقين فقتلوه.

ويكنى عَلَويْهِ أبا الحسن، وكان مغنّياً حاذقاً، ومؤدِّباً(٢) محسناً، وصانعاً

(*) علويه: يضبط بوجهين: الأول بفتح العين وتشديد اللام وضمها مع المدّ وفتح الياء وإعرابه إعراب الممنوع من الصرف والثاني بفتح العين وفتح اللام مع تشديدها وفتح الواو واسكان الياء وبناء الهاء على الكسر، والوجه الثاني أصح وعلى هذا يجرى في الأسماء الأعجمية المختومة بهـاء.

(١) السغـد : ناحية بها قرى كثيرة بن بخارى وسمرقند ويقال لسكانها السغد أو الصغد.

(٢) كذا في المطبوعة وأرى أنها مصحفة عن «مؤدِّيا» لأن الأوصاف التي ذكرت تتصل كلها بالغناء.

مُتفَنِّناً. وضارباً متقدِّماً، مع خفّة رُوح، وطِيب مجالسة، ومَلاحة نوادر. وكان إبراهيم الموصليّ عَلّمه وخَرّجه وعُني به جدّاً، فَبَرع وغَنّى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكل، ومات بعد إسحاق بمُديدة يسيرة. وكان سببُ وفاته أنه خَرَج به جَرَبٌ فشكاه إلى يحيى بن ماسَوَيه، فبعث إليه بدَواء مُسهِلٍ وطِلاء، فشرب الطِّلاء واطَّلى بالدواء المُسهِل، فقتله ذلك. وكان إسحاقُ يتعصّب له في أكثر أوقاته على مُخارِق، فأمّا التقديمُ والوصفُ فلم يكن إسحاق يرى أحداً من جماعته لهما أهلاً، فكانوا يتعصّبون عليه لإبراهيم بن المهديّ، فلا يَضرُّه ذلك مع تقدُّمه وفَضْله.

حمّاد بن إسحاق قال: قلت لأبي: أيُّما أفضلُ عندك مُخارقٌ أو عَلُّويَه.؟ فقال: يا بُنيّ، عَلَّوَيهِ أَعرفُهما فهماً بَما يخرُج من رأسه وأعلَمُهما بما يُغنّيه ويُؤَدّيه، ولو خُيّرتُ بينهما من يُطارح جَواريّ أو شاورني مَن يَستنصحُني لما أشرتُ إلا بعلّويه، لأنه كان يؤدي الغناء وصَنع صنعةً مُحكَمةً؛ ومُخارقٌ بتمكُّنه من حَلقه وكثرة نَغَمه لا يُقنع بالأخذ منه لأنه لا يؤدّي صوتاً واحداً كما أخذه ولا يغنّيه مرّتَين غناءً واحداً لكثرة زوائده فيه، ولكنهما إذا اجتمعا عند خليفةٍ أو سُوقة غلبَ مُخارقٌ على المجلس والجائزة لِطيب صوته وكثرة نَغَمه.

عُبيدَ الله بن عبد الله بن طاهر قال:

سمعت أبي يقول: سمعت الواثق يقول: علّويه أصحُّ الناس صنعةً بعد إسحاق، وأطيب الناس صوتاً بعد مُخارق، وأَضرَبُ الناس بعد زَبْرَب ومُلاحظ، فهو مُصَلّي[1] كلِّ سابقٍ قادر، وثاني كل أول واصلٍ متقدِّم. قال: وكان الواثق يقول: غناء علّويه مثلُ نَقْر الطَّسْت يبقى ساعةً في السَّمع بعد سكوته.

هارون بن مخارق قال: كان علّويه أعسرَ، وكان عُودُه مقلوب الأوتار: البَمّ أسفلَ الأوتار كلها ثم المَثْلَث فوقه ثم المَثْنى ثم الزِّير، وكان عُوده إذا كان في

---

(١) المصلّي من الخيل: الذي يجيء بعد السابق.

يد غيره مقلوباً على هذه الصفة وإذا كان معه أخذه باليُمنى وضرب باليُسْرَى، فيكون مستوياً في يده ومقلوباً في يد غيـــره.

هارون بن مخارق قال: حدّثنـــي أبـي قـــال:

قلت لعَمرو بن بانة: أيُّما أجودُ صنعتُك أم صنعةُ علّويه؟ فقال: صنعةُ علّويه، لأنه ضاربٌ وأنا مرتجل(١). ثم أطرق ساعةً وقال: لا أكذِبُك يا أبا المُهَنّا والله ما أُحسِن أن أصنع مثل صنعة علّويه:

فـواحسـرتـا لم أقضِ منـكِ لُبـانـةً ... ولـم أتمتّعْ بـالجِـوار وبـالقُـرْبِ

ولا مثل صنعته:

هزِئتْ أميمةُ أن رأتْ ظهري انحنى ... وذُؤابتي عُـلّتْ بـمـاء خِـضـابِ

ولا مثـــل صنعتـــه:

ألا يـا حَمامَي قصر دُورانَ هِجتُما ... لقلبي الهـوى لمّـا تَغنَّيتُمـا لـيـا

طائفة من أخباره

● محمد بن عبد الله بن مالك قـــال:

كان علّويه يغنّي بين يدي الأمين، فغنّى في بعض غنائه:

ليت هنـداً أنجـزَتْـنـا مـا تَعِـدْ ... وشـفـت أنـفُـسَـنَـا مـمّـا تَـجِـدْ

وكان الفضل بن الربيع يطعنُ عليه فقال للأمين: إنّما يُعرِّض بك ويَستبطيء المأمون في محاربتك. فأمر به فضُرب خمسين سَوطاً وجُرّ برِجْله وجفاه مُدّةً، حتى ألقى نفسه على كَوثر فترضّاه له ورُدّ إلى خِدمته وأمر له بخمسة آلاف دينـــار.

فلمّا قدِم المأمونُ تَقرّب إليه بذلك فلم يقع له بحيث يُحبّ وقال له: إن

---

(١) المرتجل: من يغني بدون الاستعانة بعود أو آلة من آلات الطرب.

المَلِك بمنزلة الأسد أو النار، فلا تتعرَّضْ لما يُغضبه، فإنه ربما جرى منه ما يُتلِفُك ثم لا تقدِر بعد ذلك على تَلاقي ما فَرَط منه. ولم يُعطه شيئاً..

● أحمد بن الخليل بن هشام قال:

كان بين علّويه وبين عليّ بن الهَيثم جَوْنَقا شرٌّ في عَربدة وقعت بينهما بحضرة الفَضل بن الربيع، وتمادى الشرُّ بينهما، فَغَنى علّويه في شعر هجاه به أبو يعقوب[1] في حاجة، فهجاه وذكر أنه دَعِيّ ـ وكان جَوْنَقا يدّعي أنه من بني تَغلب ـ فقال فيه أبو يعقوب:

يا عليُّ بنَ هيثمٍ يا جَوْنَقا ... أنت عندي من الأراقم حَقّا
عربيٌّ وجدّه نَبَطيٌّ ... فَدَبَنْقا لذا الحديث دَبَنْقا
قد أصابتْك في التقرُّب عينٌ ... فاستنارت لشُهْبها الفُلكُ بَرقا
وإذا قال إنني عربيٌّ ... فانتَهِرْه وقل له أنت شفْقا[2]

ـ وللخُرَيميّ فيه أهاجٍ كثيرةٌ نَبَطيّة ـ فغنّى علّويه لحناً صنَعَه في هذه الأبيات بحضرة الأمين، وكان الفضلُ بن الربيع حاضراً فقال: يا أميرَ المؤمنين، عليُّ بن الهيثم كابني، وإذا استخفّ به فإنّما استخفّ بي. فقال الأمين: خُذوه. فأخذوه وضُرب ثلاثين دِرّةً، وأمر بإخراجه، فطرح علّويه نفسَه على كوثر، فاستصلح له الفضل بن الربيع وترضّى له الأمين حتى رَضِي عنه ووهب له خمسةَ آلاف دينار.

● عبد الله الهشاميّ قال:

قال لي علّويه: أَمَرنا المأمونُ أن نُباكِره لِنصطبحَ، فلقِيني عبد الله بن

---

(١) أبو يعقوب: هو إسحاق بن حسّان المعروف بالخريمي لاتصاله بخريم بن عامر المرّي نزل بغداد وأصله من أبناء السغد، وهو شاعر مجيد من شعراء العصر العباسي.

(٢) الأراقم: بطن من تغلب. دبنق وشفق: لفظان نبطيان على الأرجح، وفي العربية: الشَفَق ـ بالتحريك ـ وهو الرديء من الأشياء.

إسماعيل المَراكبيّ، مَولَى عَريب، فقال: أيها الظالمُ المعتدي أما تَرحمُ ولا تَرقّ! عَريب هائمةٌ من الشوق إليك تدعو الله وتَستحكمُهُ عليك وتحلُم بك في نومها في كل ليلةٍ ثلاثَ مرّات. قال علّويه: فقلت :أم الخلافة. . . ومضيتُ معه. فحين دخلت قلت: استَوثِقْ من الباب، فأنا أعرَفُ الناس بفُضول الحُجّاب. فإذا عَريبُ جالسةٌ على كُرسيّ تطبُخ ثلاثَ قُدور من دَجاج، فلمّا رأتني قامت فعانَقَتْني وقَبَّلَتْني وقالت: أيَّ شيء تشتهي؟ فقلت: قِدراً من هذه القدور. فأفرغتْ قِدْراً بيني وبينَها، فأكَلْنا، ودعتْ بالنَّبيذ فصبَّتْ رِطلاً فشربت نصفَه وسقَتْني نصفه، فما زلت أشربُ حتى كِدت أن أسكَر. ثم قالت: يا أبا الحسن، غنَّيتُ البارحةَ في شعر لأبي العتاهية أعجبني، أفتسمعُه مني وتُصلِحُهُ؟ فغنّت:

عَذيري من الإنسان لا إن جَفَوتُه صَفا لي ولا إن صرتُ طَوْعَ يَدَيْهِ
وإنّي لمشتاقٌ إلى ظِلِّ صاحبٍ يَرُوق ويصفُو إنْ كَدِرتُ عليهِ

فصيّرناه مجلساً، وقالت: قد بقي فيه شيءٌ، فلم أزل أنا وهي حتى أصلحناه، ثم قالت: وأحبّ أن تغنّي أنت فيه أيضاً لحناً. ففعلتُ، وجعلنا نشرب على اللحنَين مليّاً. ثم جاء الحُجّاب فكسروا الباب واستخرجوني، فدخلت إلى المأمون، فأقبلت أرقُص من أقصى الإيوان وأُصَفِّق وأغنّي بالصوت، فسمع المأمونُ والمغنُّون ما لم يعرفوه، فاستظرفوه وقال المأمون: ادْنُ يا علّويه ورُدَّه. فرددتُه سبعَ مرّات، فقال: يا علّويه، خُذ الخلافة وأَعطِني هذا الصاحب.

● موسى بن هارون الهاشميُّ قال: حدّثني أبي قال:

كنت واقفاً بين يَدَي المعتصم وهو جالسٌ على حَيْر الوحش، والخيلُ تُعْرَض عليه وهو يشرب، وبين يديه علّويه ومُخارقٌ يغنّيان، فعُرض عليه فرسٌ كُميَتٌ أحمرُ ما رأيت مثلَه قطّ، فتغامز علّويه ومخارق، وغنّاه علّويه:

وإذا ما شربوها وانتشوا وهَبُوا كلَّ جَوادٍ وطِمِرْ(١)

(١) الطمر من الخيل: المستعدّ للوثوب، الخفيف القوائم. والبيت لطرفة.

فتغافل عنه. وغنّاه مخارقٌ:

يَهَبُ البِيضَ كالظِّباء وجُرْداً تحت أجلالها وعِيسَ الرِّكاب[1]

فضحك ثم قال: اسكُتا يا ابنَي... فليس يَملِكُهُ والله واحدٌ منكما. قال: ثم دار الدَّور فغنّى علّويه:

وإذا ما شربوها وانتشَوا وهبُوا كلَّ بِغالٍ وحُمُرْ

فضحك وقال: أمّا هذا فنعم. وأمر لأحدهما ببغل وللآخر بحمار.

● محمد بن أحمد المكّيّ المرتجِل قال: حدّثني أبي قال:

دخلتُ إلى علّويه أعُودهُ من عِلّة اعتلّها ثم عُوفي منها، فجرى حديث المأمون فقال لي: كِدتُ ـ عَلِم اللهُ ـ أذهبُ دَفعةً ذاتَ يوم وأنا معه لولا أن الله تعالى سلّمني ووهب لي حِلمه. فقلت: كيف كان السببُ في ذلك؟ فقال: كنت معه لمّا خرج إلى الشأم، فدخلنا دمشقَ فطُفنا فيها، وجعل يطوف على قصور بني أميّة، ويتتبّع آثارهم. فدخل صَحناً من صُحونهم فإذا هو مفروشٌ بالرُّخام الأخضر كلّه وفيه بِركةُ ماء يدخُلها ويخرج منها من عينٍ تَصُبُّ إليها، وفي البركة سمكٌ، وبين يديها بستانٌ على أربع زواياه أربعُ سَرَوات كأنّها قُصّت بمِقراض من التفافها، أحسن ما رأيت من السَّرْو قطّ قَدّاً وقَدراً. فاستحسن ذلك وعزَم على الصَّبُوح وقال: هاتُوا لي الساعةَ طعاماً خفيفاً. فأُتي ببِزْماوَرْدٍ[2]، فأكل ودعا بشَراب وأقبل عليّ وقال: غَنِّني ونشِّطْني. فكأن الله عزّ وجلّ أنساني الغناء كلَّه إلّا هذا الصوت:

لو كان حَولي بنو أمية لم تنطِقْ رجالٌ أراهمُ نَطَقُوا

فنظر إليّ مُغضَباً وقال: عليك وعلى بني أميّة لَعنةُ الله! ويلَك! أقلتُ لك

---

(١) الأجرد : الفرس السريع العدو. العيس: الإبل البيض تضرب إلى الشقرة، الواحدة عيساء.

(٢) البزماورد: طعام يتّخذ من اللحم المقلي بالزبد والبيض.

سُؤْني أو سُرَّني! ألم يكن لك وقتٌ تذكر فيه بني أميّة إلاّ هذا الوقتَ تُعرّضُ بي! فتحيّلتُ عليه وعلمت أنّي قد أخطأتُ فقلت: أتلومُني على أن أذكُرَ بني أمية! هذا مَولاكم زِرْيابُ عندهم يركَبُ في مائتي غُلامٍ مملوك له ويملِك ثلاثمائة ألفِ دينار وهَبُوها له سوى الخيل والضِّياع والرَّقيق، وأنا عندكم أموتُ جُوعاً. فقال: أوَ لم يكن لك شيءٌ تذكِّرُني به نفسَك غيرَ هذا! فقلت: هكذا حَضَرني حين ذكرتُهم. فقال: اعدِلْ عن هذا وتَنَبَّهْ على إرادتي. فأنساني اللهُ كلَّ شيء أُحسِنُهُ إلاّ هذا الصوت:

الحَيْنُ ساق إلى دمشقَ ولم أكن أرضَى دمشقَ لأهلنا بَلَدا[1]

فرماني بالقَدَح فأخطأني فانكسر القدحُ وقال: قُمْ عنّي إلى لعنة الله وحَرّ سَقَر. وقام فركب. فكانت والله تلك الحالُ آخَرَ عهدي به حتى مرض ومات. قال: ثم قال لي: يا أبا جعفر، كم تَراني أُحسن؟ أغنّي ثلاثةَ آلاف صوت، أربعةَ آلاف صوت، خمسة آلاف صوت، أنا والله أغنّي أكثر من ذلك، ذهب ـ عَلِم اللهُ ـ كلُّه حتى كأني لم أعرف غيرَ ما غنّيت، ولقد ظننتُ أنه لو كانت لي ألفُ روح ما نجتْ منه واحدةٌ منها، ولكنه كان رجلاً حليماً، وكان في العُمر بقيّـة.

● حَمّاد عن أبيـه قـال:

غنّيتُ الرشيـد يومـاً:

همـا فَتـاتـان لمّـا يَعـرفـا خُلُقي وبـالـشَّبـاب عـلى شَيـبي يُـدِلّان

فطرب وأمر لي بألف دينار، فقال له ابن جامع، وكان أحسدَ الناس: اسَمعْ غناء العُقلاء ودَعْ غناء المجانين ـ وكنت أخذت هذا الصوت من مجنون بالمدينة كان يُجيدُه ـ ثم غَنّى قوله:

ولـقـد قـالـت لأَتـرابٍ لـهـا كـالمَهـا يَـلعبنَ في حُـجْـرتهـا

---

(١) الحيـن: الهلاك.

خُــذْن عنّي الــظِلَّ لا يَـتبعـنـي وغــدت تـسعـى إلى قُــبّـتـهــا

فطرب وأمر له بألف وخمسمائة دينار. ثم تغنّى وجهُ القَرعـة:

يـمشُــون فـيهــا بـكــلِّ ســابغــةٍ أُحـكِم فـيهــا الـقَـتيــرُ والحَـلَقُ(١)

فاستحسنه وشرب عليه وأمر له بخمسمائة دينار. ثم تغنّى علّويـه:

وأَرى الغَــواني لا يُـواصلن امــرءاً فقـدَ الشبـابَ وقــد يصلن الأَمـردا

فدعاه الرشيد وقال له: يا.. ! تغنّي في مدح المُرد وذمّ الشَيب وسِتارتي منصوبةٌ وقد شِبتُ! كأنك إنّما عرّضتَ بي! ثم دعا بمسرور فأمره أن يأخذَ بيده فيُخرجَه فيَضربَه ثلاثين درّة ولا يردَّه إلى مجلسه. ففعل ذلـك، ولم ينتفع الرشيدُ يومئذٍ بنفسه ولا انتفعنا به بقيّة يومنا، وجفا علّويه شهراً فلم يأذن له حتى سألناه فأذِن لــه.

* . * . * . * . *

(١) الدرع السابغة: التي تغطي كامل الجسم. القتير: مسامير الدروع.

[٣٩]

عمر الميدانيّ

[الأغاني الجزء ٢٣ ص ١٤٠ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو رجلٌ من أهل بغداد كان ينزل المَيْدان(١) فعُرف به، وكان لا يفارق محمداً وعلّياً ابني أُميّة وأبا حَشيشة، ينادمهم ويغنّي في أشعارهم، وكان منزله قريباً منهم، وهو أحد المُحسنين المتقدّمين في الصَّنعة والأَداء.

جَحظة قال: سمعت ابن دقاق في منزل أبي العُبَيس بن حَمدون يقول: سمعتُ أبا حشيشة والمَسْدُود ومَن قَبلهما من الطُّنبوريين، فما سمعتُ منهم أصحَّ غِناءً ولا أكثر تصرُّفاً من عمر المَيدانيّ.

طائفة من أخباره

● عليّ بن أميّة قال:

دخلت يوماً على عمر المَيْدانيّ، وكان له بَقّالٌ على باب داره يُنادمُهُ ولا

(١) الميدان : محلّة ببغداد.

يُفارقُه ويُقارضه[1] إذا أَعْسَر، ويتصرّف في حوائجه، فإذا حصَلت له دارهمُ دَفعها إليه يَقبِض منها ما رأى ، لا يسأله عن شيء، فوجدتُ عنده يومئذٍ هذا البقّالَ، فقال لنا عمر: معي أربعةُ دراهمَ، تُعطوني منها لعلَف حماري درهماً، والثلاثة لكم، فكُلوا بها ما أحببتُم، وعندي نبيذٌ، وأنا أُغنّيكم، والبقّال يُحضِرنا من الأبقال اليابسة ما في حانوته. فوجّهْنا بالبقّال، فاشترى لنا بدِرهمٍ لحماً وبدرهم خبزاً وبدرهم فاكهةً ورَيحاناً. وجاءنا من حانوته بحوائج السِّكباج[2] ونُقْل. فبينا نحن نتوقّع الفَراغ من القِدر إذا بفُرانِقٍ[3] يدُقّ الباب، فأدخله عمر فقال له: أجِب الأمير إسحاق بن إبراهيم. فحلَف علينا عمرُ بالطّلاق ألاّ نبرَح. ومضى هو، وأكلنا السِّكباجَ وشربنا وانصرفنا عشاءً. وبكَر إليّ رسولُه في السَّحَر أن صِرْ إليّ، فصِرت إليه، فقلت: أعطِني خبرَك من النَّعل إلى النّعل[4]. قال: دخلت فوُضِعَتْ بين يديّ مائدةٌ كأنّها جَزْعة يمانية[5] وقد فُرشت في عِراضها[6] الحِبَرُ، فأكلت وسُقيتُ رِطلين، ودُفع إليّ طُنبورٌ، فدخلت إلى إسحاق فوجدته في الصدر جالساً، وخَلَفه سِتارةٌ، وعن يمينه مُخارق وعن يساره عَلُّويه، فقال لي: أنت عُمر الميدانيّ؟ فقلت: نعم. فقال: أأكلتَ؟ فقلت: نعم. قال: ها هنا أو في منزلك؟ فقلت: بل ها هنا. قال: أحسنتَ، فغَنِّ بصوتك الذي صنعتَه فيّ:

يا شبيهَ الهلال كُلّل في الأفـــق أنجما

ـ وهو رملٌ مطلَق ـ .فغنّيتُه فضرب السِتارة وقال: قُولوا أنتم. فقالوه، فقال لمُخارق وعلّويه: كيف تسمعان؟ فقالا: هذا والله ذا، وذا ذاك. فردّدته مراراً،

---

(١) يقارضه : يقرضـه.
(٢) السكباج : لحم يطبخ بالخل.
(٣) الفرانق : الرسول.
(٤) من النعل إلى النعل: أي من وقت لبس النعل إلى وقت خلعها، أي من أول الخبر إلى نهايته.
(٥) الجزع اليماني : من الأحجار الثمينة.
(٦) عراضها : جوانبها.

وشرب عليه، وقال لي: أنا اليومَ على خَلوة ولك عليّ دَعواتٌ، فانصرِفْ اليومَ بسلام. فخرجت ودفع إليّ الغلامُ خمسةَ آلاف درهم، فهي هذه، والله لا استأثرتُ عليكم منها بدرهم. فلم نَزَل عنده نقصِف[1] حتى نفِدتْ.

* . * . * . * . *

(١) نقصف: نلهو ونشرب.

[٤٠]

عمرو بن أبي الكنّات

[الأغاني الجزء ٢٠ ص ٣٥٧ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو عَمرو بن عثمان بن أبي الكَنّات مَولى بني جُمَح، مَكّيٌّ مُغَنٍّ محسنٌ موصوف بطِيب الصوت من طبقة ابن جامع وأصحابه... ويكنَى عمرو بنْ أبي الكَنّات أبا عثمان، وذكر ابنُ خُرداذبه أنه كان يُكنى أبا مُعاذ؛ وكان له ابنٌ يغنّي أيضاً يقال له دَرّاج، ليس بمشهور ولا كثير الغنـــاء.

طائفة من أخباره

● محمد بن عبد الله بن فروة قـــال:

قلتُ لابن جامع يوماً: هل غَلبك أحدٌ من المغنّين قطُّ؟ قال: نعم، كنتُ ليلةً ببغدادَ إذ جاءني رسولُ الرشيد يأمُرني بالرُّكوب، فركبتُ حتى إذا صِرتُ إلى الدار فإذا أنا بفَضْل بن الربيع معه زَلْزَلُ العَوّادُ وبَرْصُوما، فسَلّمتُ وجلست

قليلا، ثمَ طلعَ خادمٌ فقال للفضل: هل جاء؟ فقال: لا. قال: فابعَثْ إليه. ولم يزل المغنُّون يدخُلون فقال للفضل: هل جاء؟ فقال: لا. قال: فابعَثْ إليه. ولم يزل المغنُّون يدخُلون واحداً بعد واحد حتى كنّا ستةً أو سبعة. ثم طَلَع الخادمُ فقال: هل جاء؟ فقال: لا. قال: قُمْ فابعَثْ في طَلبه. فقام فغاب غيرَ طويل فإذا هو قد جاء بعَمرو بن أبي الكَنّات، فسَلّم وجلس إلى جَنْبي، فقال لي: من هؤلاء؟ قلت: مُغَنّون، وهذا زَلْزَلٌ، وهذا بَرْصُوما. فقال: والله لأُغَنّينّك غناءً يخرِق هذا السَّقف وتُجيبُه الحِيطان ولا يفهمون منه شيئاً. قال: ثم طلع الخَصيُّ فدعا بكراسيّ، وخرجت الجواري. فلمّا جلسن قال الخادم للمغنّين: شُدُّوا. فشدُّوا عيدانَهم ثم قال: نعم، يابنَ جامع. فغنَّيت سبعة أو ثمانيةَ أصوات. ثم قال: اسكُت وَلْيُغَنِّ إبراهيمُ الموصليّ. فغَنّى مثلَ ذلك أو دُونَه، ثم سكت. فلم يزل يمرّ القومُ واحداً واحداً حتى فَرَغوا. ثم قال لابن أبي الكَنّات: غَنِّ. فقال لزلزل: شُدَّ طَبَقَتك. فشدّ، ثم أخذ العود من يده فَجَسّه حتى وقف على الموضع الذي يُريده ثم قال: على هذا. وابتدأ بصوت أوله: ألا لا، فوالله لقد خُيِّل لي أنّ الحيطان تُجاوبه، ثم رجَّع النَغم فيه، فطلع الخصيُّ فقال له: اسكُتْ، لا تُتمَّ الصوت. فسكت، ثم قال: يُحبَس عمرٌو بن أبي الكنّات وينصرِف باقي المغنّين. فقُمنا بأكسَفِ حال وأسوأ بال، لا والله ما زال كلُّ واحد منّا يسأل صاحبَه عن كل شعرٍ يَرويه من الغناء الذي أوله: ألا لا، طمعاً في أن يعرفَه أو يوافقَ غناءَه، فما عَرَفه منّا أحدٌ، وبات عمرو ليلتَه عند الرشيد وانصرف من عنده بجوائز وصلاتٍ وطُرفٍ سَنيّة.

● عن موسى بن أبي المُهاجر قال:

خرج ابنُ جامع وابنُ أبي الكَنّات حين دُفعا من عرفة حتى إذا كانا بين المَأْزِمَين[1] جلس عمرو على طرف الجبل ثم اندفع يغنّي، فوقف القِطارات[2]

(١) المأزمان : موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة.
(٢) القطارات : الإبل يسير بعضها مقطورة وراء بعض، وقوافل الناس.

وركب الناسُ بعضُهم بعضاً حتى صاحوا واستغاثوا: يا هذا، اللهَ اللهَ، اسكُتْ عنّا يُجزِ الناسُ. فضبط إسماعيل بن جامع بيده على فيه حتى مضى الناسُ إلى مُزدَلفة.

● عن عليّ بن الجهم قال: حدّثني من أثق به قال:

واقفتُ ابنَ أبي الكَنّات على جِسر بغداد أيامَ الرشيد، فحدّثتُه بحديث اتّصل بي عن ابن عائشة أنه فَعله أيامَ هشام، وهو أن بعضَ أصحابنا حدّثني قال: وقف ابنُ عائشة في الموسم فمرّ به بعضُ أصحابه فقال له: ما تعملُ؟ فقال: إني لأعرف رجلاً لو تكلّم لحبَس الناسَ، فلم يذهب أحدٌ ولم يجيء. فقلت له: ومَن هذا الرجل؟ قال: أنا. ثم اندفع يغنّي:

جَـرَتْ سُنْحاً فقلتُ لهـا أجيـزي نَـوًى مشمـولـةً فـمتى اللقـاءُ
بنفـسي مَـن تـذكُّرُه سَقـامٌ أُعـالجُـه ومَـطلبُـه عَـنـاءُ[1]

قال: فحبس الناسَ، واضطربت المَحاملُ، ومدّت الإبل أعناقها، وكادت الفتنةُ تقع. فأُتي به هشامٌ فقال: يا عدوَّ الله، أردتَ أن تَفتِن الناس! فأمسك عنه، وكان تَيّاهاً. فقال له هشام: ارفُق بتِيهك. فقال ابن عائشة: حقٌّ لمن كانت هذه قدرتَه على القلوب أن يكون تيّاهاً. فضحك وأطلقه. فبَرَق[2] ابن أبي الكَنّات ـ وكان معجَباً بنفسه ـ وقال: أنا أَفعل كما فَعل، وقُدرتي على القلوب أكثر من قدرته كانت. ثم اندفع فغنّى في هذا الصوت ونحن على جسر بغداد، وكان إذ ذاك على دِجلة ثلاثةُ جسور معقودة، فانقطعت الطرُق وامتلأت الجسور بالناس وازدحموا عليها، واضطربت حتى خِيف عليها أن تتقطّع لِثقَل من عليها من الناس. فأُخذ فأُتي به الرشيد فقال: يا عدوَّ الله أردتَ أن تَفْتِنَ الناس؟ فقال: لا والله، يا أميرَ المؤمنين، ولكنه بلغني أن ابن عائشة فعل مثلَ

---

(١) السانح: ما ولاّك ميامنة. أجزت الوادي: قطعته. المشمولة: السريعة الانكشاف، وصف للسحابة، أراد فراقاً يكشفهم عن بلادهم، والبيتان لزهير بن أبي سلمى.
(٢) برق الرجل: تحير حتى لا يطرف.

هذا في أيام هشام فأحببت أن يكون في أيامك مثلُه. فأُعجب من قوله ذلك وأمر له بمالٍ وأمره أن يغنّي، فسمع شيئاً لم يسمع مثلَه، فاحتبسه عندَه شهراً يستزيدُه في كل يوم استأذنه فيه في الانصراف يوماً آخَرَ حتى تمّ له شهرٌ. فقال هذا المخبرُ عنه: وكان ابن أبي الكنّات كثير الغِشيان لي، فلمّا أبطأ توّهمتُه قد قُتل، فصار إليّ بعد شهر بأموال جسيمة وحدّثني بما جرى بينه وبين الرشيـد.

● عن عثمان بن موسى قـال:

كنّا يوماً باللاحجة[1] ومعنا عَمرو بن أبي الكَنّات ونحن على شرابنا، إذ قال لنا قبل طلوع الشمس: من تُحبّون أن يَجيئكم؟ قلنا: منصورٌ الحَجَبيّ. فقال: أَمْهِلوا حتى يكون الوقتُ الذي ينحدر فيه إلى سوق البقر. فمكثنا ساعةً ثم اندفع يغنّي:

أحسنُ النـاس ـ فـاعْلَمُـوه ـ غنـاءً   رجـلٌ مـن بـنـي أبـي الـكَـنّـاتِ
عفتَ الـدارُ بـالهِضـاب الـلواتي   بسَـوارٍ فـمُـلتـقـى عـرفـاتِ[2]

فلم نلبَثْ أن رأينا منصوراً من بُعد قد أقبل يركُضُ دابّتَه نحوَنا، فلمّا جلس إلينا قلنا له: من أين علمتَ بنا؟ قال: سمعت صوتَ عمرو يغنّي كذا وكذا وأنا في سوق البقر، فخرجت أركُض دابتي حتى صِرت إليكم. قال: وبيننا وبين ذلك الموضع ثلاثةُ أميـال.

* . * . * . * . *

(١) في كتب البلدان: لاحـج : موضع في مكة.
(٢) سوار : قرية بالبحرين، والأقرب أن يكون الموضع بالحجاز وثمة رواية أخرى للشطر الثاني أليق. بالسياق وهي: بين ثور فملتقى عرفات، وثور جبل بمكـة.

[٤١]

عَمْرو بن بانَة

[الأغاني الجزء ١٥ ص ٢٦٩ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد، مولى ثقيف. وكان أبوه صاحب ديوانٍ ووجهاً من وجوه الكُتّاب، ويُنسَب إلى أُمّه بانة بنت رَوح القَحْطبية.

وكان مغنّياً مُحسناً، وشاعراً صالح الشعر، وصنعتُهُ صنعةٌ متوّسطة، النادر منها ليس بالكثير، وكان يُقعده عن اللَّحاق بـالمتقدّم في الصّنعـة أنه كـان مرتجلاً، والمرتجِلُ من المحدَثين لا يلحق الضُرّاب. وعلى ذلك فما فيـه مَطْعَن، ولا يُقصّر جيد صنعته عن صنعة غيره من طبقته، وإن كانت قليلةً، وروايتُه أحسنُ رواية. وكتابُه في الأغاني أصلٌ من الأُصول، وكان يـذهب مَذهبَ إبراهيم بن المهديّ في الغناء وتجنيسه، ويخالف إسحاقَ ويتعصّب عليه تعصُّباً شديداً ويواجهُهُ بذلك وينصُر إبراهيم بن المهديّ عليه. وكان تَيّـاهاً معجَباً شديدَ الذَهاب بنفسه، وهو معدودٌ في ندماء الخلفاء ومُغَنّيهم، على ما

كان به من الوَضَح[1]...

وقال ابن حَمدون : كان عمرٌو حسنَ الحكاية لمن أخذ الغناءَ عنه، حتى كان من يسمعُهُ لو توارى عن عينه عمرٌو ثم غنّى لم يشكُكْ في أنّه هو الذي أَخَذ عنه، لحسن حكايته. وكان محظوظاً ممّن يعلّمه، ما عَلّم أحداً قطّ إلا خرج نادراً مُبرِّزاً.

أبو العُبَيس بن حمدون قال: قال لي عمرو بن بانة: علّمت عشرةَ غِلمان كُلُّهم تبيّنتُ فيهم الثقافة والحِذق وعلمتُ أنه يتقدّم، أحدهم أنت، وتمرة، وما تبينتُ قط من أحد خلافَ ذلك فعلّمتُه.

أبو حارثة الباهليّ عن أخيه أبي معاوية قال:

سمعت عمرَو بن بانة يقول لإسحاقَ في كلام جرى بينهما: ليس مثلي يُقاس بمثلك، لأنكِ تعلمت الغناء تكسُّباً، وتعلّمته تطرُّباً، وكنت أُضرَبُ لئلاّ أتعلّمَه، وكنت تضرَب حتى تتعلّمه.

طائفة من أخباره

● قال عليّ بن محمد الهشاميّ: حدّثني جدّي - يعني ابن حَمدون - قال:

كنّا عند المتوكل ومعنا عمرٌو بن بانة في آخر يوم من شعبان فقال له عمرو: يا أمير المؤمنين، جعلني اللهُ فداءَك، تأمرُ لي بمنزل فإنه لا منزلَ لي يَسَعُني. فأمر المتوكل عبيد الله بن يحيى بأن يبتاعَ له منزلاً يختاره. قال: وهجم الصَومُ وشُغل عبيدُ الله وانقطع عمرٌو عنّا، فلمّا أهلّ شَوّال دعا بنا المتوكل فكان أولَ صوتٍ غنّاه عمرو في شعرٍ هـذا:

ملاّك ربّي الأعيادَ تُخلِقُها ... في طُول عُمر يا سيّدَ النّاسِ
دُفعت عن منزلٍ أمرتَ به ... فإنني عنه مُباعَدٌ خاسي

---

(1) الوضح البرص.

فـمُـر بـتـسـليـمـه إلـيّ عـلـى رَغـم عـدوّي بحُـرمـة الـكـاس
أعـوذ بـالله والـخـلـيـفـةِ أن يـرجـعَ مـا قلتـه على راسي[1]

فدعا المتوكل بعبيد الله بن يحيى فقال له: لَمَ دافعت عَمراً بابتياع المنزل الذي كنت أمرتُك بابتياعه؟ فاعتلّ بدخول الصوم وتشعّب الأشغال، فتقدّم إليه أن لا يُؤخّر ابتياع ذلك إليه، فابتاع له الدار التي في دور سُرّ من رأى، بحضرة المعلّى بن أيوب، وفيها توفّي عمرو.

● أحمد بن أبي العلاء قال:

جمع عبدُ الله بن طاهر بين المغنّين وأراد أن يمتحنهم، وأخرج بَدْرةَ دراهم سَبَقاً[2] لمن تقدّم منهم وأحسَن. فحضره مُخارقٌ وعَلّويه، وعمرو بن بانة، ومحمد بن الحارث بن بسخُنَّر، فغنّى [علويه][3] فلم يصنع شيئاً، وتبعه محمد بن الحارث فكانت هذه سبيلَه، وامتدّت الأعينُ إلى مُخارق وعمرو. فبدأ مخارق فغنّى:

إنّـي امـرؤٌ مـن خـيـرهـم عـمّـي وخـالـي مـن جُـذامْ

فما نَهْنَهَه[4] عمرو مع انقطاع نفسه حتى غنّى:
يـا ربـعَ سـلامـة بـالـمنـحنى بـخَـيـف سَلعٍ جـادك الـوابـلُ

وكان إبراهيم بن المهديّ حاضراً فبكى طَرباً وقال: أحسنت والله واستحققت، فإن أعطيتَه وإلاّ فخُذه من مالي، يا حبيبي عنّي أخذت هذا الصوت، وقد والله زدتَ عليّ فيه وأحسنت غايةَ الإحسان، ولا يزال صوتي عليك أبداً. فقال له عبد الله: مَن حكمتَ له بالسَّبَق فقد حَصَل. وأمر له

(١) ملاك: متّعك. الخاسىء: المبعد.
(٢) السبق: مكافأة السابق.
(٣) زيادة يقتضيها السياق.
(٤) نهنهه: أمهله.

بالبَدرة فحُملت إلى عمرو.

ثم حدّثنا بعد ذلك أنّ إسحاق لقي عَمرَو بن راشد الخناق فقال له: قد بلغني خبرُ المجلس الذي جمع عبدُ الله فيه المغنّين يمتحنهم، ولو شاء لكان في راحةٍ من ذلك. قلت: وكيف؟ قال: أمّا مُخارقٌ فأحسن القوم غناءً إذا اتّفق له أن يُحسن، وقلّما يتّفق له ذلك؛ وأما محمد بن الحارث فأحسنُهم شمائل، وأملحُهم إشارةً بأطراف وجهه في الغناء وليس له غيرُ ذلك؛ وأما عمرو بن بانة فأعلمُ القوم وأرقاهم؛ وأما علّويه فمن أدخله ابن... مع هـؤلاء..!

* . * . * . * . *

[٤٢]

فُلَيح بن أبي العوراء

[الأغاني الجزء ٤ ص ٣٥٩ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

فُلَيحٌ رجل من أهل مكة، مولًى لبني مَخزوم، ولم يقع إلينا اسمُ أبيه. وهو أحدُ مغنّي الدولة العبّاسيّة، له محلٌّ كبير من صناعته وموضعٌ جليل. وكان إسحاقُ إذا عَدّ من سمع من المُحسِنين ذَكَره فيهم وبدأ به؛ وهو أحد الثلاثة الذين اختاروا المائةَ الصوت للرّشيد.

ابن المكّي عن أبيه عن إسحاق قال:

ما سمعت أحسنَ غناءً من فُليح بن أبي العوراء وابن جامع. فقلت له: فأبو إسحاق؟ (يعني أباه)، فقال: كان هذان لا يُحسنان غيرَ الغناء، وكان أبو إسحاق فيه مثلَهما، ويزيد عليهما فنوناً من الأدب والرواية لا يُداخلانه فيها.

يزيد بن محمّد المهلّبي قال: قال لي إسحاق: أحسنُ مَن سمعت غناءً عَطَرّدٌ وفُلَيح.

وكان فُليحٌ أحد الموصوفين بحُسن الغناء المسموع في أيامه، وهو أحدُ من كان يَحكي الأوائلَ فيُصيب ويُحسِن.

طائفة من أخباره

● الفَضلُ بن الربيـــع:

أنّ المهديَّ كان يسمع المغنِّين جميعاً، ويحضُرون مجلسه فيُغنّونه من وراء السِّتارة لا يَرون له وجهاً إلاّ فُليحَ بن أبي العَوراء، فإن عبد الله بن مصعَب الزبيريّ كان يُروّيه شعره ويغنّي فيه في مدائحه للمهديّ، فدسّ في أضعافها بيتين يسأله فيهما أن يُنادمَه، وسأل فُليحاً أن يُغنّيَهما في أضعاف أغانيه، وهما:

يـا أمينَ الإلّـه في الشـرق والغـر ب على الخَلْق وابنَ عمّ الـرسولِ
مجلســاً بــالعَشِيّ عنــدك في المَيْــدان أبغي والإذنَ لي فـي الــوصــولِ

فغنّاه فليحُ إياهما، فقال المهديّ: يا فَضَلُ، أَجِبْ عبدَ الله إلى ما سأل، وأَحضِرْه مجلسي إذا حَضَره أهلي ومواليّ وجلست لهم، وزِدْه على ذلك أن ترفع بيني وبين راويته فُليح السِّتارة. فكان فليحُ أوّلَ مُغَنٍّ عاين وجهه في مجلسهم.

● مُدرِكة بن يزيد قال: قال لي فُليح بن أبي العوراء:

بعث يحيى بن خالد إليّ وإلى حَكَمٍ الواديّ وإلى ابن جامع، فأتيناه، فقلت لحكَمٍ: إن قعد ابنُ جامع معنا فعاونّي عليه لِنكسرَه. فلمّا صرنا إلى الغناء غَنّى حكَمٌ، فصِحتُ وقلت: هكذا والله يكون الغناء! ثم غَنيتُ، ففعل لي حكمٌ مثلَ ذلك. وغَنّى ابنُ جامع فما كُنّا معه في شيء. فلما كان العشيُّ أرسل إلى جاريته دنانير: إنّ أصحابكَ عندنا، فهل لكِ أن تخرُجي إلينا؟ فخرجتْ وخرج معها وصائفُ، فأقبل عليها يقول لها من حيث يظنّ أنّا لا نسمعُ: ليس في القوم أَنْزَهُ نفساً من فُليح. ثم أشار إلى غُلام له: أن ائتِ كلَّ إنسان بألفَي درهم. فجاء بها، فدفع إلى ابن جامع ألفَي درهم فأخذها فطرحها

في كُمّه، وفعلَ بحكمٍ الواديّ مثلَ ذلك فطَرحها في كُمّه، ودفع إليَّ أَلَفَيْن، فقلت لدنانير: قد بلغ منّي النَّبيذُ، فاحبِسيها لي عندك حتى تبعثي بها إليّ. فأخذتْ الدراهم منّي وبعثتْ بها إليّ من الغد، وقد زادت عليها، وأرسلت إليّ: قد بعثتُ إليك بوَديعتك وبشيءٍ أحببتُ أن تُفرّقَه على أَخواتي (تعني جواريّ).

● عن فُليح بن أبي العَوراء قال:

كان بالمدينة فتىً يعشق ابنةَ عمٍّ له، فوعدتْه أن تزورَه، وشكا إليّ أنها تأتيه ولا شيءَ عنده، فأعطيتُه ديناراً للنفقة. فلمّا زارتْه قالت له: مَن يُلهّينا؟ قال: صديقٌ لي. ووصفَني لها، ودعاني فأتيتُه، فكان أوّل ما غنَّيته:

مِن الخَفِــرات لم تفضحْ أخــاهــا ولم تــرفَــعْ لــوالــدهــا شَنــارا[1]

فقامت إلى ثوبها فَلَبِستْه لتنصرفَ، فعلق بها وجهَدَ كل الجَهد في أن تُقيم، فلم تُقِمْ وانصرفتْ. فأقبل عليّ يلومُني في أن غنّيتُها ذلك الصوت، فقلت: والله ما هو شيءٌ اعتمدتُ به مَسَاءَتك، ولكنه شيء اتّفق. قال: فلم نبرَحْ حتى عاد رسولُها بعدَها ومعه صُرّة فيها ألفُ دينار ودَفعها إلى الفتى وقال له: تقول لك ابنةُ عمّك: هذا مَهْري ادفَعه إلى أبي واخطُبْني. ففعل فتزوّجها.

●أبو إسحاق إبراهيمُ بن المهديّ قــال:

كتب إليّ جعفر بن يحيى وأنا عاملٌ للرشيد على جُند دمشق: قد قدِم علينا فُليح بن أبي العوراء فأفسَد علينا بأهزاجه وخفيفه كلَّ غناء سمعناه قبله، وأنا محتالٌ لك في تخليصه إليك لتستمتِعَ به كما استمتَعْنا. فلم ألبَثْ أن وَرَد عليَّ فليح بكتاب الرشيد يأمر له بثلاثة آلاف دينار. فوَرَد عليّ رجلٌ أذكرني لقاؤه الناسَ وأخبرني أنه قد ناهز المائة، فأقام عندي ثلاثَ سنين، فأخذ عنه جواريَّ كلَّ ما كان معه من الغناء وانتشرت أغانيه بدمشق. قال يوسف: ثم قدِم علينا شابٌّ من المغنّين مع عليّ بن زيد الفَرَج الحَرّانيّ، عند مَقْدَم عَنْبسة بن

(١) الخفر : شدة الحياء. الشنار : العار والعيــب.

إسحاق فُسطاطَ مصر، يقال له مُونِق، فغنّاني من غناء فُلَيح:

يـا قُـرّةَ الـعيـن اقبَلي عُـذْري ضـاق بـهِـجـرانـكـم صَـدْري
لـو هَلَك الهَجْرُ استـراح الهـوى مـا لـقيَ الـوصـلُ من الهـجـرِ

فلــــم أرَ بين ما غنّاه وبين ما سمعتُهُ في دار أبي إسحاق فرقاً، فسألتُهُ من أين أخذه؟ فقال: أخذتُه بدمشق. فعلمت أنه ممّا أخذه أهلُ دمشق عن فُليح.

● حَمّاد قال حدّثني أبــي قــال:

كنّا عند الفضل بن الربيع فقال: هل لك في فُليح بن أبي العوراء؟ قلت: نعم. فأرسل إليه، فجاء الرسولُ فقال: هو عَليلٌ. فعاد إليه، فقال الرسولُ: لا بُدَّ من أن تجيء. فجاء به محمولاً في مِحَفّة، فحدّثنا ساعةً ثم غَنّى، فكان فيما غَنّى:

تقــول عِـرسي إذ نبـا المَضْجَـعُ مــا بــالُــك الـلـيـلةَ لا تَــهْـتَجَــعُ

فاستحسنّــــاه منه واستَعدناه منه مراراً، ثم انصرف ومات في عِلّته تلك، وكان آخــر العهــد به ذلــك المجلــس..

* . * . * . * . * . *

[٤٣]

محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر

[الأغاني الجزء ١٢ ص ٤٨ وما بعدها]

[والجزء ٢٣ ص ١٧٦]

أصله ومنزلته في الغناء

هو محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر، ويكنى أبا جعفر. وهم - فيما يزعُمون - مَوالي المنصور، وأحسبُه وَلَاءَ خِدمةٍ لا ولاءَ عِتْق، وأصلُهم من الرَّيّ. وكان محمد يزعُم أنه من وَلَد بَهْرام جُوبين. ووُلد محمد بالحِيرة، وكان يغنّي مُرتجلاً[1]، إلاّ أن أصلَ ما غَنّى عليه المِعْزَفة، وكانت تُحمَلُ معه إلى دار الخليفة. فمرّ غلامُهُ بها يوماً، فقال قومٌ كانوا جُلوساً على الطريق: مع هذا الغلام مِصْيَدةُ الفَار. وقال بعضُهم: لا، بل هي مِعزَفَةُ محمد بن الحارث. فحلَف يومئذٍ بالطَّلاق والعِتاق ألاّ يغنّيَ بمعزفة أبداً أَنفةً من أن تَشتبه آلةٌ يغنّي بها بِمصيدة الفأر.

(١) الارتجال في الغناء: الغناء بدون الاستعانة بآلة من الآلات الموسيقية.

وكان محمد أحسنَ خَلْق الله تعالى أداءً وأسرعه أخذاً للغناء، وكان لأبيه الحارث بن بسخُنَّر جَوارٍ مُحسِنات؛ وكان إسحاق يرضاهنّ ويأمُرهنّ أن يَطْرَحن على جواريـــه...

أبو عبد الله الهشاميّ قال: سمعتُ إسحاقَ بن إبراهيم بن مصعَب يقول للواثق: قال لي إسحاقُ بن إبراهيم المَوصلي: ما قَدَر أحدٌ قطُّ أن يأخذَ منّي صوتاً مستوياً إلاّ محمد بن الحارث بن بسخنّر، فإنه أخذ مني عدةَ أصوات كما أُغنّيها. ثم لم نلبَثْ أن دخل علينا محمد بن الحارث، فقال له الواثق: حدّثني إسحاقُ بن إبراهيم عن إسحاق الموصلّي فيك بكذا وكذا. فقال: قد قال إسحاقُ ذاك لي مَرّاتٍ. فقال له الواثق: فأيُّ شيء أخذتَ من صَنعته أحسَنُ عندك؟ فقال: هو يزعم أنه لم يأخُذ منه أحدٌ قطّ هذا الصوتَ كما أخذته منه:

إذا المرءُ قاسى الدَّهْرَ وابيضّ رأسُه ... وثُلِّم تَـثـليـمَ الإنــاء جـوانـبُـهُ
فليس له في العيش خيرٌ وإن بكى ... على العيش أو رَجّى الذي هو كاذبُهْ

فأمره الواثق بأن يُغنّيه، فغَنّاه إياه وأحسنَ ما شاء وأجاد، واستحسنه الواثقُ وأمـره بأن يَـردِّدَه، فردّده مـراراً كثيرةً حتى أخـذه الـواثقُ وأخـذه جَـواريـه والمغنُّون....

وكان محمد بن الحارث من أصحاب إبراهيم بن المهديّ والمتعصِّبين له على إسحاق، وعن إبراهيم بن المهديّ أخذ الغناء ومن بحره استقى وعلى منهاجه جَرى.

محمد بن أحمد بن المكّيّ قال: حدّثني أبي قال: كان محمد بن الحارث قليل الصَّنعة، وسمعته يغنّي للواثق في صنعته في شعر له مدَحه به وهو:

أمِنت بـإذن الله من كـلِّ حــادثٍ ... بقُربك من خير الوَرَى يابَن حارثِ

فأمــر له بألفيَ دينـــار.

طائفة من أخباره

● عن عليّ بن يحيى : أن إسحاق غَنّى بحضرة الواثق لحنَه:

ذكرتكِ إذ مرّت بنا أمُّ شادنٍ أمامَ المطايا تَشرئبُّ وتَسْنَحُ
من المُؤلِفات الرَّملِ أدماءُ حُرّةٌ شعاعُ الضُّحى في مَتنها بتوضَّحُ[1]

والشعر لذي الرمّة.. فأمره الواثق أن يُعيدَه على الجواري، وأحلَفَه بحياته أن ينصحَ فيه، فقال: لا يستطيع الجواري أن يأخُذنه منّي، ولكن يحضُر محمد بن الحارث فيأخُذه مني وتأخذه الجواري منه. فأُحضِر وألقاه عليه، فأخذه منه وأخذتْه الجواري منه.

●عن هِبة الله بن إبراهيم بن المهديّ قال:

كان المأمونُ قد أَلزم أبي رجلاً ينقُل إليه كلَّ ما يسمعه من لفظ جِدّاً وهزلاً، شعراً وغناءً. ثم لم يثق به فألزمه مكانه محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر، فقال له: أيها الأمير، قُل ما شئتَ واصنع ما أحببت، فوالله لا بَلّغتُ عنك أبداً إلّا ما تُحبّ. وطالت صحبتُهُ له حتى أَمِنه وأَنِس به. وكان محمد يغنّي بالمِعزفة فَنَقَله أبي إلى العود، وواظب عليه حتى حَذِقه؛ ثم قال له محمد بن الحارث يوماً: أنا عبدُك وخِرّيجُك وصَنيعتُكُ فاخصُصني بأن أرويَ عنك صنعتَكَ. ففعل، وألقى عليه غناءَه أجمعَ، فأخذه عنه، فما ذهب عليه شيءٌ منه ولا شذّ.

●عن عمرو بن بَانَةَ قال:

كنت عند محمد بن الحارث بن بسخنَّر في منزله، ونحن مُصطبِحون في يوم غيم، فبينا نحن كذلك إذ جاءتنا رُقعةُ عبدِ الله بن العبّاس الرَّبيعيّ، وقد اجتاز بنا مُصعِداً إلى سُرَّ مَن رأى وهو في سفينة، ففضّها محمدٌ وقرأها، وإذا فيها:

محمدُ قد جادت علينا بوَدْقها سحائبُ مُزنٍ برقُها يتهلَّلُ
ونحن من القاطُول في شِبه مَرْبَعٍ له مَسرحٌ سهلُ المَحلّة مُبقِلُ

---

(١) أم شادن: أي ظبية. تشرئب: ترفع رأسها للنظر. تسنح: تعرض لك من شمالك. أدماء: بيضاء تعلوها غبرة.

فمُر فائزاً تفديك نفسي يُغَنِّني: أعن ظُعُن الحيّ الأُلَى كنت تسأل
ولا تَسقِني إلاّ حَلالاً فإنني أعاف من الأشياء ما لا يُحَلَّلُ[1]

فقام محمد بن الحارث مستعجِلاً حافياً حتى نزل إليه فتلقّاه، وحلف عليه حتى خرج معه وسار به إلى منزله، فاصطبحا يومئذٍ وغنّاه فائزٌ غلامُه هذا الصوت، وكان صوتُهُ عليه، وغنّاه محمد بن الحارث وجواريه وكلٌّ من حضر يومئذ، وغنّانا عبدُ الله بن العباس الربيعيّ أيضاً أصواتاً...

● حمّاد بن إسحاق قال:

كان أبي يستحسن غناء جواري الحارث بن بسخنّر ويعتمد على تعليمهنّ لجواريه، وكان إذا اضطرب على واحدة منهنّ أو على غيرهنّ صوتٌ أو وقع فيه اختلاف اعتمد على الرجوع فيه إليهنّ.

*. *. *. *. *

(١) الودق: المطر. القاطول: نهر كان في موضع سامّرا، حفره الرشيد وبنى على فوّهته قصراً، وفوق هذا القاطول القاطول الكسروي الذي حفره كسرى.

[٤٤]

محمد الزّفّ

[الأغاني الجزء ١٤ ص ١٨٧ وما بعدهـــا]

أصله ومنزلته في الغناء

هو محمد بن عَمرو مولى بني تميم، كوفيُّ الأصل والمولد والمنشأ. والزّفُّ لقبٌ غَلَب عليه، وكان مغنّياً ضارباً طيّب المسموع، صالح الصنعة، مليحَ النادرة، أسرعَ خلق الله أخذاً للغناء، وأصحَّهم أداءً له وأذكاهم، إذا سمع الصوتَ مرّتين أو ثلاثاً أدّاه لا يكون بينه وبين من أخذَه عنه فرقٌ. وكان يتعصّب على ابن جامع ويميل إلى إبراهيم الموصلّي وابنه إسحاق، فكانا يرفعان منه، يقدّمانه ويجتلبان له الرِّفد والصِلات من الخلفاء. وكانت فيه عَربدةٌ إذا سكر، فعَربد بحضرة الرشيد مرّةً فأمر بإخراجه ومَنعه من الوصول إليه وجفاه وتناساه. وأحسبه مات في خلافته أو في خلافة الأميـــن.

طائفة من أخباره

● حمّاد عن أبيــه قــال:

محمدِ الزّفّ أَروى خَلق الله للغناء وأسرعُهم أخذاً لِما سمعه منه، ليست

عليه كُلفة، وإنما يسمع الصوت مرّةً واحدة وقد أخذه، وكُنّا معه في بَلاء إذا حَضَر، فكان من غَنّى منا صوتاً فسأله عدوٌّ له أو صديق أن يُلقيه عليه فبخل ومنعه إيّاه سأل محمداً الزّفّ أن يأخذه، فما هو إلاّ أن يسمعَه مرّةً واحدة حتى قد أخذه وألقاه على من سأله، فكان أبي يَبَرّه ويَصِله ويُجديه[1] من كلّ جائزة وفائدة تصل إليه، فكان غناؤه عنده حِمىً مَصُوناً لا يقرَبُه؛ ولم يكن طيّبَ المسموع، ولكنه كان أطيبَ الناس نادرةً، وأملحهم مجلساً. وكان مُغرًى بابن جامع خاصةً من بين المغنّين لِبُخله، فكان لا يفتح ابنُ جامع فاه بصوت إلاّ وضع عينه عليه، وأصغى سمعَه إليه، حتى يَحكيَه. وكان في ابن جامع بخلٌ شديد لا يقدر معه على أن يُسعفه بِبرٍّ ورِفْد، فغنّى يوماً بحضرة الرشيد:

أرسلتْ تُقرىء السلامَ الرَّبابُ ... في كتابٍ وقد أتّانا الكتابُ

فيه: لو زُرتَنا لزُرناك ليلاً ... بمنىً حيث تستقلُّ الرِّكابُ

فأجبت الرَّبابَ: قد زُرتُ لكن ... ليَ منكم دونَ الحجابِ حِجابُ

إنّما دهرك العتابُ وذمّي ... ليس يُبقي على المحبّ عتابُ[2]

ولحنه من الثقيل الأول، فأحسن فيه ما شاء؛ ونظرت إلى الزّفّ فغمزتُه وقمت إلى الخَلاَء، فإذا هو قد جاءني، فقلت له: أيَّ شيء عملتَ؟ فقال: قد فرغتُ لك منه. قلت: هاتِه. فردّه عليّ ثلاثَ مّرات، وأخذتُه وعدتُ إلى مجلسي، وغمزت عليه عقيداً ومُخارقاً، فقاما وتَبعهما فألقاه عليهما، وابنُ جامع لا يعرف الخبر. فلمّا عاد إلى المجلس أومأت إليهما أسألهما عنه فعرّفاني أنهما قد أخذَاه. فلمّا بلغ الدّورُ إليّ كان الصوت أوّل شيءٍ غنّيتُه، فحَدّد الرشيد نظرَه إليّ، ومات ابنُ جامع وسُقط في يده[3]، فقال لي الرشيد: من أين لك هذا؟ قلت: أنا أَرويه قديماً، وقد أخذه عنّي مخارقٌ وعقيد. فقال: غنّياه. فغنّياه، فوثب ابنُ جامع فجلس بين يديه ثم حلف بالطّلاق ثلاثاً

---

(١) أجداه: أعطاه الجدوى وهي العطيــة.

(٢) استقل: ارتحل. الركاب: الإبل واحدتها راحلة.

(٣) سقط في يده: تحيّر ولم يدر ماذا يصنع.

بأنه صنعه في ليلته الماضية ما سبق إليه ابنَ جامع أحدٌ. فنظر الرشيد إليّ، فغمزتُه بعيني أنه صَدق، وجَدّ الرشيـدُ في العبث به بقيّةَ يومه، ثم سألني بعد ذلك عن الخبر فصدقتُه عنه وعن الزفّ، فجعل يضحك ويقول: لكل شيء آفةٌ، وآفةُ ابن جامع الزفّ.

* . * . * . * . * . *

[٤٥]

مُخارِق

[الأغاني الجزء ١٨ ص ٣٣٦ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو مخارِقُ بن يحيى بن ناووس الجَزّار مولى الرشيد، وقيل بل ناوُوس لقب أبيه يحيى ويُكنى أبا المُهَنّا، كنّاه الرشيد بذلك.

وكان قبلَه لِعاتكةَ بنت شُهْدة، وهي من المغنّيات المحسِنات المتقدّمات في الضَرب، ذكر ذلك مخارقُ واعترف به. ونشأ بالمدينة، وقيل بل كان منشؤه بالكوفة.

وكان أبوه جَزّاراً مملوكاً، وكان مخارق وهو صبيٌّ ينادي على ما يَبيعُه أبوه من اللحم، فلمّا بان طِيبُ صَوته عَلّمتْه مولاتُه طَرَفاً من الغناء، ثم أرادت بَيعَه، فاشتراه إبراهيمُ الموصلّي منها وأهداه للفضل بن يحيى، فأخذه الرشيدُ منه ثم أعتقه.

حمّاد بن إسحاق عن زكريّا مولاهم قال:

قدمتْ مولاةُ مُخارقٍ به من الكوفة، فنزلت المُخَرِّم[1]، وصار إبراهيمُ إلى جَدّي الأَصْبَغ بن سِنان المُقَيِّن[2] وسِيرين بن طَرخان النخّاس فقالا له: إنّ ها هنا امرأةً من أهل الكوفة قد قدِمت ومعها غلامٌ يتغنّى فنحبّ أن تنفَعها فيه. قال: فوجّهني مع مولاته لأحملَه، فوجدته متمرِّغاً في رمل الجزيرة التي بإزاء المخرِّم وهو يلعب، فحملتُه خلفي وأتيتُ به إبراهيم، فتغنّى بين يديه، فقال لها: كم أَمَلُك فيه؟ قالت: عشرة آلاف درهم. قال: قد أخذتُه بها، وهو خيرٌ منها. فقالت: أَقِلْني. قال: قد فعلت، فكم أملُك فيه؟ قالت: عشرون ألفاً. قال: قد أخذتُهُ بها، وهو خيرٌ منها. فقالت: واللهِ ما تَطيب نفسي أن أمتنع من عشرين ألف درهم بكبِدٍ رَطبة، فهل لك في خَصلة: تُعطيني به ثلاثين ألف درهم ولا أَستقيلك بعدها؟ فقال: قد فعلتُ وهو خيرٌ منها. فصفَقت على يده[3] وبايعته. وأَمَر بالمال فأُحضر، وأمر بثلاثة آلاف درهم فزيدتُ عليه وقال: تكون هذه لِهَديّة تُهدينها أو كُسوة تَكْتَسينها ولا تَثْلَمين المال.

وراح إلى الفضل بن يحيى فقال له: ما خبرُ غلامٍ بَلغني أنك اشتريتَه؟ قال: هو ما بَلَغك. قال: فأَرِنيه. فأحضره، فلمّا تغنّى بين يَدي الفضل قال له: ما أَرى فيه الذي رأيت. قال: أنت تريد أن يكون في الغناء مثلي في ساعة واحدة، ولم يكن مثلُه في الدنيا ولا يكون أبداً. فقال: بكم تَبيعه؟ فقال: اشتريتهُ بثلاثة وثلاثين ألف درهم، وهو حُرٌّ لوجه الله تعالى إن بِعته إلّا بثلاثة وثلاثين ألف دينار. فغضب الفضل وقال: إنما أردتَ أن تَمْنَعَنِيه أو تجعلَه سبباً لأن تأخذَ مني ثلاثةً وثلاثين ألف دينار. فقال له: أنا أَصنع بك خَصلةً: أَبيعك نصفَه بنصف هذا المال وأكون شَريكَكَ في نصفه، وأُعلّمُهُ،

---

(١) المخرّم: محلّة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلّى منسوبة إلى مخرم بن يزيد.

(٢) المقين: المزيّن.

(٣) صفقت على يده: أطبقت كفها على كفه وذلك وجوب البيع.

فإن أعجبَك إذا اعلَّمتُهُ أتممتَ لي باقيَ المال، وإلّا بعتُهُ بعد ذلك وكان الرِبْحُ بيني وبينك. فقال له الفضل: إنما أردتَ أن تأخذ منّي المال الذي قدّمتَ ذِكْرَه، فلمّا لم تَقدِرْ على ذلك أردت أن تأخذَ نِصفَه! وغضب، فقال له إبراهيم: فأنا أَهَبُه لك، على أنه يساوي ثلاثةً وثلاثين ألف دينار. قال: قد قبلتُهُ قال: قد وهبتُهُ لك. وغدا إبراهيمُ على الرشيد فقال له: يا إبراهيمُ ما غلامٌ بلغني أنك وهبتَه للفضل؟ قال: فقلت: غلامٌ، يا أمير المؤمنين، لم تملِك العربُ ولا العجمُ مثلَه، ولا يكون مثلُه أبداً. قال: فَوَجِّه إلى الفضل فأمره بإحضاره. فوَجَّه به إليه، فتغنّى بين يديه، فقال لي: كم يساويِ؟ قال قلت: يُساوي خَراج مصر وضِياعَها. فقال لي: ويلَك! أتدري ما تقول؟ مبلغُ هذا المال كذا وكذا. فقلت: وما مقدار هذا المال في شيء لم يَملِكْ أحدٌ مثلَه قطّ! قال: فالتفت إلى مسرور الكبير وقال: قد عرفتَ يميني ألاّ أسألَ أحداً من البرامكة شيئاً بعدَ فَنْفَنة. فقال مسرور: فأنا أمضي إلى الفضل فأستوهبه منه، فإذا وهَبه لي وكان عبدي فهو عبدُك. فقال له: شأنك. فمضى مسرورٌ إلى الفضل فقال له: قد عرفتم ما وقعتُم فيه من أمر فَنْفَنة، وإن منعتموه هذا الغلام قامت القيامة. واستَوهبه منه، فوهَبه له، فبلغ ما رأيت. فكان عَلّويه إذا غضب على مُخارق يقول له ـ حيث يقول: أنا مولى أمير المؤمنين ـ: متى كنت كذلك؟ إنما أنت عبدُ الفضل بن يحيى أو مولى مسرور.

ذكر محمد بن الحسن الكاتب أنّ أبان بن سعيد حدّثه:

أنّ المأمون سأل إسحاق عن إبراهيم بن المهديّ ومُخارق فقال: يا أمير المؤمنين، إذا تغنّى إبراهيمُ بن المهديّ بعِلمه فضَل مخارقاً، وإذا تغنّى مخارقٌ بطبعه وفَضْل صوته فَضَل إبراهيم، فقال له: صدقت.

عن مخارق:

أن الرشيد قال يوماً للمغنّين وهو مصطبِحٌ: من منكم يغنّي

«يا ربعَ سَلْمى لقد هَيّجتَ لي طرباً»

فقمـــــت فقلت: أنا يا أمير المؤمنين. فقال: هاتِهِ. فغنَّيتُه، فطرب وشرب ثم قال: عليّ بهَرْثَمَةَ بن أَعْيَن. فقلت في نفسي: ما يُريد منـه؟ فجاؤوا بهرثَمةَ، فأُدخل إليه وهو يجرُّ سيفَه، فقال له: يا هرثمةُ، مخارقٌ الشاري الذي قتلناه بناحية المَوصل ما كـانت كُنيته؟ فقـال: أبو المُهَنـأ فقال: انصـرِفْ. فانصرف، ثم أقبل عليّ وقال: قد كَنَيتُك أبا المُهَنَّأ لإحسانك. وأمر لي بمائة ألف درهم، فانصرفت بها وبالكُنْيــة.

قــال هارونُ بن محمد بن عبد الملك الزيّات: قــال أبي:

قال الواثق أميرُ المؤمنين: خطأ مخارقٍ كصواب عَلَّويه، وخطأ إسحاق كصواب مخارق، وما غَنّاني مخارق قطّ إلاّ قدّرت أنه من قلبي خُلق، ولا غَنّاني إسحاق إلا ظننت أنه قد زيد في ملكي مُلكٌ آخــر.

قال: وكان يقول: أتريدون أن تنظروا فضلَ مخارق على جميع أصحابه؟ انظروا إلى هؤلاء الغِلمان الذين يقفون في السِّماط، فكانوا يتفقّدونهم وهم وقوفٌ، فكلُّهم يسمع الغناء من المغنّين جميعاً وهو واقفٌ مكانه ضابطٌ لنفسه. فإذا تغَنّى مخارق خرجوا عن صُوَرهم فتحرّكت أرجُلُهم ومناكبهم وبانت أسباب الطرب فيهم وازدحموا على الحبل الذي يقفون من ورائه.

قال هارون: وحُدّثتُ أنه خرج مرة إلى باب الكُناسة بمدينة السَّلام والناس يرتحلون للخروج إلى مكة، فنظر إليهم واجتماعهم وازدحامهم، فقال لأصحابه الذين خرجوا معه: قد جاء في الخبر أن ابن سُريج كان يتغنَّى في أيام الحج، والناس بمنىً، فيستوقفهم بغنائه، وسأستوقف لكم هؤلاء النـاس وأستلهيهم جميعاً لتعلموا أنه لم يكن ليفضُلني إلاّ بصَنعته دون صوته. ثم اندفع يؤذّن، فاستوقف أولئك الخَلق واستلهاهم حتى جعلت المَحاملُ يَغشى بعضُها بعضاً، وهو كالأعمى عنها لِما خامر قلبَه من الطّرب لحُسن ما يسمع.

طائفة من أخباره

● حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

.. وكان [مخارق] يقف بين يدي الرشيد مع الغِلمان لا يجلس، ويغنّي

وهو واقفٌ. فغنّى ابنُ جامع ذاتَ يوم بين يَدي الرشيد:

كأنّ نيرانَنا في جَنْب قَلْعتهم مُصَبَّغاتٌ على أرسان قَصّار
هوتْ هِرَقْلةُ لمّا أن رأت عجباً حوائماً ترتمي بالنِّفْط والنار[1]

فطرب الرشيد واستعاده عدّة مَرّاتٍ - وهو شعرٌ مُدح به الرشيد في فتح هرقلة - وأقبل يومئذٍ على ابن جامع دون غيره، فغمز مخارقٌ إبراهيمَ بعينه وتقدّمه إلى الخَلاَء، فلمّا جاءه قال له: ما لي أراك مُنكسِراً؟ قال: أما ترى إقبالَ أمير المؤمنين على ابن جامع بسبب هذا الصوت! فقال: قد واللهِ أخذتُه[2]. فقال له: ويحَك! إنه الرشيد، وابنُ جامع من تَعِلم، ولا يُمكن معارضته إلّا بما يزيد على غنائه، وإلّا فهو الموت. قال: دَعْني وخَلاك ذمٌّ، وَعَرِّفْه أني أغَنّي به، فإن أحسنتُ فإليك يُنسَب، وإن أسأتُ فإليّ يعود. فقال للرشيد: يا أمير المؤمنين، أراك متعجّباً من هذا الصوت بغير ما يستحقّه وأكثر ممّا يستوجِبُه. فقال: لقد أحسَن ابنُ جامع ما شاء. قال: أوَ لابن جامعٍ هو؟ قال: نعمْ، كذا ذَكر. قال له: فإنّ عبدَك مُخارقاً يُغنّيه. فنظر إلى مخارق، فقال: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: هاتِه. فغنّاه وتحفّى فيه فأتى بالعجائب، فطرب الرشيد حتى كاد يطير فرحاً، وشرب، ثم أقبل على ابن جامع فقال له: ويلَك! ما هذا؟ فابتدأ يحلِف له بالطلاق وكلِّ مُحرِجة[3] أنه لم يُسمَع ذلك الصوت قطُّ إلّا منه، ولا صَنَعه غيرُه، وأنها حيلةٌ جَرَت عليه. فأقبل على إبراهيم وقال: أصدِقني بحياتي. فصدَقَه عن قصة مخارق، فقال له: أكذلك هو يا مخارقُ؟ قال: نعم يا مولاي. فقال: اجلِس إذن مع أصحابك، فقد تجاوزتَ مرتبةَ من يقوم. وأعتقه ووصله بثلاثة آلاف دينار وأقطعه ضيعةً ومنزلاً.

---

(١) الأرسان: الحبال. القصّار: مبّيض الثياب.
(٢) يريد أنه أخذ الصوت وحفظ طريقة أدائه.
(٣) المحرجة: يمين الطلاق وكل يمين تحرج صاحبها أي تضيّق عليه، والحرج: الضيق.

● هارون بن مُخارق قــال:

كان أبي إذا غنّى هذا الصوت:

يا رَبْعَ سَلمى لقد هيّجتَ لي طرباً زِدتَ الفؤاد على عِـلاّتـه وصَبَـا
ربـعٌ تبـدّل ممّن كـان يسكُنـه عُفْرَ الظِّباء وظِلْمانـاً بـه عُصَبـا[1]

يبكـي ويقول: أنا مولى هذا الصوت. فقلت له: وكيف ذاكَ يا أَبَتِ؟ فقال: غنّيتُهُ مولاي الرشيد فبكى وشرب عليه رطلاً، ثم قـال: أحسنتَ يا مخارقُ فسَلني حاجتَكَ. فقلت: أن تعتِقَني يا أميرَ المؤمنين، أعتقك اللهُ من النار. فقال: أنت حُرٌّ لِوجه الله، فأعِد الصوت. فأعدتُهُ، فبكى وشرب رطلاً، ثم قال: أحسنتَ يا مخارق فسَلني حاجتك. فقلت: ضيعةٌ تُقِيمني غَلَّتُها. قال: قد أمرتُ لك بها، أعِد الصوت. فأعدتُه، فبكى وقال: سَل حاجتك. فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمُر لي بمنزلٍ وفَرش وخادم. قـال: ذلك لك، أعِد الصوت. فأعدتُهُ، فبكى وقال: سَل حاجتك. فقبّلتُ الأرضَ بين يديه وقلت: حاجتي أن يُطيلَ اللهُ بقاءَك ويُديمَ عِزّك ويجعلني من كل سوء فداءَك، فأنا مَولى هذا الصوت بعد مولاي.

● أبو عبـد الله بن حَمدون قـال:

رُحنا إلى الواثق وأمُّه عليلة، فلمّا صلّى المغرب دخل إلى أُمّه وأمر بألاّ نبرَح. وكان في الصَحن حُصُرٌ غيرُ مفروشة، فقال لي مخارق: امضِ بنا حتى نفرِشَ حصيراً من هذه الحصُر فنجلسَ على بعضه ونتّكيءَ على المدرَّج منه. وكانت ليلةً مقمرة، فمضينا ففرشْنا بعضَ تلك الحُصر، واستلقينا وتحدّثنا، وأبطأ الواثق عند أمّه فاندفع مخارقٌ فغنّى:

أيـا بيتَ ليلى إنّ ليلى غـريبـة بِراذانَ لا خالٌ لديها ولا ابنُ عمْ[2]

---

(١) الظلمان ج ظليم: ذكر النعام. العصب: من عصب بالمكان إذا أقام به ولزمه.
(٢) راذان: اسم لكورتين بسواد بغداد تشتملان على قرى كثيرة، والبيت لمرّة بن عبد الله النهدي.

فاجتمع علينا الغِلمانُ وخرج الواثق فصاح: يا غلامُ. فلم يُجبه أحدُ ومشى من المجلس إلى أن توسّط الدّار، فلما رأيتُه بادرت إليه فقال لي: ويلَك! هل حدث في داري شيءٌ؟ فقلت: لا يا سيّدي. فقال: فما لي أَصِيح فلا أُجاب؟ فقلت: مخارقٌ يغنّي والغِلمانُ قد اجتمعوا عليه، فليس فيهم فضلٌ لسَماع غير ما يسمعونه منه. فقال: عُذرٌ والله يابن حمدون وأيُّ عُذر! ثم جلس وجلسنا بين يديه إلى السَّحَــر.

● عن محمد بن سعيــد التِرمذيّ:

جاء أبو العتاهيــة إلى باب مخارق فطرقه واستفتح، فإذا مُخارق قد خرج إليه، فقال له أبو العتاهية: يا حُسّانَ[1] هذا الإقليم، يا حكيم أرض بابل، اصبُبْ في أُذنى شيئاً يفرحُ به قلبي وتنعم به نفسي. فقال: انزِلوا. فنزلنا، فغَنّانا. قال محمد بن سعيد: فكدت أسعى على وجهي طرباً. قال: وجعل أبو العتاهية يبكي، ثم قال له: يا دواءَ المَجانين، لقد رققتَ حتى كدتُ أَحْسُوك، فلو كان الغناءُ طعاماً لكان غِناؤك أُدْماً، ولو كان شراباً لكان ماءَ الحيـاة.

● بعضُ آل نُوْبخت قــال:

كان أبي وعبدُ الله بن أبي سَهل وجماعةٌ من آل نُوبَخْت وغيرهم وقوفاً بكُناسة الدَّوابّ، في الجانب الغربيّ من بغداد، يتحدّثون. فإنهم لكذلك إذ أقبل مخارقٌ على حمار أسودَ وعليه قميصٌ رقيق ورداء مُسَهَّم[2]، قال: فيمَ كنتم؟ فأخبروه، فقال: دَعُوني من وَسْواسكم هذا، أيُّ شيء لي عليكم إن رميت بنفسي بين قبرين من هذه القبور وغَطّيت وجهي وغنّيت صوتاً فلم يبق أحدُ بهذه الكُناسة ولا في الطريق من مُشترٍ ولا بائع ولا صادرٍ ولا وارد إلّا ترك عملَه وقَرُب مني واتّبع صوتي؟ فقال له عبد الله: إني لأحبّ أن أرى هذا فقُل ما شئت.

---

(١) الحسّان: الحسن الجميل.

(٢) رداء مسهم: مخطط بصور على شكل السهام.

فقال: فرسُك الأشقر الذي طلبتُه منك فَمَنعتَنيه. قال: هو لك إن فعلت ما قلت. ثم دخلها ورمى بنفسه بين قبرين وتغطّى بردائه، ثم اندفع يغنّي، فغنّى في شعر أبي العتاهيـــة:

نـــادت بـــوشـــك رحـيـلك الأيّـــامُ أَفَلَستَ تسمـع أم بـك استصمـــامُ

قــــال: فرأيــت الناس يتقوّضون[1] إلى المقبرة أرسالاً[2]، من بين راكب وراجل وصاحب شَوْل[3] وصاحب جَدْي ومارٍّ بالطريق، حتى لم يبق بالطريق أحدٌ، ثم قال لنا من تحت ردائه: هل بقي أحدٌ؟ قلنا: لا، وقد وَجَب الرَّهْن. فقام فركب حمارَه، وعاد الناسُ إلى صنائعهم، فقال لعبد الله: أَحضِر الفَرس. فقال: على أن تُقيم اليومَ عندي. قال: نعم. فانصرفْنا معهما وَسَلّم الفرس إليه وبَرّه وأحسَن إليه وأحسن رِفدَه.

● ذكر محمد بن الحسن الكاتب أنّ هارونَ بن مُخارق حدّثه فقال:

كان الواثق شديد الشغَف بأبي، وكان قد اقتطعه عنّا وأمر له بحُجرة في قصره وجعل له يوماً في الأسبوع لنوبته في منزله. وكان جواريه يختلفن لذلك اليوم، قال: فانصرفِ إلينا مرّةً في نَوبته، فَصَلّى الغَداةَ مع الفجر على أَسِرَّة في صحن الدّار في يومٍ صائف وجلس يُسبِّح، فما راعنا إلاّ خَدمٌ بيض قد دخلوا فسلّموا عليه وقالوا: إنّ أمير المؤمنين قد دعا بنا في هذه الساعة، فأَعَدْنا عليه الصوتَ الذي طرحتَه علينا فلم يرضَه من أحدٍ منا، وَأَمَرنا بالمصير إليك لِتُصحِّحه عليك. قال: فأمر غِلمانه فطرحوا لهم عدّة كراسيّ فجلسوا عليها، ثم قال لهم: رُدُّوا الصوت. فرَدُّوه، فلم يَرْضَه من أحدٍ منهم، فدعا بجاريته عَميم فَرَدَّتْه عليهم، فلم يرضَه منها، قال: فتحوّل إليهم ثم اندفع فردّ الصوت على الخَدم، فخرج الوصائف من حُجَرِ جَواريه حتى وقفنَ حوالي الأسرَّة، ودخل

(١) يتقوضون: يندفعون مقبلين.
(٢) أرسالاً: جماعات.
(٣) الشول ج شائلة: الناقة التي أتى على وضعها سبعة أشهر فجفّ لبنها.

غلامٌ من غِلمانه ـ وكان يستقي الماء ـ فهجَمَ على الصَّحن بدَلْوه، وجاءت جاريةٌ على كتفها جَرَّةٌ من جِرار المُزَمَّلات[1] حتى وقفتْ بالقُرب منه. قال: وسبقَتْني عيناي فما كَففتُ دموعَها حتى فاضت. ثم قطع الصوتَ حين استوفاه، فرجع الوصائف الأصاغرُ سَعياً إلى حُجَر الجواري، وخرج الغلام السَّقَّاء يشتدّ إلى بَغله، ورجعت الجاريةُ الحاملةُ الجرّة المُزَمَّلة شَدّاً إلى الموضع الذي خرجتْ منه، فتبسّم أبي وقال: ما شأنُك يا هارونُ؟ فقلت: يا أبتِ جعلني الله فداءَك، ما ملكتُ عيني. قال: وأبوك أيضاً لم يملِكْ عينَه.

●ذكر محمد بن الحسن الكاتب أن محمد بن أحمد بن يحيى المكّيَّ حدَّثه عن أبيه قال:

خرج مُخارقٌ مع بعض أخوانه إلى بعض المتنزَّهات، فنظر إلى قوس مُذْهَبةٍ مع أحد مَن خرج معه، فسأله إياها، فكأنّ المسؤولَ ضَنّ بها. قال: وسنَحتْ ظِباءٌ بالقُرب منه فقال لصاحب القَوس: أرأيتَ إن تغنَّيتُ صوتاً فعطفتُ عليك به خُدودَ هذه الظِّباء، أتدفع إليَّ هذه القوس؟ قال: نعم. فاندفع يغنّي:

ماذا تقول الظِّباءُ ... أفُرقةٌ أم لقاءُ
أم عهدُها بسُليمي ... وفي البَيان شفاء
مرّتْ بنا سانحاتٍ ... وقد دنا الإمساءُ
فما أحارتْ جواباً ... وطال فيها العَناءُ

قال: فعطفتْ الظِباءُ راجعةً إليه حتى وقفتْ بالقُرب منه مُستشرِفةً تنظر إليه، مُصغيةً تسمع صوته. فعجب مَن حضر من رُجوعها ووقوفها، وناوله الرجلُ القوسَ فأخذها وقطع الغناء، فعاودت الظباءُ نِفارها ومضت راجعةً على سَننها[2].

● قال ابن المكّيّ: وحدّثني رجلٌ من أهل البصرة كان يألف مُخارقاً

(١) المزمّلة: الجرّة يبرّد فيها الماء وفي وسطها ثقب فيه قصبة يشرب منها.
(٢) السنن: الطريقة.

ويصحبه قال:

كنت معه مرّةً في طيّار[1] ليلاً وهو سكران، فلمّا توسّط دِجلةَ اندفع بأعلى صوته فغنّى، فما بقي أحدٌ في الطيّار من مَلّاح ولا غلام ولا خادم إلا بكى من رقة صوته، ورأيت الشَّمع والسُّرُج من جانبيَ دِجلة في صُحون القصور والدُّور يتساعَون بين يدي أهلها[2] يستمعون غناءَه.

● هارون بن مُخارق عن أبيـه قال:

دعاني محمدُ الأمينُ يوماً، وقد اصطبح، فاقتـرح عليّ:

استقبلتْ ورقَ الـرَّيحـان تَقـطِفُـه   وعَنْبـرَ الهِنـد والـورديَّـةَ الجُـدُدا
ألست تعـرِفني في الحيّ جـاريـةً   ولـم أَخُنْـك ولم تـرفَـعْ إليّ يـدا

فغنّيتُهُ إياه، فطرب طرباً شديداً وشرب عليه ثلاثةَ أرطالٍ ولاءً[3]، وأمر لي بألف دينار وَخَلع عليَّ جُبّةَ وَشْيٍ كانت عليه مُذْهَبَةً، ودُرّاعةً مثلهـا وعِمامةً مثلها تكاد تُعشي البصر من كثرة الذهب. فلمّا لبستُ ذلك ورآه عليَّ ندم ـ وكان كثيراً ما يفعل ذلك ـ فقال لبعض الخَدم: قل للطبَّاخ يأتينا بمَصْلِيَّةٍ[4] معقودةِ الساعةَ. فأَتى بها، فقال لي: كُلْ معي. وكنت أَعرفَ الناس بمذهبه وبكراهته لذلك، فامتنعتُ، فحلف أن آكُلَ معه، فحين أدخلتُ يدي في الغَضَارة رفع يده ثم قال: أُفٍّ، نَغَّصْتَها عليّ والله وَقَذَّرتَها عندي بإدخالك يدَك فيها. ثم رفَس القَصعة رفسةً فإذا هي في حِجْري ووَدَكُها[5] يسيل على الخِلعة حتى نَفَذ إلى جلدي، فقمتُ مبادراً فنزعتُها وبعثتُ بها إلى منزلي وغيّرتُ ثيابي وعُدتُ وأنا مغمومٌ منها وهو يضحك، فلمّا رجعت إلى منزلي جمعتُ كلَّ صانع

---

(١) الطيار : ضرب من المراكب.
(٢) يتساعون بين يدي أهلها: يتسابقون.
(٣) ولاء: متواليـة.
(٤) المصليـة: الشاة المشويّة.
(٥) الودك : الدسم والشحم.

حاذقٍ، فجَهدوا في إخراج ذلك الأثر منها فلم يَخرُج، ولم أنتفعْ بها حتى أحرقتُها فأخذتُ ذَهَبها، وضرب الدهرُ بعد ذلك ضَرَبانَه[1].

ثم دعاني المأمونُ يوماً، فدخلتُ إليه وهو جالسٌ وبين يديه مائدةٌ عليها رغيفان ودَجاجتان فقال لي: تَعَالَ فكُلْ. فامتنعتُ، فقال لي: تَعالَ، ويلَك فساعِدْني. فجلست فأكلتُ معه حتى استَوفى، ووُضع النّبيذ ودعا علَّويهِ فجلس وقال لي: يا مُخارقُ، أتُغنّي:

أقولُ التماسَ العُذرِ لمّا ظلمتنِي وحَمَّلْتِني ذَنْباً وما كنتُ مُذْنبا

فقلت: نعم، يا سيّدي. قال: غَنِّه. فغنَّيتُه، فعبَس في وجهي ثم قال: قَبَّحك اللهَ، أهكذا يُغنَّى هذا! ثم أقبل على عَلَّوَيْهِ فقال: أتُغَنِّيه؟ قال: نعم يا سيّدي. قال: غَنِّه. فغنّاه، فوالله ما قارَبني فيه، فقال: أحسنتَ والله. وشرب رطلًا، وأمر له بعشرة آلاف درهم، واستعاده ثلاثاً، وشرب عليه ثلاثةَ أرطالٍ يُعطيه مع كُلٍّ عشرةَ آلاف درهم، ثم حذف بإصبعه[2]، وقال: بَرقٌ يَمانٍ. وكان إذا أراد قطعَ الشُرب فعل ذلك، وقُمنا، فعلمتُ من أين أُتيت.

فلمّا كان بعدَ أيام دعاني، فدخلتُ إليه وهو جالسٌ في ذلك الموضع بعَينه يأكل هناك، فقال لي: تَعالَ، ويلَك، فساعِدْني. فقلت: الطَّلاقُ لي لازمٌ إن فعلتُ. فضحك ثم قال: ويلَك، أتراني بخيلاً على الطَّعام! لا والله، ولكنّني أردتُ أن أُؤدِّبَك، إن السادة لا ينبغي لِعبيدها أن تُؤاكِلَها، أفهمت؟ فقلت: نعم. قال: فَتَعالَ الآنَ فكُلْ على الأمان. فقلت: أكونُ إذاً أوّلَ من أضاع تأديبَك إيّاه واستحقّ العُقوبةَ من قريب. فضحك حتى استغرب، ثم أمر لي بألف دينارٍ، ومَضيتُ إلى حُجرتي المرسومة لي للخِدمة، وأُتيت هناك بطعامٍ، فأكلتُ ووُضع النّبيذُ ودَعاني وبعَلُّويه، فلمّا جلسنا قال له: يا عليُّ، أتغنّي:

---

(١) في المطبوعة: ضرباته، وهو تصحيف، يقال ضرب الدهر ضربانه أي مضى شطر منه.
(٢) حذف بإصبعه: أشار به كأنه يرمي شيئاً.

ألم تقولي نعمْ قالت أرى وَهَماً   منّي وهل يُؤخذُ الإنسانُ بالوَهَم[1]

فقال : نعم يا سيّدي. فقال: هاتِه. فَغَنّاه، فعبَس في وجهه وبَسَر[2]، وقال: قبحك الله! أتغنّي هذا هكذا! ثم أقبل عليّ فقال: أتُغنّيه يا مُخارقُ؟ فقلت: نعم يا سيّدي. وعلمت أنه أراد أن يستقيد لي[3] من عَلّوية ويرفعَ مني، وإلا فما أتى علّوية بما يُعاب فيه، فغَنَّيتُه، فطرب وشرب رِطلاً، وأمر لي بعشرة آلاف درهم، وفعل ذلك ثلاثَ مرّاتٍ كما فعل به، ثم أَمر بالانصراف، فانصرفْنا وما عاودتُ بعدَ ذلك مُؤاكلةَ خليفةٍ إلى وقتنا هـذا.

● حمّاد بن إسحـاق قـال: قال لي مُخارق:

دعاني يوماً محمدٌ المخلوعُ، فدخلتُ عليه وعندَه إبراهيمُ بن المَهديّ، فقال: غَنّني يا مخارقُ. فغنَّيتُه أصواتاً عديدة، فلم يَطربْ لها وقال: هذا كلُّه مُعادٌ، فغنّني:

«لقد أزمعتْ للبَين هِندٌ زِيالَهـا»

فقلت : لا والله ما أُحسِنه. فقال: غَنِّني :

«لا والـذي نُحِـرتْ له البُدْنُ»

فقلت : لا واللهِ ما أُحسِنه. فقال: غَنِّني:

«يا دارَ سُعدَى سقى أطلالَك الدِّيمـا»

فقلت : لاوالله لا أُحسنـه. فغضب وقال: ويلك، أسـألُك عن ثـلاثة أصواتٍ فلا تُحسِن منها واحداً! فقال له إبراهيم بن المهديّ: ما ذَنبُه؟ إسحاقُ أُستاذُه وعليه يعتمد، وهو يُضايقه في صوتٍ يُعلّمه إيّاه. فقلت: قـد والله صدَق، ما يُعطيني شيئاً ولا يُعَلِّمنيه. قال: فما دواؤه؟ فقد والله أعياني. فقال

(١) الوهم: السهو والخطأ.
(٢) بسـر : أظهر العبوس.
(٣) يستقيد لي : يأخذ بثأري.

له إبراهيم: تُوكِّل به مَن يَصبُّ على رأسه العذابَ حتى يُعلِّمه مائة صوت. قال: أمّا هذا فبعيد، ولكن اذهَبْ إليه عنّي فمُرْه أن يعلّمَكَ هذه الثلاثةَ الأصوات، فإن فعل وإلاّ فصُبَّ السَّوط على رأسه حتى يُعلّمَك.

فدخلت على إسحاق، فجلست بغير أمره، وسلّمتُ سلاماً منكراً، ثم أقبلت عليه فقلت: يأمُرك أميرُ المؤمنين أن تعلِّمَني كذا وكذا. قال: ما أُحسِنُه. فقلت: إني أُنْفِذ فيك ما أمرني به. فقال: تُنفِذ فيَّ ما أُمرتَ به! ألا تستحي، ويحَك، مني ومن تربيتي إياك. قلت: فلا بُدَّ من أن تُعلّمني ما أمرك به أميرُ المؤمنين. قال: إني لستُ أُحسِنه ولكن فلانة تُحسِنه، هاتُوها. فجاءت وجعلتْ تُطارحني حتى أخذتُ الأصوات الثلاثة، وجَعل كلُّ من جاء يومئذٍ لا يَحجُبُه لِيرَوني وجاريتُهُ تُطارحني.

فلمّا أخذتَ الأصوات رجَعَت إلى محمد وأخبرتُهُ الخبرَ، وحَضَر إسحاقُ، فغنّيتُه إياها، فطرب، وجعل إبراهيمُ بن المهديّ يقول: أَحسن واللهِ، أحسَن والله. فلمّا فَرَغتُ قال إسحاقُ: لا والله، ما أحسَنَ ولا أَصاب هو ولا إبراهيمُ في استحسانه، ولقد جهَدت الجاريةُ جَهدَها أن يأخذه عنها فلم يتوجَّهْ له. ثم اندفع فغنّاها، فكأني واللهِ كنت ألعبُ عندما سمعتُ...

● عبد الله بن عبد الله بن حَمْدون قال حدّثني أبي قال:

غضب المعتصم على مُخارق فأمر به أن يُجعلَ في المؤذِّنين ويَلزمَهم، ففعل ذلك، وأَمهل حتى علم أن المعتصم يشرب وأذِّنت العَصْرُ، فدخل هو إلى السِّتر حيث يقف المؤذِّنُ للسلام، ثم رفع صوته جُهدَه وقال: السَّلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته، الصلاةَ يرحمُك الله. فبكى حتى جرتْ دموعُه وبكى كلُّ من حَضَره، ثم قال: أَدخِلُوه إليّ. ثم أقبل علينا وقال: سمعتم هكذا قطُّ؟! هذا الشيطانُ لا يترُك أحداً يغضب عليه. فأَمر به فأُدخل إليه، فقَبّل الأرض بين يدَيه، فدعاه المعتصم إليه وأعطاه يدَه فقبّلها، وأمر بإحضار عُوده، فأُحضر، فأعاده إلى مرتبته.

● عمر بن شَبَّه والحسن بن إبراهيم بن رِياح قالا:

كان مُخارقٌ يهوى جاريةً لأم جعفر يقال لها بَهار ويستُر ذلك عن أم جعفر، حتى بَلَغها ذلك، فأَقْصَتْه ومنعتْه من المرور ببابها، وكان بها كَلِفاً. فلما علم أن الخبر قد بلغ أم جعفر قطعها وتجافاها إجلالاً لأم جعفر وطَمعاً في السُلُوّ عنها، وضاق ذَرعُه بذلك، فبينا هو ذاتَ ليلةٍ في زَلّال(1)، وقد انصرف من دار المأمون، وأمُّ جعفر تشرب على دِجلة، إذ حاذى دارَها فرأى الشمع يَزْهَر فيها، فلمّا صار بمسمعٍ منها ومَرأى اندفع فَغَنّى:

إن تمنعوني مَمَرّي قُـرَبَ دارهم ... فسـوف أنـظرُ من بُعـدٍ إلى الـدارِ
سِيما الهوى شُهِرتْ حتى عُرفتُ بها ... أني مُحبٌّ ومـا بـالحُبّ من عـار
ـا ضَـرّ جيـرانَكم واللهُ يُصلِحهم ... لـولا شقـائي إقبـالي وإدبـاري
لا يَقْدِرُون على مَنعي ولو جَهَـدوا ... إذا مـررتُ وتسليمي بـإضمـار(2)

الشعـر للعباس بن الأحنف والغناء لمخارق.

فقالت أم جعفر: مخارقٌ واللهِ، رُدُّوه. فصاحوا بمَلاّحه: قَدِّم. فقدَّم، وأمره الخدم بالصعوذ فصعِد، وأمرت له أمُ جعفر بكُرسيّ وصِينيّة فيها نبيذ، فشرب، وخَلَعتْ عليه، وأمرت الجواري فغَنَّيْن، ثم ضربن عليه فغنّى، فكان أوّل ما غنّى:

أَغِيبُ عنـكِ بـوُدٍّ مـا يُـغـيِّـرُه ... نَـأْيُ المَحَلّ ولا صَـرفٌ من الزَمَنِ
فـإن أعِشْ فلعـلّ الـدهـرَ يجمعُنـا ... وإن أَمُـتْ فقَتيـلُ الهَـمّ والـحَـزَنِ
قد حَسّن اللهُ في عَينيَّ ما صَنعتْ ... حتى أرى حَسَنـاً ما ليس بـالحَسنِ

الشعر للعباس بن الأحنف، والغنـاء لمخارق...

قـال: فاندفعت بَهارُ فغنّت كأنّها تُباينه، وإنما أجابتْه عن معنى ما عَرّض لها به:

---

(1) الزلال: قارب صغيـر.
(2) السيما والسيماء: العلامـة.

تَعتلُّ بـالشُّغـل عنـا مـا تُلمُّ بنـا   والشُّغلُ للقلب ليس الشغلُ للبَـدَن

ففَطِنــــت أمُّ جعفر أنها خاطبتْه بما في نفسها، فضحكت وقالت: ما سمعنا بأملحَ ممّا صنعتُما. . ووهبتْها لـه.

● وقـال هارون بـن الزَيّـات:

حدّثني هارون بن مخارق عن أبيه: أن المأمون سأله لمّا قدِم مكة عن أحدث صوتٍ صَنعه، فغَنّاه:

أقبلتُ تحصِـب الجِمـارَ وأقبلتُ أرمـي الجِـمـارَ من عـرَفـاتِ
ليتني كنت في الجمـار أنـا المحصـوبَ من كفّ زينبٍ حَصيـاتِ

الشعــر للنُميــريِّ، والغناء لمخارق. . قال: فضحك ثم قال: لَعَمري، إن هذا لأحدثُ ما صنعتَ، ولقد قنعتَ بيسير، وما أَظَنّ بَهَارَ كانت تَبخل عليك بأن تحصِبَك بَحصاةٍ كما تحصِب الجِمار. واستعاده الصوتَ مرّات.

وتوفي مخارق في أول خلافة المتوكّل، وقيل: بل في آخر خلافة الواثق، وذكر ابنُ خُرداذبة أن سبب وفاته أنه أكل قُنَّبيطـةً باردةً فقتلتْه من فوره.

* . * . * . * . *

[٤٦]

نُبَيْه

[الأغاني الجزء ٦ ص ١٦١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

زعم ابنُ خُرْداذْبَه أنه رجلٌ من بني تميم صَليبةٌ[١]، وأن أصله من الكوفة، وأن كان في أول أمره شاعراً لا يغنّي، ويقول شعراً صالحاً. فهوِي قَينةً ببغداد فتعلّم الغناء من أجلها وجعله سَبباً للدخول عليها، ولم يزل يتزيّد حتى جاد غناؤُه وصَنع فأَحسن واشتُهر ودُوِّن غِناؤه وعُدّ في المُحسِنين.

فمـمّا قاله في هذه الجارية وغنّى فيه قولُه:

يا ربِّ إني ما جفَوتُ وقد جفتْ ... فإليك أشكو ذاك يا رَبَاه
مَولاةُ سَوءٍ ما تَرِقّ لِعبدها ... نعمَ الغلامُ وبئست المولاه
يا ربِّ إن كانت حياتي هكذا ... ضرراً عليَّ فما أُريد حياه

(١) صليبة من قومه: صحيح النسب إليهم وليس بمولى.

عمـر بن شَبّة قـال:

قلت لمخارق وقد غَنّى هذا الصوتَ يوماً:

متى تجمعِ القلبَ الذكيَّ وصـارماً   وأنفاً حَمِيّـاً تجتَنِبْـك المظالمُ

فسألتـه لِمـن هو؟ فقال: هذا لِنُبَيه التميميّ، وكان له أخوان يقال لهما مُنبِّه ونَبْهان، وكان ينزل شَهار سُوج الهيثم[1]، في درب الرَّيحان. قال أبو زيد: وسمعت مُخارقاً يحدّث إسحاق بن إبراهيم قال: سمعت أبـاك إبراهيم بن ميمون يقول ـ وقد ذكر نُبَيهاً ـ : إن عاش هذا الغلام ذهب خبرُنـا.

وفاتـه

عليّ بن المفضّل قـال:

اصطبحنا يوماً أنا ونُبَيه عند عبد الله بن أبي غَسّان فغنّانا نبيهٌ لحنه:

يـا أيـهـا الـرجـلُ الـذي   قـد زان مـنـطقَـه البـيـانُ

فما سمعتُ أحسنَ منه، وكان صوتنا عليه بقيةَ يومنا، ثم أردنا الانصراف، فسألنا عُبيد الله أن نبيتَ عنده ونصطبح من غدٍ، فأجبناه. وقال لنُبيه: أيَّ شيء تشتهي أن يُصلَح لك؟ قال: تشتري لي غزالاً فتُطعمني كبدَه كَباباً وتجعل سائرَ ما آكلهُ من لحمه كما تُحبّ. فقال: أَفعلُ. فلمّا أصبحنا جاءه بغزال فأصلَحه كما أحبّ، فلمّا استوفى أكلَه استلقى لينام، فحرَّكناه فإذا هو ميّتٌ، فجزِعنا من ذلك، وبعث عبيد الله إلى أمه فجاءت فأخبرها بخبره. فلمّا رأتْه استرجعت ثم قالت: لا بأسَ عليكم، هو رابع أربعة ولدتُهم كانت هذه ميتَتهم جميعاً ومِيتةَ أبيهم من قبلهم، فَسَكَنّا إلى ذلك، وغُسّل في دار عُبيد الله وأُصلح شأنُهُ وصُلّي عليه، ومضَينا به إلى مقابرهم فدُفـن هنـاك.

* . * . * . * . * . *

---

(١) شهار سوج الهيثم: محلة من محال بغداد.

[٤٧]

يحيى المكيّ

[الأغاني الجزء ٦ ص ١٧٣ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

هو يحيى بن مرزوق مولى بني أمية، وكان يكتُم ذلك لخدمته الخلفاء من بني العبّاس خوفاً من أن يجتنبوه ويحتشموه، فإذا سئل عن وَلائه انتمى إلى قريش ولم يذكر البطن الذي ولاؤُه له، واستَعفى مَن سأله عن ذلك. ويُكنَى يحيى أبا عثمان...

وعُمّر يحيى المكّي مائةً وعشرين سنة، وأصاب بالغناء ما لم يُصِبْه أحدٌ من نُظَرائه، ومات وهو صحيح السّمع والبصر والعقل. وكان قدِم مع الحجازيّين الذين قدِموا على المهديّ في أول خلافته، فخرج أكثرُهم وبقي يحيى بالعراق هو وولده يخدِمون الخلفاء إلى أن انقرضوا، وكان آخرهم محمد ابن أحمد بن يحيى المكيّ، وكان يغنّي مرتجلاً، ويحضُر مجلس المعتمد مع المغنّين فيُوقِع بقضيبٍ على دواة...

وكان ابنُ جامع وإبراهيم الموصليّ وفُليح يفزَعون إليه في الغناء القديم ويأخذونه عنه، ويعايي بعضُهم بعضاً بما يأخذه منه ويُغرب به على أصحابه، فإذا خرجت لهم الجوائزُ أخذوا منها ووفّروا نصيبَه. وله صنعة عجيبةٌ نادرة متقدّمة، وله كتابٌ في الأغاني ونِسَبها وأخبارها وأجناسها كبيرٌ جليل مشهور، إلاّ أنه كان كالمُطَّرح عند الرّواة لكثرةَ تخليطه في رواياته؛ والعملُ على كتاب ابنه أحمد، فإنه صحّح كثيراً ممّا أفسده أبوه وأزال ما عَرَفه من تخاليط أبيه، وحقّق ما نسبه من الأغاني إلى صانعه، وهو يشتمل على نحو ثلاثة آلاف صوت.

محمد بن أحمد بن يحيى المكيّ قال:

عمِل جَدّي كتاباً في الأغاني وأهداه إلى عبد الله بن طاهر، وهو يومئذٍ شابٌّ حديث السّنّ، فاستحسنه وسُرّ به، ثم عَرَضه على إسحاق فعَرّفه عُواراً[1] كثيراً في نِسَبه، لأنّ جدّي كان لا يصحّح لأحد نسبةَ صوت البتّةَ، وينسُب صنعتَه إلى المتقدّمين، وينحَلُ بعضَهم صنعة بعض ضَنّاً بذلك على غيره، فسقط من عين عبد الله وبقي في خِزانته. ثم وقع إلى محمد بن عبد الله، فدعا أبي ـ وكان إليه مُحسِناً وعليه مُفْضِلاً ـ فعرضه عليه، فقال له: إنّ في هذه النِّسب تخليطاً كثيراً خَلّطها أبي لضَنّه بهذا الشأن على الناس، ولكنّي أعمل لك كتاباً أُصحّح هذا وغيره فيه. فعمل له كتاباً فيه اثنا عشرَ ألفَ صوتٍ وأهداه إليه، فوصله محمد بثلاثين ألف درهم، وصحّح له الكتاب الأول أيضاً، فهو في أيدي الناس.

قال وَسواسةُ : وحدّثني حَمّادُ أن أباه إسحاق كان يُقدّم يحيى المكّيّ تقديماً كثيراً ويفضّله ويناضل أباه وابنَ جامع فيه ويقول: ليس يخلو يحيى فيما يرويه من الغناء الذي لا يعرفهُ أحدٌ منكم من أمرين: إمّا أن يكون مُحقّاً فيه كما يقول، فقد علم ما جهلتم، أو يكون من صَنعته وقد نَحَله المتقدّمين ـ كما

---

(١) العوار (مثلثه): العيب.

تقولون ـ فهو أفضل له وأوضح لتقدّمه عليكم. قال: وكان أبي يقول: لولا ما أفسد به يحيى المكّي نفسَـه من تخليطه في روايـة الغناء على المتقـدّمين وإضافته إليهم ما ليس لهم وقلّة ثَباته على ما يحكيه من ذلك، لَما تقدّمه أحدٌ. وقال محمد بن الحسن الكاتب: كان يحيى يُخلّط في نسب الغناء تخليطاً كثيراً، ولا يزال يصنع الصوت بعد الصوت يتشبّه فيه بالغَريض مرّةً، وبمعبد أخرى، وبابن سُريج وابن مُحرِز، ويجتهد في إحكامه واتقانه حتى يشتبه على سامعه؛ فإذا حضر مجالس الخلفاء غنّاه على ما أحدث فيه من ذلك، فيأتي بأحسن صنعة وأتقنها، وليس أحدٌ يعرفها، فيُسأل عن ذلك فيقول: أخذتُهُ عن فلان وأخذه فلان عن يونس أو عن نظرائه من رُواة الأوائل، فلا يُشكّ في قوله، ولا يثبُت لمباراته أحدٌ ولا يقوم لمُعارضته ولا يفي بها؛ حتى نشأ إسحاق فضبط الغناء وأخذه من مَظَانّه ودوّنه، وكشف عوارَ يحيى في منحولاته وبيّنها للناس.

قال أحمد بن سعيدٍ : والاختلافُ الواقعُ في كتب الأغاني إلى الآن من بقايا تخليط يحيى. قال أحمد بن سعيد: وكانت صنعة يحيى ثلاثـةَ آلاف صوت، منها زُهاء ألف صوت لم يُقاربْه فيها أحدٌ، والباقي متوسّطٌ. وذكر بعضُ أصحاب أحمد بن يحيى المكّيّ عنه أنه سُئل عن صنعة أبيه فقال: الذي صحّ عندي منها ألفٌ وثلثمائة صوت، منها مائة وسبعون صوتاً غلب فيها على الناس جميعاً من تقدّم منهم ومن تأخّر، فلم يقُم له فيها أحدٌ.

طائفة من أخباره

● عن أحمد بن سعيد المالكيّ ـ وكان مغنّياً منقطعاً إلى طاهر وولده وكان من القوّاد ـ قال:

حضرت يحيى المكّي يوماً وقد غنّى صوتاً فسُئل عنه فقال: هذا لِمالك ـ ولم يحفظ أحمد بن سعيد الصوت ـ ثم غنّى لحناً لمالك فسُئل عن صانعه فقال: هذا لي. فقال له إسحاق: قلتَ ماذا؟ فديتُك! وتضاحك به؛ فسُئل عن صانعه فأخبر به، ثم غنّى الصوتَ. فخجل يحيى حتى أمسك عنه. ثم غنّى

بعد ساعة في الثقيل الأول، واللحن:

إنّ الخليطَ أَجَدَّ فاحتَملا وأراد غيظَك بالذي فَعلا
فظللتَ تأمُل قُربَ أَوبتهم والنفسُ ممّا تأمُلُ الأَملا

فسئل عنه فنسبه إلى الغريض، فقال له إسحاق: يا أبا عثمان، ليس هذا من نَمَط الغريض ولا طريقته في الغناء، ولو شئت لأخذت مالك وتركت للغريض ما له ولم تتعب. فاستحيا يحيى ولم ينتفع بنفسه بقيّة يومه. فلمّا انصرف بعث إلى إسحاق بألطافٍ كثيرة وبرٍّ واسع، وكتب إليه يعاتبه ويستكفّ شرَّه ويقوله له: لستُ من أقرانك فتُضادَّني، ولا أنا ممّن يتصدَّى لمُباغضتك ومباراتك فتُكايدَني، ولأنت إلى أن أُفيدَك وأُعطيكَ ما تعلم أنك لا تجده عند غيري فتَسموَ به على أكفائك أحوجُ منك إلى أن تُباغِضَني فأُعطيَ غيرَك سلاحاً إذا حَمَله عليك لم تَقُم له، وأنت أَولى وما تختار. فعرف إسحاقُ صدقَ يحيى، فكتب إليه يعتذر وردّ الألطافَ التي حَملها إليه وحَلَف لا يُعارضه بعدَها، وشَرَط عليه الوفاءَ بما وعَدَه به من الفوائد، فوفّى له بها وأخذ منه كلَّ ما أراد من غناء المتقدمين، وكان إذا حَزَبه أمرٌ في شيءٍ منها فزِع إليه، فأفاده وعاونه ونَصَحه؛ وما عاود إسحاقُ مُعارضتَه بعد ذلك، وحَذِره يحيى، فكان إذا سُئل بحضرته عن شيء صدَق فيه، وإذا غاب إسحاق خَلّط فيما يُسأَلُ عنه. قال: وكان يحيى إذا صار إليه إسحاق يطلب منه شيئاً أعطاه إياه وأفاده وناصحه، ويقول لابنه أحمد: تَعَالَ حتى تأخذ مع أبي محمد ما اللهُ يَعلم أنّي كنتُ أبخلُ به عليك فضلاً عن غيرك. فيأخذه أحمدُ عن أبيه مع إسحاق. قال: وكان إسحاقُ بعد ذلك يتعصّب ليحيى تعصُّباً شديداً ويصِفه ويقدّمه ويعترف بِرياسته، وكذلك كان في وصف أحمد ابنه وتقريظه.

● قال أحمد بن سعيد المالكيّ في خبره:

قال إسحاق يوماً للرشيد، قبل أن تصلُحَ الحالُ بينه وبين يحيى المكّي: أَتُحِبّ يا أمير المؤمنين أن أُظهرَ لك كذبَ يحيى فيما ينسُبه من الغناء؟ قال:

نعم. قال: أعطِني أيَّ شعر شئت حتى أصنعَ فيه، واسأَلْني بحضرة يحيى عن نِسبته فإني سأنسِبُه إلى رجلٍ لا أصلَ له، واسألْ يحيى عنه إذا غنّيتُه، فإنه لا يمتنع من أن يدّعيَ معرفتَه. فأعطاه شعراً فصنع فيه لحناً وغنّاه الرشيدَ، ثم قال له: يسألني أمير المؤمنين عن نِسبته بين يديه. فلمّا حَضَر يحيى غنّاه إسحاقُ فسأله الرشيد: لِمن هذا اللحن؟ فقال له إسحاق: لِغناديس المدينيّ. فأقبل الرشيد على يحيى فقال له: أكنت لقيت غناديس المدينيّ؟ قال: نعم، لقيته وأخذتُ عنه صَوتين. ثم غَنّى صوتاً وقال: هذا أحدُهما. فلمّا خرج يحيى حلف إسحاقُ بالطَّلاق ثلاثاً وعَتْق جواريه أنّ الله ما خلق أحداً اسمُهُ غناديس ولا سُمع في المَغَنّين ولا غيرهم، وأنه وضع ذلك الاسم في وقته ذلك لينكشفَ أمرُه.

● محمد بن أحمد بن يحيى المكّيّ عن أبيه قال قال لي إسحاق:

كنت أنا وأبوك وابنُ جامع وفُليح بن أبي العوراء وزُبير بن دَحْمان يوماً عند الفضل بن الربيع، فانبرى زُبير بن دَحمان لأبيك (يعني يحيى)، فجعلا يغنّيان ويُباري كلُّ واحد منهما صاحبه ـ وذلك يُعجب الفضل، وكان يتعصّب لأبيك ويُعجَبُ به ـ فلمّا طال الأمرُ بينهما قال له الزبير: أنت تنتحل غناءَ الناس وتدّعيه وتنحَلُهم ما ليس لهم. فأقبل الفضلُ عليّ وقال: احكُمْ أيها الحاكمُ بينهما، فلم يخفَ عليك ما هما فيه. فقلت: لئن كان ما يَرويه يحيى ويُغنّيه شيئاً لغيره فلقد روى ما لم يروُوه وما لم نَروِه، وعلِم ما جَهِلناه وجهِلُوه؛ ولئن كان من صنعته إنه لأَحسنُ الناس صنعةً. وما أعرف أحداً أروى منه ولا أصحَّ أداءً للغِناء، كان ما يُغنيّه له أو لغيره. فسُرّ بذلك الفضلُ وأعجَبَه، وما زال أبوك يشكُره لي.

● القاسم بن زُرزور عن أبيه عن مَولاه عليّ بن المارقيّ قال:

قال لي إبراهيم بن المهديّ: ويلَك يا مارقيّ! إنّ يحيى المكّيّ غنّى البارحةَ بحضرة أمير المؤمنين صوتاً فيه ذكرُ زينب، وقد كان النبيذُ أخذ منيّ فأُنسيت شعرَه، واستعدتُه إيّاه فلم يُعده، فاحتَلْ لي عليه حتى تأخذَه لي منه

ولك عليّ سَبَقٌ[1]. فقال لي المارقيّ - وأنا يومئذٍ غلامُهُ - اذهَب إليه فقل له إني أَسأله أن يكون اليومَ عندي. فمضيت إليه فجئتُهُ به. فلمّا تغدَّوا وُضع النَّبيذ، فقال له المارقيّ: إنيَ كنت سمعتُكَ تغنّي صوتاً فيه زينب وأنا أُحبّ أن آخذَه منك. وكان يحيى يوفيّ هذا الشأن حقَّه من الاستقصاء فلا يخرج عنه إلاّ بحذر ولا يَدَع الطلب والمسألة، ولا يلقي صوتاً إلا بِعوضَ. . .

قال: فقال له يحيى: وأيُّ شيء العِوض إذا ألقيت عليك هذا الصوت؟ قال: ما تريد. قال: هذه الزَّربيّة[2] الأَرمينيّة كم تقعد عليها! أما آن لك أن تَملَّها؟ قال: بلى، وهي لك. قال: وهذه الظِباءُ الحَرَميّة، وأنا مكّيٌّ لا أنت، وأنا أولَى بها. قال: هي لك. وأمر بحملها معه، فلمّا حصَلت له قال المارقيّ: يا غُلامُ، هاتِ العُود. قال يحيى: والميزانَ والدراهم. وكان لا يغنّي أو يأخذَ خمسين درهماً، فأعطاه إيّاها، فألقى عليه قولَه:

بزينبَ أَلْمِمْ قبل أن يرحلَ الرَّكْبُ وقـل إن تَملّينا فمـا مَلَّكِ القلبُ

فلم يشكَّ المارقيُّ أنه قد أخذ الصوت الذي طلبه إبراهيمُ وأدرك حاجتَه. فبكّر إلى إبراهيم وقد أخذ الصوت، فقال له: قد جئتكَ بالحاجة. فدعا بالعُود، فغَنّاه إيّاه، فقال له: لا واللهِ ما هو هذا، وقد خَدَعك، فعاوِدْ الاحتيالَ عليه. فبعَثَني إليه وبعث معي خمسين درهماً. فلمّا دخل إليه وأَكَلا وشرِبا قال له يحيى: قد واليتَ بين دَعَواتك لي، ولم تكن بَرّاً ولا وَصُولاً، فما هذا؟ قال: لا شيء والله إلا محبّتي للأخذ عنك والاقتباس منك. فقال: سرّك اللهُ، فَمَهْ. قال، تذكّرتُ الصوت الذي سألتُك إيّاه فإذا ليس هو الذي ألقيت عليّ. قال: فتريد ماذا؟ قال: تذكُر الصوت. قال: أفعل. ثم اندفع فغَنّاه:

أَلْمِمْ بـزينبَ إنّ البَين قـد أفِـدا قلّ الثَواءُ لئن كان الرحيـلُ غدا[3]

---

(1) السبق: الخطر يوضع في السباق يأخذه من سبق وأراد هنا المكافأة.
(2) الزربية: البساط.
(3) أفد: دنا.

فقال له : نعم، فديتُك يا أبا عثمان، هذا هو، ألْقِه عليّ. قال: العِوَض. قال: ما شئت؟ قال: هذا المِطْرَف[1] الأسود. قال: هو لك. فأخذه وألقى عليه هذا الصوتَ حتى استوى له. وبَكّر إلى إبراهيم فقال له: ما وراءك؟ قال: قد قضيتُ الحاجة. فدعا له بعُودٍ، فغَنّاه، فقال: خدَعك واللهِ، ليس هذا هو، فعاوِدِ الاحتيالَ عليه، وكلُّ ما تُعطيه إياه ففي ذمتّي. فلما كان اليومُ الثالث بعث بي إليه، فدعوتُهُ وفعَلنا مثلَ فِعلنا بالأمس. فقال له يحيى: فما لك أيضاً؟ قال له: يا أبا عثمان، ليس هذا الصوتُ هو الذي أردتُ. فقال له: لستُ أعلم ما في نفسك فأَذكُره وإنما عليّ أن أذكر ما فيه زينبُ من الغناء كما التمست حتى لا يبقى عندي زينبُ البتّةَ إلا أحضرتُها. فقال: هاتِ على اسم الله. قال: اذكُرِ العِوض. قال : ما شئت؟ قال: هذه الدُرّاعةُ[2] الوَشْي التي عليك. قال: فخُذْها والخمسين الدرهم. فأحضَرها، فألقى عليه:

لـزينبَ طيفٌ تعتـريني طَـوارقُـه   هُدوءاً إذا النجمُ ارجحنّتْ لواحقُه[3]

فأخذه منه ومضى إلى إبراهيم، فصادفه يشرب مع الحُرَم، فقال له حاجبُه: هو مُتشاغل. فقال: قل له قد جئتك بحاجتك. فدخل فأعلمه، فقال: يدخُل فيغنّيه في الدار وهو قائم، فإن كان هو وإلاّ فليخرُجْ. ففعل، فقال: لا والله ما هو هذا، ولقد خدعك، فعاوِدِ الاحتيال عليه. ففعل مثل ذلك بيحيى، فقال له يحيى وهو يضحك: أما ظفِرت بزينبك بعدُ؟ فقال: لا والله يا أبا عثمان، وما أشكّ في أنك تتعمّدني بالمنع ممّا أُريدُه، وقد أخذت كلَّ شيء عندي معابثةً. فضحك يحيى وقال: قد استحييتُ منك الآن، وأنا ناصحُك على شريطة. قال: نعم، لك الشَريطة. قال: لا تَلُمني في أن أعابثك لأنك أخذت في معابثتي، والمطلوبُ إليه أقدرُ من الطالب، فلا تُعاوِدْ أن تحتالَ عليَّ فإنك تظفرُ مني بما تُريد، إنما دسّك إبراهيمُ بن المهديّ عليّ لتأخذَ مني صوتاً

---

(١) المطـرف : ضرب من الثياب.

(٢) الدراعــة : جبة مشقوقة من مقدّمها، ولا تكون إلا من صوف.

(٣) ارجحنـت : مالت.

غنّيتُهُ، فسألني إعادتَه، فمنعتُهُ بُخلاً عليه لأنه لا يلحقُني منه خيرٌ ولا بركة، ويريد أن يأخذَ غنائي باطلاً، وطمع بموضعك أن تأخذ الصوت بلا ثمنٍ ولا حمد، لا واللهِ إلاّ بأوفرِ ثمن وبعد اعترافك، وإلاّ فلا تطمعْ في الصَّوت. فقال له: أمّا إذ فطِنتَ فالأمرُ واللهِ على ما قلتَ، فتُغنّيه الآنَ بعينه على شرط أنه إذا كان هو هو وإلاّ فعليك إعادتُهُ، ولو غَنّيتَني كلَّ شيء تعرفُه لم أحتسِب لك إلاّ به. قال: اشترِه. فتساوما طويلاً وماكَسه حتى بلغ الصوتُ ألفَ درهم، فدفعها إليه، وألقى عليه:

طرقتْك زينبُ والمَزارُ بعيدُ ... بمنىً ونحن مُعرِّسون هُجودُ
فكأنّما طَرَقَتْ بَريّاً روضةٍ ... أُنُفٍ تُسَحْسِحُ مُزْنَها وتجودُ[1]

ـ قال: وهو صوت كثير العمل، حلو النغم، محكم الصَّنعة، صحيح القسمة، حسن المقاطع ـ فأخذه وبكّر إلى إبراهيم بن المهديّ فقال له: قد أفقرني هذا الصوتُ وأعراني، وأبلاني بوجه يحيى المكّيّ وشِحّه وطلبه وَشَرَهه. وحدّثه بالقصة، فضحك إبراهيم. وغنّاه إيّاه فقال: هذا وأبيك هو بعينه. فألقاه عليه حتى أخذه، وأخلف عليه كلَّ شيءٍ أخذه يحيى منه وزاده خمسة آلاف درهم، وحَمَلَه على بِرذَون أشهبَ فارهٍ بسَرجه ولِجامه، فقال له: يا سيّدي، فغُلامك زُرزور المسكين قد تردّد عليه حتى ظَلع[2]، هبْ له شيئاً. فأمر له بألف درهم.

* . * . * . * . *

(١) روضة أنف: لم تُرعَ. السح والتسحسح: الصب والسيلان.
(٢) ظلع: عرج عرجاً خفيفاً.

[٤٨]

يزيد حَوْراء

[الأغاني الجزء ٣ ص ٢٥١ وما بعدها]

أصله ومنزلته في الغناء

يزيدُ حَوراء رجلٌ من أهل المدينة، ثم من موالي بني لَيث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، ويُكنَى أبا خالد، مُغنٍّ كثير الصِّناعة، من طبقة ابن جامع وإبراهيم المَوصليّ، وكان ممن قدِم على المهديّ في خلافته فغَنّاه، وكان حسنَ الصوت حُلو الشمائل.

وذكر ابنُ خُرْداذْبَهْ أنه بلغَه أنّ ابراهيم الموصليّ حَسَده على شَمائله وإشارته في الغِناء، فاشترى عدّة جَوارٍ وشاركَه فيهنّ وقال له: عَلِّمهنّ فما رزَق الله من ربح فهو بيننا. وأمرهنّ أن يجعلن وَكْدَهنّ(١) أخذَ إشارته، ففعلن ذلك، وكان إبراهيمْ يأخذُها عنهنّ هو وابنُه ويأمرُهنّ بتعليم كلٍّ من يَعرفنَه ذلك حتى شَهَرها في الناس، فأبطلَ عليه ما كان منفرِداً به من ذلك.

---

(١) الوكد : القصد.

عن عبد الله بن العبّاس الرّبيعيّ قال:

كان يزيدُ حَوراء نظيفاً ظريفاً حسنَ الوجه شَكِلاً[1] لم يقدَم علينا من الحجاز أنظفُ ولا أشكَلُ منه، وما كنتَ تشاء أن ترى خَصْلةً جميلة فيه لا تراها في أحدٍ منهم إلاّ رأيتَها فيه. وكان يتعصّب لإبراهيم الموصليّ على ابن جامع، فكان إبراهيمُ يرفع منه ويُشيع ذكرَه بالجميل ويُنبِّه على مواضع تقدُّمه وإحسانه ويبعث بابنه إسحاق إليه يأخذُ عنه. وكان صديقاً لأبي مالك الأعرج التَّميميّ لا يكاد أن يُفارقَه. فمرِض مرضاً شديداً واحتُضر، فاغتمّ عليه الرشيد وبعث بمسرورٍ الخادم يسألُ عنه. ثم مات، فقال أبو مالك يرثيه:

لم يُمَتَّعْ من الشَّباب يزيدُ ... صار في التُّرْبِ وهو غَضٌّ جديدُ
خانه دهرُه وقابله منه بنَحسٍ ... ودابرتْه السُّعودُ
حين زُفّت دنياه من كلّ وجهٍ ... وتدانى إليه منه البعيدُ
فكأنْ لم يكن يزيدُ ولم يَشْجُ نديماً يَهُزُّه التغريدُ

طائفة من أخباره

● يزيد حوراء المغنّي قال:

كلّمني أبو العتاهية في أن أكلّمَ له المهديَّ في عُتْبَةَ، فقلت له: إنّ الكلام لا يُمكنُني ولكن قُل شعراً أُغَنِّه به. فقال:

نفسي بشيءٍ من الدنيا مُعَلَّقةٌ ... الله والقائمُ المهديُّ يَكْفيها
إنّي لأَيأسُ منها ثم يُطمِعُني ... فيها احتقارُك للدنيا وما فيها

قال: فعملت فيه لحناً وغنّيتُه به فقال: ما هذا؟ فأخبرته خبر أبي العتاهية، فقال: نَنْظُر فيما سأل. فأخبرت أبا العتاهية؛ ثم مضى شهرٌ فجاءني وقال: هل حدث خبرٌ؟ فقلت: لا. قال: فاذكُرني للمهديّ. قلت: إن أحببتَ ذلك فقل شعراً تُحرّكه وتُذكِّره وعدَه حتى أُغنّيه به. فقال:

---

(١) شكل: ذو دلّ.

ليت شِعري ما عندكم ليت شعري فلقد أُخِّر الجوابُ لأمرِ
ما جَوابٌ أولَى بكلِّ جميلٍ من جوابٍ يُرَدُّ من بعد شهر

قال يزيد: فغنّيتُ به المهديّ، فقال: عليَّ بعُتبةَ. فأُحضِرتْ، فقال: إن أبا العتاهية كَلّمني فيكِ فما تقولين؟ ولكِ وله عندي ما تُحبّان ممّا لا تبلُغه أمانيكما. فقالت له: قد علِم أميرُ المؤمنين ما أوجب الله عليَّ من حق مولاتي، وأُريد أن أذكُرَ لها هذا. قال: فافْعَلي. قال: وأعلمتُ أبا العتاهية، ومضت أيامٌ فسألني مُعاودةَ المهديّ، فقلت: قد عرفتَ الطريق فقل ما شئت حتى أغنّيه به. فقال:

أشربتُ قلبي من رجائكَ ماله عَنَقٌ يَخُبّ إليك بي وَرَسِيمُ
وأَملتُ نحو سماء جَودك ناظري أرعى مخايل بَرقها وأَشِيمُ
ولربّما استيأستُ ثم أقول لا إن الذي وعدَ النجاحَ كريمُ(١)

قال يزيد: فغنَّيتُه المهديّ فقال: عليّ بعُتبة. فجاءت: فقال:ما صنعتِ؟ فقالت: ذكرتُ ذلك لمولاتي فكرهَتْه وأبتْه، فليفعلْ أميرُ المؤمنين ما يريد. فقال: ما كنت لأفعل شيئاً تكرهه. فأعلمتُ أبا العتاهية بذلك فقال:

قَطّعتُ منكِ حبائلَ الآمالِ وأرحتُ من حِلٍّ ومن تَرحالِ
ما كان أشأمَ إذ رجاؤُك قاتلي وبناتُ وَعدك يعتلجنَ ببالي
ولَئن طمعتُ لرُبّ بَرْقةِ خُلّبٍ مالت بذي طمعٍ ولَمْعة آلِ(٢)

● حمّاد بن إسحاق عن أبيه قال:

قال يزيد حوراء: كنت أجلِس بالمدينة على أبواب قريش، فكانت تمرّ بي جاريةٌ تختلف إلى الزرقاء تتعلّم منها الغناء، فقلت لها يوماً: افهَمي قولي ورُدّي جوابي وكُوني عند ظنّي. فقالت: هاتِ ما عندك. فقلت: بالله ما

---

(١) العنق: ضرب سريع من سير الابل. الرسيم: سير للإبل. الجود: المطر الغزير. شام البرق: نظر إليه ليعرف أين يسقط مطره.
(٢) البرق الخلب: الذي لا يحمل المطر. الآل: السراب.

اسمُكِ؟ فقالت: مُمَنَّعة. فأطرقتُ طِيرةً[1] من اسمها مع طمعي فيها، فقلت: بل باذلةٌ أو مبذولة إن شاء الله، فاسمعي مني. فقالت وهي تبتسمُ: إن كان عندك شيءٌ فقُل. فقلت:

لِيَهْنِـكِ مني أنني لسـتُ مُفشيـاً هواكِ إلى غيري ولو مُتُّ من كَرْبِ
ولا مـانحـاً خَلْقـاً سـواكِ مـودّةً ولا قائلاً ما عشتُ من حُبّكم حَسْبي

قال : فنظرت إليّ طويلاً ثم قالت: أنشُدكُ الله، أعن فَرط محبّة أم اهتياج غُلمةٍ تكلّمتَ؟ فقلت: لا والله عن فَرط محبّة. فقالت:

فـوالله ربِّ الناس لاخُنتُـكَ الهـوى ولا زلتَ مخصوصَ المحبّة من قلبي
فثِقْ بي فـإنّي قـد وثقتُ ولا تكن على غير ما أظهَرْتَ لي يا أخا الحُبِّ

قـــال: فـــوالله لكأنما أضرمتْ في قلبي ناراً، فكانت تلقاني في الطريق الذي كانت تسلُكه فتحدّثْني وأتفرجّ بها، ثم اشتراها بعضُ أولاد الخلفـاء فكانت تكاتِبُني وتُلاطفني دهراً طويلاً.

.* .* .* .* .* .* .* .*

---

(١) الطيرة: التطير والتشاؤم.

القِسمُ الرّابع

القيَان في العَصْر العَبّاسيّ

[٤٩]

بَذْل

[الأغاني الجزء ١٧ ص ٧٥ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت بَذْلُ صفراءَ مولَّدةً من مولّدات المدينـة، ورُبِّيت بالبصـرة، وهي إحدى المحسِنات المتقدِّمات الموصوفات بكثرة الرواية؛ يقال إنها كانت تغنّي ثلاثين ألفَ صوت. ولها كتابٌ في الأغاني منسوبُ الأصوات غيرُ مجنَّس، يشتمل على اثني عشر ألف صوت يقال إنها عمِلته لعليّ بن هشام. وكانت حلوةَ الوجه ظريفةً ضاربة متقدّمة، وابتاعها جعفر بن موسى الهادي فأخذها منه محمدٌ الأمين وأعطاه مالاً جَزيلاً، فوَلَدُه جميعاً يدَّعون ولاءَها، وأخذت بذل عن أبي سعيد مولى فائد، ودَحْمان، وفُليح، وابن جامع، وإبراهيم وطبقتهم.

عن أبي حشيشة. . : كانت بَذل من أحسن الناس غناءً في دهرها، وكانت أستاذة كل محسن ومحسِنة، وكانت صفراءَ مدنيّة، وكانت أروى خَلق الله تعالى للغناء، ولم يكن لها معرفة.

وكانت لجعفر بن موسى الهادي، فوُصفت لمحمد زُبيدة، فبعث إلى جعفر يسأله أن يُرِيَه إيّاها، فأبى؛ فزاره محمدٌ إلى منزله، فسمع شيئاً لم يسمع مثلَه، فقال لجعفر: يا أخي، بِعني هذه الجارية. فقال: يا سيّدي، مثلي لا يبيع جارية. قال: فَهبْها لي. قال: هي مُدَبَّرة[1]. فاحتال عليه محمد حتى أسكره، وأمر ببَذْلٍ فحُملت معه الى الحَرّاقة، وانصرف بها. فلما انتبه سأل عنها، فأُخبر بخبرها، فسكت. فبعث إليه محمد من الغد، فجاءه وبَذل جالسةٌ فلم يقل شيئاً، فلما أراد جعفرٌ أن ينصرف قال: أَوْقِرُوا حَرّاقةَ ابن عمّي دراهمَ. فأُوقرت.

قال: فحدّثني عبد الله بن الحُنَينيّ ـ وكان أبوه على بيت مال جعفر بن موسى ـ أن مبلغ ذلك المال كان عشرين ألف ألف درهم.

قال: وبقيت بذل في دار محمد إلى أن قُتل، ثم خرجت، فكان ولد جعفر وولد محمد يدّعون ولاءها. فلمّا ماتت ورثها ولدُ عبد الله بن محمد بن زُبيدة.

عن ابن المكّيّ عن أبيه. . . : إن محمداً وهب لها من الجوهر شيئاً لم يملكْ أحدٌ مثلَه، فسَلم لها، فكانت تخرج منه الشيءَ بعد الشيء فتبيعه بالمال العظيم، فكان ذلك معتمدَها مع ما يصل إليها من الخلفاء الى أن ماتت وعندها منه بقيّةٌ عظيمة.

قال: ورغب إليها وجوهُ القوّاد والكتّاب والهاشميّين في التزويج، فأبت وأقامت على حالها حتى ماتت.

طائفة من أخبارها

● قال أبو حَشيشة في خبره: وكنتُ عند بَذل يوماً وأنا غلام، وذلك في أيام المأمون ببغداد، وهي في طارمةٍ[2] لها تَمتَشِط، ثم خرجت إلى الباب

(١) المدبّـر من الرقيق : المعتق بعد موت سيده.

(٢) الطارمـة : بيت من الخشب.

فرأيت الموكب، فظننت أن الخليفة يمُرّ في ذلك الموضع، فرجعت إليها فقلت: يا سِتّي[1]، الخليفة يمرّ على بابك. فقالت: انظروا أيّ شيء هذا؟ إذ دخل بوّابُها فقال: عليٌّ بن هشام بالباب. فقالت: وما أَصنع به؟ فقامت إليها وَشيكة جاريتُها ـ وكانت ترسلها إلى الخليفة وغيره في حوائجها ـ فأكبّت على رِجْلها وقالت: الله، الله! أتحجُبين عليّ بن هشام! فدعتْ بِمنديلٍ فطرحتْه على رأسها ولم تَقُمْ إليه، فقال: إني جئتكِ بأمر سيّدي أمير المؤمنين، وذلك أنه سألني عنك فقلت: لم أرَها منذ أيام. فقال: هي عليك غَضْبى، فبحياتي لا تدخُل منزلك حتى تذهبَ إليها فتسترضيَها. فقالت: إن كنت جئت بأمر الخليفة فأنا أقوم. فقامت فقَبّلتْ رأسه ويَدَيه، وقعد ساعةً وانصرف. فساعةَ خرج قالت: يا وشيكةُ، هاتي دواةً وقرطاساً. فجعلتْ تكتب فيه يومَها وليلتَها حتى كتبت اثني عشرَ ألف صوتٍ... ثم كتبت إليه: يا عليٌّ بن هشام، تقول: قد استغنيتُ عن بَذل بأربعة آلاف صوت أخذناها منها، وقد كتبتُ هذا وأنا ضَجِرة، فكيف لو فرّغتُ قلبي كلَّه! وختمت الكتاب وقالت لها: امضي به إليه. فما كان أسرعَ من أن جاء رسولُه ـ خادمٌ أسودُ يقال له مُخارق ـ بالجواب يقول فيه: يا سِتّي، لا والله ما قلتُ الذي بَلَغك، ولقد كُذب عليّ عندك؛ إنما قلت: لا ينبغي أن يكون في الدنيا غناءٌ أكثرُ من أربعة آلاف صوت، وقد بعثتِ إليّ بديوانٍ لا أؤدّي شكركِ عليه أبداً. وبعث إليها عشرةَ آلاف درهم وتُخوتاً فيها خزٌّ ووشيٌّ ومُلَحٌ، وتَخْتاً مُطبقاً فيه ألوانُ الطِّيب.

أحمد بن محمد الفيزُران عن بعض أصحابه:

أنّ إبراهيم بن المهديّ كان يُعظّمها ويتوافَى لها، ثم تغيّر بعد ذلك استغناءً عند نفسه عنها. فصارت إليه، فدعا بعُودٍ، فغنّت في طريقةٍ واحدة وإيقاع واحد وإصبعٍ واحدة مائةَ صوت لم يعرف إبراهيمُ منها صوتاً واحداً، ووضعت العود وانصرفت فلم تدخُل دارهَ حتى طال طلبُه لها وتضرُّعُه إليها في الرجوع إليه.

---

(١) يا ستي: من كلام المولدين أي يا سيدتي.

● ذكر أحمد بن سعيد المالكيّ أن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ خالف بَذْلاً في نسبة صوت غَنَّتْه بحضرة المأمون، فأمسكتْ عنه ساعةً، ثم غنّت ثلاثةَ أصوات في الثقيل الثاني واحداً بعد واحد، وسألت إسحاقَ عن صانعها، فلم يعرِفه، فقالت للمأمون: يا أمير المؤمنين، هي والله لأبيه، أخذتُها من فِيه، فإذا كان هذا لا يعرف غناءَ أبيه فكيف يعرف غناءَ غيره! فاشتـدّ ذلك على إسحاق حتى رُئي ذلــك فيــه.

.* .* .* .* .*

[٥٠]

بَصْبَص

[الأغاني الجزء ١٥ ص ٢٧ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت بَصْبَصُ هذه جاريةً مُولَّدةً من مولَّدات المدينة، حُلوةَ الوجه، حسنةَ الغناء، قد أخـذت عن الطبقـة الأولى من المغنِّين، وكان يحيى بن نُفيس مولاها ـ وقيل نُفيس بن محمد والأول أصحّ ـ صاحبَ قِيان يغشاه الأشرافُ ويسمعون غناءَ جواريه. . . وكانت بصبصُ هذه أنفسَهنّ وأشدَّهنّ تقدُّمـاً.

طائفة من أخبارها

● عن غُرير بن طلحـة قـال:

اتَّعد محمد بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين، وعبدُ الله بن يحيى ابن عَبّاد بن عبد الله بن الزُبير، وعبدُ الله بن مصعَب الزبيريّ، وأبو بكر بن محمد بن عثمان الرّبعي، ويحيى بن عُقبة، أن يأتوا بَصْبَص جاريـة ابن نُفَيس. فعجِل محمد بن يحيى ـ وكان من أصحاب عيسى بن موسى ـ ليخرجَ

إلى الكوفة، فقال عبد الله بن مصعب:

أرائحٌ أنت أبا جعفرٍ ... من قبل أن تسمعَ من بَصْبَصا
هيهاتَ أن تسمعَ منها إذا ... جاوزت العيسُ بك الأعوصا
فخُذ عليها مجلسَي لذّةٍ ... ومجلساً من قبل أن تَشْخَصا
أحلِفُ بالله يميناً ومن ... يحلِف بالله فقد أخلصا
لو أنّها تدعو إلى بَيعةٍ ... بايعتُها ثم شَققتُ العصا[1]

قال: فاشتراها أبو غَسّان مولى منيرة للمهديّ بسبعة عشر ألفَ دينار.

قال حماد: وحدّثني أبي عن الزبير أن عبد الله بن مصعب خاطب بهذا الشعر أبا جعفر المنصور.

موسى بن مِهران قال:

كانت بالمدينة قَينة لآل نُفَيس بن محمد يقال لها بَصبص، وكان مولاها صاحبَ قصر نُفيس.... قال: وكان عبدُ الله بن مصعَب بن ثابت بن عبد الله ابن الزبير يأتيها فيسمع منها، وكان يأتيها فِتيانٌ من قريش فيسمعون منها؛ فقال عبد الله بن مصعب حين قدم المنصور منصرِفاً من الحجّ ومرّ بالمدينة يذكر بَصبص:

أراحلٌ أنت أبا جعفرٍ ... من قبل أن تسمع من بَصْبَصا

وذكر الأبيات. فبلغتْ أبا جعفر، فغضب فدعا به فقال: أما إنكم يا آلَ الزبير قديماً ما قادتكم النساء وشققتُم معهنّ العصا، حتى صرتَ أنت آخِرَ الحمقى تُبايع المغنّيات، فدونكم يا آل الزبير هذا المرتَع الوَخيم.

● القاسم بن زيد المَدينيّ قال:

اجتمع ذات يوم عند بصبص جارية ابن نُفيس عبدُ الله بن مصعب الزُبيري، ومحمد بن عيسى الجعفريّ، في أشراف من أهل المدينة؛ فتذاكروا

---

(١) الأعوص: موضع قرب المدينة. شق العصا: خالف وخرج عن الطاعة وفارق الجماعة.

مُزَبِّداً المدينيّ صاحبَ النوادر وبُخلَه، فقالت بصبصُ: أنا آخُذ لكم منه درهماً. فقال لها مولاها: أنتِ حُرَّةٌ لئن فعلتِ إن لم أشترِ لكِ مِخْنَقة[1] بمائة ألف دينار، وإن لم أشترِ لك ثوبَ وَشْي بما شئتِ وأجعلْ لك مجلساً بالعقيق أنحرُ لك فيه بَدَنةً لم تُقتَبْ[2] ولم تُركَب. فقالت: جِىء به وارفَع عني الغَيرة.... فقال عبد الله بن مصعب: فصَلّيت الغَداةَ في مسجد المدينة فإذا أنا به، فقلت: أبا إسحاق، أما تحبّ أن ترى بصبص جارية ابن نُفيس؟ فقال: امرأتُهُ طالقٌ إن لم يكن اللهُ ساخطاً عليَّ فيها وإن لم أكن أسألُهُ أن يُرِينيها منذ سنة فما يفعل. فقلت له: اليومَ إذا صلّيتَ العصر فوافِني ها هنا. قال: امرأتُهُ طالق إن بَرِحتُ من ها هنا حتى تجيء صلاةُ العصر. قال: فتصرّفتُ في حوائجي حتى كانت العصر، ودخلت المسجد فوجدته فيه، فأخذت بيده وأتيتُهم به. فأكلوا وشربوا وتساكر القومُ وتناوموا، فأقبلت بصبصُ على مُزَبِّد فقالت: أبا إسحاق، كأنّ في نفسك تشتهي أن أُغنّيكَ الساعة:

لقد حَثّوا الجمالَ ليهرُبوا منّا فلم يئلوا[3]

فقال: زوجتُهُ طالق إن لم تكوني تعلمين ما في اللوح المحفوظ! قال: فغنّته ساعةً ثم مكثتْ ساعةً فقالت: أبا إسحاق، ، كأنّ في نفسك تشتهي أن تقوم من مجلسك فتجلس إلى جانبي... وأُغنّيك:

قالت وقد أَبْثَثْتُها وجدي وبُحتُ به ... قد كنتَ قِدماً تحبُّ السَّتر فاستترِ
ألستَ تُبصر مَن حولي فقلت لها ... غَطّى هواكِ وما ألقى على بَصَري

فقال: امرأتُه طالق إن لم تكوني تعلمين ما في الأرحام وما تكسِب الأنفسُ غداً، وبأيّ أرضٍ تموت. فغنّته ثم قالت: برِح الخَفاءُ، أنا أعلَمُ أنك تشتهي أن تقبّلني شقَّ التِّين وأغنّيك هزجاً:

---

(١) المخنقة: القلادة.

(٢) البدنة: واحدة الإبل والبقر المعدّة للذبح. تقتب: يوضع عليها القتب، وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير.

(٣) وأل: نجا.

أنـا أبـصـرتُ بـالـلـيـلِ غُـلامـاً حـسـنَ الـدَّلِّ
كـغُـصـن الـبـان قـد أصـبـح مَـسـقـيّـاً مـن الـطَّلِّ

فقال: أنت نبيّة مُرسَلة! فغنّتْه ثم قالت: أبا إسحاق، أرأيت أسقَطَ من هؤلاء! يَدْعُونك ويُخرجونني إليك ولا يشترون رَيحاناً بدرهم، أي أبا إسحاق، هَلُمَّ درهماً نشتري به رَيحاناً. فوثب وصاح: واحَرَباه[1]... ! انقطع واللهِ الوحيُ الذي كان يُوحَى إليك! وعَطعط[2] القومُ بها، وعلموا أن حيلتَها لم تنفُذ عليه، ثم خرج فلم يَعُد إليها، وعاود القومُ مجلسهم، فكان أكثر شُغلهم فيه حديثُ مُزَبِّد معها والضحِكُ منه.

● الزُبير قال: حدّثني عمّي قال:

هوِي محمدُ بن عيسى الجعفريّ بَصْبَصَ جارية ابن نُفيس، فهام بها وطال ذلك عليه، فقال لصديق له: لقد شَغَلَتْني هذه عن صَنعتي، وكلِّ أمري، وقد وجدت مسَّ السُلُوّ فاذهَبْ بنا حتى أُكاشفَها بذلك فأستريح. فأتياها، فلمّا غنّت لهما قال لها محمد بن عيسى: أتُغنّين:

وكـنتُ أحبُّكم فسَلوتُ عـنكـم عـليكـم فـي ديـاركـم الـسـلامُ

فقالت: لا، ولكنّي أغنّي:

تـحمّـل أهـلُهـا عنهـا فبـانُـوا عـلى آثـار مَـن ذَهَـب الـعَـفَـاءُ

فاستحيا وازداد بها كَلَفاً ولها عِشقاً، فأطرق ساعةً ثم قال: أتُغنّين:

وأَخضع بـالعُتْبَى إذا كنتُ مُـذنباً وإن أذنبتْ كـنتُ الـذي أتـنصَّـلُ

قالت: نعم، وأغنّي أحسنَ منه:

فـإن تُقبِلوا بـالـوُدّ نُقبِـلْ بمثله ونُـنْـزِلْكـمُ منّـا بـأقـربِ مـنـزلِ

---

(١) الحَرَب: ذهاب المال.
(٢) عطعط به: صاح.

قال : فتقاطعا في بيتين وتواصلا في بيتين.

● عن مُصعَب قـال:

حضر أبو السائب المخزوميّ مجلساً فيه بصبصُ جارية يحيى بن نُفيس فَغَنَّت:

قلبي حَبيسٌ عليك موقوفُ	والعينُ عَبْرَى والدمعُ مَذروفُ
والنفسُ في حَسرةٍ بغُصّتها	قد شفّ أرجاءَها التّساويفُ
إن كنتِ بالحُسن قد وُصِفْتِ لنا	فإنني بالهَوى لمَوصوف
يا حسرتا حسرةً أموتُ بها	إن لم يكن لي لديك معروفُ[1]

قال : فطرب أبو السائب ونَعَر[2]، وقال: لا عَرَف اللهُ قدرَه إن لم أعرِف لك معروفَك. ثم أخذ قِناعَها عن رأسها وجعله على رأسه، وجعل يلطِم ويبكي ويقول لها: بأبي والله أنتِ، إنّي لأرجو أن تكوني عند الله أفضلَ من الشُهداء لما تُولينا من السّرور. وجعل يصيح: واغَوثاه، ياللهِ لِما يَلقى العاشقون.

* . * . * . * . *

(١) شفها : أهزلها وأسقمها. التسويف: المماطلة.

(٢) نعر: صاح وصوّت بخيشومه.

[٥١]

دنانير

[الأغاني الجزء ١٨ ص ٦٥ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت دنانيرُ مولاةَ يحيى بن خالد البرمكيّ، وكانت صفراءَ مُولَّدة، وكانت من أحسن الناس وجهاً وأظرفِهنّ وأكملِهنّ أدباً وأكثرهنّ روايةً للغناء والشعر، وكان الرشيدُ لشغَفِه بها يُكثر مَصِيرَه إلى مولاها ويُقيم عندَها ويَبَرُّها ويُفرِط، حتى شكتْه زُبيدَةُ إلى أهله وعُمومته، فعاتَبُوه على ذلك.

ولها كتابٌ مُجرَّدٌ في الأغاني مشهورٌ، وكان اعتمادُها في غنائها على ما أخذتْه من بَذْل وهي خَرَّجَتْها. وقد أخذت أيضاً عن الأكابر الذين أخذت بَذْلُ عنهم مثل فُليح وإبراهيم وابن جامع وإسحاق ونُظَرائُهم.

طائفة من أخبارها

● عن ابن شَبّه قال: حدّثني إسحاقُ الموصليّ قال:

قال لي أبي : قال لي يحيى بن خالد: إن ابنتَكَ دنانيرَ قد عَمِلت صوتاً

اختارتْه وأُعجِبَتْ به، فقلت لها: لا يَشتدَّ إعجابُكِ حتى تعرِضيه على شيخكِ، فإن رَضِيهَ فارضَيْه لنفسِك وإن كرِهَه فاكرَهِيه، فامضِ حتى تعرِضَه عليكَ. قال: فقال لي أبي: فقلت له: أيها الوزيرُ، فكيف إعجابُكَ أنت به؟ فإنك والله ثاقبُ الفِطنة صحيحُ التمييز. قال: أَكْرَهُ أن أقول لك: أعجَبني، فيكون عندك غيرَ مُعجِب، إذ كنتَ عندي رئيسَ صناعتك تعرِف منها ما لا أعرِف، وتقف من لطائفها على ما لا أقف، وأكرهُ أن أقول لك: لا يُعجبني، وقد بلغ من قلبي مبلغاً محموداً، وإنما يَتِمّ السّرورُ به إذا صادف ذلك منك استجادةً وتصويباً. قال: فمضيت إليها، وقد تقدّم إلى خدَمه يُعلمهم أنه سيرُسل بي إلى داره، وقال لدنانير: إذا جاءك إبراهيمُ فاعرِضي عليه الصوتَ الذي صنعتِه واستحسنته، فإن قال لك: أصبتِ، سَررتِني بذلك، وإن كرِهه فلا تُعلميني لئلا يزولَ سُروري بما صنعتِ. قال إسحاق: قال أبي: فحضرتُ الباب فأُدخلتُ، وإذا السِّتارةُ قد نُصِبتْ، فسَلّمتُ على الجارية من وراء السِّتارة، فردّت السَّلامَ وقالت: يا أبتِ، أعرِضُ عليك صوتاً قد تقدّم لا شكّ إليك خبرُه، وقد سمعتُ الوزير يقول إن الناس يُفتَنون بغنائهم فيُعجِبهم منه ما لا يُعجِب غيرَهم، وكذلك يُفتَنون بأولادهم فيَحسُن في أعيُنهم منهم ما ليس بحسن، وقد خشِيتُ على الصّوت أن يكون كذلك. فقلت: هاتِ. فأخذتْ عودَها وتغنّت تقول:

نَفسي أكنتُ عليكِ مُدَّعياً ... أم حين أَزمَعَ بَيْنُهم خُنْتِ
إن كنت مُولعةً بذِكرهمُ ... فعلى فِراقهم ألا مُتِّ[1]

قال: فأعجبني والله غايةَ العجب واستخفَّني الطربُ حتى قلت لها: أعِيديه. فأعادته وأنا أطلب لها فيه موضعاً أُصلِحُه وأُغَيّرُهُ عليها لتأخذَه عنّي، فلا والله ما قدَرت على ذلك، ثم قلت لها: أعيديه الثالثةَ. فأعادتْه، فإذا هو كالذهب المصفَّى، فقلت: أحسنتِ يا بُنَيّة وأصبتِ، وقد قطعتِ عليك بحُسن إحسانك وجَودة إصابتك فائدةَ المعلِّمين، إذ قد صِرتِ تُحسنين الاختيار

(١) البين: الفراق.

وتُجيدين الصَّنعة. قال: ثم خرج فلقِيَ يحيى بن خالد فقال: كيف رأيتَ صنعةَ ابنتك دنانير؟ قال: أعزّ اللهُ الوزير، واللهِ ما يُحسِن كثيرٌ من حُذّاق المغنّين مثلَ هذه الصَّنعة، ولقد قلتُ لها: أعِيديه. وأعادتْه عليَّ مرّاتٍ، كلُّ ذلك أُريد إعناتَها لأجتلبَ لنفسي مدخلاً يُؤخذُ عنّي ويُنسَب إليّ، فلا والله ما وجدتُه. فقال لي يحيى: وصفُك لها يقوم مقامَ تعليمك إيّاها، وقد واللهِ سررتَني وسأسُرُّك. فوَجّه إليّ بمالٍ عظيم.

● ابن المكّيّ قال:

كانت دنانيرُ لرجلٍ من أهل المدينة، وكان خَرّجَها وأدَّبها، وكانت أروى الناس للغناء القديم، وكانت صفراءَ صادقة المَلاحة، فلمّا رآها يحيى وقعتْ بقلبه، فاشتراها. وكان الرشيدُ يصير إلى منزله فيسمعُها، حتى ألِفها واشتدّ إعجابُه بها، فوهَبَ لها هِباتٍ سَنيّةً، منها أنه وهب لها في ليلة عيدٍ عقداً قيمتُه ثلاثون ألف دينار، فرُدّ عليه في مُصادرة البرامكة بعد ذلك. وعلمتْ أمُّ جعفر خبرَه، فشكَتْه إلى عُمومته، فصاروا جميعاً إليه فعاتَبوه، فقال: ما لي في هذه الجارية من أَرَبٍ في نفسها، وإنّما أَرَبي في غنائها، فاسْمَعوها، فإن استحقّتْ أن يُؤْلَفَ غناؤها وإلاّ فقُولوا ما شئتم. فأقاموا عندَه، ونَقَلهم إلى يحيى حتى سمِعوها عنده، فَعَذَرُوه وعادوا إلى أمّ جعفر فأشاروا عليها ألاّ تُلحَّ في أمرها، فقبلتْ ذلك، وأهدتْ إلى الرشيد عشرَ جَوارٍ منهنّ: ماردة أمُّ المعتصمِ، ومراجل أمُّ المأمون، وفاردة أم صالح.

●عن إسحاق وأحمد بن الطيِّب:

أن الرشيد دعا بدنانير البرمكيّة بعد قتله إيّاهم، فأمرها أن تُغنّي فقالت: يا أمير المؤمنين، إنّي آليتُ ألاّ أغنّي بعد سيّدي أبداً. فغضب وأمر بصَفعها، فصُفعتْ وأُقيمت على رِجليها وأُعطيت العود، وأخذته وهي تبكي أحرَّ بكاء، واندفعت فغنّت:

يا دارَ سَلمى بنازحِ السَّنَد   بين الثَّنايا ومَسْقَط اللِّبَدِ

لمّـا رأيتُ الـدِّيـارَ قـد درسـتْ أيـقنـتُ أن النَّـعيـمَ لـم يَـعُـدِ[1]

قـال: فــرقّ لها الرشيد وأمر بإطلاقها وانصرفتْ. ثم التفَتَ إلى إبراهيم بن المهديّ فقال له: كيف رأيتَها؟ قال: رأيتُها تَخْتِلهُ بِرِفْقٍ، وتَقْهَره بحِذْق.

● عن ابـن شَبّـة:

أن دنانير أخذت عن إبراهيم الموصليّ حتى كانت تغنّي غناءَه فَتَحْكِيه فيه حتى لا يكون بينهما فرقٌ. وكان إبراهيم يقول ليحيى: متى فقدتَني ودنانيرُ باقيةٌ فما فقدتَني. قال: وأصابتْها العِلّةُ الكَلْبيَّة فكانت لا تَصبِر عن الأكل ساعةً واحدة، فكان يحيى يتصدّق عنها في كلّ يوم من شهر رمضان بألف دينار، لأنّها كانت لا تصومُهُ. وبقيت عند البرامكة مدّةً طويلـة.

● حدّث أبو عبـد الله بن حَمْدُون:

أنّ عَقيداً مولى صالح بن الرشيد خَطَب دنانيرَ البرمكيّـة ـ وكان هَـوِيها وشُغف بذكرها ـ فرَدَّتْه، واستشفَع عليها مولاه صالح بن الرشيد وبَذْلَ والحُسين ابن مُحرِز، فلم تُجِبه وأقامت على الوفاء لمولاهـا.... ولم تزل على حالها إلى أن ماتت.

* . * . * . * . *

---

(١) السند: موضع بالبادية وماء لبني سعد. الثنيـة: كل عقبة مسلوكة في الجبل. اللبد: موضع ببلاد هذيـل.

[٥٢]

شارية

[الأغاني الجزء ١٦ ص ٣ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

قال أبو الفرج عليُّ بن الحسين:

كانت شاريةُ مَولَّدةً من مولّدات البصرة، يقال إن أباها كان رجلاً من بني سامة بن لُؤيّ المعروفين ببني ناجية، وأنه جَحَدها ـ وكانت أُمُّها أَمَةً ـ فدخلت في الرِّقّ. وقيل بل سُرقت فبِيعت، فاشترتها امرأةٌ من بني هاشم فأدَّبتها وعلّمتْها الغناءَ. ثم اشتراها إبراهيمُ بن المهديّ فأخذتْ غِنَاءَها كلَّه أو أكثره عنه، وبذلك يحتجّ من يُقدّمها على عَريب ويقول: إن إبراهيم خَرّجها، وكان يأخذُها بصِحّة الأداء لنفسه، وبمعرفة ما يأخُذها به، ولم تكن هذه حال عَريب لأن المَراكبيّ لم يكن يُقارب إبراهيم في العلم، ولا يُقاس به في بعضه، فضلاً عن سائره.

قال ابن المعتزّ: حدثني عيسى بن هارون المنصوريّ:

أنّ شاريةَ كانت لامرأة من الهاشميّات بَصريّةٍ من ولد جعفرِ بن سليمان،

فحملْتها لتبيعَها ببغداد، فعُرضت على إسحاق بن إبراهيم الموصليّ فأَعطى بها ثلاثمائة دينار، ثم استغلاها بذلك ولم يُرِدْها. فجيءِ بهـا إلى إبراهيم بن المهديّ فعُرضت عليه، فساوم بها، فقالت له مَولاتُها: قد بذلتُها لإسحاق بن إبراهيم بثلاثمائة دينار، وأنت أيها الأميرُ ـ أعزّك اللهُ ـ بها أحقُّ. فقال: زِنُوا لها ما قالت. فوُزن لها، ثم دعا بقَيِّمته فقال: خُذي هذه الجارية ولا تُرِينيها سنةً، وقولي للجواري يَطرحن عليها. فلمّا كان بعد سنةٍ أُخرجتْ إليه، فنظَر إليها وسَمعها؛ فأرسل إلى إسحاق بن إبراهيم الموصليّ فدعاه وأراه إياها وأسمعه غناءها وقال: هذه جاريةٌ تُباع، فبكم تأخُذها لنفسك؟ قال إسحاق: آخُذها بثلاثة آلاف دينار، وهي رخيصةٌ بها. قال له إبراهيم: أتعرفُها؟ قال: لا. قال: هذه الجاريةُ التي عرضَتْها عليك الهاشميّة بثلاثمائة دينارٍ فلم تقبَـل. فبقي إسحاقُ متحيّراً يَعجب من حالها وما انقلبتْ إليــه..

طائفة من أخبارها

● عن محمد بن راشد:

كانت أمها خبيثة، فكانت كلّما لم يُعط إبراهيمُ ابنتَها ما تشتهي ذهبتْ إلى عبد الوهاب بن عليّ ودفعت إليه رقعةً يَرفعها إلى المعتصم، تسألُه أن تأخذَ ابنَتَها من إبراهيم.

ذكر يوسف بن إبراهيم المصري صاحب إبراهيم بن المهديّ:

أن إبراهيم وَجّه به إلى عبد الوهاب بن عليّ في حاجةٍ كانت له، قال: فلَقِيتُه وانصرفت من عنده، فلم أخرجْ من دِهليز عبد الوهاب حتى استقبلَتْني امرأةٌ، فلما نَظَرتْ في وجهي سترتْ وجهَها، فأخبرني شاكريٌّ[1] أن المرأة هي أم شارية جارية إبراهيم. فبادرتُ إلى إبراهيم وقلت له: أَدرِكْ، فإني رأيت أم شارية في دار عبد الوهاب، وهي مَن تَعلم، وما يَفجؤُك إلا حيلةٌ قد أوقعتْها.

---

(١) الشاكري : جندي من الشاكرية الذين كان يستخدمهم بنو العباس.

فقال لي في جواب ذلك: أُشْهِدُك أن جاريتي شارية صَدقةٌ على مَيمونة بنت إبراهيم بن المهديّ، ثم أَشْهَدَ ابنه هِبةَ الله على مثل ذلك، وأمرني بالرُّكوب إلى دار ابن أبي دُواد وإحضار مَن قَدَرت عليه من الشهود المعدَّلين عنده، فأحضرتُه أكثرَ من عشرين شاهداً، وأَمَر بإخراج شارية، فخرجتْ، فقال لها: اسفِري. فجزعتْ من ذلك، فأعلمها أنه إنما أمرها بذلك لخيرٍ يُريدُه بها، ففعلتْ، فقال لها: تَسَمَّي - فقالت: أنا شـاريةُ أَمَتُـك. فقال لهم: تـأمَّلُوا وجهَها. ففعلوا. ثم قال: فإنّي أُشهِدكم أنها حُرَّةٌ لوجه الله تعالى، وأني قد تزوّجتُها وأصدقتُها عشرة آلاف درهم؛ يا شاريةُ مَولاةَ إبراهيم بن المهـديّ أرضيتِ؟ قالت: نعم، يا سيّدي، قد رضِيتُ، والحمدُ لله على ما أنعم به عليّ. فأمرها بالدخول وأطعم الشُهودَ وطَيَّبهم وانصرفوا.

فما أحسَبُهم بلغوا دار ابن أبي دُواد حتى دخل علينا عبدُ الوهاب بن عليّ، فأقْرأ عمَّه سلامَ المعتصم ثم قال له: يقول لك أميرُ المؤمنين: من المفترَض عليّ طاعتُكَ وصِيانتُك عن كل ما يعرُّك، إذ كنت عمّي وصِنْوَ أبي، وقد رفَعت إليّ امرأةٌ من قريش قصّةً ذكرتْ فيها أنها من بني زُهرة صَليبةٌ[1]، وأنها أمُّ شارية، واحتجّت بأنه لا تكون بنت امرأة من قريش أمةً، فإن كانت هذه المرأةُ صادقةً في أن شاريةَ بنتُها، وأنها من بني زهرة، فمن المُحال أن تكون شاريةُ أمةً، والأَشْبَهُ بك والأصلحُ إخراجُ شارية من دارك وسَترها عند من تثق به من أهلك حتى نكشفَ ما قالت هذه المرأةُ، فإن ثبت ما قالته أمرتُ من جعلتَها عنده بإطلاقها، وكان في ذلك الحظُّ في دينك ومُروءتك، وإن لم يصحَّ ذلك أُعيدت الجاريةُ إلى منزلك، وقد زال عنك القولُ الذي لا يَليق بك ولا يَحسُن. فقال له إبراهيم: فديتُك، يا أبا إبراهيم، هَبْ شارية بنتَ زُهرة بن كِلاب، أتُنكِرُ على ابن عباس بن عبد المطلّب أن يكون بَعلاً لها؟ فقال عبد الوهاب: لا. فقال إبراهيم: فأَبلِغْ أميرَ المؤمنين - أطال الله بقاءَه - السّلامَ،

---

(١) صليبة : خالصة النسب.

وأَخبِره أن شاريةَ حُرّة وأني قد تزوّجتُها بشهادة جماعة من العُدول.

وقد كان الشهودُ بعد مُنصَرَفهم من عند إبراهيم صاروا إلى ابن أبي دُواد، فشَمَّ منهم من رائحةَ الطِّيب ما أنكره، فسألهم عنه، فأعلموه أنهم حَضَروا عَتْقَ شارية وتزوُّج إبراهيم إياها. فركب إلى المعتصم فحدّثه بالحديث مُعجَّباً له منه، فقال: ضَلّ سَعيُ عبد الوهاب. ودخل عبد الوهاب على المعتصم، فلمّا رآه يمشي في صحن الدّار سَدّ المعتصم أنفَ نفسه وقال: يا عبدَ الوهاب، أنا أَشَمُّ رائحةَ صوف مُحرَق، وأحسَب أن عمّي لم يُقنعْه ردُّك إلاّ وعلى أُذنك صوفةٌ حتى أحرقَها، فشمِمت رائحتَها منك. فقال: الأمرُ على ما ظَنّ أميرُ المؤمنين وأقبحُ.

ولما انصرف عبد الوهاب من عند إبراهيم ابتاع إبراهيمُ من بنته ميمونة شاريةَ بعشرة آلاف درهم وسَتر ذلك عنها، فكان عَتْقُه إياها وهي في مِلك غيره، ثم ابتاعها من ميمونة، . . فكان يَطَؤها على أنها أَمَتُه، وهي تتوهَم أنه يطؤها على أنها حُرّة. فلمّا تُوفيّ طلبتْ مشاركة أم محمد بنت خالد زوجتِهِ في الثُمْن، فأظهرت خبَرها، وسُئلت ميمونةُ وهِبةُ الله عن الخبر فأخبَرا به المعتصم، فأمر المعتصم بابتياعها من ميمونة، فابتِيعت بخمسة آلاف وخمسمائة دينار، فحُولّت إلى داره فكانت في مِلكه حتى تُوفّي.

● حَدّث حَمدون بن إسماعيل أنه دخل على إبراهيم يوماً فقال له: أتُحبّ أن أُسمعك شيئاً لم تَسمعه قطُّ؟ قال: نعم. فقال: هاتوا شاريةَ. فخرجتْ فأمَرها أن تغنّي لحنَ إسحاق:

«هل بالدّيار التي حَيَّيْتُها أحدُ»

قال حمدون: فَغَنَّتْني شيئاً لم أسمع مثلَه قط، فقلت: لا والله يا سيّدي ما سمعتُ هكذا. فقال: أتُحبّ أن تسمعَه أحسنَ من هذا؟ فقلت: لا يكون. فقال: بلى واللهِ تُقرّ بذلك. فقلت: على اسم الله. فغَنّاه هو، فرأيت فضلاً عجيباً، فقلت: ما ظننتُ أن هذا يفضلُ ذاك هذا الفضلَ. قال: أفتحبّ أن تسمعَه أحسنَ من هذا وذاك؟ فقلت: هذا الذي لا يكون. قال: بلى والله.

فقلت: فهاتِ. فقال: بحياتي يا شاريةُ قُوليه وأَحيلي حَلْقكَ[1] فيه. فسمعتُ والله فضلاً بَيِّناً، فأكثرتُ التعجُّب، فقال لي: يا أبا جعفر، ما أهونَ هذا على السامع! تدري بالله كم مرّةً رددتُ عليها موضعاً في هذا الصوت؟ قلت: لا. قال: قُل وأكثِر. قلت: مائة مرّة. قال: اصعَدْ ما بدا لك. قلت: ثلاثمائة. قال: أكثرَ والله من ألف مرّةٍ حتى قالته كذا.

● قال ابن المعتزّ: وحدّث محمد بن سهل بن عبد الكريم، المعروف بسَهل الأحول، وكان قاضي الكُتّاب في زمانه، وكان يكتب لإبراهيم، وكان شيخاً ثقةً قال: أعطى المعتصمُ إبراهيم بشارية سبعين ألف دينار، فامتنع من بيعها، فعاتبتُه على ذلك، فلم يُجبني بشيء. ثم دعاني بعد أيام، فدخلتُ وبين يديه مائدةٌ لطيفة، فأحضرَه الغلامُ سَفُّوداً فيه ثلاثُ فراريج، فرمى إليّ بواحدة فأكلتُها وأكل اثنتين، ثم شرب رطلاً وسقانيه، ثم أُتي بسفّود آخر، ففعل كما فعل وشرب كما شرب وسقاني. ثم ضرب سِتْراً كان إلى جانبه فسمعت حركة العِيدان ثم قال: يا شاريةُ تغنّي، فسمعت شيئاً ذهب بعقلي، فقال: يا سهلُ، هذه التي عاتبتَني في أن أبيعَها بسبعين ألف دينار، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار..

قال: وحدّثني أبو العُبيس عن أبيه قال: كانت شاريةُ أحسنَ الناس غناءً منذ توفي المعتصم إلى آخر خلافة الواثق.

قال أبو العُبيس: وحدَّثتني طباعُ جارية الواثق أن الواثقَ كان يُسميّها «ستّي»، وكانت تعلّم فريدة، فلم تُبق في تعليمها غايةً، إلى أن وقع بينهما شيء بحضرة الواثق، فحلفت أنها لا تنصحها ولا تنصحُ أحداً بعدَها، فلم تكن تطرَحُ بعد ذلك صوتاً إلّا نقصتْ من نَغَمه.

وقال يعقوب بن بنان:

كانت شاريةُ خاصّةً بصالح بن وصيف، فلمّا بلغه رحيلُ موسى بن بُغا من

---

(١) أحيلي حلقك: أي حوّلي حلقك في أثناء الغناء من حال إلى حال ارتفاعاً وانخفاضاً.

الجبل يُريده بسبب قتله المعتزّ أودع شاريةَ جوهرَه، فظهر لها جوهرٌ كثير بعد ذلك. فلمّا أوقع موسى بصالح استَترت شاريةُ عند هارون بن شعيب العُكْبَريّ، وكان أنظفَ خلق الله طعاماً وأَسراه مائدةً، وأوسخَه كلَّ شيء بعد ذلك؛ وكان له بسُرٍّ من رأى منزلٌ فيه بستان كبير، وكانت شارية تُسمّيه أبي وتزوره إلى منزله، فتحمل معها كلَّ شيء تحتاج إليه حتى الحصير الذي تقعُد عليه.

قال يعقوب بن بنان: وكان أهلُ سُرَّ مَن رأى متحازِبين، فقومٌ مع شارية، وقومٌ مع عَريب، لا يدخلُ أصحابُ هذه مع هؤلاء، ولا أصحاب هذه في هؤلاء. فكان أبو الصَّقر إسماعيل بن بلبُل عَريبيّاً، فدعا عليُّ بن الحسين يَوم جمعة أبا الصَّقر إسماعيل بن بُلبل، وعنده عَريبُ وجواريها؛ فاتّصل الخبرُ بشارية، فبعثتْ بجواريها إلى عليّ بن الحسين بعد يوم أو يومين، وأمرتْ إحداهنّ ـ وما أدري من هي: مِهرجان أو مطرِب أو قُمْرية، إلا أنها إحدى الثلاثة ـ أن تغنّي قوله:

لا تَعُودنّ بعدَها فترى كيف أصنعُ

فلمّا سمع عليّ الغناءَ ضحك وقال: لست أعود.

قال: وكان المعتمد قد وثِق بشارية، فلم يكن يأكل إلاّ طعامَها. فمكثت دهراً تُعدّ له في كلّ يومٍ جُونتين[1]، وكان طعامُهُ منهما في أيام المتوكل.

● جَحظة قال: كنت عند المعتمد يوماً فغنّته شاريةُ بشعر مولاها إبراهيم بن المهديّ ولحنه:

يا طَولَ عِلّةِ قلبي المعتادِ إلْفَ الكرام وصُحبةَ الأمجاد

فقال لها: أحسنتِ والله. فقالت: هذا غنائي وأنا عارية، فكيف لو كنتُ كاسية؟! فأمر لها بألف ثوب من جميع أنواع الثياب الخاصّية، فحُمل ذلك إليها. فقال لي عليُّ بن يحيى المنجّم: اجعل انصرافَك معي. ففعلت، فقال

(١) الجونة: سلة صغيرة مغشاة أدماً.

لي: هل بلغَك أن خليفةً أَمر لمُغنّية بمثل ما أمر به أميرُ المؤمنين لشارية؟ قلت: لا. فأمر بإخراج سِير الخلفاء، فأقبل بها الغِلمانُ يحملُونها في دفاتر عِظامٍ، فتصفَّحناها كلَّها، فما وجدنا أحداً قبلَه فعل ذلك.

* . * . * . * . * . *

[٥٣]

عُبَيْدة الطُّنْبوريّة

[الأغاني الجزء ٢٢ ص ٢٠٥ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت عُبيدة من المُحسِنات المتقدِّمات في الصَّنعَة والآداب، يشهد لها بذلك إسحاقُ وحسبُها بشهادته، وكان أبو حَشيشةَ(١) يُعظِمُها ويعترف لها بالرِّياسة والأستاذية، وكانت من أحسنِ الناس وجهاً وأَطيبهم صوتاً. ذكرها جَحْظَةُ في كتاب الطُّنْبوريّين والطُّنبوريّات، وقرأتُ عليه خبرَها فيه فقال: كانت من المحسِنات، وكانت لا تخلُو من عِشق، ولم يُعرَف في الدنيا امرأةٌ أعظمُ منها في الطُّنْبور، وكانت لها صَنعة عَجيبة.

أحمد بن الطيّب السَّرخسيّ قال:

كان عليُّ بن أحمد بن بِسطام المروزيّ - وهو ابن بنت شبيب بن واج،

(١) أبو حشيشة: هو محمد بن علي بن أبي أمية وكان ينادم الخلفاء وله كتاب في الطنبوريين. (انظر الترجمة رقم ٢٥ من هذا الكتاب).

وشبيبُ أحد النَفَر الذي سَترهم المنصور خلفَ قُبّته يومَ قتل أبا مسلم وقال لهم: إذا صَفّقتُ فاخرُجوا فاضرِبوه بسيوفكم، ففعل وفعلوا ـ فكان عليّ بن أحمد هذا يتعشّق عُبيدة الطُّنبوريّة وهو شابٌّ وأنفق عليها مالاً جليلاً. فكتبتُ إليه أَسألُه عن خبرها ومَن هي؟ ومن أين خرجتْ؟ فكتب إليّ: كانت عُبيدة بنتَ رجلٍ يقال له صباح، مولى أبي السَّمراء الغَسّانيّ، نديمِ عبد الله بن طاهر ـ وأبو السّمراء أحد العِدّة الذين وصَلهم عبدُ الله بن طاهر في يومٍ واحد لكلّ رجلٍ منهم مائةُ ألف دينار ـ وكان الزبيديّ الطُّنبوريّ أخو نظم العمياء يختلف إلى أبي السمراء، وكان صباحٌ صاحبَ أبي السمراء، فكان الزبيديّ إذا سار إلى أبي السمراء فلم يُصادفْه أقام عند صباح والد عبيدة وباتَ وشرب وغنّى وأنِس، وكان لِعبيدةَ صوتٌ حَسَنٌ وطبعٌ جيِّد، فسمعت غناءَ الزُّبيديّ فوقع في قلبها واشتهتْه، وسمع الزبيديّ صوتها وعَرَف طَبعها فعَلّمها، وواظب عليها، ومات أبوها، ورقّت حالُها، وقد حَذِقت الغناء على الطنبور، فخرجت تغنّي وتَقنع باليسير، وكانت مليحةً مقبولة خفيفةَ الرّوح، فلم يزل أمرَها يزيد حتى تقدمت وكبُر حظُّها... وماتت عُبيدة من نَزْف أصابها، فأفرط حتى أتلفها.

طائفة من أخبارها

● حمّاد بن إسحاق قال: قال لي عليّ بن الهيثم اليَزيديّ:

كان أبو محمد ـ يعني أبي رحمه الله إسحاقَ بن إبراهيم المَوصلّي ـ يألَفني ويدعوني ويعاشرني. فجاء يوماً إلى أبي الحسن إسحاقُ بن إبراهيم فلم يُصادفْه، فرجع ومرَّ بي ـ وأنا مُشرِفٌ من جَناحٍ لي ـ فوقف وسَلّم عليّ، وأخبرني بقصّته وقال: هل تنشَطُ اليومَ للمسير إليّ؟ فقلت له: ما في الأرض شيءٌ أحبُّ إليّ من ذلك، ولكنّي أُخبرك بقصّتي ولا أكتُمك. فقال: هاتِها. فقلت: عندي اليومَ محمدُ بن عَمرو بن مَسْعَدة وهارونُ بن أحمد بن هشام، وقد دَعَونا عُبيدَة الطُّنبوريّة، وهي حاضرةٌ، والساعةَ يجيءُ الرجُلان، فامضِ في حِفظ الله، فإني أجلِس معهم حتى تنتظمَ أمورُهم وأَروحِ إليك. فقال لي:

فَهَلاّ عَرَضتَ عليّ المُقامَ عندك؟ فقلت له: لو علمتُ أن ذلك ممّا تنشَط له والله لَرغبتُ إليك فيه، فإن تفضّلتَ بذلك كان أعظمَ لِمنَّتِك. فقال: أَفعلُ، فإني قد كنت أشتهي أن أسمعَ عُبيدَة، ولكن لي عليك شَريطة. قلت: هاتِها. قال: إنّها إن عَرَفَتْني وسألتموني أن أغنّيَ بحَضرتها لم يَخْفَ عليها أمري وانقطعتْ فلم تصنَعْ شيئاً، فدعوها على جِبِلّتها. فقلت: أفعلُ ما أمرتَ به. فنزل وردّ دابتَّه وعَرّفتُ صاحبيَّ ما جَرى، فَكَتَماها أمرَه وأَكلْنا ما حَضَر، وقُدّم النَّبيذُ، فغَنّت لحناً لها تقول:

قـريـبٌ غـيـرُ مُـقـتـرِبِ ومـؤتـلِفٌ كـمُـجْـتَـنِـبِ
لـه وُدّي ولـي مـنـه دَواعـي الـهَـمِّ والـكَـرَبِ
أُواصِـلُه عـلى سَـبَـبٍ ويـهـجُـرنـي بـلا سـبـب
ويَـظلِمُـنـي عـلى ثـقـةٍ بـأنّ إلـيـه مُـنْـقَـلَـبـي

فطرِب إسحاقُ وشرب نِصفاً، ثم غنّت وشرب نِصفاً، ولم يزل كذلك حتى والَى بين عشرة أنصاف، وشربناها معه، وقام لِيصلّي، فقال لها هارونُ بن أحمد بن هشام: ويحَكِ يا عبيدةُ ما تُبالين واللهِ متى متّ. قالت: ولِمَ؟ قال: أتدرين من المستحسِنُ غناءَك والشاربُ عليه ما شرب؟ قالت: لا والله. قال: إسحاقُ بن إبراهيم الموصليّ، فلا تُعَرِّفيــه أنّكِ قد عَرَفتِهِ. فلمّا جاء إسحاقُ ابتدأتْ تُغنّي، فلحقتْها هَيبةٌ له واختلاطٌ، فنقَصت نُقصاناً بَيّناً، فقـال لنا: أعرَّفتموها مَن أنا؟ فقلنا لهِ: نعم، عَرَّفها إيّاك هارونُ بن أحمد. فقال إسحاق: نقُوم إذاً فننصرِفُ، فإنه لا خيرَ في عِشْرتكم الليلةَ ولا فائدةَ لي ولا لكم. فقام فانصرف.

● وحدّثني جَحْظَةُ قـــال:

وهب لي جعفرُ بن المأمون طُنبورَها فإذا عليه مكتوبٌ بأَبنوس:

كـلُّ شـيءٍ سـوى الـخـيـا نـة فـي الـحُـبْ يُـحـتَـمَـلْ

* . * . * . * . * . *

[٥٤]

عَرِيب

[الأغاني الجزء ٢١ ص ٥٤ وما بعدها]

أُصلها ومنزلتها في الغناء

كانت عَريبُ مغنّيةً محسِنة، وشاعرةً صالحةَ الشعر، وكانت مَليحة الخطّ والمذهب في الكلام، ونهايةً في الحُسن والجمال والظَّرف وحسن الصورة وجَودة الضَّرب وإتقان الصَّنعة والمعرفة بالنَغم والأوتار، والرِّواية للشعر والأدب، لم يتعلّق بها أحدٌ من نُظَرائها ولا رُئي في النساء بعد القِيان الحجازيّات القديمات، مثل جميلة وعَزّة المَيْلاء وسَلّامةَ الزرقاء ومَن جرى مَجراهنّ - على قلّة عددهنّ - نظيرٌ لها . وكانت فيها من الفضائل التي وصفْناها ما ليس لهنّ ممّا يكون لِمثلها من جواري الخلفاء، ومَن نشأ في قصور الخلافة وغُذّي برقيق العيش الذي لا يُدانيه عيش الحجاز والنشءُ بين العامّة والعرب الجُفاة ومَن غَلُظ طبعهُ. وقد شهد لها بذلك مَن لا يُحتاج مع شهادته إلى غيره.

عن حمّاد بن إسحاق قال: قال لي أبي:

ما رأيتُ امرأةً أضربَ من عَريب ولا أحسنَ صنعةً، ولا أحسنَ وجهاً، ولا

أخفَّ رُوحاً، ولا أحسنَ خِطاباً، ولا أسرعَ جواباً، ولا أَلعبَ بالشِّطرنج والنَّرْد، ولا أجمعَ لخصلةٍ حسنة لم أَرَ مثلها في امرأة غيرها....

قـال يحيى بن عليّ:

أمرني المعتمِد على الله أن أجمع غناءَها الذي صَنَعَتْه، فأخـذتُ منها دفاترَها وصُحُفَها التي كانت قد جمعت فيها غناءها فكتبتُه فكان ألفَ صوت.

عن ابن خُرداذبـة:

كانت عريب لعبد الله بن إسماعيل صاحب مَراكب الرشيد، وهو الذي رَبّاها وأدّبها وعلّمها الغناء.

عن إسماعيل بن الحسين خال المعتصم: أنها بنت جعفر بن يحيى، وأن البرامكة لمّا انتُهِبوا سُرقت وهي صغيرة.

عبد الواحد بن إبراهيم بن محمد بن الخَصيب قـال:

حدّثني من أثق به عن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل المراكبيّ: أن أمّ عَريب كانت تُسمّى فاطمة، وكانت قيّمةً لأمّ عبد الله بن يحيى بن خالد، وكانت صبيّةً نظيفة، فرآها جعفرُ بن يحيى فهَوِيها، وسأل أمَّ عبد الله أن تُزوّجه إيّاها، ففعلتْ. وبلغ الخبرُ يحيى بن خالد فأنكره وقال له: أتتزوّج مَن لا تُعرَف لها أمٌّ ولا أب؟ اشترِ مكانَها مائةَ جارية وأَخرِجْها. فأخرجَهَا وأسكَنها داراً في ناحية باب الانبار سرّاً من أبيه، ووَكَّل بها من يحفَظُها، وكان يتردّد إليها، فوَلدت عَريبَ في سنة إحدى وثمانين ومائةٍ، فكانت سِنُوها إلى أن ماتت ستاً وتسعين سنةً. قال: وماتت أمُّ عريب في حياة جعفر، فدفَعها إلى امرأة نصرانيّة وجَعلها دايةً لها، فلمّا حَدَثت الحادثةُ بالبرامكة باعتها من سِنْبِس النحـاس، فباعها من المراكبيّ.

حدّثني أحمدُ بن جعفر جَحْظةُ قال: قال لي أبو العباس بن حَمدون، وقد تجاذَبْنا غناءَ عَريب: ليس غناؤها ممّا يُعتدّ بكثرته، لأنّ سَقَطه كثيرٌ وصنعتها ساذجة. فقلت له: ومَن يُعرَف في الناس كُلِّهم من مُغنّي الدولة العباسية

سَلِمت صنعتُهُ كلُّها حتى تكون مثلَه! ثم جعلتُ أَعُدُّ ما أعرِفه من جيِّد صَنعتها ومُتقدِّمها وهو يعترف بذلك، حتى عددت نحواً من مائة صوت مثل لحنها في:

«يا عَزُّ هل لكِ في شيخٍ فتىً أبداً»

و«سيُسليــك عمّا فاتَ دولة مفضلٍ»

و«صاح قد لُمــتَ ظلماً»

و«ضحك الزمانُ وأشرقــت»

ونحـــوِ هـــذا، ثم قال لي: ما خلّفتْ عريبُ بعدَها امرأةً مثلها في الغناء والرّواية والصّنعة. فقلت له: لا، ولا كثيراً من الرجال أيضاً.

طائفة من أخبارها

● قال ابن المعتزّ: وحدّثني الهِشاميّ:

أن مولاها خرج إلى البصرة، وأدّبها وخَرّجها وعَلّمها الخطَّ والنحو والشعر والغناءَ، فَبَرَعت في ذلك كلِّه، وتزايدت حتى قالت الشعر. وكان لمـولاها صديقٌ يُقال له حاتم بن عَديّ من قُوّاد خُراسان، وقيل إنه كان يكتب لعُجَيف على ديوان الفرض، فكان مولاها يدعُوه كثيراً ويُخالطه، ثم ركِبه دَينٌ فاستَتر عندَه، فمدّ عينَه إلى عَريب، فكاتبها فأجابتْه، وكانت المُواصلةُ بينهما، وعشقَتْه عريبُ، فلم تزل تحتال حتى اتّخذت سُلَّماً من عَقَب[1]، وقيل من خيوط غِلاظٍ، وسَترتْه، حتى إذا همّت بالهَرَب إليه بعد انتقاله عن منزل مَولاها بمُدّة وقد أعدّ لها موضعاً، لَفّت ثيابَها، وجعلتْها في فِراشها بالليل ودَثّرتْها بدِثارها، ثم تَسوّرت من الحائط حتى هرَبت، فمضت إليه فمكثتْ عنده زماناً. قال: وبلغني أنها لمّا صارتْ عنده بعث إلى مَولاها يستعير منه عُوداً تُغنّيه به، فأعاره عُودَها، وهو لا يعلم أنها عندَه ولا يتّهمُه بشيءٍ من أمرهــا. . . .

---

(١) العقب: العصب الذي تعمل منه الأوتار.

وقال ابن المعتزّ : حدّثنا محمد بن موسى بن يونـــس:

أنها ملّته بعد ذلك، فهرَبت منه، فكانت تغنّي عند أقوام عَرفْتهم ببغداد، وهي مُتسترةٌ متخفّيةٌ. فلمّا كان يومٌ من الأيام اجتاز ابنُ أخٍ للمراكبيّ ببُستانٍ كانت فيه مع قومٍ تغنّي، فسمع غناءها فعَرَفه، فبعث إلى عمّه مِن وقته وأقام هو بمكانه فلم يبْرَحْ حتى جاء عمُّه، فلَبَّبها[1] وأخذها فضربها مائةَ مِقْرعة وهي تصيح: يا هذا لمَ تقتُلني؟ أنا لستُ أصبِر عليك، أنا امرأةٌ حُرّة، إن كنت مملوكةً فبِعْني، لست أصبِر على الضِّيقة. فلمّا كان من غدٍ ندم على فِعله وصار إليها فقَبّل رأسَها ورِجْلَها ووهب لها عشرةَ آلاف درهم. ثم بلغ محمداً الأمينَ خبرُها فأخذها منــه.

قال : وكان خبرُها سقط إلى محمد في حياة أبيه، فطَلبها منه فلم يُجِبْه إلى ما سأل، وقبل ذلك ما كان طلب منه خادماً عنده، فاضطغن لذلك عليه. فلمّا ولي الخلافة جاء المراكبيُّ، ومحمدٌ راكب، ليقبّل يده، فأمر بمَنْعه ودفعه، ففعل ذلك الشاكريّ[2]،فضربه المراكبيّ وقال له: أتمنعني من يد سيّدي أن أقبّلَها؟ فجاء الشاكريُّ لمّا نزل محمد فشكاه، فدعا محمدٌ بالمراكبيّ وأمر بضرب عُنقه، فسُئل في أمره فأعفاه وحبسه وطالبه بخمسمائة ألف درهم ممّا اقتطعه من نفقات الكُراع[3]. وبعث فأخذ عريب من منزله مع خدمٍ كانوا له. فلمّا قُتل محمد هَربتْ إلى المراكبيّ فكانت عنده.

قال ابن ابن المعتــز: وأما رواية إسماعيل بن الحسين، خال المعتصم، فإنها تخالف هذا، وذكر أنها إنما هربت من دار مولاها المراكبيّ إلى محمد بن حامد الخاقاني المعروف بالخشِن، أحد قُوّاد خراسان. قـال: وكان أشقر أصهبَ الشَعر أزرق، وفيه تقول عريب:

بـأبـي كــلُّ أزرقٍ أصــهَــبِ الـلون أشــقــرِ

---

(١) لبّبها : أخذ بتلابيبها، والتلابيب مجتمع الثياب عند العنق مما يحيط باللبّة.
(٢) الشاكري : الأجير المستخدم.
(٣) الكراع : اسم جامع للخيل. والكراع: مستدق الذراع.

جُنَّ قلبي بـه وليس - جنـوني بمُنكَـرِ

عن إسحاق بن إبراهيـم:

إنها هربت من مولاها إلى ابن حامد، فلم تزل عنده حتى قدم المأمون بغداد، فتظلّم إليه المراكبيّ من محمد بن حامد، فأمر بإحضاره، فأُحضِر، فسأله عنها فأنكر، فقال له المأمون: كذبتَ، قـد سقط إليّ خبرُهـا. وأمر صاحبَ الشرطة أن يُجرّدَه في مجلس الشرطة ويضعَ عليه السِّياط حتى يردَّها. فأخذه، وبلَغها الخبرُ فركبت حمار مُكارٍ وجاءت ـ وقد جُرِّد ليُضرَبَ ـ وهي مكشوفةُ الوجه وهي تصيح: أنا عَريبُ، إن كنتُ مملوكةً فَلْيبِعْني، وإن كنت حُرّةً فلا سبيلَ له عليّ. فرُفع خبرُها إلى المأمون، فأمر بتعديلها[1] عند قُتَيبة ابن زياد القاضي، فعُدّلت عنده، وتقدّم إليه المراكبيُّ مطالباً بها، فسأله البَيِّنَة على مِلكه إيّاها، فعاد متظلّماً إلى المأمون، وقال: قد طُولبتُ بما لم يُطالَبْ به أحدٌ في رَقيق ولا يُوجَد مثلُه في يد من ابتاع عبداً أو أَمةً. وتَظلّمت إليه زَبيدةُ وقالت: مِن أغلظ ما جرى عليَّ بعد قتل محمدٍ ابني هجومُ المراكبيّ على داري وأَخْذُه عَريباً منها. فقال المراكبيّ: إنما أخذتُ مِلكي لأنه لم يَنْقُدْني الثمنَ. فأمر المأمونُ بدَفْعها إلى محمد بن عمر الواقديّ ـ وكان قد وَلّاه القضاءَ بالجانب الشرقيّ ـ فأخذَها من قُتيبةَ بن زياد، فأمر ببيعها ساذجةً، فاشتراها المأمونُ بخمسين ألف درهم، فذهبتْ به كلَّ مَذهبٍ ميلاً إليها ومَحبّةً لها.

قال ابن المعتزّ: ولقد حدّثني عليّ بن يحيى المنجّم أن المأمون قَبّل في بعض الأيام رِجْلَها. قال: فلمّا مات المأمون بيعت في ميراثه، ولم يُبَعْ له عبدٌ ولا أَمةٌ غَيْرها، فاشتراها المعتصم بمائة ألف درهم وأَعتقها، فهي مَولاتُه.

عن ميمـون بن هارون:

أن المأمون اشتراها بخمسة آلاف دينار، ودعـا بعبد الله بن إسمـاعيل فدَفعها إليه وقال: لولا أني حلفتُ ألّا أشتريَ مملوكاً بأكثرَ من هذا لَزِدتُك،

---

(١) تعديلها: إقامة العدل في أمرها.

ولكنّي سأولّيك عملاً تكسب فيه أضعافاً لهذا الثمن مضاعفةً. ورمَى إليه بخاتَمين من ياقوتٍ أحمرَ قيمتُهما ألفُ دينار وخَلع عليه خِلعاً سنيّة، فقال: يا سيّدي، إنما ينتفع الأحياءُ بمثل هذا، وأما أنا فإنيّ ميتٌ لا مَحالَةَ لأن هذه الجاريةَ كانت حياتي. وخرج عن حَضرته، فاختُلط وتغيّر عقلُه ومات بعد أربعين يوماً.

قال ابن المعتزّ: فأخبرني ابنُ عبد الملك البصريّ:

أنها لمّا صارت في دار المأمون احتالت حتى وصلت إلى محمد بن حامد، وكانت قد عشِقته وكاتبتْه بصوتِ قالتْه، ثم احتالت في الخروج إليه، وكانت تلقاه في الوقت بعد الوقت حتى حبِلت منه وولدت بنتاً، وبلغ ذلك المأمون فزَوّجه إياها.

عن القاسم بن زُرزور قال:

لمّا وقف المأمون على خبرها مع محمد بن حامد أمر بإلباسها جُبّةَ صوف وخَتم زِيقَها[1] وحبَسها في كَنِيفٍ مُظلم شهراً لا ترى الضوء، يُدَخل إليها خبزٌ وملحٌ وماء من تَحت الباب في كل يوم؛ ثم ذكَرها فرقّ لها وأمر بإخراجها، فلمّا فُتح البابُ عنها، وأُخرجتْ لم تتكلّم بكلمة واحدة حتى اندفعت تغنّي:

حَجَبُوه عن بصري فمُثّل شخصُه ... في القلب فهو مُحَجَّبٌ لا يُحْجَبُ

فبلغ ذلك المأمونَ، فعجب منها وقال: لن تَصلُحَ هذه أبداً. فزَوّجها إيّاه.

● القاسم بن زُرزور قال:

حدّثتني عريُب قالت: كنت في أيام محمد[2] ابنةَ أربعَ عشرةَ سنة، وأنا حينئذٍ أصوغ الغناء.

قال القاسم: وكانت عَريب تُكايد الواثق فيما يصُوغه من الألحان وتصوغُ في ذلك الشعر بعينه لحناً فيكون أجودَ من لَحنه. . . .

---

(١) زيق القميص: ما أحاط بالعنق منه.
(٢) المراد بمحمد هنا محمداً الأمين.

● صالح بن عليّ بن الرشيد المعروف بزعفرانة قال:

تمارى خالي أبو عليّ مع المأمون في صوت فقال المأمون: أين عَريبُ؟ فجاءت وهي محمومة، فسألها عن الصوت، فقالت فيه بعِلْمِها، فقال لها: غَنِّيه. فولَّت لتجيء بعُود، فقال لها: غَنِّيه بغير عود. فاعتمدت على الحائط للحُمّى وغَنّت، فأقبلت عقربٌ، فرأيتُها قد لسعت يدَها مرّتين أو ثلاثاً، فما نَحّت يدَها ولا سكتتْ، حتى فَرَغتْ من الصوت، ثم سقطت وقد غُشي عليها.

● أبو العبّاس بنُ الفرات قـــال:

قالت لي تُحفةُ جاريةُ عريب: كانت عريبُ تجد في رأسها بَرداً، فكانت تُغَلِّف شعرها مكان العِلّة بستّين مِثقالاً مِسكاً وعَنْبراً، وتَغسِله من جمعة إلى جمعة، فإذا غسلتْه أعادتْه، وتتقسّم الجواري غُسالةَ رأسها بالقوارير وما تُسّرحُه منه بالميزان.

● عن عبد الله بن محمد المَروزيّ قـــال:

قال لي الفضلُ بن العبّاس بن المأمون: زارتْني عريبُ يوماً ومعها عِدّةٌ من جواريها، فوافَتْنا ونحن على شَرابنا، فتحادَثْنا ساعةً، وسألتُها أن تُقيمَ عندي، فأبتْ وقالت: دعـاني جماعـةٌ من إخواني من أهـل الأدب والظَّرف، وهم مجتمعون في جزيرة المؤيَّد، فيهم إبراهيم بن المُدَبِّر، وسعيد بن حُميد، ويحيى بن عيسى بن منارة، وقد عزمتُ على المسير إليهم. فحلفتُ عليها، فأقامت عندنا ودعت بدواةٍ وقِرطاس فكتبتْ: بسم الله الرحمن الرحيم. وكتبت بعد ذلك في سطرٍ واحد ثلاثةَ أحرفٍ متفرّقة لم تزِد عليهـا وهي: أردتُ، ولولا، ولعلّي. ووجّهتْ به إليهم، فلمّا وصلت الرُّقعة عَيُّوا بجوابها فـأخذ إبراهيم بن المدبِّر الرُّقعة، فكتب تحت أردت: «ليت، وتحت «لولا»: ماذا، وتحت «لعلي»: أرجو[1]. ووجَّهُوا بالرُّقعـة، فصفَّقت ونَعَرت وشـربت رطلاً

(١) أرادت عريب: أردت المجيء إليكم لولا أنهم ألحوا في البقاء ولعلي آتيكم في وقت آخر. وأراد ابن المدبر: ليت أنك تحضرين وماذا يمنعك من الحضور وأرجو أن تفعلي.

وقالت لنا: أأترك هؤلاء وأقعُد عندكم؟ إذاً تركني اللهُ من يديه، ولكنّي أُخلِّف عندكم من جواريَّ ما يَكفِيكم، وأقومُ إليهم. ففعلتْ ذلك وخلّفتْ عندنا بعضَ جواريها وأخذت معها بعضَهنّ وانصرفتْ.

● عن سعيد بن عثمان بن أبي العــلاء عن أبيــه قال:

عَتَب المأمونُ على عريب فهَجَرها أياماً، ثم اعتلّت فعادها، فقال لها: كيف وجدتِ طعمَ الهَجْرِ؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا مرارةُ الهَجْر ما عُرفت حَلاوةُ الوَصل، ومَنَ ذَمّ بَدْءَ الغضب أحمدَ عاقبة الرِّضا. قال: فخرج المأمونُ إلى جُلَسائه فحدّثهم بالقصة، ثم قال: أتُرى هذا لو كان من كلام النَّظّام ألم يكن كثيراً!

● أحمد بن حَمْدون قــال:

وقع بين عَريب وبين محمد بن حامد شرٌّ، وكان يجِد بها الوجدَ كُلَّه، فكادا يخرجان من شرّهما إلى القَطيعة، وكان في قلبها منه أكثرُ ممّا في قلبه منها. فلَقِيتْه يوماً فقالت له: كيف قلبُك يا محمدّ؟ قال: أَشقى واللهِ ما كان وأَقرحُه. فقالت له: استبدِلْ تَسْلُ. فقال لها: لو كانت البلوى باختيارٍ لفعلتُ. فقالت: لقد طال إذاً تعبُك. فقال: وما يكون؟ أَصبِر مُكرَهاً، أما سمعتِ قولَ العبّاس بن الأحنف:

تَعَبٌ يطول مع الرَّجاء بذي الهوى ... خيــرٌ لــه من راحــةٍ في اليــاسِ
لــولا كــرامتُكم لمــا عــاتبتُكم ... ولكـنـتُمُ عـنــدي كبـعضِ النــاس

قــال: فذَرَفـت عيناها واعتذرت إليه، وأعتبتْه[1] واصطلحا وعادا إلى أفضلِ ما كانا عليــه.

● عن ميمــون بن هارون قال:

كتبتْ عريبُ إلى محمد بن حامد، الذي كانت تهواه، تَستزِيرُه، فكتب إليها: إني أخاف على نفسي. فكتبتْ إليــه:

---

(١) أعتبــه: أرضاه وأزال عتبه.

إذا كنتَ تحْذرُ ما تَحذَرُ وتزعُمُ أنك لا تَجْسُرُ
فمالي أُقيم على صَبْوتي ويومُ لقائك لا يُقْدَرُ

فصار إليها من وقته.

* .* .* .* .* .*

[٥٥]

فَرِيدَة

[الأغاني الجزء ٤ ص ١١٣ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

قال مؤلف هذا الكتاب: هما اثنتان مُحسِنتان لهما صنعةٌ تُسمَّيان بفريدة. فأمّا إحداهما، وهي الكبرى، فكانت مُولَّدةً نشأت بالحجاز ثم وقعتْ إلى آل الربيَع فعُلّمت الغناءَ في دُورهم، ثم صارت إلى البرامكة. فلمْا قُتل جعفر بن يحيى ونُكبوا هَربت، وطلَبها الرشيدُ فلم يجدها، ثم صارت إلى الأمين، فلمّا قُتل خرجت فتزوّجها الهَيثمُ بن مُسلم، فولدت له ابنَه عبد الله. ثم مات عنها فتزوّجها السِّنديُّ بن الحَرَشيّ وماتت عنده. ولها صنعةٌ جيدة...

وأما فريدةُ الأخرى فهي التي أرى بل لا أشكّ في أنّ اللحنَ المختار لها.... وكانت فريدةُ أثيرةً عند الواثق وحَظيّةً لديه جِدّاً....

عن رَيِّق: أنها اجتمعت هي وخِشْفُ الواضحيّةُ يوماً فتذاكرتا أحسنَ ما سمعتاه من المغنّيات، فقالت ريّق: شاريـةُ أحسنهنّ غناءً ومُتَيَّمُ. وقـالت

خِشف: عَريبُ وفريدة. ثم اجتمعتا على تساويهنّ وتقديم مُتَيَّم في الصَّنعة، وَعَريبَ في الغَزارة والكثرة، وشاريةَ وفريدة في الطِّيب وإحكام الغناء.

أبو عبد الله الهشاميّ قال:

كانت فريدة جارية الواثق لِعمرو بن بانَةَ، وهو أهداها إلى الواثق، وكانت من الموصوفات المحسنات، ورُبّيت عند عمرو بن بانة مع صاحبةٍ لها اسمُها «خِلّ»، وكانت حسنةَ الوجه، حسنةَ الغناء، حادّة الفِطنة والفَهم.

طائفة من أخبارها

● عمرو بن بانة قال: غنّيتُ الواثـق:

قلتُ حِلاًّ فاقبلي مَعذرتي ما كذا يَجزي مُحبٌّ من أحبّ

فقال لي: تقدَّمْ إلى السِّتارة فأَلْقِه على فريدة. فألقيتُه عليها، فقالت: هو حِلٌّ أو خِلّ كيف هو؟ فعلمت أنها سألتني عن صاحبتها في خَفاء من الواثق.

ولمّا تزوّجها المتوكّل أرادها على الغناء، فأبت أن تغنّي وفاءً للواثق، فأقام على رأسها خادماً وأمره أن يضرِب رأسَها أبداً أو تغنّيَ. فاندفعت وغنّت:

فلا تَبْعَدْ فكُلّ فتىً سيأتي عليه الموتُ يطرُق أو يُغادي[1]

● محمد بن الحارث بن بُسخُنَّر قال:

كانت لي نوبة في خدمة الواثق في كل جمعة، إذا حضَرتْ ركبت إلى الدار، فإن نشِط إلى الشُرب أقمت عنده وإن لم ينشِطْ انصرفت، وكان رَسْمُنا ألّا يحضرَ أحدٌ منا إلّا في يوم نوبته. فإني لفي منزلي في غير يوم نوبتي إذا رُسُل الخليفة قد هجموا عليّ وقالوا لي: احضَرْ. فقلت: ألِخيرٍ؟ قالوا: خير. فقلت: إن هذا يومٌ لم يُحضِرني فيه أميرُ المؤمنين قطُّ، ولعلّكم غلِطتم.

---

(١) لا تبعد: دعاء بعدم الهلاك.

فقالوا: اللهُ المستَعان، لا تُطِل وبادِرْ فقد أمَرَنا ألاّ نَدَعَكَ تستقرّ على الأرض. فداخلني فزَعٌ شديد وخِفت أن يكون ساعٍ قد سعى بي أو بَلِيّةٌ قد حدثت في رأيِ الخليفة عليّ، فتقدّمتُ بما أردتُ وركبت حتى وافيت الدار، فذهبتُ لأدخلَ على رَسْمي من حيث كنت أدخُلُ فمُنِعت، وأخذ بيدي الخدمُ فأدخلوني وعَدلوا بي إلى مَمرّات لا أعرِفُها، فزاد ذلك في جَزَعي وغَمّي، ثم لم يزل الخدمُ يُسلِمونني من خَدمٍ إلى خدم حتى أفضيت إلى دارٍ مفروشة الصحن، مُلبَسةِ الحِيطان بالوَشْي المنسوج بالذهب، ثم أفضيتُ إلى رِواقٍ أرضُه وحيطانه مُلبسةٌ بمثل ذلك، وإذا الواثقُ في صدره على سرير مُرصَّعٍ بالجوهر وعليه ثيابٌ منسوجة بالذهب، وإلى جانبه فريدةُ جاريتُهُ، عليها مثلُ ثيابه وفي حِجرها عُودٌ. فلمّا رآني قال: جَوّدت[1] والله يا محمدُ إلينا. فقبّلت الأرض ثم قلت: يا أمير المؤمنين خيراً ؟ قال: خيراً، أما ترانا! طلبت والله ثالثاً يُؤنِسُنا فلم أر أَحقَّ بذلك منك، فبحياتي بادِر فكُلْ شيئاً وبادر إلينا. فقلت: قد واللهِ يا سيّدي أكلتُ وشربتُ أيضاً. قال: فاجلِس . فجلستُ، وقال: هاتوا لمحمدٍ رطلاً في قَدح. فأُحضِرت ذلك، واندفعت فريدةُ تغنّي:

أَهـابُـك إجـلالاً ومـا بـك قُـدرةٌ ... عليَّ ولكـن مِـلءُ عيـنٍ حَبيبُـهـا
ومـا هجـرتُـكِ النفسُ يـاليـلَ أنّهـا ... قَلَتْـكِ ولا أن قـلَّ منـك نَصيبُهـا

فجـاءت واللهِ بالسِّحر، وجعل الواثق يُجاذبُهـا، وفي خلال ذلـك تغنّي الصوتَ بعد الصوت، وأُغنّي أنا في خلال غنائها، فمرّ لنا أحسنُ ما مرّ لأحدٍ. فإنّا لكذلك إذ رفَع رِجلَه فضـرب بها صدرَ فريدةَ ضربةً تدحرجتْ منها من أعلى السَّـرير إلى الأرض وتفتّت عُـودُها ومَـرّت تَعدُو وتَصيـح، وبقيتُ أنا كالمَنْزوع الرُّوح، ولم أشُكّ في أنّ عينَه وقعتْ عليّ وقد نظرتُ إليها ونظرَتْ إليّ. فأطرق ساعَةً إلى الأرض متحيّراً وأطرقتُ أتوقّعُ ضَـرْب العُنق. فإنّي لكذلك إذ قال لي: يا محمدُ. فوثبتُ، فقال: ويحَكَ! أرأيتَ أغربَ ممّا تهيّأ علينا! فقلت: يا سيّدي، السّاعةَ واللهِ تخرُجُ رُوحي، فعلى مَن اصابنا بالعَين

(١) جوّدت : أسرعت.

لعنةُ الله، فما كان السببُ؟ ألذنبٍ؟ قال: لا واللهِ، ولكن فكّرتُ أنّ جعفراً[1] يقعُد هذا المقعَد ويقعُد معها كما هي قاعدةٌ معي، فلم أُطِق الصبر وخامرني ما أخرجني إلى ما رأيتَ. فسُرِّي عنّي وقلت: بل يقتُل اللهُ جعفراً ويحيا أميرُ المؤمنين أبداً. وقبّلت الأرض وقلت: يا سيّدي، اللهَ اللهَ! ارحَمْها ومُرْ بردِّها. فقال لبعض الخدم الوقوف: من يجيءُ بها؟ فلم يكن بأسرعَ من أن خرجتْ وفي يدها عُودُها وعليها غيرُ الثياب التي كانت عليها. فلمّا رآها جذبها وعانقها، فبكتْ وجعل هو يبكي، واندفعتُ أنا في البكاء، فقالت: ما ذنبي يا مولاي ويا سيّدي؟ وبأيِّ شيءٍ استوجبتُ هذا؟ فأعاد عليها ما قاله لي وهو يبكي وهي تبكي، فقالت: سألتُك بالله يا أميرَ المؤمنين، إلّا ضربتَ عُنقي الساعةَ وأرحتني من الفِكر في هذا وأرحتَ قلبك من الهمّ بي. وجعلتْ تبكي ويبكي، ثم مسحا أعينَهما ورجَعت إلى مكانها، وأومأ إلى خَدَمٍ وقُوفٍ بشيء لا أَعرفه، فمضَوا وأحضروا أكياساً فيها عَيْنٌ ووَرِقٌ[2]، ورُزماً فيها ثيابٌ كثيرة، وجاء خادمٌ بدُرج فَفتحه وأخرج منه عِقداً ما رأيت قطُّ مثلَ جوهرٍ كان فيه، فألبَسها إياه، وأُحضِرت بَدْرةٌ فيها عشرةُ آلاف درهم فجُعلتْ بين يديّ وخمسةُ تُخوتٍ فيها ثياب، وعُدنا إلى أَمرنا وإلى أحسنَ ممّا كنّا، فلم نزل كذلك إلى الليل ثم تفرّقنا.

وضرب الدّهرُ ضَرْبه[3] وتقلّد المتوكّل؛ فوالله إني لَفي منزلي بعد يوم نَوبتي إذ هجم عليّ رسُل الخليفة، فما أمهلوني حتى ركبتُ وصِرتُ إلى الدّار، فأدخِلتُ والله الحُجرةَ بعَينها، وإذا المتوكلُ في الموضع الذي كان فيه الواثقُ على السرير بعَينه وإلى جانبه فريدةُ. فلمّا رآني قال: ويحَكَ! أما تَرى ما أنا فيه من هذه! أنا منذُ غُدوةٍ أُطالبُها بأن تُغنِّيني فتأبى ذلك! فقلت لها: يا سُبحانَ الله! أتُخالفين سيّدَك وسيّدنا وسيّدَ البشر! بحياته غَنّي. فعَرفتْ والله ثم اندفعتْ تغنّي:

---

(١) جعفر : أي المتوكل.
(٢) العين : الذهب المضروب اي الدنانير. الورق: الدراهم المضروبة من الفضه.
(٣) يقال : ضرب الدهر ضربه وضربانه: أي مرّت حقبة منه.

مُقيمٌ بالمَجازة من قَنَوْتَى   وأهلُك بالأُجَيفرِ فالثِمّاد
فلا تبعَدْ فكلُّ فتىً سيأتي   عليه الموتُ يطرُق أو يُغادي[1]

ثم ضربتُ بالعود الأرض ثم رمت بنفسها عن السرير ومرّت تعدُو وهي تصيح: واسيّداه! فقال لي: ويحَك! ما هذا؟ فقلت: لا أدري والله يا سيّدي. قال: فما ترى؟ فقلت: أرى أن أنصرفَ أنا وتحضُرَ هذه ومعها غيرُها، فإن الأمر يَؤول إلى ما يُريد أميرُ المؤمنين. قال: فانصرف في حِفظ الله. فانصرفتُ ولم أدرِ ما كانت القصة.

* . * . * . * . *

(١) لمجازة: من منازل الطريق إلى مكة. قنوتى: واد بالسراة. الأجيفر: موضع في بلاد قيس أو أسد. الثماد: موضع في ديار بني تميم قرب المرّوت، والبيتان لكثير.

[٥٦]

قَلَم الصَّالحيّة

[الأغاني الجزء ١٣ ص ٣٤٧]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت قَلَمُ الصالحيّةُ جاريةً مولَّـدة صفراء حُلوةً حسنـة الغناء والضـرب حاذقةً، قد أخذت عن إبراهيم وابنه إسحاق ويحيى المكّيّ وزُبير بن دَحْمان. وكانت لصالح بن عبد الوهاب، أخي أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد، وقيل بل كانت لأبيه. وكانت لها صنعةٌ يسيرة نحو عشرين صوتاً، واشتراها الواثق بعشرةَ آلاف دينار.

أحمد بن الحسين بن هشام قال:

كانت قلمُ الصالحيّة جاريـةُ صالـح بن عبد الـوهاب إحـدى المغنّيات المحسِنات المتقدّمات، فغُنّيَ بين يدي الواثق لحنٌ لها في شعر محمد بن كُناسة، قال:

فـيَّ انـقـبـاضٌ وحِـشْـمـةٌ فـإذا صـادفتُ أهـلَ الـوفـاء والكـرمِ

أرسلتُ نفسي على سَجيّتها وقلتُ ما قلت غيرَ مُحتشِم

فسأل: لمن الصنعةُ فيه؟ فقيل: لقلمِ الصالحيّة جاريةِ صالح بن عبد الوهاب، فبعث إلى محمد بن عبد الملك الزّيّات فَأَحضره، فقال: ويلَك! مَن صالحُ بن عبد الوهاب هذا؟ فأخبره، قال: أين هو؟ قال: ابعَثْ فَأَشخِصْه وأشخِص معه جاريتَه. فقدما على الواثق، فدخلت عليه قلم، فأمرها بالجلوس والغناء، فغنّت، فاستحسن غناءها وأمر بابتياعها. فقال صالح: أَبيعُها بمائة ألف دينار وولاية مصر. فغضب الواثق من ذلك وَرَدّها إليه. ثم غنّى بعد ذلك زُرزورٌ الكبير في مجلس الواثق صوتاً، الشعر فيه لأحمد بن عبد الوهاب أخي صالح والغناءُ لقَلَم وهو:

أبتْ دارُ الأحَبّة أن تبينا أجِدَّك ما رأيتَ لها مُعينا
تقطّعُ نفسُه من حُبّ ليلى نفوساً ما أُثِبْنَ ولا جُزِينا

فسأَل: لمن الغناء؟ فقيل: لَقَلم جارية صالح. فبعث إلى ابن الزيّات: أَشخِصْ صالحاً ومعه قَلم. فلمّا أشخصهما دخلت على الواثق، فأمرها أن تُغنّيه هذا الصوت، فَغَنَّتْه، فقال لها: الصَّنعةُ فيه لكِ؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: بارك الله عليك. وبعث إلى صالح فأُحضر، فقال: أما إذ وقعت الرغبةُ فيها من أمير المؤمنين فما يجوز أن أملِك شيئاً له فيه رغبةٌ، وقد أهديتُها إلى أمير المؤمنين، فإن من حقِّها عليّ إذا تناهيتُ في قضائه أن أُصَيِّرَها مِلْكَه، فبارك اللهُ له فيها. فقال له الواثق: قد قبلتُها. وأمر ابنَ الزّيّات أن يدفعَ إليه خمسةَ آلاف دينار، وسمّاها احتياطاً. فلم يُعطِه ابنُ الزيّات المالَ ومَطَله به، فَوَجّه صالح إلى قلم مَن أعلَمَها ذلك، فغنّت الواثق وقد اصطبح صوتاً، فقال لها: بارك اللهُ فيكِ وفيمن ربّاكِ. فقلت: يا سيّدي، وما نفعُ مَن ربّاني منّي إلا التعبُ والغُرم عليّ والخروج مني صِفْراً. قال: أَوَ لم آمُرُ له بخمسة آلاف دينار؟ قالت: بلى، ولكنّ ابنَ الزيّات لم يُعطِه شيئاً. فدعا بخادم من خاصّة الخدم ووقّع إلى ابن الزيات بحمل الخمسة آلاف دينار إليه،

وخمسة آلاف دينارٍ أخرى معها. قال صالح: فصِرتُ مع الخادم إليه بالكتاب، فقَرّبني وقال: أمّا الخمسةُ الآلاف الأُولى فخُذها، فقد حَضَرَتْ، والخمسةُ الآلاف الأخرى أنا أدفعها إليك بعد جمعة. فقُمت، ثم تناساني كأنه لم يعرفْني، وكتبتُ أقتضِيه، فبعث إليّ: اكتُبْ إليّ قَبْضاً[1] بها وخُذها بعدَ جمعة. فكرهت أن أكتُب قبضاً بها فلا يَحصُل لي شيء، فاستترت عنه في منزل صديق لي، فلمّا بلغه استتاري خاف أن أشكوه إلى الواثق، فبعث إليّ بالمال وأخذ كتابي بالقبض. ثم لَقِيني الخادمُ بعد ذلك فقال لي: أمرني أميرُ المؤمنين أن أَصِرَ إليك فاسألكَ: هل قبضتَ المال؟ قلت: نعم، قد قَبَضْتُهُ. قال صالح: وابتَعْتُ بالمال ضيعةً وتعلَّقتُ بها وجعلتُها معاشي، وقعدت عن عمل السلطان فما تعرّضتُ منه لشيء بعدها.

* . * . * . * . *

---

(١) القبض : الإشعار بالاستلام.

[٥٧]

مُتَيَّم الهشاميّة

[الأغاني الجزء ٧ ص ٢٩٣ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت مُتَيَّمُ صفراءَ مولَّدةً من مولّدات البصرة، وبها نشأتْ وتأدّبت وغَنّت. وأخذتْ عن إسحاق وعن أبيه من قبله وعن طبقتهما من المغنّين. وكانت من تخريج بَذْل وتعليمها، وعلى ما أخذتْ عنها كانت تَعتمد. فاشتراها عليُّ بن هشام[1] بعد ذلك، فازدادت أخـذاً ممّن كان يغشاه من أكابر المغنّين. وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً وأدباً، وكانت تقـول الشعر ليس ممّـا يُستَجاد ولكنه يُستَحسن من مثلها. وحَظِيت عند عليّ بن هشام حُظوةً شديدة وتقدّمت على جواريه جُمَعَ عنده، وهي أمُّ وَلِده كُلِّهم.

الحسن بن أحمد المعروف بأبي عبد الله الهشاميّ قال:

كانت مُتَيَّمُ لِلُبانَةَ بنت عبد الله بن إسمـاعيل المَـراكبّي مولى عَـريب،

(١) علي بن هشام: أحد أمراء المأمون وقواده، وقد غضب عليه المأمون لما بلغه من ظلمه الناس واستيلائه على الأموال فأمر بقتله.

فاشتراها عليُّ بن هشام منها بعشرين ألف درهم، وهي إذ ذاك جُوَيرِيةٌ، فولَدت له صَفيَّة وتُكنَى أمَّ العبّاس، ثم ولدت محمداً ويُعرف بأبي عبد الله، ثم وَلدت بعده ابناً يقال له هارون ويُعرف بأبي جعفر، سَمّاه المأمونُ وكَنّاه لمّا وُلد بهذا الاسم والكُنية. قال: ولمّا توفّي علي بن هشام عَتَقتْ. وكان المأمون يبعث إليها فتَجيئُه فتُغنّيه. فلمّا خرج المعتصم إلى سُرّ مَن رأى أرسل إليها فأَشخصها وأنزلها داخلَ الجَوْسَق(١) في دارٍ كانت تُسمىّ الدمشقيّ وأَقطعها غيرَها. وكانت تستأذن المعتصم في الدخول إلى بغداد إلى وَلَدها فتزورهم وترجِع، ثم ضَمّها لمّا خرجتْ قَلَم. وقَلَمُ جاريةٌ كانت لعليّ بن هشام. وكانت مُتَيَّم صفراءَ حُلوةَ الوجه.

عن الحسن بن إبراهيم بن رِياح قال:

سألت عبد الله بن العبّاس الرَّبيعيّ: منَ أحسنُ من أدركتَ صنعةً؟ قال: إسحاق. قلت: ثم مَن؟ قال: عَلّوية. قلت: ثم من؟ قال: مُتَيّم. قلت: ثم من؟ قال: ثم أنا. فعجبتُ من تقديمه مُتَيَّمَ على نفسه، فقال: الحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع.

طائفة من أخبارها

● قــال ابن المعتزّ:

حُدّثت أن المأمون سأل عليّ بن هشام أن يَهَبَها له، وكان بغنائها مُعجباً؛ فدافعه بذلك، ولم يكن له منها ولدٌ. فلمّا ألحّ المأمونُ في طلبها حَرَص عليٌّ على أن تعلَق منه حتى حَبِلت ويئس المأمونُ منها. فيقال إن ذلك كان سبباً لِغضبه عليه حتى قتَله.

● الهشــاميُّ قــال:

بعث عليُّ بن هشام إلى إسحاق فجاءه، فأخرج مُتيَّم جاريته إليه، فغنّت بين يديه:

---

(١) الجوســق : القصــر.

فلا زِلْن حَسْرى ظُلَّعاً لِمْ حَمَلْنَها إلى بلدٍ ناءٍ قليلِ الأصادق[1]

فاستعاده إسحاقُ واستحسنه، ثم قال له: بكم تشتري مني هذا الصوت؟ فقال له عليٌّ بن هشام: جاريتي تصنع هذا الصوت وأشتريه منك! قال: قد أخذتُه الساعةَ وَأَدَّعيه، فقولُ مَن يُصَدَّق: قولي أو قولُك؟ فافتداه منه بِبرذَون اختاره له.

علي بن هشام قال: أولُ من عقدَ من النساء في طَرَف الإزار زُنّاراً وخيطَ إبريسم[2] ثم تجعلُه في رأسها فيثبُت الإزارُ ولا يتحرّك ولا يزولُ مُتَيَّمُ.

● ميمون بن هارون قال:

مَرّت مُتَيَّمُ في نِسوةٍ، وهي مستخفيةٌ، بقصر عليّ بن هشام بعد أن قُتل، فلمّا رأت بابه مُغلقاً لا أنيسَ عليه وقد علاه التُرابُ والغُبرةُ وطُرحت في أَفنيته المَزابلُ وقفت عليه وتمثّلت:

يا منزلاً لم تَبْلَ أطلالُه حاشا لِأطلالك أن تَبْلَى
لم أبكِ أطلالَكَ لكنّني بكيتُ عيشي فيكَ إذ وَلَّى
قد كان لي فيك هوًى مَرّةً غَيَّبه التُربُ وما مُلّا
فصِرتُ أبكي جاهداً فَقْدَه عند ادّكاري حيثما حَلّا
فالعيشُ أولَى ما بَكاه الفتى لا بُدَّ للمحزون أن يَسْلَى

قال: ثم بكت حتى سقطت من قامتها، وجعل النسوةُ يُناشِدنها ويُقلن: الله الله في نفسك! فإنك تُؤخَذين الآن[3] فبعد لأَيٍ ما حُملتْ تتهادى بين امرأتين حتى تجاوزت الموضع.

---

(١) الحسير: البعير الذي أعياه طول السير. ظلع البعير: غمز في مشيه. والبيت للشاعر سليمان بن أبي دباكل الخزاعي.
(٢) الإبريسم: الحرير.
٣. يحذّرنها من أن يقبض عليها لأنها تبكي سيدها الذي أمر المأمون بقتله.

● الهشاميّ قال: وحدّثني جدّي قـال:

كَلَّم عليٌّ بن هشام مُتيمَ فأجابته جواباً لم يَرضَه، فدفع يدَه في صدرها، فغضبتْ ونهضت، فتثاقلت عن الخروج إليه، فكتب إليها:

فليت يـدي بـانتْ غَـداةَ مَـددتُهـا إليـكِ ولم تـرجِعْ بكفٍّ وسـاعـدِ
فـإن يَرجِـع الرحمنُ مـا كان بينَنـا فلستُ إلى يـوم التَنادي بعـائِـدِ

قـال: وعَتَبت عليه مرّةً فتمادى عَتْبُها، وترضّاها فلم ترضَ، فكتب إليها: الإدلالُ يدعو إلى الإملال، ورُبّ هجرٍ دعا إلى صبر، وإنما سُمّي القلبُ قلباً لِتَقَلُّبه، ولقد صدق العبّاسُ بن الأحنف حيث يقول:

مـا أُراني إلاّ سـأهجُـرُ من ليس يَـرانـي أقـوى على الـهِجـرانِ
قـد حَدَا بي إلى الجَفَـاء وفائي مـا أضـرَّ الـوفـاءَ بـالإنسـان

قال: فخرجتْ إليه من وقتها ورضيتْ.

● كانت متيّمُ ذاتَ يوم جالسةً بين يدي المعتصم ببغدادَ وإبراهيمُ بن المهديّ حاضرٌ، فغنّت متيمٌ في الثقيل الأول:

لـزينبَ طيفٌ تعتـريني طـوارقُـه هُـدُوّاً إذا ما النجمُ لاحت لـواحقُهْ

فأشار إليها إبراهيمُ أن تُعيدَه، فقالت متيمّ للمعتصم: يا سيّدي، إبراهيم يَستعيدني الصوتَ وكأنه يريد أن يأخذَه. فقال لها: لا تُعيديه. فلمّا كان بعد أيام كان إبراهيم حاضراً مجلس المعتصم ومُتيّم غائبةً، فانصرف إبراهيم بعد حين إلى منزله ومتيّم في منزلها بالمَيدان وطريقُه عليها وهي في مَنظرةٍ لها مُشرفةٍ على الطريق وهي تغنّي هذا الصوت وَتَطرحُه على جواري عليّ بن هشام، فتقدّم إلى المنظرة وهو على دابّته فتطاول حتى أخـذ الصوت، ثم ضرب باب المنظرة بِمِقْرعته وقال: قد أخذناه بلا حَمْدكِ.

● عن عبد الله بن العبّاس الرَّبيعيّ قال: قالت لي مُتيَّمُ:

بعث إليّ المعتصمُ بعد قدومه بغدادَ، فذهبتُ إليه فأمرني بالغناء، فغنّيتُ:

هـل مُـسـعِـدٌ لـبـكـاء بَـعَـبْـرة أو دمـاءِ

فقال: اعدلـي عن هذا البيت إلى غيره. فغنّيتُه غيرَه من معناه، فدمعت عيناه وقال: غنّي غيرَ هذا. فغنّيت في لَحني:

أولئـك قـومي بعـد عِـزٍّ وَمَنْعـةٍ تفـانـوَا وإلّا تَـذْرِفِ العينُ أَكْمَـدِ

فبكى وقال: ويحكِ! لا تُغنّيني في هذا المعنى شيئاً البتّة. فغنّيت في لحني:

لا تأمنِ الموتَ في حِلٍّ وفي حَرَمٍ إنّ المنـايـا تغشّى كـلَّ إنسـانِ
واسلُكْ طريقكَ هَـوناً غيـرَ مكترِثٍ فسوف يأتيك ما يَمْني لك الماني[1]

فقال: والله لولا أني أعلمُ أنك إنّما غنّيتِ بما في قلبك لصاحبك وأنك لم تَريديني لَمثّلْتُ بكِ، ولكن خُذوا بيدها فأخرِجوها. فأخذوا بيدي فأُخرجتُ.

* . * . * . * . *

(١) مناه الله: قدّره، ومعنى العبارة: ما يقدّره الله لك، والبيتان لسويد بن عامر المصطلقي.

[٥٨]

محبوبة

[الأغاني الجزء ٢٢ ص ٢٠٠ وما بعدها]

أصلها ومنزلتها في الغناء

كانت محبوبةُ مولّدةً من مولّدات البصرة، شاعرةً شريفة مطبوعة لا تكاد فَضْلُ الشاعرة اليمنيّة أن تتقدّمها، وكانت محبوبة أجملَ من فَضل وأعفّ، ومَلَكَها المتوكّلُ وهي بِكرٌ، أهداها له عبدُ الله بن طاهر، وبقيت بعدَه مُدّةً فما طمع فيها أحدٌ، وكانت أيضاً تغنّي غناءً ليس بالفاخر البارع.

طائفة من أخبارها

● عليّ بن يحيى المنجّم:

كان عليّ بن الجَهْم يُقرَّب من أنس المتوكّل جداً ولا يكتُمه شيئاً من سِرّه مع حُرمه وأحاديث خَلواته، فقال له يوماً: إنّي دخلت على قبيحةَ، فوجدتُها قد كتبت اسمي على خدّها بغالية[1]، فلا والله ما رأيت شيئاً أحسنَ من سواد تلك

(١) الغاليـــة : أخلاط من الطيب.

الغالية على بياض ذلك الخدّ، فقُل في هذا شيئاً. قال: وكانت محبوبةُ حاضرةً للكلام من وراء السِّتر، وكان عبد الله بن طاهر أهداها في جملة أربعمائة وصيفة إلى المتوكّل؛ قال: فدعا عليُّ بن الجهم بدَواةٍ، فإلى أن أَتوه بها وابتدأ يفكر قالت محبوبةُ على البديهة من غير فكرٍ ولا رَويّة:

وكاتبةٍ بالمسك في الخدّ جعفرا ... بنفسي مَخَطُّ المِسك من حيث أَثّرا
لئن كتبتْ في الخدّ سطراً بكفّها ... لقد أودعتْ قلبي من الحبّ أسطُرا
فيا مَن لمملوكٍ لِملْك يَمينه ... مُطيعٍ له فيما أسرّ وأظهرا
ويا من مُناها في السريرة جعفرٌ ... سقى الله من سُقيا ثناياكِ جعفرا

قال: وبقي عليُّ بن الجهم واجماً لا ينطِق بحرف، وأمر المتوكل بالأبيات، فبعث بها إلى عَريب وأمر أن نغنِّيَ فيها. قال علي بن يحيى: قال عليّ بن الجهم بعد ذلك: تَحيرتُ والله، وتقلّبت خواطري، فوالله ما قَدَرت على حرفٍ واحد أقوله.

● قال عليّ بن الجهم:

كانت محبوبةُ أُهديت إلى المتوكل، أهداها إليه عبد الله بن طاهر في جملة أربعمائة جارية، وكانت بارعة الحُسن والظَّرف والأدب مُغنّيةً مُحسنة، فحظِيت عند المتوكل حتى إنه كان يُجلسها خلْفَ ستارةٍ وراءَ ظهره إذا جلس للشُرب، فيدخُل رأسه إليها ويحدِّثُها ويراها في كل ساعة. فغاضَبَها يوماً وهجرها ومنَعَ جواريَه جميعاً من كلامها، ثم نازعتْه نفسُه إليها وأراد ذلك ثم منعتْه العِزّةُ، وامتنعتْ من ابتدائه إدلالاً عليه بمحلّها منه. قال عليّ بن الجهم: فبكّرت إليه يوماً فقال لي: إنّي رأيت البارحةَ محبوبَةَ في نومي كأنّي قد صالحْتُها. فقلت: أَقَرّ اللهُ عينَكَ يا أمير المؤمنين، وأنامَكَ على خير، وأيقظك على سرور، وأرجو أن يكون هذا الصُّلحُ في اليَقظة. فبينا هو يحدّثُني وأُجيبه إذا بوصيفة قد جاءتْه فأسرّت إليه شيئاً، فقال لي: أتدري ما أسرّتْ هذه إليّ؟ قلت: لا. قال: حدّثَتْني أنها اجتازت بمحبوبَة الساعةَ وهي في حجرتها تغنّي،

أفلا تعجب من هذا؟ إنّي مُغاضِبُها، وهي متهاونةٌ بذلك لاتبدؤنـي بصُلح، ثم لا ترضى حتى تغنّي في حجرتها، قُم بنا يا عليُّ حتى نسمعَ ما تغنّي. ثم قام وتبعتُهُ حتى انتهى إلى حُجرتها، فإذا هي تغنّي وتقول:

أَدُور في القصر لا أَرى أحداً ... أشكو إليه ولا يُكَلِّمُني
حتى كأنّي ركبتُ مَعصيةً ... ليست لها توبةٌ تُخلِّصُني
فهل لنا شافعٌ إلى مَلِكٍ ... قد زارني في الكَرَى فصالَحني
حتى إذا ما الصّباحُ لاح لنا ... عاد إلى هَجره فصارَمَني

فطرب المتوكّل، وأحسَّتْ بمكانه، فأمرت خدمَها فخرجوا إليه، وتنحّينا وخرجتْ إليه، فحدّثته أنها رأتْه في مَنامها وقد صالحها، فانتبهتْ وقالت هذه الأبياتَ، وغنّت فيها. فحدّثها هو أيضاً برؤياه، واصطلحا، وبعث إلى كلّ واحدٍ منا بجائزة وخِلعة.

ولمّا قُتل تَسَلّى عنه جميعُ جواريه غيرَها، فإنّها لم تزل حزينةً متسلّبة هاجرة لكلّ لذة حتى ماتت، ولها فيه مَراثٍ كثيرة.

● عليّ بن يحيى المنجّم:

أنّ جواريَ المتوكل تفرّقن بعد قتله، فصار إلى وَصيفٍ عِدّةٌ منهنّ، وأخذ محبوبةَ فيمن أخذ. فاصطبح يوماً وأمر بإحضار جَواري المتوكل، فأُحضرن، عليهنّ الثيابُ الملوّنة والمُذَهبّة والحُليّ، وقد تزينَّ وتعطّرن، إلا محبوبةَ فإنها جاءت مَرْهاءَ مُتسلِّبةً[1]، عليها ثيابُ بياضٍ غيرُ فاخرة، حزناً على المتوكّل. فغنّى الجواري جميعاً وشرِبن وطرِب وصِيفٌ وشرب، ثم قال لها: يا محبوبةُ غَنّي. فأخذت العُود وغنّت وهي تبكي وتقول:

أيُّ عيشٍ يطيب لي ... لا أرى فيه جَعفرا
ملِكاً قد رأتْه عَيني ... قتيلاً مُعفَّرا

(١) مرهاء: غير مكتحلة. متسلبة: لابسة ثياب الحداد.

كـلُّ مـن كـان ذا هُـيـا م وحـزنٍ فـقـد بَـرا
غـيـرَ مـحـبـوبـةَ الـتـي لـو تـرى المـوتَ يُشـتَـرى
لا شـتـرتْـه بـمِـلْكـهـا كـلّ هـذا لـتُـقْـبَـرا
إنّ مـوتَ الـكـئـيـب أَصْـلَحُ مـن أن يُـعَـمَّـرا[1]

فاشتدّ ذلك على وصيفٍ وهَمّ بقتلها، وكان بُغا حاضراً، فاستوهبها منه، فوهَبَها له، فأعتقها، وأمر بإخراجها وأن تكون بحيث تختار من البلاد، فخرجتْ من سُرّ مَن رأى إلى بغداد، وأخملتْ ذِكرَهـا طُولَ عُمرهـا.

* . * . * . * . *

(١) معفر: ممرّغ في التراب. برا : مخفف برأ، أي شفي من مرضـه.

القسم الخامس

أغاني الخلفاء وولدهم

أغاني الخلفاء وولدهم

[الأغاني الجزء التاسع ص ٢٥٠ وما بعدها]
[الجزء العاشر ص ٦٩ وما بعدها]
وص ١٦٢ وما بعدها]

الوليد بن يزيد [الأغاني الجزء ٩ ص ٢٧٤]

ممّن غنّى منهم الوليد بن يزيد؛ وله أصواتٌ صنعها مشهورةٌ، وقد كان يضرِبُ بالعود ويُوقِع بالطَبل ويمشي بالدُّفّ على مذهب أهل الحجاز.

عن محمد بن جَبر قال حدّثني من سمع خالدَ صامةَ يقول:

كنت يوماً عند الوليد بن يزيد وأنا أُغنّيه:

«أَرَاني اللهُ يا سَلمى حياتي»

وهو يشرب حتى سكر، ثم قال لي: هاتِ العودَ. فدفعته إليه، فغنّاه أحسنَ غناء، فنَفِستُ عليه إحسانَه ودعوت بطبل فجعلت أُوقع عليه وهو يضرِب حتى دفع العود وأخذ الطبل فجعل يُوقع به أحسنَ إيقاع، ثم دعا بدُفٍّ فأخذه

ومشى به وجعل يغنّي أهزاج طُوَيس حتى قلت قد عاش، ثم جلس وقد انبهر، فقلت: يا سيّدي، كنت أَرى أنك تأخذ عنّا ونحن الآنَ نحتاج إلى الأخذ عنك! فقال: اسكُتْ ويلَك! فوالله لئن سَمع هذا منك أحدٌ ما دمتُ حَيّاً لأَقتلنّك. فوالله ما حكيتُه عنه حتى قُتـل.

فمن مشهور صنعتـه في شعـره:

وصفـراءَ في الكـأس كـالـزَّعفـرانْ   سَبَـاهـا التُّجيـبيُّ مـن عَسْـقَـلانْ
تُـريـك الـقَـذاة وعَـرضُ الإنـا   ء سِترٌ لها دون لمسِ البَنَـانْ[1]

الـــواثق بالله [الأغاني الجزء ٩ ص ٢٧٦]

وممّن دُوّنـت صنعتُهُ من خلفـاء بني العبّاس الواثقُ بالله.

حَمّاد بن إسحاق عن أبيـه قـال:

دخلت يوماً دار الواثق بغير إذن إلى موضعٍ أَمَر أن أدخُلَه إذا كان جالساً، فسمعت صوتَ عُود من بيت وترنُّماً لم أسمع أحسنَ منه قطّ. فأطْلَع خادمٌ رأسَه ثم رَدّه وصاح بي، فدخلت فإذا الواثقُ، فقال: أيَّ شيء سمعتَ؟ فقلت: الطَّلاقُ لازمٌ لي وكلُّ مملوك لي حُرٌّ لقد سمعتُ ما لم أسمع مثلَه قطُّ حُسناً. فضحك فقال: وما هـو؟ إنما هذه فَضلةُ أدبٍ وعلم مَدَحه الأوائلُ واشتهاه أصحابُ رسول الله ﷺ ورَجِـنْهم والتابعون بعدَهم وكثُر في حَرَم الله ومُهاجَرِ رسول الله، أتُحبّ أن تسمعَه منّي؟ قلت: إي والذي شَرّفني بخطابك وجميل رأيك. فقال: يا غُلام، هاتِ العودَ وأعطِ إسحاقَ رطلاً. فدفع الرِّطلَ إليّ وضرب وغَنّى في شعر لأبي العتاهية بلحنٍ صَنعـه فيـه:

أضحت قبـورُهُم من بعـد عِـزِّهِمُ   تَسفي عليها الصَّبا والحَرْجَفُ الشَّمَلُ
لا يَـدفعـون هَـواماً عن وجـوههمُ   كـأنهم خَشَبٌ بـالقـاع مُنْجَـدِلُ[2]

---

(١) التجيبيّ: نسبة إلى تُجيب وهو بطن من كندة.
(٢) الحرجف: الريح الباردة الشديدة الهبوب. الشمل: ريح الشمال.

فشربت الرطل ثم قمت فدعوتُ له، فأجلسني وقال: أتشتهي أن تَسمعَه ثانيةً؟ فقلت: إي والله. فغنّانِيه ودعا لي برطلٍ، ففعلت كما فعلت ثانيةً ثم ثالثة. وصاح ببعض خَدَمه وقال له: احمِل إلى إسحاق ثلاثَمائة ألف درهم. ثم قال: يا إسحاقُ، قد سمعتَ ثلاثةَ أصوات، وشربت ثلاثةَ أرطال وأخذت ثلاثمائة ألف درهم، فانصرِفْ إلى أهلك ليُسَرّوا بسرورك. فانصرفت بالدراهم.

عَريب تقول:

صنع الواثق مائةَ صوتٍ ما فيها صوتٌ ساقط، ولقد صنع في هذا الشعر:

هل تعلمين وراءَ الحُبّ منزلةً تُدني إليكِ فإنّ الحُبّ أقصاني
هذا كتابُ فتىً طالت بَلِيّتُهُ يقول يا مُشْتَكى بثّي وأحزاني

لحناً من الرَّمَل تشبّه فيه بصنعة الأوائل.

أبو جعفر بن الدِّهْقانة النديمُ قال:

كان الواثق إذا أراد أن يعرِض صنعتَه على إسحاقَ نَسَبها إلى غيره وقال: وَقَع إلينا صوتٌ قديم من بعض العجائز ما سَمعه أحدٌ. ويأمر من يُغنّيه إيّاه؛ وكان إسحاق يأخذُ نفسَه في ذلك بقول الحقّ أشدَّ أَخْذ، فإن كان جيّداً في صِناعته قَرّظه ووصفه واستحسنه، وإن كان مُطَّرحاً أو فاسداً أو متوسِّطاً ذكر ما فيه؛ فربّما كان للواثق فيه هوًى فيسألُهُ عن تقويمه وإصلاح فساده، وربّما اطَّرحه بقول إسحاق فيه. إلى أن صَنع لحناً في قول الشاعر:

لقد بَخِلتْ حتى لو آنّي سألتُها قَذَى العَين من ضاحي التُراب لَضَنّتِ

فأُعجِب به واستحسنه وأمر المغنّين فَغَنّوا فيه، وأمر بإشخاص إسحاقَ إليه من بغدادَ ليسمعَه، فكاده مُخارقٌ عنده وقال: يا أميرَ المؤمنين، إن إسحاقَ شيطانٌ خبيث داهية، وإنّ قولك له فيما تصنعُهُ: هذا صوتٌ وقَع إلينا، لا يَخفى عليه به أنّ الصوتَ لك ومن صَنعتك ولا يُوقِع في فَهمه أنه قديم، فيقول لك وبحضرتك ما يُقارب هواك، فإذا خَرج عن حَضرتك قال لنا ضِدَّ ذلك. فأحفظ الواثقَ قولُه وغاظه وقال له: أُريد على هذا القول منك دليلاً. قال: أنا

أُقيم عليه الدَّليل إذا حضر. فلمّا قُدم به وجلس في أوّل مجلس اندفع مُخارق يغنّي لحنَ الواثق:

«لقــد بخلت حتى لو اني سألتها»

فزاد فيه زوائدَ أفسدتْ قِسمتَه فَساداً شديداً وخفِيت على الـواثق لكثرة زوائد مُخارق في غنائه. فسأله الواثقُ عنه فقال: هذا غناءٌ فاسد غيرُ مَرْضِيٍّ عندي. فغضب الواثق وأمر بإسحاق فسُحب حتى أُخرج من المجلس. فلمّا كان من الغد قالت فريدةُ للواثق: يا أمير المؤمنين، إن إسحاق رجلٌ يأخُذُ نفسَه بقول الحقّ في صناعته على كلّ حالٍ ساءتْه أو سَرَّتْه، لا يخاف في ذلك ضرراً ولا يَرجو نفعاً، ومالك منه عِوضٌ، وقد كاده مخارقٌ عندك فزاد في صدر الصوت من زوائده التي تعرِف وتركه في المِصراع الثاني على حاله ونَقَص من البيت الثاني؛ وقد تبيّنتُ ذلك، وأنا أَعرِضُه على إسحاق وأُغنّيـه إياه على صِحّته، واسمع ما يقول. ومـا زالت تَلْطُفُ للواثق حتى رضي عنه وأمـر بإحضاره، فغنّته إيّاه فريدةُ كما صَنَعَه الواثق، فلمّا سمعه قال: هذا صوتٌ صحيحُ الصَّنعة والقِسْمة والتَجزئة، وما هكذا سمعتُهُ في المرة الأولى. ثم أخبر الواثقَ عن مَواضع فساده حينئذٍ وأبان ذلك له بما فهِمه. وغنّته فريدةُ عـدّةَ أصوات من القديم والحديث كلُّها يقول فيها بما عنده من مدحٍ لبعضها وطعنٍ على بعض. فاستحسن الواثقُ ذلك وأجازه يومئذٍ وحَباه وجَفا مُخارقاً مدّةً لِما فَعله به.

عن حَمّاد بن إسحــاق قــال:

كتب حَمْدون بن إسماعيل إلى أبي: إن أمير المؤمنين الواثق يأمرك أن تصنع لحناً في هذا الشعر:

«لقــد بخِلــت حتى لو اني سألتُها»

وقد كان الواثق غنّى فيه غناءً أَعْجبه، فغنّى فيه أبي؛ فلمّا سمعه الواثق قال: أفسد علينا إسحاقُ ما كُنّا أُعجِبنا به من غنائنا. قال حماد: ثم لم أعلم أن أبي صنع بعده غناءً حتى مات.

عن حَمّاد بن إسحاق قال:

كان الواثقُ أعلمَ الخلفاء بالغناء، وبلغتْ صنعتُهُ مائةَ صوت، وكان أحذقَ من غنّى بضرب العود.

محمد بن يحيى بن أبي عَبّاد قال حدّثني أبي قال:

لمّا خَرَج المعتصم إلى عَمُّورية استخلَف الواثقَ بسُرّ من رأى، فكانت أمورُه كلُّها كأمور أبيه. فوَجّه إلى الجُلَساء والمغنّين أن يُبكِّروا إليه يوماً حُدّد لهم، ووَجّه إلى إسحاق. فحضر الجميع، فقال لهم الواثقُ: إني عزمتُ على الصَّبُوح، ولست أجلِس على سرير حتى أختلَط بكم ونكونَ كالشيء الواحد، فاجلِسوا معي حَلْقةً، وليكن كلُّ جليس إلى جانبه مُغَنٍّ. فجلسوا كذلك، فقال الواثق: أنا أَبدأ. فأخذ عوداً فَغَنّى وشربوا، وغنّى مَن بعدَه حتى انتُهي إلى إسحاق، فأُعطي العُودَ فلم يأخُذْه. فقال: دَعُوه. ثم غَنّوا دوراً آخرَ، فلمّا بلغ الغناءُ إلى إسحاق لم يُغَنِّ، وفعل هذا ثلاثَ مرّات. فوثَب الواثق فجلس على سريره وأَمر بالناس فأُدخلوا، فما قال لأحدٍ منهم: اجلِس. ثم قال: عليَّ بإسحاق. فلمّا رآه قال: يا خُوزيُّ، يا كلبُ! أَتَنَزَّلُ لك وأُغنيّ وترتفع عنّي! أتُرى لو أنّي قتلتك كان المعتصمُ يُقيدُني بك! ابطَحُوه. فبُطح، فضُرب ثلاثين مِقرعةً ضرباً خفيفاً، وحلفَ ألاّ يُغنّيَ سائرَ يومه سواه. فاعتذر وتكلّمت الجماعةُ فيه، فأخذ العود وما زال يغنّي حتى انقضى ذلك اليومُ، وعاد الواثقُ إلى مجلسه.

مخارقٌ قال:

لمّا صنع الواثقُ لحنه في:

حَوراءُ مَمكورةٌ مُنَعَّمةٌ كأنّما شفّ وجهَها نُزُفُ[1]

---

(١) الممكورة: المدمجة الخلق من النساء. نزف (بإسكان وسطه): خروج الدم، أراد أن في لونها صفرة مع البياض وهو مستحسن عندهم. والبيت لقيس بن الخطيم.

وصنع لحنه في:

«سأذكـر سِرْبـاً طال ما كنت فيهـم»

أمرني وعَلّويه وعَريبَ أن نُعارض صنعته فيهما، ففعلنا واجتهدنا ثم غَنّيناه. فضحك فقال: أَمِنّا معكم أن نجد من يُبْغِّضَ إلينا صنعتَنا كما بَغّض إسحاقُ إلينا «أيا مُنشِر الموتى»[1]. قال حماد: هذا آخر لحن صنعه أبي، يعني الذي عارض به لحن الواثق في «أيا مُنشر الموتى».

المنتصـــــر

وممّن حُكي عنه أنه صَنع في شعره وشعر غيره المنتصر، فإني ذكرت ما رُوي عنه أنه غَنّى فيه على سوء العُهدة في ذلك وضَعف الصنعـة.....

المعتــزّ بالله

وممّن هذه سبيلُه في صنعة الغناء المعتزُّ بالله، فإني لـم أجد له منها شيئاً إلاّ ما ذكره الصُوليّ في أخباره...

المعتمـــد

وممّن ذُكر أن له صنعـةً من الخلفاء المعتمـد. قال محمـد بن يحيى الصُوليّ: ذكر عبد الله بن المعتزّ عن القاسم بن زُرزور أن المعتمد ألقى عليه لحناً صنعه في هذا الشعر وهو:

ليس الشفيـعُ الذي يـأتيـك مُؤْتـزِاً مثـلَ الشَّفيع الـذي يأتيـك عُريـانـا

الشعر للفرزدق، والغناء للمعتمـد.... هذه حكاية الصولي، وفي غناء عَريب لها في هذا البيت خفيفُ ثقيل، ولا أَعلم لمن هو منهما على صحة،

---

(١) يشير إلى البيتين اللذين صنع الواثق فيهما لحناً ثم صنع إسحاق فيهما لحناً أجود وهما:

أيا مُنشِر المـوتى أقدِني من التي بهـا نهلتْ نفسي سَقـامـاً وعلّتِ
لقـد بخلت حتى لو اني سـألتها قذى العين من ضاحي التراب لضنّت

وهما لأحد الأعراب والناس ينسبونهما إلى كثيّر وهو خطأ.

إلا أن المشهور في أيدي الناس أنه لِعريب، ولم أسمع للمعتمد غناءً إلا من هذه الجهــة التي ذكرتُها.

صنعة أولاد الخلفاء الذكور منهم والإناث

إبراهيــم بن المهــديّ **[الأغاني الجزء ١٠ ص ٦٩ وما بعدها]**

فأوّلُهم وأتقنهم صنعةً وأشهرُهم ذِكراً في الغناء إبراهيمُ بن المهديّ، فإنه كان يتحفّى به تحفِّياً شديداً ويبتذِل نفسَه ولا يستتر منه ولا يُحاشي أحداً. وكان في أول أمره لا يفعل ذلك إلّا من وراء سِتر وعلى حال تَصَوُّنٍ عنه وتَرفُّع، إلّا أن يَدعُوه إليه الرشيد في خَلْوة والأمينُ بعده. فلمّا أمَّنه المأمونُ تهتّك بالغناء وشُرب النَّبيذ بحضرته والخروج من عنده ثمِلاً ومع المغنّين، خوفاً منه وإظهاراً له أنه قد خَلع رِبْقة الخلافة من عُنقه وهَتك ستَره فيها حتى صار لا يَصلُح لها. وكان من أعلم الناس بالنَّغم والوَتَر والإيقاعات وأطبعِهم في الغناء وأحسنِهم صوتاً. وهو من المعدودين في طِيب الصوت خاصّةً، فإن المعدُودين منهم في الدولة العباسية: ابنُ جامع، وعمرو بن أبي الكَنّات، وإبراهيم بن المهديّ، ومُخارقٌ، وهؤلاء من الطبقة الأولى وإن كان بعضُهم يتقدّم. وكان إبراهيمُ مع علمه وطبعه مُقصِّراً عن أداء الغناء القديم وعن أن يَنحُوَه في صنعته، فكان يحذِف نَغم الأغاني الكثيرة العمل حَذْفاً شديداً ويُخفّفُها على قَدر ما يَصلُح له ويفي بأدائه. فإذا عِيب ذلك عليه قال: أنا مِلكٌ وابنُ ملك، أُغنّي كما أشتهي وعلى ما ألتذّ. فهو أولُ من أفسد الغناءَ القديم، وجعل للناس طريقاً إلى الجَسارة على تغييـره. فالناس إلى الآن صِنفان: من كان منهم على مذهب إسحاق وأصحابه ممّن كان يُنكر تغيير الغناء القديم ويُعظِم الإقدامَ عليه ويَعيبُ مَن فَعله، فهو يغنّي الغناء القديم على جهته أو قريباً منها. ومن أخذ بمذهب إبراهيم بن المهديّ أو اقتدى به مثل مُخارق وشارية ورَيِّق، ومن أخذ عن هؤلاء إنّما يغنّي الغناءَ القديم كما يشتهي هؤلاء لا كما غنّاه من يُنسَب إليه، ويجد على ذلك مُساعِدين ممّن يَشتهي أن يَقْرُبَ عليه مَأخَذُ الغناء ويكرهُ ما ثَقُل وثقُلت أدوارُه، ويستطيل الزمان في أخذ الغناء الجيّد على جِهته بقِصَر

معرفته. وهذا إذا اطَّرد فإنما الصّنعةُ لمن غنّى في هذا الوقت لا للمتقدِّمين، لأنهم إذا غَيّروا ما أخذوه كما يَرَون وقد غيّره من أخذوه عنه وَأَخذ ذلك أيضاً عمّن غَيّره، حتى يَمضيَ على هذا خمسُ طبقات أو نَحْوها، لم يتأدَّ إلى الناس في عصرنا هذا من جهة هذه الطبقة غناءٌ قديم على الحقيقة البَتّـة.

وممّن أفسد هذا الجنس خاصّةً بنو حَمْدون بن إسماعيل، فإن أصلهم فيه مُخارقٌ، وما نفع اللهُ أحداً قط بما أَخذ عنه، وزِريابُ الواثقيّةُ فإنها كانت بهذه الصورة تُغيّر الغناءَ كما تُريد، وجواري شارية ورَيِّق. فهذه الطبقةُ على ما ذكرتُ. . . .

ثم نعود إلى ذكر إبراهيم بن المهديّ وأُمّه شَكْلة، ويُكنى أبا إسحاق. . وشَكلةُ أُمُّه مولَّدة، كان أبوها من أصحاب المازيار يقال له شاه أفرند، فقُتل مع المازيار وسُبيت بنتُه شكلةُ، فحُملت إلى المنصور فوهبها لِمُحَيّاةَ، أمِّ ولده، فربَّتْها وبعثت بها إلى الطائف فنشأت هناك وتفصّحتْ، فلمّا كبِرت رُدّت إليها، فرآها المهديّ عندها فأعجبتْه، فطلبها من مُحَيّاة فأعطتْه إياها، فولدت منه إبراهيم. وكان رجلاً عاقلاً فهِماً دَيِّناً أديباً شاعراً راويةً للشعر وأيام العرب خطيباً فصيحاً حسنَ العارضة. وكان إسحاقُ الموصليّ يقول: ما وَلَد العبّاسُ بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس رجلاً أفضلَ من إبراهيم بن المهديّ. فقيل له: مع ما تبذَّل له من الغناء؟ فقال: وهل تمّ فضلُه إلاّ بذاك. . . .!

وكان أشدَّ خلق الله إعظاماً للغناء، وأحرصَهم عليه، وأشدَّهم منافسةً فيه. وكانت صنعتُهُ ليِّنةً، فكان إذا صنع شيئاً نسبه إلى شاريةَ ورَيِّق لئلا يقع عليه فيه طعنٌ أو تقريع، فقلّت صنعتُهُ في أيدي الناس مع كثرتها لذلك، وكان إذا قيل له فيها شيءٌ قال: إنما أَصنعُ تَطَرُّباً لا تكسُّباً وأُغنّي لنفسي لا للناس فأعمل ما أشتهي. وكان حُسنُ صوته يستُر عَوارَ ذلك كلِّه. وكان الناس يقولون: لم يُر في جاهلية ولا إسلام أَخٌ وأخت أحسنُ غناءً من إبراهيم بن المهديّ وأخته عُلَيّة. وكان يُماظّ[1] إسحاقَ ويُجادله، فلا يقوم له ولا يَفي به، ولا يـزال

---

(١) يماظ : ينازع ويجـادل.

إسحاقُ يغلِبُه ويُغصّه بريقه ويَغُصّ منه بما يُظهر عليه من السَّقطات ويُبَيِّنُهُ من خطئه في وقته وعجزه عن معرفة الخطأ الغامض إذا مَرّ به، وقُصورِه عن أَدَاء الغناء القديم فيفضَحُه بذلك.

وممّا خالف إبراهيمُ بن المهديّ ومَن قالَ بقوله على إسحاق فيه: الثَّقيلان وخفيفُهما... وجرت بينهما في ذلك مُناظراتٌ ومُجادلات ومراسلة ومكاتبة ومُشافهة، وحَضَرهما الناسُ فلم يكن فيهم مَن يفي بفصل ما بينهما والحُكم لأحدهما على صاحبه. ووضع كلاهما مكاييل لتُعرف بها أقدارُ الطرائق، وأمسك كلُّ واحدٍ منهما إلى آخر أقداره، فلم يصحّ شيء يُعمَل عليه، إلا أن قول إبراهيم بن المهديّ اضمحلّ وبَطَل وتُرِك، وعمِلَ الناسُ على مذهب إسحاق لأنه كان أعلم الرجلين وأشهَرهما...

ولو ذهبتُ إلى ذكر ذلك وشرح سائر أخبار إبراهيم بنِ المهديّ وقِصَصِه لمّا وَلي الخلافة وغيرِ ذلك من وصفه بفصاحة اللسان وحُسن البَيان وجَودة الشعر ورواية العلم والمعرفة بالجدَل وجَزالةِ الرأي والتصُّرفِ في الفِقه واللغة وسائر الآداب الشريفة والعلوم النفيسة والأدوات الرفيعة لأطلتُ...

حمدون بن إسماعيل قال قال لي إبراهيم بن المهديّ: لولا أني أرفعُ نفسي عن هذه الصناعة لأظهرتُ فيها ما يعلمُ الناسُ معه أنهم لم يَروا قبلي مثلي..

الحسين بن إبراهيم قال::

كنت أسأل مخارقاً: أي الناس أحسنُ غناءً؟ فيُجيبني جواباً مُجْمَلاً حتى ألحفت عليه يوماً فقال: كان إبراهيم الموصليّ أحسنَ غناءً من ابن جامع بعشر طبقات، وأنا أحسنُ غناء من إبراهيم الموصليّ بعشر طبقات، وإبراهيم بن المهديّ أحسن غناءً مني بعشر طبقات. ثم قال لي: أحسنُ الناس غناءً أحسنُهم صوتاً، وإبراهيم بن المهديّ أحسنُ الجنّ والإنس والوحش والطير صوتاً، وحَسبُك هذا.

● عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال:

كان محمد بن موسى المنجِّم يقول: حكمتُ أن إبـراهيم بن المهديّ أحسنُ الناس كلِّهم غناءً ببُرهان وذلك أني كنت أراه بمجالس الخلفاء مثل المأمون والمعتصم يغنّي المغنّون ويغنّي، فإذا ابتدأ الصوتَ لم يبقَ من الغِلمان والمتصرِّفين في الخدمة وأصحابِ الصناعات والمِهن الصِّغار والكبار أحدٌ إلا ترك ما في يده وقرُب من أقرب موضع يمكنه أن يسمَعَه، فلا يزال مُصغياً إليه لاهياً عمّا كان فيه ما دامَ يغنّي، حتى إذا أَمَسك وتغنّى غيـرُه رَجعوا إلى التشاغل بما كانوا فيه ولم يلتفتوا إلى ما يسمعون.

* . * . * . * . *

طائفة من أخباره

● أحمد بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيه قـال:

دخلت يوماً إلى الرشيد وفي رأسي فضلَةُ خُمار، وبين يديه ابنُ جامع وإبراهيمُ الموصليُّ، فقال: بحياتي يا إبراهيمُ غَنِّني. فأخذت العود ولم ألتفت إليهما لما في رأسي من الفَضلة فغنّيت:

أَسـرَى بخـالـدةَ الخيـالُ ولا أَرى   شيئـاً ألـذَّ من الخَيـال الـطارقِ

فسمعـــت إبراهيمَ يقول لابن جامع: لو طَلب هذا بهذا الغناء ما نطلُب لما أكلْنا خبزاً أبداً. فقال ابنُ جامع: صدقتَ. فلمّا فرغتُ من غنائي وضعت العود ثم قلت: خُذا في حَقِّكما وَدَعا باطَلنا.

● عن إبراهيم بن المهـدي قال:

كان الرشيد يحبّ أن يسمَعَني، فخلا بي مـرّاتٍ إلى أن سمعني. ثم حضرتُهُ مرّةً وعنده سليمان بن أبي جعفر فقال لي: عمُّك وسيّدُ ولد المنصور بعد أبيك وقد أحبّ أن يَسمعك. فلم يتركْني حتى غنّيت بين يديه:

إذ أنتِ فينـا لِمن يَنهـاكِ عـاصيـةً   وإذ أَجُـرُّ إليـكـم سـادراً رَسَـنـي

فأمر لى بألف ألف درهم. ثم قال لي ليلةً ولم يبق في المجلس إلا جعفرُ ابن يحيى: أنا أُحبّ أن تُشرّفَ جعفراً بأن تُغَنِّيَهَ صوتاً. فغنّيتُهُ لحناً صنعتُهُ في

شعر الدارميّ:

كأنّ صورتَها في الوصف إذ وُصفتْ دينـارُ عَينٍ من المِصْـريّـة العُتُقِ

● محمد بن الحارث بن بُسخُنّر قـال:

لمّا قدِم المأمون من خُراسان لم يَظهر لمُغَنٍّ بالمدينة مدينةِ السَّلام غيري، فكنت أُنادمُهُ سِرّاً، ولم يظهر للنُّدمَاء أربعَ سِنين، حتى ظفِر بإبراهيم بن المهديّ، فلمّا ظفِر به وعفا عنه ظهر للنُّدماء. ثم جَمَعنا ووَجّه إلى إبراهيم، فحضَر في ثياب مُبتَذلة، فلمّا رآه المأمون قال: ألقَى عمّي رداءَ الكِبْرِ عن مَنكبَيه. ثم أَمر له بخِلعَ فاخرة وقال: يا فَتْحُ[١]، غدِّ عمّي. فتغدّى إبراهيمُ بحيث يراه المأمون ثم تحوّل إلينا، وكان مخارقٌ حاضراً، فغنّى مخارق:

هـذا ورُبَّ مُسَـوِّفيـن حَضَـرتُـهم من خَمـر بـابـلَ لَـذّةً للشـاربِ[٢]

فقـال لـه إبراهيم: أسأتَ فأَعِد. فأعاده، فقال: قاربتَ ولم تُصِبْ. فقال له المأمون: إن كان أساء فَأَحسِن أنت. فغنّاه إبراهيم ثم قال لمخارق: أَعِدْ. فأعاده، فقال: أحسنت. فقال للمأمون: كم بين الأمرين؟ فقال: كثير. فقال لمخارق: إنّما مَثَلُك كمثل الثوب الفاخر إذا غفَل عنه أهلُه وقع عليه الغبارُ فأحال لونَهُ. فإذا نُفض عاد إلى جوهره. ثم غنّى إبراهيم:

يـا صـاحِ يـاذا الضـامـرِ العَنْسِ والـرَّحْـلِ ذي الأقتـاد والحِلْس
أمّـا الـنـهـار فـمـا تُقصِّـره رَتْكـاً يَـزيـدك كلّمـا تُـمسـي[٣]

قـال: وكـانت لي جائزةٌ قد خرجتْ فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمرُ سيّدي بإلقاء هذا الصَوت عليّ مكانَ جائزتي فهو أحبُّ إليّ منها. فقال: يا عمِّ، أَلْقِ

---

(١) فتح : هو خادم المأمون.

(٢) المسوِّف (على صيغة اسم الفاعل): من يصنع ما شاء لا يردّه أحد، والصبور. والبيت لعدي بن زيد.

(٣) العنس : الناقة الصلبة القوية. القتد: خشب الرحل. الحلس: كل شيء ولي ظهر البعير تحت الرحل والسرج. الرتك: سير سريع للإبل. والبيتان لخالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد.

هذا الصوتَ على محمد[1]. فألقاه عليّ، حتى إذا كدتُ أن آخُـذَه قال: اذهبَ، فأنت أَحذقُ الناس به. فقلت: إنه لم يصلُح لي بعدُ. قال: فاغْدُ عليّ. فغدوتُ عليه، فغَنّاه ملتوياً، فقلت: أيها الأميرُ، لك في الخلافة ما ليس لأحد: أنت ابنُ الخليفة وأخو الخليفة وعمُّ الخليفة، تَجُود بالرّغائب وتَبخل عليّ بصوت! فقال: ما أحمقَك! إنّ المأمون لم يَستَبْقني محبّةً فيَّ ولا صِلةً لرَحمي ولا رِباءً[2] للمعروف عندي، ولكنه سمع من هذا الجِرم[3] ما لم يسمع من غيره. قال: فأعلمت المأمونَ مقالتَهَ فقال: إنّا لا نُكَدِّر على أبي إسحاقَ عَفْوَنا عنه، فَدَعْه. فلمّا كانت أيامُ المعتصم نشِط للصَّبُوح يوماً فقال: أحضِروا عمّي. فجاء في دُرّاعة من غير طَيلسان، فأعلمتُ المعتصم خبـرَ الصوت سرّاً، فقال: غَنِّني:

«يا صــاحِ ياذا الضامــرِ العَنْسِ»

فغنّـــــ،، فقال: أَلقِه على محمد. فقال: قد فعلتُ، وقد سبق مني قولٌ ألّا أُعِيدَه عليه. ثم كان يتجنّب أن يُغنّيه حيث أحضرُهُ.

● هِبةُ الله بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيه قال:

غضب عليّ محمد الأمينُ في بعض هَناته فسلّمني إلى كوثَرٍ[4]، فحبَسني في سِردابٍ وأغلقه عليَّ، فمكثتُ فيه ليلتي، فلمّا أصبحتُ إذا أنا بشيخٍ قد خرج عليّ من زاويـة السِّرداب ودفَع إليَّ وسطاً[5]، وقال: كُلْ. فأكلت، ثم أخرج قِنّينة شراب فقال: اشرَب. فشربت، ثم قال لي: غَنِّ:

---

(١) في المطبوعة : على مخارق، وهذا لا يستقيم مع سياق الخبر فإن المتكلم هو محمد بن الحارث لا مخارق، وقد أعاد أبو الفرج الخبر برواية أخرى تؤيد ما ذهبنا إليــه.

(٢) لربــاء : الزيادة والنمو والفعل ربا يربو.

(٣) الجرم (هنا): الحلق أو الشخص.

(٤) كوثــر : هو خادم الأمين.

(٥) كذا في الأصل ولا يتضح المقصود منها هنا واستظهر محقق المطبوعة أنه يريد نوعاً من الطعام.

لـي مُـدّةٌ لا بُـدَّ أبـلغُـهُـا   مـعلومـةٌ فـإذا انـقـضـتْ مُـتُّ
لـو ساورتْني الأُسْـدُ ضـاريـةً   لَغلبتُهـا مـا لم يَـجِ الـوقتُ

فغنّيتُهُ، وسمعنـــي كوثر فصار إلى محمد وقال: قد جُنّ عمُّك وهو جالسٌ يغنّي بكَيْتُ وكَيت. فأمر بإحضاري، فأُحضرت، وأخبرتُهُ بالقصة، فأمر لي بسبعمائة ألف درهم ورضي عنّي.

● إسحاق بن محمد عن أبيــه قال:

سمعتُ أحمد بن أبي دُواد يقول: كنت أَعِيبُ الغناء، وأطعن على أهله، فخرج المعتصم يوماً إلى الشّمّاسيّة في حَرّاقةٍ يشرب، وَوَجّه في طلبي فصِرتُ إليه، فلمّا قَرُبت منه سمعت غناءً حَيَّرني وشَغلني عن كل شيء، فسقط سَوطي من يدي، فالتفتُّ إلى زنقطة غلامي أطلب منه سوطَه فقال لي: قد واللهِ سقط سَوطي. فقلت له: فأيُّ شيء كان سببَ سقوطه؟ قال: صوتٌ سمعته شغَلني عن كلّ شيء فسقط سوطي من يدي. فإذا قِصّتُهُ قصّتي. قال: وكنت أُنكِر أمر الطَرب على الغناء وما يَستفزّ الناسَ منه ويغلِب على عقولهم وأُناظِر المعتصمَ فيه. فلمّا دخلتُ عليه يومئذٍ أخبرتُهُ بالخبر، فضحك وقال: هذا عمّي كان يُغنّيني:

إنّ هــذا الـطويـلَ من آلِ حَفْصٍ   نَشَـر المجدَ بعـد مـا كـان مـاتـا

فإن تُبت ممّا كنتَ تُناظرنا عليه في ذمّ الغناء سألتُهُ أن يُعيده. ففعلتُ وفعل، وبلغ بي الطَّرَبُ أكثرَ ممّا يبلُغني عن غيري فأنكرُه، ورجعت عن رأيي منذ ذلك اليـــوم.

● عن عبد الله بن العبّاس الرّبيعيّ قـــال:

كنّا عند إبراهيم بن المهديّ ذاتَ يوم وقد دعا كلَّ مُطرِب محسِنٍ من المغنّين يومئذٍ وهو جالسٌ يلاعب أحَدَهم بالشِّطرنج، فترنّم بصوت فريدة:

قـال لي أحـمـدُ ولم يـدرِ مـا بي   أتُـحـبّ الـغَـداةَ عُـتـبـةَ حـقّـا

وهـــو مُتكّــىء، فلمّا فَرَغ منه ترنّم به مُخارقٌ فأحسن فيه وأطربَنا وزاد على

إبراهيم، فأعاده إبراهيمُ وزاد في صوته فَعَفّى على غناء مخارق. فلمّا فَرَغ ردّه مُخارق وغنّى فيه بصوته كلِّه وتحفّظ[1] فيه، فكِدنا نطير سروراً. واستوى إبراهيم جالساً ـ وكان مُتكِّئاً ـ فغنّاه بصوته كلّه ووفّاه نَغَمه وشُذوره، ونظرت إلى كتفيه تهتزّان وبدنِه أجمعَ يتحرّك حتى فَرَغ منه، ومُخارقٌ شاخصٌ نحوه يُرْعَد وقد انتُقِع لونُهُ وأصابعُهُ تختلج، فخُيِّل لي والله أن الإيوانَ يسير بنا. فلمّا فَرَغ منه تقدّم إليه مخارق فقبّل يده وقال: جعلني الله فِداك، أين أنا منك! ثم لم ينتفع مخارق بنفسه بقيَّةَ يومه في غنائه، واللهِ لكأنما كان يتحدّث.

● هِبة الله بن إبراهيم بن المهديّ قال: حدّثني عمّي منصور بن المهديّ:

أنه كان عند أبي في يوم كانت عليه فيه نَوبةٌ لمحمد الأمين، فتشاغل أبي بالشُرب في بيته ولم يَمضِ، وأرسل إليه عدّةَ رُسُلٍ فتأخّر. قال منصور: فلمّا كان من غدٍ قال: ينبغي أن تعمل على الرَّواح إليّ لنمضيَ إلى أمير المؤمنين فنترضّاه، فما أشكّ في غضبه عليّ. ففعلتُ ومضَينا، فسألنا عن خبره فأُعلمنا أنه مُشرِف على حَيْر الوحش[2] وهو مخمور، وكان من عادته ألّا يشرب إذا لحِقه الخُمارَ. فدخلنا، وكان طريقُنا على حُجرة تُصنَعُ فيها الملاهي، فقال لي أخي: اذهب فاختَرْ منها عوداً تَرضاه وأصلِحْه غايةَ الإصلاح حتى لا تحتاج إلى تغييره البتّةَ عند الضرب. ففعلت وجعلتُهُ في كُمّي، ودخلنا على الأمين وظَهرُهُ إلينا، فلمّا بَصُرنا به من بعيد قال: أخرِج عودك. فأخرجتُهُ، واندفع يغنّي:

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ ... وأُخرى تداويتُ منها بها
لكي يعلمَ الناسُ أني امرُؤٌ ... أتيتُ الفُتُوَّةَ من بابها
وشاهدُنا الجُلُّ والياسمينُ ... والمُسْمِعاتُ بقُصّابها
وَبَرْبَطُنا دائمٌ مُعْمَلٌ ... فأيُّ الثلاثة أزرى بها[3]

---

(١) كذا في المطبوعة ولعلها: تحفّى.
(٢) حير الوحش: الموضع تجتمع فيه الوحش كالحظيرة.
(٣) الجل: الورد. المسمعة: المغنّية. القَصّاب: الزمار والقصابة: المزمار. البربط: العود.

فاستوى الأمينُ جالساً وطرِب طَرباً شديداً وقال: أحسنتَ والله يا عمّ وأحييتَ لي طرباً ودعا برطلٍ فشربه على الرِّيق وامتدّ في شُربه. قال منصور: وغنّى إبراهيم يومئذ على أشدّ طبقة يُتَناهى إليها في العود، وما سمعت مثلَ غنائه يومئذٍ قط، ولقد رأيت منه شيئاً عجيباً لو حُدِّثتَ به ما صَدّقتُ، كان إذا ابتدأ يغنّي أصغت الوحشُ إليه ومدّت أعناقَها ولم تزل تدنو منا حتى تكاد أن تضع رؤوسَها على الدُّكّان الذي كنّا عليه، فإذا سكت نَفَرت وبَعُدت منّا حتى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التباعدُ فيها عنّا، وجعل الأمينُ يَعجَبُ من ذلك، وانصرفنا من الجوائز بما لم ننصرف بمثله قطّ.

●محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر قال:

وَجّه إليّ إبراهيم بن المهديّ يوماً يدعوني، وذلك في أول خلافة المعتصم، فصِرت إليه وهو جالسٌ وحْدَه وشاريةُ جاريتُهُ خلفَ السِّتارة، فقالَ: إني قلت شعراً وغنّيت فيه وطرحتُهُ على شاريةَ فأخذتْه وزعمتْ أنها أحْذَقُ به مني، وأنا أقول إني أحذقُ به منها، وقد تراضَينا بكَ حَكَماً بيننا لمِوضعك من هذا الصناعة، فاسمَعْه مني ومنها واحكُمْ ولا تَعْجَل حتى تَسمعَه ثلاثَ مرّات. فقلت: نعم. فاندفع يغنّي بهذا الصوت:

أَضَنُّ بليلَى وهي غيرُ سَخِيَّةٍ   وتبخل ليلى بالهوى وأجودُ

فأحسن وأجاد. ثم قال لها: تَغَنّي. فغنّته فبرّزتْ فيه حتى كأنه كان معها في أبيجاد(١)، ونظر إليّ، فعَرف أنّي قد عرفت فضلَها عليه فقال: على رِسْلك! وتحدّثنا ساعةً وشربنا. ثم اندفع فغنّاه ثانية فأضعف في الإحسان، ثم قال لها: تغنّي. فغنّت فبرَعت وزادت أضعاف زيادته، وكِدت أشُقُّ ثيابي طَرَباً، فقال لي: تَثَبّتْ ولا تَعْجَل. ثم غنّاه ثالثةً فلم يُبْقِ غايةً في الإحكام، ثم أمرها فغنّت، فكأنه إنما كان يلعب. ثم قال لي: قُلْ. فقضَيتُ لها فقال: أصبتَ، فكم تُساوي عندك؟ فحملني الحسدُ له عليها والنَّفاسة بمثلها أن

---

(١) يقال: وقعوا في أبيجاد أي في باطل.

قلت: تُساوي مائةَ ألف درهم. فقال: أَوَ ما تُساوي على هذا الإحسان وهذا التفضيلِ إلاّ مائةَ ألف! قَبَحَ اللهُ رأيك! واللهِ ما أجدُ شيئاً أبلغَ في عقوبتك من أن أَصرِفَك، قُم فانصرِف إلى منزلك مذموماً. فقلت له: ما لقولك اخرُج من منزلي جواب. وقمتُ وانصرفت، وقد أَحفظني كلامُهُ وأرمضني. فلمّا خطوتُ خطواتٍ التفتُّ إليه فقلت له: يا إبراهيمُ، أتطرُدُني من منزلك! فوالله ما تُحسِن أنت ولا جاريتُك شيئاً.

وضرب الدهرُ ضَربانَه، ثم دعانا المعتصم بعد ذلك وهو بالوزيريّة في قصر التلّ، فدخلت أنا ومخارقٌ وعَلّويه، وإذا أميرُ المؤمنين مُصطِبِحٌ وبين يديه ثلاثُ جامات: جامُ فضّة مملوءةٌ دنانيرَ جُدُداً وجامُ ذهب مملوءة دراهمَ جُدداً، وجامُ قواريرَ مملوءة عَنبراً؛ فظننّا أنها لنا، بل لم نشكّ في ذلك. فغنّيناه وأجهدنا أنفُسَنا، فلم يطرَب، ولم يتحرّك لِشيء من غنائنا. ودخل الحاجبُ فقال: إبراهيم بن المهديّ. فأُذِن، فدخل، فغنّاه أصواتاً أحسَن فيها، ثم غنّاه بصوت من صنعته وهو:

ما بالُ شمسِ أبي الخَطّاب قد غَرَبتْ   يا صاحبيَّ أظنّ الساعةَ اقتربتْ

فاستحسنه المعتصم وطرِب له وقال: أحسنتَ والله. فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، فإن كنت أحسنتُ فهَبْ لي إحدى هذه الجامات. فقال: خُذ أيّتَها شئت. فأخذ التي فيها الدنانير، فنظر بعضُنا إلى بعض. ثم غنّاه إبراهيمُ بشعرٍ له وهو:

فما مُزّةٌ قَهوةٌ قَرْقَفٌ   شَمُولٌ تَرُوقُ براوُوقِها(١)

فقال: أحسنت والله يا عمِّ وسَرَرت. فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنتُ أحسنتُ فَهَبْ لي جاماً أخرى. فقال: خُذ أيّتَهما شئت. فأخذ الجامَ التي فيها الدّراهم، فعند ذلك انقطع رجاؤنا منها. وغنّاه بعد ساعة:

---

(١) القهوة والقرقف والشمول: من أسماء الخمرة. الراووق: الباطية تروّق بها الخمرة، وهي الكأس أيضاً.

ألا ليت ذاتَ الخال تَلقى من الهوى عَشيرَ الـذي ألقى فيلْتَئِم الحُبّ(١)

فـارتـجّ بنـــا المجلس الذي كُنا فيه، وطرِب المعتصم واستخفّه الطربُ فقام على رجليه، ثم جلس فقال: أحسنتَ والله يا عمِّ ما شئتَ! قال: فإن كنتُ قد أحسنتُ يا أميرَ المؤمنين فهَب لي الجام الثالثة. فقال: خُذها. فأخذها، وقام أميرُ المؤمنين، ودعا إبراهيمُ بمنديل فثناه طاقَتين ووضع الجاماتِ فيه وشَدّه، ودعا بطِينٍ فختَمه ودَفَعه إلى غُلامه، ونهضنا إلى الانصراف وقُدِّمت دوابُّنا، فلمّا ركب إبراهيم التفت إليّ فقال: يا محمد بنَ الحارث، زعمتَ أنّي لا أُحسِن أنا وجاريتي شيئاً، وقد رأيتَ ثمرة الإحسان. فقلت في نفسي: قد رأيتُ، فخُذها، لا بارك الله لك فيها! ولم أُجِبْه بشيء.

● عن الجاحـــظ قـــال:

أرسل إليّ ثُمامةُ(٢) يومَ جلس المأمونُ لإبراهيمَ بن المهديّ وأمر بإحضار الناس على مَراتبهم فحضروا، فجيء بإبـراهيم... وعن محمد بن عمـرو الأنباريّ من أبناء خراسان قال:

لمّا ظفِر المأمونُ بإبراهيم بن المهـديّ أحبّ أن يوبّخـه على رؤوس الناس. قال: فجيء بإبراهيم يحجِل في قُيوده، فوقف على طَرف الإيـوان وقال: السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته. فقال له المأمون: لا سَلّم الله عليك ولا حَفِظك ولا رَعاك ولا كلأك يا إبراهيمُ. فقال له إبراهيم: على رِسْلك يـا أمير المؤمنين، فقـد أصبحتَ ولِيَّ ثَأري، والقُـدرة تُذهبُ الحَفيظةَ، ومن مَدّ له الاغترارُ في الأمل هَجَمتْ به الأناةُ على التَلَف، وقد أصبح ذَنْبي فوقَ كلّ ذَنب، كما أصبح كلُّ ذي عَفـو دونَك، فـإن تُعاقِب فبِحقّك، وإن تعفُ فبِفضلك. قال: فأطرق مَليّاً ثم رفع رأسَه فقال: إنّ هذين أشارا عليَّ بقتلك. فالتفتَ فإذا المُعتصم والعبّاس بن المأمون، فقال يا أمير المؤمنين، أمّا حقيقةُ

---

(١) العشير: جزء من عشرة كالعُشر.
(٢) ثمامة: هو ثمامة بن أشرس، من رجال المعتزلَة ببغداد.

الرأي في مُعظَم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به وما غَشّاك إذ كان ما كان منّي، ولكنّ الله عَـوّدك من العفـو عـادةً جـريتَ عليهـا دافعـاً مـا تَخـاف بما ترجُو، فكفاك اللهُ. فتبسّم المأمون وأقبل على ثُمامة ثم قال: إنّ من الكلام مـا يفُوق الدُّرَّ ويغلِب السّحر، وإنّ كلام عمّي منه، أطلِقوا عن عمّي حَديدَه ورُدُّوه إليّ مُكَرَّماً. فلمّا رُدَّ إليه قال: يا عمّ، صِر إلى المنادمة وارجع إلى الأُنس، فلن ترى مني أبداً إلاّ ما تُحبّ. فلمّا كان من الغد بعث إليه بدَرْج[1] فيه:

يا خيرَ مَن ذَمَلتْ يمانيةٌ بـه ... بعد الرسول لآيسٍ أو طامِـعِ
وأبرَّ مَن عَبَد الإلّهَ على الهدى ... نفساً وأحْكَمَـه بحقٍّ صادعِ

[الأبيـــات....]

قال: فبكى المأمون ثم قال: عليَّ به. فأُتي به. فَخَلَـع عليـه وحَمَله وأَمر له بخمسة آلاف دينار ودعا بالفَرّاش فقال له: إذا رأيتَ عمّي مُقبِلاً فاطرَحْ له تُكَأَةً. فكان يُنادمه ولا يُنكِرُ عليه شيئاً.

● هِبة الله بن إبراهيم بن المهديّ قال حدّثني أبي قال:

كنت يوماً بين يدي الأمين أُغنّيه، فغنّيتُه:

أَقْـوَتْ منـازلُ بـالهضـاب ... مـن آلِ هـنـدٍ والـرَّبـابِ
خَـطّارةٌ بـزمـامـهـا ... وإذا وَنَـتْ ذُلُـلُ الـرِّكـاب
تَـرمـي الحصـا بمنـاسمٍ ... صُـمٌّ صَـلادمـةٍ صِـلابِ[2]

قـال: فاستحسـن اللحنَ وسألني عن صانعه فعَرّفتُهُ أن ابنَ جامع حدّثني عن سِياط أنه لابـن عائشة، فلم يزل يشرب عليه لا يتجاوزُه، ثم انصرفنا ليلَتَنا تلك، ووافاني رسولُه حين انتبهتُ من النوم وأنا أَستاكُ فقال لي: يقول لك:

---

(١) الدرج: ما يكتب فيه.

(٢) أقوت: خلت من أهلها. صلادمة ج صِلْدِم (بكسر أوله وثالثه): صلب قوي. والوصف للناقة.

بحياتي يا عمّ لا تَشتغلِ بعد الصلاة بشيء غيرِ الركوب إليّ. فصَلّيت وتناولت طعاماً خفيفاً، وأنا ألبسَ ثيابي خوفاً من رجوع رسوله؛ وركبتُ إليه، فلمّا رآني من بعيد صاح بي: يا عمّ بحياتي: خَطّارة بزمامها. فلمّا دخلتُ المجلس ابتدأتُهُ وغَنَّيتُهُ، فأمر بإحضار صَبيّة كان يتحظّاها، فأخرجت إليّ صبيّةً كأنها لؤلؤ في يدها العود، فقال: بحياتي يا عمّ ألقِه عليها. فأعدتُه مراراً وهو يشرب، حتى إذا ظننتُ أنها قد أخذتْه أمرتُها أن تُغنّيه، فغنّتْه فإذا هو قد استوى لها إلاّ في موضع كان فيه، وكان صعباً جدّاً، فجَهَدت جهدي أن يقع لها طَلَباً لمَسَرّته، وكان حقيقاً مني بذلك، فلم يقَع لها البتّةَ. ورأى جَهْدي في أمرها وتَعذُّره عليها فأقبل عليها وقد سَكِر ثم قال: نُفيتُ من الرشيد وكلُّ أَمَةٍ لي حُرّةٌ وعليّ عهدُ الله لَئن لم تأخُذيه في المرّة الثالثة لآمُرنّ بإلقائك في دِجلة. قال: ودِجلةُ تطفحُ وبيننا وبينها نحوُ ذراعَين، وذلك في الربيع، فتأمّلت القصّة، فإذا هو قد سَكِر وإذا الجاريةُ لا تقولُه كما أقوله أبداً، فقلت: هذه واللهِ داهيةٌ ويتنغّصُ عليه يومُهُ وأُشْرَكُ في دمها، فَعَدَلْتُ عمّا كنتُ أُغنّيه عليه وتركتُ ما كنت أقولُه وغنّيتُهُ كما كانت هي تقولُه، وجعلتُ أردّده حتى انقضت ثلاثُ مرّات أُعيدُه فيها على ما كانت هي تقوله، وأَريتُهُ أنّي أجتهدُ. فلمّا انقضت الثلاثُ المرّات قلت لها: هاتيه الآنَ. فغنّتْه على ما كان وَقَع لها، فقلت: أَحسَنَتْ يا أمير المؤمنين. وردّدتُه معها ثلاثَ مرّات، فطابت نفسُه وسكَن، وأَمَر لي بثلاثين ألف درهم.

* . * . * . * . *

عُلَيّـــة بنت المهديّ [الأغاني الجزء ١٠ ص ١٤٩ وما بعدها]

وممّن صنع من أولاد الخلفاء عُلَيّةُ بنت المهديّ، ولا أَعلم أحداً منهم بعد إبراهيم أخيها كان يتقدّمها. وكان يقال: ما اجتمع في الجاهلية ولا الإسلام أخٌ وأختٌ أحسنُ غناءً من إبراهيم بن المهديّ وعُلَيَّةَ أختِهِ.

عليّةُ بنت المهديّ أُمُّها أمُّ وَلد مُغَنّيةٌ يقال لها مَكْنونة، كانت من جواري المَروانيّة المُغنيّة.

ابن القَدّاح قــال:

كانت مكنونة جارية المروانيّة ـ وليست من آل مروان بن الحكم، هي زوجة الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العبّاس ـ مغنّيةً، وكانت أحسنَ جاريةٍ بالمدينة وجهاً، وكانت رَسْحاء[1]... فاشتُريت للمهديّ في حياة أبيه بمائة ألف درهم، فغَلَبتْ عليه، حتى كانت الخيزُران تقول: ما مَلَك امرأةٌ أغلظَ عليَّ منها. واستتر أمرُها عن المنصور حتى مات، فولَدت له عُليّةَ بنت المهديّ.

عليُّ بن محمد النَوفليّ عن عمه قال:

كانت عُليّةُ بنت المهديّ من أحسن الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيّد وتَصُوغ فيه الألحانَ الحسَنة، وكان بها عيبٌ، كان في جَبِينها فَضلُ سَعَةٍ حتى تَسْمُج، فاتّخذت العصائب المُكَلّلة بالجوهر لِتستُرَ بها جبينَها، فأحدثتْ والله شيئاً ما رأيت فيما ابتدعتْه النساءُ وأحدثتْه أحسنَ منه.

إبراهيم بن إسماعيل الكاتب يقول: كانت عُليّة حسنةَ الدِّين، وكانت لا تغنّي ولا تشرب النّبيذ إلا إذا كانت معتزِلة الصّلاة، فإذا طَهُرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب، فلا تَلَذّ بشيء غيرِ قول الشعر في الأحيان، إلّا أن يدعُوَها الخليفةُ إلى شيء فلا تقدِرُ على خلافه. وكانت تقول: ما حَرّم الله شيئاً إلّا وقد جَعل فيما حَلّل منه عِوَضاً، فبأيّ شيء يحتجّ عاصِيه والمنتَهِكُ لحُرُماته! وكانت تقول: لا غَفَر اللهُ لي فاحشةً ارتكبتَها قطّ، ولا أقول في شعري إلّا عَبَثاً.

طائفة من أخبارها

● سعيد بن إبراهيم قال:

كانت عُليّة تحبّ أن تُراسلَ بالأشعار من تَختصُّه، فاختصّت خادماً يقال له «طَلّ» من خدم الرشيد، فكانت تُراسله بالشعر، فلم تَره أياماً، فمشتْ على مِيزاب وحَدّثَته وقالت في ذلك:

---

(١) الرسحاء: القليلة لحم العجز والفخذين.

قد كان ما كُلِّفْتُهُ زمناً يا طَلُّ من وجدٍ بكم يكفي
حتى أتيتُك زائراً عجِلاً أمشي على حَتْفٍ إلى حَتفِ

فحلف عليها الرشيدُ ألاّ تُكلِّم طَلاًّ ولا تُسمِّيَه باسمه، فضَمِنتْ له ذلك. واستمع إليها يوماً وهي تذبُرُ[1] آخِرَ سورة البقرة حتى بلغتْ إلى قوله عزّ وجلّ: «فإن لم يُصِبْها وابلٌ فطَلٌّ» وأرادت أن تقول: «فطَلّ» فقالت: فالذي نهانا عنه أميرُ المؤمنين. فدخل فقَبّل رأسَها وقال: قد وهبتُ لك طَلاًّ، ولا أمنعُك بعد هذا من شيء تُريدينه.

● محمد بن صالح بن شيخ بن عُمَيرِ عن أبيه قال:

حُجب طلٌّ عن عُلَيّة فقالت وَصَحّفت اسمَه في أول بيت:

أيا سَرْوةَ البستان طال تشوُّقي فهل لي إلى ظِلٍّ لديكِ سبيلُ
متى يلتقي من ليس يُقضَى خروجُهُ وليس لِمن يَهوى إليه دخولُ
عسى الله أن نرتاحَ من كُربةٍ لنا فيلقى اغتباطاً خُلّةٌ وخليلُ

● إسحاق بن إبراهيم الموصليّ قال:

عمِلتُ في أيام الرشيد لحناً وهو:

سَقْياً لأرض إذا ما نِمتُ نَبّهني بعدَ الهُدُوِّ بها قَرْعُ النّواقيسِ
كأنّ سَوسَنَها في كلّ شارقةٍ على الميادينِ أذنابُ الطّواويسِ

قال: فأعجبني وعملِتُ على أن أُباكرَ به الرشيد، فلقِيني في طريقي خادمٌ لعُليّة بنت المهديّ فقال: مَولاتي تأمُرك بدخول الدِّهليز لتسمعَ من بعض جواريها غناءً أَخذتْه عن أبيك وشَكّتْ فيه الآنَ. فدخلتُ معه إلى حُجرةٍ قد أُفردتْ لي كأنّها كانت مُعَدَّةً، فجلستُ وقُدّم لي طعامٌ وشراب فنِلتُ حاجتي منها، ثم خرج إليّ خادمٌ فقال لي: تقول لك مَولاتي: أنا أعلم أنك قد غدوتَ إلى أمير المؤمنين بصوتٍ قد أعددتَه له مُحْدَثٍ، فَأَسْمِعنيه ولك جائزةٌ سَنيّة

---

(١) الذبر: القراءة الخفيّة السريعة.

تتعجّلُها، ثم ما يأمُر به لك بين يديك، ولعلّه لا يأمُر لك بشيء، أو لا يقعُ الصوتُ منه بحيث توخَّيت فيذهب سعيُك باطلاً. فاندفعتُ فغنّيْتُها إياه، ولم تزل تستعيدُه مراراً، ثم أخرجتْ إليَّ عشرين ألف درهم وعشرين ثوباً وقالت: هذه جائزتُك. ولم تزل تَستعيدُه مراراً، ثم قالت: اسمَعْه مني الآنَ. فغَنَّتْه غناءً ما خَرَق سمعي مِثلُه، ثم قالت: كيف تراه؟ قلت: أرى واللهِ ما لم أَرَ مثلَه. قالت: يا فُلانةُ أعيدي له مثلَ ما أخذ. فأَحضرت لي عشرين ألفاً وعشرين ثوباً، فقالت: هذا ثمنُه، وأنا الآنَ داخلةٌ إلى أمير المؤمنين، أَبداً أتغنّى به وأُخبرُ أنه من صنعتي، وأُعطي اللهَ عهداً لئن نطقتَ أنّ لك فيه صنعةً لأَقتُلَنَّك! هذا إن نجوتَ منه إن عَلِم بمَصِيرك إليّ. فخرجتُ من عندها وواللهِ إني لكالمُوقن بما أَكْرَهُ من جائزتها أسَفاً على الصوت، فما جَسَرتُ واللهِ بعد ذلك أن أتنغَّم به في نفسي فضلاً عن أن أُظهِرَه، حتى ماتت. فدخلتُ على المأمون في أول مجلس جَلَسه للّهو بعدَها، فبدأتُ به أوّلَ ما غَنّيتُ، فتغيّر لونُ المأمون وقال: من أين لك ويلَك هذا؟ قلت: ولي الأَمانُ على الصِدق؟ قال: ذلك لك. فحدّثتُهُ الحديث، فقال: يا بغيضُ! فما كان في هذا من النَّفاسة حتى شَهَرتَه وذكرتَ هذا منه مع ما قد أخذتَه من العِوض! وهَجَّنني فيه هُجْنةً ودِدت معها أني لم أذكُره، فآليتُ إلاّ أُغنّيه بعدها أبداً.

● أبو هِفّـــان قــــال:

أُهديت إلى الرشيد جاريةٌ في غاية الجمال والكمال، فخلا معها يومـاً وأَخرج كلَّ قَيْنـةٍ في داره واصطبـح، فكان جميـعُ من حضَره من جـواريه المغنّيات والخَدَمة في الشراب زُهاءَ ألفَي جارية في أحسن زِيِّ من كلّ نوع من أنواع الثياب والجوهر. واتّصل الخبرُ بأمّ جعفر فغَلُظ عليها ذلك، فأرسلت إلى عُليّة تشكو إليها، فأرسلت إليها عُليَّةُ: لا يَهُولنَّكِ هذا فواللهِ لأَرُدَّنّه إليكِ، قد عزمتُ أن أصنعَ شعراً وأصوغَ فيه لحناً وأطرحَه على جواريَّ، فلا تبقى عندك جاريةٌ إلاّ بعثتِ بها إليَّ وأَلْبِسيهنّ ألوانَ الثياب ليأخُذن الصـوتَ مع جواريّ. ففعلتْ أمُّ جعفر ما أمرتْها به عُلَيّة. فلمّا جاء وقتُ صلاة العصر لم

يشعُر الرشيدُ إلّا وعليّةُ قد خرجتْ عليه من حُجرتها وأمُّ جعفر من حُجرتها معها زُهاءُ ألفي جارية من جواريها وسائرِ القصر، عليهنّ غرائبُ اللباس، وكُلُّهن في لحنٍ واحد هَزَجٍ صَنعَتْه عُليّة:

منفصلٌ عنّي وما قلبيَ عنه مُنفصِلْ
يا قاطعي اليومَ لِمن نويتَ بعدي أن تَصِلْ

فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أمَّ جعفر وعُليّة وهو على غاية السرور وقال: لم أرَ كاليوم قطّ؛ يا مسرورُ لا تُبقِينّ في بيت المال درهماً إلّا نثرتَه. فكان مبلغُ ما نثره يومئذٍ ستة آلاف ألفِ درهم، وما سُمع بمثل ذلك اليوم قطّ.

● يوسف بن إبراهيم قال قالت لي عَريبُ:

أحسنُ يوم رأيتُهُ وأَطيبه يومٌ اجتمعتُ فيه مع إبراهيم بن المهديّ عند أخته عُلّية وعندهم أخوهم يعقوب، وكان أحذقَ الناس بالزَّمْر. فبدأت عليّة فَغَنَّتْهم من صنعتها وأخوها يعقوب يزمِر عليها:

تحبَّبْ فإن الحبَّ داعيةُ الحبِّ وكم من بعيد الدار مستوجبُ القُربِ

وغنّى إبراهيم في صنعته وزمَر عليه يعقوب:

يا واحدَ الحُبِّ ما لي منك إذ كَلِفَتْ نفسي بحُبِّك إلّا الهَمُّ والحَزَنُ

[الأبيات....]

فما سمعتُ مثلَ ما سمعتُهُ منهما قط، وأَعلم أني لا أَسمع مثلَه أبداً.

● عن ابن الفيرزان قال:

اشتاق الرشيدُ إلى إبراهيم الموصليّ يوماً فركب حماراً يقرُب من الأرض ثم أمر بعض خدم الخاصّة بالسعي بين يديه، وخرج من داره فلم يزل حتى دخل على إبراهيم، فلمّا أحسّ به استقبله وقَبّل رِجلَيه. وجلس الرشيد فنظر إلى مواضعَ قد كان فيها قومٌ ثم مَضَوا ورأى عِيداناً كثيرة فقال: يا إبراهيمُ ما

هذا؟ فجعل يُدافع، فقال: ويلَك! اصدُقني. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، جاريتان أَطرَحُ عليهما. قال: هاتِهما. فأحضر جاريتين ظريفتَين، وكانت الجاريتان لعُلية بنت المهدي بعثتْ بهما يَطرح عليهما. فقال الرشيد لإحداهما: غنّي. فغنّت:

بُني الحبُّ على الجَور فلو ... أَنصف المعشوقُ فيه لَسَمُجْ
ليس يُستَحسَن في حُكْم الهوى ... عاشقٌ يُحسِن تأليفَ الحُجَجْ
لا تَعيبَنْ من مُحبٍّ ذِلّةً ... ذِلّةُ العاشق مِفتاحُ الفَرَجْ
وقليلُ الحُبّ صِرفاً خالصاً ... لك خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِجْ

فأحسنتْ جداً، فقال الرشيد: يا إبراهيمُ لِمن الشعر؟ ما أملحَه! ولِمن اللحن؟ ما أظرفه! فقال: لا علمَ لي. فقال للجارية، فقالت: لِستّي. قال: ومَن ستُّك؟ قالت: عُليّة، أختُ أمير المؤمنين. قال: الشعرُ واللحن؟ قالت: نعم. فأطرق ساعةً ثم رفع رأسَه إلى الأخرى فقال: غنّي. فغنّت:

تحبَّبْ فإنّ الحُبَّ داعيةُ الحبِّ ... وكم من بعيدِ الدّار مستوجبُ القُربِ
تبصَّرْ فإن حُدِّثتَ أن أخا هوى ... نجا سالماً فارجُ النجاةَ من الحُبِّ
إذا لم يكن في الحبّ سُخطٌ ولا رضىً ... فأين حلاواتُ الرسائلِ والكُتبِ

فسأل إبراهيمَ عن الغناء والشعر فقال: لا عِلمَ لي يا أمير المؤمنين. فقال للجارية: لمن الشعر واللحن؟ فقالت: لِستّي. قال: ومَن سِتُّكِ؟ فقالت: عليّةُ أخت أمير المؤمنين. فوثب الرشيدُ وقال: يا إبراهيمُ احتفِظ بالجاريتَين. ومضى فركب حمارَه وانصرف إلى عليّة، فقال: قد أحببتُ أن أشرب عندكِ اليومَ. فتقدّمتْ فيما تُصلِحُهُ وأخذا في شأنهما. فلمّا أن كان في آخر الوقت حمل عليها بالنّبيذ ثم أخذ العود من حِجر جارية فدفعه إليها، فأكبرتْ ذلك، فقال: وتُربةِ المهديّ لَتُغَنِّنّ! قالت: وما أُغنيّ؟ قال: غنّي:

«بُني الحبُّ على الجَور فلو»

فعلمتْ أنه قد وقف على القصة فَغَنَّتْه. فلمّا أتت عليه قال لها غنّي:

فلَجلجتْ ثم غَنّته، فقام وقَبّل رأسَها وقال: يا سيِّدتي هذا عنـدكِ ولا أعلمُ! وتَمَّم يومَه عندَهـــا.

● ميمون بن هارون قال:

حَدَّثتني عَلَمُ السمراءُ جاريةُ عبد الله بن موسى الهادي أنّها شهِدت عُلَيَّة غنّت الأمينَ في شعرٍ لها، وهو آخر شعر قالتْه فيه، وطريقتُه من الثقيل الثاني. وكانت لمّا مات الرشيدُ جزِعتْ جَزعاً شديداً وتركت النبيذَ والغناء، فلم يزل بها الأمينُ حتى عادت فيهما على كَرهٍ.

● عن أبي أحمد بن الرشيد قـــال:

دخل يوماً إسماعيلُ بن الهادي إلى المأمون فسمع غناءً أذهله، فقال له المأمون: مالَك؟ قال: قد سمعتُ ما أذهلني، وكنت أُكذِّب بأن الأُرْغُن الروميّ يقتُل طرباً، وقد صدّقتُ الآن بذلك. قال: أوَلا تدري ما هذا؟ قال: لا والله! قال: هذه عَمّتُك عُليّة تُلقي على عمّك إبراهيمَ صوتاً من غنائها.

وفاتهـــــا

هِبـة الله بن إبراهيم بن المهديّ عن أبيــه:

أنّ عليّةَ بنت المهديّ وُلدت سنةَ ستين ومائة، وتُوفِّيت سنة عشر ومائتين ولها خمسون سنةً. وكانت عند موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عَبّاس. . . . وكان سبب وفاتها أن المأمون ضمّها إليه وجعل يُقبّل رأسَهَا، وكان وجهُها مُغَطّى، فشرِقت من ذلك وسعلَت ثم حُمّت بعقِب هذا أياماً يسيرة وماتت.

أبو عيســى بن الرشيــد **[الأغاني ج ١٠ ص ١٨٦]**

وممّن صَنَعَ من أولاد الخلفاء أو عيسى بن الرشيد.

اسمُهُ أحمد، وقيل بل اسمُه صالح بن الرشيد، وهذا النسب أَشْهَرُ من أن

يُشرَح، وأمُّه أمُّ ولدٍ بَربريّة. وكان من أحسن الناس وجهاً ومجالسةً وعِشرةً، وأَمْجَنِهم وأَحَدِّهم نادرةً وأشدِّهم عَبَثاً، وكان يقول شعراً لَيّناً طَيّباً من مثله.

إبراهيم بن محمد قال:

كان يقال: انتهى جَمالُ وَلد الخلافة إلى أولاد الرشيد، ومن أولاد الرشيد إلى محمد وأبي عيسى. وكان أبو عيسى إذا عَزَم على الرُّكوب جلس الناسُ له حتى يَروه أكثر ممّا يجلِسون للخلفاء.

عليّ بن الحسين الإسكافيّ قال:

كنت عند أبي الصَّقْر إسماعيلَ بن بُلْبُل وعنده عَريبُ، فسمعتُها تقول: انتهى جمالُ ولد الرشيد إلى محمد الأمين وأبي عيسى، ما رأى الناسُ مثلَهما، وكان المعتزُّ في طِرازهما. قال: وسمعتُها تقول لأبي العبّاس بن حَمدون: ما غناؤك من غناء أبي عيسى بن الرشيد! وما سمعت قطّ غناءً أحسنَ من غنائه، ولا رأيت وجهاً أحسنَ من وجهه.

عليّ بن الهشاميّ عن جدّه ابن حمدون قال: قلت لإبراهيم بن المهديّ: مَن أحسنُ الناس غناءً؟ قال: أنا. قلت: ثم من؟ قال: أبو عيسى بن الرشيد. قلت: ثم من؟ قال: مُخارق.

يعقوب بن جعفر قال:

قال الرشيدُ لأبي عيسى ابنه وهو صبيّ: ليت جمالَك لعبد الله (يعني المأمون). فقال له: على أنّ حظَّه منك لي. فعجِب من جوابه على صِباه وضَمّه إليه وقبَّله.

الحسين بن فَهْم قال: قال أبو عيسى بن الرشيد:

دهانَيَ شهرُ الصوم لا كان من شهر ... وما صُمتُ شهراً بعدَه آخرَ الدهرِ
فلو كان يُعديني الإمامُ بقُدرةٍ ... على الشهر لاستعدَيت جُهدي على الشَّهر

فناله بعقِب قوله هذا الشعر صَرَعٌ، فكان يُصرَع في اليوم مَرّاتٍ إلى أن مات ولم يبلُغْ شهراً آخرَ.

الهيثم بن محمد بن عَبّاد عن أبيه قال:

كان المأمونُ أشدَّ الناس حُبّاً لأبي عيسى أخيه، وكان يُعِدُّه للأمر بعده، وتذاكرنا ذلك كثيراً. وسمعته يقول يوماً: إنه لَيسهلُ عليّ أمرُ الموت وفَقدُ المُلك وما يسهلُ شيءٌ منهما على أحدٍ، وذلك لمحبَّتي أن يليَ أبو عيسى الأمرَ من بعدي لشدّة حبّي إيّاه.

عبد الله بن المعتزّ قــال:

كان سببُ موت أبي عيسى بن الرشيد أنه كان يحب صيد الخنازير، فوقع عن دابتّه فلم يسلَم دماغُه، فكان يتخبّط في اليوم مَرّات إلى أن مات.

محمد بن عَبّاد المهلّبيّ قال:

لمّا مات أبـو عيسى بن الرشيـد دخلت إلى المأمـون وعِمامتي عليَّ، فخلعت عمامتي ونَبذتُها وراءَ ظهري ـ والخلفاءُ لا تُعزّى في العمائم ـ ودنوتُ، فقال لي: يا محمدُ، حال القَدَرُ دون الوطَر. فقلت: يا أمير المؤمنين، كُلُّ مصيبةٍ أخطأتْك تهونُ، فجعلَ اللهُ الحزْنَ لك لا عليك.

هبة الله بن إبراهيم يقول:

مات أبو عيسى بن الرشيد سنة تسعٍ ومائتين، وصلّى عليه المأمون ونزل في قبره وامتنع من الطعام أياماً حتى خيف أن يضرَّ ذلك به.

قال أحمدُ بن أبي دُواد:

دخلت على المأمون في أول صُحبتي إياه وقد تُوفي أخوه أبو عيسى، وكان له محبّاً؛ وهو يبكي ويمسح عينيه بمنديلٍ، فقعدتُ إلى جنب عمرو بن مَسعدةَ وتمثّلت قولَ الشاعر:

نَقص من الــدنيــا وأسـبــابـهــا   نقصُ المنـايـا من بـني هــاشـمِ

ولم يزل على تلك الحال ساعة يبكي، ثم مسح عينيه وتمثّــل:

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تَغِضْ   فحسبُك منّي مـا تُجِنُّ الجــوانـحُ

كأن لم يمتْ حيٌّ سواك ولم تَنُحْ على أحدٍ إلّا عليك النوائحُ

ثم التفت إليّ فقال: هِيه يا أحمدُ! فتمثّلتُ قولَ عَبْدة بن الطبيب:

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمتُهُ ما شاء أن يترحَّما
تحيّةُ منَ أَوْلَيتهُ منك نعمةً إذا زار عن شَحطٍ بلادَك سلّما
وما كان قيسٌ هُلكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنّه بُنيانُ قومٍ تهدَّما

فبكى ساعةً ثم التفت إلىٰ عمرو بن مَسعدةَ فقال: هِيهِ يا عمرُو! قال: نعم يا أمير المؤمنين:

بَكُّوا حُذيفةَ لم تُبَكُّوا مثلَه حتى تعودَ قبائلٌ لم تُخْلَقِ

فإذا عريبُ وجَوارٍ معها يسمعن ما يدور بيننا فقلن: اجعلوا لنا معكم في القول نصيباً. فقال لها المأمون: قُولي، فرُبَّ صوابٍ منكِ كثير. فقالت:

كذا فليجلَّ الخَطبُ ولْيَفْدَحِ الأمرُ فليس لعينٍ لم يفِضْ ماؤها عُذرُ
كأنّ بني العبّاس يومَ وفاته نجومُ سماءٍ خَرّ من بينها البدرُ

فبكى وبكينا، ثم قال لها المأمون: نُوحي. فناحت وردَ عليها الجواري. فبكى المأمونُ حتى قلتُ: قد خرجتْ نفسُه، وبكَينا معه أحرَّ بكاء، ثم أمسكتْ، فقال لها المأمون: اصنَعي فيه لحناً وغنّي به. فصنعت فيه لحناً على مذهب النَّوح وغنّته إياه على العُود، فوالذي لا يُحلَف بأجلَّ منه لقد بكَينا عليه غناءً أكثر ممّا بكَينا عليه نَوحاً.

* . * . * . * . *

عبد الله بن موسى الهادي [الأغاني ١٠ / ١٩٣]

وممّن عُرفت له صنعةٌ من أولاد الخلفاء عبد الله بن موسى الهادي. فمن صَنعته:

تقاضاك دهرُك ما أسلفا وَكَدَّر عيشَك بعد الصَّفا
فلا تَجزعَنّ فإنّ الزمانَ رَهينٌ بتشتيت ما أَلّفا

وما زال قلبُك مأوى السُّرور كثيرَ الهوى ناعماً مُتْرَفا
ألحّ عليك بِرَوْعاته وأقبل يَرميك مُستهدِفا

الشعر والغناء لعبد الله بن موسى.

● أبو حشيشةَ قال:

كان عبدُ الله بن موسى الهادي أضربَ الناس بالعود وأحسنَهم غناءً، وكان له غلامٌ أسودُ يقال له قَلَمٌ، فعلمّه الصوت وحَذَّقه، فاشترتْه منه أمُّ جعفر بثلثمائة ألف درهم. قال أبو حشيشة: فحدّثني دلشادُ غلامُ عبد الله بن موسى قال: كنت أنا وثقيفٌ الخادمُ الأسودُ مولى الفضلِ بن الربيع نُضاربُ(1) مولاي عبدَ الله بن موسى، وقد أخذ النبيذُ من الجماعة. فضرب عبدُ الله وثقيفٌ صوتاً فاختلفا فيه وتشاجرا. فقال عبد الله: كذا أخذتُه من منصور زَلزل، وقال ثقيف: كذا أخذتُهُ منه. وطال تشاجُرهما فيه، وكان ثقيفٌ معربداً يذهبُ عقلُه من أدنى شيء يشربُه، وكان عبد الله أيضاً معربداً، فغضب ثقيفٌ ورَفع العودَ وهو لا يعقِل، فضرب به رأسَ عبد الله بن موسى فطوّقه إيّاه، وابتدَر خَدَمُ عبد الله، فقال لهم عبد الله بن موسى: لا تَمَسُّوه، وأخرِجوا العُودَ من عُنقي. فأخرجوه، وكان عبد الله بن موسى أشدَّ خَلق الله عربدةً أيضاً، فرُزق في ذلك حِلْماً لم يُرَ مثلُه، وقال لِخدَمه: إن قتلتهُ قتلتُ كلباً وتحدّث الناس بذلك، ولكن اخلَعُوا عليه وهَبُوا له ولا يدخل منزلي أبداً.

● الحَفْصيُّ المِعْزَفيُّ قال:

دعاني عبدُ الله بن موسى يوماً، ودعاني أخوه إسماعيل، فآثرتُ إسماعيلَ لِما كان في عبد الله من العَربدة، فلم نشعُر إلا بعبد الله قد وافانا وقت العصر على بِرذَونٍ أشهبَ متقلِّداً سيفاً وهو سكرانُ. فلمّا رأيناه تطايَرْنا في الحُجَر، فنزل عن دابّته وجلس، وجثا إسماعيل بين يديه إجلالاً له، وقال له: يا سيِّدي، قد سررتَني بتفَضُّلك ومَصيرك إليّ. قال: دعني من هذا، مَن

---

(1) المضاربة (هنا): أن يضرب اثنان أو أكثر على العود لحناً واحداً.

عندك؟ قال: فلانٌ وفلان. فعَدّ جماعةَ مَن كان عنده. قال له: هاتِهم. فدعا بنا، فخرجنا وقد مُتنا فَزَعاً. فأقبل عليّ من بينهم فقال لي: يا حفصيُّ، أَبعث إليك ثلاثةَ أيام تِباعاً فَتَدَعُني وتجيء إلى إسماعيل! وضرب بيده إلى سيفه، فقام إسماعيلُ بيني وبينه وقال: نعم، يجيئُني ويَدَعُك، لأنه لا ينصرف من عندك إلّا بشَجّةٍ أو عَربدة مع حِرمان، ولا ينصرف من عندي إلا ببرٍّ مع خِلعةٍ ووعدٍ مُحَصَّل، أفتلومُهُ على ذلك! فكفّ عبدُ الله ـ وكان شديدَ العربدة ـ وقام وانصــرف.

● عن محمد بن حبيبَ قال:

كان عبدُ الله بن موسى الهادي مُعربِداً، وكان قد أحفظ المأمون ممّا يُعربِد عليه إذا شرب معه. فأمر بأن يُحبَس في منزله فلا يخرج منه، وأقعَد على بابه حَرَساً، ثم تَذمّم من ذلك فأظهر له الرِّضا وصَرَف الحَرس عن بابه. ثم نادَمَه فعربَد عليه أيضاً وكَلّمه بكلام أَحْفَظَه، وكان عبدُ الله مُغرَماً بالصيد، فأمر المأمونُ خادماً من خواصّ خَدَمه يقال له حسين فَسَمَّه في دُرّاجٍ[1] وهو بمُوسى آباد[2]، فدعا عبدُ الله بالعَشاء، فأتاه حسين بذلك الدُرّاج فأكله، فلمّا أحس بالسمّ ركب في الليل وقال لأصحابه: هو آخر ما تَروني. قال: وأكل معه من الدُرّاج خادمان، فأمّا أحدُهما فمات من وقته، وأما الآخر فبقي مدّةً ثم مات، ومات عبدُ الله بعد أيــام.

* . * . * . * . *

عبد الله بـــن محمد الأمين **[الأغاني ١٠ / ١٩٧]**

وممّن رويت له صنعةٌ من أولاد الخلفاء عبد الله بن محمد الأمين.

فمن مشهور صنعتــه:

---

(١) الدّراج: ضرب من الطير.

(٢) موسى آباد: قرية منسوبة إلى رجل يقال له موسى من نواحي همذان، وفي المطبوعة: مرسى آباد ولا يعرف موضع بهذا الاسم.

ألا يـا ديـرَ حَـنْـظلةَ الـمُـفَـدّى لـقـد أورثتَنِي سَـقـمـاً وكَـدّا
أَزُفُّ مـن الـعُـقـار إليـك دَنّـاً وأجعـل تحتـه الـورقَ المنَـدَّى

الشعر والغناء لعبد الله بن محمد الأمين.

عبد الله بن محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهديّ بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلّب، وأمُّ عبد الله بن محمد أمُّ وَلَد. وكان ظريفاً غزِلاً يقول شعراً ليّناً ويصنع صنعةً صالحة. وأمُّ محمد الأمين زُبَيدَةُ بنت جعفر بن المنصور. وزُبيدة لقبٌ غَلب عليها واسمُها أَمَةُ العزيز، وكان المنصور يُرقِّصها وهي صغيرة ـ وكانت سمينةً حسنةَ البدَن ـ فيقول لها: يا زُبَيدة ، يا زُبيدة، فغَلَبَ عليها ذلـــك.

عبد الله بن المعتــزّ قــال:

كان عبدُ الله بن محمد الأمين يُنادِم الواثق، ثم نَادَمَ بعدَه سائرَ الخلفاء إلى المعتمِــد.

قــال : وأنشدني له في المعتمد:

رأيـتُ الـهـلالَ عـلى وَجـهـهَـا فـمـا زِلتُ أدعُـو إلَـهي لَـكـا
فـلا زلتَ تحيـا وأَحيـا مـعـا وآمَـنـنـي اللهُ مـن فَـقْـدكـا

*. *. *. *. *

أبو عيســى بن المتوكّـــل [الأغاني ١٠ / ٢٠١]

وممَّن صَنع من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن المتوكّل.

كان عبدُ الله بن المتوكّل جمع له صنعةً مقدارُها أكثرُ من ثلاثمائة صوت، منها الجيّد الصَّنعة ومنها المتوسِّط. . .

النُّميريّ قال: سمعتُ أبا عيسى بن المتوكّل يقول: إذا أتممتُ صنعةَ ثلاثمائة صوتٍ وستّين صوتاً، عدَد أيام السنة، تركتُ الصنعة. فلمّا صَنَعها ترك الصَّنعة. فمنها ـ وهو لَعَمري من جيّد الغناء وفاخر الصنعة ولو لم يصنع غَيره لكفاه ـ في شعر أبي العتاهيــة:

يضـطرِبُ الخـوفُ والـرَّجـاءُ إذا حَـرَّك مـوسى القضيـب أو فَكَّـرْ

*. *. *. *. *

عبد الله بن المعتـز(*) **[الأغاني ١٠ / ٢٧٤]**

وممّن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسَن وبَرَع وتقدَّم جميعَ أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً وشعراً وظَرْفاً وتصرُّفاً في سائر الآداب أبو العبّاس عبد الله بن المعتزّ بالله.

(*) أثرنا إيراد ترجمته وأخباره مع الشعراء لأن شهرته بالشعر تتقدم على شهرتـه بالغنـاء.

الفهرس

* * * *

ذيـــل

في أسماء من لم يرد ذكرهم في الاختيارات من المغنين والقيان مع مواضع تراجمهم في كتاب الأغاني

الاسم	الجزء	الصفحة
١ ــ يحيـى قَيـل	٣	١١٠
٢ ــ ابن صاحب الوضوء	٣	١٣٣
٣ ــ عبد الرحمن الدفّاف	٣	٢٦٦
ذ ــ ابن مشعب	٤	٣٢١
٥ ــ عبـادل	٦	٩٦
٦ ــ ابن عبّاد	٦	١٧١
٧ ــ أبو كامل	٧	٩١
٨ ــ أبو زكّار الأعمى	٧	٢٢٧
٩ ــ أبو دلـف	٨	٢٤٨
١٠ ــ البُـردان	٨	٢٧٧
١١ ــ محمد بن أميـة	١٢	١٤٥
١٣ ــ دُقاق	١٢	٢٨٢
١٣ ــ ابن القصّار	١٤	١١٢
١٤ ــ محمد بن الأشعث وسلامة	١٥	٥٦
١٥ ــ بُديـح	١٥	١٧٤
١٦ - هاشم بن سليمان	١٥	٢٥١

* . * . * . * . *